تفسير الجيلاني

للغوث الرباني والإمام الصمداني
سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني
ت ٥٦١ هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ أحمد فريد المزيدي

مكتبة معروفية
[illegible]
[illegible]

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - آخر سورة المائدة



المكتبه المعروفيه

كانسى روڈ شالدره كوئٹه پاكستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوْبَ هٰذَا النَّاشِرِ
وَذُنُوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ
أَجْمَعِينَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه
عبدالغني حليمي



المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

حمدًا لمن أظهر من غيب هويته قرآنا غدا فرقانه كشافًا عن فرق الكتب الإلهية الغياهب وأبرز من سجف ألوهيته نورًا أشرق على مرايا الكائنات بحسب مزايا الاستعدادات فاتضحت من معالم العوالم المراتب.

وصلاة وسلامًا على أول ذرة أضاءت من الكنز المخفي في ظلمة عماء القدم فأبصرتها عين الوجود وعلة إيجاد كل ذرة برأتها يد الحكيم إذ ترددت في هوة العدم فعادت ترفل بأردية كرم وجود مهبط الوحي الشفاهي الذي ارتفع رأس الروح الأمين بالهبوط إلى موطئ أقدامه ومعدن السر الإلهي الذي انقطع فكر الملأ الأعلى دون ذكر الوصول إلى أدنى مقامه فهو النبي الذي أبرزه مولاه من ظهور الكمون إلى حواشي متون الظهور ليكون شرحا لكتاب صفاته وتقريرًا ورفعه بتخصيصه من بين العموم بمظهرية سره المستور وأنزل عليه قرآنا عربيا غير ذي عوج ليكون للعالمين نذيرا وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد وعلى آله وأصحابه مطالع أنوار التنزيل ومغارب أسرار التأويل الذين دخلوا عكاظ الحقائق بالوساطة المحمدية فما برحوا حتى ربحوا فباعوا نفوسًا وشروا نفيسًا وقطعوا أسباب العلائق بالهمم الحقيقية فما عرجوا حتى عرجوا فلقوا عزيزا وألقوا خسيسا فهم النجوم المشرقة بنور الهدى والرجوم المحرقة لشياطين الردى رضي الله عنهم وأرضاهم وإلى متبعيهم وأولاهم ما سرحت روح المعاني في رياض القرآن وسبحت أشباح المباني في حياض العرفان.

هذا.. ونحن منذ سنوات في رحلة التوجه لتحقيق تراث التفاسير الإشارية لمشايخ السادة الصوفية، وبين يديك كتاب جديد في عالم التراث العربي والإسلامي، الخاص بعلم التفسير لكتاب الله العزيز، وهو التفسير المنسوب للغوث عبد القادر الجيلاني- قدس سره- . وإنما ذكرت ذلك لأن هذا التفسير منسوب أيضًا نعمة الله بن محمود النخجواني الزاهد الصوفي نزيل بلدة آقشهر المعروف ببابا نعمة النخجواني.

الحنفي المفسر المتوفى سنة 920 هـ؛ ولكن سبب تحقيقه هو وجود عدة نسخ للكتاب مثبت عليها نسبتها للشيخ عبد القادر، ولم يكن هناك ترجيح قاطع جازم في صحة نسبتها لأيهما دون الآخر.

وقد اعتمدنا في نص الكتاب على ثلاث نسخ: الأولى، نسخة دار الكتب المصرية- الخطية- ونسخة الفواتح الإلهية- للنخجواني- الحجرية- والنسخة المطبوعة في طي عملنا للكتاب- ونحن على وشك الانتهاء منه- فجزى الله من قام على إخراج تراث العلماء والعارفين خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

فكان ضبط النص وتصحيحه، ثم عزو الآيات والتنسيق والتفصيل والترقيم، والتخريج للأحاديث، والتعليق بفوائد مباركة بالهامش لتتم الإفادة التي بها تحصل السعادة المنبعثة والمستمدة من أهل العلم والسيادة.

هذا .. ونسأل الله تعالى من فضله أن يزيدنا بصيرة بأسراره وغوصًا في غماره وتوفيقًا لاقتفاء آثاره واقتباس أنواره والقيام بشكره والتحفظ من قهره ومكره، وأن ينفعني بكتابي والطالبين ويجعلهم فيه راغبين، ويرحمني وإياهم ومن دعا لي منهم ويتقبل فيّ دعوته برحمته إنه هو أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله المباركين وصحبه المقربين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه الفقير إلى حضرة ربه الغني العظيم: أبو الحسن والحسين أحمد فريد المزيدي الحسني، والله الموفق لكل خير وهو الرحمن الرحيم.

ترجمة سيدي محيي الدين

عبد القادر الجيلاني ﷺ

هو الشيخ محيِي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست، ابن عبد الله بن يحيى الزاهد ابن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون ابن عبد الله المحض نسبًا بالمحلى، بضم الميم وتشديد اللام من الإحلال، ابن الحسن المثنى ابن الحسن ابن علي بن أبي طالب ﷺ، سبط ابن عبد الله الصومعي الزاهد، وبه يُعرف حين كان بجيلان.

وأما مولده ﷺ[1]: فسُئل قَدَّس الله روحه عنه قال: لا أعلمه حقيقة، لكن قدمت بغداد السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة.

قال بعض أهل العلم: والتميمي هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب، تُوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فيكون مولده على هذا سنة سبعين وأربعمائة.

وقال أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي: إن مولد الشيخ محيي الدين عبد القادر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وله ثمانية عشر سنة.

وقال بعضهم: منسوب إلى جيلان، بكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحت، وهي وراء طبرستان، ويُقال لها أيضًا: جيلان، وكيلان، وكيل.

وقيل: جيلاني منسوب إلى جده جيلان، والله أعلم.

وأمه: أم الخير ابنة أبي عبد الله الصومعي، وكان لها حظٌ وافرٌ من الخير والصلاح، والصومعي من جلة مشايخ جيلان ورؤسائهم، وزهادهم، له الأحوال السنية والكرامات الجلية، والشيخ أبو محمد أحمد عبد الله كان صالحًا في العلم والخير، ومات شابًا،

---

(1) قال برهان الدين القادري: قال الحافظ محب الدين محمد بن النجار في تاريخه: ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي أن مولد الشيخ عبد القادر الجيلي في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وكذا قال الحافظ أبو عبد الله محمد الذهبي: وُلد بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

وقال أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه: وُلد سنة سبعين وأربعمائة. وكذا قال سبطه أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان، وابن كثير، وابن الأثير في تاريخهما، رضي الله عنهم أجمعين انتهى. وانظر: الروض الزاهر (12)، والسيف الرباني (406) بتحقيقنا.

وعمته المرأة الصالحة أم محمد عائشة بنت عبد الله، ذات الكرامات الظاهرة.

رُوي أن بلاد جيلان أجدبت مرة، واستسقى أهلها فلم يسقوا، فأتى الشيخ إلى دار الشيخة عائشة المذكورة وسألوها الاستسقاء لهم، فقامت إلى رحبة بيتها وكنست الأرض وقالت: يا رب، أنا كنست فرش أنت، فلم يلبثوا أن أمطرت السماء كأفواه القرب، فرجعوا إلى بيوتهم يخوضون في الماء، عمرت وماتت بجيلان رضي الله عنها.

والجون -بضم الجيم-: لقبٌ وهو من أسماء الأضداد، يُطلق على الأبيض والأسود، وهو الأكثر في استعماله، وهو المراد هنا، والمحض هو المخلص من كل شيء لُقب به عبد الله؛ لأن أباه الحسن بن الحسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي، رضي الله عنهم أجمعين، وهي نسبة خالصة من الموالي، قلت: وهكذا قيل، وكان ينبغي أن يُقال: خالصة في الشرف.

فاطمة المذكورة هي التي خلّف عليها الحسن عبد الله المطرف بن عمر بن عثمان بن عفان ﷺ، وولد له محمد الديباج، لُقِب به لحسنه، ولُقِب أبوه بالمطرف لجماله، ولما نشأ عبد الله بن عمر قال الناس: هذا شيخٌ حسنٌ، مطرف بعد عبد الله بن الزبير، وكان عبد الله بن الزبير فائق الجمال، وأم مطرف يرجع نسبها إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

والمطرف - بضم الميم وفتح الراء-: اسم مفعول من أطرفه بكذا، والمثنى المتقدم ذكره هو نعتٌ للحسن؛ لأن الحسن بن الحسين، وهو بضم الميم وفتح النون وتشديدها، اسم مفعول من ثنيت الشيء إذا قربت له ثانيًا.

قلت: هكذا قيل في تفسيره، ولو قيل: لأنه ثنّى اسم الحسن، فذكر مرتين في تسمية أبيه كان أوضح.

صفة الشيخ عبد القادر قطب الأقطاب قدس الله سره العزيز

وأما صفة الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ فقال الشيخ الإمام العلاّمة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة:

كان شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلي ﷺ نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، عريض اللحية، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوتٍ جهوريٍ، وسمتٍ بهيٍ، وقدرٍ عليٍ، وعلمٍ وفيٍ، ﷺ.

ومن دعائه قُدّس سره:

اللهم أصلح الإمام والأمة، والراعي والرعية، وألف قلوبهم في الخيرات، وادفع بعضهم عن بعضٍ، اللهم أنت العالم بسرائرنا فأصلحنا، وأنت العالم بذنوبنا فاغفرها، لا ترانا حيث نهيتنا، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا، أعزنا بالطاعة ولا تذلنا بالمعصية، اشغلنا بك عمن سواك، واقطع عنا كل قاطعٍ يقطعنا عنك، ألهمنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

لا إله إلا الله، ما شاء الله كان، لا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا تأخذنا على غفلةٍ، ولا تأخذنا على غرةٍ.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286].

هكذا روى عنه في مناقبه: أبو الخير عبد الله بن أبي غالب الأرضي قال: أخبرنا الشيخ الجليل أبو الفرج عبد الجبار ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: سمعت والدي غير مرة يقول.. وذكر الدعاء وغيره.

قلت: فاسمع أيها الواقف على هذا الكتاب من كل بادٍ وحاضرٍ دعاء قطب الأولياء، وأستاذ الشيوخ الأكابر الذي خضعت لقدمه رقاب الأولياء محيي الدين عبد القادر، وقوله فيه: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخر الآية.

واستمع إلى قول العراقي: إن كنت وقفت عليه وما ذهب من ادعاء وأشباهه، أنت بعد ذلك مخيّرٌ بين أن تأخذ بقول تاج العارفين ركن الشريعة، وبحر الحقيقة محيي الدين عبد القادر الذي شهد له جميع الأولياء بالتقدم، والمقام الأرفع، وكل منهم لشرف مرتبته العلياء خضع، وأنطقته العناية بالمعارف والأسرار والحكم بعدما تفل في فمه سبع مرات جده رسول الله ﷺ، وبين أن تأخذ بقول فقيه من علماء الظاهر الحاقدين مع كونه مخالفًا في ذلك لأقوال الأئمة من العلماء المشهورين، فلم يزالوا باستحباب الدعاء المذكور معتقدين وبه داعين.

وقد نصّ من الأئمة جملةٌ غير واحدٍ على أن فضل الدعاء ما ورد في الكتاب العزيز كلام الرّب الماجد، وكذلك أفرد الشيخ المذكور قول الدّاعي: اللهم افعل ما أنت أهله. وعلل بتحريم ذلك لكونه تعالى كما أنه أهل للإنعام والثواب بالفضل فهو أهل للانتقام والعقاب بالعدل، بعبارة غير هذه العبارة.

فواعجبًا منه كيف لم يحط إلى ما تبادر إليه اعتقاد الداعي من اتصاف الباري بنهاية الجود والكرم في حال دعائه أنه لا يطلب منه إلا ما يتعلّق بجانب الفضل من إحسانه وعطائه، دون ما يتعلق بجانب العدل من عقابه وقضائه.

وأيضًا فإن الشيخ الكبير العارف في العرف والاصطلاح إذا وصفَ بأوصاف الملاح، واقتصر على بعض الأوصاف، وصف ما يتعلق بالندى والسماح.

ومن ذلك قول سيد السادات ومالك الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:56].

ومن دعائه أيضًا ﷺ في افتتاح المواعظ: اللهم إنا نسألك إيمانًا يصلح للعرض عليك، وإيقانًا نقف به في القيامة بين يديك، وعصمةً تنقذنا بها من ورطات الذنوب، ورحمةً تطهرنا بها من دنس العيوب، وعلمًا نفقه به أوامرك ونواهيك، وفهمًا نعلم به كيف نناجيك، واجعلنا في الدنيا والآخرة من أوليائك، واملأ قلوبنا بنور معرفتك، وكحّل عيون عقولنا بإثمد هدايتك، واحرس أقدام أفكارنا من مزالق مواطن الشُّبهات، وامنع طيور نفوسنا من الوقوع في شباك موبقات الشُّبهات، وأعِنّا في إقامة الصلوات، وامحُ سطور سيئاتنا عن جرائد أعمالنا بأيدي الحسنات، كن لنا حيث ينقطع الرجاء منا، إذا أعرض أهل الوجوه بوجوههم عنا حين نحل في ظلم اللحود رهائن أفعالنا إلى اليوم المشهود، أجر عبدك الضعيف على ما ألف من العصمة من الزلل، ووفقه والحاضرين لصالح القول والعمل، وأجر على لسانه ما ينفع السامع، وتذرف له المدامع، ويلين له القلب الخاشع، واغفر له وللحاضرين ولجميع المسلمين[1].

ذكر رحلته في طلب العلم وشدة مجاهدته ﷺ:

قال الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخه: كتب إليّ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي ونقلته من خطه، قال: حكى لنا الشيخ عبد القادر قال: قالت لي أمي: امش إلى بغداد واطلب العلم، قال: فخرجت من بلدٍ إلى بلدٍ، وأنا ابن ست عشرة، أو قال: ثماني عشرة سنة، واشتغلت بالعلم، وكانت أمي تشتاق إليّ، فتكتب إليّ الكتب فتذكر شوقها إليّ، وتقطع شعرها فتجعله في الكتاب وتنفذه، فأكتب إليها: إن شئت تركت العلم وجئت إليك، فتنفذ إليّ: لا تجئ واشتغل بالعلم، فكنت أشتغل في الفقه على المشايخ،

(1) انظر: بهجة الأسرار (179).

وأخرج إلى الصحراء فلا آوى في بغداد، وأجلس في الخراب بالليل والنهار، وكنت ألبس جبة صوف، وعلى رأسي خريقة، وأمشي وأنا حافٍ في الشوك، وما هالني شيءٌ إلا سلكته.

قال: وقال لي: طالبتني نفسي يومًا بشهوة من شهوات الشوق، فكنت أضاجرها وأدخل في دربٍ وأخرج إلى دربٍ أطلب الصحراء، فبينما أنا ذات يومٍ أمشي إذ رأيت رقعه ملقاة في الطريق فأخذتها فقرأتها، فإذا فيها مكتوبٌ: ما للأقوياء والشهوات، إنما خُلقت الشهوات للضعفاء من عبادي ليتقووا بها على طاعتي، فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبي. قال: وقال لي: كنت أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من جانب النهر والشط. وقال ابن النجار: قرأت في كتاب أبي بكر التيمي، قال: سمعت الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: بلغت بي الضائقة في غلاء نزل ببغداد، إلى أن بقيت أيامًا لا آكل فيها طعامًا، بل كنت أتتبع المنبوذات، فخرجت يومًا من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس والبقل وغير ذلك أتقوته، فما ذهبت إلى موضعٍ إلا وجدتُ غيري سبقني إليه، وإن أدركت شيئًا وجدت عنده جماعة من الفقراء، فلا أرى مزاحمتهم عليه، فرجعت أمشي وسط البلد، فلا أدرك موضعًا قد كان فيه شيء منبوذ إلا وقد سُبقت إليه، حتى وصلت إلى مسجد يانس بسوق الريحانيين، وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانبٍ منه وقد كدت أصافح الموت، فدخل شابٌّ أعجميٌّ ومعه خبزٌ رضافي وشواء فجلس يأكل، فكنت إذا رفع اللقمة أكاد أن أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي، وقلت: ما هذا؟ ما هاهنا إلا الله، أو ما قضاه من الموت، إذ التفت العجمي فرآني فقال: باسم الله يا أخي، قال: فأبيت، فأقسم عليّ فبادرت نفسي إلى جانبه، فأبيت مخالفًا لهواها، فأقسم عليّ، فبدرت نفسي إلى إجابته، فأكلتُ مُقصرًا، فأخذ يَسألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تعرف؟ فقلت له: أما شغلي فمتفقه، وأما من أين أنا فمن جيلان، فقال لي: وأنا أيضًا من جيلان، فهل تعرف لي شابًا جيلانيًا يُسمَّى عبد القادر، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد، فقلتُ له: هو أنا، فاضطرب لذلك وتغيَّر وجهه وقال: والله يا أخي، لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحدٌ إليك، فنفدت نفقتي، وبقيت ثلاثة أيام بعدها لا أجد شيئًا أشتري منه قوتي إلا من الذي لك معي، فلما كان هذا اليوم وهو الرابع قلتُ: لي ثلاث أيام بلياليها لم آكل فيها طعامًا، وقد أحلّ لي الشرع أكل الميتة فأخذت من وديعتك ثمن هذا الخبز والشوي،

فكُلْ طيبًا، فإنما هو لك وأنا الآن ضيفك، بعد أن كان في الظاهر لي وأنت ضيفي، فقلتُ له: وما ذاك؟ فقال: اعلم يا أخي أن أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، ووالله ما خنتك فيها إلى اليوم، لكن نفقتي نفدت، وبحيث بقيت ثلاثة أيام لم أصب طعامًا فاشتريتُ هذا الطعام من نفقتك، وأنا معتذرٌ إليك من جنايتي عليك، مع فسحة الشرع في بعض ذلك، قال: فسكنته وطيبت نفسه، وفضل من طعامنا ما دفعته إليه مع شيءٍ من الذهب، وقلت له: هذا يكون برسم نفقتك، فقبله مني وانصرف.

وقال: كتب إليَّ عبد الله الجبائي ونقلته من خطه قال: قال لي الشيخ عبد القادر الجيلي:

كنتُ يومًا جالسًا على مكانٍ بالصحراء أكرر الفقه، وأنا في مشقةٍ من الفقر، فقال لي قائلٌ لم أرَ شخصه: اقترض ما تستعين به على الفقه، أو قال: على طلب العلم، فقلتُ: كيف أقترض وأنا فقيرٌ وليس لي شيء أقضيه؟ فقال: اقترض وعلينا الوفاء، فجئت إلى رجلٍ يبيع البقل فقلت له: تعاملني بشرط إذا سهل الله لي شيئًا أعطيك، وإن مت تجعلني في حلٍ، تعطيني كل يومٍ رغيفًا وبنصف رغيف رشاد، قال: فبكى وقال: يا سيدي، أنا بحكمك، أي شيءٍ أردت فخذ مني، فكنتُ آخذ منه كل يومٍ رغيفًا وبنصف رغيف رشادًا، فأقمت على ذلك مدة فضاق صدري يومًا، كيف لا أقدر على شيءٍ أعطيه؟ فأظن أنه قال: فقيل لي: امضِ إلى الموضع الفلاني فأيش رأيت على الدكة فخذه وادفعه إلى البقال، أو قال: فاقضِ به دينك، فلما جئت إلى ذلك الموضع رأيت على دكة قطعة ذهب كبيرة، فأخذتها وأعطيتها للبقلي.

قال: وقال لي الشيخ: كان جماعة من أهل بغداد يشتغلون بالفقه، فإذا كان أيام الغلة يخرجون إلى الرستاق يطلبون شيئًا من الغلة، فقالوا لي يومًا: اخرج معنا إلى بعقوبا نحصل منها شيئًا، وكنت صبيًا، فخرجت معهم، وكان في بعقوبا رجل صالح يُقال له: الشريف البعقوبي، فمضيت إليه لأزوره، فقال لي: مريدو الحق أو الصالحون لا يسألون الناس شيئًا، ونهاني أن أسأل الناس، فلما رجعت خرجت إلى موضعٍ، قال: وكنت أشتغل بالعلم وأزور الصالحين، وآخذ نفسي بالمجاهدة، حتى طرقني من الله الحال، فكان يطرقني بالليل والنهار وأنا في الصحراء، فأصرخ وأهج على وجهي، فلما كان ذات ليلةٍ طرقني الحال وصرخت صرخة عظيمة، فسمع العيارون صرختي ففزعوا من المالحة، فجاءوا حتى وقفوا عليّ وأنا مطروحٌ على الأرض، فعرفوني فقالوا: هذا عبد القادر المجنون، أزعجتنا، لا ذكرك الله بخيرٍ، وكانوا يدورون حول بغداد بالليل

لعلهم يرون أحدًا يأخذون منه شيئًا.

قال: وقال لي: لحقني الجنون وحُملت إلى المارستان، وطرقتني الأحوال حتى مت، وجيء بالكفن والغاسل وجعلوني على المغتسل ثم سرِّي عني وقمت.

قال: وقال لي: ترد عليَّ الأثقال الكثيرة لو وُضعت على الجبال تفسخت، فإذا كثرت عليَّ الأثقال وضعت جنبي على الأرض وقلت: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:5]، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال.

قال: وقال لي: وقع في نفسي أن أخرج من بغداد؛ لكثرة الفتن التي بها، فأخذت مُصحَفي وعلقته على كتفي ومشيت إلى باب الحلبة؛ لأخرج منه إلى الصحراء، فقال لي قائلٌ: إلى أين تمشي؟ ودفعني دفعة خررت منها- أظنه قال: على ظهري- وقال: ارجع؛ فإن للناس فيك منفعة، قال: فقلتُ: أيش عليَّ من الخلق؟ أنا أريد سلامة ديني، قال: ارجع ولك سلامة دينك، ولم أرَ شخص القائل، ثم بعد ذلك طرقتني أحوال أشكلت عليَّ، فكنت أتمنى على الله أن يسهل لي من يكشفها، فلما كان من الغد اجتزت بالظفرية ففتح رجلٌ باب داره وقال لي: يا عبد القادر تعالَ، فجئت فوقفت عليه، فقال لي: أيش طلبت البارحة؟ أو قال: أيش سألت الله البارحة؟ ونسيت الذي سألت الله بالليل، قال: فسكتُّ ولا أدري ما أقول له، فاغتاظ مني، ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة، حتى طار الغبار من جوانب الباب إلى وجهي، فلما مشيت قليلاً ذكرت الذي سألت الله تعالى، ووقع في نفسي أنه من الصالحين- أو قال: من الأولياء- فرجعت أطلب الباب فلم أعرفه، فضاق صدري، وكان ذلك الرجل الشيخ حماد الدباس، ثم عرفت بعد ذلك، وصحبته وكشف لي جميع ما كان يشكل عليَّ، وكنت إذا غبتُ عنه لطلب العلم ورجعت إليه يقول لي: أيش جابك إلينا؟ أنت فقه، مُر إلى الفقهاء، وأنا أسكت، فلما كان يوم الجمعة خرج من بغداد ومعه جماعة من أصحابه؛ ليصلي الجمعة في جامع الرصافة، وأنا معه، وكان في شدة البرد في الكوانين، فلما وصلنا إلى قنطرة النهر دفعني حتى رماني في الماء، فقلت: باسم الله، غسل الجمعة، وكان عليَّ جبة صوف وفي كمي أجزاء، فرفعت كمي حتى لا تهتلك، وخلوني ومشوا، فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتبعتهم، وتأذيت من البرد أذية كبيرة.

قال: وكان الشيخ حماد يؤذيني أذية كثيرة ويضربني، وإذا غبت عنه لطلب الفقه ورجعت إليه يقول: قد جاءنا اليوم الخير الكثير والفالوذج، وأكلنا وما خبأنا لك شيئًا،

فطمع فِيّ أصحابه؛ لكثرة ما يرونه يؤذيني، وجعلوا يقولون: أنت فقه، أيش تعمل معنا؟ أو أيش جابك إلينا؟ فلما رآهم الشيخ يؤذونني غار لي، وقال لهم: يا كلاب، لِمَ تؤذونه؟ والله ما فيكم مثله أحد، أنا إنما أؤذيه لأمتحنه فأره جبلاً لا يتحرك، قال: وبعد مدة قدم إلى بغداد رجلٌ من همدان يُقال له: يوسف الهمداني، وكان يُقال: إنه القطب، ونزل في رباط، فلما سمعت به مشيت إلى الرباط فلم أرَه، فسألت عنه فقيل لي: هو في السرداب، فنزلت إليه، فلما رآني قام وأجلسني، ففرّسني وذكر لي جميع أحوالي، وحل لي جميع ما كان يشكل عليّ، ثم قال لي: يا عبد القادر، تكلم على الناس، فقلت له: يا سيدي، أنا رجلٌ قح أخرس، أيش أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصول الفقه والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن، ولا يصلح لك إلا أن تتكلم على الناس، اصعد على الكرسي وتكلم على الناس، فإني أرى فيك عرقًا سيصير نخلة، فأيّده العيارون- جمع عيار، وهو لغةً: الكثير المجيء والذهاب، وهنا والله أعلم هم: المتلصصة، والمسالحة- هو بفتح الميم والسين والحاء المهملتين: الحرس؛ لأنهم يكونون دون سلاحٍ- والله أعلم، وانظر: الروض الزاهر للبرهان القادري (70) بتحقيقنا.

من كلامه ﷺ، وذِكر شيء من علمه، وتسمية بعض شيوخه رضي الله عنهم مختصرًا:

لما علم أن طلب العلم فريضة، وشفاء الأنفس المريضة، إذ هو أوضح منهاج التقوى سبيلاً، وأبلغها حجةً، وأظهرها دليلاً، وأرفع معارج اليقين، وأعلى مدارج اليقين، وأعظم مناصب الدين، وأفخر مراتب المهتدين، وهو المرقاة إلى مقامات القرب، والمعرفة والوسيلة إلى التولي في الحضرة المشرفة شمر عن ساق الاجتهاد في تحصيله، وصارع في طلب فروعه وأصوله، وقصد الأشياخ الأئمة أعلام الهدى علماء الأمة، فاشتغل بالقرآن حتى أتقنه، وعم بدراسته سره وعلنه.

وتفقَّه بأبي الوفا علي بن عقيل، وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد[1]، وأبي الحسن محمد ابن القاضي أبي يعلى، وأبي سعيد المبارك بن علي المخرمي[2]، رضي الله عنهم

(1) هو الكلوذاني، نسبة إلى كلواذان، بفتح الكاف وسكون اللام وفتح الواو، وبين الألفين ذال معجمة، قرية من قرى بغداد.

(2) هو بضم الميم وفتح الخاء المعجمة، وكسر الراء المهملة وتشديدها، ثم ميم وبعدها ياء النسب، نسبة إلى محلة المخرم ببغداد، نزلها بعض ولد يزيد بن المخرم فسُمِّيت به.

مذهبًا وخلافًا وفروعًا وأصولاً.

وسمع الحديث من جماعةٍ منهم:

-أبو غالب محمد بن الباقلاني.

- أبو سعيد محمد بن عبد الكريم.

- أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون.

- أبو بكر أحمد بن مظفر.

- أبو محمد جعفر بن القاري.

- أبو القاسم علي بن أحمد الكركي.

- أبو عثمان إسماعيل بن محمد الأصبهاني.

- أبو طالب عبد القادر بن محمد.

- ابن عمه أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد.

- أبو البركات هبة الله، وأبو العز محمد بن المختار.

- أبو النضر، وأبو غالب، وأبو عبد الله يحيى أبناء الإمام أبي علي البنا.

- أبو الحسن المبارك بن عبد الجبار.

- أبو منصور عبد الرحمن بن أبي غالب.

- أبو البركات طلحة بن أحمد العاقولي.

وغيرهم رحمهم الله أجمعين.

وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، رحمه الله تعالى.

وصحب الشيخ العارف قدوة المحققين، وإمام المحققين، السالك، وحجة العارفين أبا الخير حماد بن مسلم الدباس، وأخذ عنه الطريقة، وتأدّب به.

قلت: ومنهم: أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الأصبهاني الحافظ، وأبي سعد محمد بن عبد الكريم بن خُشيش، وأبي العز بن محمد بن مختار الهاشمي، وأبي البركات محمد بن محمد بن أحمد بن يوسف الخرزي، والأستاذ أبي الحسن محب بن عبد الله الحبشي المعروف بالدوامي، وأبي عثمان إسماعيل بن محمد بن أحمد بن ملة الأصبهاني، وأبي البركات هبة الله بن المبارك السقطي، وأبي الحسين عبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف.

وأخذ الخرقة الشريفة من يد الإمام رفيع المقام القاضي ابن أبي سعيد المبارك المخرمي، ولقي جماعة من أعيان شيوخ الزمان، وأكابر مشايخ أولي العرفان، أكرم بهم

مجدًا وسؤددًا وشرفًا وفخرًا مؤيدًا، فهم حماة الملة وذوادها، وأنصار الشريعة وأعضاؤها، وأعلام الإسلام وأركانه، وسيوف الحق وسنانه، فقام ﷺ في أخذ العلوم الشرعية عنهم دائبًا، وفي تلقي الفنون الدينية منهم، والعلم والهيبة، والجلالة الوافرة، والمناقب الفاخرة، وأظهر الله الحِكم في قلبه وعلى لسانه، وظهرت علامات قربه من الله، ودلالة ولايته مع قدم راسخ في المجاهدة والعبادة، وتجرد خالص من دواعي الهوى، وشوائب الركون إلى العادة، ومقاطعة دائمة لجميع الخلائق، وصبر جميل في طلب مولاه لقطع العلائق، وتجرع الغصص، ومُرّ الشدائد والبلوى، ورفض جميع الأشغال اشتغالاً بالمولى، ثم لما أراد الله تعالى به نفع الخلائق بعد ما تضلع من العلوم الظاهرة وأسرار الحقائق، أضيف إلى مدرسة أستاذه أبي سعيد المخرمي ما حولها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثلها، وبذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم، فتكملت المدرسة المنسوبة إليه الآن، وكان الفراغ منها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

وتصدَّر للتدريس فيها والفتوى والمواعظ، وقُصدت بالزيارات والنذور، واجتمع بها عنده من العلماء والصلحاء جماعة كثيرة، انتفعوا بكلامه وصحبته ومجالسته وخدمته، وقصد إليه طلبة العلم من الآفاق، فحملوا عنه، وسمعوا منه، وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق، وأتى مقاليد الحقائق، وسلمت إليه أزمة المعارف، وصرف في الوجود المغارب منه والمشارق، وأصبح قطب الوقت مرجوعًا إليه حكمًا وعلمًا، وقام بالنظر والفتيا بعضًا وكلاً، وبرهن على العلوم فرعًا وأصلاً، وبيَّن الحكم نقلاً وعقلاً، وانتصر للحق قولاً وفعلاً، وصنَّف كتبًا مفيدة، وأملى فوائد فريدة، فتحدَّث بذكره الرفاق، وصارت بفضله الركاب، وانتشرت أخباره في الآفاق، وأعملت المطى إليه، ومدت الأعناق، وتنزهت في حدائق محاسنه الأعين، ونطقت ببدائع صفاته الألسن، ولُقِّب بإمام الفريقين، وموضع الطريقين، وكريم الجدين، ومعلم الطرفين، مشتملاً برد المفاخر والفضائل صادقًا فيه قول القائل:

انهلَّ السحَابُ وأعشبَ العراقُ ... وَزالَ الغيء واتَّضح الرشد

أضحى الزمان مشرقة به مناكبه، والدين مشرقة به مناصبه، والعلم عالية به ألويته، والشرع منصورة به كتائبه، وانتمى إليه جمعٌ عظيمٌ من العلماء، وتتلمذ له خلقٌ كثيرٌ من

الفقراء، حذفت ذكرهم اختصارًا لكثرة عددهم[1].

وقد ذكرت فيما مضى أن جمهورهم شيوخ اليمن يرجعون إليه في لبس الخرقة، بعضهم لبسها من يده راحلين إليه لما قدمت أعلام فضائله عليهم، وفي لبس الخرقة وانتساب شيوخ اليمن، قلت في بعض القصيدة العشرة الأولين من هذه الأبيات:

وَفِي مَنهجِ الأشيَاخِ لِلناسِ خرقةٌ ... لهم سيدُ أصلٍ رَوَى ذَاكَ عَنْ أَصْلِ
وَلبسَ الثمَانين تَرجعُ غَالبًا ... إِلَى سيِّد سِنام فَحَازَتْ عَلَى الكلِّ
إِمَامُ الوَرَى قطبُ المَلأ قَائِلٌ عَلَى ... رِقَابِ جميعِ الأولِيَاءِ قَدَمِي عَلا
فَطَأطَأ لَهُ كُل مشرقٍ وَمَغرِبٍ ... رِقَابًا سِوَى فَرْدٌ فَعُوقِبَ بِالعَزْلِ
مَلِيكٌ لَهُ التَّصرِيف فِي الكونِ نَافذٌ ... لشَرقٍ وغَرْبِ الأَرْضِ والوعرِ والسَّهلِ
سِرَاجُ الهُدَى شَمْسٌ عَلَى فلكِ العُلا ... بجيلان مبداها طلوعًا بِلاَ أفلِ
طِرازُ جَمَالٍ مَذهب فوق حلة ... عَلَى الكونِ فِيْهَا الدَّهر بجمَالِ
يتيمةُ درَّات عقدِ وَلاَيتي ... نهج عَلَى جيدِ الوجودِ بِهِ محلِ
قفَا هَا هُنا فِي نهرِ عيونهم ... مَلأهَا وَمِنْ بَحْرِ النبوةِ مُشتَمِل
بجدكَ يَا بحر النَّدَى عَبْد قَادِرٍ ... الَى يَاِلهي ذو افتقارٍ وَذُو محلٍ
وَسُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبًّا مقدسًا ... وأوسع فطرًا لِلوَرَى فضله مَوْلَى

* * *

من أقوال سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني

وها أنا أذكر شيئًا من كلام الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ من نفس مقال الذي نسج غيره على منواله.

قال ﷺ في الذكر:

أعذب مورد وردته عطاش العقول مورد الذكر والتوحيد، وأطيب نسيم هبت

(1) انظر: بهجة الأسرار (204).

على مشام القلوب نسيم الأُنس بالله ﷻ، التلذذ بحلاوة مناجاة الله كؤوس راحات الأرواح.

وذكر الله تعالى جلاء ذنب الغيون للعقول، ودرر حمد الله لا يرصع به إلا تيجان معارف الأسرار، ومسك شكره لا يفتق إلا جيوب ثياب الأرواح، وورد الثناء عليه لا يطلع إلا على شجر ألسن عباده المؤمنين، إن ذكرت ربك بألسن حسن صنعه فتح أقفال قلبك، وإن ذكرته بألسن لطائف أسرار أمره فأنت ذاكرٌ على الحقيقة، وإن ذكرته بقلبك قرّبك من موجبات الرحمة، وإن ذكرته بسرّك أدناك من مواطن القدس، وحملك بجناح لطفه إلى مقعد صدقٍ، وما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذِكره، ولا لاحظ أزلية وحدانيته من التفتَ بعين سره إلى غيره، الذِّكر روح جنات الرحمة، تهب نسمة على مسام أرواح الذاكرين، فتهتز من نشواته أعطاف الأرواح في أقفاص الأشباح، فتهفو العقول راقصة في ميادين الصور، فتخرج الأسرار هائمة في براري الوجد، فتنطق بلابل الشكر بما في خبايا الضمائر، فيحترق المحب بنيران التعلق، ويغيب المشتاق عن نظر ذاته لشدة الشوق، ويقول لسان الواجد طربًا بقرب الواجد: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:94]، فتبرز موائد القدم، فتجلو عرائس صفات المحبوب على أعين الألباب في قصور الأوكار تحت جنات الأسرار، ويجلل عليها الإجلال ستور العزة فيخيم برد العظمة، وترمد عيون البصائر في حر نفس العبق، وتسقط قوادم أقدام شوقها؛ لطول سفرها في هجير بيداء الهجر، ويرسل إليها سفير الكرم طبيب القدر فيداوي رمدها بكحل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولما طلعت طلائع هذا الاسم في جبروت الجلال وسعت سطوة العز تحت خفقان رايات جنود الكبرياء، فبهتت عيون العقول، ودهشت نواظر الأوهام، ووقعت أطيار الأوكار، وطُمست سطور كتابة الكلمات، وقال لسان هيبة الأحدية: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه:108]، فتزلزلت جبال فهم الألباب، ودكّت لها تجلي أرض يعقوب البشرية، وقصت أجناح الأرواح، فلا أوكار لها في فضاء علم التفريد، وتنبّهت القلوب بأشواق عشقه، وهامت الأسرار بوله حبه، وتبلبلت الأفكار في براري بُعده وقربه، فحكمته مبثوثة في كل ذات، وآثار صنعته لائحة في كل مصنوعٍ، وعجائب قدرته ظاهرة في كل كائنٍ، وبراهين وحدانيته قائمة في كل موجودٍ، وأنوار هدايتِهِ ظاهرةٌ لِذي كل عقلٍ، وألسن حسن صنعته تخاطب أهل الوجود بإشارات شواهد الإلهية، قابل مرائي

العقول بأشخاص أعيان عجائبه، وجلا على عيون قلوب عباده عرائس أسرار الغيب.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13] (1).

وقال أيضًا ﷺ: الشريعة المطهرة الإيمان فيها طائر غيبي من أُفق: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:105]، يسقط على شجرة ذل العبد يبشرهم أنهم في قفص صدرها، جاءته إلى مقعد صدق الشريعة المحمدية ثمرة شجرة الوجود، الملة الإسلامية شمس أضاءت بنورها ظلمة الكون، أنتج برقة تعطي سعادة الدارين.

احذر أن تخرج عن دائرة إمامك، وأن تفارق إجماع أهله في قلب صاحب الناموس الأكبر خزائن جواهر الغيب.

اجعل قبول أمره طريقك إلى الله ﷻ، عين كعبة عقلك، مهبط أملاك كلمات أحكامه من ماء غمائم أقواله، يشرب عطاش الأرواح في غيوب حياة ألفاظه، يعتمل حصر العقول نادى منادى الطلب للأرواح الكامنة في القوالب أثار ساكن عزمها إلى العُلا، طارت بأجنحة الغرام في فضاء المحبة، وقعت بعد التعب على أغصان الشوق، فناحت في شجر بلابلها بمطربات ألحان إلى جمال، وأشهدهم أريجها هبوب نسيم الغرام إلى إعادة لذاذة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خرجت بعض تلك الطيور من أقفاص الصدور، تتلمح أثرًا من أوكارها القديم، تتنشق نسمة من مهب التكلم بتذكر عيشها في ظل أبد الوصل، فتشكو جواها بعد بعاد الأحباب، فسمعت داع الله بلسان إنسان عين الوجود انتقش دعاؤه ﷺ في صفحات ألواح الأرواح، صارت دعوته ريحًا تهز أغصان أشجار القلوب، أشرقت على النفس أنوار الغيب، هبطت الأسرار وارتفعت الحجب الظاهرة عن عيون بصائرها، لاحظت جمال صاحب الكون، شاهدته بصفاء مرأى الأسرار، بغية كل عارف موضع نظرات الحق منه.

وقال: لو بلغ طفل عقلك الأشد في حجر التأديب ما التفت إلى الدنيا لكنْ هو في مهد: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح:11].

الأرواح الطاهرة قناديل هياكل الأجساد، العقول الصافية ملوك قصور الصور.

يا غلام افتح عين قلبك لترى عرائس أسرار الأزل، تستنشق روحك هبوب

(1) انظر: بهجة الأسرار (98).

نسيم لطائف القدر، إن الله عين وضع تماثل الوجود على ساحل بحر الدنيا؛ لامتحان عيون البصيرة، فسلم من الالتفات إلى زخرفها أطفال أرواح أقيمت في مقام الثبات، وربيت في حجور العظمة، وأرخيت عليها أكناف آيات الأمر، وكوشفت بتطابق مخبآت القدر، وحليت عليها عرائس الغيب، وردت فقرها إلى كهف الكرم بليل أسرار العارفين، هيم أفكار الوالهين، وزلزل جبال همم العقول، اطلع على مخبآت الأسرار بأرواح المؤمنين، طار إليه بأجنحة صدق العشق، اطوِ في صدق قصدك إليه أذيال بساط البسط، فطار حول سمعه طلبته فراشًا تتهافت حول النور، تحوم حول جاهه بقوادم أقدام الوله، اطلب منه ما طلب آدم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف:23] انتهى كلامه في ذلك مختصرًا[1].

وقال أيضًا رضي الله عنه: تفقَّه ثم اعتزل، مَنْ عبد الله بغير علمٍ كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، خُذْ معك مصباح سراج ربك: «**من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم**[2]».

وقال أيضًا رضي الله عنه: طارت نحل الأرواح قبل وجود الأشباح من كون (كن)، فصاروا من التوحيد لترعى في زهر أشجار الأنس، وتأكل من ثمار أغصان المعرفة، وتتخذ بيوتًا في مواطن القدس فوق قمم جبال الفرق، فتسلك سبيل الدنو إلى ربها، وحضرة العلوم في قربها، وتجني ثمار الحضور بأيدي الهمم العالية، فاصطادها صياد القدر بشباك مقام التكليف بيدي الأمر في أقفاص الأشباح، فألقتها من الهياكل ببهجة حسن المعتقد، وألقت مسالك البشرية فتيممت موطنًا من القدس الأشرف، فأوحى ربك إلى نحل الأرواح: ﴿**فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً**﴾ [النحل:69] في مسالك الأشباح، وكلي من ثمرات الشريعة، وارعي من أزهار أنوار الحقيقة، فلما طار طائر صاحب الجب من حدائق المجاهدة وقع في شَرَك المحبّة، ورأى من البلاء في ساحة الولاء، فقال: كيف الخلاص؟ روض أنيق لكن ثمره مرٌّ، ومنهل عذب لكن كم فيه من غرقٍ، فناداها حادي مطايا صدق الطلب بلسان النصح:

يا أرباب الوله في جب معشوق الأرواح، ويا أصحاب الخرق، رعايات أماني

---

(1) انظر: بهجة الأسرار (101).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (10/15).

العارفين ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع أستار الصور، ولا يحجبنكم عنه إلا حجب الهياكل، فطيروا إليه بأجنحة الغرام، واطلبوا عنده الحياة الأبدية، وموتوا عن شهواتكم وإراداتكم؛ ليحيينكم به عنده في مقعد صدق.

الولاء والبلاء نجمان طلعا في فلك الشريعة.

المحبّة والمحنة وردتان لمعتا في غصن الفرات.

البلاء الأعظم فَقْد المحبوب، والعناء الأكبر عدم المطلوب.

معاشر العارفين ما البراءة من الحول والقوة إلا به حقيقة التوحيد ومحو كل متلوحٍ لعين العقل محض التفريد، وإلقاء كل ما في الوجود من يد الطمع عين التجريد. قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91]، لما نظرت الملائكة إلى تجلِّي الأرواح كامنة في مكامن أسرار الغيب، ساكنة في أثر الوصل، مستقرة في مهد اللطف، هبَّ نسيم القرب، وهتف في ناديها ريحان روح الأُنس، وتألَّق لها برق نور المعارف، وهزَّ أعطافها نشوات سكرات المشاهدة، ونادمها حديث مسامر المخاطبة، بأرج الملكوت الأعلى بعطر إعجابهم بحالهم.

وتهب عيون أشباح النور إلى سطوع أنوارهم في أطوارهم، فقال القدر: يا أصحاب صوامع النور الطائر إلى درجات هذا الشرف، انظروا إلى طائرٍ يطير من وكر شجرة الشرف الأعظم، يُقال له: أحمد، فطار حتى قاب قوسين بجناح شرفه طائرًا إلى أوكار هذا العز بنور هدايته، فنزلوا على أغصان هذا الوصف باتّباع شرعه، فأشرق لعيون عقولهم هذا النور ببركته، ووصلوا إلى هذا المقام، هو هدهدٌ يعود إلى بلاد بلقيس الغيب إلى سليمان العقول بنبأ يقين بكتاب: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42]، يقول: إذا وردت عليه واردات محبوبه «لست كأحدكم» تميز على الأنبياء برتبة:

«أظل عند ربي[1]»، ترعى نحلة روحه ليلة إسرائه زهرة شجرة: ﴿فَأَوْحَى﴾ [النجم: 10] نثر على تاج رأس مجده نثار دُر ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم:18] في مجلس وادي من أجله نثر رداءها الزمان على مناكب بهجة المكان، لله در عبد لا تجعل بين أذن سره وبين سماع هذا الكلام حجابًا من عقل طبعه وعمل بقوله تعالى:

(1) رواه البخاري (2661/6)، وأحمد (200/3) بنحوه.

﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201] (1).

وقال أيضًا ﷺ: اسم الله تعالى الأعظم هو الله، وإنما يُستجاب لك إذا قلت: (يا الله) وليس في قلبك غيره.

(بسم الله) من العارفين ك (كن) من الله ﷻ، هذه كلمة تزيل الهم، هذه كلمة تكشف الغم، هذه كلمة تبطل السم، هذه كلمة نورها يعم.

الله يغلب كل غالبٍ، الله مظهر العجائب، الله سلطانه رفيع، جنابه منيع، الله مطلع على العباد، الله رقيبٌ على القلوب والفؤاد، الله قاهر الجبابرة، الله قاصم الأكاسرة، الله عالم السر والعلانية، الله لا تخفى عليه خافية، من كان لله كان في حفظ الله، من أحبَّ الله لا يرى غير الله، من سلك طريق الله وصل إلى الله، عاش في كنف الله، من اشتاق إلى الله أنس بالله، من ترك الأغيار صفا وقته مع الله.

وقال ﷺ: سرير الأسرار لا يُنصب إلا في سرادق حق اليقين، وحق اليقين نقطة دائرة التوحيد، والتوحيد قاعِدة بناء الوجود، والهداية الأحدية مغناطيس حديد قلوب العارفين، والروضة الأبدية مراتع أسرار المكاشفين، باسط الخواطر في حضرة السرمدية بمناشطه، وأشهدهم بقربٍ إلى الأسرار في جنات الأزل بمخاطبة ﴿أَلَسْتُ﴾، سقاهم كأس حبه بأيدي سقاة قربه، خرجوا إلى الدنيا وفي رءوسهم نشوات ذلك الخمار، وفي عيون عقولهم بقايا رسوم ذلك الجمال، وفي أحداق قلوبهم برقات ذلك الحباب.

واحرقتاه عليكم كيف تموتوا وما عرفتم ربكم! الشجاعة صب يا عُجم الفطنة، سافر إلى بلاد القرب، يا موتى الطبيعة سافروا إلى بلاد الهند للهداية.

يسقى بعض العارفين من هذا الشراب قطرة، وأفرغ ساقي القدر منه نعته، فقامت روحه ترقص طربًا بين يديه، واهتزَّ جبل موسى شوقًا عند لمع برق التجلّي، فنظر سر المحبوب، فقال من عليه طفحات عبقه: أنا الحق، سكر نديمه الآخر، فقال: سبحاني! فارق جماعة من طيور أرواح أقفاص الأشباح، وطارت بأجنحة الشوق في بهاء الغرام، وقامت من مجد الوجود نوادي منادي الأزل، وطمعت أن ترعى من طور القدم حب المشاهدة، فانقضَّت على حمائم طلبها برداء العظمة، فيصعق من في السماوات ومن

(1) انظر: بهجة الأسرار (20).

في الأرض إلا من شاء الله، لاحت لأسرار العالمين بهجة جلال الديمومية، وأشرقت لعيون العارفين كمال الأحدية من مشكاة نور القِدم، وسقطت قوادم أقدام الخلائق في مفاوز: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:67]، وانقطع العاصون في فتنة: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:19].

معاشر المريدين لقد أودعت صور الآدمي نشرًا من الغيب، ودُفن في ترابها كنز من العلا، فرامت التشبث إلى معرفته، والاطلاع على دفينه، فمنعها حاجز النفوس، فما وجدت سبيلاً لترد سلسبيلاً[1].

معاشر العارفين جدوا، ليس المحبوب غائبًا عنكم إلا بحجاب الأهوية، والله إن هوى هذه النفوس قيد أرجل العقول، وإن مواضع الشهوات مزالق أقدام الأفهام، سافروا بالهمم إلى المحبوب، اخرجوا من جيوش الصور إلى طلب نظر المصور، اطلبوا حياة الأبد تحت جبل قاف القرب. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197][2].

وقال أيضًا ﷺ في الحلاج: طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوى بأجنحة: (أنا الحق)، طار بغير أجنحةٍ فتعرَّض لحتفه، فظهر عليه عتاب من الملك من مكمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:6].

أثبت في إصابة مخلب: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:57][3].

قال له: شرع سليمان الزمان، لِمَ تتكلَّم بغير لغتكم، ثم ترنمت بلحنٍ غير معهودٍ، أدخل الآن في قفص وجودك، ارجع من طريق عزة القدم إلى مضيق ذلة الحدث.

قل بلسان اعترافك يمنعك ادعاء الدعاوى، حب الواحد إفراد الواحد، مناط حفظ الطريق إقامة وظائف خدمة الشرع[4].

وقال ﷺ في الحلاج أيضًا: طار طائر بعض العارفين من وكر شجرة صورته، وعلا السماء خارقًا صفوف الملائكة، وكان بازيًا من بزاة الملك، مخيط العينين بخيط:

(1) انظر: بهجة الأسرار (139).

(2) انظر: قلائد الجواهر (280)، والبهجة (139).

(3) انظر: بهجة الأسرار (104).

(4) انظر: السابق (142).

﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]. فقال: رأيت ربي فازداد حيرة في قول مطلوبه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115]، وعاد هابطًا إلى حضرة الأرض، طلب ما هو أعز من وجوده في قعور البحار، تلفَّت بعين عقله فما شاهد سوى الآثار، فكر فلم يجد في الدارين مطلوبًا سوى حبيبه فطرب، فقال بلسان سكر قلبه: أنا الحق، ترنَّم بلحنٍ غير معهودٍ من البشر، صفَّر في روضة الوجود صفيرًا لا يليق لبني آدم، لحَّن بصوته لحنًا عرضه لحتفه، نُودي في سرِّه: يا حلاج أنت اعتقدت أن قوتك بك، قل الآن نيابةً عن جميع العارفين: حب الواحد إفراد الواحد، قل: يا محمد أنت سلطان الحقيقة، أنت إنسان عين الوجود، على عتبة باب قلبك تجمع أعناق العارفين، في حمى جلالتك تُوضع جباه الخلائق أجمعين[1].

وقال أيضًا ﷺ: الخواطر خطاب يرد على الضمائر، فإذا كان من قِبَل الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبَل الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من قِبَل النفس فهو الهواجس، وإذا كان من قِبَل الله سبحانه وتعالى فهو خاطرٌ حقٌّ، فعلامة الإلهام أنه يرد بموافقة العلم، فكل إلهامٍ لا يشهد له ظاهرٌ فهو باطلٌ، وعلامة الهواجس الإلحاح في طلب وصف من خصائص صفات النفس، ولا يزال يعاوده ولو بعد حين حتى يأتي الرجل ذلك الوصف.

وعلامة الوسواس أنه إذا دعا إلى زلةٍ وقع فيها، ووسوس بزلةٍ أخرى، فآلات المخالفات عنده سواء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:6]، وعلامة الخاطر الحق أنه لا يدعو إلى خيرٍ، ولا يحدث إلى سوءٍ، بل يرد بزيادة علم وبيان يعرف بغيته عند وجدانه، فإذا ورد على القلب خاطر حق يغير خاطر حق.

فقال الجنيد: الأول أقوى؛ لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى الأمثل، وهذا مكان العلم.
وقال ابن عطاء: الثاني أقوى؛ لأنه يزداد بالأول قوة.

---

(1) وقال الشيخ عبد القادر: عثر الحسين عثرة فلم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده، وإنا لكل من عثر مركوبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة آخذ بيده، يا هذا فرسي مسرج، ورمحي منصوب، وسيفي شاهر، وقوسي موتر لحفظك وأنت غافل.
رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ونفعنا ببركاتهم وأمدنا بإمداداتهم وأفاض علينا من نفحاتهم آمين. وانظر: بهجة الأسرار (105).

وقال ابن خفيف: هما سواء؛ لأن كلاهما من الحق، ولا مزية لأحدهما إلا بمرجحٍ في وصفٍ خاصٍ.

وإذا اختلفت الخواطر على القلب فقل: سبحان الملك الخلاَّق، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ*وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:16، 17]، وأجمعوا على أنه من كان أكله الحرام لم يستطع أن يفرق بين الخواطر.

وقال أيضًا ﷺ: أول ما يطلع في قلب المؤمن نجم الحكم، ثم قمر العلم، ثم شمس المعرفة، فبضوء نجم الحكم تنظروا إلى الدنيا، وبضوء قمر العلم تنظروا إلى الآخرة، وبضوء شمس المعرفة تنظروا إلى المولى.

وقال أيضًا ﷺ: عروش الروح جلا جمالها القدر على عبادة الملائكة في حلل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] في مجلس: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾.

العقل فيه إشارة إلى كونه من عالم الشهادة، وحملت أصداف الهياكل درر الأرواح في بحر الوجود على سفن العلم؛ ليكمل بها ضياء نور اليقين، فسارت بريح الروح إلى خزائن المجاهدة، ووقف سلطان العقل فيه بإزاء سلطان الهوى، وتقابلا وتعاملا في سِعة فضاء صدره، فكانت النفس هذه أحقر جنود سلطان الهوى، وكانت الروح من أشرف جنود سلطان العقل، فأذن مؤذن الحكم بينهم:

يا خيل الله اركبي، ويا كتائب الحق ابرزي، ويا جنود الهوى تقدمي، فكل يريد نصرة حزبه، وكل يحاول قهر خصمه.

فقال التوفيق لهما بلسان سابق الغيب من نصرته: كانت العناية معقودة بزمامه، ومن أعنته كان السعيد في الدنيا والآخرة، ومن كنت معه لم أفارقه حتى أوصله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر. التوفيق هو حسن نظر الحق سبحانه لوليه بعين رعايته.

يا غلام اتبع العقل وقد وقف بك على محجة طريق السعادة الكبرى، فارق نفسك وهواك، وقد رأيت العجب الروح سماوية غيبية، والنفس ترابية أرضية، طار طائر اللطف في وكر الكشف بجناح العناية إلى شجرة العُلا، وتوكَّر في غصن القرب، وغرّد بلحن لسان الشوق، ناداه نديم الأُنس فالتقط جواهر الحقائق من بين أكناف المعارف، وبقي الكشف محصورًا في قفص ظلمة وجوده، إذا فنيت القوالب بقيت أسرار القلوب، وإذا نظر إلى قلبك نظرة أقامه مقام عرشه، وأودعه حقائق العلوم، وجعله خزانة أسرار المعرفة، فحينئذٍ يتراءى لعين عقلك جمال الأزل، ويعرض عن كل شيءٍ

متصفًا بصفات الحدث، ويقابل بصيرة سرك أشخاص عوالم الملكوت في مرآة القرب، وتجلى على عين سريرتك عرائس الفتح في مجلس الكشف عن حقائق الآيات، فإذا آثار مثلوجات الأكوان ممحوة من لوح همتك.

يا هذا، العقول المنورة سرج الفحول، والأفكار الصافية أدلّة أرباب المعارف، والعناية السابقة تكشف عن وجه وجود اليقين بباب الشك إذا تزاحمت الظنون والإرادات اللاحقة، تقطع الباطل بيد الحق إذا تنافرت الأدلّة.

وقال: طلب موسى عليه السلام عين الحياة الحقيقية في أرض أدنى، قيل: إنها من وراء جبل، ويحتاج إسكندر طالبها أن يقطع إليها يأجوج الوجود، ويخرق ودم يأجوج وجوده بصحة التوحيد الذي محق كل ملوحٍ لعين الفعل في الأكوان، ويخرج بحضرة عقله إلى حيز الآخرة مكن دائرة الدنيا، فإنه يجدها تحت ظل شجرة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22، 23]، تلك الشجرة نبت رياحين في جناب القدس، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، لا شرقية فتطلع مشرق أفق الدنى من مشارق سموات الأسرار، ولا غربية فتلوح من مغرب حق الكون في مغارب معالي القلوب.

طلب عيسى عليه السلام عين الحياة الحقيقية في الأرض، قيل له: لا تجدها إلا بعد تعب: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:55]. تحت ميل رأيك مقام: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. والمحبوب المكنى أحمد ﷺ وجد عين الحياة الحقيقية في معاوج معراج ليلة أُسري به في مجلس: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم:17]، قيل له: اغتسل منها بماء: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ [النجم:11]، وجد في درعها عقد ينظمه لك ناظم الشرف في سلك: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:18] [1].

وقال رضي الله عنه: يا غلام عليك بالصدق والصفاء؛ فلولاهما لم يتقرّب بشيء إلى الله عز وجل، يا غلام لو ضرب حجر قلبك بعصا موسى الإخلاص لتفجّرت منه ينابيع الحكم بجناح الإخلاص، يطير العارف من ظلمة قفص الكون إلى فسحة نور القدس، وينزل بعد الطيران في ظل روض مقعد صدق.

(1) انظر: بهجة الأسرار (144).

يا غلام ما أشرق نور اليقين في قلب عبد إلا ظهر على أسرار بروج صاحبه ضياء نور ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة:8].

وتهيب الملائكة باسمه في الملكوت الأعلى، وجاء يوم القيامة في زمرة الصادقين.

يا غلام الإعراض عن شبهات النفوس تجريد بل توحيد، هو صفاء بوارق سَوق عشقه بخواطر العارفين، حتى لا يتلذَّذ بواصلٍ بغيره، هو هيم قلوب الوالهين حتى وقعت في أودية جنة الطريق إلى الله ﷻ، لا يسافر فيها بغير زاد الصدق، والحضور معه لا يحصل بغير تجريد القوالب، والإفطار في الآخرة على شراب النظر لا يوصل إليه إلا بعد الصيام عن الدنيا وما فيها، ما نظرة منه إليك غالية بترك الوجود، وما لحظة منه لك كثيرة بالخروج عن الأكوان، إذا صفت النفس من الأكدار البشرية امتثلت الأوامر، وإذا قوي نظر العارف تنطق على سرّه أنوار بارئه.

الأولياء هم خواص حظوة السلطان، والعارفون ندماء مجلس الملك، ودون حلاوة شهد الولاء تحمل مرارة صبر البلاء.

يا غلام عيون عقول الفحول لم تلتفت إلى الدنيا، ولم يخدعهم مطلب برقها اللامع، بل فهموا قول المحبوب عنها، ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:36].

يا غلام من اللذات يدخل الشيطان إلى القلب، ومن منافذ الشهوات يعبر إلى الصدور، وتجرُّع حب الدنيا يزرع في النفوس بغض الآخرة، فطوبى لمن تنبَّه من رقدة غفلته، وصفا مورد حاله بطلب قرب مولاه، وبادر بالخروج إلى ما لا بُدَّ له من الخروج منه، وحاسب نفسه قبل محاسبة أسرع الحاسبين، وشمر للسباق إلى الآخرة، فإن الدنيا ميدان السابقين، والأعمال حلبات صدق الفائزين، وعلى جسر الهمة الممر: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:46][1].

وقال ﷺ: يا هذا كُن مع الله تعالى كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله تعالى كأن لا خلق وجدت، وعن الكل فنيت، وإذا كنت مع الخلق كأن لا نفس عدلت واتقيت.

اترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك، ترى مؤنسك في خلوتك بغير سؤالٍ، وتشاهِد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه، فإن جهلك علمٌ،

(1) انظر: بهجة الأسرار (148) بتحقيقنا.

وبُعدك قربٌ، وصمتك ذِكرٌ، ووحشتك أُنسٌ.

يا هذا ما ثمّ إلا خلق وخالق، فإن اخترت الخالق فقل: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، ثم قال: مَنْ ذاقه فقد عرفه.

يا هذا المؤمن إذا عمل صالحًا انقلبت نفسه قلبًا، ثم انقلب قلبه سرًّا، ثم انقلب السر فصار فناءً، ثم انقلب الفناء فصار وجودًا، ثم قال: ليس كل الأحباب يسعهم كل باب، يا هذا الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك إلى طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة، ولحوقك بالمنهاج الأول، فحينئذٍ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيكِ ما يزرع، إن أردت هذا فعليك بالإسلام، ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة به، ثم الوجود به، فإذا كان وجودك به كان كلك له.

الزُّهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

قال ﷺ: ينبغي للفقير أن يتزر بالفقه والقناعة حتى يصل إلى الحق سبحانه وتعالى، ويسعى بقدم الصدق طالبًا لباب القرب، مهرولاً عن الدنيا والآخرة والخلق والوجود، يحتاج أن يموت ألف مرة، ويفنى ألف مرة، تستقبله - أو قال: حتى تستقبله - عناية الحق ورأفته ورحمته، وشوقه إليه، ووحدانيته، ونظراته، ومباهاته، ومواكب أرواح النبيين والمرسلين والصدِّيقين، والملائكة تصحبه وتزفُّه إلى الله ﷻ، فتقرب مبايعته فيقف على كل سطرٍ وكل كلمةٍ وكل حرفٍ، يقف على أوقاته وأزمانه وساعاته ولحظاته، ويتبشر له أمره وما يؤول إليه، كلما جذب الخوف إليه جذبه القرب منه، ثم لا يزال ينقل من شيءٍ إلى شيءٍ حتى يمثل حاجبًا بين يديه، منفردًا عنده، مطلعًا على أسراره، يعطى خلعةً وطبقًا ومنطقة وتاجًا، ويشهد الملك له على نفسه ألا يغير عليه.

يا موتى القلوب طلبكم الجنة، قيدكم عن الحق سبحانه وتعالى[1].

قال ﷺ: اعلم والاك الله بجميل حمايته، وصانك بلطف رعايته، أن قدم الصدق إذا طلبت وجدت، وعروس الوصل إذا نبتت نبتت، وأصول القرب إذا رسخت بزغت، ورياض القدس إذا ظهرت ظهرت، ورياض الأنس إذا شهدت دهشت، وقلوب الأحباب إذا رمقت عتقت، وأسماع الأرواح إذا قرت سمعت، وأبصار الأسرار إذا خطرت نظرت، وألسن القوم إذا أمرت نطقت، فلله در عباد ناداهم مولاهم في سابق

(1) انظر: بهجة الأسرار (108).

القدم بلسان الكرم إليّ، ودعاهم بمبادئ الفضل إلى مناد الوصل، قيد لهم من معان الحب مناد، وحدا بهم في جنات القرب حادي، وشاهدوا محل الجمال عن مطالع الأزل، وعاينوا أعين الجمال في طوالع الحلل، وسمت بصائرهم إلى مطالعة عوالم الغيب ومعالم التوحيد، وشراب سرائرهم في مشاهدة قدس معارج التفريد، وشخصت أبصارهم إلى رقوم الفتح من ذيول الكشف عن محيا ذاك الجناب، واتكأت أفئدتهم على أرائك الأنس في مقاصير القدس بين تلك القباب، وحلت أبصارهم على بساط البسط، وارتاحت أرواحهم برياحين الخطاب، فإن صمت صامتهم فلشهود حق اليقين، وإن نطق ناطقهم فلورود أمر اليقين، وإن خامر نفس مريدهم خوف: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:99].

أو باشر قلبه زجر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:28]، ناجاه مخاطب الإيحاء: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ [طه:46].

ونطقت شواهد السعادة قائلة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الحديد:12].

وقال سفير الجودي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:11].

وإن أخرج لمرادهم مرسوم: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف:54] من ديوان: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:105]، حديثه بدءًا: ﴿اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32] إلى حضرة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:58]، وقدم إلى مجلس: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان:21].

واستقبله وجه: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف:144].

فمد باع وصل: ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:25].

ونطق به مجيب: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت:56].

فأخبر لسان صدقه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة:117].

وإن ثبتت مطاياهم على طريق: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80]، واستقام على سبيل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ [الحشر:7].

واستمسك بعروة: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران:31].

يصل بسبب: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:36].

وسقى حرقة حاله صاحب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم:9].

وأمده بفيض من بحر: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:3].

وإن قرأت مكتوب سعدهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

وإن نظرت منشور مجدهم ف ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:119].

وإن سألت عن مقامهم ف ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

وإن حددت وصفهم ف ﴿أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد:10].

وإن كبر ما ظهر منهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:118].

وإن ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:14]، الغاية: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ [السجدة:17]، وكيف وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن لي عبادًا يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، قال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطيور إلى أوكارها، فإذا جن الليل، واختلط الظلام، وفُرشت الفرش، ونُصبت الأسرة، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا إليّ، وناجوني بكلامٍ، فبين صارخ وباكٍ، وبين منادٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجدٍ، فبعيني ما يتحملوني من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي، أو ما أعطيهم أن أقذف في قلوبهم من نوري، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثاني أن لو كانت السماوات السبع والأرضون في ميزان أحدهم لاستقللتها له، والثالث أن أقبل بوجهي الكريم عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي الكريم عليه، هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟.

فعليك يا أخي باتّباعهم؛ لعلك أن تكون من أتباعهم، وسلم لهم ما ترى وما تسمع تنل من السعادة منزلاً أرفع، فالله نسأل أن تكتحل أبصارنا بنور هدايته، ويشدد قواعد عقائدنا بحسن رعايته[1].

وقال ﷺ: فلما قضى موسى الأجل خرج بأهله وقد استبان وضع الحمل والليل

(1) انظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (46) بتحقيقنا.

كسواد حدق حور الجنة، والريح تنثر عبرات عيون السحب، وسيوف البرق تسل من غمد الغمائم، وأسود الرعود تزمجر في غابات الديم، فتطلب مطرًا تأوي إليه من القطر؛ ليقدح لروحه من زند الظلام شررًا، ويطلب من أكناف الوادي المقدس نار هدى، والغرام غريم سره، والوجد نديم روحه، والشوق سمير رقاده، والتوق جليس فؤاده، والهوى حشو صدره، فلاح له النور في معرض النار، نصب لاصطياد طائر روحه شباك، إني أنا الله رأى سطرًا من سطور لوح القدرة، تجلّت على روحه سمعته الطيور، وقعت رجل عقله في شَرك أني آنس أفرغ في كأس سمعه إلى صرف شراب: لا إله إلا أنا، أسكره بإدامة شرب مُدامي وكلمه، دبّت فيه نشوات الشوق، وطمحت به طوامح أمواج بحار الوله، غلب على قلبه هيمان العشق، حرقت لذة التكليم ما قد سمعه، حتى وصلت إلى بصره، فطلب البصر بعينه من النظر، ووافقه توق القلب، وقال: رب أرني أنظر إليك، قيل: يا موسى، انظر أولاً إلى مرآة الجبل، وحك الذهب بسابك على محك، فإن استقر اعتبر سكونك عن حركة الصخور لهيبة تجلي، فمادت به أجزاء الطور عند إشراق لمعان ذلك النور، وتعطّرت أشجار الوادي المقدس بنسيم القرب، وأرجت رياض البقعة المباركة ببهجة وقت الوصل، وصارت هضبات الطور حدائق لأجل التجلّي، وامتلأت جنباته بالملائكة استعظامًا لقوله: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: 143]، وقامت أرواح الأنبياء تترصّد ما يكون.

سمع كلامًا ككلام البشر خاطبه من ليس من جنس المحدثات، نُودي من جميع آفاق الوجود، صارت جملته سمعًا وبصرًا، فتلفّت بعين سره إلى الطور، وقع شعاع نور عين عقله على أجزاء الجبل، انعكست أشعة المتقادحات، برق بصر الحس، ذهلت عين الفكر، خرس لسان الطبع، انقطعت أسباب الحواس.

قرأ لسان حال موسى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَن﴾ [طه:108].

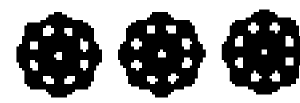
قال: المخبر عن صدق طلبه: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:143].

قال: يا موسى صعقت طبيعتك ضعيفة عن تناول شراب التجلّي، شق عينيك ضيق عن مقابلة أنوار سبحات، ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم، ورد النظر لا يطلع شجر كانون هذا الكون:

«إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا[1]».

خلعة النظر في الدنيا مدخرة في خزائن الغيب لصاحب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: 9]، هذا الشرف لا يناله من الخلق سوى سيد ولد آدم، ويتيمة عقد البشر، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:152].

قلت: فهذا ما أحضرته من نقش جواهر نظام المودعات في خزائن لطائف معارف كلامه بلونٍ غريبٍ.



في ردّ بعض الاعتراضات والشُبه عن الشيخ قُدس سره:

قال المعترض: جاء في «الغنية» عن الشيخ عبد القادر أنه يقول بالجهة، لقول الشيخ: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش محتوٍ على الملك.

قلت: وهذا جهل واضح من المعترضين، حيث إن قول الشيخ في هذا الموضع بعد ذكره للآيات والأحاديث : وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وكونها على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كلّ نبي أُرسل بلا كيف، وذكر نحو هذا في سائر الصفات.

فإن كلام الشيخ في «الغنية» هو معنى التفويض الذي هو مذهب سلف هذه الأمة وبه قال أتباع الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، ومقابله التأويل وهو مذهب الخلف[2].

ولذلك قال الشيخ الشعراني ﷺ في كتاب اليواقيت (ص89): رأيت في كتاب البهجة المنسوبة لسيدي عبد القادر الجيلي ﷺ ما نصه: اعلموا أن عبادتكم لا تدخل الأرض، وإنما تصعد إلى السماء قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10] فربنا سبحانه وتعالى في جهة العلو: الله على العرش استوى وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء بدليل سبع آيات في القرآن العظيم في هذا المعنى، لا يمكنني ذكرها لأجل جهل الجاهل

(1) رواه النسائي (419/4)، وأحمد (324/5)، وابن ماجه (1360/2).

(2) انظر: السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني للشيخ ابن عزوز المكي (ص492) بتحقيقنا، فإنه قد حل الإشكال، وأوضح المقال في هذا الاعتراض.

ورعونته، انتهى.

قال: فلا أدري أذلك الكلام دُسَّ على الشيخ في كتابه أم وقع في ذلك في بدايته ورجع عنه لما دخل في الطريق، فإن من المعلوم عند كل عارف بالله تعالى أنه تعالى لا يتحيز، والشيخ قد شاعت ولايته في أقطار الأرض فيبعد من مثله القول بالجهة قطعًا.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10] أن يكون تعالى في جهة الفوق دون غيرها بدليل قوله تعالى: ﴿وهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:3] ظرفية تليق بجلاله.

وأجمع المحققون أن شهود الحق تعالى في حال السجود صعود وإن كان السجود في أسفل سافلين.

وأما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50] أي: يخافون ربهم أن يُنزل عليهم عذابًا من فوق رءوسهم، هذا هو الاعتقاد الحق.

قلت – أي الشعراني -: ويصح حمل قول السيد عبد القادر الجيلي السابق أنه تعالى في جهة العلو على أن مراده بجهة العلو الجهة التي قصد العبد قضاء حاجته منها وإن كانت في السفليات، هذا لا يبعد على مقام الشيخ، انتهى والله تعالى أعلم.

قلت: لم يثبت عن الشيخ عبد القادر أنه قال بأقوال المشبهة والمجسمة والمعطلة، بل مذهبه في الأسماء والصفات والرؤية والعرشية وغيرها من مسائل الاعتقاد مذهب أهل الحقائق بالإثبات والتنزيه، وهو منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهو ما عليه اعتقاد المحققين من السادة الصوفية.

وذلك واضح في كتبه وما كُتب عنه قدس الله سره العزيز.

ألا ترى قول الشيخ في فتوح الغيب (ص149): الحمد لله الذي كيَّف الكيف وتنزه عن الكيفية، وأيَّن الأين وتعزز عن الأينية، ووجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عن كل شيء وتعالى عن العندية، فهو أول كل شيء وليس له آخرية.

وإن قلت: أين فقد طالبته بالأينية، وإن قلت كيف فقد طالبته بالكيفية، وإن قلت: متى فقد زاحمته بالوقتية، وإن قلت: ليس فقد عطلته عن الكونية، وإن قلت: لو فقد قابلته بالنقصية، وإن قلت: لم فقد عارضته في الملكوتية.

سبحانه وتعالى لا يسبق بقبلية ولا يلحق ببعدية، ولا يقاس بمثلية، ولا يقرن بشكلية، ولا يعاب بزوجية، ولا يعرف بجسمية.. إلى آخر كلامه قدس سره.

وقال ﷺ كما في القلائد (ص276): قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: 11]: لا شبيه له، ولا نظير، ولا عون له، ولا ظهير، ولا شريك، ولا وزير، ولا ند له، ولا ذي تركيب مشير، ليس بجسم فيمس، ولا جوهر فيحس، ولا عرض فينتفي، ولا ذي تركيب فيتبعض، ولا ذي آلة فيمثل، ولا ذي تأليف فيكيف، ولا ذي ماهية مخيلة فيحدد، ولا ذي طبيعة من الطبائع، ولا طالع من الطوالع، ولا ظلمة تظهر، ولا نور يزهو ... إلى آخره.

ومما نقل عن الشيخ ﷺ قوله: «قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله»

قال الشيخ يوسف بن الملا عبد الجليل الكردي: ثم العجب العجيب، والأمر الغريب ممن تجرأ على خرق إجماع المسلمين، ووقع في حضرة إمام العارفين، وشيخ شيوخ العالمين، صاحب القَدَمِ من القِدَم، غوث البريّة، قطب العرب والعجم، من خضعت له الرقاب، وشهدت بسلطنته الأقطاب، بحر العلم اللدنيِّ، مولانا الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، مروِّح الله تعالى أرواحنا بنفحات روحه، وفتح أقفال قلوبنا بمفاتيح فتوحه، ولا زالت رحمة الرحمن فيّاضةً على روحه في كل حينٍ وآنٍ، آمين.

وزعم أن قوله رضي الله تعالى عنه وقدِّس روحه: (قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله)، قالهُ بحظِّ نفسٍ، وهوًى كامنٍ، وحاشاه ثم حاشاه من ذلك؛ بل إذا كان كامنًا في باطنه يظن أن أصفياء الله تعالى مثله منطوون على خبث الضمائر، ومتصفون بالصفات الرذائل، نعوذ بالله العظيم من الخذلانِ، وسوء الظن بأولياء الله أهل العرفان، ولقد صدق من قال:

وإذا رأى الإنسانُ نقصًا إنَّما مِرآتهُ تجلي عليهِ بحالهِ

فإن من قُرِّبَ هذا التقريب، وعُرِّف هذا التعريف، ومُكِّنَ هذا التمكين، وصُرِّف هذا التصريف، وخضع له رقاب أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله تعالى هذا الرجوع، وزفتْه العناية هذه الزفات المشعرة بعظيم جلالته، وضرب له الوجود بمعازف السرور عند رؤية طلعته، ورقص الكون جميعه طربًا لظهور ولايته، وحَمَلَ بين يديه علم القطبيّة، وتُوِّج بتاج الغوثيّ، وأُلبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع

الوجود، ومشت أكابر الأولياء من الصدِّيقين والبُدلاء تحت ركابه بأمر الملك المعبود، واشتهرت في الوجود كراماته، وجمعه بين علمي الظاهر والباطن -يستحيل أن يكون قال ذلك بحظِّ نفسٍ، وهوًى كامنٍ، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:124] كيف وقد أجمع على فضله وعلمه وجلالة قدره الخاص والعام من زمنه إلى هذه الأيام! بل قد ذكر العلماء الأعلام أن كراماته قربت من التواتر بين أهل ملة الإسلام، فيكون صدور هذا القول عنه امتثالاً لأمره، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضله، وبيانًا لعلوِّ شأنه، وتعريفًا للجاهل بكبر قدره، وإرشادًا إلى التعلُّق به، والتوسل برفيع جاهه، وغير ذلك من المصالح.

وقد رُوي في كتاب «مناقبه» من طرقٍ كثيرةٍ برواياتٍ شهيرةٍ عن جماعةٍ من المشايخ الأكابر، والعلماء الأفاضل، والأخيار الثقات، واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدة أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس: «قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله» وكان في مجلسه حينئذٍ عامة مشايخ العراق، ورُوي أنهم كانوا نحوًا من خمسين شيخًا، ورُوي نيفًا وخمسين شيخًا:

منهم: الشيخ أبو النجيب السهروردي، والشيخ قضيب البان الموصلي، والشيخ أبو السُّعود أحمد بن أبي بكر العطاء، وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين.

ورُوي من طرقٍ كثيرةٍ عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحدٌ من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حَنى له رقبته إلا رجلاً بأصبهان؛ فإنه لم يفعل، فسُلب حاله.

ورُوي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض، وقال: على رأسي، على رأسي، على رأسي، قالها ثلاث مراتٍ.

وكان من جملة من حَنى له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين.

فأما الشيخ أحمد الرفاعي: فرووا عنه أنه كان جالسًا يومًا برواقه بأم عبيدة، فمدَّ عنقه وقال: على رقبتي، وفي رواية أنه قال: وحميد منهم، فسُئِل عن ذلك، فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليِّ لله.

وأما الشيخ أبو مدين المغربي: فرووا عنه أنه حَنى رأسه يومًا وهو بين أصحابه،

وقال: وأنا منهم، اللهُمّ إني أُشهدك، وأُشهد ملائكتك أني سمعت، وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك؟ فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، فأرّخوا ذلك وهم في المغرب، ثم جاء المسافرون من العراق، وأخبروا أن الشيخ عبد القادر الكيلاني قال ذلك في الوقت الذي أرّخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم القناوي: فرووا عنه أنه مدَّ عنقهُ يومًا بقنا، وقال: صدق الصّادق المصدوق. فقيل له: ومن هو؟ فقال: الشيخ عبد القادر الكيلاني قد قال: قدمي هذا على رقبة كل وليّ لله، وتواضع له رجال الشرق والمغرب، فأرّخوا ذلك الوقت، ثم جاء الخبر بذلك في ذلك الوقت.

ورُوي بأسانيد كثيرةٍ من طرقٍ متعددةٍ عن جماعةٍ من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمرٍ.

منهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قال: إنما وَضَعَتْ الأولياء كلهم رؤوسهم لمكان الأمر، ألا ترى الملائكة لم يسجدوا لآدم ﷺ إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم: الشيخ أبو سعيد القليوي قال: قالها بأمرٍ لا شكَّ فيه، وهي لِسَان القطبيّة.

ومنهم: الشيخ علي الهيتي: لَمّا قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صَعَدَ إليه فوق الكرسي، وأخذ قدمه، وجعلها على عنقِه، ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: فلِمَ فعلت ذلك؟ فقال: لأنه أُمر أن يقولها، وأُذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردتُ أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم: الشيخ احمد بن أبي الحسن الرفاعي قيل له: هل قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذا على رقبة كل وليّ لله بأمرٍ أو بلا أمرٍ؟ قال: بلى قالها بأمرٍ.

ومنهم: الشيخ أبو محمد القاسم قال: لما أُمر الشيخ عبد القادر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله رأيتُ الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعًا إلا رجلاً بأرض العجم فإنه لم يفعل، فتوارى عنه حاله.

ومنهم: الشيخ حياة بن قيس الحرّاني قال: قد غشانا زمانٌ مديدٌ في ظلّ حماية سيئات الشيخ عبد القادر الكيلاني، وشَرِبنا كؤوسًا هنيئةً من مناهل عرفانه، ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه، فيبسط من شعاع نوره في الآفاق استطارة النار، فيقتبس منه الأسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله زاد الله جميع الأولياء نورًا في قلوبهم، وبركةً في علومهم، وعلوًا في

أحوالهم بسبب وضعهم رؤوسهم.

ورُوي بأسانيد صحيحةٍ متعددةٍ كثيرةٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الكبار أنهم أخبروا عنه أنه سيقول مقالته تلك قبل أن يقولها بسنين كثيرةٍ، بعضهم قال ذلك بنحو مائةٍ.

منهم: **الشيخ عبد الله الجوني** روى عنه الشيخ الإمام أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني قال: سمعت شيخنا أبا أحمد عبد الله بن علي الجوني سنة أربعٍ وستين وأربعمائةٍ يقول: أُشهدت أنه سيولد بأرض العجم مولودٌ، له مظهرٌ عظيمٌ بالكرامات، وقبولٌ تامٌّ عند الكافة، ويقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، ويندرج الأولياء في وقته تحت قدمه ذلك الذي يشرق به زمانه، وينتفع به من رآه.

ومنهم: **الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء** قال لمن حضره لما أتى الشيخ عبد القادر لزيارته وهو شابٌّ: قوموا لوليّ الله، وربما يمشي إليه في وقتٍ خطواتٍ، وكان الشيخ عبد القادر يتكرّر إليه، فلمّا تكرّر منه قوله: قوموا لوليّ الله قال له أصحابه في ذلك، فقال: لهذا الشاب وقت إذا جاء افتقر إليه فيه الخاص والعام، وكأنّي أراه قائلاً ببغداد على رءوس الأشهاد وهو محقٌّ: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، فتوضع له رقاب الأولياء في عصره؛ إذ هو قطبهم، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فليلزم خدمته.

ومنهم: **الشيخ عقيل المنبجي قُدِّس سرُّه** سُئل عن القطب في وقته؟ فقال: هو في وقتنا هذا بمكة مختفيٌ لا يعرفه إلا الأولياء، وسيظهر هنا، وأشار إلى العراق، وهو شريفٌ يتكلّم على الناس ببغداد، يعرف كراماته الخاص والعام، وهو قطب وقته، يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، وتضع له الأولياء رقابهم، ولو كنتُ في زمانه لوضعت له رأسي، ذلك الذي ينفع الله به مَنْ صدّق بكراماته من سائر الناس.

ومنهم: **الشيخ علي بن وهب البخاري قُدِّس سرُّه قال:** إن الله تعالى قد نوّر الوجود بظهور رجلٍ اسمه عبد القادر، مظهره في العراق، يقول ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، ويقرُّ أولياء عصره بفضله.

ومنهم: **الشيخ حمّاد الدبّاس قُدِّس سرُّه** قال الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي: كنت عند الشيخ حمّاد بن مسلم الدبّاس ببغداد سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ، والشيخ عبد القادر يومئذٍ في صحبته، فجاء، فجلس بين يديه متأدّبًا، ثم قام، فسمعت الشيخ حمّاد يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر لهذا العجمي: قدمٌ تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك الوقت، وليُؤمرنَّ أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله،

وليقولنّ، ولتوضعنّ له رقاب الأولياء في زمانه.

وقد سَبَقَ قول الغوث في قصة ابن السقَّا، ومما أخبر به جماعةٌ من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف والأسرار قدَّس الله تعالى أرواحهم عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال.

منهم: الشيخ أبو سعيد العز بن أحمد القيلوي قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله تجلَّى الحق سبحانه وتعالى على قلبه، وجاءته خُلعةٌ من رسول الله ﷺ على يد طائفةٍ من الملائكة المقرَّبين والبهاء بمحضرٍ من الأولياء من تقدَّم منهم ومن تأخَّر، الأحياء بأجسادهم، والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافِّين بمجلسه، واقفين في الهواء صفوفًا حتى انسدَّ الأفق بهم، ولم يبقَ وليٌّ لله تعالى في الأرض إلا حَنى عنقه.

ومنهم: الشيخ بقا قُدِّس سرُّه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله قال الملائكة: صَدَقت يا عبدَ الله.

ومنهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قُدِّس سرُّه، والشيخ أحمد الرفاعي قُدِّس سرُّه روى عن الشيخ عدي أنه لما ذكر بين يديه الشيخ عبد القادر قال: بخ بخٍ، ذلك قطب الأرض، وضع ثلاثمائة وليّ لله، وسبعمائة غَيبي، ما بين جالس في الأرض ومارٍّ في الهواء، ممتدة أعناقهم له في وقتٍ واحدٍ حين قال: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله.

قال الراوي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدةٍ أتيت أم عبيدة؛ لأزور الشيخ أحمد بن الرفاعي، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، قال: صَدقَ الشيخ عدي.

ومنهم: الشيخ ماجد، والشيخ مطر- قُدِّس سرُّهما- روي عن الشيخ ماجد أنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله لم يبقَ لله وليٌّ في الأرض في ذلك الوقت إلا حنىَ عنقه تواضعًا له، واعترافًا بمكانته، ولم يبقَ نادٍ من أندية صالحي الجن من جميع الأقطار في الآفاق في ذلك الوقت إلا وفيه ذِكر ذلك، وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الأقطار مسلِّمين عليه، وتائبين على يديه، وازدحموا في بابه.

قال الراوي: فأتينا إلى الشيخ مطر؛ لزيارته وفي أنفسنا إعظام ما سمعناه من الشيخ ماجد، فلمَّا دخلنا عليه رحَّب بنا، وقال: صدق أخي الشيخ ماجد فيما أخبركم به عن

الشيخ عبد القادر.

ومنهم: **الشيخ مكارم قدَّس سرُّه** قال: أشهدني الله ﷻ أنه لم يبقَ أحدٌ ممن عقد له الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدي الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف النافذ في الوجود وأهله ولايةً وعزلاً معلمةً بطرازَيِ الشريعة والحقيقة، وسَمِعْتهُ يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، ووضع رأسه، وذلل قلبه له في وقتٍ واحدٍ حتى الأبدال العشرة.

قال الراوي: قلت: مَنْ هم؟ قال: الشيخ بقا بن بطو، والنهر ملكي، والشيخ أبو سعيد القليوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عدي بن مسافر الأموي، والشيخ موسى الزولي، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ محمد بن عبيد البصري، والشيخ حيّاة بن قيس الحرّاني، والشيخ أبو مدين المغربي قدَّس الله تعالى أرواحهم أجمعين.

ومنهم: **الشيخ خليفة قُدِّس سرُّه**، وكان كثير الرؤيا للنبي ﷺ، روى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر بن أحمد بن أبي السعادات البندينجي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله.

قال: صدق الشيخ عبد القادر، كيف لا وهو القطب وأنا أرعاه!.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ مما يتعلق بقول الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه مقالاته المذكورة، وقد أضربت عن أشياء كثيرةٍ مما يتعلق بذلك، ومما يدل على عظمة فضله، وجلالة قدره، ضربت وحذفت الأسانيد للاختصار، ولا حاجة إليها أيضًا؛ لكثرة ما في ذلك من الأشهار، وقد ذكر بعض أهل العلم أن كراماته قربت من التواتر يعني: قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حدَّ التواتر المعروف؛ لكثرة المخبرين عنها، وقد ذكرت شيئًا منها في باب الكرامات الآتي قريبًا.

وبالجملة: فهذا الذي ذكرته مِنْ فضله، وإن عظم فهو قطرةٌ من بحر فضائله، أو غبارٌ من رمال ساحله.

وقد رُوي بالسند الصحيح عن الشيخ أبي الرضا محمد بن أحمد بن داود البغدادي المعروف بالمقيّد قال: كنت كثيرًا ما أتوقع من أسئلةٍ عن شيءٍ من صفات القطب، فدخلت أنا والشيخ أبو الخليل أحمد بن أسعد بن وهب بن علي المقري إلى جامع الرّصافة، فوجدنا فيه الشيخ أبا سعيد القيلوي، والشيخ علي الهيتي، فسألت الشيخ أبا

سعيد عن ذلك؟ فقال: إلى القطب انتهت رئاسة هذا الأمر في وقته، وعنده تُحط رحال جدالة هذا الشأن.

قلت: فمن هو هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر الكيلاني، فلم أتمالك أنا، وثبتُ، ووثبوا كلُهم؛ لنحضر مجلس الشيخ عبد القادر، ولا تقدّم منا أحدٌ ولا تأخّر ولا تفرّقنا وما منّا إلا مَنْ يشتهي أن يسمع شيئًا في هذا المعنى، فوافيناه يتكلم، فلمّا استقر بنا المجلس قطع كلامه، وقال: إني للواصف أن يبلغ وصف القطب ولا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذٌ مكينٌ، ولا درجة في الولاية إلا وله فيها موطئٌ ثابتٌ، ولا مقام في النهاية إلا وله فيه قدمٌ راسخٌ، ولا منازلةٌ في المشاهدة إلا وله منها مشربٌ هنيءٌ لا يشقى جليسه، ولا يغيب شهوده، ولا يتوارى عن حاله بشرٌ تابعٌ له حدٌّ ينتهى إليه، ووصفٌ ينحصر فيه، وتكلُّف يجب عليه.

ثم أنشد بعد كلامٍ طويلٍ في ذلك من غير ترنُّمٍ ولا أغانٍ:

ما لي الصبابةِ منهلٌ مستعذبٌ … إلا ولي فيه الألذُّ الأطيبُ
او لي الوصالِ مكانةٌ مخصوصةٌ … إلا ومنزلتي أعزُّ واقربُ
وهبتْ لي الأيامُ رونقَ صفوها … فَحَلاَ مناهلها وطاب المشربُ
وغدوتُ مخطوبًا لكلِّ كريمةٍ … لا يهتدي فيها اللبيبُ ويخطبُ
انا مِنْ رجالٍ لا يخافَ جليسُهم … ريبَ الزمانِ ولا يرى ما يُرهِبُ
قومٌ لهم في كلِّ مجدٍ رتبةٌ … علويّةٌ وبكلِّ جيشٍ مَوكبُ
انا بلبلُ الأفراحِ املأُ دوحَها … طربًا ولي العلياء بانٍ أشهبُ
اضحتْ جيوشُ الحبِّ تحت مَشيئتي … طوعًا ومهما رمته لا يعزبُ
اصبحتُ لا املاً ولا امنيةً … ارجو ولا موعودةً اترقبُ
ما زلتُ أرتعُ في ميادين الرّضا … حتّى وُهبتُ مكانةً لا توهبُ
اضحى الزمانُ كحُلةٍ مرقومةٍ … تزهو ونحن لها الطرازُ الْمُذهّبُ
أفلَتْ شموسُ الأوّلينَ وشمسُنا … ابدًا على فَلكِ العُلا لا تغربُ

ثم قال: كل الطيور تقول ولا تفعل، والبازي يفعل ولا يقول، ولأجل هذا صار أكفُّ الملوك سُدَّتَهُ، فقام إليه الشيخ أبو منصور بن المبارك الواعظ المعروف بجرادة،

وأنشد يقول:

بِـكَ الـشهورُ تُهنَّا والمواقيتُ ... يـا مَـنْ بألفاظهِ تغلـو اليواقيتُ
الـبازُ أنـت فإنْ تفخرْ فلا عجبَ ... وسائرُ الـناسِ في عينـي فواخيتُ
واشـمُ مـن قدميك الصدقَ مجتهدًا ... لأنَّـه قـدمٌ في نعلـهِ الـصيتُ

فقام الشيخ علي بن الهيتي وَقبَّل قدم الشيخ عبد القادر، قال: فكتبنا المجلس عندنا وحفظنا ما وقع فيه.

قلتُ: وقد أوَّل بعض العلماء قوله قُدِّس سرُّه: قدمي هذه على رقبة كلِ وليّ لله، فقال: المراد بذلك شريعتي وعلمي الذي هو شريعة محمَّدٍ ﷺ، كما يُقال: القدم على القدم: أي العلم على العلم، والله أعلم.

قال الشيخ اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»: اعلم وفَّقنا الله تعالى وإيَّاك لفهم الحق واتِّباعه، وَجَعَلنا جميعًا ممن انتفع به ونفع الغير بانتفاعه أن القوم وردوا بحرًا ليس له ساحلٌ، وكل أحدٍ من المنكرين عليهم من ذلك المورد ما حلَّ، وبما فيه من جواهر المعارف والأسرار والحِكَم جاهلٌ، وسُقوا بكؤوس الوصل راح المحبة التي لم يشمَّ ريحها مَن لم يقضِ من قتل نفسه بحبِّه، فأخذ ينكر عليهم مَنْ لم يعرف تلك الجواهر التي لا يعرفها إلا من هو في ذلك البحر ماهرٌ؛ وذلك لجهله بالأسرار التي في تلك المعارف، والرَّاح التي في تلك المغارف، فإن الشَّطح الصادر عنهم منه ما وقع منهم في حال السكر والغيبة بواردات الأحوال، والسكر سببٌ مباحٌ يُسقط التكليف بالشرع بالشرط المعروف في كتب الفقه، ومنه ما صدر منهم على سبيل الحكاية عن الله ﷻ.

وممن قال أن هذا القول صَدَرَ عنه في حال السكر الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومنه ما أمروا به، فصدر عنهم امتثالاً للأمر، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضلهم، وبيانًا لعلوِّ شأنهم، وتعريفًا للجاهل بكِبَر قدرهم، وإرشادًا إلى التعلُّق بهم، والتوسل برفيع جاههم، وغير ذلك من الصالح، ومن ذلك قول الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه: (قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله)، وشطحات المشايخ كثيرةٌ جدًّا، فكل ما بلغك عن أحدٍ منهم مِنْ شطحٍ فاحمله على أحد المحامل المذكورة على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى انتهى. وانظر: الانتصار للأولياء الأخيار (ص64) وما بعده.

- وأما ما نسب إليه ﷺ من قوله:

«معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا»

قال الشيخ العطار: وأما قول سيدنا سلطان الأولياء عبد القادر: «معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا»

فهو من باب قول الخضر لموسى عليهما السلام: (أنا على علمٍ أوتيته لم تؤته) أو معنى ذلك، مع أنا لا نتوقف في فضل موسى على الخضر، وفضل الله يؤتيه من يشاء، كيف وعلم رجال هذه الأمة موروث عنه ﷺ، وقد علم ما لم يعلمه غيره من الأنبياء، فقد فاز رجال هذه الأمة بالعلم الموروث عنه ﷺ.

وقال أيضًا الشيخ الشعراني معقبًا على ذلك: اعلم أن قوله ﷺ: «إنما أوتيتم اللقب» أي حجر علينا لقب النبي، وإن كانت النبوة سارية إلى يوم القيامة في أكابر الرجال؛ لأنهم نواب الأنبياء وورثتهم، وأما قوله: «وأوتينا ما لم تؤتوا».

فهو معنى قول الخضر عليه السلام الذي شهد بعدالته وتقدمه في العلم لموسى عليه السلام أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت يريد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وبين ربه، ويحتمل أن يريد الشيخ عبد القادر بالأنبياء هنا أنبياء الأولياء أصحاب التعريف الإلهي، فتكون تصريحًا منه بأن الله تعالى قد أعطاه ما لم يعطهم، والله أعلم[1].

وبالجملة: قال الشيخ الصيادي: والذي أراه أن ما صدر عن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ونفعنا الله به من الكلمات التي رؤيت بمرأى الشطحات فهي مؤوّلة منصرفة عن مقام الشطح على الغالب.

وأما بعض الكلمات التي لا تقبل التأويلات فهي نسبت إليه، ولم تكن منه ﷺ على الأصح، كالكلمات التي سمَّاها واضعها عليه من الله ما يستحق بالغوثية والمعراجية وأسندها إلى الشيخ ﷺ، وأخذ به نزه الله مقامه إلى مذهب الحلولية وأهل الوحدة المطلقة، فهي بهتان وافتراء محض عليه قُدِّس سرُّه.

وإنه ﷺ من أعظم من تحقق بقدم الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلَّت عليه إرشاداته وكمالاته وعباداته.

وقال الشيخ أبو الهدى أيضًا[2]: وقد كنت رأيت في كتاب: «الفيض الوارد» للعلاَّمة الفاضل السيد محمود أفندي الألوسي المرحوم مفتي العراق عليه رحمة الخلاَّق،

(1) وانظر: تأويل الشطح للشعراني (ص44)، وكشف الأسرار للعطار (ص162) بتحقيقنا.

(2) في قلائد الزبرجد (ص149) بتحقيقنا.

ما نصّه:

قد ذكر الإمام الربّاني مجدد الألف الثاني في مكتوباته، أن القطبية كانت لأئمة أهل البيت أصالة، وصارت من بعدهم وكالة حتى ظهر الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه فأعطيها أصالة، حتى إذا ذهب إلى حظائر القدس أعطيها من جاء بعده وكأنه عنه، فكل الأقطاب من بعده نوابه، ووكلاؤه، ولا يزال الأمر كذلك حتى يظهر المهدي فيعطاها أصالة.

وفي قوله قُدِّس سرُّه:

غَـربَت شـمُوس الأوَّلين وشَمسُنَا   أبـدًا عَلَـى فُلـك العُـلا لا تَغرُب

رمز إلى ذلك انتهى، فليحفظ!

وقال الصيادي أيضًا (ص151): إن السيد الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه، وغمرنا بره قد نال ما نال من القطبية بواسطة جده ﷺ على أتم وجه وأكمل حال.

فقد كان ﷺ من أجلة أهل البيت حسينيًا من جهة الأب، حسنيًا من جهة الأم، لم يصبه نقص: لو أن.. وعسى.. وليت.. ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي يُنكر صحبة الصديق، انتهى.

هذا والله الموفق والهادي سواء الصراط.

بعض المصنفات والمصادر التي ترجمت

لسيدي عبد القادر قدس سره

- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الجيلاني للشطنوفي (طبع دار الكتب العلمية -بيروت- بتحقيقنا).

- الجنى الداني في ذكر نبذة من مناقب عبد القادر الجيلاني، لجعفر بن حسن البرزنجي. (طبع) ومنه مخطوط ببرلين، وليبزج.

- غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر لابن حجر العسقلاني (طبع كلكتا، وبيروت).

- قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر للتاذفي (طبع دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا).

- ذيل قلائد الجواهر في ذكر ذرية سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر (الجيلاني)- مطبعة السعادة 1326هـ.

- نزهة الخاطر في ترجمة الشيخ عبد القادر للملا علي القاري (طبع باستانبول).

- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للبرهان إبراهيم بن علي الديري (بتحقيقنا).

- مفاتيح المطالب ورقية الطالب في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني، للديري. (لعله نفسه الكتاب المتقدم).

- النشر العاطر بمناقب الشيخ عبد القادر لجمال الدين بن أحمد التونسي (طبع بتونس).

- تحذير المنكر للقدرة المعاند القادر المعترض على كلام سيدي الشيخ عبد القادر لابن الرسام الحموي الحنبلي.

- الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر قدس سره لابن الأهدل اليمني.

- روض النواظر في ترجمة الشيخ عبد القادر للشيخ محمد سعيد بن ذريع القادري.

- الصبح السافر عن شمائل الشيخ عبد القادر لعبد الرحمن بن عيسى بن داود السنجاري. مخطوط بدار الكتب المصرية.

- رياض البساتين في مناقب الشيخ عبد القادر لمحمد أمين الكيلاني -طبع بتونس.

- الدر الفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لعبد الرحمن بن السايح.
- خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لليافعي (بتحقيقنا).
- درر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر لابن الملقن.
- مختصر بهجة الأسرار للشيخ عبد العزيز الدريني (مخطوط يسر الله لنا تحقيقه).
- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للشهاب القسطلاني.
- روضة الناظر في درجة الشيخ عبد القادر للمجد الفيروزابادي.
- نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر للإشبيلي.
- نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ أبي محمد عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن هبة الله الهاشمي البغدادي.
- تفريج الخاطر ترجمة الشيخ عبد القادر لمحيي الدين الأربلي (تحت قيد الطبع) بتحقيقنا.
- الشرف الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر لموسى بن محمد اليونيني البعلبكي (مخطوط بدار الكتب المصرية).
- جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر لولده سيدي عبد الرزاق.
- مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني منظومة رائية من البحر الوافر، للمشيشي.
- أنوار الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر لابي بكر عبدالله بن نصر بن حمزة البكري الصديقي البغدادي.
- أنهار المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ غوث الدين محمد بن ناصر الدين محمد المدارسى الهندي.
- نثر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للقاضي محمد بن صبغة الله بدر الدولة المدارسي الهندي.
- تلطيف الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد صادق السعدى الشهابي القادرى المولوي.
- النشر العاطر بمولد الشيخ عبد القادر للشيخ جمال الدين التونسى المالكى.
- السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني لابن عزوز المكي (طبع ببيروت بتحقيقنا).
- الطراز المذهب شرح قصيدة مدح الباز الأشهب للآلوسي المفسر (بتحقيقنا).
- المورد السني في ترجمة سيدنا عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني لمحمد صالح بن أحمد الخطيب القادري الحسني (طبع).
- الباز الأشهب عبد القادر الكيلاني لإبراهيم الدروبي البغدادي (طبع بالعراق).

- الباز الأشهب في حياة الشيخ عبد القادر الكيلاني لأرتين آصادور بيان.
- الكواكب الدرية في المناقب القادرية لمحمد رشيد الرافعي (مطبوع).
- نفحة الرياض العالية في بيان طريقة القادرية لمحمد رفعت بن عبد الله الرومي.
- رسالة في ذرية الجيلانيين القاطنين بحماه لمحمد سعدي بن عمر الأزهري.
-الشيخ عبد القادر الجيلاني وأعلام القادرية لمحمد درنيقة.
-زين المجالس في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني -بلسان أردو - للقاضى محمد يوسف صاحب مركهى الهندي.
-الشراب النيلي في ولاية الجيلي لمحمد بن إبراهيم الحلبي الشهير: بابن الحلبي المتوفى سنة 971 هـ.

وانظر في المصادر:

- الأنساب للسمعاني (415/3).
- المنتظم لابن الجوزي (219/10).
- الكامل لابن الأثير (323/11).
- مرآة الزمان للشيخ اليافعي (964/8).
- العبر للذهبي (175/4).
- دول الإسلام له (3935/1).
- سير أعلام النبلاء له (150/22).
- فوات الوفيات لابن شاكر (273/2).
- الوافي بالوفيات للصفدي (358/1).
- البداية والنهاية لابن كثير (252/2).
- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (290/1).
- الطبقات الكبرى للشيخ الشعراني (108/1).
- شذرات الذهب لابن العماد (198/4).
- كنوز الأولياء ورموز الأصفياء لأبي الليث الزيلي (ص34).
- الأعلام للزركلي (47/4).
- معجم المؤلفين لكحالة (200/2).

نماذج من صور المخطوط

١١

الجزء الاول من تفسير القرآن العظيم لمولانا ذي النور الرباني
والهيكل الصمداني خزانة [illegible] الدفتر النوراني امام
العارفين تاج الدين القطب الكامل
السيد عبد القادر الكيلاني
اعاد الله علينا وعلى المسلمين
من بركاته وبركات [illegible]
[illegible]

تفسير [illegible]

٥٥

صورة عنوان الجزء الأول من مخطوطة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم [illegible] عن أن يمسه [illegible]

وصفاته وتعزز بكبريائه عن أن [illegible] مظاهره ومصنوعاته [illegible] عن أن يكون

[illegible] ووجهة كل قاصد فيا [illegible] وما لا إدراك [illegible] سوى معرفتك

[illegible] الرجال ومن وصف التوحيد والوصال [illegible] عن المعاملة [illegible]

بحبك لنفسك [illegible] إليك [illegible] عليك أنت كما أثنيت

ونصلي على نبيك [illegible] وتضرع إليك

أن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا [illegible] الأمور [illegible] الصدور [illegible]

[illegible] الله تعالى [illegible] ولا [illegible] إليه [illegible] سبحانه

إظهار ما [illegible] ما يريد لا حول ولا قوة

إلا بالله وما بكم من نعمة فمن الله هو يقول الحق وهو يهدي السبيل وما توفيقي إلا بالله عليه

توكلت وإليه أنيب عن جميع ما [illegible] من الأحوال والرجوع [illegible] أن

لا [illegible] بالذوق والوجدان لا [illegible] والبرهان

وبالكشف والعيان لا بالتخمين والحسبان [illegible] أصحاب العقول

المتشبثين بأذيال [illegible] ولا [illegible] المتصوفة المتصفة من الوارد والمورود والمنزهة

عن الواجد والموجود بل [illegible] من جميع الرسوم والعادات المتطهرين

بالظاهر [illegible] وشمول الحالات [illegible] بالقرآن العظيم

[illegible] بالآيات والذكر الحكيم إنه هو الجواد الكريم [illegible]

[illegible] من الفتوحات [illegible]

صورة الصفحة الأول من مخطوطة دار الكتب المصرية

صورة الصفحة الأخيرة من نهاية الجزء الأول من المخطوطة

الجزء الثاني من
تفسير القرآن العظيم لـ
سيدنا عبد القادر كيلاني
قدس سره العزيز
ونفعنا به
آمين

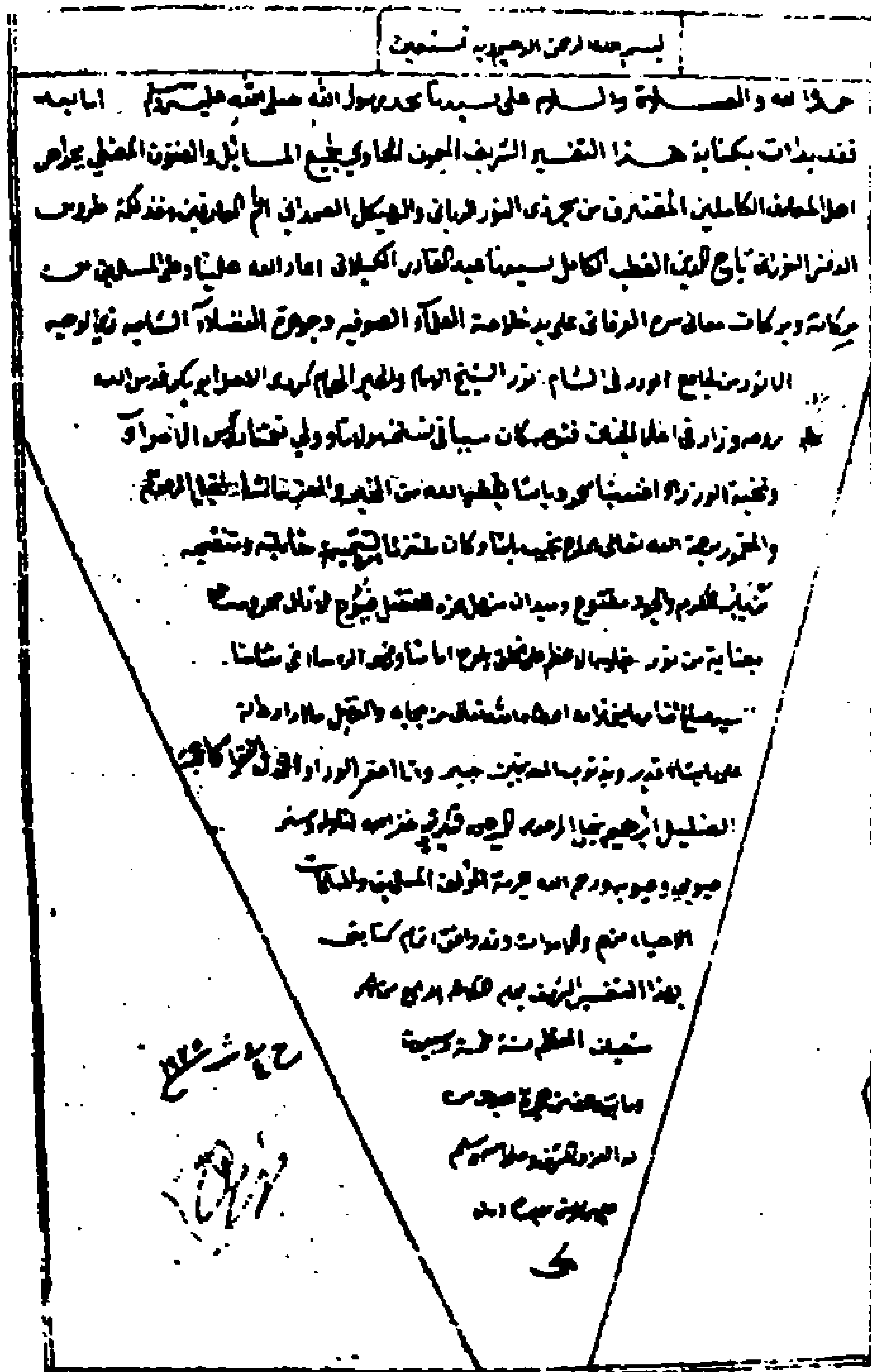
صورة عنوان الجزء الثاني من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة تشتمل لا تخفى على ارباب الهداية الكاملة من الراسخين مقام العز والتمكين
الواصلين الى مقام الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحقي متدرجين من مرتبتي العلم والعين
النهاية بما سبقت لهم العناية الازلية والجذبة الالهية والبشارة المتضمنة لانواع الرموز
والاشارة من قبل الحق الحقيقي بالحقية ان من اهتدى الى التوحيد الذاتي وتمكن على تلك المرتبة
بلا طريان تزلزل وتلوين الابدان بتتميم وبدوام صلوته وميله كون الذات الابدية مهتديا بالها
وباطنه من الميل والالتفات الى ما سواه من الزخرفات الفانية الملهية من الفناء
فيه والبقاء ببقائه والحياة بحياته الا ان يميت نفسه بالموت الارادي من مقتضيات اوصاف
البشرية ولوازم الناسوتية المبعدة عن التقريب بكنف اللاهوت وجوار حضرة الرحموت
الذي لا ينام ولا يموت وبالجملة الابدية لا تخلو عن خلع الثياب البدنية المقتضية
للتعدد والكثرة مطلقا حتى يتصف بالطهارة الحقيقية والطيب المعنوي الحاوية
السنية والسيادة السرمدية وبذلك خاطب سبحانه حبيبه صلى الله عليه و
بعدما يمن باسمه العلي الاعلى بسم الله
الذي تجلى باسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الاشياء
الرحمن لعموم عباده بالرزق الدنيوي الرحيم لخواصهم بالمثوبة العظمى
والدرجة العليا والترقي من ارض الطبيعة الى سماوات الصفات والاسماء
واللحوق بالملأ الاعلى والوصول الى سدرة المنتهى طس يا طالب
السعادة السرمدية والسيادة السنية الابدية تلك الآيات
المتلوة عليك تفخيما لشأنك وتتميما لبرهانك آيات القرآن
اي بعض آيات القرآن المبين المبين لدلائل التوحيد وبينات
الفرقان الفارق بين الباطل والحق من الاحكام وكتاب

مبين

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثاني من المخطوطة



صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، سبحان من تجلى لذاته بذاته، في ملابس أسمائه وصفاته وتعزز بكبريائه عن أن يصفه ألسنة مظاهره ومصنوعاته، جل جناب قدسه عن أن يكون شرعة كلّ وارد ووجهة كل قاصد، فيا عجبًا من المدرك وما إلا إدراك في مقام لا يسع فيه سوى ما عرفناك.

تعالى الحق عن علم الرجال ... وعن وصف التفرق والوصال
إذا ما جل شيء عن خيال ... يجل عن الإحاطة والمثال

بحمدك لنفسك نتوسل إليك، وبشأنك لذاتك نثني عليك، ولا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ونصلي على نبيك المؤيد من عندك لتبليغ سرائر حكمك وأحكامك إلى خلص عبادك ونتضرع إليك ألّا تزيغ قلوبنا بعد أن هديت؛ إذ بيدك أزمة الأمور وبمشيئتك يجري ما في الصدور.

إخواني - أبقاكم الله تعالى - لا تلوموني بما أنا عليه، ولا تعيروني بأمر قصدت إليه؛ إذ من سنته سبحانه إظهار ما خفي في علمه وإبراز ما كمن في غيبه، يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوة إلا بالله، وما بكم من نعمة فمن الله، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب عن جميع ما يعيبني ويريب.

والملتمس من الإخوان، والمرجو من الخلان ألّا ينظروا فيه إلا بعين العبرة لا بنظر الفكرة وبالذوق والوجدان لا بالدليل والبرهان، وبالكشف والعيان لا بالتخمين والحسبان، والله ما هذا الفقير الحقير من أصحاب القيود المتشبثين بأذيال الحجج والحدود، ولا من المتصوفة المتصلفة من الوارد والمورود والمتفوهة من الواجد والموجود، بل من خدام الفقراء المنسلخين عن جميع الرسوم والعادات، المنتظرين بما ظهر لهم من الحق في عموم الأوقات وشمول الحالات، نفعنا الله وإياكم بالقرآن

العظيم وشرح صدورنا وصدوركم بالآيات والذكر الحكيم إنه هو الجواد الكريم، الفتاح العليم، التواب الرحيم.

ثم لما كان ما ظهر فيه من الفتوحات التي فتحها الله الحق ووهبها من محض جوده فسمى من عنده بـ «الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية».

سورة الفاتحة

فاتحة سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لا يخفى على من أيقظه الله تعالى سبحانه من منام الغفلة ونعاس النسيان أن العوالم وما فيها إنما هي من آثار الأوصاف المترتبة على الأسماء الذاتية الإلهية؛ إذ للذات في كل مرتبة من مراتب الوجود اسم خاص وصفة مخصوصة لها أثر مخصوص، هكذا بالنسبة إلى جميع مراتب الوجود، ولو حبة وذرة وطرفة وخطرة، والمرتبة المعبرة عنها بالأحدية الغير العددية، والعماء الذي لا حظ لأولي البصائر، والنهى منها إلا الحسرة والحيرة والوله والهيمان، هي غاية عروج معارج الأنبياء، ونهاية مراتب سلوك الأولياء، وبعد ذلك يسيرون فيه لا بد وإليه إلى أن يستغرقوا فيتحيروا، وإلى أن يفنوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

ثم لما أراد سبحانه إرشاد عباده إلى تلك المرتبة ليتقربوا إليها ويتوجهوا نحوها حتى ينتهي توجههم وتقربهم إلى العشق والمحبة الحقيقية الحقية، المؤدية إلى إسقاط الإضافة، المشعرة للكثرة والاثنينية، وبعد ذلك خلص نيتهم، وصح طلبهم للفناء فيه، نبه سبحانه إلى طريقه إرشادًا لهم وتعليمًا في ضمن الدعاء له والمناجاة معه، مندرجات من نهاية الكثرة إلى كمال الوحدة المفنية لها متيمنًا.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 1-7].

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾[1] المعبر بها عن الذات الأحدية، باعتبار تنزلها عن تلك المرتبة؛ إذ

---

(1) قال نجم الدين كبرى: سُمِّيت الفاتحة لمعنيين: أحدهما: أن الله تعالى بها فتح أبواب خزائن

الحقائق التي ما فتح أبوابها لأحد من العالمين على حبيبه ونبيه ورسوله محمد ﷺ في هذا الكتاب بعد أن أودع فيه حقائق جوامع الكلام التي أنزلها على جميع أنبيائه ورسله - عليهم السلام - يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : 59] والثاني: أنها هي فاتحة فتوحات هذا الكتاب بأن الله تعالى ضمن فيها: حقائق مراتب الربوبية ومراتب العبودية، ومراتب الأمور الدنيوية ومراتب الأمور الأخروية التي هذا الكتاب مشتمل عليها سنجمع دقائق مبانيها فمراتب الربوبية عشرة: أولها: مرتبة الاسم؛ بأن له تعالى أسماء والثاني: الذات. والثالث: الصفات. فهذه المراتب الثلاثة حاصلة في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1]. والرابع: الثناء. والخامس: الشكر. وهما حاصلان في ﴿الْحَمْدُ﴾ [الفاتحة:2]. والسادس: الألوهية بمعنى الخالقية، وهي حاصلة في ﴿لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:2]. والسابع: الربوبية بالوحدانية في الخالقية، وهي حاصلة في ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]. والثامن: الملكية بالمالكية، وهي حاصلة في ﴿مَالِكِ﴾ [الفاتحة: 4]. والتاسع: المعبودية بالألوهية والوحدانية، وهي حاصلة في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4]. والعاشر: الهداية بالحق والإنعام من الأزل إلى الأبد، وهي حاصلة في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]. وكذلك في مرتبة العبودية عشرة: أولها: معرفة الله تعالى بهذه المراتب والثاني: الإقرار بالربوبية لله تعالى وبعبودية نفسه له. والثالث: معرفة النفس وخلوها عن مراتب الربوبية.

والرابع: العلم باحتياجه إلى الله تعالى واستغناء الله تعالى عنه. والخامس: عبادة الله تعالى على ما هو أهله بأمره. والسادس: الاستعانة بالله تعالى في عبوديته بالتوفيق والقدرة والتعلم والإخلاص. والسابع: الدعاء بالخضوع والخشوع والشوق والمحبة، فإنه خُلق لهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:77] وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]. والثامن: الطلب لوجدان الله تعالى وصفاته ونعمه، وهو المقصد الأعلى والمنية القصوى. والتاسع: الاستهداء عنه ليهتدى به وينعم عليه بإرشاده طريق الهداية. والعاشر: الاستدعاء منه بأن ينعم عليه، ويديم نعمته عليه، ولا يغضب فيرده إلى الضلالة والغواية. وهذه المراتب كلها حاصلة في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة فافهم جدًا. ومراتب الأمور الدنيوية أربعة: الملك والملك والتصرف فيهما بالملكية والمالكية، وفاتحة الكتاب مشتملة على هذه المراتب كلها كما أشرنا إلى طرف منها، وسنبينها في تفسيرها إن شاء الله تعالى، ولهذا المعنى أيضًا سُمّيت أم الكتاب؛ لأن أم الكتاب في الحقيقة مصدر حقائق كل دين، وكتاب ومنشأ دقائق كل حكم وخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39] وأما الحكمة في أن الله تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء واختياره على سائر الحروف لاسيما على الألف بأنه أسقط الألف من الـ «اسم» وأثبت مكانه الباء، وقال: ﴿بِسْمِ﴾ فعشرة معانٍ: أحدها: إن في الألف ترفعًا وتكبرًا وتطاولاً، وفي الباء انكسارًا وتواضعًا وتساقطًا، فالألف لما تكبرت وضعها الله تعالى والباء لما تواضعت رفعها الله تعالى كما ورد في الحديث: «من تواضع لله رفعه الله

ومن تكبر وضعه الله» وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: أن يأتي الجبل ليسمعه كلامه فتطاول كل جبل طمعًا أن يكون محلاً لموسى عليه السلام، وتصاغر طور سيناء في نفسه «متى أستحق أن أكون محلاً لقدم موسى عليه السلام في وقت المناجاة؟» فأوحى الله تعالى إلى موسى: «أن ائتِ ذلك الجبل المتواضع الذي ليس يرى لنفسه استحقاقًا» فكذلك حال الباء مع الألف. وثانيها: إن الباء مخصوصة بالإلصاق، وتصل كل حرف بخلاف أكثر الحروف خصوصًا الألف؛ لأن الألف مخصوصة بالقطع وتكون منقطعة عن الحروف كلها، فلما كانت الباء واصلة للرحم في الحروف وصلها الله تعالى، ولما كانت الألف قاطعة الرحم عن الحروف قطع الله معها كما روى عبد الله بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فيما يحكي عن ربه - جل ثناؤه -: «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم شققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» حديث صحيح وثالثها: إن الباء مكسورة أبدًا فلما كانت فيها كسرة وانكسار في الصورة والمعنى وجدت شرب العندية من الله تعالى واسمه دون الألف كما قال تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي». رابعها: إن في الباء وإن كانت في الظاهر تساقط وتكسر، ولكن في الحقيقة رفعة درجة وعلو همة وهي من صفات المصدقين، وفي الألف ضدها أما رفعه درجتها فبأنها أعطيت نقطة وليست للألف هذه الدرجة، وأما علو الهمة فإنه لما عُرضت عليه النقطة ما قبلت إلا واحدًا بسكون حاله كحال موحدٍ لا يقبل إلا واحدًا، وعابدٍ لا يعْبدُ إلا معبودًا واحدًا، وقاصدٍ لا يقصدُ إلا مقصودًا واحدًا ومحبٍ لا يحبُّ إلا محبوبًا واحدًا وخامسها: إن للباء صدقًا في طلب قُربة الحق ونيل المقصود الحقيقي لا يوجد في غيرها من الحروف وذلك أنها لما وجدت درجة حصول النقطة وبلغت هذه المرتبة وضعتها تحت قدمها؛ لصدقها في طلب المقصود الحقيقي والمطلوب الأصلي، وما تفاخرت بها بل أعرضت عنها حتى بلغت مقصدها الأقصى ومقصودها الأعلى، فالباء مخصوصة من سائر الحروف بوضع النقطة تحتها ولا تناقضها الجيم وإن كانت تحتها نقطة واحدة؛ لأن نقطة الجيم في وضع الحروف ليست تحتها بل هي وسطها وكذلك الباء، وإنما موضع النقطة تحتها عند اتصالهما بحرف آخر لئلا تشبها بالخاء والثاء بخلاف الباء فإن نقطتهما موضوعة تحتها وإن كانت مفردة غير متصلة بحرف آخر وسادسها: إن الألف حرف العلة وهو معلول لا يتحمل الحركة، والباء حرف صحيح غير معلول يتحمل الحركة وحالهما كما أن الله عرض الأمانة على أهل السماوات والأرض من الملائكة وغيرهم ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72] فأمر الملائكة بالسجود له فأبى إبليس واستكبر فلعنه الله وأسقطه عن قربته وطرده عن جواره وحضرته، واصطفى آدم من بريته واجتباه لقربته وزاد في علو درجته وهداه إلى محبته ومعرفته. وسابعها: إن الباء حرف تام متبوع في المعنى وإن كان ناقصًا منكسرًا تابعًا في الصورة، والألف حرف ناقص تابع في المعنى وإن كان تامًا متبوعًا في الصورة ألا ترى أنك إذا نظرت إلى صورة وضع الحروف وجدت الألف مقدمًا على الباء متبوعًا له، وإذا قلت الباء وجدت الألف تابعًا وإذا قلت الألف لم تجد للباء تبعية فالابتداء بالمتبوع التام في المعنى والناقص المنكسر التابع في الصورة أولى من الابتداء بمَن هو على مثل هذا وثامنها: إن الباء حرف عامل يعمل ويتصرف في غيره، فظهر لها من هذا

الوجه قدر وقدرة فصلحت للابتداء، والألف ليس بعامل ولا متصرف في غيره فليس له هذا القدر والقدرة، فما صلح للابتداء والاقتداء. وتاسعها: إن الباء حرف في صفاته مكمل لغيره، فكماله في صفاء نفسه بأنه للإلصاق والاستعانة والإضافة، وفيه تواضع إذا لم تقبل من الحركات إلا الكسرة، وله علو وقدر في تحميل الغير بأن يخفض الاسم التابع له ويجعله مكسور الصفات نفسه بحيث كل اسم يجيء خلف الاسم التابع له يكون مكسورًا بالإضافة، والذي يجيء بعده يكون مكسور بالصفة إلى غير النهاية كما دخل على الاسم، وجعل ميم بسم مكسورة، وجعل الهاء من الله مكسورة بالإضافة، والنون من الرحمن مكسورة بالصفة، والميم من الرحيم أيضًا مكسورة بالصفة لو شئت هلم جرًا، فالكامل المكتمل أولى بالإمامة والتقدم من الألف الذي هو ناقص معلوم في نفسه منقص معلل لغيره، فإنه لو دخل في الفعل الماضي يجعله مهموز الفاء معتل العين ناقص اللام. وعاشرها: إن الباء حرف شفوي تفتح الشفة به ما لم تفتح بغيره من الحروف؛ لأن بالميم وإن كان شفويًا لا تفتح الشفة به كما تفتح بالباء حسًا، وكان أول انفتاح فم الذرة للإنسانية في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] بالباء في جواب ﴿بَلَى﴾ فلما كان الباء أول حرف نطق به الإنسان وفتح به فمه، وكان مخصوصًا بهذه المعاني اقتضت الحكمة الإلهية اختيارها من سائر الحروف، فاختارها ورفع قدرها وأعلا شأنها وأظهر برهانها وأعز سلطانها وجعلها مفتتح كتابه ومبتدأ كلامه وخطابه، وأعطاها رفعة الألف وقامته وتقدمه على الحروف وإمامته فحذف الألف في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وطوّل باءه لإظهار تعظيمها وتفخيمها؛ إذ منها مرتبة الألف وأثبتها مكانه وقرنها باسم ذاته وصفاته، وجعلها معدن إشاراته ومنبع كراماته مع بريته. كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: الباء بره بأوليائه، والسين سره مع أصفيائه، والميم منته على أهل ولائه، وأخبرنا المؤيد بن محمد الطوسي عن أبي سعيد الخدري ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم ﷺ أرسلته أمه إلى الكتاب يتعلم فقال له المعلم: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فقال عيسى: وما ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فقال: ما أدري؟ فقال: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم منته» برنا الثعلبي ثنا أبو القاسم بن حسين بن محمد يقول: سمعت أبا بكر محمد بن عمر الوراق يقول في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: إنها روضة من رياض الجنة لكل حرف منها تفسير على حدة: الباء على ستة أوجه: «بارئ» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284] «بصير»، «باسط» رزق خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27] «باعث» الخلق بعد الموت للثواب والعقاب، من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:7]. «بار» بالمؤمنين من العرش إلى الثرى بيانه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور:28]. والسين على خمسة أوجه: «سميع» لأصوات خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى﴾ [الزخرف:80]. «سيد» قد انتهى سؤدده من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:2] «سريع» الحساب مع خلقه من العرش إلى الثرى؛ بيانه: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202]. «سلام» على خلقه من العرش

إلى الثرى، بيانه ﴿السَّلامُ المُؤْمِنُ﴾ [الحشر:23]. «ستار» ذنوب عباده من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:3]. والميم على اثني عشر وجهًا: «ملك» الحق من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿المَلِكُ القُدُّوسُ﴾ [الحشر:23] «مالك» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾ [آل عمران:26] «منان» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات:17] «مجيد» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿ذُو العَرْشِ المَجِيدُ﴾ [البروج: 15]. «مؤمن» أمّن خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:4]. «مهيمن» اطلع على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:23]. «مقتدر» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ [الكهف:45]. «مقيت» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾ [النساء:85]. «مكرم» أولياته من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]. «منعم» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20]. «مفضل» عما خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:243]. «مصور» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24]. قال الشيخ المحقق مصنف الكتاب رحمه الله تعالى: الباء بلاؤه لأنبيائه وأحبائه، والسين سلامه لأوليائه وأصفيائه، والميم معروفه مع أهل ولائه في ابتلائه ومعرفة مبتلاه بالابتلاء، وإنه لأوليائه وأصفيائه ومنته على أهل سلامته بآلائه ونعمائه وسلامة القلب وصفائه. قال رحمه الله تعالى: قيل ما المناسبة في حمل هذه الحروف على هذه المعاني؟ قلنا: إن مناسبة حمل الباء على البلاء في ابتداء كلامه وابتداء خطابه أن الإنسان في أصل الجبلة وبدء الخلقة خلق مجبولاً على الابتلاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:2] إنما بنى أمر خلقته على الابتلاء؛ لأنه خلق للمحبة والولاء، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، والمحبة مظنة الابتلاء كما أخبر النبي ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا ابتلاه وإذا أحبه حبًا شديدًا اقتناه فإن صبر ورضي اجتباه، قيل: يا رسول الله و ما اقتناه؟ قال: لا يبقي له مالاً وولدًا**» وإن مناسبة حمل السين على السلامة في المرتبة الثانية من افتتاح الكتاب، فلمعنيين: أحدهما: أن السلامة مرتبة لأهل البلاء؛ لأن البلاء على نوعين بلاء المحبة وبلاء النعمة، فبلاء المحبة على نوعين: بلاء المحبة وبلاء المحنة، وبلاء النعمة على نوعين: بلاء الرحمة وبلاء النقمة، فأما بلاء المحبة فمخصوص بالأنبياء والأولياء كما قال رسول الله ﷺ: «**إن البلاء موكل بالأنبياء والأولياء ثم بالأمثل فالأمثل**» فمنهم من يختص ببلاء المحنة كما كان حال أيوب عليه السلام، ومنهم من يختص بلاء النعمة كما كان حال سليمان عليه السلام واعلم أن الطريق إلى الله تعالى على جادة المحنة أقرب من جادة المنحة؛ لأن غبار بلاء المحنة بناء خُلّص الأنبياء والأحباء أبرز، فنزه النبوة والمحنة عن تدنس غش معدن الإنسانية، ويموت الحسية الحيوانية. كما جاء البلاء

للولاء كاللهب للذهب، فأهل المحنة مجذوبون بجذبة البلاء واصلون إلى المبلي غير منقطعين في رتبة البلاء بالغون إلى كعبة وصال المحبوب ألا ترى أن أيوب عليه السلام كيف وصل بجذبة ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83]، إلى مشاهدة كمال ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، وذلك لأنه تمسك بيد الصبر على جذبة الضر فمسه الضر إلى الضار، فأنسته لذة مشاهدة الضار عن شهود ألم الضر، فأرى أن الضر كان جذبة فوصله إلى الضار فعرفها أنها رحمة في صورة بلاء المحنة رحمه بها محبوبه وخلصه من حبس وجوده، فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83]، أي: أفنيتني عني بضاريتك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، الواو فيه واو الحال أي: في هذا الحال أرحم علي من جميع الراحمين؛ لأن رحمة الرحماء على المرحومين بالنعمة، والفتحة في الظاهر لدفع الفقر والمرض وذلك أيضًا بلاء بلاء النعمة لبعضهم رحمة وهم أهل الوفاء، ولبعضهم نقمة وهم أهل الجفاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7]. فأهل الوفاء: أوفوا بما عاهدوا الله على ترك الشهوات النفسانية والزينة الدنيوية حتى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111]. وأهل الجفاء: نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا استعدادهم بالركون إلى زينة الدنيا، واتباعهم الهوى أولئك هم الخاسرون؛ فصار عليهم النعمة في الظاهر نقمة في الحقيقة فالنعمة توجب الإعراض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء:83]. مس الضر يوجب الإقبال إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:51] فأنت رحمة علي بدفع النعمة والصحة على أنها مظنة الإعراض، وأفنيتني بك عني فلما جاوز الضر حده آل إلى ضده، فما أبقى الضر مني شيئًا وما بقي الضر، كالنار إذ لم تبق من الحطب شيئًا لا تبقى النار، فإذا لم يبق الضر بالغي إلا الرحمة، فبنظر الرحمة نظرت إليك فرأيتك رحمة أرحم الراحمين؛ فإذا تحققت هذا فاعلم أن المرتبة الثانية من بلاء المحنة لأهل السلامة كما كان حال أيوب وإبراهيم ويونس وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام - في المرتبة الثانية السلامة. وأما المعنى الثاني: في حمل السين على السلامة في المرتبة الثانية فهو إنا ذكرنا أن الباء في افتتاح الكتاب إشارة إلى البلاء لأهل الولاء، وقررنا أن الإنسان لا يخلو من البلاء بحال، وأثبتنا أن البلاء على نوعين بلاء المحبة وبلاء النعمة، فبلاء النعمة ما يكون مع سلامة الدين والدنيا لأهلهما، فالسين بعد باء البلاء إشارة إلى أهل الصفاء، كما ذكر فإن قيل ما الفرق بين بلاء المحنة وبلاء النعمة التي هي الرحمة وكلاهما السلامة في الدنيا والآخرة؟ قلنا الفرق بينهما من وجهين: أحدهما: أن بلاء المنحة وإن كانت السلامة ولكن يخلوها صاحبه من المحنة. إمّا في ابتداء أمره: كما كان حال إسماعيل ويوسف - عليهما السلام - ابتلاهما الله تعالى بالمحنة في حال صادتهما فخلصهما منها بعد ذلك وأعطاهما النبوة والملك كما حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:101]. إمّا في أثناء أحواله: كما كان لإبراهيم عليه السلام ابتلاه الله تعالى بذبح ولده ورميه في المنجنيق إلى نار نمرود حتى خلصه الله من ذبح الولد بعد التسليم عند الامتحان كقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:13]، وكقوله ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:17]، وخلصه عن النار بقوله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]. وإما في آخر عهده: كما كان حال زكريا ويحيى وجرجيس - عليهم السلام - كانت فتنتهم في آخر عمرهم، ولهذا كان بلاء المحنة وبلاء المنحة مخصوصين بالأنبياء والأحباء؛ لأنهما فرع بلاء المحبة وهم مخصوصون بالمحبة وأهل المحبة لا ينفكون عن المحنة والمنحة، ولا يخلو أهل المنحة في بعض الأحوال من المحنة عن المنحة وإن كان الغالب على أحوالهم المحنة أو المنحة بخلاف أهل بلاء النعمة، فإنه يمكن أهل بلاء الرحمة منهم أن يستديم نعمته في سلامة الدين والدنيا، ولهذا أثبتناهم في المرتبة الثانية بإشارة السين السلامة لهم وهم الأولياء والأصفياء مع أنه يمكن أن يصيب بعضهم المصائب والمحن نادرًا. الفرق الثاني: أن سلامة أهل بلاء المنحة غير سلامة بلاء أهل بلاء النعمة، وإن كانت سلامة بلاء النعمة داخلة في سلامة بلاء المنحة وهما شريكان في اسم السلامة لا في المعنى؛ لأن سلامة بلاء النعمة راجعة إلى البدن والمال والأولاد والأقرباء والأحباء في الدنيا والآخرة راجعة إلى عبور الصراط والنجاة من النار والدخول في دار السلامة كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر:46]. وسلامة أهل بلاء المنحة وهم أهل المحبة من الأنبياء والأولياء في العبور من النعمة إلى المنعم ومن البلاء إلى المبلي ومن دار السلام كما قال تعالى في شرح عبورهم عن الجنة إلى مليك الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54-55] أي: في عبورهم في جنات ونهر إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، والإشارة في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] لهذه السلامة مودع في ترك سلامة أهل بلاء النعمة، وإنما قوله تعالى للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] كان بعد أن ألقي إبراهيم في النار لتخليص إبريز الخلة عن دنس التفات لغير الخليل، وإن كان إبراهيم عليه السلام في بلء مقام الخلة نظر إلى غير خليله بنظر العداوة، وقال ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء :77]، وأعرض عن الأغيار وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79] وسعى على قدم العبودية إلى حضرة الربوبية ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]. واعلم أن الطريق إليه بغير هدايته منسد، فأحال بعد إقامته شروط العبودية هداية الربوبية عليه قال سيهدين ليهديه الله إليه بقدم الوصال كما هداه بنظر التوحيد متى رأى القمر بازغًا قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، إلى أن قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، إني وجهت وجهي لأن الهداية بالنظر والتوحيد هداية أهل البداية والبداية بالقدم والوصول إلى الوحدة هداية أهل النهاية، وبين النظر والقدم مسالك ومهالك كثيرة وقد انقطع فيها خلق عظيم من العلماء المتقين، وأعزة السالكين وهلك فيها جمهور الحكماء المتفلسفين اللهم إلا عبادك منهم المخلصين المجذوبين بجذبات المحبة من الأنبياء والمرسلين وأوليائك المحفوظين على الصراط المستقيم والدين القويم كما خلصت بفضلك

ورحمتك خليلك عليه السلام حين ابتليته بالإلقاء بالنار ليتخلص بالكلية من آفة التفاته كما تخلص من آفة الالتفات إلى المال والولد فلما ألقي في النار أدركته العناية الأزلية.
وخلصت إبريز خلته عن آفة الالتفات إلى غير خليله من نفسه ومن الوسائط كلها حتى جبريل حين تلقاه في الهواء ليمتحن إبريز خلته بمحك هل لك من حاجة، فيرى هل هو صاف خالص أم فيه بقية روحانية بعد بذل الجسم والروح تتعلق بالمناسبة الروحانية بجبريل عليه السلام فاشتعلت نار الخلة بكبريت الغيرة وأحرقت بقيته الغيرية، فاشتعلت منها شعلة أما إليك فلا فرجع جبريل عليه السلام بخفي حنين، فعبر عن مقاطع الوسائط بدلالية نور الخلة في خفاء العناية وصل الخليل إلى الجليل بالسلامة، فالنار كانت واسطة تخليصه وتمحيصه بترك سلامة أهل بلاء النعمة لنيل سلامة أهل بلاء المحنة وهي الوصول إلى المليك بالسلام. وكذلك الفرق بين بلاء أهل المحنة وبين بلاء أهل النعمة أن بلاء المحنة يكون الامتحان لأحباء في دار الدنيا كما كان محنة أيوب عليه السلام فلا يدفع أنها تنقضي في دار الدنيا صورة ومعنى وأما تنقضي في الدنيا بالمعنى وبالموت صورة بخلاف بلاء النعمة فإنه إما يدفع في الدنيا والآخرة صورة ومعنى وإما أن يكون في الدنيا بالمعنى لا بالصورة بأن يكون في التنعم ويكون في الآخرة بالصورة والمعنى. وأما مناسبة حمل الميم في المرتبة الثالثة من حروف بسم على معروفه مع أهل بلائه وولائه في أثناء ابتلائه، وعلى منته على أهل سلامة في الابتلاء بآلائه ونعمائه فظاهر، فإنه لو لم يكن معروفه ومع أهل بلائه بنعمة الصبر لزال قدمهم عن جادة العبودية ورؤية رحمة الربوبية في عين البلاء وانقطع نظريهم بحجاب البلاء عن الجمع كما كان في حق الأكثرين من المخذولين. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:16] فرؤية الإهانة في البلاء من الخذلان، والضر ليس من شأن الإنسان لأن الإنسان خلق من عجل، والصبر من الله تعالى كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127] فالبلاء لأهل الولاء المنحة نعمة الصبر كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة:155]، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، أي: بشر بأن هذا البلاء ليس للإهانة كما كان في حق أهل الخذلان بل للإعانة على نيل درجة الصبر ليستحقوا به الصلاة والرحمة والهداية من الله تعالى، وإن أيوب عليه السلام وجد مرتبة الصابرين ونعم العبد بمعروف الصبر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:44]، وكذلك لو لم تكن منته على أهل السلامة في بلاء النعمة المنحة الشكر ورؤية النعم من المنعم زال قدمهم عن جادة كما كان حال قارون وفرعون انقطع نظرهما لحجاب البلاء في النعمة عن المنعم قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:78]. وقال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: 51]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، وهذه الآفة مذكورة في جبلة كل إنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6 - 7]، وإنما تخلص من هذه الورطة من تخلص بمنته عليه في عطية نعمة الصبر والشكر، فبقوة الصبر لا ينفق نعمة الله في معصية، وبقوة الشكر ينفقها في سبيل الله تعالى ويستعين بهما على طاعته ليصفو ويسلم قلبه عن

لا يمكن التعبير عنها باعتبار تلك المرتبة أصلاً، وباعتبار شمولها وإحاطتها جميع الأسماء والصفات الإلهية المستندة إليها المظاهر كلها المعبر عنها عند أرباب المكاشفة بالأعيان الثابتة، وفي لسان الشرع باللوح المحفوظ والكتاب المبين

كدورات الطغيان المنتهي عن الاستغناء، ويتنور بنور الشكر والصبر، فيرى بصر بصيرته بذلك النور نعمة الشكر من الشكور ونعمة الصبر من الصبور وهو الله تعالى، فبقدر الصبر والشكر يصل السالك إلى الصبور والشكور كما قيل: خطوتان وقد وصلت، وإن سليمان ﷺ نال مرتبة العبدية بامتنان نعمة الشكر ودعوة ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾ [ص:35] كانت لاستكمال نعمة الشكر، وإنما أيوب وسليمان - عليهما السلام - اشتركا في نيل مقام ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ لأن كل واحد منهما كان مخصوصًا بالاتصاف بصفة من صفات الله وهي البصير والشكور، فلمّا اشتركا في الاتصاف بصفات الله تعالى اشتركا في مقام نعم العبدية، والله أعلم.

ثم اعلم أن في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أربع مراتب: الاسم والذات وصفة الجلال وصفة الجمال، وهذه هي مراتب الموجودات كلها فإنها أربعة أقسام: الألوهية والروحانية والجسمانيات والحيوانيات، وهي كل ذي روح، ففي الباء في أول هذه المراتب الأربع إشارة إلى أن وجود هذه العوالم لي وليس لغيري وجود حقيقي إلا بالاسم، فللعالم أعني ما سوى الله تعالى بالاسم والمجاز وجود لا بالمعنى والحقيقة، وإلى هذا إشارة بعضهم بقوله: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه، وأوضح من هذا قول بعضهم: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله قبله. وصرّح النبي ﷺ بقوله: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله»، حديث متفق على صحته، فتحقيق ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أن وجودي بذاتي وهو الله وصفاتي كلها التي هي إمّا من قبيل الجلال أو من قبيل الجمال، فبذاتي قائمة وما سواي وهو العالم اسم موجود بإيجادي وقائم بقيوميتي ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، فيه أخرى وهي أن الخلائق محجوبون عن الله تعالى بحجاب أسماء أنفسهم وحجاب أسماء ما سواهم من العالم، وقد تصور والكل اسم مسمى فوقعوا في نية الشرك والتفرقة، وتاهوا في بيداء الضلالة وزلت قدمهم عن الصراط المستقيم وجادة التوحيد والوحيد والوحدانية، فلمّا عبروا بقدم الصدق في المتابعة عن حجب الأسماء وقطعوا مفاوزها بتعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] الذي كان آدم مخصوصًا به، وعلموا أن لا طائل تحتها عرفوا أن هذه الأسماء على الأشياء كلها ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم :23]. ولكشف هذا القناع كان دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الأشياء كما هي» لأن كل شيء بحسب نظر المظاهر أسماء بإزاء معنى يلائمه، كما سمي آدم لأنه من أديم الأرض هذا الاسم يلائم لآدم ﷺ في الظاهر، وله في الحقيقة اسم آخر بإزاء اسم حقيقي، فلما أودع الله تعالى فيه ما يلائم لتلك الحقيقة وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30] فسماه بمناسبة المعنى الحقيقي المودع خليفة.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ المعبر بها عن الذات الأحدية باعتبار تجلياتها على صفحات الأكوان وتطوراتها في ملابس الوجوب والإمكان، وتنزلاتها عن المرتبة الأحدية إلى مراتب العددية، وتعيناتها بالتشخصات العلمية والعينية وانصباغها بالصبغ الكيانية ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1] المعبر بها عن الذات الأحدية باعتبار توحيدها بعد تكثيرها، وجمعها بعد تفريقها، وطيّها بعد نشرها، ورفعها بعد خفضها، وتجريدها بعد تقييدها.

﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الشامل لجميع المحامد والأثنيّة الصادرة عن ألسنة ذرائر الكائنات المتوجهة نحو مبدعها طوعًا، المعترفة بشكر منعمها حالاً ومقالاً، أزلاً وأبدًا، ثابتةً مختصة ﴿لِلَّهِ﴾ أي: للذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات المظهرة المربية للعوالم، وما فيها بأسرها لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] [1] ولولا تربيته إياها وإمداده لها طرفة لفني العالم دفعة.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ المبدئ المبدع لها في النشأة الأولى بامتداد ظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مرآة العدم المنعكسة منها العالم كله وجزءه، شهادته وغيبه، أولاه وأخراه وأجزاءه بلا تفاوت ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:3] المعيد للكل في النشأة الأخرى بطيّ سماء الأسماء وأرض الطبيعة السفلى إلى ما منه الابتداء وإليه الانتهاء لكونه:

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4] والجزاء المسمى في الشرع بيوم القيامة، والطامة الكبرى المندكة فيها الأرض والسماء المطويات فيها سجلات الأولى

---

(1) اعلم أنه لم يقل تعالى: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلي الألوهية دون العكس؛ فإن الألوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال ترتيبهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الألوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن.
والحاصل: إن الألوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم؛ فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الألوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

والأخرى في الأرض؛ إذ فيها ارتجت الآراء والأفكار وارتفعت الحجب والأستار، واضمحلت أعيان السوى والأغيار، ولم يبق إلا الله الواحد القهار، ثم لما تحقق العبد في هذا المقام، ووصل إلى هذا المرام، وفوض الأمور كلها إلى الملك العلام القدوس السلام حق له أن يلازم ربه ويخاطب معه بلا ستر ولا حجاب، تتميمًا لمرتبة العبودية إلى أن يرتفع كاف الخطاب عن البين، وينكشف الغين عن العين، وعند ذلك قال لسان مقاله مطابقًا بلسان حاله:

﴿إِيَّاكَ﴾ لا إلى غيرك؛ إذ لا غير في الوجود معك ﴿نَعْبُدُ﴾ نتوجه ونسلك على وجه التذلل والخضوع؛ إذ لا معبود لنا سواك ولا مقصد إلا إياك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] أي ما نطلب الإعانة والإقدار على العبادة لك إلا منك؛ إذ لا مرجع لنا غيرك(1).

﴿اهْدِنَا﴾ بلطفك ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] الذي يوصلنا إلى ذروة توحيدك.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من المترددين الشاكين، المنصرفين بمتابعة العقل المشوب بالوهم عن الطريق المستبين.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7] بتغريرات الدنيا الدنية، وتسويلات الشياطين عن

---

(1) قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: بمعونتك نعبدك، لا بحولنا وقوّتنا، وإيّاك نستعين بتمام عبوديتك، ودوام سترك علينا حتى نرى فضلك، ولا ننظر إلى أعمالنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: إيّاك نعبد لا برؤية المعاملات، وطلب المكافآت، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعينك بمزيد العنايات، بنعت العصمة عن القطيعة، وأيضًا: إيّاك نعبد بالمراقبة، وإيّاك نستعين بكشف المشاهدة وأيضًا: إيّاك نعبد بعلم اليقين، وإيّاك نستعين بحق اليقين، وأيضًا: وإيّاك نعبد بالغيبة، وإيّاك نستعين بالرؤية، وقيل: إيّاك نعبد بقطع العلائق والأغراض، وإيّاك نستعين على ثبات هذا الحال بك ولا بنا، وقيل: إيّاك نعبد بالعلم، وإيّاك نستعين بالمعرفة، وقيل: إيّاك نعبد بأمرك، وإيّاك نستعين علينا بفضلك قال سهل: إيّاك نعبد بهدايتك، وإيّاك نستعين بكلاءتك على عبادك، قال الأنطاكي: إنما يُعبد الله على أربع: على الرغبة، والرهبة، والحياء، والمحبّة فأفضلها المحبة التي يليها الحياء، ثم الرهبة، ثم الرغبة، وقال الأستاذ: العبادة بستان القاصدين، ومستروح المريدين، ومرتع الأنس للمحبّين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قرة أعينهم، وفيها مسرّة قلوبهم، ومنها راحة أبدانهم.

منهج الحق ومحجة اليقين.

آمين: إجابة منك يا أرحم الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - يسّر الله أمرك - أن تتأمل في الأبحر السبعة المشتمل بهذا السبع المثاني في القرآن العظيم، المتفرعة على الصفات السبع الذاتية الإلهية، الموافقة للسماوات السبع والكواكب السبعة الكونية، وتدبر فيها حق التدبر، وتتصف بما رمز فيها تتخلص من الأودية السبعة الجهنمية، المانعة من الوصول إلى جنة الذات المستهلكة عندها جميع الإضافات والكثرات ولا يتيسر لك هذا التأمل والتدبر إلا بعد تصفية ظاهرك بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المستنبطة من الكلم القرآنية، وباطنك بعزائمه وأخلاقه ﷺ المقتبسة من حكمها المودعة فيها، فيكون القرآن الجامع له خلق النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا، المورث له من ربه المستخلف له.

فالقرآن خلق الله المنزل على نبيه، من تخلق به فاز بما فاز، لذلك قال ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»[1] وهي التي ذكرت في القرآن، والفاتحة منتخبة من جميع القرآن على أبلغ وجه وأوضح بيان، من تأمل فيها نال ما نال من جميع القرآن، لذلك فرض قراءتها عند الميل والتوجه إلى الذات الأحدية المعبر عنه بلسان الشرع، بالصلاة التي هي معراج أهل الاتجاه، كما قال ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»[2]، وقال أيضًا: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[3].

فعليك أيها المصلي المتوجه إلى الكعبة الحقيقية والقبلة الأصلية أن تواظب على الصلوات المفروضة المقربة إليها، وتلازم الحكم والأسرار المودعة في تشريعها، بحيث إذا أردت الميل إلى جنابه والتوجه نحو بابه لا بد لك أولاً من التوضؤ والتطهر عن الخبائث الظاهرة والباطنة كلها، والتخلي عن اللذات والشهوات برمتها إلى حيث

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (354/6).

(2) ذكره النيسابوري في تفسيره (53/1).

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (372/2 ، رقم 2262)، قال الهيثمي (115/2): فيه الحسن بن يحيى الخشني ضعفه النسائي، والدارقطني ووثقه دحيم وابن عدي وابن معين في رواية.

تيسر لك التحريمة بلا وسوسة شياطين الأهواء المضلة.

فإذا قلت مكبرًا محرمًا على نفسك جميع حظوظك من دنياك: الله أكبر، لا بد لك أن تلاحظ معناه بأنه: الذات الأعظم الأكبر في ذاته لا بالنسبة إلى الغير؛ إذ لا غير، وافعل هذا للصفة لا للتفضيل وتجعلها نصب عينيك وعين مطلبك ومقصدك.

وإذا قلت متيمنًا متبركًا: بسم الله، انبعثت رغبتك إليه ومحبتك له.

وإذا قلت: الرحمن، استنشقته من النفس الرحماني ما يعينك على الترقي نحو جنابه.

وإذا قلت: الرحيم، استروحت بنفحات لطفه ونسمات رحمته، وجئت بمقام الاستئناس معه سبحانه بتعديد نعمه على نفسك.

وإذا قلت شاكرًا لنعمه: الحمد لله، توسلت بشكر نعمه إليه.

وإذا قلت: رب العالمين، تحققت بإحاطته وشموله وتربيته على جميع الأكوان.

وإذا قلت: الرحمن، رجوت من سعة رحمته وعموم إشفاقه ومرحمته.

وإذا قلت: الرحيم، نجوت من العذاب الأليم الذي هو الالتفات إلى غير الحق، ووصلت إليه بعدما فصلت عنه بل اتصلت.

وإذا قلت: مالك يوم الدين، قطعت سلسلة الأسباب مطلقًا، وتحققت بمقام الكشف والشهود وحين ظهر لك ما ظهر، فلك أن تقول في تلك المقام والحالة بلسان الجمع: إياك نعبد، بك مخاطبين لك وإياك نستعين بإعانتك مستعينين منك.

وإذا قلت: اهدنا الصراط المستقيم، تحققت بمقام العبودية.

وإذا قلت: صراط الذين أنعمت عليهم[1]، تحققت بمقام الجمع.

---

(1) قال البقلي: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: باليقين التام، والصدق على الدوام، وإطلاعهم على مكائد النفس والشيطان، وكشف غرائب الصفات وعجائب أنوار الذات، والاستقامة في جميع الأحوال وبسعادة الهداية إلى القربة بالعناية الأزلية، وهم الأنبياء والأولياء والصدِّيقين، والمقرَّبون والعارفون والأمناء والنجباء قال أبو عثمان: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: بأن عرَّفتهم مهالك الصراط، ومكائد الشيطان وجناية النفس، وقال بعضهم: أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة، وقال جعفر بن محمد: أنعمت عليهم بالعلم بك، والفهم منك، وقيل: أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم دون النعمة، وقيل: أنعمت عليهم بمخالفة النفس والهوى، والإقبال عليك بدوام الوفاء، وقال حميد: فيما قضيته من المضار والمسار، وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى يُحرسوا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس، ومخاييل الظنون، ويقال: صراط من أنعمت عليهم بالنظر =

وإذا قلت: غير المغضوب عليهم، استوحشت من سطوة سلطنة صفاته الجلالية.

وإذا قلت: ولا الضالين، خفت من الرجوع بعد الوصول.

وإذا قلت: آمين، أمنت من الشيطان الرجيم.

فلك أن تصلي على الوجه الذي تلي، حتى تكون لك صلاتك معراجًا إلى ذروة الذات الأحدية ومرقاة إلى السماء السرمدية، ومفتاحًا للخزائن الأزلية الأبدية، وذلك لا يتيسر إلا بعد الموت الإرادي من مقتضيات الأوصاف البشرية، والتخلق بالأخلاق المرضية والخصال السنية، ولا يحصل لك هذا الميل إلا بعد العزلة والفرار عن الناس المنهمكين في الغفلة، والانقطاع عنهم وعن وسوستهم وعاداتهم المرة، وإلا فالطبيعة سارقة والأمراض سارية والنفوس آمرة بالهوى، مائلة عن المولى، عصمنا الله من شرورها وخلصنا من غرورها بمنه وجوده.

إليك، والاستعانة بك، والتبرّي من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار والعلم، بتوحدك فيما قضيته من المسار والمضار، قيل: صراط من أنعمت عليهم، من تأدبوا بالخُلوة عند غليات بوادي الحقائق؛ حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يخلوا بشيء من أمرِ الهيبة، ولم يصنعوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة، وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ بل حفظتَ عليهم آداب الشريعة وأحكامها الشرع، وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى لم تطفئ شموس معارفهم، أنوار وَرَعِهم، ولم يضيفوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

فاتحة سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على السالكين المندرجين في مسالك التحقيق، المتعطشين لزلال التوحيد أن الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق؛ إذ ما من ذرة من ذرائر العالم إلا وله طريق منها، وأقوم الطرق وأحسنها وأوضح السبل وأبينها، والذي اختاره الله سبحانه لنبيه ﷺ ولورثته من الأولياء - زاد الله فتوحهم - في كتابه المسور بالسور المفصلة بالآيات، المنقسمة بالمحكمات والمتشابهات المشتملة كل سورة منها على أحكام الشريعة وآداب الطريقة وأسرار الحقيقة، فلا بد للخائض في لجج بحار القرآن، والغائص فيها لاستخراج فرائد اليقين والعرفان، أن يتأمل كل سورة منها على وجه ينكشف له ما فيه من الأسرار بقدر استعداده وقابليته، وإلا فغوره بعيد وقعره عميق.

منها: سورة البقرة المشتملة أوائلها على الأحكام الشرعية المهذبة للظاهر عن الرذائل الرديئة والخصائل الغير المرضية، وأواسطها على آداب الطريقة من الخصائل الحميدة والأخلاق المرضية المصفية للباطن عن الكدورات البشرية، وأواخرها على التوحيد الذاتي الخالص عن شوب الكثرة وشين الثنوية وإنما خص ﷺ بأواخر هذه السورة؛ لأنه ﷺ هو المظهر للتوحيد الذاتي، بخلاف الأنبياء السالفة - صلوات الله عليهم - فإنهم لا يظهرون؛ لذلك ختم ببعثته ﷺ أمر النبوة والرسالة، وانسد طريق الوحي والإنزال.

ثم لما أراد سبحانه إرشاد عباده إلى سبيل الهدى وإبعادهم عن طريق الضلال، أنزل عليهم هذه السورة الجامعة لها، فقال متيمنًا متبركًا على وجه التعليم، مخاطبًا لنبيه المبعوث على الخلق العظيم:

سورة البقرة

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد المستغني بذاته عن جميع الأكوان، المتلبس

بواسطة أسمائه وصفاته ملابس الحدوث والإمكان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده الذين هم مظاهر أسمائه وصفاته، برش نوره عليهم ومد ظله إليهم في معاشهم ﴿الرَّحِيمِ﴾[1] لهم في معادهم ينجيهم عن ظلمة الإمكان المعبر بلسان الشرع بالسعير والجحيم ويهديهم إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ [البقرة:1-5].

﴿الـم﴾[2] [البقرة: 1] أيها الإنسان الكامل، اللائق لخلافتنا، الملازم لاستكشاف

---

(1) ﴿الرَّحِيمِ﴾ في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمُّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا، لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها، وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فيكون الدنيا باطنه، والآخرة ظاهر؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

(2) وفي موضع خبر (الم): و(لا ريب) جملة تحتمل الاستئناف ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وأن تكون في موضع خبر لذلك، والكتاب صفة أو بدل أو عطف أو خبر بعد خبر، إذا كان الكتاب خبراً، وقلت بتعدد الأخبار التي ليست في معنى خبر واحد، وهذا أولى بالبعد لتباين أحد الخبرين؛ لأن الأول مفرد والثاني جملة، وأن يكون في موضع نصب؛ أي: مبرأ من الريب ، وبناء (ريب) مع (لا) يدل على أنها العاملة عمل (إن) فهو في موضع نصب ولا وهو في موضع رفع بالابتداء فالمرفوع بعده على طريق الإسناد خبر لذلك المبتدأ فلم تعمل حالة البناء إلا النصب في الاسم فقط هذا مذهب سيبويه، وأما الأخفش فذلك المرفوع خبر لـ (لا) فعملت عنده النصب والرفع وتقرير هذا في كتب النحو، وإذا عملت عمل إن أفادت الاستغراق فنفت هنا كل ريب، والفتح هو قراءة الجمهور، وقرأ أبو الشعثاء : (لا ريب فيه) بالرفع ، وكذا قراءة زيد بن علي حيث وقع ، والمراد أيضاً هنا الاستغراق، لا من اللفظ بل من دلالة المعنى؛ لأنه لا يريد نفي ريب واحد عنه ، وصار نظير من قرأ : (فلا رفث ولا فسوق) بالبناء والرفع ، لكن البناء يدل بلفظه على قضية العموم ، والرفع لا يدل لأنه يحتمل العموم ، ويحتمل نفي الوحدة ، لكن سياق الكلام يبين أن المراد العموم ، ورفعه على أن يكون ريب مبتدأ وفيه الخبر ، وهذا

ضعيف لعدم تكرار (لا) أو يكون عملها إعمال ليس فيكون فيه في موضع نصب على قول الجمهور من أن (لا) إذا عملت عمل (ليس) رفعت الاسم ونصبت الخبر ، أو على مذهب من ينسب العمل لها في رفع الاسم خاصة، وأما الخبر فمرفوع؛ لأنها وما عملت فيه في موضع رفع بالابتداء كحالها إذا نصبت وبني الاسم معها، وذلك في مذهب سيبويه، وسيأتي الكلام مشبعاً في ذلك عند قوله تعالى : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) وحمل لا في قراءة (لا ريب) على أنها تعمل عمل (ليس) ضعيف لقلة إعمال لا عمل (ليس) فلهذا كانت هذه القراءة ضعيفة، وقرأ الزهري، وابن محيصن، ومسلم بن جندب ، وعبيد بن عمير ، فيه : بضم الهاء ، وكذلك إليه وعليه وبه ونصله ونوله وما أشبه ذلك حيث وقع على الأصل، وقرأ ابن أبي إسحاق: فهو بضم الهاء ووصلها بواو ، وجوزوا في قوله : أن يكون خبراً لـ (لا) على مذهب الأخفش، وخبراً لها مع اسمها على مذهب سيبويه ، أن يكون صفة والخبر محذوف ، وأن يكون من صلة ريب بمعنى أنه يضمر عامل من لفظ ريب فيتعلق به ، إلا أنه يكون متعلقاً بنفس لا ريب ، إذ يلزم إذ ذاك إعرابه ، لأنه يصير اسم لا مطولاً بمعموله نحو لا ضارباً زيداً عندنا ، والذي نختاره أن الخبر محذوف؛ لأن الخبر في باب (لا) العاملة عمل (إن) إذا علم لم تلفظ به بنو تميم ، وكثر حذفه عند أهل الحجاز ، وهو هنا معلوم ، فاحمله على أحسن الوجوه في الإعراب ، وإدغام الباء من (لا ريب) في فاء فيه مروي عن أبي عمرو ، والمشهور عنه الإظهار ، وهي رواية اليزيدي عنه. [انظر «تفسير البحر المحيط»(30/1)].

وقال نجم الدين: يحمل أن يكون ﴿الم﴾ وسائر الحروف المقطعة من قبيل المواضعات المعميات بالحروف بين المحبين لا يطلع عليها غيرهم، وقد وضعها الله مع نبيه ﷺ في وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ليتكلم بها معه على لسان جبريل عليه السلام بأسرار وحقائق لا يطلع عليها جبريل عليه السلام ولا غيره يدل على هذا ما روي في الأخبار: «أن جبريل عليه السلام لما نزل بقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:1]، فلما قال: ﴿ك﴾ [مريم:1]، قال: النبي علمت، فقال: ﴿هـ﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ي﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ع﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ص﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال جبريل عليه السلام: كيف علمت ما لم أعلم» وفي الحروف المقطعة إشارة إلى أن كلام الله تعالى لا يسعه الحروف والكلمات؛ لأن الكافر غير متناهٍ، والحروف والكلمات متناهية؛ وذلك لأن الصبيان يعلمون أولاً الحروف المقطعة الفارغة من معاني القرآن، ولكنها دالة على كلمات القرآن بها يهتدى إلى قراءة القرآن، ثم يعلمونهم المركبات من الحروف، ثم يعلمون القرآن كلامًا وسورًا؛ فيفقهون منها المعاني كل واحد على قدر علمه، وفهمه ومعرفته وصدق نيته وصفاء طويته، ومواهب الحق في حقه؛ فيظن بعض الظانين منهم إذا انقطعت الكلمات والسور المعدودة أن كلام الله انقطع ومعانيه تناهت، فالله سبحانه وتعالى بكمال حكمته أنزل بعد الكلمات والسور الحروف المقطعة بعضها مركبة بالكتابة مقطعة بالقرآن مثل ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ وغيرها. وبعضها مفردة مقطعة بالكتابة والقرآن مثل ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ ليعلموا أن كلام الله القديم والقرآن العظيم لا تحويه الكلمات المعدودة

أسرار ربوبيتنا كيفية بركات هويتنا الذاتية السارية على صفائح المكونات، المنتزعة عنها والمأخوذة منها.

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المبتعد درجة كماله عن إفهام الجامع مراتب الأسماء والصفات في عالم الغيب والشهادة، المنزل على مرتبتك يا أكمل الرسل، الجامعة لجميع مراتب الكائنات من الأزل إلى الأبد بحيث لا يشذ عنها مرتبة أصلاً﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأنه منزل من عندنا لفظًا ومعنى:

أمّا لفظًا: فلعجز جماهير البلغاء ومشاهير الفصحاء عن معارضة أقصر آية منه مع وفور دواعيهم.

وأمّا معنى: فلاشتماله على جميع أحواله الحقائق العينية والأسرار الغيبية مما كان وسيكون في النشأتين، ولا يتيسر الاطلاع عليها والإتيان بها على هذا النمط البديع إلا لمَن هو علام الغيوب.

وإنما أنزلناه إليك أيها اللائق لأمر الرسالة والنيابة، لتهتدي به أنت إلى بحر الحقيقة، وتهدي به أيضًا من تبعك من التائهين في بيداء الضلالة؛ إذ فيه﴿هُدًى﴾ عظيم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] الذين يحفظون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه نفوسهم عن خبائث المعاصي المانعة من الطهارة الحقيقية والوصول إلى المرتبة الأصلية.

ولا تحصيه السور المحدودة، فإن الحروف المقطعة تدل على ما تدل عليه الكلمات من المعاني والكلمات منحصرة معدودة ودلالة الحروف عليها الغير منحصرة معدودة؛ لأن هذا يشير إلى أن الحروف المقطعة لو ركب بعضها بعضًا إلى الأبد لا ينقضي كلام الله تعالى، ولا يضيق نطاق نطق الحروف عن توسع محيط الكلام الأزلي؛ لأنه فرق ظاهر بين الحروف المقطعة وبين الحروف المحدثة جمعًا. والكلمات القائمة بالحروف المحدثة منحصرة، ومعاني الحروف القائمة بالكلام القديم غير متناهية ولا منحصرة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:109]، وفي الحروف المقطعة إشارة أخرى وهي أن المركبة بالكتابة تشير إلى أن إلباس كسوة الحروف المحدثة في الكلام القديم لقصور فهم الإنسان، والمفردة منها تشير إلى أن الله تعالى متكلم بكلام أزلي أبدي غير ذي عدد وتجدد الآيات والكلمات والسور العربية والعبرية والسريانية إنما جعلت كسوة الكلام الفرداني المنزه ليفهم الخلق لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى:7].

و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يوقنون ويذعنون بأسراره ومعارفه ﴿بِالْغَيْبِ﴾[1] أي: غيب الهوية الذي هو ينبوع بحر الحقيقة وإليه منتهى الكلم، وبعد ذلك يتوجهون بمقتضيات أحكامه نحوه، ويهدون إليه بسببه ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ يديمون ﴿الصَّلاةَ﴾ الميل بجميع الأعضاء والجوارح على وجه الخضوع والتذلل إلى جنابه؛ إذ هو المقصد للكل إجمالاً وتفصيلاً، ولكل عضو وجارحة تذلل خاص وله طريق مخصوص يناسبه، يرشدك إلى تفاصيل الطرق، فعله ﷺ في صلاته على الوجه الذي وصل إلينا من الرواة المجتهدين - رضوان الله عليهم أجمعين - ولما تنبهوا له به بمتابعته ومالوا نحو جنابه بالميل الحقيقي بالكلية لم يبق لهم ميل إلى ما سواه من المزخرفات الفانية لذلك ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ سقنا إليهم ليكون بقيًا لحياتهم ومقومًا لمزاجهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3] في سبيلنا طلبًا لمرضاتنا وهربًا عما يشغلهم عنا، فكيف إنفاق الفواضل؟.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ينقادون ويمتثلون ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الكتاب الجامع أسرار جميع ما أنزل من الكتب السالفة على الوجه الأحسن الأبلغ، ومن السنن ومن الأخلاق الملهمة إليك ﴿وَ﴾ مع ذلك صريحًا يعتقدون ﴿مَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين مع الإيمان بجميع الكتب المنزلة، وإن كان كل كتاب متضمنًا للإيمان بالنشأة الآخرة بل هو المقصود الأصلي من جميعها ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4] أفردها بالذكر؛ اهتمامًا بشأنها لكثرة المرتابين فيها.

---

(1) قال البقلي: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ما غاب عن الأبصار، منكشفًا بنعت الأنوار لعيون الأسرار. و«الإيمان بالغيب»: هو تفرُّس الروح بنور اليقين مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، و«الإيمان بالغيب»: شوقُ القلب إلى لقاء الرب . وأيضًا «الإيمان»: تصديق السر ما أبصرَت الروح من مكنون حقائق الغيب بنعت مباشرة حلاوة انكشاف نور الحق في صميم سرّ السرّ، واتصاله بروقة بطنان القلب، وتعريفه أوصاف صفات الحق عقل الكلّ. وأيضًا «الإيمان»: تصديق القلب بوجدان الروح رؤية الرب جل وعلا، و«المؤمنون»: هم الذين صدقوا مواعيد الغيوب بعد إدراكهم مواجيد قلوبهم من رؤيتها، ومواجيد قلوبهم لا تكون إلا من رؤية أبصار بصائرهم أنوار غيب الغيب، وترائي الغيب لا يكون للروح الناطقة؛ إلا بعد أن يؤيدها الحق بتبيين البراهين، واستكشافه حقائق الاستدلال، بشهود الحال رؤية المدلول، واستحكام أنوار البصيرة؛ فإذا كملت هذه الأوصاف للروح، أبصرت صفاء صحارى الغيب، وتمكّنت تحت ركوم أنوار اليقين، وسناء قلبس الحق، بنعت بروزه في لباس حقِّ اليقين، وحقيقةُ حق اليقين لا تحصل بالتحقيق؛ إلا بعد انسلاخ السرّ عن الاستشهاد والاستدلال.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: جزاء أولئك المؤمنون المعتقدون بجميع الكتب المنزلة على الرسل، والمؤمنون المذعنون بالنشأة الآخرة بل خاصة أنهم ﴿عَلَى هُدًى﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع اللطف والكرم إلى أن يبلغوا إلى هذه المرتبة التي هي الاهتداء إلى جناب قدسه ﴿وَ﴾ مع ذلك الجزاء العظيم والنفع الجسيم ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] الفائزون، الناجون عن مضائق الإمكان الواصلون إلى فضاء الوجوب، رزقنا الله الوصول إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:6-10].

ثم قال سبحانه جريًا، بل على مقتضى سنته من تعقيب الوعد بالوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق وأعرضوا عنه، وأظهروا الباطل وأصروا عليه عنادًا واستكبارًا، لا ينفعهم إنذارك وعدمه بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] بك وبكتابك؛ لأنهم هم.

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأوصافهم وأفعالهم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ لئلا يكونوا من أرباب المكاشفات ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[1] لئلا يكونوا من أصحاب المجاهدة ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ لئلا يكونوا من أرباب المشاهدة ﴿غِشَاوَةٌ﴾ ستر عظيم لا يمكنك رفعه بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] هو عذاب الطرد والبعد؛ إذ لا عذاب أعظم منه، أولئك الأشقياء البعداء عن ساحة الحضور، هم الضالون في تيه الحرمان، الباقون في

(1) قال البقلي: قال علي بن أبي طالب ﷺ: «طبع الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النفوس، حتى كفروا سرًّا، وآمنوا علانية» قال جعفر الصادق: الختم على وجوه: منهم من ختم على قلبه برؤية فعله، ومنهم من ختم على قلبه برؤية الأعواض، ومنهم من ختم قلبه بالإسلام، ومنهم من ختم قلبه بالإيمان، ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة، ومنهم من ختم قلبه بالتوحيد فكلٌ واقفٌ مع ذلك الختم، وقال سهل: أسبلَ عليهم ستر شقاوة، فصمُّوا عن سماع الحق، وعموا عن ذكره.

ظلمة الإمكان، أعاذنا الله من ذلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الذين نسوا العهود السابقة التي عهدوا في الفطرة الأصلية ﴿مَن يَقُولُ﴾ قولاً لا يوافق اعتقادهم، وهو أنهم يقولون تلبيسًا ونفاقًا: ﴿آمَنَّا﴾ أذعنا ﴿بِاللهِ﴾ أي: الذي أنزل علينا الكتاب وإنك الرسول ﴿وَ﴾ وأيقنا ﴿بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾الموعود بجزاء الأعمال ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] موقنين بهما في بواطنهم، بل غرضهم من هذا التلبيس في زعمهم الفاسد أنهم:

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ المحيط بجميع أحوالهم مخادعتهم مع آحاد الناس، تعالى عن ذلك ﴿وَ﴾ يخادعون الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بإحاطة الله بتوفيقه وإلهامه؛ حفظًا لدمائهم وأموالهم منهم ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا يَخْدَعُونَ﴾ بهذا الخداع ﴿إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن الله ومن هو في حمايته أجل من أن ينخدع منهم، فهم بهذا الخداع ما يخدعون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9] بخداعهم؛ لأن:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1] غطاء مختوم على قلوبهم لا ينكشف إلا بكتاب الله المنزل على رسوله ﷺ، ولما لم يؤمنوا به ولم يلتفتوا إليه بل كذبوا رسوله المنزل عليه ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ إحكامًا لختمه وتأكيدًا لحكمه ﴿وَلَهُمْ﴾ في يوم الجزاء ﴿عَذَابٌ﴾ هو إبعادهم وطردهم عن ساحة عز الحضور ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم بسبب تقريب المؤمنين إلى دار السرور جزاء ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10] ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خداعًا.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ

---

(1) قال البقلي: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: رعونة تَشغُلها قبول الحق، وتلهّيها بقبول الخلق، وأيضًا أي غفلة عن ذكر العقبى، وهمّةٌ مشغولة بحب الدنيا ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذِكره، وقيل: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾: بخلوّها من العصمة والتوفيق والرعاية، وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيء عَمِي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها، وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرضٌ لا يُداوى إلا بالجوع والتقطُّع، وقال أيضًا: «مرضٌ»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغَفْلة عنها، وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدّى.

السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: 11-16].

﴿وَ﴾ مع ظهور حالهم وخداعهم عند الله وعند المؤمنين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ بتكذيب كتاب الله ورسوله المنزل عليه حتى لا يخرجوا من مرتبة الخلافة؛ لأن خلافة البشر إنما هي بالتوحيد وإسقاط الإضافات، والتوحيد إنما يحصل بالله وبكتابه ورسوله ﴿قَالُوا﴾ في الجواب على سبيل الحصر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11] لا نتجاوز من الصلاح أصلاً تتميمًا لخداعهم الفاسد، وترويجًا له على المؤمنين وتلبيسًا.

﴿أَلاَ﴾ أيها المؤمنون الموقنون بكتاب الله المصدقون لرسوله ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ المقصورون على الفساد، لا يرجى صلاحهم أصلاً؛ لكونهم مجبولين على الفساد ﴿وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12] بمشاعرهم لغشاوة قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم.

﴿وَ﴾ إذا لطف معهم ونصح كما هو دأب الأنبياء والمرسلين و﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ بالله وبكتابه ورسوله ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ الذين نسوا مزخرفات آبائهم بالإيمان بالله وبكتابه ورسوله، وفازوا في الدارين فوزًا عظيمًا بسبب الإيمان ﴿قَالُوا﴾ في الجواب توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ بهذا الرجل الحقير الساقط، وبهذه الأساطير الكاذبة ونترك دين آبائنا ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ التاركون دين آبائهم لغرور هذا المدعي المفتري؟ ﴿أَلاَ﴾ أيها المبعوث لإهداء المضلين المجبولين على الهداية في أصل فطرتهم ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ المجبولون على الغواية في بدء الفطرة لا يمكنك هدايتهم أصلاً؛ لعدم قابليتهم واستعدادهم للإيمان ﴿وَ﴾ إن ظنوا في زعمهم من العقلاء ﴿لَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13] أصلاً لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم، فيسلب قابليتهم للإيمان.

﴿وَ﴾ علامة نفاق هؤلاء المضلين وخداعهم أنهم ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتابه ورسوله ﴿قَالُوا﴾ على طريق الإخبار عن الأمور المحققة ترويجًا وتغريرًا على المؤمنين ﴿آمَنَّا﴾ بالجملة الفعلية الماضية بلا مبالغة وتأكيد لحكمهم سفاهة المؤمنين؛

بأن السفيه يقبل الأخبار بلا تأكيد؛ لعدم تفطنه على إنكار المتكلم، فنزلوهم - وإن كان من حقهم الإنكار حقيقة - منزلة خالي الذهن؛ لسفاهتهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ نفوا خالين ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: مع أصحابهم المستمرين على الكفر، الظاهرين بالمخالفة بلا خداع ولا نفاق كالشيطان المصر على الضلال المستمر على الإضلال ﴿قَالُوا﴾ على طريق المبالغة والتأكيد قلعًا لما اعتقدوا من ظاهر حالهم ومقالهم وموافقتهم مع المؤمنين سرًا وجهرًا، وتحقيقًا لمؤاخاتهم معهم ﴿إِنَّا﴾ وإن كنا في الظاهر مداهنين معهم لمصلحة دنيوية، متفقون ﴿مَعَكُمْ﴾ لفائدة دينية، أتوا بالجملة الاسمية المصدرة بأن؛ تحقيقًا واهتمامًا، وقولنا: آمنا، استهزاء منا إياهم لا تصديق لمدعاهم، وبالجملة ما نحن مؤمنون بمجرد هذا القول بل ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14] مستخفون تجهيلاً وتسفيهًا واعتذارًا على مجرد القول الكاذب الغير المطابق للاعتقاد والواقع. وهم في غاية انهماكهم في الغي والضلال، وهم مقرون جازمون بأنهم يستهزئون، بل هم في الحقيقة مستهزئون إذ: ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بجميع مخايلهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في كل لحظة وطرفة آنًا فآنًا ﴿وَ﴾ لم يشعرهم باستهزائه بل ﴿يَمُدُّهُمْ﴾ يمهلهم ويسوفهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد في الضلالة بتلبيس الأمر على الله وعلى المؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15] يترددون إقدامًا وإحجامًا.

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن طريق الهداية هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ استبدلوا واختاروا ﴿الضَّلَالَةَ﴾ المعززة في نفوسهم بتقليد آبائهم ﴿بِالْهُدَى﴾ المتفرعة على الإيمان بالله وبرسوله ﴿فَمَا رَبِحَتْ﴾ بهذا الاستبدال والاختيار ﴿تِجَارَتُهُمْ﴾ أي: ما يتجرون به ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] رابحين بسبب هذا الاستبدال، وخاسرين ضالين به. أو يقال: فما يتم الربح ﴿تِجَارَتُهُمْ﴾ اتجارهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1] بسبب هذا الاتجار.

---

(1) ورد في « التأويلات النجمية»:ثم ذكر من خصال هؤلاء الممكورين ما يدل على أنهم من المغرورين يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:11]، إلى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13] والإشارة في تحقيق الآيتين أن الإنسان وإن خلق مستعدًا لخلافة الأرض، ولكنه في بداية الخلقة معلول الهوى والصفات النفسانية فيكون مائلاً إلى الفساد. كما أخبرت عنه الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فبأوامر الشريعة ونواهيها تخلص جوهر الخلافة عن معدن نفس الإنسان، فأهل السعادة وهم المؤمنون ينقادون للداعي إلى الحق، ويقبلون الأوامر والنواهي وأهل الشقاوة وهم الكافرون والمنافقون من الدين

ويتبعون الهوى، وإذا قيل لهم في الأرض أي: لا يسعوا في إفساد حسن استعدادكم وصلاحيتكم للخلافة في الأرض باتباعكم الهوى وحرصكم على الدنيا ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11]، لا يقبلون النصيحة ويدعون الصلاحية غافلين عن حقيقتها، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:12]، يفسدون صلاح آخرتهم بإصلاح دنياهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:12]، لهم بإفساد حالهم وسوء أعمالهم وعظم وبالهم من خساوة حسن صنيعهم وادعائهم الصلاح على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:103]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ [البقرة:13] أي: أهل الغفلة والنسيان ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة:13] أي: بعض الناسين منكم الذين تفكروا في آلاء الله وتدبروا بعد عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ومعاهدة على التوحيد والعبودية، فتذكروا تلك العهود والمواثيق فآمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به ﴿قَالُوا﴾ [البقرة:13]، أهل الشقاوة منهم ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:13]، فكذلك أحوال أصحاب الغفلات تدعي الإسلام إذا دعوا من الإيمان التقليدي الذي وجدوه بالميراث إلى الإيمان الحقيقي بصدق الطلب، وترك محبة الدنيا واتباع الهوى والرجوع عن الخلق والتمادي في الباطن، ينسبون أرباب العلويات وأصحاب المقامات العالية إلى السفه والجنون، وينظرون إليهم بنظر العجز والذلة والمسكنة، ويقولون نترك الدنيا كما تركوها هؤلاء السفهاء من الفقراء لنكون محتاجين إلى الخلق كما هم محتاجون، ولا يعلمون أنهم هم السفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13]، فهم السفهاء لمعنيين أحدهما: أنهم يبيعون الدين بالدنيا والباقي بالفاني لسفههم وعدم رشدهم. والثاني: أنهم سفهوا أنفسهم ولم يعرفوا حسن استعدادهم للدرجات العلى والقربة والزلفى، فرضوا بالحياة الدنيا ورغبوا عن مراتب أهل النفي ومشارب أولي النهى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130]، فإن «من عرف نفسه فقد عرف ربه ومن عرف ربه ترك غيره» وعرف أهل الله وخاصته فلا يرغب عنهم، ولا نسبهم إلى السفه وينظر إليهم بالعزة، فإن الفقراء الكبراء هم الملوك تحت الأطمار، ووجوههم المسفرة عند الله كالشموس والأقمار، ولكن تحت قباب الغيرة مستورون عن نظر الأغيار محجوبون. وذكر المنافقون وأهل الغفلة بخصال أردأ من الأولى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا﴾ [البقرة: 14]، إلى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15] والإشارة في تحقيق الآيتين أن المنافقين لما أرادوا أن يجمعوا بين غيرة الكفار وصحبة المسلمين، وأن يجمعوا بين مفاسد الكفر ومصالح الإيمان، وكان الجمع بين الضدين غير جائز، فبقوا بين الباب والدار ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء:143]، وكذلك حال المتمنين الذين يدعون الإرادة ولا يخرجون عن العادة، ويريدون الجمع بين مقاصد الدارين ويتمنون أعلى مراتب الدين، ويرتعون في أسفل مراتب الدنيا، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم، وإذا أقبل الليل من حيث أدبر النهار من هنا، وقال النبي ﷺ: «ليس الدين بالتمني»(1) وقال: «بعثت لرفع العادات بدفع الشهوات» وقد قيل:

الدنيا والآخرة مرآتان ضرتان، فمن يطلب الجمع بينهما فممكور، ومن يدعي الجمع بينهما فمغرور، ومن كان له في كل ناحية خليط ومن كل زاوية من قلمه ربيط كان نهبًا للطوار يتقاوم قوم ويتزل في قلبه كل فقه فقلبه أبدًا خراب لا يهنأ له عيش دلالة في التحقيق وليس من رام مع متابعة الهوى البلوغ إلى الدرجات العلى فهو كالمستهزئ بطريق هذا الفريق، وكم في هذا البحر من أمثاله غريق فظاهر الأمر يقتضي أنهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:14]، ولكن حقيقة الأمر تدل على أن ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15]، لأن دواعي استهزائهم بأهل الدين وازدرائهم بأرباب اليقين من نتائج الخذلان فإن الله يكلهم إلى أنفسهم فتأمرهم النفس الأمارة للاستهزاء وتحملهم على الازدراء فلو لم نجد لهم الحق وأدركتهم الرحمة لما أمرتهم بسوء الاستهزاء والازدراء، كما قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] ومن الخذلان ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15]، أي يمهلهم في طغيان النفس بالحرص على الدنيا حتى يتجاوزوا في طلبها حد الاحتياج إليها ويفتح أبواب المقاصد الدنيوية عليهم يستغنوا بها وبقدر الاستغناء يزيد طغيانهم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7]، فكانت جزاء سيئة ترددهم في الدين وثوابهم في طلب الاستهزاء وجزاء سيئة الاستهزاء الخذلان والإمهال إلى أن طغوا وجزاء سيئة الطغيان العمه، فيترددون في الضلالة متحيرين لا سبيل لهم إلى الخروج إلى الحق وجزاء سيئة العمه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:16]. والإشارة في تحقيق الآية أن من نتيجة طغيانهم وعمههم أن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وأشربوا في قلوبهم الضلالة واستودعت عن حسن استعدادهم الفطري القابل للضلالة والهداية حتى يطلب قابليته الهداية وبدلت بالضلالة، ولما كان لهم هذا الحال من نتيجة معاملتهم أضاف الفعل إليهم وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:16]. وإنما قال بلفظ الاشتراء لأنهم خربوا استعداد قبول الهداية عن قدرتهم وتصرفهم فلا يملكون الرجوع إليه وتمسكوا بالضلال تمسك الملاك فلا يمكنهم الرجوع إلى الهدى ولا يكون لهم دواء غير الرجوع؛ إذ هم اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة:16]، لأن خسران من رضي بالدنيا ظاهر ومن آثر الدنيا والعقبى على الله المولى فهو أشد خسرانًا وأعظم حرمانًا، فإذا كان المصاب بفوات النعيم ممتحنًا بنار الجحيم والعذاب الأليم فما نملك بالمصاب بفقد المطلوب وبعد المحبوب ضاعت عنه الأوقات وبقي في أسر الشهوات، لا إلى قلبه رسول ولا لروحه وصول لا من الحبيب إليه وقود ولا لسره معه شهود فهذا هو المصاب الحقيقي إذا فاته مولاه الذي فاته بفواته سواه فإن لكل شيء بدل والأبدال له كما قال بعضهم: كنت السواد لناظري فبكى عليك الناظر من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر فجزاء اشترائهم الضلالة بالهدى إعواز ربح السعادة والفوز بالنعيم المقيم، وخسران بيع الهدى بوجدان العذاب الأليم؛ بل لفقدان الاهتداء على الصراط المستقيم إلى الله العلي العظيم الكريم الرحيم كما قال: ﴿وَمَا

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة:17-19].

بل ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: شأنهم وحالهم بهذا الاستبدال، والاختبار في يوم الجزاء ﴿كَمَثَلِ﴾ كحال الشخص ﴿الَّذِي﴾ طلب شيئًا في الظلمة وترقبه، ولم يهتد إليه و﴿اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ ليستضيء بها، وفاز بمبتغاه ﴿فَلَمَّا﴾ استوقده ﴿أَضَاءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ أي: حول المستوقد، وترقب وجدان مطلوبه ﴿ذَهَبَ﴾ ضوؤها، وسكن لهبها فضلَّ عن مطلوبه، وخسر خسرانًا عظيمًا، كما ذهب ﴿اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ أطفأ الله نيران المنافقين وسرجهم التي هي كفرهم ونفاقهم على زعمهم، وأفسد إضاءتهم في يوم الجزاء حين ترقبهم بوجدان مطالبهم ولم يهتدوا بها، بل عذبهم الله بسببها ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ لأجلها ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ظلمة الضلالة المتقررة الراسخة في نفوسهم بتقليد آبائهم، المنتجة للكفر والنفاق، وظلمة فقدان المطلوب المترتب عليها في زعمهم مع ترقبهم، والظلمة العارضة لهم بعد استضاءتهم، وبسبب هذه الظلمات ﴿لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] ولا يرجى نجاتهم عن عذاب الله بل يبقون فيه أبدًا وهم:

﴿صُمٌّ﴾ لعدم إصغائهم لقول الحق عن ألسنة الرسل صلوات الله عليهم ﴿بُكْمٌ﴾ لعدم قولهم بالإيمان المقارن بالتصديق ﴿عُمْيٌ﴾ لعدم التفاتهم إلى الدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة، وبالجملة: ﴿فَهُمْ﴾ في هذه الحالة ﴿لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18] ولا يطمعون الرجوع إلى الهداية لتذكيرهم الإفراط والتفريط الذي صدر عنهم في النشأة الأولى المستتبع لهذا العذاب.

﴿أَوْ﴾ مثلهم في هذا الاستبدال والاتجار ﴿كَصَيِّبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ متوالية متتالية، بعضها فوق بعض شدة وضعفًا بحسب تخلخل السحب وتكاثفها ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بسبب الأدخنة والأبخرة المحتبسة فيه، متى أبصرها الناس

كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:16]، لإبطالهم حسن استعداد قبول الهداية.

وسمعوا أصوات بروقه ورعوده ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ أنامل أصابعهم ﴿فِي آذَانِهِم﴾ خوفًا ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ النازلة منها، المهلكة غالبًا لمن أُصيب بها، وإنما يفعلون ذلك ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: حذر أن يموتوا من إصابتها؛ يعني: إنهم لما شبهوا في نفوسهم دين الإسلام بالصيب المذكور في ظهوره من غير ترقب، واشتمال في زعمهم على ظلمات التكاليف المتفاوتة المتنوعة، ورعود الوعيدات الهائلة وبروق الأحكام الخاطفة، وجب عليهم الاحتراز عن غوائله فمالوا عنه وأعرضوا، وجعلوا أصابع عقولهم في آذان قبولهم؛ خوفًا من الصواعق النازلة المصفية المفنِيَة ذواتهم في ذات الله حذر الموت الإرادي، وهم بسبب هذا الميل والإعراض يعتقدون أنهم خلصوا عن الفناء في ذاته ﴿وَ﴾ لم يعلموا أنهم مستهلكون فيها إذ ﴿اللَّهُ﴾ المتجلي في ذاته لذاته ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 19] الساترين بذواتهم في زعمهم الفاسد ذات الله، غافلين عن تجلياته، وكيف يغفلون عنها؟.

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة:20-22].

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ أي: برق التجلي اللطفي ﴿يَخْطَفُ﴾ يعمي ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ التي يرون بها أنفسهم ذوات موجودات فاضلات به ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ وأشرق ﴿لَهُم﴾ التجلي اللطفي ﴿مَّشَوْا﴾ ساروا ﴿فِيهِ﴾ باقين ببقائه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتجلي القهري ﴿قَامُوا﴾ سكنوا على ما هم عليه من عدم الصرف ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ التجلي عليهم بالقهر دائمًا ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: بتعيناتهم التي ظنوا أنهم موجودات حقيقية بسببها، وصيرهم فانين معدومين لا وجود لهم أصلاً، كما هم عليه دائمًا، قل لهم يـ أكمل الرسل بلسان الجمع: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي بالتجلي اللطفي ﴿عَلَىٰ﴾ إبقاء ﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:20] على إفنائه بالتجلي القهري؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء
ثم نبه تعالى على كيفية رجوعهم إليه وتنبههم على تجلياته، فناداهم إشفاقًا لهم وامتنان

عليهم ليقبلوا إليه فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين نسوا حقوق الله بمتابعة آبائكم ﴿اعْبُدُوا﴾ تذللوا وتفزعوا وانقادوا ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أخرجكم وأظهركم من كتم العدم بإشراق تجلياته اللطفية إلى فضاء الوجود ﴿وَ﴾ أيضًا أخرج آباءكم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ إن عبدتم كما ذكر ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21] تحذرون من تجلياته القهرية، فهو في بدء الوجود في المعاني اعبدوا ربكم:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ مبسوطًا؛ لتستقروا عليها وتسترزقوا منها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ مرفوعًا؛ لترتقي الأبخرة والأدخنة المتصاعدة إليها وتراكم السحب فيها ﴿وَ﴾ بعد وجود هذه الأسباب ﴿أَنزَلَ﴾ بمحض فضله وفيضه ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ منبتًا لكم الزروع والأثمار المقومة لمزاجكم وإذا أنزل ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ سبحانه؛ أي: بسبب الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: أخرج رزقًا لكم من الثمرات والطعوم؛ لتعيشوا بها وتقدروا إلى التوجه إلى توحيده وتفريده الذي هو غاية إيجادكم وخلقكم وما يترتب على وجودكم، وإذا كان كذلك ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا﴾ أيها المنعمون بانتزاع النعم ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القهار لجميع الأغيار ﴿أَندَادًا﴾ أمثالاً في استحقاق العبادة والإيجاد والتكوين والترزيق والإنبات والإضاء وغير ذلك مما يتعلق بالألوهية ﴿وَأَنتُمْ﴾ إن وصلتم إلى مرتبة التوحيد الذي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] [1] أن سلسلة

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ [البقرة:20]، أي: نور الذكر والقرآن ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة:20]، أي: أبصار نفوسهم الأمارة بالسوء ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:20]، سلكوا طريق الحق بقدم الصدق ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:20]، ظلمات صفات النفس وغلب عليهم الهوى مالوا إلى الدنيا ﴿قَامُوا﴾ [البقرة:20] أي: وقفوا عن السير وتحيروا وترددوا وتطرقت إليهم الآفات واعترتهم الغرات واستولى عليهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم الشهوات حتى وقعوا في ورطة الهلاك. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة:20]، أي ولو كانت مشيته وإرادته أن يهديهم ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:20]، أي: يسمع نفوسهم التي تنظر إلى زينة الحياة الدنيا وزخارفها كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:20]، أي: قادر على سلب أسماعهم وأبصارهم حتى لا يسمعوا الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ولا يبصروا المزخرفات الدنياوية، والمستلذات

الحيوانية لكيلا يغتروا بها ويبيعوا الدين بالدنيا، ولكن الله يفعل بحكمته ما يشاء ويحكم بعزته ما يريد فلما أتم الكلام مع المؤمنين والكافرين والمنافقين خاطب الناس عمومًا أجمعين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:21]، إلى ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] والإشارة في تحقيق الآيتين أن الله تعالى خاطب الناسي عهوده يوم الميثاق والإقرار بربوبيته ومعاهدته ألا يعبدوا إلا إياه، فخالفوه ونقضوا عهده وعبدوا الطواغيت من الأصنام والدنيا والنفس والهوى والشيطان فزلت قدمهم عن جادة التوحيد ووقعوا في ورطة الشرك والهلاك فبعث إليهم الرسول وكتب إليهم الكتاب وأخبرهم عن النسيان والشرك ودعاهم إلى التوحيد والعبودية. ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:21]، يعني: ذراتكم وذرات من قبلكم يوم الميثاق وأخذ مواثيقكم بالربوبية والتوحيد والعبادة فأوفوا بعهد العبودية بتوحيد اللسان وتجريد القلب وتفريد السر وتزكية النفس بترك المحظورات وإقامة الطاعات المأمورات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21]، عن ترك عبادة غير الله فيوفي الله بعد الربوبية بالنجاة من الدركات ورفع الدرجات بالجنات والإكرام بالقربات والكرامات في الآخرة، كما أكرمكم في الدنيا. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:22]، فيه إشارة إلى تعريفه نفسه بالقدرة الكاملة ومنته على عباده وعزة عباده عنده وفضيلتهم على جميع المخلوقات من عباده بأن جعل لهم بنفسه فراشًا كالأرض ودنيا كالسماء، وأما عزة عباده عنده بأن خلق السماوات والأرض وما فيها لأجلهم وسخرها لهم لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13]، فكان وجود السماوات تبعًا لوجودهم وما كان وجودهم تبعًا لوجود شيء إلا وجوده، ولهذا السر أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام وحرم على آدم وأولاده السجود لغير الله ليظهر أن الملائكة وإن كانوا قبل وجود آدم أفضل الموجودات فلما خلق آدم عليه السلام جعله مسجودًا للملائكة ليكون هو أفضل المخلوقات وأكرمهم على الله تعالى ومتبوع كل شيء والكل تابع له.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة:22]، تحقيقه أن الماء هو القرآن وثمراته الهدى والتقى والنور والرحمة والشفاء والبركة واليمن والسعادة والقربة والحق واليقين والنجاة، والرفعة والصلاح والفلاح والحكمة والموعظة والحلم والعلم والآداب والأخلاق والعزة، والغنى والتمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بحبل الله المتين، وإجماع كل خير وختام سعادة وزهوق باطل الوجود الإنساني عند مجيء تجلي حقيقة الصفات الربانية لقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81]، فأخرج بماء القرآن هذه الثمرات من أرض قلوب عباده فكما أن الله منَّ على عباده بإخراج الثمرات وقال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة:22] وكان للحيوان فيها رزق؛ ولكن يتبعه الإنسان كما قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:33]. كذلك القرآن بثمراته كان رزقًا مختصًا

الأسباب منتهية إليه سبحانه، ولا موجود إلا هو، بل لا موجود إلا هو ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:59] والتحقيق بهذا المقام والوصول إلى هذا المرام لا يحصل إلا بعد التخلق بأخلاق الله، والتخلق بأخلاقه لا يتيسر إلا بمتابعة المتخلق الكامل، وأكمل المتخلقين نبينا ﷺ، والمتخلق بخلقه ﷺ إنما يكون بالكتاب الجامع لجميع أخلاق الله، المنزل على مرتبته، الجامع جميع مراتب المظان، وفي نسخة أخرى: المظاهر.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:23-20].

بالإنسان وللملائكة والجن كان لهم فيه رزق ولكن بتبعية للإنسان وهذا مما لا تدركه العقول المشوبة بالوهم والخيال؛ بل تدركه العقول المؤيدة بتأييد الفضل والنوال. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:22]، فيه ثلاثة معانٍ: أولها: أن هذا الذي جعلت لكم من خلق أنفسكم وخلق السماوات والأرض ما فيها ليس شأن أحد غيري، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22]، فلا تجعلوا لي أندادًا في العبودية. وثانيها: إني جعلت السماوات والأرض والشمس والقمر كلها واسطة أرزاقكم وأسبابها وأنا الرازق فلا تجعلوا الوسائط أندادًا لي، ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:37]. وثالثها: إني خلقت الموجودات وجعلت لكل شيء حظًا في شيء آخر وجعلت حظ الإنسان في محبتي ومعرفتي، وكل محظوظ لو انقطع عنه حظه لهلك فلا تنقطعوا عن حظوظكم من محبتي ومعرفتي بأن تجعلوا لي أندادًا وتحبونهم كحب الله . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، فالأنداد وهي الأحباب غير الله تعالى: فوصف الذين لم ينقطعوا عن حظ محبته بالإيمان وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، يعني: الذين اتخذوا من دون الله أندادًا في المحبة ما آمنوا حقيقة وإن زعموا الإيمان فافهم جدًا.

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المحجوبون بالأديان الباطلة ﴿فِي رَيْبٍ﴾ شكٍ وارتيابٍ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من مقام كمال ترتيبنا وإرشادنا ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ الذي هو خليفتنا ومرآتنا ومظهر جميع أوصافنا، وحامل وحينا المنزل عليه، المشتمل على جميع الأخلاق الإلهية ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ جملة قصيرة ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ إذ من خواص هذا الكتاب أن مجموعه مشتمل على جميع الأخلاق الإلهية، وكل سورة منه تشتمل على ما اشتمل عليه المجموع، تأمل.

﴿وَ﴾ إن عجزتم أنتم عن إتيانه ﴿ادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ حضراءكم الذين أنتم تشهدون بألوهيتهم وترجعون في الخطوب إليهم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ المحيط بكم وبهم، فأمروهم بإتيان كل سورةٍ جامعة جميع أوصاف المعبود بالحق ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:23] أنهم آلهة غير الله، سبحان الله وتعالى عما يقولون.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ فإن لم تفعلوا الإتيان أنتم في حين التحدي والمعارضة ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أيضًا بعدما رجعتم إليهم، فلا تكابروا ولا تنازعوا، بل انقادوا وامتثلوا بأوامر الكتاب المنزل على عبدنا، واجتنبوا عن نواهيه ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي﴾ أخبر فيه بأنه ﴿وَقُودُهَا﴾ أي: ما يتقد به النار ﴿النَّاسُ﴾ الذين يعبدون غير الله ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ التي هي معبوداتهم التي نحتوها بأيديهم وما ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه النار إلا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24] الجاهلين طريق توحيد الحق، والمكذبين كتاب الله ورسوله المنزل عليه.

﴿وَبَشِّرِ﴾ المؤمنين الموقنين الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالكتاب المنزل على عبدنا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤمنون فيه، واجتنبوا عن الفاسدات المنهي عنها ﴿أَنَّ﴾ أي: حق وثبت ﴿لَهُمْ﴾ بعد رفع القيود ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق التي هي المعارف الكلية المخلصة عن جميع القيود المنافية للتوحيد ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف الجزئية المترتبة على تلك المعارف الكلية ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ حظوا منها؛ أي من تلك المعارف الكلية ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ حاصلةٍ من شجرة اليقين ﴿رِّزْقًا﴾ حظًا كاملاً يخلصهم من رتبة الإمكان ﴿قَالُوا﴾ متذكرين العهود السابقة: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ من الأعيان الثابتة، أو في عالم الأسماء والصفات، أو في اللوح المحفوظ، أو في عالم الأرواح إلى غير ذلك من العبارات، ومن غايات التذاذهم ونهاية شوقهم والتذاذهم بالثمرة المحظوظ بها ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ متماثلاً ﴿مُتَشَابِهًا﴾ متجددًا بتجدد الأمثال ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك المرتبة الكلية ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أعمال صالحة ونيات

خالصة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ عن شوائب الأغيار المانعة عن الوصول إلى دار القرار ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك المراتب ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:25] [1] دائمون بدوامه، باقون ببقائه، مستغرقون بمشاهدة لقائه سبحانه. ارزقنا بلطفك حلاوة التحقيق وبرد اليقين.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة:26-28].

ثم لما طعن الكفار في غاية استكبارهم وعتوهم ونهاية استعظامهم نفوسهم، واعتقادهم الأصالة في الوجود، والاستقلال بالآثار المترتبة عليه الصادرة منهم ظاهرًا

---

(1) قال الشيخ إسماعيل حقي: أي يحصل لهم جنات القربة بمعجلة من بذر الإيمان الحقيقي وأعمالهم القلبية الصالحة والروحية والسرية بالتوحيد والتجريد والتفريد من أشجار التوكل واليقين والزهد والورع والتقوى والصدق والإخلاص والهدى والقناعة والعفة والمروءة والفتوة والمجاهدة والمكابدة والشوق والذوق والرغبة والرهبة والخوف والخشية والرجاء والصفاء والوفاء والطلب والإرادة والمحبة والحياء والكرم والسخاوة والشجاعة والعلم والمعرفة والعزة والرفعة والقدرة والحلم والعفو والرحمة والهمة العالية وغيرها من المقامات والأخلاق تجرى من تحتها مياه العناية والتوفيق والرأفة والعطفة والفضل.

وقال الشيخ البقلي: أهل جنان الوَصْلة إذا كُشفت لهم أسرار الغيب، رأوا مشاهدات أنوار الصفات في مقامات الأرواح، جميعها يَدُل بعضهم بعضًا، ويحصل لهم من نور الكبرياء، ما يحصل لهم من نور العظمة، ومن نور القِدم ما يحصل من نور البقاء، هكذا جميع الصفات، وأيضًا إذا تمكّن أهل المشاهدة في الجنة غذاء، ورأوا ربهم تعالى، وجدوه على الصفة التي أظهر نفسه جلّ وعزّ لأهل المكاشفة في دار الدنيا يقولون: ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: ما نحن كنّا فيه من مشاهدته في العاجل، يجدها بتلك الصفات في الآجل؛ لأن وجوده يتغيّر بتغيّر الزمان في المكان، أوّله في الربوبية آخره في الألوهية، وآخره في الصمدية أوّله في الأزلية.

على الكتاب، والرسول المنزل عليه قائلين بأن ما جئت به وسميته وحيًا نازلاً إليك من عند الله الحكيم لا يدل على كلام من يعتد به ويعتمد عليه، فضلاً عن أن يدل على أنه كلام الحكيم المتصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة؛ لأن ما مثل به فيه هي الأشياء الخسيسة الخبيثة والضعيفة الحقيرة، مثل الكلب والحمار والذباب والنمل والنحل والعنكبوت وغيرها، والكلام المشتمل على أمثال هذه الأمثال لا يصدر من الكبير المتعال؟!

رد الله عليهم وروج أمر نبيه - صلوات الله عليه - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء، المقتضية لظواهر الكائنات، المرتبة لمراتب الموجودات الظاهر على جميع المظاهر بلا تفاوت، كظهور الشمس وإشراقها على جميع الآفاق، وسريان الروح في جميع الأعضاء ﴿لاَ يَسْتَحْيِي﴾ استحياء من في فعله ضعف وعافية وضيعة، بل لله سبحانه ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ بمظهر ﴿مَّا﴾ من المظاهر غير المتفاوتة في المظهرية؛ إذ له بذاته من جميع أوصافه وأسمائه ظهور في كل ذرة من ذرائر العالم بلا إضافة، فلا تفاوت في المظاهر عنده، وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وسواء كانت ﴿بَعُوضَةً﴾ مستحقرة عندكم أو أحقر منها ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الحقارة والخساسة كالبق والنمل، فلا يبالي الله في تمثيلها؛ إذ عنده الكل على السواء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ﴾ صدقوا النبي الأمي ﷺ و﴿آمَنُوا﴾ بما جاء به من عند ربه ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ علمًا يقينًا أن التمثيل بهذه الأمثال ﴿أَنَّهُ الحَقُّ﴾ الثابت الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بكشف الأمور على ما هي عليه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا عن تصديق الله ورسوله ﴿فَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين متهكمين على سبيل الاستفهام ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ﴾ المقدس عن جميع الرذائل المتصف بالأوصاف الحميدة ﴿بِهَذَا﴾ الحقير الخسيس بأن يضرب ﴿مَثَلاً﴾[1] بهذا تعريض على رسول الله ﷺ بأبلغ وجه؛ يعني: ما جئت به من عندك كلمات مفتريات بعضها فوق

---

(1) قال البقلي: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أما الذين شاهدوا بنعت الاصطفاء في مشاهد الأزل، ورأوا جمال مشاهدة الحق، وسمعوا كلامه، فيعلمون أن القرآن حقٌّ من ربهم؛ لأنهم صادقوا حقيقة مقام التصديق بنعت الأرواح قبل كون صورتهم، وبعد كونها قابلوا الآخر بالأول، والأول بالآخر، وجدّوا صِرفًا صِدقًا، فاستقاموا في الصدق والإخلاص حين سمعوا خطاب الحق.

بعض، أسندته إلى الله لتروجها على أولي الأحلام الضعيفة، ومن غاية استكبارهم ونهاية جهلهم المقتضي لعمى القلب لم يروا الحكمة في تمثيله، ولم يعلموا أنه ﴿يُضِلُّ﴾ الله باسمه المنتقم ﴿بِهِ﴾ بسبب إنكار هذا المثال ﴿كَثِيرًا﴾ من المستكبرين المستحقرين بعض المظاهر ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ من الموحدين الموقنين الذين لا يرون في المظاهر إلا الله، ففي هذا المشهد لا يسع الإضافات المستلزمة للاستعظام والاستحقار، بل سقط هناك جميع الاعتبار، ثم بيّن سبب إضلاله له فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26].

﴿الَّذِينَ﴾ يخرجون عن طريق التوحيد باستحقار بعض المظاهر ﴿يَنقُضُونَ﴾ يفصمون ﴿عَهْدَ اللهِ﴾ الذي هو حبله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات سيما ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ توكيده بذكر ﴿مِيثَاقِهِ﴾ الموثق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، وقولهم: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:172] وبعدما نقضوا العهد الوثيق الذي من شأنه ألّا ينقض لم يفزعوا ولم يتوجهوا إلى جبره ووصله، بل ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ التوجه عن امتثال ﴿مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ﴾ في كتابه المنزل ﴿أَن يُوصَلَ﴾ به ما نقض من عهده، ومع ذلك لا يقنعون بنقض العهد وقطع الوصل المختصين بهم، بل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات السارية من إفسادٍ واعتقاد الضعفاء، والبغض مع العرفاء الأنساء - وفي نسخة أخرى: الأمناء - والمخالفة مع الأنبياء والأولياء ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن طريق التوحيد ﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:27] المقصورون على الخسران الكلي الذي لا خسران فوقه، أعاذنا الله من ذلك.

ثم استفهم سبحانه مخاطبًا لهم، مستبعدًا عما صدر عنهم من الكفر والطغيان على سبيل الكناية تحريكًا لحمية الفطرة التي فطر الناس عليها، وتذكيرًا لهم بالعهود التي عهدوا مع الله في استعداداتهم الأصلية بقوله:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وتشركون ﴿بِاللهِ﴾ الذي قدر وجودكم في علمه السابق أراد إيجادكم ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[1] أظهركم من العدم بمد ظله عليكم، وبعدما

(1) قال البقلي: أي: كنتم أمواتًا في قبور العدم، فأحياكم بأنوار القِدم. وأيضًا كنتم أمواتًا في غطاء الغَفلة، فأحياكم بروح المعرفة. وقال الشبلي: وكنتم أمواتًا عنه، فأحياكم به، وقال ابن عطاء: كنتم أمواتًا بالظاهر، فأحياكم بمكاشفة الأسرار، ثم يُميتكم عن أوصاف العبودية، ثم يُحييكم بأوصاف الربوبية، ثم إليه تُرجَعون عند تحيُّركم عن إدراكه صرف الذّات والصفات عن شواهد

أظهركم أنعم عليكم ورباكم في النشأة الأولى بأنواع النعم؛ لتعرفوا المنعم وتشكروا له في مقابلتها ﴿ثُمَّ﴾ بعد تربيتكم في النعم ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يخرجكم من النشأة الأولى إظهارًا لقدرته وقهره ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أيضًا في النشأة الأخرى لتجزى كل نفس بما كسبت في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قطعتم المنازل وطويتم المراتب والمراحل ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] [1] إذ لا وجود للغير ليرجع إليه، فلا مرجع

المعرفة في طلب الحقيقة. قال فارس: كنتم أمواتًا بشواهدكم، فأحياكم بشواهده ، ثم يُميتكم عن مشاهدكم، ثم يُحييكم بقيام الحق عنه، ثم إليه تُرجَعون عن جميع ما لكم وكنتم له، وقال الو اسطي: وبّخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء، فإنما النزاع من الهياكل الروحانية.

(1) قال في «التأويلات»: ذكر بعد إظهار الحقائق في الأمثلة المتناسبة لتفهم المعاني المتشابهة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة:26]، إلى قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي: لا يبالي الله أن يضرب مثلاً ﴿مَا بَعُوضَةً﴾ [البقرة:26]، أي: يلبس المعاني كسوة الأمثلة لبيان البعوضة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:26]، في الحقارة والصغر أو فوقها في الكبر كالذباب والعنكبوت وذلك لأن في كل شيء من العرش العظيم والذرة الحقيرة لله تعالى آية تدل العباد إلى المعبود، وتهدي القاصد إلى المقصود ففي البعوضة دلالات وآيات إذا جاعت قويت وطارت، وإذا شبعت تشققت وتلفت فهذه تدل على الإنسان فإنه إذا جاع رجع إلى الله تعالى، وإذا أشبع يتبع الهوى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:27]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7]، ومنها أن البعوضة خلقت على صورة الفيل وفيها معانٍ: منها: أن القدرة على إيجاد كل واحد منها غير منقادة ليس خلق أحدها بأهون على الله تعالى من الأخرى. ومنها: أن البعوضة إذا أعطيت على قدر حجمها الحقير كل آلة وعضو أعطيت الفيل الكبير القوي وفيه إشارة إلى حال الإنسان وكمال استعداده كما قال ﷺ: «إن الله خلق كل شيء على صورته» أي: على صفته فعلى قدر صفة الإنسان أعطاه الله من كل صفة من صفات جلاله وجماله أنموذجًا ليشاهد في مرآة صفات نفسه كمال صفات ربه، كما قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»»، ليس لشيء من المخلوقات هذه الكرامة المختصة بالإنسان. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]، وفيها وفي أمثالها دلالات يطول شرحها فقس الباقي على نداء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:26]، بنور الإيمان يشاهدون المعاني والحقائق في صورة الأمثلة ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:26] جحدوا الحق ظلمة إنكارهم غشاوة أبصارهم فما شاهدوا الحقائق في كسوة الأمثلة كما أن العجمي لا يشاهد المعاني في كسوة اللغة العربية فيسأل عن الحيرة ما إذا أراد العربي بهذه اللفظة، فكذلك الكفار والجهال عند تحيرهم في إدراك

حقائق الأمثال قالوا: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:26]، فيجهلهم زاد إنكارهم على الإنكار فتاهوا في أودية الضلالة بقدم الجهالة. ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26]، ممن أخطاه رشاش النور في بَدء الخلقة كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل» فمن أخطأه ذلك النور في عالم الأرواح فقد أخطأه نور الإيمان هاهنا، ومن أخطأه نور الإيمان فقد أخطأه نور القرآن فلا يهتدي، ومن أصابه ذلك هناك أصابه هاهنا نور الإيمان ومن أصابه نور الإيمان فقد أصابه نور القرآن ومن أصابه نور القرآن فهو ممن قال: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26]، وكان القرآن لقوم شفاء ونعمة لأن كلامه صفة شاملة للطف والقهر فبلطفه هدى الصادقين، وبقهره أضل الفاسقين بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26]، والفاسق الخارج من إصابة رشاش النور في بدء الخلقة. ثم أخبر عن نتائج ذلك الخروج ونقض العهد كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة:27]، الذين ينقضون عهد الله الذي عاهدوه يوم الميثاق على التوحيد والعبودية والإخلاص من بعد ميثاقه، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة:27]، من أسباب السلوك الموصل إلى الحق وأسباب النقل والانقطاع عن غير الخالق. كما قال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، أي: انقطع إليه انقطاعًا كاملاً عن غيره ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 27]، أي: يفسدون بذر التوحيد الفطري في أرض طينتهم بالشرك والإعراض عن قبول دعوة الأنبياء، وسقي بذر التوحيد بالإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:27]، خسروا استعداد كمالية الإنسان المودعة فيهم كما تخسر النواة في الأرض استعداد النخلية المودعة فيها عند عدم الماء لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر :1-3]. ثم أخبر عن كمال جرأتهم بنسيان نعمة اختراع وجودهم وكفرانهم كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ [البقرة:28]، والإشارة في تحقيق الآية أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ﴾ خطاب التهديد للكافرين عمومًا وخطاب التوحيد للمؤمنين خصوصًا وخطاب التشريف للأنبياء اختصاصًا، فتهديد الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾. ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28]، نطفًا في أصلاب آبائكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:28]، بنفخ الروح فيكم في أرحام أمهاتكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة:28]، عند مفارقة نفوسكم عن أبدانكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:28]، عند نفخ الصور والبعث عن القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28]، بالسلاسل والأغلال، ثم يسبحون في النار على وجوههم، وفيه إشارة أخرى كيف تكفرون بالله أي: لا تكفرون بالله وإنما تكفرون بأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث، والجنة والنار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ [البقرة:28] وبأنبيائه لأنكم ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة:28] ذرات في صلب آدم فأحياكم بإخراجكم عن صلبه وأسمعكم لذلك خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، وأذاقكم لذات الخطاب ووفقكم للجواب بالصواب حتى قلتم: ﴿بَلَىٰ﴾ رغبة لا رهبة

إلا هو ولا مآب بسواه، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ
قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ
قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة:28] بالرجعة إلى أصلاب آبائكم، وإلى عالم الطبيعة الإنسانية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:28] ببعثة الأنبياء وقبول دعوته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] بدلالة الأنبياء. وقدم التوحيد على جادة الشريعة إلى درجات الجنان والنعيم المقيم وأما خطاب التشريف للأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة:28]، أي: لا تكفرون وكنتم في العدم، فأحياكم بالتكوين في عالم الأرواح ورشاش النور فخمر طينة أرواحكم بماء نور العناية، وتخمير الطينة أربعين صباح الوصال، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة:28] بالمفارقة عن شهود الجمال إلى معتبرة الحسن والخيال، كما قيل:

لولا مُفارقة الأحباب ما وجدت   لها المنايا إلى أرواحنا سُبلا

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:28] أما الأنبياء فبنور نور الوحي لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمان وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52]، وأما الأولياء فبروح روح الإيمان لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:22] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] أما الأنبياء فبالعروج لقوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر:28]، فلما أثبت أن الرجوع إليه أمر ضروري إما بالاختيار كقراءة يعقوب ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم، وإما بالاضطرار كقراءة الباقين أشار إلى أن الذي ترجعون إليه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29] أي: ما خلقكم لشيء وخلق كل شيء لكم؛ بل خلقكم لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41] معناه: لا تكن لشيء غيري فإني لست لشيء غيرك فبقدر ما تكون لي أكون لك كما قال ﷺ: «من كان لله كان الله له» وليس لشيء من الموجودات هذا الاستعداد أي: أن يكون هو لله على التحقيق وأن يكون الله له، وفي هذا سر عظيم وإفشاء سر الربوبية كفر، فلا تشتغل بمالك عمن أنت له فتبقى بلا هو بلا هو.

أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة:29-32].

﴿هُوَ الَّذِي﴾ جعلكم خلائف في الأرض وصوركم على صورته، وصيركم مظاهر جميع أوصافه وأسمائه و﴿خَلَقَ لَكُم﴾ أي: قدر ودبر لكم ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ما في العالم السفلي من آثار الأسماء والصفات تتميمًا لجسمانيتكم؛ لتتصرفوا فيها وتتنعموا بها متى شئتم ﴿ثُمَّ﴾ لما تم تقدير ما في العالم السفلي ترقى عنها و﴿اسْتَوَى﴾ توجه ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ إلى تقدير جميع ما في العالم العلوي ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ فهيأهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ مطبقات مشتملات على ملائكةٍ ذوي علومٍ ومعاملاتٍ، وعلى كواكب ذوي آثارٍ كثيرةٍ كلها من مقتضيات أسمائه وصفاته ﴿وَ﴾ لا يخفى عليه شيء مما في العالمين؛ إذ ﴿هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29] لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ثم لما قدر لنوع الإنسان جميع ما في العالم العلوي والسفلي أشار إلى اصطفاء شخصٍ من هذا النوع وانتخابه من بين الأشخاص؛ ليكون مظهرًا جامعًا لائقًا لأمر الخلافة والنيات، فقال مخاطبًا لنبيه، مذكرًا له، مستحضرًا إياه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: استحضر أنت يا أكمل الرسل فذكر ممن تبعك وقت قول ربك ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الذين هم مظاهر لطفه ومجالي جماله، لا يظهر عليهم أثر من آثار الجلال والقهر ﴿إِنِّي﴾ أريد أن أطالع ذاتي وألاحظ أسمائي وأوصافي على التفصيل، فأنا ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: العالم السفلي ﴿خَلِيفَةً﴾[1] مرآة مجلوة عن صداء الإمكان ورين التعلق؛ لأتجلى منها بجميع أوصافي وأسمائي حتى تعتدل خليفتي بأسمائي أخلاق من عليها وتصلح أحوالهم، وإذا شاور معهم قالوا في الجواب على مقتضى علمهم ﴿قَالُوا﴾ في الجواب على مقتضى علمهم من العالم السفلي الذي هو عالم الكون والفساد ومنزل الجدال والعناد: ما نرى في العالم السفلي إلا اللدد والعناد والمخاصمة المستمرة بين العباد والخروج من حدودك من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الذراري ﴿أَ﴾ نسلم ونجوز لك أن ﴿تَجْعَلُ﴾ بعزتك وكبريائك مع أنا ننزهك عن جميع الرذائل خليفة لك

(1) جعل الله تعالى آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، وهي زبدة مخضة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللبن، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالنفل لا عبرة به، فافهم.

ناتئا عنك ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿يَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ المحرمة، وليس في وسعنا هذا التسليم، ولا نرى هذا الأمر لائقًا بجلالك وعصمتك، وإن شئت بفضلك وجودك أن تصلح بينهم ﴿وَ﴾ تدبر أمرهم ﴿نَحْنُ﴾ أولى بإصلاحهم وتدبيرهم وحفظ حدودك الموضوعة فيهم؛ إذ ﴿نُسَبِّحُ﴾ نشتغل دائمًا ﴿بِحَمْدِكَ﴾ وثنائك على آلائك ونعمائك ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ به ﴿لَكَ﴾ أي: ننزه ذاتك عن جميع ما يشعر بالعلل والأعراض فنحن أولى بأمر الخلافة والنيابة منه ﴿قَالَ﴾ تعالى بلسان الجمع في جوابهم؛ إرشادًا لهم وامتنانًا لآدم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من آدم الذي هو مظهر ذاتي وجميع أسمائي ﴿مَا﴾ أي: شيء من الجامعية ﴿لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] أنتم لعدم جمعيتكم.

ثم لما ادعى سبحانه استحقاقه للنيابة ولياقته للخلافة، وأجاب عن شبههم التي أوردوها إجمالاً وأشار إلى تفصيل ما أجمل عليهم إرشادًا لهم على مرتبة الجمع، وتنبيهًا على جلالة قدر المظهر الجامع فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ سبحانه؛ أي: ذكره ﴿الأَسْمَاءَ﴾ التي أودعها في ذاته وأوجد بها ما في العالم من الآثار البديعة ﴿كُلَّهَا﴾(1) بحيث لا يبقى من الأوصاف المتقابلة والأسماء المتخالفة المتضادة شيء إلا ما استأثر به في غيبه ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ الأسماء المودعة باعتبار مسمياتها وآثارها الظاهرة في الآفاق ﴿عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾ الذين يدعون الأولوية في أمر الخلافة ﴿فَقَالَ﴾ تعالى لهم مخاطبًا على سبيل الإسكات والتبكيت: ﴿أَنبِئُونِي﴾ عن روية وبصيرة ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ المسميات، وبأسباب هؤلاء الآثار والمسببات ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(2) [البقرة:31] في

---

(1) قال البقلي: علّمه أسماء الصفات الخاصة التي عرف بها حقائق جميع الصفات، واهتدى بأنوارها طرائق معارف الذات. وأيضًا علّمه أسماء المقامات التي هي مدارج الحالات، وقال الجريري: علّمه اسمًا من أسمائه المخزونة، فعلّم به جميع والأسامي، وقال ابن عطاء: لو لم يَكشف لآدم عِلْم تلك والأسامي؛ لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها.

(2) قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: الصور التي تجلّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، كأنه قال لهم: وهل سبّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلّيات التي أتجلاّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبّحوني بها؟ فقامت عليهم الحجة في ادّعائهم الإلهيّة، فقالت بعد العلم: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو

دعوى الأولوية والأحقية للنيابة، محقين في الاعتراض على آدم لا عن علم بحاله.

﴿قَالُوا﴾ مستوحشين من هذه الكلمات، معتذرين متذللين خائفين من عتابه تعالى، متذكرين عن سوء الأدب مع الله، مستحيين عن سؤالهم من فعله الذي لا يسأل عنه قائلين: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك من أن يعترض عليك ويسأل عن فعلك، ذلك الحكم في ملكوتك والتصرف في مقتضيات أسمائك، وإنما بسطنا معك الكلام لا لانبساطك بنا؛ إذ ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ منها ﴿إلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ بقدر استعداداتنا وقابلياتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ﴾ بجميع الاستعدادات والقابليات ﴿الحَكِيمُ﴾ [البقرة:32] بإقامته ما ينبغي لمن ينبغي بلا عللٍ واعتراضٍ.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:33-37].

ومتى اعترفوا بذنوبهم واعتذروا عن قصورهم وإجرامهم قبل الله عنهم عذرهم وتوبتهم، ثم أظهر عليهم الحكمة المقتضية لخلافة آدم - صلوات الله عليه - جبرًا لانكسارهم ورفعًا لحجابهم وامتنانًا عليهم حيث: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ المستجمع لجميع الأسماء المتخالفة ﴿أَنبِئْهُم﴾ عن خبرةٍ وحضورٍ ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ المركوزة في هويتك عن هؤلاء المسميات المسببات المعروضة عليك المعبرة عنها بالعالم، ثم لما سمعُ آدم نداء ربه بادر إلى الجواب بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم﴾ بتوفيق الله وإلهامه ووحيه ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ على التفصيل الذي أودعه الحق في ذاته؛ لأن المرآة تظهر

لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

جميع ما في الرائي، فلما سمعوا منه التفصيل واستسخروا بإنبائه، وندموا عما صدر عنهم في حقه، وزادوا الاستحياء من الله وتوجهوا نحوه ساكتين نادمين حتى لطف معهم وأدركتهم الرحمة الواسعة، تكلم سبحانه معهم وخاطبهم مذكرًا لهم عما جرى بينه وبينهم، ومستفهمًا لهم على وجه التأديب؛ لئلا يصدر عنهم أمثاله ولئلا يغتروا بعلومهم ومعاملاتهم، ولا يستحقروا مظاهر الحق، ولا ينظروا إليها بعين الاحتقار بل بنظر الاعتبار، ولا يتوهم إخفاء شيء من علم الله المحيط بالأشياء إحاطة حضور حيث ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ إجمالاً أولاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: ما غاب عنهم في علم السماوات التي ادعيتم العلم بتفاصيل أحوالها ﴿وَ﴾ غيب ﴿الأَرْضِ﴾ التي قلتم فيها كلامًا على التخمين وبحسب الظاهر ﴿وَأَعْلَمُ﴾ أيضًا ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:33] تظهرون في حق آدم باللسان ودعوى الاستقلال فيها والانحصار عليها.

ثم لما اعترفوا بذنوبهم وقصورهم، وتضرعوا إلى الله نادمين تائبين عن اجترائهم ومجادلتهم معه مستحيين عنه وعمن استخلفه لنفسه - يعني آدم - بنسبة المكروهات إليه، خائبين عما نووا في نفوسهم من الأولوية في الاستحقاق، تقبل الله عذرهم وأسقط حقه عنهم، ثم أمر بسجودهم لمن استخلفه؛ استجلالاً معه وإيفاء لحقه ليسقط أيضًا عن ذمتهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر يا أكمل الرسل وقت قولنا ﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ النادمين عن الجراءة التي صدرت عنهم ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تذللوا وتواضعوا تكريمًا لآدم وامتثالاً لأمرنا ﴿فَسَجَدُوا﴾ مجتمعين متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة والندامة ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ منهم ﴿أَبَى﴾ وامتنع عن السجود ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن الانقياد له، وأصر على ما هو عليه من الجحود ﴿وَكَانَ﴾ بعدم الامتثال الأمر الوجوبي ﴿مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] المطرودين عن ساحة عز الحضور.

والسر في استثنائه تعالى عن هذا الحكم وعدم توفيقه إياه وعدم اقتداره على السجود، أن يظهر سر الحضور والإظهار والربوبية والعبودية، وسر الإيمان والكفر والجنة والنار وجميع القيودات الشرعية والتكاليف الإلهية؛ إذ نسبته يظهر الاثنينية ويتعدد الطرق وتتفاوت الآراء والمقالات وتبين المخالفات والمنازعات، ويظهر الباطل ويستر الحق، وهو الرقيب المحافظ لآدابه والحاجب المعتكف ببابه، حتى لا تكون شرعة لكل وارد، أو يتوجه إليه واحد بعد واحد، غيرة على الله وحمية لنفسه، ولهذا

تمنى كثير من المحققين مرتبته.

ومن غيرته على ربه إلهاؤهم واغترارهم بالمستلذات والمزخرفات التي مالت إليها نفوسهم بطبعها يشغلهم ويلهيهم بها عن التوجه إلى جنابه والعكوف ببابه، والسر في طرده ولعنه وإبعاده وبكفره تحذيرهم عن الانقياد والاقتداء على أبلغ وجه وآكده، وتمرين لعداوته ورقابته معهم في نفوسهم؛ لئلا يغفلوا عنه، ومع ذلك لم يتركوا متابعته ولم يجتنبوا من إقطاعه الملهية، نعوذ بالله من شرور أنفسنا.

﴿وَ﴾ وبعد ما خلقنا آدم في الأرض خليفة وأنزلنا عنه قوادح القادحين، وأمرنا جميع خصمائه بسجوده وتكريمه، وامتثلوا بالمأمور جميعًا إلا إبليس، تركه للحكمة المذكورة آنفًا ولئلا يتكبر آدم ويتجه بسببه انقياد جميعهم كما تجبر كثير من أبنائه في الأرض بانقياد الشرذمة القليلة ﴿قُلْنَا﴾ له على سبيل الشفقة والنصيحة: ﴿يَا آدَمُ﴾ المستخلف المختار، لازم العبودية ولا تغتر بالخلافة، وداوم على التوجه ولا تغفل عن المعاينة، واعلم أن المعاينة العبودية إنما تحصل بامتثال أوامرنا واجتناب نواهينا، ومتى قبلت بحمل الامتثال والاجتناب ﴿اسْكُنْ أَنتَ﴾ أيها الخليفة أصالة ﴿وَزَوْجُكَ﴾ تبعًا لك ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار السرور ومنزل الفراغ والحضور، ومقام الأنس من الرب الغفور ﴿وَ﴾ إذا سكنتما فيها ﴿كُلاَ﴾ تمتعًا ﴿مِنْهَا﴾ من جميع محظوظاتها ومستلذاتها الروحانية والجسمانية ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا بلا مقدار وعدد ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بلا مزاحمة أحد ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ المخصوصة المعينة حتى لا تخرجا من رق العبودية وإن قربتما ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] الخارجين عن حدود الله بارتكاب المنهي.

ولما استشعر إبليس التوصية والمعاهدة المذكورة المنبئة عن كمال العناية الإلهية بالنسبة إلى آدم، بادر إلى دفعها ورفضها، فوسوس لهما بأن ألقى في قلبهما الدغدغة في تخصيص هذه الشجرة المعنية بالنهي وأنساهما المعاهدة المذكورة في العبودية، وبالجملة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ ألجأهما إلى ارتكاب الزلة بوسوسة ﴿الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ العدو لهما والرقيب معهما فتناولوا عنها عن الشجرة المنهية ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا﴾ أي: من الحضور الذي ﴿كَانَا فِيهِ﴾ أي: في دار السرور ﴿وَ﴾ بعدما ظهر زلتهما ﴿قُلْنَا﴾ لهما ولناصحهما: ﴿اهْبِطُوا﴾ من دار السرور إلى دار الغرور، ومن دار الكرامة إلى دار الابتلاء والملامة،

وعيشوا فيها مع النزاع والخصومة؛ إذ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[1] ينتهز الفرصة لمقته ﴿وَ﴾ بعد هبوطكم ﴿لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل التفرقة وموطن الفتن والمحن ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ استمتاع لمزخرفاتها ومستلذاتها الغير القارة التي ألهاكم الشيطان بها عن النعيم الدائم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36] قيام الساعة التي هي الطامة الكبرى.

ثم لما لم يكن زلة آدم من نفسه ومن مقتضى طبعه بل بوسوسة عدوه، أشفق عليه وتوجه نحوه وتلطف معه ﴿فَتَلَقَّى﴾ استفاد ﴿آدَمُ﴾ المذنب العاصي ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ المستخلف المستقبل عليه ﴿كَلِمَاتٍ﴾ مشتملات على الرجوع والإنابة عما صدر عنه من زلة هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ولما تلقى آدم من ربه هذه الكلمات واستغفر بها، ورجع عما صدر ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: قبل توبته ورحم عليه ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع للمذنبين المنهمكين في العصيان بالإنابة إليه عن ظهر الجنان ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37] [2] لهم عما

(1) قال البقلي: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحدٍ، وربما يقع بكلام أهل الخِداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيءٍ من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد. وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

(2) قال نجم الدين: وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33]، معان مختلفة: منها: إن من دلائل فضيلة آدم واستحقاقه لخلافة الحق احتياج الملائكة إليه بإنبائه الأسماء، وكان آدم عليه السلام أول الأنبياء وأول ما بدأ بإنباء الملائكة بأمر الحق وهذا من جملة ما كان الله يعمله من آدم ولا يعلمون الملائكة منه فقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، وكان الإنباء بأسمائهم من إصلاح حالهم لا من الإفساد، ومنها: أنه تعالى قال: ﴿أَنبِئْهُم﴾ وقال: علمهم لأنه ما كان لهم من استعداد للتعلم؛ لأن التعلم موجب الترقي في العلم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11]، فكلما ازداد علمًا ازداد درجة وليس للملائكة الترقي في الدرجات لقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:164]، ولما كان آدم مستعد للترقي فقال في حقه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]. ومنها: أنه تعالى قال: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33]، وما قال بأسماء كلها، كما قال تعالى في حق آدم عليه السلام وإلا لكان هذا الأمر تكليفًا بما لا يطاق، وليس هذا من سنة الله تعالى؛ لقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

[البقرة:286]، على أنا نقول لو كلف يجوز ولا يكون منه ظلمًا، ولكنه لا يكلف فإنه ليس من سنته ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:62] وإنما قلنا أنه كان في حق آدم التكليف بما لا يطاق لأن الملائكة غير مستعدين لإنباء الأسماء كلها؛ لأن الأسماء على ثلاثة أقسام: منها أسماء الروحانيات والملكوتيات وهي مقام الملائكة ومرتبتهم، فلهم علم بعضها واستعداد أيضًا لإنباء بما لا علم لهم بها، فإن الروحانيات والملكوتيات لهم شهادة كالجسمانيات لنا، والقسم الثاني: منها أسماء الجسمانيات وهي مرتبة دون مرتبتهم فيمكن إنباءهم؛ لأن الجسمانيات لهم كالحيوانات بالنسبة إلينا فإنها مرتبة دون مرتبة الإنسان فيمكن للإنسان الإنباء بأحوالها، والقسم الثالث: منها أسماء الإلهيات وهي مرتبة فوق مرتبة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50]، فلا يمكن للإنسان أن ينبئهم بها، ولا يمكن لهم الإنباء بما فوق ما علمهم الله منها؛ لأنها غيبهم وليس لهم الترقي إلى الغيب، ولهم مقام معلوم لا يتجاوزون عنه، وكذلك يمكن لهم النزول إلى هذا العالم، وذلك أيضًا بالأمر لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:64]، ولا يمكن لهم الترقي من سدرة المنتهى إلى عالم الجبروت؛ لأنهم أهل الملكوت كما قال جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى ليلة المعراج «لو دنوت أنملة لأحرقت» ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33] أي: بأسماء معرضهم على الملائكة وبأنفسهم، وإنما كان آدم عليه السلام مخصوصًا بعلم الأسماء دون الملائكة، وهم محتاجون إليه بإنباء أسمائهم وأسماء غيرهم؛ لأن آدم عليه السلام كان بالحقيقة أفضل العالم وخلاصته، وكان روحه بذر شجرة العالم، وشخصه ثمرة شجرة العالم، ولهذا خلق شخصه بعد تمامه بما فيه كخلق الثمرة بعد تمام الشجرة، وكما أن الثمرة تعبر عن أجزاء الشجرة كلها حتى تظهر على أعلا الشجرة كذلك آدم عبر على أجزاء الشجرة الموجودات علوها وسفلها، وكان في جزء من أجزائها له منفعة ومضرة ومصلحة ومفسدة، فسمي كل شيء منها باسم يلائم تلك المنفعة والمضرة والمصلحة والمفسدة بعلم علمه الله تعالى واختص به من الملائكة، وغيرهم هذا من جملة ما كان الله يعلم من آدم عليه السلام والملائكة لا يعلمون. وكان من كمال حال آدم عليه السلام أن أسماء الله تعالى جاءت على منفعته ومضرته ومصلحته ومفسدته فضلاً عن أسماء غيره، وذلك أنه لما كان مخلوقًا كان الله خالقًا، ولما كان مرزوقًا كان الله رازقًا، ولما كان عبدًا كان الله معبودًا، ولما كان معيبًا كان الله ستارًا، ولما كان مذنبًا كان الله غفارًا، ولما كان تائبًا كان الله توابًا، ولما كان متضررًا كان الله ضارًا، ولما كان ظالمًا كان الله عدلاً، ولما كان مظلومًا كان الله منتقمًا له، فعلى هذا قس الباقي، فلما أظهر من آدم ما كان خفيًا ومغيبًا فيه من إنباء الأسماء قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [يوسف:96]، حين قلتم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة:33]، أي غيب أهل السماوات وهم الملائكة وغيبهم ما غاب عنهم من احتياجهم بآدم في إنباء الأسماء ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:33]، أي غيب أهل الأرض هو آدم وغيبه ما كان مغيبًا مخفيًا فيه من إنباء الملائكة بالأسماء ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البقرة:33]،

من الطعن في آدم واستحقاقه الخلافة، وإظهار طاعتكم بالتسبيح والتقديس تفاخرًا به على آدم عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:33]، من غيرتكم على آدم، وحسبان استحقاقهم الخلافة، فلما أظهر عليهم من أمر آدم خلاف ما تصوروا فيه ومن أمرهم غير ما توهموه أمرهم بسجود آدم إظهارًا لاستغنائه عن طاعات المخلوقين وعصيانهم وشركهم وكفرانهم؛ لأنه ليس كفران ومعصية أكبر من السجود لغيره، واستغفارًا لله باعتراضهم عليه وقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، واعتذارًا من آدم عليه السلام عن قولهم ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، وانكسارًا لأنفسهم بإظهار ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]. ثم أخبر بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، والإشارة في تحقيق الآية أن في قوله ﴿اسْجُدُوا﴾ ثلاثة معان: أحدهما: إنكم تسجدون لله بالطبيعة الملكية والروحانية ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، خلافًا للطبيعة بل تعبدوا ورقًا وانقياد الأمر وامتثالاً للحكم. والثاني: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34]، تعظيمًا لشأن خلافته وتكريمًا لفضيلته المخصوصة به وذلك لأن الحق تعالى يتجلى فيه فمن يسجد له فقد سجد لله تعالى، كما قال تعالى في حق حبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10] والثالث: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، أي: لأجل آدم عليه السلام وذلك لأن طاعتهم وعبادتهم ليست موجبة لثوبهم وترقي درجاتهم، وفائدتها على الحقيقة راجعة إلى الإنسان؛ لمعنيين: أحدهما: إن الإنسان يقتدي بهم في الطاعة، ويتأدب بآدابهم في امتثال الأوامر، وينزجر عن الإباء والاستكبار كيلا يلحق به اللعن والطرد كما لحق بإبليس، ويكون مقبولاً ممدوحًا مكرمًا كما كان الملائكة في امتثال الأمر؛ لقوله تعالى ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6]، والثاني: إن الله تعالى من كمال فضله ورحمته مع الإنسان جعل همة الملائكة في الطاعة والتسبيح والتحميد مقصورة على استعداد المغفرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:5]، فلذلك أمرهم بالسجود لأجلهم وليستغفروا لهم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:34] أي: سجد الملائكة لأنهم خلقوا من نور، كما قال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور» والنور من شأنه الانقياد والطاعة، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ ما سجدوا بي لأنه خلق من النار والنار من شأنها الاستكبار وطلب العلو طبعًا ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34]؛ لأنه ستر الحق على آدم عليه السلام ولهذا أيضًا سمي إبليس؛ لأنه يلبس الحق وأصل الكفر الستر.

ثم أخبر عن تمام نعمته على آدم وكرمه في حقه بعد سجود الملائكة وطرد إبليس لأجله لقوله ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، والإشارة في تحقيق الآية أن فيها إشارات ومعاني منها ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35] أي: بعد أن سجدت لك الملائكة ولعنت لأجلك إبليس جعلت الجنة مسكنك وجعلت منك زوجك ولتسكن إليها وتسكن معك في الجنة، فأسلنا في الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ [البقرة:35] أي: من أثمار أشجارها

ونعمها وألوان أطعمها ﴿رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35]، فتمت نعمتي لديكما ووجبت طاعتي عليكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35]، تقربا التي وطاعة لي لتكونا من المطيعين لأمري ونهي والموفين بعهدي، وإلا ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35]، فلما قبلتما قولي وما أوفيتما بعهدي وعصيتما أمري وظلمتما على أنفسكما، فهذا منكما من خصوصية الظلومية الجهولية ظلوم بأنه مظلم نفسه جهولاً بأنه لا يعلم أن ظلمه عائد إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:57]. ومنها: إشارة بأن أبحت لك يا آدم نعيم الجنة وما كان فيها، وما كان لك فيها حق لأنك ما عملت عملاً تستحق به الجنة، فأعطني هذه الشجرة الواحدة منها وهي كلها لي وأنا خلقتها، فإن لم تعطينها وتطمع فيها أيضًا، فاعلم ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:6-8]. ومنها: لتعلم أن لك همة عالية لا يسعها الجنة بما فيها، فإني أوهبتك الجنة منفردًا وحيدًا وأبحت لك نعيمها مع كثرة تنوعها دون شجرة واحدة، فما رضيت نفسك بها وما قنعت بها حتى تفرقت في تلك الشجرة، ولو كانت مكانها ألف جنة أخرى لم يكفها، وكانت جهنم حرصا تقول هل من مزيد ولا تملأ حتى يضيع الجبار فيها قدمه، فهنالك تمتلئ وتتردى بعضها إلى بعض وتقول قط قط فافهم جدًّا.

ومنها: إنه يشير بقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، إلى أن الجنة مرتع النفس البهيمية الحيوانية، وغاية مطلبها وهمتها ونهاية نهمتها وشهوتها، ولكن فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35]، واقنعا بها واستريحا، ولا توقدا نار الفتنة على أنفسكما، ولا تصبا من قربة الجنة ماء الجنة على رأسكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35] أي: شجرة المحبة قد غرست لأجل آدم ﷺ على الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وإنما نهى عنها لمعنيين: أحدهما: للعزة والدلال المحبوبي، فإنها من ثمة الحزن وكمالية الجمال. وثانيهما: نهي التحريض والحث عليها، فإن الإنسان حريص على ما يمنع منه، نقل أن آدم ﷺ ما أكل من الجنة شيء آخر إلا من هذه الشجرة لو لم ينه عنها لعله ما فرغ إليها من كثر أنواع المستلذات النفسانية، وكانت المحبة غذاء روحانيًا قد كره منها، وحرضه عليها بنهيه عنها، وهذا كان كحال موسى ﷺ فلما أراد الله تعالى أن يشوقه إلى جماله ويبتليه ببلاء طلب الرؤية، ويفتح به هذا الباب على المحبين كلمه تكليما بلا واسطة جبريل ﷺ لما أسكره بأقداح الكلام، وأذاقه لذة شراب السماع، وقربه اشتياق إلى جماله وطمع في رؤيته، ورجا وصاله، فلما طمع في رؤيته ألقى جلباب الحياء وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف:143]، ثم تروى برواة الكبرياء، وأتزر بأزاو العظمة والعلاء وقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، فكذلك حال آدم ﷺ خلصه بيده، ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة في جواره وزوجه حواء حتى شاهد جمال الحق في مرآة كل جميل من جمال الله تعالى. وأنبت شجرة المحبة بين يديه ودله عليه نهيه ومنعه عنها، وقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، إلى ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35]،على أنفسكما باستجلاب

محنة المحبة لأن المحبة والمحنة متلازمان والبلاء والولاء توءمان، والجنة دار السلام والسلامة، فلما ذاقا الشجرة أخرجا من دار السلام فثبتا على زعم الحسود وبينا حديث كطيب المسك شيب به الخمر، فلما أضاء الصبح فرق بيننا، وأتي نعيم لا تكدره الدهر. ثم أخبر عن ذلتهما بعد عزتهما بقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:36]، والإشارة فيها أن آدم ﷺ أصبح محمول العناية، مسجود الملائكة، متوجًا بتاج الكرامة، ملبسًا بلباس السعادة، في وسطه نطاق القربة، وفي جيده طوق الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة ولا شخص معه في الرفعة، يتوالى عليه حلاوة النداء كل لحظة، فلما جاء القضاء ضاق الفضاء فانقلب العصا. فلم يمس حتى نزع لباسه، وسلب استئناسه تدفعه الملائكة بعنف أن اخرج بغير مكث ولا بحث ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يد التقدير بحسن التدبير ﴿الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: عن تلك العزة والقرابة، وكان الشيطان المسكين في هذا الأمر كذئب يوسف لما اخذ بالجناية ولطخ فمه بدم كذب، وإخوته قد ألقوه في غيابة الجب، فأخذ الشيطان لعدم العناية ولطخ خرطومه بدم نصح كذب ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من السلامة إلى الملامة، ومن الفرح إلى الترح، ومن النعمة إلى النقمة، ومن المحبة إلى المحنة، ومن القربة إلى الغربة، ومن الألفة إلى الكلفة، ومن الوصلة إلى الفرقة، وكان قبل أكل الشجرة مستأنسًا بكل شيء ومؤانسًا مع كل أحد، ولذلك سمي إنسانًا، فلما ذاق شجرة المحبة استوحش من كل شيء، واتخذ كل أحد عدوًا، وهكذا شرط صحة المحبة عداوة ما سوى المحبوب، فكما أن ذات المحبوب لا تقبل الشركة في التعبد كذا لا تقبل الشركة في المحبة، ولهذا قال ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(2) [البقرة:36]، وكذا كان حال الخليل في البداية يتعلق بالكوكب والقمر والشمس، ويقول: ﴿ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، فلما ذاق شجرة الخلة قال: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78]، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]. فلما استقرت حبة المحبة كالبذر في قلب آدم جعل الله شخص آدم مستقر قلبه، وجعل الأرض شخصه وقال:﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36] أي: التمتع والانتفاع ببذر المحبة بماء الطاعة والعبودية إلى حين إدراك ثمرة المعرفة؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:25]. وعلى التحقيق ما كانت ثمرة شجرة المخلوقات إلا المعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، أي: ليعرفون ثمرة المعرفة، وإن ظهرت على أغصان العبادة ولكن لا تنبت إلا من حبة المحبة كما أخبر النبي ﷺ: «أن داود ﷺ قال: يا رب لماذا خلقت الخلق؟ قال: كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» فثبت أن بذر المعرفة هو المحبة، فاعلم واغتنم لعلك تشم رائحة فتسعد. ثم أخبر عن أمطار الإلهام من سحاب الفضل والأنعام على أرض قلب آدم لإنبات حبة المحبة، وتميز شجرة المعرفة بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:37]. والإشارة في تحقيق الآية: أن أول نبت مطرت أمطار الربانية من حبة المحبة في قلب آدم، وطينة الإنسان كان نبات، ﴿رَبَّنَا

صدر عنهم من المعاصي والآثام بلا معاتبة ولا انتقام.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: 38-42].

ثم لما تلقناه الكلمات التي تاب بها وقبلنا عنه توبته، أخرجناه من اليأس والقنوط وأطمعناه الرجوع إلى الجنة بأن: ﴿قُلْنَا﴾ له ولذريته المتفرعة عليه، منبهين عليهم طريق الرجوع ﴿اهْبِطُوا﴾ الزموا مكان الهبوط، واستقروا عليها حال كونكم خارجين ﴿مِنْهَا جَمِيعاً﴾[1] من الجنة، وترقبوا دخولها بإذن منا ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ أيها المترقبون ﴿مِّنِّي﴾ لا غيري ﴿هُدًى﴾ من وحي وإلهام، وهو علامة إذني ودليل رضاي برجوعكم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ ومن رجع إلي به ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المراجعة إلى المقام الأصلي

ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23]؛ لأنه أبصر بنور الإيمان أنه ظالم لنفسه إذا أكل حبة المحبة، ووقع في شبكة المحنة والذلة، وإن لم يعنه ربه بمغفرته، ويفنه برحمته لم يتخلص من حضيض بشريته الذي أهبط إليه، ويخسر رأس مال استعداد السعادات الأزلية، ولم يمكنه الرجوع إلى ذروة مقام القربة فاستغاث إلى ربه وقال مضطرًا، وكانت الحكمة في إبعاده بالهبوط والاضطرار، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، فبسابقة العناية أخذ بيده وأفاض عليه بحال رحمته: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، للتائبين فأخرج من آيات الكلمات شجرة الاجتباء، وأظهر على دوحتها زهرة التوبة، وأثمر منها ثمرة الهداية، وهي المعرفة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122].

(1) قال البقلي: الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحد، وربما يقع بكلام أهل الخِداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيء من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد، وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38] بعد رجوعهم إليها بل كما بدأكم تعودون.

﴿وَالَّذِينَ﴾ لم يترقبوا الرجوع، ونسوا ما هم عليه في الجنة ولم يلتفتوا إلى الهدى المؤتى، و﴿كَفَرُوا﴾ به وأنكروا له ﴿وَكَذَّبُوا﴾ رسلنا الذين أتوا إياهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ دلائلنا الدالة على صدقهم من المعجزات الظاهرة، والآثار الباهرة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الهابطون الناسون الموطن الأصلي والمقام الحقيقي، المستبدلون عن الجنة بعرض هذا الأدنى، والكافرون بطريق الحق، والمكذبون بمن يهديهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ التي هي معدن البعد والخذلان، ومنزل الطرد والحرمان ﴿هُمْ﴾ بسبب نسيانهم وتكذيبهم ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:39] إلى ما شاء الله.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

ثم لما بين سبحانه وتعالى طريق الهداية والضلال، ونبه على جزاء كل منهما إجمالاً، أشار إلى تفصيله وتوضيحه من قصص القرون الماضية والأمم السالفة، ليتيقن المؤمنين منها ومن جملتها قصة ندائه تعالى بني إسرائيل أولاد يعقوب إسرائيل الله، مخاطبًا لهم أمر تذكرهم بالنعم التي أنعمها عليهم؛ ليكونوا من الشاكرين لنعمه، الموفين بعهده بقوله:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المتنعمين بالنعم الكثيرة ﴿اذْكُرُوا﴾ واشكروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى من استخلفكم من أسلافكم ﴿وَأَوْفُوا﴾ بعد اعتدادكم النعم على أنفسكم ﴿بِعَهْدِي﴾ الذي عاهدتم معي من متابعة الهدى النازل مني على لسان الأنبياء ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من إرجاعكم إلى المقام الأصلي الذي أنتم فيه قبل هبوطكم إلى دار المحن، وبعد رجوعكم إليه في النشأة الأخرى، لا يبقى لكم خوف من الأغيار، بل رهبة من سطوة سلطنتي ﴿وَ﴾ عند عروجها ﴿إِيَّايَ﴾ لا إلى غيري ﴿فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40] فارجعون؛ لأوانس معكم وأزيل رهبتكم.

﴿وَ﴾ علامة وفائكم بعهدي هي الإيمان ﴿آمِنُوا﴾ على وجه الإخلاص والإيقان ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾ من فضلي على كل واحدٍ من رسلي بالقرآن المنزل على الحضرة الختمية الخاتمية، المؤيد بالدلائل القاطعة والحجج الساطعة والمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة مع كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين، مشتملاً على ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ والحقائق مع لطائف أخر خلت عنها جميعها، وبعد ظهور المنزل به وادعاء من أنزل عليه الرسالة والإهداء

﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: لا تكونوا مبادرين على الكفر بالمهدي وما هدى به، بل كونوا أول من آمن به وصدق بما جاء به من عند ربه، فانتهزوا الفرصة للإيمان ولا تغفلوا عنه ﴿وَ﴾ بعد نزوله وظهوره ﴿لاَ تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ المنزلة على أنبيائي ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من المزخرفات الفانية ﴿وَ﴾ إن عسر عليكم ترك هذا الاستبدال لميل نفوسكم إليه بالطبع ﴿إِيَّايَ﴾ عند عروض ذلك ﴿فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:41] لأحفظكم عنه وأسهله عليكم.

﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ﴾ الظاهر الثابت ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الموهوم المزخرف للضعفاء الذين لا تمييز لهم ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ أيضًا في نفوسكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:42] حقيقته عقلاً وسمعًا.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة:43-48].

﴿وَ﴾ بعدما آمنتم بالله وكتبه المنزلة على رسله ذهبتم عما نهيتم ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أديموا الميل والتقرب إلى جنابه، وتوجهوا نحو بابه بجميع الأعضاء والجوارح، قاصدين فيه تخلية الظاهر والباطن عن الشواغل النفسية، والعوائق البدنية المانعة من الميل الحقيقي ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لنفوسهم عن العلائق الخارجية، والعوارض اللاحقة المثمرة لأنواع الأمراض في الباطن في البخل والحسد والحقد وغير ذلك ﴿وَ﴾ إن قصدتم التقرب والتوجه على الوجه الأتم الأكمل ﴿ارْكَعُوا﴾ تذللوا وتضرعوا إليه سبحانه ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:43] الذين خرجوا عن هوياتهم بالموت الإرادي، ووصلوا إلى ما وصلوا بل اتصلوا، لا مع الذين يراءون الناس، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، لذلك خاطبهم الحق سبحانه على سبيل التوبيخ، فقال:

﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ أيها المراءون المدعون لليقين والعرفان ﴿النَّاسَ﴾ على سبيل النص

والتذكير ﴿بِالْبِرِّ﴾ المقرب إلى الله ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ أنتم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ من امتثال ما قلتم ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ المشتمل على الأوامر والنواهي، فحقكم أن تمتثلوا بها أولاً ﴿أَ﴾ تلتزمون تذكير الغير، وأنتم في الغفلة ﴿فَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44] قبيح صنيعكم هذا.

ولما أمرتم بعد الإيحاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المطهرين لنفوسكم ظاهرًا وباطنًا، فعليكم الإتيان بالمأمور على الوجه الأتم، ولا يتيسر لكم الإتيان بها على الوجه الذي ذكر إلا بإدامة الاستعانة ﴿وَ﴾ المظاهرة من الخصلتين؛ لذلك أمر سبحانه باستعانتهما ﴿اسْتَعِينُوا﴾ في التوجه والتقرب إلى الله ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عن المستلذات الجسمانية والمشتهيات المزينة ﴿وَالصَّلاَةِ﴾ الميل والإعراض عما سوى الحق ولا تسهلوا أمر الاستعانة ولا تخففوها ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلة شاقة على كل واحد ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45] الخاضعين.

﴿الَّذِينَ﴾ يرفعون رين الغيرية عن العين، ويسقطون شين الاثنينية عن البين ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ﴾ في هذه النشأة؛ لأنهم يعبدون إليه كأنهم يرونه ﴿وَ﴾ يعلمون يقينًا ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا وجود للغير ﴿رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:46] عائدون صائرون في النشأة الأخرى، اللهم اجعلنا من متبعيهم ومحبيهم.

ثم لما منَّ عليهم بالنعم التي تظهر آثارها وثمراتها في العالم الروحاني بحسب النشأة الأخرى، منَّ عليهم بالنعم التي ظهرت آثارها عليهم في العالم الجسماني بحسب النشأة الأولى، فناداهم أيضًا مبتدئًا مذكرًا بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾ ولا تكفروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى أسلافكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنِّي﴾ بحولي وقوتي ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:47] من أبناء نوعكم بفضائل أغنت شهرتها على إحصائها.

وبعدما ذكرتم النعم وعرفتم المنعم المفضل، لا تغتروا بفضلي ولطفي بل احذروا من انتقامي وقهري ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تحشرون إلي للجزاء، وفي ذلك اليوم ﴿لاَّ تَجْزِي﴾ لا تسقط ﴿نَفْسٌ﴾ مطيعة كانت أو عاصية ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ عاصية ﴿شَيْئًا﴾ من جزائها وعذابها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لاَ يُقْبَلُ﴾ فيها ﴿مِنْهَا﴾ من النفس العاصية ﴿شَفَاعَةٌ﴾ من شافع صديق حميم ﴿وَ﴾ كذا ﴿لاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لتمهل مدة ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾

[البقرة:48][1] فيه بالأعوان والأنصار، بل كل نفس رهينة بما كسبت.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:43] بمراقبة القلوب وملازمة الخضوع والخشوع، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:43]، وأصل الزكاة الطهارة والنماء والزيادة أي: بالغوا في تزكية النفس عن الحرص الدنيوي والأخلاق الذميمة وتطهير القلب عن رؤية السيئة، وترك مطالبة ما سوى الله فإنه مع طلب الحق زيادة والزيادة على الكمال نقصان ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:43] أي: اقتدوا مع الانكسار ونفي الوجود بالمنكسرين الباذلين الوجود لنيل الجود. ثم أخبر عن فريق منهم بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44]، والإشارة فيها أنها شاملة لمن يحرض الناس على طلب الحق ومعاملة الصدق ويحذرهم الدنيا والهوى، وينبئهم عن آفاتها وهو تباعد عن ذلك، ولا ينتهي بنفسه مثل العلماء السوء والملتبسين الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:44] أي: تقرؤون القرآن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44]، معناه ولا تفهمون فحواه كي تنتهوا عن أفعالكم الردية وتعملوا بأقوالكم السنية. ثم أخبر عما يخرجهم إلى الحق وترك الباطل بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ [البقرة:45]، والإشارة فيها أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة:45]، عن شهوات النفس ومتابعة هواها ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:45] أي: دوام الوقوف والتزام العكوف على باب الغيب وحضرة الرب، ﴿وَإِنَّهَا﴾ [البقرة:45] أي: الاستعانة بهما ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة:45]، أمر عظيم وشأن صعب ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45]، وهم الذين تجلى الحق لأسرارهم فخشعت لأنفسهم كما قال ﷺ: «إذا تجلى الله لشيء خضع له» وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:108] فالتجلي يورث الألفة مع الحق ويسقط الكلفة عن الخلق، ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:46] أي: يوقنون بنور التجلي ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:46]، أنهم يشاهدوا كمال الحق، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 46]، بجذبات الحق الذي جذبه منها توازي عمل الثقلين ثم أخبر عن تأكيد ذكر النعمة لتجديد المنة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:47]، والإشارة في تحقيق الآية أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:47]، ظاهره عام وباطنه خاص مع قوم منهم قد علم الله فيهم خيرًا، فأسمعهم خطابه في السر، فذكروا النعمة التي أنعم الله بها عليهم، وهي استعداد قبولهم رشاش نوره يوم خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فآمنوا بمحمد ﷺ من خاصة قبول ذلك الرشاش كما قال ﷺ: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل» ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:47] أي: بهذه النعمة عند رش النور على من لم يصبهم ذلك النور مع العالمين ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة:48] أي: عذاب يوم يخوف الله العام بأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ [البقرة:48]، ويخوف الخاص بصفاته كقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة:49-53].

وبعدما ما أمرهم بتذكير النعم إجمالاً، وحذرهم عن جزاء الكفران، أشار إلى مقدار النعم العظام التي خصصوا بها امتنانًا عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ أي: اذكروا وقت إنجائنا إياكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعلمونكم ويفضحونكم بسوء العذاب الذي لا عذاب أسوأ منه وهو أنهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ لئلا يبقى ذكركم في الدنيا؛ إذ بالابن يذكر الأب ويحيا اسمه؛ لأنه سره ﴿وَ﴾ أشنع من ذلك أنهم ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بناتكم ليلحق العار عليكم، بتزويجهم إياهن بلا نكاح ولا عار أشنع من ذلك، لذلك عد موت البنات من المكرمات ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: واعلموا في المحن المشار إليها ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار لكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:49] ليجزيكم بنعمة أعظم منها، وهو إنجاؤكم منهم واستيلاؤكم عليهم.

وبعدما ابتليناكم باحتمال الشدائد والمتاعب، ومقاساة الأحزان أردنا إنجاءكم من عذابهم وإهلاكهم بالمرة، فأمرناكم بالسير والفرار من العدو ففررتم ليلاً، فأصبحتم

يَغْلِبُونَ﴾ [النحل:23]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:8]، ويخوف خاص الخاص بذاته لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28]، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:12] ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:48]، ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:19] ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:48]، في حق نفسها ولا في حق غيرها بغير الإذن، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255]، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:48] أي: عدل لأنه ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم:39]، والسعي المشكور إنما يكون هاهنا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:48]، لأنهم ما نصروا الحق هاهنا وقد قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:7].

مصادفين البحر والعدو صادفكم.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ أي: وقت تفريقنا بالفرق الكبيرة ﴿الْبَحْرَ﴾ المتصل في بعضه ليسهل عبوركم منه ونجاتكم منه، وبالجملة: ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ فعبرناكم منه سالمين ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ المقتحمين بالفور خلفكم باجتماع تلك الفرق واتصال البحر على ما هو عليه في نفسه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ حينئذ ﴿تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:50] إلى الافتراق والاجتماع المتعاقبة، فكيف لا تذكرونها وتشكرونها.

﴿وَ﴾ بعد إنجائكم من البحر سالمين، وإغراقهم بالمرة وإيراثنا لكم أرضهم وديارهم وأموالهم اذكروا ﴿إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ المتبحر في ضبط المملكة في أول الاستيلاء بأمر، قلنا له: إن أخلصت التوجه والرجوع والميل إلينا مدة ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ متوالية متتالية - خصصها لخلوها عن الشواغل المانعة من الإخلاص - أنزلنا عليكم كتابًا جامعًا لمرتبتي الإيمان والعمل، حاويًا على جميع التدابير والحكم الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ﴾ لما اشتغل موسى بإنجاز الوعد، وإيفاء العهد فذهب إلى الميقات ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ الذي صوغتم بيدكم من حليكم بتعليم السامري، بسبب الخوار الذي ظهر منه ابتلاء لكم وفتنة إلهًا من دون الله، بل حصرتم الإلهية له بقولكم: هذا إلهكم وإله موسى، فأخلفتم الوعد ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى إلى الميقات، وقبل رجوعه منه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ بسبب خلف الوعد والاتخاذ المذكور ﴿ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:51] خارجون عن الإيمان والتوحيد، والعياذ بالله من ذلك.

﴿ثُمَّ﴾ لما تبتم ورجعتم إلينا عن صميم القلب ﴿عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي: أزلنا عن ذمتكم جزاء ذلك الظلم الذي ظلمتم ﴿مِّن بَعْدِ﴾ إنابتكم ورجوعكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ وإنما أزلناه عنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:52] رجاء أن تشكروا، أو تعظموا نعمة العفو الذي هو من آثار اللطف، والجمال المتفرع على الظلم المعفو عنه الذي هو من آثار القهر والجلال، فتكونوا من الشاكرين الذين يشكرون الله في السراء والضراء والخصب والرخاء.

﴿وَإِذْ﴾ بعدما أخلفتم الوعد قبل تمامها، وظلمتم باتخاذ العجل لم نهمل أمر موسى، ولم نخلف الوعد الذي وعدنا معه اذكروا ﴿آتَيْنَا مُوسَى﴾ إنجازًا لوعدنا ﴿الْكِتَابَ﴾ الموعود، الجامع لأسرار الربوبية ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ الفارق بين الحق والباطل، وبين الضلالة والهداية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تهتدون له ﴿تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:53] به إلى طريق

التوحيد، وتجاهدون فيه إلى أن تخلصوا عن الشواغل المانعة عنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:04–07].

﴿وَ﴾ ولما أنجزنا وعد موسى ورجع إلى قومه غضبان أسفًا اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [1] المؤمنين له والمعاهدين من بعد رجوعه عن الميقات والتورية: ﴿يَا

---

(1) قال نجم الدين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة:54]، والإشارة فيها أن لكل قوم عجلاً يعبدونه من دون الله قوم يعبدون عجل الدرهم والدينار قال ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة» وقوم يعبدون عجل الشهوات، وقوم يعبدون عجل الجاه، وعجل الهوى وهذه بغضها الله تعالى لقوله ﷺ: «ما عبد إله أبغض على الله من الهوى» وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:23]، فأرسل الله تعالى نبيه موسى قلب كل سعيد لقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:54]، ارجعوا إلى الله تعالى بالخروج عما سواه، ولا يمكنكم إلا بقتل النفس ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:54]، بقمع الهوى لأن الهوى هو حياة، وبالهوى عبد ما عبد من دون الله على الحقيقة، وبالهوى ادعى فرعون الربوبية، وعبد بنو إسرائيل العجل، وبالهوى أبى واستكبر إبليس، وبه أكل آدم من الشجر، وبه عبدت الكواكب والأصنام وفيه معنى آخر ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ ارجعوا إليه للاستنصار على قتل النفس بنهيها عن هواها، فاقتلوا أنفسكم بنصر الله وعونه، فإن قتل النفس في الظاهر تيسر للمؤمنين والكافرين، وأما قتل النفس في الباطن وقهر ما قهر صعب لا تيسر إلا الخواص الحق بسيف الصدق ونصر الحق، ولهذا جعل مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء بقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:69] وكان النبي ﷺ إذا رجع من غزو يقول: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وذلك لأن المجاهد إذا قتل بسيف الكفار يستريح من النصب والتعب بمرة واحدة، وإذا قتل بسيف الصدق في يوم ألف مرة يحيى نفسه على بصيرة أخرى وتزداد في مكرها وخداعها وحيلها، فلا يستريح المجاهد طرفة من جهادها، ولا يأمن مكرها وبالحقيقة النفس صورة مكر

قَوْمِ﴾ الناقضون بعهدي، المجاوزون لحدود الله ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهًا مستحقًا للعبودية ﴿فَتُوبُوا﴾ عن هذا الاعتقاد والاتخاذ، وارجعوا متذللين ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ الذي برأكم من العدم ليبرأكم عن هذا الظلم، وإذا تبتم ورجعتم ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الأمارة بهذا الظلم، بأنواع الرياضات وترك المشتهيات والمستلذات، وقطع المألوفات وترك المستحسنات الملومين عليها بأنواع الملامات، حتى تكون مطمئنة بما فتنتم بها، راضية بجريان حكم القضاء، مرضية بالفناء بل فانية عن الفناء ﴿ذَلِكُمْ﴾ المشار إليه من الإنابة والرجوع وإبراء الذمة والإذلال بأنواع الرياضات والفناء المطلق أيضًا ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم الذي خلقكم للتوحيد والعرفان، وإذا تحقق إنابتكم وإخلاصكم فيها ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ورضي عنكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع للعباد إلى التوبة والإنابة ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54] لهم بقبول التوبة عنهم وإن عظمت زلتهم.

الحق ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99] ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:54] يعني: قتل النفس بسيف الصدق ألف مرة خير لكم؛ لأن بكل قتلة رفعة درجة لكم عند بارئكم، فأنتم تقربون إلى الله تعالى بقتل النفس وقمع الهوى وهو يتقرب إليكم بالتوفيق للتوبة والرحمة عليكم، كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا» وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54]، أخبر عن سوء أعمالهم بمقالهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:55]، الآيتين الإشارة فيهما أن مطالبة الرؤية جهرة هي تعرض مطالعة الذات المقدسة، فتوجب سوء الأدب وترك الحرمة، وذلك من أمارات البعد والشقاوة فمن سطوات العظمة والعزة أخذتهم الرجفة والصعقة إظهارًا للعدل، ثم من سنة الكرم قاصد عليهم بحال النعم إسبالاً للستر على هيئات العبيد والخدم فقال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة:55] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:56]، إظهارًا للفضل. ثم أخبر عن نتائج الكرم بأنواع النعم بقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة:57]، والإشارة لما ابتلاهم بألسنة العزة وأدبهم بسوط القوة، أدركم بالرحمة في وسطة الكربة، فأكرمهم بالإنعام وظللهم بالغمام ومن عليهم بالمن وسلاهم بالسلوى، فما ازدادوا بشؤم الطبيعة ولؤم الوقيعة إلا في البلوى، كما قيل ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:57]، بأمر الشرع ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة:57]، إذ تصرفوا فيها بالطبع ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:57]، بالحرص على الدنيا ومتابعة الهوى.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى عند دعوتكم إلى الإيمان والهداية: ﴿يَا مُوسَى﴾ المدعي للرسالة، الداعي إلى الله بمجرد الإخبار ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ولما جئت به من عند ربك ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ﴾ المرسل ﴿جَهْرَةً﴾ ظاهرًا من غير حجاب كما يرى بعضنا بعضًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ النازلة من عين قهرنا وغضبنا لإنكاركم ظهورنا الذي هو أظهر من الشمس، بل الشمس إنما هي لمعة من لمعات ذاتنا ﴿وَأَنتُمْ﴾ حين ترونها ﴿تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:55] متحيرين والهين بلا تدبير وتصرف، إلى أن صرتم فانين مقهورين تحت قهرنا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أحييناكم وأنشأناكم بالتجلي اللطفي ﴿مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وفنائكم بالقهر والغضب امتنانًا لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56] نعمة الوجود والحياة بعد الموت، وتعتقدون الحشر الموعود به في يوم الجزاء وتؤمنون به.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا إذ ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ يوم لا ظل إلا ظله، وأنتم تائهون في التيه في الصيف، بأن سار معكم حيث شئتم، ولا يزول ظله عنكم ﴿وَ﴾ مع ذلك أنعمناكم فيها بأعظم من ذلك بأن ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ من جانب السماء ﴿الْمَنَّ﴾ التي الترنجبين لسكن حرارتكم ﴿وَ﴾ أنزلنا لغذائكم ﴿السَّلْوَى﴾ وهو السماني، أو مثله في النزول من جانب السماء، وأبحنا لكم تناولهما، ولا تكفروا بها بأن قلنا لكم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من خصائص النعم واشكروا لها ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بمنع المنافع ورد الفوائد ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:57] من الفوائد العائدة لنفوسهم من ازدياد النعم في إدامة شكرنا، والتقرب إلينا في إقامة حدودنا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:08-60].

﴿وَ﴾ واذكروا ظلمكم أيضًا ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ بعد خروجكم من التيه إشفاقًا لكم

وامتنانًا عليكم ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ التي هي من منازل الأنبياء والأولياء وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من مأكولاتها ومشروباتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا مزاحم ولا مخاصم ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا بلا خوف من السقم حتى يتقوى مزاجكم ويزول ضعفكم، وبعد تقويتكم المزاج بالنعم ارجعوا إلينا وتوجهوا نحو بيتنا التي فيها ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مذللين خاضعين، واضعين جباهكم ووجوهكم على الأرض، وعند سجودكم استغفروا ربكم من خطاياكم ﴿وَقُولُوا﴾ رجاؤنا منك يا مولانا ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: حط ما صدر عنا وجرى علينا من المعاصي والآثام، وإذا دخلتم كما أمرتم واستغفرتم كما علمتم ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ التي جئتم بها واستغفرتم لها ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:58] منكم، الذين لم يتجاوزوا الحد ولم يخالفوا الأمر الرضوان الذي لا مرتبة أعلى منه.

ولما أمرناهم بالدخول على هذا الوجه، وعلمناهم طريق الدعاء والاستغفار خالف بعضهم المأمول ظلمًا وتأويلاً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالخروج عن أمرنا، قولنا لهم لإصلاح حالهم ﴿قَوْلاً﴾ آخر لفظًا ومعنى ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بأن أرادوا من القول الملقى إليهم لفظًا آخر، ومعنى آخر برأيهم الفاسد وطبعهم الكاسد حطًا سمتاثًا؛ أي: حنطة حمراء، ولما لم يأتوا بالمأمور به ومع ذلك بدلوا إلى ما تهوى أنفسهم أخذناهم بها ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تنصيصًا عليهم وتخصيصًا لهم، لتعلم أن سبب أخذهم ظلمهم ﴿رِجْزًا﴾ طاعونًا نازلاً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 59] يخرجون عن حدود الله المنزلة من السماء بأنواع الفسوق والعصيان.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾ وطلب السقي بإنزال المطر ﴿لِقَوْمِهِ﴾ حين بثوا شكواهم عنده من شدة العطش في التيه ﴿فَقُلْنَا﴾ له مشيرًا إلى ما يترقب من مطلوبه بل يستبعده: ﴿اضْرِب﴾ ولا تستبعد ﴿بِّعَصَاكَ﴾ التي استعنت بها في الأمور والوقائع ﴿الْحَجَرَ﴾ الذي بين يديك فتفطن موسى بنور النبوة للأمر الوجوبي، فضربه دفعة ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ فجأة ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متمايزة منفردة كل منها عن صاحبتها بعدد رءوس الفرق الاثني عشر بحيث ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من كل فرقة ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ المعينة لهم دفعًا للتزاحم والتنازع، ثم أمرناكم بما ينفعكم ظاهرًا وباطنًا بأن قلنا لكم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مترفهين متنعمين ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ الذي رزقكم من محض فضله ولطفه من حيث لا تحتسبون ونهيناكم عما يضركم صورة ﴿وَ﴾ معنى بأن قلنا لكم:

﴿لاَ تَعْثَوْا﴾ أي: لا تظهروا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ خيلاء متكبرين ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:60] فيها بأنواع الفسادات متنهزين بها، و ﴿اللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:18].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:61].

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى في التيه بعد إنزال المنّ والسلوى وانفجار العيون محولاً خاليًا عن الإخلاص والمحبة، ناشئًا عن محض الفساد والغفلة وكفران النعمة: ﴿يَا مُوسَى﴾ على طريق سوء الأدب معه ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ معك في التيه ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهذا غير ملائم لمزاجنا وطباعنا ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي ادعيت تربيته لنا ﴿يُخْرِجْ﴾ يظهر ويهيئ ﴿لَنَا﴾ غذاءنا ﴿مِمَّا﴾ من جنس ما ﴿تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ التي هي معظم عنصرنا سواء كان ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ خضرواتها التي يأكلها الناس للتفكه والتلذذ بحرافتها وحموضتها ومرارتها الملائمة لمزاجه ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ التي يتفكه بها لتبريد المزاج ﴿وَفُومِهَا﴾ حنطتها التي يتقوت بها لشدة ملاءمتها مزاجه، لذلك ما أزل الشيطان أبانا آدم إلا بتناولها ﴿وَعَدَسِهَا﴾ المعد لهضم الغذاء ﴿وَبَصَلِهَا﴾ التي تشتهيها النفوس المتنفرة عن الحلاوة والدسومة.

فلما سمع موسى منهم ما قالوا آيس وقنط من صلاحهم وإصلاحهم ﴿قَالَ﴾ في جوابهم موبخًا لهم ومقرعًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ أيها الناكبون عن طريق الحق، المائلون إلى الهوى ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ المخرج من الأدنى ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وأعلى، المنزل من الأعلى، وأنا أستحي من الله سؤال ما سألتم ﴿اهْبِطُوا﴾ انزلوا ﴿مِصْراً﴾ أرض العمالقة وديار الفراعنة ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ بالكد والفلاحة ﴿وَ﴾ بعدما ذلوا نفوسهم بطلب الأشياء الدنية الخسيسة ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أعلمت وختمت عليهم ﴿الذِّلَّةُ﴾ لخباثة نفوسهم وقساوة قلوبهم وتمكن النفاق في جبلتهم؛ لذلك ما ترى يهوديًا إلا ذليلاً في نفسه خبيثًا في معاشه ﴿وَ﴾ ضربت عليهم أيضًا ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ المذمومة

المتفرعة على الذلة المتفرعة على الدناءة والخباثة ﴿وَ﴾ بعدما ضربت عليهم الذلة ﴿بَاءُوا﴾ صاروا مقارنين ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ المطلع على ضمائرهم وسرائرهم ﴿ذَلِكَ﴾ السبب الموجب لنزول الغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ لخبث طبيعتهم وشدة نفاقهم وضغينتهم ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ النازلة عليهم عطاء وامتنانًا ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقنعون بكفران النعم بل ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ المنبئين لهم عن قبح صنيعهم ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ الذي ظهر عندهم من الخبائث الموجبة للقتل بل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ عصيانًا فاحشًا ﴿وَكَانُوا﴾ في ذلك العصيان ﴿يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:61] يتجاوزون حدود الله عنادًا واستكبارًا.

ولما بالغوا في الإعراض عن الله والتجاوز عن حدوده وكفران نعمه، وصاروا من إفراطهم مظنة ألّا يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح، تقاعد موسى - صلوات الله عليه - عن تبليغهم، وآيس عن اهتدائهم بالمرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:62-64].

ثم أشار سبحانه إلى أن منهم ومن أمثالهم من ذوي الأديان والملل من يهدي إلى الحق، ويتوجه إلى طريق مستقيم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدين سيدنا محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ انقادوا بدين موسى عليه السلام ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين آمنوا بدين عيسى عليه السلام ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين تدينوا بدين نوح عليه السلام ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: أيقن بوحدانية الله، وأقر بربوبيته، واعترف بأن لا موجد إلا الله الواحد الأحد، ومع ذلك صدق واعترف بيوم الجزاء ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ موافقًا لما أمر، خالصًا لوجه الله مخلصًا فيه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي يوفقهم على التوحيد والإخلاص ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب والعذاب ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62] عن سوء المنقلب والمآب.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: طلبنا منكم العهد الوثيق بأن تتبعوا

موسى وتمثلوا بأوامر كتابه وتجتنبوا عن نواهيه، فامتنعتم عن متابعته واستثقلتم ما في كتابه، فأنجيناكم إليه بأن أمرنا جبريل عليه السلام بقلع الجبل من مكانه ﴿وَ﴾ بعد قلعه ﴿رَفَعْنَا﴾ بتوفيقنا إياه ﴿فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ معلقًا عليكم وقلنا لكم في تلك الحالة: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من الدين والكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا﴾ جميع ﴿مَا فِيهِ﴾ على التفصيل لنفوسكم، وإن لم تأخذوا وتذكروا، سقط عليكم الجبل فنستأصلكم فعهدتم خوفًا من سقوطه، وإنما فعلنا ذلك بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:63] لكي تحذروا عن قهرنا وانتقامنا.

﴿ثُمَّ﴾ لما أمهلناكم زمانًا ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم عن العهد ﴿مِّنْ بَعْدِ﴾ ما أزلنا عنكم ﴿ذَلِكَ﴾ الخوف وأنتم في جبلتكم ظالمون، مجاوزون عن الحدود والعهود ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ﴾ المحيط ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بإرادة إيمانكم وإصلاحكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الواسعة الشاملة لكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لَكُنْتُم﴾ في أنفسكم ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64] (1)

(1) ورد في «التأويلات»: والإشارة فيها بقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:62]، من مدعي الإسلام وغيرهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة:62] يعني: كان نور الله نور قلبه حتى آمن بذلك النور، كما قال تعالى: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»(1)، كذلك هاهنا من آمن بالله من جملة المذكورين فبي يؤمن لا بالتقليد والرسم والعادة والاقتداء بالآباء وأهل البلد ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة:62] أي: ثوابهم وجزاؤهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:62] أي: مقام العندية والوصول، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:62]، من حجب الأنانية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62]، بالأنانية لأن بها ينقطع الطالب عن المطلوب ويحتجب المحب عن المحبوب، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62]، لأن الولي من أخرجه الله من ظلمات الأنانية والاثنينية إلى نور الوحدة والهوية، كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، فافهم جدًا. وفيه معنى آخر ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:62]، بمعنى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال وعمل صالحًا للقبول، فمعناه عمل على متابعة محمد ﷺ لأنه من يعمل على غير متابعة دين الإسلام لم يكن عمله صالحًا للقبول يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:85]. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أدركني عيسى ابن مريم ثم لم يدخل شريعتي ومنهاج ديني لأكبه الله على وجهه في النار» ما استغنى [بنبوته] فكيف أنتم: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:62]، لا عند غيره من الجنة والنار ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:62]، فيما يرجعون إليه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62]، على ما كانوا عليه، أو جعلهم الله من المقبولين

الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:15].

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ
﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ
مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا
بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا

له. ثم أخبر عن الميثاق عنهم وأن آبائهم عند رفع الطور فوقهم لابتلائهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة:63]، إلى قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:66] والإشارة فيها أن أخذ الميثاق كان عامًا في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ولكن قومًا أجابوه شوقًا وقلقًا، وقومًا أجابوه خوفًا وفرقًا ليتحقق أن الأمر بيد الله في كلتا الحالتين، يسمع خطابه من يشاء موجبًا للهداية ويسمع من يشاء موجبًا للضلالة، فإنه لا برهان أظهر من رفع الطور عيانًا فلما أوبقهم الخذلان لم يكن ينفعهم البرهان والعيان في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:63]، إشارة إلى أن أخذ ما يؤتي الله تعالى من الأوامر والنواهي وسائر الطاعات والعلوم وغير ذلك لا يمكن بقوة الإنسانية إلا بقوة ربانية وتأييد إلهي كما كان في حق يحيى ﷺ قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:12]، ربانية لأنه كما كان في حال صباه، ولم يكن له قوة نفسانية لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:12]. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة:63] أي: في كتاب الله تعالى من الرموز والإشارات والدقائق والحقائق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:63]، بالله عما سواه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة:64] أي: أعرضتم عن طريق الاتباع للشريعة لاستيلاء القوة الطبيعية، وبعد أخذ الميثاق وسلوك طريق الوفاء ابتلاء من الله تعالى. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [البقرة:64]، وهو سبق العناية في البداية وتوفيق أخذ الميثاق بالقوة في الوسط، وقبول التوبة وتوفيقها والثبات عليها في النهاية، ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64]، المصرين على العصيان المغبونين بالعقوبة والخسران، والمبتلين بذهاب الدنيا والعقبى ونكال الآخرة والأولى.

﴿بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة:60-71]:

وكيف لا تكونون من الخاسرين الناقضين للعهود، وأنتم قوم شأنكم هذا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ وحفظتم قصة ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ تجاوزوا عن العهد ﴿مِنكُمْ فِي﴾ زمن داود عليه السلام واصطياد يوم ﴿السَّبْتِ﴾ ذلك أنهم سكنوا على شاطئ البحر بقرية، يقال لها: أيلة، وكان معاشهم من صيد البحر فأرسل الله عليهم داود عليه السلام، فدعاهم فآمنوا له، وعهد الله معهم على لسان داود بألّا يصطادوا في يوم السبت، بل تعينوها وتخصصوها للتوجه والتعبد، فقبلوا العهد وكانت حيتان البحر بعد العهد يحضرن في يوم السبت على شاطئ البحر ويخرجن خراطيمهن من الماء، ولما مضى عليها زمان احتالوا لصيدها بأن حفروا حياضًا وأخاديد على شاطئ البحر وأحدثوا جداول منه إليها، فلما كان يوم السبت يفتحون الجداول ويرسلون الماء في الحياض واجتمعت الحيتان فيها، وفي يوم الأحد يصطادونها منها، ونقضوا عهد الله بهذه الحيلة، قال الله تعالى: لما أمهلناهم زمانًا ظنوا أنهم خادعوا ثم انتقمنا منهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ إذا أفسدتم لوازم الإنسانية؛ أي: العهود والتكاليف أفسدنا أيضًا إنسانيتكم ﴿كُونُوا﴾ صيروا في الساعة ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:65] مهانين مبتذلين، فمسخوا عن لوازم الإنسانية من العلم والإرادة والمعرفة والإيمان، ولحقوا بالبهائم بل صاروا أسوأ حالاً منها.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: قصة مسخهم وشأنهم ﴿نَكَالًا﴾ عبرة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من الحاضرين المشاهدين حالهم وقصتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن يوجد بعد من المذكرين السامعين قصتهم وتاريخهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:66] الذين يحفظون نفوسهم دائمًا عن أمثالها.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين من سوء معاملة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وقبح صنيعهم معه، ومجادلتهم بما جاء به من عند الله جهلاً وعنادًا ليتنبهوا ويتفطنوا على أن الإيمان بنبي يوجب الانقياد والإطاعة له، وترك المراء والمجادلة معه والمحبة والإخلاص معه، وتفويض الأمور إليه وهو إلى الله؛ ليتم سر الربوبية والعبودية والنبوة والرسالة والتشريع والتكاليف والتوسل والتقرب والوصول، وذلك ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين حدثت الفتنة العظيمة بينهم وهي: إنه كان فيهم رجل من صناديدهم له أموال وضياع وعقار كثيرة، وله ابن واحد وبنو أعمام كثيرة،

فطمعوا في أمواله فقتلوا ابنه ليرثوه، وطرحوه على الباب، فأصبحوا صائحين فزعين يطالبون القاتل، فأراد الله تفضيحهم وتشهيرهم، فأمر موسى بأن قال لهم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلما سمعوا قوله استبعدوه وتحيروا في أمرهم ومن غاية استبعادهم ﴿قَالُوٓا﴾ على طريق المعاتبة: ﴿أَ﴾ تعتقد أنت يا موسى الداعي للخلق إلى الحق ﴿تَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: تأخذنا باستهزاء وسخرية ونحن محل استهزائك مع أنه لا يليق بك وبنا ﴿قَالَ﴾ موسى مستبعدًا ومستعيذًا: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:67] المستهزئين بالناس، بل ما أتبع إلا ما يوحى إلي.

فلما سمعوا استبراءه واستعاذته خافوا من الابتلاء فأوجس كلامهم خيفة في نفسه، لكونهم خائنين، واشتغلوا بتدبير الدفع، وشاوروا وأقر رأيهم على أن نووا في نفوسهم تلك البقرة المخصوصة المعلمة المعلومة عندهم بالشخص، وبعد ذلك سألوه عن تعيينه بأن ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أكبير أم صغير؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ﴾ كبير في السن ﴿وَلاَ بِكْرٌ﴾ صغير فيه بل ﴿عَوَانٌ﴾ متوسط ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الصغر والكبر استكمل النمو ولا تميل إلى الذبول، وإذا تحققتم ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:68].

ثم لما ازداد خوفهم من الفضيحة بنزول الوحي متعاقبة زادوا في الاستفسار عن التعيين مكابرة وعنادًا وتسويفًا حيث ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ من الألوان المتعارفة المشهورة حتى نذبحها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ﴾ أصيل في الصفرة كأنه وضع اسم الصفرة بإزائها أولاً ﴿لَّوْنُهَا﴾ كلون ذهب ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة:69] والسرور عبارة عن الانبساط والانتعاش الحاصل للقلب عند فراغه عن جميع الشواغل، وفي تلك الحالة يتعجب عن كل ذرة بل عن نفسه، ويؤدي تعجبه إلى التحير، فإذا تحير غرق في بحر لا ساحل له ولا قعر، أدركنا يا دليل المتحيرين.

ثم لما جزموا الإلجاء وقطعوا النظر عن الخلاص، كابروا وعاندوا أيضًا مبالغين فيها حيث ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما هويتها وهيئتها الشخصية المعينة، وقل: ﴿إِنَّ البَقَرَ﴾ المأمور به ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ واستوصفناه منك وصفتها بالصفات المشتركة العامة ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ﴾ تعيينه وتشخيصه لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70] بذبحها.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ﴾ عجف مهزول بسبب أنها ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾

تقلبها للزراعة ﴿وَلاَ﴾ ذلول بسبب ذلتها إنها ﴿تَسْقِي الحَرْثَ﴾ بالدلو والسقاية بل ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من صغرها عن أمثال هذه المذلات ﴿لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ لا علامة في أعضائها من ضرب العود والسوط وغيرها، بل تأكل وتمشي هونًا بلا مصرف ومراع، ولما بالغوا في الاستفسار إلى أن بلغوا ما نووا في نفوسهم ألزموا وأفحموا و﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت الكائن في الواقع وفي نيتنا واعتقادنا.

حكي أن شيخًا صالحًا من صلحائهم كانت له هذه العجلة المتصفة بهذه الصفات، فذهب بها إلى «أيلة» فأودعها عند الله وقال: اللهم إني استودعتها عندك لولدي حتى يكبر، ثم مات الشيخ وكانت تلك البقرة في حمى الله وحفظه حتى كبر الولد وحدثت تلك الفتنة فيما بينهم، فأمر الله بذبح تلك البقرة على سبيل الإلجاء، فاشتروها بملء مسكها ذهبًا ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ ملجئين مكرهين ﴿وَ﴾ لولا إلجاؤنا إياهم وإكراهنا لهم ﴿مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71] لخوف الفضيحة وغلاء الثمن.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة:72-74].

﴿وَ﴾ كيف تفعلونه وأنتم تعلمون أن سبب نزوله تفضيحكم وإظهار ما كتمتم في نفوسكم ﴿إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ بغير حق ﴿فادَّارَأْتُمْ﴾ وتدافعتم ﴿فِيهَا﴾ أي: في شأنها بأن أسقط كل منكم قتلها عن ذمته وسترتم أمرها وهدرتم دمه ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بسرائركم وضمائركم ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72] في نفوسكم.

﴿فَقُلْنَا﴾ لكم بعد تدارئكم وتدافعكم وذبحكم البقرة المأمورة ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي: المقتول ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: ببعض البقرة أيِّ بعض كان، فضربوه فحيي بإذن الله، فأخبر بقاتله، ففضحوا وارتفعت المداراة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إحياء هذا المقتول بلا سبب تقتضيه عقولكم وترتضيه نفوسكم ﴿يُحْيِي اللهُ﴾ القادر على ما يشاء جميع ﴿المَوْتَى﴾ في يوم الحشر والجزاء بلا أسباب ووسائل اقتضتها عقول العقلاء؛ إذ عنده الإبداء عين

الإعادة والإعادة عين الإبداء، بل الكل في مشيئته على السواء ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ ظهوره من ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على تحقيق وقوعه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:73] رجاء أن تتفكروا وتتفطنوا منها إليه وتؤمنوا بجميع المعتقدات الشرعية الدنيوية والأخروية.

وصدقوها على وجه التعبد والانقياد وبلا مراء ومجادلة مع من أوتي بها من الرسل والأنبياء، ولا يتيسر لكم هذه المرتبة إلا بعد ذبحكم بقرة النفس الأمارة المسلطة بالقوة التامة عليكم، المتلونة بالألوان المسرة لنفوسكم وطباعكم، المسلمة الممتنعة من التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي، وضربكم بها على النفس المطمئنة المقهورة المقتولة ظلمًا لتصير حية بالحياة الأبدية، باقية بالبقاء السرمدي، فتخبركم وتذكركم عن صنائع أمارتكم الظالمة المتجاوزة عن الحدود، خلصنا الله من شرورها.

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ بالقساوة الأصلية ﴿قُلُوبُكُم﴾ المتكبرة المتحجرة الصلبة البليدة ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الإحياء الملين للقلوب الخائفة الوجلة عن خشية الله، وإذا لم تلن قلوبكم ولم يؤثر فيها ﴿فَهِيَ﴾ في الصلابة والقساوة ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تقبل النقر والأثر أصلاً ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: بل قلوبكم أشد صلابة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتأثر بالخير وقلوبكم لا تتأثر أصلاً ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ ويتأثر منها، وقلوبكم لا تتأثر بأنهار المعارف المتشعبة عن بحر الذات الجارية على جداول ألسنة الأنبياء صلوات الله عليهم ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ يتأثر بالشقوق في نفسها بتخليل بحر الدهور ومن مؤثر خارجي وإذا تشقق ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ ويدخل فيه الماء، وقلوبكم لا تتأثر لا بنفسها ولا بالمؤثر الخارجي ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الناشئة عن ظهور الآيات مثل المطر الهاطل والريح العاصف والزلزلة القالعة وغير ذلك من الآيات الظاهرة في الآفاق، وقلوبكم لا تتأثر بالآيات الباهرة النازلة عليكم ترغيبًا وترهيبًا.

هذا تقريع وتوبيخ لهم على أبلغ وجه وآكده، وحث على المؤمنين وتحذير لهم من ربكم أمثالها بأنهم مع قابليتهم على التأثر لا يقبلون الأثر النافع لهم في الدارين، والحجارة مع صلابتها وعدم قابليتها تتأثر فهم أسوأ حالاً وأشد قساوة وصلابة منها، ومع ذلك يخادعون الله في الأمور بالستر والإخفاء، ويظنون غفلته ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ المظهر لهم، المحيط بجميع مخايلهم وحيلهم ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:74] [1] ولو طرفة

(1) قال نجم الدين: ثم أخبر عن قتلهم القتيل وإحياء القتيل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:72]، الآيتين والإشارة في تحقيقهما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ فيها إشارة

إلى قتل النفس، وإن القتيل هو القلب الروحاني، وإن إحياءه في قتل النفس البهيمية، كما قال قائلهم:

إنَّ فـــي قَتلـــي حَياتـــي أقتلونـــي يـــا ثِقاتـــي

وكما أشار بعضهم:

أو مـــت بالطبـــيعة تحيـــي بالحقـــيقة ســـر بـــالإرادة تحيـــى بالطبـــيعة

﴿فَادَّارَأْتُم فِيهَا﴾ فشككتم واختلفتم أنه كان من الشيطان أم من الدنيا أم من النفس الأمارة بالسوء. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:72]، بإحالة النفس إلى الشيطان ومكرها إلى الدنيا وزينتها والشيطان والدنيا يخيلان إلى النفس الأمارة وهواها ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:73]، وكما أن الله تعالى أراد أن يحيي قتيلهم ليفصح بالشهادة على قاتله أمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيي، فيخبر بقاتله فكذلك إذا أراد الله أن يحيي قتيل قلب الإنسان أمر بقتل حيوان النفس بسيف المجاهدات؛ ليحيي قتيل قلبه بأنوار الشهادات، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]. وكما أن البقرة بعد ذبحها ضرب على القتيل قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان كذلك من ضرب لسان النفس المذبوح بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر يحيي الله قلبه بنوره فيقول، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53]. ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 73]، يحيي الله الأجساد في الآخرة والقلوب في الدنيا، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة:73]، دلالة مع الخواص وبراهينه مع أخص الخواص، كما قال تعالى في خواص المؤمنين ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وقال في يوسف ﷺ وهو أخص الخواص ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24] ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:73]، فأثبت الله تعالى العقل لمن كان مستعدًا لرؤية آياته باستحقاق إرادة الله تعالى آياته لا برؤية نفسه، فإن العقل الحقيقي هو المستفاد من أنوار مواهب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، وقال في الذين لهم عقل المعاش دون المستفاد ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:18]. ثم أخبر عن أهل هذه الشقاوة ووصفهم بالقساوة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:74]، والإشارة في تحقيق الآية أن اليهود وإن شاهدوا عظيم الآيات، وطالعوا واضح البينات فحين لم تساعدهم العناية ولم توافقهم الهداية لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة على قسوة، ولم تنزلهم من مكامن التقدير إلا شقوة على شقوة، وذلك لأن الله تعالى أراهم الآيات الظاهرة فرأوها بنظر الحس، ولم يرهم البرهان الذي يراه القلب فيعجزهم عن التكذيب والإنكار يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24]. وسُئل الحسن ابن منصور رحمه الله عن البرهان؟ فقال: البرهان واردات ترد على القلوب تفجر النفوس عن تكذيبها، فهكذا حال بعض المغرورين الممكورين من تدعي الطلب إذا لم يكن لهم شيخ كامل واصل حين شرعوا في الرياضة وأخذوا في المجاهدات بترك اللذات

ولمحة وخطرة.

ثم لما ذكر سبحانه امتنانه على بني إسرائيل وإنعامه إياهم بأنواع النعم، وذكر

والشهوات يلوح لهم من صفاء الروحانية ظهور بعض الآيات وخرق العادات، فإذا لم يكن مقارنًا برؤية البرهان ليكون مؤيدًا بالتأييد الإلهي مؤكدًا بالعناية الأزلية لم يزدهم إلا العجب والغرور والخسران والقساوة والطغيان، وأكثر ما يقع هذا للرهبان والمتفلسفة الذين استدرجهم الحق بالخذلان من حيث لا يعلمون، وإنما شبه قلوبهم بالحجارة للقسوة وعدم اللين للذكر الحقيقي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:23]، والذكر الحقيقي ما يتداركه الحق بذكره كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]. ثم بين أنها دون الحجارة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة:74]، والإشارة فيها إلى مرتبة القلوب في القسوة بعضها بمرتبة الحجارة التي تنفجر منها الأنهار، وهو قلب يظهر عليه بغلبات أنوار الروح لصفائه بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات كما يكون لبعض الرهابين والكهنة. وبعضها بمرتبة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة:74]، وهو قلب يظهر عليه في بعض الأوقات عند انخراق حجب البشرية من أنوار الروح، فيريد بعض الآيات والمعاني المعقولة، كما يكون لبعض الفلاسفة والشعراء. وبعضها بمرتبة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:74]، وهو قلب فيه بعض الصفاء فيكون بقدر صفائه قابل عكس أنوار الروح من وراء الحجب، فيقع فيه الخوف والخشية كما يكون لبعض أهل الإيمان. وأهل هذه المراتب مشتركة بين قلوب المسلمين وغيرهم، فالفرق بينهم أن أحوال هذه المراتب للمسلمين مؤيدة بنور الإسلام، فتزيد في قربهم وعلوهم ودرجاتهم ولغيرهم غير مؤيدة بالإيمان، فتزيد في غرورهم وردهم واستدراجهم والمسلمون مخصوصون من غيرهم بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلي أنوار الحق دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وسيجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبعض القلوب بمرتبة الحجارة القاسية التي لا يؤثر فيه القرآن والأخبار والحكمة والموعظة لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:74]، وهذا القلب مخصوص بالكافر والمنافق، فإنه قلب مختوم عليه وفيه الدلالة على أن القلوب على فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم بالابتكار والجحود واستيلاء حب الدنيا وزخارفها وتتبع الشهوات ولذاتها تقسو وتشتد قسوتها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة:74]. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:74] أي: يجازيكم عاجلاً وآجلاً، فأما عاجلاً: بأن يجعل إنكاركم سبب غفلة وقسوة قلوبكم فيقسيها بأعمالكم الفاسدة ويطبع عليها بطابع إنكاركم وجحودكم كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:155]، وقال ﷺ: «ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» وأما آجلاً: فيعاقبكم يوم القيامة على قدر سيئات أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:40].

أيضًا ظلمهم وعدوانهم وكفرانهم نعمه، أراد أن ينبه على المؤمنين المحمديين المتمنين إيمان اليهود وانقيادهم على رسول الله ﷺ ومؤاخاتهم مع المؤمنين بأن متمناكم وملتمسكم محال.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة:75-77].

﴿أَ﴾ لم تسمعوا قصتهم، ولم تعرفوا خيانتهم ودناءتهم وزلتهم المضروبة عليهم وسوء معاملتهم مع نبيهم المبعوث عليهم ﴿فَتَطْمَعُونَ﴾ وترجون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: بنبيكم، ويصادقوا ويحاقوا ويتلوا معكم كلام الله مع علمكم بحالهم ﴿وَ﴾ لم تسمعوا أنه ﴿قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ من أسلافهم قوم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ﴾ النازل لهم، وفيه وصف نبينا ﷺ فيضطربون ويستقلون بعثته ﴿ثُمَّ﴾ لما قرب عهده ﷺ وظهر أمره، واستشعروا من أمارته أنه هو النبي الموعود في كتابهم ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: الكتاب، حسدًا وعنادًا ويغيرونه مكابرة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ جزموه وحققوه أنه هو ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:75] مكابرتهم ومعاندتهم ويجزمونه في نفوسهم بحقيته، ويقولون في خلواتهم: إنا وإن كان النبي الموعود لكن لا نؤمن له؛ لأنه من العرب لا منّا.

﴿وَ﴾ منهم من آمن وصدق ظاهرًا لمصلحة دنيوية وهو على خباثته الأصلية ودناءته الجبلية، بل أخبث منها بحيث ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا في إيمانهم ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ برسولكم الذي هو الرسول الموعود في التوراة يقينًا، وصدقنا جمع ما جاء به من عند ربه ﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: المنافقين مع المصرين ﴿قَالُوا﴾ أي: كل من الفريقين للآخر عند المشاورة وبث الشكوى: أترون أمر هذا الرجل كيف يعلو ويرتقي وما هو إلا النبي المؤيد الموعود في كتابنا؟ أي شيء تعلمون يا معاشر اليهود؟ ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ في كتابكم من وصفه ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾ ويغلبوا عليكم ويتقربوا ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فالعار كل العار، أم تحرفون الكتاب ولا تسلمونه غيرة وحمية؟ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:76] تتفكرون وتتأملون أيها المتدينون بدين الآباء

في أمر هذا الرجل؟ هكذا جرى حالتهم دائمًا بأن قالوا بأمثال هذه الهذيانات إلى أن تفرقوا.

قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ﴾ المحيط بظواهركم وبواطنكم ﴿يَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من الكفر والتكذيب عنادًا ومكابرة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:77] من القول الغير المطابق للاعتقاد.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة:78-81].

هذا حال علمائهم وأحبارهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يعقلون ولا يفهمون ﴿الكِتَابَ﴾ والإنزال والإرسال والدين والإيمان وجميع التكاليف الشرعية؛ لعدم ذكائهم وتفطنهم في الأمور الدينية الاعتقادية، بل ما يأخذونه ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ كسائر الأماني الدنيوية؛ تقليدًا لرؤسائهم ورهبانهم ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم في أنفسهم من الممترين في المعتقدات ﴿إِلاَّ﴾ أنهم ﴿يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:78] ظنًا بليغًا في تمييز علمائهم المحرفين للكتاب، وبسبب هذا الظن لم يؤمنوا بنبينا ﷺ، ولما صار المحرفون ضالين في أنفسهم مضلين لغيرهم، استحقوا أشد العذاب.

﴿فَوَيْلٌ﴾ حرمان عن لذة الوصول بعدما قرب الحصول أو طرد، وتبعيد عن ذروة الوجوب إلى حضيض الإنكار، أو عود وترجيع لهم في الحرية إلى الرقية الأبدية في النشأة الأخرى ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعد تحريفهم بآرائهم السخيفة ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لسفلتهم وجهلتهم ترويجًا للمحرف ﴿هَذَا﴾ ما نزل ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ وإنما قالوا ذلك ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ بنسبته إلى الله ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ على وجه التحف والهدايا من الضعفاء الذين يظنونهم عقلاء أمناء في أمور الدين كما يفعل مشايخ زماننا، أنصفهم الله مع من يتردد إليهم من عوام المؤمنين.

ثم لما كانت الويل عبارة عن نهاية مراتب القهر والجلال، وغاية البعد عن مراتب اللطف والجمال كرره مرارًا وفصله تحذيرًا للخائنين المستوحشين عن طرده وإبعاده فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المحرفات الباطلة ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:79] من القبوحات والمعاملات الخبيثة.

ومن جملة هذياناتهم مع ضعفائهم أنهم لما ظهر فيما بينهم واشتهر ما نزل في التوراة: إن الذين اتخذوا العجل إلهًا يدخلون النار، اضطرب الضعفاء من هذا الكلام، وضاق المحرفون من اضطرابهم أن يميلوا إلى الإسلام.

﴿وَقَالُوا﴾ لهم تسكينًا وتسلية: لا تخافوا ولا تضطربوا ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يومًا مقدار زمان عبادة العجل وأقل من ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتقريعًا: أأنتم ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ وأخذتم ﴿عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ بألّا يمسكم النار إلا أيامًا معدودة ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾ إن ثبت، فنحن أيضًا من المصدقين المؤمنين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ﴾ افتراء ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:80] ثبوته عنده فيجازيكم بما افتريتم.

﴿بَلَى﴾ أي: بلى الأمر الحق المحقق الكلي الثابت عهده وجرى عليه سنته أن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ مشغلة مبعدة عن الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَحَاطَتْ﴾ شملت واحتوت ﴿بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ خطاياه كلها إلى سيئة مبعدة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن طريق الحق ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ نار البعد والخذلان لا ينجون ولا يخرجون منها أصلاً بل ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81] دائمون لها ما شاء الله.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 82 - 85].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ واعتقدوا بوحدانية الله، وأيقنوا بألا وجود لغير الله ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإيقان ﴿عَمِلُوا﴾ بالجوارح ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المترتبة على هذا الاعتقاد المستلزمة إياه ﴿أُولَئِكَ﴾ المقربون الواصلون إلى ما يصلون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ القرب والوصول ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:82] متمكنون ما شاء الله، ولا مرمى وراء الله، ولا مقصد سوى: لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين أيضًا قصة ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: العهد الوثيق من بني إسرائيل المفرطين في بعض العهود والمواثيق، بأن قلنا لهم: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا تتوجهون ولا تتقربون ﴿إِلاَّ اللهَ﴾ الذي أظهركم من العدم ورتبكم ورباكم بأنواع اللطف والكرم، لكي تعرفون ﴿وَ﴾ لا تفعلون ولا تعاملون ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ المربيين لكم باستخلاف الله إياهما إلا ﴿إِحْسَانًا﴾ محسنين معهما بخفض جناح الذل وبذل المال وخدمة البدن ﴿وَ﴾ مع ذلك كذا مع ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾ المنتمين إليهما بواسطتهما ﴿وَ﴾ لا يقهرون ﴿الْيَتَامَى﴾ الأطفال الذين لا متعهد لهم من الوالدين، بل تحسنون لهم وتتعطفون معهم ﴿وَ﴾ كذا مع ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين لا يمكنهم الكسب لعدم مساعدة إلا أنهم بالجملة ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ أي: لجميع الأجانب المستغنين عن جميع الأمداد ﴿حُسْنًا﴾ قولاً حسنًا هينًا لينًا مبينًا عن المحبة والوداد.

﴿وَ﴾ لما أمرناهم ونهيناهم بما يتعلق بمبدئهم ومعاشهم أمرناهم أيضًا بما يتعلق بمعادهم ورجوعهم إلينا، فقلنا لهم ﴿أَقِيمُوا﴾ أديموا ﴿الصَّلاةَ﴾ التي هي معراجكم الحقيقي إلى ذروة التوحيد ﴿وَ﴾ العروج إليها لا يتحقق إلا بترك العلائق وطرح الشواغل لذلك ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة المزيلة عن نفوسكم محبة الغير والسوى، بل محبة نفوسكم الشاغلة عن الوصول إلى شرف اللقاء ﴿ثُمَّ﴾ لما اشتغلتم بالأوامر والنواهي نقضتم العهود بأن ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عنها، ونبذتموها وراء ظهوركم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾ وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة:62] ﴿وَأَنتُم﴾ قوم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:83] شأنكم الإعراض عن الحق مستمرين عليه.

﴿وَ﴾ كيف لا تكونون معرضين، اذكروا قبح صنيعكم وقت ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بأن ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا يسفك بعضكم دم بعض بلا موجب شرعي ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يخرج بعضكم بعضًا من دياره تعديًا وظلمًا ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ طوعًا، واعترفتم رغبة بهذا العهد ﴿وَأَنتُمْ﴾ بأجمعكم ﴿تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:84] تحضرون، وكلكم متفقون عليه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾ الخبيثون الدنيئون، نقضتم العهد بعد توكيده بأن ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بعضكم نفس بعض بغير حق ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ أي: يخرج بعضكم ﴿فَرِيقاً﴾ بعضًا ﴿مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ المألوفة إجلاء وظلمًا وأنتم بأجمعكم ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تعينون ﴿عَلَيْهِم﴾ على المخرجين الظالمين ﴿بِالإِثْمِ﴾ أي: الخصلة الفاحشة ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: الظلم المتجاوز عن الحد ﴿وَ﴾ من جملة عهودكم أيضًا: ﴿إِن يَأْتُوكُمْ﴾ أي: يأتي بعضكم بعضًا ﴿أُسَارَى﴾ موثقين في يد العدو ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ تعطوهم فديتهم وتنقذوهم من عدوهم تبرعًا، فلا ينقضون هذا العهد مع أنه غير محرم عليك ترك فدائهم وينقضون العهد الوثيق المتعلق بالقتل والإخراج ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وقتلهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وتوفون بعض العهد الثابت في الكتاب، وهو عهد الفدية ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو عهد عدم القتل والإجلاء مع أنه لا تفاوت بين العهود المنزلة من عند الله ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ﴾ التفرقة بين عهود الله المنزلة في كتابه عتوًا واستكبارًا ﴿إِلاَّ خِزْيٌ﴾ ذل يستكرهه جميع الناس ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ القائمة للعدل والجزاء ﴿يُرَدُّونَ﴾ هؤلاء الناقضون لعهد الله ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو قعر بحر الإمكان الذي لا نجاة لأحد منه ﴿وَمَا اللهُ﴾ المستوي على عروش الذرات الكائنة في العالم رطبها ويابسها، شهادتها وغيبها ﴿بِغَافِلٍ﴾ مشغول بشيء يشغله ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:85] [1] أنتم بل شأنكم وحالكم وأعمالكم كلها

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:82]، من أهل الطلب بأن المنازل إلى المقصد، وإن كانت متناهية فإن السير في المقصد غير متناه ﴿وَعَمِلُوا﴾ [البقرة:82]، على قانون الشريعة بإشارة شيخ الطريقة ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:82]، وهي المبلغات إلى الحقيقة أولئك أصحاب الوصول إلى جناب الأصول خالدين فيها بالسير إلى أبد الآباد، وكذلك من اكتسب اعتقادًا فاسدًا من المتفلسفة على خلاف الشريعة وأحاطت به خطيئته فيبقى عليه إلى أن يموت

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81] أبد الآباد، ولن تنفعهم المجاهدات ولا النظر في المعقولات ولا الاستدلال بالشبهات، والذين آمنوا منهم بنبوة محمد ﷺ وعملوا الصالحات من المأمورات وغير المنهيات، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [البقرة:82]، وأهل الدرجات والغرفات في الجنات ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:82]. ثم أخبر الميثاق والعبودية على الإطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة:84]، إلى قوله: ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:86] والإشارة فيها ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة:84] أي: في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة:84]، بامتثال أوامر الشيطان في استجلاب حظوظ النفس، فإنه يسعى في إراقة دماء قلوبكم، كما قال بعضهم:

أرى قدمي أراق دمي ... إلى حتفي سعى قدمي

وكذلك لا تسفكون بتربص الشيطان بينكم تسفكوا دماءكم بعضكم دماء بعض، كما قالت الملائكة في حقكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:84]، غير دينكم الذي كنتم عليه في أصل الفطرة ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:84]، بقولكم: ﴿بَلَى﴾ شهدنا والذي يدل على هذا التأويل، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:61]، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:85]، باستيفاء حظوظ النفس ولذاتها وشهواتها، فإن المجرمين اقتضوا بأيديهم حتفهم وآثروا باختيارهم ما فيه هلاكهم واستئصالهم، قال بعضهم:

فـالله بيني وبين عيني ... بعين نفسي أصبت نفسي

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة:85] فيعاون بعضكم بعضًا على الإعراض عن الله تعالى والتساعد في مزاولة الحظوظ والخروج عن مقامات الحقوق فآفات أحوالكم غير لازمة عليكم بل هي متعدية عنكم إلى إخوانكم وقرنائكم ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: 85] أي: مضرتكم لإخوانكم على بلائهم مظاهرة الشيطان ونصرته عليهم بما فيه هلاك أنفسهم. ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى﴾ [البقرة:85]، وهم أصناف شتى فمن أسير في قيد الهوى فإنقاذه بأن يدله على الهدى، ومن أسير بقيد حب الدنيا فخلاصه في إخلاص ذكر المولى، ومن أسير بقي في قيد الوسواس فقد استهواه الشيطان ففداؤه أن يرشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذه من الشكوك والظنون والتخمين ويخرجه من ظلمة التقليد وما تعود بالتلقين، ومن أسير تجده في أسر هواجس نفسه ربيط زلاته ذلك أسير في إرشاده إلى إقلاعها وإعانته وإنجازه على ارتداعها، ومن أسير تجده في أسر صفاته وحبس وجوده فنجاته في أن تدل على الحق فيما تحل عنه رتاق الكون، ومن أسير تجده في قبضة الحق فبجزائه ليس لإسرائهم فداء ولا لقتلهم قود ولا لربيطهم خلاص، ولا لبطشهم مناص ولا عنهم بدل ولا معهم جدل، ولا إليهم لغيرهم سبيل ولا لديهم إلا بهم دليل ولا منهم فرار ولا معهم قرار: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:85] أي: بالذي

عنده مكشوف معلوم له سبحانه بالعلم الحضوري، بحيث لا يشذ عن حيطة علمه شيء فيها أصلاً.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة:86-88].

ولما ذكر سبحانه قبح معاشهم ومعادهم أراد أن ينبه على المؤمنين بأسباب مقابحهم وإعراضهم ليحذروا منها ويحترزوا عنها فقال مشيرًا لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن منهج الصدق والصواب هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ﴾ استبدلوا واختاروا ﴿الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ الفانية غير القارة، بل اللاشيء المحض بالآخرة التي هي النعيم الدائم واللذة المستمرة والحياة الأزلية السرمدية ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾ أي: عذاب الإمكان والافتقار لذلك ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:86] فيما هو متمناهم من الحوائج، بل دائمًا مفتقرون محتاجون، مسودة الوجوه في النشأتين.

واذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين أيضًا من قبح صنائعهم ليعتبروا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ المبعوث إليهم ﴿الكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتملة على مصالحهم الدنيوية والأخروية فكذبوه، ولم يلتفتوا إلى كتابه ﴿وَ﴾ بعدما قضى وانقرض موسى ﴿قَفَّيْنَا﴾ أي: عقبناه ﴿مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ المرسلة إليهم، أولي الدعوات والآيات والمعجزات

سمعتموه من ربكم في أول الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، أمنتم وقلتم ﴿بَلَى﴾. ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:85] أي: بالذي عاهدتم عليه عند أخذ الميثاق ألا تعبدوا غيره من الشيطان والدنيا والنفس والهوى ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ [البقرة:85]، وهو عمى القلب عن المشاهدة والعمة في تيه الباطل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:85]، وهو المبالغة في عمى القلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:72].

فكذبوهم أيضًا ولم يلتفتوا بما جاءوا به ﴿وَ﴾ بعد ذلك بزمان ﴿آتَيْنَا﴾ أيضًا ﴿عِيسَى﴾ المبعوث إليهم ﴿ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات المبينات لأمر معاشهم ومعادهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَيَّدْنَاهُ﴾ أي: خصصناه وقويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدس عن رذائل الإمكان، فكذبوه أيضًا، فأرادوا قتله ولم يظفروا عليه، ألم تكونوا أنتم أيها الناقضون للعهود والمواثيق ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الرسل من عند ربكم لإصلاح حالكم ﴿بِمَا لاَ تَهْوَى﴾ تحب وترضى ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ اشتغلتم بما جاءوا به بل ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عليهم واستحقرتموهم ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:87] كزكريا ويحيى - عليهما السلام - والقوم الذين شأنهم هذا كيف يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿وَ﴾ من غاية عداوتهم معك يا أكمل الرسل ومع من بايعك من المؤمنين أنهم ﴿قَالُوا﴾ حين دعوتكم إياهم إلى الإيمان والتصديق بالإسلام: لا نفقه حديثكم ولا نفهم كلامكم؛ إذ ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي هي وعاء الإيمان والإذعان ﴿غُلْفٌ﴾ مغلوف مغشاة بالأغطية الكثيفة لا يصل إليها دعوتكم وإخباركم قل لهم يا أكمل الرسل: لا غطاء ولا غشاوة إلا عنادكم وحديثكم وحسدكم على ظهور دين الإسلام وبغيكم عليه مع جزمكم بحقيته عقلاً ونقلاً ﴿بَل﴾ قل لهم نيابة عنا: ﴿لَّعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي: طردهم وبعدهم باسمه المنتقم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم المذكور في جبلتهم، لكونهم مقهورين تحت اسم المضل المذل، وإذا كانوا من مقتضيات اسم المضل ﴿فَقَلِيلاً مَّا﴾ نزرًا يسيرًا منهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:88] يهتدون بطريق التوحيد إيفاء لحق الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، وهم الذين ذكرهم سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة:62] وبالجملة فلا يرجى منهم الإيمان.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: 89-91].

﴿وَ﴾ أيضًا من غاية عداوتهم وعتوهم وعنادهم وحسدهم على ظهور دين الإسلام ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ مشتمل على الأحكام والمعتقدات والحقائق والمعارف جزموا أنه نازل ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لتوافقه على ما في كتابهم وإعجازه عموم من تحدى معه ومع ذلك ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ ظهوره ونزوله ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون بهذا النبي ودينه وكتابه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكتابهم ونبيهم ويقولون: سينصر ديننا بالنبي الموعود والدين الموعود ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ في كتابهم ونبيهم انتظروا له قبل مجيئه وافتخروا به على معاصريهم ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حين مجيئه عنادًا ومكابرة فاستحقوا بهذا الكفر والعناد طرد الله ومقته وتبعيده عن طريق التوحيد وتخليده إياهم في جهنم الإمكان، نعوذ بالله من غضب الله ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل نازلة دائمًا ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:89] المصرين على العناد، المستكبرين على العباد.

ثم لما ذكر سبحانه ذمائم أخلاقهم وقبائح أفعالهم، أراد أن يذكر كلامًا مطلقًا على وجه العظة والنصيحة في ضمن تعييرهم وتقريعهم، ليتذكر به المؤمنون فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ بما باعوا واستبدلوا به أنفسهم معارف نفوسهم أو شهودها أو وصولها ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ أن يكذبوا من غاية خباثتهم وعنادهم ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على من هو أهل وقابل له؛ ليهدي به من ضل عن طريق الحق مع جزمهم أيضًا بحقيته بلا شبهة ظهرت لهم، بل إنما يكفرون ﴿بَغْيًا﴾ وحسدًا على ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ المستجمع المستحصر للقابليات والاستعدادات ﴿مِن﴾ محض ﴿فَضْلِهِ﴾ ولطفه بلا علة وغرض ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختار ويريد من عباده الخلص، وهم الذين ارتفعت هوياتهم وتلاشت ماهياتهم واضمحلت وفنيت تعيناتهم، وصاروا ما صاروا لا إله إلا هو، ولما كفروا بالله وحسدوا لأنبيائه وبخلوا عن خزائن فضله ﴿فَبَاءُوا﴾ رجعوا مقارنين ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم من الله المنتقم عن جريمتهم ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ عظيم إلى ما شاء الله الظهور باسم المنتقم، وقل يا أكمل الرسل للمؤمنين: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ المستهينين بكتاب الله ودينه ونبيه ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:90] لهم في الدنيا والآخرة، إهانتهم في الدنيا ضرب الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة حرمانهم عن الكمال

الإنساني الذي يتوقع منهم، ولا عذاب أشد من ذلك.

ربنا اصرف عنا عذابك وقنا من سخطك.

﴿وَ﴾ من غاية استنكافهم واستكبارهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ كلامًا صادقًا يقبله كل العقول ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ في الواقع مطلقًا ﴿قَالُوا﴾ في الجواب حاصرين: بل ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ فقط، ولا تم الإنزال لغيرنا ﴿وَ﴾ لا يقتصرون عليه بل ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ﴾ إن كان ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع في نفسه وهم يعلمون حقيته، وإن كان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتاب، والحسد والعناد الراسخين في نفوسهم وطباعهم ومبالغتهم في العناد والإصرار على تكذيب هذا الكتاب مع أن الإيمان بأحد المتصادقين المتوافقين يوجب الإيمان بالآخر، يدل على ألا إيمان لهم بالتوراة أيضًا، بل هم كافرون بها لدلالة أفعالهم وأعمالهم على الكفر بها وإن أنكروه ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا يا أكمل الرسل: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أيها المدينون بدين اليهود المؤمنون المصدقون بالتوراة ﴿أَنبِيَاءَ اللهِ﴾ الحاملين لها العاملين بها ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم﴾ صادقين في أنكم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:91] بها فثبت أنكم لستم مؤمنين بها حينئذ لتخلفكم عن مقتضاه وتكذيبكم من أنزل عليه، وإن أنكروه اذكر لهم:

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا

إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: 92 - 100].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] الواضحات المبينات في التوراة المبينات لطريق التوحيد والإيمان، فكذبتم موسى عليه السلام على جميع بيناته بالمرة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد ما ذهب موسى إلى الطور للفوائد الأخر المتعلقة لتكميلكم ﴿وَأَنتُمْ﴾ قوم ﴿ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:92] شأنكم العدول عن طريق الحق ومنهج الصواب.

﴿وَ﴾ إن أردت يا أكمل الرسل زيادة إلزامهم وإسكاتهم، اذكر لهم نيابة عنا وقت ﴿إِذْ أَخَذْنَا﴾ منكم أيها الناقضون لعهودنا والمنكرون لكتابنا ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ الذي واثقكم معنا ثم استثقلتموه وتركتموه ﴿وَ﴾ ألجأناكم على إيفائه بأن ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ معلقًا وقلنا لكم استعلاءً وتجبرًا ﴿خُذُوا﴾ وامتثلوا ﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ على نبيكم من الأوامر والنواهي ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جدٍ واجتهادٍ ﴿وَاسْمَعُوا﴾ من المعارف والحقائق بسمع الرضا ونية الكشف ﴿قَالُوا﴾ ظاهرًا: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما أمرتنا به ﴿وَ﴾ قالوا خفية: ﴿عَصَيْنَا﴾ عن الامتثال بها ﴿وَ﴾ سبب عصيانهم أنهم لدناءتهم وسخافة طبعهم ﴿أُشْرِبُوا﴾ تداخلوا وتجبلوا وتطيبوا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ التي هي محل الإيمان والتوحيد منازل العرفان واليقين ﴿الْعِجْلَ﴾ أي: محبة العجل المسترذل والمستقبح المستحدث من حليهم وما هي إلا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بالله وبكتبه ورسله وحصرهم ظهور الحق في مظهر مخصوص، ومع ذلك يدعون الإيمان بموسى ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تقريعًا لهم على وجه التعريض: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ من إنكار كتب الله وتكذيب رسلهم وقتلهم بغير حق واعتقادهم الشريك لله ﴿إِن كُنتُم﴾ صادقين في كونكم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:93].

---

(1) قال في التأويلات النجمية: ثم كرر الأخبار عن إصرارهم على الجحود مع وضوح الآيات من موسى عليه السلام وغلوهم في حب العجل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة:92]، الآيتين والإشارة فيهما أن الأنبياء - عليهم السلام - يدعو العباد إلى التوحيد وإقرار العبودية عن كل مشهود ومحدود ومعدود، ولكنهم لم يحتجوا إلا إلى عبادة ما يليق بقصر نظرهم وخسة همتهم، فقوم عبدوا الصنم وقوم عبدوا الهوى، وقوم عبدوا الدنيا، وإنهم قد ظلموا على أنفسهم بوضعهم عبادتها في غير معبودًا مع أن الله تعالى أخذ ميثاقهم بعبوديته من غير شرك، ورفع فوقهم طور الأمانة التي عرضها وحملها الإنسان في الميثاق الأول.

ثم لما اشتهر بين الناس قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وامتنع كثير من الناس القاصدين دين الإسلام وتغمم ضعفاء المسلمين أيضًا من هذا الكلام، أشار سبحانه إلى دفعه مخاطبًا لرسوله معكم: ﴿قُلْ﴾ لهم نيابة عنا يا أكمل الرسل: ﴿إِن كَانَتْ﴾ محصورة مسلمة ﴿لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ﴾ التي هي منازل الشهداء والسعداء ومقام العرفاء والأمناء ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة مخصوصة ﴿مِّن دُونِ﴾ شركة ﴿النَّاسِ﴾ المنسوبين إلى الأديان الأخر ﴿فَتَمَنَّوُا﴾ عن صميم القلب ومحض الرغبة ﴿الْمَوْتَ﴾ المقرب لكم إليها والموصل إلى لذائذها، كما يتمناه خلص المؤمنين بوحدانية الله في أكثر أوقاتهم.

قال المرتضى كرم الله وجهه: «لابن أبي طالب أشوق إلى الموت من الطفل بثدي أمه»، وقال أيضًا: «لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليّ»، وقال أيضًا:

جـزى الله المـوت عـنا خيـرًا فإنـه	أبـر بـنا مـن كـل خيـر وأرأف
يعجـل تخلـيص الـنفوس مـن الأذى	ويدانـي إلـى الـدار التـي هـي أشـرف

وقال عمار ﷺ حين استشهد: «الآن ألقى الأحبة محمدًا وصحبه» وأنتم أيضًا تمنون الموت المقرب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:94] في دعواكم.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ﴾ كسبت ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنفسهم من الحرص وطول الأمل والاستلذاذ باللذات الحسية والوهمية من الجاه والمنزل والمكانة بين الناس، والاستكبار عليهم، ألا تراهم يتوجهون ويرجعون إلى الله عند نزول البلاء المشعر بتعجيل الموت المقرب استكشافًا، وإذا كشف ولوا على ما هم عليه مدبرين؟! ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بسرائرهم وضمائرهم ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:95] القائلين بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل، إن فتشت عن أحوالهم واستكشفت عن ضمائرهم ﴿لَتَجِدَنَّهُمْ﴾ أي: اليهود وجدانًا صادقًا ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ دائمةٍ مستمرةٍ من نوع الإنسان عمومًا وخصوصًا ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ واعتقدوا ألَّا حياة إلا في دار الدنيا، بل ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ليزيد عليه ألفًا آخر، وهكذا ﴿وَ﴾ الحال أنه بهذه المحبة ﴿مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ﴾ بمبعد نفسه ﴿مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ إلى غاية ما يتمناه ويحب، بل ما زاد إلا عذابًا فوق العذاب ﴿وَاللهُ﴾ المجازي لهم أعمالهم ﴿بَصِيرٌ بِمَا

يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:96] أي: بجميع أعمالهم في جميع أعمارهم بحيث لا يعزب عن علمه شيء منها.

ثم لما ظهر الإسلام وترقى أمره وارتفع قدره واشتهر إنزال القرآن الناسخ لجميع الأديان اضطرب اليهود ووقعوا فيما وقعوا، سألوا رسول الله ﷺ عمن أنزل عليه من الملائكة، فقال ﷺ: أخونا جبرائيل - صلوات الرحمن عليه - قالوا: هو عدونا القديم، ليس هذا أول ظهوره بالعداوة، بل ظهر علينا بالعداوة من قبل مرارًا، وهو بصدد نسخ ديننا.

قال سبحانه وتعالى مخاطبًا لنبيه: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: لمن يدعي عداوة أميننا جبرائيل بواسطة إنزال القرآن، أولئك لا وجه لاتخاذكم جبرائيل عدوًا ﴿فَإِنَّهُ﴾ إنما ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا أكمل الرسل الذي هو وعاء الإيمان والإسلام ومهبط الوحي والإلهام ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ المنزل إلقاءه إليه، وأمره إياه بتنزيل لا من عند نفسه حتى يتخذوه عدوًا، وإن اتخذوه عدوًا فاتخذوا الله المنزل عدوًا مع أنه لا وجه للعداوة أصلاً؛ لكون المنزل عليه ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي به إلى طريق الإيمان والتوحيد ﴿وَبُشْرَى﴾ بالنعيم الدائم الباقي ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:97] المهتدين به، جعلنا الله ممن اقتفى أثرهم.

قل لهم أيضًا يا أكمل الرسل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ﴾ بنقض عهوده، وعدم الامتثال بأوامره والاجتناب عن نواهيه ﴿وَمَلآئِكَتِهِ﴾ بنسبتهم إلى أشيائهم منزهون عنها ﴿وَرُسُلِهِ﴾ بالتكذيب والقتل والاستهزاء والإهانة، وخصوصًا من الملائكة ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ كلا الأمينين عند الله بنسبة الخيانة والعداوة إليهما فهو كافر بالله بثبوت واحدٍ منهما ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:98] بكفرهم وإصرارهم وعنادهم.

﴿وَ﴾ من جملة كفرهم وعنادهم أنهم ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ من غاية لطفنا وجودنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا من وسعت مظهريته جميع أوصافنا وأخلاقنا ﴿آيَاتٍ﴾ دلائل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات لطريق المعرفة والإيمان والتوحيد والإيقان فكفروا بها وكذبوها ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ مع وضوحها وجلائها ﴿إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:99] الخارجون عن رتبة العبودية؛ لعدم الانقياد بالكتاب والنبي بل بالإنزال بل بالمنزل ألم يكونوا فاسقين دائمًا؟!

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً﴾ وثيقًا مؤكدًا ﴿نَّبَذَهُ﴾ نقضه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لفسقه ثم

سرى نقضه إلى الكل فنقضوا جميعًا﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:100][1] ينقادون

(1) قال نجم الدين كبرى: قال الحق تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة:93] من خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ﴿بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:93]، بشوق وصدق في جواب بلى ﴿وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:93]، الخطاب يسمع الإجابة في الثبات على العبودية ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [البقرة:93]، اجبنا بقولهم بلى ﴿وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:93] أي: بالثبات والاستقامة ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾ [البقرة: 93]، حب عجل الدنيا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:93]، بذلة أقدامهم عن صراط مستقيم العبودية بالليل إلى الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة، كما أن الكفر رأس كل خطيئة ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ [البقرة:93]، أن تعبدوا عجل الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:93]، حقيقة لا مجازًا بالرسم والعادة فإن من علامة الإيمان ما أخبر عنه حارثة حين «سأله النبي ﷺ كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا قال: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عرفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهارها وأسهرت ليلها واستوى عندي ذهبها ومددها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يزاورون وإلى أهل النار يتضاغون وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، فقال: أصبت فألزم» ثم أخبر عن كمال جهلهم وغرورهم إن اليهود ادعوا الاختصاص عن الله تعالى بالأشياء، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة:94]، إلى قوله ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:96] والإشارة في تحقيق الآيات أن من علامات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي، ومن وثق أن الجنة له فلا محب له ليشتاق إليها، وفيه معنى آخر وهو من أمارة أن يكون المرء من أهل الجنة تمنيه الموت لقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [البقرة:94]، قال عقيب ادعائهم أنهم أهل الجنة بفاء التعقيب يعني ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:94]، موقنين من أهل الجنة حقيقة، فتمني الموت يكون بوصف حالكم. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:95]، من سوء الأفعال والأقوال والأحوال، يعني: أن لا يكون تمني الموت من نتائج معاملات السوء التي توجب النار، وفيه إشارة إلى النار باب علوم الظاهر المنكرين على أرباب علوم الباطن يزعمون أنهم من أهل النجاة والدرجات دون الأئمة المحققين، فجعل الله تعالى أمارة أهل النجاة السلامة من الحياة الدنيا وتمني الموت، وهذا وصف حال السالك الصادق والمحقق العاشق، كما قال بعضهم:

إنْ في قَتلي اقتلوني يا ثِقاتي
وَحياتي في مَماتي وَمَماتي في حَياتي

وحال المنكرين من أهل الأهواء والبدع والعلماء الحريصين على الدنيا بخلاف هذا، فإنهم لن يتمنوه أبدًا قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة:96] لأن المشرك وإن كان حريصًا على الحياة، ولكن لم يكن له خوف العذاب لإنكاره البعث ولمنكر المعرفة حرص الحياة وخوف العذاب، فيكون أحرص على الحياة من المشرك، وفيه أن حب الحياة من نتيجة الغفلة عن الله، فأشدهم عنه غفلة أحبهم للبقاء في الدنيا وحال المؤمن

على ضده فالعبد المطيع يحب الرجوع إلى سيده والعبد الآبق لا يريد الرجوع إلى سيده، وفي الحديث الصحيح: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» أي: محبة العبد للقاء نتيجة محبة الله للقاء العبد كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]. ثم أخبر عن غاية خذلانهم من عداوتهم لجبريل لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:97]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى خص النبي ﷺ من سائر الأنبياء بإنزال القرآن على قلبه، فإن جميع الكتب كان ينزل ظاهرًا جملة واحدة في الألواح والصحائف مكتوبة. فمن فوائد ضرورة القرآن معجزة بأن يأتي بمثل هذا القرآن الذي لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية. ومنها: أن القرآن لما أنزل على قلبه ﷺ أنزل عليه آية وآيات أو سورة بدفعات في مدة ثلاث وعشرين سنة من سني النبوة؛ ليتصف قلبه بأخلاق القرآن، وما أشير إليه فيه ويتأدب بآدابه كما روي عن عائشة - رضي الله عنها - وعن أبيها حين سُئلت ما كان خلق النبي ﷺ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، قالت: كان خلقه القرآن كقوله تعالى في جواب الكفار حين قالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:32]، ومنها أن القرآن لما نزل أنزل على قلبه صار قلبه خاشعًا خاضعًا من خشية الله تعالى حتى قال إنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه، وهذا من خصائص إنزال القرآن على قلبه لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:21]، ولو كانت التوراة أنزلت على قلب موسى عليه السلام لا في الألواح ما ألقى الألواح في حال الغضب، وما يحتاج إلى صحبة الخضر عليه السلام لتعلم العلم اللدني. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:98] أي: عدواتهم لله وملائكته لأن الله وملائكته عدو لهم يعني عداوتهم لله نتيجة عداوة الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فإن محبة المؤمنين نتيجة محبة الله تعالى لهم؛ لأن صفات الله تعالى قديمة وصفات الخلق محدثة، فلما نظر الله تعالى بنظر القهر والجلال والخذلان إلى ذات الكافرين، وقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي صار ذلك النظر بذر شجرة شقاوتهم فأثمرت الشجرة شجرة العداوة لله تعالى وملائكته، وكذا أحوال المؤمنين على الضد من هذا. ثم قال تعالى في جواب ابن صوريا حين قال: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها بقوله ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة:99]، إلى قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآيتين والإشارة فيهما أن معجزة كل نبي كان ظهورها على الأنبياء في الظاهر كإحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام واليد والعصا لموسى عليه السلام وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام فهم والخلق في مشاهدتها سواء، وكانت معجزة النبي ﷺ إنزال الآيات البينات على قلبه فكان ظهورها في نفسه ﷺ أولاً، ثم تظهر على الخلق ثانيًا بعد أن صارت خلقه، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ

بالعهد والكتاب والنبي أو أمره.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ

أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حديث متفق على صحته. فالآيات البينات هي أنواع معجزات القرآن منها: جزلة لفظه، وفصاحة عبارته، وبلاغة نظمه الذي عجز عنها فصحاء العالم وبلغاؤه من حين نزوله إلى الآن، ومنها: أن الله تعالى جمع بلفظ معاني وحكم كثيرة في الألفاظ يسيرة، ومنها: إيجاز الكلام في إشباع من المعنى فالكلمة القليلة الحروف منه تضمن كثيرًا من المعاني والحقائق وأنواعًا من الأحكام بحيث لا يتصور مثله من غير الله تعالى، ومنها: إدراج ما اشتملت عليه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - فيه من الأحكام والمواعظ والحكم مع ما تضمنه ما لم يشتمل عليه الكتب المنزلة سواه كما أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «أوتيت جوامع الكلم» ومنها: أن الله تعالى أنزل فيه ما أكمل به الدين وأتم به نعمته على عباده من أحكام الشريعة وآداب الطريقة وأسرار الحقيقة بحيث لم يترك دقيقة يحتاج إليها الكاملون الواصلون البالغون في أثناء سلوكهم وسيرهم إلى الله تعالى إلا أودعها فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59]، هذا مما يعجز عنه جميع الخلائق، ومنها: الإخبار عن شهود الأشياء الكامنة في الغيب إلى يوم القيامة فظهر كثير منها في عهد النبي ﷺ وبعده إلى الآن كما أخبر عنه القرآن وغير ذلك من الآيات الواضحات. ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:99]، الخارجون عن نور الروحانية إلى الظلمات البشرية الحيوانية وشدت عن إدراك بصائرهم، وسبق الشقاوة من الله تعالى قسمتهم؛ فكما لا عقل لمن يجحد أن النهار نهار، فكذلك لا إدراك لمن لم يساعده من الحق أنوار واستبصار لا جرم كلما عاهدوا عهدًا كان يشوشهم سابق التقدير لهم وينقض عليهم حق التدبير فيهم والله غالب على أمره، ولما جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر والإلهامات، فكذبوا رسولهم الذي آتاهم في الظاهر، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان، ويا حرما قارنه خذلان، حيث كذبوا رسله رفضوا بارة كتابه واتبعوا السحر.

وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا
وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا
نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: 101-106].

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة عتوهم أنهم ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ مرسل ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ المرسل للرسل لهداية الناس إلى التوحيد مع أنه ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الرسل، الهادي لارتفاع التعدد والاختلاف عن أهل التوحيد مع أن مجيء هذا الرسول منزل مثبت في كتابهم الذي يدعون الإيمان به ﴿نَبَذَ﴾ طرح ﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ وهو اليهود ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ هو التوراة التي ادعوا الإيمان بها ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يلتفتوا إليه ولم يتوجهوا نحوه بل صاروا من غاية عداوتهم وعنادهم مع الرسول المبعوث ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:101] ولا يقرأون كتابهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعدما نبذوا التوراة وراء ظهورهم؛ لاشتمالها على أوصافك وظهورك يا أكمل الرسل أخذوا في معارضتك بالسحر ﴿اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو﴾ تنسب وتفتري ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ المردة من الجن ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ بأن استيلاءه وتسلطه وتسخير الجن والإنس والوحوش والطيور والريح، إنما تم بالسحر ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَفَرَ﴾ وسحر ﴿سُلَيْمَانُ﴾ قط بل أمره على الوحي والإلهام والوارد الغيبي ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ يسترقون من الملائكة وينسبون الأمور إلى الوسائط أصالة، بواسطة ذلك ﴿كَفَرُوا﴾ وبعدما كفروا ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي: الذي يسترقون منهم ﴿وَ﴾ خصوصًا ما يسترقون من ﴿مَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ﴾ المحبوسين ﴿بِبَابِلَ﴾ المسميان: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ مع أن المنزل إليهما مكر الله مع عباده وابتلاهم وفتنهم ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ﴾ له طريقة وكيفية، بل يقول لمن ظهر له بالسحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ من الله وابتلاء لعباده ﴿فَلاَ تَكْفُرْ﴾ بنسبة الأمور إلينا، ولا تكفر بصدد التعليم أيضًا

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ المسترقون ﴿مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مما يورث قطع المحبة والعلاقة المستلزمتين لحفظ النسب إضرارًا للدين والإيمان ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ ومشيئته وتقديره؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

وهم مع إذعانهم العلم والعقل ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ ضرارًا فاحشًا في النشأة الأولى والأخرى ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ نفعًا فيهما أصلاً ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: استبدله؛ أي: كتاب الله بالسحر ﴿مَا لَهُ﴾ للمستبدل ﴿فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ نصيب لامتنعوا عن الاستبدال، لكنهم لم يعلموا فاستبدلوا، فثبت أنهم ليسوا من العقلاء العالمين، وبعدما عيرهم سبحانه بما عيرهم وجهلهم، كرر تعييرهم مبالغة وتذكيرًا للمتذكرين بها، فقال مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾ وأباحوا ﴿بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ حقائقها ومعارفها ولذاتها الروحانية بالسحر المبني على الكفر بالله وكتبه ورسله وملائكته؛ لأن المشهور من أصحاب السحر أن سحرهم لا يؤثر بالكفر والخباثة والكثافة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:102] يفهمون قباحته لما ارتكبوا، لكنهم لم يعلموا فارتكبوا، فثبت أيضًا جهلهم وسخافتهم.

ومن غاية جهلهم أيضًا أنهم يدعون الإيمان بالله وبالرسول والكتب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ يومًا بالله وكتبه ورسله بلا تفريق بين الكتب والرسل ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عن القبائح الأخروية جميعًا بلا رخصة ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ فائدة جليلة عائدة إليهم ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ عندهم ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا ومزخرفاتها ولذاتها الفانية كما هو عند المؤمنين الموقنين بوحدانيته ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:103] خيريته لم يكفروا بعده، لكنهم كفروا فثبت جهلهم وغباوتهم أيضًا.

ثم لما سمع اليهود من المؤمنين قولهم: راعنا عند رجوعهم إليه ﷺ في الخطوب، قالوا: هؤلاء ليسوا مؤمنين منقادين له مطيعين لأمره؛ لدلالة قولهم: راعنا، على أنك محتاج إلينا، فلك أن تراعنا حق الرعاية ولما كان فيه من إيهام سوء الأدب وإن كان غرضهم الترقب والالتفات، أشار سبحانه إلى نهيهم عن هذا القول رعاية لمرتبة حبيبه ﷺ وتأديبًا للمؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا﴾ مع نبيكم عند الخطاب له ﴿رَاعِنَا﴾ وإن كان مقصودكم صحيحًا، لكن العبارة توهم للمعنى الباطل، بل الأولى لكم والأليق بحالكم أن تخاطبوا رسولكم إكرامًا له وتعظيمًا ﴿وَ﴾ إن

اضطررتم إلى الخطاب ﴿قُولُوا﴾ بدله ﴿انظُرْنَا﴾ بنظر المرحمة والشفقية ﴿وَاسْمَعُوا﴾ هذا القول بسمع الرضا والقبول وحافظوا عليه؛ لئلا تسيئوا الأدب معه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المغتنمين للفرصة في أمثال هذه الكلمات ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104] لهم في الدنيا والآخرة.

ثم لما عجزوا عن معارضتكم صريحًا أخذوا في التلبيس والتخمين وادعاء المحبة والمودة على وجه النفاق؛ ليحفظوا دماءهم وأموالهم عنكم، ولا تغتروا أيها المؤمنون بودادهم ولا تسمعوا منهم أقوالهم الكاذبة.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ لإصلاح حالكم وزيادة إنعامكم وإفضالكم ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ وحي نازلٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي اختاركم واصطفاكم على جميع الأمم بغضًا وحسدًا مركوزًا في طباعهم، وبخلاً على ما أعطاكم الله من الخير ﴿وَ﴾ لم يمكنهم منع إعطائه تعالى إذ ﴿اللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾[1] الواسعة ونعمته العامة الشاملة ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلص عباده بلا علةٍ وغرضٍ ومرجحٍ ومخصصٍ، بل مع اختيارٍ وإرادةٍ بلا إيجاب وتوليد كما ظنه المعتزلة والحكماء الناقدون للبصيرة في الإلهيات والنبوات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40] ﴿وَ﴾ لا تشكوا في سعة رحمته وفضله بحرمان البعض؛ إذ ﴿اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:105] يفضل وينعم على مقتضى مشيئته وحكمته ومصلحته المخفية عن عقول العباد إلا من أطلعه الله على سرائر أفعاله من الكمل.

جعلنا الله من محبيهم ومتبعيهم بمنه ولطفه.

ثم اعلم أن الحوادث الكائنة في الآفاق كلية كانت أو جزئية، غيبًا أو شهادةً، وهمًا أو خيالاً إنما هي بمقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية الكلية المشتملة كل منها على أوصاف جزئيةٍ غير متناهيةٍ بلا تكررٍ فما من حادثة حدثت في العالم إلا بوصف

(1) يقال: خصه بالشيء واختصه به إذا أفرده به دون غيره ومفعول من يشاء محذوف، والرحمة النبوة والوحي والحكمة والنصرة. والمعنى يفرد برحمته من يشاء أفراده بها ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي الفائض عليه بحسب إرادته عز وجل لا تتعداه إلى غيره لا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق وما وقع في عبارة مشايخنا في حق بعض الأشياء انه واجب في الحكمة يعنون به انه ثابت متحقق لا محالة في الوجود لا يتصور ألا يكون لا أنه يجب ذلك بإيجاب موجب.

خاص الذي يخصه ويرتبه لا يوجد في غيره؛ لذلك قيل: «لا يتجلى في صورة مرتين؛ لئلا يلزم التكرار المنافي للقدرة الكاملة، ولا في صورة واحدة لاثنين؛ لئلا يلزم العجز عن إتيان الصورة الأخرى».

وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ نغير ونبدل ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ نازلةٍ حاكمةٍ في وقتٍ وزمانٍ يقتضيه نزولها في اسم مخصوصٍ ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ من القلوب، كأنه لم ينزل من قبل ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ أي: متى ننسخها أو ننسها، نأت بخير منها بحسب اقتضاء الزمان الثاني والاسم الخاص له؛ إذ سريان الوجود دائمًا على الترقي في الكمال ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ إذ التجدد ظاهرًا إنما يكون بالمثل والمعاد مثل المبدأ، ثم استفهم لحبيبه؛ تذكيرًا وعظة للمؤمنين فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يقينًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي بالتجليات غير المتناهية ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإجراء والإعادة والإنزال والتغيير ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106][1] لا تنتهي قدرته عند المراد بل له التصرف فيه ما شاء بالاختيار والإرادة.

---

(1) قال نجم الدين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:101]، الآيات الثلاث والإشارة في تحقيقها أن الروح الإنساني في أصل الفطرة كان مناسبًا للأرواح المكية في استماع خطاب الحق واستماع مكالمته قبل هبوط إلى العالم الجسماني، كما أخبر عنه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، قالوا ﴿بَلَى﴾ وأخذ منهم العهد على هذا، ثم نبذ ذلك العهد فريق منهم بعد هبوطهم إلى العالم الجسماني بتعلقات الحيواني وتبعات النفساني، ولما جاءهم رسول من إلهامات الحق موافق لما معهم من كتاب العهد والميثاق عند استماع الخطاب ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [البقرة:101]، الذي ألهموا والذي عاهدوا عليه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:101]، بترك العمل به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:101]، في أصل الفطرة ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة:102]، النفوس ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:102]، الروح الذي هو خليفة الله في أرضه أي: ما حدثت به أنفسهم استهوتهم الشياطين وغرتهم به أنه من سليمان الروح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:102]، الروح ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ [البقرة:102]، النفس والهوى. ﴿كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:102]، من تخيلات الهواجس وتمويهات الوساوس التي تملي النفس ببيان وهو بمثابة السحر لقوله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا» ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ [البقرة:102]، فتنة وخذلانًا من العلوم ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:102]، أي: الروح والقلب فإنهما من العالم العلوي الروحاني اهبطا إلى أرض العالم الجسماني بالخلافة؛ لإقامة الحق وإزهاق الباطل فافتتنا بزهرة الدنيا واتباعا خداعها؛ فوقعا في شبكة الشهوات التي ركبت فيها ابتلاء وامتحانًا، وشربا خمر الحرص والغفلة التي تخامر العقل وزينا ببغي الدنيا الدنيوية، وعبدا صنم الهوى وعلقا منكسين رءوسهما

بالالتفات إلى السفليات، وإعراضهما عن العلويات ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]، وفي كتبها عن استقامتها وحرما عن سماع خطاب الحق، وكشف حقائق العلوم النافعة الموجبة للجمعية ابتليا بإنزال أباطيل العلوم الضارة المؤدية إلى التفرقة مثل شبهات زنادقة الفلاسفة من قدم العالم وسلب الاختيار عن الله ونفي العلم بالجزئيات عنه وأمثال هذه الكفريات التي زلت بهما أقدام خلق كثير عظيم في الجاهلية والإسلام، وكذلك شبهات أهل الأهواء والبدع التي يكفر بها بعضهم بعضًا ويقتلون عليها فإنها علوم يجب الاستعاذة منها لقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع»ومع هذا من خصوصيته الروحية الملكية ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ [البقرة:102]، من الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية والقوى البشرية التي يلهماها ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:102]، مرء القلب وزوج دينه، وفي هذه القصة إشارة أخرى إلى أن من مال في هذا الطريق إلى تمويه وتلبيس وإظهار دعوى تلبيس، فهو يستهزئ بمن اتبعه ويلقيه في جهنم بباطله ويصده بتمويه ظلماته عن طريق رشده، ومن اعتبر عبر بالسلامة فتارة ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتك إشارة ظهر لذوي البصائر أغواره ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأن الضار هو الله تعالى ولكن الجرم أنهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة:102] أي: باعوا بالحظوظ النفسانية الحقوق الروحانية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:102]، غاية ما خسروا من دولة الإيمان وسعادة العرفان ونهاية ما يصيرون إليه من العقاب والحرمان ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:103]، بما أعد الله لخواص عباده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما يستمدون به إلى استجلاب الحظوظ وترك الحقوق، وأثروا الإقبال على الله على ما شغلهم عن الله لا يثبتوا على مالهم فيه خير وخير الدارين، ووصلوا إلى غير الكونين ولكنهم كتبهم وصرفهم سطوات القهر فأثبتهم في مواطن العجز. ثم أخبر عن خيانة عقائد اليهود ومكائدهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104]، الآيتين والإشارة فيهما إلى أن أثر العناية في حق الأولياء يظهر في كل شيء من أخلاق قلوبهم وأوصاف نفوسهم وأعمال أبدانهم وأقوال لسانهم، ففي عهد النبوة وأيام دولة الرسالة كان في قولهم: راعنا للنبي ﷺ شائبة ترك أدب نهوا عنه وفي قولهم: انظر فارًا عن أدب أمروا به، وأما بعد عهد النبوة وانقطاع الوحي فأكرموا بخواطر الزماني وإلهامات الرباني ودلوا بها على الفجور والتقوى بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:8]، وعلى الضدين هذا في حق الأعداء ظهور أثر الخذلان عليهم فإن قصورهم في جميع أحوالهم من أعمالهم وأقوالهم قصور خشية وعلى مناهجهم بينوا فيما يأتون ويذرون، ومن نتائج خذلانهم يحسدون أولياء الله على ما آتاهم الله من فضله وما يردون أن ينزل عليهم من خير من ربهم ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة:107-109].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء، كما يشاء، متى يشاء بلا فتورٍ ولا فطور، هذا في الآفاق ﴿وَ﴾ ارجعوا إلى أنفسكم، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم﴾ في ذواتكم وهوياتكم ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المحيط بكم وبجميع أوصافكم ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة:107] يعين عليكم من دونه بل هو محيط هوياتكم وماهياتكم كما أخبر به سبحانه في قوله: «كنت سمعه... وبصره... ويده... ورجله...»[1].

أتسلمون وتفوضون أموركم إلى الله ورسوله أيها المؤمنون المسلمون، وتقبلون دين الإسلام تعبدًا وانقيادًا ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وتقصدون ﴿أَن تَسْأَلُوا﴾ وتقترحوا عن سرائر الآيات النازلة عليكم لإصلاحكم حالكم عنادًا ومكابرة ﴿رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ عن الآيات النازلة لإصلاح بني إسرائيل مما نزل من آيةٍ إلا ويسألوه على وجه الإلحاح والاقتراح، فيجازيهم الله على مقتضى اقتراحهم، وإن اقترحتم كما اقترحوا يجازيكم الله كما جازاهم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ الموهوم المذموم ﴿بِالإِيمَانِ﴾ المحقق المجزوم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108] طريق الحق

الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ [البقرة:105]، بأصناف ألطافه ﴿مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:105]، لا ينقص مثقال ذرة من بحر أفضاله بأن يفيض على العالمين سجال نواله.

(1) أخرجه البخاري (2384/5، رقم 6137)، وابن حبان (58/2، رقم 347)، والبيهقي (219/10، رقم 20769)، وأبو نعيم في الحلية (4/1).

المستقيم الموصل إلى التوحيد كما ضل بنو إسرائيل بمخالفة كتاب الله وتكذيب رسله.

ثم اعلموا أيها المؤمنون أنه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ خصوصًا اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ بأنواع الحيل والنفاق ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿كُفَّارًا﴾ مردين واجب القتل والمقت عند الله، وليس ودادتهم كفركم لغاية تصلبهم في دينهم ونهاية غيرتهم عليه بل ﴿حَسَدًا﴾ لكم ناشئًا ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ من غاية عداوتهم معكم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُمُ﴾ أن دينكم ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بشهادة كتابهم ونبيهم، وإذا فهمتم أمرهم وعرفتم عداوتهم ﴿فَاعْفُوا﴾ عن الانتقام والعقوبة ﴿وَاصْفَحُوا﴾ أعرضوا عن التعبير في التقريع واصبروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ﴾ باسمه المنتقم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ المبرم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم دائمًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:109] من أنواع الانتقامات قدير على الوجه الأصعب الأشد.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:110-113].

﴿وَ﴾ بعدما فوضتم أموركم إلى الله، واتخذتموه وكيلاً حفيظًا لكم عن أدائكم ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ رابطوا ظواهركم وبواطنكم إليه سبحانه دائمًا على وجه التذلل والخضوع والانكسار والخشوع ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ طهروا قلوبكم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُقَدِّمُوا﴾ في هذه النشأة ﴿لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من التوجه الدائم والإعراض الدائم عن محبة الغير ﴿تَجِدُوهُ عِندَ﴾ ظهور توحيد ﴿اللهِ﴾ وتجريده وتفريده على قلوبكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المحيط بذواتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة:110] عليم خبير.

﴿وَ﴾ من جملة حيلتهم معكم ووداداتهم كفركم أنهم ﴿قَالُوا﴾ لكم على وجه العظة والتذكير ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ﴾ من أهل الأديان ﴿إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ﴾ المهملات ما هي إلا ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي يخمرونها في نفوسهم بلا كتاب ولا دليل، وإن ادعوا الدليل ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا: ﴿هَاتُوا﴾- أيها المدعون ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾[1] من آيات الله وسنن رسله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:111] في دعوى الاختصاص.

قل لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والإخلاص لا وجه لدعوى اختصاص الجنة لا منكم ولا منا: ﴿بَلَى﴾ أي: بل مبنى الأمر على أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وسلم وجهه المنسوب إليه مجازًا ﴿لِلَّهِ﴾ المنسوب إليه حقيقة ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿مُحْسِنٌ﴾ عارف مشاهد ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ مرجعه ومقصده ﴿عِندَ﴾ مرتبة ﴿رَبِّهِ﴾ المخصوص له ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:112] لغنائهم عن قابلية الخوف والحزن ومقتضيات الطبيعة وبقائهم بمرتبة ربهم.

﴿وَ﴾ من عدم تفطنهم للإيمان والإذعان وعدم تنبههم على طريق التوحيد

---

(1) قال نجم الدين: ثم أخبر تعالى عن دعائي وباطلة لليهود بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة:111]، الآيتين الإشارة فيهما أن كل ممكور مغرور يظن النجاة نفسه، ونيل الدرجات سهمه، وهو مُصر على حسابه أن ليس أحد في نصابه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:111]، الكاذبة وشهواتهم الغالبة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة:111]، من الأعمال الظاهرة والأحوال الباطلة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:111]، في دعواكم بإتيان البرهان من إظهار معناكم، فإن مجرد الحسان دون تحقيق البرهان لا يأتي بحاصل ولا يجود بطائل، ثم بين برهان أهل الحق ودعوى الصدق بقوله ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: أهل الحق من يكون توجهه بالكلية إلى الله خالصًا لله لا لطمع الجنة ولا لخوف النار لقوله تعالى: ولكل وجهته الهولية ما ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، في توجهه بمزاولة الحسنات القالبية والقلبية ويكون نظره في جميع الحالات يرى في تعبده التوفيق من الله تعالى وذهابه إليه وفي الهداية إليه والهدايات منه، فإن «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه». وقال الخليل ﷺ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [البقرة:112]، فله الوصول إلى مقام عندية الرب ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْ﴾ [البقرة:112]، على مخلصي الحق في توجههم إلى الله تعالى من قطاع الطريق كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:40]، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:112]، على ما فاتهم في طلب عند وجدان الحق.

والعرفان ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ﴾: الدين ديننا والكتاب كتابنا والنبي نبينا ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ في أمر الدين، بل هم ضالون عن طريق الحق، لا يهتدون النبي أصلاً إلا أن يؤمنوا بديننا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿قَالَتِ النَّصَارَى﴾: ديننا حق وشريعتنا مؤيدة ونبينا مخلد ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في الدين والإيمان، بل الدين ديننا ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿هُمْ﴾ أي: كلا الفريقين ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ المنزل على نبيهم، ويدعون الإيمان والإذعان، ومع ذلك لم يخلصوا من الجهل والعناد، ولم يتنبهوا على التوحيد المزيح للاختلاف، المشعر للوفاق والاتحاد، بل فرق بينهم وبين المشركين النافيين للصانع؛ إذ ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الكتاب والنبي والدين والإيمان ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بأن الحق ما نحن عليه بلا كتابٍ ولا نبيٍ؛ لأن الإنسان مجبول على ترجيح ما هو عليه سواء كان حقًا أو باطلاً، صلاحًا أو فسادًا، والأنبياء إنما يرسلون ويبعثون؛ ليميزوا لهم الحق عن الباطل والصالح عن الفاسد، وهم مع بعثة الرسل إليهم سواء كان مع المشركين الذين لا كتاب لهم ولا نبي ﴿فَاللهُ﴾ المحيط بسرائرهم وضمائرهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ على مقتضى علمه بأعمالهم وأحوالهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:113] على مقتضى آرائهم وأهوائهم فيجازيهم بمقتضى ما يعملون ويعلمون.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (117) ﴾ [البقرة:114-117].

﴿وَمَنْ﴾ على الله المظهر للعباد ليعرفوه، ويتوجهوا نحوه في الأمكنة المعدة للتوجه ﴿أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ الموضوعة ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: يذكر فيها أسماؤه، والمؤمنون الموقنون بأسمائه الحسنى ﴿وَ﴾ مع المنع ﴿سَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ ليستأصلها ويخرجها عما يعدله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المشركون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا﴾ لنجاستهم وخباثتهم، وإن دخلوها لحاجة أحيانًا لا بد لهم أن يدخلوها ﴿إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ خاضعين متذللين مستوحشين، بحيث لم يتوجهوا يمنةً ويسرةً استحياء من الله، بل

منكوسين رءوسهم على الأرض إلى أن يخرجوا، قل يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وإجلاء وسبي وذلة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] [البقرة:

(1) ورد في «التأويلات»: أخبر تعالى عن الظلم المركوز في طبيعة الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة:114]، الآيتين والإشارة فيهما أن عند أهل النظر مساجد الله التي يذكر فيها اسمه النفس والقلب والروح والسر والخفي وهو سر السر وذكر مسجد منها مناسب لذلك. فذكر مسجد النفس: الطاعات والعبادات ومنع الذكر فيه بترك الحسنات، وملازمة السيئات. وذكر مسجد القلب: التوحيد والمعرفة ومنع الذكر فيه التمسك بالشبهات والتعلق بالشهوات، كما أوحى الله تعالى لداود ﷺ: «حذِّر وأنذر قومك من أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة» وذكر مسجد الروح: والشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمساكنات. وذكر مسجد السر: المراقبة والشهود ومنع الذكر فيه الركون إلى الكرامات والقربات. وذكر مسجد الخفي: بذل الوجود وترك الوجود ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة:114]، هذه المساجد ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:114]، اسم الله بهذه الأذكار ومن أقدم على هذا المنع فقد ﴿سَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة:114]، أي: خرب هذه المساجد ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة:114]، هذه المساجد بقدم السلوك إلا بخطوات الخوف من سوء الحساب وألم العقاب ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [البقرة:114]، من ذل الحجاب ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:114]، لحرمانهم عن جوار الله العلي العظيم. ثم أخبر عن فتحه ملكه وسعة فضله بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:115]، والإشارة فيها أن الله تعالى منزه عن الجهات، فالشرق والغرب بالنسبة إلى حضرته متساويان إذ ليس الاعتبار بتوجه الصورة إلى جهة من الجهات، وأن تعين جهة الكعبة لجمع همم القلب وبقوة التوهم فللوهم في جمعية القلب حالة التوجه أثر عظيم، وإنما الاعتبار لتوجه القلب بجمع الهمم إلى الله تعالى فلكل قلب جهته هو موليها فإذا خص توجه القلب إلى الله بالإعراض عما سواه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ [البقرة:115]، فضله ورحمته كل شيء لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت:54]، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، أحاط بكل شيء علمه، وفيه إشارة أخرى إلى أن القلوب مشارق سموم الأشواق ومغاربها والله في مشرق كل قلب ومغربه شارق وطارق، فطارق القلب من هواجس النفس يطرق لظلمات المنى عند غلبات الهوى وغروب نجم الهدى وشارق القلب من واردات الروح يشرق بأنوار الفتوح عند غلبات الشوق وطلوع قمر الشهود، فتكون القبلة واضحة والدلالات لائحة فإذا تجلت شمس صفات الجلال خفيت نجوم صفات الجمال، وإذا استولى سلطان الحقيقة على ممالك الخليقة طويت بأيدي سطوات الجود سرادقات الوجود، فما بقيت الأرض ولا السماء ولا الظلمات ولا الضياء، وليس عند الله صباح ولا مساء وتلاشت العبدية في كعبة العندية ونودوا بفناء الفناء من عالم البقاء ورفعت القبلة وما بقي الإله: ﴿فَأَيْنَمَا

114] حرمان عن الكمال الإنساني بكفرهم وظلمهم.

﴿وَ﴾ قل للمؤمنين يا أكمل الرسل تسلية لهم: لا تغتموا عن منعهم منا وسعيهم في تخريبها، ولا تحصروا توجهكم إلى الله في الأمكنة المخصوصة، بل ﴿لِلَّهِ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فهما كنايتان عن طرفي العالم ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ توجهوا نحوه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: ذاته؛ إذ هو منتهى الجهات محيط بها ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أجل من أن تحيط به القلوب إلا من وسعه الله بلطفه كما أخبر سبحانه بقوله: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن**»(1) ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115] لا يغيب عن علمه شيء، وحيث اتجهتم نحوه علمه قبل توجهكم، بل توجهكم عين توجهه فلا يتوجه إليه إلا هو، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

ومن غاية جهلهم بالله الواسع العليم الذي لا يسعه الأرض والسماء ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255] حصروه سبحانه في شخص وتخيلوه جسمًا، وأثبتوا له لوازم الأجسام ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ كعيسى وعزير عليهما السلام ﴿سُبْحَانَهُ﴾(2) وتعالى، عز الصمد الذي شأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ

تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، يوسع القلب لمن يشاء من عباده ليسعه ﴿عَلِيمٌ﴾ يوسع القلب لسعته بلا كيف ولا حيف كما قال تعالى: «لا يسعني قلب عبدي المؤمن».

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (494/3).

(2) قال نجم الدين كبرى: أخبر عن قصر نظر أهل الشرك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:116]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى أظهر مما قالوا غاية ظلومية الإنسان وجهوليته كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:5]، وأظهر كمال حلمه إذ لم ينتقم في الحال كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل:61]، وفي قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ سبعة معان: أولها: التنزيه نزه ذاته من تهمة الولد كما نزه عن عائشة رضي الله عنها عن تهمة الإفك بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:16]. وثانيها: التعجب تعجب به العباد كيف يتخذ الله الولد وله ما في السموات عبيد وملكه، وكيف يقول مثل هذا القول مخلوق في حق خالقه، وكيف يحلم عنهم ويمهلهم في مكانهم كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:191]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1]. والثالث: التسخير أي: يسخر له ما في السماوات والأرض

يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4.3] أن يتخذ صاحبة وولدًا ﴿بَل لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ مظاهر ﴿الأَرْضِ﴾ ليظهر عليها ويتجلى لها؛ إظهارًا لكمالاتها المترتبة على صفاته المندرجة في ذاته ونسبته تعالى إلى جميع المظاهر في التكوين والخلق على السوى من غير تفاوت، وعيسى وعزير - عليهما السلام - أيضًا من جملة المظاهر، ومرجع جميع المظان إلى الظاهر؛ إذ ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:116] خاضعون منقادون مقرون على ما هم عليه قبل ظهورهم من العدم مقرون بأنه:

﴿بَدِيعُ﴾ مبدع ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من العدم بلا سبق مادةٍ وزمانٍ ﴿وَ﴾ من بدائع إبداعه أنه ﴿إِذَا قَضَى﴾ أراد أن يوجد ﴿أَمْراً﴾ مما في خزائن علمه ولوحه المحفوظ وكتابه المبين ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ إمضاءً لحكمه ونفاذًا لإرادته ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:117] بلا تراخٍ ولا مهلةٍ، بحيث لا يسع التعقيب أيضا إلا لضيق التعبير، والألفاظ بمعزل عن أداء سرعة نفوذ القضاء.

وسخر لعبيده، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف:13]. ورابعها: الخلق أي: من خلق السماوات والأرض وما فيهن كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس:36]. وخامسها: القدرة، كقوله تعالى: من بيده ملكوت السماوات والأرض، وما فيهن الإبقاء والإفناء ما ينبغي له أن يتخذ ولدًا كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]. وسادسها: التوبة أي: سبح لله ذرات الملكوتيات توبة واستغفار بلسان الحال، عما قال بعضها بلسان القال اتخذوا الله ولدًا بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد:1] أي: هو أعز من أن يتخذ ولدًا حيكم بأن لا يفعل مثل هذا، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]. وسابعها: الدعاء أي: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]، ودعاء وتضرعًا وابتهالاً وتخشعًا واعتذارًا وتواضعًا وانكسارًا واعترافًا بظلم من قال هذا القول على أنفسهم، ولولا تضرعهم ودعائهم تكاد السموات تنفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا إن دعوا للرحمن ولدًا، كما قال تعالى في حق يونس ﷺ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:143-144] أي: من الداعين وكان من دعائه قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87]، فكذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116] أي: كل ذرة من ذراتها وإعواز بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا
ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ
ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:118-121].

ثم لما ظهر واشتهر أن القرآن ناسخ للكتب السالفة مع كونه مصدقًا لها، ناطقًا بأنها منزلة من عند الله على الرسل الماضين الهادين إلى طريق الحق، وأن حكم الناسخ ماضٍ باقٍ، وحكم المنسوخ مضى ولم يبق أثره، مع أن كلا منهما حكم الله في زمانين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون ظهور الله وتجلياته بحسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا في كل آنٍ وشأنٍ: لا نقبل هذا الحكم ولا نؤمن به ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ مشافهة، بأن هذا ناسخ راجح وذاك منسوخ مرجوح ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾ على الله من يدعي الرسالة ﴿آيَةٌ﴾ ملجئة تدل على هذا الحكم بلا احتمال آخر، ولولا هذا ولا ذاك لم نقبله ولم نؤمن به، ولا تستبعد يا أكمل الرسل منهم هذا القول؛ إذ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ﴾ كفروا للأنبياء الماضين ﴿مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بلا تفاوتٍ بل ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ المنكرة المخمرة لهذه الأباطيل، المموهة مع أنا ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ﴾ المنزلة الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ﴾ ذوي قلوبٍ صافيةٍ عن كدر الإنكار ﴿يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 118] بها سواء الآيات الظاهرة على الآفاق والأنفس، وهم لانهماكهم في كدر الإمكان والإنكار لا يرجى منهم الإيمان والإقرار.

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ إلى طريقه ﴿وَنَذِيرًا﴾ عن طريق الباطل ﴿وَ﴾ إن لم يبشروا ولم ينذروا بعدما بلغت إليهم التبشير والإنذار ﴿لاَ تُسْأَلُ﴾ أنت ﴿عَنْ﴾ إعراض ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:119] المجبولين على الكفر والعناد.

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى﴾ بمجرد المؤانسة وإظهار المحبة وإرخاء العنان ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ التي ادعوا حقيتها وهدايتها، بل حصروا الهداية عليها ﴿قُلْ﴾

لهم يا أكمل الرسل كلامًا على وجه التذكير وإمحاض النصح: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الذي يهدي به عباده ﴿هُوَ الهُدَى﴾ النازل من عنده، وهو دين الإسلام، فاتبعوه لتهتدوا ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ يا أكمل الرسل، ومن تبعك بعد يأسكم في اتباعهم بك ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ من لدنا على هدايتك وإهداء من تبعك ﴿مَا لَكَ مِنَ﴾ عند ﴿اللهِ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظك من الضلال ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾[البقرة:120] يدفع عنك المكاره.

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ واصطفيناهم من بين الأمم بإرسال الرسل، وهم ﴿يَتْلُونَهُ﴾ أي: الكتاب، متأملاً متدبرًا مما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والمعارف والحقائق، مراعيًا ﴿حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ بلا تحريف ولا تبديل ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وبما فيه من الأحكام والآيات والأخبار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ بتحريفه أو تبديله إلى ما تهوى أنفسهم ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المحرفون المغيرون كتاب الله لمصلحة نفوسهم ﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:121] الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة بسبب تحريف كتاب الله وتبديله.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة:122-120].

ثم لما خاطب سبحانه بني إسرائيل أولاً بإيفاء العهد الذي هو شعار الإيمان، وما يتعلق بإيفاء العهد من الرجوع إليه، والإيمان بكتبه ورسله وعدم المبادرة إلى الكفر، وعدم استبدال آيات الله الدالة على ذاته علمًا وعينًا وحقًا بالمزخرفات الفانية التي لا مداد لها أصلاً، وعدم لبس الحق الظاهر المكشوف المحقق بالباطل الموهوم المعدوم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة المنبئين من التوجه الفطري، والرجوع الحقيقي الأصلي، الركوع والخشوع على وجه التذلل والانكسار، إلى أن يصل إلى الفناء في ذاته بل إلى

فناء الفناء لينعكس البقاء.

ثم عبر سبحانه تعبيرًا فوق تعبيرٍ على الناسين نفوسهم في الغفلة بلا توجهٍ ورجوعٍ، ثم أمر خلص عباده باستعانة الصبر المورث للتمكين، والصلاة المشعر بالتوجه التام المسقط لجميع الآثام، هذا لتصفية ذواتهم.

ثم خاطبهم سبحانه ثانيًا وأوصاهم بشكر نعم تفضيلهم وتكريمهم على بني نوعهم بأنواع الكرامات الدينية والدنيوية.

ثم حذرهم وخوفهم عن يوم الجزاء على وجه المبالغة والتأكيد؛ لتصفية أوصافهم في معاشهم في النشأة الأولى.

ثم لما ذكر سبحانه كفرانهم وطغيانهم وعدم انقيادهم بالكتب والرسل، وتكذيبهم وقتلهم وخبث طينتهم ودناءة طبعهم، وقساوة قلبهم وشدة عداوتهم مع المؤمنين، وقبح صنيعهم مع الأنبياء الماضين كرر خطابه سبحانه إليهم ثالثًا بما سبق ثانيًا؛ مبالغةً وتأكيدًا وتلطفًا وإمهالاً لهم؛ كي يتنبهوا، ومع ذلك لم يتنبهوا لخبث طينتهم، فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المعرضين عني بأنواع الإعراضات، والمعترضين لآياتي بأصناف الاعتراضات مضى ما مضى ﴿اذْكُرُوا﴾ واشكروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بفضلي وإحساني مع عدم شكركم وكفرانكم ﴿وَ﴾ خصوصًا اذكروا من النعم نعمة الجاه والتفضيل على جميع البرايا؛ إذ ﴿أَنِّي﴾ بحولي وطولي ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:122] من بني نوعكم، وامتثلوا أمري ولا تتجاوزوا عن حكمي، واحذروا عن قهري وانتقامي.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ وصفه أنه ﴿لاَّ تَجْزِي﴾ لا تحمل ﴿نَفْسٌ﴾ مطيعة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ عاصيةٍ ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً من أوزارها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فدية حتى تتخلص بها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ من شفيعٍ حميمٍ حتى يخفف عذابها لأجلها ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:123] بغيرهم في تحمل العذاب، بل ما يحمل رزاياهم إلا مطاياهم، ومع هذه المبالغة والتأكيد قليلاً منهم يؤمنون بخلاف الملة الحنيفية البيضاء الجليلة، فإنهم بأجمعهم يرجى منهم الإيمان بوحدانية الله إن أقاموا الصلاة إليه مخلصين إلا المصلين الذين هم في صلاتهم ساهون بما يلهيهم من محبة المال والجاه عصمنا الله من ذلك.

ثم لما ذكر سبحانه قصة بني إسرائيل وإنعامه عليهم بأنواع النعم، وكفرانهم

لنعمه من خبث طينتهم، أراد أن يذكر طيب طينة الملة الجليلة وصفاء عقائدهم واصطبارهم، وتحملهم على الاختبارات والابتلاءات الإلهية، فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ أي: واذكر يا أكمل الرسل وقت ابتلاء أبيك ﴿إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾[1] الذي ابتلاه واختبر خليله بأنواع البلاء من النار والمنجنيق وذبح الولد وإجلاءٍ من الوطن وغير ذلك من البليات النازلة عليه ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ صادرة من ربه حين أراد اختباره ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ على الوجه الذي

---

(1) قال في «التأويلات»: أخبر تعالى عن أهل التقوى وتارك الهوى بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124]، والإشارة فيها أن الولاء مظنة البلاء، فإن إبريز الولاء لا يبرز من معدن الإنسان الذي هو محل الابتلاء إلا بالتهاب نار الهوى، كما قيل البلاء للولاء كاللهب للذهب، فأصدقهم ولاء أشدهم بلاء، فلما ابتلي الخليل ﷺ بكلمات هي أحكام النبوة ولوازم الرسالة وموجبات الخلة فوفى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124]. أما أحكام النبوة: فما ابتلاه الله تعالى بالخصال العشرة في جسده كما ذكره في تفسير الآية، وأما لوازم الرسالة فمنها الصبر عند صدمات المكروهات وفقدان المألوفات، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35]، فصبر على كل مكروه وحادثة في ماله وولده ونفسه، وعن كل مألوف فقده في المال بالبذل وفي الولد بالذبح وفي النفس بالفداء. وأما موجبات الخلة: فمنها التبرؤ عما سوى الخليل، ورفع الوسائط فيما بينه وبين الخليل، والتسليم والرضا تحت تصرفات الخليل فيما أراده له الخليل. أما التبرؤ فقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78]، وأما العدواة فإنه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77] وأما رفع الوسائط فقوله حين عرضه جبريل عليه السلام في الهوى وهم يعذبونه في لجة الهلاك، وما الرضا ففي ذبح الولد قد أظهر الرضا، بما أمره وما راجع الحق تعالى في ولده كما راجعه نوح عليه السلام في ولده ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:45]، فأخبره تعالى كمال رضاه بقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:103] فلما خرج عن عهده إتمام كلمات الابتلاء فزيد له في الاصطفاء والاجتباء وأكرم بكرامة الأنبياء والاقتداء بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124]، وقد قيل: وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ [البقرة:124]، معنيان: أحدهما: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124]، تهدي الناس إلى طريق خلتي بأقوالك وأفعالك وأخلاقك على طريق هدايتك إليها بعد أن أسلموا لأحكام منا كما أسلمت وصبروا على بلائنا كما صبرت وأيقنوا بآياتنا كما أيقنت يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:24]. والثاني: جاعلك إمامًا لمن يدعي محبتي ويريد خلتي أبدًا ليقتدى بك فيما ابتليتك من موجبات الخلة ذكره بأداء حقوقها والخروج عن عهده شرائطها كما أجرى منك والذي يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:31].

صدر بلا قصورٍ ولا فتورٍ تتميمًا لمرتبة الخلة والخلافة.

ثم لما اختبر سبحانه خلة خليله بأنواع البلاء أظهر خلته له بأنواع العطاء حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿إِنِّي﴾ من غاية محبتي وخلتي معك أيها الخليل الجليل ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ الناسين التوجه والرجوع إلي ﴿إِمَاماً﴾ مقتدى لهم، هاديًا يهديهم إلى طريق التوحيد، ولما رأى إبراهيم عليه السلام انبساط ربه معه وإفضاله عليه وإظهاره الخلة له ﴿قَالَ﴾: ﴿وَ﴾ اجعل يا ربي ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أيضًا أئمةً إلى يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ سبحانه تلطفًا له وامتنانًا عليه: ومن ذريتك أيضًا الصالحين منهم لا الفاسقين؛ إذ ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي﴾ الذي هو نيابتي وخلافتي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124] المتجاوزين عن حدودي وعهودي.

﴿وَ﴾ بعدما جعلناه إمامًا هاديًا إلى طريق الحق هيأنا له طريق الاهتداء ﴿إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة المعدة للتوجه إلينا بترك المألوفات وقطع التعلقات من الأهل والمال والوطن، والاجتناب عن التصرفات المانعة عن التوجه الحقيقي من الرفث والفسوق والجدال والقتل، وغير ذلك من الأمور المتعلقة للحياة المستعارة ﴿مَثَابَةً﴾ موضع ثواب ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ليتقربوا إلينا ويتوجهوا نحونا ﴿وَأَمْناً﴾ من جميع المخافات الدينية إذا كانت الزيارة على نية الإخلاص ﴿وَ﴾ بعدما جعلنا البيت مثابة للناس قلنا للزائرين لها والطائفين حولها: ﴿اتَّخِذُوا﴾ أيها الزوار ﴿مِن مَّقَامِ﴾ خليلنا ﴿إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] موضع ميل وتوجه؛ اقتداءً له صلوات الرحمن عليه ﴿وَ﴾ بعدما أمرنا الزوار

(1) قال نجم الدين: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:125] يعني: إذا وصلتم إلى كعبة القلب اجعلوا مقام الخلة قبلة توجهكم فيكون قصدكم وذهابكم إلي لا إلى سواي اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم، وكانت ملته ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ومما يدل على المعنى الذي جرى في الآية قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:125]، والإشارة فيها أنه لما شرف البيت بإضافة إلى نفسه لقوله بيتي أكرمه بكرامات مخصوصة عن غيره من المساجد: أولها: أنه كان أول بيت وضع للناس من بيوت الله تعالى. وثانيها: عين موضعه بمكة خير المواضع بإرسال جبريل عليه السلام وقد خلق الله تعالى موضع البيت بألفي عام. وثالثها: أمر الخليل عليه السلام ببنائه بيده. ورابعها: جعله مباركًا على زواره ومستقبليه. وخامسها: وهو سبب هداية لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96]. وسادسها: جعله حرمًا لا يصاد صيده ولا يقطع شجره. وسابعها: مأمنا لا تجد جان يأوي إليه ويغفر ذنوب من دخل فيه قال تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:57]. وثامنها: جعلها قبلة حبيبه، وقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

بما أمرنا ﴿عَهِدْنَا﴾ وصينا ﴿إِلَى﴾ خليلنا ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ذبيحنا ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابنه ﴿أَن طَهِّرَا﴾ بالمظاهرة ﴿بَيْتِيَ﴾ المعدة للطهارة الحقيقية عن جميع الشواغل ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ الذين قصدوا الميل إلى جنابنا ببذل المهج ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ القائمين المقيمين ببابنا رجاء

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:144]، وقبلة أمته وحيث ما كنتم ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144]. وتاسعها: جعله حجة ركنًا من أركان الإسلام وقال الله: ﴿عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:97]. وعاشرها: جعله منزل الرحمة ومقسمها لقوله ﷺ: «إن الله في كل يوم وليلة مائة وعشرين رحمة تنزل على هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين» والحادي عشر: جعل طوافه عبادة وموجبًا للرحمة. والثاني عشر: جعل النظر إليه عبادة وموجبًا للرحمة. والثالث عشر: جعل جواره جوار الله. والرابع عشر: جعله محل الآيات البينات. والخامس عشر: جعل صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه من المساجد. والسادس عشر: جعله ملجأ الخلق ومعادًا يعودون إليه لا يقضون منه وطرًا كلما انصرفوا اشتاقوا إليه قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:125]. السابع عشر: جعله مغناطيس القلوب بجذبها من المسافة البعيدة فالقلوب مشتاقة إليه وإلى أهله لما قال تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37]. والثامن عشر: جعل له كرامة ظاهرة وآية مبينة أن الطير يقع على حيطانه ولا يطير فوقه ولا روث في حرمه مع كثرة الحمام. والتاسع عشر: جعله معظمًا مبجلاً في الجاهلية والإسلام من لدن آدم ﷺ إلى اليوم، وكانوا يعظمونه ويقصدونه ويزورونه ويقربون به أهل الأديان والملل كلها حتى الكفر والشرك. وعشرونها: جعل فيه الحجر الأسود وهو ياقوتة من يواقيت الجنة قال النبي ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه» شرفه الله بهذه الكرامة بما لا يحصي ولكن اقتصر على مخافة التطويل والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:125]، أنا عهدنا معهما في الميثاق على تطهير القلب عن أدناس تعلقات الكونين واقتصار ملاحظة الأغيار فإنه بيتي، وإنما أضافه إلى نفسه ليكون مخصوصًا به عما سواه ولا يكون لغيره فيه مأوى ولا سكنى. ولو كان الأمر بالتطهر مقصورًا على بيت الكعبة لكفى الخطاب إلى أحدهما دون الآخر كقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: 27]، فلما كان الأمر بذلك مشتملاً على تطهير كلا البيتين خاطبهما به، وأما الطائفون فواردات الحق وإلهاماته وإشاراته ومحادثاته ولوامع أنواره وطوالع أسراره ووفور مواهبه فحملتها بلسان قوم الأحوال، وهي التي تطوف حول القلوب المطهرة من الملوثات السليمة من الآفات، وأما العاكفون فأنوار معرفته ومحبته وحقائق صفاته وأخلاقه فجملتها المقام فالأحوال تكون لأصحاب التلوين ولأرباب التمكين والمقام ولا يكون إلا لأرباب التمكين، وأما الركوع والسجود فإشارة إلى قلب الصفاء المطهرة وهي الإرادة والصدق والإخلاص والخضوع والخشوع والدعاء والتضرع والابتهال والانكسار والتواضع والخوف والرجاء والصفاء والوفاء والتسليم والرضا والخشية والهيبة والتوكل والتفويض فحملتها العبودية.

أن ينكشف لهم أسرار التكاليف التي كلفوا بها ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:125] أي: الراكعين الساجدين في فنائنا تذللاً وانكسارًا حتى يتحققوا بمقام العبودية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ
ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا
مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:126-129].

﴿وَ﴾ بعد ﴿إِذْ﴾ أمرناه وابنه بطهارة البيت وامتثلا بالمأمور ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ منيبًا إلينا، داعيًا راجيًا في دعائه النفع العام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ﴾ بيتك ﴿هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ ذا أمن للمتوجهين إليها والعاكفين ببابها عن العلائق المانعة عن التوجه المعنوي ﴿وَ﴾ بعدما توجهوا نحوه ﴿ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ المترتبة على سرائر تعيينه وتخصيصه، ووجوب طوافه على المستطيعين المنهمكين في الشواغل المانعة عن التوجه إلى الكعبة الحقيقية الممثلة عنها هذا البلد.

ولما دعا إبراهيم بهذا الدعاء المجمل المطلق لهم، فصله سبحانه إجابة دعائه بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم﴾ من المتوجهين الزائرين ﴿بِاللهِ﴾ الواحد الأحد تعبدًا وانقيادًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المحقق الوقوع إذعانًا وتصديقًا، فلهم ما دعوت لهم مع أنواع الإفضال والإنعام؛ جزاء لهم وإجابة لدعائك ثم ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ منهم وجحد بعدما وضح لهم الطريق ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ متاعًا ﴿قَلِيلاً﴾ من مفاخرة الأقران والاستكبار على الإخوان وتفرج البلدان ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بعد جحوده وإنكاره ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ بل أشد منها، وهو حرمانه عن الفوائد المرتبة على الطواف والزيارة المنبئة عن الوصول إلى مرتبة العبودية المخلصة، عن جهنم الإمكان الذي هو مصير أهل الكفر والطغيان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:126] مصيرهم الذي لا ينجو منه أحد من أهله، عصمنا الله منه بمنه وجوده.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ يَرْفَعُ﴾ يحمل جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الأواه المنيب

﴿الْقَوَاعِدَ﴾ أي: التكاليف الشاقة الناشئة ﴿مِنَ﴾ إنشاء ﴿الْبَيْتِ﴾ المعد للاهتداء إلى كعبة الوصول من التجريد عن لوازم الحياة ومقتضيات الأوصاف المترتبة عليها، وترك المألوفات وقطع التعلقات العائقة عن الموت الإرادي الموصل إلى مقر الوحدة المغنية للكثرة الموهمة، المستتبعة للبعد والفراق عن فضاء التوحيد ﴿وَ﴾ أبوك أيضًا ﴿إِسْمَاعِيلُ﴾ الراضي بقضاء الله، المرضي بما جرى عليه من البلاء، واذكر أيضًا دعاءهما بعدما احتملا المشاق والمتاعب بقولهما: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع المنح التي ليست في وسعنا وقدرتنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ما أقدرتنا عليه ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ القادر لما جئتنا به ﴿السَّمِيعُ﴾ لمناجاتنا قبل إلقائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127] لحاجاتنا وإخلاصنا في نياتنا.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا﴾ بفضلك ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مستسلمين مفوضين جميع أمورنا إليك، مخلصين فيه ربنا ﴿وَ﴾ اجعل أيضًا ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ المتسبين إلينا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ مسلمة ﴿لَّكَ﴾ مطيعة لأمرك ﴿وَأَرِنَا﴾اكشف لنا ولهم ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ سرائر مناسكنا التي نعملها على مقتضى أمرك وتكليفك ﴿وَ﴾ إن أخطأنا فيما أمرتنا ﴿تُبْ عَلَيْنَا﴾ عما جرى علينا من لوازم بشريتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ﴾ للعباد العاصين الخاطئين ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:128] بقبول توبتهم، وإن نقضوها مرارًا.

ثم لما كان الغالب عليهما توحيد الصفات والأفعال، دعوا ربهما متضرعين أن يبعث من ذريتهما من يغلب عليه توحيد الذات فقالا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في الأمة المسلمة ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ هاديًا إلى توحيد الذات ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ أولاً ﴿آيَاتِكَ﴾ الدالة على ذلك ظاهرًا ﴿وَ﴾ ثانيًا: ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ يفهمهم ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين سرائر الآيات ﴿وَ﴾ ثالثًا: يكشف ويوضح لهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ التي هي سلوك طريق التوحيد الذاتي ﴿وَ﴾ رابعًا: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم عن رؤية الغير في الوجود مطلقًا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر للأغيار ﴿الحَكِيمُ﴾ [البقرة:129] في إيجادها وإظهارها على وفق مشيئتك وإرادتك.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ

﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:130-133].

﴿وَ﴾ بعدما جعلنا الخليل إمامًا مقتدى للأنام، هاديًا لهم إلى دار السلام ﴿مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من يعرض عن ملته الحنيفية، الطاهرة عن الميل إلى الآراء والآثام، البيضاء المنورة لقلوب أهل التفويض والإسلام، المبنية على محض الوحي والإلهام ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: لا يعرض عن ملته الغراء إلا من ترك نفسه في ظلمة الإمكان من غير رجوع إلى فضاء الوجوب، ليتبع الطريق الموصل إليه ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ واجتبيناه من بين الأنام ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ للرسالة والنبوة لإرشاد العباد إلى طريق التوحيد ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:130] للتحقق والوصول، لا لطريق الاتحاد والحلول بل لطريق التوحيد الذاتي.

واذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ اختبارًا له ﴿أَسْلِمْ﴾ توجه إلي بمقتضى علمك وكشفك مني ﴿قَالَ﴾ على مقتضى علمه بربه ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131]؛ إذ كشف له ربه عن ذرائر الكائنات لذلك لم يخصصه ولم يقيده بمظهر دون مظهر.

﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي: بالتوحيد الذاتي ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ إرشادًا لهم إلى طريق الحق ووصى أيضًا بنوه بنيه ﴿وَ﴾ وصى أيضًا ﴿يَعْقُوبُ﴾ بنيه بما وصى أبوه وجده، وقالوا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام المشتمل، على توحيد الذات والصفات والأفعال ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ﴾ فلا تكونن في حال من الأحوال عند الموت ﴿إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾[1] [البقرة:132] موحدون بالتوحيد الذاتي.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ثم أخبر تعالى عن كمال تسليمه وحسن استعداده بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131]، الإشارة فيها أن الروح الإنساني مخصوص من العالمين بالاستسلام لقبول أنوار فيض رب العالمين بلا واسطة والاستعداد والاستحقاق لخطاب ربه أسلم لنور فيضي وفيض نوري فيستسلم لقوله ويقول: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [البقرة:131] أي: لنور رب العالمين وبيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وليس لغير الإنسان كرامة أن يكون على نور من ربه إلا بواسطة هذا سر عظيم وشرحه يطول وأنت ملول. ثم أخبر عن وصيته لبنيه أن يدينوا بدينة لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة:132]، والإشارة فيها أن إبراهيم الروح يوصي أبناء

ثم لما اعتقد اليهود أن يعقوب وبنيه كانوا هودًا، والنصارى اعتقدوهم نصارى، أراد سبحانه أن يظهر فساد عقائدهم، فقال: أتسمعون أيها اليهود والنصارى يهودية يعقوب وبنيه ونصرانيتهم لمن أنزل عليكم ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضراء ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ ولولا هذا ولولا ذاك كنتم مفترين عليهم جاهلين بحالهم، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ﴾ حين أشرف على الموت ﴿لِبَنِيهِ﴾ إرشادًا لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ يا بني؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أحدًا صمدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره من الآلهة الباطلة ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:133] منقادون متوجهون، خاليًا عن المكابرات والعناد، قالعًا عرق

ذريته من القلب وصفاته والنفس وصفاتها والقوى البشرية والحواس الخمس والأعضاء والجوارح، فإنها متولدات بعضها من بعض على الحقيقة لملته وهي الخلة عن التبرؤ عن غير الخليل في العبودية والخلة ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة:132]، فيه إشارة شريفة وإشارة لطيفة يعني لولا فضل الله عليكم ورحمته اصطفاؤه لكم الدين فلقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32]، فقال لولا أورثنا واصطفينا وإلا ما للتراب ورب الأرباب. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132]، فيه إشارة إلى أنكم للفناء فلا تفنوا إلا في استسلام وجوهكم لنار نور نور الله وهي نار وقودها الناس والحجارة، فإن اشتعال نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنما هي تكون بعد استسلام حطب الوجود لها فيه أنها عليهم موصدة في عمد ممددة، فمن لم يستسلم اليوم لنار الخلة والمحبة بالاختيار فلا بد غدًا يلقى في نار الغضب. ثم أخبر عن تأثير الوصية في أولاده وأولاد أولاده بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة:133]، والإشارة فيها إن الله تعالى استجاب دعاء إبراهيم في أولاده وأولاد أولاده إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:128]، وأظهر استجابته بإيصاء يعقوب وإقرار ولده وولد ولده لإبراهيم ﷺ وأولاده، ولهذا قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» فجروا كلهم صلوات الله عليهم على منهاج واحد في التوحيد والاستسلام توارثوا ذلك خلفًا على سلف فهم أهل بيت الزلفة ومستحقوا القربة، والمطهرون من قبل الله وفيه إشارة أن الله تعالى إذا تجلى لروح عبد مخلص متضرع إليه محب له يظهر آثار تجليه على قلبه وسره ونفسه وقواه وحواسه وجوارحه وجميع أعضائه فيستسلمون له بكليتهم وخضعوا له فيعبدون كلهم إلهًا واحدًا، وإن كان كل واحد منهم يعبد إلهًا آخر من قبل من الهوى والدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، وليستسلم كل واحد في العبودية لما يناسب حاله.

التقليدات الراسخة في قلوب العباد.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة:134-136].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العزائم الدينية، وعليها ما اكتسبت من الجرائم المتعلقة به بحسب ذلك الزمان ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من فوائد الإيمان والإسلام، وعليكم ما اكتسبتم من غوائل الكفر والطغيان بحسب زمانكم هذا؛ إذ كل منكم ومنهم لم يجز إلا بما عمل وكسب ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ﴾ وتؤاخذون أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:134] من السيئات، كما لا تثابون من حسناتهم بل كل امرئ بما كسب رهين.

﴿وَ﴾ إن ﴿قَالُوا﴾ أي: كل من الفريقين لكم ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لكي ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى طريق الحق ﴿قُلْ﴾ لهم لا نتبع آراءكم الفاسدة وأهواءكم الباطلة ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ مائلاً عن الآراء الباطلة مهذبًا منها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:135] بالله باعتقاد الوجود لغير الله.

﴿قُولُوا﴾ لهم في مقابلة قولهم أيها المؤمنون المتبعون لملة إبراهيم، إرشادًا لهم وإسماعًا إياهم طريق الحق: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ الواحد المتجلي في الآفاق بالاستحقاق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ بوسيلة رسولنا من الكتاب المبين لمصلحتنا، المتعلق بمبدئنا ومعادنا في زماننا ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا ﴿مَا أُنزِلَ﴾ إلى المتبوعين الماضين ﴿إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ المورثين لملتنا وديننا ﴿وَ﴾ كذلك آمنا ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من الكتب والآيات الدالة على توحيد الذات وتصديق من جاء به من عند ربه ﴿وَ﴾ الحاصل أنا آمنا بجميع ﴿مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لإهداء المضلين من عباده إلى توحيده ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإيمان والإنكار، بل نؤمن بجميعهم ونصدقهم؛ لكونهم هادين إلى توحيد الله

وإن تفاوتت طرقهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لتوحيد الله ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136] منقادون متوجهون؛ وإن بين بطرقٍ متعددةٍ وكتبٍ مختلفةٍ بحسب الأعصار والأزمان المتوهمة من تجليات الذات بالأسماء والصفات.

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة:137-141].

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ بعدما سمعوا منكم هذه الأقوال ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ بعد سماعكم طريق الإيمان من رسولكم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق التوحيد كما اهتديتم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن أقوالكم لهم تذكيرًا وعظة ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: ما هم إلا في خلافهم وشقاقهم الأصلية وعداوتهم الجبلية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ المحيط بكم وبهم، المطلع على سرائرهم وضمائرهم مؤنة خلوفهم وشقاقهم ﴿وَ﴾ لا تشكوا في كفايته؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة ﴿الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:137] بكفرهم ونفاقهم الكامنة في قلوبهم.

ثم قولوا لهم بعدما أظهروا الخلاف والشقاق: ما جئنا به عن التوحيد الحاصل من متابعة الملة الحنيفية ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ المحيط بنا، صبغ بها قلوبنا؛ لنهتدي إلى صفاء تجريده وزلال تفريده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ حتى نتبعه؛ إذ لا وجود لغيره ﴿وَ﴾ إذ لم يكن للغير وجود ﴿نَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره ﴿عَابِدُونَ﴾ [البقرة:138] عائدون راجعون رجوع الظل إلى ذي ظل، والصور المرئية في المرآة إلى الرائي.

ثم لما طال نزاع أحبار اليهود مع المؤمنين ومجادلتهم مع الرسول ﷺ، أمر سبحانه لحبيبه بأن يتكلم بكلام ناشئ عن لب الحكمة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا دالاً على توحيد الذات، مسقطًا لجميع الإضافات ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾

وتجادلوننا ﴿فِي اللَّهِ﴾ المظهر للكل من كتم العدم، بإشراق تجليات أوصافه فيه، ورش من نوره عليه ﴿وَ﴾ الحال أنه ليس له اختصاص ببعض دون بعض بل ﴿هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بإظهار ذواتنا وذواتكم من العدم، ﴿وَ﴾ بعد إظهاره إيانا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ صالحها وفاسدها ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ الصالحة والفاسدة، لا تسري منكم إلينا ولا منا إليكم ﴿وَنَحْنُ﴾ المتبعون لملة إبراهيم ﴿لَهُ﴾ أي: لله المظهر الظاهر بجميع الأوصاف والأسماء لا لغيره من الأظلال ﴿مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:139] متوجهون على وجه الإخلاص المنبئ عن المحبة المؤدية إلى الفناء في ذاته.

جعلنا الله من خدام أحبائه المخلصين.

أيسلم اليهود والنصارى ويذعنون بعدما أوضحنا لهم أنا على ملة إبراهيم دونهم؟ ﴿أَمْ﴾ تعاندون ﴿تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[1] تابعين لملتنا فإن كابروا وعاندوا وقالوا مثل هذا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مستفهمًا مستوبخًا على وجه التنبيه: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بحالهم ﴿أَمِ اللَّهُ﴾؟ النافي عنهم اليهودية والنصرانية بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:67] مائلاً منهما، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴿وَ﴾ بعد ما ظهر عندهم حقية دين نبينا ﷺ، وتحقق موافقة ملة أبيه إبراهيم بشهادة كتبهم ورسلهم ﴿مَنْ

---

(1) ثم أخبر عن إقرارهم وكتمان شهادتهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:140]، والإشارة فيها أن للنفس والشيطان تسويلات سولت لهم أنفسهم فمنها تخيلهم أن إبراهيم الروح وأتباعه كانوا لركونهم إلى شيء من الدنيا وزينتها وشهوات النفس وهواها على ملة يهودية الشيطان ونصرانية النفس والهوى ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ [البقرة:140]، بأحوال الروح وأتباعه ﴿أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:140]، الذي خلقهم وركب فيهم خاصية تنافي جبلة النفس والشيطان وأما الروح وأتباعه فيتصرفون في الدنيا وزينتها والشهوات النفسانية ولذاتها عند بلوغهم حدود الرجال البالغين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله بقوة ربانية وبصيرة روحانية لا بشهوة حيوانية واستيفاء لذة نفسانية ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:160] ويكون لهم ذلك ممدًا في العبودية ومجدًا في طريق الربوبية. كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:32] على أن الله تعالى يتجلى ببعض صفاته على روح العبد فيظهر عكس أنوار الربوبية في مرآة القلب، فينعكس منها فيتنور بشعاعها هواء النفس ويقع على ضوء الشعاع على أرض الصدر فيقف الشيطان والنفس على كرامة الله الروح وأتباعه ويشاهدون آثار ألطاف الحق معهم.

﴿أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً﴾ ثابتة في كتب الله التي صحت ﴿عِندَهُ﴾ أنها منزلة ﴿مِنَ اللهِ﴾ المنزل للرسل والكتب، مصدقًا بعضها بعضًا كتمانًا ناشئًا عن محض العداوة والشقاق بعد جزمهم حقيتها ومع ذلك يتوهمون كتمانها من الله أيضًا ﴿وَمَا اللهُ﴾ المحيط بمخايلهم ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:140] من الكتمان والنفاق حفظًا لجاههم وجاه آبائهم.

قل لمن تبعك يا أكمل الرسل تذكيرًا لهم وتحذيرًا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ صالحة أو طالحة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا﴾ في النشأة الأخرى جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الحسنات والسيئات في النشأة الأولى ﴿وَلَكُم﴾ فيها جزاء ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فيها ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ﴾ أنتم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:141] من الصالحات والفاسدات كما لا يسألون عن أعمالكم بل كل مجزي بصنيعته، مقتضٍ ببضاعته.

نعوذ بفضلك من عذابك يا دليل المتحيرين.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:142-143].

ثم لما كان الغالب على رسول الله ﷺ في أوائل حاله وسلوكه، توحيد الصفات والأفعال الموروثين له عن آبائه - صلوات الله عليهم - كان تابعًا لهم في قبلتهم التي كانوا عليها أيضًا صورة، وحين ظهر وانكشف له ﷺ توحيد الذات، وغلبت عليه تجلياتها وإشراقها استغرق ووله، بل فني واضمحل وتلاشت فيها هويته، وبعدما تنزل عن ولهه واستغراقه، خص له سبحانه قبلة مخصوصة، ووجهة معينة صورة؛ لتكون آية على قبلته الحقيقية المعنوية.

ثم لما أمره سبحانه بتوجهها واستقبالها وهو في الصلاة إلى القبلة الَّتي كان عليها قبل الأمر وتحول نحوها فيها، أخذ المنافقون في الغيبة، واشتغلوا بالنفاق، ونسبوه إلى ما هو منزه عنه، وانتهزوا واغتنموا الفرصة لمقابلته وصمموا العزم

بمجادلته، أراد سبحانه أن ينبه بما هم عليه من النفاق والشقاق في أمر القبلة على وجه الإخبار، فقال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ المعزولون عن مقتضى العقل الخبري، المتشعب من العقل الكلي، المتفرع على اسم العليم: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المحجوبين بظلمة التعينات عن نور الوجود قولاً ناشئًا عن محض الغفلة والسفاهة على سبيل الاستهزاء، وهو قولهم: ﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾ حوّلهم وصرفهم؛ أي: المؤمنين ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ من قبل مع أنها قبلة من يدعون الانتساب إليهم والاقتداء بملتهم؟

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التنبيه والإرشاد، وبلسان التوحيد الذاتي بعدما انكشف لك: ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الأماكن والجهات المتجلي فيها ﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: جميع ما يتوهم من الزمان والمكان والجهة، إنما هي مظاهر ذاته ومجالي أسمائه وصفاته ﴿يَهْدِي﴾ بحبه الذاتي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المتوجهين إلى جنابه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:142] موصلٍ إلى ذاته من أي مكان كان، وفي أي وجهة وزمانٍ؛ إذ هو محيط بكلها.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل صراط المستقيم الموصل إلى ذاتنا المعتدل المتوسط بين الطرق ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ معتدلاً قابلاً للخلافة والنيابة، بل في تولية الأمور بين العباد ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ قوامين بالقسط ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ الغافلين عن التوجه إلينا ﴿وَ﴾ كذلك أرسلنا إليكم رسولاً منكم حتى ﴿يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ حفيظًا لكم عن طرق الإفراط والتفريط فيما صدر عنكم من الأمور، فعليكم أن تلازموا وتداوموا امتثال ما جاء به رسولكم من عند ربكم؛ لتكونوا مهتدين إليه سبحانه من الصراط المستقيم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي: قبلتك يا أكمل الرسل ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ قبل هجرتك منها ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ ولنميز ونفصل ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ الهادي إلى توحيد الذات ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ يعود ويرجع ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قبل الوصول إلى توحيد الذاتِ ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوصلة إلى الوحدة الذاتية ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلة شاقة ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى ذاته بتوفيقهم على الإيمان ممن يرشدهم إليه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ المظهر لكم ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ به بعد توفيقكم إياه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ المؤمنين بالرسول المرشد إلى توحيد الذات الموقنين بما جاء به من عند ربه ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:143] مشفق يوصلهم إلى ما يظهرهم لأجله بفضله وطوله.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ
ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة:144-147].

ولما انكشف له ﷺ توحيد الذات واستغرق فيها وتوجه نحوها، وانسلخ عن الأفعال والصفات بالمرة، انتظر ﷺ الوحي المطابق لهذا الانكشاف بحسب الصورة أيضًا، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَى﴾ نطلع ونعلم حين انكشافك بذاتنا ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ منتظرًا للوحي المتضمن للتوجه الصوري ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ بعد انكشافك المعنوي ﴿قِبْلَةً﴾ صورية ﴿تَرْضَاهَا﴾ مناسبة لقبلتك المعنوية ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ يا أكمل الرسل صورة ﴿شَطْرَ﴾ جهة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي يحرم فيه التوجه إلى غير الذات البحت المسقط للإضافة ﴿وَ﴾ لا تختص بهذه الكرامة لك، بل تسري منك إلى من تبعك من المؤمنين ﴿حَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من مراتب الوجود ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ الفائضة لكم أيها المؤمنون من ربكم ﴿شَطْرَهُ﴾ لتكونوا من المنكشفين به المهتدين بذاته ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ﴾ يقينًا بشهادة كتبهم ورسلهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: شأن انكشافك وتحققك بالتوحيد الذاتي ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت المنزل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: رباهم بإعطاء العقل المميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ومع ذلك ينكرون عنادًا ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:144] من الإخفاء والستر بعد الوضوح والكشف[1].

(1) أخبر عن علة تحويل القبلة بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة:144]، والإشارة فيها أن النبي ﷺ من مكان تأدبه بآداب أدبه ربه بها لم يكن يظهر مع الله سؤاله، ولا يستدعي باللسان مأموله رعاية الآداب القربة؛ إذ أوحى الله تعالى إليه: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته فوق مسألة السائلين» ومن كون نفقته على هذه الأمة كان يدخر دعوته المستجابة فدعا كل نبي دعوته وادخرت دعوتي شفاعة لأمتي، فلما قدر الله تعالى شرف الكعبة أن تكون

﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ أَتَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ نازلة لك دالة على توحيد الذات الذي هو مقصدك وقبلتك ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لانهماكهم في الغفلة والضلالة ﴿وَمَا أَنتَ﴾ أيضًا بعدما انكشف لك الأمر يقينًا ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ التي توجهوا إليها ظنًا وتخمينًا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لتفاوت ظنونهم وآرائهم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ اليقيني المطابق للعين بل للحق ﴿إِنَّكَ﴾ مع اصطفائنا إياك واجتبائنا لك ﴿إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:145] المعرضين عنا بعد توفيقنا إياك وإرشادنا لك إلى الكعبة الحقيقة.

هذا تهديد لرسول الله ﷺ بعد تهديد وحث له ﷺ لدوام التوجه على ما انكشف له من توحيد الذات، تحريض للمؤمنين على متابعته ﷺ في دوام التوجه والميل إليه، ومثله في القرآن كثير.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ المبين لهم طريق توحيد الصفات والأفعال، المنبه لهم على توحيد الذات، وعلى من يظهر به وهم ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بالأوصاف والخواص المبين في كتابهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين خلقوا من أصلابهم، بل أشد من ذلك لإمكان الخلاف فيه دونه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ عنادًا واستكبارًا ﴿لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ﴾ الثابت في كتابهم ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146] حقيته جزمًا، ويكتمونه مكابرة.

﴿الْحَقُّ﴾ الذي هو ظهورك واستيلاؤك عليهم، ونسْخك أديانهم وأحكام كتبهم

قبلته وقبلة أمته، فانعكس مسطور الكتاب من الكعبة في مرآة قلب النبي ﷺ فظهر فيه داعية استقبال القبلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان تقلب قلبه إلى الله تعالى وتقلب وجهه إلى السماء لأنه كان قمر جبريل ﷺ فقال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فالحبيب يترك سؤاله بطلب رضائه والرب يطلب رضاء رسوله بإنجاز مأموله ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني ول قلبك رب المسجد الحرام بقلب الوجه إلى المسجد الحرام. ﴿وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: وجوه قلوبكم ﴿شَطْرَهُ﴾ أي: إلى الله إن كنتم في البيوت أو في المساجد ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من أهل العلوم الظاهرة ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ علمًا لا ينتفعون به ليكون حجة لهم بل حجة عليهم ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:144]، تأييدًا للأولياء وتهويلاً للأعداء.

إنما هو ناشئ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أظهرك مظهرًا كاملاً لذاته ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ أنت ومن تبعك ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:147] الشاكين في توحيد الذات كما كانوا.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) ﴾ [البقرة:148-102].

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلٍّ﴾ أي: لكل من أفراد الأمم ﴿وِجْهَةٌ﴾ مقصد وقبلة معينة من الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ بحسب اقتضائها وغلبتها ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: بادروا أيها المحمديون إلى منشأ جميع الخيرات، ومنبع جميع المبرات الناشئة من الأسماء والصفات، وهو الذات المستجمع لجميعها ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ من مقتضيات الأوصاف ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ﴾ الجامع لها ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين بعد رفع التعينات الناشئة من الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي بالأوصاف ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المظاهر المتعينة المتكثرة بحسب المبدأ والمظاهر ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:148] على رفع التعينات المسقطة لجميع الكثرات بحسب المعاد والباطن.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يا أكمل الرسل عن مقتضى كعبة الذات بغلبة حكم بعض الصفات ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ منها متذكرًا ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ المحرم للتوجه إلى السوى والغير ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: شأن التوجه نحوه ﴿لَلْحَقُّ﴾ الثابت النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بمقتضى جميع أوصافه وأسمائه ﴿وَ﴾ اعلم أنه ﴿مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:149] أنت ومن تبعك، وعلى مقتضى علمه تثابون.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ عن مقتضى توحيد الذات بتكثير بعض المظان وترك ما

يستقبلونه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الجامع لجميع المظاهر ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ اقتداء لرسولكم ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المعرضين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ غلبة بادعائكم التوحيد الذاتي، وإخراجكم بعض المظاهر ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بنفي ذات الله وصفاته، وهم الدهريون القائلون بوجود الطبائع بلا فاعل خارجي، فإنهم لا يفحمون ولا يلزمون بأمثاله ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: فلا تخافوا منهم في التوجه إلى الكعبة الحقيقية ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في عدم التوجه حتى لا تحرموا عن مقتضيات بعض الأوصاف ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ الواصلة بحسب أوصافي وأسمائي ﴿عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:150] إلى ذاتي بسببها.

ومن إتمام نعمنا إياكم أنا هديناكم إلى جهة الكعبة الحقيقية، وأمرناكم بالتوجه نحوها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿فِيكُمْ رَسُولاً﴾ هاديًا لكم ناشئًا ﴿مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ أولاً ﴿آيَاتِنَا﴾ آثار صفاتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَ﴾ ثانيا: ﴿يُزَكِّيكُمْ﴾ ﴿وَ﴾ ثالثًا: ﴿يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ الموضح للدلائل والآيات المبين للآراء والمعتقدات ﴿وَ﴾ رابعًا: يظهر لكم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الموصلة إلى توحيد الذات ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُعَلِّمُكُم﴾ من الحقائق والمعارف ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:151] لولا إرشاده وإرساله.

وإذا أنعمنا عليكم بهذه النعم العظام وأتممناها لكم ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أيها المؤمنون بالميل الدائم والتوجه الصادق ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بنفساتٍ رحمانيةٍ ونسماتٍ روحانيةٍ ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ بإسناد النعم إلي ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152] بإسنادها إلى الوسائط والأسباب.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا
لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:103-107].

ثم إنه لما بالغ سبحانه في التنبيه والإرشاد، وناداهم رجاء أن يتنبهوا مع أن فطرتهم الأصلية على التوحيد الذاتي، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الذات

﴿اسْتَعِينُوا﴾ لتحققه وانكشافه ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على ما جرى عليكم من الحوادث المنفرة لنفوسكم ﴿وَالصَّلاةِ﴾ أي: الميل والتوجه إلى جنابه لجميع الأعضاء والجوارح ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المعبر به عن الذات الأحدية ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:153] المتحملين للبلاء لو كوشفوا.

رب اجعلنا منهم بفضلك وكرمك.

﴿وَ﴾ مما يستعان فيه بالصبر إلى أن ينكشف سترة: الجهاد لذلك ﴿لاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ طالبًا الوصول إلى بابه ﴿أَمْوَاتٌ﴾ كالأموات الأخر ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ بحياة الله الأزلي السرمدي ﴿وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154] بحياتهم بحياتكم المستعارة المستهلكة في الحياة الأزلية، بل هي عكس منها موت في نفسها.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ والله لنختبرن ولنجربن تمكنكم ورسوخكم في توحيد الذات ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل مما يشعر بالكثرة والاثنينية ﴿مِّنَ الخَوْفِ﴾ الحاصل من المنفرات الخارجية: مثل الحرق والغرق والعدو وغير ذلك ﴿وَالْجُوعِ﴾ الحاصل من المنفرات الداخلية: كالحرص والأمل والبخل وغيرها ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾ التي يميل قلوبكم إليها بالطبع ﴿وَالأَنفُسِ﴾ التي تظاهرون وتفتخرون بها من الأولاد والإخوان والأقارب والعشائر ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ المترتبة على الأموال والأولاد من الجاه، والمظاهرة في الغلبة على الخصماء ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155] [1] من أهل

(1) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة:155]، إلى ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157] والإشارة فيها أن البلاء والابتلاء من الله تعالى لاستخراج جواهر الأخلاق الإنسانية من معادنها؛ لأن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:7]، والأعمال من نتائج أخلاق النفس، فالسنة في استخراج جواهر الشكر الابتلاء بالنعمة كما كان لسليمان ﷺ فأخرج منه بها الشكر وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3]، والسنة في استخراج جواهر الصبر البلاء بالمحبة، كما كان لأيوب ﷺ فأخرج منه بها الصبر وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:44]، فيبتلي الرجل على حسب دينه فمنهم من يبتليهم الله بالخوف، وقال بشيء من الخوف يعني ببعضه والسر فيه أن يكون البلاء لأهل العناية بقدر قوته، واستطاعته في النعمة والمحبة يستخرج منه الشكر والصبر، وهما جوهر أن من معادن الروحانية ولو زاد على قدرة القوة والاستطاعة في النعمة والمحنة ما يخرج إلا ضد الشكر والصبر، وهما الكفران والجزع وهما جوهر أن من معادن النفسانيات؛ لأهل الرد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ

التوحيد وهم:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا﴾ بلسان الجمع: ﴿إِنَّا﴾ ظلال ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد المتجلي بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا في النشأة الأولى ﴿وَإِنَّا﴾ بعد رجوعنا في النشأة الأخرى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156] عائدون

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] أي: بقدر قدرة أهل القبول والعناية وعدم قوة أهل الرد والسخط، ومنهم من يبتليهم الله بالجوع ﴿وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أو ببعض دون بعض من هذه الجملة أو بمجموعها، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، بشارة في الحال، أما في الحال فبشر الصابرين على الخوف بالتوكل واليقين والشجاعة، وعلى الجوع بتزكية النفس وتنقية القلب وتصفية الروح وتحلية السر، وعلى نقص الأموال بدفع الحرص والغفلة، وإزالة حب الدنيا فإنه رأس كل خطيئة، وحصول القناعة وهي كنز لا يفنى وما لا ينفد وشعار الصالحين، وهو العصد وعلى نقصا ن الأنفس إن كان بالمرض بكفارة الذنوب، وإن كان بموت الأقرباء بقطع التعلقات والتجرد عن العلائق، وعلى آفة الثمرات بالخلف من الله تعالى في الحال، وأما في الحال فبشره بالنجاة من العذاب والدرجات والثواب بغير حساب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:10]، وفيه معنى آخر في غاية اللطافة وهو بشر الصابرين بأني لهم معهم في كل حال من حالات الصبر وتصبرهم على المصائب وتخلقهم بخلق من أخلاقه، وهو الصبر ولو لم يكن معهم باللطف والعناية لما قدروا على الصبر يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127]، والصبر هاهنا محمول على ثلاثة أوجه: صبر بالأمر، وصبر بالاختيار، وصبر الاضطرار. أما الصبر بالأمر: ففي الآية إضمار بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ [البقرة:155] يعني: ولنبلونكم بأوامر هذه الأشياء، فالأمر بالخوف كقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175]، والأمر بالجوع بصيام شهر رمضان، والأمر بنقصان المال بأداء الزكاة، والأنفس بالجهاد في سبيل الله، والثمرات بأداء العشر منها. وأما الصبر بالاختيار: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ [البقرة:155]، إشارة إلى أنا نخبركم هل تختارون ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة:155]، الخوف بأن يخافوا من الله ويفروا منه إليه، والجوع فتجوعون تقربًا إلى الله تعالى، كما كان إخبار النبي ﷺ: «أجوع يومًا وأشبع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وصبرت، وإذا شبعت ذكرتك وشكرتك» ونقص من الأموال فتخرجون عنها بتركها والإنفاق في سبيل الله، والأنفس فبذل الروح في طلب الحق، والثمرات فبالغذاء في طريق الحق كل ثمرة أثمرته شجر الوجود حتى الولد كما كان حال الخليل ﷺ في صحيح مقام الخلة ببذل المال والنفس والولد. وأما الصبر الاضطرار: وهو الصبر على المصائب التي تقع من غير الاختيار كما سبق ذكره.

صائرون رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المتمكنون في مقر التوحيد، المنزهون عن الإطلاق والتقييد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لا على غيرهم من أصحاب المراتب ﴿صَلَوَاتٌ﴾ ميول وتوجهات متشعبة من بحر الذات، جارية من جداول الأوصاف والأسماء إلى فضاء الظهور؛ لإثبات المعارف والحقائق الموصلة إلى النعيم الدائم السرمدي واللذة المستمرة الأبدية، نازلة لهم دائمًا ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي أوصلهم إلى مقر عزه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ شاملة لهم ولغيرهم من سعتها ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الواصلون ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157] إلى المبدأ الحقيقي والمنزل الأصلي.

﴿ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة:108-162].

ثم لما نبه سبحانه إلى الكعبة الحقيقية بالكعبة الصورية، أراد أن ينبه على علاماتها بعلاماتها: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ أي: الظاهر والباطن ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وعلامات توحيده ﴿فَمَنْ حَجَّ﴾ قصد ﴿الْبَيْتَ﴾ الممثل من المنزل الحقيقي والمرجع الأصلي على الوجه المفروض ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ على الوجه المسنون قاصدًا فيه التوجه إلى الذات الأحدي، معرضًا عن العلائق المانعة منه ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا تعب ولا ضيق ﴿عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يسعى بينهما، معتقدًا ارتباطهما إلى أن ينكشف باتحادهما ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ توجه نحوه ﴿خَيْرًا﴾ زائدًا على ما أمر وفرض ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الميسر له ﴿شَاكِرٌ﴾ راضٍ بفعله ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:158] بحاله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ يسترون ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على ظهور من يغلب عليه توحيد الذات ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ المشير إلى أنه مبعوث إلى كافة البرايا، ناسخ لجميع الأديان؛ إذ به يتم أمر التكميل ولا بعثة بعد

ظهوره، بل ختم به ﷺ أمر الإرسال والإنزال والتديين والتشريع، والحال أن كتمانهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أوضحناه بلا سترة ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناظرين ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة ﴿أُولَئِكَ﴾ الكاتمون المفرطون ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يطردهم ويبعدهم عن عز حضوره لخروجهم عن اعتدال العبودية بكتمان ما أراد الله ظهوره ﴿وَيَلْعَنُهُمُ﴾ أيضًا ﴿اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:159] المتمتعون باعتدال العبودية المستقيمون على ما أمروا بقدر وسعهم(1).

(1) ثم أخبر عن شعائر الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:158]، والإشارة فيها أن لله تعالى شعائر الظاهر دالة على شعائر الباطن؛ لتستدل العبد بإقامة مراسم شعائر الله في الظاهر بالصفاء والمروة من شعائر الله في الباطن، فالصفا السر والمروة الروح، وللسالك بينهما سعي فساعة يسعى صفاء السر بقطع التعلقات عن الكونين، والتفرد عن التقين تبتلاً إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، وساعة ليسعى في مروة الروح وهي إيصال الخير إلى جميع الأجزاء الإنسانية من الداخلية والخارجية الباطنية والظاهرية بمراقبة أحوال الباطن ومزاولة أعمال الظاهر في الطاعة، وتقديم الخيرات إلى نفسه وأهله وعياله والعالمين بأسرهم، والإشارة في سبع مراتب أن لظاهر الإنسان سبعة أركان ولباطنه سبعة أطوار، فكذلك العالم سبعة أقاليم ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ بيت القلب في طلب الرب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ خرج ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ﴾ بصفاء السر فإنه تعظيم أمر الله، ويسعى ﴿بِهِمَا﴾ في مروة الروح فإن الشفقة على خلق الله يكون من شعائر الله، ويصل بركات سعيه إلى سبعة أركانه الظاهرة، وسبعة أطواره الباطنة، وإلى سبعة أقاليمهم كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:39]، وإن سعيه سوف يرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يعني: في حق نفسه أو حق غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ يأخذ الواحد من الأعمال الفانية، ويعطي العشر إلى سبع مائة ضعف إلى ما لا يرى من الحسنات الباقية، بل يأخذ الوجود المجازي ويعطي الوجود الحقيقي ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:158]، بنيات العباد في تقربهم إليه فيقرب إليهم بقدر صفاتهم في الطاعات، ومردتهم في الخيرات، كقوله تعالى في الحديث الرباني: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقربت إليه ذراعًا تقربت إليه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته أهرول»، وهذا من حقيقة صفة الشكورية، ومن كمال رأفته وغاية عاطفته مع أهل محبته وصفوته إن آثار أقدمهم وساعات أيامهم أشرف الأمكنة وأعز الأزمنة، فتلك المشاهد والآثار تعظم وتزار والتي تلك المشاهد والأطلال تشد الرواحل والرحال.. وإن لتراب أقدامهم بل لغبار آثارهم عند الأخيار أقدار عظيمة بل غيره تبقى على حانات طريقهم عند صديقهم لأعز من المسك الأزفر، كما قيل: وما ذاك إلا أن متت بجنابه أميمة في سرب. ثم أخبر عن خسارة أهل الخسارة في كتمان الأحكام ونعت حبيبه محمد ﷺ وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة:159]، الآيتين والإشارة فيهما أن كمال ما كوشف به السالك الواصل من بينات علوم الحقائق، وأسرار القرآن والأغيار

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ رجعوا منهم عن الكتمان، وأظهروا ما ظهر لهم في كتابهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بإظهار ما أفسدوا بالكتمان ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما بينه الله في كتابه من وصف نبيه المبعوث المرسل إلى كافة الأمم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ التائبون منهم، المصلحون المبينون ما ظهر لهم في كتابهم ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قبل توبتهم وأتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ الرجاع لهم عما جرى عليهم من العصيان والكفر ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:160] لهم بعدما رجعوا إلي مخلصين.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكتمان ما بين الله في كتابه ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كاتمون ﴿أُولَئِكَ﴾ المصرون المعاندون في أمر الكتمان بعد الظهور مكابرة، وتنزل ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾ طرده وتبعيده دائمًا مستمرًا منحصرًا عليهم، غير منفكٍ عنهم على ما يقتضيه حال الجملة المعبر عنها بخلاف اللعن السابق ﴿وَ﴾ تنزل عليهم أيضًا لعنة ﴿الْمَلائِكَةِ﴾ المستغفرين لمن تاب ﴿وَ﴾ أيضًا لعنة ﴿النَّاسِ﴾ العارفين لحقوق الله المتحققين بآدابه المعتكفين ببابه ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة:161] مجتمعين عليها دائمًا لخروجهم عن رتبة العبودية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بحيث ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ المترتب عليها لحظة ليتنفسوا ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة:162] يمهلون ساعة ليعتذروا.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن

وهداية الطريق إلى الله تعالى آداب السلوك، ومعرفة آفات النفس وطريق الخلاص منها بتزكيتها ومعرفة المقامات والأحوال والفرق بينهما ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:159]، بينه الحق بتسليكه فيه وعرفه بطريق التسليك فيها عن طلاب الحق، وأهل الإرادة والصدق والمستعدين لقبول النصح والإرشاد مما يوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه عذاب ذل الحجاب كما قال النبي ﷺ: «من سئل عن علم علمه الله فكتمه ألجمه بلجام من النار».

يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:163-166].

﴿وَإِلَهُكُمْ﴾ المظهر لكم أيها المؤمنون وإله الكافرين الكاتمين ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا تعدد فيه ولا اثنينية بل ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود حقيقي ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الموجود الحقيقي الحق؛ إذ لا كثرة في الوجود، بل هو واحد في الذات، فرد في الصفات، ليس كمثله شيء ﴿الرَّحْمَنُ﴾ المبدئ لكم ولهم عامة بإشراق تجلياته ومد أظلاله على العدم في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:163] المعيد لكم خاصة إلى مبدئكم الأصلي ومقصدكم الحقيقي في النشأة الأخرى.

ولما كان لوحدته سبحانه آيات ودلائل واضحات لمن تأمل في عجائب مصنوعاته، وبدائع مبدعاته ومخترعاته، المترتبة إلى أسمائه وصفاته المستندة إلى وحدة ذاته، أشار سبحانه إلى نبذتها إرشادًا وتنبيهًا فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: إظهار العلويات التي هي الأسماء والصفات المؤثرة الفاعلة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: السفلية التي هي طبيعة العدم القابلة المتأثرة من العلويات ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ﴾ أي: ظلمة العدم والجهل والعمى ﴿وَالنَّهَارِ﴾ نور الوجود والعلم والعين ﴿وَالْفُلْكِ﴾ أي: الأجساد الحاصلة من تأثير الأسماء وتأثير الطبيعة منها ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ أي: بحر الوجود الذي لا ساحل له ولا قعر ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من جواهر المعارف، ودرر الحقائق المستخرجة منه ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من كرمه وجوده بلا عوض ولا غرض ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المعدة للإفاضة ﴿مِن مَّاءٍ﴾ علمٍ وعينٍ وكشفٍ ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجهل الجبلي ﴿وَ﴾ بعد ما أصابها ﴿بَثَّ﴾ بسط ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ من القوى المدركة والمحركة المتشعبتين بالشعبة الكثيرة على صنعة الحياة المتفرعة على التجلي الحي ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ المروحة للنفوس، المتوجهة الناشئة المنشئة من النفس الرحمانية نحو الطبيعة المكدرة بالكدورات الجسمانية ﴿وَالسَّحَابِ﴾ أي: حجاب العبودية وقيود الغيرية الناشئة من مقتضيات الأسماء والصفات ﴿الْمُسَخَّرِ﴾ الممدود ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سماء الأسماء الإلهية وأرض الطبيعة الكونية ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل وبراهين يقينيةٍ دالةٍ على أن مظهر الكل واحد ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

[البقرة:164] يعلمون الأشياء بالدلائل العقلية اليقينية المنتجة لعلم اليقين إلى العين والحق لو كوشفوا.

ربنا اكشف علينا ما أودعت فينا بفضلك وتوفيقك، إنك أنت الجواد الكريم.

﴿وَ﴾ مع لوامع هذه الآيات والدلائل الشواهد وبروق الواردات الغيبية، وشروق المكاشفات العينية الدالة على وحدة الذات ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المخلوقين على فطرة التوحيد القابلين لها ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ منهم جهلاً وعنادًا ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المغني للكثرة مطلقًا ﴿أَندَادًا﴾ أمثالاً أحقاء للألوهية والربوبية مستحقين للعبادة إلى حيث ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: كلاً منهم معبودهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الجامع للكل لحصر كل طائفة منهم مرتبة للألوهية في مظهرٍ مخصوصٍ، ولذلك كفروا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ منهم ﴿لِلَّهِ﴾ المحيط للكل الحقيق بالحقية؛ لحصرهم الألوهية والربوبية والتحقق والوجود والهوية، والذات والحقيقة والصفات على الله لا على غيره؛ إذ لا غير في الوجود، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم في النشأة الأولى، وإليه الرجوع في النشأة الأخرى.

أذقنا حلاوة اليقين وارزقنا محبة المؤمنين الموقنين.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين خرجوا عن طريق التوحيد، وانصرفوا عن الصراط المستقيم واتخذوا أمثالاً يحبونهم كحب الله ما يرون حين ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم باتخاذهم من ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ الكاملة والقدرة الشاملة الجامعة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ المنفرد بالمجد وإليها ﴿وَ﴾ من ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:165] صعب الانتقام، سريع الحساب، لتبرءوا من متبوعيهم في الدنيا كما تبرءوا منهم في الآخرة.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ من الأنداد والأمثال ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من المتخذين ﴿وَ﴾ ذلك حين ﴿رَأَوُا﴾ المتبوعين ﴿الْعَذَابَ﴾ النازل على تابعيهم باتخاذهم آلهة، كذبوهم وأظهروا البراءة عنهم براءة نفوسهم ﴿وَ﴾ التابعون أيضًا يرونهم ويفهمون براءتهم ويقصدون انتقامهم ولا يستطيعون؛ إذ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:166] أي: أسباب الانتقام بانقطاع النشأة الأولى.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ

أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ
حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ
وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ
مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

[البقرة:167-170].

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا من الانتقام ﴿قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ نادمين متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ مكررة في النشأة الأولى ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ فيها تلافيًا وتداركًا لما مضى من اتخاذنا إياهم آلهة ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ في هذه النشأة، ولا تنفعهم هذه الندامة ولا التمني، بل ما يزيدهم إلا غرامًا فوق غرام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل عذاب اتخاذهم ﴿يُرِيهِمُ اللهُ﴾ أي: يحضرهم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الفاسدة السابقة كلها، ويعذبهم عليها فردًا فردًا، وما يقولون فيه وما لهم في تلك الحالة إلا ﴿حَسَرَاتٍ﴾ نازلةٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من تذكر سوء عملهم وقبح صنيعهم، وهذا من أسوأ العذاب وأشد العقاب، أعاذنا الله من ذلك ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا هُمْ﴾ لا تابعون ولا متبوعون ﴿بِخَارِجِينَ﴾ أبدًا ﴿مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:167] أي: نار البعد والإمكان المورث للحسرة والخذلان.

أجرنا من النار يا مجير.

ثم لما بين سبحانه طريق توحيده على خلص عباده المتوجهين نحو جنابه، تطهيرًا لبواطنهم عن خبائث الأهواء العاطلة والآراء الفاسدة، أراد أن يرشدهم إلى تهذيب ظواهرهم أيضًا بالخصائل الحميدة الجميلة والأخلاق المرضية؛ ليكون ظاهرهم عنوانًا لباطنهم، فقال تعالى مناديًا لهم إشفاقًا وإرشادًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على التوحيد ﴿كُلُوا﴾ وتناولوا ﴿مِمَّا﴾ من جميع ما خلق لكم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لتقويم مزاجكم وتقويته ﴿حَلالاً﴾ إذ الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد الشرع على حرمته ﴿طَيِّبًا﴾ مما يحصل من كد يمينكم وعرق جبينكم؛ إذ لا رزقَ أطيب منه ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تقتدوا ولا تقتفوا في تحصيل الرزق إثر وساوس شياطين الأهواء والآراء المضلة عن طريق الحق، المفضية إلى سبيل الظلم والعدوان، ولا تغتروا بتمويهات الشيطان وتزييناته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:168] ظاهر العداوة عند أولي البصائر بنور الله، المقتبسين من مشكاة توحيده.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ ويغرركم ﴿بِالسُّوءِ﴾ الخصلة الذميمة ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ الظاهر القباحة؛ ليخرجكم عن حدود الله الموضوعة فيكم لتهذيب ظاهركم ﴿وَأَن تَقُولُوا﴾ بعدما خرجتم عن حدود الشرع ﴿عَلَى اللهِ﴾ المتوحد المتفرد المنزه في ذاته ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:169] (1) لياقته في حقه من حصره في الأنداد والأشباه، وإثبات الولد له والمكان والجهة والجسم، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمن يتبع خطوات الشيطان إمحاضًا للنصح وتحريكًا لحمية الفطرة الأصلية: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ على نبيه من البينات والهدى لتهتدوا إلى

---

(1) قال في التأويلات: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ الإشارة فيها أن لا تتبعوا أوامره ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ واتبعوا أوامر الله ورسوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة:55] ثم فسر خطوات الشيطان وبين عداوته بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ النفس ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالسوء كل معصية فيها حظ النفس، بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53] والنفس لا تأمر بما فيه حظها، والفحشاء كل معصية فيها حظ للشيطان وحظه في الإغواء والإضلال، بيانه قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82] وقال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء:119] وليس للشيطان حظ فيما فيه للنفس حظ؛ لأن الشيطان عدو للإنسان لا يرضى له أن يظفر بشيء من حظوظ الروحانية والنفسانية إلا بالاضطرار عند التعجز عن إضلال الإنسان وإغوائه على وجه يكون له قسمة خسارة الدنيا والآخرة، فيرضى له حينئذ بارتكاب معصية يكون فيها حظ من حظوظ النفس، وكذلك ليس حظ النفس فيما للشيطان فيه حظ من الضلالة والغواية إلا أن يمنيها الشيطان بسبعية حظًا من حظوظها كما قال: ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:119] فتقع النفس عن الضرورة في ورطة الضرورة بتبعية استيفاء حظها، فعلى هذا ثبت أن السوء اختصاص بما فيه للنفس حظ، ولو استعمل في غير ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:268]، والفحشاء من الضلالة والغواية وهي المعتقدات الفاسدة والشبهات العقلية ألقها الشيطان في قلوب أهل الزيغ والضلال والأهواء المختلفة عند حرمانهم عن أنوار متابعة الأنبياء - عليهم السلام - واستبدادهم بآرائهم واقتدائهم بعقولهم المعلولة بآفات الحس والوهم والخيال وظلمة الطبع التي لا تفارق العقل إلا بظهور نور الشرع، فأوقعهم في أودية الهلاك مثل الفلاسفة والإباحية، فاعتقدوا شيئًا بين الكفر والإباحة والزندقة، فضلوا كثيرًا وأملى عليهم الشيطان بعض مقعدهم حتى تلفظوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33] يعني: ما لا علم بكم به من علم التوحيد الفطري ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ وأخذ عنهم الإقرار والعهد بها بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، قالوا: ﴿بَلَى﴾ أما هذا من لقاء الشيطان وإملائه بمثابة كيده كقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:183] تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

توحيد الله ﴿قَالُوا﴾ في الجواب بإلقاء شياطينهم: لا نتبع ما ألقيتم علينا من المزخرفات ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهم أعقل منا، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا توبيخًا وتقريعًا لهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ ضالون جاهلون ﴿لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من أمر الدين ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170] أصلاً إلى مرتبة اليقين، بل كانوا كذلك، بل أسوأ حالاً من ذلك، فكيف تتبعهم؟.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة: 171-173].

﴿وَ﴾ إن شئت يا أكمل الرسل زيادة تفضيحهم اذكر للمؤمنين قولنا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تقليدًا لآبائهم مع قابليتهم واستعدادهم للإيمان ﴿كَمَثَلِ﴾ الشخص ﴿الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يخاطب ويصوت من سفاهته ﴿بِمَا﴾ أي: بجمادٍ ﴿لاَ يَسْمَعُ﴾ منه شيئًا في مقابلته ﴿إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ منعكسين من دعائه، شبه حالهم في السفاهة والحماقة بحال من يصوت نحو الجبل فيسمع منه صوته منعكسة، فيتخيل من سفاهته أنه يتكلم معه، والحال أن آباءهم أيضًا أمثالهم ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون دعوة الحق من ألسنة الرسل ﴿بُكْمٌ﴾ أيضًا لا يتكلمون بما ظهر لهم من الحق الصريح نقلاً وعقلاً ﴿عُمْيٌ﴾ أيضًا: لا يبصرون آثار الصفات وأنوار تجليات الذات الظاهرة على الآفاق ﴿فَهُمْ﴾ وآباؤهم من غاية انهماكهم في الغفلة والنسيان كأنهم ﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171] أي: لا يخلقون من زمرة العقلاء.

نبهنا بفضلك عن سنة الغفلة ونوم النسيان.

ثم ناداهم سبحانه، وأوصاهم بما يتعلق بأمور معاشهم أيضًا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ مزكيات ما أحل لكم من الحيوانات من ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ سقنا نحوكم تفضلاً؛ لتقوية مزاجكم وتعديله ﴿وَ﴾ بعد تقويتنا وتعديلنا إياكم ﴿اشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل، المربي لكم بلا التفات إلى الوسائل والوسائط ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ لا إلى غيره من الآلهة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:172] تقصرون العبادة.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: ما حرم ربكم عليكم في دينكم من الحيوانات إلا ﴿الْمَيْتَةَ﴾ حتف نفسه بلا تزكية وتهليل ﴿وَالدَّمَ﴾ السائل من أي وجه كان ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ المرخص في الأديان الأخر لنجاسة عينه طبعًا وشرعًا ﴿وَمَا أُهِلَّ﴾ صوت ﴿بِهِ لِغَيْرِ﴾ اسم ﴿اللَّهِ﴾ عند ذبحه من أسماء الأصنام، وإنما حرم عليكم هذه الأشياء وقت سعتكم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ منكم حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ للولاة القائمين بحدود الله ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ مجاوزًا عن شدة الجوعة إلى وقت السعة ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ إن تناول منها مقدار سد الرمق ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المرخص لكم في أمثال المضائق والاضطرار ﴿غَفُورٌ﴾ ساتر لكم عن أمثال هذه الجراءة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:173] عليكم بهذه الرخصة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴾ [البقرة:174-176].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ المبين لهم طريق الرشاد والسداد، ويظهرون بدله ما تشتهيه نفوسهم وترتضيه عقولهم عتوًا واستكباراً ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ أي: بكتمان كتاب الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من ضعفاء الناس على وجه التحف والهدايا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الكاتمون طريق الحق، الناكبون عن منهج الصدق ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ بهذه الحيلة والتزوير، لا يستحيل ﴿فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ أي: نار الحرص والطمع المقتبسة من نيران الإمكان المنتهية إلى نار الجحيم، أعاذنا الله منها ﴿وَ﴾ من فظاعة أمرهم وشناعة صنيعهم ﴿لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ المنكشف عن أحوال العباد ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليجزيهم على مقتضى أعمالهم التي كانوا عليها في النشأة الأولى، بل يسوقهم إلى النار بلا كشف عن حالهم ﴿وَ﴾ بعد ما ساقهم إليها ﴿لاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم الله بها كما يطهر عصاة المؤمنين بالنار، ثم يخرجهم إلى الجنة، يبقون فيها خالدين ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:174] مؤلم غير منقطع أبدًا.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الضالون الخاسرون هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ﴾ المستتبعة لهذا النكال ﴿بِالهُدَى﴾ الموصل إلى النعيم الدائم في النشأة الأولى ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ الملذة المستمرة في النشأة الأخرى ﴿فَمَا﴾ أعجب حالهم ما ﴿أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:175] بارتكاب تلك الموجبات المؤدية إليها.

﴿ذَلِكَ﴾ النكال والعذاب ﴿بِأَنَّ اللهَ﴾ المرشد لهم إلى التوحيد ﴿نَزَّلَ الكِتَابَ﴾ أي: القرآن المبين لهم طريقه ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصريح الثابت في الواقع ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي﴾ حقيقة ﴿الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ [البقرة:176] بمراحل عن الحق.

حققنا بفضلك حقية ما أنزلت علينا من جودك.

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) ﴾ [البقرة:177-178].

ثم لما اختلف الناس في أمر القبلة واهتموا بشأنها، بأن حصر البر والخير كل فيها، أشار سبحانه إلى تخطئتهم، ونبه على البر الحقيقي والخير الذاتي بقوله: ﴿لَيْسَ البِرَّ﴾ أي: الخصلة السنية والأخلاق المرضية مجرد ﴿أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ مثلاً، بل اتصاف بالعزائم، والحكمة المترتبة على تشريع القبلة ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ﴾ الحقيقي ﴿مَنْ آمَنَ﴾ صدق منكم ﴿بِاللهِ﴾ المنشئ لكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ المهيمنين الوالهين في مطالعة جمال الله، المستغفرين لمن آمن وعمل صالحًا من عباده ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المبين لكم طريق الهداية ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين إليكم به؛ ليرشدكم إلى مقاصده.

﴿وَ﴾ بعد ما آمن بما ذكر ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ المانع من التوجه الحقيقي، وأنفقه ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ سبحانه طالبًا لرضاه، وأنفقه على المحتاجين أولاً هم ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ المنتمين إليه من قبل أبويه ﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين لا متعهد لهم من الوالدين وذوي القربى ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الذين أسكنهم الفقر العارض لهم من عدم مساعدة آلات الكسب والحوادث الأخر ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ الغرباء الذين لا يمكنهم التصرف في أموالهم لوقوع البون والمبين ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجأهم الاحتياج مطلقًا إلى السؤال من أي وجهٍ كان ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ من الأسرى الموثقين في يد العدو، والمكاتبين الذين لا يقدرون على فك رقابهم من مواليهم وغير ذلك من المضطرين ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ أي: دوام الميل والتوجه بجميع الأعضاء والجوارح نحوه تعالى في جميع الأوقات، خصوصًا في الأوقات التي فرض فيها التوجه ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة المقدرة في كتاب الله.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ كلهم من خيار الأبرار ﴿وَ﴾ بشر من بينهم يا أكمل الرسل ﴿الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر المكسر للظهر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض المسقم للجسم ﴿وَ﴾ خصوصًا الغزاة الذين صبروا ﴿حِينَ الْبَأْسِ﴾ من اقتحام العدو بالإنعامات العلية والكرامات السنية ﴿أُولَئِكَ﴾ الأبرار الأحرار الصابرون في البلوى، المرجون لرضا المولى على أنفسهم هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في أقوالهم وأصلحوا في أفعالهم، وأخلصوا في نياتهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177] [1] المحفوظون عن

(1) قال نجم الدين كبرى: ثم أخبر عن البر في عبودية الحق البر بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، والإشارة فيها أن ليس الاعتبار في البر بظواهر الأشياء والمعاملات الفارغة عن الحقيق، ولكن الاعتبار بالبر الحقيقي ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي: من آمن بهداية الله التي عينها من العناية؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ فمن كانت هذه الكتابة عائدة عليه لتجلي الحق تعالى لروحه بصفة المحبة في بدء وجوده، فتنور الروح بنور المحبة فالروح صارت محبًا لمحبة، كما عبر عن هذا بقوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ فشاهد بذلك النور محبوبه وآمن بنور المحبة بوحدانية ومشاهد الأمور الأخروية وآمن بها، وكذلك ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ وفيه معنى آخر ليس البر بركم بتولية وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر الحقيقي هو بر الذي يبركم معكم بتولية وجوه أرواحكم بجذبات المحبة قبل الحضرة الربوبية المحبوبية، فتؤمنوا بدلالات نور بري ومبرتي لكم كما ذكرنا في الحديث: «إن الله تعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل ﷺ: إني أحببت فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل ﷺ ثم ينادي جبريل ﷺ في أهل السماء: إن الله أحب فلانًا فأحبوه، فيحبوه أهل السماء»، وبر حبي لكم ليس بمحدث كحبكم معي، بل هو بر قديم في الكتاب العلم الأزلي والكلام السرمدي: ﴿يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] أي: يحبهم في الأزل ويحبونه في الأبد، يحبهم بأن بر معهم ببر محبته لهم ليبروا معه يحبهم إياه ببر محبة التي بر بها معهم، ويحبونه ولولا محبة لهم ما كانوا ليؤمنوا به ويحبوه أبدًا، فافهم جدًا قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:177] أي: بنور هذه المحبة يهتدون المحبون إلى أهل محبة محبوبهم، فإن الجنسية علة الصنم فيؤمنون بهم، ويتابعون هم حق المتابعة، فأظهر فوائد خصوصية هذا الإيمان، وأخبر عن ثمرات بذر بر حبه فيهم بقوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177] يعني: من ثمرات حبه إيتاء المال على حبه، والمال إشارة إلى ما يمال إليه غير الله، فمن نتائج بذر بر الحب إنفاق كل محبوب غير الله على حب الله؛ ليكون ثمرة بذر حب الله في النهاية بر الوصول إلى حضرة المحبوب لقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92] لأن ثمرة كل بذر في النهاية يكون من جنس بذرها في البداية، ولكن فيه معنى وخصوصية أخرى، ولهذا سُئل الجنيد رحمه الله: ما النهاية؟ قال:الرجوع إلى البداية في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177] معنى آخر، وهو إنما حصل للعبد من بر الحب ومال إلى البر من عواطف الحق وإحسانه، بتجلي أنوار صفاته يعطيه وينقصه على حب حبيبه بأداء حقوق الشريعة والطريقة بالمعاملات الطبية والقالبية ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة:177]، وهم الروح والقلب والسر والقربة الحق ﴿وَالْيَتَامَى﴾ [البقرة:177]، المتولدات من النفس الحيوانية الأمارة بالسوء إذا ماتت النفس عن صفاتها بسطوات تجلي صفات الحق، فثبت وبقيت منها يتامى المتولدات على الدوام من أوصاف البشرية ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة:177]، وهي الأعضاء والجوارح ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:177]، القوى البشرية والحواس الخمس، فإنهم في التردد والشعر في عوالم المعقولات والمخيلات والموهومات والمحسوسات، وإنما ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة:177]، وهم الدواعي الحيوانية والروحانية ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:177] أي: فك رقبة السر عن أسر تعلقات الكونين، وعتق رقبته عن عبودية ما في الدارين، فإن المكاتب عبد ما بقي درهم، فإذا تخلص السر عن أسر غير الله وعبوديته بدوام الرقبة، ولزوم المعاملة صار أهل المشاهدة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:177]، المحاضرة مع الله بالله ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:177]، زكاة مواهب الحق إلى استحقاقها من الحق، فهم ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:177]، مع الله بالتوحيد والعبودية الخالصة يوم الميثاق ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة:177]، وإنهم من الصابرين في بأساء مراعاة الحقوق ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:177]، مخالفات الحظوظ وفناء الوجود عند بقاء الشهود ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:177]، حين بأس سطوات الجلال لا لصبرهم بل لقيام الحق عنهم وبقائهم بصفات الجلال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة:177]، ببذل الوجود وما عاهدوا الله عليه يوم الشهود كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:23] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177]، من ترك الأنانية بالاستهلاك في الهوية، وإن ما ينقضي

جميع ما ضيق عليهم في أمور الدين، الواصلون إلى مرتبة الحقيق واليقين.

رب اجعلنا منهم بلطفك وكرمك يا أرحم الراحمين.

ثم ناداهم سبحانه إصلاحًا لهم فيما يقع بينهم من الوقائع الهائلة، والفتن العظيمة الحادثة من ثوران القوة الغضبية، وطغيان الحمية الجاهلية، المؤدية إلى قتل البعض بعضًا ظلمًا وعدوانًا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم وتوحيدكم المحافظة بزجر النفس الأمارة بالسوء عن مقتضياتها المنشعبة من القوى البشرية، وإن وقع فيكم أحيانًا فاعلموا أنه ﴿كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيْكُمُ﴾ في دينكم ﴿الْقِصَاصُ﴾ بالمثل ﴿فِي الْقَتْلَى﴾ المقتولين عمدًا فيُقتل ﴿الْحُرُّ﴾ القاتل ﴿بِالْحُرِّ﴾ المقتول ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْعَبْدُ﴾ القاتل ﴿بِالْعَبْدِ﴾ المقتول، وبالحر بالطريق الأولى ﴿وَ﴾ كذا يُقتل ﴿الْأُنْثَى﴾ القاتلة حرة كانت أو أمة ﴿بِالْأُنْثَى﴾ المقتولة أيضًا، كذلك لنظيرتها قياسًا على الحر والعبد، والأمة بالحرة بالطريق الأولى، وكذا بالذكرين مهما وافى قتل الحر، والحرة بالعبد والأمة، فقد خولف فيه، والظاهر أنه لم يقتل.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ أي: للجاني والقاتل من المحقوق والسهام المشتركة بين الغرماء الطالبين منه قصاص أخيه المسلم المقتول بيده ظلمًا ﴿مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قليل من الحقوق المذكورة ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فالحكم لازم عليكم في دينكم أيها الغرماء، متابعة المعروف المستحسن عند الله وعند المؤمنين والرجوع إلى الدية وعدم القصاص ﴿وَ﴾ عليك أيها الجاني ﴿أَدَاءٌ﴾ أي: أداء الدية التي هي فدية حياتك ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ولي المقتول ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ معتذرًا نادمًا متذللاً على وجه الانكسار بلا مطل وكسل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: سقوط القصاص بعد عفو البعض ولزوم الدية بدله ﴿تَخْفِيفٌ﴾ لكم أيها المؤمنون وإصلاح لحالكم ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ أمًا التخفيف بالنسبة إلى الغرماء فبتسكين القوة الغضبية، وتليين الحمية العصبية بالمال المسرة لنفوسهم بعد وقوع ما وقع، وأمًا بالنسبة إلى الجاني فظاهر لإبقاء الحياة بالمال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة لكم من ربكم لتصفية كدورتكم الواقعة بينكم بواسطة القتل ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ منكم وتجاوز

الآن من فنون الإحسان ووجود فضائل الإيمان، وتصفية الأعمال وصلة الرحم والتمسك بفنون الذمم والعفو والوفاء بالعهود ومراعاة الحد وتعظيم الأثر كثير الخطر محبوب الحق شرعًا ومطلوبه أمرًا، ولكن قيام الحق عنك عند قيامك عنه، وامتحانك من مشاهدتك لاستهلاك في وجود القدم، وتعطيل رسولك عن ساكنات إحساسك أتم وأعلى في المعنى.

عن الحكم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور بأن قتل الغرماءُ الجاني بعد عفو البعض وأخذ الدية، أو امتنع الجاني عن أداء الدية على الغرماء ﴿فَلَهُ﴾ أي: لكل من المعتدين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:178] يؤاخذون في الدنيا بما صدر عنهم، ويعاقبون عليها في الآخرة.

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [البقرة:179-182].

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الموحدون المكاشفون بسرائر الشرائع والنواميس الإلهية الموضوعة بين المؤمنين في هذه النشأة خصوصًا ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ المسقط للجرائم الصادرة من جوارحكم البادية عليها ﴿حَيَاةٌ﴾ عظيمة حقيقية لكم في النشأة الأخرى؛ إذ لا يؤاخذون عليه بعد مؤاخذتكم في النشأة الأولى ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الناظرين بنور الحق في لب الأمور المعرضين عن قشوره ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:179] رجاء أن تتحفظوا عن مقتضى القوى البهمية، المنافية لطريق التوحيد المبني على الاعتدال والوفاق، المؤدية إلى أمثال هذه الخباثات.

ثم قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أيضًا في دينكم أيها المؤمنون ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه وأماراته ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالاً كثيرًا يقبل التجزئة والانقسام المعتد بها بلا تحريم الورثة ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ أي: الحصة المستخرجة منها لرضاء الله، للفقراء المستحقين لها، وأفضل الوصية وأولاها الوصية ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ إن كانوا مستحقين لها، وأيضًا أفضلها الاستخراج ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعتدل المستحسن بين الناس، بحيث لا يتجاوز عن ثلث المال؛ لئلا يؤدي إلى تحريم الورثة، وما فرض في الوصية في دينكم إلا ﴿حَقًّا﴾ لازمًا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:180] الذين يحفظون إيمانهم وتوحيدهم بمحبة الفقراء ومودة ذوي القربى عما يضاده ويخالفه.

﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾ غيره من الأوصياء والحضار الشاهدين عليها ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ من الموصي صريحًا ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أي: إثم التبديل والتغيير ﴿عَلَى﴾ المبدلين المغيرين

﴿الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ بأقوال الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:181] بما صدر من المبدلين المغيرين، فيجازي كلاً منهم على مقتضى عمله.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ من الأوصياء والوكلاء ﴿مِن مُّوصٍ﴾ حين الوصية ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فأصلح بَيْنَهُمْ﴾ ميلاً ببعض المستحقين، سألهم على مقتضى علمه بأحوالهم ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الوصي في هذا التبديل والتغيير، بل يرجى من الله بإصلاحه الثواب له ولمن أوصى إليه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بحالهما ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:182] لكل منهما.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة:183-185].

ثم لما نبههم سبحانه بنبذ ما يتعلق بتهذيب ظاهرهم، أراد أن ينبههم على بعض ما يتعلق بتهذيب باطنهم فقال أيضًا مناديًا لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ في دينكم ﴿الصِّيَامُ﴾ هو الإمساك المخصوص من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس في الشهر المعروف بلسان الشريعة، والإمساك المطلق والإعراض الكلي عما سوى الحق عند أولي النهى واليقين المستكشفين عن سرائر الأمور، المتحققين بها حسب المقدور ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى﴾ أمم الأنبياء ﴿الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإنما فرض عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:183] رجاء أن تحفظوا أنفسكم عن الإفراط في الأكل المميت للقلب المطفئ نيران العشق والمحبة الحقيقية.

وإذ فرض عليكم صوموا ﴿أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي شهر رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ حين ورود شهر رمضان الذي فرض فيه الصيام ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضًا يضره

الصوم أو يعسر عليه ﴿أَوْ﴾ حين وروده ﴿عَلَى﴾ جناح ﴿سَفَرٍ﴾ مقدار مسافة مقدرة عند الفقهاء فأفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مساوية للأيام المفطرة، يجب على المفطر بلا كفارة ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: الصوم، فيفطرونه مع أنهم ليسوا مرضى ولا مسافرين ﴿فِدْيَةٌ﴾ هي ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: فدية كل يوم من الأيام المفطرة من رمضان طعامُ واحدٍ من المساكين ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ زاد في الفدية ﴿خَيْرًا﴾ تبرعًا زائدًا مما كتب له ﴿فَهُوَ﴾ أي: ما زاد عليها ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ عند ربه يجزيه عليه زيادة جزاءٍ ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية، وزيادة عليها متبرعًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184] سرائر الإمساك والفوائد والعائدة منها إلى نفوسكم، من كسر الشهوة والتلقي على الطاعة والتوجه مع الفراغة، هذا في بدء الإسلام، ثم نسخ بالآية ستذكر.

واعلموا أيها المؤمنون أن أفضل الشهور عند الله وأرفعها قدرًا ومرتبة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: ابتداء نزوله أو نزل كله فيه، بل الكتب الأربعة كلها تنزل فيه على ما نقل في الحديث وكيف لا يكون أفضل الشهور، والحال أن القرآن المنزل فيه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المؤمنين بتوحيد الله المتوجهين نحو جنابه يهديهم إلى مرتبة اليقين ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ شواهد وآيات واضحات ﴿مِّنَ الْهُدَى﴾ الموصل للمستكشفين عن سرائر التوحيد إلى مرتبة عين اليقين ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ الفارق لهم بين الحق الذي هو الوجود الإلهي، والباطل الذي هو الوجودات الكونية يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ أدرك ﴿مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ المذكور مقيمًا مطيقًا بلا عذر ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ ثلاثين يومًا حتى بلا إفطار وإفداء؛ لأن هذه الآية ناسخة للآية السابقة.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ لا يطيق على صومه خوفًا من شدة مرضه ﴿أَوْ عَلَى﴾ متن ﴿سَفَرٍ﴾ فأفطر دفعًا للحرج ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: لزم عليه صيام أيام أخر قضاء لأيام الفطر إنما ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الْيُسْرَ﴾ لئلا يتحرجوا ﴿وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لئلا تضطروا وتضطربوا وإنما رخص لكم الإفطار في المرض والسفر ﴿وَ﴾ ألزم عليكم القضاء بعد ﴿لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ المفروضة لكم في كل سنة؛ لئلا تحرموا عن منافع الصوم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ وتعظموه ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ إلى الرخص عند الاضطرار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:185] تتنبهون بشكر نعمه الفائضة عليكم في أمثال هذه المضائق إلى ذاته، أو بشكر نعمه تتقربون إليه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:186-187].

﴿وَ﴾ لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ إرشادًا لعباده الشاكرين لنعمه عن تقربه إليهم بقولهم: ﴿إِذَا سَأَلَكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿عِبَادِي﴾ الشاكرين لنعمه ﴿عَنِّي﴾ بقولهم: أقريب إلينا ربنا فنناجيه مناجاتنا نفوسنا، أم بعيد منا فنناديه نداء الأباعد؟ قل لهم يا أكمل الرسل في جوابهم نيابة عني: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لهم من نفوسهم بحيث ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ استقبله سريعًا لإجابة دعائه كما أشار إليه في الحديث القدسي حكاية عنه سبحانه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ في جميع مهماتهم وحاجاتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ معتقدين بي إيصالهم إلى غاية متمناهم؛ إذ لا مرجع لهم غيري ولا ملجأ لهم في الوجود سواي، وإنما أُخبروا بما أُخبروا وأُمروا بما أُمروا ﴿لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186] رجاء أن يهتدوا إلى مرتبة التوحيد راشدين مطمئنين.

اهدنا بلطفك إلى مقر عزك يا هادي المضلين.

ثم أشار سبحانه إلى بيان أحكام الصوم مما يتعلق بالحل والحرمة فيه فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الصائمون ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ دون نهاره؛ إذ الإمساك عن الجماع في يوم الصوم مأخوذ في تعريفه شرعًا ﴿الرَّفَثُ﴾ الوقاع والجماع ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي: مع نسائكم اللاتي ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ لا تصبرون عنهن لإفضاء طبعكم، وميل نفوسكم إليهن ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أيضًا، لا يصبرن عنكم لاشتداد شهوتهن إلى الوقاع بأضعاف ما أنتم عليه، وإنما رخص لكم الوقاع في لياليه؛ إذ ﴿عَلِمَ اللَّهُ﴾ المحيط بسرائركم وضمائركم ﴿أَنَّكُم كُنتُمْ﴾ لو كلفتم بها ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[1] أي:

(1) قال نجم الدين كبرى: أخبر عن تفضله بالنوال قبل السؤال بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ

الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة:187]، والإشارة في تحقيق الآية أن لخواص الإنسان بحسب تركيهم من الروحاني والحيواني تلونًا في الأحوال لا بد لهم منه، فتارة يكونون بحكم غلبات الصفات الروحانية والواردات الربانية في ضياء نهار الروحانية النورانية، ففي تلك الحالة لهم سكر يغنيهم عن المشارب النفسانية، فيصومون عن الحظوظ الإنسانية، وبقوا مع تلك الحالة لتلاشت نفوسهم بسطوات صفات الجلال، وطاشت أرواحهم، وما عاشت أبدانهم، كما منَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:72]. وتارة يكون بحسب الدواعي والحاجات الحيوانية مردودين إلى ليلة ظلمات الصفات الإنسانية، وفي تلك الحالة لهم صحو يعيدهم إلى أحكام عادات طبائع الحيوانية، ولو بقوا على تلك الحالة لماتت قلوبهم بهجوم الآفات وفات لهم من الحقوق ما فات، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القصص:72]، فخصهم الله تعالى بنهار في كشف أستار الرحمة؛ ليسكنوا فيها ويستريحوا بها.

وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: ليلة تسترحون فيها وتستعدون لصيام غداتها؛ يعني: إن لم يكن ليلة الصيام ما أحل لكم فيها ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ وهي التمتعات النفسانية من الأمتعة الدنياوية المسخرة للنفس؛ لنفوذ تصرفها فيها تصرف الرجال في النساء؛ لاستيفاء الحظوظ تقوية على أداء الحقوق ولا تكون مسخرة لها؛ لينفذ فيها تصرفها، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:187]؛ أي: التمتعات بالحظوظ الإنسانية ستر لكم؛ ليحميكم عن حرارة شموس الشهود بلباس ظلمات صفات الوجود؛ كيلا تحرقكم سطوات تجلي صفات الجلال، ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة:187]؛ أي: بلباس صفاتكم الحميدة وأنوار أعمالكم الصالحة تسترون معايب الدنيا وتمتعاتكم بمتاع شهوات النفس ولذاتها؛ لقوله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» والمال هو الملعون الذي قال ﷺ فيه: «الدنيا لمعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»، فصار الملعون صالحًا ولقب بنعم إذا آمن بصلاح الرجل الصالح ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ﴾ في خصوصية البشرية، ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ باستيفاء حظوظكم الحيوانية في ليالي الطلب من ضعفكم واستيلاء شهواتكم، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بنظر العناية إلى قلوبكم، ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ أي: محا آثار ظلمات صفاتكم بأنوار هدايته عنكم، ﴿فَالْآنَ﴾ أي: في هذه الحالة، ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ رخص لكم في مباشرة الحظوظ النفسانية بقدر الحاجة للضرورة الإنسانية بالأمر لا بالطبع، ﴿وَابْتَغُوا﴾ بقوة هذه المباشرة، ﴿مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ من المقامات العلية والدرجات الرفيعة، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: تمتعوا بالحظوظ؛ لرفع الحاجات الإنسانية في ليالي الصحو، ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: تظهر آثار أنوار شمس صفات الجلال وتمحو ظلمات الصفات والآمال في نهار السكر، ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ بالامتناع عن الاستمتاع عن المشارب الروحانية والحيوانية ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: ليل الصحو بعد السكر. ﴿ولا تباشروهن﴾ أي: وتشغلوا القلوب بالحظوظ، ولا الأرواح بالاسترواح، ولا الأسرار

توقعونها بأيديكم إلى الخبائث فتعاقبون عليها، وتحرمون جزاء الصوم المتكفل لها الحق بذاته، كما قال ﷺ حكاية عنه سبحانه: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1].

﴿وَ﴾ إذا علم سبحانه منكم ما علم ﴿عَفَا﴾ محا ﴿عَنكُمْ﴾ ما يوقعكم إلى الفتنة والعذاب، وهو تحريم الرفث في الليلة أيضًا، وإذا رخص لكم الوقاع فيها ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: ألصقوا بشرتهن لبشرتكم في ليلة الصيام المرخصة فيها الجماع، ولا تخافوا من عقوبة الله عليها بعد ما أذن ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا سرائر ﴿مَا كَتَبَ﴾ قدر ﴿اللهُ لَكُمْ﴾ من الولد الصالح المتفرع على اجتماعكم من نسائكم؛ إذ سر الجماع والنزوع المستلزم له إبقاء نوع الإنسان المصور بصورة الرحمن؛ ليترقى في العبودية والعرفان إلى أن يستخلف وينوب عنه سبحانه ﴿وَكُلُوا﴾ في ليلة الصيام ﴿وَاشْرَبُوا﴾ فيها ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ أي: إلى أن يظهر ﴿لَكُمُ﴾ بلا خفاية ﴿الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ أي: البياض الممتد الذي يقال له في العرف: الصبح الصادق ﴿مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ البياض المتوهم قبل الصبح الصادق المعبر عنها بالصبح الكاذب، وكلاهما ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ الشامل لهما، وهو آخر الليل.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ من الوقت المبين ﴿إِلَى﴾ ابتداء ﴿اللَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس بحيث لا يرى في الأفق الشرقي بياض وحمرة منها ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ في ليلة الصيام أيضًا ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ معتكفون ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ إذ الاعتكاف في الشرع عبارة

بالاستظهار عن الأغيار، ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: مقيمون في مقامات القربة والوصلة، مجاورون في حظائر القدس ومجالس الأنس؛ يعني: عند احتياج النفس بالضروريات الإنسانية في بعض الأوقات وإشغالها بها، كونوا بالضرورة فيها، وبالقلوب والأرواح والأسرار كائنين مع الحق بعيدين عن الخلق، وهذا مقام أهل التمكين، فإنكم إن كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين فيكم بكم عنا، وإذا كنتم قائمين بنا فينا فلا تعودوا منا إليكم، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ أي: تلك القربة والوصلة والاعتكاف والتبتل إلى الله حدود الله، ﴿فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ بالخروج عنها يا أهل الكشوف والعكوف، ولا تقربوها بالدخول فيها يا أهل الكسوف والخسوف. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ﴾ يظهر الله ﴿آيَاتِهِ﴾ ودلائله وبراهينه، ﴿لِلنَّاسِ﴾ أهل الصدق والطلب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بأنوار العواطف والجود عن ظلمات شركة الوجود.

(1) أخرجه أحمد (232/2، رقم 7174)، وعبد بن حميد (ص 288، رقم 921) ومسلم (807/2، رقم 1151)، والنسائي (162/4، رقم 2213 عن أبي سعيد، 2214 عن أبي هريرة)، وابن خزيمة (198/3، رقم 1900)، وابن أبي شيبة (272/2، رقم 8893).

عن اللبث في المسجد على نية التقرب، فيبطله الخروج إلا إلى التوضؤ والطهارة، والجماع فيه ليس بمرخصٍ شرعًا ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ الحاجزة بينه وبينكم؛ لئلا تتجاوزوا عنها ﴿فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ إلى حيث يتوهم تجاوزكم عنها ﴿كَذَلِكَ﴾ كالحدود والأحكام المأمور به والمنهية ﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾ الهادي إلى وحدة ذاته جميع ﴿آيَاتِهِ﴾ أي: علاماته الدالة على توحيده الذاتي ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين العهود السابقة بواسطة تعيناتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:187] رجاء أن يتخذوا عنها بسبب إشراق نور الوجود الحق المفني لها مطلقًا.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة:188-190].

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام الموضوعة فيكم لإصلاح حالكم أن ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: لا يأكل كل منكم مال الآخر ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بالسبب الباطل الغير المبيح له أكل مال الغير، من السرقة والغصب والربا والرشوة، والحيل المنسوبة إلى الشرع افتراء، وغير ذلك مما ابتدعه الفقهاء في الوقائع من الحيل والشبه، ونسبوها إلى السمحة الحنيفية البيضاء المحمدية، المنبئة عن الحكمة الإلهية، المنزهة عن أمثال تلك المزخرفات الباطلة ﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الأحكام الموضوعة ألا ﴿تُدْلُوا بِهَا﴾ أي: لا يحاول بعضكم مال البعض ﴿إِلَى الحُكَّامِ﴾ المسلطين عليكم؛ أي: لا يفتري بعضكم بعضًا افتراءً يوقع بينكم العداوة والحكومة والبغضاء المفضية إلى المصادرة المستلزمة لأخذ المال من الجانبين، ومن أحد الجانبين ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ أي: الحكام ﴿فَرِيقًا﴾ بعضًا أو كلاً ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ المظلومين ﴿بِالإِثْمِ﴾ الصادر عن المدلي والمغري ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها المدلون ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:188] أنكم آثمون مفترون.

بك نعتصم عن أمثاله يا ذا القوة المتين.

ثم لما قدر سبحانه في سابق علمه الحضوري سؤال أولئك السائلين عن كمية ازدياد القمر وانتقاصه وبدوه رقيقًا واستكماله، ورجوعه على ما كان عليه، أخبر نبيه ﷺ عما سألوه امتنانًا عليه فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها الداعي إلى الحق ﴿عَنِ﴾ كمية تغير ﴿الأَهِلَّةِ قُلْ﴾ واختلافها كمالاً ونقصانًا، قل لهم في جوابهم كلامًا ناشئًا عن لسان الحكمة مطابقًا لأسلوب الحكيم مقتضى حالكم وإدراككم: إن تسألوا عن الحكم والمصالح المودعة فيها لا عن كمية أمر القمر، فإنها خارجة عن طوق البشر، ونهاية مدارك العقلاء من أمر القمر ليس إلا أن نوره مستفاد من الشمس، وإنه مظلم في ذاته، وإن استفادته النور بحسب مقابلته بالشمس، وعدم ممانعة الأرض منها.

وإمّا أن الشمس ما هي في ذاته والقمر ما هو؟ والارتباط بينهما على أي وجه فسر؟ لا يحوم حوله عقول أحد من خلقه، بل مما استأثر الله به في علمه، فلا يسأل عنه أحد، بل ﴿هِيَ﴾ أي: الاختلافات الواقعة في القمر زيادة ونقصانًا، ترقيًا وتنزلاً لأجل أنه ﴿مَوَاقِيتُ﴾ معينة ﴿لِلنَّاسِ﴾ في أمور معاشهم من الآجال المقدرة؛ لقضاء الديون والعدة وتعليقات المتعلقة بها، وغير ذلك من التقديرات الجارية في المعاملات بين الناس في العادات والعبادات ﴿وَ﴾ خصوصًا في ﴿الْحَجِّ﴾ والصوم والنذر المعينة، فإنها كلها تضبط باختلافات إلى غير ذلك من العبادات المؤقتة ﴿وَ﴾ كما أن سؤالكم هذا ليس من الأمور المبرورة المتعلقة لدينكم وتوحيدكم كذلك ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ لا من أبوابها.

الأنصار كانوا إذا أحرموا للحج لم يدخلوا من أبواب البيوت، بل يثقبون ظهورها ويدخلون منها يعدون هذه الفعلة من الأمور المبرورة ويعتقدونها كذلك، لذلك نبه سبحانه على خطئهم، وأرشدهم إلى البر الحقيقي بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ المقبول عند الله بر ﴿مَنِ اتَّقَى﴾ عن محارم الله مطلقًا حين لبس الإحرام؛ إذ الإحرام للموت الإرادي المعبر عنه بلسان الشرع بالحج بمنزلة الكفن للموت الطبيعي، فكما أن لابس الكفن محفوظ عن جميع المحارم اضطرارًا، كذلك لابس الإحرام لا بد أن يتقي نفسه عن جميع المحارم إرادة واختيارًا ﴿وَ﴾ إذا لم يكن الدخول من ظهور البيوت وثقبه من البر ﴿أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ مغمضين عيونكم عن محارم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مخلصين له خائفين منه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:189] رجاء أن تفوزوا بالفلاح من عند الله بسبب تقواكم.

﴿وَ﴾ من جملة الحدود الموضوعة فيكم: القتال مع أعداء دينكم ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع المشركين المعرضين عن طريق الحق، المائلين عنه تعنتًا واستكبارًا وخصوصًا مع ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ويقصدون استئصالكم بادين للقتال مجترئين عليها ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ ولا تتجاوزوا أيها المؤمنون عما نهيتم عنه من قتل المعاهد، والفجر والاقتحام فجأة، والمقاتلة في الحرم وفي الشهور المحرمة، والابتداء بالمقاتلة وغير ذلك ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190] [1] المتجاوزين عن الحدود والعهود.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:191-194].

﴿وَ﴾ إن اجتمعوا لقتالكم وتوجهوا نحوكم ﴿اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان وجدتموهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾ إن ظفرتم عليهم ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: مكة ﴿وَ﴾ ألقوا بينهم الفتن والاضطراب وأوقعوهم في حيص بيص؛ إذ ﴿الْفِتْنَةُ أَشَدُّ﴾ أثرًا ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ لأن أثر القتل منقطع به وأثر الفتنة مستمر دائم غير منقطع ﴿وَ﴾ عليكم المحافظة للعهود خصوصًا ﴿لاَ تُقَاتِلُوهُمْ﴾ وأنتم بادون للقتل ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حرم فيه إزالة الحياة مطلقًا ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ وهم بادون معتدون عن حدود الله ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ بعد ذلك فيه أيضًا قائلين: ﴿كَذَلِكَ جزاءُ

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ثم أخبر عن النجاة وطريق نيل الدرجات بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:190]، والإشارة في تحقيق الآية أن قاتلوا من يمنعكم عن السير في سبيل الله، أو أراد أن يقطع عليكم طريقه من شياطين الأنس والجن حتى نفوسكم، وإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول إذا رجع من جهاد: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة:190]؛ أي: لا تجاوزوا عن حد الشرع، فتجاهدوا بالطبع ولكن كونوا قائمين على قدم الاستقامة بقدر الاستطاعة، وهو أن تقولوا حيث ما توقفون، وتفعلوا ما به تؤمرون، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190]، فلا تجمعون طرفي الإفراط والتفريط.

الكَافِرِين﴾ [البقرة:191] الهاتكين حرمة بيت الله.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الكفر والقتال مع المؤمنين وآمنوا على وجه الإخلاص ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الكفر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:192] لهم بما ظهر منهم من الإيمان والإسلام.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون إلى أن تستأصلوهم ﴿حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا تبقى فتنة يفتتنون بها ويشوشون منها ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كله ﴿لِلهِ﴾ بلا مزاحمٍ ولا مخاصم ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن كفرهم بلا مقاتلةٍ ودخلوا في دين الإسلام طائعين ﴿فَلاَ عُدْوَانَ﴾ ولا عداوة باقيًا لكم معهم، بل هم إخوانكم في الدين ﴿إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:193] أي: مع الظالمين منهم المجاوزين عن الحدود والعهود، المصرين على ما هم عليه من الكفر والجحود.

وبعد ما قاتل المشركون مع المؤمنين عام الحديبية في ذي القعدة الحرام، عزم المؤمنون الخروج إلى مكة لعمرة القضاء أيضًا فيها في السنة الثانية وهم يكرهون القتال؛ لئلا يهتكوا حرمة شهرهم هذا كما هتكوا، أنزل الله عليهم هذه الآية فقال: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ﴾ أي: لا ينالوا ولا يمتنعوا عن القتال فيه؛ إذ هتككم حرمة شهركم في هذه السنة بسبب هتكهم حرمته في السنة السابقة، فيؤول كلا الهتكين إليهم ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أي: واعلموا أن الحرمات التي يجب محافظتها وعدم هتكها يجري فيها القصاص بالمثل، فلما هتكوا حرمة هذا الشهر في السنة السابقة، فافعلوا معهم في هذه السنة بمثله ولا تجاوزوا عنه ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وهذا أيضًا من الحدود الموضوعة بينكم لإصلاح حالكم وتهذيب أخلاقكم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أن تتخلفوا عن حدوده بالإقدام على ما نهيتم عنه، والإعراض عما أمرتم به ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المدبر لكم المصالح لأحوالكم ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:194] منكم، وهم الذين يحفظون نفوسهم عن محارم الله ومنهياته، ويرغبون نحو أوامر الله ومرضياته.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ

إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾ [البقرة:190-196].

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق الموضوعة فيكم: الإنفاق من فواضل أموالكم إلى الفقراء والمساكين الذين أسكنهم الاحتياج والإسكان في زاوية الخمول ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مقتصدين فيه بين طرفي التبذير والتقتير المذمومين عند الله وعند المؤمنين ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أنفسكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ والمشقة بالإسراف والتضييع أو بالبخل والتقتير؛ إذ بالبخل تبقى النفس في ظلمة الإمكان وتوطن في وحشة الحرمان والخذلان ﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم الإحسان ﴿أَحْسِنُوا﴾ أيها المتوجهون إلى فضاء التوحيد أخلاقكم وأعمالكم وجميع أوصافكم؛ إذ ما من نبي ولا وليٍ إلا هو مجبول على حسن الأخلاق والشيم المقتبسة من أخلاق الله سبحانه، لذلك استحقوا الخلافة والنيابة ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195] المتفضلين بالأموال والأعمال.

• ﴿وَ﴾ من الأركان المفروضة في دينكم أيها المحمديون ﴿أَتِمُّوا الْحَجَّ﴾ أي: الخصائل والنسك المحفوظة المفروضة فيه، وإن أدى إلى المقاتلة والمشاجرة ﴿وَالْعُمْرَةَ﴾ الأمور المسنونة فيه ﴿لِلهِ﴾ قاصدين التقرب إليه والتوجه إلى بابه؛ إذ الحج الحقيقي هو الوصول إلى الكعبة الحقيقية التي هي الذات الأحدية ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنعتم وحبستم بعدما أحرمتم للحج والعمرة من الوصول إلى الميقات، وتتميم الواجبات ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم إذا أردتم التحلل والخروج من الإحرام، ذبح ما تيسر لكم حصوله من الهدي المحلل، مثل البقرة والبدنة والشاة وغيرها بحسب طاقتكم وقدرتكم، بأن تبعثوها إلى الحرم أو تذبحوها حيث أحصرتم ﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أيها المحصورون المريدون التحلل ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ المبعوث إليه، أو تذبحونه في المكان المحصور فيه، والحاصل ألّا تحلقوا رءوسكم قبل ذبح الهدي أو قبل وصولها إلى الحرم.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ ازداد بشعر الرأس ﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾ ناشئًا ﴿مِّن﴾ شعر ﴿رَّأْسِهِ﴾ من تزاحم قمل أو صداع مفرطٍ أو جرب مشوش وحلق لأجله ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي:

فاللازم عليه الفدية سواء كان ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ مقدر بثلاثة أيام للفقراء العاجزين عن غيره ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ مقدرة بثلاثة آصع من الطعام للمتوسطين ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾[1] من بدنة أو بقرة أو شاة للأغنياء على اختلاف طبقاتهم ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أي: إذا أحرمتم للحج حال كونكم آمنين من الموانع من إحصار العدو والمرض العارض ونزول الحادثة وغير ذلك من العوائق، فعليكم إتمام نسكه على الوجه الذي أمرتم به بلا إهمال شيء من آدابه المحفوظة فيه.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ تقرب إلى الله ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ من أشهر الحج قبل تقربه إليه بالحج، وبعد ما تم مناسك عمرته قصد ﴿إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ أي: فعليه ما استيسره ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ ويقال له عند الفقهاء: دم الجبران، يذبح حين أحرم للحج ولا تأكلوا منه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي منكم لفقره ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي﴾ زمان ﴿الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أوطانكم وأهليكم؛ إذ الصوم فيها خصوصًا في أيام الحج من أصعب المشاق المفضي إلى الحرج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قائمة مقام الهدي للفقراء الغرباء الفاقدين وجه الهداية، وإنما أمرتم بصوم ثلاثة فيها؛ لئلا تحرموا عن إتمام متممات الحج في أوقاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: من جملة المتوطنين فيها، أو في حواليها أقل من مقدار مسافة القصر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محافظة أوامره التعبدية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بضمائر المتهاونين في أوامره ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:196][2] إذ أكثر الأمور الشرعية والعزائم الدينية

---

(1) ورد في التأويلات: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إن عارض لأحدكم مرض في الإرادة أو ضعف في الطلب ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إذ يعله وتعتريه مانعات من إكماله من غير فترة من نفسه، فلم يجد بدا من الإقامة بفناء الرخص والنزول بساحة تأويلات العلم، فليجتهد أن لا ينصرف خطوة من الطريق ولا يعرض لمحة عن هذا الفريق، فإنه قال بعضهم: من أقبل على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله بل يلازم عتبة الفقر، وإنه طار الفرج بالصبر، ويتدارك الأمر بما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ [البقرة:196]؛ أي: الإمساك عن المشارب، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ [البقرة:196]؛ أي: بالخروج عن المعلوم، والتقرب بما أمكنه من التضرع والابتهال والتطوف على الأولياء وخدمة الفقراء، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:196]، أو بذبح النفس في مقامات الشدائد، والصبر على البلاء، وبذل المجهود في طلب المقصود.

(2) قال الشيخ البقلي: أوجب الحق سبحانه على قدر أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القربة

تعبدي لا يدرك سره، خصوصًا الأعمال المنسوبة إلى الحج.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة:197-198].

ثم لما أمر سبحانه عباده بالحج، بأن يأتوا إلى بيته من كل بلد بعيد وفج عميق، عين له وقتًا معينًا من الأوقات التي لها فضيلة ومنزلة عنده سبحانه، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي: أوقات الحج ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ متبركات معروفات، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة بتمامها أو بعضها على ما خولف فيه ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ على نفسه ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ بأن ارتكب بشرائطه وأركانه عاديًا له في خلال هذه الأشهر، لزمه إتمامه بلا فسخ

بأن يتجردوا عن الكائنات في توجههم إلى مزار القدم، وأن يخرجوا من الحوادث بنعت التفريد والتجريد طلبًا بفنائهم بقاءه في تحقيق التوحيد، وأن يغتسلوا من شوائب البشرية، وأوساخ الطبيعة في أنهار المعرفة، وأن يلبسوا إحرام العبودية لقصدهم عرفان الربوبية، ويتموا إجابة الحق بأدائهم ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية والأرواح في سلطة الربوبية، لتقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن؛ لأنهم أجابوا الحق في بدء أمرهم؛ إذ قالوا: بلى، فيستدعي الله عنهم إتمام ميثاق الأول، ويذكرهم عهد الأول من تعريف نفسه إليهم ليتأهبوا في أمر الظاهر إتمام حقيقة الإجابة، بأن يقولوا: لبيك، فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، وإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الوبوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية. قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: اصبروا في إتمامها لله حتى تجدوا مأمولكم في الله. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: إن منعتم أوصاف البشرية عن الطيران في هواء الحقيقة، وحبستكم حجب الابتلاء في أشجار الطبيعة، فلا تميلوا عن حقيقة الطريقة، والشروع في طلب المشاهدة، وابذلوا أنفسكم هديًا لله ليرشدكم لشفقته عليكم إلى أوطان المشاهدات، ويبلغكم حقيقة القربات، وأيضًا فإن حبستكم غيرة الحق عن الوصول إليه لسبب ما، فتحللوا من قتل نفوسكم حيث أوقفكم، واشتغلوا بالعبودية عن الربوبية؛ لأن في غيرة الحق إشارات تمنع أولياء الله عن السير في قُربة الحق، وذلك بأن القلوب إذا مرضت وسقمت عن الجهد في طلب الحقيقة، وسكنت بحظوظ البشرية، فأثابها الله بالإحصار في وطنات الطبيعة،

العزيمة وقلب النية وحل المحرمات فيه ﴿فَلاَ رَفَثَ﴾ أي: لا جماع ولا وقاع وإن طالت المدة ﴿وَلاَ فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الله بارتكاب المحظورات ﴿وَلاَ جِدَالَ﴾ ولا مجادلة ولا مراءاة مع الخدام والرفقاء ﴿فِي﴾ أيام ﴿الحَجِّ﴾ إذ الحج كناية عن الموت الإرادي المنبئ عن الحياة الحقيقية، وهذه الأمور من أوصاف الأحياء بالحياة الطبيعية، فمن قصد الحج الحقيقي والحياة الحقيقية، فله أن يميت نفسه من لوازم الحياة الطبيعية المستعارة، الغير القارة؛ ليفوز بالحياة الحقيقية الأزلية والبقاء الأبدي السرمدي، وذلك لا يتيسر إلا بالخروج عن مقتضيات عقل الجزئي المشوب بالوهم والخيال، بل هو مقلوب منها محكوم لها دائمًا.

ولا يحصل ذلك إلا للسالك الناسك الذي جذبه الحق عن نفسه متدرجًا مرتقيًا من عالمٍ إلى عالمٍ من العوالم المنتخبة عنها ذاته إلى أن وصل إلى مقامٍ ومرتبةٍ طويت المراتب كلها عنده، وفنيت العوالم بأسرها فيها، وفني فيها أيضًا، وهي فناؤها أيضًا فيها، ولم ينزل فيها هابطًا أصلاً، بل تقرر وتمكن واطمأن فيها كما نشاهد مثلها متحسرين، متمنين لها من بعض بدلاء الزمان، مد الله ظلاله العالي على مفارق أهل اليقين والعرفان، وإبهام اسمه لإبهام شأنه، هيهات هيهات ما لنا وما لحتى حتى نتكلم عنه.

جعلنا الله من خُدَّام تُراب أقدامه.

وبعدما أمر سبحانه عباده بحج بيته تعظيمًا له ولبيته، حثهم على الخيرات، وبذل المال فيها وفي طريقها؛ لتقرر في نفوسهم هذه الخصلة الحميدة؛ إذ هو المانع من ميل القلوب إلى المحبوب الحقيقي وهو رأس كل فتنة فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ لرضاء الله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ خالصٍ عن ثوب المنة والأذى، عارٍ عن العجب والرياء، سالمٍ عن وسوسة شياطين الأهواء ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ بالحضور؛ إذ أمثال هذه الخيرات جارٍ على الصراط المستقيم الذي هو صراط الله الأعظم الأقوم ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ للعبور على صراط الله بالتقوى عن الدنيا وما فيها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ﴾ للعباد ليوم المعاد هو ﴿التَّقْوَى﴾ عن جميع الفساد ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:197] المتوجهين إلى لب اللباب، المتمايلين عن القشور العائقة عن الحضور، أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ ضيق وتعب بعد اتقائكم من سخط الله وتزودكم بالتقوى ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ أي: كل منكم ﴿فَضْلاً﴾ من المعارف اليقينية واللذات الروحانية ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم﴾ أيها المؤمنون

﴿مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ الذات المحيطة بجميع الصفات المرتبة لكم، جمعها باعتبار وصول كل من الواصلين إليها بطريق مخصوص، وإن كانت بعد الوصول واحدةً، وحدةً حقيقيةً ذاتيةً لا كثرة فيها أصلاً ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ المستجمع لذواتكم ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أي: الصفات المحرمة ثبوتها لغير ذات الله، أفرده لاختصاص كلٍ بصفة مخصوصة يربيه ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ بتفويض الأمور كلها إليه، واتقائكم نحوه من وساوس الشياطين المضلة ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل إهدائه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة:198] التائهين في بيداء الضلالة، الناكبين عن الهداية الحقيقية.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: 199-202].

﴿ثُمَّ﴾ لما تم توجهكم ووقوفكم بعرفة الذات وتحققكم بها ﴿أَفِيضُوا﴾ منها ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ إلى المراتب المترتبة إلى الصفات ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ المحيط بكم فيها ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ ساتر لرتبكم وتعيناتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:199] لكم بإيصالكم إلى مبدئكم الأصلي.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾[1] المأمور لكم من الاجتناب عن مقتضيات الحياة

---

(1) قال الشيخ نجم الدين أي: قضيتم مناسك وصلكم، وبلغتم محل الرجال البالغين من أهل الكمال الواصلين، فلا تأمنوا مكر الله ولا تهملوا وظائف ذكر الله، فاذكروا الله كذكركم آبائكم، كما تذكرون في حال طفوليتكم آباءكم للحاجة، والافتقار بالعجز والانكسار في حالة رجوليتكم تذكرون آباءكم للحجة، والافتخار بالمحبة، والاستظهار فاذكروا الله افتقارًا وافتخارًا؛ لأنه يمكن للطفل الاستغناء عن أبيه، وكذلك البالغ يحتمل أن يفتخر بغير أبيه ولكن العباد ليس لهم من دون الله من ولي ولا واق؛ ولهذا كان النبي ﷺ مع كمال بلاغته يفتقر إلى الله تعالى ويقول: «اللهم واقية كواقية الوليد»ويفتخر بافتقاره، ويقول: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر والفقر فخري».

الطبيعية والاتصاف بمقتضيات المعين الحقيقية ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الهادي لكم إلى هذه المرتبة ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ بلا ترددٍ وتشكيكٍ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بل ذكر الله أشد في الوضوح من ذكر الآباء؛ إذ يجري فيه التشكيك بخلاف ذكر الله المتفرع على الشهود، المستتبع للفناء فيه، فإنه خال عن وصمة الريب ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ يحصر التوجه والرجوع إلى الله والمناجاة معه للنشأة الأولى، و﴿يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ ما نحن محتاجون إليها من أمور المعاش ﴿وَ﴾ هو إن وصل إلى مبتغاه في الدنيا ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:200] نصيبٍ؛ لصرفه استعداده إلى ما لا يغنيه بل يضره.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ جامعًا بين الظاهر والباطن والأولى والأخرى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ترضى بها عنا فيها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ توصلنا إلى توحيدك ﴿وَقِنَا﴾ بلطفك ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:201] أي: الإمكان المحوج إلى الذات الوهمية.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموفون الموحدون الجامعون بين مرتبتي الظاهر والباطن ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ حظ كامل ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة من المعارف اللدنية والكشوف الإلهية ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بهم وبضمائرهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202][1] يحاسبهم ويجازيهم على ما كسبوا.

﴿ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي: حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاته بترك الاشتغال في الدنيا، ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وحسنة الآخرة مشاهدة الله تعالى والاشتغال به عن نعيم الآخرة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: وقنا عذاب الحجاب باحتراقنا في نيران شهوات نعيم الآخرة، وأيضًا حسنة الدنيا اليقين، وحسنة الآخرة الكشف، وأيضًا بحسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جل جلاله، وأيضًا حسنة الدنيا الذكر الصافي في خاطر صافٍ على دوام المراقبة بلا غبار الكدورة، وحسنة الآخرة الغيبة عن الذكر بمشاهدة المذكور، وقيل: حسنة الدنيا الإغراض عنها، وحسنة الآخرة ترك الاشتغال بها، وقنا نيران شهواتها فإن ما شغل عنك فهو مشئوم، وقال الواسطي: في الدنيا حسنة الغيبة عن كل متظلم من الحق، وفي الآخرة حسنة الغيبة عن رفع الأفعال والرجوع إلى الفضل والرحمة، وقال ابن عطاء: القناعة بالرزق والرضا بالقضاء. وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ محبة، ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربة، ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ نيران القطيعة والفرقة، ولا ينالون من نار جهنم، وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ذكرك. ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربك، ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أن تحرمنا ذكرك.

وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ [البقرة:203-206].

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بعد تتميمكم مناسككم ووقوفكم بعرفة ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ أي: استعجل للرجوع والنفر ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: في ثاني أيام التشريق ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أيضًا ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بتأخيره؛ يعني: أنتم مخيرون في استعجال النفرة وتأخيرها بعدما وصلتم، والفوز والعافية ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ إلى الله عن محارمه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع ما صدر عنكم، واستحفظوا منه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ بأجمعكم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203] ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَ﴾ من جملة الآداب الموضوعة فيكم بوضع الله المدبر لأموركم المهذب لأخلاقكم: الاجتناب عن الجلساء السوء، لذلك خاطب سبحانه نبيه ﷺ امتنانًا عليه وإرشادًا لكم، فقال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على البغض والنفاق، المستمرين عليه دائمًا بلا تصفية ووفاق ﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾ يوقعك في العجب المحير العارض لنفسك بلا علمك بموجبه وسببه ﴿قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مقوله المتعلق بأمور الدنيا وأسباب المعاش، بأن من تسلم أمور الدنيا وترتيبها يتوصل إلى الآخرة ولذاتها، كما هو المشهور بين أهل الدنيا، ويسمونه عقل المعاش ﴿وَ﴾ مع إغرائه وتغريره ﴿يُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ من حب الدنيا، ويدعي موافقة كلام الله وحكمه المودعة فيه على ما يدعيه، لا تغفل عنه ولا تسمع قوله ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ [البقرة:204] وأشد العداوة والجدال معك ومع من تبعك من المؤمنين.

قيل: نزلت في الأخنس بن شريك الثقفي، وكان من بلغائهم وفصحائهم، له الوجاهة والحسن والطلاقة، يتردد إلى النبي ﷺ ويصاحب معه ويظهر المحبة والإخلاص، ويدعي الإيمان والانقياد.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر من عنده ﴿سَعَى فِي الأَرْضِ﴾ الموضوعة للإصلاح والتعمير ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَ﴾ من جملة ذلك أنه ﴿يُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ بالظلم والفسوق والعصيان المتجاوز للحد مثل: الزنا وقطع الطريق والخروج على الولاة القائمين بحدود الله المقيمين بأحكامه، كالمتمشيخة المبتدعة التي ظهرت في هذه الأمة بإفساد عقائد ضعفاء المسلمين بالشيخوخة، وترغيبهم إلى البدع والأهواء الباطلة المؤدية إلى تحليل المحرمات الشرعية، ورفع التكليفات الدينية والمعتقدات اليقينية، شتت الله شملهم وفرق جمعهم ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للعباد ﴿لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:205].

﴿وَ﴾ من غاية عتوه وعناده ونهاية استكباره ﴿إِذَا قِيلَ لَهُ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿اتَّقِ اللهَ﴾ عن أمثال هذه الفضائح واستح منه ﴿أَخَذَتْهُ﴾ هيجته وحركته ﴿العِزَّةُ﴾ المرتكزة في نفسه ﴿بِالإِثْمِ﴾ الذي منع منه لجاجًا وعنادًا ﴿فَحَسْبُهُ﴾ وحسب أمثاله ﴿جَهَنَّمُ﴾ الإمكان الذي يلعبون بنيرانها، كفت مؤنة شرورهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [البقرة:206] مهدًا لإمكان المستلزم لمهد النيران.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:207-210].

وأيضًا من جملة الآداب الموضوعة فيكم بل من أجلها: الرضا والتسليم بما جاء من قضاء الله ومقتضياته، لذلك قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المتشمرين إلى الله بالرضاء والتسليم ﴿مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ ويوقعها في المهلكة لا لداعية تنبعث من نفسها، بل ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ طالبًا لرضائه، راضيًا بما قضاه ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بجميع الحالات ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق ﴿بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:207] الصابرين في البلوى الطائعين إلى المولى، الراضين بما يحب ويرضى.

ثم لما كان الرضاء والتسليم من أحسن أحوال السالكين المتوجهين إلى الله العزيز العليم، وأرفعها مقدارًا ومنزلةً عنده، أمرهم بها امتنانًا عليهم وإصلاحًا لحالهم،

فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم الرضا والتسليم ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها المستكشفون عن سرائر التوحيد ﴿فِي السِّلْمِ﴾ أي: الانقياد والإطاعة المتفرعين على الرضا والإخلاص المنبئين عن التحقق بمقام العبودية ﴿كَافَّةً﴾ أي: ادخلوا في السلم حالة كونكم مجتمعين كافين نفوسكم عما يضر إخلاصكم وتسليمكم ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا﴾ أيها المتوجهون إلى مقام العبودية والرضا إثر ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: الأهواء والآراء المضلة عن طريق الحق، المعبرة عنها في الشرع بالشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:208] [1] ظاهر العداوة والإضلال يضلكم عما يهديكم الحق إليه.

---

(1) ورد في التأويلات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:208] لهامعنيان: معنى عامًا، ومعنى خاصًا؛ فأما المعنى العام مع جميع من آمن في الظاهر ادخلوا في جميع شرائط الإسلام في الباطن كما دخلتهم في شرائعه في الظاهر من شرائطها، قال النبي ﷺ: «المسلم من سَلِم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من أمن الناس بوائقه» وأما المعنى الخاص كخطاب حاضر مع شخص الإنسان، وجميع أجزائه الظاهرة كما أن لسانه دخل في الإسلام بالقول، فينبغي أن يدخل أركانه في الإسلام بالفعل، فالعين بالنظر، والأذن بالسمع، والفم بالأكل، والفرج بالشهوة، واليد بالبطش، والرجل بالمشي، ودخول كل واحد منها في الإسلام بأن يستسلم لأوامر الله تعالى، ويجتنب من نواهيه بترك ما لا يعنيه أصلاً، ويقع على ما لا بد له منه، ودخول أجزاء الظاهر في شرائع الإسلام ميسر للمنافق، فإنا إدخال معاني الباطن في شرائط الإسلام وحقائقه، فعريكة إبطال الدين، ومزلة الرجال البالغين، فدخول النفس في الإسلام بخروجها عن كفر صفاتها الذميمة، وعبورها عن طبعها في إيقاع الهوى، وترك ما لو فاتها، ومستحسناتها، ومستلذاتها، ونورها بنور الإسلام، وتتبع أحكامه، واطمئنانها بالعبودية؛ لتستحق بها دخول مقام العباد المخصوصين بخطابه تعالى إياها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:27-30]، دخول القلب في الإسلام بتصفيته عن رذائل أخلاق النفس وخساسة أوصاف الحيوان، وتحليته بشمائل أخلاق الروح، ونفاسة أوصاف الملك، ودخول أنوار الإيمان بكتابة الحق فيه، وتأيده بروح منه كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:22]، ففي الحقيقة لا يدخل القلب في الإسلام ما لم يدخل الإيمان في القلب لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]، ودخول الروح في الإسلام بتخلقه بأخلاق الله تعالى: وتسليم الأحكام الأزلية، وقطع النظر، والتعلق عما سوى الله بتصرفات الجذبات الألوهية ودخول السر في الإسلام بفنائه في الله، وبقائه بالله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:168]؛ أي: لا تكونوا على سيرته وصفته وهي الاستكبار والإباء فإنه ضد الإسلام وهو الكفر لقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:74].

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ وانصرفتم عن طريق الحق ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المبينة الموضحة لكم طريقه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:209] لا ينتقم إلا بالحق.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون المزلون عن طريق الحق بعد الوضوح والتبيين ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ بعذابه المدرج المكنون ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض المظل لهم، يتوقعون منه الراحة والرحمة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بجر سحب العذاب إليهم، فأنزل عليهم واستأصلهم بالمرة ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ المبرم المقضي عليه من عنده لانتقامهم كالأمم الماضية ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [البقرة:210] أولاً وبالذات، وإن تشكك أحد في الانتقام ونزول العذاب على المزلين المنصرفين عن طريق الحق بعد الوضوح والتبيين.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:211-213].

قل يا أكمل الرسل نيابة عنا إلزامًا له: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: تذكر قصتهم ﴿كَمْ﴾ كثيرًا ﴿آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ مبينة في كتبهم، فأنكروا عليها ظلمًا وعدوانًا، فأخذناهم بظلمهم إلى أن استأصلناهم بالمرة ﴿وَ﴾ لا يختص هذا ببني إسرائيل، بل ﴿مَن يُبَدِّلْ﴾ ويطير ﴿نِعْمَةَ اللهِ﴾ المستلزمة للشكر والإيمان كفرًا وكفرانًا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ الموضحة المبينة، فله من العذاب والنكال ما جرى عليهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:211] صعب الانتقام وسريع الحساب.

ثم ذكر سبحانه مساوئ أهل الكفر وسوء معاملتهم مع المؤمنين المخلصين؛ ليجتنب المؤمنون عن أمثاله، فقال على وجه الإخبار: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: حسن

في عيونهم وارتكز في قلوبهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: الحياة المستعارة المنسوبة إلى الدنيا ﴿وَ﴾ أدى أمرهم في هذا التزيين والتحسين إلى أن ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ويستهزئون ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صار المؤمنون لفقرهم وعرائهم عن أمتعة الدنيا الدنية محل استهزائهم وسخريتهم، متى قصدوا الاستهزاء على مناقد الدنيا أخذوا منهم ﴿وَ﴾ الحال أن المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الدنيا ومزخرفاتها الفانية الغير الباقية يكون ﴿فَوْقَهُمْ﴾ رتبة ومنزلة عند الله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد لجزاء الأعمال الصالحة في النشأة الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ الرزاق للكل ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بالرزق الدنيوي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:212] فيها، بل مستجبرين متكبرين مفتخرين بمزخرفاتها إلى النشأة الأخرى، فيحاسبهم فيها ويجازيهم عليها، ويرزق أيضًا من يشاء من عباده بالرزق الأخروي بغير حساب، لا في النشأة الأولى ولا في الأخرى، بل صاروا في حمائه أزلاً وأبدًا لا يشوشهم الحساب ولا تتفاوت عندهم اللذة والعذاب، بل صاروا ما صاروا بلا سترة وحجاب.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿كَانَ النَّاسُ﴾ في الفطرة الأصلية والمرتبة الحقيقية الجبلية ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وملة واحدة مستوجهة إلى مبدئهم الحقيقي ومقصدهم الأصلي طوعًا، ثم اختلفت آراؤهم وتشتت أهواؤهم بشياطين القوى الحيوانية التي هي من جنود إبليس، فظهر بينهم العداوة والبغضاء والمجادلة والمراء ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمورهم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ من بني نوعهم، المؤيدين من عند ربهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لهم طريق الإطلاق والتوحيد ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم عن الكثرة والتقييد ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾ تصديقًا لهم ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما يبشر به وينذر عنه ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿لِيَحْكُمَ﴾ كل نبي به ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ المنسوبين إليه ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمور معاشهم ومعادهم[1].

---

(1) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني في ميثاق الأول حين خاطبهم الحق سبحانه وتعالى جل سلطانه بتعريف نفسه لهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172]، كانوا أمة واحدة في إقرارهم برؤية خالقهم، وإلزام عبوديته على أنفسهم لمّا رأوا من عظم برهانه، وشواهد سلطانه، وما سمعوا من عجائب كلامه، وما أدركوا من أنوار قربه وصفاته وذلك الجمعية قبل أن يبتليهم الله بالعبودية، فلمّا اختبرهم ببلايا العبودية إلى الدنيا، فتفرقوا جميعًا، فأهل الصفوة ساعدهم التوفيق، فبقوا على المشاهدة والقربة، وإدراك أنوار الصفوة، ثابتين في دفع حطام الدنيا عن

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب المنزل إليهم بالتكذيب والإنكار أحد من الناس ﴿إِلَّا﴾ القوم ﴿الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب، وكان اختلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحات المصدقات، بأنه منزل لهم من عند الله العليم الحكيم ﴿بَغْيًا﴾ خروجًا عن طريق الحق وحسدًا لأهله واقعًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من وساوس شياطينهم، من الجاه والرئاسة والعتو والاستكبار ﴿فَهَدَى اللَّهُ﴾ بلطفه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالنبي المبعوث، والكتاب المنزل معه ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الأمور الدينية مع المعاندين المنكرين، والحال أنه ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الصريح المطابق للواقع، واختلافاتهم أيضًا معهم إنما يكون ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره المنزل في كتابه ﴿وَاللَّهُ﴾ المرشد لكل العباد إلى ما هم عليه ﴿يَهْدِي﴾ بفضله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلص عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:213] الموصل إلى بابه بلا عوج وضلال.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ

مجالس أسرارهم مع سيدهم، مستقيمين في خدمته بلا طلب الأعواض من الكرامات، مقتصدين في سلوك المعرفة والمحبة، فأنزل الله سكينته في قلوبهم، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فلا جرم ما زاغوا عن طريق الاستقامة، وما زاغوا عن مشاهدة الحبيب إلى حضرة الدنيا وشهوتها، وما باعوا كرامة الحق بالدنيا الدنية، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:23]، وأما أهل الخذلان فأوبقهم الحق في ظلمه هواء نفوسهم حتى استأثروا الدنيا على الآخرة، ونسوا عهد الله، ونزلوا على مراد الهوى، وتركوا نعيم الرضا، ومالوا عن طريق الهدى إلى مضلة الضلال ودول الجهال، وأيضًا كانوا بعد كونهم من العدم جملة في غيبة من الحق قبل خطاب الحق معهم، وكشف قربه لهم فإذا كشف الله عنهم حجب الإنسانية، وأراهم مشاهدة القربة، فتفرقوا جميعًا في شعب المعارف والكواشف، فبعضهم صادقوا حقائق المقامات فوقفوا بها على شرط العبودية، وبعضهم صادقوا لطائف الحالات فبقوا فيها متنعمين بمشاهدة الربوبية، وبعضهم نالوا خصائص الكرامات والمعجزات فشاهدوها بشرط أداء الأمانة، وبعضهم أدركوا صرف المشاهدة من الحق جل كبرياؤه فتاهوا في وادي العظمة، وطاروا في هواء الهوية، وساروا في فقار الديمومية، وأما أهل الحرمان فصادقوا في أول نهوضهم من زمرة الوحدة مهالك القهريات، فغابوا في شعاب الضلالات، فبعضهم تهودوا، وبعضهم تنصروا، وبعضهم تزندقوا، وبهنا جف القلم إلى يوم ليس لهم في الإيمان والخذلان اكتساب؛ لأنه اختيار الله الذي قد سبق لهم في العدم، وختم به القضاء المبرم، ومن هاهنا تفرقت القلوب وانشقاقها عن الموبقات؛ لأن الأرواح جنود مجندة. [عرائس البيان].

ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:214-216].

أرجوتم وطمعتم أيها المحمديون المتوجهون إلى زلال التوحيد، وصفو التجريد والتفريد، أن تصلوا إليه بأنيتكم هذه بلا سلوكٍ ومجاهدةٍ، وسكرٍ وصحوٍ، وتلوينٍ وتمكينٍ، وقيدٍ وإطلاقٍ، ونفيٍ وإثباتٍ، وفناءٍ وبقاءٍ، وهيهات هيهات.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ تمنيتم متوقعًا ﴿أَن تَدْخُلُوا﴾ فجأة بهويتكم هذه بلا إفنائها أو فنائها في هوية الله ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي ارتفعت عندها الهويات، واضمحلت دونها الماهيات ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي: لم يأتكم ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ أي: شأنهم وقصتهم المشهورة المعروفة المنسوبة إلى الأحرار الأبرار الواصلين إلى دار القرار كيف ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ بأبدانهم وأجسادهم وهوياتهم الجسمانية ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ المذلة الدميمة المزمنة المزعجة المفنية لإتيانهم، وكيف مستهم أيضًا بأرواحهم المتكثرة بأشباحهم المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ المسقطة للإضافات كلها ﴿وَ﴾ بعد ما وصلوا إلى هذه المرتبة المعبرة بالقيامة والطامات الكبرى عند العارف ﴿زُلْزِلُوا﴾ اضطربوا وتلونوا وتذبذبوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكان حالهم بين الحيرة والحسرة يترددون ويتحيرون، إلى أن غلب عليهم المحبة والشوق، وانبعث من المحبة الخالصة والإرادة الصادقة العشق المفرط المنبعث من جذب المعشوق المائل بالطبع نحوه واحتاجوا إلى نصر الله وتوفيقه، وجذبه بلطف، فاضطروا في بين وبين، وأين إلى أين ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ المرشد إلى طريق التوحيد مناجيًا مع الله وأفعاله؛ إذ هم ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ مشايعين له في قوله ودعائه مشاركين معه في نهر الاشتياق والاستبطاء وقلة الصبر والجزع والفزع والاضطرار والمراقبة والانتظار ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ حتى يتخلص من التلون والتمكن والكون والتكون والظهور والإظهار والغيب والشهادة، وغير ذلك من الإضافات.

قيل لهم: وما لنا تعيين القائل؟ إذ لا قائل إلا هو، منبهًا مستقربًا مستعجبًا مستغربًا

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الأظلال الممدودة المتعددة المنتشئة من الأوصاف المحمودة الذاتية الأحدية المضافة بعضها إلى بعض ارفعوا إضافتكم عن البين وغشاوتكم عن العين، حتى اتصل العين بالعين، وارتفع البين عن البين وقولوا: وما أدري ها هنا أيضًا ما القائل وما المقول، وما القول وما المقول إليه، وما هذا وماذا؟.

أدركنا بلطفك عن حجاب الألفاظ وغشاوة العبارة.

﴿إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214] حاضر غير مغيبٍ لو تنبهتم إلى ذي ظلكم، والتنبه له محال إلا من كشف سبحانه عليه كيفية الظل والإظلال والاستعداد والتعدد الحاصل فيه، والكوائن الغير المتناهية، والمكونات الغير المحصورة الحاصلة فيه بأشخاصها وأنواعها وأجناسها إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَ﴾ بالجملة: لا تحوم الفهوم حول سرادقات عز جلاله حتى يشقق عن كائناته ومصنوعاته، ليس كمثله شيء ليقاس عليه ولا غيره حتى يسمع منه ويبصر به، وهو السميع البصير العليم، وليس وراء الله مرمى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها الهادي للكل عن الإنفاق وعما ينفق به، ويقولون: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾أي: أي شيء ينفق المنفق في سبيل الله؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿مَا أَنفَقْتُم﴾ سواء كانت تمرة أو كسرة أو حبة أو ذرة صادرة ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ خالص من ثوب المشوب المنة والأذى ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ إليكم نسبًا أولى إن كانوا مستحقين ﴿وَ﴾ بعد ذلك أولاهم ﴿الْيَتَامَى﴾ الذين لا متعهد لهم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم المذلة والهوان ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذين تعذر وصولهم إلى مملوكاتهم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ خالصًا لرضائه سبحانه ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:215] لصدوره عنه وعن جريان حكمه وسنته[1].

(1) أخبر عن سؤالهم في إنفاق أموالهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة : 215]، والإشارة فيها: أن سؤالهم ماذا ينفقون من جنس الأدب لأهل الطلب لكيلا يتصرفوا في شيء من أموالهم، ويغيروا حالاً من أحوالهم بالهوى والطبع؛ بل بالأمر والشرع يوجب الرفعة والقربة، فليس للعبد تحرك إلا بإذن مولاه، ولا سكون إلا على وفق رضاه؛ لأن العبودية الوقوف حيث ما وقفك الأمر والصرف أينما صرفك الحق؛ فأجاب الله تعالى سؤالهم بقوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:215]، دنياوي وأخروي من مال وجاه علم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فابدوا ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:215]. كما أمر النبي ﷺ، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

ثم لما ظهر أمر الإسلام وعلا قدره وارتفع مناره، فرض الله سبحانه على المؤمنين الموقنين بطريق التوحيد المشاجرة والمقاتلة مع المخالفين، الناكبين عن طريق الحق بالشرك والإشراك؛ ليظهر شمس التوحيد على النفاق، ويضمحل شوب الكثرة والثنوية المنبعثة عن الكفر والنفاق، ويتميز الحق عن الباطل والوجود عن العدم العاطل، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الْقِتَالُ﴾ مع مخالفيكم من أهل الكثرة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ﴾ مكروه مستهجن ﴿لَكُمْ﴾ مادمتم في أنانيتكم وهويتكم هذا، ومادمتم فيها مع تكثر الإضافات ولوازم الإمكان والإضافات ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ في النشأة الأولى ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ منها ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فيها ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لكم إلى سواء السبيل ﴿يَعْلَمُ﴾ خيركم ويأمركم به وشركم فيحذركم عنه ﴿وَأَنتُمْ﴾ بهويتكم هذه ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216] شيئًا من الخير والشر، بل لكم الإطاعة والانقياد بما أمر ونهى والعلم عند الله العزيز العليم.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة:217-218].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ هو من

[الشعراء:214]، وقال ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» على ترتيب الأمر ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:215] ثم جعل الخير عامًا، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215] يعني: من أي نوع من أنواع الخيرات مع كل ذي روح كما قال ﷺ: «في كل كبد حراء أجر»، ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:215] أي: بالخير الذي تفعلون وبمن معه تفعلون، وبأي اعتقاد ونيته بالحق أو بالباطل بالرياء أو بالإخلاص بالطبع، أو بالشرع بالهوى، أو بالله عليم ومجازيكم عليه بقدرات استحقاقكم.

المحرمات الإلهية أم لا؟ وعن ﴿قِتَالٍ﴾ واقع ﴿فِيهِ﴾ أهو أيضًا من المحرمات أم لا؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للسائلين نيابة عنا: هما من محرماته سبحانه، بل ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ ذنب ﴿كَبِيرٌ﴾ إذ هو خروج عن مقتضى حد الله الموضوع في هذا الشهر ﴿وَ﴾ مع كونه ذنبًا ﴿وَصَدٌّ﴾ منع وصرف للتجار ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ المبيح لهم لكسب معاشهم ﴿وَ﴾ مع ذلك، العياذ بالله ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي: بالله بعدم إطاعة أمر الله.

روي أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد القفل الذي كان لقريش في جانب الشام، وفيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فلما ظفروا عليهم قتلوا الحضرمي وأسروا اثنين واستاقوا العير نحو المدينة وفيها تجارة للطائف أيضًا، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من الجمادى.

فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائف ويتردد فيه الناس إلى معاشهم، ثم لما سمع ﷺ بعير قريش قال لعبد الله: «ما أمرت لك القتال في الشهر الحرام وسوق العير فيه»، وشق على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا فنزلت.

وردَّ رسول الله ﷺ العير والأسارى، فلاموه وعيروه على ما صدر عنه ﴿وَ﴾ قالوا: أنتوجه إلى ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ونمنع الزوار منه؟ ردَّ الله عليهم فقال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد الحرام عدوانًا وعمدًا ﴿مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ ذنبًا ﴿عِندَ اللهِ﴾ من منع الزوار، والقتل سهوًا أو خطأ ناشئًا من عدم التدبر في تعين الوقت؛ إذ الإخراج: افتتان بني المسلمين المستأهلين ببيت الله ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ إذ شرها عام ممد بخلاف القتل.

﴿وَ﴾ الحاصل أن الكفار المصرين على الكفر والعناد ﴿لاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ المنزل عليكم من ربكم هداية لكم ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ والحال إنه ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ الذي هو الإيمان والتوحيد ﴿فَيَمُتْ﴾ بعد الارتداد ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ساتر طريق الحق، تارك مشرب التوحيد ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الكافرون المرتدون عن طريق الإيمان والإسلام ﴿حَبِطَتْ﴾ هلكت وسقطت عن الاعتبار عند الله ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ بالمرة إضلالاً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لحرمانهم عن مصاحبة أهل الإيمان والفرقان ﴿وَ﴾ لا في ﴿الآخِرَةِ﴾ لإرجاعهم نفوسهم إلى قعر الإمكان المفضي إلى أسفل دركات النيران ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المحرومون عن لذة التوحيد

﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:217] إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتوحيد الذاتي وأدى إيمانهم إلى أن وصلوا إلى مرتبة اليقين العلمي ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وتركوا ما يضاده وينازعه إلى أن وصلوا إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع نفوسهم إلى أن وصلوا بل اتصلوا باليقين الحقي ﴿أُولَئِكَ﴾ المقربون المدرجون في طريق الوصول ﴿يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ ما داموا في السلوك بأشباحهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ ساتر لهم أشباحهم عن عيون بصائرهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:218] لهم، يوصلهم إلى ما يتوجهون إليه من جنة الذات بمنه وجوده.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ [البقرة:219-220].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ﴾ حرمة ﴿الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[1] أهما من

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا﴾ [البقرة:219]، والإشارة فيها أن الخمر الظاهر كما يتخذ من أجناس مختلفة كالعنب والتمر والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك فكذلك خمر الباطن من أجناس مختلفة كالغفلة والشهوة والهوى وحب الدنيا وأمثالها، وهذا الخمور تسكر النفوس والعقول الإنسانية وفيها ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:219]، ولهذا كل مسكر حرام، وما يسكر كثيره فقليله حرام، ومنها ما يسكر القلوب والأرواح والأسرار وهو شراب الواردات وأقداح المشاهدات من ساقي تجلي الصفات، فإذا أدارت الكئوس انخمدت النفوس، وتسكر القلوب بالمواجيد عن المواعيد، والأرواح بالشهود عن الوجود، والأسرار بلحظ الجمال عن ملاحظة الكمال، فهذا شراب حل ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:219]، قال قائلهم:

فتهجرك من لفظي هو الوصل كله ... ومسكرك من لحظي فسح لك الشرب
فما مل ساقينا وما مل شارب ... عقار لحاظ كأسها يسكر اللب

المحرمات الإلهية أم لا؟ ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أمَّا في الخمر؛ فلكونه معطلاً مزيلاً للعقل الجزئي المودع في الإنسان، ليتوصل به إلى العقل الكل المتفرع إلى اسم العليم، الشامل لجميع ما كان ويكون، وهو اللوح المحفوظ والكتاب المبين وأمَّا في الميسر فلكونه متلفًا للمال الذي هو سبب تعمير البدن، الذي هو مخزن جوهر العقل المذكور الذي اختص به الإنسان، وبه استحق مرتبة الخلافة والنيابة.

﴿وَ﴾ فيهما ﴿مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: لبعضهم من المرض الذي لا يمكنهم العلاج بدون إزالة عقولهم، والتداوي لهم منحصر في الخمر عند المتطببين، ومن استغناء بعض السفلة من الناس واسترزاقهم بالميسر ﴿وَ﴾ لكن ﴿إِثْمُهُمَا﴾ عند أولي النهي واليقين ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ عندهم، بل لا نفع فيهما بالنسبة إليهم؛ إذ لا يبقى لهم رابطة مع أبدانهم ليصلحوا ويصححوا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيضًا يا أكمل الرسل: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أي شيء ينفقون، على أي وجه ينفقون؟ ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا: أنفقوا ﴿الْعَفْوَ﴾ الفاضل من أموالكم؛ لئلا يتضرروا بالجهد، وليسهل عليكم التجاوز عنه، ولا يشق عليكم إنفاقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: على الوجه الأحسن الأسهل ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ جميع ﴿الْآيَاتِ﴾ المنزلة عليكم إصلاح حالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219] رجاء أن تتأملوا:

﴿فِي﴾ الآيات المتعلقة لأمور ﴿الدُّنْيَا﴾ فتتصفوا بما فيها ﴿وَ﴾ أيضًا تأملوا في الآيات المتعلقة لأمور ﴿الْآخِرَةِ﴾ فتحققوا بها، وتمكنوا عليها واطمأنوا بسببها؛ ليتم لكم تهذيب الظاهر والباطن، وبعد ذلك يترتب ما يترتب ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيضًا ﴿عَنِ﴾ أحوال ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ الذين لم يبلغوا الحلم، ولا متعهد لهم من ذوي القربى ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ

فالعجب كل العجب أن قومًا أسكرهم الشراب، وقومًا أسكرهم شهود الساقي كقولهم:

وكان سكري من المدير ... فأسكر القوم دور كاس

وإثم الإعراض عن كئوس الوصال في النهاية أكبر من نفع الطلب ألف سنة في البداية، وكما أن السكران ممنوع من الصلاة فسكران الغفلة والهوى ممنوع عن المواصلات، وأما إثم الميسر فهي إن آثار القمار هي شعار أكثر أهل الديار في سلوك طريق الحيل والخداع بالفعل والكذب والفحش في المقال، وإنه كبير عند الأخيار بعيد عن خصال الأبرار، وأما نفعه فعدم الالتفات إلى الكونين، وبذل نقوش العللين في فروانية نقش الكعبتين: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219] لأن إثمهما للعوام ونفعهما للخواص وقليل ما هم.

لَهُمْ﴾ أحوالهم ﴿خَيْرٌ﴾ من إبقائهم في المذلة والهوان ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ من غاية المرحمة والإشفاق ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين، يجزيكم الله خيرًا إن كنتم قاصدين فيه إصلاحهم ورعايتهم، دون إفساد مالهم وعرضهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع بمقاصدكم ﴿يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ المبطل منكم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ المحق، فيجازي كلاً منهم على مقتضى علمه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ المطلع لإفسادكم وإعناتكم أن يفسد عليكم ويعنتكم ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أذلكم وأفسدكم أشد من إفسادكم وإعناتكم إياهم ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:220] لا ينتقم بلا موجب.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة:221-223].

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام الموضوعة لإصلاحكم أن ﴿لاَ تَنكِحُوا﴾ أيها المؤمنون النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ الكافرات ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ لئلا يختلط ماؤكم بمائهن، وليوجد الولد على فطرة الإسلام ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ لكم أن تنكحوها ﴿خَيْرٌ مِّن﴾ حرةٍ ﴿مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ مالها وجمالها ﴿وَلاَ تُنكِحُوا﴾ أيتها المؤمنات ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ الكافرين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ﴾ اعلمن أيتها المؤمنات ﴿لَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ لنكاحكن ﴿خَيْرٌ مِّن﴾ حرٍ ﴿مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ماله وجماله؛ إذ لا كفاءة بين المؤمن والكافر ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المشركون والمشركات ﴿يَدْعُونَ﴾ أي: يريدون دعوتكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ المتفرعة على شركهم وكفرهم ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لكم إلى اختلاط المؤمنين والمؤمنات، الحافظ لمكافأتكم في النكاح والإنكاح ﴿يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ المتفرعة على الإيمان والتوحيد ﴿وَالْمَغْفِرَةِ﴾ المستلزمة لدفع الآثام والمعاصي ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتوفيقه وإقداره ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أي: أحكامه وآدابه وأخلاقه في كتابه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

[البقرة:221] رجاء أن يتذكروا ويتعظوا بها ليهتدوا إلى زلال التوحيد.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيضًا ﴿عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لم يساكنوا الحيّض ولم يؤاكلوها كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سألوا أبا الدحداح مع جمع من الصحابة عن ذلك فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ مؤذٍ يتأذى منه من يقربه ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بالإتيان والوقاع لا بالمصاحبة والمخالطة والمؤاكلة ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ قاصدين فيه حكمة إبقاء نوع الإنسان المستخلف عن الله ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ عن الميل إلى خلاف ما أمر الله به ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222] [1] عن الأدناس الظاهرة والباطنة.

﴿نِسَاؤُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾[2] أي: موضع حراثتكم ومحل إتيانكم ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ مقبلين أو مدبرين، روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من جانب دبرها كان ولده أحول، رد الله عليهم بهذه الآية ﴿وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾ أيها المستكشفون عن سرائر الأمور من الحكم والأسرار المودعة في التلذذ والتزول

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:222]؛ أي: محافظي النفس عن المنهيات ويحب المتطهرين أي: مربي النفس بالمأمورات، فكما أن للنساء محيضًا في الظاهر، وهو سبب نقصان إيمانهن عن الصلاة والصيام، فكذلك للرجال محيض في الباطن هو سبب نقصان إيمانهم عن حقيقة الصلاة هي المناجاة وعن حقيقة الصيام، وهو الإمساك عن مشتهيات النفوس، وهو هوى النفس كما أن المحيض هو سيلان الدم عن الفرج، فكذلك الهوى هو غلبات دواعي الصفات البشرية والحاجات الإنسانية فكلما غلب الهوى تكدر الصفاء، وحصل الأذى وقيل: قطرة من الهوى تكدر بحرًا من الصفاء، فحينئذ غلبة منعت النفس عن الصلاة والصوم في الحقيقة، وإن كانت مشغولة بها في الصورة فأذى الحيض الصوري إن الحائض ممنوعة عن القربات بالصورة لا بالمعنى، وأذى الحيض المعنوي إن الحائض ممنوع عن القربات بالمعنى لا بالصورة إذا نودي قلوب الرجال من سرادقات الجلال، فاعتزلوا النساء النفوس في المحيض غلبات الهوى حتى يطهرن أن يفرغن من قضاء الحوائج الضرورية للإنسان من المأكول والمشروب والمنكوح وغير ذلك، فإذا تطهرن بماء التوبة والاستغفار والإنابة رجعن إلى الحضرة في طلب القربة فأتوهن بالتصرف فيهن من حيث أمركم الله يعني: عند ظهور شواهد الحق بزهوق باطل النفس واضمحلال هواها إن الله يحب التوابين عن أوصاف الوجود، ويحب المتطهرين بأخلاق المعبود بل يحب التوابين عن بقاء الشهود.

(2) قال الشيخ ابن عجيبة: أي مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها. البحر المديد (182/1).

والانبعاث والشوق والانتعاش، وأنواع الكيفيات المستحدثة عند الوقاع لإيجاد النسل وإبقاء النوع، ولا تغفلوا عن سرائره، ولا تطمئنوا بمجرد قضاء الشهوة كالحيوانات العُجم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن الخيانة والخباثة، والإتيان إلى غير المآتي المأمورة في الشرع، وغير ذلك من المحظورات المسقطة لحرمات الله الواقعة في أمر الجماع والاجتماع؛ إذ هو منزلة إقدام أولي الأحلام من عظماء الأنام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم﴾ بأجمعكم ﴿مُّلَاقُوهُ﴾ سبحانه فتزودوا بزادٍ يليق بجنابه ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:223] القائمين بحدود الله، المحافظين عليها دائمًا، الخائفين من خشية الله، الراجين من رحمة الله بأن لهم عند ربهم روضة الرضاء وجنة التسليم.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [البقرة:224-227].

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق المنزلة لكم أن ﴿لاَ تَجْعَلُوا﴾ اسم ﴿اللهَ عُرْضَةً﴾ وجهة ومعرضًا ﴿لأَيْمَانِكُمْ﴾ المتعلقة بكل دني خسيس وحقٍ وباطل؛ أي: لا تكثروا الحلف بالله في الأمور؛ إذ أنتم بشريتكم ما تخلون عن شوب الكذب والبطلان، ما لكم والتلفظ باسم الحق الحقيق بالحقية لترويج الأمور المزخرفة الباطلة ﴿أَن تَبَرُّوا﴾ افعلوا الخيرات وواظبوا على الطاعات، وتوجهوا إلى الله في عموم الأوقات وشمول الحالات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن ﴿تَتَّقُوا﴾ اجتنبوا عن المحظورات، واحذروا عن المحرمات، وارجعوا نحو ربكم بإسقاط الإضافات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن ﴿تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ تليينًا لقلوبهم، ادعوهم إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أقوم ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ لإيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:224] بنياتكم فيجازيكم على مقتضى علمه بحالكم، هذا في الأيمان المثبتة للوقائع والأحكام، المقاربة للقصد والإرادة.

وأما الأيمان الجارية على ألسنة العوام بلا إثبات ونفي، بل على سبيل الاتفاق فمما يُعفى عنه، فلذلك قال سبحانه: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ﴾ الواقع ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بلا قصدٍ وإرادةٍ ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بواسطة الأيمان الكاذبة من

الأمور الباطلة التي لا تطابق الواقع، فلبستم فيها وأثبتم بها ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لكم لو تبتم ورجعتم إليه عما كسبتم من الآثام ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:225] بالانتقام رجاء أن يتوبوا عنها.

ثم قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي: يحلفون أن يمتنعوا ﴿مِن﴾ وقاع ﴿نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: يلزم عليهم الانتظار إلى أن تنقضي مدة أربعة أشهر ﴿فَإِن فَاءُوا﴾ أي: رجعوا في هذه المدة عن الحلف بأن جامعوا معهن، حنثوا ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ بحنثهم يتجاوز عنهم بالكفارة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:226] لهم بإبقاء النكاح بينهم.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ بلا حنث الحلف ﴿فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع منهم الطلاق ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:227] بنفرة قلوبهم منهن.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ [البقرة:228-230].

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ المدخولات بهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: مضى مدتها والقروء: يطلق على الحيض والطهر، وأصل وضعه للانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية لأنه لاستبراء الرحم والدال على البراءة، هذا ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ أي: المطلقات المعتدات ﴿أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ مدة العدة من الحيض؛ لئلا يختلط النسب ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ﴾ العالم بالسرائر ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الذي تبلى فيه جميع السرائر والضمائر ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾ أليق وأولى ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ إليهم ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: في زمان التربص ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ أي: الأزواج ﴿إِصْلَاحاً وَ﴾ اعلموا أيها

المؤمنون ﴿لَهُنَّ﴾ عليكم من الرعاية والمحافظة على آداب الخدمة، والاستئناس وغير ذلك ﴿مِثْلُ الَّذِي﴾ لكم ﴿عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الحقوق والرعاية والمحافظة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فضيلة بحسب الخلق والعقل والتميز وكمال الإيمان والمحافظة على حدود الله وامتثال مأموراته ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ يعز من يشاء من عباده ويذل من يشاء ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228] في فعله لا يُسأل عما يفعل.

﴿الطَّلَاقُ﴾ الصادر من أولي العزائم وذوي الألباب ﴿مَرَّتَانِ﴾ مرة عند عروض النفرة المنافية للرغبة السابقة، المستلزمة للزواج والازدواج، المنبعث عن طبيعته المقتضية بالطبع للاختلافات والازدواجات الواقعة بين أسبابها، وهي الأوصاف الإلهية، ثم إذا رجع العازم عنه لا بد أن يكون رجوعه أيضًا عن رويةٍ وتدبرٍ، بأن يلاحظ أنه سبب انبعاث الرغبة السابقة واشتياقها ثانيًا، فيكذب نفسه ويرجع إليها، وإن طلقها بعد تلك المراجعة ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فعليه بعد الطلقة الثانية أحد الأمرين، ولا يتجاوز عنه إلى الطلقة الثالثة، وإلا لسقط عن زمرة العقلاء العازمين على الأمور الشرعية بالعزيمة الخالصة، إمّا إمساك بالمعروف، والمستحسن عند الله وعند المؤمنين، بل لا بد أن يكون هذا الإمساك أحسن من الإمساك السابق على الطلاق حين الوفاق ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ وإطلاق وتبعيد مقارن ﴿بِإِحْسَانٍ﴾(1) من مالٍ وخلقٍ وكلمةٍ طيبة؛ ليرتفع غبار العداوة والبغضاء الواقعة بإغواء الشيطان بينهما.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الحكام المقيمون للأحكام الشرعية أصلاً ﴿أَن تَأْخُذُوا﴾ من النساء ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهور والصداقات ﴿شَيْئًا﴾ وترده إلى أزواجهن ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا﴾ أي: الزوجان كل منهما على نفسه ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ الموضوعة من عنده سبحانه لإصلاح حالهما ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام أيضًا ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إثم ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على الرجل ﴿فِيمَا﴾ أخذ ﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾ المرأة للخلاص والطلاق، وعلى المرأة لإعطائه له ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الموضوعة فيكم أيها المؤمنون لإصلاح أحوالكم ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتجاوزوا عنها

---

(1) قال ابن عجيبة: فإمساكهُ لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله بعد أن كان بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جُناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها، والله تعالى أعلم. البحر المديد (188/1).

بالمخالفة وعدم الامتثال ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:229] المجاوزون عن حد الإنسانية إلى البهيمية، المضيعون لمقتضيات العقل الشريف المفاض عليهم من لدنه سبحانه.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: إن وقع الطلاق بينهما بعد المرتين ﴿فَلاَ تَحِلُّ﴾ المرأة المطلقة ﴿لَهُ﴾ أي: للرجل المطلق ﴿مِن بَعْدُ﴾ أي: بعد وقوع الطلاق الثالثة ﴿حَتَّى تَنكِحَ﴾ تتزوج المرأة ﴿زَوْجاً﴾ ثانيا ﴿غَيْرَهُ﴾ أي: غير الزوج الأول ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ أي: يرجع كل من الزوج الأول والمرأة إلى الآخر بالزواج، ويلمس كل منهما عسيلة الزوج الثاني إن اشتهى، وذلك حين ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ بينهما ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 230] يعقلون ويفهمون حدوده ويعلمون بها بمقتضى العقل؛ إذ التكاليف الواقعة في الشرع الماضي لأجله.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:231-232].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قرب انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: فعليكم بعدما قرب انقضاء مدة العدة أن تراجعوهن فيها وتمسكوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ وفارقوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ حتى لا يتضررن بعدم الزواج وطول المدة ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: ولا تراجعوهن ﴿ضِرَاراً﴾ أي: بمجرد أن تضروهن ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ أي: تبقوا مدة طويلة بلا محبة ومودة حتى يأتيهن الموت كما يفعله الجهال غيرة وحمية ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الفعلة منكم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها على عقاب الله بإبطال حكمته وتعطيل محل خلقه وقدرته.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ النازلة عليكم ﴿هُزُواً﴾ تتهاونون عليها

وتأخذونها سهلاً، احذروا عن انتقامه ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ المنعمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ واشكروا لها ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿مَا أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ لإصلاح حالكم ﴿مِنَ الكِتَابِ﴾ المبين لكم طريق المعاش في النشأة الأولى ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ الموصلة لكم إلى ذروة التوحيد في النشأة الأخرى لكي ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ فعليكم أن تتعظوا وتتذكروا به ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن مساخطته وانتقاماته ولا تتجاوزوا عن حدوده المبينة في كتابه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المحيط بكم وبحالاتكم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنكم من الخير والشر والنفع والضر العائد لنفوسكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:231] بالعلم الحضوري، لا يعزب عن علمه شيء مما ظهر وكان، ويظهر ويكون.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ﴾ بعد الطلاق ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ من العدة المفروضة المقدرة لاستبراء الرحم ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن ولا تعيروهن إن أردن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ كما يفعله الجهال من الحمية الجاهلية ﴿ذَلِكَ﴾ التذكر والعظة المنزلة من عند الله ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ بجميع ما أنزل من الأحكام والمواعظ ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ بجميع ما فيه من النكال والعذاب والحساب والعقاب ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الأحكام والمواعظ والأخلاق والآداب ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ لتزكية نفوسكم من الأهواء والآراء الباطلة ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم عن متابعتها ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ مصالح عباده ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:232] فعليكم الامتثال والانقياد على وجه التعبد.

﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة:233-234].

﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ سواء كانت مطلقات أو غيرها ﴿يُرْضِعْنَ﴾ ولا يضيعن ﴿أَوْلادَهُنَّ

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[1] أي: يرضعن للأب الذي أراد إتمام إرضاع ولده ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: على الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: رزق المرضعات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المتعارف ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إذ من سنته سبحانه أن لا يكلف عبده إلا بما يطيقه ويقدر عليه؛ لذلك ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بأن ألزم عليها بأنه ولدك لا بد لك أن تسترضعيه بلا أجرة ﴿وَلاَ﴾ يضار أيضًا ﴿مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ بأن حمل عليه ما ليس في وسعه من أجرة الرضاعة.

﴿وَ﴾ إن لم يكن المولود له موجودًا يجب ﴿عَلَى الْوَارِثِ﴾ الحائز لأمواله ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: ما يجب على المولود له لإرضاع ولده ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ المولود له والمرضعة قبل انقضاء الحولين ﴿فِصَالاً﴾ فطامًا صادرًا ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: شورة واقعة بينهما ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في هذا الفطام إن لم يتضرر الرضيع، وإن تضرر فللحاكم أن يمنعها؛ لإفضائه إلى تضييع الرضيع وتخريب بناء الله ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾ أي: تطلبوا المرضعة لإرضاع رضيعكم سواء كانت المرضعة أم الرضيع أم لا ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لا ضيق ولا تعب عليكم أن تسلموا بالطريق المعروف المستحسن ما سميتم من الأجرة للإرضاع قبل انقضاء مدة الرضاع ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن تضييع الرضيع وتنقيص أجرة المرضعة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:233] يجازيكم على مقتضى علمه.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا فعليهن أن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ويعتددن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ حتى يعلم ويظهر أنهن حاملات أم لا ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بأن تنقضي المدة

---

(1) قال نجم الدين: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ﴾ [البقرة:233]، والإشارة فيها أنها تدل من أولها إلى آخرها على أصناف ألطافه، وأوصاف إعطائه في الآية، ونعمائه مع عبيده، وأمانه أنه تبارك وتعالى أرحم بهم من الوالدات الشفيقة على ولدها في الحقيقة على أن غاية الرحمة التي يضرب بها المثل رحمة الأمهات، فالله سبحانه وتعالى أمر الأمهات بإكمال الرحمة، وإرضاع المولدات، وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:233] وفي قطع الرضاع على المولود قبل الحولين، إشارة إلى أن – رحمة الله– للعبد أتم من رحمة الأمهات، ثم رحم على الأمهات المرضعات.

المذكورة ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا﴾ أيها الحكام ﴿فَعَلْنَ﴾ إصلاح ﴿فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من طلب الخطبة والخاطب والناكح والتجسس عنه والعروض عليه إن صدر عنهن هذه الأمور ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن في الشرع والعرف، وإلا فعليكم الجناح أيها الحكام عند الله إن لم يمنعوهن ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الحكام من التهاون في إجراء أحكامه وحفظ حدوده ﴿خَبِيرٌ﴾ [البقرة:234] يؤاخذكم عليه ويجازيكم بمقتضى خبرته.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة:230-237].

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيمَا﴾ أي: في كلام وألفاظ ﴿عَرَّضْتُم بِهِ﴾ تعريضًا حسنًا وتلميحًا مليحًا خاليًا عن وصمة الفساد، ناشئًا ﴿مِنْ﴾ إرادة ﴿خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أضمرتم وأخفيتم ﴿فِي أَنفُسِكُمْ﴾ إذ ﴿عَلِمَ اللهُ﴾ منكم وإن أخفيتم ﴿أَنَّكُمْ﴾ يميل طبيعتكم إليهن ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ فاذكروهن على الوجه الأحسن الأبعد عن التهمة ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: الوقاع والجماع؛ أي: لا تخالطوا معهن إلى حيث يرتفع الحجاب عنكم، فتتكلمون معهن بالكلمات التي جرت بين الزوج والزوجة ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ يومئ إلى خطبتكم إياهن إن خفتم أن يسبق عليكم الغير من الخطباء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي: لا تستعجلوا في العزيمة على العقد ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: ما فرض في الكتاب؛ أي: من العدة المقدرة فيه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الخيانة في حدوده ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ لتنجوا من غضبه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم

على المعصية ولم يفعل ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:235] لا يستعجل بالعقوبة على العاصين.

﴿لاَ جُنَاحَ﴾ لا وزر ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: لا تجامعوا معهن ﴿أَوْ﴾ لم ﴿تَفْرِضُوا﴾ تقدروا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهرًا أو صداقًا ﴿وَ﴾ عليكم إن طلقتموهن ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾ بالإحسان جبرًا لما انكسر بالطلاق بعد العقد ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ أي: قدر وسعه ويسره ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَى الْمُقْتِرِ﴾ المعسر ﴿قَدَرُهُ﴾ قدر إعساره وتقتيره ﴿مَتَاعًا﴾ أي: متعوهن متاعًا ملتبسًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ الذي يستحسنه الشرع والمروءة، ولذلك صار التمتيع المجان في الشرع ﴿حَقًّا﴾ لأنها ﴿عَلَى﴾ المؤمنين ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:236] الذين لا يريدون الأذى لأحدٍ من الناس وإن وقع منهم نادرًا، جبروا بالإحسان حفظًا للمودة والإخاء الدينية.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَرَضْتُمْ﴾ سميتم ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ صداقًا ومهرًا ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلزمكم أداء نصف ما سميتم من المهر اليهن ﴿إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات فلا يأخذن شيئًا اتقاءً عن التهمة ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ ويرد جميع المهر إليها تبرعًا ﴿وَأَن تَعْفُوا﴾ أي: وعفوكم أيها المؤمنون في أمثال هذا ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وأفضل عند المولى ﴿وَلاَ تَنسَوُا﴾ أي: لا تتركوا ﴿الْفَضْلَ﴾ والإحسان ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها المحسنون بل أحسنوا بعضًا مما أحسن الله لكم إلى مستحقيكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المراقب لجميع أعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الفضل والإحسان ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة:237] يجازيكم عليه بفضله.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة:238-242].

ثم لما كان للعارف الحائر المستغرق في بحر الحيرة ميولاً وتوجهات متعددة بحسب تجددات أنفاسه ونفساته المستنشقة، المستمدة بها النفسات الرحمانية، المهبة

من يمن عالم اللاهوت، المنتشئة من الذات الأحدية، المتجلية بالتجليات الجمالية والجلالية، المعبرة بالأسماء والصفات الإلهية المتخالفة في الآثار والمقتضيات على حسب الكمال؛ أراد سبحانه أن ينبه عليه بمخالطته الميول والصلوات في الأوقات كلها؛ لئلا ينشغل عن الحق في وقت من الأوقات، فقال: ﴿حَافِظُوا﴾ وداوموا أيها المتوجهون إلى توحيد الذات ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ المكتوبة لكم في الأوقات المتعارفة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾[1] التي هي عبارة عن التوجه الرفيق المعنوي بين كل نفسين من أنفاسكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قُومُوا﴾ أيها الأظلال الهالكة في نفسها المستهلكة في الذات الأحدية؛ إذ لا وجود لكم من ذواتكم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لكم من كتم العدم بامتداد أظلال أسمائه؛ ورش من بحر جود وجوده عليكم ﴿قَانِتِينَ﴾ [البقرة:238] متذللين خاضعين، مفنين هويتكم الظلية الغير الحقيقية بالكلية في الهوية الحقيقة الإلهية.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عن مقتضيات القوى البشرية ﴿فَرِجَالاً﴾ أي: فعليكم التوجه راجلين منسلخين عنها وعن مقتضياتها بالمرة ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ راكبين عليها بتسخيرها بالرياضيات الشاقة إلى حيث ينصرف بالكلية عن مقتضاها ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من شرورها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المفني للفرد والسوى مطلقًا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:239] لولا إنزاله سورة الإخلاص وكلمة التوحيد وغيرها من الآيات الدالة على التوحيد الذاتي.

(1) أخبر الحق عن وجدان الفضل وفقدانه بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:238]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى أشار في حفظ الصلاة بصورة المفاعلة التي بين الاثنين وقال: حافظوا على الصلاة يعني محافظة الصلاة كما قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» فمعناه أني أحافظكم بقدر التوفيق والإجابة والقبول والإنابة عليها، فحافظوا أنتم على الصلاة بالصدق والإخلاص والحضور والخشوع والمناجاة بالتذلل والانكسار والاستعانة والاستهداء والسكون والوقار والهيبة والتعظيم وحفظ القلوب بدوام المشهود، فإنما هي الصلاة الوسطى؛ لأن القلب هو الذي في وسط الإنسان ما هو واسطة بين الروح والجسد، ولهذا سمي القلب فالإشارة في تخصيص المحافظة على الصلاة الوسطى هي القلب بدوام الشهود، فإن البدن ساعة يحفظ أركان الصلاة وأبنيتها، وساعة يخرج منها فلا سبيل إلى حفظ صورتها يبعث الدوام ولا إلى حفظ معانيها بوصف الحضور والشهود، وإنما هو من شأن القلب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:37].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يستشرفون إلى الوفاة ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ بعدهم لزمهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً﴾ مستخرجة من أموالهم ﴿لِأَزْوَاجِهِم﴾ ليتمتعن بها ﴿مَّتَاعًا إِلَى﴾ انقضاء ﴿الْحَوْلِ﴾ بعد موتهم ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ لهن من المسكن المألوف، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت بتعيين المدة لعدة الوفاة من أربعة أشهر وعشرًا ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من مسكن الأزواج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام ﴿فِي مَا فَعَلْنَ﴾ من التطيب وترك الحداد وطلب الخطبة ﴿فِي﴾ إصلاح ﴿أَنفُسِهِنَّ﴾ إن كانت الأمور الصادرة منهن ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مستحسن مشروع مرخص، وإن لم يكن كذلك فعليكم الجناح أيها الحكام ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على الانتقام، ينتقم من المتجاوزين عن حدوده، المتهاونين في إجراء أحكامه ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:240] في رعاية مصالح عباده.

﴿وَ﴾ واعلموا أيها المؤمنون أن ﴿لِلْمُطَلَّقَاتِ﴾ مطلقًا ﴿مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المشروع المستحسن لازم ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا ﴿عَلَى﴾ ذمة ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:241] المطلقين لهن ما دمن في العدة؛ أي: جميع مؤنتهن عليهم فيها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر من أحكام الطلاق والأمور المتفرعة عليه ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ الهادي ﴿لَكُمْ﴾ جميع ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:242] رجاء أن تتأملوا فيها وتفوزوا بالفوز العظيم من عنده.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:243-240].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ وهم أهل «داوردان» قرية قبل «واسط» وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثير ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ بعدما علم منهم الفرار عن قضائه: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا بالمرة ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بدعاء حزقيل عليه السلام حين مر على تلك القرية، فأبصروا قد عريت عظامهم وتفرقت أجسامهم فتعجب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، ناد فيهم: أن قوموا بأمر الله ومشيئته،

فنادى فقاموا يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسان ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:243] فضله وإحسانه.

وبوجه آخر ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المغتر المعتبر الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ المألوفة المأنوسة وهي بقعة الإمكان ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ متألفون فيها مع بني نوعهم ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الإرادي ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ﴾ الهادي إلى توحيد الذات بلسان مرشديهم: ﴿مُوتُوا﴾ عن إنابتكم وهويتكم أيها المتوجهون إلى بحر الحقيقة، فماتوا عن مقتضيات القوى البشرية، ولوازم الحياة الطبيعية بالكلية ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ الله بالحياة الحقيقية والعلم اللدني والوجود العيني الحقي، والبقاء الأزلي السرمدي ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتكفل لأمور عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ الناسين منزلهم الأصلي ومقصدهم الحقيقي بإيصالهم إلى ما هم عليه قبل نزولهم إلى فضاء الإمكان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:243] ولا يعقلون ولا يفهمون نعمة الوصول إلى الموطن الأصلي والمقام الحقيقي حتى يقوموا بشكره ويتواظبوا عليه.

﴿وَ﴾ إن أردتم أيها المؤمنون أن تكونوا من الشاكرين لنعمه الفائزين بفضله وإحسانه ﴿قَاتِلُوا﴾ مع الكفرة التي هي القوى الحيوانية ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ المفني للغير مطلقًا، واعلموا إن متم فإلى الله تحشرون، وإن عشتم فإلى الله تبعثون، وما لكم أيها المؤمنون ألَّا تقاتلوا مع جنود الشياطين حتى تنجوا من مهلكة الإمكان، وتصلوا إلى فضاء الوجوب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم المتعلقة بعدم الجهاد ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:244] بنياتكم المترتبة على الحياة الطبيعية.

﴿مَن ذَا﴾ العارف ﴿الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ﴾ أي: يفوض ويسلم هوية الإمكان وماهية الكوني والكياني إلى الله المسقط للهويات مطلقًا ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ تفويضًا سلسًا نشطًا فرحانًا بلا مضايقة ولا مماطلة، راضيًا بما قضى عليه، صابرًا على عموم البلوى المقربة إليه ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ بعدما فني عن هويته فيه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ لا يحيط بكنهها إلا هو؛ إذ المحدث قرن بالعديم، وترتب عليه ما ترتب عليه بل سقط الاثنينية بالكلية، وارتفع غبار الأغيار بالمرة ﴿وَاللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿يَقْبِضُ﴾ إلى ذاته ما ينشر

﴿وَيَبْسُطُ﴾[1] من أظلال أسمائه وصفاته وآثار تجلياته الذاتية ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:245] أيها الأظلال والآثار طوعًا وكرهًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 246-247].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين كانوا معرضين عن القتال في حياة موسى - صلوات الله عليه - كيف اضطروا إليه ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو يوشع أو شمعون أو أشمويل حين ظهرت العمالقة عليهم، وخربوا ديارهم ونهبوا أموالهم وأسروا أولادهم: ﴿ابْعَثْ﴾ عيّن ﴿لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: أتوقع جبنكم وتقاعدكم ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ من عند الله ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا﴾ أي: أيُّ شيء عرض لنا ﴿أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ بسبب ترك القتال، لو لم نقاتل بعد لاستؤصلنا بالمرة ﴿فَلَمَّا

(1) قال الشيرازي في «عرائس البيان»: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقبض أرواح الموحدين بقبضة الجبروتية في نور الأزلية، ويبسط أسرار العارفين من قبضة الكبرياء، وينشرها في مشاهدة سناء الأبدية، وأيضًا يقبض المشتاقين في رفاق التوحيد، فيتجلّى لهم مشاهدة العظمة، ويبسط العاشقين في حجال الأُنس، فيتجلّى لهم مشاهدة الجمال، وصرف القربة. ويقال: القبض ستره والبسط كشفه. ويقال: القبض للمريدين، والبسط للمرادين. ويقال: القبض للمشتاقين، والبسط للعارفين، ويقال: القبض لمَنْ تولى عن الحق، والبسط لمَنْ تجلي له الحق. ويقال: يقبضك إياه، ويبسطك إياه، قال الواسطي: يقبضك عما لك، ويبسطك فيما عليه. وقال البغداديون: يقبض أي يوحش أهل صفوته من رؤية الكرامات لصغرهم، يبسطهم بالنظر إلى الكرام.

﴿كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:246] المجاوزين عن أوامره.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بإلهام الله ووحيه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبِّر لأموركم ﴿قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ من المرتجلات العجمية ﴿مَلِكًا﴾ يولي أموركم ويقاتل مع عدوكم ﴿قَالُوا﴾ مستكبرين مستنكرين: ﴿أَنَّى﴾ من أين ﴿يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ وهو من سفلة الناس، كيف يستأهل هذا المنصب؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ حتى يقوى به، وإنما استحقروه؛ لأنه كان فقيرًا راعيًا أو سقَّاء أو دباغًا، وكان من أولاد بنيامين، ولم يكن في أولاده النبوة والملك، إنما كانت النبوة في أولاد لاوي والملك في أولاد يهوذا، وكان فيهم من أسباطهما خلق عظيم.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المعز لأذلة عباده ﴿اصْطَفَاهُ﴾ واختاره للملك ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مع فقره وسقوط نسبه ﴿وَ﴾ بعدما اختاره ﴿زَادَهُ بَسْطَةً﴾ حيطة وشمولاً ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ المتعلق لتدبير المملكة ﴿وَ﴾ قوة عظيمة في ﴿الْجِسْمِ﴾ لمقاومة العدو ومدافعته ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى علمه منهم وحكمته من غير التفات إلى فقرهم ونسبهم ﴿وَاللهُ﴾ الحكيم العليم ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:247] في حكمه وعدله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بلا سبق علل وأغراض.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:248-249].

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا من تغيير قضاء الله وتبديل رضاه، أتوا يطلبون الدليل والعلامات على ملكه ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بوحي الله وإلهامه إياه: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الذي ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي: فيه ما يوجب سكينتكم وطمأنينتكم وقراركم على الحرب؛ إذ هو صندوق التوراة المنزل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لإصلاح أموركم ﴿وَ﴾ أيضًا من آية ملكه أن يأتيكم ﴿بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ قيل: هي رخامة الألواح وعصا موسى وعمامة هارون، وكان أنبياء بني إسرائيل يتوارثون إلى أن ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ بأمر الله وتوصله إلى طالوت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لآيَةً لَّكُمْ﴾ على ملكية طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:248] بالله وبما جاء من عنده على أنبيائه، وبعدما آتاه الله الملك والعلامات الدالة عليه تجهز بتوفيق الله، وخرج نحو العدو.

روي أنه قال وقت خروجه: لا يخرج معي إلا الشباب الخالي عن الحيل، الفارغ عن الأمل، النشيط للأجل، الفرحان للمقاتلة والشهادة.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ وكان في شدة الحر والعبور على مفازة لا ماء فيها، ناجى مع الله كل من جنوده في نفسه أن يظهر عليهم نهرًا في تلك المفازة؛ خوفًا من شدة العطش، ألهم الله مناجاتهم إلى قلب طالوت ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على ما يشاء ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ ومجربكم في هذه المفازة ﴿بِنَهَرٍ﴾ عظيم ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من أتباعي وأعواني وظهيري ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ولم يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ لا لتسكين العطش، بل لشكر نعمة الله وإنجاز وعده وتعديد إحسانه وفضله، ولما وصلوا إليه ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ من النهر ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ معدودين، قيل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل: ثلاثة آلاف، وقيل: ألف.

وإياك أيها المبتلى بنهر الدنيا في فضاء الوجود أن تشرب منها خوفًا من عطش حرارة العشق المفني للعاشق والعشق في المعشوق الحقيقي بالمرة، حتى لا يخرج عن زمرة المحبين المحترقين بنيران المحبة إلى أن خلصوا عن هوياتهم بالكلية، وأن يطعم ويذوق من مستلذاتها ومشتهاتها حتى لا يحرم من مرتبة أولي النهى واليقين، الفائزين بجنة اللقاء وروضة التسليم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض خفية: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لقوتهم وشوكتهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ بربهم ظنًا حسنًا، بل يعلمون يقينًا ﴿أَنَّهُم﴾ بعد انخلاعهم عن ملابس الإمكان ﴿مُّلاَقُوا اللهِ﴾ بلا سترة الثنوية وحجاب الهوية: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ من العقل والنهى

﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ من جنود النفس والهوى ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بتوفيقه وتيسيره ﴿وَاللهُ﴾ المختبر لعباده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249] لبلواه ينصرهم على من يعاديهم بحوله وقوته، وما النصر إلا من عند الله.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾ [البقرة:200-202].

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ ظهروا ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ودنوا منهم ﴿قَالُوا﴾ متوجهين إلى ربهم متضرعين له مستمدين منه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ نصبر به عند نزول بلائك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فيه رضاء لقضائك ﴿وَانصُرْنَا﴾ لتنفيذ حكمك وإمضائك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:250] لآلائك ونعمائك، إنك أنت العزيز الحكيم.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ كسروهم وهزموهم ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بعونه ونصره ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان أيضًا أشعيا في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم، وكان صغيرًا يرعى الغنم، فأوحى إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء، وقد كلمته في الطريق ثلاثة أحجار، وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت فحملها في مخلاته، ورماه بها، فقتله، ثم زوجه طالوت بنته ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿آتَاهُ اللهُ المُلْكَ﴾ أي: ملك بني إسرائيل، ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿وَ﴾ آتاه ﴿الْحِكْمَةَ﴾ أي: دعوة الخلق إلى طريق الحق بالحكمة المؤتاة له من قبل ربه ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من العلوم والحكمة والمعجزات وخوارق العادات بالجملة ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ﴾ الرقيب الحفيظ لحدوده بين عباده ﴿النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ظلم بعض الظالمين بتقوية بعض المظلومين ونصره عليهم ﴿لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ التي هي منشأ الهون والفساد ومعدن الظلم والعناد ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال العباد ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ كثير ﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾ [البقرة:251] ليعتدل ويتمكن كل من ساكنيها على ما خلقهم الله لأجله بلا مزاحمة

بعضهم بعضًا ظلمًا وزورًا.

﴿تلك﴾ المذكورات ﴿آياتُ اللهِ﴾ الدالة على توحيد ذاته وتعظيم شأنه ﴿نتْلوهَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252] المتلوين عليهم آياتنا؛ امتنانًا لهم بل من أفضلهم وأكملهم إذ:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة:203-204].

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾[1] المخصوص بالوحي والإلهام والإنزال ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بأنواع الفضائل والكمالات ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ معه، وهو موسى صلوات الله عليه ﴿وَ﴾ منهم من ﴿رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وهم ما ذكرهم الله سبحانه في كتابه بقوله في مواضع: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:57] ورفعناه كذا في وصف أنبيائه فعليك استقصاؤها، ﴿وَآتَيْنَا﴾ من نبيهم ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على نبوته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ المنزه عن رذائل الأغيار مطلقًا، وهو الذات البحت الخالص عن جميع الاعتبارات.

وكم بيّن فضيلة عيسى عليه السلام، وفضل نبينا ﷺ؛ إذ قال سبحانه في حقه: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:87] وفي شأنه ﷺ في مقام الامتنان له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] أيها المظهر الكامل بذاتنا، المقدس عن السوى مطلقًا: ﴿وَوَضَعْنَا

(1) قال الشيخ البقلي في «العرائس»: فضل أنبياء بعضهم على بعض تطيب لقلوب أوليائه؛ لأنهم أهل غيرة الحق، وأيضًا حتى لا يسكنوا عن طلب زيادة المقامات والدرجات، وأيضًا حتى لا يركن بعضهم إلى بعض في حقائق المعرفة والمحبة وقال أبو بكر الفارسي الصوفي: ما خلق الله شيئًا إلا متفاضلاً متفاوتًا أقدارهم حتى الرسل.

عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:2] أي: هويتك التي بها انفصالك عنا ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:3] قبل انكشافك بذاتنا، كما أنقض ظهور جميع المخلوقات الباقية وراء الحجاب وبعد ذلك ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:4] أي: إن وصلت إلينا ورفعت الاثنينية بنا لذلك قلت: «من أطاعني فقد أطاع الله»[1]، وقلت أيضًا: «من رآني فقد رأى الحق»[2] وقلنا لك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10] وغير ذلك من الرموز والإشارات الواردة في القرآن والحديث.

ولم يقدر أحد من الأنبياء أن يتفوه عن الرؤية سوى نبينا ﷺ، فإنه يقول: «رأيت ربي في ليلة المعراج»[3]، لذلك نزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3] وقوله ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث المشعرة للتوحيد الذاتي، المسقط للإضافات والاعتبارات مطلقًا.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي للكل هداية جميع الناس ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ﴾ آمنوا لهم ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ خصوصًا ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموضحة لهم طريق الرشاد والمستخلفة فهم بين أممهم لإرشادهم، ولكن جرت عادة الله وسنته أن يختلفوا ويقتتلوا بحسب اقتضاء أوصافه المتقابلة لذلك ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ﴾ بنبي بُعث إليهم ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتهم ﴿مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ الفاعل المختار ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:253] لا يُسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم قطع العلائق عما سوى الله الحق خصوصًا عن مزخرفات الدنيا المانعة من الميل الحقيقي ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ ابتلاءً

---

(1) أخرجه البخاري (1080/3، رقم 2797)، ومسلم (1466/3، رقم 1835)، والنسائي (154/7، رقم 4193)، وابن أبي شيبة (418/6، رقم 32529)، وأحمد (252/2، رقم 7428)، وابن ماجه (954/2، رقم 2859) .

(2) أخرجه البخاري (2568/6، رقم 6596) .

(3) أخرجه أحمد (368/1، رقم 3484)، والترمذى (367/5، رقم 3234)، وقال حسن غريب. ،وعبد بن حميد (ص 228، رقم 682)، بنحوه.

(4) أخرجه الحاكم (670/2، رقم 4221)، وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي (192/10، رقم 20572)، والديلمي (12/2، رقم 2098).

لكم ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ﴾ ولا معاوضة ولا تجارة حتى يحصلوا فيه ما فوتم لأنفسكم ﴿وَلاَ خُلَّةٌ﴾ حتى تتعاونوا بها وتستظهروا ﴿وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ مقبولة من أحد حتى تستشفعوا منه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ الساترون هوية الحق بهوياتهم الباطلة، المضيفون نعم الله إليها ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:254] المتجاوزون عن حدود الله عنادًا واستكبارًا، المعتقدون أصالتهم في الوجود واستقلالهم في الآثار الصادرة عنهم، مع كونهم هالكين مستهلكين في وجود الحق وهويته إذ:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:200].

﴿اللَّهُ﴾ أي: الذات الثابت الوجود والكائن الحق الحقيقي بالحقيقة والتحقق والثبوت، إياك أن تقصد بالألفاظ محتملاتها؛ إذ الغرض من التعبير التنبيه، وإلا فكيف يعبر عنه وهو أجل من أن يحيط به العقول فيعبر عنه، أو يورد في قالب الألفاظ الذي ﴿لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا موجود، وإن شئت قل: لا وجود ولا تحقق ولا كون ولا ثبوت ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ هذا هو نهاية ما تنطق عنه ألسنة التعبير عن الذات الأحدية؛ إذ كل من التعبيرات والإدراكات والمكاشفات والمشاهدات، إنما ينتهي إليه، وبعد انتهائه إليه تكل وتجهل وتعمى وتدهش، ما للعباد ورب الأرباب حتى يتكلموا عنه، سوى أن الحق سبحانه لما ظهر لهم بذاته جميع أوصافه وأسمائه، أنزل عليهم على قدر عقولهم المودعة فيهم كلامًا جامعًا نبههم على مبدئهم بعد توفيق منه وجذب من جانبه؛ إذ أسهل الطريق بالنسبة إلى المحجوبين هو الألفاظ المنبهة عن غيب الذات؛ إذ هو خال عن المواد الغليظة والكدورات الكثيفة المزيحة لصفاء الوحدة، ومع ذلك أيضًا لا ينجو عن ثوب الكثرة.

والحاصل أن من اطلع باطلاع الله وإلهامه على أن فيه مبدأ التكاليف الذي هو العقل المتشعب من العلم الحضوري الحقي، فلا بد أن يصرفه امتثال ما أمر واجتناب ما نهى، ليكون في مرتبة العبودية مطمئنًا راضيًا مستدرجًا من الحياة الصورية إلى الحياة المعنوية التي هي ﴿الْحَيُّ﴾ الأزلي الأبدي السرمدي الدائم ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي ﴿لاَ

﴿تَأْخُذُهُۥ﴾ فتور وفترة وتعطيل وغفلة لا ﴿سِنَةٌ﴾ نعاس لا ينتهي إلى حد النوم ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ يتجاوز عنها قدمها، مع أن المناسب للترقي تأخيرها اهتمامًا بشأنها؛ لكونها أقرب نسبة إلى الله سبحانه تعالى من النوم بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة من المجسمة وغيرها[1]، هو الذي ﴿لَّهُۥ﴾ محافظة ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: سموات الأسماء

(1) قال الشيخ البقلي في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بما أبدء من وصف أُلوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضًا كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطنته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضًا دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضًا رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره أُلهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضًا أفرد قدمه عن العدم، وأيضًا ضرب سرادق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل. سُئل ابن منصور عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك. وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغيًا به رضاه حتى لا يبقى لنفسه مدخرًا غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادمًا على عصيانه خائفًا من هجرانه. وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية، فمتى منَّ الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى منَّ عليه بأنوار الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومتى منَّ عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة. وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمه، فمَنْ لم يكن له تصديق فهو منافق، ومَنْ لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومَنْ لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومَنْ لم يكن له حرمة فهو فاسق. قيل لأبي الحسن النوري: لمَا لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقي به ضدًا. وقال بعضهم: مَنْ قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك. ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضًا ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي تتهمهم به الأنفاس، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيما أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفًا بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي ليس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يربي بتجلّي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه. وقيل في قوله: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ اجعله مراقبًا في قيوميته عليك وعلى جميع العالم. وقيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته.وقال سهل: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ قائم على خلقه بكل

والصفات الذاتية التي هي أول كثرة ظهرت من الغيب إلى الشهادة الإضافية ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: طبيعة العدم التي هي آخر كثرة عادت من الشهادة الحقيقية إلى الغيب الإضافي الذي هو قلب الإنسان، وهو البرزخ بين الغيب الحقيقي والشهادة الحقيقية ﴿مَن ذَا﴾ من الأنبياء والأولياء ﴿الَّذِي يَشْفَعُ﴾ يهدي ويرشد للناقصين المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿عِندَهُ﴾ بعد ظهوره له بهو هو ﴿إِلاَّ﴾ من يرشدهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بوحيه على قلبه ورقائق مناسباته التي لا يمكننا التعبير عنها الذي هو ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالة إذ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أزلاً وأبدًا ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ﴾ قليل ﴿مِّنْ عِلْمِهِ﴾ الحضوري ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[1] وتعلق إرادته ومشيئته عليه.

من هذا يتفطن العارف أن العالم ما هو إلا مظاهر ذات الحق وأظلال أسمائه وآثار أوصافه؛ إذ الموجود هو، والوجود هو، والحي هو، والقيوم هو، والرقيب المحافظ الملازم على محافظة ما ظهر في الأولى والأخرى هو، والعالم المدبر بالحضور مصالح جميع ما ظهر وبطن هو، والعلم والإدراكات الصادرة من المظاهر هو على العلم الحضوري.

فلم يبق للعالم إلا مناسبة الظلية والانعكاس والمظهرية؛ إذ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ مجلاه ومظاهره ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المذكورة ﴿وَالأَرْضَ﴾ المذكورة ﴿وَلاَ يَئُودُهُ﴾ يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ وإن كانت سموات الأسماء وأرض الطبيعة غير متناهية، بل وإن فرضت بأضعافها وآلافها أمورًا متعددة غير متناهية لا يثقله؛ إذ كل من تحقق بمرتبة قلب الإنسان المنعكس من الذات الأحدي المائل نحوها بالميل الحبي الشوقي المتلذذ دائمًا بوجوده وحضوره، تحقق عنده من الوسعة ما لا يمكن التعبير عنه مطلقًا.

كما سمع سلطان العارفين وبرهان الواصلين - عمت بركات أنفاسه الشريفة

شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

(1) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ حجب علم القدم عن إدراك مَنْ أوجد من العدم، إلا ما كاشف لأهل القلوب من معانات الغيوب، وأيضًا أي ولا يحيطون بشيء مما علمه الله من نفسه من علم الأزل إلا بما شاء، أي إلا به لأنه لا وسيلة إلى علمه سواه. وقيل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ يعني من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم من الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه فأي طمع لها في الإحاطة بذاته قالها أبو القاسم القشيري.

على الفقراء المتوجهين نحو فضاء التوحيد - حيث قال: «لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف، ما أحسن».

جاء بعده رأس الموحدين، ورئيس أرباب التحقيق واليقين، محيي الملة والدين، الذي هيّج بحر التوحيد تهييجًا شديدًا إلى حيث يترشح من تيار قلبه الزخار رشحات المعارف والحقائق، على قلوب أولي العزائم الصحيحة المقتفية إثر طريقه - قدس الله روحه وأرواحهم وشكر سعيهم وسعيه - حيث قال: هذا وسع أبي يزيد في عالم الأجسام، بل أقول: «لو أن ما لا يتناهى وجوده قدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له في زاوية من زوايا قلب العارف، ما أحسن بذلك في علمه». انتهى.

أقول: والحديث القدسي مغنٍ عن أمثالهم إن قوله سبحانه: «وسعني قلب عبدي المؤمن»[1] وسعة عجز عنها التعبير مطلقًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ما لكم أيها العباد ومعرفة الذات غير هذا ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته تعالى عن أن تدركه عقول العقلاء وتنزه عن أن تصفه ألسنة الفصحاء ﴿الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:255] بآثار أسمائه وصفاته الممتدة على صفحات الإعدام، وهو في ذاته على حرافة وحدته، هو ولا شيء سواه.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:206-207].

﴿لاَ إِكْرَاهَ﴾ أي: لا جبر ولا تهديد ولا إلجاء ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي: في الانقياد بدين الإسلام والإطاعة له بعد ما ظهر الحق؛ إذ ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ وتميّز ﴿الرُّشْدُ﴾ والهداية ﴿مِنَ الغَيِّ﴾ والضلالة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ التي هي النفس الأمارة المضلة عن طريق الحق ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ الهادي إلى سواء السبيل ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ بل تمسك وتشبث ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ التي هي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿لاَ انفِصَامَ﴾ ولا انقطاع ﴿لَهَا﴾ أصلاً ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل ﴿سَمِيعٌ﴾ بذاته لأقواله

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (100/2).

﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:256] بحكمه ومصالحه المودعة فيها، فانظروا ما أنتم أيها الهلكى.

﴿اللهُ﴾ أي: الذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله يربيهم حسب شموله وإحاطته ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الطبيعة وظلمة الإمكان وظلمة الإضافة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ صفاء الوحدة الخالصة عن رين الإضافة الخالية عن شين الكثرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ التي هي عَلَم الجنس للنفوس البهيمية التي هي الطواغيت المضلة عن الهدي الحقيقي ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ أي: المرآة الصقيلة المجلوة القابلة لأن يتراءى فيها جميع ما في العالم ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الكثرة وظلمة التعيين وظلمة الغفلة ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة الوحدة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: نار الخذلان وسعير الإمكان ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:257] [1] دائمون إلى ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

---

(1) قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لوجدهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، وأيضًا يخرجهم من ظلمات الامتحان إلى مشاهدة البيان، وأيضًا يخرجهم من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، وأيضًا يخرجهم من الفرح بما وجدوا من المقامات والدرجات إلى نور مشاهدة الذات والصفات، وأيضًا يقدسهم ويخرجهم من ظلمات البشرية بمياه الشفقة لنور الأبدية، وأيضًا يزيلهم عن أوصافهم المحدثة ويقربهم إلى بساط الجزية، ويلبسهم صفات الأزلية وسناء الصمدية. وقال ابن عطاء: يغنيهم عن صفاتهم بصفته، فيندرج صفاتهم تحت صفاته، كما اندرجت أكوانهم تحت كونه، وحقوقه عند ذكر حقه فيصير قائمًا بالحق مع الحق للحق.

وقال أيضًا: بذل النفس لله على حكم الإيمان من علامة الهدى والقيام بأداء ما استدعى منهما من علامة التوفيق والانتهاء عما زجر عنه من علامة العصمة، فذلك لنفي الظلمات عنه بها، نوّره الله تعالى أنوار من الإيمان، وذلك الذي يوجب له الولاية، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم، صدقها ورضاها وتقواها إلى نور صفاته وما سبق لهم من متابعه. وقال أيضًا: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى أنوار ما جرى لهم في السبق عن الرضا، والصدق والمحبة وغيرها. وقال الثوري: يخرجهم من ظلمات العلم إلى نور المشاهدة؛ لأنه ليس المعاين كالمخبر. وقال الجنيد: يخرجهم من الظلمات أوصافهم إلى أنوار صفاته. قال أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والأفضال.

﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة:208-209].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ الكافر العابد للطاغوت وهو نمرود اللعين المعاند ﴿الَّذِي حَاجَّ﴾ جادل مكابرة مع ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ صلوات الرحمن عليه ﴿فِي﴾ شأن ﴿رَبِّهِ﴾ حين ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ وأبطره عليه وغيره بملكه وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ إلزامًا له حين أخرجه من السجن، فسأل عن ربه الذي يدعي الدعوة إليه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي﴾ يُوجِدُ من العدم ﴿وَيُمِيتُ﴾ يرد إليه بعد إيجاده ﴿قَالَ﴾ مكابرة ومجادلة: ﴿أَنَا﴾ أيضًا ﴿أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالعفو والقصاص ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ تصريحًا لإلزامه من غير التفات إلى كلام: ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ القادر على ما يشاء ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ﴾ أيها المعاند المكابر ﴿بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ بالله بالمعارضة معه فصار مبهوتًا متحيرًا ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:258] المجاوزين عن حقوق الله وآداب العبودية معه.

﴿أَوْ كَالَّذِي﴾ أي: ألم تر إلى الشخص الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هي البيت المقدس في زمان خربها بُخْتنَصَّر فرآها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ﴾ محاجًا مجادلاً مبعدًا للحشر والنشر: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: كيف يقدر على إحياء أهلها وهم قد انقرضوا واندرسوا إلى حيث لم يبق منهم أثر؟ ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ﴾ فجأة؛ إظهارًا لقدرته وتبيينًا لحجته، وألبثه ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ ميتًا كالأموات الأخر ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ إحياءً بعد تلك المدة، ثم سأله هاتف بأن ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ في هذا المكان ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ والتفت إلى الشمس فرآها باقية قال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ﴾ السائل: ما تعرف مدة لبثك ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ﴾ أيها المبعد للحشر الجسماني بنظر العبرة إلى كمال قدرة الله ﴿إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير مع سرعة تغييره ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾

كيف تفرقت عظامه وتفتت أجزاؤه مع بطء تغيره وبعد ما نظرت إليهما تذكر قولك حين مرورك على القرية: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فالزم.

ثم قيل له من قبل الحق: ﴿وَ﴾ إنما فعلنا ذلك معك أيها المبعد للحشر الجسماني ﴿لِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ ودليلاً وحجة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ القائلين بالحشر الجسماني على المنكرين المبعدين لها ﴿وَ﴾ بعدما تحققت حالك ﴿انظُرْ﴾ بنظرة العبرة ﴿إِلَى العِظَامِ﴾ الرفات التي تعجبت من كيفية إحيائها وأنكرت عليها ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نركب بعضها مع بعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ بعد تتميم تركيب العظام ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أمر الحشر ألزم وسلم و﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ يقينًا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ القادر ﴿عَلَى﴾ إحياء ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبدئًا مبدعًا ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:259] [1] على إحيائه معيدًا.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:260-261].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أبوك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ صلوات الرحمن عليه حين أراد أن يتدرج ويرتقي من العلم إلى العين ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى﴾[2] قال له ربه تنشيطًا له على الترقي: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ تذعن وتوقن بأني

(1) قال الشيخ النيسابوري: لم يتغير . وأصله من السنة أي لم يأت عليه السنون لأن مرّ السنين إذا لم يغيره فكأنها لم تأت عليه. وعلى هذا فالهاء إما للسكت بناء على أن أصل سنة سنوة بدليل سنوات في الجمع وسنية في التحقير، وقولهم «سانيت الرجل مساناة» إذا عامله سنة. وإما أصلية على أن نقصان سنة هو الهاء بدليل سنيهة في التصغير، وقولهم «أجرت الدار مسانهة». وقيل: أصله لم يتسنن إما من السن وهو التغير قال تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:26] أي متغير منتن. وإما من السنة أيضًا بناء على ما نقل الواحدي من أن أصل سنة يجوز أن يكون سنة بدليل سنينة في تحقيرها وإن كان قليلاً. [تفسير النيسابوري (127/2)].

(2) قال الشيخ البقلي: وقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

قادر على الإعادة كما أني قادر على الإيجاد الإبداعي ﴿قَالَ بَلَى﴾ آمنت يا ربي بأنك على كل شيء قدير ﴿وَلَكِن﴾ سألتك المعاينة ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بها ويزيد بصيرتي بسببها، ويزداد حيرتي منها ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاووس مزخرفات الدنيا الدنية، وديك شهواتها وغراب الآمال الطويلة فيها، وحمام الأهواء الباطلة المتعلقة بها، وبعدما أخذتها ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أمسكهن، اضممهن إلى نفسك بحيث تجد جميع أجزائك في نفسك على التفصيل بلا فوت جزء، ثم جزئهن أجزاء

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يجوز أن الله تعالى امتحن الخليل ﷺ بأنواع البلايا في ظاهره وباطنه، أما ما في ظاهره؛ فهو الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه أُلقي في النار وعذبه بأيدي الكفار، وأيضًا ابتلاه بذبح الولد وما أشبهه. وأما الذي في باطنه فهو ما أخبر الله من اضطراب قلبه في تحصيل إدراك محض الربوبية، وكان يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مرة، ويقول: ﴿أَرِنِي﴾ مرة؛ لأنه كان يطلب من خاطره إثبات محض اليقين، فأخبر الله تعالى عن جميع امتحانه مع خليله ﷺ في آية من كتابه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ومقصود الحق - سبحانه وتعالى- في ذلك أن بديع بواطن أنبيائه وأوليائه بخطرات نفوسهم حتى يحترقوا بفقدان الحبيب وتتقدس عن شوائب البشرية وإلقاء الشيطانية، وأكثر ابتلاء الخواص هكذا كإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعزير ﷺ، محمد ﷺ. وذكر الله تعالى أحوالهم جميعًا في كتابه، أما لموسى ﷺ ما رُوِيَ عنه أنه كان يقول في مناجاته: «أي ربِّ، من متى أنت!». وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة». هكذا ابتلاء خواص الأنبياء والأولياء لا بأس؛ لأن الرب رب والعبد عبد، وأيضًا اسأل الخليل ﷺ مشاهدة الحق في لباس الخلق، وأيضًا أراد في سؤاله زيادة المعرفة في ومائط الآية لا من الاضطراب في الشك والتهمة. وأيضًا قال: ﴿أَرِنِي﴾ حقيقة بطنان الألوهية والربوبية، وهذا من الخليل ﷺ غاية استغراقه في الاشتياق وغوصه في سر حبيبه وأوصاف قدرته؛ لأن المحب أراد أن يحيط بحقيقة ذات المحبوب من جميع الوجوه وذلك من شرط الاتحاد. وتحصيل ذلك زوائد اليقين وحقائق مقام التمكين، وأن الله تعالى سنزه عن أن يدركه أحد من خلقه؛ لأن ذاته تقدس وتعالى امتنع بعزة هويته عن مطالعة المخلوقات، فأجاب الله تبارك وتعالى خليله وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ إنك لم تدركني بشرائط سر القدم، وأنت مخلوق أسير بنعوت الحدث، قال: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بعد رؤية جنابي في عز عظمتك وبقاء ربوبيتك؛ لأن قلبي لا يسكن عن طلب مشاهدة جمال ربوبيتك، وأراد ﷺ في سؤاله حيلة كي يخرج من عجز العبودية ويلتبس بصفاء الربوبية، ولهذا السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ بأن موسى ﷺ سأل كشف المشاهدة، والخليل ﷺ سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته، فإذا علم الحق سبحانه من الخليل ﷺ أنه أراد علوم الربوبية وحقائق صفات القدمية وكنه ذات السرمدية.

هوائية هبائية.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجبال المشهورة لك في نفسك ﴿مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ إلى حيث تخيلت فناءها بالمرة، واطمأننت عن شرورها بالكلية ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ فارضًا وجودهن، مستحيلاً إيجادهن ﴿يَأْتِينَكَ﴾ بأجمعهن ﴿سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات بلا فوات جزء ونقصان شيء ﴿وَ﴾ بعدما تحققت بها واستكشفت عنها ﴿اعْلَمْ﴾ يقينًا بل عيانًا ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر لكل ما أراد ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260] ذو حكمة بالغة في كل ما يفعل ويريد.

وإنكار الحشر والنشر إنما نشأ من العقل الجزئي، المشوب بالوهم والخيال القاصر عن إدراك رقائق الارتباطات الواقعة بين الحق وأجزاء العالم المستمدة منه، وإنما متجددة مبتدئة معادة، وإلا فمن خلص عقله المودع فيه عن مزاحمة الأوهام والخيالات، واتصل بالعقل الكل المدرك بالحضور جميع ما كان ويكون من المكونات، وتأمل في عجائب المصنوعات وغرائب المبدعات، والمخترعات الواقعة في الآيات التي هو فيها، انكشف له بلا سترة وحجاب أمر الحشر والنشر وجميع الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى، لا ينكر شيئًا منها، بل يؤمن ويوقن بجميعها.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ المنسوبة إليهم بنسبة شرعية ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ طلبًا لمرضاته ﴿كَمَثَلِ﴾ باذر ﴿حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ﴾ حسب قدرته الكاملة تلك المضاعفة بأضعاف غير متناهية ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من خلص عباده بحسب إخلاصهم في نياتهم وإخراجهم نفوسهم عن البين، وتفويضهم الأمور كلها إلى الله أصالة ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿وَاسِعٌ﴾ لا ضيق في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:261] بحال من توجه نحوه وأنفق لرضاه مخلصًا، لا يعزب عن علمه شيء.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:262-264].

وبشّر يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ معتقدين أنهم مستخلفون عن الله فيها لا مالكون لها ﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَناً وَلاَ أَذًى﴾ لاعتقادهم الاستخلاف والنيابة ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المستخلف لهم لا يدرك مقداره وكيفيته أحد من خلقه ﴿وَ﴾ بعدما أنفقوا على الوجه المذكور ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الحساب والعقاب الأخروي ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:262] من فوات الأجرة بل لهم عند ربهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ رد جميل للسائل ناشئ من حسن الخلق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من الله بعد رده متحسرًا على نعمة الإنفاق ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ إذ بذلك القول يرجى الثواب، وبتلك الصدقة يستحق العقاب ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم بالمن والأذى للفقراء الذين هم من عيال الله ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:263] [1] لا يعجل بمؤاخذة من يمن ويؤذي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله الغني الحليم مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ عند الله ﴿بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ حتى لا تعاقبوا عليها بأشد العقاب ﴿كَ﴾ الكافر ﴿الَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ﴾ الحال أنه ﴿لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل المرائي في إنفاقه في يوم الجزاء ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حجرٍ أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ اجتمع من هبوب الرياح فطرح فيه البذور لتنبت وتثمر ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس كما كان، وذهب بالبذور والتراب إلى حيث ﴿لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى﴾ تحصيل ﴿شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ وبذروا عليه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:264] المبطلين بالمن والأذى حكمة الله المتعلقة لتربية الفقراء وتقوية العجز والضعف، فلا بد للمؤمن أن يجتنب عن أمثاله.

---

(1) القول المعروف: الإنصاف لأخيك عند رؤية مكروه منه، الذي يهيجك بالغضب، والمغفرة عفوك له عند قدرتك عليه خير من أن تعطيه شيئًا وتؤذيه، وأيضًا: ردك السائل بقول جميل وسترك عليه، مما ترى منه من قبيح خير من إعطائك بالمن أو وعدك مع المطل، ويقال: إقرار منك مع الله لعجزك وجرمك، وغفران الله تعالى على تلك المقالة خير من صدقة بالمن مشوبة، بالأذى مصحوبة.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

[البقرة:260-266].

﴿وَ﴾ بعدما مثَّل سبحانه إنفاق المرائي المبطل مثَّل أيضًا إنفاق المؤمن المحق بقوله: ﴿مَثَلُ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في سبيل الله ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ لا لعوض ولا لغرض فضلاً عن الرياء وعن المن والأذى ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ لهم ناشئًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ليثبتوا على ما أمرهم الله به واستخلفهم فيه بقوله: أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان واقع ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ موضع مرتفع من الأرض ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مما في الأرض المنخفضة بإصابة الوابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: إن لم يصبها وابل يكفي في إضعاف ثمرتها، طل: رطوبة رقيقة تنزل على الأرض في المواضع المرتفعة؛ لصفاء هوائها عن جميع الكدورات، كأراضي بيت المقدس شرفها الله.

والمعنى: إن إنفاق المؤمن المخلص في الإنفاق، الطالب لرضاء الحق، المائل عن المن والرياء، الراغب لامتثال الأمر وتثبيت النفس وتقريره على أمر تلك الجنة، بل هي الجنة الحقيقية المثمرة للفواضل والإحسانات التي لا يدرك نموها ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بجميع أعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإخلاص والرياء والمن والأذى ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265] لا يغيب شيء عن بصارته وحضوره.

ثم حثَّ سبحانه عموم عباده على الإخلاص ورغبهم عن الرياء والمن والأذى على أبلغ وجه وآكده كأنه استدل عليه فقال: ﴿أَيَوَدُّ﴾ ويحب ﴿أَحَدُكُمْ﴾ أيها المؤمنون المنتشرون في فضاء الدنيا ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بل ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ المتنوعة المتلونة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ لا يقدرون على الكسب ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي: الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح عاصف تستدير عند هبوبها فيرى لغبرتها مثل العماد الممدود نحو

السماء ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ متكونة من الأبخرة والأدخنة المحتبسة فيها، والتقطها من شعل النار فسقطت النار فيها ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ بالمرة ولم ينتفع منها أصلاً، كيف يحرم هو؟!

وحرمانكم في النشأة الأخرى أيها المراءون أشد من حرمانه؛ لإحراقكم جنة الأعمال الصالحة المشتملة على نخيل التوحيد، وأعناب التسليم تجري من تحتها أنهار المعارف والحقائق المتنشئة من النفحات الإلهية المثمرة ثمرات الإنفاق والصدقات، والمتشعبة من الرضا المشعر بمقام العبودية، المسقط للإضافات كلها بإعصار الرياء والمن والأذى، المشتمل على نيران الأنانية والغيرية، المشعرة بعدم التحقق بمقام الرضا والتسليم، فاحترقت بالمرة.

والحال أنكم مبطلون على الكسب، وقواكم الكاسبة قد رجعت إلى بدء رجوع القهرى ضعفاء مطلعين مثلكم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 266] فيها وتدخرون الزاد ليوم لا كسب فيه ولا مكسب، ولا زرع ولا حصاد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:267-269].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا﴾ لرضاء الله ﴿مِن طَيِّبَاتِ﴾ جيدات ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: ما كسبتم في النشأة الأولى بأيديكم بالتجارة والصناعة ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ بلا عمل منكم من الحبوب والثمار والمعدنيات وغير ذلك ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا﴾ أي: لا تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ الرديء ﴿مِنْهُ﴾ أي: مما كسبتم، ومما أخرجنا لكم حال كونكم ﴿تُنفِقُونَ﴾ للفقراء ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿لَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ من الغير ﴿إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ تسامحوا في أخذه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم وتصدقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم إذ هو ﴿حَمِيدٌ﴾ [البقرة:267] شكور، فما أنتم وإنفاقكم.

﴿الشَّيطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقرَ﴾[1] في الإنفاق ويخوفكم منه ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: البخل المتجاوز عن الحدود ﴿وَاللهُ يَعِدُكُم﴾ فيه ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم ناشئة ﴿مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾[2] زائدًا على وجه التبرع والإكرام خلفًا لما أنفقتم لطلب رضاه ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾

(1) أي: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله تعالى في إتيان نواله منه. وأيضًا: يعدكم إلى قلة الطمأنينة، وكثرة الشك فيما وعد الله تعالى لعباده من نفائس الألطاف وجميع الأقسام التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة. وأيضًا: يعدكم إلى ظنون شتى في الله تعالى، وهذا من قلة عرفان الحق والجهل بسلطانه؛ لأن لقاء العدو يهيج سر العبد إلى الشك في الله، وفيما وعد لعباده، ويلجئه إلى التحير حتى يظن أن الحق سبحانه وتعالى عاجز فقير، كما قال اليهود: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وهذا من وسوسة العدو، وليس لهم بإحراز العلوم والخوف من المعدوم والجمع والمنع وكثرة التهمة، ودفع الصدقة والفرار من القناعة ومن الغنى بالكفاية، وغرهم بالشروع في طلب الزيادة ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ﴾ أي: البخل وسوء الظن في الله وحب الدنيا وبغض الموت، وعمارة الضياع والعقار، وطلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء ومنع الزكاة، وما أوجب الله تعالى عليهم من الحج والجهاد. وزيَّن لهم حب الرئاسة، وطلب نسوان المسلمين لأجل الزنا، وشرب الخمور وسماع المعازف، والتكبر والتجبر على الضعفاء والمساكين والجور والظلم والعناد، وقلة الإنصاف واتخاذ الأرباب لحفظ الأموال وأشباه ذلك من الأمور الرديئة الفاحشة.

﴿يَعِدُكُم وَٱللَّهُ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ معرفته تطهر قلوب الأشحاء من أوساخ الشح والفاحشة، وتحفظها عن الميل إلى حب الدنيا وما فيها وفضله مشاهدته وقربته ومعرفته وتوحيده وكشف أسراره لهؤلاء العباد الذين اصطفاهم لمحبته وخصائص مناجاته وخطابه وخدمته. وأيضًا المغفرة: طمأنينة النفس بكشف اليقين، والفضل: الرضا بحكم الأزل. وأيضًا المغفرة: عن الكون، والفضل: الوصول بلا وحشة البون. وقيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ بنسيان ما تعود به من فضله. وقيل: إنه يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاية فيكون عبده، ومشتغلاً به فيردك عن غنى الكفاية إلى طلب الزيادة، وهو الفقر الحاضر. وقيل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: الحرص، والله يأمركم بالقناعة. وقال أبو عثمان: الشيطان يعدكم الفقر على ترك الدنيا والإعراض عنها، والله يعدكم على ذلك مغفرة منه وفضلاً. قال محمد بن علي: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لفقره، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو عمارة داره ﴿يَعِدُكُم وَٱللَّهُ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ وهو جزاء عمارة المآب، وفضله وهو استغناؤه عن كل ما سواه. وقال بعضهم: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ تحذيرًا للموحدين لا تفريقًا للكافرين؛ لأن الشيطان لا يدعو أحدًا إلى معصيته ولا يزينها له حتى يعده الفقر فإذا خاف العبد الفقر دعاه إلى المعصية، فإذا استحل المعصية دعاه إلى النفاق، فإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا نسي القسمة من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراد بمشيئته، وأصل المعاصي إيقاد الشهوات وأصل النفاق التزيين

لا ضيق في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:268] بنية من أنفق.

﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ﴾ أي: سرائر جميع الأعمال المأمورة لعباده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ بفضله وجوده ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ﴾[1] من العباد ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لا يحيط بكثرته إلا

للخلق، وأصل الكفر منازعة القدرة، وقال سهل: الفقر أن تأخذ شيئًا من غير وجهه، وتضعه في غير حقه.

(1) قال الشيخ روزبهان: الحكمة: إدراك أنوار بواطن القلوب أسرار عجائب بواطن الغيوب، والحكمة ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت، تلقف العقول إلهام الأحكام من علم الجبروت، والحكمة أدب الرباني لتهذيب خلق الإنساني، وأيضًا الحكمة معرفة الأخلاق، وإطلاع لغيوب النفس ودقائق الشيطان والعلم بفرق حديث النفس والعدو ولمسة الملك وإرشاد العقل، وبصيرة القلب دفعه إلهام الحق ونطق الروح، ورمز السر وأنواع خطاب الحق ومعرفة أقدار الخلق، ومداواة معرض الباطن، ودفع الوسوسة والمعرفة بأحوال الخلق والمقامات، ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد وما يليق بهذه الحقائق مثل معرفة دقائق الرياء، وشك النفس، والخطرات المذمومة، والبلوغ إلى علم اللدني والكرامات والفراسات الخاصة، ورؤية الغيب، والمحادثة والمخاطبة والمكالمة مع الحق جل اسمه في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. ومَنْ يؤت هذه الدرجات فقد أوتي خلافة الأنبياء والرسل ودرجة الملائكة الكرام، وهذه منزلة الأعلى من منازل الأولياء ومرتبة العليا من مقامات الأصفياء، وهو خير الدنيا والآخرة، وأيضًا: صرف الحكمة إدراك مراد الحق من رموز خطابه، وامتثال ما أدركه، والحكمة زم الجوارح ودفع الخواطر والسكون في الطوارق وفي الجملة الحكمة ما تلتفت الروح الناطقة من الحق سبحانه من خصائص الكلام والإشارات الإلهية، والحكمة: المعرفة بأفعاله في المصنوعات والآيات، وأيضًا: شهود السر على أسرار شواهد الملكوت ورؤية غرائبها. وأيضًا: الحكمة عند العارفين ولوح السر قباب الغيب واطلاعه على خزائن الملكوت برؤية العيان إلا بالدلائل والبرهان وتحصيله علوم الربوبية بلا واسطة الشواهد، وانشراحه باقتباس أنوار القرب وانفساخه بإدراك خطاب الخاص، واندراجه في طرقات الصفات، وبسطه في مشاهدة الذات، وإذا بلغ السر مدارج الربوبية عرف مراد الحق عز وجل في مجاري أحكامه، ورأى في الشواهد صرف الألوهية بنعت جريان القدرة؛ لأن الحكمة في هذه المواطن من بلوغ الروح سر عين الجمع، وهو صفة الاتحاد وأفهم الحكمة من صفة الحق سبحانه الخاصة الذاتية القدمية، ولا تدركها إلا بشرط الاتحاد، وإذا أراد الله تعالى أن يهدي عبدًا من عباده إلى مقام الحكمة ألبس روحه تلك الصفة حتى تصير ربانية صمدية مطلعة على جميع الأشياء ظاهرًا وباطنًا، وتفرست المغيبات وتدرك حقائق الأشياء بتلك الصفة الخاصة، وهذه كلها مستفادة من قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وقال تعالى في بعض أخباره التي أخبر نبيه ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بي، وبصره الذي يبصر بي، ولسانه الذي ينطق بي، وقلبه الذي يعقل بي». فإذا كان

هو ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: ما يتعظ ويتذكر بهذه الآية ﴿إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:269] الواصلون إلى لب الأمور، المائلون عن قشورها المتوجهون إلى الله بالعزائم الصحيحة، المعرضون عن الرخص المؤدية إلى الجرائم.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة:270-272].

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ يؤدي على الإنفاق في سبيل الله ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ الناظر لعباده في كل الأمور ﴿يَعْلَمُهُ﴾ بعلمه الحضوري، ويجازي عليه بأضعافه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المجاوزين عن حدوده، بمتابعة

جميع وجوده مستغرقًا في رؤية خالقه فكيف لا يطلع على مكنونات الغيب ومطلعه بنعت صفة الخاص هو الله تعالى. وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها، وقيل: الحكمة إشهاد الحق على جميع الأحوال، وقيل: الحكمة تجريد السر بورود الإلهام. وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، وأنزل الكتاب لتنبيه قلوبهم وإنزال الحكمة لتسكن أرواحهم بها، والرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله. وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق، ولا يحكم عليك شهوتك، وقال الجنيد: أحيا الله قومًا بالحكمة ومدحهم عليها فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وقال عبد الله بن المبارك: الحكمة الخشية. وقيل: الحكمة إصابة القول مع صحة الفعل بالإخلاص. وقال بعضهم: متى أثر فيك الحكمة؟ قال: منذ بدأت أحقر نفسي قال بعضهم: الحكمة كنز الله، والحكماء فيها ذمة الله أمرهم ربهم أن ينفقوا كنز الله على عباد الله وقال بعضهم: الحكمة نور الفطنة. وقال معروف الكرخي: مَنْ حسن علمه نزلت الحكمة في قلبه.

الشيطان المضل عن سبيل الله ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:270] ينصرهم عند انتقام الله إياهم على ما صدر عنهم من الفسوق والعصيان، والتبذيرات الواقعة فيها.

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ أيها المؤمنون وتظهروها ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: نعم شيئًا إبداؤها عند الله وعند المؤمنين ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا﴾ أي: تعطوها خفية من الناس ﴿الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إبدائها لعرائها عن وصمة الرياء، وعن ثوب المن والأذى، وعن لحوق العار على الفقراء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ لستركم ذلة الفقراء الذين يذلون عند أخذها منكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخيرات ﴿خَبِيرٌ﴾ [البقرة:271] يكفيكم خبرته بمجازاتكم عليه.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لنبيه كلامًا خاليًا عن السترة، ناشئًا عن عين الحكمة: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُدَاهُمْ﴾ أي: أن تجعلهم مهديين إلى طريق الحق، بل ما عليك إلا الإرشاد والتنبيه على مسالك التوحيد، والترغيب على محاسن الأوامر المتعلقة به، والترهيب عن مفاتح المناهي المنافية له ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي للكل ﴿يَهْدِي﴾ بتوفيقه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده إلى صراطه لتوصلهم إلى بابه ﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿مَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ صدقة أو نذر ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: فهو لكم ونفعه عائد إليكم، فلا تبطلوا نفعه بالمن والأذى ولا تنفقوا الرديء الخبيث؛ لئلا تنقصوا من نفعكم وانتفاعكم.

﴿وَ﴾ قل لهم أيضًا: خير إنفاقكم أنكم ﴿مَا تُنفِقُونَ﴾ شيئًا ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ طالبًا لرضاه، شاكرًا لنعمه، عاريًا عما يشغلكم عن الحق، مائلاً عن مطلق الجزاء؛ إذ لا جزاء أعظم من مطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ على هذا الوجه ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه فوق ما يصفه ألسنة مصنوعاته أو يدرك عقولهم ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:272] لا تنقصون وتخسرون في هذه المعاملة مع الله.

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:273-274].

ومتى عرفتم خير الإنفاق، فعليكم أن تعرفوا خير من ينفق إليه فاجعلوا إنفاقكم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ العرفاء الأمناء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ تمكنوا واستغرقوا وتحيروا ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مشمرين للفناء فيه بحيث ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ من غاية استغراقهم في مطالعة جماله ﴿ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ لطلب الرزق الصوري ومن غاية استغنائهم عن الدنيا وما فيها ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ﴾ أجل ﴿التَّعَفُّفِ﴾ المرتكز في جبلتهم ﴿تَعْرِفُهُم﴾ وتنتبه على حالهم أيها المؤمنون المنفق لرضاء الله ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ من ضعف القوى ورثاثة الحال، وهم من غاية رجوعهم وركونهم عن الدنيا نحو المولى ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلمامًا متمنين راجين بما عندهم، بل رزقهم الله المتجلي في الآفاق يرزقهم من حيث لا يحتسب، وبعدما سمعتم أوصاف هؤلاء الوالهين في مطالعة جمال الله وجلاله، بادروا إلى تقوية مزاجهم ليسعدوا بالسعادة العظمى التي لا مرتبة أعلى منه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ خصوصًا لهؤلاء ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:273] يجازيكم بمقتضى علمه.

ربنا اجعلنا من خدامهم وتراب أقدامهم.

بشر يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم﴾ المنسوبة إليهم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أي: في جميع أوقاتهم وحالاتهم، طالبًا لرضاه، هاربًا عما شغل من الحق وابتلاه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بقدر قابليتهم واستعدادهم ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من التضييع والإحباط ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:274] من سوء المنقلب والمآب.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:270-277].

بشر أيضًا يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ وهو تنمية المال بأخس الطرق، والإضرار بأخيه المسلم، وإتلاف ماله مجانًا بلا رعاية غبطة بأنهم ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ في البعث ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ﴾ الشخص ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ في النوم، كيف يقوم صرعى حيارى، مضطربًا منهتكًا مشوشًا هائلاً بلا سبب ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر الفظيع الهائل ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ﴾ في التنمية ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾ وهم يسوون بين البيع والربا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ لأن غبطة المشتري مرعي فيه حالاً ومآلاً، وهو يرضاه بلا اضطرار، بخلاف الربا فإن غبطة الآخذ غير مرعية فيه، بل إنما ارتكبه اضطرارًا ﴿وَ﴾ لذلك ﴿حَرَّمَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿الرِّبَا﴾ لئلا يتلف أموال المسلمين مجانًا بلا عوض ولا رضا ﴿فَمَن جَاءَهُ﴾ بلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ قبل ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ في أثناء ما يربو به ﴿فَانتَهَى﴾ نفسه بإسماعها في الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أخذ وقبل الموعظة لا يسترده الشرع ﴿وَأَمْرُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللهِ﴾ يجازيه على الانتهاء إن كان من أهل القبول والإنابة، ويعاقب عليها إن كان من أهل التزلزل والاضطراب ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعدما سمع وانتهى ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:275] دائمون مستمرون ما شاء الله.

ومن سنته سبحانه أنه ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾ أي: يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل هو فيه ﴿وَيُرْبِي﴾ يزيد وينمي المال الذي يخرج منه ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ ويضاعف ثوابها ويبارك على صاحبها، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «ما نقصت زكاة من مال قط»[1] ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي بالتجلي الجلي ﴿لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ستار مصر على تحليل المحرمات ﴿أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276] بارتكاب المحظورات مجترئ على ترك المأمورات.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله الواحد القهار الأحد الفرد الوتر في ذاته ﴿وَ﴾ آمنوا أيضًا بجميع رسله المرسلة من عنده، وبجميع ما جاء به من الأوامر والنواهي ﴿عَمِلُوا﴾ جميع ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ المفروضة لهم بكتاب الله ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة عليهم فيه ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من ترقب مؤلم ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:277] من فوت ملذ مسربل، لهم ما لهم بالفعل بلا انتظار وترقب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (278) فَإِن لَّمْ

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف (1/158).

تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:278-281].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ أي: مقتضى إيمانكم اختيار التقوى والعزيمة الخالصة في جميع الأعمال المأمورة لكم، والاجتناب عن الرخص فيها ﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا ﴿مَا بَقِيَ﴾ لكم ﴿مِنَ الرِّبَا﴾ عند الغرماء ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278] موقنين بحرمة الربا وسر حرمته.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تمتثلوا بما أُمروا، ولم يتيقنوا لسر ما مُنعوا منه ﴿فَأْذَنُوا﴾ انتظروا واعلموا ﴿بِحَرْبٍ﴾ عظيم نازل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿وَرَسُولِهِ﴾ التابع له المتخلق بأخلاقه ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء والإنماء على هذا الطريق الأخس الأخبث ﴿فَلَكُمْ﴾ في دينكم ﴿رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة وإتلاف مال الغريم بلا عوضٍ ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:279] تتضررون بالمطل والتسويف وتعويق الأداء وتأخيرها.

﴿وَإِن كَانَ﴾ الذي عليه رءوس أموالكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ لا يقدر على أدائها رخصة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي: فعليكم أن تنتظروا إلى وقت يساره ثم تأخذوا ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ أي: تصدقكم بها على ذي عسرة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عند ربكم يجازيكم به جزاء لا يُدرك كنهه إلا هو؛ إذ إدخال السرور في قلب المؤمن يوازي عند الله عمل الثقلين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:280].

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ المسقط لجميع الإضافات منسلخين عن جميع ما أنتم عليه في الدنيا، مؤاخذين عليها؛ ليحاسبوا ويجازوا على نقير وقطمير ﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ تجزى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على مقتضى ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر وظلم وجور ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:281] أصلاً، لا بتنقيص الثواب ولا بتضعيف العقاب بل كل نفس فيها رهينة بما كسبت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها آخر آية نزل بها جبريل ﷺ، وقال:

«ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة»[1] وعاش رسول الله ﷺ بعدها إحدى وعشرين يومًا وقيل: إحدى وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات.

عليك أيها المؤمن المتوجه إلى تصفية الذات أن تدخر لنفسك هذه الآية كزاد آخرتك ما لا يسعه المطولات ولا يتدرج في المجلدات، ولا يفي باستقصائها التعبيرات والإشارات، وهي محتوية على جميع الأسرار الباعثة للإرسال والإنزال والتبشير والإنذار، لذلك ختم به الوحي، وانقطع به الإنزال.

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:282].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم المحافظة على الحدود خصوصًا ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي: يعطي بعضكم بعضًا مبلغًا، ويأخذه أن يؤديه له ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر معلوم بتقدير الأيام والشهور والأعوام لا بوقت الحصاد وقدوم الحاج وغير ذلك ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ لئلا يقع بينكم العداوة والبغضاء المؤدية إلى النزاع والمراء، المنافية للإيمان والتوحيد ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ على الوجه الذي وقع بلا زيادة ولا نقصان،

(1) ذكره القرطبي في التفسير (61/1).

والحاصل أن تكتب المراضاة التي جرت بينكم حين الإعطاء والأخذ بلا تفاوت حتى تتذكروا به لدى الحاجة ﴿وَلاَ يَأْبَ﴾ لا يمتنع ﴿كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾ أي: لا يوجز إيجازًا مخلاً منقصًا، ولا يطنب إطنابًا مملاً مزيدًا؛ لئلا يؤدي إلى النزاع والمناكرة عند الأداء ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتب العادل.

﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ على الكاتب المديون ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ لأنه المعترف بالأداء ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ حين الإملاء عن فوت شيء من الحقوق ﴿وَلاَ﴾ خصوصًا ﴿يَبْخَسْ﴾ لا ينقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ هذا التخصيص بعدما دل عليه الكلام السابق؛ لزيادة التأكيد والاهتمام في الاجتناب عن حق الغير ﴿فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقص العقل من أهل التبذير ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في الرأي والقوة كالصبي والهرم ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ﴾ هو بنفسه ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لخرس أو لجهل باللغة ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ لأجله ﴿وَلِيُّهُ﴾ أي: من يولي أمره شرعًا ﴿بِالْعَدْلِ﴾ برعاية الجانبين بلا ازدياد ولا تبخيس.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿اسْتَشْهِدُوا﴾ على دينكم ومراضاتكم من الجانبين ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ حاضرين في مجلس المراضاة ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ لكمال عقلهم ودينهم ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فعليكم أن تستشهدوا بدل الرجلين برجل وامرأتين دفعًا للحرج، هذا مخصوص بالأموال دون الحدود والقصاص؛ لقلة عقلهن وضعف تأملهن ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أنتم أيها العاملون ﴿مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ الذين ثبت عندكم عدالتهم وديانتهم، وإنما خص هذا العدد لأجل ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تنسى ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ بمرور الزمان ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا﴾ الذاكرة ﴿الأُخْرَى﴾ الناسية؛ لئلا يبطل حقوق المسلمين.

﴿وَلاَ يَأْبَ﴾ لا يمتنع ﴿الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة أو تحملها مع الاستشهاد والإشهاد ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي: الكتاب الشامل على مراضاتكم ومعاملاتكم المؤجلة ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق ﴿أَوْ كَبِيرًا إِلَى﴾ وقت حلول ﴿أَجَلِهِ﴾ المسمى عند الأخذ ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الكتاب على الوجه المذكور ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل معاملاتكم ﴿عِندَ اللهِ وَأَقْوَمُ﴾ أعون ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: لأدائها ﴿وَأَدْنَى﴾ أقربُ الطرق وأحفظُها في أن ﴿أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ فيما جرى بينكم من المعاملة نسيئة، فعليكم أن تحافظوا عليها ولا تجاوزوا عنها ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ تداولونها ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يدًا بيد ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ذنب ﴿أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ لبعدها من التنازع ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ إن لم تكتبوا ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ احتياطًا؛ إذ البشر لا يخلو من الضرر والإضرار ﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾ هذه الصيغة تحتمل البنائين وكلاهما مراد.

أمّا بناء الفاعل، فلا بد أن يضرهم الكاتب المعاملين بترك الإجابة والحضور عند المملي، والزيادة والنقصان في المكتوب وغير ذلك، والشاهد المدعو إلى التحمل والأداء بترك الإجابة والتهاون والإنكار وغير ذلك.

أمّا بناء المفعول، فلا بد ألّا يضر الكاتب بمنع أجرته واستعجاله عن مصالحه وكذا الشاهد.

﴿وَإِن تَفعَلُوا﴾ أشياء مما نهي عنه ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ خروج عن حدود الله لاحق به ضرره ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن مخالفة حدوده وأحكامه ﴿وَ﴾ خصوصًا بعدما ﴿يُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ المدبر لمصالحكم ما ينبغي لكم ويليق بحالكم ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي بصفة الجمال والجلال ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:282] يجازيكم على مقتضى علمه.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ [البقرة:283-284].

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: فعليكم في أمثال هذه المعاملة رهن مقبوض من الدبون إلى أجل مسمى ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم﴾ أيها الدائنون ﴿بَعْضاً﴾ من المديونين بلا ارتهان اعتمادًا على أمانته ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ المديون ﴿الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ اعتمادًا ﴿أَمَانَتَهُ﴾ أي: دينه عند انقضاء أجله المسمى ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ في الإنكار والخيانة والبخس والمماطلة ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿الشَّهَادَةَ﴾ الحاضرة الحاصلة عندكم، المتعلقة بحقوق الناس سواء كنتم من المستشهدين أو الشاهدين على أنفسكم، المعترفين بما في ذمتكم من حقوق الغير ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ إنكارًا وعنادًا ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: يأثم قلبه، ومن كان إثمه من قلبه لا يرجى منه الفلاح والفوز بالنجاح ﴿وَ﴾ المحيط بحيلكم ومخايلكم ﴿اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإنكار والخيانة وكتمان الشهادة ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:283] ينتقم منكم بكل ما جرى

في نفوسكم منها.

﴿لله﴾ الواحد الأحد الحي، الحقيق بالحقية، القيوم المتفرد بالقيومية، الدائم الظاهر بالديمومية مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الأسماء الذاتية والصفات الفعلية ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة العدمية القابلة لمظهرية آثار الصفات الذاتية، المحدثة المظهرة للكائنات الكونية والكيانية، والواردات الغيبية والواضحات العينية ﴿وَ﴾ بعدما ظهر ما ظهر وما بطن ﴿إِن تُبْدُوا﴾ تظهروا أيها الأظلال والعكوس ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الأنانية والأصالة في الوجود والاستقلال بالآثار ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ الجامع بجميع الأسماء، المحيط بجميع الأشياء، بل الأشياء كلها مستهلكة في وجوده، فانية في ذاته ﴿فَيَغْفِرُ﴾ يستر ذنب الأنانية ومعصية الغيرية ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده بفضله وجوده ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بقهره وطرده إرادة واختيارًا؛ إظهارًا لقدرته وقلعًا لشوكته ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما شاء ويشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284] بالقدرة الأزلية الأبدية المتصرف مطلقًا في جميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حضوره ذرة، ولا يشغله فترة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:280-286].

لذلك: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ الفاني في الله، الباقي ببقائه، المستغرق بمطالعة لقائه ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ، المتجددة بتجددات التجليات، المتنشئة ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ الذي يربيه؛ لاستخلافه ونيابته وتحمل أسرار أعباء نبوته ورسالته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المتبعون له، المسترشدون منه المقتفون أثره ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ المتفرد والمتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ المرسومين بصفات الذات والأسماء ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المنزلة على ألسنة رسله للهداية والإهداء ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المنبهة على أولي البصائر والنهى مما في آياته الكبرى من السرائر والأسرار التي تنفت دونها الآراء،

واضمحلت الأهواء، قائلين حالاً ومقالاً: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ بعدما ظهر الكل منه ورجع إليه ﴿وَ﴾ بعدما آمنوا بالله وإحاطته ﴿قَالُوا﴾ طوعًا ﴿سَمِعْنَا وَ﴾ سمعًا ﴿أَطَعْنَا﴾ بجميع ما جاءوا به؛ إذ الكل من عندك نرجو ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بملابس الإمكان، المفضي بالطبع إلى الخذلان والخسران ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا هادي الكل لا إلى غيرك؛ إذ لا غير معك ﴿الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:285] في الإعادة عن شيطان الإمكان.

ثم نبه سبحانه على خلص عباده ما يؤول أمرهم إليه وينقطع سعيهم دونه بقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ﴾ الهادي لعباده نحو جنابه ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما في وسعها وطاقتها واستعدادها مما عينه الله في سابق علمه الحضوري لأجله، فظهر أن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخيرات باستعداده الفطري الجبلي ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشرور بمتابعة قوى النفس في الإمكان التي هي منشأ جميع الفسادات، ثم لما أشار سبحانه إلى سر التكليف أراد أن يشير إلى الإتيان بما كلف به لا يكون إلا بتوفيقه وجذب من عنده، لذلك لقنهم الدعاء والاستعانة والمناجاة بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك لقبول تكليفاتك لنصل إلى صفاء توحيدك وتقديسك ﴿لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ إتيان ما تكلفنا بسبب إمكاننا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فيها لقصور إدراكنا ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ حجابًا غليظًا وغشاوة كثيفًا، يعمي بصائر قلوبنا عن إدراك نور توحيدك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا﴾ من متاعب الرياضات ومشاق التكليفات الفائقة لدرن الإمكان ورين التعلقات ﴿مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ﴾ امح بفضلك ﴿عَنَّا﴾ مقتضيات أوصافنا الإمكانية ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر لنا ربنا أنانيتنا وهويتنا عن نظرنا ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ارْحَمْنَا﴾ برحمتك الواسعة ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا﴾ ومولى نعمنا ﴿فَانصُرْنَا﴾ بعونك ونصرتك في ترويج توحيدك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق الظاهرة على الآفاق.

حققنا بلطفك بحقيتك وتوحيدك، يا خير الناصرين، ويا هادي المضلين.

خاتمة سورة البقرة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - شرح الله صدرك ويسر أمرك - أن تأخذ لنفسك حسب قدرتك وطاقتك من هذه السورة المشتملة على جميع المطالب الدينية والمراتب اليقينية، فلك أن تشمر أولاً ذيلك عن الدنيا وما فيها، معرضًا عن لذاتها وشهواتها، متوجهًا بوجه قلبك إلى توحيد ربك، مستفتحًا لما في صدرك من

خزائن جوده ودفائن وجوده، طاويًا كشح حالك وفعالك عما لا يعنيك، هاربًا عن مصاحبة ما يضرك ويغويك، طالبًا الوصول إلى معارج التوحيد ومدارج التجريد والتفريد، راغبًا عما سوى الحق من أسباب الكثرة والتقييد، مستنشقًا من نسمات أنسه ونفحات قدسه، مستروحًا بنفسات رحمته، مستكشفًا عن أسرار ربوبيته، مستهديًا من زلال هدايته بمتابعة نبيه المخلوق على صورته، المبعوث على جميع بريته، مسترشدًا من كتابه المنزل عليه، الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والمواعظ والعبر والرموز والإشارات الواردة منه عنده؛ لإهداء التائهين في فضاء وجوده، المستغرقين في تيار بحار إحسانه وجوده.

فعليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق الحق أن تلازم هذا الكتاب الذي لا ريب في هدايته لمن آمن في غيب الهوية، وأدام التوجه نحوه، صارفًا عنان عزمك عن كل ما يشغلك عن ربك، مقبلاً بشأنك نحو مقصدك ومطلبك، معرضًا على نفسك ما فيه من الحقائق والمعارف والحكم والأحكام والقصص والتذكيرات؛ إذ ما من حرف من حروف هذا الكتاب إلا هو ظرف المعاني إلى ما شاء الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم عليم.

فلا بد لك عند تلاوة القرآن أن تطهر ظاهرك وباطنك عن جميع لوازم بشريتك، بحيث تغيب عنك نفسك، وتفنى هويتك وشأنك، وأنطقك ربك بنطقه وكلامه، ومتى رسخت هذه الحالة فيك وصارت خلقك وشيمتك، فزت بحظك من تلاوته، وإياك أن تغفل عند قراءته عن محض إشارته والتدقيق في رِوايته ودرايته.

ومتى صفت سريرتك عن العوائق كلها، وخلصت طويتك عن العوائق برمتها، صح لك أن تسترشد منه حسب ما قدر الله لك ووفقك في سابق علمه، إنه على ما يشاء قدير، وبإجابته حقيق جدير.

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة آل عمران

لا يخفى على الراسخين المتأملين في كلمات الكتب المنزلة من عند الله، المتعلقة بتهذيب الظاهر عن الكدورات البشرية ومشابهاتها، المصفية للباطن بالنسبة إلى أولي العزائم الصحيحة عن جميع الأوهام والخيالات الفاسدة، المنافية لصرافة الوحدة الذاتية والهوية السارية في جميع المظاهر حسب تعدادات التجليات المترتبة على الأوصاف والسماء الذاتية، أن ستر الإنزال والإرسال، والوحي على الأنبياء والإلهامات والإرهاصات الواردة على قلوب المخلصين من الأولياء، إنما هو للتفطن والتنبه على كيفية انبساط الظل الإلهي الممتد على طبيعة العدم، المقابل للوجود، القابل لانعكاس أشعة أنواره الفائضة حسب التجليات الجمالية والجلالية، وكيفية ارتباط الأظلال والعكوس الغير المحصورة على المبدأ الوحداني الذي هو الوحدة الذاتية التي لا تعدد فيه أصلاً إلا بحسب الأوصاف والشئون، كما قال سبحانه في وصف ذاته المنزه عن شوب الكثرة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] وقال في شأنه المقتضي للتعدد: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29].

وقال في ارتباط الأظلال ورجوعه إلى الوحدة: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:56] وقال أيضًا بلسان الأظلال: ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، وقال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء:93] وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:25] إلى غير ذلك من الآيات والأخبار الواردة في هذا الباب، والشهودات والكشوفات الصادرة من أرباب الولاء، أنار الله براهينهم.

ولما كان الإنسان الكامل قابلاً لمظهرية جميع الأوصاف الإلهية، لائقًا للخلافة والنيابة عنه، أنزل عليه من عنده كتابًا مشتملاً على ما كان ويكون من رطب ويابس، ونقير وقطمير، كما قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59] وقال في وصف كتابه لآياته: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:42].

فلا بد للمسترشد الخبير منه أن يتعمق في طلب دفائن أسراره الكامنة في أغواره، ويغوص في ذخائر بحاره حتى يفوز بفرز فوائده ودرر فرائده، ويتحقق بمقام التخلق بأخلاق الله حتى يتصف بالخلافة والنيابة ويستحق الخطاب الإلهي.

ولهذا خاطب سبحانه رسوله الذي هو أكمل الكاملين وأتم المخلوقين - صلوات الله عليه - متبركًا:

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل؛ إرشادًا لعموم العباد إلى طريق المعاد ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإنزال المحكمات المعدة لفيضان اليقين والعرفان ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم بإنزال المتشابهات المتضمنة بسبب التوحيد عند أهل التحقيق والإيقان.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: 1-6].

﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران:1] أيها الإنسان الكامل الأحدي الأوحدي الأقدسي، اللائح على صورة الرحماني، الملازم الملاحظ لمقتضيات الأوصاف والسماء الإلهية، المتفرعة عليها جميع المظاهر الكونية المشتمل عليها، المحيط بها.

﴿اللهُ﴾ أي: الذات الصمد المبدع المظهر الموجد الذي ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا مظهر ولا موجد ﴿إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾ الدائم الثابت، الذي لا يقدر حياته الزمان ولا يحصره المكان، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:2] الذي لا يعرضه الفتور، ولا يعجزه كر الأعوام ومر الدهور.

هو الذي: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا مظهر الكل امتنانًا لك ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن الجامع الشامل لما في الكائنات أعلاها وأدناها أولاها وأخراها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة المنزلة على الأنبياء الماضين

﴿وَأَنزَلَ﴾ أيضًا ﴿التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:3] على موسى وعيسى - عليهما السلام - مصدقين لما مضى من الكتب السابقة.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إنزالهما عليهما ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يهديهم إلى توحيده الذاتي عند ظهور خلافه من الغي والضلالة ﴿وَ﴾ بعدما ظهر الضلال ﴿أَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الكتاب السماوي الفارق بين الهداية والضلالة؛ ليتميز الحق عن الباطل، وآيات الله عن تسويلات الشياطين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ بعد ظهوره ونزوله، وكذبوا من أنزل إليهم من الكتب والآيات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو الطرد والحرمان عن ساحة التوحيد بسبب إنكارهم الآيات الهادية لهم إلى طريقه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي إلى توحيده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:4] عظيم وتعذيب شديد على من كفر بآياته واستكبر على من أنزل عليه الآيات، وكيف لا؟.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المحيط بجميع ما كان ويكون ﴿لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ مما حدث ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ﴿وَلاَ﴾ ما حدث ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:5] من الإيمان والكفر والهداية والضلالة، وغير ذلك من الأعمال والأحوال الصادرة من العباد.

فكيف يخفى عليه؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ بقدرته ابتداء ﴿فِي الأَرْحَامِ﴾ بعد انصبابكم من أصلاب آبائكم إليها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: كيف تتعلق مشيئته وإرادته بلا مزاحمة ضد، ومشاركة أحد من شريك وند؛ إذ ﴿لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا مصور ولا موجد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا منازع له ولا مخاصم دونه بل هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6] المتقن في كل ما يريد.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ [آل عمران:7-9].

﴿هُوَ الَّذِي﴾ اصطفاك يا أكمل الرسل لرسالته واجتباك لنيابته وخلافته، بأن ﴿أَنزَلَ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿عَلَيْكَ﴾ من عنده لتصديقك وتأييدك ﴿الْكِتَابَ﴾ المعجز

لجميع من تحدى وتعارض معك تعظيمًا لشأنك، وفصله بالسور والآيات الدالة على الأمور المتعلقة لأحوال العباد، وفي النشأة الأولى والأخرى؛ إذ ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ متعلقة بعموم أحوال العباد على اختلاف طبقاتهم في معاشهم ومعادهم من الأحكام والمعاملات والمعتقدات الجارية فيما بينهم بحسب النشأتين ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ واجبة الاقتداء والامتثال لكافة الأنام ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ متعلقة بالمعارف والحقائق المترتبة على الحكم والمصالح المودعة في إيجاب التكليفات، والطاعات والعبادات المؤدية إليها بالنسبة إلى أولى العزائم الصحيحة المتوجهة إلى بحر التوحيد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل وعدول عن طريق الحق الجامع بين الظاهر والباطن ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ ويتركون الامتثال بمحكماته جهلاً وعنادًا، ولم يعلموا أن الوصول إلى المعارف والحقائق إنما تنال بتهذيب الظاهر بامتثال المحكمات، وليس غرضهم من تلك المتابعة ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: طلب إيقاع الفتنة بين الناس إفساد عقائدهم عن منهج التوحيد ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ إلى ما يرتضيه عقولهم وتشتهيه نفوسهم، كالمبتدعة خذلهم الله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على ما ينبغي ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ المنزل؛ إذ تأويل كلامه لا يسع لغيره إلا بتوفيقه وإعانته ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ اللدني المؤيدون من عنده بإلهامه ووحيه بمعارف وحقائق لا تحصل بمجرد القوة البشرية إلا بتأييد منه، وجذب من جانبه ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: أيقنا وأذعنا بمحكمات الكتاب ومتشابهاته جميعًا؛ إذ ﴿كُلٌّ﴾ منزل ﴿مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ومالنا أن يتفاوت فيه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ويتيقظ منه ﴿إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:7] المجبولون على لب التوحيد، المعرضون عن قشوره التي هي من مقتضيات القوى النفسانية، التي هي من جنود شياطين الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك على نشأة توحيدك ﴿لاَ تُزِغْ﴾ ولا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن طريقك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ عليه بإنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ وتفضل علينا ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ علمًا وعينًا وحقًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8] بلا إعراض وأغراض.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ بذاتك وأوصافك وأسمائك ﴿جَامِعُ﴾ شتات ﴿النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ شأنه ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ ولاشك في وقوعه لإخبارك بوقوعه على ألسنة رسلك، وإنزالك في كتبك ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الجامع لشتات العباد في المعاد ﴿لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:9]

الذي وعده في كتابه، بل أنجزه على مقتضى إنزاله ووحيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:10-13].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن كتبه ورسله وأصروا عليه اغترارًا بمزخرفاتهم الباطلة من الأموال والأولاد ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وترفع ﴿عَنْهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ﴾ غضب ﴿اللهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ﴾ المصرون المعاندون فيها ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:10] أي: أجسامهم وقود نار الحسرة والخذلان دأبهم وديدنتهم في النشأة الأولى.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المنزل على رسلنا المستخلفين من عندنا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ باسمه المنتقم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ الصادرة منهم من التكذيب والإنكار والعناد والاستكبار، فاستأصلهم بالمرة في النشأة الأولى، وأحرقهم بالنار في النشأة الأخرى جزاء بما كسبوا في الأولى ﴿وَاللهُ﴾ القادر المقتدر على ما يشاء ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [آل عمران:11] لكل من عاندوا واستكبروا.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك إخبارًا لهم عما سيجري عليهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بقهر الله وغضبه في يوم الجزاء ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بين يدي الله، وتحاسبون عنده سبحانه عما جرى عليهم في النشأة الأولى، وبعد ذلك تساقون ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان مطرودين مهانين ﴿وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [آل عمران:12] ما مهدوا فيها بما اقترفته نفوسهم من الاستكبار على الأنبياء والإصرار على ما هم عليه من الكفر والضلالة، بعد ظهور آيات الإيمان وعلامات الهدى؛ إذ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الضالون في تيه الحرمان ﴿آيَةٌ﴾ ظاهرة دالة على الهدى

الحقيقي ﴿فِي﴾ التقاء ﴿فِئَتَيْنِ﴾ حين ﴿الْتَقَتَا﴾ إحداهما ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته وإظهار توحيده ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ تقاتل مع الموحدين مكابرة وعنادًا، ومع كونكم أيها الكافرون المعاندون بأضعاف المؤمنين الموحدين، وكثرة عددكم وعُددكم ﴿يَرَوْنَهُم﴾ أي: الموحدون ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي: في بادي النظر ويرهبون منهم رهبة شديدة بتأييد الله ونصره ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بجميع ما جرى في ملكه ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ﴾ العزيز ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المخلصين في إطاعته وانقياده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التأييد والنصر مع ظهور عكسه ﴿لَعِبْرَةً﴾ تبصرة وتذكرة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13] المستبصرين بنظر الاعتبار عن سرائر الأمور وأسرارها بلا التفات إلى مزخرفات الدنيا الدنية من شهواتها ولذاتها، لا للمنهمكين المستغرقين في بحر الغفلة والغرور إذ:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: 14-18].

﴿زُيِّنَ﴾ حبب وحسن ﴿لِلنَّاسِ﴾ المغرورين بزخرفة الدنيا ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: مشتهياتها المنحصرة أصولها في هذه المذكورات ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللاتي هن لمن اشتهاها؛ إذ هن للوقاع الذي هو من ألذ الملذات النفسانية ﴿وَالْبَنِينَ﴾ للمظاهرة والمفاخرة والغلبة على الخصوم ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ الأموال الكثيرة ﴿الْمُقَنطَرَةِ﴾ المجتمعة المزخرفة ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ لكونها وسائل إلى المشتهيات التي مالت القلوب إليها بالطبع ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة المنسوبة إليهم ليركبوها ويبطروا عليها ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ليحملوها، ويأكلوا منها ويزرعوا بها ﴿وَالْحَرْثِ﴾ ليقتاتوا بها ويعيشوا بأكلها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأصول المذكورة ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية

المانعة من الوصول إلى الجنة، المأوى التي هي دار القرار والخلود، وموعد لقاء الخلاق الودود ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الصواب ﴿عِندَهُ﴾ لمن توجه نحوه واستقبل جنابه ﴿حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14] وخير المنقلب والمئاب.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين، للمخلصين في عبادة الله، الراغبين إلى جزيل عطائه، الطائرين إلى فضاء فنائه، الطالبين الوصول إلى شرف لقائه، الفانين في الله؛ ليفوزوا بشرف بقائه تحريكًا لهم سلسة الشوق والمحبة ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أيها الحيارى في صحارى الإمكان، الموثقون بقيود الأكوان، المحبوسون في مضيق الجدران بسلاسل الزمان والمكان ﴿بِخَيْرٍ﴾ مراتب ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ملتم إليها واشتهيتم إلى نيلها في هذه النشأة، حاصل واصل إليكم في النشأة الأخرى ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ منكم عن محارم الله وتوجهوا إلى الله في الدنيا، ولم يرتكبوا ما نهاهم الله على ألسنة رسله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بتوفيقه على ترك المحظورات واجتناب المكروهات ﴿جَنَّاتٌ﴾ معارف وحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أنهار الكشوف والشهود ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ أعمال وحالات ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ خالصة عن كدر الرعونة والرياء خالية عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿وَ﴾ مع ذلك لهم ﴿رِضْوَانٌ﴾ عظيم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ ليحققهم في مقام العبودية والرضاء بما جرى عليهم من القضاء، بحيث لا ينسبون شيئًا من الحوادث إلى الأسباب والوسائل، بل لا يرون الوسائط في البين أصلاً ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي للكل ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:15] الراضين بقضائه، المرضيين بإنفاذه وإمضائه؛ يعني:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بألسنتهم موافقًا لما في قلوبهم عند مناجاتهم مع ربهم ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ بمقتضى توفيقك بوحدانيتك وبكتبك ورسلك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بلطفك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ التي صدرت عنا من أنانيتنا واستر عيوبنا التي كنا عليها قبل انكشافنا بتوحيدك ﴿وَقِنَا﴾ بلطفك، واحفظنا بفضلك ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:16] المعد لأصحاب البعد والخذلان عن ساحة عز حضورك، واجعلنا بفضلك من:

﴿الصَّابِرِينَ﴾ على عموم ما أصابهم من البأساء والضراء في طريق توحيدك ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ عن الكذب مطلقًا في أقوالهم المعتبرة، المعربة عن أفئدتهم المطمئنة بالإيمان ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الخاضعين الخاشعين إليك بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ من طيبات ما رزقت لهم؛ طلبًا لمرضاتك بلا شوب المنة والأذى ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ لك الخائفين من سخطك وجلالك، الراجين منك العفو في عموم أوقاتهم خصوصًا

﴿بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:17] الخالية عن جميع الموانع العائقة عن التوجه إلى جنابك الشاهدين بوحدانيتك بما: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ به لذاته، وهو ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا موجود ولا وجود ولا كون ولا تحقق ولا كائن ولا ثابت ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ الحي الحقيق بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، لا شيء سواه ﴿وَ﴾ بما شهد بوحدته ﴿الْمَلاَئِكَةُ﴾ أي: الأسماء والصفات القائمة بالذات الأحدية؛ إذ الكل قائم به ثابت له لا مرجع لها سواه ﴿وَ﴾ بما شهد به ﴿أُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ من مظاهر المخلوقات على صورته المتأثرة من أوصافه وأسمائه، وإن كانت شهادة كل منها راجعة إلى شهادته؛ لكون الكل ﴿قَآئِمًا﴾ مقومًا متحققًا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل الإلهي المنبسط على ظواهر الكائنات أزلاً وأبدًا؛ إذ ﴿لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا مظهر لها ﴿إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على إظهارها ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18] المتقن في تربيتها وتدبيرها، القائلين طوعًا ورغبة بعدما تحققوا بمقام العبودية:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:19-20].

﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ القويم والشرع المستقيم المقبول المرضي ﴿عِندَ اللهِ﴾ الهادي للعباد إلى طريق الرشاد هو ﴿الإِسْلاَمُ﴾ المنزل من عنده إلى خير الأنام سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ المعاندون المنكرون لدين الإسلام من ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ اليقيني في كتبهم المنزلة من عند الله بأنه سيظهر النبي الحق، والدين الحق الناسخ لجميع الأديان السابقة، وعلموا حين ظهوره حقيته بالدلائل والعلامات المبينة في كتابهم، ومع ذلك ينكرونه ﴿بَغْيًا﴾ حسدًا ثابتًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ناشئًا من طلب الرئاسة والاستكبار والعتو والإصرار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ﴾ بأمثال هذه الأباطيل المموهة يجازيهم على كل منها بلا فوت شيء ﴿فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:19] لا يعزب عن علمه شيء، شديد العقاب لمن أنكر آياته بعد ظهور حقيتها.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ جادلوك يا أكمل الرسل بعد ظهور حقية دينك وكتابك عندهم مكابرة وعنادًا، لا تجادل معهم بل أعرض عنهم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ﴾ أي: فوضت وسلمت أمري في ظهور ديني، ووجهت ﴿وَجْهِيَ﴾ صورتي المخلوقة على صورة الله المستجمع للكل ﴿لِلَّهِ﴾ ظاهرًا وباطنًا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ فعليهم الانقياد والتسليم إلى الله في جميع الأمور ﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿وَالأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا يأتيهم الكتاب والدعوة: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بدين الإسلام المبين لتوحيد الله كما أسلمت أنا ومن اتبعني بعدما ظهر لكم دلائل حقيته، أم لم تسلموا بغيًا وعنادًا؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ بعد دعوتك وعرضك لهم طريق الهداية ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحق كما اهتديت أنت ومن تبعك ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن دعوتك عنادًا واستكبارًا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ أي: لم يضروك بإعراضهم بل ما عليك من حسابهم من شيء، ولا عليهم من حسابك من شيء، فأعرض عنهم ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بهم وبضمائرهم ﴿بَصِيرٌ﴾ خبير ﴿بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:20] وأحوالهم وأعمالهم، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: 21-22].

وقل لهم أيضًا تذكيرًا واستحضارًا حكاية عن حال أسلافهم الماضين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ ينكرون ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة على أنبيائه بعد ظهور صدقها وحقيتها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين أنزل عليهم الآيات من عنده سبحانه ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصة شرعية أي: موافقة بشرع ودين ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ أيضًا ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ الذين يتبعون شرائعهم وينقادون بأديانهم، ويمتثلون بأديانهم ويمتثلون بأوامرهم وأحكامهم، جرى عليهم في الدنيا ما جرى، في الآخرة ما جرى بأضعاف ذلك لعلهم يتنبهوا ويمتنعوا، وإلا ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:21] جزاء لإصرارهم وعنادهم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المصرون المعاندون هم ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت بالمرة ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾

كلها بحيث لا ينفع لهم عند الله لا ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ ولا في ﴿الآخِرَةِ وَمَا لَهُم﴾ عند ربهم من يشفع لهم أو يعين عليهم ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:22] الذين يدعون الاقتداء بهم ويستنصرون منهم لكونهم ضالين منهمكين في الغفلة، لاحظ لهم من الهداية أصلاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:23-20].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ أي: إلى إصرار اليهود وعنادهم مع كونهم ﴿أُوتُوا نَصِيباً﴾ كاملاً ﴿مِّنَ الكِتَابِ﴾ أي: التوراة في زعمهم حين ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في الوقائع ﴿إِلَى﴾ رجوع ﴿كِتَابِ اللهِ﴾ الذي يدعون الإيمان والعمل بمقتضاه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى ما أمر الله في كتابه كيف يتكاسلون ويتهاونون ﴿ثُمَّ﴾ يترقى تكاسلهم وتهاونهم إلى أن ﴿يَتَوَلَّى﴾ يستدبر وينبذ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الكتاب وراء ظهورهم ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران:23] عنه وعن أحكامه بالمرة.

روي أنه ﷺ دخل مدارس اليهود، فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: «على دين أبي إبراهيم عليه السلام»، فقال: إن إبراهيم يهودي، فقال ﷺ: «هلموا كتابكم ليحكم بيننا وبينكم، فأنكرا عليه وامتنعا عن إحضاره فنزلت»:

﴿ذَلِكَ﴾ التولي والإعراض من كثرة الخصلة الذميمة والديدنة الخبيثة، المرتكزة في نفوسهم المنسوبة إلى دينهم افتراء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ اعتقدوا ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ المعدة لجزاء العصاة ﴿إِلاَّ أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ سواء كانت ذنوبنا كثيرة أو قليلة، صغيرة أو كبيرة ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:24] أي: جرأهم على الذنب والعصيان ما يفترون في شأن دينهم من أمثال هذه الهذيانات، منها قولهم هذا، ومنها اعتقادهم أن آباءهم الأنبياء سيشفعون لهم، وإن عظمت ذنوبهم، ومنها أن يعقوب عليه السلام ناجى مع الله ألا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿فَكَيْفَ﴾ لا تمسهم النار، اذكر لهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ إلينا بعد تفريقهم منا لكسب المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات ﴿لِيَوْمٍ﴾ شأنه ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ عند من يكاشف له ﴿وَ﴾ بعد جمعنا إياهم ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من الحقائق والعرفان والمعاصي والخذلان ﴿وَهُمْ﴾ أي: كل منهم في ذلك اليوم مجزي بما كسبت ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:25] فالنيل والوصول لأرباب الفضل، والقبول والويل كل الويل لأصحاب الطرد والخمول.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾ [آل عمران:26-28].

﴿قُلِ﴾ يا أيها المتحقق بمقام الشهود الذاتي، المكاشف بوحدة الحق دعاء صادرًا من لسان مرتبتك الجامعة الشاملة لجميع المراتب ﴿اللهُمَّ﴾ يا ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أي: المتصرف المستقل في مظاهر ذاتك ﴿تُؤْتِي﴾ تعطي وتكشف بلطفك ﴿الْمُلْكَ﴾ أي: التوحيد الذاتي ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من خواص مظاهر صفاتك وأسمائك ﴿وَتَنزِعُ﴾ تمنع وتستر بقهرك ﴿الْمُلْكَ﴾ المذكور ﴿مِمَّن تَشَاءُ﴾ من عوامهم؛ تتميمًا لمقتضيات أوصاف جمالك وجلالك ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بالوصول إلى فضاء فنائك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ وراء حجاب سرادقات جلالك، وبالجملة: ﴿بِيَدِكَ﴾ وقدرتك وسلطانك ومشيئتك وإرادتك ﴿الْخَيْرُ﴾ أي: كله الوجود، وظهوره على أنحاء شتى ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهر وجودك ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:26] لا تنتهي قدرتك أصلاً.

ومن جملة مقدوراتك: إنك ﴿تُولِجُ﴾ تدخل وتدرج ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: العدم ﴿فِي﴾ صورة ﴿النَّهَارِ﴾ أي: الوجود إظهارًا لقدرتك وجمالك ﴿وَتُولِجُ﴾ أيضًا ﴿النَّهَارَ﴾ نور الوجود ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ أي: مشكاة العدم؛ إظهارًا لقدرتك وجلالك ﴿وَتُخْرِجُ﴾ تظهر

﴿الحَيِّ﴾ والحق الحقيق مع غاية صفاتها وظهورها ﴿مِنَ المَيِّتِ﴾ العدم الأصلي الذي هو مرآة التعينات ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿تُخرِجُ المَيِّتَ﴾ أي: العدم الجامد الذي ما شم رائحة الحياة أصلاً بامتداد أظلال أسمائك وصفاتك عليه ﴿مِنَ الحَيِّ﴾ الذي لا يموت أبدًا وهو ذاتك ﴿وَتَرزُقُ﴾ بلطفك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من مظاهرك من موائد فضلك وإنعامك ونوال جودك وإحسانك ﴿بِغَيرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:27] تفضلاً لهم وامتنانًا عليهم بلا مظاهرة أحد.

هب لنا بلطفك من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ثم لما بين سبحانه أن الهداية إلى طريق التوحيد والإضلال عنه بقدرته واختياره، يؤتي ملك توحيده من يشأ من عباده ويمنعه عمن يشاء، أراد أن ينبه على خلص توحيد عباده ما يقربهم إلى الهداية ويبعدهم عن الضلال فقال تحذيرًا لهم: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ﴾ المتوجهون نحو توحيد الذات، الطالبون إفناء ذواتهم في ذات الله؛ ليخوضوا في لجج بحر التوحيد، ويفوزوا بدرر المعارف والحقائق الكامنة فيها ﴿الكَافِرِينَ﴾ الساترين بهوياتهم الكثيفة المظلمة نور الوجود ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ولا يصاحبون معهم، ولا يجالسون موالاة لهم ومؤاخاة معهم لقرابة طينية وصداقة جاهلية، مع كونهم خالين معهم ﴿مِن دُونِ﴾ حضور ﴿المُؤْمِنِينَ﴾ المظاهرين لهم؛ لئلا يسري كفرهم ونفاقهم إليهم؛ إذ الطبائع تسرق والأمراض تسري، سيما الكفر والفسوق؛ إذ الطبائع مائلة إليها ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ ولم يترك مصاحبتهم ولا موالاتهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ﴾ ولاية ﴿اللهِ﴾ وطريق توحيده ﴿فِي شَيْءٍ﴾ بل ملحق بهم معدود من عداوتهم بل أسوءهم حالاً وأشدهم جرمًا عند الله بعدما نهاهم الله ولم ينتهوا ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ﴾ وتخافوا ﴿تُقَاةً﴾ توجب الموالاة والمصاحبة ضرورة من إتلاف النفس والمال والعرض، وعند ذلك المحذور موالاتهم جائزة ومؤاخاتهم معذورة مداهنة ومداراة ﴿وَ﴾ مع وجود تلك الضرورة المستلزمة للموالاة الضرورية ﴿يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يحذركم يا أهل العزائم عن نفسه على وجه المبالغة، حتى لا تأمنوا عن سخطه ولا تغفلوا عن غضبه، ولا تميلوا عنه سبحانه بارتكاب ما نهيتم عنه ﴿وَ﴾ اعلموا أن المحذورات كلها راجعة ﴿إِلَى اللهِ﴾ إيجادًا وإظهارًا؛ إذ إليه ﴿المَصِيرُ﴾ [آل عمران:28] في الخير والشر والنفع والضر، لا مرجع سواه ولا منتهى إلا إياه.

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝٣٠ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران:29-32].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تذكيرًا وعظة وتنبيهًا على ما في فطرتهم الجبلية: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من محبة أقاربكم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ المحيط بظواهركم وبواطنكم ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضًا بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الكائنات والفاسدات أزلاً وأبدًا ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ منها لا يغيب عن علمه مما لمع عليه نور وجوده ﴿وَاللَّهُ﴾ المتجلي لذاته بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهر تجلياته ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:29] بلا فتور وقصور، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، يجازيهم على مقتضى علمه وقدرته في النشأة الأخرى.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ خيرة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ في النشأة الأولى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ إحسان وإنعام وعمل صالح ويقين وعرفان ﴿مُحْضَرًا﴾ بين يديه يستحضره ويود استعجاله ﴿وَ﴾ كذا تجد كل نفس شديدة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ فيها ﴿مِن سُوءٍ﴾ غير صالح وكفر ونفاق وشرك وشقاق محضرًا بين يديه، مشاهدًا بين عينيه تستأخره وتتمنى بعده ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وزمانًا متطاولاً، بل يتمنى ألّا تلقاه أصلاً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ﴾ بهذا التذكير والتنبيه ﴿نَفْسَهُ﴾ وقدرته على الانتقام وزيادة قهره وغضبه على من استكبر عن أوامره ونواهيه ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على انتقام العصاة ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق ﴿بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:30] الذين يترصدون إلى الله بين طرفي الخوف والرجاء، معرضين عن جانبي القنوط والطمع.

﴿قُلْ﴾ يا أيها المخلوق على صورتنا، المجبول على مقتضيات جميع أوصافنا وأسمائنا، المتخلق بجميع أخلاقنا، لمن أراد إرشادهم وتبلغهم من البرايا ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الأظلال المنهمكون في بحر الغفلة والضلال ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: تدعون محبة الله المظهر لكم من العدم، وتطلبون التوجه إلى جنابه والتقرب نحو بابه ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بأمره وحكمه ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يقربكم إلى جنابه، ويوصلكم إلى شرف لقائه ﴿وَيَغْفِرْ﴾ يستر، ويضمحل ﴿لَكُمْ﴾ عن أبصاركم وبصائركم ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي حجبتم بها عن

مشاهدة جمال الله وجلاله، ومعاينة أسمائه وصفاته ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لكم إلى صراط توحيده ﴿غَفُورٌ﴾ لكم يرفع موانع وصولكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:31] لكم يوصلكم إلى مطلوبكم.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا أجل أعمالكم وأفضلها إطاعة أمر الله وإتباع رسوله المرسل إليكم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في امتثال جميع أوامره وأحكامه، واجتناب جميع نواهيه ومحظوراته مما فاز به المؤمنون ﴿وَ﴾ أطيعوا ﴿الرَّسُولَ﴾ المبلغ لكم كتاب الله، المبين لكم المراد منه، فإن أطاعوا فازوا مما فاز به المؤمنون ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن إطاعة الله ورسوله، فقد كفروا فلهم ما سيجري عليهم من عذاب الله وغضبه في النشأة الأخرى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:32] منهم لا يقربهم ولا يرضى عنهم، بل يعذبهم ويبعدهم عن عز حضورهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران:33-37].

ثم لما وقف سبحانه محبته ورضاه لعباده على متابعة حبيبه ورسوله المصور على صورته، المتخلق بأخلاقه، صار مظنة أن يتوهم أن نسبة ظهوره إلى المظاهر كلها على السواء، فما وجه التخصيص باختيار بعض بالمتابعة؟ أشار سبحانه إلى دفعه، بأن من سنتنا تفضيل بعض مظاهرنا على بعض فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ اختار واجتبى ﴿آدَمَ﴾ بالخلافة والنيابة، وأمر الملائكة الذين يدعون الفضيلة عليه بسجوده وكرمه على جميع مخلوقاته ﴿وَ﴾ أيضًا اصطفى ﴿نُوحًا﴾ بالنجاة والخلاص، وإغراق جميع من في الأرض بدعائه ﴿وَ﴾ كذا اصطفى ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أهل بيته بالإمامة والخلافة، لذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه بألا يخرج الزمان عن إمامة ذريته إلى يوم القيامة

﴿وَ﴾ كذا اختار ﴿آلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [آل عمران:33] بإرهاصات ومعجزات لم يظهر من أحد مثلها، مثل: إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والولادة بلا أب وغير ذلك.

ثم إن اصطفاء الله إياهم ليس مخصوصًا بهم بل اصطفى منهم ﴿ذُرِّيَّةً﴾ أخلافًا فضلاء ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: أعلى رتبة من بعض في الفضيلة كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:253] ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بسرائر عباده المتوجهين نحو بابه ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم الصادرة من ألسنة استعداداتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:34] بما يليق لهم من المراتب العلية.

اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مناقب آل عمران وقت ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ حين ناجت ربها في سرها بلسان استعدادها وقت ظهور حملها، بإلقاء الله إياها: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بحولك وقولك ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾ معتقًا عن أمور الدنيا كلها، خالصًا لعبادتك وخدمة بيتك لا أشغله شيئًا سواه، وكان من عادتهم تحرير بعض أولادهم الذكور لخدمة بيت المقدس شرفها الله ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ بلطفك ﴿مِنِّي﴾ ما نذرت لك للتقرب إليك يا رب ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وصفاتك وأسمائك ﴿أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتي ﴿العَلِيمُ﴾ [آل عمران:35] بحاجاتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أنثى آيست ﴿قَالَتْ﴾ متحسرة متحيرة مشتكية إلى ربها في نذرها: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ وإن بالغت في إخلاص النية في نذري لم تقبله مني يا رب أن ﴿وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ والأنثى لا تصلح لخدمة بيتك ﴿وَ﴾ لما امتدت في إظهار التحزن، وبث الشكوى والتحسر نودي في سرها: لا تجزعي ولا تحزني؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المطلع لإخلاص نيتك ﴿أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ وما ظهرت منها من البدائع والغرائب والإرهاصات الخارقة للعادات ﴿وَلَيْسَ﴾ مطلق ﴿الذَّكَرُ﴾ الذي حرر لخدمة هذا البيت ﴿كَالأُنثَى﴾ التي هي هذه؛ إذ يترتب على وجود عجائب صنع الله وبدائع قدرته لما سمعت بسمع سرها ما سمعت قالت نشطة فرحانة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ليكون اسمها مطابقًا لمسماها؛ لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، ولما تحققت عندها بإلهام الله وقاية الله إياها وذريتها، قالت مفوضة إلى الله: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أيضًا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:36] لتكون هي وهم في حفظك وحمائك من إغوائه وإضلاله.

الناظرين بنور الله في تجددات تجليات الوجود الإلهي.

ثم لما تفطن زكريا من هذا الكلام ما تفطن ﴿قَالَ﴾ مسترعًا مستنشطًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿اجْعَل لِّي﴾ بفضلك ﴿آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحمل؛ ليفرح بها قلبي ويخلص عن الانتظار ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: لا تطيق التكلم معهم؛ لعدم مساعدة آلاتك عليه مدة ﴿ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾ ولا تعلمهم حوائجك ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ إشارة بيد ورأس وغير ذلك ﴿وَ﴾ عند حبسك عن الكلام والتنطق ﴿اذْكُر رَّبَّكَ﴾ في نفسك ذكرًا ﴿كَثِيراً وَسَبِّحْ﴾ نزهه عن جميع النقائص تسبيحًا مقارنًا ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ أي: جميع الليل ﴿وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:41] أي: جميع النهار لتستوعب جميع أوقاتك بذكره.

من هذا تفطن العارف أن الداعي المستجيب من الله لا بد له أولاً أن يفرغ قلبه عن غير الله ويستوعب أوقاته بذكره، بل يكل لسانه عن ذكر غيره مطلقًا، حتى يفوز بمطلوبه ويجيب له بفضله وطوله.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:42-46].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مدائح آل عمران واصطفاء الله إياهم ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ﴾ بأمر الله ووحيه لمريم - رضي الله عنها - ملهمين لها، مشافهين معها، منادين على سرها: أبشري ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ﴾ اختارك لخدمة بيته مع أنه لم يعهد منه اختيار النساء للخدمة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ بفضله عن جميع الخبائث والأدناس العارضة للنسوان ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ خيرك وفضلك بهاتين الخصلتين الحميدتين ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:42] وإنما خصصها بما خصصها؛ لتكون آية لما يترتب عليها ويظهر بسببها من بدائع أودعه الله سبحانه في إيجادها من حبلها بلا مباشرة أحد، بل

بمجرد كلمة ملقاة من عنده ومعجزات وخوارق ظهرت من ابنها لم يظهر مثلها من أحد.

ثم لما أخبرت الملائكة بإصفائه سبحانه إياها، نادتها الملائكة ثانيًا بأمر الله أيضًا؛ تعليمًا لها التوجه والرجوع إلى الله على وجه الخضوع والتذلل والإخبات والخشوع ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ المختارة المقبولة عند الله ﴿اقْنُتِي﴾ توجهي وتضرعي ﴿لِرَبِّكِ﴾ الذي رباك بلطفه وقبلك نذيرة من أمك، واصطفاك على نساء العالمين بأنواع الفضائل شكرًا لما تفضل عليك ﴿وَاسْجُدِي﴾ واخضعي وتذللي نحوه ملقية جباهك على الأرض؛ لأداء شيء من حقه ﴿وَارْكَعِي﴾ دائمًا؛ لخدمة بيته وتطهيرًا من الأوساخ والأدناس ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:43] المحررين المنحنين قامتهم دائمًا على خدمة الله وخدمة بيته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من اصطفاه الله آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران، وخصوصًا قصة مريم وأمها وزكريا وزوجه وابنه ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من الأخبار المغيبة المجهولة عندك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل مع خلاء خاطرك وضميرك عنها، ولا معلم لك سوى وحينا وإلهامنا مع كونك أميًا عن مطالعة القصص والتواريخ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كُنتَ﴾ لهويتك الشخصية ﴿لَدَيْهِمْ﴾ وقت ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ أي: الأحبار ﴿أَقْلَامَهُمْ﴾ للاقتراع في أنهم ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يحفظ ﴿مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أيضًا ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:44] في أمرها وحفظها.

وإنما نوحيه إليك؛ ليكون آية لك على صدقك في دعواك النبوة والرسالة، والإنكار على أمثال هذه الأخبارات والإنباءات الصادرة عن الأنبياء والأولياء، المستندة إلى محض الوحي والإلهام النازلة من عند الله، إنما نشأ من العقل القاصر المموه المضل عن طريق الكشف واليقين، وإلا فمن صفات عقله المفاض له من حضرة العلم المحيط الإلهي عن كدورات الوهم والخيال، وانكشفت سريرة سره بسرائر الأقوال والأفعال والأحوال، ظهر عنده بلا سترة وحجاب أن من النفوس البشرية من ترقب في هذه النشأة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، واتصلت بالمبادئ العلية التي هي الصفات الإلهية، واضمحلت ناسوتها وغلبت اللاهوتية عليها.

وحينئذ ظهرت منها على اتفاق من الحضرة العلية الإلهية، وإرادة غيبية ومكاشفات عينية متعلقة بعضها بالغيب وبعضها بالشهادة، كالإخبار عن الوقائع الماضية والمستقبلية، كما نسمع ونشاهد أمثال ذلك من بعض بدلاء الزمان، أدام الله بركته على مفارق أهل اليقين والعرفان، في حالتي قبضه وبسطه حكايات وكلمات

متعلقة بوقائع وقعت في البلاد البعيدة.

ونحن نجزم بوقوع بعضها كما نسمع منه، ونجزم أيضًا بأنه ما هو حاضر عند وقوعها، وأيضًا نجزم بأنه لم يسمع من أحد لانسلاخه عن الاستخبار والاستفسار على الوجه المعتاد بين الناس، وسمع منه مدخله أيضًا عن الأحوال التي جرت بيننا وبينه بمدة متطاولة نستحضره في خلواته، ويتلفظ بها بلا فوت دقيقة، ونحن إذا راجعنا وجداننا لم نستحضر الأمور التي جرت علينا في يومنا هذا بلا فوت شيء.

وأمثال ذلك من جنابه - أدام الله بركته - كثيرة، ومن له أدنى بصيرة وإيمان صادق بطريق المكاشفة والوحي والإلهام الإلهي لم يشك في أمثال هذه الخوارق من الأنبياء والأولياء أصلاً، بل يعلم يقينًا أن الحكمة والمصلحة في إظهار نوع الإنسان وإرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هي لهذا التفطن والتدبر، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مدائحها وقت ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ منادين على سرها مبشرين لها: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ المختارة المصطفاة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتفضل عليك بأنواع اللطف والكرم ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ صادرة ﴿مِّنْهُ﴾ مكونة لك منك ابنًا بلا أب؛ إظهارًا لقدرته ليكون معجزة لابنك، وإرهاصًا لك ﴿اسْمُهُ﴾ من عنده ﴿الْمَسِيحُ﴾ لفظ سرياني معناه: المبارك؛ لأنه سبحانه بارك عليه، وعلمه الشخصي بين الأنام ﴿عِيسَى﴾ وهو من الأعلام العجمية، وكنيته ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إذ لا أب له حتى يكنى به، وهو مع كونه بلا أب ﴿وَجِيهًا﴾ مشهورًا معروفًا مرجعًا للأنام ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة والرسالة، يتوجه إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم ﴿وَ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ أيضًا لرجوعهم إليه للشفاعة ﴿وَ﴾ كيف لا يشفع للعصاة وهو ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:45] عند الله.

﴿وَ﴾ علامة تقربه أنه ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بما يتعلق بأمور الدنيا والدين حال كونه طفلاً ﴿فِي الْمَهْدِ وَ﴾ حال كونه ﴿كَهْلًا﴾ على طريق واحد بلا تفاوت زيادة ونقصان ﴿وَ﴾ هو لنجابة عرقه في حالتي الطفولة والكهولة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:46] للرسالة والنبوة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:47-50].

فلما سمعت مريم ما سمعت تضرعت إلى ربها واشتكت حيث ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ يا من رباني بالستر والصلاح والعبادة والفلاح ﴿أَنَّى﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ﴾ وأنت تعلم يا رب أني ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ومن سنتك إيجاد الولد بعد مباشرة الزوج؟ ﴿قَالَ﴾ سبحانه إشفاقًا لها وإزالة لشكها: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: مثل حالتك التي تعجبين منها، وهي ولادتك بلا مساس أحد وجود جميع الأشياء الظاهرة من كتم العدم ظهورًا إبداعيًا؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿يَخْلُقُ﴾ يظهر جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلا سبق مدة ومادة بل ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ أراد ﴿أَمْرًا﴾ إيجاد أمر وإظهاره من الأمور المكانية الثابتة في حضرة العلم ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ تنفيذًا لقضائه مجرد كلمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:47] بلا تراخ ولا مهلة، بلا توقف على شرط وارتفاع مانع، وحالك التي تتعجبين منها وتستبعدين وقوعها من هذا القبيل.

ولا تحزني ولا تخافي من التهمة والفضيحة والتعيير والتشنيع؛ إذ لابنك خصائص ومعجزات رفعت عنك جميع ما يعيبك ويشينك؛ إذ لا يشتبه على ذي عقل إن ولد الزنا لا يتصف بأمثال هذه الخصائل والخوارق ﴿وَ﴾ من جملتها أنه ﴿يُعَلِّمُهُ﴾ من لدنه بلا تعليم أحد ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: العلوم المتعلقة بالأمور الظاهرة والتدابير الملكية الشهادية ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: العلوم الباطنة المتعلقة بالحقائق الغيبية ﴿وَ﴾ يعلمه أيضًا ﴿التَّوْرَاةَ﴾ المنزل على موسى صلوات الله عليه ﴿وَ﴾ ينزل عليه خاصة ﴿الإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:48] من عنده.

﴿وَ﴾ بعد إنزال الإنجيل يرسله ﴿رَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يدعوهم إلى طريق الحق ويهديهم إلى صراط مستقيم، ويؤيده بالآيات الساطعة والمعجزات الباهرة الظاهرة من يده الدالة على تصديقه إلى حيث يقول: ﴿أَنِّي﴾ بأمر ربي ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ دالة على نبوتي ورسالة نازلة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ أصور وأقدر

﴿لَكُم﴾ بين أيديكم بإقدار الله إياي ﴿مِّنَ الطِّينِ﴾ الجماد صورة ﴿كَهَيْئَةِ﴾ كصورة ﴿الطَّيْرِ﴾ ومثاله جمادًا بلا حس وحركة ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في ذلك المثال ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حيوانًا طيارًا مثل سائر الطيور، ذلك التقدير والنفخ يصير صادرًا مني ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بقدرته وإرادته ﴿وَ﴾ كذا ﴿أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ المكفوف العينين ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ الذي لا يرجى برؤهما ﴿وَ﴾ أعظم من جميع ذلك أن ﴿أُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ القديمة كل ذلك ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقدرته وإرادته، فهو إجمالاً لا إطلاع لكم على لميته بعد وقوعها أيضًا ﴿وَ﴾ مما لكم إطلاع عليه بعد وقوعه ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من الطعام والفواكه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ منها ﴿فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من المعجزات والخوارق التي ما جاء به أحد ﴿لَآيَةً﴾ ظاهرة دالة على نبوتي ورسالتي ﴿لَّكُمْ﴾ لإهدائكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:49] بالله وإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَ﴾ مع هذه الآيات والمعجزات الظاهرة الباهرة جئتكم ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ المنزل على موسى - صلوات الرحمن عليه - بل على جميع الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين - صلوات الله عليهم أجمعين - وأديانهم وشرائعهم؛ إذ من جملة أمارات النبوة تصديق الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَ﴾ جئتكم أيضًا ﴿لِأُحِلَّ لَكُم﴾ في دينكم، وملتكم المنزلة من عند الله علي ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في الأديان الماضية؛ إذ من سنته سبحانه نسخ بعض الأديان ببعض، وإن كان الكل نازل من عنده، ولمية أمر النسخ ما مر في سورة البقرة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: 106] ﴿وَ﴾ الحاصل أني ﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ قاطعة ساطعة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دالة على توحيده سبحانه، أفردها من عنده باعتبار أن كل واحد من المذكورات يكفي لثبوت نبوته، وبعدما ظهر منه الكل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاحذروا الله من غضبه ألّا تؤمنوا بعد وضوح الدلائل ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:50] في جميع ما جئت به من عنده سبحانه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:51-54].

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح المدبر لحالي وحالكم ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أحسن تربيتي بفضله ولطفه وتربيتكم بأن أرسلني إليكم، وإذا سمعتم ما جئت به وأطعتم بمضمونه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حتى تعرفوه واعلموا أن ﴿هَذَا﴾ أي: العبادة والإيمان ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:51] إلى اليقين والعرفان، فعليكم أن تسلكوه على الوجه الذي أمرتم به، والله المستعان، يوصلكم إلى غاية متمناكم، ونهاية مقصدكم ومرماكم.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أي: شعر وأدرك بنور النبوة ﴿مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وعدم تأثرهم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ﴿قَالَ﴾ مستفسرًا مستبشرًا، إظهارًا للمحبة معهم اختبارًا لهم على مقتضى وفق النبوة ﴿مَنْ أَنصَارِي﴾ في إهداء المضلين ﴿إِلَى﴾ سبيل ﴿اللهِ﴾ ينصرني ويعينني عليه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: الجماعة من أصحابه المنسوبة إلى الحور الذي هو البياض؛ لصفاء قلوبهم وعقائدهم عن كدورة النفاق والشقاق، وخلوص طويتهم بالوفاق: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ﴾ رسول ﴿اللهِ﴾ ننصرك بقدر وسعنا وطاقتنا في إجراء أحكام الله وتنفيذ أوامره؛ لأنا ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ المرسل للرسل، المنزل الكتب بتبليغك إيانا ﴿وَاشْهَدْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق لنا يوم العرض الأكبر عند الملك المقتدر ﴿بِأَنَّا﴾ مع إيماننا وإخلاصنا فيه ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:52] منقادون مطيعون لما جئت به من عند ربنا لإصلاح حالنا.

ثم لما اعترفوا بالإيمان بالله وبنصرة رسوله المبلغ لأحكامه، وأشهدوا على إيمانه وإسلامهم، ناجوا مع الله مخبتين مخلصين في سرهم حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿آمَنَّا﴾ بتوفيقك وبإرشاد رسلك ﴿بِمَا أَنزَلْتَ﴾ من الكتاب المبين لأحكامك المنبهة المتعلقة لتوحيدك ﴿وَ﴾ مع الإيمان به ﴿اتَّبَعْنَا﴾ في امتثال ما أمرت له فيه ﴿الرَّسُولَ﴾ المنزل عليه، المتمثل بجميع أوامره الموصلة إلى الكشف والشهود ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ بفضلك ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:53] الذين لا يشهدون في الوجود سوى شمس ذاتك وتجلياتها.

﴿وَمَكَرُوا﴾ احتالوا؛ أي: الكافرون المحسوسون بالكفر في قتل عيسى عليه السلام بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ اللهُ﴾ معهم في إنجائه ورفعه إلى السماء، وإلقاء شبهه على من اغتال عليه حتى قتل مجانًا على مظنة أنه هو، مع أنه رفع إلى السماء ﴿وَاللهُ﴾ المنتقم عن من ظلم لأجل من ظلم ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54] أي: أقوى المحتالين لمن اغتال عليه لقتله.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾ [آل عمران:55-58].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ إعلامًا لعيسى عليه السلام حين هموا بقتله وعينوا من اغتال عليه وهو غافل عن كيدهم: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي﴾ بغلبة لاهوتيتي عليك ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مصفيك عن ناسوتيتك المانعة عن الوصول إلى مقر العز ﴿وَ﴾ بعد تصفيتك عن كدورة ناسوتيتك ﴿رَافِعُكَ﴾ بعد ارتفاع موانعك ﴿إِلَيَّ﴾ إذ لا مرجع لك غيري ﴿وَ﴾ بعد رفعك ﴿مُطَهِّرُكَ﴾ ومزكيك ﴿مِنَ﴾ حجاب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا بغيوب أنانيتك الباطلة شمس الذات الظاهرة على جميع الذرات ﴿وَ﴾ إني بعد رفعك إليّ ﴿جَاعِلُ الَّذِينَ﴾ آمنوا بك و ﴿اتَّبَعُوكَ﴾ في جميع ما جئت به لإصلاح حالهم ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعلى رتبة وأشرف منزلة ومكانة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بحيث ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:61] ولهم عذاب أليم.

وبعد ظهور عيسى عليه السلام لم يتفق غلبة اليهود أصلاً، بل كانوا منكوبين منكوسين دائمًا إلى الآن ﴿ثُمَّ﴾ قال سبحانه بلسان التوحيد على وجه التنبيه لعيسى ولمن آمن له، ولمن أنكر عليه وكفر: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعًا في النشأة الأخرى أيها المختلفون في أمر الدين والإطاعة والإيمان والكفر في النشأة الأولى ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بعد رجوعكم إليّ ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران:55] على مقتضى علمي وإرادتي.

ثمّ فصل سبحانه حكمه بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا سبيل الحق الظاهر عن مشكاة النبوة والرسالة؛ عنادًا واستكبارًا، وكذبوا الأنبياء، وأنكروا ما جاءوا من الأحكام والمواعظ والحكم والعبر وأصروا عليها ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أطردهم وأبعدهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالمذلة والصغار والإجلاء وضرب الجزية ﴿وَ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بجهنم البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ بعد ظهور الدين الناسخ

للأديان الماضية ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:56] من الأنبياء الذين يدعون الإيمان بهم، ويدعونهم بدينهم وكتابهم، ينصرونهم وينقذونهم من عذاب الله؛ لتركهم العمل بالناسخ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالدين الناسخ والكتاب الناسخ، واتبعوا النبي الذي جاء به من عند ربه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة فيه؛ انقيادًا وامتنانًا ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ أي: في النشأة الأخرى ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي: يوفي عليهم أجور أعمالهم بأضعاف ما عملوا؛ تفضلاً عليهم بمحبة الله إياهم بسبب امتثال أوامره وإطاعة رسله ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي للعباد ﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:57] الخارجين عن حدوده المنزلة على رسله، المكاشفين تحقيق توحيده، وما يحصل لهم الظلم والخروج إلا بمتابعة عقولهم السخيفة بظلام الوهم المضل عن الطريق المستبين.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من نبأ عيسى ﷺ وغيره الذي ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل مع كونك خالي الذهن عنه ولم تتعلم من معلم بشري، والحال أنك أمي، إنما هي ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾ المنزلة عليك من عندنا الدالة على نبوتك ورسالتك ﴿وَ﴾ من ﴿الذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ [آل عمران:58] الكلام المجيد المحكم المشتمل على الحكم المتقنة والأحكام المبرمة الصادرة عن محض الحكمة، لا يأتيه الباطل ولا يقربه النسخ والتبديل.

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟
نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ
عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:59-63].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾ أي: شأنه وقصته الغريبة الخارقة للعادة، وهي وجوده بلا أب ﴿عِندَ اللهِ كَمَثَلِ﴾ كشأن ﴿آدَمَ﴾ في إبداعه سبحانه وإيجاده، بل قصة آدم أغرب من قصته؛ إذ لا أب له ولا أم بل ﴿خَلَقَهُ﴾ قدّره وصوّره سبحانه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ جماد ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ بشرًا حيًا ﴿فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59] بالفور حيوانًا ذا حس وحركة إرادية وإدراك وفهم.

هذا الكتاب المتلو عليك يا أكمل الرسل هو ﴿الحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل إليك؛ لتأييدك ونصرك في دعواك الرسالة ﴿مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن﴾ في حقيته ﴿مِّنَ المُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60] الشاكين بمقتضى عقولهم السخيفة.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ جادلك وخاصمك ﴿فِيهِ﴾ أي: في أمر عيسى وشأنه من النصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ المستنبط من الكتاب المنزل من عندنا، المبين لشأنه وإيجاده بلا أب ﴿فَقُلْ﴾ لهم حين خاصموك ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا أيها المجادلون المدَّعون ابنية عيسى لله، المفرطون في أمره ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ ونجتمع بعد ذلك في مجمع عظيم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتباهل بأن يتضرع ويدعو كلٌ منَّا ومنكم إلى الله ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]، حتى يظهر الصادق من الكاذب، ويتميز الحق عن الباطل.

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة، قالوا: حتى ننظر ونتأمل، فلما خلوا مع ذي رأيهم قالوا: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: والله، لقد عرفتم أنه هو النبي الموعود في كتابكم، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله، ما باهل قوم نبيًا إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا.

فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنًا الحسين، آخذًا بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا»[1]، فقال أسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فأذعنوا للرسول ﷺ، وبذلوا الجزية ألفي حُلة حمراء وثلاثين درعًا من حديد، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو باهلوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي نارًا، ولاستأصل الله نجران، وأهله حتى الطير على الشجر»[2].

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور من نبأ عيسى ومريم عليهما السلام ﴿لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ﴾ المطابقَ للواقع ﴿وَ﴾ لا تكفروا بابنية عيسى لله وزوجية مريم، ولا تقولوا بالتثليث والأقانيم؛ إذ ﴿مَا مِنْ إِلَهٍ﴾ معبود بالحق في الوجود ﴿إِلاَّ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:3] ولم يتخذ

(1) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (284/1).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (426/7، رقم 37014).

صاحبة ولا ولدًا ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ الحق الحقيق بالحقية، المتصف بالديمومية، المتحد بالقيومية ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر، القاهر للأغيار مطلقًا ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:62] في إظهارها على مقتضى إرادته واختياره.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الحق بعدما ظهر دلائله وشواهده، أعرض عنهم ولا تجادل معهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المنتقم لمن أعرض عن سبيله ﴿عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:63] الذين يفسدون في الأرض بإفساد عقائد ضعفاء العباد بالإعراض عن طريق الحق، والإلحاد عن الصراط المستقيم.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران: 64-66].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح كلامًا صادرًا عن لسان الحكمة والتوحيد، خاليًا عن وصمة الغفلة والتقليد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الذين يدعون الإيمان بتوحيد الله وكتبه ورسله ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا نتفق ونرجع ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ حق صحيحة ﴿سَوَاءٍ﴾ حقيتها وصحتها ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ مسلمة ثبوتها عندنا وعندكم بلا خلاف منا ومنكم، وهي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ﴾ المعبود بحق، المستحق للعبادة بالأصالة ﴿وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ﴾ في عبادته ﴿شَيْئاً﴾ من مصنوعاته ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً﴾ واجب الإطاعة والانقياد ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المتوحد بالألوهية، المنفرد بالمعبودية، وإن قبلوا ما قلت لهم عليه وانقادوا وأطاعوا فقد آمنوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الكلمة الحقة المسلمة المتفقة عليها ﴿فَقُولُوا﴾ إلزامًا وتبكيتًا ﴿اشْهَدُوا﴾ أيها المنكرون الكافرون ﴿بِأَنَّا﴾ لا أنتم ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:64] موحدون، مؤمنون، منقادون.

ثم قل لهم إلزامًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ وتجادلون ﴿فِي﴾ شأن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بأنه يهودي أو نصراني ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ﴾ المبيّن لليهودية

﴿وَالإِنجِيلُ﴾ المبيّن للنصرانية ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾ بمدة متطاولة ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:65] أنتم أيها الكافرون المكابرون في هذه الدعوى.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ أيها الحمقى العميان في أمور الدين ﴿هَؤُلاءِ﴾ الضالون المصرون على الكفر والعناد ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مذكور مثبت في كتابكم من بعثة سيدنا محمد ﷺ وأوصافه فتغيرونه وتحرفونه عنادًا بعدما ظهر عندكم حقيته ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مثبت مذكور في كتابكم من يهودية إبراهيم ونصرانيته، فتفترون وتنسبون إلى كتابكم ما لم يذكر فيه؛ مكابرة وعنادًا ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ﴾ ما حرفتم وما افتريتم ويعاقب على مقتضى علمه ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:66] ولا تعتقدون بعلمه على ما فرطتم فيه.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران:67-71].

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ لأن موسى إنما جاء بعده بألف سنة ﴿وَلاَ نَصْرَانِيًّا﴾ لأن عيسى عليه السلام إنما جاء بعده بألفي سنة ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن إفراط اليهود والنصارى في عزير وعيسى وتفريطهم في إنكار سيدنا محمد ﷺ ﴿مُسْلِمًا﴾ منقادًا معتدلاً، مستويًا على صراط التوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67] الضالين عن طريق الحق بنسبة الحوادث إلى الأسباب والوسائل.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ وأقربهم دينًا، وأولاهم محبة ومودة ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته، وتدينوا بدينه، وامتثلوا بما جاء به من عند ربه ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث من شيعته، المنتسب إلى ملته، المنشعب من أهل بيته وزمرته ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا النبي، وبما جاء به من الكتاب الناسخ للكتب السالفة، المبين لطريق التوحيد الذاتي ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى جادة توحيده ﴿وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:68] الموحدين الذين يريدون وجه الله في جميع حالاتهم، يولي أمور دينهم بحيث لا يشغلهم عن التوجه إليه

مزخرفات الدنيا الشاغلة عن المولى.

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لخباثة نفوسهم وبغضهم المرتكز في قلوبهم؛ حسدًا لظهور دين الإسلام ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي: يضلونكم ويحرفونكم عن جادة الشريعة وسبيل الإيمان والتوحيد، نزلت في اليهود لما دعوا حُذيفة وعمارًا ومعاذًا إلى اليهودية ﴿وَ﴾الحال أنهم ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بهذا الضلال ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لتضعيف العذاب عليهم بسبب هذا الإضلال ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران:69] بهذا الضرر والنكال.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المدعين الإيمان بموسى وعيسى - عليهما السلام - والتصديق بكتابهما ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة فيهما الناطقة على بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران:70] فيهما أوصافه ونعوته، وتنتظرون إلى ظهوره وبعثه، وبعدما ظهر وبُعث، لِمَ أنكرتم عليه عنادًا، وكفرتم استكبارًا؟ ومع ذلك غيرتم وحرفتم كتابكم ظلمًا وزورًا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المحرفين لكتاب الله ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ﴾ الظاهر البيّن المكشوف المنزل من عند الله ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ المموه المزخرف المفترى من عند أنفسكم ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ الذي هو بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:71] حقيته في نفوسكم ولا تظهرونه؛ حسدًا وبغيًا.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:72-74].

﴿وَ﴾ من غاية حسدهم ونهاية بغضهم أنهم احتالوا واستخدعوا لإضلال المسلمين حيث ﴿قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لأصحابه وجلسائه على وجه الحيل والمخادعة: ﴿آمِنُوا﴾ استهزاءً وتسفيهًا ﴿بِالَّذِي﴾ يدعون أنه ﴿أُنزِلَ﴾ عليه موافقة ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي: أول بدو النهار؛ ليفرحوا ويسروا بموافقتكم إياه ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ أي: اتركوه وأنكروا عليه في آخر النهار، معللين بأنا لم نجد محمدًا

على الوصف الذي ذكر في كتابنا؛ ليترددوا ويضطربوا بمخالفتكم، افعلوا كذلك دائمًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:72] رجاء أن يرجعوا عن دينهم وإيمانهم.

﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لا تخلصوا عن صميم القلب، ولا تظهروا تصديقكم ﴿إِلاَّ لِمن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ من إخوانكم وأصحابكم المتدينين بدين آبائكم وأسلافكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل ردًا لمخادعتهم ودفعًا لحيلتهم كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ الْهُدَى﴾ الموصل إلى سواء السبيل ﴿هُدَى اللهِ﴾ الهادي لعباده، يهدي من يشاء إلى طريق توحيده، ويُضِل عنه من يشاء، وإنما دبرتم وخادعتم ﴿أَن يُؤْتَى﴾ أي: لأنْ يؤتى ﴿أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من الكفر والإنكار بمحمد ﷺ ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي: يغلبوكم بهذا الخداع والتدبير ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ على زعمكم الفاسد واعتقادكم الباطل ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: لا تغتروا بمزخرفات عقولكم، ولا تطمئنوا بمقتضياتها؛ إذ هو قاصر عن المعرفة خصوصًا عند تزاحم الوهم، بل ﴿إِنَّ الْفَضْلَ﴾ والهداية ﴿بِيَدِ اللهِ﴾ بقدرته ومشيئته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ بلا معاينة العقل ونصرته ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وهدايته، لا حصر لطريق إلهامه وعلمه ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:73] باستعدادات عباده، يوصل كلاً منهم إلى توحيده بطريق يناسب استعداده.

بل ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ الواسعة الشاملة لجميع الفضائل والكمالات ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلَّص عباده؛ تفضلاً عليه من عنده من استعداداتهم ما لا يدرك غوره، ولا يكتنه طوره ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي بجميع الكمالات ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران:74] واللطف الجسيم على بعض مظاهره من الأنبياء والأولياء الذين فنيت هوياتهم البشرية بالكلية في بحر الوحدة، وتجردوا عن جلبابها بالمرة.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ
لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ
اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران:75-77].

﴿وَ﴾ من تفاوت الاستعدادات، واختلاف القابليات الفطرية ترى ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ ثقة عليه واعتمادًا له ﴿بِقِنطَارٍ﴾ مال كثير مفضل مخزون ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ على الوجه الذي ائتمنت عليه بلا تغيير وخيانة؛ لصفاء فطرته وحسن استعداده وقابليته ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أو أقل ﴿لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لخباثة طينته وقبح قابليته ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ دائمًا مطالبًا أمانتك منه على وجه الإلحاح والإتمام، نزلت في عبد الله بن سلام حين استودعه قريشي ألفًا ومائتي أوقية ذهبًا، فأداه إليه، وفنخاص بن عاذوراء استودعه أيضًا قريشي آخر دينارًا، أنكر عليه وجحد، مع اتفاقهما في الكفر والضلال، وانهماكهما في الإصرار والفساد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ترك البعض اليهودي ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم استحلوا مال من ليس على دينهم ﴿قَالُوا لَيْسَ﴾ في كتابنا المنزل ﴿عَلَيْنَا﴾ من ربنا ﴿فِي﴾ حق ﴿الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: طريق معاتبة ومؤاخذة؛ لأنهم ليسوا من أهل الكتاب ﴿وَ﴾ هم بهذا القول ﴿يَقُولُونَ﴾ ويفترون ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ لأنه ليس في كتابهم هذا الباطل بل يفترونه عنادًا ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:75] أنه افتراء منهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «**كذب أعداء الله، ما من شيء في الجاهلية إلا هو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر**»[1].

﴿بَلَىٰ﴾ للحق سبيل معاتبة وانتقام معهم في حق كل واحد من عباده على أي دين كان وملة كانت إذا صدر عنهم التعدي إلا ﴿مَنْ أَوْفَىٰ﴾ منهم ﴿بِعَهْدِهِ﴾ الذي عهد مع الله ومع عباده ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ من غضب الله بعدم الوفاء، فهو من المحبوبين عند الله ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:76] ويرضى عنهم، يوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ الذي عهدوا مع رسوله ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ المغلظة الصادرة منهم على وفائه، كقولهم: والله، ليؤمنن به ولينصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من متاع الدنيا، مثل: أخذ الرشاوى وإبقاء الرئاسة ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ المستبدلون الخاسرون هم الذين ﴿لاَ خَلاَقَ﴾ لا نصيب ولا حظ ﴿لَهُمْ فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ التي هي دار الوصول والقرار ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ تكليمه من استخلفه عن

---

(1) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (297/13).

مقتضيات جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بنظر الرحمة حتى ينعكس بروق أنوار الوحدة الذاتية المتلألئة المشعشعة من عالم العماء التي هي السواد الأعظم المشار إليه في الحديث النبوي - صلوات الله على قائله - على مرائي قلوبهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ولا يلتفت إليهم حين ثنائه.

والتفاته على خلص عباده المستصقلين مرايا قلوبهم عن صداء الالتفات إلى الغير مطلقًا؛ لينعكس فيها أشعة التجليات الجمالية والجلالية اللطفية والقهرية، حتى تعتدلوا وتستقيموا على الصراط المستقيم الذي هو صراط توحيد الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿عَذَابٌ﴾ طرد وخذلان ﴿أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:77] مؤلم لا إيلام أعظم منه؛ إذ حرمان الوصول إلى غاية ما يترتب على الوجود والحصول من أشد المؤلمات والمؤذيات.

نعوذ بالله من غضب الله، لا حول إلا بالله.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:78-80].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ لغاية بغضهم وعداوتهم مع النبي ﷺ ﴿لَفَرِيقًا﴾ جماعة وفئة من المحرفين الذين يحرفون اسمه ونعته في التوراة، يقصدون تشهير المحرف وترويجه على ضعفاء العوام؛ إضلالاً لهم حيث ﴿يَلْوُونَ﴾ يطلقون ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ بالمحرف إطلاقهم ﴿بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي: ليظن السامعون أنه ﴿مِنَ الْكِتَابِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزل لا نصًا ولا أخذًا ولا تأويلاً ﴿وَ﴾ مع ذلك يفترون ﴿يَقُولُونَ هُوَ﴾ المحرّف منزل ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بل من تسويلات نفوسهم الخبيثة، والباعث عليها أهويتهم الباطلة من حب الجاه والرئاسة ﴿وَ﴾ لترويج أباطيلهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه ينسبون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ افتراء ﴿وَهُمْ﴾ في ضمائرهم

وبواطنهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:78] يقينًا أنه فرية صدرت عنهم؛ مكابرة وعنادًا.

ومع ادعائهم الإيمان والتوحيد والكتاب والرسل، وحصرهم الدين والشريعة على دينهم وشرعهم، لم يتفطنوا ولم يعلموا أن البشر وإن أُرسل وأُنزل وخُصص بفضائل جليلة وخصائل جميلة، لكن لا ينسلخ عن لوازم البشرية مطلقًا، حتى يتصف بالألوهية، بل لا يزال العبد عبدًا والرب ربًا.

غاية ما في الباب أن الأشخاص البشرية في التجريد عن لوازمها تتفاوت، فمن كان تجريده أكثر كان إلى الله أقرب، وإلى الفناء أميل، وإلى البقاء أشوق، وإلا فالسلوك لا ينقطع أبد الآبدين، كما قال ﷺ في الحديث القدسي عن الله ﷻ: «ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي»[1] ما للعباد ورب الأرباب، فعيسى - صلوات الرحمن عليه - وإن ارتفع قدره وعلت رتبته عند الله، وأظهر بنصر الله خوارق خلت عنها الأنبياء - عليهم السلام - لكن لا ينسلخ عن لوازم البشرية مطلقًا، وهم يدعون انسلاخه ويعبدونه كعبادته سبحانه وتعالى، وينسبونه إلى الله بالبنوة - والعياذ بالله - وما قدروا الله حق قدره.

لذلك رد الله عليهم على سبيل التنبيه والتعليم بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِبَشَرٍ﴾ خصَّه لرسالته ونيابته ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾ ينزله ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين له الشرائع ﴿وَالْحُكْمَ﴾ المحفوظ فيها، المتعلق بأحوال العباد في معاشهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ المقتبسة منها، المتعلقة بأحوالهم في معادهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما اصطفاه الله واختاره بالتشريف الأتم الأكمل ﴿يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ المرسل إليهم تجبرًا واستكبارًا: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾ اعبدوني عبادة خاصة ﴿مِن دُونِ﴾ عبادة ﴿اللَّهِ﴾ وما هي إلا شرك غليظ، كيف صدر أمثال هذه الهذيانات من مشكاة النبوة، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿وَلَٰكِن﴾ قولهم وأمرهم عليهم هو كذا: ﴿كُونُوا﴾ أيها الموحدون ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ مخلصين، ولا تكونوا شيطانيين مشركين ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ أي: تعلمون أنتم من ﴿الْكِتَابَ﴾ من أمور دينكم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:79] تعلمونه لغيركم من تلامذتكم، وما يأمر ويوحي الأنبياء إلا مثل هذا.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ نبيكم إضلالاً لكم مع كونه هاديًا ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾

---

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (8/3).

المرسلين لكم من عند الله بوسيلة الملائكة ﴿أَرْبَابًا﴾ آلهة موجودين أصالة غير الله ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ أتظنون أن يأمركم النبي المرسل لهدايتكم إلى طريق التوحيد ﴿بِالْكُفْرِ﴾ بالشرك ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:80] موحدون برسالته، أفلا تعقلون؟.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) ﴾ [آل عمران: 81-84].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن خاصمك من أهل الكتاب وقت ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: عهودهم الوثيقة، المتعلقة بالأمثال، والمحافظة ﴿لَمَا﴾ أي: الذي ﴿آتَيْتُكُم﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِّن كِتَابٍ﴾ مبيّن لكم ولأمتكم الأحكام الظاهرة المتعلقة بالمعاملات ﴿وَحِكْمَةٍ﴾ مورثة لكم ولهم الأخلاق المرضية، الموصلة إلى التوحيد الذاتي ﴿ثُمَّ﴾ أخذ الله مواثيقهم أيضًا بأنه متى ﴿جَاءَكُمْ﴾ وعلى أمتكم ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل من عندنا على التوحيد الذاتي ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من توحيد الصفات والأفعال ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ أنتم، ولتبلغن على أمتكم أن يؤمنوا له، وتصدقوه ﴿وَ﴾ لا تكتفون أنتم وأممكم بمجرد الإيمان والتصديق، بل ﴿لَتَنصُرُنَّهُ﴾ فيما جاء به، وهو التوحيد الذاتي؛ إذ مرجع جميع الملل والنحل إليه، لذلك ختم ببعثه ﷺ أمر الإنزال والإرسال.

وبعد أخذ المواثيق ﴿قَالَ﴾ سبحانه مستفهمًا على سبيل التقرير وتأكيدًا: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ أيها الأنبياء أنتم ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ من أممكم المتسبون إليكم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ عهودكم ومواثيقكم ﴿إِصْرِي﴾ أي: حلفي وعهدي الثقيل الذي يوجب نقضه أنواعًا من العذاب والنكال؟ ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ بعهودك ومواثيقك سمعًا وطاعة، وأخذنا أيضًا من

أمنا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: فاحفظوا المواثيق، ولا تغفلوا عنها ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:81] الحاضرين المطلعين لحفظكم ووقائكم ﴿فَمَن تَوَلَّى﴾ أعرض منكم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد الوثيق ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المعرضون ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:82] الخارجون عن طريق التوحيد الذاتي الجامع لجميع الطرق.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ﴾ الذي هو التوحيد الذاتي ﴿يَبْغُونَ﴾ تطلبون أيها المعرضون الفاسقون ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿لَهُ أَسْلَمَ﴾ انقاد وتذلل ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من أرباب الشهود والمكاشفات ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ من أصحاب العلوم والمعاملات ﴿طَوْعًا﴾ تحقيقًا ويقينًا ﴿وَكَرْهًا﴾ تقليدًا وتخمينًا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:83] رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بلسان الجمع ﴿آمَنَّا﴾ أذعنَّا وأيقنَّا ﴿بِاللهِ﴾ الواحد الأحد، المتفرد بالتحقيق والوجود ﴿وَ﴾ صدقنا ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من عنده من الكتاب المبين لتوحيده ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ أيضًا في سالف الزمان ﴿عَلَى﴾ أسلافنا ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب وأحفاده ﴿وَ﴾ صدقنا أيضًا ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ﴾ الموجودون الملهمون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ على مقتضى استعداداتهم ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإطاعة والتصديق ﴿وَ﴾ كيف نفرق ونخصص؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ المتدينون بدين الله المتجلي في الآفاق ﴿لَهُ﴾ باعتبار تفرده وإحاطته وظهوره في المظاهر كلها بأوصافه وأسمائه بلا تفاوت ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:84] مؤمنون موقنون.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [آل عمران:80-89].

﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ يطلب ويتدين ﴿غَيْرَ الإِسْلامِ﴾ المنزل على خير الأنام ﴿دِينًا﴾ وشريعة ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يوم الدين القويم، المستجمع لجميع الأديان، الناسخ لها هو

الإسلام؛ لابتنائه على التوحيد الذاتي المسقط للإضافات والخصوصيات مطلقًا ﴿وَهُوَ﴾ أي: المتدين بغير دين الإسلام ﴿فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ وقت حصاد كل ما يزرعه في النشأة الأولى ﴿مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85] خسرانًا مبينًا.

نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

ثم قال سبحانه مستفهمًا مستبعدًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بوحدانية الله ﴿وَ﴾ بعد أن ﴿شَهِدُوا﴾ أقروا واعترفوا وصدقوا ﴿أَنَّ الرَّسُولَ﴾ المبيّن لهم طريق التوحيد، المرشد إليه مرسل ﴿حَقٌّ﴾ من عند الله صادق في دعواه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ الدالة على صدقه، فقبلوا جميعه ثم ارتدوا، العياذ بالله ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل ﴿لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:86] الخارجين عن حدوده.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الظالمون الضالون عن منهج الصدق والصواب ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ المتفرع على ضلالهم هو ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾ وطرده وتخذيله إياهم ثابت لهم مستقر أزلاً وأبدًا ﴿وَ﴾ لعنة ﴿المَلائِكَةِ﴾ المستغفرين للمؤمنين ﴿وَ﴾ لعنة ﴿النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران:87].

﴿خَالِدِينَ﴾ هؤلاء ﴿فِيهَا﴾ أي: في اللعنة ولوازمها من أنواع العذاب والنكال بحيث ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾ المتفرع عليها أصلاً ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: 88] ينتظرون تخفيفه.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ منهم في النشأة الأولى ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الارتداد والضلال ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أحوالهم بالتوبة والإخلاص والاستغفار والندامة على ما صدر عنهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ الموفق لهم على التوبة ﴿غَفُورٌ﴾ يستر جرائمهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:89] مشفق يتجاوز عن زلاتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران:90-92].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ارتدوا، العياذ بالله ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ ثم لم يتوبوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يتندموا بل ﴿ازْدَادُوا كُفْراً﴾ أو إصرارًا وعتوًا واستكبارًا ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ بعدما عاندوا ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المعاندون المصرون ﴿هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: 90] المقصورون على الضلالة في بدء الفطرة، لا يرجى منهم الفلاح أصلاً بل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مدة أعمارهم ﴿وَمَاتُوا وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ كُفَّارٌ﴾ كما كانوا ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾(1) أي: لن تقبل توبتهم عند الله وإن أنفق وافتدى كل واحد منهم ملء الأرض ذهبًا رجاء أن تقبل توبته، بل ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الهالكون في تيه الضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دائمًا مستمرًا ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:91] من أنواع النصر من الشفاعة والإنفاق والعمل الصالح والحج المبرور وغير ذلك.

ثم لما سجل سبحانه عليهم العذاب بحيث لا يخفف عنهم أصلاً، ولا تقبل توبتهم وإن أنفق كل واحد منهم ملء الأرض ذهبًا، نبه على المؤمنين طريق الإنفاق، وخاطبهم على وجه التأكيد والمبالغة فقال:﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أي: لن تصلوا ولن تبلغوا أيها المؤمنون مرتبة الأبرار الأخيار عند الله مطلقًا ﴿حَتَّى تُنفِقُوا﴾ امتثالاً لأمره وطلبًا لرضاه ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أحسن ما عندكم وأكرمه ﴿وَ﴾اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ ولو حبة أو ذرة أو كلمة طيبة خالصًا لرضاه بلا شوب المنة والأذى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ونياتكم ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:92] لا يغيب عن علمه شيء فيجازيكم على مقتضى علمه.

﴿ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ

---

(1) أي: بملء الأرض ذهبًا، فإن قيل نفى قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدى به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميرًا فضلا عن أن يملك ملء الأرض ذهبًا، قلنا الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية من أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغًا إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل اعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى المقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب. تفسير حقي (234/2).

أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:93-90].

ثم لما ادعى اليهود أن ما حرم في ديننا كان حرامًا في دين إبراهيم أيضًا، وأنتم أيها المدعون موافقة دينكم وملتكم دين إبراهيم وملته، لم تحلون ما حرم في دينه؟

رد الله عليهم وكذبهم بقوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ الذي به يقتات الإنسان ويتغذى ﴿كَانَ حِلاًّ﴾ حلالاً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إذ الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد الشرع بتحريمه ﴿إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ على سبيل النذر بلا ورود الوحي؛ إذ كان له عرق النسا، فنذر إن شفي لم يأكل ما هو أحب الطعام عنده واللذة، وهو لبن الإبل ولحمه فشفي، ولم يأكل بعده منها ذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ ثم لما ظهر أنواع الخبائث والقبائح من اليهود، وحرم الله عليهم في التوراة طيبات أحلت لهم قبلها بسبب خباثتهم وكثافتهم، فإن أنكروا عليها وقالوا: لسنا أول ما حرم عليه هذه الأشياء المحرمة فيها، بل حرم لمن قبلنا ونحن نقتدي بهم ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ على رءوس الأشهاد ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93] في دعواكم، وإلا فقد افتريتم على كتاب الله ما ليس فيه.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ﴾ ظهور ﴿ذَلِكَ﴾ الدليل والبرهان ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾المفترون المنهمكون في العتو والعناد ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران:94] الخارجون عن مسالك التوحيد، المتمردون عن ربقة الإيمان.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿صَدَقَ اللهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون ألا حرمة لهذه الأشياء في دين إبراهيم عليه السلام، بل أول من حرم عليهم أنتم أيها اليهود، وإن أردتم استحلالها ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التي هي الإسلام المنزل على خير الأنام؛ لأنه كان ﴿حَنِيفاً﴾ طاهرًا عن الخبائث والرذائل المؤدية إلى تحريم الطيبات؛ إذ هو على صراط التوحيد وجادة الاعتدال، بعيد عن طرفي الإفراط والتفريط المؤديان إلى الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:95] أصلاً لصفاء فطرته ونجابة طينته.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:96-99].

ثم لما كان إبراهيم - صلوات الرحمن عليه - مستقيمًا على صراط التوحيد، مستويًا عليه ما وضع سبحانه أول معبد للموحدين إلا لأجله كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ ليعبدوا فيه الله ويتوجهوا إلى جنابه ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي بمكة قبل وضع المسجد الحرام، قبل وضع البيت المقدس بأربعين سنة، والحال أنه وضع ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لساكنيه وطائفيه، يرشدهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96][1] يوصلهم إلى التوحيد الذاتي لو كوشفوا بسرائر وضعه وتشريعه إذ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ﴾ دلائل وشواهد ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ واضحات دالة على توحيد الذات منها: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو مقام الرضا والتسليم ﴿وَمَن دَخَلَهُ﴾ ضيفًا مسلمًا مفوضًا ﴿كَانَ آمِناً﴾[2] عن وسوسة الأنانية ودغدغة الغيرية، متصفًا بصفة الخلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: للوصول إلى توحيده وللتحقق بمقام عبوديته وإحسانه وجب ﴿عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الممثل عن قلب الخليل اللائق لخلعة الخلة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ منكم أيها الحيارى في صحارى الإمكان ﴿إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من

---

(1) يقال: إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات؟! ويقال: لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أفْرِدْ سِرَّكَ لأول حبيبٍ آثرك، ويقال: شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له، ويقال: ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم، فالأغنياء يزورون البيت، ويطوفون بِقَدَمِهم، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم. انظر: تفسير القشيري (357/1).

(2) فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهَاج ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة: الحكم باقٍ، وإن من وجب عليه حدٌ أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج، ولكن يُضيَّق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج. انظر: البحر المديد (310/1).

أمرنا رشدًا ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يحج إنكارًا وعنادًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المستغني في ذاته عن جميع مظاهره ومصنوعاته ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97] لم يبال بهم وبعباداتهم، وإنما أظهرهم وأوجب عليهم العبادة والرجوع إلى جنابه والتوجه نحو بابه؛ ليتحققوا في مرتبة العبودية، ويتقرروا فيها حتى يستحقوا الخلافة والنيابة المتفرعة على سر الظهور والإظهار.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر شعائر الإسلام ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المدعين للإيمان بوحدانية الله ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده المنزلة على نبيه الذي جاء من عنده بالتوحيد الذاتي ليكون مرسلاً إلى كافة البرايا رحمة للعالمين؟ ﴿وَ﴾ لا تخافون من غضب الله وسخطه؛ إذ ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلع حاضر ﴿عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:98] من الإنكار والاستكبار والتحريف والاستسرار.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المدعين الاتباع بالكتب والرسل المنزلة من عند الله ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تصرفون وتحرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو دين الإسلام وهو الصراط المستقيم إلى صفاء الوحدة ﴿مَنْ آمَنَ﴾ انقاد وتدين به ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال كونكم طالبين أن توقعوا فيه عوجًا وانحناء وضعفًا حتى يضعف اعتقاد المسلمين، ويتزلزل آراؤهم في أمور دينهم كما في زماننا هذا ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ مطلعون عن مطالعة كتبكم المنزلة من عند الله على ظهور دين الإسلام وارتفاع قدره وقدر من أوتي به ومع ذلك حرفتم الكتب وأنكرتم له عنادًا واستكبارًا ﴿وَ﴾ لا تغفلوا عن غضب الله وإنتقامه؛ إذ ﴿مَا اللَّهُ﴾ العالم بالسرائر والخفيات ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99]من التلبيس والعناد والتحريف والتغيير.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران:100-103].

ثم لما وبخ سبحانه الكافرين القاصدين إضلال المؤمنين بما وبخ وبالغ توبيخهم بما بالغ، أراد أن يحذر المؤمنين عن مخالطتهم وموافاتهم، فناداهم؛ لأنه دخل في قبول النصح فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفقوا على تشريف الإيمان، مقتضى إيمانكم الاجتناب عن مخالطة الكفار ومؤاخاتهم وادعاء المحبة والمودة معهم؛ لأنكم ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ طائعين قاصدين إطاعتهم وانقيادهم ﴿يَرُدُّوكُم﴾ البتة ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وتوحيدكم ﴿كَافِرِينَ﴾ [آل عمران:100] مشركين ما أنتم عليه في جاهليتكم.

نزلت في فرقة من الأوس والخزرج كانوا يجتمعون ويتحدثون ويتناشدون، فمر على اجتماعهم شاس بن قيس اليهودي، فغاظه مؤاخاتهم ومخالطتهم، فأمر بشاب من اليهود أن يجلس إليهم، ويذكرهم يوم بعاث، وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا إلى أن تغاضبوا وتخاصموا، وصاحوا: السلاح! واجتمع من الجانبين خلق عظيم.

وتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال لهم: «أتدعون الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد، إذ أكرمكم الله بالإسلام وشرفكم بالإيمان والتوحيد الرافع لجميع الخصومات»[1] فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وتعانقوا وتحابوا، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ.

﴿وَ﴾ لذلك قال لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يا أيها المؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿فِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ المرسل إليكم المولي لأموركم ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾ منكم ﴿بِاللهِ﴾ ويتبع رسوله المنزل من عنده بتوحيده الذاتي ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ واهتدى ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:101] يوصله إلى صفاء الوحدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معظم أموركم في محافظة الإيمان المؤدي إلى الكشف والعيان، التقوى والاجتناب عن محارم الله ومنهياته، والتحلي بأوامره ومرضياته ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[2] خالية عن الميل والرياء والبدع والأهواء

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف (304/1).

(2) قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ تلف النفس في مواجبه. وقال القاسم: بذل المجهود،

المفضية إلى الإلحاد والزندقة ﴿وَ﴾ اجتهدوا أيها المؤمنون أن ﴿لاَ تَمُوتُنَّ﴾ عن هويتكم ﴿إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102] مخلصون في الاعتصام بحبل التوحيد والإيمان، مخلصون عن ربقة التقليد والحسبان.

﴿وَ﴾ بعد موتكم عن أنانيتكم ﴿اعْتَصِمُوا﴾ أيها المخلصون الموقنون ﴿بِحَبْلِ اللهِ﴾ الممتد من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، وارفعوا أنانيتكم وهويتكم عن البين ﴿جَمِيعاً﴾ حتى لا يبقى توهم الغير والسوى مطلقًا، وتخلص نفوسكم عن مشتهياتها ومستلذاتها الفانية، وتصل إلى الحياة الأزلية والبقاء السرمدي ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ أي: لا تتفرقوا بمقتضيات أوهامكم المتفرعة على هوياتكم الباطلة عن الحقية الحقيقية ﴿وَ﴾ بعدما وصلتم بمقام الجمعية والوحدة الذاتية ﴿اذْكُرُوا﴾ أيها العكوس والأظلال ﴿نِعْمَتَ اللهِ﴾ المتجلي فيكم بذاته المتفضل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بلا عوض ولا غرض ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ بعداء متروكين في ظلمة العدم.

﴿فَأَلَّفَ﴾ سبحانه بتجلياته الجمالية على مرآة العدم ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ في فضاء الإمكان، بأن يجعلكم أزواجًا وبنين وحفدة، متظاهرين بعضكم ببعض على مقتضى الإضافات، ورقائق المناسبات الرافعة بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بعدما تيقظتم عن منام الإمكان ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ التي هي التوفيق والإقدار على طلب الرشد والرشاد ﴿إِخْوَاناً﴾ مجتمعين في فضاء الوحدة بلا توهم الكثرة المستدعية للعداوة والخصومة.

﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿كُنتُمْ﴾ في طغيان الإمكان ﴿عَلَى شَفَا﴾ طرف ﴿حُفْرَةٍ﴾

واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنْ أوابل طرف الوصول التلف. وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه. وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه. وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما رغمنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى، وأيضًا قال ابن عطاء: حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص، وقيل: وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يقبل أحدًا بعلة ولا يَرُدُّ أحدًا بعلة. انظر: تفسير القشيري (364/1)، وعرائس البيان (219/1) بتحقيقنا.

مُلئت ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ مشرفين بالوقوع فيها، وهي حفرة العدم المباين لفضاء الوجود، المملوءة بنيران البعد والخذلان ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله؛ أي: أنجاكم وخلصكم ﴿مِّنْهَا﴾ بلطفه، بأن أودع فيكم العقل الجزئي المتشعب من العقل الكلي العائد إليه ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ الهادي ﴿لَكُمْ﴾ دائمًا مستمرًا إلى توحيده الذاتي ﴿آيَاتِهِ﴾ آثار أسمائه وأوصافه الدالة على ذاته ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:103] رجاء أن تهتدوا منها إليها لغاية ظهورها ووضوحها.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾
[آل عمران:104-108].

﴿وَ﴾ بعدما وفقتم للإيمان، ونبهتم للتوحيد والعرفان ﴿لْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ملتزمة للإرشاد والتكميل ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي: إلى التوحيد وإسقاط الإضافات ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن في طريق التوحيد ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح فيه، المانع عن الوصول إليه ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الراشدون، المهديون، المرشدون، الهادون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104] الفائزون من عنده بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا التي هي طريق مقام الجمعية والرضا.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المحمديون المتحققون بمقام الجمعية ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الدالة على الجمعية والاتفاق، ولم يتنبهوا منها إلى التوحيد الذاتي ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء الهالكون في تيه الخذلان والحرمان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:105] في جهنم البعد والإمكان وسعير الشرك والطغيان.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بقبول النور من الوجه الباقي ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ببقائها في سواد الإمكان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ ولم يرتفع غشاوة هوياتهم، وكثافة ماهياتهم عن أعينهم وأبصارهم، ولم تصف مرآة قلوبهم عن

صداء الكثرة وشوب التنويه، لذلك قيل تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ أيها الهالكون في بقعة الإمكان من ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بوجوب الوجود، ووجوب الرجوع إليه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: الطرد والحرمان ﴿بِمَا﴾ أي: بأنانيتكم ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:106] وتسترون، وتستبدلون به نور الوجود وصفاء التوحيد الخالص عن الكدورات مطلقًا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ عن دنس التعليقات ورين الإضافات، واضمحلت هوياتهم في هوية الحق، وارتفعت الحجب والأستار المانعة عن الوصول إلى دار القرار عن عيون بصائرهم وأبصارهم ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ التي وسعت كل شيء، مستغرقون في بحر توحيده، غائصون، سابحون لا يخرجون منها أبدًا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:107] دائمون، مستمرون ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿تِلْكَ﴾ المواعيد والوعيدات المذكورة للأولياء والأعداء ﴿آيَاتُ اللهِ﴾ الدالة على كمال قدرته وتفرده في ألوهيته، واستقلاله في ربوبيته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تفضلاً وامتنانًا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ لاشك في وقوعها ﴿وَمَا اللهُ﴾ المنتقم في يوم الميعاد ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:108] بل يجازيهم على مقتضى ما صدر عنهم في النشأة الأولى، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا فيها يره فيها، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا فيها يره فيها.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [آل عمران: 109-111].

﴿وَ﴾ لا يتصور الظلم والتعدي من جانبه سبحانه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ لظهوره واستوائه على عروش ذرائر الكائنات بالقسط والاعتدال الحقيقي محافظة ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ما ظهر في عالم الغيب وعالم الأرواح ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: عالم الشهادة والأشباح ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109] المتعلقة بالمظاهر كلها؛ إذ هو الفاعل المطلق لا فعل لسواه، بل لا سواه ولا

رجوع إلا إياه.

﴿كُنتُمْ﴾ أيها المحمديون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في علم الله مستوية على صراط التوحيد، معتدلة بين طرفي الإفراط والتفريط ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: قدرت ظهوركم؛ لتكميل الناقصين من الناس، حتى ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المفروض في سلوك طريق التوحيد ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المحظور فيه ﴿وَ﴾ ذلك الأمر والنهي إنما يصدر منكم؛ لكونكم ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ توقنون ﴿بِاللهِ﴾ المستوي على عروش ذرائر الكائنات، بالاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بأجمعهم بدينكم وملتكم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾ ينجيهم عن ورطتي الإفراط والتفريط، ويوصلهم إلى صراط مستقيم، وإن كان القليل ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الداخلون في حصار الإيمان مع المؤمنين ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:110] الخارجون عن حدوده وأحكامه.

لا تبالوا أيها الموحدون بفسقهم وكفرهم؛ إذ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ ضرارًا فاحشًا ﴿إِلاَّ أَذًى﴾ صدرت من سقطات ألسنتهم من التقريع والتشنيع ﴿وَإِن﴾ بالغوا في العداوة إلى أن ﴿يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ﴾ اضطرارًا وإلزامًا ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:111] بالكبر عليكم بعد الفر منكم، بل ينصركم الله عليهم بنصره العزيز، ويخذلهم ويذلهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:112-115].

لذلك ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ والصغار والهوان ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا، صاروا مهانين، صاغرين ﴿إِلاَّ﴾ المعتصمين منهم ﴿بِحَبْلٍ﴾ موفق ﴿مِّنَ﴾ عند ﴿اللهِ﴾ وهو الانقياد لدين الإسلام ﴿وَحَبْلٍ﴾ عهد وثيق، وذمة ﴿مِّنَ النَّاسِ وَ﴾ بعدما ﴿بَاءُوا﴾ رجعوا عن تصديق دين الإسلام المنزل لخير الأنام، استحقوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل عظيم

﴿مِّنَ اللهِ وَ﴾ لا يمكنهم دفعه؛ إذ ﴿ضُرِبَتْ﴾ تمكنت وتقررت ﴿عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ المذمومة الناشئة من خباثة طينتهم، لا ترجى عزتهم أصلاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ضرب الذلة والمسكنة، والصغار والهوان عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في أوان عزتهم وعظمتهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يكذبون ويستهزئون ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة من عنده ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر والقتل الصادر منهم ﴿بِمَا عَصَوا﴾ أي: بسبب عصيانهم وخروجهم عن إطاعة أمر الله، والانقياد لأحكامه عتوًا وعنادًا ﴿وَ﴾ متى عصوا ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:112] يتجاوزون عن حدود الله بالمرة، ويقتلون من يقيمها استكبارًا.

﴿لَيْسُوا﴾ أي: ليس جميع أهل الكتاب ﴿سَوَاءً﴾ مستوية الأقدام في الاعتدال والإنكار، بل ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أيضا ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة على صراط العدل ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: جميع آنائه ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:113] يصلون خاضعين، متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة؛ تعظيمًا له، وخوفًا من خشيته، ورجاء من سعة رحمته.

وذلك لأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أي: بوحدانيته ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بصدقه وحقيته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمبرات المؤدية إلى إسقاط الإضافات وقطع التعليقات المستلزمة لرفع التعينات الحاجبة عن شهود الذات ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المتصفون منهم بهذه الصفات ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:114] لسلوك طريق الحق، المستحقين للوصول إلى سواء التوحيد الذي هو السواد الأعظم، المشار إليه في الحديث النبوي، صلوات الله على قائله.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا﴾ هؤلاء الموصوفون منهم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ طالبين فيه رضاء الله، راجين ثوابه حقًا خائفين من عقابه ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لن ينقصوا من أجره، بل يزادوا ويضاعفوا ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لجميع العباد ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:115] منهم، فيجازيهم على مقتضى علمه، وحسب لطفه وكرمه.

أدركنا بلطفك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:116-117].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله في النشأة الأولى؛ عتوًا واستكبارًا، مفتخرين بأموالهم وأولادهم متظاهرين بها ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وتدفع ﴿عَنْهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ﴾ غضب ﴿اللهِ شَيْئًا﴾ قليلاً ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المستكبرون، المفتخرون، هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لا يخلصون، ولا يخرجون منها بل ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 116] مخلدون، لا ترجى نجاتهم وتخفيف عذابهم أصلاً، ولا ينفع لهم إنفاقهم وإحسانهم الذي صدر عنهم في دار الدنيا؛ لعدم مقارنته بالإيمان.

بل ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ رياءً وسمعةً واشتهارًا ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا لمثوبة أخروية؛ لعدم اعتقادهم بالآخرة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ عاصف ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والفسق والعصيان ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ بالمرة، وصاروا آيسين، قانطين من نفعها، وشكوا من الله بما لا يليق بجنابه من نسبة الظلم والتعدي، تعالى عن ذلك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران:117] أي: ولكن هم يظلمون أنفسهم بكفرهم وفسقهم، ولم يتفطنوا له ونسبوه إلى الله، وما الله يريد ظلمًا للعباد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:118-120].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ صديقًا وصاحب سر، تستودعون سرائركم عنده ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: الكفار دون المؤمنين، واعلموا أنهم ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ﴾ لا يمنعون عنكم ولا يقصرون في شأنكم ﴿خَبَالاً﴾ ضررًا وفسادًا، بل

﴿وَدُّوا﴾ رجوا دائمًا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ضرركم وهلاككم، ومن غاية ودادتهم ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ ظهرت ﴿الْبَغْضَاءُ﴾ المكنونة في نفوسهم ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بلا قصد واختيار ﴿وَ﴾ لاشك أن ﴿مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ قصدًا واختيارًا ﴿أَكْبَرُ﴾ مما تبدي أفواههم وألسنتهم هفوة واضطرارًا ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ أوضحنا ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الآيَاتِ﴾ المتعلقة لأمور معاشكم ومعادكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:118] تفهمون مقاصدها، وتتعظون بها، وتعملون بمقتضاها.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُوْلاءِ﴾ الخاطئون، المغفلون الذين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ محبة صادقة ﴿وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ إلا تلبيسًا ونفاقًا ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجميع الكتب النازلة من عند الله على رسله، وهم لا يؤمنون بكتابكم الجامع لما في الكتب السالفة، ﴿وَ﴾ من غاية نفاقهم معكم ﴿إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا﴾ تلبيسًا وتقريرًا: ﴿آمَنَّا﴾ بدينكم وكتابكم ورسولكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ مضوا عنكم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ﴾ غاية ﴿الْغَيْظِ﴾ وعدم القدرة على الانتقام والتشفي ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا، مخاطبًا لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿مُوتُوا﴾ أيها المنافقون ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ المتزايد المترقى يومًا فيومًا، حسب ارتفاع قدر الإسلام وعلو شأنه، ولا تأمنوا عن مكر الله وانتقامه ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:119] يعلم ما تخفون فيها من الكفر والنفاق، ويجازي على مقتضى علمه، ولا يغرب عن علمه شيء.

ومن غاية حسدهم ونهاية بغضهم ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ وتحيط بكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ مسرة مفرحة لنفوسكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتشق عليهم من كمال عداوتهم ونفاقهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مملة مؤلمة ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ تشفيًا وتفرجًا، شامتين بها، مارين عليها ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على غيظهم وأذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ وترجعوا إلى الله مفوضين أموركم إليه يحفظكم عن جميع ما يؤذيكم، بحيث ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ مكرهم وحيلتهم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الحيل والمخايل ﴿مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:120] لا يشذ عن علمه شيء ولو خطرة وطرفة.

وعلى قراءة «تعملون» بالخطاب، كان المعنى: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الموفق لكم على دين الإسلام ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى، والتفويض والرضوخ إلى المولى ﴿مُحِيطٌ﴾ حاضر، غير مغيب عنكم وعن عملكم.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ

هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران:121-124].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ خرجت أنت مسرعًا في الغداة ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ عائشة - رضي الله عنها - حال كونك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعينهم، وتهيئ لهم ﴿مَقَاعِدَ﴾ أمكنة ومواقف ﴿لِلْقِتَالِ﴾ وبعض منهم مع جميع المنافقين يتقاعدون عنه، ويسوفونه، معللين بعلل ودلائل ضعيفة وبعض آخر يريدون الخروج، ويرغبونك عليه ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر الفريقين ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:121] بنياتهم.

رُوي أن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء في عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي، ولم يدعه قبل، فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا أحد إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا شر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وأشار بعضهم إلى الخروج، فقال ﷺ: «**رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي، فأولتها خيرًا، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا فأولته هزيمة، ورأيت كأنّي أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم**»[1].

فقال رجال من المسلمين فاتهم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، فبالغوا حتى دخل ولبس لأمته، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، فقالوا: اصنع يا رسول الله ما شئت، فقال ﷺ: «**لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل**»[2]، فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب من أُحد، ونزل في عدوة الوادي، وجعل ظهر عسكره، وسوّى صفهم، وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة؛ وقال: «**انضحوا**

---

(1) ذكره البيضاوي في التفسير (384/1).

(2) رواه البخاري في «الصحيحجح» (191/24).

عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»[1]، وحين استوى الصفوف، وبلغوا الشرط، قال ابن أُبي: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فانصرف فوقع الخلاف بين المؤمنين فتزلزلوا.

﴿إِذْ هَمَّت﴾ قصرت في تلك الحالة ﴿طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناح العسكر ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ تنهزما ضعفاء وجبناء، وتتبعا أثر ابن أبي فعصمهما الله عن متابعة الشيطان وجنوده، فمضيا مع رسول الله يستغفرون عمَّا جرى عليهما ﴿وَ﴾ كيف لا يعصمهما عن مخالفته؛ إذ ﴿اللهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ومولي أمورهما أرشدهما إلى ما هو أصلح لحالهما ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ المدبر لمصالح عباده لا على غيره من الأظلال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:122] حتى يتحققوا بمقام العبودية والرضا والتفويض.

﴿وَ﴾ بعدما ظهرتم على العدو، لا تيأسوا من نصر الله وتأييده، ولا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تبالوا بكثرتهم وعدتهم، بل اذكروا وتذكروا ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿بِبَدْرٍ﴾ موضع بين مكة والمدينة، يتسوق فيها العرب مع قوافل الحجاج ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ﴾ في تلك الوقعة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ ضعفاء في العَدد والعُدد، وعدوكم على عكسكم، هكذا بأن أنزل عليكم من الملائكة جنودًا لم تروها ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ اليوم عن الفرار والانهزام ومخالفة الرسول ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:123] تلك النصرة فيما مضى.

اذكر لهم يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ أنت يوم بدر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين حدث في قلوبهم الرعب من العدو؛ ولكونه على ثلاثة أضعافهم قولاً استفهاميًا على سبيل التبكيت والإسكات، بعدما ظهر عندك الأمر بالوحي الإلهي: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:124].

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف (318/1).

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾ [آل عمران: 120-129].

ثم أوحى إليك بأن قلت: ﴿بَلَى﴾ يكفيكم هذا القدر، أن تستغيثوا وتستلجئوا إلى الله؛ رغبًا وترهيبًا من العدو، ولكن ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ في مقابلتهم ومقاتلتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن الاستدبار والانهزام، وتصيروا فرَّارين، كرارين مرارًا، طالبين رضا الله وإمضاء حكمه، وإنفاذ قضائه، يزيد عليكم ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: ساعتهم الحاضرة التي هي هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ أجرًا؛ لصبركم وتقواكم ﴿بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:125] معلمين، معلومين، ممتازين عن البشر.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا جَعَلَهُ اللهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده، أمثال هذه الإمدادات والإرهاصات الواردة في أمثال هذه الوقائع ﴿إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ﴾ يبشركم بمقام التوكل والتفويض والرضا والتسليم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: لتكونوا مطمئنين بالله، فانين ببقائه ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا ﴿مَا النَّصْرُ﴾ والانهزام ﴿إِلَّا﴾ مقدرين ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ العليم العلام ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر والغالب على الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:126] المتقن في فعله على أتم الوجه، وأكمل النظام.

وإنما جعله وبشر به ﴿لِيَقْطَعَ﴾ وليستأصل ﴿طَرَفًا﴾ جملة وجماعة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا عن طريق التوحيد، فينهزم الباقون ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يخزيهم ويرديهم ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ جميعًا ﴿خَائِبِينَ﴾ [آل عمران:127] خاسرين، نادمين.

وإذا كان الكل من عند الله العزيز الحكيم ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: شيء من أمورهم، بل الأمر كله لله، فله أن يفعل معهم ما شاء وأراد، إما أن يستأصلهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ توبة تنجيهم من أنانيتهم ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ دائمًا؛ جزاء لظلمهم وكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:128] مستقرون على الظلم مادامو في الحياة الدنيا.

﴿وَ﴾ كيف لا تكون أمورهم مفوضة إلى الله؛ إذ ﴿لِلهِ﴾ خاصة مستقلة بلا مزاحم ومشارك ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ﴾ يستر ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ جريمة المخالفة لطريق التوحيد بعد رجوعه وإنابته إليه سبحانه ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بها ﴿مَن يَشَاءُ﴾ في جهنم البعد والخذلان ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب واستغفر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:129] لمن استحى وندم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران:130-134].

ثم خاطب سبحانه المؤمنين، منادیًا لهم بما يتعلق برسوخهم في طريق التوحيد من الخصائل الجميلة والشيم المرضية، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، مقتضى إيمانكم ﴿لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ سيما إذا كان ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ بحيث يستغرق مال المديون مجانًا ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور، ولا تجاوزوا عن حدوده ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:130] تفوزون بامتثال مأموراته ومرضياته.

﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ هُيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 131] أصالة وللمقتفين إثرهم؛ تبعًا، ويعملون معاملتهم؛ استنكارًا واستكبارًا.

﴿وَ﴾ إن أردتم الفلاح ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ المبيّن لكم طريق إطاعة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:132] من عند الله، إن أخلصتم في انقيادكم وطاعتكم.

﴿وَ﴾ لا تتكئوا، ولا تتكلوا إلى طاعاتكم وعباداتكم، ولا تزنوها عند الله، بل ﴿سَارِعُوا﴾ بادروا وواظبوا ﴿إِلَى﴾ طلب ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ستر ومحو لهوياتكم ﴿وَ﴾ وصول ﴿جَنَّةٍ﴾ منزل ومقر ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية القائمة بذات الله ﴿وَالأَرْضُ﴾ أي: طبيعة العدم القابل لانعكاس أشعة تلك الأسماء والصفات، إنما ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهُيئت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133] من أهل التوحيد، وهم الذين يرفعون غشاوة الغيرية وغطاء التعامي عن نور الوجود مطلقًا. لذلك هم: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ من طيبات ما كسبوا من رزق صوري ومعنوي للمستحقين من أهل الله، سواء كانوا ﴿فِي السَّرَّاءِ﴾ أي: حين الفراغة عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ عند عروض العوارض اللاحقة عن لوازم البشر ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: الماسكين، الكافين غيظهم عند ثوران القوة الغضبية، وهيجان الحمية البشرية الناشئة عن مقتضيات القوى الحيوانية ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ الذين يعفون

ويتركون عقوبة من يسوءهم ويظلمهم؛ لتحققهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات والاختلافات مطلقًا ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134] منهم بجميع أنواع الإحسان، خصوصًا بكظم الغيظ والعفو عند القدرة.

وعن النبي ﷺ: «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله، وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مضت»[1].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:130-139].

﴿وَ﴾ من جملة المتقين والمعدودين من زمرتهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة قبيحة صغيرة كانت أو كبيرة، صدرت منهم هفوة خطأ ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن صدرت عنهم عن قصد وتعمد، ثم ﴿ذَكَرُوا اللهَ﴾ خائفًا من بطشه وانتقامه ﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ منه راجين العفو والستر ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم عمدًا أو خطأ ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ مطلقًا من العباد ﴿إِلاَّ اللهُ﴾ غير الله الذي يغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ بعد استغفارهم ﴿لَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يرجعوا ﴿عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ بل تركوه بالمرة، ولم يرجعوا عليها أصلاً ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿هُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135][2] قبحه ووخامة عاقبته.

---

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور (430/2).

(2) قيل: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام =

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتذكرون، المستغفرون ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم، غطاء ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لإخلاصهم في الإنابة والرجوع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ كشوف وشهود ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يظمؤون منها أبدًا، بل يطلبون دائمًا مزيدًا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران:136] تلك الغفران والجنان.

بادروا أيها المؤمنون إلى الطاعات، وداوموا على الأعمال الصالحات، ولا تغفلوا عن الله في عموم الحالات، واعملوا ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في القرون الماضية ﴿سُنَنٌ﴾ وقائع هائلة بين الأمم الهالكة، المنهمكة في بحر الضلال والخسران، وإن أردتم أن تعتبروا منها ﴿فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة أيها المفردون، السائحون في ملكوت السموات والأرض ﴿فَٱنظُرُوا﴾ في آثارهم وأطلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137] بتوحيد الله وبرسله، المبينين له، وإذا نظرتم وتأملتم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿هَٰذَا﴾ أي: في تذكر سنتهم وسيرهم ﴿بَيَانٌ﴾ ودليل واضح ﴿لِّلنَّاسِ﴾ المستكشفين عن غوامض مسالك التوحيد الذاتي من أهل الإرادة ﴿وَهُدًى﴾ أي: لأهل الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138] من عموم المؤمنين.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: ولا تضعفوا أيها المؤمنون من متاعب مسالك الفنا ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ من المكروهات التي عرضت عليكم من مقتضيات الأوصاف البشرية في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿أَنتُمُ﴾ أيها المحمديون أنتم ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ في دار البقاء؛ أي: المقصورون، المنحصرون على أعلى المراتب إذ لا دين ولا نبي أعلى من دينكم ونبيكم؛ لظهوره على التوحيد الذاتي، لذلك ختم به ﷺ أمر النسخ والتبديل،

الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسول والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. انظر: البحر المديد (337/1).

وظهر سر قوله سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:29]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:139] محققين بتلك المرتبة.

آتنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:140-143].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾ ويصبكم أيها المجاهدون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته ﴿قَرْحٌ﴾ ضيق ومشقة من أعداء الله يوم أحد، لا تبالوا به ولا تضعفوا بسببه، ولكم أن تذكروا يوم بدر ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ العدو ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ بل أشد من ذلك، ومع ذلك لم يضعفوا ولم يجبنوا، مع كونهم ساعين على الباطل، وأنتم أحقاء بألّا تجبنوا ولا تضعفوا؛ لكونكم مجاهدين في طريق الحق، ساعين لترويجه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿تِلْكَ الأَيَّامُ﴾ أي: أيام النصر والظفر والفرح والغنيمة أيام وأزمان ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ﴾ جميع ﴿النَّاسِ﴾ محقهم ومبطلهم، مؤمنهم وكافرهم؛ ليعلموا أنهم جميعًا تحت حيطة أوصافنا الجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ أي: ينبه ويرشد خصوصًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله بأمرهم على الجهاد طريق الفناء فيه؛ ليفوزوا بشرف بقائه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شُهَدَاءَ﴾ واصلين، أحياء دائمين ﴿وَاللهُ﴾ المتوحد بذاته ﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:140] المتجاوزين عن طريق توحيده المائلين عن صراطه المستقيم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يطهر ويصفي ﴿اللهُ﴾ بلطفه قلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تيقنوا وتحققوا بصفاء التوحيد ﴿وَيَمْحَقَ﴾ ويهلك في ظلمة البعد والإمكان ﴿الكافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141] الساترين بهوياتهم الباطلة، المظلمة الكثيفة نور صفاء الوجود.

أتحسبون وتطمعون أيها المريدون، القاصدون سلوك طريق التوحيد، أنكم مستوون عند الله في السلوك ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ الوحدة الذاتية ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ

الله﴾ أي: لم يفرق، ولم يميز الله بعلمه الحضوري ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ في سبيله ظاهرًا وباطنًا، وبذلوا جهودهم فيها إلى أن بذلوا مهجهم فتفانوا في الله حتى صاروا شهداء حضراء أمناء عند الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون عن المتقاعدين المتكاسلين ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمَ﴾ وليميز منكم ﴿الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:142] المتمكنين في مرمى القضاء الرضا بما جرى عليهم من سهام التقدير، بلا إقدام ولا إحجام.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ أيها المحمديون، المستكشفون عن سرائر التوحيد الذي ﴿تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ الموصل إلى مرتبة اليقين العيني والحقي عند وصولكم إلى مرتبة اليقين العلمي، مسرعين عليها؛ شوقًا واستلذاذًا ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ متى ظهرت أمارات التوحيد، ولمع سراب الفناء، وبرق صوارم القضاء المفضية إلى هلاك الغير والسوى مطلقًا ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الطالبون للوصول إلى جنة الذات ﴿تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: 143] تبطئون وتغترون.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران:144-146].

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المسترشدون ﴿مَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ من الرسل، هادٍ لكم إلى التوحيد الذاتي ينبهكم على طريقه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل ظهوره ﴿الرُّسُلُ﴾ الهادين إليه مثله، المنبهين لطريقه في ضمن توحيد الصفات والأفعال، وما لهم وله إلا التبليغ والتنبيه، فعليكم أن تتنبهوا وتتحققوا بمقام التحقيق واليقين، معرضين عن التقليد والتخمين، أتؤمنون به وتسترشدون منه أيها المريدون حال حياته؟.

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ غير واصلين إلى فضاء التوحيد ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ منكم ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ بلا وصول إلى الغاية ﴿فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾ بنقصان أو

زيادة؛ إذ هو مستوٍ على عرشه كما كان، بلا تبديل ولا تغيير، بل ما يضر إلا نفسه بعدم إيصالها إلى غايتها الممكن لها، وبذلك حط عن رتبة الشاكرين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿سَيَجْزِي اللهُ﴾ بلطفه بالجزاء الجميل والإحسان الجزيل ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:144] منكم، الصادقين جميع القوى والجوارح إلى ما خلق لأجله الصابرين على ما أصابهم في سبيله، الباذلين مهجهم في إعلاء كلمة توحيده، الراجين منه الوصول إلى زلال تجريده وتفريده.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون بقضاء الله وقدره ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ﴿أَن تَمُوتَ﴾ بقتل أو حتف أنفه ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ بتقديره ومشيئته، الثابت المثبت في قضائه، السابق له ﴿كِتَابًا﴾ جامعًا بجميع ما يجري عليه في عالم الشهادة، حياته وموته ورزقه ﴿مُّؤَجَّلاً﴾ بوقت معين لا يتأخر عنه ولا يتقدم ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ منكم ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ التي هي أدنى مرتبة الإنسان، وأنزل منزلته من المفاخرة بالمال والجاه والحسب والنسب ﴿نُؤْتِهِ﴾ نعطه ﴿مِنْهَا﴾ مقدار ما يقدر لنا في سابق علمنا، ونحاسبه عليها في يوم الجزاء في النشأة الأخرى.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ منكم ﴿ثَوَابَ الآخِرَةِ﴾ من الحقائق والمعارف والمواهب العلية التي هي المقصد الأقصى، والمطلب الأعلى من وجوده ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ مقدار ما يقتضي استعداده الفطري ﴿وَ﴾ اعملوا أيها المؤمنون ﴿سَنَجْزِي﴾ بفضلنا وجودنا بلا وساطة ووسائل ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:145] المنسلخين عن الإرادة، بل عن جميع الأمور المرادة، الراضين بما قسم لهم، وقدر عليهم في سابق علمنا بروضة الرضا وجنة التسليم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ يجاهد في سبيل الله؛ لترويج توحيده ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ ربانيون مخلصون ﴿كَثِيرٌ﴾ منهم قتلوا وأصيبوا ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وما جبنوا ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ من القرح ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ من محاربة أعداء الله ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وتضرعوا إليهم؛ استبقاءً واستخلافًا، بل كانوا كرّارين جرّارين، بحيث لا يرى عليهم أمارات الجبن والخوف أصلاً، صابرين على ما أصابهم من القرح والجرح، وقتل الأقارب والعشائر ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:146] منهم في البلوى، الطائرين شوقًا إلى المولى، الراضين بما يحب لهم ويرضى.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران:147-150].

﴿وَ﴾ من غاية تصبرهم وتمكنهم على الجهاد في سبيل الله ﴿مَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ عند عروض المكروهات والمصيبات فيه ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ مستغفرين، مسترجعين إلى الله، خائفين من ضعف الإخلاص في امتثال أوامره: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا في مضيق الإمكان بأنواع اللطف والإحسان ﴿اغْفِرْ لَنَا﴾ بفضلك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ خواطرنا التي خطرت في نفوسنا من خوف أعدائك بعدما أمرتنا إلى مقاتلتهم.

﴿وَ﴾ اغفر لنا أيضًا يا ربنا: ﴿إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: ميلنا وتجاوزنا إلى طرفي الإفراط والتفريط عن حدودك التي وضعت لنا في الغزو والجهاد ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ على جادتك التي وضعت له في علمك ﴿وَ﴾ بعد ثبوتنا بتثبيتك ﴿انصُرْنَا﴾ بحولك وقوتك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:147] الساترين نور الوجود بأباطيل هوياتهم وماهياتهم، المائلين عن طريق التوحيد بمتابعة عقولهم المموهة بشياطين الأوهام الباطلة.

وبعدما أخلصوا لله، واستغفروا لذنوبهم، والتجأوا لحوله وقوته ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ مجازيًا لهم؛ تفضلاً وامتنانًا ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة، والفوز بالفتح، والظفر على الأعداء، والسيادة والرئاسة على الأولياء على أحيائهم ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ من المشاهدة والرضا والمكاشفة، واللقاء على شهدائهم الذين قتلوا في سبيل الله، متشوقين إلى الفناء فيه؛ ليتحققوا ببقائه ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران:169] عن الآية، ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى فضله في معاده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:148] منهم، ويرضى عنهم، خصوصًا الذين أحسنوا في سبيل الله ببذل المهج وإعطاء الروح.

ربنا اجعلنا من خدامهم وتراب أقدامهم.

ثم لمَّا أراد سبحانه تثبيت المؤمنين على قواعد الإسلام، ورسوخهم على

مقتضى شعار الدين والإيمان، حذرهم عن إطاعة الكفار ومخالطتهم، والاستعانة منهم، والاستكانة إليهم، فقال مناديًا لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا﴾ وتنقادوا وتستنصروا من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله؛ عنادًا، وأعرضوا عن كتبه ورسله؛ استكباراً ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ البتة بعد إهدائكم إلى الإيمان ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ التي أنتم فيها من الكفر والطغيان قبل انكشافكم بالإيمان، وإن انقلبتم ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:149] خسرانًا عظيمًا، فعليكم أن تتركوا موالاتهم وموافاتهم.

﴿بَلِ﴾ يكفي ﴿اللهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿مَوْلاكُمْ﴾ يولي أموركم، ويعينكم عليهم متى اضطررتم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المضطرون في الوقائع ﴿هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:150] فاستنصروا منه وتوكلوا عليه، وما النصر إلا من عند الله العزيز العليم.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾ [آل عمران:101-102].

وحين استرجعتم إلينا، واستغنيتم بنا مخلصين ﴿سَنُلْقِي﴾ بقهرنا وغضبنا ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿الرُّعْبَ﴾ والمخافة مع كونكم مستضعفين، وإنما نلقيهم الرعب ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ المنزه عن الأشباه والأنداد ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ أي: أصنامًا وآلهة ما لم ينزل الله بسببها عليهم ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة تلجئهم إلى عبادتها وإطاعتها، بل ما اتخذوها آلهة إلا من تلقاء أنفسهم؛ ظلمًا وعدوانًا، تعالى عما يقول الظالمون ﴿وَ﴾ ليس ﴿مَأْوَاهُمُ﴾ في النشأة الأخرى إلا ﴿النَّارُ﴾ الموعود لمن أظلم على الله، واتبع هواه ﴿وَبِئْسَ﴾ المثوى والمأوى ﴿مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:151] الخارجين عن حدود الله وشعائر توحيده.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَعْدَهُ﴾ الذي وعده لكم من النصر والظفر وقت ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: العدو، ويحفظ كلاً منكم المكان الذي عينه رسول الله ﷺ

﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذن الله ووحيه بلا ميل إلى الغنيمة والنهب ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ ملتم إلى الغنيمة، وخالفتم حكم الله ورسوله ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمر التبادر والتسابق إلى الغنيمة ﴿وَعَصَيْتُم﴾ تركتم إطاعة رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾ أمارات ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ وتطلبون، وتوعدونه من النصر والظفر المشروط بالتقرر والتمكن، وبعد رؤيتكم أنفسكم قسمين: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ حطام ﴿الدُّنْيَا﴾ فترك المركز وخالف الأمر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فثبت على المركز وحفظ الأمر، ولم يضطرب عن مكانه.

﴿ثُمَّ﴾ لما غيرتم ما في نفوسكم من عقد الله ورسوله ﴿صَرَفَكُمْ﴾ أي: بعدكم ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن أموالهم خائبين، فارين ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم ببلاء الهزيمة، هل تستقرون وتثبتون على الإيمان وتصبرون على المصائب الحادثة في حفظه أم لا؟ ﴿وَ﴾ بعدما خالفتم أمر الله وأمر رسوله، وملتم إلى الغنائم بعدما ورد النهي عن الله ورسوله ﴿لَقَدْ عَفَا﴾ الله ﴿عَنكُمْ﴾ ذنوبكم بعد ندامتكم واستغفاركم؛ تفضلاً عليكم وإن كان مقتضى جريمتكم استئصالكم بالمرة ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:152] تجاوز عن سيئاتكم، وإن عظمت بعدما تابوا واستغفروا.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:103-104].

واذكروا أيها المؤمنون قبح صنيعكم، واستحيوا من الله وتندموا عما صدر منكم وقت ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تذهبون إلى الأباعد؛ خوفًا من العدو، فارين من الزحف، متخالفين لرسول الله ﷺ ﴿وَ﴾ عند ذهابكم وفراركم ﴿لَا تَلْوُونَ﴾ لا تلتفتون على أعقابكم، ولا تنتظرون ﴿عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ من إخوانكم ﴿وَالرَّسُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ ويناديكم صارخًا: إليّ عباد الله، وكان الرسول ﷺ ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾ ساقتكم وعصيانكم، ولم يلتفت أحد منكم إلى عقبه لإجابة دعائه ﷺ.

ومع ذلك لم تنجوا سالمين ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أورثكم الله، المصلح لأحوالكم؛ تأديبًا لكم، متصلاً ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ آخر، حيث أحاطت بكم الغموم من القتل والجرح والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، وإنما فعل بكم ما فعل ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النهب والغنيمة ﴿وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الفرار والهزيمة، ولتتمكنوا أو تتمرنوا في مقام الرضا والتسليم، ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:153] بمقتضى تسويلات نفوسكم الأمّارة بالسوء، فيجازيكم بها؛ لكي تتنبهوا وتسلموا أموركم إلى الله وتتحققوا بالتوحيد الذاتي.

﴿ثُمَّ﴾ لما تبتم ورجعتم إلى الله، وندمتم عمّا فعلتم ﴿أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ امتنانًا لكم وتفضلاً ﴿مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ﴾ المفرط ﴿أَمَنَةً﴾ طمأنينة ووقارًا، حيث تورث ﴿نُّعَاسًا﴾ رقدة ونومًا ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المتحققون بمقام العبودية، الراضون بما جرى عليهم من القضاء، لا يشوشهم السراء والضراء ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ من منافقيكم ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: أوقعتهم نفوسهم وأمانيهم في الهموم والغموم المبعدة عن مقام التفويض والتسليم إلى حيث ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ﴾ ظنًا باطلاً ﴿غَيْرَ﴾ ظن ﴿الْحَقِّ﴾ بل ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ لرسول الله استكشافًا ظاهرًا، أو استنكافًا خفيةً: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ﴾ أي: أمر الله الذي وعدتنا والنصر والظفر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أم الأمر للعدو دائمًا، واليد له مستمرًا؟!

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿إِنَّ الأَمْرَ﴾ أي: أمر جميع ما كان وما يكون ﴿كُلَّهُ لِلهِ﴾ أولاً، وبالذات بلا رؤية الوسائط والوسائل في البين، وهم من غاية عماهم ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم﴾ من البغض والنفاق ﴿مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ﴾ بل يبدون لإخوانهم، إذا خلا بعضهم بعضًا حتى ﴿يَقُولُونَ﴾ متهكمين، مستهزئين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ مهانين، مظلومين ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: لا مرد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، بل يجري في ملكه ما ثبت في علمه.

واعلموا أنكم ﴿لَّوْ كُنتُمْ﴾ متمكنين ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ غير خارجين منها للقتال ﴿لَبَرَزَ﴾ لظهر وخرج البتة ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ قدر وفرض في الأزل ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ في

هذه المعركة، مسرعين ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ ومقاتلهم في الوقت الذي قدر بلا تأخير ولا تقديم ﴿وَ﴾ إنما فعل بكم ما فعل ﴿لِيَبْتَلِيَ﴾ ويختبر ويمتحن ﴿اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أهو من الرضا والإخلاص؟ أم من الشقاق والنفاق؟ ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يطهر ويصفي ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الإيمان والتوحيد عن الكفر والنفاق ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائركم وضمائركم ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:154] أي: الأمور المكنونة فيها.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) ﴾ [آل عمران:100-107].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ استدبروا وتخلفوا ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ ترهيبًا وجبنًا، بلا كفر ونفاق ﴿يَوْمَ﴾ وقت ﴿الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الصفّان للقتال ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وأزال قدمهم عن التثبت والتفرد ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ بشؤم بعض ما كسبوا، بتسويلات نفوسهم التي هي من جنود الشيطان ﴿وَ﴾ بعدما ندموا واستغفروا، وأخلصوا الرجوع إلى الله ﴿لَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾ بلطفه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ العفو عن ذنوب عباده ﴿غَفُورٌ﴾ ستّار لهم ما صدر عنهم من الآثام ﴿حَلِيمٌ﴾ [آل عمران:155] لا يعجل بالبطش والانتقام؛ ليتوبوا ويرجعوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم أن تحافظوا على مقتضى الإيمان والتوحيد، ولا تنسبوا الحوادث إلى غير الله، بل تفوضوا جميعًا إلى الله أصالة حتى ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله بانتساب الحوادث إلى الأسباب أولاً وبالذات ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين ماتوا في حقهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ سافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والسياحة ﴿أَوْ﴾ قتلوا، أو ﴿كَانُوا غُزًّى﴾ غازين في سبيل الله، طالبين رتبة الشهادة:

﴿لَوْ كَانُوا﴾ هؤلاء الميتين والمقتولين متوكلين، متمكنين ﴿عِندَنَا مَا مَاتُوا﴾ في الغربة ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ في يد العدو، معتقدين أن ما أصابهم، إنما أصابهم من الغزو

والغربة لا من الله، وإنما أخطرهم سبحانه بهذا الرأي، وأقولهم بهذا القول ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ﴾ المنتقم منهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحزن والأسف ﴿حَسْرَةً﴾ مستمكنة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وتمرضهم وتضعفهم بها في الدنيا، وتعذبهم في الآخرة ﴿وَاللهُ﴾ القادر المقتدر، المستقل في الإحياء والإماتة ﴿يُحْيِي﴾ بلطفه ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقهره بلا مظاهرة ولا مشاركة ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿بَصِيرٌ﴾ [آل عمران:156] ناقد خبير، يميز ويصفي إخلاصكم من الرعونة والرياء، وأعمالكم من الميل إلى البدع والأهواء.

﴿وَ﴾ الله أيها المؤمنون المتوجهون إلى الله، الطالبون الوصول إلى زلال توحيده ﴿لَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ طالبين لرضاه ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ قبل موتكم، سالكين، سيَّاحين في طريق الفناء فيه ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ سترة ساترة لأنانيتكم، ناشئة ﴿مِنَ﴾ ضرب ﴿اللهِ﴾ لكم إلى توحيده الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فائضة منه، مفنية لهوياتكم بالمرة في هويته ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران:157] وتدخرون أنتم لأنفسكم بهوياتكم الباطلة، وإن كنتم خيرين فيها.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:108-160].

﴿وَ﴾ الله أيها الموحدون المخلصون ﴿لَئِن مُّتُّمْ﴾ في طريق الفناء ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فيه في يد الأعداء ﴿لَإِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:158] ترجعون رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ أي: فبرحمة نازلة لك يا أكمل الرسل ﴿مِنَ اللهِ﴾ المرسل لك؛ رحمةً للعالمين ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ حين مخالفتهم عن إطاعتك واتباعك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيء الخلق ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَانفَضُّوا﴾ تفتتوا وتفرقوا البتة ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وإن آذوك؛ جهلاً وغفلةً ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ تلطفًا وترحمًا على مقتضى نبوتك.

﴿وَ﴾ بعد عفوك ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ من الله ليغفر زلتهم؛ لأنك مصلحهم ومولي أمرهم ﴿وَ﴾ بعد عفوك عما لك، واستغفارك عما لله ﴿شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الرخص

المتعلقة لترويج الدين والإيمان بعدما تركت المشورة معهم؛ بسبب جريمتهم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فالعزيمة لك خاصة، بلا مشورة الغير ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ في عزائمك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ واتخذه وكيلاً، ولا تلتفت إلى الغير مطلقًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159] المتخذين الله وكيلاً، المفوضين أمورهم كلها إليه.

قل يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾[1] المولي لأموركم بعزته وسلطانه ﴿فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: لا أحد يغلبكم ويخاصمكم؛ لكونكم في حمى الله وكنف حوله وقوته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بقهره وسخطه ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد قهره وبطشه ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ المعز المذل القوي المتين ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:160] في جميع أمورهم حتى خلصوا وأخلصوا.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(1) قال الشيخ البقلي الشيرازي: نصر الله سكينته وقعت من نور تجلي الحق سبحانه في قلوب العارفين؛ حيث توجهت من الحدثان إلى جلاله بنعت التضرع في عظمته وكبريائه، فلما تلبّست أنوار الغيب مع نور البسط والرجاء، فقويت بها الأشباح فأيدت لهم بحلول الأزل وقوته، فحينئذ انحسرت جنود القهر بسطوة الهيبة عن معارك عساكر اللطف، وذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»، وحقائقه مشروحة في ترقي مقامات دنو النبي ﷺ وذلك إشارته في سجوده بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك» نصر الله في المريدين توفيقهم في قمع الشهوات، ونصره في المحبين نور اليقين من تبسم فلق صبح الأزل بنعت المداناة، ونصره في العارفين انفتاح كنوز أسرار علوم المجهولة بمفاتيح كشف المشاهدات، قال بعضهم: إنما يدرك نصر الله مَنْ تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه في جميع أسبابه؛ لأن مَنْ اعتمد على حوله وقوته ورأى الأشياء منه، فإنه مردود إلى حول الله وقوته وعلمه، قال الإستاذ: نصرته بالتوفيق بلا أشباح، ثم بالتحقيق للأرواح. ويقال: ينصركم بتأييد الظاهر، وتسديد السرائر، ويقال: النصرة إنما يكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، النصر على تهزم دواعي فتنتها بعواصم رحمته حتى تنقص جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات، فتبقى الولاية خالصة عن شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية، وشهوات النفوس وأمانيها التي هي آثار الحجبة وموانع القربة.

﴿الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:161-164].

ثم لما نسب المنافقون إلى رسول الله ﷺ ما برأه الله ذيل عصمته عنه من الخيانة والغلول، رد الله عليهم في ضمن الحكمة الكلية، الشاملة لجميع الأنبياء؛ إذ مرتبة النبوة مطلقًا مصونة عن أمثال هذه الخرافات، فقال: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وما جاز ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء، خصوصًا خاتم النبوة والرسالة ﷺ ﴿أَن يَغُلَّ﴾[1] يخون ويحيف بالنسبة إلى أحد ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ أحدًا من الناس ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تأتي مغلولة مع ما غل فيه على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مطيعة أو عاصية جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يعطي جزاء ما كسبت وافيًا ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 161] لا ينقصون من أجورهم؛ إذ لا ظلم فيها، بل يزاد عليها تفضلاً وامتنانًا.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ﴾ انقاد وأطاع ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي: رضاه، ورضي الله عنه؛ لتحققه بمقام الرضا ومأواه جنة التسليم ﴿كَمَن بَاءَ﴾ رجع وقصد بكفر وظلم مستلزم ﴿بِسَخَطٍ﴾ عظيم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ بسببه ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ البعد والطرد ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:162] والمنقلب مصير أهل الكفر والظلم وحاشا ليسوا كمثلهم.

بل ﴿هُمْ﴾ أي: المتابعون رضوان الله ﴿دَرَجَاتٌ﴾ عالية عظيمة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ حسب درجات أعمالهم الصالحة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لحالات عباده ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل

(1) للآية تفسيران: الأول أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا بتصفية الطباع وإسقاط الوسواس ومنعه من أن يرد على القلوب، فإن الشيطان مشغول بالعذاب، فلا يتفرغ لإلقاء الوسواس فلم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف. عن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. الثاني: أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقص، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة الناقصة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة فيكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبريء بعض أهل النار من بعض ولعن بعضهم بعضاً وليس هذا ببديع ولا بعيد من حال أهل الجنة، فإن أولياء الله تعالى في دار الدنيا أيضًا بهذه المثابة بحسن توفيق الله تعالى ونور عنايته، وهدايته كل منهم قد قنع بما حصل له من نعيم الدنيا وطيباتها لا يميل طبعه إلى زوجة لغيره أحسن من زوجته ولا إلى لا مشتهى ألذ مما رزقه الله، وكل هذا نتيجة ملكه الرضا بالقضاء والتسليم لأمر رب الأرض والسماء، فيموتون كذلك ويحشرون على ذلك وفقنا الله لنيل هذا المقام ببركة أولئك الكرام. [تفسير النيسابوري (3/ 422)].

عمران:163] يجازيهم على مقتضى عملهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

والله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ﴾ منة عظيمة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ لهدايتهم ﴿رَسُولاً﴾ مرشدًا لهم، ناشئًا ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يرشدهم بأنواع الإرشاد ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ ويسمعهم أولاً ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ثانية عن وسوسة شياطين الأهواء، المضلة عن طريق التوحيد ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ ثالثًا ﴿الْكِتَابَ﴾ المبيّن لهم طريقة تصفية الظاهر، وما يتعلق بعالم الشهادة ﴿وَ﴾ رابعًا يعلمهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ المصفيّة للباطن عن الميل إلى الغير والسوى، الموصلة إلى سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل انكشافهم بالمراتب الأربعة ﴿لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164] وخذلان عظيم.

نبهنا بفضلك عن نومة الغافلين.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:160-168].

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: أتيأسون وتقنطون من فضل الله عليكم أيها المؤمنون حين أصابتكم مصيبة يوم أحد، ولا تذكرون نصره يوم بدر؛ إذ ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ فيه ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ إذ قتلتم سبعين وأسرتم سبعين؟ ﴿قُلْتُمْ﴾ من غاية حزنكم وأسفكم: ﴿أَنَّى هَٰذَا﴾ أي: من أين حدث لنا هذه الحادثة الهائلة ونحن قد وعدنا النصر والظفر؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ بعدم تثبتكم وتصبركم على المكان الذي عينكم رسول الله ﷺ، وعدم وفائكم على العهد الذي عاهدتم معه، أو من الفدية التي أخذتم يوم بدر، مع أن الأولى قتلهم واستئصالهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على جميع مخايلكم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المصيبة والإصابة ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:165].

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون، الموقنون بقدرة الله على عموم الإنعام والانتقام أن

﴿مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الصفَّان يوم أُحد ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ المنتقم منكم؛ لتغيركم ما في ضميركم من نية التقريب بالميل إلى زخرفة الدنيا، واتباع الهوى ﴿وَ﴾ إنما يبتليكم الله بما ابتلاكم ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وليميز ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:166] الذين ثبتوا على الإيمان، واستقروا على شعائر الإسلام من غيرهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ ويفصل أيضًا ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أظهروا النفاق مع الله ورسوله ﴿وَ﴾ ذلك حين ﴿قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع أعداء الله إلى أن تستأصلوهم ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ ضررهم عن المسلمين ﴿قَالُوا﴾ في الجواب على مقتضى نفاقهم المكنوز في قلوبهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾ مساواة بينكم، أو مضاعفتهم إياكم بمثلين فنسمي ﴿قِتَالاً﴾ فإذن ﴿لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ بل هم بأضعفكم عَددًا وعُددًا وما أنتم عليه، إنما إلقاء النفس في التهلكة لا المقاتلة، فكيف اتبعناكم؟.

﴿هُمْ﴾ بإظهار هذا القول ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ لأن القول مناسب، مطابق لكفرهم المكنون في قلوبهم دون إيمانهم، مجرد القول الذي ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ تلبيسًا وتغريرًا ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من القبول والإذعان ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿أَعْلَمُ﴾ منهم، فهم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:167] في قلوبهم من الكفر والنفاق يجازيهم على مقتضى علمه.

هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ من غاية نفاقهم وشقاقهم ﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: في حق إخوانهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقتلوا ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿قَعَدُوا﴾ في مساكنهم، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ هؤلاء المقتولون في القعود والتخلف ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم نقتل، واعتقادهم أن القعود سبب النجاة، والخروج بسبب القتل، ولم يعلم أن للموت أسباب، وللنجاة أسباب لا يدركها إلا هو، وكم من قاعد قد مات وقتل، وكم من خارج قد نجا وإن اقتحم، والعلم عند الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا إن قدرتهم على الدفع: ﴿فَادْرَءُوا﴾ فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ المقدر لكم من عند الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:168] أيها الكاذبون.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ
بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:169-173].

وبعدما بيَّن سبحانه جرائم المؤمنين يوم أُحد، وذلتهم ومتابعتهم للمنافقين في التخلف عن رسول الله، والميل إلى الغنيمة، وترك المركز مع كونهم مأمورين على خلافها، أراد أن ينبه عليهم سرائر الغزو والشهادة فيه، وبذل المهج في سبيله، فقال مخاطبًا لرسوله على طريق الكف والنهي؛ لينبه من يقتدي به من المؤمنين؛ لأن أمثال هذه الخطابات والتنبيهات إنما يليق لمن وصل إلى ذروة مسالك التوحيد، وتحقق بنهاية مراتب التجريد والتفريد بقوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ باذلين أرواحهم في طريق الفناء؛ ليفوزوا بشرف البقاء ﴿أَمْوَاتاً﴾ منقطعين عن الحياة والحركة، كالأموات الأخر ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ ذو أوصاف وأسماء أزلية أبدية، مقربين بها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الجامع لجميع الأوصاف والأسماء ﴿يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169][1] بها من عنده.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ﴾ من موائد المعرفة والإحسان بواسطتهما ﴿مِن فَضْلِهِ﴾

---

(1) من لطائف ما ذكره البقلي في «العرائس» قوله عند تفسيره هذه الآية: نبّه الخلق أن مَنْ قُتِلَ في سبيل العشق بسيوف العشق انسلخ من الحدث إلى القدم، والتبس بنور الأزل من الأزل، فلما بلغ نعت الأولية واتصف بصفة الأزلية، يصير منعوتًا بنعت الأخروية موصوفًا بوصف الأبدية؛ لأن صفات الحق جلّ سلطانه واحدة في الوحدانية خارجة عن الجمع والتفرقة، فيضها في الأفعال تفرقة مع الأسماء، ونورها في العينية جمع لأهل الوحدة، ومحل أن وصل نور الصفة فيكون خارجًا عن الصفة الأولية صفة، والأخروية صفة، والآخر أول في النعت، فمَنْ كان نعته أولية فيكون نعته أخروية، وإذا خرج من الحدثان إلى جمال الرحمن لم يجر عليه صفات الحدث بعده عن صفة الموت والفناء، بل يصير حيًا باتصافه بحياة الحق، وحياة الحق أبدي، لم يجر عليه علل حياة الإنساني وموت الإنساني، وهذا من فيض نور مشاهدته وعنليته؛ لأن مقتول السيف التجلي يحيا بقبض القربة والعندية، ومَنْ يكون في العندية كيف يفنى ويموت وهو مشاهد في شهود الحق إياه ورزقه فيض مزيد مشاهدة الحق، وزيادة اتصافه ببقاء الحق، وفرحه بنيل بقائه من بقاء الحق، ومَنْ قُتِلَ بسيف الإرادة فهو باقٍ بنور القربة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المحبة فهو باقٍ في سنا المشاهدة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المعرفة فهو باقٍ في أنس الوصلة، ومَنْ قُتِلَ بسيف التوحيد فهو باقٍ بالوحدة في الوحدة، وحياة هؤلاء من تجلي الأزلية وشهادة هؤلاء بغيرة العزة، غار عليهم فأفناهم، وأحبهم فأبقاهم، قال ابن عطاء: المقتول على المشاهدة باقٍ برؤية شاهده، والميت مَنْ عاش على رؤية نفسه ومتابعة هواه.

دائمًا، خالدين فيها ﴿وَ﴾ مع تلك اللذة والفرح ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يطلبون البشارة والشفاعة من الله ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم الذين بقوا من خلفهم في دار الدنيا التي هي دار الخوف والعناء، محل الخطر والفناء، قابلين لهم منادين، منبهين أن ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لم يلحقوا بنا ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:170] لم يخلصوا عن الدنيا ولوازمها.

بل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ دائمًا لأنفسهم ولإخوانهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ جزاء لما جاهدوا في سبيله وفضل مع عطاء منه، وامتنانًا عليهم من لطفه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العاملون؛ لرضاء الله، المجاهدون في سبيله ﴿أَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:171] الذين بذلوا جهدهم في محبة الله ومحبة رسوله ﷺ خصوصًا.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ طلبوا الإجابة ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ حين دعاهم الله ورسوله إلى المقاتلة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ من العدو بلا مماطلة وتسويف، بل رغبتهم أشد من الكرة الأولى.

وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من المدينة، فبلغوا الروحاء ندموا وقصدوا الرجوع؛ ليستأصلوهم، فبلغهم الخبر إلى رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبهم، وقال: لا يخرج معنا اليوم إلا من كان معنا أمس.

فخرج ﷺ مع جماعة من المؤمنين حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه الفرح والسرور، متلهفين، متحسرين للشهادة، متشوقين إلى مرتبة إخوانهم الذين استشهدوا في سبيل الله، فمر بهم معبد الخزاعي، وكان مشركًا يومئذ، فقال: يا محمد، لقد عز علينا ما أصابك وأصحابك، ثم خرج فلقي أبا سفيان بالروحاء، فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج مع أصحابه، يطلبونكم على مهور لم أر مثلهم في الجراءة أحدًا، يتحرقون عليكم تحرقًا لو لقيتم، قال أبو سفيان: ويلك! ما تقول؟ قال: والله، ما أراك تحل حتى ترى نواحي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا للكرة عليهم؛ لنستأصل بقيتهم، قال: فإني والله، أنهاك عن ذلك.

فألقى الله الرعب في قلوبهم، فرجعوا مستوحشين منهم، لذلك قال سبحانه في حق المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ ببذل المهج في سبيل الله، بالخروج مع رسوله ﴿مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾ عن مخالفة أمر الله ورسوله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:172] لا أجر أعظم منه،

وهو الفوز بالبقاء الأبدي والحياة السرمدية، وهم من كمال إيمانهم بهم.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ المخبرون لهم؛ ترحمًا وتحذيرًا: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ يعني: أبو سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ليكروا عليكم ويستأصلوكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ حتى لا يلحقكم شر العدو ثانيًا ﴿فَزَادَهُمْ﴾ قول المخبرين ﴿إِيمَانًا﴾ إطاعة وانقيادًا وتسليمًا وإحسانًا ﴿وَقَالُوا﴾ في جوابهم من غاية رضاهم ونهاية تفويضهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكافينا، يكفينا عنايته لنا في حياتنا ومماتنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173] هو لمصالحنا، نفوض أمورنا كلها إليه، نعتصم به من سخطه وغضبه.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)﴾ [آل عمران:174-177].

ولما فوضوا أمورهم إلى الله، واعتصموا له، واستنصروا منه، وتوكلوا عليه، قذف في قلوب عدوهم الرعب فهربوا ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ رجعوا من حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ جزاء ما صبروا ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عطاء لهم تفضلاً وامتنانًا؛ لتحققهم في مقام الرضاء بما أصابهم من القضاء ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أصلاً بعدما أصابوا يوم أُحد، بل صاروا غالبين دائمًا على الأعداء ﴿وَ﴾ ذلك لأنهم ﴿اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ ومتابعة رسوله بلا ميل منهم إلى هوية نفوسهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:174] ولطف جسيم على من هو من أهل الرضا والتسليم.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ المخبرون، المخوفون لكم، هم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ وأتباعه، ما ﴿يُخَوِّفُ﴾ من الأعداء إلا ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ وهم المنافقون ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ إذ الله معكم يحفظكم عما يضركم ﴿وَخَافُونِ﴾ من إطاعة الشيطان ومتابعته، حتى لا يلحقكم غضبي وسخطي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175] موقنين بقدرتي على الإنعام والانتقام.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ ضرر ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ يوقعون أنفسهم ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ سريعًا في

المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ إذ هم بسبب كفرهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ بل ضرر كفرهم إنما يعود إليهم، لاحق بهم ﴿يُرِيدُ اللهُ﴾ المقدر لكفرهم ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ نصيبًا ﴿فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ لذلك أقدرهم على الكفر ﴿وَ﴾ هيأ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:176] هو عذاب الطرد والخذلان، والحسرة والحرمان؛ جزاء لكفرهم ونفاقهم.

ثم برهن عليه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ استبدلوا ﴿الكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ من غاية نفاقهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ بسبب هذا الاستبدال والاختيار، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:177] مؤلم في الدنيا بالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة بالحرمان عن مرتبة الإنسان.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران:178-180].

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ﴾ المفسر بقراءة: «ولا تحسبن» يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: إمهالنا إياهم في النشأة الأولى ﴿خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ﴾ ولهم فيه نفع وعزة، بل ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ موجبًا للعذاب ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:178] مذل ومخز؛ جزاء لاستكبارهم واستعدائهم في الدنيا.

ثم لما اختلط المنافقون مع المؤمنين، وتشاركوا في إظهار الإيمان، والقول به على طرفي اللسان بلا اعتقاد منهم وإخلاص، أراد سبحانه أن يبيّن ويميّز المؤمن من المنافق، والمخلص من المرائي فقال: ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لِيَذَرَ﴾ وليترك ﴿المُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الالتباس والمشاركة مع أهل الكفر والنفاق بحسب الظاهر، بل يختبر ويمتحن إخلاصكم بأنواع البليات والمصيبات ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ ويفصل ﴿الخَبِيثَ﴾ المنافق، المصر على النفاق ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن،

الموقن بتوحيد الله، الراضي بما جرى عليه من قضائه.

﴿وَ﴾ بعد تميزه وفصله سبحانه ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ أي: جميعكم ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾[1] الذي هو الاطلاع على خفيات ضمائر عباده ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المحيط بجميع القابليات ﴿يَجْتَبِي﴾ ويختار ﴿مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ بأن يوحي إليه، ويلهمه التمييز بين استعدادات عباده للإيمان والكفر، وإذا كان أمركم عند الله ورسله ﴿فَآمِنُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿بِاللهِ﴾ المميز لكم أصالة ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الملهمين بالتميز بأمره تبعًا ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ وتحافظوا على شعائر الإيمان بعدما آمنتم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن مخالفاته ﴿فَلَكُمْ﴾ عند الله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:179] هو إيصالكم إلى التحقيق بمقام العبودية والتوحيد؛ إذ لا أجر أعظم منه.

﴿وَ﴾ من جملة الأمور التي يجب الاتقاء والتحرز عنه: البخل ﴿لاَ يَحْسَبَنَّ﴾ البخلاء ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ اختيارهم تدخيرًا أو توريثًا لأولادهم ﴿هُوَ﴾ أي: البخل ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ ينفعهم عند الله، ويثيبهم به أو يدفع عنهم العذاب بسببه

---

(1) إنَّ لله غيوبًا، غيب الظاهر، وغيب الباطن، وغيب الغيب، وسر الغيب، وغيب السر، أمّا غيب الظاهر: فما أخبر الله تعالى عن أمر الآخرة ولا يطّلع عليها إلا مَنْ بلغ مقام اليقين، وصاحبه خارج عن شواغل النفوس، وخطرات الشياطين، لكن لم يكن على حد الاستقامة، فرؤية الآخرة له تارة؛ لأن اليقين خطرات، وهذا الخطاب بهذا المعنى خطاب الأضداد، وأما غيب الباطن فغيب للمقدورات المكتومة عن قلوب الأغيار، وذلك الخطاب خطاب أهل الإيمان، وأما غيب الغيب فهو سر الصفات في الأفعال، وفي هذا المعنى خطاب المريدين، وأما سر الغيب فهو نور الذات في الصفة، وهذا الخطاب للمحبين، وأما غيب السر، فهو عينية القدم التي لا يطّلع عليها أسرار الخليقة أبدًا، وإذا كان هذا الغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾؛ فخطابه مع جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والأصفياء الصدّيقين العارفين الموحدين؛ لأن الأزلية منزّهة عن إدراك الخلائق أجمعين، وخاصية نبينا ﷺ في هذا المعنى رؤية هذه المعاني بنعت الكشف له، وابتسام إصباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة وإدراك الكلية، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم وآدم صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك مشروح في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26،27] قيل: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وأنتم تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، وإنّما يطلع على الغيب مَنْ كان أمين السر والعلانية موثوق الظاهر والباطن، ثم يفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثاقته، ألا تراه يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26-27] هو الفاني من أوصافه، المتّصف بأوصاف الحق.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ يستجلب العذاب عليهم؛ إذ هم ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ ويسلسلون مع ﴿مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويسحبون على وجوههم إلى نار البعد والحرمان؛ جزاء لبخلهم الذي كانوا عليها.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره؛ إذ لا غير ﴿مِيرَاثُ﴾ أي: حيازة وإحاطة ما في ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأرواح ﴿وَ﴾ ما في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عالم الأجسام تملكًا وتصرفًا، لا ينازعه في ملكه، ولا يشارك في سلطانه، له الحكم، وإليه الرجوع في جميع ما كان ويكون ﴿وَاللهُ﴾ المتوحد، المتفرد في ملكوته وجبروته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من التصرفات الجارية ﴿خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:180] لا يغيب عن شيء من أفعالكم وأقوالكم.

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ
وَقَتْلَهُمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالَّذِي
قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ
جَآءُو بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [آل عمران:181-184].

كما أخبر سبحانه عن علمه بقول اليهود وبقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ استهزاءً وسخريةً حين نزل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ﴾ [الحديد: 11] ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ﴾ استقرض منا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وبعدما سمعنا منهم ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي: قولهم هذا ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فيما مضى في صحائف أعمالهم، في نظم واحد، ونجازي عليهم يوم الجزاء ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم وقت جزائهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المفرطون، المسيئون للأدب مع الله ورسله ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:181] المحرق غاية الإحراق، بحيث يذوق إحراقه أجسامكم وجميع قواكم.

ولا تنسبونا في هذا التعذيب إلى الظلم والعدوان؛ إذ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ واقترفت ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي العظيمة التي هي من جملتها: قولكم هذا، وقتلكم الأنبياء فيما مضى ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المنتقم من عباده ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ بذي

ظلم ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:182] أي: للذين ظلموا في دار الدنيا، بل يجازيهم وينتقم منهم على مقتضى ظلمهم بلا زيادة ونقصان؛ عدلاً منه.

والمعذبون بالعذاب الحريق هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ افتراءً على الله في تعليل عدم إيمانهم برسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ في التوراة، وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ نقر ﴿لِرَسُولٍ﴾ أي: لكل رسول يدّعي الرسالة من عنده، ويُظهر المعجزات وفق دعواه ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا﴾ في أظهرنا وبين أيدينا ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ﴾ تحيله ﴿النَّارُ﴾ النازلة من السماء؛ وذلك أنهم ادعوا أن أنبياء بني إسرائيل يتقربون إلى الله بقربان، فيقوم النبي يدعو، والناس حوله، فتنزل نار من جانب السماء فتحيل القربان إلى طبعها فجأة، وإحالته نارًا علامة قبول الله قربانهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تبكيتًا وإلزامًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحة، الدالة على رسالاتهم ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ مع إتيانهم بما اقترحتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:183] بأن إيمانكم موقوف على هذه المعجزة.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وأنكروا عليك يا أكمل الرسل فلا تبال بتكذيبهم وإنكارهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ذو معجزات كثيرة، وآيات عظام ﴿جَاءُوا﴾ على من أرسل إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الصحف المثبتة فيها الأحكام فقط ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المبين فيه الأحكام والمواعظ والرموز والإشارات ﴿الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184] على كل من استنار منه واستشرد، ومع ذلك ينكرونهم، فمضوا هم ومنكروهم.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران: 180-187].

إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ خيرة كانت أو شريرة ﴿ذَائِقَةُ﴾ كأس ﴿الْمَوْتِ﴾ عند حلول الأجل المقدر له من عندنا ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون؛ أي: جزاء أعمالكم خيرًا كان أو شرًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي يوم الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بعد منكم بعمله الصالح ﴿عَنِ النَّارِ﴾ المعدة للفجرة والفساق ﴿وَأُدْخِلَ﴾ بها ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي أعدت للسعداء ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ فوزًا عظيمًا، ومن لم يزحزح عن النار؛ لفساد عمله، وأُدخل فيها بسببه، فقد خسر خسرانًا مبينًا ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون بالإيمان والأعمال الصالحة المتفرعة عليه: ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي أنتم فيها تعيشون ﴿إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:185]، يغركم بلذاتها الفانية الغير القارة عن النعيم الدائم والسرور المستمر، وأنتم أيها المغرورون بمزخرفاتها لا تتنبهون.

والله أيها المؤمنون ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ ولتختبرن ﴿فِي﴾ إتلاف ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ التي هي من حطام الدنيا ﴿وَ﴾ إماتة ﴿أَنفُسِكُمْ﴾(1) وأولادكم التي هي الهالكة، المستهلكة في ذواتها ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ممن لا كتاب لهم ولا نبي ﴿أَذًى كَثِيراً﴾ يؤذيكم سماعها؛ كل ذلك لتوطنوا أنفسكم على التوحيد، وتتمكنوا في مقام الرضا والتسليم وتستقروا في مقام العبودية، متمكنين، مطمئنين بلا تزلزل وتلوين ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ أيها الموحدون بأمثالها ﴿وَتَتَّقُوا﴾

---

(1) النفس صنم زينها الحق بكسوة الربوبية، وملأها من القهر واللطف، وكسي زينة ملكه أموال الدنيا امتحانًا للعاشقين، فمَنْ نظر إلى نفسه بغير زينة الحق صار فرعونًا نطق لسان القهر منه بـ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:24]، وذلك مكر القدم واستدراجه، ومَنْ نظر إلى ربوبية وفنيت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج - قدّس الله روحه العزيز- بقوله: أنا الحق، ومثاله في ذلك مثال شجرة موسى ؛ حيث نطق الحق سبحانه منها بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص:30]، نطق بصفته عن فعله، ومَنْ نظر إلى زينة الأموال التي هي زينة الملك صار حاله حال سليمان- صلوات الله عليه - لأنه كان ينظر إلى شرف جلاله بإعطاء الملك إياه، ومَنْ نظر إلى خضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب، وأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون؛ لأنه محل الالتباس، فمَنْ كان محتجبًا بهذين الوسيلتين عن رؤية الفردانية، بقي في تهمة العشق خارجًا عن نعوت الفردانية والوحدانية، قال ابن زانيار: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أموالكم بجمعها منعها، والتقصير في حقوق الله فيها، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ باتباع شهواتها وترك رياضتها، وملازمة أسباب الدنيا، وخلوها عن النظر في أمور المعاد. وقيل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالاشتغال بها أخذًا وإعطاءً.

عن الإضرار بها ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:186] أي: الأمور التي هي من عزائم أرباب التوحيد، فعليكم أن تلازموها وتواظبوا عليها، إن كنتم راسخين فيه.

ثبتنا بلطفك على نهج الاستقامة، وأعذنا من موجبات الندامة يوم القيامة.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن يؤذيك، ومتبعيك من أهل الكتاب وقت ﴿إِذْ أَخَذَ اللهُ﴾ المرسل للرسل، المنزل للكتب ﴿مِيثَاقَ﴾ أي: العهد الوثيق ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ أي: أحبار اليهود والنصارى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ أي: الكتاب صريحًا واضحًا، بلا تبديل ولا تغيير ﴿لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ شيئًا مما فيه من القصص والعبر والرموز والإشارات، وخصوصًا من أوصاف النبي ﷺ ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ بعدما عهدوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وإن كان المعهود عند أولي العزائم الصحيحة أن يكون نصب عيونهم ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ أي: اختاروا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الرشى من مترفيهم ومستكبريهم؛ حفظًا لجاههم ورئاستهم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:187] تلك الرشى بدل ما يكتمونه من أوصاف سيدنا محمد ﷺ.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: 188-191].

﴿لاَ تَحْسَبَنَّ﴾ أيها الكامل في أمر الرسالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ من الخداع والنفاق مع المؤمنين، وإظهار الإيمان على طرف اللسان ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾ عند إخوانهم ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من الإخلاص مع أهل الإيمان، وهم وإن خلصوا عن أيدي المؤمنين، ظاهرٌ انخداعهم ونفاقهم ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ﴾ منجاة ومخلص ﴿مِنَ العَذَابِ﴾ المعدّ لهم في يوم الجزاء، بل ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:188] مؤلم عن رؤيتهم المؤمنين، المخلصين في النعيم الدائم واللذة المستمرة.

﴿وَ﴾ إن اغتروا بإمهال الله إياهم في النشأة الدنيا، لا يمهلون في الآخرة؛ إذ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأرواح ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة، وله التصرف فيهما بالاستقلال، كيف يشاء؟ متى يشاء؟ بطشًا وإمهالاً ﴿وَاللَّهُ﴾ المتفرد، المتوحد في ملكه وملكوته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:189] إكثارًا وتقتيرًا.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: الأسماء والأوصاف الفعالة الفياضة ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة، المستعدة لقبول الفيض ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ﴾ أي: آثار القبض والجلال ﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي: آثار البسط والجمال ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل وعلامات دالة على رقائق المناسبات، ودقائق الارتباطات الواقعة بين الأسماء والصفات، المستدعية لظهور التجليات الظاهرة في الآفاق بحسب القوابل والمظاهر ﴿لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190] الواصلين إلى لب التوحيد، المنخلعين عن قشوره بالمرة.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ المتوحد في ذاته في جميع حالاتهم ﴿قِيَامًا﴾ قائمين ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[1] مضطجعين، متكئين ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ دائمًا ﴿فِي

(1) قال الشيخ البقلي: إنَّ الله سبحانه لمَّا خلق أرواح أهل المعارف أوجدها على كشف جماله، فوقعت كينونة الأرواح على سواطع نور المشاهدة، فباشرت أنوارها صميم الأرواح، فعشقت بالله جماله وجلاله، فلمَّا اشترت بالأشباح بقي الذكر والعشق والمحبة معها عوض المشاهدة، ففي كل نفس لا يخلو عن ذكر معاهد الأول ومشاهدة القديم بنعت الشوق والمحبة والعشق، وذلك بغير اختيارها ذاكرة للمذكور، متفكرة للغيبة والحضور، شائقة عاشقة بنعت الهيجان والهيمان على جميع الأحوال، مجذوبة بسلسلة الوصلة إلى جمال القدم، مستغرقة في بحار المواجيد وأنوار الكواشف، لأجل ذلك وصفها الله بدوام الذكر والفكر على نعت التسرمد، وأخبر على قدر عقول الخلق عن أحوالهم بلفظ الذكر والفكر، وذلك نعت قلوبهم وعقولهم وأبدانهم، وأخفى شهود أرواحهم مشاهد القدس والأنس لطفًا وإبقاءً ومحبةً وغيرة، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:191] قيامهم مقرون بذكر العظمة والكبرياء، وقعودهم مقرون بذكر الجمال وحسن الأفضال، واضطجاعهم مقرون بذكر البسط والانبساط، والرفاهية في الشوق والمحبة، فذكرهم على قدر كشوف الصفات، فكشف العظمة هيجهم إلى ذكر الفناء إلى التوحيد، وكشف الكبرياء هيجهم إلى ذكر الاضمحلال في التواضع والتفريد، وكشف البهاء هيجهم إلى ذكر الخمود في الشهود، وكشف القدرة هيجهم إلى ذكر العجز في العبودية عن إدراك الربوبية، وكشف الجمال هيجهم إلى الغيبة في ذكر الآباد، وعلى ذلك كل صفة لها تجلي، ولذلك التجلي مباشرة في قلوب الذاكرين، ولكل ذكر له عمل في المقامات، وله حقيقة وجد في الحالات، ذكر الرضا من رضا الحق والتوكل من حب الله، وذكر

خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى أن سكروا، وترقى سكرهم إلى أن تحيروا، بعد تحيرهم استغرقوا، وبعدما استغرقوا تاهوا، وبعدما تاهوا فانوا، وحينئذ انقطع سيرهم، فمنهم من تمكن في تلك المرتبة واستقر عليها، ومنهم من صحى عن سكره ورجع إلى بدنه مستكملاً، قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ المحسوس، المُشاهد ﴿بَاطِلاً﴾ بلا طائل ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك يا ربنا عن مدركات عقولنا وحواسنا ﴿فَقِنَا﴾ واحفظنا بلطفك ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:191] التي هي غفلتنا عن مطالعة وجهك الكريم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:192-194].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ جعلته في مضيق الإمكان محبوسين، معذبين، مطرودين، فظلموا أنفسهم بالالتفات إلى غيرك ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المستقرين، نفوسهم في ظلمة الإمكان ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:192] ينصرونهم ويخرجونهم منها، سوى من أيدت من عندك بإخراجهم من الأنبياء والأولياء، بعد توفيقك إيانا بإرسال الرسل.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ مشفقًا، هاديًا، مرشدًا؛ إذ هو ﴿يُنَادِي﴾ ويرشد

القهر من جبروت الله، وذكر الأفضال من ملكوت الله، وذكر الآلاء من ملك الله، وعلى قدر ظهور الصفات لهم تسرمد الذكر الذي وافق الكشف من الأسماء والصفات والنعوت والذات، سبحان مَنْ خصَّ الأولياء بكشوف صفاته، سبق ذكره لهم بهذه الفضائل والقربات قبل ذكرهم إياه إلى الآزال، فذكره جعلهم ذاكرين، ورحمته جعلتهم متفكرين في جلاله وعظمته، ومَنْ عاش منهم عن حقيقة القدم، صار متصفًا بعد الذكر بصفة المذكور، وخرج من مقام الذكر لغيبته عن الذكر في رؤية الأزل والأبد، فعند ذلك الذاكر والذكر والمذكور في باب الاتحاد واحد في شرط الفردانية، والموحد الذاكر يفنى ويبقى الموحد لا غير، كما لم يزل في الأزل، وقال الواسطي: كل ذاكر على قدر مطالعة قلبه بذكره، فمَنْ طالع ملك الجلال ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك رحمته ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك معرفته ذكره على ذلك، ومَنْ طالع ملك سخطه وغضبه كان ذكره أهيب، ومَنْ طالع المذكور أغلق عليه باب الذكر.

﴿لِلإِيمَانِ﴾ بتوحيدك قائلاً: ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيها التائهون في ظلمة الإمكان ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بنور الوجود ﴿فَآمَنَّا﴾ فامتثلنا أمره يا ﴿رَبَّنَا﴾ فتحققنا بإرشاده في مرتبة اليقين العلمي بوحدة ذاتك، وبعد تحققنا فيها ﴿فَاغْفِرْ﴾ استر ﴿لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أنانيتنا التي صرنا بها محرومين عن ساحة حضورك، حتى يتحقق بلطفك وتوفيقك في مرتبة اليقين العيني بمعاينة ذاتك ﴿وَ﴾ بعد تحققنا فيها ﴿كَفِّرْ﴾ طهّر ﴿عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أوصافنا التي تُشعر بالاثنينية بالكلية، حتى نتحقق بفضلك وجودك في مرتبة اليقين الحقي ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿تَوَفَّنَا﴾ في فضاء الفناء ﴿مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:193] الفانين في الله، الباقين ببقائه.

﴿رَبَّنَا﴾ ثبتنا في مقام عبوديتك ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى﴾ لسان ﴿رُسُلِكَ﴾ من الكشوف والشهود وسائر ما جاءوا به، وأخبروا عنه ﴿وَلاَ تُخْزِنَا﴾ تحرمنا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين لقيناك عما وعدتنا من شرف لقائك ﴿إِنَّكَ﴾ بلطفك وفضلك على عبادك ﴿لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:194] الذي وعدت من سعة رحمتك وجودك على عبادك.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:190-197].

ولما تضرعوا إلى الله، والتجأوا إليه، وندموا عمّا هم عليه ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فاستقبل عليهم بالإجابة قائلاً: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ مخلص ﴿مِّنكُم﴾ سواء كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ إذ ﴿بَعْضُكُم﴾ ناشئ ﴿مِّنْ بَعْضٍ﴾ ذكركم من أنثاكم، وأنثاكم من ذكركم في الإنسانية والمظهرية الجامعة اللائقة للخلافة، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ منكم من دار الغرور، طالبًا الوصول إلى دار السرور ﴿وَأُخْرِجُوا﴾ بسبب هذا الميل ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾[1] المألوفة التي هي بقعة الإمكان ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب قطع

(1) المظلومُ منصورٌ، ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:52]، وقد يجري من النَّفسِ وهواجِسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ، وأهل القصةِ - ظُلْمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ

التعلقات، وترك المألوفات ﴿وَقَاتَلُوا﴾ مع القوى الحيوانية ﴿وَقُتِلُوا﴾ في الجهاد الأكبر.

﴿لأُكَفِّرَنَّ﴾ لأمحونَّ وأطهرنَّ ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي هي ذواتهم الباطلة، الهالكة ﴿وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ﴾ ملاحظات ومكاشفات ومشاهدات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق دائمًا، متجددًا ﴿ثَوَابًا﴾ نازلاً ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَاللهُ﴾ المستجمع شتات العباد ﴿عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:195] وخير المنقلب والمآب.

﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: انتقالهم وارتحالهم ﴿فِي البِلادِ﴾ [آل عمران:196] لاستجلاب المنافع والمتاجر.

إذ هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ لذة يسيرة في مدة قصيرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان، خالدين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [آل عمران:197] مهد نيران الحرمان.

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:198-200].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن الاشتغال بزخرفة الدنيا وأمتعتها، منيبين إليه، متوجهين نحوه ﴿لَهُمْ﴾ عنده ﴿جَنَّاتٌ﴾ متنزهات من اللذة الروحانية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ من العلوم اللدنية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ حين وصلوا إليه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا عِندَ اللهِ﴾ من المثوبات المستمرة واللذات الدائمة ﴿خَيْرٌ

القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءً، وتستولي غاغةُ النّفْس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال [تفسير القشيري (5/200)].

﴿لِلأَبْرَارِ﴾[1] [آل عمران:198] المتوجهين إلى دار القرار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ المنزل للكتب المرسلة للرسل ﴿وَ﴾ لا يفرق بين الكتب والرسل أصلاً، بل يؤمن بجميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والرسول الذي هو سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من التوراة والإنجيل، المنزلين على موسى وعيسى - عليهما السلام - وكذا على سائر الكتب المنزلة من عنده؛ لتحققهم في مقام العبودية والتوحيد، وهم في هذا الإيمان والإذعان ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له.

وعلامة خشوعهم وإخلاصهم أنهم ﴿لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي: بتبديلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الرشى، مثل أحبار اليهود ومتفقهة هذه الأمة في هذا العصر - خذلهم الله - وهم الذين يحتالون في أحكام الشريعة الغراء على مقتضى هويتهم الفاسدة، ويأخذون الرشى؛ لأجل حيلهم الباطلة، ويسمونها حيلة شرعية، كأنه ظهر ما قال ﷺ: «بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا»[2]، ﴿أُولَئِكَ﴾ المخلصون، الخاشعون ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوفيهم أجورهم من حيث لا يحتسبون ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:199] يحاسب أعمالهم، ويجازيهم عليها سريعًا، بل يزيد عليهم؛ تفضلاً وامتنانًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، مقتضى إيمانكم الصبر على متاعب مسالك

---

(1) قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ بيّن الله تعالى رفعة منازل المتقين في الجنان، ثم أبهم لطائف العندية لهم، بقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ أي: ما عنده من نعم المشاهدة ولطائف القربة وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من النعيم في الجنة، وأيضًا صرح في بيان مراتب الولاية أنه ذكر المتّقين، والتقوى تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفات، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبيّن أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. وأيضًا: أعجبوا الأبرار بما وجدوا من أنوار نيران المكاشفات، ولطائف المناجاة، وحقائق المشاهدات بنعت الوجد والحالات، فأخبرهم أن ما هم فيه بالإضافة إلى ما عنده لهم في الآخرة كلا شيء في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ وأيضًا لا يتعجبوا صورة أحكام أهل الدنيا في طراوتهم، وحسن هيئاتهم، أيها المريدون؛ فإن شدائد مجاهداتك تورث سليم العيش في رؤيتي وقربتي ومشاهدتي. قيل: ما عنده لهم خير ما يطلبونه بأفعالهم.

(2) أخرجه مسلم (130/1 ، رقم 145)، وابن ماجه (1319/2، رقم 3986)، وأبو يعلى (52/11 ، رقم 6190).

التوحيد ﴿اصْبِرُوا﴾ على مشاق التكليفات الواقعة فيها ﴿وَصَابِرُوا﴾[1] غالبوا على القوى النفسانية العائقة عن الرياضات المزكية للأهوية الفاسدة ﴿وَرَابِطُوا﴾ قلوبكم على المشاهدات والمكاشفات الواردة من النسمات الإلهية والنفسات الرحمانية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن جميع ما يعوقكم ويشغلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:200] تفوزون منه بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ربنا أفرغ علينا صبرًا، وتوفنا مسلمين، واحشرنا مع الصابرين المرابطين، هب لنا من لدنك رحمة إنك أرحم الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترصد لفيضان الكشف والشهود واليقين، ونزول الاطمئنان والتمكين أن تتصبر بما جرى عليك من المصيبات والبليات المشعرة للاختبارات الإلهية، وابتلائه عن رسوخ قدمك في جادة التوحيد، وصدق عزيمتك في مسلك الفناء، وعلو همتك في التحقق بدار البقاء.

وتربط قلبك بحقك الذي هو أصلك وحقيقتك، مقبلاً عليه، متوجهًا إليه، مجتنبًا عن جميع ما يعوقك عنه من لوازم ماهيتك وهويتك التي لا حقيقة لها عند التحقيق والإقرار لما يترتب عليها وعلى لوازمها؛ إذ هي أعراض متبدلة، وأظلال باطلة، وإعدام صرفة زائلة لا تحقق لها، ولا آثار لها أصلاً سوى أن الوجود الحق انبسط عليها، وامتد إليها بجميع كمالاته، فانعكس منه فيها ما انعكس، فيتراءى العكوس والأظلال مشعشعة متجددة دائمًا بمقتضى تجدد تجليات الأوصاف والأسماء، فظن المحجوبون أنها متناصلات، وهي عند التحقيق تجلٍ واحد على هذا المنوال.

ارزقنا بلطفك حلاوة معرفتك وتوحيدك.

فلك أن تصفي ضميرك عن جميع ما يؤدي إلى التقليد والتخمين، وتفرغ خاطرك

(1) المصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبرَ عليه، تخصيصًا لشدته، وصعوبته وكونه أكمل، وأفضل من الصبر على ما سواه، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله، وأوله التصبر، وهو التكلف لذلك ثم المصابرة، وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار، والاعتبار، والالتزام، ثم الصبر، وهو كماله، وحصوله من غير كلفة. [تفسير حقي (2/ 393)].

وسترك عن كل ما يوهم التعدد والكثرة، حتى انشرح صدرك واتسع قلبك؛ لتصير منزلاً لسلطان الوجود الذي هو منبع جميع الكمالات والجود، وقبلة الواجد والموجود، والحوض المورود، والمقام المحمود.

وإياك إياك أن تقتفي أثر وساوس مقتضيات نفسك التي هي أعدى عدوك، وأشد ما يغويك ويضلك، بل جميع شياطينك إنما انتشأت منها، واستتبعت عليها، فعليك أن تلتجئ في الاجتناب من غوائلها بالرشد الكامل الذي هو القرآن المنزل من عند الله على خير الأنام، المؤيد من عند العليم العلّام؛ ليهدي المضلين جادةَ التوحيد عن متابعة الشيطان المَريد، ويوصلهم إلى صفاء التجريد وزلال التفريد بتوفيق من الله وجذبٍ من جانبه.

وفقنا بلطفك وكرمك بما تحب عنا وترضى.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النساء

لا يخفى على المتوحدين، المتأملين في كيفية انبساط الوحدة الذاتية على صفائح الأعيان الممكنة الفانية للحصر، أن للحق - جل جلاله وعم نواله - بحسب وحدته الذاتية ظهورًا في كل ذرة من ذرائر الكائنات؛ ليظهر منها أوصافه وأسماءه الكائنة في غيب هويته حسب استعداداتها وقابلياتها.

والمظهر الكامل، الجامع الذي تلوح منه جميع آثار الأسماء والصفات الإلهية على التفصيل، هو الإنسان الكامل؛ لذلك خلقه سبحانه على صورته، واستخلفه من بين بريته، وكرمه على جميع خليقته ورزقه من طيبات معارفه وحقائقه، والتفت بذاته نحو تخميره، ورباه بإرسال رسله وإنزال كتبه؛ ليظهر منه جميع ما أودع فيه من الكمالات المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، حتى يتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة، ويتقرر على مقر التوحيد، لذلك ناداهم امتنانًا عليهم؛ ليقبلوا إليه، وأوصاهم بالتقوى؛ ليتخذوه وقاية وحسبًا.

فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر على من استخلفه بجميع كمالاته؛ إظهارًا لقدرته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بنشر رتبه وتوريث مرتبته ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه بإهدائه مبدأه ومعاده.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (3) ﴾ [النساء:1-3].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين نسوا الموطن الأصلي، والمنزل الحقيقي بزخرفة الدنيا المانعة من الوصول إليه، عليكم الاتقاء من غوائلها، والاجتناب عن مخايلها، حتى لا تنحطوا عن مرتبتكم الأصلية ومكانكم الحقيقي ﴿اتَّقُوا﴾ أي: اجتنبوا والتجئوا ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي﴾ رباكم بحسن التربية، بأن ﴿خَلَقَكُم﴾ أظهركم وأوجدكم أولاً ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي المرتبة الفعالة، المحيطة بجميع المراتب الكونية والكيانية، وهي المراتب الجامعة المحمدية، المسماة بالعقل الكلي، والقلم الأعلى؛ تكميلاً لباطنكم وغيبكم.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾ بالنكاح المعنوي والزواج الحقيقي الواقع بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿زَوْجَهَا﴾ التي هي النفس الكلية القابلة الفيضان عموم الآثار الصادرة من المبدأ المختار؛ تتميمًا لظاهركم وشهادتكم، حتى استحقوا الخلافة والنيابة بحسب الظاهر والباطن ﴿وَ﴾ بعد جعلهما زوجين كذلك ﴿بَثَّ﴾ بسط ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ أيضًا بتلك النكاح المذكور ﴿رِجَالاً كَثِيرًا﴾ فواعل مفيضات ﴿وَنِسَاءً﴾ قوابل مستفيضات كل لنظيرتها، على تفاوت دقائق المناسبات الواقعة بين التجليات الحبية على الوجه الذي بينتها الكتب والرسل.

ولما كان الرب من الأسماء التي تتفاوت بتفاوت المربوب، صرح بألوهيته المستجمعة لجميع الأوصاف والأسماء بلا تفاوت؛ تأكيدًا ومبالغةً لأمر التقوى، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي: واحذروا عمّا يشغلكم عنه سبحانه، مع أنه أقرب إليكم من حبل وريدكم؛ إذ هو ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ﴾ تتساءلون وتتنافسون ﴿بِهِ﴾ وتتوهمون بعده من غاية قربه ﴿وَ﴾ احفظوا ﴿الأَرْحَامَ﴾ المنبئة عن النكاح المعنوي والزواج الحبي على الوجه الذي ذكره ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المحيط بكم وبأحوالكم ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ دائمًا ﴿رَقِيبًا﴾ [النساء:1] [1] حفيظًا يحفظكم عمّا لا يغنيكم إن أخلصتم التوجه.

---

(1) قال العارف البقلي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: أيها الناسي عهد الأزل وميثاق القدم بشرط وفاء العبودية بعد خطابي ومعرفتي وتعريفي نفسي لكم، حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، فأجبتم بقولكم: ﴿قَالُوا بَلَى﴾. وأيضًا: أيها الناسي جمال مشاهدتي؛ حيث أخرجت أرواحكم من العدم بتجلي أنوار القدم، فبصرتها بمشاهدتي، وأسمعتها خطاب أزليتي باشتغالكم على حظوظ البشرية ومأمول الطبيعة. وأيضًا: أيها المستأنس بالمستحسنات من الأكوان والحدثان طلبًا لمشاهدتي اعلم أنها أعظم الحجاب؛ لأنها وسيلةٌ حدثيةٌ وإيصالٌ إلى أحدٍ إلا بي، ورؤية الأشياء في رؤيتي مكرٌ. وأيضًا: أيها المستأنس في المستوحش من غيري فلا تغرنّ بي؛ فإنك لي لا لك.

ومن جملة الأمور التي يجب المحافظة عليها أيها المأمورون بالتقوى: حقوق اليتامى، فعليكم أيها الأولياء والأوصياء أن تحفظوا مال اليتيم حين موت أبيه أو جده، وتزيدوه بالمرابحة والمعاملة، وتصرفوا بقدر الكفاف.

﴿وَ﴾ بعد البلوغ ﴿آتُوا الْيَتَامَى﴾ قبل البلوغ؛ إذ لا يتم بعد البلوغ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ المحفوظة، الموروثة من آبائهم ﴿وَ﴾ عليكم حين الأداء أن ﴿لاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾ الرديء من أموالكم ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ الجيّد من أموالهم ﴿وَ﴾ أيضًا، عليكم إن أردتم التصرف في أموالهم مقدار معاشهم أن ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم مختلطين ﴿إِنَّهُ﴾ أي: التصرف في أموالهم بلا رعاية غبطتهم ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:2] إثمًا عظيمًا، مُسقطًا للمروءة بالمرة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ ولا تعدلوا ﴿فِي﴾ حفظ ﴿الْيَتَامَى﴾ النساء اللاتي لهن مال وجمال ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ البالغة مقدار ما يسكن ميلكم إلى اليتامى وشهوتكم إليهن ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاث ثلاث، وأربعة أربعة، على تفاوت ميولكم إن حفظتم العدالة بينهن.

وأيضًا: أي: أيها الناسي أنفسكم التي هي مخلوقةٌ من الجهل بي، فلا تخافون حيث ادَّعيتم معرفتي، ومعرفتي للقدم لا للحدث. وأيضًا: هذا خطابٌ لبني آدم، أي: أيها الذين انتسبتم إلى ابن الماء والطين الذي اشتغل عني بأكل حبة حنطة حتى بكى عليها مائتي سنة إيش تفعلون بعده في مواقف القربة، وتنزل المشاهدة بعد المعرفة، فإن عذاب الفراق أليمٌ، لو تعرفون أنفسكم لا تشتغلون بالحدثان، فإني اصطفيتكم بمشاهدتي وخطابي من بين البريات، أما سمعتم قولي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:70]، وهذا الخطاب خطاب العتاب للمفارقين أوطان المآب؛ ألا ترى إذا غضب عظيم على خادمه لم يسم باسمه، ويقول: يا إنسان. ولا يقول: يا حسن، يا أحمد، أي أنت على محل الجهل بمرادي منك. والإشارة فيه: إن الله سبحانه عرف أمر المعرفة عباده حيث اشتغلوا بسواه، كأنه نبههم عن رمدة الغفلات بزواجر هذا الخطاب، ويقول: أيها الناقضون عهد المعرفة والعشق، أما تستحيون مني باشتغالكم بغيري، اتقوا من فراقي وعتابي. وقال ابن عطاء: أي كونوا من الناس الذين هم الناس، وهم الذين أنسوا به، واستوحشوا مما سواه. وقال جعفر: أي: كونوا من الناس الذين هم الناس، ولا تغفلوا عن الله ممّنْ عرفه، إنه من الإنسان الذي خصّ خلقته بما خصّ به، كبرت همته عن طلب المنازل، وسمت به الرفعة حتى يكون الحق نهايته، ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:42]، وسمو همته مما خصّ به من الاختصاص من التعريف والإلهام.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي: فلكم نكاح الواحدة؛ لتأمنوا من الفتنة، سواء كانت من الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء، ثم لمَّا لم يكن في الإسلام رهبانية؛ لأن الحكمة تقتضي عدمها، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «لا رهبانية في الإسلام»[1]، نبه سبحانه على أقل مرتبة الزواج الصوري، المنبئ عن النكاح المعنوي والارتباط الحقيقي بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاح الواحدة، والقناعة بالإماء ﴿أَدْنَىٰ﴾ مرتبة الزواج على الذين يخافون ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:3] أي: من كثرة العيال.

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء:4-6].

﴿وَ﴾ إذا أردتم النكاح أيها المسلمون ﴿آتُوا النِّسَاءَ﴾ الحرائر، والإماء لغيركم ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ أي: مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ بتةً مؤبدًا بلا حيلة وخديعة ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ هن ﴿لَكُمْ﴾ لإفراط محبتكم في قلوبهن ﴿عَن شَيْءٍ﴾ كلٍ أو بعضٍ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من المهر ﴿نَفْسًا﴾ رغبةً ورضًا، لا كرهًا واستحياء ﴿فَكُلُوهُ﴾ أي: الشيء الموهوب من المهر ﴿هَنِيئًا﴾ حلالاً ﴿مَّرِيئًا﴾ [النساء:4] طيبًا؛ تقويمًا لمزاجكم؛ لإقامة القسط والعدل الذي هو من حدود الله المتعلقة بالتقوى.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الحقوق المتعلقة بالتقوى أيها الأولياء أن ﴿لاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ سواء كانوا من أصلابكم وما ينتمي إليكم، وهم الذين خرجوا عن طور العقل ومرتبة التدبير والتكليف ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ﴾ ملكًا ﴿لَكُمْ﴾ أيها العقلاء المكلفون ﴿قِيَامًا﴾ سببًا لقيامكم على الطاعة والعبادة ﴿وَ﴾ لكن ﴿ارْزُقُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا طعامهم وسائر حوائجهم في مدة أعمالهم ﴿فِيهَا﴾ في ربحها ونمائها ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾ أيضًا منها

(1) قال العجلوني في كشف الخفاء (377/2): قال ابن حجر لم أره بهذا اللفظ لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي أن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة.

﴿وَ﴾ إن كان منهم له أدنى شعور بأمر الإضافة والتمليك، ولكن لا ينتهي إلى التدبير والتصرف المشروع ﴿قُولُوا لَهُمْ﴾ لهؤلاء المخطئين من مرتبة العقلاء ﴿قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:5] مستحسنًا عقلاً وشرعًا؛ لئلا ينكسر قلوبهم.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الأمور التي وجب حفظها: ابتلاء أو رشد اليتامى قبل أداء أموالهم إليهم ﴿ابْتَلُوا﴾ اختبروا وجربوا أيها الأولياء عقول ﴿الْيَتَامَى﴾ وتدابيرهم في التصرفات الجارية بين أصحاب المعاملات ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: السن المعتبر في باب النكاح، وهو خمسة عشر عند الشافعي - رحمة الله عليه - وثمانية عشر عند أبي حنيفة ﴿فَإِنْ آنَسْتُم﴾ أي: أشعرتم وأحسستم ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ تدبيرًا كافيًا، وافيًا للتصرفات الشرعية ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ على الوجه المذكور بلا مماطلة وتأخير، وإن لم تؤنسوا الرشد المعتبر فيهم لا تدفعوها، بل تحفظوها إلى إيناس الرشد.

لكن ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ مسرفين في أجرة المحافظة ﴿وَبِدَارًا﴾ مبادرين في أكلها؛ خوفًا ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ ويخرجوها من أيديكم ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم أيها الأولياء ﴿غَنِيًّا﴾ ذو يسر ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من أكلها، والتعفف منها خير له في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿فَقِيرًا﴾ ذا عسر ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ منها ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعتدل، لا ناقصًا من أجرة حفظ، ولا زائدًا عليها؛ حفظًا للغبطتين ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ أيها الأولياء بعدما آنستم الرشد المعتبر منهم ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا﴾ فأحضروا ذوي عدل من المسلمين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليشهدوا فيما جرى بينكم وبينهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6] أي: كفى الله حسيبًا فيما جرى بينكم وبينه سبحانه في مدة المحافظة، يحاسبكم ويجازيكم على مقتضى حسابه.

ومن خطر هذه التصرفات، كان أرباب الولاء من المشايخ - قدس الله أسرارهم - يمنعون أهل الإرادة عن أمثالها؛ لأن البشر قلَّما يخلون عن الخطر، خصوصًا في أمثال هذه المزالق.

ثبت أقدامنا على جادة توحيدك، وجنبنا عن الخطر والتزلزل منها بمنِّك وجودك.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ

تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا
﴿١٠﴾ ﴾ [النساء:7-10].

ثم لمّا أمر أولاً سبحانه عباده بالتقوى على وجه المبالغة والتأكيد، وقَرَنَ عليه حفظ الأرحام ومراعاة الأيتام، ومواساة السفهاء المنحطين عن درجة العقلاء، أراد أن يبين أحوال المواريث والمتوارثين مطلقًا، حتى لا يقع التغالب والتظالم فيها كما في الجاهلية الأولى؛ إذ روي أنهم لا يرثون النساء معللين بأنهن لا يحضرن الوغى ولا يدفعون العدو.

رد الله عليهم وعيَّن لكل واحد من الفريقين نصيبًا مفروزًا مفروضًا، فقال: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ سواء كانوا بالغين أم لا، عقلاء أم سفهاء ﴿نَصِيبٌ﴾ بينهم مفروض مقدر ﴿مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ﴾ أيضًا بالغات، عاقلات أم لا ﴿نَصِيبٌ﴾ مقدر ﴿مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ المتروك ﴿أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7] مقدرًا في كتاب الله، كما يجيء بيانه وتعيينه من قريب.

﴿وَ﴾ من جملة الأمور المترتبة على التقوى: تصدق الوارثين من المتروك ﴿إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: وقتها ﴿أُوْلُوا الْقُرْبَى﴾ المقلين، المحجوبين عن الإرث ﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهَد لهم ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾ الفاقدين وجه المعاش ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: فاعطوهم أيها الوارثون من المقسم المتروك مقدار ما لا يؤدي إلى تحريم الورثة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ حين الإعطاء ﴿قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:8] خاليًا عن وصمة المنّ والأذى.

﴿وَلْيَخْشَ﴾ من سخط الله وغضبه الأوصياء أو الحضّار ﴿الَّذِينَ﴾ حضروا عند من أشرف على الموت أن يلقنوا له التصدق من ماله على وجه يؤدي إلى تحريم الورثة، وعلى الحضّار أن يفرضوا ﴿لَوْ﴾ ماتوا أو ﴿تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ أخلافًا ﴿ضِعَافًا﴾ بلا مال ولا متعهد ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ البتة ألّا يضيعوا، فكيف لا يخافون على أولئك الضعاف الضياع؟! بل المؤمن لا بد أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه بل أولى منه ﴿فَلْيَتَّقُوا اللهَ﴾ أولئك الحضّار أو الأوصياء عن التلقين المخلّ لنصيب الورثة ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ له ويلقنوا عليه ﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء:9] معتدلاً بين طرفي الإفراط

والتفريط؛ رعاية للجانبين، وحفظًا للغبطتين.

ثم قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا على الظالمين المولعين في أكل أموال اليتامى من الحكام والأوصياء والمتغلبة من الورثة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ بلا رخصة شرعية ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ﴾ ويدخرون ﴿فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ معنويًا في النشأة الأولى، مستتبعًا النار الصوري في النشأة الأخرى، وهي نار البعد والخذلان ﴿وَ﴾ هم فيها ﴿سَيَصْلَوْنَ﴾ أي: سيدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ [النساء:10] لا ينجو منها أحد.

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ [النساء:11].

ثم لما قدر سبحانه على المتوارثين نصيبًا مفروضًا على وجه الإجمال، أراد أن يفصل ويعين أنصباءهم، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يأخذ منكم العهد ويأمركم بمحافظته ﴿فِي﴾ حق ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ المستخلفين بعدكم، وهو أن يُقسّم متروك المتوفى منكم بينهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: لأن كل ذكر لا بد له من أنثى أو أكثر ليتزوجها، حتى يتم أمر النظام الإلهي والنكاح المعنوي، ويجب عليه جميع حوائجها، وكذا لكل أنثى لا بد لها من ذكر ينكحها بعين ما ذكر، ويأتي بحوائجها، فاقتضت أيضًا الحكمة الإلهية أن يكون نصيبهما بقدر كفافهما واحتياجهما؛ لذلك عينه سبحانه هكذا.

﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي: الوارثات ﴿نِسَاءً﴾ خلصًا ليس بينهن ذكور، هن ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوارثة بنتًا ﴿وَاحِدَةً﴾ فقط ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ مما ترك المتوفى، وإن كانتا بنتين فقط، فقد اختلف فيهما، فقال ابن عباس: حكمهما حكم الواحدة، وقال الباقون: حكمهما حكم ما فوق الاثنين، وعلى هذا يكون لفظة: ﴿فَوْقَ﴾ مقحمًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال:12] وكذا عيَّن سبحانه نصيب الأبوين، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: لأبوي المتوفى ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ذكرًا أو أنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ

أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي، هذا إذا لم يكن له غير الأب والأم وارث.

﴿فَإِن كَانَ لَهُ﴾ للمتوفى ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أي: تردون الأم من الثلث إلى السدس بخلاف الأب، فإنهم لا يرثون معه هذه القسمة والأنصباء المعينة ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراجه ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾ من ماله للفقراء ﴿أَوْ﴾ قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ كان في ذمته، وهما أيضًا بعد تجهيزه وتكفينه، ثم أشار سبحانه إلى أن أمر الميراث وتعيين الأنصباء أمر تعبدي، ليس لكم أن تتخلفوا عنها؛ لمقتضى ميلكم وظنكم، إلى أن تورثوا بعض الورثة وتحرموا الآخر، بل لكم ألَّا تفاوتوا بينهم، سواء كانوا ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾.

إذ ﴿لاَ تَدْرُونَ﴾ ولا تعلمون جزمًا ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ في الدار الآخرة عند الله، فعليكم ألَّا تتجاوزوا عن قسمة الله، بل انقادوا لها واعتدوها ﴿فَرِيضَةً﴾ مقدرة ﴿مِّنَ﴾ عند ﴿اللَّهِ﴾ صادرة عن محض العلم والحكمة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:11] في ترتيبها وتدبيرها.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء:12].

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الذكور ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ من الإناث ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم، أو ولد ولدٍ وإن سفل ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أو ولد ولدٍ كما ذكر ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هن أيضًا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا﴾ للفقراء ﴿أَوْ﴾ أداء ﴿دَيْنٍ﴾ لازم عليهن ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: للنساء الوارثات ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ منها أو من غيرها، أو ولد ولدٍ مثل ما مر ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ على التعميم المذكور ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ ذلك أيضًا ﴿مِّن بَعْدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا﴾ تقربًا إلى الله ﴿أَوْ﴾ قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ لزم على ذمتكم.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿رَجُلٌ يُورَثُ﴾ منه، وكان ﴿كَلَالَةً﴾ ليس لها والد ولا ولد ﴿أَوِ امْرَأَةٌ﴾ كذلك ﴿وَلَهُ﴾ للرجل ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ لأم؛ لأن حكم الأخ والأخت من الأبوين أو من الأب سيجيء في آخر السورة، فلا بد أن يصرف ها هنا إلى ما صرف ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ من ماله ﴿فَإِن كَانُوا﴾ أي: الإخوة وللأخوات من الأم ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ على السوية؛ لاشتراك السبب بينهم، ذلك أيضًا ﴿مِن بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ يُقضى فعليكم أيها الحكام أن تتخذوا هذه القسمة ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً﴾ عهدًا صادرًا، ناشئًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ لإصلاح أحوال عباده ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلحُ بين عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَلِيمٌ﴾ [النساء:12] لا يعجل بالانتقام على من امتنع عن حكمه.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:13-14].

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات من الأمور المتعلقة بأحوال الأموات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الموضوعة بينكم أيها المؤمنون بالله ورسوله ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في جميع ما جاء به من عند ربه من الأمور المتعلقة؛ لتهذيب الظاهر والباطن من الكدورات البشرية والعلائق الدينية ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله بفضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات التوحيد وهي اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف الجزئية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وهم لا يتحولون عنها، بل صاروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الخلود فيها، هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:13] والفضل الكريم، طوبى لمن فاز من الله بالفوز العظيم.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ﴾ بإنكار الأوامر، والإصرار على النواهي ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بالتكذيب والإيذاء وعدم الإطاعة ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ الموضوعة بين عباده ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله باسمه المنتقم ﴿نَارًا﴾ هي نار البعد والطرد عن كنفه وجوده، فصار ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أبدًا ﴿وَلَهُ﴾ بعصيانه وإصراره عليه ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:14] يبعده عن ساحة عن الحضور.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

ثم لمَّا بيَّن سبحانه أحكام المواريث وأحكام أحوال المتوارثين، وعين سهامهم وأنصباءهم، أراد أن يحذر المؤمنين عن الزنا التي هي هتك حرمة الله الموضوعة بين الإزواجات الحيية الإلهية، واختلاط الأنساب المصححة للأحكام المذكورة، وبالجملة: هي الخروج عن السنة الإلهية التي سنَّها بين عباده على طريق الحكمة والمصلحة الإلهية الصالحة، المصلحة لأصل فطرتهم التي خُلقوا عليها، وهي التوحيد الذاتي.

والزنا يتصور بين المرء والمرأة الأجنبية المحرمة؛ لذلك قدم سبحانه أمر النساء، وبيَّن أحكامهن وأحال حكم الرجال على المقايسة؛ لقباحتها وشناعتها، كأنه استبعد سبحانه عن أهل الإيمان أمثال هذه الآثام والجرائم العظام الأخر الناقصات؛ ولأنهن في أنفسهن شباك شياطين، يصطادون بهن ضعفاء المؤمنين وأقوياءهم أيضًا، على ما نطق به حديث النبي - صلوات الله على قائله -: «ما آيس الشيطان من ابن آدم إلا ويأتيهم من قبل النساء»[1].

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:10-17].

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة التي هي الزنا، وهن ﴿مِن نِّسَائِكُمْ﴾ وفي حجركم ونكاحكم، فأخبرتم بها - العياذ بالله - فعليكم في تلك الحالة ألَّا تبادروا إلى رميها ورجمها، بل ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾ اطلبوا الشهداء من المخبر؛ ليشهدوا ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ بالزنا، والمعتبر أن يكون ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي: من عدول رجالكم، بشرط ألَّا يسبق منهم تجسس وترقب، بل وقع منهم النظر بغتة على سبيل الاتفاق، فيرون ما يرون، كالميل في المكحلة، مستكرهين، مستعجبين.

---

(1) ذكره الحافظ في المطالب العالية (268/9)، عن أبي بكر بن أبي شيبة مرفوعًا، وأخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (210)، عن سعيد بن المسيب.

﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ هؤلاء الشهود على الوجه المعهود، فعليكم أيها المؤمنون، المستحفظون لحدود الله ألّا تضطربوا، ولا تستعجلوا في مقتهنّ وإخراجهنّ، بل عليكم الإمساك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ التي أنتم فيها بلا مراودة إليهن؛ كيلا يلحق عليكم بالإخراج عار آخر، بل اتركوهن فيها ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ الطبيعي ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ﴾ أي: يحكم الله ﴿لَهُنَّ﴾ أي: في حقهن ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:15] حكمًا مبرمًا، هذا في بدء الإسلام، ثم نُسخ بآية الرجم والجلد.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا﴾ أي: الفعلة القبيحة التي هي اللواطة، وهما الآتي والمأتي ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الرجال وهذا أفحش من الزنا؛ لخروج كلٍّ منهما عن حد الله، وانحطاطهما عن كمال الإنسان؛ لارتكابهما شيئًا لا يقتضيه العقل والشرع بخلاف الزنا، ولشناعتها وخباثتها لم يعيّن لها سبحانه حدًا في كتابه المبيّن لأخلاق الإنسان، كأن هؤلاء ليسوا من الإنسان، بل من البهائم، بل أسوأ حالاً منها، لذلك قال: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ إيذاءً بليغًا، وتعزيرًا شديدًا حتى يمتنعوا ﴿فَإِن تَابَا﴾ وامتنعا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ ما أفسد بالتوبة والندامة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ مستغفرين لهما من الله، مستشفعين عنهما، غير موبخين ومقرعين عليهما ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لأحوال عباده المذنبين ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ لهم، يرجعهم عمّا صدر عنهم نادمين ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:16] يعفو عنهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ أي: ما التوبة المبرورة المقبولة إلا التوبة الناشئة من محض الندامة المتفرعة على تنبيه القلب عن قبيح المعصية، وهي المصححة، الباعثة ﴿عَلَى﴾ قبول ﴿اللهِ﴾ إياها، النافعة ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي: للمؤمنين الذين ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الفعلة الذميمة لا عن قصد وروية، بل ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ عن قبحه ووخامة عاقبته ﴿ثُمَّ﴾ لمّا تأملوا وأدركوا قبحها ﴿يَتُوبُونَ﴾ يبادرون إلى التوبة والرجوع ﴿مِن﴾ زمانٍ ﴿قَرِيبٍ﴾ أي: قبل الانتهاء إلى وقت الإلجاء ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ التائبون، المبادرون على التوبة قبل حلول الأجل ﴿يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل توبتهم بعدما وفقهم عليها، ولقنهم بها ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع على ضمائرهم ﴿عَلِيمًا﴾ بمعاصيهم في سابق علمه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:17] في إلزام التوبة عليهم؛ ليجبروا بها ما انكسروا على نفوسهم.

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 18-19].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ الصادرة حين الإلجاء والاضطرار نافعة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ في مدة أعمارهم، مسوفين التوبة فيها ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الملجئ إليها ﴿قَالَ﴾ متحسرًا، متأسفًا مضطرًا بعدما آيس من الحياة، وأبصر أمارات الموت في نفسه على السكرات: ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ على وجه التأكيد والمبالغة، وهي لا تنفع له وإن بالغ، والسر في عدم قبول الله إياها؛ لأن الإنابة والرجوع إلى الله لا بد أن يكون عن قصد واختيار، حتى يعتبر عند الله ويُقبل، لا عن الإلجاء والاضطرار؛ إذ لا يتصف التائب حينئذ بالعبودية والإطاعة وقصد التقرب إلى الله.

بل ﴿وَلاَ﴾ فرق بينهم وبين الكافرين ﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ﴾ في حال الموت ﴿كُفَّارٌ﴾ كما كان ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المسوفون، المقصرون في أمر التوبة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا باسمنا المنتقم في النشأة الأخرى ﴿لَهُمْ عَذَابًا﴾ حرمانًا وطردًا ﴿أَلِيمًا﴾ [النساء: 18] مؤلمًا؛ لرؤيتهم التائبين المبادرين عليها في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ على الإنعام والانتقام.

تُب علينا بفضلك، إنك أنت التواب الرحيم.

ثم لمَّا كانت العادة في الجاهلية إيراث النساء كرهًا، وذلك أنه لو مات واحد منهم وله عصبة، ألقى ثوبه على امرأة الميت، فكانت في تصرفه وحمايته، وله اختيارها، سواء تزوجها بالصداق الأول أو إكراهًا أو طوعًا، ويضر عليها، ويمنعها إلى أن تُقدِّم له مثل صداقها، ثم أطلقها، نبَّه سبحانه على المؤمنين ألَّا تصدر عنهم أمثال هذا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله اتركوا جميع ما كان عليكم في جاهليتكم قبل الإيمان، سيما إيراث النساء، واعلموا أنه ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ في دينكم وشرعكم ﴿أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾ أي: نساء أقاربكم ومورثكم، وتزوجوهن أو تفدوا منهن ﴿كَرْهًا﴾ حال كونكم مكرهين، أو هن كارهات لتزويجكم.

﴿وَ﴾ أيضًا من الحدود المتعلقة بأمور النساء أن ﴿لاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ مطلقًا؛ أي: لا يحل أن تضيقوا على نسائكم حين انقضت محبتكم إياهن، وقلَّ وقعهن عندكم إلى أن

تلجئوهن بالفدية والخلع ﴿لِتَذْهَبُوا﴾ حين الطلاق ﴿بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أو كلها حين النكاح ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ﴾ - العياذ بالله تعالى - ﴿بِفَاحِشَةٍ﴾ فعلةٍ قبيحةٍ، محرمةٍ عقلاً وشرعًا ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ثابتةٍ ظاهرةٍ ﴿وَ﴾ إن لم يأتين بشيءٍ من الفواحش ﴿عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ طبعًا عليكم أن تكذبوا طباعكم المخالفة للعقل والشرع؛ إذ هي من طغيان القوة البهيمية، لا تبالوا بها وبمقتضاها ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ بمقتضى طبعكم ﴿وَ﴾ لا تعلمون أن ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ بمقتضى حكمته ومصلحته ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:19] نافعًا لكم ولغيركم.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء:20-22].

﴿وَإِنْ﴾ غلب عليكم بمقتضى طبعكم ﴿أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ منكوحةٍ جديدةٍ ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ قديمةٍ أردتم تطليقها، فعليكم في دينكم ألَّا تأخذوا من المطلقة شيئًا ﴿وَ﴾ إن ﴿آتَيْتُمْ﴾ حالة النكاح ﴿إِحْدَاهُنَّ﴾ أي: كل واحدةٍ منهن إن كن أكثر من واحدةٍ ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً كثيرًا منضدًا، مخزونًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً نزرًا يسيرًا ﴿أَتَأْخُذُونَهُ﴾ أي: من مهورهن أيها المفرطون في متابعة الطبيعة ﴿بُهْتَانًا﴾ تفترونه عليهن ﴿وَ﴾ تكسبون به ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:20] عظيمًا عند الله وعند المؤمنين.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ ولا تعلمون ﴿وَ﴾ تستحضرون أنه ﴿قَدْ أَفْضَىٰ﴾ وصل بالمهر ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ذكوركم ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إناثكم ﴿وَأَخَذْنَ﴾ عهدهن ﴿مِنكُم﴾ من أجلكم ورعاية غبطتكم ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:21] عهدًا وثيقًا لا ينفصم أصلاً، وهو ألَّا يأتين بفاحشةٍ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، وأن يقصرن نظرهن عليكم، ويخدمن ويحسن المعاشرة، إلى غير ذلك من الحدود والحقوق.

﴿وَ﴾ أيضًا من الحدود المتعلقة بأمر النساء أن ﴿لَا تَنكِحُوا﴾ أي: لا تطئوا ولا تجامعوا أيها المؤمنون ﴿مَا نَكَحَ﴾ ما وطئ ﴿آبَاؤُكُم﴾ أسلافكم سواء كانوا مؤمنين أو

كفارًا ﴿مِّنَ النِّسَاءِ﴾ سواءً كن أمهاتكم أم لا، حرائر ورقيقات لاستهجان هذا الأمر عقلاً وشرعًا ومروءةً بل طبعًا، بناء على ما حكي عن بعض الحيوانات أنه لا-يجامع مع أمه البتة كالفرس النجيب وغيره، ومن أتى ما نهي عنه فقد استحق مقت الله وطرده ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ سبق من وقوعه قبل ورود النهي ﴿إِنَّهُ﴾ أي نكاح منكوحة الأسلاف ﴿كَانَ﴾ صار ﴿فَاحِشَةً﴾ عظيمة من الفواحش التي منعها الشرع ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَقْتًا﴾ حرمانًا وطردًا عن مرتبة الإنسانية، لذلك سمى العرب من حصل منه: المقتى ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:22] لمن أتى به سبيل البعد والخذلان عن ساحة الحضور.

عصمنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ]. إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ [النساء:23].

ومن شدة شناعته وعظيم قبحه عند الله، قدمه سبحانه على جميع المحرمات ثم فرعها عليه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في دينكم ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: نكاحها مطلقًا ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ مع من يتفرع عليهن ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أنفسهن ﴿وَخَالاتُكُمْ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَبَنَاتُ الأَخِ﴾ من الأبوين أو من الأب أو من الأم ﴿وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ أيضًا حرمت عليكم ﴿أُمَّهَاتُكُمُ﴾ من الأجنبيات ﴿اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ مصة أو مصتين ﴿وَ﴾ حرمت أيضًا ﴿أَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ إذ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب غالبًا ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ لحرمة المصاهرة ﴿وَ﴾ أيضًا حرمت عليكم ﴿رَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ حال كون تلك الربائب ﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في تزويجهن ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم في دينكم ﴿حَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ﴾ حصلوا ﴿مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿أَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ في

زمانٍ واحد ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أمثال هذا منكم قبل إيمانكم فإنكم لا تؤاخذون عليه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لذنوبكم بعد إنابتكم واستغفاركم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:23] لكم يقبل توبتكم وإن عظمت زلتكم.

﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء:24].

﴿وَ﴾ حرمت أيضًا عليكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الأجنبيات اللاتي أحصنهن أزواجهن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من المسبيات اللاتي لهن أزواج كفار؛ إذ بالسبي يرتفع النكاح، فصار تلك المحرمات ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من الأمور التي حرمه الله عليكم حتمًا مقضيًا ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما سوى المحرمات المذكورة، وإنما أحل لكم ما أحل ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ أي: لأن تطلبوا ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ أزواجًا حلائل مصلحات لدينكم، صالحات لإبقاء نوعكم حال كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ بهن دينكم ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي: مجتنبين عن الزنا المؤدي إلى إبطال حكمة الله وإفساد مصلحته ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم﴾ أي: فمن انتفعتم واجتمعتم ﴿بِهِ﴾ بسبب المهر حين العقد ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: من النساء اللاتي أحلهن الله لكم أيها المؤمنون ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ أي: فعليكم أن تدفعوا إليهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن معتقدين أداءها ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مما فرض الله لكم في دينكم واجبة الأداء شرعًا وعقلاً؛ إذ الإفضاء إنما هو بسببه كما مر، هذا إذا كانت المرأة طالبة كمال مهرها.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا مؤاخذة ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ﴾ من الأخذ والترك والزيادة والنقصان بعدما حصل التراضي من الجانبين ﴿مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ المقدرة الواجبة الأداء، هذا الحكم مما يقبل التغيير بعد المراضاة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في سابق علمه بصلحهم ومراضاتهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:24] في إصدارها عنهم إصلاحًا لمعاشهم.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ
فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا
مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ
مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[النساء:20-26].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً﴾ اقتدارًا وغنى ﴿أَن يَنكِحَ﴾ به ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ المتعففات الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: فعليكم أن تنكحوا ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾ أي: إمائكم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ المقرات بكلمتي الشهادة ظاهرًا ﴿وَاللهُ﴾ المطلع بضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ وإيمانهن وكفرهن وكلكم في أنفسكم أمثال أكفاء؛ إذ ﴿بَعْضُكُم﴾ يا بني آدم قد حصل ﴿مِّن بَعْضٍ﴾ والتفاضل بينكم إنما هو في علم الله، وإن اضطررتم إلى نكاح الإماء ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أربابهن ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطوهن أجور مهورهن المسماة لهن بإذن أهلهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ إعطاء مستحسنًا عقلاً وشرعًا بلا مطلٍ وتسويفٍ واضطرارٍ وتنقيصٍ حال كونهن ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ زانياتٍ مجاهراتٍ غير حاجزاتٍ ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ وأخلانٍ.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ وأنكحن بعد وجود الشرائط المذكورة المستحسنة عند الله وعند المؤمنين ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾ بعدما أحصن ﴿بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي حد الله لهن في كتابه سوى الرجم؛ إذ لا يجري التنصيف فيه لذلك لم يشرع في حد الرقيق ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاح الإماء إنما يرخص ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: الوقوع في الزنا أيها المؤمنون المجتنبون عن المحرمات ﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ أيها الفاقدون المؤمنون لوجه المعاش وترتاضوا نفوسكم بتقليلِ الأغذية المستمنية المثيرة للقوة الشهوية الموقعة للمهالك، وتدفعوا أمارة إثارتكم بالقاطع العقلي والواضح الشرعي، وتتمرنوا على عفة العزوبة، وتسكنوا نار الطبيعة بقطع النظر والاتقاء عن المخاطر فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من نكاح الإماء بل من نكاح أكثر الحرائر أيضًا سيما في هذا الزمان ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿غَفُورٌ﴾

لذنوب من صبر ولم ينكح لقلة معاشهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النساء:25] له يحفظه عن الفرطات والعثرات في أمر المعاش.

عصمنا الله من المهالك المتعلقة بالمعاش بفضله وطوله.

إنما ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بتعيين المحرمات وبتبيين المحللات ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون طريق الرشد والغي والهداية والضلالة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ أي: يرشدكم ويوصلكم ﴿سُنَنَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾[1] من أرباب الولاء والمكاشفات بسر التوحيد ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يرجعكم عن ميل المزخرفات الدنية الدنيوية؛ ليوصلكم إلى المراتب العلية الأخروية ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم الموصلة إليه ﴿حَكِيمٌ﴾ [النساء:26] في إلقائها إليهم في ضمن العظة والعبر والقصص والتواريخ والرموز والإشارات ليرتاضوا بها نفوسهم حتى تستعد قلوبهم لنزول سلطان التوحيد المفني للغير والسوى مطلقًا.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا
عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا
تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ
نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:27-30].

ثم كرر سبحانه ذكر التوبة والرجوع عن المزخرفات الباطلة المانعة من الوصول إلى دار السرور حثًا للمؤمنين إليها؛ ليفوزوا بمرتبة التوحيد بقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ المرشد لكم إلى توحيده الذاتي ﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يوفقكم على التوبة التي هي الرجوع

---

(1) إنما يتنزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من الحبس، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى مَنْ قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. [البحر المديد (416/1)].

عما سوى الحق مطلقًا، ومتى انفتح عليكم باب التوبة انفتح باب الطلب المستلزم للترقي والتقرب نحو المطلوب، إلى أن يتولد من الشوق المزعج إلى المحبة المفنية لغير المحبوب مطلقًا، بل نفس المحبة بل نفس المحبوب أيضًا، كما حكي عن مجنون العامري أنه وله يومًا من الأيام واستغرق في بحر المحبة إلى أن اضمحلت عن بصره غشاوة التعيينات مطلقًا، بل ارتفع حجب الاثنينية رأسًا، وفي تلك الحالة السريعة الزوال تمثل ليلى قائمة على رأسها فصاحت عليه صيحة: عمن اشتغلت يا مجنون؟ فقال: طاب وقته وعنى على حالٍ فإن حبك شغلني عنك وعني.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ﴾ يضلونكم عن طريق التوحيد المسقط لجميع الرسوم والعادات بوضع طرقٍ غير طريق الشرع مبتدعًا أو منسوبًا إلى مبتدع، وعينوا فيه اللباس والكسوة المعنية، ومع ذلك ﴿يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ ويبيحون المحرمات، ويرتكبون المنهيات إرادة ﴿أَن تَمِيلُوا﴾ وتنحرفوا عن جادة التوحيد بأمثال هذه الخرافات والهذيانات ﴿مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء: 27] وانحرافًا بليغًا لا يستقيم لهم أصلاً.

﴿يُرِيدُ اللهُ﴾ المدبر لأحوالكم ﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أيها المؤمنون أثقالكم التي هي سبب احتياجكم وإمكانكم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ﴾ في مبدأ الفطرة ﴿ضَعِيفاً﴾ [النساء: 28] لا يحتمل تحمل أثقال الإمكان مثل الحيوانات الأخر.

خفف عنا بفضلك ثقل الأوزار، واصرف عنا شر الأشرار بمقتضى جودك وارزقنا عيشة الأبرار.

ثم نبه سبحانه على المؤمنين بما يتعلق بأمور معاشهم مع بني نوعهم؛ ليهذبوا به ظاهرهم، فقال مناديًا لهم ليهتموا باستماعها وامتثالها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه عليكم أن ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: بعضكم مال بعض بلا رخصةٍ شرعية بل ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ ظلمًا وزورًا سواء كانت سرقةً أو غصبًا، أو حيلةً منسوبة إلى الشرع افتراءً أو ربًا أو تلبيسًا وتشيخًا كما يفعله المتشيخة، ويأخذون بسببها حطامًا كثيرة من ضعفاء المؤمنين، واعلموا أيها المؤمنون أن مال المؤمن على المؤمن في غير العقود المتبرعة حرام ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ معاملة ومعاوضة حاصلة ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ مراضاة ﴿مِّنكُمْ﴾ منبعثة عن اطمئنان نفوسكم عليها بلا اضطرار وغرر.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ولا تلقوها بأيديكم في المهالك التي جرت بين أرباب المعاملات من الربا والخداع والتغرير والتلبيس وغير ذلك من أنواع الحيل؛ حتى لا

تنحطوا عن مرتبتكم الأصلية ومنزلتكم الحقيقية التي هي مرتبة العدالة؛ إذ لا خسران أعظم من الحرمان منها - أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف - ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنبه عليكم بأمثال هذه التدبيرات الصادرة عن محض الحكمة والمصلحة ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:29] مشفقًا عليكم، مريدًا إيصالكم إلى ما خلقكم لأجله وأوجدكم لحصوله.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما يحذر عنه من المهالك ويمقت نفسه بالعرض عليها لا عن جهل ساذج بل عن جهل مركب اعتقدها حقًا ﴿عُدْوَانًا﴾ مجاوزًا مائلاً عن الحق إصرارًا ﴿وَظُلْمًا﴾ خروجًا وميلاً عن طريق الشرع الموضح سبيل التوحيد ﴿فَسَوْفَ﴾ ننتقم عنه في يوم الجزاء ﴿نُصْلِيهِ﴾ ندخله ﴿نَارًا﴾ حرمانًا دائمًا عن ساحة عز الحضور وطردًا سرمديًا عن فضاء السرور، بك نعتصم يا ذا القوة المتين ﴿وَ﴾ لا تغفلوا أيها المنهمكون للاقتحام في المهالك المتعلقة لأمر المعاش عن انتقام الله القادر القدير الغيور إياكم، ولا تعتقدوا عسره بالنسبة إليه؛ إذ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الانتقام عن تلك الآثام ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الميسر لكل عسير ﴿يَسِيرًا﴾ [النساء:30] وإن استعسرتم في نفوسكم؛ إذ لا راد لإرادته ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:31-33].

ثم قال سبحانه امتنانًا على المؤمنين، تفضلاً وإشفاقًا وجلبًا من جانبه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾ وتجوزوا أيها المحبوسون في مهادي الإمكان ومضيق الحدثان ﴿كَبَائِرَ﴾ أعاظم ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] وهي الشرك بالله بأنواعه من إثبات الوجود لغيره، وإسناد

(1) الكبائر -على لسان العلم- هاهنا: الشِّرْكُ بالله وعلى بيان الإشارة أيضًا الشِّرْكُ الخَفِيّ، ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستجلاء قبولهم والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم، ويقال: إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد؛ فهو بعيد من التكفير، ويقال: أكبر الكبائر إثباتك -

الحوادث إلى الأسباب وغير ذلك ﴿نُكَفِّرْ﴾ نمحو ونتجاوز ﴿عَنكُمْ﴾ تفضلاً عليكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ خطاياكم اللاحقة لنفوسكم من لوازم بشريتكم ومقتضى طبيعتكم ﴿وَ﴾ بعدما غفرناكم ﴿نُدْخِلْكُم﴾ بمحض جودنا ولطفنا ﴿مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:31] هو فضاء التوحيد الذي ليس فيه هواء ولا ماء ولا غدو ولا مساء، بل فيها إفناء وبقاء ولقاء، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى.

وفقنا بكرمك وجودك لما تحبه عنا وترضى.

﴿وَ﴾ من مقتضى إيمانكم أيها المؤمنون المحمديون المتوجهون نحو توحيد الذات من محجة الفناء والرضا بما نفذ عليه القضاء، فعليكم أن ﴿لاَ تَتَمَنَّوْا﴾ تمني المتحسر المتأسف حصول ﴿مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ﴾ في النشأة الأولى ﴿بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الجاه والمال والمكانة الرفيعة في عالم الصورة؛ إذ هي ابتلاء واختبار لهم وفتنة تبعدهم عن طريق الفناء، وتوقعهم في التكثر والتشتت، والموحدون المحمديون لا بد لهم أن يقتفوا أثر نبيهم ﷺ في ترك الدنيا وعدم الالتفات نحوها إلا ستر عورة وسد جوعة؛ إذ الإضافة والتمليك مطلقًا مخل بالتوحيد، والغنى المطغي جالب للعذاب الأخروي.

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا.

واعلموا أيها المحمديون السالكون سبيل الفناء لتفوزوا بجنة البقاء أن لكم عند ربكم درجات ومداخل متفاوتة بتفاوت استعداداتكم المترتبة على ترتيب الأسماء والصفات الإلهية؛ إذ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ أي: للذكور الكمل لكل سنكم على تفاوت طبقاتهم ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ من التوحيد الذاتي هو مقرهم وغاية مقصدهم حاصل لهم ﴿مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ من الرياضات والمجاهدات المعدة لفيضان المكاشفات والمشاهدات ﴿وَ﴾ كذا ﴿لِلنِّسَاءِ﴾ منكم مع تفاوت طبقاتهن ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ في تلك الطريق؛ إذ كل ميسر لما خلق له وعليكم التوجه نحو مقصدكم ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾ يا عباده لييسر لكم ما يعينكم ويجنبكم عما لا يعنيكم ويغويكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الميسر لأمور عباده ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما صدر عنهم من صلاح وفساد ﴿عَلِيماً﴾ [النساء:32] بعلمه الحضوري،

نفسك، فإذا شاهدت نفيها تخلصت من أسر المحن [تفسير القشيري (472/21)].

يصلح لهم وييسر عليهم الهدى بقدر استعداداتهم وقابلياتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الأسلاف الذين مضوا ﴿جَعَلْنَا﴾ عن محض جودنا وحكمتنا ﴿مَوَالِيَ﴾ أخلافًا يولونهم ويوالونهم ويأخذون ﴿مِمَّا﴾ أي: من الأموال التي ﴿تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ﴾ كذا مما ترك ﴿الأَقْرَبُونَ﴾ من ذوي الأرحام ﴿وَ﴾ كذا من متروكات ﴿الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالنكاح والزواج على الوجه المشروع ﴿فَآتُوهُمْ﴾ أيها الحكام ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي: نصيب كل من الولاة على الوجه المفروض ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿كَانَ﴾ في سابق علمه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحوادث الكائنة ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء: 33] حاضرًا مطلقًا.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:34-30].

ثم نبه سبحانه على تفضيل ﴿الرِّجَالُ﴾ المعتدلة المزاج المستقيمة العقول ﴿قَوَّامُونَ﴾ حافظون ﴿عَلَى النِّسَاءِ﴾ إذ لا بد لهن لضعفهن من حفيظ يرقبهن عما يشتهين؛ صيانة لعفتهن ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ به ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: بعض بني آدم على بعض، وهو الحمية المنبعثة من كمال العقل ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ لهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ التي حصلت لهم من مكاسبهم ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ العفائف من النساء ﴿قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات لأزواجهن، خادمات لهم ظاهرًا ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ أي: لحقوقهم المخفية الباطنة عنهم، تابعات ممتثلات ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[1] لهن من رعاية أزواجهن وعدم الخيانة في حقوقهم.

---

(1) قال في عرائس البيان: أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطّلع عليهن أحدٌ؛ حياءً من الله وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حلة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:33] ولما رقّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في

﴿وَ﴾ النساء ﴿اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وعدم حفظهن بحقوق الزواج من أمارات ظهرت منهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: فعليكم أيها الأزواج أن تعظوهن رفقًا بما وعظ الله لهن من رعاية حقوق الله وحقوق الأزواج لعلهن يفطن ويتركن ما عليهن ﴿وَ﴾ إن لم يتركن ﴿اهْجُرُوهُنَّ﴾ اتركوهن ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾ وحيدة فلا ترجعوا إليهن، بل اعتزلوا عنهن لعلهن يتأثرن بها ﴿وَ﴾ إن لم يتأثرن بها أيضًا ﴿اضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا مؤلمًا غير متجاوز عن الحد ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بامتثال هذه التأديبات ﴿فَلاَ تَبْغُواْ﴾ لا تطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ لطلاقهن وإخراجهن ﴿سَبِيلاً﴾ استعلاء وترفعًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيًّا﴾ في شأنه ﴿كَبِيرًا﴾ [النساء:34] في أحكامه، لا ينازع في حكمه، ولا يُسأل عن أمره.

﴿وَإِنْ﴾ تطاولت الخصومة والنزاع بينهما حتى ﴿خِفْتُمْ﴾ وظننتم أيها الحكام ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وآيستم عن المصالحة والوفاق ﴿فَابْعَثُواْ﴾ أي: فعليكم أيها الحكام أن تبعثوا ﴿حَكَمًا﴾ مصلحًا ذا رأي ﴿مِّنْ أَهْلِهِ﴾ أي: من أقاربه ﴿وَحَكَمًا﴾ مثل ذلك ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ليصيرا وكيلين عنهما يصلحا صلاحًا وطلاقًا وخلعًا وفداء، ثم ﴿إِن يُرِيدَا﴾ أي: الحكمان ﴿إِصْلاَحًا﴾ لأمرهما ورفعًا لنزاعهما ﴿يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ إن رضيا بمصالحتهما وإلا فليرفعا عقد النكاح بينهما على أي طريق كان ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بنزاعهما ابتداء ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:35] بما يؤول إليه النزاع.

﴿ ۞ وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى

البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير» ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:10] وأيضًا: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحد. وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله؛ فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار. قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:36-37].

﴿وَ﴾ بعدما هذبتم ظواهركم أيها المؤمنون بهذه الأخلاق ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الموحد في ذاته ووجوده، المستقل في أفعاله وآثاره المترتبة على أوصافه الذاتية ﴿وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[1] من مصنوعاته؛ أي: لا تثبتوا الوجود والأثر لغيره؛ إذ الأغيار مطلقًا معدومة في أنفسها مستهلكة في ذاته سبحانه ﴿وَ﴾ افعلوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سبب ظهوركم عادة ﴿إِحْسَانًا﴾ قولاً وفعلاً ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿بِذِي الْقُرْبَى﴾ المتمين إليهما بواسطتهما ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الْيَتَامَى﴾ الذين لا متعهد لهم من الرجال ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر في زاوية الهوان ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ هم الذين لهم قرابة جوار بحيث يقع الملاقاة في كل يوم مرتين ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ هم الذين لهم بعد جوار، بحيث لا يقع التلاقي إلا بعد يوم أو يومين أو ثلاثة.

﴿وَ﴾ عليكم رعاية ﴿الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ أي: الذي معكم وفي جنبكم في السراء

---

(1) قال في عرائس البيان: أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطّلع عليهن أحدٌ؛ حياءً من الله وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حدة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:33] ولما رقّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير» ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:10] وأيضًا: ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحد. وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار. قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

والضراء يصاحبكم ويعينكم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المتباعدين عن الأهل والوطن لمصالح دينية، مثل طلب العلم وصلة الرحم وحج البيت وغير ذلك ﴿وَ﴾ أيضًا من أهم المأمورات لكم رعاية ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء والحيوانات المنسوبة إليكم، وعليكم ألَّا تتكبروا على هؤلاء المستحقين حين الإحسان، ولا تتفوقوا عليهم بالامتنان ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً﴾ متكبرًا يمشي على الناس خيلاء ﴿فَخُورًا﴾ [النساء:36] بفضله وماله أو نسبه.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ من أموالهم التي استخلفهم الله عليها، معللين بأنا لم نجد فقيرًا متدينًا يستحق الصدقة ﴿وَ﴾ مع بخلهم في أنفسهم ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أيضًا ﴿بِالْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَكْتُمُونَ﴾ من الحكام والعملة ﴿مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من الأموال؛ خوفًا من إخراج الزكاة والصدقات، ومن عظم جرم هؤلاء الخيلاء البخلاء أسند سبحانه انتقامهم إلى نفسه وغير الأسلوب، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: هيأنا من غاية قهرنا وانتقامنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لنعمنا كفرانًا ناشئًا عن محض النفاق والشقاق ﴿عَذَابًا﴾ طردًا وحرمانًا مؤلمًا، وتخذيلاً وإذلالاً ﴿مُّهِينًا﴾ [النساء:37].

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:38-41].

﴿وَ﴾ منهم، بل أسوأ حالاً: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ لا لامتثال أمر الله وطلب رضاه بل ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليعتقدوا لهم ويكسبوا الجاه والرئاسة بسبب اعتقادهم ﴿وَ﴾ مع هذا الوهم المزخرف ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ﴾ الرحيم التواب الكريم الوهاب ﴿وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء العصاة الغواة حتى يتوب عليهم ويغفر زلتهم وهم من جنود الشيطان وقرنائه ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ يحمله على أمثال هذه الأباطيل الزائفة ويوقعه في المهاوي الهائلة ﴿فَسَاءَ﴾ الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ [النساء:38] أيها المتوجهون إلى الله الراغبون عما سواه، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

ثم قال سبحانه توبيخًا لهم وتنبيهًا لغيرهم: ﴿وَمَاذَا﴾ يعرض ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ويلحق لهم من المكروه ﴿لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد في الألوهية، المتفرد بالقيومية ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعد ليرى فيه كل جزاء ما عمل من خير وشر ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ ما أنفقوا ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ خالصًا لرضاه بلا شوب المن والأذى والسمعة والرياء ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع ﴿بِهِمْ﴾ وبجميع أحوالهم ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:39] بضمائرهم، لا يعزب عن علمه شيء مما كان ويكون، وكيف يعزب عن علمه شيء من أحوالهم؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي لأعمالهم ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ عليهم ولا ينقص من أجورهم ﴿مِثْقَالَ﴾ مقدار أجر ﴿ذَرَّةٍ﴾ صغيرة قريبة من العدم جدًا ﴿وَإِنْ تَكُ﴾ تلك الذرة ﴿حَسَنَةً﴾ صادرة عنهم مقارنة بالإخلاص ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ حسب فضله وطوله إلى سبعة بل إلى سبعين بل إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ مع تضعيفها ﴿يُؤْتِ﴾ للمخلصين ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ امتنانًا عليهم وتفضيلاً ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:40] هو الفوز بمقام الكشف والشهود.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿فَكَيْفَ﴾ لا تفوزون أنتم أيها المحمديون ما تفوزون؟ إنا ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ في يوم الجزاء ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ نبي مرسل إليهم ومهد لهم إلينا بإذن منا بطريق مخصوص ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل، الجامع لجميع المراتب والطرق من توحيد الصفات والأفعال ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الأمناء الخلص ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء:41] أرشدتهم إلينا بالدين الناسخ لجميع الأديان.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:42-43].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ جئنا بك شهيدًا على المؤمنين ﴿يَوَدُّ﴾ يحب ويتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ الأمي المبعوث إلى كافة الأنام بدين الإسلام أن ﴿لَوْ تُسَوَّى﴾ تغطى ﴿بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ في تلك الساعة، وصاروا نسيًا منسيًا لكان خيرًا

لهم من المذلة التي عرضت لهم في تلك الحالة ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:42] أي: لا يمكن كتمان حديث نفوسهم بهذا من الله في تلك الحالة، فكيف كتمان أعمالهم الصادرة عنهم؟!

ثم لما حضر بعض المؤمنين المسجد لأداء الصلاة سكارى حين إباحة الخمر، وغفلوا عن أداء بعض أركانها وتعديلها، وغلطوا في القراءة وحفظ الترتيب، نبه سبحانه عليهم ونهاهم ألَّا تبادروا إلى المساجد قبل أن تفيقوا، فقال مناديًا ليقبلوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم حفظ الآداب، سيما عند التوجه نحو الحق فعليكم أن ﴿لاَ تَقْرَبُوا﴾ ولا تتوجهوا ﴿الصَّلاَةَ﴾ أي: لأداء الصلاة، هي عبارة عن التوجه نحو الذات الإلهية بجميع الأعضاء والجوارح، المقارن بالخضوع والخشوع، المنبئ عن الاعتراف بالعبودية والإذلال، المشعر عن العجز والتقصير، فلا بد لأدائها من فراغ الهم وخلاء الخاطر عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿أَنتُمْ﴾ في أدائها ﴿سُكَارَى﴾ لا تعلمون ما تفعلون وما تقرأون بل اصبروا ﴿حَتَّى﴾ تفيقوا ﴿تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وما تفعلون في أدائها من محافظة الأركان والأبعاض والأركان والهيئات وغير ذلك.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أن ﴿لاَ﴾ تقربوا الصلاة ﴿جُنُبًا﴾ حالة كونكم مجنبين بأي طريق كان؛ إذ استفراغ المني إنما هو من استيلاء القوة الشهوية التي هي أقوى القوى الحيوانية وأبعدها عن مرتبة الإيمان والتوحيد، وحين استيلائها تسري خباثتها إلى جميع الأعضاء الحاملة للقوى الدراكة وتعطلها عن مقتضياتها بالمرة، فحينئذ تتحير الأمزجة وتضطرب لانحرافها عن اعتدال الفطرة الأصلية بعروض الخباثة السارية، فتكون الخباثة أيضًا كالسكر من مخلات العقل، فعليكم ألَّا تقربوها معه ﴿إِلاَّ﴾ إذا كنتم ﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: على متن سفر ليس لكم قدرة استعمال الماء؛ لفقده أو لوجود المانع، فعليكم أن تتيمموا وتصلوا جنبًا ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ وتتمكنوا من استعماله.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِن كُنتُم﴾ مقيمين ﴿مَّرْضَى﴾ تخافون من شدة المرض في استعماله ﴿أَوْ﴾ راكبين ﴿عَلَى﴾ متن ﴿سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: من الخلاء محدثين ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: جامعتم معهن أو لعبتم بهن بالملامسة والمساس ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ في هذه الصورة ﴿مَاءً﴾ لإزالة ما عرض عليكم من الجنابة ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فعليكم أن تقصدوا عند عروض هذه الحالات بالتراب الطيب من صعيد الأرض بأن تضربوا أيديكم عليها، وبعدما ضربتم ﴿فَامْسَحُوا﴾ باليدين المغبرتين

﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ مقدار ما يغسل ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ أيضًا كذلك، جبرًا لما فوتم من الغسل بالماء، إذ التراب من المطهرات خصوصًا من الصعيد المرتفع ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾ لكم مجاوزًا عن أمثاله ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:43]يستر عنكم ولا يؤاخذكم عليها إن كنتم مضطرين فيها، بل يجازيكم خيرًا تفضلاً وامتنانًا.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء:44-46].

ثم قال سبحانه مستفهمًا مخاطبًا لمن يتأتى منه الرؤية عن حرمان بعض المعاندين عن هداية القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ قبح صنيع القوم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الجامع لجميع الكتب، الهادي للكل لكونهم موجودين عند نزوله، سامعين الدعوة، فممن أنزل إليه ﷺ كيف يحرمون أنفسهم عن الهداية إلى حيث ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم ﴿الضَّلَالَةَ﴾ بدل هدايته ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون عليه بل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا﴾ ترتدوا ويظلموا عليكم أيها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ [النساء:44] الواضح الموصل إلى زلال الهداية بإلقاء الشبه الزائفة في قلوب ضعفائكم، وإظهار التكذيب وادعاء المخالفة بينك وبين الكتب المتقدمة.

ولا تغتروا أيها المؤمنون بودادتهم وتملقهم ولا تتخذوهم أولياء؛ إذ هم أعداء لكم ﴿وَاللَّهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ فعليكم أن تفوضوا أموركم كلها إليه، والتجئوا نحوه واستنصروا منه ليدفع بلطفه مؤونة شرورهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: كفى الله وليًا للأولياء ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: 45] لهم ينصرهم على الأعداء بأن يغلبهم عليهم وينتقم منهم خصوصًا.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ نسبوا إلى اليهودية وسموا به، وهم من غاية بغضهم مع الرسول ﷺ يدعون مخالفة القرآن بجميع الكتب السالفة؛ لذلك ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويغيرون ﴿الْكَلِمَ﴾ المنزلة في التوراة في شأن القرآن وشأن بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿عَنْ

مَوَاضِعِهِ﴾ التي وضعها الحق سبحانه، بل يستبدلونها لفظًا ومعنى مراء ومجادلة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حين دعاهم الرسول إلى الإيمان: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَاسْمَعْ﴾ منا في أمر الدين كلامًا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ لك من أحد ﴿وَرَاعِنَا﴾ لتستفيد منا، وإنما يقصدون بأمثال هذه المزخرفات الباطلة ﴿لَيًّا﴾ إعراضًا وصرفًا للمؤمنين ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ عما توجهوا نحوه من التوحيد والإيمان إلى ما تشتهيه نفوسهم.

﴿وَ﴾ يريدون أن توقعوا بها ﴿طَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ القويم والشرع المستقيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من أهل الهداية ولهم نصيب منها ﴿قَالُوا﴾ حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿وَاسْمَعْ﴾ من ربك من الأحكام، واسمع إيانا ﴿وَانظُرْنَا﴾ بنظر الشفقة والمرحمة حتى نسترشد منك ونستهدي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في أولاهم وأخراهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي: أعدل سبيلاً إلى التوحيد والإيمان ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن عز حضوره في سابق علمه ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:46] استثناهم الله سبحانه في سابق علمه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [النساء:47-50].

ثم ناداهم سبحانه وأوعدهم رجاء أن يتنبهوا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿آمِنُوا بِمَا﴾ أي: بالكتاب الجامع الذي ﴿نَزَّلْنَا﴾ من غاية فضلنا وجودنا على محمد ﷺ مع كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي: لكتابكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: تمحو وتضمحل مراتب إنسانيتكم وإدراككم مطلقًا ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ قهقرى إلى المراتب الأنزل الأرذل قبل وصولكم إلى مرتبة الكمال ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ نطردهم عن ساحة عز الوجوب إلى مضيق الإمكان ﴿كَمَا لَعَنَّا﴾ مسخنا ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ لمخالفتهم الأمر الوجوبي بافتراء الحيلة عن لوازم الإنسانية مطلقًا، ورددناهم إلى أخس المراتب ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله القادر المقتدر على جميع ما يشاء أمثال هذا الطرد والإدبار؛ إذ ﴿كَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: إرادته المتعلقة بتكوين أمره

﴿مَفْعُولاً﴾ [النساء:47] مقتضيًا البتة بلا تخفف.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء ﴿لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: لا يستر ولا يعفو عن انتقام الشرك به بإثبات الوجود لغيره ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ من الكبائر والصغائر ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من التائبين وغيرهم، ثم قال سبحانه تأكيدًا وتحقيقًا: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ الواحد الأحد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4.3] شيئًا من مظاهره بادعاء الوجود له أصالة استقلالاً ﴿فَقَدِ افْتَرَى﴾ على الله واكتسب لنفسه ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:48] لا مخلص له عنه.

نعوذ بك ونستغفرك من أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم، إنك أنت علام الغيوب.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بألسنتهم وألبستهم، رياء وسمعة ويفتخرون بها ويباهون عليها، كيف وطنوا أنفسهم بهذا المزخرف الباطل ولم يتفطنوا أن العبد قل ما يخلو عن الشرك الجلي فضلاً عن الخفي، ولا تليق التزكية للعبد مطلقًا سواء يزكي نفسه أو غيره ﴿بَلِ اللهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿يُزَكِّي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، والمراءون المزكون لنفوسهم قولاً بلا توافق أحوالهم وأعمالهم على مقالهم يعاقبون عليها ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:49] أي: لا يزاد على انتقام ما اقترحوا مقدار حبل النواة، وهو مثل في الصغر والحقارة.

﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ أولئك المراءون المزكون نفوسهم ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم تزكية الله إياهم ترويجًا لما عليه نفوسهم من التلبيس ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ هذا الافتراء ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:50] ظاهرًا موجبًا لانتقام عظيم من الله.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء:51-55].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ يدعون أنهم ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ﴾ علم ﴿الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة المبين لطريق التوحيد الموضح لسبيله كيف ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أي: الصنم الذي لا خير يرجى منه ولا شر، ولا نفع ولا ضر ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ التي هي الآراء الباطلة والأهوية الفاسدة المؤدية إلى الكفر والزندقة والإلحاد عن طريق الرشاد، ولو أنهم في أهل التوحيد ولهم نصيب من اكتساب النازل من عند الله لتبيينه وتعليم طريقه، لما آمنوا بالأباطيل الزائفة الفاسدة المضلة عن طريق الحق والصراط المستقيم، ومع ضلالهم في أنفسهم يريدون إضلال غيرهم ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في حق ضعفائهم وأتباعهم: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الضعفاء من إخواننا ﴿أَهْدَى﴾ وأقوى ﴿مِنَ﴾ السفهاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿سَبِيلًا﴾ [النساء:51] وإنما يقولون أمثال هذا؛ استخفافًا للنبي ﷺ وطعنًا وقدحًا في الإسلام.

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن ساحة التوحيد إلى ذل الإمكان ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ﴾ المنتقم المقتدر ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء:52] يشفع له عنده؛ إذ لا غير معه ولا شيء سواه.

أتعتقد وترى أيها الرائي أن لهم حظًا من الإيمان والتوحيد؟ فليس لهم ذلك ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا﴾ أي: حين كانوا ملوكًا متصرفين على وجه الأرض ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ﴾ أي: الفقراء المحتاجين ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء:53] بل قطميرًا شحهم وبخلهم.

﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ المنظورين لله الناظرين بنوره ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من الحكمة والنبوة والكتاب المبين، ومن غاية حسدهم يكذبونهم وكتابهم عنادًا وإذا أردت أن ترى أيها الرائي من لهم نصيب من الكتاب والملك ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ من محض جودنا وفضلنا ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وذريته الذي من جملتهم وصفوتهم محمد ﷺ ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين للشرائع والأحكام ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السرائر المقتضية تشريعها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آتَيْنَاهُم﴾ في الدنيا ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:54] استيلاء بسطة ممتدة إلى يوم القيامة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ بنبوتهم وعظمتهم وبسطتهم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: أعرض ولم يؤمن عتوًا وعنادًا، فلا تعجل يا أكمل الرسل بانتقامهم وعقوبتهم ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:55] أي: كفى جهنم المسعورة المعدة لانتقامهم وتعذيبهم منتقمًا عنهم على أقبح وجه وأشد تعذيب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء:56-58].

قل للمؤمنين يا أكمل الرسل نيابة عنا، إخبارًا لهم عن وخامة عاقبة هؤلاء المعرضين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ كهؤلاء المدبرين ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ وندخلهم ﴿نَارًا﴾ معدة لجزاء الغواة بحيث ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ تفانت واضمحلت ﴿جُلُودُهُمْ﴾ بإحراق نار الخذلان ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾ من غاية قهرنا وانتقامنا ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ مماثلة لما احترقت منها ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليدوم لهم ذوقه وخذلانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم منهم ﴿كَانَ عَزِيزًا﴾ غالبًا على الانتقام حسب المرام ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:56] عادلاً لا يظلم بالزيادة ولا يهمل بنقصان.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بآياتنا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ امتثلوا بالصالحات المأمورة فيها ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ من غاية فضلنا وجودنا ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار اللذات الروحانية المترتبة على التجليات الرحمانية الغير المتناهية، لذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بلا انقطاع وانصرام، ومع ذلك ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ صواحب من الصفات والأسماء يؤانسهم ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿نُدْخِلُهُمْ﴾ من غاية لطفنا إياهم ﴿ظِلًّا﴾ مروحًا لقلوبهم ﴿ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57] ممدودًا لا يزول أصلاً.

واعلموا أيها المبشرون بهذه البشارة العظمى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المبشر بأمثاله ﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا﴾ وتدفعوا ﴿الْأَمَانَاتِ﴾[1] من الأحوال والشهادات وسائر حقوق العباد ﴿إِلَىٰ

---

(1) ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم، ويقال لله سبحانه وتعالى أماناتٌ وَضَعَها عِندَك؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله سبحانه سالمةً مِن خيانتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها، والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب، والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مجاهرةُ حقدٍ ...

أَهْلِهَا وَ﴾ يأمركم أيضًا أنكم ﴿إِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ المتخاصمين في الوقائع ﴿أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف والسوية بلا ميل إلى جانب أحد من المتخاصمين ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿نِعِمَّا﴾ نعم شيئًا ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ ويأمركم بامتثاله ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على جميع حالاتكم ﴿كَانَ سَمِيعًا﴾ لجميع أقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ [النساء:58] لنياتكم وأفعالكم فيها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء:59-61].

ثم قال سبحانه مناديًا لأهل الإيمان إيصاء وتنبيهًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الذي استخلفه من عنده يهديكم إلى توحيده ﴿وَ﴾ أطيعوا أيضًا ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وهم الذين يقيمون شعائر الإسلام بينكم من الأمراء والحكام والقضاة المجتهدين في تنفيذ الأحكام واستنباطه ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ أنتم مع حكامكم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور الدين في أنه مطابق للشرع أو غير مطابق ﴿فَرُدُّوهُ﴾ وراجعوا فيه ﴿إِلَى﴾ كتاب ﴿اللهِ وَ﴾ أحاديث ﴿الرَّسُولِ﴾ بأن عرضوا عليهما واستنبطوه منهما ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ المجازي لعباده على أعمالهم خيرًا كان أو شرًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد للجزاء ﴿ذَلِكَ﴾ الرد ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من استبدادكم بعقولكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:59] من تأويلكم، وأحمد عاقبة مما تتخيلون باستبدادكم.

على انتقام لنفس [تفسير القشيري (1/491)].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول المرسل إلى كافة الأنام ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الفرقان الفارق بين الحق والباطل ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة على إخوانكم من الأنبياء - عليهم السلام - ومع ادعائهم هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا﴾ ويتراجعوا في الوقائع ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ المضل عن مقتضى الإيمان والكتب ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي: بالطاغوت ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو رئيس الطواغيت ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن طريق الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:60] إلى حيث لا يرجى منهم الاهتداء أصلاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب الجامع لجميع الكتب المبينة لطريق الحق، الهادية إلى توحيده ﴿وَإِلَى﴾ متابعة ﴿الرَّسُولِ﴾ المبلغ الكاشف لكم أحكامه ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ والذين في قلوبهم مرض ﴿يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿عَنكَ﴾ وعن عظتك وتذكيرك ﴿صُدُودًا﴾ [النساء:61] إعراضًا ناشئًا عن محض القساوة والفساد.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:62-64].

﴿فَكَيْفَ﴾ لا يكونون منافقين إنهم ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من نفاقهم مع المؤمنين وتحاكمهم إلى الطاغوت، وعدم الرضا بحكمك وقضائك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أصابوا ﴿جَاءُوكَ﴾ معتذرين لك ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما قصدنا ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ طلبًا للخير من الله لإخواننا المؤمنين ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:62] بينهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن منافقًا نازع يهوديًا، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم بعد النزاع والجدال احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي فلم يرضى المنافق بقضائه، فقال: نتحاكم إلى عمر ﷺ، فحضرا عنده فقال اليهودي لعمر ﷺ: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض، فخاصم إليك، فقال

عمر للمنافق: أهكذا، قال: نعم، فقال: مكانكما حتى أخرج، فدخل بيته، وأخذ سيفه، فخرج فضرب به عنق المنافق، فقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، فنزل جبريل وقال: إن عمر ﷺ قد فرق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنهمكون في الغي والضلال هم ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والشقاق، فلا يغني عنهم حلفهم الكاذب شيئًا من عذاب الله ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وعن حلفهم عن المؤمنين ﴿وَعِظْهُمْ﴾ في الخلوات على مقتضى شفاق مرتبة النبوة والرسالة ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾ حين كانوا مفترقين متفردين ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ عن المؤمنين ﴿قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء:63] ليؤثر فيهم ويحرك فطرتهم الأصلية التي فطروا عليها؛ رجاء أن يتفطنوا بالتوحيد ويتنبهوا بحقيته بتوفيق الله وجذب من جانبه.

﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل مثال هذا التوفيق منا؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ إلى أمة من الأمم الماضية ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ ويؤمن به ويمتثل بأمره إلا ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ وتعلق إرادته بإطاعتهم له وإيمانهم به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من غاية جهلهم ونفاقهم ﴿إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالخروج عن إطاعتك وانقيادك عنا ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين معتذرين مما صدر عنهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ﴾ مخلصين نادمين ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أيضًا بالاستشفاع والاستدعاء من الله بالقبول بعدما جاءوا معتذرين ﴿لَوَجَدُوا اللهَ﴾ وصادقوه مفضلاً كريمًا ﴿تَوَّابًا﴾ يقبل توبتهم ﴿رَّحِيمًا﴾[1] [النساء:64] لهم يوفقهم عليها.

---

(1) يتحفنا الشيخ البيطار بوارده القدسي في هذه الآية المباركة بقوله: اعلم - أيدك الله - أن ذات الله تعالى هي الكنز المخفي الذي يحرم التفكير فيه؛ لأنه الغيب الذي لا يُعلم من حيث البطون الغيبي، فلا تصل إليه العبارة ولا تتوجه إليه الإشارة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:20] أي: من وراء الظهورات، فالكنز المخفي غيب لا يصح ظهوره من حيث هو، وإلا لبطل سر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:3] فكل ما بدا من ذلك الغيب خرج عن اسم الغيب وصار الغيب من ورائه. وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:7]، فأخبر تعالى عن انفراده بذاته، فلا يُقال: إنه ثالث ثلاثة أو خامس خمسة من جهة الغيب المطلق الذي تؤمن به، ولذلك ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:73]؛ لأنه فاتهم مرتبة البطون الذاتي المشار إليها بقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:20] وهي مرتبة الانفراد عن الثلاثة، كما قال: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:7] وهي الغيب الذي لم يظهر، فلا يزال المؤمن متعلقًا بمرتبة

الغيب، ولذا قال الإمام الربّاني ﷺ: الناس فرحون بالرؤية الموعودة في الآخرة وكل همي وابتلائي ألّا يخرج الأمر من العلم إلى العين، ومن الغيب إلى الشهادة يرى ﷺ أن الغيب إذا ظهر إنما هو غيب نفسك، فلا ترى إلا نفسك، فهو طائرك الملزم في عنقك لا الغيب المطلق الله هو الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:91] وقال ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ولولا أن الأمر كذلك ما سُمي محمدًا ﷺ عبدًا، ولكان ربًّا مطلقًا من كل وجه، وبهذا المعنى مُنع موسى ﷺ رؤية الله وقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: 143]؛ لأن الغيب ولو ظهر بعض مظاهره فمظاهره لا تتناهى، فهي غير محصورة فلا تمكن رؤية الله من جميع الوجوه، فهذا معنى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وقال ﷺ لما سُئل: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» وقالت عائشة رضوان الله عليها: «من يزعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم الفرية» فلا يزال الله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج:20]، وإلا فقد رآه موسى في النار، أي: رأى غيبًا من غيوب الحقيقة الموسوية، فخاطبه غيبه وقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12]، فأشار بقوله: ﴿طُوًى﴾ أنه ما رأى إلا ما انطوى عليه باطنه، فالرؤية الموعودة في الآخرة رؤية ربك المناسب لباطن ذاتك، وهو الذي كان يربيك في الدنيا ويُدبّرك يظهر فيك بالشئون التي كنت عليها، فبحسب ما كنت عليه من العقيدة فيه تراه، فالرؤية في الآخرة واحدة، ولكن لا يقبل الرائي منها إلا ما يشاكله بما كان يعتقده في ربه، فالمرئي واحد، ولكن تختلف صوره عند الرائين.

وقد ورد في الحديث: «إنه يتجلى لقوم فيتعوذون منه وينكرونه، فإذا تجلى لهم بما يعرفون قالوا: نعم أنت ربنا» وهو هو؛ لأنه عين كل أول وآخر وظاهر وباطن، ومن وراء ذلك محيط، فلا يعرف الله على الحقيقة إلا الله، حتى هو تعالى، وإن كان يعلم نفسه لكنه لا يحيط بها؛ لأن ذاته لا تدخل تحت إحاطة علمه، فلذلك انفرد عن جنس ما ظهر من الغيب بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:7]، ومن العجب أنه عين الثلاثة وعين الرابع المنفرد وعين الخمسة وعين السادس المنفرد، والحاصل أن النهايات رجوع إلى البدايات، وهو مقام الأنبياء والرسل وكل الأولياء. وذلك معنى قولهم على مذهب المحققين: خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله وهو عندنا إثبات كمال الأنبياء لا الأولياء، فالبحر مرتبة العيان، والساحل مرتبة الإيمان.

أقول: إن هذا الساحل بحر لا يُخاض لا لأنبياء ولا لأولياء، ولكن هو الذي استأثر الله به في علم الغيب عنده، فإذا ظهر من هذا الغيب تجلي كان بحرًا يخوضه الأولياء؛ لعجزهم عن الجمع بينه وبين الساحل، وإلا فلا حاجة إلى الخوض؛ لأن بحر الأولياء بالنسبة إلى الأنبياء ساحل؛ لأن جميع علومهم مجموعة في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] والبحر عند الأنبياء هو الغيب الذاتي الذي استأثر الله به، فسير الأنبياء إيماني مع وجود

العيان، وهذا المعنى هو الذي نبه عليه الإمام الرباني ﷺ، فالحق مشهود لا مشهود، معلوم لا معلوم، منظور لا منظور، فأين الفرح بالرؤية الموعودة في الآخرة أو غيرها، وأي حاجة لرؤية الآخرة بعد قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115] فآخرة المؤمن موجودة حاصلة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولذا قال الله في مثل هؤلاء ممن ليس له ذوق شراب النبوة وهم الذين يطلبون ربهم من حيث المغايرة لهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: 64] بأن لم يعرفوا قدر أنفسهم من أنها وجه الله تعالى الظاهر،﴿جَآءُوكَ﴾ أي: جاءوك يا محمد، فشاهدوا الله تعالى فيك، وردهم إيمانهم إليك؛ لأني أنزلت عليك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10] ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء:64] عن علم ومعرفة بالله، وحضور ومعاينة مطابقة لظاهر الإيمان بلا تأويل، فحينئذ يستغفرون الله من جهلهم بالله، ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ من وجودهم مع الرسول فينقلبون إليه انقلاب الفرع إلى أصله، فيجدون الله فيهم كما وجدوه في الرسول بشهودهم أنهم عين الرسول الذي هو عين الله، فيكون للفرع ما كان للأصل، فلذا قال تعالى: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64] أي: لعلموا أنهم في أنفسهم عين التواب الرحيم، حيث إنه هو التواب لا هم، فتاب من نفسه التي كانت محجوبة عنها إلى نفسه العالمة بنفسها، فهو التواب من نفسه لنفسه على نفسه فيهم، فتوبة الله عين توبة من رُفع عنه الحجاب فتاب من رؤيته، إنه تائب بشهود التواب، كما قيل: قد تاب قوم كثير، وما تاب من التوبة إلا أنا.

ومن هنا قال ابن عطاء الله – قدس الله سره – في كتابه «التنوير»: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] اقتسم السامعون إلى قسمين:

قسم فرحوا واستبشروا وابيضّت وجوههم فرحًا بهذا البيع؛ لأنهم سلموا الثمن الذي كانوا يملكونه وهو أنفسهم وأموالهم المضافة إليهم، وأخذوا الجنة من الحق عوض ذلك الثمن، فلهؤلاء قصور من فضة تشاكل بياض وجوههم، وقسم حزنوا وخجلوا واصفرّت وجوههم خجلاً من الله، حيث عامل العباد بحسب جهلهم، فأضاف الأنفس والأموال إليهم وهي له تعالى، فهؤلاء لما اصفرت وجوههم خجلاً من الله، حيث لما علم دعواهم في ملك الأنفس والأموال أضافها إليهم، واشترى منهم ما هو مملوك له لا لهم، فجازاهم الحق تعالى بما يشاكل اصفرار وجوههم، فلهم قصور من ذهب، أقول: العارفون المحققون لا باعوا ولا اشتروا، وإنما الأمر ظهورات وتجليات، بل الأسماء الإلهية تظهر بالمعاني كلها، والمسمى واحد، وإلى ذلك أشار سلطان العاشقين منبهًا على هذا المعنى بقوله ﷺ:

أَهْـوَى رَشًـا رَشِـيقَ القَـدِّ حُلَـيّ ... قَـد حَكّمَـهُ الغَـرامُ والـوَجْدُ عَلَـيّ

إن قُلْـتُ خُـذِ الـرّوح يَقُـلْ لـي عَجَـبًا ... الـرّوحُ لـنا فهـاتِ مـن عـندِكَ شَـيّ

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء:60-68].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربك وعظم شأنه وسطوع برهانه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبكتبه وبرسله ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أيها المبعوث للكل ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ وحدث ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من

وهذا المقال أعدل شاهد لابن الفارض رضوان الله عليه أنه فاني في حقيقة الرسول ﷺ؛ لأن قوله: الروح لنا إشارة لقوله: «أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر» فجميع الأرواح من تلك الروح بل جميع الأشباح أيضًا، فلذا قال: فهات من عندك شيء، أي: أنت مني، فما الذي لك؟ قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6] وفي الاعتبار: الإيمان ساري في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44]، ولا يسبح بحمده إلا من يؤمن به، فالنبي حقيقة كل مؤمن، أي: حقيقة كل شيء، وتلك الحقيقة مشهودة في مظاهر الوجود يراها أهل المعرفة والشهود، ...ولكن علامة المتحقق بهذا المشهد ما قاله بعضهم في الصوفي من أن ملكه مباح ردمه هدر، وهذا هو المسمى عن الحقيقة، فمن كان لا يطالب أحدًا بملكه ولا بدمه؛ لأن الآخذ والقاتل هو، فليفعل ما شاء، فإنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو وارث النبي ﷺ في آية الفتح المبين.ألا ترى أنه ﷺ لما أعطاه الله دعوة خاصة لنفسه كما أعطى الأنبياء قبله أباحها لأمته، وأخذ العهد من ربه ألاَّ تُرد شفاعته في واحد منهم، فقبل الحق منه ذلك، وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» والسر في ذلك أنهم ما ملكوا حتى يورثوا، وأما قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:16] فالقصد الأعظم وراثة العلم والنبوة وغير ذلك من المال بالتبع، فلا يلتفت إليه، فسليمان ﷺ ما ملك المال وإنما هو خازن له لأربابه يعطيه لهم عن كشف وبصيرة، فيعطي الشيء لصاحبه ويمنع الشيء عمن ليس بصاحبه، ولذلك لا حساب عليه في العطاء والمنع؛ لأن عطاءه عطاء الله ومنعه كذلك، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:39]، لأن المالك هو الله والله لا حساب عليه؛ فافهم ما أشرنا إليه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

الوقائع التي اختلفوا فيها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما حكموك ﴿لاَ يَجِدُوا﴾ حين راجعوا وجدانهم ﴿فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقًا واضطرابًا وشكًا ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾[1] حكمت به ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ حكمك وقضاءك ﴿تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65] ناشئًا عن محض الإطاعة والانقياد، ظاهرًا وباطنًا؛ إذ طاعتك عين إطاعتنا وانقيادنا.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ فرضنا وأمرنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ في سبيلنا ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ المألوفة التي هي بقعة الإمكان ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي: المأمور به ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المخلصون المبادرون إلى الفناء في الله؛ ليفوزوا بشرف بقائه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من غاية تشوقهم وتعطشهم بمرتبة الفناء فيه ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في أولاهم وأخراهم ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:66] لقدمهم في طريق التوحيد والعرفان.

﴿وَإِذًا﴾ أي: حين ثبتوا على طريق التوحيد أشد تثبيت ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ بلا صنع منهم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:67] هو الفوز بمرتبة الكشف والشهود.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:68] يوصلهم إلينا بلا اعوجاج ولا انحراف.

اهدنا بلطفك صراطًا مستقيمًا يوصلنا إلى ذروة توحيدك.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

---

(1) قال أبو حفص: رضي الله تعالى من عباده لنفسه بظاهر القول، ولم يرض لنبيه ﷺ إلا بإخلاص القلب، والرضا بحكمه ساء أم سرّ، ومن لم يكن للنبي ﷺ مستقيمًا ظاهرًا وباطنًا وسرًا وعلنًا وحقيقة ورسمًا كان بعيدًا عن حقيقة الإسلام ومراتب المسلمين.
قال عبد العزيز المكي: أقسم الحبيب للحبيب بالحبيب أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك، فيا لها من شرفٍ، ويا لها من كرامةٍ حارت فيه أوهام الخلائق، وجعل نفسه لنفسه، وجعل الرضا بحكمه كالرضا بحكمه ما وجب على خلقه الرضا، والتسليم بحكم نبيه ﷺ، كما أوجب عليهم الرضا والتسليم بحكمه، فهكذا إنسان المتحابين. قال بعضهم في هذه الآية: أظهر الحق على حبيبه خلعةً من خلع الربوبية، فجعل الرضا بحكمه ساء أم سرّ سبيلًا لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه لإيقان الموقنين، فأسقط عنه اسم الواسطة؛ لأنه متصفٌ بأوصاف الحق متخلقٌ بأخلاقه؛ ألا ترى كيف قال حسان: «فذُو العَرْشِ محمودٌ وَهَذا مُحمدُ».. [العرائس].

عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:69-73].

﴿وَ﴾ واعلموا أيها المؤمنون ﴿مَن يُطِعِ اللهَ﴾ حق إطاعته ﴿وَ﴾ حق إطاعته أن يطيعوا ﴿الرَّسُولَ﴾ المستخلف منه ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المطيعون لله ولرسوله مصاحبون ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين يجمعون بين مرتبتي الكمال والتكميل، الفائزون بمقام الكشف والشهود، لا يرون غير الله في الوجود، ولذلك يدبرون الظاهر والباطن ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ وهم الذين يصلون إلى مقام المشاهدة، ويتحيرون بمطالعة وجه الله الكريم إلى حيث لا يلتفتون إلى الكمال والتكميل، بل يهيمون ويستغرقون ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ وهم الذين يرفعون مزاحمة هويتهم عن البين مطلقًا ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ وهم الذين يستعدون نفوسهم لنقصان المراتب السابقة، ويترصدون لها إيمانًا واحتسابًا ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ﴾ المقربون المجتهدون في طريق التوحيد حسب مقدورهم ﴿رَفِيقًا﴾ [النساء:69] [1] شفيقًا للسالكين المتوجهين نحوه.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ والهداية والرفاقة مع هؤلاء الأمناء العظماء وللإنعام تفضلاً ﴿مِنَ اللهِ﴾ وامتنانًا منه لا صنع للعبد فيه، ولا علم لأحد في كيفيته وكميته ﴿وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:70] في مقدوراته، وموهوباته.

---

(1) قال روزبهان: معناه حسن مرافقتهم مع المطيع لله وحسن مرافقة الله مطيع الله لهم؛ لقرب منازلهم ودنو مقاماتهم بعضهم بعضًا؛ لأن المرافقة لا تحسن إلا بموافقة المقامات، والأنبياء هم الذين سمعوا أنباء الله بسمع الخاص، والصدِّيقون هم الذين مع الله بحسن الرضا، ومشاهدة نور البقاء، والشهداء المقتولون بسيوف محبته في معارك سطوات عظمته، والصالحون هم اللين خرجوا من محن الامتحان، وظفروا بنعمة الجنان، والروح والريحان، ويتراءون هلال جمال الرحمن، ولم يذكر المرسلين؛ لأنهم في الغيب غائبون وعن غيب الغيب غائبون، آواهم الله في ستره، لا يطّلع عليهم أحدٌ من خلقه إلا عند بروزهم من الحضرة.

قال فارس: أدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين، والصالحون في ميدان الشهداء، والشهداء في ميدان الصديقين، والصديقون في ميدان الأنبياء، والأنبياء في ميدان المرسلين.

هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ومن أجلّ أسباب المرافقة مع هؤلاء المقربين: الجهاد؛ لذلك أمرهم سبحانه بتهيئة أسبابه ليتهيئوا له، فقال مناديًا اهتمامًا لشأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ترويج دينكم، ونصرة نبيكم ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: عدتكم التي بها تحذرون عن العدو واستعدوا للقتال، وبعدما تم استعدادكم ﴿فَانفِرُوا﴾ اخرجوا قبل العدو ﴿ثُبَاتٍ﴾ فرقة بعد فرقة ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:71] مجتمعين مختلطين؛ لأنه أدخل في المهابة.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: وإن أناسًا منكم والله ليتكاسلن، ويتثاقلن لنفاقهم ومرض قلوبهم ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ قتل وهزيمة ﴿قَالَ﴾ المنافق المتكاسل ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ﴾ بسبب هذا البطء والتأخير ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:72] حاضرًا فيصيبني ما أصابهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ﴾ متمنيًا من فرط تحسره وتحسده بكم ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كتحسر الأعداء للأعداء: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:73] مثل ما فازوا.

وإن أبطأ المنافقون في أمر القتال، وتكاسلوا نفاقًا.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء:74-76].

﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ المخلصون المبادرون إلى الفناء ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع المشركين ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ ويختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ أي: بدلها، ويبيعونها بها ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ترويجًا لتوحيده مع هؤلاء المشركين المصرين على الشرك ﴿فَيُقْتَلْ﴾ في أيديهم ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ عليهم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ من لدنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء:74] لا كأجر الدنيا ولا كأجر الآخرة المترتبة على الأعمال الصالحة، بل الشهداء منهم أحياء عند الله يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، والغزاة فهم في حمى الله وكنف حفظه وجواره.

﴿وَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المبشرون بهذه البشارة العظمى ﴿لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع أعداء الله ﴿وَ﴾ لا تنقذون ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منكم من أيديهم ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين بقوا في مكة بعد الهجرة، فآذوهم واستذلوهم إلى أن استعبدوهم، وهم ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ من غاية حزنهم، ونهاية مذلتهم متضرعًا إلى الله مستشكيًا إليه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ إذ لا طاقة لنا بظلمهم ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يولي أمرنا، وينقذنا من أيديهم، ويخرجنا من بينهم ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:75] ينصرنا عليهم لينتقم عنهم، فاستجاب الله دعاءهم بأن ألحق بعضهم إلى المهاجرين، ونصر بعضهم بالنبي والمؤمنين حين فتحوا مكة - شرفها الله - فوصلوا إلى ما طلبوا من الله.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ تقربًا إليه وطلبًا لرضاه، وترويجًا لدينه ونصرة نبيه المبعوث لإعلاء كلمة توحيده ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ المضل عن طريق الحق، وسبيل الهداية إلى متابعة الشيطان وموالاته ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيها المؤمنون المخلصون ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تبالوا بعددهم وعددهم ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ بالنسبة إلى كيد الله ومكره ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:76] لا عبرة له ولا تأثير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا
أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا
تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا (٧٨)﴾ [النساء:77-78].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ضعفهم، ورثاثة حالهم حين كانوا في مكة قبل الهجرة يريدون أن يقاتلوا: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عن القتال إلى أن يأذن

الله لكم به ويرد الأمر عليه ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أديموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ الميل المقرب لكم نحوه بجميع الأعضاء والجوارح ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لنفوسكم عن الميل إلى زخرفة الدنيا، وانتظروا إلى أن يأمركم الله بالقتال والجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بعدما قوي حالهم، وزال ضعفهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بضعف يقينهم، وقلة وثوقهم بنصر الله وتأييده ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ أي: يخافون من الكفار ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ مثل خوفهم من الله ﴿أَوْ﴾ بل ﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ لوهن اعتقادهم، واعتمادهم على الله؛ إذ هم في أوائل ظهور الإسلام حين كانوا متزلزلين، لا يصفوا يقينهم بالتوحيد ﴿وَقَالُوا﴾ حين سمعوا نزول أمر القتال مسوفين متأخرين: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ مع أنا على ضعفنا ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يزداد فيه قوتنا وشوكتنا وعدتنا، وإنما قالوه خوفًا من الموت وفوات المال ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تذكيرًا وتنبيهًا: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وعمل قصير بالنسبة إلى عطاء الله، وشرف لقائه ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ المعدة لجزيل العطاء وشرف اللقاء ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ عما يشغلهم عنه وعن عطائه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أنكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون، ولا تهملون مما قدر لكم في القضاء ﴿فَتِيلًا﴾ [النساء:77] مقدار فتيل النواة.

واعلموا أيضًا أن تسويفكم وتأخيركم لا يفيدكم نفعًا في أمر الموت، بل وقته مبهم وأمره مبرم.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ عند حلول الأجل المقدر له من عنده ﴿وَلَوْ كُنتُمْ﴾ متحصنين ﴿فِي بُرُوجٍ﴾ قلاع وحصون ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ بأنواع التشييدات والتحصينات؛ إذ لا مرد من قضاء الله ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَ﴾ هم أيضًا من غاية تزلزلهم وتذبذبهم، وعدم رسوخهم في جادة التوحيد ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ فتح وغنيمة تفرح بها نفوسهم وتنبسط ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تفضلاً علينا، وامتنانًا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية واختبار تنقبض بها نفوسهم ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: أضافوها إليك متشائمين بك، كما تشاءمت اليهود حيث قالت: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها ﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والإيقان: ﴿كُلٌّ﴾ من الحوادث الكائنة سواء كانت مفرحة أو مملة، مقبضة أو مبسطة نازل ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ حسب قدرته وإرادته، لا يسأل عن فعله ولا في أمره، بل له التصرف مطلقًا ﴿فَمَالِ﴾ عرض ﴿هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ المنحطين عن درجة التوحيد والعرفان

﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ [النساء:78] يخلصهم عن التزلزل، وتردد المرتبة على الإضافات المنافية للتوحيد، ولو أنهم من أهل التدبر والتأمل في سرائر كلام الله ومرموزاته لفتح عليهم مما يخلصهم عن دغدغة الكثرة مطلقًا، فكيف إضافة الحسنة والسيئة؟.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾
وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا
يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ
عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:79-82].

ثم لما أراد سبحانه أن ينبه على خلص عباده طريق توحيده، وأن ظهوره في المظاهر كلها خير محض لرسوله ﷺ؛ لأن تحمل أمثال هذه الخطابات، وأن الشر إنما هو من الإضافة العارضة بسبب التعينات العدمية، فقال مخاطبًا لرسوله ﷺ؛ لأن تحمل أمثال هذه الخطابات الصادرة عن محض الحكمة، إنما يليق بجنابه ليصل منه إلى أمته: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ مسرة لنفسك ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ وعلى جري عادته، وظهوره على مظاهره بالخير والحسنى ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ محزنة مملة لنفسك ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ تظهر، ومن إضافتك تحصل، وإلا فهو خير في نفسه لا شر في الوجود أصلاً ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ تنبه لهم ما نبهت من لدنا ﴿وَكَفَى باللهِ شَهِيداً﴾ [النساء:79] على إرسالك وتبليغك.

ثم قال سبحانه: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ ويؤمن به ويصدقه بما جاء من عند ربه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ لأنه المظهر الجامع لجميع أوصافه وأسمائه، وللمظهر حكم الظاهر فيه ﴿وَمَن تَوَلَّى﴾ أعرض عن إطاعتك أعرض عنهم، ولا تلتفت نحوهم ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ [النساء:80] تحفظهم عما يشينهم، بل مبلغًا داعيًا لهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم.

﴿وَ﴾ ممن يحوم حولك من المنافقين قوم إذا أمرتهم بامتثال أمر الله ﴿يَقُولُونَ﴾ في جوابك: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: منا امتثال وإطاعة لما أمرت ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ

عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ زورت وافترت ولبست ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ تلك الطائفة لك، وقلت لها ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لهم والمحاسب أعمالهم ﴿يَكْتُبُ﴾ في صحائفهم، ويجازي عليهم بها ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويزورون ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بإطاعتهم وقبولهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في جميع الأمور، واتخذه وليًا ونصيرًا ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:81] يكفيك مؤونة ضررهم وشرورهم، وينتقم لك عنهم.

ومن جملة نفاقهم وشقاقهم أنهم يطعنون في القرآن بأنواع المطاعن، تارة ينسبونه إلى غير الله وتارة يكذبونه، وتارة يقولون: هو من أساطير الأولين، أيترددون في أمره ويطعنون في شأنه؟.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتأملون ﴿الْقُرْآنَ﴾ لفظًا ومعنى، ظهرًا وبطنًا، دلالة وحكمًا، اقتضاءً ونصًا، إشارةً وإيماءً، تلويحًا ورمزًا، حتى يتفطنوا أنه ما هو من كلام البشر ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: من جنس كلام البشر ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ﴾ البتة ﴿اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82] [1] حسب تفاوت درجات أشخاص البشر.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً

(1) قال الشيخ البقلي: القرآن صفات القدم، وهو موصوفٌ به؛ لأنَّ كلامه الأزلي والقرآن صفةٌ خاصةٌ ذاتيةٌ من جملة صفاته، وهو واحدٌ من جميع الصفات، لكنه مجمع الصفات كلها، فيه الأسماء والنعوت وخبر الصفات، وإعلام تقديس الذات، وهو قائمٌ بذات الله بغير علة الأصوات والحركات والحروف، ولو وقع للخلق التفكر والتدبر فيه بنعت المشاهدة والكشف لعلموا أنه خارجٌ من صفة الحوادث؛ لأنه نعت الأزلية، ووقعوا في بحار أسراره، وفنوا في أنواره، وخرجوا منها جواهر حكم القدمية ورموز السرمدية وحقائق الأبدية التي هو خبر جلال الذات وعيون الصفات وأسرار الأفعال من العرش إلى الثرى، صفته تجلت في حروف ا لوحدانية، وتجلت حروف الوحدانية في حروف القرآن، وكل حرفٍ مملوءٌ من بحار نكت الإلهية، من وقف على أسرارها يدهش في تجليها، ويعرف أنها خرجت من القدم، وأنها ليست من أوصاف أهل العدم؛ لأن وصف الله منزّهٌ عن الخلل والتضاد والخلاف، وأوصاف الخلق متضادةٌ متباينةٌ متغيرةٌ، وذلك المعنى موجودٌ فيما بقي من الآية.

حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:83-80].

﴿وَ﴾ من ضعفة المسلمين قوم ﴿إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ﴾ موجبات ﴿الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي: فشوه ونشروه سواء كان واقعًا أم أراجيف، ولحق للمسلمين بسبب تلك الإذاعة والإشاعة ما لا يليق بهم ﴿وَلَوْ﴾ أنهم حين سمعوا الخبر ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ﴾ أصحاب الرأي والتدبير ﴿مِنْهُمْ﴾ ليتأملوا فيه ويتبصروا ﴿لَعَلِمَهُ﴾ واستخرجه البتة المجتهدون ﴿الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ وأمثاله ﴿مِنْهُمْ﴾ وجهًا موجبًا للإفشاء أو الإسرار، ولا تغتروا أيها المؤمنون بعقولكم، ولا تستبدوا برأيكم ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿لَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول فيكم، وإنزال الكتب عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الشاملة بكم بتوفيقكم على الإيمان، ومتابعة الرسول ﷺ ﴿لاتَّبَعْتُمُ﴾ بأجمعكم ﴿الشَّيْطَانَ﴾ المضل عن طريق الحق ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:83] منكم، وهم الذين استثناهم الله سبحانه في سابق علمه تفضلاً عليهم وامتنانًا، وإن انصرفوا عنك بالمرة وانتشروا من حولك.

﴿فَقَاتِلْ﴾ بنفسك يا أكمل الرسل ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ إذ ﴿لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ ولا تحمل أعباء الرسالة إلا عليك، فعليك أن تشمر ذيلك لأمر الجهاد، لا تبال بإعانتهم وانتصارهم، ولا بتقاعدهم وانتشارهم، فإن الله ناصرك ومعينك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: رغبهم على القتال؛ إذ ما عليك في شأنهم إلا الترغيب والتبليغ سواء قبلوا أو لم يقبلوا، ولا تخف من كثرة المشركين وعظم شركهم ﴿عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ﴾ أي: يمحو عن قلبك ﴿بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشًا ﴿وَاللهُ﴾ المنتقم المقتدر بالقوة التامة الكاملة ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾ مهابة ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء:84] تعذيبًا من هؤلاء الغواة الطغاة، يكفيك مؤونة شرورهم عن قريب، وقد كفاه بأن ألقى في قلوبهم الرعب، فرجعوا خائبين خاسرين.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ يراعي بها حق الله وحقوق عباده، ويرغبهم بها على الخير، ويبعدهم عن الشر، خالصًا لرضا الله بلا تغرير لنفسه وجلب نفع لها، أو دفع ضر عنها ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة التي تسبب لها، والدعاء الخير للأخ

المسلم من هذا القبيل، قال ﷺ: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال الملك: ولك مثل ذلك»[1] ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ يحمل بها إلى ارتكاب محرم، أو يوقعهم في فتنة وبلية ﴿يَكُن لَّهُ﴾ أيضًا ﴿كِفْلٌ﴾ نصيب ﴿مِّنْهَا﴾ من أوزارها وآثامها المترتبة عليها مثل فاعلها بل أزيد ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿مُّقِيتًا﴾ [النساء:85] مقتدرًا على جزاء كل منهما فضلاً وعدلاً.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء:86-88].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أيها المؤمنون ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ ناشئة من أخيكم المسلم ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: زيدوا عليها؛ وفاء لحق المبادرة ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ كمثلها بلا نقصان شيء منها؛ وفاء لحق المؤاخاة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب لجميع حالاتكم ﴿كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنكم من خير وشر ونفع وضر ﴿حَسِيبًا﴾ [النساء:86] يحاسبكم بلا فوت شيء، ويجازيكم على مقتضى حسابه.

﴿اللَّهُ﴾ الجامع لجميع مراتب الأسماء الموجودة المربية لمسمياتكم وهوياتكم ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ لا موجود ولا مربي لكم في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الحي القيوم الذي لا يعرض له التغيير مطلقًا ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وليحشرنكم من قبور تعيناتكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التي عرضوا فيها إلى الله، وحشروا نحوه منسلخين عن هوياتكم الباطلة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفي جمعه، فلكم بعدما أخبرتم أن تصدقوه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:87] حتى تصدقوا حديثه وتؤمنوا، فعليكم ألا تخالفوا حكم الله وأمره بعد وروده.

وإذا كان الأمر على هذا ﴿فَمَا﴾ أي شيء عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي﴾ أمر ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ حتى تكونوا ﴿فِئَتَيْنِ﴾ فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم وشركهم ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ والحال أنه سبحانه قلبهم وردهم إلى كفرهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾

(1) أخرجه أحمد (195/5، رقم 21755)، ومسلم (2094/4 ، رقم 2733)، وابن ماجه (966/2، رقم 2895)، وابن أبي شيبة (21/6 ، رقم 29158)، وعبد بن حميد (ص 98، رقم 201) .

لأنفسهم من الشرك بالله - العياذ بالله - والبغض مع رسوله والنفاق مع المؤمنين ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ بهذا التفرق والتردد في أمرهم ﴿أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وتخالفوا كلمه، كأنكم لم تصدقوه ﴿وَ﴾ اعلم أيها الكامل في أمر الرسالة ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن نور الإيمان والهداية ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ أنت مع كونك ممن أذن بالكشف عنه ﴿لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88] إلى الهداية فضلاً عن أن يجده غيرك، وهم من غاية بغضهم معكم.

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [النساء: 89-90].

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تمنوا أن تكفروا ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ﴾ معهم ﴿سَوَاءً﴾ في الكفر والضلال والبعد من جوار الله وكنفه، وإذا كان الأمر على هذه ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ أي: أعداءكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم وتوادونهم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أي: إلى أن يسلموا ويهاجروا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويبعدوا عن ديارهم وعشائرهم؛ تقربًا إلى الله وتوجهًا إلى رسوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام والتقرب إلى الله بعدما هاجروا عن ديارهم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كسائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المهاجرين المصرين على شركهم وكفرهم ﴿وَلِيًّا﴾ توالونه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 89] تنصرونه، فعليكم أن تجانبوهم وتتركوا ولايتهم ووِدادهم.

﴿إِلَّا﴾ المهاجرين ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد وثيق على ألا تستعينوا منهم ولا تعينوا عليهم، والمواصلون إليهم في حكمهم وعلى عهدهم، فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم حتى لا تنقضوا الميثاق ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ حال كونهم قد ﴿حَصِرَتْ﴾ ضاقت وانقضت ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من الرعب، من المهابة، وحين كره ولم يؤذن ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ لأن المروءة تأبى عن ذلك؛ إذ هم ليسوا على عدة القتال، فعليكم ألا تبادروا إليه؛ إذ القتال إنما فرض مع المقاتلين المجترئين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قتالكم ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ لجرأهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وأزال رعبهم عنكم ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ ولم

ينصرفوا عنكم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ وانصرفوا عنكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام والانقياد ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ الميسر ﴿لَكُمْ﴾ جميع أموركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على قتلهم وأسرهم ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:90] بل اصبروا حتى يأذن الله لكم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:91-92].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ من الكفار ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بإظهار الهدنة والمحبة والاستسلام ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ عن شركم وقتالكم، هم أعداء لكم لا تغفلوا عنهم وعن هجومهم بغتة؛ إذ هم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ إلى الكفر والعداوة ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ وعادوا إليها وصاروا على ما كانوا، بل أشد منه ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ إظهارًا لودادتكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ تخديعًا وتأمينًا ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم تغريرًا لكم حتى يتهيئوا أسبابهم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في داركم أو دارهم ﴿وَأُوْلَئِكُمْ﴾ المغرورون بخداعهم ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ على أخذهم وقتلهم ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:91] حجة واضحة، فعليكم ألّا تعبثوا بدعواهم، ولا تغتروا بصلحهم وكفهم، وإلقائهم السلم؛ إذ هم من غاية بغضهم معكم يريدون أن يخدعوكم وينتهزوا الفرصة لمقتكم.

﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ لا قصدًا واختيارًا مطلقًا ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: لزم عليه شرعًا تحرير

رقبة متصفة بالإيمان، محكومة به؛ ليكون كفارة مسقطة لحق الله ﴿وَ﴾ لزم عليه أيضًا ﴿دِيَةٌ﴾ كاملة ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ ورثته الذين يرثون منه حفظًا لحقوقهم، وجبرًا لما انكسر من قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي: يسقطوا حقوقهم متصدقين ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن﴾ عداد ﴿قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ عداوة بينة ﴿وَهُوَ﴾ أي: المقتول ﴿مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة فقط؛ إذ لا مواساة مع أهله، ولا وراثة لهم منه ﴿وَإِن كَانَ﴾ المؤمن المقتول ﴿مِن قَوْمٍ﴾ ذوي ذمة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد وثيق ﴿فَدِيَةٌ﴾ أي: فاللازم حينئذ دية كاملة ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ حفظًا للميثاق ومواساة معهم رجاء أن يؤمنوا؛ إذ سر المواثيق والعهود الواقعة بين أهل الإيمان والكفر إنما هو المواساة والمداراة معهم ملاطفة؛ رجاء أن يرغبوا بالإيمان طوعًا ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لإسقاط حق الله وجبر ما انكسر من حدوده ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة مملوكة ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه أن يصوم شهرين كاملين على التوالي بلا فصل كسرًا لما جراه على هذا الخطأ، وليكون ﴿تَوْبَةً﴾ مقبولة عند الله، مكفرة لخطئه ناشئة ﴿مِّنَ﴾ خوف ﴿ٱللَّهِ﴾ وخشيته لاجترائه على تخريب بيته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع بضمائر عباده ﴿عَلِيمًا﴾ بحاله وقت إنابته ورجوعه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:92] فيما أمره وحكم عليه لإزالة ما عليه وما صدر عنه.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:93-94].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ مباشرًا على قتله إرادة واختيارًا، والعمد على الوجه من إمارات الاستحلال ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ أي: جزاء المستحل ووبال وزره لا يسقط عنه لا بالتحرير ولا بالدية، ولا بالصوم والصدقة، بل جزاؤه ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد عن جوار الله يصير ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ مؤبدًا إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ مع خلوده في نار الخذلان والحرمان ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أخذه وأخزاه بأنواع الخزي والمذلة ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طرده عن حضوره، وأسقطه عن

مرتبة خلافته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ﴾ أي: هيأ له ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:93] بحيث لا يصفو معه، ولا ينظر إليه أبدًا.

نعوذ بك من غضبك وسخطك يا أرحم الراحمين.

ومن عظم أمر القتل عند الله، وإزالة الحياة التي حصل من نفخ الروح الذي أضافه لنفسه، أمر سبحانه على المؤمنين الذين يقصدون بالقتال والجهاد رضاء الله وإعلاء دينه ترويج توحيده بالتبيين والتفتيش فيه على وجه المبالغة؛ حتى لا يؤدي إلى تخريب بنائه وإبطال صنيعه، فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم للجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لإعلاء كلمة توحيده، وانتصار دين نبيه ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فاطلبوا بيان الأمر والحال من كل من استقبل عليكم، ولا تبادروا إلى قتل بلا تفتيش حالة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿لاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ﴾ الإطاعة والانقياد ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بل كافرًا مداهنًا خائفًا تبادر علينا بالإطاعة حفظًا لدمك ومالك حال كونكم ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تطلبون بهذا القول ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: متاعها التي هي حطام زائلة، وأثاث باطلة ﴿فَعِندَ اللهِ﴾ لكم إن امتثلتم لأمره ورضيتم ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ مما تتلذذ به نفوسكم يغنيكم عن حطام الدنيا ومزخرفاتها، بادروا إليها، ولا تميلوا إلى لذاتها الفانية.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ألقى إليكم السلم ﴿كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبل رسوخكم على الإيمان واطمئنانكم على شعائر الإسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة، وأظهرتم الإيمان والإطاعة لحفظ دمائكم وأموالكم ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالتمكن والاطمئنان والعزيمة الصحيحة والاستقامة في شعائر الإسلام، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أيضًا عن حالهم، واقبلوا منهم ما قالوا كما قبل الله منكم من قبل؛ رجاء أن ينكشفوا بما انكشفتم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بسرائركم وضمائركم ﴿كَانَ﴾ في سابق علمه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأغراض المؤدية إلى الحطام الدنيوية ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:94] عليمًا لا يعزب عن علمه وخبرته شيء.

روي أن سرية من أصحاب رسول الله غزت أهل فدك، فهربوا وبقي فيها مرداس اعتمادًا على إسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى شعب الجبل وصعد عليه، فلما تلاحقوا كبّروا وكبّر أيضًا، ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم يا أصحاب رسول الله، مرحبًا بكم ويقدومكم فقتله أسامة، واستاق غنمه، فنزلت.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ

ﭐﻟﻠَّﻪُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:90-96].

ثم قال سبحانه: ﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ﴾ عن الحرب ﴿مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ حال كونكم ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ من الدم والمرض والذمامة وغيرها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ابتغاء لوجه الله وطلبًا لمرضاته ﴿فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ عظيمة وفاء لحق ما اجتهدوا في سبيله ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كُلاًّ﴾ منهم ممن ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ لهم المثوبة ﴿الحُسْنَى﴾ والمراتب العظمى والدرجة العليا ﴿وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ﴾ زيادة ﴿عَلَى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95] هو الفوز بمرتبة الشهادة.

وفضل الله لهم في تلك المرتبة ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ بعضها قريب، وبعضها أقرب إلى ما يشاء الله ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم بالمرة كيوم الولادة ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصة لهم بأن يكونوا عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿غَفُورًا﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:96] لهم يرحمهم حسب فضله وطوله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:97-99].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ﴾ وهم الذين بقوا في مكة، ولم يهاجروا مع رسول الله ولا بعده، فاستزلهم العدو، وأخرجوهم إلى قتال رسول الله يوم بدر، فقتلهم الملائكة حين إمدادهم لرسول الله ﷺ ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ بتوطينها بين العدو مع القدرة على الهجرة، مع أنه حينئذ لا يقبل منهم الإيمان بلا هجرة، ثم نسخ بعد الفتح لذلك قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[1] ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة لهم حين

(1) حديث عائشة: أخرجه مسلم (1488/3، رقم 1864)، وابن أبي شيبة (408/7، رقم 36932). حديث صفوان: أخرجه أحمد (401/3، رقم 15341)، والنسائي (145/7، رقم 4169).

أظهروا الإيمان بمحمد ﷺ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ في أي أمر وشأن من دينكم مع كونكم بين أعداء الله ورسوله؟ ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم معتذرين: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ محبوسين ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أرض العدو حين استزلونا وأخرجونا إلى قتال رسول الله ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة موبخين لهم مقرعين تبكيتًا وإلزامًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ مع كونكم غير ملجئين على القعود ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء المداهنون مع الأعداء المظاهرين لهم ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومثواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد عن جوار الله وسعة رحمته ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ [النساء:97] مآبًا ومتقلبًا لهم.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الذين استضعفهم المرض أو الهرم أو عدم المكنة ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ لأنهن لسن متكلفات بالهجرة إلا مع أزواجهن ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ وهم ليسوا من أهل التكليف، وبالجملة: المستضعفون هم الذين ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي: لا يقدرون على إحداث حيلة تنجيهم عن أعدائهم ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء:98] يوصلهم إلى أوليائهم حتى يهاجروا.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المضطربون في أمر الهجرة المستضعفون في يد العدو ﴿عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: يمحو عن صحائف أعمالهم زلتهم الاضطرارية، ويغفر ذنوبهم كسائر المؤمنين إن كانوا مخلصين في الإيمان ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ونياتهم ﴿عَفُوًّا﴾ لمن أخلص ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:99] لمن تاب ورجع.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء:100-101].

﴿وَمَن يُهَاجِرْ﴾ عن بقعة الإمكان التي هي أرض الطبيعة سالكًا ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾

حديث ابن عباس: أخرجه أحمد (226/1، رقم 1991)، وابن أبي شيبة (407/7 ، رقم 36930)، والترمذي (148/4، رقم 1590)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (146/7، رقم 4170). والبخاري (1025/3، رقم 2631)، وأبو داود (3/3 ، رقم 2480).

الذي هو الصراط المستقيم الموصل إلى الفناء فيهن، متوجهًا إلى الفوز ببقائه الأزلي السرمدي ﴿يَجِدْ فِي الأَرْضِ﴾ أرض الطبيعة ﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ أي: بوادي وأودية من اللذات الوهمية، كثر وقوفه فيها إلى أن ينجو ﴿وَ﴾ يجد أيضًا ﴿سَعَةً﴾ مخرجًا من تلك المضائق حسب إخلاصه في سلوكه إلى أن يفوز بمطلوبه ﴿وَ﴾ بالجملة: أن ﴿مَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ أي: هويته الباطلة في نفسها حال كونه ﴿مُهَاجِرًا إِلَى﴾ توحيد ﴿اللهِ وَ﴾ متابعة ﴿رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ﴾ الإرادي فمات عن لوازم البشرية مطلقًا ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «من أحبني أحببته، ومن أحببته قتلته، ومن قتلته فعلي ديته، ومن علي ديته فأنا ديته»[1].

من هذا تفطن العارف أن ليس وراء الله مرمى، وإياك أن تتقيد بهويتك ولوازمها، ومتى تخلصت عنها وعن لوازمها وصلت، بل اتصلت ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المرشد لعباده إلى توحيده ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب أنانيتهم وهويتهم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:100] لهم يوصلهم إلى ما يتوجهون نحوه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لا لمعصية، بل لمصلحة دينية من تجارة وغزو وحج وصلة وطلب علم، وغير ذلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ضيق وزر ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالاحتيال والاغتيال ﴿إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا﴾ دائمًا ﴿لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: 101] ظاهر العداوة مترصدين للفرصة.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:102].

(1) ذكره النيسابوري في التفسير (144/2).

﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في المؤمنين ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾ أنت لهم ﴿الصَّلاَةَ﴾ إمامًا، فرقهم فرقتين ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ متابعين لك مؤتمين بك ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: جميعها احتياطًا ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ هؤلاء المؤتمون ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي: الطائفة الأخرى ﴿مِن وَرَائِكُمْ﴾ حارسين حافظين لكم ﴿وَلْتَأْتِ﴾ بعدما صلوا ﴿طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ كما صلوا ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ معهم ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كما أخذوا، فليكن المصلون من ورائكم كما كانوا، فيصلي الإمام صلاة الخوف مرتين مع الطائفتين، أو يوزعهما عليهما على اختلاف الفقهاء، فعليكم ألّا تغفلوا من العدو سيما عند الخوف؛ إذ ﴿وَدَّ﴾ تمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ بصلاة ونحوها ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾ بغتة ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فصادفوكم عزلاً لا سلاح معكم، فاستأصلوكم بالمرة.

﴿وَ﴾ ليس هذا الأمر للوجوب، بل ﴿لاَ جُنَاحَ﴾ لا ضيق، ولا جرم ﴿عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ وغيره ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَى﴾ يشق عليكم أخذها ﴿أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ لدفع الحرج ﴿وَخُذُوا﴾ حين وضعها ﴿حِذْرَكُمْ﴾ أي: من حذركم مقدار ما يحذر به إن أتوا بغتة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على الانتقام ﴿أَعَدَّ﴾ هيأ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ به وبرسوله ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:102] [1] بأيدي المؤمنين، يغلبهم ويذلهم، وأعد للمؤمنين النصر

(1) بيَّن الله سبحانه أن واجبات العبودية لا تسقط عن العبد ما دام فيه الرمق، إما في الخوف وإما في الأمن، ومن تاه في الوجد وهام في الغلبة فهو مجنون العشق، خارجٌ عن مراتب التمكين، وذلك علة له؛ حيث ضعف في الوجد عن حمل وارد الشرع؛ لأن سلطان الشرع حقُّ الله، وسلطان الوجد حظ العبد، وسلطان الله غالبٌ على ما دونه؛ لذلك أمر سيد الرسل والأنبياء والأولياء بإقامة الصلاة في مقام الاضطراب والتلوين والامتحان، وهو سائح بحر المشاهدة، وأصحابه فرسان ميادين المحبة، وسادات أهل الولاية، ولو سقطت العبودية عن أهل الوجد لما أمر لسيد الواجدين بأداء الفريضة في مقام الخوف الإشارة فيه: أي: إذا كنت بينهم فتكون الصلاة على وفق مراد الله من العباد. وأيضًا: إذا كنت فيهم فالصلاة ترجع إليهم، وإذا غبت عنهم فالصلاة ترجع إلينا؛ لأنهم في البداية في رؤية الوسيلة، وفي النهاية في إسقاط الوسيلة. وأيضًا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ اشتغلت بتأديبهم، وإذا غبت عنهم اشتغلت بنا، فالشرع خفي على العباد، وخفي لك حجاب لحق مشاهدة الشرع في مواطن القرب، بقوله ﷺ: «إنَّه ليُغانُ على قلبي» أي: شغلي بكم حين يمنعني قلبي من حظ مشاهدتي من الله. وأيضًا: أي: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ لأنك تدري أن ساحة كبريائي مقدسةٌ عن وقوف المصلين، وشريعة بحار قدمي منزهةٌ عن ورد

والظفر بعدما أمرهم بالتيقظ والاحتياط؛ لئلا ييأسوا من عون الله ونصره.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء:103-105].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ﴾ عند الخوف على الوجه المأمور ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ بعد الفراغ منها ﴿قِيَامًا﴾ قائمين ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ مضطجعين؛ جبرًا لما فوتم من أركانها وأبعاضها وآدابها حالة اضطرابكم ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ وزال خوفكم وارتفع رعبكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأتموها وأدوها، مراعين جميع شرائطها وآدابها، محافظين عليها، مهتمين ﴿إِنَّ الصَّلاةَ﴾ المقربة لكم إلى ربكم ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بوحدانية الله المتوجهين نحو فردانيته بجميع الأعضاء والجوارح ﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:103] فرضًا موقتًا محدودًا، لازم الأداء لكل مكلف جبل على نشأة التوحيد.

﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: في وقت طلب الكفار قتالكم؛ إذ هم مثلكم ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَ﴾ فائدة القتال

الواردين، فالعبودية ترجع إلى العباد، والربوبية ترجع إلى عظمتي وكبريائي. وأيضًا: إذا كنت مشغولًا بمشاهدة جمالي، وتسبح في بحار عظمتي فتضيف عالم الخدمة إليهم، فإنك غائبٌ بسترك في عيني وغيب غيبي وجلال مشاهدة أزلي، وسقط عنك ما أوجبت على الغير، وهذا موضعٌ خاصٌ له عليه الصلاة والسلام، الذي قال ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ» قال الحسين بن منصور: ليس لله مقامٌ ولا شهودٌ في نادٍ، ولا استهلاكٌ في حيرةٍ، ولا ذهولٌ في عظمته يقطع عن الآداب الشرعية، ولا له مقامٌ أوقف فيه الموحدين، أشهدهم الشريعة أن جريانها عليهم علمٌ للغير لا لهم ومما يصح هذا قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فجعل إقامته للصلاة أدبًا لهم، وهو في الحقيقة في عين الحصول لا يرجع إلى غير الحق في منصرفاته، ولا يشهد سواه في سعاياته.

وربحه عائد بكم؛ إذ ﴿تَرْجُونَ مِنَ﴾ فضل ﴿اللهِ﴾ لانتصاره وإعلاء كلمته ﴿مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ فما لكم تضعفون وتجبنون عنه ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ الموفق لكم على القتال والأمر به ﴿عَلِيمًا﴾ بقوتكم ومقاومتكم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:104] فيما أمركم ونهى عنكم؟ فاتخذوه سبحانه وقاية لأنفسكم، وفوضوا أموركم كلها إليه، وامتثلوا لجميع ما أمر طائعين راغبين.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وإحساننا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الفارق بين الحق والباطل متلبسًا بالحق الصريح ﴿بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ بالعدل الذي هو صراط الله الأعدل الأقوم خصوصًا ﴿بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ أي: عرفك وأوصاك به ﴿وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ﴾ أي: لأجلهم ورعاية جانبهم ﴿خَصِيمًا﴾ [النساء:105] لأهل البراءة.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء:106-109].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهَ﴾ من رمي البريء، والميل إلى الخائن ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لمن استغفر له ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:106] لمن أخلص في استغفاره.

نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعًا من جاره قتادة بن النعمان، هو في جراب دقيق ينثر من خرق فيه، وأودعها عند زيد بن السهني اليهودي، فلما وقف قتادة ظن أنه عند طعمة وطلب منه، فأنكر وتفحص في بيته ولم يجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم وخبر، فتركه واتبع أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي؛ فوجدها في بيته، وقال: أودعها عندي طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله، فالتمسوا منه ﷺ أن يجادل في صاحبهم، وقالوا: إن لم تجادل عنه هلك وافتضح، فهمّ رسول الله ﷺ أن يميل ويفعل ما التمسوا مداهنة ومجادلة، فجاء جبريل عليه السلام بهذه الآية، فندم ﷺ عما همّ، واستغفر ربه، ورجع، وتضرع.

﴿وَلاَ تُجَادِلْ﴾ يا من أرسل على الحق مع المحقين ﴿عَنِ﴾ جانب المبطلين ﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ باقتراف الخيانة وانتسابها إلى الغير افتراء ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المرسل لك على الحق ﴿لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مقترفًا للخيانة ﴿أَثِيمًا﴾ [النساء:107] مفتريًا لغيره؛ تنزيهًا لنفسه عند الناس، استخفاء منهم.

وهم من غاية عمههم وجهلهم ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ خيانتهم ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع بعدهم عنهم ﴿وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ والرقيب عليهم أقرب من وريدهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يلبسون ويزورون ﴿مَا لاَ يَرْضَى﴾ الله ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ الكاذب ورمي البريء وشهادة الزور، والحلف الكاذب وغير ذلك ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع بسرائرهم وضمائركم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من أمثال هذه الأباطيل الزائفة ﴿مُحِيطًا﴾ [النساء:108] لا يعزب عن علمه شيء.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ أيها المجادلون المبطلون ﴿هَؤُلاءِ﴾ الخائنون المفترون ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فسترتم ما عرض بهم من الخيانة والعار في هذه الدار ﴿فَمَن يُجَادِلُ اللهَ﴾ المنتقم ﴿عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويستر زلتهم عنه فيها ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء:109] بظاهرهم، وينقذهم من عذاب الله وبطشه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:110-113].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا﴾ معصية متعدية ليسوء به غيره رميًا وافتراء ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالخروج عن حدود الله بلا تعدية إلى الغير، ثم بعدما تفطن بوخامة عاقبته ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ﴾ بالتوبة والندامة الناشئة عن محض الخلوص والتيقظ ﴿يَجِدِ اللهَ﴾ الموفق له على التوبة ﴿غَفُورًا﴾ يغفر ذنوبه ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:110] يقبل توبته تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ منكم ﴿إِثْمًا﴾ موجبًا للنكال والعذاب ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لا يتعدى وباله عنه ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المجازي لعباده ﴿عَلِيمًا﴾ بما صدر عنهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:111] فيما جرى عليهم.

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ منكم ﴿خَطِيئَةً﴾ معصية صادرة عن خطأ لا عن قصد ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ صادرًا عن قصد وعن اختيار ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾ منزهًا عند نزاهة نفسه ﴿بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ﴾ وتحمل الرامي ﴿بُهْتَانًا﴾ افتراء ﴿وَإِثْماً مُّبِينًا﴾ [النساء:112] ظاهرًا في إسقاط العدالة واستجلاب العذاب.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل بإنزال الوحي ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بإعلام ما هم عليه من رمي البريء ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن منهج الرشاد ومقتضى حكم الله وأمره ﴿وَ﴾ بعدما أدركك الوحي والإلهام ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بتلبيسهم ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ إذ عاد وباله ونكاله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا من الضرر؛ لأن الله يعصمك عما لبّسوه عليك، ويأخذهم ﴿وَ﴾ عليك أن تجتنب عن تلبيساتهم وتزويراتهم، والإصغاء إلى أكاذيبهم ومفترياتهم؛ إذ ﴿أَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ من غاية لطفه ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين للوقائع والأحكام ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ المتقنة الكاشفة عن سرائرها ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ من الحقائق والمعارف ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من قبل ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ﴾ بإعطاء هذه الفضائل ﴿عَظِيمًا﴾ [النساء:113] [1] إذ لا فضل أعظم منه.

---

(1) قال الشيخ سيدي إسماعيل حقي: احسبوا أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر أن الله علمه ما لم يكن يعلم فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظار للوحي حين سألته اليهود فقد كان لغموض في معنى الجواب ودقة لا تفهمهما اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب ولما عبروا بالسر عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفى عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزلة الخفى ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار صفات مشاهدات الجميل الخفى، وإذا فنوا بسطوات تجلى صفات الجلال عن أنانية الوجود ووصلوا إلى الجنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى وإذا استغرقوا في بحر الهوية وابقوا ببقاء الإلهية عرفوا الله بالله، فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال من يقول علمت ما كان وما سيكون. [روح البيان7/280].

﴿۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:114-116].

وإذا كان شأنك عند الله هذا، لا تبال بهم وبمعاونتهم ومصاحبتهم؛ إذ ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ دعائهم ومناجاتهم في خلواتهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ نفسه ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ على الفقراء موجبة لرحمة الله له ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا من الأخلاق الحميدة والخصائل المرضية ﴿أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ على الوجه الأحسن الأوفق ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ كل واحد من ذلك ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ خالصًا لرضاه، بل تخلل الرياء والسمعة، وقصدُ الرئاسة والجاه بين الأنام ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ من فضلنا وجودنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:114] فوق ما يستحقه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ ويخالفه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُ الْهُدَى﴾ جاء به الرسول لدلالة المعجزات الساطعة والبراهين القاطعة على صدقه ﴿وَ﴾ مع ظهور هذه الدلائل الواضحة ﴿يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتابعين لهم كابرة وعنادًا ﴿نُوَلِّهِ﴾ على ﴿مَا تَوَلَّى﴾ من الغي والضلال، ونخل بينه وبينه في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿نُصْلِهِ﴾ ندخله ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ [النساء:115] منقلبًا ومآبًا لأهلها.

أجرنا من النار يا مجير.

ثم قال سبحانه؛ تسلية للعصاة وترغيبًا لهم إلى الإنابة والرجوع: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿لاَ يَغْفِرُ﴾ ولا يعفو ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ شيئًا من مصنوعاته في استحقاق العبادة، وإسناد الحوادث نحوه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وإن استكرهه واستنكره وندم منه، ولم يصر عليه ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ بنسبه الحوادث الكائنة إلى غيره ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن جادة التوحيد ﴿ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:116] لا ترجى هدايته أصلاً.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ [النساء:117-121].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: ما يدعون من دون الله آلهة ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ وهي: اللات والعزى والمناة ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ من دونه ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء:117] مردودًا لا خير فيه أصلاً؛ إذ هو حملهم وأغراهم على عبادة الأصنام الجامدة.

وكيف يعبدونه ويدعون له وقد ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وطرده عن عز حضوره، وأخرجه من خلص عباده بواسطة تغرير العباد وإغرائهم إلى الشرك والطغيان ﴿وَ﴾ بعدما آيس عن روح الله، وقنط من رحمته ﴿قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾ الذين طردتني بسببهم وأبعدتني لأجلهم ﴿نَصِيبًا﴾ حظًا كاملاً مما جعلته ﴿مَفْرُوضًا﴾ [النساء:118] لهم من توحيدك وتقديسك، بأن يغرهم ويلبس عليهم إلى أن يشركوا بك، وينسبوا إليك ما لا يليق بجنابك، فينحطوا بها عن كنف حفظك وجوارك، ويستحقوا سخطك وغضبك.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بأنواع الخداع والوسوسة عن طريق توحيدك ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بما يتعلق بمعاشهم في دار الغرور من الحرص وطول الأمل، وسائر مشتهيات النفس ومستلذاتها ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بتغيير أوضاعك وتنقيص مصنوعاتك وتخريب مخترعاتك ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ ليشقن ﴿آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وأنوف الخيل، وغير ذلك من الأعمال التي عملوا مع خلقك بلا رخصة شرعية ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ بموالاتي إياهم، ومواساتي معهم إلى أن يغيروا ما خلق على مقتضى الحكمة من الأمور التي خرج بها عن الفطرة الإلهية وانحرفوا بها عن طريقه الأقوم الأعدل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ﴾ ولاية ﴿اللَّهِ﴾ المولي لجميع أموره ﴿فَقَدْ خَسِرَ﴾ لنفسه ﴿خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:119] ظاهرة الخسارة والحرمان؛ إذ بدل ولاية الله الهادي بولاية الشيطان المضل، ولا خسران أعظم منه.

وكيف لا يكون ولاية الشيطان خسرانًا، إذ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ويصلون إليه أصلاً، كيف يصلون وإلى أي شيء ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:120] أوهامًا وخيالات باطلة، لا وجود لها أصلاً لا حالاً ولا مآلاً؟!

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المغرورون بغرور الشيطان والضالون بإضلاله ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومثواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والإمكان ﴿وَ﴾ هم ﴿لاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:121] ملجأ ومهربًا أصلاً، بل يبقون فيها مخلدًا مؤبدًا.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:122-123].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بولاية الله وتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضى ما أمر الله ويسره ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ من فضلنا ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار الحقائق والمعارف والكشوفات والشهودات المتجددة بتجددات التجليات المترتبة على الأسماء والصفات الإلهية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ على هذا المنوال ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ الذي وعده لخلص عباده ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا في علمه الحضوري قبل خلقهم بمدة لا يعرفها إلا هو، فعليكم أيها المؤمنون أن تصدقوا وعده الثابت عنده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء:122] فيصدقوه ويثقوا به.

واعلموا أن ما ينالكم، ويصل إليكم مما وعد لكم ربكم ﴿لَيْسَ﴾ وصوله وحصوله ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي: بمجرد أماني بلا قدم وسلوك ﴿وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: ليس ما يصل إليهم بأمانيهم، فلا تخالفوا، وتنازعوا معهم، بل الأمور كلها إنما هي بمقتضى فضل الله وعدله وحسب توفيقه وتيسيره، وبالجملة: ﴿مَن يَعْمَلْ﴾ منكم ومنهم ﴿سُوءًا﴾ يسوء به نفسه وغيره ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ على مقتضى عدل الله عاجلاً وآجلاً ﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ ينقذه من عذاب الله ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء:123] يحمل بعض عذابه تخفيفًا له.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ

يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النساء:124-126].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة كلها، أو بعضها سواء كان ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله وجميع كتبه ورسله ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الصالحون الأمناء ﴿يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾ المعدة لأهل الإيمان والصلاح ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ﴾ ينقصون من جزاء ما عملوا ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء:124] مقدار نقر النواة، بل يزدادون عليها ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ وأقوم سبيلاً ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ﴾ أي: سلم ﴿وَجْهَهُ﴾ المفاض له من الله ﴿لِلهِ﴾ المفيض لوجوه الأشياء الموجودة ﴿وَهُوَ﴾ في حالة التسليم ﴿مُحْسِنٌ﴾ مع الله مستغرق بمطالعة جماله ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التي هي أقوم الملل وأحسنها؛ إذ هو ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة مطلقًا ﴿وَ﴾ لذلك ﴿اتَّخَذَ اللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:125] كأنه تخلل فيه إلى حيث صار سمعه وبصره ويده ورجله على ما نطق به الحديث القدسي.

ولا يظن أنه تخلل فيه على وجه الحلول والاتحاد، بل على التوحيد الصرف الخالي عن الكثرة مطلقًا؛ إذ ﴿وَلِلهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4،3] جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات؛ إذ كل ما ظهر وما بطن فمنه بدأ وإليه يعود ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ﴿مُحِيطًا﴾ [النساء:126] لا كإحاطة الظرفية بمظروفه، بل كإحاطة الشمس بالأضواء والأظلال، وإحاطة الروح بالجسم.

أذقنا بلطفك حلاوة توحيدك.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء:127-128].

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي﴾ ميراث ﴿النِّسَاءِ﴾ هل يرثن أم لا؟ ﴿قُلِ﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل: ﴿الله يُفْتِيكُمْ﴾ ويبين لكم ﴿فِيهِنَّ﴾ ميراثهن ﴿وَ﴾ هو ﴿مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ﴾ أي: القرآن ﴿فِي﴾ حق ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وتحرمونهن عن حقوقهن ظلمًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أو تعضلوهن كرهًا ﴿وَ﴾ أيضًا في حق ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ﴾ إذ هم كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النسوان ﴿وَ﴾ عليكم ﴿أَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ والعدل بلا حيف لهم في مالهم وعرضهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله﴾ الرقيب عليكم ﴿كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:127] فيجازيكم على مقتضى علمه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَإِنِ﴾ اضطرت ﴿امْرَأَةٌ﴾ إلى الفرقة والسراح بأن ﴿خَافَتْ مِن بَعْلِهَا﴾ سوء عشرته معها، وعدم رعاية حقوقها ﴿نُشُوزًا﴾ عنها وميلاً إلى غيرها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ طلاقًا وسراحًا ﴿فَلاَ جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق، ولا تعب ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الزوجين ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ بأن أسقط كل منهما عما استحق له شيئًا، أو زاد إلى أن يتصالحا ﴿صُلْحًا﴾ ناشئًا عن التراضي من الجانبين ﴿وَالصُّلْحُ﴾ بينهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الفرقة والطلاق ﴿وَ﴾ لكن قلما يقع إذا ﴿أُحْضِرَتِ الأَنفُسُ﴾ الأمارة بالسوء من الجانبين ﴿الشُّحَّ﴾ أي: قد صارت الأنفس حينئذ مطبوعة مرغوبة على إحضار الشح والبخل فيما وجب عليها، فلا يسمح كل منهما من حقه شيئًا، لذلك لم يرتفع النزاع والخصومة ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ أيها المؤمنون في المعاشرة مع الأزواج ﴿وَتَتَّقُوا﴾ من غضبِ الله في الخروج عن مقتضى حدوده ﴿فَإِنَّ الله﴾ المجازي لعباده ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الميل إلى المحارم والإعراض عن حدود الله والمخالفة لأمره ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:128] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: 129-131].

﴿وَ﴾ إن كنتم ذوي أزواج فوق واحدة ﴿لَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا﴾ وتعاشروا بالقسط إلى ألَّا يقع التفاوت والتفاضل ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ أصلاً ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالغتم في رعاية العدل؛ إذ الميل الطبيعي يأبى عن إقامة العدل، لذلك قيل: لا وجود للاعتدال الحقيقي سيما في أمثاله ﴿فَلاَ تَمِيلُوا﴾ أي: فعليكم ألَّا تميلوا، وتجانبوا عما تميلوا عنه ﴿كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا﴾ إلى حيث تتركوها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ لا أيمًا ولا ذات بعل ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ بعدما أفسدتم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن غضب الله في إضاعة حقها ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع ما صدر ويصدر عنكم ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لكم بعد ما تبتم ورجعتم عما صدر عنكم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:129] لكم يقبل توبتكم إن أخلصتم فيها.

﴿وَإِن﴾ يتنازعا حتى ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ وارتفع النكاح بينهما ﴿يُغْنِ اللهُ﴾ بفضله ﴿كُلاًّ﴾ منهما عن الآخر ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: من سعة رحمته وبسطة رزقه وفسحة مملكته ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المتفضل لعباده ﴿وَاسِعًا﴾ لهم في عطائه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:130] في إعطاء ما ينبغي.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون واسع العطاء؛ إذ ﴿لِلهِ﴾ المنعم المفضل جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وما بينهما ملكًا وخلقًا، وتدبيرًا وتصرفًا، وإيجادًا وإعدامًا، وإبقاءً وإفناءً، وإذا كان الأمر على هذا فعليكم أن تتقوا من الله في السراء والضراء والخصب والرخاء ﴿وَ﴾ اعلموا أنا ﴿لَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: اليهود والنصارى، وجميع من أنزل إليهم الكتاب في كتبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا في كتابكم هذا ﴿أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ المالك لأزمة الأمور بالاستحقاق، وأطيعوا أمره وتوجهوا نحوه، ولا تكفروا به ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ وتعرضوا من غاية جهلكم وعنادكم عما فرض عليكم أصلاً إصلاحًا لحالكم، فاعلموا أن الله الغني بذاته لا يبالي بكفركم وإيمانكم ﴿فَإِنَّ لِلهِ﴾ رجوع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إرادة وطوعًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ اللهُ غَنِيًّا﴾ مستغنيًا في ذاته وصفاته عن العالمين، وعن كفرهم

وإيمانهم ﴿حَمِيدًا﴾ [النساء:131] في نفسه حمد أو لم يحمد، وكيف لا يكون سبحانه غنيًا في ذاته حميدًا في نفسه؛ إذ ليس في الوجود غيره ولا شيء سواه ليحمده؟!.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:132-134].

بل ﴿وَلِلَّهِ﴾ المنزه المستغني عن الأكوان الباطلة مطلقًا ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: الأسماء والصفات المترتبة على تجليات الذات وتشعشعاتها ﴿وَمَا﴾ انعكس منها ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة العدم التي هي بمنزلة المرآة المقابلة لها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَفَى باللهِ﴾ أي: كفى الله المتجلي لذاته بذاته في ملابس أسمائه وصفاته ﴿وَكِيلاً﴾ [النساء:132] في مظاهر ظلاله وعكوسه، وليس نسبتكم على الله أيها المنهمكون في بحر الغفلة، المحجوبون بحجاب التعينات العدمية لا بالمظهر والظلية.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: الأظلال المحجوبون عن شمس الذات، الناسون في ظلمة العدم نور الوجود ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِآخَرِينَ﴾ أي: بأظلال آخر تذكروا لها، وتتوجهوا نحوها، وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ في ذاته ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ الإذهاب والتبديل ﴿قَدِيرًا﴾ [النساء:133] لا يفتر قدرته أصلاً، بل على هذا جريان سنته دائمًا؛ إذ هو كل يوم وآن في شأن، مع أن المحجوب لم يتنبه ولم يتفطن، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

نوّر قلوبنا بمعرفتك، وأبصارنا بمشاهدتك، وأرواحنا بمعاينتك، إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بالجهاد والقتال وجميع الأعمال المأمورة من عند الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وما يصل إليها فيها من الغنيمة والرئاسة والتفوق على الأقران، وعلو المرتبة بين الأنام ﴿فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ إنجاحًا لمطلوبه ﴿وَالآخِرَةِ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿سَمِيعًا﴾ لمناجاتهم ﴿بَصِيرًا﴾ [النساء:134] بحاجاتهم، يوصلهم إلى غاية متمناهم مع زيادة إنعام وإفضال من عنده.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ

ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ
وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء:
.[136-130

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ مداومين مواظبين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بإقامة العدل والإنصاف بينكم، وإن كنتم ﴿شُهَدَاءَ﴾ في الوقائع كونوا شهداء مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ في أدائها بلا ميل وزور وإخفاء ﴿وَلَوْ﴾ كنتم شاهدين ﴿عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ باعتراف ما على ذمتكم من حقوق الغير ﴿أَوِ﴾ ذمة ﴿الْوَالِدَيْنِ وَ﴾ ذمم ﴿الأَقْرَبِينَ﴾ فعليكم أيها الشهداء أن تقسطوا في أداء الشهادة بلا حيف وميل ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه، أو المشهود له ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ يعني: ليس لكم أن تراعوا جانب الفقير وتجانبوا عن الغني، بل ما عليكم إلا أداء ما عندكم من الشهادة على وجهها ﴿فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ برعايتهما وإصلاحهما ﴿فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ أي: ما تهوى نفوسكم، وتميل قلوبكم إليه إن أردتم ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ في أداء الشهادة ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ تغيروا وتحرفوا ألسنتكم عما ثبت وتحقق عندكم ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عن أدائها مطلقًا، ألجموا بلجام من نار على ما نطق به الحديث، صلوات الله على قائله ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المجازي لعباده ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من تغيركم وإعراضكم ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:135] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الذين يدعون الإيمان، ويجرون كلمة التوحيد على اللسان على وجه التقليد والحسبان، وينكرون طريق أهل التوحيد والعرفان، وينسبون أهله إلى الإيمان والطغيان ﴿آمِنُوا﴾ أيقنوا وأذعنوا ﴿بِاللهِ﴾ المتفرد في ذاته المتوحد في أسمائه وصفاته حتى عوينوا، وكوشفوا بتوحيده ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: خليفته المصورة بصورته المبعوث على كافة بريته، الجامع لجميع مراتب أوصافه وأسمائه ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المبين لطريق توحيده ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ من فضله ولطفه ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ المظهر لتوحيده الذاتي ﴿وَ﴾ جميع ﴿الْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ﴾ من عنده ﴿مِن قَبْلُ﴾ على الرسل الماضين المبعوثين على الأمم الماضية، الظاهرين بتوحيد صفاته وأفعاله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ﴾ الأحد الصمد باعتقاد الوجود لغير الله من الأظلال والعكوس ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ﴾ أوصافه

وأسمائه المتنشئة من شئونه وصنوف كمالاته ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المنتخبة من شئونه وتصوراته وتنزلاته على هيئة الصوت والحرف؛ ليبين بها طريق التوحيد على التائهين في بيداء الغفلة، المنهمكين في بحر الضلال ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المكاشفين بمقاصد كتبه، المتحققين المتصفين على جميع ما أمر ونهى فيها المأمورين بتبليغها والإرشاد إلى مقاصدها ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء من يتنبه ويتفطن من إنزال الكتب وإرسال الرسل، ومن لم يتنبه ولم يتفطن؛ إذ الحكمة تقتضي التفضل والترحم على من تنبه إلى طريق الحق بعد ورود المنبه والمبين، والانتقام على من لم يتنبه ولم يؤمن، بل ينكر ويكفر، ومن يكفر ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن طريق التوحيد ﴿ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:136] [1] إلى حيث لا يتمنى هدايته وفلاحه.

من يضلل الله فلا هادي له، نعوذ بك منك يا أرحم الراحمين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

(1) قال الشيخ روزبهان: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا بلسان الحقيقة خاطب المريدين الذين آمنوا بالمقامات والكرامات والمكاشفات والمشاهدات في بدو الإرادة مطلقًا بغير المباشرة، فإذا وقعوا في مسلك الحقائق رأوا أحكام الغيب، وسمعوا أصوات الإلهام من هواتف الملكوت، واضطربوا عند معارضة النفوس، أي: أيها المدّعون في بدايتكم بالإيمان على حقائق الطريقة اثبتوا بنعت الإيقان في محل الامتحان عند كشوف أسرار الغيب، وأيقنوا أن ما سمعتم من خطاب الأسرار فهو كلامي على لسان تلك الهواتف، وأيضًا: لهذا خطاب الأكابر، أي: أيها العارفون اعرفوني؛ فإن ما وصلكم من معرفتي فهو يؤولكم إلى النكرة، ومَنْ ظن منكم أنه بلغ إلى حقيقة المعرفة أخطأ الطريق، فإني ممتنعٌ بعزتي وجلالي عن مطالعة الخليقة وجود قدمي، وارجعوا من تفردكم عند إفرادكم القدم عن الحدوث إلى الوسائط، يعني الإيمان بالرسول؛ فإنه حادثٌ يكون محل الحوادث، وساحة الكبرياء منزّهةٌ عن الإيمان والكفر، سُئل فارس: ما معنى هذه الآية وليس في ظاهرها التجريد؟ قال: التجريد إنما يقع بلسان السرّ من جهة هواتف الحق، ومعنى الآية: ﴿آمَنُوا﴾، وقوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يريد تكرار الإيمان، وقيل: أي: أيها المدعون تجريد الإيمان بي من غير واسطةٍ، لا سبيل لكم إلى الوصول إلى عين التجريد إلا بقبول الوسائط، قال الأستاذ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن يؤمنوا من حيث الكشف والعيان. ويقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا تحتم بعفوه الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة، وغلبات الذهول، ثم أفقتم من تلك الغيبة، فآمنوا أن الذي كان غالبًا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات، فإن الصمدية ممتنعة مقدسةٌ عن كل قربٍ وبعدٍ ووصلٍ وفصلٍ.

لَّهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

[النساء:137-140].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله حين ظهر موسى كليم الله وبعث إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ به وبدينه حين ظهر عليهم السامري بالعجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعد رجوع موسى من ميقاته ﴿ثُمَّ﴾ لما ظهر الزمان بانقطاع الوحي وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقع في أمر الدين فترة وضعف، أرسل عليهم عيسى ﷺ وأنزل عليه الإنجيل؛ ليبين لهم طريق توحيده ﴿كَفَرُوا﴾ به وكذبوا بكتابه عنادًا واستكبارًا.

وبعدما انقرض جيل عيسى ﷺ، أظهر سبحانه النبي الموعود في كتبه السالفة بأنه سيأتي نبي مبعوث على كافة البرية بالتوحيد الذاتي، وله دين ناسخ لجميع الأديان، وكتابه ناسخ لجميع الكتب، وبه يُختم أمر النبوة والوحي والإرسال والإنزال؛ إذ بظهوره كمل طريق التوحيد والعرفان ﴿ثُمَّ﴾ لما ظهر وتحقق عندهم ظهوره ﴿ازْدَادُوا﴾ به ﴿كُفْرًا﴾ وتكذيبًا، وأصروا على ما هم عليه عتوًا وعنادًا ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده والماحي لذنوبهم ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إن بقوا على كفرهم وإصرارهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:137] إن انهمكوا في الغي والضلال.

﴿بَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ منهم، وهم الذين يدَّعون الإيمان بك وبكتابك وبدينك على طرف اللسان، وقلبهم على الشقاق والطغيان الأصلي ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:138].

وحذر منهم ومن سراية خبثهم المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر بالله وتكذيب الرسول ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أحباء أصدقاء يصاحبونهم ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قل للمتخذين من المؤمنين نيابة عنا: ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ ويعتقدون أنهم أعزة يتعززون بهم وبمصاحبتهم وموالاتهم مع أنه لا عزة لهم حقيقة، بل ضربت عليهم الذلة والهوان ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ﴾ والغلبة والكبرياء والبسطة والبهاء ﴿لِلَّهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿جَمِيعًا﴾ [النساء:139] لا يسع لغيره أن يتعزز في

نفسه إلا بفضله وطوله.

ومن فضل الله لكم ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ المبيّن لدينكم، المنزل على نبيكم ﴿أَنْ﴾ أي: أنه ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ وعلمتم حين تلاوتكم ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ على رءوس الملأ أنه ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ - العياذ بالله - ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ مع هؤلاء الكفار المستهزئين بل اتركوهم ومجالستهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فإن لم تتركوهم، وتخرجوا من بينهم صرتم متسببين للكفر، والاستهزاء بآيات الله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ حين لم تتركوهم وتقعدوا معهم ﴿مِثْلُهُمْ﴾ في استحقاق العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز بالمجد والبهاء لقادر على كل ما أراد وشاء ﴿جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ المداهنين ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، المستهزئين ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿جَمِيعًا﴾ [النساء:140] مجتمعين بلا تفاوت في العقوبة.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ
لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾
مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾
[النساء:141-143].

وكيف لا يجمع المنافقون مع الكافرين، وهم ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون لمقتكم وهلاككم أيها المؤمنون المخلصون ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ وغنيمة ﴿مِّنَ﴾ نصر ﴿اللهِ﴾ عليكم ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ وفي عسكركم، لِمَ لَمْ يسهموا علينا، ولم يستخرجوا حقنا من الغنيمة؟ ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ﴾ المقاتلين ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ من الاستيلاء والغلبة ﴿قَالُوا﴾ للكفرة إظهارًا للمؤاخاة والمظاهرة: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ ولم نستعن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالتكاسل والتواني وعدم الإعانة والمظاهرة عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾ بهذه الحيل ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟

فعليكم أن تشركونا فيما أصبتم منهم؛ إذ كنا متسببين لهم، لا تبالوا أيها المؤمنون بإيمان هؤلاء المنافقين وادعاء وفاقهم، ولا بنفاقهم وشقاقهم ﴿فَاللهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد للفصل والانتقام ﴿وَ﴾ إن احتجوا عليكم،

وادعوا الإيمان؛ تلبيسًا في هذه النشأة ﴿لَن يَجْعَلَ اللهُ﴾ المولي لأمور عباده ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المنافقين الملبسين ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين، المخلصين ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:141] حجةً ودليلاً في النشأة الأخرى؛ إذ فيها تُبلى السرائر، وتُكشف الضمائر، وتُجزى كل نفس بما تسعى.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرين على النفاق، يتخيلون أنهم ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ ويلبسون عليه، كخديعهم وتلبيسهم على المؤمنين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وماكرهم باقتدارهم على هذا الخداع؛ إذ يترتب عليه من الجزاء ما لو علموا لهلكوا ﴿وَ﴾ من جملة نفاقهم وشقاقهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى﴾ أداء ﴿الصَّلاةِ﴾ مع المؤمنين ﴿قَامُوا كُسَالَى﴾ مبطئين، متكاسلين، وليس غرضهم منها سوى أنهم ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ حتى يظنوا أنهم مؤمنون، مخلصون ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ﴾ في الصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:142] منهم، أخلصوا في نفسه، ولم يظهروا لخوفهم، والحاصل أن أهل النفاق ليسوا من الكافرين عند الكافرين، وأيضًا ليسوا من المؤمنين عند المؤمنين.

بل ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ مردّدين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بحيث ﴿لاَ﴾ ينسبون ﴿إِلَى هَؤُلاءِ﴾ المؤمنين ﴿وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ﴾ الكافرين، وهم في أنفسهم ضالين، وعند الله مردودين ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ﴾ ويحيله على الضلال ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء:143] إلى الهداية أصلاً.

اهدنا بلطفك إلى الصراط المستقيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: 144-147].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ

المُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ﴾ بصنيعكم هذا ﴿أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ﴾ المحاسب، المجازي لأعمال عباده ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتخذون ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:144] حجة واضحة على كفركم ونفاقكم؛ إذ من فعلكم هذا يلوح أثر النفاق والشقاق مع المؤمنين، فعليكم ألّا تصاحبوهم، ولا تتخذوهم أولياء، سيما بعد ورود النهي، حتى لا تلحقوا بهم، ولا تحشروا في زمرتهم.

﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ﴾ المصرين على النفاق ﴿فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ﴾ والمرتبة الأرذل، الأذل ﴿مِنَ النَّارِ﴾ المعدّ لجزاء العصاة، الطغاة، الضالين عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:145] يشفع لهم، وينجيهم منها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وندموا عمّا جرى عليهم من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بالتوبة ما أفسدوا بالنفاق من شعائر الإيمان والإسلام ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ﴾ وفضله ولطفه حين رجعوا إليه، وتوجهوا نحوه ﴿وَ﴾ بعدما تابوا واعتصموا بالله ﴿أَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ إطاعتهم وانقيادهم ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الشريك والنظير، المقدس عن المشير والظهير، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء، المقبولون عند الله ﴿مَعَ المُؤْمِنِينَ﴾ في روح الله وكنف لطفه ورحمته ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المُؤْمِنِينَ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:146] هو الفوز بشرف اللقاء.

﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ﴾ المتجلي في الآفاق بالاستحقاق ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾ طردكم وحرمانكم ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ تحققتم بظهوره في هوياتكم الباطلة، وأسندتم ما صدر وظهر منكم إليه أصالةً واستقلالاً ﴿وَآمَنتُمْ﴾ عرفتم توحيده، واعترفتم به ﴿وَ﴾ متى فنيتم في هوية الحق ﴿كَانَ اللهُ﴾ بذاته ﴿شَاكِرًا﴾ لنعمه ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:147] بنفسه، ولقد أحسن من قال:

لقد كنت دهرًا قبل أن يكشف الغطا ... أخـال بأنـي شـاكر لـك ذاكـر
فلما أضاء الليل أصبحت شاهدًا ... بأنـك مذكـور وذكـر وذاكـر

﴿۞ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن
تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ
وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:148-101].

ومن مقتضيات التوحيد أيها المتوجهون نحوه ألّا تظهروا، وتبثُّوا إلى الله الشكوى في الأمور المتعلقة بالدنيا، ولا تلحوا في المناجاة والدعاء، فإن ناقدكم بصير بحاجاتكم، وعليكم الرضا بما جرى عليكم من القضاء، ونعم القرين الرضا؛ إذ ﴿لاَّ يُحِبُّ اللهُ﴾ المتجلي باسم الرحمن على ذرائر الأكوان، معتدلاً، مستويًا بلا تفاوت، ولا يمدح عنده ﴿الجَهْرَ﴾ والإشاعة ﴿بِالسُّوءِ﴾ أي: لا يحب أن يجهر بالقبيح، المستهجن عقلاً وشرعًا، ويبالي بشأنه، ويستدعي لأجله؛ إذ لا يجري في ملكه إلا العدل والخير، خصوصًا الجهر ﴿مِنَ القَوْلِ إِلَّا﴾ جهر ﴿مَن ظُلِمَ﴾ فإنه سبحانه يحبه، ويبادر إلى إجابته؛ إذ الظالم خارج عن مقتضى عدل الله وصراطه المستقيم ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المتجلي على العدل القويم ﴿سَمِيعًا﴾ لجهر المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:148] بظلم الظالم، وبما استحق له من الجزاء، يجازيه على مقتضى علمه.

﴿إِن تُبْدُوا﴾ أيها المؤمنون، وتظهروا ﴿خَيْرًا﴾ على رءوس الأشهاد ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تعطوه خفية عن الناس ﴿أَوْ تَعْفُوا﴾ تجاوزوا عن الظالم، ولم تنتقموا منه، ولم تتضرعوا إلى الله المنتقم ﴿عَن سُوءٍ﴾ فعل الظالم بكم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لسرائركم ونياتكم ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾ عنكم، ماحيًا لذنوبكم مع كونه ﴿قَدِيرًا﴾ [النساء:149] على انتقامه منكم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ ويشركون له بإثبات الوجود لغيره ﴿وَرُسُلِهِ﴾ أي: يكفرون برسله، ويكذبونهم مع كونهم مبعوثين على الحق من عنده ﴿وَ﴾ مع كفرهم وتكذيبهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ﴾ المتوحد، المتفرد بذاته، المستقل في وجوده ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المستخلفين من عنده بظهوره عليهم بجميع أسمائه وصفاته ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من غاية جهلهم بظهور الله، واستيلائه على مظاهره: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ آخر، مع أن ظهوره في الكل على السواء بلا تفاوت ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ ويتوهمون ﴿أَن يَتَّخِذُوا﴾ ويثبتوا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ارتباط الظاهر بالمظهر والمظهر بالظاهر ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:150] غير سبيل لاحق المطابق للواقع.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء، المتوغلون في الكفر ﴿هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي: الكافرون المنهمكون فيه، المنتهون إلى مرتبةٍ لا يعبأ بإيمانهم أصلاً ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ المستغرقين في الغي والضلال ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:151] مذلاً، مسقطًا لهم عن

مرتبة الإنسانية بعدما جبلوا عليه صورة؛ إذ لا إهانة أشد من ذلك.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ
السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ
ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا
﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ [النساء:102-104].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ المتفرد في الوجود ﴿وَ﴾ اعترفوا بظهوره في ﴿رُسُلِهِ﴾ بجميع أوصافه وأسمائه ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالإيمان والكفر، بل يؤمنوا بجميعهم على السوية ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء، الموفقون بهذه الكرامة في هذه النشأة ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ تفضلاً عليهم في النشأة الأخرى ﴿أُجُورَهُمْ﴾ بأضعاف ما استحقوا عليه ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا؛ إذ ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ الموفق لهم على الهداية ﴿غَفُورًا﴾ لذنوبهم المبعدة عن طريق توحيده ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:152] لهم، يوصلهم إلى ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ من غاية جهلهم بالله، ونهاية غفلتهم عنه ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ على مقتضى ما تهوى نفوسهم، وترضى عقولهم، ولا تستكبر منهم هذا ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ وأشد بعدًا واستحالةً ﴿فَقَالُوا﴾ من غاية بعدهم عن الله، ونهاية حجابهم عن مطالعة جماله: ﴿أَرِنَا اللَّهَ﴾ الذي تدعونا إليه، وترشدنا نحوه ﴿جَهْرَةً﴾ ظاهرة معاينة كالموجودات الأخر، وما قدروا الله حق قدره، لذلك أرادوا أن يحصروا، ويحيطوا به، مع أنه سبحانه أجلُّ من أن يشار إليه، ويحاط به، ويدرك على ما هو عليه؛ إذ الإشارة والإحاطة والإدراك إنما هو منه وبه وفيه وإليه، ومن هذا شأنه كيف يدرك ويحس؟.

ونهاية حال الواصلين إليه أنهم انخلعوا عن هوياتهم الباطلة بالمرة، وفنوا في هويته واضمحلوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾

النازلة من السماء ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ هذا فهلكوا ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تابوا، ورجعوا إلى الله، واستشفع لهم موسى صلوات الله عليه ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهًا، وحصروا الألوهية فيه حين لبَّس عليهم السامري وخادعهم به، مع أن اتخاذهم هذا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحة، الدالة على توحيد الله وتقديسه من الحصر والإحاطة ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أيضًا بعدما رجعوا إلينا والتجئوا نحونا متذللين ﴿وَآتَيْنَا﴾ بعد ذلك ﴿مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:153] حجة واضحة، ومعجزة ملجئة لهم إلى الإيمان.

﴿وَ﴾ ذلك أن ﴿رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ معلقًا ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب أن نأخذ منهم العهد الوثيق، إن جاءوا به أزلنا عنهم، وإن أبوا أسقطنا عليهم ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ أيضًا بعدما أخذنا الميثاق عنهم على لسان موسى ﷺ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي: البيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ حال كونكم ساجدين، واضعين جباهكم على تراب المذلة، فدخلوا مسرعين ومزحفين، فنقضوا ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ أيضًا ميثاقًا ومعاهدة على لسان داود ﷺ: ﴿لاَ تَعْدُوا﴾ لا تجاوزوا، ولا تخرجوا عن حدّ، ولاسيما ﴿فِي السَّبْتِ﴾ أي: اصطياد الحيتان فيه، فاحتالوا في اصطيادها، فنقضوا ما عهدوا ﴿وَ﴾ بعدما ﴿أَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:154] أي: مواثيق غلاظ على إرادة الجنس، فنقضوا الكل، وخالفوا الأمر.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:100-108].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبنقضهم المواثيق الغلاظ والعهود المؤكدة، فعلنا بهم ما فعلنا من الابتلاءات والاختبارات، وتحريم المباحات وأنواع البليات والأذيات ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، المنزل على خلَّص عبيده ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ﴾ المعصومين عن الجرائم مطلقًا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ للأنبياء والرسل حين دعتهم للإيمان عتوًا واستكبارًا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أوعية مملوءة بالحقائق والمعارف، مختومة، لا يسع فيها ما جئتم به، والحال أنهم ليس في قلوبهم ما يتعلق

بأمور الدين مقدار خردلةٍ ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا﴾ باسمه المضل، المذل، وختم عليها ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم وشركهم ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يوفقون على الإيمان منهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:155].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم وسترهم الحق؛ عنادًا ومكابرةً ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ رميًا وافتراءً ﴿عَلَى مَرْيَمَ﴾ المنزهة عن الكدورات مطلقًا ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:156] يتهمونها، ويرمونها بالزنا مع عصمتها وطهارة ذيلها.

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ أيضًا إرجافًا وإسماعًا وتبجحًا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مع كونه ﴿رَسُولَ اللهِ﴾ وكلمته وروحًا منه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ لأنه في حمى الله وفوق سمائه ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رجل منهم؛ أي: ألقى الله شبهه على حارس منهم يحرسه؛ ليظفروا عليه، فرفع المشبه به فبقي المشبه، فقُتل وصُلب، ثم اختلفوا فقالوا: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا، فأين هو عيسى؟ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في قتله وصلبه ورفعه إلى السماء ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ترددٍ وارتيابٍ ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ وبأمره ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ تصديقٍ ويقينٍ ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ والظن لا يغني عن الحق شيئًا ﴿وَ﴾ الحق أنه ﴿مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:157][1] كما زعموا.

---

(1) قال سيدي البيطار: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: 55] تعلقت بصمتي بالله تعالى أن يكشف لي حقيقة هذا التوفي فورد على قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18] فعلمت أن الله تجلى على عيسى ﷺ باسمه الحق فزهق، أي: اضمحل باطل خلقيته فظهر حقه وبطن خلقه، وهو المراد بالدمغ؛ لأن الدمغ هو الشجة التي تبلغ الدماغ فيظهر ما بطن، والدماغ باطن الرأس، ولما كان عيسى بهذه المثابة رفعه الله إليه، فهو الحق حينئذ، فينسب إليه ما يُنسب إلى الحق تعالى من الإيجاد والإحياء والإماتة وإبراء الأكمه والأبرص، ولذلك لما أرادوا قتله وصلبه أنشأ مثالاً من نفسه على صورته فتمثل لهم كما تمثل جبريل لأمه بشرًا سويًا، ورُفع إلى الله، ولا يمكن الوصول إلى التسلط على الله فقتلوا وصلبوا تلك الصورة التي على شاكلة عيسى. فلهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157] أي: قتلوا الشبه وصلبوه، الذي هو على صورة عيسى، فلم يشك اليهود أنهم قتلوا عيسى بعينه، حتى النصارى قالوا: رفع اللاهوت وصلب الناسوت، وهذا من الخرافات الباطلة؛ لأن لاهوت عيسى عين ناسوته، فإن الله أخبر أنه رفعه إليه، والله تعالى حقيقة اللاهوت والناسوت، وهذا الرفع ليس رفع مكان بل رفع مكانة بالتجلي الإلهي الذاتي، فناسوت عيسى عين ذات الله بنص الله فإن الله قال فيه: روح الله وروح الله عينه،

﴿بَل﴾ الحق أنه ﴿رَّفَعَهُ اللهُ﴾ الرقيب عليه، المتولي لحفظه وأمره ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى كنفه وجواره؛ إنجازًا لوعده في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:55][1]

فلذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: 157] أي: شبهًا وتمثيلاً، فإن الله لم ينف التشبيه والتمثيل بل نفى القتل والصلب عنه، فكان عيسى من كونه روح الله مقتدرًا أن يظهر بكل صورة في الوجود، وما أجهل من يقول: إنه رفع إلى السماء، فإن الله تعالى لم يقل: ورافعك إلى السماء، بل قال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:55]. فإن قلت قد ورد الحديث: «ينزل فيكم عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير» إلى آخر الحديث، وهو حديث صحيح لاشك فيه، فالمراد بهذا النزول تنزله من رتبة﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]إلى مرتبة الظهور بالصورة الحسيّة لنا مع أنه فينا، فهذا نزول إلهي مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: 84] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4] والحاصل أن الله رفعه من الخلقية إلى الحقيّة فاستحق التحقق بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4] فعيسى عليه السلام في السماوات وفي الأرضين حي بحياة الحي القيوم إلى أن يتزوج في الأرض ويولد له، فيظهر عند ذلك موته وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ فالضمير في خلقه راجع لآدم لا إلى عيسى؛ لأن عيسى لم يكن أصله التراب بل الروح، وقال الشيخ الأكبر قدس الله سره: معنى تشبيه عيسى بآدم بالنسبة لتمام الدورة بظهور ذكر- وهو عيسى - من أنثى - وهي مريم - كما ظهرت أنثى - وهي حواء - من ذكر وهو آدم، أقول: على هذا يكون عيسى عليه السلام شبيهًا بحواء لا بآدم، والذي يظهر لي في التشبيه الدوري أنه كما ظهرت إنسانية آدم من جسم ترابي ظهرت إنسانية عيسى من روح قدسي، فانفصل آدم من الجسم، وانفصل عيسى من الروح الإلهي، وكانت مريم مجلي تجلي هذا الروح، فعيسى ما اكتسب الصورة إلا من أمه مريم، والصورة أمر حكمي لا وجودي عيني، فعيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأخبر الله أنه روح منه فلم ينسبه إلى جبريل بل قال: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: 17]، وروح الله عينه، فلو قالوا: إن الله هو المسيح ولم يقيدوه بمريم ولم يحصروه لما كفروا، ولكنهم حصروا الله في الجسم البشري، مع أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11] بل ليس معه شيء، فافهم.

(1) قال سيدي سهل بن عبد الله التستري: فإنه إذا مات فينزع عنه لطيف نفس الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف الذي به يعقل الأشياء ويرى الرؤيا في الملكوت، وإذا نام نزع عنه لطيف نفس الطبع الكثيف لا لطيف نفس الروح النوري، فيستفيق النائم نفساً لطيفاً، وهو من لطيف نفس الروح الذي إذا زايله لم تكن له حركة، وكان ميتاً. ولنفس طبع الكثيف لطيفة، ولنفس الروح لطيفة، فحياة لطيف نفس الطبع بنور لطيف نفس الروح، وحياة روح لطيف نفس

﴿وَكَانَ اللهُ﴾ القادر على كل ما أراد وشاء ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا، مقتدرًا على رفعه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:158] في قتل من شبه له؛ ليرجعوا بها.

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾ [النساء:109-162].

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ أي: ما من جميع من أنزل إليه الكتاب من المسلمين والنصارى واليهود، وسائر من أنزل إليهم أحدٌ مكلف ﴿إِلَّا﴾ وقد وجب له ولزم عليه، إنه ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ أي: بعيسى - صلوات الله عليه وسلامه - حين نزوله؛ لتقوية دين سيدنا محمد ﷺ؛ إذ هو جامع لجميع الأديان؛ لإتيانها على التوحيد الذاتي.

وعند ظهوره ﷺ اتحدت الأديان كلها، إلا أن المحجوبون لا يفهمون، مع أن عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - من عجائب صنع الله، وبدائع مبدعاته، وغرائب مخترعاته، ومن أعزة أنبيائه وأجلّة رسله، فلا بد أن يكون الإيمان به ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إذ حُكي في الحديث النبوي: إنه ينزل من السماء، ويعيش في الأرض زمانًا، ويؤمن له جميع من في الأرض، ثم يموت قريب الساعة ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جميع من آمن له، واتبع هداه ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء:159] يشهد لهم بالإيمان عند الله.

الروح بالذكر، كما قال: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169] أي يرزقون الذكر بما نالوا من لطيف نفس النوري، وحياة الطبع الكثيف بالأكل والشرب والتمتع، فمن لم يحسن الإصلاح بين هذين الضدين، أعني نفس الطبع ونفس الروح حتى يكون عيشهما جميعاً بالذكر والسعي بالذكر، فليس بعارف في الحقيقة. وقال عمر بن واصل: وكان المبرد النحوي يقول: الروح والنفس شيئان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر، قال: فذكرت ذلك لسهل، فقال: أخطأ، إن الروح يقوم بلطفه في ذاته بغير نفس الطبع الكثيف، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل من الذر بنفس روح وفهم عقل وفطنة قلب وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف.

﴿فَبِظُلْمٍ﴾ خروج عن حدود الله، ونقض لعهوده صدر وظهر ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في كتابهم ﴿طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فيما مضى ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿بِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: إعراضهم عن طريق الحق إعراضًا ﴿كَثِيرًا﴾ [النساء:160].

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا﴾ من المضطرين أضعافًا مضاعفة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ في دينهم وكتابهم ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بلا رخصة شرعية، مثل: السرقة، والغصب، والربا، والرشوة، وحيل الفقهاء، وتزويراتهم التي ينسبونها إلى الشرع الشريف افتراءً، وتلبيسات أهل التشييخ والتدليس من هذا القبيل، ومن عِظَم جُرم هؤلاء أسند سبحانه انتقامهم إلى نفسه بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ صيّرنا وهيّأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين طريق الحق ﴿مِنْهُمْ عَذَابًا﴾ بعيدًا، وطردًا ﴿أَلِيمًا﴾ [النساء:161] مؤلمًا؛ لتحسرهم على مرتبة أهل القرب والعناية.

﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين يرتقون من مرتبة العلم إلى العين والحق ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدقون الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ بلا تفريقٍ وتفاوتٍ؛ إيمانًا واحتسابًا ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ وهم الذين يديمون الميل بجميع الأعضاء والجوارح؛ إطاعةً وانقيادًا؛ إذ رجوع الكل إليه ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وهم الذين يؤتون ما نسب إليهم من زخرفات الدنيا؛ طلبًا لمرضات الله، وهربًا عن التعلق بغيره ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أي: الذين يوقنون بتوحيد الله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لثمرة الأعمال الصالحة في طريقه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء، الأمناء، الموحدون، المخلصون ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ من لدنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:162] هو الفوز بشرف اللقاء.

ربنا آتنا من لدنك رحمةً، إنك أنت الوهاب.

ورسوخ الراسخين إنما يحصل من إلهامنا ووحينا وإعلامنا، وإيقاظنا إياهم من سِنَة الغفلة ونعاس النسيان، وإرشادنا لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم من عندنا وذلك سنتنا المستمرة، وعادتنا القديمة، لا يحتاج فيها للإلحاح والاقتراح.

﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى

ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ [النساء:163-160].

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل الكتاب الجامع لجميع ما في الكتب السالفة على الوجه الأبلغ، الأبيْن لطريق التوحيد ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ صحفًا مبينة لطريق التوحيد والتنزيه؛ قدم لكونه أول من أُنزل إليه الكتاب، وأقدم من سائر الأنبياء ﴿وَ﴾ أوحينا أيضًا بعد نوح إلى ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ما ينون به طريق الحق من الكتب والصحف ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ خصوصًا ﴿إِلَىٰٓ﴾ آبائك ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ المتخلق بأخلاقه الإلهية، المتحقق بمقام الخلة ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ المتمكن بمقام الرضا والتسليم.

﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ المترقب، المتوجه إلى الحق من كل صورة وشكل؛ لتحققه بمقام التوحيد ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ المتوجه إلى الله في السراء والضراء؛ لتحققه في مقام التفويض ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ المتوجهين إلى الله في جميع حالاتهم، منهم: يوسف المترقي من الصور الخيالية إلى الأمور العينية والغيبية لصفاء ظاهره وباطنه عن الكدورات البشرية ﴿وَعِيسَىٰ﴾ المؤثر في العلم بالتأثرات الإلهيات والنفسات الرحمانية؛ لاضمحلال ناسوتيته في لاهوتية الحق ﴿وَأَيُّوبَ﴾ المتحقق في مقام الصبر والرضا بما جرى عليه من القضاء؛ لتحققه بمقام العبودية ﴿وَيُونُسَ﴾ المتحقق في مقام الخوف والرجاء مع الله.

﴿وَهَٰرُونَ﴾ المتمكن في مرتبة الأمانة والديانة واطمئنان النفس ﴿وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ الجامع لجميع مراتب عالم الشهادة؛ لتحققه في مقام البسطة والاستيلاء ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿دَاوُۥدَ﴾ المتحقق بمقام الحكمة المقتضية للتدبيرات الواقعة بين مراتب الإلهية ﴿زَبُورٗا﴾ [النساء: 163] يفصل به بين الحق والباطل والخطأ والصواب.

﴿وَ﴾ كما أرسلنا هؤلاء المذكورين، أرسلنا أيضًا ﴿رُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ في كتابك ﴿مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَ﴾ كمل أمر الوحي في موسى؛ إذ ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ المرسل للرسل، المنزل للكتب ﴿مُوسَىٰ﴾ المتحقق بمقام القرب والوصول ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:164] (1) لا يدرك كيفيته، ولا يكتنه لميته.

(1) بيّن تخصيص موسى عليه السلام بمقام الخطاب الخاص بلا واسطة، بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء بسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال الشوق بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمع كلامه بلا واسطة ولا -

وإنما أرسلنا ﴿رُسُلاً﴾ وأنزلنا معهم كتبًا؛ ليكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للناس بالتوحيد وسائر المأمورات الواردة في طريقه، المؤدية إليه ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم عن الشرك المنافي له وعن جميع المحرمات المفضية إليه ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنزاع ﴿عَلَى اللهِ﴾ المنزه عن المجادلة والمراء ﴿حُجَّةٌ﴾ متمسك وغلبة حين أخذهم بالانتقام يوم الجزاء إذ لا يبقى لهم مجادلة ومراء ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿الرُّسُلِ﴾ لإهدائهم إلى طريق الحق وسبيل التوحيد مع كونهم مؤيدين بإنزال الكتب من عنده ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المستقل في الألوهية ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا في أوامره ونواهيه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:165] في تدبيراته المتعلقة بها.

﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا (١٦٧)
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا (١٦٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن
رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا
(١٧٠)﴾ [النساء:166-170].

ومن غاية جدالهم ونزاعهم يجادلون غالبًا معك في رسالتك وكتابك، ولا يشهدون لك وبحقية كتابك، وبصدقك في رسالتك، مع كونك مشهودًا في كتبهم وعلى لسان رسلهم؛ مكابرةً وعنادًا، لا تبال بهم وبشهادتهم، ﴿لَٰكِنِ اللهُ﴾ المطلع للسرائر والخفيات ﴿يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: بحقيته، وصدقك فيه، وبأنه ﴿أَنزَلَهُ﴾ إليك

حجاب، قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:11،10]، وأن الله سبحانه إذا أراد أن يسمع كلامه أحدٌ من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعًا من أسماعه، فيسمع بها كلامه، كما حكى ﷺ عنه تعالى: «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به»، أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية الذي منزّة عن همهمة الأنفاس، وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيءٌ، هناك السامع والمسمع واحدٌ من حيث المحبة لا من حيث الجمع والتفرقة.

ملتبسًا ﴿بِعِلْمِهِ﴾ المتعلق بتأليف كلماته، وكيفية ترتيبه ونظمه على وجهٍ يعجز عنه جميع من تحدى وتعارض معه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بأنه مُنزل من الحق على الحق ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:166] سواء شهدوا، أو لم يشهدوا.

ثم قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك ﴿وَصَدُّوا﴾ أعرضوا ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ المبيّن فيه ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن طريق التوحيد ﴿ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:167] لا ترجى هدايتهم أصلاً، وكيف ترجى هدايتهم وقد أضلهم الله؟.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا طريق الحق ﴿وَ﴾ مع كفرهم ﴿ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن حدود الله بالمرة ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم؛ لعظم جرمهم ﴿وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً﴾ [النساء:168] من طريق النجاة؛ لانهماكهم في الغفلة والضلال.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينجون منها أصلاً ﴿وَ﴾ لا تستبعد عن الله أمثال هذه التبعيدات والتخذيلات؛ إذ ﴿كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ﴾ المنتقم، المضل للغواة الطغاة ﴿يَسِيرًا﴾ [النساء:169].

ثم لما بيّن سبحانه حقيّة الرسول ﷺ، وصدقه في دعواه، وأوعد على من كذبه وخالف كتابه ما أوعد، أراد أن ينبه على عامة أهل التكليف من أرباب الملل وغيرهم أن يؤمنوا له، وما جاء به من عنده، فقال مناديًا؛ ليقبلوا عليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على النسيان والغفلة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: المبعوث إلى كافة الخلق ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بنعمة العقل الذي هو مناط جميع التكاليف، وبه الوصول إلى الإيمان والتوحيد.

﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: فإن آمنوا به بعد ما ظهر كان خيرًا لكم عند ربكم، يوصلكم إلى توحيده، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ به عنادًا، ولم تؤمنوا به مكابرة، لا يبالي الله بكفركم، ولا بإيمانكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ أي: يسجد ويخضع له جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إرادة وطوعًا ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المكلف لأمر عباده ﴿عَلِيمًا﴾ بقابلياتهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:170] فيما أمرهم به وكلفهم عليه؛ ليفوزوا من عنده فوزًا عظيمًا.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ

وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ
أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ
وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء:171-172].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: الإنجيل المبالغين في أمر عيسى عليه السلام إلى حيث ينتهي إلى الغلو المذموم عقلاً وشرعًا ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ونبيكم، ولا تبالغوا في الإغراء في وصفه ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾ الواحد، الأحد، الصمد الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا ﴿إِلاَّ الْحَقَّ﴾ الحقيق اللائق بجنابه ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ كسائر رسله ﴿وَ﴾ غاية أمره ﴿كَلِمَتُهُ﴾ أي: يحصل، ويتكون من كلمته التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ ﴿وَ﴾ هو ﴿رُوحٌ﴾ يتجلّى ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه، ويظهر فيه عليه السلام كظهوره في سائر الأشخاص إلا أن لاهوتيته غلبت على ناسوتيته، لذلك ظهر منه من الخوارق ما خلت عنها الأنبياء ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ﴾ المنزه في ذاته عن الأهل والولد ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المؤيدين من عنده؛ لتبليغ حكمه وأحكامه.

ومن جملتهم عيسى عليه السلام ﴿وَلاَ تَقُولُوا﴾ على الله المنزه عن التعدد مطلقًا ما لا يليق بجنابه بأنه ﴿ثَلاَثَةٌ﴾ الله والمسيح ومريم ﴿انتَهُوا﴾ عن التثليث، بل عن التعدد مطلقًا، فإن انتهاءكم عنه يكون ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ يرشدكم إلى سبيل التوحيد ﴿إِنَّمَا اللهُ﴾ المتجلي في الآفاق والاستحقاق ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: موجود واحد، لا يمكن التعدد فيه أصلاً ﴿سُبْحَانَهُ﴾ بذاته، وتعالى عن ﴿أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ كما يقول الظالمون ﴿لَّهُ﴾ باعتبار تجلياته على صفحات الإعدام بجميع أوصافه وأسمائه مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من جنود الله ومرايا أوصاف جماله وجلاله ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أيضًا منها، وكذا فيما شاء الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:171] أي: كفى الله المتجلي بجميع أوصافه وأسمائه وكيلاً على مظاهره، موليًا لأمورهم أصالة واستقلالاً.

ومن غاية إغراء النصارى في وصف المسيح، ونهاية غلوهم في حقه استنكفوا واستكبروا عن كونه عبد الله، ونسبوه إليه بالبنوة، وعبدوا له كعبادة الله، لذلك رد عليهم بقولهم: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ﴾ ويستكبر ﴿الْمَسِيحُ﴾ وإن ترقّى إلى السماء بقوة لاهوتية ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله، المترقون من السماء أيضًا؛ إذ لا ناسوتية

لهم أصلاً، ﴿وَ﴾ كيف يستنكر، ويستنكف عن عبادته أحد من مظاهره ومخلوقاته؛ إذ ﴿مَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ الله ﴿إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:172] ويحاسبهم بما صنعوا، ويجازيهم على مقتضى حسابهم بأشد العذاب، وأسوء النكال.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:173-170].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم؛ إطاعةً وانقيادًا ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ الله ﴿أُجُورَهُمْ﴾ بأضعاف ما استحقوا ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لا يسع في عقولهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بعلو المجد، وإليها ﴿عَذَابًا﴾ يطردهم عن ساحة عز حضوره ﴿أَلِيمًا﴾ ولا ألم أشد من ذلك ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ يدفع عنهم الأذى ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء:173] يخفف عنهم العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المتوجهون إلى توحيد الله، لم يبق لكم عذر في الوصول إليه والرجوع نحوه؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ﴾ واضح ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لهدايتكم وإصلاح حالكم ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:174] هو القرآن.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم ﴿بِاللهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ وبكتابه ورسله ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ الله ﴿فِي رَحْمَةٍ﴾ عظيمةٍ، وروحٍ عظيمٍ؛ إشفاقًا ﴿مِّنْهُ﴾ لاستحقاق منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وإحسان؛ امتنانًا عليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ذاته ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:175] موصلاً إلى ذروة توحيده، لا يعرض لهم فيها ضلال أصلاً.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النساء:176].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل عن ميراث الكلالة: كيف يُقسم؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ في أوائل السورة، ويعيد في آخرها؛ تأكيدًا أو مبالغةً، وهي آخر ما نزلت في الأحكام ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ وحين هَلَك ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لا ذكر ولا أنثى ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿لَهُ أُخْتٌ﴾ من الأبوين أو الأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الهالك ﴿وَ﴾ كذا إن هلكت الأخت ﴿هُوَ يَرِثُهَا﴾ جميع مالها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ لا ذكر ولا أنثى.

﴿فَإِن كَانَتَا﴾ الأختان ﴿اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أخوهما ﴿وَإِن كَانُوا﴾ أي: الوارثون ﴿إِخْوَةً﴾ وأخواتٍ مختلطين ﴿رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ من متروكات أخيهم، وإنما ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ﴾ حكم الكلالة هاهنا، مع أنه بيَّنه في ما مضى؛ كراهة ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ وتغفلوا عنها ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من حوائجكم المتعلقة بحياتكم ومماتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النساء:176] يعلمكم، وينبهكم عليه حتى لا تذهلوا وتنصفوا به.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق، القاصد نحو توحيده - أوصلك الله إلى أقصى مرامك - أن تتمسك بالبرهان الواضح الذي وصل إليك من الرسول ﷺ، الدال على توحيد الحق، وتستنير بنور القرآن الفارق بين الحق والباطل، الواقع في طريقه، وتمتثل بما فيه من الأوامر المؤدية إليه، وتجتنب عن نواهيه المضلة، المبعدة عنه، وتتخلق بعزائمه المكنونة في ضمن الأحكام والقصص المذكورة فيه؛ لتتحقق بما رمز فيه من غوامض سر التوحيد، وسريان الوحدة في ملابس الكثرة، وتتمكن في مقر الوحدة الذاتية، المفنية للهويات الباطلة، الزائلة في أنفسها.

ولا يتيسر لك هذا إلا بطول خدمة المرشد الكامل، المكمل الذي يرشدك إلى الله امتداد حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ألا وهو القرآن المنزل على خير الأنام كما قال ﷺ: «القرآن حبل الله، ممدود من السماء إلى

الأرض»[1].

فمن أراد أن يغوص في لجج بحار القرآن؛ لاستخراج فرائد اليقين والعرفان، فعليه أن يتمسك أولاً بالأحكام الشرعية الفرعية التي استنبطها أرباب العزائم الصحيحة عن ظواهر كلم القرآن؛ ليكون مهذبًا لظواهر أصحاب اليقظة من أهل الطلب والإرادة حتى تستعد بها نفوسهم، وتتصفى بواطنهم لأن يفيض عليها رشحات بحر التوحيد، ويصير قابلاً لأن ينزل عليها سلطان العشق والمحبة؛ إذ الوقاية للب التوحيد إنما هي أحكام الشريعة، وآداب الطريقة للسالكين، القاصدين نحو الحقيقة بالسلوك والمجاهدة.

وأما البدلاء المستغرقون في بحر الذات، الهائمون بمطالعة جماله، الفانون فيه مطلقًا، فهم هو، وهو هم، ما لنا ومالهم حتى نتكلم عنهم، جعلنا الله من خدَّام وتراب أقدامهم.

فعليك أيها المريد، العَازم لسلوك طريق الفناء، الجازم، الحازم في هذا العزم أن تصفي أولاً سرك وسريرتك عن التوجه إلى غير الحق، وتجعل مطلبك ومقصودك الاستغراق والفناء في بحر الوحدة.

لا يتيسر لك هذا إلا بعد كسر سفينة هويتك الباطلة، ولا يتيسر كسرها إلا بالرياضات الشاقة من الجوع والعطش والسهر المفرط، والانقطاع عن اللذات الحسية والمشتهيات النفسية بالتلذذ بالمودة والفناء، والصبر على البلاء، والرضا على ما جرى عليه القضاء، ومتى تحققت هذه الأمور فيك، وَهَن هويتك، وضعف سفينتك، وحينئذٍ يمكنك كسرها إن وفقت بها.

زين بلطفك ظواهرنا بشريعتك، وبواطننا بحقيقتك، وأسرارنا بمشاهدتك وأرواحنا بمعاينتك، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء المؤمنين جدير.

(1) ذكره أبو حيان في البحر المحيط (3/340).

سورة المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المائدة

لا يخفى على المقيمين بحدود الله، الموفين بعهوده، المحافظين بعقوده المنعقدة بين أوصافه الذاتية بمناسبة بعضها مع بعض، ومقابلة بعضها ببعض أن منشأ جميع الأوامر والنواهي الموردة في الشرع إنما هي الأوصاف المتقابلة، والأسماء المتخالفة الإلهية.

فإذن الاختلافات الواقعة بين الآثار المترتبة على تلك الأوصاف إنما تنشأ منها والسر في ورود الأوامر والنواهي إنما هو لحصول الاعتدال والقسط الإلهي المعدّ لاستحقاق الخلافة، والنيابة المقصودة من الظهور والإظهار، والخلق والإيجاد.

ولذلك كلف سبحانه خواص عباده المجبولين على هذه الفطرة بالتكليفات الشاقة من قطع المألوفات، وترك المشتهيات والمستلذات العائقة عن الاعتدال الفطري الإلهي وهداهم إلى صراطٍ مستقيمٍ موصلٍ إلى توحيده بإسقاط الإضافات الطارئة من كثرة الأسماء، والصفات المنتشئة من تطولات الذات، وتجليات الحبية المتشعشعة أزلاً وأبدًا، بل عللٍ وأغراضٍ، وما لنا منها إلا الحيرة والاستغراق، والعجز والوله والهيمان إن وفقنا بها من عنده.

وبهذه المصلحة أمر سبحانه عباده، وأوصاهم بإيفاء العهود ومحافظة العقود ليستعدوا مما لأجله جُبلوا وخُلقوا، فقال مناديًا متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المستوي على عروضه بالعدل القويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بإهدائهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإيصالهم إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ

وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [المائدة:1-2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم الوفاء بالعهود والعقود الموضوعة فيكم لإصلاح حالكم ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] واظبوا على إقامة الحدود، وداوموا على محافظة المواثيق التي وضعها الحق بينكم؛ لتدبر أمور معاشكم ومعادكم، من جملتها أنها ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ وهي الأزواج الثمانية وما يشبهها؛ تقويمًا لمزاجكم وتقوية له؛ ليتمكنوا على إتيان ما كلفوا به ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ في كتاب الله تحريمه حال كونكم ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ مطلقًا ﴿وَأَنتُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿حُرُمٌ﴾ محرمين للحج، مأمورين بحبس القوى الشهوية والغضبية عن مقتضياتهما، بل معطلين لها حتى تتمكنوا، وتقدروا على الموت الإرادي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يَحْكُمُ﴾ بمقتضى حكمته ومصلحته ﴿مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:1] لهم من التحليل والتحريم بحسب الأوقات والحالات، لا يسأل عن فعله، بل لا بد لكم الانقياد؛ تعبدًا، سيما في أعمال الحج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله؛ طاعةً وتعبدًا، مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تُحِلُّوا﴾ وتبيحوا لأنفسكم ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: حرمات الله التي حرمها سبحانه في أيام الحج؛ تعظيمًا لأمره وتوقيرًا لبيته ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تحلوا قواكم الحيوانية عن الحبس والزجر في الأزمنة التي حرم سبحانه إطلاقها فيها؛ تعظيمًا لبيته ﴿وَلاَ﴾ تبيحوا أيضًا لأنفسكم ﴿الْهَدْيَ﴾ أي: التعرض لما أُهدي إلى البيت قبل بلوغه إلى كله ﴿وَ﴾

(1) الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومكابدة، فمَن عقد عقدة مع ربّه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتّباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أُحِلَّت لكم الأشياء كلها تتصرّفون فيها بهمّتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المُكَوِّن كانت الأكوان معكم، إلا ما يُتلى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهِمَم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير مُتعَرِّضين لشهود السّوى، وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (28/2)].

أيضًا ﴿لاَ﴾ يتعرضوا ﴿الْقَلاَئِدَ﴾ وهي ما يعلم، ويقلد بقلادة دالة على أنه من هدايا بيت الله على ما هو من عادة العرب.

﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ﴾ تتعرضوا، وتتقاتلوا مع المؤمنين الموقنين الذين توجهوا نحو الكعبة الحقيقية، وأرادوا أن يخرجوا عن بقعة الإمكان، فدخلوا في طريق المجاهدة وسلكوا نحو الوجوب؛ تقربًا وتشوقًا، مع كونهم ﴿آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قاصدين التقرب والتحقق بكعبة الذات، والوقوف بعرفات الأسماء والصفات؛ إذ لا بد من وقوفها لمن قصد زيارة بيت الله الأعظم، بل الركن الأصلي لزيارة بيت الله، هي هنا الوقوف عند المنجذبين نحو الحق من طريق المجاهدة المستتبعة للكشف والمشاهدة لأهل العناية.

وأما المنجذبون نحوه بالاستغناء والاستغراق التام الذي لا يحوم حوله شائبة من الكثرة أصلاً، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون هؤلاء الزوار التحقق بهذه المرتبة العليّة، والمنزلة السنيّة ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بلا وسائل الأعمال والنسك، ووسائط المأمورات والمنهيات ﴿وَ﴾ يطلبون أيضًا من فضل الله ﴿رِضْوَانًا﴾ رضًا من جانب الحق، وتحسينًا من قبله فيما يأتونه من الشعائر المكتوبة في الحج الحقيقي؛ إذ لا وثوق للعبد سوى الرضا منك يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ قوى حيوانيتكم عن عقال التكاليف المفروضة في الحج بخروج أيامها وأوقاتها مع متمماتها ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أي: أبيحوا على أنفسكم اصطياد ما أحلَّ الله لكم من صيد البر والبحر ﴿وَ﴾ بعدما علمتم فوائد الحج، وعرفتم عرفانه ومناسكه ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي: لا يوقعنّكم في الجريمة العظيمة بغض قوم إياكم، وخوفكم منهم إلى ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ وصرفوكم ﴿عَنِ﴾ التوجه نحو ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حرمت عنده سجود السوى والأغيار مطلقًا.

فعليكم أيها القاصدون زيارة الكعبة المعظمة، والقبلة المكرمة التي هي بيت الوحدة ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ وتتمرنوا، وتعتادوا على المقاتلة، والمقاتلة مع الكفار إنما يغني عن الزيارة من القوى الشهوية والغضبية، والمستلذات الخالية الواهية ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ استنصروا ﴿عَلَى﴾ جنود ﴿الْبِرِّ﴾ المورث للرجاء، وحسن الظن بربكم ﴿وَ﴾ على جنود ﴿التَّقْوَى﴾ المشعر للخوف من قهر الله وغضبه ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ﴾ الخصلة الذميمة عقلاً وشرعًا ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: التجاوز عن الحدود الشرعية - العياذ بالله -

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أن تجترئوا عليه بنقض عهوده، ومجاوزة حدوده ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على كل ما يريد ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة:2] أليم العذاب لمن ظلم نفسه بالإثم والعدوان.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة:3].

ثم لمّا كان الأصل في الأشياء الحل والإباحة، والحرمة إنما عرضت من الشرع، بيّن سبحانه أولاً حكم المحللات مطلقًا وما يتفرع عليها، ثم عيّن المحرمات التي استثناها بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى﴾ [المائدة:1، الحج:30] فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ في دينكم ﴿المَيْتَةُ﴾ المائت حتف أنفه بلا موجب لإزالة الحياة ﴿وَالدَّمُ﴾ المسفوح، السائل بالتزكية أو بغيرها ﴿وَلَحْمُ الخِنزِيرِ﴾ النجس، الظاهر خباثته عقلاً وشرعًا.

﴿وَ﴾ من جملة المحرمات ﴿مَا أُهِلَّ﴾ صوت ذبحه ﴿لِغَيْرِ﴾ اسم ﴿اللهِ بِهِ﴾ من أسماء الأصنام ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْمُنْخَنِقَةُ﴾ المزيلة حياتها بالخنق بلا تذكية، كما يفعل المشركون ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بالخشب والأحجار إلى أن تذهب منها الروح ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من علو، أو في بئر فزالت حياتها ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ أيضًا، وهي التي نطحها الحيوان الآخر فماتت ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿مَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ منه فزال حياته ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قطعتم حلقومه مهللين حين أحسستم الرمق منه، فإنه يحل لكم.

﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي: الأصنام الموضوعة حول البيت، كانوا يعظمونها، ويتقربون إليها بالذبائح والقرابين ﴿وَ﴾ من جملة المحرمات ﴿أَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ﴾ أي: الأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، وعلى الثالث: غفل، فإن خرج الأمر مضوا عليه، وإن خرج النهي انصرفوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانيًا.

ومعنى الاستقسام بها: الاستخبار، والاستفسار عن القسمة الغيبية التي استأثر الله

بها، ولم يطلع أحدًا عليها، وأمثال هذا ما هي إلا كهانة وكفر، صدرت عن أولي الأحلام السخيفة، الخبيثة، الناشئة من عدم الرضا بقضاء الله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: استقسامكم واستخباركم من أزلامكم ﴿فِسْقٌ﴾ خروج عمَّا عليه الأمر والشروع وديدنة الجاهلية فعليكم أن تجتنبوا عن أمثالها، خصوصًا ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ﴾ وقنط بالمرة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن انصرافكم ﴿مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ على غلبتهم بترك رسومهم وعاداتهم المستقبحة.

﴿وَاخْشَوْنِ﴾ عن بطشي وانتقامي بترك ما أمرت لكم، ونهيت عنه في جميع أحوالكم وأزمانكم، سيما ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي هذا قد ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] بأن ينصركم ويغلبكم على مخالفيكم مطلقًا، ويظهر دينكم على الأديان كلها ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ظاهرًا وباطنًا بالاستيلاء، والغلبة على الأعداء، وقمع الآراء الباطلة والأهواء الفاسدة بالكلية ﴿وَ﴾ من إتمام نعمتي عليكم أني ﴿رَضِيتُ﴾ اخترت وانتخبت ﴿لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ الإطاعة والانقياد ﴿دِينًا﴾ ديدنة ومذهبًا؛ إذ لا دين عند الله إلا الإسلام.

وبعد كمال دينكم وإتمام النعم عليكم، وتحليل ما أحل، وتحريم ما حرم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ منكم ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة مفرطة، ملجئة إلى تناول الجيف والمحرمات حال كونكم ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ مائل ﴿لِّإِثْمٍ﴾ ومعصية، رخص التناول منها مقدار سدّ جوعه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿غَفُورٌ﴾ مما صدر عنكم حين اضطراركم ومخمصتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:3] لا يؤاخذكم عليه بعدما رخص لكم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ

(1) إكمالُه الدين -وقد أضافه إلى نفسه: صَوْنُه العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمَّلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور، ويقال: إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ في المآلِ، كما أن ابتداءَ الدِّين توفيقُ الحصول في الحال: فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول، ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق سبحانه من أوصافه، وقد علَّمك، ويقال: إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته -على التفصيل- أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار. [تفسير القشيري (86/2)].

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة:4-5].

﴿يَسأَلُونَكَ مَاذَا﴾ أي: أيّ شيء من الأشياء المألوفة المتعارفة ﴿أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ في دينكم ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾[1] التي مضى ذكرها في أول السورة من البهائم

(1) قال البقلي في العرائس: هذا خطاب أهل المشاهدة، أي: إذا وصلتم مقام المشاهدة فلا تميتوا قلوبكم بالمجاهدة، فإن المجاهدة للنفوس، والمشاهدة للقلوب، وإذا ظهرت المشاهدة للقلوب فلا يبقى فيها للنفوس أثر، وأعلم بذلك تعالى أهل قربه الذين بلغوا مقام الأنس والبسطان ما يجري في قلوبهم من ذكر بدايتهم في ترك الطيبات من القوت واللباس، لا يجوز في هذه المقامات الرجوع إلى البدايات، فإن هاهنا لا يليق مجاهدة النفس بهم؛ لأنهم يذوبون في روح الأنس ونور البقاء، وهم في ذلك عرائس الله يبيح لهم ما لا يبيح للمريدين من أكل الطيبات ولبس الناعمات لبقائهم في الدنيا ولا يحترقون بواردات الوجد. ألا ترى أن سبب نزول هذه الآية اجتماع أخيار الصحابة مثل: عثمان ابن مظعون، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسالم مولى حذيفة، والمقداد بن أسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن على ترك النساء والطيب واللحم، واختاروا صوم الدهر، وقيام الليل، والسياحة في الأرض والرهبانية، ولبس المنسوج، ورفض الدنيا كلها، فنهاهم الله ورسوله عن ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟﴾. وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقًا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقومُ وأنامُ، وأصومُ وأفطرُ، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، ومَنْ رَغِبَ عن سنّتي فليس منّي» بيّن ذلك ألا يجوز لأهل الحقائق والمشاهدات أن يرجعوا إلى مقام البدايات، وتصديق هذه المعاني الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الحلال ما وصل إلى المعارف من خوان الغيب بلا كلفةٍ إنسانيةٍ، والطيب ما يقوّي قلبه في شوق الله وذكر جلاله بالتسرمد.

وقال سهل في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟﴾: هو الرفق بالأسباب من غير طلب، ولا إشراف نفس، وقد يبدأ الرفق بالسبب لأهل المعرفة على الظاهر وهم يأخذونهم من المسبب بالحقيقة، قال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركةٍ منك ولا استشرافٍ، وهو الطلب الحلال يحلك محل الدعة ويطيب قلبك يتناوله، وقال الأستاذ: ممّا أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك أن تستبدل تلك الحال بالخلطة دون العزلة، والعشرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم، والخسران المبين ذكره في تفسير قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ﴾ وقال في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: الحلال الصافي أن يأكل ما يأكل

المذكاة ﴿وَ﴾ كذا أحل لكم صيد ﴿مَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ الكواسب، لكم الصيد من أدوات القوائم والمخالب حال كونكم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مؤدبين، معلمين إياهن لاصطياد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ من مقتضيات العقل المفاض لكم بأنواع الحيل إياهن.

وإذا علمتموهن ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ من صيدهن حلالاً طيبًا ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾ أي: وعليكم أن تذكروا اسم الله حين إرسال الجوارح إلى الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ ألَّا تهلوا على الصيد والذبائح، ولا تحلوها بذكر اسم الله بعدما أمركم به ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة:4] شديد العقاب لمن لم يمتثل بأوامره، ولم يجتنب عن نواهيه.

﴿الْيَوْمَ﴾ أي: حين انتشر وظهر دينكم على الأديان كلها ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المذكورة، المحللة فيه ﴿وَ﴾ أيضا ﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى وذبائحهم ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ وإطعامكم أيضًا ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لأنهم من ذوي الملل والأديان ﴿وَ﴾ كذا أحلّ لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ الحرائر، العفائف ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: نكاحكم إياهن ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن بلا نقص وتكسير.

والحال أنكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ محافظين على حقوق الزوج والنكاح ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ مجاهرين بالزنا ﴿وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ مستترين به ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ منكم، وينكر ﴿بِالإِيمَانِ﴾ وبلوازمه، وحدوده الدالة على صحته ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:5] الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

على شهوده، فإن نزلت الحالة عن هذا فعلى ذكره، فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة، ولي في الحلال والحرام لطيفة، وهي أن الحلال الذي يراه العارف في خزانة القدرة، فيأخذ منها بوصف الرضا والتسليم، والحرام ما قدر بغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه لقلّة عرفانه بالمحذر في المقدر، وهذا العلم غير موازنٍ في العقول، وما لم يكن مرضيًا في الشريعة لم يكن مرضيًا في المعرفة، ولمّا قوي العباد بنسائم لطفه وغذّاهم من موائد قربه، ورماهم بشهيات نعمه، دعاهم بعد ذلك إلى طاعته وطاعة رسوله؛ لئلا يسقط عليهم آداب الحضرة وعلامات العبودية وظرافة الخدمة.

﴿ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة:6].

ثم لمّا بيَّن سبحانه ما يتعلق بمعاش عباده من الحل والحرمة، والزواج والنكاح وحسن المعاشرة، ورعاية الآداب المشروعة فيها، أراد أن يهديهم إلى طريق الرجوع إلى المعاد الذي هو المبدأ بعينه؛ ليميلوا إليه، ويتوجهوا نحوه على نية التقرب، إلى أن وصلوا واتصلوا، فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة ذات الحق، وتنزهه عن وصمة الكثرة ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ أي: إذا أردتم أن تخرجوا من بقعة الإمكان، وتميلوا نحو فضاء الوحدة منشوقين، متقربين ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: فعليكم أن تغسلوا بماء المحبة والشوق، والجذب الإلهي المحيي، المنبت لأموات الأرواح من أرض تعينات وجوهكم التي تلي الحق عن رين الإمكان، وشين الكثرة.

﴿وَ﴾ طهّروا ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: قصّروها عن أدناس الأخذ والإعطاء من حطام الدنيا وأقذارها ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مبالغين في تطهيرها إلى أقصى الغاية ﴿وَ﴾ بعدما غسلتم الوجوه، وطهرتم الأيدي ﴿امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي: امحوا، وحكوا أنانيتكم وهويتكم التي منها طلبكم وأدبكم ﴿وَ﴾ امحوا أيضًا ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ وأقدامكم التي بها سلوككم وطلبكم ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ إلى أن ينقطع سيركم وسلوككم بالفناء فيه ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المائلون نحو الحق ﴿جُنُبًا﴾ منغمسين في خبائث الإمكان وقاذوراتها ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ فعليكم المبالغة في التطهير بالرياضات الشاقة من قطع التعلقات، وترك المألوفات والمشتهيات، وبالركون إلى الموت الإرادي، والخروج عن الأوصاف البشرية.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى﴾ من الأبرار الذين مرضوا بسموم الإمكان، وبحموم نيرانه وصاروا محبوسين فيه بلا قدم وإقدام ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ من السالكين، السائرين نحو الحق بلا ممد ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: رجع من التلوث والتدنس بغلاظ أدناس الدنيا من جاهها ومالها ورئاستها ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ واستكرهتموهن؛ لأنهن

أقوى من حبائل الشيطان وشباكها، يصرف بها أهل الإرادة عن جادة السلامة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ في هذه الصورة من لدن نفوسكم وقلوبكم ﴿مَاءً﴾ شوقًا إلى الحق، مطهرًا لخبائث نفوسكم، قالعًا لها مطلقًا، ومحبة صادقة مزيلة لدرن التعلقات، وجذبًا مفرطًا من جانب الحق، مزعجًا ملجئًا إلى الفناء.

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أي: فعليكم أن تقصدوا، وتتوجهوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ مرشدًا كاملاً ومكملاً طاهرًا عن جميع الرذائل والآثام العائقة عن الوصول ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي: هوياتكم الباطلة ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ أي: أوصافكم الذميمة، العاطلة ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من تراب أقدام، وثرى سدته السنية؛ لعله يرشدكم إلى النجاة عن مضيق التعيينات نحو فضاء الذات ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ ويبقي فيكم ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ يمنعكم عن الوصول إلى ما جبلتم لأجله ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ويصفيكم أولاً من التعيين وأدناسها ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ثانيًا مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:6] [1] حين تفوزون ما تفوزون.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة:7-9].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم، ووعدتم من عنده ما وعدتم ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾ التي أنعم بها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا بشكرها ﴿وَ﴾ تذكروا ﴿مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ﴾ حين سمعتم قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك، أنت ربنا

(1) يعني: يطهركم من أحوالكم وأخلاقكم وأفعالكم، لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلق بسبب من الأسباب، والطهارة على سبعة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية، وطهارة اليقين من الشك، وطهارة العقل من الحمق، وطهارة الظن من النميمة، وطهارة الإيمان مما دونه، ولكل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب؛ فإنها قسوة. [تفسير التستري (24/1)].

أظهرتنا من العدم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ما أمرتنا به طوعًا ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ من نقض ميثاقه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بالسرائر والخفايا ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة:7] أي: بمكنونات صدوركم يجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين فيما أمرتم به في طريق توحيده ﴿شُهَدَاءَ﴾ حضراء مستحضرين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ لحقوق آلائه الإلهية، ونعمائه الفائضة لكم من عنده تفضلاً وامتنانًا ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يحملنكم ولا يبعثكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ شدة عداوة قوم وبغضهم ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ولا تقسطوا فيما أنعم الله عليكم، بأن تجاوزوا عن حدود الله حين القدرة على الانتقام منهم؛ تشفيًا لصدوركم، بل عليكم أن تقسطوا في كل الأحوال، سيما عند الاقتدار ﴿اعْدِلُوا﴾ أيها المنعمون بالقدرة والظفر ﴿هُوَ﴾ أي: عدلكم ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ المراقب لكم في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8] من مقتضيات نفوسكم وتسويلاتها.

﴿وَعَدَ اللهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة نحوه، المأمورة من عنده بأن حصل لهم مغفرة لذنوبهم؛ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:9] هو الفوز بشرف اللقاء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة:10-11].

بعدما وعد للمؤمنين ما وعد، أردفه بوعيد الكفار؛ جريًا على عادته المستمرة في دعوة عباده، فقال:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا، وأثبتوا الوجود لغيرنا؛ مكابرة وعنادًا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المنزلة على رسلنا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المشركون ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة:10] مصاحبوها وملازموها، لا نجاة لهم منها أصلاً توغلهم وانهماكهم في الكفر والضلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ كيف ينجيكم من يد العدو ﴿إِذْ هَمَّ﴾ قصد ﴿قَوْمٌ﴾ من عدوكم ﴿أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ حين كنتم مشغولين

بالصلاة، ويفاجئوكم بغتة، ويستأصلوكم مرة ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بالوحي على نبيكم امتنانًا وتفضلاً عليكم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ الرقيب عليكم أن تخالفوا أمره ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ في كل الأمور ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:11] الموقنون بوحدانيته وحفظه وحمايته.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:12].

ثم لمّا أراد سبحانه تقرير المؤمنين على الإيمان، وتثبيت قدمهم على جادة التوحيد والفرقان، استشهد عليهم تزلزل بني إسرائيل، وعدم رسوخ قدمهم في الإيمان والإطاعة مع أخذ المواثيق منهم على لسان نبيهم - صلوات الرحمن على نبينا وعليه - فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ﴾ بلسان موسى كليم الله ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: العهد الوثيق منهم بعدما خلصوا من فرعون، وورثوا منه ما ورثوا، واستقروا على ملك مصر ﴿وَ﴾ ذلك أنّا ﴿بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَي عَشَرَ نَقِيبًا﴾ من نجبائهم ونخبائهم، من كل فرقة نقيب مسلم، بينهم رئاسةً وجاهًا، وبالجملة: كل من النقباء يولي أمر فرقته عند نبينا موسى عليه السلام.

فعهدوا أن يسيروا مع موسى إلى «أريحا» بالشام حين أوحى إليه، فساروا إلى أن وصلوا، وكان فيها الجبابرة الكنعانيون، فلمّا أراد موسى عليه السلام أن يفتش عن أحوالهم ويفحص، أرسل النقباء جواسيس يتجسسون العدو، ولا يظهرون ما اطلعوا عليه من حال العدو على فرقتهم، فذهبوا وتجسسوا، فلمّا رأوا العدو ذوي قوة، وأولي بأس شديد هابوا منه، وترهبوا، فرجعوا إلى قومهم، فأخبروا لهم ما ظهر عليهم إلا قليلاً منهم فنقضوا العهد والميثاق.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿قَالَ اللهُ﴾ لهم حين أمرهم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ لينصركم على عدوكم وأخرجهم منها: فوعزتي وجلالي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾ على الوجه الذي وصل إليكم من رسولكم ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ على الوجه المشروع ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ بلا تفريق بينهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم في إعلاء كلمة الحق، وإشاعة دينه ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ﴾ ما في أيديكم من زخرفة الدنيا ﴿قَرْضًا﴾ إنفاقًا للفقراء والمساكين ﴿حَسَنًا﴾ بلا شوب

المنة والأذى ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ﴾ أي: لأمحونَّ عن ديوان عملكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بأسرها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ جزاءً لإخلاصكم ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهاتٍ ثلاث: هي العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ مملوءة بمياه الحقائق والمعارف ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: بعدما سمع التذكير والعظة من الله ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وفقد ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:12] لا دواء لدائه، ولا رجاء لإنجائه.

اهدنا بفضلك إلى سواء السبيل.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة:13-14].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ وبعدم وفائهم للعهود الوثيقة ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ طردناهم عن فضاء التوحيد ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ مظلمة بظلمة الإمكان إلى حيث ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ المثبتة في كتاب الله؛ لإعلاء كلمة التوحيد ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التي وضعها الحق ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ نصيبًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: بالتوراة، ووعظوا عنه، وأفادوا منه ﴿وَ﴾ صاروا من غاية القساوة والنسيان بحيث ﴿لاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ دائمًا مستمرًا ﴿عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ تبالغ في الخيانة ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا بكم، وأنصفوا على ما في التوراة وأظهروها ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولم يحرفوها زمانًا ﴿وَاصْفَحْ﴾ وانصرف عن انتقامهم إلى الإحسان معهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على الانتقام ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:13] المجاوزين عن الانتقام بعد الاقتدار عليه.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ مدعين نصرة الدين، وإعلاء كلمة الحق ﴿أَخَذْنَا﴾ كما أخذنا من اليهود ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ فنقضوا كما نقضوا ﴿فَنَسُوا﴾ كما نسوا ﴿حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: بالإنجيل المنزل على عيسى - صلوات الرحمن عليه - ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ ألقينا، وألزمنا ﴿بَيْنَهُمُ﴾ بين اليهود والنصارى، وهم اليعقوبية والنسطورية

والملكانية ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ المستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بحيث لا يصفو نفاقهم وشقاقهم أصلاً ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ كلا الفريقين، أو الفرق ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:14] في الدنيا من البغض والنفاق، وبما يكسبون به في الآخرة من العذاب والعقاب.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة:15-16].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى المجبولين على الكفر والنفاق ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ أضافه إلى نفسه؛ تعظيمًا وتوقيرًا ﴿يُبَيِّنُ﴾ ويظهر ﴿لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من أوامره ونواهيه، وأخباره المتعلقة بالزمان الماضي والآتي، سيما نعت خاتم الأنبياء والرسل - صلوات الله عليه وسلامه - وإنمّا يبيّن لكم المذكورات؛ لئلا يفوت منكم شيء من أمور الدين، ولا يؤخذون بها.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْفُو﴾ ويصفح ﴿عَنْ﴾ تبيين ﴿كَثِيرٍ﴾ من مخفياتكم من الكتب ممّا لا يترتب عليه العذاب والنكال، فعليكم أن تؤمنوا به، وبما جاء به من عند ربه لإهدائكم إلى طريق توحيده؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ معه ﴿نُورٌ﴾[1] واضح ﴿وَ﴾ هو ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:15] ظاهر لائح هدايته وإرشاده.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿مَنِ اتَّبَعَ﴾ منهم ﴿رِضْوَانَهُ﴾ أي: يرضى به ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: طريق التوحيد الموصلة إلى سلامة الوحدة، المسماة عنده بدار السلام

(1) أراد نور المعرفة بلا واسطةٍ ولا تصنّعٍ. وأيضًا: نوره الذي يتجلّى به من وجود الأنبياء والأولياء لأبصار الناظرين، وشاهد ذلك النور ما جاء في كتابه من بيان مقامات الصديقين، قد جاء النور منه جمعًا، وجاء الكتاب تفرقةً ظاهرةً في شهادته على مَنْ له من الله نورٌ، والنور والكتاب صفتان من صفات الأزل ظهر لجذب السالكين إلى الله. قيل: كشف عن أسراركم غطاء الوحشة، وألبسكم لباس الأنس. قال بعضهم: بعناية الأزل وصلتم إلى نور الكتاب المبين ونور التوحيد.

﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ أي: المتبعين رضوانه ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة العدم، وظلمة الإمكان وظلمة التعينات ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: الوجود البحتُ، الخالص عن شوب الظلمة؛ إذ هو نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء من أهل العناية، وإنما يخرجهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وتوفيقه، وجذب من جانبه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ أن سبق لهم العناية منه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:16] موصل إلى توحيده.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة:17-18].

﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ وأعرض عن الحق، ولم يعرف حق قدره ﴿الَّذِينَ﴾ بالغوا في وصف عيسى عليه السلام، وغالوا فيه إلى أن ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الحصر: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا لهم وإلزامًا: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ يدفع ويمنع ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ من مراداته ومقدوراته ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ﴾ أي: يبقي على الهلاك الأصلي، والفناء الجبلي بلا مدّ من ظله، ورش من نوره ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا يبالي الله به وبهم؛ إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ المنزه عن الأكوان مطلقًا ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ متصرف فيها حسب إرادته واختياره إيجادًا وإعدامًا ﴿يَخْلُقُ﴾ ويظهر ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلطفه، ويعدم ويخفي ما يشاء بقهره ﴿وَاللَّهُ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مقدر إرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:17] لا تفتر قدرته، ولا تنتهي إرادته ومشيئته.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ﴾ من غاية مبالغتهم، وغلوهم في حق عيسى وعزير، - عليهما السلام -: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ إذ نعبد نبيه ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إذ نحبهما، وهما محبوباه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الله ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ إن كنتم صادقين في هذه الدعوة، يعذبكم في الدنيا بالقتل والسبي والإجلاء، وضرب الذلة والمسكنة، وفي

الآخرة بأضعاف ما في الدنيا وآلافها، فعليكم ألَّا تغلوا في دينكم ونبيكم، ولا تفتروا على الله الكذب.

﴿بَلْ أَنتُم﴾ ونبيكم أيضًا ﴿بَشَرٌ مِّمَّنْ﴾ أي: من جنس ما ﴿خَلَقَ﴾ الله بقدرته وأظهره حسب إرادته، فله التصرف فيكم وفيهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ عدلاً وانتقامًا ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتصرف فيها كيف يشاء إرادة واختيارًا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾ [المائدة:18] والرجع؛ إذ الكل منه بدأ، وإليه يعود.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) ﴾ [المائدة:19-21].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ لا تغتروا في أمور دينكم، ولا تضعفوا فيها؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الموعود في كتابكم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أمور دينكم حال كونه ﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾ انقطاع وحي ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وإنما أرسلناه؛ كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ وتعتذروا حين وهن دينكم وضعف يقينكم: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ حتى يصلح أمور ديننا ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ لئلا تعتذروا على ما تقتصرون فيه، فكذبوه، ولم يقبلوا ما جاء به من أسرار الدين والإيمان ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لكم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع الجزاء ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:19] يجازيكم على مقتضى قدرته.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وهم أسلاف لكم وآباؤكم حين أراد أن يذكرهم نعم الله التي أنعمها عليهم؛ ليقوموا بشكرها: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ منكم ﴿أَنبِيَاءَ﴾ يرشدونكم، ويهدونكم إلى طريق التوحيد ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ متصرفين في أقطار الأرض ﴿وَآتَاكُم﴾ من الخوارق والإرهاصات من فلق البحر، وظل الغمام، وسقي الحجر، ونزول المن والسلوى وغير

ذلك ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:20] [1] حين ظهوركم واستيلائكم.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة عن شوائب الفتن ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: قدرها في علمه لمقركم ومسكنكم؛ إذ هي منازل الأنبياء، ومقر الأولياء والأصفياء، فعليكم أن تقبلوا إليها تاركين ديار العمالقة والفراعنة التي هي محل الجور والفساد، ومجمع البغي والفساد ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَرْتَدُّوا﴾ بعدما سمعتم الوحي ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ خوفًا من الجبابرة.

قيل: لما سمعوا أوصاف جبابرة كنعان من نقبائهم خافوا، واستوحشوا وفزعوا وقالوا: ليتنا نرد على أعقابنا، تعالوا ننصب رأسًا ينصرف بنا إلى مصر؛ إذ موتنا فيها خير من الحياة وموضع آخر، فارتدوا ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:21] خسرانًا عظيمًا في الدنيا تائهين حائرين، وفي الأخرى خاسرين خائبين.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة:22-24].

﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ على صورة الاعتذار، وإظهار العجز وعدم الإقدار، وما هي إلا من عدم تثبتهم على الإيمان، وعدم رسوخهم في مقتضياته، وعدم وثوقهم بنصر الله وإعانته بعدما أمرهم بالقتل والترحال، ووعدهم ما وعدهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يتأتى مقاومتهم ومقاتلتهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بقتالٍ أو غيره ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ على أي وجهٍ ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة:22] إذ لا طاقة ولا

(1) قال ابن عجيبة: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان، وقيل: لمّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكًا [البحر المديد (49/2)].

قدرة لنا معهم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ من قهر الله وغضبه، سيما بعد ورود أمره؛ إذ هما من أهل الوثوق بنصر الله وإنجاز وعده؛ إذ ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والإذعان وبإعطاء الحكمة والمعرفة: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: ضيقوا على عدوكم باب بلدهم، وقربوهم إلى حيث يضطرون ويختنقون من جسامتهم، وضيق مكانهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ على هذا الوجه ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ غانمون ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:23] [1].

﴿قَالُوا﴾ مستهزئين، مصرحين بما تكنّ صدورهم من الكفر، وعدم الوثوق والإخلاص، ومناقضة العهود والمواثيق: ﴿يَا مُوسَى﴾ لا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ وإن شئت ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ﴾ أيها الداعي ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي دعوتنا إليه، وادَّعيت الإعانة والانتصار منه ﴿فَقَاتِلَا﴾ مع العدو ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:24] منتظرون إلى أن يظهر الأمر.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:20-27].

(1) أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن قُدِّرَ أن واحدًا منهم لا يتوكل، فلا يخرج به ذلك عن الإيمان، كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر؛ فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة، ويقال: بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر، ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها، ويقال: الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النَّفْس، ويقال: الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ، ويقال: الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل: ملاحظتُه الأعواض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها، ويقال: الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العِوض عليها [تفسير القشيري (103/6)].

﴿قَالَ﴾ موسى آيسًا، متحيرًا، باثًا شكواه مع ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ﴾ ولا أثق لامتثال أمرك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:25] الخارجين عن مقتضى أمرك، التاركين الامتثال به؛ من عدم وثوقهم بإعانتك وتأييدك.

ولما سمع سبحانه من موسى ما سمع من بث الشكوى، وكان حالهم وصلاحهم معلومة عنده سبحانه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ مدة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ خصّ هذا العدد؛ لأنهم لما أعادوا نفوسهم بعدم امتثال أمر الله، والاستهزاء به وبرسوله إلى ما هم عليه قبل إيمانهم، والإيمان ما يكمل غالبًا إلا بعد الأربعين، لذلك خصّ هذه المدة؛ لمجازاتهم ومجاهداتهم، ليكملوا الإيمان، وهم بعدما ارتدوا من الشام وتوجهوا إلى المصر ﴿يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ المقدسة بستة فراسخ تائهين، حائرين، مذبذبين لا إلى مصر ولا إلى الشام في تلك المدة، وموسى سارٍ معهم فيها، يرشدهم إلى أن يخرجهم من الضلال الصوري والمعنوي.

ثم لمّا رأى موسى اضطراب قومه وحزنهم وقلقهم واضطرارهم، رحمهم، وندم عمّا دعا عليهم، على مقتضى شفقة النبوة ومرحمته، لذلك رد الله عليه بقوله: ﴿فَلاَ تَأْسَ﴾ أي: لا تحزن أيها النبي الشاكي ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:26] الخارجين عن مقتضى التصديق والإيمان.

﴿وَاتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من اتبعك من المؤمنين ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أي: قصة قابيل وهابيل واختلافهما ونزاعهما وقربانهما، وقتل قابيل هابيل؛ ليعتبروا ويتنبهوا من قصتهما على ما هو الأقوم من السبيل، والأليق بحال المؤمن من حسن المعاشرة والمصاحبة مع الإخوان، ورعاية الغبطة، والتصبر على البلية والمحنة، وإن أدى إلى بذل المهجة والإخلاص مع الله في جميع الأحوال، تلاوة متلبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ مطابقة للواقع موافقة لما في الكتب السالفة.

وذلك أنهما تنازعا في تزويج كل منهما توءمة الآخر على ما هو شرع أبيهم، فقال قابيل: توءمتي أحسن صورة من توءمتك، أنا أحق بتزويجها منك، فترافعا إلى أبيهما فأمرهما بالقربان المقرب إلى الله، اذكر ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ بإذن أبيهما، كل واحد منهما على مقتضى إخلاصهما مع الله، وكان قابيل صاحب زرع، قرب مقدارًا من أردأ قمحه، وهابيل صاحب ضرع، قرب شاة سمينة حسناء ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾.

وعلامة القبول حينئذٍ أنه تنزل نار من السماء، وتأكل ما يتقربون به، فأخذا قربانهما وذهبا إلى جبل فطرحا عليه، وانتظرا القبول، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل، ولم تأكل قربان أخيه، فاشتد سخطه وغضبه على أخيه، وزاد حسده بقبول الله قربانه ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ البتة؛ إذ ظهر مزيتك عليّ، وفضلك عند الله منّي، وبذلك تفتخر وتتفوق عليّ بين الناس ﴿قَالَ﴾ هابيل: يا أخي، ما لي في هذا التقرب إلا الإخلاص والرجوع إلى الله والإطاعة والانقياد لأمره، والاجتناب والتحرز عن سخطه وغضبه بلا غرض نفساني وميل شهواني، فتقبل مني بفضله ولطفه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ﴾ أي: ما يتقبل المطلع لسرائر عباده أعمالهم التي يتقربون بها إلى الله إلا ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27] المتقربين إليه بين طرفي الخوف والرجاء، المخلصين فيما جاءوا به خالصًا لوجهه الكريم، بلا ميل إلى ما تهوى نفوسهم.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[المائدة:28-31].

ثم أقسم هابيل بعدما أوعده قابيل القتل: والله ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ من إفراط غيظك وغضبك، وشؤم إمارة نفسك ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾ ظلمًا بلا رخصة شرعية، بل عن محض عناد ومكابرة ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ لدفع صولتك عن نفسي، أو ﴿لأَقْتُلَكَ﴾ على مقتضى أمارتي ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [المائدة:28] من تخريب؛ لمجرد دفع الصائل ولا أخاف على نفسي من القتل؛ إذ الشهداء المقتولون ظلمًا أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

﴿إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وإعطافي معك يا أخي ﴿أُرِيدُ أَن تَبُوءَ﴾ أي: لأن تذهب وترجع إلى الله ﴿بِإِثْمِي﴾ أي: بإثمك المنسوب إلى قتلي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي كنت فيه ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ عند الله بهذا الظلم ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:29] عنده.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: هيّجت حسده إلى أن طوعت، وأرضت نفسه ﴿قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ ظلمًا بلا مدافعة منه كما شرط، فندم دفعة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:30] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، فتحيّر في دفعه وإخفائه؛ إذ لا يموت أحد من بني آدم إلى ذلك الوقت، فحمله على عاتقه، وسارَ معه إلى حيث أروح وأنتن.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ إعلامًا له ﴿غُرَابًا﴾ فقتل غرابًا من جنسه أراد أن يدفعه ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ بمنقاره ورجله ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي﴾ ويستر ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: جثه وجسده التي يسوء ﴿قَالَ﴾ قابيل متحسرًا، متحزنًا، قلقًا، حائرًا: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ يا هلكتي أحضري ﴿أَعَجَزْتُ﴾ وعزلت عن مقتضى العقل، وعن الاهتداء به إلى حيث ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ المتعزل عن العقل والإدراك، بل متابعًا له، متلمذًا منه ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:31] ندامة مؤبدة بحيث لا يضحك مدة حياته أصلاً وعاش مدة مائة سنة، واسودّ لونه إلى حيث لم يُعرف.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة: 32-33].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ وبسبب وقوعه بين بني آدم ﴿كَتَبْنَا﴾ قضينا وألزمنا ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بلا قصاص شرعي ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ مرخصٍ، موجبٍ لقتله من شركٍ وبغيٍ، وقطع طريقٍ وغير ذلك من الفسادات العامة السارية ضرّها وشرّها ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذ كل فرد من أفراد الإنسان مستجمع لكمالات الجميع بسعة قلبه، وعلو مرتبته، واستعداده وقابليته لمظهرية الحق وخلافته فكان قتله قتل الجميع.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ خلصها وأنجاها من المهلكة والمتلفة ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ على الوجه المذكور ﴿وَ﴾ بعدما قضينا عليهم ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ تأكيدًا وتشديدًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على عظم جريمة القتل عند الله، وعظم النكال المترتب عليها في الآخرة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ﴾ التشديد والتأكيد ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:32] على أنفسهم بالقتل بلا رخصة شرعية من غير مبالاة بالآيات والبينات.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ ويقابلون له بعدم الامتثال لأمره، والانقياد لشرعه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بتكذيبه وتكذيب ما جاء به من عند ربه، والقتال معه ومع من تابعه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين بأنواع الفسادات الساري ضررها في أقطار الأرض ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ حيث وجدوا دفعة ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أحياء؛ ليعتبر منهم من في قلبه مرض مثل مرضهم، ثم يُقتل على أفظع وجه وأقبحه.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ متبادلتين؛ ليعيشوا بين الناس على هذا الوجه، ولينزجر منهم نفوس أهل الأهوية الفاسدة ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى حيث يؤمن من شرورهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ تذليل وتفضيح ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:33] طرد وتبعيد عن مرتبة أهل التوحيد.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:34-37].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الله عمّا كانوا عليه مخلصين، نادمين، خائفين من بطشه، راجين من عفوه وجوده ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: غرماؤهم، وتأخذوهم مطالبين القصاص عنهم، يسقط عنهم حق الله بالتوبة إن أخلصوا فيها ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الموفق لهم على التوبة ﴿غَفُورٌ﴾ لهم، يغفر ذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:34] يقبل توبتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ عن ارتكاب ما حرم عليكم، ونهاكم عنه ﴿وَابْتَغُوا﴾ واطلبوا ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾المقربة إلى ذاته لتتوسلوا به إلى توحيده ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ لقطع العلائق، ورفع الموانع مع القوى البشرية الشاغلة عن التوجه نحوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:35] تفوزون بفضاء توحيده، وصفاء تجريده وتفريده.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقب الوعد بالوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وأصرُّوا على ما هم عليه من الكفر والشقاق ﴿لَوْ﴾ تحقق وثبت ﴿أَنَّ لَهُم﴾ ملك ﴿مَّا فِي الأَرْضِ﴾ من الزخارف والكنوز ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ بل أضعاف أمثاله ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ فدية، ويخلصوا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ونكالها المترتبة على كفرهم ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ لعظم جرمهم وإصرارهم عليه، بل ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:36] مؤبد، لا يرجى نجاتهم أصلاً.

﴿يُرِيدُونَ﴾ متمنيا ﴿أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ لاستحالة الخروج من ذلك لزوم النكال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:37] دائم، متجدد متلون؛ لئلا يعتادوا بنوع منه.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة:38-40].

﴿وَالسَّارِقُ﴾ المتجاوز عن حدود الله ﴿وَالسَّارِقَةُ﴾ المتجاوزة عنها ﴿فَاقْطَعُوا﴾ أيها الحكام ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ أي: يمينهما إن أخرجا المسروق من الحرز المتعارف ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ معهما ﴿نَكَالاً﴾ عقوبة وتعذيبًا ﴿مِّنَ اللهِ﴾ لتصرفهم في ملك الغير ﴿وَاللهُ﴾ المتصرف المستقل في ملكه ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب، قادر على الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ [المائدة:38] متقن في مقداره وتعيينه.

﴿فَمَن تَابَ﴾ ورجع إلى الله مخلصًا، خائفًا ﴿مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ وخروجه عن حدود الله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد على نفسه من مجاوزة حكم الله ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾

المصلح لأحوال عباده ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويقبل توبته بعدما وفقه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الميسر لأمور عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [المائدة:39] لهم بعدما رجعوا إليه، راجين عفوه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتوحد، المستقل بالألوهية والتصرف ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ من الكائنات والفاسدات ﴿وَالأَرْضِ﴾ وما يتكون عليها، وكذا ما بينهما من بدائع الكوائن ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من أهل التكاليف على ما صدر عنهم من الجرائم؛ عدلاً منه ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ فضلاً منه ﴿وَاللهُ﴾ المتصرف بالاستقلال في ملكه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:40] له الإرادة والاختيار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١ ﴾ [المائدة:41].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ المبعوث بالحق على كافة الخلق بشيرًا ونذيرًا ﴿لاَ يَحْزُنكَ﴾ صنيع الفرق ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ﴾ أي: يسرعون إليه عند الفرصة؛ لكون جبلتهم عليه وميلهم بالطبع نحوه ﴿مِنَ﴾ المداهنين المنافقين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ حفظًا لدمائهم وأموالهم: ﴿آمَنَّا﴾ قولاً مجردًا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمْ تُؤْمِن﴾ ولم تذعن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بل ختم عليها بالكفر.

﴿وَ﴾ علامة كفرهم أنهم من غاية نفاقهم معك ومع من تبعك ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: للكذب المفترى بالتورية، بأنك لست النبي الموعود فيها ومصدقون لها من الذين هادوا، قدم الاختصاص؛ إذ لا مصاحبة للمنافقين مع المؤمنين خصوصًا في خلواتهم، بل مع أحبار اليهود، وهم من أعدى عدوك، وأشدهم غيظًا وبغضًا، ومع ذلك ﴿سَمَّاعُونَ﴾ أيضًا ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ممن آمن بك من أقاربهم وعشائرهم؛ ليضلوهم عن طريق الحق، ومن لم يؤمن لك يميلون بقلوبهم إلى الإيمان

ليقعدوهم، وليصرفوهم عمّا نووا في نفوسهم، وكيف لا يكون أحبار اليهود من أعدى عدوك يا أكمل الرسل، وهم من غاية بغضهم معك ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾؟.

ومع عدم إتيانهم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويغيرون ﴿الْكَلِمَ﴾ المنزلة في التوراة بيان بعثتك ووصفك وحليتك، ومنشأتك وحسبك ونسبك وعلو شأنك، ووضوح برهانك وتكملتك أمر النبوة والرسالة، ونسخك جميع الأديان ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ كونه مثبتًا عن ﴿مَوَاضِعِهِ﴾ بوضع إلهي، وهم أيضًا من غاية بغضهم معك ﴿يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم حينما حكموك في أمر؛ لشهرة أمانتك، ووثوقهم برأيك وعزيمتك في قطع الخصومات: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ وحكمتم طبق ﴿هَذَا﴾ أي: المحرف ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوه، وامضوا عليه، وارضوا به ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ موافقًا له ﴿فَاحْذَرُوا﴾ منه، وأعرضوا عنه.

ثم قال سبحانه؛ تسليةً لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ كفره وظلمته وقساوته ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ﴾ البعداء عن نهج الرشاد من الكافرين ﴿الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ ولم يتعلق مشيئته ﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من خباثة الكفر والشرك ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوان وصغار وجزية وذلة ومسكنة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:41] هو الخلود في نار الحرمان عن مرتبة الإنسان.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة:42-43].

وما هو إلا أنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ المذكور، معتقدون صدقها ومطابقتها للواقع ومسمعونهم أيضًا، وهم؛ أي: الأحبار ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام الذين يرتشون منهم؛ بسبب تحريفهم نعتك يا أكمل الرسل من كتابهم؛ لتبقى رئاستهم وجاههم فأعرض عنهم وعن إيمانهم ﴿فَإِن جَاءُوكَ﴾ ليحكموك، إن شئت ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وعن حكمهم، فلك الخيار.

﴿وَ﴾ لا تبال بهم وبعداوتهم ﴿إِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فإنهم وإن عادوك أشد عداوة وبغضًا ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ من المكروه، فإن الله يعصمك ويكفيك من شرورهم ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ والعدل الذي هو أمر الحق ونطق به الفرقان ﴿إِنَّ

﴿اللهُ﴾ المستوي باسم الرحمن على عروش الذرائر معتدلاً بلا تفاوت ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:42] المعتدلين من عباده، المائلين عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، المنتهين إلى قعر الجحيم، وليس غرضهم من تحكيمك الإطاعة بك وبحكمك، والوثوق لأمانتك ووقوفك، بل ليس غرضهم إلا التسهيل والتيسير، والإعراض عن بعض الأحكام مداهنةً.

﴿وَ﴾ إلا ﴿كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ مع عدم إيمانهم بك وبكتابك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿عِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾ على التفصيل، وهم يدعون العلم بها ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ وينصرفون ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما حكمت فيما حكموك فيه مع أنه مطابق لكتابهم ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:43] أي: وما إعراض أولئك المؤمنين بكتابهم، الموقنين فيه حتى يحكموك مع كونهم عالمين بحكمك فيه.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:44-40].

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ إلى موسى، وأدرجنا ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق من ضلَّ عن طريقه ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف طريق التوحيد لمن استكشف منه ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ من أنبياء بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ معه، وفوضوا أمورهم كلها إليه بعدما تحققوا بتوحيده ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا وَ﴾ وكذا يحكم بها ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾[1]

---

(1) الربانيّ من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله، ويقال: الربّانيّ الذي ارتقى عن الحدود، والربانيّ مَنْ توقّى الآفات ثم ترقّى إلى الساحات، ثم تلقّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِربّه وبربّه، وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاءٌ ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُؤمِنُون إليه، وتحقق ما علقوا هممهم به [تفسير القشيري (144/2)].

المنسوبون إلى الرب بمتابعة الأنبياء، وهم الأولياء، فهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿الأَحْبَارُ﴾ المتفقهة، فهم يحكمون ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على ما استحفظوا ﴿شُهَدَاءَ﴾ مستحضرين يراقبون، ويداومون على حفظه.

﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ أي: لا تميلوا أيها الحكام عن طريق الحق من أجل الناس المتعظمين بجاههم ورئاستهم، ولا تداهنوا في الأحكام؛ رعاية لجانبهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ من بطشي، وغضبي عليكم حين مخالفتكم حكمي وأمري؛ مداهنةً ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ وأحكامي ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الرشى ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ أي: بمقتضاه، وموافقًا له ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء المداهنون، المرتشون ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44] الساترون مقتضى الحكمة بأهويتهم الباطلة، الخارجون عن رتبة العبودية بمخالفة حكم الله وأمره.

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام التي ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ القصاص، فاعلموا أيها الحكام ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ القاتلة تقتص ﴿بِالنَّفْسِ﴾ المقتولة ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تُفقأ ﴿بِالْعَيْنِ﴾ المفقوءة ﴿وَالأَنفَ﴾ يُقطع ﴿بِالأَنفِ﴾ المقطوعة ﴿وَالأُذُنَ﴾ تُصلم ﴿بِالأُذُنِ﴾ المصلومة ﴿وَالسِّنَّ﴾ تُقلع ﴿بِالسِّنِّ﴾ المقلوعة ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْجُرُوحَ﴾ يجري فيها ﴿قِصَاصٌ﴾ مثلاً بمثل على قياس ما ذكر ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِ﴾ أي: بالقصاص، وعفا عنه طوعًا ﴿فَهُوَ﴾ أي: تصدقه ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي: لذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ من الأحكام؛ ميلاً وارتشاءً ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الحاكمون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:45] المتجاوزون عن مقتضى الإيمان والإطاعة والانقياد.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة:46-47].

﴿وَ﴾ بعدما انقرض هؤلاء النبيون الحاكمون ﴿قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم﴾ أي: أتبعناهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خلفًا لهم ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ﴾ امتنانًا له ﴿الإِنجِيلَ فِيهِ﴾ أيضًا ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾ للمستهدين المستكشفين منه ﴿وَ﴾ مع كونه مشتملاً على الهداية والإنارة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى﴾ هاديًا لأهل العناية ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:46] المتوجهين إلى الحق بين الخوف والرجاء.

﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أيضا ﴿أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ من الأحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ منهم أيضًا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ لغرض من الأغراض الفاسدة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء، المنصرفون عن منهج الرشاد ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:47] الخارجون عن ربقة الإيمان، المنهمكون في بحر الضلال والطغيان.

ومآل هذه الصفات الثلاثة لهؤلاء الحاكمين المجاوزين عمّا حكم الله في كتبه واحد إذ الكفر: هو ستر حكم الله، والظلم: هو المتجاوز عنه إلى غيره من الآراء الفاسدة والفسق: الخروج عن حكمه؛ عنادًا ومكابرة، ومآل الكل إلى الشرك بالله، والإلحاد عن توحيده.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:48-50].

﴿وَ﴾ بعدما انقرض عيسى - صلوات الرحمن عليه - ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل، وخاتم النبيين ﴿الكِتَابَ﴾ الجامع لجميع الكتب السالفة متلبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ﴾ جنس ﴿الكِتَابِ﴾ المنزل على الرسل الماضين ﴿وَ﴾ مع كونه مصدقًا ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مستحضرًا لما فيه، يحفظه عن التحريف والتغيير؛ إذ الكتب الإلهية كلٌ لاحق منها يحفظ حكم سابق، ويصونه عن التطرق والتحريف، وإن كان مشتملاً على نسخ وتغيير إلهي بحسب الزمانين ومقتضى المرتبتين ﴿فَاحْكُم﴾ أيضًا ﴿بَيْنَهُم﴾ مطابقًا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ إليك في كتابه ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة؛ ميلاً ومداهنة، ولا تنحرف ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ الصريح، لائق للحكمة الإلهية المقتضية للأحكام.

واعلموا أيها الأمم المتوجهون نحو التوحيد المسقط لجميع الإضافات ﴿لِكُلٍّ

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ موردًا ومذهبًا تردون منها إلى بحر الوحدة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقًا واضحًا، بيَّنها الحق لأنبيائه ورسله بإنزال الكتب عليهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ وصيَّركم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متحدة في المنهج والمقصد بحسب الظاهر أيضًا ﴿وَلَكِن﴾ كثَّركم، وعدَّد طرقكم ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويجربكم ﴿فِي﴾ رعاية مقتضيات ﴿مَا آتَاكُمْ﴾ من مواهبه، وعطاياه الفائضة من تجلياته الحبية.

﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيها المتعرضون لنفحات الحق ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الفائضة عن محض جوده فابتدروها، وتعرضوا لمهابتها، واعلموا أيها التائهون في سراب الإمكان ﴿إِلَى اللهِ﴾ المتوحد في الجود والوجود ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أيها الأظلال الباطلة، والتماثيل العاطلة المنعدمة في أنفسها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بعد رفع تعيناتكم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:48] من الإضافات المترتبة على الهويات الباطلة.

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

﴿وَ﴾ أيضًا أمرناك فيما أنزلنا إليك بالحق ﴿أَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ مطابقًا، موافقًا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ إليك في كتابه بلا ميل وانحراف عنه ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المضلة ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ عن ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ ويُلبِّسوا عليك ﴿عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ بمواساتك، وإظهار محبتك ومودتك قاصدين انحرافك، وميلك إلى ما تهوى نفوسهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنك وعن حكمك.

﴿فَاعْلَمْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾ وتتعلق مشيئته به ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ ويأخذهم ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو التولي والإعراض عنك وعن حكمك؛ لأنهم قد خرجوا بالإعراض عنك عن حكمك، عن جميع حدود الله وأحكامه ﴿وَ﴾ لا تتعجب خروجهم ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الناسين للعهود الأصلية ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49] خارجون عن مقتضى الأحكام الإلهية وحكمه بمتابعة الأهواء الباطلة.

﴿أَ﴾ يعرضون، وينصرفون عن حكمك ﴿فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الناشئة من الآراء الفاسدة، الزائفة، الحاصلة عن تمويهات عقولهم، القاصرة، كأحكام متفقهة هذا العصر ﴿يَبْغُونَ﴾ يطلبون منك، ويعتقدون أن الحسن والحق ما هم عليه من تلقاء أنفسهم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ﴾ المتفرد بذاته ﴿حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50] بتوحيده وتفريده.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة:51-53].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم، وتصاحبونهم، مثل موالاة المؤمنين، ولا تعتمدوا، ولا تثقوا بودادتهم ومودتهم إذ هم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ متظاهرون، متعاونون، ينتهزون الفرصة لمقتكم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ ويعتمد عليهم ﴿مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم، وعدادهم عند الله ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:51] المجاوزين عن مقتضى أوامر الله، المرتكبين لمناهيه، فكيف لا يكون المتولون معهم من زمرتهم؟!.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِيهِمْ﴾ في مودتهم ومؤاخاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ معتذرين لكم؛ نفاقًا: ﴿نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ من دوائر الزمان، كان الأمر فيها لهم، والدولة تتوجه نحوهم، فنداريهم ونواليهم؛ خوفًا منها ﴿فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ والظفر لرسوله؛ ليظهر دينه على الأديان كلها ﴿أَوْ أَمْرٍ﴾ عظيم، نازل ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ يكفي مؤنة كفرهم ونفاقهم ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من بغض رسول الله، والإنكار لرسالته، وتكذيب كتابه ﴿نَادِمِينَ﴾ [المائدة:52] خائبين، خاسرين.

﴿وَ﴾ حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا في إيمانهم بعضهم لبعض، مستهزئين لهؤلاء المنافقين: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أغلظها وأوكدها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ مؤمنين بنبيكم؛ مظاهرة لكم في إعلاء كلمة الحق وانتشارها ﴿حَبِطَتْ﴾ واضمحلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ إلى حيث لا تفيدهم أصلاً ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:53] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: 54-56].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا تحزنوا بصنيع ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ بعد إيمانه وقبوله الإسلام، ولا تبالوا بشأنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾ من فضله ولطفه ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ الله ويوفقهم على الإيمان، ويوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ إلى حيث بذلوا مهجهم في سبيله طوعًا ورضًا؛ إعلاء لكلمة توحيده، ونصر دين نبيه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضعًا وإخاءً ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ غلبةً واستيلاءً ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريق توحيده، باذلين نفوسهم فيه، طالبين رضاه ﴿وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ﴾ ملامة ﴿لائِمٍ﴾ مليم كهؤلاء المنافقين الذين يخافون من الملامة؛ حفظًا لجاههم ورئاستهم، وحمية لما أسروا في نفوسهم من الأهوية الباطلة.

﴿ذَلِكَ﴾ الأوصاف الحميدة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ الهادي لعباده إلى فضاء توحيده ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من أهل العناية ﴿وَاللَّهُ﴾ المتفضل، المحسن لأرباب الولاء ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وطوله ﴿عَلِيمٌ﴾ [المائدة:54] على من يستحق الإفضال والإنعام.

ثم لما نهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكفار ووداداتهم، وبالغ فيه، أراد أن ينبه على من يستحق الولاية والودادة وحقيقته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ المتولي لأموركم بالولاية العامة ﴿وَرَسُولُهُ﴾ النائب عنه، المستخلف له ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، بالولاية الخاصة بمتابعته ﷺ، وهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ يديمون ﴿الصَّلاةَ﴾ المقربة إلى الحق ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن التوجه نحو الغير ﴿وَ﴾ الحال ﴿هُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:55] خاضعون في صلاتهم، نزلت في علي - كرم الله وجهه - حين سأله سائل، وهو راكع في صلاته، فرمى له خاتمه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ ويفوّض أمره إليه، ويتخذه وكيلاً ﴿وَرَسُولَهُ﴾ الذي ظهر على صورته، ونزل في شأنه ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ طلبًا لرضاه، فهم من حزب الله وجنوده، يحفظهم في حفظه وحمايته، ويغلبهم على من يصول إليهم ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ القادر، المقتدر على كل ما أراد وشاء ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:56] الواصلون إلى جميع مقاصدهم بفضل الله وسعة جوده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ

﴿وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ
مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾

[المائدة:57-60].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿دِينَكُمْ﴾ الذي هو أقوم الأديان وأقسطها ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يستهزئون ويسخرون به؛ استخفافًا واستهانةً لأهله ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾ يدعون الدين والإيمان، والإطاعة والانقياد افتراءً ومراءً؛ لأنهم ﴿أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ متلبسًا بالحق، لم يمتثلوا به، ولم يعملوا بمقتضاه، ولم يصدقوا الرسل الذين أنزل إليهم الكتاب، بل يكذبونهم، ويقتلونهم؛ ظلمًا وعنادًا من كفرهم الأصلي، وشركهم الجبلي.

﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْكُفَّارَ﴾ الذين أشركوا بالله المتوحد بذاته، المنزه عمَّا ينسبونه إليه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم، ويحبونهم، كموالاة بعضكم بعضًا؛ إذ هم أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن موالاة أعدائه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:57] موقنين به ومصدقين لرسوله.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم وغيظهم منهم ﴿إِذَا نَادَيْتُمْ﴾ وأذنتم ﴿إِلَى الصَّلاةِ﴾ المقربة نحو الحق ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ تلك الملاعبة والاستهزاء، والمجادلة والمراء مع الأمناء العرفاء بالله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ جهلاء بمقتضى الربوبية، غفلاء عن مرتبة الألوهية وبالجملة: هم سفهاء في أنفسهم ﴿لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:58] ولا يصرفون العقل الجزئي المفاض لهم من الحق بمعرفة المبدأ والمعاد إلى ما خلق لأجله، ومع ذلك ينكرون العقلاء الشاكرين، الصارفين عقولهم وجميع جوارحهم وأعضائهم إلى ما جُبل لأجله من الأعمال المقربة نحو التوحيد الإلهي.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ وتنكرون علينا، وتستهزئون بنا ﴿إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ المتوحد، المتفرد بذاته، المتجلي على الآفاق بالاستحقاق ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ لتبيين توحيده ﴿وَ﴾ كذا آمنا ﴿مَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ من الكتب على الرسل الماضين لإهداء طريق الحق ﴿وَ﴾ تعلمون أنتم أيضًا يقينًا ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾

[المائدة:59] خارجون عن الإيمان وجادة التوحيد، ولا تظهرونه؛ عنادًا ومكابرة، ويستهزئون مع أهل الحق تجاهلاً؛ حفظًا لكم ورئاستكم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا وإلزامًا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الدين الذي أنتم تنقمون منه؛ مكابرةً ﴿مَثُوبَةً﴾ عائدة، وجزاء مرتبًا عليه، ثابتًا ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ قبحه وديدنة ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ طرده عن قبوله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بأن أخرجه من رتبة خلافته ونيابته ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ المنعزلة عن إدراك الحق ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: الأهوية الباطلة، المضلة عن الهداية إلى طريق الحق ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المطرودون، المغضوبون، الممسوخون عن مقتضى الإنسانية ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلة ومكانة عند الله ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:60] الذي هو الاعتدال الإنساني، المنعكس عن الاعتدال الإلهي.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ
(٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)
لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)
وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
(٦٤)﴾ [المائدة:61-64].

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ مدعين المحبة لكم ولدينكم؛ مداهنةً ونفاقًا، حيث ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بنبيكم، وبما جاء به من عند ربه، لا تبالوا بهم وبإيمانهم، ولا تصاحبوا معهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَد دَّخَلُوا﴾ عليكم متلبسين ﴿بِالْكُفْرِ﴾ والإصرار ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ بل زادوا إصرارًا وعنادًا، وإن أظهروا خلافه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:61] من الكفر والنفاق، وبغض رسول الله والذين آمنوا معه.

﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من اليهود والنصارى ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ أي: الخصلة الذميمة عقلاً وشرعًا ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: التجاوز

عن الحدود الشرعية ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿أَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي: الحرام ﴿لَبِئْسَ﴾ أي: بئس شيئًا ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:62] ويكسبون لأنفسهم من الأمور التي تستجلب العذاب والنكال.

﴿لَوْلَا﴾ هلّا ﴿يَنْهَاهُمُ﴾ ويمنعهم ﴿الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ افتراءً على الله، وعلى كتابه ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ زاعمين إباحته ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:63] لبئس شيئًا يصنعونه لأنفسهم برأيهم الفاسد، وعقلهم القاصر الكاسد.

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله، ونهاية غفلتهم عن مقتضيات أوصافه ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة، يقتر بالرزق حين فقدوا البسطة والرخاء الذي كانوا فيه قبل تكذيبهم رسول الله ﷺ، قال سبحانه؛ دعاءً عليهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ عن جميع الخيرات والمبرّات بضرب الذلة والمسكنة عليهم في الدنيا، وفي الآخرة بالأغلال والسلاسل يسحبون بها إلى الجحيم.

﴿وَ﴾ أعظم منه أنهم ﴿لُعِنُوا﴾ طُردوا عن مرتبة الإنسانية ﴿بِمَا قَالُوا﴾ على ما قالوا على الله الجواد، الكريم ما لا يليق بجنابه ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ أي: أوصافه اللطفية والقهرية ﴿مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويتعلق إرادته لمن يشاء؛ لطفًا وجودًا، ويمنع عمّن يشاء قهرًا وعدلاً ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ حقدًا وحسدًا من ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ إنعامًا وإفضالاً لك ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا﴾ اجتراء وظلمًا على الله، لا يليق بجنابه ﴿وَكُفْرًا﴾ إصرارًا وتشددًا على ما هم عليه من الشرك والعناد.

﴿وَ﴾ بسبب طغيانهم وكفرهم ﴿أَلْقَيْنَا﴾ وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا يتفقون، ولا يوافقون أصلاً، بل ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ مع المسلمين وصمموا العزم نحوه ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ بإيقاع المخالفة والعداوة بينهم ﴿وَ﴾ بالجملة: هم ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ دائمًا، مستمرين ﴿فَسَادًا﴾ أي: لأجل الفساد، وإثارة الفتن ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:64] المعاندين منهم، المجترئين على الله وعلى رسوله؛ مكابرةً وعنادًا.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا

ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:60-67].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ بك وبكتابك ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عمّا اجترؤوا عليه في حق الله، وفي حقك ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ أي: محونا عن ديوان أعمالهم بالمرة ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي كانوا عليها ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة:65] متنزهات العلم والعين والحق، إن أخلصوا في إيمانهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: أهل الكتاب ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ وامتثلوا بأوامرها، وأظهروا ما فيها من الأحكام والعبر والتذكيرات، سيما بعث سيدنا محمد ﷺ ونعته ﴿وَ﴾ أقاموا أيضًا ﴿الإِنجِيلَ﴾ وعملوا بمقتضى ما فيه ﴿وَ﴾ كذا جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لوسع عليهم الرزق الصوري والمعنوي إلى حيث ﴿لأَكَلُوا﴾ الرزق ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ - ذكر الجهتين يغني عن الجهات كلها - لو كوشفوا بوحدة الله من جميع الجوانب والجهات، ولا يرون غير الله في مظاهره ومجاليه ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة، لا من أهل التفريط، ولا من أهل الإفراط، يرجى إيمانهم، وكشفهم ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:66] أي: ساء عملهم في الإفراط والتفريط عن جادة الاعتدال والتوحيد.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ المبعوث إلى كافة الخلق بالرسالة العامة، والدعوة إلى توحيد الذات ﴿بَلِّغْ﴾ وأوصل جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتبيين طريق توحيده الذاتي على جميع من كلف به ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ولم تبلغ؛ إمهالاً وخوفًا ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ التي كلفك سبحانه بتبليغها، وبالجملة: اعتصم بالله، وتوكل عليه في أدائها ﴿وَاللهُ﴾ المراقب لجميع أحوالك ﴿يَعْصِمُكَ﴾ ويحفظك ﴿مِنَ﴾ شرور ﴿النَّاسِ﴾[1] القاصدين مقتك ومساءتك يكفيك مؤنة شرورهم، ويكف عنك أذاهم بحوله وقوته ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:67] القاصدين مقتك، ولا يوصلهم إلى ما يريدون بك من المضرة والمساءة.

---

(1) أي: يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم؛ فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌ، أو يصون سِرّك عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم، ويقال: يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجودًا بين طرفي العَدَم [تفسير القشيري (148/2)].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المائدة:68-69].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أمر الدين والإيمان، والإطاعة والانقياد ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَ﴾ جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وتمتثلوا بأحكامها، وتتصفوا بما فيها من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم المرضية عند الله، وتتحققوا بحقائقها ومعارفها المودعة فيها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ حين سمعوا منك أمثال هذا، ناشئًا من ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأييدك ونصرك ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ من غاية غيظهم، وبغضهم معك، ومع من تبعك من المؤمنين ﴿فَلاَ تَأْسَ﴾ ولا تحزن ﴿عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [المائدة:68] الساترين طريق الحق بأهويتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة الفاسدة.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أسلموا، وانقادوا، وامتثلوا بأوامر كتابك واجتنبوا عن نواهيه، وآمنوا أيضًا بجميع الكتب والرسل، وجميع الأنبياء وذوي الأديان وغيرها؛ لتمكنهم في مقر التوحيد البحت، الخالص عن شوب الكثرة ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ من الممتثلين جميع ما أمر في التوراة، ونُهي عنه إلى أن وصلوا إلى مرتبة التوحيد، المسقط للاختلافات الصوري والمعنوي ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ الذين يتوسلون بالملائكة في عبادة الله، لا الصابئون الطبيعيون الذين هم يعبدون الكواكب من قصور نظرهم، وكثافة حجابهم ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين يعملون على مقتضى الإنجيل بلا فوت شيء من أوامره ونواهيه.

﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿بِاللهِ﴾ المتوحد بذاته، المستغني عن الأشباه والأنداد مطلقًا ووصل بمتابعة كتبه المنزلة، ورسله المبينين لكتبه إلى توحيده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعدّ للكشف والوصول ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ بطريق توحيده ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في سلوكهم ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:69] بعدما وصلوا؛ إذ كل ما جاء من عند الله إنما هو بمقتضى توحيده، مبيّن له، وإن كانت الطرق متعددة بتعدد الأوصاف والأسماء الإلهية لكن كل منها موصلة إليه سبحانه؛ إذ ليس وراء الله مرمى ومنتهى، لذلك قيل: التوحيد إسقاط الإضافات رأسًا حتى يتحقق الفناء فيه والبقاء به، بل لا فناء ولا بقاء في

مرتبة العماء أصلاً، حارت في ملكوتك عميقات مذاهب التفكر.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ
فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:70-72].

والله ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على لسان أنبيائهم ألَّا تشركوا بالله، ولا تخاصموا مع أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ بعدما أخذنا منهم الميثاق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ مبشرين ومنذرين تخاصموا، وصاروا من خبث بواطنهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ وبما لا ترضى به عقولهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ عندنا؛ مكابرةً وعنادًا ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:70] الأنبياء؛ ظلمًا وعتوًا.

﴿وَ﴾ هم من غاية عمههم وانهماكهم في الإعراض عن الحق ﴿حَسِبُوا﴾ وظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ وتدور عليهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ مصيبة وبلاء بواسطة التكذيب والقتل ﴿فَعَمُوا﴾ عن أمارات الدين، وعلامات اليقين ﴿وَصَمُّوا﴾ عن استماع دلائل التوحيد والعرفان ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبهوا تابوا مخلصين ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عفا عنهم وقَبِل توبتهم، ثم بعدما تابوا ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ كرةً أخرى؛ لخباثتهم الجبلية ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالاتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ خبير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:71] بمقتضى أهويتهم الباطلة يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ من غاية جهلهم بقدر الله وما يليق بجنابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الذرائر الكائنة شهادة وغيبًا ﴿هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: متحد به محصور عليه؛ إفراطًا وعلوًا ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ لهم حين سمع منهم ما قالوا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ التائهين بتيه الجهل والإفراط ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المنزه عن الحصر والحلول والاتحاد بل هو ﴿رَبِّي﴾ رباني بأنواع اللطف والكرم.

﴿وَرَبَّكُمْ﴾ أيضًا بإفاضة العقل الموصل إلى معرفة توحيده، لا فرق بيني وبينكم في العبودية والربوبية، لا تشركوا معه، ولا تحصروه في ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ المنزه عن الشريك مطلقًا غيره من مخلوقاته ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي منزل

السعداء الموحدين ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ المعدة للأشقياء الظالمين، المشركين ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المفترين على الله ما هو بريء عنه بذاته ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:72] ينصرونهم ويشفعون لهم عند أخذه سبحانه وبطشه.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 73 - 75].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ من عدم تحققهم بمقام التوحيد، وعدم تنبههم بمرتبة الفناء في الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنزه عن التعدد، بل عن العدد مطلقًا ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ واحد منها وأراد بالثلاثة هو ومريم وعيسى ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: في الوجود موجود ﴿إِلَّا إِلَٰهٌ﴾ موجود ﴿وَاحِدٌ﴾ محير للعقول والأبصار، ماح لظلال السوى والأغيار ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا﴾ هؤلاء الظَّلَمة ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من التثليث والتعدد في الألوهية ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: بقوا على كفرهم بلا إيمان إلى أن ماتوا عليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:73] لا عذاب أشد منه، وهو حرمانهم عن مرتبة التوحيد التي هي مرتبة الخلافة والنيابة، أتصرون على هذا الكفر والضلال؟

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يؤمنون له ﴿وَ﴾ لا ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عمّا صدر عنهم من الجرائم العظام؟ حتى تقبل توبتهم وإيمانهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المنزه في ذاته عن كفرهم وإيمانهم ﴿غَفُورٌ﴾ لهم إن أخلصوا في توبتهم وإيمانهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:74] لهم، يقبل توبتهم ولم يأخذهم على ما صدر عنهم بعدما تابوا.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من الرسل العظام ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ مثله، ولم ينسبهم أحد إلى ما نسبوه ﴿وَأُمُّهُ﴾ أيضًا ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ مقبولة عند الله، قد مضت مثلها كثيرة من الصادقات المقبولات، لم ينسبها أحد إلى ما نسبتموها وبالجملة: كيف ينسبونها إلى الألوهية ﴿كَانَا﴾ مركّبان ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ بدلاً لا يتحلل والإله منزة عن التركيب والتحليل، والأكل والشرب، والأبوة والأمومة وغيرها من أوصاف البشر ﴿انظُرْ﴾ أيها الناظر متعجبًا ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ونوضح ﴿لَهُمُ الْآيَاتِ﴾

الدلائل القاطعة، الدالة على عدم لياقتها بمرتبة الألوهية، مع أنه لا حاجة إلى الدليل أصلاً عند من له أدنى دربة ﴿ثُمَّ انظُرْ﴾ وازدد في تعجبك ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:75] يصرفون وجوه عقولهم عن طريق الحق وإسماع كلمة التوحيد.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: 76 - 79].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ وتؤمنون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المتفرد بالألوهية والوجود ﴿مَا﴾ أي: أظلالاً وتماثيل ﴿لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ ولا لأنفسهم ﴿ضَرًا وَلاَ نَفْعًا﴾ ولا وجودًا، ولا حياة، بل ما هي إلا تماثيل موهومة، وعكوس معدومة تنعكس من أشعة التجليات الإلهية، ليس لها في أنفسها أوصاف وآثار ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي في الآفاق بالاستحقاق ﴿هُو السَّمِيعُ﴾ في مظاهره لا غيره؛ إذ لا غير ﴿الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: 76] أيضًا فيها، فله الاستقلال في التصرف في ملكه وملكوته بلا مشاركة أحدٍ ومظاهرته.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ﴾ أي: النصارى ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ونبيكم ﴿غَيْرَ الحَقِّ﴾ افتراءً ومراءً، سيما بعد ظهور المبيّن، المؤيّد، المصدِّق ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ من أسلافكم ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾ عن طريق الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون على الضلال بل﴿أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من ضعفائهم وعوامهم ﴿وَ﴾ هم قوم ﴿ضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77] بلا هادٍ ومنبهٍ يهديهم إليه، وما لكم تضلون عنه مع وجود المنبه المؤيد من عند الله، الهادي بالهداية العامة إلى صراط مستقيم، موصلٍ إلى مقر التوحيد.

﴿لُعِنَ﴾ أي: طُرد، وحُرم، ورُدَّ من مقر العز ومرتبة النيابة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أيضًا ﴿ذَلِكَ﴾ الطرد واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ على الله بعدم امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:78] يتجاوزون عن مرتبة الإنسانية بالخروج عمّا حدَّ الله لهم، وبيّنه في كتابه إلى ما تهوى أنفسهم، وترضى عقولهم.

﴿كَانُوا﴾ من غاية غفلتهم وانهماكهم ﴿لاَ يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: لا ينهون أنفسهم ﴿عَن مُنكَرٍ﴾ مخالف للشرع ﴿فَعَلُوهُ﴾ بعد تنبههم بمخالفته، بل يصرون عليها؛ عنادًا واستكبارًا، والله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:79] لأنفسهم ذلك المنكر، والإصرار المستجلب للعذاب والنكال.

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) ﴾ [المائدة:80-82].

﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويودون، ويوالون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أشركوا بالله ويصاحبونهم، لذلك يسري شركهم وكفرهم عليهم، والله ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بسببه ﴿وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة:80] بشؤمه.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: هؤلاء المنافقون ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ المؤيّد من عنده، المبعوث إلى كافة الخلق ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من الفرقان الفارق بين الحق والباطل ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أحباء، أصدقاء ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:81] خارجون عمّا فيه صلاحهم، وسدادهم من الحكم والأحكام المنزلة في القرآن.

﴿لَتَجِدَنَّ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك وبكتابك ﴿اليَهُودَ﴾ الذين جبلوا على النفاق والشقاق، سيما معك، وممن تبعك ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله بإثبات الوجود لغيره؛ لبغضهم مع الموحدين الموفقين بتوحيد الله ووحدة ذاته، القاطعين عرق الشركة بالكلية ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ ومحبة ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا﴾ للمؤمنين من محض ودادهم وصميم فؤادهم بعدما تحققوا بحقية الدين المصطفوية، والشرعة المحمدية الموصلة إلى بحر التوحيد: ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾ ننصر دينكم ونقوي عضدكم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: بسبب ودادتكم ومحبتكم في قلوبهم ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ جمعًا

﴿قِسِّيسِينَ﴾ طالبين للعلم اللدني الذي هو ثمرة جميع الشرائع والأديان ﴿وَرُهْبَانًا﴾ متحققين بمرتبة العين، ومتصرفين بلا تفرج، متفرجين بلا تصرف في الأمور الدنيوية، منتظرين لظهور مرتبة الحق التي أنت تظهر به يا أكمل الرسل ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بعدما وجدوا في وجدانهم ما وجدوا ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:82] عن نصرك وودادتك أيها الجامع لجميع مراتب الحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة:83-86].

﴿وَ﴾ من غاية تشوقهم إلى مرتبة اليقين الحقي ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من الحكم والأحكام والتذكير، والرموز والإشارات، والعبر والأمثال، المنبئ كل منها عن مرتبة اليقين الحقي ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ من غاية تلذذهم، ونهاية تشوقهم بتلك المرتبة، وذلك التذلل والتشوق ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ بقدر وسعهم وطاقتهم ﴿مِنَ﴾ أمارات مرتبة ﴿الْحَقِّ﴾ فكيف إذا تحققوا بها، وتمكنوا في مقعد الصدق.

﴿يَقُولُونَ﴾ من غاية تحننهم وتشوقهم مناديًا، مناجيًا، قلقًا، حائرًا، خائفًا، حذرًا، راجيًا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ صدقنا، وتحققنا بمًا وهبت لنا من مرتبتي العلم والعين، وبعدما تحققنا بتوفيقك بهما ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ بلطفك ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:83] المتمكنين الذين حضروا وانقطع سيرهم، وحاروا إلى أن تاهوا أو فانوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

﴿وَ﴾ يقولون أيضًا من غاية تحسرهم وتعطشهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أيّ شيء عرض لنا ﴿لاَ نُؤْمِنُ﴾ نصدق ونوقن ونذعن ﴿بِاللَّهِ﴾ المتوحد، المتجلي في الأكوان، المستغني عن الدليل والبرهان ﴿وَ﴾ لا نتبع ونمتثل ﴿مَا جَاءَنَا مِنَ﴾ دلائل ﴿الْحَقِّ﴾ وبنيانه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿نَطْمَعُ﴾ ونرجو ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة:84] لتلك المرتبة.

وبعدما فزعوا إلى الله، وأخلصوا فيما أظهروا ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾ وأورثهم ﴿بِمَا قَالُوا﴾ راجيًا، مناجيًا، متمنيًا، متحسرًا ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف والحقائق من ألسنة أرباب الكشف واليقين؛ ليحيي بلدة ميتًا من المحجوبين المسجونين بسلاسل التقليدات، وأغلال الدلائل والتخمينات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، و﴿وَذَلِكَ﴾ الفوز العظيم، والفضل الكريم ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:85] الموصلين إلى مرتبة حق اليقين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة عليه، المبينة لطريقه ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء، المحبوسون في مضيق الإمكان ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة:86] لا نجاة لهم منها، ولا خلاص من غوائلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)﴾ [المائدة:87-89].

ثم لمّا بالغ النصارى في الإعراض والترهب عن حظوظ الدنيا ولذاتها إلى حيث يحرمون على أنفسهم ما أحلّ الله لهم، وأفرطوا فيه إلى حيث لم يبق مزاجهم على الاعتدال الذي جبلوا عليه، أراد سبحانه أن ينبه على المؤمنين طريقًا مستقيمًا، وسبيلاً واضحًا متوسطًا بين طرفي الإفراط والتفريط؛ لئلا يؤدي إلى تخريب المزاج وتحريفه؛ إذ للحق سبحانه في إيجاد الأمزجة صنائع عجيبة، وبدائع غريبة منتشئة عن محض الحكمة الجامع لجميع الأوصاف الذاتية الإلهية من العلم والقدرة والإرادة وغيرها.

فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدّقوا بدين الإسلام، وامتثلوا ما أمروا فيه ونهوا عنه، عليكم أن ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ عن حدود الله؛ ترهبًا وتزهدًا، مفضيًا إلى الرياء والسمعة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لعباده ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:87] المجاوزين عن مقتضى تدبيره وإصلاحه.

﴿وَ﴾ إذا سمعتم من الحق ما سمعتم ﴿كُلُوا﴾ من طيبات ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً﴾ غير مسرفين في أكلها ﴿طَيِّبًا﴾ من كدِّ يمينكم، وعرق جبينكم مقدار ما يقوم مزاجكم ويقويكم على إقامة أمر الله وأحكامه ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:88]

موقنون، مخلصون عن مجاوزة حدوده وارتكاب محظوراته، واحذروا عن بطشه وانتقامه واعلموا أن خير قوتكم في دنياكم تقواكم ورضاكم، لذلك أوصاكم سبحانه.

ومن جملة الأمور التي تجب محافظتها عليكم في معاشكم؛ لتكونوا مع المتقين المبرورين عند الله ألّا تجترئوا على اليمين والحلف بالله في الوقائع والعقود، سيما على وجه الكذب قصدًا واختيارًا حتى لا تنحطوا عن مرتبة العدالة الفطرية، ولا تلحقوا بالأخسرين ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:104] إلا أن تصدر عنكم هفوة بغتة بلا قصد على ما هو المتعارف عند العرب في أثناء أكثر الكلام: «لا والله» بلا إغراء وتمويه، فإنه معفوٌ عنكم.

كما قال سبحانه: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ﴾ المجازي عن أعمالكم ﴿بِاللَّغْوِ﴾ الصادر منكم ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بلا قصد وتغرير ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ويعذبكم ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ أي: بالعقود التي وثقتموها بالأيمان، وحنثتم فيها، فعليكم بعدما حنثتم أن تجبروها بالكفارة ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ المسقط نكاله ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي: كساوتهم على هذا الوجه ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ على تفاوت رتبكم ودرجاتكم عسرًا أو يسرًا.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئًا منها ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متوالية؛ زجرًا للنفس، وجبرًا لما انكسر من المروءة الفطرية ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ جازمين حقيته وحنثتم، وأمّا إذا حلفتم كذبًا وزورًا - والعياذ بالله - فنكاله لا يسقط عنكم إلا بخلاص التوبة والندامة المؤكدة ﴿وَاحْفَظُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ التي حلفتم بها في مواقعها عن شوب الكذب والشك، بل عن شوب الظن أيضًا إن أردتم أن تبروا فيها، وتقسطوا عند الله، ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي وعظتم به ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:89] رجاء أن تتحققوا في مقام الشكر، تصرفوا ما وهب لكم من العطايا إلى ما اقتضته حكمته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:90-92].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم محافظة حدود الله الموضوعة فيكم

لإصلاحكم أمرًا ونهيًا، كراهةً وندبًا، حلاً وحرمة ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ أي: مطلق ما يترتب عليه السكر وإزالة العقل من أي شيء أخذتم ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار مع أي شيء لعبتم ﴿وَالأَنصَابُ﴾ أي: الأصنام الموضوعة؛ لتضليل العباد ﴿وَالأَزْلاَمُ﴾ الموضوعة للاستعلام مما استأثر الله به من غيبه، كلٌ منها ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قذر ونجس بلا واسطة أو واسطة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: جانبوا، وأبعدوا أنفسكم عن كل منها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90] رجاء أن تفوزوا بما يرضى به الله عنكم.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ المضل ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ إلى حيث يفضي إلى المقاتلة والمشاجرة ﴿وَ﴾ يريد أن ﴿يَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ﴾ وخصوصًا ﴿وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾ التي هي معراج المؤمن نحو الحق ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:91] أيها المؤمنون، أم مهلكون بارتكابها؛ إذ لا واسطة فيهما ولا عذر.

﴿وَأَطِيعُوا اللّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المبيّن لكم أمر الله ونهيه ﴿وَاحْذَرُوا﴾ عمّا حذركم الله ورسوله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم بعد وضوح البرهان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:92] الظاهر الواضح، وعلينا الحساب والأخذ، والانتقام والعذاب والنكال.

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة: 93 - 94].

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة ﴿جُنَاحٌ﴾ حرج وضيق وتعب ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ من المحرمات المذكورة قبل ورود تحريمها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ بعد ورودها عن غضب الله ﴿وَآمَنُوا﴾ صدقوا تحريمها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرخصة بمقتضاها بلا إخلال ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ عن رخصها ﴿وَآمَنُوا﴾ أي: أخلصوا بعزائمها ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ عن عزائمها طالبين رضا الله ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ في هذه التقوى، وتعبدوا الله كأنهم يرونه ﴿وَاللّهُ﴾ المحسن، المفضل لعباده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:93] منهم، الطالبين رضاه، المتشوقين لقاءه.

ومن أجَلِّ الأمور المحرمة عليكم في دينكم: الاصطياد حال كونكم محرمين للحج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ ويختبرنكم ﴿اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ حقير ﴿مِّنَ الصَّيْدِ﴾ حال كونكم محرمين يغشاكم بحيث ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ من غاية قربه، هل ما تأخذونه وتشوشونه، أم تحفظون أمر التحريم، وتراعون حقه، وما ذلك إلا ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: يميز ويفصل ﴿مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من انتقامه في يوم الجزاء عمَّن لا يخاف، ولا يبال بأمره وشأنه ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ وتجاوز ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعدما سمع من الحق ما سمع ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:94] وعقاب عظيم باعتدائه واجترائه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة:90-96].

ثم أردفه سبحانه بما يدل على جبره بعد انكساره؛ رفعًا للحرج عن عباده، مصرحًا بتحريمه ونهيه أولاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ محرمين للحج ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم﴾ في أوقات إحرامه ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ قاصدًا ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي: لزمه؛ جبرًا لما انكسر، ذبح مثلما قتل من النعم في النفع والفائدة؛ لسد جوعة الفقراء والمساكين ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بمماثلته ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ حال كون ذلك المجازي ناويًا ﴿هَدْيًا﴾ يذبح لله ولرضاه ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: عندها ويتصدق بها للفقراء والمساكين.

﴿أَوْ﴾ لزم عليه ﴿كَفَّارَةٌ﴾ وهي ﴿طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أي: يشتري بثمن ذلك المثل الذي يحكم به ذوا عدل طعامًا ويتصدق به للفقراء، يعطي كل واحد منهم مدًا من الطعام ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو لزمه صيام مدة مساوية لعدد الفقراء إذا أطعم بثمنها عليهم سر كل تلك التكاليف الشاقة ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: ثقله وشدته وفظاعته، ووخامة عاقبته؛ إذ هو إبطال لصنع الحق حين حماهُ الحقُّ، ونهى عن التعرض.

وعليكم أن تحافظوا على النهي بعد الورود، ولا تخافوا عمّا قبله؛ إذ ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: محا عن الديوان، وأسقط عن الحساب ما اكتسبتم من الجرائم حين كونكم تائهين في بيداء الغفلة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ عليها بعدما نبه وتنبه ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ويؤاخذه عليه ويحاسبه عنه، ويجازيه على مقتضى حسابه ﴿وَ﴾ لا تغتروا بحلمه

وإمهاله ومجاملته؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المستغني في ذاته عن جميع الشؤون والنشأة ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب، غيور، متكبر، قهور ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة:95] عظيم، وبطش شديد على من تخلَّف عن حكمه، وأصرَّ عليه.

نعوذ بفضلك من عذابك يا ذا القوة المتين.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾[1] مائي المولد مطلقًا إلا ما تستكرهه طباعكم ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أكله ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ يمتعون بها مجانًا ﴿وَ﴾ كذا ﴿لِلسَّيَّارَةِ﴾ للتجارة والزيارة وغيرها تتزودون منها ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: من أول مدة إحرامكم إلى أول الحل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:96] وتساقون أيها المؤمنون.

وعليكم الحذر والاتقاء عن التعرض بمصنوعاته بقهر وغلبة في جميع حالاتكم سيما عند لبس الإحرام الذي هو كفن الفناء المعنوي، والموت الحقيقي عند أولي الألباب الناظرين إلى لب الأحكام وزبدته.

وكما أنَّ في الموت الصوري لا يبقى للقوى والأوصاف الظاهرة آثار وأفعال، بل تعطلت، وانمحت، وتلاشت بحيث لا يتوقع منها ذلك أصلاً، كذلك في الموت الإرادي الذي هو عبارة عن حج العارف لا بد من إحرامه، وتعطيله أعضاءه وجوارحه عن مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الحيوانية، وعن جميع التعينات الجسمانية والروحانية، والغيبية والشهادية، والظاهرية والباطنية، وبالجملة: عن جميع الإضافات والكثرات الحاجبة لصرافة الوحدة الذاتية، المستهلكة عنها جميع ما يتوهم من الأظلال والعكوس.

لذلك صار الموت الإرادي أشدُّ في الانمحاء، وأغرقُ في الفناء من الموت

---

(1) قوله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمراد بالبحر جميع المياه، قال عمر ﷺ: «صيده ما اصطيد وطعامه ما رمي به» وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتًا، وقال قوم: هو المالح منه وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي، وقال مجاهد: صيده: طريه، وطعامه: مالحه، متاعا لكم أي: منفعة لكم، وللسيارة يعني: المارة، وجملة حيوانات الماء على قسمين: سمك وغيره. أما السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها قال النبي ﷺ: أحلت لنا ميتتان ودمان» الميتتان: الحوت والجراد، والدمان: الكبد والطحال، ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، وعند أبي حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب من وقوع على حجر أو انحسار الماء عنه ونحو ذلك. [تفسير البغوي (100/3)].

الصوري؛ إذ ينتهي الأمر في الموت الإرادي إلى العدم والصرف والفناء المطلق الذي ما شمَّ رائحة الوجود أصلاً، فكيف تخلل الموت والحياة، والوجود والعدم، وتاهت في بيداء ألوهية أنظار العقل وآرائه؟.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ
ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾
ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة:97-100]

إنما ﴿جَعَلَ﴾ وصيَّر ﴿اللَّهُ﴾ المستغني بذاته عن الأمكنة والحلول فيها مطلقًا ﴿الْكَعْبَةَ﴾ الكعبة المعينة في أرض الحجاز ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: المكان الذي يحرم فيه أكثر ما يحل في غيرها من الأمكنة، بل جميعها عند العارف؛ ليكون ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾[1] يقومون بها ويتيقظون بأركانها ومناسكها، وآدابها ومشاعرها عن منام الغفلة ورقود النسيان ﴿وَ﴾كذا صيَّر ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ ميقاتًا لزيارتها وطوافها؛ ليقوموا فيها بتهيئة أسباب الفناء، وتخلية الضمير عن الميل إلى الغير والسّوى.

﴿وَ﴾ صيَّر سبحانه أيضًا ﴿الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ جبرًا لما انكسر من رعاية نسكه، وأراد به؛ لئلا يتقاعدوا عن إتمامها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جعلها وتصييرها مرجعًا لقاطبة الأنام، وقبلة لهم بحيث يجب عليهم التوجه نحوه من كل مرمى سحيق، وفج عميق، إنما هو ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المحيط بذرائر الأكوان ﴿يَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري جميع ﴿مَا فِي

(1) ألبس الله الكعبة سناء قدس آياته ونورها بصبح مشارق صفاته من مطالع ذاته، وصيرها مرآة حسنه وجماله لنظر نظار معارفه، وأبصار عشاق كواشف رداء عظمته وكبريائه؛ لقيامهم على مشاهد قربه ومواقف قدسه، ليطلبوا منها رؤية براهين هلال صفته ومشارق صنع جلال قدمه، وحرّم تلك المنازل على الأغيار دون الأخيار، ومنع الأخيار عن الدخول فيها مع بقاء نفوسيتهم؛ ليعلموا أنها ممنوعةٌ من تناول الكل لهم، ليعرفوا عين القدم أنه منزّهٌ عن خطرة كل حادث، جعل الكعبة بيته، وجعل بيته قلب العالم، ويظهر بجلاله منه لعيون العارفين، كما ظهر لموسى (عليه السلام) من طور سيناء، وظهر لعيسى (عليه السلام) من طور المصيصة، وظهر لمحمد ﷺ وأمته من الكعبة، كقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»، هكذا جعل قلب العارف كعبة مشاهدته في حرم صورته، وسد بابه عن كل طارق غير نظره، فيظهر آثار جلاله من صورهم. قال الشبلي: الكعبة أمام أعين الناس، والحق أمام قلوب أوليائه. [عرائس البيان].

﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات والأعيان الثابتة ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ السفليات التي هي الهويات الباطلة ﴿وَ﴾ ليعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المنزه، المتعالي عن أن يحاط بمجلاه وتجلياته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما استأثر باطلاعه، وما يعلم جنوده إلا هو ﴿عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 97] لا يعزب عن علمه وحضوره شيء، كلّت الألسن عن تفسير صفتك، وانحسرت العقول عن كنه معرفتك، فكيف يعرف كنه صفتك يا رب؟.

وبالجملة: ﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المتوجهون نحو الحق وزيارة بيته ﴿أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا تغتروا بإمهاله له بمقتضى لطفه وجماله، بل احذروا، وخافوا عن سطوة سلطنة قهره وجلاله ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ ستار لذنوب عباده المخلصين ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:98] لهم، يرحمهم بمقتضى جماله ونواله، يعني عليكم أن تكونوا مقتصدين، معتدلين بين طرفي الخوف والرجاء؛ لتكونوا من زمرة عباده الشاكرين.

فإن جادلوا معك يا أكمل الرسل، أهل البدع والأهواء الفاسدة في هذه الإلهامات والاختبارات الإلهية المترشحة من بحر الحكمة، قل لهم نيابة عنا: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ الهادي بإذن الحق ﴿إِلَّا الْبَلاغُ﴾ أي: بلاغ ما أهدي به والقبول من الله، والتوفيق من عنده ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون، وتعلنون من الإيمان والإطاعة ﴿وَمَا﴾ كنتم ﴿تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:99] من الكفر والبدعة.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ عند الله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أيها المتعجب ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ إذ لا عبرة للقلة والكثرة بالجودة والرداءة في الأعمال ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ حق تقاته ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ الناظرين بلب الأمور ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:100] تفوزون من عنده فوزًا عظيمًا، بعدما تجوّدون أعمالكم بالإخلاص والتقوى.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ
يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ
أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ
وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ (104) ﴾ [المائدة:101-104].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَسْأَلُوا﴾ ولا تقترحوا من رسولكم ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قبل ورود الوحي ﴿إِن تُبْدَ﴾ وتظهر ﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وتغمكم، وتورث فيكم حزنًا ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ بلا سوء وحزن ﴿عَفَا اللهُ﴾ عمّا سلف ﴿عَنْهَا﴾ فعليكم أن تحافظوا عليها بعد ورود النهي ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لهم ما سبق من ذنوبهم قبل ورود الزواجر ﴿حَلِيمٌ﴾ [المائدة:101] لا يعجل بالعقوبة إلى أن يبوؤوا.

واعلموا أنه ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ عنها ﴿قَوْمٌ﴾ مثلكم ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من أنبيائهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر ما اقترحوا ﴿أَصْبَحُوا﴾ صاروا ﴿بِهَا﴾ بسبب ظهورها ﴿كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 102] بعدم امتثالهم وانقيادهم بما ظهر.

﴿مَا جَعَلَ اللهُ﴾ أي: ما وضع، وشرع لكم في دينكم ما في الجاهلية ﴿مِن بَحِيرَةٍ﴾ وهو أنهم كانوا إذا أنتجت ناقتهم خمسة أبطن خامسها ذكر بحروا أذنها؛ أي: شقُّوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحمل ولا تحلب أبدًا، فسموها بحيرة ﴿وَلاَ سَائِبَةٍ﴾ وهي أنهم قالوا: إذا شفيتُ فناقتي سائبة؛ أي: ممنوعة من الانتفاع كالبحيرة ﴿وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾ وهي أنهم إذا ولدت شاتهم أنثى كان لهم، وإذا ولدت ذكرًا كان لآلهتهم، وإذا ولدت ذكرًا وأنثى في بطن واحد يتبعون الأنثى بالذكور، ويتقربون بها، وسموها وصيلة.

﴿وَلاَ حَامٍ﴾ وهي أنهم إذا أنتجت من صلب فحل عشرة أبطن، حرم انتفاعه بالكلية، ولم يمنعوها من الماء والكلأ والمرعى، وقالوا: قد حمى ظهره، ويسمونها حام ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا عن الإيمان والإطاعة ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ أي: يستوي أمثال هذه المزخرفات الباطلة على الله؛ افتراءً ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103] الله، ولا يعلمون حق قدره ومقتضى حكمته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَى﴾ امتثال ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ المصلح لحالاتكم ﴿وَإِلَى﴾ متابعة ﴿الرَّسُولِ﴾ الهادي لكم عمّا فيكم من الضلال ﴿قَالُوا﴾ من غاية انهماكهم في الغفلة: ﴿حَسْبُنَا﴾ وكافينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا، قل لهم ﴿أَ﴾ تقلدونهم، وتقتفون أثرهم ﴿وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أنفسهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:104] طريقًا مستقيمًا بإهداء الهادي، وإرشاد المرشد مع كونكم عقلاء من أهل التمييز والاختيار، فالعار كل العار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا
حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ
ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ
ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) ﴾
[المائدة:100-106].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ﴾ أن تحفظوا ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ وتلازموها على الطاعات وتداوموها على التوجه نحو الحق في جميع الحالات، وما لكم إلا حفظ نفوسكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ ضلالة ﴿مَنْ ضَلَّ﴾ عن طريق الحق ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إليه، واعلموا أيها المؤمنون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المبدئ، المعيد ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وهم ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:105] في دينكم من شر وخير، ومعصية وطاعة، ويجازيكم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من جملة الأمور التي يجب عليكم محافظتها: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أي: إشهادكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أن يُشهدوا ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: من أقاربكم وعشائركم ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من جانب المسلمين وأهل الذمة ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متباعدين عن الأقارب والعشائر ﴿فَأَصَابَتْكُمْ﴾ فيها ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: الآخران من الأجانب، وتقفونهما ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ عند الجماعة.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ على رءوس الأشهاد ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أيها الوارثون في شهادتهما، بأنا ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ ولا نرتشي بشهادتنا ﴿بِهِ ثَمَنًا﴾ ولا نشهد بالزور ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿لَوْ كَانَ﴾ المقسم له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ صاحب قرابة ﴿وَ﴾ بأنا ﴿لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أودعناها، بل نؤديها على وجهها بلا تحريف ولا كتمان، وإن كتمناها وحرفناها؛ ظلمًا وزورًا ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة:106] المكتسبين لأنفسنا إثمًا عظيمًا.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ
عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة:107-109].

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي: أشعر واطلع ﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدان ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بواسطة تحريفهما وكتمانها ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: من الورثة وهما ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ الأحقان بالتحليف من الشاهدين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وتجاوزونا في هذه الشهادة عن الحق، وإن اعتدينا ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:107] الخارجين عن الاعتدال الإلهي الذي وضعه الحق بين عباده.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحليف والتغليظ ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب إلى الاحتياط ﴿أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ ويؤدوها ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أي: على وجه تحملونها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ على المدعين ﴿بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الكاذبة، فيفتضحوا بظهور الخيانة على رءوس الملأ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها الشهود عن الكتمان والتحريف ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما يقول المحتضر وأدوه على وجهه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى توحيده ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:108] الخارجين عن مقتضى أوامره ومنهياته، واذكروا، وتذكروا خطاب الله وعتابه لرسله من أجلكم.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم على وجه التوبيخ: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: بأي شيء أجبتم لهؤلاء العصاة المتجاوزين عن الحد؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بحالهم، ولا عذر لنا نعتذر عنهم ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وأوصافك ﴿أَنتَ﴾ بخصوصيتك؛ إذ لا غير معك ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:109] التي غابت عن عقولنا وأبصارنا وأسماعنا، فلك الحكم والأمر، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١١٠﴾ [المائدة:110].

اذكر وقت ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ امتنانًا عليه ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ

﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ وأقم شكرها ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك، وخصصتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: بالنفس القدسية اللاهوتية المطهرة عن شوب القوى الناسوتية، لذلك ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ على السوية؛ أي: جعلت لك جميع كمالاتك بالفعل، في جميع أوقات وجودك بلا تفاوت بين طفوليتك وكهوليتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: التدبيرات المتعلقة لظواهر الشرع ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ المتعلقة لبواطنها ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ الجامع بينهما ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ الغالب فيه ما يتعلق بالباطن.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تصور وتقدر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: بأمري وتعليمي ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ من روحي التي أيدتك به ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وتبصر ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ المكفوف العين ﴿وَ﴾ تشفي ﴿الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ ومنعت شر ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ وقت ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من حيث باطنهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:110] (1) وما هو إلا ساحر عليم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة:111-114].

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ وألهمت ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى بن مريم ﴿قَالُوا﴾ عن صميم فؤادهم: ﴿آمَنَّا﴾ بك وبرسولك ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا ربنا ﴿بِأَنَّنَا

(1) قال بعضهم: قدست روحك أن تمازج شيئًا من هيكلك وطبعك، بل ظهرته لئلا ترى غيري، ولا تشاهد سواي، وأسكنته قالب جرمك سكون عارية كإسكان آدم ﷺ الجنة، لأطهّر به جسدك عن أدناس الكون حتى أقدسهما جميعًا وأخرجها إلى محل القدس، ومن تمام نعمة الله عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على مثابة بالقوة الإلهية بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله وربوبيته، وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه في كهولته حتى عرف عباد الله تنزيه الله، وقدس صفات الله، وحسن جلال الله.

مُسْلِمُونَ﴾[1] [المائدة:111] منقادون بدينك ونبيك، نستودعك هذه الشهادة إلى وقت الحاجة. اذكر ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ لك حين أرادوا الترقي من مرتبة العلم إلى العين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أضافوه إليه؛ لتحققه في مرتبة العلم والحق ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ رزقًا معنويًا حقيقيًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾[2] أي: من جانب العلو الذي

---

(1) وحي الله إلى المرسلين يكون خاصًا ويكون عامًا، الخاص بغير واسطة، والعام بواسطة جبريل عليه السلام، وللوحي الخاص مراتب: وحي بالفعل، ووحي بالصفة، ووحي بالذات، ووحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء، وهناك محل الفناء، ووحي الصفات يكون في مقام المعرفة عند تجلي الجلال، وهناك محل البقاء، ووحي الفعل يكون في مقام العشق والمحبة، وهناك منازل الأنس والانبساط، وهاهنا للأنبياء والأولياء نصيبٌ، وليس لهم في الوحي برسالة الملك نصيبٌ، وحي منزل التوحيد بالكلام، ووحي منزل المعرفة الحديث، ووحي منزل العشق الإلهام، ومقام الإلهام منقسمٌ على الإلهام الذاتي والصفاتي والفعلي، وربما يكون الإلهام الفعلي بواسطة الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة، وربما يرد على السمع قرع هواتف الغيب ظاهرًا، وربما يكون بلسان الخلق حركات الأكوان، ولا يعرف هذه المقامات إلا ذو منصبٍ في معرفة الخواطر وحقائق علومها، وهاهنا وحي الصفاتي الذي يتولد منه الإيمان والمعرفة، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي﴾ أي: اعرفوني وصدقوني فيما كشفت لكم من أنوار الغيب في قلوبكم وبرسولي فيما أرسلت إليه من أنباء الغيب وبيان شرائط الشرع في نعوت العبودية، قوله: ﴿آمِنُوا بِي﴾ مقام الجمع، و﴿وَبِرَسُولِي﴾ مقام التفرقة.

(2) قال سيدي روزبهان: تفحص القوم مكانتهم من عند الله سبحانه بتأييد الظاهر ومشاهدة المعجزة جهرًا؛ لأنهم موقنون مشاهدون بالقلوب والأرواح والأسرار حقائق الغيب، ورأوا منازلهم في محل القرب والخطاب عند كشف رؤية الحق لإبصار قلوبهم، لكن القوم ليسوا بمتمكنين في شهود الغيب، تجري عليهم أحكام أهل التلوين من معارضة النفس والعدو في رؤية الغيب، وطلبوا آيات الله لدفع المعارضة وطمأنينة القلوب. ألا ترى إلى الخليل في بداية أمره كيف قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:260]، فأجابه الله قال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260]، فأحوجه إلى رؤية القدرة في الفعل بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة:260]، وليس في الوصفين شكٌّ من جانب النبوة ومن جانب الولاية، فلمّا سمع عيسى عليه السلام منهم اشتد عليه أمرهم وعجب منهم ذلك بعد إيقانهم، وأجابهم بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: خافوا الله فيما يجري عليكم من معارضة النفس، أي: الزموا اشتغالكم بدفع الخطرات؛ كي لا تحتجبوا عنه بغيره، وإن من وصل إليه بنعت المعرفة ورؤية الغيب لا يستحسن منه طلب الآيات لتصديق الباطن، فإنه صفة أهل البداية، فأظهر القوم

هو مرتبة العين والحق، فلمَّا سمع منهم ما سمع آيس منهم، وأفظع أمرهم، وأوجس في نفسه خيفة من الله الغيور؛ لأنهم ليسوا في تلك الحالة مستعدين الكشف والشهود، لذلك ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن أمثال هذه الأسئلة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:112] موقنين بكمال قدرته وإرادته واختياره، واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته.

﴿قَالُوا﴾ معتذرين، ملتجئين: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ﴾ نذوق ونستفيد ﴿مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وتتمكن أقدامنا في جادة التوحيد ﴿وَنَعْلَمَ﴾ يقينًا عينيًا ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في جميع ما أرشدتنا وأهديتنا ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:113] أي: من أهل الشهود والكشف بلا حجاب العلم.

فلمَّا أحس عيسى ابتلاء الله، وفتنته إياهم بادر إلى المناجاة، حيث ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ فرحًا وسرورًا ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ متقدمينا ﴿وَآخِرِنَا﴾ متأخرينا ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ تنكشف بها بتوحيدك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ من لدنك حظًا يخلصنا من ظلام أظلالنا، وغيوم هوياتنا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:114] على من سبقت غايته له.

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة:110-116].

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ المطلع لاستعداداتكم ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وإن لم تكونوا قابلين لها

عجزهم عن إدراك مقامات أهل التمكين بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: نريد أن تربِّي أبداننا بمأكول الجنة، كما تربِّي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ويزيد في قلوبنا تصديقك ومحبتك حتى لا تبقى فينا معارضة الطبيعة، ونكون من شهداء رؤية المعجزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأولياؤه، وإذا حصل مرادنا تحصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله وصدقك وصدق ولايتنا، فسأل ﷺ مرادهم بقوله تعالى: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ سأل من السماء لا من الأرض لمَا فيها من الروحانية والحنانية والملكوتية غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولد منه عصيان الله. وأيضًا: يسأل من السماء خصوصية في المعجزات.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي: بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّي﴾ بعزتي وجلالي وقوتي ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ﴾ أي: لا أعذب مثله ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:115] فكفروا بعد ذلك فمُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ورُدوا إلى مرتبة الحيوانات وأخبثها، العياذ بالله من غضب الله.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ حين فشا غلو النصارى في حق عيسى وأمه، ونسبتهما إلى الألوهية، وقولهم بالتثليث والأقانيم والحلول والاتحاد: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ واعبدوني مثل عبادته، أم اتخذوك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالَ﴾ عيسى منزهًا لله، مبعدًا نفسه إليها عن أمثاله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك تنزيهًا عن أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما يصح ويليق ﴿لِي أَنْ أَقُولَ مَا﴾ أي: قولاً ﴿لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لائق جائز أن أقوله، سيما بعد لطفك إلي، وفضلك وامتنانك علي ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إذ ﴿تَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري ﴿مَا فِي نَفْسِي وَ﴾ أنا ﴿لاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وذاتك وشأنك وسلطانك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:116].

وإنما خاطبه سبحانه، وعاتبه بما عاتبه مع أن الأمر معلوم عنده؛ ليوبخ، ويقرع على الغالين المتخذين؛ لعلهم ينتهون بسوء صنيعهم، وقبح معاملتهم مع الله المتوحد، المتفرد المنزه بذاته عن الأهل والولد، الصمد المقدس الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4،3].

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:117-120].

ثم بسط عيسى الكلام مع ربه؛ تشفيًا، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ قولاً ﴿إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي: بتبليغه وإيصاله إليهم، وهو ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الذي هو ﴿رَبِّي﴾ أوجدني من العدم، ورباني بأنواع اللطف والكرم ﴿وَرَبَّكُمْ﴾ أيضًا أوجدكم من العدم مثلي، ورباكم، فتكون نسبة إيجاده وتربيته علي وعليكم على السواء، ما ترى من تفاوت في خلقه ﴿وَكُنتُ﴾ بأمرك وإرسالك ووحيك ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أحفظهم بتوفيقك عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ ورفعتني

بجودك إلى ما رفعتني ﴿كُنتَ﴾ بذاتك وأسمائك وأوصافك ﴿أَنتَ الرَّقِيبَ﴾ المحافظ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ المولي لأمورهم، تضلهم وتهديهم، ترشدهم وتغويهم ﴿وَأَنتَ﴾ المنزه بذاتك عن جميع الأكوان ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمور الكائنة ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة:117] حاضر غير مغيب.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ عدلاً ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فلك أن تتصرف فيهم على أي وجه تتعلق إرادتك ومشيئتك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فضلاً وطولاً ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:118] [1] المتقن في إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، ومنعه عنه بلا مشاركة ولا مظاهرة. فلمّا بثّ وبسط عيسى مع الله الكلام، وبالغ في التفويض والرجوع إليه في جميع الأمور، خصوصًا أمر قومه ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ سبحانه: يا

---

(1) اتفق أهل التفسير أن الله لا يغفر للمشركين الذين ماتوا على شركهم، ذلك مذهب المسلمين جميعًا، وقد أرى هاهنا لطيفةً، وهي أن الله تعالى أجرى على لسان عيسى ﷺ سرًا مكتومًا مبهمًا على قلوب جميع الخلائق، إلا مَنْ كان مِنْ أهل خالصة سرّه، ومحال أن خفيَ على عيسى ﷺ أن مَنْ مات على الشرك وهو غير مغفور في ظاهر العلم ووارد الشرع وإنما نطق بذلك من عالم السر المكتوم في الغيب، ومفهوم أصل خطاب في ذلك كأنه أشار إلى ما أشار ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 18]، قالا: يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم تجدد خلقهم، قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمانٌ تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا، قال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعها خرابًا، ألا ترى صورة اللفظ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فهو حقٌّ لإطلاق الملك لك، وإن تغفر لهم ما هم فيه في الدنيا اليوم مَنْ يمنعك عن ذلك وأنت العزيز الواحد بالوحدانية في مُلكك لست بجاهل في غفرانهم، فإنك حكيمٌ في أمرك ومرادك وإمضاء مشيئتك، ونحن لا نقول أكثر من هذا، فإنه موضع الأسرار، وأيضًا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بدعوى المعرفة بأن توقعهم في درك الحيرة والفناء في عظمتك، و﴿وَإِن تَغْفِرْ﴾ بأن تدخلهم في مقام الالتباس حتى لا يدركوك بنعوت الوحدانية، ويقوا في حجاب حظوظهم عنك بك، قال الوراق: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتقصيرهم في طاعتك، فإنهم عبادك مقرّين لك بالتقصير، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم فأنت أهل العزّة والكرم، فلَمْ يبدلها إلا لمَنْ خلقه لها ومَنْ هو حق بها وأهلها، قال بعضهم: ترك عيسى ﷺ الانبساط في السؤال للأمة، وترك المحاكمة مع الحق في أفعاله ونبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يزال يشفع ويقول: أمتي ... أمتي!! حتى يجاب في الكل من أمته، وهذا هو المقام المحمود الذي خُصّ به، ويغبطه عليه الأولون والآخرون، حيث يراجع الحق منبسطًا ويجاب بقوله: «قل تسمعْ واشفعْ تشفّعْ».

عيسى ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ لا يكتسب فيه الخير، ولا يستجلب النفع، ولا يدفع الضر، بل ﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ الذين صدقوا في النشأة الأولى ﴿صِدْقُهُمْ﴾ السابق ﴿لَهُمْ﴾ في هذه النشأة لهؤلاء الصادقين إلى ﴿جَنَّاتٌ﴾ متنزهات المعارف والحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مملوءة بمياه المكاشفات والمشاهدات المثمرة للحياة الأبدية والبقاء السرمدي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتحققهم بمقام الصدق والإخلاص ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لإيصالهم إلى غاية ما جبلوا عليه لأجله بلا منتظر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصول والتحقق هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة:119] والفضل العميم، واللطف الجسيم لأهل العناية الفائزين من عنده بهذه المرتبة العلية.

ولا يستبعد من الله أمثال هذه الكرامات مع أرباب الولاء الباذلين مهجهم في سلوك طريق الفناء؛ إذ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إظهارًا وتصرفًا واستقلالاً ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المكونات، فله التصرف فيها كيف يشاء حسب إرادته واختياره ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عموم مراداته ومقدوراته ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:120] فله أن يوصل خلّص عباده إلى فضاء فنائه بإفنائهم عن هوياتهم الباطلة، وإبقائهم بهويته الحقيقية السارية، الظاهرة في الأكوان.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه لمرتبة الفناء المثمر للبقاء الأبدي شكران سعيك وأوصلك إلى غاية مبتغاك أن تجعل قرينك الرضا في جميع ما جرى عليك من القضاء؛ إذ كل ما يجري في عالم الأكوان والفساد إنما هو على مراد الله، ومقتضى مشيئته حسب تجلياته الجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية، والعارف إذا تحقق بمقام الرضا الذي هو نهاية مراتب العبودية فقد خلص عن الإضافات مطلقًا، ومتى ارتفعت الإضافات لا يشوشه السراء والضراء، ولا اللذة ولا الفناء؛ إذ كل ذلك من لوازم الإمكان وأمارات البعد.

فعليك أن تصفي نفسك عن جميع الأمراض الباطنة من العُجب والرياء والرعونة والهوى، وتلازم العزلة والإعراض عن أبناء الدنيا، والالتجاء إليهم والمخالطة معهم وتقلل عن حوائجك وحظوظك سوى سدِّ جوعة وكنّ ولباس كيف اتفق، وعليك أن تروض نفسك في زاوية الخمول، وكن القناعة، ومنزل الفراغة.

وإياك أن تصاحب مع أهل الأهواء وتراجعهم، سيما في الأمور التي تتعلق بالمعاش المستعار، وكن في ورطة الدنيا كأنك غريب ليس لك ألف ومؤانسة مع من فيها وما فيها أو كعابر سبيل يروح فيها ويغدو بلا تمكن وقرار.

وبالجملة: عدّ نفسك من أصحاب القبور، وافعل مثل ما تشاهد منهم بالنسبة إلى الدنيا، بل موتك الإرادي لا بد أن يكون أعرق في قطع التعلق، وترك المألوف من الموت الصوري؛ لأن أكثر الأموات بالموت الصوري يخرجون من الدنيا متحسرين بحسرة عظيمة، والعارف المتحقق بمرتبة الموت الإرادي له مسرة ولذة، بحيث لو عاد على ما عليه لتغمم، بل هلك خوفًا، فلك أن تشمر ذيلك عنها وعن لذاتها بالمرة، وتداوم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، وملتقطات المشايخ العظام التي استنبطوها منها بسعي بليغ - شكر الله مساعيهم - وتصرف عنان عزمك عمّا سواها من الأباطيل الزائفة، المنسوبة إلى أصحاب الحجج والاستدلال، الضالين بتغريرات عقولهم القاصرة عن منهج الحق ومحجة اليقين.

جعلنا الله ممّن أيد من عنده فتأيد، وأطلق عنان عزمه نحو الحق ولم يتقيد، بمنّه وجوده.

فهرس المحتويات

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

حققه وخرجه وعلق عليه

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

المحتوى:

أول سورة الأنعام - آخر سورة النحل



المكتبه المعروفيه

كانسی روڈ شالدره كوئٹه پاكستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ

كلمة الناشر

رَجَــــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُــوْبَ هٰذَا النَّــاشِرِ

وَذُنُــوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

أَجْمَعِينَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ



راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي

المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

فاتحة سورة الأنعام

لا يخفى على المستضيئين المستنيرين من أشعة نور الوجود اللائح من مشكاة العدم التي هي طلسمات التعينات والأظلال والهويات الظاهرة في عالم الكون والفساد، أن سر ظهور كمالات الوجود من العدم إنما هو لجلاء الوجود وصفاته، إلى حيث لم يدرك لو لم يكن في مقابلته مرآة مجلوة يتراءى فيها ما انعكس منه، ولم يكن له مقابل غير العدم، لذلك ما انعكس كمالاته إلا منه، والمحجوب المقيد بسجن الطبيعة ما يرى الوجود والموجود إلا هذه العكوس المنعكسة في سراب العدم من الأمواج الحادثة في بحر الوجود من التجليات الحبيبة، ولم يتفطن إلى مبدئها، ولهذا عدل عن طريق الحق، وضل عن سواء السبيل، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

والمكاشف المشاهد بنور الله، المستغرق بمطالعة جماله، لا يرى في الوجود إلا هو، وكلما ظهر في العالم الصوري من الآثار فمن تجلياته المنتشئة من أوصافه الذاتية، وتطورات أسمائه الكمالية الجمالية والجلالية، وسر التكاليف الموردة في الكتب الإلهية والآثار النبوية إنما هو للتحقق والتقرب إلى ما عليه الوجود الحقي، من الاعتدال والاستواء الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل.

لذلك ألهم سبحانه خلص عباده الذين تحققوا بوحدة الوجود، وانكشفوا بنوره المستقل، أن يواظبوا على حمده وثنائه دائمًا مستمرًا؛ ليتمكنوا بمقام الشكر الذي هو أعلى مقام العارف بالله، إذ الشكر إنما يحصل بقدر رفع حجب التعينات رأسًا، وذلك لا يكون إلا بالفناء فيه، ومتى فني فيه فقد تحقق بمقام الشكر، وينطلق لسان حاله ومقاله بشكر نعمه، ولهذا أخبر سبحانه تعليمًا لعباده قائلاً متيمنًا:

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المستغني بذاته عن جميع الأكوان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإضافة نور

الوجود من محض الجود والامتنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإقدارها على مواظبة الحمد والثناء له أداء لحق الإنعام والإحسان.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام:1-5].

﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء المشعر بالإطاعة والانقياد المنبأ عن التعظيم والتبجيل الذاتي الصادر عن ألسنة جميع من يدخل في حيطة الوجود، المعترف بتوحيده سبحانه وتفريده استقلالاً ثابتًا ﴿لِلَّهِ﴾ المستقل بالألوهية، المتوحد في الربوبية، المستحق في العبودية، وكيف لا يستحق سبحانه مع أنه القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1] أي: أظهر علويات الأسماء والصفات وسفليات الطبيعة العدمية القابلة لانعكاس أشعة العلويات ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أنشأ حجب التعينات ﴿وَالنُّورَ﴾ أي: ظل الوجود المنبسط عليها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر إشراق نور الوجود، ولمع أضاء شمس الذات ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: ستروا بهويتهم الباطلة هويته الحقيقية السارية في

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: الإشارة فيها أن الله تعالى ذكر الحمد بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس، وفي قوله تعالى: ﴿لله﴾ لام التمليك يعني: في حمد يحمده أهل السماوات والأرض في الدنيا والآخرة ملك له، وهو الذي أعطاهم استعداد الحمد يحمده بآثار قدرته على قدر استعدادهم واستطاعتهم؛ فأين المحامد للجن والإنس متسعات لحد جناب القدس؟!؛ بل هو حمد نفسه القديم الأزلي، وقال: «الحمد لله حمد الخلق له مخلوق»، فإن وحمده لنفسه قديم باقٍ، ثم عرف نفسه بصنعته، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾؛ أي: سماوات القلوب في أرض النفوس وجعل الظلمات في النفوس، وهي صفاتها البهيمية والحيوانية وأخلاقها السبعية والشيطانية والنور في القلوب، وهي صفاتها الروحانية الباقية، وإنما ذكر بلفظ الجعل؛ لأن النور والظلمة من عالم المعاني وهو عالم الأمر كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:54]، ألا له الخلق والأمر فالسماوات والأرض من عالم الصورة ذكرها بلفظ الخلق كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ والنور والظلمة من عالم المعنى ذكره بلفظ الجعل.

الآفاق أزلاً وأبدًا ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1] يميلون وينحرفون عن طريق الحق جهلاً وعنادًا.

وكيف تعدلون عن طريق الحق وتسترون هويته مع هوياتكم الباطلة أيها التائهون في تيه الضلال؟! إنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي: قدر وجودكم ﴿مِّن طِينٍ﴾ جماد قريب من العدم ﴿ثُمَّ قَضَى﴾ وقدر ﴿أَجَلاً﴾ لحياتكم في النشأة الأولى ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مقدر ﴿عِندَهُ﴾ لفنائكم فيه في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ بعدما علمتم وتحققتم منشأكم ونشأتكم الأولى ﴿تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:2] تشكون في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ كيف تمترون وتشكون فيها مع أنه ﴿هُوَ اللهُ﴾ القادر المتوحد المتفرد المتجلي ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ بالاستقلال والانفراد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[1] [الأنعام:3] من خير وشر ونفع وضر في نشأتكم الأولى.

﴿وَ﴾ من أمارات كفرهم وسترهم أنهم ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ عظيمة دالة على توحيد الحق بلسان رسول من الرسل العظام ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كفرهم وجهلهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:4].

ومن غاية إعراضهم وإلحادهم عن طريق الرشاد ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع الذي هو القرآن الجامع ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بلسان من هو أعلى مرتبة ومكانة عند الله، وأكمل دينًا وأقوم طريقًا فكذبوه واستهزءوا به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ وسيظهر لهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:5] حين نزول العذاب عليهم في الدنيا بضرب الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة العذاب والنكال المخلد.

---

(1) قال كبرى: باستعمال الاستعداد السر والجهر والمأمورات والمنهيات من الخير والشر، وقد خص الإنسان بهذا الكسب أيضًا من الملك والحيوان، فإن الملك لا يقدر أن يكسب من الصفات الحيوانية شيئًا، ولا الحيوان قادر على أن يكسب من الصفات الملكية شيئًا والإنسان متصرف في هاتين الصفتين، وله اكتساب التخلق بأخلاق الله، بالتقرب إلى الله بأداء ما فرض عليه والتزام النوافل واجتناب النواهي إلى أن يصير خير البرية، وأيضًا أن يكتسب من الشر ما يصير به شر البرية، فيكون من أحواله ما أخبر عنه.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام:6-8].

﴿أَ﴾ يشكون في نزول العذاب ويترددون و﴿لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ من أهل القرون الماضية كعاد وثمود وغيرهما مع أنا ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قدرناهم فيها قادرين على أمور عظام وآثام جسام ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ولم نجعل في وسعكم من السعة وطول الملك والترفه والاستيلاء ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَاراً﴾ مغزارًا كثيرة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ دائمًا متجددًا، وبالجملة: أمهلناهم زمانًا طويلاً متنعمين مترفهين ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ بالمرة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من تكذيب الأنبياء وما جاءوا به، وإفسادهم في الأرض بأنواع الفسادات ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6].

ولا تبالِ يا أكرم الرسل بتكذيباتهم واقتراحاتهم، ولا ترجُ منهم الإيمان بك وبكتابك؛ لأنهم من غاية انهماكهم في الضلال.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكَ كِتَاباً﴾ مكتوبًا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حين نزوله ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من خبث باطنهم وجهلهم الجبلي ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:7] عظيم ظاهر؛ لأن الورق لا تنزل من جانب السماء إلا بسحر.

﴿وَقَالُوا﴾ من غاية شقاقهم ونفاقهم معك: إن كان نبيًا ﴿لَوْلا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ويصدقه بنبوته فنصدقه، قل لهم في جوابهم نيابة عنا: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً﴾ على مقتضى سنتنا في الأمم الماضية ﴿لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: لتحقق أمر إهلاكهم البتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد نزول الملك بل تعذبون كالأمم السالفة ﴿لاَ يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:8] ولا يمهلون ساعة ولينكرون ويعذبون البتة.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ

ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ
سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:9-11].

﴿وَ﴾ بعد ذلك أيضًا ﴿لَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الرسول المنزل إليهم ﴿مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ أي: على صورته؛ إذ لا يمكن لبشر أن يرى الملك على صورته لمهابته، لذلك ما جاء جبريل على رسول الله ﷺ إلا على صورة دحية الكلبي، وأيضًا لم يمكنهم الاستفادة منه لعدم الجنسية ﴿وَ﴾ إن أنزلناه على صورة البشر ﴿لَلَبَسْنَا﴾ أي: لخلطنا ﴿عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] [الأنعام:9] ما يخلطون على أنفسهم من البشر لا يليق بالرسالة فلم يصدقوه أيضًا.

﴿وَ﴾ لا تغتم ولا تضطرب يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك واصبر على أذاهم فإنه ﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فصبروا على ما كذبوا واستهزئوا ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط من الجوانب ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:10] فأهلكوا واستؤصلوا بما استُهزءوا وإن أنكروا قصة هلاكهم.

فـ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: مستقر الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والخواقين معتبرين ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:11] الذين كذبوا الرسل عتوًا وعنادًا إلى حيث لم يبق من رسومهم وآثارهم وأظلالهم أصلاً مع أنهم كانوا أولي قوة وذوي بأس شديد.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ

---

(1) قال ابن عجيبة: أي: لخلّطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبسًا يطرق لهم إلى أن يُلبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُونًا، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلاَّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصَل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضِي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (126/2)].

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام:12-14].

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا وإلزامًا: ﴿لِّمَن مَّا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تصرفًا وتملكًا إيجادًا وإظهارًا وإعدامًا وإفناءً ﴿قُل﴾ أيضًا أنت يا أكمل الرسل بعدما بُهتوا وتحيروا في الجواب: ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالتجلي والظهور والتصرف مطلقًا؛ إذ ﴿كَتَبَ﴾ أوجب وألزم ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ذاته حين كان ولم يكن معه شيء ﴿الرَّحْمَةَ﴾ العامة؛ أي: التجلي باسم الرحمن على عروش ذرائر الأكوان المنعكسة من أوصافه الذاتية، والله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أيها العكوس والأظلال بمقتضى اسم الرحيم ﴿إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى المرتفعة فيها نقوش الغير والسوى مطلقًا ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعه ورفعه عند أولي البصائر المتأملين في سر الظهور والإظهار، وأما ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ باقتصار النظر في هذه الأظلال والتماثيل الزائفة الزائلة التي لا قرار لها ولا مدار للذاتها وشهواتها ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 12] بالرجوع إلى ما في التوحيد ومقر التجريد والتفريد، أولئك هم الظالمون في تيه الحرمان، الباقون في ظلمة الإمكان.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون جمعه وتوحيده مع أنه ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿مَا سَكَنَ﴾ وبطن ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ أي: مرتبة الباطن والغيب ﴿وَ﴾ ما ظهر وانكشف في ﴿النَّهَارِ﴾ أي: مرتبة الظاهر والشهادة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل ما سمع ﴿العَلِيمُ﴾ [الأنعام:13] لكل ما علم وأدرك لا يخفى عليه شيء مما ظهر وبطن.

﴿قُلْ﴾ لمن أنكر توحيد الله وأثبت الشريك له، ومع ذلك يرغبك يا أكمل الرسل إلى شركه إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له أصلاً ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ موليًا وكيلاً لأكون مشركًا مع كونه سبحانه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ أي: يرزق للمحتاجين ﴿وَلاَ يُطْعَمُ﴾ لتنزهه عن الأكل والشرب، خص بهذه الصنعة؛ لأنه من أقوى أسباب الإمكان، وأجل أمارات الحدوث وأظهرها، والباقي متفرع عليه ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لكافة

البرايا: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من عند ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أطاع وانقاد، وأظهر التوحيد الذاتي وأدعو الناس إليه ﴿وَ﴾ أيضًا نُهيت أنا على وجه المبالغة والتأكيد من عنده سبحانه بقوله: ﴿لاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:14] المثبتين الوجود لغير الحق من الأظلال وبعدما أمرت مما أمرت.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:15-18].

﴿قُلْ﴾ لمن تبعك لعلهم ينتبهون: ﴿إِنِّي﴾ بعدما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: إن خرجت عن مقتضى توحيده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:15] هو يوم العرض الأكبر الذي تجزى فيه كل نفس بما تسعى.

﴿مَن يُصْرَفْ﴾ العذاب ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الحق، وحققه بمقام شهوده وكشفه ﴿وَذَلِكَ﴾ التحقق والانكشاف هو ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام:16] لأهل العناية والوصول.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل، وتقررت في مقر التوحيد ﴿إِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ بلية وعناء ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا شيء غيره ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ عطية وغنى ﴿فَهُوَ﴾ أيضًا منه؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخير والشر والنفع والضر ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:17] تحيط قدرته بجميع المقدورات.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون قديرًا على كل ما أراد؛ إذ ﴿هُوَ الْقَاهِرُ﴾ العزيز الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[1] يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ المتقن في تدبيراتهم

---

(1) قال في التأويلات: في الأزل، فبالقهر إخراجهم من مكامن العدم إلا أنه سبحانه وتعالى يقهر هذه الحالة ويبدل العدم بالوجود، وقد عم قهره جميع عباده، فقهر الكفار بموت القلوب وحياة النفوس إذ أخطأهم النور المرشش على الأرواح في بدء الخلقة، فضلوا في ظلمات الطبيعة وما اهتدوا إلى نور الشريعة، وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة؛ فأخرجهم عن ظلمات الطبيعة بالقيام على طاعته وقهر قلوب المحبين في بلوغات الاشتياق، فأسنها بلطف مشاهدته وقهر أرواح الصديقين بسطوات تجلي صفات جماله، وقهر أسرار الواصلين بسطوات بها صفات

﴿الخَبِيرُ﴾ [الأنعام:18] بحوائجهم يعطيهم ما ينبغي لهم ويمنعهم عما يضرهم بالإرادة والاختيار.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن
بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ (19) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)﴾
[الأنعام:19-21].

وإن جادلوك واستشهدوا منك شهيدًا على نبوتك ورسالتك ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أي شَيْءٍ أَكْبَرُ﴾ وأتم ﴿شَهَادَةً قُلِ اللهُ﴾ لأن المتعين المتعزز بالعظمة والكبرياء هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ﴾ شهادته على أنه ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ﴾ الجامع للكتب السالفة من عنده ﴿لأُنذِرَكُم﴾ وأبشركم ﴿بِهِ﴾ أيها الموجودون في حين نزوله ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَن بَلَغَ﴾ له خبر وحيه وحكمه من الأسود والأحمر إذ أرسلت إلى كافة البرية بشيرًا ونذيرًا على مقتضى التوحيد الذاتي ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ بعد وضوح البرهان ﴿أَنَّ مَعَ اللهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالألوهية ﴿آلِهَةً أُخْرَى﴾ مشاركة له في ملكه ووجوده ﴿قُل لاَّ أَشْهَدُ﴾ ما تشهدون ظلمًا وزورًا بل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ متفرد بالألوهية، متوحد بالربوبية، ليس لغيره وجود حتى يشارك معه، بل لا وجود إلا هو، ولا إله سواه ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:19] إليه من الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: سيدنا محمد ﷺ بحليته وأوصافه المذكورة في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بلا شائبة شك ووهم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الشرك والتحريف ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:20] به وبنبوته ورسالته عنادًا ومكابرة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عند الله وأوجب للبطش والانتقام ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾.

جلاله، وبالجملة لا ترى شيئًا سواه، إلا وهو مقهورٌ تحت أعلام عزته وذليل في ميادين صمديته.

وحرَّف كتابه عنادًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة على رسوله المبينة لطريق توحيده مكابرة بلا سند ودليل، ومع ذلك يطلبون ويتوقعون الفوز والفلاح من عنده سبحانه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:21] الخارجون عن مقتضى العقل والنقل، التاركون متابعة من أيده الحق وأرسله إلى الخلق لإشاعة توحيده وتبليغ أحكامه اللائقة بوحدة ذاته وإزاحة الشرك وإزالته بالمرة.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٧) ﴾ [الأنعام:22-27].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ونجمعهم ﴿جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ استهزاءً وتفضيحًا لهم على رءوس الملأ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:22] أنهم آلهة مستحقة للعبودية والإيمان، وتعتقدون أنهم يشفعون لكم وينقذونكم من العذاب؟ ادعوهم لينقذوكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعوا ما سمعوا ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وحيلتهم للخلاص ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ معتذرين مقسمين: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ أنت يا مولانا ﴿مَا كُنَّا﴾ في أنفسنا ﴿مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:23] لك غيرك عابدين لسواك.

﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ في مقعد الصدق ومحل اليقين ﴿وَ﴾ انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:24] من الشركاء الذين يعتقدونهم شفعاء عند الله يخلصونهم من عذاب الله.

﴿وَ﴾ كان ﴿مِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء المشركين المعتذرين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن ولم يفهموه أنكروه واستهزءوا به ﴿وَ﴾ كيف يفهمونه؛ إذ ﴿جَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[1] أغطية وأغشية كراهة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع عن استماعه ﴿وَ﴾ من غاية إنكارهم وعنادهم ﴿إِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ دالةٍ على توحيد الحق وتمجيده ﴿لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عنادًا ومكابرة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ﴾ من إفراط عتوهم ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ في آيات الله بما لا يليق بها حيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سترًا للحق وترويجًا للباطل: ﴿إِنْ هَذَا﴾ ما هذا الكلام الذي أتى به سيدنا محمد ﷺ ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25] يسطرونها لتضليل ضعفاء العوام.

﴿وَهُمْ﴾ بهذا الطعن والقدح ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يقصدون إضلال المؤمنين المسلمين عن متابعة الرسول والإيمان به ﴿وَ﴾ هم في أنفسهم ﴿يَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبعدون عنه عتوًا وعنادًا ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي: ما يهلكون بهذا التضليل والخداع ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:26] أن ضرر إضلالهم وخداعهم لا يتجاوز عنهم؛ لأنهم هم ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:7] في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ أي: حين أشرفوا ﴿عَلَى النَّارِ﴾ وتحققوا الوقوع والإيقاع فيها عنوة وعنفًا لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا ﴿فَقَالُوا﴾ حينئذٍ من غاية تفزعهم وتفجعهم متمنين: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ على أعقابنا التي كنا فيها ﴿وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ التي جئنا فيها فكذبناها ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:27] المصدقين بمن جاءنا بها.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ

---

(1) قال البقلي: كانت قلوبهم محجوبةً بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأمّارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغطية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لَمْ يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين. قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.

وقال الواسطي: منهم مَنْ يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم مَنْ يستمع منك بنا؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ [الأنعام:28-31].

﴿بَلْ بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ حقية الرسل والكتب عنادًا واستكبارًا فتمنوا حين اليأس والبأس ضجرًا لا عزمًا صحيحًا؛ حيث لو ردوا لآمنوا البتة بل ﴿وَ﴾ الله ﴿لَوْ رُدُّوا﴾ أي: لو فرض ردهم إلى الدنيا بعد وقوعهم على أهوال الآخرة ﴿لَعَادُوا﴾ من خباثة طينتهم ﴿لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أيضًا مكابرة وعنادًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ في هذا التمني أيضًا ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:28] البتة لكون جبلتهم وأصل فطرتهم على الكذب لا يزول عنهم أصلاً.

﴿وَ﴾ كيف لا تكونون مجبولين على الكذب والعناد إذ هم ﴿قَالُوا﴾ من خبث باطنهم حين دعاهم الرسل - عليهم السلام - إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: التي كنا عليها فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1] [الأنعام:29] كما زعم هؤلاء السفهاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: حين وقفوا وصفوا عند ربهم؛ ليحاسبوا بما عملوا لرأيتهم حيارى سكارى مضطرين مضطربين ﴿قَالَ﴾ لهم سبحانه من وراء سرادقات العز والإجلال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أيها الحمقى الكاذبون المكذبون؟ ﴿قَالُوا﴾ بعدما كوشفوا وعوينوا معتذرين متفجعين مصدقين مقسمين: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ آمنا وصدقنا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: الآن لن ينفعكم الإيمان ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:30] وتكذبون به في النشأة الأولى التي هي دار الفتنة والاختبار.

---

(1) بعد أن متنا. وذلك لأنهم مجبولون على إنكار البعث وتكذيب الرسل، وأنهم قد كانوا في عالم الأرواح مشاهدين المطاف الحق ومخاطبي قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ومجيبي ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172]، فلما بعثوا إلى عالم الصورة وحجبوا بلباس البشرية فنسوا تلك الأحوال والأقوال، ولم يسمعوا عن الأنبياء حين ذكروا بتلك الأيام كما قال تعالى: وذكرهم بأيام الله فما نفعتهم الذكرى، إذا طبعوا كافرين وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، فكذلك لو ردوا إلى عالم الصورة لنسوا ما شاهدوا من الأحوال ولعادوا إلى ما كانوا عليه من الإنكار دون الإقرار. [التأويلات النجمية].

ثم قال سبحانه تقريعًا وتوبيخًا لهم: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ مع نزول الآيات الدالة عليه، وإرشاد الرسل والأنبياء والأولياء لهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿قَالُوا﴾ بعدما انكشفوا به وتيقنوا له متحسرين خائبين خاسرين: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ كلمة تحسر وتأسف ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في النشأة الأولى من التكذيب وعدم الإيمان ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿يَحْمِلُونَ﴾ وبال ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وآثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ خائبين خاسرين محرومين عن مطالعة وجه الله الكريم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:31] في الدنيا، ويحرمون بها في العقبى عن لقاء المولى.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾
قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام:32-35].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي يحصرون الحياة عليها، ويحرمون من الحياة الحقيقية لأجلها ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يلعب بهم ويلهيهم ويشغلهم عن الحياة الأبدية والبقاء السرمدي ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ وجناتها الحقيقية ولذاتها المعنوية ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ومنهياته في الحياة الصورية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [الأنعام:32] وتميزون أيها العقلاء بين الحياتين، ولا تعلمون أي اللذتين خير لكم.

(1) الإشارة فيها أن القيامة يوم ينكشف فيه الأسرار وتنهتك فيه الأستار، فكم من محلل بثوب تقوية حكم له مقارنوه بأنه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب طولاه، مفارق لهواه، كشف الأمر عما توهموه فافتضح عندهم بغير ما ظنوه، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم غدًا؛ أي: وقفوا على ربوبيته عند ظهورها بالقهر ولو وقفوا على الربوبية في الدنيا لوقفوا عند ظهورها باللطف، فمن خفي عليه الربوبية؛ فلغلبة القهر، ومن ظهر له به الربوبية اليوم؛ فغلبة اللطف بلسان القهر. [التأويلات].

ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ ويؤذيك القول ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ في حقك أولئك المعاندون المكابرون من أنك ساحر كاذب مجنون شاعر وغيرها، ولا تبالِ بهم وبقولهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن حدود الله، المنصرفين عن مقتضى أحكامه ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة عليك من عنده لإهداء التائهين من عباده ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33] ينكرون ويعاندون جحودًا وإصرارًا، وبالجملة: فاصبر على أذاهم يا أكمل الرسل إلى أن يحل عليهم الغضب من الله المنتقم المقتدر.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مثل ما كذبت ﴿فَصَبَرُوا﴾ وتحملوا ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ الذي وعدناهم، فنصرناهم وانتقمنا من عدوهم فكانوا هم الغالبين ﴿وَ﴾ بالجملة: لا تيأس من نصر الله وتأييده بإمهال الله إياهم؛ إذ ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ التي سبقت منه سبحانه لنصر أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ كيف تيأس وتقنط ﴿لَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:34] ما يكفيك عن التردد فيه.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ وشق ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان والانقياد لك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ من غاية حرصك لإيمانهم وانقيادهم ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ منفذًا ﴿فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا﴾ مرقاة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فافعل ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ دالة على إلجائهم إلى الإيمان، وإلا فاصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده وما لك إلا التبليغ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:35] بأن الأمور كلها بيد الله واختياره، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تحرص على إيمانهم وهدايتهم، ولا تجهد فيما لا يسع فيه جهدك وسعيك؛ لأنك لا تهدي من أحببت، هذا تأديب من الله لرسوله وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام:36-39].

وكيف تطلب إيمانهم وتتوقع هدايتهم أيها الرسول الداعي مع أن الداعي ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[1] الدعوة عن رضا، ويلقون السمع وقلوبهم حاضرة بفهمها، وهم في أنفسهم طالبون الحياة الحقيقية ﴿وَ﴾ هؤلاء ليسوا من الطالبين بل هم ﴿الْمَوْتَى﴾ حقيقة وإن كانوا أحياء صورة ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ في يوم الحشر ويحييهم بالحياة الحقيقية حتى يطلعوا على ما فاتهم في الحياة الصورية، ولا تنفعهم تلك الحياة والاطلاع إلا الحسرة والندامة على ما فات عنهم في دار العمل والاختبار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أحياهم وأطلعهم، ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:36] يساقون لجزاء ما عملوا في الدنيا من تكذيب الآيات والرسل والاستهزاء معهم والذب عنهم.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم وعنادهم وبغضهم معك يا أكمل الرسل ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: إن كان محمد ﷺ نبيًا ﴿لَوْلا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: آية اقترحناها منه وآية تلجئنا إلى الإيمان به أو آية تستأصلنا بالمرة مع أن دعواه أن ربه يقوى ويقدر على جميعها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَادِرٌ﴾ بالقدرة التامة الكاملة ﴿عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ من آية اقترحتموها متى تعلقت إرادته ومشيئته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:37] أن الله فعال لما يريد، وأن الله لو أنزلها نزل عقبها عليهم البلاء كما نزل على الأمم الماضية.

﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على جميع المرادات والمقدورات مع أنه ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾ تتحرك ﴿فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ في الجو ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ محفوظة أحوالها وأرزاقها وآجالها عندنا؛ بحيث لا نهمل شيئًا من حوائجها، بل نكتب ونثبت في لوحنا المحفوظ وكتابنا المبين على التفصيل بحيث ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ وأفرطنا ﴿فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ من حوائجهم وأحوالهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما حفظوا ورزقوا كل منهم ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:38] يرجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا الكاملة ﴿صُمٌّ﴾ عن استماع كلمة

(1) إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا الله قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويَرْقُون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فَتهُبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لِما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يُرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود [البحر المديد (141/2)].

الحق من ألسنة الرسل ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن التنطق بها مع أنهم تيقنوا بها بل هم مغمورون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾[1] أي: الحجب الناشئة من هوياتهم الباطلة وهياكلهم الفاسدة العاطلة ﴿مَن يَشَإِ اللهُ﴾ إضلاله بمقتضى اسمه المذل المضل ﴿يُضْلِلْهُ﴾ حتمًا بلا هداية وإرشاد أصلاً ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:39] موصل إلى توحيده؛ إذ كل من عنده ميسر موفق لما خلق له.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:40-44].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني صريحًا ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ التي تحشرون فيها إلى الله تعالى هائمين حائرين ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ المنقذ من العذاب، والمنجي من الحيرة والهيمان ﴿تَدْعُونَ﴾ أم تدعونه تضرعًا وتلجئون نحوه استعاذة؟ بينوا إليَّ أمركم في حالة اضطراركم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:40] في الأقوال والأخبار.

---

(1) وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك من وقر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماعهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله ألسنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين ألهمنا بخالص الإيمان بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطى آذان أسراره، وأبصار بصائره بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقيه في ظلمات نفسه الأمارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا. قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وصموا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهواجس الهياكل.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ إذ لا ملجأ ولا ملاذ حينئذ إلا هو ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عنكم ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من الضرر والبلاء ﴿إِن شَاءَ﴾ أي: إن تعلقت مشيئته وإرادته ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ حينئذ ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:41] له من الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة، وقل لهم أيضًا: إذا سمعتم مآل أمركم وعاقبة حالكم وشأنكم، فتضرعوا إلى الله في جميع أحوالكم، والتجئوا نحوه، ومع ذلك لم يقبلوا منك قولك ونصحك البتة لخبث باطنهم.

﴿وَ﴾ اعلم أنَّا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً من مقام جودنا ولطفنا ﴿إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وأيدناهم بآيات ظاهرة ومعجزات باهرة فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:42] رجاء أن يتضرعوا إلينا ويلتجئوا نحونا فلم يتضرعوا ولم يلتجئوا.

﴿فَلَوْلاَ﴾ هلا ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ وما هي من عدم تأثرهم في البأساء والضراء بل يتأثرون منها ويزعجون ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ﴾ أي: حبب وحسن ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:43] من عدم المبالاة بآيات الله، وتكذيب رسله، والإعراض عن دينه.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ابتلاء وفتنة ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نافع وخير وأمهلناهم عليها ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ أعجبوا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ مترفهين متنعمين بطرين مغرورين بالنعم ناسين المنعم بالمرة ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ بأنواع البلاء ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:44] متحسرون آيسون خائبون محرومون.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام:45-48].

﴿فَقُطِعَ﴾ واستؤصل ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بحيث لم يبقَ من خلفهم من استخلفهم واستدبرهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:45] على هلاكهم

واستئصالهم إلى حيث لم يبقَ من شؤمهم على وجه الأرض.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا للنصح لعلهم ينتهون: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾ فأصمكم ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ بغطاء الغفلة فلا تحسوا ولا تعلموا ولا تفهموا أصلاً ﴿مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ﴾ الواحد الأحد القادر المقتدر ﴿يَأْتِيكُم﴾ ويرجعكم ﴿بِهِ﴾ أي: بالمأخوذ ﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نكرر لهم ﴿الآيَاتِ﴾ ليتنبهوا تارة عقلاً، وتارة تذكيرًا وعظة، وتارة عبرة واعتبارًا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:46] أي: ثم انظر كيف يعرضون عن جميعها من قساوة قلوبهم وخبث طينتهم.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمارة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ مع سبق المقدمات والأمارات ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي: من سنته سبحانه ما يهلك بأمثال هذا العذاب الفجائي أو الجهري ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47] الخارجون عن مقتضى أوامر الله ونواهيه الجارية على ألسنة الرسل المؤيدين من عنده.

﴿وَ﴾ كيف لا نهلك الظالمين ولا نعذبهم؛ إذ ﴿مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن بنا وامتثل بأوامرنا واجتنب عن نواهينا ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن لم يؤمن ولم يمتثل ولم يجتنب ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ منهم بعدما سمع الدعوة من ألسنة الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالإيمان والتوبة ما أفسد من قبل ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين وصولهم إلينا ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:48] من سوء المنقلب والمآب.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام:49-52].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا، ولم يعملوا بمقتضاها ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي يحيطهم من جميع جوانبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:49] أي:

بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى أوامرنا ونواهينا.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة تليينًا لقلوبهم: ﴿لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ أي: جميع مراداته ومقدوراته ﴿وَلاَ﴾ أدعي أني ﴿أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ أي: جميعه؛ إذ هما مما استأثر الله به لا يحوم حوله أحد من خلقه ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أيضًا: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ إذ أنا بشر من جنسكم بل أقول لكم: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من عنده لأبلغكم به وأخبركم عنه، والهداية والضلال بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وإن أنكروا لياقة البشر لوحي الله وإلهامه ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل الالتزام: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ عندكم البشر ﴿الأَعْمَى﴾ عن مطالعة عجائب مصنوعات الحق وغرائب مخترعاته ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المشاهد المطالع لها ﴿أَ﴾ تشكون فيما بينهما من التفاوت ﴿فَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50] وتتأملون حتى ينكشف ويتميز عندكم الحق الصريح من الباطل الزائل الزائغ.

﴿وأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: أنذر بما يوحى إليك يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ مع كونهم معتقدين أن ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرهم غيره ﴿ولاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عنده حتى ينقذهم من عذابه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:51] لكي يتقوا ويحسنوا العمل لرضاه.

﴿وَ﴾ بعدما أرسلناك يا أكمل الرسل؛ لترويج الحق وتقوية أهله ﴿لاَ تَطْرُدِ﴾ لا تبعد من عندك ﴿الَّذِين يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ﴾ أي: في جميع أوقات النهار ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ أي: في جميع أوقات الليل، وبالجملة: يستغرقون جميع أوقاتهم بالتوجه نحوه سبحانه إنما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بتوجههم غير أن يطالعوا ﴿وَجْهَهُ﴾[1] الكريم بسبب ميلك إلى إيمان

---

(1) الآيتين الإشارة فيهما أن من عواطف إحسانه ولطائف امتنانه وحقوق خواص عباده أن يكون في بعض الأوقات لسانهم فيتكلمون به كما قال: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا... إلى آخره» وفي بعض الأوقات يكون لسانهم فيتكلم عنهم، فإذا تكلموا به لكلم مع عباده ليدعوهم إليه، وإذا تكلم عنهم مع عباده ليهديهم إليه فما كان حال الفقراء مع النبي ﷺ العجز عن الاستدراك ومعارضته فيما كانوا بصدده من إخلاء الرسول ﷺ مجلسه عنهم سكتوا عن الإعتراض وتوجهوا بقلوبهم إلى الحق تعالى متصرعين بين يديه متعرضين ببراءتهم لديه فتولى الحق سبحانه إظهارها في ضمائرهم، واطلاع النبي ﷺ على ودائع سرائرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أخبره عن دوام ذكرهم، وأنهم حسباه الله بالغداة والعشي كما قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»، فلا تطردهم عن مجالستك فإنهم يطلبوني في

أهل الأهواء ومصاحبتهم ومجالستهم، مع أنهم ليسوا من أهل الفلاح ولا قابلين له بل ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ وإيمانهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ يعود إليه نفعه ﴿وَمَا مِنْ حِسابِكَ﴾ وإيمانك ﴿عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ بل كل منك، ومنهم مجزي بما عمل ومسئول عما فعل ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ أي: هؤلاء المؤمنين المريدين وجه الله في جميع أوقاتهم وحالاتهم؛ لأجل أولئك المنهمكين في الضلال ﴿فَتَكُونَ﴾ بواسطة طردهم وتبعيدهم ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:52] الخارجين عن مقتضى العقل والشرع والمروءة.

روي أن قريشًا قالوا: لو طردت يا محمد هؤلاء السفلة - أرادوا عمارًا وصهيبًا وسلمان وغيرهم - جلسنا إليك وحادثنا معك فقال ﷺ: «وما أنا بطارد المؤمنين»[1].

قالوا:فأقمهم من مجلسنا إن جلسنا معك.

قال له عمر ﷺ: لو فعلت حتى ننظر ماذا يصيرون، فقبل ﷺ.

قالوا: فاكتب بذلك كتابًا، فدعا بالصحيفة وبعلي ليكتب، فنزلت:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام:53-56].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: مثلما فتنا بعض الناس ببعض في الأمور

متابعتك وقد خصهم الله تعالى بإرادته عما سواهم كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران:152] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52] فكل يريدون منه وهم لا يريدون عنه دونه، ويقال: تكلم الناس في الإرادة فأكثروا، وتحقيقها: احتياج يحصل في القلب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله تعالى، فصاحب الإرادة لا يهدوا ليلاً ولا نهارًا ولا يجد من دون وصوله إليه سبحانه مسكونًا ولا قرارًا. [التأويلات النجمية].

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (29/7).

المتعلقة بمعاش الدنيا من المال والجاه والرئاسة، فتناهم في أمور دينهم أيضًا ﴿لِيَقُولُوا﴾ من غاية استبعادهم واستحقارهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ الضعفاء الفقراء ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا لهم: بل هم أولئك الفقراء الصابرون على بلاء الله، الشاكرون لنعمائه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ العالم بضمائر عباده ﴿بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:53] الصابرين منهم ومنكم أيها الشرفاء الكافرون لنعمه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ ويمتثلون بها بالغداة والعشي وهم يريدون وجهنا ﴿فَقُلْ﴾ لهم قبل تسليمهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المقبولون عند الله الراضون المرضيون وبشرهم بأنه ﴿كَتَبَ﴾ أي: قضى وحبب ﴿رَبُّكُمْ﴾ لأجلكم ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الشفقة والرحمة إلى حيث ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا﴾ به يسيء نفسه عند الله صادرًا عنه ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ لا عن قصد وإصرار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما علم وخامة عاقبته ﴿تَابَ مِن بَعْدِهِ﴾ واستغفر ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد بالجهالة ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر تلك المعصية عنكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:54] يقبل توبتكم بسبب إخلاصكم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الْآيَاتِ﴾ ليظهر طريق التوحيد ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ويتميز ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:55] المنحرفين عن منهج الرشاد ومسلك السداد عن طريق أهل الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يعبدون آلهة غير الله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ زجرت وصرفت بالدلائل القاطعة الدالة على توحيد الحق، وبالكشوف والمشاهدات الواردة من عنده سبحانه، الصارفة عن الميل والتوجه إلى الغير والسوى مطلقًا ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتسمون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ آلهة باطلة بأهويتكم الفاسدة ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ التي اخترعتموها من تلقاء أنفسكم، وإن اتبعت بمتابعتكم تلك التماثيل العاطلة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَ﴾ بعدما ضللت ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:56] أصلاً؛ أي: في شيء من الهداية كمثلكم.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:57-59].

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ واضحة ﴿مِّن﴾ معرفة ﴿رَّبِّي﴾ وتوحيده ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ وبتوحيده، وأشركتم له غيره واستوجبتم العقوبة العظيمة بشرككم، ومع ذلك استهزأتم باستعجال العذاب ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب والنكال ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم إلا له باستعجال العذاب ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: يقضي فيه ويدمغ الباطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام:57] الحاكمين في الوقائع.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ وتحت قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من نزول العذاب والعقاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لأهلككم بالمرة وارتفع النزاع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكن ليس لي هذه القدرة والمكنة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:58] المستوجبين للعذاب والنكال بأخذهم بظلمهم تعلقت إرادته.

﴿وَعِندَهُ﴾ وتحت قدرته وإرادته ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ومقاليد السرائر والخفيات ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ وأوقات ظهورها من الغيب إلى الشهادة ﴿إِلَّا هُوَ﴾[1] إذ هو المحيط بجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن علمه شيء، ثم لما كانت الأفهام قاصرة عن إدراك الغيب تنزل عن تلك المرتبة إلى ما هو أقرب إلى الأفهام فقال: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من الكائنات والفاسدات، وتنزل منها أيضًا فقال: ﴿وَمَا

(1) قال الشيخ كبرى: لأنه لا خالق إلا هو وليس لنبي ولا لولي مدخل في هذه المفاتيح ولا في استعمالها؛ لأنه مختص بالخالق فحسب ما ضرب لك مثلاً يدركه به هذه الحقيقة، وذلك مثل نقاش الصور، فإن لكل صورة فيما ينشقها شهادة هي هيئتها، وغيب هو أعمل التصوير، ومفتاح يفتح به باب علم التصوير على هيئة الصورة لتنفعل الصورة ثابتة في ذهن النقاش، وهو العلم بيد النقاش لا مدخل لتصرف غيره فيه، فإن الله تعالى هو النقاش المصور والصور هي صورة المكونات المختلفة الغيبية والشهادية، وشهادة كل صورة منها خلقها وكونها وغيبها علم خلقها وتكوينها، وقلم تصويرها الذي هو مفتاح ويفتح به باب علم تكوينها على صورتها وكونها هو الملكوت فبقلم ملكوت كل شيء يكون كل شيء، وقلم الملكوت بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، فكما أن الشهاديات مختلفة فالملكوتيات مختلفات، ولكل شيء من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والملك غيب مناسب لصورته، ولهذا جمع المفاتح ووحد الغيب، وقال ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ هو علم التكوين وهو واحد في جميع الأشياء وفي الملكوت كثرة كما في الصور.

تسقط مِن ورقةٍ﴾ من أغصان الشجر ﴿إلَّا يَعْلَمُهَا﴾ كيف ينزل، ومن أين ينزل، وإلى أين ﴿ولاَ حبَّةٍ﴾ ساقطة ﴿فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ أي: كموناتها وبروزاتها إلى أن تصل إلى مرتبتها الأصلية التي كانت عليها قبل سقوطها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ من الكوائن والفواسد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:59] هو علمه الحضوري المتحد بعينه وذاته الظاهرة في نفسه المظهرة لنفسه؛ إذ لا هو إلا هو، ولا شيء سواه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:60-62].

﴿وَ﴾ كيف يخرج عن حيطة علمه شيء من الكائنات والفاسدات؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم﴾ أي: يغيب استعداداتكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ أي: في مقر البطون والغيب ﴿وَ﴾ في تلك المرتبة ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا جَرَحْتُم﴾ أي شيء كسبتم واكتسبتم باستعداداتكم ﴿بِالنَّهَارِ﴾ أي: في فضاء الظهور والشهادة من المعارف والحقائق المقتضية للظهور والإظهار لو ظهرتم فيه ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويظهركم ﴿فِيهِ﴾ أي: في فضاء الظهور والشهادة ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عنده لاكتسابكم ما في استعدادكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقطاع الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعتم إليه ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ويحاسبكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60] وتكسبون في نشأة ظهوركم وشهادتكم من الأعمال الصالحة للقبول، والفاسدة الموجبة للرد.

﴿وَ﴾ عليكم أيها الأظلال الهالكة ألا تغفلوا عن مقتضيات توحيد الله، ولا تخرجوا عن امتثال أحكامه الجارية على ألسنة رسله؛ إذ ﴿هُوَ الْقَاهِرُ﴾ القادر الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[1] الرقيب المحافظ لهم يحفظهم عما لا يعنيهم ﴿وَ﴾ من حفظه أنه

(1) قال ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه

﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة يكتبون ويحصرون ما صدر عنكم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: الوقت الذي قدره الله لانقضاء الأجل المسمى ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ أي: وفى عليه حسابه ﴿رُسُلُنَا﴾ أي: الموكلون عليكم ﴿وَهُمْ﴾ أي: الرسل ﴿لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:61] ولا يفرطون أصلاً فيما صدر عنكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وفى الرسل حسابكم ﴿رُدُّوا﴾ للجزاء ﴿إِلَى اللهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ العدل القائم بالقسط، العالم بجميع أحوال عباده؛ ليجازي كلاً على مقتضى علمه وخبرته ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر والجزاء ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:62] لعباده؛ إ ذ لا يغيب عن حفظه شيء من أعمالهم.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام:63-67].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: شدائدها وأهوالها حين ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً﴾ متضرعين معلنين ﴿وَخُفْيَةً﴾ مناجين مسرين قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا﴾ الله بلطفه ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الأهوال والمخاوف ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لنعمه الصارفين لها إلى مقتضى ما أمره الحق ورضي عنه ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:63].

﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ هم وغم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أنجاكم الله ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:64] به ما لا وجود له من التماثيل، وتكفرون نعمة العقل المفاض من عنده لتتنبهوا إلى توحيده.

وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رءوس الأشهاد [البحر المديد (156/2)].

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ المقتدر ﴿عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً﴾ نازلاً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مثل الرعد والبرق والصواعق الكائنة في الجو ﴿أَوْ﴾ حادثًا ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ مثل الزلزلة والغرق وغير ذلك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلط عليكم أهواءكم ويجعلكم ﴿شِيَعاً﴾ فرقًا متخالفة متقابلة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء ﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نجدد ونكرر لهم ﴿الآيَاتِ﴾ أي: دلائل توحيدنا وشواهده ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:65] رجاء أن يتفطنوا إلى سر توحيدنا وسريان هويتنا في مظاهرنا، ومع ذلك لم يتنبهوا.

﴿وَ﴾ من عدم تفطنهم وتنبههم ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بما جاء من عندنا إليك من الكتاب الجامع للكتب السالفة ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قريشًا، ونسبوه لنا ما لا يليق بجنابنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع نزوله منا إليك ﴿قُل﴾ لهم في مقابلة تكذيبهم: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:66] موكل لحفظكم ليحفظكم عما يضركم بل ما علي إلا البلاغ والحفظ، والوقاية بيد الله.

واعلموا أن ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبر وآيات نازلة من الله ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ مقر ومورد ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:67] حين تقرره ونزوله في مورده في الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾ [الأنعام:68-70].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالطعن والتكذيب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تصاحبهم، واخرج من بينهم ﴿حَتَّى﴾ لا تكون سببًا لاستهزائهم و﴿يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير القدح والطعن في القرآن ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ الخروج بعد وقوفك بأباطيلهم ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ والتذكر البتة ﴿مَعَ

﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:68] الطاعنين على الله بما لا يليق بجنابه.

﴿وَ﴾ إن اتفق مجالسة المؤمنين معهم أحيانًا ﴿مَا﴾ يلزم ويعود ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ الذين يحاسبون عليها ومعاقبون لأجلها ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: بشيء من الخطر والتزلزل ﴿وَلَكِن﴾ إن اتفق جمعهم لزمهم ﴿ذِكْرَى﴾ والموعظة الحسنة الناشئة عن محض الحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:69] ينتهون عما هم عليه من الاستهزاء والتكذيب تأثرًا واستحياء.

﴿وَ﴾ إن لم يتأثروا ولم يستحوا ﴿ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذين يدعون الهداية بسببه ﴿لَعِباً وَلَهْوًا﴾ أي: ملعبة وملهى ليس منه تأثر أصلاً بل يجرونه على طرف اللسان ويلقون على طرف التمام، وكيف يتأثرون منه ولا يلعبون معه ﴿وَ﴾ إذ ﴿غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بحيث عموا وصموا عن الأمور الأخروية بالمرة ﴿وَ﴾ إن أردت أن تذكر بالقرآن ﴿ذَكِّرْ بِهِ﴾ على من هو على خطر من الله مخافة ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: بتسلمه وتوقعه النفس العاصية إلى الهلاك الأبدي والبوار السرمدي ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من العقائد الزائفة والمعاصي العائقة عن إقامة حدود الله؛ إذ ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ أي: للنفس ﴿مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرها وينقذها من العذاب ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لها عند الله لينجو من عذابه ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ وتفد ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل ما يفدى به من أمتعة الدنيا ﴿لاَّ يُؤْخَذْ﴾ ولا يقبل ﴿مِنْهَا أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن روح الله هم ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ سلموا نفوسهم إلى الهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من شؤم نفوسهم من المعاصي تهيأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يحرق بطونهم عن مسرة المؤمنين ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم عن مكانتهم عند الله ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:70] أي: بسبب كفرهم وخروجهم عن حدود الله، وإن ادعى المشركون حقية دينهم ويدعون المسلمين إليه.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ۚ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:71-73].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تعليمًا لمن اتبعك: ﴿أَنَدْعُو﴾ ونعبد ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ الخالق الرزاق الفاعل المختار ﴿مَا لَا﴾ يقدر على جلب ما ﴿يَنفَعُنَا وَلَا﴾ على دفع ما ﴿يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ﴾ بعبادته ﴿عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ التي كنا عليه من الشرك والعصيان ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ بنور التوحيد والعرفان؟ ﴿كَا﴾ الشخص ﴿لَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أي: ذهبت به ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ والأغوال وطرحه ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: المهاوي والمهامه ﴿حَيْرَانَ﴾ قلقًا حائرًا تائهًا، وكان ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ ورفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: الطريق الواضح المستقيم صائحًا عليه قائلاً: ﴿ائْتِنَا﴾ حتى تهتدي إلى الطريق، ونحن فيها، لم يسمع كلامهم ولم يقبل قولهم، واقتفى أثر الغول المغوي حتى يضل ويهلك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده الذاتي ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ أي: مقصور على الإسلام الموصل إليه ﴿وَأُمِرْنَا﴾ أيضًا من عنده بمقتضى توحيده الذاتي ﴿لِنُسْلِمَ﴾ ونفوض جميع أمورنا ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71] إذ هو مستقل بتربية مظاهره؛ لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

﴿وَ﴾ أمرنا أيضًا ﴿أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأديموا الميل والتقرب نحوه ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ من سخطه وغضبه بارتكاب منهياته ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿هُوَ﴾ الموجد المظهر ﴿الَّذِي إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:72] ترجعون.

كيف لا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: أوجدهما وأظهرهما ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ على مقتضى الحكمة المتقنة التي ما ترى فيها من فطور وفتور ﴿وَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ﴾ حين ﴿يَقُولُ﴾ بعد تعلق إرادته ومشيئته بتكوينهما ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1] على الفور

---

(1) أي: للحق يعني: لإظهار صفات الحق ويجعل المخلوقات مرآة مناسبًا تحاكي جميع صفاته تعالى وتقدس، ولكن لا تشاهد صفاته بالكمال إلا في مرآة النسيان لا المخلوقات بالكمال إلا الإنسان، وهو أكمل المخلوقات استعدادًا وأحسنهم تقويمًا في المراقبة وأنه يشاهد مرآة المخلوقات مما اختصت به من الصفات ما لا يشاهد غيره ويشاهد في مرآة نفسه من الصفات ما هو المخصوص به ولا يشاهد منه غيره كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]؛ أي: مرآة أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق والآيات هي الصفات ولما كانت المشاهدة بإراءة الحق لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ والإرادة إنما تحصل بتكوينه إياها فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:73]؛ يعني: وإذا أرادوا أن يرى عبدًا من عباده تلك

بلا تراخ ومهلة تنفيذًا لسرعة قضائه ﴿قَوْلُهُ﴾ لإعدامها أيضًا في الساعة ﴿الحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا تخلف ﴿وَ﴾ كيف يتصور التخلف في قوله؛ إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿المُلْكُ﴾ أي: المظاهر كلها وله التصرف فيها بالاستقلال إيجادًا وإعدامًا ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لإعدام ما في الوجود وإفنائها إظهارًا لقدرته؛ إذ هو ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ وما يجري فيها ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وما يترتب عليها ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿الحَكِيمُ﴾ في إبداء مظاهره من الغيب ﴿الخَبِيرُ﴾ [الأنعام:73] بما ترتب عليها في الشهادة بعد إعادتها.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام:74-78].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين وقت ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ حين تيقظ عن منام الغفلة وتنبه عن سنة النسيان ﴿لأَبِيهِ﴾ المسمى ﴿آزَرَ﴾ العابد للأصنام ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً﴾ تنحتها ﴿آلِهَةً﴾ مستحقة للعبادة قادرة للإيجاد والإعدام ﴿إِنِّي﴾ بعدما تنبهت وتفطنت بعدم قابليتها للألوهية بل الإله لا بدَّ أن يكون متصفًا بجميع أوصاف الكمال بلا تغيير وزوال وانتقال ﴿أَرَاكَ﴾ يا أبت ﴿وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] بعبادة هذه التماثيل الباطلة واعتقادها معبودات حقة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما نوقظه من منام الغفلة في أمر الأصنام ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] أي: عجائبهما وغرائبهما المودعة فيهما؛ ليتأمل فيها

الصفات يقول كن وأنا فيكون بهذا التيسير إلى أن ليس في استعداد الإنسان أن يصير رائيًا بمجرد سعيه صفات الحق في مرآة المخلوقات إلا أن يخلق الله تعالى فيه استعدادًا مناسبًا للرؤية عند رؤيته تلك الصفات..[التأويلات].

(1) أي: وكما أريناه ظلمة الكفر والضلالة المستورة في ملكوت آزر وقومه نريه ملكوت السماوات

ويتفكر في تدبيراتها وتصريفاتها حتى ينكشف بمبدعها ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75] في أمرها لا من المنتظرين المترددين المتخذين بعضها آلهة كعبدة الكواكب والمجسمة وغيرهما.

﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ استنار بنوره وانكشف عنه الظلمة بسببه، وظن أن انكشافه ذاتي مطلق دائم ﴿قَالَ﴾ على مقتضى ظنه به: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إذ هو نور يتجلى في الظلمة فيستحق الربوبية والعبودية ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب وانمحق ﴿قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76] فكيف أعبده وأخص العبادة له؛ إذ الأفول والتغيير من أمارات الحدوث، والحادث لا يستحق العبودية ولا يليق بالألوهية.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً﴾ مبتدئًا في الطلوع منيرًا، له إشراق وإضاءة وانكشاف خيله؛ إذ هو وحصره فيه ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ انمحق وانكسر ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ولم يكشف علي أمره ﴿لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:77] باعتقاد إلهية هذا البازغ الآفل.

﴿فلمّا رأى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ قاهرة لجميع الكواكب مضيئة بنفسها مشرقة بجميع ما ظهر عليها بحيث لا يُنمحى انكشافها بسائر الكواكب أصلاً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ إذ هو

والأرض؛ أي: باطنها، واعلم أن لكل شيء من العالم ظاهرًا يعبر عنه تارة لجسمانية لما له من الأبعاد الثلاثة من الطول والعرض والعمق والمتحيزية وقبول القسمة والتحري، وتارة بالدنيا لدنوه إلى الحس وتارة بالصورة لقبول التشكل ولإدراكه بالحس، وتارة بالشهادة لشهوده بالحس وتارة بالملك لتملكه والتصرف فيه بالحق وباطنًا، يعبر عنه تارة بالروحانية لا انتفائه عن الأبعاد الثلاثة وعن التحيز والتجزؤ في الحس، وتارة بالآخرة لتأخره عن الحس، وتارة بالمعنى لتعريه عن التشكل وبعده عن الحس، وتارة بالغيب لغيبوبته عن الحس، وتارة بالملكوت لملاك عالم الملك والصورة فإن قيام الملك لملكوت وقيام الملكوت لقدرة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، أي من طريق الملكوت والملكوت من الأوليات التي خلقها الله من لا شيء بأمر ﴿كُن﴾ [غافر:68]، وكان الله ولم يكن معه شيء يدل عليه قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185]، فتبه إن الملكوت لم يخلق من شيء، وما سواها خلق من شيء وقد سمي الله ما خلق بالأمر أو ما خلق من الشيء خلقًا فقال: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:54] فالله تعالى أرى إبراهيم ﷺ ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها الدالة على التوحيد. [التأويلات النجمية].

أتم انكشافًا وأكمل إضاءة وإنارة ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الجميع فهي المستحق بالألوهية والربوبية ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ وتغيرت، انكشف إلى نور لا أفول له ولا تغيير، بل هو ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي﴾ بعدما كوشفت بنور الحق وعوينت بوجهه الكريم، تحققت بتوحيده وتمكنت بمقر تجريده وتفريده ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا﴾ جميع ﴿تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78] به من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة الآفلة.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ [الأنعام:79-81].

﴿إِنِّي﴾ بعدما اجتهدت في طريق التوحيد، وبذلت جهدي في مسالكه ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: وجه قلبي الذي هو يلي الحق نحوه بتوفيق منه، وجذب من جانبه وتوجهت ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ قدره وأظهره بلا مادة ومدة ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العالم العلوي والسفلي ﴿حَنِيفاً﴾ مائلاً عن جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَ﴾ بعدما تحققت بما تحققت ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79] بإثبات الوجود لغير الحق بل الوجود منحصر به وما سواه أظلال أوصافه وعكوس تجلياته، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ أي: خاصموا في توحيد الله وقالوا: أنترك ما يعبد آباؤنا بتسويلات نفسك يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي﴾ وتخاصموني ﴿فِي﴾ حق ﴿اللهِ﴾ وتجادلونني في توحيده وتخوفونني بهذه التماثيل الزائفة؟! ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ هَدَانِ﴾ بلطفه إلى مقر توحيده ﴿وَ﴾ بعدما كوشفت بتوحيد الله واستقلاله بالتصرف في مظاهره ﴿لاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ إذ لا نفع منه ولا ضر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ مكروهًا يلحقني من جهتها؛ لأنه من جملة مظاهره إذ ﴿وَسِعَ﴾ وأحاط ﴿رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:80] وتتفكرون؛ لتميزوا بين المظهر والظاهر والعاجز والقادر.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ من ﴿مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ مع أنه لا ضرر يتوقع منه ﴿وَلاَ تَخَافُونَ﴾ أنتم من غضب الله مع ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ﴾ المتوحد بالألوهية المنزه في ذاته عن الشريك والنظير ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ بشركته ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الموحدون أو المشركون ﴿أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾؟ بينوا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:81] أي: من ذوي العلوم والعقول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:82-85].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَ﴾ بعدما آمنوا ﴿لَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي: لم يخلطوا ولم يستروا ﴿إِيمَانَهُم بظُلْمٍ﴾ أي: بخروج عن مقتضى الإيمان والتوحيد ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿لَهُمُ الأَمْنُ﴾ في مأمن التوحيد ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:82] مقصورون على الهداية لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَتِلْكَ﴾ القصة التي سمعت ﴿حُجَّتُنَا﴾ ودليل توحيدنا ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ امتنانًا له وإرشادًا؛ ليغلب بها ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ ومن سنتنا أنَّا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[1] من عبادنا في العلم والحكمة والإيقان والمعرفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها المظهر الجامع ﴿حَكِيمٌ﴾ في رفع درجات بعض عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:83] باستعداداتهم وقابلياتهم.

﴿وَ﴾ من رفعنا إياه ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من محض فضلنا وجودنا ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أي: هدينا كلاً منهما إلى توحيدنا ﴿وَ﴾ كذلك ﴿نُوحاً﴾ هو جد إبراهيم ﴿هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ فيكون إبراهيم وارثًا لهداية نوح، وموروثًا لهداية إسحاق ويعقوب، وهو من

---

(1) قال ابن عجيبة: رفع الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين، وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس، والله تعالى أعلم [البحر المديد (2/169)].

أعظم النعم والهداية ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل جزاء هؤلاء ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:84] مع الله المتشوقين بلقائه.

﴿وَ﴾ هدينا أيضًا ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ و﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام:85] لعناية الله وهدايته.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام:86-90].

﴿وَ﴾ أيضًا هدينا من ذرية إبراهيم ﴿إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة والحكمة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:86] أي: على الناس الموجودين في زمانهم.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ممن لم يبلغ مرتبة النبوة والحكمة فضلنا عليهم بأنواع النعم ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ وانتخبناهم من بين الناس ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:87] موصل إلى توحيدنا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: سبب تقرب هؤلاء الكرام ﴿هُدَى اللهِ﴾ أي: هدايته وعنايته تفضلاً عليهم وامتنانًا ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إرادة واختيارًا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ بالله، هؤلاء المهديون بأن أثبتوا الوجود لغيره ﴿لَحَبِطَ﴾ واضمحل وضاع ﴿عَنْهُم﴾ ثواب ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88] من الخيرات والمبرات، وكانوا في حبوط الأعمال كسائر المشركين، نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الأمناء ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الجامع المبين لهم طريق تهذيب الظاهر والباطن ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الفارق بين الحق والباطل في الوقائع على مقتضى الحكمة الإلهية ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة المقتضية لإهداء التائهين في بيداء الغفلة والضلال

إلى طريق التوحيد ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ المضلون عن طريق الحق يعني قريشًا ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ وبمراعاتها ﴿قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:89] من أهل العناية والتوفيق.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المذكورون من الأنبياء هم ﴿الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ إياهم إلى توحيده تفضلاً عليهم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ إذ مقصد أهل التوحيد واحد، وإن كانت الطريق مختلفة متفاوتة ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل لمن بعثت إليهم كلامًا صادرًا عن محض الحكمة إشفاقًا لهم: ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطمع منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تبيين طريق التوحيد وتبليغ أمر الحق ونواهيه ﴿أَجْراً﴾ جعلاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الغرض من التبيين والتبليغ ﴿إِلاَّ ذِكْرَى﴾ وموعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90] كي يتنبهوا على مبدئهم ومعادهم وما جبلوا أو خلقوا لأجله.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾ [الأنعام:91-92].

﴿وَ﴾ القوم الذين أنكروا بعثك وكذبوا موعظتك ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا ظهوره في الآفاق واستقلاله بالتصرف فيها ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ﴾ لهم تبكيتًا وإلزامًا: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ من عند ربه وكان ﴿نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يستنيرون ويستكشفون منه، ويهتدون به إلى توحيد الله مع أنكم ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ وكانت ألواحًا ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي: تظهرون منها ما يصلح لكم ويعين على مدعاكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ مما لا يصلحكم عنادًا ومكابرة ﴿وَ﴾ كيف تنكرون إنزاله؛ إذ ﴿عُلِّمْتُم﴾ منه ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأمور المتعلقة بالظاهر وبالباطن ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل في الجواب بعدما بهتوا: ﴿اللهُ﴾ إذ هو المتعين للجواب ولا شيء غيره ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ أباطيلهم وأراجيفهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91] يترددون فلا عليك بعد التبليغ والتبكيت.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ جامع لما في الكتب السالفة على أبلغ وجه وآكده مع زيادات شريفة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ إليك يا أكمل الرسل ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركة لك ولمن تبعك ﴿مُّصَدِّقُ﴾ للكتاب ﴿الَّذِي﴾ أحكامه ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: التوراة والإنجيل وجميع الكتب النازلة من عند الله، وإنما أنزلناه ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: جميع أقطار الأرض؛ إذ دُحيت الأرضُ من تحتها على ما قيل لذلك صار قبلة لجميع أهل الأرض، وفرض حجها وطوافها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَ﴾ سبب إيمانهم أنه ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:92] أي: يراقبون ويداومون على الميل والتوجه نحو الحق بجميع شؤونه وتجلياته، ومن جملتها بل من أجلها: إنزال القرآن البالغ على درجات اليقين في تبيين أحوال النشأة الأولى والأخرى؛ إذ هو منتخب منهما على وجه يعجز عنه أرباب اللسن من البشر، ومن له أدنى مسكنة من ذوي العقول لا بدَّ أن يؤمن به وبإعجازه إلا من أضله الله وختم على قلبه.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام:93-94].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال: بعثني الله نبيًا كمسيلمة والأسود العنسي ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَن قَالَ﴾ من كفار قريش: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ولو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ المفترون على الله المكذبون لكتبه ورسله ﴿فِي غمرات الْمَوْتِ﴾ وسكراته وأهواله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ قائمون عليهم ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ كالمتقاضي قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أيها المفترون الكاذبون بأيديكم حتى تخلصوا عن أيدينا واعلموا أن ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ المشتمل على الهوان والمذلة ﴿بِمَا كُنتُمْ

تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:93] عتوًا وعنادًا.

﴿وَ﴾ الآن ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ عارين منفردين عما استكبرتم به من المال والجاه والرئاسة ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عارية عن جميعها ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ابتليناكم به في النشأة الأولى؛ ليكون سبب خيلائكم وبطركم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ﴾ أيضًا ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ معبوداتكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ أي: في إيجادكم وإظهاركم ﴿شُرَكَاءُ﴾ من الآن ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ وانفصل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ﴿وَضَلَّ﴾ أي: غاب وتخفى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:94] أنها شفعاؤكم ينقذكم من عذاب الله.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام:95-98].

قل يا أكمل الرسل للمنكرين البعث والحشر المستبعدين الممتنعين إحياء الأموات من العظام الرفات: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على كل ما أراد وشاء ﴿فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي: الحبة والنطفة ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ﴾ أي: الحبة والنطفة ﴿مِنَ الحَيِّ﴾ أي: الحيوان والنبات ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ المحيي المميت الحي القيوم المستحق للألوهية وللعبودية والربوبية ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:95] تصرفون عنه إلى غيره من الأظلال الباطلة أيها الحمقى.

وكيف تصرفون عنه وهو ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ أي: شاق ظلام الليل بتبلج الصبح لتكتسبوا فيه أقواتكم ومعاشكم ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾ سَكَنًا لتستريحوا فيه من تعب الكد، وهما من أقوى أسباب حياتكم ﴿وَ﴾ أيضًا جعل لكم ولمعاشكم ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[1] ذا أدوار وأطوار مختلفة وأوضاع متفاوتة شتاء وصيفًا ربيعًا وخريفًا تتميمًا

(1) يعني: تجلي شمس الروحانية في طلوع قمر القلب بالحسبان؛ لئلا يفسد القلب والقالب، أيضًا

لأرزاقكم وأقواتكم ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ تدبير وتدوير ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب على جميع صور التدابير والتداوير ﴿الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:96] بنفع التدوير المخصوص والوضع المتعارف لمعاش عباده.

﴿وَ﴾ كيف تصرفون عنه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ لتدبير مصالحكم ﴿النُّجُومَ﴾ الزاهرات مرتكزة في السموات ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ وتوصلوا إلى مطالبكم بسببها حين كنتم تائهين ضالين ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ أي: مفاوزه ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أي: لججه، وبالجملة: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في التصرفات والتدبيرات الواردة في عالم الكون والفساد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:97] يستدلون وينتفعون بها ويتنبهون إلى وحدة موجدها ومصرِّفها.

﴿وَ﴾ أيضًا كيف يصرفون عنه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم بالتجلي الحبي ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي طبيعة العدم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: فكلكم أطوار مختلفة، وشؤون متفاوتة، لبعض قرار واستقرار، ولبعض استيداع واستتار، تتبدلون وتتحولون من حال إلى حال على مقتضى تطوراتها وتجلياتها ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وأوضحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على ألا وجود لغيرنا من الأظلال، والإقرار ولا مراد لها أصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:98] يتأملون ويتدبرون لينكشفوا بكيفية سريان الهوية الإلهية في المظاهر الكونية والكيانية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ

تجلي شمس الربوبية وطلوع قمر الروحانية لليل البشرية بالحساب؛ لئلا يفسد أمر الدين والدنيا على العبد بالتفريط والإفراط، فإن في إفراط طلوع شمس المعارف والشهود آفة «أنا الحق» و«سبحاني»، وفي تفريطه آفة «أنا ربكم»، ودعوى الإلوهية واتخاذ الهوى إلهًا.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:99-101].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء - التفت لئلا يتوهم إسناد الإخراج إلى الماء - ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من أصناف النباتات ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ وهو الساق ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبلة ﴿وَ﴾ أخرجنا ﴿مِنَ النَّخْلِ﴾ طلعها ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ عنقود ﴿دَانِيَةٌ﴾ ملتفة بعضها ببعض ﴿وَ﴾ أيضًا أخرجنا ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَ﴾ كذا أخرجنا ﴿الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ من أشجارهما ﴿مُشْتَبِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي: أنواع مختلفة ﴿انظُرُوا﴾ أيها الناظرون ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر كل من المذكورات ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ حين أخرج أولاً صغيرًا بلا لذة وانتفاع ﴿وَ﴾ انظر إلى ﴿وَيَنْعِهِ﴾ نضجه وبدو صلاحه ونفعه وكبره قليلاً قليلاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99] دلائل واضحات على وجود الفاعل المختار الحكيم، المتقن في فعله بلا مشاركة أحد وممانعة ضد وند، العليم الخبير بتطوراتها وتبدلاتها من حال إلى حال متدرجًا من كمال إلى أكمل، المربي لها في كل مرتبة بما يناسبها ويلائمها على الاعتدال إلى أن يعود إلى ما بدأ.

﴿وَ﴾ مع عجائب صنيعه وغرائب قدرته ﴿جَعَلُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية غفلتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المنزه عن الشريك مطلقًا ﴿شُرَكَاءَ﴾ خصوصًا ﴿الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين فيعبدونهم كعبادة الله ويمتثلون أوامرهم كأوامر الله ﴿وَ﴾ الحال أنهم عالمون بأن الله تعالى قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿وَ﴾ من جملة شركهم أنهم ﴿خَرَقُوا لَهُ﴾ أي: أثبتوا له افتراء ومراء ﴿بَنِينَ﴾ كما قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كما قالت العرب: الملائكة بنات الله، كل ذلك صادر منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومعرفة بذاته المنزه عن الأهل والولد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:100] هؤلاء الظالمون المفرطون، إذ هو:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة وأزواج وأرواح، بل بالتجلي عليها ومد الظل إليها ﴿أَنَّىٰ﴾ أي: من أين ﴿يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وليس غيره أحد ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ والولد إنما يتصور بين المتجانسين ﴿وَخَلَقَ﴾ أوجد وأظهر ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بأظلال أوصافه الذاتية وعكوس شؤونه وتجليات الحية ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ظهر من تجليات صفاته ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 101] لا يخفى عليه شيء.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: 102-105].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذات الأحدية الموصوفة بالصفات الأزلية الأبدية السرمدية المتجلي بالتجليات اللطفية والقهرية ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومربيكم أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو ﴿خَٰلِقُ﴾ ومظهر ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ ظهر من العكوس والأظلال ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فهو المستحق للعبادة والرجوع، وفوضوا أموركم كلها إليه وكيف لا يفوضونها إليه ﴿وَهُوَ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الكوائن والفواسد الحادثة في مظاهره ﴿وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:102] يوليها ويصرفها كيف يشاء حسب قدرته وإرادته.

وإن كان ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ من غاية ظهوره وجلائه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ القاصرة عن إبصار نوره ﴿وَ﴾ كيف تدركه الأبصار ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿يُدْرِكُ﴾ ويبصر ﴿ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ومبصر الأبصار لا يبصره الأبصار ﴿وَ﴾ كيف يبصر ﴿هُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ الرقيق المنزه عن المجازاة والمقابلة والانطباع والمحاكاة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾[1] [الأنعام:103] هو كيف يخبر عنه،

(1) قال أبو سليمان: اللطيف: هو البر بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى:19]، وقيل: هوالذي يوصل إليك إربك في رفق، ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية، انتهى. وقال سيدي محمد القونوي - قدس الله سره: اللطيف سريانه. في أفعاله الموجودات، أي باعتبار أنه الفاعل لها، واختفاءه لطائف حكمته في مظاهر الكائنات، هو الذي يسر كل عسير، ويجبر كل كسير، اعلم أن حقائق هذا الاسم وأسراره عمّت مراتب الوجود، واللطيف مأخوذ من اللطف، وهو الخفاء، وأغرب أمثلته، خفيات ألطافه، مد الظل وقبضه، فإن البصر لا يدرك غير امتداده وانقباضه، حالاً بعد حال، ولا قدرة له على شهود حركته المحسوسة على الدوام، فضلاً عن شهود حقيقة خروجه عن الأصل الحقيقي ورجوعه إليه، فإن الظل إذا أخذ في الامتداد، يخرج من ذات الشخص، وكذلك إذا انقبض لا ينقبض إلا ما منه خرج، هذا

وبالجملة: ما يرى الله إلا الله، وما يخبر عنه إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ وحصل عندكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿بَصَائِرُ﴾ شواهد وكواشف ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم وأظهركم عليها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ شهد وانكشف بها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: عاد نفعه إليها ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ واحتجب ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي: وبالها عائد عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:104] رقيب مصرف بل منه مبلغ، والحفظ بيد الله، والتصرف بقدرته، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك المذكور ﴿نُصَرِّفُ﴾ ونكرر ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا رجاء أن يتنبهوا فلم يتنبهوا ﴿وَ﴾ غاية أمرهم أنهم ﴿لِيَقُولُوا﴾ لك يا أكمل الرسل: ﴿دَرَسْتَ﴾ تعلمت هذه الأساطير الكاذبة القديمة من

شهادة العين. وقال الحق عز شأنه: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: 46]؛ إشارة إلى أن ما يخرج منه هو الحق سبحانه، ظهر من حيث تجليه بصورة فيه، فظل يبرزه تارة ويقبضه أخرى، وكما أضاف القبض إلى نفسه، كذلك أضاف الامتداد إليه، بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [الفرقان:45] الآية، وهذا من ألطف الإشارات، فإن العين تدركه، وتشهد حركة الامتداد وانقباضه من ذات، انكشف أنها هي حقيقة من لطائف تصرفات القوي اللطيف، وكذلك قوله: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء:80]؛ إشارة إلى سريان هذا اللفظ الإلهي، الذي هو كسريان نور الشمس في أجزاء الجو؛ إذ امتزاجها بحيث لا تقع الإشارة إلى الهوى إلى النور، وكذلك سبب اختفاء الذات المتعالية سعة ظهوره واحتجابه عن الإدراكات بسبحات نوره، انتهى. وقال الجيلي - قدس الله سره - في «الكمالات الإلهية»: اسمه اللطيف تعالى، هوالذي امتنع إدراكه بالأبصار، وتنزه عن المكان، فلا يتحيز في الجهات والأقطار، وتعالى عن الحد، فلا تعرفه العقول بالفهوم والأفطار، وهو مع ذلك أقرب إلى الأشياء من ذواتها، وأظهر عليها من صفاتها غاية الإظهار، وهذا الاسم اسم صفة إلهية بهذا الاعتبار، ولهذا الاسم اعتبار آخر، وهو أن اللطيف هو الذي يسرع بكشف الغمة عند حلول النقمة، ويصبح بإزاء النعمة من حيث لا تتوفقها الغمة؛ وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «إن لله في طرفه عين نظر لطف إلى خلقه»، فهذا الاعتبار اسمه اللطيف من أسماء صفات الأفعال، وصفته اللطف، وهو عبارة عن سريان الرجمة بأنواع الإغاثة والنعمة من غير امتناع، وبالاعتبار الأول: أن اللطف عبارة عن غموض أعلم به من حيث يحصل امتناع معرفته على الحقيقة؛ للطافتها عن مدارك الفهوم، وتنزهها عن مبلغ غايات العلوم أ.هـ

أهل الكتاب ﴿وَ﴾ مع كونه ما نصرفها ونكررها إلا ﴿لِنُبَيِّنَهُ﴾ ونوضحه إلى التوحيد الذاتي المدلول عليه بتصريف الآيات والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:105] يستدلون بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة الصانع الحكيم، وإن انصرفوا عنكم ولم يقبلوا منك ما جئت به من الآيات، اتركهم وحالهم.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام:106-109].

﴿اتَّبِعْ﴾ أنت ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن﴾ توحيد ﴿رَّبِّكَ﴾ بأن ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:106] واتركهم وشركهم بعدما تحققت وتمكنت في مقر التوحيد.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده عدم إشراكهم ﴿مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ مصرفًا بل مبلغًا منبهًا ﴿وَمَا أَنتَ﴾ أيضًا ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:107] تشفع لهم وتقوم بأمرهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ أي: لا تذكروا بالمساوئ والمقابح أيها المؤمنون الموحدون أصنام ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون؛ أي: المشركون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إذ هم من جملة المجالي والمظاهر لله مع أنكم إن تسبوهم وآلهتهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ من غاية جهلهم وحميتهم فتكونوا سببًا لسب الله ﴿عَدْوًا﴾ تجاوزًا عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بمآله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تزيننا لكم دينكم وإلهكم وعملكم ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وإلههم سواء كان حقًا أو باطلاً؛ إذ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:53] ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:108] أي: يجازيهم على مقتضى ما عملوا من خير وشر وإيمان وكفر.

﴿وَ﴾ من غاية نفاقهم واستهزائهم معك يا أكمل الرسل وتهكمهم بما جئت به

من الآيات ﴿أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: مغلظين فيها مؤكدين لها تهكمًا ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ البتة وبك أيضًا ﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا خاليًا عن وصمة الكذب: ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ﴾ ونزولها وإنزالها ﴿عِندَ اللهِ﴾ وبقبضة قدرته وليس في وسعي وطاقتي شيء منها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ويظهر لكم أيها المؤمنون الطالبون لإيمان هؤلاء الكفرة، وأنتم تتفرسون من مظاهر حالهم لو تأملتم في شأنهم ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ جميع مقترحاتهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:109] بها البتة؛ إذ طبع الله على قلوبهم بالكفر والنفاق.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿110﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿111﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿112﴾﴾ [الأنعام:110-112].

﴿وَ﴾ كيف يؤمنون بها؛ إذ ﴿نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن الميل إلى الحق مطلقًا ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن إحساس شواهده وعلاماته ﴿كَمَا﴾ قلبناها حيث ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بما جاء به من الحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إذ لا تفاوت بين حقية الآيات سواء كانت مقترحة أم لا ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نمهلهم وندعهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: ضلالهم المجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110] يتحيرون ويترددون إلى أن نأخذهم وننتقم منهم.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ﴾ كما اقترحوا ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم وأوصاهم بالإيمان ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ كفلاً يرشدونهم إلى الإيمان ﴿مَّا كَانُوا﴾ ليؤمنوا؛ إذ ختم الله على قلوبهم بالكفر في سابق علمه ﴿لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ إيمانهم أيضًا في قضائه السابق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111] عن قضاء الله ومشيئته فيتمنون إيمانهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما جعلنا لك يا أكمل الرسل عدوًا ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ يعاديهم ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ بالمظاهرة والمعاونة؛ إذ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ أي: أباطيله وأراجيفه ﴿غُرُورًا﴾ ليقلدوا ضعفاء

الأنام على مخاصمة الأنبياء ومعاداتهم، ويظهروا عليه بتغرير بعضهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: هذا الغرور والقول المزخرف المموه، وبالجملة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وكفرهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:112] ويزخرفون بسبب غرورهم وزخرفتهم.

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام:113-116].

﴿وَلِتَصْغَى﴾ ولتميل ﴿إِلَيْهِ﴾ وتوجه نحوه ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ما يزخرفون به لكون جبلتهم عليه ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ ويكتسبوا بسببه ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:113] مكتسبون من العقائد الزائفة والآثام.

قل لهم إن أرادوا أن يتصالحوا ويتحاكموا معك بعدما ظهر لك تنسيبهم وتغريرهم إنكارًا عليهم: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ﴾ المستقل بالحكومة والتصرف ﴿أَبْتَغِي﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ عادلاً يفصل بيني وبينكم أيها المعاندون المكابرون ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ مبينًا موضحًا مغنيًا عن التحاكم والترافع ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ أي: علمه إن أنصفوا، ولم يعاندوا ولم يكابروا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا بشهادة كتبهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا ميل إلى الباطل أصلاً ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114] في أنهم عالمون بحقية القرآن وموافقته لكتبهم، إلا أنهم يكابرون في تحريف كتبهم، ويعاندون بادعاء تكذيب القرآن ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: انتهت وتناهت، وبلغت الغاية القصوى بيان كلمة التوحيد برسالتك يا أكمل الرسل؛ إذ ظهرت في تبيينها وكشفها بما لا يظهر به أحد من الأنبياء؛ إذ الأنبياء إنما يظهرون توحيد الصفات والأفعال دون توحيد الذات، وأنت تظهر به حيث ورد في شأنك: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80]، و﴿إِنَّ

﴿الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ﴾ [الفتح:10].

وقلت: «من رآني فقد رأى الحق»[1].

وقلت أيضًا: «رأيت ربي في ليلة المعراج»[2]، وغير ذلك من الآثار والأخبار الدالة على التوحيد الذاتي.

لذلك أتممت مكارم الأقوال والأخلاق ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ومتى تمت وبلغت ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ ولا محول ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾ إذ ختم وتم أمر الرسالة والنبوة وسد باب الوحي ﴿وَ﴾ بعد ذلك ظهر أنه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:115] بشؤونه وتجلياته إلى ما شاء الله.

﴿وَ﴾ متى تحققت يا أكمل الرسل بمقام الشهود والمشاهدة ﴿إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ المتوحد بالذات والصفات والأسماء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون ويقتفون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الفاسد والوهم الكاسد، والظن لا يغني عن الحق الصريح شيئًا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي: ما هم في ظنونهم الكاذبة وأوهامهم الباطلة في الاعتقادات والأحكام ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:116] يخلطون ويلبسون على نفسهم حسدًا وعنادًا.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام:117-120].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ من أصحاب التقليد ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:117] من أرباب الشهود والمكاشفة لا يفيد تغريرهم وإضلالهم.

---

(1) رواه البخارى (2568/6، رقم 6595)، ومسلم (1776/4، رقم 2267)، وأحمد (306/5، رقم 22659).

(2) تقدم تخريجه.

وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الهداية والإضلال بيد الله لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا بتحريم المباح وتحليل الحرام ﴿فَكُلُوا﴾ أي: من الأزواج الثمانية وما يشبهها ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ عند ذبحه مستبيحين محللين على أنفسكم ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:118] وبأحكامه مصدقين ممتثلين.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأي شيء عرض لكم ويمنعكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ ربكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾ [المائدة:3].

فعليكم ألّا تأكلوا المحرمات ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ حينئذ يباح لكم منها مقدار سد جوعة ﴿وَإِنَّ كَثِيراً﴾ من الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ في أنفسهم ويضلون غيرهم من الضعفاء بتحليل المحرمات، وتحريم المحللات بلا سند شرعي ﴿بِأَهْوَائِهِم﴾ الباطلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بما عند الله فلا تتبعوا ولا تقتفوا أثرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام:119] المتجاوزين عن حدوده بمتابعة أهوائهم الفاسدة فيجازيهم على مقتضى علمه.

﴿وَذَرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿ظَاهِرَ الإِثْمِ﴾ أي: الإقدام عليه والاتصاف به ﴿وَبَاطِنَهُ﴾[1] أي: أخطاره وإجراءه على القلب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ﴾ ويميلون إليه متلذذين ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:120] أي: بمقدار ما يتلذذون.

---

(1) المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم، والحرج، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده. فنهى الله عباده، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن،والعلم بذلك واجبا متعينا على المكلف، وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب،كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة، ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة،وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته. انظر [تفسير السعدي (1 /271)].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام:121-123].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ حين ذبحه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: أكلكم منه ﴿لَفِسْقٌ﴾ خروج عن حكم الله بمتابعة أهل الأهواء الضالين عن طريق الحق بوسوسة الشياطين، ولا تغفلوا من وسوستهم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يلقون ويوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من أهل الأهواء ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون حتى يضلوكم عن طريق الحق سيما في المآكل والمشارب ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121] لأنه من أطاع غير الله فقد أشرك به.

﴿أَوَ مَن كَانَ﴾ منكم ﴿مَيْتًا﴾ بالجهل والكفر ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالمعرفة والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ هاديًا منيرًا كان ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ وصفه وشأنه ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتزاحمة وهي ظلمة الجهل والكفر والعصيان، واعتقاده أنه ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لعدم تناهيها فأنقذه الله من ظلمة الضلالة بنور الهداية وهداه إلى صراط مستقيم هو الإسلام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تزيين الإيمان للمؤمن ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122] من الكفر والعصيان.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما جعل في مكة أكابر وصناديد يجرمون فيها جرائم عظيمة ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي: قدرنا فيها ﴿أَكَابِرَ﴾ كانوا ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ ومترفيها ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بأنواع المكر والحيل ليضلوا ضعفاء العوام ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هؤلاء الماكرون ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:123] لقساوة قلوبهم وشدة عمههم.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام:124-127].

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم ونهاية قسوتهم ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ هادية لهم إلى سبيل الرشاد ﴿قَالُوا﴾ من غاية بغضهم وعنادهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ من يدعي أنهم ﴿رُسُلُ اللهِ﴾ إذ نحن وهم سواء في البشرية وأولى منهم في الرئاسة والنسب، فكيف يؤتى لهم ولم يؤتَ إلينا؟ قل لهم يا أكمل الرمل: الوحي والإيتاء بيد الله يؤتي من يشاء ويمنع ممن يشاء؛ إذ ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ لا يعتبر عنده الرئاسة والنسب بل تفضلاً على من تفضل من عباده بلا التفات إلى نسبه وحسبه بقدر قابليته واستعداده، المقدر له من عنده في سابق علمه، ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:70] ويقولون إذ ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ مغرورين على رئاستهم وجهلهم ونسبهم ﴿صَغَارٌ﴾ مذلة وهوان ﴿عِندَ اللهِ﴾ حين إحضارهم الحساب والجزاء ﴿وَ﴾ بعدما كشف حالهم وحسابهم لهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124].

وإذا كان الأمر بيد الله من عنده ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ إلى توحيده ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ أي: يفسحه ويوسعه ﴿لِلإِسْلامِ﴾ أي: التفويض والاستسلام إلى حيث رضي بجميع ما قضي له، ومتى رضي بالقضاء يسع الحق فيه فيستولي عليه فيغنيه عن هويته ويبقيه ببقائه السرمدي ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ عن فسحة توحيده ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ الذي من شأنه أن يسع الحق فيه ﴿ضَيِّقًا﴾ ضنكًا ﴿حَرَجًا﴾ في غاية الضيق باستيلاء لوازم الإمكان عليه، إلى حيث تضيق الأرض عليه فيتمنى الصعود إلى عالم الأسباب ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يطلب الصعود إلى السماء، ومن غاية احتياجه واضطراره، وهذا مثل يضرب به لمن ضاق عليه طرق معاشه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كحال من اضطر إلى الصعود نحو السماء ﴿يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ أي: خذلان الإمكان والحرمان في النشأة الأخرى ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:125] بتوحيد الله وسعة لطفه وجوده.

﴿وَهَذَا﴾ أي: ما أنزلنا إليك يا أكمل الرسل من القرآن المبين لطريق المعرفة

والإيقان ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيها أصلاً موصلاً إلى توحيده ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وأوضحنا فيما أنزلناه إليك ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 126] يتعظون بها ويتذكرون مبدأهم الذي ينشئون منه ويظهرون عنه وهو الوحدة الذاتية.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾ أي: مقام التفويض والاستسلام ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بعدما تحققوا بتوحيده ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿وَلِيُّهُم﴾ ومولى أمورهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:127] أي: بجميع ما كانوا يعملون من الأعمال؛ إذ هو سمعهم وبصرهم ويدهم ورجلهم وجميع جوارحهم التي صدرت عنها أعمالهم على ما نطق الحديث القدسي صلوات الله وسلامه على قائله.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) ﴾ [الأنعام:128-129].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما يتأتى منه الإطاعة ويتوجه إليه التكليف من الثقلين قابلين عليهم منادين لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ أي: الشياطين ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم﴾ أي: استتبعتم بأن أضللتم وأغويتم كثيرًا ﴿مِّنَ الإِنسِ﴾[1] بإيقاعهم إلى المعاصي والمهالك والخروج عن مقتضى أوامرنا ونواهينا، وإغرائهم إلى مستلذات نفوسهم ومقتضيات شهواتهم ﴿وَ﴾ بعدما سمع الإنس هذا النداء ﴿قَالَ أَوْلِيَاؤُهُم﴾ أي: أولياء الجن ومتابعهم ﴿مِّنَ الإِنسِ﴾ متذللين متحسرين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم فكفرناك بمتابعة هؤلاء الغواة فإن ظهر الحق واضمحل الباطل نحن نقر بما جرى بيننا وبينهم ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ منهم بإغوائهم وإغرائهم إلى خلاف ما أمرتنا عليه بألسنة رسلك، وبعضهم استمتع ببعضنا بالموالاة

---

(1) يشير إلى أنه تعالى حشر وجمع الجن وهي صفة الشيطانية والإنس، وهي النفس الإنسانية وصفاتها في موقف القالب البشري بحكمة بالغة وقدرة كاملة ويحيطها بقوله: يا معشر الجن إلى الصفات الشيطانية قد استكثرتم من الإنس؛ أي: قبلتم على الصفات الإنسانية، وأضللتموهم عن طلب الحق وهو الصراط المستقيم إلى الله الذي خلق الإنسان للعبور عليه والوصول إلى الحق، ومن شأنه إقعاد الإنسان عن هذا الصراط. [التأويلات].

والمتابعة ﴿وَبَلَغْنَا﴾ الآن ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ على ألسنة رسلك فالآن جئناك خائبين خاسرين ﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال: الآن انقرض دار الابتلاء ومضى زمان الاهتداء ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ جميعًا؛ أي: تابعيكم ومتبوعيكم مؤبدًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ وقتًا ينقذهم منها؛ لئلا يتعودوا بعذابها ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:128] بمقدار جزاء العصاة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل قول أولياء الإنس والجن ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضاً﴾ منه ليفتضحوا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:129] من المظاهر بتغرير بعضهم بعضًا.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١) وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ (١٣٢) ﴾ [الأنعام:130-132].

﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ المفتضحين على رءوس الأشهاد ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ غلب الإنس على الجن؛ إذ ليس يبعث من الجن نبي بل من الإنس إلى الثقلين ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ ويدعونكم إلى توحيد ذاتي وأوصافي وأفعالي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يوم القيامة والجزاء ﴿قَالُوا﴾ مضطرين معترفين: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ يا ربنا بالجرم والعصيان بعدما ظهر الأمر وانكشف الحجاب، وصرنا مستحقين بالعذاب والنكال ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بحيث لم يبالوا بما جاءهم من عند ربهم لإهدائهم بل يكذبونه ويستهزئون به ﴿وَ﴾ أدى عاقبة أمرهم في عتوهم وعنادهم إلى أن ﴿شَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:130] مستحقين بأنواع العقوبة والعذاب.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو ليتنبهوا وينتبهوا؛ أي: العصاة على ما هم عليه والسر في الإرسال ﴿أَن﴾ أي: لأن ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ﴾ أي: بسبب ظلم صدر عنه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[1] [الأنعام:131]

(1) عن إنذار رسل الإلهامات الربَّانية، وذلك أن الاستعداد الروحاني لا يفسد استيفاء حظوظ

عن طريق الحق بلا تنبيه منبه وإرشاد مرشد نبيه، وعلِّم من تبعك من المؤمنين.

﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل وذكرهم أن ﴿لِكُلٍّ﴾ من أهل التكليف ﴿دَرَجَاتٌ﴾ عند الله حاصلة لهم ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ عن الصالحات ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:132] لمقتضى التكاليف التي كلفهم بها.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)﴾ [الأنعام:133-135].

﴿وَ﴾ الحال إن نفعه عائد إليهم؛ إذ ﴿رَبُّكَ﴾ هو ﴿الْغَنِيُّ﴾ بذاته عنهم وعن أعمالهم بالمرة صالحًا أو فاسدًا بل هو ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على من عمل بمقتضى التكليف امتنانًا عليه وتفضلاً بلا احتياج له سبحانه إليهم وإلى عملهم بل ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس الناسون حقوق ألوهيته وتوحيده والتكاليف الواقعة في طريقه ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ ممن يعمل على مقتضى تكاليفه ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام:133] قرنًا بعد قرن، بطنًا بعد بطن مع أنه يترحم عليكم ويبقيكم تفضلاً وامتنانًا.

قل لهم يا أكمل الرسل تنبيهًا عليهم: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلفون من الحشر والنشر والجزاء ﴿لَآتٍ﴾ كامن ثابت لا محالة، واعملوا على مقتضى ما كلف به ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:134] أي: عاجزين عن الإتيان بالأمور حتى لا تؤاخذوا بترك التكاليف ولا تعذبوا به؛ إذ لا تكلف نفس إلا وسعها.

الحيواني في الطفولية، إلا بعد أن يصير العبد مستعدًا لقبول فيض العقل وفيض الإلهام عند البلوغ، فيخالف الإلهامات ويتبع الهوى، فيفسد بذلك حسن الاستعداد لقبول الفيض الإلهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26]، وهذا كما أنه تعالى لا يعذب قومًا بلغهم الدعوة حتى يبعث فيهم رسولاً، فيخالفونه فيعذبهم بها،وقد عبَّر لسان الشرع عن هذا المعنى، بأنه لا يجري عليه قلم تكاليف الشريعة إلا بعد البلوغ بالأوامر والنواهي؛ لأنه أواني ترقي الروح باستعمال المأمورات، ونقصانه باستعمال المنهيات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾. [التأويلات].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على طريق الترحم والتحنن إرخاء العنان مبالغة في التعريض: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ من المعاصي ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ مقدار مكنتكم وطاقتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضًا من الصالحات المأمورة علي بمقتضى مكنتي وطاقتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين انكشف الحجب وارتفع الغشاء ﴿مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: العاقبة الحسنى التي تترتب على هذه الدار؛ أي: أينا نفوز بها إنا أو أنتم؟ ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:135] الخارجون عن حدوده بمقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾ [الأنعام:136-137].

﴿وَ﴾ من جملة أهويتهم الباطلة أنهم ﴿جَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ برأ وخلق ﴿مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا﴾ المعين المفروز ﴿لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ أي: آلهتنا وشفعائنا ﴿فَمَا كَانَ﴾ من أموالهم يفرز ﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾إن كان جيدًا طيبًا ﴿فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾ ولا يتجاوز عن شركائهم ﴿وَمَا كَانَ لِلهِ﴾ إن كان جيدًا ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ بأن استبدلوها بالرديئ الذي كان لشركائهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136] هؤلاء الجاهلون؛ لأن فعلهم واختيارهم هذا إنما هو تفضيل المفضول المترذل على الأصل الأفضل.

روي أنهم كانوا يعينون في حرثهم ونتاجهم لله، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئًا منها لآلهتهم وينفقونها إلى سدنة آلهتهم وخدامهم، ويذبحون عندها ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى؛ بدلوه بما لآلهتهم من الرديئ، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حبًا لآلهتهم، وهذا مما اخترعوه من تلقاء أنفسهم وإن افتروا إلى كتبهم ترويجًا وتغريرًا.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل قسمتهم في القربات والصدقات ﴿زَيَّنَ﴾ حبب وحسن ﴿لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ أي: آلهتهم الذين يعبدونهم من دون الله من الشياطين، وما ذلك التزيين والتحسين إلا ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ويضلوهم

بالإغواء عن طريق الحق ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ ويخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الذي وجب عليهم الانقياد والإطاعة ليصلوا إلى طريق التوحيد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ الهادي لعباده هدايتهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما قبلوا ما زينوهم ولبسوا عليهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:137] أي: جانب عنهم وعن افترائهم إلى أن نأخذهم وننتقم عنهم.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام:138-139].

﴿وَ﴾ من جملة ما اخترعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوها إلى الله وإلى كتابه ترويجًا أنهم ﴿قَالُوا هَٰذِهِ﴾ المعينة المفروضة ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حرام ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ﴾ إطعامه؛ يعنون سدنة الأوثان وخدمتهم من الرجال دون النساء، فإنها يحل عليهم ويحرم على غيرهم وما هي إلا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الفاسد بلا حجة نقلية وعقلية ﴿وَ﴾ أيضا قالوا: هذه ﴿أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأراد البحائر والسوائب والحوامي، ﴿وَ﴾ قالوا أيضًا: هذه ﴿أَنْعَامٌ﴾ معدة للتجارة والحمل والظعن ﴿لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ أي: لا يركبونها للحج، كل ذلك من مخترعاتهم التي يخترعونها من أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ويفترون ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ سبحانه بلا سند لهم نازل من عنده ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ الله ويعذبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:138] أي: بسبب بافترائهم عليه.

﴿وَ﴾ من جملة مفترياتهم ومخترعاتهم أنهم ﴿قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: البحائر والسوائب إن كانت حيًا فهي ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ مخصوصة مستحلة لهم ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ لا نصيب لهن فيه ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: وإن يخرج ميتة ﴿فَهُمْ﴾ أي: الذكور والإناث ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ بلا تفاوت وخصوصية ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: سيجزيهم الله على وصفهم، وتفصيلهم هذا افتراء عليه ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في جزاء المفترين ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:139] بمقدار جزائهم.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ

وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأنعام:140-142].

﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة مؤبدة الأعراب ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا﴾ مخافة سبي وإملاق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم بما يؤول أمرهم عليه، ولاشك أن الرازق لعباده هو الله لا هم ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿حَرَّمُوا﴾ على نفوسهم ﴿مَا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ وأباح عليهم من البحائر والسوائب وغيرها ونسبوا تحريمها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللهِ﴾ هوى وميلاً إلى الباطل، وبالجملة: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الجرائم عن طريق الحق ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 140] إلى توحيده وما يرجى منهم الهداية والفلاح أصلاً.

﴿وَ﴾ كيف تضلون عن طريق الحق أيها الجاهلون المسرفون مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ لكم لمعاشكم في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مرتفعات من الأرض ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾[1] ملقيات على وجه الأرض ﴿وَ﴾ أنشأ لكم أيضًا﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي: أكمل كل واحد منهما رطبًا ويابسًا ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ بل مختلف في الشكل والطعم ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: ثمر كل واحد من المذكورات حيث شئتم ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ﴾ أي: أخرجوا حق الله منه على الوجه المفروض ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ إدراكه وبدو صلاحه ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ في الأكل إلى حيث تقسى قلوبكم ويكل إدراككم ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: الإشارة فيها: إن الله تعالى عرّف ذاته بصفاته، وقال:﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾؛ بساتين في الظاهر كما مرّ ذكره في المعاني، وبساتين في القلوب، مغروسات وغير مغروسات، كما هي قراءة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه وﷺ - فالمغروسات: لمغرسة الله تعالى في أرض القلوب من شجرة الإسلام والإيمان والإحسان، وما يتعلق بصفات الحق تعالى، كما قال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:42]، وغير المغروسات: هي أشجار من صفات الروحانية، التي جبلت القلوب عليها مثل: السخاء والحياء والوفاء والمروة والفتوة والشفقة والعفة والحلم والعلم والعقل والشجاعة والقناعة وأمثالها، فإن بساتين القلوب بها موفقة، وشموس الأسرار منها مشرقة، وأنهار المعارف فيها زاخرة، وأزهار الشواهد عنها زاهرة.

[الأنعام:141] أي: لا يرضى عنهم وعن فعلهم؛ إذ الأكل إنما هو لقوام البدن وتقوية الروح على فعله، وإسرافه يفضي إلى التعطيل والتكليل المخل للحكمة الإلهية.

﴿وَ﴾ إنشاء لكم أيضًا ﴿مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ تحملون أثقالكم يوم ظعنكم ﴿وَفَرْشاً﴾ تفرشون من أصوافها وأشعارها وأوبارها المنسوجة تحتكم يوم إقامتكم ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ وأباحه عليكم منها ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا﴾ أثر ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تسمعوا وساوسه في تحليل المحرمات وتحريم المباحات؛ يعني: لا تتبعوا أهويتكم التي هي من جنود الشياطين ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:142] ظاهر العداوة فاجتنبوا من إغوائها.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام:143-144].

واعلموا أيها المؤمنون أن الله سبحانه أباح لكم من الأنعام ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الكبش والنعجة وما يتولد منهما ﴿وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز أيضًا كذلك ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن يدعي التحريم في تقدير الجنس إلزامًا وتبكيتًا: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ الكبش والتيس ﴿حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ أي: حرم ما في بطن الأنثيين من هذين الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ﴿نَبِّئُونِي﴾ أخبروني أيها المدعون تحريم شيء منها ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بمقدمة معلومة عندكم من نقل ونص دال على أن الله حرم شيئًا من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 143] في دعوى التحريم.

﴿وَ﴾ أيضًا أباح لكم ربكم أيها المؤمنون ﴿مِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ يعني: لم يحرم أيضًا شيئًا منهما ولا ما في بطنهما ذكرًا كان أو أنثى ﴿أَمْ﴾ تدعون أيها المدعون أنكم ﴿كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضراء ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ﴾ أي: حين وصاكم الله ﴿بِهَذَا﴾ التحريم؛ لأنه ما أخبر به نبي وما جاء به كتاب، فبقي أن تدعوا الحضور عنده سبحانه وأنتم أيها المفترون من

المردودين المطرودين عن ساحة عز حضوره سبحانه، وما من الأمر تسويلات نفوسكم وتلبيسات شياطين أوهامكم وخيالاتكم تفترونه على الله ظلمًا وزورًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ عن طريق الحق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نص ونقل وارد نازل من عند الله بل من تلقاء نفسه تلبيسًا وتخليطًا لضعفاء العوام ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع بمخايل المفسدين ﴿لاَ يَهْدِي﴾ إلى طريق صراط توحيده ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:144] المفترين عليه بأمثال هذه المفتريات الزائغة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام:145-146].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على مقتضى ما أوحينا إليك: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: في القرآن الجامع لأحكام الكتب السابقة المستحضر لها ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعامًا حرمه الله ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ بل أجد كل ما يطعم حلالاً؛ إذ الأصل في الأشياء الحل ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ مات حتف أنفه بلا زكاة ﴿أَوْ دَماً مُّسْفُوحًا﴾ سائلاً جاريًا مفروزًا عن اللحم ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ نجس في نفسه لا يقبل الزكاة أصلاً ﴿أَوْ﴾ ما يذبح من المحللات ﴿فِسْقًا﴾ خروجًا عن مقتضى الشرع بأن ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ حين ذبحه من أسماء الأصنام وغيرها، وما سوى هذه المستثنيات المذكورة فهو مباح ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أيضًا إلى تناول تلك المستثنيات حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارج على أهل الإسلام ظلمًا ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوز عن سد الجوعة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لمن تناولها ضرورة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:145] لا يؤاخذه عليها بل إن لم يتناول في محل الاضطرار، وهلك كان عاصيًا البتة؛ لأنه تخريب لبيت الله وإبطال لصنعه بعدما رخص.

﴿وَ﴾ إن سألوك يا أكمل الرسل عن محرمات الأمم الماضية قل لهم نيابة عنا: ﴿عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وحافر يمكن أن يخرج معها ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ من الشحوم ﴿ظُهُورُهُمَا﴾ وهي الثروب وشحوم الكلى ﴿أَوِ﴾ حملتها ﴿الْحَوَايَا﴾ أي: الأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ﴾ من الشحوم ﴿بِعَظْمٍ﴾ كالألية ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحريم هذه الأشياء، وإن كان الأصل في الأشياء الحل

والإباحة مطلقة بسبب أنا ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ بها وظلمهم وخروجهم عن حدودنا بلا ورود نص منا ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:146] في جميع ما أوحينا إليك من الأقوال والأخبار والمواعيد والوعيدات.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:147-149].

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وعاندوك فيما تلونا عليك ﴿فَقُل﴾ لهم إمحاضًا للنصح على مقتضى مرتبة النبوة: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على ما أنتم عليه ويوسع عليكم على مقتضى رحمته وجماله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ وبطشه على مقتضى غيرته وحميته وجلاله ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:147] الذين أجرموا على الله بالخروج عن مقتضى أحكامه النازلة على ألسنة رسله.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على سبيل التكذيب والإنكار فيما جئت به: و﴿لَوْ شَاءَ اللهُ﴾ ما أنت ترويه عنه وتدعيه بالنسبة إلينا ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ مع أنه القادر على جميع ما أراد ﴿وَلاَ﴾ أشرك ﴿آبَاؤُنَا﴾ أيضًا ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مما أجزت تحريمه عنه بالنسبة إلينا بل ما هي إلا مفتريات تخترعه من عندك ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل تكذيبهم لك بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم واستأصلناهم بتكذيبهم، وإن أردت إلزامهم وتبكيتهم ﴿قُلْ﴾ لهم مستفهمًا: ﴿هَلْ﴾ حصل ﴿عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ نقل صريح وحجة واضحة موردة من عند الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ وتظهروه حتى نتبعه، ونقبله؟ فإن لم يخرجوا فقل لهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[1] [الأنعام:148] تكذبون على الله افتراء ومراء، فأعرض عنهم ودع

(1) تكذبون على الله تعالى وقد تقدم الكلام في حكم اتباع الظن على التفصيل فتذكر قل فلله خاصة الحجة البالغة أي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الاثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه كعيشة راضية والمراد بها في المشهور الكتاب والرسول والبيان، وقال شيخ

مجادلتهم ومخاطبتهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما ألزموا وأفحموا: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾ البينة الواضحة ﴿الْبَالِغَةُ﴾ حد الكمال ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:149] أي: لأوضح حجته عليكم ووفقكم إلى قبوله، ولكن لم تتعلق مشيئته على هدايتكم لذلك أصررتم واستكبرتم، وإذا لم ينتبهوا بعد إلقاء حجة الله عليهم بل أصروا على تقليد أحبارهم.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام:150-151].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي: أحضروا أحباركم ﴿الَّذِينَ

مشايخنا الكوراني: الحجة البالغة إشارة إلى أن العلم تابع للمعلوم وأن إرادة الله تعالى متعلقة باظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة جودا ورحمة لا وجوبًا وهي من الحج بمعنى القصد كأنها يقصد بها إثبات الحكم وتطلبه أو بمعنى الغلبة وهو المشهور والفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أن لا حجة لكم قل فلله الحجة فلو شاء هدايتكم جميعا لهداكم أجمعين، بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية البعض الصارفين اختيارهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوه إلى خلاف ذلك، وقال الكوراني: المراد لكنه لم يشأ إذ لم يعلم ان لكم هداية يقتضيها استعدادكم بل المعلوم له عدم هدايتكم وهو مقتضى استعدادكم الأزلي الغير المجعول وهذا تحقيق للحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به وفائدة ارسال الرسل على القول بالاستعداد تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشيء من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين وقد أشرنا الى ذلك من قبل فتذكر وذكر ابن المنير وجها آخر في توجيه ما في الآية وهو أن الرد عليهم انما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم وأن اشراكهم انما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد الله تعالى قولهم في دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم وشبهتهم بمن اغتر قبلهم بهذا. انظر [روح المعاني (8 /51)].

يشهدون أن الله حرّم﴾ في كتابه ﴿هذا﴾ أي: ما ادعيتم تحريمها.

﴿فإن شهدوا﴾ بعدما حضروا افتراء على كتاب الله ﴿فلا تشهد﴾ يا أكمل الرسل ﴿معهم﴾ ولا تقبل شهادتهم ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ ونسبوا إليها ما هي خالية عنها ﴿و﴾ اعلم يا أكمل الرسل أن ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ولا بالمجازاة والمكافأة مطلقًا، ولا يبالون من أفعال هذه المفتريات الباطلة ﴿وهم﴾ من غاية جهلهم ﴿بربهم﴾ الذي رباهم بأنواع الكرم ﴿يعدلون﴾ [الأنعام:150] يشركون ويجعلون له عديلاً، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿قل﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة: ﴿تعالوا﴾ أيها التائهون في بيداء الضلال ﴿أتل﴾ وأعد لكم ﴿ما حرم ربكم عليكم﴾ في نشأتكم الدنيا، أولاها وعظماها: ﴿ألا تشركوا به شيئًا﴾ من مصنوعاته؛ إذ هو أحد صمد فرد وتر ليس لغيره وجود حتى يشاركه ويماثله ﴿و﴾ أن تفعلوا ﴿بالوالدين﴾ اللذين هما سببان قريبان لظهوركم إلا ﴿إحسانًا﴾ لإحسانهما إليكم في حفظكم وحضانتكم ﴿و﴾ أن ﴿لا تقتلوا أولادكم﴾ ظلمًا ناشئًا ﴿من﴾ خوف ﴿إملاق﴾ فقر وقلة؛ إذ ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ وأن ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ القبيح ﴿ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ كالقود وقتل المرتد ورجم الزاني المحصن وغيرها من المحارم التي رخص الشرع بارتكابها، إذا ارتكابها من جملة المحللات والمأمورات ﴿ذلكم﴾ المذكور مفصلاً مما ﴿وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام:151] رجاء أن تسترشدوا لتهتدوا إلى توحيده.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:152-153].

﴿و﴾ من جملة المحرمات التي حرمها الحق عليكم: أن ﴿لا تقربوا مال اليتيم﴾ ولا تتصرفوا ﴿إلا به﴾ التصرفات ﴿التي هي أحسن﴾ لليتيم وأحفظ لغبطته من تنمية ماله وحفظه ﴿حتى يبلغ﴾ اليتيم ﴿أشده﴾ أي: يسمع من التصرفات الشرعية شرعًا، وحينئذ يسلم إليه بعد تجربته واختباره، ﴿و﴾ من جملتها أيضًا: ألا تنقصوا وتخسروا

في الكيل والوزن بل ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ولا تنقصوا منهما، وإن كان إيفاؤهما في غاية الصعوبة والعسر، فعليكم أن تبذلوا وسعكم وطاقتكم في تعديلها وإيفائهما مهما أمكن لكم، وما ليس في وسعكم ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ معفو عنكم، ﴿وَ﴾ من جملتها: ألا تميلوا في الأحكام ﴿إِذَا قُلْتُمْ﴾ وحكمتم حال كونكم حاكمين بين الخصمين ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في الحكومة ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المحكوم عليه أو له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ من حميمكم وذوي قرابتكم، وعليكم أيها الحكام ألا تتجاوزوا في الأحكام عما حكم الله به بل ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ﴾ الحكيم العليم ﴿أَوْفُوا﴾ وبمقتضى حكمه وحكمه وفوا ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور مما ﴿وَصَّاكُم﴾ الله ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152] رجاء أن تتذكروا وتتعظوا به أيها المتوجهون إلى توحيده.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المائلون نحو توحيدي ﴿أَنَّ هَذَا﴾ أي: المذكور في هذه السورة من الأوامر والنواهي والمحرمات والمحللات والأحكام والإشارات والآداب والمعاملات ﴿صِرَاطِي﴾ الموصل إلى توحيدي ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ سويًا بلا ميل واعوجاج ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ حتى تفوزوا إليه ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المتفرقة والطرق المختلفة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ وتضلكم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: سبيل توحيده الذاتي ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: اتباع طريق التوحيد مما ﴿وَصَّاكُم﴾ الله ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] [الأنعام:153] رجاء أن تحذروا

---

(1) قال في «التأويلات»: اعلم أن هذه الآيات لتشتمل على عشر خصال جامعة للخير كله: أولها: ألَّا تشركوا به شيئًا قدم الشرك؛ فإنه رأس المحرمات،﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، فإنه لا يقبل معه شيئًا من الطاعات، وهو ينقسم إلى جلي وخفي؛ فالجلي: عبادة الأصنام ومتابعة الهوى في الأنام، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43]، والخفي: ملاحظة الأنام بعين استحكام الإعظام ورؤية الأغيار مع الله الواحد القهار.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:151]، وإنما ذكر بعد تحريم الشرك تحريم العقوق والأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجوده ومظهره، كما أن الله تعالى موجد وجوده ومبدعه ومبدئه فحرم عقوقهما بعد تحريم الشرك به، وأوجب الإحسان إليهما بعد القيام بعبادته، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23]، إقامة لحقوقهما بعد الإقامة لحقوق الله تعالى، فالتقاعد عن أداء حقوقهما عقوق فهو أكبر الكبائر.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:151]، ثم حرم قتل الأولاد بعد تحريم العقوق؛ لما فيه من هدم بنيان الله تعالى، وملعون من هدم بنيانه، وفيه إبطال ثمرة، وشجرة وجوده، وقطع نسله، وفيه خشية إملاق؛ وهي ترك التوكل على الله

وعدم الثقة بالله إن يرزقهم وذلك يؤدي إلى تكذيب الله تعالى؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6]. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:151]، ثم الفواحش جميعها، وقد يدخل في ذلك جميع أقسام الآثام ما ظهر منها: وهو ما يبعده من الجنة ويدنيه، وباطن منها: وهو ما يبعده عن الحق ويحجبه عنه، وإن لم يحجبه عن الجنة ولم يبعده منها، وأيضًا ما ظهر منها بالفعل، وما بطن بالنية.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:151]، ثم حرَّم القتل إلا بالحق؛ أي: وإلا في طلب الحق، فإن المقتول في سبيل الله هو حي عند ربه، وفي قتل ترك تعظيم أمر الحق وترك الشفقة على الخلق وهما ملاك الدين ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 151]، يعني: هذه الخمسة المحرمة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:151] لكي تعرفوا موجبات الانقطاع عن الله تعالى فتحرزوا عنها.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ والأشدة: الصلاح، والفقه؛ يعني: يتفقه في الصلاح للدين لا في إفساد الدنيا، ثم حرَّم المال بعد تحريم قتل النفس؛ لأن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقدم مال اليتيم؛ لأنه عاجز عن حفظ ماله، فإن الله تولاه، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وفيه معنيان: أمره وحي الخلق بالاجتناب عن ماله وبالشفقة والنظر في حقه.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: تحريم الطمع في مال المسلم بنقصان الكيل والوزن عند الوفاء وأتاه بزيادتهما عند الاستيفاء.

والثاني: أوفوا الكيل العمر وميزان الشرع حقوق الربوبية، واستوفوا بكيل الاجتهاد وميزان الاقتصاد وحظوظ العبودية من الألوهية، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ في إبقاء الحقوق واستيفاء الحظوظ، ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا بحسب استعدادها.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ثم حرَّم الظلم والجور والميل في الفعل المقال، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:152] أي: ولو كان المسلم على الكافر والكافر على المسلم وحقيقته العدل في الكلام أن ما يذكر الله تعالى ولا يذكر معه غيره،وأن يتكلم لله وفي الله وبالله.

وتاسعها: قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾ ثم حرَّم نقض العهد مع الله وأمر بالوفاء بعهده عليه، وهو ألَّا يعبد إلا مولاه ولا يحث إلا إياه ولا يرى سواه، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يعني: هذه المحرمة الأخرى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تذكروا أيام الوصال في حضرة الجلال ومشاهدة ذلك الجمال:

أيامنا قضت بذي القضاء ... سقاهن رجاف العشى بطول
إذا العيش غض والشباب بمائه ... وفي حدثان الدهر عنك غفول
ونحن بربع إن تطأه ثوابت ... ولا استجيب للهم فيه قبول

وعاشرها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

بسببه عن سبيل الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة المضلة عن طريق الحق وتوحيده.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام:154-157].

﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنا ﴿آتَيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿مُوسَى الكِتَابَ﴾ تمامًا؛ أي: التوراة المبين لطريق الحق ﴿تَمَاماً عَلَى﴾ الوجه ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بيانه وتوضيحه ﴿وَ﴾ بيّنًا فيه أيضًا ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الكوائن والفواسد المتعلقة بعالم الفواسد المتعلقة بعالم الملك والشهادة ﴿وَهُدًى﴾ من المعارف والحقائق المتعلقة بعالم الملكوت والغيب ﴿وَرَحْمَةً﴾ من المكاشفات والمشاهدات المسقطة للإضافات مطلقًا المغنية لنفوس الغير والسوى رأسًا ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:154] رجاء أن يتحققوا بمرتبة اليقين العلمي ثم العيني ثم الحقي.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ تتميمًا لمقاصد الكتب السالفة، وترويجًا لحكمه وأحكامه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والنفع لمن آمن به وصدقه ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أيها المتوجهون نحو التوجه الذاتي، وامتثلوا جميع أوامره، واجتنبوا عن جميع نواهيه ﴿وَاتَّقُوا﴾ عن تكذيبه والقدح فيه وفيمن أنزل إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:155] تكشفون وتفوزون به إلى فضاء التوحيد.

وإنما أنزلنا القرآن بعد التوراة والإنجيل، وإن كان أكثر أحكام الكتب الإلهية مشتركة كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أيها المؤمنون: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾

سَبِيلِهِ﴾ ثم حرّم إتباع كل سبيل الله، وأمر باتباع طريق محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ أي: ذكرنا من الخصال العشر، ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: إلى الله تعالى وهو صراط محمد ﷺ، واختص هذه الأمة باتباع صراط إلى الله تعالى. ثم قال ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ أي: بمتابعته وصيتكم في السير إلى الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153] بالله وتحترزون عن غير الله.

أي: اليهود والنصارى، وعلى لسانهم ولغتهم فلا تقبلون الأحكام الإلهية معللين قائلين: ﴿وَإِن﴾ أي ﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم وتعلمهم لعدم علمنا بوضع لغتهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام:156]

﴿أَوْ﴾ أن ﴿تَقُولُوا﴾ متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وصفاء صدورنا، ومتى علم واطلع سبحانه من استعداداتكم هذا ﴿فَقَدْ جَاءَكُم﴾ من عنده لإهدائكم وإيصالكم إلى مقر توحيده ﴿بَيِّنَةٌ﴾ واضحة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بإضافة استعدادات التوحيد وقابلياته، دالة عليه، مبينة له كاشفة إياه بالنسبة إلى المحجوبين من ذوي العلوم اليقينية ﴿وَهُدًى﴾ يرشدهم إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لكم تستر هويتكم عن عيون بصائركم ويغنيكم في هوية الحق.

وبالجملة: لو امتثلتم بمقتضاه لصار علمكم عينًا وعينكم حقًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ بعدما سمع أوصافها وفرائدها من الله ﴿وَصَدَفَ﴾ صد وأعرض ﴿عَنْهَا﴾ عنادًا واستكبارًا، والله ﴿سَنَجْزِي﴾ باسمنا المنتقم ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ إباء وتكذيبًا ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: عذابًا يسوءهم ويشتد عليهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: بشؤم ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157] عنها، ويستنكفون عن قبولها عتوًا وعنادًا بلا حجة قطعية بل ظنية أيضًا.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (158) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160)﴾ [الأنعام:158-160].

﴿هَلْ﴾ أي: ما ينتظرون ويسوفون أمر الإيمان ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ملائكة العذاب كما أتوا الأمم الماضية فتلجئهم إليه ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: يطلبون إتيان ربك عنادًا كما طلب اليهود حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:153] ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على انقضاء النشأة الأولى المسمى بأشراط الساعة، وبالجملة: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ لكونها ملجئة إليه حين اضطرارها، ولا عبرة للإيمان حين البأس والإلجاء؛ إذ الإيمان تعبدي برهاني اختياري ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: نفسًا لم تكن آمنت قبل ظهور الملجئ ﴿أَوْ﴾ لم تكن ﴿كَسَبَتْ﴾ وإن

آمنت ﴿فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ مقبولاً عند الله ﴿قُلِ﴾ للمنتظرين استهزاءً: ﴿انتَظِرُوا﴾ إلى ما تخيلتم وتوهمتم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:158] أيضًا إلى حلول الوقت المعلوم ونزول العذاب فيه عليكم بكفركم وشرككم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ الذي يوصلهم إلى التوحيد الإلهي بلا منازعة ومخالفة ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: صاروا فرقًا مختلفة متحزبة متعصبة كما قال ﷺ: «**افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة**»[1].

﴿لَّسْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من شأنهم وإصلاحهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ بل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ حين عرضوا وحشروا نحوه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:159] في النشأة الأولى التي هي دار الابتلاء.

وبالجملة: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ فيها ﴿فَلَهُ﴾ على مقتضى الفضل الإلهي ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ امتنانًا عليه وجزاء له ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ فيها ﴿فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَهُمْ﴾ في جزاء السيئة ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:160] بالزيادة؛ إذ لا ظلم في ذلك اليوم.

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:161-165].

(1) رواه أبو داود (197/4، رقم 4596)، والترمذي (25/5، رقم 2640)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (1321/2، رقم 3991)، والحاكم (47/1، رقم 10)، والبيهقي (208/10، رقم 20690)، وأحمد (332/2، رقم 8377)، وأبو يعلى (317/10، رقم 5910)، وابن حبان (140/14، رقم 6247).

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا: ﴿إِنَّنِي﴾ مع كوني بشرًا مثلكم ﴿هَدَانِي رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى توحيده الذاتي، وآتاني من فضله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قويمًا مستقيمًا ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة لذلك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:161] في وقت من الأوقات.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المظهر للتوحيد الذاتي مفوضًا جميع أمورك وما جرى عليك وظهر منك إلى ربك: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ أي: ميلي بجميع أعضائي وجوارحي ﴿وَ﴾ سائر ﴿نُسُكِي﴾ وعباداتي التي هي سبب تقربي وتوسلي نحو الحق ﴿وَ﴾ بالجملة: لوازم ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ خالصًا ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتصرف في ملكه وملكوته بما يشاء بالاستقلال والاختيار لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162]

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ ينازعه، ولا ضد له يكافئه ويماثله، لا وجود لغيره أصلاً ﴿وَبِذَلِكَ﴾ التفويض والإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾ من عنده لتوحيده ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:163] الموحدين المظهرين الطاهرين بالتوحيد الذاتي.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل مستوبخًا مستقرعًا لمن عاندك في طريق التوحيد، وجادلك بإثبات الشركاء له وتوقع موافقتك لشركه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المتفرد في ألوهيته ﴿أَبْغِي﴾ أتخذ وأطلب ﴿رَبًّا﴾[1] مربيًا موليًا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾

---

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى: أي: كيف أطلب غير الله وهو حبيبي، والمحب لا يطلب إلا الحبيب، وكل شيء طلب دونه فهو رب ذلك الشيء ومالكه، فإذا كان هو لي يكون ما له لي، وإن قبلت غيره لم أجده، وكل خير وجدته غيره يكون علي، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:164]، يعني: إن النفس إنما تكسب بأمر هواها،﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53]، ولهذا كان من دعائه ﷺ: لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك. واعلم أن النفس مأمورة بالسير إلى الله بقدم العبودية والأعمال الصالحات بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27ـ 28]، وإن اطمئنانها بالطبع إلى الدنيا وزخارفها مخالف لأمر الله تعالى وهو وزرها وسيرها إلى الدركات السفلى، فلا يمكن لغيرها أن يحمل قدرها، وإنّ القلب إذا كان سليمًا من كدورات صفات النفس باقيًا على ما جبل عليه من حب الله تعالى وطلبه مزينًا بنور الإيمان وحبه لا يؤخذ بمعاملة النفس ووزرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:164]، والنفس مأخوذة بوزرها معًا معاقبة بما هي أهله ولا يتألم القلب بعذابها، وإن كان القلب منقلب الحال وأزاغه الحق تعالى بإصبع القهر إلى محاذاة النفس فينطبع مرآة القلب

بذاته وأسمائه وأوصافه ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وخالقه وموجده من كتم العدم ﴿وَ﴾ إذا قلت لهم من كلمة الحق ما قلت دعهم وشركهم؛ إذ ﴿لاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من الجرائم والآثام ﴿إِلَّا﴾ تحمل ﴿عَلَيْهَا﴾ آصارها وأثقالها ﴿وَلاَ تَزِرُ﴾ تقترف وتحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ عاصية كافرة ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ بل كل منها رهينة بما كسبت، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:164] أي: يميز لكم الحق من الباطل والهداية من الضلال والعناية من الوبال والنكال.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون توحيد الحق وتربيته إياكم مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ أي: خلفاء قابلين لمظهرية جميع أوصافه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الاتصاف بأوصافه والتخلق بأخلاقه ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من استعداداتكم وقابلياتكم هل تصرفها إلى ما خلقتم لأجله أم لا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على صنيع استعداده الفطري فيما لا يعنيه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أيضًا ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تنبه واستغفر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:165] لمن تاب واستهدى.

خاتمة سورة الأنعام

عليك أيها المتوجه نحو الحق القاصد سلوك طريق توحيده، أنجح الله أملك وأوصلك إلى مبتغاك أن تنخلع وتتجرد عن مقتضيات القوى النفسانية من لذاتها وشهواتها الحسية والوهمية والخيالية، وتتوجه بما فيك من مبادئ القوى الروحانية إلى مبدئها، مقتفيًا في توجهك أثر ما وصل إليك من آثار النبي ﷺ المختار، الذي استخلفه الحق وأظهره على مقتضى جميع أوصافه وأسمائه، واجتباه من بين جميع رسله وأنبيائه، وأرسله مظهرًا للتوحيد الذاتي وأنزل عليه كتابًا جامعًا محتويًا على جميع فوائد الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها الجميع، مبينًا لطريق التوحيد على الوجه الأتم الأكمل إلى حيث لم يبقَ بعد بعثته احتياج إلى مبين آخر، لذلك قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ

بصفات النفس وأخلاقها، فيتبع النفس وهواها فيزول بطبع الشهوات ولذاتها، ويكسب الإثم والوزر بترك ما هو مأمور به من؛ الطهارة والصفاء والسلامة والذكر والفكر والتوحيد لله تعالى والإيمان به والتوكل عليه والصدق والإخلاص في القلب والعبودية، وغير ذلك من أعمال القلب فيكون مأخوذًا بوزره لا بوزر غيره، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14].

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة:3]. وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وبعد بعثته ﷺ ونزول الكتاب لم يبقَ للمسترشد المستهدي نحو التوحيد الذاتي إلا الاتصاف والامتثال بما جاء به خاتم الرسالة، لذلك لم يكن الاجتهاد بعد بعثته إلا في جزئيات الأحكام دون المعتقدات الكلية؛ إذ خُتم أمر الرسالة والتشريع به ﷺ. ولا بدّ لك أن تربط قلبك بمرتبته ﷺ وتجعلها قبلة مقصدك، وتقتفي أثر ما ورد عليه وجاء به ﷺ بحيث لا يهمل منها شيء. ولا بدّ أن يكون في متابعته ﷺ على وثوق تام واطمئنان كامل، عارٍ عن جميع ما يشوشك من ظلمات الشكوك والأوهام، خالٍ عن جميع الرعونات العارضة من وساوس شياطين الأهواء الفاسدة مثل العجب والرياء والسمعة وغيرها.

وبالجملة: عليك أن تتوجه نحو التوحيد عن طريق الفناء والموت الإرادي، بحيث لا يصدر عنك شيء من أمارات الحياة الصورية ومقتضيات القوى البشرية، حتى يتيسر لك التحقق بمقام الخلة، والتخلق بأخلاق الله، مع توفيق من قبل الحق وجذب من جانبه؛ إذ كل ميسر لما خلق له. ومتى صفيت سرك وسريرتك عن جميع ما يشغلك عن الله ويضلك عن سبيله، تحققت بمقام التوحيد، وفنيت عن مقتضيات أمارات التخمين والتقليد، وصرت على يقين من ربك وكشف وشهود لا تظمأ منه أصلاً ولا تروى أبدًا، وحينئذٍ حق لك أن تقول حقًا: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:162-163].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10].

(1) رواه البيهقي في «الكبرى» (192/10)، والقضاعي في «الشهاب» (270/4).

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأعراف

لا يخفى على المستبصر الخبير والمسترشد البصير أن إنزال الكتب وإرسال الرسل إنما هو لتبيين طريق التوحيد، وإهداء أصحاب الضلال والتقليد من المتوغلين في تيه الغفلة والنسيان نحو فضاء الوحدة الذاتية، ولا يتيسر لهم ذلك إلا بترك مألوفاتهم، وقطع تعلقاتهم التي كانوا عليها بمقتضى بشريتهم وبإرشادهم، وإهدائهم على التدريج بوضع التكاليف الشاقة المشتملة على الإنذارات الشديدة والتخويفات الغليظة المزكية لموانع الموصل إليه، حتى تستعد نفوسهم وتتهيأ سرهم وسريرتهم إلى أن تنكشف لهم سر سريان الوحدة الذاتية المشعشعة المتجلية دائمًا حسب أوصافه وأسمائه الذاتية على ذرائر المظاهر كلها.

لذلك أنزل سبحانه على حبيبه الذي أظهره جامعًا لجميع مراتب أوصافه وأسمائه الكتاب الجامع لجميع مراتب الوجود غيبها وشهادتها، أولاها وأخراها، رطبها ويابسها، وأورد فيه أنواع الوعيد والإنذار والتخويف البليغ؛ ليتنزجر به أهل الغفلة والهوى، وأنواع الوعد والتبشير؛ ليرغب نحوه أهل المحبة والولاء؛ ليتمتعوا على ما جبلوا عليه من الفطرية الأصلية التي فطر عليها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبالجملة: ليتأدبوا بآدابه حتى يتخلقوا بأخلاقه سبحانه.

فقال مناديًا لحبيبه ﷺ متيمنًا متبركًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن النقص والاستكمال ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده بالتكميل؛ لأن يصلوا إلى درجات القرب والكمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال القرآن الهادي إلى سرادقات العز والجلال.

﴿المص ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ

جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف:1-6].

﴿المص﴾[1] [الأعراف:1] أيها الإنسان الكامل اللائق لتكميل الخلائق المكرم

(1) قال في عرائس البيان: ﴿المص﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والإعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيّره ممّا كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، وأعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبأ طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء. كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم ﷺ، الا ترى أن أول اسم آدم ﷺ ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومَنْ تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ التي فيها أنباء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عرّف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم ﷺ بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربه إشارة ألطف وأخفى وأخبر باللام، هاهنا تعالى حبيبه قصة تجلاه لموسى ﷺ والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية. الا ترى إلى حرف اللام في التجلّي، وعرّف بحروف الميم شأن موسى ﷺ وقصته من أوله إلى آخره، الا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى ﷺ، وعرف بحرف صاد هاهنا قصص نوح وهود ﷺ وصالح ﷺ وشعيب ﷺ ولوط ﷺ وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «إن الله سبحانه أعطى آدم ﷺ حروف التهجي، وكان كل حروف كتابًا من الله تعالى إليه». وأيضًا أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحدانية نفسه المنزّه عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وصرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم وبيّنْ له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص؛ لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلة إدراكهم لعزّ الأسرار ولطائف ضمائر الإضمار، وأيضًا أخبره بلام

المؤيد لإهدائهم إلى توحيد الذات والصفات والأفعال، الصادق الصفي في نفسه عن كدورات أهل الزيغ والضلال، هذه الآثار والآيات اللطيفة اللائحة اللائقة لأن يسترشد منها ويستكشف عنها أرباب الذوق والكمال، المنزهة عن شوائب الشكوك وظلمات الأوهام الصافية عن تخليطات العقول وتخمينات الأحلام الصالحة لأن يستبصر بها ويستشهد منها إلى توحيد العليم العلام المقدس السلام.

﴿كِتَابٌ﴾ جامع لجميع فوائد الكتب المنزلة وأحكامها وإشاراتها، ناطق بجميع الأحوال الواقعة في النشأة الأولى والأخرى ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا هادي المضلين تقوية لك وترويجًا لما أمرت به ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ضيق وتعب حاصل ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من نشره وتبليغه مخافة الأعداء بل إنما أنزل إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: بإنذاراته وتخويفاته

ألف سر أوليته، وما في بحار أزليته. ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لم يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقَّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علّة يقع على الحدثين، وليس ذكر الحدثان في القدم أخبر بالألف عن أحدية الأولية، وباللام عن الأزلية السرمدية، وبالميم عن محبته القدمية، وبالصاد عن صفاته القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خير جميع الصفات. قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لمّا خلق الله الأحرف جعل لها سرًّا، فلمّا خلق آدم ﷺ بث فيه ذلك السر ولم يبثه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم ﷺ بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها. وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصياد صاد الصدق. وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهُو، وغيبه الهو ليس كمثله شيء. وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الآخر. ومن شرّاح ذلك حين سمعه يقول: ﴿المص﴾ للألف عندهم فهم، وللفهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم. وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال مَنْ اتصل به وانفصال مَنْ انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري على حسب العبارات ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

من ضل عن طريق الحق، وأعرض عنه جهلاً وعنادًا ﴿وَ﴾ تذكر بمواعيده وتبشيراته من وفق بتذكر الموطن الأصلي والمنزل الحقيقي؛ إذ هو ﴿ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:2] الموقنين بوحدة الحق المتوجهين نحوه بالعزيمة الصحيحة.

﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها المؤمنون المتوجهون نحو التوحيد ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا﴾ بعد بعثته ودعوته ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم وترجعون إليهم في أموركم من الجن والإنس؛ إذ هو خاتم النبوة فعليكم أن تتبعوه، وإن كان منكم ﴿قَلِيلاً مَّا﴾ شرذمة قليلة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:3] وتتعظون بتذكيره وعظته لميلكم إلى أهوية نفوسكم من الجاه والمال والرئاسة المستلزمة للتفوق على القران والأقران.

﴿وَ﴾ عليكم ألا تغتروا بها بل تذكروا ﴿كَم﴾ كثير ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ ذوي بطر ورفاهية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإنزال قهرنا إليها حتى استحقوا الهلاك بسبب كفرهم وظلمهم ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ قهرنا ﴿بَيَاتًا﴾ حال كونهم راقدين رقود البطر والغفلة ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف:4] مستريحون وقت الضحوة الكبرى تنعمًا وحضورًا.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم وتضرعهم ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: حين ظهر عليهم قهريًا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متضرعين مقرين معترفين: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:5] وبعدما اعترفوا بظلمهم ملجئين لا نبالي باعترافهم وإقرارهم.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾[1] لنستكشفن ونظهرن في النشأة الأخرى أحوالهم التي كانوا عليها في النشأة الأولى أولاً من ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل ما فعلوا بهم حين دعوهم إلى إطاعتنا وانقيادنا ﴿وَ﴾ بعدما ظهر منهم ما ظهر ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾ ثانيًا عن أحوالهم من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:6] المبلغين لهم أوامرنا ونواهينا عن قبولهم وتكذيبهم وتصديقهم، وبعدما ظهر أيضًا منهم ما ظهر.

(1) سؤال تعذيب وتعنيف تسألون عن القبول، هل قبلتم الرسالة وعملتم بما أمرتم أم لا؟ وفيه معنى آخر؛ أي: فلنسألن الذين كانوا مخصوصين بالرسالة إليهم من المؤمنين قابلي الدعوة هل بقوله: هل بلغ إليكم رسلنا رسالتنا ومواعيدنا، ومن بينوا لكم حقائق ما أنزل إليكم، ووصفوا لكم ما أعدونا من المقامات والدرجات والكرامات لكم، ومن دعوكم إلى كمالات الدين وكشف الغطاء عن اليقين وهذا سؤال تقريب وتشريف. [التأويلات].

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف:7-10].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ جميع أحوالهم وأعمالهم التي صدرت عنهم على التفصيل ﴿بِعِلْمٍ﴾ لا يعزب عنه شيء من صنائعهم ﴿وَ﴾ كيف يخرج عن حيطة علمنا بشيء من أعمالهم؛ إذ ﴿مَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:7] عنهم بل حاضرين معهم شاهدين بجميع أحوالهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ الموضوع لانتقاد أعمال العباد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقت كشف السرائر وانكشاف الحجب ﴿ٱلْحَقُّ﴾[1] أي: الثابت المحقق؛ لئلا يبقى للعصاة مجادلة مع الله

(1) للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال، يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عُمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفاف فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فمَنْ هاهنا يزن نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبارات، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سِرّه بميزان المحاضرات ومطالعه الغيبيات، ويزن صوره بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سره بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَت موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالمات الصفات، وجزاء روحه كشف أنور الذات، وجزاء سره إدراك أسرار القدميات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات. وأيضًا هاهنا لأهل الحق موازين، ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، ومنزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهله سبعة موازين فينبغي أن يزن المريد نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحب قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاقين عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزان العارف سره في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموجد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المريد بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحب بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة

-

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بكثرة الطاعات ووفور الخيرات والمبرات ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المبرورون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:8] الفائزون بالمثوبة العظمى والمرتبة العليا.

بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصغاء بنعت الشهود؛ لكشوف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبريائه القديم، وفنائه في سبحات الأبد، فمَنْ ثقلت هذه الموازين أفلح عن حجبة الامتحانات، وتُثْقَل موازين الحضرة غدًا بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله ويصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فطُوبَى لهذا المحاسب طُوبَى له وحسن مآب. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: ومَنْ وزن نفسه بميزان العدل كان من المحبين، ومَنْ وزن خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسرّ، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والسُّنة، وميزان القلب والعقل والثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسرّ الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب. وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمَنْ كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومَنْ كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبيّن لهم ما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهانًا وعيانًا وعلمًا بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرج أعمالهم على وفق ما كان مكتوبًا عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال أعراض كيف تكون موزونة ليس هذا في علم الخلق أن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيمان به. قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله. فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]، وهم أعرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخُف وزنه حتى تقع في النار، ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بقلة الطاعة وكثرة المعاصي ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ وما ربحوا لها في دار الابتلاء ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي: بسبب ما كانوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:9] يكذبونها ظلمًا وعدوانًا.

﴿وَ﴾ من غاية جودنا ولطفنا إياكم يا بني آدم إنا ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي﴾ مستقر ﴿الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾من الملائمات كي يعيشوا بها مترفهين متنعمين شاكرين لنعمنا، صارفين إلى ما خلقناها لأجله، ومع ذلك الفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿قَلِيلاً مَّا﴾ أي: في غاية القلة منكم ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10] نعمنا بل تكفرونها وتصرفونها أكثركم إلى مقتضى أهويتكم الفاسدة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:11-18].

﴿وَ﴾ من عموم جودنا أيضًا أنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قدرنا تعيناتكم وأظهرنا هوياتكم من كتم العدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: زيناكم بصورنا وخلقناكم بأخلاقنا ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ المهيمين المستغرقين بمطالعة جمالنا: ﴿اسْجُدُوا﴾ تذللوا، تواضعوا ﴿لآدَمَ﴾ المصور على صورتنا تعظيمًا لنا وتكريمًا له؛ إذ هو مرآة مجلوة تحاكي جميع أوصافنا وأسمائنا، وترشدكم إلى وحدة ذاتنا، وبعدما شهدوا آثار جميع أوصافنا وأسمائنا منه ﴿فَسَجَدُوا﴾ جميعًا متذللين ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي هو رأس جواسيس النفوس الخبيثة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:11] مع كونه من زمرتهم حين أمروا، ثم لما امتنع إبليس عن السجود.

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهارًا لما تحقق في علمه وكمن في غيبه من خبث طينة إبليس:

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ لخليفتي ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مع رفقائك؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس في الجواب بمقتضى هويته الباطلة وأهويته الفاسدة: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وأفضل ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ منير ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1] [الأعراف:12] مظلم كدر، ولا يحسن تذلل الفاضل للمفضول.

لما امتنع عن مقتضى الأمر الوجوبي، ولم يتفطن بسره الذي هو التوحيد الذاتي؛ إذ الأمر سجود المظهر الجامع والظل الكامل، أمر بالتوجه نحو الذات الأحدية والمعبود الحقيقي المتجلي عليه، طرده سبحانه عن ساحة عز حضوره حيث ﴿قَالَ﴾ مبعدًا: ﴿فَاهْبِطْ﴾ أيها المطرود المعلون ﴿مِنْهَا﴾ أي: من ساحة عز التوحيد المقتضية للتذلل والتخشع، ورفض الالتفات إلى الغير والسوى مطلقًا ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بادعاء التفضل والتفوق المقتضي للإضافات الناشئة من أنانيتك الباطلة ﴿فَاخْرُجْ﴾ منها مطرودًا مخذولاً ﴿إِنَّكَ﴾ حيث كنت وأين كنت ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف:13] الذليلين المحرومين، بل أنت سبب صغار سائر الأذلاء.

ثم لما آيس إبليس عن القبول وحرم عن ساحة عز الحضور بسبب إبائه عن

---

(1) قال في التأويلات: يعني: النار علوية نورانية لطيفة، والطين سفلي ظلماني كثيف فهي خير منه، فأخطأ اللعين في الجواب وفي الاستدلال والقياس من وجوه،وقد قدرنا خطأه في الجواب، فأمّا في القياس: فأحد الوجوه: إنّا لو سلمنا أن النار أفضل ما شرف وأعلى من الطين من حيث الظاهر والصورة، ولكن من حيث الحقيقة والمعنى الطين أفضل وأشرف منها؛ لأن من صفات الطين وخواصه: الإنبات ومنه النشوء والنمو، ولهذا السر كان تعلق روح الإنسان به؛ ليصير قابلاً للترقي، فإن جوهره كان من قبيل جواهر الملائكة في الروحانية والنورانية وقابل للترقي، والنار من خاصيتها الإحراق والإفناء.

وثانيها: إن في الطين لزُوجَة وإمساكًا، فإذا استفاد الروح منه بالترابية هذه الخاصية يصير ممسكًا للفيض الإلهي، إذ لم يكن ممسكًا له في عالم الأرواح، ولهذا السر؛ استحق آدم ﷺ سجود الملائكة، وسيأتي شرحه - إن شاء الله تعالى - وفي النار خاصية الإتلاف وهو ضد الإمساك.

والثالث: إن الطين مركّب من الماء والتراب، والماء مطية الحياة كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30]، والتراب مطية النفس النامية، فعند ازدواجهما تتولد النفس الحيوانية؛ وهو الروح الحيواني وهو مطية الروح الإنساني للمناسبة الزوجية بينهما، وفي النار ضد هذا من الإهلاك والإفساد، ثم تقول: شرف سجود آدم وفضله على الساجدين لم يكن لمجرد خواص الطبيعة، وإن شرف طبيعته لشرف التخمير من غير واسطة لقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]، ولقوله ﷺ: «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا».

سجوده آدم، ﴿قَالَ﴾ منتقمًا من آدم متضرعًا إلى ربه: ﴿أَنظِرْنِي﴾ أي: أمهلني يا ربي فيما بينهم لأضلهم وأغويهم ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف:14].

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهارًا للسر الذي أسلفناه في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف:15] فيما بينهم ليتميز المحق منهم من المبطل والمهدي من الغوي.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: فبسبب ما بعدتني وأطردتني لأجلهم ﴿لأَقْعُدَنَّ﴾ وألزمن البتة ﴿لَهُمْ﴾ لإغوائهم وإضلالهم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:16] أي: على دينك وطريقك الموصل لهم إلى توحيدك، أغويهم وأوسوسهم بأنواع الوسوسة بعضهم بالفسق والظلم، وبعضهم بالرياء والسمعة، وبعضهم بالمخائل الفاسدة من اللذات الوهمية والخيالية، وبالجملة: أوسوسهم وأخرجهم بأنواع الحيل عن جادة توحيدك.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أرد وسوستي في نفوسهم ﴿لآتِيَنَّهُم مِّنْ﴾ جميع جهاتهم ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: يضلهم بالمعاصي الحاصلة من قدامهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: بالمعاصي الحاصلة منه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَ﴾ بالجملة: استسخرهم وأحيط عليهم بإغوائي ووسوستي إلى حيث ﴿لاَ تَجِدُ﴾ يا معز كل ذليل، ومدل كل دليل ﴿أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:17] بعد رجوعهم إليك شاكرين، صارفين ما آتيتهم من النعم إلى ما أمرتهم به.

ثم لما طرده الحق وأبعده وأنظره ابتلاء لعباده ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿اخْرُجْ﴾ أيها المردود المطرود ﴿مِنْهَا﴾ أي: من عرصة أهل التوحيد ﴿مَذْءُومًا﴾ حاملاً للمذمة ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مستوجبًا للعنة وافعل بهم ما شئت، والله ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بعدما أظهرتهم على صورتي، وكرمتهم بكرامتي على جميع خليقتي، ونفخت فيهم من روحي وتجليت عليهم بجميع أسمائي وأوصافي، وأرسلت إليهم أنبيائي ورسلي، وأنزلت عليهم كتبي لتبيين طريق توحيدي؛ لأطردنهم البتة عن عز حضوري، وأخرجنهم عن جنة سروري، واعلموا يا بني آدم ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:18] إن اتبعتم عدوي وعدوكم، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:19-22].

﴿وَ﴾ بعدما طرد سبحانه إبليس حين امتنع عن السجود قال لآدم اختبارًا وابتلاء وتوصية لحفظ مرتبته: ﴿يَا آدَمُ﴾ المكرم المسجود ﴿اسْكُنْ أَنتَ﴾ بمتابعة عقلك الموهوب لك من العقل الكلي ﴿وَزَوْجُكَ﴾ بمتابعة نفسها الفائضة عليها من النفس الكلية ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي هي مقر أهل التوحيد، ومنزل أهل الولاء والتجريد من أرباب الوصول الفائزين بشرف القبول ﴿فَكُلاَ﴾ منها، واحظظا من لذاتها الروحانية من حقائقها ومعارفها وشهوداتها وكشوفاتها رغدًا ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ التي هي من أغذية نفوسكم وأهوية هوياتكم ﴿فَتَكُونَا﴾ بتقربها وتناولها ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:19] الخارجين عن مقتضى أمرنا وحكمنا المستحقين لطردنا ومقتنا.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[1] أي: أوقعهما في الدغدغة بأمر الشجرة، وإن كان وسوسة أيضًا عن مقتضيات الحكمة المتقنة الإلهية، بعدما وصاهما الحق سبحانه ونهاهما عنه، وليس غرضه إلا نزع لباس الصيانة والتقوى عنهما ﴿لِيُبْدِيَ﴾ أي: يظهر ﴿لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾ أي: غطي وستر ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ التي هي من مقتضيات بشريتهما وهويتهما الباطلة ﴿وَ﴾ بعدما أشربهما الوسوسة ﴿قَالَ﴾ على وجه الشفقة والنصيحة وإرادة الخير: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ المباركة المزكية عنكم

---

(1) قال العارف التستري (154/1): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلا الانتظار والطمع، وهو للصديقين.

لوث بشريتكم ﴿إِلَّا﴾ كراهة ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بتناولهما ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:20] فيها.

﴿وَ﴾ بعدما نصحهما وأشفقهما وسمعا منه ما سمعا ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ أي: بادر إلى القسم تأكيدًا وترويجًا لقوله إياهما قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21] المشفقين المريدين خيركما.

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ أي: أسقطهما عن معالي العز إلى مهاوي الذل ﴿بِغُرُورٍ﴾[1] غرهما به على وجه الانتقام ﴿فَلَمَّا﴾ سمعا قوله وقبلا غروره ﴿ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ مطمعين على ما أغراهما إليه من الشرف والخلود، وبعدما ذاقا منها ﴿بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عوراتهما؛ إذ نزع عنهما لباس التقوى وثياب العصمة ﴿وَ﴾ بعدما نزع لباسهما ظهر سوءاتهما ﴿طَفِقَا﴾ أخذا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿الجَنَّةِ﴾ قيل: هي التينة، وقيل: الكرمة ﴿وَ﴾ بعدما ما بدا منهما ما بدا ﴿نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ موبخًا مقرعًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ أيها المعتديان المسرفان ﴿عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:22] ظاهر العداوة، فلم تسمعا قوله، وتتبعا أمره؟ فلما سمعا من ربهما ما سمعا.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:23-27].

(1) أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبا وكان العين أول من حلف بالله كاذبًا، وظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا فاغتربه، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (121/4).

﴿قَالَا﴾ متضرعين متذللين معترفين على زلتهما: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على الكرامة لمقتضى فضلك وجودك ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بمتابعة عدونا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ولم تتجاوز عنا ﴿وَ﴾ لم ﴿تَرْحَمْنَا﴾ بفضلك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23] خسرانًا عظيمًا.

ثم لما صدر منهما ما صدر بوسوسة عدوهما، أمر سبحانه بإخراجهما عن دار السرور إلى دار الابتلاء والغرور؛ حيث ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ انزلوا وانحطوا أيها المتجاوزون عن حدودنا أصلاً وفرعًا، تابعًا ومتبوعًا عن مقر العز ومرتبة الإطلاق والتجريد الخالي عن جميع الإضافات، والتقييد إلى محل الكون والفساد، ومنزل البغي والعناد؛ إذ ﴿بَعْضُكُمْ﴾ في دار الدنيا التي هي نشأة الاختبار والابتلاء ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أبدًا لا يرتفع الخصومة عنكم أصلاً ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها المتخاصمون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مرتع الطبيعة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع من لذاتها وشهواتها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:24] أي: على انقضاء آجالكم وانقطاع مآلكم.

ثم لما تحيروا واضطربوا في أمرهما وفساد حالهما ﴿قَالَ﴾ سبحانه منبهًا عليهما: ﴿فِيهَا﴾ أي: في أرض الطبيعة ﴿تَحْيَوْنَ﴾ بالحياة الطبيعية ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿فِيهَا تَمُوتُونَ﴾ بالموت الطبيعي ﴿وَمِنْهَا﴾ أيضًا ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:25] لجزاء ما كسبتم من الخير والشر، والتقرب والخير، والتبعد في حياتكم الطبيعية التي هي دار الابتلاء ومزرعة الأجر والجزاء، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثم قال سبحانه مناديًا لكم في مقام الامتنان وتعديد النعم والإحسان؛ لتواظبوا شكر نعمه، وتداوموا على انقياده وإطاعته بعدما صدر عنكم الكفر والخروج عن مقتضى أمره ونهيه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المجبولين على فطرة الخلافة والنيابة ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ عقلاً مدبرًا ﴿يُوَارِي﴾ ويستر بتدبيره ﴿سَوْآتِكُمْ﴾ مقتضيات بشريتكم وبهيميتكم ﴿وَ﴾ أيضًا وهبنا لكم من غاية لطفنا ﴿رِيشًا﴾ معارف وحقائق نزينكم ونميزكم بها عن جميع المخلوقات، ونستخلفكم بسببها من بين سائر البريات ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[1] عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته خير لكم وحقيق

(1) قال الشيخ نجم الدين: والتقوى: هو لباس القلب والروح والسر الخفي، فلباس القلب من التقوى: هو الصدق في طلب المولى فيواري به سوءة الطمع في الدنيا وما فيها، ولباس الروح من التقوى: هو محبة المولى فيواري به سوءة التعلق بغير المولى، ولباس السر من التقوى: هو

لفطرتكم، فعليكم أن تلبسوها وتتحفظوا بها عما لا يليق بمرتبتكم وفطرتكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التقوى ﴿خَيْرٌ﴾ لكم إن أردتم أن تصلوا إلى مرتبة التوحيد التي جبلتم لأجلها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على استقلاله في ألوهيته وربوبيته، إنما أنزلها عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:26] رجاء أن يتذكروا نعمه فيعرفوا المنعم وينكشفوا بتوحيده.

ثم ناداهم وأوصاهم ثانيًا بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ مقتضى خلافتكم ونيابتكم أن ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يوقعنكم في الغي والضلال بغتة ووسوسة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ بالفتنة والغرور ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ هي دار السرور، وأهبطهما بوسوسته إلى الأرض التي هي محل الفساد ومنشأ الشرور حين ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي: تسبب للنزع حين تغريرهما وإغرائهما إلى تناول المنهي ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ انتقامًا منهما.

فعليكم أيها الأبناء أن تجتنبوا عن غوائله وتعوذوا إلى الله عن جميع مخايله، وتتخذوه وقاية ووكيلاً حتى تتخلصوا عن وسوسة شياطين الأهواء المضلة، وعليكم ألا تغفلوا عنه؛ إذ ﴿إِنَّهُ﴾ دائمًا ﴿يَرَاكُمْ﴾ ويراقبكم ﴿هُوَ﴾ أي: الشيطان نفسه ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده الأمارة بالسوء رؤية صادرة عن محض العداوة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ إذ هم مرتكزون في نفوسكم التي بين جنبيكم، يضلكم ويغويكم على صورة الهداية والإرشاد، فعليكم أن تخالفوا أهواء نفوسكم وتجانبوا مناها ومشتهياتها، ومع ذلك تضرعوا نحونا وتعوذوا بنا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ مقتضى حكمتنا المتقنة ﴿الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ مسلطين ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:27] بتوحيدنا واستقلال استيلائنا.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم

رؤية المولى فيواري بها رؤية غير المولى، ولباس الخفي من التقوى: إبقاؤه بهوية المولى فيواري بها هويته وهوية غير المولى؛ ولهذا قال: ذلك خير؛ لأن لباس البدن بالفتوى وهو شريعة إلباس القلب بالتقوى وهو حقيقة.

﴿مُّهْتَدُونَ ۝٣٠ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف:28-31].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ أي: هؤلاء الكافرون بوسوسة الشياطين ﴿فَاحِشَةً﴾ فعلة ذميمة قبيحة متناهية في القبح ﴿قَالُوا﴾ في الجواب: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وهم يقولون: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فيما أنزل علينا على لسان نبينا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ﴾ أيها المفترون ﴿عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:28] لياقته بجنابه.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي﴾ بمقتضى فضله وعدله على من أمر منه خلص عباده ﴿بِالْقِسْطِ﴾[1] أي: العدل السوي في جميع مأموراته بلا ميل إلى جانبي الإفراط والتفريط ﴿وَ﴾ عليكم أيها المؤمنون أن ﴿أَقِيمُوا﴾ واستقيموا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ التي بها ميلكم وتوجهكم نحو الحق بلا ميل إلى ما سواه ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تتذللون فيه وتتوجهون نحوه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿ادْعُوهُ﴾ وتوجهوا نحوه حال كونكم مستقيمين فيه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة والانقياد بلا شوب الغير والسوى مطلقًا، واعلموا أيها الأظلال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ الله أي: أنشأكم وأظهركم من كتم العدم بمد ظله ورش نوره عليكم ﴿تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:29] إليه بقبض الظل وطيه في نشأتكم الأولى.

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ بتوفيق الله إلى مبدئه ومعاده ﴿وَفَرِيقًا﴾ ضل وغوى لذلك ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ في مكمن القضاء، وكيف لا يحيقهم ويحيط بهم الضلالة ﴿إِنَّهُمُ﴾ من غاية غفلتهم ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ آلهة ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بسبب هذا الاتخاذ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:30] إلى طريق النجاة بل ضالون تائهون.

---

(1) القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلْق، وفي حق نفسك؛ فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بِهِ أو إقدامٍ على المنهيِّ عنه، ثم ألا تدخِّر عنه شيئاً مما خوّلك، ثم لا تُؤثِرَ عليه شيئاً فيما أحلَّ لك، وأمّا العدل مع الخلْق - فعلى لسان العلم - بذلُ الإنصاف، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف. وأمّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس. تفسير القشيري (362/2).

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المجبولين على زي التقوى ولباس السلامة ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ التي زينكم الله بها من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تميلون فيه نحو الحق وجوهكم التي يلي الحق ﴿وَ﴾ لا تهملوا أمر مراكبكم التي هي نفوسكم وهوياتكم؛ لئلا تبطلوا صنع الله ولا تخربوا بيته، بل ﴿كُلُوا﴾ مقدار سد الجوعة ﴿وَاشْرَبُوا﴾ قدر دفع العطشة ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ فيهما إلى حيث يؤدي إلى تقوية القوى البهيمية ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31] ولا يرضى عن فعلهم لإخلالهم بإسراف الأكل والشرب على الميل الذي جبلوا لأجله؛ إذ الشبع يميت القلب وينقص الغريزة الإنسانية، ويزيد القوى البهيمية.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) ﴾ [الأعراف:32-35].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين من أهل الظاهر المحرومين عن الرزق المعنوي، المحرومين عن التوجه نحو التوحيد في هذه النشأة: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ﴾ وأظهر ﴿لِعِبَادِهِ﴾ الخلص من ذرائر الكائنات بتجليات الأسماء والصفات ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المعنوي والمستلذات الروحانية ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هِيَ﴾ حاصلة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتوحيد الإلهي ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والنشأة الأولى حال كونهم مشوبة بالقوى البشرية والكدورات البهيمية ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بلا شوب كدورة حين انخلعوا من جلباب الهويات الباطلة والتعيينات العاطلة ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:32] يذعنون بالإيمان ويتوجهون نحو الكشف والعيان.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المولي لتدبير مصالح العباد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ القبائح الصادرة من أولي الأحلام السخيفة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الظلم وشهادة الزور

ورمي المحصن والغيبة والنميمة، وغيرها من القبائح التي ظهرت من الألسنة والأيدي ﴿وَمَا بَطَنَ﴾[1] من القبائح التي صدرت من الفروج ﴿وَ﴾ بالجملة: كل ما يوجب ﴿الإِثْمَ﴾ المستلزم للانتقام والعقاب ﴿وَالْبَغْيَ﴾ أي: الحروب على الولاة وجمهور المسلمين ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿وَ﴾ أعظم المحرمات جرمًا وأشدها انتقامًا ﴿أَن تُشْرِكُوا بِاللهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿مَا﴾ أي: شيئًا من مصنوعاته مع أنه ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾ افتراءً ومراءً ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33] ثبوته له، لا عقلاً ولا نقلاً.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم العاصية الضالة ﴿أَجَلٌ﴾ مقدر من عند الله لمقتهم وهلاكهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المبرم ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34] أي: لا يسع لهم فيه طلب التأخير على مقتضى أهويتهم ولا طلب التقديم تخليصًا لنفوسهم من الأذى، بل أمره حتم نازل في وقته وحينه بلا تخلل تقدم وتأخر؛ لكمال قدرته ومتانة حكمته.

﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ المستكملين القابلين للإرشاد والتكميل المستعدين لفيضان كمال التوحيد ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: أن يأتينكم ويرسلن إليكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم وبني نوعكم؛ إذ هم أدخل لنصحكم وإرشادكم وأنسب لجذب قلوبكم، وأشفق عليكم من الأجانب حال كونهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ المنزلة من عندي، الدالة على وحدة ذاتي فعليكم أن تصدقوهم وتؤمنوا لهم وبما جاءوا به من عندي من الأوامر والنواهي ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ منكم عن محارم الله بواسطة رسله وآياته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أخلص أعماله لله بلا ترقب على الجزاء ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا في النشأة الأولى ولا في الأخرى ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:35] عن سوء المنقلب والمثوى.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ

(1) «ما أحدٌ أغيرَ مِنَ الله، ولذلكَ حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبُّ إليهِ المدحُ مِنَ الله، ولذلكَ مدَحَ نفسَه، وما أحَدٌ أحبُّ إليهِ العذرُ مِنَ الله تعالى، ولذلكَ أرسَلَ الرّسلِ وأنزلَ الكُتبَ». البحر المديد (20/2).

﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: 36-38].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وعمن أنزلت عليه عتوًا وعنادًا ﴿أُولَئِكَ﴾ المكذبون المستكبرون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ المعدة لجزاء المخذولين من أهل الضلال ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:36] لا نجاة لهم منها أصلاً.

نعوذ بك من سخطك يا ذا القوة المتين.

وبعدما أرسل الرسل وأنزل الكتب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي: نسب إليه ما لم يصدر عنه افتراء وكذبًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الصادرة عنه عنادًا ومكابرة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المفترون المكذبون ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ﴾ أي: مما كتب في اللوح وثبت فيه من العذاب والنكال لذوي الجرائم العظام ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكتنا الموكلون ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ لتوفية حساب العصاة ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ من الآلهة الباطلة وتعتقدونهم شفعاء ﴿قَالُوا﴾ متضرعين مضطربين: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا بعدما أضلونا عن طريق الحق ﴿وَشَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في مدة حياتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:37] ضالين.

﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال على مقتضى عدله: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها الضالون المكذبون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ عاصية كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ على الكفر والضلال أمثالكم ﴿مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ المعدة لجزاء العصاة الغواة الكفرة، وبعد صدور الأمر الوجوبي منه سبحانه صاروا بحيث ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في نار الخذلان ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي أضلتها ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ وتلاحقوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أي: مستأخرهم ﴿لأُولاهُمْ﴾ أي: لأجل مستقدميهم وفي حقهم، متضرعين إلى ربهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ﴾ الضالون المضلون

﴿أَضَلُّونَا﴾ عن طريقك بوضع سنن الضلال بيننا فاقتدينا بهم، فضللنا ﴿فَآتِهِمْ﴾ الآن وأنزل عليهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾[1] أي: مثل عذابنا؛ لأنهم ضالون مضلون ﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى عدله: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم أيها الأتباع ومن متبوعيكم ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار، أمَّا المتبوعون فلضلالهم وإضلالهم، وأمَّا التابعون فلضلالهم وتقليدهم بهؤلاء المضلين لا بالأنبياء ﴿وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:38] استحقاقكم واستحقاقهم.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:39-41].

﴿وَ﴾ بعدما سمعت الأولى من الأخرى ما سمعت ﴿قَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ إنَّا وأنتم مساوون في الضلال ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ تستحقون به تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:39] كما نذوق بما نكسب.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ولم يؤمنوا لها عتوًا وعنادًا ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: الفيوضات والفتوحات من سماء الأسماء والصفات حتى ينكشفوا بوحدة الذات ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أي: مقر التوحيد ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: دخولهم في مقر التوحيد في الاستحالة كولوج الجمل في سم الخياط بل أشد استحالة، هذا مثل يُضرب في الممتنعات والمستحيلات ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:40] المخرجين عن ساحة عز التوحيد بجرائم أهوية هوياتهم الباطلة.

(1) قال في التأويلات: وإنما قدم الجن على الإنس؛ لتقدمهم عليهم في الخلقة، وذلك أن الله تعالى لما خلق الجن جعل منه حكمة؛ فمنهم: مؤمن، ومنهم: كافر، فلمَّا استولى أهل الكفر منهم على أهل الإيمان وغلبوهم بالحرب والقتال حتى استأصلوهم بعث الله إليهم جندًا من الملائكة، قيل: كان رئيسهم إبليس، فسلطهم الله عليهم حتى أهلكوا جميعهم، ثم خلق الله تعالى آدم ﷺ بعدهم فخلق منه ذريته فكان منهم كافرًا: كقابيل، ومنهم مؤمن: كهابيل إلى أن كان في كل زمان منهم أمة كافرة مستحقة لدخول النار، وأمة مؤمنة مستحقة لدخول الجنة حتى الآن وإلى انقراض العالم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:2].

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ الإمكان ﴿مِهَادٌ﴾ فراش يحترقون عليه بنيران الأمنية والأهوية الفاسدة ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من سعير الجاه والمال ودعوى الفضل والكمال ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:41] المتجاوزين عن حدود الله بمقتضيات نفوسهم المنغمسة في اللذات الحسية والوهمية والخيالية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف:42-43].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة نحوه على مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم ومقدار وسعهم وطاقتهم؛ إذ ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الباذلون جهدهم في سلوك طريق الفناء ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الولاء، المتمكنون في مقام الرضا بما جرى عليهم من القضاء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:42] ما شاء الله؛ إذ لا حول ولا قوة فيها إلا بالله.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا جنة التوحيد ﴿نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ﴾ مشعر بالاثنينية والأنانية؛ إذ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الوحدة ﴿وَ﴾ بعدما كوشفوا بفناء تعيناتهم وفازوا بالبقاء السرمدي الإلهي ﴿قَالُوا﴾ بلسان استعداداتهم بإلقاء الله إياهم ليتحققوا بمقام الشكر: ﴿الحَمْدُ﴾ والثناء المنبعث من محض التسليم والرضا ﴿لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: أوصلنا بمقام الرضا وشرف البقاء واللقاء ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بأنفسنا لو بقينا في مجلس هوياتنا ومضيق تعيناتنا ﴿لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ بلطفه وسعة جوده ورحمته، وحين تمكنوا في مقام الكشف والشهود أقسموا بالله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ لإرشادنا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع في جميع ما جاءوا به ﴿وَ﴾ بعدما تحققوا بمقام الشكر واعترفوا بما اعترفوا ﴿نُودُوا﴾ من وراء سرادقات العز والجلاء: ﴿أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ﴾ أي: التوحيد الذاتي ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتم بها ومكنتم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:43] بمقتضى أوامر الله ونواهيه وإرشاد رسله وتذكير كتبه.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف:44-47].

﴿وَ﴾ بعدما تمكن أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ﴿نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ ليفتضحوا على رءوس الأشهاد: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من المواعيد والتبشيرات على ألسنة الرسل وكتبه ﴿حَقًّا﴾ يقينًا بعدما تيقناه علمًا وعينًا فيما مضى ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾ أيها المحبوسون في سجن الإمكان ونار الحرمان ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من الوعيدات والإنذارات الشديدة الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿حَقًّا﴾ مطابقًا للواقع ﴿قَالُوا﴾ متحسرين بحالهم مضطرين عما هم عليهم: ﴿نَعَمْ﴾ قد أصبنا ما كذبنا وحققنا ما أبطلنا، وبعدما جرى بينهم ما جرى من المقاولة ﴿فَأَذَّنَ﴾ صوت ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ هاتفٍ وراء سرادقات الجلال ﴿بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: طرده ومقته نازل ثابت ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:44].

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ينصرفون وينحرفون ﴿عَن﴾ استقامة ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون منها زيغًا وضلالاً ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:45] مكذبون منكرون.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الموحدين المتمكنين في نعيم الجنان، المشرفين بشرف لقاء الرحمن، والمشركين المحبوسين في سجّين الإمكان، المحترقين بنيران الخذلان والحرمان ﴿حِجَابٌ﴾ لا يدرك كنهه إلا العليم العلام ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ﴾ أي: البرزخ ﴿رِجَالٌ﴾ من الأبرار ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ﴾ من الفريقين ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾[1] أي: بوجوههم التي

(1) إن لله عبادًا في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرق على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسمات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي منقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فراسة المؤمن

يلي الحق والباطل وهم متقررون في البرزخ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿وَنَادَوْا﴾ أهل البرزخ ﴿أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ هنيئًا لكم، ما تتنعمون فيها وتتمتعون بها حال كونهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف:46] دخولها من فضل الله وسعة رحمته وجوده.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصروا بذلك البرزخ ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ متضرعين متخشعين: ﴿رَبَّنَا﴾ وإن صدر عنا من التقصير ما صدر ﴿لاَ تَجْعَلْنَا﴾ بلطفك ﴿مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:47] الخارجين عن حدودك مطلقًا عنادًا وإصرارًا.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف:48-51].

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ﴾ على وجه التوبيخ والتقريع ﴿رِجَالاً﴾ من

فإنه ينظر بنور الله». وهؤلاء على أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال الدارين ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتملون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ السلام منهم عليهم زيادة قربه أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع عوام الجنة كالملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطييب قلوبهم، والفرح بملكهم. روى أبو الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم. ويقال: عرفوهم غدًا بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأقوم موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

صناديدهم كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بوجوههم الباطلة من المال والجاه والرئاسة والتفوق وغيرها ﴿قَالُوا﴾ لهم متهكمين: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما أسقط جمعكم المال وجمعيتكم بسبب الجاه شيئًا من عذاب الله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:48] أي: ما يفيد لكم استكباركم على خلق الله وعن آياته اليوم؟!

انظروا أيها الحمقى ﴿أَهَؤُلاءِ﴾ المترفهون المتنعمون في مقر العز والتمكن هم ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في النشأة الأولى أنهم ﴿لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ في النشأة الأخرى، كيف قيل لهم من قبل الحق تفضلاً وامتنانًا عليهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الأمن والأمان ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعدما دخلتم فيها ﴿وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49] أصلاً من فوت شيء وتعويقه.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ متمنين منهم متحسرين: ﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾ صبوا ﴿عَلَيْنَا﴾ رشحة ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ الذي هو سبب حياتكم الحقيقي وبقائكم السرمدي ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ من الرزق المعنوي ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم بإلهام الله إياهم: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:50].

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو سبب الحياة الحقيقية في حياتهم الصورية ونشأتهم الدنيوية ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ يلهون ويلعبون به ويكذبون من أرسل إليهم وأنزل عليهم الكتب لتبيينه ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بمزخرفاتها من اللذات الجسمانية والشهوات النفسانية، وصاروا بسبب تغريراتها ناسين العهود والمواثيق التي جرت بيننا وبينهم في بدء فطرتهم ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: حين كشف السرائر وارتفعت الحجب ﴿نَنسَاهُمْ﴾ ولم نلتفت نحوهم ﴿كَمَا نَسُوا﴾ في النشأة الأولى ﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ في النشأة الأخرى مع ورود الإنذارات والتخويفات الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿وَمَا﴾ أي: وكما ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على أمثال هذه الإنعامات ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:51] ينكرون ويصرون كذلك يخلدون في النار وينسون.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا

كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف:52-53].

﴿وَ﴾ كيف لا يخلدون في النار ﴿لَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾ مبين لجميع أحوال النشأتين ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: أوضحنا معانيه وبيّنا ما فيه من العقائد والأحكام مفصلاً ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حضوري منا متعلق بتفصيله بحيث لا يشذ عن علمنا شيء أصلاً، وإنما فصلناه وأوضحناه وجئنا به؛ ليكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا ومرشدًا لهم إلى توحيدنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ مخلصة لهم عن سجن الطبيعة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:52] به وبحقيقته.

وبعدما آمنوا به وبما فيه من أحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون هؤلاء المؤمنون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما يؤول إليه ويترتب عليه بعدما حصل لهم الإذعان بالوقوع ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ ونبذوه وراء ظهورهم ﴿مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع فكذبناهم مكابرة وعنادًا ﴿فَهَل لَّنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ليخلصونا من نكال ما أجرمنا ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ بشفاعتهم على أعقابنا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في أيام الغفلة، وهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والشرك وعبادة الغير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ضَلَّ﴾ غاب وخفي ﴿عَنْهُم﴾ لدى الحاجة ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:53] لشركائهم من الشفاعة والمظاهرة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:54-56].

وكيف لا تتنبهون وتتكشفون أيها المجبولون على فطرة التوحيد ومن الذات المستجلي في الآفاق بالاستقلال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهر وأوجد ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما بينهما من كتم العدم بامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوقات ودفعات ليشير إلى إحاطته بالجهات كلها ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1]

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن الذي هو ربكم وسيدكم الذي تجب طاعته عليكم لربوبيته

أي: على عروش المظاهر والمكونات الكائنة والأقطار، منزهًا عن الجهات والاستواء والاستقرار والتمكن مطلقًا، ورتب أمور المكونات على حركات الأفلاك بحيث ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يغطي بالليل وجه النهار مع أن النهار ﴿يَطْلُبُهُ﴾ أي: يعقبه ﴿حَثِيثًا﴾ سريعًا ﴿وَ﴾ جعل ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ يتحركن حيث أمرها الحق سبحانه ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس المستهلكة أن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وفي قبضة قدرته ﴿الْخَلْقُ﴾ والإيجاد والإظهار ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي: التدبير والتصرف بالاستقلال، وبالجملة: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54] أي: تعاظم

هو: الله المستحق للعبادة بالإلوهية، الذي خلق بالقادرية والخالقية السماوات والأرض بالمدبر والحكيمية خلقها في ستة أيام، وإنما حصر في ستة أيام؛ لأن أنواع المخلوقات ستة وهي: الأول: الأرواح المجردة. والثاني: الملكوتيات، فمنها: الملائكة، والجن، والشياطين، وملكوت السماوات، ومنها: العقول المفردات والمركبات. والثالث: النفوس: كنفوس الكواكب، ونفس الإنسان، ونفس الحيوان، ونفس النبات والمعادن. والرابع: الأجرام والبسائط العلوية من الأجسام اللطيفة كالعرش، والكرسي، والسماوات، والجنة والنار. والخامس: الأجسام المفردة وهي: العناصر الأربعة. والسادس: الأجسام المركبة الكثيفة من العناصر فتصير عن خلق كل نوع منها بيوم، وإلا فالأيام الزمانية كونها مستحيل قبل خلق السماوات والأرض؛ فلما أتم خلق المكونات من الأنواع الستة استوى على العرش بعد الفراغ من خلقها استواء التصرف في العالم وما فيه التدبير في أموره من العرش إلى تحت الثرى، وإنما اختص العرش بالاستواء؛ لأنه مبدأ الأجسام اللطيفة القابل للفيض الرحمانية. واعلم: أن الاستواء صفة من صفاته تعالى لا تشبه استواء المخلوقين، كالعلم صفة من صفاته تعالى لا يشبه علم المخلوقين؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، ولو أمعنت النظر في خصوصية خلافتك عن الحق تعالى لعرفت نفسك فعرفت ربك، وذلك إن الله تعالى لمّا أراد خلق شخصك من النطفة المودعة في الرحم استعمل روحك بخلافته؛ ليتصرف في النطفة أيام الحمل فيجعلها عالمًا صغيرًا مناسبًا للعالم الكبير، فيكون بدنه بمثابة الأرض، ورأسه بمثابة السماء، وقلبه بمثابة العرش، وسره بمثابة الكرسي، وهذا كله بتدبير الروح وتصرفه خلافة عن ربه، ثم استوى الروح بعد استواء من الشخص الكامل على عرش القلب استواء لا مكانيًا لاستواء مكانيًا؛ ليتصرف في جميع أجزاء الشخص ويدبر أموره بإفاضة فيضه على القلب، فإن القلب هو: القابل لفيض الروح، ثم يفيض على سائر الأعضاء، كما أن من العرش ينصب الفيض الإلهي إلى سائر المخلوقات، فالعرش مقسم فيض الحق تعالى إلى المخلوقات كلها، كما أن القلب مقسم فيض الروح إلى القالب كله، فإذا تأملت في هذا المثال تأملاً شافيًا وجدته في نفي التشبيه عن الصفات المنزهة المقدسة كافيًا، وتحققت حقيقة من عرف نفسه فقد عرف ربه إن شاء الله تعالى.

في ألوهيته عن أن يدركه العقول والأفهام، وتعالى في ربوبيته عن المظاهرة والمشاركة والأمثال والأشباه.

﴿ادْعُوا﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿رَبَّكُمْ﴾ المتفرد بتربيتكم وإظهاركم ﴿تَضَرُّعًا﴾ متضرعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ كاتمين خائفين خاشعين عن ظهر القلب لا مقلقلين على طرف اللسان عادين ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:55] المجاوزين المجاهرين الملحين في الدعاء؛ إذ علمه بحالهم يغني عن سؤالهم.

﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَادْعُوهُ﴾ سبحانه إن أردتم الالتجاء إليه والمناجاة معه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1] أي: خائفين من رده بمقتضى قهره وانتقامه، راجين قبوله من فضله وإحسانه ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ﴾ المجيب للمضطرين عناية ولطفًا ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:56] الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ويقومون بين يديه خائفًا مستحييًا من سطوة سلطته وقهره وجلاله، طامعًا راجيًا من طوله ونواله.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:57-58].

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رحمته قريبة من المؤمنين المحسنين ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ أي: يثيرها ﴿بُشْرًا﴾ مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام روحه ورحمته ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت وأثقلت وجمعت من البخارات المتراكمة ﴿سَحَابًا﴾ غليظًا ﴿ثِقَالاً﴾ بالأجزاء المائية ﴿سُقْنَاهُ﴾ من غاية لطفنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يابس لأجل إحيائه ونضارته ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بالبلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ المحيي ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: أنواعها وأجناسها المختلفة بالألوان والطعوم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إخراجنا بالماء الصوري أنواع الثمرات من البلد الميت، نخرج بالماء المعنوي الذي هو

---

(1) مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا لفرط رحمته. تفسير حقي (4/ 169).

العلم اللدني من أراضي القابليات واستعدادات الموتى المحجوبين بالحجاب الظلماني والجهل الجبلي الهيولاني، بإرسال رياح أنفاس الأنبياء والأولياء المستنشقة من النفس الرحماني، مبشرات بالكشوف والمشاهدات حتى إذا اجتمعت صارت سحابًا شرعيًا ثقيلاً بمياه الحكمة والتقوى، سقناه من غاية جودنا إلى بلاد النفوس الميتة اليابسة، فأجرينا فيها أنهار المعارف والحقائق المنتشئة من قلوب الأنبياء والأولياء، فأخرجنا به ثمرات اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿نُخرِجُ المَوْتَى﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:57] فتعرفون قدرتنا على جميع مقدوراتنا ومراداتنا.

﴿وَ﴾ بعد سوقنا مياه جودنا إلى أموات ﴿الْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الذي هو نجيب المنبت، لطيف الطينة، قابل التربية ﴿يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بتوفيقه سبحانه وتربيته جيدًا نافعًا كثيرًا على مقتضى استعداده الفطري ﴿وَ﴾ البلد ﴿الَّذِي خَبُثَ﴾ طينته وقل قابليته كالحرة والسبخة ﴿لاَ يَخْرُجُ﴾ نباته بعد إجراء المياه اللطيفة عليه ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾[1] قليلاً

(1) قال المحقق روزبهان: ألا يا أخي أرض القلوب تُنبِتَ أزهار المواجيد ورياحين الحواريد بقدر كشوف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشوف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظاهر آثاره وهي المخالفة. ثم أشار تعالى إلى تبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بالإرادة السابقة والمشيئة الأولية المنزّهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجدونه شاكر أنعامه بنفسه فيخجلون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره. قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن التقي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي حيث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشؤم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات. وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتوليه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا حجب عن التجلي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبتها وتغذي طوائف من النبات وتطيبها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات. قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان. ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السريرة، فمن صفا ساكن قلبه زكي ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالضد. وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل بماء الفرع. قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بماء القربة، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بماء

غير نافع، بل صار كالنفوس المنهمكة في الغفلة والضلال إلى حيث لا يؤثر فيها مياه الحكم والمعارف الجارية على ألسنة الرسل؛ لخباثة طينتها وقلة قابليتها ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ﴾ نردد ونكرر ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على استقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:58] نعمتنا ويتفكرون في آلائنا، ويعتبرون بها إلى أن يستغرقوا في مطالعة جمالنا:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف:59-64].

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت الاستعدادات واختلاف القابليات بتفصيل الأمم الهالكة بموت العناد والجهل لخبث طينتهم، فقال مقسمًا: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسولنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بعدما انصرفوا وانحرفوا عن طريق الحق بالميل إلى الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿فَقَالَ﴾ لهم نوح إمحاضًا للنصح على وجه الشفقة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ أيها المنهمكون في الغفلة ﴿اللَّهَ﴾ المتوحد في الألوهية، المتفرد في الربوبية، المستحق للعبودية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ معبود بحق ﴿غَيْرُهُ﴾ ينقذكم من عذابه، وإن لم تعبدوه وتوحدوه ﴿إِنِّي﴾ بعدما أوحي إليّ من عنده إهداءكم وتنبيهكم إلى توحيده ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:59] هو يوم الطوفان في النشأة الأولى ويوم القيامة في النشأة الأخرى.

وبعدما سمعوا مقالته ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ يا نوح ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي

العلم، وطيب السرّ بنور المعرفة، وطهر اللسان بالصدق والذكر، وطهر الجوارح بماء العظمة وطيبتها بنور التوفيق.

﴿ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف:60] ظاهر لائح، تأمرنا بترك عبادة الآلهة المحققة وتدعونا إلى إله واحد موهوم أبدعته من عند نفسك.

﴿قَالَ﴾ أيضًا على مقتضى شفقة النبوة لعلهم يتنبهوا: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ كما تخيلتم من جهلكم ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ هادٍ لكم مرسل ﴿مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:61] الذي أوجدكم ورباكم بأنواع التربية؛ حتى تعترفوا بربوبيته وتقروا بتوحيده.

وإنما جئت لكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ بآياته سبحانه؛ حتى تفوزوا من عنده بالمثوبة العظمى والمرتبة العليا بإهدائي وإرشادي ﴿وَ﴾ لا تضعفوني ولا تنسبوني إلى الجهل والسفه، إني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللهِ﴾ بتوفيقه وحيه وجذب من جانبه ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:62] منه، أكذبتموني وأنكرتموني.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ من ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ موعظة وتذكير لإرشادكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ به عن الكفر والمعاصي ووخامة عاقبتهما ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ عن محارم الله بسبب إنذاره وتخويفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:63] بإثبات مأموراته وترك منهياته؛ عناية وتفضلاً.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما ضعفوه ونسبوه إلى الضلال، فانتقمنا منهم وأخذناهم بالطوفان ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ حال كونهم متمكنين ﴿فِي الفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسولنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:64] غير مستبصرين بآيات الله الدالة على توحيده؛ لعمي قلوبهم وفسادهم وعمههم في الغفلة والضلال.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:65-68].

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضا ﴿إِلَى﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ حين خرجوا عن ربقة الإيمان وعرى التقوى ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أضافه إليهم بالأخوة؛ لكمال الشفقة ووفور الأعطاف ﴿قَالَ﴾

مناديًا لهم مضيفًا لهم إلى نفسه؛ ليقبلوا قوله ويمتثلوا بما جاء به من زبه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المظهر الموجد لكم من كتم العدم ورباكم بأنواع اللطف والكرم، واعتقدوا يقينًا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ موجد مرب ﴿غَيْرُهُ﴾ فعليكم أن تعبدوه إيمانًا به وعملاً بما جاء عنده لأنبيائه حتى يتحققوا بمقر التوحيد، أتنكرون وحدة الحق وتعبدون غيره من الآلهة الباطلة ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:65] عن بطشه وأخذه؟!

فلما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ المَلأُ﴾ الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ - إذ بعض الأشراف آمن به كمرثد بن سعد -: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ عظيمة في دعوى الإرشاد والتكميل ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ في ادعاء الرسالة والنبوة ﴿مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لا تسفهوني؛ إذ ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ أُرسل إليكم لإهدائكم ﴿مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:67].

جئتكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1] [الأعراف:68] فعليكم أن تتعظوا بنصحي وتتصفوا بما نصحت لكم بإلهام الله ووحيه لتكونوا من زمرة المؤمنين الموقنين.

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:69-70].

﴿أَ﴾ أنكرتم وكذبتم أمري وإهدائي ﴿وَ عَجِبْتُمْ﴾ من انهماككم في الغي والضلال من ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ﴿ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عما يضلكم ويغويكم تفضلاً وامتنانًا عليكم؟ ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا ولا تنكروها، بل ﴿اذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ

---

(1) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في خلقه هلك، ونصيحة الخلق أشد من النفس، وأدنى نصيحة النفس الشكر، وهو ألا يعصى الله تعالى بنعمه. وقال أيضًا: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه. تفسير التستري (1/162).

نوح﴾ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وَزَادَكُمْ﴾ بسببها ﴿فِي الخَلْقِ بَصْطَةً﴾ تفوقًا واستعلاء ﴿فَاذْكُرُوا﴾ أيها المترفهون بنعم الله ﴿آلاءَ اللهِ﴾ الفائضة عليكم واشكروا لها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:69] تفوزون من عنده بشرف الرضا والتسليم.

ثم لما بالغ في نصحهم وإرشادهم وبذل جهده في أداء الرسالة والتبليغ ﴿قَالُوا﴾ في جوابه من غاية قسوتهم ونهاية حميتهم مستفهمًا مقرعًا: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها الكذاب السفيه ﴿لِنَعْبُدَ اللهَ﴾ الذي ادعيت أنت أنه ﴿وَحْدَهُ﴾ لا شريك له ولا إله سواه ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة، فاذهب أنت وإلهك؛ إذ لا نؤمن بك وبه أصلاً، وإن شئت ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب والنكال ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:70] في دعواك.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف:71-72].

ثم لما آيس هو من هدايتهم وصلاحهم ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب وحق ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب شديد تضطربون به ﴿وَغَضَبٌ﴾ نازل من عنده بحيث يستأصلكم بالمرة ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ أيها المغضوبون بغضب الله ﴿فِي أَسْمَاءٍ﴾ أشياء ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من تلقاء أنفسكم آلهة تعبدونها كعبادة الله مع أنه ﴿مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجةٍ وبرهانٍ تستدلون بها على عبادة هؤلاء التماثيل العاطلة والمفتريات الباطلة، وبعدما ظهر الحق فلم تقبلوا أيها المسرفون ﴿فَانتَظِرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:71].

روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فلما بُعث إليهم هود كذبوه وأصروا على ما هم عليه عتوًا وعنادًا التماثيل العاطلة، فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان من عادتهم إذا نزل عليهم البلاء توجهوا نحو البيت الحرام، وتقربوا عندها وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عنز، ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، فلبثوا عنده شهرًا، ثم قصدوا البيت ليدعوا.

قال مرثد: والله لا يسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله لأسقيتم، فقالوا لمعاوية: احبس منا مرثدًا لا يقدمن معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، فحبسه ثم دخلوا مكة.

فقال قيل: اللهم اسق ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاث: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى منادٍ من جانب السماء: اختر يا قيل لنفسك ولقومك منها، فقال: اخترت السوداء؛ لأنها أكثرهن ماء، فخرجت على عادٍ من وادي المغيث، فاستبشروا بها واستعجلوا لنزولها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، بل ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: هودًا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ لإيمانهم وانقيادهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن استأصلناهم ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:72] بنبينا وكتابنا، ولا من شأنهم التصديق.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:73-74].

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صدقي في دعواي نازلة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ﴾ أظهرها ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ دالة على صدقي في قولي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ حيث شاءت ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ وإن آذيتموها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:73] مؤلم مفظع مستأصل، فعليكم أن تحفظوها حتى لا ينزل عليكم العذاب.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المتنعمون نعم الله عليكم، سيما ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ مكنكم ووطنكم وكثركم في الأرض التي هم فيها حال ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ لبنًا وآجرًا، وتبنون ﴿قُصُورًا﴾ عاليات تسكنون فيها مترفهين ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾

تشقون بالمعاول ﴿الْجِبَالَ﴾ المتحجرة ﴿بُيُوتًا﴾ لحفظ أمتعتكم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ المترادفة المتوالية عليكم، وقوموا بشكرها؛ ليزيد عليكم سبحانه ويديم لكم ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أي: لا تظهروا ﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:74] بغرور الأموال والأولاد والأمتعة.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:75-79].

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان والاتباع له ﴿مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ إياهم واستذلهم ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ يقينًا أيها الحمقى المصدقون له المؤمنون ﴿أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الذي ادعى وحدته واستقلاله في الألوهية والربوبية ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون المخلصون من صفاء عقائدهم ونجاة طينتهم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ أي: بجميع ما أرسل ﴿بِهِ﴾ من عند ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:75] مصدقون موقنون.

﴿قَالَ﴾ الملأ ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عنادًا ومكابرة: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بمتابعة صالح ﴿كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:76] منكرون مكذبون.

ثم لما كفروا وكذبوا مصرين ﴿فَعَقَرُوا﴾ أي: نحروا ﴿النَّاقَةَ﴾ التي هي آية الله عليهم ووديعة الله عندهم، قد أوصاهم سبحانه ألا تمسوها بسوء، وهم قد هلكوها عنادًا ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[1] استكبارًا ﴿وَقَالُوا﴾ لنبيه، بطرًا واستهزاء: ﴿يَا صَالِحُ﴾ الكذاب

(1) أي: استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح من الأمر بقوله فذروها ومن النهي بقوله ولا تمسوها واستكبروا عن اتباع أمر الله وهو شرعه ودينه ويجوز أن يكون المعنى صدر عتوهم عن

المدعي ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ﴾ صدقت أنك ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:77] فلما فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا استحقوا ما وعدوا وأوعدوا.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصيحة الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78] أي: صار كل منهم جاثمًا جامدًا إلى حيث لا يتحرك منهم أحد.

روي أنهم كانوا في منازل عاد يعيشون فيها متنعمين مترفهين إلى أن كثرهم الله وعمرهم أعمارًا طوالاً، واقتضى طول أملهم أن نحتوا من الجبال بيوتًا يخزنون فيها أمتعتهم ويبنون قصورًا عاليات في السهول؛ إذ كانوا في خصب وسعة، فقروا على ما هم عليه وأفسدوا في الأرض بأنواع الفسادات، وبالغوا في عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم صالحًا وهو من أشرافهم فدعاهم إلى الإيمان والتوحيد، فسألوا منه آية فقال:أية آية تريدون؟

قالوا:أخرج معنا إلى عيدنا، فادع إلهك وندعو إلهنا فمن استجيب اتبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم يجابوا، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها:الكاثبة، وقال لصالح:أخرج من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء، فإن خرجت صدقناك وآمنا بك.

فأخذ صالح عليه السلام عنهم المواثيق إن أخرجت لتؤمنوا له، فعهدوا، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عنه ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون، ثم أنتجت ولدًا مثلها في الكبر، فآمن له جندع في جماعة ومنع الباقين دوار بن عمرو، والخباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبًا، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفجج فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم ويدخرون، وكانت تصيف في ظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم، وتشتو في بطنه فتهرب أنعامهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم فهموا بقتلها، وزينت لهم قتلها أم غنم وصدقتها بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها.

فرقى ولدها جبلاً اسمه قارة، فرغا ثلاثًا، فقال صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل عسى

أمر ربهم كان أمر ربهم بترك الناقة كان هو السبب فى عتوهم ونجوا من هذه كما فى قوله وما فعلته عن أمري. انظر [تفسير حقي (4 /195)].

أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها.

فقال صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة وبعد غد محمرةً، واليوم الثالث مسودة، ثم يصحبكم العذاب، فلما رأوا العلامات هموا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولما كانت ضحوة اليوم الرابع وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم، فهلكوا ﴿فَتَوَلَّى﴾ وأعرض صالح عليه السلام ﴿عَنْهُمْ﴾ بعدما ظهر عليهم أمارات عذاب الله وعلامات الانتقام ﴿وَقَالَ﴾ متحسرًا متأسفًا حين تجانب عنهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المبالغين في الإعراض عن الحق ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ وبذلت جهدي في إهدائكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ إشفاقًا عليكم حتى لا يلحقكم العذاب الموعود ﴿وَلَكِن﴾ أنتم قوم مستكبرون في أنفسكم، مصرون معاندون ﴿لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:79] فلحقكم ما أخاف عليكم بالإعراض عما أمرتم به.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾ [الأعراف:80-84].

﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ المبالغين في ارتكاب الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ المتناهية في القباحة والفضاحة مع أنها ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:80] بل أنتم اخترعتموها من خباثة نفوسكم ورداءة طباعكم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المتجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي: حال كونكم متلذذين مشتهين لإتيانهم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ مع أن الحكمة تقتضي إتيانهن، وما هو من جهلكم بقبحها وخباثتها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:81] في الفساد والخروج عن مقتضى الحكمة الإلهية بمتابعة أهويتكم الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين سمعوا منه ما سمعوا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ مستكبرين مستنكرين منهمكين: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: لوطًا ومن آمن له ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:82] يدعون التطهر عن الخبائث ويجتنبون عن الفواحش، فلا يناسبهم الإقامة فينا.

ثم لما لم يمتنعوا بقوله، بل زادوا الإصرار والعداوة، أخذناهم بظلمهم وإسرافهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: من آمن له مما أصابهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ لأنها تسر الكفر؛ لذلك ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف:83] الهالكين بقهر الله.

﴿وَ﴾ بعدما أخذناهم ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطرًا وحجارة من سجيل فاستأصلناهم به ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 84] المصرين على الجرائم العظائم مع إرسال الرسل الهادين لهم إلى طريق النجاة، الزاجرين عما هم عليه من القبائح على أبلغ وجه وآكده.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)﴾ [الأعراف:85-86].

﴿وَ﴾ أيضًا أرسلنا ﴿إِلَىٰ﴾ قوم ﴿مَدْيَنَ﴾ وهم قرية شعيب عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ﴾ وابن عمهم ﴿شُعَيْبًا﴾ عليه السلام حين أفرطوا في التطفيف والتخسير ﴿قَالَ﴾ لهم مناديًا على وجه الشفقة والنصيحة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المتوحد المستقل في الألوهية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يعبد بالحق ﴿غَيْرُهُ﴾ وأنه ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم دالة على القسط والعدالة في المعاملات الصورية؛ ليفوزوا بها إلى الاعتدال المعنوي والقسط الإلهي ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: وفوا حقه ﴿وَ﴾ أقيموا ﴿الْمِيزَانَ وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوا من حقوقهم شيئًا ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ مطلقًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي وضعت للعدالة والصلاح سيما ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بعد إصلاحنا أمرها بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: العدل والصلاح وامتثال الأوامر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:85]

موقنين بعدل الله وصراطه المستقيم.

وعليكم أن تتوجهوا نحو طريق الحق بالعزيمة الصحيحة ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا﴾ أي: لا ترصدوا ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق ومذهب من الطرق الباطلة حال كونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتخوفون الناس عن سلوك طريق الحق ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ضعفاء ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بإلقاء الشبه والرخص في قلوبهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1] أي: تطلبون أن تنسبوا عوجًا وانحرافًا إلى سبيل الحق والطريق المستقيم؛ لينصرف الناس عنه، وعليكم ألا تميلوا عن مخالفة أمر الله ونهيه ﴿وَاذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً﴾ عَددًا وعُددًا ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ قوّاكم وأظهركم، واشكروا نعمه عليكم؛ ليدوم ويزيد ولا تكفروها ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:86] المكفرين لنعم الحق من الأمم الهالكة واعتبروا من حالهم ومآلهم.

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:87-89].

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من العدالة الصورية والمعنوية ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ عنادًا واستكبارًا ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وانتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ بمقتضى عدله ﴿بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين بالنصر على من آمن والقهر على من كفر واستكبر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:87] يحكم بمقتضى حكمته

---

(1) أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعا لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها. انظر [تفسير السعدي (1/ 296)].

المتقنة المتفرعة على العدالة الحقيقية.

ويعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ على وجه المبالغة والتأكيد وعدم المبالاة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ البتة ﴿يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ وصدقوا قولك ﴿مِن قَرْيَتِنَا﴾ كرهًا وإجلاءً ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أنت ومن معك ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ التي كنتم عليها من قبل ﴿قَالَ﴾ عليه السلام مستبعدًا مستنكرًا: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا﴾ في الأيام السالفة أيضًا ﴿كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:88] منكرين ملتكم التي أنتم عليها، فتعيدوننا إليها، وكيف نعود؟!

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾ البتة ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا﴾ وصرنا ﴿فِي مِلَّتِكُم﴾ سيما ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ﴾ المنجي لعباده عن ظلمة الكفر ﴿مِنْهَا﴾ وألهمنا بطلان ما أنتم عليه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَنَا أَن نَّعُودَ﴾ ونرجع ﴿فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ عودنا ومصيرنا إليه؛ إذ هو ﴿رَبُّنَا﴾ يربينا بلطفه بما هو خير لنا، وإن كان فيها خيرًا يعيدنا إليها؛ إذ ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تحققًا وحضورًا لذلك ﴿عَلَى اللهِ﴾ لا على غيره من الأسباب ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع ما جرى علينا، واتخذناه وكيلاً لجميع أمورنا ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿افْتَحْ﴾ واقض على ما جرى عليه حكمك وقضاؤك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع والموافق لما ثبت في لوح القضاء ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:89] الحاكمين بين ذوي الخصومات.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف:90-93].

ومن حسن محاورة شعيب عليه السلام مع أمته ومجاملته معه لقب بالخطيب بين الأنبياء.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ لمتابعيهم ترهيبًا وتهديدًا على وجه المبالغة والتأكيد: والله ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ عليه السلام وآمنتم له وسمعتم قوله في ترك البخس والتطفيف ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:90] في بضاعتكم ومعاملتكم، ثم لما بالغوا في الضلال والإضلال استحقوا الانتقام والنكال.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة الشديدة فخر عليهم سقوف بيوتهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي

دَارِهِمْ﴾ التي يستقرون فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:91] جامدين ميتين.

وبالجملة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: استؤصلوا وانقرضوا إلى حيث صاروا كأن لم يسكنوا ولم يكونوا في تلك الديار أصلاً، بل الحق إن ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:92] المقصورين على الخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ شعيب عليه السلام بعدما شاهد حالتهم واستحقاقهم للعذاب ﴿وَقَالَ﴾ متأسفًا متحزنًا على مقتضى شفقته، مضيفًا لهم إلى نفسه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المنهمكين في الغفلة المبالغين في الإصرار والاستكبار ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ حتى لا يلحق بكم ما لحق ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بإذنه سبحانه وبالغت في نصحي، فلم تقبلوا مني نصحي ولم تصدقوا قولي، ثم كذب هواجس نفسه وأنكر عليها؛ خوفًا من غضب الله، فقال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أتحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ كانوا ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:93] لنعم الحق مكذبين لأوامره مستحقين لما نزل عليها بسوء معاملتهم مع الله بعد ورود ما ورد من الوعد والوعيد؟.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) ﴾ [الأعراف:94-98].

ثم لما ذكر سبحانه من أحوال الأمم الماضية الهالكة وقبح صنيعهم مع الله وتكذيبهم كتبه ورسله، سجل عليهم بأن ما لحقهم إنما هو من سوء صنيعهم وشؤم نفوسهم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾[1] من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿إِلَّا

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن سبب البأساء والضراء ابتلاء لأوليائه وأعدائه، فالولي يتضرع إليه عند البلاء ويرجع إليه، ويتوكل عليه، ويتمسك بحبل الصبر والتسليم والرضا، ويتمسك

أَخَذْنَا﴾ أولاً ﴿أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ إزالة لقساوتهم وتليينًا لقلوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف:94] رجاء أن يتضرعوا إلينا ويتوجهوا نحونا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ضيقنا عليهم كشفنا عنهم بأن ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ المضرة المؤلمة ﴿الْحَسَنَةَ﴾ النافعة المسرة ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ إلى أن كثروا وتكاثروا عَددًا وعُددًا ﴿وَقَالُوا﴾ بعدما صاروا مترفهين في سعة ورخاء مكان شكر وإظهار المنة منًا: ﴿قَدْ مَسَّ﴾ ولحق ﴿آبَاءَنَا﴾ كما لحقنا ﴿الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ ومن عادة الزمان وديدنة الدهر تعاقب السراء بالضراء والجدب بالرخاء، ومتى ظهر منهم كفران النعم وعدم الرجوع إلينا بالشكر ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وتقديم أمارة ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:95] نزول العذاب والنكال.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ الهالكة العاصية ﴿آمَنُوا﴾ بالله وبأنبيائه المبعوثين إليهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره التي جاءت الأنبياء به ﴿لَفَتَحْنَا﴾ ووسعنا ﴿عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَ﴾ نابتة من ﴿الأَرْضِ وَلَكِن﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿كَذَّبُوا﴾ بالله وبأنبيائه وكتبه ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ بعدما أظهروا التكذيب والإنكار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96] بأيديهم لأنفسهم، وبالجملة: ما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ من انتقامنا وبطشنا إياهم ولم يخافوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا وعقابنا ﴿بَيَاتًا﴾ في أثناء الليل ويحيط بهم ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف:97] في مضاجعهم.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ ولم يترقبوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ في كمال إضاءة اليوم ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:98] بأمور دنياهم على مقتضى مخايلهم ومناهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

بالعروة الوثقى، والعدو يأخذ في الجزع والكفران ولا يصبر على البلاء بالخذلان ولا يتسلم للقضاء، ويرجع في ذلك إلى الخلق ويذهل عن الحق.

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف:99-102].

وبالجملة: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أولئك المنهمكون في الغفلة ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ المراقب لجميع أحوالهم، ولم يخافوا ولم يحزنوا من أخذه وانتقامه، ولم يتفطنوا أن من أمن عن مكره وأخذه فقد خسر خسرانًا مبينًا ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ المنتقم المقتدر ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99] المقصورون على الخسران الأبدي والشقاق السرمدي في أصل فطرتهم وقابلياتهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: ألم يذكروا ولم يبين الغيور أحوال الأمم الهالكة، وأخذنا إياهم بما صدر عنهم من تكذيب الأنبياء؟ وما جاءوا به من عندنا من الأوامر والنواهي ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ خلفاء ﴿مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ الهالكين بالجرائم المذكورة ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَصَبْنَاهُم﴾ أي: الخلفاء أيضًا ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم مثل أسلافهم، بل بأضعافهم وآلافهم ﴿وَ﴾ من علامات أخذنا وانتقامنا عنهم: أنا ﴿نَطْبَعُ﴾ ونختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ كيلا يفهموا؛ ليعتبروا ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100] بسبب ذلك حتى يتعظوا به.

وبالجملة: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ الهالكة التي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابنا هذا ﴿مِنْ﴾ بعض ﴿أَنبَائِهَا﴾ قصصها وأخبارها وجرائمها مع الله ورسله ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات القاطعة الساطعة، وهم من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل إرسال الرسل عليهم، بل أصروا على ما هم عليه ولم يؤمنوا أصلاً، ولم يقبلوا من الرسل جميع ما جاءوا به ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ ويختم سبحانه بمقتضى قهره ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ جميع ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:101] فلا تعجبك يا أكمل الرسل حال أهل مكة وإصرارهم ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق من مكائدهم؛ إذ هي من الديدنة القديمة والخصلة الذميمة المستمرة بين الكفرة.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم الذميمة وخصلتهم القبيحة أيضًا: نقض العهد والمواثيق.

لذلك ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أيضًا على لسان رسلنا موفين له ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[1] [الأعراف:102] أي: بل ما وجدنا أكثرهم بعدما عهدناهم إلا فاسقين، ناقضين لعهودنا ومواثيقنا.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأعراف:103-110].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي: بعد انقراض الغواة الطغاة الهالكين بأنواع العذاب والنكال نبينا ﴿مُّوسَى﴾ المخصوص بتشريف تكليمنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا مع تأييدنا إياه بالمعجزات الباهرة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والاستكبار إلى حيث يدعي الألوهية والربوبية لنفسه ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المعاونين له المصدقين لدعواه الكاذب، وبعدما ادعى النبوة وأظهر الآيات ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: أنكروا بالآيات وكذبوا من جاء بها ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:103] في أرض الله، الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

---

(1) قال البقلي في «العرائس»: كأن هذه الآية أُنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بما وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أعمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردتهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجمهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما التفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذورون لأن الحدثان لا يستقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء. قال الجنيد: أحسن العباد حالاً مَنْ وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إذ ﴿قَالَ﴾ حين أراد دعوتهم ﴿مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ﴾ المستكبر المتجاوز عن حدود الله، المفسد بين عباده بأنواع الفسادات، المفرط المسرف بدعوى الربوبية ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:104] اختارني الله واصطفاني لرسالته.

وبعد اختياره سبحانه واجتبائه إياي من بين بريته أنا ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير لائق ﴿عَلَى أَن لَّا أَقُولَ﴾ وأسند ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ من الأقوال والأحكام المواعظ ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ الذي علمني ربي وبعثني لأجله وتبليغه لعباده، واعلموا أيها البغاة الطغاة أني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة دالة على صدقي في دعواي، صادرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أظهركم وأوجدكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أيها الفرعون الطاغي ﴿مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:105] المقهورين تحت استيلائك، المظلومين بيدك ليرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم وفكك رقابهم، وخلّ سبيلهم بعدما أمر الحق به وإلا قد نزل عليك وعلى قومك ما أوعدك الحق به من أنواع العذاب في العاجل والآجل.

﴿قَالَ﴾ فرعون في جوابه مستكبرًا مكذبًا، بل منهمكًا على سبيل الترفع والخيلاء: لا أفك رقابهم ولا أخلي سبيلهم، بل ﴿إِن كُنتَ﴾ أيها المدعي الكاذب ﴿جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند ربك الذي ادعيت رسالته ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:106] في الدعوى.

ثم لما سمع موسى قوله وشاهد عتوه واستكباره ﴿فَأَلْقَى﴾ بإلهام الله إياه ﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض بين أيديهم ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ بلا معالجة واستعمال أسبابٍ كما يفعل السحرة ﴿مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:107] عظيم ظاهر بأضعاف مقدار العصا.

روي أنه لما ألقاها صارت ثعبانًا أشقر، فاغرًا فاه بين لحييه ثمانون ذراعًا، وضع لحاه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا، فصاح فرعون: أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصًا.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أدخل يده في جيبه، وكان لون بشرة موسى شديدة الأدمة، ثم نزع ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ مشرقة مشعشعة محيرة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف:108]

مفرقة لأبصارهم من غاية إنارتها وضوئها إلى حيث غلب ضوءها ضوء الشمس.

ثم لما شاهدوا من معجزاته وآياته ما شاهدوا ﴿قَالَ المَلأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ متعجبين من أمره مشاورين مع فرعون، حائرين مضطربين، خائفين من استيلائه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:109] متناه في هذا العلم إلى أقصى غايته؛ لذلك ادعى الرسالة وعجز الغير عن إتيان مثله.

وبالجملة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:110] أيها المتأملون المتفكرون في ضبط المملكة وحفظ البلاد في دفع هذا العدو.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:111-116].

وبعدما تشاوروا وتأملوا كثيرًا في أمر دفعه، استقر رأيهم واتفق أمرهم إلى أن ﴿قَالُوا﴾ مخاطبين لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخر وسوّف قتلهما؛ لئلا يظهر عجزك عنهما ولا يختل أمر ربوبيتك ﴿وَأَرْسِلْ فِي المَدَائِنِ﴾ التي اشتهرت السحر والسحرة فيها شرطاء ﴿حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف:111] جامعين من فيها من السحرة.

وبعد جمعهم ﴿يَأْتُوكَ﴾ ويحضروا عندك ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف:112] ماهر حاذق في هذا العلم؛ ليتمكنوا على مغالبتهما، فأرسلهم فحشروا وانتخبوا من السحرة من انتخبوا.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ المنتخبة ﴿فِرْعَوْنَ﴾ متظاهرين بطرين، جازمين على غلبتهما لذلك سألوا أولاً الجعل حيث ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: 113] وهم وإن كانوا جازمين في نفوسهم الغلبة أتوا بأن المفيدة للشك للمبالغة في طلب الأجر.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم أجرًا كثيرًا ﴿وَ﴾ مع الأجر الكثير ﴿إِنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف:114] عندي، الحاضرين في مجلسي، المصاحبين معي دائمًا،

قاله تحريضًا وترغيبًا.

وبعدما تقرر عندهم وفي نفوسهم الغلبة، وسمعوا منه ما سمعوا من الإنعام والتقرب ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ نادوه استحقارًا له واستهزاء معه، ومسفهًا كيف أقدم مع ضعفه في مقابلتهم: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أولاً ما جئت به ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:115] أوامره، فلك الخيار؛ إذ الأمر عندنا سواء.

﴿قَالَ﴾ موسى بإلهام الله إياه: بل ﴿أَلْقُوا﴾ ما جئتم بإلقائه أيها الساحرون المبطلون ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أي: أرادوا الإلقاء ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ حتى لا يتخيلوا أنها أمور غير مطابقة للواقع، بل اعتقدوا مطابقتها ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل المنتظرين لغلبة موسى؛ ليخلصوا من يد العدو إرهابًا شديدًا؛ لأنهم ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً صارت الكل حيات متراكمة متراكبة بعضها فوق بعض ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:116] متناه في فنه أقصى غاية.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف:117-125].

﴿وَ﴾ بعدما جاءوا بسحرهم العظيم ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت ثعبانًا عظيمًا ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أخذت ﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:117] أي: ما يزورونه ويلبسونه سحرًا وشعبذة.

وبالجملة: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ وتحقق الإعجاز ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 118] من السحر والشعبذة في مقابلته.

﴿فَغُلِبُوا﴾ أي: فرعون وملؤه ﴿هُنَالِكَ﴾ في المجمع ﴿وَانقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا منه ﴿صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف:119] ذليلين محزونين بعدما خرجوا متكبرين مستغلبين.

﴿وَ﴾ بعدما شاهد السحرة من أمر موسى ما شاهدوا، وانكشفوا بحقيته وصدقه

بجذب رقيق من جانب الحق، وإلهام تام منه سبحانه ﴿أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[1] [الأعراف:120] متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة.

وحين سجدوا ﴿قَالُوا﴾ عن ظهر قلوبهم وكمال قبولهم: ﴿آمَنَّا﴾ أيقنا وتحققنا ﴿بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:121].

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:122] أي: الذي ادَّعى الرسالة منه، ودعوا الناس إلى الإيمان به والإطاعة له والتوجه نحوه.

ثم لما رأى فرعون سجود السحرة وسمع إيمانهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مغاضبًا بهم مستفهمًا على سبيل الإنكار والتهديد: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: برب موسى وهارون ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن تشاوروا معي وتعترفوا عندي بغلبتهما عليكم، وقبل أن تستأذنوا مني بالإيمان، فظهر من صنيعكم هذا ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: أمر موسى وهارون وادعاؤهما النبوة والرسالة ﴿لَمَكْرٌ﴾ حيلة وخديعة ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أنتم وموسى ﴿فِي المَدِينَةِ﴾ أي: مصر ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني القبط، وتستولوا أنتم وبنو إسرائيل على ملك مصر بهذه الخديعة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:123] عاقبة أمركم وخداعكم.

﴿لأُقَطِّعَنَّ﴾ اليوم أولاً على رءوس الأشهاد ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾ متبادلتين ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:124] زمانًا كما يصلب البغاة الذين خرجوا على أولي الأمر والإطاعة.

وبعدما سمع السحرة تهديده ﴿قَالُوا﴾ حين كوشفوا بمآل الأمر وشوهدوا بحقيقة الحال، مستطيبين مستنشطين فرحين: ﴿إِنَّا﴾ بعد خلاصنا عن ربقة ناسوتنا وسلسلة إمكاننا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ حسب حصة لاهوتنا وحظ وجوبنا ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف:125] صائرون، راجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ

(1) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسراعهم، علمًا منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاءوا في صبح ذلك اليوم سحرة.

لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:126-129].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ أيها الطاغي المتجبر المتكبر وتنكر علينا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ أيقنا وأذعنا ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الذي أظهرنا من كتم العدم، وربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿لَمَّا﴾ أي: حين ﴿جَاءَتْنَا﴾ تلك الآيات، وانكشفنا بحقيتها بتوفيق منه وجذب من جانبه، ولو كوشفت أيضًا بما انكشفنا، ارتفع غطاء التعامي وغشاوة الغفلة عن بصرك وبصيرتك، فتشهد بما شهدنا إلا أن الحق سبحانه ختم على قلبك وبصرك وسمعك بالغشاوة الغليظة والحجب الكثيفة؛ لذلك استكبرت واستنكرت، وبالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم انصرفوا نحو الحق واشتغلوا بالمناجاة معه سبحانه، فقالوا متضرعين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك وكرمك إلى أن جعلتنا من زمرة شهدائك الذين بذلوا مهجهم في سبيلك طائعين راغبين ﴿أَفْرِغْ﴾ أفض واصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ من عندك متواليًا متتابعًا حين اشتغل هذا الطاغي على قضاء ما هددنا به بحيث لا يغيب عنا شوقك، ولا يغلب على قلوبنا ألم ناسوتنا أصلاً ﴿وَ﴾ حين انقطعت أنفاسنا وخرجت أرواحنا ﴿تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:126] مستقرين على الرضا والتسليم، ثابتين على جادة التوحيد والعرفان بلا تزلزل وتمايل.

ثبت أقدامنا على دينك وتوحيدك يا خير الناصرين.

﴿وَ﴾ بعدما فعل فرعون بالسحرة أنار الله براهينهم ما هددهم به ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ سيما بعدما انتشر في أقطار الأرض غلبتهما عليك، ويغيروا طباع الناس عنك، ويوقعوا الفتن بين رعايا بلادك ﴿وَ﴾ بالجملة: أدى أمرهم وإيقاعهم إلى أن ﴿يَذَرَكَ﴾ أي: كل واحد منهم عبادتك ﴿وَ﴾ عبادة ﴿آلِهَتَكَ﴾ التي وضعتها لعبادة عبادك من الأصنام والتماثيل لتتخذوها معبودات وتتوجهوا نحوها ﴿قَالَ﴾ فرعون: لا ندعهم بعد اليوم على ما كانوا عليه من قبل، ولا نستأصلهم أيضًا؛ لئلا ينسب الظلم والعجز إلينا، بل نستضعفهم على

التدريج ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بعد اليوم ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: ذكور أولادهم؛ لئلا يتكثروا ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: إناث أولادهم حتى نتزوجهن وينزجروا بلحوق العار، وإذا مضى زمان على هذا انقرضوا واستؤصلوا، وكيف لا نفعل بهم ما نقول ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:127] قادرون غالبون.

وبالجملة: لما فعلنا بهم من قبل فيما مضى، هكذا أيضًا الآن حتى لا يتوهم أن موسى هو المولود الذي زعم الكهنة والمنجمون أن ذهاب ملكنا على يده.

ثم لما سمع بنو إسرائيل تهديد فرعون تفزعوا منه وتضجروا، وبثوا الشكوى إلى الله متضرعين ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ تسلية لهم وإزالة لضجرتهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ لدفع مضارهم ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على أذاهم ولا تقنطوا من نصر الله وعونه واعلموا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ إيجادًا وتملكًا وتصرفًا ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ﴾ بالجملة ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [الأعراف:128] الذين يتقون عن محارم الله، ويصبرون على ما جاءهم من القضاء.

﴿قَالُوا﴾ يعني: بنو إسرائيل: ﴿أُوذِينَا﴾ من أجلك يا موسى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أيضًا كذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: لا تيأسوا من نصر الله وإنجاز وعده، بل ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي: قرب أمر ربكم وإنجاز وعده بإهلاك عدوكم ﴿وَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي هم فيها ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:129] هل تشكرون نعمه أم تكفرونها أو تعملون من الصالحات أم تفسدون فيها مثلهم؟.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا

(1) انظر في هذه الآية إلى جميل أدب سيدنا موسى ﷺ كيف علّم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعاذة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن مَنْ كان بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه. قال أبو عثمان: مَنْ استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا. قال سهل: أمروا أن يستغيثوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولمّا أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم. [العرائس].

إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:130-133].

ثم أشار سبحانه إلى إهلاك عدوهم وإنجاز وعده على سبيل التدريج حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بعدما تعلق إرادتنا بأخذهم وإهلاكهم أخذناهم أولاً بالقحط وقلة الأقوات والغلات ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ التي يتفكهون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:130] أي: يتذكرون أيام الرخاء ويتضرعون نحونا لإعادتها ويصدقون نبينا الذي أرسلنا إليهم لدعوتهم إلى توحيدنا.

وهم من شدة قسوتهم وعمههم لا يتعظون بأمثال هذا، بل ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الخصب والرخاء وكل ما يسرهم ويفرح نفوسهم ﴿قَالُوا﴾ مغالين: ﴿لَنَا هَٰذِهِ﴾ أي: لأجلنا وسعادة طالعنا، ونحن مستحقون بها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أحيانًا ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مشقة وعناء ومما يشوشهم ويملهم ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ أي: يتطيروا ويتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُ﴾ وقالوا: إنما عرض علينا هذا البلاء بشؤم هؤلاء ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المتنبهون المتوجهون نحو الحق في السراء والضراء ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾ أي: ما يتطيرون به ويتشاءمون بسببه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته ومشيئته؛ إذ له التصرف بالاستقلال في ملكه والقبض والبسط من عنده وبيده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:131] فيرون الأسباب والوسائل في البين ويسندون الحوادث الكائنة إليها عنادًا ومكابرة.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم وكمال قسوتهم وبغضهم ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين منهمكين ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: أي شيء تحضرنا به ليغلب علينا من سحرك الذي سميته آية نازلة ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ فأت سريعًا إن استطعت ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:132] أي: متى استبطأت وتأخرت.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ إمدادًا لموسى وانتقامًا لهم ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي: الماء الذي طاف حولهم ودخل بيوتهم ووصل إلى تراقيهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل مع أنها متصلة ببيوتهم ولم يتضرروا - أي: بنو إسرائيل - من الماء أصلاً، ثم لما تضرروا واضطربوا وكادوا أن يغرقوا، تضرعوا إلى موسى وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك، فدعا

فكشف عنهم ونبت من الزرع والكلأ ما لم يعهدوا، فنكثوا عهدهم، ونسبوا دعاءه إلى السحر ﴿وَ﴾ بعد أرسلنا عليهم ﴿الْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم وثمارهم، وأخذت تأكل السقوف والأبواب والثياب، فتضرعوا إلى موسى، فدعا وانكشف وخرج إلى الصحراء مشيرًا بعصاه نحو الجراد يمنة ويسرة، فتفرقت إلى النواحي والأقطار فنكثوا.

﴿وَ﴾ أرسلنا بعدها ﴿الْقُمَّلَ﴾ دودًا أصفر من الجراد، قيل: إنها حدثت من الجراد، فأخذت أيضًا تأكل ما بقي من الجراد وتقع في الأطعمة وتدخل بين أثوابهم فتمص دماءهم، ففزعوا إليه فكشف عنهم، فقالوا: علمنا الآن إنك ساحر عليم ﴿وَ﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الضَّفَادِعَ﴾ بحيث لا يخلو مكان منها، وتبث إلى قدورهم وأوانيهم وأفواههم حين تكلموا، ففزعوا نحوه معاهدين، فخلصوا بدعائه ثم نقضوا ﴿وَ﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الدَّمَ﴾ حيث صار المياه كلها عليهم دماءً حتى كان القبطي والإسرائيلي يجتمعان على إناء فيصير ما يلي القبطي دمًا وما يلي السبطي ماء، ويمص القبطي ماء من فم السبطي فيصير دمًا.

وإنما أرسلت عليهم هذه البليات لتكون ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلائل وعلامات دالة على كمال قدرتنا ﴿مُفَصَّلاتٍ﴾ مبينات واضحات مميزات بين الهداية والضلالة والحق والباطل والرشد والغي ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها مع وضوحها وسطوعها وأعرضوا عن مدلولاتها وأصروا على ما هم عليها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:133] مستحقين بالعذاب والعقاب، فلم ينفعهم الآيات والنذر؛ لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف:134-137].

﴿وَ﴾ كانوا ﴿لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾[1] أي: حين وقع ونزل عليهم البلاء والمصيبة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين متفزعين: ﴿يَا مُوسَى﴾ الداعي للخلق إلى الحق ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ من إجابة دعواتك وقبول حاجاتك، والله ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ مصدقين رسالتك ونبوتك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:134] بلا ممانعة ولا مماطلة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ بدعائه ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ عينوه لأيمانهم وإرسالهم حتى يتأملوا ويتفكروا فيها ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف:135] أي: بعدما وصل وقت الوفاء والإيفاء بالعهود والمواثيق، بادروا إلى النقض والنكث.

ثم لما بالغوا في أمر النقض والنكث وخالفوا أمرنا وكذبوا نبينا ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أردنا انتقامهم وأخذهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: البحر العميق لانهماكهم في بحر الغفلة والطغيان ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة الموصلة إلى توحيدنا الذاتي ﴿وَكَانُوا﴾ بسبب استغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:136] محجوبين لا يهتدون بإهداء الرسل والأنبياء.

﴿وَ﴾ بعدما أغرقناهم في يم العدم واستأصلناهم عن فضاء الوجود ﴿أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالقهر والغلبة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ المعهود؛ أي: مصر ومشارقها الشام ونواحيها ﴿وَمَغَارِبَهَا﴾ الصعيد ونواحيها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي: كثرنا فيهم الخير والبركة وسعة الأرزاق وطيب العيش من جميع الجهات ﴿وَ﴾ بعدما أورثناهم ما أورثناهم ﴿تَمَّتْ﴾ أي: كملت وحقت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ يا موسى بإنجاز الوعد والنصر والظفر وإيراث الديار والأموال، وغير ذلك ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب ما صبروا على أذياتهم المتجاوزة عن الحد ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي: هدمنا وخربنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية الرفيعة

---

(1) في «تفسير الخازن» (85/3): يعني لما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفًا فأمسوا وهم لا يتدافنون عن أبي أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بين إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه».

والقصور المشيدة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:137] عليها متفوقين بطرين كمسرفي زماننا هذا، أحسن الله أحوالهم.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:138-140].

ثم أشار إلى قبح صنيع بني إسرائيل وخبث طينتهم وجهلهم المركون في جبلتهم وسخافة طبعهم، وركاكة فطنتهم؛ تسلية لرسول الله ﷺ وتذكيرًا للمؤمنين ليحترزوا عن أمثال ما أتوا به، فقال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: عبرناهم سالمين غانمين ﴿الْبَحْرَ﴾ الذي أهلك عدوهم ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: مروا في طريقهم ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من بقية العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ﴾ يعبدون ويقيمون ﴿عَلَى أَصْنَامٍ﴾ تماثيل كانت معبودات ﴿لَهُمْ﴾ من دون الله.

﴿قَالُوا﴾ من قسوة قلوبهم وضعف يقينهم بالله المنزه عن الأشباه والأمثال ﴿يَا مُوسَى﴾ المبعوث المرسل إلينا من الله الواحد الأحد ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ مثالاً واحدًا مشابهًا لله نعبده ونتقرب نحوه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها ويتقربون نحوها، ونحن كيف نعبد ونتقرب إلى إله موهوم لا نراه ولا نشاهده؟ وكيف نتضرع إليه ونتوجه نحوه ونستحي منه ونخاف عنه؟ ثم لما تفرس منهم موسى ما تفرس من الحجاب الكثيف والغشاوة الغليظة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:138] تستمرون على جهلكم الجبلي، لم يؤثر فيكم الآيات الكبرى والبراهين العظمى، ولم تتفطنوا بالتوحيد الذاتي مع وضوحه في ذاته سيما بعد الإيضاح بالآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ العاكفين الضالين ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك معدوم ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من عبادة التماثيل الباطلة العاطلة الهالكة في أنفسها، لا وجود لها أصلاً ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:139] لها ولأجلها من الإطاعة والانقياد؛ إذ هو إشراك بالله الواجب الوجود، المستقل بالألوهية ما لا وجود له أصلاً.

ثم: ﴿قَالَ﴾ موسى متأسفًا مقرعًا: ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي ليس كمثله شيء أصلاً ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ وأطلب لكم أيها الحمقى العمي، الضالون في تيه الغفلة

﴿إِلَهًا﴾ من مصنوعاته يعبد له بالحق ويتقرب إليه ﴿وَ﴾ الحال إنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:140] إذ لا مظهر له أكمل منكم، فكيف تعبدون المفضول المرذول، وما عرض عليكم أيها الجاهلون لم تعرفوا مرتبتكم الجامعة الكاملة، وعليكم أن تعدوا نعم الله التي أنعمها عليكم لعلكم تنبهون على توحيد المنعم.

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:141-142].

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يعلمونكم به، وذلك إنهم ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ حتى لا تستكثروا وتستظهروا بهم ﴿وَ﴾ أقبح منه أنهم ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليلحق العار عليكم بتزويجهن بلا نكاح ﴿وَ﴾ لكم ﴿فِي ذَٰلِكُم﴾ المذكور من العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار وابتلاء ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1] [الأعراف:141] فأنجيناكم منه؛ لتقيموا بذكرنا وتواظبوا بشكر نعمنا وتفطنوا بتوحيدنا واستيلائنا، ومع ذلك لم تتنبهوا.

﴿وَ﴾ اذكروا؛ إذ ﴿وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ قبل إهلاكنا فرعون بأن أخلص لنا ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذي القعدة بأن صام فيها وصلى بعد هلاك عدوه، ننزل عليه من عندنا كتابًا نبيّن له فيه التدابير المتعلقة لأمور معاش بني إسرائيل ومعادهم، ثم لما أهلكنا العدو فذهب موسى إلى ميقاتنا إنجازًا لوعدنا ﴿وَ﴾ قبل ما تم المدة المذكورة أنكر خلوف فمه فتسوك قالت الملائكة:كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك لذلك ﴿أَتْمَمْنَاهَا﴾ أي: مدة ميقاتها بأن أمر موسى كفارة لما فوت بالسواك ﴿بِعَشْرٍ﴾ أي:

(1) قال في التأويلات: يعني: وكان في استخدام صفات القلب النفس وصفاتها بأن يعمل الصالحات رياء وسمعة؛ لجذب المنافع الدنيوية لحظوظ النفس بلا تعظيم من ربكم، فخلصكم منه لئلا تطلبوا غيره ولا تبعدوا سواه، فلا تركنوا إلى الروحانية ولا المعقولات؛ كي تظفروا بمراتب الوصول ودرجات الوصال.

بعشرة أيام من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وبعدما أتمها فأنزلنا إنجازًا لوعدنا التوراة المبين لهم الأحكام الدنيوية والأخروية، وذلك من أعظم النعم.

﴿وَ﴾ اذكر أيضًا، إذ ﴿قَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾ عني ﴿فِي قَوْمِي﴾ واذكر لهم مما يتعلق بأمور معاشهم ومعادهم نيابة عني ﴿وَأَصْلِحْ﴾ بينهم، واحفظ عن زيغ أهل الضلال ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ﴾ أنت ومن معك ﴿سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:142] الذين يفسدون عقائد ضعفاء الأنام بالتمويهات الباطلة، ومع ذلك اتبعتم السامري من خبث طينتكم.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف:143-145].

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿لَمَّا﴾ أي: حين ﴿جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ المبعوث إليكم لإصلاح حالكم ليناجي معنا ﴿وَ﴾ من غاية اللطف والجود ﴿كَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[1] أي: كلم معه مرتبته

---

(1) وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى ﷺ لما جاء بنعت الشوق والهيمان والعشق والهيجان بخطرات الوالهين إلى موعد رب العالمين، وصار موسى ﷺ فانيًا عن موسى ﷺ ولم يبق في موسى ﷺ إرادة موسى ﷺ بنعت التحيّر في موقف الفناء على جناب القدم والبقاء، ولم يعلم من تحيره أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفرّ؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب اللهاب، فكلمه بالبداهة فطار سرّ موسى ﷺ في هواء الهوية، وطار روح موسى ﷺ في سماء الديمومية، وطار عقل موسى ﷺ في فقار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوحدانية، وكان كلا شيء الأول كلام التعظيم والهيبة والأخرة كلام اللطف والبسط ففنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته اسمع عجائب كلامه كليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات. ولولا اصطفائيته الأزلية لموسى ﷺ واختياره بالتكليم معه، وأنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لم يبق في الميقات عند بداهة خطابه أثره وبصفه لذة كلامه وحلاوة

التي حصل له وانكشف بها من الله؛ إذ لكل أحد بل لكل ذرة من ذرائر المظاهر مرتبة خاصة وظن مخصوص بالنسبة إلى الله؛ لذلك قال سبحانه: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[1].

وأعلى المراتب وأسناها مرتبة النبوة والرسالة على تفاوت طبقاتها، ثم الأمثل فالأمثل، كما انبسط موسى وانكشف من ربه بما انكشف، حيث سمع كلامه من جميع الجوانب بلا واسطة ووسيلة من مَلك وغيرها، بلا تلفظ وتقطيع حروف، اضطرب وولِه ومن غاية ولهه وسكره تسارعه إلى انكشاف أجلى منه ﴿**قَالَ**﴾ بعد سماع كلامه سبحانه: ﴿**رَبِّ أَرِنِي**﴾ يا ربي، فإنك تنزهت عن المقابلة والمحاذاة والمماثلة والمحاكاة، كما أسمعتني كلامك المنزه عن الحروف والأصوات وتقطيع الكلمات ﴿**أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ ببصري كما سمعت كلامك بسمعي.

﴿**قَالَ**﴾ سبحانه: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ يا موسى مادمت في جلباب تعينك وغشاوة هويتك ﴿**وَلَكِنِ**﴾ إن أردت أن تعرف استعدادك لرؤيتي ﴿**انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**﴾ حين تجليت عليه بهويتي المسقطة لهوياتها مطلقًا ﴿**فَإِنِ اسْتَقَرَّ**﴾ وثبت عندك ﴿**مَكَانَهُ**﴾ بعدما أتجلى عليه بذاتي، إن بقي على هويته التي هويته هو فيها قبل التجلي ﴿**فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ أي: فيمكنك أن تراني لهويتك ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ مدكوكًا مفتتًا متلاشيًا كأن لم يكن أصلاً حيث اضمحلت جميع تعيناته الباطلة ﴿**وَ**﴾ بعدما رأى الكليم ما رأى ﴿**خَرَّ**﴾ أي: سقط ﴿**مُوسَى**﴾ بعدما نظر نحوه فلم يره ﴿**صَعِقًا**﴾ حائرًا هائمًا قلقًا مغشيًا، كأنه انفصل عن لوازم هويته ﴿**فَلَمَّا أَفَاقَ**﴾ موسى عن ولهه وسكره

خطابه يا ليتني لو أن لي لسانا أزليًا من ألسنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم مَنْ لَم يذق طعمه، ولمّا طاب ذقته من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القربة وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط وهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر الله سبحانه عند بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيمة الأمر وأسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكره استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلمْ يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفرًا، وكيف يكون السكون للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فنائه؟ حيث دنا الشائق من المشوق. [العرائس].

(1) رواه مسلم (2067/4، رقم 2675)، والترمذي (596/4، رقم 2388) وقال: حسن صحيح، وأحمد (445/2، رقم 9748).

وانكشف من ربه بما انكشف أنه لا يرى الله إلا الله ﴿قَالَ﴾ مستحييًا منيبًا خائفًا مستنزهًا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يحيط بك أحد من مصنوعاتك ﴿تُبْتُ﴾ ورجعت ﴿إِلَيْكَ﴾ يا ربي بما اجترأت من سؤل ما ليس في وسعي وطاقتي ﴿وَ﴾ بعدما عرفتك الآن عرفانًا أكمل وانكشفت منك يا ربي ما لم أنكشف له من قبل ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143] الموقنين بعظمتك وجلالك؛ إذ لا اعتداد لإيماني من قبل.

ثم لما استحى موسى من الله وندم عن سؤله بلا استئذان منه سبحانه، تغمم وتحزن من اجترائه بما ليس في وسعه، أزال الله سبحانه ما عرض عليه من الندم والخجل حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه مناديًا: ﴿يَا مُوسَى﴾ المستخلَف من عندي ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي﴾ أي: بتحميل أحكامي وأوامري وتذكيري حتى توصلها إلى عبادي نيابة عني ﴿وَ﴾ خصصتك من بين الرسل ﴿بِكَلامِي﴾ أي: سماعه بلا كيف ولا حرف، وبلا واسطة مَلَك وسفير ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ تفضلاً عليك بقدر وسعك واستعدادك، ولا تبادر إلى سؤل ما لا طاقة لك ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] لنعمه، واصرفها على الوجه الذي أمرناك به من المصارف ووفقناك عليه، ولا تكن من الكافرين لنعمنا، المنصرفين عن أوامرنا وأحكامنا؛ لتفوز منا بالرضا الذي هو أحسن أحوال أرباب الكشف والشهود.

﴿وَكَتَبْنَا﴾ من جملة اصطفائنا وإنعامنا إياه إنا كتبنا ﴿لَهُ﴾ أي: أثبتنا لأجل تربيته وإرشاده ﴿فِي الأَلْوَاحِ﴾ أي: ألواح التوراة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق بتهذيب الظاهر والباطن ﴿مَّوْعِظَةً﴾ تذكرة وتبيانًا يتعظ بها هو ومن تبعه ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ توضيحًا وتبيينًا متعلقًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل حكم من الأحكام المتعلقة بأمور معاشهم ﴿فَخُذْهَا﴾ أي: فقلنا له:خذها أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وجزم خالص ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ أيضًا ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يعني: بعزائمها دون رخصها حتى تستعد نفوسهم لأن يفيض عليها من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات التي هي عبارة عن الجنة المأوى والمرتبة العليا عند العارف، ولا تميلوا عنها وعن أحكامها حتى لا يلحقوا بزمرة الفساق المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ في النشأة الأخرى أيها المائلون عن مقتضى الأحكام الإلهية التي هي صراط الله الأقوم ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:145] التي هي جهنم الحرمان وجحيم الخذلان.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: 146-147].

ثم قال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ أي: أميل وأغفل ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾ الظاهرة في الآفاق والأنفس الدالة على توحيدي واستقلالي في التصرفات الكائنة في الآفاق، القوم ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويمشون خيلاً ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ويظلمون فيها ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿وَ﴾ هم من نهاية جهلهم المركوز في جبلتهم ﴿إِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ دالة على الصدق والصواب ﴿لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عتوًا وعنادًا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الصدق والصواب ﴿لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ لعدم موافقة طباعهم ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ﴾ والضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ لميل نفوسهم نحوه بالطبع، كل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الصرف والانحراف والأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الضلال ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا المنزلة على رسلنا ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية جهلهم ﴿عَنْهَا﴾ وعن الامتثال بها والعمل بمقتضاها والتدبير في معناها ﴿غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:146] غفلة لا تيقظ لهم منها أصلاً، نبهنا بلطفك عن نومة الغافلين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الظاهرة عن أوصافنا الذاتية في النشأة الأولى ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أي: كذبوا برجوع الكل إلينا في النشأة الأخرى، أولئك الأشقياء المردودون هم الذين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وضاعت وخسروا فيها في الأولى والأخرى ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ بإحباط الأعمال ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:147] أي: جزاء ما يقترفون ويكتسبون لأنفسهم من تكذيب الآيات والرسل المنبهين لها المبينين لمقتضاها.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف:148-151].

﴿وَ﴾ من جملة الأسباب الموجبة لإحباط أعمالهم: اتخاذهم العجل إلهًا، وذلك أنه ﴿اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهابه إلى الميقات عند ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي ورثوها من القبط بتعليم السامري إياهم ﴿عِجْلًا﴾ صورة عجل، وبعدما أذابوا الحلي وصاغوها ألقى السامري عليها ما قبض من تراب حافر فرس جبريل فصارت ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾[1] صوت كصوت البقر، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى فاتخذوها إلهًا، مع أنهم صاغوها بأيديهم من حليهم، أيأخذون العجل المصنوع إلهًا

(1) كأن القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالبًا يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحظوظ البشرية، فلمّا هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثان على صورة المخاييل، لأن حظوظ بشريتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحثه عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك لهم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحانًا للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى ﷺ وكذا حال مَنْ لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقي في رعونة العشق حتى يؤول حلاله إلى حد غار عليه التوحيد والجاه إلى القتل؛ لأنه بقي في رؤية غير الله، والمشرك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم. وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط. ويقال: إن أقوامًا رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والثرى أو الخلق والورى.

أولئك الهالكون في تيه الغفلة والنسيان.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: لم يعلموا ولم يتفطنوا ﴿أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: المصوغ المصنوع لا يكلمهم بكلامٍ دال على إصلاح حالهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿سَبِيلاً﴾ أي: الخير والصواب حتى يستحق للعبودية، بل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبودًا ظلمًا وزورًا ﴿وَكَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:148] خارجين مجاوزين عن مقتضى العقل والنقل.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ظهر ندمهم عن فعلهم، واشتد فيهم تجهيل نفوسهم وتخطئة عقولهم، ولاح عندهم قبح صنيعهم هذا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَأَوْا﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الغفلة القبيحة عن مقتضى العقل والنقل ﴿قَالُوا﴾ متضرعين مسترجعين خائفين، خجلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بسعة رحمته وجوده ﴿وَ﴾ لم ﴿يَغْفِرْ لَنَا﴾ ما جئتنا به ولم يتجاوز عنا ما فرطنا فيه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:149] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعدما وقع فيهم ما وقع، وسمع ما سمع صار ﴿غَضْبَانَ﴾ أي: استولى عليه غضبه حمية وغيرة ﴿أَسِفًا﴾ متأسفًا متحزنًا؛ لضلال قومه ﴿قَالَ﴾ مغاضبًا: ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: بئس شيئًا ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ أي: أبدعتم خلفي ﴿مِن بَعْدِي﴾ أي: من بعد ذهابي إلى ربي؛ لأزيد صلاحكم وإصلاحكم أيها المسرفون المفرطون فازددتم الضلال، واستوجبتم النكال ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أيها الحمقى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: عذابه وعقابه ﴿وَأَلْقَى﴾ من غضبه ﴿الأَلْوَاحَ﴾ التي كانت بيده من التوراة فانكسر منها واضمحل ما يتعلق بتفصيل الأحكام، وبقي المواعظ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون؛ أي: من شعر رأسه؛ من غاية غضبه وغيظه ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى نفسه؛ زجرًا له وتشددًا عليه كيف لا يحفظهم، ولا ينكر عليهم؛ حتى لا يضلوا ولا يكفروا باتخاذ العجل لها؟ ﴿قَالَ﴾ هارون معتذرًا متحزنًا: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ أضافه إلى الأم استعطافًا ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ حين أظهرت الإنكار عليهم، وأردت أن أصرفهم عمّا هم عليه، وصاروا بأجمعهم أعدائي، بل ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ لشدة غيظهم عليّ وعداوتهم معي، وأنت أيضًا تغضب عليّ وتجر رأسي، وهم يفرحون ويضحكون ببغضك عليّ وزجرك إياي ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ ولا تُفرح يا أخي ﴿بِيَ الأعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي﴾ شريكًا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:150] الخارجين عن مقتضى العقل والنقل.

ثمّ لمّا سمع موسى من هارون ما سمع ندم عن فعله وعن سوء الأدب مع أخيه؛

لأنه أكبر منه سنًا، واسترجع إلى الله حيث ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ عمّا صنعت مع أخي مع أنه بريء مما نسبت إليه ﴿وَ﴾ اغفر أيضًا ﴿لأَخِي﴾ فلم يتقاعد ويتقاصر في إنكار هؤلاء المضلين المتخذين لك شريكًا من أدنى مخلوقاتك ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:151].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:152-155].

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ﴾ المصوغ إلهًا بمجرد الخوار الذي صدر منه ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ وينزل عليهم في النشأة الأخرى ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يطردهم ويبعدهم عن ساحة عز حضوره ﴿وَذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿نَجْزِي المُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:152] المشركين لنا غيرنا من مخلوقاتنا؛ افتراءً ومراءً.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قصدًا وخطأً ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ ورجعوا نحونا نادمين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد توبتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد كان توبتهم مقرونة بالإيمان بأن ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه، ورسله ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد ما جاءوا بالتوبة عن ظهر القلب ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:153] يقبل توبتهم بعدما وفقتهم بها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن وذهب ﴿عَن مُّوسَى الغَضَبُ﴾ الذي استولى عليه إلى حيث ألقى ألواح التوراة، وأخذ شعر أخيه يجره ﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ المنكسرة المتلاشية وإن انكسر ما فيها تفصيل كل شيء ﴿وَ﴾ قد بقي منها ما ﴿فِي نُسْخَتِهَا﴾ أي: ما نسخ ورقم عنها سالمة عن الانكسار ﴿هُدًى﴾ أي: أوامر ونواهي توصلهم إلى توحيد الحق

إن امتثلوا به وقبلوا ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تنجيهم عن الضلال إن اتصفوا بها، كل ذلك حاصل ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:154] أي: يخافون من الله؛ طلبًا لرضاه لا لغرض آخر من الرياء والسمعة، بل من طلب الجنة وخوف العذاب أيضًا.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك قصة الكليم حين ﴿اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾(1)

---

(1) الإشارة فيها: إن الله تعالى امتحن موسى ﷺ باختيار قومه، كما قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ ليعلم أن المختار من الخلق من اختاره الله الذي اختاره الخلق، وإن لله الاختيار الحقيقي؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:68] وليس للخلق الاختيار الحقيقي لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:68] ثم استخرج من القوم المختار ما كان موجبًا للرجفة والصعقة والمهالك وهو: سوء الأدب في سؤال الرؤية جهارًا، وكان ذلك مستور عن نظر موسى ﷺ متمكنًا في جبلتهم وكان الله المتولي للسرائر، وحكم موسى بظاهر صلاحيتهم فأراه الله تعالى إن الذين اختارهم يكون مثلك لقوله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:13]، والذي يختاره يكون كالقوم، فلما تحقق موسى ﷺ أن المختار من اختاره الله حكم بسفاهة القوم، وأظهر الاستكانة والتضرع والاعتذار والتوبة والإنابة والاستغفار والاسترحام، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:155] وفيه إشارة أخرى: إن نار شوق الرؤية كما كانت متمكنة في قلب موسى ﷺ بالقوة، وإنما ظهرت بالفعل بعد أن سمع كلام الله تعالى، فإن من اصطكاك حجر القلب ظهرت شرر نار الشوق فاشتعل منه كبريت اللسان الصدوق وصعدت شعلة السؤال، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، كذلك كانت نار الشوق متمكنة في أحجاره قلوب العوام فباصطكاك زناد سماع الكلام ظهر شوق الشرر فاشتعل منه كبريت اللسان، ولما لم يكن اللسان لسان النبوة صعد منه دخان السؤال الموجب للصعقة والرجفة؛ والسر فيه أن يعلم موسى ﷺ وغيره إن قلوب العباد مختصة بكرامة إيداع المحبة فيها؛ لئلا يظن موسى أنه مخصوص به، ويعذره غيره عن تلك المسألة فإنها من غلبات الشوق فظهر عند استماع كلام المحبوب؛ ولهذا قال ﷺ: «ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»(1) وبالأصبعين يشير إلى: صفات الجمال والجلال، وليس لغير الإنسان قلب مخصوص بهذه الكرامة، وإقامة القلب في أن يجعله مرآة صفات الجمال فيكون الغالب عليه الشوق والمحبة لطفًا ورحمة، وإزاغته في أن يجعله مرآة صفات الجلال فيكون الغالب عليه الحرص على الدنيا والشهوة قهرًا وعزة، فالنكتة فيه أن قلب موسى ﷺ لما كان مخصوصًا بالاصطفاء للرسالة والكلام دون القوم كان سؤاله للرؤية شعلة نار المحبة مقرونًا بحفظ الأدب على بساط القرب بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] قدم عزة الربوبية وأظهر ذلة العبودية وكان سؤال القوم من القلوب الساهية اللاهية، فإن نار الشوق تصاعدت بسوء الأدب، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

أي: اختار وانتخب موسى بإذن منا من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا﴾ فانتخب من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ستة نفر فزاد على المبلغ اثنين، فأمر موسى بتقاعدهما فتخاصموا وتشاجروا في تعيينهما، إلى أن قال موسى: إن أجر من قعد مثل أجر من صعد، بل أكثر فقعد كالب ويوشع، وذهب موسى معهم، فلما دخلوا شعب الجبل وأرادوا الصعود غشيته غمام كثيف مظلم، فدخلوا الغمام وخروا سجدًا، فسمعوا يتكلم سبحانه مع موسى يأمره وينهاه، وهو يناجي مع ربه.

فلمّا تم الكلام وانكشف الغمام قالوا بعدما سمعوا كلامه سبحانه مستكشفين عن ذاته: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ظاهرة، منكشفة ذاته لأبصارنا، كما انكشف كلامه لأسماعنا، فأخذتهم الرجفة؛ بسبب سؤالهم هذا ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصاعقة النازلة من قهر الله وغضبه؛ لطلبهم ما ليس في وسعهم واستعدادهم ﴿قَالَ﴾ موسى مشتكيًا إلى الله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ أي: لو تعلقت مشيئتك لإهلاكهم لِمَ لَمْ تهلكهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إسماعهم كلامك؟ ﴿وَإِيَّايَ﴾ أيضًا؛ أي: لِمَ لَمْ تهلكني؛ حتى لا تنسب إليّ إهلاكهم عند عوام بني إسرائيل وتشأمهم بي من غاية اضطرابه؟ ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ بالصاعقة الشديدة يا رب ﴿بِمَا فَعَلَ﴾ أي: بسبب سؤال سائل ﴿السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ صدر عنهم هفوة بلا علم لهم بعظمتك وجلالك وحق قدرك وعزك.

بل ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: هل هي ﴿إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ اختبارك، ابتلاؤك إياهم، بأن أسمعت لهم كلامك فأوقعتهم بهذه الفتنة؛ إذ أنت ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بفتنتك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من عبادك، بأن اجترءوا بعد انكشافك عليهم نوع انكشاف إلى انكشاف أعلى منه وأجلى فضلوا وكفروا بلا علم لهم إلى مقتضى استعداداتهم ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَاءُ﴾ بأن سكتوا عن السؤال مطلقًا، وفوضوا أمورهم كلها إليك ولا يسألون عنك ما لم يستأذنوا منك، والكل بيدك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ومولي أمورنا، ومولى نعمنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما جرى علينا من المعاصي والآثام ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك الواسعة تفضلاً علينا وامتنانًا، واعف عنا بفضلك وجودك

[البقرة:55] قدموا الجحود والإنكار وأخروا طلب الرؤية جهارًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: 55] بظلمهم، فشتان بين صعقة موسى ﷺ وبين صعقة قومه، وإن صعقته كانت صعقة اللطف مع تجلي الربوبية، وإن صعقتهم كانت صعقة القهر عند إظهار العزة والعظمة، ولما كان موسى ﷺ في مقام التوحيد ثابتًا كان ينظر بنور الوحدة فيرى الأشياء كلها من عند الله تعالى، فرأى سفاهة القوم وما صدر منهم من آثار صفات قهره فتنة واختبارًا لهم. [التأويلات النجمية].

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:155] الساترين ذنوب العصاة المسرفين.

﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:156-157].

﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ يا ربنا ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لا توقعنا في فتنتك ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ أيضًا حسنة توصلنا إلى رزق توحيدك ﴿إِنَّا﴾ بعدما تحققنا بعلو شأنك وسمو برهانك ﴿هُدْنَا﴾ أي: تبنا ورجعنا ﴿إِلَيْكَ﴾ من أن نسأل منك ما ليس لنا علم به، سيما بعدما يتعلق بذاتك ﴿قَالَ﴾ سبحانه متفردًا برداء العظمة والكبرياء: ﴿عَذَابِي﴾ ونكالي ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من عصاة عبادي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المطيعين والعاصين وغيرهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأثبتها حتمًا ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن المحارم مطلقًا؛ طلبًا لمرضاتي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ تطهيرًا لنفوسهم عن الشح المطاع، الموجب للقسوة والغفلة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ أي: بجميعها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:156] يوقنون ويمتثلون بمقتضاها.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ المرسل بالتوحيد الذاتي ﴿النَّبِيَّ﴾ المتمم لمكارم الأخلاق ﴿الأُمِّيَّ﴾[1] المتحقق، المخصوص بالعلم اللدني الملقاة له من ربه بلا واسطة

(1) قال نجم الدين في «التأويلات»: إشارة إلى أن في أمته من يكون مستعدًا لإتباعه في هذه المقامات الثلاثة وهي: مقام الرسالة والنبوة: التي هي شركة بينه وبين الأنبياء والرسل، والمقام الأمي: الذي هو مخصوص به ﷺ من بين الأنبياء - عليهم السلام -، ومعنى الأمي: إنه كان أم الموجودات وأصلها سمي أمها، كما سميت مكة أم القرى؛ لأنها كانت مبدأ القرى وأصلها، وكما سمى أم الكتاب إما؛ لأنه مبدأ الكتب وأصلها، فأما إتباعه في مقام الرسالة فإنه يأخذ منه ما أتاه الرسول وينتهي عما نهاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:7]. فإن الرسالة تتعلق بأحكام الظاهر، والنبوة تتعلق بأحكام الباطن، فللعوام

كسب وتعليم من معلم، وهو ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: جميع أهل الكتب ﴿مَكْتُوبًا﴾ في كتبهم بعثته ودينه، واسمه وحليته وجميع أوصافه ثابتًا ﴿عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ بأنه إذا بعث ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي يحرمونها على نفوسهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التي يحللونها.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: ثقلهم الذي يترهبون ويتزهدون فيه فوق طاقتهم، كقطع الأعضاء والجوارح التي يخطئون بها، وقطع موضع النجاسة من الثياب وغير ذلك ﴿وَ﴾ يضع أيضًا ﴿الأَغْلالَ﴾ أي: التكاليف الشاقة ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ حين ظهوره ودعوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: وقروه حق توقيره وتعظيمه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ تقويةً لدينه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ أي: القرآن ﴿الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ من عند الله تأييدًا له وتصديقًا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الموفقون من عنده باتباعه ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157] المقصورون من عنده على الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

شركة مع الخواص في الانتفاع من الرسالة، وللخواص اختصاص بالانتفاع من النبوة، فمن أدى حقوق أحكام الرسالة في الظاهر يفتح له أحوال النبوة في الباطن، من مقام الأنبياء تنبئة الحق تعالى بحيث يصير صاحب الإشارات والإلهامات الصادقة والرؤيا الصالحة والهواتف الملكية، وربما يؤل حاله إلى أن يكون صاحب المكالمة والمشاهدة والمكاشفة، ولعل ما يصير مأمورًا بدعوة الخلق إلى الحق في المتابعة لا بالاستقلال، كما قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» يشير إلى: هذا المقام، وذلك أن المتقدمين من بني إسرائيل في زمن الأنبياء - عليهم السلام - لما وصلوا إلى مقام الأنبياء أعطوا النبوة - والله أعلم - وكانوا مقررين لدين رسولهم، حاكمين بالكتب المنزلة على رسلهم، فكذلك هؤلاء القوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:37]، وأما أتباعه في مقام أمته ﷺ فكذلك مخصوص بأخص الخواص من متابعيه، وهو أنه ﷺ رجع بالسير من مقام بشريته إلى مقام روحانيته الأولى، ثم بجذبات الوحي أنزل في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار الهوية عن أنانيته إلى مقام الوحدة كما قال: «أنا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله واحد» [الكهف: 110] كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:8 - 9]، فقاب قوسين عبارة عن: مقام التوحيد، أو أدنى عن مقام الوحدة تفهم - إن شاء الله تعالى - فمن رجع بالسير في متابعته عن مقام البشرية إلى أن بلغ مقام الروحانية، ثم بجذبات النبوة في مقام التوحيد، ثم اختطف بأنوار المتابعة عن أنانيته إلى مقام الوحدة، فقد حظي بمقام أميته ﷺ.

وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:158-159].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل الهادي للكل، المرسل إلى كافة البرايا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة، الناسون عهد الله وميثاقه، المحتاجون إلى المرشد الهادي يهديكم إلى طريق الرشاد ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسلني ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لأهديكم إلى توحيده الذاتي واعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد سبحانه، هو العليم القدير ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها إيجادًا وتصرفًا بالاستقلال والاختيار ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها كذلك وبالجملة: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا متصرف في الشهود، ولا مالك في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ المتصرف المستقل بالألوهية والوجود ﴿يُحْيِي﴾ ويظهر بلطفه من يشاء من مظاهره ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقهره من يشاء، ومتى عرفتم أن الملك كله لله والتصرف بيده ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المنزل من عنده؛ ليبيّن طريق توحيده.

﴿النَّبِيِّ﴾ المخبر لأحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿الْأُمِّيِّ﴾ المكاشف ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يوقن ويذعن بتوحيد الله، ويصدق بجميع كلماته المفصلة المنزلة من عنده سبحانه من لدن نفسه القدسية بلا مدرس ومرشد، ومعلم منه ﴿وَ﴾ إذا كان شأنه هذا ﴿اتَّبِعُوهُ﴾ أيها الطالبون لطريق الحق، القاصدون نحو توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:158] بمتابعته ﷺ ما تقصدون إليه من التوحيد الذاتي.

ثم قال سبحانه تنبيهًا على المؤمنين: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة مقتصدة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى توحيد الحق، ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع؛ لنجابة فطرتهم واستقامة عقيدتهم ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:159] أي: بسبب الحق يقتصدون لا يفرطون، ولا يفرّطون في الأحكام أصلاً.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: 160].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي: جزأناهم وصيرناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ أضرابًا على عدد أبناء يعقوب ﴿أَسْبَاطًا﴾ لهم كل حزبٍ سبط لواحد منهم؛ لذلك صاروا ﴿أُمَمًا﴾ مختلفة، وإن كان الكل مسمى ببني إسرائيل ﴿وَ﴾ من جملة نعمنا إياهم: إنَّا ﴿أَوْحَيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أي: حين صاروا تائهين حائرين، عطاشًا هائمين ﴿أَنِ اضْرِب﴾ يا موسى ﴿بِّعَصَاكَ﴾ التي استعنت بها في الأمور ﴿الْحَجَرَ﴾ الذي بين يديك فضرب ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ أي: خرجت وجرت على الفور بلا تراخ ومهلة ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ جارية بضربة واحدة على عدد الأسباط والفرق؛ بحيث ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ المخصوص لهم؛ لئلا يقع الخصومة والنزاع بينهم.

﴿وَ﴾ من جملة نعمنا إياهم: إنَّا ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي: أمرناه بأن يظل عليهم في التيه؛ لئلا يتضرروا من شدة الحر فيستريحوا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ الترنجبين لشربهم؛ تبريدًا لمزاجهم ﴿وَالسَّلْوَى﴾ السماني؛ لغذائهم، وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لتقويم مزاجكم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أولئك الخارجون عن أوامرنا ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:160] أي: يظلمون أنفسهم بما اقترفوا من المعاصي والآثام ويلقونها بذلك في عذاب الدنيا والآخرة، ومع قبح صنيعهم معنا راعيناهم وأنعمنا عليهم.

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأعراف:161-162].

﴿وَ﴾ من جملة ظلمهم على نفوسهم: إنهم ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ وأوصي إليهم إصلاحًا لحالهم: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من مأكولاتها المتسعة ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا موافقة ومنع ﴿وَقُولُوا﴾ متضرعين إلينا، متوجهين نحونا: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: سؤلنا منك يا مولانا: حط ما صدر عنا من الآثام وجرى علينا من المعاصي ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ سجدًا؛ أي: باب بيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين واضعين جباهكم على تراب المذلة والهوان؛ تأديبًا وتعظيمًا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي:

جميعها إن امتثلتم ما أمرناكم بها، بل ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:161] منكم بالرضوان الأكبر منّا.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم بالخروج عمّا أمرناهم ﴿قَوْلاً﴾ صادقًا صوابًا قلنا لهم؛ لإصلاح حالهم ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان رسلنا، بل حرفوها لفظًا ومعنى، كما مر بيانه في سورة البقرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بسبب تبديلهم وتحريفهم ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا نازلاً من جانب السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162] أي: بشؤم خروجهم عن مقتضى أوامرنا وأحكامنا.

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[الأعراف:163-166].

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة ظلمهم على نفوسهم: حيلهم وخداعهم في نقض العهد، إن شئت أن تعرف ﴿اسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: سل خداعهم وحيلهم عن أهل القرية ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه، قيل: إيلة، وقيل: طبرية الشام، وقيل: مدين، وقت ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتجاوزون عن حدودنا وعهودنا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ أي: العهد الذي عهدوا معنا ألا يصطادوا، بل أخلصوا لعبادتنا والتوبة نحونا فابتليناهم بمحافظة العهد ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ المعهود المحرم ﴿شُرَّعًا﴾ متابعة متوالية.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ولا يعهدون فيه ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل سبتهم، فاحتالوا بتعليم شياطينهم حياضًا وأخاديد، فأرسلوا الماء عليها في يوم السبت، واجتمعت الحيتان فيها واصطادوها يوم الأحد والإثنين؛ وبسبب خداعهم معنا واختلاقهم الحيلة لنقض عهدنا ﴿نَبْلُوهُمْ﴾ ببلاء المسخ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:163] بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى العهد.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: جماعة من صلحائهم، حين قال الصلحاء

للمحتالين المناقضين على وجه العظة والتذكير: لِمَ تحتالون وتخادعون مع الله كأنكم لم تخافوا من بطشه وانتقامه ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ أيها المذكرون المصلحون ﴿قَوْمًا﴾ منهمكين في الغفلة والضلال ﴿اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: أراد الله إهلاكهم وتعذيبهم بأشد العذاب بشؤم حيلهم وخداعهم هذا ﴿قَالُوا﴾ أي: المذكرون المصلحون تذكيرنا ونصحنا إياهم: ﴿مَعْذِرَةً﴾ منّا ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾ الذي أمرنا بنهي المنكر على وجه المبالغة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:164] أي: ونرجو من كرم الله أن ينتهوا بتذكيرنا عمّا هم عليه من الغفلة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ وأعرضوا عن ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: من العظة والتذكير ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ متعظين بما ذكروا به ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإعراض عنه ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد فظيع ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:165] بسبب فسقهم وإعراضهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: فالحاصل أنهم لمّا تكبروا عن امتثال أوامرنا واجتناب نواهينا ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم داود: ﴿كُونُوا﴾ أيها المتكبرون المنهمكون في الغي والضلال ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(1) [الأعراف:166] صاغرين مهانين؛ لاستكباركم عن أوامر الله وتكليفاته، مع أنكم مجبولون على تحمل التكاليف التي هي من أمارات الإنسان فلمّا امتنعوا أنفسهم عنها مُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ولحقوا بأخس الحيوانات وأرذل الأعاجم.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

(1) يشير إلى أن القرية الجسد الحيواني على شاطئ بحر البشرية وأهل قرية الجسد الصفات الإنسانية، وهي على ثلاثة أصناف: منها: صنف روحاني: كصفات الروح. وصنف: ما قلبي: كصفات القلب. وصنف: نفساني: كصفات النفس الأمارة بالسوء، وكل قد نهوا عن صيد حيتان الدواعي البشرية في سبت محارم الله، فصنف أمسك عن الصيد ونهي عنه وهو: الصفات الروحانية، وصنف أمسك ولم ينه وهو: الصفات القلبية، وصنف يحرمه وهو: الصفات النفسانية. [التأويلات].

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف:167-169].

﴿وَ﴾ اتل على من تبعك منهم، واذكر لهم يا أكمل الرسل: وينتبهوا وقت ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: عزم وكتب على نفسه، كأنه أقسم ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ وليسلطنّ ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مستمرًا دائمًا ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يعلمهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لذلك ما ترى يهوديًا في أقطار الأرض إلا عليه مذلة وهوان ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على من أراد عقابه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أيضًا ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وأخلص ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:167] يقبل توبته ويمحو معصيته.

﴿وَ﴾ من غاية إذلالنا إياهم ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾ أي: فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقًا فرقًا ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون بالله وبملائكته وكتبه ورسله ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الطالحون الخارجون عن مقتضى الإيمان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَلَوْنَاهُم﴾ أي: اختبرناهم وجربناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي: بالعطاء والإنعام ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾[1] بالأخذ والانتقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:168] رجاء أن ينتبهوا بنا فيرجعوا إلينا.

وبعدما بلوناهم بما بلوناهم ﴿فَخَلَفَ﴾ واستخلف ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد انقراضهم خلق ﴿خَلْفٌ﴾ خلفاء منهم يدعون أنهم ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي: علم التوراة منهم، مع أنهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ أي: الدنيا مولعين بجمعها ﴿وَيَقُولُونَ

(1) قال نجم الدين كبرى: يعني: جعلنا الحسنات وهي: الطاعات والخيرات، والسيئات وهي: المعاصي والمظالم وسيلة الرجوع إلى الحق وقبول فيض النور، فأما الحسنات فبقدم الطاعات والخيرات يتقرب العبد إلى ربه، وأما السيئات فبقدم ترك المعاصي ورد المظالم يتقرب إليه، فقال تعالى: «من تقرب إلى شبرًا تقربت إليه ذراعًا»، وقال: لن يتقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، وعن بعض المشايخ أنه قال: خطوات وقد وصلت، وفيه معنى آخر: وبلوناهم بالحسنات؛ ليرجعوا إلينا بالشكر والسيئات؛ ليرجعوا بقدم الصبر، فبقدمي الشكر والصبر يرجع إلينا الأرواح والقلوب، وأيضًا: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾، أي: بكثرة الطاعات ورؤيتها والعجب بها، كما كان حال إبليس، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾، أي: بالمعاصي ورؤيتها والندامة عليها والتوبة منها والخوف والخشية من ربه، كما كان حال آدم ﷺ فرجع إلى الله تعالى وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23].

﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لن يأخذنا الله أبدًا بأخذها وجمعها ﴿وَ﴾ من غاية حرصهم ﴿إِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ بلا مبالاة؛ اتكاءً على مغفرة الله مع أنهم لم يستغفروا إليه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ﴾ الله المنزل في ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي ادعوا علمه ووراثة، بل يؤخذ عليهم الميثاق في كتابهم ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾ ولا ينسبوا إليه ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ الصادق الثابت الذي ورد عليه الأمر من عنده.

﴿وَ﴾ كيف لم يعلموا أخذ الله ميثاقه مع أنهم ﴿دَرَسُوا﴾ من معلمهم ﴿مَا فِيهِ﴾ من الأحكام والمواعظ، والأوامر والنواهي؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من حطام الدنيا، ويجتنبون عن آثامها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف:169] خيريتها، أولئك المنغمسون في قاذورات الدنيا ولذاتها وشهواتها مع أنها لا مدار لها، ولا قرار للذاتها ومشتهياتها.

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الأعراف:170-174].

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ أي: يتمسكون منهم ﴿بِالْكِتَابِ﴾ أي: بما أمرناهم في التوراة ونهينا فيه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: داوموا وواظبوا على الميل إلينا على ما بيناهم فيها فعلينا أجرهم ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ ولا نهمل ﴿أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:170] الذين يصلحون ظواهرهم بالشرائع والأحكام المنزلة من عندنا، وبواطنهم بالإخلاص والتوحيد المسقط للإضافات مطلقًا.

﴿وَ﴾ اذكر وقت ﴿إِذْ نَتَقْنَا﴾ أي: قلعنا ﴿الْجَبَلَ﴾ من مكانه، ورفعنا ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يظل عليهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ يسقف فوق رءوسهم ﴿وَظَنُّوا﴾ من قبح صنيعهم ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ إلى أن قلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من مأمورات التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وعزم خالص في أوامره وأحكامه ﴿وَاذْكُرُوا﴾ أي: اتعظوا وتذكروا ﴿مَا فِيهِ﴾ من

الموعظة والتذكيرات ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:171] تنتهون عن قبائح أعمالكم ورذائل أخلاقكم.

﴿وَ﴾ نقض العهود والمواثيق، والإعراض عن التكاليف والمشاق ليس مما يختص هؤلاء المعرضين، بل من الديدنة القديمة لبني آدم وقت ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾ حين أخرجهم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ من ظهور آبائهم وأصلابهم على التوالد المتعارف ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أولادهم بطنًا بعد بطن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ أي: أحضرهم وأطلعهم ﴿عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أرواحهم الفائضة لهم، المنفوخة فيهم من روحنا، ثمّ قلنا لهم بعدما شهدوا منشأهم وعلموا أصلهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1] الذي أوجدكم وأظهركم من كتم العدم بنفخ روحي فيكم؟

﴿قَالُوا﴾ بألسنة استعداداتهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ بعدما أشهدتنا أنت ربنا، لا رب لنا سواك، ولا مظهر لنا غيرك فأخذ سبحانه منهم الميثاق حينئذٍ، وإنما أخذ منهم الميثاق على هذا؛ كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ على سبيل المجادلة والمراء حين أخذهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بجرائمهم الصادرة عنهم، المقتضية لنقض العهد: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: عن وبوبيتك واستقلالك فيها ﴿غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:172] غير عالمين بها ولا منبهين عليها.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ لو لم يأخذ سبحانه العهد من جميعهم: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ ضعافًا ﴿مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فنقلدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ وتأخذنا يا وبنا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:173] أي: بفعل آبائنا الذين أشركوا بك، مع أنّا لم نكن حينئذٍ من أصحاب الرأي؟! وأخذك بجرائمهم ظلم علينا؛ لذلك أخذ سبحانه الميثاق من

---

(1) ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحدانيته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العماء والطغيان. ولولا خطابه وإنطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم بلى إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحيّر أهل الحجاب، فبهتوا وتاهوا في أودية قهره، ثم عظّم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إيّاهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾: أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الآبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يحتجب المحبّ عن محبوبه، ومحبته محيطة بجميع وجوده.

جميع بني آدم؛ حتى لا يبقى لهم حجة عليه سبحانه.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نبيّن ونوضح على وجه الخصوص والعموم ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا على اليهود ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:174] رجاء أن يتنبهوا فيرجعوا نحونا، ومع ذلك لم يرجعوا ولم يتنبهوا أصلاً.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾ [الأعراف:175-178].

.﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في الإعراض والإنكار ﴿اتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود يا أكمل الرسل ﴿نَبَأَ﴾ قصة الشخص ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ علم ﴿آيَاتِنَا﴾ العظام وأسمائنا الكرام حتى قدر وتمكن بسببها على أي شيء أراد، فأعرض عنا بمتابعة الهوى كهؤلاء الغواة ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: تجرد وعري من شرائف الآيات انسلاخ الحية من جلدها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: تابعًا ﴿فَكَانَ﴾ بمتابعته ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1] [الأعراف:175] المنهمكين في الضلال بحيث لا يرجى هدايته أصلاً كهؤلاء اليهود.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي: تعلق مشيئتنا؛ لإهدائه إلى أقصى غايات التوحيد وأعلى مراتبه ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: بتلك الآيات ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ لم يتعلق؛ لذلك ﴿أَخْلَدَ﴾ أي: انخفض ومال ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ الأنزل الأرذل ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ لينزل عليها، ومع ذلك يتمسك بها وأراد أن يتشبث بمقتضاها ﴿فَمَثَلُهُ﴾ في هذا التمسك والتشبث ﴿كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ حملاً موجبًا؛ لإلهائه واندلاع لسانه ﴿يَلْهَثْ﴾ يخرج لسانه بسببه ﴿أَوْ

(1) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه. البحر المديد (312/2).

﴿تَتْرُكْهُ﴾ خفيفًا ولم تحمل عليه ما يوجب إلهائه ﴿يَلْهَث﴾ أيضًا؛ لرسوخ الديدنة القبيحة في ذاته ﴿ذَّلِكَ﴾ الكلب بعينه ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ﴾ يا أكمل الرسل لليهود ﴿الْقَصَصَ﴾ المذكورة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:176] ويتأملون فيما هم عليه من الإعراض والإنكار فيتنبهوا على قبح صنيعهم، وسوء فعالهم مع الله.

قيل: ذلك هو بلعام بن باعوراء، وقصته مشهورة، وقيل: أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب المنزلة ووجد فيها وصف النبي ﷺ، ورجا أن يكون هو، فلمّا بعث رسول الله ﷺ حسد وكفر وكان من الغاوين.

﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ أي: بئس المثل مثل القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأعرضوا عنها منكرين عليها ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:177] أي: وما يظلمون بالإعراض والإنكار إلا أنفسهم؛ إذ عاد عليهم وباله ونكاله، ولكن لا يشعرون؛ لفساد قلوبهم وخبث طينتهم.

﴿مَن يَهْدِ اللهُ﴾ بأن يوفقه على إسماع كلمة الحق ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ إلى توحيده ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بأن يضله عن سبيله بإنكار آياته وتكذيب رسله ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء والضالون ﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:178] المقصورون على الخسران، لا يرجى ربحهم وهدايتهم أصلاً.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:179-182].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أوجدنا وأظهرنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ونيران الإمكان والحرمان ﴿كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ مع أن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هي مناط التكاليف ومحال الإيمان والإيقان، وهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم مرتبة اليقين العلمي واللدني ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿أَعْيُنٌ﴾ هي سبب مشاهدة الآثار والاستدلال منها على الأوصاف الموجدة لها، المرتبة على الذات الإلهي، وهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ليحصل

لهم مرتبة اليقين العيني.

﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿آذَانٌ﴾ وهي آلات؛ لسماع كلمة الحق ووسائل إلى اكتساب الفضائل المنبهة على ما في نفوسهم من الأسرار المكنونة الإلهية، وهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم الترقي إلى مرتبة اليقين العيني إلى اليقين الحقي، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الحمقاء الجهلاء، المتصفون بأوصاف العقلاء العرفاء ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾[1] في عدم الشعور والتنبه ﴿بَلْ هُمْ﴾ بسبب تضييع استعداداتهم ﴿أَضَلُّ﴾ من الأنعام بمراتب، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179] المقصورون على الغفلة المؤبدة، المتناهون فيها أقصى الغاية.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الفضلاء العرفاء، الموحدون أن ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي تترتب عليها الصفات العليا، المترتبة عليها الآثار الحادثة في عالم الكون والفساد، والشهادة والغيب، والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَادْعُوهُ﴾ سبحانه أيها الموحدون ﴿بِهَا﴾ وأسندوا الحوادث الكائنة إليها أولاً وبالذات ﴿وَذَرُوا﴾ أي: دعوا واتركوا أقوال ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون ويشركون ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ بنسبة الحوادث إلى الأسباب أولاً وبالذات، واهجروا مذاهبهم، واعتزلوا عنهم وعن مجالستهم، واعلموا أن كل أحد ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ على مقتضى ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:180] إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثم قال سبحانه كلامًا كليًا، جمليًا شاملاً على جميع الملل والأديان، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أظهرناهم على صورتنا ﴿أُمَّةٌ﴾ مستخلفة عناهم ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلينا، ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَبِهِ﴾ أي: بالحق لا بغيره؛ إذ لا غير ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:181] يقسطون وينصفون في الأحكام.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المنزلة على رسلنا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنستضلهم ونستزلهم قليلاً قليلا إلى أن نهلكهم بالمرة، وندخلهم في جهنم البعد

(1) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

وسعير الإمكان ﴿مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182] ولا يفهمون كيف وقعوا فيها.

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف:183-186].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم في بطرهم وغفلتهم إلى حيث ازدادوا على نفوسهم من العتو والفساد الموجب لشدة العذاب؛ مكرًا عليهم وكيدًا ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي: مكري وخداعي مع العصاة الغواة، الضالين عن منهج الرشاد ﴿مَتِينٌ﴾ [الأعراف:183] محكم حيث لم يحسوا به أصلاً إلى أن أخذوا بأسوأ العذاب وأشد النكال.

ثمَّ أشار سبحانه إلى توبيخ المسرفين المسفهين لرسول الله ﷺ عنادًا ومكابرةً فقال:أما تستحيون من الله أولئك المسرفون، المفرطون في نسبته الجنون إلى من فاق على جميع العقلاء بالرشد والهداية؟ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويتدبروا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ خفة عقل موجب للخبط، وما لم يفهموا من كلامه إلى أن صدر عنهم هفوة لا عن قصد، ويسمونه مجنونًا لذلك ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: بل ما هو ﷺ عند التحقيق ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ينذرهم بإذن الله ووحيه، ويخوفهم بما يخوفهم الله به ﴿مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:184] عظيم الشأن، ظاهر في أمر الإنذار.

رُوي أنه ﷺ صعد الصفا يومًا فدعاهم فخذًا فخذًا، يحذرهم عن بأس الله وبطشه فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، فنزلت.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهؤلاء المسرفين الذين ينسبون ما هو خارج عن مدركات عقولهم إلى الجنون: أينسبون جميع ما يخالف عقولهم إلى الجنون ويدعون استقلال العقل في العلوم المتعلقة في الأشياء كلها ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ ويتدبروا كيف تقصر وتدهش عقولهم ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾ وكيفية نظمها وقصدها وترتيبها وتطبيقها، وما فيها من كواكبها وبروجها وحركاتها وأدوارها، وانقلاباتها صيفًا وشتاءً وربيعًا وخريفًا.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها من تلالها ووهادها، وأنهارها وبحارها، ورياضها وأزهارها، وغرائبها وبدائعها المكنونة المتكونة فيها، بل ﴿وَ﴾ في جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأظهره من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: مما يطلق عليه اسم الشيء،

تدهش وتتحير في ظهور فحول العقلاء إلى حيث لم يفهموا كيفية ظهور ذرة صغيرة من ذرائر العالم، فكيف لميتها؛ لذلك قال ﷺ في دعائه: «اللهم أرنا الأشياء كما هي»[1]، وقال أيضًا ﷺ: «رب زدني تحيرًا»[2].

هذا في الآفاق الخارجة عنهم ﴿وَ﴾ أمَّا في أنفسهم فلم ينظروا ﴿أَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المسمى لهم، وهم لا يفهمونه، وإن اجتمع جميع العقلاء في تعيين أجل شخص واحد، ومع قصور نظرهم وسخافة عقلهم ينسبون الجنون إلى المكاشفين المناظرين بنور الله، المطالعين المشاهدين دائمًا صفاء وجهه الكريم، وهم الذين انخلعوا عن لوازم البشرية مطلقًا، وشقوا جلباب الناسوت رأسًا، وخرقوا الحجب المسدولة بالكلية وصاروا ما صاروا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، وبعدما سقط العقل عن درجة الاعتبار، واضمحل مدركاته عن الاعتماد فلا تعويل إلا على الوحي والإلهام الملقى من عند العليم العلام ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ من الأحاديث المهمة والموحى به ﴿بَعْدَهُ﴾ أي: بعد نزول القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 185] أي: المؤمنون المصدقون بالوحي والإلهام.

وبالجملة: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ يرشده فعليك ألَّا تجتهد يا أكمل الرسل في إهدائهم، ولا تصغي أيضًا إلى أباطيلهم؛ إذ أمرهم مفوض إلى الله ﴿وَ﴾ كيف تجتهد وتسعى في إيمانهم؛ إذ هم قوم ﴿يَذَرُهُمْ﴾ ويتركهم الله باسمه المضل المذل ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186] يترددون ويتحيرون إلى أن يأخذهم بما يأخذهم، دعهم وأباطيلهم فيها يترددون، وفي سكراتهم يعمهون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف:187-188].

(1) ذكره ابن عادل في تفسيره اللباب (13/7).
(2) حديث ذكره السادة الصوفية في كتبهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ التي تخوفهم منها ومن شدة أهوالها وأفزاعها: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: في أي آن من الآنات وزمان من الأزمنة قيامها ووقوعها حتى نؤمن لها قبل قيامها؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علم قيامها ﴿عِندَ رَبِّي﴾ مما استأثر بها سبحانه لا يطلع عليها أحد؛ بحيث ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي: لا يظهرها ولا يكشف أمرها ﴿لِوَقْتِهَا﴾ الذي عيّن ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو من الغيوب الخمسة التي خصصها سبحانه لنفسه في قوله: ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ...﴾[1] [لقمان: 34] وإنما أخفاها وأبهم وقتها، ولم يطلع أحدًا عليها؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن سبحانه لو أظهر أمرها على عباده ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظُمت وشقت أمرها، واشتدت هولها ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ على أهلها وساكنيها من الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ عن من أسكنها وعاش عليها من الثقلين.

ولذلك ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة عند إتيانها ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة وعلى غفلة؛ بحيث لا يسع ترك ما كنتم فيه من الأمور، كما أخبر النبي ﷺ: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»[2]، وإنما ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الساعة وقيامها لظنهم فيك؛ لنجابة طينتك ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ خبير لوقتها، عليم بشأنها، مذكر لها دائمًا، مفتش عن أحوالها وأهوالها مستمرًا ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ وقت ظهورها ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وفي خزانة قدره ولوح قضائه، وعالم سمائه وغيب ذاته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:

---

(1) الساعة عبارة عن: الساعة التي يظهر الله تعالى فيها آثار الصفة القهارية؛ لإفناء عالم الصورة وهو الملك ظاهر الكون كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16] حين تطوى السماوات وتبدل الأرض ولا يبقى من الملك وأهله داع ولا مجيب، فيجيب هو سبحانه ويقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دليل على أن للساعة ثقلاً من ظهور صفة القهر يضيق منها نطاق طاقة السماوات والأرض، وإنه مما استأثر الله به نفسه، وإنها هي الساعة التي يموت فيها الخلق؛ لأنه يقول ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. وفي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:187] معنى آخر من الإخفاء: وهو المنع منعت علمها عنهم، ومنه في حديث خليفة كتبت إلى ابن عباس أن يكتب إلي ويخفي عني؛ أي: يمسك عني بعض ما عنده مما لا أحتمله وعطس رجل عند النبي ﷺ فوق ثلاث فقال له: خفوت؛ أي: منعتنا أن نشمتك بعد الثلاثة، والخفو: المنع. [التأويلات النجمية].

(2) أخرجه الطبري في التفسير (297/13).

187] أنه سبحانه مختص بها، لا يُطلع أحدًا عليها.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل لمن ظن بك أنك حفي عليم بسرائر الأمور ومخفياتها، خبير بحقائق الموجودات وماهياته؛ اعترافًا بالعبودية وسلبًا للاختيار عن نفسك: ﴿لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضر ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إيصاله إليّ من النفع والضر، ولا أعلم الغيب إلا ما أوحى الله إليّ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني: لو تعلق علمي بعواقب أموري ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ﴾ صرت إلى حيث ﴿مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أصلاً ﴿إِنْ أَنَا﴾ أي: بل ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر بإذن ربي وعلى مقتضى وحيه إياي ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أيضًا أبشر على مقتضى الوحي ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:188] بوحي الله وإلهامه.

﴿ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:189-192].

وكيف لا يكون الغيب مما استأثر الله به؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي: أوجدكم وأظهركم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو أبونا آدم، وكان جسدًا لا علم له، ثمّ علمه من الأسماء ما تعلق إرادته به سبحانه بتعليمه إياه، ولم يعلم حقائقها ولميتها؛ إذ هي من المغيبات التي لم يُطلع أحدًا عليها ﴿وَ﴾ بعدما أظهرها ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: خلق من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويؤنس معها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أوقعها بإلهام الله إياه ﴿حَمَلَتْ﴾ وحبلت ﴿حَمْلاً خَفِيفًا﴾ أي: أدركت حملاً خفيفًا في بطنها ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: مضت عليها مدة فأدركت ثقلها، وأخبرت زوجها بثقلها فألهم بأنه ولد ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ إلى حيث اشتدت عليها حملها، وظهرت عندها أمارة حياة ما في بطنها ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ ولدًا سالمًا ﴿صَالِحًا﴾ لمؤانستنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:189] لنعمه دائمًا.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ بعد صالح، وطالحًا بعد طالح، بطنًا بعد بطن ﴿جَعَلَا﴾ موضع الشكر ﴿لَهُ شُرَكَاءَ﴾ بإغواء الشيطان إياهما ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ من الأولاد فسمياهم بعبد الحارث وعبد العزى، وعبد المناة، بتعليم الشيطان إياهما ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ المنزه

بذاته عن الشريك مطلقًا، سيما ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:190] هما وغيرهما من المشركين.

ثمّ لمّا لم يكن شركهما عن قصد واختيار، بل وسوسة الشيطان وإغوائه وبخ سبحانه عليهم؛ ليتزجروا، وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ جمعه باعتبار أولاده معنا ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ ويظهر ﴿شَيْئًا﴾ حقيرًا قليلاً، بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: الأصنام والشركاء في أنفسهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:191] مخلوقون كسائر المخلوقات.

﴿وَ﴾ كيف يشركون الأصنام معنا في الألوهية والربوبية، مع أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي: لعبدتهم ﴿نَصْرًا﴾ يدفع عنهم الأذى؛ لكونهم جمادات ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف:192] أي: بل لا يقدرون أن ينصروا أنفسهم بدفع ما يؤذيهم؛ لكونهم جمادات، ويكسرهم، فكيف لغيرهم؟.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف:193-195].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون، الموحدون المشركين المصرين على الشرك ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ أي: الإسلام الموصل لهم إلى توحيد الحق ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لخبث طينتهم، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المريدون إهداء هؤلاء الغواة ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ أي: دعوتكم إياهم إلى الإسلام ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:193] ساكتون عن الدعوة، بل عن الالتفات إليهم مطلقًا؛ لشدة قساوتهم وغلظة غشاوتهم.

ثمّ قال سبحانه تبكيتًا للمشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون أيها الضالون المشركون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ المتفرد بالألوهية، المتوحد بالربوبية ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: هم مخلوقون أمثالكم، بل أسوء حالاً منكم؛ لكونهم جمادات لا شعور لها، كيف سميتوها معبودات تعبدونها كعبادة الله، وإن اعتقدتم إلهيتهم وتأثيرهم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ بإنزال العذاب على مخالفيكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ألبتة؛ لكونكم عبادًا لهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:194] في أنهم آلهة، فكيف تعتقدون أيها الحمقى إلهية هؤلاء الجمادات التي تنحتونها بأيديكم من الأحجار والأخشاب، والإله منزه عنها، متعال عن

أمثالها، وأيضا كيف تعتقدون تأثير هؤلاء؟!.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ فيؤثرون بسببها ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ والتأثير مسبوق بهذه القوى، كيف وشرط التأثير الحياة؟ ولا حياة لهم أصلاً، فكيف يؤثرون؟ وأنتم كيف تثبتون لهم التأثير، أفلا تعقلون؟ ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل تبكيتًا لهم وإلزامًا: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تدعون مشاركتهم مع الله واستظهروا منهم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ وامكروني بمظاهرتهم؛ بحيث لا أطلع بمكركم أصلاً ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:195] تمهلون مدة حتى أتأمل فيه وأطلع عليه، وأشتغل لدفعه، وبالجملة: لا أبالي بولاية غير الله ونصره وحفظه إياي بكم وبمكركم، وبمكر شركائكم ومعاونيكم.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: 196-200].

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ﴾ وحافظي، ومولي جميع أموري ﴿اللَّهُ﴾ القادر القيوم ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن؛ لنصري وتأييدي ﴿وَ﴾ من غاية لطفه ﴿هُوَ﴾ سبحانه بنفسه ﴿يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:196] من عباده ويحفظهم من مكر الماكرين، سيما الأنبياء الذين هم في كنف جواره وحوزة حفظه، يحفظهم عن جميع ما يؤذيهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يحفظهم سبحانه عن تأثير هؤلاء الأصنام ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم أيها الضالون ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه وتستنصرون منهم، وهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:197] أي: كيف ينصرونكم، وهم لا ينصرون أنفسهم لعدم استعدادهم وقابلياتهم.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون أولئك المشركين الضالين ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ ودين الإسلام ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ ولا يقبلوا مع ورود هذه الدلائل الواضحة ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ ويسعون ويسمعون منك الأدلة القاطعة ﴿وَهُمْ﴾ من خبث طينتهم وجهل جبلتهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198] إلى أصنامهم، ولا يتأملون ولا يتفطنون أن ما ينسبون إلى هؤلاء من

الشفاعة والشركة وهم زائل وخيال باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري، بل يصرون على ما هم عليه؛ عتوًا وعنادًا.

وإذا كان حالهم هذا وإصرارهم بهذه الغاية ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اختر يا أكمل الرسل طريق العفو واللين، واترك الغضب والخشونة على مقتضى شفقة النبوة ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة القوم الذين تفرست منهم الرشد بنور النبوة والولاية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:199] المصرين، وإن جادلوك جادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك أعلم منهم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم أيضًا بالمهتدين منهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ينخسنَّك ويشوشنَّك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المثير للقوى الغضبية والحمية الجاهلية ﴿نَزْغٌ﴾ وسوسة وإغراء يحملك على الغضب، ويخرجك عن مقتضى ما أمرت به من الحلم والملاينة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من غوائله، وارجع إليه من وسوسته وتخايله يكفيك سبحانه مؤنة شروره وإغوائه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتك ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:200] بحاجاتك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف:201-203].

ثمَّ قال سبحانه تذكيرًا لنبيه وعظة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ من عبادنا كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ واستولى عليهم ﴿طَائِفٌ﴾ خاطر يطوف حول قلوبهم ﴿مِّنَ﴾ قبل ﴿الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ ما أمروا به ونُهوا عنه من عند الله ﴿فَإِذَا هُم﴾ بتذكير المأمور والمنهي ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201] مميزون مواقع الخطأ فيحترزون منها، ويتعوذون إلى الله عمَّا يغريهم إليه.

﴿وَ﴾ الذين لم يتقوا، بل هم ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين، إذا مسهم ما مسهم لا يتأتى بهم التذكر ولم يوفقوا عليه، بل ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: الشياطين بالتزيين والتحسين، والوسوسة والإغراء إلى أن يوقعوا بهم ﴿فِي الْغَيِّ﴾ والضلال ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإيقاع فيه ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:202] بل يبالغون في إغوائهم وإغرائهم إلى حيث يردونهم بحال لا يرجى لهم الفلاح أصلاً.

﴿وَ﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال، ونهاية غراقتهم فيه ﴿إِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِآيَةٍ﴾ اقترحوها منك؛ عنادًا ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هل انتخبتها من الأقوال وأنشأتها كسائر منشآتك، أعجزت فيها؟ فإن أعجزت لِمَ لَمْ تطلبها من ربك على مقتضى دعواك، كما طلبت غيرها منه؟

﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ما أنا مختلق، بل رسول مبلغ ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ الذي هو مرسلي ومبلغي، ما لي صنع في نظمه وتأليفه، وبلاغته وفصاحته وإعجازه، بل ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن وما فيه من الرموز والإشارات ﴿بَصَائِرُ﴾ للمستبصرين المستكشفين بمقتضى الودائع الفطرية التي أودعها الله في قلوب عباده، ومتى انكشفتم بودائعكم علمتم أنها ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى﴾ يوصلكم إلى ما جبلتم لأجله، وهو التوحيد والعرفان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة لكم من الله يوقظكم عن نومة الغفلة والنسيان، كل ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] [الأعراف:203] أي: يتحققون بمرتبة اليقين العلمي، ويطلبون الترقي منها إلى العين والحق.

حققنا بلطفك بحقيتك، وخلصنا من هويتنا الباطلة بفضلك وجودك يا أرحم الراحمين.

---

(1) ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبنا ما عنده لهم من مذخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال ذكية، وأحوال شريفة، ومقامات عزيزة، وعرّفهم به أسمائه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام صنائعه، وإعلام قدرته ويدّلهم به إلى المعرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحنيين، وكشف قناع الجهل بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى مشاهدته ووصاله، ورتّب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لمَنْ خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية، ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمنن علينا بفواتح أنعامه ولطائف إكرامه واصطفانا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه. قال بعضهم: أنزل الله كتابًا فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقانًا بين العدو والولي، لا يعلم معانيها إلا المؤمنين بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به أناء الليل والنهار فيه الفلاح لمَنْ طلب الفلاح، والنجاة لمَنْ رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجوا به إلا ناجي.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:204-206].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم من أوصاف القرآن ما سمعتم ﴿إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ عندكم أو قرأتم أنتم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ عن صميم قلوبكم، وتأملوا في معناه بقدر وسعكم وطاقتكم ﴿وَأَنصِتُوا﴾ أي: اسكتوا وأعرضوا عن مقتضيات سائر قواكم، ولا تلتفتوا إليها أصلاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204] تنكشفون وتتحققون بما في نفوسكم من ودائع الله بسببه.

ثمّ خاطب سبحانه حبيبه ﷺ؛ لأن أمثال هذه الخطابات لا يسع إلا في وسعه وقابليته، فقال: ﴿وَاذْكُر﴾ أي: تذكر وتحقق ﴿رَّبَّكَ﴾ الذي أظهرك على صورته ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ إذ أنت ظاهره ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعًا متجنبًا، خائفًا عن غفلة الناسوت ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إخفاءً من المحجوبين الجاهلين برتبتك، وغيرةً عليه سبحانه ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: بجميع أوقاتك التي جرى عليك على مقتضى بشريتك ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[1] [الأعراف:205] لتحققك في مقام الشهود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ حصلوا وتمكنوا ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ﴾ لا يلتفتون إلى ما سواه، بل ﴿يُسَبِّحُونَهُ﴾ أي: ينزهونه ويقدسونه عمّا يصور لهم ويوهمهم منه سبحانه ناسوتهم ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:206] بمقتضى لاهوتهم منسلخين عن هوياتهم الباطلة بلا التفات منه إلى ما خيلتهم ناسوتهم أصلاً.

ربنا اكشف عنا بفضلك حجب ناسوتنا، وحققنا بفضاء لاهوتك بمقتضى لاهوتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو القبلة الأحمدية والمقصد الأحدية المحمدية - هداك

(1) فيه إشارة إلى أن الذكر القلبي يجب أن يداوم عليه ولا يزال الإنسان يستحضر جلال الله وكبرياءه بحسب الطاقة البشرية ليتنور جوهر النفس ويستعد لقبول الإشراقات القدسية فيضاهي سكان حظائر الجبروت. [تفسير النيسابوري (54/4)].

الله إلى سواء سبيله، وأوصلك إلى مقرك من التوحيد - أن تتوجه إلى فضاء قلبك وتتذكر ما فيه من ودائع ربك على وجه الخبرة والاستبصار، مجتنبًا عما يشوشك من غبار الأغيار، معيرًا بمعيار العبرة والاعتبار؛ بحيث لا يلهيك عنها وسوسة الشيطان المكار، وتعزيرات الدنيا الغرار الغدار، لا يتيسر لك هذا إلا بتذكر ما في كتاب الله من المواعظ والأخبار والآثار وامتثال ما فيه من الأوامر والنواهي والتدبر في سرائرها، واستكشاف حكمها وأسرارها.

عليك أن تتوسل في استرشادك من كتاب الله إلى أحاديث رسوله ﷺ؛ إذ هي مبيّنة له، كاشفة عن سرائره ومرموزاته، موضحة لما فيه من الغوامض، متكفلة لحفظ عقيدتك عن التزلزل والانحراف عن جادة الهداية، موصلة لك بقدر قابليتك إلى مسالك مسائل التوحيد.

فلك أن تواظب على الاستفادة ناويًا في استفادتك استخلاص نفسك عن ربقة التقليد، مستقبلاً في سلوكك إلى مقر المعرفة والتوحيد، مشمرًا ذيلك عن جميع ما يعوقك ويمنعك من لوازم بشريتك، ملتجئًا نحو الحق في جميع حالاتك، مستمدًا في سلوكك هذا عن أرباب الولاء الوالهين في مطالعة جمال الله، الواصلين إلى فضاء وحدته وبقائه منخلعين عن جلباب ناسوتهم بالكلية؛ بحيث لا يلتفتون إلى مقتضيات بشريتهم أصلاً إلا البدلاء وهم الحائرون الحاضرون الوالهون، الواصلون الفانون الباقون، المتبدلون المتحققون ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62].

ربنا اجعلنا بفضلك من خدامهم وتراب أقدامهم.

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأنفال

لا يخفى على ذوي الألباب المستكشفين عن لب التوحيد، المستنزهين عن قشوره إن من لم يترق ممن يتأتى منهم التكليف والسلوك في سبيل التوحيد عن المرتبة الحيوانية، ولم يصل إلى الدرجة العلية الإنسانية، ولم تثمر شجرة وجوده وظهوره ثمرة المعرفة التي غرست لأجلها، وظهرت لحصولها.

وبالجملة: لم يحيَ لحياة العلم اللدني الأزلي الأبدي، بل بقي على الجهل الجبلي الهيولاني، فهو ميت حقيقة، وإن كان حيًا صورة، ومع موتهم وجهلهم هذا لا يستنشقون سمات الروح ونفحات الحياة الطبيعة الطيبة من أنفاس الأنبياء المبعوثين؛ لإحيائهم بنفخ الروح الإلهي والنفس الرحماني المظهر لهوياتهم، المحيي لهياكلهم وماهياتهم من كتم العدم ولم يؤمنوا بهم، ولم يصدقوا فيما جاءوا به من عند ربهم، بل كذبوهم وقاتلوا معهم وأصروا على جهلهم، واستكبروا بمقتضى حميتهم الحيوانية الجاهلية، الساقطة المسقطة، الضالة المضلة.

لذلك صار دماؤهم مباحًا، وأموالهم فيئًا عند العارف المتحقق وتوحيد الحق، وهي بالجملة: من جملة أرزاق الله التي لم يضف إلى أحد من خلقه، ولم يقسم بين عباده؛ لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ كيفية تقسيم أموال الفيء والغنيمة مخاطبًا له على وجه التعليم، فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المقسم لأرزاق عباده على العمل القويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإصلاح ما ظهر بينهم من المخالفة والنزاع بإغواء الشيطان الرجيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوفقهم على ازدياد الإيمان والتصديق، سيما بأحكام كتابه الكريم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:1-4].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: أصحابك لك أيها الرسول، المبعوث على الخلق العظيم ﴿عَنِ الأَنفَالِ﴾[1] أي: عن قسمة الغنائم، عبَّر سبحانه عنها بالنفل، وهو في اللغة: عطية زائدة اشترطها الإمام لمن اقتحم على محل الخطر زيادة على سهمه؛ لأنها زائدة على سهام الغزاة المجاهدين، المقاتلين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الحق طلبًا لمرضاته، وما يترتب عليه من أموال الدنيا بمنزلة النفل والعطية الزائدة على سهامهم التي هي المثوبة العظمى والمرتبة العليا عند الله.

﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿الأَنفَالُ﴾ كلها ﴿لِلَّهِ﴾ ومن مال الله، وقسمتها مفوض إليه سبحانه ﴿وَ﴾ إلى ﴿الرَّسُولِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه بإذنه ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أيها المؤمنون عن مخالفة أمره وأمر رسوله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: الحالة والعداوة التي وقعت بينكم بوسوسة الشيطان وإغوائه ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: انقادوا أمرهما ولا تتجاوزوا عن حكمهما ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:1] موقنين بتوحيد الله وتصديق رسوله ﷺ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان، المتحققون بمرتبة اليقين والعرفان، المصدقون بالرسل المبين لهم طريق التوحيد، هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الواحد الأحد، المتفرد بالألوهية، المتوحد بالربوبية ﴿وَجِلَتْ﴾ أي: خافت وترهبت، واضطربت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من سطوة سلطنة عظمته وجلاله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ الدالة على بسطته وكبريائه، النازلة على رسله وأنبيائه ﴿زَادَتْهُمْ﴾ تلك الآيات ﴿إِيمَانًا﴾ وتصديقًا وإذعانًا، ويقينًا وعيانًا وعرفانًا ﴿وَ﴾ هم من كمال يقينهم وعرفانهم ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من الأسباب الناقصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2] أي: يتوصلون ويستعينون في

(1) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُل لهم إنها لله مِلْكًا، ولرسوله ﷺ لحُكْمُ فيها بما يقضي به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِّ على مراد النَّفس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفس، وإيثار حقِّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

جميع الأمور لتحققهم وتمكنهم في مقام التوحيد المسقط للالتفات إلى غير الحق مطلقًا.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ أي: يديمون الميل إلى الله في جميع حالاتهم مراقبين لفيضه وجذب من جانبه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من كد يمينهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:3] في سبيله؛ طلبًا لمرضاته.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون بمرتبة الإذعان والإيقان ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا مستقرًا بلا اضطراب وتزلزل ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ عظيمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من درجات العلم والعين والحق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم وتعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:4] معنوي بدلها، يرزقون بها فرحين عنايةً من الله؛ لأن من توجه نحو الحق، ومال إلى جانبه ميلاً مسقطًا للتوجه إلى الغير مطلقًا، وخرج عن لوازم الإمكان إلى حيث ينفق ويبذل جميع ما نسب إليه من أموال الدنيا إعراضًا عنها، مخرجًا محبتها من قلبها أعطى له سبحانه بدل إخلاصه من الرزق المعنوي ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال:5-8].

﴿كَمَا﴾ أعطاك يا أكمل الرسل حين ﴿أَخرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ﴾ حين أخبرك جبريل عليه السلام من إقبال عير مكة من قبل الشام، وفيها أبو سفيان ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال:5] خروجك.

ومن كمال كراهتهم ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو الجهاد، سيما ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر لك بوحي الله إياك، ووعده النصر والظفر لك، وهم من غاية رعبهم حين خروجهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ مثل البهائم إلى المسلخ ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:6] حيارى خائفين مرعوبين، مع أنهم كتب لهم الظفر

والغنيمة، والغلبة من عند ربهم.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيهم أبو سفيان مع أربعين من الفرسان ومعهم تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر به الرسول للمؤمنين فخرجوا مسرعين بلا عدة استقلالاً لهم وميلاً إلى أموالهم، فلمّا خرجوا من المدينة بلغ خبر خروجهم إلى العير فانصرفوا إلى الطريق، وأرسلوا خبرهم إلى مكة فاستغاثوا، فخرج أبو جهل مع جمع كثير فمضوا إلى بدر، وكان رسول الله ﷺ بوادي دفران، فنزل جبريل عليه السلام ثانيًا يعده إحدى الطائفتين؛ أي: العدو والعير، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، وإن كان رأيه إلى المقاتلة مع العدو.

فقال بعضهم: هلّا ذكرت لنا القتال؛ حتى نتأهب له، إنّا خرجنا للعير، فقال ﷺ: «**إن العير مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل**»[1]، فقالوا كارهين مرعوبين خائفين: يا رسول الله ﷺ عليك بالعير، ودع العدو فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض بما أمرك الله، فإنّا معك حيثما أحببت، لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا؟ إنّا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - مدينة بأقصى الحبشة - مضينا معك بلا تكاسل ومخالفة، فدعا ﷺ له خيرًا.

ثمّ قال ﷺ: اجتمعوا علي أيها الناس، يريد الأنصار القائلين حين بايعوه على العقبة أنهم براء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألّا يروا نصرته إلا على عدوهم بالمدينة، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: قد آمنا لك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطينا على ذلك عهودًا ومواثيق على السمع والطاعة لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت على البحر لخضنا معك بلا تخلف أتحسب أنّا إذا لاقينا العدو نتكاسل ونتساهل، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك.

ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد، ثمّ قال: «**سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله سبحانه وعدني الآن إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**»[2].

(1) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (10366).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (8/488).

﴿وَ﴾ اذكروا أيها المؤمنون وقت ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ﴾ بالوحي على رسوله ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ مغلوبة مقهورة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَ﴾ أنتم حين سمعتم الوحي ﴿تَوَدُّونَ﴾ وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ أي: العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾[1] لأن أهلها قليل، ومالها كثير لا احتياج لكم إلى المقاتلة معهم؛ لقلتهم وعدم شركتهم ﴿وَيُرِيدُ اللهُ﴾ بمقتضى قهره وقدرته ﴿أَن يُحِقَّ﴾ أي: يثبت ويظهر ﴿الحَقَّ﴾ أي: التوحيد المطابق للواقع الذي هو الإسلام ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ الملقاة من عنده لملائكته حين أمرهم بإمداد حبيبه الذي بعثه؛ لإعلاء كلمة توحيده ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:7] أي: يستأصلهم إلى حيث لم يبق منهم من يستخلفهم، كل ذلك فضل من الله وامتنان على رسوله.

﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ﴾ أي: الإسلام المحقق المطابق لما عند الله ﴿وَيُبْطِلَ البَاطِلَ﴾ المخالف لدين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:8] المصرون على ما هم عليه قبل نزول الإسلام، ما أراد الله من تحقيق الحق وتمكينه، وإبطال الباطل وتخذيله.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال:9-11].

اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم ورحمته ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حين اقتحم العدو وأنتم عزل قلائل، وهم متكثرون ذو عدد وعدد ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ ربكم مغيثًا قائلاً لكم على لسان نبيكم: ﴿أَنِّي﴾ بحولي وقوتي ﴿مُمِدُّكُم﴾ أي: معينكم ومغنيكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:9] على عددكم، يضربونهم من ورائهم، وأنتم

(1) أي: ذات الحرب (تكونُ لكم) وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِم وعُددهم، (ويريد الله أن يُحق الحق) أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة؛ (بكلماته) أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفود كلماته الصادقة بهلاكهم، (ويقطع دابر الكافرين) أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم. انظر [البحر المديد (336/2)].

من قدامهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ﴾ أي: إمدادكم أيها المؤمنون بملائكة السماء ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ لكم بفضلكم وكرامتكم عليهم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ في جميع ما وعدكم الله به ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المتحققون بمقام التوحيد ﴿مَا النَّصْرُ﴾ والغلبة والظفر ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ القادر المقتدر علىَ كل ما أراد واختار ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مقدوراته ومراداته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:10] متقن في جميع أحكامه ومأموراته يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم وامتنانه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ ويغلب عليكم بلطفه ﴿النُّعَاسَ﴾ أي: النومة؛ إزالةً لرعبكم حين كنتم في سهر من خوف العدو؛ لتكون ﴿أَمَنَةً﴾ نازلة ﴿مِنْهُ﴾ لتستريحوا وتطمئن قلوبكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ حين كنتمْ مجنبين بإغواء الشيطان وعدوكم على الماء، والشيطان يعيركم بجنابتكم، ويوسوس عليكم بأنكم تدعون الإمامة والولاية؟ كيف تخرجون غدًا تجاه العدو وأنتم مجنبين ودعواكم أن القتال والجهاد من أشرف العبادات؟ وبأمثال هذه الهذيانات يوقع بينكم الفتنة؛ لتقعدوا عن القتال، وأنتم أيضًا مضطربون بما معكم عليه من الجنابة، أنزل الله عليكم المطر ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي: بالماء، أبدانكم عن الجنابة الصورية، كما طهر قلوبكم بماء العلم اللدني ورشحات التوحيد من الجنابة المعنوية التي هي الكفر والنفاق.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُذْهِبَ عَنكُمْ﴾ بإنزال المطر ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسته وإيقاعه، وتخويفه من العطش وغيرها ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بإنزاله، إنه سبحانه يعين عليكم وينصركم حين اضطراركم؛ ليزداد وثوقكم به وبنصره، وعونه وإنجاز وعده ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:11] أي: بهذا الربط، أقدامكم على جادة التوحيد والتوكل إلى الله، والتفويض نحوه في جميع الأمور.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال:12-14].

اذكر يا أكمل الرسل، وذكر من تبعك فضل الله عليك وعلى أصحابك وقت ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ المأمورين؛ لعونك وإمدادك حين ازداد رعب أصحابك من اقتحام القتال، قائلاً لهم: ﴿أَنِّي﴾ بكمال حولي وقوتي ﴿مَعَكُمْ﴾ حاضر عندكم، شهيد عليكم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مكانهم تجاه العدو حتى يستدبروا؛ إذ ﴿سَأُلْقِي﴾ من كمال نصري وعوني للمؤمنين ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قلوب العدو ﴿الرُّعْبَ﴾ من المؤمنين فاستكثروهم واستدبروا منهم، ومتى استدبر العدو ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أي: أعاليها ﴿وَ﴾ إن وضعوا جننهم وأيديهم على أعناقهم؛ حفظًا لها ﴿اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:12] أي: جميع أصابعهم؛ لئلا يبقى لهم استعداد للقتال أصلاً؛ حتى لا يكروا عليكم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: انهزامهم وانخذالهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خاصموا وخالفوا مع الله ورسوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ﴾ القادرَ المقتدر على كل ما أراد من القهر والانتقام ﴿وَ﴾ يخاصم ﴿رَسُولَهُ﴾ المؤيَّد من عنده؛ لتبليغ الأحكام استحق أنواع العقوبة والنكال من عنده ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:13] صعب الانتقام سريع الحساب على من خالف أمره وعادى رسوله.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: أنواع العقوبة والعقاب نازل على من تعدى حدود الله وكذب رسوله ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المخالفون المصرون ما أعدَّ لكم من العذاب ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرين المتمردين ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:14] يخلدون فيها أبد الآباد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنفال:15-18].

ثمَّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: إعلاء كلمة الحق وانتصار دينه، فعليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن تقاتلوا معهم، وإن كانوا ﴿زَحْفًا﴾

متكثرين بأضعافكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[1] [الأنفال:15] أي: لا ترجعوا منهم حين الالتقاء إلى أدباركم خائفين منهزمين حال كونهم بأضعافكم، فكيف إن كانوا مثلكم أو أقل منكم؟!.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ منكم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم ملاقاة العدو ﴿دُبُرَهُ﴾ أي: مدبرًا خائفًا ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ أي: قاصدًا بالاستدبار التحيز واللحوق. ﴿إِلَى فِئَةٍ﴾ ثابتة من المؤمنين؛ ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ولحق ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ لمخالفة أمره وحكمه، وحكمته ﴿وَمَأْوَاهُ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:16] مرجعه ومصيره.

وعليكم أيها المؤمنون ألَّا تنسبوا القتل، بل جميع ما صدر منكم إلى نفوسكم مفاخرة ومباهاة، بل إن قتلتموهم صورةً ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ حقيقةً ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن جميع الأمور الكائنة في الآفاق صادرة من الله أولاً وبالذات، ومن آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أيها النبي المأمور برمي الحصا حين هجوم الأعداء على أصحابك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي: أوجد سبحانه الرمي بيدك التي هي ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10]؛ لذلك ترتب على رميك انهزامهم الذي يستبعدونه أنتم وهؤلاء أيضًا.

﴿وَ﴾ إنما رماهم سبحانه بما رمى ﴿لِيُبْلِيَ﴾ ويجرب ﴿الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: بنعمة الغنيمة والظفر، هل يرجعون ويواظبون على شكر نعمه أم لا؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع مناجاتهم الصادرة منهم على وجه الخلوص ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:17] بحاجاتهم التي يحتاجون إليها في معاشهم ومعادهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ابتلاء الله بالبلاء الحسن، مختص بالمؤمنين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المولي لأموركم ﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ومبطل ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:18] ومكرهم وحيلهم التي يقصدون بها إهلاككم وإذلالكم.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ

(1) أي: لا تنهزموا من سطوات النفوس وغلبات صفاتها فتقعوا عن صراط مستقيم الطلب، وتستولي النفوس؛ وتنكسر القلوب وتضمحل صفاتها عند استيلاء صفات النفوس فتهلك القلوب، بل اثبتوا بالصبر عند صدمات النفوس فإن الصبر عند الصدمة الأولى. [التأويلات].

وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟
سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ
﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾
[الأنفال:19-23].

ثمّ قال سبحانه على سبيل التهكم للكافرين الذين كانوا إذا أقبل عليهم المؤمنون للقتال يطوفون حول الكعبة متشبثين بأستارها، متضرعين مستفتحين من الله، قائلين: اللهمّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أيها الهالكون في تيه الضلال؛ لمقاتلة نبينا ومن تبعه من المؤمنين ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ بقتلكم وسبيكم؛ أي: غلبة المؤمنين عليكم ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن مقاتلتهم ومعاداتهم، وعن الاستفتاح لها، بل آمنوا كما آمن هؤلاء لنبينا عن ظهر القلب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِن﴾ صالحوا معهم وآمنوا نفاقًا، ثمّ ارتدوا، بأن ﴿تَعُودُوا﴾ إلى مقاتلتهم ومعاداتهم ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرهم وتأييدهم إلى أن يستأصلوكم ويخرجوكم من دياركم.

﴿وَ﴾ لا تغتر بكثرة عددكم وعددكم؛ إذ ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وترفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ التي تستظهرون بها ﴿شَيْئًا﴾ من غلبة المؤمنين وظفرهم ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم ﴿وَ﴾ كيف تغني فئتكم شيئًا منهم ﴿أَنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:19] المجاهدين في سبيله؛ لإعلاء كلمة توحيده، ونصر دينه ونبيه ينصرهم ويعين عليهم.

ثمّ قال سبحانه مناديًا للمؤمنين توصيةً: وتذكروا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ إطاعة الله ﴿وَ﴾ إطاعة ﴿رَسُولَهُ﴾ المبلغ لكم أحكام الحق وشعائر دينه وتوحيده ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَوَلَّوْا﴾ أي: لا تتولوا معرضين ﴿عَنْهُ﴾ عن رسوله حتى لا تنحطوا عن رتبة الخلافة، وكيف لا تطيعون رسوله ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:20] كلمة الحق منه سمعًا وطاعةً؟!.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في عدم الإطاعة والانقياد له ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ كفرًا ونفاقًا: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما تلوت علينا ﴿وَهُمْ﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:

21] سَمع إطاعة وتسليم، فكأنهم لم يسمعوا أصلاً، بل لا يتأتى منهم السماع لانحطاطهم عن رتبة العقلاء، ولحقوا بالبهائم في عدم الفطنة، بل أسوأ حالاً منها.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ﴾ عن استماع كلمة الحق عن ألسنة الرسل والإطاعة بها ﴿الْبُكْمُ﴾ عن التكلم بها بعدما فهموه، ولاحت عندهم حقيقتها، وبالجملة: هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:22] أي: ليسوا من زمرة العقلاء وإن ظهروا على صورتهم وشكلهم[1]. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ﴾ أي: في استعداد هؤلاء السفهاء المنحطين عن مرتبة العقلاء ﴿خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ كلمة الحق سمعَ طاعة ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ مع أنهم ليسوا مستعدين له ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا؛ من خبث طينتهم عنها ﴿وَهُم﴾ في أصل فطرتهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:23] مجبولون على الأعراض، لا يرجى منهم الإطاعة أصلاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال:24-26].

ثم قال سبحانه مناديًا للمؤمنين تذكيرًا لهم وتعليمًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: إجابة الله وإجابة رسوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ بامتثال مأموراته وأحكامه واجتناب نواهيه ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ سنته وآدابه وأخلاقه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحده، باعتبار أن دعوة الرسول هي بعينها دعوة الحق ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية والمعارف الحقيقية المثمرة للمكاشفات والمشاهدات التي اضمحلت دونها نفوس السّوى

(1) أي: لا يعلمون لماذا خلقوا وما لهم من الاستعداد في طلب الكمال وانصرافهم في إفساد الاستعداد، فاعلم أن الإنسان خلق في أحسن تقويم قابلاً للتربية والترقي مستعدًا للكمال لا يبلغه الملك والقرب في بدء الخلقة دون الملك وفوق الحيوان، فبتربيته الشريعة يصير فوق الملك فيكون خير البرية وبمخالفة الشريعة ومتابعة الهوى يصير دون الحيوان فيكون شر البرية فيؤول حال من يكون خيرًا من الملك إلى أن يكون شر الدواب.

والأغيار مطلقًا، المورثة للحياة الأزلية والبقاء السرمدي التي لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى التي هي الانخلاع عن لوازم البشرية، ومقتضيات القوى البهيمية، ولا بدّ أن تكون إجابتكم وقولكم على وجه الخلوص والتسليم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَحُولُ﴾ ويحجب ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ المشخص بالهوية الشخصية، المتعين بالتعين العدلي ﴿وَقَلْبِهِ﴾ الذي يسع فيه الحق المنزه عن الإطلاق والتقييد، المبرئ عن الإحاطة والتحديد بالحجب الكثيرة فمادامت الحجب والأستار مسدولة بين المرء وقلبه لم يشم رائحة المحبة والولاء المؤدي إلى الفناء، المثمر للبقاء.

وانفتاح أبواب المحبة والولاء إنما يحصل بالإخلاص والتسليم والتفويض والتوكل والتبتل، والتوحيد المسقط للإضافات مطلقًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره بعد رفع الأظلال الهالكة والتعينات الباطلة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:24] ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتْنَةً﴾ أي: معصية مسقطة للعدالة، مزيحة للمروءة مورثة للمصيبة الشاملة إثرها لعباد الله، مثل الطاعون المترتب على الزنا واللواط، والقحط المترتب على التخسير والتطفيف والاحتكار وغيرها من طرق الربا، مع أن أثرها ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أتوا بها ﴿مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل يعم الظالمين وغيرهم بشؤمهم؛ لأن غيرهم يداهنون معهم كأنهم راضون بفعلهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:25] صعب الانتقام، سريع الحساب على من خرج من مقتضى أمره ونهيه.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المؤمنون نعمنا إياكم، وداوموا بشكرها وقت ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ يستضعفكم مَنْ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مكة - شرفها الله - ومن غاية ضعفكم وقلتكم ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ويلتقطكم ﴿النَّاسُ﴾ عن وجه الأرض إلى حيث يستأصلكم بالمرة؛ من غاية ضعفكم وقلتكم ﴿فَآوَاكُمْ﴾ الله بحوله وقوته، وأعادكم إليها بعدما أخرجكم العدو منها ظلمًا وزورًا ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ بأن تغلبوا وتظفروا على عدوكم، وتخرجوهم منها مهانين مغلوبين مستضعفين ﴿وَ﴾ بعدما أيدكم وأظفركم سبحانه ﴿رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي غنمتم منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26] رجاء أن تواظبوا شكر هذه النعم الجسام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:27-30].

ثمّ قال سبحانه على وجه العظة والتذكير تعليمًا للمؤمنين، مناديًا لهم؛ ليقبلوا بما أمروا ونهوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: أن ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ في سنته وأخلاقه وآدابه التي وضعها فيما بينكم؛ لإصلاح حالكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[1] التي ائتمنتم فيها اعتمادًا وثقة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:27] قبح الخيانة من أنفسكم بلا احتياج إلى إنذار منذر، وإخبار مخبر، والخيانة في الأمانات إنما تنشأ من جلب المنفعة والحرص المفرط، وتكثير الميل إلى المال الصالح للعيال.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وابتلاء لكم من ربكم يجربكم هل تضطربون في أمر المال والعيال، وتوقعون لأجلها في المهالك وإباحة المحرمات، وارتكاب الخيانات المسقطة للمروءات مطلقًا؟ أم تفوضون الأمور كلها إلى الله وترضون بما قضى عليكم، وقدر لكم في سابق علمه ولوح قضائه؟ ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿عِنْدَهُ﴾ وفي كنف حفظه وجواره ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:28] للمفوضين الذين رضوا بقسمة الله في جميع حالاتهم، ووفوا بما ائتمنوا من الأمانات مجتنبين عن الخيانة فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتحذروا عن محارمه ومحظوراته مطلقًا،

(1) قال في «التأويلات»: الأمانة: هي محبة الله تعالى، وخيانتها بتبديلها بمحبة المخلوقات، يشير إلى إن أرباب القلوب وأصحاب السلوك إذا بلغوا إلى أعلى مراتب المقامات والقربات ثم التفتوا إلى شيء من الدنيا وزينتها، وخانوا الله بنوع من التصنع، وخانوا الرسول بالتبدع وترك التتبع، وتتعدى الخيانة وآفاتها إلى الأمانة التي هي المحبة، فتسلب عنهم بالتدريج فيكون ركونهم إلى الدنيا وسكونهم إلى جمع المال حرصًا على الأولاد.

وتؤدوا الأمانات التي ائتمنتم بها من الأموال والشهادات بلا خيانة فيها، وتفوضوا أموركم كلها إليه مجتنبين ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ وينزل على قلوبكم تفضلاً وامتنانًا ﴿فُرْقَانًا﴾ ينور به قلوبكم إلى حيث تميّزون الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والإلهام الإلهي من إغواء الشيطان وتقريره ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ به ويمحو به ﴿عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: جرائمكم اللاتي مضت عليكم بالمرة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ويستر عنكم ذنوبكم مطلقًا؛ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَ﴾ لا تتعجبوا من أفضاله هذا، ولا تستبعدوا منه سبحانه أمثاله، إن ﴿اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:29] واللطف الجسيم على من توكل عليه، والتجأ نحوه في جميع حالاته على وجه الخضوع والخشوع.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إنجاءنا وخلاصنا إياك وقت ﴿إِذْ يَمْكُرُ﴾ ويخدع ﴿بِكَ﴾ إهلاكك ومقتك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشًا شاوروا لأمرك في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ويحبسوك في دار ليس فيها منفذ ولا كوة يلقون منها طعامكم أحيانًا ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ مزدحمين؛ بحيث لم ينسب قتلك إلى معين منهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة محمولاً على عجل؛ ليقتلك القطاع ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ أولئك الكفرة العصاة الطغاة لمقتك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليك؛ لإنجائك وخلاصك من أيديهم فغلب مكره سبحانه على مكرهم، وأخرجك من بينهم سالمًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع محايلهم ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] أي: أشدهم وأقواهم تأثيرًا وقوةً.

وذلك أنهم حين سمعوا إيمان الأنصار تشاوروا على أظهرهم في أمره ﷺ، وارتفاع شأنه، وسطوع برهانه فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد، سمعت اجتماعكم فأحضركم؛ لأعلم كيف تدبرون في أمر هذا الشخص الذي لو بقي زمانًا على هذا يُخاف عليكم من شره؟.

فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت، وتسدوا منافذه غير كوةٍ يلقون إليه طعامه وشرابه حتى يموت، فقال الشيخ النجدي: بئس هذا الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه يخلصونه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن يحملوه على جمل فيخرجوه من أرضكم، ولا يلحقكم ضرر بني هاشم، فقال الشيخ: يفسد قومًا آخر ويقاتلكم بهم أمّا رأيتم طلاقة لسانه وحلاوة كلامه، ووجاهة منظره؟.

فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلامًا وتعطوه سيفًا، فيضربون دفعة واحدة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حروب قريش كلهم، فإن

طلبوا العقل عقلناه، فقال الشيخ: صدق هذا الفتى، واتفقوا على رأيه.

فأتى جبريل النبي - عليهما السلام - وأخبره الخبر وأمره بالهجرة فبيَّت ﷺ عليًا - كرم الله وجهه - على مضجعه متسجيًا ببرده، وخرج ﷺ مع أبي بكر ﷺ ومضيا إلى الغار وبات المشركون يحرسون عليًا - كرم الله وجهه - يحسبون النبي ﷺ، فلمّا أصبحوا ساروا ليقتلوه فرأوا عليًا، فقالوا: أين صاحبكم؟ فقال: ما أدري فاتبعوا أثره، فلمّا بلغوا الغار رأوا نسج العنكبوت على بابه، فقالوا: لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر، فمكث فيه ﷺ ثلاثة ثمّ خرج نحو المدينة.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:31-33].

﴿وَ﴾ من مكرنا إياهم أنّا ختمنا على قلوبهم وسمعهم بختم القساوة والغفلة بحيث ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مع أنهم عارضوا زمانًا، ثمّ عجزوا مع وفوره دواعيهم، فلمّا عجزوا عن إتيان مثله ﴿قَالُوا﴾ مكابرةً وعنادًا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:31] أي: أكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم؛ لتعزيز السفهاء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالُوا﴾ من غاية عتوهم وفرط انهماكهم في الغفلة والضلال، وإصرارهم على تكذيب القرآن والرسول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا﴾ المفترى ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ الثابت النازل ﴿مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ بسبب تكذيبنا إياه ﴿حِجَارَةً مِّنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ واستأصلنا بها ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:32] مؤلم مفزع، وما هذا إلا مبالغة في تكذيب القرآن والرسول على سبيل التهكم.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[1] وإن استحقوا أشد العذاب والنكال والهلاك الكلي؛

(1) انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ﴾ إلخ، كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن -

بسبب تكذيك وتكذيب كتابك ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يعني: مادمت فيهم وفي ديارهم ومكانهم، فإن عذبهم الله فقد أصابك مما أصابهم ﴿وَ﴾ إن أمكن تخليصك وإنقاذك حين تعذيبهم ﴿مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وما أراد تعذيبهم واستصالهم ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:33] أي: يتوقع منهم، من أخلافهم الإيمان والاستغفار في الاستقبال بخلاف الأمم الهالكة من قبل.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال:34-35].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ أي: أيّ شيء يمنع تعذيب الله إياهم مع أنهم مستحقون للعذاب؟ وكيف لا يعذبون هؤلاء المستكبرون المعاندون ﴿وَهُمْ﴾ من شدة عتوهم وعنادهم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون المؤمنين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والطواف نحو البيت مدعين ولايته؟! ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: ليس لهم صلاحية الولاية في بيت الله؛ لخباثة كفرهم وفسقهم، وعدم لياقتهم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويتطهرون عن المعاصي والآثام مطلقًا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:34] عدم ولايتهم ولياقتهم لها، ومع ذلك يدعونها مكابرةً واستكبارًا وإن كان بعضهم يعلم ولكن يعاند.

﴿وَ﴾ بعدما لم يصلحوا لولاية البيت ﴿مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ ودعاؤهم ﴿عِندَ الْبَيْتِ﴾ المعدّ للتوجه والتقرب نحو الحق على وجه الخضوع والانكسار، والتذلل والافتقار ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيرًا وصداء ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقًا وتبخترًا، مع أنهم يدعون ولايته ورعاية حرمته، وما ذلك إلا من أمارات الاستهانة والاستخفاف المستلزم للكفر

كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتُّل إليه، فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

﴿فَذُوقُوا العَذَابَ﴾ أيها المنهمكون في الضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال:35] في النشأة الأولى والأخرى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الأنفال:36-37].

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأصروا على الباطل عنادًا واستكبارًا إلى حيث ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ على وجه الصدقة للمتجيشين ﴿لِيَصُدُّوا﴾ ويمنعوا أهل الحق ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ إعلاءً للباطل على الحق، وترويجًا للضلالة على الهداية، وذلك يوم بدر ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ كثيرًا أيضًا على هذه النية؛ تتميمًا لغرضهم الفاسد ورأيهم الكاسد، فلا يصلون إلى مبتغاهم أصلاً وإن بالغوا في الإنفاق.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبهوا بعدم إفادتها ﴿تَكُونُ﴾ وتصير تلك الصدقة والإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ متمكنة راسخة في قلوبهم، مورثة لحزن طويل؛ لتضييع المال بلا ترتب فائدة تبغونها ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وهذا أعظم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن دينه ونبيه وكتابه ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:36] يساقون سوق البهائم والمسخ.

وإنّما يفعل بهم سبحانه هذا ﴿لِيَمِيزَ اللهُ﴾ الناقد البصير لأعمال عباده ﴿الخَبِيثَ﴾ المنغمس في الكفر والضلال ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الصافي عن شوب الكدر مطلقًا ﴿وَ﴾ بعد فصله وتمييزه ﴿يَجْعَلَ الخَبِيثَ﴾ جملة واحدة، بأن يضم ﴿بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ ويجمعه ﴿جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ﴾ ويطرحه بعد جمعه وتركيمه ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ الإمكان وجحيم الخذلان، وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المنغمسون في خباثة الكفر والطغيان ﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:37] المقصورون على الخسران الأبدي، المجبولون على الحرمان السرمدي، ليس لهم نصيب من مستلذات الجنان، وحظ من لقاء الرحيم الرحمن الكريم المنّان.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ

سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ
فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ
نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:38-40].

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تبشيرًا لهم ووعدًا: لا ييأس من روح الله وسعة جوده ورحمته عمّا هم عليه من الكفر والضلال، بل ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ ويعرضوا عن الكفر والإلحاد نحو الباطل الزائغ، والميل إلى البدع والأهواء الفاسدة الكاسدة من تكذيب الكتب والرسل بالإيمان الخالص عن ظهر القلب، ورفع المنازعة والمخاصمة مع رسول الله ﷺ ومن تابعه ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ ويعفى عنهم ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من الجرائم مطلقًا ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ على كفرهم ونزاعهم، ويرتدوا بعد إيمانهم وصلحهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:38] أي: الأمم الهالكة الذين كفروا بالله، وخرجوا على رسله فأصابهم ما أصابهم، كذلك يصيبهم مثل ما أصابهم فليتوقعوا.

﴿وَ﴾ بعدما خرجوا من عهدهم ونقضوا ميثاقهم، وارتدوا على أدبارهم ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: المرتدين، واستأصلوهم ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ أي: توجد وتبقى ﴿فِتْنَةٌ﴾[1] بقية من شركهم مضلة لضعفاء الأنام ﴿وَ﴾ بعد استئصالهم وانقطاع شركهم وعرقهم ﴿يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ بالقتال عن شركهم وكفرهم، وأقروا بالإيمان والإطاعة فخلوا سبيلهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في بواطنهم من الوفاق والنفاق ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 39] يجازيهم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا﴾ أي: لم ينتهوا بالقتال عن كفرهم، بل أصروا عليه وأخذوا أولياء من إخوانهم وشياطينهم، واستعانوا منهم بمقاتلتكم أيها المؤمنون لا تبالوا بهم

---

(1) الإشارة إلى كفرة النفوس الأمّارة بسوء أي: جاهدوها، وأميتوها حتى تتقلّس مزارع أنوار اليقين، ومرا يع سنا الإسلام والدين، ويتفرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطرٍ غير خاطر الحقّ، ويكون القلب كلّه مستغرقًا في بحار محبّته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائهًا في صحاري أزله وأبده، ولا يكون منها جميعًا نظرٌ إلى غيره. فإن النفس حجاب القهر بينها وبين بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبّة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها. [عرائس البيان].

ويمعاونيهم ومظاهريهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الانتقام ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ معينكم ومولي أموركم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ مولاكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:40] نصيركم وظهيركم.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال:41-42].

﴿وَ﴾ بعدما انتصرتم وظفرتم عليهم ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ منهم وأخذتم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: مما يطلق عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أي: فاعلموا أن خمسه ثابت لله ﴿وَ﴾ يصرف من مال الله خمسه ﴿لِلرَّسُولِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿وَ﴾ بعد انقراضه يصرف إلى الولاة المقيمين لحدود الله، وسهم آخر منه ﴿لِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المنتمين إلى رسول الله ﷺ من بني هاشم وعبد المطلب.

﴿وَ﴾ آخر حق ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهد ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر والفاقة في زاوية الهوان والمذلة ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ المنقطعين عن الأوطان لمصلحة شرعية، فعليكم أيها الحكام أن تحافظوا على هذه القسمة ولا تتجاوزوا عنها ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ولطفنا من النصر والظفر على الأعداء والإمداد بالملائكة ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وحبيبنا ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ الفارق بين الحق والباطل والمحق والمبطل، وذلك ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: الصنفان من الطرفين في بدر مع ضعف أهل الحق وقوة الكفار ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من نصر ضعفاء الأولياء وانهزام أقوياء الأعداء﴿قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:41].

اذكروا أيها المؤمنون ضعفكم ورثاثة حالكم وقت ﴿إِذْ أَنتُم﴾ مترددون ﴿بِالْعُدْوَةِ

﴿الدُّنْيَا﴾ أي: على شفير الوادي التي هي أقرب إلى المدينة ولا ماء فيها، ورمالها تسوخ أرجلكم وأنتم راحلون ﴿وَهُم﴾ متمكنون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي: على شفير الوادي الأبعد من المدينة والماء عندهم ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير التي قصدتم نحوه قد كان بمكانٍ ﴿أَسْفَلَ﴾ وأبعد ﴿مِنكُمْ﴾ على ساحل البحر مقدار ثلاثة أميال، وأنتم حيارى بين الإقدام والإحجام.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وهم القتال في وقت معين بلا وحي من الله ووعد من جانبه ﴿لاخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم ألبتة؛ لضعفكم وقوتهم وهيبتهم ﴿فِي الْمِيعَادِ﴾ الذي وعدتم معهم؛ لرعبكم ورهبتكم منهم ﴿وَلَكِن﴾ جمع سبحانه بلطفه شملكم ومكنكم في مكانكم، وأمطر عليكم في ليلتكم ﴿لِّيَقْضِيَ اللّهُ﴾ المولي لنصركم وغلبتكم ﴿أَمْرًا﴾ حكمًا مبرمًا ﴿كَانَ مَفْعُولاً﴾ عنده وإن لم يفعل بعد، وإنما فعل سبحانه بكم ما فعل من النصر والظفر بهم من القهر والقمع ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ من الكفار ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ أي: مات وانخذل غيظًا ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ واضحة شاهدتها ﴿وَيَحْيَى﴾ أيضًا من المسلمين ﴿مَنْ حَيَّ﴾ فرحًا ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ واضحة لائحة انكشف بها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ اللّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَسَمِيعٌ﴾ لمناجاة كلا الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:42] بنياتهم، يفعل من كل منهم على مقتضى علمه.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال:43-44].

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ﴾ أي: أعداءك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ مما كانوا عليه؛ تشجيعًا لك ولأصحابك ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا﴾ وعلى شوكتهم التي هم فيها ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ وخيبتم ألبتة رهبةً وهيبةً ﴿وَ﴾ بعدما خيبتم ﴿لَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أي: أمر القتال بعدما عرفتم كثرتهم وشوكتهم، بل تشرفون على الاستدبار والانهزام ﴿وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ﴾ أي: أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع بإنزال السكينة والوقار على قلوبكم؛ بسبب تلبيس التقليل ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال:43] يعلم مآل أمركم وعاقبته، لذلك لبّس عليكم؛ ليجرئكم على القتال لإعلاء كلمة توحيده ونصر دينه.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا إمداد الله إياكم بتلبيس الأمر عليكم ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي: أعداءكم ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ صافين من الطرفين ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ﴾ كما في منامكم ﴿قَلِيلاً﴾ لتستقلوهم وتجترءوا عليهم ﴿وَ﴾ يلبس أمركم عليهم أيضًا تغريرًا لهم ومكرًا؛ إذ ﴿يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى لا يبالوا بكم ويجمعكم؛ ولذلك قال أبو جهل حين تراءت الفئتان: إن محمدًا وأصحابه أكلة جذور، وإنما فعل سبحانه ما فعل من التلبيس على كلا الفريقين ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ﴾ عنده ﴿مَفْعُولاً﴾ حتمًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال:44] كلها؛ إذ منه بدأ وإليه يعود.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) ﴾ [الأنفال:45-47].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الاعتصام بحول الله وقوته عليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من الكفار ﴿فَاثْبُتُوا﴾ وتمكنوا تجاه العدو ولا تضطربوا، ولا تستدبروا ﴿وَ﴾ بعد استقراركم وثباتكم ﴿اذْكُرُوا اللهَ﴾ ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ واستعينوا منه وتوكلوا عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45] تفوزون بالنصر والظفر، والغلبة والغنيمة إن أخلصتم النية.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع حالاتكم، سيما عند المقابلة ومقاتلة العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء والأهواء، بل فوضوا أموركم إلى الله ورسوله، وإن وقع النزاع والمخالفة بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وتضعفوا فيفتر عزمكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتكم وهيبتكم التي ظهرت عليكم من نور الإسلام ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم ﴿اصْبِرُوا﴾ على مشاق الجهاد، ورابطوا قلوبكم إلى الله ورسوله ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46] المرابطين المتمكنين، يعين عليهم وينصرهم.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون القاصدون نحو الجهاد ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كالكفار الذين ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ يعني: مكة للقتال ﴿بَطَرًا﴾ مفاخرين مباهين بعددهم وعُددهم ﴿وَ﴾ يقصدون بذلك الخروج ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليثنوا بالشجاعة والسماحة ﴿وَ﴾ هم بمجرد هذا القصد الفاسد والنية الكاسدة ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: ينصرفون ويحرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الموضوع على العدل القويم، المسمى بالصراط المستقيم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع

بجميع أحوالهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ويؤملون من المخايل الفاسدة ﴿مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:47] بعلمه الحضوري، يجازيهم عليها بمقتضى علمه وخبرته.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49) ﴾ [الأنفال:48-49].

﴿وَ﴾ من جملة ما يعين عليكم ويمد لنصركم: تغرير الشيطان وإغراؤه على أعدائكم إمدادًا لكم فيصير وبالاً عليهم، اذكروا ﴿إِذْ زَيَّنَ﴾ أي: حسن وحبب ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: عداوتهم وقتالهم معكم ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان تحريضًا لهم على القتال ملقيًا في روعهم على سبيل الوسوسة، حتى خيلوا أنهم لا يغلبون أصلاً اعتمادًا على كثرة عددهم وعُددهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلكم اليد والغلبة ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ مجير لكم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقيا وتلاحقا فرأى اللعين من صفوف الملائكة ما رأى ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1] أي: رجع قهقرى ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ ومن

---

(1) قال نجم الدين في «التأويلات»: فيه إشارة إلى أن الشيطان عند استيلاء النفس وغلبات أوصافها وهواها يزين الدنيا وشهواتها وزخارفها للنفوس، ويعينها على طلبها واستيفاء لذاتها؛ ليضلها عن سبيل الله، فلمّا استولت القلوب والأرواح على النفوس، وانقادت النفوس لحزب الله انكسرت أوصافها وهواها، واطمأنت بذكر الله وطاعته يكون الشيطان مخالفًا لها بعد أن كان موافقًا ومحبًا ومعاونًا لها، فيفر منها ويتبرأ منها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:48] فلا يبقى له مدخل يدخل بها في النفوس ويوسوسها؛ لأنه يرى بنظر الروحاني على النفوس من القلوب أنوار الرباني ولو وقع على الشيطان سنها تلألؤ يحرقه في الحال ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:48] وقد صدق الكذوب أنه يخاف من شدة عقاب الله تعالى، فإن عقابه ومضان بروق ضفة قهره لو وقع عليه لتلاشى، ولذلك كان من يفر من ظل عمر «وما سلك عمر ﷺ فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا آخر»؛ لئلا يقع عليه عكس نور ولاية عمر ﷺ فيحرقه، وقد علم الشيطان أنه من المعذبين المعاقبين، وإنما خوفه من الله من شدة عقابه؛ لأنه يعلم أن لا نهاية لشدة عقابه والله قادر على أن يعاقبه بعقوبة أشد من الأخرى، وفيه إشارة أخرى إلى أن خوفه من الله تعالى يدل على أنه غير منقطع الرجاء.

جواركم ﴿إِنِّي أَرَى﴾ من جنود السماء ﴿مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ينزلون منها؛ لإمداد هؤلاء بإذن الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ من قهره وغضبه ﴿وَاللهُ﴾ القادر على جميع وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:48] أليم العذاب، لا نجاة للعصاة الغواة من عذابه وعقابه.

اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: الذين لم يصفوا عن شوب الشبهة، ولم يصلوا إلى مرتبة الاطمئنان في الإيمان، حين خرجتم نحو العدو مجترئين مع قلتكم وكثرة عددكم: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فألقوا أنفسهم إلى التهلكة بأيديهم بخروج ثلاثمائة عزل بلا عدة إلى زهاء ألف مستعدين، لا تبالوا أيها المطمئنون بالإيمان بهم وبقولهم، لا تفتروا وتضعفوا من هذياناتهم، بل توكلوا على ربكم وفوضوا الأمر إليه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ فهو حسبه ﴿فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب في ذاته، قادر على إعانة من استعان منه ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:49] متقن في فعله وأمره، ويأمر ما تستبعده العقول وتدهش فيه الأحلام.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال:50-53].

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي وقت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: يتوفاهم الملائكة، ويقتلهم يوم بدر حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ من يأتي منهم من أمامهم ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: يضربون من خلفهم من يأتي من ورائهم ﴿وَ﴾ يقولون حين ضربهم وقتلهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المعاندون المعادون مع الله ورسوله ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:50] أي: أنموذج عذاب النار حتى تصلوا إليها، ولو رأيت حالهم حينئذٍ أيها الرائي لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والنكال في النشأة الأولى والآخرة إنما عرض عليكم أيها المسرفون ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بشؤم ما كسبتم لأنفسكم من الكفر والشرك ومعاداة الرسول والمؤمنين، وبمقدار ما اقترفتم بلا ظلم عليكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾

المستوي على العدل القويم ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ أي: ظالم ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:51] الذين يظلمون أنفسهم باقتراف المعاصي والآثام، بل يجازيهم على مقتضى جرائمهم عدلاً منه سبحانه.

إذ دأب هؤلاء المصرين المعاندين ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: سنتهم وعملهم كعمل آل فرعون وسنتهم ﴿وَ﴾ كدأب القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَفَرُوا﴾ أولئك البعداء الخارجون عن طريق الحق ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة على رسله عتوًا وعنادًا كهؤلاء المصرين المستكبرين ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ المنتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي كسبوها لنفوسهم كهؤلاء ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿قَوِيٌّ﴾ على الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:52] على من خرج عن مقتضى أمره، بحيث لا يرفع عقابه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: حلول الغضب والنكال عليهم ﴿بِأَنَّ اللهَ﴾ المنعم المفضل ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ مبدلاً محولاً ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من مقتضيات العبودية والانقياد بالخروج عن حدود الله، ونقض عهوده وارتكاب نواهيه ومحظوراته، وتكذيب آياته ورسله كما غيرها قريش ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولون على الله وعلى رسوله حين بطرهم وغفلتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:53] بما يخفون في نفوسهم من الأباطيل.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنفال:54-56].

إذ دأب هؤلاء المسرفين المغيرين على ما هم عليه من المظاهرة والوفاق، والأخوة والقرابة ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ خلوا ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على ديدنتهم وسنتهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كهؤلاء المكذبين ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ واستأصلناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بشؤم ذنوبهم بأنواع العذاب بالطوفان والريح، والخسف والكسف ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ المسرفين المبالغين في العتو والاستكبار في اليم؛ لاستغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿وَكُلٌّ﴾ من أولئك الطغاة وهؤلاء الغواة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[الأنفال:54] أنفسهم بالخروج عن ربقة العبودية ورق الإطاعة والانقياد؛ لذلك جزيناهم بما جزيناهم وهل نجازي إلا الكفور؟!.

ثمّ قال سبحانه تسجيلاً عليهم بالكفر والضلال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ الحكيم المظهر المتقن في إظهارها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وآياته ورسله، وأصروا عليه بلا تمايل منهم إلى الإيمان؛ لرسوخهم فيه ﴿فَهُمْ﴾ من خبث طينتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:55] أي: لا يرجى منهم الإيمان أصلاً.

عبّر سبحانه عنهم بلفظ الدواب؛ لانخلاعهم عن مقتضى الإنسانية الذي هو الإيمان والمعرفة مطلقًا فلحقوا بالبهائم، بل أسوأ حالاً منها، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ [الأنفال:22، 55].

وإنما صاروا من شر الدواب؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وأخذت مواثيقهم مرارًا ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ وما هي إلا من شدادتهم وخباثة طينتهم، وعدم فطنتهم لحكمة المعاهدة والمواثيق ﴿وَهُمْ﴾ من تركب جهلهم ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال:56] ولا يتركون الغدر والنفاق، ولا يوفون بالعهد والميثاق.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) ﴾ [الأنفال:57-59].

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ وتظفرون عليهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ وفرق جمعهم، وشتت شملهم بحيث ينقطع منهم ﴿مَّنْ﴾ يأتي ﴿خَلْفَهُمْ﴾ من مظاهرهم ومعاونيهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بتشتيتك وتفريقك إياهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:57] يتعظون وينتبهون من أمرك وتأييدك فيؤمنوا بك وبما جئت به.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ عاهدت معهم، وأخذت الميثاق عنهم ﴿خِيَانَةً﴾ ونقضًا من إمارات لاحت منهم وظهر عليهم ﴿فَانبِذْ﴾ واطرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أولاً عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ بلا عذر وخداع، وأظهر العداوة، وارفع المعاهدة على رءوس الملأ، ثمّ اخرج عليهم بالقتال؛ لئلا يؤدي إلى الخيانة والغدر ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:58] المخادعين الغادرين، سيما من المؤمنين الموحدين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبك ﴿سَبَقُوا﴾ مضوا وانقرضوا على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال:59] المؤمنين، ولا يضطرونهم إلى القتال فعليكم جمع العدة والتهيئة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:60-63].

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] أي: هيئوا لقتالهم من الآلات والأسباب ما يحتاجون في حرابهم، سيما آلات الرمي ﴿وَمِن﴾ جملة العدة: ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي: شد الفرس وارتياضه ليوم الحرب ما يفعله ويشده الأبطال المتشوقون إلى القتال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي: بالأعداد والشد ﴿عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم الذين في حواليكم يقاتلونكم، ويخاصمون معكم جهرةً وعلانيةً؛ يعني: كفار مكة.

---

(1) قال البقلي: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسمّى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يُلبسه الله لباسًا من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطًا، حتى يقول في همّته وسرّه: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويُسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلّي قلب وليّه، ويريحه من شرور معارضيه ومنكريه، وذلك سهمٌ رُمي بقوس الهمّة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه، حين قال: «شاهت الوجوه». وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ سمعت أن ذا النون كان في غزوٍ، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت الله، فنزله عن دابته وسجد، فهزم الكفار في لحظة، وأخذوا جميعًا، وأسروا وقُتلوا. وأيضًا اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقوّيكم في محاربتها وجهادها. قال أبو علي الروذباري: «القوة»: هي الثقة بالله. قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحقّ، معتمدًا عليه، راجعًا عمّا سواه.

﴿وَ﴾ ترهبون به أيضا ﴿آخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني: الذين ينافقون معكم ويظهرون إطاعتكم وإخاءكم ظاهرًا، ويريدون إهلاككم ومقتكم في بواطنهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي: عداوتهم؛ لإخفائهم وإظهارهم صداقتكم ﴿اللهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم عداوتهم ونفاقهم، ويجازيهم عليها ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ للأعداء والتجهيز ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ونصر دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه بأضعاف ما تصرفون وآلافه ﴿وَأَنتُمْ﴾ في إنفاقكم وإعدادكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:60] أي: لا تنقصون من جزائه ولا تخسرون، بل تربحون وتفوزون بما ترضى به نفوسكم، وبما لا تدركه عقولكم من الكرامة تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَ﴾ بعدما أعددتم عددكم، وهيأتم أسباب الحرب ﴿إِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ أي: مال أعداؤكم للمصالحة والمعاهدة ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾[1] أي: مل وارض أيها الداعي للخلق إلى الحق تليينًا لهم وتلطيفًا معهم على مقتضى مرتبة النبوة والتكميل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في جميع أمورك وثق به سبحانه، ولا تخف من مكرهم وخداعهم، فإن الله حسبك وظهيرك يحفظك من مكرهم وغدرهم ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:61] بنياتهم وأعمالهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ بعدما صالحوا وعاهدوا ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ويمكروا بك وبأصحابك فلا تبالوا بهم وبغدرهم وخداعهم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ أي: كافيك وظهيرك، ومولى جميع أمورك ﴿اللهُ﴾ الرقيب عليك في جميع حالاتك، كيف لا يرقبك من مكرهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ وقواك، وأظفرك عليهم ﴿بِنَصْرِهِ﴾ بلا أعداء ورباط خيل ﴿وَ﴾ بعد تأييدك بنصره أيدك أيضًا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:62] بإيمانهم وإطاعتهم لك، وبذل مالهم ومهجهم لتقويتك وإعلاء دينك.

---

(1) وذلك إن النفس لما رأت صدق الطالب الصادق في الصدق شاهدت جده في الاجتهاد، وتحقق عندها ثباتها على مخالفتها، ومواظبته في العبودية، وتألفت مع الطاعات والعبادات، فتنور بأنوارها وتنقاد لأحكام الشريعة، وتزكى بتزكية الطريقة، وتتنسم روائح الحقيقة، وتطمئن إلى ذكر الله تعالى، فحينئذ يجوز مصالحتها على القيام بأداء الأوامر والنواهي والفرائض والسنن وترك الدنيا وزينتها وشهواتها على تبديل الصفات النفسانية الحيوانية بالأخلاق الروحانية الربانية، وألا يحمل عليها إصرًا من دوام المجاهدة والرياضة البدنية ولكن مع هذا لا يعتمد على النفس وصلحها، بل يكون الطالب متيقظًا محتاجًا متوكلاً على الله تعالى في مراقبتها؛ لئلا تخدعه وتمكر به. [التأويلات النجمية].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث ارتفع غشاوة الحمية وحجب التعصب عن ضمائرهم مطلقًا، وصاروا في محبتك ومودتك مستوية الأقدام، متحابين لله، منخلعين عن لوازم البشرية مطلقًا، مع كونهم في جاهليتهم على التغالب والتهالك بمقتضى الحمية الجاهلية والغيرة البشرية بحيث ﴿لَوْ أَنفَقْتَ﴾ وصرفت ﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لائتلافهم واجتماعهم ﴿مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لشدة بغضهم ونفاقهم ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المحول لأحوال عباده ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى لطفه وجماله؛ لينصروك ويقبلوا دينك، ويصلوا إلى مرتبة اليقين والعرفان، ويتحققوا في مقر التوحيد ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مراداته ومقدوراته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:63] متقن في جميع أفعاله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال:64-66].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد من عند الله بالنصر والظفر على الأعداء ﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾ المولي لأمورك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ بإذن الله ومشيئته ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:64] الموقنين بتوحيد الله، الموفين بعهوده، الباذلين مهجهم في سبيله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المظفر المنصور بنصر الله ﴿حَرِّضِ﴾ ورغب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿عَلَى الْقِتَالِ﴾ في سبيل الله؛ لترويج توحيده، وقل لهم نيابةً عنا ووعدًا منا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ مستقرون ثابتون تجاه العدو ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم بتأييد منّا وعون ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ صابرة راسخة، متمكنة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإمدادنا إياكم إلى حيث يقاوم واحد منكم عشرة منهم، ذلك المغلوبية والانهزام إنما عرض عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال:65] أي: لا يصلون إلى مرتبة العلم اليقيني بالله وكتبه ورسله؛ حتى يترقوا منه إلى مرتبة العين والحق، بل يبقون على مرتبة الحيوانية مهانين مغلوبين مخذولين.

هذا في بدء الإسلام وضعف المسلمين وقلتهم، وبعدما ارتفع قدره وعلا رتبته

وكثر أهله، وانتشر في الآفاق قال سبحانه: ﴿الآنَ﴾ أي: حين كثر عددكم وعُددكم، وثقل عليكم ما أمرتم ﴿خَفَّفَ اللهُ﴾ الميسر لأموركم أثقالكم ﴿عَنكُمْ وَعَلِمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ تستثقلون بتحمل المأمور به، أمركم ثانيًا بقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ ثابتة ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ﴾[1] ونصره وتأييده ﴿وَاللهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66] المتجملين في متاعب أمور الدين.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال:67-69].

ثمّ أشار سبحانه إلى سر جواز أخذ الفدية والجزية للرسل والأنبياء، ووقّته وسبّبه فقال: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿أَن يَكُونَ لَهُ﴾ وفي يده ﴿أَسْرَى﴾ من الكفار يفديهم على المال، ويخلي سبيلهم ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: لا يجوز لهم أخذ الفدية إلى أن يكثر القتل ويذل الكفار، ويعز الدين ويغلب أهله إلى حيث اضطر المخالفون لتخليص نفوسهم إلى الفدية، مع أنه لا يتوقع منهم المنازعة والمخاصمة أصلاً، وصاروا مهانين مقهورين، ومتى لم يصلوا إلى هذه المرتبة لم يصح أخذ الفدية، وإذا كان أمر الفدية هكذا، كيف ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأخذها ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها وحطامها ﴿وَاللهُ﴾ المصلح لأحوالكم، المدبر لأموركم ﴿يُرِيدُ﴾ لكم ﴿الآخِرَةَ﴾ وثوابها بأخذها، وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، وأنتم

---

(1) قال في «التأويلات»: يعني: الغلبة والظفر ليس من قوتكم؛ لأنكم ضعفاء، وإنما هو بحكم الله الأزلي ونصره، وإلى الأقوياء وهم محمد ﷺ والذين معه أشداء على الكفار؛ لقوة توكلهم ويقينهم وفقه قلوبهم لا يفر واحد منهم من مائة من العدو كما كان حال النبي ﷺ ومن معه من أهل القوة، ما قال عباس بن عبد المطلب ﷺ: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلم أفارقه ورسول الله على بغلة بيضاء أهداها له فرقة بن بغامة المذامي، فلما التقى المسلمون بالكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق النبي ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال عباسُ ﷺ: وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ إرادة ألّا تسرع، وأبو سفيان أخذ ركاب رسول الله ﷺ، فلمّا كان رسول الله ﷺ ومن معه صابرين أولى قوة لم يفروا مع القوم.

تقصدون أن تستلذوا بحطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لحالاتكم ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب فيما أراد لأجلكم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:67] يريد لكم ما يليق بحالكم؟!.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ﴾ حكم وأمر ثابت نازل ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿سَبَقَ﴾ في سابق علمه بألا يأخذ المجتهد المخطئ بخطئه ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أصابكم ونزل عليكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ وافتديتم من أسارى بدر ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:68] مقدار ما فوتم من حكمة الله وأبطلتم حكمه.

روي أنه ﷺ أتى يوم بدر بسبعين أسيرًا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار رسول الله ﷺ فيهم، فقال أبو بكر ﷺ: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية يقوى بها أصحابك، وقال عمر ﷺ: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، فإن الله أغناك من الفداء فمكني من فلان؛ لنسب له، ومكن عليًا وحمزة من أخويهما، فلنضرب أعناقهم.

فقال رسول الله ﷺ: «مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﷺ حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36]، ومثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:26]»[1] فخير أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت.

فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله ﷺ أخبرني، فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه» لشجرة قريبة عنده، فقال ﷺ: «لو نزل العذاب لما برئ منه غير عمر وسعد بن معاذ»[2].

ومتى اجتهدتم في أخذ الفدية من الأسرى فأخذتم الفدية، وإن كان اجتهادكم خطأ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ بعد إخراج الخمس وافتديتم من الأسرى؛ إذ هي من جملة الغنيمة

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (476/8)./

(2) أخرجه الطبري: 14 / 71. قال الحافظ ابن حجر في "الكافي الشاف" ص (71) : "ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع، بمعناه، وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه: "لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب"، وانظر: الأموال لأبي عبيد ص (136 - 137)، وتفسير البغوي - (ج 3 / ص 377).

﴿حَلالًا﴾ مستحلين مستبيحين ﴿طَيِّبًا﴾ خاليًا عن وصمة الشبهة؛ لاجتهادكم في أخذها ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ من المبادرة في الأمور، واحتاطوا فيها ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأموركم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنكم من المبادرة إلى الفدية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:69] أباح لكم ما أخذتم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال:70-71].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث لتكميل الخلائق ﴿قُل﴾ على وجه العظة والتذكير بمقتضى شفقة النبوة والإرشاد ﴿لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ﴾ المطلع لضمائركم واستعداداتكم ﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإيقانًا، واطمئنانًا وعرفانًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من حطام الدنيا، وهي اللذات الروحانية والكشوف والمشاهدات التي لا مقدار للذات الجسمانية دونها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده نحو توحيده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعدما وفقهم للإيمان والإطاعة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:70] يرحمهم بعدما رجعوا نحوه وأنابوا.

رُوي أنها نزلت في العباس ﷺ كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت فقال ﷺ: **«فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك فقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث لي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم»**، وقال العباس: وما يدريك؟ قال ﷺ: **«أخبرني ربي»**[1].

قال: أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، فقال العباس ﷺ: فأبدلني الله خيرًا من ذلك إلى الآن عشرين عبدًا، إن أدناهم ليضرب عشرين ألفًا، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم؛ يعني: الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:70].

﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أولئك الأسارى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بعدما عاهدت معهم وتلطفت بهم فلا

(1) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان (75/6).

تتعجب من خيانته ونقضهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر والشرك، ونقض العهد والخروج عن مقتضى المأمور ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ﴾ أي: أمكنك ومكنك أولاً عليهم حتى انتقمت ﴿مِنْهُمْ﴾ يوم بدر بالقتل والأسر، فإن عادوا ورجعوا بالخيانة أمكنكم ثانيًا وثالثًا فلا تبال بهم وبخيانتهم فإن الله معينك وناصرك، يعصمك من مكائدهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:71] بمجازاتهم يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال:72].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا بتوحيد الله ووجوب وجوده ﴿وَهَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان طالبين الترقي إلى المراتب العلية ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ منفقين لها؛ ليتجردوا عنها ويطهروا نفوسهم عن الميل والمحبة إليها ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ ممسكين لها عن مقتضياتها ومشتهياتها، باذلين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليتحققوا بمرتبة الفناء فيه؛ ليفوزوا ببقائه.

﴿وَالَّذِينَ﴾ تحققوا بمرتبة التوحيد وتمكنوا فيها ﴿آوَوا﴾ أي: مكنوا ووطنوا من يرجع إليهم، ويسترشد منهم من أهل الطلب والإرادة ﴿وَ﴾ بعد تمكينهم وتوطينهم ﴿نَصَرُوا﴾ وأعانوا عليهم بالتنبيهات اللائقة إمدادًا لهم، وبالواردات الغيبية والإلهامات القلبية والمكاشفات العينية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الوالهون في بيداء ألوهيته ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون ويتعاونون إلى أن يرتفع تعددهم وتضمحل كثرتهم، وسقط الافتراق والاجتماع عنهم، وانقطع السلوك والطلب، وفني السالك والسلوك والمسلك، وبقي ما بقي، لا إله إلا هو لا شيء سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى الفناء فيه ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الواصلون ﴿مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ ويتشمروا السلوك مسلك الفناء ﴿وَ﴾ بعدما دخلوا باب الطلب ﴿إِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ﴾ واستعانوا منكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي: في سلوك طريق التفويض والانقياد ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي: لزم عليكم أن تنصروهم وتعينوا

عليهم؛ ليغلبوا على جنود القوى البهيمية، والشياطين الشهوية والغضبية ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ من جنود النفس اللوامة المطلعة لغوائل الأمارة الخبيثة ووخامة عاقبتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من النصر والإعانة ﴿بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:72] يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال:73-75].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ولم يتفطنوا سر سريان وحدته الذاتية السارية في جميع الأكوان، ولم يتنبهوا للفناء في ذاته، ومع ذلك كذبوا الرسل المنبهين، المبشرين المنذرين إصلاحًا لهم وإرشادًا، أولئك الأشقياء المردودون ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتعاونون ويتعاضدون في كفرهم وجهلهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: ألا تفعلوا ما أمرتم به من الموالاة والمواصلة، والنصر والمعاونة ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ سارية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: طبيعة العلم ﴿وَ﴾ حدث فيها ﴿فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:73] هو غفلة الأظلال عن الذات، والظل والصور عن ذي الصورة، والعكوس عما انعكس فيها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي: سلكوا وسافروا، وبعدما تحققوا باليقين العلمي ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أي: ارتاضوا؛ أي: انخلعوا عن جلباب التعين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الفناء فيه؛ ليتحققوا باليقين العيني ﴿وَالَّذِينَ آوَوا﴾ ووالوا أولياء الإرادة ﴿وَنَصَرُوا﴾ أرباب الطلب ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الواصلون المبرزون ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون، المثبتون في مرتبة اليقين الحقي ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا بلا دغدغة استكمال وانتظار، متقررًا في مقر التوحيد ومقعد الصدق عند مليك مقتدر ﴿لَّهُم﴾ بعد وصولهم إلى مقرهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم التي كانوا عليها على مقتضى تعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:74] من الكشف والشهود، نزلاً من عند العزيز العليم.

ثمّ بشّر سبحانه بما بشّر به من اقتفى أثركم أيها المكاشفون الواصلون، وسلك

سبيلكم من أصحاب الإرادة والطلب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ كما هاجرتم أيها الفائزون الواصلون ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله وترويج دينه وسنته بأنفسهم وأموالهم كما جاهدتم أنتم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المجاهدون الباذلون ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم وعدادكم، وأجرهم عند الله مثل أجركم، وهم إخوانكم وأرحامكم في الدين ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ﴾ وذووا المناسبات والقرابات في الدين والعرفان ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في الولاية والنصر، والمصاحبة والمؤاخاة ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾[1] أي: في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على ذرائر الآفاق ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من رقائق المناسبات ودقائقها ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:75] بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حضوره شيء.

---

(1) بيّن سبحانه أن ميراث الأولياء والصدّيقين من العلوم الغيبيّة، والحِكَم الغريبة، والأنباء العجيبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطالبين الموفّقين، والقاصدين المودين، والمحبّين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعًا من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجلّي القِدم، ومَن لم يكن عنهم من أهل الدعاوي والمترسّمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت. ولا يعرف ألحان تلك الأطيار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبّة، والنبوّة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما مَنّ الله عليه، بقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:16]. نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنّ الله سبحانه بيّن في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُسمت أرباب هذه المواريث. قال ﷺ في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء»؛ ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه أنه كان عالمًا في الأزل باختياره هؤلاء الصدّيقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيّاهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: 32]، وبقوله في تمام السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزليّة، وما يبدو منهم من سيّات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد، والله أعلم.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الفناء، المهاجر عن ورطة الغفلة والغرور، أن تقتفي في سلوكك هذا أثر أهل الهجرة والنصرة المرابطين قلوبهم لتوحيد الحق، الباذلين مهجهم في تقوية من ظهر عليه ﷺ وترويج دينه وسنته، المتخلقين بأخلاقه، المتعطشين بزلال مشربه المستظلين بظل روائه، المستمسكين بعروة ولايته، ولا يحصل لك هذا إلا بالركون والإعراض التام عن مقتضيات القوى البشرية ولوازم الطبيعة مطلقًا، كهؤلاء الكرام المنخلعين عن جميع ما يشوشهم من لوازم هوياتهم في معاشهم حتى عن الأهل والأوطان.

لذلك انكشف لهم من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات إلى حيث اضمحلت عن عيون بصائرهم ما سوى الحق مطلقًا، وصاروا فانين في الله، متحققين بمقام «**وبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش...**»[1]، ولك في عزيمتك هذا التشبث بكتاب الله الذي هو المرشد الحقيقي، وبأحاديث الرسول ﷺ وبكلمات المشايخ العظام - قدس الله أرواحهم - ولاسيما ذلك الاستمداد من قلوب البدلاء الوالهين، الحائرين بمطالعة وجه الله الكريم؛ إذ هم لاستغراقهم في بحر الشهود انخلعوا عن لوازم هوياتهم، وما لنا من حالاتهم إلا الحسرة والعبرة إن كنا من أهل الاعتبار والاستبصار.

ربنا اهدنا إليك بأي طريق شئت، إنك بفضلك وجودك تهدي من تشاء من عبادك وإنك على ما تشاء قدير.

---

(1) رواه البخاري (2384/5، رقم 6137)، وابن حبان (58/2، رقم 347)، والبيهقي (219/10، رقم 20769)، وأبو نعيم في «الحلية» (4/1).

سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة التوبة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد وتوطن في مكمن الفناء والتجريد، خالصًا عن توهمات التخمين والتقليد، مستويًا على جادة اليقين والتحقيق، معرضًا عن كلا طرفي الإفراط والتفريط أن من لم يترق عن مرتبة الحيوانية ولم تثمر شجرة هويته ثمرة الإنسانية التي هي المعرفة والتوحيد، فهي والحيوانات العجم سواء في الرتبة بل أسوأ حالاً منها، ومتى لم يطع حكم المربي ولم ينقد لأمره لينقذه من جهله ويوصله إلى ما خلق لأجله، سيما إذا تعنت وتجبر واستكبر على من بُعث لتربيته، وأُمر لإرشاده وتكميله، بل كذبه وأنكر عليه وطغى على أمره، وأشرك به غيره - العياذ بالله - فقد حل قتله واستباح دمه على الموحدين المتمكنين الذين يبذلون أرواحهم في ترويج كلمة التوحيد ونصرة الدين القويم والشرع المستقيم.

لذلك فرض الجهاد والغزاء على أرباب الولاء المستمسكين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها؛ ليكون غزاتهم مع الله في جميع حالاتهم وشهداؤهم أحياء عند ربهم يرزقون من موائد أفضاله ما لم تره عيونهم ولم تشهده نفوسهم؛ ولهذا ما خلا نبي من الأنبياء من لدن آدم إلى نبينا - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين - على القتال والجهاد.

وكما فصل سبحانه بقص قصصهم وسيرهم في كتابه وأجمل البعض، وقال مخاطبًا لنبيه: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:78]

والسر في وجوب القتال للأنبياء، والله أعلم أن بعثة الرسل والأنبياء؛ إنما هو لإصلاح أحوال العباد وإرشادهم إلى الخير والصواب في معادهم ومعاشهم.

وذلك لا يتصور إلا بعد ظهور الآراء الباطلة المتخالفة، المتداعية إلى أنواع الإخلال وتزاحم الأهواء الفاسدة المستلزمة للضلال والإضلال، وانتشار أنواع البدع والجدال ورفع هذه المفسدة وقمع أهلها، وقلع عرقها وأصلها، إنما هو باستئصال من تمسك بها وظهر عليها، ولا يتيسر ذلك إلا بالمقاتلة والمشاجرة؛ لذلك جرت سنته

سبحانه عليها وعدها من أفضل العبادات.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة:1-3].

ثمَّ لمَّا كان المشركون المصرون على شركهم من أعدى الأعادي، وأشدهم غيظًا مع الله ورسوله، وكان عهودهم ومواثيقهم غير معول عليها في علم الله، تبرأ سبحانه منهم وأمر رسوله أيضًا بالتبري عنهم وعن عهودهم ومواثيقهم، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ أي: هذه براءة ونقض عهد وإسقاط ذمة، ورفع أمان كان بينكم أيها المؤمنون وبين المشركين، نزلت إليكم ﴿مِّنَ اللهِ﴾ المطلع على مخايل أهل الشرك أصالة ﴿وَ﴾ من ﴿رَسُولِهِ﴾ لتنبذوا وتطرحوا عهودكم ومواثيقكم ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] [التوبة:1].

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في «التأويلات»: اعلم أن الحكمة من ترك كتابة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول السورة براءة، وكتابتها في سورة النمل؛ ليعلم أنها آية مكررة في القرآن، وأنها أكثر مما أنزلت في أوائل السور؛ لتكون فاصلة بين الصورتين، ولتكون كل سورة متوجة بتاج اسم الله تعالى وصفة جماله وجلاله، فحيث نزلت كتبت، وحيث لم تنزل لم تكتب، فلما لم تنزل في أول براءة ما كتبت في أولها ونزلت في أول النمل وفي أثنائها كتبت في الموضعين جميعًا ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يشير إلى أن النفوس المتمردة المشركة التي اتخذت الهوى إلهًا وتعبدت صنم الدنيا فهادها الروح والقلب في أوان الطفولية، وعاهدها على ألا يجاهداها ولا يقاتلاها إلى حد البلوغ، وهي أيضًا لا تتعرض لهما لاستكمال القالب واستواء القوى البشرية التي بها يتحمل حمل الأمانة، واعيًا بأركان الشريعة وظهور كمال العقل الذي يستعد لقبول الدعوة وإجابتها، وبه يعرف الرسل ومعجزاتهم، وبه يثبت الصانع ويرى تعبده واجبًا لأداء شكر نعمه، وإن الله ورسوله بريء من تلك المعاهدة بعد البلوغ، فإنه وإن نقض عهد النفوس مع القلوب والأرواح؛ لأن النفس قبل البلوغ كانت تتصرف في المأكول والمشروب والملبوس؛ لتربية القالب ودفع الحاجة الماسة غالبًا وذلك لم يكن فقرًا جدًا للقلب والروح، فأمَّا البلوغ فزاد في تلك التربية بالمأكول والمشروب والملبوس الضروري الشهوة، ولمَّا ظهرت الشهوة شملت آفتها المأكول والمشروب والنكوح واشتعلت نيرانها وأشعلت يومًا بيوم وفيها مرض القلب والروح وبعثت الأنبياء ولدفع هذا المرض وعلاجه، كما قال ﷺ: «بعثت

وعليكم ألّا تبادروا ولا تفاجئوا إلى المقاتلة بعد نبذ العهد، بل أمهلوهم وقولوا لهم: ﴿فَسِيحُوا﴾ أي: سيروا أيها المسرفون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا هذه آمنين بلا خوف ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قيل: هي عشرون من ذي الحجة وتمام المحرم والصفر، وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، واستعدوا في تلك المدة وهيئوا أسباب القتال فيها ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المصرون على الشرك يقينًا، وإن زعمتم غلبتكم علينا بمظاهرة إخوانكم واستعانة قبائلكم وعشائركم ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: لستم غالبين على الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:2] أي: مهينهم ومذلهم وإن أمهلهم زمانًا بطريق على تجبرهم وتكبرهم.

﴿وَ﴾ هذه أيضًا ﴿أَذَانٌ﴾ إعلام وتشييع، ونداء صدر عنه ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بإذنه ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ المجتمعين من أقصى البلاد ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ لأن وقوف يوم عرفة كان يوم الجمعة؛ لذلك سمي به ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بأن الله المتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهودهم ومواثيقهم، لا يؤمنهم بعد عامكم هذا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضًا مأمور من عنده بالبراءة ونقض العهد وإسقاط الذمة، وبعد اليوم ارتفعت الهدنة وصار الأمر إما السيف وإما الإسلام.

﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ ورجعتم عمّا أنتم عليه من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد ﴿فَهُوَ﴾ أي: إيمانكم ورجوعكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن الإسلام والإيمان، وأصررتم على الشرك والطغيان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: لستم غالبين على جنوده ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأصروا عليه، ولم يرجعوا عنه مع ورود الزواجر والخوارق ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:3] في النشأة الأولى بالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة بالحرمان عن رتبة الإنسان.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ

لرفع العادات وترك الشهوات».

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ
فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾
[التوبة:4-5].

ثمَّ لمَّا لم يصدر عن بعض المشركين شيء من أمارات النقض والإتيان، وعلامات المخالفة والمخادعة استثناهم الله سبحانه، وأمر المؤمنين بمحافظة عهودهم إلى انقضاء المدة المعلومة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ﴾ بعد المعاهدة ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ مما عاهدوا عليه والتزموا حفظه، بل داوموا على حفظها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يُظَاهِرُوا﴾ ولم يعانوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم حفظًا لعهدكم وميثاقكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي: أنتم أولى بإيفاء العهد وإتمام مدته ﴿إِلَى﴾ انقضاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدوا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:4] الذين يواظبون على إيفاء العهود وحفظ المواثيق؛ حذرًا عن تجاوز حدود الله وعهوده.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ أي: انقضى ومضى ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ المأمورة فيها السياحة والأمن ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك، الناقضين للعهد والميثاق ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حل أو حرم مستأمنين أم لا ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: ائسروهم واسترقوهم، واستولوا عليهم ﴿وَ﴾ إن استحفظوا واستحصنوا ﴿احْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ﴾ لأخذهم وقتلهم ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وممر من شعاب الجبال وشفار الوادي ﴿فَإِن تَابُوا﴾ ورجعوا عن الشرك، ومالوا إلى الإيمان ﴿وَ﴾ بعد إيمانهم ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي علامة إيمانهم وتصديقهم.

﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التي تطهر قلوبهم عن أمارات النفاق ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ كسائر المسلمين تتذكروا، وتلتفتوا بما صدر عنهم من المخالفة والمقاتلة والشقاق فيما مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من المعاصي والآثام ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:5] لهم يوصلهم إلى دار السلام بعدما أخلصوا الإنابة والرجوع.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ

رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [التوبة:6-7].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المناقضين الذين أمرت بقتلهم وأسرهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ وطلب منك جوارك؛ ليأمنه عما يؤذيه ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: فعليك يا أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة والرسالة أن تجيره وتؤمنه في جوارك ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ الهادي لعباده ويفهم سرائر دينك وشعائر شريعتك كأنه يطلع على حقيقته؛ لأن أصل فطرة كل أحدٍ وجبلته على الإسلام.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حصول اليأس عن الإيمان من إيمانه وتنبهه ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[1] أي:

---

(1) قال العلامة البحر المحقق سيدي البيطار: اعلم - رحمك الله تعالى - أنه لم يكن بين الله تعالى وبين محمد ﷺ تثنية البتة، بل الأمر واحد، وذلك أن الحقيقة الإلهية باطن الحقيقة المحمدية، والحقيقة المحمدية ظاهر الحقيقة الإلهية، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ «أنا من الله والعالم مني» فالله تعالى واحد الذي منه محمد ﷺ فهو أوله وباطنه؛ إذ لا أصل للحقيقة المحمدية النورانية إلا الواحد تعالى وتقدس، وقد تجلى الواحد باسمه المحب فأحب نفس أن يعرف لنفسه، فأفاض من ذاته مرآة واحدية، فكانت المرآة حقيقة محمد ﷺ ، فرأى نفسه بتلك المرآة المحمدية، ففي الرتبة الأولى التي هي الكنز المخفي كان الواحد أولاً باطنا، ولما ظهرت له حقيقة نفس في مرآة محمد ﷺ ، التي هي من فيض ذاته صار الواحد آخرا ظاهرا، والواحد أولاً هو الواحد آخرا؛ لأنه لم يظهر في تلك المرآة إلا نفسه، كما أنك إذا ضربت الواحد في الواحد لم يخرج إلا واحد بعينه، ولهذا السر قال تعالى في محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح:10]. وقال تعالى ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموا الرسول، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: الرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الرسول ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ، وشاهد هذا التوحيد أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:62] ولو كان بينهما تثنية لقيل: أحق أن يرضوهما وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24] ولم يقل دعواكم بالتثنية، فصحّ قوله ﷺ : «ومن رآني فقد رأى الحق»، فإن قلت: إنه قال: «لا تقولوا سيدًا إنما السيد الله» فلم يرض إلا باسم العبد قلت: إنما النهي عن إطلاق اسم السيد على غير الله ولا غير، ألا ترى قوله: « أنا سيد الناس» وكيف لا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:80]، ولما بايعوه على الأنفس والأموال نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: 111]، فهذا الشراء ليس شراء غائب من حاضر، بل هو شراء حاضر من حاضر. ومما قررناه

تدرك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:56] فالمعنى أن النبي قبلة لرؤية الله نفسه فيه؛ لأنه ما رأى واحديته إلا في مظهر محمد ﷺ الذي هو مرآة ظهور واحديته، فما رأى في محمد ﷺ سواه، وكذا الملائكة؛ لأنه أصلهم وهم جميعًا فرعه، فهو حقيقتهم لا السراج المنير لهم، وهذا معنى ما ورد أن الملائكة خُلقوا من النور، ولا نور في الوجود إلا محمد ﷺ فهو نور السموات والأرض أي: حقيقة وجودهما، ثم أن الله تعالى نبّهنا أن نصلي عليه فنقول: « اللهم صلي على محمد» ونداْب على ذلك ليحصل لنا هذا الكشف،ويفتح لنا هذا السر فنرى نفوسنا هو ﷺ كما قال: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:6] أي: ليس للمؤمنين أنفس، بل أنفسهم هو ﷺ ثم قال: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6] والأزواج بلسان الإشارة جميع أسماء الله التي يظهر ﷺ بمعانيها من الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر، والإرادة والكلام، في قراءة (وهو أبوهم) أي: الذات المطلقة، ومن الذات والأسماء تولّد العالم الصوري، فافهم.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] وهو أبونا عمومًا على الإطلاق، لا على الخصوص، ولهذا سلب الله عنه الأبوة المقيدة فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:40].

إذا فهمت ذلك فهمت قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:33]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:7]. فصلاتنا عليه أن نترك وجودنا إليه ونسلم الأمر إليه تسليمًا فلا نرى في جميع الوجود إلا محمدًا ﷺ ، وهذا مشهد صديقي، لذلك قال لابنته أم المؤمنين «عائشة» في شأن براءتها: «قومي فاشكري رسول الله»؛ لأنه أدرك معنى الصلاة والسلام عليه، ولم يكن هذا التحقق في ذلك الحال لبنته، فقالت: «لا أشكر إلا الله»، فإذا علمنا أننا هو عادت صلاة الله وملائكته، بل وصلاتنا عليه وتسليمنا عليه علينا، فعند ذلك ندرك ما أخبرنا الله به من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمات الشرك الخفي ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:43] وهو محمد ﷺ ، فقد علمت أن معنى الصلاة والسلام على محمد ﷺ الوصلة التامة به والتحقق الذاتي من الله، ومن الملائكة وسنًا حتى نراه فرد الوجود وعين الشاهد والمشهود . إذا تقرر ذلك، وعلمت سر الواحدية التي أشرنا إليها أدركت سر قول الله: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:6]، ولم يقل في حقه كما قال في حق موسى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:164] إذ ليس بين الله ومحمد مكلم وكليم.

ألا ترى قوله تعالى في حق القرآن العظيم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:40] فاثبت أن القرآن قوله، كما أن المنزل حقيقة ذاته وعينه، وذلك ثمرة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، ولهذا الخلق العظيم أمر أن يجير المشرك من باب صلة الرحم؛ لأن المشرك مظهر حقيقته فهو فرعه، وما أشرك إلا بالتوجه لصورة خاصة مقيدة، وتلك الصورة هي مظهر حقيقته، لكن المشرك بسبب جهله وحجابه عن تلك الحقيقة الواسعة لجميع المظاهر سُمي مشركًا؛ لأنه تقرّب بالمقيد المحصور إلى المطلق الذي لا يُحصر، وفي الحقيقة لا غير فأمر بإجارته والرفق به ليسمع منه كلام الله، ولم يقل تعالى: فأسمعه لعله يتذكر أو يخشى، بل قال: ﴿فَأَجِرْه﴾ إشارة إلى أنه المطلق المتصرف كيف يشاء.

ألا ترى ما وقع لابنة عمه أم هانئ أخت سيدنا عليّ بن أبي طالب - سلام الله عليه - لما دخل بيتها المشرك يوم فتح مكة، واستجار بها فجاء أخوها أبو تراب - سلام الله عليه - وهمّ بقتله، فشكت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» فكما أنه ﷺ هو المالك فهو المملك أيضًا.

ألا ترى قوله «أهل بيتي أمان لأمتي» فهو كعبة الكعبة؛ لأن الكعبة من دخلها فهو آمن، وليس له أن يؤامن غيره.

فافهم ما أشرنا إليه - رحمك الله - وحيث في الدنيا كذلك، ففي الآخرة أعظم؛ لأنها أبلغ في ظهور سيادته المطلقة بلا استتار. فإن قلت: قد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:88] فإن عيسى عليه السلام وكّل الأمر إلى الله، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ إلا به [المائدة:118] والخليل قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36] وموسى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة:25]، ونوح قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال: [هود:45] فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46] فكيف أجاب محمد ﷺ وعليهم جميعاً وقرر إجارة أم هانئ، قلت: إن سيدنا محمد ﷺ هو السيد على الإطلاق والسيد لا يكون إلا متصرفًا على الإطلاق دون التقييد، ألا ترى ما حكاه الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف:88]، ثم قال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: 89]، فاللائق أن يكون الخطاب من الله إليه لأنه لا يقول لربه: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ فمن قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أفادنا أنه جعله هو صاحب الحق حتى طلب منه الصفح فإن قلت: ما الدليل الشافي من القرآن أنه عين صاحب الحق.

قلت: هو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53]، ولم يقل: يا عباد الله، فهو ﷺ ذاتي لا صفاتي، وحينئذ هو المجير على الإطلاق، بل إنه يملك هذا المقام لمن أحب.

ألا ترى قوله لأخيه أبي تراب - كرم الله وجهه -: «أنت قسيم الجنة والنار»، وأعجب من هذه العجائب كلها قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾

[الجاثية:14] أي: من أمتك بالتحقق بمقامك .

فمن هذا المعنى ما جرى للغوث الجيلي ﷺ حيث قال: رأيت امرأة كانت أرضعتني وقد أسود وجهها من العذاب فألبست لها النار صورة الجنة، ومن نوّر الله بصيرته وشَرح الله صدره في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:17]، وفي قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:199] علم أنه صاحب العطاء المطلق لكل سائل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى:10]، فافهم إن كنت من أهل الفهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

نكتة لطيفة وحكمة شريفة: أمر الله محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] فقوله: ﴿فَأَجِرۡهُ﴾ أي: من الشرك؛ لأن ﴿ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:13]، فيحتمل أنه ظلم للشريك، حيث جعله غير الحق، ولا غير، فالمشرك ظلم مرتبة الوجود المطلق؛ لأن مرتبة التوحيد وزعم الغيرية محال، ويحتمل أن الشرك ظلم عظيم من المشرك لنفسه حيث أنزلها منزلة الجهل، فزعم أنه يعبد غير الله ليقربه إلى الله زلفى، والحال أنه ما عبد إلا الله؛ لأن الله هو الظاهر في كل شيء، فكفّره أي: ستره وهو الوجود المطلق بالحكم العدمي الذي هو الشرك، وذلك محال، فلذلك السر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:48] والمغفرة: هي الستر، والشرك عدم محض لا وجود له حتى يستره الله بل هو تخيل وهمي لا وجود له إلا في نفس المشرك لا في الخارج؛ لأن الله قضى ألا يُعبد إلا إياه، ففي الحقيقة لا شرك في الوجود حتى يغفر؛ أي: حتى يستر؛ لأن الستر لا يكون إلا لأمر وجودي، والذي هو من أصله عدم كيف يستر؟! فالأمر الإلهي بقوله تعالى: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6] يقتضي أن المصطفى ﷺ أُمر بالتوجه إلى المشركين المحجوبين حتى يجيرهم من شركهم، فيسمعون كلام من جميع مظاهر الله، وإذا كان أبو العباس المرسي ﷺ يأتيه الأعرابي يبول على ساقية فيوصله بالتوجه والهمة الجاذبة إلى الله، فلا عجب أن السيد المطلق يُوصل من استجار به إلى الله، ويسمعه كلام الله، ولهذه النكتة قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة:6] ولا مأمن له إلا حضرة السلام، وهو معرفة نفسه بأنه سالم من وجود السوى. فلذا قال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ [الزخرف:89]، أي: أوصلهم إلى الحضرة السلامية، فكان يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام» ومن أراد أن يحقق ما قلناه فليتبصر بقوله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» فليت شعري هل يُجاب دعاؤه أو لا؟ نعم والله يجاب دعاؤه ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227]، والمراد بالظلم هنا: الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:13]، فإذا أقرّ الله

موضع أمنه ومحل قرانه تتميمًا للشفقة والمروءة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن والمواساة والتليين المأمور ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ في غاية البعد عن الإيمان وما يترتب عليه من المؤاخاة والمواساة، وأنواع الخيرات والمبرات ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:6] أي: لا يطمعون ولا يتوقعون صدورها من أهل الإيمان، فمتى صدر منكم أمثال هذا عسى أن يتحابوا ويتقربوا إليكم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المبالغين في العتو والاستكبار ﴿عَهْدٌ﴾ مقبول ﴿عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ إذ هم من غاية انهماكهم في كفرهم وضلالهم لا يلتفتون إلى الله ورسوله؛ لذلك لا يقبل منهم العهد والميثاق، بل أمرهم إمّا السيف وإمّا الإسلام.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ معهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنهم وإن كانوا أيضًا من المشركين المصرين، إلّا أن حرمة المسجد الحرام توجب إيفاء عهودهم مادامو موقنين بها ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ واستحفظوا ﴿لَكُمْ﴾ عهدكم ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بل أنتم أولى لرعاية حرمة المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:7] الذين يحفظون نفوسهم عن سوء الأدب مع الله في جميع أحوالهم، سيما رعاية حرمة بيته الحرام.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ

عين المصطفى ﷺ بإجابة دعائه لهم بالهداية، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة يعلمون أي منقلب ينقلبون، وما ينقلبون إلا إلى الوجود الإلهي المطلق السالم من السوى وهو المآل من الذي أمر ﷺ بالإبلاغ إليه، فهو ﷺ مظهر هداية الله على الإطلاق ومدلول اسم الله الهادي.

الا ترى أنه لما قيل له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:13] قبل من أهل الكتاب الجزية والخراج وأدخلهم كعبة أمانه المطلق، وحول شقاء من قال:﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:24] إلى السعادة بقوله: «لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر» وذلك تقرير لسعادتهم حين ولوج الجمل في سم الخياط ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:39] ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:78].

وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة: 8-10].

﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين معكم عهد أيها المؤمنون؟ وكيف تعتمدون على ميثاقهم ﴿وَ﴾ هم من غاية بغضهم وشدة شكيمتهم ﴿إِن يَظْهَرُوا﴾ ويظفروا ﴿عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي: لا يحافظوا ولا يراعوا في حقكم ﴿إِلًّا﴾ أي: عهدًا وميثاقًا ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ حقًا لازمًا يلتزمون رعايتها؛ كالحقوق التي جرت بين المتعاهدين، بل حالهم أنهم ﴿يُرْضُونَكُم﴾ ويعاهدون معكم ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ خداعًا ومداهنةً ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ عمّا صدرت على ألسنتهم من المعاهدة، بل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:8] خارجون متمردون عن العهد مطلقًا، لا يتفوهون به أصلاً، فكيف أن يعهدوا؟!.

ومن غاية فسقهم وتمردهم، ونهاية توغلهم في الضلال ﴿اشْتَرَوْا﴾ واستبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، الدالة على توحيده مع وضوحها وسطوعها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: بدلاً حقيرًا، مبتذلاً مرذولاً، وهو اتباع الأهوية الباطلة والآراء الفاسدة التي ابتدعها المبتدعون بتسويلات شياطينهم ﴿فَصَدُّوا﴾ أي: أعرضوا وانصرفوا نفوسهم وأتباعهم؛ بسبب تلك الآراء ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دين الله الموصل إلى توحيده ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية ضلالهم وإضلالهم ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:9] هذا العمل.

ومن سوء عملهم أيضًا وقبح صنيعهم أنهم من غاية بغضهم مع المؤمنين ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ ولا يراعون ﴿فِي﴾ حق ﴿مُؤْمِنٍ﴾ أي: واحد من أهل الإيمان وإن بالغ في ودادهم وإخائهم، ومحافظة عهودهم وذممهم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أصلاً؛ لشدة شكيمتهم وقوة بغضهم وضغينتهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون المطرودون ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:10] المقصورون على التجاوز عن حدود الله ومقتضى المروءة اللازمة للمرتبة الإنسانية؛ لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا

نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:11-13].

﴿فَإِن تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الإيمان بعدما بالغوا في العناد والاستكبار ﴿وَ﴾ بعد رجوعهم ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عمّا يشغلهم عن الحق ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أنتم وهم سواء في سلوك طريق الحق والرجوع إليه ﴿وَ﴾ إنما ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:11] ويصلون إلى مرتبة اليقين العلمي، ويريدون الترقي منها إلى اليقين العيني والحقي.

﴿وَإِن نَّكَثُوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُم﴾ ونبذوا عهودهم ﴿مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وراء ظهورهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بتصريح التكذيب والتقبيح في الأحكام والمعتقدات، والطاعات والعبادات ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيها الغزاة المرابطون قلوبكم مع الله ورسوله ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي: صناديدهم ورؤساءهم؛ لأنهم ضالون مضلون، وإن تفوهوا بالعهد والميثاق لا تبالوا بهم وبعهودهم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أصلاً؛ لتخمير طينتهم على الشرك والشقاق ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:12] ويتنبهون، أي: سفلتهم الضالون عمّا عليه رؤساؤهم المضلون بعد انقراضهم.

ثمّ قال سبحانه تحريضًا للمؤمنين على القتال على وجه المبالغة: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ﴾ بعد نقضهم الأيمان والعهود ﴿هَمُّوا﴾ أي: قصدوا واهتموا ﴿بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُم﴾ قوم ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ بالمعاداة والمخاصمة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بدء الإسلام حين تحدوا مع رسول الله بالمعارضة فأفحموا، والتجأوا إلى المقارعة والمشاجرة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ منهم أيها المؤمنون في مقاتلتهم أن يلحقكم مكروه من جانبهم أم تداهنون معهم وتضعفون عنهم؟! وإن خشيتم عن لحوق المكروه وعروض المنكر ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ لأنه قادر على وجوه الانتقامات، فعليكم أن تخشوا من الله ومخالفة أمره وحكمه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:13] بالله وبأوامره ونواهيه.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة:14-16].

وبالجملة: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم، فإنكم منصورون عليهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بأنواع العذاب من الأسر والقتل والإجلاء ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي: يذلهم ويهينهم ما بقي منهم من ذرياتهم ﴿وَيَنصُرْكُمْ﴾ دائمًا ﴿عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ﴾ بقهرهم وإذلالهم ﴿صُدُورَ قَوْمٍ﴾ غرباء ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:14] حيث صارت قلوبهم مرضى من وعيدات أولئك الطغاة الغواة، المتجبرين المستكبرين.

﴿وَيُذْهِبْ﴾ بقتل أولئك الكفرة، وقمعهم واستئصالهم ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أيما حدث وخدش في قلوب هؤلاء الغرباء المؤمنين الذين تركوا أوطانهم؛ لحب دين الإسلام من استيلاء الكفار وكثرة عددهم وعُددهم، وجاههم ومالهم ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يصرف ويرجع من الباطل؛ بسبب قلعهم وقمعهم من في قلوبهم مرض من الأقاصي والأداني ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم وأمراض قلوبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:15] في علاجها ودفعها.

ثمّ قال سبحانه على وجه التشنيع للمؤمنين؛ تحريكًا لحمية الإيمان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ، ظننتم أيها المؤمنون الكارهون للقتال، المتقاعدون عن امتثال الأوامر الواقعة فيه ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالقتال من بعد ﴿وَ﴾ زعمتم زعمًا فاسدًا ﴿لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولما يفصل ويميز بعلمه الحضوري ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ في سبيله مخلصين خالصًا لرضاه.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿رَسُولِهِ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله ﴿وَلِيجَةً﴾[1] أي: بطانةً ومرجعًا يوالونهم ويفشون إليهم سرائرهم، بلى إن الله عليم

(1) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سرٍ يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (388/2).

بجميع ما صدر عنكم من علامات الإخلاص وأمارات النفاق ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:16] أي: تتخيلون وتحضرون من التكاسل والتواني والإلجاء إلى الأعداء والرجوع إليهم في خلواتكم وأسراركم.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:17-18].

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحّ وجاز ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾ المعدة لأهل الإيمان؛ ليعبدوا فيها حتى يتحققوا بمقام المعرفة والتوحيد حال كونهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ والشرك قولاً وفعلاً وشركهم مناف لتعميرها؛ إذ ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه الضلال ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: سقطت عن درجة الاعتبار ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة عند الله بحيث لا ينفعهم أصلاً؛ لمقارنتها بالشرك، بل ﴿وَ﴾ مآل أمرهم ﴿فِي النَّارِ﴾ المعدة لأهل الشرك والضلال ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة:17] لا نجاة لهم أصلاً، سواء صدر عنهم الأعمال الصالحة أم لا.

بل ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ المعدة لخلاء العبادة والتوجه نحو الحق والمناجاة معه ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وتحقق بمرتبة اليقين العلمي في توحيده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الذي يصير الكل إليه ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ أي: أدام الميل والرجوع نحو الحق دائمًا ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ تخفيفًا وتطهيرًا لنفسها عن العلائق العائقة عن التوجه الحقيقي الحقي ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ أي: لم يكن في قلبه خشية من فوات شيء أصلاً إلّا من عدم قبول الله أعماله، ومن عدم رضاه سبحانه منه ﴿فَعَسَى﴾ وقرب ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الأمناء، الباذلون جهدهم في طريق التوحيد، المشتاقون إلى فضاء الفناء ﴿أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:18] المتحققين في مقام الرضا والتسليم وإن وفقوا بالإخلاص من عنده.

اصنع بنا ما تحب أنت وترضى يا دليل الجائرين.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة:19-22].

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ أي: صيَّرتم وسوَّيتم أيها المشركون المعاندون المكابرون ﴿سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ مع كونهما صادرتين عنكم، وأنتم على شرككم وضلالكم ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ أي: كإيمان من آمن بتوحيد الله ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿وَجَاهَدَ﴾ بماله ونفسه ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده؟! كلا وحاشا ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ﴾ عملة السقاية وعمارة المساجد مع المؤمنين الموقنين بتوحيد الله المجاهدين في سبيله لنصرة دينه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:19] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه المنزلة على رسله وأنبيائه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: تحققوا بمرتبة اليقين العلمي بتوحيد الله ﴿وَهَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان طالبين مرتبة أعلى منها ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وطريق توحيده ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ أي: ببذل ما نسب إليهم من أمتعة الدنيا العائقة عن الوصول إلى فضاء الوحدة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمنعها عن مشتهياتها ومقتضياتها، طالبين إفناء أنانياتهم وهوياتهم في هوية الحق ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ﴾ وأعلى منزلة ومرتبة ماداموا سالكين سائرين ﴿وَ﴾ بعد وصولهم وانقطاع سلوكم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الواصلون ﴿هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [التوبة:20] بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لذلك ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أي: باستعداداتهم الكامنة في عالم الأسماء والصفات ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ غير منقطعة، نازلة ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ كلّت الألسن عن تفسيره وانحسرت العقول عن التعبير عنه ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات متجددات حسب تجددات التجليات الحبية ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات المتجددات ﴿نَعِيمٌ﴾ أي: إمداد وفواتح ﴿مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:21] دائم غير منقطع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مؤبدًا لا تأبيد أمد وزمان، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على قلوب خلّص عباده ﴿عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:22] لهم، بحسب استعداداتهم وقابلياتهم بعدما انكشفوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ ﴾ [التوبة:23-24].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الاجتناب عن أهل الغفلة والغرور؛ حتى لا يسري ضلالهم إليكم، سيما أقرباؤكم النسبية ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المهاجرون ﴿آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ واختاروا ﴿الْكُفْرَ﴾ والشرك ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾ والتوحيد ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ بعد ورود النهي ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المتخذون المضلون الضالون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:23] المتجاوزون عن مقتضى حكم الله ونهيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين الذين يقصدون موالاة أنسابهم: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[1] أي: أقاربكم وذووا أرحامكم

---

(1) قال في التأويلات: أي: النفوس، فإن بازدواج الأرواح والأشباح تولدت القلوب والنفوس منها، فالأرواح للقلوب بمثابة الآباء والنفوس بمثابة الإخوان؛ ثم اعلم أن لكل واحد من الروح والقلب والنفس كفرًا وإيمانًا مناسبًا لحاله، والكفر: هو الستر والحجاب، والإيمان: هو الشهود والكشف، فكفر بالروح من حجاب الأنانية الروحانية والبقاء مع الله تعالى، وإيمانه بالفناء عن أنانيته في الله وبقائه بالله، وكفر القلب: موته ومرضه وصممه وبكمه وعماه وهو الكفر الحقيقي، وإيمانه: سلامته عن هذه والعلل والآفات وإحياؤه بالنور الساطع الرباني من كتابة الله فيه بقلم الكرم، به يشاهد الحق تعالى ويكاشف بصفاته وهو الإيمان الحقيقي ومعدنه القلب، وكفر النفس: انهماكها في شهوات الدنيا واستغراقها باستيفاء لذاتها وبقاء صفاتها الحيوانية والشيطانية، وإيمانها: بخروجها عن صفاتها الطبيعة الظلمانية إلى الأخلاق الروحانية الشرعية النورانية واطمئنانها بالذكر وأنسها مع الله، فربما تكون بعض هذه الخلقة مؤمنًا وبعضها كافرًا، فمعنى

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها بأيدكم ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لمضي وقت ربحها ونمائها ﴿وَمَسَاكِنُ﴾ طيبة ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: ترضى بها نفوسكم، وتطيب بها قلوبكم ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ﴾ المحبوب في قلوب أوليائه ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الذي هو حبيبه وخليله ﴿وَ﴾ من ﴿جِهَادٍ﴾ هو عبارة عن الاجتهاد ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ لتفوزوا بشرف الوصول والشهود ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فعليكم أن تتربصوا وتنتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ﴾ المنتقم من المتخذين لغيره أولياء ﴿بِأَمْرِهِ﴾ الموجب لعذابه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:24] الخارجين عن مقتضى ولائه وولايته.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة:25-27].

اذكروا أيها المؤمنون ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ﴾ الحفيظ الرقيب عليكم ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ ومواقع ﴿كَثِيرَةٍ﴾ حين لا ينفعكم أحسابكم وأنسابكم شيئًا، لاسيما في حرابكم مع هوازن وثقيف ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ هو وادٍ بين مكة والطائف ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أن تكونوا مغلوبين؛ إذ أنتم اثنا عشر ألفًا، وعدوكم أربعة آلاف ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ حينئذٍ كثرتكم ﴿عَنكُمْ شَيْئًا﴾ من غلبة العدو مع قلتهم ﴿وَ﴾ صرتم من غاية رعبكم وخوفكم إلى حيث ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع وسعتها فلم تجدوا فيها مقرًا تمكنون عليها من غاية رهبتكم ﴿ثُمَّ﴾ أدى أمركم وخوفكم إلى أن ﴿وَلَّيْتُم﴾ ورجعتم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾[1] [التوبة:25] صائرين ظهركم على العدو.

الآية يشير إلى أن القلوب المؤمنة لا ينبغي أن يتخذوا آباءهم الأرواح وإخوانهم النفوس أولياء، ولا يتركوا عداوتهم بترك الجهاد معهم.

(1) قال القشيري: يعني نَصَرَكم يومَ حُنَيْن حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّة عن نِقاب القَهر فاضطربت القلوبُ، وخانت القوى أصحابَها، ولم تُغْنِ عنكم كَثرتُكم، فاستخلص الله أسرارَكم - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السكينةِ النازلة عليكم ، فَقَلَبَ اللهُ الأمرَ على

﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامكم وإدباركم ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المولي لأموركم ﴿سَكِينَتَهُ﴾ أي: رحمته الموجبة للقرار والوقار، والطمأنينة ﴿عَلَى﴾ قلب ﴿رَسُولِهِ وَعَلَى﴾ قلوب ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تمكنوا معه، واستقروا حوله؛ اتكالاً على الله واتفاقًا مع رسوله ﷺ ﴿وَ﴾ تثبيت الرسول وتقرير من تبعه ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه نصرةً لنبيه من الملائكة ﴿جُنُودًا﴾ مجندة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنزولها عذابًا شديدًا من القتل والأسر والإذلال في النشأة الأولى والأخرى بأضعافها ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: ما لحقهم من أنواع الإذلال ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:26] المحاربين مع الله ورسوله.

رُوي أن رسول الله ﷺ خرج بعد فتح مكة، ثمّ توجه نحو حنين؛ لقتال هوازن وثقيف مع عشرة آلاف من المهاجرين وألفين من الطلقاء، وكان العدو أربعة آلاف فأعجب المسلمين كثرتهم، فلمّا التقوا، فقالوا: لن نُغلب اليوم؛ لأن العدو في غاية القلة فكره الله قولهم وإعجابهم هذا، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا فغلب العدو عليهم، فولوا منهزمين فبقي رسول الله ﷺ مع شرذمة قليلة فأراد أن يقتحم على العدو، فأخذ عمه العباس بعنانه فنزل ﷺ وقبض قبضة من التراب ورمى نحو العدو، وذلك عند نزول الملائكة، فقال: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»[1] أي: التنور.

فأمر العباس أن يصيح على الناس المنهزمين فصاح: يا عبد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقًا واحدًا، فاستقبلوا قائلين: لبيك لبيك فصفوا خلف الملائكة وازدحموا، وهجموا على العدو، والريح من خلفهم ومن أمام عدوهم فانهزم العدو بنصر الله وتأييده ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عليهم ويوفق منهم ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ إيمانه من أولئك المنهزمين، فأتوا رسول الله ﷺ وآمنوا فأعطى ﷺ من سبى منهم بلا فدية ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب وآمن ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:27] يقبل توبته، ويرحم عليه إن أخلص.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

الأعداء، وخَفقَتْ راياتُ النصرة، ووقعت الدائرةُ على الكفار ، وارتدَّتْ الهزيمةُ عليهم فرجعوا صاغرين.

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (457/6).

بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:28-29].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: أن تذبوا وتدفعوا أهل الشرك عن الحرم ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ المنغمسون في خباثة الشرك والضلال ﴿نَجَسٌ﴾ يجب أن يُطهر بيت الله منهم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي: سنة حجة الوداع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ بسبب إخراجهم ومنعهم عن الحرم ﴿عَيْلَةً﴾[1] فقرًا وقلة زاد ومكتسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة رزقه ﴿إِن شَاءَ﴾ ترفهكم واتساعكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:28] في إتيانها عند الحاجة ومقدارها.

وبالجملة: ﴿قَاتِلُوا﴾ أيها الغزاة الحماة لدين الله المشركين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ وتوحيده ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال، وإن تفوهوا بالإيمان مداهنةً ونفاقًا لا تبالوا بإيمانهم ﴿وَ﴾ هم ليسوا مراعين مقتضى الإيمان؛ إذ ﴿لَا يُحَرِّمُونَ﴾ من المحرمات ﴿مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ بإذنه سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَدِينُونَ﴾ ولا ينقادون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ المنزل على الحق؛ ليصلوا إلى مقر التوحيد، وإن كانوا يدعون أنهم ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يدعون إتيانه إياهم؛ إذ هم ليسوا على مقتضى الكتاب، وإن ادعوا بهم وبادعائهم، بل قاتلوهم إلى أن تذلوهم وتصاغروهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ هي التي تجزى بها دينهم حمايةً له ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: حال كون إعطائهم

(1) أي: فقراء بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه وتفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقيده بالمشيئة؛ لتنقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. انظر [البحر المديد (394/2)].

صادرة منهم عن يد قاهرة غالبة عليهم ﴿وَهُمْ﴾ في حين الإعطاء ﴿صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] ذليلون مهانون، يؤخذ من لحاهم، ويضرب في لهازمهم.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[التوبة:30-31].

﴿وَ﴾ بالجملة: خذوا الجزية منهم على وجه تضطروهم وتلجئوهم إلى الإيمان وكيف لا يقتل هؤلاء الكفرة المشركون؟! ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ﴾ منهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[1] المنزه عن التزوج والازدواج، والأبوة والبنوة؛ إذ هي من لوازم البشر ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ أيضًا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ تعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول المهمل ﴿قَوْلُهُم﴾ دائمًا جاريًا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وأن فرض مخالفة اعتقادهم قولهم فلا أقل: إنهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ ويشابهون قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ بأمثال هذه المهملات، حيث قالوا: الملائكة بنات الله؛ لذلك ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ وأهلكهم بأمثال هذه المقالات المهملة ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:30] أي: كيف يصرفون أيها الناكبون عن الطريق الحق الصريح إلى الباطل الزائغ الزائل؟!.

وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا﴾ من فرط جهلهم وخبث طينتهم ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ مستقلين في الوجود، ومتأصلين فيه ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المنزه عن الشريك مطلقًا،

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى تهود النفس، وعزير القلب، وذلك لأن النفس خلقت من ملكوت العناصر الأربعة، وهي ظلمانية سفلية محجوبة عن الله تعالى، وهي ظلومة جهولة، والقلب خلق من الملكوت الأعلى، ولهذا السر هو بين أصبعين من أصابع الرحمن أي: بين صفتي اللطف والقهر والجمال والجلال، وهو نوراني علوي ومهبط أنوار الحق ومورد الواردات والمواهب الربانية ومعدن العلوم اللدنية ومظهر صفات اللطف والقهر ومنبع علم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] انعكس من مرآة القلب آثار أنوار الواردات والمعارف الصادرة عن الحضرة على النفس المظلمة نورت وألهمت عن القلب بتلك المعارف والعلوم التي هي بمعزل عنها تقول القلب ابن الله كما قالت اليهود لمّا سمعت، والعلوم التي هي بمعزل عنها عزير ابن الله.

المستقل في الوجود، المتفرد فيه بلا وجود لغيره أصلاً، يعبدونهم كعبادة الله ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ في كتبهم التي يدعون بمقتضاها ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أحدًا صمدًا، فردًا وترًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:31] له من مصنوعاته وأظلاله.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:32-33].

﴿يُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾ أي: يخمدوا ويستروا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ المتجلي في الآفاق، المتشعشع في الكائنات ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بشركهم الناشئ من أفواههم بلا سند من عقل أو نقل، أو كشف وشهود ﴿وَيَأْبَى﴾ أي: يمنع ﴿اللَّهُ﴾ المنزه عن التعدد مطلقًا أن يكون له شريك في الوجود ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي: سوى أن يتجلى بجميع أوصافه وأسمائه على من استخلفه من خلقه، فيتراءى منه جميع آثار أسمائه وأوصافه وأخلاقه، ألا وهو المظهر الكامل، الجامع المحمدي الذي اتحد دون مرتبته ﷺ قوسا الوجوب والإمكان، ودائرتا الغيب والشهادة.

لذلك قال ﷺ: «أنا أتمم مكارم الأخلاق»[1]، وقال أيضًا: «أنا سيد ولد آدم»[2] وقال أيضًا: «آدم ومن دونه تحت لوائي»[3]، وقال أيضًا: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن رآني فقد رأى الحق»[4].

ونزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3] إلى غير ذلك مما دل وحدة مرتبته وإحاطتها على جميع المراتب؛ لذلك ختم به ﷺ أمر الرسالة والتشريع ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:32] الساترون ظهور الحق، المريدون إطفاء نور الوجود

(1) تقدم تخريجه.
(2) رواه مسلم (176/15)، وأبو داود (401/13).
(3) رواه أبو يعلى في «مسنده» (213/4)، والطيالسي (353/1).
(4) رواه البخاري (458/10)، ومسلم (236/12).

في المشكاة المحمدية، وكيف يريدون إطفاء نوره اللائح اللامع من المظهر الجامع المحمدي؟!.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الهادي ﴿بِالْهُدَى﴾ العام الشامل لكافة البرايا ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: الرسول ودينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على كل الأديان، وينسخ جميعها به؛ لابتناء دينه على التوحيد الصرف، الخالي عن شوب التنويه وشين الكثرة مطلقًا ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:33] ظهوره بالهداية العامة، ونسخ دينه جميع الأديان؛ لخبث باطنهم.

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة:34-35].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، وتحققوا وتيقنوا ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ الموسوسين لضعفاء العوام، الملبسين لهم طريق الحق بالتغديرات المبتدعة من تلقاء نفوسهم، كالشيخوخة التي ظهرت في زماننا هذا، إنما غرضهم ومعظم مأمولهم ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ ويأخذون ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ المنحطين عن زمرة أهل التحقيق ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بترويج الباطل الزائغ الذي ابتدعوها بلا مستند لهم.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون ويضلون أباطيلهم وتلبيساتهم ضعفاء الأنام ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام تلبيسًا عليهم وتغريرًا لهم؛ ليأخذوا الرشى منهم ويكنزوها ﴿وَ﴾ لم يعلموا أن ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يجعلونها مخزونًا محفوظًا من أي ملة كانوا ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طلبًا لمرضاته ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:34] مؤلم مفزع.

اذكر لهم ﴿يَوْمَ يُحْمَى﴾ أي: حين توقدون وتحرقون ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك الذهب والفضة المخزونة المحفوظة نار، مع أنها موضوعة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا مبالغة لشدة حمائه، وبعدما حميت إلى أن صارت جذوة نار ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾

ليوسموا بها ويعلموا على رءوس الأشهاد جزاء ما افتخروا بها في النشأة الأولى ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ ليتألموا بها أشد تألم، بدل ما يتلذذون بها أشد تلذذ ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ بدل ما يستظهرون بها ويتعاونون بسببها، ويقال حين كيهم وتعذيبهم: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ وخزنتم ﴿لأَنفُسِكُمْ﴾ لتتنعموا بها وتسروا بجمعها وادخارها ﴿فَذُوقُوا﴾ اليوم وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:35] بدل ما تتلذذون بها.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة:36-37].

ثمّ قال سبحانه تعليمًا للمؤمنين على ما ثبت عنده من الأيام والشهور؛ لتتميم مصالحهم ومعاملاتهم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ على ما ثبت ﴿عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: حين أظهر سبحانه عالم الكون والفساد المقدر بمكيال الأيام والليالي المنقسمتين إلى الشهور والأعوام والأسبوع والساعات؛ إذ في أزل الذات لا صباح ولا مساء، ولا صيف ولا شتاء، ولا الشهور ولا السنون، فسبحان من تنزه عن التبديل والتحويل، وتقدس عن الظهور والبطون.

﴿مِنْهَا﴾ من تلك الشهور في كتاب الله ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، سميت بها؛ لأن الله سبحانه حرم فيها لعباده بعض ما أباح في الشهور الأخر كرامةً لها واحترامًا، فعليكم أيها المكلفون أن تواظبوا فيها على الطاعات، وتداوموا على الخيرات والمبرات، واجتنبوا عن الآثام والجهالات، وأكثروا فيها الأعمال الصالحات وتوجهوا نحو الحق في جميع الحالات، سيما في تلك الشهور المعدة للتوجه من عنده ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تحريم الشهور الأربعة ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموروث لكم من ملة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ

﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالخروج عن مقتضى تحريمها وهتك حرمتها؛ حتى لا تستحقوا عذاب الله ونكاله.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فيها إن قاتلوكم، ولا تبادروا وتسابقوا إلى قتالهم فيها وفي غيرها، بل إن بادروا على قتالكم قاتلوكم، واقتلوهم ﴿كَافَّةً﴾ أي: جميعًا ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ بلا ترحم وتوقيت ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:36] الذين يحفظون نفوسهم عن هتك حرمة الله، قد حرمها الله لحكمة ومصلحة لم يطلعكم عليها.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي: تأخير حرمة الشهر المحرم إلى شهر آخر بدله من غير المحرمات ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأن خصوصية هذه الأشهر معتبرة في الحرمة، واستبدالها ازدياد في الكفر؛ لأن هتك الحرمة كفر، وتبديلها كفر آخر ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بسبب تبديلهم إضلالاً زائدًا على ضلالهم الأصلي؛ إذ ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ أي: النسيء الذي يؤخرونه ﴿عَامًا﴾ سنة ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ آخر بلا رعاية خصوصية في التحريم، وليس غرضهم من هذا التحليل والتحريم إلا ﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ ويوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ وهي الأربعة من غير التفات إلى خصوصية ﴿فَيُحِلُّوا﴾ بفعلهم وتبديلهم ﴿مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ بخصوصه، وما ذلك إلا أن ﴿زُيِّنَ﴾ أي: حسن وحبب لهم ﴿لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: تحليلهم وتبديلهم القبيح ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى صوب جنابه ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:37] الخارجين عن مقتضى مأموراته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:38-39].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا﴾ ذا عرض ولحق ﴿لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لنصرة دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ أي: تثاقلتم وتعاللتم وتباطأتم، وصرتم من غاية ثقلكم وتكاسلكم كأنكم تلزقون ﴿إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾ أيها المستبطئون ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدنية الحقيرة ومزخرفاتها الفانية بدلاً ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ وللذاتها الباقية ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والاستمتاع بها، والتلذذ بمستلذاتها ومشتهياتها ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾

أي: جنب لذاتها ودرجاتها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:38] مستحقر مسترذل، بل فانٍ مطلقًا، لا وجود لها أصلاً عند من كحل الله عين بصيرته، وأذهب عمى قلبه.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ بعدما أمرتم به ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله المنتقم منكم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ باستيلاء عدوكم عليكم، واستئصالكم بأفظع الوجوه وأفزعها ﴿وَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ منكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ مطيعين لأمره، متقادين لحكمه؛ لينفروا في سبيله، كأهل اليمن والفرس ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم بتكاسلكم وتقاعدكم عن القتال المأمور ﴿لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ إذ هو منزه عن تقويتكم وإضراركم، وكفركم وإيمانكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم على من خرج عن مقتضى أمره ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور الانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 39] لا يخرج عن حيطة قدرته شيء.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: 40].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: إن لم تنصروا نبيه المؤيَّد من عنده ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليه، اذكروا نصر الله إياه وقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكة من مكة حال كونه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾[1] أي: ليس معه إلا رجل واحد، وهو أبو بكر ﷺ فذهبا نحو الجبل

(1) الوحدة الأزلية والخلوة الحبيبية، إذ لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل حين لا حين، وكان الله ولم يكن معه شيء فخلق ببديع فطرته أول ما خلق الله نور وجود حبيبه، فكان ثاني اثنين في غار الغيرة ومقام المعية، وله ﷺ مع الله وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلى أن شرف الله تعالى أبا بكر ﷺ باختصاص هذين القائلين بتبعيته ﷺ؛ أعني: مقام ثاني اثنين ومقام العندية كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40]، وأنه تعالى متكلم به من الأزل إلى الأبد فدل على أن أبا بكر ﷺ كان مكرمًا في الأزل بهذه الكرامة وهو ثاني رسول الله ﷺ في جميع الأحوال، فكما أخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا كان أبا بكر ثانيه فقط، فكذلك لمّا خرج من العدم كان أبو بكر ثانيه في عالم الأرواح، بل كان ثانيه فيّ غار العدم، ولم يكن لأحد من الخلق هذا الاختصاص من معه غير أبي بكر ﷺ والذي يدل قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، وكان أبو بكر ﷺ ثانيه في سباق الطلب والسير إلى الله

تعالى في الجاهلية، والذي يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «كنت أنا وأبو بكر كفرسي رهان فسبقته فتبعني، ولو سبقني لتبعته» وكان ثانيه في الإسلام دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33] وكان ثانيه في إمامة المسلمين يدل عليه قوله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فلما كان أبو بكر ﷺ ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة وفي خلال حياته في مقامات وأحوال كثيرة، فقد تعين أن يكون ثانيه بعد وفاته في الخلافة كما قاله ﷺ: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» والذي يؤكد قولنا في أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق، وأنه كان متعينًا للخلافة بعدما أورده الشيخ الفضل بن سهل في تصديق خلافة أبي بكر ﷺ فقال: إنه خير الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، وإن خلافته حق واجب من الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ حصل له في كل أمور رسول الله ﷺ أنه ثانيه فأطلق القول أنه ثاني اثنين، ولم يعلقه بأنه ثاني اثنين في الغار فيكون ثانيه بحضوره معه في الغار فيكون مخصوصًا بثانيه في الغار فقط، فلما قال: ﴿إِذْ هُمَا﴾ دل على عموم الحال حتى يقول دليل بأنه مخصوص بثانيه في الغار فقال ومن النبي ﷺ واجب في عظم الدين وهو بأصحابه في مقام رسول الله ﷺ مستخلف، وذكر فيه بإسناده إلى عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ليؤم الناس أبو بكر» فقالت عائشة لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر: فليصل بالناس، فقالت حفصة: يا رسول الله إن أبا بكر رقيق، وإنه إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فقال: «يؤم الناس أبو بكر» وقالت: فأعدت ذلك، فقال: «مه إنكن لأنتن صواحب يوسف ليؤم الناس أبو بكر» وقال لما عورض رسول الله ﷺ وهو سهل الخلقة لين الجانب أجل وأغلظ لحضور الحق الذي لا يجوز غيره وهذا بيّن لا خفاء فيه، وقال دليل آخر أن خلافته حق لا يجوز غيره ما أخبرنا محمد بن بكر، وذكر إسنادها إلى عبد الله بن زمعة قال: لما اسْتُعِزَّ بالنبيِّ ﷺ وسلم وأنا عنده في نَفَر من الناس دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسولُ الله ﷺ: «مُرُوا أبا بكرٍ يُصلِّي بالناس، قال: فخرجنا، فإذا عُمرُ في الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلتُ: يا عمر، قم فصلِّ للناس، فتقدَّم فكبَّر، فلما سمع النبيُّ ﷺ صوتَه - وكان عمر رجلاً مِجْهَرًا- قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس»، قال: لولا أنه حق لا يجوز غيره ما أعيدت تلك الصلاة ولولا أنه حق واجب ينظر بأبي بكر لكان في الناس غير عمر حضور وغيب، ويبعث إلى أبي بكر وهو غائب ونادى الصلاة؛ لأنه حضر وأمره رسول الله ﷺ وكانت الصلاة في ذلك الوقت خلافة رسول الله ﷺ ولو كان غير ذلك لم تجب الإعادة، فقد صلى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والصحابة بأجمعهم خلف عبد الرحمن بن عوف وهم في مسيرهم إلى تبوك فجاز ولم يوجب إعادة، ولو لم يعد تلك الصلاة كانت الخلافة شرعًا لمن كان، فلما أعيدت تأكدت الخلافة، ثم ذكر دليلاً وكيدًا آخر بإسناده عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبا بكر وعمر» فلما قال «من بعدي» دل على أن الخلافة لهما حق، فأمره بالاقتداء بهما حق واجب، وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن أنس بن مالك ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فخرجت معه

فدخلا الغار، واقتفى العدو أثرهما فوصلوا الغار ﴿إِذْ هُمَا﴾ خبيئين ﴿فِي الْغَارِ﴾ فتحزّن صاحبه من إدراك العدو، اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ عن إدراكهم، ولا تيأس عن نصر الله وحفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب علينا حاضر ﴿مَعَنَا﴾ يكفينا مؤونة ضررهم.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ سبحانه بقوله ﷺ ﴿سَكِينَتَهُ﴾ أي: اطمئنانه وقراره ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ﴾ أي: ملائكة مستحفظين مستحصنين، حارسين له ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم، مثل أولئك الجنود ﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه بنصره وتأييده إياه ﷺ ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يدعون ويخاصمون معه لأجله وترويجه ﴿السُّفْلَى﴾ أي: الأدنى الأنزل، لا يؤبه ولا يبالي بها أصلاً ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ أي: كلمة توحيده التي ظهر بها حبيبه ﷺ ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما يشاء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب في نصر أوليائه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:40] في جميع أفعاله وتدبيراته.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ

فدخل حائطًا من حيطان الأنصار فدخلت معه فقال: يا أنس أغلق الباب فأغلقته، فإذا برجل يقرع الباب فقال: يا أنس افتح له وبشره بالجنة، وأخبره أنه يلي أمتي من بعدي فذهبت أفتح له لا أدري من هو فإذا هو أبو بكر فأخبرته بما قال النبي ﷺ»، وقال: دليل وكيد آخر ثم ذكر بإسناده عن سفينة قال: «بنى النبي ﷺ المسجد ووضع حجرًا، ثم قال لأبي بكر: ضع حجرك إلى جنب حجري، ثم قال لعمر: ضع حجرك إلى جنب حجر أبي بكر، ثم قال لعثمان: ضع حجرك إلى جنب حجر عمر، ثم قال: هؤلاء الخلفاء من بعدي»، ثم روى عن زيد بن وهب بإسناده قال علي ﷺ: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر في صلاتنا، واختاره لنا فرضينا لدنيانا من استخلفه رسول الله ﷺ لصلاتنا، ثم ذكر دلائل خلافته كثيرة يطول ذكرها، فتحقق أن أبا بكر ﷺ كان ثاني رسول الله ﷺ على الإطلاق في بدء الخلقة إلى أن كان ثانيه في القبر بعد وفاته، وثانيه فيما صب الله في صدره من أسرار النبوة كما قال ﷺ: «ما صب الله في صدري شيئًا إلا وصببته في صدر أبي بكر» وبذلك استحق أن يكون ثانيه في الخلافة من بعده، والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:40] يعني: على أبي بكر في الغار، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:40] وهي حقائق الإيمان، ودقائق العرفان، ودقائق الإيقان من سوابق الإحسان ولواحق العيان ولا يبعد أن إنزال السكينة كان على قلب النبي ﷺ والتأييد بالجنود له، ثم صب النبي ﷺ ما صب الله تعالى في صدره من حقائق السكينة والتأييد في صدر أبي بكر ﷺ بتصرف قوله: «لا تحزن إن الله معنا» فنزلت السكينة على أبي بكر وحصل له التأييد بقوله ﷺ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ليستحق بذلك كله أن يكون ثانيه في الخلافة. [التأويلات النجمية].

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:41-43].

﴿انفِرُوا﴾ أيها الغزاة المجاهدون في سبيل الله ﴿خِفَافًا﴾ نشطًا فرحانًا، منبسطين لمرتبة الشهادة ﴿وَثِقَالًا﴾ قاصدًا لأخذ الغنيمة والأحمال والأثقال من عدوكم، أو مشاة وركبانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ لتهيئة الأسباب وإعداد السفر ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بتحمل المشاق والمتاعب ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لتفوزوا من عنده بالمثوبة العظمى والدرجة العليا التي لا درجة أعلى منها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما أمرتم به من عند ربكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:41] الخير وتميزونه من الشر.

ثمَّ قال سبحانه في حق المستخلفين عن القتال المأمور به، المستأذنين عن رسول الله ﷺ، المعتذرين له بالعذر الكاذب توبيخًا لهم وتقريعًا: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما تدعوهم إليه يا أكمل الرسل ﴿عَرَضًا﴾ أي: متاعًا دنيويًا مما يشتهيه نفوسهم ﴿قَرِيبًا﴾ سهل الحصول ﴿وَ﴾ كان السعي في حصوله ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطًا، أي: مساويًا نفعه لمشقة تحصيله ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ألبتة طائعين لمصلحة ما يؤملونه من جلب النفع، لا لغرض ديني ونفع أخروي ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ﴾ المسافة، واشتدت ﴿الشُّقَّةُ﴾ أي: المشقة فيها، مع جزمهم بعدم الفائدة فيها بزعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ معتذرين متمنين بلا موافقة قلوبهم بألسنتهم بعدما رجعت من غزوة تبوك: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ بالخروج استطاعة مالية أو بدنية ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ألبتة، مع أنهم قادرون مستطيعون بكلتا الاستطاعتين، وهم لخبث باطنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الحلف الكاذب، ويعرضونها على عذاب الله ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايل هؤلاء المنافقين ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:42] في حلفهم وعذرهم هذا.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ ما جئت به من ترك الأولى ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[1] استأذنوك

(1) قال روزبهان: إن من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يفتح كنزًا من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه،

بالقعود؛ أي: هؤلاء المنافقين المتخلفين، المعتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار والاعتدال ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:43] فيها على مقتضى نفاقهم الكامنة في نفوسهم.

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة:44-46].

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: ليس من عادة المؤمنين الاستئذان منك إلى الخروج نحو القتال مطلقًا، بل هم منتظرون دائمًا، متهيئون دائمًا أسبابهم، مترصدون إلى ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وينتهزون الفرصة بالمسابقة حين أمروا، فكيف أن يتأذنوا بالقعود وعدم الخروج، والمعذورون متألمون متحسرون يبكون في زاوية الحرمان، محزونون ملهوفون متأسفون؛ لذلك وعد لهم سبحانه من فضله درجة عظيمة ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:44] الذين يحفظون نفوسهم من مخالفة أمر الله وأمر رسوله بلا عذرٍ شرعي.

ولطائف وصلته على أحد من أحبائه وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيح عقله من حشمة العتاب، ويزول شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه، ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسراره ، وتشرق سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتنور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطابًا سرمديًا يطير بأنوارها في الأزال والآباد، وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القِدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلاته زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عباده، جميع حركاته تقع حسنة، وأفعاله تكون عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرة معشوقه؛ لأن من كان حسنًا، فما يبدو منه أيضًا يكون حسنًا.

بل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ بالقعود والتخلف ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لعدم اطمئنانها ورسوخها بالإيمان والتوحيد ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:45] يتحيرون، ويتذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ وقصدوا الوفاق مع المؤمنين كما أظهروا ﴿لَأَعَدُّوا﴾ وهيأوا ﴿لَهُ عُدَّةً﴾ أهبة وأسبابًا ﴿وَلَكِنْ﴾ لخبث باطنهم وانهماكهم في الضلال ﴿كَرِهَ اللَّهُ﴾ المطلع على قساوة قلوبهم ﴿انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: اهتزازهم وتحركهم نحو القتال ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ لذلك وحبسهم، وأقعدهم في مكانهم بإلقاء الرعب والكسل في قلوبهم ﴿وَ﴾ كأنه ﴿قِيلَ﴾ لإسماعهم تضليلاً لهم وتغريرًا: ﴿اقْعُدُوا﴾ أيها المنهمكرن في الغفلة ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:46] من النساء والصبيان، والمرضى والزمناء.

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة:47-49].

وإنما ثبطهم سبحانه وكره نهوضهم؛ لأنه سبحانه علم منهم أنهم ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ معكم، وكانوا ﴿فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فسادًا بالغيبة والنميمة، وإيقاع الفتنة بينكم ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ أي: أسرعوا وأدخلوا ركائبهم ﴿خِلَالَكُمْ﴾ ليتخللوا فيكم وليفرقوا جمعكم؛ حتى يشتغلوا بالنميمة، وإذا ازدحم العدو هزموكم بتفريق جمعكم وتشتيت شملكم، وبالجملة: إنما ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون إيقاع الفتنة بينكم بأي وجه كان ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿فِيكُمْ﴾ وبينكم ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: ضعفة يسمعون قولهم ويقبلون نصحهم، ويرغبون إليهم ويطيعون أمرهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:47] الخارجين عن مقتضى أوامره سرًا وعلانية.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ أي: ليس هذا أول ابتغائهم وإيقاعهم، بل أوقعوا الفتنة ﴿مِن قَبْلُ﴾ وأرجفوا بهلاكك، وشتتوا شمل أصحابك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾

أي: النصر والتأييد الثابت عنده، المقرر دونه سبحانه من نصر دينك وإعلائه، ونسخ الأديان كلها ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:48] من خبث باطنهم ظهور دينك وارتفاع شأنك، وسمو برهانك.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المستأذنين المتخلفين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك حين استأذنك بالقعود: ﴿ائْذَن لِّي﴾ إذ ليس لي قوة الخروج ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي: لا توقعني في الفتنة بالخروج؛ إذ إني أخاف على نفسي من الفتنة والعصيان لو خرجت، قل لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: وقعوا في فتنة التخلف وظهور النفاق والشقاق باستئذانهم وقولهم هذا ﴿وَ﴾ استحقوا العذاب والنكال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:49] في الدنيا والآخرة، ومن شدة شكيمتهم وغيظ قلوبهم معك يا أكمل الرسل.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة:50-52].

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض أسفارك وغزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفرة وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتزيد غيظهم ونفاقهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر وهزيمة ﴿يَقُولُوا﴾ تصحيحًا وتحسينًا لرأيهم الفاسد: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ وأصبنا فيه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: حين تخلفنا ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ عن مجمعهم الذي يتشامتون فيه بالمؤمنين تبجحًا ﴿وَهُمْ﴾ في رجوعهم وتفرقهم ﴿فَرِحُونَ﴾ [التوبة:50] مسرورون.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل للمتشامتين المنافقين على مقتضى كشفك وشهودك بربك: ﴿لَّن يُصِيبَنَا﴾ من الحوادث ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ المقدر للآجال والأرزاق، وجميع الأفعال والأحوال، والحوادث الجارية في عالم الغيب والشهادة ﴿لَنَا﴾ وخصصنا بها في حضرة علمه؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿مَوْلَانَا﴾ ومولي جميع أمورنا يصنع بنا على مقتضى ما ثبت في حضرة علمه بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَ﴾ ما لنا إلا الرضا بما جرى علينا

وسيجري من القضاء؛ لذلك ﴿عَلَى اللهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل؛ إذ مرجع الكل إليه، كما أن مبدأه منه أولاً بالذات ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:51] بتوحيد الذات، وسريان سر الوحدة على صفائح المكونات.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أي: ترقبون وتنتظرون ﴿بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: العاقبتين الحميدتين اللتين كل منهما محض خير، إمّا النصرة وإمّا الشهادة إذ وعدنا الله من فضله بهما ﴿وَنَحْنُ﴾ أيضًا ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ على مقتضى وحي الله وإلهامه ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ﴾ نازل ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ بلا دخل منا وصنع من كسف أو خسف وزلزلة وغيرها ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ من القتل والأسر، والإجلاء والإذلال ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا لما وُعد لنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:52] أيضًا لما أوعدتم به؛ حتى ننظر كيف يجري حكم الله ومشيئته؟.

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:53-55].

﴿قُلْ﴾ للمنافقين المتخلفين الذين يريدون إعانتك بالمال بدل الخروج إلى الجهاد: لن ينفعكم إنفاقكم عند الله سواء ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا﴾ طائعين ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأن الإنفاق إنما يقبل من المؤمنين الصالحين المخلصين ﴿إِنَّكُمْ﴾ بسبب كفركم ونفاقكم مع الله ورسوله ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة:53] لا يقبل منكم الصدقات مطلقًا؛ لعدم مقارنتها بالإيمان.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ أي: ليس عدم قبول نفقاتهم وصدقاتهم عند الله ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد بذاته، وأشركوا له ما هو من مصنوعاته ﴿وَبِرَسُولِهِ﴾ بتكذيبه، وعدم إطاعته وانقياده ﴿وَ﴾ علامة كفرهم ونفاقهم: إنهم ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ الفاصلة الفارقة بين الكفر والإيمان ﴿إِلَّا﴾ يأتونها مداهنةً ﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مبطئون مؤخرون بلا انبعاث قلبي وداعية شوقية ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفقون ﴿إِلَّا وَهُمْ

كَارِهُونَ﴾ [التوبة:54] كراهة قلبية؛ لأنهم لا يتوقعون ترتب الثواب عليها؛ لعدم إيمانهم بيوم الجزاء والثواب والعقاب.

ومتى تحقق كفرهم ونفاقهم ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي: كثرتها وتفاخرهم بها؛ لأنها من أسباب العذاب والنكال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بجمعها وحفظها ونمائها، وارتكاب المحن والشدائد في تحصيلها ﴿وَ﴾ من كثرة محبتهم لها وحرصهم عليها ﴿تَزْهَقَ﴾ وتزول ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ وقت حلول الأجل ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:55] محجوبون عن توحيد الله والإيمان.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:56-59].

﴿وَ﴾ من جملة نفاقهم: إنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ بالحلف الكاذب ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم وزمرتكم يفرحون بفرحكم وسروركم، ويتغممون بحزنكم ومصيبتكم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفرهم وشركهم المركوز في قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾(1) [التوبة:56] يخافون أن تفعلوا بهم فعلكم مع المشركين، فاضطروا إلى المداهنة والنفاق فأظهروا الإسلام؛ حفظًا لدمائهم وأموالهم، وهم مضطرون على إظهار الإيمان، ومن غاية تذللهم واضطرارهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ منيعًا من الحصون والقلاع ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ في شعاب

---

(1) قال في التأويلات: فهم كذلك من سطوات قهرهم عند غلبات الأنوار الروحانية، فإن النفس وصفاتها لما انعكست عليها أنوار الفيض الرباني عن مرآة القلب انكسرت ظلمة طبيعتها وانخمدت نار شهواتها، فتفرع من فنائها وهلاكها بالكلية، فتلتجئ إلى الروح والقلب والسر وتخدعهم بالحلف كما خدع إبليس آدم وحواء بالحلف كقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:21] ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:22]، فتريد النفس أن تدلي الروح والقلب بغرور.

الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ جحرًا يمكنهم الإنجحار والاستتار فيه ﴿لَّوَلَّوْا﴾ وانصرفوا-ألبتة ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:57] يسرعون، كالفرس الجموح ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يعينك وينصرك ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: قسمة الغنائم، ويتردد حولك حين القسمة طامعًا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ بينهما أو شيئًا يعتد به ﴿رَضُوا﴾ منك، وأثنوا عليك شكرًا لإعطائك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ لعدم استحقاقهم؛ وبسبب تخلفهم ونفاقهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:58] يفاجئون بالغيظ والسخط إظهارًا لما في قلوبهم من الأكنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ كانوا مؤمنين كما ادعوا ﴿رَضُوا﴾ في تقاسيم الغنائم وغيرها على ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وأعطاهم من فضله؛ إذ هو الحكيم في قسمة أرزاق عباده على تفاوت درجاتهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ المستخلف له، الملهم من عنده ﴿وَقَالُوا﴾ من كمال إخلاصهم وتفويضهم كسائر المؤمنين: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ المدبر الكافي لأمورنا يكفينا علمه بنا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ المكفل لأرزاقنا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة لطفه وجوده ما يكفينا ﴿وَ﴾ سيعطينا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ النائب عنه بإذنه من الغنائم والصدقات ما يشبعنا ويغنينا ﴿إِنَّا﴾ بعدما آمنا بالله، وتحققنا بتوحيده بإرشاد رسله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الباقي بالبقاء الأزلي السرمدي لا إلى غيره من الأظلال والأموال والمزخرفات الفانية ﴿رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 59] ليرزقنا من فوائد رزقه المعنوي، وفوائد توحيده الذاتي؛ أي: هم لو رضوا كما رضي المؤمنون الموقنون، واعترفوا كما اعترفوا لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا وتقريرًا في قلوبهم.

﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة:60-61].

ثمّ بيّن سبحانه مصارف الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ أي: الزكوات يصرف ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ وهم الذين لا مال لهم ولا مكسب لهم من الحرث وغيره، كأنه يكسر فقار ظهرهم الفاقة والاحتياج ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين لهم مكسب وصنعة، لكن لا تفي لعيالهم

كأن الاحتياج أسكنهم في زاوية المسكنة والهوان ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: الساعين لجمعها وإيصالها إلى مصارفها ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين قرب عهد إسلامهم، يجب على المسلمين مؤانستهم ومواساتهم؛ ليقروا على الإيمان ﴿وَ﴾ يصرف منها أيضًا ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ أي: فكها من الرق وتحريرها، وهو من أهم مهمات الإسلام ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين استغرق أموالهم في ديونهم ولم تفِ لأدائها، يُصرف إليهم منها؛ ليؤديها.

﴿وَ﴾ يُصرف منها سهم ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لتجهيز جيوش أهل الجهاد وتهيئة أسبابهم وعُددهم؛ إذ هو من أهم مهمات هذا الدين ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي انقطع عن الأهل والمال لمصلحة شرعية، إنما جرى هذه القسمة لهؤلاء المستحقين ﴿فَرِيضَةً﴾ صادرة ﴿مِّنَ اللهِ﴾ مقدرة من عنده؛ ليحافظ المؤمنون عليها ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصارف الصدقات ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:60] في صرفها إياهم تقويةً لهم وإمدادًا.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ويسيئون الأدب معه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حقه افتراءً واستهانةً: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: سمع كله ليس له دربة ودراية وتعمق في المعارف والحقائق، بل يسمع منَّا ويجري على ما سمع بلا تفتيش وتدبر ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: إنما أذن لكم لا أذن شر وفتنة، بل ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ إن صدر عنكم ما يتعلق بأمور دينكم، موافقًا لما أمر الله به يقبله منكم؛ لأنه ﷺ ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ أي: يقر ويصدق بوحدانيته ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ أيضًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين فيما أتوا به من الأعمال والأقوال الصادرة عن الإخلاص ﴿وَ﴾ كيف لا يكون الرسول أذن خير؛ إذ هو كله ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: شفقة وعطف ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وأخلصوا في إيمانهم؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ﴾ بأي وجه كان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:61] في النشأة الأخرى؛ جزاءً لما أتوا به من إيذاء رسوله.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ

إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:62-66].

ومن جملة نفاق المنافقين وشقاقهم: إنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ لتسليتكم وتلبيسكم أيها المؤمنون على ما صدر عنهم من التخلف والتقول على سبيل العذر ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي: لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ الملهم من عنده بمخايلهم وأباطيلهم ﴿أَحَقُّ﴾ وأليق ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ أي: رسوله أحق بالإرضاء والمراضاة، وحد الضمير؛ لأن إرضاء الرسول مستلزم لإرضاء الله، بل هو عين إرضائه سبحانه عند من ارتفع سبل التعدد عن عينه، وغشاوة الكثرة عن بصره ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:62] بالله وبحقية رسوله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ ويفهموا أولئك المتخلفون، المؤذون لله ورسوله ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿مَن يُحَادِدِ﴾ ويشاقق ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويتعد حدود الله ويخالف أمر رسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جزاءً لما اقترف من المعاداة، فيكون ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا ينجو منها أصلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الخلود في جهنم الحرمان ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:63] والهلاك الدائم.

ومن شدة نفاقهم وشقاقهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ المصرون على الكفر الكامن في قلوبهم، المظهرون للإيمان استهزاءً ومداهنةً ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿سُورَةٌ﴾ طائفة من الكلام ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق فحينئذٍ فعلوا ما فعلوا بالمشركين المجاهرين ﴿قُلِ﴾ لهم تهديدًا وتقريرًا: ﴿اسْتَهْزِءُوا﴾ بالمؤمنين، وامضوا على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم منكم ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا﴾ كنتم ﴿تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:64] منه، وهو إنزال السورة؛ لإفشاء حالكم.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم الله عنهم ﴿لَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ أي: لئن سألتهم وأخذتهم حين استهزءوا بك وبأصحابك وقت مرورهم عليك في غزوة تبوك قائلين: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فألهمت به فدعوتهم، وقلت لهم: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: لا والله ما كنا في أمرك وأصحابك في شيء، بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بالأراجيف مزاحًا؛ ليهون السفر علينا ﴿قُلْ﴾ لهم بمقتضى

علمك إياهم، بوحي الله وإلهامه توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَبِاللَّهِ﴾ المنزه ذاته عن أن يستهزئوا ﴿وَآيَاتِهِ﴾ البريئة عن النقص ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المطهر عن شوب الكذب ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:65] أيها الحمقى فتربصوا، وانتظروا حتى يستهزئ الله بكم.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالأعذار الفاسدة، ولا تحلفوا بالحلف الكاذب، إنكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ وأظهرتم بإيذاء الرسول والطعن في دينه ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعدما أظهرتم الإيمان فارتفع الأمان عنكم بفعلكم هذا فلحقتم بالمشركين، فنفعل بكم ما نفعل بهم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بعدما تابوا عمّا صدر عنهم، ورجعوا إلى الله نادمين خاشعين عن ظهر القلب ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالقتل والأسر، والإجلاء والإذلال ﴿طَائِفَةً﴾ أخرى منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:66] مصرين على ما هم عليه من الكفر والنفاق، وإيذاء الرسول والتخلف عن أمره بلا توبة وندامة.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [التوبة:67-69].

فعليكم أيها المؤمنون أن تعذبوهم ذكرًا أو أنثى؛ إذ ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ المصرون على النفاق أصالة ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ المصرات عليه تبعًا ﴿بَعْضُهُم﴾ ناشئ ﴿مِّن بَعْضٍ﴾[1] يتظاهرون ويتعاونون في نفاقهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ على عكس المؤمنين ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الخيرات والمبرات كلها، وما ذلك إلا أنهم ﴿نَسُوا

(1) يعني: طينة نفوسهم وجبلة قلوبهم من جنس واحد وأرواحهم متقاربة في صف واحد من صفوف الأرواح؛ إذ هي جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، فمعاملاتهم من نتائج خصوصية أرواحهم السفلية بالنسبة إلى الأرواح العلوية فمن نتائج خصوصيتها.

﴿اللهُ﴾ المظهر الموجد لهم بالإعراض عن حكمه وإيذاء رسوله المبين لأحكامه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله أيضًا، ولم ينظر إليهم بنظر الرحمة ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرين على النفاق، المتمردين عن الوفاق ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:67] المقصورون على الخروج عن مقتضى أمر الله وحكمه.

لذلك ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ المنتقم القادر على أنواع الانتقام ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ المجاهرين بلا تفاوت ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا نجاة لهم منها أصلاً، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ أي: محسبهم وقرينهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم عن سعة رحمته ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب طرد الله إياهم ولعنه ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم فوق عذاب جهنم ﴿مُقِيمٌ﴾ [التوبة:68] دائم غير منقطع، يتألمون طرد الله إياهم ويتعذبون، ولا عذاب أعظم من حرمان الوصول إلى جنة الحضور.

وأعوذك بك منك، لا ملجأ لنا غيرك.

وبالجملة: مثلكم أيها المتمردون المنهمكون في الكفر والضلال، المصرون على النفاق والعناد، المعادون مع الله ورسوله ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كمثل الكفرة الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ بطرين مفتخرين بما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها، بل هم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ وقدرة ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾ أي: نصيبهم وحظهم مما قدر لهم من لذات الدنيا وشهواتها، واستكبروا على من أرسل عليهم لتكميلهم وإرشادهم.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم﴾ أيضًا ﴿بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ﴾ أي: أخذتم وشرعتم في الأباطيل وتكذيب الرسول والمعاداة معه، وقصد إيذائه وقتله وقتل من آمن له ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ وشرعوا في حق أنبيائهم ورسلهم، انظروا إلى وخامة عاقبتهم، كيف استؤصلوا فانتظروا لمثله، بل بأشد منها؟! وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المردودون عن منهج الرشاد والسداد ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: هلكت واضمحلت، وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عملوها؛ لتفيدهم وتنفعهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فلم ينفعهم أصلاً لا في الأولى ولا في الأخرى؛ لعدم مقارنتها بالإيمان وتصديق الرسول ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الضالون عن طريق الحق ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة:69] المقصورون على الخسران، المقضيون بالحرمان والخذلان.

وبالجملة: مثلكم أيها المنافقون كمثلهم، بل أنتم أسوأ حالاً منهم؛ إذ نبيكم الذي

كذبتم به أعلى رتبة من جميع الأنبياء.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:70-71].

﴿أَ﴾ يصر المنافقون على النفاق والشقاق و﴿لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ أي: خبر إهلاك القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف يهلكهم الله بظلمهم وذنوبهم مثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف استؤصلوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالبعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أي: قوم شعيب أهلكوا بالنار النازلة عليهم من السماء يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قرى قوم لوط هلكوا بالزلزلة وإمطار الأحجار إلى حيث يجعل عاليها سافلها، كل من أولئك الهالكين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على صدقهم ودعواهم فكذبوهم؛ عنادًا ومكابرةً، فلحقهم ما لحقهم بشؤم تكذيبهم ﴿فَمَا كَانَ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم تكن من سنته سبحانه الانحراف عن القسط إلى حيث يؤدي إلى الظلم؛ إذ هو سبحانه مستوٍ على العدل القويم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:70] بالخروج عن مقتضى العدل الإلهي الموضوع، فيهم من قبل الحق بنيابة رسله.

ثم لمّا ذكر سبحانه أحوال المنافقين والمنافقات، ومظاهرتهم ومعاونتهم عقب أحوالهم بأحوال المؤمنين جريًا على السنة المستمرة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بتوحيد الله، المصدقون لرسله ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ الملحقات بهم، المتفرعات عليهم ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في الأمور الدينية ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالمظاهرة والموالاة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ على مقتضى ما وصل إليه من رسلهم ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ المفروضة المصفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عن الاشتغال بما سواه سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُطِيعُونَ اللهَ﴾ في جميع

حالاتهم إطاعة تفويض وتسليم ﴿وَ﴾ ينقادون ﴿رَسُولَهُ﴾ في جميع ما جاء به ودعا إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المفوضون أمورهم إلى الله، المنقادون لرسوله ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليهم من فضله ولطفه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع ما أراد بهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:71] متقن في جزائهم حسب أعمالهم واستعدادهم لذلك.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:72-74].

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والمكاشفات المتجددة حسب تجددات التجليات الإلهية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يتحولون عنها أصلاً ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: مقرًا في مقام التوحيد، خاليًا عن وصمة الكثرة، طاهرًا عن لوث السّوى والأغيار مطلقًا ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ﴾ بالجملة: ﴿رِضْوَانٌ﴾ وقبول ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم، بحيث لا يسخط لهم أصلاً؛ لتحققهم بمقام التخلق بأخلاقه سبحانه، بحيث لا يبقى لهم شائبة انحراف عن صراطه المستقيم الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل ﴿أَكْبَرُ﴾ من جميع ما ذكر من قبل من الدرجات العلية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرضا من الله، والقبول من جانبه ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:72] واللطف الجسيم لأرباب الولاء، الواصلين إلى مرتبة الفناء فيه سبحانه والبقاء ببقائه، لذلك وعدوا من عنده بما لا يمكن التعبير عن كنهه إلا كوشف به وشوهد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الهادي لعباد الله إلى تلك المرتبة بإذن الله ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾[1] المتمردين على الإطاعة والانقياد لإرشادك وتكميلك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يحيلون ويخدعون معك في إظهار الإيمان، وهم في سرهم وباطنهم على شركهم وكفرهم الأصلي متقررون ثابتون ﴿وَ﴾ بعدما أصروا على نفاقهم وشقاقهم ﴿اغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ حسب إصرارهم وإعراضهم ﴿وَ﴾ لا تبال بهم؛ إذ ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان في الدنيا والآخرة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:73] مصير أولئك المحرومين المطرودين عن ساحة عز القبول.

ومن جملة نفاقهم وكفرهم: إنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ كذبًا ومينًا، إنهم ﴿مَا قَالُوا﴾ من الطعن في كتاب الله وتكذيب رسوله ﷺ ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: كلمة الطعن والتكذيب المستلزم للكفر، فحلفوا على عدم القول كذبًا ﴿وَ﴾ هم في أنفسهم ﴿كَفَرُوا﴾ بالحق وأعرضوا عنه ﴿بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ أي: انقيادهم وتسليمهم؛ أي: اختاروا الكفر بعدما أظهروا الإسلام ﴿وَ﴾ لا يقتصرون على إظهار الكفر فقط، بل ﴿هَمُّوا﴾ وقصدوا ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من قتل الرسول ﷺ والاقتحام عليه بغتة في الليل بلا علم من أصحابه، أو هموا بإخراجه ومن معه من أصحابه من المدينة ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وقصدوا إهلاك رسول الله ﷺ وإخراجه ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أصحاب رسول الله ﷺ بفتح أبواب الرزق والمكاسب ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بإعطاء الغنائم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ففي مقام الشكر وإظهار المنة ينكرون له، ويكفرون نعمه وبعدما وقع ما وقع.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى القلب الذي له بناء من مقام الأنبياء، ويأمره بالجهاد مع كفار النفس وصفاتها، وهذا مقام المشايخ أن يجاهدوا مع نفوسهم أو نفوس مريديهم كما قال ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» فأمر بالجهاد مع كافر النفس وصفاتها بسيف الصدق، فجهاد النفوس بمنعها عن شهواتها واستعمالها في حمل الشريعة على خلاف الطبيعة، فالنفوس بعضهما كفار لم تسلم أي: لم يستسلموا للمشايخ في تربيتها في هداها بالدعوى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعضها المنافقون وهم الذين أدعوا الإرادة والاستسلام إلى المشايخ في الظاهر، ولم يوفوا بما عاهدوا عليه فجهادها بإلزامها مقاساة شدائد الرياضات في التزكية على متمثل أمر الشيخ ونواهيه ولو يرى عليها الإباء والامتناع فلا ينفيها إلا التشديد والغلظة.

وقال التستري: جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حمولات الندم، وسيرها في مفاوز الخوف، لعلك تردها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ عمّا صدر عنهم توبة صادرة عن محض الندامة والإخلاص ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله، يغفر لهم ويعفو عن زلتهم ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾[1] ويعرضوا عن التوبة، ويصروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلمًا فجيعًا ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء والإذلال، وأنواع العقوبات في ﴿الآخِرَةِ﴾ بأضعاف ما في الدنيا وآلافها؛ لانحطاطهم عن المرتبة الإنسانية، وقبول التكليفات الإلهية المقتضية لإظهار الحكمة والكرامة المودعة في هياكلهم ﴿وَ﴾ إن استظهروا واستنصروا من أوليائهم ﴿مَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ بعد انتشار دين الإسلام في أقطارها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يعينهم ويولي أمورهم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة:74] ينصرهم من بأس الله وعذابه.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة:75-80].

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ مالاً، وأعطانا رزقًا كثيرًا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منها للفقراء المستحقين ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ بالبذل والإنفاق، وأداء

---

(1) قال الجنيد رحمه الله: لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله، فأما عذابه في الدنيا فبسلب الصدق والرد على باب الطلب وإرخاء الحجاب وذله وتقوية الهوى وتبديل الإخلاص بالرياء، والحرص على الدنيا وطلب الرفعة والجاه، وأما عذابه في الآخرة فباشتعال نيران الحسرة والندامة على قلبه المعذب بنار القطيعة وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

الشكر ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:75] الشاكرين المنفقين؛ طلبًا لمرضاة الله.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم﴾ الله ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ ما طلبوا منه ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ ومنعوا حق الله منه ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن امتثال أمر الله وإطاعة رسوله ﴿وَهُم﴾ قوم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:76] عادتهم الإعراض عن إطاعة الله ورسوله؛ لخبث طينتهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله بسبب فعلهم هذا ﴿نِفَاقًا﴾ راسخًا متمكنًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرًا ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: الله سبحانه في يوم الجزاء، فيجازيهم على مقتضى نفاقهم وشقاقهم أسوأ الجزاء؛ ذلك ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ من الصدق والصلاح، والشكر والفلاح، ونقضوا عهده ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:77] أي: وبكذبهم حين العهد والميثاق بلا موافقة من قبلهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ حين همُّوا إلى القول الكذب مع الله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿سِرَّهُمْ﴾ أي: إخلافهم الوعد من حصول المطلوب ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: مناجاتهم معه لا عن إخلاص ناشئ من محض المعرفة والإيمان بالله، والإقرار بربوبيته؛ لرسوخ الكفر والشرك في جبلتهم ﴿وَ﴾ لم يعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:78] لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فمن آمن بتوحيده وإحاطة علمه وقدرته، كيف خرج عن أمره وإطاعته؟.

ومن المنافقين المصرين على النفاق والشقاق مع المؤمنين، هم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ويستهزئون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي﴾ إعطاء ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ خصوصًا المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ﴾ من الصدقة ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: يبذلون مقدار طاقتهم؛ طلبًا لمرضاة الله ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ أولئك اللامزون المستهزئون ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الذين بذلوا جهدهم في أمر الصدقة ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ في الآخرة؛ مجازاة على سخريتهم هذه ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:79] بدَل لذتهم بسخريتهم.

وذلك أنه ﷺ حثَّ المؤمنين يومًا على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وقال: لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة آلاف، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»[1].

---

(1) رواه ابن أبي عاصم (592/2، رقم 1301).

وأتى عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء عقيل الأنصاري بصاع تمر، فقال: بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر، وتركت صاعًا لعيالي، وأتيت بالآخر، فأمره ﷺ أن ينثره على الصدقات تبركًا، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صاع عقيل، ولكنه أحب أن يعد نفسه مع المتصدقين فنزلت.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل لهؤلاء اللامزين المستهزئين، المستسخرين من المؤمنين بإنقاذهم من العذاب أو تخفيفه ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سواء عند الله في انتقامهم وعذابهم، بل ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لا مرة ولا مرتين، بل ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ألبتة؛ لعظم جرمهم وفسقهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي: عدم غفرانهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ﴾ وأشركوا معه غيره في الألوهية، مع أنه منزه عن الشريك مطلقًا ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: كذبوا برسوله، وبما جاء به من عند ربه، واستهزءوا بالمؤمنين المصدقين له، المتصفين في سبيل الله ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:80] عن مقتضى أوامر الله ونواهيه المسيئين الأدب مع الله ورسوله والمؤمنين.

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [التوبة:81-85].

ثم قال سبحانه: ﴿فَرِحَ﴾ المنافقون ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن رسول الله، المتخلفون لأمره، المتمكنون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بمكان قعودهم ﴿خِلافَ رَسُولِ اللهِ﴾ حين خرج إلى غزوة تبوك ﴿وَ﴾ ما ذلك؛ أي: قعودهم واستقرارهم بعد رسول الله ﷺ في مكانهم، إلا أنهم ﴿كَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لخبث باطنهم وقسوة قلوبهم ﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا للمؤمنين تقريرًا وتكسيلاً: ﴿لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: لا

تجاهدوا ولا تقاتلوا في الصيف حتى لا تضعفوا أنتم ومواشيكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان التي استوجبتم بها بتخلفكم وقعودكم عن الجهاد ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾[1] وأبلغ إحراقًا وإيلامًا ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:81] ويفهمون ما هي وكيف هي لم يختاروها على حر الدنيا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ أولئك المتخلفون، الهالكون في العذاب المؤبد، والوبال المخلد ﴿قَلِيلاً﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ لما لحقهم بعد خروجهم منها من أنواع العذاب والنكال ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:82] فيها من الجرائم العظائم والمعاصي، والآثام.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ وردك من غزوتك هذه؛ أي: غزوة تبوك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المستخلفين، المستأذنين الذين قعدوا في المدينة بلا عذر، وبعدما قصدت غزوة أخرى ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ تلافيًا لما مضى ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ إلى الجهاد ﴿أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أصلاً ﴿إِنَّكُمْ﴾ قوم ﴿رَضِيتُم بِالْقُعُودِ﴾ والتخلف ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا عذر بل عن عذر وخديعة ﴿فَاقْعُدُوا﴾ دائمًا ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة:83] المعذورين من النساء والصبيان، والزمنى والمرضى.

﴿وَ﴾ متى ظهر لك حال أولئك الغواة، الطغاة الهالكين في البغض والنفاق ﴿لَا تُصَلِّ عَلَى﴾ ولا تدعُ لـ ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي: بعد ورود النهي أصلاً ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ لتستغفر له ﴿إِنَّهُمْ﴾ من خبث بواطنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في حال حياتهم ﴿وَمَاتُوا﴾ على الكفر أيضًا ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:84] مجبولون على الفسق في أصل فطرتهم.

﴿وَ﴾ بعدما تحقق عندك، وظهر كفرهم وفسقهم ﴿لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ التي هي وبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المضل المذل لعصاة عباده ﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بأنواع الحوادث والمصيبات ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ وميلهم ومحبتهم منوطة بها ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:85] بالله، غير معتبرين معترفين بألوهيته وربوبيته.

---

(1) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً لهم. قال ابن جزي: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (2 /431).

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ
وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ ﴾ [التوبة:86-90].

﴿وَ﴾ من شدة نفاقهم وبغضهم مع الله ورسوله ﴿إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ناطقة ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيها المكلفون ﴿بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ في سبيله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ﴾ والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: صناديدهم وعظماؤهم؛ خوفًا من أموالهم وأنفسهم ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ ودعنا ﴿نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:86] المعذورين الغير القادرين.

وبالجملة: ﴿رَضُوا﴾ أولئك الغواة مع قوتهم وسعتهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: الضعفاء الفاقدين للقوة والسعة ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طُبِعَ﴾ وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر والضلال ﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:87] قبح ما جاءوا به من المخالفة والقعود مع أولئك المعذورين، ولذلك لم يأتوا بالمأمور، ولم يتمثلوا به.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ امتثلوا لأمر الله، وانقادوا لحكمه سمعًا وطاعة، لذلك ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله؛ ابتغاءً لمرضاته وتثبيتًا في دينه ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون المجاهدون ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾[1] والمثوبات العظمى، والدرجات العليا عند الله ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة:88] الفائزون من عنده بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبالجملة: ﴿أَعَدَّ اللهُ﴾ المجازي لخلّص عباده ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المجاهدين،

(1) قال في التأويلات: وهذه الخيرات على نوعين: خيرات تتعلق بالعبد وأعماله وهي الحسنات أخرى مع أنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وخيرات تتعلق بمواهب الحق؛ يعني: لمساعي العبودية نالوا خيرات الربوبية.

المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله، الباذلين مهجهم في سبيله ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات علمية وعينية وحقية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار الشهود والكشوف والواردات والإلهامات، لا دفعة ولا دفعات، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:89] واللطف العميم لهؤلاء المختصين بالعناية الأزلية والسعادة السرمدية.

﴿وَ﴾ متى جاءت ونزلت سورة ناطقة بالقتال والجهاد ﴿جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالأعذار الكاذبة ومَنْ في قلوبهم مرض ﴿مِنَ الأَعْرَابِ﴾ الذين لا اطمئنان لهم في الأيمان ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ بالقعود وعدم الخروج إلى الجهاد ﴿وَقَعَدَ﴾ المصرون ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ من غير مبالاة بأمر الله وإطاعة رسوله، لا تبالِ بهم وبمخالفتهم وكذبهم؛ إذ ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ بعد افتضاحهم وظهور نفاقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:90] في الدنيا والآخرة، لا نجاة لهم أصلاً.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة:91-93].

ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ الفاقدين استطاعة الحرب، ولو كانوا أصحاء، كالنسوان والصبيان والشيوخ ﴿وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى﴾ الفاقدين الاستطاعة بعروض العوارض، كالعمى والعرج والزمانة وغيرها ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ للزاد والسلاح والمركب وغيرها ﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم ومعصية في قعودهم وتخلفهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: أخلصوا في الإيمان والإطاعة بالله ورسوله بلا مرض في قلوبهم، ودعوا للمجاهدين والغزاة خيرًا، وأحسنوا مع أهل بيتهم وأطفالهم وفعلوا معهم خيرًا إن استطاعوا ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ القاعدين المعذورين مع الله ورسوله، والمؤمنين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ في المعاتبة والحرج، فضلاً عن العقاب الأخروي؛ إذ هم من جملتهم وزمرتهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾

[التوبة:91] يجازيهم على قعودهم هذا خيرًا؛ لكونهم معذورين فيه.

﴿وَلَا﴾ حرج ولا عقاب أيضًا ﴿عَلَى﴾ المؤمنين المخلصين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ حين صمم عزمك إلى الخروج ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الخفاف المرفوعة، والنعال المخصوفة، كمعقل بن يسار وصخر بن خنساء وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن زيد وعبد الله بن مغفل، وهم البكاؤون، وعبد الله بن كعب الأنصاري وغيرهم، حتى يبلغوا مكان العدو ﴿قُلْتَ﴾ لهم: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا من عندك آيسين ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ﴾ حين توليهم ﴿تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ وأسفًا ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ لئلا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:92] حتى يبلغوا المعركة ويحضروا الوغى، فهؤلاء أيضًا لا عتاب لهم ولا عقاب، بل يرجى لهم الأجر الجزيل من الله؛ لإخلاصهم وأسفهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة، وأنواع العذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ بالقعود معتذرين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ مستطيعون قادرون بالجسد والمال، غاية ما في الباب أنهم ﴿رَضُوا﴾ من خبث باطنهم ومرض قلوبهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾. المعذورين الغير المستطيعين ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾ المذل المضل لأهل الغفلة والعناد ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالجهل والضلال ﴿فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:93] جهلهم وضلالهم حتى يتسببوا لإزاحتها وإزالتها.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:94-96].

ومع ذلك ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ أولئك المستأذنون، المستطيعون ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوتكم هذه ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بالأعذار الكاذبة، الغير المطابقة للواقع تسلية لكم وتغريرًا؛ تتميمًا لنفاقهم ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل تعليمًا للمؤمنين في مقابلة

أعذارهم: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا﴾ مراءً ومداهنةً، إنا ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ونصدق ﴿لَكُمْ﴾ سيما ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ﴾ المطلع لضمائركم، وما يجري في صدوركم بالوحي على رسوله ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تكتمونها في نفوسكم من الشر والفساد، وبالنسبة إلينا وإلى نبينا ﴿وَ﴾ كيف تعتذرون عن جرائمكم وتلبسونها ﴿سَيَرَى اللهُ﴾ الناقد البصير ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فتفضحون على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وتحاسبون عنده عليها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويظهر عليكم مفصلاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:94] في النشأة الأولى، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ومن جملة نفاقهم وتلبيسهم: إنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾ يقسمون ﴿بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم مشتكيًا معاتبًا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن قعودهم وتخلفهم، إنما عرضهم من الحلف الكاذب تغريركم وتلبيسكم ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم، ولا تسألوا عن مخالفتهم وقعودهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم قبل حلفهم وتلبيسهم، ولا تلتفتوا إليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿رِجْسٌ﴾ جبلتهم على الخباثة والنجاسة لا تقبل التطهير بالتأديب أصلاً ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمُ﴾ الطرد والخذلان ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:95] في النشأة الأولى من الكفر والنفاق، والإصرار على الشرك والشقاق.

وإنما ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ حين شكواكم وعتابكم ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتقبلوا إخلاصهم ومودتهم وتكونوا معهم كما كنتم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بمجرد حلفهم الكاذب، وتغريرهم الفاسد، لا يغني رضاكم عنهم شيئًا من سخط الله عليهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الأكنة والنفاق ﴿لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96] الخارجين عن مقتضى الأوامر والنواهي الزاجرة؛ لتطهير النفوس الخبيثة عن أرجاس الطبيعة، وتصفيتها عن أدناس الأخلاق الذميمة، العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ

سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:97-100].

ثم قال سبحانه: ﴿الأَعْرَابُ﴾ أي: أهل الوبر المترددون في البوادي، المنهمكون في الغي والضلال والعتو والفساد ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل المدر المستأنسين مع العقلاء، المستفيدين منهم ﴿وَ﴾ لشدة شكيمة أولئك الأعراب وجهلهم، وعدم قابليتهم ﴿أَجْدَرُ﴾ أي: أحق وأليق ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ أي: بألا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ النائب عنه، المتكلف لإرشاد عباده بإقامة حدوده المنزلة من الأوامر والنواهي المستلزمة؛ لتأديبهم في معاشهم ومعادهم؛ إذ هم في غاية البعد عن الهداية والصلاح وتحمل التكاليف الإلهية ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعداداتهم الكامنة فيهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:97] في إلزام التكليف عليهم.

﴿وَمِنَ﴾ منافقي ﴿الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يعد ويحسب ﴿مَا يُنفِقُ﴾ بأمر الله في سبيله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامةً وخسرانًا؛ لعدم إيمانه واعتقاده بترتب الثواب عليه، بل إنما ينفق رياءً وتقيةً ﴿وَ﴾ من خباثة باطنه ﴿يَتَرَبَّصُ﴾ أي: يترقب وينتظر ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: نوائب الزمان الدائرة عليكم؛ لينقلب الأمر ويتحول الحال، ويخلص من الإنفاق بالنفاق، بل يدور ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ على عكس مرامهم دائمًا متجددًا، مستمرًا ﴿وَاللَّهُ﴾ الرقيب عليهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:98] بنياتهم وحاجاتهم تدير عليهم ما يتربصون بكم من الدوائر.

﴿وَمِنَ﴾ مخلصي ﴿الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: يوقن ويذعن بتوحيده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: يصدق باليوم الآخر المعد لجزاء الأعمال، وترتب المثوبات بالقربات والصدقات ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَاتٍ﴾ ونيل مثوبات ورفع درجات ﴿عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: بسبب استغفاره ودعائه له ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ أي: ما يتصدقون بها أولئك المؤمنون، المخلصون، المتقربون ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وسبب وصولهم إليه ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ﴾ الموفق لهم، الرقيب عليهم ﴿فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ وجوده بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنه من

المعاصي قبل إيمانهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:99] لهم، يقبل منهم بعد إيمانهم وإخلاصهم ما يتقربون به لمرضاته.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ في الإيمان، المبادرون إلى التصديق وقبول الأحكام ﴿الأَوَّلُونَ﴾[1] الأقدمون بمتابعة الرسول ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مألوفات نفوسهم ومتشهيات طباعهم إلى الفناء في الله ﴿وَالأَنصَارِ﴾ الأبرار الذين سلكوا نحو الحق بالرياضات والمجاهدات الشاقة المزيحة لدرن التعلقات ورين الإضافات، المانعة من التوجه الحقيقي.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ واقتفوا أثرهم من أهل الطلب والإرادة ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بلا تمايل إلى الرياء والسمعة والعجب، أولئك المبروررون، المقبولون ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ لتحققهم بمرتبة الإخلاص والتسلم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لإيصالهم إلى مقر التوحيد وفضاء الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة السرمدية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ سبحانه في حوزة حمايته وروضة بقائه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ من العلوم والمعارف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:100] واللطف الجسيم لأهل العناية من أرباب الولاية والمحبة، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم مطلقًا.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

---

(1) قال البقلي: أي :السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحقّ من مكمن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في قضاء البقاء بنعت الفرح بالمُنى. فإذا تلبَّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلِّي القِدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزُّلفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطف وعناية.

﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة:101-104].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّنَ الأَعْرَابِ﴾ الساكنين في البوادي قوم، هم ﴿مُنَافِقُونَ﴾ معكم، وإن أظهروا المودة والإخاء، والإيمان على طرف اللسان، لا تبالوا بإيمانهم، ولا تغفلوا عن خدعهم ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضًا قوم ﴿مَرَدُوا﴾ أي: رسخوا ﴿عَلَى النِّفَاقِ﴾ ومن شدة نفاقهم وتمرنهم عليه صاروا بحيث ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ﴾ أيها المتصف بالفراسة الكاملة من غاية تلبيسهم وإخفائهم، بل ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعلم ما في ضمائرهم من الخيالات الفاسدة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ في الدنيا ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة بتفضيحهم وإظهار ما في قلوبهم من الأكنة والشقاق، ومرة بقتلهم وسبيهم وإجلائهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:101] هو حرمانهم وانحطاطهم عن المرتبة الكاملة الإنسانية التي هي مرتبة الخلافة والنيابة الجامعة لجميع المراتب الكونية والكيانية.

﴿وَ﴾ من أهل المدينة قوم ﴿آخَرُونَ﴾ ليسوا من المصرين على النفاق، المتمرنين فيه، بل ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من المخالفة والبغض والطعن والاستخفاف، والغيبة حين خلوا مع المنافقين المتمرنين، وهم وإن صدر عنهم الإيمان والإخلاص، لكنهم ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا﴾ من الإخلاص والرضاء، والتسليم ﴿وَ﴾ عملاً ﴿آخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو اتفاقهم مع المنافقين في خوضهم وطعنهم، وبذلك انحطوا عن رتبة المخلصين في جميع حالاتهم ﴿عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوفقهم على التوبة والندامة، ويقبل منهم توبتهم بعدما أخلصوا فيها ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب وندم عن ظهر القلب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:102] يقبل توبتهم إن أفرطوا.

﴿خُذْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من أموال هؤلاء المذنبين التائبين، النادمين عمّا صدر عنهم من المخالفة حين أذنوا لك أن تخرج منها ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة المولعة لحب المال والحرص في جمعها ونمائها ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تصفي بواطنهم عن الشواغل العائقة عن اللذات الروحانية ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واستغفر لذنوبهم، وادع لهم بالدعاء الخير ﴿إِنَّ صَلاَتَكَ﴾ والتفاتك بحالهم ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: سكينة لقلوبهم ووقار وطمأنينة، وسبب لتقررهم وتثبتهم على جادة التوحيد

والإيمان ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب عليهم في حالاتهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لإخلاصهم ومناجاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:103] بنيّاتهم وحاجاتهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أولئك التائبون، النادمون، المخلصون، المتضرعون نحو الحق على عفو زلاتهم وتقصيراتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿هُوَ﴾ بلطفه وفضله ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بعدما وفقتهم عليها، ويتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾(1) من أموالهم؛ أي: يقبلها منهم تطهيرًا لقلوبهم عمَّا يشوشهم من رذائل هوياتهم وتعيناتهم؛ ليتشمروا نحو الحق مخفين ﴿وَ﴾ لم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتفضل لعباده ﴿هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع لهم عن مقتضيات نفوسهم نحو جنابه ﴿الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:104] عليهم يوصلهم إلى بابه إن أخلصوا في سلوكهم وتوجههم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) ﴾ [التوبة:105-108].

﴿وَقُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمخلفين من الأعراب: ﴿اعْمَلُوا﴾ ما شئتم من الكفر والنفاق ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ بوحيه سبحانه وإلهامه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بتبليغه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها الغواة المجرمون ﴿سَتُرَدُّونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ أي: السرائر والخفيات التي تسترونها من الكفر والمعاصي ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: التي تعلنون بها ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ سبحانه على التفصيل ﴿بِمَا كُنْتُمْ

(1) أي: خُذ ما يتعلق بحظوظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظّ النفس، وأيضًا أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة يدك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حبّ ما سوى الله.

تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105] من طغيان نفوسكم، ويجازيكم عليها.

﴿وَآخَرُونَ﴾ من المتخلفين بعدما تنبهوا بقبح صنيعهم ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون، منتظرون ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه، وصاروا مترددين بين الخوف والرجاء فيما فعل الله معهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أخذًا على ما صدر عنهم بمقتضى عدله ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على التوبة بمقتضى فضله وسعة رحمته، وجوده ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لخفيات صدورهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بإخلاصهم ونيّاتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:106] في فعله بهم بعد علمه بحالهم.

﴿وَ﴾ من أشدهم كفرًا ونفاقًا، وأغلظهم بغضًا وشقاقًا، هم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ تلبيسًا وتغريرًا ﴿مَسْجِدًا﴾ قاصدين في بنائه ﴿ضِرَارًا﴾ مضرةً وسوءًا لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: اشتدادًا وزيادة فيه؛ لأنهم يقصدون بإنشائه وبنائه قتل رسول الله والمؤمنين فيه ﴿وَ﴾ قصدوا أيضًا ﴿تَفْرِيقًا﴾ وتشتيتًا ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المجتمعين في مسجد قباء ﴿وَ﴾ بالجملة: إنما يبنونه ﴿إِرْصَادًا﴾ أي: ترقبًا وانتظارًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهو أبو عامر، الراهب الذي حارب مع المؤمنين ﴿مِن قَبْلُ﴾ يوم حنين فانهزم، فهرب إلى الشام؛ ليذهب إلى قيصر، فيأتي بجنوده، وهم منتظرون لمجيئه.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر نفاقهم وخداعهم بوحي الله وإلهامه على رسوله ﴿لَيَحْلِفُنَّ﴾ وليقسمن بالأيمان الغليظة ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما قصدنا ببنائه ﴿إِلَّا الْحُسْنَى﴾ والخير، وهي الصلاة المقربة نحو الحق والذكر والتسبيح والتوسعة على المؤمنين، وازدياد شعائر الإسلام ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ومحايلهم ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107] في حلفهم.

وإذا عرفت يا أكمل الرسل حالهم وحلفهم، وسوء قصدهم وفعالهم ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للتوجه والصلاة؛ لكونه مبنيًا على الخداع والتزوير ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ وبني ﴿عَلَى التَّقْوَى﴾ عن محارم الله وخالصًا لرضاه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني، وهو مسجد قباء ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أليق وأولى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ للصلاة والميل نحو الحق؛ إذ ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ مؤمنون كاملون في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ دائمًا ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ عن المعاصي والآثام، ويتوجهوا نحو الحق برفض الشواغل ونقض العوائق والعلائق ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع بنياتهم ﴿يُحِبُّ

﴿الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1] [التوبة:108] القاصدين تطهير ذواتهم عن التوجه إلى ما سوى الحق المطلق، بل عن هوياتهم وتعيناتهم الباطلة.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:109-111].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ ووضع ﴿بُنْيَانَهُ عَلَى﴾ قاعدة محكمة وركن شديد، هي ﴿تَقْوَى﴾ أي: تحفظ وتحصن ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: غضبه وسخطه ﴿وَ﴾ طلب ﴿رِضْوَانٍ﴾ ومثوبة عظيمة، ومنزلة رفيعة منه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على طرف واد جوفه السيول والأمطار فسقط البعض، وأشرف على السقوط والانهدام البعض الآخر، فوضع عليه بناءه ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ وسقط معه ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: الوادي الغائر، الهائر، المملوءة من نار الحرمان والخذلان ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لخلص عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:109] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

ومن شدة غيظهم وخبث باطنهم ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ يورث ويزيد ﴿رِيبَةً﴾ شكًا وريبًا متزايدًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مترشحًا فيها ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بنيران الحسرة، وتفتتت وتلاشت بأهوال العذاب إلى حيث لا يتأتى منها الإدراك ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم الكامنة في صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة:110] في جزائها وانتقامها.

---

(1) «الطهارة»: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفريات، وطهارة الأبدان من الزلّات، ومَن أحبّه الله في الأزل، يُطهِّره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحبُّ لا يترك حبيبه في شيءٍ يُضرُّ به، قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجهٍ: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذِكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

ثم قال سبحانه تبشيرًا للمؤمنين الباذلين مهجهم في سبيل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتفضل بالفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿اشْتَرَى﴾ واستبدل ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الفانية في أنفسها، المعدومة المبذولة في سبيله سبحانه في النشأة الأولى ﴿وَأَمْوَالَهُم﴾ المصروفة فيه أيضًا ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ الباقية واللذة المستمرة الدائمة، بدلها لذلك ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أولئك المتمثلون بحكم الله، المصدقون لوعده ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ أعداءه، فيستحقون المثوبة التي وعد الغزاة المجاهدين ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ ويصلون إلى درجة الشهداء الذين هم أحياء عند الله يُرزقون من موائد أفضاله، فرحون يوعدون من عنده سبحانه ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ بلا خلف فيه ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا مثبتًا ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ المنزلة من عنده ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ ووفى العهود استحق ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ الوعد الموعود ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أي: افرحوا واربحوا أيها المؤمنون ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ مع ربكم، بأن استبدلتم الفاني الزائل بالباقي المستمر الدائم ﴿وَذَلِكَ﴾ الموعود لكم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:111] المعد لأرباب العناية.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ
السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ
مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ
لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [التوبة:112-115].

وهم ﴿التَّائِبُونَ﴾ النادمون على ما جرى عليهم من المعاصي، المحافظون عليها بلا مراجعة أصلاً ﴿الْعَابِدُونَ﴾ بالعزائم الصحيحة والإخلاص التام ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الشاكرون، الصارفون ما أعطاهم الحق من النعم إلى ما أمرهم من المصارف ﴿السَّائِحُونَ﴾ السائرون، السالكون في سبيل الحق؛ لازدياد المعارف والحقائق ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ المتواضعون، المنكسرون لجميع مظاهر الحق؛ تعظيمًا لشأنه ﴿السَّاجِدُونَ﴾ المتذللون، الواضعون جباههم على تراب المذلة؛ خضوعًا وانقيادًا، ميلاً

ودعاءً ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا بالقلب واللسان، وجميع الجوارح ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعًا لجميع ما ورد النهي به ﴿وَ﴾ بالجملة: هم ﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ الموضوعة بين أرباب التكليف القابلين، المستعدين لسلوك طريق التوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:112] الموصوفين بهذه الصفات الجميلة باللذات التي لا يمكن وصفها بلسان التعبير من لدن حكيم خبير.

ثم قال سبحانه على طريق النهي عمومًا: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحّ وجاز ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ الأمي الهاشمي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معه، وأخلصوا فيه ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ ويشفعوا ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بتخفيف العذاب ودخول الجنة ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾ من النسب؛ إذ لا عبرة لقرابة النسب، بل القرابة المعتبرة هي قرابة الحسب والإيمان، سيما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ موتهم على الكفر والجاهلية ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:113] أي: ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها؛ لإصرارهم على موجبها.

﴿وَ﴾ لا يرد على هذا استغفار إبراهيم لأبيه؛ إذ ﴿مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ على سبيل الشفاعة والشفقة، والعطف الموجب لها، بل ما هو ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ وعهد ﴿وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ حين أراد أن يخرجه من الكفر والشرك، بأن يستغفر له ما تقدم من ذنبه إن آمن فاستغفر قبل الإيمان إنجازًا لوعده ليلين قلبه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وظهر عنده ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ مصر على كفره، مطبوع على قلبه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ واسترجع إلى الله منيبًا؛ لاجترائه واستغفاره في حق أبيه، مع عدم العلم باستعداده وتوفيق الله إياه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ مع كونه متحققًا بمقام الخلة مع الله ﴿لَأَوَّاهٌ﴾[1] كثير التأوه والتحزن عن أمثال هذه الجرأة ﴿حَلِيمٌ﴾ [التوبة:114] كثير الشفقة والمرحمة على أهل الغفلة؛ لظهوره على مقتضى اللطف والجمال.

(1) قال في التأويلات: الأوّاة المتبرئ من المخلوقات؛ لكثرة نيل المواجيد والكرامات، فيكون لضيق البشرية تولاه مولاه، فمهما ورد له وارد الحق ضاق عليه نطاق الخلق فيتأوه عند تنفس القلب المضطر من الخلق إلى الحق ويفر من الخلق ويفر إلى الحق ملحًا من جلدة الإنسانية منفردًا للفردانية متوحدًا للوحدانية، حليم عمّا أصابه من الخلق للحق، فلا رجوع من الحق إلى الخلق بحال من الأحوال، كما قال لجبريل ﷺ: ابتلاه الله به في الهوى، لما ألقى بالمنجنيق إلى النار عند قوله: «ألك حاجة» كيف أرجع من الحق في تلك الحالة لمقال: أما إليك فلا.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ ويسميهم ضلالاً وفساقًا ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإيمان والإسلام ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم﴾ وينبه عليهم ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾ ويحذرون من المحارم والمعاصي؛ لامتناع تكليف الغافل، ثم بعد ارتكاب المحذور به يسميهم ما يسميهم، ويأخذهم منتقمًا عليهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يتعلق بصلاحهم وإصلاحهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [التوبة:115] لا يعزب عن علمه شيء، فعليكم أيها المؤمنون أن تفوضوا أموركم كلها إلى الله.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة:116-118].

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المستقل بالألوهية والوجود ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من الكواكب والنجوم ﴿وَالأَرْضِ﴾ وما عليها، وكذا ما بينهما ﴿يُحْيِي﴾ ويظهر بلطفه متى تعلق إرادته ﴿وَيُمِيتُ﴾ يعدم ويخفي بقهره متى شاء ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون الموقنون بتوحيد الله ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ الواحد، الأحد، الصمد الذي ليس معه شيء، ولا دونه حي ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة:116] ينصركم عليها.

﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: وفقه على التوبة بعدما صدر عنه إذن المخالفين، المستأذنين المعتذرين بالأعذار الكاذبة؛ تغريرًا له وتلبيسًا عليه، مع عدم علمه بحالهم ﴿وَ﴾ تاب أيضًا على ﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ نحو تبوك حين خرج إليها ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ وأيام القحط؛ إذ ليس لهم في تلك السفر زاد ولا راحلة ولا ماء، حيث يتعاقب عشرة على بعير، وقسيم تمر بين اثنين في يوم، وشرب الفظ والفرث من شدة العطش، لذلك تمايل على المخالفة ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ﴾ وقرب ﴿يَزِيغُ﴾ ويميل عن المتابعة ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ من قلة الصبر، وكثرة المقاساة والأحزان ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ووفقهم على التوبة مما أخطروا ببالهم، وتخيلوا في خيالهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه

﴿بِهِمْ﴾ بعدما علم استعداداتهم وقابلياتهم ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف، يعفو عمَّا صدر عنهم وقت الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:117] يقبل عنهم ما جاءوا به من الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ أيضًا تاب سبحانه ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن غزوة تبوك بلا عذر؛ هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وصاروا من عدم التفات رسول الله والمؤمنين إليهم بعدما أمرهم الرسول ألا يتكلموا معهم خمسين ليلة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع وسعتها وفسحتها ﴿وَ﴾ صاروا من الأعراض إلى أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ واشتد عليهم الأمر، وانسد أبواب التدابير مطلقًا، فاضطروا في أمرهم، والتجأوا نحو الحق مخلصين ﴿وَظَنُّوا﴾ بل كوشفوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ ولا مفر ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من غضبه وسخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إذ ليس بغيره وجود حتى يلجأ إليه، لذلك قال ﷺ في أمثال هذه المضائق: «أعوذ بك منك»[1].

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخلصوا في الإنابة والرجوع وفوضوا أمورهم إليه سبحانه ﴿تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: أقدرهم ووفقهم على التوبة ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ويرجعوا إلى الله نادمين على ما صدر عنهم من المخالفة، فيغفر لهم ويعفو عن زلاتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح الموفق ﴿هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع لعباده نحو جنابه حين صدر عنهم المعاصي ﴿الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] لهم يرحمهم، ويقبل توبتهم عند رجوعهم متضرعين مخلصين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ
ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾
[التوبة:119-121].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن

(1) رواه النسائي في «الكبرى» (1/499)، وابن خزيمة (3/101).

مخالفة أمره ﴿وَكُونُوا﴾ في السراء والضراء ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119] المصدقين لرسوله، المتابعين له في جميع أموره.

واعلموا أنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ﴾ يسكن ﴿حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ المترددين في بواديها ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ حين خرج إلى القتال، واقتحم على الأعداء ﴿وَلَا﴾ يصح لهم أن ﴿يَرْغَبُوا﴾ ويميلوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ لحفظها وصيانتها ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ بل يجب عليهم أن يفدوا نفوسهم، ويكفلوا في صيانته وحفظه ﷺ، وحيث اقتحم ﷺ فلهم المبادرة والمسابقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما وجب عليهم من تحمل المشاق والمتاعب، والإسراع إلى الاقتحام، والإقدام عليها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم متى خرج ﷺ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ألم من أنواع الآلام ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده.

﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ ولا يدوسون مكانًا ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ مرورهم عنه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ من القتل والأسر، والغلب والنهب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ﴾ عند الله ﴿عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ موجب للمثوبة العظمى والدرجة العليا، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المحسن المتفضل لخواص عباده ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:120] الذين يحسنون الأدب مع الله، ويعبدونه كأنهم يرونه ومع رسوله، المستخلف منه، النائب عنه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ هؤلاء المحسنون ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيل الله؛ طلبًا لمرضاته ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ تجاه العدو حين أمرهم الله ورسوله ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ في ديوان حسناتهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بها جزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:121] أي: مثل جزاء أحسن أعمالهم.

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ

رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:122-125].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما استقام لهم وناسب بحالهم ﴿لِيَنفِرُوا﴾ عن أماكنهم وبلادهم ﴿كَافَّةً﴾ بحيث تخلو بلدانهم عن الحفظة والحراس ﴿فَلَوْلَا﴾ وهلا ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ إلى الرسول ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[1] ويتعلموا شعائره وما يتعلق به من الأدب ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ بذلك ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ويقيموا لهم ما يتعلمون من شعائر الإسلام ومناسك الدين القويم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122] عن منهيات الدين، ويتصفون بمأموراته، ويصلحون عقائدهم بها فيؤمنوا ويوقنوا بالله، ويتدينوا بدينه.

ومن معظم شعائر الإسلام: القتال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ ويقرب منكم في حواليكم وحواشيكم ﴿مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وليضيقوا ويشددوا عليهم ﴿وَلْيَجِدُوا﴾ ويشاهدوا ﴿فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تشددًا وتصبرًا على القتال، وجرأةً وتهورًا عليها فيخافوا منكم، فيتركوا عنادهم، ولا تبالوا بكثرة عددهم وعددهم، واجترئوا عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:123] الذين يحفظون حدود ما أنزل الله عليهم فتوكلوا عليه، وامتثلوا بمأموره إن كنتم موقنين.

﴿وَ﴾ كيف لا تقاتلون ولا تشددون أيها المؤمنون على الغواة المستهزئين الذين ﴿إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من عندنا مشتملة على تكميل دينكم، وزيادة إيمانكم ويقينكم ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لأصحابه ورفقائه له من خبث باطنه وركاكة فطنته؛ استهزاءً وسخريةً: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ استحقارًا لها ﴿إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(1) قال نجم الدين: ليتفقهوا في السير إلى الله تعالى، والسير بالله، والسير في الله، وأمّا رحلة المعنى فلمّا كان حال إبراهيم ﷺ قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، فهو السير من القالب وصافته إلى القلب وصفاته، ومن القلب وصفاته إلى الروح إلى التخلق بأخلاق الله بقدم فناء أوصافه، وهو السير إلى الله، ومن أخلاق الله إلى ذات الله بقدم فناء ذاته بتجلي صفات الله وهو السير بالله، ومن أنانيته إلى هويته ومن هويته في ألوهيته إلى أبد الآباد وهو السير في الله بالله من الله، وتقدس فقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: فهلا نفر من كل قوم وقبيلة وبلدة وقرية، ﴿مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ من خواصهم ومستعديهم للطلب، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليتعلموا السير إلى الله من السائرين الواصلين إليه.

بالله وبجميع ما نزل من عنده؛ لإصلاح أحوال عباده ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ بعدما تأملوا فيها، وتدبروا في مرموزاتها ﴿إِيمَانًا﴾ يقينًا واطمئنانًا ﴿وَهُمْ﴾ بعدما أطلعوا على مطلعها ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:124] بنزولها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو التعامي عن آيات الله ومقتضى إشاراته، ورموزه ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه ﴿رِجْسًا﴾ كفرًا وشركًا متضمنًا ﴿إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ الأصلي وكفرهم الجبلي، وصاروا منغمسين منهمكين بالكفر والضلال ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:125] مصرون على كفرهم فلحقوا بشياطينهم الذين مضوا قبلهم، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة:126-129].

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ من خباثة بواطنهم ورجاسة نفوسهم ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يقتلون ويصابون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً﴾ بلية ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بليتين؛ لتلين قلوبهم بها، ويتنبهوا فيتوبوا ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ إلى الله من كفرهم، ولا يرجعون نحوه بالإيمان؛ ليقبل عنهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة:126] بها؛ أي: يتذكرون ويتفطنون بها، بل يصرون ويعاندون.

﴿وَ﴾ من جملة إصرارهم وعنادهم: إنهم ﴿إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ مفضحة لهم، مفصحة بما عليهم من النفاق والشقاق، ونقض العهود والميثاق ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يتغامزون بعيونهم، ويقولون استهزاءً وتهكمًا: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من هؤلاء المؤمنين ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ من عنده مريدين النفاق والشقاق بأضعاف ما كانوا عليه؛ بسبب تفضيحهم بهذه السورة، لذلك ﴿صَرَفَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان وجادة التوحيد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:127] أي: لا يفهمون لذة الإيمان، ولا يتخلقون على نشأة التوحيد والعرفان، مثل الموحدين.

لذلك ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الأعراب ﴿رَسُولٌ﴾ بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، منتشئ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وجنسكم، ومن غاية شفقته ومرحمته لكم ﴿عَزِيزٌ﴾ شاق شديد ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عنتكم ولقاءكم المكروه؛ إذ هي من أمارات الكفر والشرك، وعدم الإطاعة والانقياد بأوامر الله ونواهيه، مع أنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وإسلامكم وإصلاح حالكم؛ إذ هو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين، الموحدين، المخلصين ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف، مشفق ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128] يرحمهم ويرضى عنهم؛ لخروجهم عن ظلمة الكفر بنور الإيمان.

وكن في نفسك يا أكمل الرسل على الوجه المذكور ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا، وانصرفوا عنك وعن الإيمان بك وبدينك وكتابك ﴿فَقُلْ﴾ في نفسك ملتجئًا إلى ربك: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الرقيب علي، يكفيني مؤنة خصومتهم عني؛ إذ ﴿لاَ إِلَهَ﴾ يُرجع إليه في الوقائع، ويُلجأ نحوه في الخطوب ﴿إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره؛ إذ لا غيره حق في الوجود ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَ﴾ كيف لا أتوكل عليه وأرجع إليه؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129] أي: مربيه، والمستوي عليه بالاستقلال والإحاطة، والاستيلاء التام؛ إذ لا شيء في الوجود سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المشمر لسلوك طريق الفناء، كي تصل إلى فضاء البقاء - شكر الله سعيك وهداك إلى غاية مبتغاك - أن تقتفي في تشمرك هذا أثر من نبهك عليها وهداك إليها، وهو الذي اختاره الله واصطفاه من بين خليقته؛ لتكميل بريته، وأظهره على صورته، وخلقه بجميع أخلاقه، لذلك اتخذه حبيبًا وجعله على سائر الأنبياء إمامًا ونقيبًا.

وتشبث بأذيال لطفه فعلاً وقولاً وشيمةً، صارفًا عنان عزمك إلى سرائر جميع ما جاء به من عند ربه؛ لإرشاد عباد الله، وما سمح به من تلقاء نفسه - صلوات الله عليه وسلامه - من الرموز والإشارات التي استنبطها من كلامه، وفاضت عليه بوحي الله وإلهامه؛ لصفاية استعداده الذي صار به مرآة لتجليات الحق وشئونه وتطوراته، وخليفة الله في أرضه وسمائه، وما التقط من كلماته وإشاراته الأولياء الوارثون منه، المقتفون أثره - قدس الله أرواحهم - وما ورد عليهم من تفاوت طبقاتهم في طريق التوحيد من

المواجيد والملهمات الغيبية، المنتشئة من النفحات الإلهية والنفسات الرحمانية، الناشئة من التجليات الجمالية والجلالية، المتفرعة على الشئون والتطورات الكمالية.

وبالجملة: لا بدَّ لك أن تفرغ همتك عمّا سوى الحق مطلقًا، ولا يتيسر لك هذا إلا بمتابعة المحققين بمقام الكشف والشهود، الواصلين إلى مقام المراقبة والمشاهدة، والاستفادة منهم ومن ملتقطاتهم وارداتهم حتى يمكن لك التمكن في مكمن الفناء، والتقرب في مقر البقاء، وحينئذٍ يصح لك أن تقول بلسان حالك ومقالك: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

جعلنا الله من عباده المفوضين، المتوكلين الذين يتخذون الله وقايةً ووكيلاً، ويجدونه وليًا وحسيبًا.

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة يونس عليه السلام

لا يخفى على المنجذبين نحو التوحيد الإلهي من طريق السلوك والمجاهدة، ورفض الشواغل وقطع العلائق، ونفي الخواطر والوساوس، وإسقاط الأوهام والخيالات المستندة إلى الهويات الجزئية، المستلزمة للغيرية والامتياز والاستقلال في الوجود، وما يترتب عليه من الآثار والإضافات أن السلوك من هذا الطريق لا يتم إلا بالاستمداد والاسترشاد من أهل الخبرة والاستبصار، وأرباب الكشف والاعتبار الواصلين إلى مقر التوحيد من جادة المجاهدة ومحجة الفناء، المقتضية للموت الإرادي عن لوازم الهوية البشرية مطلقًا.

وبالجملة: إن الكاملين المكملين، العارفين بأمارات الطريق وموانعه، وأن قضية الحكمة وأمر المناسبة الإلهية الواقعة بين الأوصاف الذاتية تقتضي أن يكون بين المفيد والمستفيد علاقة وارتباط؛ إذ لا يمكن الاستفادة من أي شخص كان، لا بدَّ من المناسبة والعلاقة المصححة للإفادة والاستفادة في هذا الطريق الآمن، جذبه الحق بنفسه، وأخلع عنه جلباب ناسوته مطلقًا، وصار هو هو، بل ارتفعت الهوية واضمحلت الموضوعية والمحمولية أيضًا عن بصر شهوده ونظر بصيرته، فهم تحت قباب العز ولواء العظمة والكبرياء، وسرادقات المجد والبهاء، وليس عندهم سلوك وسالك ومسلك، وقصد ومقصودهم لا يصرفون سوى الحق، ولا يعرفهم أيضًا سوى الحق، كما نطق به الحديث القدسي، لذلك ما يرى هؤلاء إلا به وفيه.

وأمَّا أهل الطلب والإرادة، المندرجون في سلوك طريق الفناء، المتعطشون بزلال التوحيد والبقاء فلا بدَّ لهم أن يتشبثوا ويتوسلوا بذيل من أيده الحق؛ لتكميل العباد وإرشادهم إلى مبدئهم ومعادهم، وهم الأنبياء الذين جبلوا على النفوس القدسية، المطهرة عن الكدورات الأنسية والعلائق البشرية، العائقة عن الفناء في هوية الحق، ثم الأولياء الوارثون منهم، الواصلون بمتابعتهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان التي هي الفناء في ذاته.

والمحجوبون المجبولون على الغفلة، المنهمكون في الغي والضلال يتعجبون عن إرشاد الأنبياء والأولياء عباد الله إلى فضاء توحيده، وينكرون لياقتهم للنبوة والرسالة؛ إنما هو لجهلهم بدقائق المناسبات ورقائق الارتباطات الواقعة بين الحق والإنسان الكامل، ويقيسون أحوال الأنبياء والأولياء إلى أحوال آحاد الناس، ولم يتفطنوا أن أفضل البشر أفضل من أفضل الملائكة؛ لتحققهم في مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية بجمعيتهم دونهم؛ لعدم جمعيتهم.

لذلك ردَّ الله سبحانه على هؤلاء الجهلة بما هم عليه من التعجب والإنكار، ووبخهم بما وبخهم؛ لينبه المؤمنين على ما هو الحق، فقال متيمنًا باسمه العظيم، ومخاطبًا على رسوله الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى أوصافه وأسمائه الكامنة في وحدة ذاته فيتراءى، متكثرة بكثرة أسمائه وصفاته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على جميع مظاهره بالإمداد الدائم المتجدد، وحسب تجدد تجلياته الذاتية الحبية ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خلاصة مظاهره وزبدة مكوناته التي هي الإنسان الجامع لجميع مراتب المظاهر بالنبوة العامة والولاية التامة، الشاملة لكلتا مرتبتي الأول والآخر، والظاهر والباطن، في المبدأ والمعاد باعتبار النشأتين.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:1-4].

﴿الر﴾[1] أيها الإنسان اللبيب، الرشيد، اللائق للرسالة العامة، والرئاسة الكلية

(1) الألف عين الوحدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوحدانية، تجلّى بالألف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سبحات الألوهية، وتجلّى من عين الأزلية

الكاملة الشاملة على كافة البرايا ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المنزلة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:1] أي: بعض آيات الكتاب الإلهي الذي هو حضرة علمه ولوح قضائه، ناطقة بالصدق والصواب على مقتضى الحكمة المتقنة الإلهية، نازلة من عنده؛ لتصديقك وتأييدك يا أكمل الرسل في تبشيراتك وإنذاراتك، ونبوتك ورسالتك وإرشادك لأهل الغي والضلال.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ الناسين بطلان هوياتهم ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ ألهمنا من محض فضلنا وجودنا ﴿إِلَى رَجُلٍ﴾ ناشئ ﴿مِنْهُمْ﴾ وظهر من جنسهم وبني نوعهم ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال بمقتضى أهوية هوياتهم الباطلة، وماهياتهم العاطلة، تعجبًا ناشئًا عن محض الغفلة والنسيان، والإعراض عن الحق، والانحراف عن طريق التوحيد وجادة الإسلام ﴿وَبَشِّرِ﴾ منهم أهل المحبة والولاء؛ يعني: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا برسالتك وإرشادك بوحدة ذات الحق واستقلاله في الوجود، وما يترفع عليه من الأسماء والصفات، والآثار المترتبة عليها، والشئون المتجددة بها ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: إقدام صادق، وقدم راسخ ثابت في جادة التوحيد،

باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الألف من بحار الوحدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهين، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الحيرة هائمين. وأيضًا: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين. قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنما يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، ونبّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزًا وإشارات، لا يطّلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة. وأيضًا: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني ؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه﴾ يا ﴿يس﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيمًا، وعالمًا بما في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات ما ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته. وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وإرادة خالصة.

وصاروا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من السابقين المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم لمّا ظهر أمر الرسالة وعلا قدره، وشاع دينه وكثر أتباعه ﴿قَالَ الكَافِرُونَ﴾ المصرون على الشرك والفساد من خبث طينتهم، وشدة بغضهم وشكيمتهم بعدما أبصروا منه خوارق عجزوا عنها، سيما القرآن الكامل في الإعجاز البالغ أعلى مراتب البلاغة: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المدعي للنبوة والرسالة ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:2] ظاهر متفرد في فن السحر، وحيد في عصره فيه، ومن قرأ السحر أراد به القرآن المعجز لجمهور البلغاء مع توفر دواعيهم في معارضته، وصاروا من عجزهم بحيث لم يقدروا على إتيان أقصر آية منه.

وكيف يعارضون مع رسوله والكتاب المنزل من عنده سبحانه؟! ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: قدر ببسط عكوس أسمائه، ومد أظلال أوصافه ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي الأعيان الثابتات ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة القابلة للانعكاس منها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: ستة جهات؛ إذ يتوهم الامتداد والأبعاد، والأقطار فيها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بلا توهم التراخي والزمان والمهلة، على ما يقتضيه لفظة «ثم»، «بل» بلا أين وكيف وكم؟.

﴿عَلَى العَرْشِ﴾ المعروش المبسوط من انعكاس أسمائه وأوصافه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي: الحوادث الكائنة بالاستقلال ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ من المظاهر والمصنوعات ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وإمضاء مشيئته، وإنفاذ قضائه ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ أي: الموصوف المتفرد، المتوحد في ذاته بالألوهية، المستقل في آثاره وتدبيراته بالربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: مربيكم وموجدكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حق عبادته حتى تعرفوه حق معرفته ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:3] وتتفكرون وحدة ذاته، وعظمة أسمائه وصفاته أيها العقلاء المجبولون على التفكر والتذكر في آلاء الله ونعمائه؟!.

وكيف لا تتفكرون آلاءه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير معه سبحانه في الوجود ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[1] كما وعدكم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس:23]،

(1) قال في التأويلات: أي: جرى الميثاق على أن يكون رجوع القبول والمردود إلى حضرته: فأمّا المقبول: فرجوعه إليه بجذبات العناية التي صورتها خطاب: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]،

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:25]، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:35] إلى غير ذلك من الآيات.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي لا يخلف ميعاده أصلاً ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا لازمًا بلا تغيير وتبديل، وكيف لا يكون وعده حقًا؛ إذ هو قادر على جميع المقدورات والمرادات، ومن كمال قدرته ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ويظهره من العدم إظهارًا إبداعيًا بلا سبق مادة ومدة، ثم يعدمه؛ إظهارًا لقدرته أيضًا ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في النشأة الأخرى؛ لإظهار أسرار تكليفاته التي كلف بها عباده في النشأة الأولى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده، وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة من عنده بألسنة كتبه ورسله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل القويم، وتفضل على من تفضل عنايته منه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأشركوا له شيئًا من مظاهره ﴿لَهُمْ﴾ في يوم العرض والجزاء، بعدما يحاسبوا ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بدل ما يتلذذون بالأشربة المحرمة في النشأة الأولى ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4] بالله، ويكذبون رسله؛ عنادًا وإصرارًا، وكيف يكفرون بالله أولئك الحمقى، العمي، الهالكون في تيه الغفلة والضلال، وظلمة الجهل وسوء الفعال؟!.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس:5-8].

وحقيقتها: انجذاب القلب إلى الله نقاء، ونتيجتها: غروب النفس عن الدنيا، واستواء الذهب والدر عندها، وانزعاج القلب عمّا سوى الله تعالى، واستغراق الروح في بحر الشوق والمحبة، والتبرؤ عمّا سوى الله، وهيمان السر وحيرته في شهود الحق ورجوعه عن الخلق، وأمّا المردود: فرجوعه بغير اختياره مغلولاً بالسلاسل والأغلال يسحبون في النار على وجوههم وهي صورة صفة قهر الله، ومن نتائج قهر الله تعلقاته بالدنيا وما فيها، واستيلاء صفات النفس عليه من الحرص والبخل والأمل والكبر والغضب والشهوة والحسد والحقد والعداوة والشره، فإن كل واحدة منهما حلقة تلك السلاسل وغل من الأغلال يسحبون إلى النار.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ ليكون دليلاً على كمال ظهوره وإشراقه، وجلائه وانجلائه ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ منيرًا في ظلمات الليل؛ ليكون دليلاً على إنارته وإضاءته سبحانه في مشكاة التعينات وظلمات الهويات ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ أي: للقمر ﴿مَنَازِلَ﴾ في السموات؛ تسهيلاً لكم في أموركم ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ التي تحتاجون إليها في معاملاتكم وتجاراتكم وحرثكم، كما قدر منازل نور النبوة والولاية في مشكاة الأنبياء والأولياء الوارثين منهم؛ لتقتبسوا أنوار الإيمان المزيحة لظلم الكفر والعصيان من مصابيح أولئك الأمناء الكرام، وتتوسلوا بهم إلى أن تستضيئوا بضياء الشمس الحقيقي التي لا أفول لها أصلاً.

ثم قال سبحانه ترغيبًا لعباده، وتنبيهًا لهم على أصل فطرتهم: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: ما أظهر وأوجد سبحانه ما أظهر في عالم الغيب والشهادة، حسب أسمائه وأوصافه إلا بالحق الثابت الصريح بلا احتياج إلى الدلائل والشواهد؛ إذ لا شيء أظهر من ذاته سبحانه حتى يجعل دليلاً عليه، وإنما ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ المنبهة عليها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5] يتحققون بمرتبة اليقين العلمي؛ ليترقوا منها إلى اليقين العيني والحقي، وأما المحجوبون فهم من عداد البهائم والأنعام، لا يرجى منهم الفلاح؛ لخباثة طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ﴾ وإيلاجه في النهار ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجه في الليل ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي﴾ أوضاع ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ من الأمور المقتضية لاختلافهما ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من المكونات الكائنة فيها على مقتضى تربية العلويات وتدبيراتها ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات دالة على قدرة القادر الحكيم المتقن في أمره وفعله ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:6] عن قهر الله، ويلتجئون إليه سبحانه عن غضبه وسخطه.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لإنكارهم إعادتنا إياهم في يوم الجزاء؛ لنجزيهم وفق ما عملوا ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المستعار بلا التفات إلى دار القرار ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: أسكنوا ووطنوا نفوسهم بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ لقساوة قلوبهم وغباوة فطنتهم ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:7] ذاهلون مع وضوحها وظهورها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء، المعزولون عن مقتضى العقل المستفاد من العقل الكل ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:8] من الكفر والعصيان، ومخالفة

الفعل المفاض.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس:9-12].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد، وبالعكس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة من عنده؛ لإصلاح أحوالهم ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى فضاء توحيده ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ ويقينهم العلمي ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المنتشئة من بحر التوحيد، من صبغة باليقين العيني والحقي ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:9] أي: هم مخلدون في مستلذاتهم الروحانية.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ ومناجاتهم مع ربهم، بعدما انقطعوا عن السلوك والتكميل: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾[1] أي: اللهم إنَّا ننزهك تنزيهًا، ونقدسك تقديسًا عن جميع ما يليق بجناب قدسك ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي: ترحيب بعض أرباب الدرجات مع بعض على تفاوت مراتبهم ﴿سَلامٌ﴾ وتسليم؛ لتحققهم بمقام الرضا ومقعد الصدق ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ بعد وصولهم إلى غاية مأمولهم: ﴿أَنِ الْحَمْدُ﴾ والمنة والثناء ﴿لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:10] يربيهم بأنواع اللطف والكرم تفضلاً منه

(1) قال روزبهان: لو ألهموا حمد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى، فرجعوا إلى رؤية المنة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضُوا الكل به، ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

سبحانه وامتنانًا.

ثم قال سبحانه حثًا لعباده إلى الرجوع والتوجه نحوه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ حين استعجلوه؛ لغرض من الأغراض ﴿اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أي: كاستعجال الخير لهم حين طلبوا، أو دعوا لأجله ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: انقرض مدة حياتهم بحلول أجلهم بدعائهم، ولكن أمهلناهم؛ رجاء أن يستغفروا منهم من يستغفر، وبالجملة: ﴿فَنَذَرُ﴾ ونترك المصرين ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ورضوا بالحياة الدنيا واقتصروا عليها، وأنكروا يوم الجزاء واللقاء ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [يونس:11] يترددون؛ إمهالاً لهم وتهويلاً لعذابهم.

﴿وَ﴾ من شدة عمههم وطغيانهم ﴿إِذَا مَسَّ﴾ وعرض ﴿الْإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ أي: ما يضره من مرض مؤلم وأمر مفجع مفزع ﴿دَعَانَا﴾ مشتكيًا إلينا، باثًا شكواه عندنا، ملقيًا ﴿لِجَنبِهِ﴾ إن لم يقدر على غيره ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ متضرعًا متفجعًا مستكشفًا ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ وعجلنا له مراده تجاوز عنا وعن أمرنا، ولم يلتفت إلينا أصلاً، وصار من شدة عمهه وغفلته ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ﴾ كشف ﴿ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت ﴿زُيِّنَ﴾ أي: حبب وحسن ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:12] من مخالفة أمر الله، ومخاصمة رسوله والمؤمنين المتابعين له، والإصرار على ما هم عليه من العتو والعناد.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس:13-17].

ثم قال سبحانه مهددًا مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله يا أهل مكة ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿الْقُرُونَ﴾ الماضية ﴿مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: حين ظلموا مثل ظلمكم، وخرجوا عن إطاعة الله وإقامة حدوده مثل خروجكم ﴿وَ﴾ هم أيضًا أمثالكم، قد ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة الدالة على صدقهم؛ إنما جاءهم ليمتنعوا عمّا هم عليه من الظلم والفساد ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: أولئك الأمم ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ لهم، ويصدقوهم فيما جاءوا به أمثالكم، بل كذبوهم وأصروا لهم على ما هم عليه، بل زادوا عليها؛ عنادًا ومكابرةً، فأخذناهم بظلمهم، وأهلكناهم بإصرارهم بعدما نبهنا عليهم فلم ينتبهوا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:13] المصرين على الجرم مع ورود الزواجر والروادع.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاكهم واستئصالهم ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾(1) أي: استخلفناكم، فهم خلفائه ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ مختبرين، مبتلين أمثالهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14] أتعملون الخير فيجازيكم خيرًا، أم تعملون الشر فيجازيكم شرًا، مثل ما جزيناهم؟.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة انهماكهم في الغفلة والضلال ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مع كونها مبينات لأحوال النشأة الأخرى وأهوال عذابها ونكالها ﴿قَالَ﴾ الكافرون: ﴿الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بل ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وجميع ما يترتب على النشأة الأخرى، فكيف لقاءنا فيها ﴿ائْتِ﴾ أيها الداعي من عند ربك ﴿بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ القرآن إن أردت أن نؤمن لك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وغيّر بعض آياته المشتملة على الإنذارات والتخويفات الشديدة، فإنا لا طاقة لنا بها.

إنما يقصدون بقولهم هذا استهزاءً وسخريةً برسول الله، واستخفافًا بكتاب الله

---

(1) خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سرادق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفاحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرفًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بألسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم. [العرائس].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي: ما يصح ويجوز ﴿لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ وأحرفه ﴿مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ على مقتضى أهويتكم الفاسدة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع وانتظر ﴿إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وليس في وسعي وطاقتي سوى الاتباع والانتظار، وكيف أتصرف فيه ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ بمجرد استماع قولكم هذا العصيان على نفسي، فكيف ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ بقصد التبديل والتغير؟ ﴿رَبِّي﴾ استوجبت ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:15] كما استوجبتم بسوئكم هذا على سبيل الاقتراح والإلحاح.

﴿قُل﴾ أيضًا لهم إلزامًا وتبكيتًا: ﴿لَّوْ شَاءَ اللهُ﴾ أي: لو تعلق مشيئته غير هذا المتلو ﴿مَا تَلَوْتُهُ﴾ أنا، وما أوحاه علي، وما أجراه على لساني ﴿عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾ وأعلمكم على لساني، ولكن تعلق بمشيئته بهذا فأوحاه وأجراه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مدة أربعين سنة ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل وحي القرآن بلا تلاوة وإدراء وإعلام ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:16] وتستعملون عقولكم في هذا الأمر، ولا تدبرون وتدربون فيه مع أنكم متدربون بأساليب الكلام، متبالغون فيه أقصى الغاية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ ونسب إليه ما لم يصدر عنه؛ افتراءً ومراءً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ التي صدرت عنه، ونزلت على رسله وأنبيائه؛ لإصلاح أحوال عباده، وإرشادهم مبدأه ومعاده، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:17] المفترون عليه بالأباطيل الزائفة، المكذبون كلامه المنزل من عنده على رسله.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس:18-21].

وكيف يفلحون ويفوزون بالفلاح ﴿وَ﴾ هم من شدة ضلالهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالوهيته ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾؟! لأنهم ليسوا من

ذوي القدرة والإرادة، بل من جملة الجمادات المعطلة التي لا شعور لها أصلاً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال غفلتهم وضلالهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ الأجسام والتماثيل العاطلة ﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ ينقذوهم من بأس الله وبطشه إن تحقق وقوعه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تسفيهًا وتحميقًا: ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ وتخبرون بقولكم هذا ﴿اللَّهَ﴾ العالم بالسرائر والخفايا ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ من الأمور الكائنة لا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الكوائن فيها، مع أنه سبحانه لا يعزب عن حيطة علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18] من الأوثان والتماثيل التي لا شعور لها أصلاً، مع أنها من أدون المظاهر، وأخس المخلوقات، وبالجملة: ما قدروا الله أولئك الحمقى حق قدره، لذلك نسبوا إليه ما هو منزه عنه، تعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ﴾ المجبولون على مظهرية الحق، المنعكسون من أظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملتجئة إلى الله، مقتبسة من أنوار تجلياته ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ أي: الأظلال الهالكة باختلاف صور الأسماء المتقابلة، والأوصاف المتضادة المتخالفة حسب الشئون والتجليات المتجددة في الكمالات المترتبة عليها ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ لتسويتهم وتعديلهم في النشأة الأخرى ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالعدالة والقسط ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:19] في هذه النشأة بلا تأخير إلى أخرى، لكن الحكمة المتقنة الإلهية تقتضي تأخيرها، ولذلك أخرت أمرهم وحسابهم وعذابهم؛ لئلا يبطل سر التكاليف والأوامر والنواهي.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ بعدما اقترحوا عنه بالآيات ولم تنزل: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ من الآيات المقترحة، مع أنه دعواه أن الله قادر على جميع المقدورات والمرادات، لا يخرج عن حيطة قدرته شيء ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم: بلى، إن الله قادر على جميع المقدورات، ومن جملة مقترحاتكم، إلا أن في عدم إنزالها وإنجاحها حكمة غيبية ومصلحة خفية، لا يعلمها إلا هو ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾[1] كله ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة حضرة

---

(1) قال الشيخ كبرى: يشير إلى معنيين: أحدهما: إن الغيب هو عالم الملكوت الذي ينزل منه الآيات، ويظهر منه للمعجزات بإنزال الله تعالى وإظهاره فهو لله وبحكمه ينزل الآيات منه متى شاء كما شاء، ﴿فَانتَظِرُوا﴾ [يونس:20] فإنه ينزلها، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:20] أي: لينزلها، والثاني: إن الغيب هو عالم الغيب فهو الله وهو الذي قدر الأشياء بحكمته ومشيئته، فإن اقتضت

علمه ﴿فَانتَظِرُوا﴾ بتعليق إرادته بمقترحاتكم ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾ أيضًا بلا تفاوت بيني وبينكم في عدم الاطلاع على غيبه ﴿مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:20].

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمسرفين: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ خلاصًا ونجاةً ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ واضطرتهم إلى الرجوع والتوجه نحونا ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ أي: ما جاءوا بعد نزول الرحمة إلى المكر والخديعة مع نبينا، والطعن ﴿فِي آيَاتِنَا قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم ومخايلكم ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ وأشد تدبيرًا وانتقامًا على مكركم وخداعكم، أعد لكم عذاب مكركم، وأشهد عليكم الملائكة، كما قال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الموكلون عليكم، المراقبون لأحوالكم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في صحائف أعمالكم ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:21] وتحيلون مع الله ورسوله.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس:22-23].

وكيف لا يراقبكم ويحافظ عليكم ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي: يمكنكم على السير والسياحة ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليجرب إخلاصكم وتقواكم، ورسوخكم في الإيمان ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ الجواري ﴿بِهِم﴾ أي: بمن في السفن ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ معتدلة، موافقة لسيرها ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ ويجريها على مرادهم ﴿جَاءَتْهَا﴾ بغتة ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، مزلزلة لها ﴿وَ﴾ من شدة هبوبها وتحريكها البحر ﴿جَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ مثل الجبال الرواسي ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: جانب وجهة ﴿وَظَنُّوا﴾ من غاية ارتفاع الأمواج المتوالية المتتالية ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أسباب

الحكمة والمشيئة الأزلية بإنزال آية من آياته وأوصاف ملتمسكم فإنه سينزل ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لإنزالها.

الإهلاك فتقع عليهم وتستأصلهم، وحينئذٍ ﴿دَعَوُا اللهَ﴾ ملتجئين متضرعين ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: مقتصرين الإطاعة والانقياد له؛ إذ لا تعارضه حينئذٍ الأهواء الفاسدة والآراء الباطلة، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا بفضلك وجودك ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ البلية المحيطة بنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:22] لنعمك المتذكرين دائمًا لجودك وكرمك.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ إجابةً لدعائهم، وكشفنا لضرهم وبلائهم ﴿إِذَا هُمْ﴾ يفاجئون إلى الكفران ويسارعون إلى الطغيان، حيث ﴿يَبْغُونَ﴾ ويطلبون الفساد ﴿فِي الأَرْضِ﴾ المعدة للعبادة والصلاح ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ أي: بلا رخصة شرعية، بل عن بغي وعناد، التفت سبحانه من الخطاب إلى الغيبة؛ تنبيهًا على بعدهم وطردهم عن ساحة عز الحضور، لذلك أبعدهم بالغيبة بعدما قربهم بالخطاب.

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسين نعمة الإنجاء والخلاص عن ورطة الهلاك ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وكفرانكم الذي فاجأتم به، بدل الشكر والإطاعة في النشأة الأولى وبال عائد ﴿عَلَى أَنفُسِكُم﴾ في النشأة الأخرى؛ إذ ﴿مَّتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: التمتع بلذاتها وشهواتها، والركون إلى مزخرفاتها قليل حقير ونزر يسير، لا ينبغي للعاقل أن يترك الباقي لأجل الفاني، واللذة الروحانية الدائمة المستمرة للذة الجسمانية المتناهية القصيرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ إذ لا غير معنا ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم رجوع الأظلال والأضواء والعكوس إلى الشمس ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ونعمل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:23] أي: بمقتضى عملكم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:24-25].

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: شأنها وحالها العجيبة التي كنتم تغترون

بها، وتميلون إليها وتفتخرون بمزخرفاتها ومموهاتها، وأمتعتها وأبنيتها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ واشتبك ﴿بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أي: ترابها المنبتة للنبات، وحصل من اختلاطها ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ من أنواع البقول والحشائش ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: شرعت لتربيتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: تزينت بأنواع التزيينات.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ﴾ متمكنون ﴿عَلَيْهَا﴾ وعلى جمعها وحصادها، وأخذ غلاتها ﴿أَتَاهَا﴾ بغتة ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكها واستئصالها ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ قبل صلاحها، بل مقطوعًا من أصلها إلى حيث ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ ولم تنبت فيها منها شيء ﴿بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونمثل ﴿الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:24] ويستعملون عقولهم بإدراك الممثل والممثل به، وبعد تعلقهم وتفكرهم يتنبهون أن الدنيا وحياتها ما هي إلا سراب غدار غرار، وبرق بلا قرار، من اغتر بغرورها هلك عطشى الأكباد، ومن استنار بنورها ضل عن طريق الرشاد.

﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَدْعُو﴾ جميع عباده؛ إذ أصل فطرتهم وجبلتهم على التوحيد ودين الإسلام ﴿إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾[1] أي: مقر التوحيد الذي من تمكن فيه سلم من جميع الآثام، وسلم أمره إلى العليم العلام، القدوس السلام ﴿وَ﴾ بعد دعوته جميع الأنام ﴿يَهْدِي﴾ ويوفق ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلّص عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:

---

(1) يدعو أزلاً وأبدًا عباده إلى دار السلام وهي العدم صورة وظاهرًا، وعلم الله وصفته؛ يعني: وحقيقة، وإنما سمي العدم والعلم دار السلام؛ لأن العدم كان دارًا قد سلم المعدوم فيها من آفة الحجب الروحانية والجسمانية والعلم دار قد سلم المعلوم فيها من آفة الإثنينية والشركة في الوجود وهي دار الوحدانية؛ وأيضًا لأن السلام هو الله تعالى، والعلم صفته القائمة بذاته فالله تعالى بفضله وكرمه يدعو عباده أزلاً من العدم إلى الوجود ومن العلم وهو الصفة إلى الفعل وهو الخلق ويدعوهم أبدًا من الوجود إلى العدم، ومن الفعل إلى العلم فدعاهم من العلم إلى الوجود بالنفخة، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، ودعاهم من الوجود إلى العدم، والعلم بالجذبة وهي قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، ولما دعا النبي ﷺ بالجذبة إلى علم الله الأزلي الأبدي، قال: قد علمت ما كان وسيكون؛ وذلك لأنه صار عالمًا بعلم الله لا بعلم نفسه وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:113] وإنما علمه ذلك العلم حين قال له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:19] أي: فاعلم بعلم الله الذي دعيت بالجذبة إليه لا إله في الوجود إلا الله، فإن العلم الإلهي محيط بالوجود كله كما قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق:12] فأنت بعلمه محيط بالوجود كله، فتعلم حقيقة أن ليس في الوجود إله غير الله. [التأويلات].

25] موصل إلى توحيده، وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام تتميمًا لحكمة التكاليف المنزلة من عنده، وتمييزًا بين أهل الضلال والهداية من عباده، وأصحاب الجنة والنار بطبقاتهم.

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس:26-30].

لذلك قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في هذه النشأة مع الله ورسله، وامتثلوا جميع ما جاء من عنده في كتبه؛ تعبيرًا وانقيادًا، إيمانًا واحتسابًا ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة العظمى والدرجة العلا، بدل إحسانهم في الدنيا؛ عدلاً من الله ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها، وهي رضوان الله منهم غايةً وتفضلاً ﴿وَ﴾ صاروا من صفاء عقائدهم وإحسانهم مع الله ﴿لَا يَرْهَقُ﴾ ويلحق ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبار الغفلة والندامة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان من التواني والتكاسل في احتمال التكاليف الإلهية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء، المقبولون عند الله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الفضل والعناية ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:26] جزاءً بما كانوا يعملون من الخيرات والمبرات.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من طغيان نفوسهم، ولم يلتفتوا إلى ما أمرهم الحق، وهداهم إليه رسله، يجيزون على مقتضى ما اقترفوا ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغطاهم غبار المذلة والخذلان، بدل ما اكتسبوا من البغي والعدوان ﴿مَّا لَهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه وعقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ حافظ يحفظهم، أو شفيع يشفع لهم ويخفف عنهم، بل صاروا من ظلمة كفرهم وفسقهم ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ سترت وأحيطت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ في غاية الظلمة لعدم استنارتهم بنور الإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء، الهالكون في تيه الغي

والضلال ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ المعدة لأهل الغفلة والأهواء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 27] جزاءً بما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: كلا الفريقين ﴿جَمِيعًا﴾ في يوم العرض والجزاء ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بنا غيرنا من التماثيل والأصنام: الزموا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ واستقروا عليها ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ حتى تسألوا عمّا أجرمتم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرّقنا وفصلنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: رفعنا رابطة العابدية والمعبودية التي بها وصلتهم وارتباطهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ مخاطبين إياه مشافهةً؛ برءة لنفوسهم: ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ أيها الضالون، المنهمكون في الغي والضلال ﴿إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس:28] بعلمنا وأمرنا؛ إذ لسنا من ذوي العلم وأولي الأمر، بل تعبدون أنتم أهواءكم وشياطينكم الكامنة في نفوسكم قد افتريتم علينا ونسبتم بنا؛ عنادًا ومكابرةً.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ﴾ اليوم وفيما مضى ﴿شَهِيدًا﴾ على ما جرى ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هو أعلم بعلمه القديم ﴿إِنْ كُنَّا﴾ أي: إنّا كنّا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ أي: توجهكم ورجوعكم إلينا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:29] إذ لم نخلق من ذوي الشعور والإدراك في نشأة الاختبار حتى نضلكم ونستعبدكم.

وبالجملة: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: حين أُحضروا للسؤال والجواب، والجزاء والحساب ﴿تَبْلُو﴾ أي: تختبر وتتفطن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ وكسبت فيما سبقت ﴿وَ﴾ بعد تفطنهم وتنبههم ﴿رُدُّوا﴾ جميعًا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد للجزاء؛ إذ هو ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ ومولى أمورهم ﴿الْحَقِّ﴾ وما سواه من الآلهة الكاذبة الباطلة، ومع بطلانها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: غاب عنهم وضاع عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:30] ظلمًا وزورًا، وسموهم آلهة وشفعاء، ولم يبقَ إلا الله الواحد القهار، ولو كوشفوا بوحدة الحق في جميع الأحيان والأحياز لتحققوا بتوحيده دائمًا بلا توقف إلى يوم القيامة، إلا أنهم لانهماكهم في الغفلة والضلال لم يتنبهوا في النشأة الأولى.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ

يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس:31-35].

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر توحيد الحق، واستقلاله في الآثار والتدبيرات الواقعة في الأقطار إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإمطار الأمطار، وتصعيد البخار ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالإنبات والإخراج ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ﴾ ويستطيع أن يخلق ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ اللتين هما من أعظم أسباب حفظكم وحضانتكم ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾ الحيوان السوي ﴿مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ أي: النطفة ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي: النطفة الجامدة من الحيوان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ في عالم الأسباب والمسببات ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ اضطرارًا لغاية ظهوره ووضوحه، لا يمكنهم أن يكابروا: ﴿ٱللَّهُ﴾ المدبر لجميع الأمور الكائنة في الآفاق والأنفس؛ إذ من غاية ظهوره لا يعاندون، ولا يكابرون ﴿فَقُلۡ﴾ لهم بعدما اعترفوا بالله المدبر لجميع الكوائن والفواسد؛ توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:31] وتحذرون من بطشه وانتقامه، تشركون له ما لا يسمع ولا يضر، ولا يغني من الحق شيئًا.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الذي اعترفتم به، هو ﴿ٱللَّهُ﴾ المتوحد، المستحق للألوهية والمعبودية؛ إذ هو ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي: مربيكم ومدبر أمركم؛ لأنه ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت، الحقيق بالحقية ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ﴾ وحدة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مما اتخذتم آلهة ظلمًا وزورًا ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الباطل ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس:32] أي: فكيف تصرفون وترجعون إلى غيره من الأظلال الهالكة، وتنسبونها إلى الألوهية والربوبية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ثبت الربوبية والألوهية للحق سبحانه ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ثبتت وتمت صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: خرجوا من عبادة الله ظلمًا وعدوانًا ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:33] أي: لا يوقنون بالله، ولا يصلون إلى مرتبة التوحيد أصلاً، لا علمًا ولا عينًا.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: في وسعهم وقدرتهم ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي: يوجده ثم يعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما هو شأن الإله، المنفرد بالألوهية ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [يونس:34] أي: كيف

تشكون وتصرفون عن جادة التوحيد بالميل إلى هؤلاء التماثيل الزائفة، العاطلة المعطلة.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا تبكيتًا وإلزامًا: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى﴾ طريق ﴿الْحَقِّ﴾ وصراط مستقيم، موصل إلى توحيده، فإن بهتوا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وطريق توحيده من يشاء من عباده، ويوصله إلى مرتبة حق اليقين ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: اليقين الحقي ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أليق وأحرى ﴿أَن يُتَّبَعَ﴾ أي: يطاع وينقاد له ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾ بنفسه إلى شيء أصلاً ﴿إِلَّا أَن يُهْدَى﴾ فاهتدى إن كان من أهل الاستهداء كبعض آلهتكم، مثل عزير وعيسى ﴿فَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها العقلاء، المعزولون عن مقتضى العقل ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس:35] بألوهيتهم وشركتهم، مع أن بديهة العقل يأبى عن ذلك.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا
رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم
مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا
يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم
بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:36-41].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين في إشراك هؤلاء المنحطين عن درجة الاعتبار مع الله المنزه عن الشريك مطلقًا ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وتخمينًا ناشئًا من تخيلات فاسدة، وتوهمات كاسدة من إنشاء الآثار إلى ظواهر الأسباب، مع الغفلة عن المسبب الموجد لها، و﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ والتخمين الذي تشبثوا وتمسكوا به ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يفيد ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو مناط الإيمان والاعتقاد ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ خبير بصير ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:36] على مقتضى ظنونهم وخيالاتهم وأوهامهم، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

وبعدما نبه سبحانه على بطلان اعتقاداتهم وظنونهم وجهالاتهم، أراد أن ينبه أن

مستند أهل الإيمان الذي هو القرآن الموضح لهم طريق التوحيد والعرفان ليس كذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾[1] المنزل على خير الأنام، المبين لهم قواعد دين الإسلام ﴿أَن يُفْتَرَى﴾ ويخيل أنه صدر ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ العليم الحكيم، وكيف يصدر هذا من غير الله؛ إذ هو في أعلى مراتب البلاغة، ونهاية درجات الإعجاز؟! لصدوره عن الحكمة المتقنة الإلهية التي كلت الأفهام دونها، وعجزت المدارك والآلات عن دركها، فلا يتوهم صدوره عن غير الله أصلاً ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقًا، كما نزل من عنده في الكتب السالفة، بل هو أعلى حكمة، وأتم به فائدة منها ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ الذي من علمه ولوح قضائه، وبالجملة: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه نازل ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:37] ليس في وسع بشر أن يأتي بمثله.

أيشكون نزوله على رسول الله ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ واخترعه من عنده، ونسبه إلى الله ترويجًا وتعظيمًا؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: بعدما شككتم أنه من عند الله، بل جزمتم بأنه من عند غيره ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ قصيرة ﴿مِّثْلِهِ﴾ في الفصاحة ورعاية المقتضيات والحكم والمطابقات، ووجوه الدلالات والتمثيلات، والتشبيهات والمجازات والكنايات ﴿وَ﴾ إن عجزتم أنتم ﴿ادْعُوا﴾ واستظهروا ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ واستوثقتم به ﴿مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:38] في دعواكم أنه من كلام البشر مفترى على الله.

ثم لمّا أفحموا على الإتيان، وعجزوا عن المعارضة، ومع ذلك لم ينصفوا، أو لم يقروا بأنه معجز ليس من كلام البشر ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بادروا إلى الرد والتكذيب ﴿بِمَا﴾ أي: بشيء ﴿لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ولم يعلموا ويفهموا ما فيه من قرائحهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ من معلم وملهم، بل كابروا في تكذيبه بلا سند عقلي ونقلي ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل تكذيبهم هذا ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم وكتبهم التي جاءوا به ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:39] الخارجين عن مقتضى الأوامر،

---

(1) يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلف ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله؛ لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمدًا ﷺ أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله ﷻ أن هذا القرآن وحي أنزل الله عليه وأنه مبرأ من الافتراء والكذب، وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى. انظر [تفسير الخازن (3 /398)].

المبادرين إلى تكذيب الله وتكذيب كتبه ورسله، وما جرى عليهم من المصيبات الهائلة، فانتظر يا أكمل الرسل لهؤلاء المكذبين، المكابرين أمثالها.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المكذبين المكابرين ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ويصدق بإعجازه في نفسه ويصر على التكذيب؛ عنادًا ومكابرةً ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لغلظ غشاوته، وشدة قساوته وشكيمته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:40] المكذبين المعاندين الذين يفسدون في الأرض بأنواع الفسادات.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وأصروا على تكذيبك، مع وضوح دلائل صدقك ﴿فَقُل﴾ تبريًا وتنزيهًا: ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أنا أجزى بما أعمل ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تُجزون أنتم أيضًا بما تعملون ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ منكرون له ﴿وَأَنَا﴾ أيضا ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:41] بأضعاف براءتكم، فانتظروا بجزاء أعمالكم، وأنا أيضًا أنتظر بجزاء عملي حتى يأتي وقت الجزاء.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس:42-46].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ استهزاءً، وأنت تلتفت إلى أسماعهم، وتبالغوا فيه؛ ليتعظوا، وهم لا يسمعون ولا يفقهون؛ لأكنة قلوبهم وصمم أسماعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وتجتهد في إصغائهم وإسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:42] لجهلهم المركوز في جبلتهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد أماراتها، ومع ذلك ينكر بك وبنبوتك ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ وتقدر على أسماعه ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ مجبولين بأنهم ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:43] لتعامي بصائرهم وأبصارهم، وقساوة قلوبهم.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ المستوجبين

للعذاب والنكال ﴿شَيْئًا﴾ مما لحقهم منه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ الناسين صرف ما أنعم الله لهم إلى ما خلق لأجله ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:44] بصرفها إلى خلاف ما حكم الله وأظهره له، لذلك استحقوا المقت والانتقام.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهواله المتطاولة، وشدائده المترادفة المتتالية إلى حيث يصور عندهم مدة حياتهم في الدنيا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ لطول ذلك اليوم وشدة أهواله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وهم يعرف بعضهم بعضًا هذا في أول النشر، ثم يشتد عليهم الأمر ويرتفع التعارف والالتفات، ويصير كل منهم رهينة ما كسبت، وبالجملة: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة عظيمة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، وأصروا على ما هم عليه من اقتراف المعاصي، ولم يلتفتوا إلى الأنبياء والذي جاءوا به من عند الله؛ لإصلاح أحوالهم في مبدئهم ومعادهم ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ أيضًا ﴿مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:45] بطريق الصلاح والصواب من تلقاء نفوسهم بلا إرشاد مرشد.

﴿وَ﴾ لقصورهم عن الرشد والهداية بلا مرشد مهدي ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ بالهداية والإرشاد، والسلوك في سبيل الصواب والسداد ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل وصولهم إلى فنائك؛ ليسترشدوا منك، ويستهدوا من زلال هدايتك، ويسترشحوا من رشحات فيضك وجودك ليصفوا من كدر هوياتهم ورين أنانياتهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جميعًا، ضالاً وهاديًا، رجوع الأظلال إلى الشمس ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم ﴿ٱللَّهُ﴾ المظهر لهم من كتم العدم؛ لحكمية العبودية والعرفان ﴿شَهِيدٌ﴾ مطلع حاضر بعلمه الحضوري ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:46] من المعرفة والضلال، والإيمان والطغيان يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا
شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ
وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا

كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:47-53].

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: فرقةٍ وطائفة ﴿رَّسُولٌ﴾ مرسل من عند الله على مقتضى حكمته وحكمه؛ ليهديهم إلى توحيدة ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ والعدل الموضوع من عند الله لإصلاح أحوال عباده ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:47] في يوم الجزاء، ولا ينقصون من أجور أعمالهم بل يجازون مقدار ما يقترفون من المعاصي.

﴿وَ﴾ من خبث بواطنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لك مستنكرًا عليك، مستهزئًا معك يا أكمل الرسل: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي ادعيت إتيان العذاب فيه عين وقته ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿صَادِقِينَ﴾ [يونس:48] في هذه الدعوة، مصدقين لمن يدعي الصدق فيه.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل: ﴿لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ ولا أقدر أن أكتسب عليها ولها ﴿ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقدره في سابق قضائه، ومتى لم أقدر على أحوال نفسي، فكيف لي قدرة على استعجال ما في مشيئة الله في غيبه وتعيين وقته؟ مع أنه لم يأذن لي، ولم يوح إلي من عنده سوى أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم سواء كانوا محقين أو مبطلين ﴿أَجَلٌ﴾ معين، ووقت مقدر، مقرر في علم الله ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ الذي عيَّنه الحق؛ لإهلاكهم فيه لا يمكن التخلف فيه إذن لا استعجال ولا استئخار ﴿فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:49] أي: لا يمكنهم طلب التأخر لمحةً وطرفةً؛ إذ الساعة مصروفة إلى مطلق الزمان؛ ليدفعوا الضر، ولا يمكنهم أيضًا طلب التقديم؛ ليجلبوا النفع، بل الأمر حتم في وقته، لا يتجاوز عنه أصلاً، فانتظروا فسيجيء أجلكم ووقتكم، وينجز وعدكم.

ومتى كان الأجل مبهمًا، ولم يمكن لأحد أن يعين وقته ﴿قُلْ﴾ لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أيها المجرمون المستعجلون للعذاب والنكال ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ أي: حال كونكم بائتين في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حال كونكم مترددين فيها، وعلى أي شأن وكل حال يصعب عليكم أمره؛ إذ هو يفزعكم ويفجعكم، وإذا كان حالكم عند نزوله وحلوله هذا ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ سبحانه من طوله؛ إذ كله مكروه ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:50] المستحقون لأنواع العقوبة والعذاب، أتنكرون وتكذبون له

وتصرون على ما أنتم عليه من الكفر والشرك إلى وقت حلول العذاب؟!.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ ولم ينفعكم الإيمان حينئذ؛ إذ قيل لكم حينئذ من وراء سرادقات العز والجلال: ﴿آلآنَ﴾ أيها الضالون المكذبون آمنتم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ كُنتُم﴾ من شدة إنكاركم وإصراركم ﴿بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس:51] استهزاء وسخرية.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالله بالخروج عن مقتضى أوامره وتكذيب رسله: ﴿ذُوقُوا﴾ بدل ذوقكم واستلذاذكم بتكذيب الرسل، والاستهزاء بهم ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ المستمر الدائم الذي لا ينقطع أبد الآباد ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ به ﴿إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس:52] في النشأة الأولى من الجرائم العظام والمعاصي والآثام.

﴿وَ﴾ بعد تبليغك إليهم مآل أمرهم وعاقبة حالهم، أنهم ﴿يَسْتَنبِئُونَكَ﴾ ويستخبرونك على مقتضى أكنتهم المستكنة في قلوبهم: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: ما أخبرت به من الوعيدات الهائلة؛ يعني: أجد هو أم هزل وتخويف؟ ﴿قُلْ﴾ مبالغًا في تحقيقه وتقريره: ﴿إِي وَرَبِّي﴾[1] أقسم بربي ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ثابت محقق عندي بوحي الله وإلهامه، لا شبهة في وقوعه وثبوته ﴿وَمَا أَنتُم﴾ بأمثال هذه الشبهات الواهية والظنون والجهالات ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:53] مسقطين العذاب النازل عليكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

---

(1) يعني ويستخبرونك أحق هو؟ قل: (إي وربي)، ويعنى بلى وربى إنه لحق. فقال جدي: لئن كنت صادقًا، فإنكم تملكون إحدى وسبعين سنة، ولقد بعث الله ﷻ فى بني إسرائيل ألف نبى كلهم يخبرون عن أمتك ولم يخبرونا كم تملكون حتى أخبرتنا أنت الآن، ثم قال جدي لليهود: كيف ندخل فى دين رجل منتهى ملك أمته إحدى وسبعون سنة، فقال عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه: وما يدريك أنها إحدى وسبعون سنة؟ فقال جدى: أما ألف فى الحساب فواحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون سنة، فضحك رسول الله ﷺ فقال جدي: هل غير هذا؟ فقال النبى ﷺ: «نعم، ﴿المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾» [الأعراف:1-2]. [تفسير مقاتل (1 /4)] بتحقيقنا.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:54-58].

﴿وَ﴾ كيف تسقطون عذاب الله عنكم لو فرض ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ وخرجت عن مقتضى أوامر الله ونواهيه ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: خزائن ما فيها جميعًا ﴿لافْتَدَتْ بِهِ﴾ بل بأضعافه وآلافه لو فرض قبول الفدية منها ﴿وَ﴾ بعد افتدائهم هذا ﴿أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: بهتوا حين عاينوا العذاب وأهوالها، وندموا عما افتدوا بمقابلته، وآيسوا عنها مطلقًا ﴿وَ﴾ لم ينفعهم الفدية أصلاً بل ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الإلهي ومقتضى حكومته وحكمته ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:54] في جزاء ظلمهم وكفرهم، وكيف يتصور الظلم من الله؛ إذ الكل من أظلال أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحيطة قدرته وعلمه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ ما ظهر في ﴿الأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسدات يعذب به من يشاء عدلاً منه، ويرحم على من يشاء فضلاً ﴿أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ الذي وعد لعباده من الثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ محقق ثابت لا محالة؛ إذ لا يجري الخلف في وعده أصلاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور فهمهم، وقلة تدبرهم في أحكامه المبرمة وحكمته المتقنة ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:55] حقية وعده، ولا يؤمنون بها جهلاً وعنادًا.

وكيف يشكون ويرددون أولئك المصرون المعاندون في سعة قدرته، وتستبعدون منه إنجاز ما وعده، إذ ﴿هُوَ يُحْيِي﴾ أي: يظهر، ويوجد بالتجلي الحبي أولاً هياكلهم وأشباحهم مع أنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا ﴿وَ﴾ بعد إظهارهم وإحيائهم ﴿يُمِيتُ﴾ ويعدم بالتجلي القهري على ما هم عليه من العدم ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر على إعادتهم أحياء للجزاء والحساب بعد إماتتهم؛ إذ هم بجميع أمورهم وأحوالهم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود سواه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [يونس:56] رجوع الأضواء والأظلال إلى الشمس.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسين المنشأ الأصلي والوطن الحقيقي ﴿قَدْ جَاءَتْكُم﴾ لإيقاظكم وانتباهكم ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ وتذكير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: تشفيه لغليلكم وأكنتكم المستكنة في صدوركم ﴿وَهُدًى﴾ هاديًا لأرباب الغاية والوصول إلى مقر التوحيد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عامة شاملة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:57] من أصحاب البر والتقوى فعليكم أن تتعظوا وتتذكروا بأحكامه، وتتأملوا في رموزه وإشاراته، وتدربوا في مفاتحه ومطالعه، حتى تتكشفوا منه بقدر وسعكم وطاقتكم ما تتكشفوا، والله الهادي.

إلى جنابه من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن تبعك إرشادًا لهم وتذكيرًا: ﴿بِفَضْلِ اللهِ﴾ وحسن قبوله وشرف عزه وحضوره ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الواسعة المتسعة لجميع مظاهره فليتشرفوا ولينكشفوا ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ التلذذ والحضور الحقيقي ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ بدل ما لم يتلذذوا ولم يفرحوا بالمستلذات الجسمانية الفانية المتناهية ﴿هُوَ﴾ أي: فرحكم وسروركم الروحاني ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:58] من أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم إن كنتم موقنين مخلصين.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:59-61].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ أي: أخبروني كيف كفرتم في ﴿مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم﴾ لمعاشكم وتقوية مزاجكم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ مسوق إليكم محصل بأسباب سماوي مباح لكم ﴿فَجَعَلْتُم﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً﴾ أي: حرمتم بعضه وحللتم بعضًا آخر بلا ورود شرع ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتقريعًا: ﴿اللهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بهذه التفرقة والقسمة ﴿أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:59] بنسبتها إليه.

﴿وَمَا ظَنُّ﴾ أي: أي شيء ظن أولئك المفترون ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بأنهم لم يجازوا ولم يؤاخذوا ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ على افترائهم على الله ما لم يصدر عنه، بل إنهم مؤاخذون على جرأتهم على الله وافترائهم به، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من الآيات الدالة على امتناعهم عنها فلم يمتنعوا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل المنبهين على ما هو الأصلح لهم وأليق بحالهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ بجهلهم وخبث باطنهم ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:60] نعمه بل ينكرون ويكفرون بها عنادًا ومكابرة.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون رسالتك ووحيك من الله وتأييدك من عنده سبحانه؛ إذ ﴿مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وأمر من ادعاء الرسالة من الله والتشريع من جانبه بلا إذن منه ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ مدعيًا نزوله من عنده بلا وحيه وإنزاله ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ﴾ أنتم أيضًا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح أو طالح، خير أو شر ﴿إِلاَّ كُنَّا﴾ بذاتنا وأوصافنا وأسمائنا ﴿عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ حضراء رقباء، مطلعين على جميع ما جئتم به وقت ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ أي: تخوضون وتقصدون الشروع ﴿فِيهِ﴾ أو الذب عنه ﴿وَ﴾ كيف لا نطلع عليها ولا يحيط علمنا بها وشهودنا إياها؛ إذ ﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أي: لا يغيب ويبعد ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ ومربيك أيها المظهر الجامع لجميع المراتب الكونية والكيانية والمتخلق بجميع الأخلاق الإلهية ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ كائنة ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ وَلاَ﴾ كائنة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وفضائها ﴿وَ﴾ كيف يعزب ويغيب عن حيطة علمه شيء؛ إذ ﴿لاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:61] ظاهر الإبانة والظهور بالنسبة إلى أرباب الولاء، الباذلين أرواحهم في طريق الفناء، المستغرقين في بحر الوحدة، الفانين عن هوياتهم بالمرة.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس:62-66].

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ﴾ المنخلعين عن لوازم البشرية بالكلية المنسلخين عن مقتضيات أهوية نفوسهم رأسًا ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62] إذ الخوف والحزن إنما هي من لوازم الطبيعة ومن ارتكاب مقتضياتها.

وبعدما انسلخوا عنها وتجردوا عن لوازمها وفانوا في هوية الحق وصاروا ما صاروا، لم يبق فيهم مبدأ الخوف والحزن والأمن والسرور؛ إذ لا يتصف الفاني بأمثال هذه الأضداد، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله في بداية سلوكهم؛ أي: تحققوا بمقام اليقين

العلمي ﴿وَ﴾ بعد تمكنهم وتقررهم فيه ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:63] ويحذرون من سطوة سلطنة صفاته الجلالية لانغماسهم بشواغل أهوية الهويات وانهماكهم بعلائق التعينات.

ثمّ لما استخلصوا منها بالإخلاص والإخبات الصادق ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ عند الله بالفوز العظيم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إذ هم تحققوا بمقام العبودية وتقرروا في مقر التوحيد، ووصلوا إلى ما أظهرهم الحق لأجله وهو المعرفة والشهود ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ التامات الناطقة بالكرامة والبشرى ﴿ذَلِكَ﴾ التبشير الشامل للنشأتين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس:64] واللطف الجسيم لأهل العناية من أرباب القبول.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل بولاية الله واتصفت بولائه وفزت بما فزت ﴿لاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الباطل بالكفر والإشراك بالله وتكذيب كتابه، ومنه أنزل إليه، ولا تغتم بتهديدهم إياك ولا تبالِ مفاخرتهم وخيلاءهم بالمال والجاه عليك ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ المعتبرة العظيمة ﴿لِلهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال، المتوحد بنعوت الكمال والجمال ﴿جَمِيعًا﴾ لا يعتد بعزة هؤلاء الغواة والعصاة، وسيخذلهم الله عن قريب بالقهر والانتقام، وينصرك عليهم بالغلبة والاستيلاء؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة الباطلة ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يونس:65] بنياتهم الفاسدة يجازيهم على مقتضى علمه، وينتقم عنهم وفق خبرته.

قل يا أيها النبي الهادي لمن يدعي ربوبية الأظلال الهالكة وألوهية التماثيل الباطلة تنبيهًا لهم وإيقاظًا عن غفلتهم: كيف تدعون أيها الحمقى شركة المصنوع المفضول مع الصانع القديم الحكيم؟! ﴿أَلَا إِنَّ لِلهِ﴾ أي: تنبهوا أيها المسرفون الجاهلون بقدر الله المتوحد المتفرد بذاته، المتجلي في الآفاق بأسمائه وصفاته، مظاهر ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ من الثقلين، وهم مع فضلهم وشرفهم وعلو شأنهم لا يستحقون الألوهية والربوبية ﴿وَ﴾ كيف يستحق أولئك الجمادات الساقطة عن درجة الاعتبار لذلك ﴿مَا يَتَّبِعُ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ في ألوهيته مستحقين للعبادة كعبادته إلا الزور الباطل والزائغ الزائل بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتعبون هؤلاء الضالون المشركون ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من جهلهم وغفلتهم عن سر هوية الحق في المظاهر كلها؛ لذلك حقروها في مظهر دون

مظهر ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[1] [يونس:66] أي: ما هم في ادعائهم وحصرهم هذا إلا كاذبون آفكون إفكًا عظيمًا، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس:67-70].

كيف تغفلون عن الله أيها الجاهلون، وكيف تشركون معه غيره أيها المحجوبون ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ بكمال قدرته وحكمته لباسًا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وتستريحوا من المتاعب ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتهتدوا إلى مطالبكم في أمور معاشكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجعل والتقدير ﴿لآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرته ومتانة حكمه وحكمته وتوحده في ألوهيته، وتفرده في ربوبيته واستقلاله في التصرف بلا مظاهرة أحد ومشاركة ضد وند ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:67] سمع تدبر وتدرب واستكشاف تام بعزيمة صادقة صافية عن شوب الغفلة والذهول.

ومن كثافة حجبهم وغشاوة قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ما قدروا الله حق قدره؛ لذلك نسبوا إليه ما هو منزه عنه سبحانه؛ حيث ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾

(1) قال الشيخ حقي (160/13): يكذبون فإن الخرص الكذب وكل قول بالظن والتخمين سواء طابق الواقع أم لا، قال الراغب: كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص سواء كان ذلك مطابقًا للشيء أو مخالفًا له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو يسمى كاذبًا، وإن كان مطابقًا للقول المخبر به، كما حكى عن قول المنافقين في قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله) إلى قوله: (إن المنافقين لكاذبون) يقول الفقير: إسناد المشيئة إلى الله إيمان وتوحيد إن صدر من المؤمن وإلا فكفر وشرك لأنه من العناد والمعصية والجهل بحقيقة الأمر فلا يعتبر.

وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، كيف يكون له ولد ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن التعدد مطلقًا، ليس لغيره وجود أصلاً، بل ﴿لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ظهر عليها سبحانه حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مقتضى التجلي الحبي اللطفي بلا انصباغ لها بالكون والتحقق بل بالانعكاس؟ ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ أي: ما عندكم أيها الجاهلون بمعرفة الله وحق قدره ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿بِهَذَا﴾ الادعاء الكاذب والقول الباطل، بل تتكلمون به افتراء ومراء ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتفترون أيها المفترون ﴿عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:68] ولا تدركون لياقته لجنابه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا للمكذبين المفترين كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:69] ولا يفوزون في النشأة الأخرى بمرتبة التوحيد التي هي معراج أهل الكمال، بل يحصل لهم بافترائهم هذا ﴿مَتَاعٌ﴾ أي: تمتع قليل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من الرئاسة والجاه ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ﴾ بعد تيقنهم وكشفهم فيها ﴿نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ بدل ما يتلذذون في النشأة الأولى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:70] أي: بسبب كفرهم وشركهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:71-73].

﴿وَاتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تذكيرًا وتعريضًا ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: قصته مع قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حين استعظموا أمره وقصدوا إهلاكه عنادًا ومكابرة: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه على مقتضى شفقة النبوة ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: شق وعظم ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ فيكم، وحياتي بينكم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿فَعَلَى اللهِ﴾ لا على غيره؛ إذ لا غير معه ولا شيء سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت به وفوضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أي: فعليكم أن

تجمعوا ﴿أَمْرَكُمْ﴾ وتدابيركم في قتلي وإهلاكي ﴿وَ﴾ مع ذلك ادعوا ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ مستظهرين لهم في دفعي ﴿ثُمَّ﴾ بعد تدبيركم واستظهاركم بهم أظهروا عليَّ بحيث ﴿لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ أي: لم يبقَ فيه ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ سترة تغتمون بها وتحزنون بسببها، بل رتبوا أمركم على ما تقتضيه نفوسكم وترتضيه عقولكم ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ واصرفوا نحوي ما هيأتم ودبرتم من الأسباب الموجبة لإهلاكي ﴿وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ [يونس:71] أي: لا تمهلوني طرفة بل امضوا على ما أنتم عليه من قتلي وإهلاكي، فإني لا أبالي بكم وبتدابيركم وظهرانكم؛ إذ الله حسبي وعليه توكلي وبه اعتمادي واعتصامي، أذكر لكم بإذنه وأعظكم بوحيه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وانصرفتم عن تذكيري ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: ليس بسبب توليكم وإعراضكم سؤالي منكم الجعل حتى يشق عليك إعطاؤه فانصرفتم وأعرضتم، بل ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري وجعلي ﴿إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ الذي أمرني به ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:72] المسلمين الأمور كلها إليه، المنقادين لحكمه وقضائه؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود.

ومع ذلك النصح والشفقة والتليين التام المنبعث عن محض الحكمة، والحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عنادًا ومكابرة، وأصروا على تكذيبه عتوًا واستكبارًا، فأخذناهم بالطوفان؛ لانهماكهم في الغي والطغيان ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُ﴾ من الغرق محفوظين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾[1] التي نحتها بيده بوحي الله إياه وتعليمه، وهم قد استهزؤوا معه حين اشتغل بتربيتها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: أصحاب الفلك ﴿خَلاَئِفَ﴾ من الهالكين، وهم ثمانون مؤمنون بالله مصدقون لرسوله ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:73] المكذبين لنذيرهم؟ وإلى أين أدى إنكارهم واستكبارهم؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

---

(1) يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على المريدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ريح عاصف أتت عليهم من موارد القدرة ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج القهر، وقهرهم عملهم. [العرائس].

وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ
﴿٧٨﴾﴾ [يونس:74-78].

﴿ثُمَّ﴾ لما ازداد أولئك الخلفاء الناجون، وتشعبوا أممًا وأحزابًا ودار عليهم الأدوار فصاروا منصرفين عن طريق الحق، مائلين عن سبيل الرشاد ﴿بَعَثْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد نوح ﴿رُسُلاً﴾ منهم كل واحد من الرسل ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات الساطعة القاطعة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: فما تيسر لهم وصح عندهم وثبت لديهم أن يؤمنوا ويصدقوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل بعثة الرسل، بل أصروا على ما هم عليه، واعتادوا له بلا تغيير وتبديل لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم وخباثة طينتهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ ونختم بختام الغفلة والنسيان ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:74] المجاوزين عن حدود الله، الراسخين على التجاوز والعدوان.

﴿ثُمَّ﴾ لما عتوا منهم من عتوا وأخذنا منهم من أخذنا ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: بعد أولئك الرسل الماضين ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الذي هو أخوه وظهيره ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والعناد إلى حيث ادعى الربوبية لنفسه بقوله: أنا ربكم الأعلى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المؤمنين له المعاونين لشأنه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في الآثار وتفردنا في الألوهية والربوبية وعلى صدق رسولنا في جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد، واستقبلوا بالتكذيب والعناد ﴿وَ﴾ هم في سابق علمنا ﴿كَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ [يونس:75] بأعظم الجرائم مستحقين بأشد العذاب؛ لذلك أظهروا ما في استعداداتهم وقابلياتهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع والانقياد ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ بعدما عارضوا معه وقابلوا بمعجزاته ما قابلوا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم بدل ما صدقوه وآمنوا له بعد ظهور أمره وشأنه: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به هذا الساحر الكذاب ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس:76] عظيم ظاهر فائق على سحر جميع السحرة.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما سمع قولهم هذا يسأل عن إيمانهم، متحسرًا متحزنًا على

مقتضى شفقة النبوة، موبخًا لهم على وجه الفطنة والتذكير: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الحمقى ﴿لِلْحَقِّ﴾ الصريح الثابت الصحيح ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ليورث في قلوبكم تصديقًا لوحدانية ربكم: إنه سحر باطل ﴿أَ﴾ ما تستحيون من الله ولا تنصفون وتقولون: ﴿سِحْرٌ هَذَا وَ﴾ الحال أنه ﴿لاَ يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز بالخير ﴿السَّاحِرُونَ﴾ [يونس:77] وهذا خير كله عاجلاً وآجلاً، وفوز بالفلاح والنجاح.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل المكابرة بعدما سمعوا من موسى قوله ونصحه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها الساحر الكذاب ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿وَ﴾ اشتهيت أن ﴿تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعظمة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي كنا عليها مستقرين ﴿وَ﴾ اذهبا إلى حيث شئتما ﴿مَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:78] مصدقين منقادين.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:79-86].

﴿وَ﴾ بعدما أفحموا عنه براهينهما وحججهما، وعجزوا عن معجزاتهما صمموا العزم لمعارضتهما، حيث ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ آمرًا لأعوانه وأنصاره: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:79] ماهر كامل فيه، فأرسلوا شُرَطًا لجميع أهل السحر، فأجمعوا واجتمعوا وجاءوا على فناء فرعون مجتمعين، ثمّ عينوا الوقت والموعد، فخرجوا إليه ليعارضوا معهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الميقات والموعد، قالوا لموسى تحقيرًا له وتهوينًا لأمره: ألقِ ما جئت به من السحر ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى﴾ مستعينًا بالله من عنده متوكلاً عليه: ﴿أَلْقُوا﴾ أيها المغترون المكذبون ﴿مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس:80].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما جاءوا به من السحر واستحسنوا من فرعون واستأملوا منه الجعل الكثير وجزموا الغلبة ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما رأى ما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ أيها المفسدون المعاندون ﴿السِّحْرُ إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع مخايلكم ﴿سَيُبْطِلُهُ﴾ عن قريب، ثمّ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فانقلبوا هنالك صاغرين ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:81] منهم؛ لانهماكهم في الإفساد والإسراف، المصرين على العتو والعناد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ﴾ الثابت من عنده ويقرره في مكانه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: بأوامره ونواهيه وآياته ومعجزاته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[1] [يونس:82] المحرومون عن نور الإيمان والتوحيد ذلك التثبيت والتقرير.

ثم لما ظهر أمر موسى وشاع غلبته وفاق معجزاته على ما جاءوا به من السحر والشعبذة ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ منهم بعد ظهور صدقه بين أظهرهم ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن﴾ شبان ﴿قَوْمِهِ﴾ أي: بني إسرائيل، وسبب توقفهم بعد الدعوة أنهم ﴿عَلَى خَوْفٍ﴾ وخطر عظيم ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الذين يجتمعون حولهم من القبط ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ويصول عليهم ليقتلهم ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون أولئك المظلومون؟! ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ المتناهي في العتو والاستكبار ﴿لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ غالب قاهر على جميع من فيها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:83] بالاستيلاء والبسطة والكبرياء إلى حيث تفوه من غاية كبره بـ: أنا ربكم الأعلى.

﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى توقف قومه في أمر الإيمان بعد وضوح البرهان ﴿قَالَ مُوسَى﴾ على وجه العظة والتذكر، وتعليم التوكل والتفويض الذي هو أقوى شعائر الإيمان، مناديًا لهم ليقبلوه عن ظهر القلب: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أراد به بني إسرائيل ﴿إِن كُنتُمْ

---

(1) الإشارة: الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوذة سحرية ، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ، تظهر ثم تبطن، وليس في الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد، فهي ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، وهي أيضاً أشبه شيء بالظلال، والظلال لا وجود لها من ذاتها، وإنما تابعة لشواخصها، ولذلك قالوا: ظلال الأشجار لا تعرق السفن عن التّسيار، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار في بحار معاني الأسرار، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها، فالعارف لا يحجبه عن الله شيء؛ لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية في كل شيء، والله تعالى أعلم. انظر [البحر المديد (3 /11)].

آمنتم بالله﴾ الرقيب الحسيب لعباده ﴿فعليه توكلوا﴾ في جميع أموركم وحالاتكم ﴿إن كنتم مسلمين﴾ [يونس:84] مسلمين أموركم إليه، منقادين لحكمه، وما جرى عليكم من قضائه.

ثم لما سمعوا مقالة موسى تأثروا منها وتذكروا ﴿فقالوا على الله﴾ المتولي لأمورنا ﴿توكلنا ربنا﴾ يا من ربانا بلطفك وهدانا إلى توحيده ﴿لا تجعلنا﴾ بحولك وقوتك ﴿فتنة﴾ أي: محل فتنة ومصيبة ﴿للقوم الظالمين﴾ [يونس:85] الذي قصدوا أن يتسلطوا علينا ويفتنوا بنا.

﴿ونجنا برحمتك﴾ التي وسعت كل شيء ﴿من القوم الكافرين﴾ [يونس:86] القاصدين ستر الحق بأباطيلهم الزائغة، الكائدين الماكرين مع من توجه نحوك ورجع إليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس:87-89].

﴿و﴾ بعدما أخلصوا في تضرعهم وتوجههم إلينا ﴿أوحينا إلى موسى﴾ أصالة ﴿وأخيه﴾ تبعًا ﴿أن تبوءا﴾ أي: خذا مباءة؛ أي: مسكنًا ومبيتًا ﴿لقومكما بمصر﴾ وأمر لهم أن يبنوا ﴿بيوتًا﴾ فيها ﴿و﴾ بعدما بنيتم بيوتًا ﴿اجعلوا﴾ أي: كل واحد منكما ومنهم ﴿بيوتكم قبلة﴾ ومسجدًا توجهون فيها إلى الله وتتقربون نحوه ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فيها أي: أديموا الميل والتوجه نحو الحق مخبتين خاشعين مخلصين ﴿و﴾ بعدما واظبوا على ما أمروا واستقاموا عليه مخلصين ﴿بشر﴾ يا موسى الداعي لهم إلى الحق ﴿المؤمنين﴾ [يونس:87] المتوجهين نحوه بالنصرة على الأعداء في الدنيا، والكرامة العظيمة في النشأة الأخرى، والفوز بالوصول إلى فناء المولى.

﴿وقال موسى﴾ بعدما تفرس القبول والإجابة للدعاء، داعيًا على الأعداء: ﴿ربنا إنك﴾ بفضلك وجودك ﴿آتيت فرعون وملأه زينة﴾ يتزينون بها ﴿وأموالا﴾ يميلون إليها

ويفتخرون بها ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولم يشكروا لنعمك بل يكفروا بها يا ﴿رَبَّنَا﴾ وإنما افتخروا وباهوا بحطامهم ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ضعفاء المؤمنين المتلونين الذين لم يتمكنوا في مقر اليقين ولم يتوطنوا في موطن التمكين ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: امحها واتلفها؛ لئلا يتمكنوا على تضليل عبادك بها ﴿وَاشْدُدْ﴾ ختمك وطبعك ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا﴾ ولا ينكشفوا بالإذعان والقبول ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ﴾ المعد لهم لكفرهم وإصرارهم ﴿الأَلِيمَ﴾ [يونس:88] المؤلم في غاية الإيلام حين رأوا المؤمنين في سرور دائم ولذة مستمرة وجنة نعيم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه مبشرًا لموسى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ووقع مناجاتكما في محل القبول، ثنّى الضمير؛ لأن هارون يؤمن حين دعا ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تفترا في أمركما هذا، والزما الصبر؛ إذ الأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وَلاَ تَتَّبِعَانِّ﴾ في الاستعجال والاستسراع ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 89] الأدب مع الله في إلحاحهم واقتراحاتهم في طلبه الحاجات.

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس:90-95].

﴿وَ﴾ بعدما تمرنوا بالصبر واستقاموا على ما أُمروا مخبتين، فازوا بما ناجوا وطلبوا مؤملين حين ﴿جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: عبرناهم من البحر سالمين، وذلك حين هم فرعون وملاه أن يكبوا على بني إسرائيل ويستأصلوهم بالمرة، فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً فأسرى بهم، فأخبروا فخرجوا على الفور، فأدركوهم

على شاطئ البحر فأوحينا إلى موسى بضرب العصا فضرب، فانفلق وافترق فرقًا، فعبروا سالمين، فلمّا أبصروا انفلاق البحر وعبورهم سالمين ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ فاقتحموا في البحر بلا مبالاة وتأمل ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلمًا وزورًا، علوًا واستكبارًا، فاجتمع البحر وعاد على ما كان فغرقوا ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ﴾ أي: فرعون ﴿الْغَرَقُ﴾ وآيس من حياته وجزم ألا نجاة له أصلاً ﴿قَالَ﴾ في حالة الاضطرار، مصرخًا صائحًا باكيًا، راجيًا الخلاص بمجرد الإقرار: ﴿آمَنتُ﴾ واعترفت ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه ﴿لاَ إِلَهَ﴾ يعبد بالحق ﴿إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:90] المنقادين لما جاء به رسوله.

وحين تفوه بها، هتف هاتف من وراء سرادقات العز والجلال قائلاً: ﴿آلآنَ﴾ أيها الطاغي الغاوي الباغي آمنت حين انقرض وقت الإيمان وانقضى زمانه ﴿وَقَدْ﴾ أخذت على ما ﴿عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ في مدة حياتك ﴿وَكُنتَ﴾ في زمان طغيانك وعصيانك الذي هو زمان الإيمان والعرفان ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:91] بأنواع الفسادات لا من المؤمنين؟!.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ لا ينفعك إيمانك ﴿نُنَجِّيكَ﴾ نخرجك من البحر ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بلا روح ونسقطك على الساحل عريانًا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من المتجبرين المتكبرين ﴿آيَةً﴾ زاجرة وعبرة رادعة عن العتو والعناد، صارفة عن الجور والفساد ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الناسين عهودنا وميثاقنا الذي عهدنا معهم في لوح قضائنا ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على أخذنا وانتقامنا ﴿لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:92] مثلك أيها الطاغي.

﴿وَ﴾ بعدما أهلكنا فرعون وملاه ﴿لَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أي: مكنّا وأسكنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مقعد صدق وموضع ثبوت واستقرار وتمكين على ما تقتضيه نفوسهم وترتضيه عقولهم ﴿وَ﴾ بعد تمكينهم وتوطينهم ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1] أي: أطياب

---

(1) قال في التأويلات: أي: من الفيض الرباني الفائض الروح العلوي بأنهما خلقا متصفين بصفات الروح، وما يلي إلى عالم العلوي من الحضرة من صفة الرحمانية فيفيض من الروح على القلب؛ لأن القلب من الروح بمنزلة العرش من الرب وهو محل استواء صفة الرحمانية من الرب يعني: محل ظهوره هذه الصفة الاختصاصية بقبول فيض هذه الصفة أولاً، كذلك مستوى عرش القلب وهو قابل الفيض الروحانية أولاً، فكل ما فاض من صفة الرحمانية على الروح يفيض الروح على القلب والسر.

الأغذية والفواكه ولذائذها ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم قبل نزول الكتاب، بل هم متفقون مجتمعون على ما بلغهم رسولهم وهداهم إليه ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وأنزل عليهم الكتاب، فاختلفوا فيه وتفرقوا فرقًا وتحزبوا أحزابًا، وانحرفوا عن طريق الحق وحرفوا الكتاب، سيما نعتك وحليتك وأوصافك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ ويحكم عليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:93] أي: يفصل بينهم، ويميز محقهم من مبطلهم بالإثابة والعقاب.

﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ في كتابك من قصصهم وأخبارهم ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ وارجع إليهم لإزالة شكك وحل شبهتك، وتفحص عنهم حتى تنكشف لك ويتحقق عندك ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن﴾ عند ﴿رَّبِّكَ﴾ الصريح المطابق للواقع ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ فيه ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:94] إذ ليس هذا محلاً للشك والارتياب؛ إذ ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42] لأنه تنزيل من حكيم عليم.

وبعدما سمعت ما سمعت ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ﴾ ألبتة ﴿مِنَ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على كمال قدرته ومتانة علمه وحكمته ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس:95] الساقطين عن مرتبة الخلافة، النازلين عن درجة أهل المعرفة والتوحيد.

وأمثال هذه الخطابات والعتابات من الله العليم الحكيم لحبيبه الذي ظهر على الخلق العظيم، وتمكن على الصراط المستقيم، إنما هو حث وترغيب للمؤمنين على ملازمة كتاب الله ومحافظة أوامره ونواهيه، وتثبيت لهم في إيمانهم وتصديقهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس: 96-100].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾ أي: ثبتت وجرت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في

سابق علمه ولوح قضائه في كفرهم وشركهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:96] بدعوتك وتبليغك إليهم الآيات الرادعة الزاجرة والبراهين الساطعة القاطعة.

بل ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ اقترحوها لم يؤمنوا؛ لشدة شكيمتهم وكثافة غشاوتهم ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:97] المعد لهم من عند العزيز العليم، فاعرض عنهم يا أكمل الرسل ودعهم وأمرهم، فإنّا ننتقم منهم.

﴿فَلَوْلاَ﴾ أي: فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي أُهلكوا بظلمهم ﴿آمَنَتْ﴾ حين حلول العذاب عليهم، وظهر أماراته كما آمن فرعون حين غشية اليم ﴿فَنَفَعَهَا﴾ في تلك الحالة ﴿إِيمَانُهَا﴾ ونُجي به عن العذاب ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ حين ظهر عليهم أمارات العذاب ولاح علامات الغضب الإلهي، وأخلصوا لله مخبتين خاضعين ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ﴾ الذي يفتضحون به ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لو لم نكشف ﴿وَ﴾ بعدما كشفنا العذاب عنهم ﴿مَتَّعْنَاهُمْ﴾ بأنواع التمتع مترفهين ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:98] أي: حين حلول الأجل.

وذلك أنه لما بعث يونس إلى «نينوى» قرية من قرى الموصل، كذبوه واستهزءوا به فوعدهم العذاب بعد ثلاث أو أربعين، فلما قرب الموعد خرج من الأفق سحاب غليظ وغيم أسود ودخان شديد، فغشي قريتهم، فهابوا هيبة عظيمة، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه وهموا إلى الإنابة والتضرع، فلبسوا المسوح وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين كل والدة وولدها، وحنّ بعضها إلى بعض فصرخوا، وتضرعوا إلى حيث علت الأصوات والضجيج، وأظهروا الندامة وأخلصوا التوبة، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء، يوم الجمعة.

﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل أمثال هذه الألطاف من الله الغفور الرحيم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بالإيمان من على الأرض ﴿لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبق على وجه الأرض كافر أصلاً بل يؤمنهم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين بلا اختلاف وتفرقة، لكن قضية الحكمة تقتضي الاختلاف والافتراق، والكفر والإيمان، والحق والباطل، والهداية والضلال؛ ليظهر سر التكليفات والتحميلات الواردة من الله على ألسنة رسله وسر المجازاة في النشأة الأخرى، وحكمة خلق الجنة والنار وجميع الأمور الأخروية ومتى جرت حكمة الله على هذا ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال حرصك على تكثير المؤمنين ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ وتلجئهم إلى الإيمان ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

[يونس:99] جميعًا، مع أن بعضهم مجبولون على الكفر، ولم يتعلق إرادة الله ومشيئته بإيمانهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: ما تيسر ووسع في وسعها وطاقتها ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله باختيارها ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ وتوفيقه وإقداره، فعليك يا أكمل الرسل ألا تجهد نفسك في إهداء من أراد الله إضلاله؛ لأنك ﴿لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:56] وهو العزيز الحكيم ﴿وَ﴾ من حكمته أنه ﴿يَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أي: الخذلان والحرمان ﴿عَلَى﴾ الكافرين ﴿الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:100] أي: لا يستعملون عقولهم التي هي مناط التكاليف إلى ما خُلق لأجله، ولا يتفكرون ويتأملون في الآثار الصادرة من القادر المختار حتى ينكشفوا بتوحيده.

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يونس:101-105].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى مرتبة النبوة؛ تهييجًا لهم وتحريكًا على استعدادهم وقابليتهم: ﴿انظُرُوا﴾ أيها المجبولون على النظر والتأمل ﴿مَاذَا﴾ أي: أي شيء وذات ظهر بحسب أسمائه وصفاته ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات والغيوب والشهادات ﴿وَ﴾ إن كان ﴿مَا تُغْنِي﴾ وتكفي ﴿الآيَاتُ﴾ الدالة على وحدة الذات المتجلي في جميع الكوائن والجهات ﴿وَالنُّذُرُ﴾ المبين للآيات، المنبهين على مدلولاتها ﴿عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101] أي: لم يتعلق إرادة الله بإيمانهم وتوحيدهم وعرفانهم.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون أولئك المتمردون على الإيمان ﴿إِلاَّ مِثْلَ﴾ ما وقع على أمثالهم من الخسف والكسف والغرق وغير ذلك من المعايب التي وقعت في ﴿أَيَّامِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن عارضوا معك بمثل ما

عارضت معهم مثل ما سلف من أسلافهم مع أنبيائهم ورسلهم ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتًا وإلزامًا: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ لمقتي وهلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:102] لكن لمقتكم وهلاككم، فالأمر بيد الله وقبضة قدرته ومشيئته.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أهلكنا الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل وإصرارهم على الكفر والشرك ﴿نُنَجِّي﴾ مما أصابهم ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين أرسلناهم إليهم ﴿وَ﴾ ننجي أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بنا وصدقوا رسلنا وانقادوا بما جاءوا به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إنجائنا إياهم ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ تفضلاً منا وامتنانًا على عبادنا ﴿نُنجِ﴾ جميع ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [يونس:103] المنقادين لرسلنا المتدينين بديننا، وعلى ذلك جرت سنتنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمترددين في أمرك ودينك المتمردين عن إطاعتك وانقيادك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّن دِينِي﴾ الذي هو أسدّ الأديان وأصحها وأشملها وأشرف الملل وأكملها؛ إذ هو مرجع كل الأديان كما هو مبدؤه؛ لابتنائه على توحيد الذات التي اضمحلت دونها جميع الكثرات، ومع ظهور فضله وكماله ووضوح حجته وبرهانه وعلو شأنه أنتم تشكون فيه فأنا أحق أن أشك فيما أنتم عليه وعبدتم إليه ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لقصورهم عن المعبودية وعدم استحقاقهم للألوهية والربوبية ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: أعدمكم ومعبوداتكم بعدما أظهركم وإياهم من العدم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:104] الموقنين لتوحيده المنقادين لحكمه.

﴿وَ﴾ أيضًا أمرت من عنده ﴿أَنْ أَقِمْ﴾ واستقم ﴿وَجْهَكَ﴾ أي: بوجهك الذي هو يلي الحق ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي أنزل إليك لإصلاح حالك حال كونك ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً على

---

(1) قال المحقق روزبهان: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجّا الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجّا العارفين من حجاب الشهوات، ونجّا المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحبّ أحدًا حفظه عن مهالك البعد منه. ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأنا اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقًّا علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لاَ تَكُونَنَّ﴾ بعدما ظهر عليك حقية دينك ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:105] الذين يدعون الوجود لغير الله ويشركون معه سبحانه وتعالى عنادًا ومكابرةً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:106-109].

﴿وَ﴾ متى عرفت حقيقة الحال وظهر عندك جلية المقال ﴿لاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ﴾ الواجب وجوده ﴿مَا لاَ يَنفَعُكَ﴾ من الموجودات الباطلة والأظلال الزائلة ﴿وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ أيضًا؛ إذ لا أثر لها من ذاتها ولا وجود لها من نفسها ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ وادعيت وجود غير الحق ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:106] الذين يظلمون على الله بادعاء الوجود والأثر لغيره.

﴿وَ﴾ كيف تدعي وتثبت لغيره وجودًا وأثرًا ﴿إِن يَمْسَسْكَ اللهُ﴾ الرقيب عليك ويصيبك ﴿بِضُرٍّ﴾ يسوءك ويحزنك ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ﴾ ولا يدفع عنك ضرره ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إذ لا شيء سواه ولا إله إلا هو ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يسرك تفضلاً عليك وامتنانًا لك ﴿فَلَا رَادَّ﴾ ولا دافع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ عنك ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالفضل والحسنى ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ﴾ لا يمنع فضله جرائمهم وعصيانهم؛ إذ ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم بعد استغفارهم ورجوعهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يونس:107] عليهم يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿قُلْ﴾ يا من بُعث لكافة البرايا وأُرسل إليهم بالتوحيد الذاتي الذي ختم به أمر التشريع والإرسال والإنزال، بلغ إليهم ما جئت به من ربك، مناديًا عليهم ليقبل بقبوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المكلفون بالعبادة والعرفان ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ الصريح ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو الإسلام المبين لشعائر المعرفة والتوحيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بالإسلام إلى التوحيد ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ويكتسب الهداية لها ونال ثوابها إليها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ولم يهتدِ

بنور الإسلام ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ويقترف الضلالة لنفسها، فعاد وبالها عليها، قل لهم أيضًا: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس:108] حفيظ، كفيل لأموركم ضمين لها، بل ما أنا إلا بشير ونذير أبلغكم ما أرسلت به، فلكم الخيار وعليكم الإختيار.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من ربك وامضِ عليه، وبلغ الناس ﴿وَ﴾ لا تبالي بإعراضهم وتكذيبهم، بل ﴿اصْبِرْ﴾ على أذاهم وتحمل مكروهاتهم، ولا تفتر عن دعوتك إياهم ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ المتولي لأمورك بنصرك وغلبتك عليهم بالقتال وبنسخ دينك جميع الأديان وبنشره في جميع الأقطار ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ [يونس:109] إذ هو مطلع على سرائر الأمور وخفاياها، قادر على جميع الانتقام لمن أراد مقتك وأعرض عنك.

ربِّ احكم بالخير والحسنى ووفقنا على متابعة سيد الورى.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق، العازم على طريق التوحيد والعرفان، المستكشف عن رموز أهل الكشف وأرباب المحبة والولاء - أنجح الله آمالك، ويسر الله مآلك ويصونك عما عليك - أن تحافظ على شعائر دين الإسلام الذي هو الحق الصريح المنزل على خير الأنام بالعزيمة الصحيحة الخالصة عن شوب الرياء والسمعة، الصافية على قذر الغفلة والهوى، وتلازم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله - صلوات الله عليه وسلام - وما سمحت به أكابر الصحابة، سيما الحضرة الرضوية المرتضوية وأولاده الكرام - سلام الله عليهم وكرم الله وجوههم - والتابعين لهم بإحسان - رضوان الله عليهم أجمعين - وما جاد به المشايخ العظام والأماجد الكرام، أنار الله براهينهم، وقدس أسرارهم.

وكن في عزمك هذا متوجهًا إلى قبلة التوحيد وكعبة الذات مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة، مصفيًا قلبك عن إمارات الكثرة والتعدد إلى حيث ارتفع عنك الالتفات إلى نفسك وشأنك حتى يحل عليك الحيرة المغنية لهويتك في هوية الحق المسقطة لتعينك رأسًا، ولا يتيسر لك هذا إلا بالركون عن لوازم الطبيعة والخروج عنها وعما يترتب عليها من اللذات الوهمية والمشتهيات البهيمية التي هي مقتضيات التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية.

ومتى صفت سرك وسيرتك عن أمثال هذه المزخرفات العائقة عن الاستغراق في

بحر الذات، فزت بما فزت، وصرت بما صرت، وحكم الله عليك بالخير والحسنى وأسكنك عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وليس وراء الله مرمى، لا حول ولا قوة إلا بالله، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من مخطوط تفسير شريف لحضرة سلطان العارفين الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة هود عليه السلام

لا يخفى على ذوي البصيرة والاستبصار وأولي الخبرة والاعتبار من المنقطعين نحو الحق، المتأملين في كشف غوامض أسرار توحيده بقدر الاستطاعة والاقتدار بتوفيق من الحكيم القدير، المجبولين على الحكمة والتدبير من لدن حكيم خبير، أن مبنى الأمر ومناط هذا الشأن العظيم الذي هو التوحيد والعرفان إنما هو على العبودية والتذلل التام والانكسار المفرط المفضي إلى إفناء الهويات الباطلة في هوية الحق الحقيق بالحقية وفناء التعينات العدمية فيها، وذلك لا يحصل إلا بمتابعة الرسول البشير والنذير، المؤيد من عند العليم القدير، ليرشدهم ويهديهم بالتوجه والتبتل إلى اللطيف الخبير؛ إذ مرجع الكل إليه كما أن مبدأه من عنده ومصدره لديه ومعاده عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:6].

لذلك أخبر سبحانه لرسوله المبعوث على كافة الخلق، المبين لهم طريق الرشاد في كتابه المنزل عليه بعد إحكام آياته وتفصيلها؛ تأييدًا له وتقوية لأمره، ليهدي به التائهين عن جادة التوحيد، المنصرفين نحوها بمتابعة الشيطان المريد، فقال متمنيًا باسمه العظيم ومخاطبًا على رسوله الكريم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أحكم آيات كتابه الدالة على توحيد ذاته لتكون موصلة إليه سبحانه لمن تمسك بها ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عباده بتفصيل تلك الآيات تسهيلاً عليهم وتوضيحًا ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بالعبادة والتذلل ليتحققوا بمرتبة حق اليقين الذي هو الصراط المستقيم.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ② وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ③ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:1-6].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الأحق الأليق لإعلاء لواء لوازم أنوار الألوهية وارتفاع رايات رموز أسرار الربوبية بين الأنام بالبيان والتبيان هذا ﴿كِتَابٌ﴾ أنزل إليك لتأييدك في أمرك، مصدق لما في الكتب السالفة جامع لأحكامها ﴿أُحْكِمَتْ﴾ ونظمت ﴿آيَاتُهُ﴾ أشد تنظيم وأبلغ إحكام وإتقان بحيث لا يعرضه خلل واختلال لا في معناه ولا في لفظه؛ لذلك عجزت عن معارضته جميع أرباب اللسن والفصاحة مع وفور وعيهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد إحكامه لفظًا ومعنى ﴿فُصِّلَتْ﴾ وأوضحت فيه من المعارف والحقائق والأحكام المتعلقة بالعقائد والعلوم اليقينية، والقصص المشيرة إلى العبر والمواعظ والأمثال المشعرة إلى الرموز والإشارات ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ متقن في أفعاله ﴿خَبِيرٍ﴾[1] [هود:1] يصدر عنه الأفعال على وجه الخبرة والاعتبار.

وحكم فيه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أيها المجبولون على العبادة في الفطرة الأصلية ﴿إِلَّا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي أوجدكم من كتم العدم باستقلاله إيجادًا إبداعيًا، وقل لهم يا أكمل الرسل تبشيرًا وتنبيهًا: ﴿إِنَّنِي﴾ مع كوني من جملتكم ﴿لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله المتوحد بذاته بأمره ووحيه ﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يبعدكم عن الحق، حتى لا تستحقوا عذابه وعقابه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [هود:2] أبشركم ما يقربكم إلى جنابه، حتى تستحقوا الفوز العظيم من عنده.

---

(1) قال في التأويلات: ﴿الر﴾ يشير بالألف: إلى الله، وباللام: إلى جبريل، وبالراء: إلى الرسول؛ يعني: ما أنزل الله مع جبريل إلى الرسول، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني: القرآن كتاب أحكمت بالحكم آياته، كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:151] فالكتاب: هو القرآن، والحكمة: هي الحقائق والمعاني والأسرار التي أدرجت في آياته، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: بينت لقلب العارفين تلك الحقائق والحكم ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ [هود:1] أودع فيها بالحكمة البالغة التي لا يقدر غيره أبدًا عليها فيها، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن، ﴿خَبِيرٍ﴾ [هود:1] على تعليمها من لدنه لمن يشاء من عباده كقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65] يشير إلى أن القرآن ظهرًا يطلع عليه أهل اللغة.

﴿وَ﴾ حكم فيه أيضًا ﴿أَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ واسترجعوا في فرطاتكم ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي أوجدكم على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وتوصلوا به بعد رفع حجب الأنانية عن البين، وكشف سدل التعينات الوهمية عن العين ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ بعد اضمحلال رسومكم وتلاشي هوياتكم في هويته بالرزق المعنوي والغذاء الحقيقي من عنده ﴿مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ على مقتضى نشأته وأوصافه وأسمائه وتطورات تجلياته الجمالية والجلالية ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الطامة الكبرى التي انقهرت دونها توهمات الأظلال وتخيلات السوى والأغيار.

﴿وَ﴾ بعد تسييركم وتنزيلكم من عالم الغيب متنازلين إلى عالم الشهادة لاقتراف الحقائق والمعارف، وترجيعكم منها إليها متصاعدين إظهارًا لقدرته وبسطته ﴿يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ أي: ليؤت ويعط كلاً من ذوي العناية الموفقين على الهداية التي جبلوا لأجلها ﴿فَضْلَهُ﴾ أي: حقه وجزاءه، أي: قبل منهم ما اكتسبوا من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات وأقرهم في النهاية على مقر نزلوا منه في الهداية ﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا وتنصرفوا أيها المجبولون على التكليف عن مقتضى إنذاري وتبشيري ﴿فَإِنِّي﴾ من غاية إشفاقي لكم وتحنني نحوكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:3] أي: نزول العذاب يوم العرض الأكبر الذي أشرقت فيه شمس الذات إلى حيث اضمحلت الأظلال والعكوس مطلقًا، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بلا تزاحم الأظلال والأغيار: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وأجيب أيضًا من ورائها: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

واعلموا أيها الأظلال المقهورة ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ورجوعكم رجوع الظل إلى ذي الظل والعكوس إلى ما انعكس منها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته قاهر فوق عباده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور العذاب والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [هود:4] لا يخرج عن حيطة قدرته شيء، ولا يعزب عن علمه معلوم، مما جرى عليهم من الأحوال.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ أي: المحجوبون الغافلون من غاية جهلهم وغفلتهم عن الله ﴿يَثْنُونَ﴾ أي: يقطعون وينحرفون ﴿صُدُورَهُمْ﴾ عن الميل إلى الحق والتوجه نحوه طالبين ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: يستروا ويخفوا من الله ما تكمن صدورهم من الإعراض عن الحق بأوامره ورسله ﴿أَلَا﴾ إنهم لم يعلموا ولم يتفطنوا أن الله المطلع بجميع ما

جرى في ملكه يعلم منهم ما جرى عليهم وظهر منهم ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يطلبون التدثر والتغطي وقت رقودهم في مضاجعهم، بل ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم ومشاعرهم، وكيف لا يعلم سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:5] وبما هو مكنون فيها من السرائر والضمائر.

﴿وَ﴾ كيف يستبعد أمثال هذا من حيطة حضرة علمه؛ إذ ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾ تترك ﴿فِي الأَرْضِ﴾ مثلاً ﴿إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ المتكفل لأرزاق مظاهره ومصنوعاته ﴿رِزْقُهَا﴾ أي: ما تعيش وتتقوم به ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْلَمُ﴾ منشأها ومصدرها في عالم الغيب، ويعلم أيضًا ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: محل قرارها وبقائها في عالم الشهادة، ومقدار ثباتها واستقرارها فيها ﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ﴿مُسْتَوْدَعَهَا﴾[1] ومرجعها في عالم الغيب بعد انقضاء النشأة الأولى، وبالجملة: ﴿كُلٌّ﴾ من الأحوال والأطوار والنشأة الطارئة عليها بحيث لا يشذ شيء منها محفوظ مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:6] هو حضرة علمه ولوح قضائه، فكيف تنكرون أيها المنكرون إحاطة علمه، وتستخفون منه شيئًا من مخايلكم؟!.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في التأويلات: يعلم الذي تؤل إليه عند استكمال صورتها ومعناها المستودع فيها، وللإنسان خاصة يعلم مستقر روحه في عالم الأرواح أكان في الصف الأول، أو في الثاني، أو في الثالث، أو في الرابع، فإنه جاء في معنى حديث النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» إن الأرواح كانت في أربعة صفوف: كان في الصف الأول: أرواح الأنبياء وأرواح خواص الأولياء، وفي الصف الثاني: أرواح الأولياء وأرواح خواص المؤمنين، وفي الصف الثالث: أرواح المؤمنين والمسلمين، وفي الصف الرابع: أرواح الكفار والمنافقين، ويعلم مستودع روحه عنه استكمال مرتبة كل نفس منهم من دركات النيران، ودرجات الجنات إلى مقدر صدق عند مليك مقتدر.

كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود:7-11].

﴿وَ﴾ أني يعزب ويغيب عن علمه شيء؟! ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وأبدع ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات اللتين هما بمثابة الآباء والأمهات والفواعل والقوابل لنشأتكم وظهوركم ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ليحيط بالجهات كلها ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ﴾ أي: مجلاه ومحل بروزه على الماء، وتشعشع تجلياته قبل ظهور هذه المظاهر والمكونات ﴿عَلَى المَاءِ﴾ أي: على الحياة الحقيقية الخالية عن التغيرات والانقلابات المتوهمة من التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية، وإنما أظهرها على هذا التمثال وأوجدها على هذا المنوال ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم أيها الأظلال والعكوس ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وقبولاً، وأتم توجهًا ورجوعًا، وأكمل تحققًا ووصولاً في يوم الجزاء.

﴿وَ﴾ بعدما نبههم الحق على ما هو الحق، وأوجدهم على فطرة الفطنة والذكاء بمبدئهم ونشأتهم الأصلية ﴿لَئِن قُلْتَ﴾ يا أكمل الرسل تذكيرًا لهم وإصلاحًا لحالهم: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ المَوْتِ﴾ للحساب والجزاء وتنفيذ الأعمال، فعليكم أن تتهيأوا لها وتدخروا لأجلها حتى لا تؤاخذوا ولا تعاقبوا ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم من كمال غفلتهم وقسوتهم بعدما سمعوا منك قولك هذا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما الذي تقول به هذا الرجل إن وقع وتحقق ﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:7] عظيم؛ إذ إحياء الموتى من العظام الرفات لا يتصور إلا بالسحر الخارق للعادات، فإن وقع فهو في غاية العظمة ونهاية الغرابة.

﴿وَ﴾ بعدما استوجبوا لأسوأ العذاب واستحقوا لأليم العقاب بكفرهم وإنكارهم ﴿لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ﴾ المعد لهم؛ أي: إتيانه ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾ أي: جماعة من الأيام والأوقات ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ فلائل ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ مستهزئين مستسخرين من غاية جهلهم وإنكارهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي: يمنعه عن إتيان ما يدعيه من العذاب ووقوع ما يعد به من الأخذ والبطش ﴿أَلاَ﴾ تنبهوا أيها المؤمنون وتذكروا ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب، واعلموا يقينًا أن العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ حينئذ، ساقطًا عن ذمتهم، بل نزل عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ حتمًا ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود:8] من العذاب الموعود

وقت إنذار الرسول.

﴿وَ﴾ من غاية لطفنا وجودنا إلى الإنسان، ونهاية إحساننا معه وتفقدنا لحاله ﴿لَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ﴾ المجبول على النسيان والكفران وأعطيناه ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ ونعمة تسره وتفرج همه ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ومنعناها عنه؛ إظهارًا لقدرتنا وكمال بسطتنا ﴿إِنَّهُ﴾ من قلة تصبره وغاية ضعفه وتكسره ﴿لَيَئُوسٌ﴾ قنوط من فضلنا ورحمتنا ﴿كَفُورٌ﴾ [هود:9] لما وصل إليه من نعمتنا.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ وأنعمنا عليه ﴿نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: أعجزته وأزعجته ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مفتخرًا مباهيًا بطرًا ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ المؤلمة المحزنة ﴿عَنِّي إِنَّهُ﴾ من غاية غفلته عن المنعم ﴿لَفَرِحٌ﴾ بطر فرحان ﴿فَخُورٌ﴾ [هود:10] مغرور مفتخر بما في يده من النعم، مشغول بها عن شكرها وأداء حقها.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من السيئات المملة المؤلمة، واسترجعوا إلى الله لكشفها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وواظبوا على الخيرات والحسنات وداوموا على الإيثار والصدقات؛ شكرًا لما أنعمنا عليهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الصابرون عن البلاء، الشاكرون على النعماء ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: ستر ومحو لذنوبهم التي مضت عليهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:11] هو الرضاء منهم تفضلاً عليهم وامتنانًا.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ
قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَٰتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ
﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾
أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود:12-16].

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أكمل الرسل من غاية ودادك إيمانهم ومحبتك متابعتهم ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من عندنا، مشتملاً على توبيخهم وتقريعهم وزجرهم وتشنيعهم؛ كراهة أن يركنوا عنك وينصرفوا عن متابعتك ﴿وَضَائِقٌ﴾ أي: بسبب ما يوحى إليك

﴿بِهِ صَدْرُكَ﴾ مخافة ﴿أَن يَقُولُوا﴾ حين أظهرت عليهم بما أوحيت به: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ بدل هذه التوبيخات والتقريعات من عند ربه ليتابع الناس له ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ مصدق لنبوته ورسالته ليطيعوا ويؤمنوا له طوعًا بلا كلفة، لا تبالِ يا أكمل الرسل بهم وبقولهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ بلغ ما أنزل إليك من إنذارهم وتخويفهم، ولا تلتفت إلى ردهم وقبولهم، وتوكل على دينك وثق به، فإنه يكفي عنك مؤنة شرورهم وضررهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنهم ﴿وَكِيلٌ﴾ [هود:12] عليهم يعلم منهم ما هو مستوجب العقوبة والعذاب، وما هو قوي للنوال والثواب، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، أو لم يكف بتصديقك القرآن المعجز لأرباب اللسن والبيان في تشددهم في المعارضة والمقاتلة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ مكابرة وعنادًا: ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الوحي ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل حين نسبوك إلى الافتراء والاختلاق: ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المكابرون المعاندون ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: مثل أقصر سورة من سور القرآن ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ مختلفات على ما زعمتم مع أنكم أحق باختلافها؛ لكثرة تمرنكم وتزاولكم في أمر الإنشاد والإنشاء، وتتبع كلام البغاء والتعود بممارسة القصص والقصائد، وإن عجزتم عن اختلاقها بأنفسكم، فاستظهروا بإخوانكم ومعاونيكم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ واتفقوا معهم في اختلاقها ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:13] في ظنكم هذا.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ولم يأتوا بما تحديتم لهم ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون واطمأنوا وتيقنوا ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وبكمال قدرته وإرادته، لا يمكن لأحد من مظاهره ومصنوعاته أن يأتي بمثله ويعارض معه، وكيف لا يعارض معه؛ إذ لا شيء سواه ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:14] منقادون لحكمه مسلمون أموركم كلها إليه، مخلصون مطمئنون، متمكنون في جادة التوحيد، بل أنتم أيها الموحدون المحمديون هكذا.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿مَن كَانَ﴾ بارتكاب الأعمال واحتمال شدائدها ومتاعبها ﴿يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المزخرفة التي تترتب عليها من الأموال والأولاد ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ لأجلها ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:15] أي: لا ينقص شيء من أجور أعمالهم في النشأة الأولى إن كان غرضهم مقصورًا عليها، محصورًا بها.

وأمّا في النشأة الأخرى ﴿أُوْلَئِكَ﴾ القاصرون المقصرون هم ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي: لم يبقَ لهم مما يترتب على أعمالهم فيها ﴿إِلاَّ النَّارُ﴾ إذ حسناتهم توفى إليهم في النشأة الأولى ولم يبقَ لهم إلا توفية السيئات، وليس توفية السيئات إلا بالنار وما يترتب عليها من العذاب والآلام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿حَبِطَ﴾ وضاع واضمحل ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في النشأة الأولى من الخيرات والمبرات بإرادتهم الأمور الدنيوية لأجلها ﴿وَ﴾ صار بعدم إصلاحهم وعكس مرادهم ﴿بَاطِلٌ﴾ فاسد مقتضى ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:16] من الصالحات فيها، وإن ظهر على صورة الصالحات.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود:17-19].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(1) أي: تظنون وتحسبون أن من انكشف له برهان واضح وكشف صريح وشهود محقق من قبل ربه، وتحقق بمقام التوحيد، وبسريان وحدة الذات في جميع الكائنات والفاسدات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَتْلُوهُ﴾ يطرأ عليه ويجري على لسانه ﴿شَاهِدٌ﴾ ناطق بتصديقه نازل ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من عند ربه؛ امتنانًا له وتفضلاً عليه، يريد ويقصد من أفعاله وأعماله الصادرة عنه ظاهرًا مثل ما أراد أولئك المحجوبون المستورون عن الحق، وإحاطته وشموله واستقلاله في الآثار الظاهرة في

(1) قال ابن عجيبة في «البحر المديد»: أي: من شهد مقام الله ﷻ بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. وقال الورتجبي: تقدير الآية على وجه الاستفهام: أفمن كان على بينة من ربه؛ كمن هو في الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه، وولاية وسلامة وكرامة، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه، وعقله وسره، فأدرك فيض أنوار جماله، وقربه، يؤثر ذلك في هيكله حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر.

الآفاق، كلا وحاشا ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9] وما يتذكر إلا أولو الألباب.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون شهادة القرآن على تصديق خير الأنام؛ إذ ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن جاء ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ من قبل مصدقًا له في دعواه وصار من عموم حكمه ﴿إِمَامًا﴾ أي: قدوة لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة للخواص والعوام؛ لإهدائهم إلى دار السلام ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أي: أهل التوراة، وهم الذين يؤمنون بها ويمتثلون بما فيها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بحقية القرآن لكونه مذكورًا في التوراة المنزل عليهم ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن وبحقيته ﴿مِنَ الأَحْزَابِ﴾ المتحزبين مع المحرفين للتوراة، المنحرفين عن جادة الإيمان ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لا بدّ أن يرد عليها على مقتضى العدل الإلهي ﴿فَلاَ تَكُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من ورودهم عليها إنجازًا لوعده ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا بدّ أن يتحقق وقوعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة وغلظ حجابهم عن الله ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:17] بحقيته وحقية وعده وإنجازه الموعود؛ لذلك حرفوا ما جاء من عنده في كتابه، وزادوا عليه ما لم يجيء منه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ عمدًا، وحرف كتابه بتنقيص شيء منه أو زيادة عليه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المحرفون المجترئون على الله بتبديل آياته ﴿يُعْرَضُونَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ويُسألون عما فعلوا بكتاب الله، فينكرون ويستنزهون أنفسهم عنه ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ﴾ من أعضائهم وجوارحهم إلزامًا لهم: ﴿هَؤُلاءِ﴾ المسرفون المعاندون ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحرفوا كتابه افتراء ومراء، ظلمًا وعدوانًا، وبعد إشهاد هؤلاء الأشهاد، نودي من وراء سرادقات العز والجلال؛ تفضيحًا لهم وتخذيلاً على رءوس الأشهاد: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ﴾ وطرده وإبعاده عن سعة رحمته ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:18] المجاوزين عن مقتضى حكمه وحكمته عنادًا ومكابرة.

وهم ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون عبادِ الله ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي هو الشرع المنزل من عنده على أنبيائه ورسله بالعدالة والتقويم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون أن يحدثوا فيها عوجًا وانحرافًا؛ ليصرفوا ويرتدوا منها أهلها بعد إيمانهم بها وانقيادهم إليها فاستحقوا العذاب والنكال الأخروي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُم بِالآخِرَةِ﴾ المعدة

للجزاء والانتقام ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود:19] منكرون لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود:20-24].

﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المسرفون المفترون على الله، المفرطون في تحريف كتابه ﴿لَمْ يَكُونُوا﴾ من أهل الإعجاز حتى صاروا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ كل من تحدى معهم ويعارضهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حتى ينصروهم ويحفظوهم عن عذاب الله إياهم إن تعلق إرادته بتعذيبهم في الدنيا، وإنما أمهلهم وأخر عذابهم إلى يوم الجزاء؛ ليقترفوا من موجباته وأسبابه أكثر مما كانوا عليه، حتى يدوم وبالها لأجلهم، بل ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ﴾ لأنهم بسبب إعراضهم عن الحق ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لأن في آذانهم وقرًا عن استماعه ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:20] لتعاميهم عن أبصار آثاره ودلائله.

وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المعزولون عن استماع كلمة الحق وإبصار علاماته هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالافتراء على الله بما لا يليق بجنابه بإشراك مصنوعاته معه في استحقاق العبادة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود:21] من الآلهة الباطلة، ولم يبقَ لهم سوى الندامة والخسران.

لذلك ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ [هود:22] المقصورون على الخسران والحرمان، ألا ذلك هو الخسران المبين!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وفوضوا أمورهم كلها إليه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى جنابه ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: تضرعوا له مطمئنين خاشعين ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون الصالحون، المصالحون الخاشعون المخبتون ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾ التي هي دار السعداء ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود:23] دائمون مطمئنون متمكنون لا

خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمن والكافر في السعادة والشقاوة والهداية والضلال ﴿كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾[1] كل مع نقيضتها ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ كل من النقيضين ﴿مَثَلاً﴾ أيها العقلاء ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:24] التفاوت والتفاضل حتى تتنبهوا وتتفطنوا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود:25-28].

﴿وَ﴾ من عدم تذكر الإنسان وتوغله في الغفلة والنسيان ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الناجي عما سوى الحق، المنجي للهالكين في تيه الضلال ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الكفر والعصيان، ولاح فيهم علامات الظلم والطغيان قائلاً لهم على وجه العظة والنصيحة: ﴿إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وعطفي ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أنذركم من طول العذاب ونزول غضبه بسبب ظلمكم وكفركم ﴿مُبِينٌ﴾ [هود:25] مظهر مبين لكم ما يوجب تعذيبكم من أفعالكم وأعمالكم الدالة على كفركم وشرككم.

فعليكم أيها المسرفون المفرطون ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا﴾ ولا تتوجهوا ﴿إِلاَّ اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له ولا شيء سواه، ولا تشركوا به غيره ﴿إِنِّي

(1) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (3 /40).

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لو أشركتم بالله وكفرتم به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:26] مؤلم مفزع، كأن ألم العذاب يسري في زمانه لفظاعته وشدته.

ثم لما سمعوا قوله وفهموا مراده استكبروا عليه واستبعدوا أمره ﴿فَقَالَ الْمَلأُ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ مستكبرين عليه مستهزئين له: ﴿مَا نَرَاكَ﴾ يا نوح ﴿إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ كيف تدعي الرسالة والنيابة عن الله والوحي من جانبه ﴿وَ﴾ مع ذلك لا شوكة ولا استيلاء لكَ ولا قوة بسبب المكر والأعوان والأنصار حتى تدعي الرئاسة علينا، إذ ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ منا ﴿إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: أدنانا وأسافلنا عقلاً وجاهًا وسعةً ومالاً ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ يظهر رذالتهم للناظرين في أول الفكر والنظر بلا احتياج إلى تعمق وتدبر ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَرَى لَكُمْ﴾ أيها السفلة والأرذال تابعًا ومتبوعًا ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ زيادة في العقل والمال والجاه والرئاسة حتى نتبعكم ونقبل قولكم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾ ونعتقدكم ﴿كَاذِبِينَ﴾ [هود:27] في دعواكم، مفترين فيه، طالبين الرئاسة بسببه بلا إظهار معجزة وبينة واضحة.

﴿قَالَ﴾ نوح متحسرًا آيسًا منهم، قنوطًا عن إيمانهم بعدما سمع منهم ما سمع: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه بعد يأسه على مقتضى شفقة النبوة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ واضحةٍ دالة على صدقي في دعواي نازلةٍ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ لتأييدي وتصديقي ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ تفضلاً وامتنانًا، مشعرة بنجابتي وطهارتي وصدقي في قولي وتذكيري ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أي: خفيت واشتبهت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الدلائل والشواهد مع وضوحها وسطوعها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ بها ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:28] منكرون غير ملتفتين إليها، ولا متأملين فيها وفي إشاراتها ورموزها.

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (30) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

﴿٣٢﴾ [هود:29-32].

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي وإرشادي إياكم وإهدائي لكم ﴿مَالاً﴾ جعلاً وأجرًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ الذي أمرني به وبعثني لتبليغه ﴿وَ﴾ إن أردتم أن أطرد من معي من المؤمنين فاعلموا أني ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليس في وسعي طردهم وكيف أطردهم ﴿إِنَّهُم﴾ من غاية سعادتهم وصلاحهم ﴿مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم على الإيمان والهداية، فيخاصمون مع طاردهم وينتقمون عنه ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ﴾ من خبث باطنكم ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:29] تنكرون لقاء الله وحوله وقوته وإعانته للمظلوم وانتقامه للظالم الطارد.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ المكابرين المعاندين في طلب طرد المؤمنين الموقنين ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾[1] ويدفع عني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللهِ﴾ وبطشه وانتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ ابتغاء لمرضاتكم ومواساة لكم بلا إذن وارد من قبل الحق، ووحي نازل من عنده ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[2] [هود:30] أيها المجبولون على العقل المفاض، المستلزم للتوحيد والعرفان لينكشف الأمر عنكم، وتعرفوا وخامة عاقبة التماسكم طرد المؤمنين وتوفيقكم الإيمان عليه.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ مدعيًا بعدم طرد المؤمنين الفاقدين حطام الدنيا ﴿عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ فأغنيهم بها، لذلك لم أطردهم ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: لا أدعي الاطلاع على غيوب أحوالهم في مآلهم حتى يكون سبب ودادي لهم ﴿وَلاَ أَقُولُ﴾ لكم مباهاة ومفاخرة: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا: ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ أيضًا ﴿لِلَّذِينَ﴾

---

(1) قال في التأويلات: أي: من يمنعني من عذاب الله وقهره إن منعت البدن من الطاعة والعبودية، واقتصر على تجرد يقين النفس وتخلقها بأخلاق الروح كما هو معتقد أهل الفلاسفة وأهل الإباحة بأن يقولوا: إن أصل العبودية معرفة الربوبية وجمعية الباطن والتحلية بالأخلاق الحميدة، فلا عبرة للأعمال البدنية كذبوا الله ورسوله فضلوا وأضلوا كثيرًا، وإن القول ما قال المشايخ: الظاهر عنوان الباطن، وقال النبي ﷺ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى تستقيم أعماله» يعني: أركان الشريعة على جوارحه.

(2) وفي التأويلات أيضًا: أن جمعية الباطن واستقامة الإيمان من نتائج استعمال الشريعة في الظاهر، والجمعية الحقيقية في الباطن هي المتولدة من الأنوار المودعة في أركان الشرع يسري إلى الباطن عند استعمال الشريعة في الظاهر وإن الله تعالى أودع النور في الشرع والظلمة في الطبع، وإنما بعث الأنبياء ليخرجوا الخلق من ظلمات الطبع إلى نور الشرع.

أي: للمؤمنين الذين ﴿تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: استرذلتموهم، وتقولون في حقهم: ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ﴾ ويعطيهم ﴿اللهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرة؛ إذ حالهم ومآلهم من الغيوب التي استأثر الله بها ولم يطلعني عليها؛ إذ ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الإخلاص والرضا، وما لي علم بحالهم إلا بوحي الله وإلهامه، ولم يوحَ إليَّ شيء من أحوالهم، وإن تفوهت عنهم وعن أحوالهم بلا وحي ﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:31] المجترئين على الله في ادعاء الاطلاع على غيبه رجمًا به.

وبعدما سمعوا من نوح ﷺ ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿يَا نُوحُ﴾ نادوه استهانة واستحقارًا ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ وخاصمتنا بالمقدمات الكاذبة الوهمية ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾ علينا ﴿جِدَالَنَا﴾ وبالغت فيها وتماديت ﴿فَأْتِنَا﴾ أيها المكثر المفرط ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، فإنا لن نؤمن بك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود:32] في دعواك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود:33-37].

﴿قَالَ﴾ نوح متأسفًا متحزنًا، آيسًا من إيمانهم: يا قوم لست بآتٍ بموعدٍ حتى تعجزوني وتضطروني وتستهزئوا بي، بل ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: بالعذاب الموعود ﴿اللهُ﴾ المنتقم منكم ﴿إِن شَاءَ﴾ انتقامكم وتعلق إرادته لهلاككم ﴿وَمَا أَنتُم﴾ حين غضبه سبحانه عليكم ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود:33] الله في فعله وأخذه؛ إذ هو القاهر فوق عباده، بل أنتم حينئذٍ عاجزون ومضطرون مقهورون.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾ اليوم ﴿نُصْحِي﴾ لئلا يلحقكم ما سيلحقكم حين حلول العذاب ﴿إِنْ أَرَدتُّ﴾ وأحببت ﴿أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ لأحفظكم ﴿إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: لا ينفعكم نصحي اليوم إن تعلق إرادة الله ومشيئته في سابق علمه لإغوائكم، بل ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ومولي أموركم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [هود:34] في

جميع أموركم وحالاتكم.

أتريد يا نوح نصحهم وإشفاقهم، وهم لا يقبلون منك ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: اختلقه من عنده ونسبه إلى الوحي ترويجًا ﴿قُلْ﴾ لهم حين قالوا لك هذه مجاراة عليهم ومماراة: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ واختلقت ما جئت به ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: وبال أمري ونكاله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:35] وتنسبون إلي من الجرائم.

﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والفساد والإصرار على ما هم عليه من الجور والفساد ﴿أُوحِيَ﴾ وألهم ﴿إِلَى نُوحٍ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الإنكار، ولاح علامات الاستخفاف والاستكبار ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ﴾ لك أبدًا بعد هذا ﴿مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ لك قبل هذا، فاقنط عن إيمانهم، ولا تجتهد في نصحهم وإهدائهم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تغتم من إهلاكهم ونزول العذاب عليهم إنهم مهلكون ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:36] من الإعراض والإنكار والعتو والاستكبار.

﴿وَ﴾ بعدما حصل لك اليأس والقنوط من إيمانهم ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ لحفظك ولمن آمن معك من الغرق ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بكنفنا وجوارنا وحفظنا وحصاننا ﴿وَوَحْيِنَا﴾[1] لك كيف تصنعها وتشيدها ﴿وَ﴾ بعدما صنعت ما صنعت ﴿لَا تُخَاطِبْنِي﴾ ولا تناجِ معي ﴿فِي﴾ إنجاء القوم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالمكابرة والعناد ونبذوا وراء ظهورهم ما جئت به من الهداية والرشاد ﴿إِنَّهُم﴾ بسبب انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:37] مهلكون حتمًا، لا نجاة لهم أصلاً.

(1) قال البقلي: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليبصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش خاتم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجودٌ في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، وأيضًا: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷺ: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه»، وأيضًا أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني، قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق، وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ
ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ
ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ
جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:38-43].

﴿وَ﴾ بعدما أوصاه الحق وأمره، شرع ﴿يَصْنَعُ الفُلْكَ﴾ بتعليم جبرائيل ﷺ إياه بإذن الله ﴿وَ﴾ كان ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ﴾ طائف ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾ حين اشتغل بالفلك ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ واستهزءوا به؛ لكونه ني باديةٍ لا ماء فيها، وقالوا على سبيل التهكم: صرت نجارًا بعدما كنت نبيًا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح المكشوف عنده مآل ما أمر الحق له: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ الآن لجهلكم بسر صنيعنا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ حين كنا على الفلك وأنتم غرقى ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:38] اليوم منا.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:39] وتدركون وبال ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وحان أجلنا الذي أجلنا لمقتهم وهلاكهم ﴿وَفَارَ﴾ أي: نبع حينئذٍ ﴿التَّنُّورُ﴾ المعهود في حضرة علمنا، نبع ماء الطوفان، وبعد فوران التنور وغليانه وأطلعت عليه امرأته فأخبرته إياه ﴿قُلْنَا﴾ له تفضلاً عليه وامتنانًا: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي: من جنس ما يعيش في الهواء ﴿اثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى ﴿وَ﴾ احمل أيضًا عليها ﴿أَهْلَكَ﴾ أي: جميع أهل بيتك ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ﴾ منا في سابق قضائنا بأنه كان من الكافرين المغرقين ﴿وَ﴾ احمل أيضًا عليها ﴿مَنْ آمَنَ﴾ لك من قومك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا آمَنَ مَعَهُ﴾ من قومه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:40] قيل: كانوا تسعة وسبعين وزوجته المسلمة وبنوه الثلاثة: سام وحام ويافث

ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً من غيرهم.

روي أنه ﷺ أتم السفينة وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في أسفلها الدواب والوحوش، وفي أوسطها الإنس، وفي أعلاها الطير.

﴿وَ﴾ بعدما نبع التنور وانتشر الماء وانبسط على الأرض ﴿قَالَ﴾ نوح بوحي الله إياه: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي: صيروا في جوفها متمكنين، واستقروا عليها قائلين متيمنين: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ إذ هو سبحانه بحوله وقوته ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ حيث أراد إجراءها وإرساءها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بلطفه وأوصاني بصنعها ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن استغفر له ﴿رَّحِيمٌ﴾ [هود:41] يقبل توبته ويمحو زلته وينجو عن عذابه، فركبوا مسمين متيمنين.

﴿وَهِيَ﴾ أي: السفينة ﴿تَجْرِي بِهِمْ فِي﴾ خلال ﴿مَوْجٍ﴾ وهو ما ارتفع من الماء من شدة الريح عالٍ ﴿كَالْجِبَالِ﴾ الشامخ ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ المسمى بكنعان ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ من أبيه؛ أي: اعتزل عنه وانصرف عن دينه، فرآه بين الماء، فتحرك عطف الأبوة فصاح عليه: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ صغره للشفقة والترحم ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ لتنجو من الغرق ﴿وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ﴾ [هود:42] حتى لا تغرق.

﴿قَالَ﴾ ابنه مستنكرًا عليه: ﴿سَآوِي﴾ والتجئ ﴿إِلَى جَبَلٍ﴾ عالٍ ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ﴾ إغراق ﴿المَاءِ﴾ بشموخه وعلوه ﴿قَالَ﴾: يا بني ﴿لاَ عَاصِمَ﴾ ولا ينجي ﴿اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ المبرم وحكمه المحكم ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ الله وأنجاه؛ إذ لا عاصم غيره ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين نوح وابنه ﴿المَوْجُ﴾ العظيم ﴿فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ﴾[1] [هود: 43] أي: صار ابنه من الغرقى الهالكين.

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أدّب نبيه نوحًا ﷺ ههنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم، وقيل: ذلك ولم يقبل ههنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحدٍ بعد ذلك، ألا ترى إلى قول ذي النون ﷺ حيث دعا على أهل سمايته كيف كانوا يغرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ﷺ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين، قال ذو النون: إن كنت قد أيدت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ
وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا
تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ
هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:44-49].

﴿وَ﴾ بعدما انبسط الماء على وجه الأرض، وعلا على أعالي الجبال وأقلال الرواسي وهلك من عليها ﴿قِيلَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال مناديًا آمرًا على الأرض والسماء مثل النداء على ذوي العقول المكلفين المبادرين إلى امتثال الأوامر: ﴿يَا أَرْضُ﴾ النابعة للماء المخرجة له ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ أي: انشقي ما نبع عنك من الماء ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾ الماطرة الهامرة ﴿أَقْلِعِي﴾ وأمسكي ماءك ولا تمطري؛ إذ يمطر الماء مثلما نبع من الأرض ﴿وَ﴾ بعد ورود الأمر الإلهي ﴿غِيضَ الْمَاءُ﴾ ونقص بنشف الأرض وإمساك السماء ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الموعود الذي هو إهلاك الكفار وإنجاء المؤمنين ﴿وَ﴾ بعد انقضاء المأمور وإنجاز الموعود ﴿اسْتَوَتْ﴾ السفينة واستقرت ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل: بالشام، وقيل: أو آمل.

روي أنه ﷺ ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عليها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار سُنة له على من بعده، وهو يوم عاشوراء ﴿وَ﴾ بعد إهلاك أولئك العصاة الغواة الكفرة ﴿قِيلَ﴾ من قبل الحق: ﴿بُعْدًا﴾ أي: مقتًا وهلاكًا ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:44] الخارجين عن مقتضى الوحي الإلهي، المكذبين لرسله، وطردًا لهم عن ساحة عز الحضور بحيث لا يرجى قربهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعدما وقع ما وقع ﴿نَادَى﴾ وناجى ﴿نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ باثًا له شكواه في حق ابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ أيضًا ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ وأنت بفضلك وعدتني بإنجاء أهلي ﴿وَإِنَّ

وَعَدَكَ﴾ الذي به ﴿الْحَقُّ﴾[1] الصدق لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:45] أي: أقسطهم وأعدلهم بأحكام جميع الحكام راجع إليك.

﴿قَالَ﴾ سبحانه مجيبًا له مزيلاً لشكواه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ﴾ بسبب اعتزاله عنك وعن دينك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إذ لا قرابة ولا ألفة بين المؤمن والكافر، وكيف يكون من أهلك ﴿إِنَّهُ﴾ من غاية فسقه وفساده ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ كأنه مغمور فيه مجسم منه لا يرجى صلاحه أصلاً ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ﴾ متعرضًا معترضًا علي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لوروده علي ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ وأذكر لك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:46] أي: كونك بذهولك عما نبهت عليك بالاستثناء السابق؛ يعني ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

﴿قَالَ﴾ نوح معتذرًا إلى ربه، مستحييًا منه: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ بعد ظهور خطئي وذلتي ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ بعد هذا ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي﴾ زلتي وسوء أدبي ﴿وَ﴾ لم ﴿تَرْحَمْنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47] خسرانًا مبينًا.

﴿قِيلَ﴾ من قبل الله بعدما غاض الماء واستوت السفينة وانكشفت الأرض ويبست: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ انزل من السفينة أنت ومن معك وما معك مقرونًا ﴿بِسَلاَمٍ﴾ أي: سلامة ونجاة وأمن ناشئ ﴿مِّنَّا﴾ عليك تفضلاً وامتنانًا ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ أي: خيرات ومبرات كثيرة نازلةٍ منا ﴿عَلَيْكَ﴾ أصالة ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ تبعًا، سماهم أممًا

---

(1) وذلك أن الله تعالى لمّا أراد بحكمته أن ينزل الأرواح المقدسة العلوية من أعلى عليين جواره، وقربه إلى أسفل سافلين القلب قالت أرواح الأنبياء والأولياء وخواص المؤمنين: يا ربنا وإلهنا تنزلنا من أعلى مقامات قربك إلى أسفل دركات بعدك، ومن عالم البقاء إلى عالم الفناء، ومن دار السرور واللقاء إلى دار الحزن والبلاء، ومن منزل التجرد والتواصل إلى منزل التوالد والتناسل، ومن رتبة الاصطفاء والاجتباء إلى مرتبة الاجتهاد والابتلاء، فوهبهم الله من عواطف إحسانه بأن تنجيهم وأهليهم مِن ورطات الهلاك، فكان من قضية حكمته أن يكون لنوح عليه السلام أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وواحد كافر، فكذلك حكم أن يكون للروح أربعة بنين: ثلاثة منهم مؤمنون وهم: القلب والسر والعقل، وواحد كافر وهو النفس، فكما كان ثلاثة من بني نوح معه في السفينة، وكان واحد في معزل منه، فكذلك ثلاثة من بني الروح معه كانوا معه في سفينة الشريعة وكان واحد وهو كافر النفس في معزل منه من الدين والشريعة، فلما أشرف ولده الكافر على الغرق في بحر الدنيا وطوفان الآخرة. [التأويلات].

باعتبار المآل ﴿وَ﴾ من ذرية من معك ﴿أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ونربيهم في النشأة الأولى بأنواع النعم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ في النشأة الأخرى بسبب كفرهم وفسقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:48] مؤلم بدل ما يتلذذون بنعم الدنيا، ويكفرون بها.

﴿تِلْكَ﴾ أي: قصة نوح ﷺ ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: بعض أخباره ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تعليمًا لك وتذكيرًا لأمتك ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ بالدراسة والتعليم ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوحي والإنزال، وإن طعن المشركون لك ونسبوك إلى الكذب والافتراء ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذياتهم، وكن في تبليغك على عزيمة صحيحة ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ الحميدة والأجر الجزيل في النشأة الأخرى ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:49] الذين يحفظون نفوسهم عن الميل إلى البدع والأهواء، ويصبرون على المكاره والأذى، حتى يتحققوا بمقام الرضا ويفوزوا بشرف اللقاء.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود:50-53].

﴿وَ﴾ بعدما تناسل قوم نوح وتكاثرت أمم منهم، فاستكبروا عن طريق التوحيد واتخذوا الأصنام والأوثان آلهة، أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ العادين عن طريق الحق، المتجاوزين عن صراط التوحيد ظلمًا وعدوانًا ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم ﴿قَالَ﴾ بعدما أوحينا إليه وأذنا له بتذكير قومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه تحننًا وإشفاقًا على ما هو مقتضى الإرشاد ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا إله إلا هو واعتقدوا ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يعبد بالحق ويرجع إليه ما في الأمور ﴿غَيْرُهُ﴾ إذ لا موجود سواه ولا إله إلا هو ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم بعدما ظهر الحق باتخاذ الأوثان آلهة غيره ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:50] مبطلون في اتخاذها افتراء ومراء.

﴿يَا قَوْمِ﴾ اسمعوا قولي واتعظوا به وامضوا بمقتضاه واقبلوا نصحي؛ إذ ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولا أطلب منكم عوضًا، بل أنا مأمور بالتبليغ والتذكير من عند

العليم الخبير ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: بعثني بالإرشاد والإهداء، أتشكون في أمري وترددون في شأني وتذكيري ونصحي؟ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [هود:51] وتستعملون عقولكم في أفعالكم القبيحة وأعمالكم الفاسدة الناكبة عن طريق الاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل؟!.

﴿وَ﴾ بعدما ازدادوا الإصرار والاستكبار، أخذهم الله بعقم الأرحام والأمطار فاضطروا، قال هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾(1) من فرطاتكم وهفواتكم، واطلبوا المغفرة والنجاة منه ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ واسترجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ نادمين مخلصين ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم﴾ بأمر الله تفضلاً وامتنانًا ﴿مِّدْرَارًا﴾ أمطارًا كثيرة على سبيل التتابع والإدرار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي: يضاعف أولادكم التي هي قوة ظهوركم ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَتَوَلَّوْا﴾ على الله حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود:52] معرضين عنه وعن رسله مصرين على ما أنتم عليه.

﴿قَالُوا﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا: ﴿يَا هُودُ﴾ نادوه استحقارًا له واستكبارًا

(1) قال البقلي: استغفروا من جنايات الأسرار، وتوبوا إليه لطلب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقديس، والتوبة تخليص، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل. سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها. وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة. وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية. ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده وجود الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوحدانية، وعن خواطر الأنانية. ثم بيَّن أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع بلقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الآبدين بقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ المتاع الحسن أنوار المواجيد على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله ولين العيش في مشاهدة الله ما أحسن هذا المتاع منا في منّ الدنيا لقاؤك مرة! فإن نلتها استوفيت كل مناليا.

عليه ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة مثبتة لدعواك حتى نقبل منك قولك ﴿وَ﴾ بعدما لم تجيء إلينا بالبينة الملجئة ما كنا نعتقدك صادقًا صدوقًا ثقة حتى نقبل قولك بلا بينة، اترك ما أنت عليه من الدعوة الفاسدة؛ إذ ﴿مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ التي وجدنا آباءنا لها عاكفين ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي: عن مجرد دعواك بلا بينة ودليل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:53] مصدقين لك بلا شاهد وبينة.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (56) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58)﴾ [هود:54-58].

بل ﴿إِن نَّقُولُ﴾ أي: ما نقول في حقك ﴿إِلاَّ اعْتَرَاكَ﴾ أي: سوى هذا القول وهو أنك أصابك ورماك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ جنون وخفة عقل واختلال حال، وكنت أنت تسيء الأدب معهم، وتذكرهم وتهيجهم بما لا يليق بجنابهم، ولذلك أصابوك واستخفوا عقلك، وبعدما سمع هود ما سمع، آيس من إيمانهم وهدايتهم ﴿قَالَ﴾ مبرئًا أولاً لنفسه من الشرك، إمحاضًا للنصح: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ﴾ العالم بسري وإعلاني وخفيات إسراري ﴿وَاشْهَدُوا﴾ أنتم أيضًا أيها الهالكون في تيه الغفلة والغرور علي ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:54] الله الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود أصلاً من الأظلال الهالكة والتماثيل الباطلة المتخذة ﴿مِن دُونِهِ﴾ آلهة سواه ﴿فَكِيدُونِي﴾ أي: فعليكم أيها الحمقى المنحطين عن زمرة العقلاء بعدما سمعتم قولي وحققتم براءتي أن تمكروني وتصيبوني أنتم وشركاؤكم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ﴾ بعد اليوم ﴿لاَ تُنظِرُونِ﴾ [هود:55] أي: لا تمهلون في أمري ولا في مكري.

﴿إِنِّي﴾ بعدما ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لا أبالي بكم وبشركائكم، ولا

تحزن لمكرهم ومكركم بعدما أتمكن بمقر التوحيد؛ إذ ﴿مَا مِن دَابَّةٍ﴾[1] **يتحرك على الأرض** ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: وجودها **التي تلي الحق يقودها** ويتصرف بها كيف يشاء حسب إرادته اختيارًا ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ **في جميع شئونه وتطوراته** ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56] لا عوج له أصلاً.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا وتعرضوا عما جئت به من ربي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ واجتهدت في تبليغه وبذلت وسعي فيه، **فاعلموا أنه لا يبالي الله في** إعراضكم وإصراركم، بل إن شاء يستأصلكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ **ليتعظوا**

(1) قال المحقق البقلي: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مرابع الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مباصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القربة للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لمَّا قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآبات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم. قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعًا إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج. قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه. وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق. وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال. يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد. ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قِبَل الله. قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعةٌ فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحاب ودائع فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله

ويعتبروا منكم ﴿وَ﴾ أنتم بإعراضكم عنه سبحانه ﴿لاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ من الأضرار، لا بالله ولا بي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائن في حيطة جوده ووجوده ﴿حَفِيظٌ﴾ [هود:57] رقيب قريب.

﴿وَلَمَّا﴾ تمادوا في الغفلة والإعراض، وبالغوا في الإصرار والاستكبار ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالريح، فعصفت عليهم السموم، وكانت تدخل من أنوفهم وأفواههم فقطعت أمعاءهم فهلكوا، ولما أخذناهم بما أخذناهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿هُودًا﴾ الداعي لهم إلى سبيل الحق ﴿وَ﴾ نجينا أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ تفضلاً عليهم وامتنانًا ﴿وَ﴾ ما اقتصرنا على إنجائهم، بل ﴿نَجَّيْنَاهُم﴾ كرامة منا إياهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:58] معد لأولئك الكفرة في النشأة الأخرى.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود:59-62].

﴿وَتِلْكَ﴾ العصاة الغواة المقهورون بقهر الله وغضبه ﴿عَادٌ﴾ المبالغون في العتو والعناد ﴿جَحَدُوا﴾ من غاية غفلتهم وغرورهم ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة على ألسنة رسله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ بالتكذيب والاستحقار لاستلزام الواحد تكذيب الجميع ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية بغضهم مع الله ورسله ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ مبالغ في التجبر والتكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ [هود:59] متناه في المكابرة والعناد، فتركوا متابعة الداعي لهم إلى سبيل الرشاد.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: صاروا متبوعين للطرد والتخذيل في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَلَا﴾ تنبهوا يا أولي الأبصار والاعتبار ﴿إِنَّ عَادًا﴾ المعاندين ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نعمه وجحدوا توحيده ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ طردًا وتخذيلاً وتبعيدًا عن ساحة عز الحضور ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:60] أردفه بعطف البيان للتمييز

عن عاد إرم.

﴿وَ﴾ بعدما انقرضوا وانقهروا بما انقهروا أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ حين ظهروا بالكفر والشقاق والانصراف عن منهج الرشاد باتخاذ الأوثان آلهة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ لأنه أولى وأليق لإرشادهم وإهدائهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4] ولا تشركوا به شيئًا، إذ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ موجد مظهر لكم من كتم العدم ﴿غَيْرُهُ﴾ بل ﴿هُوَ﴾ بذاته وأسمائه وأوصافه الذاتية والفعلية ﴿أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾ بامتداد أظلال أسمائه ورش نوره ﴿وَ﴾ بعدما أظهركم منها ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ واستبقاكم ﴿فِيهَا﴾ ورباكم بأنواع اللطف والكرم عليها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ واسترجعوا إليه على ما فرطتم في حقه ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ مخلصين نادمين عسى أن يقبل منكم ويعفو عن زلاتكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ لكم يعلم توبتكم وإخلاصكم فيها ﴿مُّجِيبٌ﴾ [هود:61] يجيب دعوتكم ويعفو زلتكم.

﴿قَالُوا﴾ بعدما سمعوا دعوته وتذكيره: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي: مستشارًا ومؤتمنًا، واعتقدناك سيدًا ذا رشد ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الزمان فالآن صرت أخرق ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: نهيتنا عن عبادة معبودات آبائنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ وتردد عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من توحيد الإله المعبود بالحق وإبطال آلهتنا التي وجدنا آباءنا لها عابدين، ﴿مُرِيبٍ﴾ [هود:62] ذي ريبة متهية إلى كمال الارتياب، مع أنك لم تأت ببينة معجزة تلجئنا إلى تصديقك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي
مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا
إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:63-68].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ملتبسًا ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾

واضحةٍ دالة على صدق ما ادعيت نازلةٍ ﴿مِّن﴾ عند ﴿رَّبِّي﴾ لتصديقي وتأييدي ﴿وَ﴾ الحال أني قد ﴿آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة ورسالة تامة، مؤيدة بأنواع المعجزات ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ رسالته وإظهار ما أمرني بظهوره وأوصاني بنشره ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ حين ابتلائي وأخذ الله إياي بعصياني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:63] على تخسير وتخذيل على تخذيل.

﴿وَ﴾ بعدما آيس عن إيمانهم قال: ﴿يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ دالة على صدقي في دعواي وتأييد الله إياي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ مسلمة بلا منع وإباء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ لأجل الماء والكلأ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ ويلحقكم بعدما أصبتموها بسوء ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:64] أجله وحلولهن، وبعدما ظهرت الناقة بين أظهرهم وأكلت كلأهم وشربت ماءهم فتضرروا منها وشاوروا في أمرها وتقرر رأيهم إلى قتلها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وهلكوها ظلمًا وزورًا ﴿فَقَالَ﴾ صالح بعدما وقع الواقعة الهائلة: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي: عيشوا فيها بعدما خالفتم حكم الله وآتيتم بما نهيتم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة، فوادعوا فيها وتوادعوا، واعلموا أن ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ﴾ أوحي إلي من ربي ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:65] أي: غير منسوب إلى الكذب، بل مصدق متيقن فلا تشكوا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب المهلك بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي ظهرت فيها علاماته من اصفرار في وجوههم في اليوم الأول، واحمرارها في الثاني، واسودادها في الثالث ﴿نَجَّيْنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿صَالِحًا﴾ الذي صلح نفسه وأصلح نفوسهم، فلم يقبلوا إصلاحه، بل أفسدوها بأنفسهم ﴿وَ﴾ نجينا أيضًا منهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وصلحوا بإصلاحه ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ على قلوبهم؛ ليوفقوا بها على قبول دعوته والإيمان به، وبسبب إيمانهم نجوا من خزي النشأة الأخرى ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أيضًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل الموفق لهم على الإيمان والإذعان ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ المحصور على القوة والقدرة؛ إذ لا حول ولا قوة إلا به ﴿الْعَزِيزُ﴾ [هود:66] الغالب على إمضائه وإنفاذه حيث أراد وشاء.

﴿وَ﴾ بعدما أنجاهم الله بلطفه ﴿أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعتو والفساد ﴿الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة التي وعدها الله لإهلاكهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بعدما سمعوا الصيحة في أثناء الليل ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ التي صاروا متمتعين فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود:67] جامدين ميتين.

﴿كَأن لَمْ يَغْنَوْا﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَا﴾ أصلاً، ونادى عند وقوع الواقعة الهائلة أصحاب الاعتبار والاستبصار: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ بكفران نعمه وتكذيب رسله ﴿أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود:68] عن سعة رحمة الحق في النشأة الأولى والأخرى.

وبعدما انقرض أولئك الهالكون حدث بعدهم قوم لوط المبالغون في الغفلة القبيحة عقلاً ونقلاً، المصرون عليها إلى أن أخذناهم بما أخذناهم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود: 69-76].

﴿وَ﴾ حين أردنا أخذهم ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة المأمورون لإهلاك قوم لوط ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ والبشارة بالولد بعدما آيس هو وزوجته عن التوالد والتناسل ﴿قَالُوا﴾ له حين لاقوه: ﴿سَلامًا﴾ أي: نسلم سلامًا عليكم ترجيبًا منا عليك ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ عليكم دائمًا مستمرًا أيها المستحقون للتحية والترحيب ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وسكن بعد نزولهم إلى ﴿أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:69] مشوي؛ ضيافة لهم ونزلاً لقدومهم ووضع بين أيديهم، فانصرفوا عنه ولم يمدوا أيديهم نحوه.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ ولا يتناولون منه كما هو عادة المسافرين ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكر منهم عدم أكلهم؛ لأن الامتناع من الطعام دليل على قصد المكروه لصاحبه ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفًا ورعبًا حتى أحسوا منه الخوف وعلامات الرعب ﴿قَالُوا﴾ تسلية وتسكينًا: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّا﴾ وإن كنا من أهل الإنذار والإهلاك ﴿أُرْسِلْنَا إِلَى﴾ إهلاك ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:70] ما لنا معك شغل.

﴿وَ﴾ حين قالوا له ما قالوا ﴿امْرَأَتُهُ﴾ أي: سارة حاضرة ﴿قَائِمَةٌ﴾ لخدمة

الأضياف ﴿فَضَحِكَتْ﴾ بعدما سمعت قولهم فرحًا وسرورًا؛ لأنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطًا، فإني أعلم أن البلاء ينزل على هؤلاء المسرفين ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ أي: سارة تفضلاً وامتنانًا ﴿بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ ولده ﴿يَعْقُوبَ﴾ [هود:71] أبا الأنبياء.

﴿قَالَتْ﴾ بعدما سمعت التبشير مستحية مستغربة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ أي: يا هلكتي وفضيحتي ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ قد مضت علي تسع وتسعون سنة ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ فانيًا ابن مائة وعشرين سنة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: التوالد بيننا ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:72] غريب خارق للعادة إن وقع.

﴿قَالُوا﴾ إزالة لشكها وتعجبها: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ أي: تستبعدين ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة أمثال هذا؛ أي: التوالد بين الهرمين تفضلاً وامتنانًا مع أنها ﴿رَحْمَةُ اللهِ﴾ أي: أنواع فضله وجوده ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ أي: خيراته الكثيرة النازلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يا أهل بيت الخلة والنبوة ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته ﴿حَمِيدٌ﴾ يفعل ما يوجب الحمد له ﴿مَّجِيدٌ﴾ [هود:73] محسن كثير الإحسان والإنعام المستجلب لأنواع المحامد والأثنية.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: الخوف والرعب بتسلية الرسل إياه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بما لا ترقب له فيه أخذ ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي: يجادل مع رسلنا ويناجي معنا ﴿فِي﴾ حق ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:74] وأخذنا إياهم.

وما حمله على المجادلة والمناجاة في حقهم إلا فرط إشفاقه ورقة قلبه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ في نفسه ﴿لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام، كظيم الغيظ والغضب ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه والتأسف من الذنب الصادر عنه ﴿مُّنِيبٌ﴾ [هود:75] رجاع إلى الله في جميع حالاته، فقاس حالهم على نفسه، فأخذ يجادل في حقهم.

قال الرسل بوحي الله إياهم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ المتحقق بمقام الخلة ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال، وانصرف عن مدافعة كلام الله المبرم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وثبت منه سبحانه الحكم بهلاكهم حتمًا مبرمًا، ولا تنفعهم مجادلتك وممانعتك ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ عن قريب ﴿عَذَابٌ﴾ حتم ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1] [هود:76] بتقويتك وحمايتك.

---

(1) فيه دلالة على أن القضاء المبرَم لا يُردُّ، وهو القضاء الغير المعلّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ [البقرة:217]؛ فإن مفهومه

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ
﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود:77-83].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ على أشكال مرد ملاح صباح متناسبة الأعضاء، وهم لا يرون أمثالهم في الصباحة واللطافة وكمال الرشاقة ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: ساء مجيئهم على هذه الأشكال لوطًا ومن آمن معه ﴿وَضَاقَ﴾ جيئتهم على هذه الصورة البديعة ﴿بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: شق على لوط والمؤمنين أمر حفظهم وحضانتهم؛ لأنهم علموا قبح صنيع قومهم لو علموا جيئتهم قصدوا لهم مكروهًا، واشتد عليهم أيضًا مدافعتهم وإخراجهم؛ لأنهم نزلوا ضيافًا، فاضطر لوط في أمرهم وشأنهم وتحير ﴿وَقَالَ﴾ متأوهًا متأسفًا متضجرًا: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:77] شديد مظلم في غاية الشدة والظلمة.

﴿وَ﴾ بعدما أخبر القوم بنزولهم ﴿جَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ متجسسين ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي:

أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتْن كل صعب وذلول، لِما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيّر بحال من الأحوال، وأمّا القضاء المعلّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمّا أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمال إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد فالمؤمن الأصلي لا يضرّه الكفر العارضي، فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

يطوفون حول بيته سريعًا، ويطلبون فرصة الدخول عليهم، ويحتالون لدفع لوط والمؤمنين وهم قوم خبيث ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا﴾ من نهاية خباثتهم ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الخارجة عن مقتضى العقل والنقل والمروءة، وحين اضطر لوط من ترددهم وتبخترهم، ولم يرَ في نفسه مدافعتهم ومقاومتهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لهم من غاية غيرته وحميته في حق أضيافه: ﴿هَؤُلاءِ﴾ الإناث ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ إن أردتم الوقاع ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور عن تفضيحي ﴿وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ ولا تخجلوني في ضيفي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة الإدراك ﴿رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:78] ذو مروءة وعقل كامل.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه مبالغين مقسمين: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يقينًا ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ميلٍ وحظٍ، بل إنما عرضت بناتك علينا لنترك أضيافك ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيضًا ﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:79].

ولما اضطر لوط مسارعتهم ومماراتهم ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أدفع بها حزني وخزي أضيافي لأدفعكم بتوفيق الله ﴿أَوْ آوِي﴾ وأرجع حين ظهور عدم مقاومتي ومدافعتي معكم ﴿إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:80] هو حفظ الله وكنف جواره وحصن حضانته.

ثم لما رأى الرسل اضطرار لوط واضطرابه؛ إذ هو يغلق على أضيافه باب بيته فيجادل مع قومه، يتكلم معهم، وبعدما امتدت مجادلته معهم، قصدوا أن يثقبوا الجدار فاشتغلوا بالثقب والنقب ﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل بعدما بلغ ألم لوط غايته: ﴿يَا لُوطُ﴾ لا تغتم ولا تضطرب في أمرنا ولا تهلك نفسك غيرة وغيظًا ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أبدًا؛ أي: لن ينالوا بإضرارنا حتى اضطررت من أجلنا، ذرنا معهم، واخرج من بيننا وبينهم، وخرج لوط مفتحًا باب بيته، فدخلوا على الرسل بالفور، فضرب جبرائيل عليه السلام بجناحه فأعماهم، فانقلبوا صائحين صارخين: النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة.

وبعدما خرجوا فاقدين أبصارهم، قال الرسل أمرًا للوط: ﴿فَأَسْرِ﴾ أي: سر ليلاً ﴿بِأَهْلِكَ﴾ أي: بمن آمن معك ﴿بِقِطْعٍ﴾ أي: بعد مضي طائفة ﴿مِّنَ اللَّيْلِ وَ﴾ بعدما خرجتم ﴿لاَ يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظر ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الخارجون ﴿أَحَدٌ﴾ خلفه حين سمع حنينهم وأنينهم وتشدد العذاب عليهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ فإنها تلتفت حين سمعت الصيحة، فخرجوا على الوجه المأمور، فنزل عليهم العذاب بعد خروجهم بالفور،

فصاحوا صيحةً عظيمةً، ولم يلتفت أحد من الخارجين إلا امرأته، فلما سمعت التفتت، وصاحت:واقوماه! فأصيب بلا تراخٍ ومهلةٍ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن والأمر في علمنا أنها ﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فلما سمع لوط ما سمع، استسرع إلى مقتهم من كمال ضجرته منهم، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعد هلاكهم صبح هذه الليلة ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ﴾ أيها المستعجل ﴿بِقَرِيبٍ﴾ [هود:81].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ على رسلنا بإهلاكهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: جعل الرسل بإقدارنا وتمكيننا إياهم قريتهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[1] أي: يقلبون عليهم بيوتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَمْطَرْنَا﴾ من جانب السماء ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على أماكنهم وقراهم ﴿حِجَارَةً﴾ تتحجر ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهو معرب من سنك كل ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود:82] ممتزج منضد بعضها على بعض ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة مقدرة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وفي حضرة علمه ولوح قضائه لأمثال هذه البغاة الغواة الهالكين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: أمثال هذه البليات والمعيبات ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله وأوامره ونواهيه ﴿بِبَعِيدٍ﴾ [هود:83] غريب حتى يستغرب في حقهم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

(1) إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته وياسمين نور صحبته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بليات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلمهم طوارقات القهر، والقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة الكبرياء منزهةٌ عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، [العرائس].

ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:84-87].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعتبرين من ذوي الاستبصار والاعتبار وقت؛ إذ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ حين بالغوا التطفيف والتخسير في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن شيعتهم ﴿شُعَيْبًا﴾ المتشعب منهم، ليكون أدخل في نصحهم وأجهد في إهدائهم وإرشادهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ موصيًا لهم، متحننًا على وجه الشفقة والنصيحة ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود والألوهية والربوبية وتيقنوا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ مظهر لكم ولجميع ما ظهر وبطن غيبًا وشهادة ﴿غَيْرُهُ﴾ بل الألوهية محصورة إليه، مقصورة له؛ إذ لا شيء سواه، ولا يستحق للعبادة إلا هو ﴿وَ﴾ عليكم أيها المأمورون من عنده بالاعتدال والاقتصاد في جميع الأخلاق والأفعال والأحوال أن ﴿لَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ لبني نوعكم ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: سعة ورفاهية غاية لكم وتفضلاً عليكم، فعليكم أن تزيدوها وتديموها بالشكر والإنصاف والانتصاف على مقتضى ما أُمرتم به من عند ربكم، وإن لم تعلموا مني ونصحي ولم تقبلوا قولي ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من غيرة الله وكمال قهره وسطوته ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:84] فيه عذابه على جميع أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال.

﴿وَ﴾ بعدما قدم عليهم المنهي للعناية والاهتمام بشأنه، أردفه بالمأمور؛ للتأكيد والمبالغة وزيادة التقرير والإحكام، كأنه استدل عليه لمزيد إشفاقه وكمال مرحمته، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن أردتم خير الدارين ونفع النشأتين ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ على عباد الله؛ أي: لا تزيدوا عليها ولا تنقصوا منها؛ إذ الطرفان كلاهما مذمومان، بل أوفوهما ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85] أي: لا تظهروا عليها بالخداع والحيف والبخس والتطفيف.

﴿بَقِيَّةُ اللهِ﴾ التي قدرها في سابق حضرة علمه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومزيد مما لكم من تطفيفكم وتنقيصكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبتدبيراته وتقديراته ﴿وَ﴾ اعلموا يا قوم إني ﴿مَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:86] يحفظكم عن جميع ما لا يعنيكم، بل أنا مبلغ ما أُرسلت به إليكم، فلكم الامتثال والتوفيق من الله الكبير المتعال.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين: ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ المدعي دعوة الخلق إلى الحق ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ الكثيرة التي تصليها في خلواتك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي: تأمرك صلواتك أن نترك أفعالنا التي كنا عملنا بها في ازدياد أموالنا حسب إرادتنا واختيارنا ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿لَأَنتَ الْحَلِيمُ﴾ ذو الحلم والكرم، ولا تعجل في الانتقام ﴿الرَّشِيدُ﴾ [هود:87] العاقل، لا تتكدر بمثل هذه الأوهام، قالوا له هذا استهزاء وسخرية.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود:88-91].

﴿قَالَ﴾ شعيب بعدما تفرس بنور النبوة باستهزائهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ الساعين للباطل المصرين عليه ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ مصدقة ناشئة ﴿مِّن﴾ قبل ﴿رَّبِّي﴾ معجزة لجميع ما يقابلني ويعارضني ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿رَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي: من عنده سبحانه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ معنويًا وصوريًا وروحانيًا وجسمانيًا، فهل يليق بمثلي أن يفتري عليه، وينسب إليه مراء ما لم يوحَ من عنده كذبًا وبهتانًا ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا أني ﴿مَا أُرِيدُ﴾ بنهيي لكم عن التطفيف والتبخيس ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ فيما أنتم عليه وأرجع بنفسي ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ لأستبد وأتخصص به، وهو إفساد وميل عن جادة الله الحق وصراط الله الأقوم، فكيف يميل الموحد المؤيد إلى أمثال هذا، بل ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي: ما أريد ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ مقدار ﴿مَا اسْتَطَعْتُ وَ﴾ ما أنا متكفل للصلاح أيضًا ومدع الاستقلال به ﴿مَا تَوْفِيقِي﴾ أي: إقداري وتمكيني وحولي وقوتي ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إذ لا حول ولا قوة بالأصالة إلا بالله لذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت والتجأت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]

(1) قال في التأويلات: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيما اختصني به في الأزل، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيما قدر لي لا إلى

[هود:88] أرجع وأتوجه في جميع ما رجوت؛ إذ هو مولاي ومولي أموري وعليه اعتمادي واعتضادي.

﴿وَ﴾ بعدما تفرس منهم المصيبة والمراء المفرط، قال على مقتضى المحبة والشفقة وإرخاء العنان: ﴿يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الجرائم المستجلبة لأنواع العذاب والنكال، إني أخاف عليكم ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ بسبب جرائمكم وعصيانكم ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ هُودٍ أَوْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ صَالِحٍ﴾ وبالجملة: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ﴾ وقصة استئصالهم وإهلاكهم وتقليب أماكنهم عليهم ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:89] متمادٍ في البعد إلى حيث يحصل لكم الذهول عنه لقرب عهدهم.

﴿وَ﴾ يا قوم ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من العدم من جميع فرطاتكم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اخلصوا في إنابتكم ورجوعكم، ولا تغتموا بعد إخلاص التوبة بما جرى عليكم من الجرائم ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتكم ويعفو عن زلاتكم ﴿وَدُودٌ﴾ [هود:90] يحبكم ويرحمكم ويتفضل عليكم.

وبعدما بالغ في نصحهم وإرشادهم ﴿قَالُوا﴾ تسفيهًا عليه وتخويفًا: ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ نادوه على سبيل الاستهزاء والاستحقار ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ونفهم ونعقل ﴿كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: بعض هذياناتك التي تكلمت بها ﴿وَإِنَّا﴾ أي: وإن لم نفهم بعض كلماتك لابتنائها على الخبل والخرق ﴿لَنَرَاكَ﴾ في بادي الرأي ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾ في غاية الضعف والحقارة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: عشائرك وأقوامك ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ بالحجارة ألبتة بسبب هذاياناتك وذكرك آلهتنا بالسوء، ودخلك على أفعالنا مع أموالنا ﴿وَ﴾ اعلم يقينًا إنك بنفسك ﴿مَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:91] بل عزتك عندنا بسبب رهطك لكونهم إخواننا في الدين، فلا نريد أذاهم بقتلك، وإلا فلا نبالِ بك وبرحمتك.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي

غيره، والتوكل على ثلاثة أوجه: توكل المبتدئ: وهو ترك الأسباب في طلب المعاش. وتوكل المتوسط: وهو ترك طلب المعاش في طلب العيش مع الله. وتوكل المنتهي: وهو استهلاك الوجود في وجود الله وإفناء الاختيار في اختيار الله؛ ليبقى في هويته بلا هو متصرفًا في الأسباب به، ولا يرى التصرف والأسباب إلا لمسبب الأسباب.

بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:92-95].

وبعدما آيس شعيب عليه السلام من إيمانهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه هنا تهكمًا بخلاف ما مضى؛ إذ قد آيس عن صلاحهم بالمرة ﴿أَرَهْطِي﴾ وأقوالي ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم، فعزرتموهم وراعيتم جانبهم ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي: الله سبحانه وأوامره ونواهيه وإطاعة رسوله ﴿وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: منبوذًا وراء ظهوركم، بل رجحتم جانب المصنوع على جانب الصانع ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المفاسد ﴿مُحِيطٌ﴾ [هود:92] بعلمه إحاطة حضور لا يغيب عنه شيء، فيفصلها عليكم ويجازيكم بها.

﴿وَيَا قَوْمِ﴾ الناكبين عن طريق الحق المصرين على الباطل ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وعلى مقتضى مرتبتكم ونشأتكم أي عمل شئتم ﴿إِنِّي﴾ أيضًا ﴿عَامِلٌ﴾ على شأني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أنتم وأنا أيضًا ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ منا بالله وبسر ربوبيته وتوحيده ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا وترقبوا بالعذاب والنكال ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:93] منتظر.

﴿وَلَمَّا جَاءَ﴾ ونفذ ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ وأخرجنا أولاً من بينهم ﴿شُعَيْبًا﴾ الناجي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وامتثلوا بما أُمروا به من عندنا ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ إياهم تفضلاً ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم حين صاروا في فراشهم بائتين ﴿الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ التي كانوا مترفهين فيها ﴿جَاثِمِينَ﴾ [هود: 94] جامدين جثومهم وأجسادهم بلا روح.

وصاروا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَا﴾ فصاح عليهم من صاح من أرباب الفطنة والعبرة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:95].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ

فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:96-101].

وبعدما انقرض أولئك الطغاة الغواة المنهمكين في الغي والضلال، المفسدين في الأرض بأنواع الإفساد والإضلال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ حين حدث على الأرض أمثال أولئك الهالكين بل أسوأهم حالاً وأقبحهم شيمة وخصالاً وأشدهم بغضًا وشكيمة على الحق وأهله، عبدنا ﴿مُوسَى﴾ المخصص من عندنا بتكليمنا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ أي: أيدناه من عندنا بحجة واضحة وبرهان ﴿مُبِينٍ﴾ [هود:96] ظاهر الدلالة على صدقه في دعواه عند من له أدنى مسكة.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الذي هو رأس أهل الضلال ورئيسهم إلى حيث تبعوه بالألوهية من غاية عتوه واستكباره ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المعاونين له في أمره وشأنه، ثم لما أمهلنا زمانًا على غروره ورفعنا قدره في هذه الدنيا مسرورًا؛ تغريرًا عليه ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ من على الأرض ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وامتثلوا بمقتضاه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:97] هادٍ إلى الحق، موصل إلى مقصد التوحيد، بل هو غار موصل إلى نار الخذلان وسعير الحرمان.

إذ هو بنفسه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي: يتقدم عليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي انكشفت فيها السرائر واضمحلت الأوهام ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ مثل إيرادهم على ماء نيل في دار الدنيا، شبه حالهم في النشأة الأخرى بحالهم في النشأة الأولى، لذلك عبر عنه بالإيراد ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:98] ونار الخذلان وجحيم الحرمان.

﴿وَ﴾ هم من غاية خبثهم وفسادهم ﴿أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ النشأة ﴿لَعْنَةً﴾ دائمة مستمرة ﴿وَ﴾ يلعنون أيضًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأضعاف هذه اللعنة، وبالجملة: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ﴾ أي: العون والعطاء ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود:99] أي: المعان والمعطى رفدهم التي هي طردهم في الدارين ولعنهم في النشأتين.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ وأخبارهم وما جرى عليهم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ بالوحي يا أكمل الرسل ليكون عبرة لك ولمن تبعك مشاهدة وتذكيرًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من تلك القرى ﴿قَائِمٌ﴾ جدرانها بلا سقوف ﴿وَ﴾ منها ما هو ﴿حَصِيدٌ﴾ [هود:100] مدروس مندك، كالزرع المحصود، عفت آثاره واندرست أطلاله.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم وتخريب ديارهم ﴿وَلَكِن﴾ هم ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ باتخاذ مصنوعاتنا آلهة أمثالنا مستحقة للعبادة، ظنًا منهم أن آلهتهم تنفعهم لدى الحاجة وتشفعهم وقت الشفاعة ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أي: كفت ودفعت عنهم ﴿آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا قليلاً من القضاء ﴿لَّمَّا جَاءَ﴾ أي: حين جاء ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وحين نزل عذابه وحل عقابه إياه، بل ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ آلهتهم حين حلول العذاب عليهم ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: 101] أي: هلاك وتخسير؛ لأنهم بسبب عبادة هؤلاء صاروا مطرودين عن سعة رحمة الله وجوده.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ
﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ
فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا
يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ
﴿١٠٩﴾﴾ [هود:102-109].

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: انتقامه وبطشه ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: حين أخذ أهلها بظلمهم وعصيانهم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ خارجة عن مقتضى الأمر الإلهي ونهيه، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ﴾ للمسرفين الخارجين عن حيطة حدوده ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٌ﴾ [هود:102] في غاية الشدة؛ لكونهم مبالغين في

الإصرار والاستكبار.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ عظة وعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ وحساب الله إياه فيها على رءوس الأشهاد ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1] [هود:103] شهد فيه الجميع للجميع بل الأعضاء والجوارح على صاحبها.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم الموعود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:104] أي: لانقضاء مدة قصيرة.

اذكر يا أكمل الرسل عظة وتذكيرًا لمن تبعك ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم الموعود الهائل ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ ولا يشفع شافع؛ لشدة هوله وفزعه ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذن الله وإقداره إياها ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: بعض الناس من الموقوفين في المحشر ﴿شَقِيٌّ﴾ خرج من الدنيا على الشقاوة ووخامة العاقبة ﴿وَ﴾ منهم ﴿سَعِيدٌ﴾ [هود:105] خرج منها على السعادة وحسن العاقبة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ في الدنيا وخرجوا منها على الشقاوة ﴿فَفِي النَّارِ﴾ أي: هم في النشأة الأخرى داخلون في النار ومضطربون فيها؛ إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:106] أي: إخراج النفس من شدة الحرارة، وشهيق؛ أي: رده؛ يعني: حالهم فيها كحال من استولت عليه الحرارة على قلبه وضيق الأمر عليه، فيردد نفسه كما في سكرة الموت، وذلك من شدة كربهم وآلمهم ولكونهم متناهين في الشقاوة في دار الدنيا، لا ينقطع عذابهم فيها أصلاً.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: ما تحقق الجهتان الحقيقيتان؛ أي: الفوق والتحت ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: تعلق إرادته ومشيئته لإخراج بعض منها كفساق المؤمنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:107] أي: له الاختيار التام في جميع مراداته ومقدوراته، ومن جملتها: إخراج بعض العصاة من النار.

---

(1) قال يحيي بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم ممدود، فاليوم المفقود: أمسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزوّد منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعلّه ليس من أيامك، وهو غدك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ في الدنيا، وخرجوا على السعادة منها ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ أي: هم في النشأة الأخرى في الجنة التي هي منازل السعداء الآمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ متنعمين فيها مترفهين بأنواع النعم الجسام ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بإعلامها، وهو الانكشاف الذاتي والتجلي الشهودي، وذلك لمن يعطى ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] [هود:108] أي: غير مقطوع؛ إذ لا انقطاع للتجليات الذاتية ولا للذاتها المرتبة عليها بالنسبة إلى الفائزين بها، جعلنا الله من خدامهم.

وبعدما تبين حال السعداء المقبولين والأشقياء المردودين ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وتردد ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ المشركون، ألا يستجلب عليهم العذاب والنكال كما استجلب على أسلافهم؛ إذ هم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم﴾ وأسلافهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ فسيلحقهم مثل ما لحقهم؛ لأن اشتراك الأسباب يوجب اشتراك المسببات ﴿وَإِنَّا﴾ وإن أمهلناهم زمانًا في الدنيا ﴿لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ وحظهم من العذاب في الآخرة مثلهم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:109] من عذابهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا
تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود:110-115].

(1) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد الهموم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (75/3).

﴿وَ﴾ كيف لا نوفي العذاب على المشركين ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من عظيم جودنا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة حين فشا الجدال والمراء والكفر والفسوق بين بني إسرائيل واضمحلت العدالة الإلهية بالكلية ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ مثل اختلافهم في كتابك الذي هو أفضل الكتب علمًا وإحاطة، وأجمعهم حكمًا، وأشملهم معرفة، وأكملهم حقيقة وكشفًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أنظار هؤلاء الكفرة وإمهالهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ﴾ أي: حكم وفرق ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الآن، بحيث يتميز المحق من المبطل، فليلحق المبطلين وبال ما صنعوا، فهلكوا كما هلكوا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفار قومك، من غاية انهماكهم في الغفلة وتماديهم في العناد والاستكبار ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ أي: من أمر القرآن مع أنهم عارضوا معه مرارًا فأفحموا ﴿مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود:110] موقع للريب والشك للخرفاء المنحطين عن التأمل في مرموزاته والتدريب في إشاراته.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ أي: كلاً من المؤمنين المحقين والمبطلين الكافرين، والله ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ ويوفرن عليهم بلا زيادة وتنقيص؛ إظهارًا للقدرة الكاملة والعدالة التامة الشاملة ﴿رَبُّكَ﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أجورها وجزاءها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر والصلاح والفساد والعبادة وتركها ﴿خَبِيرٌ﴾ [هود: 111] على وجه الحضور، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

ومتى تلطفت يا أكمل الرسل بخبرة الحق وحضوره، وتنبهت تنبيهًا وجدانيًا حضوريًا وانكشفت بها انكشافًا عينيًا شهوديًا ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ أي: فاعتدل في أوصافك وأفعالك وأقوالك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من ربك بوحيه عليك وإلهامه إليك، وأمر أيضًا بالعدالة والاستقامة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ وآمن لك واتخذ طريقك مسلكًا إلى الحق ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَطْغَوْا﴾ أي: لا تميلوا ولا تخرجوا أيها المتحققون بحقية التوحيد واستقامة صراطه ولا تنحرفوا عن سبيل السلامة التي هي جادة الشريعة المصطفوية أصلاً ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جميع الأعمال الموجبة للعدالة والانحراف ﴿بَصِيرٌ﴾ [هود:112] لا يخفى عليه شيء.

ولصعوبة الامتثال بهذه الآية الكريمة قال ﷺ: «شيبتني سورة هود»[1].

(1) رواه ابن سعد (435/1)، وأبو يعلى (102/1، رقم 107)، والطبراني في «الأوسط» (16/8، رقم

وقال أيضًا ﷺ: «هذه الآية قصمت ظهور أنبياء الله وأوليائه»[1].

﴿وَلاَ تَرْكَنُوا﴾ أي: لا تميلوا ميلة ولا تلفتوا التفاتًا قليلاً أيها المستوون على صراط الله، المستقيمون لجادة عرفانه ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: خرجوا عن حدود الله الموضوعة لإصلاح أحوال عباده ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بأدنى الميل والالتفات ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ينقذونكم من النار لو توالونهم أو تداومون الميل إليهم ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنكم لو اخترتم موالاة الظلمة واتخذتموهم إخوانًا كسائر المؤمنين ﴿لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود:113] ولا تنقذون من النار، فعليكم ألا تتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ أي: أدم الميل والركون إلى الله بجميع الأعضاء والجوارح في جميع الأوقات والحالات، سيما ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أي: قبل الطلوع وقبل الغروب، فإنهما وقتان محفوظان عن وسوسة الأوهام، خاليان غالبًا عن الشواغل ﴿وَ﴾ عليك أن تختلس لتوجهك ﴿زُلَفًا﴾ أي: ساعات ﴿مِّنَ﴾ آخر ﴿اللَّيْلِ﴾ قريبة بالنهار، فإن إقدامك عليها وإقامتك لها حسنات، خصوصًا في تلك الساعات الخالية عن وساوس الخيالات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ الخالية عن الرياء والرعونات ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وتصفي صاحبها عن كدر الغفلات ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر بالاستقامة على المتعظين، الذين يذكرون الله في السراء والضراء ويتعظون بجميع ما جرى عليهم من الخصب والرخاء، إنما هو ﴿ذِكْرَى﴾ وعظة وتذكرة شافية ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:114] الله في عموم أحوالهم وحالاتهم.

وبالجملة: ﴿وَاصْبِرْ﴾ على أذاهم واكظم غيظك، فإن الصبر على الأذى من أعظم الحسنات ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:115] سيما على من أساء عليه.

﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ

8269) قال الهيثمي (37/7): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح ويأتي في سورة الواقعة، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر.

(1) لم أقف عليه.

﴿قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:116-119].

﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ اللاتي خلون ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفيها ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: ذوو رأي ونهية وفضل وتدبير ﴿يَنْهَوْنَ﴾ برأيهم وتدبيرهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ﴾ الواقع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولكن ما أبقينا عليها منهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من عقلائهم، ليتبع لهم العوام فينجوا من الآثام ﴿وَ﴾ مع ذلك لم يتبعوا حتى ينجوا، بل ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على عذاب الله والخروج عن مقتضى حدوده بـ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: المترفهة المتنعمة من ذوي اللذات والشهوات، فاهتموا بتحصيل أسبابها ﴿وَكَانُوا﴾ بميلهم إلى الهوى واللذات ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود:116] مستحقين لأنواع العقوبات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ أي: ليس من سنته وجري عادته ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ بشرك وكفر صدر عنهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117] أي: والحال أن أهلها مصلحون على الأرض لا مفسدون فيها؛ يعني: لا يأخذهم سبحانه بمجرد حق الله بلا انضمام حقوق العباد إليه، بل إنما أخذهم الله حين فشا الفسوق والمراء، وظهر الفساد والجدال بين العباد.

كيف ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ من غاية لطفه لعباده ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:118] متفقة على التوحيد بلا مخالفة منهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وجعل فطرته على صرافة التوحيد ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ التوحيد والعرفان ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وجبلهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بوضع الاختلاف بين استعدادات عباده حسب تجلياته وشئونه على مقتضى أوصافه وأسمائه المتقابلة بحسب الكمال ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ التي أعدت للأشقياء المردودين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية والقسط الحقيقي ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ أي: الشياطين ﴿وَالنَّاسِ﴾ التابعين لهم

والمقتفين أثرهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾[1] [هود:119] أي: منهما جميعًا.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:120-123].

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كل قصة ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ العظام من جملة ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ﴾ ونقرر على التوحيد ﴿فُؤَادَكَ﴾ إذ بكل قصة من القصص المذكورة ينشرح صدرك للتوحيد ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: الشهود والانكشاف التام خاصة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:120] الذين يصدقونك ويقتفون أثرك.

---

(1) إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأنْ من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفًا من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ولهب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإنْ كان نائمًا، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوساوس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشريات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: إنْ حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبّين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جُعلت علامات الأذكار أوقاتًا للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالبٌ في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب. قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي. قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل. قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالأمنة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة، وذلك موعظةٌ لمن يوفق له ويؤهل.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبدينك وبكتابك مماراة لهم ومباهلة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي عمل شئتم ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [هود:121] على مكانتنا وشأننا بتوفيق الله.

﴿وَانتَظِرُوا﴾ بأي شيء انتظرتم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود:122] العلم عند الله.

إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: الإطلاع عليهما وعلى مكنوناتهما ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ إذ لا شيء ولا أمر إلا هو ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ حق عبادته ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ حق التوكل والتفويض ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل المحيط علمه بجميع ذرائر الأكوان إحاطة حضور ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123] من الإخلاص في العبادة والتبتل والتوكل والتفويض والرضاء والتسليم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المأمور بتهذيب الأخلاق من الرذائل، والأوصاف من الذمائم، والأوصاف والأفعال من القبائح، والأقوال من الكواذب، والأطوار من المخالفة المنافية لصرافة التوحيد أن تستقيم بعزائمك هذه على الوجه المأمور لنبيك الذي هو قبلة لجميع مقاصدك بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] أي: فاعتدل بجميع ما صدر عنك، فلك أن تقتفي أثره ﷺ في جميع حالاتك من امتثال الأوامر واجتناب النواهي وتهذيب الأخلاق؛ إذ هو ﷺ زبدة أرباب التوحيد الواصلين بمقعد الصدق ومنزل التفريد، والسابقون واللاحقون كلهم يقتبسون من مشكاة أنواره ﷺ.

فعليك أيها المستعد المسترشد من الكلام المجيد أن تضبط جميع أحوالك على الاستقامة والاعتدال، وتجتنب عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، وتستعيذ بالله عن مداخلة الرياء والسمعة المنافيين للإخلاص.

واعلم أن خير قرينك في طريقك هذا الرضا والتسليم والتفويض إلى العزيز العليم، ولك العزلة عن الخلطة والانخراط في سلك أهل الثروة والغفلة، والقناعة بالكفاف والعزوبة بالعفاف.

وعليك ألَّا تفرق خاطرك وهمك في أمور دنياك ولو لحظة حتى لا تورثك همًا كثيرًا وحزنًا طويلاً؛ إذ المسافر في منزله لا يتصرف إلا مقدار مقيله، أمَا تسمع قول

النبي ﷺ الأديب الأريب: «كن في الدنيا كأنك غريب»[1]؟!

أو: «اشدد حيازيمك للموت والرحيل كأنك عابر سبيل»[2].

وبالجملة: لا تغتر بحياتك في دار الغرور، وعد نفسك من أصحاب القبور، فإنه دأب أهل السرور، ديدنة أرباب الحضور.

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (267/21).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (84/1)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (175/6) بنحوه.

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يوسف عليه السلام

لا يخفى على من تأمل في صور الرؤيا وتدبر في كيفية ظهورها وانمحائها سريعًا وعدم استقرارها كالبرق الخاطف، أن الوجود الخيالي ألطف الموجودات وأرقها وأصفاها عن كدر الهيولى، وأشبهها بالتجليات الإلهية المتجددة المتشعشعة دائمًا، إلا أن الآثار الغيبية التي هي منزوعة عنها، مأخوذة منها ستوجد ألبتة، كذلك وجب العبور عنها والتعبير بها، ولهذا صار الرؤيا الصالحة جزءًا من سبعين جزءًا من أجزاء النبوة، إلا أن المطلعين عليها والمتأملين فيها ممن حصنه الله بالنفوس القدسية والمرتبة الحدسية المتفرعة على التمرين والرسوخ في سر سريان الوحدة الذاتية، المتجلية على ذرائر المكونات، وفي كيفية رقائق المناسبات والارتباطات الواقعة بين أجزاء المظاهر وجزئياتها، إنما هو في غاية الندرة وبواسطة ذلك صارت كمالاتهم اللائقة لنشأتهم كلها بالفعل، وصاروا بذلك مستحقين للخلافة والنيابة الإلهية.

ومنهم يوسف الصديق - صلوات الرحمن عليه وسلامه - أحاط بحضرة الخيال إلى حيث لم يشذ عن تعبيره صورة من صور الرؤيا، كما أخبر عنه الحق سبحانه في هذه السورة ويفصح عنه التواريخ والآثار المروية عن النبي المختار ﷺ، لما أراد سبحانه أن يشير إلى مرتبته وينبه على نبيه بعلو شأنه ورتبته، ذكر قصته في كتابه تتميمًا لسعة دائرة كمال حبيبه ﷺ، والمقتفين أثره من خلص أولياء الله؛ لينال كل منهم إلى ما قدر الله لهم من حظوظ المراتب، فقال متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على حضرة الخيال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بالعبور عنها على صور الهياكل العينية والتمثال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم إلى كيفية ظهوره بالتفصيل والإجمال.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:1-6].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق، الرشيد لرفع لواء سرائر الربوبية ورموز التوحيد، وتمييز أجل لباب الرؤيا والروايات الواردة لتبيينه عن قشورها ﴿تِلْكَ﴾ العبر والأمثال والقصص والآثار المذكورة لك فيما يتلى عليك يا أكمل الرسل لتأييدك وارتفاع شأنك ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:1] الذي هو حضرة علمنا المشتمل على جميع مراداتنا ومقدوراتنا.

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ منظمًا على صور الألفاظ والعبارات، مترجمًا عما عليه الأمر في حضرة علمنا الحضوري ﴿عَرَبِيًّا﴾ أسلوبه عناية منا إليكم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2] معناها وتطلعون على مرموزاتها وإشاراتها وتطرحون عقولكم الموهوبة لكم لكشف سرائرها وخفياتها.

﴿نَحْنُ﴾ من كمال لطفنا معك ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل، تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1] استماعًا وأكملها انتفاعًا وأشملها عبرة وأتمها

---

(1) إنَّ الله سبحانه لما أراد أن يوقع عنقاء همَّته إتعاب قوسينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلى صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلَّى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والوامقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لئلا يضيق صدره في محل الامتحان، لأنَّ امتحان بالعشق الإنساني مراقي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإنَّ بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية. فقد بيَّن تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف ﷺ كله عَشِقَ به أبوه، وهكذا كل من رآه؛ لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلَّى الحق منها للعباد. وكيف لا يكون أحسن القصص؟! وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدٌّ بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن

فائدة وأعمها عائدة؛ إذ الفطن اللبيب استفاد منها من العبر والتذكيرات والرموز والإشارات ما يكفي مؤونة سلوكه في أمر دينه لو كان من ذوي الرشد وأهل الخبرة والبصيرة، وإنما علمناه لك ونبهناه عليك ملتبسًا ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ أي: بإيحائنا وإنزالنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ المخبر عن المغيبات المكنونة في حضرة علمنا ﴿وَإِن كُنتَ﴾ في نفسك ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل وحينا وإلهامنا إياك ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف:3].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾[1] حين بلغ الحلم وترقى من الطفولية: ﴿يَا أَبَتِ﴾ ناداه تحننًا إليه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الكواكب العظام ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضًا معهن ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:4] واضعين جباههم على تراب المذلة عندي تعظيمًا وترحيبًا - جمعها جمع العقلاء باعتبار ما يؤول إليه ويؤول به - ثم لما تفرس أبوه من الرؤيا ما تفرس، بادر إلى نهيه عن الإفشاء والانتشار لإخوته حيث ﴿قَالَ﴾ له قبل أن يشتغل بتأويلها وتعبيرها: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ صغره؛ تلطفًا له وإشفاقًا عليه وتخوفًا من كيد إخوته ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ ولا تذكر

كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه.

(1) جمع الله في اسم يوسف ﷺ أربعة حرف: الياء، والواو، والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف ﷺ سمي يوسف ﷺ، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف ﷺ؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن. جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثّل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار. وأيضًا: مثّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف ﷺ: كان يوسف ﷺ آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خير من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية. [عرائس البيان].

﴿رُؤْيَاكَ﴾ التي رأيتها ﴿عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ لئلا يحسدوا لك من ارتفاع شأنك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ بإغواء الشيطان إياهم ويحتالوا لمقتك وهلاكك؛ حسدًا لك ولعلو شأنك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المغوي المضل ﴿لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:5] ظاهر العداوة، محيل عظيم، يعاديهم في لباس الصداقة ويفسدهم في صورة الإصلاح.

ثم لما سارع يعقوب عليه السلام بالنهي عن الانتشار والإفشاء تحذيرًا وتخويفًا له من كيد إخوته، اشتغل بتأويل رؤيته، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إراءتك هذه الرؤيا وتخصيصك بها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: ينتخبك من بين الناس ويخصك بالرئاسة العظمى والمرتبة العليا، وهي النبوة والنيابة الإلهية ﴿وَ﴾ بعدما يجتبيك ويصطفيك ﴿يُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: يخصصك بعلم الرؤيا وتعبيرها إلى حيث انكشف لك حضرة الخيال انكشافًا تامًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ﴾ بواسطتك ﴿عَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: بنيه وأحفاده ومن ينتمي إليه وإن سفل ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ أي: جديك ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان؛ يعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أعطاهما من الإنعام والأفضال ما لم يعطِ أحدًا من الخلة والإنجاء والإنقاذ والفدية والخلاص، وغير ذلك من النعم الجسام ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع اللطف والكرم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري لاستعدادات عباده على مقتضى ما ثبت في لوح قضائه إجمالاً ﴿حَكِيمٌ﴾ [يوسف:6] في صورة تفضيله على وفق إجماله، لا يشذ عن حيطة علمه شيء.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:7-12].

واعلم يا أكمل الرسل أنه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وما جرى بينهم من الحيل والمخادعات وإسقاط المروءة والخيانات، والإنابة والرجوع منها إلى الله في الخلوات، وإظهار العدم والاستحياء من الله، ومنه يوسف وأبيه ﴿آيَاتٌ﴾ دلائل

واضحات، وشواهد مفصحات عن أسرار التوحيد ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:7] لو تأملوا في رموزها وإشاراتها واعتبروا منها[1].

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف حين بثوا الشكوى من أبيهم في خلواتهم، حاسدين على يوسف وأخيهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أضافوه لكونه من أمه ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ يؤانس معهما ويتحنن إليهما ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ فرقة ذوو قوة وكفاية تستحق وتليق أن يحبنا ويلتفت إلينا، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في تفضيل المفضول وترجيح المرجوح ﴿لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:8] ظاهر المخالفة للعقل والعرف.

فعليكم أيها الإخوان أن تتأملوا في أمر أبيكم، وتتشاوروا لمقت يوسف وهلاكه حتى لا يلحق العار عليكم ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ حتى ييأس أبوكم منه ويقبل إليكم بالكلية ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة عن العمران غاية البعد حتى ينساه أبوه، وحينئذ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يخص ويخلص لكم مواجهة أبيكم خاليًا عن أغياركم، ويقتصر حينئذ التفاته وتحننه نحوكم ﴿وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: بعد فقد يوسف عن نظر أبيكم وغيبته من عنده ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9] لخدمته وصحبته ومؤانسته، أو المعنى بأن تتوبوا بعدما صدر عنكم هذه الجريمة، ولتكونوا من بعده قومًا صالحين تائبين.

وبعدما تشاوروا في مقت يوسف وطرحه وطرده ﴿قَالَ قَائِلٌ مَّنْهُمْ﴾ وهو يهوذا وكان أحسنهم رأيًا: ﴿لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ إذ نحن من عترة الأنبياء، لا يليق بنا قتله بلا رخصة شرعية ﴿وَ﴾ إن أردتم أن تدفعوه من عند أبيكم ﴿أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ الذي على متن الطريق ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي: يأخذه ويذهب ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض السائرين في أقطار الأرض، الواردين على الماء، فلا طريق لكم لطرده وطرحه سوى هذا ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف:10] قاصدين جازمين أن تفعلوا معه ما يبعده عن وجه أبيه.

وبعدما سمعوا من يهوذا ما سمعوا واستقرار رأيهم على رأيه، فأخذوا يحتالون

---

(1) قال البقلي: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائعه، وما وضع الله في النفس الأمارة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته، وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

ويمكرون؛ لينالوا ما قصدوا، فاجتمعوا يومًا عند أبيهم تحننًا عليه وتواضعًا ﴿قَالُوا﴾ له على سبيل الشكوى وإظهار الحزن: ﴿يَا أَبَانَا﴾ نحن بنوك وخادموك، ويوسف أخونا وقرة عيننا وقوة ظهرنا ﴿مَا لَكَ﴾ أي شيء من السوء منا عرض لك ووصل إليك ﴿لاَ تَأْمَنَّا﴾ أي: لا تجعلنا أمناء مشفقين ﴿عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا﴾ في أنفسنا ﴿لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف:11] مشفقون حافظون مريدون الخير له.

ثم لما تفرسوا بأن أثر كلامهم في أبيهم، ولاح منه أمارات الرضا والتسليم، أخذوا في المكر حيث قالوا متضرعين إليه متحنين نحوه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ نخرج إلى الصحراء مستنشقين ﴿يَرْتَعْ﴾ ويتفكه من أنواع الفواكه ﴿وَيَلْعَبْ﴾(1) بأنواع اللعب من الاستباق والانتضال؛ تفريجًا له وتفريحًا للقلب ﴿وَ﴾ لا تخف من أن يلحقه مكروه ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:12] بجمعنا من المكروهات.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

---

(1) قال في التأويلات: رضي يعقوب بلعبهم لا جرم ابتلي بما ابتلي، فاللعب خلقنا، وقيل: خدعوا أباهم بميعاد لذيذ، ثم فرقوا به بينه وبين والده، فينبغي للمؤمن أن يعتبر ولا ينخدع بما يخدع بالشيطان من المواعيد واللذائذ الباطلة، وقد قيل: أعدت شيء مشتغل بالدنيا، والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك ملأ فيه ولا يدري إلى أي الدارين مصيره، وقيل أيضًا: أكرم الله أربعة من الصبيان في حال صبيانهم:

الأول: عيسى ﷺ كما قال في حقه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:48] ومما حكي من حكمته قوله: معاشر الحواريين لا تجعلوا اليوم همكم، عند كل يوم همه. والثاني: يحيى ﷺ كما قال في حقه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:12]، ومما روي من حكمة أنه قال: من حي بالموافقة فإنه لا يموت بالمخالفة، فإن كنت اليوم حيًا بالمخالفة تكن غدًا ميتًا بالعقوبة، وإنما لقن الحكمة كما حكي؛ ولهذا ندب الآباء إلى تعليم الصبيان أمور دينهم في صباهم؛ ليعتادوها ويشبوا عليها. والثالث: سليمان ﷺ أكرم في صباه بالفهم كما قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:79]. والرابع: يوسف ﷺ أوتي الحكمة في صباه فقوى سره لاحتمال البنيان، فأهل الولاء يحتملون أعباء البلاء، وقيل: البئر موضع الهلكة، ولمّا وصل إليها بركته صارت موضع السلامة والنار موضع الحرقة، فلمّا وصل إليها حشمة الخليل انقلبت بإذن الله نزهته وروضته، والغار كان محل الوحشة، فلمّا وصل إليها حشمة المصطفى ﷺ صار مزار الأولياء، كذلك القبر محل الوحشة، فإذا وضع فيه من صحبته التوحيد والمعرفة والطاعة انقلب روضة من رياض الجنة كما قال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:89].

﴿13﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿14﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ
وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿15﴾
وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿16﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ
مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿17﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ
قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا
تَصِفُونَ ﴿18﴾﴾ [يوسف:13-18].

ثم لما بالغوا وألحوا ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿إِنِّي﴾ من شدة محبتي وشوقي إليه، وتحنني وعطفي نحوه ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ مفارقته ﴿أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ مع ذلك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ لأن أرضنا مذئبة ﴿وَأَنتُمْ﴾ لشدة شغلكم على الرتع واللعب ﴿عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف:13] حينئذٍ، ذاهلون عن حضانته وحفظه.

﴿قَالُوا﴾ على سبيل الاستبعاد والاستنكار مقسمين؛ تغريرًا عليه وتأكيدًا لمكرهم وخداعهم: والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة أقوياء ذوو عدة وعُدة وقدرة وقوة ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف:14] ضعفاء ذليلون مغبونون، قالوا ذلك على سبيل التشدد وإظهار الجرأة والشجاعة، كأنهم يستدلون على عدم وقوع المحذر به.

﴿فَلَمَّا﴾ احتالوا وبالغوا في الحيلة والمكر إلى أن ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي: بيوسف إلى الصحراء، فاشتغلوا بضربه وشتمه والقهر عليه وأنواع العذاب والعقاب، وكادوا أن يقتلوه ظلمًا وزورًا، قال لهم يهوذا: أنتم عهدتم ألا تقتلوه، فما هذه المبالغة والاشتداد، أمَا تستحيون من الله؟ ﴿وَ﴾ بعدما قال لهم يهوذا هذا ﴿أَجْمَعُوا﴾ واتفقوا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ ويطرحوه ﴿فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ وهو جب معروف مشهور بجب يوسف، على ثلاثة أميال من صفد يعقوب، قريب من جسر يقال له: جسر يعقوب بفرسخ تقريبًا، فقربوه على الجب وعزموا إلقاءه فيها، فتعلق يوسف بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا عنه قميصه؛ ليلطخوه بالدم الكذب، فألقوه مربوطة يديه على الماء وكان فيها صخرة عظيمة جلس عليها عريانًا قلقًا، حائرًا، حزنًا، مضطربًا، مستوحشًا ﴿وَ﴾ بعدما ألقوه وقضوا الوطر أزلنا عنه وحشته وكربه بأن ﴿أَوْحَيْنَا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿إِلَيْهِ﴾: لا تغتم أيها الصديق من صنيع هؤلاء الغواة الهالكين في تيه الحسد والعناد، إنَّا بمقتضى كرمنا

وإحساننا لنفضلك عليهم ونمكنك على انتقامهم إلى حيث ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وتحدثنهم معاتبًا عليهم، منتقمًا منهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ معك وحيلتهم ومكرهم مع أبيك ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:15] أنك يوسف؛ لعلو شأنك وارتفاع قدرك وسلطانك، اصبر أيها الصديق على أذاهم في الحال، فإن لك السلطنة والسطوة عليهم في المآل.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا بيوسف ما فعلوا ﴿جَاءُوا أَبَاهُمْ﴾ ملتبسين محتالين ﴿عِشَاءً﴾ في آخر اليوم ﴿يَبْكُونَ﴾[1] [يوسف:16] صائحين، صارفين، فزعين؛ تغريرًا على أبيهم.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ليس كل بكاء يكون حقًا فقد يبكي الظالم كما في قصة يوسف وإخوته وجاءت امرأة إلى القاضي أبي هاشم وهي تبكي فقال له: هذه ضعيفة تبكي، فقال: ليس كل من بكى صدق، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ فالبكاء على وجوه:
الأول: بكاء الحياء، وهو كان لآدم ﷺ بكى مائتي سنة بعد الذلة حياءً من الله تعالى، وحكي أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «يا ابن آدم أين الشكر على العطاء؟ فإن لم يكن فأين الرضاء بالقضاء؟ فإن لم يكن فأين الصبر على البلاء؟ فإن لم يكن فأين النفي عند الهوى؟ فإن لم يكن فأين الوفاء لإله السماء؟ فإن لم يكن فأين البكاء على الجفاء؟». والثاني: بكاء الخجلة، وهو لداود ﷺ بكى أربعين سنة، ثم ملأ كفه دمعًا ودفعها إلى السماء فقال: «يا رب أما ترحم دمعي؟ فأوحى الله تعالى إليه تذكر دمعك وتنسى ذنبك، فغشي عليه خجلاً مما قاله»، وفي حديث غريب: أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبكي كلما ذكرتك [ففيض] بكائي خجلاً من الله تعالى، فهل ينفعني ذلك؟ فقال ﷺ: «كل قطرة منها تطفئ بحورًا من النار». والثالث: البكاء خوفًا من النار، فقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة:82] وحكي أن يحيى بن زكريا - عليهم السلام - كان على المنبر يومًا فقال: أتاني جبريل آنفًا فقال: إن في النار دركة يقال لها: سكران فيها جبل يقال له غضبان لا ينجوا منها إلا الباكون من خشية الله، ثم بكى حتى غشي عليه وسقط من الكرسي، فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام، وقيل لبعضهم: ما يغنيك لا تخف، وقال: ولو أن الله تعالى أوعدني بعصيانه، الحبس في الحمام لكنت خائفًا به كيف، وقد قال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ [النبأ:21] والرابع: البكاء من هيبة الله وهو بكاء الأنبياء، وكما قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم:58]. والخامس: بكاء الشوق وهو لشعيب ﷺ حكي أنه بكى حتى أظلمت عيناه ثلاث مرات، وحكي أنه كانت لامرأة بنت صغيرة تبكي أبدًا، فجاءت والدتها إلى الحسن البصري - رحمة الله عليه - فعرضت بنتها والتمست أن يحضرها، فجاء الحسن فقال لها: يا جارية إن لعينك عليك حقًا، قالت: إن عيني إن كانت تصلح لرؤية الله فألف مثلها في سبيله، وإن لم تكن أهلاً لذلك فدعها تعمى، فقام الحسن وقال: جئت واعظًا فوقعت بما أوعظ. والسادس: بكاء فوت الطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة:92] والسابع: بكاء الحيلة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾

فلما سمع يعقوب صياحهم اضطرب فقال: ما لكم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نتسابق بالعدو والرمي واستمر تسابقنا ومالنا ﴿وَ﴾ قد ﴿تَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ لحفظها، فغفلنا عنه بغرور السباق ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وكنت نظرت من أول الأمر فوقع ﴿وَ﴾ نحن نعلم ﴿مَا أَنتَ﴾ يا أبانا ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ أي: مصدق ﴿لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:17] فيما أخبرنا لك؛ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك بيوسف.

﴿وَ﴾ بعدما تفرسوا منه الإنكار والاستبعاد ﴿جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ معه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ يعني: جاءوا مثبتين لدعواهم بدم كذب ملطخ على قميصه، مفترين على الذئب بأنه أكله، وبعدما جاءوا بالقميص الملطخ، طلب منهم أبوهم، فألقاه على وجهه فبكى بكاء فظيعًا فجيعًا، وتمادى في البكاء زمانًا طويلاً حتى احمر وجهه من الدم الملطوخ به، ثم كشف القميص فرآه لم يمزق، فقال: ما رأيت ذئبًا أحلم من هذا الذئب، أكل ابني ولم يمزق قميصه! ثم ﴿قَالَ﴾ متوجهًا إليهم: ما جئتم به معتذرين عليَّ ليس بمطابق للواقع ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ سهلت ويسرت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ بإلقاء الشيطان وتعليمه إياكم لتعتذروا به عليَّ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أجمل علي فيما ابتليت ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى﴾ احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:18] بألسنتكم أيها المسرفون؛ إذ لا طاقة في تحمله إلا بعون الله وإقداره.

[يوسف:16] فالإخوة كانوا يبكون احتيالاً شوقًا إلى الله، فشتان ما بين البكائين قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:18] فحكي أنه لمّا رأى يعقوب القميص قال: فلئن كان كما قلتم كان الذئب مشفقًا على القميص فلبسته أشفق على يوسف كما أشفق على القميص، فلئن كنتم صادقين فاذهبوا فخذوا الذئب وأتوني به، وكان يهوذا رجلاً إذا صاح على أسد سقط من هيبته، فأخذوا ذئبًا ولوثوا مخالبه بالدم وأتوا يعقوب به مشدود اليد والرجل، فقال: خلوه فخلوه، فقال يعقوب: يا رويبل سله لم أكل يوسف، فسأله فلم يجبه، فقال يعقوب: لم لا تجيبه؟ فقال: يا نبي الله أن بنيك عقوك وعصوك، ونحن نُهينا أن نكلم العصاة، فقال: لم لا ترحم يوسف وفجعتني به؟ فقال: بعزة الله ما أكلت يوسف وإني مظلوم مكذوب علي، وأني غريب من بلاد مصر جئت لأهل قرابة لي ها هنا أنا لا أحوم حول غنمك فكيف أكل ابنك؟ فقال يعقوب: فمن فعل فقال الله لا يهتك سر خلقه، فإنا لا أهتك سرهم، ولمّا رأى يعقوب القميص صحيحًا مؤخرًا غير مخرق رجا أن يكون يوسف حيًا، فكذا حال المؤمن وإن تلوث بخطاياه فما دام لباس الإيمان صحيحًا فالرجاء باق.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:19-22].

﴿وَ﴾ بعدما مضى ثلاثة أيام على الإلقاء ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة وقفل عظيم يسيرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريب الجب ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي كان يرد الماء للاستسقاء، وهو مالك بن ذعر الخزاعي ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أي: ألقاها لإخراج الماء، فتدلى بها يوسف، فأخرجها فرآه ﴿قَالَ﴾ مستبشرًا فرحانًا: ﴿يَا بُشْرَىٰ﴾ تعالي فهذا أوانك؛ إذ ﴿هَٰذَا﴾ الذي خرج بالدلو بدل الماء ﴿غُلَامٌ﴾ صبيح مليح في غاية الصباحة والملاحة ﴿وَ﴾ بعدما أخرجوه ومن معه من رفقائه ﴿أَسَرُّوهُ﴾ وأخفوا أمره من البعض الآخر ليكون ﴿بِضَاعَةً﴾ لهم وقت وصولهم إلى مصر، ليشروه ويقسموا ثمنه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لمخايل عباده ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:19] أي: يقصدون عمله ويسرون في نفوسهم.

وبعدما اطلع أخوة يوسف على قدوم السيارة ونزولهم على الجب تسارعوا نحوهم ليبيعوه لهم حتى يتخلصوا منه بالكلية، فوصلوا الجب ولم يجدوه وبادروا إلى القفل فتجسسوه، فوجدوه عندهم، فقالوا لهم: هذا عبدنا قد أبق منا، إن اشتريتم نشريه على ما رضيتم، وأقر يوسف على الرقية ولم ينكر عليهم؛ خوفًا من القتل ﴿وَشَرَوْهُ﴾ بعدما اعترف بالرقية وباعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ مبخوس منقوص ﴿دَرَاهِمَ﴾ لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة ﴿وَ﴾ إنما شروه بها؛ لأنهم ﴿كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 20] الراغبين المعرضين عنه، لذلك باعوه بها.

ولما اشتراه مالك بن ذعر من إخوته بما اشتراه، ذهب به إلى مصر بضاعة، فلما وصلوا إلى مصر وأراد أن يبيعه، فسلمه إلى النخاس فباعه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن ملك مصر، واسمه: قطفير أو أطفير، حين

ذهب به إلى بيته ﴿لامْرَأَتِهِ﴾ زليخا أو راعيل: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وأحسني حاله ومعاشه، وتلطفي معه بأنواع اللطف والشفقة، إني أتفرس منه الرشد والنجابة ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ بعقله ورشده وكفايته وتدبيره ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ يستخلف منا؛ لأنه كان عقيمًا فأراد أن يتبناه ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما عطفنا عليه العزيز بعد قهر إخوته وفرقة أبيه وأخيه وغربته من وطنه، ووحشته في غيابة الجب وذلة رقبته ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: جعلناه متصرفًا ذا قدرة واختيار في أرض مصر، ليتصرف فيها بالرشد التام والقدرة الكاملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ وننبه عليه ﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ الواقعة في عالم الكون والفساد طريق الرشد والعدالة؛ ليصل بها إلى الاعتدال الحقيقي ﴿وَاللّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ المراد له، المتعلق بمصالح بعض عباده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:21] غلبته واستقلاله في أمره وتصرفه في ملكه، لذلك اشتغلوا بخلاف مراده والسعي في إبطاله كإخوة يوسف، فلم يصلوا إلى ما قصدوا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال عقله وقوته وأوانه ما بين الثلاثين والأربعين ﴿آتَيْنَاهُ﴾ إنجازًا لما وعدنا عليه في سابق علمنا وقضائنا ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكومة بين الناس مقارنة بين العدل والقسط ﴿وَعِلْمًا﴾ بسرائر الأمور ورقائق المناسبات ومن جملتها تعبير الرؤيا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إيتائنا إياه من الفضائل والفواضل المقدرة له في لوح القضاء ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:22] الذين يحسنون الأدب معنا في جميع حالاتهم اتقاء منا وتوجهًا إلينا.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾ [يوسف:23-25].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل اتقاء يوسف الصديق من الله وقت اشتعال نار الشهوة في عنفوان الشباب، حين ﴿رَاوَدَتْهُ﴾ أي: خادعته وألحت عليه بالوقاع ﴿الَّتِي﴾ أي: الامرأة التي ﴿هُوَ﴾ أي: يوسف ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ وهي سيدته له حاكمة عليه، وهي زليخا

امرأة العزيز، واحتالت عليه أن يخرجه ﴿عَن﴾ نزاهة ﴿نَّفۡسِهِۦ﴾ ونجابة فطرته، وهي العصمة والعفاف إلى ما تهوى نفسها وهو الوقاع والسفاح ﴿وَ﴾ بالغت في ذلك المكر والاحتيال إلى أن ﴿غَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾[1] السبعة يومًا عليه وخلت معه في بيته ﴿وَقَالَتۡ﴾ متحننة عليه معرضة نفسها إليه: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي: بادر يا يوسف إلى التعانق والجمع معي ﴿قَالَ﴾ يوسف على مقتضى نجابة النبوة وطهارة الفطرة بإلهام الله إياه مع سورة شهوته ووفور أمن ميله؛ اتقاءً من محارم الله ورعاية لحق من أحسن إليه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أعوذ بالله معاذًا وألوذ نحوه أن يعصمني عن أمثال هذه الغفلة الذميمة والديدنة القبيحة سيما مع من يربيني ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: زوجك سيدي ﴿رَبِّيٓ﴾ يربيني بأنواع اللطف

---

(1) قال في التأويلات: ليكون نظر يوسف إليها، وكذا إذا أكرم عبدًا أغلق عليه أبواب الشهوات واللذات، ونفرة عن الخلق حتى يكون جملة نظره مقصورة على أموره، وقيل: غلقت هي الأبواب؛ ليكون يوسف معها ويخلو للشهوة، والله تعالى فتح له باب العصمة؛ ليخرج طاهرًا نقيًا من بين ذلك ليعلم أن الباب الذي يغلقه المخلوق يسهل، والباب الذي يغلقه الله لا يفتحه أبدًا أحد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ [فاطر:2] ولمّا رد يوسف بتهمة وهمية أيد من الله تعالى أيد في الله بالعصمة؛ ليعلم أن من جاهد في الله أيد بتوفيقه كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:69]. وقيل: كانت الحكمة في ذلك أن الملائكة قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] فابتلوا بهاروت وماروت، وموافقته المرأة من غير مراودة منها، وعصم يوسف مع حسنه وجمال المرأة ومراودتها ليكرمه بالعرض على الملائكة، ويعلمهم أنه يعلم ما لا تعلمون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:30] والنكتة فيه أنه لمّا التجأ في ابتداء الأمر إلى الله واستعاذ به أعانه وعصمه، فينبغي للمؤمن أن يفزع في ابتداء هوله إليه ليعيله، وكذا ينبغي أن يكون أمر المؤمن في إشارة رضاه الله أغلب من إشارة هوى نفسه، فقد قيل خمسة أشياء من أعجب العجائب: أحدها: أن الله تعالى [مهد ويسر] للخلق ما في الأرض، ثم إنهم يبخلون برغيف. والثاني: إنه أمدهم بنعمه، قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل:53]، ثم إنهم استعملوها في خدمة عدوه. والثالث: إنه يغيث لمن استغاث، وهم يفزعون إلى مخلوق ضعيف لا ينفع ولا يضر في إلا بإغاثة الله تعالى إياه كذلك. والرابع: إنهم يرجون ثوابه، ثم يعملون للخلق. والخامس: إنه خالقهم ورازقهم وملكهم، وتمر إليه كل أمورهم وهو مطلع عليهم، ثم أنهم يستحيون عنه في ضعيف مثلهم ولا يستحيون منه. وقيل لمّا اجتمع يوسف والمرأة في موضع واحد صاح الشيطان فرحًا، قال: ظفرت به، فرد فرحه بعصمة الله، ولمّا وصل موسى إلى البحر وكان وراءه فرعون وجنوده فرح الشيطان وقال: البحر أمامهم والسيوف وراءهم ولم يدر أن النجاة كانت حظهم من الله تعالى، فكذلك أمر المؤمن وقت النزع إن أيد بعناية لن يضره من شيطان ونجا من المخاوف على مراغمة الشياطين عصمنا الله في شرهم.

والكرم، سيما ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وأوصى لك بإحساني، فكيف أسيء في مقابلة إحسان محسني، ومولي أمري ومولي نعمي ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ﴾ ويفوز ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:23] بالخير والحسنى، لو خرجوا من مقتضى الأمر الإلهي، سيما بالإساءة في معاملة الإحسان.

﴿وَ﴾ بعدما رد يوسف عليها أمرها ﴿لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾[1] أي: قصدت زليخا

(1) قال روزبهان: خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك الهمتين، إن همّة زليخا سبقت على همّة يوسف ﷺ، وحسن يوسف ﷺ سبق بجذب قلب زليخا وهمّتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنيين الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلمّا هاجت همّة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى معدن عشق يوسف ﷺ هاجت أيضًا همة يوسف ﷺ إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها، فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجوهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة، والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحدٍ. .. فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، والهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصهما شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبهما قلبًا، وهمتهما همة، وسرهما سرًا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أينازعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب الهمة ، إذا تجلى من فِعله لفِعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدّس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف ﷺ في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقي في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

وتعلقت به إرادة واختيارًا لتصل إلى مرادها منه ﴿وَهَمَّ﴾ يوسف أيضًا ﴿بِهَا﴾ على مقتضى بشريته مع أنه لا إرادة له لمرادها ولا اختيار؛ إذ الكف عن المنهي لا بدَّ وأن يكون عند القدرة عليه وإلا لم يكن ممدوحًا ولا مستوجبًا للمثوبة والقربة ﴿لَوْلَا أَن﴾ أي: أنه ﴿رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي: دليله الواضح الدال على قبح الزنا وإساءة المحسن بإلقاء الله إياه وإلهامه في قلبه، لهلك بنيران طغيان القوة الشهوية، لكن رآه بإراءة الله إياه، فأبى وامتنع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فعلنا معه وألهمنا إليه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ في مقابلة الإحسان والفحشاء بدل العصمة والعفاف ﴿إِنَّهُ﴾ أي: يوسف الصديق ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:24] الخالصين عن رين البشرية وشين شهوتها وغضبيتها، المنزهين عن مقتضيات القوى البهيمية مطلقًا.

وبعدما غلب على يوسف الاتقاء عن محارم الله على مقتضى البرهان الذي رآه بإراءة الله إياه، بادر إلى الفرار منها، وقصد أن يخرج وقصدت أيضًا أن تمنعه عن الخروج ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي: تسابقا نحوه يسبقها يوسف فأخذت ذيل قميصه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ أي: شقت ذيله ﴿مِن دُبُرٍ﴾ لأنها في عقبه، ففتح يوسف الباب، فخرجا متعاقبين مضطربين ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: صادفا زوجها ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ وعنده ﴿قَالَتْ﴾ مسرعة باكية على سبيل الشكاية: ﴿مَا جَزَاءُ﴾ أي: أي شيء مكافاة ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: قصد الزنا معها مكرهًا ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ أي: غير أن يقيد ويدخل في السجن ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:25] مؤلم أشد من السجن.

وإنما فعلتها وبادرت إلى الشكوى متباكية؛ لتظهر براءتها وعصمتها عند زوجها وتحمل الخطأ على يوسف؛ لتنتقم عنه أو تلينه وتضطره على نجاح مرادها، مع أنها قد شغفها حبًا ولم تصبر عنه لحظة.

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف:29-26].

﴿قَالَ﴾ يوسف مستحييًا من ربه: يا سيدي ما لي في ذلك خطأ ﴿هِيَ﴾ بنفسها

﴿رَاوَدَتْنِي﴾ أي: خادعتني ﴿عَن نَّفْسِي﴾ وبعدما تعارضا عند السيد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ هو صبي في المهد أبهم في الشهادة وأجمل؛ لأنه كان ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وابن عمها أو ابن خالها فقال الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ﴾ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: شق من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ زليخا ﴿وَهُوَ﴾ أي: يوسف ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف:26] في دعوى البراءة والتنزيه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ هي في دعوى العصمة والعفة ﴿وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:27] فيما ادعى من العفة والبراءة.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ السيد ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ تفرس إلى براءته وطهارة ذيله مع أن الشاهد أيضًا ليس من أرباب الولاية؛ إذ هو صبي رضيع في المهد لم يتكلم إلا بهذا فكوشف من نجابته وعفته ما كوشف، فتوجه نحو زوجته ﴿قَالَ﴾ مقرعًا عليها معرضًا: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما وقع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ وحيلتكن أيتها المحتالات ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ ومكركن أيتها الماكرات المفسدات ﴿عَظِيمٌ﴾[1] [يوسف:28] من كيد الشيطان ومكره؛ لأن الشيطان يستعين ويستمد منكن وقت اضطراره.

ثم لما انكشف الأمر من عند العزيز، وجزم بطهارة ذيل يوسف ونجابة طينته، بادر إلى ستره وإخفائه؛ خوفًا من الفضيحة، فقال مناديًا ليوسف أولاً لصدقه وطهارته: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ التكلم واكتمه في سرك، فقد ظهر عندي صدقك وبراءتك ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ يا راعيل أو زليخا ﴿لِذَنبِكِ﴾ في هذا الأمر ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:29] المتعمدين القاصدين على الجريمة القبيحة الدنيئة الشنيعة، جمعه جمع الذكور للتغليب.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ

(1) قال الشبلي: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأمَّا من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائد، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأنَّ أزواجهن كانت متألفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف ﷺ فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليذقن ما ذاقت زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها.

هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف:30-32].

﴿وَ﴾ بعدما شاع أمرهما وانتشر قصتهما بين الأنام ﴿قَالَ نِسْوَةٌ﴾[1] جماعة من النساء من صناديدهن ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ على وجه التشنيع والتقريع: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ﴾ تخادع وتحتال ﴿فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ طلبًا لمواقعته إياها ومجامعته معها؛ لأنها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: دخل عن جميع شغاف قلبها وشقوقه، فصار قلبها ممتلئًا بمحبته وعشقه؛

(1) قال في التأويلات: قيل: أحببن ثلاث نسوة ثلاثة من المؤمنين فنلن أكبر مما طلبن: الأولى: أحبت امرأة العزيز يوسف ﷺ فنالت من بركته المعرفة، فيحكى أن هؤلاء النسوة اللاتي قطعن أيديهن قلن ليوسف وهو في السجن: أحب سيدتك التي اشترتك وإن أردتنا فنحن لك، فيقول يوسف: معاذ الله لا أعصي الله وإن بقيت في السجن، ولمّا علم عزيز مصر أن امرأته عشقت يوسف حلف أنه لا يخرج من السجن مادام حيًا، فتفكرت المرأة وقالت: شاب حديث السن ويخاف عقوبة الله فأنا أولى أن أخاف، فآمنت واشتغلت بعبادة الله تعالى. الثانية: آسية امرأة فرعون أحبت موسى فنالت ببركة موسى الجنة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم:11]. الثالثة: خديجة - رضي الله عنها - أحبت محمدًا ﷺ قبل النبوة نالت بركة الهداية بالإسلام، فمحبة أولياء الله سبب لنيل الرحمة فما ظنك بمحبة الله تعالى. وقيل أيضًا: هؤلاء النسوة أصابتهن الغمة والمحنة، فالغمة نعمة الضيافة، والمحنة قطع الأيدي، ثم كن تنسين الكل عند رؤية يوسف، فكذا المؤمن تصيبه النعمة والمحنة في الدنيا، وفي القبر يرى الوحشة، وفي القيامة يرى الأحوال، وعلى الصراط يرى أنواع عذاب جهنم، وفي الجنة يرى ألوان نعمها، فإذا أكرم برؤية الله تعالى نسي الكل وشغله عن كل نعيم، قال الحسن: لو يبقى أهل الجنة في الرؤية على حالتهم لا يخطر ببالهم شيء. وقيل: هؤلاء النسوة يحملن ما أصابهن في مشاهدة يوسف، وكذا المرء يتحمل مؤنة الزوجية بمشاهدة الأهل والولد فكيف لا يتحمل مدعي المحبة الله تعالى مشقة بلائه طمعًا في مشاهدته؟. وقيل: هؤلاء النسوة لمّا شغلن بجمال يوسف قطعن أيديهن ولم يحسن بذلك، فلمّا أفقن وجدن ألم القطع والتلوث بالدماء وبقيت الحسرة عليهن، فكذا طالب الدنيا يتعب نفسه بطلبها ويتحمل المشاق في جمعها ويبتلى بذلك ولا يحس بآلامها، ثم عند انقطاع الأنفاس يفيق من سكرته ويرى ديوانه مسودًا بالسيئات وعمره ضائعًا في الزلات ويبقى في غصص الحسرات نعوذ بالله منها، وقيل: أكمل الله تعالى ليوسف ثلاثة أشياء الحسن كما روي أنه أعطي ثلاثي الحسن، وحكي أنه في سنة الجدب كانوا ينظرون إليه فيشبعون، وكانت رؤية عذابهم وكانوا لا يحسون بألم الجوع في مشاهدته، وأكمل له المحنة أيضًا فجمع له بين فراق الوالد وغصة الغربة ومشقة الجب والحبس والابتلاء بالنسوة، وأكمل له العصمة حتى عصم مع شدة السيئات، وشره الشهوة، وجمال النسوة، وإمكان انتهاز الفرصة، والتمكن من قضاء الشهوة في الخلق.

لذلك راودته فامتنع عنها وأفضحها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ بقبح فعلها وسوء صنيعها ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:30] من لحوق العار وفشو الفضيحة، سيما مع الرقيق وكسر عرض العزيز بين الأنام.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وغيبتهن وتخطئتهن خفية ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قواصد؛ ليدعوهن على سبيل الضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أي: هيأت لكل واحدة منهن في بيتها ﴿مُتَّكَأً﴾ على حدة ليتكئن عليها على ما هو عادة بلدتهم، ووضعت عند كل متكأ طبقًا من الفواكه مثل الكمثرى والتفاح وغيرهما ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ﴾ أي: على عدد رءوسهن ﴿سِكِّينًا﴾ في غاية الحدة والمضاء، وبعد تهيئة أماكنهن على الوجه المذكور جئن وجلسن عليها واشتغلن بأكل الفواكه وتنقية قشورها بالسكين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿قَالَتِ﴾ راعيل ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فخرج ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: كبرن الله برؤية جماله وحسنه البديع وبهائه؛ إذ يتشعشع ويلمع ضوء وجهه على الجدار مثل الشمس والقمر.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت يوسف الصديق عليه السلام ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»[1].

ومن كمال حيرتهن على حسنه وجماله بهتن بأجمعهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين أي: كل بسكينها ﴿وَ﴾ بعدما أفقن ﴿قُلْنَ﴾ مستبعدات مستغربات: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزه ذاته أن يعجز عن خلق مثله، غير أنه ﴿مَا هَٰذَا﴾ الهيكل المرأي ﴿بَشَرًا﴾ إذ لا نرى بشرًا على هذه الصورة ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: بل ما هذا المشاهد المحسوس ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:31] نجيب مجسم من الروح لا من الطين.

وبعدما تفرست راعيل منهن ما تفرست من كمال الحيرة والحسرة والوله والهيمان برؤيته ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ أي: فهذا ذلك العبد الكنعاني ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي: في مراودته والافتتان به وبمحبته ﴿وَ﴾ لما رأت راعيل ما رأت من نفسها بل أشد منها، أقرت عندهن ما فعلت معه؛ لتستعين منهن ويحتلن في تليين قلبه، فقالت متحسرة: ﴿لَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ مرارًا كثيرة ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ وأبى عن القبول من كمال عفته وعصمته ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ أي: ما أنا آمر به من المواقعة والمجامعة،

(1) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (267/2) بنحوه.

ولم يقبل قولي ولم يقضِ حاجتي ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليسجننه ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف:32] الذليلين المهانين، الباقين في السجن مدة مديدة.

فلما قالت راعيل ما قالت وأقسمت، التفتن بأجمعهن على إعانتها وإنجاح مرادها منه وألحن، واقترحن على يوسف بقبول قولها والإتيان بمطلوبها إلحاحًا بليغًا، بل أضمرن في أنفسهن كل منهن إتيانه عليهن بمقتضى النساء.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف:33-37].

وحين رأى يوسف اتفاقهن واجتماعهن على منكر، ناجى ربه من شرهن وتعوذ نحوه من فتنتهن حيث: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم والعصمة والعفاف ﴿السِّجْنُ﴾ الذي أوعدتني به هذه المرأة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وآثر عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ هؤلاء البغيات ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ﴾ أي: وإن لم تصرف بفضلك وعصمتك ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ولم تحفظني من مكرهن، بإلقاء البرهان الفعلي والكشفي في سري ﴿أَصْبُ﴾ أي: أمِل وأتحنن نحوهن على مقتضى القوى البهيمية ﴿إِلَيْهِنَّ وَأَكُن﴾ حينئذ ﴿مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:33] المتابعين لشيطان الشهوة، الخارجين عن مقتضى العقل المفاض من المبدأ الفياض.

وبعدما أخلص في مناجاته وأبر في رجوعه وعرض حاجاته ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ ما ناجاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ وحُفظ عن مكرهن ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:34] بحاجاتهم منها.

﴿ثُمَّ بَدَا﴾ أي: ظهر ولاح ﴿لَهُم﴾ للعزيز وأصحابه ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ أي: بعد رؤيتهم علامات الصدق وأمارات العصمة والعفاف، سيما شهادة الطفل الذي

شهد بطهارته وصدقه، مع أنه لم يعهد من أمثال هذا، فتشاوروا في أمره وتأملوا في شأنه، فاستقر رأيهم ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف:35] لئلا يلحق العار عليهم ولا ينتشر بين الأنام صدقه وعصمته وقبح صنيعها وفاحشة فعلها، بل يحسبون أنه مجرم وراعيل متهمة؛ لذلك حملوا الجرم عليه، ورموه افتراءً، فأدخلوه السجن انتقامًا وجزاء.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: يوسف ﴿السِّجْنَ﴾ في تلك المدة ﴿فَتَيَانِ﴾ من أعوان الملك شرابيه وخبازه بتهمة اتُّهما بها، فلما رأيا منه الرشد والنجابة وصفاء الصورة والمعنى ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وهو الشرابي مستعيرًا عنه حاكيًا عما مضى: ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ﴾ ماء العنب ليصير ﴿خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وهو الخباز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ على طبق ﴿تَأْكُلُ﴾ وتنهش ﴿الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بما يؤول إليه ويعبر به رؤيانا ﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ في بادئ الرأي ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:36] المصلحين لمفاسد الأنام وتحمل ما يشكل عليهم، ومن جملتها تعبير الرؤيا.

ثم لما تفرس يوسف منهم الإخلاص وحسن الظن بالنسبة إليه، بادر قبل الاشتغال بالتعبير إلى تمهيد مقدمة دالة على التوحيد والإيمان والمعرفة والإيقان، منبهة على استقلال الحق الحقيق بالحقية في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وجميع آثاره الحادثة في الكائنات والفاسدات، حيث ﴿قَالَ﴾ أولاً ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ في المستقبل ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ لسد الجوعة وتقويم المزاج ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وتبيين ماهيته وكيفية تأثيره وتوليده من الأخلاط وتقويته للمزاج ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ بمدةٍ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي: تعبير رؤياكما وتأويل طعامكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي: من جملة الأمور التي علمني ربي من لدنه بأن أطلعني على رقائق المناسبات ودقائق الارتباطات، والازدواجات الواقعة بين أجزاء العالم وجزئياتها على التفصيل المشروح، المثبت في الأعيان الثابتة وعالم الأسماء والصفات المنبسطة على ظواهر الأكوان ﴿إِنِّي﴾ بعدما انكشف الغطاء عن بصري وارتفع الحجب عن بصيرتي ﴿تَرَكْتُ﴾ بتوفيق الله وإلهامه ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ذوي حجب ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده واستقلاله في الوجود ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿هُم بِالْآخِرَةِ﴾ أي: في النشأة المعدة لجزاء ما جرى عليهم في هذه النشأة ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف:37] منكرون.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ

ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ
أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ
أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ
ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف:38-41].

﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ في سلوكي طريق التوحيد ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ وأجدادي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما صح وجاز لنا معاشر النبياء ﴿أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ﴾ المتوحد بذاته وأوصافه وأسمائه، المستقل في وجوده وحقيته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لا وجود له أصلاً سوى العكسية والظلية ﴿ذَلِكَ﴾ الشهود والانكشاف ﴿مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ الذين أُرسلنا إليهم وبُعثنا بينهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ الناسين حقوق نعم الله ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:38] نعمة الإرسال وبعثة الرسل، ولا يواظبون على أداء شكرها.

ثم لما مهد يوسف لصاحبه طريق التوحيد ونبه عليهما السلوك عليه، أشار إلى دعوتهما إليه على سبيل التدريج كما هو دأب الأنبياء، فقال مناديًا لهما ليقبلا على قبول قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ الساكنين فيه، المصاحبين معي ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ متكثرون في العدد، متماثلون في عدم القدرة والاختيار ﴿خَيْرٌ﴾ عندكم وأحق لعبادتكم وانقيادكم ﴿أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد في ذاته، المستقل في ألوهيته وربوبيته، المستغني في ذاته عن المظاهر مطلقًا ﴿الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:39] الغالب على جميع السوى والأغيار.

واعلما أيها الأخوان أن ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتما ومن على دينكما في مصر من عبدة الآلهة الباطلة ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له في الوجود أصلاً ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾ مطلقة على الأظلال معدومة، وعكوسًا موهومة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من تلقاء نفوسكم آلهة ومعبودات، مع أنه ﴿مَّا أَنزَلَ اللهُ﴾ المنزل للكتب والمرسل للرسل ﴿بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: بشأن آلهتكم من حجة وبرهان عقلي ونقلي حتى تكون تمسكًا لكم في اتخاذكم هؤلاء التماثيل آلهة مستحقة للعبادة

والإطاعة ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم المطلق والاستحقاق التام للإطاعة والانقياد وعبادة العباد ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالجلال والبقاء، المتوحد في البسطة والاستيلاء؛ إذ هو المستحق بالعبادة، المستقل بالربوبية؛ لأنه في ذاته هو ولا شيء سواه، ولا إله إلا هو مع ﴿أَمَرَ﴾ فيما أنزل من الكتب على أنبيائه ورسله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ولا ترجعوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إذ به وبامتداد أظلال أوصافه وأسمائه ظهرت أشباحكم، ولاحت تماثيلكم وأرواحكم، فلا رجوع لكم إلَّا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: طريق التوحيد، هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الأقوم والأعدل، الذي لا عوج فيه أصلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لكثافة حجبتهم وغلظ غيظتهم وأغشيتهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:40] ولا يفهمون سر سريان الوحدة في الكثرة، فحُجبوا بالمظاهر المتكثرة عن الوحدة الظاهرة فانصرفوا عن طريق الحق إلى الباطل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم لما دعاهما إلى الإيمان والتوحيد، ونبه عليهما طريقه، اشتغل بتعبير رؤياهما، فقال مناديًا لهما أيضًا: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أي: سيده وملكه ﴿خَمْرًا﴾ على ما كان عليه بلا احتياج إلى تأويل ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ هذا ما ظهر لي في تأويل رؤياه بتوفيق الله إياي، وبعدما سمعا منه التأويل قالا: كذبنا فيما قلنا لك واستعبرنا منك، قال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:41] أي: حكم حكمًا مبرمًا على الوجه الذي ذكر في حضرة علم الله ولوح قضائه؛ لأن الأمر الذي جرى على لسان الأنبياء لا بدَّ أن يقع؛ إذ لا جريان للكذب وعدم المطابقة في ألسنة الأنبياء والرسل.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44)﴾ [يوسف:42-44].

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الشرابي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ

﴿رَبِّكَ﴾[1] أي: اذكر حالي لملك عند ملاقاتك، وقل له أن رجلاً سُجن بلا جرم صدر عنه، وأوصاه به على طمع أن يستخلصه ويستكشف عن أمره، ولم يستثن مع أن المناسب بحاله ورتبته العلية الاتكال على الله، والتبتل نحوه بلا التفات إلى الغير أصلاً، والرضا بما جرى عليه من القضاء، والتصبر على هجوم البلاء وتزاحم المكروهات، فضلاً عن أن يستمد بلا استثناء، وذلك قبل الوحي ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ للناجي ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: ذكر حال يوسف عند الملك حين جلس في مجلسه وسقى له خمرًا ﴿فَلَبِثَ﴾ وبقي يوسف بسبب ترك الاستثناء والاستخلاص من المصنوع الأرذل الأنزل والاستعانة منه ﴿فِي السِّجْنِ﴾ بعد لبثه خمسًا ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:42] أي: سبعًا بعد الخمس؛ مجازاة عليه وانتقامًا عنه، كما قال ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعًا بعد الخمس»[2].

﴿وَ﴾ بعدما لبث في السجن بضعًا هيأ سبحانه سببًا بأن ﴿قَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو ريان بن الوليد لأصحابه يومًا: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ﴾ أرى أيضًا ﴿سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ﴾ سبعًا ﴿أُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ قد التففن على السبع الخضر فغلبن عليها، فجمع من في ملكه من أهل التنجيم والتكهين وجميع العلماء والصلحاء وعرضها عليهم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ في رؤياي؛ أي: عبروها وأولوها ﴿فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:43] أي: إن كنتم من أهل التعبير والصور والعبرة والاعتبار.

فلما سمعوا قوله وتأملوا في رؤياه ﴿قَالُوا﴾ بأجمعهم متفقين: هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أباطيل صورتها المتخيلة وخالطتها تخليطًا إلى حيث لا يقبل التعبير والتأويل أصلاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ الباطلة ﴿بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف:44] معبرين.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا

(1) قال التستري (235/1): حكي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثنك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

(2) ذكره النسفي في مدارك التنزيل (70/2).

ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 45-49].

﴿وَ﴾ بعدما عجز الملأ عن تعبير رؤيا الملك، واجتمعوا على أنها أضغاث أحلام ﴿قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من صاحبي السجن، وهو الشرابي الموصى له بالذكر فنسي ﴿وَادَّكَرَ﴾ بهذا التقريب ما أوصى له يوسف ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد مدة مديدة ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:45] فأرسله الملك ودخل عليه، فقال: يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[1] الصدوق في تأويل الرؤيا ﴿أَفْتِنَا﴾ وعبر لنا ﴿فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ ملتفتةً إلى سبعٍ أخر ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ عبر لي هذه الرؤيا ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ﴾ بتأويلها ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ الذين عجزوا عن تعبيره وصيروه من الأباطيل والتخليطات الساقطة عن درجة التغيير والتأويل ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:46] تأويله ويفحمون عما يقولون؛ إذ الرؤيا للملك، وهم جعلوها من قبيل الأضغاث، وأنت إذا عبرتها أرجو أن تتخلص من هذا السجن.

﴿قَالَ﴾ يوسف مؤولاً للرؤيا مدبرًا فيه طريق المعاش؛ لئلا يضطروا في تدبيره: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على ما هو دأبكم وعادتكم ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ واتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ أي: فعليكم أن تدخروا ما حصدتم في سني الخصب بأن تتركوه في سنبله ولا تفرقوه منه ولا يدوسوه؛ لئلا يقع فيه السوس ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا

(1) قال البقلي: سماه الصدِّيق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلِّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الإعمال. قال أبو حفص: الصدِّيق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره. قال بعضهم: الصدِّيق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزمًا وزينةً وعقدًا. وقال بعضهم: الصدِّيق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله. قال ابن الفرحي: الصدِّيق كأبي بكر ﷺ الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لمَّا قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله ورسوله».

تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:47] في تلك المدة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد انقضاء سني الخصب والرخاء ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ ذوي جدب وعناء، لا ينبت فيها الزرع وفي تلك المدة ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: أهلها جميع ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ وادخرتم لهن في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:48] أي: تحرزونه وتحفظونه للبذر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد انقضاء السبع الشداد ﴿عَامٌ﴾ ذو بركة ورخاء ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾ ويمطر ﴿النَّاسُ﴾ بعدما مُنعوا القطر مدة مديدة ﴿وَ﴾ صار الناس من كمال الخصب ﴿فِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:49] الأدم من العنب والخرنوب وأنواع الحبوب.

كل ما جاء به يوسف عليه السلام من التأويل والتدبير مستند إلى الوحي والإلهام والعلم بدقائق المناسبات الواقعة بين ذرائر الأكوان.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:50-53].

﴿وَ﴾ لما سمع الشرابي من يوسف ما سمع، تسارع إلى الملك وأخبره ما سمع من التعبير ﴿قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ فأرسل من يحضره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ﴾ يوسف: لا أخرج من السجن ما لم يظهر براءتي وعصمتي وطهارة ذيلي وكمال عفتي مما يرمونني ويسجنونني بسببه ﴿ارْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ أن يكشف عن أمره وما جرى عليّ من ظلم أولئك المفترين، سيما ليسأل: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وما شأنهن معي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بكمال العصمة والعفة ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ ومكرهن الذي قصدن معي ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف:50] على التفصيل الذي يخفون في نفوسهن، يجازيهن في يوم الجزاء على مقتضى علمه.

ثم لما رجع الرسول إلى الملك وأخبر عن حاله ومقاله، بادر الملك إلى إحضار

أولئك النسوان فحضرن ﴿قَالَ﴾ الملك منتقمًا عنهن، مفتشًا عما جرى بينهن وبين يوسف: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وشأنكن أيتها الماكرات المحتالات ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ﴾ وخادعتن بأنواع الحيلة والخداع ﴿يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ وأي شيء ظهر منه من أمارات الفساد وعلامات الفسوق حتى تجترئن بمراودته؟! ﴿قُلْنَ﴾ بأجمعهن بعدما سمعن كلام الملك واستفساره على وجه الانتقام: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: فعلة ذميمة وديدنة قبيحة باعثة لنا إلى مراودته، سوى أنا رأيناه على صورة عجيبة وحسن بديع، مِلْنا إليه وأردنا مخالطته فاستعصم من كمال عفته ونجابة طينته، ثم ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ عند الملك بعدما بدا ما أخفت وفشا ما سترت، مقرة مقررة لطهارة ذيله: ﴿الآنَ حَصْحَصَ﴾ أي: لاح وظهر ﴿الْحَقُّ﴾ وارتفع عنه الحجب وانكشف الأستار ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ بعدما شغفني حبه وأزعجني ميله ﴿وَإِنَّهُ﴾ في ذاته وأقواله وأفعاله ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:51] المبرئين المنزهين عما افترينا عليه ورمينا به.

ثم لما انكشف أمره عند الملك وثبت براءته، أرسل الرسول إليه ثانيًا ليخرجه من السجن، قال يوسف على مقتضى الحكمة الصادرة من ألسنة الأنبياء؛ توطينًا لنفس العزيز وتسلية له، ليجزم أنه ما أساء الأدب معه في السر والعلانية ﴿ذَلِكَ﴾ الكشف والتفتيش إنما هو ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز يقينًا ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ حين انغلاق الأبواب السبعة، وأنا مع زوجته فكيف في غيرها ﴿وَ﴾ ليعلم العزيز أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع ما جرى على عباده ﴿لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:52] أي: لا يوصل أهل الخيانة إلى ما يقصدون إليه بكيدهم وحيلتهم، بل يفضحونهم بها على رءوس الأشهاد في الأولى والأخرى.

ثم قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ﴾ وأنزه ﴿نَفْسِي﴾ عن الفرطات والغفلات والخواطر القبيحة والديدنة الشنيعة على مقتضى القوى الشهوية واللذة البهيمية، وكيف أبرئ وأنزه ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ المركوزة في الجبلة الإنسانية ﴿لأَمَّارَةٌ﴾ مائلة بالطبع ﴿بِالسُّوءِ﴾[1] والفساد

---

(1) قال في التأويلات: يعني: خلقت النفس على جبلة الأمارية بالسوء طبعًا حين خليت إلى طبعها لا يأتي منها إلا الشر ولا تأمر بالسوء، ولكن إذا رحمها ربها ونظر إليها بنظر العناية يقبلها من طبعها ويبدل صفاتها، ويجعل أماريتها مبدلة بالمأمورية وشريرتها بالخيرية، فإذا تنفس صبح الهداية في ليلة البشرية وأضاء أفق سماء القلب صارت النفس لوامة تلوم نفسها على شر فعلتها، وندمت على ما صدر عنها من الأمارية بالسوء، فيتوب الله عليها فان الندم توبة، وإذا طلعت

متوجهة نحوه إذا خلى وطبعها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: حفظها الله من كمال رحمته وشفقته من طغيانها ووسوسة الشيطان إليها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بالعصمة والعفاف ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عني من الخواطر النفسانية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:53] يرحمني بفضله ويعصمني بلطفه عما يبعدني من كنفه وجواره.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:54-57].

﴿وَ﴾ بعدما فتش الملك عن أحواله وما جرى عليه، ثبت عنده أمانته وديانته ورعاية حقوق سيده ورشده في الأمور، سيما في التعبيرات والتأويلات، وصدقه في جميع الأقوال الصادرة عنه ﴿قَالَ المَلِكُ﴾ متحننًا عليه منشوقًا للقياه: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ سريعًا ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أي: أجعله خالصًا ﴿لِنَفْسِي﴾ ليكون أنيسي وجليسي ومولي أمري وظهيري في تدابير الأمور، فحضروه عنده وسلم على الملك ترحيبًا وتعظيمًا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وأخذ بحمد الملك وثنائه ودعائه على اللغة العبرية، قال الملك:ما هذا اللسان؟

قال:هذا لسان آبائي وأجدادي، وكان الملك يتكلم على سبعين لغة، فكلم معه بجميعها، فأجاب جميعها وأحسن فيها، فتعجب الملك منه وقال: أريد أن أسمع تأويل رؤياي منك مشافهة، فحكاه وبين وجوه المناسبات بين التعبيرات والسنوات المجدبة والمخصبة وكيفية الانتقالات والتعبيرات على مقدار فهم الملك وتأويلات السنابل الخضر واليابس على الوجه الذي ألهم وأوحي، فازداد الملك محبة ومودة لذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومرتبة علية ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ [يوسف:54] مؤتمن على جميع أمورنا، فلك التصريف في ملكنا كيف تشاء.

شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة إذ هي تنورت بأنوار شمس العناية فألهمها نورها فجورها وتقواها، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنور ربها صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها بحذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28].

وبعدما رأى يوسف عليه السلام ألّا محيص له عنه، ولا بدّ له من ارتكاب أمر من أمور الملك ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر ﴿إِنِّي﴾ بإقامة هذا الأمر ﴿حَفِيظٌ﴾ بوجوه محافظة أي جنس من الأجناس ﴿عَلِيمٌ﴾ [يوسف:55] بطرق تدابيرها والتصرف فيها.

قيل: اتفق وفاة قطفير - هو سيد يوسف - في تلك الليالي، وكان هذا المنصب له لذلك طلبه، وتزوج زليخا زوجته التي قد شغفها حبًا، فوجدها عذراء وولد يوسف منها أفرايم وميشا.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت من القصة ﴿مَكَّنَّا﴾ قدرنا ﴿لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر بعدما أدخلناه رقيقًا مهانًا وصيرناه مسجونًا مدة متطاولة ورفعنا مكانته فيها إلى حيث ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ أي: يتنعم ويترفه ﴿مِنْهَا﴾ أي: من نواحيها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ تهوى نفسه ويميل إليها طبعه؛ إذ من سنتنا أنا ﴿نُصِيبُ﴾ ونوفي ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ التي وسعت كل شيء ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ من خلص عبادنا المجبولين على فطرة توحيدنا السالكين سبيل الإنابة والرجوع إلى فضاء فنائنا ﴿وَ﴾ بالجملة: إنا ﴿لاَ نُضِيعُ﴾ أي: لا نهمل ولا نقص ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:56] الذين يحسنون الأدب مع الله في جميع حالاتهم وشئونهم ولا يغفلون منه طرفة ولا يلتفتون إلى غيره لمحة، ولا يخطرون ببالهم سواه خطرة، هذا حالهم في النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ الله ﴿لأَجْرُ﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ المعدة لهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ منها بالأضعاف والآلاف ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله عن ظهر القلب وصميم الفؤاد ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:57] عن محارم الله طلبًا لمرضاته وقيامًا بحسن آدابه، رجاء من ثوابه وخوفًا من عقابه.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف:58-62].

﴿وَ﴾ حين استوزر الملك يوسف عليه السلام وأقامه في ضبط الممالك وقيام أمور الناس من التدبيرات المتعلقة بأمور معاشهم من تكثير الغلات والزراعات حتى دخلت السنون المجدبة، وكانت البيوتات والمغلات مملوءة بأنواع الحبوبات، ثم لما أحاط الجدب جميع بلاد المصر والشام وعم البلوى في جميع الأماكن والجهات، اضطر الناس إلى أن يلتجئوا إلى باب العزيز؛ ليستغلوا منه ويسدوا رمقهم؛ لذلك ﴿جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ من الكنعان ليستغلوا ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بأجمعهم ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ بالفور، وسألهم عن الوطن والمصلحة، فقالوا: نحن أولاد يعقوب جُدبنا الآن، واضطررنا إلى أن جئنا نستقوت من جاه العزيز ولا يحصل من الغير مطلقًا.

ثم قال لهم يوسف: أنتم بأجمعكم أبناء رجل واحد؟ قالوا: نعم إن لأبينا اثني عشر ابنًا، عشرة من زوجة واثنان من زوجة أخرى، ونحن تلك العشرة وواحد من الاثنين، قد هلك في الصحراء، والآخر عند أبينا يؤانس معه ويدفع به وحشة ابنه؛ إذ هو محبوب له مرغوب عنده ﴿وَهُمْ﴾ مع طول صحبتهم معه ومجالسته عنده ﴿لَهُ مُنكِرُونَ﴾[1] [يوسف:58] لا يتفقهون ولا يتنبهون فكيف يعرفونه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ الخدام بإذن العزيز ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ وهيأوا أرحالهم فأرادوا أن يشدوا، دخلوا على العزيز للتوديع ﴿قَالَ﴾ لهم العزيز: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ليدل على صدقكم ونجابة أصلكم ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ وأتمه لكم ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:59] أحسن ضيافتكم مثل ما أحسنت.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي: بأخيكم بنيامين ﴿فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أي: فاعلموا ألا

(1) قال في التأويلات: قيل: إنما أنكروا؛ لأنهم كانوا قد جفوه، والجفاء يورث الوحشة ويذهب الألفة، ويورث المخالفة ويذهب الموافقة، ويورث المحاربة ويذهب المسالمة، ويبعد ولا يقرب، وينكر المعروف، ولمّا صفوا تحت سريره فكان بلسان الحال ناداه انظروا ماذا فعلتم بيوسف؟ وماذا صنع الله به؟ أنتم أهنتموه والله أعزه، وأنتم جعلتموه في الجب والله جعله على سرير الملك؛ ليعلم العالمون أن العزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]، وقيل: إن يوسف جعل في الجب ثم في السجن، فلم يعرضه الله تعالى في تلك الحالة على إخوته، ولمّا توجه بتاج الملك عرضه عليهم؛ وكذا أمر المؤمن يكون نطفة ثم علقة ولا يعرض في هذه الأحوال، فإذا تمت خلقته وكملت صورته أظهر وعرض، ثم إذا توفاه يعرض للإتيان أماته وأقبره، فإذا أعاد خلقه عرضه مكرمًا بلباس التوحيد متوجًا بتاج الملك كما قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ [مريم:85].

كيل لكم عندي بعد اليوم ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:60] ولا تدخلوا داري؛ إذ أنتم حينئذٍ قوم كاذبون.

وبعدما سمعوا منه كلامًا موحشًا، وتفرسوا أنهم لو لم يأتوا بأخيهم لما اكتال لهم العزيز ولم ينزلهم، فكيف أن يحسن معهم ويضيفهم؟ ﴿قَالُوا﴾ له معتذرين: إن له أبًا شيخًا كبيرًا، محزونًا، آسفًا يتسلى به ﴿سَنُرَاوِدُ﴾ ونجتهد مقدار طاقتنا ﴿عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونخدع به بأنواع الخداع حتى نأتي ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف:61] ألبتة وجوهًا من الخداع لإتيانه.

﴿وَ﴾ بعدما هيأوا للسفر وأرادوا أن يرحلوا ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ أي: خدامه وأعوانه: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ التي أتوا بها وهي الأدم والنعال في رحالهم على وجه لا يشعرونها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ وقت ﴿إِذَا انقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وبعد رؤيتهم البضاعة آيسوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:62] بأخيهم لو رجعوا.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف:63-66].

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ من مصر ﴿إِلَى أَبِيهِمْ﴾ حكوا ما جرى بينهم وبين العزيز من الحكايات التي مضت، ثم طلبه منهم ما يصدقهم ويشهد لهم واضطرارهم من الشاهد وأمرهم العزيز بإحضار أخيهم بنيامين؛ ليكون مصدقًا لهم، ثم بعدما بسطوا الكلام عند أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ بعد اليوم لو لم ترسل معنا بنيامين ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ ليكون مصدقًا لنا عند العزيز وبعد تصديقه إيانا ﴿نَكْتَلْ﴾ لجميعنا ﴿وَ﴾ لم لم ترسله معنا ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف:63] من طرق المكروه عليه؛ إذ نحن عصبة ذوو قدرة وقوة؟!.

﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم متأسفًا متحزنًا: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وأجعلكم وقاية له ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ فَاللَّهُ﴾ الرقيب على عباده في جميع حالاتهم ﴿خَيْرٌ﴾ لهم ﴿حَافِظًا﴾ أي: من جهة الحضانة والحفظ ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:64] إذ رحمُ الكل يرجع إليه؛ لأنه الرحيم بالذات، ورحمُ غيره إنما يتشعب من رحمه.

وبعدما ألحوا مع أبيهم واقترحوا له بإرسال أخيهم بنيامين، وتفرسوا منه أنه لم يرضَ بإرساله، خرجوا من عنده محزونين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ التي جاءوا بها ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ التي اشتروا بها الكيل ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ندموا وتحزنوا، ثم رجعوا إلى أبيهم شاكين مشتكين ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ إنا نجزم بمنع الكيل لو نكرر ﴿مَا نَبْغِي﴾ أي: أي شيء نفعل وندبر ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ على وجه لا نطلع عليها إلا الآن، فجزمنا ألَّا كيل لنا إن عدنا إليه مرة أخرى بلا إتيان أخينا، ونكون عند العزيز من الكاذبين الصاغرين ونسأل منك يا أبانا من كمال كرمك وجاهك أن ترسل معنا أخانا؛ ليصدقنا عند العزيز ﴿وَ﴾ بعد تصديقه إيانا ﴿نَمِيرُ﴾ ونحمل العطايا من عنده ﴿أَهْلَنَا﴾ أي: لأجلهم ﴿وَنَحْفَظُ﴾ في الذهاب والإياب ﴿أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: حمله؛ إذ من سنة العزيز أن يحمل لكل منا بعيرًا ﴿ذَلِكَ﴾ الكيل الذي جئنا به ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف:65] قليل لا يفي لمعاشنا إلى وقت الخصب ما لم نزد.

ثم لما بالغوا في سؤالهم واقترحوا الإسعاف ما طلبوا ﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم معاتبًا عليهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾ أي: بنيامين ﴿مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يمينًا وقسمًا أثق به وأعتمد عليه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ ألبتة بلا خلف ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ نوع من البلاء من إلمام العدو وغيره ﴿فَلَمَّا﴾ اضطروا إلى ما طلبه أبوهم منهم ﴿آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ فرضي بإرسال بنيامين معهم ضرورة ثم ﴿قَالَ﴾ أبوهم تأكيدًا وتغليظًا وتفويضًا لأمره إلى ربه: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالات عباده ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ ويجري بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66] أي: رقيب حفيظ، يفعل بنا على مقتضى علمه وخبرته.

ثم لما رضي يعقوب عليه السلام بإرسال ابنه بنيامين، فشدوا وخرجوا من عنده، وصى لبنيه أن يتفرقوا عند الدخول إلى مصر، ولا تدخلوا كوكبة واحدة؛ خوفًا منهم أن يعانوا؛ إذ هم ذوو جمال وبهاء، كان الناس يتعجبون منهم حيث انصرفوا مجتمعين.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ

ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟
مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ
يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:67-69].

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا﴾ على البلدة ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ مجتمعين ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[1] فرادى، حتى لا تتضرروا من العيون اللامة ﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أُغْنِي﴾ وأدفع بقولي لكم هذا ﴿عَنكُم مِّنَ﴾ قضاء ﴿اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم والأمر ﴿إِلَّا للهِ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ﴾ في كل الأمور

(1) قال في التأويلات: قال: هذا الافتراق بقي في بني إسرائيل، انفلق البحر لهم اثنتي عشرة فلقة كما قال: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ [الشعراء:63]، وقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ [الأعراف:160] وقال: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:60] وقال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:12] وقال في حق المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:63] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:45] وقال: ﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:35] وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:71] فلا ينبغي للمؤمنين أن يتفرقوا؛ بل ينبغي أن يكونوا كنفس واحدة يشد بعضهم بعضًا، وقيل: أربعة نفر أمروا بدخول أربعة أبواب كما قال: ﴿وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189] وذلك لموافقة الشرع ومخالفة الهوى، وأمروا إخوة يوسف بدخول أبواب مصر؛ لكمال النفقة وحسن المقال: ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف:67] وأمروا الكفرة بدخول أبواب النار لإظهار العقوبة والنكال كما قال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر:72] وأمر المؤمنون بدخول الجنان بكمال الكرامة وإظهار النوال كما قال: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:49]، وقيل: أربعة أبواب فتحت لأربعة نفر لأربعة أشياء فتحت أبواب النعمة للغافلين؛ للاستدراج والإمهال كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:44]، وفتحت أبواب السماء على قوم نوح للخزي والنكال كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر:11]، وفتحت أبواب النار على الكفار للعقوبة والسلاسل والأغلال كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر:73]، وفتحت أبواب الجنان على المؤمنين للفضل والأفضال كما قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا﴾.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:67] إذ لا رجوع للكل إلا إليه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ متفرقين من أبواب متعددة ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ ويدفع تدبير أبيهم ﴿مِّنَ﴾ قضاء ﴿اللهِ﴾ الذي قدر لهم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذ الأمر والقضاء لله ولا معقب لحكمه ﴿إِلَّا﴾ يعني: سوى ما كان ﴿حَاجَةً﴾ تختلج ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بالوصية لأبنائه تفاؤلاً وتفريجًا ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ كامل مفاض له من لدنا، متعلق بما لا مرد لقضائنا، لذلك قال: وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بطريق الوحي والإلهام إياه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:68] أن قضاءنا لا يرد، وأن الحذر لا يغني عن القدر؛ لذلك أصاب بهم ما خافوا عنه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ مع بنيامين، أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على سماطٍ، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وتأوه متحسرًا، وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لما بقيت وحيدًا، ولما رأى يوسف حنينه وبكاءه ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وزجع نحوه وضم نفسه إلى نفسه، وأجلسه على سماطه، ثم أمر يوسف أن ينزلوهم كل اثنين بمنزل واحد، فبقي بنيامين لا ثاني له، فاغتم حينئذٍ أشد اغتمام، فذهب به يوسف إلى منزله، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: فمن يجد مثلك أخًا، غير أنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل.

ثم لما رأى يوسف زيادة همه وحزنه وكثرة تأسفه وغمه ﴿قَالَ﴾ لا تحزن ولا تغتم ﴿إِنِّي﴾ بشخصي ﴿أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف بن يعقوب وراحيل، قد احتال عليَّ أخوتك وخادعوني بأنواع الحيل والخداع إلى أن فرقوا بيني وبينك وبين أبي مدة مديدة حسدًا، فأنقذني الله عن مكرهم وكيدهم، وخلصني عن قيد الرقية والسجن وأنواع المحن ورفع قدري ومكانتي وشرفني برؤيتك، وأعطاني من المكرمات ما لا يحصى ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن يا أخي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:69] معي ومعك من أنواع الصغار والهوان وأصناف الأذيات.

ثم لما قرت عينا بنيامين بوجه يوسف وسر قلبه لقياه بعدما آيس وقنط، قال: يا أخي لا أفارقك أبدًا، قال يوسف: لا يتيسر هذا إلا بعد أن أتهمك بتهمة، فآخذك لأجلها إن رضيت، قال: رضيت بأي تهمة اتهمتني بها.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ

إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 70-76].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ على الوجه المعهود وشدوا رحالهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ أي: أمر يوسف للخدمة أن يجعلوا السقاية التي بها يكال، وهي من الفضة، وقيل: من الذهب ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، وبعدما شدوا الرحال ودعوا مع العزيز جميعًا، فخرجوا عقبها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما خرجوا من البلدة ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: صاح عليهم صائح من قبل العزيز: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ أي: القفل إلى أين تمشون؟ ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: 70] مدبرين.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ أي: على الصائحين، مضطربين خائفين: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف:71] أيها الفاقدون المتفقدون؟.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: الآنية التي يصاع ويكال بها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من المكيل ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف:72] ضمين أتكفل أن أتفحص من رحله.

﴿قَالُوا﴾ مضطربين، مقسمين، مستبعدين: ﴿تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أيتها الخدمة والعزيز ﴿مَّا جِئْنَا﴾ عندكم وفي أرضكم ﴿لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾ سيما السرقة، فإنها من أعظم الفسادات ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:73] أصلاً؛ إذ نحن أولاد الأنبياء ولا يليق بنا أمثال هذا.

﴿قَالُوا﴾ أي: الشرطة والخدام: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: أي شيء جزاء السارق منكم ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف:74] في دعوى البراءة والنزاهة؟.

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء السارق ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ

﴿فَهُوَ﴾ نفسه وشخصه ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء سرقته بأن يسترق سنة، وكان جزاء السارق في دين يعقوب استرقاق سنة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما قلنا ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: 75] السارقين في دين أبناء يعقوب عليه السلام.

ثم لما أفتوا بما أفتوا أخذوا بالتفتيش والكشف ﴿فَبَدَأَ﴾ الزاعم ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أي: بتفتيشها وتفحصها ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿ثُمَّ﴾ بعدما استقصى الكل واستقرأها تفشيًا ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية ﴿مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لئلا يظن أنهم يدسونها في رحله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل كيد يوسف لأخذ أخيه بنيامين ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ في أخذه من يد إخوته وخلاصه من الرق والسجن، وكدنا له أيضًا في أخذ أخيه من إخوته بفتواهم أيضًا؛ إذ ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز له ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ بجرم السرقة ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: ملك مصر؛ إذ في دينه الضرب وأخذ ضعف ما سرق ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا الحكم المخصوص في دين الملك، وألهمه ليوسف بنفاذه أو يحكم في هذه المسألة على دين آبائه، أو كان الملك أسلم بيده، ودخل بدين آبائه على ما نُقل ﴿نَرْفَعُ﴾ ونعلو ﴿دَرَجَاتٍ﴾ أي: مراتب ومنازل ﴿مَّن نَّشَاءُ﴾ من عبادنا، بزيادة الفضائل والكمالات والحقائق والمعارف ﴿وَ﴾ لا يبعد منا أمثال هذا؛ إذ ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76] أعلى منه لا إلى نهاية؛ إذ لا انقطاع لتجددات التجليات أصلاً، لذلك قال سبحانه: «ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي»[1] أي: في شوقي وتجلياتي.

﴿ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف:77-80].

ثم لما شاهدوا استخراج الوعاء من رحل بنيامين اضطربوا اضطرابًا شديدًا

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (91/10).

وتحزنوا حزنًا غليظًا ﴿قَالُوا﴾ مغاضبين عليه مريدين مقته: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا اللئيم، فلا تعجبوا منه؛ إذ هي من ديدنة أخيه سرت عليه ﴿فَقَدْ سَرَقَ﴾ مثله ﴿أَخٌ لَّهُ﴾ أكبر منه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في أوان طفوليته يريدون يوسف.

قيل: ورثت عمة يوسف من أبيها منطقة إبراهيم، وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها، فلم ترض العمة، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها فوجدتها مشدودة في وسطه، فتحاكموا فصارت أحق به في دينهم.

فلما سمع يوسف منهم ما سمع ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ وكتمها ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولم يظهر الإنكار عليهم بل أضمر حيث ﴿قَالَ﴾ في نفسه وسره: ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المسرفون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: خصلة ومنزلة وشأنًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:77] وتشرحون بألسنتكم افتراء ومراء.

ثم لما جزم العزيز بأخذ أخيه على جريمة السرقة واسترقاقه إلى سنة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين متذللين منادين له على وجه الخضوع راجين من قبوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أدام الله عزك ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لهذا المفسد السارق ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن والمرتبة؛ إذ هو نبي من الأنبياء، ضرير من فراق ابنه الهالك، يتسلى قلبه ويزول وحشته لمؤانسته هذا المسرف، مع أنا حلفنا معه وآتيناه موثقًا عظيمًا أن نرجع فيه ﴿فَخُذْ﴾ من جاهك وإحسانك ﴿أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله بواحد منا لنخدم في بابك، وأطلقه لنذهب به إلى أبيه الضرير الضعيف؛ لئلا يستوحش ولا نحنث في حلفنا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] [يوسف:78] المتعودين للإحسان، المتمرنين فيه، فتمم علينا وعلى الشيخ الضعيف

(1) قال روزبهان: أي: ممّن يعفو عمّن ظلمه. وأيضًا: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت. وأيضًا: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب. وأيضًا: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال. قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم. وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر. وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا. وقال أبو بكر الورّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك. وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

إحسانك وامتنانك.

﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ يعني: نعوذ بالله أن نأخذ غير السارق بدله ظلمًا لمصلحتكم ﴿إِنَّا﴾ وإن فعلنا مثل ما التمستم منا كنا ﴿إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف:79] خارجون عن حدود الله بلا إذن شرعي.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ ومن تبديله ﴿خَلَصُوا﴾ وخرجوا من عنده ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين في نفوسهم بأن ما عليه العزيز هو الحق؛ لأن أخذ البريء بدل المجرم ظلم صريح، ثم لما صمموا العزم إلى الرجوع وآيسوا من بنيامين ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ رأيًا وسنًا، وهو روبيل أو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ أيها المسرفون ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عظيمًا وعهدًا وثيقًا ﴿مِّنَ اللهِ﴾ القادر المقتدر على أنواع الغضب والانتقام أن ترجعوا به ﴿وَ﴾ أيضًا لم تستحيوا من الله ولم تتذكروا ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي﴾ حق ﴿يُوسُفَ﴾ من الإذلال والزجر التام والألم المفرط والإلقاء في الجب وبيعه رقيقًا، وغير ذلك من أنواع الأذيات معه، وأنتم ما استحييتم من الله، تدعون وراثة الأنبياء وتنسبون أنفسكم إليهم وبعد اللتيا والتي فعلتم بأخيه أيضًا هذا ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لا أزول عن أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ بالخروج منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:80].

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف:81-86].

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا﴾ بسرقته ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أيقنا أنه سارق، وما علمنا إلا بالمشاهدة والإحساس بأن استخرج صاع الملك من رحله، وإنا ﴿وَ﴾ إن كنا حفيظًا له رقيبًا عليه عما يعرضه ويشينه لكن ﴿مَا كُنَّا

﴿لِلْغَيْبِ﴾ المستور عنا ﴿حَافِظِينَ﴾ [يوسف:81] إذ لا اطلاع لنا على سره.

﴿وَ﴾ إن لم تقبل يا أبانا قولنا ﴿اسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهلها ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ لدى الحوامل وتهيئة الأسباب ﴿وَ﴾ أسهل من ذلك اسأل ﴿الْعِيرَ﴾ أي: القفل ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ إذ هم رفقاؤنا معنا حين سرق ابنك وأخذوه، مع أنا اجتهدنا كثيرًا أن يؤخذ منا واحد بدله لم يقبلوا منا، وقالوا:ما نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وإن مضينا على مقتضى مقترحكم نكون من الظالمين بأخذ البريء بدل الجاني، مع أن يهوذا أو روبيل قد تخلف عنا خوفًا من الحنث واستحياء منك ﴿وَ﴾ الله يا أبانا ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف:82] فيما حكينا لك عما جرى علينا مما تم.

ثم لما سمع يعقوب ما سمع تأسف وتأوه وبكى كثيرًا ﴿قَالَ﴾ من أين يعرف العزيز أن السارق يؤخذ لسرقته ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زينت وحسنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أن تفرقوا ابني عني ظلمًا وزورًا كما فرقتم أخاه فيما مضى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: أمري صبر جميل؛ إذ الصبر أجمل مني فيما فرطتم في ابنيَّ أيها المسرفون المفسدون ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ المطلع بحالي وحزني بمقتضى لطفه وسعة جوده ورحمته ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ أي: يوسف وأخيه وكبيركم المتخلف عنكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمناجاة عباده ونيلهم إلى حاجاتهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:83] في أفعاله على مقتضى مصالح عباده.

﴿وَ﴾ بعدما سمع منهم أبوهم ﴿تَوَلَّى﴾ وانصرف وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ مغاضبًا عليهم مشتكيًا إلى ربه من فعالهم ﴿وَقَالَ﴾ من شدة حزنه وكآبته ونهاية ضجرته على مفارقة ابنيه: ﴿يَا أَسَفَى﴾ أي: يا حزني وشدة بلائي ويا حسرتي وحرقة قلبي وكبدي، وبالجملة: يا هلكتي تعالي؛ إذ لم يبقَ بيني وبينك ما يبعدني عنك ويبعدك عني ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ خصه بالذكر لأنه عمدة محبته وزبدة مودته، مع أنه يتردد في حياته ويجزم بحياة الأخيرين ﴿وَ﴾ لما تمادى ألمه وتطاول حزنه وأسفه ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ﴾ كثرة ﴿الْحُزْنِ﴾ قبل فقدان هذين الابنين وبعد فقدانهما ﴿فَهُوَ﴾ نفسه ﴿كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84] مملوء من الحزن والبلاء كأنه مجسم منها، متجرع الغصص والألم من بنيه.

ثم لما رأى الناس ما رأوا منه من قلة الأكل والشرب وذوبان الجسم ونقصان القوى البشرية والسهر المفرط واستمرار الأسف والحزن ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من حاله مقسمين على هلاكه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ أي: لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ على هذا المنوال ﴿حَتَّى

تكُونَ حَرَضًا﴾ مريضًا مهزولاً مدقوقًا مشرفًا على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ [يوسف:85].

ثم لما بالغوا في منعه عما عليه من الكآبة والحزن والتأوه والبكاء ﴿قَالَ﴾ في جوابهم مستنكرًا عليهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: ما أبث وأنشر شكواي ﴿وَحُزْنِي﴾ المفرط الخارج عن التصبر ﴿إِلَى اللهِ﴾ المطلع لما في قلبي من الحرقة والألم؛ رجاء أن يزيل عني ما يؤذيني ويوصلني بلطفه وجوده إلى ما يسرني ويفرج عني ﴿وَ﴾ اعلموا أيها اللائمون المبالغون في منعي أني بإلهام الله ووحيه إليَّ ﴿أَعْلَمُ مِنَ﴾ كرم ﴿اللهِ﴾ وسعة جوده وفضله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:86] أنتم أيها اللائمون، بل إنما حملني الله وأزعجني على بث الشكوى ونشر النجوى معه وإظهار التذلل والخشوع والتضرع والخضوع نحوه، حتى لا أقنطه عن ملاقاة يوسف ولا أترك المناجاة مع الله لأجله وإن تطاولت المدة.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:87-90].

ثم لما استروح يعقوب من روح الله واستنشق من نسمات رحمته، نادى بنيه نداء مرحمة وإشفاق؛ ليقبلوا إليه بعدما آيسوا عنه وعن عطفه؛ إذ بالغوا في سوء الأدب معه وإيقاعه بأنواع المحن والشدائد، فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾ إلى مصر مرة أخرى ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أي: تفحصوا وتطلبوا أصالة ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين تبعًا ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ أي: لا تقنطوا يا بني ﴿مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ وتنفيسه تفريجًا لهم؛ إذ نحن معاشر الأنبياء لا يليق بنا اليأس والقنوط عن كرم الله وجوده في حال من الأحوال ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ﴾ أي: لا يقنط ﴿مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ وكمال قدرته وسعة جوده ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:87] الساترون بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق السارية المتجلية في الآفاق،

الفائضة عليهم سجال الفضل والكرم على مقدار قابلياتهم واستعداداتهم.

فعليكم ألا تقنطوا من الله في حال من الأحوال، بل اعتقدوا أن له التصرف والقدرة التامة والإرادة الكاملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم لما صمموا العزم بالخروج إلى مصر كرة أخرى بإذن أبيهم وخرجوا من عنده وساروا إلى أن وصلوا مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُوا﴾ أولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: الجدب وشدة الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ قليلة رديئة ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ وتممه لنا من جاهك وإحسانك ﴿وَ﴾ قالوا ثانيًا: ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أخينا لنرده إلى أبيه المحزون، فإنه قد أشرف على الهلاك من شدة الحزن والأسف ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي عن أعمال عباده ﴿يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:88] المؤمنين منهم جزاءً حسنًا، لا جزاء أحسن منه.

ثم لما سمع يوسف من أسف أبيه وشدة كربه وكآبته وابيضاض في عينيه وهزال جسمه وإشرافه على الانهدام والانخرام، شرع يظهر أمره عليهم حيث ﴿قَالَ﴾ تفضيحًا لهم وتقريعًا: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ أيها المفسدون قبح ﴿مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ من الزجر والإذلال والضرب والشتم وأنواع المكروهات والمذمومات، سيما ما شريتموه بثمن بخس دراهم معدودة لتبعدوه عن وجه أبيه، وتطردوه عن ساحة عز حضوره ﴿إِذْ أَنتُمْ﴾ قوم ﴿جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:89] بألّا مرد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فاجتهدتم لهدم بناء الله وتغيير مراده ورد قضائه مبارزة عليه وخروجًا بين يديه.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مخبتين خاضعين متذللين بعدما عرفوه مستفهمين على سبيل التقرير والتثبيت: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أيها العزيز ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ بن يعقوب الذي فعلتم به ما فعلتم ﴿وَهَٰذَا أَخِي﴾ بنيامين من أبي وأمي ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأنواع الكرم والإحسان، ووقانا عما قصدتم علينا من السوء والإذلال وأنواع الوبال والنكال ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ﴾ عن محارم الله وعما لا يرضى به الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على ما جرى عليه من القضاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب المطلع لأحوال عباده ﴿لَا يُضِيعُ﴾ أي: لا يهمل ولا ينقص ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:90] الذين يحسنون الأدب مع الله ويعبدونه كأنهم يرونه.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يوسف:91-95].

ثم لما ظهر عليهم ما ظهر من الفضيحة والشناعة وأنواع الندامة والكآبة ﴿قَالُوا﴾ متضرعين، مستحيين، متذللين، مقسمين على سبيل التثبيت والتقرير: ﴿تَاللَّهِ﴾ يا أخانا ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ﴾ واصطفاك ﴿عَلَيْنَا﴾ وأراك في المنام ما أراك من سجود الشمس والقمر والكواكب المعتبرة، وكفاك هذا دليلاً على نجابتك واختيارك علينا، مع أن أبانا قد علم منك ما علم من الرشد وكمال العلم والفضل؛ لذلك آثرك علينا محبة وعطفًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن كُنَّا﴾ أي: إنَّا كنا ﴿لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:91] إذلالك وإرادة إهلاكك وضربك وإيذائك، وفي إبطال إرادة الله ومشيئته وكمال حكمته وقدرته، وفي إيذاء أبينا بمفارقتك عنه وإيقاعه بأنواع البليات والنكبات إلى حيث ابيضت كريمتاه من فراقك، فالآن الأمر بيدك وإنَّا مجرمون، معترفون بأنواع الجرائم، فلك الاختيار، وعلينا الحسرة والندامة وأنواع الكآبة والسآمة.

ثم لما رأى يوسف منهم ما رأى من الندامة المفرطة والخجل والخذلان وأنواع الخيبة والخسران ﴿قَالَ﴾ لهم؛ تسلية عليهم وتزكية لنفسه بمقتضى نجابة طينته: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا تقريع ولا توبيخ ﴿عَلَيْكُمُ﴾ مني في حال من الأحوال سيما ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي أنتم تعتذرون فيه وتستعفون عني، فاعلموا أني عفوت لكم ما لي من الحقوق عليكم، وأبرأت ذمتكم عنها، بل ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بعدما استغفرتم إليه مخلصين ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92] لأن رحمَ جميع الرحماء من ظل رحمته التي وسعت كل شيء.

وبعد تسليتهم وعفوهم وإخزاء الرعب عن خواطرهم، أمرهم بالذهاب إلى أبيهم المحزون؛ ليخلص عما عليه من الحزن المفرط، فقال: ﴿اذْهَبُوا﴾ يا إخوتي ﴿بِقَمِيصِي هَذَا﴾ - وهو عليه - فأخرجه ولفه بلا تنقية وغسل ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ أي:

يرجع ويصير ﴿بَصِيرًا﴾ بعدما كان فاقد العينين ﴿وَ﴾ بعد أن يصير بصيرًا صحيحًا سويًا ﴿أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ينسب إليكم من النسوان والذراري والخدم والحشم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:93].

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: القافلة من عمران مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن في صحبته من المؤمنين له: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[1] [يوسف:94] وتسفهوني أيها الحضار، وتنسبوني إلي نقصان العقل والخرف لصدقتموني.

﴿قَالُوا﴾ أي: الحاضرون: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ﴾ بتذكير يوسف وكثرة تحضيره ببالك ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف:95] أي: ضلالك الذي كنت عليه زمانًا مستمرًا، وهو وإن سفهه الناس تزايد وجدانه، ويترقى ساعة فساعة.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:96-100].

(1) قال نجم الدين كبرى: يحكى أن ريح الثوب لم يجدها الإخوة ووجدها يعقوب؛ لأن الإخوة كانوا عاقين لوالديهم، وكان الثوب من الجنة فلم يجدوا ريحه، ثم بعد ذلك رحموا وغفروا وقيل لم يجدوا ريح الثوب؛ لأنهم ما احترموا يوسف، بل هتكوا حرمته فلا جرم لم يجدوا ريحه كما لا يجد غير التائب ريح التوبة في الآخرة، وقيل: كان ليوسف قميص المحبة ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:18]، وقميصه الفتنة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف:25] وقميصه البشارة، ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ [يوسف:93] ولمّا كان يوم البلاء تباغضوا، ولمّا كان يوم الفرح ترادوا واستبشروا وتنافسوا أنهم يذهب بالقميص ويبشر يعقوب به، هكذا قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:140] فسبحانه من عزيز حميد فقال: لما يريد بقلب الدهور ويحدث الأمور بعد الأمور.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا مع القميص ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ على الوجه المأمور ﴿فَارْتَدَّ﴾ أي: عاد ورد فجأة ﴿بَصِيرًا﴾ كما كان في سالف الزمان، فشكر الله وحمده، وسجد له سجدة خضوع وخشوع وتذلل تام، ثم رفع رأسه من سجوده ﴿قَالَ﴾ لبنيه ولحضار مجلسه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ حين لمتوني بالأسف والحزن وكثرة المناجاة مع الله لملاقاة يوسف ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ﴾ كرم ﴿اللَّهِ﴾ وسعة جوده ورحمته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:96] أنتم أيها اللائمون.

ثم لما سر يعقوب عليه السلام وخلص من الشدائد والمحن وقر عيناه ﴿قَالُوا﴾ أي: بنوه منادين له متضرعين إليه: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ التي كنا نعمل معك ومع من أحببته واخترته علينا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ فعلنا من الجرائم العظام والمعاصي والآثام ﴿خَاطِئِينَ﴾ [يوسف:97] جاهلين عن عواقبها وما يؤول إليها؛ إذ هو من قضاء الله إيانا ولا مرد لقضائه.

ثم لما تفرس يعقوب عليه السلام منهم الإخلاص والإنابة التامة والرجوع عن ظهر القلب ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في ذاته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما أخلصوا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [يوسف:98] لهم يقبل توبتهم.

سوّف أمر استغفارهم إلى ملاقاة يوسف والمشورة معه، يدل عليه ما رُوي أن يعقوب استقبل القبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين حتى نزل جبريل عليه السلام، فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في حق أبنائك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة.

ثم لما صمموا عزم الرحيل إلى مصر شدوا ركابهم، وساروا حتى وصلوا إلى قربها، سمع يوسف بقدومهم، وخرج إلى استقبالهم مع الملك وجنوده وجميع أهل مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ ووصلوا إليه ﴿آوَى إِلَيْهِ﴾ أي: اعتنق وضم يوسف ﴿أَبَوَيْهِ﴾ إلى نفسه وواسا معهما ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف:99] عن نكبات الجدب والقحط وأذيات الرحيل.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا على بيته ﴿رَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ تعظيمًا لهما وتوقيرًا ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي يجلس هو عليه، وهو يقوم بين يديهما ﴿وَ﴾ بعدما تمكن أبواه على عرشه ﴿خَرُّوا﴾ أي: هما وبنوهما ﴿لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: خروا لشكر لقياه وشرف حضوره لله سجود شكر وخضوع.

ولما رأى يوسف سجودهم تذكر ما رأى في المنام في أوان الصبا ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقًا محققًا مطابقًا للواقع ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ ربي بأنواع الإحسانات ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ بعدما كنت فيه مدة مديدة ﴿وَ﴾ أعظم منه أنه ﴿جَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية البعيدة ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ وأوقع ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بأنواع الإيقاعات والوساوس ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿لَطِيفٌ﴾ مدبر كامل وموفق كافل ﴿لِّمَا يَشَاءُ﴾ من الأمور ويريد إصلاحه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بعلمه الحضوري لمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:100] المتقن في أفعاله على مقتضى ما تعلق بعلمه وإرادته.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف:101-104].

ثم دعا يوسف عليه السلام لنفسه وناجى مع ربه مناجاة صادرة عن محض الحكمة والذكاء والفطنة بقوله: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بلطفك وفضلك بأنواع التربية والنعم إلى حيث ﴿قَدْ آتَيْتَنِي﴾ وأعطيتني ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ الظاهر أي: الحكومة المتعلقة بعالم الشهادة ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: العبور من الحوادث الكائنة في عالم الشهادة إلى ما في عالم الغيب من الصور المقتضية إياها ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: عالم الأسماء التي انعكست منها هذه الأظلال الهالكة الشهادية ﴿أَنْتَ﴾ بذاتك بعدما تحققت بتوحيدك وانكشفت به، ورفعت الحجب بيني وبينه ﴿وَلِيِّي﴾ ومولى أموري وحامل أسراري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: في النشأة الأولى والأخرى ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسْلِمًا﴾ مسلمًا مفوضًا جميع أموري إليك ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ بلطفك ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:101] الذين أصلحوا نفوسهم في النشأة الأولى والأخرى حتى يفوزوا من عندك بشرف اللقا.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف وما جرى بينه وبين إخوته وبين امرأة العزيز

وغير ذلك من الوقائع الهائلة، الواقعة على يوسف وعلى أبيه وأخيه من حسد إخوتهما ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من الإخبارات التي سترت عنك يا أكمل الرسل ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بالوحي والإلهام، ومحقق مسلَّم عند ذوي العقول ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم وفي جمعهم وقت ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1] [يوسف: 102] أي: يقصدون المكر والخداع مع يوسف وأبيه، بعدما شاوروا كثيرًا في إهلاك يوسف وإبعاده من عند أبيه واستقرار رأيهم بعد تكرر المشاورة على ما فعلوا به واتفقوا عليه، وما أنت أيضًا من أهل الإملاء والنسخ أن تضبط قصصهم من التواريخ، ولا من أهل التعلم المستفيد من الغير، بل ما هو إلا وحي يوحى إليك من عندنا.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ الذين يترددون بين يديك ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ بإيمانهم وإذعانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103] لك مصدقين لما جئت به من عند ربك.

﴿وَ﴾ ما عرض لهم ولحق لنفوسهم من الغفلة لم يقبلوا ما قلت لهم؛ إذ ﴿مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ ما جئت به من عند الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعلٍ ومال من حطام الدنيا كما يفعله حملة الأخبار ومتفقهة الزمان والمتشيخة من أهل التلبيس، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن وما فيه من العبر والأحكام والقصص المستلزمة لأنواع المواعظ والتذكيرات ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عام، وفائدة جليلة شاملة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف:104].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ

(1) ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به ويبغون له الغوائلَ حتى تقف على ظواهر أسرارِهم وبواطنها وتطّلع على سرائرهم طُراً وتحيط بما لديهم خُبراً، وليس المرادُ مجردَ نفي حضورِه ﷺ في مشهد إجماعِهم ومكرِهم فقط، بل في سائر المشاهدِ أيضاً، وإنما تخصيصُه بالذكر لكونه مطْلَعَ القصة وأخفى أحوالِها كما ينبىء عنه قوله : وهم يمكرون ، والخطابُ وإن كان لرسول الله ﷺ لكنِ المرادُ إلزامُ المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدمُ سماعِك ذلك من الغير وعدمُ مطالعتِك للكتب أمرٌ لا يشك فيه المكذِّبون أيضاً ولم تكن بين ظَهرانيهم عند وقوعِ الأمر حتى تعرِفه كما هو فتبلِّغَه إليهم، وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم، وفيه أيضاً إيذانٌ بأن ما ذكر من النبأ هو الحقُّ المطابقُ للواقع، وما ينقُله أهلُ الكتاب ليس على ما هو عليه يعني أن مثلَ هذا التحقيقِ بلا وحي لا يتصوّر إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. انظر: [تفسير أبي السعود (3 /474)].

تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:105-108].

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كثير ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ دالة على وجود الصانع وتوحيده واستقلاله في التصرف في الآثار كائنة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، أو عالم الأسماء والصفات وعالم الطبيعة المنعكسة منها ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ مرور غفلة وذهول ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:105] لا يعتبرون منها ولا يتأملون فيها وفي رموزها وإشاراتها، وذلك من كمال توغلهم في الكثافة والحجب الظلمانية، ونهاية تدنسهم بأدناس الطبيعة الهيولانية.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا يُؤْمِنُ﴾ ويوقن ﴿أَكْثَرُهُم بِاللهِ﴾ المستغني في ذاته عن جميع المظاهر، المستقل بوجوده بحيث لا وجود لغيره أصلاً ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106] مشتركون من مصنوعاته في استحقاق العبادة ما لا وجود له في نفسه أصلاً.

أيغفلون أولئك المسرفون عن مكر الله؟! ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ عن كمال قدرته على الانتقام ولم يخافوا ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وترسل عليهم ﴿غَاشِيَةٌ﴾ أي: عقوبة هائلة نازلة ﴿مِّنْ عَذَابِ اللهِ﴾ في هذه النشأة تغشيهم وتحيط بهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:107] أماراتها وعلاماتها؟!.

وإن أصروا على كفرهم وإشراكهم باللهو، عدم الالتفات بك وبقولك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مجاراة عليهم: ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: الدعوة إلى التوحيد وإعداد الزاد ليوم المعاد طريقي، وأنا بُعثت لأجلها ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى توحيده كافة عباده ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ تامة فائضة عليّ من عنده سبحانه ﴿أَنَا﴾ أي: أدعو أنا لمقتضى الوحي والإلهام ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ من خيار أمتي بوسيلة إرشادي وإهدائي إليهم ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ أي: أنزهه تنزيهًا تامًا عن معتقدات أهل الزيغ والضلال في حقه سبحانه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:108] أي: أبرئ نفسي عما هم عليه من الشرك المنافي للتوحيد.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ

أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:109-111].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أيها المبعوث للكل ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك من جنس البشر ﴿نُوحِي إِلَيْهِم﴾ أي: نخصهم بالوحي والإلهام؛ لنجابة طينتهم في أصل خلقتهم مع أنهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي: من جملة ما يسكنون فيها ﴿أَ﴾ يصرون هؤلاء المعاندون على تكذيبك، معللين بقولهم الباطل: ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ كذبوا الرسل المبعوثين لهم مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل تكذيبهم إياك حتى يعتبروا منها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة للفوز والفلاح ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: للمؤمنين الذين يحفظون نفوسهم عما حذرهم الله منها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:109] أيها المسرفون المكذبون بها خيريتها، مع أنكم مجبولون من زمرة العقلاء، وهم أيضًا أمثالكم أيها المسرفون المكابرون.

وإن تمادوا في الغفلة والإصرار على التكذيب مدة مديدة ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ﴾ وقنط ﴿الرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم بل ﴿وَظَنُّوا﴾ من طول الإمهال وعدم الأخذ والبطش ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يقينًا، وصاروا كأنهم قد أخلف عنهم الوعد الذي وُعدوا به من جانب الحق، وبعدما ازداد يأسهم وقنوطهم، قد جاءهم نصرنا الذي وعدناهم وعذابنا الذي قد أوعدنا به أممهم، وبعدما جاء أخذنا إياهم ﴿فَنُجِّيَ﴾ ونخلص ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ إيمانه بنا وبرسلنا وانقياده إياهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ الذي قد وعدنا به ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:110] الذين أجرموا علينا بتكذيب رسلنا وكتبنا، وإن طالت مدة الإمهال.

ثم قال سبحانه تنبيهًا وحثًا لعباده على ما في كتابه من الإشارات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء المذكورين في القرآن سيما قصة يوسف عليه السلام ﴿عِبْرَةٌ﴾ اعتبار واستبصار ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الذين يتأملون ويتعمقون في لب الكلام، ويعرضون عن قشوره، ﴿مَا كَانَ﴾ القرآن ما ذكر فيه من القصص والأحكام ﴿حَدِيثًا﴾ مختلقًا ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ به إلى الله افتراءً ومراءً ﴿وَلَٰكِن﴾ وحي نزل من عند الله ليكون ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية؛ أي: مصدقًا أحكامها وآثارها ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ احتيج إليه في الدين من الأمور المتعلقة؛ لتهذيب الظاهر والباطن ﴿وَهُدًى﴾ من تمسك به وعمل بما فيه أمن من الضلال ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:111] أي: يعملونه ويصدقون بمقتضاه.

خاتمة السورة[1]

(1) قال الشيخ نجم الدين كبرى في «التأويلات»: من العبر والمواعظ والفوائد في هذه القصة: إنه قال: لقد كان في يوسف وإخوته فلم ينقطع الوصلة بينهم بالجفاء الذي وقع منهم؛ لبقاء أصل الدين في مؤاخاته بخلاف ابن نوح، فإنه قال في حقه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:46] ولا في إخوة يوسف عزموا على أن يتضرعوا إلى الله إلى التوبة والإنابة، كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ [يوسف:9] قال بعض المفسرين: وأمّا كنعان فلم يعزم على الالتجاء إلى الله تعالى، بل ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:43]، ومنها: روي أنه ابتلي بذلك الفراق؛ لأن امرأته حين وجدت ريح قدرهم فسألت عن يعقوب من ذلك الطعام فقال: اذهبي إلى بيتك مشاهدي إليك، ثم نسي وعدهم فابتلي بذلك الفراق، وقيل: ببيدائه ذبح عجلاً بحضرة أمه فينبغي أن يعتبر ويحر زمن أمثال ذلك. ومنها: إنه أظهر لبنيه زيادة محبة ليوسف فحملهم ذلك على أن فعلوا ما فعلوا، فينبغي أن يعتبر المؤمن ويسوي بين أولاده جهده في المحبة وأن لم يمكنه فليكتم ذلك عنهم، ولذلك يستحب في شرعنا التسوية بين الأولاد في العطاء. ومنها: ألّا يأمن من نزغات الشيطان في حال من الأحوال، فإنهم كانوا من أبناء النبي ﷺ ومع ذلك نزع الشيطان بينهم. ومنها: اجتناب الجسد إذا حملهم الحسد على فعلهم ذلك. ومنها: إن المحبة سبب البلاء، فمن ادّعى المحبة فليستعد للبلاء. ومنها: ألّا يوثق بكل أحد، ولا يؤتمن على أحد، ائتمن يعقوب بنيه على ابنه فأصابه منهم ما أصاب. ومنها: إن الأولاد فتنة، ولقد روي في القصة أنه التمس من الله أن يرسله، فيعمد إلى الصحراء فلم يرد أن يمسكه. ومنها: فضيلتي الصبر، فلقد صبر يعقوب فنال الفرج، وصبر يوسف فنال الملك والمراد، وصبرت زليخاء فبلغت المقصود. ومنها: فضيلة الحلم، فلقد حلم عنهم حين قدر عليهم وقال: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. ومنها: إن الإقرار بالذنب سبب العفو، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فابلهم بأنه قال: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾. ومنها: من يريد الله رفعه فلن يضره كيد كائد، فلقد كادوا ليوسف فلم يمكنهم دفع رفعته ﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ولقد كاد الكفار رسولنا ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال:30] فلم يدفعوا مراد الله فيه، فكذلك المؤمن إذا كان معه عناية الله لم يضره كيد جني ولا كيد أنسي به، ونسأل الله تعالى ألّا يخلبنا عن عنايته ورعايته بفضله وكرمه فهم بموعظتها، وقال رويم: همت زليخاء بالمعصية، وهم يوسف بالرجوع إليها في الفرار منها، وذلك قوله ﷺ: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قال ابن عطاء: لولا أن رأى برهان ربه أي: واعظًا من قلبه، وهو قوله ﷺ: «واعظ الله في قلب كل مؤمن». وقال

الجنيد: تحرك طبع البشرية في يوسف ولم يعدوه طبع العادة والعبد في تحريك الخلقة غير مذموم، وفي مقالة المعصية ملوم، وذكر الله على يوسف همه على طريق المحمدة لا على طريق المذمة. وقال أبو عثمان: ما كان هم بها إلا هم شفقة عليها، ودعا إلى الله في قطع تلك الهمة الدنية عنها كيف يكون هم يوسف غير ذلك أو هم أنها بدا والله تعالى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24]، فكانت الفحشاء مصروفة عنه كيف يبقى عليه موضع هم دوني. قال الشيخ كبرى ﷺ: همت به زليخاء هم النفسانية الهوائية، لكن بمناسبة وقضاء الربانية، وهم بها يوسف هم ائتلاف الروحانية لمناسبة أحكام الأزلية بينهما بالزوجية، فإن كان هم زليخاء هم العاشقين بالمعشوق وكأنهم يوسف هم الزوج بزوجته لولا أن رأى برهان ربه وهو وارد رباني يرد على قلب نوراني مؤيد بروح من عالم الأنبياء الذي يحكم على الغيب بعلم تأويل الأحاديث فأنبأه أنه زوجته، ولكن ما قال: بعد وقت الازدواج فهم بسائق والزجر لعدم انقضاء مدة كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف:24] والسوء شغل البضع بنكاح الغير، والفحشاء المباشرة قبل النكاح. قال الجنيد: سئل السّري ما علامة المحبة قال: ما ذكره الله في كتابه (قد شغفها حبًا)، قال: ألا يرى جفاء الحبيب جفاء، بل يرى جفاؤه وفاء. وقال الشبلي: علامة الصدق في المحبة استواء المحبة في الشدة والرخاء، وقال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منها حتى لا يكون لشيء عندها فيه مكان، وقال الشبلي: الشغاف نهاية العشق. وقال جعفر: الشغاف مثل القيم أظلم قلبها عن النظر في غيره والاشتغال بسواه. وقال بعضهم ﷺ: الشغاف جلد رقيق على وجه حبة القلب وهو مبلغ غاية عشق المخلوق، فلا يتجاوز عشق المخلوق الشغاف وجه القلب هي مبلغ عشق الخالق، فيجاوز الشغاف ويبلغ حبة القلب. قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف:31] يشاهدن حسنًا غير موضع الشهوة مؤيدًا بعصم النبوة فأكبرنه. وقال أبو سعيد الخراز: المحب من يكون في حال المشاهدة غائبًا عن حسه فانيا عن نفسه لا يحسن بما يجري عليه. قال مخلوف: في رؤية مخلوقًا لم يتألم بقطع اليد ولم يحس به وأنتم تتألمون مما يصيبكم من أثقال المحبة بالحقيقة. قال سهل: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:24] ما هذا إلا ملك في أخلاقه بشر في صورته. قال محمد بن علي بن زين العابدين- سلام الله عليهم-: ما هذا يأهل أن يدعي إلى المفاسد بل مثله يكرم، وينزه عن مواضع الاعتراضات لكرم أخلاقه ولطف شمائله. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53] بالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها محمد عن سوء المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنانه النفس وغفل عن الرعاية الأدب، فمهما أماتها فهو شريك في مرادها. وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه والعبودية ملازمة الأدب والطغيان سوء الأدب. وقال سهل: خلق الله النفس، وجعل طبعها بالجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب الذي منه الهلاك. وقال الواسطي: النفس ظلمة وسراجها سرها، فمن لم يكن له سر فهو ظلمه أبدًا. وقال سهل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ ليس لها في

الأخلاق نصيب. وقال الشيخ ﷺ: إن النفس خلقت أمارة بالسوء، فإذا أرحمها ربها جعلها مأمورة، وبنور الرحمة مستورة، وبالواردات الربانية مقهورة، وبنظر العناية منظورة، وذنوبها مغفورة، وأخلاقها المذمومة محمودة، وعلى العبودية مطمئنة، ولجذبات الإلهية قابلة، وإلى ربها راجعة راضية مرضية في زمرة خواص العباد داخلة، ولجنة جوار الحق مستلهمة، وبسطوات تجلي صفات الجمال والجلال فانية، وبصفة بقاء الله باقية. وعن محمد بن كعب القرطبي عن الإمام علي بن أبي طالب- عليه السلام- قضي القضية فقال رجل من ناحية المسجد: يا أمير المؤمنين ليل القضاء كما قضيت، قال: كيف هو؟ قال: هو كذا أو كذا، قال: صدقت وأخطأت ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:76]. قال بعضهم في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [يوسف:76] بالعلم، وقيل: بالتقوى، وقيل: بنزع الشهوات والأهواء عنه، وقيل: بالاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوفيق، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بالإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا، وقيل: بمعرفة مكائد النفس. وقال الجنيد: رفع درجات في يشاء بإسقاط الكونين عنه ورفعه عن الالتفات إلى الأحوال والمقامات؛ ليكون خالصًا لنا بلا علة. وقال بعضهم ﷺ: نرفع درجات من نشاء بالبقاء بعد الفناء؛ ليكون فانيًا عن وجوده المجازي باقيًا بوجوده الحقيقي. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف، فيسقط الأوصاف ويبقى حقًا محضًا. وقال بعضهم: العلوم تتفاوت على مقدار الصنائع والتعليم إلى أن ترى من يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني، فذلك العالم بالعلم اللدني الذي لا عالم فوقه في الخلق. وقال الشيخ ﷺ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ في المنقول والمعقول ﴿عَلِيمٌ﴾ هو عالم بالله. وقال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكور والإحساس للبلوى. وقال الشيخ ﷺ: الصبر جميل إن ترى البلاء جميلاً من الجليل، والصبر يدفع البلاء إلى الخليل. وقال الجنيد في قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف:84] وقال: يا أسفًا على يوسف أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرج ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ لم يترك في هذا النفس الواحد بقيا حتى أوحى الله تعالى إليه أن يا موسى على غيري ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا في نفسك أبنائي، وقد أخذنا منك واحدًا، وأبقيناك عشرًا وأنت مع هذا تظهر الشكوى وتقول: صبر جميل. قال ابن عطاء: بكاء يعقوب وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف ﷺ زاد في البكاء، فقال: يا أبت أتبكي عند الفراق وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة القلوب وهذا بكاء الدهش. وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله تعالى إلى يعقوب تتأسف على غيري وعزتي لأخذن عينك ولا أردهما إليك حتى تنساه. وسئل أبو سعيد القرشي لِم لم يذهب عين آدم وداود من هول بكائهما وذهبت عين يعقوب؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب كان على فقد ولده فحفظا وعوتب. وقيل: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84]، وقال: بكاء الأحزان؛ يعمي العيون، وبكاء الشوق يجلي العيون، وقال أيضًا: الطبيب الحاذق من يأخذ الدواء من الداء الذي يعقوب عمى بفقد يوسف فلم يبصر الآباء بإلقاء الثوب على وجهه. قال الشيخ ﷺ: ما كان بكاء يعقوب

عليك أيها المستبصر، الخبير المسترشد، البصير - بصّرك الله بعيوب نفسك،

وتأسفه على فقد صورة يوسف، وإنما كان على خوف فقد قلب يوسف في يوسف، وابيضت عيناه من الحزن على هذا المعنى ألا ترى أنه لما ألقى على وجهه بقميص يوسف كيف ارتد بصيرًا؛ لأنه شم في قميصه رائحة سلامة قلبه، فكما أنه كان عماه من حزن فقد قلب يوسف كان بصره من سرور وسلامة قلب يوسف. قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كان علمه الله كان حقيقة وعلمكم به علم استدلال. وقال الجنيد في قوله: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87]، تحقق رجاء الراجين عند تواتر النعم وترادف المصائب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ﴾ [يوسف:87] والنبي ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج». قال أبو عثمان في قوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ﴾ [يوسف:101]، قال بما كان يجري عليه في حالتي السراء والضراء وهذا هو الملك. قال ابن عطاء: الملك هو احتياج حساده إليه وقال بعضهم هو القناعة فيه. قال الشيخ ﷺ: هو أراه البرهان أخبرهم بها ليملك نفسه وينهاها به عن الهوى. وقال الصادق في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أوقف حكم عباده تحت مشيئته إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم؛ لتكون المشيئة والقدرة له لا لغيره. وعن سهل في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ قال: أمتني وأنا مسلم إليك أمري معرض إليك شاني لا يكون لي إلى نفسي مجال ولا تدبير في سبب من الأسباب. وقال: الدينوري: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في إصلاحهم لمجالسك وحضرتك، وأسقطت عنهم الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع. قال أبو صالح: من العبّاد من زين الله تعالى ظاهره بآداب الخدمة، ونور باطنه بنور المعرفة. وجعله راحة للخلق سعد ببركته من قصده، وما يؤمن من أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. قال الواسطي: وهم مشتركون في ملاحظة الخواطر والكرامات، وقال بعضهم: وما يؤمن أكثرهم باللسان إلا وهم مشركون عند نزول النوائب في الرجوع إلى سواه، والاعتماد فيه على ضعيف مثلهم وفي قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم من النعم والأفضال والبر والنوال على الأفعال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال تبارك العزيز المتعال. وقال بعضهم: فرّق بين من دعا إلى الله وبين من دعا إلى سبيل الله؛ فمن دعا إلى الله يدعو الخلق إليه به لا يكون فيه حظ لنفسه، ومن دعى إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه لذلك كثرت الإجابة لمن يدعوا إلى سبيله لمشاكلة الطبع، وقل من يجيب لمن يدعو إلى الله؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس، وقال بعضهم: البصيرة من لباس الأرواح، وليس لها من الأجسام حظ. وقال الواسطي: على بصيرة أيقن الله أنه ليس إليه من الهداية شيء. وقال ابن عطاء: منهم: من اتبع الجزء على الظاهر، ومنهم: من اتبعه على الحقيقة، والتحقيق فذلك الذي قال الله تعالى: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108]، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. قال الصادق: لأولي الأمر أو مع الله وقال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ في آن، أن النفس ليست بمحل الأمن والاعتقاد عليها، وصلى الله تعالى على محمد وآله أجمعين.

وجنبك عن غوائلها - أن تعتبر من القصة التي ذكرت في هذه السورة، وتحترز عن المكائد المذكورة فيها والمخادعات المصرحة بها والمرموزة إليها، وتصفي أمارة نفسك عن مبادئها وتبرئها حسب طاقتك وقدر وسعك وطاقتك وقوتك عما يؤول إليها ويؤدي نحوها، وتشمر ذيل همتك لتهذيب ظاهرك وباطنك عما يعوقك عن سلوك طريق التوحيد المفضي إلى اضمحلال الرسوم وانقهار التعينات العدمية والأظلال الهالكة، المؤدية إلى الكثرة والتنويه، الحاجبة عن صرافة الوحدة الذاتية بالنسبة إلى ذوي الحجب الكثيفة والغشاوة الغليظة.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى إفناء لوازم تعيناتك الباطلة، وهوياتك العاطلة التي هي شياطين طريقك نحو الحق المنزه عن التغيير والتبديل، المقدس عن الانقلاب والتحويل؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يفتره كر الدهور ومر الزمان، بل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:26].

وبالجملة: بعدما فنيت عن وجوه تعيناتك رأسًا، يبقى وجه ربك الذي لا انقلاب له أصلاً ذو الجلال الذاتي والأزلي، والإكرام الأبدي السرمدي.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق الفناء، ووفقهم لإفناء ما يعوقهم عن شرف اللقاء، إنه سميع مجيب.

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الرعد

لا يخفى على من ترقى عن مرتبتي العلم والعين بلا تلوين، وتحقق على مرتبة حق اليقين، مع تثبيت وتمكين أن الآثار الغريبة والتدابير العجيبة الكائنة في عالم الكون والفساد إنما تصدر عن ذاتٍ متصفة بجميع أوصاف الكمال، منزهةٍ عن نقص الحدوث والزوال، مستقلةٍ في تصرفاتها بلا مزاحمة ضد وند ومظاهرة معاون وممد؛ إذ لا وجود لغيره ولا ثبوت لسواه أصلاً.

فدلت الأفعال المتقنة والآثار المحكمة والنظام المحسوس المشاهد على هذا الضبط البديع على وحدة فاعلها عند من تشبث بأذيال العقل المستدل.

وأمّا أهل الكشف والشهود، والمستغرقون في مطالعة جمال الله وجلال الله لا يرون في الوجود إلا هو؛ ولذلك لا يسندون الآثار والأفعال والحركات والسكنات والحوادث الكامنة مطلقًا إلا إليه أولاً وبالذات، بلا رؤية الأسباب والوسائل، بل إنما يرونها ويعتقدونها من لوائح تجلياته وأشعة شئونه وتطوراته؛ لذلك نبه سبحانه في كتابه على عباده مخاطبًا لحبيبه على أن التدابير الكائنة إنما تستند إليه تعالى، وتصدر عنه بالاستقلال، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي على ظواهر الكائنات بأنواع التدبيرات ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده في النشأة الأولى بوفور العطيات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم في النشأة الأخرى بأعظم المثوبات وأرفع الدرجات.

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد:1-3].

﴿الـمر﴾[1] أيها الإنسان الكامل اللبيب اللائق لملاحظة رموز آثار التوحيد اللائح عن غرته الغراء مقتضيات لوامع الرشد والرضا عما جرى عليه القضاء ﴿تِلْكَ﴾ السورة المنزلة إليك ﴿آيَاتُ الكِتَابِ﴾ الجامع للكتب المنزلة أي: من جملة آياته ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قبل نزولها ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من الآيات النازلة كلها ﴿الحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل من عند الحكيم العليم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة والنسيان ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد:1] أي: لا يصدقون ولا يعتقدون بحقيته وحقية منزله.

وكيف لا يعتقدون حقيته أولئك الحمقى المعاندون؛ إذ هو ﴿اللهُ﴾ المبدئ المبدع الرفيع البديع ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات معلقًا ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ واسطين يعتمدن عليها ظاهرًا كما ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في بادئ النظر؛ لتكون أسبابًا ووسائل للسفليات ﴿ثُمَّ﴾ لما رفعها وصور بها على أبلغ النظام وأبدعها ﴿اسْتَوَى﴾ باسمه الرحمن ﴿عَلَى العَرْشِ﴾ أي: على عروش جميع الكائنات بالإظهار والإبراز وأنواع التدبيرات المتعلقة لحفظها وبقاء نظامها ﴿وَسَخَّرَ﴾ من بينها ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لتتميم التدبير ﴿كُلٌّ﴾ منها ﴿يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يدور دورة معينة شتاءً وصيفًا، ربيعًا

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفًا جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته،وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلمّا انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا ينفتح إلا لأهل الأنائية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا ينفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا ينفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا ينفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار .

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب وألبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنّة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة.

وخريفًا؛ لإصلاح ما يتعلق بمعاشهم وحفظهم، وبالجملة: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ على ما ينبغي ويليق بلا فتور وقصور ﴿يُفَصِّلُ﴾ لكم ﴿الآيَاتِ﴾ ويوضح لكم الدلائل والشواهد الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2] أي: رجاء أن تتفطنوا وتتيقنوا بموجدكم ومربيكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تتفطنون أيها المجبولون على فطرة الفطنة والذكاء ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ وفرشها مبسوطة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وجبالاً شامخات؛ لتكون أوتادًا لها ﴿وَأَنْهَارًا﴾ منتشئة منها، جارية على وجه الأرض؛ لإنبات ما تقتاتون وتتقوتون بها ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لتكون سببًا لدوامها وبقائها ولإنضاجها وإصلاحها ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس الليل بالنهار لتسكين البرودة، والنهار بالليل؛ لتسكين الحرارة؛ ليحصل الاعتدال في طبيعة الهواء المنضج ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الحكم والتدابير ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:3] ويتأملون في حكم الصانع الحكيم والمدبر العليم.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد:4-6].

﴿وَ﴾ أيضًا من بدائع قدرته وغرائب حكمته أنه حصل ﴿فِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ متماثلة في الطبيعة والمزاج ﴿وَ﴾ حصلت في بعضها ﴿جَنَّاتٌ﴾ وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَ﴾ في بعضها ﴿زَرْعٌ وَ﴾ في البعض ﴿نَخِيلٌ﴾ مختلفة أنواعها بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي: نخلات متكثرة، أصلها واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: متفرقات الأصول مع أنها كلها ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ﴾ مع وحدة طبيعة الأرض والماء ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا﴾ أي: بعض الثمرات ﴿عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ لأن بعضها ضار وبعضها نافع، وبعضها حلو وبعضها حامض، إلى غير ذلك من التفاوت والاختلافات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾

الاختلاف مع وحدة طبيعة القابل ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على حكمة الصانع الحكيم ومتانة فعله ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4] ويستعملون عقولهم في التفكير بمصنوعات الحق والتدبير بمبدعاته ومخترعاته.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا أكمل الرسل إنكار الكفار حشر الأجساد مع وضوح دلائله وسطوع براهينه ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فعليك أن تتعجب من قولهم - هذا حال كونهم مستفهمين مستبعدين على سبيل التعجب - أننا ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ وعظامًا رفاتًا ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ كلا وحاشا أن نعود أجسامًا إنسانًا بعدما صرنا كذلك ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذين أوجدهم وأظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، ورباهم بأنواع التربية مع أن إعادتهم أيسر من إبدائهم وإبداعهم ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الضالون المقيدون بسلاسل الطبيعة في النشأة الأولى صار ﴿الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ في النشأة الأخرى، دائمًا مستمرًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:5] أبد الآباد.

﴿وَ﴾ من قبح صنيعهم ونهاية غفلتهم عن الله وانتقامه وغيرته ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ المهددة بها والموعدة عليها، أي: يطلبون منك يا أكمل الرسل استعجال إتيانها استهزاءً واستنكارًا ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الموعودة لهم على تقدير إيمانهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾ على أمثالهم من الأمم الهالكة ﴿الْمَثُلاَتُ﴾ أي: القصاصات والعقوبات التي صارت أمثالاً يضرب بها، وحالهم يكفي مؤنة استعجالهم واستهزائهم لو تأملوا ﴿وَ﴾ هم من غاية إصرارهم وكفرهم وإن استحقوا ما يستعجلونه على أقبح الوجوه، لكن أمهلهم الله الحكيم العليم زمانًا بمقتضى جوده ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الحليم الرحيم ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ستر وعفو ﴿لِّلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم على أنفسهم باستجلاب عذاب الله إياها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيضًا على مقتضى عدله وقهره ﴿لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:6] وسريع الحساب على من خرج من ربقة إطاعته استكبارًا واستنكافًا.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ
بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ

﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:7-11].

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وبكتابك: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ اقترحناه بها ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ إن كان نبيًا مثل الأنبياء الماضين، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبكفرهم وقولهم هذا ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مخبر بما جئت به من عند ربك، لا مهد مصلح، وإنما عليك البلاغ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:7] وهو الله سبحانه، إن تعلق إرادته بهدايتهم يهديهم؛ إذ هو عالم بسرائرهم وضمائرهم، وما جرى عليهم وما يؤول أمرهم إليه.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ من النطفة المصبوبة ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقصها منها وفقًا لفضلاتها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ عليها لتنميتها وتصويرها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[1] [الرعد:8] أي: حصول كل كائن عنده إنما هو بمقدار مخصوص من مادة معينة ومدة مقررة، لا ينقص منها ولا يزيد عليها.

والإطلاع عليها وعلى كيفيتها وكمياتها مما استأثر الله به في غيبه؛ إذ هو بذاته سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عنا أنيته ولميته ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: التي خفي علينا لميته، وكيف لا يعلم الغيب والشهادة؛ إذ هو ﴿الْكَبِيرُ﴾ بذاته ﴿الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9] أي: المنزه في صفاته عن الاتصاف بصفات كلا العالمين ولوازمهما.

وإن كان كل منها من أظلال أوصافه الذاتية وأسمائه الحسنى ﴿سَوَاءٌ﴾ عنده سبحانه في حيطة حضرة علمه المتعلق بأحوال المكونات ﴿مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ وأخفاه وأضمره في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ وأظهره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ أي: مستتر

---

(1) قال البقلي: أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وايضا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدثين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.
قال الإمام الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.
قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

متغط ﴿بِاللَّيْلِ﴾ ومن هو ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز ظاهر ﴿بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:10] أي: لا يشغله سبحانه شأن عن شأن، ولا يحجب عليه الأستار والسدول، ولا يعين عليه البروز والظهور؛ إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إذ ﴿لَهُ﴾ سبحانه بالنسبة إلى كل شيء من الأشياء حتى الذرة والخطرة والطرفة واللمحة ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من الأوصاف الإلهية مسميات بالملائكة يعقبن عليها متواليات متتاليات محيطات ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾ عما لا يعنيه وينافره ويؤذيه، وما هو إلا ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ إياهم وتعلق إرادته ومشيئته لحصانته وحفظه على مقتضى لطفه وجماله ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لأمور عباده، المصلح لأحوالهم ﴿لاَ يُغَيِّرُ﴾ ولا يبدل ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية والرفاهية والفرح والسرور ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من محاسن الأخلاق ومحامد الأوصاف إلى المعالج والمذائم بترك أوامر الله وارتكاب نواهيه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِذَا أَرَادَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده واستعداداتهم ﴿بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ ناشئًا من خباثة طينتهم ﴿فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يمكن لأحد من خلقه رد إرادته ﴿وَ﴾ كيف يرد مراده سبحانه؛ إذ ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:11] يولي أمورهم ويرجعون إليه في الوقائع والخطوب.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد:12-15].

كيف يرجعون إلى غير الله ويستردون مراده سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ بغتة ويورث منه فيكم ﴿خَوْفًا﴾ من أن تصابوا به ﴿وَطَمَعًا﴾ بما هو مستتبع له من المطر ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يُنشِئُ﴾ من الأبخرة المتصاعدة ﴿السَّحَابَ﴾ المتراكم من الأبخرة ﴿الثِّقَالَ﴾ [الرعد:12] بالمياه المتكثرة.

﴿وَ﴾ حين إراءة البروق وإنشاء السحب ﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ المتكون من اصطكاك

الأبخرة والأدخنة المحتبسة بين السحب المتراكمة ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: بحمد الله، بإلقاء الملائكة الموكلين عليه، المعاقبين الممدين له ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا يسبحون بحمده ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: من خوف الله وسطوة جلاله وقهره ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الكائنة من الأبخرة والأدخنة المحترقة بالأجزاء النارية ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ إهلاكه وقتله زجرًا له وانتقامًا عليه ﴿وَهُمْ﴾ من غاية ضعفهم وعدم قدرتهم وقوتهم ﴿يُجَادِلُونَ﴾ ويكابرون ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللهِ﴾ وفيما جاءت به رسله من عنده من الأوامر والنواهي المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ الحال أن لكمال قدرته وبسطته وسلطنته القاهرة وجلاله ﴿هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[1] [الرعد:13] صعب المكايدة والانتقام لمن جادل معه وكذب رسله بالباطل.

لكن ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: قبولها وإجابتها وإنجاحها لمن دعا بها، مخلصًا في دعائه وتوجهه نحو الحق ﴿وَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله من الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ قليل مما يطلبونه، بل ما مثلهم في دعوة الأصنام ودعائهم إياهم ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي: كمثل عطشان بسط كفيه إلى الماء يدعوه ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ ويرويه ﴿وَ﴾ الحال إنه غائر عميق ﴿مَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ وبسبب ذلك زاد عطشه وحرقة قلبه وزفرة صدره، كذلك المشركون يدعون إلى أصنامهم؛ ليشفعوا لهم ويصلوا إلى مرامهم، وهم جماد لا يقدرون على الاتصال والقبول أصلاً ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الساترين بأباطيلهم وأوثانهم نور الحق الحقيق بالحقية، الوحيد في الألوهية، الفريد بالعبودية ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: 14] خسران وحرمان وخذلان وبطلان.

﴿وَ﴾ كيف يتوجه ويدعي لغير الحق، مع أنه لا إله إلا الله، هو ولا شيء سواه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المتأصل في الوجود، المتصف بالقيومية، لا لغيره من الأظلال الهالكة في

---

(1) أي: في ذاته وصفاته يشير به إلى أن أهل الخذلان في ذات الله وفي صفاته مثل الفلاسفة والحكماء اليونانية الذين لم يتابعوا الأنبياء، وما آمنوا بهم، وتابعوا العقل دون السمع، وبعض المتكلمين من أهل الأهواء والبدع هم الذين أصابتهم صواعق القهر، واحترقت استعداداتهم في قبول الإيمان؛ فظلوا يجادلون في الله هل هو فاعل مختار أو موجب بالذات لا بالاختيار؟ ويجادلون في صفات الله هل للذاته صفات قائمة به أم هو قادر بالذات، ولا صفات له؟. [التأويلات].

أنفسها ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: يتذلل ويتضرع ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات المسمى بالأعيان الثابتة ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة من الصور والهياكل المنعكسة من الأسماء والصفات ﴿طَوْعًا﴾ أي: طائعين راغبين عن خبرة واستبصار ﴿وَكَرْهًا﴾ كارهين عن حيرة وضلال ﴿وَ﴾ أيضا يسجد له ﴿ظِلالُهُم﴾ أي: لوازم هوياتهم وما يترتب عليها ملتبسين ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أي: أول الظهور والبروز ﴿وَالآصَالِ﴾ [الرعد:15] أي: وقت الانمحاء والانقضاء.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد:16-17].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن عاند الحق وجادل مع أهله مكابرة، مستفهمًا على سبيل التبكيت والإسكات: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ومربيهما بأنواع التربية والكرم؟ ﴿قُلِ﴾ أيضًا أنت في جواب سؤالك؛ إذ هم معزولون عن التنطق بكلمة الحق؛ إذ ختم الله على قلوبهم وأفواههم: ﴿اللهُ﴾ أي: الموجد والمربي، هو الله المستقل بالألوهية والربوبية، ثم بعدما ظهر الحق ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم﴾ أيها الجاهلون بالله وحق قدره ﴿مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معبودات من جنس مصنوعاته، سيما أدونها وهي الجمادات التي ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا﴾ فضلاً لغيرهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتقريعًا: أيها الجاهلون المعزولون عن مقتضى العقل الفطري ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ الفاقد للبصر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الواجد لها؟ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ أي: الأعدام الهالكة في نفسها ﴿وَالنُّورُ﴾ الوجود المتشعشع في ذاته؟ ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أولئك الحمقى العمي الهالكون في تيه الغفلة والضلال ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن المثل والمثال ﴿شُرَكَاءَ﴾ مثله ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ وأوجدوا

لخلقه وإيجاده ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حتى اشتبه عليهم وتشابه خلقهم لخلقه، سبحانه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل إرشاد وتكميلاً: ﴿اللَّهُ﴾ المستجمع لصفات الكمال بأسرها والمربي لجميع الكائنات برمتها ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مظهرها وموجدها بالاستقلال بلا مظاهرة ومشاركة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿الْوَاحِدُ﴾ المستقل في الوجود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16] للأغيار الهالكة في أنفسها، المنعكسة من أظلال أسمائه وأوصافه، الباقية في صرافة عدميتها الأصلية.

ومن إشفاقه ومرحمته على عباده أن ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العالم الروحاني ﴿مَاءً﴾ أي: ماء الإيمان والعرفان ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: امتلئت النفوس القابلة بقدر ما يسع في استعداداتها منها، فسالت بعدما امتلئت ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾[1] أي: ارتفع على مياه المعارف والحقائق زبد التقليدات الحاصلة

---

(1) شبه الله سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصديقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وبسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتمل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار يكون في الأودية سيلاً؛ فتحمل المسيل زبدًا وحثالة، وما يكون مانعًا من جريان السيل في الأودية؛ فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق يكون سيل المعارف والكواشف؛ فتسيل من جداول القلوب أنهار العيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من روية الغيوب؛ فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدسة من زبد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فيبقى القلوب في بحر المشاهدة سابحة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بلدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاه من أهل رضوانه في الأزل؛ فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال، فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمتفردين والمتجردين، ويذهب بما في قلوبهم من أوصاف الحدوثية، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدعون الاتحاد، ويولهون في الانبساط، وأما الذي من بحر الصفات؛ فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحثالة الطبيعة، وينبت فيها

من رسوب القوى البشرية، وغش الطبيعة تسقطها على الأطراف وتصفيها عن الكدورة مطلقًا ﴿وَ﴾ مثل ذلك الزبد الباطل يحصل ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها حين أرادوا ذوبانها ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: طلب اتخاذها منها ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ آخر من الأواني وآلات الحرب ﴿زَبَدٌ﴾ فاسد باطل في نفسه ﴿مِثْلُهُ﴾ الزبد الأول.-

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ لهم؛ لكي يتنبهوا ويتفطنوا فيتبعوا الحق ويجتنبوا عن الباطل، ثم بيَّن لهم سبحانه مآلهم توضيحًا وتقريرًا بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ المرتفع على الماء ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: يضمحل ويتلاشى بالجفاف كما أن زبد التقليدات يسقط ويضمحل بإشراق نور اليقين ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من مياه المعارف والحقائق ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويستقر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة لانعكاس أشعة الأسماء والصفات الإلهية لينبت فيها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:17].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

- نرجس الأنس وياسمين القدس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد، وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزبد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق. وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحدثين، وينبت فيها زهر الحكمة والفطنة. وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خصَّ كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد ألطافه، ومشرب من مشارب أعطافه. [العرائس].

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:18-22].

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ فطلبوا منه ﴿الْحُسْنَى﴾ أي: المثوبة العظمى والمرتبة العليا معتقدين إفاضتها وإعطاءها إياهم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ مثل ما استجاب أهل الحق ولم يعتقدوا مثل ما اعتقد أولئك المحقون لم ينالوا نصيبهم وحظهم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ ملك ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ من الزخارف والأموال ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ بل أضعافه وأمثاله ﴿لافْتَدَوْا بِهِ﴾ لنيل ما نالوا لكن لم ينالوا، بل ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن عز القبول ﴿لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ يحاسبون على جميع ما صدر عنهم من النقير والقطمير ويؤاخذون عليها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الخذلان والطرد والحرمان ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد:18] مهد أولئك الضالين عن منهج الرشاد.

أينكر المشرك المتمرد عن متابعتك وقبول دينك؟ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ ويصدق ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأييدك من الكتاب الجامع لما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي والأمثال والرموز والإشارات هو ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا شك وارتياب فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عن إبصار ما يرى في الآفاق من المبصرات، بل أشد عمى منه؛ لأنه فاقد البصيرة؛ إذ لا يمكن إدراك الأمور الدينية والمعارف اليقينية إلا بها ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتفطن بسرائر كتاب الله ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:19] المستكشفون عن لب الأمور، المعرضون عن قشوره.

ولا يحصل ذلك إلا بالبصيرة وهم ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ الذي عهدوا معه حين رش رشحات نور الوجود على أراضي استعداداتهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد:20] الوثيق، بل يحفظونه ويواظبون على حفظه دائمًا.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ ويتصفون بعموم ﴿مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ﴾ من المأمورات والمرضيات والمعارف والحقائق والخصائل الجميلة والأخلاق الحميدة ﴿أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ﴾ عن ارتكاب المنهيات والمحظورات والذمائم من الأطوار والأخلاق ﴿رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ﴾ من الله وعن مخالفة أمره ومقتضى نهيه ﴿سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:21] ورداءة المنقلب والمآب.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إذا أصابتهم مصيبة وأحاطتهم بلية ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وطلب مرضاته، مسترجعين إليه سبحانه، متضرعين نحوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: أداموا الميل والتوجه إليه في جميع الأحوال والأزمان ﴿وَأَنفَقُوا﴾ للفقراء المستحقين ﴿مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ﴾ ووفقناهم وأقدرناهم لكسبها وجمعها ﴿سِرًّا﴾ أي: على وجه لا يشعر الفقير منفعة؛ لئلا يتأذى بالمن والأذى ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على وجه يشعر به؛ لكي يبالغ المنفق في التذلل والانكسار بحيث لا يتوهم المنة أصلاً ﴿وَ﴾ أيضًا الذين ﴿يَدْرَءُونَ﴾ أي: يدفعون ويسقطون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: بالخصلة الحميدة والخلق المرضي ﴿السَّيِّئَةَ﴾ أي: الذميمة من الخصائل والأخلاق ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الأولياء، ذوو العهد والوفاء والخوف والرجاء، الصابرون على البلاء، الراضون بما جرى عليهم من سوء القضاء، المتوجهون إلى المولى في السراء والضراء، المنفقون لرضاه من عندهم للفقراء، حصل ﴿لَهُمْ﴾ حين كانوا في النشأة الأولى ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:22] الأخرى، أي: ما يحصل فيها من اللذات والمثوبات ورفع الدرجات ونيل المرادات.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:23-28].

ومن جملتها: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: دار إقامة وخلود ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هم أصالة واستحقاقًا ﴿وَ﴾ يدخل أيضًا بشفاعتهم وتبعيتهم ﴿مَن صَلَحَ﴾ لصحبتهم ورفاقهم ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ومن ينتمي إليهم ﴿وَ﴾ حين استقروا وتمكنوا فيها يزورهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ ترحيبًا وتعظيمًا ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:23] من أبواب الجنة.

قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ أيها الفائزون بالفلاح والنجاح ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ في دار الابتلاء لأنواع المحن والبلاء ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:24] أي: منزلكم ومنقلبكم في دار القرار وعواقب أموركم فيها من الفرح الدائم والسرور المستمر.

ثم بين سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب عواقب حسن الأبرار بقبيح أحوال

الأسرار وخاتمة عواقبهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الذي عهدوا معه في بدء الوجود وأصل الفطرة ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ مع وثاقته وأحكامه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقْطَعُونَ﴾ ويتركون ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ويحافظ عليها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات من الظلم والزور والافتراء والمراء والمكابرة مع الأنبياء والأولياء، وسوء الظن مع أرباب المحبة والولاء ﴿أُولَئِكَ﴾ المعزولون عن ساحة عز القبول ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد والحرمان والرد والخذلان في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:25] ورداءة المرجع والمآب في النشأة الأخرى.

ثم لما افتخر أهل مكة بما عندهم من الأمتعة والزخارف وبأهوائها، واستحقروا فقراء المؤمنين وشنعوا عليهم، ردَّ الله عليهم بكلام ناشئ عن محض الحكمة فقال: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿يَبْسُطُ﴾ أي: يكثر ويوسع ﴿الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده في النشأة الأولى ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض وينقص على من يشاء إرادة واختيار، حكمة منه وتدبيرًا ﴿وَ﴾ هم بمفاخرهم ومباهاتهم بحطام الدنيا قد ﴿فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المستعارة التي لا قرار لها ولا ثبات بل ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وما يترتب عليها من اللذات الفانية والمشتهيات الغير الباقية ﴿فِي﴾ جانب حياة ﴿الْآخِرَةِ﴾ وما يترتب عليها من اللذات الدائمة والمثوبات الباقية ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد:26] قليل حقير، لائق به ولا يلتفت إليه.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك وبدينك: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ملجئة لإيماننا ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ مع أنه يدعي التأييد منه، ومع شغفه لإيماننا ﴿قُلْ﴾ لهم:ما عليّ إلا البلاغ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ على مقتضى علمه وعدله لمن أراد إضلاله وانتقامه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ على مقتضى جوده ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:27] إليه من ظهر القلب؛ إذ كل ميسر لما خلق له.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الحق ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تسكن وتستقر من دغدغة التقليد الباطل والتلوين المضمحل الزائل ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الوجود بلا اضطراب وتعدد وتردد، فقد اضمحلت وتلاشت عن صحائف خواطرهم نقوش الاعتبار والسوي مطلقًا ﴿أَلَا﴾ أيها الطالبون إلى مرتبة الكشف والشهود ﴿بِذِكْرِ

﴿اللَّهِ﴾ المسقط للإضافات ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] [الرعد:28] وتتمكن في مقام الحضور وتستريح عن تشاويش الأوهام.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:29-31].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أوائل سلوكهم وطلبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى مطلوبهم ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ الفوز بالفلاح والنجاح ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:29] وهو التحقق بمقام الكشف والشهود.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إرسالنا الرسل على الأمم الماضية على مقتضى سنتنا القديمة ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ منحرفة عن طريق الحق، وليس

---

(1) يعني: أهل الهداية هم الذين آمنوا، ولتعلم أن القلوب أربعة:

قلب قاسٍ: وهو قلب الكفار والمنافقين فاطمئنانه بالدنيا وشهواتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:26] واطمأنوا بها.

وقلب ناسٍ: وهو قلب المسلم كقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115] فاطمئنانه بذكر الله؛ كقوله تعالى بالتوبة ونعيم الجنة؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122].

وقلب مشتاق: وهو قلب المؤمن المطيع، فاطمئنانه بذكر الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:28].

وقلب وجداني: وهو قلب الأنبياء وخواص الأولياء فاطمئنانه بالله وصفاته كقوله تعالى لخليله ﷺ في جواب قوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260] بإراءتك بأي كيفية إحياء الموتى إذا تجلى لقلبي بصفة محبتك فأكون يحيي الموتى؛ ولهذا إذا تجلى الله تبارك وتعالى على قلب العبد تطمئن به، فينعكس نور الاطمئنان من مرآة قلبه على نفسه فتصير النفس مطمئنة أيضًا فتستحق بجذبات العناية، وهي خطاب ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]. [التأويلات].

إرسالك عليهم ببدع ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أمثالهم مائلون عن طريق الحق وسواء السبيل، وإنما أرسلناك ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ﴾ وتبلغهم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من المعارف والحقائق والآداب والأخلاق المرضية المقبولة في جنابنا، المودعة في استعدادات عبادنا؛ ليفوزوا بها سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلات والشهوات ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وينكرون ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين الغافلين تنبيهًا عليهم وتبليغًا، وإن كانوا من الحمقى الهالكين في تيه الغفلة والنسيان ﴿هُوَ رَبِّي﴾ وربكم ومولى أمري وأموركم ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود يعبد له ويرجع إليه في الوقائع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد، الصمد الفرد، الذي لا شريك له ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأسباب والوسائل ﴿مَتَابِ﴾ [الرعد:30] أي: مرجعي ومعادي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ بمثابة لو قرأت ﴿سُيِّرَتْ﴾ وتحركت ﴿بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مكانها الأصلي وأندكت ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ أي: انصدعت وانشقت ﴿بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ عند قراءته عليهم واستماعهم له ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ﴾ أي: القدرة الكاملة والحول التام والقوة الغالبة في الأمور المذكورة ﴿جَمِيعًا﴾ له سبحانه، إن تعلق إرادته ومشيئته لكان ألبتة مع ذكر ما ذكر من الأمور، لم يؤمنوا به ولم يقبلوه منك؛ لشدة شكيمتهم وكمال قسوتهم ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ ولم يقنط ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن إيمان أولئك المدبرين المعاندين، مع ظهور أمارات الكفر عليهم وعلامات الإنكار عنهم، سيما بعدما سمعوا في حقهم من الله ما سمعوا، ولم يعلم هؤلاء المؤمنون ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بهداية الكل ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فلم يهدهم لعدم تعلق إرادته بهداية البعض ﴿وَ﴾ لا تقنطوا أيها المؤمنون عن نصر الله إياكم على أعدائكم ولا تيأسوا عن روحه؛ إذ ﴿لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على الكفر عنادًا واستكبارًا ﴿تُصِيبُهُم﴾ وتدور عليهم ﴿بِمَا صَنَعُوا﴾ أي: بصنيعهم هذا وإصرارهم عليه ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية هائلة تقرع أسماعهم، وتضطربهم اضطرابًا شديدًا ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ وتنزل الداهية العظيمة في أحوالهم ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ومساكنهم لتدور عليهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الذي وعده لنبيه بأن ينتقم عنهم ويعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالفتح والظفر عليهم، وفي الآخرة بأنواع العقاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المؤيد لأنبيائه، المنجز لما

وعدهم من إهلاك أعدائهم ﴿لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد:31].

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:32-35].

ثم لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك، ولا تبالِ بعمههم وسكرتهم وبطرهم واستهتارهم بمالهم وجاههم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أشد من استهزاء هؤلاء معك ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: للمستهزئين الذين كفروا حتى انهمكوا في الغفلة وتوغلوا فيها بطرين فرحين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فجأة واستأصلتهم بغتة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد:32] مع أولئك؟ ومع هؤلاء أشد من ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿أَ﴾ ينسى الحساب ويترك العقاب ﴿فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾[1] أي: مطلع محاسب ورقيب حافظ ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ليحيط ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿وَ﴾ لاسيما الشر الذي ﴿جَعَلُوا للهِ﴾ الأحد المنزه عن الشريك والولد ﴿شُرَكَاءَ﴾ فوق واحدة من أظلاله ومصنوعاته، مع أنه

---

(1) هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وتربية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نوْر الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته، وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذت محبته، ووقفت باللذة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق. [عرائس البيان].

سبحانه تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتًا عليهم وإلزامًا لهم: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي: تلك الشركاء بأسماء، وصفوهم بصفات يستحقون بها الألوهية والربوبية ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ وتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأسماء وصفات لا يعلمها في الأرض، بل لا يعلمها في السماء ﴿أَم﴾ سموهم ﴿بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ مجازًا بلا اعتبار المعنى الحقيقي فيهم، وبالجملة: هم عاجزون عن الكل ساكتون عنها ﴿بَلْ﴾ إنما ﴿زُيِّنَ﴾ وحسن ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي: تمويههم وتلبيسهم مع علمهم ببطلانها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: قصدوا إعراض ضعفاء المؤمنين عن طريق الحق، وما هو إلا من غيهم وضلالهم في أصل فطرتهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ﴾ وأراد إضلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33] يهديهم ويوفقهم إلى سبيل الرشاد.

بل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بغفلتهم عن معرفة الله واللذات الروحانية مع عدم شعورهم بها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ حين انكشف الحال وارتفع الحجب ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب ﴿وَ﴾ كيف لا يكون عذاب الآخرة أشق؛ إذ ﴿مَا لَهُم﴾ فيها ﴿مِّنَ اللهِ﴾ أي: عذابه وانتقامه ﴿مِن وَاقٍ﴾ [الرعد:34] أي: حافظ شفيع يشفعهم ليخفف عنهم ويحفظهم من عذابه.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ المتحفظون نفوسهم عن ارتكاب المعاصي والآثام، المتمثلون بما أُمروا من العقائد والأحكام ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لإجرائهم أنهار المعارف والحقائق على أراضي استعداداتهم؛ لإنبات ثمرات الكشوف والشهود ﴿أُكُلُهَا﴾ من الرزق المعنوي والأغذية الروحانية ﴿دَائِمٌ﴾ غير منقطع ﴿وَ﴾ كذا ﴿ظِلُّهَا﴾ الذي تستريحون فيه دائم غير زائل، لا انقطاع لها أصلاً كأظلال الدنيا ﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي وصفت بما وصفت ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: عاقبة أمر المؤمنين الذين اتقوا عن محارم الله ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على ارتكاب المعاصي والشهوات البهيمية ﴿النَّارُ﴾ [الرعد:35] المعدة لهم بدل لذاتهم وشهواتهم السيئة.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا

عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:36-39].

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ واتبعناهم النبي، المبين لهم ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: في كتابهم الجامع لما في كتبهم؛ لأنهم يجدونه موافقًا مطابقًا لكتبهم ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾ من هؤلاء المتحزبين في أمر القرآن ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: الآيات الناسخة لبعضها أحكام كتبهم، قل لهم: إنما نُسخ ما نُسخ من الأحكام الجزئية على مقتضى سنة الله في نسخ بعض الأحكام الجزئية الثابتة في الكتب السابقة بأحكام الكتب اللاحقة، وليس هذا ببدع، وأمَّا العقائد الكلية المصونة عن طريان النسخ والتبديل، فهي المتفق عليها بين جماهير الأنبياء؛ لذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ الواحد الأحد، الصمد، الحقيق بالحقية، المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ﴾ من أظلاله ومصنوعاته وبمقتضى أمره ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال الهالكة في إشراق شمس ذاته ﴿أَدْعُو﴾ دعاء مؤمل متضرع خاشع خاضع ﴿وَ﴾ كيف لا أدعو؛ إذ ﴿إِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد:36] أي: منقلبي ومرجعي، رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إنزالنا للأمم الماضية كتابًا بعد كتاب ناسخًا لبعض ما فيها على مقتضى الأزمان والأقوام كذلك ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن، إليك يا أكمل الرسل ﴿حُكْمًا﴾ مبينًا للقضايا على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿عَرَبِيًّا﴾ مناسبًا بلسانك ولسان قومك يسهل لهم الاسترشاد والاستهداء به، ناسخًا لبعض ما في الكتب السالفة ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ أنت بنفسك ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ أي: أهواء أهل الكتاب وإن كانت قبل النسخ هدى سيما ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ﴾ في كتابك ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنسخها وبصيرورتها هوى ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ﴾ من غضبه وانتقامه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أمرك بالاستخلاص والاستشفاع ﴿وَلاَ وَاقٍ﴾ [الرعد:37] يحفظك ويمنعك من مقته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ﴾ مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا

﴿وَذُرِّيَّةً﴾[1] مثل أزواجك وأولادك، فلا يقدح في نبوتهم أزواجهم وأولادهم، فكيف يقدح في نبوتك مع أنك أفضل منهم ﴿وَ﴾ أيضًا أرسلنا رسلاً من قبلك ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ ووحيه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ ووقت يسع فيه أمر من الأمور الكائنة والفاسدة ﴿كِتَابٌ﴾ [الرعد:38] نازل من عنده ناطق بوقوع ما كان ويكون فيه.

﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ وينسخه على مقتضى حكمته وإرادته ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما أراد إثباته ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:39] أي: لوح القضاء والقدر المتوالية، المتتالية على مقتضى الأوصاف الذاتية الإلهية والتجليات اللطفية والقهرية والجلالية والجمالية.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:40-43].

﴿وَ﴾ بالجملة: لا تفرح يا أكمل الرسل ﴿إِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: إن تحقق إراءتنا لك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من الإهلاك والإجلاء والقهر والغلبة ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: لا تغتم أيضًا أن تحقق توفينا لك قبل رؤيتك بما نعدهم من العذاب والنكال بل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ أي: ليس في وسعك وطاقتك ﴿البَلاغُ﴾ بما أمرت بتبليغه ﴿وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾ [الرعد:40] والجزاء بمقتضاه عاجلاً وآجلاً.

﴿أَ﴾ ينكرون حسابنا إياهم وانتقامنا عنهم ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ﴾ التي شاعت فيها كفرهم ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وأرجائها حتى ضاقت عليهم بإظهار دين

(1) يشير إلى أن الرسل لما جذبتهم العناية في البداية رقتهم من دركات البشرية الحيوانية إلى درجات الولاية الروحانية ثم رقتهم منها إلى معارج النبوة والرسالة الربانية في النهاية فلم يبق فيهم من دواعي البشرية وأحكام النفسانية ما يزعجهم إلى طلب الأزواج بالطبيعة والركون إلى الأولاد بخصائص الحيوانية؛ بل جعل لهم رغبة في الأزواج والأولاد على وفق الشريعة بخصوصية إطلاقه في إظهار صفة الخالقية. [التأويلات].

الإسلام وإكثار أهله ﴿وَاللهُ﴾ المدبر على مقتضى الحكمة ﴿يَحْكُمُ﴾ بحكم مبرم ﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أصلاً ليبدله ويغيره ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد:41] صعب الانتقام على من أراد تغيير حكمه وتبديله.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مع أنبيائهم المبعوثين إليهم مثل مكر هؤلاء الماكرين معك يا أكمل الرسل، فلحقهم ما لحقهم وهم غافلون عن مكر الله ﴿فَلِلَّهِ﴾ المطلع لعواقب الأمور ﴿المَكْرُ﴾ المعتد به ﴿جَمِيعًا﴾ إذ ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ونفع وضر، فينتقم هو عنها على مقتضى علمه ﴿وَ﴾ هم وإن غفلوا عن مكر الله وما يترتب عليه من الوبال ﴿سَيَعْلَمُ الكُفَّارُ﴾ المصرون على الكفر والضلال ﴿لِمَنْ﴾ من الفريقين ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:42] أي: العاقبة الحميدة في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدينك وكتابك؛ أي: رؤساؤهم وصناديدهم: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ من عند الله مثل سائر الرسل؛ لذلك ما نتبعك ونؤمن بك وبكتابك ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله بي شاهد لإثبات رسالتي وادعائي النبوة؛ إذ أيدني بالمعجزات القاطعة والبراهين الساطعة ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[1] [الرعد:43] من أصحاب اللسن والفصاحة وأرباب الفطنة والذكاء، المتأملين في مرموزات الكتاب، المتنعمين في استكشاف سرائره، لو تأملوا فيه حق تأمل وتدبر، لم يبق لهم شائبة شك وتردد في أنه ما هو من جنس كلام البشر، بل ما هو إلا وحي يوحى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا

(1) قال البقلي: يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسراره وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققًا في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفراسات الصادقة، والآيات الواضحة. قال ﷺ في وصفهم: «إنَّ في أمتي محدِّثين مكلَّمين، وإنَّ عمر منهم». وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاء، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

لَهُ مِن نُورٍ﴾ [النور:40].

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب القاصد لاستكشاف سرائر المرتبة الجامعة المحمدية التي اتحد عندها قوسا الوجوب والإمكان، واتصل دونها الغيب والشهادة أن تتأمل في القرآن المنزل عليه من عند ربه على مقتضى نشأته وكمال استعداده وعزة شأنه، وتتدبر حق التدبر في مرموزاته بقدر وسعك وطاقتك، وإن كان الاطلاع على غوره من المستحيلات سيما بالنسبة إلى ذوي الاستعدادات الضعيفة حتى يشهد لك ذوقك ووجدانك برسالته ونبوته وهدايته إلى توحيد ربه وإرشاده إلى سبيل الحق، ولا يتيسر لك هذا إلا بعد تصفية ظاهرك عن الشواغل الحسية والعلائق الدنياوية مطلقًا، وباطنك عن التقليدات والتخمينات الموروثة لدرن الجهالات ورين الخيالات الموقعة لأنواع الشبهات والترددات.

وبالجملة: لا يحصل لك هذا إلا بعد تحققك في مرتبة الموت الإرادي وخروجك عن مقتضى هويتك مطلقًا.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق توحيده، ووفقه إلى سواء سبيله بمنّه وجوده.

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة إبراهيم عليه السلام

لا يخفى على ذوي الاستبصار وأولي الفهم والاعتبار من المستكشفين المستنيرين بلوامع نور الوجود المتشعشعة والمتجلية على صفائح المكونات الغيبية والشهادية أن حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو لإخراج أصحاب الجهالات والغفلات عن ظلمات الضلالات ومهاوي التقليدات والتخمينات إلى نور اليقين وفضاء العرفان؛ ليتنبهوا على شأنهم في منشئهم ومآلهم وحالهم، في مبدئهم ومعادهم ويتفطنوا، يتيسر لهم سلوك طريق التوحيد المنجي عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام، ويحصل لهم الترقي من المرتبة الأنزل الأدنى إلى الأرفع الأعلى؛ لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأنزل عليه ما أنزل؛ تأييدًا له وتتميمًا لإرشاد عباده إلى توحيده.

فقال متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بالكمالات اللائقة على صدور أنبيائه لتكميل من آمن لهم من عباده وإهدائهم إلى طريق توحيده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإرسال من هو من جنسهم؛ ليسهل لهم الاستفادة والاسترشاد منه بلا كلفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال الكتاب الجامع لجميع شعائر سلوكهم في مبدئهم ومعادهم ليدوم فيما بينهم.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ (٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٤)﴾ [إبراهيم:1-4].

﴿الر﴾ أيها الإنسان الكامل الأحق الأليق للوامع لوائح رموزات رقائق الربوبية بأن تنزل على قلبك بطريق الوحي والإلهام، فتذيعه بين الأنام على سبيل الإرشاد والتكميل هذا ﴿كِتَابٌ﴾ جامع لجميع لوامع رقائق الربوبية ودقائق لوائح الألوهية، مناسب مطابق لمرتبتك الجامعة ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ تأييدًا لك في أمرك ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾[1] الناسين المقام الأصلي والمنزل الحقيقي ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الإمكانية الطبيعية الهيولانية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ البحت الخالص عن شوب المادة والمدة، وليس إخراجك إياهم إلا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم في أصل استعداداتهم وفطرتهم بأنواع اللطف والكرم، ووفقهم على قبول ما جئت به من عند ربهم ليوصلهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب في أمره على مقتضى قدرته وإرادته على الوجه الأقوم الأعدل ﴿الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:1] في فعله؛ لخلوه عن كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وكيف لا يكون صراطه مستقيمًا وأفعاله معتدلاً مقتصدًا؛ إذ هو ﴿اللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الكمالات ﴿الَّذِي لَهُ﴾ تكوين ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الكواكب السيارات والثوابت على النمط البديع والتركيب العجيب ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من العناصر والمركبات على أقوم الأمزجة وأعدله ﴿وَوَيْلٌ﴾ أي: طرد وتبعيد عن مرتبة التوحيد ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ الساترين شمس الحق الظاهر بالعدالة التامة والاستحقاق بغيوم الأظلال الباطلة والعكوس العاطلة ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:2] هو مسخهم وتبديلهم عن كمال مظهرية الحق وخلافته إلى مرتبة الحيوانات العجم، بل إلى مرتبة الجمادات التي هي أنزل المراتب ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179].

وهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ المستعارة التي لا مداد لها ولا قرار؛ إذ هي أظلال في ظلمة عكوس عاطلة ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: على الحياة الأخروية التي هي بقاء سرمدي وحياة أزلية لا انقضاء لها أصلاً ﴿وَ﴾ هم مع اختيارهم وترجيحهم الحياة الفانية على الباقية ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو الإيمان بالله

(1) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إنه لَكِتَابٌ أُنزِل إليك لتُخرِجَ الناس به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظُلماتِ الشَّكِّ إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفسِ إلى نورِ معارفِ القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ بإذن ربهم وبإرادته ومشيئته، وسابِقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (24/4).

وبرسوله وكتابه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون أن يحدثوا فيها مع استقامتها انحرافًا ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن طريق الحق، الساعون في الباطل مكابرة وعنادًا ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم:3] عن الهداية بمراحل بحيث لا يرجى هدايتهم أصلاً؛ لأنهم مجبولون على الضلالة والغواية في أصل فطرتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ من الرسل على أمة من الأمم ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أي: ما أرسلناه إلا للغة موافقة بلغة قومه؛ ليفقهوا حديثه ويفهموا لسانه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ طريق التوحيد، ويجنبهم عن خلافه وما عليه، وفي وسعه إلا البلاغ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ المضل المذل لعباده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله وإذلاله على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما أراد وشاء إرادة واختيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:4] المتقن في فعله على مقتضى إرادته.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:5-7].

ثم ذكر سبحانه قصة إرسال موسى إلى قومه حين فشا الجدال والمراء بينهم وانحرفوا عن طريق الحق؛ ليتعظ به المؤمنون ويعتبروا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿مُوسَى﴾ المؤيد ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الباهرة مثل: العصا واليد البيضاء وسائر المعجزات الظاهرة على يده، وقلنا له ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ الضالين عن سواء السبيل بمتابعة الأهوية الفاسدة ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ الطارئة عليهم من الكفر والفسوق والعصيان والتقليدات والتخمينات الناشئة من الأوهام والخيالات، المنبعثة عن الكثرة المستدعية للأنانية التي هي الظلمة الحقيقية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الحقيقي الذي هو صرافة التوحيد والوحدة الذاتية المسقطة لجميع الإضافات والكثرات ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أيضا ﴿بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ التي مضت على الأمم الهالكة من أمثال هذه الأفعال المورثة لأنواع الظلمات؛

لعلهم يعتبروا عن سماعها وينصرفوا عما هم عليه من القبائح والذمائم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في ذكر تلك الوقائع الهائلة والبليات العظيمة ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلائل واضحات وعبر ﴿لِّكُلِّ﴾ مؤمن معتبر من أمثاله خائف من بطش الله ﴿صَبَّارٍ﴾ على ما جرى عليه من قضائه ﴿شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:5] مبالغ في الشكر على ما وصل إليه من آلائه ونعمائه.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين أراد تعديد نعم الله عليهم وإحسانه إليهم؛ ليستحيوا عن مخالفة أمره وترك طاعته وعبادته ﴿اذْكُرُوا﴾ أيها المغمورون بنعم الله ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا لشكرها؛ أداء لحق شيء منها سيما ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويقصدون لكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أفضحه وأقبحه ﴿وَ﴾ هو أنه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قمعًا وقلعًا لعرقكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ توبيخًا وتقريعًا عليكم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ﴾ نازل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إذ هو بإقدار الله إياهم ﴿عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم:6] لا بلاء أعظم منه.

والإنجاء عن أمثال هذا البلاء من أعظم النعماء، فعليكم أن تواظبوا لشكره ﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: أعلمكم إعلامًا بليغًا، وأوصاكم وصية عظيمة تتميمًا لتربيتكم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾[1] على ما أُعطيتم من النعم العظام وقمتم لأداء حقها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأضاعفنكم بأمثالها وأضعافها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ في مقابلة الإحسان والعطاء، فلا يلحق علي أثر كفرانكم، بل ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾ ونكالي على من صرف عن أمري وخرج عن إطاعتي وانقيادي ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7] مبرم محكم لا يندفع أصلاً، فعليكم أن تلازموا الشكر وتجانبوا عن الكفران.

---

(1) قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم ولايتي.

وسُئِل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر. وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس. وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد، والحضور بعد الغيبة. قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمۡ
يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا
يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا
بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ
شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ ﴾ [إبراهيم:8-10].

﴿وَ﴾ بعدما فرغ عن التعديد والتذكير ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ قولاً ناشئًا عن محض الحكمة والرزانة على مقتضى نور النبوة والولاية: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ أيها الغافلون عن كمال استغناء الله وعلو شأنه وسمو سلطانه ﴿أَنتُمْ﴾ بأجمعكم، بل ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا يزن في جنب استغنائه سبحانه بمقدار جناح بعوضة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته عما سواه من أظلاله مطلقًا ﴿حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:8] بمقتضيات أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿نَبَأُ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ لمثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حيطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء حين ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ المبعوثون إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات، والمعجزات الباهرات المثبتة لرسالاتهم، فدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وأمروهم بالمعروفات ونهوهم عن المنكرات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ مشيرين إليها من غاية إنكارهم واستهزائهم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي: اعترفنا بالكفر بأفواهنا، كأنهم أخبروا عن كفرهم بالجملة الماضية تحقيقًا وتقريرًا لما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ من عند ربكم وكيف نؤمن لكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإله الواحد، الأحد الصمد المتصف بجميع صفات الكمال، الموجد المظهر للكائنات ﴿مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:9] موقع للريب المؤدي إلى الإنكار؛ إذ المتصف بهذه الصفات لا بدّ أن يكون أظهر من الشمس، مع أنه أخفى من كل شيء،

بل لا وجود له أصلاً.

﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفِي اللَّهِ﴾ الظاهر المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿شَكٌّ﴾ وتردد مع كونه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، إنما ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى توحيده بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بعضًا ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهو ما بينكم وبينه سبحانه؛ إذ حق الغير لم يسقط ما لم يعف صاحب الحق عنه ﴿وَ﴾ بعد دعوتكم ﴿يُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم الجزاء؛ ليهيئ كل منكم زاد يومه هذا على الوجه المأمور المبين في الكتب المنزلة على الرسل، وبعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ مستنكرين عليهم، مستهزئين لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون وتفعلون جميع ما نفعل ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه الحيل والتزويرات الباطلة ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وأسلافنا من الآلهة والأصنام، وإن صدقتم في دعواكم ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:10] أي: بحجة واضحة لائحة نقترحها منكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:11-12].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مسلمين منهم المشاركة في الجنس: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ نشارك لكم في جميع أحوال البشر وأوصافه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المنعم المفضل ﴿يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بمقتضى جوده وإحسانه بفضائل مخصوصة وكرائم غير شاملة على تفاوت مراتبهم واستعداداتهم المثبتة في علم الله ﴿وَ﴾ أما أمر مقترحاتكم فإنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: صح وجاز ﴿لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ تقترحون ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه ووحيه وإقداره إن تعلق إرادته بصدورها منا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:11] الموحدون المفوضون أمورهم كلها إلى الله أولاً وبالذات، ولا يعتقدون الحول والقوة إلا بالله المستقل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا عنهم وعن صلاحهم اشتغلوا إلى تزكية نفوسهم ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أي عذر عرض لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ المصلح لأحوالنا، فلِمَ لَمْ نتخذه وكيلنا وكفيلنا؟ ﴿وَ﴾ الحال أنه سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿قَدْ هَدَانَا﴾ وأوضح لنا ﴿سُبُلَنَا﴾ التي نسلكِ بها نحو توحيده وعرفانه، وإن ما جرى علينا من المنافع والمضار إنما هو من عنده وبمقتضى مشيئته وإرادته ﴿وَ﴾ الله بعدما تحققنا بمقام التوحيد، وتمكنا في مقر التجريد والتفريد ﴿لَنَصْبِرَنَّ﴾ على جميع ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ بالرد والإنكار وغير ذلك من الاستهزاء وسوء الأدب، وكيف لا نصبر؛ إذ الكل بيده سبحانه ويحيطة حضرة قدرته وإرادته، إنما وصل إلينا ابتلاء منه سبحانه إيانا واختبارًا ﴿وَ﴾ بعدما تحقق وبيّن أن الكل من عنده ﴿عَلَى اللهِ﴾ المستقل في جميع التصرفات والأفعال في كل الأمور والأحوال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:12] الموحدون، المفوضون أمورهم كلها إليه؛ لذلك بذلوا مهجهم في طريق التوحيد وإعلاء كلمته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم:13-17]

﴿وَ﴾ بالجملة: أدى أمر استكبارهم واستنكارهم وتكذيبهم إلى أن ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ حين بالغوا في دعوتهم وإهدائهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ أيها المزورون الملبسون ﴿مِّنْ أَرْضِنَا﴾ إجلاء وإخراجًا على وجه الإهانة والإذلال ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ منصفين ملجئين ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ التي هي ملة آبائكم وأسلافكم ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ حين اشتد الأمر إليهم واضطروا من ظلمهم وطغيانهم، قائلاً لهم على سبيل الوعد والتبشير: لا تبالوا أيها الرسل المبلغون كلمة الحق إليهم من تهديداتهم وتشنيعاتهم، ولا تخافوا من شوكتهم وصولتهم نحن أقوى منهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ونستأصلن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:13] الخارجين عن ربقة إطاعتكم وانقيادكم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ ونقررنكم ﴿الأَرْضَ﴾ التي هم يريدون إخراجكم منها مهانين

صاغرين ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: إهلاكهم واستئصالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إهلاك العدو وإيراث الأرض والديار ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: للمؤمنين الموعدين الخائفين عن قيامي وحفظي واطلاعي لجميع أحوال عبادي، وبسبب خوفهم هذا لا يخرجون عن مقتضى نهيي وأمري ﴿وَ﴾ مع ذلك الخوف ﴿خَافَ وَعِيدِ﴾[1] [إبراهيم:14] أي: عن وعيدي في يوم الجزاء بأنواع العذاب والنكال.

ومن غاية خوفهم ورعبهم عن الوعيدات الأخروية استعدوا لها، وهيأوا أسباب النجاة منها، جعلنا الله ممن هيأ أسباب أخراه في أولاه ﴿وَ﴾ كيف لا ينصرهم الحق ولا يهلك عدوهم؛ إذ هم ﴿اسْتَفْتَحُوا﴾ واستنصروا من الله، وطلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم، مفوضين أمورهم كلها، مسلمين نفوسهم وأرواحهم على قضائه؛ لذلك فتح سبحانه عليهم ونصرهم على عدوهم ﴿وَخَابَ﴾ خيبة أبدية وخسر خسرانًا سرمديًا ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متكبر متجبر على الله وعلى عباده ﴿عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:15] مبالغ في العتو والعناد مع أنبيائه ورسله.

ومع ذلك لا يقتصر عليهم بالعذاب العاجل، بل ﴿مِّن وَرَائِهِ﴾ أي: وراء العذاب الدنيوي ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان والطرد والحرمان ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ فيها حين اشتد زفرتهم ﴿مِن مَّاءٍ﴾ أي: مائع كالماء ﴿صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:16] أي: قيح سائل من جراحات أجساد أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ بتكلف واضطراب ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: لا يقارب أن يجري على حلقه؛ للزوجته وحرارته والتصاقه ﴿وَ﴾ لعدم إساغته وجوازه ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يأتيه ويتوجه نحوه أسباب الموت من كل عضو من أعضائه؛ لوصول أثر اشتداده ورداءته وبشاعته كل جزء من أجزاء بدنه حتى أصول شعره، فتقشعر من هوله كما يشاهد عند شرب الأدوية الرديئة الكريهة الرائحة واللذة مثل: السقمونياء والحنظل وغير ذلك ﴿وَ﴾ مع إتيان أسباب الموت من جميع الأعضاء ﴿مَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ حتى يخلص من العذاب، بل ﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ أي: عقيب سقيه على هذا الوجه ﴿عَذَابٌ

(1) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، واطلاعي على سرهم وعلانيتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو علامي الموعود للكفار. البحر المديد (3 /192).

غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:17] من أنواع العذاب.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم: 18-21].

ثم قال سبحانه كلامًا جمليًا شاملاً لجميع أصحاب الضلال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم، فيكفرون النعم والمنعم جميعًا متى لم يصلوا إلى مرتبة توحيده وعرفانه، ولم يؤمنوا به حتى يصلوا بالسلوك والمجاهدة إليه، شأنهم العجيب وحالهم الغريبة فيما يتلى عليكم أنه ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحسنة من الصدقة والعتق والصلة وغير ذلك من الأعمال المقربة إلى الحق إن كانت غير مقرونة بالإيمان والمعرفة ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ذو رياح شديدة عاصفة فطار بها الرماد إلى حيث لم يبق في مكانه أثر منه، أي: مثلهم وشأنهم في كون أعمالهم محبطة يوم القيامة كمثل ذلك الرماد بحيث ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ لدى الحاجة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من الأعمال المنجية المخلصة ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ قليل حقير، فكيف بالكثير العظيم منها؟! ﴿ذَلِكَ﴾ الإحباط والهباء وعدم النفع ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:18] بمراحل عن الهداية والفوز بالفلاح، وما ذلك إلا لعدم مقارنتها بالإيمان والعرفان، ولتكذيب الرسل المبينين لهم طريق التوحيد والإيقان.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبعد لإحباط أعمال أولئك الكفرة المعاندين مع الله ورسله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر، المقتدر بالقدرة التامة الكاملة بحيث لا ينتهي قدرته أصلاً ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أظهرهما وأوجدهما من كتم العدم على وجه الإبداع والاختراع ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت المطابق للحكمة البالغة الكاملة بحيث ما ترى فيها من فطور وفتور، يشاهد أهل البصائر والاعتبار هذا النمط البديع والنظام العجيب فينكشفوا منها إلى مُبدئها ومُنشئها، ومع ذلك ﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها المائلون عن

طريق الحق الناكبون عن مقتضى حكمته بمتابعة أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم الباطلة ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِخَلْقٍ﴾ آخر ﴿جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:19] مستبدع مستحدث؛ ليواظبوا على طاعته ويداوموا على مقتضيات حكمته.

﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال ذلك؛ إذ ﴿مَا ذَلِكَ﴾ وأمثاله ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتعزز بالمجد والبهاء والعظمة والكبرياء والبسطة والاستيلاء ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:20] متعذر أو متعسر؛ إذ لا يتعسر على قدرته المقدور، ولا يتعذر عليه شيء من الأمور.

﴿وَ﴾ كيف يتعسر أو يتعذر عليه شيء من الأشياء؛ إذ الكل ﴿بَرَزُوا﴾ أي: ظهروا ورجعوا في النشأة الآخرة ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر المبرز لهم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين؛ إذ لا يخرج عن حيطته شيء ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ من ذوي الاستعدادات الضعيفة حين أخذوا بجرائمهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عليهم في النشأة الأولى بالرئاسة والعقل التام، وادعاء الفضل والكمال إلى حيث جعلوا نفوسهم مبتدعين لهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، وأنتم ناصحون لنا، آمرون بتكذيب الرسل وأنواع الفواحش والقبائح الممنوعة بألسنة الرسل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم حين أُخذنا على ما أمرتمونا ﴿مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون مانعون ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ المنتقم منا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: بعض من عذابنا ونكالنا؟! ﴿قَالُوا﴾ أي: المستكبرون بعدما عاتبهم الضعفاء: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن أضلنا باسمه المضل، فأضللناكم، فالآن نحن وأنتم ضالون ظالمون مؤاخذون ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿أَجَزِعْنَا﴾ عن شدة العذاب والنكال ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على مُقاساته وأحزانه ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم:21] أي: مخلص ومناص.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم:22-23].

﴿وَقَالَ الشَّيطَانُ﴾ أي: الأهوية الفاسدة المفسدة لهم في نشأتهم الأولى مصورة على صورة الشيطان المغوي ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح المدبر لأحوال عباده ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾ هذا اليوم الذي به تؤاخذون فيه ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ ضلالاً وإغراء لكم بخلافه ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ما وعد به ربكم مع أن إنجازه مقطوع به لاشك فيه أصلاً، واتبعتم قولي مع أنه غرور وإضلال لا يرجى إنجازه مني أصلاً وأنتم جازمون به ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة مرجحة وأدلة ملجئة ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: سوى أن دعوتكم على مقتضى أهويتكم وأمنيتكم التي تقتضيها هويتكم وماهيتكم، ومع ذلك ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وصدقتم قولي بلا تردد ومماطلة طوعًا ورغبة.

﴿فَلاَ تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ الباعثة الداعية على متابعتي مع جزمكم بمكري وعداوتي ﴿مَّا أَنَا﴾ اليوم ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: مغيثكم ومعينكم، وإن ادعيت فيما مضى تغريرًا وتلبيسًا ﴿وَمَا أَنتُم﴾ أيضًا ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ إذ انكشف الحال وانقطعت علاقة المحبة بيننا، وصارت كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنِّي﴾ اليوم بعد انكشاف السرائر والضمائر ﴿كَفَرْتُ﴾ أي: تبرأت وأنكرت ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي﴾ أي: بإشراككم معي في إشراك الله الواحد الأحد الصمد، الذي لا شريك له أصلاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ في دار التلبيس والتزوير والإغواء والتغرير ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضيات أوامر الله ونواهيه عدوانًا وزورًا ﴿لَهُمْ﴾ اليوم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:22] مؤلم أشد الإيلام.

ثم بيَّن سبحانه على مقتضى سنته المستمرة بعدما بين أحوال الهالكين المنهمكين في تيه العتو والعناد، وفظاعة أمرهم في يوم الجزاء مآل المؤمنين الناجين عن تغريرات الدنيا الدنية وتسويلات الشياطين الغوية فيها.

فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله وتصديق كتبه ورسله ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي هي نتائج الإيمان ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ لتنبت في أراضي استعداداتهم وقابلياتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من المكاشفات والمشاهدات الخارجة عن طوق البشر، ومع ذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: برضاه وتوفيقه وتيسيره ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من قبل الحق بلسان الملائكة حين ملاقاتهم ﴿فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم:23]

لأنهم مسلمون منقادون مسلمون أمورهم كلها إلى الله.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم:24-27].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر الخبير البصير ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿مَثَلًا﴾ لينتبهوا منه بأن شبه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد القائلة المفصحة بألا وجود لسوى الحق ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة التي ﴿أَصْلُهَا﴾ وعروقها ﴿ثَابِتٌ﴾ في الأرض بحيث لا يقلعها ولا يشوشها الرياح أصلاً ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أفنانها وأغصانها مرتفعة ﴿فِى﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [إبراهيم:24].

(1) قال الشيرازي: أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفائيته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفائيته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن تغاير الحدثان وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتفريد والفناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخوف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والإطلاع على الأسرار والوله والهيمان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة بطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أي: ثمارها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحيان المعينة للإثمار ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: بإرادته ومشيئته؛ يعني: كما أن النخلة تنمو وتثمر بسبب أصلها الثابت في الأرض وفرعها المرتفع نحو السماء، ويحصل منها الثمر وقت حصولها، كذلك الكلمة الطيبة التوحيدية المستقرة، أصلها في أراضي الاستعدادات الفطرية المرتفعة أغصانها وأفنانها نحو سماء العالم الروحاني، المثمرة لثمرات المكاشفات والمشاهدات، القالعة القامعة لأشواك الكثرات، الناشئة من الإضافات العدمية ﴿وَ﴾ لا حاجة لأولي البصائر والألباب، المنكشفين بصرافة الوحدة الذاتية إلى أمثال هذه التنبيهات، بل ﴿يَضْرِبُ

كل ذرة في مرائي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفًا بالإرادة، ومَنْ أكل ثمرًا من ثمار تلك الشجرة يحي بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضًا الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في ارض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حيث بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفِراسات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضًا تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإنفاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة. قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أنبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبتت شجرًا، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿اللهُ﴾ المطلع لسرائر استعدادات عباده ﴿الأَمْثَالَ﴾ المذكورة ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهودهم ومواثيقهم مع الله بُحجب تعيناتهم المستتبعة للإضافات والكثرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:25] رجاء أن يتذكروا ما نسوا من أمثال هذه الأمثال.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر المستتبعة لأنواع الفسوق والعصيان، المخالفة لجادة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة التي ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي: أخذت تنمو جثتها ﴿مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ بلا استحكام عرقها في الأرض وتعمقها؛ لذلك ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1] [إبراهيم:26] إذ أدنى الرياح يقلبها كيف يشاء؛ يعني: كما أن الشجرة الخبيثة الغير المستقرة يقلبها الرياح كيف يشاء كذلك اعتقادات الكفرة والفسقة المقلدة يقلبها أدنى رياح الشكوك والشبهات، وتوقعهم في مهاوي الأوهام والخيالات.

وبالجملة: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: بالإقرار المطابق للاعتقاد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: حيث بذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الحق ولا ينصرفون عنها ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ أيضًا بحيث لا يتلعثمون ولا يضطربون يوم العرض الأكبر، بل في البرزخ أيضًا عند سؤال المنكر والنكير ﴿وَ﴾ كما يثبت المؤمنين بالإيمان كذلك ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾ المذل المضل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين خرجوا عن ربقة العبودية عنادًا واستكبارًا؛ أي: يثبتهم على الضلال إلى حيث لا يفوزون بالفلاح أصلاً، بل صاروا خالدين في النار أبد الآباد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَفْعَلُ اللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:27] من الإهداء والإضلال، والإعزاز والإذلال.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

(1) قال القشيري: (44/4): والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجْتُثَّ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم:28-34].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي إلى الظالمين المسرفين ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ الفائضة عليهم من محض فعله وعطائه؛ ليشكروا له ويواظبوا على أداء حقه ﴿كُفْرًا﴾ أي: يصرفونها كفرانًا لها إلى البغي والطغيان على الله وعلى خلَّص عباده، مع أن المناسب صرفها إلى إعلاء كلمة الله ونصر دينه ونبيه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَحَلُّوا﴾ وأدخلوا نفوسهم ﴿قَوْمَهُمْ﴾ التابعين لهم المعاندين لكفرهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:28] أي: الهلاك والخسار.

يعني: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلون فيها أذلاء مهانين مقهورين، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:29] والمقر مقرهم الذي هو جهنم الطرد والخذلان.

ومن خبث بواطنهم ﴿وَ﴾ شدة شكيمتهم ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿أَندَادًا﴾ شركاء من أظلاله ومصنوعاته ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو دين الإسلام الموصل إلى توحيد الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أيها المسرفون بما أنتم عليه من الكفر والعناد ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ ومآل أمركم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:30] المعدة لتخذيلكم وجزائكم.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بجميع ما جئت به إليهم من أمور الدين سيما الصلاة المصفية لبواطنهم والزكاة المزكية لظواهرهم كذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: يديموها في الأوقات المفروضة فيها ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على المستحقين ﴿سِرًّا﴾ بلا سبق سؤال ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ بعد السؤال، استعدوا أيها الطالبون للنجاة لأخراكم في أولاكم، وأعدوا زاد عقباكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ليتدارك المقصر بالإنفاق والصدقة بعض تقصيراته ﴿وَلَا﴾ يقبل فيه ﴿خِلَالٌ﴾ [إبراهيم:31] أي: شفاعة من خليل حميم يشفع للجرائم والتقصيرات.

وكيف لا تستعدون بعدما أمركم الله بإعداده ووفق أسبابه عليكم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ الموفق لعباده أسباب معادهم هو المدبر المصلح ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات المعدة للإحاطة ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: السفليات القابلة للفيض ﴿وَأَنزَلَ﴾ أي: أفاض ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ﴾ أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ لتكون ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ مقومًا لمزاجكم، مبقيًا لحياتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله وإعداد زاد يوم المعاد ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: السفن الجارية ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته؛ لتسيروا معها إلى حيث شئتم وتتجروا بها وتربحوا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيضًا ﴿الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:32] الجارية على بسيط الأرض؛ ليسهل لكم إخراج الجداول منها للحراثة والزراعة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيضًا ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ مختلفين في سيرهما شتاء وصيفًا خريفًا وربيعًا؛ لإنضاج ما تحرثونه وتزرعونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:33] لسباتكم ومعاشكم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿آتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[1] بلسان استعداداتكم وقابلياتكم من متممات نفوسكم ومكملات إدراككم ﴿وَ﴾ بلغ إنعامه سبحانه إياكم في الكثرة إلى حيث ﴿إِن تَعُدُّوا﴾ وتحصوا ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الفائضة عليكم لتربيتكم ﴿لاَ تُحْصُوهَا﴾ أي: لا يسع لكم إحصاؤها من كمال كثرتها ووفورها، فلكم أن تواظبوا على شكرها وأداء حق شيء منها، وإن كانت القوة لا تفي بأدائها، لكن قليلاً منكم يشكرون نعمه ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان في أصل فطرته باعتبار قوى بشريته وبهيميته

(1) قال الشيرازي: إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد، فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم. قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد. وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية. وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

﴿لَظَلُومٌ﴾ أي: مظلوم محزون عند الشدة وهجوم البلاء ﴿كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:34] مبالغ في الكفران والنسيان وقت الفرح والسرور.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم:35-39].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ حين ناجى مع الله بعدما عمر مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ﴾ التي تأمرني بتعميرها؛ يعني: مكة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن وأمان من تخريب العدو وتغييرها ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أي: بعدني ﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] بتسويلات الأهوية الفاسدة والشياطين المضلة.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأوثان والأصنام بإظهارك بعض الخوارق عليها ﴿أَضْلَلْنَ﴾ وصرفن ﴿كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ عن جادة توحيدك ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ بعدما دعوتهم إلى توحيدك ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وعلى ملتي وديني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ولم يقبل قولي وأصر على ما هو عليه ﴿فَإِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك وفضلك ﴿غَفُورٌ﴾ قادر على العفو والمغفرة عن جميع المعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:36] ترحمهم بمقتضى سعة رحمتك وحلمك.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضًا منها وهو إسماعيل وبنوه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إذ هي حجرية لا زرع فيها ولا حرث ﴿عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ﴾ سمي به؛ إذ حرمت فيه المقاتلة والصيد والتعرض والتهاون مطلقًا حفظًا فيه؛ لذلك لا يزال معظمًا مكرمًا يهابه الجبابرة، وإنما أسكنتهم عنده؛ ليكنسوا بيتك من الأقذار، ويصفوه من الأكدار ﴿رَبَّنَا﴾ إنما أسكنت ذريتي عند بيتك ﴿لِيُقِيمُوا﴾ ويديموا ﴿الصَّلاةَ﴾ المقربة نحو جنابك وفناء بابك ﴿فَاجْعَلْ﴾ بمقتضى فضلك وجودك ﴿أَفْئِدَةً﴾ أي: وفدًا كثيرًا وقفلاً ﴿مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي﴾ أي: تميل وتتوجه ﴿إِلَيْهِمْ﴾ من الجوانب ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ﴾

أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ المهداة إليهم من البلاد البعيدة، يأتي بها الزوار والتجار ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:37] نعمتك ويواظبون على طاعتك وخدمة بيتك عن فراغ القلب.

﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ من حوائجنا ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: ما لنا علم به؛ إذ أنت أعلم بحوائجنا منا؛ إذ علمك بنا وبجميع مظاهرك حضوري ذاتي، ولا علم لنا بذاتنا كذلك، بل نحن عاجزون عن إدراك أنفسنا كعجزنا عن إدراك ذاتك يا مولانا، لذلك قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1] ﴿وَ﴾ كيف يخفى عليك حوائجنا؛ إذ ﴿مَا يَخْفَى﴾ ويستر ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المحيط بكل الأشياء ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لذلك ظاهر ﴿فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:38] وكيف خفي عليه شيء؛ إذ هو عالم بها، مظهر لها، لا يعزب عنه شيء منها.

﴿الحَمْدُ﴾ والمنة ﴿لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ من يخلفني ويحيي اسمي حين آيست، إذ بلغ سني ﴿عَلَى﴾ كمال ﴿الكِبَرِ﴾ والهرم ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرم وشرفني بخلعة الخلة والحلم ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:39] الذي صدر عن لسان استعدادي ومجيبه بطلب من يخلفني ويقوم مقامي.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:40-43].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ على وجه الخضوع والخشوع والتبتل والإخلاص ﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أيضًا من يقيمها على الوجه المذكور ﴿رَبَّنَا﴾ استجب مني ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم:40] في حقي وحق أولادي.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ بفضلك؛ إذ لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا ﴿وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعًا، واعف بمقتضى جودك عن زلتي وزلاتهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (208/10).

[إبراهيم:41] وينشر الديوان، ويحاسب كل على ما كسب من العصيان.

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿اللهَ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفياته ﴿غَافِلاً﴾ ناسيًا ذاهلاً ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن حدود الله بإمهالهم زمانًا، بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويسوّف عذابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ﴾ وتتحير ﴿فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:42] وصاروا من شدة الهول والمهابة لا يقدرون على أن يطرفوا عيونهم، بل تبقى مفتوحة حائرة كعيون الموتى، كأنهم قد انقطعت أرواحهم عن أجسادهم.

وهم مع هذه الحيرة والدهشة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين نحو المحشر، حيارى سكارى ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها نحو السماء، مترقبين لنزول البلاء، مدهوشين هائمين بحيث ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لشدة ولههم وهيمانهم ﴿وَ﴾ في تلك الحالة ﴿أَفْئِدَتُهُمْ﴾ وقلوبهم التي هي محل الأمان والخيالات ﴿هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43] أي: خالية، لا يخطر ببالهم شيء مطلقًا وإن كانت لا تخلو عن الأخطار أبدًا.

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم:44-46].

﴿وَ﴾ متى سمعت يا أكمل الرسل أهوال يوم القيامة وأحوال الأنام فيها ﴿أَنذِرِ النَّاسَ﴾ الناسين عهود الحق ومواثيقه التي عهدوا معه في بدء فطرتهم أي شيء يفعلون ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ﴾ في اليوم الموعود، وحينئذٍ انقطعت أسباب النجاة وتدبيرات الخلاص ولا يسع لهم التدارك أصلاً ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بتكذيب الله وتكذيب رسله حين رأوا العذاب، مناجين متضرعين متمنين: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أي: أعدنا وأرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا فيها ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أيام قلائل ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ ونقبلها عن ألسنة رسلك ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ ونصدقهم بجميع ما جاءوا به من عندك فيقال لهم على سبيل التهكم والتقريع: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا﴾ أيها الظالمون المسرفون ﴿أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا بطرين مغرورين ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:44]

أي: ما لنا وبال ولأموالنا زوال، وما لنا عن أماكننا ارتحال وانتقال.

﴿وَ﴾ مع قولكم هذا ويمينكم عليه ﴿سَكَنتُمْ﴾ وتمكنتم أيها المسرفون المفرطون ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قبلكم أمثالكم مثل: عاد وثمود وهم أيضًا، مقسمين بما أقسمتم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ وظهر عندكم الآن ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم ﴿وَ﴾ صار أمر إهلاكهم من الفضاحة إلى أن ﴿ضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:45] لتعتبروا عن حالهم وتتركوا أفعالهم؛ لئلا تُنتقموا أمثالهم، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تتركوا، فالآن تصابون وتؤاخذون بأشد مما أصيبوا وأُخذوا.

﴿وَ﴾ لا يفيدكم اليوم المكر والحيلة كما لا يفيد لهم مكرهم حين أخذهم؛ إذ ﴿قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الذي خيلوه دلائل قاطعة وظنوه براهين ساطعة ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: لم يفهموا أن عند الله سبحانه ما يزيل مكرهم وحيلهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في المتانة والقوة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:46] إذ لا يعارض فعله ولا ينازع حكمه، بل له الغلبة والاستيلاء والتعزز والكبرياء.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم:47-52].

وإذا كان الأمر كذلك: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء ﴿مُخْلِفَ﴾ إنجاز ﴿وَعْدِهِ﴾ الذي وعد به ﴿رُسُلَهُ﴾ من إهلاك عدوهم وتعذيبهم بأشد العذاب ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع مراداته ومقدوراته ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:47] شديد على من أراد انتقامه وبطشه من أعدائه نصرة على أوليائه.

قل لهم يا أكمل الرسل: لا تغتروا عن إمهال الله إياكم أيها المسرفون في دنياكم؛ إذ ينتقم عنكم ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ﴾ وتغير تغييرًا كليًا، بأن دكت الجبال دكًا وصارت مسوى لا عوج لها ولا أمتًا، وصارت ﴿غَيْرَ الأَرْضِ﴾ التي كانت قبل هذا ﴿وَ﴾ طويت

﴿السَّمَوَاتُ﴾ المحسوسة، وانتثرت الكواكب، وكورت الشمس، فصارت أيضًا غير تلك السماوات، وبالجملة: تضعضعت أركان العالم وتغيرت أوضاعها وأشكالها واضمحلت آثارها وتلاشت أجزاؤها، وتداخلت أرجاؤها وأقطارها ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: ظهروا وخرجوا أي: الأموات من أجداث أجسادهم بعد خلع تعيناتهم وجلباب هوياتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لهم الظاهر فيهم ﴿الْوَاحِدِ﴾ في ذاته وصفاته وأحواله وجميع شئونه وتجلياته، المستقل في وجوده ﴿الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:48] للأغيار والسوى مطلقًا.

﴿وَتَرَى﴾ حينئذٍ ﴿الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ الذين أجرموا بالله بإثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى أسبابها العادية ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مقيدين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم:49] أي: سلاسل التقليدات والتقييدات وأغلال التعينات والتخمينات.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمائص تعيناتهم وتشخصاتهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: من غرابيب الظلمة العدمية، وهو في اللغة: دهن الأبهل والعرر، كالزفت أسود في غاية السواد، متن نتنه في غاية الكراهة ﴿وَتَغْشَى﴾ أي: تستر ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ التي تلي الحق ﴿النَّارُ﴾ [إبراهيم:50] أي: نار البعد والحرمان وسعير الخذلان والخسران.

وما ذلك؛ أي: انتقامهم وأخذهم إلا ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ الحكيم العليم المتقن في أفعاله ومأموراته ومنهياته وجميع تدبيراته ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ متعينة بتعين مخصوص ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وامتثلت ما أُمرت به ونُهيت عنه أو أعرضت ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب على عباده، المطلع لجميع أفعالهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم:51] يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه عدلاً منه.

﴿هَذَا﴾ أي: ما ذكر من أوصاف يوم القيامة وأهوالها وأفزاعها ﴿بَلَاغٌ﴾ أي: تذكرة كافية وموعظة وافية ﴿لِّلنَّاسِ﴾ الذين نسوا طريق التوحيد وأعرضوا عنها بعروض الغفلة لهم، فليتعظوا ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾[1] عن المعاصي والإجرام حتى لا يؤاخذوا عليها،

(1) إن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.
قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجمال مقرّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل

وليجتنبوا عن الشرك ولا يركنوا إليه ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ عموم العباد إيمانًا وإذعانًا ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يُعبد بالحق ويُرجع إليه إلى أن ينكشفوا بالحقيقة الحقية ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ خصوصًا ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:52] الناظرين بنور الله، الفانين به، الباقين ببقائه.

جعلنا الله ممن ذكر له فتذكر، وتحقق في مقر التوحيد وتقرر.

خاتمة السورة(1)

الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمَّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبشَّرون، كما أنهم منذرون، وأمَّا الجن: فمنذرون فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:31] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

(1) قال في التأويلات: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم:1] قال جعفر عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم وأحوالهم ونجاة أمتك عنهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ [إبراهيم:1] من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة البدعة إلى نور السنة ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب، وقال أبو بكر بن طاهر: من ظلمة الظن إلى أنوار الحقيقة، قال أبو جعفر: من ظلمة رؤية العقل إلى نور رؤية العقل.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:2] قال الواسطي: الكون كله له، من طلب الكون فاته المكون ومن طلب الحق فوجده سخر له الكون بما فيه.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:3] قال أبو علي الجورجاني: من أحب الدنيا حرم عليه الآخرة، ومن طلب الآخرة حرم عليه طريق النجاة، ومن طلب طريق النجاة حرم عليه رؤية فضل الله، ومن طلب طريق رؤية الفضل حرم عليه الوصول إلى المتفضل.

قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7] سُئل ابن عطاء عن هذه الآية قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها تقديم الشكر، وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم الأنس، وقال الحريري: كمال الشكر في مشاهدة العجز عن الشكر.

وروي عن داود ﷺ قال: «يا رب كيف أشكرك وشكري لك تجديد نعمة منك عليَّ؟ قال: يا داود الآن شكرتني»، قال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي

لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي لأزيدنكم رؤيتي، وعن جعفر الصادق ﷺ قال: إذا سمعت النعمة الشكر تأهبت للمزيد.

قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7] ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:8] قال الواسطي: ليس الإيمان يقرب إلى الحق ولا الكفر يبعد عنه، لكن جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاوة فظاهر الإيمان والكفر إعلام الحقائق والحقائق القضاء الذي سبق الدهور لا الأزمان.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [إبراهيم:19] قال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعلمه وأحكمها بحكمه، فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخالق عجائب الخلقة، والناظر من الخلق إلى الخلق يكشف له عن إشارة أنوار حكمته وبدائع متعته. وقال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: لا إله إلا الله على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تطهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالتعبد لله والانقطاع إليه عما سواه، وقال محمد بن علي الباقري: الشجرة الطيبة الإيمان أنبتها الله تعالى وجعل أرضها التوفيق، وسماؤها العناية، وماؤها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها في السماء ثابت بالمريدين عند الجبار، فالأصل يرد الفروع بدوام الإشفاق والمراقبة والفرع يهدي إلى الأصل بالخشية من محل الشهادة والقرب هكذا أبدًا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: وخزائن الله في السماء الغيوب وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله تعالى جعل قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحًا فهبت فيه فكنه عن الكفر والشرك والنفاق؛ لأن الله تعالى جعل قلبًا ثم أنبت شجرة فأثمرت الرضا والمحبة والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:24] وذكر كل شيء من الدنيا إذا لم يكن لها حظ من الآلاء جف والشجر الذي في قلب المؤمن يجف إذا لم يسقها بماء التوبة ثم بماء الرحمة من فوق فيكون طريًا شهيًا ثم يأتيه ثلاثة أشياء: طريق العبودية في النفس، وطريق المحبة في القلب، وطريق الذكر في السر فخدمة النفس الطاعة، وخدمة القلب النية، وخدمة السر المراقبة على الدوام، ثم يمطر عليها أمطار على النفس مطر الهداية، وعلى اللسان مطر اللطافة، وعلى القلب مطر العظمة، وعلى السر مطر النعمة، وعلى الروح مطر الكرامة، فينبت مطر اللسان الشكر والثناء، ومن مطر النفس الطاعة، ومن مطر القلب الصدق والصفاء، ومن مطر السر الشوق والحياء، ومن مطر الروح الرؤية والبقاء. قال محمد بن علي: الشجرة الخبيثة اللسان ما لم يقطعها المؤمن بسيوف الخوف فإنها تثمر أبدًا الكلمة الخبيثة، وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق وهي التي لا تقر قرارًا حتى تهوي صاحبها في النار. وقال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب والهجاء، وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات وأرضها النفوس وماؤها الأمل وأوراقها الكسل وثمارها المعاصي وغايتها النار. وقال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم:27] الإيمان أي: فإن حقيقة مضاد الروح الإيمان وإيمان محبة عن ظلمات الروح وذلك استثناء من استثناء في إيمانه كيف يأمنه العبد وهو لا يخلف الميعاد ويثبت الله الذين أمنوا على مقدار المواجيد يكون الخوف والأمن ولم ينزع عن أحدٍ الخوف ولا انقلب منه أحد الخطيئة، وما من أحد يسعى إلا يخاف عقباها أي: عقبى سعيه فمن يثبت بالقول الثابت في الحياة الدنيا تسقط عنه تلك المخاوف وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:32] قال الصادق: وسخر لكم السموات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر أن يتخذ تنورًا وسحرًا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [إبراهيم:33] تدوران عليك وتوصلان إليك منافع السموات والنبات والزروع وسخر لكم قلب المؤمن لمحبته ومعرفته وخاصة الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة إفاضة أسراره. قال يحيى بن معاذ في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34] إن الله أعطاك أكبر ما في خزائنه وأجمله وأعظمه أعطاك من غير سؤالك وهو التوحيد فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤالك؟! فاجتهد أيها العبد ألا يكون سؤالك إلا منه ولا رغبتك ولا رجوعك إلا إليه فإن الأشياء كلها له فمن شغل بغيره فقد تقطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغل منه جعل الأشياء كلها طوع يده فتنقلب الأعيان ويقرب له البعيد ويمشي حيث أحب ويجري كما أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34] أي: عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء فكيف إذا تتابعت النعم؟! وقيل: أجل النعم استواء الخلقة وإلهام المعرفة والذكر من بين سائر الحيوان ولا يطيق القيام لشكرها أحد، وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه شيطان، إن شكره يقابل نعمه كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البداية والتعاقب، وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله بمحمد ﷺ لا تحصوها بأن جعل السفر فيما بينه وبين السنة الأعلى والواسطة الأولى. وقال ابن عطاء: أجل النعم رؤية معرفة النعم ورؤية التقصير في القيام لشكر النعم، وقال: النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون الشكر أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وقلبًا وروحًا فنعمة النفس الطاعة، ونعمة القلب اليقين؛ ونعمة الأرواح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة والنفس في أبحر الطاعات تتنعم والقلب في أبحر النعم، والمعرفة في بحر القربة والعيان يتنعم. وروي عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:35] يعني: أفئدة العارفين اجعلهم آمنين من الشرك آمنين من قطيعتك.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم:37] قال: ارزقهم شكر ما أوليتهم من معرفتك، ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] أي: نعبد الهوى. قال الدنيوري: مجارية الأصنام مختلفة، فمنهم من صنمه نفسه، ومنهم من صنمه ماله، ومنهم من صنمه ولده، ومنهم من صنمه أقاربه، ومنهم من صنمه زوجته ومنهم من صنمه ضيعة، ومنهم من صنمه صلاته وزكاته وحجه وصيامه، ومنهم من صنمه حاله، والأصنام مختلفة وكل واحد من الخلق مربوط بصنم من هذه الأصنام والتبرؤ هو ألا يرى الإنسان لنفسه خلاقًا ولا مجالاً لا يعبد من أفعاله

شيئًا ولا يسكن من حاله إلى شيء، رافعًا على نفسه باللوم في جميع ما يبدو منها من الخير والشر غير راضٍ به، وقال جعفر: لا تردني إلى مشاهدة الخلة ولا ترد أولادي إلى مشاهدة النبوة. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ [إبراهيم:35] قال: إن الله أمر إبراهيم ﷺ ببناء الكعبة فلما بناها قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة:127] فأوحى الله إليه: «يا إبراهيم أمرتك ببناء البيت وخصصتك من الأنبياء بذلك، ومننت عليك ووفقتك لما وفقتك له ، ودفعت عنك النار، فقيل له: ألا تستحي أن تمن عليّ وتقول: ربنا تقبل منا، فثبتت مني عليك وذكرت رؤية فعلك ومنتك» فمن أجل ذلك قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:35] قال: إن نفسي أشد صنم وشرها إذا تابعت هواها واشتغلت بحظها فاشغلها بك واقطعها عما سواك. وقال الجنيد: وامنعني وبني أن نرى لأنفسنا وسيلة إليك، عند الافتقار، وقال ابن عطاء: الأصنام الخلة والركون إليها وهي خطرات الغفلة وحجاب الخلة، وقال أيضًا: هي النفس لأن لكل نفس صنمها من الهوى إلا من ظهر بأنواع التوفيق. وقال في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:36] لما ذهب فمن استبشر رأفة للمؤمنين قيل له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ قال في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ [إبراهيم:36] لم يطع ولكن قال: فإن من صفتك الغفران والرحمة وليس على العباد.

وقال في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37] من انقطع عن الخلق بالكلية صرف الله إليه وجوه الخلق وجعل مودته في صدورهم ومحبته في قلوبهم وذلك من دعاء الخليل لما انقطع بأهله عن الخلق والأقارب والأسباب دعاهم فقال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37]. وقال الخواص في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم:38] ما نُخفِي من حبك وما نعلن من شكرك، وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب، قال أبو عثمان: طهر سرك وأعمر باطنك وأصلح خفيات أمورك، فإن الله لا يخفى عليه شيء وهو الذي يعلم ما نخفي وما نعلن. وقال أحمد بن خضرويه: لو أذن الله لي في الشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: فكيف؟ قال: لأني قلت بظالمي لم أقله بوالدي، قيل: وما ذلك؟ قال: لعن الله تعالى في قوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:42] وقال بعض المتقدمين: الظلم على ثلاثة أوجه: ظلم مغفور، وظلم محاسب، وظلم غير مغفور، فالظلم المغفور: ظلم الرجل نفسه، والظلم المحاسب: ظلم أخاه، والظلم الذي لا يغفر: هو الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:43] قال ابن عطاء: هذه صفة قلوب أهل الحق ألا ترى أن الهوى قائم بالمشيئة والإرادة غير قائمة بعلائق فوقهما كذلك قلوب أهل الحق متعلقة به لا يقر إلا معه ولا يسكن إلا إليه ليس في قلوبهم محل لغير الله لا يساكن هوى الله ومثل قلوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:88] لا يلتفت إلى سواه ولا له قرار مع غير الله.

وفي قوله ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] قال أبو عثمان: مجاورة

عليك أيها اللبيب المتذكر لمرتبة الأحدية التي هي ينبوع بحر الوجود أن تتذكر وتتعظ بمواعظ الكتاب الإلهي من مواعيده وإنذاراته وحكمه وأسراره؛ لتتفطن بتطوراته وتجلياته، وشئونه في مراتب تنزلاته؛ حتى يسهل لك التيقظ من المنامات العارضة والغفلات الطارئة عليك من الإضافات الحاصلة بين الشئون والتجليات المبعدة عن صرافة الوحدة الذاتية، ويتيسر لك الوصول إلى منبع جميع الأسماء والصفات، المستتبعة لأنواع الكثرات، ومرجع جميع الكائنات والفاسدات المترتبة عليها.

فاعلم أيها الطالب القاصد لسلوك طريق الهداية الموصلة إلى صفاء التوحيد الذاتي أن التوجه إليها والوقوف على أماراتها لا يتيسر إلا بعد تنبيه منبه نبيه، وإرشاد مرشد كامل خبير بصير.

لذلك جرت عادة الله، واستمرت سنته السنية على إرسال الرسل والأنبياء المؤيدين بالكتب والصحف؛ لتمكن لهم إرشاد الناقصين المنحطين عن درجة التدبر والتدرب في غوامض طرق العرفان ومغالق مسالك التوحيد، ومع ذلك لا يتيسر لهم إلا البلاغ من التبليغ والتوفيق، إنما هو من عند العزيز العليم.

وأكملُ الرسل نبينا ﷺ، وأفضلُ الكتب القرآن الجامع المنزل عليه، الناسخ لجميع ما نزل قبله من الكتب؛ لذلك قال سبحانه على سبيل العموم: ﴿هَذَا﴾ [إبراهيم: 52] أي: القرآن ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:52] أي: كامل في التبليغ والإرشاد لقاطبة الأنام إلى توحيد الملك العلام، فلك أن تتأمل فيه وتتذكر به على الوجه المأمور؛ لتتمكن في مقعد الصدق عند الملك الغفور.

الفساق وأهل المعاصي من غير فسق الكافر ومعصيته مستقرة في القلب؛ لأن الله تعالى ذم قومًا من عباده، وقال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:45] ولم يعذر من أقام فيها، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:98] ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:52] ذلك لما يظهر من كشف حقائقه من بني آدم من أحبائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسماوات لا تصير لما يظهر عن الأبدان من أنوار الحق، وقال جعفر: موعظة الحق وإنذار لهم ليجتنبوا أقران السوء ومجالسة المخالفين، فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تدنس، وقال بعضهم: كشف للخلق ما يبدو لهم وأمروا به.

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجر

لا يخفى على ذو التمكن والاطمئنان من أرباب التوحيد والعرفان، الواصلين إلى مرتبة التحقيق والإيقان أن أصحاب التقليد والتلوين، المترددين في مضيق الحسبان والتخمين متى ظهر عندهم ولاح عليهم أمارات تسليم أرباب التوحيد المفوضين أمورهم كلها إلى الله، وشاهدوا من ظواهر أحوالهم في أوصافهم وأفعالهم أمارات الاعتدال، وعلامات الرضا والتسليم تمنوا أن يكونوا أمثالهم وعلى أوصافهم وأخلاقهم، وأحبوا أن يتدينوا بدينهم، ويتخلقوا بأخلاقهم؛ لعدم رسوخهم فيما هم فيه من التقليدات الباطلة، والتخمينات العاطلة الموروثة لهم من آبائهم وأسلافهم، ويتفطنوا من أنفسهم التزلزل والتذبذب في ظنونهم وجهالاتهم، إلّا أنهم من شدة شكيمتهم وضغينتهم وخبث طينتهم لم يقدموا على قبول الإيمان والتدين بدين الإسلام، مع نزول الآيات الظاهرة الدالة المثبتة لحقية وورود المعجزات الباهرة المبينة لصدقه ومطابقته للواقع.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه التنبيه بما يدل على تأييده وتعضيده في أمره، وأوصاه بترك مكالمتهم ودعوتهم، وبشّره بإهلاكهم وانتقامهم، فقال متيمناً باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الموقف لعباده على مقتضى مشيئته ومراده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بتبيين دلائل دينه على مقتضى استعداداتهم وقابليّاتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوفقهم على الاتصاف به وقبوله.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا
مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾
وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجر: 1 – 12].

﴿الر﴾[1] أيها الإنسان الأفضل الأكمل، الأليق لأن يفيض عليه سبحانه لطائف رموزات أسرار الربوبية، ولوائح رقائق سرائر الألوهية اللامعة اللائحة من مقر الرحمة العامة، والكرامة الكاملة الشاملة ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المذكورة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: بعض آيات الكتاب الجامع الناسخ للكتب السالفة ﴿وَ﴾ آيات ﴿قُرْآنٍ﴾ فرقان فارق بين الهداية والضلالة، والرشد والغي ﴿مُبِينٍ﴾ [الحجر:1] ظاهر البيان لأولي البصائر المتأملين في حكم إيجاد الموجودات، سيما الإنسان الكامل المميز الممتاز بأنواع الفضائل والكرامات، سيما العقل المفاض له من العقل الكلي ليتوجه به نحو موجده، ويتدبر به أمر مبدئه ومعاده، ومن لم يصرفه إلى ما خُلق لأجله، وجبل لمصلحته فقد كفر وضل ضلالاً بعيدًا بمراحل عن مرتبة الإنسانية؛ وذلك من غاية انهماكهم في الغفلة، وعمههم وسكرتهم بمزخرفات الدنيا الدنيّة.

وحين فاقوا عن سكرتهم وعمههم أحيانًا ﴿رُبَمَا يَوَدُّ﴾ أي: قلما يحب ويستحسن

---

(1) قال روزبهان: ﴿الر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخبارًا كَبير بصورة الألف واللام والراء، إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خبر عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول أسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبين بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمَنْ لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إيهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبرًا بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة ﷺ.

على وجه التمني ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] أي: ستروا الحق، ولم يصرفوا عقولهم إلى كشفه ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:2] مصرفين عقولهم إلى معرفة الله، ومفوضين أمورهم كلها إليه، ومتوكلين على الله في جميع حالاتهم، لكن من شدة طغيانهم، ونهاية غوايتهم وخسرانهم لم يقبلوا دعوتك، ولم يؤمنوا بك وبكتابه يا أكمل الرسل عنادًا واستكبارًا؛ حتى ينجو من خذلان الدنيا وخسران الآخرة.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وشُغلهم في دنياهم ﴿يَأْكُلُوا﴾ من مأكولاتها المورثة لأنواع المرض في قلوبهم ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بمزخرفاتها الفانية ولذاتها الوهمية ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغلهم عن الاشتغال بالطاعات، ويحرمهم عن اللذات الأخروية مطلقًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:3] قبح صنيعهم، وسوء فعالهم حين انكشف الأمر وتبلى السرائر، فحينئذٍ يتنبهون بما فوتوا لأنفسهم من اللذات الروحانية بإعراضهم عن الله وكتابه ونبيه.

﴿وَ﴾ من سنتنا القديمة: إنَّا ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: 4] أي: ما أردنا إهلاك قرية من القرى الهالكة إلَّا وكتبنا أولاً في لوحنا المحفوظ، وعلمنا القديم لإهلاكها أجلاً معلومًا ووقتًا معينًا.

بحيث ﴿مَا تَسْبِقُ﴾وما تتقدم ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الذي عين لإهلاكها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:5] عنه، بل متى وصلوا إليه هلكوا حتمًا، بحيث لايسع لهم التقديم والتأخير أصلاً.

﴿وَ﴾كيف لا نهلكهم ونعذبهم بأشد العذاب ولا ننتقم عنهم؛ إذ هم ﴿قَالُوا﴾ حين دعوتك إياهم وإلقائك إليهم شعائر الإيمان والإسلام منادين لك، مستهزئين معك متهكمين: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ النبي ﴿الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ من عند ربه ﴿الذِّكْرُ﴾ أي: الكتاب المبين له أمثال هذه الكلمات التي نسمع منك ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك وادعائك النبوة والكتاب ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:6] مخبط مختل العقل، يخبطك الجن، ويعلمك أمثال هذه

---

(1) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوتهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

الكلمات والحكايات، تخيلت أنهم ملائكة ينزلون إليك بها، وإن اطلعت على الملائكة وصاحبت معهم، مع أنك بشر مثلنا؟!.

﴿لَّوْ مَا﴾ أي: هلّا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ المنزلين إليك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:7] في دعواك حتى نراهم ونسمع قولهم، مثل رؤيتك إياهم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ لكل واحد من البشر، بل لمن نؤتى الحكمة منه له في أصل فطرته واستعداده، وهم الأنبياء والرسل المأمورون بالإرشاد والتكميل، ومانتزلهم ﴿إِلَّا﴾ تاييدًا لهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالدين الثابت المطابق للواقع؛ ليتدين بدينهم من يتبعهم، ويؤمن لهم إطاعةً وانقيادًا، ولو اطلع الكل على نزولهم، ورأوا صورهم لبطل حكمة الإطاعة والإرسال والتكميل؛ إذ الكل في الرشد والهداية على السواء حينئذٍ ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:8] منتظرين إلى يوم الجزاء؛ إذ الكل ناجون مهديون في النشأة الأولى.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[1] أي: الكتب على الأنبياء والرسل على وجه يعجز البشر عن إتيان مثله؛ لكون ألفاظه ومعلوماته، ونظمه واتساقه خارجة عن مقتضيات مداركهم وعقولهم؛ لذلك ينسبون أكثر الأنبياء والرسل إلى الجنون والخبط ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9] عن تحريف أهل الزيغ والضلال المنحرفين عن جادة التوحيد.

﴿وَ﴾ لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم معك وتكذيبهم، فإنهم من الديدنة القديمة بين أهل الضلال، فإنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلاً حين شاع أنواع الفسوق والعصيان ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:10] أي: فتتهم وفرقهم.

---

(1) الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزّلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصدِّيقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضًا كاشفنا عن أسراره في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.
قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبيانًا وقرآنًا وفرقانًا؛ ليهدي به من كان موسومًا بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وإنَّا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا. يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقراءته، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن في تضييعهم تَضْيِيع كتابه.

﴿وَ﴾ هم من خبث طينتهم، وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر:11] بأنواع الاستهزاء من نسبة الكذب والجنون، وأنواع العيوب.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ وندخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر:12] الذين تعلقت إرادتنا ومشيئتنا بإهلاكهم وتعذيبهم على مقتضى أوصافنا القهرية والجلالية.

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر: 13 – 25].

لذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالرسول المنزل إليهم ﴿وَ﴾ كيف يؤمن بك يا أكمل الرسل هؤلاء الكفرة؛ إذ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:13] أي: سنة الله في الكفرة الماضين، أو سنة كل فرقة من أسلافهم، وهم أيضًا على أثرهم وطبقهم تقليدًا لهم؟!.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم، وفسوقهم وغفلتهم ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المستهزئين المنهمكين في الغي والضلال ﴿بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ على خلاف العادة ليؤمنوا بك وبدينك وكتابك ﴿فَظَلُّوا فِيهِ﴾ وصاروا ﴿يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر:14] يصعدون منه نحو السماء، ويستوضحون ما فيها.

﴿لَقَالُوا﴾من شدة غيهم وضلالهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ وحيرت ﴿أَبْصَارُنَا﴾ بسحر محمد وتلبيسه، وإنما فُعل بنا هذا؛ لنؤمن له، ونصدق قوله وكتابه، ونقبل دينه ﴿بَلْ﴾

أمرنا كذلك بلا شك وتردد؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمشاهدة هذا الفتح والعروج ﴿قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:15] مغبوطون مخبوطون، لبس علينا الأمر هذا الشخصُ بالسحر والشعبذة.

ثمّ قال سبحانه امتناناً لعباده بتهيئة أسباب معاشهم: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وقدرنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشر تدور وتتبدل فيها الشمس في كل سنةٍ شتاءً وصيفًا، ربيعًا وخريفًا، والقمرُ في كل شهر تتميمًا لأسباب معاشكم، وتنضيجًا لأقواتكم وأثمّاركم ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: حبَّبنا نظمها وترتيبها، وهيئاتها وأشكالها ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾[1] [الحجر:16] المتأملين في كيفية حركاتها ودوراتها وانقلاباتها؛ ليستدلوا بها على قدرة مبدعها، ومتانة أمر صانعها ومخترعها إلى أن ينكشفوا بوحدة المظهر ورجوع الكلّ إليه.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿حَفِظْنَاهَا مِن﴾ اطلاع ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾[2] [الحجر:17] على

---

(1) قال الورتجبي: أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظّار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيات ثمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات التي منزهة عن الحدود والعلات، ومَنْ سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقدست أسمائه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

(2) قال الورتجبي: منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطّالين والمدّعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في ترائيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر

ما فيها من السرائر والحكم المودعة.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ﴾ واختلس من الشياطين ﴿السَّمْعَ﴾ والاستطلاع من سكان السماوات، وتكلف في الصعود والرقي نحوها ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ من كمال قهر الله إياه ﴿شِهَابٌ﴾ جذوةُ نارٍ على مثال كوكب ﴿مُّبِينٌ﴾ [الحجر:18] ظاهرٍ عند أولي الأبصار زجرًا له، ومنعًا عن الاستطلاع بالسرائر.

﴿وَالأَرْضَ﴾ أيضًا ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي: مهّدناها وبسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ شامخات لتقررها وتثبيتها؛ ولتكون مقرًا للمياه والعيون، ومعدنًا للجواهر ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:19] مطبوعٍ ملائمٍ، تستحسنها الطباع وتستلذ به.

﴿وَ﴾ إنما ﴿جَعَلْنَا﴾ وخلقنا كل ذلك؛ أي: العلويات والسفليات؛ ليحصل ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها، وتقومون مزاجكم منها؛ لتتمكنوا وتقدروا على سلوك طريق التوحيد والعرفان الذي هو سبب إيجادكم، والباعث على إظهاركم؛ إذ ما خُلقتم وجُبلتم إلّا لأجله ﴿وَ﴾ كذا معايش ﴿مَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:20] من أخلاقكم وأولادكم، وإن كنتم تظنون أنكم رازقون لهم ظنًا كاذبًا، بل رزقكم ورزقهم ورزق جميع من في حيطة الوجود علينا.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رزق الكل علينا ﴿إِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما من رطب ولا يابس مما يطلق عليه اسم الشيء ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ أي: في حيطة قدرتنا ومشيئتنا ﴿خَزَائِنُهُ﴾[1]

منها فائدة في القلوب من المواجيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرهبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيمان والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضله وجوده وحفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات الشياطين.

(1) قال الورتجبي: قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم. وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه ومحل نظره، فمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والأعراض عما سواه. وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث. ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر

أي: مخزونات كل شيء عندنا لا ينتهي قدرتنا دون مقدور، بل لنا القدرة الكاملة بإيجاد الخزائن من كل شيء ﴿وَ﴾ لكن اقتضت حكمتنا أنا ﴿مَا نُنَزِّلُهُ﴾ ونظهره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] عندنا، وفي حيطة علمنا، وأجل مقدر لدينا لا اطلاع لأحد عليه؟!.

﴿وَ﴾من بدائع حكمتنا، وعجائب صنعتنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿الرِّيَاحَ﴾ الهابة في فصل الربيع ﴿لَوَاقِحَ﴾ أي: ملقحات تجعل الأشجار حوامل بالأثمار ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ بعد صيرورتها حوامل ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ لتربيتها وتنميتها ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: وقت الصلاح والحصاد ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ﴾ أي: للماء ﴿بِخَازِنِينَ﴾[1] [الحجر:21] حافظين؛ أي: ليس في وسعكم وطاقتكم حفظه في الحياض والغدائر، وكذا إلقاح الأشجار وإنباتها وسقيها وإصلاحها، وجميع ما يحتاج إليها؛ إذ ليس عندكم خزائن كل شيء.

﴿وَ﴾ أيضًا من غرائب مبدعاتنا ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ ونظهر على مقتضى أوصافنا اللطفية البسيطة ﴿وَنُمِيتُ﴾ ونعدم على مقتضى أوصافنا القهرية القبضية ﴿وَنَحْنُ

من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنّة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئًا، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

(1) قال البقلي: غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل غصن منها حكمة من حكمه وعلمًا من علومه، وخبرًا من غيبه، وسرًّا من أسراره، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، وورردها من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضي المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله سقاه الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هائمًا من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

﴿الْوَارِثُونَ﴾[1] [الحجر:23] الباقون بعد انتهاء المظاهر وفنائها بعد الطامة الكبرى.

﴿وَ﴾ من كمال علمنا وخبرتنا أنا ﴿لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ المتقدمين في الوجود ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من أسلافكم، بل من شئونكم ونشأتكم التي في أصلاب آباءكم وأرحام أمهاتكم، بل استعداداتكم في ذرائر العناصر، بل حصصكم من الروح الأعظم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر:24] المتأخرين منكم في الوجود على الوجه المذكور.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ﴾ المطلع بسرائر الماضي والحال والمستقبل ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ في المحشر وموعد القيامة، والحساب والجزاء، وكيف لا ﴿إِنَّهُ﴾ في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿حَكِيمٌ﴾ متقن الفعل، متين الصنع ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25] لايعزب عن حيطة حضرة علمه شيء؟!.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ
﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ
﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

---

(1) قال البقلي: نحي بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضًا نحي الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحي أسرار العارفين بجمالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية، قال الواسطي: نحي مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه، قال بعضهم: نحي أقوامًا بالطاعة ونميت أقواما بالمعصية، وقال البراق: نحي القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس بإتباع الشهوات، وقال أبو سعيد الخرّاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه بقاؤه. وقيل: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار، وقال سهل: نحي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا، وقال: أيضًا نحي النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات، وقال الأستاذ: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة. ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره. ويقال: نحي قومًا بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوما بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: 26 – 41].

ثمّ قال سبحانه امتنانًا لكم، وتنبيهًا عن دناءة منشأكم، ثمّ على شرف مكانتكم وعلو شأنكم: أيها المكلفون من الثقلين، القابلون للإيمان والمعارف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: أظهرنا جنسه، وقدرنا جسمه ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابس مصوتٍ من غاية يبسه وبقائه على حر الشمس، متخذٍ ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1] [الحجر:26] أي: من طين أسود منتن كريه الرائحة، يستكره ريحه جميع الحيوانات.

---

(1) غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقًا على محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه يا ليت لو رأى في مكان الأمر جلال الآمر؛ فإن آدم ﷺ كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجمال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحًا لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمدلول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضًا إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوبًا بنظرين، نظر إلى آدم ﷺ، ونظر إلى نفسه؛ فأما نظره إلى آدم ﷺ قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوحدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدنى المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، عرفه أنه لم يكن أيضًا مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقًا في إرادته لأكل تراب قدم آدم ﷺ؛ لأن المريد ملهوف واله بإرادته ومحبته لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريدًا لا مريدًا؛ لأنه كان معجبًا برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفيائه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

﴿وَالْجَانَّ﴾ أي: جنسه أيضًا ﴿خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إيجاد الإنسان من مادة أدنى أيضًا؛ إذ هو متخذ ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:27] أي: شديد الحر متناه فيه.

انظروا أيها المعتبرون إلىٰ نشأتكم ومادتكم ﴿وَ﴾ اذكروا تشريف ربكم إياكم وقت ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ يا أكملَ الرسل، خصه سبحانه رسول الله ﷺ بالخطاب؛ للياقته وكمال استحقاقه أن يكون مخاطبًا معه، كأنه لجمعية مرتبته عمومَ مراتب بني نوعه، عبارةُ عن جميعهم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على سبيل الإخبار والتعليم: ﴿إِنِّي﴾ لمطالعة جمالي وجلالي، وجميع أوصاف كمالي على التفصيل ﴿خَالِقٌ﴾ ومقدرٌ ﴿بَشَرًا﴾ أي: تمثالاً متخذًا ﴿مِّن صَلْصَالٍ﴾ متخذة ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:28] بعيدٍ بمراحل عن مقاربتي ومقارنتي؛ إذ هو أخس الأشياء وأدونها.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: عدلته وكملت هيكله وشكله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ورششت عليه من رشحات نور وجودي ليكون حيًا بحياتي، ومرآة لي أطالع فيها جميع أسمائي وأوصافي ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29] فعليكم أن تضعوا جباهكم على تراب المذلة عنده تعظيمًا له وتكريمًا.

ولما سمعوا الأمر الوجوبي القطعي ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ بلا طلب مرجح ودليل ﴿كُلُّهُمْ﴾ بلا خروج واحد منهم ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:30] مجتمعون معًا بلا تقدم وتأخر، وتردد وتسويف.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي هو منهم تبعًا لأصالته ﴿أَبَىٰ﴾ عن السجود، وامتنع ﴿أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:31].

ثمّ لما تخلف إبليس، وركن عن أمر الله ﴿قَالَ﴾ سبحانه توبيخًا وتقريعًا: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أي: شيء عرض لك يا إبليس ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:32] الخاضعين الواضعين جباههم على تراب المذلة امتثالاً للأمر الوجوبي؟!.

﴿قَالَ﴾ إبليس محتجًا على الله، طالبًا للرجحان والمزية على سبيل الإنكار والتعريض: ﴿لَمْ أَكُن﴾ أي: لم يصح مني، ولم يستحسن عني، ولم يلق لمرتبتي ﴿لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ جسماني ظلماني كثيف ﴿خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾ أكشف وأظلم منه، واتخذت الصلصال ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:33] لا شيء أظلم منه وأبعد عن ساحة عز القبول، والتمثالُ المشتمل على هذه الظلمات المتراكمة لا يليقُ أن يَخضع ويسجد له الروحاني النوراني.

﴿قَالَ﴾ سبحانه طردًا له وتبعيدًا: إذا تخلفت يا إبليس عن أمري، وخرجت عن مقتضى حكمي ﴿فَاخْرُجْ﴾ أيها المردود ﴿مِنْهَا﴾ أي: من بين الملائكة، ولا تعد نفسك من زمرتهم، فإنهم مقبولون مطيعون، وأنت مردود ومطرود ﴿فَإِنَّكَ﴾ بتخلفك عن مقتضى أمرنا ﴿رَجِيمٌ﴾ [الحجر:34] بعيد عن رحمتنا وكرامتنا.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ والطرد والتخذيل، نازلةٌ مستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:35] مقرك ومقيلك النار المعدة لك، ولمن تبعك من عصاة العباد.

ثمّ لما آيس إبليس عن القبول، وقنط عن رحمة الله ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا متحسرًا متأوهًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرم والنعم، فكفرت نعمك بمخالفة أمرك ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ وأمهلني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر:36] ويحشرون؛ لأغوي بني آدم، وأنتقم عنهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر:37] لتكون عبرة للعالمين.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:38] أي: إلى وقت لا يمكن فيه تلافي التقصير، وكسب الزاد للمعاد، وتهيئة الأسباب ليوم الميعاد.

قيل: هي النفخة الأولى لحشر الأجساد.

﴿قَالَ﴾ إبليس مقسمًا مبالغًا: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بحق قدرتك التي أغويتني وأضللتني بها، وأحطتني عن رفعة منزلتي، وأخرجتني من بين أحبتي وإخوتي ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أعمالهم الفاسدة، وأحسن عليهم الأفعال القبيحة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وأغرينهم إلى ارتكاب أنواع المفاسد والمقابح عليها، وأصناف الجرائم والآثام المائلة إليها نفوسهم طبعًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:39] بحيث لا يشذ عنهم أحد من ذوي النفوس الأمارة.

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1] [الحجر:40] المخلصين رقابهم عن ربقة

(1) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدّيقون؛ بمعنى أنهم تخلّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلّصوا عن شوائب النفسانية، فهم فانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.
ولقد غلب عاصم على غيره من القُرّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛

الأمارة، المطمئنين المتمكنين في مقام الرضا والتسليم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى إشفاقه ورحمته: ﴿هَذَا﴾ أي: إخلاص المخلصين المطمئنين، الراضين بما جرى عليم من قضائي ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ وطريق موصل إلى توحيدي، ووحدة ذاتي واستقلالي في آثار أوصافي وأسمائي ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:41] لا عوج فيهِ أصلاً، من توجه إليّ عن هذا الطريق فاز ونجا، بحيث لا يعرضه الضلال والانحراف أصلاً، وكيف يعرضه؛ إذ هو من خلّص عبادي؟!.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحجر:42 – 58].

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الذين هم تحت قبابي ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: استيلاء وغلبة ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:42] الضالين بإغوائك عن منهج اليقين، وهم وإن كانوا من جنسهم صورةً ليسوا منهم حقيقةً.

إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممّن يتذكّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:43] أي: تابعًا ومتبوعًا.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ على عدد مداخلها من الشهوات السبعة المقتضية إياها، المذكورة في كريمة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:14].

﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ من الأبواب السبعة الجهنمية ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:44] أي: طائفة مفروزة منهم بالدخول من كل بابٍ، وإن كان الكل شريكًا في الكل.

ثمَّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المخلِّصين نفوسهم عن وسوسة الشياطين ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الحجر:45] جاريات من زلال الحقائق والمعارف، صافياتٍ عن كدر الرياء ودرن التقليدات.

ويقول لهم الملائكة حين وجدانهم متصفين بحلية التقوى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: سالمين عن شدائد الحساب وصعوبته ﴿آمِنِينَ﴾[1] [الحجر:46] عن خوف العذاب والعقاب.

﴿وَ﴾ كيف لا يكونون سالمين آمنين، إذ ﴿نَزَعْنَا﴾ وأخرجنا بنور الإيمان والتوحيد ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ وضمائرهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ وحسدٍ متمكن في نفوسهم، متعلق لبني نوعهم حتى صاروا ﴿إِخْوَانًا﴾ أصدقاء متكئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متساوية من الصداقة ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47] متناظرين مطالعين كل منهم في مرآة أخيه محامد أخلاقه، ومحاسن شيمه.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: محنة وعناء حتى يشوشوا بها ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:48] حتى يخافوا منه، بل هم فيها خالدون مخلدون، مستمرون ما شاء الله.

ثمَّ قال سبحانه تسليةً لعموم عباده، وتبشيرًا لهم بسعة فضله ورحمته: ﴿نَبِّئْ﴾

(1) قال في التأويلات: أي: بجذبات العناية والسلام من الله هو الجذبة الإلهية آمنين من موانع الدخول والخروج بعد الوصول وفيه إشارة إلى أن السير في الله لا يمكن إلا بالله وجذباته كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج تأخر عنه جبريل في سدرة المنتهى وبقي عند الرفرف في مقام قاب قوسين ما وصل الى مقام أو أدنى وهو كمال القرب إلا بجذبة أذن مني فبسلام الله سلم من موانع الدخول والخروج بعد الوصول.

أي: أخبر وأعلم يا أكمل الرسل المبعوث على كافة الأمم عموم ﴿عِبَادِي﴾ مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم ﴿أَنِّي﴾ من كمال برّي ومرحمتي إياهم ﴿أَنَا الغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استرجع إلي، واستغفر عن ظهر القلب، وأناب عن محض الندم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:49] لهم، أرحمهم وأقبل منهم توبتهم، وأعفو عنهم زلتهم.

﴿وَ﴾ نبئهم أيضا ﴿أَنَّ عَذَابِي﴾ وانتقامي وبطشي على من أصر على عنادي، واستمر على ترك طاعتي وانقيادي ﴿هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:50] المؤلم المستمر الذي لا نجاة لأحد منه.

﴿وَ﴾ إن أنكروا على إنعامي وانتقامي ﴿نَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر:51] تبيينًا وتوضيحًا لهم.

وقت ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جرد مرد، صِباح ملاح ﴿فَقَالُوا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، ثمّ لما تفرس إبراهيم بنور النبوة أنهم ملائكة جاءوا بأمر خطير ﴿قَالَ﴾ على سبيل المخالفة: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر:52] أي: خائفون؛ لأنهم جاءوا هفوة، ودخلوا عليه بغتة بلا إذن واستئذان على عادة المسافرين، ولا يظهر عليه أثر السفر.

﴿قَالُوا﴾ أمنًا له، وتسكينًا لخوفه واضطرابه: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ منّا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ من عند ربك ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾[1] [الحجر:53] قابل للنبوة والرسالة، والحكمة الكاملة.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام متأوهًا آيسًا، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ أيها المبشرون في زمانٍ قد انقطع الرجاء فيه عادةً ﴿عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:54] المانع من الاستيلاء والاستنماء العادي؛ إذ هو في سنٍ قد انقطعت الشهوة عنه، وعن زوجته أيضًا؛ إذ هما في سن الهرم والكهولة.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بإذن الحق، وعلى مقتضى قدرته الكاملة بإيجاد شيء بلا سبق السبب العادي له ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيها النبي المتمكن

---

(1) قال نجم الدين كبرى: مع كبره وكبر امرأته بشارة للطالب الصادق أنه وإن كان مسنًا وقد ضعف جسمه وقواه وعجز عن جهاد النفس ومكابدتها واستعمالها في مباشرة الطاعات والأعمال البدنية ويوسوسه الشيطان من نيل درجات القربة؛ لأن أسباب تحصيل الكمال قد تناهت ومعظمها العمر والشباب؛ ولهذا قال المشايخ: الصوفي بعد الأربعين نادر.

في مقام الرضا والتسليم، المسند المفوّض جميع الحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الفاعل المختار بلا اعتبار الوسائل والأسباب ﴿مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر:55] الجازمين بفقدان الشيء عند فقدان أسبابه العادية.

﴿قَالَ﴾ مستبعدًا مستوحشًا: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ وييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ التي وسعت كل شيء على مقتضى جوده تفضلاً بلا سبق استحقاق واستعدادِ أسباب ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:56] المقيَّدون بسلاسل الأسباب الطبيعية، وأغلال الوسائل الهيولانية، ونحن معاشر الأنبياء لا نقول بأمثال هذه الأباطيل الزائغة.

ثم لما جرى بينهم ما جرى ﴿قَالَ﴾ ابراهيم عليه السلام على مقتضى تفرسه منهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمركم العظيم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر:57] المهيبون؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر:58] خارجين عن مقتضى العقل والشرع والطبع؛ إذ فعلتهم الفاحشة الشنيعة مما يستقبحه ويستكرهه العقول والطباع مطلقًا، فكيف الشرع، فنهلكهم اليوم بالمرة على مقتضى أمر الله وقدره.

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحجر: 59 – 73].

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي: أهل بيته، ومن آمن له ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 59] لكونهم معصومين مطيعين.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ المجرمة العاصية ﴿قَدَّرْنَا﴾ بإعلام الله وإذنه إياه علينا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ

﴿الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر:60] الباقين مع الكفرة الهالكين؛ لكونها باقية على اعتقادهم وعنادهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ ودخل على طريق الضيفان ﴿آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر:61] المرد الصباح الملاح.

﴿قَالَ﴾ لوط: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضيفان ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ [الحجر:62] أخاف عليكم من قومي وسوء فعالهم، وقبح ديدنتهم وعادتِهم، مع أني أخاف من جئتكم أيضًا على هذا الوجه، بحيث لا أرى عليكم أمارات البَشَر.

﴿قَالُوا﴾ أي: المرسلون له: لا تخف لا علينا ولا منا؛ إذ ما جئنا لتخويفك وتوحيشك ﴿بَلْ جِئْنَاكَ﴾ لنسرك ونؤيدك، وننصرك على أعدائك ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر:63] أي: بإثبات ما يشكّون فيه ويترددون، بل يكذبونك فيه مراء، وهو العذاب الذي توعدتَ لهم، وادعيتَ نزولَه عليهم، وهم يشكّون فيه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر:64] فيما قلنا لك.

والآن وقت إنجاز ما وعد الله بك من إنزال العذاب عليهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: سر واذهب معهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في طائفة من آنات الليل وساعاته، فقدمهم أمامك ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وأثرهم، والعذابُ منزل عليهم عقيب خروجك بلا تراخ، وإذا كانوا خلفك أصابتهم منه ﴿وَ﴾ بعدما خرجتم إليهم من بينهم ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ خلفه، ولا ينظر إلى ما وراءه حتى لا يصيبه ما أصابهم، ولا يهوله ولا يفزعه ﴿وَامْضُوا﴾ أيها المأمورون ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:65].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: حكمنا على لوط بالوحي إليه ﴿ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ الفظيع الهائل، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني: إن عواقب هؤلاء المسرفين المفرطين مقطوعة مستأصلة بالمرة، حال كونهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:66] أي: حين دخول الصباح عليهم.

﴿وَ﴾ بعدما بلغ الرسل إلى لوط ما جاءوا به من قِبَل الحق ﴿جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر:67] وهي سَدُوم، بأضياف لوط، ويستحسنوهم طامعين وقاعهم مسرعين حول بيته.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط على مقتضى شفقة النبوة، وإن كان الأمر عنده مقضيًا محتمًا

بلا تردد: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المسافرين ﴿ضَيْفِي﴾ نزلوا في بيتي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: 68] بإساءتهم ؛ لأن إساءتهم وتفضيحهم عين إساءتي وتفضيحي.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن ارتكاب محظوراته، والركون إلى محرماته ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر:69] ولا تخجلوني منهم؛ إذ فعلتكم هذه معهم مسقطة للمروءة بالمرة.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه: أتنهانا اليوم عنهم كما نهيتنا عن أمثالهم فيما مضى ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ من قبل ألا تمنعنا ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر:70] وكن في نفسك زكيًا طاهرًا مهذبًا، ما لك معنا وخبثنا؟!.

ثمّ لما بالغوا في الإصرار والعناد ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ النسوان ﴿بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:71] فهن أولى بكم، وأطهر لقضاء وطركم.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ المنبعثة من شهوتهم المفرطة، المحيرة المدهشة لعقولهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:72] ويهيمون إلى حيث لا يسمعون نصحه، فكيف يقبلونه ويفهمون؟!.

ولما لم يتركوا الفضيحة، ولم يقبلوا النصيحة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة المهلكة وقت الصبيحة، حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:73] داخلين وقت شروق الشمس.

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن
كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ
أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ
الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ
الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر: 74 – 88].

﴿فَجَعَلۡنَا﴾ بالزلزلة ﴿عَالِيَهَا﴾ أي: عالي المدينة ﴿سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها؛ يعني: قد قلبنا دُورهم عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً﴾ منعقدة منضمة مركبة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:74] وهو معرب سنْك وكِل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والتقليب والإمطار ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ وعبر ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:75] المتأملين المتفرسين، المتعمقين في أنية الأشياء ولميتّها حتى ينكشف عليهم أمرها وسمتها، ولا تترددوا ولا تشكوا أيها السامعون المعتبرون في انقلاب تلك المدينة وتخريبها.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة المذكورة ﴿لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:76] أي: جادة ثابتة يطرقها الناس، ويرون آثارها وأطلالها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة إهلاك أولئك الطغاة البغاة، الهالكين في تيه الغفلة والشهوات ﴿لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر:77] الخاشعين الخائفين من قهر الله وغضبه، الراجين من عفوه ورحمته.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعتبرين أيضًا قصة قوم شعيب عليه السلام ﴿إِن كَانَ﴾ أي: إنه كان ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ أي: الغيضة؛ إذ هم يسكنون فيها ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحجر:78] خارجين عن حدود الله الموضوعة للعدالة بين عباده، المتعلقة ببخس المكيال والميزان ونقصهما.

وبعدما بالغوا فيها بعثنا إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه، واستهزءوا معه، وأرادوا مقته ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ مثلما انتقمنا من قوم لوط ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: أصحاب سدوم والأيكة ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر:79] أي: ملتبسين ملتصقين بسبيل واضح، وطريق مستقيم مستبين ظاهر لائح، جاء به كل نبي منهم، فكذبوه عتوًا وعنادًا، فأُخذوا بما أخذوا.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ﴾ أيضًا مثل تكذيبهما ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ وهو وادٍ بين المدينة والشام يسكن فيها ثمود ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الحجر:80] يعني: صالحًا القائم مقام جميع الأنبياء باعتبار اتحاد المرسل به، وهو الدعوة إلى توحيد الحق، وذلك حين بعثنا إليهم بعدما خرجوا عن حدود الله، وانحرفوا عن جادة توحيده.

﴿وَ﴾ أيدنا أمره بأن ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ معه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿فَكَانُواْ﴾ من

نهاية عتوهم وعنادهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر:81] بحيث لا يقبلونها أصلاً.

﴿وَ﴾ من عادتهم المستمرة بينهم أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ يسكنون فيها ﴿آمِنِينَ﴾ [الحجر:82] من اللصوص، وأنواع المؤذيات والحشرات.

ولما لم يبالوا بالآيات والرسول، وتمادوا على غيهم وضلالهم الذي كانوا عليه انتقمنا منهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الشديدة الهائلة، وهم حينئذٍ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: 83] داخلين في الصباح، كقوم لوط، فأهلكوا بالمرة.

﴿فَمَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر:84] من الأموال والأمتعة، والعُدد الكثيرة، والحصون المنيعة، والأبنية الوثيقة المشيدة شيئًا من عذاب الله ونكاله.

ثم قال سبحانه قولاً دالاً على كمال قدرته ومشيئته، ولطفه وقهره، وإنعامه وانتقامه تنبيهًا على ذوي البصائر والاعتبار المتفكرين في خلق الله، وإيجاده وإعدامه، واستقلال تصرفاته في ملكه وملكوته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ وقدرنا ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وما فيها من الآثار والمؤثرات العلوية ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وما عليها من المتأثرات السفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات والفاسدات الحادثة في الجو باطلاً عبثًا لا عبرة لها ولا اعتبار لإظهارها وظهورها، بل ما خلقنا ما خلقنا ﴿إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾[1] المثبت لأصحاب الدلائل والبراهين، وتوحيد الحق الثابت المحقق لأرباب الكشف واليقين.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها العقلاء المكلفون المعتبرون ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة لانقهار التعينات، واضمحلال التشكلات ﴿لَآتِيَةٌ﴾ جزمًا بلا تردد وشبهة، فيجازي فيها كل على

(1) قال في التأويلات: أي: لإظهار الآيات الحق بالحق لأرباب الحق المكاشفين بصفات الحق فإنه لا شعور للسماوات والأرض وما بينهما غير الإنسان بأنها مظهر لآيات الحق، وإنما الشعور بذلك للإنسان الكامل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190] وهم الذين خلص لب أخلاقهم الربانية عن قشر صفاتهم الإنسانية، وفيه معنى آخر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ أي: سماوات الأرواح ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي: أرض الأشباح وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار والخفيات إلا بالحق ومظهره، فإن الإنسان مخصوص به من بين سائر المخلوقات والمكونات؛ لأنه بجميع مبانيه الظاهرة ومعانيه الباطنة مرآة لذات الحق تعالى وصفاته فهو مظهره عند التزكية التنقية، ومظهره عند التحلية والتجلية به لشعوره بذلك، كما كان حال من صقل مرآته عن صدأ أنانيته وتجلى بشهوة هويته عند تجلي ربوبيته بالحق، فقال: أنا الحق ومن قال بعد فناء أنانيته عن بقائه بسبحانيته سبحاني ما أعظم شأني.

مقتضى ما كنسبت في عالم التعينات والتطورات، وإذا كان الكلّ مجازون بأعمالهم، مسئولون عنها ﴿فَاصْفَحِ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض عن انتقام من يؤذيك ويرديك ﴿الصَّفْحِ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:85] أي: الإعراض المستحسن عند الطباع، واحلم معهم، والطف عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربّاك بأنواع اللطف والكرم، واصطفاك من بينهم بأصناف الفضائل والكمالات ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ﴾[1] لهم ولأعمالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الحجر:86] المميز المبالغ في التميز بين صالحها وفاسدها، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بهم، وبما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية، ولا تحزن على أذاهم، فإنا من مقام جودنا وفضلنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ وأعطيناك تتميمًا لتكريمك وتعظيمك ﴿سَبْعًا﴾ أي: سبع آيات ﴿مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أي: الفاتحة التي تثني نزولها تارة بمكة، وتارة بالمدينة على عدد الصفات السبع الإلهية؛ ليكون لك حظ من جميعها، والسبع الطباق الفلكية والكواكب السبعة، والأقاليم السبعة الأرضية، والمشتهيات السبعة الدنيوية المذكورة في كريمة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران:14] لتكون عوضًا عنها، والأدوية السبعة الجهنمية؛ لتكون منجية منها، فتكون الفاتحة أعظم وأولى من الدنيا وما فيها.

﴿وَ﴾ مع ذلك لا نقتصر عليها، بل آتيناك ﴿الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:87] الجامع لفوائد ما في الكتب السالفة، الناسخ لها، المعجز لجميع من أتى بمعارضته ومقابلته.

فعليك بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل من بين سائر الأنبياء بأمثال هذه الكرامات أن ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ نحوهم، ولا تنظر نظر متحسر راغب، بل نظر معتبر كاره ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من الزخارف ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافًا من الأمتعة معطاة منها للكفرة ابتلاءً لهم، بحيث صاروا بها مفتخرين، بطرين بين الناس ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بعدم اتباعهم لك وإيمانهم بك؛ إذ هذه المزخرفات الدنية تحجبهم عن الإيمان، وتعوقهم عن العرفان؛ لأنهم مفتونون بها ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وابسطها كل البسط ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88] الذين يتبعونك عن خلاء القلب، وصفاء القريحة بلا

---

(1) قال نجم الدين: يشير بالخلاق وهو للمبالغة إلى أنه تعالى خالق لصور المخلوقات ومعانيها وحقائقها العليم بمن خلقه مستندًا لمظهرية ذاته وصفاته ومظهريته، فلما كانت السموات والأرض وما بينهما مظهر الصفات الحق تعالى دون ذاته ولا شعور لها به، ولم تكن مظهرًا لذاته وصفاته وكان الإنسان الكامل.

شوب الرياء والسمعة، وشين الأهوية الفاسدة.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟
ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا
تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 89 – 99].

﴿وَقُلْ﴾ للمعاندين المنكرين: ﴿إِنِّي﴾ بإذن ربي ووحيه إليّ ﴿أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر:89] والمنذر المبين، أنذركم ببيان واضح، وبرهان لائح، نازلٍ عليّ من ربي أن العقاب والعذاب سينزل على من لم يؤمن بالله، وبوحدة ذاته، وصفات كماله.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾ أي: مثل العذاب الذي أنزلناه من قبل ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر:90] وهم الرهط الذي تقاسموا أن يبيتوا صالحًا.

والمقتسمون اليوم هم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ﴾ المعجز لفظًا ومعنًى، نصًا ودلالة، اقتضاءً ومطلعًا ﴿عِضِينَ﴾[1] [الحجر:91] أي: ذي أجزاء مختلفة، بعضها حق؛ لأنه مطابق للكتب السالفة، وبعضها باطل؛ لأنه مخالف لها، وبعضها شِعر، وبعضها كهانة، مع أن الكل هداية لا ضلال فيها أصلاً، تعالى شأنه وكتابه عما يقولون علوًا كبيرًا.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وعزته وجلاله ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:92] أي: عن جميعهم على التفصيل.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:93] أي: يقدحون في القرآن، وينسبون إليه من المفتريات التي هو بريء منها، بعيد عنها بمراحل.

وإذا كان نزول القرآن للهداية العامة، والإرشاد الشامل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ واجهر به يا أكمل الرسل، وافرق بين الحق والباطل على الوجه المأمور فيه، وبين

(1) قال في التأويلات: أي: جزؤه أجزاء في الاستعمال، فقوم: قرأوه وداوموا على تلاوته ليقال لهم القراء وبه يأكلون، وقوم: حفظوه بالقراءة ليقال لهم الحفاظ وبه يأكلون، وقوم: حصلوا تفسيره وتأويلاته ابتغاء طلب الشهرة وإظهارًا للفضل ليأكلوا، وقوم: استخرجوا معانيه واستنبطوا فقهه وبه يأكلون، وقوم: شرعوا في قصصه وأخباره ومواعظه وحكمه وبه يأكلون وقوم: أولوه على وفق مذاهبهم وفسروه برأيهم فكفروا بذلك.

الهداية والضلال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:94] واتركهم وأنفسهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تتعرض لدفعهم ومنعهم إن استهزئوا بك.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾ أذى ﴿الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:95] عنك، وانتقمنا لأجلك منهم بأضعاف ما قصدوا بك من الاستهزاء والسخرية.

وكيف لا ننتقم منهم؛ إذ هم المشركون المسرفون ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ﴾ المتوحد في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿إِلَٰهًا آخَرَ﴾ مستحقًا لعبادة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:96] عند انكشاف الحجب والأستار، قبح ما يفترون، وينسبون إلى الله افتراءً ومراءً.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ منك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ من كظم غيظك، ويقل صبرك على تحمل أذاهم ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:97] مما لا يليق بجنابنا من القدح في كلامنا، وإثبات الشركاء لنا مع وحدة ذاتنا، ومن استهزائهم بك، وبمن تبعك من المؤمنين، فعليك ألا تلتفت إليهم، ولا تسمع هذياناتهم، وإنما عليك العبرة منهم، وتنزيهنا وتقديسنا عن مقالاتهم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذ تسبيحك وتحميدك إيانا خير لك من استماع ما تفوهوا به مراءً ﴿وَكُن﴾ في نفسك في جميع أوقاتك وحالاتك ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:98] الواضعين جباههم على تراب المذلة على قصد تعظيمنا وتبجيلنا.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي
الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي
نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ
الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا
﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ

﴿ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ [طه: 99 - 113].

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ واجتهد في سلوك طريق المعرفة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[1] [الحجر:99] ويحصل لك الكشف والشهود، ويرتفع عنك حجب الأنانية والوجود.

جعلنا الله من الموقنين المنكشفين بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لسلوك طريق التوحيد - أنجح الله آمالك - أن تبتدئ أولاً بعدما هذبت ظاهرك بالشرائع، وباطنك بالجلاء عن الموانع، بذكر الله الواحد الأحد الصمد، المتصف بجميع أوصاف الكمال إلى أن يؤدي ذكرك إلى الفكر المورث للمجاهدة والانزعاج، والشوق والابتهاج أحيانًا، وواظب عليها إلى أن يستوعب جميع أوقاتك وحالاتك، وحينئذٍ ظهرت ولاحت على قلبك مقدمات المحبة والمودة، والعشق المزعج المفني، وصرت عليها زمانًا إلى أن اشتاق وتعطش قلبك إلى فنائك وانقهارك في محبوبك.

وفي تلك الحالة عرضت عليك الحيرة والحسرة، والوحشة والقلق والاضطراب، والخوف والرجاء، واللذة والألم، وصرت بين بين، وأين أين، وكيف كيف.

وبالجملة: كنت في تلوينٍ وتكوينٍ، وإطلاق وتقييدٍ، وما هي سكراتك عند موتك الإرادي، واضطراباتك دونها، وحينئذٍ لا يسع لك إلّا الرضا والتسليم، والتوكل والتفويض، إلى أن جذبك الحق، ووفقك بالتمكين والتسكين، وأطلقك عن التقييد والتعيين، وأفناك عنك، وأبقاك بذاته، وفزتَ بما فزت، وتكون حينئذٍ ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر:98] قد أتاك اليقين والتمكين، وأخلصك عن التردد والتلوين.

---

(1) قال في التأويلات: أي: إلى الأبد وذلك لأن حقيقة اليقين المعرفة، ولا نهاية لمقامات المعرفة فكما أن للواصل إلى مقام من مقامات المعرفة يأتيه يقين بتلك المقام في المعرفة كذلك يأتيه شك بمعرفة مقام آخر في المعرفة فيحتاج بيقين آخر في إزالة هذا الشك إلى ما لا يتناهى، فثبت إلى اليقين هاهنا إشارة إلى الأبد.

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النحل

لا يخفى على ذوي التمكن والتوطين من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى مقر التوحيد، الناجين المخلصين عن ربقة التلوين والتقليد، باستيلاء سلطان الإطلاق المفني للأغيار مطلقًا أن الأمور الإلهية الجارية على حسب الأوصاف الذاتية مرهونةُ بأوقات مقدرةٍ، وآجال معينةٍ من عنده سبحانه، لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها، بل إذا وصل وقتها وقع فيها حتمًا حكمًا مبرمًا، لا تختلف عنها أصلاً إلّا إذا علق الحق بتقديمها وتأخيرها، ووقفه في حضرة علمه القديم على أمرٍ من الأمور.

لذلك أمر عباده بالدعاء والمناجاة ربما اتفق عليه ووافق له، فالاستنخار والاستعجال إنما هو من شيم أهل الزيغ والضلال، المقيدين بسلاسل الأسباب، وأغلال الوسائل، وأما أرباب الإطلاق المتحيرون في بيداء الألوهية، الوالهون في فضاء الربوبية، لا يستقدمون ولا يستأخرون في الأمور الحادثة، بل جريان الأمور كلها عندهم على سبيل التجدد الإبداعي، والأسبابُ والوسائل عندهم إنما هي توهماتُ باطلة، وتخيلات عاطلة، نشأت من الإضافات العدمية، والاعتبارات الوهمية الحاصلة من توهم الزمان والمكان المتفرعين على الجهات العدمية، بالنسبة إلى المحبوسِين في مضيق الأزل والأبد، والأول والآخر، والمبدئ والمنتهي.

لذلك أخبر سبحانه عباده بجريان أمره على مقتضى مراده، وقت تعلق إرادته ومشيئته بإظهاره وإيجاده، فقال متيمنًا باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا على ما تجلى من مظاهره ومصنوعاته بلا سبق زمان ومكان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الذي دبر أمور عباده على مقتضى مراده بأحسن التدبير في مبدئهم ومعادهم، بلا مشاركة ظهير ومشير ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي هداهم إلى سبيل توحيده بالإنذار والتبشير، وأرسل إليهم الأنبياء؛ ليبينوا لهم طريق الرشد، ويجنبوهم عن الغي والضلال، وأنزل عليهم الكتب المبينة الفارقة بين الحق والباطل، والحرام والحلال، وأخبرهم فيها عن يوم الحشر والعرض الموعود للجزاء والسؤال عما جرى عليهم في النشأة الأولى

من الأحوال، فلهم أن يصدقوه ويؤمنوا له، ولا يسألوا عن وقت قيامه، بل يهيئوا الزاد لأجله، ويشمروا الذيل لوقوعه تعبدًا وانقيادًا.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:1 – 8].

لذلك أخبر سبحانه عن إتيانه ووقوعه بالجملة الماضوية تنبيهًا على تحقق وقوعه، فقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾[1] أي: يومه الموعود الذي انكشفت فيه السدول، ولاحت الأسرار، وارتفعت حجب التعينات والأستار، واضمحلت السوى والأغيار، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بعد انقهار الكل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16]؟ وأجيب أيضًا من ورائها: ﴿لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تستعجلوا وقوعه أيها المترددون الشاكون في أمره ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:1] له من الآلهة الباطلة، ويدّعون شفاعتها لهم عند الله لدى الحاجة.

(1) قال في التأويلات: كلام قديم كان الله في الأزل به متكلمًا، والمخاطبون به في الله محبوسين وهم طبقات ثلاث: منهم الغافلون والعاقلون والعاشقون، فكان الخطاب مع الغافلين: بالعتاب إذا كانوا مشتاقين إلى الدنيا وزخارفها ولذاتها وشهواتها وهم أصحاب النفوس، والخطاب مع العاقلين: بوعد الثواب إذا كانوا مشتاقين إلى الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات التي تبلغهم إلى الجنة ونعيمها الباقية وهم أرباب العقول، والخطاب مع العاشقين: بوصل رب الأرباب إذا كانوا مشتاقين إلى مشاهدة جمال ذي الجلال، فتستعجل أرواح كل طبقة منهم للخروج من العدم إلى الوجود لنيل المقصود وطلب المقصود فكلم الله تعالى في الأزل بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ أي: سيأتي أمر الله للخروج من العدم لإصابة ما كتب لكل طبقة منكم في القسمة الأزلية.

بل هو الله الواحد الأحد، الصمد الذي ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ﴾ المقربين عنده ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الناشئ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ توفيقًا وتأييدًا ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ﴾ خلّص ﴿عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء والمرسلون المأمورون ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أي: بأن خوفوا عباد الله المنحرفين عن استقامة صراطه، وجادة توحيده من بطشه وانتقامه إياهم، وقولوا لهم نيابةً عن الله: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ﴾ يُعبد بالحق ﴿إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:2] عن مخالفة أمري وحكمي.

وكيف تشركون أيها المشركون ما لا يقدر على خلق أحقر الأشياء وأضعفها للقادر الحكيم الذي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ مع كمال عظمتها ورفعتها ﴿وَالأَرْضَ﴾ بكمال بسطتها، وإنما خلق ما خلق، وأظهر ما أظهر ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بانبساط نور الوجود الكائن الثابت في نفسه، وامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليهما، مع أنه على صرافة وحدته، وهما على عدميتهما الأصلية ﴿تَعَالَى﴾ وتقدس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:3] له شيئًا لا وجود له، ولا تحقق سوى الظلية والعكسية.

ولاسيما كيف يشركون أولئك الحمقى الضالون للقادر الذي ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ وأوجده على أحسن صورة، وأعدل تقويم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ دنيّة مهينة، لا تمييز لها أصلاً ولا شعور، وربّاها إلى أن صار ذا رشد وتمييز وكمال، وإدراك ودراية ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مجادل مبالغ في امتياز الحق من الباطل، والهداية من الضلال ﴿مُّبِينٌ﴾ [النحل:4] ظاهر البيان بإقامة الدلائل والبراهين القاطعة، وما هي إلّا من تربية مبدعها وخالقها القادر المقتدر بالإرادة والاختيار؟!.

﴿وَالأَنْعَامَ﴾ أيضًا ﴿خَلَقَهَا﴾ وأوجدها طفيلاً للإنسان؛ ليكون ﴿لَكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ تستدفئون به من الألبسة والأغطية المتخذة من أصوافها وأشعارها وأوبارها لدفع الحر والبرد ﴿وَمَنَافِعُ﴾[1] غير ذلك من الخباء والقباء وغيرهما ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:5] لتقويم مزاجكم وتعديلها من

(1) قال الشيخ كبرى: أي: لتنتفعوا بها حين اطلاعكم على صفاتها الحيوانية الذميمة التي هي مودعة في جبلتكم مما يخالف صفاتكم الروحانية الملكية، فتجتهدوا في تبديل الصفات الحيوانية الذميمة بالصفات الملكية الروحانية الحميدة احترازًا عن الاحتباس في حيزها واجتنابًا عن شبهتها بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:44].

لحومها وشحومها وألبانها.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وزينة وجاه بين أظهركم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وتجمعونها إلى المراح من المرعى وقت الرواح مملوءة الضروع والبطون ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:6] وترسلونها إلى المرعى وقت الصباح.

﴿وَ﴾ من أعظم فوائدها أنها ﴿تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أحمالكم التي تستثقلونها ﴿إِلَى بَلَدٍ﴾ بعيد ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ أي: لم يحصل لكم بلوغها إليها لولاها ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي: بالمشقة التامة، والعسر المفرط، فخلقها سبحانه تيسيرًا لكم وتسهيلاً، تتميمًا لتكريمكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ الذي ربّاكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق لكم، يسهل عليكم كل عسير ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل:7] لكم، يوفقكم ويهيئ أسبابكم؛ لتواظبوا على أداء ما أُفترض عليكم من كسب المعارف والحقائق الرافعة لكم إلى أرفع المنازل، وأعلى المراتب.

ثم أشار سبحانه أيضًا إلى ما يضركم، ويدفع أذاكم، ويرفع جاهكم تتميمًا لتعظيمكم وتربيتكم، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ إنما خلقها وأظهرها سبحانه ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَ﴾ تجعلوها ﴿زِينَةً﴾ لأنفسكم بين بني نوعكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَخْلُقُ﴾ لكم ربكم على مقتضى علمه بحوائجكم ومزيناتكم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:8] وتأملون أنتم لأنفسكم مما يعنيكم ويعينكم في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ
لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى

ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ [النحل: 9 – 15].

﴿وَ﴾ كما يدبر سبحانه أمور معاش عباده على الوجه الأليق الأحسن بحالهم، كذلك له أن يدبر أمور معادكم، بل هي أولى للتدبير؛ لذلك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: إرشادهم وهدايتهم إلى طريق مستقيم موصل إلى توحيده؛ ليصلوا إليه، ويفوزا بما وعدوا عنده ﴿وَ﴾ كيف لا يرشدهم سبحانه إلى سواء السبيل ﴿مِنْهَا﴾ أي: من السبيل ﴿جَائِرٌ﴾ مائل منصرف عن الحق وتوحيده على مقتضى أوصافه الجلالية المذلة المضلة تتميمًا للقدرة الكاملة، والسلطنة العامة الشاملة لكلا طرفي اللطف والقهر، والجمال والجلال ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ وأراد سبحانه هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:9] على مقتضى تجليات الأوصاف اللطفية الجمالية، المثمرة للّذة الدائمة، والسرور المستمر الغير المنقطعة، لكن اقتضى حكمته البالغة أن يكون جنابه رفيعًا متعاليًا عن أن يطّلع عليه واحد بعد واحدٍ؛ لذلك تجلى على بعض المظاهر بالأوصاف القهرية الجلالية المورثة للحزن الدائم، والألم المخلَّد.

وكيف لا يدبر سبحانه أمور عباده ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ محييًا لموات الأرض، مثل إحياء الروح لأراضي الأجساد؛ ليحصل ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون منه، أو تعصرونه من القصب والفواكه ﴿وَ﴾ يحصل ﴿مِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: أنواع النباتات المستخرجة من الأرض لرعي مواشيكم؛ إذ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:10] وتُسرحون دوابكم للرعي إلى أن يسمن فيؤكل.

وأيضًا ﴿يُنبِتُ لَكُم﴾ أي: لقوتكم المقوم لمزاجكم ﴿بِهِ الزَّرْعَ﴾ بأنواعها؛ لتتخذوا منها أخبازًا ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ للإدام ﴿وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ للتفكه والتقوت أيضًا ﴿وَ﴾ بالجملة: يخرج لكم به ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تتميمًا لأمور معاشكم، وتقويمًا لمزاجكم؛ لتفكروا في آلائه ونعمائه، وتتذكروا ذاته؛ كي تفوزوا بمعرفته وتوحيده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: إنعام هذه النعم العظام المذكورة ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة، وبينة واضحة لائحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:11] أي: يستعملون عقولهم في تفكر آلاء الله ونعمائه؛ ليواظبوا على أداء شكرها.

﴿وَ﴾ من آياته سبحانه المتعلقة لتدبير أحوالكم: إنه ﴿سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه وتستريحوا ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتعيشوا فيه وتكتسبوا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لإنضاج

ما تتقوتون، وإصلاح ما تتفكهون ﴿وَ﴾ سخر ﴿النُّجُومُ﴾ أيضًا؛ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، حال كون كل منها ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾[1] تابعاتٍ لحكمه وتقديره على تقدير النصب، أو مع أن الكل مسخرات في قبضة قضائه، يصرفها حسب إرادته ومشيئته على تقدير الرفع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: التسخير المذكور ﴿لَآيَةٌ﴾ أي: في كلٍ منها دليل واضح، وبرهان لائح ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:12] ويستدلون من الآثار إلى المؤثر، ومن المصنوعات إلى الصانع الحكيم.

﴿وَ﴾ سخرَ لكم أيضًا ﴿مَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أشكاله وطبعه على مقتضى أهويتكم وأمزجتكم من الحوائج المتعلقة لحظوظكم وترفهكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:13] ويتفطنون منها إلى كرامة الإنسان من بين سائر الأكوان، وإلى خلافته ونيابته عن الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ لكم ﴿الْبَحْرَ﴾ من كمال لطفه وتكريمه إياكم ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ وزينة من الجواهر النفيسة ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وتتزينون بها ترفهًا وتنعمًا ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: جواري مشققات للبحر، مسيرات لمن فيها على الماء ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجوده ما يعينكم، ويليق بكم من الحوائج والأرباح وغير ذلك ﴿وَ﴾ إنما سخر سبحانه ما سخر عليكم من البر والبحر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:14] رجاء أن تواظبوا وتداوموا على شكر نعمه، وتصرفوها طلبًا لمرضاته.

﴿وَ﴾ من رحمته ولطفه أيضًا ﴿أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي مستقركم ومنشؤكم ﴿رَوَاسِيَ﴾ مخافة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ وتتحرك ﴿بِكُمْ﴾ ولا يمكن استقراركم عليها لاضطرابها وتزلزلها؛ إذ هي في طبعها كرة حقيقية، ملقاة على الماء، مغمورة فيه، فلما ألقاها سبحانه عنايةً منه رواسي ثقالاً، صارت متفاوتة الأطراف في الثقل، فاستقرت وتثبتت ﴿وَ﴾ أيضًا أجرى لكم ﴿أَنْهَارًا﴾ عليها؛ كي يمكنكم الاستسقاء منها لدى الحاجة ﴿وَ﴾ عين لكم بين الجبال الراسيات ﴿سُبُلًا﴾ نافذات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:15] إلى ما

(1) قال في التأويلات: وهو خطاب كن وتسخيرها استعمالها على وفق الشريعة وقانون الطريقة لعالجه الطبيب الحاذق صاحب البصيرة والولاية كامل التصرف في الهداية مخصوص بالعناية.

تقصدون من البلدان البعيدة.

﴿ وَعَلَامَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ
غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ
قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾
لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا
سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ
ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾
[النحل: 16 – 26].

﴿وَ﴾ نصب لكم ﴿عَلَامَاتٍ﴾ دالة على مقاصدكم في البوادي والبراري بالتلال والوهاد ﴿وَ﴾ في البحار ﴿بِالنَّجْمِ﴾ أي: بالنجوم المتعارفة عند البحارين؛ إذ ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16] بها حين وقوعهم في لجج البحار، كل ذلك من الدلائل الدالة على وحدة الفاعل المختار، المتصف بجميع أوصاف الكمال، المنزه عن مشاركة الأضداد والأمثال، مبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ومخترع الكائنات بلا علل وأغراض على سبيل الفضل والإحسان.

﴿أَ﴾ تشركون مع الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لا شيء في الوجود سواه، ولا إله إلّا هو، يخلق ما يشاء على مقتضى جوده ورحمته، من لا يخلق شيئًا، بل هو من أدون المخلوقات ﴿فَمَن يَخْلُقُ﴾ أيها الحمقى ﴿كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ في الرتبة واستحقاق العبادة، ولم يتفطنوا بالفرق بينهما مع جلائه وظهوره، مع أنكم من زمرة العقلاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17] فطرتكم المجبولة على العلم والتمييز؟!.

﴿وَ﴾ كيف تشركون مع الله المنعم المفضل عليكم، مع أنكم ﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ

﴿اللهِ﴾[1] الفائضة عليكم، وآلاءه الواصلة إليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لكثرتها ووفورها، ومع ذلك أشركتم معه غيره، وكفرتم بنعمه، مع أن المناسب لكم الرجوع إليه، والإنابة نحوه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وآمن، وعمل صالحًا ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:18] يقبل توبتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم لو أخلصوا.

﴿وَاللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم بلا موافقة ألسنتكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:19] بألسنتكم بلا مطابقة قلوبكم، فعليكم أيها المؤمنون المنيبون أن تنيبوا نحو الحق سرًا وعلانية حتى لا تكونوا من المنافقين المخادعين مع الله.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المشركون المكابرون أن ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ المعبود بالحق آلهةً، وتعبدونها إفكًا كعبادته سبحانه، مع أنهم لا يستحقون الألوهية؛ إذ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ حقيرًا، وكيف بالعظيم، بل ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل:20] مخلوقون.

بل هم من أدون المخلوقات؛ لأنهم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي: جمادات لاشعور لهم أصلاً؛ لأنهم ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: غير ذي حس وحركة إرادية ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ شعور الحيوانات ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:21] أي: إلى أين يحشرون ويساقون من المرعى، فهم في أنفسهم أدنى وأخس من الحيوانات العجم، فكيف تتأتى منهم الألوهية المستلزمة للاطلاع على جميع المغيبات الجارية في العوالم كلها اطلاع حضور وشهود؟!.

بل ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم، وأظهركم في فضاء الوجود ﴿إِلَٰهٌ

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن النعمة نعمتين: أعطاف إعطائه ونعمة ألطافه، فنعمة أعطاف إعطائه ما يتعلق بوجود النعمة وهو على ضربين: نعمة ظاهرة، ونعمة باطنة، ونعمة ألطافه ما يتعلق بوجود المنعم وهو على ضربين: نعمة ذاته بالألوهية، ونعمة صفاته بالربوبية، وهي بلا نهاية فلا تعد ولا تحصى، وقال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبةً ودينًا ودنيا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وأصلًا وفصلًا، فنعمة النفس: الطاعات والإحسان والنفس فيهما تتقلب، ونعمة الروح: الخوف والرجاء وهو فيهما يتقلب، ونعمة القلب: اليقين والإيمان وهو فيهما يتقلب، ونعمة العقل: الحكمة والبيان وهو فيهما يتقلب، ونعمة المعرفة: الذكر والقرآن وهو فيهما يتقلب، ونعمة المحبة: الألفة والمواصلة والأمن من الهجران وهو فيهما يتقلب.

﴿وَاحِدٌ﴾ أحد صمد، لم يكن له كفء ولا شريك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، إنما يظهر وينكشف توحيده سبحانه لأولي العزائم والنهي، من أرباب المحبة والولاء في النشأة الأولى والأخرى ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لشرف اللقاء ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ بلقاء الله فيها ﴿وَهُم﴾ من شدة شكيمتهم، وكثافة حجبهم مع إنزال الكتب المبينة لأحوالها وأهوالها، والرسل المنبهين لهم عليها ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:22] مترددون عتوًا وعنادًا.

لذلك ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا على الله أن يعذبهم، مع ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الكفر والضلال، فيجازيهم على مقتضى علمه بحالهم، ولا يحسن إليهم سبحانه بدل إساءتهم؛ لأنهم مستكبرون ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:23] لاشتراكهم معه سبحانه في أخص أوصافه؛ إذ الكبرياء مخصوص به، لا يسع لأحد أن يشارك معه فيه.

﴿وَ﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُم﴾ على سبيل الاستفسار: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ما أنزل ربه إلَّا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل:24] أي: الأكاذيب والأرجفة التي سطرها الأولون فيما مضى من تلقاء نفوسهم.

وإنما قالوا ذلك وشاعوا به بين الأنام ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ وآثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ بلا تخفيف شيء منها ولا نقصان؛ ليؤاخذوا عليها ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ﴾ يحملوا أيضًا ﴿مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ من ضعفاء الناس بقولهم هذا إياهم، مع أنهم خالية الأذهان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق منهم بالقرآن وإعجازه، ومع ذلك لا يعذرون؛ لعدم التفاتهم إلى التأمل والتدبر حتى يظهر عليهم حقيته وبطلان قولهم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25] المضلون بضلالهم، والضالون بضلالهم، وعدم تأملهم وتدبرهم، مع أنهم مجبولون على التأمل والتدبر.

هذا التكذيب والإضلال، والتهكم والاستهزاء من الأمور الحادثة بين أولئك الهالكين في تيه الشرك والطغيان، بل من ديدنتهم القديمة، وعادتهم المستمرة؛ إذ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ واحتالوا لإضلال العوام، وبنوا أبنية رفيعة للصعود إلى السماء، والمقاتلة مع سكانها وإلهها، ثمَّ لما تم بنيانهم وقصورهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم﴾ أي: أتى أمره سبحانه بإهلاكهم وتعذيبهم بهدم بنائهم ﴿مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾

والأعمدة والأساس التي بُنيت عليها البناء، فتضعضعت وتحركت الدعائم ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته متمكنون مترفهون، فهلكوا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَتَاهُمُ العَذَابُ﴾ بغتةً ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:26] أماراتها قبل نزوله.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: 27 – 33].

﴿ثمّ﴾ بعد تعذيبهم في النشأة الأولى ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يخذلهم الله، ويرديهم بتكذيب كلام الله ورسوله ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون، المنهمكون في الغي والضلال ﴿تُشَاقُّونَ﴾ وتعادون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في حقهم وشأنهم المؤمنين، وتعارضون معهم بادعاء الألوهية لأولئك التماثيل العاطلة الباطلة، ادعوهم حتى ينجوكم ويخلصوكم من عذابي وبطشي ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ من الأنبياء والرسل، وخلفائهم الذين دعوهم إلى الإيمان فلم يؤمنوا، بل يكذبونهم وينكرون عليهم، وعلى دينهم ونبيهم حين أبصروا أخذَ الله إياهم شامتين لهم، متهكمين عليهم: ﴿إِنَّ الخِزْيَ﴾ أي: الذلة والصغار ﴿اليَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ المفرط المجاوز عن الحد نازلٌ ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [النحل:27] المستكبرين الذين كذبوا الرسل، وأنكروا الكتب، واستهزءوا معهم.

وهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ﴾ الموكلون عليهم حين معارضتهم بالقرآن،

وتكذيبهم إياه وبمن أُنزل إليه، مع كونهم ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ ومعرضيها على العذاب الأبدي، ثمّ لما عاينوا في النشأة الآخرة بحقيته وصدقه، ومطابقته للواقع ﴿فَأَلْقَوا السَّلَمَ﴾ أي: الانقياد والتسليم، مبرئين نفوسهم عن التكذيب والإساءة مع القرآن، قائلين: ﴿مَا كُنَّا﴾ في النشأة الأولى ﴿نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ أي: ما نريد ونعتقد الإساءة في حقه، فيقول الملائكة لهم على سبيل التهكم: ﴿بَلَى﴾ أنتم لا تسيئون الأدب مع الرسول والقرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بجميع ما كان ويكون ﴿عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 28] من الرد والإنكار والتكذيب، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثمّ قيل لهم زجرًا وقهرًا: ﴿فَادْخُلُوا﴾ أيها المشركون المستكبرون، المعاندون مع الله ورسوله ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل فرقة منكم من باب منها، على تفاوت طبقاتكم في موجباتها، وادخلوا أنواع عذابها ونكالها، حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مخلدين مؤبدين ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:29] جهنم البعد والخذلان التي هي منزل الطرد والحرمان.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارم الله، وحفظوا نفوسهم عن العرض على المهالك الموجبة لسخط الله وغضبه: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم لتربية دينكم، وتصفية مشربكم عن أكدار التقليدات والتخمينات ﴿قَالُوا﴾: أنزل ﴿خَيْرًا﴾ محضًا في النشأة الأولى والأخرى، أما في الأولى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ وعملوا الصالحات المقربة إلى الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ كاملة من العلوم والمعارف المثمرة للمكاشفات والمشاهدات ﴿وَ﴾ أما في الآخرة: فا ﴿لَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة للفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدرة المنتهى ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع الكمالات الأقصى، والدرجات العليا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:30] المتحفظين نفوسهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق.

دار الآخرة التي هي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مصونة عن أمارات الكثرة المشعرة للاثنينية ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مجردة عن جلباب التعينات العدمية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المتنشئة عن التجليات المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من مقتضيات الأوصاف اللطفية الحبية الجمالية ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:31] المائلين عن غير الله وسواه مطلقًا، الباذلين مهجهم في سبيله طوعًا، المنخلعين عن مقتضيات أوصاف بشريتهم إرادةً واختيارًا، الصابرين على ما جرى عليهم من القضاء تسليمًا ورضًا.

وهم ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون عليهم في نشأتهم، حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين عن خبائث الإمكان، ورذائل الخذلان والخسران، الناشئة من ظلمات الطبائع والأركان ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة المأمورون لقبض أرواحهم عند قبضها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ أيها الصابرون في البلوى، السائرون إلى المولى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي خير المنقلب والمثوى، وفوزوا بشرف اللقيا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:32] في النشأة الأولى من الإعراض عن مقتضيات الهوى، ومن الرضا بالقضاء، ومن الصبر على العناء، والشوق إلى الفناء.

ثمَّ قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا على المشركين: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون أولئك التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[1] يا أكمل الرسل؛ أي: يوم القيامة المعدة لتعذيبهم وانتقامهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إمهال هؤلاء الهالكين وإهمالهم في أمر الإيمان ﴿فَعَلَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ في زمن الأنبياء الماضين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ المجازي لهم على مقتضى إساءتهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:33] أي: يظلمون هم أنفسهم بعرضها على المهالك الموجبة أنواع العذاب والعقاب من تكذيب الرسل، وإنكار الكتب، وترك المأمورات، وارتكاب المنهيات.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

---

(1) قال في التأويلات: أي: جذبات الحق للوصول والخلوة التي لا يسعهم فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج حين بقي عند جبريل في سدرة المنتهى وعبر بالرفرف إلى قرب قاب قوسين، وبقي الرفرف ثمة فكان ينتظر أمر ربه بقوله تعالى: ادن مني فجذبة الأمر أنزله مقام أو أدنى.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: 34 – 39].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ عتوًا وعنادًا ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل:34] استكبارًا واستنكارًا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال، وشدة إنكارهم وشكيمتهم، متهكمين على وجه الاحتجاج: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الأفعال بالإرادة والاختيار، على زعمكم عدم عبادتنا لآلهتنا وأصنامنا ﴿مَا عَبَدْنَا﴾ ألبتة ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ إذ مراده مقضي حتمًا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا حَرَّمْنَا﴾ نحن ولا آباؤنا من البحائر وغيرها ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: بدون إذنه وإرادته ومشيئته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذ لا يعارض فعله هذا صورة احتجاجهم واستدلالهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل استدلال هؤلاء الطغاة الغواة، الهالكين في تيه الغفلة والعناد ﴿فَعَلَ الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأرسل عليهم رسلاً، فكذبوهم وأنكروا عليهم، فأخذهم الله بذنوبهم، فأهلكهم بأنواع العذاب والعقاب؛ لأن إرادة الله لم تتعلق بإيمانهم وهدايتهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ﴾ أي: ما على الرسل ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: تبليغ ما أرسلوا به ﴿الْمُبِينُ﴾ [النحل:35] أي: على وجه التوضيح والتبيين؛ لئلا يبقى لهم شك وتردد في سماعه، وأما قبولهم واتصافهم بها وهدايتهم، فأمرٌ استأثر الله به، ليس لهم أن يخوضوا فيه؛ لأنه خارج عن وسعهم وطاقتهم.

ثمّ فصل سبحانه ما أجمل بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الهالكة السالفة حين اختل أمور دينهم ﴿رَّسُولًا﴾ منهم، قائلاً لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المتصف بالوحدانية والفردانية، المستقل بالوجود والآثار المترتبة عليه، المنزه عن الشريك والأمثال ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1] أي: الآلهة المضلة التي أنتم تتخذونها من تلقاء

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن شريعة الأنبياء - عليهم السلام - إلى الخلق بأن يأمروهم بعبادة الله واجتناب طاغوت الهوى، وما يعبدون من دون الله ويعلموهم كيفية العبادة الخالصة عن شوائب الرياء والسمعة وكيفية الاجتناب عما سوى الله ليصلوا بهذين القدمين إلى حضرة الجلال، كما قال بعضهم: خطوتان وقد وصلت فالخطوة الأولى: عبادة الله بالتوحيد وهو التوجه

أنفسكم ظلمًا وزورًا، ثمّ لما بلغهم الرسول جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ بأن أراد هدايته فهداه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ﴾ أي: استمرت وثبتت ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وتمرنت بقلبه؛ لتعلق مشيئة الله بضلاله، وإن ترددتم فيه ﴿فَسِيرُوا﴾ أيها الشاكون المترددون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي مساكنهم ومنازلهم ﴿فَانظُرُوا﴾ واعتبروا من آثارهم وأطلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:36] المستهزئين للرسل والكتب.

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتريد هدايتهم، إنك لا تهدي من أحببت ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الحكيم الهادي لعباده على مقتضى علمه باستعداداتهم ﴿لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: لا يريد هداية من أراد ضلاله في سابق علمه، ولوح قضائه ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعدما أراد الله إضلالهم ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل:37] ينصرهم على الهداية، ويشفع لهم حتى ينقذهم على الضلال.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم، وشدة بغضهم وضغينتهم ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أغلظوا فيها وأكدوا، قائلين: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ ولا يحيي مرة أخرى ﴿مَن يَمُوتُ﴾ بأن زال الروح الحيواني عنه، ثمّ قال سبحانه رادًا لهم، وتخطئة على أبلغ وجه وآكده أيضًا: ﴿بَلَى﴾ يبعثون؛ إذ وعد الله البعث والحشر ﴿وَعْدًا﴾ صدقًا ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه إنجاز ما وعد ﴿حَقًّا﴾ حتمًا وفاءً لوعده، وإيفاءً لحكمه، مع أنه القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على كل ما دخل تحت حيطة إرادته ومشيته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:38] حق قدره، وقدر قدرته وسطوته وبسطته.

وإنما ينجز الوعد الموعود ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويوضح ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ بل يستبعدونه ويستحيلونه ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ له، وأنكروا عليه عنادًا ومكابرةً ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:39] في إصرار عدم وقوعه وتكذيبه.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ

إلى الله بالكلية طلبًا وشوقًا ومحبة، والثانية: الخروج عما سوى الله بالكلية صدقًا واجتهادًا بليغًا؛ لينالوا ما نال من قال لربه: كلي لكلك مشغول، فقال: كلي لكلك مبذول.

صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ
يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾
[النحل: 40 – 46].

وكيف تستبعدون أيها المنكرون أمثال هذا عن كمال قدرتنا وعلمنا وإرادتنا ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ وحكمنا حين تعلق إرادتنا ﴿لِشَيْءٍ﴾ أي: لإظهار شيء من الأشياء المثبتة في لوح قضائنا، وحضرة علمنا، أي: شيء كان عظيمًا أو حقيرًا ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أن يوجد ويتحقق في عالم الشهادة ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ﴾ على مقتضى صفتنا القديمة التي هي الكلام، فارضين وجوده وتحققه؛ إذ هو عدم صرف، ولا شيء محض: ﴿كُن﴾ كالمكونات الأخر ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل:40] بلا تراخ ومهلة وامتداد ساعة ولحظة، بل التلفظ بحرف التعقيب بين الأمر الوجودي الإلهي، وحصول المأمور المراد له سبحانه، إنما هو من ضيق العطف وضرورة التعبير، وإلَّا فلا ترتب بينهما إلَّا وهمًا؛ إذ الترتب إنما يحصل من توهم الزمان والآن، وعنده سبحانه لا زمان ولا مكان، بل له شأن لا يسع في زمان ومكان.

ثمَّ أشار سبحانه إلى علو درجة المؤمنين، وارتفاع شأنهم، ورفعة قدرهم ومكانهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان، حال كونهم سائرين ﴿فِي﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾ بعدما حصل لهم مرتبة التمكن والاطمئنان ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ بتسلط الأمارة عليهم زمانًا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ ونمكنهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: في نشأتهم الأولى ﴿حَسَنَةً﴾ أي: حصة كاملة، وحظًا وافرًا من المعارف والحقائق إلى حيث انخلعوا عن اللوازم البشرية بالمرة، وماتوا عن أوصاف البهيمية إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة لرفع الحجب، وكشف الغطاء والسدل ﴿أَكْبَرُ﴾ قدرًا، وأعظم شأنًا، وأعم لذةً ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:41] ويفهمون لذته بالذوق لمالوا إليه زيادة ميل، واجتهدوا نحوه زيادة اجتهاد، رزقنا الله الوصول إليه، والحصول دونه، وأذاقنا لذته.

وأيضًا ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من المصيبات والبليات، مسترجعين إلى الله في جميع الحالات ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا على غيره من الوسائل والأسباب

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:42] في جميع شئونهم وتطوراتهم.

﴿وَ﴾ كيف يستبعدون رسالتك يا أكمل الرسل أولئك المشركون المعاندون؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ للرسالة العامة رسلاً ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أمثالك ﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ شعائر الدين والإيمان، وننزل عليهم الكتب المبينة لأحكامها، فإن لم يقبلوا منك، ولم يعتقدوا صدقك، فقل لهم: ﴿فَاسْأَلُوا﴾ أيها المكابرون المعاندون، الجاهلون بحال من مضي من الأنبياء ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ والعلم منكم، وهم الأحبار والقسيسون ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:43] صدقه ومطابقته للواقع.

وكما أيدنا الرسل والأنبياء الماضين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ اللائحة ترويجًا لما جاءوا به، وأرسلوا معه؛ ليبينوا ويوضحوا بها أحكام أديانهم ﴿وَ﴾ كذلك أيضًا ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الذِّكْرَ﴾ أي: الكتاب المعجز المشتمل على شعائر الإسلام وأحكامه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المتوغلين في الغفلة والنسيان ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من عند ربهم على مقتضى أزمانهم وأطوارهم من الأوامر والنواهي، والآداب والأخلاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ بعد تبليغك إياهم، وتبيينك لهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [النحل:44] في آياته وأحكامه، ويتأملون في حكمه ومرموزاته؛ كي يتفطنوا إلى معارفه وحقائقه، وكشوفاته وشهوداته الموعودة فيه.

ثمّ قال سبحانه تهديدًا على أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن طريق الحق عتوًا وعنادًا: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ واحتالوا لهلاك الأنبياء، سيما معك يا أكمل الرسل، ولم يخافوا ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ﴾ القادر الغالب على الانتقام ﴿بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بغتةً، حال كونهم بائتين في مراقدهم ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ هم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:45] أماراتها ومقدماتها.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب وهم ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ وتحركهم دائرين مترددين ﴿فَمَا هُم﴾ حين أخذه ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل:46] مقاومين قادرين على دفع قهر الله وعذابه.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ

---

(1) فيما يستمعون من بيان القرآن والأحكام منكم على أنك أمي ما قرأت الكتب المنزلة، ولا تعلمت العلوم وإنما يتبين لهم من نور الذكر يلازمون الذكر ويواظبون عليه ليصلوا إلى مقام المذكورين في متابعتك ورعاية سنتك. [التأويلات النجمية].

يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: 47 – 55].

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ وتنقص من أموالهم وأولادهم على سبيل التدريج إلى أن يستأصلهم بالمرة ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أيها المجترئون على الله ورسوله، المسيئون الأدب معهما ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق، لا يعاجلكم بالعذاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:47] يمهلكم ويؤخر انتقامكم رجاء أن تتذكروا وتتعظوا.

﴿أَ﴾ يصرون ويستمرون أولئك المشركون المسرفون على الشرك والنفاق ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا نظر العبرة والاستبصار ﴿إِلَى﴾ انقياد جميع ﴿مَا خَلَقَ اللهُ﴾ وأوجده وأظهره من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا لحكمه وأمره ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ أي: يميل وينقلب ﴿ظِلَالُهُ﴾ بانقلاب الشمس وحركتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ مرة ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ أخرى، على مقتضى اختلاف أوضاع الشمس، حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين متذللين خاضعين، واضعين جباهم على تراب المذلة إطاعةً وانقيادًا ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَهُمْ﴾ في جميع حالاتهم وتقلباتهم ﴿دَاخِرُونَ﴾ [النحل:48] صاغرون ذليلون، خائفون من جلال الله وكبريائه، مستوحشون على سطوة قهره، وصولة استيلائه.

﴿وَ﴾ كيف يستكبرون أولئك المشركون المنكرون عن انقياد الله وإطاعته؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره من الأظلال الهالكة، والتماثيل الباطلة ﴿يَسْجُدُ﴾ ويتذلل طوعًا وطبعًا جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ كذا جميع ﴿مَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ تتحرك وتخرج من العدم نحو الوجود بامتداد أظلال الأوصاف الإلهية، ورش رشحات زلال وجوده عليها ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ المهيمون المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله ﴿وَهُمْ﴾ من غاية قربهم، وتنزههم عن العلائق المبعدة عن الله، وتجردهم عن أوصاف

الإمكان مطلقاً ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] [النحل:49] عن عبادة الله، والتذلل نحوه، فكيف أنتم أيها الهلكي الغرقى، المنغمسون في بحر الغفلة والضلال.

وإنما يسجد أولئك الساجدون المتذللون، لأنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ القادر على الإنعام والانتقام أن يرسل عليهم عذابًا ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لأنهم مقهورون تحت قبضة قدرته ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:50] ويجتنبون عما ينهون.

﴿وَ﴾ كيف لا تمنعون عن إثبات الشركاء لله الواحد الأحد الصمد أيها المشركون المعاندون بعدما ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ عز شأنه، وجل بركاته: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المكلفون بالإيمان والعرفان ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مستحقين للعبادة والانقياد، فكيف الزيادة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ يُعبد بالحق، يُرجع نحوه في الوقائع، ويُفوض إليه الأمور كلها، وما هو إلّا أنا ﴿فَإِيَّايَ﴾ لا إلى غيري من مخلوقاتي ومصنوعاتي ﴿فَارْهَبُونِ﴾ [النحل:51] أي: خصوني بالخوف والرجاء، وارجعوا إليّ عند هجوم البلاء، ونزول القضاء؛ إذ لا راد لقضائي إلّا فضلي وعطائي.

﴿وَ﴾ كيف لا يُرجع إليه، ويُستغاث منه، مع أن ﴿لَهُ﴾ ومنه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات التي هي الفواعل والمفيضات المؤثرات ﴿وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة من الاستعدادات التي هي القوابل المتأثرات من العلويات ﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿الدِّينُ﴾ أي: الإطاعة والانقياد، والتوجه والرجوع ﴿وَاصِبًا﴾ دائمًا حتمًا لازمًا ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ المحيط للكل

(1) قال في التأويلات: بل يتذللون لكل شيء من بين يدي صانعه ساجد سجود يلائم حاله كما أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحًا يلائم حاله، فتسبيح بعضهم بلسان المقال، وتسبيح بعضهم بلسان الحال، والله يعلم لسان حالهم كما لسان قالهم، واعلم أن الله تعالى أعطى لكل شيء من أصناف المخلوقات من الحيوانات إلى الجمال سمعًا وبصرًا ولسانًا وفهمًا به يسمع كلام الحق ويبصر شواهد الحق ويكلم الحق ويفهم إشارته، كما أخبر الله تعالى عن حال السموات والأرض وهما في العدم أعطاهما سمعنا به سمعا قوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:11] وأعطاهما فهمًا به فهما كلامه وأعطاهما لسانًا به قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان ويسجده بذلك الطوع، فمن هذا اللسان الملكوت بمعجزة النبي ﷺ كانت الحصى تسبح له في يده، وكذلك الأحجار الثلاثة كلمت داود عليه السلام، وأوبت الجبال معه لما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44].

إحاطة شهود وحضور ﴿تَتَّقُونَ﴾ [النحل:52] وتحذرون أيها الجاهلون بحق قدره، مع أنه لا ضار سواه، ولا نافع غيره؟!.

﴿وَ﴾ واعلموا ايها المجبولون على التكليف أن ﴿مَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ واصلة لكم، نافعة لنفوسكم، مسرة لقلوبكم ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ المصلح لأحوالكم، وصلت إليكم امتنانًا عليكم وتفضلاً؛ إذ لا نافع إلّا هو ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ المشوش لنفوسكم، القاسي لقلوبكم ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:53] تتضرعون وتستغيثون ليدفع عنكم أذاكم؛ إذ لا ضار أيضًا إلّا هو.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ بعد استغاثتكم ورجوعكم نحوه؛ إذ لا كاشف سواه ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ أي: فجاء طائفة ﴿مِّنكُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي يدفع أذاهم، ويكشف ضرهم ﴿يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:54] له غيره من الأصنام والتماثيل العاطلة التي لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فكيف لغيرهم؟!.

وإنما فعلوا ذلك وأشركوا ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم، ولم يقوموا بشكرها عنادًا ومكابرةً، بل أسندوها إلى ما لا شعور لها أصلاً ظلمًا وزورًا ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها المشركون بنا، الكافرون لنعمنا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:55] ما تكسبون لنفوسكم من العذاب المخلد، والعقاب المؤبد.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى
ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم
مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ
ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾[النحل: 56 – 64].

والعجب كل العجب ينكرون بنا، مع أنا متصفون بجميع أوصاف الكمال، منعمون لهم بالنعم الجليلة الجزيلة ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويعينون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآلهتهم التي لا يعلمون ولا يفهمون منهم حصول الفائدة لهم، وجلب النفع إليهم أصلاً؛ إذ هي جمادات نحتوها بأيديهم ﴿نَصِيبًا﴾ أي: حظًا كاملاً ﴿مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[1] وسقنا نحوهم جهلاً وعنادًا، ومع ذلك خيلوا أنهم لا يسألون عنها، ولا يؤاخذون عليها، بل يثابون بها على زعمهم الفاسد، ورأيهم الكاسد ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيها المسرفون ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[النحل:56] علينا بإثبات الشركاء، وإسناد نعمنا إليهم افتراءً ومراءً.

﴿وَ﴾ من جملة مفترياتهم بالله المنزه عن الأشباه والأولاد: إنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ ويثبتون ﴿لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ حيث يقولون: الملائكة بنات الله، مع أنهم يكرهونها لأنفسهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا ﴿وَلَهُم﴾ أي: يثبتون لأنفسهم ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:57] من البنين.

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أي: بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار وجهه أسود من غاية الحزن والكراهة ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿كَظِيمٌ﴾ [النحل:58] ممتلئ من الغيظ والبغض على الزوجة والوليدة.

وصار من شدة الغم والهم إلى حيث ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ ويستتر ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ استحياءً ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: الوليدة المبشرة بها، وتردد في أمرها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان ومذلة ﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ ويخفيه ﴿فِي التُّرَابِ﴾ غيرةً وحميةً ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:59] لأنفسهم ما يشتهون، ولله المنزه عن الولد ما يكرهون.

ثم قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لعرض الأعمال على الله والجزاء منه على مقتضاها ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ في حق الله المنزه عن الأهل والولد، سيما نسبتهم إليه ما يستقبحه نفوسهم من إثبات البنات له، تعالى عما يقول الظالمون علوًا

---

(1) قال في التأويلات: إلى أصحاب النفوس والأهواء أنهم يجعلون مما رزقهم الله من الطاعات نصيبًا بالرياء لمن لا علم لهم بأحوالهم شرهًا لنفوسهم بحسبان رفعة منزلتهم عندهم وهم غافلون فارغون عن توهمهم وافترائهم في نفوسهم عليهم.

كبيرًا ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ هو الغني عن العالم وما فيها، فكيف الزواج والإيلاد، واللذين هما من أقوى أسباب الإمكان المنافي للوجوب الذاتي الذي هو من لوزام الألوهية والربوبية ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المتفرد، المنيع ساحة عزته عن الاحتياج إلى غيره مطلقًا، فكيف إلى الزوجة والولد ﴿الْحَكِيمُ﴾ [النحل:60] المتصف بكمال الحكمة المتقنة، كيف يختار لذاته ما لا يخلو عن وصمة النقصان؟!.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿النَّاسَ﴾ الناسين عهود العبودية على مقتضى عدله وانتقامه ﴿بِظُلْمِهِم﴾ ومعاصيهم الصادرة عنهم دائمًا ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على وجه الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ذي حركة تتحرك عليها؛ إذ ما من متحرك إلّا وينحرف عن جادة العدالة كثيرًا ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويمهلهم على مقتضى فضله وحكمته ولطفه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: سمّاه الله وعينه في علمه لموتهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى المبرم المقضى به ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] [النحل:61] أي: لا يسع لهم الاستئخار والاستقدام، بل لا بدّ أن يموتوا فيه حتمًا مقضيًا.

﴿وَ﴾ من خبث باطنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ وينسبون ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأولاد ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يستقبحون لنفوسهم، وهو إثبات البنات له سبحانه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ تصريحًا وتنصيصًا ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي: بأن لهم المثوبة العظمى، والدرجة العليا عند الله، بل ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا عليهم وحتمًا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: جزاؤهم مقصورٌ على النار، مخلدون فيها ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:62] في العذاب، مقدّمون على جميع العصاة والطغاة الداخلين في النار، المجزيين بها؛ لاستكبارهم على الله ورسله.

(1) قال الشيخ نجم الدين: فتأخير أهل السعادة وأرباب السلوك إلى أجل سماه الله بحكمة وسعة في إفناء كل صفة من صفات النفس بتبديلها بصفات القلب والروح في حينه وأوانه، فإن صفات النفس سلم إلى القلب والروح به تصعد النفس إلى عالم الروحانية بقدم إفناء صفاتها في صفات الروحانية بتبديلها بها وتأخير أهل الشقاوة وأصحاب النار إلى أجل سماه الله بحكمته وسنته في إفناء كل صفة من صفات الروحانية بتبديلها بصفات النفسانية الحيوانية في حينه وأوانه، وأن الروح تسلم هذه الصفات وتنزل إلى سفل الحيوانية حتى تنخرط في سلك ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179].

﴿تَاللَّهِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلاً ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ مضوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ حين فشا الجدال والمراء بينهم، فانحرفوا عن جادة الاعتدال، وأيدنا الرسل بالكتب المبينة لطريق العدالة والاستقامة، فبينوا لهم على أبلغ وجه ﴿فَزَيَّنَ﴾ وحسّن ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ التي كانوا عليها، فأصروا على أعمالهم، فلم يقبلوا قول الأنبياء؛ لذلك نزل عليهم من العذاب ما نزل في الدنيا، وسينزل في الآخرة بأضعافه وآلافه ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ أي: متولي أمور هؤلاء عنهم ﴿الْيَوْمَ﴾ لذلك لم يقبلوا قولك، ولم يسمعوا بيانك، بل أصروا على ما عليه أسلافهم من الغواية والضلالة ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا مثل أسلافهم، بل أشد منهم ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَلِيمٌ﴾ [النحل:63] مؤلم أشد إيلام؛ لأن بيانك وتبليغك أكمل من بيان سائر الأنبياء.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها تلك الكتب ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ وتوضح ﴿لَهُمُ﴾ أي: للناس الأمر ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: التوحيد الذاتي وأحوال النشأة الأخرى، والمكاشفات والمشاهدات الواقعة فيها ﴿وَ﴾ أنزلناه أيضًا ﴿هُدًى﴾ أي: هاديًا، يهديهم إلى التوحيد ببيان براهينه وحججه الموصلة إليه بالنسبة إلى أرباب المعاملات والمجاهدات، من الأبرار السائرين إلى الله بارتكاب الرياضات القالعة لدرن الإمكان، ورين التعلقات.

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: كشفًا وشهودًا بالنسبة إلى المجذوبين المنجذبين نحو الحق، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم بغتة، بلا صنعٍ صدر عنهم، وأمرٍ ظهر منهم، بل جذبهم الحق عن بشريتهم، وبدّلهم تبديلاً، كل ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:64] ويوقنون بتوحيد الله وصفاته الذاتية، ويتأملون في آثار مصنوعاته تأملاً صادقًا، ويعتبرون منها اعتبارًا حقًّا إلى أن ينكشفوا ويفوزوا بما فازوا، وينالوا بما نالوا، وليس وراء الله مرمى ولا منتهى.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (66) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ
لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ
لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا
ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: 65 – 71].

﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: الطبيعة الهيولانية ﴿مَاءً﴾ أي: معارف وحقائق وعلومًا لدنية ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة الهيولانية ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعدما كانت عدمًا صرفًا، فاتصفت بالعلوم والإدراكات الجزئية، وترقت منها متدرجًا إلى أن وصلت إلى مرتبة التوحيد المسقط للإضافات مطلقًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التبيين والتذكير ﴿لآيَةً﴾ دلائل وشواهد دالة على توحيد الحق ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:65] سمع قبول وتأمل وتدبر.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيضًا أيها المتأملون المتدبرون ﴿فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ لو تعتبرون بها، وتتفكرون فيها حق التفكر والتدبر لانكشفتم بعجائب صنعنا، وكمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا، وحيطة علمنا وإرادتنا؛ إذ ﴿نُسْقِيكُم﴾ ونُشربكم ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي: مما في بطون بعض الأنعام مستخرجًا ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾ أي: أخلاط وفضلات مستقرة في كرشها ﴿وَدَمٍ﴾ نجس سائل، سارٍ في العروق والشرايين ﴿لَّبَنًا﴾ طاهرًا ﴿خَالِصًا﴾ صافيًا عن كدورات كلا الطرفين، بحيث لا يشوبه شيء منهما، لا من لون الدم، ولا من ريح الفرث ﴿سَائِغًا﴾ سهل المرور والانحدار، هنيئًا مرتيًا ﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:66] بلا تعسر لهم في شربه ولا كلفة.

﴿وَ﴾ نسقيكم أيضًا أيها المعتبرون ﴿مِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ بحيث ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ أي: من عصير كل منهما ﴿سَكَرًا﴾ خمرًا، يترتب على شرب السكر المسكر، وهو وإن كان حرامًا شرعًا، إلا أنه يدل على عجائب صنع الله، وبدائع حكمته، وغرائب إبداعه واختراعه. ﴿وَ﴾ تتخذون من كل منهما ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب، والدبس والخل، وأنواع الأدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿لآيَةً﴾ دالة على كمال قدرة الله

وحكمته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:67] أي: يستعملون عقولهم بالنظر والتفكر في آلاء الله ونعمائه؛ كي يتفطنوا إلى وحدة ذاته.

﴿وَ﴾ من عجائب المبدعات، وغرائب المخترعات التي يجب العبرة والاعتبار عنها: إنه ﴿أَوْحَىٰ﴾ وألهم ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾ الضعيف المنحول المستحقر إظهارًا لكمال قدرته وحكمته ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ أي: بأن اتخذي - أنثها باعتبار المعنى، وإن كان لفظ النحل مذكرًا - ﴿مِنَ﴾ شقوق ﴿الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ تأوين إليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِنَ﴾ شقوق ﴿الشَّجَرِ﴾ في الآجام ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:68] ويبنون لك من الأبنية والأماكن، واصنعي فيها بإلهام الله إياكِ بيوتات من الشمعة المتخذة من أنواع الأزهار والنباتات التي لا علم لنا بتعيينها وإحصائها كلها مسدسات، متساويات الأضلاع والزوايا، بحيث لا تفاوت بين أضلاعها وزواياها أصلاً، بحيث عجز عن تصويرها حذّاق المهندسين، فكيف عن تحقيقها وكنهها، تاهت في بيداء ألوهيته أنظار العقل وآراؤه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم بناؤك ﴿كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي ألهمناك أكلها ﴿فَاسْلُكِي﴾ في اتخاذ العسل منها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: السبل التي ألهمك ربك بسلوكها على وجهها بلا انحراف واعوجاج ﴿ذُلُلًا﴾ مسخرة في حكمه بلا تصرف صدرت عنك.

ثم لما عملتْ على مقتضى ما أوحيت وألهمت ﴿يَخْرُجُ﴾ لكم أيها المكلفون بالإيمان والمعارف ﴿مِن بُطُونِهَا﴾ أي: بطون البيوتات ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾[1]

---

(1) قال روزبهان: شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة، ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده.

أبيض وأسود، وأخضر وأصفر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ عن الأمراض البلغمية بالأصالة، وعن غيرها بالتبعية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإلهام والوحي والخطاب على الزنبور الضعيفة بأوامر عجزت عنه فحول العقلاء، الكاملين في القوة النظرية والعلمية، وامتثالها وصنعها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها ﴿لَآيَةً﴾ أي: دليلاً واضحًا، وبرهانًا قاطعًا لائحًا على قدرة القادر العليم، والصانع الحكيم الذي ألهمها وأوصاها ما أوصاها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:69] ويتدبرون في الأمور، ويتعمقون فيها متدبرين في أنيتها؛ كي يصلوا إلى لميتها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر للإحياء والإماتة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إظهارًا إبداعيًا، وإيجاءً اختراعيًا مقدرًا مدة معينة لبقائكم في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء المدة المقدرة ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يميتكم ويفنيكم ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يقدر لبقائه في هذه النشأة مدة متطاولة، بحيث ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وأخسّه وأسوئه، وإنما يرد بعض الناس إليه ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ ويفهم ﴿بَعْدَ﴾ تعلق ﴿عِلْمٍ﴾ منه بمعلومٍ مخصوصٍ ﴿شَيْئًا﴾[1] من أحوال ذلك المعلوم؛ يعني: يرجع إلى مرتبة الطفولية بعد كمال العقل، وإنما رده سبحانه إظهارًا للقدرة الكاملة، وتذكيرًا وعبرةً للناس؛ لئلا يطلبوا من الله طول الأعمار، وبُعد الآجال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:70] مقدر مقتدر للأصلح لهم تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَاللَّهُ﴾ المقدر لمصالحكم أيضًا ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ بأن

---

(1) في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علمًا واحدًا هو علمه بالله تعالى فهو أجلّ العلوم كما أن الله تعالى أجلّ المعلومات؛ يعني أن أجلّ العلوم هو ما تعلّق بأجلّ المعلومات، وأمّا ما عاده مما تعلّق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوّف أجلُّ العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلِّقة بالأكوان بل كانت عُلوية متعلِّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوّف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما نُكِّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتّحد العلم اتّحد الأشياء ولمّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خُلقت كتلوّن زوال وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

قدر للبعض غنى، وللبعض فقرًا، وللبعض كفايةً، على حسب تفاوت مراتبهم واستعداداتهم في علم الله، ولوح قضائه، وقدر البعض مالكًا للبعض، والبعض مملوكًا له ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ بسعة الرزق والبسطة من الموالي والملاك ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ أي: بعض مارزقهم الله ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المماليك بأن يقدّر للماليك في قسمة الله رزق، بل ﴿فَهُمْ﴾ أي: المماليك والموالي ﴿فِيهِ﴾ أي: في تقدير الرزق وقسمته ﴿سَوَاءٌ﴾ أي: كما قدّر للمُلاك قدّر للمماليك أيضًا، غاية ما في الباب: إن الرزق المقدر للمماليك إنما يصل إليهم من يد الموالي ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل:71] ينكرون ويكفرون بإسناد أرزاق المماليك إلى الموالي، لا إلى الله الرازق لجميع العباد.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل: 72 – 77].

﴿وَاللهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم، وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً، تستأنسون بهن، وتستنسلون منهن ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ ليخلفوا فيكم، ويحيوا أسماءكم ﴿وَ﴾ جعل لكم من أبنائكم وبناتكم ﴿حَفَدَةً﴾ يسرعون إلى خدمتكم وطاعتكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَزَقَكُم﴾ الله تفضلاً عليكم وامتنانًا ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المقوية المقومة لأمزجتكم

وبنيتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله، وتداوموا الميلَ إلى جنابه، وتلازموا شكرَ نعمه ﴿أَ﴾ تتركون متابعة الحق الحقيق بالتبعية، وهو القرآن المعجز، والرسول المبين له ﴿فَبِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو الأصنام والأوثان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ويعبدون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بِنِعْمَةِ اللهِ﴾ المنعِم المكرِم بأنواع الكرم ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:72] حيث صرفوها إلى خلاف ما أُمروا بصرفها؛ إذ إعطاء النعم إياهم إنما هو لتقوية طاعة الله، وكسب معارفه وحقائقه، لا لعبادة الأصنام والأوثان الباطلة.

﴿وَ﴾ من خبث باطنهم، وثمرة كفرانهم نعم الله أنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ المالك لأزمة الأمور الجارية في خلال الزمان والدهور ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ معنويًا روحانيًا فائضًا ﴿مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات على مقتضى الجود الإلهي ﴿وَ﴾ لا رزقًا صوريًا جسمانيًا معنويًا؛ لاكتساب المعارف الروحانية، مستخرجة من ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عالم الهيولي والطبيعة ﴿شَيْئًا وَ﴾ هم أيضًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:73] لأنفسهم، فكيف لغيرهم؟!.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ ولاتثبتوا أيها الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿لِلهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأشباه ﴿الأَمْثَالَ﴾ إذ لا مثل ولا شبه ولا كفء، فكيف يشاركون له دونه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع الكوائن والفواسد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع أحوالكم، وأحوال معبوداتكم، وما جرى عليكم وعليهم ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الغافلون الجاهلون بحق قدره ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:74] منه شيئًا، فكيف تضربون له مثلاً؟!.

بل ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ العالم بجميع السرائر والخفايا ﴿مَثَلاً﴾ لنفسه، ولمن أثبت المشركون له سبحانه شريكًا من الأصنام والأوثان، مثّل سبحانه شركاءهم ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ رقيقًا لا مكاتبًا ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التصرف في مكاسبه بغير إذن مولاه ﴿وَ﴾ مثّل سبحانه نفسه ﴿مَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ يعني: من أحرارنا لأرقائهم تفضلاً وإحسانًا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً وافرًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾ ويتصرف ﴿مِنْهُ﴾ أي: من رزقه وكسبه ﴿سِرًّا﴾ بحيث لا يطلَع على إنفاقه أحد، حتى الفقراء المستحقون ﴿وَجَهْرًا﴾ وعلانية على رءوس الملأ.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الأحرار المتصرفون أموالهم بالاستقلال والاختيار، وأولئك العبيد المعزولون عن التصرف رأسًا ﴿الْحَمْدُ لِلهِ﴾ على ما أعطانا عقلاً نجزم به عدم المساواة بين الفريقين، ونميز به الحق عن الباطل، والهداية عن الضلال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:75] الفرق بين كلا الفريقين؛ لعدم صرفهم نعمة العقل إلى ما خُلق لأجله، وهو الامتياز المذكور.

﴿وَضَرَبَ اللهُ وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿مَثَلاً﴾ لنفسه، ولتلك المعبودات الباطلة، فقال: مثَلُنا ومثَلُهم مثل ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي: أخرس وأصم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التفهم والتفهيم ﴿وَ﴾ كيف يقدر على النفع للغير؛ إذ ﴿هُوَ﴾ في نفسه ﴿كَلٌّ﴾ ثقل ﴿عَلَى مَوْلاهُ﴾ أي: حافظه ومولي أموره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ ويصرفه لطلب المهام ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ نجحٍ ونيلٍ، وهو مثل الأصنام العاطلة الكليلة التي لا خير فيها أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ أيها العقلاء المميزون ﴿هُوَ﴾ أي: هذا الموصوف بالأوصاف المذكورة ﴿وَمَن﴾ هو ذو منطق فصيح معرب ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وينال بالخير والحسنى أينما توجهه بنفسه ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:76] معتدلٍ مائلٍ عن كلا طرفي الافراط والتفريط المذمومين، وهو مثل لله الواحد الأحد الصمد، المتصرف المستقل في ملكه بالإراده والاختيار.

ثمّ أشار سبحانه إلى علو شأنه، وسمو برهانه، وتخصصه باطلاع المغيبات التي لا اطلاع لأحدٍ عليها، فقال: ﴿وَلِلهِ﴾ خاصةً واستقلالاً ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: ما فيها من جنود الله ومخلوقاته ﴿وَ﴾ غيب ﴿الأَرْضِ﴾ أي: ما عليها أيضًا من جنوده، لا اطلاع لأحدٍ منّا عليها ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ الموعودة، وقصة وقوعها وقيامها بالنسبة إلى قبضة قدرته ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ أي: كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها في القرب والدنوّ ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: بل هو أقرب من رجع الطرف؛ إذ الآن فيه متحقق في سرعة نفوذ قضاء الله بعد تعلق إرادته، الآن موهوم مخيل؛ إذ لا تراخي بين الأمر الألهي ووقوع المأمور المراد له إلّا وهمًا على ما مر في تفسير قوله سبحانه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:3]، ولا يستبعد عن الله سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ داخلٍ في حيطة حضرة علمه وقدرته ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:77] لاينتهي قدرته دون مقدورٍ أصلاً.

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ

بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ
إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم
مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ
﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[النحل: 78 – 85].

﴿وَ﴾ كيف ينتهي قدرته؛ إذ ﴿اللهُ أَخرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وأنتم خاوون عن العلوم كلها، بحيث ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من المعلومات أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أسبابًا وأدوات تعلمون بها أنواعًا من العلوم، هيأ لكم ﴿السَّمْعَ﴾ لإدراك المسموعات الجزئية ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ لإدراك المبصرات الجزئية ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ لإدراك الكليات والجزئيات، والمناسبات والمباينات الواقعة بين العلوم والإدراكات، كل ذلك بقدرة الله وإرادته، وفضله وجوده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] [النحل:78] يعني: رجاء أن تعدُّوا نِعَمَ منعمكم عليكم في شئونكم وتطوراتكم، وتواظبوا على شكرها؛ كي تعرفوا ذاته، وتصلوا إليه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ﴿إِلَى﴾ جنس ﴿الطَّيْرِ﴾ كيف صارت ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللاتٍ للطيران والسيران بريشات واضحة ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء المتباعد عن الأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ بلا علاقةٍ ودعامةٍ ﴿إِلَّا اللهُ﴾ المتفرد بالقدرة التامة الكاملة

---

(1) أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته. [العرائس].

على أمثال هذه المقدورات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الشئون والتطورات المختلفة، والتسخيرات والتذليلات للطير ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعات على كمال علم الله وقدرته وإرادته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:79] بتوحيد الله، ويعتقدون اتصافه بجميع أوصاف الكمال.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أي: من جملة مقدرواته المتعلقة بأمور معاشكم: إنه جعل لكم ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ التي بنيتم بأيديكم بإقدار الله وتمكينه وتعليمه إياكم ﴿سَكَنًا﴾ أي: مسكنًا تسكنون فيها، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، والآجر والخشب ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: تحملونها وتنقلونها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وترحالكم من مكانٍ إلى مكانٍ ﴿وَ﴾ كذا ﴿يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وحضركم ﴿وَ﴾ جعل لكم أيضًا ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا﴾ هي للضائنة والغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ هي للإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ هي للمعز ﴿أَثَاثًا﴾ أي: ما يُلبَس ويُفرَش ﴿وَ﴾ صار ﴿مَتَاعًا﴾ لكم، تتمتعون بها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:80] أي: إلى مدة متطاولة من الزمان.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الأبنية والشجر والجبال وغيرها ﴿ظِلَالًا﴾ تتفيئون وتستظلون به من حرِّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ أيضًا ﴿مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: كونًا، تسكنون بها لدفع البرد ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿سَرَابِيلَ﴾ أي: أثوابًا وأكسية وأغطية متخذة من الصوف والقطن، والكتّان والحرير وغيرها ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي: تحفظكم من شدة الحر ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ أي: الدروع والجواشن والسربالات ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ عند الحراب والقتال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما ذُكر من أنواع النعم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:81] أي: تنقادون وتطيعون، وتسلّمون أموركم كلها، وتتخذونه وكيلاً.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكم الله بعدما تلوتَ عليهم يا أكمل الرسل ما تلوتَ من أوامره وأحكامه، ولم يقبلوا منك الحق، لا تبالِ بهم وبإعراضهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:82] الموضح، وقد بلَّغتَ، وعلينا الحسابُ والجزاءُ بالعذابِ والعقابِ.

وكيف لا يحاسبون ولا يعاقبون أولئك المشركون، إنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي عدّها وهيأها لهم ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ من خبث بواطنهم بإسنادها إلى شركائهم وشفعائهم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ أي: عرفائهم وعقلائهم الذين يعرفون النعمة والمنعم، ثم ينكرون إنعامه، وأتباعهم؛ أي: ضعفاؤهم في العقل والتميز كلهم هم ﴿الْكَافِرُونَ﴾

[النحل:83] الجاحدون لله وإنعامه، يجازون على مقتضى جحودهم وإنكارهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم القائم بأمرهم، المشرف الناظر بحالهم من قِبَل الحق، يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، ويوم العرض والجزاء ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يُمهلون للاعتذار، ولا يُقبل منهم إن اعتذروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[1] [النحل:84] ويسترضون من العتبى، وهي الرضا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على المهالك، بالخروج عن حدود الله الموضوعة فيهم ﴿الْعَذَابَ﴾ الموعود لهم بألسنة الرسل والكتب ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: يتيقنوا أو يتحققوا ألّا مخلِّص لهم منه، ولا تخفيف عنهم بشفاعة أحد ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل:85] يُمهلون؛ ليتداركوا ما فوتوا من الإيمان والإطاعة.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: 86 – 91].

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ حين يأسوا وقنطوا من شفاعتهم

---

(1) قال في التأويلات: يعني: ولا يتكلفون أن يعرفوا ربهم، وذلك لأن الدنيا مزرعة الآخرة والأرواح بذور في أرض الأشباح فمربيها ومنبتها ومثمرها أعمال الشريعة بشرط الإيمان ومفسدها ومبطلها ومغير أحوالها عن خصيتها الكفر وأعمال الطبيعة والموت حصادها والقيامة بيدرها فكل نبات فساد في الأرض بطل استعداده لقبول التربية، ولم يتم أمر نباته فلما حصد وحصل في البيدر ولا تفيده أسباب التربية لتغير أحوالها.

ومعاونتهم، وعاينوهم أنهم هلكى أمثالهم ﴿قَالُوا﴾ متضرعين إلى الله نادمين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا بأنواع اللطف والكرم، فكَفَرنا نِعمك وبك، وبأوامرك ونواهيك الجارية على ألسنة رسلك ﴿هَؤُلاءِ﴾ الهلكى الغاوون ﴿شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ عنادًا ومكابرةً، وبواسطة هؤلاء الضُّلّال رَدَدْنا قول أنبيائك ورسلك وكتبك، ثمَّ لما سمع شركاؤهم منهم قولهم هذا ﴿فَأَلْقَوْا﴾ وأجابوا ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾: ما تَدْعُون وما تعبدون أيها الضالون الظالمون إلّا أهويتكم وأمانيكم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل:86] مقصورون على الكذب والزور في دعوى إطاعتنا وعبادتنا.

﴿وَ﴾ حين اضطر أولئك المشركون الضالون ﴿أَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام والانقياد بعدما تعنتوا واستكبروا في النشأة الأولى، وما ينفعهم حينئذٍ انقيادهم وتسليمهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: خَفِي عليهم، وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل:87] على شركائهم من الشفاعة لدى الحاجة، حتى تبرأوا منهم وكذَّبوهم.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عن الحق بأنفسهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صَدُّوا﴾ ومنعوا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الموصِل إلى توحيده، وهو الشرع الشريف المصطفوي ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بسبب ضلالهم وإضلالهم ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:88] الغير عن متابعتك يا أكمل الرسل، ويفسدون في أنفسهم.

﴿وَ﴾ اذكر لهم ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو نبيهم ورسولهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ﴾ الغواة البغاة، المنهمكين في بحر الإعراض والإضلال ﴿وَ﴾ الحال: أنا قد ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ المشتمل لفوائد جميع الأديان والكتب، وجعلناه ﴿تِبْيَانًا﴾ موضحًا مفصلاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه من أمور الدين من الشعائر والأحكام والأركان، والآداب والأخلاق، والمندوبات والمحظورات، والمواعظ والتذكيرات، والقصص التي يعتبر منها المعتبرون المسترشدون بالنسبة إلى عوام المؤمنين ﴿وَهُدًى﴾ إلى معارف وحقائق، يهديهم إلى طريق التوحيد المنجِي عن غياهب التقليدات والتخمينات بالنسبة إلى خواصهم.

﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: كشفًا وشهودًا مترتبة على الجذبة والخطفة، والخطوة بالنسبة إلى خواص الخواص ﴿وَ﴾ بالجملة: ما هو إلّا ﴿بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89] المتقادين لله بسرائرهم وظواهرهم، مفوضين أمورهم كلها إليه بلا تلعثم وتذبذب.

وكيف لا يسلمون ويفوضون ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يَأْمُرُ﴾ أولاً عباده ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: القسط والاعتدال في جميع الأفعال والأقوال، والشئون والأطوار ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ ثانياً؛ لأنهم ما لم يعتدلوا ولم يستقيموا لم يتأت لهم التخلق بأخلاق الله التي هي كمال الإحسان والعرفان ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ ثالثاً؛ أي: إيصال ما حصل لهم من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات إلى مستحقهم من ذوي القربى من جهة الدين، المتوجهين نحو الحق عن ظهر القلب، الراغبين إليه عن محض المحبة والوداد، المتعطشين إلى زلال توحيده؛ لأنهم ما لم يتمكنوا ويتقرروا في مرتبة الإحسان، لم يتأت منهم الاستكمال والاسترشاد.

وكما يرغِّب سبحانه عباده بموجبات الإيمان والتوحيد، ومعظِّمات أصوله وأركانه، ينفِّرهم أيضًا عن غوائلهم ومهلكاتهم ومغوياتهم، فقال: ﴿وَيَنْهَى﴾ أولاً ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: إفراط القوة الشهوية الموجبة لرذالة النفس، وسقوطها عن المروءة والعدالة المقتضية للتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، وخروجها عن الحدود الشرعية الموضوعة لحفظه حكمة الزواج والتناسل بمتابعة القوى البهيمية الناشئة عن طغيان الطبيعة الهيولانية الناسوتية، المنافية لصفاء القوى الروحانية اللاهوتية.

﴿وَ﴾ عن ﴿الْمُنكَرِ﴾ ثانياً؛ إذ كل من رُكِّب على جموح القوة الغضبية، وأخذ سيف الهذيانات المثيرة لأنواع الفتن والبليات، وعمل بمقتضاها، ونبذ الحلم والرحمة وراء ظهره، فهو بمراحل عن مرتبة الإحسان، بل لا يرجى منه إلّا الخذلان والخسران ﴿وَ﴾ عن ﴿الْبَغْيِ﴾ ثالثاً؛ لأن من تمكن وتمادى على مقتضى كلتا القوتين الشهوية والغضبية فقط، سقط عن المروءة والعدالة اللتين هما من أقوى أسباب الكمال المستلزم للإرشاد والتكميل، ومتى سقطتا عنه فقد استكبر على خلق الله، وتجبر وبغى وظلم، ألا لعنة الله على الظالمين، إنما ﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله المصلح لأحوالكم بما يعظكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النحل:90] رجاء أن تتعظوا وتتمثلوا بما أمروا، وتجتنبوا عما

---

(1) قال الورتجبي: إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزَّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلاه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب

نهوا؛ كي تصلوا إلى صفاء توحيده المسقط للمنافرات رأسًا.

﴿وَ﴾ من علامة اتعاظكم وتذكركم الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿أَوْفُوا﴾ أيها الطالبون لمرتبة العدالة ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ وميثاقه الذي عهدتم مع الله بألسنة استعداداتكم في بدء فطرتكم، وكذا بجميع العهود والمواثيق ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ مع إخوانكم، وبني نوعكم ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ﴾ سيما ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وتغليظها ﴿وَ﴾ كيف تنقضونها؛ إذ ﴿قَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ﴾ الرقيب ﴿عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ وكيلاً لتلك البيعة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ومخائلهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:91] من نقض الأيمان وأماراتها.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:92 – 97].

العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليقة.

﴿وَ﴾ بعدما علم الله منكم ما فعلتم ونقضتم من الأيمان ﴿لَا تَكُونُوا﴾ في نقضها وعدم وثوقها ﴿كَالَّتِي﴾ أي: كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ﴾ ونفثت ﴿غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: بعدما غزلتها وفتلتها قويةً محكمةً نقضتها ﴿أَنكَاثًا﴾ بلا غرضٍ يترتب على نقضها سوى الجنون والحزن، فأنتم كذلك في نقضكم أيمانكم الوثيقة بذكر الله وعلمه بلا غرضٍ منكم يتعلق بنقضها سوى أنكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: نقضها ﴿دَخَلًا﴾ أي: خديعةً ومكيدةً واقعةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ محفوظةً إلى ﴿أَن تَكُونَ﴾ وتقع ﴿أُمَّةٌ﴾ قوية ﴿هِيَ أَرْبَى﴾ أي: أقوى وأزيد عَدَدًا وعُدَدًا ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أنتم تحلفون معهم، فتنقضون حلف الأمة الضعيفة، وتتبعون القوية بعد نقض العهود واليمين، وما هذا إلَّا مكر وخديعة مع الله، ومع عباده ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ﴾ ويختبركم ﴿اللهُ بِهِ﴾ أي: بازدياد القوية؛ لكي يظهر أتمسكون إيمانكم أم تنقضون ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:92] فيثيبكم بالوفاء، ويفضحكم ويعاقبكم بالنقض.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ القادر على جميع المقدورات هدايتكم جميعًا ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ وخلقكم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقةً على الهداية والإسلام ﴿وَلَكِن﴾ حكمته تقتضي خلاف ذلك، ولذلك ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ وتحاسبنَّ كل منكم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:93] إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وبعدما أشار سبحانه إلى قبح المكر والخديعة باليمين والحلف ترويجًا لما في نفوسهم من الظلم والعدوان صرحَ بالنهي تأكيدًا ومبالغةً؛ ليحترز المؤمنون عن أمثاله، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ ومواثيقكم ﴿دَخَلًا﴾ أي: مفسدةً مبطنةً مخفيةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ترويجًا لكذبكم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي: قدم كل منكم عن شعائر الإيمان ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها فيها ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب في النشأة الأولى ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: بسبب ميلكم وانحرافكم عن طريق الحق الذي هو الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَلَكُمْ﴾ بارتكاب المنهي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:94] في النشأة الأخرى بأضعاف ما في الأولى.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا وتأخذوا أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ أي: بنقض عهده، والارتداد عن دينه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: حطامًا دنيويًا ﴿إِنَّمَا عِندَ اللهِ﴾ لوفائكم بعهده، وثباتكم على دينه أجر عظيم أخروي ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لبقائه وعدم

زواله، ودوام لذّته ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:95] خيريته لاخترتم ألبتة.

وكيف لا يكون ما عند الله خيرًا؛ إذ ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من حطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿يَنفَدُ﴾ أي: يزول ويضمحل ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾[1] من اللذات الأخروية، والمعارف اليقينية ﴿بَاقٍ﴾ بقاءً أبديًا سرمديًا إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما فوتوا من الأعراض الدنيوية؛ بسبب ثباتهم وتقررهم على الأمور الأخروية، ولم ينقضوا العهود والمواثيق المتعلقة بالدين، ولم يستبدلوا الأعلى الباقي بالأدنى الفاني، ولحقهم بذلك ما لحقهم من المحن والشدائد القاحلة، وضاع عنهم ما ضاع من لذاتها وشهواتها، فصبروا على جميع ما أعطيناهم ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:96] أي: لنجزينهم ونثيبنهم بجزاءٍ أحسن من مقتضى عملهم؛ لوفائهم على عهودنا ومواثيقنا، وجريهم على مقتضى أمرنا ونهينا.

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ منكم عملاً ﴿صَالِحًا﴾ لقبولنا، ناشئًا ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ منكم ﴿أَوْ أُنثَى وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حين العمل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ موحِّد بالله، مصدق للرسل والكتب المنزلة إليهم، ممتثل بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، طالب للترقي من العلم إلى العين، ثمّ إلى الحق ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ بعد فنائه عن لوازم بشريته وموته، وانخلاعه عن مقتضيات أوصاف بهيميته بإرادته واختياره ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[2] معنوية خالصة عن وصمة الموت والفوت

---

(1) أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلوهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضًا ما عندكم من المعارف ينفد في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبلو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

(2) معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التبرّؤ من الكون وما فيه بنعت تصاغره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضًا هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضًا وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضًا هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحيه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنسًا بوصله، معافًا من فضله، فيكون ملبسًا في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروسًا من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجًا من

مطلقًا، خالية عن شوب الزوال والانقضاء، صافية عن الكدورات المتعلقة للحياة الصورية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: أجر عملهم وصبرهم عن مقتضيات القوى البشرية، والحياة الصورية ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97] أي: أحسن وأوفر من جزاء عملهم الذي جاءوا به حين كانوا سائرين إلينا، طالبين الوصول إلى صفاء توحيدنا.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ
هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ
عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ
﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن
مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل:
98 – 106].

ومن جملة الأعمال الصالحة المثمرة للحياة الطيبة المعنوية، بل من أجلّها: قراءة القرآن المشتمل على المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات المترتبة على سلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: قصدتَ قراءته أيها القارئ

امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغاير النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألذ حاله، طوبى له ثم طوبى له.

الطالب لاستكشاف غوامض مرموزاته، ومعضلات إشاراته ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ والتجأ أولاً ﴿بِاللَّهِ﴾ المتجلي بصفة الكلام المعجز لقاطبة الأنام، الحفيظ لخلّص عباده من جميع ما لا يعنيهم من المعاصي والآثام ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:98] المطرود والمبعد عن ساحة عزِّ الحضور برجوم آثار الأوصاف القهرية الإلهية، ومن غوائله وتسويلاته التي هي جنود الهوى والغفلة، والتخيلات الباطلة، والتوهمات المثيرة لأنواع الأماني والشهوات.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: استيلاء وغلبة ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وأيقنوا بحقية كتبه ورسله، وباليوم الموعود وما فيه من العرض والجزاء ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ومربيهم لا على غيره من الأسباب الوسائل العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] [النحل:99] ويُسلمون ويُسندون جميع أمورهم إليه أصالةً.

وكيف يكون للشيطان استيلاء على المؤمنين الموقنين؛ إذ هم يعادونه عداوةً شديدةً، ويخاصمون معه مخاصمة مستمرة ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ واستيلاؤه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ويحبونه ويقبلون قوله، ويسمعون غوايته، ويطيعون أمره ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ﴾ أي: بسبب إغوائه وإغرائه ووسوسته ﴿مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:100] بالله الواحد الأحد،

(1) قال في التأويلات: يعني: سلطان نور الإيمان، والتوكل غالب على سلطان وسوسة الشيطان، فإذا كان هذا حال الأمة مع الشيطان، فكيف يكون كمال النبوة معه؟! فثبت أن المراد بالخطاب الأمة، وإنما خص النبي ﷺ به لتعتبر الأمة وتتنبه أن مثل هذا النبي ﷺ مهما يكون كمال النبوة معه فيثبت آلته مأمورًا بالاستعاذة بالله من الشيطان، فيكون الأمة بها أولى وإحق فأما تخصيص الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن من الشيطان الرجيم لمعانٍ وفوائد: فأولها: لكي يتذكر القارئ واقعة الشيطان ويتفكر في أمره إنما صار شيطانًا رجيمًا بعد أن كان ملكًا كريمًا؛ لأنه فسق عن أمر ربه وخالفه وأبى أن يسجد لآدم ﴿وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] أي: فصار من الكافرين فيتنبه بذلك عند قراءة القرآن ويصفي نيته قبل القراءة على أن يأتمر بما أمر الله في القرآن وينتهي عما نهاه عنه احترازًا عن المخالفة، فإن فيها الطرد واللعن والرجم والفسق والكفر وإنها مظنة للخلود في النار، وثانيها: لأن العبد لا يخلو من حديث النفس وهواجسها ومن إلقاء الشيطان ووساوسه وقلبه لا بدَّ يتشوش بذلك، فلا يجد حلاوة كلام الله فأمره بالاستعاذة تزكية للنفس عن هواجسها وتصفية للقلب عن وساوس الشيطان؛ ليتحلى بنور القرآن فإن التحلية تكون بعد التزكية والتصفية، فافهم جدًّا، ثالثها: ولأن في كل كلمة من كلمات القرآن أن لله تعالى إشارات ومعانٍ وحقائق لا يفهمها إلا قلب مطهر عن تلوثات الهواجس والوساوس معطر بطيب أنفاس الحق، وذلك مودع في الاستعاذة بالله فأمر بها لحصول الفهم.

المنزه عن الشريك والولد.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا، ووفور حكمتنا: نسخ بعض الآيات وتبديلها بالنسبة إلى بعض الأعصار والأزمان، فإنا ﴿إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ ناسخة ﴿مَكَانَ آيَةٍ﴾ منسوخةٍ لحكمةٍ ظهرت علينا، ومصلحة لاحت لدينا، فلا بدَّ ألَّا نُسأل عن نسخنا وتبديلنا، بل عن جميع أفعالنا مطلقًا، ولا يُسند فعلنا إلى غيرنا مطلقًا ﴿وَ﴾ كيف يُسند فعله سبحانه لغيره؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون اطلاع حضور وشهود ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بحسب الأوقات والأزمان، فله نسخ ما ثبت، وإثبات ما نسخ ﴿قَالُوا﴾ أي: المشركون المعاندون حين ظهر في القرآن نسخ بعض الآيات المثبتة، وإثبات بعض المنسوخات القديمة متهكمين طاعنين: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: ما أنت أيها المدَّعي للرسالة والوحي إلَّا مفترٍ كذاب، قلتَ بقولٍ من تلقاء نفسك، ثمّ ظهر لك ما فيه، بدلتَ بأخرى على مقتضى أهوائك وأمانيك، ونسبته إلى ربك افتراءً ومراءً، مع أنك أخبرت أن ربك يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:29]، كل ذلك؛ أي: النسخ والتبديل، والإنزال من عندنا لحكمة ظهرت علينا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101] حكمة النسخ والتبديل في الأحكام، فينكرونها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ما أنا مفتر في هذا النسخ والتبديل، بل ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبرائيل ﷺ عليّ هكذا، وهو منزه عن جميع النقائص، فكيف عن الافتراء، وأوصاني أنه منزل ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الذي ربَّاك بأنواع التربية، وأيدك بهذا الكلام المعجز ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق المطابق للواقع بلا شائبة شك وتردد، وإنما أنزله ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ ويقرر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تثبيتًا وتقريرًا في مرتبة اليقين العلمي ﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً ورشدًا للعارفين المتحققين في مرتبة اليقين العيني ﴿وَبُشْرَى﴾ أي: بشارة وتمكينًا لأهل الكشف والشهود في مرتبة اليقين الحقي، كل ذلك ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:102] المسلّمين أمورهم كلها إلى الله طوعًا ورغبة.

ثمّ أخبر سبحانه عن مطاعن المشركين بالقرآن والرسول، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ﴾ لا يسلّمون نزول القرآن منا وحيًا وإلهامًا، ويكذبونك يا أكمل الرسل في نسبتك إنزاله إلينا، بل ﴿يَقُولُونَ﴾ ما هو إلَّا مفترٍ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا ﴿بَشَرٌ﴾ أي: عبدٌ رومي، أو رجلٌ من العجم، أو رجالٌ أخر على ما قالوا، وكيف يقولون وينسبون أولئك المكابرون المعاندون هذا إلى القرآن؛ إذ ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ أي: يميلون وينسبون ﴿إِلَيْهِ﴾

عنادًا ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ معلقٌ غير بيّنٍ، وأنت عربي لا تفهم لغتهم ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ فصيح ﴿مُبِينٌ﴾ [النحل:103] واضحٌ بليغٌ في أعلى مراتب البلاغة، بحيث عجزت عن معارضته مصاقع الخطباء مع كمال تحديهم، ومع ظهور إعجازه واعتراف الكل بأنه معجزٌ، لم يقبلوا حقيته، ولم يصدقوا أنه كلام الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وكمال أوصافه وأسمائه، طبع الله على قلوبهم وختمها، بحيث ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ المضلُّ المذلُّ إلى حقية كتابه ورسوله الذي أنزل إليه، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:104] في النشأة الأولى والأخرى، ثمّ قلّبَ سبحانه ما فتروا برسول الله ﷺ وأعاده عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله بنسبة كلامه إلى غيره ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على كمال توحيده ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المفترون المسرفون ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1] [النحل:105] المقصورون على الكذب والافتراء والمراء من شدة قسوتهم، وخبث باطنهم.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ المستحق للإيمان والعبودية، سيما ارتد ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ أي: بعدما آمن له - العياذ بالله - فقد استحق غضب الله وقهره ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر، وهُدِّدَ بالقتل وأنواع العقوبات حين العجز، فأجرى كلمة الكفر على لسانه ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ متمكن فيه، راسخ غير متزلزلٍ، بلا مطابقةٍ وموافقةٍ بلسانه، فهو باقٍ على إيمانه، ولا غضب عليه، بل له الأجر الجزيل؛ لأن العبرة في الإيمان والكفر بالقلب؛ لأنهما فعلان له أصالةً ﴿وَلَكِن﴾ من المغضوبين ﴿مَّن شَرَحَ﴾ وملأ ﴿بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقادًا أو رضاءً مستحسنًا له، مستطيبًا إياه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وقهرٌ نازلٌ ﴿مِّنَ

---

(1) قال في التأويلات: أي: هم المتسبون إلى الكذب الحقيقي الذي صار اسم العلم لهم بأنهم كذبوا على الله وكذبوا بآياته، وكذبوا على النبي ﷺ وكذبوا به وبما جاء به، وكذبوا بالقرآن والمعجزات، وفيه إشارة إلى أن الكذبات التي تقع في أثناء كلام من يؤمن بالله ورسله وكتبه ولا يكذب عليهم ولا يكذب بهم، فإنها ليست من الكذاب الذي يفتري من لا يؤمن بآيات الله وإنه مخصوص بمن يفتري على الله الكذب، وإن الكذبات التي تقع للمؤمن وهي من جملة المعاصي لا تخرجه من الإيمان، وإن ينقص بها الإيمان ثم بالتوبة يرجع الإيمان إلى أصله كسائر المعاصي والذنوب، يدل على هذا قوله ﷺ: «ما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا» فثبت أن المؤمن يبغض الكذب في بعض الأوقات إذا لم يكن مصرًا عليه ويتوب.

﴿اللهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:106] لعظم جرمهم الذي هو الارتداد، العياذ بالله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: 107 – 114]

وما ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تحسينهم الكفر، واستطابتهم به إلّا ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا﴾ واستطابوا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: الحياة الصورية المستعارة الزائلة ﴿عَلَى﴾ حياة ﴿الْآخِرَةِ﴾ التي هي الحياة المعنوية الحقيقية السرمدية التي لا زوال لها أصلاً ﴿وَ﴾ أيضًا بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى الإيمان والتوحيد ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل:107] المجبولين على الكفر والعناد بحسب أصل فطرتهم واستعداداتهم.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المجبولون على الكفر هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إلى حيث لا يفهمون، ولا يتفطنون بسرائر الإيمان والتوحيد أصلاً، ولا يتلذذون بلذاتها؛ لغلظ حجبهم وكثافتها ﴿وَ﴾ على ﴿سَمْعِهِمْ﴾ إلى حيث لا يسمعون، ولا يقبلون دلائل التوحيد وأماراتها من أرباب الكشف واليقين ﴿وَ﴾ على ﴿أَبْصَارِهِمْ﴾ إلى حيث لا ينظرون نظر عبرة وبصارة إلى المظاهر والآثار المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن عزّ الحضور ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

[النحل:108] المقصورون على الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الضلال والطغيان.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾ بسبب طردهم وخذلانهم ﴿فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [النحل: 109] المقصورون على الخسران والنقصان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعت أحوال أولئك المقهورين المطرودين ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربّاك بأنواع الكرامات، وأوصلك إلى أعلى المقامات يجزي خير الجزاء تفضلاً وإحسانًا ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ عن بقعة الإمكان حين كوشفوا بما فيها من الخذلان والخسران، وأنواع الرذائل والنقصان، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بأنواع الفتن والمحن باستيلاء جنود الأمارة بالسوء عليهم ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ معها بترك مألوفاتها، وقطع تعلقاتها، وصرفها عن مشتهياتها ومستلذاتها ﴿وَصَبَرُوا﴾ على متاعب الرياضات، ومشاق المجاهدات إلى أن صارت أماراتهم مطمئنةً راضيةً مرضيةً، ثمّ بعدما قطعوا مسالك السلوك، ومنازل التلوين والتزلزل ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المفضل المحسن إليك يا أكمل الرسل، وإلى من تبعك من خيار المؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد المجاهدات والرياضات ﴿لَغَفُورٌ﴾ يسترُ أنانيتهم، ويغنيهم عن هوياتهم مطلقًا ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 110] لهم، يمكنّهم في مقام الرضا والتسليم مطمئنين مرضيين.

هب لنا من لدنك رحمةً يا ذا القوة المتين.

واذكر يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة الأنام ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ عاصيةٍ أو مطيعةٍ ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1] أي: ذاتها، وتهتم لشأنها بلا التفاتٍ منها إلى شفاعةِ غيرها؛ إذ هي رهينة ما كسبت من خيرٍ وشرٍ ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾

(1) قال البقلي: الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينبسط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي، فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبدًا، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوجة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفس بقدر طاعتها، وهو منزه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويريهم جماله.

طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:111] في جزائهم وأجورهم لا زيادةً ولا نقصانًا على مقتضى العدل الإلهي.

﴿وَ﴾ بعدما أراد سبحانه أن ينبه على أهل النعمة، وأرباب الرخاء والرفاهية، ألّا يبطروا، ولا يباهوا بما في أيديهم من النعم، ويداوموا على شكرها، وأداء حقها خوفًا من زوالها وفنائها، وانقلابها شدةً ونقمةً ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ المدبّر لأمورهم ﴿مَثَلًا﴾ تعتبرون منها وتتعظون ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة أو أيلة ﴿كَانَتْ﴾ نفوس أهلها ﴿آمِنَةً﴾ عن الخوف من العدو والجوع من نقصان الغلات والأثمار ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ بما عندهم من الحوائج بلا تردد ومشقة؛ إذ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ على الترادف والتوالي ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا وافرًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البلاد التي في حواليها ونواحيها.

وصاروا مترفهين متنعمين إلى أن باهوا وبطروا ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ الواصلة إليهم، وأسندوها إلى غير الله عنادًا ومكابرةً، وخرجوا على رسول الله، وطعنوا في كتاب الله ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بعد خَلْعِ خِلَعِ الأمن والاطمئنان؛ أي: مسار الجوع والخوف في سائر أعضائهم وجوارحهم سريانَ أثر المذوقات، ونفورها إلى حيث لا ينجو عن أثرهما جزء من أجزاء البدن، كل ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:112] من الكفران والتكذيب والطعن، والعناد والاستكبار.

﴿وَ﴾ كيف لا يأخذهم، ولا يذيقهم ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أفضل وأكمل من جميع الرسل مع كتابٍ أكمل وأشمل من سائر الكتب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أشد تكذيبٍ، وأنكروه أقبح إنكارٍ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ العاجل، وهو الجدب الواقع بينهم، أو وقعة بدر ﴿وَ﴾ الحال أنهم في تلك الحالة ﴿هُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:113] خارجون على الله، وعلى رسوله، والعذابُ الآجل سيأخذهم في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ

لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ
شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: 114 - 125].

وإذا سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون من أحوال أولئك الأشقياء، المغمورين في بحر الغفلة والغرور، البطرين بما عندهم من اللذة والسرور، وسمعتم أيضًا أحوالهم وأهوالهم ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً﴾ مباحًا بحسب الشرع ﴿طَيِّبًا﴾ مما كسبتم بيمينكم على مقتضى سنة الله من خلق الأيدي والأرجل للمكاسب، أو مما اتجرتم وربحتم، وهو من الكسب أيضًا ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ الذي أقدركم ومكّنكم على الكسب ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:114] أي: تطيعون وتقصدون عبادته برفع الوسائل والأسباب العادية عن البَيْن.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ
ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ
أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: 115 -
122].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: اعلموا ما حرَّمَ عليكم ربكم في دينكم إلَّا الميتة المائتة حتف أنفه بلا تزكية وتسمية ﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح السائل من الحيوانات المباحة ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ وسُمِّي عليه من أسماء الأصنام ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ منكم أيها المؤمنون إلى أكل هذه المحرمات، حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارجٍ على السلطان العادل، المقيم للشرائع والأحكام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوزٍ عن الحدود الشرعية لغرضٍ فاسدٍ من أنواع المعاصي، وقطع الطريق والإباق ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع على سرائر عباده وضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ يستر زلتهم الاضطرارية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:115] يقبل توبتهم عنها.

ثمَّ نهاهم سبحانه عن التقول بالأقوال الفاسدة من تلقاء أنفسهم، ومقتضى أهوائهم، كما يقول المشركون المسرفون، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها المتدينون بدين الإسلام المنزل على خير الأنام ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: شيء تصف ألسنتكم إياه الوصف الكذب بلا ورود وحي وإذنِ شرعٍ، بل من تلقاء أنفسكم افتراءً ومراءً، بأن تقولوا: ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وتنسبوه إلى الله ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ تزيينًا لقولكم الباطل، وترويجًا له، كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾[الأنعام:139]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى اللهِ﴾ المنزه عن مطلق الأباطيل ﴿الْكَذِبَ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116] ولا يفوزون بخير الدارين.

إذ نفعهم فيما يفترون ويكذبون ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ومنفعةٌ صغيرةٌ لا اعتداد بها ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب ذلك في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:117] مؤلمٌ مؤبدٌ لا نجاة لهم منه أصلاً.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، حيث قلنا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام:146]، ﴿وَمَاظَلَمْنَاهُمْ﴾ في تحريم ما حرمنا عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:118] أي: هم يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي والمناهي، وترك المأمورات والمندوبات؛ لذلك عُوقبوا وأُخذوا بما أَخذوا.

﴿ثُمَّ﴾ بشَّر سبحانه على عموم أصحاب المعاصي والآثام بالعفو والمغفرة، والشفقة عليهم بعدما تابوا وندموا عما هم عليهم مخلصين، فقال لحبيبه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾

الذي بعثك يا أكمل الرسل إلى كافة البرايا بشيرًا ونذيرًا، يحسن ويرحم ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ أي: الفعلة القبيحة، والديدنة الشنيعة المذمومة في الشرع، مع كونهم في حين ارتكابها ملتبسين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ناشئةٍ من عدم التدبر والتأمل بوخامة عواقبها شرعًا مع تدينهم، وقبولهم بأحكام الشريعة، وكانوا ممن لا يؤمن، ولا يقبل ما ورد به الشرع ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ وندموا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ارتكاب ﴿ذَلِكَ﴾ السوء ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بالتوبة والاستغفار ما أفسدوا على نفوسهم بالفساد والإصرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المحسن المفضل على التائب المخلص ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد التوبة والندم ﴿لَغَفُورٌ﴾ يستر ذلتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النحل: 119] يقبل توبتهم.

ثمَّ أشار سبحانه إلى فضائل خليله - صلوات الرحمن عليه وسلامه- وكمال كرامته، ونجابة فطرته، وطهارة أصله وطينته، وعلو شأنه ورتبته، وارتفاع قدره ومنزلته - فقال: ﴿إِنَّ﴾ جدّك يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي اختاره الله لخلته، واصطفاه لرسالته ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا مقتدىً، لائقًا للقدوة بالأمور الدينية؛ لأنه كان ﴿قَانِتًا﴾ مطيعًا ﴿لِلَّهِ﴾ راغبًا إلى امتثال مأموراته، واجتناب منهياته ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:120] في حالٍ من الأحوال.

بل هو رأس الموحدين، ورئيس أرباب التحقق واليقين ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: صارفًا لنعم الله إلى ما خلقه سبحانه لأجله على الوجه الأعدل الأقوم بلا تبذيرٍ وتقتيرٍ، طالبًا فيه رضاء الله بلا شائبةٍ من الرياء والسمعة؛ لذلك ﴿اجْتَبَاهُ﴾ واختاره للرسالة العامة ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:121] موصلٍ إلى توحيده بلا عوجٍ وانحرافٍ.

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من لدنا تفضلاً عليه وإحسانًا ﴿حَسَنَةً﴾ صورية إلى حيث لا تنقطع آثار إنفاقه وجوده إلى يوم القيامة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: 122] لقبولنا، الواصلين إلى صفاء توحيدنا.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم

بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ
عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ
وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:123 – 128].

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ما أشرنا إليك يا أكمل الرسل كمال استحقاقه، ولياقته للاقتدار والمتابعة ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تكريمًا لك وله ﴿أَنِ اتَّبِعْ﴾ في إيصال الدعوة، وتبليغ الرسالة، وإظهار الدين والأحكام، والرفق والتليين مع الأنام، والحكم والتواضع معهم على أبلغ وجه وأكمل نظام ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: خصلة جدك - عليك وعليه الصلاة والسلام - إذ كان ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط في جميع الأطوار والأخلاق، والأفعال والأقوال ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:123] المستكبرين في خُلُقٍ من الأخلاق، ووصفٍ من الأوصاف، بل كان على مقتضى صرافة التوحيد، وعدالة اليقين والتحقيق؛ لذلك صار إمامًا للموحدين إلى قيام الساعة.

ثم قال سبحانه تعييرًا على المشركين، وتقريعًا لهم: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: قُدر وفرض لحوق وبال يوم السبت، وأنواع العقوبات والمسخ ﴿عَلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وجادلوا مع نبيهم في تعيينه واختياره؛ إذ أمرهم موسى عليه السلام بتعظيم يوم الجمعة واتخاذها عيدًا، فأبوا معللين: إن الله قد فرغ من خلق السماوات والأرض في السبت، فنحن نوافقه، ونتخذه عيدًا، فألزمهم الله تعظيم السبت، وتحريم الصيد فيه، فاحتالوا فيه، فاصطادوا بالمكر، فمسخهم الله، ولحقهم من الوبال ما لحقهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:124] ويجادلون مع الرسل، فيجازيهم ويعاقبهم على مقتضى ما صدر عنهم.

ثم أشار سبحانه إلى تتميم تكريم حبيبه ﷺ، وتعظيم رتبته، وتهذيب أخلاقه، وتكميل حكمته ورسالته، وتعميم رأفته ورحمته إلى جميع البرية، وكافة الخليقة؛ إذ هو مبعوث على الكل بالرحمة العامة، وهو خاتم الرسالة والنبوة، ومكمل أمر التشريع والتكميل؛ إذ العلة الغائية في مطلق التشريع والإنزال والإرسال إنما هي ظهور مرتبته ومكانته التي هي الدعوة إلى التوحيد الذاتي، ومتى ظهرت فقد كملت وتمت؛ لذلك نزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3].

وهي آخر آية نزلت من القرآن، وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(1) فقال مخاطبًا له خطاب تمكينٍ وتكريمٍ: ﴿ادْعُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى طريق توحيد مربيك الذي أرشدك إلى معارج عنايته، وهداك إلى كمال كرامته كافة البرايا، وعامة العباد ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ البالغة المكيفة لقلوبهم عن صلابة التقليدات الراسخة الموروثة لهم عن أسلافهم، المصفية نفوسهم عن الحمية الجاهلية المتمكنة فيها، الخالية عن توهم السطوة والاستيلاء، المثيرة لأنواع الأعراض النفسانية المترتبة على البشرية، المزيلة لأنواع الشبه والتخيلات الناشئة من الأسباب والوسائل العادية المقنعة، ملائمة للفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها رجاء أن يتفطنوا، ويتنبهوا بمقتضى جِبِلَّتهم وفطرتهم.

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الموروثة لهم يقظانًا من سِنَة الغفلة، ونوم النسيان، المحصلة لهم شوقًا وسرورًا إلى مُبدئهم ومُنشئهم، المرغِّبة لهم إلى اللذات الروحانية الدائمة الباقية المستمرة بلا ورود زوالٍ وانقطاعٍ، المنفِّرة عما هم عليه من العوائق، والعلائق العائقة من اللذات الوهمية المنقضيَة المنقطعة المورثة لأنواع المحن والأحزان.

﴿وَ﴾ إن احتجت يا أكمل الرسل في دعوتهم إلى المجادلة معهم والمكالمة ﴿جَادِلْهُم بِالَّتِي﴾ أي: بالطريق التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الطرق وأسلمها، وأعدلها من المقدمات المعتدلة الدالة على المساواة من كلا الجانبين برفق وتليين ومسكنة، وإرخاء عنان خالٍ عن السطوة والتهور، والغضب والتجبر، وعن التمسخر والضحك والاستهزاء، والتجهيل والتسفيه، والتشنيع الشنيع، كما يفعله عوام العلماء في محاوراتهم ومناظراتهم؛ إذ هي بعيدة عن الحكمة بمراحل، مثيرة لأنواع الفتن والخصومات، فلك ألَّا تبالغ في إهدائهم وإيمانهم، ولا تتشوش وتتحزن عن ضلالهم وطغيانهم؛ إذ ما عليك إلَّا تبليغ ما أُرسلتَ به.

وأما حصول الهداية والضلالة فيهم فأمر خارج عن وسعك وطاقتك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:125] إذ قدَّر في سابق قضائه

(1) رواه البيهقي (192/10)، والقضاعي في «الشهاب» (270/4).

هدايتهم وضلالهم، وكذا جميع ما جرى عليهم في شئونهم وتطوراتهم على التفصيل، بحيث لا يشذّ عن حيطة حضرة علمه شيء منها.

وبعدما أمر سبحانه حبيبه بما أمر من آداب الدعوة، وأخلاق الرسالة والنبوة، ومراعاة حقوق الأنام، والمداراة معهم، أشار إلى المجازاة والمحاذاة، والقصاص والعقوبات الواقعة في أمر الرسالة، ووضع التشريع والتبليغ؛ إذ هي مبنية على الأمر بترك المألوفات، وترك العادات والاعتقادات، وترك التخمينات والتقليدات؛ لذلك لا يخلو عن المنازعات والمخاصمات المؤدية إلى أنواع الجنايات.

فقال سبحانه مخاطبًا له ولمن تبعه من المؤمنين: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون منتقمين عنهم ﴿فَعَاقِبُوا﴾ أي: فعليكم أن تعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[1] لا أزيد منه؛ إذ الزيادة منافية لاعتدال الإيمان والتوحيد ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أيها المؤمنون على ما أصابكم من العقوبات، وأعرضتم عن الانتقام صفحًا، وكظمتم الغيظ كظمًا ﴿لَهُوَ﴾ أي: العفو والكظم ﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:126] الذين صبروا على ما أصابهم من المكروهات، مسترجعين إلى الله، منزلين إنزاله إليه سبحانه بلا رؤية الوسائل في البين، بل يعدون العناء عطاءً، والترح فرحًا، والنقمة نعمةً، والمحنة منحةً؛ لصدورها من الله.

وبعدما خاطب وأوصى سبحانه للمؤمنين بالصبر والعفو على وجه العموم، وترك الانتقام، خص رسوله ﷺ بالخطاب؛ لكونه أحق وأولى بامتثال أمثاله؛ إذ هو جامع جميع مراتب الكمال بالاستحقاق والاستقلال، فقال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أيها المتحقق المتمكن في مقر التوحيد، المسقط لجميع الإضافات على ما جرى عليك من الأذيات المترتبة على بشريتك وناسوتك ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ وكظمُك بعد فنائك عن بشريتك ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ المتجلي عليك بالإطلاق إلى أن انخلعت عنك لوازم ناسوتك، وما بقيت لك إلا

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى من دعا إلى الله فأجاب وجاهد النفس ونهاها عن الهوى، وسلك طريق الحق بالاتباع دون الابتداع، ثم هبت صرصر البلاء من غريب الابتلاء، واستولت النفس وحجب في مراتع الدنيا وشهواتها على وفق طبعها وهواها حتى غلبت الروح وجنوده وعاقبتم بأنواع عقوبات مختلفة من التباعد والتقاعد والتقاطع إلى أن نسمت رياح العواطف عن مهب العناية، وطلعت شمس الإقبال عن مشرق الأفضال وانقلب الأحوال فأقبل نهار الروح مشرقة بأنوار الجمال وأدبر ليل النفس مظلمة بقهر الجلال وأسرت النفس وجنودها وعزم الروح وجنوده على معاقبتهم بالفطام عن مألوفاتهم والإقدام على مخالفاتهم وتأديبهم بسياط الجوع والعطش فنودوا من حظائر القدس ومجالس الأنس.

لوازم لاهوتك، وظاهر أنه لا يجري فيها المكروه والمنكر ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين بما لحقهم من المنافرات والمشوشات ﴿وَلَا تَكُ﴾ بعد انشراح صدرك بالتوحيد الذاتي ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ ضيق صدر، وحزن وكآبة ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1] [النحل:127] أولئك الماكرون المعاندون المكابرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المختبر لأنبيائه وأوليائه، وخواص عباده بأنواع الأذى والمحن الجسمانية ﴿مَعَ﴾ الصابرين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وأخذروا عن الانتقام وقت الغدرة طلبًا لمرضاة الله، وجريًا على مقتضى توحيده ﴿وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:128] على من أساء إليهم رفقًا لهم، وتلطيفًا إياهم ابتغاءً لمرضاة الله، وتثبيتًا في طريق توحيده.

أذقنا حلاوة توحيدك، وأصبرنا على ما جرى علينا من المحن، والعطاء والعناء طلبًا لمرضاتك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها المسترشد الخبير البصير - أرشدك الله إلى امتثال ما سمعتَ في هذه السورة، سيما في الكريمة المذكورة آنفًا، ورزقك الاتصاف بما فيها من الحِكَم والآداب، والأخلاق المرضية، والسجايا الفاضلة - أن تتأمل فيها حق التأمل والتعمق، حالَ كونك خاليًا صافيًا عن الكدورات العارضة من طغيان القوى البهيمية، والحميّة الجاهلية، تاركًا بما عرض عليك من الأغراض النفسانية المترتبة على الأمور العادية، المستلزمة فيه لأنواع الضلال والفساد من التفوق على الأقران، والترفع على الإخوان، والتكبر على ضعفاء الأنام، والتلذذ بالسمعة والرياء المثيرة لأصناف الأهواء الفاسدة، والآراء الباطلة التي لا يمكن قلعها وقمعها أصلاً، سيما تمرنتَ ورسختْ، فلك أن تراجع وجدانك بأي شيء أردت الترفع، وقصدت التفوق والتفضل، أما ترى أن منشأك ماذا ؟! أما استحييت التفوه من هذا وهذا ؟!.

(1) قال الشيخ البقلي: أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابقٌ على أمر العبودية. قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكنّ الله تعالى حذّره ما هو موهوم في البشرية، وإنْ كان هو منزّهًا عنه. قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ.

وأمّا قصة كرامتك وخلافتك التي هي من المواهب الإلهية، والعطاءات الغيبية، فإنما هي مبنية على محض التذلل والتواضع، والخضوع والانكسار مع كل ذرةٍ من ذرائر الكائنات؛ إذ مبناه على الحكمة المتقنة المتشعبة من أسرار سرائر الرسالة والنبوة، وهي عبارة عن اعتدال جميع الأوصاف، وتزكية النفس عن جميع الرذائل، بل هي مبنية على إفناء مقتضيات الأوصاف البشرية رأسًا إرادةً واختيارًا.

وبالجملة: من أنصف على نفسه أدرك أن جميع ما في نفسه سوى التذلل والانكسار، والمسكنة والافتقار، حال كونه خاليًا عن شوب الرياء والسمعة، والعُجب والجَزْبَزَة، إنما هي رعونات صدرت من طغيان القوى البهيمية المؤيدة بالعقل المستعار المموه بتمويهات الأوهام الباطنة، وتزيينات الخيالات الكاذبة.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا من أنانيتنا، ولذةً تلجئنا إلى سلوك طريق الفناء الموصل إلى البقاء السرمدي، إنك أنت الوهاب.

فهرس المحتويات

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

المحتوى:

أول سورة الإسراء - آخر سورة العنكبوت



المكتبه المعروفيه

كانسی روڈشالدره کوئٹه پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَـــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُـــوْبَ هٰذَا النَّــاشِرِ

وَذُنُـــوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

أَجْمَعِينَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي



المكتبة المعروفية - كويتا - باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإسراء

فاتحة سورة الإسراء

لا يخفى على من سلك نحو توحيد الحق سلوكًا تدريجيًا، طالبًا أرباب الولاء الطالبين للعروج إلى معارج التوحيد معراجًا مخصوصًا، ومقصدًا معينًا، ومشربًا خالصًا مقدرًا عند الله، مثبتًا في لوح قضائه وحضرة علمه، وإن كان مقصد الكل بسحب الذات واحدًا، إلَّا أنه وقع التفاوت والتفاضل في المعارج لِحِكَمٍ ومصالح لا يعلمها إلَّا هو، فلا بدَّ للسالك المسترشد أن يستكمل ويسترشد إلى أن يصل إلى معراجه المعيَّن المقدَّر له من عنده سبحانه، فإذا وصل إليه، وحصل دونه، فقد أدرك معراجه، ونال مقره ومقصده من التوحيد، وعند ذلك انقطع سيره، وتم سلوكه، وبعد ذلك سار وسلك فيه لا به وإليه، إلى أن حار وفني، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

وأشرف المعارج وأكملها، وأتمُّ المراقي وأعلاها وأشملُها: معراج نبينا ﷺ، إذ انكشف له التوحيد الذاتي إلى حيث شهد الحقّ شهودًا عينيًا حقيًا، وتكلم معه. كلامًا تفصيليا بلا كيف وأين، وبلا وضع وجهة، لا مقابلة ولا مقارنة، ولا قرب ولا بعد، بل حضورٌ وسرورٌ، وحصولٌ ووصولٌ، لا يفهمها إلَّا ذوو الأذواق الصحيحة، والمشارب الصافية من أرباب العناية الفائزين بالفوز العظيم بمتابعته ﷺ، وذلك بعد انخلاعه عن جلباب ناسوته، وتشرفه بخلعة لاهوته.

لذلك أسند سبحانه إسراءه ﷺ ليلة المعراج إلى نفسه تفضلاً عليه وتكريمًا، فقال متيمنًا باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه على مقتضى ذاته، المستجمع بجميع أوصافه؛ لذلك صارت مرتبته جامعةً لجميع المراتب، وغاية لجميع شئون الحق وتطوراته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ له، يوصله إلى ذروة معارج عنايته ظاهرًا ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يخرجه عن بقعة الإمكان، ويهديه إلى فضاء الوجوب باطنًا.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ
إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ
وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: 1 – 7].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ نزه سبحانه ذاته بما يجب تنزهه عنه في حضرة علمه، وأبهم اسمه على مقتضى تعاليه وترفعه عن أفهام عباده، وأوصله بالإسراء الحقيقي الذي هو عبارة عن إخراج العبد من ظلمة الإمكان الذي هو الليل الحقيقي إلى نور الوجوب الذي هو النهار الحقيقي ﴿بِعَبْدِهِ﴾[1] يعني: حبيبه محمد ﷺ بعدما أخلع عنه كسوة ناسوته، وألبسه خلعة لاهوته، بحيث تجرد عن مقتضيات بشريته مطلقًا، وارتفعت عنه حجب تعيناته جملةً، وانكشفت سدل الغفلة والغشاوات عن بصيرته وبصره.

(1) قال نجم الدين كبرى: للتعجب فيها يشير إلى أعجب أمرٍ من أموره جرى بينه وبين أفضل خلقه، وأخص عبده، وأحبهم إليه، وأقربهم لديه، وأعظمهم قدرًا، وأكملهم مقامًا، وأرفعهم درجة، وأعلاهم رتبة، وأجلهم منصبًا، وأكرمهم مثوى، وأعزهم منزلة، وأوفاهم قربة، وأفناهم عن أنانيته، وأبقاهم بهويته، وأخلصهم لعبوديته، وأوحدهم بوحدانيته، وأفردهم بفردانيته، وأوليهم بتجلي جماله، وأعظميهم من كشف جلاله، وهو العبد المطلق من بين سائر عباده، والحبيب المختص المخلص من أحبابه، والنبي المفضل على أنبيائه، وهو الحر المعتق عن عبودية الموجودات ورق وجوده، فلهذا سماه الله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ عند فناء اسمه ورسمه اسمًا ما سُمي به أحد من خلقه إلا عند بقاء اسمه ورسمه، كما قال ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2] ومن هنا يقول كل نبي يوم القيامة: نفسي نفسي لبقاء وجودهم وهو ﷺ يقول: «أمتي أمتي» لفناء وجوده في وجوده.

وحينئذٍ انطوت المسافات مطلقًا ﴿لَيْلاً﴾ أي: في قطعةٍ منه ـ صرح به، وإن كان الإسراء في اللغة عبارة عن السير في الليل ـ ليُعلم أن ابتداؤه وانتهاؤه كان فيه ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حُرمت ما أبيحت في الأماكن الأخر من الصيد وغيره، ألا وهو قلب الإنسان الكامل الذي هو بيت الله الأعظم حقيقةً؛ إذ حرمت فيه التوجه إلى الغير والسّوى مطلقًا، وإن كان مبنيًا في بقعة جسدانية إمكانية ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: كثّرنا فيه الخير والبركة على زوارها وساكنيها، ألا وهو البيت المعمور الأبدي الأزلي الذي هو الوجود المطلق، المفيض على كافة المظاهر وحواليه عبارةً عن مقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية، وزوارها استعدادات المظاهر وقابلياتها المستفيدة منها، الناشئةُ عن أظلال أوصافها.

وإنما أسريناه ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، ووفور جودنا وكرامتنا ﴿إِنَّهُ﴾ بعد تجرده عن جلباب تعيينه وهويته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ بسمعنا، فيسمع بنا منا ﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1] ببصرنا، فيبصر ببصرنا عجائب صنعنا، وغرائب مبدعاتنا.

﴿وَ﴾ كما أيّدنا حبيبنا بما أيدناه من الإسراء به، وإراءة عجائب صنعنا وقدرتنا إياه، بأن أسريناه من مكة في ساعةٍ إلى بيت المقدس، ثمَّ فيها إلى فوق السماوات السبع، ومثّلنا له أرواح الأنبياء والأولياء، فتكلم معهم، ثمَّ منها إلى ما شاء الله، وأخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:8 ـ 9]، وسمع كلامًا لا من جنس الأصوات والحروف.

كذلك ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تأييدًا له، وتنفيذًا لأمرنا إلى أن خصصناه بتكليمنا إياه، وكرمناه بأنواع الكرامات ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: هاديًا لهم، يهديهم إلى توحيدنا، وتقديس ذاتنا عن الأشباه والأنداد، وأمرناهم فيه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أيها المتحيرون في الأمور والوقائع ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:2] أي: شريكًا لي، وكفؤًا تتكلون إليه في أموركم غيري؛ إذ ليس في الوجود سواي، فعليكم أن تتخذوني وكيلاً، وتفوضوا أموركم كلها إليّ؛ إذ لا معبود لكم غيري.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ حين استولى الطوفان على وجه الأرض، فهلك من عليها إلّا مَن آمن لنوح، ودخل معه في السفينة، فأنجيناه أصالةً، ومن معه تبعًا ﴿إِنَّهُ﴾ يعني: نوحًا ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3] مبالغًا في أداء الشكر، مواظبًا عليه وجه الخضوع والخشوع، فلكم أن تقتفوا أثر أسلافكم الذين هم

أصحاب سفينة نوح عليه السلام، وهم مؤمنون مصدقون له، ولكم أن تؤمنوا بمن أرسل إليكم لإصلاح أحوالكم، وتصدقوا كتابه.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: أوحينا إليهم ﴿في الكتاب﴾ المنزل عليهم على وجه الإيذان والإعلام تنبيهًا وتذكيرًا، والله ﴿لتفسدنّ﴾ أنتم ﴿في الأرض مرّتين﴾ مرةً بمخالفة أحكام التوراة، وقتل شعياء، ومرةً بقتل يحيى وزكريا، وقصد قتل عيسى - عليهم السلام - والكل من أعظم الجرائم عند الله ﴿و﴾ مع ذلك ﴿لتعلنّ﴾ وتستكبرنّ عتوًا وعنادًا على الأنبياء استهانةً واستخفافًا، وسخريةً واستهزاءً ﴿علوًا كبيرًا﴾ [الإسراء: 4] بحيث لا تبالونهم، ولا تعدونهم من العقلاء؛ لذلك تسفهونهم تارةً، وتكذبونهم أخرى.

فاعلموا أيها المسرفون أنّا ننتقم منكم في النشأة الأولى لكلّ جريمةٍ صدرت عنكم من الجريمتين العظيمتين ﴿فإذا جاء وعد﴾ انتقام ﴿أولاهما﴾ أي: أولى الجريمتين ﴿بعثنا﴾ وسلّطنا ﴿عليكم﴾ حين أردنا الانتقام، والأخذ عليها ﴿عبادًا لّنا﴾ منتقمين عنكم من قبلنا ﴿أولي بأس شديد﴾ وشوكةٍ عظيمةٍ، وصَوْلَةٍ قويةٍ، وإذا دخلوا عليكم ﴿فجاسوا﴾ أي: تجسسوا وترددوا لطلبكم ﴿خلال الدّيار﴾ ووسطها للقتل والاستئصال ﴿وكان﴾ ما ذُكر من الانتقام ﴿وعدًا﴾ من الله ﴿مّفعولاً﴾ [الإسراء: 5] حقًّا عليه إنجازه وإيقاعه، وذلك حين استولى بُخْتُنَصَّر عليهم، فقتل كبارهم، وسَبَى صغارهم، ونهب أموالهم، وخرب بلدانهم، وحرق التوراة، وخرب الأقصى.

﴿ثمّ﴾ بعدما ضعفناكم وأخذناكم ﴿رددنا لكم الكرّة﴾ الدولة والغلبة والصولة ﴿عليهم﴾ أي: على أعدائكم ﴿وأمددناكم بأموال﴾ عظام ﴿وبنين﴾ معاونين ناصرين ﴿وجعلناكم﴾ في الكرّة الثانية ﴿أكثر نفيرًا﴾ [الإسراء: 6] من الكرّة الأولى؛ أي: أكثر عسكرًا وجنودًا منها.

وبالجملة: ﴿إن أحسنتم﴾ لبني نوعكم خالصًا لوجه الله، وآمنتم لتزكية نفوسكم ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ إذ فوائد الإيمان والإحسان عائدةٌ إليكم ﴿وإن أسأتم﴾ لهؤلاء، وكفرتم بالله وبرسله ﴿فلها﴾ أي: وبال إساءتكم عليها؛ إذ الله في ذاته غنيٌّ عن إحسان المحسن، وإساءة المسيء ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: وقت انتقام الجريمة الأخيرة، بعثنا عليكم أيضًا عبادًا لنا أولي بأس شديد، وبسطة قوية، وبطش شديد: طيطوس الرومي.

وقيل: ملك الفرس اسمه: جودرز، وقيل: حردوس، وإنما بعثناهم عليكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ ليسوءوا معكم، بحيث ظهرت آثار إساءتهم من وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وخربوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وخربوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في استيلاء بختنصر، وأحرقوا الكتب، كما أحرقوا ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ وقدروا عليه وغلبوا ﴿تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء:7] هلاكًا كليًا، بحيث لا ينجو منهم أحد.

قيل: دخل صاحب الجيش، فذبح قرابينهم، فوجد فيه دمًا يغلي، فسألهم عنه، فقالوا: دم قربان لم يُقبل منا، فقال: ما هو إلا كذب، فقتل ألوفًا منهم عليه، ثمَّ قال: إن لم تُصْدِقُوني، ولم تبينوا لي دم مَنْ هو هذا، ما تركت منكم أحدًا؟ فلما اضطروا قالوا: إنه دم يحيى النبي ﷺ قتلناه ظلمًا، فقال: لمثل هذا ينتقم الله منكم؟! ثمَّ قال ملتفتًا إلى الدم: يا يحيى، قد علم ربي وربك ما أصاب قومَك من أجلك، فأسكن من الغلي قبل ألا أبقي أحدًا منهم، فسكن، ولم يقتل بعد هذا.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: 8 – 17].

ثمَّ قال سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الثانية،

إن تبتم عن معاصيكم وجرائمكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إليها ثالثًا ﴿عُدْنَا﴾[1] إلى الانتقام والعذاب ثالثًا، وهكذا رابعا وخامسًا. وقد عادوا في النوبة الثالثة بتكذيب سيدنا محمد ﷺ، وقصدوا قتله، فأعاد الله عليهم الخزي، بأن سلط المسلمين عليهم، فقتلوهم وأسروهم، وضربوا الجزية على باقيهم، وصاروا مهانين أذلاء صاغرين إلى قيام الساعة، هذا في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَعَلْنَا جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، والطرد والحرمان ﴿لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:8] محبسًا ومضيقًا لا ينجون منها أبد الآباد.

ومن أراد نجاة الدارين، وخير النشأتين، فعليه الامتثال والانقياد بما في القرآن المنزل على خير الأنام ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الفارق بين الهداية والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام ﴿يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿لِلَّتِي﴾ أي: للطريق التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرق وأعدله، وأوضح السبل وأبينه إلى التوحيد المنجي عن ظلمات النشأتين ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ أيضا ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة منه، المقربة إلى التوحيد ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:9] هو الفوزُ بشرف اللقاء، والتحقق عند سدرة المنتهى.

﴿وَ﴾ يخبر القرآن أيضًا ﴿أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولم يقصدوا ما فيها من الحساب والعقاب، والصراط والسؤال وجميع ما فيها ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء:10] مؤلمًا محزنًا لرؤيتهم المؤمنين متنعمين. مترفين في الجنة مترفهين.

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق المذمومة، والديدنة القبيحة: ﴿يَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ مسرعًا مستعجلاً ﴿بِالشَّرِّ﴾ الملحق له من غير علم بشريته، ووخامة عاقبته ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: مثل دعائه بالخير؛ أي: لسرعته ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ﴾ في جِبلّته خُلِق ﴿عَجُولًا﴾ [الإسراء:11] مسرعًا مستعجلاً على ما يميل إليه، وإن كان مضرًا له.

﴿وَ﴾ من كمال رحمتنا وإشفاقنا ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ذا نورٍ وإضاءةٍ ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ وعطايا ناشئة

---

(1) قال في التأويلات: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الجهل ﴿عُدْنَا﴾ إلى العدل، بل إلى الفضل، وإن عدتم إلى الندم عدنا إلى الكرم، وإن عدتم إلى النسيان عدنا إلى الغفران، وإن عدتم إلى الإقدام على العبودية عدنا إلى الإنعام بالربوبية، وإن عدتم إلى طلب الهداية عدنا إلى اختصاصكم بالعناية، وإن عدتم إلى القربات عدنا إلى الجذبات.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتعيشوا بها، وتقوِّموا أمزجتكم منها ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ بتجدد الملوين ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ المتداولة بينكم في معاملتكم وحراثتكم وتجارتكم ﴿وَ﴾ بالجملة: في ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ تحتاجون إليه في أمور معاشكم ومعادكم ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي: بيّناه وأوضحناه لكم، وعلّمنا طريق وصولكم ونيلكم إليها ﴿تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:12] وتبيينًا واضحًا لائحًا، فعليكم أن تتخذوني وكيلاً في جميع حوائجكم الدنيوية والأخروية.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(1) أي: بعدما رتبنا أمور معاش الإنسان ومعاده على ما ينبغي ويليق بحاله، كتبنا جميع ما صدر عنه من الأعمال الصالحة والفاسدة في مكتوبٍ جامع لها، محيط بها، وعلقناه في عنقه تعليقًا لازمًا، شبّه الأعمال بالطائر؛ لأن الإنسان يطير ويميل نحو السعادة والشقاة بما صدر عنه من الأعمال؛ كأن الأعمال جناح له ﴿وَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى المعدَّة للاختبار والاعتبار ﴿نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ جامعًا لجميع ما صدر عنه في دار الابتلاء ﴿يَلْقَاهُ﴾ وينال إليه ﴿مَنشُورًا﴾ [الإسراء:13] على رءوس الملأ والأشهاد تكريمًا وتعظيمًا، أو تفضيحًا وتقريعًا.

وحين إلقائه إليه يُقال له: ﴿اقْرَأْ﴾ أيها المكلّف في دار الابتلاء بأنواع التكليفات، والمأمور فيها بامتثال الأوامر، وترك المنهيات ﴿كِتَابَكَ﴾ أي: مكتوبك المشتمل على جميع ما صدر عنك؛ إذ ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ﴾ أي: كفى نفسك اليوم ﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:14] أي: كافيًا وشهيدًا بلا احتياج لك إلى محاسب آخر.

﴿مَّنِ اهْتَدَى﴾ في النشأة الأولى بمتابعة ما أُمر ونُهي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي﴾ ويفيد ﴿لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعُ الهداية هو الوصول إلى مرتبة الخلافة والنيابة التي جُبل الإنسان عليها، عائد إلى الموحد نفسه بلا سراية إلى غيره، إلَّا على وجه الإرشاد والتنبيه ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق، وانحرف عن مسلك التوحيد بترك المأمورات، وارتكاب المنهيات ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما لا يعود ويرجع وبال ضلالها إلَّا على

(1) قال التأويلات: يشير إلى ما طار لكل إنسان في الأزل وتعد بالحكمة الأزلية والإرادة القديمة من السعادة والشقاوة ويجري عليه من الأحكام المقدرة، والأحوال التي جرى بها العلم من الخلق والخلق والرزق والأجل، ومن صغائر الأعمال وكبائرها المكتوبة له، وهو بعد في العدم وطائره ينتظر وجوده، فلما أخرج كل إنسان من العدم إلى الوجود وقع طائره في عنقه ملازمًا له في حياته ومماته حتى يخرج من قبره يوم القيامة وهو في عنقه.

نفسها بلا سرايةٍ إلى غيرها، إلّا تسببًا وإضلالاً.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَاتَزِرُ﴾ ولا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة عاصية ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَى﴾ مثلها، بل كل نفسٍ رهينة ما كسبت، سواء كان خيرًا أو شرًا ﴿وَ﴾ بعدما قرر سبحانه أن الهداية والضلالة لا تسري إلى الغير، أراد أن يبين سبحانه أن الأخذ على الضلال إنما هو بعد الإرشاد والتنبيه، فقال: ﴿مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ لأهل الضلال ﴿حَتَّى نَبْعَثَ﴾ ونرسل إليهم ﴿رَسُولاً﴾ [الإسراء:15] منهم، حين ظهر عليهم علامات الفسوق والعصيان، وأمارات الضلال والطغيان؛ ليبين لهم طريق الهداية، ويرغبهم إليها، ويجنبهم عن الضلال، وينفرهم عنها.

وبعد بعثنا وإرسالنا، إن لم يقبلوا قول الرسل، ولم يمتثلوا بما أُمروا على ألسنتهم، ونُهوا عليها، بل أصروا على ما هم عليه من الضلال، أُخذوا وعُذبوا ﴿وَ﴾ كذلك جرت سنتنا أنّا ﴿إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ﴾ ونستأصل ﴿قَرْيَةً﴾ مستحقةً للإهلاك والاستئصال ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: متنعميها بالإطاعة والانقياد ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وخرجوا عن مقتضى الأمر، ولم يبالوا به ﴿فَحَقَّ﴾ أي: ثبت واستقر ﴿عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: على أهل القرية العذابُ الموعود والمعهود ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ وأهلكنا أهلها؛ بسبب فسقهم، وخروجهم عن الإطاعة والامتثال بالمأمور ﴿تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:16] أي: هلاكًا كليًا، واستئصالاً حقيقيًا إلى حيث لم يبقَ منهم ومن عمرانهم وزراعاتهم شيء.

ليس أمثال هذا الإهلاك ببدعٍ منا، بل ﴿وَكَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ كعادٍ وثمود؛ لعتوّهم وعنادهم مع رسول الله ﴿وَ﴾ لا يحتاج لإثبات ضلال أولئك الضالين المضلين إلى شاهدٍ ومبينٍ، بل ﴿كَفَى بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربك يا أكمل الرسل ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ وخروجهم عن إطاعته وانقياده ﴿خَبِيرًا﴾ إذ هو عالم بما في سرائرهم وضمائرهم، بل ما في استعداداتهم ﴿بَصِيرًا﴾ [الإسراء:17] بما هو في ظواهرهم وعلنهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا

تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ [الإسراء: 18 – 27].

﴿مَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ﴾ اللذات ﴿العَاجِلَةَ﴾ والشهوات الفانية الزائلة ﴿عَجَّلْنَا﴾ وأعطينا ﴿لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: في النشأة الأولى ابتلاءً له، واختبارًا وتلبيسًا عليه واغترارًا، مطلعون على ما في سره وضميره ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ وهيأنا في النشأة الأخرى ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ منزل الطرد والحرمان، حال كونه ﴿يَصْلاهَا مَذْمُومًا﴾ مشئومًا محرومًا ﴿مَّدْحُورًا﴾[1] [الإسراء:18] مطرودًا مقهورًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ منهم بامتثال الأوامر المتعلقة لمصالح الدين، وباجتناب نواهيه ﴿الآخِرَةَ﴾ أي: اللذة الأخروية الأبدية ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: حق سعيها على مقتضى الأمر الإلهي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حال السعي والاجتهاد ﴿مُؤْمِنٌ﴾ موقن، مصدق بوحدانية الله، وبما جاء من عنده على رسله، بلا شوب تزلزل وتردد ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾ واجتهادهم في امتثال الأوامر، واجتناب النواهي ﴿مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:19] مقبولاً مستحسنًا، وعملهم مبرورًا، وجزاؤهم

---

(1) قال في التأويلات: مطرودًا مهينًا ذليلاً، واعلم أن فيها إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان مركبًا من الدنيا والآخرة، ولكل جزء منهما ميل وإرادة إلى كله ليتغذى منه ويتقوى ويتكمل به، وإن في جزئه الدنيوي وهو النفس طريق إلى دركات النيران، وفي جزئه الأخروي وهو الروح طريق إلى درجات الجنان، وخلق القلب في هذين الجزءين، وله طريق إلى بين إصبعي الرحمن إصبع اللطف وإصبع القهر، فمن يرد الله أن يكون مظهر قهره أزاغ الله قلبه، وحول وجهه إلى الدنيا فيريد العاجلة ويربي بها نفسه إلى أن يبلغه إلى دركات جهنم البعد وتصلى نار القطعية، ومن يرد الله أن يكون مظهر لطفه أقام قلبه وحول وجهه إلى عالم العلو فيريد الآخرة.

موفورًا، وهم صاروا في دار الجزاء مغفورًا مسرورًا.

﴿كُلًّا نُمِدُّ﴾ أي: كل واحد من الفريقين المطيع والعاصي نُيسر ونوفق على مقتضى ما يهوى ويريد ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المؤمنين المطيعين، نوفقهم على الطاعات، ونجنبهم عن المعاصي ﴿وَهَؤُلَاءِ﴾ الكافرين العاصين، نُيسر لهم ما تميل إليه نفوسهم من الأهوية الفاسدة، والآراء الباطلة؛ إذ كلٌّ ميسر لما خلق له.

كل ذلك ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل الذي ربَّاك وجميع عباده بأنواع اللطف والكرم ﴿وَ﴾ كيف لا ييسر لهم سبحانه، ولا يوفقهم؛ إذ لا رازق لهم سواه، ولا معطي لهم غيره؟! لذلك ﴿مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:20] ممنوعًا عن الكافر لكفره وعصيانه، موفورًا على المؤمن لإيمانه، بل لا يعلَّل فعل بالأعراض والأعواض مطلقًا، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد إرادةً واختيارًا.

والتفاوت الجاري بين عباده إنما هو لحكمةٍ ومصلحةٍ استأثر الله به في غيبه، لا اطلاع لأحدٍ عليه؛ لذلك قال: ﴿انظُرْ﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ في النشأة الأولى بالمال والجاه، والثروة والرئاسة ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ مبتلى بالفقر والمسكنة، وأنواع المذلة والهوان ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ المعدَّة للذات الروحانية، والحقائق والمعارف، والمكاشفات والمشاهدات ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ لبقاء ذاتها أبد الآباد ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21] من فضل المستعار الفاني الزائل بسرعة.

ومتى اعتبرتَ أيها المعتبر، وتأملت ما فيه من العبر ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ ولا تتخذ ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المتعزز برداء الفردانية ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ كفوًا له، يُعبد بالحق مثله، وكيف تجعل وتأخذ ربًا سواه؛ إذ ليس في الوجود إلَّا هو ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بعد جعلك واتخاذك إلهًا سواه خائبًا خاسرًا، بل ﴿مَذْمُومًا﴾ عند الملائكة وجميع النبيين ﴿مَخْذُولًا﴾ [الإسراء:22] عند الله يوم العرض الأكبر؟!

﴿وَ﴾ كيف تتخذ إلهًا سواه، مع أنه ﴿قَضَى رَبُّكَ﴾ وحكم حكمًا مقطوعًا مبرمًا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: بألَّا تعبدوا أيها البالغون لحد التكليف ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إذ لا مستحق للعبادة والانقياد سواه؛ إذ هو المستقل بإيجادكم وإظهاركم بلا مشاركة ومعاونة، فعليكم أن تعظِّموه وتوقِّروه، وتذللوا نحوه غاية التذلل والخضوع.

﴿وَ﴾ أن تحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما السبب الظاهري لتربيتكم وظهوركم ﴿إِحْسَانًا﴾ سلسًا طلقًا فرحانًا، بلا شوب المنة والأذى، سيما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ أي: أن

يبلغن ﴿عِندَكَ﴾ أيها الولد ﴿الكِبَرَ﴾ أي: سن الكهولة. بحيث عجز عن خدمة نفسه ﴿أَحَدُهُمَا﴾ أي: أحد الوالدين ﴿أَوْ كِلاهُمَا﴾ معًا ﴿فلا تقُل لَّهُما﴾ في جميع الأحوال، سيما عند الكبر والكهولة: ﴿أُفٍّ﴾ أي: صوتًا شديدًا دالاً على تضجرهما وردعهما ﴿وَ﴾ إن خرجا عن مقتضى العقل، وفعلا فعلاً يجب لك صرفهما عنه ﴿لا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تقهرهما زجرًا عليهما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء:23].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اخْفِضْ﴾ وابسط ﴿لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ والتواضع والمسكنة ﴿مِنَ﴾ كمال ﴿الرَّحْمَةِ﴾ والشفقة عليهما ﴿وَ﴾ لا يقتصر على الخفض والشفقة الدنيوية، بل ﴿قُل﴾ لهما ولأجلهما مناجيًا مع الله: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ على مقتضى رحمتك الواسعة، وجودك الشامل ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:24] أي: ارحمهما بفضلك، مثل رحمتهما وتربيتهما إياي في حال صغري وطفولتي.

فعليكم أن تكونوا في دعائهما على العزيمة الصحيحة، والمحبة الخالصة، بحيث يكون بواطنكم موافقة لظواهركم، مثل تربيتهما إياكم حالة صغركم، ولا تتمنوا موتهما في قلوبكم؛ إذ ﴿رَّبُّكُمْ﴾ المطلع على سرائركم ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من ابتغائكم موتهما، أو برهما وتكريمهما، فالله سبحانه يعفو عنكم، ويقبل توبتكم ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ مصلحين ما فوّتم وأفسدتم على نفوسكم من حق تعظيمهما وتوقيرهما ﴿فَإِنَّهُ﴾ سبحانه من كمال جوده وفضله ﴿كَانَ لِلأَوَّابِينَ﴾ الرجَّاعين إليه سبحانه، النادمين بما صدر عنهم من المعاصي، سيما ما يتعلق بعقوق الوالدين ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء:25] يغفرهم ويتجاوز عنهم.

﴿وَ﴾ لا تقتصر أيها الولد على تعظيم والديك فقط، بل عليك تعظيم كل من ينتمي إليك من قِبَلهما؛ لذلك ﴿آتِ﴾ وأعط ﴿ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي: حق تواضعهم وتوقيرهم إن كانوا أغنياء، وأنفِق عليهم إن كانوا فقراء ﴿وَ﴾ آت من زكاة أموالك، وفواضل صدقاتك ﴿الْمِسْكِينَ﴾ الذي لا يقدر على قوته وقوت عياله ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أيضًا الذي يبعد عن بلده، وليس معه مؤنة معاشه، وكن في إنفاقك مقتصدًا معتدلاً ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:26] أي: لا تسرف إسرافًا مفرطًا خارجًا عن حد الاعتدال، سيما فيما لا يعني وينبغي؛ إذ التبذير والتقتير كلاهما مذموم عقلاً وشرعًا.

لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ المسرفين أموالهم رياءً وسمعةً ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أشباههم وأتباعهم في صرف الأموال الموهوبة من الله إلى غير

المصرف، وغير المستحق من المصارف، بل صرفوها إلى المحظورات والمكروهات، بإغواء الشياطين وإغرائهم ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ الغوي الطاغي ﴿لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27] لنعم الله، فيغري أتباعه إلى الكفران أيضًا.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ
يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ
سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ
أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ
وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن
تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾
[الإسراء: 28 – 38].

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: إن تحقق إعراضك ومنعك عن هؤلاء المستحقين المذكورين، سيما بعدما سألوا عنك العطاء ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ أي: طلب رحمة وشفقة مرجوة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ حال كونك ﴿تَرْجُوهَا﴾ أي: الرحمة لهم؛ لعلمك بأنهم صرفوها إلى القبائح والمعصية، فعليك أن تمنعهم وتردهم هينًا لينًا، بلا تشدد وغلظة ﴿فَقُل لَّهُمْ﴾ حين دفعهم: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:28] سهلاً إلى حيث لا ييأسوا ولا يحزنوا، مثل أن تقول: سهّل الله علينا وعليكم، ويسّر لنا ولكم من فضله وجوده.

وبعدما نهى سبحانه عن التبذير صريحًا، والإعراض عن صرف النعمة إلى المعصية، نهى عن مطلق البخل والتبذير المذمومين تأكيدًا ومبالغةً، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ معقودة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ بحيث لا يسع لك إعطاء شيء مما رزق الله لك

على مستحقه شُحًّا وبخلاً؛ إذ هو إفراطٌ وتقتيرٌ ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ بحيث لا قرار لك عندها أصلاً، فهذا تفريطٌ وتبذيرٌ، وكلاهما مذمومان شرعًا وعقلاً، فعليك بالاقتصاد الذي هو عبارة عن الكرم والجود، وهو صراط الله الأعدل الأقوم ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ بعد اتصافك بالبخل والتقتير ﴿مَلُومًا﴾ عند الله، وعند الملائكة والناس أجمعين، واتصفت بالتبذير والإسراف، تقعد ﴿مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء:29] نادمًا متحسرًا، قلقًا حائرًا في نظم معاشك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ الصوري والمعنوي، ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده على مقتضى علمه بحالهم، وسعة استعدادهم، وقابلية حوصلتهم ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يقبض ويضيّق لمن يشاء منهم على مقتضى علمه بضيق صدرهم، وقلة تمكنهم ووقارهم؛ إذ الله الحكيم المتقن في أفعاله لا يتجاوز عن مقتضى حكمته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ عليمًا ﴿خَبِيرًا﴾ عن بواطنهم وضمائرهم، وما يؤول إليهم أمورهم ﴿بَصِيرًا﴾ [الإسراء:30] بظواهر أحوالهم، وتقلباتهم في شئونهم وتطوراتهم.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ﴾ أيها البالغون لرتبة التكليف الإلهي ﴿أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ الحاصلة من أصلابكم، سواء كانوا بنين أو بنات بلا رخصة شرعية، سيما ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾[1] أي:

(1) قال في التأويلات: إلى هذا الموضع وهو عشر آيات إشارة إلى تبديل عشر خصال مذمومة بعشر خصال محمودة. أما المذمومات:
فأولها: البخل، وثانيها: الأمل، وهما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ [الإسراء:31] فإن البخل وطول الأمل حملهما على قتل أولادهم فدلهم على تبديلهما بالسخاء والتوكل بقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:31]، وثالثهما: الشهوة، وهي في قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:32] فإن غلبة الشهوة يورث الزنا فبدلها بالعفة حين نهاهم عن الزنا، ورابعها: الغضب، وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:33] فإن استيلاء الغضب يورث القتل بغير الحق فبدله بالحلم في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء:33]، وخامسها: الإسراف، وهو في قوله: ﴿فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:33] فإن الإفراط في كل شيء يورث الإسراف فبدله بالقوام، وسادسها: الحرص، وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الإسراء:34] فإن التصرف في مال اليتيم من الحرص فبدله بالقناعة بقوله: ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:34]، وسابعها: نقض العهد فبدله بالوفاء بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:34]، وثامنها: الخيانة، فبدلها بالأمانة ﴿وَأَوْفُوا

فقر وفاقة؛ إذ ﴿نَّحْنُ﴾ من سعة جودنا، ووفور رحمتنا ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ إذ لا رازق لكم ولهم سوانا ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ إن صدر عنكم ﴿كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:31] أي: ذنبًا عظيمًا.

﴿وَ﴾ عليكم أيها المؤمنون المتدرجون في مسالك التحقيق أن ﴿لَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ بترتيب مقدمات تترتب عليها تلك الفعلة القبيحة، فكيف الإتيان بها. العياذ بالله . ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزنا ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ مسقطة للعدالة، مزيلة للمروءة، مبطلة لحكمة التناسل التي هي المعرفة الإلهية؛ إذ ولد الزنا لا يبلغ مرتبة الولاية والعرفان أصلاً ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:32] لقضاء الشهوة المعدَّة لسر الظهور والإظهار من لدن حكيم عليم.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أيها الموحدون القاصدون إلى معارج التوحيد أن ﴿لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ قتلها؛ إذ هي بيت الله، وتخريب بيته من أعظم الكبائر ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلّا برخصة شرعية من قصاص وحدّ وردّة، إلى غير ذلك من الأمور التي عيّنها الشرع ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بلا رخصة شرعية ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا﴾ بمقتضى عدلنا ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ أي: لمن يلي أمر المقتول بعده ﴿سُلْطَانًا﴾ سطوة وغلبة على القاتل الظالم مع

الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:35]، وتاسعها: الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه باستعمال الجوارح والأعضاء على خلاف ما أمره وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36] فبدله بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء:36] فظلم السمع باستعماله في استماع الغيبة واللغو، والرفث والبهتان والقذف والملاهي والفواحش، وعدله استعماله في استماع القرآن والأخبار والعلوم والحكم والمواعظ والنصيحة والمعروف وقول الحق، وظلم البصر النظر إلى المحرمات والشهوات وإلى من فوقه في دنياه وإلى متاع الدنيا وزينتها وزخارفها، وعدله النظر في القرآن والعلوم وإلى وجه العلماء والصلحاء، ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:50] وإلى الأشياء بنظر الاعتبار، وإلى من دونه في دنياه، وإلى من فوقه في دينه، وظلم الفؤاد قبول الحقد والحسد والعداوة وحب الدنيا والتعلق بما سوى الله، وعدله تصفيته عن هذه الأوصاف الذميمة وتحليته بالأوصاف الحميدة وتبديل هذه الصفات والتخلق بأخلاق الله، وعاشرها: الكبر وهو في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37] فإن المشية بالخيلاء من الكبر فبدله بالتواضع بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:37] أي: من الكبر فألزمه التواضع.

معاونة الحكام له ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي: الولي المنتقم ﴿فِّي الْقَتْلِ﴾ لقصاص المقتول المظلوم بأن يقتل غير القاتل بدله، أو يُقتل هو مع غيره، وكيف لا يُقتل الظالم بدل المقتول المظلوم ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ أي: المظلوم ﴿مَنصُورًا﴾ [الإسراء:33] عند الله، وعند جميع الخلائق؟!.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أيها المتوجهون نحو الحق بالعزيمة الصحيحة، والقصد الخالص أن ﴿لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ الذي لا متعهد له من الأبوين ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بحالهم من ازدياد أموالهم وتنميته، وحفظه وتعميره على وجه العدالة والمروءة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: رشده، وبلغ إلى سن التمييز والتصرف، فلكم أيها المتعهدون المتحفظون لأموال اليتامى ردها إليهم بعد اختبارهم وامتحانهم مرارًا، وبالجملة: لكم أيها الموحدون الإيفاء والوفاء بالعهود والمواثيق مطلقًا، سواء كانت مما بينكم وبين الله، أو بين المؤمنين من عباده ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ﴾ والميثاق ﴿كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:34] في النشأة الأخرى، وناقضه مؤاخذًا، وموفيه مأجورًا.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: عليكم إيفاء الكيل ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُوا﴾ أيضًا، إذا زنتم ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ أي: الميزان ـ وهو لفظ سرياني ـ ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا ميل له إلى جانب، بل صار كفتاه على السوية بلا ميل ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيفاؤكم واستقامتكم في المكيال والميزان ﴿خَيْرٌ﴾ جالب لأنواع الخيرات في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: 35] أي: عاقبةً ومآلاً في العقبى.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبع أيها المؤمن الموقن، الطالب للوصول إلى مرتبة التوحيد ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما لم يتعلق علمك به تقليدًا أو تخمينًا؛ إذ أنت يوم الجزاء مسئول عما رُمته بلا علمٍ، وأقدمتَ عليه بأي عضو وجارحة، وقلتَهُ رجمًا بالغيب ﴿إِنَّ السَّمْعَ﴾ قدمه؛ لأنه نُسبت إليه أكثر المفتريات والكواذب ﴿وَالْبَصَرَ﴾ لأن النفس تقع في أكثر الفتن والمهالك برؤية البصر ﴿وَالْفُؤَادَ﴾ الذي هو أصل في إنشاء الكواذب والمزوّرات ﴿كُلُّ أُوْلَئِكَ﴾ أي: كل واحد من القوى الثلاثة ﴿كَانَ﴾ يوم القيامة ﴿عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:36] فتقرُّ أولئك القوى بعدما سُئل عمّا صدرت منها من المعاصي، فيفتضح صاحبها على رءوس الأشهاد.

﴿وَلَا تَمْشِ﴾ أيها الطالب لعدالة التوحيد والعرفان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي أعدت

للتذلل والانكسار، والتواضع والخشوع ﴿مَرَحًا﴾ ذا كبرٍ وخيلاءٍ، فكيف تختال وتتكبر أيها المهان المخلوق من المهين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ بشدة قوتك ووطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ﴾ باستعلائك واستكبارك ﴿طُولًا﴾ [الإسراء:37] أي: مدة متطاولة حتى تستعلي بها على من دونك؟! وبالجملة: لا تتكبر ولا تتجبر أيها العاجز الضعيف مع ضعفك، وقصير عمرك.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ من النواهي المذكورة، مِنْ ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 22] إلى هنا، ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ أي: ثبت وتحقق كونه سيئة، وإنما ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لذلك كان ﴿مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:38] منهيًا عنه، مبغوضًا عليه.

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: 39 – 49].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام المتقدمة، مِنْ أول السورة إلى هنا ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل تربيةً لك، وتأييدًا لأمرك ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ المتقنة التي يجب الامتثال والاتصاف بها على من أراد سلوك سبيل التوحيد، المبنيّ على عدالة الأخلاق والأطوار والشئون ﴿وَ﴾ معظم المنهيات والمحظورات: الشرك بالله ـ العياذ بالله منه ـ

لذلك كرره تأكيدًا ومبالغةً، وبالغ في الاحتراز عنه حبيبه، حيث قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، المعبود بالحق والاستحقاق ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبد له كعبادته، وإن اتخذتَ إلهًا سواه ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، حال كونك ﴿مَلُومًا﴾ تلوم نفسك بأنواع الملومات بما ضاع عنك من التوحيد المنجي عن جميع المضائق والمهالك ﴿مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:39] مبعدًا عن رحمة الله، وسعة فضله وإحسانه.

﴿أَ﴾ تزعمون أيها المشركون المستكبرون أن الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء فضّلكم على نفسه ﴿فَأَصْفَاكُمْ﴾ أي: خصصكم واجتباكم ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ الذين هم أكرم الأولاد وأشرفها ﴿وَاتَّخَذَ﴾ لنفسه أولادًا ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ نواقص عقلاً ودينًا ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المسرفون بإقدامكم واجترائكم على الله بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿لَتَقُولُونَ﴾ في حق الله ﴿قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء:40] بهتانًا وزورًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

إذ نسبة الأولاد إلى الصمد المنزه عن الأنداد في نهاية الشناعة والفساد، وأشنعُ منه نسبة الإناث إليه، ثمّ نسبة الملائكة الذين هم من أفضل عباد الله وأشرفهم إلى الأنوثة المستحقرة المذمومة شرعًا وعقلاً، هذا مع غاية الإفراط في حق الله، والتفريط في خلّص عباده؛ لذلك وصف سبحانه هذا القول الشنيع بالعظمة.

ثمّ قال سبحانه توبيخًا لهم وتقريعًا، وإشارةً إلى تناهيهم في الضلال والطغيان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا مرارًا شناعةَ هذا القول؛ أي: نسبة الولد إلى الله الصمد المنزه في ذاته عن الأهل والولد ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المنزل لهداية أهل الغي والضلال ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا، ويتفطنوا إلى وخامة عواقبه ومآله، ومع ذلك لم يتذكروا ولم يتفطنوا، بل ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التكرار والمبالغة ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء:41] إعراضًا عن الحق، وإصرارًا على ما هم عليه من الباطل.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ أمثاله ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ وتدّعون أيها المشركون، هم معبودون بالحق، مستحقون للعبادة كما زعمتم ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا﴾ ولطلبوا ﴿إِلَى﴾ معاداة ﴿ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:42] ليغلبوا عليه، ويستولوا على ملكه، كما يفعل الولاة بعضهم مع بعض؛ إذ لو عجزوا عن مماراته ومقابلته، لم يكونوا مثله، فلم يستحقوا للعبادة المطلقة مثله.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أي: نزه سبحانه ذاته تنزيهًا بليغًا، وقدس تقديسًا متناهيًا في القدس والنزاهة ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تَرفَّع وتعاظم ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ هؤلاء الظالمون، المسرفون المفرطون في شأنه من إثبات الشريك المماثل له، والكفء المتكافئ معه ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:43] أي: تعاليًا وتباعدًا في غاية البعد والاستحالة؛ إذ لا موجود سواه، ولا إله غيره.

وكيف تغفلون وتذهلون عن دلائل توحيد الحق وشواهده أيها الضالون المضلون، مع أنكم مجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد، ومع ذلك ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ وتُقدّس ذاته عن الشريك والولد، والكفء والنظير ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾ المطبقة المعلقة المنضودة، المنظومة على أبلغ النظام وأعجبه، مع ما فيها من الكواكب المختلفة الألوان والأشكال، والمنازل والحركات والآثار المترتبة عليها، ومع ما فيها من عجائب المخلوقات، وغرائب المبدعات والمخترعات التي لا علم لنا إلّا بأنياتها دون لمياتها، كل ذلك يدل على وحدة مظهرها وبارئها ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وما عليها من أنواع النباتات والمعادن والحيوانات التي عجزت عن إحصائها ألسنة أولي البصائر والنهى، المعتبرين المتأملين في مصنوعات الحق، وعجائب مخترعاته ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ من الملائكة والثقلين، المجبولين على عبادة الحق وعرفانه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: ما من شيء مما يطلق عليه اسم الشيء، ويمتد عليه ظلُّ الوجود ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: ينزهه ويقدسه عن شوب الحدوث والإمكان، بعضها بالحال، وبعضها بالمقال، سيما عن أقوى أمارات الإمكان التي هي الإيلاد والاستيلاد.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ﴾ تفهمون أيها المنهمكون في الغيّ والضلال ﴿تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[1]

(1) قال نجم الدين: اعلم أن الله تعالى أثبت لكل ذرة من ذرات الموجودات ملكوتًا بقوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يس:83] والملكوت باطن الكون وهو الآخرة والآخرة حيوان لا جماد كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64] فأثبت بهذا الدليل لكل ذرة من ذرات الموجودات لسانًا ملكوتيًا ناطقًا بالتسبيح والحمد تنزيهًا لصانعه وقادره وحمدًا له على ما أولاه من نعمة، وبهذا اللسان نطق الحصى في يد النبي ﷺ، وبهذا تنطق الأرض يوم القيامة، وكما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] وبهذا اللسان نطق الحصى وتشهد أجزاء الإنسان وأبعاضه عليه يوم القيامة وبقوله: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ

لعدم اشتغالكم بالتدبر والتأمل في مصنوعات الحق، والتفكر في آياته، بل تنكرونها وتصرون على القدح فيها عنادًا ومكابرةً، وتشركون بالله - العياذ بالله منه - أندادًا، وبذلك استوجبتم أشدَّ العذاب والنكال، فأمهلكم الله ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام والعقوبة رجاءَ أن تتعظوا وترجعوا نحوه بالتوبة والندم على وجه الإخلاص، فيغفر زلتكم كلها، إنه كان ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء:44] للأوّابين التوابين، الرجّاعين إليه بكمال الندم والإخلاص، وإن عظمت زلتهم، وثرت معصيتهم.

﴿وَ﴾ من كمال لطفنا معك يا أكمل الرسل، وغاية حفظنا وحراستنا إياك ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ واستغرقت في لجج رموزه وإشاراته، وخضتَ في تيار بحاره لِطَلَبِ فرائد فوائده، وصرتَ من غاية استغراقك وتلذذك بها إلى أن غبتَ عن محافظة نفسك، ومراقبة حالك ﴿جَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يوقنون بالأمور المترتبة عليها فيها ﴿حِجَابًا﴾ غليظًا، وغشاءً كثيفًا ﴿مَّسْتُورًا﴾[1] [الإسراء:45] يسترك عن أعين أعدائك، القاصدين لك سوءًا، مع أنهم لا يرون الحجب أيضًا.

روى سعيد بن جبير ﷺ أنه لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1] جاءت امرأته بحجرٍ لترضخ به رأس رسول الله ﷺ ، وهو جالس مع أبي بكر ﷺ،

شَيْءٍ﴾ وبهذا اللسان نطقت السماوات والأرض حين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فافهم جدًا واغتنم.

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن من قرأ القرآن حق قراءته ارتقى إلى أعلى المراتب كما قال ﷺ: «يقال - يعني: لصاحب القرآن - اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها» قال أبو سليمان الخطابي: جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة فمن استوفى جميع آي القرآن استولى على أقصى درج الجنة، قلت: واستيفاء جميع آي القرآن في الحقيقة هو التخلق بأخلاق القرآن، فالقرآن من أخلاق الله وصفاته والمتخلق بأخلاقه يكون متخلقًا بأخلاق الله، وهذا يكون بعد العبور عن حجب الظلماني والنوراني متمكنًا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] فهو الذي جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا، وإنما قال: ﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ [الإسراء:45] ولم يقل ساترًا؛ لأن الحجاب يستر الواصل عن المنقطع ولا يستر المنقطع عن الواصل فيكون الواصل بالحجاب مستورًا عن المنقطع، والله أعلم.

فسألت: أين صاحبك، لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال أبو بكر: ما نطق صاحبي بالشعر، ثمّ قال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَ أَعْدَائِي، أَنَا أَرَاهُمْ وَلاَ يَرَوْنَنِي»[1].

﴿وَ﴾ كيف لا يكون الكافر محجوبًا مستورًا عن سرائر القرآن ومرموزاته؛ إذ ﴿جعلْنَا﴾ أي: غطّينا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ غشاوةً كثيفة تمنعهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموا معناه ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: حممًا وثقلاً، يمنعهم عن استماع ألفاظه حتى يتأملوا ويتدبروا في معناه ﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم، وكثافة أكنتهم ﴿إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ منفردًا، بلا ذكر آلهتهم ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ معرضين كارهين ﴿نُفُورًا﴾ [الإسراء:46] متنفرين ساخطين عليك؟!.

ولا تبال يا أكمل الرسل بهم، وبسماعهم واستماعهم وعدمه، ولا تلتفت نحوهم؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: يفرضون المتعلق باستماعهم الذي هو الاستهزاء والسخرية، وقت ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ﴾ كيف لا يكونون مستهزئين مستسخرين ﴿إِذْ هُمْ﴾ حين استماعهم كلامك ﴿نَجْوَى﴾ أي: ذوو مناجاة، يضمرون في نفوسهم مقتك وهلاكك، وأقله الاستهزاء معك؟! اذكر ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ منهم على سبيل العناد والمكابرة لأهل العدل والتوحيد: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون أيها الضالون ﴿إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء:47] سحر به فجن، فاختلط كلامه، وذهب عقله، وتكلم من تلقاء نفسه كلامًا يشبه كلام العقلاء.

﴿انظُرْ﴾ أيها الناظر بنور الله، المؤيِّد من عنده ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ الحشو والبتراء من غاية اضطرابهم وتهالكهم، مرةً يقولون: إنك شاعرٌ، ومرةً: ساحرٌ، ومرةً: كاهنٌ، ومرةً: مجنونٌ ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق الحق في جميع ما نسبوا إليك، وإلى ما جئت به من الكلام المعجز في أعلى مراتب الإعجاز ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى مقتك وقدح كتابك ﴿سَبِيلاً﴾ [الإسراء:48] واضحًا موجهًا، بل خبطوا في جميع ما نسبوا خبط عشواء، فضلُّوا عن السبيل السواء.

﴿وَ﴾ من غاية انهماكهم في الغيّ والضلال، ونهاية إنكارهم بحقية القرآن ﴿قَالُوا﴾ مستبعدين متعجبين على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ أي:

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (601/8).

أنبعث ونُحيي بعدما صرنا عظامًا باليةً رميمةً ﴿وَرُفَاتًا﴾ أي: غبارًا مرفوتًا، تذروه الرياح ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ محشورون من قبورنا ﴿خَلْقًا﴾ آخر ﴿جَدِيدًا﴾ [الإسراء:49] معادًا للخلق الأول، لا مثلاً له، بل عينًا، بلا مغايرة أصلاً، كلَّا وحاشا، من أين لنا هذا؟!.

﴿۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء: 50 – 58].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم تبكيتًا لهم وإلزامًا: لا تستبعدوا أيها الضالون المعاندون أمثال هذا البعث والحياء عن قدرة الله في الأشياء التي عهدوا حياتها من قبل؛ إذ لا بُعْدَ ولا غرابة فيها، بل ﴿كُونُوا حِجَارَةً﴾ أبعد بمراحل عن قبول الحياة ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء:50] هو أشدّ بعدًا.

﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخر مثلاً، هو ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ويستحيل في نفوسكم اتصافه بالحياة، فالله المقتدر بالقدرة الكاملة، والقوة الشاملة قادر على إحيائها وإيجادها، إن تعلقتْ إرادته، ومضت مشيئته على تكوينه وإظهاره، ثمّ بعدما أُفحموا من سماع الحجة القوية، وانحسرت عقولهم عن المقابلة معها ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مستفهمين عن تعيين الحق المبدئ المعيد على سبيل الإنكار: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ بعد موتنا وصيرورتنا عظامًا ورفاتًا؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إظهارًا إبداعيًا،

وإيجادًا اختراعيًا، بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، فإعادتكم أهون عليه من إبدائكم وإبداعكم.

وبعدما سمعوا منك قولك ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ ويحركون ﴿إِلَيْكَ﴾ أيها المؤيَّد من عند الله لإلزام أولئك الغواة والطغاة، الهالكين في تيه المكابرة والعناد ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ على وجه الاستبعاد والاستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستسخرين: ﴿مَتَى هُوَ﴾ مع أن الأنبياء الماضين يدَّعون مثلك قيامها، فلم تقع بعدُ، وأنت أيضًا تدَّعى، فلا تقع، وما هي إلّا مجرد الدعوى منكم ومنهم، بلا وقوعٍ ولا ورودٍ؟! ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:51] أي: بعدما ختم أمر الرسالة والتشريع، وكمُل بناء الدين، قَرُبَ وقوعها.

فانتظروا أيها المؤمنون المصدقون ليوم البعث والحشر مترصدين مترقبين ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الله للبعث والحشر ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ طائعين راغبين ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِ﴾ معترفين على كمال قدرته، ووفور حوله وقوته ﴿وَ﴾ تذكروا من طول ذلك اليوم، وشدة أهواله وإفزاعه، حيث ﴿تَظُنُّونَ﴾ وتعتقدون فيه ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم وأقمتم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:52] أي: تستقلون وتستقصرون مدة لبثكم فيها من كثرة شدائدها وأهوالها.

﴿وَقُل﴾ يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير، وتهذيب الأخلاق، وتصفية الباطن ﴿لِّعِبَادِي﴾ يعني: المؤمنين الموقنين لشئوني وظهوري على سبيل جلياتي في النشأة الأولى والأخرى، إذا أرادوا إهداء التائهين في بحر الغفلة والضلال: ﴿يَقُولُوا﴾ كل منهم، وقت تذكيرهم وتنبيههم رفقًا لهم، وتليينًا لقلوبهم، بالكلمة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمات وألينُها، وأتمُّها نفعًا، وأقربُها للقبول، لا بالتي هي أخشن وأغلظ لتكون مدخلاً للشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المضل المغوي ﴿يَنزَغُ﴾ أي: يُوقِع الفتنة بين المرشد والمسترشد، ويهيجها ويثيرها إلى أن أدى الأمر إلى المشاجرة والمقاتلة، وأنواع الخصومات المخلة للحكمة المقصودة من أمر النبوة والرسالة، والكلمة الغليظة كثيرًا ما يفضي إليها، فيفوت الغرض الأصلي ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ﴾ في أصل جبلته وفطرته خُلق ﴿لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:53] ظاهر العداوة، ومستمر الفتنة، بحيث لا يُرجى دفع عداوته أصلاً.

فلكم أيها الهادون الناصحون ألّا تغلظوا، ولا تخشنوا في دعوة الناس إلى طريق الحق، ولا تبالغوا أيضًا في إرشادهم وإهدائهم؛ إذ ما عليكم إلّا تبليغ ما أُمرتم بتبليغه،

وليس في وسعكم وطاقتكم رشدهم وهدايتهم ألبتة؛ إذ هو مبين على العلم باستعداداتهم وقابلياتهم، ولا علم لكم أيها الناصحون عليها، بل ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم أيها الناس المجبولون على فطرة المعرفة والإيمان ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ﴾ هدايتكم ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ على متقضى جوده، ويوفقكم على قبول الإيمان، وحصول العرفان عناية منه وفضلاً ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي: يبقيكم ويغويكم في تيه الحرمان والخذلان، خاسرين خائبين بمتابعة الشيطان.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل، وأفضل البرايا، مع أنك لولاك ما خلقت الأفلاك؛ إذ كل من في العلم منوط بمرتبتك المحيطة الجامعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الناس ﴿وَكِيلاً﴾ [الإسراء:54] أي: ليكون أمورهم موكولاً إليك، بحيث إذا أردت هداية بعض، وضلال آخرين، فيقع مرادك بلا خلف، بل إنما أرسلناك مبلغًا بشيرًا ونذيرًا، وما عليك إلَّا البلاغ، وعلينا الإصلاح والفساد؛ إذ نحن بكمال استغنائنا عن مطلق مظاهرنا ومصنوعاتنا، مستقلون في تدبيرات أمور ملكنا وملكوتنا، وشهادتنا وغيبنا، وجبروتنا ولاهوتنا.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: باستعدادات الملائكة السماويين والأرضيين، وقابليات الثقلين السفليين ﴿وَ﴾ لعلمنا باستعدادات جميع عبادنا ﴿لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ لسُنّة سنيّة، وخصلة حميدة، مثل تفضيلنا إبراهيم بالخلة، وكمال الحلم، وكثرة التأوه، وموسى بالتكليم، وعيسى بأنواع الإرهاصات والكرامات، من الارتقاء نحو السماء والتكلم في غير أوانه، ووجوده بلا أب، وسيدنا محمد ﷺ بشق القمر وبالمعراج، وسليمان بالمُلك العظيم ﴿وَ﴾ من جملة تفضيلنا: إنَّا ﴿آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:55] مشتملاً على أنواع الحكمة، وفصل الخطاب، سيما على ألقاب خاتم الرسالة سيدنا محمد ﷺ، وظهوره ونسخه جميع الأديان والكتب، وكون أمته أشرف الأمم، ودينه أكمل الأديان.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يعون آلهة غير الله، ويعبدونهم كعبادته على سبيل التعجيز والتقريع: ﴿ادْعُوا﴾ عند نزول البلاء، وهجوم المحن والعناء، شركاءكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آلهةً ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله حتى ينقذوكم من الشدة والبأس، وإن بالَغتُم في الدعاء والتوجه نحوهم، الالتجاء إليهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: لا يقدرون ولا يستطيعون وآلهتكم ﴿كَشْفَ الضُّرِّ﴾ فكيف ﴿عَنكُمْ﴾ بل عن أنفسهم ﴿وَلَا

تحويلاً﴾ [الإسراء:56] أي: دفعًا وترديدًا منكم إلى غيركم.

إذ ﴿أُولَئِكَ﴾ الفقراء الضعفاء ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إليهم، وتدعونهم آلهة، كالملائكة وعيسى وعزير - عليهما السلام - ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون من غاية افتقارهم واحتياجهم ﴿إِلَى رَبِّهِمُ﴾ الذي أوجدهم وأظهرهم من كتم العدم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ المقربة إليه من الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية المقبولة عند الله؛ ليظهر لهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه، وأقبل عنده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَرْجُونَ﴾ في مناجاتهم وخلواتهم ﴿رَحْمَتَهُ﴾ على مقتضى لطفه وفضله ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ على مقتضى قهره وعدله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:57] واجب الحذر لكل من دخل تحت حيطة التكليف، سواء كان نبيًا أو وليًا.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: ما من قريةٍ من القرى الهالكة ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالخسف والكسف، والزلزلة والطاعون وغير ذلك ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كالقتل والنهب والأسر، وأنواع البليات والأذيات والمصيبات ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ الإهلاك والتعذيب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي هو عبارة عن حضرة علمنا، ولوح قضائنا ﴿مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:58] على التفصيل الذي وقع بلا مخالفةٍ أصلاً.

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الإسراء:

.[66 – 59

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ أي: ما صرفنا عن إرسال الآيات المقترحة عنك يا أكمل الرسل والإتيان بها ﴿إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ وبأمثالها ﴿الأَوَّلُونَ﴾ أي: الأمم الماضون بعد إتيان ما اقترحوا عتوًا وعنادًا، فاستأصلناهم بتكذيبهم؛ إذ من سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة استئصال المقترحين المكذبين على أنبيائنا بعد إتيانهم بمقترحاتهم، فلو حصل مقترحات هؤلاء المقترحين أيضًا ليكذبوك ألبتة، فلزم علينا حينئذٍ إهلاكهم واستئصالهم على مقتضى سنتنا المستمرة، لكن مضى حكمنا ألا ننتقم من مكذبيك في النشأة الأولى؛ لأن منهم من يؤمن ومنهم من يُولِد مؤمنًا، لذلك ما جئنا بمقترحاتهم.

﴿وَ﴾ اذكر لهم إن كانوا شاكين مترددين فيما ذكرنا بعض قصص الأمم الماضية المشهودة في الآفاق، وذكِّرهم كيف ﴿آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ المقترحة حين اقترحوا على نبينا صالح عليه السلام بإخراجها من الحجر المعيّن، فأخرجها منه بإذن الله وقدرته، حال كون أعينهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ خروجها منه، ومع ذلك ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: بالناقة بعدما أمرهم سبحانه بمحافظتها ورعايتها على لسان صالح، فكذبوه فعقروها، واستأصلناهم لأجلها، وأمثالها من الأمم الهالكة بتكذيبهم بعد إتيان ما اقترحوا أكثر من أن يحصى.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نُرْسِلُ﴾ ونأتي ﴿بِالآيَاتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1] [الإسراء:59] من نزول العذاب المهلِك المستأصِل على المقترحين.

﴿وَ﴾ اذكر للمؤمنين وقت ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ موحيًا ﴿لَكَ﴾ مسليًا عليك: لا تحزن من كثرة عدَدَ عدوك وعُدَدهم، ولا تخف من شوكتهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي اصطفاك من البرية للرسالة العامة قد ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ إحاطة الظل بأظلالها، فهم مقهورون تحت قبضة قدرته يفعل بهم حسب إرادته ومشيئته، فامضِ على ما أُمرتَ بلا خوفٍ وترددٍ فلك الإستيلاء والغلبة.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ حين نزولك ماء بدرٍ، وأصبحت تقول

(1) ليؤمنوا فلم يؤمنوا بها وعقروها وكذبوا جرت سنة الله على ألا يهلكهم ويعذبهم ويأخذهم نكال الآخرة والأولى، فلما التمست قريش من النبي الآيات مثل أن يجعل الله لهم الضفادع وغيرها. [التأويلات النجمية].

مشيرًا بإصبعك: «هٰذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهٰذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»[1] فأخبر قريشُ بقولك وإشارتك إلى مصارعهم، فاستهزءوا معك، واستبعد بعض المؤمنين أيضًا ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ واختبارًا ﴿لِّلنَّاسِ﴾ هل يؤمنون بك ويصدّقون قولك، أم يكذبونك وينكرون بك.

ثم لما وقع الأمر على الوجه الذي أُريت في منامك، اطمأن المؤمنون وازدادوا يقينًا وإخلاصًا، وجحد الكافرون وازدادوا شقاقًا ونفاقًا، ونسبوا أمرك هذا إلى السحر والكهانة والرجم بالغيب عنادًا ومكابرةً.

﴿وَ﴾ أيضًا ما جعلنا ﴿الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ المكروهة التي يلعنها كل من يذوقها ويطعمها، وهي الزقوم المنبت على أدوية الجحيم؛ لذلك لُعنت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ حتى يحترز المؤمنون عن الأعمال المقربة إليها الموجبة لأكلها إلا فتنةً وابتلاءً للناس، لذلك لما سمعت قريش شجرة الزقوم، جعلوها منشأ الهزل والسخرية مع الرسول ﷺ حتى قال أبو جهل: إن محمدًا يخوفنا عن نار تحرق الحجارة، ويزعم أنها تنبت الشجرة، وقد علمتم أن النار تحرق الشجر، وما هي إلى فرية بلا مرية.

ثم اعلم أن الأمور الدينية كلها تعبدي، فلو ظهر لها وجه عقلي فيها ولو لم يظهر، لزم الإطاعة والانقياد على سبيل التعبد والتسليم من الصادق المصدوق، مع أن نبت الشجر في النار، مما لا يمتنع عقلاً أيضًا؛ لأن وجودِ الحيوان في النار أبعد من وجود النبات فيها.

وحكاية الدويبة التي يقال لها: السمندل، هي تعيش في النار كالسمك في الماء متى خرجت منها ماتت، واتخاذ الناس من شعرها منديلاً متى اتسخت، طرحت على النار فأحرقت، وأخرجت سالمة نظيفة منها، مشهورة معروفة، لا شك في وقوعها.

وأعجب من ذلك ابتلاع النعامة الجمرة والجذوة والحديدة المحماة المحمرة في النار، ولا تضرها أصلاً ﴿وَ﴾ من قساوة قلوب أولئك الغواة، وغلظ حجبهم ﴿نُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع المخاوف الدنيوية والأخروية ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تلك التخويفات الهائلة ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:60] متجاوزًا عن الحد غاية التجاوز لشدة عمههم وعتوهم.

﴿وَ﴾ ليس طغيانهم وإصرارهم عليه إلا بتسويلات الشياطين وتغريراتهم على

---

(1) رواه مسلم (75/12)، وأبو داود (165/8).

مقتضى العداوة القديمة، والخصومة المستمرة بين الشيطان وبني آدم. اذكر وقت ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ بأجمعهم بعدما جاءوا بما جاءوا من الحجج والدلائل الدالة على عدم لياقة آدم بالخلافة والنيابة إلى أن أُفحموا وأُلزموا: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وتذللوا عنده، ولا تجادلوا في حقه إنا قد اخترناه لخلافتنا ﴿فَسَجَدُوا﴾ سجود تواضع وتكريم امتثالاً للأمر الوجوبي، بعدما ما تمادوا في إيراد الحجج استحياء منه سبحانه، ورهبة من سطوة قهره بالإعراض عن أمره وما خالف أمر الله منهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه أصر على الإنكار، ولم يرغب إلى امتثال المأمور بل زاد على الجدال والنزاع؛ حيث ﴿قَالَ﴾ مستبعدًا مستنكرًا: ﴿أَأَسْجُدُ﴾ وأتذلل من نجابة أصلي وشرف عنصري ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:61] أي: لمن أنشأته وصوَّرته من طين منتن مذموم لا شرف له ولا نجابة، وما هو إلا تفضيل المفضول وتكريم المرذول.

ثم لما طرده الحق من ساحة عز الحضور، وأخرجه من بين الملائكة، ولعنه لعنة مؤبدة إلى أن آيس عن القبول مطلقًا ﴿قَالَ﴾ إبليس معترضًا على الله مسيئًا الأدب معه سبحانه، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ أي: أخبرني أن ﴿هَذَا﴾ القالب المستحقر المسترذل ﴿الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ وأمرتني بسجوده وطردتني لأجله طردًا مخلدًا، بناءً على أنه يعبدك ويعرفك، ويوحدك حق توحيدك، ويقدسك حق تقديسك وتنزيهك، ويتفطن على حق قدرك وقدر حقيتك، واللهِ وبحق عظمتك وجلالك ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ وأبقيتني فيما بينهم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لتنفيذ الأعمال وعرضها على جنابك ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: أضلنهم وأغوينهم بالإغواء والإغراء إلى حيث أمحونَّ أسماءهم عن دفتر المؤمنين، فكيف عن العارفين المكاشفين المشاهدين؛ لأن تركيبهم وبنيتهم هذا مقتضى أنواع الفسادات وأصناف العصيان والضلالات، ولي فيهم مداخل كثيرة أوسوسهم وأغريهم إلى حيث أضلهم عن منهج الرشاد ومسلك السداد ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:62] منهم فإنهم ثابتون على ما جُلبوا لأجله لا أقدر على إغوائهم؛ لكونهم مؤيدين من عندك، موفقين بتوفيقك.

ثم لما سمع سبحانه منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ سبحانه ساخطًا عليه مغاضبًا طاردًا له أشد طرد وتبعيد: ﴿اذْهَبْ﴾ يا ملعون فقد أمهلناك فيما بينهم إلى قيام الساعة، فلك أن تفعل بهم ما تفعل ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بعدما جبلناهم على فطرة التوحيد والمعرفة، ومع ذلك أرسلنا عليهم الرسل المنبهين المرشدين لهم طريق الرشاد، وأنزلنا عليهم

الكتب المبينة لهم أحوال المبدأ والمعاد، ومع ذلك يتركون متابعة الكتب والرسل، ويتبعون لك ويقتفون أثرك، فهم حينئذٍ خارجون عن زمرة عبادنا الصالحين، لاحقون بك، مستحقون بما استحققت أنت وأعوانك من الجزاء ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان وأنواع المذلة والخذلان حينئذٍ ﴿جَزَاؤُكُمْ﴾ تابعًا ومتبوعًا ضالاً ومضلاً ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء:63] أي: مستوفيًا وافرًا وافيًا، لا مزيد عليها مؤبدًا مخلدًا.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت جزاءك وجزاء من تبعك منهم ﴿اسْتَفْزِزْ﴾ أيها المطرود الملعون؛ أي: حرّك، وزلزل عن موضع ثبوتهم وقرارهم على جادة التوحيد ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ وتمكنت على إضلالهم عن طريق الحق ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بمجرد أن تصوت عليهم، فينحرفوا من غاية ضعفهم في الإيمان ﴿وَ﴾ إن لم تقدر، ولم تظفر عليهم بمجرد صوتك لرسوخهم وتمكنهم في الجملة ﴿أَجْلِبْ﴾ أي: صِح وصوّت ﴿عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ أي: بركبان أعوانك وجنودك ﴿وَرَجِلِكَ﴾ أي: بمشاتهم ورجالهم، وبالجملة: تمم، وأوفر جميع حيلك ومكرك مهما أمكنك حتى تستفزهم وتضعفهم من مقر الإيمان والعرفان.

﴿وَ﴾ إن شئت اتحادهم وإخاءهم ﴿شَارِكْهُمْ فِي﴾ جميع ﴿الأَمْوَالِ﴾ أي: علّمهم السرقةَ والغصب وقطعَ الطريق والربا والحيلَ المشهورة المعروفة في هذا الزمن، بالحيل الشرعية التي وضعها المتفقهة المتفسقة، خذلهم الله من تلقاء نفوسهم الخبيثة الدنية ﴿وَ﴾ شاركهم أيضًا في ﴿الأَوْلادِ﴾[1] أي: علمهم طريق الإباحة والاستباحة وتحليل المحرمات المؤدية إلى تخليط الأنساب وامتزاج المياه كما ابتدعها أهل التلبيس والتدليس من المتشيخة الذين هم من جنودك، أهلكهم الله وقهر عليهم، ﴿وَ﴾ إن شئت ﴿عِدْهُمْ﴾ بالمواعيد الكاذبة التي مالت إليها نفوسهم واقتضت شهواتهم من ترك التكاليف والأعمال الشاقة من الفرائض والسنن والآداب والنوافل المقربة نحو الحق، والإنكار على النشأة الآخرة، وما يترتب عليها من الأمور المسئولة عنها، والمؤاخذة عليه والجنة والنار ﴿وَ﴾ معلوم أن ﴿مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل

---

(1) قال في التأويلات: بتضييع زمانهم وإفساد استعدادهم في طلب الدنيا ورئاستها متغافلاً عن تهذيب نفوسهم وتزكيتهم أو تأديبها وتوفيها عن الصفات المذمومة وتحليتها بالصفات المحمودة، وتعلمهم الفرائض والسنن والعلوم الدينية، وتحرضهم على طلب الآخرة والدرجات العلى، والنجاة من النار والدركات السفلى.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:64] أي: تزيينًا وتحسينًا للباطل بصورة الحق وادعاء الحقية والحقيقة لهم؛ ليغريهم بها، ويضلهم عن طريق الحق.

وبالجملة: افعل بهم أيها الحريص على إضلالهم ما شئت من المكر والحيل والخداع، وهم إن كانوا من زمرة أرباب الاطمئنان والإيقان، المقررين في مقر التوحيد والعرفان، الموفقين عليه من عندنا، لا يتبعونك ولا يقبلون منك وساوسك وهذياناتك، وليس لك عليهم سلطان أصلاً.

وإن كانوا من المطبوعين المختومين من عندنا، المجبولين على الضلال والغواية، فيتبعوك ويقتفوا أثرك، فلحقهم ما لحق بك، وهم من جنودك وأتباعك، وبالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ خلَّص ﴿عِبَادِي﴾ أضافهم سبحانه إلى نفسه؛ لكمال إخلاصهم واختصاصهم ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة واستيلاء تغلبهم بها بعدما اتخذوني خليلاً وأخذوني كفيلاً ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:65] حفيظًا يتوكلون عليه مخلصين، ويستعيذون نحوه من إغرائك وإغوائك أيها الطاغي ملتجئين.

وكيف لا يحفظكم سبحانه، ولا يعيذكم أيها المؤمنون المخلصون عما يؤذيكم ويقصد مقتكم: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي﴾ يُسري ويُجري ﴿لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ الجاريةَ ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ بتيسيره وتسهيله عنايةً منه إياكم ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ما يوسع لكم طريق المعاش من أنواع التجارات والأرباح، واستخراج الجواهر منها، وغير ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه من كمال جوده وسعة رحمته ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء:66] مشفقًا عطوفًا، سيما بعد اتكالكم عليه سبحانه على وجه الأرض.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء: 67 – 75].

﴿وَ﴾ مما ارتكز في نفوسهم ورسخ في قلوبكم، أنكم ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ بأن عرض لمركبكم ما يوجب كسرها وغرقها، وصرتم فيها حيارى سكارى؛ بحيث ﴿ضَلَّ﴾ وغاب عنكم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون منه لو كنتم في البر، وما معكم من الأمتعة والبضاعات ﴿إِلَّا﴾ استعانتكم واستغاثتكم ﴿إِيَّاهُ﴾ سبحانه، فإنه بذاته لا يغيب عنكم، ولا يفارقكم؛ إذ هو أقرب إليكم من حبل وريدكم ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾ وخلّصكم سبحانه من تلك المضائق الهائلة ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عنه سبحانه، وصرتم متعلقين بما معكم من الأمتعة والأعراض ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ﴾ في أصل فطرته خُلق ﴿كَفُورًا﴾ [الإسراء:67] لأنعم الله، ﴿هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج:19-20] نحو الحق ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ كفورًا ﴿مَنُوعًا﴾ [المعارج:21] معرضًا عنه منكرًا له.

﴿أَ﴾ أعرضتم عنه سبحانه بعد إنجائه وخلاصه إياكم ﴿فَأَمِنتُمْ﴾ عن قهره وسخطه حين وصلتم إلى البر، مع أنه سبحانه قادرًا على إهلاككم في البر أيضًا، أما تخافون ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي: يقلب عليكم الأرض كما خسفها على قارون ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ ريحًا شديدًا ﴿حَاصِبًا﴾ ترميكم وترجمكم بحجارة كما رجمنا قوم لوط ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخذناكم في البر بأمثال هذه البليات ﴿لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:68] حفيظًا يحفظكم عن أمثال هذه المصيبات، أو يشفع لكم بتخفيفها وكشفها.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها القاصرون عن إدراك قدر الله، وكمال قدرته ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ ويلجئكم إلى الرجوع ﴿فِيهِ﴾ أي: في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ بأسباب ووسائل لا تخطر ببالكم ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ في الكرة الأخرى لأخذكم وانتقامكم ﴿قَاصِفًا﴾ كاسرًا ﴿مِّنَ

﴿الرِّيحِ﴾ لتكسر مركبكم ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ فيه ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ في الكرة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد إرجاعنا إلى البحر، وإغراقنا فيه على نحو إنعامنا وإنجائنا من قبل ﴿لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء:69] أي: لا تجدوا ناصرًا ومعينًا لكم، فيظهر علينا بأخذكم وانتقامكم، ويطالب منا قصاص ما فعلنا بكم؛ إذ لا رادّ لفعلنا، ولا معقب لحكمنا، نفعل ما نشاء ونحكم ما نريد.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنعام والامتنان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ وفضلنا ﴿بَنِي آدَمَ﴾[1] بأنواع الكرامة والتفضيل على سائر المخلوقات من حسن الصورة والسيرة، واعتدال المزاج، واستواء القامة، والعقل المفاض المتشعب من العقل الكل الذي هو حضرة العلم الحضوري الإلهي، وكذا بالقدرة والإدارة، وسائر الصفات المترتبة على الصفات الذاتية الإلهية يشعر بخلافته ونيابته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ بركوب النجائب من الخيل والبغال والبعير وغير ذلك، ﴿وَ﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ بركوب الجواري والسفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الأطايب التي يكسبونها بأيديهم على مقتضى إقدارنا إياهم، وإعدادنا أسباب مكاسبهم معهم، وأبحنا لهم ما تستلذ به نفوسهم وتشتهي قلوبهم على وفق ما نطق به رسلهم وكتبهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:70] والقليل

---

(1) قال نجم الدين كبرى: أي: خصصناهم بكرامة تخرجهم عن حيز الإشراك وهي على ضربين: جسدانية، وروحانية. فالكرامة الجسدانية: عامة يستوي فيها المؤمن والكافر وهي تخمير طينته بيده أربعين صباحًا، وتصويره في الرحم بنفسه، وأنه تعالى صوره فأحسن صورته وسواه فعدله في أي: صورة ما شاء ركبه، ومشاه سويًا على صراط مستقيم القامة آخذًا بيديه آكلاً بأصابعه مزينًا باللحى والذوائب صانعًا بأنواع الحرف. والكرامة الروحانية: على ضربين: عامة، وخاصة.

فالعامة: أيضًا يستوي فيها المؤمن والكافر وهي أن كرمه بنفخه فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها، وكلمه قبل أن خلقه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] فأسمعه خطابه وأنطقه بجوابه بقوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] وعاهده على العبودية، وأولده على الفطرة، وأرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب ودعاه إلى الحضرة، ووعده الجنة وخوفه النار، وأظهر له الآيات والدلالات والمعجزات.

والكرامة الروحانية الخاصة: ما كرم به أنبياءه وأولياءه وعباده المؤمنين من النبوة والرسالة والولاية والإيمان للإسلام والهداية إلى الصراط المستقيم، وهو صراط الله والسير إلى الله وفي الله وبالله عند العبور على المقامات والترقي من الناسوتية بجذبات اللاهوتية، والتخلق بأخلاق الإلهية عند فناء الأنانية وبقاء الهوية.

المستثنى هم الملائكة المقربون المهيمون المستغرقون بمطالعة جمال الله وجلاله، وإن كان الوالهون الهائمون من الإنسان في ولاء الله ومحبته، المكاشفون بسر الخلافة والنيابة التي أخبر بها الحق، الواصلون إلى مرتبة الفناء بالموت الإرادي، أفضل منهم أيضًا، وأرفع رتبة ومكانة.

وإنما كرمناهم وفضلناهم بما فضلناهم؛ لحكمةٍ ومصلحة تقتضيها ذاتنا، وهي أنّا نريد أن نطالع ذاتنا المتصفة لجميع أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال في مظهر تام كامل لمراتبنا وخلافتنا، وكرّمناه لأجل هذه الحكمة العزيزة، فمن لم يبلغ منهم إلى هذه المرتبة العلية والدرجة السنية بسلوكه الذي أرشدناه وعلمناه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهو نازلُ كل التنازل عن درجة الاعتبار، ساقطُ عن رتبة ذوي الألباب والأبصار.

بل أولئك البعداء الضالون عن منهج الرشاد كالأنعام بلا شعور إلى ما جبلوا لأجله، بل أضل سبيلاً منها وأسوأ حالاً ومآلاً، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

اذكر يا أكمل الرسل للمكرمين المفضلين على سائر المخلوقات: ﴿يَوْمَ نَدْعُو﴾ نحشر ﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ منهم؛ لنسألهم، ونطلب عنهم ما اكتسبوا، وحصّلوا من المعارف والحقائق والأعمال المقربة إلينا باقتدائهم ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ الذي نرسل إليهم، وننزل عليهم من الرسل والكتب؛ لإرشادهم وإهدائهم مع أنا كتبنا منهم خيرهم وشرهم اللذين جاء كل منهم بهما في صحيفةٍ، ونعطيهم اليوم صحائف أعمالهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ منهم ﴿بِيَمِينِهِ﴾ فهو دليل خيرية أعماله وطيب أحواله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المقبولون ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحين بما فيها مسرورين، فيجازون على مقتضى ما كُتب بل أضعافها وآلافها، عنايةً منّا وفضلاً ﴿وَ﴾ هم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقصون من أجور أعمالهم ﴿فَتِيلًا﴾ [الإسراء:71] مقدار ما في ظهر النواة من الخط الأسود أو بين الأصابع من الوسخ المفتول.

﴿وَ﴾ من أوتي كتابه بشماله فهو علامة شرّية أعماله، ووخامة حاله ومآله، فأولئك الأشقياء المردودون ينظرون إلى كتابهم، فيجدون ما فيها من أنواع المعاصي والآثام، فيغمضون عيونهم عن قراءتها آيسين محزونين، فيجازون على مقتضى ما كتب مثلاً بمثل عدلاً منه سبحانه؛ إذ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ النشأة ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن مطالعة آثار

الأوصاف الذاتية الإلهية، وملاحظة عجائب صنعه وغرائب حكمته وبدائع تجلياته وتطوراته لحظة فلحظة ﴿فَهُوَ فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ أيضًا ﴿أَعْمَى﴾ إذ النشأة الأولى مزرعات الخيرات، والأخرى وقت حصاده، فمن لم يزرع فيها، فهو وقت الحصاد خاسر مغبون أعمى عن وجدان الخيرات ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72] لفوات أسباب التدارك والتلافي عنه، فيبقى متحيرًا مدهوشًا قلقًا حائرًا ضالاً مستوحشًا.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه على وجه التنبيه والتأديب بعدما ظهر عليه مخايل الميل والركون عن الحق بمخادعة أهل الكفر والنفاق: ﴿وَإِن كَادُوا﴾ أي: أنهم؛ أي: الكفرة قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويوقعونك في الفتنة الشديدة بالميل والصرف ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وأنزلنا في كتابك من الأوامر والنواهي والأحكام المتعلقة بتهذيب الظاهر والباطن، ويرغبونك ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي: غير ما أوحينا إليك ﴿وَإِذًا﴾ أي: حين افترائك وانتسابك إلينا غير ما أوحينا إليك من الأمور التي تشتهيها نفوسهم وترتضيها قلوبهم ﴿لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [الإسراء:73] وآمنوا بك بواسطة انتسابك هذا.

نزلت في ثقيف حين قالوا: لا نؤمن بك حتى تخصنا بخصالٍ نفتخر ونباهي على سائر العرب، لا نضن ولا نُحشر ولا نُجبي في صلواتنا، وكّل رِبًا لنا فهو لنا، وكل رِبًا علينا فهو موضوع عنَّا، وأن تمتعنا باللات سنة، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب: لم فعلت معهم هذا؟ فقل: إن الله أمرني وأوصاني بها، وانتظر أن تنزل آية فيها، فإن فعلتَ بنا هذه نؤمن بك ونصدقك ونتخذك خليلاً، فتردد ﷺ وقرب أن يميل ويركن لشدة ميله إلى إيمانهم واتِّباعهم، فجاء جبريل عليه السلام فمنعه عن هذا الرأي.

لذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي: ولولا إثباتنا وتثبيتنا إياك يا أكمل الرسل في مقر صدقك وتمكينك ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ وقربت ﴿تَرْكَنُ﴾ وتميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:74] أي: صرت في صدد الميل والركون إلى إنجاز ما أرادوا.

﴿إِذًا﴾ أي: حين إنجاحكم سُؤلهم ومأمولهم ﴿لأَذَقْنَاكَ﴾ في نشأتك هذه ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي: ضعف عذاب من جاء بمثله في النشأة الأولى ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: ضعف عذاب من جاء بمثله في النشأة الأخرى؛ يعني: نعذبك في الدنيا والآخرة بضعف عذاب من جاء به من سائر الناس؛ لأن جزاء الأبرار لو أتوا بالمعاصي والآثام ضعف جزاء الأشرار، بل أكثر؛ إذ لا يتوقع منهم الانصراف عن منهج الرشاد

أصلاً، ولو انصرفوا أُخذوا بضعف من يتوقع منهم الانحراف والانصراف ﴿ثُمَّ﴾ بعد أخذنا إياك انتقامنا منك ﴿لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:75] أي: لا تجد ظهيرًا لك نصيرًا يظهر علينا بنصرتك، ويطالبنا بإنقاذك عن عذابنا.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ
خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا
﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ
أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا
مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن
شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء:
76 – 86].

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: وإن قاربوا؛ ليحركونك ويضطرونك بالنقل والجلاء ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ التي استقررتَ وتمكنتَ فيها؛ يعني: مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ معللين بأن الأنبياء والرسل إنما بعثوا في أرض الشام وأرض المقدسة، خصوصًا أجدادك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولادهم وأسباطهم - صلوات الله عليهم كلهم - بُعثوا فيها، فلك أن تخرج إليها حتى نؤمن لك ونصدق برسالتك، وما ذلك إلا حيلةٌ وخديعةٌ معك؛ ليخرجوك من مكة حتى تبقى رئاستهم معهم ﴿وَ﴾ لا تغتم يا أكمل الرسل ولا تحزن بالخروج منها، فإنك لو خرجت منها ﴿إِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا﴾ زمانًا ﴿قَلِيلًا﴾ [الإسراء:76] وقد جرى الأمر على مقتضى وعد الله سبحانه، فإنهم بعدما هاجر ﷺ قُتلوا ببدرٍ بعد مدةٍ يسيرةٍ.

وليس إخراجك يا أكمل الرسل عن مكة، وهلاكهم بعد خروجك منها ببدعٍ منا

مستحدث، بل من سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة إهلاكُ الأمم الذين أَخرجوا نبيهم المبعوث إليهم من بين أظهرهم عتوًا وعنادًا بل صار ذلك: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضية؛ أي: من سنتنا الموضوعة فيهم بالنسبة إلى أقوامهم، فكذلك حالك مع هؤلاء المعاندين المكذبين ﴿وَ﴾ بعدما استمر منا هذه السُّنة السَّنية ﴿لَا تَجِدُ﴾ أنت وغيرك أيضًا ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ المنبعثة من كمال حكمتنا ﴿تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:77] أي: تغييرًا وتبديلاً؛ إذ لنا فيها حِكمُ ومصالحُ مخفيةُ استأثرنا بها لا اطلاع لك عليها، وإنما عليك التوجه والتقرب في جميع أوقاتك وحالاتك سيما في الأوقات المكتوبة.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وأدم التوجه ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: حين زوالها من الاستواء ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي: ظلمته بغروبها إلى حيث لم يبقَ من بقية آثار ضوئها شيء أصلاً، فيسع في المحدود المذكور: الظهر والعصر والمغرب والعشاء على ما عينه الشرع لكل منها وقتًا معينًا ﴿وَ﴾ طوّل ﴿قُرْآنَ﴾ صلاة ﴿الْفَجْرِ﴾ وأطِلِ القيام فيها مع القراءة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الذي هو وقت الانكشاف والانجلاء الصوري، المنبئ عن الانكشاف المعنوي والانجلاء الحقيقي، الذي هو عبارةُ عن إشراق نور الوجود واضمحلال الأظلال والعكوس المشعرة بالكثرة والغيرية.

لذلك ﴿كَانَ﴾ قراءة القرآن المبين لسرائر الوحدة الذاتية، وكيفية سريانها على صفائح المكونات فيه ﴿مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:78] لخواص عباد الله من الملائكة والثقلين، بل لجميع الحيوانات من الوحوش والطيور؛ إذ الكل في وقت الفجر متوجهون نحو الحق، مسبحون مهللون حالاً ومقالاً.

﴿وَ﴾ إن شئت ازدياد القرب والثواب اسهر واستيقظ قطعةً ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ واترك النوم فيها طلبًا لمرضاة الله ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: صلِّ فيها صلاة التهجد بتطويل القراءة؛ لتكون ﴿نَافِلَةً﴾ زائدة ﴿لَّكَ﴾ على فرائضك مزيدةً لقربك وكرامتك ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ﴾ ويقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ بسعيك واجتهادك في تهجدك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:79] أي: مقامًا من مقامات القرب ودرجات الوصال مسمىً بالمقام المحمود؛ لأن كل من وصل إليه يُحمد له؛ إذ لا مقام أرفع منه وأعلى رتبة ومكانة.

وبعدما وصلت أيها السالك النامك إليها لم يبقَ لك درجة الاستكمال والاسترشاد، بل صرت كاملاً رشيدًا وإن أُلهمت وأذنت من عنده سبحانه صرتَ مرشدًا

مكملاً لأهل النقصان، شفيعًا لهم عند الله بإذنه؛ لتنقذهم من لوازم الإمكان المفضي إلى دركات النيران، وتوصلهم إلى فضاء الجنان بتوفيق الله إياك وإياهم.

﴿وَ﴾ بعد وصولك لسعيك وجهدك وأنواع تهجدك، وإقامتك في خلال الليالي بتوفيق الله، وتيسيره على ما وصلت من المقامات العلية والمراتب السنية ﴿قُل﴾ مناجيًا إلى ربك ملتجئًا نحوه طالبَ التمكن والتقرر في المقام الذي وصلت إليه بتوفيقه وتأييده: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿أَدْخِلْنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ومنزلَ قرارٍ، وهو مقر التوحيد المسقط لأنواع الإضافات والكثرات، وخلدني فيه بلا تذبذبٍ وتلوينٍ ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ عن مقتضيات أنانيتي وهويتي إلى فضاء الفناء الموصل إلى شرف البقاء واللقاء ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ بلا تلعثمٍ وتزلزلٍ ﴿وَاجْعَل لِّي﴾ حين معارضة أنانيتي معي واستيلاء أمّارتي عليّ ﴿مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا﴾ أي: برهانًا قاطعًا وكشفًا صريحًا وشهودًا تامًا؛ ليكون ﴿نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:80] لمن ينصرني على أعدائي، ويخلصني من أيديهم حين هجومهم عليّ.

﴿وَقُلْ﴾ بعدما تحققتَ وتمكنتَ في مقر الكشف والشهود: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ الصريح الثابت، ولاح شمس الذات ﴿وَزَهَقَ﴾ أي: تلاشي واضمحل ﴿الْبَاطِلُ﴾ أي: العكوس والأظلال الهالكة الباقية على عدماتها الأصلية ﴿إِنَّ﴾ العدم ﴿الْبَاطِلَ﴾ الزائل الزاهق الظاهر على صورة الحق ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81] في نفسه، مضمحلاً في ذاته، باقيًا على عدمه، وإن أُوهم وخُيِّل أنها موجوداتٌ متأصلاتٌ في الوجود، إلا أنها ما شُمّ في رائحةٍ منه سوى أن أشعة التجليات الوجودية الإلهية لاحت عليها، فيتراءى ما يتراءى، فظن المحجوب بأنها موجود، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ومتى تحققتَ وتمكنتَ بمقامك المحمود وفزتَ، فزتَ من الحوض المورود ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ عليك تعظيمًا لشأنك وتأييدًا لأمرك ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المبيّن الموضِّح لمراتبك العليّة من التوحيد ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[1] لمرض القلوب بسموم الإمكان في مضيق

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن كلام الحبيب شفاء القلوب كما قيل: إن الأحاديث من سلمي تسليني، وإن من القرآن ما هو إيعاد بالوصلة والوصال، فهو شفاء لمعلول الهجر والفراق، وأين المدامة من ريقها؛ ولكن أعلل قلبًا عليلاً، كما كان قال موسى ﷺ وهو معلول القرآن، وكان يرى بشفائه في الوصال، فقال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فكان الله تعالى يشفيه

الحدثان، ومحبس الملوين من الموفقين بشرف متابعتك ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك المصدقين بدينك وكتابك؛ ليسترشدوا ويستشكفوا بما فيه من الرموز والإشارات قدر قابلياتهم واستعداداتهم كي يتفطنوا أو يتنبهوا بما فيه من السرائر المودعة المتعلقة بسلوك مسالك التوحيد ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدوده وأحكامه استنكارًا له واستكبارًا ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:82] ووبارًا لإخسار أعظم منه، وهو إبطالهم الحكمة التي جبلهم الحق لأجلها، ألا وهي المعرفة والتوحيد، وما ينتمي إليها من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية المقبولة عند الله.

ثم أخبر سبحانه عن تمايل الإنسان وتلوينه وعدم رسوخه، وتمكنه بحالٍ من الأحوال وعدم فطنته وذكائه بذاته، وكيفية افتقاره واختياره واحتياجه إلى الحق، وعدم تأمله في أمر مبدئه ومعاده، وكيفية ارتباطه بالحق في النشأة الأولى والأخرى فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا﴾ وأعطينا من كمال فضلنا وجودنا ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ووسّعنا له طرق معاشه ﴿أَعْرَضَ﴾ عنا، وانصرف عن شكرنا وعن الالتجاء والارتجاء بنا عنادًا واستكبارًا ﴿وَ﴾ صار من إفراط عتوّه إلى حيث ﴿نَأَى﴾ وتباعد ﴿بِجَانِبِهِ﴾ أي: طوى كشحه ولوى عطفه عنا، كأنه مستغنٍ في ذاته، مستقلٌ في أمره، بحيث لا يخطر بباله احتياجه إلينا، ولهذا تجبر واستعلى، وبالغ في الجدال والمراء إلى أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ وأزعجه البلاء، وهجم عليه الشدة والعناء، وترادفت عليه الوقائع والمصيبات ﴿كَانَ﴾ من قلة تصبره وضعف يقينه وتدبره ﴿يَئُوسًا﴾ [الإسراء: 83] عن رَوح الله، شديد القنوط عن سعة لطفه ورحمته، والطرفان؛ أي: إفراط الاستغناء والاستكبار، وتفريط اليأس والقنوط، كلاهما مذمومان محظوران عقلاً وشرعًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة منبئًا عن الاستقامة والعدالة مبنيًا عليهما: ﴿كُلٌّ﴾ من المحق والمبطل، والضال والمهدي ﴿يَعْمَلُ﴾

بكلامه فقال له: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: 144] فإن فيه تسكين ثائرة شوقك في الحال ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] لا يزيد في نعمة اللقاء في المآل ﴿فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة:23].

ويعتدي ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ وطريقته التي تشاكل وتشابه حاله ووقته إياها؛ إذ كل ميسر موفق من عندنا لما خلق له، سواءً كان من رشدٍ أو غي، أو ضلالةٍ أو هدايةٍ، ولا علم لكم يا بني آدم على حقيقة الأمر والحال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾ وأقوم ﴿سَبِيلاً﴾ [الإسراء:84] وأوضح منهجًا وأسدّ طريقًا، فيوفقه على جهته ووجهته.

ثم قال سبحانه تأييدًا لحبيبه ﷺ وتعليمًا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ فرق النصارى واليهود وجميع أهل الزيغ والضلال ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ المتعلق بالأجساد، المحيي لها ومحركها بالإدارة والاختيار، وإذا انفصل وافترق عنها مات، ولم يتحرك وانقطع الشعور والإدراك عنها؛ أي: يسألونك عن لِمِّيه وكيفية تعلقه وارتباطه بالأجسام، وكيفية انفصاله عنها ﴿قُلِ الرُّوحُ﴾ نفسه، وكيفية تعلقه بالأجسام وكيفية انفصاله عنها كلها صادرةٌ ناشئةٌ ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] أي: مما حصل بأمره الدالّ على تكوين المكونات،

(1) يشير إلى أن الروح من عالم الأمر، فإن الله تعالى خلق العوالم كثيرة كما جاء في الخبر بروايات مختلفة، فقال في بعض الروايات: «خلق ثلاثمائة وستين ألف عالم»، وقد مرّ ذكر تفصيلها ولكنه جعله محصورة في عالمين اثنين وهما الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف:54] ، تبارك الله رب العالمين، عبر عن عالم الدنيا: وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس بالخلق، وعبر عن عالم الآخرة: وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة وهي: العقل والقلب والسر والروح والخفي بالأمر، فعالم الأمر هو: الأوليات العظائم التي خلقها الله تعالى للبقاء من الروح والعقل والقلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار، وسمي عالم الأمر أمرًا؛ لأنه أوجده بأمر كن من لا شيء بلا واسطة شيء كقوله: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] ولما كان أمره قديمًا، فما يكون بالأمر القديم كان باقيًا، وإن كان حادثًا، وتسمى عالم الخلق خلقًا؛ لأنه أوجده بالوسائط من شيء كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185] فكما أن الوسائط كانت مخلوقة من شيء مخلوق سماه خلقًا خلقه الله للفناء فتبين أن قول: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] إنما هو لتعريف الروح معناه إنها منه من عالم الأمر والبقاء لا من عالم الخلق والفناء، وإن قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] ليس للاستبهام، كما ظن جماعة أن الله تعالى أبهم علم الروح على الخلق واستأثره لنفسه حتى قالوا: إن النبي ﷺ لم يكن عالمًا به جل منصوب حبيب الله ونبيه ﷺ من أن يكون جاهلاً بالروح مع أنه عالم بالله، وقد منّ الله عليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113] أحسب أن علم الروح ما لم يكن يعلمه ألم يخبر الله أنه علمه ما لم يكن يعلم، فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظارًا الموحي حين سألته اليهود فقد كان لغموضه يرى في معنى الجواب دقة لا يفهمها اليهود لبلادة

طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43] وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله، فإنهم لما عبروا: عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب، ولما عبروا: بالسير عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا العلم السير للقلب، وإذا عبروا: عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر، وإذا عبروا: عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا: عن منزل الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار مشاهدات صفات الجمال الخفي، وإذا فنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن آنية الوجود ووصلوا إلى جنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى، وإذا استغرقوا في بحر الهوية وأبقوا ببقاء الألوهية عرفوا الله بالله ووحدوه حين وجدوه هذا أوان إراءة ماهية كل شيء، كما هي هذا وقت ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53] فحينئذ إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح، وقد تحقق للعبد مقام «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا، فبي يسمع وبي يبصر وبين ينطق وبي يبطش» ففي هذه الحالة كيف يبقى بمعرفة الروح خطر عند مَن هذه أحواله، وهو مع هذه الرتبة العلية والمواهب السنية من لواقط سواقط جنات سنبلات يبادر بوارد النبوة ونوادر الرسالة؟! فكيف بحال سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وأفضل الأولين والآخرين صلوات الله عليه وآله أجمعين في معرفة الروح، وهو الذي يقول: «علمت ما كان وما سيكون» وما أنا إذا أسرع في شرح معرفة الروح بما فتح الله علي ومنحني من الفتوح، كما يشهد به الكتاب والسنة والأخبار المروية والآثار المرضية، إن شاء الله عصمني الله من الخطأ والخلل، وعفا عني الشهود الذلل بفضله وكرمه، فاعلم أن الروح الإنساني وهو أول شيء تعلقت به القدرة جوهرة نورانية ولطيفة ربانية من عالم الأمر، وعالم الأمر وهو الملكوت الذي خلق من لا شيء وعالم الخلق وهو الملك الذي خلق من شيء، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185]، فالعالم عالمان يعبر عنهما بالدنيا والآخرة، والملك والملكوت والشهادة والغيب والصورة والمعنى والخلق والأمر الظاهر والباطن والأجسام والأرواح ويراد بهما ظاهر الكون وباطنه، فثبت بالآية أن الملكوت الذي هو باطن الكون خلق من لا شيء إذ ما عداه من الملك خلق من شيء.

وأما قوله ﷺ: «أول ما خلق الله جوهرة وأول ما خلق الله روحي»، وفي رواية: «نوري» وقوله: «أول ما خلق الله العقل وأول ما خلق الله القلم». وقول بعض الكبراء من الأئمة: إن أول المخلوقات على الإطلاق ملك كروبي يسمى العقل وهو صاحب القلم القلب بدليل توجه الخطاب عليه في قوله: «أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر» كما جاء في الحديث، ولما سواه فلما قال له: «اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة» وتسميته قلمًا، كتسمية صاحب السيف سيفًا، وقد جاء في الخبر أن الروح ملك، قيل لخالد بن الوليد: سيف الله وهو أول لقب في الإسلام، وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:38] وقد جاء في الخبر أن الروح ملك يقوم صفًا والملائكة صفًا، فلا تبعد أن يكون هو الملك العظيم الذي هو أول المخلوقات، وهو روح

النبي ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روحي» ولا يحتمل أن يكون المخلوق الأول المطلق إلا واحدًا؛ لأن الشيئين المغايرين لا يكون كل واحد منهما أولاً في التكوين والإيجاد على الإطلاق؛ إذ لا يخلو إما أُحدثا مصاحبين أو أُحدثا متعاقبين، فإن أُحدثا مصاحبين معًا فلا يختص أحدهما من الآخر بالأولية فلا يكون واحد منهما أولاً على الانفراد، وإن أُحدثا متعاقبين يكون المبتدأ أولاً والمتعاقب ثانيًا؛ فيكون الأول واحدًا منهما لا محالة ولا يجوز الخلف في كلام النبي ﷺ؛ لأنه الذي جاء بالصدق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3-4] وأنه ﷺ قد أثبت الأوليات فتعين لنا أن نحمل كلامه على أن المخلوق الأول هو مسمى واحد له أسماء مختلفة، فبحسب كل صفة فيه سُمي باسم آخر، وقد كثرت الأسماء والمسمى واحد وهو الأصل وما سواه تبعًا له فلا ريب في أن أصل الكون كان النبي ﷺ لقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» فهو أولى أن يكون أصلاً، وما سواه أولى أن يكون تبعًا له؛ لأنه كان بالروح بذر شجرة الموجودات، فلما بلغ أشده أربعين سنة كان بالجسم والروح ثمرة شجرة الموجودات وهي سدرة المنتهى، فكما أن الثمرة تخرج من نوع الشجرة كان خروجه إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9] ولهذا قال: «نحن الآخرون السابقون» يعني: الآخرون بالخروج كالثمرة، والسابقون بالخلق كالبذر، فيلزم من ذلك أن يكون روحه ﷺ أول شيء تعلقت به القدرة، وأن يكون هو المسمى بالأسماء المختلفة، فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سُمي درة وجوهرة، كما جاء في الخبر: «أول ما خلق الله جوهرة»، وفي رواية: «درة فنظر إليها فذابت» فخلق منها كذا وكذا، وباعتبار نورانيته سُمي نورًا، وباعتبار وفور عقله سُمي عقلاً، وباعتبار غلبات الصفات الملكية عليه سُمي مَلَكًا، وباعتبار أنه صاحب القلم سُمي قلمًا كما ذكرناه، وإذا أمعنت النظر وجدت كل وصف بالعقل.

وحكي عنه خاصية من خواص روحه ﷺ وهو قوله: «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر» وهذا حال روحه ﷺ إذ قال له: «أقبل» إلى الدنيا ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «فأقبل، ثم قال أدبر» أي: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ «فأدبر» عن الدنيا وراجع ربه ليلة المعراج، ثم قال للعقل: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحب إلي منك» وهذا حاله ﷺ أنه كان حبيب الله، وأحب الخلق إليه، وقوله تعالى للعقل: «بك أعرف، وبك آخذ، وبك أعطي، وبك أعاقب، وبك أثيب» فهذا كله حاله ﷺ لأنه من لم يعرف النبي ﷺ بالنبوة والرسالة لم يعرف الله ولو كان له ألف دليل على معرفة الله فمعناه: بمعرفتك أعرف أي: من عرفك بالنبوة عرفني بالربوبية، «وبك آخذ» أي: آخذ طاعة من أخذ منك ما أتيته من الدين والشريعة، «وبك أعطي» أي: بشفاعتك أعطي درجة أهل الدرجات، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»، «وبك أعاقب وبك أثيب» وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:81] وذلك أن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه بأن يؤمن بمحمد ﷺ ويوصي أمته بالإيمان به ونصرة دينه، فمن آمن به من الأمم

وهو قول: «كن» الدال على سرعة نفوذ قضائه.

وأما كمية المقضي وكيفية حصوله وانفصاله، فأمرٌ استأثر الله به في غيبه، ولم يُطلع أحدًا عليه لذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾ يا بني آدم ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ المتعلق بالروح ﴿إِلَّا

الماضية قبل بعثه أو بعد بعثه فهو من أهل الثواب، ومن لم يؤمن به من الأولين والآخرين فهو من أهل العقاب، ووضح فيه قوله: «بك أعاقب وبك أثيب»، فكل ما ذكرناه في معرفة الروح فهو حال النبي ﷺ ومقاله؛ فكيف يظن به [أنه] لم يكن عارفًا بالروح، والروح هو نفسه؟! وقد قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وذلك أن الله تعالى خلق آدم وبنيه، وجعلهم خلفاء في الأرض، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل:62] وهذا أحد كرامة بني آدم، ومن شرط الخلافة أن يكون المستخلف يستجمع أوصاف المستخلف بالنيابة إلا ما اختص به المنوب بالأصالة مثل القدم والأحدية والصمدية والسلامة عن كل عيب ونقصان، فالروح خليفة الله وهو مجمع صفاته الذاتية له كالحياة والقدرة، والسمع والبصر والكلام، والعلم والإرادة والبقاء، والجسد خليفة الروح وهو مجمع صفاته التي باجتماعها في الروح علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أن الجسد خليفة الروح لأنا وجدنا الجسد قبل اتصال الروح به وبعد انفصاله عنه خاليًا عن هذه الصفات علمنا أنه بخلافة الروح اتصف بهذه الصفات، ولو لم يكن الروح متصفًا بهذه الصفات لخلافة الحق تعالى لم يكن الجسد بها متصفًا فبقي أن الروح باقٍ أبدًا، والجسد فانٍ.

قلنا: وذلك لأن البقاء الأبدي من خاصية الروح فهو مختص به بالأصالة دون خليفته، كما أن الله تعالى اختص بالبقاء الأزلي والأبدي بالأصالة دون خليفته وهو الروح؛ فإنه حادث أبدي دون أزلي، ثم اعلم أن الأرواح كلها خلقت من روح النبي ﷺ وأن روحه أصل الأرواح، وإنها كما كان آدم ولهذا سُمي أميًا؛ أي: إنه أم الأرواح، فكما كان آدم ﷺ أبا البشر فكان النبي ﷺ أبا الأرواح، وإنها كما كان آدم أبا حواء وأمها وذلك أن الله تعالى لما كان روح النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن معه شيء» إلا روحه، وما كان شيء آخر ينسب روحه إليه أو يضاف إليه غير الله، فلما كان روحه أول باكورة أثمرها الله تعالى بإيجاده من شجرة الوجود، وأول شيء تعلقت به القدرة وشرفه بتشريف إضافته إلى نفسه تعالى فسماه ﴿رُّوحِي﴾ [الحجر:29] كما سُمي أول بيت من بيوت الله وضع للناس، وشرفه بالإضافة إلى نفسه، فقال: ﴿بَيْتِيَ﴾، ثم حين أراد أن يخلق آدم سواه ونفخ فيه من روحه أي: من الروح المضاف إلى نفسه وهو روح النبي ﷺ كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29] فكان روح آدم من روح النبي - عليهما السلام - بهذا الدليل، وكذلك أرواح أولاده لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة:8- 9] وقال تعالى في مريم عليها السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:91] فكانت النفخة لجبريل وروحها من روح النبي ﷺ المضاف إلى الحضرة، وهذا أحد أسرار قوله ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة».

قليلاً﴾ [الإسراء:85] وهو أنيته وتحققه دون لميته وحقيقته؛ لأن اطلاع الإنسان على الأشياء إنما هو بقدر قابليته واستعداده، وليس في وسعه وطاقته أن يعلم حقيقة الخردلة وكيفية حصولها وتكونها، فكيف حقيقة الروح، وكيفية تعلقها في البدن.

غاية ما في الباب أن المكاشفين من أرباب الأذواق ينكشفون في البدن، ويتفطنون منها أن ظهور الأشياء وحياتها ومنبع نشأتها ونمائها إنما هي تلك السراية، هذا نهاية ما يمكن التكلم والتفوه عنه، وأما الاطلاع على كنهها، فأمرٌ لا يسعه مقدرة البشر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: والله إن شئنا وأردنا إذهاب القرآن المرشد لقاطبة الأنام، لحككناه من المصاحف ومحوناه من الصدور والخواطر ﴿ثُمَّ﴾ بعد إذهابنا ومحونا ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ [الإسراء: 86] أي: لا تجد ظهيرًا مُعينًا لك يطالبنا بمجيئه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: 87 – 96].

﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل نازلةً إليك إن سألت منه سبحانه ردّه يردّه إليك تلطفًا وعطفًا ﴿إِنَّ فَضْلَهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:87]

مثل اصطفائك من بين البرية، وإرسالك إلى كافة الناس، وتأييدك ونصرك في عموم الأوقات، وغير ذلك.

ثم لما قال بعض المعاندين من الكفار الطاعنين في القرآن: لو شئنا لقلنا مثل هذا القرآن الذي جئت به يا محمد، ونسبته إلى الله افتراء، نَزَل: ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل في جوابهم مقسمًا مؤكدًا: والله ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾[1] واتفقوا معارضين ﴿عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الجامع لأحوال النشأتين، الواقع في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة لما حصل لهم الإتيان بمثله وهم فرادى، بل ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ في الجامعية والبلاغية، واتساق اللفظ والمعنى، ومتانة النظم والفحوى ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:88] أي: ولو كانوا متظاهرين متعاضدين في إتيانه، لم يتأت أيضًا منهم الإتيان، لكونه خارجًا عن طوق البشر.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا ﴿لِلنَّاسِ فِي﴾ حق ﴿هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المعجز لفظًا ومعنى ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ موضح لهم إعجازه، وخروجه عن معرض معارضة البشر، وارتفاع شأنه عن القدح والطعن فيه ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ وامتنعوا عن قبوله، ولم يتفطنوا لإعجازه، ولم يزيدوا في حقه مع ظهور الدلائل والشواهد المكررة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:89] جحودًا وإنكارًا بدل القبول واليقين بحقيته.

﴿وَ﴾ مع ظهور هذا المعجز المشتمل لما في العالم غيبًا وشهادة، إجمالاً وتفصيلاً ﴿قَالُوا﴾ تعنتًا اقتراحًا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ونصدّق بكتابك ﴿حَتَّى تَفْجُرَ﴾ وتشقق ﴿لَنَا مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: أرض مكة ﴿يَنبُوعًا﴾ [الإسراء:90] أي: عينًا جارية نشرب منه ونزرع ونغرس على وجه العموم.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ عليها على وجه الخصوص ﴿جَنَّةٌ﴾ أي: بستان مغروسة مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ سهل السقي ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا﴾ أي: أواسطها ﴿تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء:91] سهلاً يسيرًا، بحيث لا تكلف في سقيها أصلاً.

﴿أَوْ﴾ تأتي بآية ملجئة لنا إلى الإيمان بأن ﴿تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ ونسبته

(1) لفظ الجن يتناوله الملائكة وكل من لم يدركه حس البصر لأنهم مستورون عن البصر يقال: جن بترسه إذا استتر به؛ ولهذا قيل للترس المجن، وإنما قلنا للباقون بمثله؛ لأنه ليس لكلام الله مثل؛ إذ كلامه صفته، وكما أنه ليس لذاته تعالى مثل وكذلك ليس لصفاته مثل؛ لأنها قديمة قائمة بذاته تبارك وتعالى وصفات المخلوق مخلوقة قابلة للتغيير والفناء.

إلى ربك بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: 9] ﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعةً بعد قطعةٍ حتى نؤمن لك ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ﴾ الذي ادعيت الرسالة والنبوة عنه، تعالى عن ذلك، ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ أي: وتأتي بالملائكة الذين ادعيت وساطتهم ورسالتهم بينك وبين ربك ﴿قَبِيلًا﴾ [الإسراء:92] أي: تأتي بهم بجماعةٍ أو مقابلاً عيانًا مشاهدًا محسوسًا.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾ متخذ ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: ذهبٍ وفضةٍ مكللةٍ بجواهرَ نفيسةٍ ﴿أَوْ تَرْقَى﴾ وتصعد على رؤوس الأشهاد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بلا أسبابٍ ووسائلَ ﴿وَ﴾ بعد صعودك وعروجك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لن نؤمن لك ونصدق بمجرد رقيك وعروجك ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ أي: مكتوبًا من عند ربك مشتملاً على أسامينا ودعوتك إيانا إلى الإيمان وتصديقنا بك ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ بين أظهرنا ونؤمن بك بأجمعنا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم هذه المقترحات التي ليس في وسعك وطاقتك متعجبًا متنزهًا مستبعدًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وتعالى من أن يشارَك في قدرته فإن أمثال هذه المقترحات، إنما تصدر منه سبحانه وتعالى أصالةً، أو في خلقه وإظهاره في بعض عباده إن تلعق إرادته، ولم يخلق فيّ بل ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أي: ما كنتُ ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ ضعيفًا كسائر الناس، غاية الأمر أني بوحي الله وإلهامه عليّ صرت ﴿رَّسُولًا﴾ [الإسراء:93] كسائر الرسل، وقد كانوا أيضًا لا يتأتي منهم كل ما اقترح عنهم أقوامهم، بل ما يسّر الله ومكّنهم عليه، وما لي أيضًا إلا ما يسّر الله لي.

﴿وَمَا مَنَعَ﴾ وصرف ﴿النَّاسَ﴾ عن ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ ويهتدوا وقت ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: الرسول الهادي المرشد إياهم يرشدهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ أي: قَوْلُهُمْ هذا على سبيل الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم المتقن في أفعاله ﴿بَشَرًا﴾ متصفًا بأنواع الجهالات، منغمسًا بأنواع الكدورات ﴿رَّسُولًا﴾ [الإسراء:94] إلى بشرٍ مثلهم؛ ليهديهم إلى الكمال ويهذبهم عن النقصان؟! كلا وحاشا بل إن أرسل الله رسولاً إلى هداية عباده، فالمناسب إرسالك الملَك لكونه صافيًا عن الكدورات الجسمانية مطلقًا.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا بدَّ بين المفيد والمستفيد من المناسبة والملاءمة المصحِّحة لأمر الإفادة والاستفادة ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ﴾ سماويون نازلون منها إليها لمصلحة ﴿يَمْشُونَ﴾ عليها ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ متمكنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم﴾ حين

احتياجهم إلى الإرشاد والتكميل ﴿مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا﴾ مجانسًا لهم ﴿رَّسُولاً﴾ [الإسراء: 95] إياهم، ويرشدهم ويهديهم بمقتضى مجانستهم ومناسبتهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما آيست عن إيمانهم وصلاحهم: ﴿كَفَى بِاللهِ﴾ أي: كفى الله ﴿شَهِيدًا﴾ مثبتًا لرسالتي عليكم بإظهار أنواع المعجزات على يدي قاطعًا للنزاع الواقع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته وبحضرة علمه ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ وبجميع ما صدر عنهم من الأعمال على التفصيل ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:96] ذا خبرةٍ وبصارةٍ كاملةٍ؛ بحيث لا يشذّ من أحوالهم شيء من علمه وخبرته، فيجازيهم بكمال قدرته على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا
﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا
لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ
أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾
فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: 97 – 104].

﴿وَ﴾ بعد ما ثبتَ أن أمرهم موكول إلى الله وحالهم محفوظٌ عنده ﴿مَن يَهْدِ اللهُ﴾ الهادي وتعلّق إرادتهُ بهدايته ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: هو مقصورٌ على الهداية لا يتعداها أصلاً ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ الله، وتعلّق مشيئتهُ بضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾[1] أي: من دون الله يوالونهم، ويظاهرون عليهم، وينقذونهم من بأس

(1) أي: من دون الله يشير به إلى أن الهداية في البداية مبنية على إصابة النور عند رشاشه؛ فمن لم

الله وبطشه بعدما أخذتهم العزة بإثمهم ﴿وَ﴾ لذلك ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ونبعثهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد تنقيد أعمالهم منكبين منكوسين ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ تنفيذًا لأحكامنا؛ يعني: يُسحبون ويجرون نحو جهنم البعد والخذلان ﴿عُمْيًا﴾ لكونهم في النشأة الأولى أعمى من رؤية الحق في المظاهر والأعيان ﴿وَبُكْمًا﴾ لكونهم صامتين ساكتين عما ظهر لهم من دلائل التوحيد عنادًا ومكابرةً ﴿وَصُمًّا﴾ لكونهم أُضمِينَ عن استماع كلمة الحق من ألسنة الرسل وورّاثهم؛ أي: العلماء، لذلك صار ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ الطرد والحرمان المسعّر بنيران الخذلان والخسران، وصارت من كمال سعرها إلى حيث ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ وسكنتْ لهبُ نارها بعدما أكلتْ جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ جلودًا ولحومًا مثل جلودهم ولحومهم، بل عينه؛ يعني: كلما انمحت جلودهم ولحومهم نعيدهم على ما كانوا لتصير ﴿سَعِيرًا﴾ [الإسراء:97] ذا شررٍ والتهابٍ مفرطٍ، بعدما وجدتْ ما تأكل، والسر في تكرارها وإعادتها: إنكارُهم للحشر وإعادة المعدوم بعينه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت من العذاب ﴿جَزَاؤُهُم﴾ أي: جزاء المنكرين الكافرين، وإنما عذبناهم بها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة على الحشر الجسماني ﴿وَقَالُوا﴾ منكرين مستبعدين: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ﴾ صرنا ﴿رُفَاتًا﴾ أي: هباءً وغبارًا ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا﴾ أي: مخلوقًا موجودًا ﴿جَدِيدًا﴾ [الإسراء:98] مثل المخلوق الأول؟! كلا وحاشا.

﴿ أَ﴾ ينكرون الحشر وإعادة المعدوم بعينه، ويصرون على الإنكار أولئك المعاندون ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ خلقًا إبداعيًا اختراعيًا بلا سبقِ مادةٍ وزمانٍ ﴿قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بعد إعدامهم وموتهم، مع أن الإعادة أسهل وأيسر من الإنشاء والإبداء ﴿وَ﴾ لم يعلموا كيف ﴿جَعَلَ﴾ أي: صيّر وقدر ﴿لَهُمْ أَجَلاً﴾ معينًا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ متى وصلوا إليه ماتوا؛ بحيث لا يسمع لهم طلب التقديم والتأخير أصلاً، ومع وضوح هذه الدلائل والشواهد ﴿فَأَبَى﴾ وامتنع ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى العقل والنقل عن قبول

يصبُ ذلك النور وأخطأه بقي في ظلمة الضلالة، وليس لأحد أن يخرجه منها إلى نور الهداية إلا الله تعالى؛ فإنه الهادي في البداية والنهاية، وهو الولي الذي يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور من الأزل إلى الأبد، واستوى عنده الأزل والأبد، وكل وقت له أزل وأبد. [التأويلات].

الحق وتصديق الحق المطابق، للواقع، وما يزيدهم وروده ووضوحه ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:99] أي: جحودًا وإنكارًا للحق لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم، متوهمين نفاد قدرة الله عند مراده وانقضاء تمكينه واقتداره لدى المقدور.

﴿قُل﴾ للمنكرين المتوهمين نفاد قدرة الله وانصرام حوله وقوته عن مراده: لا تقيسوا الغائب على الشاهد، ولا تتوهموا الشح والبخل والعجز والاضطرار في حق الله، بل الكل هو من أوصافكم وخواصكم؛ إذ ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ مع سعتها وعدم نفادها وتناهيها أصلاً ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ وبخلتم ﴿خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ أي: مخافة النفاد بالإنفاق بلا وضع شيء بدل ما ينفق ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ﴾ خُلق في أصل فطرته ﴿قَتُورًا﴾ [الإسراء:100] ممسكًا لازدحام لوازم الإمكان والافتقار فيه؛ إذ هو أحوج المظاهر وأبعدهم عن الوحدة الذاتية؛ لأنه آخر نقطة قوس الإمكان، وهي نهاية الكثرة، وصار أول نقطة قوس الوجوب إن انخلع عن ملابس الإمكان، وتجرد عنها بالمرة بلا شوب شينٍ ونقصانٍ.

﴿وَ﴾ من جملة كفورية الإنسان وفتوريته: أنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من سعة رحمتنا وكمال حولنا وقدرتنا ﴿مُوسَى﴾ المؤيد من عندنا ﴿تِسْعَ آيَاتٍ﴾[1] أي: معجزاتٍ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ دالةٍ على صدقة في رسالته وحقيته في نبوته، وهي: العصا واليد البيضاء والجراد والقمل والضفادع والدم، وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الجبل فوقهم.

وإن شئت يا أكمل الرسل زيادة إيضاحٍ وإلزامِ المشركين اليهود ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بقية أخبارهم؛ ليخبروك وقت ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ موسى ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما رأى منه ما رأى من الخوارق بدل من الإيمان والإطاعة ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى﴾

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى الآيات التي تدل على نبوته فيما يتعلق بنفسه خاصة منها إلقاؤه في اليم، وإخراجه منه، وتربيته في حجر عدوه فرعون، وتحريم المراضع عليه ورده إلى أمه، وإلقاء المحبة عليه، واصطناعه لنفسه، وإيناسه النار من جانب الطور، والنداء من الشجرة ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ﴾ [القصص:30]، واستماع كلام الله، وقوة حمل الخطاب والجواب، وأعظم الآيات جرأته على طلب الرؤية، وإجابته بالتجلي، وصعقه منه، وإفاقته من الصعقة، وإحلال العقدة من لسانه، وإلقاء النور على وجهه، واشتعال النار قلنسوته عند الغضب، واليد البيضاء وغيرها من الآيات.

بعدما جئت بسحر عظيم وكيد كبير، وهو وإن كان من العقل والدراية: أعتقدك ﴿مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:101] مجنونًا مخبطًا مختلّ العقل بادعائك الرسالة والنبوة من خالق السماء ونزول الملك والمصحف إليك من عنده مع انسداد الطرق وانعدام السبل.

ثم لما سمع موسى من فرعون ما سمع آيس من إيمانه وقنط ﴿قَالَ﴾ موبخًا مقرعًا: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يقينًا أن ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ﴾ الآيات القاهرة الباهرة التي ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لكونها خارجة عن وسع غيره مطلقًا، وعلمت أيضًا أنه ما أنزله إلا ﴿بَصَائِرَ﴾ أي: بيناتٍ وشواهد دالةٍ على صدقي في دعواي لتُبصرك، وتوقظك عن مقام غفلتك، وتتفطن بها لأصل فطرتك وجبلّتك ﴿وَإِنِّي﴾ بعدما بالغتُ في تبليغ ما جئتُ من الهداية والإرشاد ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ وأعتقدك ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ المتناهي في الغفلة والغرور ﴿مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:102] مصروفًا عن الخير كله، مطرودًا عن ساحة عز الحضور، مجبولاً على الشر ودواعيه.

وبعدما رأى فرعون من موسى ما رأى من المعجزات الواضحات، خاف أن يميل إليه قومه ويؤمنوا له ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: بني إسرائيل، ويستأصلهم بأن يحركهم أولاً ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ويفرقهم بحيث لا يتأتى منهم المقاومة معه أصلاً، ثم يأمر بقتل كل فرقةٍ منهم مكرًا منه وكيدًا، فمكرنا له قبل مكره إياهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن﴾ كانوا متفقين ﴿مَّعَهُ﴾ في مكره وكيده ﴿جَمِيعًا﴾ [الإسراء:103] حين أمرنا موسى ومن معه بالفرار ليلاً، فأُخبر وأتبع أثره، فلقي موسى البحر وهو على عقبه، فأمرنا موسى بضرب البحر بالعصا، فضربه فانفلق وافترق وتشعب، فمر به موسى وأصحابه سالمين، فلقي فرعون على البحر الفور، فرأى البحر مفترقًا فاقتحموا مغرورين، فأغرقناهم أجمعين بعدما أمرنا البحر بالخلط والاجتماع على ما كان.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: انقراض فرعون وانقضائه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على سبيل التوصية والتذكير في كتابنا المنزل عليهم، وهو التوراة ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها بالقهر والغلبة، آمنين صالحين مؤمنين بما أرسل إليكم وأنزل عليكم، عاملين بمقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ وقيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:104] ملتفين مختلطين سعداؤكم مع أشقيائكم، فنميز بينكم، وندخلكم منزل الشقاوة والسعادة.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى

ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: 105 – 111].

ثم قال سبحانه في حق القرآن ونزوله وعظم قدر من أنزل إليه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا ملتبسًا بالحق المطابق للواقع بلا عروض الباطل عليه أصلاً ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ما نزل فيه من الأحكام والأوامر والنواهي والعبر والأمثال والرموز والإشارات والمعارف والحقائق، كلها نزل بالحق الصريح الثابت الخالص عن توهم الباطل مطلقًا ﴿وَ﴾ أيضا ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل على كافة البرايا ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالحق للمؤمن المطيع بأنواع الخيرات واللذات الروحانية المعنوية ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:105] بالحق للكافر الجاحد عن أنواع العذاب والعقاب الجسمانية والروحانية، وأرسلناك عليهم؛ لتكون داعيًا لهم إلى التوحيد والعرفان، تاليًا لهم.

﴿وَقُرْآنًا﴾ فرقانًا بين الحق والباطل والهداية والضلال ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أي: فرقنا إنزاله مفرقًا منجمًا ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ لدى الحاجة ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ مهلٍ وتؤدةٍ، فإنها أسهل وأيسر للحفظ والفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء:106] على حسب الوقائع ومقتضى الزمان والمورد في عرض عشرين سنة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للطاعنين في القرآن، المائلين عن حقيته جهلاً وعنادًا على سبيل التهديد والتوبيخ: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: سواء منكم الإيمان بالقرآن وعدم الإيمان به؛ لأنكم جهلاء عما فيه من الحقائق والمعارف، غفلاء عن الرموز والإشارات المودعة فيه، فتصديقكم وتكذيبكم لا يجدي نفعًا، ولا يورث ضرًا، إنما العبرة لذوي الخبرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من لدن حكيمٍ عليمٍ بحقية ما فيه، وما في جميع الكتب الإلهية، وهم الأنبياء والأولياء المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان، كانوا يؤمنون به ويصدقون به ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: قبل نزوله، وبعد نزوله كذلك ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ﴾ ويسقطون ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:107] متذللين، واضعين

جباههم وأذقانهم على تراب المذلة تعظيمًا لأمر الله، وشكرًا له لإنجازه وعده.

﴿وَيقُولُونَ﴾ في حين سجودهم منزِّهين مسبِّحين: ﴿سُبحانَ رَبِّنَا﴾ وتعالى عن أن يأتي الخُلْف فيما عهدنا، أو عن أن يعجز عن إتيان ما وَعَدَنا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمفْعُولاً﴾ [الإسراء:108] أي: إنه كان وعد ربنا الذي وعدنا به في الكتب السالفة من إرسال رسولٍ بأوصافٍ مخصوصةٍ مع كتابٍ جامعٍ لما في الكتب السالفة، ناسخٍ لها، خاتمٍ للرسالة العامة والتشريع الشامل، لذلك صار دينه ناسخًا لجميع الأديان، فقد أنجز سبحانه وعده بإرسال هذا النبي الأمي الموعود.

﴿وَيَخِرُّونَ﴾ أيضًا العالمون العارفون بحقية القرآن بعد تأملهم، وتوغلهم في حِكَمِه وأحكامه وحقائقه ومعارفه ﴿لِلأَذْقَانِ﴾ حال كونهم ﴿يَبْكُونَ﴾ من خشية الله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ التأمل والتدبر فيه على وجه التدقيق والتعمق ﴿خُشُوعًا﴾ [الإسراء:109] وخضوعًا؛ لاطلاعهم على سرائر شهِدَت بها أذواقهم، وذاق حلاوتَها وجدانُهم وسرائرُهم.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين الغافلين عن سر سريان الوحدة الذاتية الإلهية في المظاهر كلها والمجالي برمتها: ﴿ادْعُوا اللهَ﴾ أي: سمُّوا الذات الأحدية باسم الله المستجمع لجميع الصفات إجمالاً ﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي: سموه باسم الصفات التي اتصفت بها الذات الأحدية تفصيلاً ﴿أَيًا مَا تَدْعُوا﴾ وتسمُّوا من أسماء الذات والصفات ﴿فَلَهُ﴾ أي: لله المنزه عن سِمَة الكثرة والحدوث مطلقًا، ووصمة الشركة والتعدد رأسًا عن ﴿الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ الكاملة الدالة على أحدية ذاته، غايته في الباب أنها باعتبار شؤونه وتجلياته؛ إذ الاسم والمسمى كلاهما يتحدان عن سقوط الإضافات ورفع التعينات؛ إذ لا يتصور التعدد دون جنابه إلا وهمًا واعتبارًا.

﴿وَ﴾ إذا كان الكل من المسميات راجعة إلى الذات الأحدية بعد رفع التعينات وسقوط الإضافات ﴿لَا تَجْهَرْ﴾ أيها العارف المتمكن في مقام التوحيد، الراشح فيه بلا تلوين وتقييد ولا تعلق ﴿بِصَلاتِكَ﴾ وميلك نحو الحق بَوحًا وشطحًا، ولا تقل في حال صحوك إفاقتك كلامَ أرباب السكر والحيرة ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ أيضًا خيفةً وشحًا على ذوي الاستعداد والاسترشاد ﴿وَابْتَغِ﴾ واختر يا صاحب التمكين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:110] مقتصدًا معتدلاً مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط؛ إذ الخير في كل الأمور أوسطها وأعدلها.

﴿وَقُلِ﴾ بعدما تحققتَ وتمكنتَ في مقر التوحيد شكرًا لما أنعمك الحق الوصول إليه، وأمكنك التحقق دونه والورود عليه: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي﴾ توحد بذاته

وتقدس بأسمائه وصفاته، وتفرد بألوهيته، واستقل بوجوده وربوبيته إلى حيث ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يخلف عنه لكونه صمدًا قيومًا أزليًا أبديًا سرمديًا، لا يعرضه الفناء ولا يعتريه الانصرام والانقضاء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ والملكوت يظاهره أو يزاحمه ويخاصمه؛ إذ لا شيء في الوجود سواه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ﴾ يولي أمره ويعين عليه حين ما لحقه ﴿مِّنَ الذُّلِّ﴾ المسقطِ لعزه الأصلي وعِظَمِهِ الحقيقي الأزلي؛ إذ لا تغيرَ ولا تبدلَ في ذاته أصلاً.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:111] ذاتيًا حقيقيًا وعظِّمه تعظيمًا صوريًا ومعنويًا؛ إذ لا وجود للغير معه حتى يتصور هناك النسبة والإضافة، بل هو أجل وأكبر لذاته بلا توهم الإضافة فيه.

اهدنا بفضلك سواء سبيلك إلى توحيدك، واجعلنا من زمرة أرباب تمييزك وتمجيدك.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحقق في مقام تمجيد الحق وتحميده ـ مكّنك الله بما أوصلك إليه وقررك دونه ـ أن تعظمَ الحقَ غاية التعظيم، وتكبره كمال التكبير والتكريم، واعلم أن تعظيمه إنما هو بتعظيم مظاهره ومجاليه؛ إذ ما من ذرةٍ من ذرائر الكائنات إلا وقد ظهر الحق فيه، وتجلى عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فلك أن تتواضع وتتذلل عند المظاهر طوعًا ورغبةً، ولا تتكبر عليها، ولا تتعظم دونها؛ إذ التكبر والتفوق على ذرةٍ صغيرةٍ من أمارات عدم الوصول إلى مرتبة اليقين الحقي ومقرِّ التوحيد الحقيقي.

وذلك إنما يحصل لك بعد رفع مقتضيات أوصافك البشرية بموتك الإرادي الاختياري، وهو إنما يحصل بالرياضات الشاقة القالعة لدرن الهوى والغفلات، وترك العادات الراسخات في نفوس أصحاب الجهالات، والركون إلى العزلة والخلوات، والانقطاع عن رسوم أصحاب التخمينات والتقليدات، والتبتل نحو الحق في عموم الأوقات والحالات.

وفقنا الله وإياكم سلوك طريق التوحيد، ورزقنا الوصول إلى منزلة التجريد والتفريد، وجعلنا من زمرة أهل المحبة والولاء الوالهين في مقام التمجيد والتحميد، إنك قريب مجيب حميد مجيد.

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الكهف

لا يخفى على المتحققين المحمديين في مقام المعرفة والتوحيد بمتابعته ﷺ، المسترشدين من القرآن المنزل عليه، المفصل لمرتبته ﷺ، الموضّح لشأنه في المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات وعروجه إلى معارج العنايات الإلهية وسلوكه في مسالك توحيده على الاستقام والاعتدال بلا عوج وانحراف أنّ من وُفق من عند الله على سلوك طريق التوحيد من أرباب العناية، ظهرَ عليه ولاح دونه استقامة القرآن المنزّل على العدالة والقسط الإلهي وبراءته عن العوج والانحراف.

وكذا اعتدال أخلاق النبي ﷺ ومقابلته ومطابقته إياه في الاستقامة والاستواء؛ إذ هو منزّل من عند الله سبحانه على مقتضى استعداده ﷺ على وفق مرتبته الجامعة لجميع مراتب الأنبياء والرسل الهادين المهديين؛ إذ هو مبدأ جميع المراتب ومنتهاه أيضًا.

لذلك كمُل ببعثته وإرساله أمر الدين، وخُتم بإقامته ﷺ باب الرسالة والتشريع، وبإنزال القرآن عليه باب التنزيل والتبيين.

لذلك وجب له ﷺ ولجميع من آمن له واقتفى أثره مواظبة حمد الله والإقامة بأداء شكره على إنعام هذه النعمة الجليلة التي هي نعمة القرآن الفارق بين أرباب اليقين والعرفان، وأصحاب الزيغ والطغيان.

لذلك أخبر سبحانه بالحمد على إنزاله تعليمًا له ﷺ ولأمته، فقال سبحانه متيمنًا باسمه العلي العظيم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلي بذاته باعتبار اتصافه بجميع أوصاف الكمال لعبده الذي انتخبه واصطفاه من بين عباده على مقتضى الكرم والإفضال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإرسال هذا العبد رسولاً إليهم، هاديًا لهم إلى درجات الكمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم بإرشاد حبيبه ﷺ إلى زلال الوصول.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)

مَٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: 1 – 8].

﴿الْحَمْدُ﴾ المشتمل المتضمن على عموم الاثنينية والتوصيف بالأوصاف الجميلة حقيقٌ لائقٌ ﴿لِلَّهِ﴾ أي: للذات المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستحق لجميع المحامد استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا؛ لأنه ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستظل بظلّ الألوهية، المستحق لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه بالأصالة؛ يعني: محمدًا ﷺ.

﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لجميع أوصاف الكمال إجمالاً وتفصيلاً، المشتمل لعموم الأحكام المتعلقة لها، المترتبة عليها في النشأة الأولى والأخرى، مع كونه محتويًا على ما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي، مع زياداتٍ خلت عنها تلك الكتب من الرموز والإشارات المتعلقة بالتوحيد الذاتي المسقطِ لعرق الإضافات والكثرات مطلقًا ﴿وَ﴾ بيّن لهم فيه طريق التوحيد الذاتي على الوجه الأبلغ الأقوم؛ بحيث ﴿لَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا﴾[1] [الكهف:1] وانحرافًا في تبيينه.

(1) قال البقلي: حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده. فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم لعبادة أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب عل الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه. قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له. وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ

بل جعله ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيمًا معتدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعًا، وإنما أنزله إلى عبده وحبيبه ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بإنذاراته الكافرين الذين كفروا بالله وجحدوا في توحيده، وعملوا السيئات المبعدة عن طريق النجاة ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ وعذابًا أليمًا عظيمًا صادرًا ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله العزيز المنتقم بطشًا لهم وانتقامًا منهم ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ أيضًا بتبشيراته ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى مرتبة التوحيد الصادرة عنهم على مقتضى يقينهم وعرفانهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: أن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:2] هو التحقق بشرف اللقاء والفوز بمطالعة جمال الله والاستغراق بملاحظة وجهه الكريم.

﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾ أي: في الأجر الحسن دائمين ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:3] مؤبدًا مخلدًا بلا تبديل وتغيير، مزيدين المحبة واللذة والشوق، متعطشين إلى زلال التفريد بلا رواءٍ أصلاً، كما أخبر سبحانه عن حال أولئك الوالهين بقوله: «**أَلاَ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي**»[1].

﴿وَيُنذِرَ﴾ أيضًا أشدَّ إنذارٍ بأسوأ عذابٍ ووبالٍ ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ من فرط إسرافهم في الشرك والجحود، وهم اليهود والنصارى: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد ﴿وَلَدًا﴾ [الكهف:4] حيث قال اليهود: عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله.

مع أنه: ﴿مَّا لَهُم بِهِ﴾ بالله باتخاذه ولدًا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يقينٍ أو ظنٍ متعلقٍ به وبمعناه، وبما يترتب عليه من النقص المنافي لوجوب الوجود؛ إذ اتخاذه إنما هو للإخلاف والمظاهرة والتزيين، وكلاهما محالان على الله لا يليقان بجنابه، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ يعني: وإن ادعوا في إثبات الولد لله تقليد الآباء والأسلاف، فليس لهم أيضًا علمٌ بنقصه وعدم لياقته بجناب الحق المنزه المقدس في ذاته عن أمارات النقصان وعلامات الإمكان.

ظاهر فيه أسرار باطنه. ﴿عِوَجَا﴾ أي: زيغًا وميلاً إلى الغير، كما قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:17] أي: لم ير الغير في شهوده.

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (91/10).

وبالجملة: ﴿كَبُرَتْ﴾ أي: جلّت وعظُمت في الكفر وسوء الأدب مع الله ﴿كَلِمَةً﴾ أي: مقالتهم هذه مع أنها ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ هفوةً بلا علم وتأملٍ، بل ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقولون ويقصدون بقولهم هذا ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:5] وافتراء يفترونه على الله، وينسبونه إلى كتابهم ظلمًا وزورًا.

وبعدما كان حالهم في الافتراء والمراء على هذا المنوال، وشدة غيظهم وشكيمتهم مع الله على هذا المثال: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أكمل الرسل بمحبتك ومودتك إيمانهم وانقيادهم، وبرجائك وتحننك إلى بيعتهم ومتابعتهم ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلها ومهلكها ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ عندما انصرفوا عنك وذهبوا ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: إن هم لم يؤمنوا ولم يصدِّقوا ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ [الكهف:6] يعني: أهلكت نفسك بكثرة التأسف والتحزن على ذهابهم وانصرافهم عنك، وعدم إيمانهم وانقيادهم بك، وإنْ بعثك وحَداك إلى إيمانهم واتباعهم غناهم ورئاستُهم وترفههم وجاههم وثروتهم وسيادتُهم بين الناس، فاعلم أنه لا اعتداد لها ولا اعتبار بما يترتب عليها.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الأصول الثلاثة التي هي الحيوان والنبات والمعدن، وما يتفرع عليها من أنواع اللذات والشهوات الجسمية الوهمية ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أو زخرفةً عليها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ ونختبرهم أي: أرباب التكاليف والتدابير، المجبولين على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:7] وأتم رشدًا وعقلاً في الإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها والاجتناب عن لذاتها الوهمية التي هي على التقضي والانصرام، وشهواتها المورثة لأنواع الحزن والآلام وأمانيها، المستلزمة لأصناف الجرائم والآثام، مع أن الضروري منها كِنّ حجرة، ولبس خِرقةٍ، وسدّ جوعة، وباقيها حطام ليس لها دوام، مورثة لآثام وآلام.

﴿وَ﴾ متى علمت أن ما في الأرض ليس إلا زينةً وزخرفة ستفنى وتفوت عن قريبٍ، فاعلم يقينًا ﴿إِنَّا﴾ بشدة حولنا وقوتنا، وكمال قدرتنا وسطوتنا ﴿لَجَاعِلُونَ﴾ أي: مصيّرون مبدّلون جميع ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من الذخائر والزخارف ﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا مرتفعة أملسَ ﴿جُرُزًا﴾ [الكهف:8] خاليةً منقطعةً عن النبات؛ بحيث لا تنبت أصلاً.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا

عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف: 9 - 16].

أعجبت واستبعدت عن كمال قوتنا وقدرتنا بجعل ما على الأرض صعيدًا جرزًا؟! ﴿أم حسبت﴾ وشككت ﴿أنّ أصحاب الكهف﴾ أي: قصتهم وشأنهم. والكهف هو: الغار الواسع في الجبل. ﴿والرّقيم﴾ هو اسم الجبل الذي فيه الغار، أو اسم الوادي الذي فيه، أو اسم قريتهم، أو كلبهم، أو لوح رصاصي أو حجريّ، رُقِمَ أو رُقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف، أو أصحاب الرقيم قومٌ آخرون على اختلاف الأقوال والروايات.

وبالجملة: ﴿كانُوا مِنْ آياتنا﴾ الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا ﴿عجبًا﴾[1] [الكهف: 9] أي: آيةً يتعجب منها الناس، ويستبعدون وقوعها مع أنه لا

(1) ذكر سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فإنهم في مراقد أنسنا، وبساتين قدسنا، غائبون فينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبنا لمشامّ العالمين يهيمون في البوادي والقفار أبدًا، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.
قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال؛ لذلك خفي على الخلق آثارهم.
وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى غار الأنس، وآواهم. وآمنهم ثم أفناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعاينتهم، فتاهوا في الحضرة والهين؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، بل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس

شك في وقوعها؛ إذ بلغت من التواتر حدًا لا يتوهم فيها الكذب قطعًا؛ إذ أمثال هذا في جنب قدرتنا الكاملة وقوتنا الشاملة سهلٌ يسير.

ولو رفعتَ أيها المعتبر المتأمل الإلْف والعادة عن البين، وطرحتَ تكرر المشاهدة والمؤانسة عن العين، لكان ظهور كل ذرةٍ من ذرائر العالم في التعجب والاستبعاد وكمال الغرابة والبداعة مثل هذا، بل أغرب وأعجب من هذا، فلك أن تراجع وجدانك وتتأمل أمرك وشأنك حتى تجد في نفسك عجائب وغرائب يدهش منها عقلك وينحسر رأيك وفهمك ويكلّ إدراكك، وبالجملة: استغرقتَ في بحر الحيرة والدهشة من نفسك فكيف من غيرك.

أذقنا بلطفك حلاوة مطالعة مبدعاتك ومشاهدة مخترعاتك بنظر العبرة والحضور.

اذكر يا أكمل الرسل قصة أصحاب الكهف وقت ﴿إِذْ أَوَى﴾ أي: التجأ ورجع ﴿الْفِتْيَةُ﴾ الخمسة أو السبعة أو الثمانية من أشراف الروم ورؤسائهم، دعاهم ملكهم دقيانوس إلى الشرك، وهم موحّدون في أنفسهم، فأبَوا وهربوا منه ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ ملتجئين ﴿فَقَالُوا﴾ مناجين مستغيثين من الله: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا بأنواع اللطف والكرم وفقّنا بشرف توحيدك وتقديسك ﴿آتِنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ لا بسبب أعمالنا ومقتضياتها ﴿رَحْمَةً﴾ تنجينا عن يد عدونا وعذابه، وعن وبال ما دعانا إليه من الكفر والعصيان ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أسباب معاشنا حين كنا فارّين من العدو وملتجئين إليك، مستعيذين بكنفك وجورك ووفق علينا ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نعمل لمرضاتك ولوجهك الكريم ﴿رَشَدًا﴾ [الكهف:10] أي: هدايةً توصلنا إلى زلال توحيدك آمنين فائزين بلا خوفٍ وخطرٍ، فاستجبنا لهم مناجاتهم وأعطيناهم حاجاتهم.

وبعدما دخلوا الكهف ملتجئين بنا متضرعين ﴿فَضَرَبْنَا﴾ وختمنا ﴿عَلَى آذَانِهِمْ﴾ حين كانوا راقدين ﴿فِي الْكَهْفِ﴾ حجابًا غليظًا يمنعهم سماع الأصوات مطلقًا، وأنمناهم على هذا الوجه ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف:11] بلا طعامٍ ولا شرابٍ ولا شيء

حال أصحاب الكهف آية عجيبة من آياتنا، بل هذه أعجب. وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدرة المنتهى، وكنت للقربى كقاب قوسين أو أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

من أسباب المعاش، وهم أحياء في صور الأموات، منقطعين عن لوازم الحياة مطلقًا سوى الأنفاس تجيء وتذهب.

﴿ثُمَّ بعثناهُمْ﴾ وأيقظناهم من منامهم بعث الموتى للحشر ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: نجرّب ونميّز ﴿أيّ: الحزبَيْنِ﴾ المختلفين بعدما اختلفوا في مدة لبثهم ﴿أَحْصَى﴾ أي: أضبط وأحفظ ﴿لِمَا لبثوا﴾ من المدة ﴿أَمَدًا﴾ [الكهف:12] يعني: أيهم أحفظ ضبطًا لمدة رقودهم في الكهف، فكلا الفريقين - أي: اليهود والنصارى - لا يعلمان مدة لبثهم حقًا مطابقًا للواقع.

بل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿نَبَأَهُم﴾ أي: خبرَ مدة لبثهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾[1] الثابت الصحيح المطابق للواقع ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي: شبّان من أرباب الفتوة والمروءة، وُفقوا من عند الله بالعقل الكامل والرشد التام إلى أن ﴿آمَنُوا﴾ وأذعنوا ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي: بتوحيد مربيهم باستعمالهم عقولهم الموهوبة لهم إلى دلائل توحيده ﴿وَزِدْنَاهُمْ﴾ من لدّنا بعدما أخذوا بالتأمل والتدبر في آياتنا الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا ﴿هُدًى﴾ [الكهف:13] وزيادةَ رشد تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَ﴾ ثبتناهم في الهداية والتوحيد بأن ﴿رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ محبة الإيمان والعرفان، واذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي دقيانوس الظالم الطاغي حين دعاهم إلى الشرك والكفر على رءوس الملأ، وبعدما سمعوا منه دعوته ﴿فَقَالُوا﴾ بلا مبالاةٍ له ولسطوته وشوكته: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي أظهَرَنا من كتم العدم، وأوجَدَنا في فضاء الوجود ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هو رب العلويات والسفليات والغيب والشهادة

(1) قال الشيخ روزبهان: وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتيان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟ يا حبيبي اعلم أن تلك فتيان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالي فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا بربهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي زدناهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذاك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له. وأيضًا: زدناهم مشاهدة وقربًا وصالاً ومعرفة وكمالاً ومحبة وشفاء.

والظاهر والباطن، أوجد الكل بوحدته واستقلاله في التصرف والاستيلاء بلا مشاركةِ مشيرٍ ومظاهرةِ ظهيرٍ، هو مستحق للألوهية والربوبية ﴿لَن نَّدْعُوَ﴾ ونعبد ﴿مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ باطلاً؛ إذ لا مستحق لعبادة إلا هو، واللهِ لئن دعونا وعبدنا إلهًا سواه ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:14] أي: قولاً ذا بعدٍ عن الحق والتحقيق بمراحل، وصرنا حينئذٍ مغمورين في الشرك والكفر وأنواع الضلال والطغيان، عصمنا الله منها.

ثم قالوا على وجه التعريض والتسفيه: ﴿هَؤُلاءِ﴾ الضالون عن منهج الرشاد ومسلك السداد ﴿قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾ من غوايتهم وضلالهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿آلِهَةً﴾ باطلةً أي: أصنامًا وأوثانًا يعبدونها لعبادة الله ﴿لَّوْلا﴾ أي: هلا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجةٍ واضحةٍ وبيّنةٍ لائحةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ، صادرةٍ من قِبلهم دالةٍ على لياقتهم الألوهية والربوبية، فإن لم يأتوا فهم حينئذ مفترون على الله بإثبات الشريك له ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأطغى وأضل ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية بإثبات الشريك له، سيما أمثال هذه التماثيل العاطلة ﴿كَذِبًا﴾ [الكهف:15] مخالفًا للواقع، بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ظلمًا وزورًا.

﴿وَ﴾ بعدما جرى بينهم وبين دقيانوس ما جرى، قال بعض الفتية لبعضهم: قد وجب علينا الآن الاعتزال منهم ﴿إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وهجرتموهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: معبوداتهم من الأصنام والأوثان التي يعتقدونها آلهةً شركاءَ مع الله يعبدونها كعبادته ﴿إِلاَّ اللهَ﴾ الواحد الأحد الحق الحقيق بالعبادة، وأخلصتم العبادة له سبحانه بلا خوفٍ منه ودهشةٍ، كان أولى وأليق بحالكم.

وبالجملة: اتفقوا على الاعتزال واختيار الغربة والفرار من بينهم، فاعتزلوهم منهم وخرجوا من أظهرهم ﴿فَأْوُوا﴾ وانصرفوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ المعهود، ملتجئين إلى ربكم من خوف عدوكم، متوكلين عليه في رزقكم ومعاشكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ سبحانه ويبسط عليكم ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِهِ﴾ وجوده ما تعيشون وتبقون بسبب أن تعلق مشيئته بإبقائكم ﴿وَ﴾ بعدما التجأتم إلى الله، وتوكلتم عليه، مفوضين أموركم كلها إليه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ ويسهل عليكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي اخترتم لرضا الله ورعاية جانبه ﴿مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:16] أي: ما ترفقون وتنتفعون به من اللذات الروحانية بدل ما فوّتم لأنفسكم من اللذات الجسمانية.

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ

ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 17 – 20].

﴿وَ﴾ من كمال رفق الله إياهم، ورأفته معهم أيها الرائي ﴿تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعت﴾ من مشرقها في مدة الصيف حين ازدياد حرارتها ﴿تَّزَاوَرُ﴾ أي: تنقلب وتميل ﴿عن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: جانب يمين الغار؛ لئلا تؤذيهم بشعاعها وحرارتها ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: زالت ومالت عن الاستواء نحو المغرب ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تقطعهم وتنصرف عنهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: جانب يسار الغار؛ لحفظهم عن حرّها ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: والحال أنهم في متسع الغار ووسطه لا في زواياه؛ بحيث لو لم يكن رعاية الله وحفظه إياهم، وصرف شعاع الشمس عنهم لكانت متشعشعة عليهم إلى وقت الغروب ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نشر الرحمة وتهيئة الرفق والرأفة وصرف أذى الشمس، وكذا جميع المؤذيات عنهم ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على قبوله سبحانه إياهم ورضاه عنهم كونهم مهتدين إلى توحيده، موفقين من عنده، مبتغين لرضاه، متوكلين عليه في جميع الأمور، راضين بقضائه في كل الأحوال، مخلصين له في جميع الأعمال.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ وأراد هدايته في سابق علمه وقضائه، ومضى عليه حكمه ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الموفق على الهداية والفوز بالفلاح المقصور عليها، وإن لم يصدر ولم يسبق من الأعمال الصالحة ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الله وتعلق مشيئته بضلاله في سابق قضائه، فهو الضال المقصور على الضلالة وإن صدرت عنه الأعمال الصالحة، لا يتبدل ضلالها أصلاً، وبعدما أراد سبحانه ضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا﴾ يولي أمره بالشفاعة لينقذه من الضلال الفطري ويخرجه عن الوبال الجبلي ﴿مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:17] يهديه ويرشده

إلى طريق الرشاد ومنهج السداد. ﴿وَ﴾ من كمال لطف الله إياهم ورأفته لو رأيتهم أيها الرائي في مضاجعهم ومراقدهم ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ متيقظين: لانفتاح عيونهم، وورودهم أنفاسهم، وعدم نتنهم وانفساخهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ نُقَلِّبُهُمْ﴾[1] عناية منّا إياهم وقت احتياجهم إلى التقلب ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ كي لا تؤثر الأرض بأضلاعهم وجوانبهم ﴿وَكَلْبُهُم﴾ هو كلبٌ مرّوا عليه حين إوائهم إلى الغار معتزلين، فلحقهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: أنا أحب أولياء الله وأحباءه دعوني أقتفِ أثركم فدعوه فتبعهم.

وقيل: كلب راعٍ مضوا عليه فأطعمهم وحكوا عليه حالهم، فتبعهم وتبعه كلبه، وقراءة من قرأ: ﴿وكالبهم﴾ يؤيد هذا.

﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: في الباب أو العتبة أو الفناء ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أيها الرائي ورأيت هيئة رقودهم في ذلك الغار المهيب ﴿لَوَلَّيْتَ﴾ أي: استدبرت ورجعت قَهْقَرى هربًا وهولاً ﴿مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: من هيبتهم ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ وأملأت صدرك ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:18] خوفًا من رقودهم منفتحة العيون عظيمة الأجسام في غارٍ مُهيبٍ في خلال جبال عوالٍ بعيدةٍ عن العمران.

﴿وَ﴾ كما أقدرناهم وأنمناهم على هذا الوجه العجيب والطرز الغريب ﴿كَذَلِكَ

(1) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المنتبهين، فمَن نظر إليهم ممَن هو مثلهم في الغفلة عن الله تعالى يراهم متيقِّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر، وإمّا إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحيّز، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاءه دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًّا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ وأيقظناهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ ويتقاولوا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ويستطلعوا عن مدة رقودهم ولبثهم في الغار؛ ليطلعوا على كمال قدرة الله، ووفور جوده ورحمته عليهم؛ ليزدادوا تعينًا واطمئنانًا واعتمادًا أو وثوقًا على كرم الله وفضله ولطفه، وبعدما قاموا من هجعتهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ راقدين في هذا الغار؟ ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الظن والتخمين؛ لأن النائم لا اطلاع له على مدة نومه: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ تامًا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم دخلوا على الغار غدوة وانتبهوا في الظهيرة، فظنوا أنهم في يومهم أو الذي بعده.

ثم لما شاهدوا طول أظفارهم وأشعارهم ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ إذ هو قائمٌ حاضرٌ في كل حالٍ بلا تبدلٍ واختلالٍ، ونحن نائمون لا شعور لنا بمدة رقودنا ولا همَّ لنا بتعيينها بل أهم أمورنا أن نُطعم ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم﴾ إلى المدينة مصحوبًا ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: بعينكم ونقدكم المضروبة المسكوكة.

والوَرِق في اللغة: الفضة، سواء كانت مضروبة أم لا، والمراد هنا المضروبة.

﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى ما في يد القائل من النقد ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ وهي: طرسوس التي فروا منها من دقيانوس ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ الذاهب المرسل، وليتأمل ﴿أَيُّهَا﴾ أي: أي طبيخة طبّاخ ﴿أَزْكَىٰ﴾ أي: أنظف وأطهر ﴿طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ حتى نطعم؛ إذ نحن جيعان ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ الذاهب مع أهل السوق وليجامل معهم في المعاملة ﴿وَ﴾ ليخرج منها سريعًا حتى ﴿لَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: الذاهب ولا يُطعن ﴿بِكُمْ﴾ أي: بحالكم ومكانكم ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:19] من أهل البلد.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد اطلاعهم وشعورهم بحالكم ﴿إِن يَظْهَرُوا﴾ ويغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أو يقتلوكم بضرب الأحجار ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ ويرجعوكم مرتدين ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ التي كنتم عليها قبل انكشافكم بالتوحيد ﴿وَلَن تُفْلِحُوا﴾ أو تفوزوا بالفلاح والصلاح ﴿إِذًا﴾ أي: حين عودكم وارتدادكم إليها ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:20] أي: لا يرجى فلا حكم بعد ذلك أصلاً.

ثم لما أرسلوا واحدًا منهم إلى البلدة فدخل على السوق، وَدار حول الطباخين واختار طبيخةً زكيةً، وأخرج الدرهم؛ ليشتري الطعام، وكان عليه اسم دقيانوس، فاتهموه بأنه وجد كنزًا، فذهبوا به إلى الملك، وكان الملك نصرانيًا موحِّدًا، فقصّ عليه القصة عن آخرها، فقال بعض الحضّار: إن آباءنا قد أخبرونا أن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء؛ فانطلق الملك وجميع أهل المدينة مؤمنهم وكافرهم،

فأبصروهم وتكلموا معهم، ثم قال الفتية نستودعك الله، ونعيذك من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك، وبنى عليهم مسجدًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: 21 – 27].

﴿وَ﴾ كما أنمناهم نومًا طويلاً شبيهًا بالموت، ورحمناهم بتقلبٍ من جانبٍ إلى جانبٍ وحفظناهم من حر الشمس وأنواع المؤذيات، وبعثناهم من نومهم بعث الموتى للحشر؛ ليزدادوا بصيرة وثقة على الله ﴿كَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ وأطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى من شاهد حالهم، وشهد قصتهم من المؤمنين ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ ويتيقنوا ﴿أَنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة لكل ما أراد وشاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ لائقٌ له أن يُنجزه بلا خلفه ﴿وَ﴾ يتيقنوا خصوصًا ﴿أَنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة التي وعدها الحق بألسنة جميع أنبيائه ورسله آتيةٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وارتفع نزاع الناس فيها، ببعث هؤلاء بعد ثلاثمائة وتسع سنين.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ المتعلق بدينهم في المحشر والمعاد الجسماني؛ إذ القادر على حفظهم ورعايتهم في المدة المذكورة، وبعثهم بعدها قادرٌ على إحياء عموم الموتى من قبورهم وإعادة الروح إلى أجسامهم؛ إذ أمثال هذا سهلٌ يسيرٌ في جنب قدرة الله وإرادته، وبعدما بعثناهم من مراقدهم

وأطلعنا الناس عليهم، فمضوا وتكلموا معهم، وحكوا ما حكوا، وأخبر القوم لهم بمدة رقودهم، واستودعوا مع القوم ورجعوا إلى المراقد فماتوا وانقرضوا، فاختلف الناس في أمرهم، فقال المسلمون: هم منا لأنا موحدون، وقال الكافرون: بل هم منا لكونهم أولاد الكفار.

وبالجملة: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ قال المسلمون: نحن نبني عليهم مسجدًا، وقال الكافرون نحن نبني عليهم كنيسةً، وكلا الفريقين ليسوا عالمين بكفرهم وإيمانهم، بل ﴿رَّبُّهُمْ﴾ الذي ربَّاهم بأنواع التربية ورحمهم بأنواع الرحمة ﴿أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبحالهم فأمرهم موكولٌ إلى الله مفوض إليه، ثم لما تمادى النزاع بينهم وتطاول جدالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ بالقدرة والحجة، وهم الموحدون المسلمون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ ونبنين ﴿عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:21] نتوجه فيه لله، ونتبرك بهم ونجعله محل الحاجات وقضاء المناجاة، فاتخذو وجعلوه مرجعًا يرجع إليه الأقاصي والأداني.

ثم لما اختلف الخائضون في قصتهم في عددهم، ذكر سبحانه أقوالهم أولاً، ثم بين ما هو أولى وأحق فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم أربعةٌ ﴿كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ستةٌ ﴿كَلْبُهُمْ﴾ كلا القولين، الأول قول اليهود، والثاني قول النصارى صدر عنهم ﴿رَجْمًا﴾ ورميًا ﴿بِالْغَيْبِ﴾ إذ لا مستند لهم من التواريخ وقول الرسل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ثمانيةٌ ﴿كَلْبُهُمْ﴾ والواو وإن كان مقحمًا، أفاد توكيد لصوق الصفة بالموصوف وشدة اتصاله به، ليدل على صدقه ومطابقته، ومثله في القرآن كثير، منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر:4] وغير ذلك، وهي مثل الواو في قولهم: جاءني زيدٌ، ومعه ثوبٌ.

هذا قول المؤمنين أخذوا من رسول الله، وهو من جبريل، وجبرائيل من الله سبحانه، فإن شكوا فيه أيضًا ونسبوه إلى الرّمي والتخمين ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إذ لا يعزب عن علمه شيءٌ من أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره؛ لأن علمه بمعلوماته حضوريّ، لا يغيب عنه أصلاً وهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ من أحوالهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالأخبار والتواريخ، وأكثرها غير مطابق للواقع، ولما كان قولهم وعلمهم راجعًا إلى الرجم والرمي بلا مستند ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ ولا تجادل يا أكمل الرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في حق الفتية ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: جدالاً خفيفًا مقتصرًا على ما أوحينا -

إليك، لا متعمقًا غليظًا بأن تُجهلهم وتُسفههم، وتضحك من قولهم، وتنسبه إلى الخرافة والخرق.

﴿وَ﴾ أيضا ﴿لَا تَسْتَفْتِ﴾ ولا تسأل ﴿فِيهِم﴾ أي: في حق الفتية وأمرهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:22] يعني: لا تستفتِ أحدًا منهم عن قصتهم وشأنهم بعدما ظهرَ عليك أمرهم بالوحي؛ لأن استفتاءك بعد الوحي، إما سؤالُ تعنتٍ وامتحانٍ، فهو لا يليق بمرتبة الرسالة والنبوة، بعيد عن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم اللازمة لمرتبة النبوة، وإما سؤال استعلام واسترشاد، فهم قاصرون عاجزون عنها، مع أنه لا معنى للسؤال بعد الوحي.

﴿وَ﴾ لما أمر اليهود لقريش أن يسألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنتٍ وامتحانٍ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فسألوا، فقال رسول الله ﷺ: «ائتُوني غدًا أُخبِركُم عَنهَا»[1].

قاله بلا استثناءٍ وتعليقٍ بمشيئةٍ؛ أي: لم يقل: إن شاء الله، فانسدَّ عليه باب الوحي بضعة عشر يومًا، فشق عليه ﷺ الأمر، وكذَّبته قريش وتحزّن حزنًا شديدًا، فنهاه سبحانه نهيًا مؤكدًا، وأدّبه تأديبًا بليغًا؛ لئلا يترك الاستثناء في الأمور أصلاً، فقال: ﴿لَا تَقُولَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ألبتة ﴿لِشَيْءٍ﴾ عزمتَ عليه وأردتَ أن تفعله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ [الكهف:23] على سبيل البت والمبالغة.

﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا أن تذكرَ وتجيءَ بالاستثناء بعد عزمك بقولك: إن شاء الله، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرَ الاستثناء والتعليق على مشيئة الله في خلال الأمور حين القصد والعزيمة والقول بالإصدار، بعدما تذكرتَ نسيانَك تلافيًا لما فَوّتَ وتداركًا لما تركتَ، ولو بعد حينٍ بل سنةٍ، وقل: إن شاء الله متذكرًا الأمر الذي تركت التعليق فيه قضاءً لِما فات.

﴿وَقُلْ﴾ بعدما كشفنا عليك جواب سؤالهم هذا شكرًا له، وابتهاجًا عليه، وطلبًا للمزيد منه سبحانه: ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ وأرجو من فضله وجوده أن يرشدني ويدلني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:24] أي: لأمرٍ هو أقربُ دلالةٍ من أمر أصحاب الكهف وقصتهم إلى الهداية والرشاد، وأوضحُ إيصالاً إلى مسلك الصواب

---

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (343/7).

والسداد؛ تأييدًا لنبوتي وتشييدًا لرسالتي، وهو قد هداه وأرشده بأعظمَ من ذلك: كالإخبار عن بعض الغيوب، وقصص الأنبياء المتباعد عهدهم وزمانهم، وأمارات الساعة وأشراطها، وإنزال القرآن المشتمل على الرطب واليابس الحادثة في العالمين، الجارية في النشأتين.

﴿وَ﴾ كما اختلف أهل الكتاب في عدد الفتية، اختلفوا أيضًا في مدة لبثهم في الغار راقدين نائمين قال بعضهم: ﴿لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ بالسنة الشمسية على ما هو المشهور ﴿وَ﴾ بعضهم ﴿ازْدَادُوا﴾ عليها ﴿تِسْعًا﴾ [الكهف:25] من تلك السنة أيضًا، وإن كان المراد بالسنة فيه الأولى شمسية والثانية قمرية، كان كلا القولين واحدًا؛ لأن التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون الزيادة في ثلاثمائة: تسع سنين قمرية.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما لم يوجد شيءُ يوثَق به ويُعتمد عليه في تعيين مدة لبثهم في الغار سوى التخمين والحسبان ﴿اللهُ﴾ المطلعُ لجميع السرائر والخفايا ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي: بمدة لبثهم في كهفهم راقدين؛ إذ ﴿لَهُ﴾ سبحانه لا لغيره من مظاهره وأظلاله ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: الاطلاع على المغيبات الواقعة في العلويات والسفليات اطلاعًا حضوريًا شهوديًا؛ بحيث لا يجري في مبصراته ومسموعاته سبحانه من غاية انكشافه وانجلائه له أن يقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ كما يجري في مبصراتنا ومسموعاتنا؛ لاستغنائه وتنزهه سبحانه عن الالتفات والإصغاء، بل المغيباتُ والمحسوساتُ كلُّها في حضوره وحضرة علمه على السواء بلا تفاوتٍ أصلاً.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا لَهُم﴾ أي: لأهل السماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أي: دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يوليهم ويلي أمورهم؛ إذ هو مستقلٌ بالوجود والتصرف في ملكه وملكوته بلا مظاهرة أحدٍ ومعاونته ﴿وَلاَ يُشْرِكُ﴾ بمقتضى تعززه وكبريائه وسطوته واستيلائه ﴿فِي حُكْمِهِ﴾ السابق في قضائه إجمالاً، واللاحق في قَدَره تفصيلاً ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:26] من مظاهره ومصنوعاته، بل له الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والتخليق والترزيق، وجميعُ ما حدث من الحوادث الجارية في الآفاق كلُّها مستندةُ إليه سبحانه وتعالى أولاً وبالذات، بلا تخلل الوسائل والوسائط العادية الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة، وذوي الحجب الكثيفة المنافية لرؤية الحق وانجلائه في المظاهر كلها.

وأما أرباب الوصول والشهود، وهم الذين ارتقوا حجبَ الخيالات وسُدلَ الأوهام والعادات، فلا يَرون في الوجود سواه، ولا إله عندهم إلا هو، لذلك لم يُسندوا شيئًا من الحوادث الكائنة بمقتضى التجليات والشئون الإلهية إلا له سبحانه؛ إذ ليس وراء الله عندهم مرمىً ومنتهىً.

﴿وَ﴾ إذ كان مفاتيحُ المغيبات ومقاليدُ العلوم والإدراكات، وكذا جميعُ ما في العالم من المحسوسات والمشاهدات كلُّها مستندةُ إليه سبحانه، ناشئةُ من عنده ﴿اتْلُ﴾ يا أكمل الرسل على من تبعك من المؤمنين ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ على الوجه الذي أُنزل إليك بلا تبديلٍ وتحريفٍ؛ إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ولا متصرفَ في كلامه سواه، ولا تسمع قول المشركين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:15] إذ لا يسع لأحدٍ أن يبدله ويحرفه ﴿وَ﴾ إن هممتَ إلى تبديله وتحريفه من تلقاء نفسك ﴿لَن تَجِدَ مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:27] ملجأً تلتجئ إليه عند نزول عذاب الله، وحلول أخذه وانتقامه على تبديلك وتغييرك كلامه.

ثم لما طلب صناديد قريش من رسول الله ﷺ إبعاد فقراء المؤمنين وطردهم عن مجلسه، مثل ابن أم مكتوم وأبي ذر وفقراء أصحابه؛ لرثاثة حالهم وشمول الفاقة عليهم حتى يصاحبوه ﷺ ويجالسوا معهم، فهمّ رسول الله ﷺ على إنجاح ما أرادوا واقترحوا، وأمر بالفقراء ألا يحضروا معهم في مجلسه، ردّ الله سبحانه على رسوله ردًا بليغًا، ونهاه عنه نهيًا شديدًا.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا

﴿٣١﴾ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا
زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ
فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: 28 – 34].

فقال سبحانه مؤدبًا له مقرعًا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي: إن التمس قرشيٌ منك إبعاد الفقراء، وبالغوا في طردهم وذبّهم عن صحبتك، لا تُجبهم ولا تُنجح مطلوبهم، بل اصبر ووطّن نفسك المائلة إلى غنائهم وصفاء زيّهم ولباسهم ﴿مَعَ﴾ الفقراء ﴿الَّذِينَ﴾ شأنهم أنهم ﴿يَدْعُونَ﴾[1] ويعبدون ﴿رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ الْعَشِيِّ﴾ أي: طرفي النهار وما بينهما ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ويتوجهون نحوه مخلصين بلا ميلٍ منهم إلى الهوى ومزخرفات الدنيا مع غاية فقرهم وفاقتهم ﴿وَلاَ تَعْدُ﴾ أي: لا تملِ ولا تُصرف ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[2] لرثاثة حالهم وخلقِ ثيابهم إلى الأغنياء وزّيهم البهيّ حال كونك ﴿تُرِيدُ﴾ وتقصد ﴿زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالالتفات إليهم، والميل إلى مصاحبتهم ومجالستهم، والركون إلى جاههم وثروتهم ﴿وَلاَ تُطِعْ﴾ ولا تتفق معهم في طرد الفقراء بمجرد ميلك إيمان أولئك الأغنياء البعداء عن روح الله ورحمته، ولا تلتفت التفات متحنٍ متشوقٍ إلى ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وختمنا عليه بالإعراض ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ ختمًا لا يرتفع عنه أصلاً ﴿وَ﴾ لذا صار من العتو والعناد إلى أن ﴿اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ واتخذه إلهًا، واجتنب عن مولاه ونبذه وراءه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ في الاتباع والاتخاذ ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف:28] ميلاً وتقدمًا نحو الباطل، وإعراضًا عن الحق ونبذًا له وراءه ظهريًا.

﴿وَقُلِ﴾ على سبيل المثال الإرشاد والتبليغ بلا مراعاةٍ ومداهنةٍ: ﴿الْحَقُّ﴾

---

(1) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تتميم لاتّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخر هنا إشارة إلى العلم، فتفطّن لهذه المقام، والله العلاّم.

(2) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدّ، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحسّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له، ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

الصريحُ الصحيحُ الثابتُ ما نزل ونشأ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أنشأكم وأظهركم من كتم العدم وأصلح حالَكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبلِّغْ ما أوحي إليك بلا تبديلٍ وتغييرٍ؛ إذ ما عليك إلا البلاغ والتبليغ ﴿فَمَن شَاءَ﴾ منهم الفوز والفلاح ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ بالله وكتبه ورسله على مقتضى ما بلغتَ ﴿وَمَن شَاءَ﴾ منهم الوبالَ والنكالَ في الدارين ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ فاعلم أنه سبحانه لا يبالي بكفرهم وإيمانهم؛ إذ هو منزهٌ عن إيمان عباده وكفرهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والتنبيه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عدلنا وقهرنا من أعرض عنا من عبادنا وانصرف عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا سيما ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضيات أحكامنا ﴿نَارًا﴾ ذاتَ التهابٍ واشتعالٍ إلى حيث ﴿أَحَاطَ﴾ أي: احتوى واشتمل ﴿بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: لهبُها التي هي كالفسطاط في الإحاطة والشمول، والفسطاطُ: المتخذُ من الشعر ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من شدة العطش ونهاية حرقة الكبد والزفرة ﴿يُغَاثُوا﴾ ويُجابوا ﴿بِمَاءٍ﴾ في اللون ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو الحديدُ المذابُ، وفي الحرارة إلى حيث ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ ويحرقها وقتَ تقريبه إلى الفم للشرب.

وبالجملة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ شرابُ المهل ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم وأوديتها المملوءة بنيران الحرمان والخذلان ﴿مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:29] منزلاً ومسكنًا، تسكنون فيها أبدًا مخلدًا.

ثم اتبع سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا، وبإرسالنا الرسل، وإنزالنا الكتب المبينة الموضحة لأحكامنا الصادرة منا على مقتضى الأزمان والأدوار ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورةِ لهم في الكتب وألسنة الرسل، واجتنبوا عما نهيناهم عنها، فجزاؤهم علينا نجازيهم ونضاعف لهم بأضعاف ما يستحقون بأعمالهم وإخلاصهم فيها ﴿إِنَّا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿لَا نُضِيعُ﴾ ونهمل ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:30] وأخلص نيةً، وأتم قصدًا وأكمل عزيمةً[1].

---

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أن لأهل الإيمان والأعمال الصالحات جزاء يناسب صلاحية أعمالهم وحسنها، فمنها أعمال تصلح للسير إلى الجنان وغرفها وهي الطاعات القلبية من الصدق في طلب الحق والإخلاص في التوجه له بترك الدنيا، والإعراض عما سوى الله، والإقبال على الله بالكلية والتمسك بذيل إرادة شيخ كامل فاضل مكمل ليسلكه على طريق

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المحسنون المخلصون ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: متنزهاتُ إقامةٍ وخلودٍ من مراتب العلم والعين والحق، ومع ذلك ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق، متجددةً بتجددات التجليات الإلهية والنَفَسات الرحمانية المترشحة من رشاشات بحر الذات الأزلية الأبدية، ومع ذلك ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ ويزينون ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وخلاخل متخذةٍ ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ جزاء ما هذَّبوا أخلاقهم وجوارحه بمقتضى الأوامر الإلهية في النشأة الأولى ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فيها ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾ مصنوعةً ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ وهو ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو ما غلظ منه جزاء ما يتصفون في النشأة الأولى بزي التقوى ولباس الصلاح.

ومن كمال تنعمهم وترفههم يكونون ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ والسرر، متمكنين عليها جزاء ما حملوا من المتاعب والمشاق في مواظبة الطاعات وملازمة العبادات، وبالجملة: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ والجزاء جزاءُ أهل الجنة وثوابهم ﴿وَحَسُنَتْ﴾ المتنزهات الثلاثة ﴿مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:31] يرتفقون وينتفعون فيها أهل الكشف والشهود، بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

ثم أمر سبحانه حبيبه ﷺ بضرب المثل لتوضيح حال المؤمن والكافر، ومآل أمرهما فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَّثَلاً﴾ بيِّنًا موضِّحًا كان ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ من بين إسرائيل هما أخوان؛ أحدهما مؤمنٌ موحدٌ، والآخر كافرٌ مشرك مات أبوهما، وورثا منه أموالاً عظامًا فاقتسما، فصرف المؤمن ماله في سبيل الله وأنفق للفقراء واليتامى وأبناء السبيل، واشترى الكافر مكاسبَ ومزارع وكثر ماله إلى أن ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا﴾ أي: للكافر ابتلاءً له واختبارًا ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ وكرومٍ ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ أي: أحطنا كلاًّ منهما ﴿بِنَخْلٍ﴾ لتزيد حسنًا وبهاءً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الجنتين ﴿زَرْعًا﴾ [الكهف: 32] مزرعًا ومحرثًا للحبوب والأقوات من الحنطة والشعير وغيرهما.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ كملتا إلى أن ﴿آتَتْ﴾ وأثمرت كل منهما ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرتها كاملةً وافرةً في كل سنةٍ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص ثمرتها وحاصلهما من كل منهما شيئًا من النقصان كما هو المعهود في سائر البساتين، فإن ثمرها يتوفر في عامٍ وينقص في أخرى ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿فَجَّرْنَا﴾ وأجرينا ﴿خِلالَهُمَا﴾ أي: أوساط الجنتين

المبالغة ظاهرًا وباطنًا، فلا نضيع أجر عمله إن أحسنه وهو إذ يعبد الله على مشاهدته أو لشهوده.

﴿نَهَرًا﴾ [الكهف:33] ليدوم سقيهما.

﴿وَ﴾ مع تينك الجنتين المذكورتين ﴿كَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي: أموالُ عظامُ وأمتعةُ كثيرةُ من أنواع الأجناس والنقود والجواهر والعبيد وغير ذلك، ﴿فَقَالَ﴾ الآخر الكافرُ يومًا على سبيل البطر والمباهاة ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أي: للأخ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ويخاطبه بعض الأموال والزخارف عليه، ويشنّع عليه، ويعيره ضمنًا، ويقرّعه تقريعًا خفيًا، إلى أن قال بطرًا: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً﴾ وبالأموال تقتضي الأماني، وتنال اللذات والشهوات ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:34] أبناءً وعشائر وأحشامًا وخدمةً يظاهرن ويعانون عليّ لدى الحاجة، ويجالسون ويصاحبون معي في الحضر والسفر.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ
ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ
أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ
بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا
﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:
35 – 45].

﴿وَ﴾ من شدة بطره وخيلائه: ﴿دَخَلَ﴾ يومًا ﴿جَنَّتَهُ﴾ التي ذكر وصفها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بعرضها على عذاب الله وأنواع عقابه بكفره بالله، وبطره بحطام الدنيا، وإعجابه على نفسه اتكالاً على ثروته وجاهه وكثرة أعوانه وأنصاره ﴿قَالَ﴾ من طول أمله وحرصه وشدة غروره وغفلته: ﴿مَا أَظُنُّ﴾ بل ما أشك وأوهم ﴿أَن تَبِيدَ﴾ أي:

تنهدم وتنعدم ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:35] بل هي على هذا القرار والنضارة دائمًا.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾ وأعتقد ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة التي أخبر بها أصحاب الدعاوي من الأنبياء والرسل ﴿قَآئِمَةً﴾ آتيةً كائنةً ألبتة بلا تردد وشك حتى تنهدم وتنعدم هذه بانعدام العالم وانقراضها ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ هبني أن فرضتُ وقدّرتُ قيام الساعة وانقضاء النشأة الدنياوية على ما زعموا وبُعثتُ من قبري على الوجه الذي ادعوا وَرُددتُ ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ للحساب والجزاء وعرض الأعمال وتنقيدها ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ ألبتة جنةً في العقبى ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من هذه الجنة الدنياوية فآخذُها ﴿مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:36] أي: مرجعًا ومنزلاً كما أخذتُ هذه في الدنيا، وإنما يقول ذلك على سبيل الاستهزاء والاستخفاف، يعني: إني حقيق حريٌ بتلك المرتبة في الدنيا والآخرة، إن فُرض وجودها، فأنا حري بذلك فيها أيضًا.

ثم لما تمادى في المباهاة والمفاخرة، وتطاول كلامه في الغفلة والغرور والإنكار على الله وكمال قدرته وقوته، وسرعة نفوذ قضائه وحكمه المبرم متى تعلق إرادته ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ على سبيل العظة والتذكير وأنواع التسفيه والتعيير: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ وأنكرتَ أيها المفسد الطاغي ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: قدّر أولاً مادتك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ خسيسٍ مزدولٍ إلى أن صرتَ بكثرة التبدلات والتغييرات نطفةً مهينةً ﴿ثُمَّ﴾ قدّرها ثانيًا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ دنيئةٍ يستحقرها بل يستخبثها جميع الطباع ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ منها وعدّ لك شخصًا سويًا سالمًا وربّاك بأنواع اللطف والكرم إلى أن صرتَ ﴿رَجُلًا﴾ [الكهف:37] رشيدًا عاقلاً بالغًا كافلاً للأمور والوقائع، كافيًا لإحداث الغرائب والبدائع، وافيًا في جميع المضارّ والمنافع.

ثم كلفك بالإيمان والمعرفة والإتيان بالأعمال الصالحة والإذعان بالنشأة الأخرى، وما يترتب عليها من العرض والحساب والسؤال والجزاء وجميع المعتقدات الأخروية، فاستنكرتَ واستكبرت إلى أن كفرتَ عنادًا ومكابرةً، فستعرف حالك فيها أيها الطاغي الباغي المستحقُ لأنواع العذاب والعقاب ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أي: لكن أنا لا أكفر وأنكر مثلك ربي الذي أظهرني من كتم العدم ولم أكُ شيئًا مذكورًا، وقدّر مادتي من التراب الأدنى الأرذل من المني الأخس الأنزل، ثم عدّلني وسواني رجلاً رشيدًا كاملاً في العقل والرشد؛ لأعرف ذاته فاعبده، وأشكر نعمه، وأؤدي حقوق كرمه، وأتوجه

نحوه وأتضرع إليه، وأصدق رسله وكتبه وجميع ما فيها من الأوامر والنواهي والمعتقدات التي وجب الاعتقاد بها من الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى.

فكيف أنكره وأكفر نعمه وأنسى حقوق لطفه وكرمه؛ إذ ﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ وربُّ جميع من في حيطة الوجود من الأظلال والعكوس، وهو المستقل في الوجود والألوهية والربوبية، وهو المتوحد المتفرد بالقيومية والديمومية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّي﴾ الذي ربَّاني بأنواع اللطف والكرم ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:38] سواه؛ إذ لا شيء في الوجود إلا هو.

﴿وَلَوْلَا﴾ أي: هلا وقت ﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾ أيها المدبر العاقل ﴿جَنَّتَكَ﴾ التي افتخرت بها ﴿قُلْتَ﴾ بدل قولك: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:35] ﴿مَا شَاءَ اللهُ﴾ أي: ما شاء وأراد دوامها تتأبد وما لم يشأ لم تتأبد؛ إذ ﴿لَا قُوَّةَ﴾ ولا قدرة للتأبيد والتخريب ﴿إِلَّا بِاللهِ﴾ أصالةً وحقيقةً، وأنت أيها الكافر المسرف المنكر ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف:39] فعيرتني وعرضت عليّ أولادَك وزخارفَك بطرًا وبوحًا، مع أني أكثر منك إيمانًا وعرفانًا وثقةً على الله واتكالاً.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي﴾ وأرجو من كمال فضله وجوده ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا﴾ أي: أزيد حسنًا وبهاءً وأكثرَ بركةً ودخلاً ﴿مِّن جَنَّتِكَ﴾ التي تتفوق وتتفضل بها عليّ؛ إذ هو القادر على كل ما أراد وشاء ﴿وَيُرْسِلَ﴾ بغتةً ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: صواعقَ نازلةً ليلاً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فحرّقتها وخرّبتها واستأصلتها ﴿فَتُصْبِحَ﴾ أنت وترى ﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا ﴿زَلَقًا﴾ [الكهف:40] ملساء لا تثبت فيها قدمٌ ولا تنبت فيها نباتًا.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا﴾ الجاري في خلالها ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا عميقًا؛ بحيث لا يمكن سقيها منه أصلاً لغاية غوره وعمقه ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتقدر ﴿لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف:40] بالكفر والحيل وأنواع التدابير.

فأعطى سبحانه المؤمن ما أمله وأراده تفضلاً عليه وامتنانًا له، ﴿وَ﴾ أرسل على بستان الكافر صواعقَ نازلةً من السماء كثيرة إلى حيث ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وعمّت الإهلاك والاستئصال جميع ما فيها من الثمار، فلم يبقَ الانتفاع بها أصلاً، وذهب ماؤها وبهاؤها واضمحلت نضارتها وصفاؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهرًا لبطن تلهفًا وتأسفًا ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في تعميرها وإنشائها من الأموال والعظام ﴿وَهِيَ﴾ أي: الجنة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: عروشها على الأرض والكروم عليها محرقةٌ جميعها ﴿وَيَقُولُ﴾ الكافر حينئذ بعدما أفاق عن سكر الغرور

والغفلة، وتفطن على منشأ الصدمة والصولة الإلهية نادمًا متحسرًا: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:42] تعنتًا واستكبارًا حتى لا يلحق عليّ ما لحقني من الوبال والنكال.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ﴾ حينئذ ﴿فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ﴾ على مقتضى مباهاته ومفاخرته بالأعوان والأنصار من بأس الله وأخذِه بل لا ناصرَ له ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: استنصر منه، واستغفر عما صدر عنه من الجراءة والجرائم فقد نصرَه وعفا عنه وإن عظمت زلته ﴿وَمَا كَانَ﴾ أيضًا بنفسه على مقتضى استبداده وثروته ﴿مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:43] مخلّصًا مُنجِيًا نفسه عن أمثال عن أمثال هذا النكال.

بل: ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي تلك الحالة وأمثال تلك الواقعة ﴿الْوَلَايَةُ﴾ أي: النصر والاستيلاء، والغلبة والاستعلاء، والعظمة والكبرياء، والتعزز والاستغناء ﴿لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ الثابت القيوم المطلق، الحقيق بالحقية والقيومية، الجدير بالبسط والديمومية، ولذلك ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ في النشأة الأخرى لأوليائه، وأفضلُ عطاءً لأحبائه وأُمنائه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:44] لانتقام أعدائه انتصارًا لأوليائه.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ أي: اذكر يا أكمل الرسل للمائلين إلى الدنيا ومزخرفاتها ومستلذاتها الفانية الغير قارة، المستتبعة المستعقبة لأنواع الآثام والعصيان، المستلزمة لغضب الله وسخطه ومثّل لهم ﴿مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وانقضائها وفنائها سريعًا ﴿كَمَاءٍ﴾ أي: مثله مثل ماء ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ إظهارًا لكمال قدرتنا وعجائب صنعتنا وبدائع حكمتنا ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي: تكاثف وغلظ بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ وصار في كمال الطراوة والنضارة والحسن والبهاء إلى حيث يعجب منها أبصار أولي الألباب والاعتبار، ثم يبس من حر الشمس وبرد الهواء ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشومًا متفرق الأوراق متفتتَ الأجزاء إلى حيث ﴿تَذْرُوهُ﴾ أي: تثيره وتطيره ﴿الرِّيَاحُ﴾ كيف يشاء ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة التامة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:45] كاملاً؛ بحيث لا تنتهي قدرته لدى المراد، بل له التصرف فيه على ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ
ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ
وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: 46 – 53].

ومتى سمعتَ وعلمتَ حال حياة الدنيا ومآل أمرها وعاقبتها، وانكشفتَ بعدم ثباتها وقرارها فمعظم ما يتفرع عليها: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ إذ هما ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية عارضان عليها، ومتى لم يكن للمعروض دوامٌ وبقاء، فللعارض بالطريق الأولى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ﴾ التي تبقى معك في أولاك وأخراك ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ المقربةُ إلى الله المقبولةُ عنده، المترتبةُ عليها النجاةُ من العذاب والنيلُ إلى الفوز بالفلاح ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أجرًا وجزاءً حسنًا من اللذات الروحانية المودعة لأرباب القبول ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:46] أي: عاقبةً ومآلاً؛ إذ يُنال بها المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات المودعة لأرباب العناية وأصحاب القلوب من الراجين المؤملين شرف لقاء الله والفوز بمطالعة وجهه الكريم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للناسين عهودَ الله ومواثيقَه ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ ونحركها بالقدرة الكاملة والسطوة الهائلة، ونفتت أجزاءها، ونحلل تراكيبها، ونشتتها إلى أن صارت دكًّا ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْأَرْضَ﴾ المملوءة بالجبال الرواسي الحاجبة عما وراءها ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرةً ملساءَ مسوى لا ارتفاعَ لبعض أجزائها على بعضٍ، مظهرةً لما فيها من الأجساد المدفونة ﴿وَ﴾ بعد ظهورهم منها، وبروز الأجداث والأجساد عليها ﴿حَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم بأجمعهم حفاةً عراةً إلى الموقف والموعد المعدّ للعرض

والجزاء ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ ولم نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:47] لا نسوقه إلى المحشر.

﴿وَ﴾ بعدما جمعوا واجتمعوا في المحشر جميعًا ﴿عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل عرضَ العسكر على السلطان الصوري ﴿صَفًّا﴾ صافين مصفَّفين على الاستواء؛ بحيث لا يحجب أحدٌ أحدًا، بل كل واحد في مرأى منه سبحانه بلا سترةٍ وحجابٍ، ثم يقال لهم من قِبل الحق على سبيل الاستيلاء والسطوة، وإظهار الهيبة والسلطنة القاهرة الغالبة: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ اليوم حفاةً عراةً ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كذلك؛ أي: في بدء وجودكم وظهوركم ﴿بَلْ﴾ كنتم ﴿زَعَمْتُمْ﴾ وظننتم فيما مضى من شدة بطركم وغفلتكم ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:48] أي: لن نقدر على إنجاز ما وعدناكم بألسنة رسلنا من البعث والحشر والعرض والجزاء، بل كذَّبتم الرسلَ وأنكرتم الوعدَ والموعودَ جميعًا، فالآن ظهر الحق الذي كنتم تمترون فيه.

﴿وَ﴾ بعدما عُرضوا صافين على الوجه المذكور ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ المشتمل على تفاصيل أعمالهم وجميع أحوالهم وأطوارهم، من بدء فطرتهم إلى انقراضهم من النشأة الأولى المعدَّة لكسب الزاد للنشأة الأخرى بين يدي الله على رءوس الملأ ﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ حينئذ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مرعوبين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي: في الكتاب قبل القراءة عليهم ﴿وَ﴾ بعدما قُرئ عليهم، وسمعوا جميعَ ما صدر عنهم كائنةً مكتوبةً فيه على التفصيل بلا فوت شيءٍ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ متحسرين متمنين الموت، مناجين في نفوسهم، منادين: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ وهلكتنا أدركينا فهذا وقت حلولك ونزولك ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ العجيب الشأن الجامعِ لجميع فضائحنا وقبائحنا؛ بحيث ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ ولا يترك فضيحة ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فصّلها وعدَّدها بلا فوتِ خصلةٍ منها.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر والذميمة والحميدة ﴿حَاضِرًا﴾ ثابتًا مكتوبًا بلا نقصانٍ منها ولا زيادةٍ عليها، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:49] من عباده لا بالزيادة ولا بالنقصان ولو قدر نقير.

ثم لما كان منشأ جميع الشرور والغرور، وأنواع الفتن والغفلات، وأصناف الشكوك والكفر والضلالات إبليسَ ـ عليه اللعنة ـ كرر سبحانه قصة استكباره واستنكاره مرارًا تذكيرًا للمتعظين وتنبيهًا على الغافلين المغرورين؛ ليكونوا على ذُكْرٍ منه ـ بضم

فسكون؛ أي: تذكُّرٍ وتفكرٍ - من غوائله وتسويلاته؛ ليتمكن لهم الحذرُ عن وساوس أعوانه وأنصاره التي هي جنود الأوهام والخيالات الباطلة والأماني الكاذبة الناشئة من صولة الأمّارة المستولية على القوى الروحانية.

فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ﴾ أي: اذكر لهم وقت قولنا للملائكة المعترضين لنا على اصطفائنا آدم للخلافة والنيابة بعد إفحامنا، وإلزامنا إياهم بما ألزمناهم ﴿اسْجُدُوا﴾ أي: تواضعوا وتذللوا على وجه الخضوع والانكسار ﴿لآدَمَ﴾ النائبِ المستخلف عنا بعدما ظهر عندكم، وعليكم فضلُه وشرفُه واستحقاقُه لأمر الخلافة ﴿فَسَجَدُوا﴾ بعدما سمعوا متذللين امتثالاً للأمر الوجوبي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ منهم أبى، ولم يسجد له معللاً بأنواع العلل والجدالات الباطلة الناشئة من خباثة فطرته على ما سمعت غير مرةٍ.

وإنما امتنع؛ لأنه ﴿كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾(1) في أصل خِلقته، فلحق بالملائكة لحكمةٍ

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى معانٍ وحكم أودعها الله فيه:
فمنها: ما يتعلق بالله ﷻ وهو أنه تعالى أراد أن يظهر به صفة لطفه وصفة قهره وكمال قدرته وحكمته، فأظهر لطفه بآدم أن خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأمر ملائكته الذين خلقوا من النور بسجوده، ومن كمال لطفه وجوده وأظهر صفة قهره بإبليس إذ أمره بسجود آدم بعد أن كان رئيس الملائكة ومقدمهم ومعلمهم وأشدهم اجتهادًا في العبادة حتى لم يبق في سبع سماوات ولا في سبع أرضين شبر إلا وقد سجد لله تعالى عليه سجدة حتى امتلأ العجب بنفسه حين لم ير أحدًا بمقامه فأبى أن يسجد لآدم استكبارًا، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:76] فلعنه الله وطرده إظهارًا للقهر وإظهار كمال قدرته وحكمته بأن بلغ من غاية القوة والحكمة ما خلقه من قبضة خراب ظلماني كثيف سفلي إلى مرتبة يسجد له جميع ملائكته المقربين الذين خلقوا من نور علوي لطيف روحاني.
ومنها: ما يتعلق بآدم ﷺ وهو أنه تعالى لما أراد أن يجعله خليفة في الأرض أودع في طينته عند تخميرها بيده أربعين صباحًا سر الخلافة وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وقد اختصه الله تعالى وذريته بهذه الكرامة لقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] من بين سائر المخلوقات كما أخبر النبي عن كشف قناع هذا السر بقوله: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»(1) ولهذا الكرامة صار مسجودًا للملائكة المقربين.
ومنها: ما يتعلق بالملائكة وهو أنهم لما خلقوا من النور الرحماني العلوي كان من طبعهم الانقياد لأوامر الله والطاعة والعبودية له فلما أمر بسجود آدم وامتحنوا به وذلك غاية الامتحان؛ لأن السجود أعلى مراتب العبودية له فلما أمروا بسجود آدم والتواضع لله فإذا امتحن به أحد أن يسجد لغير الله فذلك غاية الامتحان للامتثال، فلم يتلعثموا في ذلك وسجدوا لآدم بالطوع والرغبة من غير كره وإباءٍ امتثالاً وانقيادًا لأوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6].

ومصلحةٍ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ على مقتضى خِلقته الأصلية ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أيها المغرورون بتغريره، والمأملون إلى تلبيسه وتزويره بعدما صدرت عنه هذه العداوة الظاهرة ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ المختلطة معكم المرتكزة في نفوسكم، وقواكم اللاتي هي أعدى أعدائكم ﴿أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ بحيث تفوضون أموركم إليها؛ ليوالوها لكم ﴿وَهُمْ﴾ أصلهم وفرعهم ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ قديمٌ مستمرٌ ﴿بِئْسَ﴾ الشيطان وذريته، وولايتهما ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿بَدَلاً﴾ [الكهف:50] عنّا وعن ولايتنا إياهم.

وعن يحيى بن معاذ ﷺ: لا يكون من أولياء الله، ولا يبلغ مقام الولاية مَنْ نَظَرَ إلى شيءٍ دونه واعتمد على سواه، ولم يميز بين معاديه ومواليه، ولم يعلم حال إقباله من حال إدباره. انتهى.

فكيف تتخذون أيها الحمقى المسرفون إبليسَ وذريتَه أولياءَ من دوني مع أني ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ وأحضرتهم إبليسَ وجنودَه ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: وقت خلقهما وإيجادهما؛ ليُعاونوا ويظاهروا عليّ حتى تتخذونهم أولياء غيري، شركاءَ معي في استحقاق العبادة ﴿وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أيضًا؛ أي: لا أحضرُ بعضهم عند خلق بعضٍ منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: أنا أستقل بالخلق والإيجاد بل في الوجود أيضًا؛ لذلك ﴿مَا كُنتُ﴾ في خلق الأشياء وإيجادها محتاجًا إلى المعين والظهير أصلاً، فكيف ﴿مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ الضالين عن ساحة عزِّ الحضور ﴿عَضُدًا﴾[1] [الكهف:51] أعوانًا وأنصارًا

ومنها: ما يتعلق بإبليس وهو أنه لما خلق للضلالة والغواية والإضلال والإغواء خلق من النار وطبعها الإشعال والاستكبار وإن نظمه الله في سلك الملائكة منذ خلقه وكساه كسوة الملائكة وهو قد تشبه بأفعالهم تقليدًا لا تحقيقًا حتى عد من جملتهم، وذكر في زمرتهم، وزاد عليهم في الاجتهاد بالاعتبار لا بالاعتقاد فاتخذوه رئيسًا ومعلمًا؛ لما رأوا منه اشتداده في الاجتهاد بالإرادة دون الإرادة فلما امتحن بسجود آدم في جملة الملائكة هبت نكباء النكبة وانخلعت عنه كسوة أهل الرغبة والرهبة ليميز الله الخبيث من الطيب، فطاشت عنه تلك المخادعات وتلاشت منه تلك المبادرات وعاد المشئوم إلى طبعه وقد تبين الرشد من غيه، فسجد الملائكة وأبى إبليس واستكبر من غيه وظهر أنه كان من الجن وأنه طبع كافرًا.

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن الله تعالى لما أخبر أنه ما أشهد الشياطين خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ لأنهم الأعداء دليل على أن يشهد بعض أوليائه على شيء ما أشهد

أعتضِدُ وأنتصرُ بهم حتى تشاركونهم بي في استحقاق العبادة والإطاعة والانقياد، بل ترجّحونهم عليّ بالولاية والمحبة.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ الله سبحانه على سبيل التعيير والتقريع للكفار والمشركين: ﴿نَادُوا﴾ أيها المنهمكون في الغيّ والضلال ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم اليوم، وعبدتم لهم مثل عبادتي بل أحسن منها حتى ينقذوكم من عذابي، ويشفعوا لكم عندي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ صارخين مستغيثين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ولم يجيبوا استغاثتهم؛ لأنهم حينئذٍ مشغولون بحالهم، مأخوذون بوبالهم ونكالهم، لذلك لا يلتفتون إليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي: بين العابدين والمعبودين ﴿مَّوْبِقًا﴾ [الكهف:52] مهلكًا عظيمًا وواديًا غائرًا عميقًا من أودية جهنمَ مملوءة بالنار؛ بحيث لا يمكن تواصلهم أصلاً.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ بعدما عُرضوا أو حُوسبوا، وسِيقوا نحو جهنم؛ ليُعذبوا فيها كلٌّ على مقتضى ما كسبَ من المعاصي والآثام الموجبة للأخذ والانتقام ﴿فَظَنُّوا﴾ بل تيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها وملاصقوها ألبتة ﴿وَ﴾ كيف لا يجزمون بالدخول واللصوق أنهم ﴿لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:53] أي: منصرفًا ومعدِلاً سواها، ينصرفون إليه مع أن الموكلين من الملائكة يسوقونهم، ويدخلونهم فيها زجرًا وقهرًا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ

عليه أعداءه، وإن استبعد العقل إمكانه؛ لأن العقل لا يحكم بإشهاد شيء معدوم على إيجاده، ولكن الله تعالى إذا أراد إجراء هذا الأمر يتجلى بصفة عالميته لمن يشاء من عباده فيبصره بنور علمه المحيط بالأزل والأبد ابتداء تعلق قدرته بالأشياء المعدومة، وكيفية إخراجها من العدم إلى الوجود فيشهده خلق كل شيء حتى خلق نفسه ويخبره عن خاصية كل شيء وحكمة إيجادها ويعلمه أسماء الموجودات كقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] وعلى شهوده ونظره يخرج من العدم ما هو المقدر خروجه إلى الأبد وهذا مما لا يدرك نظره العلماء بالعقل؛ لأن الله تعالى أنعم على هذا الضعيف بكشف هذه الواقعة الشريفة في أثناء السلوك والسير إلى الله تعالى فيما رزقه من كشف حقائق الأشياء عليه وأراه ماهيتها له.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ
ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ
يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ ﴾ [الكهف: 54 – 61].

﴿وَ﴾ كيف يجدون مصرفًا سواها، ومن أين يتأتى لهم الانصراف اليوم؛ إذ هم فوّتوا على أنفسهم المصرفَ، وسبب الانصراف في النشأة الأولى مع أنا ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المرشد إلى الهداية، الصارفِ عن الضلالة والغواية ﴿لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شيءٍ مثلاً موضحًا ينبههم إلى الهدى، ويجنبهم عن الغفلة والهوى، فلم يتنبهوا ولم يتفطنوا بل قابلوا الباطلَ بالحق وجادلوا ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ﴾ المجبول على النسيان والكفران ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:54] أي: جداله ومكابرته أكثر من جدال سائر المخلوقات، وأن رشده وإيمانه أكثر أيضًا منها أيضًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ عن الإيمان وصَرَفهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ أي: يوقنوا ويصدّقوا ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: النبيّ الهادي المؤيدُ بالكتاب المعجز المرشد ﴿وَ﴾ صرفهم أيضًا أن ﴿يَسْتَغْفِرُوا﴾ ويتوبوا عن ظهر القلب عقيبَ كل معصيةٍ، نادمين عنها بلا إصرارٍ وإدمان؛ ليسقط عنهم الأخذ والانتقام ﴿رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وتحيطَ بهم ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من الإهلاك والاستئصال بغتةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ [الكهف: 55] أي: أنواعًا وأصنافًا منه، مترادفةً متواليةً كالكسف والخسف والمسخ وغير ذلك، فيهلكهم على سبيل التدريج.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بأنواع الفتوحات والفيوضات الروحانية، والكشوفات والشهودات اللدنية النورانية ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ عن أنواع العذاب والعقاب والنكبات، والبليات المورثة لأنواع الخذلان والخسران والطرد والحرمان والخلود في

النيران إصلاحًا لأحوال الأنام، وإرشادًا لهم إلى دار السلام، وحثًا لهم إلى سلوك طريق التوحيد المنجي عن ظلمات الشكوك والأوهام.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، ويخاصمون معهم متشبثين ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الزائغ الزائل ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ أو ينزعوا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾[1] ويزلقوا الثابت المستقر المطابق للواقع عن مقره ﴿وَ﴾ لذلك ﴿اتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ الدالة على عظمة ذاتي، ووفور حكمتي، وكمال قدرتي وقوتي ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ أي: ما اشتملت عليه من الإنذارات والتخويفات وأنواع الوعيدات ﴿هُزُوًا﴾ [الكهف:56] أي: موضع استهزاءٍ وسخريةٍ، ومحلَ هزلٍ وضحكةٍ؛ لذلك نسبوها إلى ما لا يليق بشأنه من السحر والشعر والأساطير الكاذبة، وغيرها من أنواع الهذيانات والأباطيل الزائغة افتراءً ومراءً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله وأسوأ أربابًا لنسبته إليه سبحانه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ليتعظ بها ويصلح بسببها ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وانصرف من سماعها، فكيف عن قبولها وامتثالها استنكارًا واستكبارًا ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ﴾ أي: كسبت واقترفت ﴿يَدَاهُ﴾ من الجرائم والآثام وأنواع الكفر والشرك والطغيان، ولو اتعظوا بها وعملوا بمقتضاها لذهبت سيئاتهم وتضاعفت حسناتهم، وكيف يتذكرون بها ولا يمكنهم التذكر ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وسُخطِنا عليهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: طبعنا وختمنا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ التي هي وعاء التذكر والقبول ﴿أَكِنَّةً﴾ حُجبًا غليظةً كثيفةً مانعةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: القرآن ويفهموا معانيه ومقاصده، فكيف بغوامض رُموزه وإشاراته ﴿وَ﴾ ختمنا أيضًا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صممًا يمنعهم عن الاستماع والإصغاء إليه، فكيف عن فهمه والعمل به.

﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم، وشدة قساوتهم وصممهم ﴿إِن تَدْعُهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ وترشدهم إلى الفلاح والفوز بالنجاح ﴿فَلَن يَهْتَدُوا﴾ ويفوزوا ﴿إِذًا﴾ أي: حين ختم قلوبهم ووقر صماخهم ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:57] في أي حالٍ من الأحوال؛ إذ لا يُعارض فعلنا ولا يُبدِّل قولنا إلا بأمرنا وتوفيقنا.

---

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى عناد أهل الكفر مع أهل الحق من الأنبياء والأولياء جهلاً منهم وضلالة بشأنهم يرون الحق باطلاً، والباطل حقًا وذلك من عمى قلوبهم وسخافة عقولهم أنهم يسعون في إبطال الحق وتحقيق الباطل، فإن أهل الحق هم المنقادون للأنبياء والأولياء المستسلمون لهم من غير عناد وجدال؛ وذلك لأنهم ينظرون بنور الله فيرون الحق حقًا ويتبعونه، ويرون الباطل باطلاً ويجتنبونه لا جرم أنهم يتخذون آيات الله من القرآن وغيره.

وتكذيبهم الرسل والكتب، وإصرارهم على الكفر والشرك، وإن كان يستدعي نزول العذاب عليهم فجأةً لاستخفافهم بنزوله إلا أنه يمهلهم ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ المبالغ في ستر ذنوب عباده وعيوبهم؛ لأنه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الواسعة والحكمة الكاملة لعلهم يتنبهوا بقبح صنيعهم، ويتأملوا في وخامة عواقبهم، فانصرفوا عما هم عليه نادمين؛ إذ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ على الفور، لكنْ أمهلهم بمقتضى رحمته وحكمته زمانًا لا دوامًا رجاء أن يتوبوا، ويرجعوا نحوه تائبين آيبين ﴿بَل لَّهُم﴾ أي: بل لهلاكهم ﴿مَّوْعِدٌ﴾ لا ينفع فيه التلافي والتوبة، وهو يوم الحشر والجزاء، وقيل: يوم بدر ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:58] منجيَ ومَخْلصًا بل يُعذبون ويُهلكون فيه حتمًا، بحيث لا يسع لهم التقدم والتأخر أصلاً.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ التي في مرآك أطلالهم، وآثار منازلهم ومزارعهم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: حين خرجوا عن مقتضى حدودنا وأوامرنا ونواهينا المنزلة في كتبنا لرسلنا وكذبوهم وأنكروا عليهم ﴿وَ﴾ من سنتنا القديمة أنَّا متى أردنا إهلاك قريةٍ من المستوجبين للمقت والهلاك ﴿جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: هلاكهم وإهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:59] وقتًا معينًا حين وصلوا إليها هلكوا حتمًا مقضيًا؛ إذ لا مردّ لقضائنا المبرم، ولا معقّب لحكمنا المحكم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل قصة موسى الكليم عليه السلام وإعجابه لنفسه حين خطب على المنبر بعد هلاك القبط، ودخوله ملك مصر خطبةً عجيبةً بليغةً إلى حيث رقّت القلوب وذرفت العيون، فقيل له: هل في الأرض أعلم منك؟

قال: لا.

فعتب عليه سبحانه لإعجابه، فقال سبحانه: «إن لنا في مجمع البحرين عبدًا هو أعلم منك».

فقال موسى عليه السلام: دلني عليه يا ربي؛ لأخدمه وأتعلم منه، وأستفيد من فتوحات أنفاسه الشريفة.

فقال له سبحانه: «خذ حوتًا مملوحًا يكون زادًا لك واطلبه، فحيث فقدت الحوت فهو ثمة»[1] فأخذ ومضى على الوجه المأمور.

(1) ذكره القرطبي في «تفسيره» (14/11).

اذكر وقت: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾[1] وهو يوشع بن نون، وكان خادمه ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أقعد ولا أستريح من السفر ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى بحر فارس والروم، وأجد عنده من دلني الله عليه ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ وأسير ﴿حُقُبًا﴾ [الكهف:60] زمانًا طويلاً ومدةً مديدةً إن لم أجده هناك حتى أجده وأستفيد منه، فرمى الحوت المشوي المملوح في مكتلٍ، وحمله يوشع فذهبا، وأوصى موسى لفتاه متى فقدت الحوت أخبرني.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين البحرين ﴿نَسِيَا﴾ عند المجمع ﴿حُوتَهُمَا﴾ يعني: نسي موسى التفقد والاستخبار من يوشع عنه، ونسي يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من أمر الحوت وحياته ووقوعه في الماء.

وذلك أنه عزم يوشع التوضؤ عند المجمع، وكان على شاطئ البحر صخرةً، فتمكن يوشع عليها ليتوضأ، فانتضح الماء على مكتله، فترشح على الحوت، فوثب من المكتل، ورمى نفسه في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:61] أي: صار الماء كالطاق يسري الحوت تحته بسهولةٍ، فتعجب يوشع من حياته ووثبته في الماء وسلوكه، فارتحلا متجاوزين من البحر تلك الليلة والغد إلى الظهر فنسي يوشع ذكرَ ما رأى لموسى.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ

(1) قال نجم الدين كبرى: اعلم أن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [الكهف:60] إشارات: منها: أن شرط المسافر أن يطلب الرفيق، ثم يأخذ الطريق، ومنها: أن من شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا، ومنها: أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبره عن مدة مكثه في سفره ليكون الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا يرافقه في ذلك، ومنها: أن من شرط الطالب الصادق أن تكون نيته في طلب شيخ يقتدي به وألا يبرح حتى يبلغ مقصوده ويظفر به، وإلا سيكون بقية عمره طالبًا له فإن طلب الشيخ طلب الحق تعالى على الحقيقة.

أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الكهف: 62 – 74].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ من الصخرة يومًا وليلةً عَييَا وجاعا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا﴾ أي: الذي سرنا بعدما جاوزا الصخرة ﴿نَصَبًا﴾ [الكهف:62] تعبًا وألمًا ما كنا قبل ذلك كذلك.

﴿قَالَ﴾ يوشع متذكرًا متعجبًا: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا سيدي وقت ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ ورقدتَ عندها تستريح، وأنا أهمّ إلى التوضؤ وأمكن عليها لأتوضأ، فانتضح الماء إلى المكتل، فوثب الحوت نحو البحر، فاتخذ سبيله سربًا ﴿فَإِنِّي﴾ بعد تيقظك من منامك ﴿نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ وقصته مع غرابتها وندرتها وكونها خارقةً للعادة ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي: أذكر عنده قصته العجيبة البديعة ﴿وَ﴾ كيف ﴿اتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ حين رمى نفسه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:63] أي: على وجهٍ يتعجب من جريه الرائي.

ولما سمع موسى من يوشع ما سمع من فَقْدِ الحوت على هذا الوجه سرّ وفرح ﴿قَالَ﴾ على وجه الفرح والسرور: ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر الذي وقع ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ونطلب من سفرنا هذا؛ إذ هو علامة وجدان المطلوب وأمارة حصول الإرب ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ على الفوز، فأخذا يقصان ﴿قَصَصًا﴾ [الكهف:64] لإزالة شدة السفر إلى أن وصلا الصخرة المعهودة ﴿فَوَجَدَا﴾ عندها ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية والعرفان؛ لأنه ﴿مِّنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِنَا﴾ وخيارهم، لأنا من وفور جودنا وإنعامنا عليه ﴿آتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه ﴿رَحْمَةً﴾ كشفًا وشهودًا تامًا موهوبًا له ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ تفضلاً بلا عملٍ له في مقابلتها يقتضي ذلك ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ بلا وسائل الكسب والتعلم والطب والاستفادة، بل بمجرد توفيقنا وفضلنا إياه امتنانًا له وإحسانًا عليه ﴿عِلْمًا﴾ [الكهف:65] متعلقًا بالغيوب؛ حيث أخبر بما وقع ويقع وسيقع.

فلما وصلا إليه وتشرّفا بشرف صحبته ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ على سبيل الاستفادة والاسترشاد وحسن الأدب ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أيها المؤيد الكامل المتحقق بمراتب اليقين بتمامها الواصلُ إلى بحر الوحدة الخائضُ في لججها ﴿عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وتفيدني ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من سرائر المغيبات سوابقها ولواحقها ﴿رُشْدًا﴾[1] [الكهف:66] بالتوراة؛ أي:

(1) قال في التأويلات: بإرشاد الله لك أي: تعلمني طريق الاسترشاد من الله تعالى بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل ومكالمة الحق تعالى، فإن جميع ذلك كان حاصلاً له، فإن قيل: فهل مرتبة فوق هذه المراتب الثلاثة؟
قلنا: إن هذه المراتب وإن كانت جليلة، ولكن مجيء جبريل يقتضي الواسطة، وإنزال الكتاب يدل على البعد والمكالمة تنبئ عن الاثنينية والرشد الحقيقي من الله للعبد هو أن يجعله قابلاً لفيضِ نور الله بلا واسطة وذلك بتجلي صفات جماله وجلاله الذي كان مطلوب موسى بقوله: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فإن فيه رفع الاثنينية، وإثبات الوجود الذي لا يسع العبد فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل.
ومنها: أن المريد إذا استسعد بخدمة شيخ واصل ينبغي أن يخرج عما معه من الحسب والنسب والجاه والمنصب والفضائل والعلوم ويرى نفسه كأنه أعجمي لا يعرف البحر من البر وينقاد لأوامره ونواهيه كما كان حال كليم الله لم تمنعه النبوة والرسالة ومجيء جبريل وإنزال التوراة، ومكالمة الله والاقتداء بني إسرائيل به أن يتبع الخضر ويتواضع معه ويترك أهاليه وأتباعه وأشياعه وكل ما كان له من المناصب والمناقب، وتمسك بذيل إرادته منقادًا لأوامره ونواهيه.
ومنها: أن يكون المريد ثابتًا في الإرادة بحيث لو يرده الشيخ كرات بعد مرات ولا يقبله امتحانًا له في صدق الإرادة ويلازم عتبة بابه، ويكون أقل من ذباب فإنه كلما ذب آب كما كان حال كليم الله فإنه كان الخضر يرده ويقول له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:67- 68] أي: كيف تصبر على فعل يخالفه مذهبك ظاهرًا ولم يطلعك الله على الحكمة في إتيانه باطنًا ومذهبك أنك تحكم بالظاهر على ما أنزل الله عليك من علم الكتاب ومذهبي أن أحكم بالباطن على ما أمرني الله من العالم اللدني.
وقد كوشفت حقائق الأشياء ودقائق الأمور في حكمة إجرائها، وذلك أنه تعالى أفناني عني بهويته وأبقاني به بألوهيته، فبه أبصر، وبه أسمع، وبه أنطق، وبه آخذ، وبه أعطي، وبه أفعل، وبه أعلم، فإني أعلم ما لم تعلم.
وأنه يقول: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:69-72].
ومنها: أن يكون صابرًا على مقاساة شدائد الصحبة والخدمة منقادًا لأوامر الشيخ ونواهيه، مستسلمًا لأحكامه، متأدبًا بتأديبه، قابلاً لتربيته، ملتجئًا إلى ولايته، مستظهرًا بعنايته، مهتديًا بهدايته.

أرشدتني إليها مقدار استعدادي وقدْر قابليتي.

قال: يا موسى كفى بالتوراة علمًا، وببني إسرائيل شغلاً.

قال موسى في جوابه: إن الله أمرني بالاستفادة والاسترشاد منك فلا تمنعني؟.

وبعدما ألحّ موسى ﴿قَالَ إِنَّكَ﴾ يا موسى بكمالك في العلوم الظاهرية المتعلقة بوضوح القواعد الدينية، ونصب المعالم الشرعية، وانتصاف الظالم من المظلوم،

ومنها: ألا يكون صابرًا على مقاساة شدائده، معترضًا على أفعاله وأقواله وأحواله وجميع حركاته وسكناته، معتقدًا له في جميع حالاته، وإن شاهد منه معاملة غير مرضية بنظر عقله وشرعه فلا ينكره بها ولا يسيء الظن فيه، بل يحسن فيه الظن ويعتقد أنه مصيب في معاملاته مجتهد في آرائه، وإنما الخطأ من تصور نظري وسخافة عقلي وقلة علمي.

ومنها: أن يسد على نفسه باب السؤال فلا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا إما بالقال وإما بالحال.

ومن آداب الشيخ وشرائطه في الشيخوخة: ألا يحرص على قبول المريد، بل يمتحنه بأن يخبره عن دقة صراط القلب وحدته، وعزة المطلوب وغيرته، وفي ذلك يكون له مبشرًا ولا يكون منفرًا، فإن وجده صادقًا في دعواه راغبًا فيما يهواه عما سواه يقبله بقبول حسن ويكرم مثواه، ويقبل عليه إقبال مولاه، ويربيه تربية الأولاد، ويؤدبه بآداب العباد.

ومنها: أنه يتغافل عن كثير من زلات المريد رحمة الله عليه، ولا يؤاخذه بكل سهو أو خطأ أو نسيان أو عمد بضعف حاله إلا بما يؤدي إلى مخالفة أمر من أوامره أو مزاولة نهي من نواهيه، أو يؤدي إلى إنكار واعتراض على بعض أفعال له وأقوال، فإنه يؤاخذه به وينهاه عن ذلك، فإن رجع عن ذلك فاستغفر منه واعترف بذنبه وندم عليه وشرط معه ألا يعود إلى مثاله ويعتذر مما جرى عليه كما كان الكليم حين قال: ﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: 73-76] أي: لا تضيق علي أمري فإني لا أطيق ذلك.

ومنها: أنه لو ابتلي المريد بنوع من الاعتراض أو مما يوجب الفرقة يعفو عنه مرة أو مرتين، ويصفح ولا يفارقه، فإن عاد إلى الثالثة فلا يصاحبه ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:76، 77] فقل كما قال الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ [الكهف:78].

ومنها: أنه لو آل أمر الصحبة إلى المفارقة بالاختيار وبالاضطرار فلا يفارقه إلا على النصيحة؛ فينبئه عن سر ما كان عليه الاعتراض، ويخبره عن حكمته التي لم يحط بها خبرًا، ويبين له تأويل ما لم يستطع عليه صبرا؛ لئلا يبقى معه إنكار فلا يفلح إذا أبدًا.

وانتقامه لأجله إلى غير ذلك من الأمور السياسية ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتقدر ﴿مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:67] بل لا بدَّ لك متى اطلعت على ما يخالف الشريعة والوضع المخصوص الذي جئت به من عند ربك، ونزلتْ التوراةُ على مقتضاه، فعليك أن تمنعه أو تعترض عليه على مقتضى نبوتك ورسالتك على سبيل الوجوب، والذي أنا عليه من العلوم المتعلقة بالسرائر والغيوب قد يخالف أصلك وقواعدك فلن تستطيع حينئذٍ معي صبرًا.

ثم اعتذر وقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ يا موسى ﴿عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68] أي: علمًا وخبرةً واطلاعًا على سرّه ومآله ﴿قَالَ﴾ موسى ملحًا عليه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بصبري ﴿صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:69] أي: ما أخالفك فيما تفعل وما تريد على جميع ما جئتَ به من المغيبات الخارقة للعادات التي لم أفز بسرائرها، وهي مخالفةُ لظواهر الشرائع والأحكام.

وبعدما اضطره موسى إلى القبول ﴿قَالَ﴾ له الخضر على سبيل التوصية والتوطئة: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ بعدما بالغت ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ أي: فعليك ألَّا تفاتحني بالسؤال ﴿عَن شَيْءٍ﴾ أنكرتَه مني، ووجدتَه مخالفًا لظاهر الشرع ﴿حَتَّى أُحْدِثَ﴾ وأبيّن ﴿لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:70] بيانًا واضحًا كاشفًا عن إشكالك ودغدغتك بلا سبق سؤالٍ منك.

ثم لما تعاهدوا على هذا ﴿فَانطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر لطلب السفينة، فمرا على سفينة فاستحملا من أهلها، فحملوهما بلا نولٍ، فقربوهما إلى الساحل ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ على شاطئ البحر فَجرت، فلما بلغت اللجة ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: أخذ الخضر فأسًا فقلع منها لوحًا أو لوحين، فلما رأى موسى منه ما رأى أخذ يسد الخرق بثيابه ﴿قَالَ﴾ له موسى حينئذ على سبيل نهي المنكر: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ﴾ بخرقها ﴿أَهْلَهَا﴾ إذ من خرقها يدخل الماء فيها، فيغرقها ويغرق أهلها، والله ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ بفعلك هذا ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:71] أي: منكرًا عظيمًا هو قصدُ إهلاكك جماعةً بلا موجبٍ شرعي.

﴿قَالَ﴾ له الخضر على سبيل التذكير والتشنيع: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لك يا موسى من أول الأمر ﴿إِنَّكَ﴾ باعتيادك بظواهر العلوم ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:72].

﴿قَالَ﴾ موسى معتذرًا متذكرًا لعهده: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بنسياني وغفلتي عن وصيتك وعهدي معك ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي: لا تغشني ولا تحجبني ﴿مِنْ

أَمْرِي﴾ الذي بعثني على متابعتك، وهو الاطلاع على سرائر الأمور ومغيباتها ﴿عُسْرًا﴾ [الكهف:73] أي: لا تحجبني عن مطلوبي بالمؤاخذة على النسيان عسرًا يلجئني إلى ترك متابعتك، فيفوت غرضي ومطلوبي منك.

وبعدما ألح واقترح معتذرًا قَبِل الخضر بالضرورة عذره، ثم لما نزلا من السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ صبيحًا صبيًا لم يبلغ الحلم يلعب مع الصبيان ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر فجأة على الفور بلا صدور ذنبٍ منه وجريمةٍ؛ بأن أخذ رأسه وضرب إلى الجدار إلى أن مات، فاشتدَّ الأمر على موسى وامتلأ من الغيظ ولم يقدر كظمه، ﴿قَالَ﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ معصومة بريئة من جميع الآثام ﴿بِغَيْرِ﴾ إهلاك ﴿نَفْسٍ﴾ صدر منه قصدًا؛ ليكون قتله قصاصًا عنه شرعًا، مع أنه لا ولاية لك حينئذٍ على قتله وإن صدرَ عنه القتل عمدًا، والله ﴿لَّقَدْ جِئْتَ﴾ بإتيانك هذا ﴿شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:74] في غاية النكارة؛ إذ قتل النفس من أعظم الكبائر سيما النفس المعصومة المنزهة عن جميع المعاصي، سيمّا بلا جرمٍ أصلاً.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف: 75 – 83].

وبعدما سمع الخضر منه إنكاره ﴿قَالَ﴾ له على سبيل التشدد والغلظة: ﴿أَلَمْ أَقُل

لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتطيق ﴿مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:75] إذ لا مناسبة بين وبينك، ولا موافقة لعلمي مع علمك، فخلني على حالي ولا تشوشني، وانصرف عني وامضِ حيث شئت، فقد بلغت الطاقة.

ثم لما رأى منه موسى ما رأى من الغيظ والحرارة: ﴿قَالَ﴾ معتذرًا مستحيًا: لا تحرمني عن صحبتك مما صدر عني من نقض العهد وسوء الأدب، ولا تردعني يا سيدي ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ ولا تجعلني رفيقك وصاحبك؛ لأنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾ ومن قِبلي وأجلي ﴿عُذْرًا﴾ [الكهف:76] فلا أعتذر لك بعد هذا، بل أفارقك إن وقع مني ما يشوشوك.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى اسْتَحَى فَقَالَ ذَلِكَ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ أَعْجَبَ الأَعَاجِيبِ»[1].

﴿فَانطَلَقَا﴾ بعدما تقاولا في أمر العلوم ما تقاولا ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكية أو أيلة ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ من شدة جوعهما واحتياجهما إلى الطعام ﴿فَأَبَوْا﴾ وامتنعوا ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يميلوهما إلى نيل الطعام ونوله ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ﴾ أي: يميل ويشرف ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط وينهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر وعدَّله وسواه بالعمود وأسقطه وأحكم بنيانه جديدًا.

ثم لما رأى موسى منه أمرًا مستغربًا مستبعدًا، وهو أنهما على جناح السفر، ولم يكن لهما شغلٌ وغرضٌ متعلقٌ بتعمير الجدار وإقامته ﴿قَالَ﴾ على سبيل التعريض بأنه فضول: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:77] وأخذت جعلاً واكتسبت التقوت والزاد بعدما أبوا عن الضيافة.

ثم لما سمع الخضر من موسى ما سمع: ﴿قَالَ هَذَا﴾ أي: سؤالك وتعريضك هذا ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: يوجب مفارقتي عنك، لكن لا أفارقك في الحال بل ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا﴾ أي: بتأويل الأمور التي أنكرتَ عليها، واعترضتَ مفتتحًا إياها مستعجلاً بحيث ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:78] حتى أحدّثك وأبينك سرائرها مع أني أوصيتك أولاً ببيانها.

ثم فصلها فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها بإلهام الله إياي، وإلقائه على قلبي

(1) ذكره الشيخ حقي في «تفسيره» (418/7).

﴿فَكَانَتْ﴾ هي ﴿لِمَسَاكِينَ﴾[1] ضعفاءَ لا مكسبَ لهم سواها ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ بها ويعيشون من نولها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ ظالمٌ سيئ عليهم، وهو ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحةٍ غير معيبةٍ ﴿غَصْبًا﴾ [الكهف:79] ظلمًا وزورًا بلا فديةٍ، فجعلتها ذاتَ عيبٍ حتى تبقى لهم، وذلك بإذنٍ من الله عنايةً منه سبحانه لضعفاء عباده ورعاية لحالهم ومصلحتهم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته على الفور، فهو غلامٌ قد جبله الله على الكفر والعصيان وأنواع الشرك والطغيان ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ موحدين مسلمين ﴿فَخَشِينَا﴾ عليهما من سوء فعاله وقبح حاله ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ ويغشيهما ويغطيهما ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:80] من غاية حبهما له وتحننهما إياه ﴿فَأَرَدْنَا﴾ وأحببنا بقتله وهلاكه ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ أي: يرزقهما ويهب لهما ﴿رَبُّهُمَا﴾ الذي ربّاهما بنعمة التوحيد والإيمان وكرامة العصمة والعفاف ولدًا ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أي: طهارةً مطهرةً عن خبائث الكفر والآثام، متصفةً بجبلة الإيمان والإسلام ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:81] مرحمة وعطفًا وبرًا على الوالدين ولطفًا.

قيل: وُلِدَت له جاريةٌ بدل الغلام، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت نبيًا هدى الله به أمةً من الأمم.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أردتُ إقامته، وقصدتُ تعميره بإلهام الله ووحيه ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ولم يبلغا الحلم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مدفونٌ مخزونٌ من ذهبٍ وفضةٍ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ رجلاً ﴿صَالِحًا﴾ موحدًا مسلمًا، متوجهًا نحو الحق دائمًا ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يا موسى من كمال لطفه وعطفه لليتيمين ورعايةً للأب الصالح ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ويدخلا رشدهما ويخرجا عن اليتم؛ إذ لا يُتم بعد البلوغ، ويصيرا ذوي رأيٍ رزين وفكرٍ بيّنٍ ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ وإنما أمرني الله سبحانه بإقامة الجدار وإحكام المخزن ﴿رَحْمَةً﴾ وعطفًا ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا موسى شاملةً إياهما تتميمًا لتربيتهما وتقويتهما.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا فَعَلْتُهُ﴾ وأنكرتَ عليه واعترضت وتعرضتَ عليه ليس صادرًا

(1) (لمساكين) أي: ضُعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وأَمِتْنِي مِسْكِينًا، واحْشُرْنِي في زُمرةِ المَسَاكِينِ» فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشرني مخبتًا متواضعًا، غير جبار ولا متكبر.

﴿عَنْ أَمْرِي﴾ ورأي ناشئًا عن تدبر عقلي وفكري، بل مما ألهمني الله به وهداني عليه وأمرني بفعله، فأنا مأمورٌ والمأمور معذورٌ ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور على التفصيل ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ ولم تُطِقْ ﴿عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1] [الكهف:82] حتى ظهر لك سره.

---

(1) قال في التأويلات: وفي هذه الآية إشارة إلى حقائق ومعانٍ:

منها: أن إخراق السفينة وإعابتها لئلا تؤخذ غصبًا ليس من أحكام الشرع ظاهرة ولكنه لما كان فيه مصلحة لصاحبها في باطن الأمر جوز ذلك ليعلم أنه يجوز للمجتهد أن يحكم فيما يرى أنه صلاحه أكثر من فساده في باطن الأمر بما لا يجوز في ظاهر الشرع إذا كان موافقًا الحقيقة كما قال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:79].

ومنها: لكي يعلم عنايته بنبي من أنبيائه وعناية الله في حق عباده المساكين بأنهم يعملون في البحر غافلين عما وراءهم من الآفات، فكيف أن أدركتهم العناية ونبي من أنبيائه كيف دفع عنهم البلاء ودرأ عنهم الآفة.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى في بعض الأوقات يرجح مصلحة بعض المساكين على مصلحة نبي من أنبيائه في الظاهر، وإن كان لا يخلو في باطن الأمر من مصلحة النبي في إهمال جانبه في الظاهر، كما أنه تعالى رجح رعاية مصلحة المساكين في خرق السفينة على رعاية مصلحة موسى ﷺ؛ لأنه كان من أسباب مفارقته عن صحبة الخضر ومصلحته ظاهرًا كانت في ملازمة صحبة الخضر، وقد كان فراقه عن صحبته متضمنًا عطاء النبوة والرسالة ودعوة بني إسرائيل وتربيتهم في حق موسى ﷺ باطنًا.

ومنها: أن قتل النفس الزكية بلا جرم منها محظور في ظاهر الشرع، وإن كان فيه مصلحة لغيره، ولكنه في باطن الشرع جائز عند من يكاشف بخواتيم الأمور ويتحقق له أن حياته سبب فساد دين غيره، وسبب كمال شقاوة نفسه كما كان حال الخضر مع قتل الغلام بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:80] فلو عاش الغلام لكانت حياته سبب فساد دين أبويه وسبب كمال شقاوته، فإنه وإن طبع كافرًا شقيًا لم يكن يبلغ كمال شقاوته إلا بطول الحياة ومباشرة أعمال الكفر.

ومنها: تحقيق قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216] فإن أبوي الغلام كانا يكرهان قتل ابنهما بغير قتل نفس ولا جرم، وكان قتله خيرًا لهما وإن كانا يحبان حياة ابنهما وهو أجهل الناس وكانت حياته شرًا لهما، وكان الغلام أيضًا يكره قتل نفسه وهو خير له ويحب حياة نفسه وهو شر له؛ لأنه أراد طول الحياة أن يبلغ إلى كمال شقاوته.

ومنها: أن من عواطف إحسان الله تعالى أنه إذا أخذ من العبد المؤمن شيئًا من محبوباته، وهو مضر له والعبد غافل عن مضرته، فإن حب وشكر فالله يبدله خيرًا منه مما ينفعه ولا يضره كما قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:81].

ومنها: أنه من كمال حكمته وغاية رأفته ورحمته في حق عباده أن يستعمل نبيين مثل موسى

ومما جرى بينهما . صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما . يتفطن العارف اللبيب والطالب الأريب الأديب أن شرطَ الاستفادة والاسترشاد، ومناطَ الاستكمال وطلب الرشاد، هو أن يميت المريد المسترشد نفسَه عند المرشد الكامل المكمّل بالموت الإرادي؛ بحيث لا يتصدى إلى معارضه ومقابلته، وإن جزم أنّ فعلَ المرشد خارجُ عن مقتضى العقل والشرع على زعمه، بل حمل فعله على المحمل الأصوب، وسكتَ عن الجدال والمقابلة؛ إذ بعدما فوض أمره كله إلى مرشده واتخذه وكيلاً وأخذه ضمينًا وكفيلاً، فقد فنيَ فيه وبقي ببقائه، فلم يبقَ له التصرف أصلاً بمقتضيات قواه وجوارحِه ومداركِه ومشاعرِه.

هب لنا ربنا من لدنك رحمةً تنجينا عن تسويلات نفوسنا.

وخضر . عليهما السلام . في مصلحة الطفلين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف:82].

ومنها: أن مثل الأنبياء يجوز أن يسعى في أمر دنياوي إذا كان فيه صلاح أمر أخروي، لاسيما فائدته راجعة إلى غيره في الله.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى يحفظ مصالح قوم وقبيلة ويوصل بركاته إلى البطن السامع فيه كما قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:82].

ومنها: ليتأدب المريد فيما استعمله الشيخ وينقاد له، ولا يعمل إلا لوجه الله، ولا يشوب عمله بطبع دنياوي وغرض نفساني ليحبط عمله ويقطع حبل الصحبة ويوجب الفرقة.

ومنها: أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد إذا كان له فيه صلاح كما قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:82].

ومنها: ليتحقق أن كل ما يجري على أرباب النبوة وأصحاب الولاية إنما يكون بأمر من أوامر الله ظاهرًا أو باطنًا.

أما الظاهر: فكحال الخضر قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف:82] أي: فعلته بأمر ربي، وأما الباطن: فكحال موسى واعتراضه على الخضر في معاملاته ما كان خاليًا عن أمر باطن من الله تعالى في ذلك؛ لأنه كان اعتراضه على وفق شريعته.

ومنها: أن الصبر على أفاعيل المشايخ أمر شديد، فإن زل قدم مريد صادق في أمر من أوامر الشيخ أو يتطرق إليه إنكار على بعض أفعال الشيخ أو يعتريه اعتراض على بعض معاملاته أو يعوزه الصبر على ذلك، فليعذره الشيخ ويعفو عنه ويتجاوز إلى ثلاث مرات فإن قال بعد الثالثة: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78] يكون معذورًا ومشكورًا، ثم ينبه عن أسرار أفاعيله ويقول له تأويل: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:78].

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: اليهود المردودون والنصارى المنجوسون المطرودون سؤال اقتراحٍ وامتحانٍ مثل سؤال أصحاب الكهف والروح ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وأطواره وكيفية سيره وطوافه حول العالم ﴿قُلْ سَأَتْلُو﴾ وأقرأ وأذكر ﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ أي: من ذي القرنين وقصته ﴿ذِكْرًا﴾ [الكهف:83] قد أخبرني به سبحانه بالوحي في كتابه المعجز، وهو الإسكندر الأكبر الرومي ابن الفيلقوس الرومي، سُمِّي بذي القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا؛ أي: المشرق والمغرب، اختُلف في ولايته ونبوته.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف: 84 – 97].

أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وفضلنا ﴿مَكَّنَّا لَهُ﴾ وقدرناه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تمكنًا تامًا وقدرة كاملة ﴿وَ﴾ ذلك ﴿آتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه تأييدًا له وتعضيدًا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1] [الكهف:84] موصلاً إلى مبتغاه وما أمله؛ يعني: وفقنا وهيأنا

(1) قال البقلي: أخبر سبحانه عن ذي القرنين ﷺ أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان مجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ -

أسبابه للوصول إلى كل مطلوبٍ قَصَدَه وأراد الوصول ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:85] حتى ارتكب أمر الوثوقة واتكاله علينا، وبإنجاحنا إياه إلى مبتغاه.

ثم لما أراد أن يسير نحو المغرب، فاتبع سببه وسار ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: موضعًا تغيب الشمس فيه؛ يعني: لم يبلغه حقيقةً، وإنما بلغ قومًا ليس وراءهم؛ أي: نهاية حد العمارة من جانب المغرب على ساحل المحيط ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ﴾ وتغيب ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حمأة وهي الطين والماء، وقرئ: «حمية» أي: حارة. ويجوز أن يكون عينًا ذات حماءةٍ وحرارةٍ؛ يعني: غروبها في رأي العين على عينٍ صفتها هذه، وإلا فلا تسع الشمس في جميع كرة الأرض، فكيف بجزءٍ منها؛ إذ نسبة كرة الأرض إلى عظم جرم الشمس عند أهل الرصد كنسبةِ جزءٍ من مائةٍ وست وستين جزءًا.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي: عند العين الموصوفة ﴿قَوْمًا﴾ كفارًا نافين للصانع الحكيم، لباسُهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظ البحر بالموج من أنواع الحيوانات الميتة، فلما وصل ذو القرنين إليهم ووجدهم كفارًا، خبرناه في أمرهم عنايةً منا بأن ﴿قُلْنَا﴾ له وألهمنا عليه مناديًا: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ لك الخيار في شأن هؤلاء الكفار ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: تهلكهم وتستأصلهم بكفرهم؛ بحيث لا يبقى منهم أحد ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ﴾ وتصنع ﴿فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:86] شرعًا ودينًا كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خُيِّر ذو القرنين في أمرهم، وفُوِّض أمرُهم إليه: ﴿قَالَ﴾ على مقتضى العدل والإنصاف الذي جبله الحق عليه: ادعوهم أولاً إلى الإيمان، وألقِ عليهم كلمة التوحيد والعرفان: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ واستعلى وأبى وأصرّ على ما عليه من الكفر منه

من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له ، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

والهوى ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: نقتله حدًا بعد عرض الإسلام، ولم يقبل في دار الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ في يوم الجزاء ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف:87] شديدًا مجهولاً لا يعرفه أهل الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿وَعَمِلَ﴾ على مقتضى الإيمان عملاً ﴿صَالِحًا﴾ فنصلح حالهم، ونراعيه في الدنيا ﴿فَلَهُ﴾ في يوم الجزاء عند واهب العطايا ﴿جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ والمثوبة العظمى والدرجة العليا والجزاء الأوفى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا بالتخيير في أمر أولئك الهالكين في تيه الغواية ﴿يُسْرًا﴾ [الكهف:88] سهلاً معتدلاً بين إفراط القتل والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنةً.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وضع بين أهل المغرب الشرعَ بالأمر الإلهي ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89] آخر يوصله إلى المشرق، وسار ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ وموضع شروقه وإضاءته على العالم ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ وتضيء أولاً ﴿عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:90] يعني: لم نجعل لهم حائلاً كثيفًا وحجابًا غليظًا؛ ليكون سترًا لهم من حرّ الشمس وقت طلوعها لا من الجبل ولا من الحجر والشجرة وغيرها، بل كلهم عزلٌ عراةٌ لا لباس لهم أصلاً، وهم يحفرون الأرض، ويتخذون سراديب وأخاديد بدل الأبنية؛ لأن أرضهم لا تمسك البناء ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: هم أيضًا كفارٌ مثل أهل المغرب، وهم أشدُّ الناس في الحروب والمعارك وأجرئهم على القتال والاقتحام في الوغاء، ولهم آلاتٌ وأسلحة عجيبةٌ وعُدَدٌ بديعة لا كمثل سائر آلات الناس وعُدَدهم، وهم أكثرهم أيضًا عددًا.

﴿وَ﴾ مع كثرة عددهم ومكرهم وخداعهم ﴿قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91] يعني: أعلمنا إسكندرَ ومن عنده من الجند والخدمة علمًا بحال أعدائهم، فقاتلوا معهم وغلبوا عليهم، فوضع عليهم أيضًا شعائر الإسلام مثل ما وضع لأهل المغرب ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:92] ثالثًا، وسار على العرض بين المشرق والمغرب.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي: بين الجبلين اللذين سدَّ بينهما إسكندر بسدٍ منيع، وهما جبلا أرمينية وأذربيجان، وقيل: جبلان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: عندهما ﴿قَوْمًا﴾ أعجميًا ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿قَوْلًا﴾ [الكهف:93] لغةً من اللغات المتداولة.

﴿قَالُوا﴾ بلسان الواسطة والترجمان: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ نحن أناس ضعفاء مظلومون نحتاج إلى إعانتك وإغاثتك؛ لتنقذنا من يد الظلمة ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ عَلَمَان للقبيلتين من الترك هما ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرضنا هذه بأنواع الفسادات.

قيل: كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر رطبًا إلا أكلوه، ولا يابسًا إلا حملوه، وقيل: كانوا يأكلون الناس أيضًا.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعلاً نوزع بيننا فيبلغ مبلغًا وافيًا ﴿عَلَى أَن تَجْعَلَ﴾ بسطوتك وسلطنتك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:94] منيعًا لا يمكنهم الخروج علينا فنأمن شرهم بجاهك.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما جعلني وخصني ربي بفضله وجوده مكينًا من المال والملك خير مما تجمعون بتوزيعكم وتخريجكم، ولا حاجة إلى أموالكم بل إلى إعانتكم وسعيكم أجراء ﴿فَأَعِينُونِي﴾ في وضع هذا السد ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: عملةٍ وصنَّاع يأخذون مني أجرتهم ويعملون ﴿أَجْعَلْ﴾ بفضل الله وسعة جوده إن تعلق به مشيئته ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:95] حاجزًا حصينًا منيعًا وثيقًا؛ بحيث لا يقبل التخريب إلى انقراض الدنيا.

﴿آتُونِي﴾ وأحضروا عندي أولاً ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قِطعها الكبيرة، فَأتوا بها فأمرهم بحفر الأرض إلى أن وصل الماء، فوضع الأساس من الصخر النحاس المذاب حتى وصل وجه الأرض، ثم أمرهم بتنضيد قطع الحديد بأن وضعوا بين كلا قطعتي الحديد فحمًا وحطبًا، وأمرهم بارتفاعهم هكذا ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: بين جانبي الجبلين حتى امتلأ بين الجبلين، وصار ما بينهما مساويًا للطرفين في الرفعة، ثم أمرهم بوضع المنافخ العظام من كلا طرفي السد.

ثم ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿انفُخُوا﴾ فنفخوا ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: جعل المنفوخ فيه مثل النار في اللون والحرارة، فاحترق الحطب والفحم، واتصل بالزُّبَر المحماة وبقيت فُرَجٌ صغارٌ إلى حيث لم تصل إلى الملاسة والاستواء ﴿قَالَ آتُونِي﴾ نحاسًا مذابًا ﴿أُفْرِغْ﴾ وأصب ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:96] حتى يصير ملساة مسوى لا فُرجَ لها، ولا يرى أوصالها أصلاً فصَبّ فاستوى فصار أملس كأنه لا فُرجَ فيه أصلاً.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ أي: ما قدر يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ويصعدوا عليه

ويعلوا لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:97] لعمقه وغلظة كنه.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: 98 – 110].

فلما تم السد واستوى ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين مسترجعًا إلى الله شاكرًا لأنعمه: ﴿هَذَا﴾ أي: إتمام هذا السد على الوجه الأسدّ الأحكم ﴿رَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ عليّ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ اذ لولا توفيقه وتمكينه لما صدر عني بقوتي أمثال هذا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقرُب قيام الساعة، وظهر أماراتها وأشراطها.

ومن جملة أماراتها: خروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ سبحانه هذا السد السديد الرفيع ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: مدكوكًا مسوى مفتتًا أجزاؤه؛ بحيث لم يبقَ له ارتفاع أصلاً، وهم حينئذ يخرجون على الناس ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بقيام الساعة واستواء الأرض، وكونها دكًا بحيث لا عِوجَ لها ولا أمتًا ﴿حَقًّا﴾ [الكهف:98] ثابتًا محققًا لا شبهة فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: وبعدما جعلنا الأرض مبسوطة مدكوكة بمقتضى قهرنا وجلالنا، وجعلنا السد السديد الرفيع المنيع مسوى، أخرجنا يأجوج ومأجوج بإقدارنا إياهم بالخروج، وتركنا بعض الناس يموج ويزدحم ويدخل من صولتهم واستيلائهم بعضًا مضطربين مضطرين، ﴿وَ﴾ هم في ذلك الاضطراب والتشتت من استيلاء أولئك الظلمة القهارين القتّالين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾

للحشر إلى المحشر وقامت الطامة الكبرى ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ حينئذ؛ أي: جميع الخلائق للعرض والحساب ﴿جَمْعًا﴾ [الكهف:99] مجتمعين في المحشر.

﴿وَ﴾ بعد جمعنا إياهم ﴿عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم الحشر ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ المعرضينَ المكذبينَ للرسل والكتب، المنكرينَ ليوم العرض والجزاء ﴿عَرْضًا﴾ [الكهف:100] على سبيل الإلزام والتبكيت للقوم ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في النشأة الأولى ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ وغشاوةٍ كثيفةٍ ﴿عَن ذِكْرِي﴾ أي: عن آياتي الدالة على ذكري المؤدي إلى التفكر والتدبر في آلائي ونعمائي، المؤدي إلى ملاحظة ذاتي المنتهية إلى المكاشفة والمشاهدة للمؤمنين المؤيدين من عندي، المنجذبين نحو توحيدي ﴿وَكَانُوا﴾ أيضًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿سَمْعًا﴾ [الكهف:101] أي: إصغاءً والتفاتًا؛ أي: استماع كلمة الحق لتعطيلهم من خبث فطرتهم وطينتهم نعمةَ الحق الموهوبة لهم لاستماع كلمة الحق وإصغاء دلائل التوحيد عن مقتضاها.

ثم قال سبحانه على سبيل التقريع والتوبيخ للكفرة المشركين المتخذين آلهة سوى الله من مصنوعاته ومخلوقاته: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ وظن القوم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا بسبب ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي﴾ مثل عزير وعيسى وجميع الأوثان والأصنام ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ آلهة يعبدونهم كعبادتي أنا لا نأخذهم ولا ننتقم منهم في يوم الجزاء؟! كلا وحاشا.

وكيف لا نأخذهم ﴿إِنَّا﴾ من كمال قهرنا وغضبنا على من أشرك بنا غيرنَا، وأثبت إلهًا سوانا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان الممتلئة بنيران الحرمان ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المعرضين عن مقتضيات آياتنا وكتبنا ورسلنا ﴿نُزُلًا﴾ [الكهف:102] أي: منزلاً معدًا ينزلون فيها يوم الجزاء نزول المؤمنين في جنة الوصال ومقر الآمال.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين المتخذين أربابًا من دون الله من مصنوعاته، يعبدونهم مثل عبادته، وينكرون توحيده، ويكذبون كتبه ورسله المبينة لأحوال النشأتين ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ونرشدكم أيها المنهمكون في الخسران والطغيان ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:103] أي: العاملين الذين خسروا من جهة أعمالهم مع أنهم زعموا الربح فيها.

وهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ﴾ أي: بطل وضاع ﴿سَعْيُهُمْ﴾ الذين سعوا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بإتيان الأعمال الصالحة والإنفاق، وبناء بقاع الخير وغير ذلك، كالرهابنة والقسيسين،

وكذا عموم أهل العجب والرياء من أي أمةٍ كانت ﴿وَهُمْ﴾ في النشأة الأولى ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:104] ينفعهم عند الله، ويتوقعون المثوبة العظمى والدرجة العليا لأجلها، مع أنهم خاسرون خسرانًا مبينًا؛ لفقدهم ما هو مبني الأعمال ومناط العبادات، وهو الإيمان بتوحيد الله والتصديقُ بكتبه ورسله.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء الأشقياء المجبولون على الكفر والشقاق هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده وتصديق رسله وكتبه ﴿وَلِقَائِهِ﴾ الموعود لعباده عند إنجلاء جميعهم وارتفاع أستارهم ﴿فَحَبِطَتْ﴾ أي: ضاعت واضمحلت وضلت في النشأة الأخرى ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي جاءوا بها في النشأة الأولى، ولطلب النفع والربح ﴿فَلاَ نُقِيمُ﴾ ونضيع ﴿لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لجزاء الأعمال وتنقيدها ﴿وَزْنًا﴾ [الكهف:105] مقدارًا يُنتفع ويُعتد بها؛ لانحباطها وسقوطها عن درجة الاعتبار لدى الملك الجبار[1].

بل: ﴿ذَلِكَ﴾ العمل المترتب على الكفر والشرك ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ ونفعهم العائد لهم لأجل أعمالهم في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والحرمان، وسعيرُ الطرد والخسران ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا﴾ أي: بكفرهم واتخاذهم ﴿آيَاتِي وَرُسُلِي﴾ المؤيدين بآياتي، المبعوثين على تبيين دلائل توحيدي بين عبادي ﴿هُزُوًا﴾ [الكهف:106] محل استهزاء يستهزئون وينكرون عليها عتوًا وعنادًا.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا بتوحيد الذات والصفات والأفعال ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة إلى التوحيد الذاتي، الملائمة المناسبة لشعائره ومناسكه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ وهو وسط الجنة المشرف على أطرافها المرتفع منها.

(1) في قوله: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: (والوزن يومئذ الحق) لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين؛ وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمهما الكفار.

لذلك قال ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسأَلُوا الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ»[1].

وهو بستان الغيب ومهبط الفتوحات الغيبية، وأيضًا هو أعلى مراتب التوحيد، وعند ذلك انتهى السير والسلوك، وبعد ذلك السلوك فيه لا إليه وبه ﴿نُزُلاً﴾ [الكهف: 107] أي: منزلاً ينزلون إليه ويتمكنون.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ولصفائها ونضارتها، ودوام لَذَّاتها الروحانية وفيوضاتها ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ ولا يطلبون بالطبع والإرادة ﴿عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف:108] أي: انتقالاً وتحويلاً؛ لكونه مقر فطرتهم الأصلية ومنزل استعداداتهم الحقيقية؛ إذ فوقه عرش الرحمن المفيض لجميع القوابل والاستعدادات مقتضياتها.

ثم لما طعن اليهود في القرآن، وأرادوا أن يثبتوا التناقض في بعض آياته مع بعض؛ حيث قالوا: أنتم تقرأون في كتابكم تارة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]، وتارة تقرأون: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:85] وما هو إلا تناقض صريح.

أمر سبحانه حبيبه بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا يُسقط شبهتهم إن أنصفوا، نحن لا ندعي أن من أوتي الحكمة فقد أوتي بجميع معلومات الله وعلومه، وكيف ندعي هذا وهو ممتنع محالٌ في غاية الامتناع والاستحالة؛ إذ ﴿لَّوْ كَانَ البَحْرُ﴾ أي: جنس البحر، وهو جميع كرة الأرض ﴿مِدَادًا﴾ أي: ماء يُمدُّ به القلم للرقم والكتابة ﴿لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: لثبتها وكتبها ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ﴾ وانتهى ألبتة؛ لتناهيه وكونه محددًا ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لكونها غير متناهية ﴿وَ﴾ غير محدودةٍ بحدٍ معين، وكيف لا تنفد وتتناهى ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل جنس البحر بل بأضعاف أمثاله وآلافها ﴿مَدَدًا﴾ [الكهف:109] إذ لا مناسبة بين المتناهي وغير المتناهي، وإن فرض أضعافًا وآلافًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغت لهم كلمات الله الغير المحصورة كلامًا خياليًا عن وصمة التفوق، والتفضل المفضي للرعونة ناشئًا عن محض الحكمة والفطنة: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قابل للعلوم والإدراكات على مقتضى البشرية، لا فرق بيني وبينكم بحسب الفطرة، غاية ما في الأمر أنه ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ ويُفاض إفاضةَ علمٍ وعين حقٍ

(1) رواه البيهقي في «الكبرى» (9/159).

﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ ومعبودكم ومُظهركم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أحدٌ صمد فرد وتر، ليس له شريكٌ ولا نظيرٌ ولا وزيرٌ، بل هو مستقلٌ في الوجود والإيجاد والإظهار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد استقلالاً إرادةً واختيارًا، وإنما امتيازي عنكم بهذا.

﴿فَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿يَرْجُو﴾ رجاءَ مؤملٍ بصيرٍ ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ مكاشفةً ومشاهدةً ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ قالعًا لأصل أنانيته وهويته، قامعًا لمقتضيات أوصاف بشريته وبهيميته، مزيلاً لذمائم أخلاقه وأطواره ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110] من خلقه؛ أي: لا يقصد من عمله وعبادته الرياءَ والسمعةَ والعُجبَ والنخوةَ.

قال رسول الله ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ».

قالوا: وما الشرك الأصغر؟.

قال: «الرِّيَاءُ».

وقال تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ الَّذِي عَمِلَهُ لأَجْلِهِ»[1].

وبالجملة: يعمل على وجهٍ يسقط الكثرة والاثنينية لا على وجهٍ يؤيدها ويكثرها، بل العامل العارف لا يطلب لعمله الجزاء أيضًا، بل إنما يعمل امتثالاً لأمره سبحانه وطلبًا لمرضاته، ولا يخطر بباله شيء سواه.

جعلنا الله ممن تحقق بمقام التوحيد، وأمَّنه عن توهم الرياء والتقليد، وحفظه من كل شيطان مريد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد للتحقق في مقام التمكن من التوحيد ـ قرَّرك الله في مقعد صدقك ويقينك، وثبَّتك في مقر تثبيتك وتمكينك ـ أن تحفظ أعمالك التي جئت بها متقربًا الوصولَ إلى محل القبول عن مداخل الرياء والسمعة والعجب وأنواع الرعونات؛ إذ هي كلها شباكُ الشيطان وعقاله، يقيد بها خواص عباد الله، ويلهيهم بها عما هم عليه من الرضا والتسليم، ويوقعهم في فتنةٍ عظيمةٍ ومعصيةٍ كبيرةٍ مستلزمةٍ

(1) رواه الطبراني (253/4، رقم 4301)، قال الهيثمي (222/10): رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن شبيب بن خالد، وهو ثقة.

للشرك بالله، العياذ به من غوائل الشيطان وتسويلاته ويخلصها لمحض وجهه الكريم.

فعليك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة حتى لا يلحقك من الخلطة أمثال هذه الأمراض العضال، وأيضًا لك أن تجلي خاطرك وتصفي ضميرك عن هواجسك المتعلقة بأمور معاشك بين بني نوعك، فإن أكثر عروض هذه الأمراض إنما يحصل من الأماني واللذات الوهمية من الجاه والثروة والتفوق على الأقران وغير ذلك.

وإن شئت أن يسهل عليك الأمر فاشغل جوارحك لكسب ضرورات معاشك في بعض الأحيان، واقنع بأقل المعيشة وسدّ الرمق، واحذر عن فضول العيش، فإن أكثر فحول الرجال قد استرق بفضول الأماني والآمال.

وبالجملة: نعم القرين العزلة، والفرار عن تغريرات الدنيا الغدارة المكارة، والخمول في زوايا الكهوف والأغوار عن اختلاط أصحاب الخسار والبوار.

وفقنا بفضلكَ وجودكَ بما تحب منا وترضى.

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة مريم عليها السلام

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود، وتحقق عنده امتداده وسريانه على جملة الموجود حسب اقتضاء الصفات الذاتية الإلهية أن اقتضاء بعض المظاهر الإلهية شيئًا من الكمالات اللائقة واستدعاءه إنما هو باعتبار صنعته من الصفات الإلهية المندمجة به باطنًا، سيما إذ صدر من النفوس المقدسة عن الكدورات البشرية، المنزهة عن العلائق الناسوتية المتخلقة بالأخلاق الملكية المنتخبة لتحمل أعباء الرسالة والنبوة، المستخلفة عن الذات الإلهية النائبة عنها.

ولا شك أن زكريا - صلوات الرحمن على نبينا وعليه - من جمله المنتخبين للخلافة والنيابة المنزهين عن غوائل الشيطان وتسويلاته، وما هداه وبعثه إلى طلب الولد إلا الصفة الإلهية التي تقتضي الظهور والنزول من غيب الذات إلى عالم الشهادة.

ولما كان ظهوره وبروزه موقوفًا على طلب زكريا وتحننه لحكمةٍ، ومصلحةٍ استأثر الله بها لا اطلاع لأحد عليها، ناجى زكريا بوحي الله إياه مع ربه، وناداه نداءَ مؤملٍ ضريعٍ على وجهٍ انكشف بتحقق مأموله وإنجاح مسئوله حين جذبه الحق إلى نفسه وأخرجه عن قيود تعلقاته مطلقًا.

ثم لما كان ﷺ مبدأ جميع مراتب الأنبياء ومجمعها، أخرج سبحانه له ما ناجى معه عبده زكريا من استدعاء الولد الذي يخلفه وُيحيي اسمه، مع أنه من غرائب صنع الله وبدائع مخترعاته على سبيل خرق العادة؛ إذ لا استعداد له ولا قابلية لزوجته بحصول الولد منهما لانقضاء أوان التوالد من كلا الطرفين.

فقال سبحانه متيمنًا باسمه العلي مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله ببدائع الكمالات الخارقة للعادات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم يفتح عليهم أبواب المرادات بأسباب السعادة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى أقصى المقامات وأعلى الكرامات.

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا
﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا
﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ
يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي
عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ
خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ
وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: 1 – 11].

﴿كهيعص﴾[1] [مريم:1] يا كافي مهام جميع الأنام، وهاديهم إلى دار السلام بيد

---

(1) قال روزبهان: أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرِّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قبل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.
ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق

القدرة العلية الصادرة عنك نيابةً عنا.

هذه السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي ربَّاك كافيًا هاديًا للمضلين ينبوعًا للعلوم الصافية اللدنية الجارية من قلبك على لسانك بمقتضى الوحي الإلهي والإلهامات الغيبية ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2] المتوجه نحوه في السراء والضراء، المسترجع إليه عند هجوم البلاء وحلول العناء.

اذكر وقت ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ نداء مؤملٍ ضريع، وناجى معه مناجاة ما يؤنس فجيع ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:3] متمنيًا متحسرًا، آمرًا في ندائه ليأسه وقنوطه؛ لانقضاء وقت الولد وأوانه؛ لئلا يُلام عند الناس لطلب الولد وقت الهرم من كلا الجانبين.

حيث ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله باثًا شكواه عنده سبحانه: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربَّاني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنِّي﴾ من غاية ضعفي، ونهاية هزالي ونحولي ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعفت دعائم جسمي وقوائم بدني، وأشرفت على الانهدام والانصرام

لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي «الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق المحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله، وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: اشتعل شيب رأسي، وذهب سواده، وانقلب إلى البياض المشعر بالانقضاء والزوال، مثل ابيضاض النباتات وقت الخريف ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ﴾ أي: لم أكن في كل حالٍ بدعائي إياك ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:4] خائبًا خاسرًا مردودًا، بل عودتني بفضلك وجودك بالإجابة والإنجاح، وهذا الدعاء وإن كان أبعدَ بحسب العادة من الإجابة، إلَّا أنه بالنسبة إلى قدرتك وجودك أقرب، وبجنب حولك وقوتك أسهلُ وأيسر، سيما ألهمتني به ووفقتني على إظهاره.

﴿وَإِنِّي﴾ يا ربِّ ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ أي: من أبناء أعمامي الذين يترصدون الولاية والحبورة ﴿مِن وَرَائِي﴾ وبعد انقراضي وانقضائي أن يغيروها ويضيعوها، ويحرفوا مَعالم الدين وشعائر الإسلام بين المسلمين؛ إذ لا يرجى منهم الرشد والصلاح، والخير والفلاح، وأنت أعلم بحالهم مني يا رب، وليس لي ولد صالح يخلفني بعدي، ولم يبقَ لي قوة الاستيلاد لهرمي وضعفي ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيمًا أصليًا لم تلد قط، فلا مرجع لي في أمري سوى بدائع صنعتك، وغرائب قدرتك ﴿فَهَبْ لِي﴾ بمقتضى فضلك وجودك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ لا على طريق العادة ومقتضى الأسباب الصوري ولدًا ﴿وَلِيًّا﴾ [مريم:5] يولي أمر دين بني أمتي.

بحيث: ﴿يَرِثُنِي﴾ عني نبوتي وحبورتي وولايتي، وجميع ما أنزلت عليَّ خاصةً من مقتضيات إحسانك إليَّ وإنعامك عليَّ ﴿وَيَرِثُ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ما بقي منهم من شعائر الدين ومعالم الهدى واليقين، قيل: كان زكريا أخا يعقوب بن إسحاق، ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ﴾ بمقتضى كرمك وجودك ﴿رَضِيًّا﴾ [مريم:6] راضيًا عنك بجميع ما جرى عليه من قضائك، صابرًا على نزول عموم بلائك، شاكرًا على نعمائك مرضيًا عندك وعند عموم عبادك.

ثم لما اشتكى عنده سبحانه بما اشتكى، ودعا ما دعا أجاب سبحانه دعاءه، وأسرع إجابته مناديًا له على سبيل الترحم والتفضل: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ المتضرع المناجي إلينا، المستدعي منا خلفًا يخلفك ويحيي اسمك ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ يولد منك ومن زوجتك العقيمة العاقرة ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ ليحيي مراسم دينك وشرعك وحبورتك مع أنه ﴿لَمْ نَجْعَل﴾ ولم نخلق ﴿لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:7] بهذا الاسم، بل هو أول من سمي به.

سمع زكريا البشارة من قِبل الحق، ﴿قَالَ﴾ على سبيل الفرح وبسط الكلام معه

سبحانه، وإن كان جميع أحواله حاصلاً عنده سبحانه على التفصيل حاصلاً حاضرًا لديه مستبعدًا مستغربًا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ في سني هذا وضعفي ونحولي ﴿وَ﴾ قد ﴿كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ جبليًا ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ﴾ والكهولة والهرم ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم:8] يبسًا؛ بحيث لا يبقى على رطوبةٍ في مفاصلي وأركان بدني وقوائم جسمي؟!.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: يا زكريا لا تستبعد من قدرتنا أمثال هذا بل ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك قدّرنا لك أبنًا بأن تكون باقيًا على كبرك وهرمك، وزوجتك أيضًا على هرمها وعقرها، نخرج ونوجد منكما الولد إظهارًا لقدرتنا الكاملة وأمثال هذا وإن كان عسر عادةً، علينا يسيرُ وفي جانب قدرتنا سهلُ يا زكريا.

كذلك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ اسمع قوله ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إخراج الولد منك ومن زوجتك عليّ سهلُ يسيرُ وفي جنب حولي وقوتي حقيرُ ﴿وَ﴾ كيف لا يكون سهلاً إني ﴿قَدْ خَلَقْتُكَ﴾ وقدّرت وجودك فيما مضى من العدم ﴿مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] ولا مسبوقًا بشيءٍ، بل أوجدتك إيجادًا إبداعيًا، وأظهرتك من كتم العدم إظهارًا إختراعيًا بلا سبق مادةٍ ومدةٍ وسببٍ وعادةٍ، وهذا هينُ بالنسبة إلى ذاك.

ثم لما تفطن زكريا بإنجاح مطلوبه، أخذ يطلب العلامة والأمارة لحمل امرأته؛ حيث: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي﴾ بفضلك ﴿آيَةً﴾ علامةً دالةً على حمل امرأتي ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على المقاولة والمكالمة ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ مع نهارها لا عن عروضٍ عارضةٍ ولحوقٍ مرضٍ وخرسٍ بل كنت ﴿سَوِيًّا﴾ [مريم:10] صحيحًا سالمًا عن جميع الأسقام، غير أن اشتغالك بالحق شغلك عن الخلق؛ بحيث لا تطيق التكلم معهم في المدة المذكورة إلا رمزًا وإشارة وإيماء.

ثم لما دنا وقت الحمل ولاحت أماراته ﴿فَخَرَجَ﴾ صبيحة ﴿عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الحجرة التي هو فيها في خلوته للصلاة على عادته المستمرة، وكان من عادته أن يأمرهم في كل صبيحة خرج عليهم بالصلاة والدعاء والخشوع والتوجه ﴿فَأَوْحَى﴾ أي: أومأ وأشار ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بلا قدرةٍ على النطق والتكلم ﴿أَن سَبِّحُوا﴾ ربكم ونزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:11] أي: في الصبيحة التي أنتم فيها والبكرة التي ستجيء إلى العشية الآتية وإلى الصبيحة بعده، أوصاهم كل يوم بذلك على الدوام، وفي تلك المدة ما قدر على التكلم لذلك أشار وأومأ.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً

وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾
فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ
بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾
قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ
هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ
فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا
وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: 12 – 25].

ثم لما أوما سوينا خلقة يحيى، وأخرجناه من بطن أمه صحيحًا سويًا، قلنا له تربية وتكريمًا: ﴿يَا يَحْيَى﴾ الموهوب من لدنا المؤيد من عندنا ﴿خُذِ الكِتَابَ﴾ أي: التوراة واشرع في ضبطها وحفظها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بنيةٍ خالصةٍ وعزيمةٍ صحيحةٍ ﴿وَ﴾ إنما أمرناه بحفظها وضبطها؛ إذ ﴿آتَيْنَاهُ الحُكْمَ﴾ يعني: الحكمة المندرجة فيها، وأعطينا فهمها واستنباط الأحكام منها حال كونه ﴿صَبِيًّا﴾ [مريم:12] لم يبلغ الحلم.

﴿وَ﴾ إنما آتيناه وأعطيناه في حال صغره فهم التوراة ﴿حَنَانًا﴾ ترحمًا وتعطفًا ناشئًا ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ تكريمًا له ولأبيه ﴿وَ﴾ لهذا أيضًا أعطيناه ﴿زَكَاةً﴾ طهارةً عن الخبائث والآثام كلها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كَانَ﴾ مدة حياته من أوان صباه إلى موته ﴿تَقِيًّا﴾ [مريم:13] حَذِرًا عن المناهي والمنكرات، خائفًا عن المعاصي والمحظورات.

﴿وَ﴾ لنجابة طينته ألقينا في قلبه ﴿بَرًّا﴾ وإحسانًا ﴿بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن﴾ في جميع أوقاته وحالاته ﴿جَبَّارًا﴾ عاقًا لهما مستكبرًا عن أمرهما ﴿عَصِيًّا﴾ [مريم:14] تاركًا حكمهما وأمرهما.

﴿وَ﴾ لسلامته عن جميع الآثام وطهارته عن جميع الخبائث والمعاصي ﴿سَلامٌ

عَلَيْهِ﴾ أي: تحيةُ وتكريمُ وحفظُ وتسليمُ نازلُ منَّا عليه على الدوام ﴿يَوْمَ وَلِدَ﴾[1] نحفظه من الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ نحفظه من زوال الإيمان ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:15] نصونه عن الخيبة والخسران ولحوق الحسرة والخذلان.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن المنزل إليك سيدة النساء ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: قصتها، وحالتها العجيبة الشأن التي هي أغرب وأعجب من قصة زكريا، واذكر وقت ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ أي: اعتزلت وتباعدت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ حين حاضت وطهرت وأرادت الاغتسال على مقتضى طهارتها الفطرية ونجابتها الجبلية، فاختارت للخلوة والتستر ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[2] [مريم:16] أي: في مشرق بيت المقدس، ومع كونه مكانًا بعيدًا خاليًا عن الناس.

﴿فَاتَّخَذَتْ﴾ وسدلت لكمال الاحتياط والانحفاظ ﴿مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ يسترها، ويحفظها عن أعين الناس إن وصلوا بغتة، ثم لما تجردت عن لباسها واشتغلت؛ لأن تغتسل ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: حامل روحنا وهو جبرائيل عليه السلام إظهارًا لقدرتنا وحكمتنا، وإنفاذًا لحُكمنا الذي حكمنا به في سابق علمنا ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ جبرائيل عليه السلام

(1) قال روزبهان: سلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه الذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلي جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لئلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدتين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

(2) قال البقلي: الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس، قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شموس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسراره إلى روحها فحملت روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما أعظم شانها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليقة، واستأنست بعروس الحقيقة.

﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:17] صبيحًا صبيحًا أمردَ قططًا مجعدَ الشعر لئلا تستوحش، ومع ذلك استوحشت وارتهبت رهبةً شديدةً، ومن غاية خوفها منه واضطرابها ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ الذي كفى لحفظ عباده عن مطلق الشذوذ سيما ﴿مِنكَ﴾ أي: من شرِّك ومن شرِّ أمثالك فامتنع أنت بنفسك عني ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:18] خائفًا عن الله، حذرًا عن بطشه وانتقامه.

ثم لما رأى جبريل ﷺ من كمال عفتها وعصمتها ما رأى: ﴿قَالَ﴾ مستحييًا معتذرًا: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله إياي وأمره ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:19] طاهرًا عن جميع الرذائل والآثام، مترقيًا في فنون الفضائل والكمالات إلى أقصى النهايات، مظهِرًا لأنواع المعجزات والكمالات والكرامات، وأصناف الإرهاصات الخارقة للعادات.

ثم لما سمعت عليها السلام مقالته، وتفطنت بنور الولاية أنه من قِبل الله ﴿قَالَتْ﴾ مستعجبةً مشتكيةً مستحيةً: ﴿أَنَّى﴾ أي: من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ﴾ لم يجرِ عليّ أسبابه؛ إذ ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بالنكاح مساس مواقعةٍ موجبةً للحمل والحبل ﴿وَلَمْ أَكُ﴾ في مدة حياتي عاصيةً لله فاسقةً خارجةً عن مقتضى حدوده لأكون ﴿بَغِيًّا﴾ [مريم:20] فاحشةً زانيةً يلد مني ولد الزنا.

﴿قَالَ﴾ جبرائيل ﷺ: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ جرى حكم ربك، وأمضى عليه في سابق قضائه لا تستبعدي ولا تستعسري؛ إذ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ الذي ربّاك على العصمة والعفاف ﴿هُوَ﴾ أي: هبة الولد لك بلا مساس البشر، وسبق الأسباب العادية ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهلٌ يسيرٌ؛ إذ لا يعسر علينا شيء، ولا يعجز عن قدرتنا مقدورٌ، بل إذا أردناه نقول له: كن فيكون بلا سبق سببٍ وعلةٍ، ﴿وَ﴾ إنما نظهره ونوجده ﴿لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ دالةً على كمال قدرتنا وبدائع صنعنا وحكمتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ نازلةً ﴿مِّنَّا﴾[1] على كافة عبادنا سيما عليك يا مريم ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ظهورهُ بلا أب في العالم، وعروجه إلى السماء ﴿أَمْرًا

(1) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم» ما نصه: الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوي الرحمن، انتهى.

﴿مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:21] كائنًا مثبتًا في لوح قضائنا وحضرة علمنا.

ثم لما سمعت ما سمعت نفخ جبريل ﷺ في درعها، فوصل أثرها إلى جوفها فحبلت: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: صارت حاملةً بعيسى فجأةً وكبر في بطنها في الساعة، وبعدما ظهر عليها من أمارات الطَّلْق ما ظهر ﴿فَانتَبَذَتْ﴾ واعتزلت وتباعدت منفردةً ﴿بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم:22] بعيدًا عن العمران استحياءً من أهلها، ومن لوم الناس إياها وتعييرهم عليها بولادتها بلا زوج.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ وظهر أمارة الولادة، فألجأها التشبث ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ اليابسة؛ لتعتمد عليها عند الولادة، وتُستر بها عن الناس ﴿قَالَتْ﴾ حينئذ من شدة حزنها وكآبتها، ووفور ضجرتها من ألم الملامة والفضاحة متيمنةً موتها: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ﴾ وعُدمت ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ اللوم والفضيحة ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:23] متروكًا معدومًا لا التفات لأحدٍ إليّ أصلاً.

ثم لما وضعت حملها واشتد الألم عليها ﴿فَنَادَاهَا﴾ أي: نادى الوليدُ أمه ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بإلهام الله إياه وتنشيطًا: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ يا أمي، ولا يشتد عليك الأمر بواسطة ولادتي وظهوري بلا أبٍ، واعلمي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ ولدًا ﴿سَرِيًّا﴾ [مريم:24] سيدًا مطيعًا نقيًا سجيًا سخيًا ذا إرهاصاتٍ وكراماتٍ، من جملتها: إنه ظهر لك من تحت رجلك نهرًا جاريًا لدفع عطشك وتطهير الفضلات عن بدنك وثيابك.

﴿وَ﴾ لدفع جوعك ﴿هُزِّي إِلَيْكِ﴾ أي: حرّكي إلى نفسك حين أخذت ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ التي في جنبك ﴿تُسَاقِطْ﴾ أي: تتساقط منها ثمارها ﴿عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:25] بالغًا في النضج غايته، وحان وقت اجتنائه.

قيل: كانت النخلة يابسة لا رأس لها، والوقت وقت الشتاء، فتغصنت في تلك الحالة، وأثمرت ونضجت ثمارها كرامةً لعيسى وإرهاصًا لأمة صلوات الرحمن عليهما.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا
فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا
﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ
نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: 26 – 38].

﴿فكلي﴾ يا أمي من النخلة ﴿وَاشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: نوّري عينك بولدك وطيبي نفسك به ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أي: إن رأيت ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يسألك عن حالك وولدك ﴿فَقُولِي﴾ في جوابه؛ يعني: أشيري إليه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا عن التكلم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:26] أي: إنسانًا.

والحكمة في إلهام الله إياها بالصمت والسكوت حتى لا تجادل مع سفهاء الأنام؛ إذ ولدها يكفي عن مؤونة جوابها.

ثم لما ظهر أمر ولادتها وشاع بين الأنام قصتُها، فمكثتْ مدة نفاسها في غارٍ هناك وبعدما انقضتْ: ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أي: بولدها ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي: ولدَها على صدرها، فلما رأوه معها، أخذوا في لومها وتقريعها؛ حيث ﴿قَالُوا﴾ معيرين منادين بها على سبيل التوبيخ واللوم: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ الصالحة العفيفة المشهورة بالعصمة في بيت المقدس ﴿لَقَدْ جِئْتِ﴾ بالآخر ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم:27] منكرًا بديعًا في غاية الشناعة والفضاحة.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ هو رجلٌ صالحٌ نسبوها إليه تهكمًا، وقيل: هي من أولاد هارون أخي موسى، نسبوها إليه وإن تطاولت المدة بينهما ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ منسوبٍ إلى الفواحش والزنا والخروج عن حدود الله ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28] زانيةً فاجرةً بل هما من أصلح القوم وأزكاهم عن الفواحش والفسوق، فكيف أنت ومن أين اكتسبت هذا؟!.

وبعدما تمادى تعييرهم وتشنيعهم ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾[1] أي: إلى ولدها، بأن قل لهم في جوابهم ما يفحمون به ويسكتون، بل يتيهون ويتحيرون، ولما رأوا إشارتها إليه وتفويضها الجواب نحوه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الاستهزاء: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:29] رضيعًا ولم يُعهد من مثله التكلم، أنت قد خجلتِ واستحييتِ تدفعيننا بهذا الرضيع، مع أنه معصومُ لا ذنب له.

ولما رأى عيسى اشتداد اللائمين على أمة بالتقرح والتشنيع، واضطرار أمه واضطرابها من لومهم، أخذ في الجواب بإلهام الله إياه؛ حيث ﴿قَالَ﴾ مفصحًا معربًا على وجه الفصاحة والبلاغة، مشتملاً على الحكمة البالغة: لا تعيروا أيها الجاهلون عن أمري وعلو شأني في أمي الكاملة المتناهية في العصمة والعفة، ولا ترموها بما لا يليق بعلو شأنها وجلالة قدرها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله، المستقل في حكمه وآثاره، خصني بالنبوة والرسالة ، بأنواع الكرامات والمعجزات، وأبدعني من محض جوده من روحه، وأرسلني إلى عباده للهداية والإرشاد إلى توحيده؛ لذلك ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: الإنجيل النازل من عنده علي؛ لترويج رسالتي وإرشادي وتتميم تكميلي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:30] كسائر الأنبياء، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفّاعًا كثيرَ الخير والبركة لأهل الصلاح من البرية ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وحيثما توطنتُ وجلستُ معهم يَصِل خيري إليهم.

﴿وَ﴾ من كمال تربية الله وتزكيته إياي ﴿أَوْصَانِي﴾ وأمرني ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ والميلِ التام والتوجه نحوه بالجوارح والأركان ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ أي: التخلية والتطهير عن جميع الرذائل والخبائث المتعلقة بالنفوس البشرية، المنغمسة بالعلائق الدنيوية، المبعدة عن صفاء الوحدة الذاتية ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:31] بروح الله الذي أبدعني منه خالصًا

---

(1) بيّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نطق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسماع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالته وعظمته عين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق. قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها فيما تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها. قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطرار حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

صافيًا عن جميع الكدورات، وأوصاني بما أوصاني من عنايةٍ منه لأكون باقيًا على صفائي، وطهارة لاهوتي بلا كدرٍ من خبائث الناسوت.

﴿وَ﴾ جعلني أيضًا ﴿بَرًّا﴾ أي: بارًا محسنًا ﴿بِوَالِدَتِي﴾ ممتثلاً بأمرها، قائمًا بخدمتها، خافضًا جناح الذل من الرحمة إياها، والحمد لولي الحمد الذي ربّاني سعيدًا على الطهارة والصلاح وأنواع الكرامة والفلاح والتذلل والتواضع مع عموم عباده ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرًا متجبرًا على الناس ﴿شَقِيًّا﴾ [مريم:32] بعيدًا عن روح الله مستجلبًا لعذابه.

﴿وَ﴾ متى سلمني الله، وطهرني عن جميع ما يعوقني عن مقتضى صرافة الوحدة الذاتية الإلهية المعبرة عنها بروح الله صار ﴿السَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي: سلام الله وحفظه ﴿يَوْمَ وَلِدتُّ﴾ عن أمرٍ يحفظني عن مسّ الشيطان، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يحفظني عن شرّه ووسوسته أيضًا ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ﴾ للحشر أكون ﴿حَيًّا﴾ [مريم:33] بحياة الله وروحه كما كنت قبل هذا.

ثم لما سمعوا من عيسى ما سمعوا، تاهوا وتحيروا في أمره، وصاروا حيارى متعجبين في علو شأنه وشأن والدته وجلالة قدرهما، فاختلفوا وتحزبوا، وفرقةٌ منهم قالت بألوهيته، وفرقةٌ قالت بإبنيته لله، وفرقةٌ قالت بالأقانيم، ومنهم من رماه وأمه بما لا يليق بشأنهما.

أخبر سبحانه حبيبه بما هو الواقع والحق الصريح فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القائل بهذه الكلمات والموصوف بهذه الصفات المذكورة هو ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ما قاله الغلاة من النصارى، ولا ما قاله طغاة اليهود بل ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ هذا ﴿الَّذِي﴾ ذُكر لك يا أكمل الرسل ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:34] ويترددون، مع أنه لا ريب فيه، لا ما قالته النصارى بأنه ابن الله.

إذ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي: ما صحّ وجاز بعلو شأنه سبحانه ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أي: هو منزهٌ في ذاته عن الأهل والولد؛ لأنه لا يليق بذاته المعاونةُ والاستظهارُ بهما تعالى عن ذلك، بل من حكمه وشأنه أنه ﴿إِذَا قَضَى﴾ وأراد ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور الكائنة في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ حين تعلق إرادته بتكوينه: ﴿كُن﴾ بلا ترتيبٍ في السمع بتقديمِ الكاف على النون.

إذ كلامه القائم بنفسه سبحانه نفسيٌ ذاتيٌ لا يُتوهم فيه الحروفُ والأصوات

ومقاطعها؛ ليتصور الترتيب بالتقدم والتأخر كما يتوهم في الألفاظ الصادرة عنا، بل يخلق سبحانه بقدرته الكاملة في لساننا لفظًا معجزًا لا من جنس ألفاظنا ليسع لنا التعبير عن كلامه وقتَ إرادة نفوذِ قضائه، وهو لفظه: «كن» وعن حصول المقضي بلفظ: ﴿فَيَكُونُ﴾ [مريم:35] أيضًا بلا تراخٍ وتعقيبٍ يُفهم من الفاء، ومَن كان شأنه هذا من أين يكون له حاجة إلى الأهل والولد وإحبالُ المرأة ووقاعها؟! تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

بل هو سبحانه واحدُ أحدُ فردُ وِترُ صمدُ لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا هذا؛ أي: من قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم:34] إلى هنا كلامُ وقع في البين.

ثم قال سبحانه حكايةً عن عيسى، ومن جملة ما أوحى إليه: ﴿وَ﴾ بعدما بالغ عيسى في بيان طهارته وعصمة أمه، وتكلم في غير أوان التكلم بكلام عجيبٍ غريبٍ، عَلِم بنور النبوة ونجابةِ الفطرة أن بعضهم قد يقولون في شأنه وشأن أمه ويتخذونه إلهًا، أورد كلامًا نافيًا لظنونهم وجهالاتهم دافعًا لغلوهم واتخاذهم.

فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي أوجدني وأبدعني بلا أبٍ هو ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني وأمي بأنواع الكرامة، وأظهرني من كتم العدم بمقتضى قدرته ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ أيضًا أوجدكم وأظهركم مثلي إيجادًا إبداعيًا ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ ووحّدوه ولا تشركوا معه شيئًا من المخلوقات، وتوجهوا نحوه بالتذلل التام والانكسار؛ إذ هو المستحق للعبادة لا معبود سواه، ولا إله إلا هو ﴿هَٰذَا﴾ الذي بينت لكم ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:36] وطريقٌ واضحٌ سويٌ موصلٌ إلى معرفة الحق وتوحيده، فاتبعوه إن كنتم مؤمنين موقنين بتوحيده.

وبعدما نبههم عيسى - صلوات الرحمن عليه - بالطريق الأبين الأوضح ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: فِرق النصارى واليهود في شأنه وشأن أمه اختلافًا ناشئًا ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ بلا سندٍ شرعيٍ وعقليٍ، فأفرط النصارى باتخاذه إلهًا وابنًا له، وفرّط اليهود بنسبته وأمه إلى ما لا يليق بشأنهما.

وبالجملة: فاستحق كلا الفريقين بأشد العذاب وأسوأ العقاب ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيمُ وعذابُ شديدُ أليمُ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا ما هو الحق في شأنه، وعدلوا عنه إلى الباطل بلا حجةٍ وبرهانٍ ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:37] أي: من شهود يوم القيامة وظهوره، وهم يُسحبون فيه على وجوههم نحو النار، ويُكبون عليها صاغرين مضطرين.

﴿أَسْمِعْ﴾ أيها المسمع ﴿بِهِمْ﴾ أي: بأنينهم وحنينهم ﴿وَأَبْصِرْ﴾ أيها المبصر بأغلالهم وسلاسلهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للعرض والحساب مضطرين مسحوبين ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي في النشأة الأولى ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: 38] وجهلٍ عظيم عن أهوال يوم القيامة وأفزاعه.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ
مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ
أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ
صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم:
39 - 51].

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل مَن عندك فهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ المعدة للجزاء؛ بحيث لا يكون فيها التلافي والتدارك على ما فات سوى الحسرة والندامة الغير المفيدة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ونزلَ العذاب ومضى زمان امتثال المأمور ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وغرورٍ عن مضيه ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39] ولا يصدقون بإتيان هذا اليوم الموعود على ألسنة الرسل والكتب، وكيف لا يصدقون هذا اليوم أولئك الكاذبون المكذبون المستغرقون في بحر الغفلة والضلال التائهون في تيه الغرور.

﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿نَحْنُ﴾ بانفرادنا ووحدتنا ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ بعد انقهارها واضمحلال أجزائها وتشتيت أركانها بمقتضى القدرة الغالبة؛ بحيث صار كل من عليها فانٍ، ولم يبقَ سوى وجهنا الكريم وصفاتنا القديمة، فانقلبت

تجلياتنا المتشعشعة المتجددة من هذا النمط البديع إلى نمطٍ أبدعَ منه وأكملَ؛ إذ نحن في كل يومٍ وآنٍ في شأنٍ، ولا يشغلنا شأنٌ عن شأنٍ.

﴿وَ﴾ كيف لا نرث من على الأرض الوجودَ وفضاءَ الشهودِ؛ إذ الكل ﴿إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم:40] رجوع الظل إلى ذي الظل، والأمواج إلى البحر، والأضواء والأظلال إلى شمس الذات، وبعد رجوع الكل إلينا نُودِي من وراء سرادقات عزنا وجلالنا: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟! وأجيب أيضًا منها؛ إذ لا يجب الوجود لسوانا: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ للأظلالِ والأغيارِ.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ المتلوّ عليك المنزل إليك جدَّك ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: محامد أخلاقه ومحاسن شيمه؛ لتنتفع بها أنت ومن معك من المؤمنين، وتمتثل بأخلاقه أنت وهم ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ صدوقًا مبالغًا في الصدق والصداقة وتصديق الحق وتوحيده ﴿نَّبِيًّا﴾ [مريم:41] من خُلَّص الأنبياء.

اذكر أوان انكشافه وإيقاظه من منام الغفلة التي هي عبادة الأوثان والأصنام وقت: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مستنكرًا عليه متعجبًا من أمره، مناديًا له رجاء أن يتفطن ويتنبه بما تنبه به هو: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ وتطيع ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي: شيئًا لا يقدر على السمع ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ أي: لا يقدر على الإبصار، والمعبودُ لا بدَّ أن يَرى ويَسمع أحوال عباده وحاجاتهم ومناجاتهم، ﴿وَ﴾ إذا لم يسمع ولم يبصر ﴿لَا يُغْنِي﴾ ويدفع ﴿عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:42] من مكروهاتك ولا يعينك، فلا يصلح إذًا للألوهية والربوبية، فلِمَ عبدت وأطعتَ له مع أنه نحتَّه بيدك وأظهرتَ أنت هيكله وشكله، والعجب منك كل العجب أنه مصنوعك أخذته إلهًا صانعًا معبودًا مستحقًا للعبادة، مع أنك من ذوي الرشد والعلم، وهو جمادٌ لا شعور له أصلاً.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ وإن كنت ابنك أصغر منك لكن ﴿قَدْ جَاءَنِي﴾ ونزل عليّ ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ من قِبل الحق مع صغر سني ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[1] مع كبرك؛ لأن الفضل بيد الله وبمقتضى إرادته يؤتيه من يشاء ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ أي: اتبع ما أنزل عليّ من قِبل ربي من

(1) قال في التأويلات: وذلك؛ لأن الفيض الإلهي إذا أفيض يقبله الروح لصفائه، ولكن لا يمسكه للطافته ويقبله القلب الصافي ويمسكه لكثافته، كما أن نور النفس الشمس إذا أفاض يقبله الهواء لصفائها ولكن لا يمسكه للطافتها، ويقبله المرآة الصافية لصفائها ويمسكه لكثافتها، فقد أوتي المرآة الصافية والأرض من نور الشمس ما لم يؤت الهواء.

خلوص الاعتقاد ﴿أَهْدِكَ﴾ بتوفيق الله وإرشاده ﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:43] موصلاً إلى المعبود بالحق وتوحيده.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ بعباده هذه التماثيل الباطلة والهياكل العاطلة، إذ ما هو إلا بإغوائه وتضليله؛ لأنه عدو لك ولأبناء آدم عداوةً قديمةً مستمرةً ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ المغوي المضل عن طريق الحق ﴿كَانَ﴾ من الأزل إلى الأبد ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ المفيض لأصناف الخيرات والسعادات سيما الإيمان والعرفان المنجي عن الحرمان والخذلان عند لقاء الحنان المنان ﴿عَصِيًّا﴾ [مريم:44] عصى هو وانتظر لعصيان غيره وسعى بإضلاله وتسويلاته ليضل أهل الحق عن طريقه.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وعطفي ﴿أَخَافُ﴾ عليك ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ وينزل عليك ﴿عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ المنتقم لأهل الضلال والطغيان بدل الثواب والغفران ﴿فَتَكُونَ﴾ حينئذٍ بشقاوتك وطغيانك ﴿لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم:45] صديقًا، وللرحمن عدوًا ببغيك وعصيانك له ومتابعتك لعدوه.

ثم لما تمادى مكالمة إبراهيم مع أبيه، ومحاورته على سبيل النصح والتذكير ﴿قَالَ﴾ أبوه مقرعًا عليه مهددًا له مضللاً إياه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ أي: مُعرض بريءٌ ﴿عَنْ آلِهَتِي﴾ ومعبوداتي، مع أن عبادتهم أولى وأليق بحالك ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ إذ خير الأولاد أن يتبع آباءه في الدين، سيما وقد سلف أجدادك على هذا وأنت استنكفت عن عبادة آلهتنا، انتهِ عن اعتقادك هذا، واللهِ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ ولم تمتنع ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وأرمينّك بالأحجار على رءوس الأشهاد حتى تموت، قم من عندي ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ واتركني ﴿مَلِيًّا﴾ [مريم:46] زمانًا طويلاً، فإن ندمت عن اعتقادك هذا، ورجعتَ إلى ما كنا عليه. يعني: عبادة الأصنام - فارجع إليّ، وإلا فاذهب لا علاقة بيني وبينك فأنا بريء منك.

ثم لما رأى إبراهيم عليه السلام شدة غيّه وضلاله، ورسوخ جهله وطغيانه ﴿قَالَ﴾ مسترجعًا إلى الله مودعًا عليه مسلمًا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: سلامي عليك يا أبي، أهجرك بإجازتك إلا أني ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لينقذك من أوزار الشرك، ويوصلك إلى مرتبة توحيده شكرًا لأبوتك، ورعايةً لحضانتك، والتجئ نحو الحق، وألوذ به من شرّك الذي هددتني به، ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:47] مشفقًا رحيمًا يحفظني من شرّك ومن شرّ جميع من عاداني.

﴿وَ﴾ متى لم يُفِدْ لك نصحي، ولم ينفع لك تذكيري ووعظي ﴿أَعْتَزِلُكُمْ﴾

وأترككم على حالكم ﴿وَ﴾ أترك أيضًا ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ وأتبرأ عنهم ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ الذي ربَّاني بفضله بالإيمان، وأوصلني بلطفه إلى فضاء التوحيد والعرفان، وأعبد إياه وأطيعه في جميع أوقاتي وحالاتي ﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾ والتوجه نحو والتحنن إليه ﴿شَقِيًّا﴾ [مريم:48] خائبًا خاسرًا عن رحمته، ذا شقاوةٍ جاليةٍ لسخط الله وغضبه.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ وبَعُدَ عنهم، واختار الغربةَ والفرارَ من بينهم ﴿وَ﴾ تركَ عبادة ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ليؤانس بهم، ويدفع كربة الغربة بصحبتهما ﴿وَ﴾ لنجابة طينتهما وكرامة فطرتهما ﴿كُلاًّ﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:49] مثل أبيهما مهبطًا للوحي والإلهام مثله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ أي: لإبراهيم وولديه ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِنَا﴾ ووفور جودنا الأموالَ والأولادَ والجاهَ والثروةَ، إلى أن صاروا مرجع الأنام وحاكمهم في الأحكام إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي: جعلنا ثناءهم ومدحهم العائد إليهم عن ألسنة البرايا ثناءَ صدقٍ وتحقيقٍ، لا خطابة تحننٍ كثناء سائر الملوك والجبابرة، لذلك صار ثناؤهم ﴿عَلِيًّا﴾ [مريم:50] مظهرًا لعلو رتبتهم وشأنهم إلى انقراض النشأة الأولى، كل ذلك ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام، وإجابة الحق له؛ حيث قال في مناجاته مع ربه: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء:84].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الكِتَابِ﴾ المنزل عليك أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم وقصة انكشافه من الشجرة المباركة ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال انكشافه وشهوده بوحدة الحق ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾[1] خُلِّص للتوحيد، وصفا عن أكدار ناسوتة مطلقًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ

(1) قال في التأويلات: ثم اعلم أن الإخلاص في العبودية مقام الأولياء، فلا يكون ولي إلا وهو ولي مخلص، ولا يكذبني إلا وهو ولي مخلص، ولا يكون كل مخلص نبيًا، ولا يكون رسول إلا وهو نبي، ولا يكون كل نبي رسولاً، والمخلِص بكسر اللام: من أخلص نفسه في العبودية بالتزكية عن أوصاف الإنسانية الحيوانية، والمخلَص بفتح اللام: من أخلصه الله بعد التزكية بالتحلية بصفات الروحانية الربانية كما قال النبي ﷺ: «مَن أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» أي: من أخلص نفسه بالتزكية في الله، ولله ظهرت؛ أي: أظهر الله بالتحلية ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وقال تعالى: «الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يعد

رسولاً﴾ مرسلاً إلى بني إسرائيل؛ للإرشاد والتكميل مؤيدًا بالكتاب والمعجزات ﴿نبيًا﴾ [مريم:51] أيضا بالوحي والإلهام والرؤيا.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾
وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا
عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞
فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا
﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا
وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: 52 – 64].

﴿وَ﴾ لكمال إخلاصه ومزيد اختصاصه بنا ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ بعد المجاهدة الكثيرة والرياضات البليغة ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ أي: ذي اليُمْنِ والبركة وأنواع السعادة لموسى ﴿وَ﴾ بعدما انكشف بالنداء بما انكشف وشهد ما شهد ﴿قَرَّبْنَاهُ﴾ بنا إلى أن صار ﴿نَجِيًّا﴾ [مريم:52] مناجيًا بنا متكلمًا معنا؛ إذ كنا حينئذٍ سمعه وبصره وجميع قواه، فبنا يسمع، وبنا يبصر، وبنا يتكلم.

فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»؛ أي: أنا الذي أتولى تحلية قلوب المخلصين بتجلي صفات جمالي وجلالي، وفي الحقيقة لا تكون العبودية مقبولة إلا من المخلصين كقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] وللإخلاص المخلصين مراتب: أدناها: أن تكون العبودية لله خالصًا، ولا تكون لغير الله فيها شركة. وأوسطها: أن يكون العبد مخلصًا في بذل الوجود لله وفي الله. وأعلى درجة: المخلصين أن يخلصهم الله من حبس وجودهم بأن يفنيهم عنهم ويبقيهم بجواره.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن﴾ كمال ﴿رَّحْمَتِنَا﴾ وفضلنا إياه تأييدًا له وتعضيدًا ﴿أَخَاهُ هَارُونَ﴾ ليؤيده ويقويه في تنفيذ أحكام النبوة والرسالة ﴿نَبِيًا﴾ [مريم:53] ليكون أيضًا على عزيمةٍ صادقةٍ وقصدٍ خالصٍ في إجراء الأحكام الإلهية.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾أيضًا جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ذبيح الله الراضي بجميع ما جرى عليه من قضائه ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال وثوقه واعتماده على الله وتفويضه الأمور كلها إليه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ والعهد عند الله وافيًا لميثاقه، صابرًا على مصائبه وبلائه، شاكرًا لآلائه ونعمائه ﴿وَكَانَ﴾ أيضًا كأبيه وإخوته ﴿رَسُولاً نَّبِيًا﴾ [مريم:54] وإن لم ينزل عليه الشرع؛ إذ بعض أولاد إبراهيم - صلوات الرحمن عليه وعليهم - كانوا أنبياء مرسلين جارين على ملة أبيهم وشرعه.

﴿وَ﴾ من خصائله الحميدة أنه ﴿كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أولاً؛ لأنهم أولى بالإرشاد والتكميل وأحق من غيرهم ﴿بِالصَّلاةِ﴾ التي هي التوجه نحو الحق بجميع الجوارح والأركان، والتقرب نحوه عن ظهر القلب ومحض الجنان ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ التي هي تصفية النية وتخلية الطوية عن الميل إلى مزخرفات الدنيا وحطامها الزائلة، ﴿وَكَانَ﴾ من كمال تنزهه عن العلائق والعوائق العائقة عن التوجه الخالص نحو الحق ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ الذي ربّاه على كمال الرضا والتسليم ﴿مَرْضِيًا﴾ [مريم:55] لوفائه الوعد، واستقامته فيه، وصبره على ما جرى عليه من البلوى.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أيضًا ﴿إِدْرِيسَ﴾ صاحب دراسة التوحيد والعرفان، وقالع أهوية النفس وأمانيها بشدائد الرياضات والمجاهدات في مسالك التصديق والإيقان ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال رشده وحكمته ﴿كَانَ صِدِّيقًا﴾ مبالغًا في التصديق والتحقيق ﴿نَّبِيًا﴾ [مريم:56] مبعوثًا إلى الناس كسائر الأنبياء للهداية والتكميل.

﴿وَ﴾ لعلو شأنه وسموّ برهانه وكمال تصفيته، وتزكيته عن لوازم البشرية ﴿رَفَعْنَاهُ﴾ تلطفًا إياه ﴿مَكَانًا عَلِيًا﴾ [مريم:57] هو أعلى درجات المعرفة والتوحيد.

وقيل: إلى السماء الرابعة أو السادسة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المذكورون من زكريا إلى إدريس كلهم أنبياء الله، وأُمناؤه في أرضه؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، واصطفاهم من بين البرية للهداية والتكميل، وهم ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ المنتشئين ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

في السفينة حين ظهر الطوفان على وجه الأرض ﴿وَ﴾ بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنه يعقوب الملقب من عند الله ﴿إِسْرَائِيلَ وَ﴾ وكلّ منهم ﴿مِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ إلى توحيدنا ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ من بين البرايا للتكميل والتشريع، ووضع الأحكام بين الأنام كلهم من كمال يقينهم وعرفانهم وتمكنهم في مقر التوحيد ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ ودلائل توحيده وتجريده ﴿خَرُّوا﴾ خرورَ تواضعٍ ورهبةٍ ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة والهوان، راجين من سعة رحمته على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَبُكِيًّا﴾ [مريم:58] باكين خائفين من خشية الله بمقتضى قهره وجلاله، فإن المؤمن لا بدَّ أن يكون في جميع حالاته بين الخوف والرجاء.

ثم لما ظهر على الأرض التي هي محل الشرور والفتن وأنواع الفسادات ما ظهر من أنواع المكروهات والمنكرات، وهم عند ظهورها واشتهارها بذلوا جهدهم في تنفيذ الأحكام الشرعية المنزلة على مقتضى زمان كلٍ منهم، فكملوا وأرشدوا مقدار جهدهم وطاقتهم.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ واستعقبهم ﴿خَلْفٌ﴾ سوءٌ ـ بالسكون ـ لا خلَف جيد صدق ـ بالحركة ـ قد ﴿أَضَاعُوا﴾ وأبطلوا ﴿الصَّلاةَ﴾ المقربة نحو الحق مع أنها من أقوى أسباب الإيمان ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ النفسانية المبعدة عنه الجالبة لأنواع العذاب والنكال، وأباحوها لنفوسهم وأصروا على إباحتها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾ في النشأة الأولى ﴿غَيًّا﴾ [مريم:59] شرًا وخسرانًا أو عذابًا ونيرانًا يترتب على شهواتهم ولذاتهم الفانية.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ ورجع عنها نادمًا ولم يرجع إليها أصلاً ﴿وَآمَنَ﴾ أي: صدق حرمتها ﴿وَ﴾ بعد التوبة والرجوع ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾ ليصلح ما أفسد بمتابعة الهوى ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ التائبون الآيبون النادمون عما صدر عنهم من متابعة الهوى بإغواء الشيطان وإغرائه ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ لسائر المؤمنين المطيعين ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم:60] أي: لا يُنقصون شيئًا من درجات المؤمنين الغير العاصين، إن كانت توبتهم على وجه الإخلاص والندامة الكاملة، بل لهم كسائر عباد الله.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ تفضلاً عليهم وجزاءً لأعمالهم وإيمانهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: بلوح القضاء ومضي العلم يصلون إليها ويتمكنون فيها ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال عطفه ورحمته لعباده ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذي وعده إياهم ﴿مَأْتِيًّا﴾ [مريم:61] أي: حاصلاً بلا ريبٍ وترددٍ.

ومتى دخلوا في دار السلام ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ من أحدٍ ﴿لَغْوًا﴾ فضولاً من الكلام ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ من كل جانبٍ تحيةً وتكريمًا وترحيبًا ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ الصوري والمعنوي معدًا مهيأ ﴿فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(1) [مريم:62] أي: مستوعبًا لجميع الأوقات؛ إذ أكلها دائم.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة الموعودة ﴿الَّتِي نُورِثُ﴾ أي: نوطن ونمكن ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ فيها ﴿مَن كَانَ﴾ منهم ﴿تَقِيًّا﴾ [مريم:63] متصفًا بالتقوى حَذِرًا عن الهوى خائفًا.

﴿وَ﴾ بعدما أبطأ الوحي على رسول الله حين سأله المشركون من قصة أصحاب الكهف وأمر الروح وقصة ذي القرنين، فوعد لهم الجواب ولم يستثنِ، وانقطع الوحي خمسة عشر يومًا - وقيل: أربعين - حتى عيّروه واستهزءوا معه؛ حيث قالوا: ودّعه ربه وقلاه.

ثم لما نزل جبريل عليه السلام استبطأ نزولَه وشكا، قال جبريل عليه السلام في جوابه: نحن معاشر الملائكة ﴿مَا نَتَنَزَّلُ﴾ ونوحي إلى أحدٍ ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وإنزاله وإرساله؛ إذ التصرف ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: عندنا وفي علننا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: في سرنا واستعدادنا، وما غاب عنا وخفي علينا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الطرفين المذكورين، وبالجملة: مستوعبٌ بنا، محيطٌ لجميع أحوالنا بلا فوت شيءٍ وغيبته عنه، بل الكل حاضرٌ عنده ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾ تعالى شأنه ﴿نَسِيًّا﴾ [مريم:64] حتى يُنسب إبطاء الوحي إلى نسيانه.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾
وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ
يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا

(1) إن الله سبحانه حثّ حبيبه على ذكر خليله -عليهما السلام- وما جرى عليه من أحكام الخلة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ
الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي
الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ
هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: 65 – 76].

وكيف يتصور نسيانه؛ إذ هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يعزب ويغيب عن علمه شيء منها لمحةً، وإذ تحققتَ ما تلونا عليك يا أكمل الرسل وتأملتَ في معناه حق التأمل والتدبر ﴿فَاعْبُدْهُ﴾[1] راجيًا منه العناية على العبادة وجزاء الخير ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ وتحمل لمتاعبها، واثبت عليها، ولا تستعجل بوحيٍ ما قصدتَ وأحببتَ نزوله، ولا تقنط أيضًا؛ إذ الكل بيده مرهونٌ بوقتٍ، ولا تضطرب من استهزاء الكفرة وسخريتهم، وكيف اضطربت ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ وتسمع ﴿لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:65] مثلاً مسمىً بالإله المستحق للتوجه والعبودية لإنجاح المطلوب سواه حتى ترجع إليه، فلكَ العبادة والاصطبار وتركُ الاضطراب والاستعجال، وتفويض جميع الأمور إلى الكبير المتعال.

﴿وَ﴾ من غاية الجهل ونهاية الغفل عن ربوبيته ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ﴾ المجبول على النسيان والكفران بنعم الله وإنكار قدرته على إعادة المعدوم: ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ﴾ وصرتُ عظامًا ورفاتًا ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من الأرض ﴿حَيًّا﴾ [مريم:66] سويًا مُعادًا؟! كلا وحاشا هذا محالٌ باطلٌ، وضلالٌ ظاهرٌ.

---

(1) قال الشيخ نجم الدين: يشير إلى أنه تعالى خالق ورب سماوات الأرواح وأرض الأجساد وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار، فاعبده بجسدك ونفسك وقلبك وسرك وروحك، فعبادة جسدك إياه بأركان الشريعة وهي: الائتمار بما أمرك الله به، والانتهاء عمّا نهاك الله عنه، وعبادة نفسك بآداب الطريقة وهي: ترك موافقات هواها، ولزوم مخالفة هواها، وعبادة القلب بالإعراض عن الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة ومكارمها، وعبادة السر خلوة عن تعلقات الكونين اتصالاً بالله ومحبة له، وعبادة الروح ببذل الوجود لنيل الشهود.

﴿أَ﴾ ينكر المنكر المصرُ على قدرتنا، ويصرُ على الإنكار ﴿وَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾ المكابر المعاند ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وأبدعناه ﴿مِن قَبْلُ وَ﴾ الحالُ أنه ﴿لَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 67] أي: مما يطلق عليه الشيء، ولا مسبوقٌ بشيءٍ، فقدرنا على إيجاده وإظهاره من العدم الصرف، ولِمَ لَمْ نقدر على إعادته بعد سبق أجزائه، والإعادةُ والإبداءُ وإن كانا عندنا على السواء، إلا أن الإعادة بالنسبة إلى فهمهم أسهل وأيسر من الإبداء والإبداع لا عن شيءٍ.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الذي هو أعظم الأسماء الإلهية وأشملها وبعزته وجلاله ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أولئك الضالين ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ المضلين لهم معهم، منخرطين في سلسلتهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ مقيدين مغلولين ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:68] باركين على الركب، قائمين على أطراف الأصابع بلا تمكنٍ لهم واطمئنانٍ مثل الجاني الخائف عند الحاكم القاهر القادر على أنواع الانتقام.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حشرهم وإحضارهم على النار ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ أي: ننتخبن ونخرجن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: فرقةٍ شاعت منهم موجبات العذاب والنكال ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ﴾ المفيض لهم أنواعَ الخيرات والبركات ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم:69] جراءةً على العصيان له وعلى ترك أوامره وارتكاب نواهيه، ليطرح أولاً على مقر النار، ثم الأمثل فالأمثل إلى انطراح الكل فيها على تفاوت طبقاتهم ودرجاتهم في موجباتها قوةً وضعفًا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انتزاعها وانتخابنا ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى﴾ وأحق ﴿بِهَا﴾ أي: بدخول النار ﴿صِلِيًّا﴾ [مريم:70] أي: دخولاً وطرحًا أوليًا سابقًا على الكل، وهم الرؤساء الضالون المضلون؛ إذ يضاعف عذابهم لضلالهم وإضلالهم.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لبني آدم بأجمعهم: لا تغتروا بدنياكم ولذاتها وشهواتها، ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِن مِّنكُمْ﴾ أي: ما منكم أيها المتلذذون بزخرفة الدنيا ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: واردُ النار وواقعُها، ذاق كلُ منكم من عذابها مقدارَ ما يتلذذ من الدنيا.

أمَّا المؤمنون المطيعون المتقون الذين يقنعون في الدنيا بسدِّ جوعةٍ ولبس خشنٍ وكنٍ ضروري، فيمرون عليها وهي خامدةً عبرة لهم منها وشكرًا لنعمة النجاة عنها.

وأمَّا المؤمنون العاصون التائبون، فيذوقون من عذابها مقدار تلذذهم بالمعاصي، ثم يخرجون على مقتضى عدله سبحانه.

وأمَّا أصحاب الكبائر من المؤمنين الخارجين من الدنيا عليها بلا توبةٍ، وعموم

الكفرة والمشركين، فهم الواردون المقصورون عل الورود فيها إلا أن المؤمنين تلحقهم الشفاعة.

وأمّا الكفرة فهم الخالدون المخلدون لا نجاة لهم منها أصلاً.

ولا تترددوا أيها السامعون ولا تشكّوا في المذكور؛ إذ ﴿كَانَ﴾ ورودكم وعرض النار عليكم من جملة الأحكام المبرمة الإلهية التي وجب ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وجوبًا ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:71] محققًا بلا شبهةٍ وتخلفٍ أوجبها سبحانه على نفسه لِحِكَمٍ ومصالحَ خص سبحانه في سترها ولم يفش على أحدٍ.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الورود والوصول ﴿نُنَجِّي﴾ ونخلص ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارمنا في النشأة الأولى اتقاءً من سخطنا وطلبًا لمرضاتنا ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا خالدين ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:72] لا يمكنهم الخروج والتجاوز عنها أصلاً، بل صاروا مزدحمين فيها مضيّقين معذّبين بأنواع العذاب أبد الآباد.

﴿وَ﴾ كيف لا يخلدون في النار، وهم من كمال غيّهم وضلالهم ونهاية غفلتهم وقسوتهم ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ في نشأة الاختبار ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالّة على توحيدنا وكمالِ قدرتنا على الإنعام والانتقام مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ في الإعجاز بلا ريبٍ وترددٍ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدما عجزوا عن معارضتها وأُفحموا عن المقابلة معها، متشبثين بما عندهم من المال والجاه والثروة والرئاسة، مفتخرين بها قائلين على سبيل التهكم ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ: الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: أنحن الأغنياء المتلذذون بأنواع اللذات المتمكنون بجميع المرادات والشهوات، أم أنتم أيها الفقراء الضعفاء المحتاجون بما تقتاتون في يومكم هذا؟! ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أي: مرتبةً ومكانًا عند الله ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:73] مجلسًا ومنزلاً عنده، ولولا أنا أفضل وأخير منكم عند الله، لما أعطانا ما أعطانا ولما منع عنكم ما منع.

ثم لما افتخروا وتفضلوا على المؤمنين بما عندهم من حطام الدنيا وزخرفتها، ردَّ عليهم وهدّدهم على الوجه الأبلغ الأتم، فقال على سبيل العبرة: ﴿وَكَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ في الأزمنة الماضية ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ﴾ وأكثر من هؤلاء المفتخرين المعاندين ﴿أَثَاثًا﴾ أي: من جهة الأمتعة الدنيوية، وما يترتب عليها من الجاه والثروة والكبر والخيلاء ﴿وَ﴾ أحسن ﴿رِءْيًا﴾ [مريم:74] أي: زينةً وبهاءً.

ثم لما لم يتذكروا بالآيات والنذر، ولم يتفطنوا منها إلى توحيد الحق وصفاته،

ولم يشكروا نِعَمَه، بل أصروا واستكبروا بما عندهم من المزخرفات الفانية، فهلكوا واستؤصلوا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿مَن كَانَ﴾ منغمسًا منهمكًا ﴿فِي الضَّلالَةِ﴾ مجبولاً عليها ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ وليمهله ﴿مَدًّا﴾ مهلاً طويلاً، وليمتعهم تمتيعًا كثيرًا؛ أي: رغدًا واسعًا ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل والكتب ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ العاجل لهم في النشأة الأولى بأن غلب المسلمون عليهم، فقتلوهم وأسروهم، وضربوا الجزية عليهم مهانين صاغرين ﴿وَإِمَّا﴾ تأتيهم ﴿السَّاعَةَ﴾ بغتةً ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ إذًا بالعيان والمشاهدة ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ومقامًا عند الله ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم:75] أو أقلُّ ناصرًا ومعينًا.

﴿وَ﴾ بعدما صار مَآلُ الكفار وبالاً عليهم ومنالُهم نكالاً لهم ﴿يَزِيدُ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده المؤمنين ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ إلى زلال عرفانه وتوحيده ﴿هُدًى﴾ هدايةً ورشادًا باقيًا أزلاً وأبدًا بدل ما نقص عنهم من حطام الدنيا الفانية ومتاعها الزائلة الذاهبة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ المقربة إلى الله، المستتبعة لأنواع الفضل والثواب ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ثَوَابًا﴾ عائدةً وفائدةً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًا﴾ [مريم:76] أي: منقلبًا ومآبًا؛ لأن مآل الأموال والجاه والثروة إلى الحسرة والخسران، ومآل العبادات إلى الجنة والغفران.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم: 77 – 88].

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للكافر المستكبر: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أيها الرائي الطاغي الباغي ﴿الَّذِي كَفَرَ﴾ أنكر وأعرض واستكبر ﴿بِآيَاتِنَا﴾[1] الدالة على

(1) قال الشيخ نجم الدين: يشير إلى من كفر ستر الحق، وأنكر على أهل الصدق من أرباب الطلب

عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا ﴿وَقَالَ﴾ مقسمًا مبالغًا على سبيل الاستهزاء والسخرية: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ وأعطين في النشأة الأخرى أيضًا إن فُرِض وجودُها ﴿مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم:77] مثلما أعطيت في هذه النشأة، هذا من غاية اغتراره ونهاية ذهوله وغفلته واعتقاده كبرًا وخيلاء أنه حقيقٌ بهذه المرتبة حيثما كان.

فردَّ الله سبحانه عليه على أبلغ الوجوه وآكده بقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي: أيدعي هذا الطاغي التائه في تيه الغفلة والجهل علم الغيب واطلاع السرائر ﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ وأخذ ﴿عِندَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من عنده على لسان نبيٍ من أنبيائه أو مَلَكٍ من ملائكته ﴿عَهْدًا﴾ [مريم:78] ليعطيه في الآخرة مالاً وولدًا؟! إذ لا معنى للجزم بهذه الدعوى وتأكيدها بالحلف إلا بأحدِ هذين الطرفين.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا ليس لهذا الجاهل الكذاب لا ذاك ولا هذا، بل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ ونأمر الحفظةَ أن يكتبوا ﴿مَا يَقُولُ﴾ هذا المسرف المغرور اغترارًا بماله وجاهه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ ونزيد عليه يوم الجزاء ﴿مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ [مريم:79] أي: عذابًا فوق العذاب أضعافًا وآلافًا بكفره وإصراره واغتراره على كفره وعتوه على أهل الإيمان واستهزائه إياهم.

﴿وَ﴾ بعدما نهلكه ونميته ﴿نَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نرث ما يقول ويفتخر به من الأموال والأولاد وغيرها، ونخلعها عنه ونجرده؛ بحيث لا يبقى معه شيٌ منها ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم العرض والجزاء ﴿فَرْدًا﴾ [مريم:80] صفرًا خاليًا بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا إيمانٍ ولا عملٍ.

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله ونهاية غفلتهم عن حقِّ قدْره وقدْر توحيده واستقلاله واستيلائه ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ من تلقاء أنفسهم وعلى مقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿لِيَكُونُوا﴾ أي: آلهتهم ﴿لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم:81] أي: بسبب عزهم وتوقيرهم عند الله يشفعون لهم ويخففون عذابهم.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عما اعتقدوا من الفوائد العائدة لهم من عبادة الأوثان والأصنام

وأصحاب الحقائق الذين أنعم الله عليهم بالكشوف والعلوم اللدنية، وهم يتكلمون بها، فالمنكر يعترض عليهم وعلى أقوالهم وأحوالهم، ويقول: إنكم أعرضتم عن الكسب، واعتمدتم على أموال الناس وصدقاتهم، واعتزلتم النساء، وحرمتم عن الأولاد والأموال وأنا أعبد الله، كما تعبدونه.

من الوصلة والشفاعة والتسبب للنجاة، بل ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ وينكرون أولئك المعبودون يومئذ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الكفرة إياهم ﴿وَ﴾ كيف يشفعون لهم حينئذٍ، بل ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:82] يضادون عليهم، ويعادون بل يريدون مقتهم وازدياد عذابهم.

ثم لما تعجب ﷺ من قسوة قلوب الكفرة، وشدة عمههم وسكرتهم في الغفلة، وعدم تفطنهم وتنبههم بحقية آيات التوحيد مع وضوحها وسطوعها، مع أنهم من زمرة العقلاء المجبولين على فطرة المعرفة والإيقان، سيما بعد ظهور الحق وعلو شأنه، وارتفاع قدره برسالته ﷺ، ونزول القرآن له، واختتام أمر البعثة والتشريع به ﷺ ، وهم بعد منكرون.

أشار سبحانه إلى سبب غيِّهم وضلالهم وتماديهم فيها على وجهٍ يزيح تعجبه ﷺ فقال مخاطبًا له: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا أكمل الرسل ولم تتفطن ﴿أَنَّا﴾ بمقتضى اسمنا المذل ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ المضلين ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين أردنا إضلالهم وإذلالهم في سابق علمنا ولوح قضائنا وسلطناهم عليهم؛ بحيث ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ أي: تهزهم وتحركهم وتغريهم بتسويلاتهم نحو المعاصي والآثام، وتوقعهم بأنواع الفتن والإجراء، وتحبب عليهم الشهوات واللذات النفسانية المستلزمة المستجلبة لأنواع العقوبات، المبعدة عن المثوبات والفوز بالمرادات ﴿أَزًّا﴾ [مريم:83] هزًّا دائمًا؛ بحيث صارت قلوبهم المعدة بالفطرة الأصلية للمعرفة والتوحيد مطبوعةً مختومةً بغشاوةٍ عظيمةٍ وغطاءٍ كثيفٍ، لا يُرجى انجلاؤها أصلاً، لذلك لم يتفطنوا بظهور الحق ولوائح آياته ولوامع علاماته، مع كمال وضوحها وانجلائها وتشعشعها.

﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما علمتَ حالهم بإهلاكنا إياهم وانتقامنا عنهم، ولا تيأس من إمهالنا وتأخيرنا إهلاكهم أن نهمل عن أخذهم وانتقامهم، بل ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ بإمهالنا إياهم أيام آجالهم وأوقاتها ﴿عَدًّا﴾ [مريم:84] متى وصل وقتها أخذناهم واستأصلناهم، بحيث أمِنت أنت ومن معك من المؤمنين من شرورهم وفسادهم.

اذكر يا أكمل الرسل﴿يَوْمَ﴾ الحسرة للكافرين؛ إذ ﴿نَحْشُرُ﴾ ونجمع فيه ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين الذين يحفظون نفوسهم عن المنهيات والمحظورات الواردة في الكتب الإلهية المنزلة على الرسل المبينين لها ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:85]

وافدين فرقةً بعد فرقةٍ؛ ليجازوا بالرحمة والمغفرة، ويستغرقوا بها جزاء إيمانهم وتقواهم، ويتفضلوا بالرضوان تفضلاً عليهم وزيادة كرامة لهم.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يومئذ سَوق البهائم المجرمة الجانية إلى السجن والحبس بالقهر والغضب التام ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ التي هي أسوأ الأماكن وأظلمها وأعمقها ﴿وِرْدًا﴾ [مريم:86] ورود البهائم إلى المجالس والأغوار بزجرٍ تامٍ من الضرب المؤلم والتصويب وغيرهما.

وهم في تلك الحالة حيارى مضطربين، لا تنفعهم أعمالهم ولا معبوداتهم الباطلة، ولا يشفعون لهم ولا ينقذونهم من النار كما زعموا.

وكيف يشفعون لهم معبوداتهم؛ إذ هم ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ لأنفسهم ليخففوا العذاب عنهم متى أرادوا، بل لا شفاعة لهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ﴾ وحصل له ﴿عِندَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من عنده ﴿عَهْدًا﴾ [مريم:87] إذنًا بالشفاعة لمن أراد سبحانه إنقاذه بشفاعة ذلك الشفيع كشفاعة بعض الأنبياء لعصاة أممهم، إن أذن لهم الرحمن المستعان.

﴿وَ﴾ كيف يحصل لهؤلاء الهالكين النجاة من نيران الحرمان، والخلاص من سعير الخذلان والخسران، مع جرمهم الذي هو أعظم الجرائم عند الله وأفحشها؛ حيث ﴿قَالُوا﴾ مفرطين في حق الله من غاية انهماكهم في الغفلة عنه وعن قدره ورتبته: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ﴾ المنزهُ عن وصمة الكثرة وشين النقصان، المقدسُ عن سمة الحدوث والإمكان ﴿وَلَدًا﴾[1] [مريم:88] هو أقوى أمارات الإمكان وعلامات الاستكمال والنقصان.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾

(1) قال الشيخ نجم الدين: يشير إلى أن تجاسرهم وتعديهم في مثل هذا القول إنما كان من نتائج صفة الرحمانية إذ هم بها أقدموا على هذا القول؛ لأنه تعالى كان عالمًا سرهم بأحوالهم أنهم خلقوا على هذه السجية ولا بدّ بأن يصدر منهم هذه المقالة، فلولا صفة الرحمانية لما سامحت الألوهية بإيجادهم، فبالرحمانية خلقوا، وبالرحمانية قد نطقوا بالرحمانية.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ
لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا
﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾
[مريم: 89 – 98]

والله أيها المفترون على الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ بإثبات الولد له سبحانه ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:89] منكرًا عظيمًا، ومفترىً شنيعًا فظيعًا، إلى حيث ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ ويتشققن مع متانة قوائمها وشدة التئامها ﴿مِنْهُ﴾ أي: من سماع قولكم هذا ونسبتكم هذه، هولاً ورهبة من صولة قهر الله وسطوة غضبه ونزول عذابه ﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَ﴾ كذا ﴿تَخِرُّ﴾ وتسقط ﴿الجِبَالُ﴾ خرور خشيةٍ وهولٍ ﴿هَدًّا﴾ [مريم:90] أي: سقوطًا واصلاً إلى التفتت والتشتت والاندكاك بالمرة، بحيث اضمحلت رسومها مطلقًا.

كل ذلك من خوف سطوة صفاته الجلالية، ومقتضيات أسمائه القهرية، المنبعثة من الغيرة الإلهية، الناشئة منه سبحانه بواسطة ﴿أَن دَعَوْا﴾ وأثبتوا ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المقدس المبرئ في ذاته عن لوازم الحدوث والإمكان ﴿وَلَدًا﴾ [مريم:91].

﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ ويليق ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المتجلي في كلّ آن وشأن، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ زوجةً ويتسبب بها ليظهر ﴿وَلَدًا﴾ [مريم:92] يستخلفه ويستظهر به ويستعين منه، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

بل ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة جمال الله، المستوحشين من سطوة جلاله ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: مَن في عالم الطبيعة المتوجهة نحو مبدعها طوعًا ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ﴾ الممهِد الممد لهم أظلال أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، المفيضِ عليهم من رشحات بحر وجوده، بمقتضى فضله وجوده ﴿عَبْدًا﴾ [مريم:93] متذللاً مقهورًا تحت تصرفه، مصروفًا حسب قدرته وإرادته، محاطًا تحت حيطة حضرة علمه ولوح قضائه.

إلى حيث ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ وفصلهم، لا يشذ شيءُ من أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وجميع حالاتهم حتى اللمحة واللحظة والطرفة والخطرة من حيطة حضرة علمه وقبضة قدرته واختياره ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:94]

أي: فردًا فردًا، وشخصًا شخصًا، مع جميع العوارض المتعلقة بكل فردٍ وشخصٍ، ما داموا في هذه النشأة، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ﴾ أيضًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:95] منفردًا مفروزًا عن الأنصار والأعوان وجميع الأصحاب والخلان.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المنتخبين المنتجبين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وتوحيده، وأطاعوا لرسله المؤيَّدين من عنده وامتثلوا بجميع ما جاءوا به من الأوامر والنواهي المبيَّنة في الكتب الإلهية المنزَّلة عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من النوافل المقربة إلى الله طلبًا لرضاه وابتغاءً لوجهه ﴿سَيَجْعَلُ﴾ ويحدِث ﴿لَهُمُ الرَّحْمَنُ﴾ المتكفل لجزائهم وإثابتهم بمقتضى سعة رحمته وجوده ووفور لطفه ﴿وُدًّا﴾ [مريم:96] ومحبةً في قلوب جميع المؤمنين حتى يحبوهم، ويتحننوا نحوهم، بلا سبق الوسائل والأسباب العادية الموجبة لمودة البعض للبعض من الإنعام والإحسان وأنواع العطية والإكرام، مع محبة عموم عباد الله للبدلاء المنسلخين عن مقتضيات لوازم البشرية.

ثم قال سبحانه امتنانًا على حبيبه، وإشارةً إلى عظم رتبة القرآن الجامع لجميع المعارف والأحكام، بعدما بيَّن في هذه السورة من معظمات مهام الدين من العبر والتذكيرات والأخلاق والآداب: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ وسهلناه وأنزلناه على لغتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن مخالفة ما أُمروا به ونُهوا عنه ببشارةٍ عظيمةٍ عنايةً من الله إياهم وفضلاً، وهي تحققهم بمقام الرضا والفوز بشرف اللقاء ﴿وَتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: بوعيداته وأنواع العذاب المذكورة فيه ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:97] لدودًا لجوجًا، مفرطين في اللدد والعناد، مصرين على ما هم عليه من الفسق والفساد.

﴿وَ﴾ لا تبالِ يا أكمل الرسل بتماديهم في لددهم وعنادهم، ولا تحزن من عتوهم وفسادهم؛ إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أهلكنا كثيرًا من أقوامٍ مضوا، كانوا متمادين أمثالهم في الغي والضلال، مصرين على المراء والجدال.

تأمل والتفت يا أكمل الرسل وتشعر ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ أي: وتشعر ﴿مِنْهُم﴾ من المهلكين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ نجا، وبقي سالمًا من قبضة قدرتنا وسطوة قهرنا وغضبنا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:98] صوتًا خفيًا يُسمع من قبورهم ومدافنهم، بل صاروا كأن لم يكونوا أصلاً، وما ذلك وأمثاله علينا بعزيز.

رب اختم عواقب أمورنا بالخير والحسنى.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في الأسماء الحسنى الإلهية، والمستكشفُ عن رموز صفاته الثبوتية والسببية والجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية، وجميع الأوصاف المتقابلة -والمتماثلة الإلهية، أن تتعمق وتتأمل في معنى اسم الرحمن الذي كرره سبحانه في هذه السورة مرارًا كثيرةً، وتدبَّر فيه كي تصل وتستكشف إلى أن مبدأ جميع ما ظهر وبطن، وكان ويكون، إنما هو هذا الاسم المشير إلى سعة رحمة الحق، ووفور جوده وفضله على مظاهره ومصنوعاته؛ إذ به استوى سبحانه على عروش جميع الكوائن والفواسد، وبه ظهر ما ظهر من كتم العدم.

وبالجملة: ما من موجودٍ محققٍ محسوسٍ أو مقدرٍ مخطورٍ، إلا وهو في حيطة هذا الاسم وتحت تربيته وتصرفه، بحيث لو انقطع إمداده عن العالم طرفةً لم يبقَ للعالم ظهور ووجود أصلاً.

ومتى تحققتَ بهذا الاسم العظيم، وتيقنت شموله وإحاطته لجميع المظاهر شمول عطفٍ ولطفٍ، فزتَ بحقيقة قوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:93].

جعلنا الله ممن تحقق بمعاني أسمائه الحسنى، واستكشف عن سرائر صفاته الأسنى، بفضله وطَوله، وسعة رحمته وجوده.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة طه

لا يخفى على ذوي البصائر المستكشفين عن مراتب الوجود بفيضان الكشف والشهود، بلا ملاحظة الرسوم والحدود مثل أصحاب القيود أن للوجود البحت الخالص عن جميع الاعتبارات باعتبار ظهوره في مظاهر الإعدام مراتب كثيرة تقبل بسببها الإضافات الغير المحصورة، فله باعتبار ظهوره في كل مرتبةٍ من المراتب الكلية والجزئية أسماءُ كليةُ ومظاهر جزئيةُ تظهر في كلٍّ منها بواسطة اسمٍ خاصٍ من الأسماء.

وأعلى المراتب التي هي مصدر جميعها ومآل الكل إليها، ومصيرها المرتبة التي طُويت دونها المراتب، وقصُرت عن دركها العقول، وكلَّتْ عن وصفها الألسن، وأرتِجَتْ[1] دونها طرق الوصول، واضمحلتْ هناك السِّمات والعلامات، وبطُلَت العبارات والاعتبارات، وارتفعت الجهات والإشارات.

وتلك المرتبة هي المرتبة الأحدية الصمدية التي لا يمكن فيها تمكن الكثرة؛ لأن الكثرة إنما تنشأ من الإضافة، والإضافةُ إنما تتُصور بين اثنين فصاعدًا ولا اثنينية هناك أصلاً.

وهذه هي المرتبة المحمدية التي انتهت إلى المراتب كلها عروجًا، كما ظهرت منها ظهورًا في بدء الأمر؛ لذلك أشار سبحانه في أول هذه السورة إلى مرتبته ﷺ إرشادًا لعباده وامتنانًا لهم؛ ليكون قِبلةً لكل طالب سالكٍ إلى جنابه، وراغبٍ ناسكٍ إلى بابه، وفي آخرها أيضًا؛ ليُشعر بأن مرتبته ﷺ بداية المراتب ونهايتها؛ إذ هناك اتحد قوسي الوجوب والإمكان، والغيب والشهادة.

ولما كانت مرتبته ﷺ مبدأ الكل ومنتهاه، كانت بمقتضى الرحمة العامة طالبةً لهداية الكل ورجوعه إليها؛ لذلك ناداه سبحانه على وجهٍ يُشعر بطلبه هدايتهم إلى

---

(1) أَرْتَجْتُ الْبَابَ إِرْتَاجًا: أَغْلَقْتُهُ إِغْلَاقًا وَثِيقًا، وَمِنْهُ قِيلَ: أُرْتِجَ عَلَى الْقَارِئِ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْقِرَاءَةِ كَأَنَّهُ مُنِعَ مِنْهَا. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (3/349).

مرتبته؛ حيث قال ﷻ مخاطبًا له ﷺ، بعد ما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بجميع أسمائه وصفاته المترتبةِ عليها جميع مراتب الوجود في المرتبة الجامعة المحمدية، التي منها ظهور الكل، وإليها رجوعه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ بإظهار الكل منها في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإعادتها إليها في النشأة الأخرى.

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: 1 – 12].

﴿طه﴾(1) [طه:1] يا طالب الهداية العامة على كافة البرايا.

---

(1) قال روزبهان: أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من قلبه من علوم السرّية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبديهة لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طواف روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب فوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخلقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل ويا مطهرًا من الأكوان والمحدثان، يا هاديًا بنوري خلقي إليّ ما وطئ أحد على بساط هويتي أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ سرك سر هويتي بهوائي تهوى وتلطفت بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:1] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك. قال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي

﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ من مقام إرشادنا وتكميلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ أيها المتوجهُ إلى السعادة الأبدية، المعرضُ عن الشقاوة ﴿الْقُرْآنَ﴾ الفرقانَ بين الهداية والضلالة، والسعادة والشقاوة ﴿لِتَشْقَى﴾ [طه:2] أي: لتكون شقيًا بنزوله بعدما كنت سعيدًا قبله كما توهمه الكفار.

بل ما أنزلناه ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ للسعادة العظمى لك ولمن تبعك، لا لكل أحدٍ منهم بل ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:3] من إنذاراته وتخويفاته، وامتثل بأوامره، واجتنب عن نواهيه؛ إذ أنزل القرآن عليك من عموم رحمتنا على كافة الخلق.

لذلك نزلناه ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ﴾ أي: من اسمنا الذي بواسطته ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ أي: أوجدنا العالم السفلي ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:4] أي: العالم العلوي، وذلك الاسم هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي ظهر واستقر بالرحمة العامة ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على عروش الذرائر، بحيث لا يخرج عن حيطة علمه ذرةُ من الذرات، بل ﴿اسْتَوَى﴾[1] [طه:5]

إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا. وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

(1) قال المحقق روزبهان: يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجبره وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الإحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حمل ذرة من كبرياء عظمته والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضًا إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالمًا وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والتسرمد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بر كنها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، ويا عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو

على جميعها.

مستو بغير علة اعوجاج الحدثية بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خاص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن مماسة الحدثان وملاصقة الأكوان. وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية وبساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشًا معنويًا روحانيًا ملكوتيًا رحمانيًا جبروتيًا، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلي صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه ببسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فيبسطه بسطًا لا نهاية له ويصير مبسوطًا يبسط التجلي حتى يكون مستقيمًا متمكنًا في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه بنعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنزه عن الورود على الحدثان لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن». ويا عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منزه عن الحلول الله، الله هو منزه أيضًا أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منزه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء. وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية. قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استولى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق وعرش الأرض محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقيبها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى.

إذ ﴿لَهُ﴾ الاستيلاءُ والإحاطةُ التامةُ على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ على ﴿مَا﴾ ظهر﴿فِي الأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسدات ﴿وَ﴾ كذا على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من الأمور الكائنة فيها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا﴾ هو كائنٌ وسيكون ﴿تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:6].

هذا باعتبار ظهوره واستيلائه على الآفاق الخارجة عنك ﴿وَ﴾ أما ظهوره واستيلاؤه على نفسك، فإنه يستولي على ذاتك وأفعالك وأقوالك؛ بحيث ﴿إِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ القولَ بالجهر منك، الذي تعلمه أنت أيضًا وغيرك، بل ﴿السِّرَّ﴾ الذي لا يعلمه غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ [طه:7] من السرِ الذي لا تعلمه أنت أيضًا من مقتضيات استعدادك قبل الخطور ببالك.

وإذا كان الحق محيطًا ومستوليًا على عروش ما ظهر وما بطن، فلا يكون الموجود الثابت إلا ﴿اللَّهُ﴾ أي: مسمى هذا الاسم الجامع جميع مراتب العالم بحيث لا يخرج عن حيطته شيء أصلاً؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجودَ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا المسمى الذي لا تعدد فيه أصلاً، فيكون أحدًا صمدًا فردًا وترًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا.

غايةُ ما في الباب أن ﴿لَهُ﴾ أي: لهذا المسمى ﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه:8] الكليةُ التي جزئياتها لا تُعدُّ ولا تُحصى، وباختلاف الأسماء، اختلفت الظهورات والتجليات عن المسمى.

وكما نبهناك يا أكملَ الرسل على ظهوراتنا في الكائنات مجملاً، نبّهناك عليها مفصلاً ﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد ثبت وتحقق عندك الكليم ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9] أي: قصةُ انكشافه من النار التي احتاج إليها هو وأهله في الليلة الشاتية المظلمة، وقت ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ مطلوبةً لدفع البرودة، ولوجدان الطريق في الظلمة ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ﴾ المحتاجين إليها في تلك الليلة: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي﴾ أوانس عندها مع إنسانٍ استخبره عن الطريق، وحين رجوعي إليكم ﴿آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ﴾ أتخذ منها سراجًا ﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ﴾ أي: مع السراج المسرجة منها ﴿هُدًى﴾ [طه:10] طريقًا موصلاً إلى مطلوبنا.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ مسرعًا؛ ليرجع إليهم دفعةً ﴿نُودِيَ﴾ من جانب الشجرة الموقدة ليقبل إليها فينكشف منها ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:11] المتحير في بيداء الطلب: اطلبني من هذه الشجرة الموقدة، ولا تستبعد ظهوري فيها حتى أنكشف لك منها.

﴿إِنِّي﴾ وإن ظهرتُ على هذه الصورة المطلوبة لك هذا ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: مطلوبك الحقيقي الذي ربيتك بأنواع اللطف والكرم، وابتليتك بأنواع البلاء في طريق المجاهدة؛ لتتوجه إليَّ فتعرفني، فالآن ارتفعت الحجب والقيود، وتحققتَ بمقام الكشف والشهود ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[1] فاسترح عن الطلب بعد وجدان الربِّ، وتمكَّن في مقعد الصدق ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار ﴿طُوًى﴾ [طه:12] أي: طويتَ التوجُّه إلى الغير، ولم يبقَ لك احتياج إلى الاستكمال.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا
يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾
قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ
آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾
اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا
بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: 13 –
37]

﴿وَ﴾ بعد وصولك إلى مقام الكشف والشهود ﴿أَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك من المكاشفين من أرباب الولاية للتكميل والرسالة على الناس الناسين التوجه إلى بحر الحقيقة، فعليك التوجه إلى الإهداء، والتجنب عن الميل إلى الهوى ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ أي: اقتصر في تكميلك ورسالتك ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه:13] إليك من مقام عظيم جودنا، ولا

(1) كما يفعل بحضرات الملوك أدباً، ولتنالك بركتها ولتكون مهيأً للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة: النعل يدل على الولد. نظم الدرر (5/ 238).

تلتفت إلى الأهواء الفاسدة، حتى لا تضل أنت، ولا تضلهم عن السبيل، فبلِّغ إلى الناس نيابة عني: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد المحيط بجميع مراتب الأسماء ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا جامع لجميع المراتب ﴿إِلَّا أَنَا﴾ الجامعُ لجميعها، المستحق للإطاعة والانقياد ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أنت حق عبادتي؛ أي: أحسن الأدب معي، وتخلَّق بأخلاقي ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: دوام الميل بجميع الأعضاء والجوارح ﴿لِذِكْرِي﴾[1] [طه:14] أي: توجه نحوي بجميع أعضائك وجوارحك لتذكرَني بها وتشكرَني بجميعها، حتى أنكشف لك من كلٍ منها بحيث كنتُ سمعك وبصرك ويدك ورجلك، إلى غير ذلك من جوارحك حتى قامت قيامتُك الكبرى، وقمتَ بين يدي المولى، وتمكنتَ في جنة المأوى، عند سدرة المنتهى، التي يرتقي وينتهي إليها عروجك في الصعود والارتقاء.

ثم قال سبحانه تعليمًا لعباده، وحثًا لهم على طلب الانكشاف التام: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: ساعة الانكشاف التام الذي لم يبقَ معه الطلب كانكشافك يا موسى ﴿آتِيَةٌ﴾ حاصلةٌ لكل أحدٍ من الناس دائمًا في كل آنٍ، لكن ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: أُخفي ظهورها لهم ﴿لِتُجْزَى﴾ أي: لتتمكن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بمرتبةٍ من المراتب الإلهية ﴿بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:15] أي: بسبب ما تجتهد فيه، وتكتسب من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي الجارية على ألسنة الرسل؛ لئلا يبطل سر التكليف والتشريع.

وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: فلا يصرفنك عن الأمر بالانكشاف التام إعراضُ ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ تقليدًا، حتى يطلبها تحقيقًا، بل أنكرَها وأعرضَ عنها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ المضلةُ في تيه الغفلة والحرمان ﴿فَتَرْدَى﴾ [طه:16] فتهلك بداء الجهل والخذلان.

وإذ اخترناك للرسالة العامة، وهبنا لك شاهدًا أصدق على دعواك الرسالة؛ لذلك سألناك أولاً بقولنا ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ الخشبةُ التي حملتَها ﴿بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[2] [طه:17]

(1) إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشيها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود، والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصلة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

(2) وأيةُ نعمةٍ أو مآربٍ أو منفعةٍ تكون أعظم مِنْ أنْ تقولَ لي : وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ - بعد ما عنْد موسى وجوه الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها - ولَكَ يا موسى فيها أشياءُ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً ، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانٌ صِدْقٍ .

المستكشفُ على حقائق الأشياء؛ يعني: هل تعرف فوائدها وما تترتب عليها، وما تؤول هي عليها، أم لا؟.

﴿قَالَ﴾ موسى على مقتضى علمه بها: ﴿هِيَ﴾ أي: هذه الخشبة ﴿عَصَايَ﴾ أستعينُ بها في بعض الأمور، وإذا عييتُ وتعبتُ ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ﴾ إذا احتجت إلى هشِّ الورق، وإسقاطه من الشجر لرعي الغنم ﴿أَهُشُّ﴾ وأسقط ﴿بِهَا﴾ ليكون علفًا ﴿عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا﴾ غير ذلك ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:18] من الاستظلال، ودفع الهوام، ومقاتلة العدو إلى غير ذلك.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ [طه:19] حتى تشهد آيتنا الكبرى ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ امتثالاً للأمر الإلهي ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه:20] تمشي علي بطنها كسائر الحيات، فخاف موسى منها، وتضيق صدره من قلة رسوخه وعدم تمرنه بابتلاءات الله واختباراته؛ لأنه كان في أوائل حاله.

﴿قَالَ﴾ سبحانه بعدما ظهرت أمارات الوجل منه: ﴿خُذْهَا﴾ هي عصاك يا موسى ﴿وَلاَ تَخَفْ﴾ من صورتها الحادثة، فإنا من كمال قدرتنا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ وصورتها ﴿الأُولَى﴾ [طه:21] التي هي في يدك، استعنتَ بها في بعض الأمور، وإنما بدلنا صورتها لتتنبه على أن لنا القدرة على إحياء الجمادات التي هي أبعد بمراحل عن إهداء الضالين من الأحياء.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ ذات شعاعٍ محيّرٍ للعقول والأبصار ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير حجاب يسترها وينقص من نورها؛ لتكون ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:22] لك أجلى من الآية السابقة.

وإنما أريناك الآيات قبل إرسالك إلى من أرسلناك ﴿لِنُرِيَكَ﴾ أولاً ﴿مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه:23] فيطمئن بها قلبك، ويقوى ظهرك بإمدادنا لك في رسالتك، وتأييدنا إياك فيها.

فإذا اطمئن قلبك وقوي ظهرك ﴿اذْهَبْ﴾ أيها الهادي بإهدائنا وتوفيقنا نيابةً عنا

ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (4 /493).

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الضال المستغرق في بحر العتو والعناد ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:24] أي: ظهر علينا مستكبرًا بقوله للضعفة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24] فبلّغ إنذاراتنا وتخويفاتنا، وزد عليها الدلائل العقلية والنقلية والكشفية؛ لعله يتنبه بها، وينزجر بسببها عما عليه من العتو والعناد.

وبعدما سمع موسى خطاب الله إياه ﴿قَالَ﴾ مشمّرَ الذيل إلى الذهاب طالبًا التوفيق من رب الأرباب: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع اللطف والكرم، وأعطاني الآيتين الكريمتين العظيمتين؛ لتكونا شاهدين على صدقي في دعواي ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:25] أي: وسّع قلبي؛ بحيث لا يخطر ببالي خوفٌ من العدو أصلاً.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَسِّرْ﴾ وسهِّل ﴿لِي أَمْرِي﴾ [طه:26] هذا؛ بحيث لا أضطربُ في تبليغه، ولا أستوحشُ من جاه فرعون وشوكته.

﴿وَ﴾ إذا شرعتُ لأداء الرسالة ﴿احْلُلْ﴾ وارفع لكنةً عارضةً من مهابة العدو، سيما هذا الطاغي ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه:27] كي ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[1] [طه:28] وغرضي منها.

﴿وَ﴾ إذا أوقعتني لأداء رسالتك يا ربي ﴿اجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ ظهيرًا، يصدِّقني في أمري، ويعينني عليه، ولا تجعل ظهيري من الأجانب؛ لقلة شفقتهم عليّ، وعطفهم بي، بل اجعله ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:29] وأقربائي أولى، وهو ﴿هَارُونَ﴾ إذ هو ﴿أَخِي﴾ [طه: 30] الأكبر بمنزلة الأب في الشفقة، وإذا جعلتَ هارون وزيري ﴿اشْدُدْ بِهِ﴾ أي: أقوِّ

---

(1) أي: لساني لسان الحدث، ويدله بلسان «قدوسي سبوحي صمداني رباني» حتى أطيق أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادرًا بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القدم مستحيلة.
وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بما يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنيعه لسانه نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة. ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكًا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكانأمن وفى المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداهما إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق.

وأحكم بسببه يا معيني ومغيثي ﴿أَزْرِي﴾ [طه:31] أي: ظهري ﴿وَ﴾ لا يتحقق تقويته على حقيقته إلا بعد اشتراك معي في أداء الرسالة ﴿أَشْرِكْهُ﴾ يا ربي ﴿فِي أَمْرِي﴾ [طه: 32] ورسالتي، بأن تنكشف عليه كما انكشفت لي؛ ليكون من المكاشفين، الموقنين بوحدانيتك يا ربي، الممتثلين بأوامرك، المجتنبين عن نواهيك.

وإنما سألتك يا ربي الإعانة بأخي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ ونقدسَ ذاتَك عما لا يليق بشأنك تقديسًا ﴿كَثِيرًا﴾ [طه:33].

﴿وَنَذْكُرَكَ﴾ ونناجيك بأسمائك الحسنى وصفاتك العظمى ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ [طه: 34].

وكيف لا نسبحك ونَذْكُرك ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأوصافك وأسماءك ﴿كُنتَ﴾ محيطًا ﴿بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:35] بجميع أحوالنا.

﴿قَالَ﴾ تعالى رفقًا له وامتنانًا عليه؛ لرجوعه إليه بالكلية: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: قد حصل لك جميع مطالبك؛ لتوجهك علينا، ورجوعك إلينا ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه: 36].

كيف ﴿وَلَقَدْ﴾ أنعمنا عليك حين لا ترقّبِ لك ولا شعورَ بأن ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ من وفور رحمتنا وشفقتنا لك ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ
بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ
أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ
نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ
طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن
يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾﴾ [طه: 38 – 51].

وقت ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ وألهمنا ﴿إِلَى﴾ قلب ﴿أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:38] وما يُلهم عند نزول البلاء لنجاة الأحياء وخلاصهم عن ورطة الهلاك، وذلك حين إحاطة شَرَطة فرعون المأمورين بقتل أبناء بني إسرائيل على بيت أمك؛ ليقتلوك ظلمًا، فاضطربت أمك، وآيست من حياتك.

فألهمناها حينئذٍ: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ واطرحيه ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ المصنوع من الخشب فاتَّخذتْ تابوتًا ووضعتْك فيها، ثم ألهمناها ثانيًا إذا وضعتِ فيه، توكلي على خالقه وحافظه وفوضي أمره إليه ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يعني: النيل، ولا تخافي من غرقه ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ألبتة؛ إذ من عادة الماء إلقاءُ ما فيه إلى جانبه، فإذا قرب من الساحل ورآه الناس ﴿يَأْخُذْهُ﴾ ويأمر بأخذه ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ يعني: فرعون المفرط بدعوى الإلهية لنفسه ﴿وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ يعني: الوليد، أو هو من أبناء بني إسرائيل، وهو عدوُ لهم بل هو سبب عداوة جميعهم في الحقيقة.

﴿وَ﴾ بعدما أمر عدوك بأخذك والتقاطك من البحر ﴿أَلْقَيْتُ﴾ من كمال قدرتي ووفور حولي وقوتي في نفس فرعون وزوجته آسية . رضي الله عنها . وأهل بيته ﴿عَلَيْكَ﴾ أي: على حفظِك وحضانتِك يا موسى ﴿مَحَبَّةً﴾ في قلوبهم مع شدة عداوتهم معك، وكانت تلك المحبة صادرةُ ﴿مِنِّي﴾ فظاهرهم حفظًا لك وإظهارًا لكمال قدرتي بأن أربيك في يد عدوك؛ لتكون سببًا لهلاكه ﴿وَ﴾ إنما ألقيتُ في قلوبهم المحبة مني ﴿لِتُصْنَعَ﴾ ولتربى أنت وإن كنت بيدَي العدو ظاهرًا ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39] أي: أعيان أوصافي وأسمائي؛ إذ الكل مظاهر ذاتي وأوصافي وأسمائي.

ومع إلقاء كمال المحبة والمودة مني في قلوبهم لحفظك وحضانتك، راعيتُ جانب أمك ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ مريم حين طلبوا لك مرضعةً بعدما أخرجوك من البحر ﴿فَتَقُولُ﴾ لهم على سبيل الوساطة والدلالة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ ويرضعه مع أنهم أحضروا كثيرًا من مرضعات البلد عندك لم تمص أنت ثديهن؛ إذ حرمنا عليك المراضع إنجازًا لما وعدنا على أمك، فقبلوا منها قولها، فطلبوا أمك، فأرضعتك فاستطابوا وأجروها لإرضاعك.

وبالجملة: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ امتنانًا لك بأن تحفظ أمك، ولأمك أيضًا ﴿كَيْ

﴿تَقَرَّ﴾ وتنوّر ﴿عَيْنُهَا﴾[1] بمشاهدتك بعدما ذهب نور عينها بمفارقتك.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ يا موسى في حالٍ من الأحوال، فأنا رقيبك من جميع ما يضرك ويؤذيك، ومعينك وناصرك على جميع ما أمرتك ﴿وَ﴾ اذكر أيضًا امتنانًا عليك وتذكر أيضًا وقت إذ ﴿قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ أي: شخصًا من آل فرعون، فهمُّوا بقتلك قصاصًا، وخفتَ منهم ومن العقوبة الأخروية أيضًا؛ لأنك قتلت نفسًا بلا رخصةٍ شرعيةٍ، وتحزنتَ لشناعة فعلك وخوف عدوك حزنًا شديدًا ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ وأزلنا حزنك الأخرويَ بقبول توبتك ورجوعك عن فعلك نادمًا مخلصًا، والدنيويَ بإخراجك عن ديارهم وإبعادك عنهم.

﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ وابتليناك أيضًا بعدما أخرجناك من بينهم ﴿فُتُونًا﴾ أي: ابتلاءً واختبارًا كثيرًا من الجوع والعطش وضلال الطريق ووحشة الغربة وكربة الوحدة وضيق الصدر والكآبة وتحمل مشاق السفر ومتاعبه، حتى تستعد لقبول الإرشاد والتكميل.

ثم بعدما اختبرناك بأمثال هذه الشدائد، أوصلناك وهديناك إلى مَدْيَن للاسترشاد والاستكمال ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ أي: ثمانيَ أو عشرَ سنين ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ عند نبينا

---

(1) قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه:40] يا موسى: ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه:40] أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسيّ القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلُّقات الذات والصفة، وقوله ﷺ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، قرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذَّة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك، وقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذُروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطَّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدَّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (1/275) بتحقيقنا.

وخليفتنا الكامل المكمل . وهو شعيب عليه السلام . لتسترشد منه، وتستكمل من شرف صحبته، وتتخلق بأخلاقه ﴿ثُمَّ﴾ بعد لُبثِك فيهم مدةً، واستكمالك من الرشد الكامل ﴿جِئْتَ عَلَى﴾ وطنك المألوف على ﴿قَدَرٍ﴾ أي: مقدارٍ عظيم من الكشف والشهود وفوق ما يحصل بالكسب والاجتهاد بل من لدنا ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:40] تفضلاً وإحسانًا.

وكيف لا يكون كذلك ﴿وَ﴾ قد ﴿اصْطَنَعْتُكَ﴾ أي: اجتبيتك وانتخبتك من بين المكاشفين ﴿لِنَفْسِي﴾ [طه:41] لتكون خليفتي ونائبي وموئلي أمري وحامل أسراري.

وإذا اخترتك للرسالة: ﴿اذْهَبْ أَنتَ﴾ أصالةً ﴿وَأَخُوكَ﴾ تبعًا لك ﴿بِآيَاتِي﴾ ومعجزاتي الدالة على تصديقي لكما وتقويتي لرسالتكما ﴿وَلاَ تَنِيَا﴾ أي: لا تفترا أو لا تضعفا ﴿فِي﴾ تبليغ ﴿ذِكْرِي﴾ [طه:42] المشتمل على الأوامر والنواهي اغترارًا وخوفًا.

بل ﴿اذْهَبَا﴾ بأمرنا مسرعين ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في التجبر والتكبر مِنْ غير مبالاة والتفاتٍ بعظمته وشوكته ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:43] علينا، ولا عبرة بعظمة الطغاة.

وإذا ذهبتما إليه: ﴿فَقُولا لَهُ﴾ تلطفًا ورفقًا كما هو دأب المرسلين ﴿قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ رجاء أن يلين قلبه عن صلابة الفساد، وبعد الأداء على وجه التليين والتلطف ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، فصدقكما وآمن بدينكما ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44] من نزول العذاب بدعائكما.

﴿قَالا﴾ خوفًا من فرعون وأعوانه على مقتضى بشريتهما ملتجئين إلينا: ﴿رَبَّنَا﴾ وإن ربيتنا بحولك وقوتك وأيدتنا بآياتك ﴿إِنَّنَا﴾ من ضعف بشريتنا ﴿نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ بالعقوبة والقتل ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾ [طه:45] لك بما لا يليق بجنابك.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿لَا تَخَافَا﴾ من إفراطه وطغيانه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ عند أدائكما الرسالة ﴿أَسْمَعُ﴾ أقواله ﴿وَأَرَى﴾ [طه:46] أفعاله، فإذا أفرط عليكما أقدر على منعه وزجره.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ مجترئين عليه من غير مبالاةٍ بعظمته وشوكته ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ الذي رباك بالعزة وأنواع الكرامة، وأبقاك بها إمهالاً لك إلى أن تتكبر عليه باستكبارك على عباده، وإذا ظهر كبرك الآن أرسلنا إليك أيها المتكبر المتجبر؛ لترسل معنا خواص عباده الذين عندك وتحت قهرك وغلبتك إنجاءً لهم من استكبارك وطغيانك عليهم.

ومتى سمعت ما بلغناك بإذن الله ووحيه ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المستوحشين عنك بظلمك وقهرك؛ لينجوا من استيلائك واستعلائك عليهم ﴿وَ﴾ إذ أرسلنا الله لإنجائهم وتخليصهم من عذابك ﴿لَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بعد أدائنا الرسالة إليك لأنا ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ ساطعةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ ظاهرةٍ إنها ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي هو رب العالمين.

إن تأملتَ فيها حق التأملِ والتدبر تركتَ العتو والعناد، وآمنتَ بتوحيده ﴿وَالسَّلَامُ﴾ أي: الأمن والسلامة من الله ﴿عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه:47] وتأملَ الآيات الكبرى وتركَ الهوى، ومن اتبع الهوى فقد ضل وغوى، واستحق عذاب الآخرة والأولى.

واعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة والضلال ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ من عندنا ربنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ﴾ الإلهي نازلٌ ﴿عَلَى﴾ كل ﴿مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:48] أي: كذَّب الحق وأعرض عن أوامره ونواهيه، فلما رأى فرعون جرأتهما وسمع قولهما ﴿قَالَ﴾ لهما تهكمًا واستهزاء: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي رباكما وأرسلكما لإنجاء بني إسرائيل من عذابي، مع أني لم أعرف لك ربًا ربَّاك غيري ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:49] المقتدى في أمر الرسالة.

﴿قَالَ﴾ له موسى على وجه التنبيه رجاء أن ينتبه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي﴾ أظهر الأشياء من العدم ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي: مرتبته في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50] الكلَّ بالرجوع إليه والانقياد له في النشأة الأخرى؛ إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

﴿قَالَ﴾ فرعون: إذا كان الكل من عند ربك ويعلمك أحواله ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:51] أي: ما أحوال الأمم الماضية، هل هم مهتدون بمتابعة مثلك أم هم ضالون بمتابعة الهوى مثلي على زعمك؟!.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 52 – 64].

﴿قَالَ﴾ موسى: لا أعرف حالهم من الهداية والضلالة؛ إذ ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لا يوحي إليَّ من أحوالهم شيئًا بل أحوالهُم ثابتةُ عنده سبحانه ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو حضرة علمه الأزلي على التفصيل؛ بحيث ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يغيب عن أحوالهم شيءُ من علمه سبحانه ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه:52] ربي شيئًا من معلوماته؛ إذ علمه حضوريُ بالنسبة إلى جميع الأشياء، والعلمُ الحضوريُ لا يجري فيه الغيب والنسيان.

ثم قال موسى دفعًا للاثنينية الناشئة من الإضافة: ربنا هو ربكم ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مكانًا تستقرون فيه وتستريحون ﴿وَسَلَكَ﴾ أي: قدَّر ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ مختلفةً بعضها جبلاً ترتحلون إليه في الصيف، وبعضها سهلاً ترجعون إليه في الشتاء، حتى يكمل استراحتكم فيها، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلَ﴾ لكم لتكميل استراحتكم أيضًا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿مَآءً﴾ لإحياء الأرض الميتة ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي: أنشأنا وأنبتنا ﴿بِهِۦٓ﴾ أي: بسبب الماء فيها ﴿أَزْوَٰجًا﴾ وأصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه:53] مختلفةٍ؛ ليكون مفرِّجًا لغمومكم مقويًا لنفوسكم.

وإذا احتجتم إلى الغذاء ﴿كُلُوا۟﴾ منها؛ حيث شئتم رغدًا ﴿وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ التي تستريحون بسببها من أكلها وحملها وركوبها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الجَعْل والإنزال والإخراج ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائلَ واضحاتٍ على قدرتنا واختيارنا ﴿لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾[1] [طه:54] الناهين

(1) أي: إن في ذلك التقدير رسالات ودلالات لذوي البصائر أنها خلقت لأجلهم؛ لأنهم كانوا أهل المعرفة، وخلقت المخلوقات فجاء ﷺ لخلق المعارف كما قال في الحديث الرباني: «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»، وفيه معنى آخر وهو: إن في ذلك الذي مرَّ

عقولهم عن إسناد الأمور إلى الأسباب بل يسندونها إلى مُسَبِّبها أولاً وبالذات.

وإذا تأملتم في بدائع مصنوعاتنا وغرائب مخترعاتنا على وجه الأرض جزمتم أنا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأوجدناكم بقدرتنا واختيارنا إيجاد النبات منها وقت الربيع ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أيضًا بالآجال المقدرة لانقضاء حياتكم، إفناء النبات في أيام الخريف ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ للحشر والعرض في يوم الجزاء ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55].

﴿وَ﴾ مع أمرنا لموسى وأخيه المرسلَين إليه بتليين القول، والتنبيه بدلائل الآفاق والأنفس ﴿لَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ تحقيقًا وتأكيدًا؛ لئلا يبقى معنا جداله، حين أخذنا بظلمه في وقت الجزاء، مع علمنا بأنه من الهالكين في بيداء البُعد والعناد ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق موسى المرسَل ﴿كُلَّهَا﴾ متعاقبة مترادفة، وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين والطمس ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميعها ﴿وَأَبَى﴾ [طه: 56] فامتنع عن تصديق شيءٍ منها، بل نسب الكل إلى السحر والشعبذة.

﴿قَالَ﴾ اغترارًا بعلو شأنه ورفعة مكانه، مستفهمًا على وجه التهكم والإنكار: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ متمنيًا لرئاستنا مع غاية حقارتك وضعفك ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾ مع كمال عظمتنا وقوتنا ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ التي استقررنا عليها زمانًا طويلاً ﴿بِسِحْرِكَ﴾ الذي تعلمت من شياطين الأمة في بلاد الغربة ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:57] المتمني محالاً، ولولا خشيتي من اشتهار عجزي من دلائلك وأباطيلك لقتلك ألبتة فالزم مكانك.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾ من أنواع السحر كامل من سحرك لا من نوعٍ آخر بل من ﴿مِثْلِهِ﴾ أي: مثل سحرك كاملُ منه، قُم من عندي وتأمل في أمرك؛ إن شئتَ تُبْ من هذياناتك وفضولك وارجع إليّ بالاستغفار حتى أغفر زلتك، وإن شئتَ ﴿فَاجْعَلْ﴾ أي: عيِّن وقتًا من الأوقات؛ ليكون ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ ثم عين ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:58] أي: مسوى لا حائلَ فيه بحيث يرى كل أحد ما يجري بيننا حتى تفتضح على رءوس الأشهاد.

ذكره ومن السماوات والأرض وما بينهما لآيات بأن مظهر صفات لطف الحق ومظهر صفات قهره، فإنهم يشاهدون فيه جمال لطفه وجلال قهره ستر الله سترًا بستر وإضمارًا بإضماره.

﴿قَالَ﴾ موسى: إن معي ربي سيقويني لا أخاف من معارضتك بالسحر وتعيين موعد إتيانك، بل ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ للمعارضة مع المعجزة ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ أي: يوم العيد؛ إذ يجتمع فيه الأقاصي والأداني ﴿وَ﴾ لا يكون وقت تفرقهم إلى بيوتهم ﴿أَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:59] أي: في وقت الضحوة المعدة لإظهار الزينة، ليظهر كل منهم على صاحبه زينةً؛ ليكون إعجازي لك أبعد من أن يرتاب فيه أحد.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ وانصرف عن مكالمة موسى استكبارًا ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: أمر بجميع سَحَرةِ مملكته ليُرِىَ القاصرين أن ما جاء به موسى من جنس السحر ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ [طه:60] الموعد المعين مع ملئه وسَحَرَتِه.

وبعدما حضروا الموعد ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي: للسحرة ﴿مُّوسَى﴾ على مقتضى شفقة النبوة أو بإلقاء الله إياه بطريق الإلهام كلامًا خاليًا عن الميل إلى الخصومة إمحاضًا للنصح: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: ويلُ لكم أيها العقلاء التاركون طريقَ العقل بمتابعة هذا الطاغي ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن أفعاله مما يعارَض بالسحر والشعوذة؛ لأن ما جئتُ به من الآيات مما آتاني الله من فضله، وإن افتريتم على الله ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يهلككم ويستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ نازلٍ من قهره ﴿وَقَدْ﴾ تحقق عندكم أيها العقلاء أنه ﴿خَابَ﴾ خيبةً أبديةً ﴿مَنِ افْتَرَى﴾ [طه:61] على الله بما لا يليق بذاته من إبطال قدرته أو دعوى المعارضة معه.

فإذا سمع السحرة من موسى قوله هذا، وتأملوا فيه تأملاً صادقًا، وجدوه صادرًا عن محض الحكمة والفطانة، فلذلك تأثروا من قوله تأثرًا عظيمًا ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ وتشاوروا ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ بأن أمثال هذا الكلام لا يصدر إلا من المؤيَّدِ من عند الله، المستظهِر به سبحانه، ما يشبه كلام السحرة المعارضين، فمآل كل منهم في نفسه إلى تصديقه ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه:62] أي: مناجاتهم في أنفسهم من فرعون وملئه، فتمكن فرعون وملئه في معرض المعارضة وقابلوا السحرة لممانعتهما.

﴿قَالُوا﴾ أي: فرعون وأشرافهم للسحرة تقويةً لهم في أمرهم: ﴿إِنْ هَذَانِ﴾ الرجلان الحقيران ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ يدَّعيان الرسالة من ربهما الموهوم ترويجًا لسحرهما، وبعد الترويج ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ المألوفة ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ أي: بمجرد سحرهما لا من أمرٍ سماويٍ كما زعما، وبعد إخراجكم من أرضكم يريدان الاستقرار والاستيلاء على عموم ملك العمالقة ﴿وَيَذْهَبَا﴾ بعد التقرر والتمكن ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ

الْمُثْلَى﴾ [طه:63] أي: عادتكم العظمى ومرتبتكم العليا.

وبالجملة: يريدان أن يجعلا أمرنا وأمر بني إسرائيل بالعكس؛ ليكون لهم الكبرياء ولنا المذلة والهوان، بعكس ما كان من سالف الزمان.

وإذا سمعتم نُبَذًا من مقاصدهما ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: هيئوا جميع أسباب سحركم؛ بحيث لا تحتاجون لدى الحاجة إلى شيء من أدواته ﴿ثُمَّ ائْتُوا﴾ عليها ﴿صَفًّا﴾ أي: صافِّين مجتمعين بمقابلتهما؛ لأنه أدخلُ في المهابة ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ﴾ أي: فازَ ووصلَ بأنواع العطاء والمواهب ﴿مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:64] وغلبَ عليهما.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: 65 – 76].

ثم لما أتى السحرة صافين إلى المجلس على الوجه الذي أمروا ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم واستيلائهم: ﴿يَا مُوسَى﴾ نادوه استحقارًا واستذلالاً ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أولاً ما تلقيتَ وجئتَ به في مقابلتنا ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:65] ما تلقينا في مقابلتك، فالأمران عندنا سيّان؛ لأننا عصبة ومعنا جميع هذه الخلائق، وأنت ضعيفٌ ليس معك إلا أخوك.

﴿قَالَ﴾ موسى: لا تضعفوني أيها الحمقى إن معي ربي سيقويني إن شاء، ويغلبني على جميع من في الأرض ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً أيها المغرورين فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ التي يسحرون بها ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:66] بذاتها.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه:67] أي: أضمر في نفسه خوفًا من غلبتهم عليه.

ثم لما عَلِمنا من موسى خوفه ﴿قُلْنَا﴾ له تشريحًا لصدره وإزالةً لخوفه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ أيها المرشد من عندنا من تمثالاتهم الغير المطابقة للواقع ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه:68] أي: الغالب عليهم بعد إلقائك ﴿وَ﴾ بعدما أطمأن قلبك بوحينا لك هذا ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاك بالجراءة التامة والقدرة الغالبة بلا جبنٍ وتزلزلٍ ﴿تَلْقَفْ﴾ أي: تبلع وتلتقم ﴿مَا صَنَعُوا﴾ لمعارضتك ﴿إِنَّمَا﴾ التماثيل التي ﴿صَنَعُوا﴾ ليس لها اعتبارٌ بل ما هي إلا ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وحيلةُ ماكرٍ ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ ويَغلِبُ ﴿السَّاحِرُ﴾ بحيَله وسحره ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:69] أي: في أي مكان أتى به، سواءً كان عند معاونيه أو في مكانٍ آخر.

فألقى موسى عصاه امتثالاً لأمر ربه، فصار ثعبانًا فابتلع حبالهم جميعًا مجتمعين ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ مجتمعين ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين نادمين من معارضتهم ﴿قَالُوا﴾ بلسانهم موافقًا لقلوبهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:70] بأن له القدرة والاختيار لا يعارَض فعله أصلاً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿قَالَ﴾ لهم فرعون على سبيل التقريع والتوبيخ بعدما سمع إيمانهم، وتذللهم عند موسى: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ وسلَّمتم سحرَه بلا استئذان مني، بل ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بتسليمه فظهر عندي ﴿إِنَّهُ﴾ أي: موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: معلمكم ومقتداكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ في خلوتكم معه، فاتفقتم معه حتى تخرجوني من ملكي، فواعزتي وجلالي وعظم شأني لأنتقمن منكم انتقامًا شديدًا ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ أولاً ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي: متبادلين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ حتى يعتبر منكم من كان في قلبه بغضي وعداوتي، وإن آمنتم خوفًا من شدة عذاب ربه ودوامه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:71] وأدومُ عقابًا، أنا، أم رب موسى؟!.

﴿قَالُوا﴾ بعدما كوشفوا بما كوشفوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ونرجحك يا فرعون ﴿عَلَىٰ مَا

جَاءَنَا﴾ وانكشف علينا من الحق الصريح سيَّما بعد ظهور المرجحات ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات الدالة على إيثاره وترجيحه، مع أنه لا بينة لك سوى ما جئنا به من السحر من قبلك وهو يبطله.

﴿وَ﴾ بالجملة: كوشفنا الآن بأنه سبحانه هو ﴿الَّذِي فَطَرَنَا﴾ وأوجدنا من كتم العدم بكمال الاستقلال والاختيار فله التصرف فينا ولا نبال بتخويفك وتهديدك يا فرعون الطاغي، وبالجملة: ﴿فَاقْضِ﴾ أي: امض علينا ﴿مَا أَنْتَ﴾ عليه ﴿قَاضٍ﴾ راضٍ من القطع والصلب وغير ذلك؛ لأنك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72] أي: ما تقضي وتحكم أنت أي حكمٍ تحببت، ما هي إلا في هذه الحياة الفانية المستعارة؛ إذ حكومتك مقصورة عليها، والدنيا وعذابها فانيةٌ حقيرةٌ، والآخرة وعقابها باقيةٌ عظيمةٌ.

لذلك ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع النعم، فكفرنا له وأشركناك مع تعاليه عن الشريك والكفء والنظير، فالآن ظهر الحق وارتفع الحجب، فرجعنا إليه واستغفرنا منه من ذنوبنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ﴾خصوصًا ﴿مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ بمعارضة المعجزة ﴿وَ﴾ بعد رجوعنا إليه تحقق عندنا أنه؛ أي: ﴿اللهُ خَيْرٌ﴾ منك ومن كل ما سواه ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه:73] أي: بعد فناء الكل.

وقد تحقق عندنا أيضًا ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ﴾ القادر على الانتقام والإنعام ﴿مُجْرِمًا﴾ مشركًا طاغيًا ﴿فَإِنَّ﴾ أي: حقَّ وثبتَ ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار البعد والخذلان أبدًا ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ حتى يستريح ﴿وَلاَ يَحْيَى﴾ [طه:74] أيضًا حياةً يستفيد بها.

وثانيًا إنه ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ موقنًا بذاته وصفاته وأفعاله، ومع ذلك ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ بمقتضى أوامره ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المؤمنون الصالحون ﴿لَهُمُ﴾ لا لغيرهم من الصالحين ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:75] القريبة إلى الدرجة العليا التي انتهت إليها جميع الدرجات، وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق لأولي البصائر والأبصار الناظرين بعيون الاعتبار المستغرقين بمطالعة جمال الله بلا مزاحمة الأغيار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا ملاحظة زمانٍ ومقدارٍ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه:76] من ذمائم الأخلاق ورذائل الأطوار.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ

وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ
عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (٨٢) ۞ وَمَآ
أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ
فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ
غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن
زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧)﴾ [طه: 77 – 87].

وكيف لا يكون للتزكية هذه الآثار! ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا﴾ من عندنا ﴿إِلَى مُوسَى﴾ المختار بعدما هذَّبنا ظاهره عن ذمائم الأخلاق ورذائل الأطوار، وحلَّينا باطنه بأنواع المكاشفات والأسرار، إنجاءً له ولقومه من يد الكفار حين عزم عليه فرعون الغدَّار ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سِر ليلاً معهم على صورة الفِرَار، فمتى أُخبروا بذلك، اتبعوا أثرك بمقتضى الاغترار، ومتى أردفك العدو وقربوا أن يدركوا، ومنعك البحر من العبور، قلنا لك: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ بعصاك المعين في الأمور البحرَ؛ ليكون لك معجزةً وظهر لهم ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ جافًا لا وحلَ فيها؛ لئلا يخافوا من الغرق ومن ورائك العدو، وأنت أيضًا ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أي: أن يدركك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ [طه:77] أن يغرقك البحر، فضربَ البحرَ بأمر ربه بعدما سار بإذنه، فسلك فيه مسلك قومَه خلفه، فعبروا، فوصل فرعون وملؤه الأرض، فرأوا عبورهم من الطريق اليابس.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾[1] بلا تراخٍ فدخلوا اغترارًا بيبسه ﴿فَغَشِيَهُمْ﴾ أي:

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن موسى القلب كلما توجه إلى بحر الروحانية يتبعه فرعون النفس مع جنود صفاته الذميمة النفسانية، كما أن النفس كلما توجهت بالخذلان إلى مراتع الحيوانية السفلية يتبعها القلب مع جنوده، وهي الصفات الحميدة الروحانية، فلمّا دخل موسى القلب وجنوده في بحر الروحانية، وبلغوا ساحل البحر وهو سرادقات العزة وحظائر القدس، ودخل فرعون النفس وجنوده في بحر الروحانية.

غطّاهم وسترهم ﴿مِنَ الْيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:78] أي: غشاوةً عظيمة بحيث يكون البحر كما كان، فهدى موسى قومه فأنجيناهم امتنانًا عليه وعليهم ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ باتباعهم بني إسرائيل على الفور ﴿وَمَا هَدَى﴾ [طه:79] وأرشد لهم طريق المخلص، فأغرقناهم متبوعًا وتابعًا زاجرًا عليه وعليهم.

ثم بعد إنجائنا بني إسرائيل من عدوهم وإهلاك عدوهم بالمرة، وإيرائهم أرضهم وديارهم وأموالهم، نبهنا عليهم التوجه والرجوع إلينا بتعديد نعمنا التي أنعمناهم؛ ليواظبوا على شكرها أداءً لحقِّ شيء منها، حتى يكونوا من الشاكرين المزيدين لنعمنا إياهم.

لذلك ناديناهم ليقبلوا إلينا، ويعلموا أن الكل من عندنا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المنظورين بنظر الرحمة والشفقة ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم﴾ أولاً بقدرتنا ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الغالب القاهر عليكم ﴿وَ﴾ أنجيناكم ثانيًا عن جرائم تقصيراتكم بامتثال الأوامر الوجوبية حال ﴿وَاعَدْنَاكُمْ﴾ نزول التوراة بصعودكم ﴿جَانِبَ الطُّورِ﴾ لا جميع جوانبه بل جانبه ﴿الأَيْمَنَ﴾ ذا اليُمن والكرامة؛ ليشير إلى العفو عن التقصير ﴿وَ﴾ أنجيناكم ثالثًا عن شدائد التيه من جوعه وعطشه وحرِّه وبرده بأن ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الزنجبين ﴿وَالسَّلْوَى﴾ [طه:80] السماني.

وأمرناكم بالأكل منهما مباحًا بأن قلنا: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ بعد تحملكم شدائد الابتلاء واشكروا لنعمنا لنزيدهم ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: لا تضلوا بإسناد النعم إياكم إليكم لا إلينا، مثل فرعون وقومه، وإن كنتم مثلهم في كفرانها ﴿فَيَحِلَّ﴾ أي: فينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ألبتة مثل حلولهم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:81] سقط عن درجة الاعتبار والتقرب.

﴿وَ﴾ إن ابتليتم بحلول الغضب لا تيأسوا عن نزول الرحمة بعد التوبة؛ إذ ﴿إِنِّي﴾ بعد رجوعكم إليّ بالإخلاص ﴿لَغَفَّارٌ﴾ ستارٌ ﴿لِّمَن تَابَ﴾ عما جرى عليه ﴿وَآمَنَ﴾ بعد التوبة تأكيدًا للإيمان السابق ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بعد ذلك نادمًا على ما مضى من العصيان ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:82] بالإخلاص والعمل الصالح إلى درجات القرب واليقين.

ولما كان موسى حريصًا على إهداء قومه لشفقته عليهم، تسارع إلى تصفيتهم، واختار منهم سبعين رجلاً من خيارهم حتى يذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة،

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي
﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ
وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: 88 – 98].

وبعدما قذف الكل حليهم فيها، أدخل السامري يده فيها ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ منها ﴿عِجْلاً﴾ أي: صورة عجل أوجده الله تعالى من تلك الحلي المقذوفة، ولم يكن من ذوي الحس والحركة بل ﴿جَسَدًا﴾ وهيكلاً ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ يصوّت صوتَ البقرة ﴿فَقَالُوا﴾ السامري أصالة والباقي تبعًا: ﴿هَذَا﴾ الجسد الذي خار خورة ﴿إِلَهُكُمْ﴾ الذي أوجدكم من العدم ﴿وَإِلَهُ مُوسَى﴾ المتردد في بيداء طلبه، أنزله في هذه الحفرة من قبل ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه:88] منزله وسعى في طلبه سعيًا بليغًا، فرقى الطور لهذا الطلب.

﴿أَ﴾ هم خرجوا عن طور العقل في اعتقاد إلهية الجماد، بل عن الحس أيضًا ﴿فَلاَ يَرَوْنَ﴾ ولا يتفكرون في شأن هذا الجماد ﴿أَلاَّ يَرْجِعُ﴾ أي: أنه لا يرد ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ جوابًا عن سؤالهم ﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا﴾ لو لم يؤمنوا به ﴿وَلاَ نَفْعًا﴾ [طه:89] لو آمنوا به.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل رجوع موسى إليهم نيابة عنه إصلاحًا لحالهم، بعدما أفسدوا على أنفسهم ما أمرهم موسى من الأصلح بحالهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ المائلين عن طريق الحق بسبب هذه الصورة ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي: ما هذا إلا ابتلاءٌ لهم من ربكم؛ ليختبر سبحانه رسوخكم وتمكنكم على التوحيد، أعرِضوا عن الشرك بالله وتوجهوا إليه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لكم بإرسال أخي إليكم رسولاً وإنجالكم من عدوكم، وأنا نائب عن أخي استخلفني عليكم ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ لتتبعوا الحق، ولا تميلوا إلى الباطل ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:90] واقبلوا قولي وإرشادي لكم حتى يصلح حالكم.

﴿قَالُوا﴾: لأنك وإن كنت نائبًا عن أخيك، لكن لا تعرف الرب ولا تكلمتَ معه،

بل يعرفه ويتكلم معه موسى ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ ونزال ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الجسد ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين حوله متوجهين له متضرعين عنده ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:91].

ثم لما رجع موسى من ميقاته ومناجاته مع ربه إلى قومه، ووجدهم ضالين منحرفين عن مسلك السداد، صار غضبانًا عليهم أسفًا بضلالهم.

﴿قَالَ﴾ من شدة غيظه لأخيه مناديًا باسمه على سبيل الاستحقار مع أنه أكبر منه ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي: أي شيء منعك عن القتال معهم وقت ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه:92] عن طريق الحق وتوحيده، بعبادة العجل.

وما لحقك ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ في مقاتلة المشركين بعدما أوصيتك به مرارًا، وقد أقمتك فيهم لإصلاح حالهم ﴿أَ﴾ كفرت وضللت أنت أيضًا ﴿فَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:93] فأخذ من كمال غيظه وغضبه بشعر أخيه ولحيته يجره.

﴿قَالَ﴾ له حينئذ هارون قولاً يحرك مقتضى الأخوة، وينبه على قبول العذر: ﴿يَا بْنَؤُمَّ﴾ نسبه إلى الأم استعطافًا: احذر عن الغضب وتوجه إليّ واسمع عذري ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾ ما لم تسمع عذري، لم أترك قتالهم ﴿إِنِّي﴾ وإن كنت لا أقدر على قتالهم لكثرتهم ﴿خَشِيتُ﴾ مع ذلك إن قاتلت معهم ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: جعلتهم فرقًا متخالفة متقابلة ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوْلِي﴾ [طه:94] لك: اخلفني في قومي، وأصلح بينهم حتى أرجع.

فلما سمع موسى عذره، ندم على فعله، فرجع إلى معاتبة من يضلهم و﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ أي: أي شيء هو أعظم مقصودك من هذه التفرقة والإضلال ﴿يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:95] المضل.

﴿قَالَ﴾: مقصودي الرئاسة عليهم بشيء يميزني عنهم من الخوارق؛ إذ ﴿بَصُرْتُ بِمَا﴾ أي: بشيء ﴿لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أصلاً، وذلك أني رأيت جبريل راكبًا على فرس الحياة، ما وضع قدمه على شيء إلا حيي ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[1] أي: من

(1) إن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنة المحبة فأوقعهم في بحر المخائيل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربما أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يُري جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في ضميم إرادتهم إلى طلب ما ألقي من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله

تراب وطئها حافر فرس الرسول الذي هو جبريل، وكنت أحفظها إلى أن أذابوا حليهم ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فيه، فسرى الحياة منها إلى الصورة المتخذة من الحلي فخار، فأمرتهم باتخاذها إلهًا ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ وزينت ﴿لِي نَفْسِي﴾ [طه:96] حتى أكون متبوعًا لهم، ومقتدى بينهم.

﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ من عندي وتنح عن مرآي ﴿فَإِنَّ لَكَ﴾ أي: حقَّ وثبت لك ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ أي: في حين حياتك ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لك ولا إدراك، يعني: أنك في حال حياتك من زمرة الأموات الفاقدين للحواس والإدراك وجميع المشاعر، لاعتقادك بحياة هذا الجماد، وأخذته إلهًا، وأضللتَ بسبب هذا جمعًا عظيمًا من الناس ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ أي: ثبتَ وتهيأ لك في الآخرة ﴿مَوْعِدًا﴾ من الجحيم ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن تنتقل عنه أصلاً؛ إذ لا توبة لك منها حتى تتجاوز عنه، فتعين كذلك فيه أبد الآباد ﴿وَ﴾ إذا عرفتَ حالك في دنياك وأخراك ﴿انظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وعلى عبادته ﴿عَاكِفًا﴾ مقيمًا عازمًا ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار، وإن كان إلهًا، لم تحرقه النار، ثم بعد الإحراق وبعد صيرورته رمادًا ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ﴾ وننشرنه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ أي: في البحر ﴿نَسْفًا﴾ [طه:97] نشرًا؛ بحيث لم يبقَ من أجزائه في البر شيء.

فأحرقها ونسفها وتوجه إلى بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ﴾ المستجمع جميع أوصاف الكمال هو ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وما سواه عدمٌ، ولو تعقل فلا يخرج عن حضرة علمه شيء؛ لأنه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الذهن والخارج ﴿عِلْمًا﴾ [طه:97].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلما أوحينا إلى موسى لإهداء قومه وإهلاك عدوه، وأوحينا إليك يا أكمل الرسل قصص السابقين؛ ليعتبر من هلاك عدوهم من عاداك، ويفرح من

شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلى من فعله العالم فبرز منه روح القدس فأثر به الحياة القدسية في كل من عُكِس عليه نوره فوزد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسيين في أشباح الأكوان فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه. [العرائس].

إهداء صديقهم مَن صدّقك وآمن بك؛ إذ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصصهم مع كونك خالي الذهن ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ بمدة مديدة ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ امتنانًا لك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بلا واسطة معلم ومرشد ﴿ذِكْرًا﴾ [طه:99] كلامًا جامعًا يذكرك جميع ما في الكتب السالفة من الحقائق والأحكام والقصص على الوجه الأتم الأبلغ.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن القرآن بعد نزوله، وتشبث بغيره من الكتب المنسوخة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100] أي: إثمًا ثقيلاً لأخذه بالمنسوخ وترك الناسخ.

بحيث يكون ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ فيها؛ أي: فيما يترتب عليه في يوم الجزاء من العذاب الأبدي ﴿وَسَاءَ لَهُمْ﴾ أي: لحامليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المخففة للحمل لأرباب العناية ﴿حِمْلاً﴾ [طه:101] ثقيلاً يوقعهم إلى النار.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لإخراج ما بالقوة إلى الفعل ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:102] زرق العيون سود الوجوه، وهما كنايتان عن الحسد والنفاق اللذَين هم عليهما في دار الدنيا.

وإذا ظهر لهم قبائحهم الكامنة فيهم في الدنيا ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتكلمون خيفة فيما بينهم هكذا، هذه القبائح التي ظهرت علينا من أوصافنا التي كنا عليها في دار الدنيا زمانًا قليلاً، فبعضهم يقول للبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه:103] من الليالي، وبعضهم يقلل من ذلك، وبعضهم يقلل منه أيضًا، وهم يخفون أحوالهم لئلا يطلع عليها أحد.

وكيف يخفون عنا؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا ﴿بِ﴾ جميع ﴿مَا يَقُولُونَ﴾ من الأقوال المتعارضة، ولا تذكر إلا ما هو أقرب للصواب ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أميلهم وأقربهم إلى الصواب ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:104] واستصغارهم مدة الدنيا، إنما هو من طول يوم الجزاء.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ في ذلك اليوم أهي على قرارها وقوامها حتى يؤوى إليها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105] أي: يسحقها سحقًا كليًا كأنه خرج من المناخل الدقيقة، ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يترك الأرض بعد نسف الجبال ﴿قَاعًا﴾ سطحًا مستويًا ﴿صَفْصَفًا﴾ [طه:106] ملساء.

بحيث: ﴿لَا تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾ [طه:107] نتوًا وربوةً لاستوائه.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقت نفخ الصور لاجتماع الناس إلى المحشر ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ الذي هو إسرافيل؛ أي: يجتمعون عنده كل واحد منهم بطريق ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لاستواء الأرض، وعدم المانع من العقبات والأغوار ﴿وَ﴾ في ذلك اليوم ﴿خَشَعَتِ الأَصْوَاتُ﴾ أي: خفضت وخفيت أصواتهم وقت الدعاء ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ من شدة أهوال ذلك اليوم؛ بحيث إذا أصغيت إلى سماع أقوالهم ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1] [طه:108] ذِكرًا خفيًا.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: شفاعة كل أحد من الناجين كل واحد من العاصين ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بالشفاعة لبعض العصاة من أرباب العناية في ذلك اليوم ﴿وَ﴾ مع إذنه سبحانه له ﴿رَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:109] أي: تعلق رضاه سبحانه الشفيع وقت الشفاعة.

وإنما أذن ورضي سبحانه بالشفاعة للبعض؛ لأنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علمه بجميع أحوالهم من العصيان والطاعة، وبأن أي عصيان يزول بالشفاعة، وأي عاصٍ يستحقها ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110] بدقائق معلوماته وأفعاله وآثاره.

﴿وَ﴾ في ذلك اليوم ﴿عَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ أي: هلكت وجوه الأشياء؛ أي: ظهورها وبقي الوجه الذي هو ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ المنزه عن الظهور والبطون، المقدس عن الحركة والسكون ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر خسرانًا مبينًا في ذلك اليوم ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:111] شركًا بالله الواحد القهار.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بوحدانية الله ﴿فَلاَ يَخَافُ﴾ في ذلك اليوم ﴿ظُلْمًا﴾ بأن يحبط أعماله الصالحة بالكلية، ولم يجز بها ﴿وَلاَ هَضْمًا﴾ [طه:112] بأن ينقص من جزاء عمله الصالح.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إحاطة علمنا بجميع الأشياء ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: هذا الكتاب

(1) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للرحمن) أي الذي عمت نعمه، فيرجى كرمه، ويخشى نقمه (فلا) أي فيتسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همسًا) أخفى ما يكون من الأصوات، وقيل: أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (269/5).

المحيط بجميع ما في العالم؛ إذ لا رطب ولا يابس إلا فيه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: كلامًا عربيَّ الأسلوب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: كثر تصرفنا فيه من الإنذارات والتخويفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء أن يتوجهوا إلى توحيدنا ويجتنبوا عن شركنا ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ ويجدد وعيد القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:113] من أحوال الماضين، وعقاب الله عليهم من الغرق والمسخ والكسف والخسف لعلهم يتذكرون.

وإن قالوا على سبيل المكابرة عتوًا وعنادًا: لربك حاجة إلى إيماننا وتقوانا، وإلا لِمَ يرجوا إيماننا؟ قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ أي: تنزه وتقدس ﴿الْمَلِكُ﴾ المستولي المطلق ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الدائم أزلاً وأبدًا عما يقول الظالمون المشركون من إثبات الاحتياج له بمجرد الرخاء العائد نفعه إياهم أيضًا.

﴿وَ﴾ إذا كان ظنهم هذا ﴿لَا تَعْجَلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِالْقُرْآنِ﴾ أي: بأدائه وتبليغه لهم وقراءته عليهم ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من وحيه وتبليغه، بل أصبر حتى يفرغ من الوحي، ثم تأمل في مرموزاته وإشاراته الخفية بقدر استعدادك ﴿وَ﴾ بعد التأمل والتدبر ﴿قُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] بما فيه من نفائس المعلومات وعجائب المعارف والحقائق.

ثم بعد ذلك اقرأ عليهم، ونبههم بما فيه من قدر عقولهم ﴿وَ﴾ لا تنس نهينا عن الاستعجال بأداء القرآن قبل تمام الوحي مثل نسيان أبيك آدم عليه السلام عهده معنا، فإنا ﴿لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى﴾ أبيك ﴿آدَمَ مِن قَبْلُ﴾ بقولنا نهيًا له ولامرأته: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] ﴿فَنَسِيَ﴾ عهدنا هذا لتغرير الشيطان له ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115] رأيًا صائبًا في حفظ العهد حتى يوطن نفسه على مقتضى النهي.

﴿وَ﴾ اذكر لنقض عهده وقصور رأيه وقت ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ أي: تذللوا له تكريمًا وتعظيمًا؛ لأنه أفضل منكم وأجمع لتجليات أوصافنا ﴿فَسَجَدُوا﴾ ووقعوا متذللين له على الأرض تكريمًا له، وامتثالاً لأمر ربهم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ من بينهم ﴿أَبَى﴾ [طه:116] وامتنع عن سجوده لاستكباره وعتوه.

وإذ استكبر إبليس عن تعظيمه نبهنا عليه عداوته ﴿فَقُلْنَا﴾ له: ﴿يَا آدَمُ﴾ المكرم بسجود الملائكة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المشار إليه بالإشارة القريبة الممتنع عن سجودك وتعظيمك ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يريد إفسادكما فاحذرا عن مصاحبته وتغريره، ولا تتكلما معه ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ إلى دار الابتلاء ﴿فَتَشْقَى﴾ [طه:117] أنت يا

آدم على الخصوص، أي: تتعب وتعيى بسبب كسب المعيشة؛ لأن معيشتك حينئذٍ من كد يمينك.

ولا تعب لك في الجنة، بل ﴿إِنَّ لَكَ﴾ أي: حق وثبت لك أيضًا ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾ [طه:118] أي: في الجنة لسعة طعام الجنة وثيابها.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ لأن العطش إنما هو من فرط الحرارة ولا حرارة فيها ﴿وَ﴾ كيف يكون فيها حرارة؛ إذ أهلها له ﴿لَا تَضْحَى﴾ [طه:119] ولا يبرز منه الظل إلى الشمس من جهة البرودة؛ لأن أهلها لا يؤذون بالحرارة والبرودة.

فلما عاش فيها زمانًا مستريحًا بلا تعب ولا عناء أظهر إبليس عداوته، وأخذ يوسوس له ولزوجته ليخرجهما منها؛ لأنهما ما داما في الحنة، لم يقدر على إضلالهما ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: ألقى وسوسته في نفسه و﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ على وجه النصيحة: هنيئًا لك عيشك في الجنة بلا تعب ومحنة ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ إن أكلت منها يخلدك أبدًا فيها ﴿وَ﴾ أهديك على ﴿مُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه:120] أي: لا يخلق ولا يعتق، بل يتجدد دائمًا بتجدد الأمثال، بلا انتقالٍ وزوالٍ.

وإذ وسوس إليهما سمعا قوله وقبلا وسوسته فنسيا عهد ربهما ﴿فَأَكَلا مِنْهَا﴾ حتى شبعا وأراد أن يتبرزا ويتغوطا، ثم لما ارتكبا المنهي، وظهر منهما ما هو منافٍ لطهارة الجنة ونظافتها، أمر سبحانه بإخراجهما منها، فنزع أولاً عنهما لباسهما، أي: لباس الطهارة والنجاة الفطرية والتقوى الجبلية ﴿فَبَدَتْ﴾ ظهرت بعد نزع اللباس ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عوراتهما، فاضطرا على التستر والتغطي ﴿وَطَفِقَا﴾ أي: شرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي: على عورتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: من أوراق بعض أشجارها، قيل: هي ورق التين.

﴿وَ﴾ إذا كان حالهما كذلك قالت الملائكة: ﴿عَصَى آدَمُ﴾ المكرم المسجود له ﴿رَبَّهُ﴾ الذي رباه بتناول ما يصلحه منها عن تناول ما يضره، بأن أعرض عن النهي، وبادر إلى ارتكاب المنهي بغرور الشيطان المغوي المضل ﴿فَغَوَى﴾ [طه:121] بإغوائه، وضل عن مراده الأصلي بتغرير العدو؛ لأن العدو إنما يلقى عدوه عكس مطلوبه.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ بعدما ألهمه الإنابة والرجوع إليه، فاعترف بذنبه، ورجع إلى ربه تائبا بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قبل سبحانه

توبته ﴿وَهَدَى﴾ [طه:122] أي: هداه إلى مقصده الأصلي، وقبلته الحقيقية، إلا أنه سبحانه لا يُبطل حِكمةَ حُكمه السابق المترتب على النهي، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية.

لذلك ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي: انزلا من الجنة التي هي دار الأمن والسرور إلى الدنيا التي هي دار التفرقة والغرور ﴿جَمِيعًا﴾ أصلاً وفرعًا، صديقًا وعدوًا، وبعد هبوطكم إليها ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في أمور معاشكم، والشيطان عدو لكم في أمور معادكم، فتبقى هذه العداوة بينكم ما دمتم فيها، ومع أمرنا لكم بالهبوط والخروج منها إليها، لا نترككم هناك ضالّين محرومين مطرودين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ بواسطة الرسل والكتب المنزلة عليهم فاتبعوا هداي ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ عزيمة وقصدًا صحيحًا ﴿فَلاَ يَضِلُّ﴾ في النشأة الأولى لاتصافه بصفاتنا ﴿وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه: 123] في النشأة الأخرى لفنائه فينا وبقائه ببقائنا.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الجاري على ألسنة رسلي الهادين عن الضلال ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ أي: ثَبَتَ له وحقَّ ما دام في دار الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقًا يضيق قلبه؛ بحيث لا يسع فيه غير التفكر في أمر المعاش ﴿وَ﴾ إذا انتقل منها ﴿نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الكبرى ﴿أَعْمَى﴾ [طه:124] أي: يصور إعراضه عن الحق في الدنيا على صورة العمى في الآخرة.

حيث ﴿قَالَ﴾ تحسرًا وتحزنًا: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ في الآخرة ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه:125] في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى
مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ
ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ
زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا

نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [طه: 126 – 135].

﴿قَالَ﴾ سبحانه توبيخًا عليه وتقريعًا: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك فعلتَ بنا حين ﴿أَتَتْكَ﴾ بلسان الأنبياء ﴿آيَاتُنَا﴾ لهدايتك وإصلاح حالك ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ ونبذتَها وراء ظهرك فكانت نسبتُك إليها كنسبة الأعمى إلى الأشياء المحسوسة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كالمنبوذ وراء الظهر ﴿الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه:126] أنت في جهنم البعد والحرمان.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل نسيان من أعرض في العذاب ﴿نَجْزِي﴾ ونترك منسيًا في جهنم﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ وأفرط في الإعراض عن الله ورسله بمتابعة العقل واعتباراته ومضى عليها زمانًا ﴿وَلَمْ يُؤْمِن﴾ أي: لم يُذعن ولم يُوقن ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ النازلة على أنبيائه ورسله، ولم ينتبه لمرموزاتها ومكنوناتها ﴿وَ﴾ الله وإن احتمل الشدائد، وارتكب المتاعب في تحصيل تلك الاعتبارات ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ في شأنه لاشتغاله بغير الله وإعراضه عن آياته ﴿أَشَدُّ﴾ من شدائد ذلك التحصيل ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه:127] وأدوم وباله من النخوة المترتبة عليها.

﴿أَ﴾ ينكر القريشي بآياتنا ويصر على إنكارها، ولم يذكر عذابنا لمنكري آياتنا ﴿فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ولم يرشدهم ولم يذكّرهم إهلاكنا الأمم السالفة بسبب إنكار الآيات وتكذيب الرسل؛ إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي: أهلكنا كثيرًا من أهل القرون الماضية حين ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أمثالهم أصحاء سالمين فجاءهم بأسنا بياتا أو نهارا، فجعلناهم هالكين فانين، كأن لم يكونوا موجودين أصلاً لإعراضهم عنّا وتكذيبهم آياتنا ورسلنا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائلَ ظاهرةٍ على قدرتنا على الانتقام على المعرضين المكذِّبين لكتبنا ورسلنا، لكن لا تحصل تلك الدلائل إلا ﴿لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه:128] أصحاب العقول المنتهية مقتضى عقولهم إلى الشهود.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في حق أمتك بدعائك لهم، وهو ارتفاع العذاب عنهم في دار الدنيا من المسخ والكسف، وغير ذلك من أهلكنا به الأمم الماضية ﴿لَكَانَ﴾ عذاب المنافقين اليوم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لزامًا حتمًا لازمًا مبرمًا لظهور

أسبابه منهم ﴿وَ﴾ لكن قُدِّر له ﴿أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:129] وهو يوم الجزاء.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ إلى حلول الأجل المسمى، ولا يضيق صدرك من قولهم: إنكَ لا تقدرُ على إتيان العذاب بمقتضى دعواك، لذلك تخوفنا بالقيامة الموهومة، فلو كنتَ رسولاً مثل سائر الرسل لفعلتَ بنا ما فعلوا بأممهم ﴿وَ﴾ إذا سمعت أقوالهم الخشنةَ أعْرِضْ عنهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تشغل إلى المعارضة معهم.

بل ﴿سَبِّحْ﴾ ونزه ربك عما يقولون من إنكار يوم الجزاء تسبيحًا مقرونًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ شكرًا لنعمائه وآلائه الواصلة إليك، وداوم عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ بعد انتباهك من منام غفلتك، وقبل اشتغالك في أمور معاشك ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1] بعد فراغك عن كسب المعاش، وقبل استراحك بالمنام ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ المعدّ للاستراحة إن أيقظتَ فيها ﴿فَسَبِّحْ وَ﴾ سبح أيضًا ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ إذا فرغتَ عن الاشتغال ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:130] عن الله في جميع الأوقات، ويرضى الله فيها.

﴿وَ﴾ عليك الاعتزال من أبناء الدنيا وعدم الالتفات إلى لذاتهم بمتاعها ومزخرفاتها؛ بحيث ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ حال كونك متحسرًا متمنيًا مثله ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ المنافقين المشركين ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا من كل شيء؛ لأن منه أعطينا ﴿مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: زينتها وزخرفتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ نجربهم، ونختبرهم كيف يعيشون بوجودها في الدنيا، هل يتكبرون ويفتخرون بسببها على الفقراء ويمشون على وجه الأرض خيلاء أم لا؟.

﴿وَ﴾ إذا نبهناك عن متاع الدنيا استرزق منا عما في خزائننا من المكاشفات

(1) أي: إذا كنت متعرضًا لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك مما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدسًا بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقدست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جمالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك ففر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائبًا بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنزيه والتفريد، واذكر شمائل منتنا عليك نزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوحدانية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برؤيتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظه؛ [العرائس].

والمشاهدات بدل تلك اللذات الفانية؛ إذ ﴿رِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي رزقك بها؛ ليكون لك الكشف والشهود والتمكن في المقام المحمود ﴿خَيْرٌ﴾ لك من مزخرفات الدنيا ومموهاتها لأنها فانيةُ زائلةُ لا ثباتَ لها ﴿وَ﴾ هو ﴿أَبْقَى﴾ [طه:131] لك لبقائه مع استعدادك إلى ما شاء الله.

﴿وَ﴾ إذا رزقت ما رزقت تفضلاً من ربك، فعليك أن تأمر من يلازمك ويؤانسك من أهل الطلب بالميل إلى ما رزقك الله؛ ليكون لهم نصيبٌ مما تفضل الله به عليك من الرزق المعنوي لذلك أمرناك بقولنا: ﴿أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾[1] الشاغلة جميع قوامهم عن التوجه إلى غيرنا؛ ليكون منبهًا عليهم على ما في استعدادهم ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: تحمَّل على متاعب تبليغها، ولا تقصِّر خوفًا من انتقاص رزقك؛ لأنا ﴿لَا نَسْأَلُكَ﴾ أي: لا نسأل منهم ﴿رِزْقًا﴾ وجُعلاً لأجلك منهم حتى يشقَّ عليهم، بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم من مقام جودنا ونوالِ إفضالنا من غير أن ينقص من خزائننا شيءٌ.

ونبِّههم أيضًا على العواقب الحميدة المترتبة على الصلاة، وجنِّبهم عن شواغلها ﴿وَ﴾ قل لهم: ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ [طه:132] أي: المتصفين بالتقوى؛ أي: الراضين عن الله بما يرضى لهم ويأمرهم، المجتنبين عما لا يرضى منه سبحانه.

ولما سمعوا كشفك وشهودك ورزقك الأوفى من عند ربك، وإرشادك على من آمن بك، أصروا على الإنكار ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ هذا المدعي للكشف والشهود ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ مقترحةً لم نصدّق ولم نقرّ برسالته، قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَ﴾ ينكرون إتيان الآيات المقترحة على الأمم الماضية ﴿وَلَمْ تَأْتِهِم﴾ في هذا الكتاب المعجز المذكر لهم ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133] من إتيان الآيات المقترحة على الأنبياء الماضين، ومع ذلك لم يؤمنوا بهم أممهم، بل كانوا يكذبونهم ويصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال، فهؤلاء أيضًا أمثالهم.

﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل أيضًا قولنا هذا ﴿لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ﴾ نازل من عندنا لإصرارهم وعنادهم ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل إرسالك إليهم ﴿لَقَالُوا﴾ حين نزول

---

(1) قال الحرالي: ويصح أن يراد بها الدعاء، فمن صبر عن الدنايا وعلى المكاره وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر. نظم الدرر (85/1).

العذاب مثلما قالت تلك الأمم الهالكة عند نزوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ من عندك ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الدالة على توحيدك ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بهذا الإذلال ﴿وَنَخْزَى﴾ [طه:134] بهذا الخزي والوبال.

وإن عاندوا معك بعد سماع هذه الدلائل الواضحة والتنبيهات اللائحة، أعرض عن مكالمتهم ومناصحتهم، و﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا يشعر باليأس عن إيمانهم وإصلاحهم ﴿كُلٌّ﴾ منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظرٌ لهلاك الآخر بسبب الشقاوة والإعراض عن الحق ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أو انتظروا أنتم لهلاكنا بشقائنا، فإنا منتظرون أيضًا بهلاككم بالشرك والطغيان، وإذا كُشفَ الغطاء، وظَهرَ يوم الحشر والجزاء ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم المتمكن الغير المعوج المتلون، أنحن أم أنتم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:135] منًا من تيه الضلال إلى فضاء الوصال؟!.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالب لسلوك طريق الحق بالاستقامة التامة، والتشبث عليه بلا اعوجاج وتزلزلٍ؛ لتهتدي بسلوكه إلى زلال الوحدة الذاتية التي هي ينبوع بحر الوجود ومنشأ جميع الموجود أن تقتفي أثر نبيك ﷺ في جميع أفعاله وأعماله، وتتخلق بأخلاقه، وتتصف بأوصافه حسبما أمكنك وقدر ما يسر لك.

ولا تُهمل دقيقةً من دقائق الشرع الشريف بل لك أن تتبع به ﷺ في جميع ما جاء به من قِبَل ربه، وأنشأه من عند نفسه بلا تفحصٍ وتفتيشٍ عن سرائره، حتى ينكشف لك بعد الوصول إلى مرتبتك التي كلفك الحق إليها وجبلك لأجلها، فحينئذٍ ظهر لك جميع ما أوصاك به نبيك ﷺ ورمز إليه، وصرتَ من أهل المعرفة والإيقان إن شاء ربك، ووفقك عليه.

وفقنا يا ربنا بفضلك وجودك إلى معارج عنايتك ومقر توحيدك يا ذا الجود العظيم.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأنبياء عليهم السلام

لا يخفى على المتمكنين في مقر التوحيد، الواصلين إلى مرتبة الفناء في الوحدة الذاتية أن سر الهبوطات والتنزلات المنتشئة من وحدة الذات حسب اقتضاء الأسماء والصفات الإلهية، إنما هو لاكتساب المعارف والحقائق وللاتصاف بالكمالات اللائقة؛ ليحصل لهم الترقي والتدرج متصاعدةً إلى ما منه البداية وإليه النهاية، فلا بدّ في النشأة الأخرى من انتقاء ما حصل في النشأة الأولى؛ ليعود كلُ من المكلفين إلى مبدئه على الوجه الذي بدأ منه.

لذلك وضع سبحانه يوم العرض والجزاء لانتقاء أعمال عباده وتفاوت طبقاتهم ودرجاتهم فيها، ووضع أيضًا لهذه المحكمة جميعَ ما وضع في يوم الجزاء من العرض، والحساب، والصراط، والميزان، وكتب الأعمال، والجنة والنار وغيرها حتى يتحقق كل من المكلفين بمقتضى ما اكتسب على مقتضى العدل الإلهي والقسط الحقيقي الذي هو صراط الله الأقسط الأقوم.

ثم لما كان كثيرٌ من المنهمكين في الغفلة والضلال، منكرين عليها، مكذبين لها، أنزل سبحانه هذه السورة على حبيبه تبشيرًا ووعدًا للمؤمنين الموقنين، ووعيدًا وتهديدًا للمنافقين المكذبين، فقال متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر في النشأة الأولى والأخرى على العدل القويم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعمومه عباده بالدعوة إلى دار السلام وجنة النعيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده بالفوز إلى شرف اللقاء وأنواع التعظيم والتكريم.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ
رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ
هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآۖ أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ الأنبياء: [1 ـ 6].

﴿ٱقْتَرَبَ﴾ أي: دنا وقرب ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهود ربهم التي عهدوا بها معه سبحانه وقت ظهور فطرتهم الأصلية من حَمْلِ أمانة المعارف، والحقائق وقبول أعباء الإيمان، والتوحيد، ومشاق الأعمال، والتكاليف المقربة لهم إليه ﴿حِسَابُهُمْ﴾ أي: قَرُبَ وقت حسابهم، وانتقاد أفعالهم وأعمالهم الصالحة المقبولة عند ربهم من الفاسدة المردودة دونه ﴿وَهُمْ﴾ مغمورون مستغرقون ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:1] عن ربهم، وعن حسابه إياهم، بل أكثرهم معرضون عنه بحيث لا يلتفتون نحوه أصلاً، بل ينكرون وجوده فكيف حسابه وعذابه؟.

لذلك ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ وينزل عليهم ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ وعظةٍ تنبههم عن سِنَةِ الغفلة، وتوقظهم عن رقدة النسيان صادرٌ ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بوحيٍ ﴿مُّحْدَثٍ﴾ مجددٍ وحسب تجددات البواعث والدواعي الموجبة للإنزال على مقتضى الأزمان والأعصار ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ أي: الذكر المحدَث ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:2] به ويستهزئون مع من أنزل إليه.

﴿لَاهِيَةً﴾ معه ذاهلةً ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عن التأمل فيه، والتفكر في معناه والتدرب في رموزه وإشاراته ﴿وَ﴾ هم وإن أغفلوا نفوسهم وقلوبهم عنه لفرط عتوّهم واستكبارهم، لكن تفطنوا بحقيته من كمال إعجازه ومتانته، لكونهم من أرباب البلاغة والفصاحة والذكاء والفطانة، لكنهم ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ أي: بالغوا في إخفاء ما يتناجوا به في نفوسهم من حقية القرآن وإعجازه؛ إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بارتكاب الكفر، والمعاصي، وأنواع الضلال عنادًا ومكابرة، وقصدوا أيضًا إضلال ضعفاء الأنام حيث قالوا لهم على سبيل الإنكار: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الشخص الحقير الذي ادّعى الرسالة والنبوة والوحي والإنزال من جانب السماء ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهو من بني نوعكم لا ميزة له عليكم، والرسول المرسل من جانب السماء لا يكون إلا ملكًا ﴿أَ﴾ تميلون نحوه وتزعمونه صادقًا بواسطة خوارقَ صدرت عنه على سبيل السحر والشعبذة مدعيًا أنه معجز مع أنه ليس كذلك ﴿فَتَأْتُونَ﴾ وتحضرون ﴿ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:3] آلاته وأدواته، وتعلمون عيانًا أنه سحرٌ مفترىً، هل تصدقونه أم لا؟ وهذا

تسجيلٌ وتنصيصُ منهم على كذب الرسول، وإغراءٌ وتضليلُ على ضعفاء الأنام، وحثُ لهم على تكذيبه وإنكار ما أتى به.

﴿قَالَ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم، والرد عليهم: ﴿رَبِّي﴾ الذي ربَّاني بأنواع الكرامات والمعجزات ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أي: جنس الأقوال والأفعال والأحوال الكائنة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأرواح ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة والأشباح ﴿وَ﴾ كيف لا يعلم ويعزب عن علمه شيء؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ المقصور على السمع بحيث لا يسمع سواه ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء:4] المستقلُّ بالعلم لا عالم إلا هو.

ثم أعرضوا وانصرفوا عن قولهم بسحرية القرآن؛ لاشتماله على البلاغة والمتانة وأنواع الخواص، والمزايا الممدوحة عندهم إلى ما هو الأدنى والأنزل منه، ﴿بَلْ قَالُوا﴾: ما هو إلا ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: من تخليطات القوة المتخيلة وتمويهاتها التي رآها في المنام، ثم سطَّرها، وسَمَّاه كلامًا نازلاً من السماء موحى إليه من عند الله ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ واختلقه واخترعه من تلقاء نفسه، ونَسَبه إلى الوحي ترويجًا له بلا رؤيته في المنام ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فصيحُ تكلم بكلام كاذبٍ مُخيِّلٍ نظمه على وجهٍ يعجب الأسماع، وبالجملة ما هو نبيٌ ولا كلامه الذي أتى به وحيٌ نازلٌ من الله كما ادعاه مثل كلام سائر الرسل، وإلا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ مقترحةٍ أو غيرها تُلجئنا إلى تصديقه والإيمان به ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:5] أي: مثلما أُرسل بها الأنبياء الماضون: كالعصا، واليد البيضاء، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وغير ذلك من الآيات الواقعة من الرسل الماضين.

ثم لما تقاولوا بما تقاولوا، واهتم رسول الله ﷺ أيضًا أن ينزل عليه مثلما أنزل على أولئك الرسل نزلت: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ رسلنا الذين جاءوا بالآيات المقترحة ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: أهلها من القرى التي أرسلوا إليهم لذلك ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ واستأصلناها، ولو تأتي أنت أيضًا بمقترحاتهم، لما آمنوا لك مثلما لم يؤمنوا لهم ﴿أَ﴾ تزعم يا أكمل الرسل أنهم لو أتيت لهم ما اقترحوا ﴿فَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:6] بك، كلا وحاشا، إنهم من شدة شكيمتهم وغلظ حجابهم وقسوتهم لا يؤمنون بك أصلاً، وغاية الأمر أنه لو أتيت إياهم بمقترحهم لم يقبلوا منك ألبتة، ولم يؤمنوا لك فاستحقوا الإهلاك والاستئصال حينئذٍ، وقد مضى أمرنا ونفذ حكمنا على ألَّا نستأصل قومك في النشأة الأولى، لذلك لم ننزل عليك ما اقترحوا منك.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ ﴾ الأنبياء: [7 ـ 11].

﴿وَ﴾ إن أنكروا رسالتك يا أكمل الرسل معلِّلين بأنك بشرٌ مثلهم، والبشر لا يكون رسولاً، قل لهم نيابة عنَّا: ﴿مَا أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ رسولاً على أمةٍ من الأمم الماضية ﴿إِلَّا﴾ أرسلنا ﴿رِجَالٗا﴾ منهم لا نساءً، كاملاً في الرجولية والعقل، بالغًا نهاية الرشد والتكميل ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ مثلما أوحينا إليك؛ ليرشدوا الناس إلى توحيدنا، ويوقظوهم من منام الغفلة، ويهدوهم إلى الصلاح، والفوز بالفلاح، وإن أنكروا هذا قل لهم: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ أيها المنكرون ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: العلم والخبرة من أحباركم وقسيسيكم من المشتغلين لحفظ التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء:7] أيها الجاهلون المكابرون.

﴿وَ﴾ إن أنكروا رسالتك معللين بأنك تأكل وتشرب مثلهم، والرسول لا بدَّ ألَّا يأكل ولا يشرب مثل سائر الناس، قل لهم أيضًا نيابةً عنَّا: ﴿مَا جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الرسل الماضين ﴿جَسَدٗا﴾ أي: أجرامًا وأصنامًا ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾(1) بدل ما يتخلل من

---

(1) قال نجم الدين: يشير إلى أن الأنبياء والأولياء خلقوا محتاجين إلى الطعام بخلاف الملائكة، وذلك لا يقدح في النبوة والولاية، بل هو من لوازم أحوالهم وتوابع كمالهم، فإن لهم فيه فوائد جمة:

* منها: إن الطعام للروح الحيواني الذي هو مركب الروح الإنساني كالدهن للسراج، وهو منبع جميع الصفات النفسانية الشهوانية، وهي مركب الشوق والمحبة التي بها يقطع السالك الصادق المسالك البعاد، ويَعْبُر المحب العاشق مهالك الفراق للوصول إلى كعبة الوصال.

* ومنها: إن أكل الطعام من نتائج الهوى، وهي ميل النفس إلى مشتهياتها والسير إلى الله تعالى بحسب نهي النفس عن الهوى لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:40] ولهذا قال المشايخ: لولا الهوى ما سلك أحد طريقًا إلى الله تعالى.

* ومنها: إن من علم الأسماء التي علم الله آدم منوط بأكل الطعام مثل: علم ذوق المذوقات، وعلم التلذذ بالمشتهيات، وعلم لذة الشهوة، وعلم لذة الجوع والعطش، وعلم الشبع والرِّي،

أجزائهم، ولا يشربون الشراب المحلِّل لغذائهم؛ إذ هم أجسام ممكنة محدَثة، محتاجةٌ إلى التغذي، قابلةٌ للنمو والذبول، مشرفةٌ إلى الفناء والانهدام مثل أجسام سائر الأنام ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:8] دائمين مستمرين بلا ورود موتٍ عليهم، وتحليلٍ لتركيبهم، بل هم هلكى في قبضة قدرتنا وجنب وجودنا وحياتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما كذَّبهم المكذبون المنكرون ﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ وأوفينا لهم الوعود المعهودة الذي وعدناهم من إهلاك عدوهم وإنجائهم من بينهم سالمين ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ على الوجه الذي عهدنا معهم ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ من أتباعهم الذين سبقت رحمتنا عليهم في حضرة علمنا ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء:9] المصرين على البغي والعناد، المنهمكين في الجور والفساد.

ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَابًا﴾ جامعًا لما في الكتب السالفة مع أنه ذُكِرَ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ وشرفُكم، ونجابةُ عرقِكم، وطينتِكم، وكمالُ دينِكم، ونبيِّكم، وظهوره على الأديان ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10][1] كلها، وتستعملون عقولكم بما فيه فتدركون مزيةَ كتابكم، ورسولكم على سائر الكتب والرسل، وبشرف دينكم على سائر الأديان.

ولا تبالوا أيها المترفون بترفهكم وتنعمكم، ولا تغتروا بإمهالنا إياكم، ولا تؤمِّنوا عن فكرنا وإنزال عذابنا ونكالنا.

﴿وَ﴾ اعلموا أنَّا ﴿كَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: قهرنا كثيرًا ﴿مِن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ وكسرنا ظهورهم، وبعدناهم عن أماكنهم التي يترفهون فيها؛ لأنها ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ خارجةً عن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة منَّا على رسلنا أمثالكم، وبعدما أخرجناها وأهلكناها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ وبدلنا أهلها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء:11] منقادين لحكمنا مطيعين لأمرنا.

وعلم هضم الطعام قله، وعلم الصحة والمرض، وعلم الداء والدواء وأمثاله، والعلوم التي تتعلق به كعلوم الطب بأجمعها، والعلوم التي هي من توابعها كمعرفة الأدوية والحشائش وخواصها وطبائعها وغيرها، اقتصرنا على هذا القدر من الفوائد الجمة.

(1) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم ، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. نظم الدرر (5 /290).

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ
أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ
دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ
﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوًا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى
ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء: [12 ـ 18].

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ وأدركوا ﴿بَأْسَنَا﴾ بعد تعلق إرادتنا بانتقامهم، ورأوا مقدمات عذابنا وبطشنا ﴿إِذَا هُم﴾ مع شدة شكيمتهم ووفور قوتهم وقدرتهم ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من قراهم ﴿يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:12] ويهربون سريعًا ركضَ الخيل من الأسد.

ثم قيل لهم على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿لاَ تَرْكُضُوا﴾ أيها المترفهون المتنعمون، إلى أين تمشون عن منتزهاتكم ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا﴾ أي: إلى أوطانكم وقراكم التي ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ ومُتِّعتُم ﴿فِيهِ وَ﴾ اسكنوا في ﴿مَسَاكِنِكُمْ﴾ التي كنتم فيها طول دهركم، لم تتركونها وتخرجون عنها؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:13] عن سبب الخروج والجلاء منها.

ثم لما ضاق عليهم أنواع العذاب ولحقت بهم وأدركتهم، ولم ينفعهم الفرار والتحرز ﴿قَالُوا﴾ متأسفين متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:14] متجاوزين مخرجين عن مقتضى العدل الإلهي؛ لذلك لَحِقَنا ما لَحِقَنا.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ الكلمة المذكورة؛ يعني: يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم، ونداؤهم جارية على ألسنتهم على وجه الخضوع والخشوع والتذلل التام والانكسار المفرط؛ لأنهم قصدوا بها النجاة والخلاص، إذ هم اعترفوا بذنوبهم في ضمنها، وندموا عن فعلهم بتكرارها، ومع ذلك لم ينفعهم؛ لمضيّ وقت التوبة والندامة ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:15] أي: صارت أجسامهم مثل: المحصود الخامد من النبات، كأنه ما شمّ رائحةً من الحياة في وقتٍ من الأوقات.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذهم بظلمهم ولا نجعلهم محصودًا خامدًا جامدًا؛ إذ ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ المزينة بزينة الكواكب، كل منها مقدّر لأمور لا يعرف تعديده وإحصاءه غيرنا ﴿وَالأَرْضَ﴾ المزينة بزينة المعادن والنبات، والحيوان، والأشجار، والأنهار،

وأنواع الفواكه، والأثمار، كل منها مشتمل على حِكَمٍ ومصالحَ لا يسعه إلا حضرة علمنا ﴿وَمَا﴾ يحصل ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من امتزاج آثارهما وأفعالهما من العجائب والغرائب التي تَدهش منها العقول، وتكلّ في وصفها الألسنة، وتتحسر الصدور ﴿لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:16] أي: ما جعلناهما عبثًا باطلاً بلا سرائرَ ودَّعنا فيها، وبدائعَ أضمرنا في خلقها وظهورها، إذ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا وقد أودع فيه من المصالح والحكم ما لا يُعدُّ ولا يُحصى.

فكيف يليق بجنابنا، وينبغي لشأننا أن يتصف أفعالنا المتقنة وآثارنا المحكمة باللهو واللعب، وتدبيراتنا بالعبث الخالي عن الحكمة والمصلحة؟ مع أنا ﴿لَوْ أَرَدْنَا﴾ أي: قدَّرنا وفرضنا ما استحال علينا ﴿أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ولعبًا باطلاً خاليًا عن الفائدة، مخلاً لكمال عزتنا وحكمتنا وعلو شأننا وعظمتنا ﴿لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من قِبَلنا، ومن جملة أفعالنا وآثارنا الصادرة وقدرتنا الكاملة وإرادتنا الخالصة، كلا وحاشا ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:17] أي: ما كنا مرتكبين العبث الخالي عن الفائدة سيما مع استكمال كمال قدرتنا ووفور علمنا على أنواع الحكم والمصالح.

﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ أي: بل اللائق المستحسن منّا، المناسب بعلو شأننا أن نضمحل ونُبطل ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو شمس وجودنا، ولمعان آثار فضلنا وجودنا ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الذي هو الظلُّ الزائغُ الآفلُ، والعدمُ العاطلُ الزائلُ ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يَمحقه ويُسقط عنه اسم الوجود المستعار، ويُلحقه إلى ما هو عليه من العدم بلا عبرةٍ واعتبار؛ ليظهر عند المعتبرين أن ﴿مَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:64] ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:39] ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:2]، فكيف لا يمحقه، ولا يلحقه بالعدم ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ في نفسه وفي حد ذاته ﴿زَاهِقٌ﴾ هالكٌ زائلٌ ما شمَّ رائحة الوجود ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ والهلكة أيها الواصفون والجاهلون بقدر الله ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:18] ذاته من الأمور التي لا تليق بجنابنا من ارتكاب العبث، وإسناد اللهو واللعب بذاته تعالى، وإشراك هذه الأظلال الهالكة معه في الوجود، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ

هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأنبياء: [19 – 24].

﴿وَ﴾ كيف تشركون أيها المشركون معه أظلاله وعبيده؛ إذ ﴿لَهُ﴾ تعالى إيجادًا وإبداعًا وإظهارًا وتصرفًا ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأرواح المجردة عن الأبدان ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: الأرواحُ المتعلقة بها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَنْ عِندَهُ﴾ من الأرواح التي لا نزولَ لهم ولا عروجَ، كلهم متذللون ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وإطاعته ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:19] ولا يعْيَون عن إقامتها وإتيانها.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ينزهون الله في جميع أوقاتهم عما لا يليق بجنابه ﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:20] ولا يظهرون الضعف والعناء، بل أقاموها وواظبوا عليها طائعين متذللين خاشعين خاضعين.

وكيف لا يعبدون الله ولا يسبحونه وهم موحدون مخلصون؟ لا المشركون المعاندون الذين اتخذوا آلهةً من السماء كعبدة الكواكب ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا ﴿آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ هو أفحش من ذلك كعبدة الأوثان والأصنام اتخذوها آلهة وعبدوها كعبادة الله، وادَّعوا ضمنًا أن آلهتهم التي نحتوها بأيديهم أو صاغوها من حُلِيِّهم ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء:21] أي: يُخرجون الموتى من قبورهم؛ لأنهم آلهةُ وعبدوها كعبادة الله، والإله لا بدَّ وأن يقدر على جميع المقدورات والمرادات ومن جملتها النشر، بَل من أجلِّها، فلا بدَّ لهم أن ينشروا فكيف يثبتون أولئك المشركون تعددَ الآلهة مع أنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماء والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ﴾ أي: غير الله الواحد القهار للأغيار مطلقًا ﴿لَفَسَدَتَا﴾ واختل نظامها، ولم يبقا على الهيئة المخصوصة المشاهدة ألبتة، إذ المفهوم من الإله هو المستقل في التصرف والآثار بالإرادة والاختيار، فكلٌ من الآلهة المتعددة متصفٌ بجميع أوصاف الألوهية بالاستقلال، فلا يمكن اتفاقهم على أمرٍ من الأمور ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقلِ في الألوهية والربوبية بلا شريكٍ له في ملكه، بل في الوجود والتحقق ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ أي: عروش جميع المظاهر المستولي عليها، إذ لا ظهور لها إلا منه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:22] من اتخاذ الولد والشريك والصاحبة والنظير، لتوحيده في

الوجود واستقلاله في التصرف.

﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إذ لا معقِّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وَهُمْ﴾ أي: الشركاء الباطلة ﴿يُسْأَلُونَ ﴾[الأنبياء:23] [1] عما صدر عنهم، فكيف تليق لهم الألوهية والشركة معه سبحانه وتعالى شأنه عما يصف الواصفون، وجلّ جلال قدسه عما نَسَبَ إليه الجاحدون والمكابرون.

ومع علو شأنه ووضوح برهانه وظهور وحدة ذاته واستقلاله في ألوهيته وربوبيته، ترددوا فيه، وفي توحيده ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل قد أخذوا ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ شركاء له سبحانه لا واحدًا، بل متعددًا وعبدوها كعبادته سبحانه ظلمًا وزورًا وجهلاً وعنادًا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿هَاتُوا﴾ أيها المشركون المثبتون لله الواحد الأحد الصمد شريكًا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على وجود آلهةٍ سواه عقلاً أو نقلاً إن كنتم من ذوي الألباب وأهل العقد والرشاد، ولا سبيلَ لكم إلى الدليل العقلي، إذ برهان التمانع قطعَ عرق الشركة بالمرة، ولا إلى النقل، إذ جميع الكتب الإلهية متطابقةٌ في توحيد الحق، ونفي الشرك عنه سبحانه إذ ﴿هَذَا﴾ الكتاب الجامع لجميع ما في الكتب السالفة المنزلة عليّ ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي: عظة وتذكير يذكر من معي من المؤمنين من أصحابي ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من أمم الأنبياء الماضيين لو صدقوه وقبلوا ما فيه، لكنهم لا يصدقونه ليهديهم إلى الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ جاهلون ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يعرفون الحق الصريح الظاهر في الآفاق بلا سترةٍ وحجابٍ ﴿فَهُم﴾ لغلظ حجبهم وكثافة غشاوتهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:24] عن الحق منكرون له، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ

(1) قطع لسان الحدثان بمقراض هيبة الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخبير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مقال إذ لا وسمة على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية. [العرائس].

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الأنبياء: [25 ـ 28].

ثم قال سبحانه كلامًا جليًا مثبتًا للتوحيد خاليًا عن سمة التقليد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل من الرسل ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ من الرسل الماضين ﴿إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ﴾ أولاً ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ﴾ يُعبَد بالحق ويستحق للعبادة والإطاعة ﴿إِلاَّ أَنَاْ﴾ المتفرد برداء العظمة والكبرياء، المنفرد بكمال الجلال، ودوام البقاء ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25] أيها الأظلال الهالكة والعكوس المضمحلة الباطلة، وتذللوا نحوي خاضعين خاشعين، إذ لا مرجع لكم غيري.

وادّعوا الشركة ﴿وَقَالُوا﴾ مستدلين عليها: نحن نجد في التوراة والإنجيل أنه ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ﴾ الملائكةَ وعزيرًا وعيسى ﴿وَلَدًا﴾ والولد شريكُ لأبيه، إذ هو سرُّه ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبَادٌ﴾ لله ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:26] محبوبون لديه.

لذلك ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يبادرون إلى القول قبل قوله سبحانه، ولا يبدلون، ولا يغيرون قوله وحكمه، كما هو دأب العبيد مع المولى ﴿وَ﴾ كيف يسبقونه بالقول ﴿هُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:27] جميعَ ما عملوا من خيرٍ وشرٍ والمأمور لا يكون شريكًا للآمر.

وكيف لا يعملون بأمره إذ هو ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري منهم ومن أحوالهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما هو حاضرٌ عندهم، معلومٌ دونهم من أحوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما هو غائبٌ عنهم ومجهولٌ لديهم ﴿وَ﴾ إن خرجوا عن مقتضى أمره سبحانه ﴿لاَ يَشْفَعُونَ﴾ أي: لا تقبل شفاعتهم لغيرهم، أو لا يُشفع لهم عند الله بعدما خرجوا عن مقتضى حكمه ﴿إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ سبحانه، ورضي بشفاعة من يشفع لهم وأذِن ﴿وَ﴾ كيف يشفع عنده سبحانه بغير إذنه ورضاه؟ إذ ﴿هُم﴾ أي: الشفعاء ﴿مِّنْ﴾ كمال ﴿خَشْيَتِهِ﴾ سبحانه ومن غاية سطوته وهيبته وقهره ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:28] خائفون مرعوبون وَجِلون.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء: 29 ـ 35].

﴿وَ﴾ متى كان حال الشفعاء وخشيتهم على هذا المنوال ﴿مَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ﴾ مستحقٌ للعبادة، مستقلٌ في الألوهية ﴿مِّن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿فَذَلِكَ﴾ أي: بمجرد قولهم هذا، وإن كان غير مطابق لاعتقادهم ﴿نَجْزِيهِ﴾ ونصليه ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والحرمان ونيران الخيبة والخسران ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:29] الخارجين عن مقتضى توحيدنا، المسيئين الأدب معنا.

﴿أَ﴾ ينكرون وحدتنا، ويثبتون لنا شريكًا من مصنوعاتنا، وينسبون بنا ولدًا ظلمًا وزورًا ﴿وَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنا بأمثال هذه الخرافات الباطنة، ولم يعلموا كمال قدرتنا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والعكوس والأظلال قد ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كان كلُ منهما مرتَقًا متضمنًا بلا تعددٍ وتكثرٍ.

أمَّا الأسماء والصفات فمندمجةٌ مندرجةٌ في الذات بلا هبوطٍ وتنزلٍ وظهور أثرٍ.

وأمَّا الطبيعة العدمية قد كانت ساكنةً في زاوية العدم بلا امتداد ظل الوجود عليها، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتجليات الحبية المنتشئة من الأسماء الذاتية والصفات الكمالية الفعلية، المقتضية للظهور والانجلاء لحكم، ومصالح قد استأثرنا بها، وبالقبول والتأثر من أشعة التجليات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن تنكشف لكم كيفية انتشاء الأشياء الكثيرة من الذات الواحدة المتصفة بالصفات والأسماء المتماثلة والمتقابلة، فانظروا كيف ﴿جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الواحد بالذات، المشتمل على الأوصاف الكثيرة بحسب الآثار الصادرة منه ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: خلقنا، وصيَّرنا كل شيء له إحساسٌ وتغذيةٌ وتنميةٌ وازديادٌ وانتقاص من الماء؛ إذ هو أقوى أسباب التبدلات والتشكلات، وأقبل إلى قبول التصرفات والامتزاجات ﴿أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30] ويصدقون بهذا، مع أنه من أجلى البديهيات، وأظهر المحسوسات.

ثم أخذ سبحانه في تعداد نعمه على خلَّص عباده امتنانًا عليهم وتنبيهًا لهم كي يتفطنوا منها بوحدة ذاته، وكمال قدرته وبسطته فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي الكرة الحقيقية، المائلة بالطبع إلى التدور والانقلاب ﴿رَوَاسِيَ﴾ شامخاتٍ مخافة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ تتحرك وتضطرب وتضر ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في تلك الرواسي ﴿فِجَاجًا﴾ شقوقًا وأدويةً لتكون ﴿سُبُلاً﴾ ومسالكَ متسعةً وطرقًا واسعةً عنايةً منَّا إياهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:31] من تلك الطرق إلى ما يرومون من الأماكن البعيدة والبلدان النائية، فيتجرون ويتبعون منها مطالبهم ومصالحهم.

﴿وَ﴾ أيضًا قد ﴿جَعَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المرفوع فوقهم ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ لهم فيها أوقات مزارعهم ومتاجرهم، وسائر مصالحهم في البر والبحر، إذ هي من أقوى أسباب معاشهم ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على وحدة مبدعها وكمال قدرة مخترعها وموجدها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:32] منصرفون منكرون، لا يتفكرون فيها كي تصلوا إلى زلال توحيدنا، وإلى كمال قدرتنا وإرادتنا.

﴿وَ﴾ كيف لا يتفكرون في خلق السماوات، ولا يتدبرون في الآيات الدالة على وحدة صانعها وبالجملة كيف ينكرون أولئك المنكرون المسرفون وجود موجدها مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر لهم ﴿اللَّيْلَ﴾ سببًا ووقتًا لاستراحتهم ورقودهم ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لمعاشهم واكتسابهم ﴿وَ﴾ جعل ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ سببين لإنضاج ما يتقوتون ويتفكهون و﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِي فَلَكٍ﴾ من الأفلاك السبعة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:33] يسيرون ويدورون بسرعة تامة دائمًا بلا قرار وسكونٍ؛ لتدبير مصالحهم، وإصلاح معايشهم، وهم لا يعلمون، ولا يشكرون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ يعني: إن النصارى ادعوا خلود عيسى وبقاءه بلا طريان موت عليه دائمًا كما كان الآن، وكذا خلود جميع من لحق بالملائكة من البشر، ردَّ الله عليهم على أبلغ وجه وآكده حيث قال: ما جعلنا وقدرنا لبشر من بني نوعك يا أكمل الرسل الخلد والبقاء السرمدي، لا من الذين مضوا قبلك، ولا من الذين يأتون بعدك، إذ هم بشر محدث مركب، وكل مركب محدث لا بدَّ أن ينهدم امتزاجه وتنحل أجزاؤه ومزاجه، ولو كان فرد من أفراد المحدث البشر قديمًا لكنت أنت يا أكمل الرسل ألبتة ﴿أَ﴾ تزعم وتردد يا أكمل الرسل ﴿فَإِن مِّتَّ﴾ وعدمت عن الدنيا ﴿فَهُمُ﴾ الذين ادعى الجاهلون خلودهم ﴿الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:34]

المقصورون على الخلود فيها بلا لحوق عدمٍ عليهم، كلا وحاشا لا يكون الأمر كذلك.

بل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذات أجواء وتركيب خيرة كانت أو شريرة، طويلة مدة عمرها، أو قصيرة، باقية في أهل الأرض، أو ملحقةً بالملأ الأعلى ﴿ذَائِقَةُ﴾ كأس ﴿الْمَوْتِ﴾[1] المدركة مرارتها، والمحتملة أهوال السكرات وأفزاعها، لا ينجو من الموت أحد، وإن علت رتبته وارتفعت مكانته، بل كلكم هلكى في حين ظهوركم ووجودكم المعاد المستعاد ﴿وَ﴾ إنما ﴿نَبْلُوكُم﴾ ونختبركم في وجودكم هذا، ونشأتكم هذه ﴿بِالشَّرِّ﴾ الغير المرتضى عندنا ﴿وَالْخَيْرِ﴾ المرضي، ليكون ابتلاؤنا إياكم ﴿فِتْنَةً﴾ لكم واختبارًا منّا إياكم لحكمة ومصلحة لنا فيها ﴿وَ﴾ بعدما اختبرناكم وابتليناكم في النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ إذ لا غير في الوجود ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:35] في النشأة الأخرى رجوع الظل إلى ذي الظل، والعكوس إلى الصور، فنجازيكم بها، ونعامل بكم على مقتضى اختبارنا وابتلائنا إياكم في النشأة الأولى.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن من الحكمة البالغة والنعمة السابغة أنه جمع في طينة الإنسان ما أفرد به الملائكة بروح نوراني علوي باق أبدي، وأفرد الحيوانات بروح حيواني سفلي فانٍ، فأفرد الإنسان بتركيب الروحين فيه فانٍ حيواني وباقٍ ملكي، فالحكمة في ذلك: إن الروح الملكي غير متعد، وإنما بقاؤه بالتسبيح والتقديس وهو بمثابة النفس للحيوان، ولهذا ليس للملك الترقي من مقامه والروح الحيواني قابل للترقي؛ لأنه متغذ، فجعل الله الإنسان مركبًا من الروحين؛ لينقطع روحه الملكي بطبع روحه الحيواني المتغذي، وقبول الفناء الذي يعبر عنه بالموت؛ ليصير مترقيًا كالحيوان، وينطبع روحه الحيواني بطبع روحي الملكي؛ ليصير مسبحًا ومقدسًا كالملك باقيًا بعد المفارقة بخلاف الحيوانات؛ ولكن من اختصاص الروح الحيواني في التغذي: أن يجعل الغذاء جنس المتغذي، ويلونه بلونه، وصفته الروح الإنساني أن يكون متلونًا بلون الغذاء ومتصفًا بصفته؛ وذلك لأن غذاء الروح الحيواني الطعام والشراب، وهي من الجماد والنبات والحيوان المذبوح المطبوخ فيهما الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة مركوزة بالطبع، والروح الحيواني غالب عليها ومتصرف فيها بالطبع فيجعلها من جنس المتغذي، وغذاء الروح الإنساني ذكر الله وطاعته، والشوق والمحبة إلى لقائه الكريم، وفيه النور والجلبة الإلهية وهي غالبًا على الروح؛ فالروح يتجوهر بجوهرها، وفي الجوهرة بجوهر النور الرباني نوع من الفناء عن وجوده والبقاء بنور ربه، فهو بمثابة ميت ذاق الموت، ثم أحيي بنور ربه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122] فهذا الموت الذي استحق به الروح الإحياء بنور الله إنما استفاه من النفس الحيوانية التي هي ذائقة الموت.

ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ
يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٤١﴾﴾ الأنبياء: [36 ـ 41].

ثم قال سبحانه امتنانًا لحبيبه ﷺ: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين اشتغالك بقراءة القرآن أو بتذكير الأصحاب وعظة أولي الألباب، المشمرين نحو الحق أذيال همِّهم، المستفيدين المسترشدين منك قصارى مقاصدهم هي التوحيد الإلهي ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك حين التفاتهم نحوك ﴿إِلاَّ هُزُوًا﴾ أي: محل استهزاء وسخرية قائلين حين بعضهم لبعض مستحقرين شأنك: ﴿أَهَذَا﴾ الرجل الحقير الفقير الملحق بالأرذال والضعفاء ﴿الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بالسوء، وينكر على شفعائكم ويسيء الأدب مع غاية حقارتهم وضعفهم، وهم من غاية عمههم وسكرتهم، ونهاية غيهم وغفلتهم ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ المنزه عن شوب الشك وريب التردد ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء:36] منكرون وجوده وتحققه مع كمال ظهوره واستحقاقه بالألوهية والربوبية بالأصالة بخلاف معبوداتهم الباطلة الزائغة؛ إذ هم مقهورون تحت قدرته، مجبورون جنب إرادته واختياره، لا قدرة لهم من أنفسهم أصلاً، فهم بالاستهزاء أحق، وبالاستهانة والسخرية أحرى وأليق.

ثم لما استعجل المنهمكون في بحر الضلال والإنكار، التائهون في تيه العتو والاستكبار نزولَ العذاب وقيام الساعة وجميع الوعيدات الواردة فيها على سبيل الاستهزاء والتهكم، ردَّ الله عليهم إنكارهم واستعجالهم بأبلغ وجه فقال: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ﴾ أي: هذا النوع من الحيوان ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ يعني: من غاية استعجاله في الخير والشر كأنه مصنوع منه، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنَّا: إلى متى تستعجلون أيها المسرفون المغرورون ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ عن قريب في هذه النشأة ﴿آيَاتِي﴾ أي: بعضها من نقماتي التي هي من مقدمات عذاب الآخرة، قيل هي وقعة بدر، إذ المستعجلون هم

قريش، وسيأتي عذاب الساعة، وعذابها بعدها ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:37] أيها الضالون المسرفون.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من الرسول وأصحابه ما سمعوا ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ الموعود، والوقت المعهود، عينوا لنا وقت نزول العذاب وقيام الساعة ﴿إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء:38] في دعواكم.

ثم قال سبحانه تفظيعًا لهم وتهويلاً عليهم: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ ويطلع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كيفية ما استعجلوا من العذاب وكميته ﴿حِينَ لاَ يَكُفُّونَ﴾ أي: حين نزل عليهم حتمًا، ولا يمكنهم حينئذٍ أن يدفعوا ﴿عَن وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ﴾ لأنهم محاطون بها، مغمورون فيها بحيث لا يسع لهم دفعها بأنفسهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء:39] من الغير.

إذ كل نفس رهينةٌ بما كسبت؛ يعني: لو علموا فظاعتها وهولها، لما استعجلوا، لكنهم لا يعلمون لذلك استعجلوا اغترارًا واستكبارًا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ العذاب والساعة حين تأتيهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ودفعة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تحيرهم وتدهشهم وقت ظهورها، فصاروا حينئذ حيارى سكارى مدهوشين ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ ردها إذ لا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه، سيما بعد نزوله ﴿رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:40] ويمهلون حينئذ أن استمهلوا.

﴿وَ﴾ لا تبال بهم يا أكمل الرسل، ولا تحزن عن استهزائهم وسخريتهم؛ إذ ﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرٍ مضوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ استهزءوا معهم أممهم مثل ما استهزءوا معك قريش ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط بالآخرة ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بالمستهزئين الذين ﴿سَخِرُوا مِنْهُم﴾ أي: من الرسل وبالَ ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء:41] ويستسخرون، وبأضعاف ما لحق لهؤلاء المعاندين المكابرين فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يستهزئون.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم

بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنبياء: [42 ـ 46].

وإن أنكروا إلمام العذاب وإنزاله عليهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنَّا: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ ويحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ وقت فراغكم ومنامكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾[1] وقت شغلكم وترددكم ﴿مِنَ﴾ نزول العذاب عذاب ﴿الرَّحْمَنِ﴾ القادر على أنواع القهر والانتقام بمقتضى جلاله، لو لم يرحم عليكم بمقتضى لطفه وجماله، لكن يرحم عليكم، فلم يعذبكم رجاء أن تتنبهوا وتواظبوا على شكر نعمه، وأداء حقوق كرمه ﴿بَلْ هُمْ﴾ من شدة غفلتهم وسكرتهم ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ الذي يحفظهم عن أنواع المكروهات والمؤذيات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:42] لا يتوجهون نحوه ولا يلازمون عبادته ولا يداومون شكره.

﴿أَمْ﴾ يزعمون أولئك المصرون المسرفون أن يدفعوا عذابنا النازل لهم بقوة نفوسهم ﴿لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾ أي: تمنع عنهم العذاب مع أنهم ﴿مِّن دُونِنَا﴾ شركاء لنا في الألوهية والربوبية كما زعموا، وتشفع لهم عندنا، كلا وحاشا أن يسع لآلهتهم هذا؛ إذ ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ أولئك التماثيل الهلكى ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ لا يقدرون لدفع ما لحقهم ونزل عليهم من المكروهات فكيف عن غيرهم؟ ﴿وَلاَ هُم﴾ أي: آلهتهم ﴿مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:43] ويقربون حتى يشفعوا لهم، ويدفعوا عذابنا عنهم بواسطة قربتهم وصحبتهم معنا، وإن خيلوا أن إمهالنا إياهم وآباءهم متنعمين مترفهين طول أعمارهم أمارة عدم أخذنا إياهم وانتقامنا منهم، إنما هو خيال باطل، ووهم زائغ زائل مما سولت لهم أنفسهم بتغرير إبليس عليهم.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ﴾ المسرفين المعاندين ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ الضالين المستكبرين ﴿حَتَّى

---

(1) قال في التأويلات: أي: نهار نور روحانيتهم من سطوات قهر الجلال الذي الرحمانية من صفاته، كما أن الرحمية من صفات الجمال بأن يبعث عليهم عذابًا في ظاهرهم أو باطنهم بأن يكلهم إلى ظلمة ليل بشريتهم وهي الجهل؛ ليبقوا بالجهل في أسفل سافلين النفس النفسانية إلى الأبد، أو يكلهم بالخذلان إلى نهار نور الروحانية، وهو العقل ليبقوا، فما حجب المعقولات كالفلاسفة، فإن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وهي حجب البشرية والرحمانية، فالمحجوبون بحجب البشرية أرجى خلاصًا من المحجوبين بحجب الروحانية؛ لأنهم مقرون بجهالتهم وهؤلاء معذورون بمقالتهم وهم من الأخسرين.

طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فارتكبوا أنواع المعاصي والآثام مدة حياتهم فظنوا أنهم مصونون عن الأخذ والانتقام، ونزول العذاب والنكال ﴿أَ﴾ يتوهمون من إمهالنا إياهم هذا الموهوم ﴿فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ من مقام قهرنا وانتقامنا إياهم ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: نبعث ونغلب جنود المسلمين على أرض الكفرة بحيث ﴿نَنقُصُهَا﴾ ونخربها مبتدئين ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إلى أن وصل إلى أقاصيها ﴿أَ﴾ يزعمون ويتوهمون بعد أخذنا في تخريبه أطراف بلادهم وتنقيصها ﴿فَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:44] على جنودنا وجنود أنبيائنا ورسلنا، ما هو إلا زعم فاسد، فإن ادعوا أنا وآباؤنا دائمًا مستمرًا في كنف حفظ الله وجوار صونه من أعمارنا، فمن أين تخوفنا وتنذرنا أنت من إنزال الله العذاب علينا بغتة مع أنه لم يعهد لنا ولا لآبائنا منه تعالى أمثال هذا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم﴾ أي: ما أنذركم وأخوفكم من تلقاء نفسي بل ﴿بِالْوَحْيِ﴾ المنزل عليّ من عند الله، المشتمل على إنذاركم وتخويفكم.

ثم قال سبحانه توبيخًا عليهم وتقريعًا: ﴿وَ﴾ كيف يرشدكم ويهديكم الرسول المنزل إليكم، المؤيد بالآيات والمعجزات أيها المقصورون على الصمم الحقيقي والإعراض الفطري الجبلي إذ ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ الرسولُ ﴿الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ والذكرَ المتضمنَ لأنواع الهداية والرشاد، ولا يسع له إسماعكم ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:45] أي: إلا وقت قابليتكم والتفاتكم إلى الإنذار والتخويف، وأنتم من شدة صممكم وقسوتكم خارجون عن قابلية الإنذار والإرشاد والوعد والوعيد.

﴿وَ﴾ اللهِ يا أكمل الرسل ﴿لَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ وظهرت عليهم ﴿نَفْحَةٌ﴾ واحدة مني ورائحة قليلة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ نازلة على سبيل المقدمة والأنموذج ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ مصرخين صائحين متضرعين معترفين بذنوبهم قائلين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:46] خارجين عن حدود الله مستوجبين للمقت والهلاك، أدركنا فقد حان حينك وقرب أوانك.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الأنبياء: [47 ـ 50].

﴿وَ﴾ بمجرد اعترافهم بظلمهم لا نأخذهم ولا نعذبهم حينئذٍ بل ﴿نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾[1] العدل المسوى المستقيم بحيث لا عوج ولا انحراف لها إلى جانبٍ أصلاً، المعدة ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لنوزن فيها أعمال العباد صالحها وفاسدها، ثم نجازيهم على مقتضى ما ظهر منها ﴿فَلاَ تُظْلَمُ﴾ وتنقص ﴿نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من جزائها، ولا تزداد عليها أيضًا سواء كان خيرًا أو شرًا، ثوابًا أو عقابًا على مقتضى عدلنا القويم وصراطنا المستقيم ﴿وَإِن كَانَ﴾ العمل والظلم وزنه ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ كائنة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ مع أنها لا اعتداد لها، وجازينا صاحبها عليها تتميمًا لعدلنا، وتوفيةً لحقوق عبادنا ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:47] أي: كفى حسابنا لحقوق عبادنا أو لا يعزب عن حيطة حضرة علمنا شيء منها وإن قلّ وحقر.

ثم قال سبحانه على سبيل التذكير والعظة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ من تمام فضلنا وجودنا

(1) قال البقلي: إن الله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين منهما للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي هممهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفسًا من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن منورًا بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان الله في الأرض، فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيمان والتوحيد وكفتاه الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفتاه الهرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الهرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الهرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بالهرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿مُوسَى وَ﴾ أخاه ﴿هَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: التوراة الفارق بين الحق والباطل ﴿وَ﴾ لكمال فرقه وفضله صار ﴿ضِيَاءً﴾ يستضيء به عموم المؤمنين الموحدين من المِلِّيين التائهين في ظلمات الغفلات والجهالات وأنواع الضلالات ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:48] منهم المتذكرين الوقوف بين يدي الله يوم العرض الأكبر.

وهم ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: بضمائرهم وسرائرهم كما يخشون منه سبحانه بظواهرهم وعلنهم ﴿وَ﴾ مع ذلك الخوف المستوعب لجوانحهم وجوارحهم ﴿هُم مِّنَ السَّاعَةِ﴾ الموعودة إتيانها، المتحققة وقوعها وقيامها حقًا حتمًا محققًا ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:49] خائفون مرعوبون كأنها واقعة آتية.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الفرقان الجامع أيضًا ﴿ذِكْرٌ﴾ وتذكير لعموم الموحدين من أمة محمد ﷺ مبارك كثير الخير والبركة للموقنين المخلصين منهم، الواصلين إلى مرتبة الفناء في الله ﴿مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ من كمال فضلنا ولطفنا إلى محمد خاتم الرسالة، ومتمم مكارم الأخلاق، ومكمل دائرة الرسالة والنبوة عليه من الصلاة، والتحيات ما هو الأولى والأحرى ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ﴾ ولكتابه ﴿مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:50] أيها المسرفون المستكبرون؟!.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 51 – 57]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي: كمال عقله ورشاده إلى حيث أيقظناه عن سِنة الغفلة، فأخذ لطلب المعارف، والحقائق وسلوك طريق التوحيد، والتوجه نحو الحق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ أي: بكمال استعداده وقابليته لحمل أعباء الرسالة والنبوة، وانكشافه بسرائر التوحيد ﴿عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:51] بحضرة علمنا في لوح قضائنا.

اذكر يا أكمل الرسل: ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ حين جذبه الحق نحو جنابه وهداه إلى بابه، مستفهمًا على سبيل الإنكار والتقريع: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾

الباطلة والهياكل الزائغة الزائلة ﴿الَّتِي أَنتُمْ﴾ مع كونكم من زمرة العقلاء المجبولين لمصلحة التوحيد والعرفان ﴿لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:52] عابدون متذللون، مع أنها جمادات لا شعور لها ولا حركة، فكيف المعرفة واليقين وعبادة الفاضل للمفضول المرذول في غاية السقوط عند ذوي النهي وأولي الألباب؟.

ولما تفرسوا منه الرشد التام ووجدوا قوله معقولاً محكمًا ﴿قَالُوا﴾ في جوابه: ما نعرف استحقاق هؤلاء التماثيل للعبادة والألوهية، ولا تنكشف بسرائرها، غير أنا ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:53] فنعبدهم كما عبدوها، مع أنهم كانوا من ذوي الفطنة والرشاد، فنعتقد أنهم انكشفوا بأسرارها، وما لنا شغلُ باستكشافها سوى أن نعبد بما يعبد أولئك الأسلاف.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم بعدما انكشف بالحق وظهر عنده ضلالهم وضلال آبائهم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ﴾ أيها الحمقى المنهمكون في بحر الغفلة والغرور ﴿وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: تابعكم ومتبوعكم وأصلكم وفرعكم ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء:54] وغفلة عظيمة من الهداية وسلوك طريق الحق.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا من التضليل والتجهيل ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها المدّعي﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالجد الصريح الواضح المنكشف المبين ﴿أَمْ أَنتَ﴾ في تضليلك وتجهيلك إيانا ﴿مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:55] بنا المستهزئين معنا.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: لا لعب ولا سخرية في أمور الدين سيما في معرفة الألوهية والربوبية، وبالجملة ما هذه التماثيل العاطلة أربابكم الذين أوجدوكم وأظهروكم من كتم العدم ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ وموجدكم ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجد العلويات والسفليات، ومربيها واحدُ أحدُ فردُ وترُ، لا تعدد له، ولا اثنينية فيه، متصرِّف بالاستقلال في ملكه؛ إذ هو ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وأبدعهن اختياره، وانفراده بلا سبق مادة ومدة ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: على الأمور التي بينت لكم وأوضحها عندكم ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:56] أي: من أرباب الشهود المتحققين بمرتبة الكشف واليقين الحقي، لا من أصحاب التقليد والتخمين.

﴿وَ﴾ بعدما جرى بينه وبينهم ما جرى، سفهوه واستهزؤوا معه، ونسبوه إلى الخبط والجنون، وانصرفوا عنه متعجبين إلى مجامعهم ومعابدهم التي اجتمعوا فيها لعبادة الأصنام، قال إبراهيم مقسمًا مؤكدًا بالغًا: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ أي: لأحتالن وأمكرن؛

لأن أكسر ﴿أَصْنَامَكُم﴾ ومعبوداتكم أيها الجاهلون لتفضحوا أنتم وهؤلاء الأباطيل الزائغة ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا﴾ وتنصرفوا ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:57] من مجمعكم ومعبدكم.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: 58 – 68].

ثم لما ذهبوا إلى معبدهم دخل إبراهيم كنيستهم ومعبدهم التي فيها أصنامهم وأوثانهم ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ كلها ﴿جُذَاذًا﴾ قطعًا منكسرة وأجزاء متلاشية ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني: لم يكسر الصنم الكبير من الأصنام فقط؛ ليكون سببًا لإلزامهم، وإفحامهم لدى الحاجة ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:58] أي: يراجعون له ويستفسرون منه عن كسر الأصنام؛ لأنهم اعتقدوه أعظم الآلهة، والإله لا بدَّ أن يجيب لهم جميع حوائجهم وحاجاتهم.

ثم لما رجعوا من معبدهم ودخلوا إلى معابدهم وكنائسهم للعبادة والتقرب نحو الآلهة، وجدوها مجذوذة منكسرة متفرقة الأجزاء ﴿قَالُوا﴾ من فرط حزنهم وأسفهم مستبعدين مستحسرين: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا﴾ الفعل الفظيع والأمر الفجيع ﴿بِآلِهَتِنَا﴾ ومعبوداتنا ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:59] الخارجين عن شعائر ديننا الجاحدين لآلهتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: السامعون منهم للسائلين: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ نكّروه تحقيرًا له، وإهانة عليه ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: الآلهة بالسوء دائمًا، ويعيب عليهم، وينكرهم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:60].

ثم لما انتشر الخبر واجتمعوا في المعبد مزدحمين متشاورين في انتقامه، واستقرار رأيهم عدمًا تمادى مشورتهم إلى أن ﴿قَالُوا﴾ متفقين: ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ ورؤوس الملأ والأشهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء:61] يحضرون ويجتمعون؛ يعني: جميع المعبودين لقتله وهلاكه، حتى ينال كل منهم نصيب حظه من نصر الآلهة.

ثم لما حضر نمرود واجتمع أشراف مملكته، وازدحم العوام والخواص، وأحضروه لينتقموا عنه ﴿قَالُوا﴾ أولاً له على سبيل التعيير والتقريع: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ الفعل الشنيع، والأمر القطيع الفجيع ﴿بِآلِهَتِنَا﴾ ومعبوداتنا ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:62] المرذول المجهول.

﴿قَالَ﴾ في جوابهم على مقتضى اعتقادهم وزعمهم: أنا عبد مألوه مربوب، وهم آلهة معبودون، كيف أقدر أن أفعل بهم هذا ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: هذا الصنم الغير المنكسر؛ لئلا يشاركوا معه في المعبودية والألوهية، وإن شككتم أنه فعل هذا هو أم أنا ﴿فَاسْأَلُوهُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:63] يعني: إن اعتقدتم نطقهم وتكلمهم؛ لأنهم آلهة، ومن لوازم الألوهية: التكلم، والتنطق، بل أنتم تعتقدون أن هؤلاء خلقوا جميع أهل التكلم واللسان، فهم أولى وأحق بجواب سؤالكم هذا.

ولما سمعوا منه ما سمعوا ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ﴾ متأملين؛ أي: رجع كل منهم إلى وجدانه ونفسه متفكرًا متدبرًا ﴿فَقَالُوا﴾ أي: كل منهم في سره ونجواه: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الجاهلون الغافلون عن قدر الألوهية والربوبية ﴿أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء:64] المقصورون على الخروج عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي، ما هذه إلا تماثيلٌ مصنوعةٌ لكم منحوتة بأيديكم، من أين توجدكم وتخلقكم، بل أنتم موجدوها ومخترعوها.

﴿ثُمَّ﴾ لما تفرسوا بخطئهم وتفطنوا بحقية إبراهيم وصدقة في مقاله، أزعجتهم الغيرة البشرية والحمية الجاهلية إلى المراء والمجادلة معه لذلك ﴿نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ يعني: بعدما علموا أعلى الأمر وأسفله، وفرقوا بين الحق والباطل، أرادوا أن يقلبوا الأمر وعكسوه عنادًا ومكابرة وقالوا مكابرة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أيها المجادل المفتون ﴿مَا هَؤُلَاءِ﴾ الآلهة ﴿يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:65] إذ هم جمادات لا حس لهم ولا شعور، كيف يتيسر لهم التكلم والتنطق.

وبعدما اعترفوا بجمادية آلهتهم وعدم قابليتهم للنطق، والتنطق، والتكلم ﴿قَالَ﴾ إبراهيم موبخًا عليهم ومقرعًا: ﴿أَ﴾ ما تستحيون وتخجلون أيها الضالون المكابرون ﴿فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد المتوحد بالألوهية والربوبية، المستقل بجميع التصرفات الواقعة في عالم الغيب والشهادة ﴿مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَيَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: 66] أي: أصنامًا وأوثانًا، لا يرجى منهم النفع والضر.

ثم لما قال على سبيل الضجر والإكراه عن أمرهم، والتأسف على ضيق عقلهم المفاض لهم من ربهم لمصلحة المعرفة والإيمان: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي: قبحًا لكم أيها المطرودون المردودون عن زمرة العقلاء ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المستقل للنفع والضرر، وجلب أنواع الخيرات، ودفع أصناف المضرات ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:67] أيها المتخذون لله شركاء، ولا تستعملون عقولكم الموهبة لكم لكسب المعارف والحقائق؛ لتتفطنوا إلى سرائر التوحيد الخالي عن شوب التخمين وشين التقليد ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

ثم لما سمعوا منه التعيير والتشنيع ثارت نار حميتهم واشتد غيظ غيرتهم ﴿قَالُوا﴾ بعدما شاوروا كثيرًا في وجه إهلاكه وانتقامه: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ إذ لا عذاب أقرع وأهول منه ﴿وَانصُرُوا﴾ بحرقة ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ لأن التعذيب بالنار مخصوص بالإله، كما قال «لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ غَيْرُ خَالِقِهَا»[1] ولما كان تعذيبهم إياه لأجل آلهتهم، لذلك اختاروا تعذيبه بالنار ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2] [الأنبياء:68] ناصرين آلهتكم بأخذ انتقامهم عنه.

---

(1) رواه البيهقي في «السنن» (179/2) رقم 18525 بنحوه.

(2) قال في التأويلات: إشارة إلى أن الله تعالى إذا أراد أن يكمل العبد من عباده المخلصين يفديه خلقًا عظيمًا، كما أنه تعالى إذا أراد استكمال حوت في البحر يفديه كثيرًا من الحيتان الصغار، فلمّا أراد تخليص إبريزة الخلة من غش البشرية جعل نمرود وقومه مثلةً لإبراهيم عليه السلام حتى أجمعوا بعد أن علموا أنهم ظالمون، فوضعوه في المنجنيق ورموه إلى النار، فانقطع رجاءه عن الخليقة بالكلية متوجهًا إلى الله مسلمًا نفسه إليه حتى أن جبريل عليه السلام أدركه في الهوى فامتحنه بقوله: هل لك من حاجة ما كان فيه بقية من الوجود ما تعلق به الحاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، فقال له جبريل: ربك امتحانًا له خفي سره عن جبريل غيره، فقال: حسبي من سؤال علمه بحال، وما أظهر عليه حاله، فأدركته العناية الأزلية بقوله تعالى على كافة الخلق، بل على جميع الأشياء.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ
ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء: 69 –
75].

ثم لما حفروا البئر، وبنوا الحفرة، وجمعوا الحطب، وأوقدوا النار، علقوا المنجنيق ووضعوه فيه ورموه إليها ﴿قُلْنَا﴾ حينئذ حافظين لخليلنا له، مخاطبين للنار: ﴿يَا نَارُ﴾ المجبولة المطبوعة بالحرق والحرارة ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ واتركي الحرق والحرارة ﴿وَ﴾ لا تضري لخليلنا بالبرودة أيضًا، بل صِيري ﴿سَلامًا﴾ أي: ذات سلام وسلامة ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] ولا تضري له.

﴿وَ﴾ بعدما علموا وأبصروا أن النار لا تضره، بل صارت له روحًا وريحانًا، أُفحموا وألزموا وكيف لا يفحمون ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ومكرًا لينتقموا عنه، ويبطلوا دعواه التوحيد، فعاد عليهم الإلزام والإبطال، فغلبوا هنالك ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:70] فيما قصدوا له وانقلبوا عن مجمعهم خاسرين خائبين خسرانًا مبينًا وخيبة عظيمة.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا مع خليلنا إبراهيم ما فعلوا ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿وَ﴾ صاحبناه مع ابن أخيه ﴿لُوطًا﴾ وبعثناهما عنايةً منّا إياهما ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وصيرناها كثير الخير والبركة وذات الأمن واليُمن والأمان والإيمان ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:71] أي: لجميع من ينزل ويؤول إليها من أهل الدين والدنيا، وهي الشام التي هي منازل الأنبياء والأولياء، ومقر السعداء والصلحاء، ومهبط الوحي الإلهي، لذلك ما بعث نبي إلا فيها وفي حواليها.

قيل: نزل إبراهيم عليه السلام بعدما جلا من وطنه بـ«فلسطين» من الشام، ولوط بـ«السدوم» وبينهما مسيرة يوم وليلة.

﴿وَ﴾ بعدما مكناه في الأرض المقدسة ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من رحمتنا تفريجًا لقلبه من كربة الغربة، وتشريحًا لصدره، وتقريرًا لعينيه: وَلَدَيه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يزول حزنه بهما، وهبنا له إسحاق إجابة لدعائه بقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:100] وإنما أعطيناه يعقوب ﴿نَافِلَةً﴾ منّا إياه، وزيادة فضل وعطية تكريمًا له وامتنانًا عليه ﴿وَكُلاً﴾ من ولديه ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء:72] للنبوة والرسالة وقبول سرائر التوحيد، وأسرار الألوهية والربوبية في قلوبهم.

﴿وَ﴾ لصلاحيتهم واستعدادهم لقبول الخيرات ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ وقدوة هادين مهديين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ووحينا إلى زلال توحيدنا ﴿وَ﴾ بعدما جعلناهم قدوة هادين ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وألهمنا تتميمًا لإهدائهم وإرشادهم ﴿إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ والإتيان بالأعمال الصالحات، وعموم الطاعات والمبرات، لتكون لهم وسيلة مقربة لهم إلى توحيدنا ﴿وَ﴾ أوحينا خاصة ﴿إِقَامَ الصَّلاةِ﴾ المتضمنة لتوجههم نحو الحق بجميع القوى والحركات والأركان والجوارح ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ المصفية لقلوبهم عما سوى الحق ﴿وَ﴾ هم بمقتضى أمرنا ووحينا إياهم ﴿كَانُوا لَنَا﴾ خاصة بلا رؤيتهم الوسائل، والأسباب العادية في البين ﴿عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:73] متذللين متواضعين مخلصين بظواهرهم وبواطنهم وجميع أعمالهم وحركاتهم.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿حُكْمًا﴾ وقطعًا للخصومات، وفصلاً للخطوب والمهمات ﴿وَعِلْمًا﴾ بسرائر الأمور ورموزها وإشاراتها الدالة على وحدة الصانع الحكيم، وسرّ سريان هويتها الذاتية على صفائح ما ظهر وما بطن ﴿وَ﴾ من كمال لطفنا معه ﴿نَجَّيْنَاهُ مِنَ﴾ فتنة ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ﴾ أهلها ﴿تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أي: الفعلة الشنيعة والديدنة الخسيسة الخبيثة المذمومة المسقطة للمروءة عقلاً وشرعًا، وعرفًا وعادة، وهي التعري بين أظهر الناس، واللواط، والضراط على الملأ، وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية قسوتهم وغفلتهم ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء:74] مغمورين بين أنواع الفسق، منغمسين في أصناف المعاصي والآثام.

﴿وَ﴾ بعدما انتقمنا عنهم وأهلكناهم بأشد العذاب ﴿أَدْخَلْنَاهُ﴾ ومن معه ممن سبقت لهم منّا الحسنى ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ وكنف حفظنا وجوارنا ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:75] لعبادتنا المقبولين في حضرتنا.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[الأنبياء: 76 – 81].

﴿وَ﴾ نجينا أيضًا من كمال لطفنا وجودنا ﴿نُوحًا﴾ وقت ﴿إِذْ نَادَى﴾ ودعا متوجهًا إلينا متضرعًا ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين كذَّبه قومه واستهزؤوا معه، وضربوه ضربًا مؤلمًا بقوله: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح:26] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه وأنجحنا مطلوبه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ [الأنبياء:76] الذي هو الطوفان.

﴿وَ﴾ حين اضطروه وأشرفوا على الهلاك ناجانا فزعًا فجيعا بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:10] ﴿وَ﴾ لذلك ﴿نَصَرْنَاهُ﴾ وجعلناه منتصرًا ناجيًا ﴿مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا، وذلك أنه دعاهم إلى الإيمان والتوحيد، وهداهم إلى صراط مستقيم، وهم امتنعوا عن القبول ﴿إِنَّهُمْ﴾ من شدة شكيمتهم وغلظ غيظهم مع أهل الحق ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ كأنهم مغمورون فيه متخذون منه ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ لذلك ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:77] تطهيرًا للأرض من فسادهم، وقلعًا لعرق غيّهم وعنادهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل في كتابك قصة ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ وقت ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾ أي: زرع القوم ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ودخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ﴾ الآخر ليلاً، فأكلته وأهلكته، فتنازعا ورفعا الأمر إليهما، واستحكما منهما فحكم داود بالغنم على صاحب الزرع، بناء على أن صاحب الغنم لا بدَّ له أن يضبط غنمه ليلاً؛ لئلاً يخسر ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم داود إياهم؛ أي: لأصحاب الزرع بالغنم ﴿شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: 78] مطلعين اطلاع شهود وحضور.

وبعدما حكم داود ما حكم، وكان ابنه سليمان حاضرًا عنده سامعًا لحكمه ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي: ألهمنا الحكومة الحقّة والفتوى في هذه القضية ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال: الأرفق أن يدفع الغنم إلى أصحاب الحرث؛ لينتفعوا من ألبانها وأصوافها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم بسقيها وحفظها ورعايتها، حتى يعود إلى الذي كان، ثم يترادان ويتدافعان، فقال داود لسليمان: القضاء ما قضيت، فرجع عن حكمه، وحَكَم بحكم ابنه ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: رشدًا صوريًا ومعنويًا بمقتضى قابليتها واستعدادهما ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ﴾ تفضلاً منّا عليه وتكريمًا ﴿الْجِبَالَ﴾ إلى حيث ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ويقدسن الله عما لا يليق بجنابه معه حين اشتغل بتسبيح الله وتقديسه ازديادًا لثوابه ورفعًا لدرجته ﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيْرَ﴾ أي: الطيور معه حين اشتغاله بتكبير الله وتنزيهه ﴿وَكُنَّا﴾ وبأمثاله ﴿فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:79] لأنبيائنا وأوليائنا، ومن يتوجه نحونا من عبادنا، فلا تتعجبوا من أمثال هذا، ولا تستبعدوا عن قدرتنا أمثال إبداعها.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ من مقام جودنا إياه ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي: الدروع، وما يلبس للدفع حين الحراب والقتل، فكانت الدروع صفائح تخلقها داود، وسردها بإلهام الله إياه وتعليمه، إنما علمناه تخليقها وسردها ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ وتحفظكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من جراحات السهام والسنان، إذ هو أدفع لآثارها من الصفائح، وأخف منها ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ أيها المنعمون المتنعمون ﴿شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:80] لوفور نعمنا إياكم.

﴿وَ﴾ كذا سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ حال كونها ﴿عَاصِفَةً﴾ سريعة السير والحركة، آبية عن التسخير، سخرنا له حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ وحكمه سريعة ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا﴾ أي: كثرنا الخير ﴿فِيهَا﴾ لساكنيها، وكذا لجميع من يأوي إليها، وهي أرض الشام فكان يسير مع جنوده متمكنين على بساط كان فرسخًا في فرسخ، منسوج من الإبريسم عملته الجن له حيث شاء، ثم يعود من يومه إلى منزله ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا منّا أمثال هذا؛ إذ ﴿كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ تعلق إرادتنا بإيجاده ﴿عَالِمِينَ﴾[1]

(1) قال نجم الدين: يُشير إلى أن كمالية الإنسان إذا بلغ مبلغ الرجال البالغين من الأنبياء والأولياء، سخّر الله بحسب مقامه السفليات والعلويات من الملك والملكوت، فسخر لسليمان ﷺ الريح والجن والشياطين والطير والحيوانات والمعادن والنبات من العلويات الشمس حين ردت لأجل صلاته، كما سخر لداود الجبال والطير والحديد والأحجار التي قتل بها جالوت وهزم

[الأنبياء:81] بأسباب وجوده وظهوره، فنوجده على الوجه الذي نريده ونُجريه على مقتضى حكمتنا وقدرتنا.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 82 - 88].

﴿وَ﴾ كذا سخرنا لسليمان ﴿مِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ البحار، ويخرجون منها نفائس الجواهر تتميمًا وتوفيرًا بخزانته ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ أيضًا ﴿عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ الغوص من بناء الأبنية الرفيعة، والقصور المنيعة، واختراع الصنائع البديعة الغريبة والهياكل البديعة والتشكيلات العجيبة ﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾ من قبل سليمان ﴿حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء:82] مشغلين مشرفين إياهم، لا يمكنهم أن يفسدوا في أعمالهم وأشغالهم

عسكرهم، فسخر لكل نبي شيئًا آخر من أجناس العلويات والسفليات، وسخر لنبينا ﷺ من جميع أجناسها.

* فمن السفليات ما قال ﷺ: «زويت لي الأرض مسجدًا وترابها طهورًا»، وقال ﷺ: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض»، وكان الماء ينبع من بين أصابعه.

وقال ﷺ: «نُصرت بالصبا وأهلكت عاد بالزبور» وكانت الأشجار تسجد له، وتسلم عليه، وتسجد له، وتنقلع بإشارته عن مكانها وترجع، والحيوانات كانت تتكلم معه، وتشهد بنبوته، وقال ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي» وغيره من السفليات.

*وأمّا العلويات: فقد انشق القمر بإشارة وسخر له البراق وجبريل والرفرف، وعبر عن السماوات السبع والعرش والكرسي والجنة والنار إلى أن بلغ مقام قاب قوسين، أو أدنى، فما بقي شيء من الموجودات إلا وقد سخر له.

ويزيغوها على مقتضى أهويتهم وطباعهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أخاك ﴿أَيُّوبَ﴾ الذي ابتلاه الله بأنواع المحن والبلاء، فصبر عليها فازداد ألمه، واشتد الأمر عليه واضطر إلى التضرع والتفزع، وبثِّ الشكوى إلى الله، اذكر ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ مشتكيًا إليه، مناجيًا له، متضرعًا إياه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ يا رب، وتنحَوا عني أقاربي وذوو أرحامي وجميع رحمائي ﴿وَأَنْتَ﴾ تبقى عليّ رحيمًا مشفقًا؛ لأنك ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83] فأدركني بلطفك؛ إذ لا طاقة لي ولا صبر بعد اليوم، وقد بلغ الجهد غايته.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا﴾ عنه ﴿مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ مؤلم مزعج ﴿وَ﴾ بعدما شفيناه وأزلنا عنه مرضه ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ وأحيينا الذين هلكوا بسقوط البيت عليهم، وأمواله التي تلفت بالحوادث والنوائب ﴿وَ﴾ زدناها امتنانًا له وتفضلاً عليه ﴿مِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إياه وزيادة إنعامٍ وإحسان منّا عليه ﴿وَ﴾ ليكون ما فضلنا به وأعطيناه ﴿ذِكْرَى﴾ تذكرة وحثًا ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:84] الذين صبروا على مشاق التكاليف، ومتاعب الطاعات والعبادات؛ ليفوزوا بأفضل المثوبات، وأعظم الكرامات.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ذا الصبر والرضا بما جرى عليه من القضايا ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ صاحب دراسة الحكمة المتقنة وأنواع المعارف والحقائق ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ المتكفل بعبادة الله في جميع أوقاته وحالاته، حيث لا يشغله شيء عن التوجه نحو الحق، قيل: هو إلياس، وقيل: زكريا، وقيل يوشع بن نون، وقيل: نبيٌ آخر مسمى به؛ لأنه يتكفل صيام أيام حياته ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء السعداء المقبولين عند الله المقبولين ﴿مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء:85] لقضاء الله، ونزول بلائه، كما أنهم كانوا شاكرين لآلائه ونعمائه.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَدْخَلْنَاهُمْ فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِنَا﴾ امتنانًا عليهم ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:86] المصلحين أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم وأحوالهم، الواصلين إلى درجة القرب واليقين. ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أخاك ﴿ذَا النُّونِ﴾ صاحب الحوت، وهو يونس بن متى، واذكر قصته وقت ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ على قومه من أعمالهم حين وعظهم، فلم يتعظوا، فشق عليه الأمر، فغضب عليهم، فلم يكظم غيظه، فخرج من بينهم تفريجًا لغضبه، وتوسيعًا لصدره ﴿فَظَنَّ﴾ بخروجه من بينهم ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ ونضيِّق ﴿عَلَيْهِ﴾ ولا يمكننا حبسه وتضييقه وتغميمه في مكان آخر

فهرب، ولقي البحر فركب على السفينة فسكنت الريح، فقال البحّارون: إن ها هنا عبدًا آبقًا، فاقترعوا، فخرجت القرعة باسمه فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت ﴿فَنَادَى﴾ وناجى ضريعًا فجيعًا مغمورًا ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ التي تراكمت عليه؛ إذ هو في بطن الحوت وكان الليل مظلمًا ﴿أَن﴾ أي: أنه ﴿لاَّ إِلَهَ﴾ يعبد بالحق، ويستحق للعبادة استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا ﴿إِلاَّ أَنتَ﴾ يا من خضعتْ لك الرقاب، وانتكستْ دون سرادقات جلالك أعناق أولي النهى والألباب ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ربي أنزهك عن جميع ما لا يليق بجنابك، ولا يليق لشأنك ﴿إِنِّي﴾ بواسطة خروجي عن قومي بغير إذنك ووحيك، مع أنك أرسلتني إليهم، وبعثتني بين أظهرهم نبيًا ذا دعوة وهداية ﴿كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87] الخارجين عن مقتضى حكمك وأمرك، لذلك ضيقتَ الأمر عليّ يا ربي، وحبستني ولا مخلص لي من هذا المضيق إلا عفوك وكرمك.

وبعدما تاب إلينا، وتوجه نحونا مخلصًا متضرعًا، واستخلص منا مضطربًا مضطرًا ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ وأجبنا دعاءه فأخرجناه من بطن الحوت ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ العظيم والكرب الكبير ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي﴾ عموم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:88] المخلصين الذين أخلصوا في إنابتهم ورجوعهم نحونا من كروبهم وأحزانهم.

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: 89 – 91].

﴿وَ﴾ اذكر أيضًا أخاك ﴿زَكَرِيَّا﴾ الذي بلغ من الهرم والكهولة إلى حيث آيس ممن استخلفه من نطفته، وقنط عمن يقوم مقام من نسله، فشكا إلى الله وقت ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ متمنيًا متحسرًا آيسًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرم إلى أن كبرتُ وأشرفتْ أركان جسمي إلى الانهدام، وأجزاء جسدي إلى الانحلال والانخرام ﴿لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ مقطوع الفرع، منسي الذكر بلا ولدٍ يخلفني ويرث عني، ويحيي اسمي ﴿وَ﴾ إن جرى حكمك على هذا، أو مضى قضاؤك على ذا، فلا أبالي به؛ إذ ﴿أَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾

[الأنبياء:89] وأكرم المستخلفين.

وبعدما تضرع وتمنى ما تمنى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ عناية منا إياه وفضلاً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ من كمال جودنا ﴿يَحْيَى﴾ المحيي لاسمه ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بل نفسه أيضًا بعدما أفسدهما الدهر، وأخرجهما من قابلية الولادة والإيلاد، وصيرنا زوجته شابة ولودًا بعدما كانت عجوزًا عقيمًا؛ إظهارًا لكمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا، وإنما فعلنا بالأنبياء المذكورين ما فعلنا بهم من كمال اللطف والكرم، ومحض الفضل والإحسان ﴿إِنَّهُمْ﴾ من كمال توجههم وتحننهم نحونا ﴿كَانُوا﴾ في جميع أوقاتهم وحالاتهم ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ويسابقون إلى الطاعات المقبولة عندنا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَدْعُونَنَا﴾ في مناجاتهم بنا، وفي خلواتهم معنا ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ راغبين إلينا، راجين عفونا وغفراننا وراهبين عنا، خائفين منا صولة سطوة قهرنا وغضبنا ﴿وَ﴾ بالجملة هم ﴿كَانُوا﴾ دائمًا ﴿لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:90] خاضعين متذللين مخبتين، ولذلك نالوا من الله بسبب خصائلهم هذه ما نالوا من جزيل العطاء، والفوز بشرف اللقاء، والبقاء بعد الفناء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أختك العفيفة ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام، وصبرت على العزوبة بلا ميل منها، ولا دغدغة إلى الشهوة تقربًا إلى الله بتحمل المشاق والمتاعب في طريق توحيده، وبعدما بالغت في الحصن والحفظ، وبلغت في العفة كمالها وغايتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي: أمرنا حامل روحنا؛ يعني: جبرائيل عليه السلام بأن ينفخ في جيبها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ فنفخ فسرى إلى جوفها، فحبلت بعيسى عليه السلام وبعد وضع حملها ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: مريم ﴿وَابْنَهَا﴾ عيسى ﴿آيَةً﴾ أي: كل منهما آية عجيبة غريبة دالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، خارقة للعادة، وهي إيجاد الولد بلا أب، وإيلاد المرأة بلا لمس زوج، فصار هذا كرامة وإرهاصًا لمريم، ومعجزةً لعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وعبرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:91] من حسن حالهما ورفعة رتبتها وعلو شأنهما.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا

يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ
مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: 92 – 100].

ثم قال سبحانه مخاطبًا لجماهير الأنبياء والرسل وأممهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الملة التي هي ملة الإسلام، وطريق التوحيد والفرقان ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: قدوتكم وقبلتكم وقصارى أمركم، والحكمة في جبلتكم وخلقكم ما كانت إلا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا تعدد فيها أصلاً ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:92] أيها الأظلال المنعكسة من أسمائي وأوصافي، وتوجهوا نحوي بغاية التذلل والخضوع، ونهاية الانكسار والخشوع.

﴿وَ﴾ بعدما كانوا أمة واحدة لا اختلاف فيهم أصلاً ﴿تَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾ أي: أمر دينهم قطعًا، وتحزبوا أحزابًا فوقع النزاع ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فاختلفوا اختلافًا كثيرًا على سبيل المراء والمجادلة، ولا تبال بهم وباختلافهم وتحزبهم؛ إذ ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 93] رجوع الأمواج إلى البحر.

وبعدما اختلفوا وتعددوا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ منهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المرضية لنا المقبولة عندنا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بتوحيدنا، مصدق لرسلنا وكتبنا ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ ولا تضييع منّا ﴿لِسَعْيِهِۦ﴾ الذي سعى في طريقنا طلبًا لمرضاتنا، بل ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:94] حافظون حارسون ما صدر عنه من الخيرات الموجبة للمثوبات، ورفع الدرجات، فنعطيه ما استحق له من الثواب بلا فوت شيء منها.

﴿وَ﴾ حفظنا وحراستنا ﴿حَرَٰمٌ﴾ ممنوع منّا محرم ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي: أهلها قهرًا وغضبًا منّا إياهم بسبب ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:95] ولا يتوجهون إلينا، ولا يؤمنون بتوحيدنا ولا يصدقون بكتبنا ورسلنا، بل يكذبون وينكرون، وهكذا تتمادى حرمتنا، ومنعنا إياهم إلى أن ظهرت أشراط الساعة ولاحت أماراتها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ وفتقت ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ سدهما الذي شدّ بينهما وبين

سائر الناس ﴿وَهُم﴾ بعد فتح السد، ورفع المانع من غاية عدوانهم مع الناس، وحرصهم على تخريب البلاد ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: تلال وجبال ﴿يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96] يسرعون إلى الناس كالذباب الجوّع.

﴿وَ﴾ بعدما ﴿اقْتَرَبَ﴾ ودنا ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ والموعود المحقق الذي هو فتح السد وخروجهما من أشراطه وعلاماته، وقامت القيامة ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي: الشأن والقصة حين أنها ﴿شَاخِصَةٌ﴾ حائرة مدهوشة مضطربة ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النشأة الأولى بالله، وكذبوا بهذا اليوم، فيقولون حينئذ متحسرين خائبين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعال فالآن وقت حلولك ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنْ﴾ مجيء ﴿هَٰذَا﴾ اليوم في نشأتنا الأولى ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:97] خارجين عن مقتضى الحكم الإلهي، منكرين لهذا اليوم بعدما أخبره بوقوعه الرسلُ ونطق به الكتب.

ثم خاطب سبحانه الكافرين الذين أشركوا بالله مع أنه سبحانه لم ينزل عليه سلطانًا خطابا عامًا شاملاً للعابدين ومعبوداتهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأظلال والتماثيل التي اتخذتموها آلهة، وادعيتم استحقاقها للعبادة والإطاعة أنتم وهم كلكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: حطبها ووقودها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:98] ورودَ الأنعام للماء.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ كما زعمتم واعتقدتم ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأنهم ينقذونكم منها ألبتة، ولا هم آلهةً لكنهم يردون النار، جميعًا عابدًا ومعبودًا، فظهر أنهم ما كانوا آلهةً، بل عبادُ أمثالكم ﴿وَكُلٌّ﴾ منكم ومنهم ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:99] مخلدون معذبون دائمًا.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: لأهل النار في النار ﴿زَفِيرٌ﴾ تنفيس شديد، وأنين طويل ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة الأهوال والأفزاع ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء:100].

ثم لما نزلت هذه الآية اعترض ابن الزِّبعري بأن عزيرًا وعيسى والملائكة من المعبودين، فهم أيضًا في النار، مع أنهم من الأنبياء والمَلَك، وهم محفوظون منها على زعمكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ

وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 101 – 105].

نزل بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم﴾ عناية ﴿مِّنَّا﴾ الخصلة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾[1] والمنزلة الأسنى والدرجة العليا، والجنة المأوى ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ السعداء المخصوصون بمزيد لطفنا وجودنا ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:101] لسبق رحمتنا إياهم وعفونا عنهم.

بحيث: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ﴾ من غاية البعد منها ﴿حَسِيسَهَا﴾ أي: صوتها على وجه الخفاء كدويّ النحل، مع أن أهلها يُصرخون فيها، ويَفزعون في غاية الشدة، ولا تصل لغاية بعدهم عنها ﴿وَ﴾ كيف يسمعون حسيس النار ﴿هُمْ﴾ متنعمون مترفهون ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من اللذات الروحانية، والمشتهيات النفسانية عنايةً من الله إياهم ﴿خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:102] دائمون مستمرون بلا طريان ضدٍ وعروض منافر.

وكيف يسمعون ويحزنون أولئك الآمنون من حسيس النار مع أنهم من فرط

---

(1) قوله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) أخبرنا عمر بن أحمد بن عمر الاوردي قال: أخبرنا عبد الله بن محمد نصير الرازي قال: أخبرنا محمد بن أيوب قال: أخبرنا علي بن المدينى قال: أخبرنا يحيى بن نوح قال: أخبرنا أبو بكر عياش، عن عاصم قال: أخبرني أبو رزين، عن يحيى، عن ابن عباس قال: آية لا يسألني الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها ؟ قال: وماهي ؟ قال: لما نزلت - إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون - شق على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا ؟ فجاء ابن الزبعرى فقال: مالكم ؟ قالوا يشتم آلهتنا، قال فما قال ؟ قالوا قال: - إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون - قال: ادعوه لي فلما دعى النبي ﷺ قال: يا محمد هذا شئ لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟ قال: بل لكل من عبده من دون الله، فقال ابن الزبعرى: خصمت ورب هذه البنية، يعني الكعبة، ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيرا، قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى - إن الذين سبقت لهم منا الحسنى - الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام - أولئك عنها مبعدون -. «أسباب النزول» (1/ 206).

فرحهم وسرورهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو النفخة الأخيرة في الصور، مع أنها في نهاية الهول والفظاعة، وإذا لم يشوشهم تلك الهائلة فكيف بالحسيس ﴿وَ﴾ بعد دخولهم في الجنة الموعودة ﴿تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ مرحبين مهنئين قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:103] في نشأتكم الأولى أيها المؤمنون الآمنون، وأنتم فيها تؤمنون بها، فالآن نلتم بما آمنتم، وفزتم بما أملتم.

اذكر يا أكمل الرسل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي﴾ ونلف ﴿السَّمَاءَ﴾ المبسوطة المنشورة ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: طيًا مثل طي الصحيفة الحافظة الحارسة للمكتوب فيها، يعني: نلفها لفًا بعد نشرها بحيث لا يبقى لها اسم ولا رسم، إذ طي الصحيفة كنايةٌ عن نسيان الشيء وإعدامها وعدم التذكر، وبالجملة ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ وأبدعنا ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ وإيجاد من العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿نُعِيدُهُ﴾ عليه كذلك، بحيث صار كأن لم يكن موجودًا أصلاً، وكان إعدامه ﴿وَعْدًا﴾ منًا لازمًا ﴿عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:104] الموعود المعهود ألبتة إنجازًا لوعدنا.

﴿وَ﴾ كيف لا نفنيه ولا نعدمه ﴿لَقَدْ كَتَبْنَا﴾ وأثبتنا ﴿فِي الزَّبُورِ﴾ وفي جميع الكتب المنزلة منًا ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: بعد الحضور والثبوت في حضرة علمنا ولوح قضائنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة المعدّة لأهل الولاء والمحبة، ومستقر أرباب العناية؛ إذ لكل نفس من النفوس البشرية أرضٌ معدة من فضاء الجنة، وإنما وصلوا إليها بالإيمان والأعمال الصالحة المقربة إلى الحق، فمتى لم يتصفوا بالإيمان والمعارف والتوحيد لم يصلوا إليها، وإذا لم يصلوا إليها بكفرهم وعنادهم وظلمهم ﴿يَرِثُهَا﴾ من الكفار أماكنهم المعدة لهم فيها ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105] المقبولون عندنا، المتصفون بشعائر التوحيد والإيمان، والعارفون بمعالم الدين ومسالك العرفان، المرضيون الراضون بجميع ما جرى عليهم من قضائنا.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)
قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى

حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: 106 – 112].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر في القرآن من المواعظ والتذكيرات والرموز والإشارات ﴿لَبَلَاغًا﴾ وتبليغًا بليغًا إلى أقصى مراتب التوحيد ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 106] عارفين بمسالك اليقين وأماراته.

﴿وَ﴾ كما كان هذا الكتاب هاديًا لجميع البرايا إلى أعلى معارج التوحيد لذلك ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل المستخلف منا، المتخلق بأخلاقنا، المظهر لتوحيدنا الذاتي ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ أي: ذا رحمة شاملة وعطف عام ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] إذ لا بعثة بعدك، ولا دين بعد دينك، بل أنت مكمل دائرة النبوة والرسالة، ودينك ناسخ جميع الأديان، فلا بدَّ لجميع أهل الملل والنحل أن يتدينوا بدينك كي يصلوا إلى ما جبلهم الحق لأجله، وهو التوحيد والعرفان.

وبعدما صرت خاتم النبوة والرسالة وصار دينك ناسخًا لجميع الأديان ﴿قُلْ﴾ لقاطبة الأنام على سبيل الدعوة العامة والتبليغ التام: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من ربي ما جعلني مبعوثًا إلى عموم عباده ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ أيها الواصلون إلى مرتبة التكليف ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أحدٌ صمد لا يقبل التعدد، ولا يعرضه نقصان، ولا يشغله شأن عن شأن، بل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ أيها العابدون ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:108] منقادون له، مسلّمون توحيده، مخلصون في إطاعته وانقياده.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن التوحيد بعد تبليغك إياهم قصارى أمرهم في دينهم ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿آذَنتُكُمْ﴾ وأعلمتكم بإذن الله وأهديكم بمقتضى وحيه ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: على طريق سوي، وصراط مستقيم موصل إلى توحيد الحق ومعرفته، وإن انحرفتم عن جادة التوحيد وانصرفتم عن مسالكه، استوجبتم المقت والعذاب ألبتة ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي: ما أدري وأعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾ نزول ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:109] من العذاب والنكال.

وبعدما تحقق نزوله وتقرر وقوعه بإخبار الله به لا تغتروا بإمهاله إياكم عن غفلته منكم تعالى عن ذلك، كيف يعرض له سبحانه الغفلة والذهول؟ ﴿إِنَّهُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ منكم ﴿مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ﴾ أيضا منكم ﴿مَا تَكْتُمُونَ﴾

[الأنبياء:110] (1) وتخفون في نفوسكم من خواطركم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي: وما أعلم أيضًا ﴿لَعَلَّهُ﴾ أي: لعل إمهاله إياكم وتأخيره العذاب عنكم ﴿فِتْنَةٌ﴾ واختبار ﴿لَّكُمْ﴾ هل تفطنون إلى توحيده أو لا؟ بعد ورود أنواع المنبهات عليه، والروادع، والزواجر البليغة عما ينافيه ويخالفه ﴿وَ﴾ ما أدري أيضًا لعل إمهاله لكم ﴿مَتَاعٌ﴾ وتمتيع لكم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:111] لتزدادوا فيه إثمًا ومعصية كثيرة تستجلبوا بها أعظم العقوبات وتستحقوا أشد العذاب.

ثم لما تمادى النزاع بين أهل مكة ورسوله الله ﷺ وتكثرت الوقائع والحادثات، أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالاستعانة منه سبحانه والتفويض إليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أصروا على إنكارك ملتجئًا إلينا مناجيًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربَّاني بكرامة الرسالة والتبليغ والإرشاد والتشريع ﴿احْكُم بِالْحَقِّ﴾ الصريح الصحيح عندك بيني وبين هؤلاء المعاندين، وأنت تعلم أنهم لا ينزجرون إلا بنزول العذاب الموعود عليهم، أنزل بمقتضى قهرك عليهم ما ينزجرون به من العذاب ﴿وَرَبُّنَا﴾ وإن كان هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء حتى الكافر الشقي النافي له، لكنه ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ والمعين المنان والناصر الديّان لأهل المعرفة والإيمان ﴿عَلَى﴾ إزالة ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 112] الله به مما لا يليق بشأنه وجنابه.

وبالجملة أولئك المشركون هم الهالكون في تيه الجحود والطغيان، المنهمكون في بحر الغفلة والضلال والكفران.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب القاصد لاقتصاد الأحوال واعتدال الأقوال والأفعال أن تستعين بالله ما صدر عنك، وجرى عليك، وتسنده إلى الله سبحانه بلا رؤية الوسائل

(1) قال البقلي: يعلم شكاية العارفين منه إليه بألفاظ مجهولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، لحان وقت الوصال، وكشف الجمال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعجهم إلى الحرية والانبساط. قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضر؟! فما يكتمونه أظهر عنده مما يبدونه وما يبدونه مثل ما يكتمونه جل الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

والبين، وتتخذه وكيلاً على مقتضى أمره سبحانه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل:9] وتفوض جميع أمورك في جميع شؤونك وأطوارك إليه سبحانه؛ إذ هي له أصالة، وإن صدر عنك صورة؛ إذ لا وجود لك في ذاتك، فكيف ما يترتب عليه من الأفعال والآثار المرتبة عليه، فلك أن تميت نفسك عما حداك إليه أمّارة نفسك وشيطان وهمك وخيالك؛ إذ هو مضلك ومغو ك عما يعنيك وينبغي لك، ويغريك إلى ما لا يعينك ويرديك.

فلك أن تميز بين تسويلات الهوى، و النفس المائلة عن المولى وبين آيات الهدى وعلامات التقى الموصلة إلى الدرجة العليا والفوز بشرف اللقيا.

وإن شئت أن تخلص نفسك من جنود الهوى وعساكر الغفلات من الأوهام والخيالات فاعتزل عن أظهر الناس، وأعرض عن ملئهم، واحذر عن مخالطتهم ومصاحبتهم، واتخذ لنفسك خلوة تنجيك عن جميع ما يغويك ويؤذيك؛ إذ المرء إنما يذوق حلاوة الوحدة ولذة التوحيد في العزلة والفرار عن الخلطة، سيما في هذا الزمان الذي غلب فيه النفاق، وكثر الخلاف والشقاق.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة عن لذات الدنيا ومشتهياتها، وأنسًا بك تخلصنا عن مؤانسة غيرك، إنك على ما تشاء قدير، وبإنجاح آمال المؤملين جدير.

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الحج

لا يخفى على المشمرين أذيال هممهم للتوجه إلى كعبة الذات، والوقوف عند عرفات الأسماء والصفات، والطواف حول جميع الأركان والمقامات الجامعة لجميع الأبعاد والجهات أن الحج الحقيقي والطواف المعنوي الأصلي إنما هو بالانخلاع عن لوازم الصور الجسمانية ومقتضيات الهياكل الهيولانية بالموت الإرادي، والفناء الاختياري المنبعث عن الشوق المفرط نحو الحق، المنزه عن تراكم الإضافات المؤدية إلى التعدد والكثرات.

ولهذا وضع سبحانه للسالكين القاصدين نحو قبلة الذات مقصدًا مخصوصًا، وعين لهم وجهة معينة، وأمرهم بالتوجه إليها والوقوف عندها والطواف حولها من كل فج عميق، ومرمى سحيق، ألا وهي أودية الإمكان، أو بوادي التعينات، متزودين بزاد التقوى، راكبين على مطايا التوفيق، متقربين إلى الله بذبح كبائش أمّارتهم بالسوء، لابسين لباس الموتى الاضطراري، منسلخين عن لوازم الحياة الصورية، معطلين جميع القوى والحركات عن مقتضاها، محرمين على نفوسهم جميع المشتهيات النفسانية الناشئة من الشهوية والغضبية، بحيث ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ [البقرة:197].

ثم أمرهم بوقوف العرفات المعرفة لهم بسرائر الأسماء والصفات، ليتأتى لهم ألذ الطواف حول الذات؛ إذ لا سبيل إليها إلا من طرق الأسماء والصفات.

ثم لما كان الطواف الحقيقي مسبوقًا برفع جميع التعينات، ونفي مطلق الإضافات والكثرات، ولا يتم هذا على الوجه الأتم الأكمل في النشأة الأخرى والطامة الكبرى حذرهم سبحانه عنها ليتهيئوا لها، ويتزودوا بزادٍ يناسبها فقال مناديًا لهم على التذكير متيمنًا باسمه العلي الكبير:

﴿بِسْمِ اللهِ﴾المدبر لأمور عباده بأحسن التدبير ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم يحفظهم عن الخطر، ويعطيهم الخير الكثير ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم ييسهل عليهم كل عسير.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ④ ﴾ [الحج: 1 – 4]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون للعهود والمواثيق ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي ربّاكم بأنواع الكرامات وجلائل النعم، واجتنبوا عما نهاكم عنه من المكاره والمعاصي، ولا تغتروا بإمهاله إياكم في نشأتكم هذه، واحذروا عن بطشه في النشأة الأخرى وقيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ المعدة لانقهار النظام المشاهد، وانحلال أجزاء العالم المحسوس ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1] وأمر فظيع هائل فجيع، بحيث تضعضعت السماوات من هيبتها، واندكت الأرضون من شدة صولتها.

اذكر أيها الرائي: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي: تلك الزلزلة الشديدة المهيبة بحيث ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تدهش وتغفل من غاية دهشتها ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ مشفقة متحننة ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: ولدها الرضيع مع كمال محبتها ومودتها ﴿وَتَضَعُ﴾ عند حدوثها من شدة هولها وفزعها ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ وحبلٍ ﴿حَمْلَهَا﴾ وجنينها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿النَّاسَ﴾ أي: جميع الأنام عند حدوثها ﴿سُكَارَى﴾ حيارى مدهوشين، زائلين عقولهم من شدة الهول ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ حقيقة ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ﴾ النازل إياهم في تلك الحالة ﴿شَدِيدٌ﴾ [الحج:2] [1] مدهش محير لعقولهم وأبصارهم،

(1) وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيمان والسكر والهيجان بقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ يولهون في رؤية العظمة وجلال الهيبة، ويهيمون في أودية أنوار الكبرياء والسلطنة. قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبساط الجبروت وسرادق الكبرياء حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي. وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب، وشتان بين سكر وسكر، سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن سألتني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد القيمة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر

وجميع قواهم ومشاعرهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون لله المنتقم الجبار ذي القدرة الكاملة والغيرة التامة العذاب والنكال في النشأة الأخرى لمن يسيء الأدب معه، وينسب إليه سبحانه ما لا يليق بجنابه وينكر يوم البعث الجزاء مع ورود الآيات العظام في شأنه ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على المراء والمجادلة ﴿مَن يُجَادِلُ﴾ ويخاصم داعي الله ورسوله سيما ﴿فِي﴾ حق ﴿اللَّهِ﴾ ويبالغ فيها حيث ينفي ذاته سبحانه وصفاته الذاتية الكاملة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: دليل عقلي يتشبث به أو نقلي يستند إليه بل إنما هو عن جهل وعناد ﴿وَ﴾ مستنده ومتشبثه أنه ﴿يَتَّبِعُ﴾ في دعواه وجداله هذا ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ مضل مغوٍ ﴿مَّرِيدٍ﴾ [الحج:3] عالٍ متمرد في الشرارة والفساد بين العباد.

ولذلك ﴿كُتِبَ﴾ ونص ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: الشيطان المَريد المردود ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: الشيطان، واتخذه وليًا من دون الله واقتدى له واقتفى أثره ﴿فَأَنَّهُ﴾ أي: الشيطان بإغوائه وإغرائه ﴿يُضِلُّهُ﴾ ويصرفه عن سواء السبيل الذي هو طريق الإيمان والتوحيد ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على مقتضى تلبيسه وتغريره ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:4] بئس المولى وبئس النصير.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر المريدين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في حجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجمال، وبعض السكارى فانٍ في الجمال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس. وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنما هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بما منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العباد والزهاد سكرهم من مشارب الكرم.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: 5 – 7].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المنهمكون في الغفلة والنسيان المنغمسون بلوازم الحدوث والإمكان، المفضية إلى أنواع العصيان والطغيان ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شك وتردد ﴿مِّنَ﴾ أمر ﴿الْبَعْثِ﴾ وإمكان وقوعه، ومن قدرتنا إلى إعادة المعدوم بلا سبق الهيولى والزمان، حتى يزول ريبكم، ويرتفع شككم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ وقدرنا وجودكم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ جماد، لا مناسبة بينكم وبينه أصلاً، إذ هو أصل النطفة ومادة المنيّ، إذ المنيّ إنما يحصل من الأغذية المتكونة من التراب ﴿ثُمَّ﴾ قدرناكم ثانيًا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مصبوبة في الأرحام حاصلة في أجزاء الغذاء ﴿ثُمَّ﴾ صورناكم ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: دم منعقد من المنيّ المصبوب في الرحم ﴿ثُمَّ﴾ عيّنا أركان أجسامكم ﴿مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: لحم متكون من الدم المنعقد ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ كاملة الخلقة سوية الأجزاء بلا عيب ولا نقصان، قابلة الفطرة للمعرفة والهداية والرشد التام ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ناقصة الخلقة معيوبة الأجزاء، منحطة عن درجة الكمال كل تلك التبديلات والتغييرات منّا دليل على كمال قدرتنا وإرادتنا ووثوق حكمنا وتدبيراتنا إنما أظهرناها ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ ونظهر ﴿لَكُمْ﴾ كمال قدرتنا المتعلقة على جميع المقدورات المتحققة، والمقدرة على السوية بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿نُقِرُّ﴾ ونثبت الولد ﴿فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ ونريد ثبوته ذكرًا أو أنثى، مبدّلين مغيرين من صورة إلى أخرى مرارًا كثيرة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سميناه وعيناه في حضرة علمنا لتسويته وتعديله ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سويناه وعدلنا أركان جسمه على الوجه الذي تقتضيه حكمتنا، ونفخنا فيه من روحنا؛ إذ نفخُنا الروح فيه علة غائية لإيجاده وإظهاره ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: كلا منكم من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ محتاجًا إلى الرضاعة والحضانة ﴿ثُمَّ﴾ نربيكم بأنواع التربية والتغذية، ونقوي مزاجكم ومشاعركم

على التدريج ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كمال رشدكم وقوتكم الجسمانية، وتثمروا من المعارف والحقائق ما جبلتم لأجلها إن وفقوا من قبلنا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ بعدما بلغ أشده ورشده أو قبل بلوغه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو سن الكهولة والهرم المستلزم للخرافة ونقصان العقل وضعف القوى والآلات ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ متعلق منه بمعلوم مخصوص ﴿شَيْئًا﴾ من أمارات ذلك المعلوم وصار عنده كأنه لم يلتفت إليه قط لغلبة الغفلة والنسيان عليه وسقوط الحفظ والإدراك عنه، كل ذلك إنما هو لإظهار قدرتنا الكاملة، وإرادتنا التامة الشاملة ﴿وَ﴾ لا تتعجب من كمال قدرتنا، ومتانة صنعتنا، وحكمتنا أمثال هذا، أما ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْأَرْضَ﴾ الممهدة المبسوطة كيف كانت ﴿هَامِدَةً﴾ يابسة متينة جامدة بعيدة عن الرطوبة والخضرة كالرماد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا﴾ وقت تعلق قدرتنا وإرادتنا بإحيائها ونضارتها ﴿عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المشتمل على خاصة الحياة ﴿اهْتَزَّتْ﴾ وتحركت اهتزازًا شوقيًا ﴿وَرَبَتْ﴾ وارتفعت من حضيض الخمود والجمود طالبًا الخروج إلى فضاء الهواء والعروج إلى غاية ما أعد له من الكمال ﴿وَ﴾ بعد حركتها وارتفاعها متشوقة ﴿أَنبَتَتْ﴾ وأظهرت بإقدارنا إياها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ نوع وصنف مما يخرج من الأرض ﴿بَهِيجٍ﴾ [الحج:5] رائق عجيب، وهذا من أوضح الدلائل والبراهين عند ذوي النهى واليقين على البعث، وإعادة المعدوم، وجميع المعتقدات الأخروية.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إيجاد المقدورات التي تستبعدها العقول السخيفة والأحلام الردية الضعيفة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المحقق المقصور على الحقية والثبوت لا متحقق في الوجود سواه، ولا معبود يُعبد بالحق إلا هو ﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه بخصوصه المقتدر هو الحي القيوم المحيي ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَأَنَّهُ﴾ بذاته وأسمائه وصفاته هو القادر بالاستقلال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل تحت قدرته وحيطة حضرة علمه وإرادته بالاستقلال ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحج: 6] بلا فتور وقصور ولا تزلزل وعثور.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة المعهودة من عنده ﴿آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ إذ هي من جملة مقدورات الله التي قدر وجودها في لوح قضائه وحضرة عمله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ المتصرف بالاستقلال والاختيار ﴿يَبْعَثُ﴾ يوم الحشر ﴿مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:7] من النفوس الخيرة والشريرة، ثم يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه، إن خيرًا فخير

وإن شرًا فشر.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ
يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ
بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾
يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾[الحج: 8 — 13].

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفر والنسيان ﴿مَن يُجَادِلُ﴾ ويكابر ﴿فِي﴾ أوامر ﴿اللهِ﴾ وينكر مقدوراته الماضية والآتية مع أنه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: دليل عقلي مسبوق بترتيب المعلومات اليقينية أو الظنية ﴿وَلاَ هُدًى﴾ أي: حدس، وكشف ملهم من عند الله ملقى في روعة ﴿وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج:8] دليل نقلي منسوب إلى الوحي، والإلهام بنور قلب من صدّق به، وأخذ بما فيه إيمانًا واحتسابًا، ومع أنه ليس له سند عقلي ولا نقلي ولا كشفي وشهودي، مُعرِض عن الدلائل والشواهد مع وضوحها وظهورها صارفًا عنان عزمه عن التأمل فيها.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ يعني: لاويًا عنقه وموليًا جنبه عنها كبرًا وخيلاء على أصحاب الدلائل والبراهين وأرباب الكشف والشهود عتوًا وعنادًا، إنما فعل ما فعل من عدم الالتفات والتوجه نحو أهل الحق ﴿لِيُضِلَّ﴾ بفعله هذا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي بيّنه الأنبياء وأوضحه الرسل بوحيه وإلهامه إليهم، وإنزال الكتب، والصحف عليهم ﴿لَهُ﴾ أي: لهذا المستكبر العاتي بسبب ضلاله وإضلاله ﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوان وهون وطرد ولعن ونهب وأسر ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد انقراض النشأة الأولى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:9] المحرق الذي هو عذاب النار الذي لا عذاب أشد منها.

وحين تعذيب الموكلين عليه إياه بالنار، أمرناهم أن يقولوا له على سبيل المثال التقريع والتوبيخ زجرًا عليه: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي لحقك ونزل عليك من العذاب المخلد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ وكسبت ﴿يَدَاكَ﴾ في النشأة الأولى، وعلى مقدار ما اقترفته من المعاصي والآثام بلا زيادة عليها عدلاً منّا ﴿وَ﴾ اعلم أيها المسرف المبالغ في اقتراف الجرائم

المستوجبة للعذاب ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: 10] يعني: ليس بمبالغ في جزاء الانتقام عنه مقدار الجرائم والآثام مثل مبالغته في جزاء الإنعام والإحسان تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على نسيان المنعم، وكفران نعمه ﴿مَن يَعْبُدُ اللهَ﴾ المنزه المستغنِ عن إيمانه وعبادته ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾[1] أي: شاكًا متنظرًا على طرف بلا جزم منه فيه، وطمأنينة كالذي يتمكن يوم الوغى على طرف الجيش مترددًا منتظرًا، إن أحس الظفر قرّ في مكانه وتمكن، وإلا فرّ، كذلك هذا المؤمن المتزلزل ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ﴾ بعدما آمن وأسلم ﴿خَيْرٌ﴾ أي: شيء يسُرُّه وينشطه ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ وتمكن لأجله متفائلاً بالإيمان والإسلام ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ﴾ بعد اختياره الإيمانَ والإسلام ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: بليةٌ ومصيبةٌ تُمِلُه ﴿انقَلَبَ﴾ ورجع ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: وجْهته وجِهَته التي تركها من الكفر متطيرًا متشائمًا بالإيمان والإسلام وبالجملة ﴿خَسِرَ﴾ ذلك المتزلزل المتذبذب ﴿الدُّنْيَا﴾ بأنواع البليات والمصيبات ﴿وَالآخِرَةَ﴾ بالحرمان عن درجات الجنان والخلود في دركات النيران بأنواع الخسران ﴿ذَلِكَ﴾ الخسران المستوعب للنشأتين ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:11] العظيم، لا خسران أعظم منه وأفحش، وكيف لا يخسر ذلك المردود المطرود.

﴿يَدْعُو﴾ ويعبد ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة والإطاعة استحقاقًا ذاتيا ووصفيًا ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ﴾ أي: شيئًا، إن عصاه ولم يؤمن

---

(1) قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ قال المفسرون، نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته آمن به واطمأن، وقال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرا، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرا، فينقلب عن دينه، فأنزل الله تعالى ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية. وروى عطية عن أبي سعيد الخدري قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالاسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني، فقال: إن الاسلام لا يقال، فقال: إني لم أصب في ديني هذا خيرا، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: يا يهودي إن الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب، قال: ونزلت ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ «أسباب النزول» (206/1).

به لا يتأتى منه الضرر والانتقام ﴿وَمَا لاَ يَنفَعُهُ﴾ أي: إن أطاعه وعبده حق عبادته، لا يتأتى منه أن يثيبه ويغفر له ويحسن إليه ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الإطاعة والانقياد لشيء لا يرجى منه النفع والضر ﴿هُوَ الضَّلاَلُ البَعِيدُ﴾ [الحج:12] عن الهداية والتوحيد بمراحل خارجة عن الحصر والتعديد.

بل ﴿يَدْعُو﴾ ذلك الضال الغوي ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ﴾ بسبب اتخاذه شريكًا معه في استحقاق العبادة جهلاً وعنادًا، مع أنه الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية، ودخولُ المشرك في النار محقق، مقطوعٌ به، فيكون ضره أقرب ﴿مِن نَّفْعِهِ﴾ الذي توهمه أن يشفع لأجله عند الله، والشفاعةُ عنده إنما هي بإذنه سبحانه أيضًا فثبت ألَّا نفع له، واللهِ ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى﴾ المعين الناصر الشفيع الأصنام والأوثان الخسيسة ﴿وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ [الحج:13] أي: الكفار الذين يعبدونهم ويوالونهم ويتخذونهم أربابًا يطمعون منهم الشفاعة عند الله، مع أن ترك المحقق المجزوم، وأخذ المعدوم الموهوم ما هو إلا كفر باطل وزيغ عاطل زائل.

ربنا اهدنا بفضلك إلى سواء السبيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 14 – 18].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الهادي لعباده إلى دار السلام ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: سبقوا بالإيمان بالله، وتصديق رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي أمرهم سبحانه في كتبه وأجراهم على

ألسنة رسله بالإتيان والامتثال بها، واجتنبوا عن النواهي التي نهاهم سبحانه عنها ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: المعارف والحقائق الجزئية المتجددة بتجددات الأمثال، وهي الرموز والإشارات التي يتفطن بها العارف من ظواهر المظاهر المرتبطة بالشؤون والتجليات الإلهية وبالجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الموفق لخواص عباده ﴿يَفْعَلُ﴾ معهم ﴿مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:14] من الصلاح والفوز بالنجاح، والتحقق بمقام الرضا وشرف اللقاء.

ثم لما اعتقد المشركون ومن في قلبه عداوة راسخة مع رسول الله ﷺ، وشكيمةٌ شديدة، وغيظٌ مفرط ألا نصرَ ولا إعانة له من عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة كما زعمه ردَّ الله عليهم نصرًا له وترويجًا لقوله، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ ولن يعين رسوله ﷺ لا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ولا في ﴿وَالآخِرَةِ﴾ بل ما ادعاه من نصر الله إياه في الدنيا والآخرة، إنما هو لإثبات دعواه وترويج مدعاه، وإلا فلا نصر له ولا ناصر، يقال للمنكر: إن شئت إزالة غيظك وحسدك عنه ﷺ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: نحوها وارتفع معلقًا بالحبل إلى أن يتباعد من الأرض مسافة بعيدة ﴿ثُمَّ﴾ يقال له بعدما ارتفع من الأرض: ﴿لْيَقْطَعْ﴾ الحبل وانفصل عنه، فقطع فوقع ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ بعدما وقع ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ مكره وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:15] أي: غيظه برسول الله تعالى ﷺ.

وبالجملة ما يزول إنكار المنكرين، وغيظ المشركين مع رسول الله ﷺ إلا بهذه الحيلة والكيد.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثلما نصرناه ﷺ في وقائع كثيرة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أيضًا لتأييده ونصره ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلائل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات دالة على صدقة في دعواه النبوة والرسالة والتشريع العام والإرشاد التام ﴿وَ﴾ أنزلناه أيضًا على سبيل العظة والتعليم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الهادي للعباد، الموفق لهم إلى سبيل الرشاد ﴿يَهْدِي﴾ بعدما بينتَ لهم طريق الهداية والسداد بوحي الله إياك يا أكمل الرسل ﴿مَن يُرِيدُ﴾ [الحج:16] ويتعلق إرادته ومشيئته سبحانه لهدايته ورشاده، ومن يتعلق بضلاله أضله.

وبالجملة ما عليك إلا البلاغ، وعلى الله الهداية والرشاد، فلا تتعب نفسك في هداية من أحببت، ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56]، بل أمر الهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال.

لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ الهادي للناس إلى توحيد الذات، والصفات، والأفعال جميعًا ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم الذين آمنوا بموسى عليه السلام الهادي لأمته إلى توحيد الصفات ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين يدَّعون الاطلاع على سرائر الكواكب والأجرام العلوية ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم الذين يصدقون بعيسى عليه السلام الهادي لأمته إلى توحيد الأفعال ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ الذين يدَّعون التمييز بين فاعل الخير وفاعل الشر ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله المنزه عن الشريك، كلٌ من هؤلاء المذكورين يدعي الحقية لنفسه، والباطل لغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين من هو المحق منهم والمبطل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكيف لا يميز ويفصل سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:17] أي: حاضرٌ مع كل شيء رقيب عليه، غير مغيب عنه أصلاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ولم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المظهر لجميع المظاهر ﴿يَسْجُدُ﴾ أي: يذلل ويخضع ﴿لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من العلويات ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من السفليات وخصوصًا معظمات الأجرام العلوية وهي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ ومعظمات الأجسام من السفليات ﴿وَ﴾ هي ﴿الْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَ﴾ يسجد له أيضًا طوعًا ﴿كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على استعداد الإيمان، وقابلية المعرفة والإيقان ﴿وَكَثِيرٌ﴾ منهم لانحرافهم عن الفطرة الأصلية بتقليد آبائهم ومعلميهم الذين يضلونهم عن سواء السبيل لذلك ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وثبت له العقاب في لوح القضاء وحضرة العلم ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ وأسقط رتبته وحط درجته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ معلٍّ رافع ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿يَفْعَلُ﴾ معهم ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18] على مقتضى علمه وخبرته.

ثم لما تطاول نزاع اليهود مع المؤمنين وتمادى جدالهم وخصومتهم حيث قال اليهود: نحن أحق بالله منكم لتقدم ديننا، وشرف نبينا، وفضل كتابنا، وقال المؤمنون: نحن أحق منكم؛ لأن ديننا ناسخ جميع الأديان، ونبينا خاتم دائرة النبوة والرسالة، ومتمم مكارم الأخلاق، وكتابنا الجامع لما في الكتب السالفة الناسخة لبعض أحكامها أفضل من سائر الكتب، ونحن أيضًا لا ننكر نبيًا من الأنبياء، وكتابًا من الكتب، وأنتم أنكرتم عيسى عليه السلام ودينه وكتابه وديننا ونبينا وكتابنا، مع أنه مذكورٌ في كتابكم، وأنتم تعلمون حقيته وتنكرونه عنادًا.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ
حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى
ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ
بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: 19 – 25].

أوردَ سبحانه في كتابه قصتهما وحكم بينهما فقال سبحانه: ﴿هَٰذَانِ﴾ الفوجان، يعني: المؤمنين واليهود ﴿خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[1] مع وحدة ذاته وشمول تربيته وألوهيته لجميع البرايا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله المتوحد بذاته وأثبتوا له شريكًا، وفرقوا بين كتبه ورسله بالإقرار والإنكار، والتصديق والتكذيب ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي: أعدت وهيئت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ وملابس متخذة ﴿مِّن نَّارٍ﴾ شبهها بالثياب لإحاطتها وشمولها ومع ذلك ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج:19] الماء الحار البالغ نهاية الحرارة.

---

(1) قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم) الآية. روى الواحدي عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذر يقول: أقسم بالله لنزلت – هذان خصمان اختصموا في ربهم – في هؤلاء الستة حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة. رواه البخاري عن حجاج بن منهال، عن هشيم بن هاشم أخبرنا أبو بكر الحارث قال: أخبرنا أبو الشيخ الحافظ قال: أخبرنا محمد ابن سليمان قال: أخبرنا هلال بن بشر قال: أخبرنا، يوسف بن يعقوب قال: أخبرنا سليم التيمي عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر – هذان خصمان اختصموا – إلى قوله – الحريق – قال ابن عباس: هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبيا (ونبينا) قبل نبيكم، وقال المؤمنون، نحن أحق بالله، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا، وكانت هذه خصومتهم، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وهذا قول قتادة. «أسباب النزول» (1/208، 209).

بحيث ﴿يُصْهَرُ﴾ ويذاب ﴿بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم وغيرها ﴿وَ﴾ كذا يذاب به ﴿الْجُلُودُ﴾ [الحج:20].

﴿وَلَهُم﴾ أي: لردهم ودفعهم زجرًا وقهرًا ﴿مَّقَامِعُ﴾ سياط مصنوعة ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:21] بيد مَن وكل عليه من الزبانية ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ وَهَمٍّ وكآبة، عرض لهم من شدة العذاب، فطلبوا الخروج تخفيفًا، وترويحًا حين التقطهم اللهب إلى الطرف الأعلى منها ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ زجرًا ضاربين عليهم بالمقامع ﴿وَ﴾ قائلين لهم ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المصرون على الكفر والعناد، المسرفون المفسدون بأنواع الفجور والفساد ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:22] المحرق أكبادكم بدل ما تبردونها بالسحت والرشى.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على أهل الإيمان بالتجليات الحبّية الجمالية ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله مخلصين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده المقربة إليه ﴿جَنَّاتٍ﴾ وحدائق ذات بهجة ترويحًا لهم وتفريحًا، وانشراحًا لصدورهم، وتفريجًا لغمومهم حيث ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المُذهِبة للهموم الفارجة للكروب ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تذهيبًا وتزيينًا لظواهرهم من عكوس بواطنهم ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ متخذة ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بها يرصع أساورهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ دائمًا ﴿فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:23] تليينًا لبشرتهم وتكميلاً لترفههم وتنعمهم.

﴿وَ﴾لا يقتصر عليهم فيها على تزيين الظاهر وتفريح الباطن، بل ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ليتصفوا بالصدق والتصديق، ويداوموا على شكر الله بقولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وبقولهم: الحمد لله الذي هدانا لهذا، ﴿وَ﴾ بعدما تصفوا بالصدق والعدالة في الأقوال والأفعال ﴿هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:24] الذي هو التوحيد المسقط للإضافات مطلقًا، سمي به لاستحقاقه الحمد لذاته.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾بتوحيد الله وأعرضوا عن شعائر دينه ﴿وَ﴾ مع ذلك هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس أيضًا ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ومعالم الهدى واليقين لا في وقت دون وقت بل دائمًا مستمرًا ﴿وَ﴾ خصوصًا عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي منه الصد والمنع مطلقًا؛ لأنه ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ﴾ قبلة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة، وفرضنا عليهم الطواف حولها من استطاع منهم إليها سبيلاً، ولهذا ما صارت مكة ومن حولها ملكًا لأحد، بل صار الكل فيها ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ﴾ المقيم ﴿فِيهِ وَالْبَادِ﴾ المسافر الوارد عليه

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ ويقصد سوءًا بالنسبة إليه من صدود وغيره مع أنه مقيم ﴿فِيهِ﴾ وصدر ذلك عنه ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ وميل مقرون ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: عن قصد وعمد لا عن خطأ وسهوٍ ونسيان ﴿نُذِقْهُ﴾ بمجرد قصده الذي لم ينته إلى الفعل والصدور ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:25] مؤلم فجيع.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)﴾ [الحج: 26 – 30].

﴿وَ﴾ كيف لا نذيقه من عذابنا الأليم، إذ بناء بيتنا هذا على الطهارة الكاملة من جميع الآثام، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: بيّنا وعيّنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ حين شرفناه بأمرنا المتعلق ببناء بيتنا هذا ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: الكعبة بعدما اندرست وسقطت بالطوفان، وصارت سوى لا علامة لها أصلاً، فأعلمنا له بريح أرسلناها مع إبراهيم فكنست الريحُ حولها فبناه على بنائه الذي بناه آدم عليه السلام، وأوصينا ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ من مظاهري وأظلالي في الوجود معي ﴿وَ﴾ بعدما نزّهت ذاتي عن الشريك والنظير ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ هذا الممثّل من بيتي الذي في صدرك عن جميع المعاصي والآثام والمؤذيات والقاذورات، وأنواع الخبائث والمكروهات، إذ جعلناه قبلة ومقصدًا ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ القاصدين بطوافهم حول البيت التحقق عند كعبة الذات والوقوف على عرفات الأسماء والصفات ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ المواظبين بالتوجه الدائمي، والميل الشوقي الحقيقي الحبي بجميع الأركان والجوارح نحو الذات الأحدية، المنقطعين عن جميع العلائق والإضافات ﴿وَالرُّكَّعِ﴾ الراكعين الذين قُصمت ظهور هوياتهم عن حمل أعباء

العبودية ﴿السُّجُودِ﴾ [الحج:26] أي: الساجدين المتذللين الخاضعين الواضعين جباه أنانيتهم على تراب المذلة والانكسار لدى الملك الجبار القهار لسمت السوى والأغيار.

﴿وَ﴾ بعدما أوصيناه بما أوصيناه قلنا آمرًا إياه: ﴿أَذِّن﴾ وأعلم إعلامًا عامًا ﴿فِي﴾ حق عموم ﴿النَّاسِ﴾ وبشرهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ أي: أعلم الداني والقاصي منهم بوجوب الحج عليهم، لزمهم أن ﴿يَأْتُوكَ﴾ ويزوروا بيتك ويطوفوا حولها آتين ﴿رِجَالاً﴾ مشاة إن كانوا من الأداني ﴿وَ﴾ ركبانًا ﴿عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بعيرٍ مهزول أهزله وأتعبه بُعد المسافة؛ إذ ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ [الحج:27] غائر بعيد إن كانوا من الأقاصي، وإنما أمرناهم بالحج وفرضناه عليهم ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي: أمكنة ينفعهم الحضور فيها والوقوف بها منافع النشأة الأخرى، ونسّهل عليهم سلوك طريق التوحيد بالفناء والإفناء، والانقطاع عن حطام الدنيا، والتعري عن لباس البأس والعناء، والتخلص عن مقتضيات القوى، والتحلي بلباس التقوى، والتشمر نحو جناب المولى، والتجرد عن موانع الوصول إلى دار البقاء من الأموال والأبناء ﴿وَيَذْكُرُوا﴾ فيها ﴿اسْمَ اللَّهِ﴾ المشتمل لجميع الأوصاف والأسماء، المحيط بجميع الأشياء إحاطة الشمس على جميع الأظلال والأضواء بلا تركيبٍ وانقسام إلى أبعاض وأجزاء سيما ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ عينها الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء للتوجه والدعاء، وهي عُشر ذي الحجة، وقيل: أيام النحر ﴿عَلَى﴾ ذبح ﴿مَا رَزَقَهُم﴾ الله وأباحهم ﴿مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ مما ملكت أيمانهم، متقربين بها إلى الله هَدْيَة أو أُضحية ﴿فَكُلُوا﴾ مما ذبحتم ﴿مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:28] الذين شملهم بؤس الفقر وإحاطته شدة الفاقة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذبح الهدايا والضحايا ﴿لْيَقْضُوا﴾ وليزيلوا ﴿تَفَثَهُمْ﴾ أي: أوساخهم العارضة لهم من رين الإمكان، وطغيان الهويات، ومقتضى الأنانيات ﴿وَ﴾ بعد تطهير أوساخ الإمكان ﴿لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التي نذورها في قطع بوادي تعيناتهم، ومهاوي هوياتهم من ذبح بقرة أمّارتهم المضِلّة عن سواء السبيل ﴿وَ﴾ بعدما طهروا من الأوساخ ووافوا بالنذور ﴿لْيَطَّوَّفُوا﴾ منخلعين عن خِلَع ناسوتهم، متجردين عن ثياب بشريتهم ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29][1] والركن الوثيق الأزلي الأبدي، الذي لا يلحقه انصرام،

---

(1) أفاد سيدنا البيطار في هذه الآية المباركة بقوله: وارد: البيت العتيق لكل مؤمن وصدّيق.

بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]: اعلم - رحمك

الله. أن بيت الله عين ساكن؛ لأن الله هو وجود كل شيء أحد لا يتجزأ، وحقيقة مطلقة يندرج بها كل صورة في الوجود، فليس لله محل يسكنه؛ إذ ليس مع وجوده شيء آخر يحل فيه أو يتحد فيه أو يمتزج فيه، بل هو الله الواحد الأحد من جميع الوجوه كما قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]، فأين البيت وأين الساكن؟ بل البيت عين الساكن والساكن عين البيت، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]. غاية الأمر أن الوجوه الإلهية منها العالي ومنها الأعلى، ومنها الكريم ومنها الأكرم، ومنها الرحيم ومنها الأرحم، ومنها القريب ومنها الأقرب، ومنها العظيم ومنها الأعظم، ولما كان هذا البيت أول بيت لله تعالى، أي: أول صورة إلهية شهادية تجلى الله بها من حضرة ذاته الغيبية المطلقة سمي عتيقًا، أي: قديمًا، لا يعلم له أولية فهو مجلي اسم الله القديم، ولهذا كانت تربة الجسم المحمدي ﷺ من هذا البيت، الذي هو وجه الله القديم، وقد طافت به الأمم السابقة على أبينا آدم الأقرب إلينا بأربعين ألف عام أو أكثر، وطافت به الملائكة قبل الجنس الإنساني، فحاز رتبة الأولية في مظاهر الحق بالنسبة لبيوته، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:96]، فهو شهادة الله كما أن باطنه غيب الله. ألا ترى أن النبي ﷺ صافح الحجر الأسود منه، ووصفه بالسواد من السيادة وقال: «إنه يمين الله في الأرض» ليت شعري هل تقول بأن يمين الله حادث؟ حاشا وكلا، وحيث كان الحجر يمين الله فالكعبة صورة الحق المقدسة، ووجهه الأعلى فهو مجلى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11]، فلذا كان البيت عتيقًا، ولما كانت قبلتنا التي نسجد إليها نبهنا النبي ﷺ بأنها وجه الله الأعلى حيث نهانا أن نبصق في قبلتنا فقال: «إن الله في قبلة أحدكم». خشية اعتقاد المحجوبين أنها بمثابة الأصنام التي قال المشركون في حقهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:3]، فنبهنا النبي ﷺ أن الله أقرب إلينا من أن يتقرب إليه!. إذ لا ظاهر في الوجود إلا وجهه؟ فهل في الوجود غيره حتى يقرب إليه؟! ولهذا أنزل على محمد ﷺ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1]، فالكعبة المشرفة هي اسم الرب الأعلى فكان ﷺ يشاهدها مجلى مقدسا ذاتيا تطوف به كافة أسماء الله وصفاته، ولما كنا مظاهر أسماء الله وصفاته أمرنا الله بالطواف بها فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]، بمعنى أنه معتق عن طاف به من رق حجاب الغيرية، ومدخل له الأمان الذاتية، وبمعنى أنه معتَق بفتح التاء من رق الأسماء والصفات، لأن الكعبة المشرفة هي عين تجلي الذات، ولما كان الأمر كذلك أمرنا بالطواف سبعة أشواط؛ تنبيهًا على صفات الله السبعة الأئمة التي لها التقدم على جميع الأسماء والصفات؛ لنشاهدها هي المجلى الذاتي الساري بنا وبكل شيء في الوجود. ولقد كنت أراقبها أشاهد سريانها في قلبي، وأنها تخاطبني مني حين التفت عنها خطاب العتاب، وتقول: أما تستحي مني، تلتفت عني وأنت تشاهدني، فكأنما تقول لي: هل بعد مشاهدة الذات تلتفت إلى مشاهدة الصور المتفرقة؟ فلا تخرج من العين إلى الأين، بل أن

الصور وإن كانت هي العين فأنا العين وإنسان العين.

أما علمت أن حجة الله على عبدة الأوثان في قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:33]، فلو سمُّوهم لم يسمُّوهم بأسمائه كما فعل رسول الله ﷺ فقال: «إن الله في قبلة أحدكم» فلم يشاهد عين قبلته إلا الله.

ولما كان هذا التجلي الذاتي المحمدي لا يقوى عليه إلا ورثته المقربون خاطب الضعفاء بمرتبة الإحسان؛ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه».

ألا ترى أن الوارث المحمدي الكامل الخاتم الأولياء المحمديين أستاذنا في العلم بالله الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي محيي الدين لم يقيدها بصورة الحجر والطين بل كان يراها في صورة امرأة إشارة أنها الذات التي هي أم الأسماء والصفات فهي أم الوجود بأسره، وأولادها منها وعينها، فقال ﷺ:

رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا يا قبلتي خاطبيني في سجودي لقد
إني عجبت لمثلي كيف ما عبدا لاهوته حل ناسوتي فقدَّمه

والمخلص من هذا العجب أن الصورة الإنسانية لها الحركة الحسيَّة، فلو كانت في المرتبة المعبودية؛ لفاتها المرتبة العابدية، فكانت العابدة من جهة الصورة، والمعبودة من جهة الحقيقة؛ ولهذا السر نهى ﷺ من قال له: مرني أن أسجد لك عن السجود له وقال: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». وقد كنت شطرت هذين البيتين وشرحتهما، فلا اعتمد على ما سلف، ولكني الآن أقول ما يجريه الله على لساني ويفيضه على جناني فأقول: إن الشيخ الأكبر لما كان مقامه نقطة الذات وتجليها بصور الأسماء والصفات فكان يشهد أعلى عليين عين صورة أسفل سافلين، خاطب قبلته وما خاطب إلا الله؛ لأنه طلب الخطاب في السجود، والسجود لا يكون إلا على الأرض، ورسوله الله ﷺ قال: «لو دليتم بحبل لهبط على الله». فقد سمى الأرض باسمه الأعظم، فانقلب أسفل سافلين - الذي هو حقيقة الأجسام - أعلى عليين الذي هو نور الأرواح وأصلها وحقيقتها، فعلمنا أن المشهد الحاتمي عين المشهد المحمدي ووراثة منه ﷺ فكان خاتم الأولياء مرآة لخاتم الرسل والأنبياء ﷺ في مشهده الذاتي الأحدي المطلق، الذي تندرج أمواج الصور في بحر وجوده المحيط، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:39]، فذاته تعالى هي الأم، وكل صورة في الوجود هي الكتاب. وقوله ﷺ: رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا معناه أن الأنوار الذاتية اللاهوتية تتشكل وتمتزج بالصور الجسمية، فتتجلى بالتصور والتشكل حتى تتحد ذاته وتكون عينه ويكون هو إياها، ولاسيما إذا كانت اللطيفة الإلهية ذاتية، وهذا مشهد البيعة الإلهية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ﴾ [الفتح:10].

فقوله ﷺ: يا قبلتي خاطبيني، هو تجلي الله في مرتبة المعبودية، وقوله: (رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا) هو تجلي الله في المرتبة العابدية، فالعابد عين المعبود وذلك معنى قولهم: عبادة

ولا يعرضه انقراض وانخرام، فالأمر ذلك لمن أراد سلوك طريق الفناء، والحج الحقيقي، والطواف المعنوي.

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ﴾ أي: ومن يحافظ على حرمة ما حرمه الله في أوقات الحج ولم يهتك حرمتها ليجبرها بدم ﴿فَهُوَ﴾ أي: الحفظ بلا هتك حرمة ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ مقبول ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ من هتكها وجبرها بدم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أُحِلَّتْ لَكُمُ﴾ في دينكم ﴿الأَنْعَامُ﴾ كلها بأنواعها وأصنافها، وشرب ألبانها، والانتفاع بأشعارها وأوبارها والتقرب بها إلى الله في أوقات الحج ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ في كتابكم تحريمه بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:3] ومتى عرفتم ما أحل الله لكم ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ أيها الموحدون ﴿الرِّجْسَ﴾ والقذر الذي هو ﴿مِنَ الأَوْثَانِ﴾ أي: من قبلها، إذ هي شرك منافٍ للتوحيد والشرك من أخبث الخبائث ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ أيضًا ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:30] والبهتان، إذ هو ظلمٌ والظلم مقرونٌ بالكفر، والشركُ معدودٌ من

العارف تشريف لا تكليف؛ لأن العابد في العارف هو الله العابد لنفسه في نفسه، وهذه حضرة سقط فيها التكليف، ومعنى سقوطه أن العارف لا يشهد اثنين، فليس الحق غيره حتى يكلفه بل هو القائم لجميع أحكام الربوبية، كما أنه القائم بجميع تجليات العبودية، فالعارف بالله أعظم الناس تمكنًا في القيام بالأوامر المشروعة، والتنزه عن المخالفات القبيحة؛ لأنه متخلق باسم الله الطاهر القدوس، وخارج عمن قال الله في حقهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:28]، فأين المشركون من مشهد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]. ولقد رأيت من الجهلة السفلة من يزعم أن العارف لا يجب عليه صلاة ولا صوم، بل إن صلاته وصومه مجاراة للمحجوبين، فجعل هذا الجاهل العارف بمنزلة المنافقين الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ يصلون ويصومون حقنًا لدمائهم وخشية على أموالهم، فأين هؤلاء السفلة الأوغاد الذين خرجوا من ربقة دين الإسلام فضلاً عن المعرفة التي يدعوها من قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فالمنافقون يقومون فيها وهم لها كارهون، والعارفون بالله يقومون فيها وهم بالله قائمون.

قال ﷺ: «أرحنا بها يا بلال» ولم يقل: أرحنا منها، بل راحته بصلاته لا منها، ويحتمل قوله: «أرحنا» من الرَّوح بفتح الراء، أي: أشممنا منها الرائحة الطيبة التي هي الأنفاس الإلهية والنفحات الربانية، ولذلك قام ﷺ حتى تورمت قدماه عن حب وعشق وصدق لا عن مجاراة للخلق، فان الله أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ • قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:1،2]، مع أنه مشاهد للحي القيوم القائم بكل شيء فنعوذ بالله من تبدل الصلاح بالفساد ومن التكليب والزندقة والإلحاد، وعلى الله قصد السبيل.

عداده مسقطٌ للمروءة والعدالة اللازمة لأهل الإيمان والتوحيد.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: 31 – 37].

يعني: اجتنبوا عن الشرك والمعاصي المنافية للتوحيد، وكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له غير مائلين عن دينه ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئًا من مظاهره ومصنوعاته ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العقلاء الموحدون أن ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك مطلقًا سواء كان شركه خفيًا أو جليًا ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ وسقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أوج الإيمان وأعلى درجة التوحيد والعرفان ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ أي: إذا سقط أخذه ﴿الطَّيْرُ﴾ فجأة في الهواء، فيرميه في حضيض غائر بعيد عن العمران ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ حين سقوطه منها فتطرحه ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:31] بعيد، ووادٍ عميق.

وبالجملة من يشرك بالله - العياذ به منه - فقد وقع في هاوية الضلال بحيث لا يرجى نجاته منها أصلاً، الحكم والأمر.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور لمن أشرك بالله، ونسي الأدب معه، ولم يعرف حق قدره ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ المأمورة في أداء الحج، ويوقرها حق توقيرها وتعظيمها ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: تعظيمها وتحسينها ناشئة ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:32] الناظرة إلى الله بنور الحق في جميع حالاتها.

﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون الناسكون بمناسك الحج ﴿فِيهَا﴾ أي: في الهدايا والضحايا ﴿مَنَافِعُ﴾ درها وصوفها وشعرها وظهرها ونسلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى حلول وقتٍ عيّنه سبحانه لذبحها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قرب وقتها، وحان حينها ﴿مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:33] أي: محل ذبحها عند البيت العتيق؛ أي: جميع الحرم حواليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مذبحًا معينًا يتقربون فيه إلينا، ويهدون نحونا بهدايا وقرابين وإنما أعطيناهم ذلك ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند التذكية والذبح ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم﴾ مما ملكت أيمانهم ﴿مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قيدنا لهم؛ لأن الخيل والحمير لا يليق بالقربان والهدي، وبعدما علمتم أن لكل أمة مذبحًا معينًا ومنسكًا مخصوصًا يتقربون فيها إلينا ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ أي: فاعلموا أن إلهكم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أحد صمد فردٌ وترٌ لا تعدد فيه ولا شركة ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ وتوجهوا إن كنتم مسلِّمين أموركم إليه ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل من بين المؤمنين المسلمين بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا، والفوز بشرف اللقيا ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:34] المطيعين الخاضعين المتواضعين الذين خَبَت، وخمدت نار شهواتهم من بأس الله وخشيته.

وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالإنعام والانتقام ﴿وَجِلَتْ﴾ وخشيت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ خوفًا من قهره وغضبه، وصولة صفات جلاله وسطوة سلطنته وكبريائه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المصيبات والبليات التي جرى حكم الله عليه في سابق قضائه ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ المفروضة بأوقاتها مع شرائطها، وأركانها، وآدابها تقربًا إليه، وتوجهًا نحوه بكمال الخضوع، والخشوع، والتذلل، والانكسار ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ واستخلفناهم عليه، ونسبناه إليهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ [الحج:35] على الوجه الذي أمرناهم به، أي: على المصارف المذكورة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة:60] . متقربين بها إلى الله

﴿وَ﴾ جعلنا خير الهدايا والضحايا ﴿الْبُدْنَ﴾ جمع: بادن كبذلُ جمع باذل، وهي: الإبل خاصةً سميت بها؛ لعظم بدنها وجسامتها، وغلاء ثمنها، وعظم وقعها في نفوس الناس لذلك ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وأعلام دينه ومعالم بيته ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كثير، وأجر جزيل، وثواب عظيم عند الله إن ذبحتموها، وإذا أردتم ذبحها ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند تذكيتها قائلين: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم

منك، وما لنا إلا امتثال ما أمرتنا به، والسرّ عندك ولديك، والحكمة دونك، واذبحوها ﴿صَوَافَّ﴾ أي: صافة قوائمها مشدودة محكمة، ثم تطعنون في لباتها ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ وسقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾ على الأرض وخرجت روحها من الجسد ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ أيضًا ﴿الْقَانِعَ﴾ وهو الفقير يقنع بما يُعطى، ولا يبادر إلى السؤال والإلحاح ﴿وَ﴾ أطعموا أيضًا ﴿الْمُعْتَرَّ﴾ وهو الذي يبادر إلى السؤال قبل الإعطاء، ويبالغ فيه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: على الوجه المذكور ﴿سَخَّرْنَاهَا﴾ وذللناها؛ أي: البُدن ﴿لَكُمْ﴾ مع أنها في كمال القوة والجسامة، وأنتم في غاية الضعف، كي تتفطنوا من تسخيرها وتذليلها عليكم إلى تذليل أمّارتكم المسلطة عليكم، فذبحتموها في طريق الحق مشدودة قوائم قواها عن مقتضاها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج:36] نعمة الإقدار والتوفيق عليها، وتعطون بدلها من لدنه سبحانه: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

واعلموا أيها المتقربون إلى الله بالهدايا والضحايا: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي: لن يصيب ويصل إليه سبحانه ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها، إذ هو منزه عنها وعن الانتفاع بها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَا﴾ يصل إليه سبحانه ﴿دِمَاؤُهَا﴾ المهراقة ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ﴾ ويصل منها إليه سبحانه ﴿التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ أي: التحرز والاجتناب عن محارمه ومنهياته والامتثال بأوامره والإتيان بمأموراته، وبالجملة يقربكم إليه سبحانه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، لا اللحوم والدماء.

ثم كرره سبحانه تأكيدًا أو مبالغة بقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: الهدايا والضحايا ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ المتعزز بالعظمة والكبرياء، المستقل بالمجد والبهاء حق تكبيره، وتعظموه حق تعظيمه وتوقيره ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ وأرشدكم إلى الإيمان والتوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:37] منهم، وهم الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ويحسنون الأدب معه، كأنهم ينظرون إليه سبحانه.

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ
لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم
بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ
وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ
اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحج: 38 – 43].

ثم لما خشي المؤمنون على معاداة المشركين، وخافوا عن مخاصمتهم، وغيظهم إذا خرجوا نحو مكة للزيارة والطواف قاتَلوا معهم، وأكّبوا عليهم وعلى أموالهم، وأسَروا أولادهم، أزال الله سبحانه عنهم الرعب وأسقط عنهم الخشية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتكفل لأمور عباده، الحفيظ عليهم عما يؤذيهم ﴿يُدَافِعُ﴾ كيد الكفرة العداة البغاة الطغاة ﴿عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وصدقوا بشعائر دينه، وقصدوا إقامتها على أمره ووحيه، كيف لا يدفع سبحانه مع كمال قدرته خيانةَ من خان بأحبائه وأصدقائه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المنتقم لأعدائه ﴿لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ مبالغ في الخيانة سيما مع أوليائه وأحبائه ﴿كَفُورٍ﴾ [الحج:38] مبالغ في كفران نعمه، حيث صرفها في غير محله مثل: هدي الكفرة، وذبحهم لأصنامهم وأوثانهم.

ثم لما اشتد إضرار الكفرة بالمسلمين وامتد أذاهم عليهم ظلمًا وعدوانًا، أراد المؤمنون أن يقاتلوا ويشاجروا معهم، منعهم رسول الله ﷺ عن القتال والحراب بإذن الله ووحيه سبعينَ مرة لنزول سبعين آية في المنع عنه، وقال ﷺ في كل مرة: اصبروا حتى يأمر الله.

ثم لما شق على المسلمين ظلمهم وضررهم وصاروا مهانين صاغرين مع قدرتهم على مقاتلتهم ومدافعتهم ﴿أُذِنَ﴾ ورُخِّص من جانب الله على لسان رسوله ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾[1] أي: يريدون القتال معهم بعدما تحملوا كثيرًا من أذاهم وظلمهم، فنزلت هذه الآية للرخصة بعدما نزلت سبعون آية بعدمها، لذلك قيل نسخت هذه الآية نيفًا وسبعين، وإنما رخصهم سبحانه بها ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب أنهم صاروا

---

(1) قوله تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية. قال المفسرون: كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج، فشكوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال ابن عباس: لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه: إنا الله لنهكن، فأنزل الله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ الآية، قال أبو بكر فعرفت أنه سيكون قتال. «أسباب النزول» (208/1).

مظلومين صاغرين عن أذى الكفار والمشركين ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ أي: نصر الأولياء على الأعداء ﴿لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:39] لينصرهم ويغلبهم عليهم، وإن كانوا أكثر منهم، وكيف لا ينتقم سبحانه عن أعدائه لأجل أوليائه؟.

إذ هم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ ظلمًا وعدوانًا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ورخصة شرعية موجبة للإخراج والإجلاء ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا﴾ أي: لا موجب لإخراجهم سوى قولهم هذا: ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المنزه عن الشريك والولد ﴿وَ﴾ كيف لا يدفع سبحانه شر الكفرة عن أوليائه الموحدين؛ إذ ﴿لَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: بتسليط أهل الإيمان على المشركين المعاندين ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ وخربت باستيلاء الأعداء على الأولياء ﴿صَوَامِعُ﴾ للرهابنة ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ هي كنائس اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين، إنما عد كل واحد منها ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أي: في كل واحدة منها ﴿اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ أي: حينًا كثيرًا، وذكرًا كثيرًا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَنصُرَنَّ اللهُ﴾ المتكفل بعباده ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾ ويعين دينه ونبيه ويصدق كتابه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لما في صدور عباده من الإخلاص ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:40] غالب قادر على الإنعام والانتقام لأوليائه من أعدائه، كما سلط ضعفاء أهل الإيمان على صناديد العرب والعجم من الأكاسرة والقياصرة، وشاع دينهم بين الأنام إلى يوم القيامة.

وكيف لا ينصرهم سبحانه، إذ هم: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ﴾ وقدرناهم وجعلنا لهم التصرف والاستيلاء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة للطاعات والعبادات ﴿أَقَامُوا﴾ وأداموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ والميل إلينا بجميع جوارحهم وأركانهم ميلاً مقرونًا بأنواع الخضوع، والخشوع، والاستكانة، والانكسار، تطهيرًا لنفوسهم عن العتو والاستكبار، وتقربيًا لهم إلينا على وجه المذلة والافتقار ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن الميل إلى زخرفة الدنيا الغدارة ﴿وَأَمَرُوا﴾ على من دونهم ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح شرعًا وعرفًا على الوجه المبين لهم من السنة رسلهم وكتبهم المنزلة عليهم من الله ﴿وَلِلَّهِ﴾ المدبر لأحوال عباده ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41] أي: مرجع جميع الأمور الجارية فيما بينهم، المتعلق بتهذيب ظواهرهم، وموانع بواطنهم عن مواتع الوصول إلى مرتبة التوحيد.

ثم لما تغمم رسول الله ﷺ وتحزن من تكذيب قومه إياه ﷺ، ونسبتهم له ما لا يليق بشأنه، أراد سبحانه أن يسلي حبيبه ﷺ ويزيل عنه همه فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ قومك يا أكمل الرسل لا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل أمتك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا عليه السلام ﴿وَعَادٌ﴾ أخاك هودًا عليه السلام ﴿وَثَمُودُ﴾ [الحج:42] أخاك صالحًا عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ جدك الخليل أبا الأنبياء ـ عليه وعليهم السلام ـ ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [الحج:43] أخاك لوطًا عليه السلام.

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ
يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ
الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: 44 – 50].

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أخاك شعيبًا عليه السلام ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿كُذِّبَ مُوسَى﴾ يعني: كذّب بنو إسرائيل أخاك موسى الكليم عليه السلام مرارًا متعددة، مع أن آياته ومعجزاته من أظهر الآيات وأبهر المعجزات ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين المعاندين المستكبرين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب والنكال إلى أن أهلكتهم واستأصلتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:44] إياهم وإنكاري عليهم بعد إمهالي بأن النعمة عليهم نقمة، والمنحة محنة، واللذة ألمًا، والفرح ترحًا، والقصور قبورًا.

ولا تتعجب يا أكمل الرسل من كمال قدرتنا وبسطتنا أمثال هذا ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: أهلكنا كثيرًا من أهل قرية بأنواع العذاب والعقاب ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ﴾ أي: أهلها خارجة عن مقتضى حدود الله فهي الآن من ظلم أهلها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة جدرانها على سقوفها من غاية انهدامها وانتكاسها ﴿وَ﴾ كم ﴿بِئْرٍ﴾ معينة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿وَ﴾ كم ﴿قَصْرٍ﴾ عالٍ ﴿مَّشِيدٍ﴾ [الحج:45] محكم أركانه وبنيانه، مجصص أساسه وجدرانه، خالٍ عن ساكنيها، غير مسكون فيها.

﴿أَ﴾ ينكرون هذه المذكورات ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ المعدة

للعبرة والاستبصار ﴿فَتَكُونَ﴾ وتحصل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ ويعتبرون ﴿بِهَا﴾ من الوقائع الواقعة فيها للأمم الهالكة ﴿أَوْ﴾ تحصل لهم ﴿آذَانٌ﴾ وقوة استماع ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبارهم وآثارهم، وكيفية إهلاكهم واستئصالهم ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: شأن قصصهم ووقائعهم أنها ﴿لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ منها؛ لأن الأبصار تشاهد آثارهم وأطلالهم ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] إذ لم يعتبروا منها ولم يستبصروا ولم ينظروا إليها نظر المعتبر المتأمل والمستبصر الخبير، والجملة من لم يعتبر بما جرى على الأمم الهالكة من الوقائع الهائلة، فهم عميٌ قلوبهم وإن كانت أعينهم صحيحة.

وبعدما استبطأ الكفار نزول العذاب الموعود وقالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: 48] نزل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الموعود على لسانك ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللهُ﴾ الصادق في ﴿وَعْدَهُ﴾ الذي وعده وإن كان بعد حين، سينزل ألبتة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا﴾ من أيام العذاب ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47] في الدنيا في الشدة والعناء، فلا تستعجلوه يا هؤلاء الحمقى!.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهلها ﴿أَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لَهَا﴾ وأخَّرت عنها عذابها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أهلها مستحقة للعذاب أمثالكم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب الشديد بعدما كمل وازداد أهلها موجباته ﴿وَ﴾ لا مخلص لهم منه؛ إذ ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: 48] أي: مرجع الكل إليّ ومنقلبهم عندي، ولا مقصد لهم غيري، وإن لم يعرفوا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا خاليًا عن وصمة الكذب صادرًا عن محض الحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مرسلٌ من عند الله ﴿مُّبِينٌ﴾ [الحج:49] مظهرٌ لكم موانعكم وعوائقكم عن طريق الحق وطريق مستقيم.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم بالله وصدّقوا رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع الإيمان والتصديق ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم على ألسنة رسلهم وكتبهم المقبولة المرضية عند ربهم ﴿لَهُم﴾ بواسطة إيمانهم وعملهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر وعفو لما مضى من الذنوب، وجرى عليه من المعاصي ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج:50] من الصوري والمعنوي في الجنة جزاءً لإيمانهم وصالح أعمالهم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى
ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ
فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾[الحج: 51 – 55].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ وبذلوا وسعهم وجهدهم ﴿فِي﴾ إبطالِ ﴿آيَاتِنَا﴾ وردّها وتكذيبها، ومع ذلك صاروا ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين ومبادرين إلى رد الممتثلين المصدقين بها وإنكارهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج:51] وملازموها لا نجاة لهم منها أصلاً.

ثم لما رأى رسول الله ﷺ إصرار قومه على الكفر وشدة عنادهم وشكيمتهم عليه وعلى دينه، تمنى أن يأتيه الله ما يقاربهم ويحببهم معه، ويزيل غيظه عن قلوبهم ويلينها، فأنزل الله سبحانه سورة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [النجم:1] فقرأها فرحًا وسرورًا كي يسمعوا، ويميلوا إلى طريق الحق، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:19-20] توجهت قريش نحوه، والتفتوا إليه على وجهٍ يشعرهم التلقي والقبول، فيلهي تلقيهم الرسول ﷺ فغفل عن قلبه وشغل، ألقى الشيطان على لسانه في أثناء كلامه على مقتضى مناه ومتمناه، وأسمعهم الآية هكذا: تلك الغرانيق العلى منهم شفاعة ترتجى، ففرحت بذلك قريش، فلم يعلم النبي ﷺ ما صدر عنه لاستغراقه في أمنيته، فوجدهم مائلين نحوه، محسنين له، وازداد تحسينهم ومحبتهم له إلى أن سجدوا في آخر السورة المؤمنون والمشركون جميعًا، فسرّ هذا رسول الله ﷺ وسرّت قريش منه، ومن كلامه ﷺ حيث قالوا: إن محمدًا قد ذكر شفعاءنا بالخير.

فجاء جبريل عليه السلام فأخبر بما صدر عنه من تخليط الوحي بغير الوحي، فاغتم رسول الله ﷺ أشد اغتمام، وخاف خوفًا شديدًا من غيرة الله وقهره.

فأنزل الله سبحانه تسلية لرسوله ﷺ وإزالة لخوفه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾[1] يا أكمل الرسل ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ ذي وحي وشرع وكتاب ﴿وَلاَ نَبِيٍّ﴾ ذي وحي ومنام أو إلهام، له شرع وكتاب أو شرعه بُعث لترويج شرع غيره من الأنبياء والرسل وكتبهم ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى﴾ وطلبت شيئًا أحب وقوعها من تلقاء نفسه بلا ورود وحي عليه وتمنى من الله أن ينزل عليه من الآيات مناسبًا لما أمِلَه وأحبه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ من تسويلاته وتغريراته ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[2] ومبتغاه فيلهيه عن نفسه ويخلط بالوحي من تسويلاته، ثم بعدما تنبه

(1) قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) قال المفسرون: لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب به بينه وبين قومه، وذلك لحرصه على إيمانهم، فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله، وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله تعالى شئ ينفر عنه، وتمنى ذلك، فأنزل الله تعالى سورة - والنجم إذا هوى - فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ - أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى - ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه وتمناه، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا، ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها، وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة سعيد بن العاص، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليهما، لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود، وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق لكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإن جعل لها محمدا نصيبا فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال: ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله سبحانه وتعالى، وقلت ما لم أقل لك، فحزن رسول الله ﷺ حزنا شديدا وخاف من الله خوفا كبيرا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقالت قريش: ندم محمد عليه الصلاة والسلام على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فازدادوا شرا إلى ما كانوا عليه، أخبرنا أبو بكر الحارثي قال: أخبرنا أبو بكر بن حيان قال: أخبرنا أبو يحيى الرازي قال: أخبرنا سهل العسكري قال: أخبرنا يحيى عن عثمان بن الاسود، عن سعيد ابن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى - فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى، ففرح بذلك المشركون وقالوا: قد ذكر آلهتنا، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال: اعرض علي كلام الله، فلما عرض عليه فقال: أما هذا فلم آتك به هذا من الشيطان، فأنزل الله تعالى - وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته«أسباب النزول» (208/1).

(2) قال البقلي: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئًا، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى مما ألقاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال الحسين بن

وتذكر ورجع إلى الله متندمًا تائبًا آيبًا ﴿فَيَنسَخُ اللهُ﴾ المؤيدُ لأنبيائه الحفيظُ عليهم ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ ويزيله ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أزال ونسخ سبحانه ما خلط الشيطان وأدخله في خلال الوحي من تلبُساته ﴿يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ المنزلة من عنده، ويخبر بها، ويفصلها إحكامًا تامًا وإتقانًا محكمًا ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأحوال عباده واستعدادتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أنزل عليهم بما يناسب استعدادهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحج:52] في إنزاله وتدبير مصالحهم.

فإن توهم أن الله قادرٌ على محافظة أنبيائه ورسله، سيما نبينا ﷺ من إلقاء الشيطان وتغريره وتخليطه إياهم أول مرة، فلِمَ لَمْ يحفظهم من إلقائه حتى لا يصدر عنهم ما صدر ثم نُسخ؟ قِيل: إنما لم يحفظهم سبحانه أول مرة ﴿لِيَجْعَلَ﴾ سبحانه ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ في أثناء الوحي ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ميلُ عن الحق وانحراف عن طريقه، هل يعرفون ويميزون كلام الحق من تسويلات الشياطين أم لا؟ ﴿وَ﴾ لا سيما المرضى ﴿الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ عن أن يسع فيها كلام الله، وهم المشركون الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم، وعلى سمعهم غشاوةُ عظيمة وغطاء غليظ، تعميهم عن آيات الله، وإدراك مقاصده وبالجملة إن الظالمين المتجاوزين عن مقتضى العقل والشرع لاتخاذهم الجمادات التي نحتوها بأيديهم شركاء لله شفعاء عنده ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف وجدال ﴿بَعِيدٍ﴾ [الحج:53] عن الحق بمراحل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني من دون الله ووُفِّقوا من عنده لقبول أحكامه ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن وآياته المشتملة على الأوامر والنواهي، والأحكام والمعارف

على - رضي الله عنهما-: «نُبئت أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ، وقال: إن عفريتًا من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي». وقال أبو إمامة، قال رسول الله ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقباته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلما يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئًا من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نورًا من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو، فيحترز من شره. تقسيم الخواطر (ص68) بتحقيقنا.

والحقائق، أو إقداره سبحانه على الشيطان بإلقائه المذكور افتنانًا منه سبحانه وابتلاء ﴿الحَقُّ﴾ الثابت المحقق النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بالله بإنزاله القرآن أو بإقداره على الشيطان أن يلقي على لسان أنبيائه اختبارًا لعباده ﴿فَتُخْبِتَ﴾ وتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ ويزداد وثوقهم، وصاروا على خطر عظيم واحتياط بليغ ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا بلا شوب شك وترددٍ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:54] موصل إلى توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وانصرفوا عن مقتضيات آياته الكبرى لمرض صدورهم وعمى قلوبهم ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: شك وارتياب ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن، أو من ابتلاء الله إياهم بإلقاء الشيطان ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: أشراطها وأماراتها ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم في ريبهم يترددون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:55] هو عذاب يوم القيامة، وصفه بالعقم؛ لأنه لا يقبل فيه توبة، ولا إيمان، ولا شفاعة، كأنه عقيم لا يلد لهم خيرًا، ولا يثمر فيها عملهم ثوابًا، ولتوبتهم قبولاً، وكيف يقبل فيه منهم التوبة والاستغفار وينفعهم الإيمان؟.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: 56 – 62].

إذ ﴿المُلْكُ﴾ والتصرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: بعد انقضاء دار الابتلاء والاختبار ﴿لله﴾ المستقل بالألوهية والربوبية والتصرف مطلقًا، وإن كان في النشأة الأولى أيضًا كذلك،

إلا أنه سبحانه أقدرهم على الإطاعة والانقياد، كما أقدرهم على الإنكار والعناد لِحِكَم ومصالح؛ إذ هي دار الفتن والابتلاء والاختبار، وبعد انقضائها لا يقبل منهم جبرُ ما فوتوا على نفوسهم في تلك النشأة، بل ﴿يَحْكُمُ﴾ سبحانه بحكمه المبرم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على مقتضى علم منهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على وجه الإخلاص والإخبات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المترتبة على الإيمان واليقين، هم في النشأة الأخرى ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الحج:56] دائمين فيها مقيمين، لا يتحولون إلى ما هو أدنى، بل يترقونه إلى الأعلى حتى يفوزوا بشرف اللقاء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله فيها ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا لبيان توحيدنا ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الأشقياء المكذبون المردودون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: 57] لإهانتهم أنبياء الله ورسله، وما نزل عليهم من الآيات.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وتركوا مضيق الإمكان ساكنين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طالبين فضاءً به الوجوب والفناء فيه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ على يد الغفلة الجهلة عن توحيد الله واستقلاله في الوجود ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ بالموت الاضطراري حتف أنوفهم بعدما خرجوا عن مقتضيات الحياة الصورية بالموت الإرادي ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حقيقًا من لدنه تفضلاً عليهم وامتنانًا، وكيف لا يرزقهم مع أنهم أولياؤه وهو رازق لأعدائه أيضًا؟ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق، المتكفل لأرزاق من عليها وما عليها ﴿لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج:58] ممن ينسب إليهم مجازًا، إذ مرجع الكل إليه، ومبدؤه منه وتوفيقهم بيده، وهم تحت ظله، وفعلهم حقيقةً منسوب إليه.

وبعدما رزقهم الله بالرزق المعنوي بدل ما جاهدوا في سبيله من تحمل المشاق والمتاعب في الانقطاع عن مألوفات بقعة الإمكان ومطبوعات نفوسهم وهوياتهم من اللذات والشهوات البهيمية.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ سبحانه بفضله وسعة جوده ﴿مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أي: مسكنًا ومقامًا يرضون منه نفوسهم بدل ما يتركون من البقاع والديار والقصور المشيدة المرتفعة ألا وهي المكاشفات والمشاهدات الواردة عليهم من الاطلاع على سرائر الأسماء والصفات الإلهية، والواردات الغيبية من عالم اللاهوت ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وما يستدعي استعداداتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ [الحج:59] يفعل معهم ما يرضى به استعداداتهم ويسع له قابلياتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر والشأن ذلك المذكور لمن هاجر إلى الله طالبًا لقياه، خالصًا لوجهه الكريم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ ظالمه يومًا غلب عليه، وأراد أن ينتقم عنه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي: بمقدار ظلمه بلا زيادة عليه ولا نقصان ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: غلب الظالم على المظلوم المنتقم كرة أخرى، وأراد أن يظلم عليه ثانيًا ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ العزيز المنتقم في الكرة الثانية أيضًا ما لم يتجاوز عن حد الانتقام، ولا ينظر سبحانه إلى اجترائه إلى الانتقام، ويتركه ما هو الأولى وهو العفو عند القدرة، وكظم الغيظ لدى الفرصة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لمقتضيات استعداد عباده ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:60] لما صدر عنهم من المبادرة إلى الانتقام لدى القدرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر على من ظلم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بسبب أن الله المستوي على القسط القويم ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿فِي النَّهَارِ﴾ المضيء ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ المضيء ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ المظلم على التدريج ليعتدلا ويعتدل من ظهر وما ظهر كرهما وتجددهما ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح مظاهره بالحكمة المتقنة ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع ما هو من قبيل المسموعات من الوقائع التي أدركها السمع ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:61] يبصر ما هو من قبيل المبصرات من الحوادث المدركة بالبصر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: سمعه للمسموعات وإبصاره للمبصرات ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المقصور على التحقق والثبوت بالاستحقاق الواجب وجوده بلا ارتياب الممتنع نظيره على الإطلاق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الآلهة الباطلة ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المقصور على العدم والبطلان، لا وجود لهم فكيف ألوهيتهم، والإله لا بدَّ وأن يكون واجب الوجود، ثم ما يترتب عليه من الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية فهم معزولون عن الوجود، فكيف عن لوازمها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتعزز بالمجد والبهاء، المتوحد بالقيومية والبقاء الأبدي ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته المتعالي على أن يصفه ألسنة العقلاء، ويعرب عنه أفهام العرفاء ﴿الْكَبِيرُ﴾ [الحج:62] المتكبر في شأنه ﷻ عن أن يحيط به وبأوصافه وأسمائه شيء من مظاهره ومصنوعاته.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ
عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ
نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن
جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج: 63 – 70].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتخصص بالآثار البديعة والصنائع العجيبة الغريبة ﴿أَنزَلَ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتركيبها وتراكبها ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: جانبها ﴿مَاءً﴾ مصفى على الأرض ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بعدما كانت هامدة يابسة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر بالتدابير الباهرة ﴿لَطِيفٌ﴾ دقيق رقيق، علمه متعلق برقائق المعلومات ودقائقها ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحج:63] لا يعزب عن خبرته شيء مما دق وغلظ.

وكيف يعزب عن حيطة علمه شيء من المعلومات؟ إذ ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا وإظهارًا وخلقًا ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات من الكوائن والفواسد ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات مثلها ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على عموم ما ظهر وبطن ﴿لَهُوَ الغَنِيُّ﴾ بذاته عن جميع مظاهره وأظلاله ﴿الحَمِيدُ﴾ [الحج:64] بآثار أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتكفل لأمور عباده كيف ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ ولترتيب معاشكم ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾؟ من الحيوانات التي تأكلون منها وتزرعون بها وتركبون عليها وتحملونها في البر ﴿وَ﴾ سخر لكم ﴿الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وعلى مقتضى مشيئته وإرادته حيث سقتم وأجريتموها حسب مرامكم تتميمًا لأمور معاشكم ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ معلقًا على الهواء بلا عمدٍ كراهة ﴿أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ فيختل أمور معاشكم بوقوعها على الأرض، وإن كان لم يضركم؛ لأنها أجرام في غاية الخفة واللطافة، بل انسد من وقوعها إنزال المطر المقوي لإنبات الأقوات، إذ من شأنها الوقوع لولا إمساكه سبحانه إياها ﴿إِلاَّ﴾ أن تقع عليها ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى وتعلق مشيئته بوقوعها، وذلك يوم القيامة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿بِالنَّاسِ﴾ المجبولين على

الكفران والنسيان ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مشفق عطوف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحج:65] لهم يعفو عنهم زلتهم، ويرزقهم من حيث لا يحتسب.

﴿وَ﴾ كيف لا يرحمكم ولا يرأف عليكم سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ في النشأة الأولى، وأظهركم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إظهارًا لقدرته وبسطته، ومقتضيات جلاله وقهره ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في النشأة الأخرى لتوفية الجزاء على ما أمركم به في النشأة الأولى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المركب من النسيان ﴿لَكَفُورٌ﴾ [الحج: 66] لأنواع نعم الله عليه.

ومن جملة إنعامنا عليه إنا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: عيّنا وهيأنا ﴿مَنسَكًا﴾ معينًا ومقصدًا مخصوصًا ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: ينكسون ويتقربون فيه إلينا بالقرابين والهدايا ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي الأَمْرِ﴾ الذي كنت عليه من الذبح وغيره من الشعائر المتعلقة بأمور الدين، ومعالم الهدى واليقين ﴿وَادْعُ إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ حسبما أُمرت ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك إلى الحق ﴿لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:67] أي: طريق واضح سويّ موصل إلى التوحيد الذاتي بلا عوج وانحراف.

﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ في أمرك هذا ودعوتك هذه عنادًا ومكابرة، فلا تلتفت إليهم ولا تقابلهم ﴿فَقُلِ اللهُ﴾ المطلع لخفايا الأمور وسرائرها ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج:68] بمقتضى أهوية نفوسكم، فيجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

وإن ألجأتموني إلى الخصومة فـ ﴿اللهُ﴾ المطلع لضمائر كلا الفريقين ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وبيني ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج:69] معي من شعائر ديني وعلامة هدايتي ويقيني.

﴿أَ﴾ تنكر أيها المنكر إحاطة علم الله بجميع المعلومات ﴿لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ﴾ المتجلي لجميع ما ظهر وبطن ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ من الأمور الكائنة والفاسدة فيها، لا يعزب عن علمه شيء، وكيف لا يعلمها سبحانه ﴿إِنَّ﴾ جميع ﴿ذَلِكَ﴾ مثبتٌ مسطورٌ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هو لوح قضائه وحضرة علمه، ولا تستبعد أمثال هذا عن جنابه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الاطلاع على الوجه المذكور ﴿عَلَى اللهِ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿يَسِيرٌ﴾ [الحج:70].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن

نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: 71 – 74].

﴿وَ﴾ هم بسبب إنكارهم إحاطة علم الله ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المستحق للعبادة بالاستحقاق ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: أصنامًا وأوثانًا، لم ينزل سبحانه على استحقاقهم العبادة برهانًا من عند الله ليكون لهم حجة دالة على مدعاهم ﴿وَ﴾ أيضا يعبدون ﴿مَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: دليلُ عقلي دالُ على لياقتها واستحقاقها للعبادة والانقياد، بل يعبدونها ظلمًا وزورًا بلا مستند عقلي ونقلي ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المتجاوزين عن مقتضى العقل والنقل ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج:71] ينصرهم ويستدفع عنهم عذاب الله، أو يستشفع لهم عنده سبحانه بتخفيفه عنهم.

﴿وَ﴾ من غاية ظلمهم وخروجهم عن حدود العقل والنقل ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات ﴿تَعْرِفُ﴾ وتبصر أيها الرائي ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها ﴿الْمُنكَرَ﴾ أي: علامات الإنكار، وأمارات العتو والاستكبار، بحيث ترونهم من شدة شكيمتهم وغيظهم المفرط ﴿يَكَادُونَ﴾ ويقربون ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون ويأخذون ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ هم: النبي ﷺ وأصحابه غيظًا عليهم، وعلى ما جرى على ألسنتهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَ﴾ تنقبضون وتضجرون عن استماع هذه الآيات العظام وتتشاءمون من سماعها ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الآيات، هي أشد غيظًا وأكثر تضجرًا منها ألا وهي ﴿النَّارُ﴾ التي ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسبب كفرهم وضلالهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:72] النار لأصحاب الضلال والإنكار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين جبلوا على الغفلة والنسيان والجهل والطغيان عن عظمة

الله وحق قدره، لذلك أثبتُم له أمثالاً وأشباهًا مع تعاليه وتنزهه في ذاته عنها، اسمعوا: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ في حق شركائكم ومعبوداتكم ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ سمع وتدبر وتأمل، ثم أنصفوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون أيها المدَّعون المكابرون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ القادر بجميع المقدورات بالعلم التام، والإدارة الكاملة، والحكمة المتقنة ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ بل لن يقدروا على خلق أحقر منها وأخس، لا كل واحد منهم فرادى، بل ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لخلق الذباب وتظاهروا لإيجاده مجتمعين لن يقدروا أيضًا، وكيف خلْقُ الذباب وإظهاره؟ ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ﴾ ويأخذ منهم ﴿الذُّبَابُ﴾ الحقير الضعيف ﴿شَيْئًا﴾ من الآلهة الباطلة من حليهم وتزييناتهم ﴿لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ ولا يقدروا على أن يخرجوه من يده لعجزهم وعدم قدرتهم، فكيف تعبدون أيها الحمقى العابدون أولئك الهلكى العاجزين الساقطين؟! فظهر للمتأمل المتدبر أنه ﴿ضَعُفَ﴾ أي: انحط وسقط عن زمرة العقلاء ورتبتهم ﴿الطَّالِبُ﴾ العايد الجاهل ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:73] المعبود المجهول المنحط عن رتبة أحقر الأشياء وأخسها فكيف عن أعلاها؟! فكيف عن خالقها وموجدها؟! تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

كل ذلك بواسطة أنهم ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على جميع المقدورات والمرادات وما علموه ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ كما هو اللائق بشأنه، وما عرفوه حتى معرفته، لذلك ما وصفوه حق وصفه، ونسبوه إليه سبحانه ما لا يليق بجنابه جهلاً وعنادًا، وأثبتوا له شركاء عاجزين من أضعف الأشياء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَقَوِيٌّ﴾ في ذاته لا حول ولا قوة إلا به ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحج:74] غالبٌ في أمره وحكمه، متصرف مستقل في ملكه وملكوته، يفعل بالإدارة والاختيار، ويحكم ما يريد، لا راد لفعله، ولا معقب لحكمه.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ
(٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٧٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧)
وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ
إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 75 – 78].

ومن علو شأنه، وسمو برهانه، وكمال قوته، وعزته يُتوسل إليه، ويُتوصل نحوه بوسائل ووسائطَ اختارها الله واجتباها من بين بريته لإهداء التائهين في بيداء ألوهيته إلى زلال توحيده على مقتضى سنته، وجري حكمته، كما بيَّن في كتابه حيث قال: ﴿اللهُ﴾ العلي المتعال ذاته عن أن يكون شرعة كل وارد، أو يطلع على سرائر أسمائه وصفاته واحدُ بعد واحدٍ، بل ﴿يَصْطَفِي﴾ ويختار ﴿مِنَ المَلَائِكَةِ﴾ المقربين عنده ﴿رُسُلًا﴾ يرسلهم إلى خواص البشر، وخُلّص العباد ﴿وَ﴾ أيضًا يصطفي ويختار ﴿مِنَ﴾ خيار ﴿النَّاسِ﴾ رسلاً يرسلهم إلى عموم عباده بالنبوة والرسالة ليرشدوهم إلى توحيده سبحانه ويهدوهم إلى سواء طريقه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع أقوالهم ومناجاتهم ويقضي حاجاتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:75] يبصر أعمالهم وأفعالهم ويجازيهم عليها، لأنه: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالاً ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ماضيًا واستقبالاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَى اللهِ﴾ الذي بدأ منه ما بدأ ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحج:76] الكائنة أزلاً وأبدًا، ظاهرًا وباطنًا، حالاً ومآلاً، دنيًا وآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات ﴿ارْكَعُوا﴾ نحوه خاضعين منكسرين ﴿وَاسْجُدُوا﴾ له متذللين متواضعين ﴿وَاعْبُدُوا﴾ بجميع أركانكم وجوارحكم ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم بأنواع النعم كي تعرفوا ذاته حسب استعداداتكم، وتشكروا نعمه وحقوقَ كرمه مقدارَ وسعكم، وتعبدوه حق عبادته قدر طاقتكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ﴾ على وجه أمرتم به طلبًا لمرضاته، واحذروا الشر خوفًا من سخطه وحلول غضبه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:77] وتفوزون بما وُعدتم من الجنة المأوى وشرف اللقيا فيها.

وفقنا بفضلك وجودك على ما تحب منَّا وترضى.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم من علو شأنه سبحانه، وكمال عظمته وكبريائه ﴿جَاهِدُوا فِي اللهِ﴾ واجتهدوا في سبيل توحيده ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: ابذلوا وسعكم وطاقتكم في سلوك طريق التوحيد، مرابطين قلوبكم إلى الله، باذلين مهجكم في الفناء فيه، وكيف لا تجاهدون وترابطون أيها المائلون إلى الله بالميل الحبي الشوقي مع أنه

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ واصطفاكم من بين البرايا لإدراك توحيده والاتصاف بعرفانه، وأرسل عليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب ليرشدوكم إليه، ويبينوا لكم طريق توحيده بوضع المناهج والشرائع الموصلة إليه، والأديان المثمرة له ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الموضوع فيكم ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق وعسر خارج عن وسعكم وطاقتكم؛ بل وسّع سبحانه عليكم أمر دينكم بأن جعل ملتكم ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ صلوات الرحمن عليه، إذ لا ضيق فيه ولا حرج.

أضاف أبوة إبراهيم إلى الأمة من أجداد الرسول ﷺ، والرسول أب لهم؛ إذ رسول كلِّ أمة أبٌ بالنسبة إلى أمته، بل هو خير الآباء؛ لإرشادهم إلى طريق الحق، ولا معنى للأب إلا المرشد المربي.

وكما جعل سبحانه ملتكم ملة إبراهيم ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في كتبه السالفة حيث قال سبحانه: من يؤمن ويصدق بمحمد خاتم النبوة والرسالة يصير مسلمًا ﴿وَفِي هَذَا﴾ الكتاب بيَّنَ التسمية على وجه التسليم فسماكم فيه أيضًا: مسلمين ضمنًا، وإنما سماكم مسلمين مسلِّمين منقادين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ الذي هو أكمل الرسل وأفضل الأنبياء ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ شاهدًا على انقيادكم وتسليمكم في يوم الجزاء، فتكونوا أفضل الأمم وأشرف الفرق، وبواسطة كونكم أمته وزمرته وتحت لوائه ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى﴾ عموم ﴿النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسالة إليهم وإظهار الدعوة لهم، وإذا كنتم خير أمة وأشرفَ طائفة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأديموا الميل والتوجه نحو الحق بجميع الجوارح والأركان تقربًا إليه شوقًا وتحننًا ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المسقطة لميلكم إلى زخرفة الدنيا وحطامها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ في كل الأحوآل، واثقينَ بفضله وجوده، وفوضوا أموركم كلها إليه، متوكلين عليه ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: ناصركم ومعينكم ومولّي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ الولي المعين ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:78] الناصر المعين، ذو القوة المتين، حسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المجاهد في سبيل الله أعداءَ الله وموانعَ الوصول إلى توحيده أن تجاهد أولاً مع نفسك التي بين جنبيك، إذ هي من أعدى عدوك، وأشد صولة واستيلاء إلى مملكة باطنك وقلبك الذي هو مخيم سرادقات سلطان الوحدة، ومحل نزول قهرمان العزة، ومهبط الوحي الإلهي والوارد الغيبي، فلك أن تزيل صولتها،

وتشتت شملها، وتفرق جمعها التي هي جنودها وأعوانها من القوى الشهوانية والغضبية، وجميع الأوصاف البهيمية المتداعية إلى تخريب القلب، وتعمير النفس الأمّارة بالسوء، وتقويتها وتقويمها؛ إذ عداوتها ومنعها ذاتية حقيقية وبلا واسطة، وعداوةُ سائر الموانع بواسطتها.

وإياك إياك الإطاعة والانقياد إليها، فإنها تشغلك عن الحق، وتضلك عن سبيله وتغريك إلى الباطل وتقودك إلى طريقه.

فاعلم أيها المجاهد الطالب للغلبة على جنود النفس الأمارة أنه لا يمكن لك هذا إلا بالاعتزال عن إقطاع الشيطان ومهلكة النفس ومشتهياتها ومستلذاتها بالكلية، والتشمر نحو الحق بالعزيمة الخالصة عن الرياء والرعونات والانخلاع عن مقتضيات الأوصاف البشرية بالإدارة الصادقة، والتوجه نحو الوحدة الذاتية عن طريق الفناء بإسقاط الإضافات المشعرة لتوهم الكثرة.

وبالجملة لا يتم سلوك السالك في طريق التوحيد إلا بالفناء في الله، والبقاء ببقائه.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا عن مضائق هوياتنا، وتوصلنا إلى فضاء توحيدك بمنك وجودك.

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المؤمنين

لا يخفى على المؤمنين المفلحين، العابرين بالدرجة العليا والمرتبة السنية من مراتب التوحيد المنتظرة لأرباب الولاء، الوالهين في سر سريان الوحدة الذاتية وكيفية امتدادها، وانبساطها على هياكل التعينات، وتماثيل الهويات العدمية، المنصبغة بصبغ الوجود الفائض من التجليات الذاتية والشؤون الصفاتية، المتشعشعة من الذات لإظهار الكمالات المندمجة فيها أنّ ترقى المؤمن الموقن بالتوحيد الذاتي من حضيض البشرية المتصنعة بالأوصاف الناسوتية، والتطورات الطبيعية إلى ذروة الشؤون الذاتية اللاهوتية المنعكسة من الأسماء الذاتية الإلهية، إنما هو بالميل المقارن بالخشوع والخضوع والتذلل التام والانكسار المفرط المسقط لِلَوازم الأنانية المبعدة عن الحق والإعراض عن فرطات الألحاظ والألفاظ والتطهر عن زخرفة الدنيا المانعة من الوصول، وكذا عن جميع الأوصاف البهيمية من الغضبية والشهوية إلا مقدار ما تقتضيه الحكمة الإلهية من الإبقاء والاستغناء، فمن تعدى وتجاوز عنه، فقد لحق ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف:103-104].

وبالجملة لا بدّ للقاصد نحو الحق من الميل الخالص الدائم والتوجه التام نحوه مع الانخلاع عن لوازم ناسوته، متدرجًا في أفنائها إلى أن يفنى عن الفناء والإفناء أيضًا حتى يمكن له الوصول إلى فضاء اللاهوت وسعة حضرة الرحموت، حين انقطع السير وارتفع الغير، ولم يبق إلا خير في خير، ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62].

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن أحوال المؤمن الموقن وأوصافه وترقيه فيها، فقال متبركًا باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أفاض على أرباب الإيمان بعد رسوخهم، وتمكنهم فيه كرامة التوحيد والعرفان من ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم يوفقهم على أنواع الطاعات، وأصناف الخيرات، والمبرات الموصلة إلى درجات الإحسان

﴿الرَّجِيمِ﴾ لهم ينجيهم عن دركات النيران، ويوصلهم إلى أعلى طبقات الجنان.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون: 1 – 11].

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بمرتبة حق اليقين التي هي أعلى مراتب التوحيد، ومنتهى السلوك ومنقطع الطلب والعرفان ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:1][1] الراسخون في اليقين العلمي، الجازمون الثابتون فيه بلا تزلزلٍ وتلوينٍ.

﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال رسوخهم وشدة تمكنهم وجزمهم ﴿فِي صَلاتِهِمْ﴾ التي هي معراجهم للوصول إلى مرتبة الرضا والقبول ﴿خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:2][2] مخبتون

---

(1) قوله عز وجل: (قد أفلح المؤمنون) روى الواحدي عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن ابن عبد القارى قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: كان إذا أنزل الوحى على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا، ثم قال: لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ - قد أفلح المؤمنون - إلى عشر آيات، رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أبي بكر القطيعي، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، عن عبد الرزاق، قوله عز وجل: (الذين هم في صلاتهم خاشعون) أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد العطار قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن نعيم قال: حدثني أحمد بن يعقوب الثقفي قال: أخبرنا أبو شعيب الحراني قال: أخبرنا إسماعيل بن علية، عن أيوب، عن محمد ابن سيرين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء، فنزل - الذين هم في صلاتهم خاشعون -. «أسباب النزول» (210/1).

(2) قال الورتجبي: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة. وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم. وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهممهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو هممهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر. قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه. وقال يوسف بن الحسين:

متضرعون متحننون نحو الحق عن ظهر القلب، وجميع الجوارح والأركان بلا تلعثم وعثور. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ المشغل لهم عن التوجه نحو الحق ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:3] منصرفون إعراضهم وانصرافهم عما تستكرهه نفوسهم وقلوبهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ﴾ المطهرة لنفوسهم عن الميل نحو حطام الدنيا ومتاعها الفانية ﴿فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون:4] تمرينًا لنفوسهم على ترك الميل والالتفات إليها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ التي هي مواريث بهيميتهم، وأقوى قوائم بشريتهم ﴿حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:5] ناكثون عن مقتضاها، راكنون عما أملها وتهويلها.

﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء والسراري حفظًا لحكمة إبقاء النوع، ومصلحة التناسل ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:6] على ذلك إن فعلوا بلا مبالغة مفرطة زائدة عن قدر الحاجة.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وطلب التجاوز والتعدي عن قدر الحاجة من الحلائل المذكورة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء الخارجون عن مقتضى الحد الإلهي، والحكمة المتقنة ﴿هُمُ العَادُونَ﴾ [المؤمنون:7] المقصورون على التجاوز والعدوان لا يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال عدالتهم وقسطهم الفطري واعتدال أوصافهم وأخلاقهم الصورية والمعنوية ﴿لأَمَانَاتِهِمْ﴾ التي ائتمنوا عليها ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ الذي عهدوا به سواء كانت الأمانة والعهد لله أو لسائر عباده ﴿رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:8] قائمون بحفظها مواظبون لرعاية حقها بلا فوت شيء من حقوقها ورعايتها.

﴿وَ﴾ بالجملة المؤمنون المفلحون الفائزون بالعاقبة الحميدة التي هي مرتبة الكشف والشهود المعبر عند أرباب المحبة والولاء بالحق اليقين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ المقربة لهم إلى ربهم، الفاصلة بين مرتبتي الناسوت واللاهوت ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:9] أي: يداومون ويواظبون لأدائها بأوقاتها وبشرائطها وآدابها، مع ما ذكر من الأوصاف الجميلة المذكورة والأخلاق المرضية المشكورة، مخلصين فيها، مجتنبين عن الرياء والرعونة والعجب والسمعة.

كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ﴾ الأولياء ﴿الْوَارِثُونَ﴾[1] [المؤمنون: 10] عن الأنبياء والرسل وصفوة عباد الله وخيرتهم وهم: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو التحقق بمقام الكشف والشهود باستحقاقهم الذاتي مع استرشادهم، واستفادتهم من الأنبياء والرسل الهادين المهديين المرشدين لهم إلى ما جبلوا لأجله لذلك ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:11] متمكنون متقربون، لا يتحولون ولا يتبدلون.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون: 12 – 20].

﴿وَ﴾ كيف لا يرثون الفردوس ولا يخلدون فيها مع أنهم جبلوا لأجلها، سيما إذا كملوا سلوكهم وتمموا نسكها على الوجه الذي هداهم الأنبياء والرسل والأولياء الراشدون الذين هم خلفاء عن الرسل الكرام والأنبياء العظام. عليهم التحية والسلام. إذ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: أظهرنا وقدّرنا جسم آدم وبنيه أولاً ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ أي: زبدة وخلاصة منتخبة ﴿مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:12][2] الذي هي مادة جميع الأجسام

(1) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوْا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (4 /170).

(2) لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضًا، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فزلزل العرش، ثم تزلزل

السفلية وأقوى عناصرها وهيولاها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ وصيرناه؛ أي: ما انتخبنا من الطين ﴿نُطْفَةً﴾ بيضاء وقرزناها زمانًا ﴿فِي قَرَارٍ﴾ ومستقر ﴿مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:13] حصين متين هي الرحم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما مكناها في المقر المكين مدة ﴿خَلَقْنَا﴾ وصيرنا ﴿النُّطْفَةَ﴾ المقررة المتمكنة في الرحم ﴿عَلَقَةً﴾ أي: لحمًا متصلاً ملتصقًا أجزاؤها إلى حيث صارت قابلة للمضغ ﴿فَخَلَقْنَا﴾ بعد ذلك ﴿الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ المتلصقة المتصلة بعد انفصالها وتفريقهما التقديري ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ صلبةً خارجة عن قابلية المضغ والتليين، متقومة غير مائلة لتكون قوائم وأعمدة للجسم ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ﴾ الصلبة القابلة للكسر والانكسار ﴿لَحْمًا﴾ صونًا لها عما يضرها ويكسرها، فتم حينئذٍ تركيب صورته الجسمية

الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرقت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجرى عرقها، وصار بحورًا؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضًا من هيبة عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثرت تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدها وروحها فوقها، فيبست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة ممحاض الكون. ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة بقبضة جبروته، وطرحها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاقير أنوار الصفات؛ فمطر عليها وبل بحر الألوهية، وخمرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصباح مشارق شموس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات. فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»، وكان ﷺ معاذن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرته، وألقى عليه سباتًا من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركهما بسر سره، وذلك السر شهوتهما التي أورث فيهما تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

وقالب الطبيعية بجميع لوازمها ومتمماتها من العروق والعظام والأعصاب والغضاريف والشريانات وغيرها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم تركيبه وكمل مزاجه وتصويره على أبدع وجه وأعجبه، وصار حيوانًا حساسًا متحركًا بالإرادة كسائر الحيوانات ﴿أَنشَأْنَاهُ﴾ أي: أبدعناه واخترعنا فيه خاصة ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ إبداعيًا مخصوصًا بهذا الجسم بين سائر الأجسام، وهو نفخنا فيه من روحنا ليتصف بأوصافنا ويتخلق بأخلاقنا ويستحق بخلافتنا ونيابتنا، ويليق لأن يصير مرآة لنا قابلة لانعكاس أظلال أسمائنا الحسنى وأوصافنا العليا ﴿فَتَبَارَكَ﴾ أي: تعالى وتعاظم ﴿اللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على أمثال هذه التبدلات والتطورات التي تحيرت العقول عندها، وانحسرت الأفهام دونها، وهو في ذاته ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:14] [1] المقدرين تقديرًا وخلقًا، وأتمها إبداعًا واختراعًا لو فرض مقدرُ غيره، مع أنه محال عقلاً وعادة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾ يا بني آدم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما أتم صوركم ومعناكم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:15] بالآجال المقدرة من عندنا لانقضاء حياتكم في النشأة الأولى.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:16] وتحشرون لانتقاد ما اكتسبتم في النشأة الأولى.

ثم أخذ سبحانه في تعداد نعمه على عباده تفضلاً عليهم وامتنانًا فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي: جانب علوكم ﴿سَبْعَ﴾ سماوات ﴿طَرَائِقَ﴾ أي: متطارقة متطابقة بعضها فوق بعض، مشتملة على كواكب لا في السفليات من الأشياء المتعلقة لمعاشكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كُنَّا﴾ في حال من الأحوال السابقة واللاحقة ﴿عَنِ الْخَلْقِ﴾ أي: عن جميع المخلوقات المستندة إلينا، الظاهرة من امتداد أظلالنا ﴿غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:17]

(1) قوله تعالى: (فتبارك الله أحسن الخالقين) روى الواحدي عن علي بن زيد بن جدعان، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: وافقت ربي في أربع: قلت: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام، فأنزل الله تعالى - واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى - وقلت: يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى - وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب - وقلت لازواج النبي صلى الله عليه وسلم: لتنتهن أو ليبدلنه الله سبحانه أزواجا خيرا منكن، فأنزل الله تعالى - عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن - الآية، ونزلت - ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين - إلى قوله تعالى - ثم أنشأناه خلقا آخر - فقلت - فتبارك الله أحسن الخالقين. «أسباب النزول» (210/1).

ذاهلين عن حفظها وتفقدها.

﴿وَ﴾ من كمال جودنا ووفور رحمتنا إلى عموم عبادنا ﴿أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ بعدما أصعدنا الأبخرة والأدخنة من الأرض، وركبناها تركيبًا أنيقًا عجيبًا إلى أن صارت سحبًا متراكمة متكاثفة، فتقاطر منها الماء بمجاورة الهواء ونفوذها، فأرسلنا إلى الأرض الجزر ﴿بِقَدَرٍ﴾ معلوم معتدل ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ وأدخلناه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تجاويفها ومساماتها حتى تدخر فيها.

ثم جعلناه ينابيعَ تخرج منها مندرجة وتجري على قدر الحاجة تتميمًا لحوائج عبادنا وتيسيرًا لهم في معاشهم.

﴿وَإِنَّا﴾ بعدما أدخلناه في الأرض ﴿عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ أي: بالماء بالأغوار والتصعيد والتجفيف وغير ذلك من طرق الإذهاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:18] كما أنا قادرون على إنزاله وإخراجه.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾ أي: بالماء المدخّر ﴿جَنَّاتٍ﴾ وحدائق ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما معظم الفواكه وأصلها ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات أيضًا ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ متفرعة عليهما، ملتفة بهما من أنواع الفواكه على ما هو عادة الدهاقين في غرس الحدائق والبساتين ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:19] تغذيًا وتقوتًا، إذ تزرعون في جناتكم من الحبوبات أيضًا.

﴿وَ﴾ لاسيما أنشأنا لكم بالماء ﴿شَجَرَةً﴾ مباركة ﴿تَخْرُجُ﴾ وتنشأ ﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ هو جبل رفيع بين مصر وأيلة ﴿تَنبُتُ﴾ ثمرة ملتبسة ﴿بِالدُّهْنِ﴾ المضيء للسرج ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صِبْغٍ﴾ أي: إدام ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:20] لأنهم يغمسون أخبازهم فيه تأدمًا.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
(٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن
يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: 21 – 27].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها المتأملون في نعمنا، المعتبرون في أنعامنا ﴿فِي الأَنْعَامِ﴾ والدواب التي ينعمون بها من عندنا ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة إلى كمال قدرتنا وجلالة نعمتنا لو تعتبرون منها إذ ﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الأخلاط والنبات لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، مع أنه لا مناسبة بينهما ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من ظهورها وأصوافها وأشعارها وأوبارها وغير ذلك ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:21] من لحومها تقوية لمزاجكم وتقويمًا له.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون:22].

وبعدما عدّد سبحانه نعمه التي أنعم بها على بني آدم، شرع في توبيخ من يكفر بها ولم يؤد حق شكرها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن جادة الاعتدال وانصرفوا عن الاستقامة ﴿فَقَالَ﴾ على مقتضى وحينا إياه مناديًا إياه ليقلبوا إليه على مقتضى شفقة النبوة والرسالة وعطف الهدايا والإرشاد: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إمحاضًا للنصح وإظهارًا لكمال الإشفاق ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4] واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ يعبد بالحق ويستحق بالعبادة ﴿غَيْرُهُ أَ﴾ تتخذون إلهًا سواه ﴿فَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:23] وتحذرون عن بطشه وانتقامه بأنواع العذاب والنكال.

وبعدما ظهر بدعوى الرسالة وأظهر الدعوة على الوجه المذكور: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ باتخاذ الأوثان والأصنام آلهة عبدوها كعبادة الله لضعفاء العوام ترويجًا لكفرهم وتحقيرًا لدعوته ﴿مَا هَذَا﴾ الرجل الحقير المدعي للرسالة والنبوة من الله ﴿إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بل أضعفكم حالاً وأدناكم عقلاً ومالاً ﴿يُرِيدُ﴾ مع حقارته ودناءته ﴿أَن يَتَفَضَّلَ﴾ ويتفوق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بهذه الدعوى الكاذبة والافتراء الباطل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ إرسال رسولٍ ﴿لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ إذ هم أولى وأليق

بالإرسال من عنده، ولهم مناسبةٌ مع الله بخلاف من البشر، فإنهم لا مناسبةَ لهم معه سبحانه، مع أنّا ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: برسالة البشر من الله ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:24] أي: لم يعهد هذا في الزمان السابق أصلاً.

بل ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: ما هذا المدعي للرسالة من عند الله إلا رجلٌ عُرض له جنونٌ فاختل دماغه وذهب عقله؛ فيتخبطه الشيطان ويتفوه بأمثال هذه الهذيانات المستبعدة المستحيلة ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ وأهملوه وانتظروا في أمره، ولا تميلوا إليه ولا تلتفتوا نحوه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:25] ليظهر لكم خبطه واختلاله، أو يفيق عما هو عليه ويعود على ما كان.

ثم لما سمع منهم نوح ﷺ ما سمع من التجهيل والتسفيه أَيس منهم وقنط عن إيمانهم فـ ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله مستعينًا منه: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرم وأرسلني إلى هؤلاء الضالين عن سواء سبيلك لأرشدهم وأهديهم إلى توحيدك، فبلغتُ ما أُرسلتُ به إياهم، فلم يقبلوا مني فكذبوني وسفّهوني ﴿انصُرْنِي﴾ بإهلاكهم وتعذيبهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:26] أي: بدل تكذيبهم إياي وسببه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ إنجازًا لما أوعدنا إياهم من العذاب والهلاك بعد تكذيبهم رسولنا وما جاء به من عندنا من الإيمان والتوحيد ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أي: أعمال السفينة، ولا تخف عن فسادها بعدم تعلمك من أحدٍ بل اصنعها ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا إيّاك نحفظك عن عروض الخطأ والفساد في صنعها ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأمرنا وتعليمنا لك كيفية صنعها، ولا تبال بتسفيههم واستهزائهم معك ونسبتك إلى الخبط والجنون وأنواع الأذيات ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الوجوبي المتعلق بإغراقهم واستئصالهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ المعينُ-المعهودُ، فدلق ونبع الماء منه نبعةً ﴿فَاسْلُكْ﴾ وأَدْخل على الفور ﴿فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من نوع الحيوانات اثنين ذكرًا وأنثى؛ إبقاءً لجميع الأنواع في العالم ﴿وَ﴾ اسلك أيضًا ﴿أَهْلَكَ﴾ ومن ينتمي إليك قرابةً ودينًا ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ والحكم منّا في لوح قضائنا بأنه من الهالكين ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من أهلك، أي: أَدْخِل جميع أهلك سوى من مضى قضاؤنا بغرقه وإهلاكه وهو ابنه كنعان ﴿وَ﴾ بعدما سبق قضاؤنا لإهلاك من كفر من أهلك ﴿لاَ تُخَاطِبْنِي﴾ يا نوح، ولا تدعُ إليّ في حق من سبق الحكم مني بغرقه ولا تسع ﴿فِي﴾ خلاص القوم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالعرض على عذابنا ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:27] معدودون من عدد

الغرقى الهلكى، ولا أثر لدعائك لهم بعدما صار الأمر منّا مقضيًا والحكم مبرمًا.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: 28 – 35].

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ﴾ يا نوح، وتمكنت ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿عَلَى الْفُلْكِ﴾ وصرتم متمكنين متعززين عليها ﴿فَقُلِ﴾ شكرًا لما أنعمنا عليك من إنجاز النصرة المعهودة الموعودة وإهلاك الله وغير ذلك من النعم العظام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:28] الخارجين عن مقتضى العقل والشرع عتوًا وعنادًا.

﴿وَقُل﴾ أيضًا بعدما مكنت على سفينة النجاة: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ بفضلك ولطفك ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾[1] كثيرَ الخير والبركة ﴿وَأَنتَ﴾ من كمال جودك ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:29] لو فرض مُنزِل غيرك مع أنه لا مُنزِلَ سواك، ولا وجود لغيرك؛ إذ لا

(1) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلقًا به تعلّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة، ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غدوًا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لمَن تشرّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذّلّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرّ الشهوة، سالمًا من آفات الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمّدية، وسائر الكُمّل النذر.

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة نوحٍ مع قومه ونجاته وإهلاكهم، وتعليم صنع السفينة عليه، وإخراج الماء من التنور المعهود، وإحاطته على وجه الأرض كلها، ونجاة من كان في سفينته وغير ذلك من الأمور البديعة ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائلَ واضحات علي كمال قدرتنا وإرادتنا واختبارنا في عموم أفعالنا على المعتبرين المتأملين في بدائع الأمور وغرائبه، الناظرين بعيون العبرة والاستبصار في حدوث هذه الوقائع الهائلة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون:30] أي: أن الشأن والأمر أنَّا بإحداث هذه الحوادث مع قوم نوح لمختبرون مجرِّبون عموم عبادنا؛ لننظر من يعتبر ويتعظ بها منهم، وما هي إلا تذكرة وتذكير منا إياهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاك قم نوح وإغراقهم ﴿أَنشَأْنَا﴾ وأظهرنا من ذرية مَن في سفينة نوح ﷺ ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد نوحٍ، ومَن معه في السفينة ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31] هم عادُ وثمودَ فانحرفوا أيضًا عن جادة التوحيد.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ناشئًا ﴿مِّنْهُمْ﴾ ابتلاءً لهم واختبارًا لمن اعتبر منهم، فقال على مقتضى وحينا وإلهامنا إياه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والوجود، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد له ويُرجع إليه ﴿غَيْرُهُ أَ﴾ تتخذون إلهًا غيره وتعبدون له ظلمًا وزورًا، وتتضرعون نحوه في الوقائع والخطوب ﴿فَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:32] عن غضبه، ولا تخافون عن قهره وانتقامه.

﴿وَ﴾ بعدما بلّغهم الرسول الموحي به ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿مِن﴾ قومه عتوًا واستكبارًا لضعفاء العوام، وهم ﴿قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله باتخاذ الأصنام آلهةً وأنكروا وحدة الإله ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ ويوم الجزاء وجميع المواعيد الموعودة فيها ﴿وَ﴾ مع كفرهم وشركهم، وإنكارهم بالنشأة الأخرى ﴿أَتْرَفْنَاهُمْ﴾ بوفور نعمنا إياهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إمهالاً لهم: ﴿مَا هَٰذَا﴾ المدّعي الكاذب ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا مزيةَ له عليكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:33].

﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا﴾ فيما يأمركم من تلبيساته وتغريراته مع أنه ﴿مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ﴾ في إطاعتكم وانقيادكم لبني نوعكم ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:34] خسرانًا عظيمًا لا خسرانُ أعظمَ منه، إذ هو خسرانُ العقل والإدراك، وتذليلُ النفس العزيزة بمثله تغريرًا. ﴿أَ﴾ تسمعونه وتقبلون منه أيها المجبولون على الدربة والدراية ما

﴿يَعِدُكُم﴾ من الخرافات المستبعدة عن الإدراكات، وذلك ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ رفاتًا بحيث تفرقت أجزاؤكم إلى أن صارت هباءً وعدمًا صرفًا ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:35] بعد هذا من التراب، معادون إلى ما كنتم عليه؟!.

﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون: 36 – 44].

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي: بَعُد بعدًا تامًا، واستحال استحالةً شديدةً ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:36] من البعث بعد الموت والوجود بعد العدم والإعادة بعد الإماتة.

﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما الحياة لنا أيها العقلاء ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ التي هي ﴿الدُّنْيَا﴾ إذ وجودنا وعدمنا مقصورٌ على ما هو فيها ﴿نَمُوتُ﴾ ونعدم بعد الوجود فيها ﴿وَنَحْيَا﴾ ونوجد بعد العدم أيضًا فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:37] منشَرين أحياءً بعدما متنا فيها، كما نشاهد من سائر الأشياء؛ يعني: لا منزل لنا سوى الدنيا حياتنا فيها وموتنا فيها لا دارَ لنا غيرها.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو المدعى الكاذب ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ﴾ ونسب ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ومراءً عنه أنه أرسلني الله وأوصاني بكذا وكذا، وما هي إلا مخترعاتٌ اخترعها من تلقاء نفسه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون:38] بمجرد هذه الدعوى، وإن أثبتها أيضًا؛ إذ هو بشرٌ مثلنا ولا رسالةَ للبشر من الله إلى البشر.

وبعد يأسه من إيمانهم أخذ في الدعاء عليهم، مشتكيًا إلى الله؛ حيث ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:39] أي: عذِّبهم بتكذيبهم إياي؛ إذ تكذيبي مستلزم لتكذيبك يا ربي.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: اصبر ولا تستعجل في انتقامهم أنهم ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن

زمانٍ قليلٍ ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:40] عمَّا فعلوا من التكذيب والإنكار.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة من جانب السماء بغتةً، قيل: صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحةً هائلة، بعدما تعلق إرادة الله بإهلاكهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب الثابت المحقق الواجب وقوعه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وصيرنا أجسادهم ﴿غُثَاءً﴾ أي: كالغثاء الذي يسيل به الماء، وهو الزبد والحشائش التي يذهب بها الماء ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:41] أي: بعدما صاروا كذلك، قيل في حقهم: بَعُد بعدًا وطردًا للقوم الظالمين الخارجين عن مقتضى أوامر الله ونواهيه، النازلة منه سبحانه على ألسنة أنبيائه ورسله.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ وانقراضهم ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون:42] يعني: قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم الهالكة على الكفر والعناد بسبب تكذيب الرسل وكتبهم.

وبالجملة أهلكناهم؛ بحيث ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تستعجل وتستقدم أمةٌ منهم أجلَها الذي عيَّنَّا لإهلاكها، وقدرنا هلاكهم فيه ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [المؤمنون:43] أيضًا: لا يسع لهم الاستقدام والاستئخار في المدة المقدرة المعينة لهلاكهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضوا ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ على المنحرفين عن جادة توحيدنا، المنصرفين عن مقتضى سنتنا ﴿تَتْرَا﴾ متواترةً متتاليةً بلا تخلل فترةٍ بينهم، فصار الأمر بينهم ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾ لإصلاح حالهم واعتدال خلافتهم وأعمالهم ﴿كَذَّبُوهُ﴾ وأنكروا له وظهروا عليه بالمقاتلة والمشاجرة، فأهلكناهم واستأصلناهم بسبب تكذيبهم وإنكارهم ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالهلاك؛ أي: أهلكناهم متتابعةً بعضهم بعد بعضٍ إلى أن طهرنا الأرض عن خبثهم وفسادهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: حكاياتٍ وقصصًا يُسمر بهم، ويَعتبر المعتبرون عما جرى عليهم، ويقولون في حقهم بعدما سمعوا قصصهم معتبرين: ﴿فَبُعْدًا﴾ أي: طردًا وحرمانًا ومقتًا وخذلانًا ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:44] بتوحيد الله ولا يصدقون رسله، وجميعَ ما جاءوا به من عنده سبحانه من المعتقدات المتعلقة بالنشأتين.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ

﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 45 – 51].

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقراض أولئك الحمقى والهلكى ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ ليكون رداءًا له وظهيرًا مؤيدَين ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ومتانة صنعنا وحكمتنا؛ لتكون معجزةً خارقةً للعادة، صادرةً عنه، ملزمةً لمن يقابله ﴿وَ﴾ مع ذلك قويناهما بورود ﴿سُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [المؤمنون:45] أي: برهانٍ عقليٍ وحجةٍ واضحةٍ ساطعةٍ قاطعةٍ.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أشراف قومه، فبلّغا الموحى به إليهم، وأظهروا الدعوة عندهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبوله عنادًا وعتوًا ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:46] متجبرين متكبرين.

وترقى أمر فرعون في الاستكبار إلى أن ادعى الربوبية والألوهية لنفسه ﴿فَقَالُوا﴾ بعدما سمعوا منهما ما سمعوا من الإيمان بالله، والدعوة إلى توحيده، والإتيان بالأعمال الصالحة، والامتثال بالأوامر والاجتناب عن النواهي المنزلة في التوراة متشاورين بينهم مستبعدين عن أمرهما منهمكين معهما مستهزئين: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ﴾ ونقبل منهما قولهما مع أنهما ﴿مِثْلِنَا﴾ في البشرية، ولا مزيةَ لهما علينا بالمال والكمال ﴿وَ﴾ لا بالنسب؛ إذ ﴿قَوْمُهُمَا﴾ الذين انتشأ منهم ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون:47] إلى الآن ونحن أربابهم مسلطون عليهم، فكيف نؤمن ونقاد لهما بلا شرفهما حسبًا ونسبًا؟!.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أشدّ تكذيب وأنكروا عليهما، ونسبوا ما أتيا من الحجج والمعجزات إلى السحر والشعبذة، وظهروا عليهما ونسبوا ما أتيا من الحجج والمعجزات إلى السحر والشعبذة، وظهروا عليهما بأشد العداوة والخصومات ﴿فَكَانُوا﴾ بالآخرة بواسطة إنكارهم وتكذيبهم ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون:48] المستأصَلين بالإغراق في بحرِ قلزم أو النيل.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ من كمال جودنا ولطفنا معه ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: التوارة الجامعَ لإصلاح الظاهر والباطن ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: قوم موسى ﴿يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون:49] به إلى مقر التوحيد.

﴿وَ﴾ بعد انقضاء زمن موسى وانقراض أعدائه ﴿جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى صلوات الرحمن عليه ﴿وَأُمَّهُ﴾ - رضي الله عنها - أي: كل واحدٍ منهما ﴿آيَةً﴾ دالةً على كمال قدرتنا وبدائع حكمتنا وغرائب صنعنا وقدرتنا، جعلنا لعيسى من الخوارق والمعجزات ما لا يخفى، ولمريم أيضًا من الكرامات والإرهاصات الخارقة للعادة منها: الحمل بلا مسيس زوج، وسقوطُ الثمرة من النخلة اليابسة لأجلها في محل الشتاء، وحضورُ أنواع الأطعمة والفواكه عندها حالَ كونها في المحراب والأبواب مغلقة عليه مع أنها ما تشبَّه بأطعمة الدنيا وفواكهها، وغيرُ ذلك من الإرهاصات الغريبة.

﴿وَ﴾ بعدما أخرجهما الجاهلون عن منزلهما ﴿آوَيْنَاهُمَا﴾ أي: أرجعناهما ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:50] أي: إلى مكانٍ مرتفعٍ من الأرض، كثيرِ المأكل والمشارب يتنعم ويترفه ساكنوها فيها بلا ترددٍ واضطرابٍ في أمر المعاش، قيل: هي بيت المقدس أو دمشق.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لقاطبة رسله وأنبيائه أصالةً، ولأممهم تبعًا مناديًا لهم إسقاطًا منهم الرهبانية والزهدَ المفرط المؤديَ إلى تخريب الجسد وضعفِ القوى المدركة والمحركة عن مقتضاها، وكذا جميع الآلات والجوارح المعمولة بها: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ يعني: نادى سبحانه كل واحد منهم في زمانه ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي أنتجنا لكم مقدارَ ما يسدُّ جوعتكم، ويعتدلُ به مزاجكم، وأطيبُ مطاعمكم كسبُ أيديكم ﴿وَ﴾ بعدما اعتدل مزاجكم وقويَ قواكم ﴿اعْمَلُوا﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مقربًا لكم إلينا، مصلحًا لما في نفوسكم من مفاسد الأهوية الفاسدة وتسويلات الشياطين ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على وجه الإخلاص ﴿عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:51] أجازيكم عليه، سواءً تزهدون وتترهبون أو لا.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون: 52 – 63].

﴿وَ﴾ إذا علمتم أن مناط أمركم في عملكم المقرِبة إلى ربكم على وجه الإخلاص والخضوع، فعليكم بأجمعكم أن تداوموا وتلازموا عليها ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الطريقة المعهودة المذكورة لكم من ربكم ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: قدوتكم وقبلتكم، موصلةً إلى توحيد ربكم لذلك صارت ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا تعددَ فيها ولا اختلافَ أصلاً، وإن كانت جهاتها مختلفةً متعددةً بحسب اختلاف الشرائع والأديان على مقتضى الأعصار والأزمان ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر، الذي لا أكون عرضةً للتعدد والكثرة أصلاً ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:52] عن أخذي وبطشي ومقتضيات جلالي وقهري؛ إذ لا ملجأ لكم غيري.

ومع ذلك ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: دينهم الواحد وملتهم الواحدة ﴿زُبُرًا﴾ قِطعًا مختلفةً وأحزابًا متفاوتةً ومِللاً متخالفةً، يدعي كل منهم حقية دينه وملته، فصار ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين والملة ﴿فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:53][1]. مسرورون معجَبون.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ بعدما تحزبوا وانحرفوا عن التوحيد وانصرفوا عن جادته، واتركهم على حالهم يعمهون ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: جهلهم وغوايتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 54] أي: حين انكشاف الغطاء عن بصائرهم والعماءِ عن أبصارهم فعاينوا العذاب، ولم يمكنهم ردّه والنجاة منه فيهلكوا صاغرين.

﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ ويعتقدون أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ ونعطيهم إمدادًا لهم وإعانةً عليهم ﴿مِن مَّالٍ﴾ ملهٍ لنفوسهم ومشغلٍ

---

(1) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

لقلوبهم ﴿وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون:55] يستعبدون نفوسهم ويسترقون أعناقهم.

﴿نُسَارِعُ﴾ ونبادرُ ﴿لَهُمْ فِي﴾ نيل ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ تفضلاً منا إياهم؛ لذلك يباهون ويفتخرون بها، ويتفوقون على من دونهم لأجلهما ﴿بَل﴾ هو استدراجُ منا إياهم، وإمهالُ لهم كي يحصّلوا أسباب أشد العذاب وأسوأ العقوبات، ويستحقوا بواسطتها أسفل دركات النيرّان ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:56] الاستدراج من الكرامة، فحملوا عليها وبأهوائها، فسيعلمون مصيرهم ومنقلبهم إلى أين.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:57] خائفون حذرون متحرزون.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ النازلةِ على رسله ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:58] يصدقون ويذعنون.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:59] بل يستقلونه بالوجود ولا يثبتون لغيره وجودًا، ولا يسندون الحوادث إلى الأسباب العادية بل يسندون كلها إليه أولاً، وبالذات.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ من الأعمال والصدقات ومطلق الحسنات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ﴾ في حال إتيانها ﴿وَجِلَةٌ﴾ خائفةُ مستوحشةُ بسبب ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:60] بهذه الأعمال والحسنات، هل يقبل منهم أو يرد عليهم، وهم دائمًا بين الخوف والرجاء خائفون عن قهره، راجون من لطفه.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المحسنون الأدب مع الله، المخلصون في أعمالهم ﴿يُسَارِعُونَ﴾ أي: يرغبون ويبادرون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وأنواع الطاعات والعبادات والحسنات، راجين أنواع الكرامات والمثوبات من الله ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للحسنات وأنواع الخيرات والمبرّات دائمًا ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:61] سارعون ساعون مبادرون.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون بأنواع التكاليف المصفية لظواهركم وبواطنكم ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ ولا نحمّل ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: مقدار وسعِها وطاقتِها على ما هو مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وكيف نكلفهم بما لا طاقة لهم ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ جامعٌ لجميع أحوال ما حدث وكان، ويحدث ويكون، وهو لوحُ قضائنا وحضرةُ علمنا مع أنه ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ السويّ الثابت المطابق للواقع بلا إفراط وتفريط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

[المؤمنون:62] بزيادة العذاب ونقصان الثواب، بل كل منهم مجزيٌ بمقتضى ما ثبت فيه.

والكفار من غاية انهماكهم في الغفلة والضلال ينكرون لكتابنا الجامع لجميع الكوائن والفواسد الناطق بالحق المطابق للواقع ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ التي جبلت وعاءً للإيمان والتصديق ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: غطاءٍ وغشاوةٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الطريق الذي يترتب عليه الفلاح والفوز بالنجاح، وهو طريق التوحيد والتصديق ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ طالحةٌ على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الأمر الذي تعبدنا بها عبادنا على ألسنة رسلنا ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون:63] وإليها متوجهون دائمًا، وعن طريق الحق وسبيل التوحيد ناكبون منصرفون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: 64 – 71].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ ومتنعميهم ﴿بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: 64] أي: يستغيثون ويستعينون؛ يعني: هم في الراحة والرضا عنا غافلون، وإذا أخذناهم بالبلاء والعناء، فأجاءوا إلى الاستغاثة والاستعانة منا، منصرفين إلينا، متضرعين نحونا.

لذلك يقال لهم طردًا وردًا: ﴿لَا تَجْأَرُوا﴾ أيها المسرفون ولا تستنصروا ﴿الْيَوْمَ﴾ منا حين نزول ﴿إِنَّكُم﴾ العذاب بسبب غفلتكم عنا، وإنكاركم علينا في يوم الراحة والرخاء ﴿مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون:65] أصلاً، فاليوم لا ينفعكم دعاؤكم.

وكيف تستنصرون عني أمَا تستحيون مني؛ إذ ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي﴾ الدالةُ على عظمة ذاتي وعلوّ شأني وشدةِ سلطنتي وسطوتي ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تلينًا لقلوبكم وإصلاحًا لعيوبكم ﴿فَكُنتُمْ﴾ من شدة عتوكم واستكباركم ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون:66] وترجعون رجوع القهقرى، منصرفين عن سماعها.

حال كونكم ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالكتاب والآيات المندرجة فيه إلى حيث لا تذكرونه ﴿سَامِرًا﴾ أيضًا؛ أي: حاكيًا به في الليل على ما هو عادتكم وسنَّتكم المستمرة بينكم؛ إذ كنتم تسمرون حول البيت في خلال الليل، سيما بالأحاديث الحديثة الجديدة بل ﴿تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:67] وتتركون السمرَ به مطلقًا، حتى لا تسمعوا ذكر الآيات والكتاب أصلاً، فكيف ما فيه من الأوامر والنواهي.

ومع استكباركم واستهزائكم بنا وبآياتنا وبرسلنا على أبلغ الوجوه وأشدها، تستنصرون منا وتستغيثون إلينا! ﴿أَ﴾ ينكر المشركون القرآن، ويستكبرون به عنادًا ومكابرة ﴿فَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ ولم يتأملوا حق التأمل ﴿الْقَوْلَ﴾ أي: المقولَ والمسموعَ؛ ليظهر لهم إعجازه، ويتضح عندهم فصاحته وبلاغته الخارجة عن طور العقل وطوق البشر كي لا يبادروا إلى إنكاره وتكذيبه، بل يصدقوه ويؤمنوا له وبمن جاء به.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بل يعلمون لو تأملوا أنه جاءهم من الله كتابٌ يخلصهم من العذاب الأخروي لو امتثلوا بما فيه مع أنه ﴿مَا لَمْ يَأْتِ﴾ أي: كتابهم هذا شيءٌ لم يأت مثله ﴿آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:68] حتى يتأملوا فيه، ويؤمنوا له فيخلصوا من العذاب، فهؤلاء الحمقى الهلكى، المنهمكون في الغيِّ والضلال، يفوِّتون على أنفسهم الإيمان به والهداية بامتثال ما فيه، حتى يستحقوا الخلاص والنجاة.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي: بل لم يعرفوا من شدة شكيمتهم وبغضهم علوَّ شأن رسولهم، وسموَّ برهانه، وكمالَ عقله ورشده، واعتدال أخلاقه وأطواره، وإيفاءَه العهود والأمانات ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:69] للجهل والعناد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ وينسبون ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ اختلالٌ وخبطٌ، ومن اختلاله وخبطه ظهر منه أمثال هذه البدائع التي استحدثها من تخيلاته ﴿بَلْ جَاءَهُم﴾ رسولهم بجميع ما جاءهم ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدقِ المطابقِ للوحي الإلهي ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون:70] وكونُهم على الباطل مائلون، وإلى مشتهيات نفوسهم آيلون.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ والوحي ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلةَ وآراءَهم الفاسدةَ ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ من ذوي الشعور والإدراك، المتوجهين نحو الحق طوعًا؛ من شؤم أعمالهم وسوء أفعالهم وقبح أخلاقهم وأطوارهم، لذلك ما آتيناهم وأوحيناه على رسولهم ما هو مشتهى نفوسهم ومقتضى أهوائهم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ وتذكيرهم، يذكرُ ما هو الأصلح بحالهم والأليق بشأنهم من الأوامر والنواهي، والوعد

والوعيد، والإنذار والتبشير، والعبر والأمثال، والقصص والآثار ﴿فَهُمْ﴾ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ المصلح لحالهم، المنجي لنفوسهم من الوبال والنكال ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:71] منصرفون عنه عتوًا واستكبارًا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74) ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ
وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا
اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ
(77) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (80)﴾ [المؤمنون: 72 – 80].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ أي: أيظنون ويعتقدون أنك يا أكمل الرسل تطلب لأداء الرسالة وتبليغها عليهم ﴿خَرْجًا﴾ جُعلاً وإجراءً لذلك انصرفوا عنك وعن دينك وكتابك؟! ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ الذي ربَّاك بأنواع النعم الصوري والمعنوي، وأجره لك بأعظم المثوبات وأعلى الدرجات ﴿خَيْرٌ﴾ لك من جُعْلهم ﴿وَ﴾ إن نسبوك إلى الفقر والفاقة قل ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون:72] لو فُرِض رازق سواه، مع أنه لا رازقَ إلا هو.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم منحرفون في أنفسهم عن جادة التوحيد؛ بحيث لا يفيدهم هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّكَ﴾ بوحي الله إياك ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ وتهديهم.

﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:73] سويّ لا عوجَ له أصلاً، وهو طريق التوحيد الذاتي.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ التي فيها انتقاد الأعمال والأحوال والعرض على ذي العظمة والجلال ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾ الذي هو سبب اعتدالهم وإخلاصهم فيها ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون:74] عادلون مائلون، لذلك لم يقبلوا منك ما جئتَ به من عند ربك؛ إذ خوف الآخرة من أقوى قوائم الإيمان.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ على مقتضى سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَكَشَفْنَا﴾ وأنزلنا ﴿مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ مفرطٍ مزعج مثل القحط والوباء والزلزلة والعناد، وغير ذلك من الشدائد العاجلة ﴿لَّلَجُّوا﴾ وأصروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ التي هم عليها من الكفر ولا شرك والعداوة مع أهل الإيمان ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون:75] يترددون ولا يتركون.

﴿وَ﴾ كيف لا يعمهون وقد جربناهم مرارًا، فإنا ﴿لَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾[1] أي: الجدب والقحط أو بالقتل يوم بدر ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما تذللوا وتواضعوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ من كمال عتوهم وعنادهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:76][2] إليه استكبارًا بل هم على إصرارهم دائمًا كلما أخذناهم وكشفنا عنهم، أصروا وازدادوا على استكبارهم وإصرارهم، ولم يرجعوا إلينا مخلصين.

---

(1) قوله تعالى: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم) الآية: روى الواحدي عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ننشدك الله والرحم لقد أكلنا العلهز، يعني الوبر بالدم، فأنزل الله تعالى: - ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون - قال ابن عباس: لما أتى ثامة بن أثال الحنفي إلى رسول الله ﷺ فأسلم وهو أسير فخلى سبيله، فلحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من يمامة وأخذ الله تعالى قريشا بسني الجدب حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أنشدكم الله والرحم إنك تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، قال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع، فأنزل الله تعالى هذه الآية. «أسباب النزول» (1/ 210،209).

(2) أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد. وافهم أن الله سبحانه وقع المريدين في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاذوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله. قال سهل: ما أخلصوا لربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية. [العرائس].

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ من البلاء والعناء ﴿ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو القحط المفرط؛ إذ هو من أصعب العقوبات وأسوئها ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون:77] متحسرون آيسون من كل خير، ومع ذلك لم يتوجهوا إلينا ولم يتضرعوا.

﴿وَ﴾ كيف لا تتوجهون ولا تتضرعون أيها الحمقى الهالكون في تيه العتو والفساد مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ وأظهر ﴿لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ من المشاعر التي تتحفظون بها نفوسكم عن الأعادي الخارجة عنكم ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: القلوب التي تحفظون بها صدروكم وسرائركم من الأعداء الداخلة من التخيلات الباطلة والتوهمات الزائفة والزائلة المزخرفة المموهة من الرياء والرعونات وأنواع التلبيسات والتدليسات مع أنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:78] أي: ما تشكرون لهذه النعم الجليلة إلا قليلاً منكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تشكرون نعمه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: أوجدكم وأظهركم من كتم العدم في النشأة الأولى، وبث نسلكم ونسبكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ترفهون فيها وتتنعمون. ورزقكم فيها من أنواع الطيبات ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا وجود للغير ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:79] وترجعون رجوع الأمواج إلى البحر.

﴿وَ﴾ كيف لا تحشرون إليه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ ويظهر أشباحكم من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته وبسطها على مرايا انعدام الإعدام ﴿وَيُمِيتُ﴾ بانقهارها وقبض الأظلال عنها ﴿وَ﴾ من جملة قبضه وبسطه: إن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وبمقتضى مشيئته وإرادته ﴿اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ طولاً وقصرًا، ضوءًا وظلمةً ﴿أَفَلَا﴾ تتفكرون وتتأملون أيها المجبولون على التفكر والتدبر حتى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:80] وتدركون كيفية ظهور الحق وإظهاره مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ

أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن
يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ
وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا
ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: 91 – 108].

وهؤلاء الضالون المضالون لا يتفكرون، ولا يعقلون مع وضوح الدلائل والشواهد ﴿بَلْ قَالُوا﴾ من الهذيانات الباطلة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون:81] من آبائهم وأسلافهم تقليدًا لهم؛ حيث ﴿قَالُوا﴾ مستنكرين مستبعدين على مواعيد الحق في النشأة الأخرى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ وانقرضنا عن الدنيا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بالية ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:82] مخرَجون من القبور أحياءً مثل ما كنا عليه قبل موتنا؟!.

كلا وحاشا لا حياة إلا هذه الحياة التي كنا عليها في دار الدنيا، مع أنا ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ﴾ على لسان من جاءنا بادعاء الرسالة والنبوة ﴿وَ﴾ قد وعد أيضًا ﴿آبَاؤُنَا هَذَا﴾ الموعود المخصوص على لسان من جاء بهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ وهلم جرًا، مع أنا ولا هم لم نرَ من علامات صدقها وأمارات وقوعها شيئًا أصلاً.

وبالجملة ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الوعد الموعود والقول المعهود، وهو أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:7] ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:83] أي: أباطيلهم وأكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم وكتبهم على وجه السمرة والمخادعة لضعفاء الأنام.

وبعدما بالغوا في الإنكار على البعث والإعادة، وعدم قدرتنا عليها مع أنا قادرون على الإبداء والإنشاء لا عن شيء ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا عليهم وتبكيتًا:

﴿لِمَنِ الأَرْضُ﴾ المفروشة تحتكم ﴿وَمَن فِيهَا﴾ من أنواع النباتات والحيوانات والمعادن، ومَن المظهرُ لها من كتم العدم، ومَن المزينُ المنبثُ عليها من الأجناس المختلفة. أخبرونا موجدها ومخترعها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:84] أي: من ذوي الشعور والإدراك.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب ألبتة: ﴿لِلَّهِ﴾ إذ لا يمكنهم الإنكار بالصريح المحقق المثبت ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما اعترفوا بأن الأرض، ومن عليها لله سبحانه موبخًا عليهم ومقرعًا: ﴿أَ﴾ تنكرون أيها الجاهلون قدرة الله على إعادة المعدوم وحشر الأجساد ﴿فَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:85] وتستحضرون قدرة الحق على إبداء هذه البدائع والعجائب المستحدثة على الأرض بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، ومع ذلك تنكرون، ومن إعادة مَن عليها، سيما بعد سبق مادتها، مع أن هذا أهون من ذاك.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا إلزامًا وتبكيتًا: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ الشداد المطبقات المزيَّنات بالكواكب ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:86] المحيط بالكل المسيِّر لها على وجه السرعة التامة والحركة الشديدة بلا تخللِ سكونٍ أصلاً.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ إذ لا يسع لهم الخروج عن مقتضى صريح العقل ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:87] وتحذرون عن قهر الله وغضبه، تنكرون له أهون مقدوراته ومراداته، مع أنكم اعترفتم بأشدها وأصعبها!.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تأكدا إلزامهم وإفحامهم كلامًا جليًا شاملاً لجميع مقدورات الله ومراداته: ﴿مَنْ بِيَدِهِ﴾ وقبضةِ قدرته وحوله وقوته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وملكُه يتصرف فيه حسب إرادته واختياره على سبيل الاستقلال ﴿وَ﴾ من ﴿هُوَ يُجِيرُ﴾ يغيث ويعين الملهوفَ المضطرَ إذا دعاه ﴿وَلاَ يُجَارُ﴾ ويُنصر ﴿عَلَيْهِ﴾ لأنه سبحانه يعلو ولا يُعلى عليه، أخبروني ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:88] أي: من ذوي الخبرة والشعور.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أيضًا بلا ترددٍ: ﴿لِلَّهِ﴾ اختصاصًا وملكًا، تصرفًا استقلالاً، اختيارًا وإرادةً ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما أثبتوا له الغالبية، والقدرة التامة الكاملة، والفاعلية المطلقة بالإرادة والاختيار للفاعل المختار اختصاصًا واستقلالاً: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: 89] أي: من أين تُخدعون وتُلبسون للخروج عن مقتضى العقل والرشد في المقدور المخصوص والمراد المنظم المعين حتى تنكروا له، ولم تقلبوا وقوعه مع ورود الآيات

والدلائل القاطعة على وقوعه.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم﴾ أي: كل ما آتيناهم من التوحيد، ولوازمه من الإيمان بالغيب، وجميع المأمورات والمنهيات الصادرة منا في كتبنا النازلة على رسلنا، وما ألهمنا وأوحينا إلى رسلنا إلا موافقًا كتابنا وحضرة علمنا ولوح قضائنا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المصدِّق المطابق للواقع بلا توهم الباطل في شيء منها ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: 90] في نسبة الكذب إليها وإليهم ألا لعنة الله على الكاذبين.

ومن جملة ما تنسبون إلى الله سبحانه افتراءً ومراءً: إثبات الولد له سبحانه مع أنه ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الذي شأنه ووصفُه أنه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4] ﴿مِن وَلَدٍ﴾ إذ هو من خواص الأجسام ولوازم الإمكان، وهو سبحانه منزهٌ عنهما.

﴿وَ﴾ من جملة أكاذيبهم الباطلة أيضًا: إثبات الشريك له سبحانه مع أنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحَّ وجاز أن يكون ﴿مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ شريكًا له يُعبد بالحق مثله، ويستحق بالعبادة استحقاقًا ذاتيًا ووضعيًا كما هو شأنه سبحانه ﴿إِذًا﴾ أي: حين كان الإله الواجب الوجود المستحق للعبادة متعددًا كما زعم أولئك المبطلون ﴿لَّذَهَبَ﴾ وتميز ﴿كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أوجد وأظهر، فيكون مُلْك كلٍ منهما ممتازًا عن الآخر، وإذا كان الإله متعددًا أو المملكة ممتازةُ، لأمكن التغالب والتحارب ألبتة ﴿وَلَعَلَا﴾ أي: غلب وارتفع ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هم بالقدرة والاستيلاء، فاختل النظام المشاهد المحسوس، ولم يبقَ له انتظامُ وقيامُ ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ وتعالى ذاته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:91] به أولئك الجاهلون الغافلون عن علوِّ شأنه من إثبات الولد له والشريك مع تعاليه، وتنزهه في ذاته عنهما وعن أمثالهما.

وكيف يكون له ولد ومعه شريك، وهو بذاته ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يعزب عن حيطة علمه شيء ﴿فَتَعَالَى﴾ سبحانه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:92] أولئك المعاندون من أن يكون له ولدٌ يشبهه أو شريكٌ يماثله، ويشترك معه في أخص أوصافه التي هي وجوب الوجود والعلم بالغيب والشهادة حضورًا.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل مستعيذًا بالله من شر ما سيلحق لأولئك المعاندين المبطلين: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بمزيد اللطف والإحسان ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي: أن تحققَ وتقررَ عنك يا مولاي إراءتك إياي ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:93] أولئك المسرفون

المشركون من أشد العذاب والنكال في العاجل والآجل؛ ليكون بسبب عبرتي وتذكيري من أحوالهم.

﴿رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:94] مقارنًا لهم معدودًا من عدادهم ملحقًا بي ما سيلحقهم من أنواع العذاب الصوري والمعنوي، الدنيوي والأخروي.

﴿وَ﴾ قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:95] يعني: إنا قادرون على أن نريك العذاب الموعود إياهم في هذه النشأة، لكنا نؤخرهم ونمهلهم رجاء أن يؤمن بعضهم، أو يحصل منهم المؤمنون من نسلهم وذرياتهم.

وإذا كنا نمهلهم ونؤخر عذابهم لحكم ومصالحَ ﴿ادْفَعْ﴾ أنت أيضًا يا أكمل الرسل ﴿بِالَّتِي﴾ أي: بالدلائل والشواهد التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ من المقاتلة والمشاجرة ﴿السَّيِّئَةَ﴾ التي هي ما هم عليها من الكفر والشرك، لعل دلائلك تلين قلوبهم وتصفيهم من المكابرة والعناد معك؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:96] أي: يصفونك به، وينسبون إليك مما لا يليق بجنابك، وثق بنا وتوكل في جميع حالاتك علينا، واتخذنا وكيلاً، وفوِّض أمر انتقامهم إلينا، فإنا نكفي عنك مؤنة شرورهم.

﴿وَقُل رَّبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون:97] ووساوسه وأنواع تسويلاته وتلبيساته ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿أَعُوذُ﴾ والوذ ﴿بِكَ﴾ يا ﴿رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:98] عند توجهي نحوك، وتحنني إليك ومناجاتي معك، سيما في خلال صلاتي وعند تلاوتي وعرض حاجاتي.

والكافرون من غاية انهماكهم في الغفلة، مصرون على ما هم عليه من الشرك والكفر ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وعاين من أمارات النشأة الأخرى، تنبه حينئذٍ بقبح صنائعه التي أتى بها في النشأة الأولى ﴿قَالَ﴾ حينئذٍ متضرعًا إلى الله نادمًا متمنيًا متحسرًا: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:99] بفضلك وجودك إلى النشأة الأولى.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ﴾ بعد رجوعي عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مصلحًا ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وأفسدتُ من أمور الإيمان والإطاعة والانقياد ﴿كَلاَّ﴾ ردعٌ له عن هذا السؤال والدعاء، ومنعٌ له عن إنجاح سؤله ﴿إِنَّهَا﴾ أي: طلب المراجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ من غاية الحسرة والندامة على مافات عنه في الابتلاء ﴿وَ﴾ كيف يرجع إليها؛ إذ ﴿مِن وَرَائِهِم﴾ أي:

أمامهم وقدامهم ﴿بَرْزَخٌ﴾ أي: حجابٌ مانعٌ يمنعهم عن الرجوع ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:100] يعني: لا يمكنهم الرجوع إلى دار الدنيا والحياة فيها إلا الحياة في يوم البعث والجزاء.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لحشر الأموات ونشرها من قبورهم، فيخرجون منها حيارى سكارى تائهين هائمين ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ بل يفرُّ كل امرئٍ من أخيه وصاحبته وبنيه؛ إذ لكلٍ منهم شأن يغنيه ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:101] أي: لا يسأل بعضُهم أحوالَ بعضٍ، بل كل نفسٍ منهم رهينةٌ ما كسبت بلا التفاتٍ منه إلى غيره.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ورُجّحت خيراته على شروره ومعاصيه ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:102] الفائزون المقصورون على الفوز والفلاح ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ورجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ خسرانًا مبينًا إلى حيث هم؛ لانهماكهم في الشرور والسيئات ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:103] مخلدون دائمون لا نجاة لهم منها أصلاً من شدة اشتعال النار وتلهبها.

﴿تَلْفَحُ﴾ وتحرق ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:104] عابسون حيث تقلص شفاههم عن أسنانهم؛ بحيث تصل شفتهم العليا إلى وسط رأسهم والسفلى إلى سرتهم.

ومتى تضرعوا وتفزعوا، وبثُّوا الشكوى إلى الله قيل لهم من قِبل الحق: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ الدالةُ على عظمة ذاتي، وكمال قدرتي على الإنعام والانتقام ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ حين ابتليناكم في النشأة الأولى ﴿فَكُنتُم﴾ من غاية غفلتكم وضلالكم ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون:105] وتنكرون عنادًا واستكبارًا، فالآن لحقكم وعرض عليكم ما أنكرتم له وأعرضتم عنه.

وبعدما سمعوا من التوبيخ والتقريع ما سمعوا، ﴿قَالُوا﴾ متضرعين معترفين بما صدر عنهم من البغي والعناد: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على فطرة السعادة والهداية ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ واستولت أمّارتنا، وصالت علينا أمانينا وأهويتنا ﴿وَكُنَّا﴾ بمتابعة تلك البغاة الغواة الضُّلاَّل ﴿قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:106] منحرفين عن طريق الحق،

ناكبين عن صراطٍ مستقيم.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ بعدما خرجنا منها إلى ما كنا عليه قبلُ من الغفلة والغرور ﴿فَإِنَّا﴾ حينئذٍ ﴿ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:107] لأنفسنا بالعرض على أنواع العذاب وأشد النكال.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابهم زجرًا وتبكيتًا: ﴿اخْسَئُوا﴾ واسكتوا ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار مهانين صاغرين ﴿وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:108] معي، ولا تناجوا إليّ لدفع عذابكم وتخفيفه وإخراجكم من النار؛ إذ أنتم فيها خالدون.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 109 – 118].

أما تستحيون أيها المسرفون تذكروا ما أنتم عليه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن شأنكم وأمركم في دنياكم ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ متضرعين متحننين نحونا راجين العفو والرحمة منا بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ كما ربيتنا بأنواع الكرم ﴿آمَنَّا﴾ وصدقناك بالربوبية والألوهية ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا واستر لنا عيوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ تفضلاً علينا وامتنانًا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:109] إذ رحمتك بنا لا تُعَلَّل بغرضٍ منك وعوضٍ منا.

ومتى سمعتم مناجاتهم هذه، ودعاءهم هذا ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا﴾ وصرتم مستهزئين بأقوالهم وأعمالهم، متمادين في الهزء والسخرية، متوغلين في الغفلة والغرور ﴿حَتَّى أَنسَوْكُمْ﴾ جهلكم وغفلتكم ﴿ذِكْرِي﴾ والتوجه نحوي، والرجوع إليّ بل صرتم غافلين ذاهلين، محرومين عن كمال الإنسان، منحطين عن رتبة الخلافة،

مستحقين لأنواع السخرية والضحكة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:110] مع أنهم ساعون نحونا، سالكون في طريق توحيدنا، طالبون الوصول إلى ما هم جبلوا لأجله.

لذلك ﴿إِنِّي﴾ من كمال لطفي وإشفاقي معهم ﴿جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ أحسن الجزاء ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم أيها الجاهلون في النشأة الأولى، وهم بسبب صبرهم وتمكنهم على أذاكم في دنياكم حفظًا لدينهم وإيمانهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ القوم ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:111] المقصورون على الفوز والفلاح إلى ما هو النجاة والنجاح، بـ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38].

وبعدما صاروا مخلَّدين مؤبَّدين في النار، صاغرين مهانين فيها ﴿قَالَ﴾ قائلُ من قِبَل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع إظهارًا لقبح استبدالهم، واختيارهم الأدنىء بدل الأعلى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أيها الضالون المسرفون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي كنتم تستكبرون عليها خيلاءَ مغرورين ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:112] أي: كم مدةً وسنةً استقررتم عليها متفوهين؟!.

﴿قَالُوا﴾ مستقصرين مستحقرين: ﴿لَبِثْنَا﴾ عليها ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: بل بعض يوم بالنسبة إلى هذه الأيام الطوال التي كنا فيها مذنبين، بل نسينا نحن مدة ما كنا عليها لغاية قصرها ولا نقدر عليها ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون:113] المعاصرين بنا من أهل القبول والسرور، والموكَّلين علينا من الملائكة، المستحضرين لأعمارنا وأعمالنا وجميع ما كنا عليها من الأحوال.

﴿قَالَ﴾ القائل المذكور في جوابهم تصديقًا لهم في مقالهم واستقلالهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم فيها ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ قصيرًا في غاية القلة والقصر ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المسرفون ﴿كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:114] في أنفسكم طول مدة العذاب وعدم تناهيها، لما اخترتم لأنفسكم ما يستجلب عليكم العذاب ويوقعكم فيه، ومع جهلكم هذا لم تقبلوه من الأنبياء العارفين الهادين أيضًا، بل أنكرتم عليهم واستهزأتم مستكبرين مستنكرين.

﴿أَ﴾ تزعمون أيها الجاهلون المعاندون أن أفعالنا خاليةُ عن الحكمة والمصلحة ومقدوراتنا صدرتْ عنا حشوًا بلا طائلٍ ﴿فَحَسِبْتُمْ﴾ وظننتم بل جزمتم وأيقنتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم ﴿عَبَثًا﴾ أي: عابثين ساعين فيها بلا طائلٍ مرتكبين

لها بلا حِكَمٍ ومصالحَ ﴿وَ﴾ أيضًا ظننتم أيها الغافلون الجاهلون ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115] للجزاء وتنقيد الأعمال وعرض الأحوال.

وكيف لا تُرجعون إلى ربكم أيها المجرمون، وكيف عن أعمالكم لا تُسألون أيها المسرفون ولا تحاسبون؟! ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ المحيط للكل حضورًا وشهودًا أن يتصف ذاته بالغفلة والذهول، وأوصافه بعدم الحيطة والشمول، وأفعاله بالعبث والفضول؛ إذ هو ﴿الْمَلِكُ﴾ المستحضِر لجميع مماليكه، لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وكيف يعزب ويغيب عنه شيء من الأشياء؛ إذ هو ﴿الْحَقُّ﴾[1] الثابت المحقق والقيوم المطلق المثبت، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وهو في شأنٍ لا يعرضه شأن، ولا يعتريه زمانٌ ومكانٌ بل الشئون كلها مندرجةٌ في علوّ شأنه؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لأنه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:116] المحيط لذرائر الكائنات، وهو الوجود العيني الظلي الكامن الفائض من حضرة القدوس على هياكل العكوس.

﴿وَ﴾ بعدما تحقق أن الكل في حيطة أوصافه وأسمائه، ومن أظلاله، وتحت لوائه ﴿مَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾ المحيط للكل ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ من الأظلال المحاطة والعكوس الساقطة مع أنه ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ يثبت به وجود إله آخر سواه، بعدما شمل سواه سبحانه الكل وأحاط ﴿بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ أي: حساب المدعي، وجزاء ما ادعى من الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يجازيه على مقتضى علمه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: إن الشأن والأمر عنده سبحانه إنه ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز ﴿الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:117] بكفرهم وشركهم إلى ما هو موجبٌ للفلاح والنجاح.

﴿وَ﴾ بعدما أثبت سبحانه الفلاحَ للمؤمنين الموحِّدين في أول السورة، ونفاه عن الكافرين المشركين في آخرها ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل تعليمًا لكل من يقتدي بك ويقتفي أثرك، وتنبيهًا عليهم وتذكيرًا لهم: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك

---

(1) قال روزبهان: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة. وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه. قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا. وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز أزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

﴿اغْفِرْ﴾ واستر أنانيتي عن عين بصيرتي ﴿وَارْحَمْ﴾ عليّ بنفي هويتي وإفنائها في هويتك ﴿وَأَنْتَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:118] الذين هم أيضًا من متقضيات أوصافك وعكوس أسمائك، والكل بك منك، ولا راحم سواك، ولا مربي غيرك.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي، المتحقق بمقام العبودية أن تلازم على هذه الكلمة التي أسمعَك الحق على لسان نبيك وتداومَ عليها، سيما في خلواتك وأعقاب صلواتك، عازمًا عليها، سامعًا لها سمعَ قبولٍ ورضا، حتى يترسخ في قلبك، وتتمرن فيه إلى حيث نطقت حالك بها بلا ترجمان من لسانك.

ومتى تحققتَ وتمكنتَ في هذه المرتبة أتممت مرتبة العبودية، فلك بعدما كملت عبوديتك الترقي منها بتوفيق الله، وجذبٍ من جانبه إلى مرتبة الفناء في الله والبقاء ببقائه.

وذلك لا يتم إلا باضمحلال هويتك، وتلاشي بشريتك وماهيتك إلى حيث سقطت عنك تعيناتك رأسًا، وفنيت تشخصاتك جملةً، وحينئذٍ فزتَ بما فزتَ، ووصلتَ بما وصلتَ، وليس وراء الله مرمى ولا منتهى.

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النور

لا يخفى على من تنور قلبه بنور الكشف والشهود، واكتحلت عينه بمشاهدة آثار الجود على مظاهر الوجود أن انبساطَ نور الحق على ذرائر الأكوان، وفيضان أظلال وجوده على صفائح الأعيان إنما هو لإظهار الكمالات المندرجة في الذات الأحدية، باعتبار الأوصاف والأسماء الذاتية المندمجة فيها، حسب التجليات الحبية والتجددات الشوقية المنبعثة على المحبة الذاتية والموجبة للجلاء والانجلاء، وذلك لا يحصل إلا بالتنزلات إلى الشئون والتطورات المستلزمة للإضافات والكثرات؛ لتعين مراتب المحب والمحبوب والمحبة، والطالب والمطلوب والطلب، والسير والسلوك والصعود، والعروج والوصول والاتصال.

وبعد حصول التنزلات حدثت الإضافات والاختلافات، وتفاوتت الأعمال والأحوال، فظهرت الآراء والمذاهب، فبرزت الأهواء والمشارب، مما اقتضت الحكمة الإلهية وضعَ الحدود والآداب بين المظاهر المختلفة والآراء المتفاوتة؛ ليعتدل أمر الأنام، ولا يختل النظام، واستقامت السبل، وتميزت الطرق، وتفرقت السعادة من الشقاوة والهداية من الضلال.

لذلك أشار سبحانه إلى وضع الحدود أولاً بين الأنام، ومن أهمهما: حفظ التناسل والتناكح من السفاح المفضي إلى سدِّ باب المعرفة التي هي الحكمة والمصلحة من إظهار نوع الإنسان؛ إذ لهذا النوع مرتبة الخلافة والنيابة من الله الرحيم الرحمن.

فالخلطة والشركة في حصول هذا النوع منحلُ بصرافة الوحدة الذاتية؛ إذ لا بدَّ من المناسبة بين المستخلف والمستخلف منه.

فقال سبحانه متيمنًا متبركًا باسمه الجامع لجميع الأسماء والأوصاف: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر نوع الإنسان لخلافته، وأنعم عليهم التخلق بأخلاقه والاتصاف بأوصافه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم حيث أظهرهم بأحسن التقويم وأعدله ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم

بإصلاح مفاسدهم وتحسين مقابحهم؛ لئلا ينحطوا عن رتبة خلافته ونيابته.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [النور: 1 – 5].

هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمةٌ، وسِفرٌ جليلٌ، وآياتٌ كريمةٌ ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ من مقام جودنا، وفضلنا عليك يا أكمل الرسل تأييدًا لنبوتك ورسالتك، وترويجًا لدينك وملكتك ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾[1] أي: أوجبنا الأحكام التي ذُكرتْ فيها، وقدّرنا الحدود المقررةَ في ضمنها، ألزمناها على من تبعك من المؤمنين تهذيبًا لظواهرهم وبواطنهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ﴾ عظام دالة على وحدة ذاتنا، وكمال قدرتنا على الإنعام والانتقام مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:1] وتتعظون، فتتركون ما يوجب مقتكم وهلاككم، وتتوجهون إلى ماجُبلتم لأجله.

ثم أخذ سبحانه بتطهير المؤمنين عن أفحش الفواحش وأقبح الآثام، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾[2] أي: حكمهما وحدهما فيما فرضناها، وتلوناها عليكم أيها

(1) قال الشيخ روزبهان: أنزل الله القرآن من سماء القدم على سيد أهل الكرم، وجعله سرجًا أسرجها من نوار الذات في مشكاة الآيات لألباء الحقيقة، وأدلاء الطريقة لينوروا بأنوارها طرق المعارف، وسبل الكواشف، وأوجب ما فيها من أحكام العبودية على العباد، وأنزل في هذه السورة آيات دالة على أسرار القدوسية، وأنوار السبوحية بينات واضحات لأولي النهي من العارفين، وأهل الفطنة من الموقنين ليتعظ بمواعظها المريدون، ويقتبس أنوارها العارفون، ويدرك حقائقها الموحدون. قال سهل: جمعناها وبيناها حلالها وحرامها. وقال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكان كثيرًا؛ فكيف وقد جمعت من الأحكام والبراهين ما لم يجمعه غيرها؟.

(2) قوله عز وجل: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) الآية.

قال المفسرون: قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال، وبالمدينة نساء بغايا

المؤمنون الجَلد، قدَّم سبحانه الزانية؛ لأن وقوع الزنا في الأغلب من جانبهن، ومن غرض نفوسهن، وزينتهن على الرجال، وإذا سمعتم أيها الحكام الحدودَ والحُكمَ فيهما ﴿فَاجْلِدُوا﴾ بعدما ثبت الزنا بينهما، وهما غير محصنين؛ إذ حكم المحصن مطلقًا بالإجماع رجمُ كل منهما إن كانا محصنين، ورجم أحدهما إن كان الآخر غير محصن.

والمحصن هو: المسلم الحر العاقل البالغ الذي وقع منه الوقاع بنكاحٍ صحيح ﴿كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي: مائة ضربةٍ بسوطٍ مؤلمةٍ مجلدةٍ أشدَّ إيلامٍ بدل ضرباتٍ استلذَّ بها حال الوقاع.

وزاد الإمام الشافعي - رحمه الله - على جلد المائة تغريبَ العام؛ إذ هو أحوطُ وأدخلُ في الانزجار، لقوله ﷺ: «البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائة وَتَغْرِيبُ عَامٍ»[1].

﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم﴾ أيها الحكام وقت إجرائكم الحدودَ والأحكامَ ﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رقةٌ ومرحمةٌ تضيّعون بها حكمة الحد؛ إذ لا رأفةَ ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾ وتنفيذ أحكامه وحدودِه الموضوعة فيه ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الحكام المقيمون للأحكام والحدود ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾

مسافحات يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين، فقالوا: لو أنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن، فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك.

وقال عكرمة: نزلت الآية في نساء بغايا متعالجات بمكة والمدينة وكن كثيرات ومنهن تسع صواحب رايات، لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها: أم مهدون جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وأم غليظ جارية صفوان بن أمية، وحية القبطية جارية العاص بن وائل، ومرية جارية ابن مالك بن عمثلة بن السباق، وجلالة جارية سهيل بن عمرو، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة جارية زمعة بن الاسود، وقرينة جارية هشام بن ربيعة، وفرتنا جارية هلال ابن أنس، وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير، لا يدخل عليهن ولا يأتيهنَّ إلا زان من أهل القبلة أو مشرك من أهل الاوثان، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن، ليتخذوهن مأكلة، فأنزل الله هذه الآية، ونهى المؤمنين عن ذلك وحرمه عليهم، أخبرنا أبو صالح منصور بن عبد الوهاب البزاز قال: أخبرنا أبو عمرو بن حمدان قال: أخبرنا ابن الحسن بن عبد الجبار قال: أخبرنا إبراهيم بن عروة بن معتم، عن أبيه، عن الحضرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمر أن امرأة يقال لها أم مهدون كانت تسافح، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة، وأن رجلا من المسلمين أراد أن يتزوجها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية - الزانية لا ينكحها إلا زان - «أسباب النزول» (1/ 211، 212).

(1) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (222/8).

وبجميع ما جاء به من عنده من الأوامر والنواهي، وجميع الحدود الموضوعة من عنده ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الذي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر، فلكم أن تقيموا حدود الله على الوجه الذي أُمرتم به؛ لئلا تؤاخذوا في يوم الجزاء.

﴿وَ﴾ بعدما قصدتم أيها الحكام إجراء الحد عليهما ﴿لْيَشْهَدْ﴾ أي: ليحضر وليبصر ﴿عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ﴾ أي: جمعٌ كثيرٌ ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2] المعتبرين تفضيحًا لهما، وتشهيرًا لأمرهما؛ لينزجرا مما جرى عليهما مَن في قلبه ميلٌ إلى أمثال ما أَتَيَا به من الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة.

ثم أشار سبحانه إلى قبح مناكحتهما وشناعة ألفتهما، ومواصلتهما على وجه المبالغة في النهي والكراهة، فقال: ﴿الزَّانِي﴾ أي: الذي يرغب، ويميل إلى عورات المسلمين بلا رخصةٍ شرعيةٍ تعديًا عن حدود الله وهتكًا لستره ﴿لَا يَنكِحُ﴾ إن نكح ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ مثله مناسبةً له ومشاكلةً إياه؛ إذ الجنسية علة التضام والألفة ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هي أخسُّ وأخبثُ وأشدُّ قبحًا وشناعةً ﴿وَالزَّانِيَةُ﴾ الراغبة للأجانب، المائلةُ إليهم بلا طريقٍ شرعيٍ ﴿لَا يَنكِحُهَا﴾ أيضًا ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ كذلك لكمال الملائمة والمشابهة ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ هو أخبثُ وأقبحُ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ الفعلُ القبيح، والخصلةُ الذميمةُ الشنيعة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:3] الموقنين المخلصين من أرباب العزائم، ونهيٌ على أهل الرخص منهم نهيًا واصلاً إلى حد النفي والحرمة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالزنا ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر العاقلات البالغات العفائف من المسلمات، سواءً كان الرامي أزواجُهن أو غيرهم، وحكمُ المحصنين أيضًا كذلك، وإنما خصهن بالذكر؛ لكثرة ورود الرمي في حقهن، وكون رميهن سببًا لنزول الآية الكريمة، ﴿ثُمَّ﴾ بعدما رَموا ﴿لَمْ يَأْتُوا﴾ لإثباته ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ذوي عدلٍ وأمانة ومروءةٍ؛ بحيث لم يكونوا متجسسين عن أحوال الزانيين البغيين، ولا مستورين منتظرين لاطلاع ما يأتيان به من الفعلة الشنيعة، بل وقع نظرهم عليهما بغتة فرأوا قبح صنيعهما - العياذ بالله - كالميل في المكحلة.

فإن أتوا بأربعة شهداء على الوجه المذكور فقد أثبتوا الزنا، وإن لم يأتوا ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ أيها الحكام، الراميين القاذفين ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ لا كجلدة الزنا بل أخف منها كما هي أقل عددًا.

﴿وَ﴾ بعدما جلدتم أيها المقيمون لحدود الله ﴿لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ أصلاً في

حالٍ من الأحوال ودعوىً من الدعاوي ﴿أَبَدًا﴾ إلى انقراض حياتهم ﴿وَأُوْلَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:4] الخارجون عن مقتضى العقل والشرعِ، المسقطون للمروءة والعدالة، التاركون طريق الإنصاف والانتصاف، لا تُرجى نجاتهم من عذاب الله أصلاً.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ منهم ورجعوا ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الرمي والافتراءِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا على نفوسهم بالتوبة والندامة عن ظهر القلب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ يعفو عنهم ويستر زلتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:5] يرحمهم، ويقبل توبتهم إن أخلصوا فيها.

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور: 6 – 10].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾[1] بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ حضراءُ عندهم

(1) قوله تعالى: (والذين يرمون أزواجهم) الآية، أخبرنا أبو عثمان سعيد ابن محمد بن المؤذن قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن علي الحيرى قال: أخبرنا الحسن ابن سفيان قال: أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا عباد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت - والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله تعالى - الفاسقون - قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ: ألا تسمعون يا معشر الانصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا: يا رسول الله إنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لاعلم أنها حق وأنها من عند الله ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فو الله إني لا آتى بهم حتى يقضي حاجته، فما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله فقال إني جئت أهلي عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت باذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، فقال سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله ﷺ -

﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: غير أنفسهم ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ صارت وتقاوت ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ في إسقاط حدِّ القذف عنهم منزلةَ أربع شهاداتٍ مؤدياتٍ ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلقات بهذا المدعى، وهي ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزوج المدعي ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:6] في دعوى الزنا بلا افتراءٍ منه ومراءٍ.

﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ أي: بعدما أدى الأربعة أتى بالشهادة الخامسة لها، المؤكدة المقيدة بلعنة الله تغليظًا بأن قال هكذا: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ﴾ أي: طردُه وتبعيدُه عن ساحة عز حضوره وسِعة رحمته ﴿إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور:7] في هذه الدعوى.

وبعد أداء الشهادات الأربع المؤكد بالخامسة، فقد سقط عنه حد القذف، وثبت حد الزنا على المرأة، ووقع التفريق المؤبَّد بينهما بالفسخ أو بالطلاق على اختلاف الرأيين، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي: يُسقط عن المرأة حدَّ الزنا بعد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ

هلال بن أميه ويبطل شهادته في المسلمين، فقال هلال: والله إني لارجو أن يجعل الله لي منها مخرجا، فقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به، فوالله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت - والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم - الآيات كلها، فسرى عن رسول الله ﷺ فقال أبشر يا هلال، فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا، فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من ربي، وذكر باقي الحديث أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد الفقيه، قال: أخبرنا محمد بن محمد بن سنان المقرى قال: أخبرنا أحمد بن علي بن المثنى قال: أخبرنا أبو خيثمة قال: أخبرنا جرير عن الاعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: أنا ليلة الجمعة في المسجد إذ دخل رجل من الانصار فقال: لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه، وإن قتل قتلتموه وإن سكت سكت على غيظ، والله لاسألن عنه رسول الله ﷺ فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ فسأله فقال لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا تتكلم (فان تكلم) جلدتموه أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ فقال: اللهم افتح، وجعل يدعو، فنزلت آية اللعان - والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم - الآية. فابتلى به الرجل من بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ، فتلاعنا، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فذهبت لتلتعن، فقال رسول الله ﷺ مه فلعنت، فلما أدبرت قال: لعلها أن تجئ به أسود جعدا، فجاءت به أسود جعدا رواه مسلم عن أبي خيثمة. «أسباب النزول» (211/1 - 212).

شَهَادَاتٍ﴾ مؤديات ﴿بِاللهِ﴾ متعلقات بقولها: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الزوج ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور:8] المفترين فيما رماني به وأنا بريئةٌ عنه، ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ أي: أكدت الأربعة بالخامسةِ أيضًا قائلة: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللهِ﴾ وقهرَه وتبعيدَه عن سعة رحمته ﴿عَلَيْهَا إِن كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:9] في هذا الرمي الشنيع.

وبعدما أدتها على وجهها سقط الحد عنها، ووقع التفريق المؤبد، لقوله ﷺ: «المُتَلاَعِنَان لا يَجْتَمِعَان أبَدًا»[1].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾ المطلع بجميع سرائر عباده ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المجترئون بالحلف الكاذب والشهادات الباطلة، وتحمُّل لعنة الله وغضبه ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: مرحمتُه وشفقتُه بالستر، والإخفاء عليكم لَفَضحكم، وأظهرَ شنعتكم ألبتة، ولكنه أمهلكم وستر عليكم رجاء أن تتوبوا عن هتك محارم الله، والخروج عن مقتضى حدوده ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المصلحَ لأحوالكم ﴿تَوَّابٌ﴾ لكم يوفقكم على التوبة ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:10] في جميع أفعاله، لا يعاجلكم بالعقوبة، كي تتنبهوا عن قبح صنيعكم، وترجعوا عن سوء فعالكم؛ لتفوزوا إلى ما جبلتم لأجله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: 11 – 18].

ثم أشار سبحانه إلى تطهير ذيل عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ عما رماها

(1) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (19/4) رقم 17371.

وافتراها أهل الزيغ والضلال جهلاً بحالها وعلوّ شأنها، وكمال عصمتِها وعِفَّتها، فقال: ﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾[1] أي: بالكذب الصارف عن الحق

(1) قوله تعالى: (إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم) الآيات. روى الواحدي عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيدالله بن عبد الله ابن عتبة، عن عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام حين قال فيها أهل الافك ما قالوا، فبرأها الله تعالى منه، قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأتيت اقتصاصا ووعيت عن كل واحد الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضا، ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي ﷺ قالت " كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت عائشة رضي الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فخرجت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت عائشة وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلهن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعوا إلي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب، استيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة وهلك من هلك في، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمتها شهرا والناس يفضون في قول أهل الافك، ولا أشعر بشئ من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم، فذلك يحزنني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد مانقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الاول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضى الله عنه وابنها مسطح بن أثاثة ابن عباد بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ قالت: أي

هنتاه أو لم تسمعي ما قال ؟ قلت: وماذا قال: ؟ فأخبرتني بقول أهل الافك، فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم ؟ قلت تأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت: وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت: يا أماه ما يتحدث الناس ؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي ابن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك وما نعلم إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة هل رأيت شيئا يريبك من عائشة ؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الانصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه، إن كان من الاوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قال: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، إنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان من الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الانصار، فأذنت لها وجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني شئ، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، قالت: فلما (فلما) قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لابي أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لامي: أجيبي رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لاأقرأ كثيرا من القرآن: والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال أبو يوسف - فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون - قالت: ثم تحولت

﴿عُصْبَةٌ﴾ أي: فرقةٌ وعصابةٌ معدودةٌ ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون المقذوفون مع أنهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ ولا تظنوه أي: الإفكَ الذي جاءوا به ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ ولحوقَ عارٍ عليكم ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: إفكُهم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وسببُ ثوابٍ عظيمٍ وأجر جزيلٍ، وظهور كرامةٍ، ونزول آياتٍ عظام في براءتكم وطهارتكم وتهويل شأنكم.

وصار ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي: من القاذفين المفتريين جزاء ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ والإفكِ الذي جاءوا به ظلمًا وزورًا ﴿وَ﴾ لا سيما الشخصَ ﴿ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: معظم الآفكين، وهو الذي أخذ في إفشائه وإشاعته، وهو ابن أُبيّ ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:11] في الدنيا والآخرة؛ إذ هو مطرود بين المؤمنين، مشهورُ بالنفاق، وله في الآخرة أشدُّ العذاب.

ثم وبّخ سبحانه على الآفكين وقرّعهم؛ حيث قال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: الإفكَ أيها الآفكون لم تظنوا بالمقذوفيْن خيرًا كما ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَ﴾ لَمْ تقولوا كما ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون: ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:12] وكذبٌ عظيمٌ وفريةٌ بلا مريةٍ؛ إذ ساحة عصمتها وطهارة ذيلها ونجابة طينتها أجلُّ وأعلى من أن يُفترى عليها أمثال هذه المفتريات الباطلة.

واضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببرأتي، ولكن والله ماكنت أظن أن ينزل في شاني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله تعالى بها، قالت: فو الله مارام رسول الله ﷺ منزله ولاخرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، وأخذه ماكان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سرى عن رسول الله ﷺ سرى عنه وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: البشرى يا عائشة، أما والله لقد برأك الله، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لاأقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني، قالت: فأنزل الله سبحانه وتعالى - إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم - العشر الأيات، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية في براءتي قال الصديق، وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى - ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم - فقال أبو بكر: والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه وقال: لا أنزعها منه أبدا. رواه البخاري ومسلم كلاهما عن أبي الربيع الزهراني. «أسباب النزول» (214/1، 217).

عصمنا الله عما لا يرضى منه سبحانه ﴿لَوْلَا جَاءُوا﴾ أي: الآفكون المسرفون وأتوا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إفكهم هذا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عدولاً لصدقوا فيما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ الأربع العدول ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الآفكون المفترون ﴿عِندَ اللهِ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور:13] المقصورون على الكذب، يجازيهم سبحانه على مقتضى ما اقترفوا من الكذب والبهتان، سيما مع أهل البيت، أهل العصمة والكرامة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الباهتون، المفترون بتوفيقكم على الإنابة والرجوع عن هذه الفرية العظيمة ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الشاملة لكم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ وخضتم في إشاعته وإذاعته ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:14] عاجلاً وآجلاً.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ مع نهاية كراهته وسماجته ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ سائلاً بعضكم بعضًا متلقيًا على قبوله وسماعه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ لا ظنٌ ولا يقينٌ بل جهلٌ وتخمينٌ، ﴿وَ﴾ مع عظم هذا الجرم عند الله ﴿تَحْسَبُونَهُ﴾ أيها الحمقى المسرفون ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً يسيرًا، لا يترتب عليه شيءٌ من العذاب والعقاب ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي: رمي تلك البريئة العفيفة ﴿عِندَ اللهِ﴾ المطلع لعفتها وعصمتها ﴿عَظِيمٌ﴾ [النور:15][1] فظيعٌ في غاية العظمة والفظاعة، مستجلبٌ لأنواع العذاب وأشد النكال؛ إذ الافتراء بآحاد الناس يوجب أشدَّ العذاب وأسوأ العقاب، فكيف بأفضلهم وأشرفهم!.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أولاً أيها الآفكون المفترون ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ﴾ أي: ما

(1) قال الشيخ روزبهان يا ليت لو يعلم المدعي الجاهل أن الكل مع شرائف أحوالهم، وفصاحة لسانهم في التوحيد، واطلاع قلوبهم على مراتب الحقيقة مندرجون تحت هذه الآية التي أخبرت عن غيرته بوصف جلاله وعزة عظمته بأنه ممتنعٌ بذاته عن مقالة كل واصف صفته، وكل عارف بقلبه نعته؛ إذ نعته ووصفه لا يدخلان تحت عبارة أهل الحدثان. قال الإمام الحسين في بعض مناجاته: إلهي أنزِّهك عما يقول فيك أولياؤك وأعداؤك جميعًا. وقال عبد الله بن المبارك: ما أرى هذه الآية نزلت إلا فيمن اعتاد الدعاوى العظيمة، ويجترئ على ربه في الإخبار عن أحوال الأنبياء والأكابر، ولا يمنعه من ذلك هيبة ربه ولا حياؤه. وقال الترمذي: مَنْ تهاون بما يجري عليه من الدعاوي؛ فقد صغَّر ما عظَّم الله إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾.

يصح ويجوز ﴿لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الفحش الباطل الكذب الصريح العاطل ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نقدسك وننزهك من أن تمكِّن أحدًا يفعل، ويقول في حق حليلة حبيبك ﷺ أمثال هذا الافتراء؛ إذ ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:16] تبهتُ، وتحيرُ منه العقول، وتضطرب الأسماع، وتتقلقل القلوب.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ المصلح لمفاسدكم، ويبالغ في وعظكم وتذكيركم كراهة ﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ ما دمتم حيًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:17] بالله مصدقين لنبيه؛ إذ أمثال هذه الخرافات بالنسبة إلى أهل بيت النبوة من أمارات الكفر والتكذيب، وعلامات سوء الأدب مع الله ورسوله.

﴿وَ﴾ بعد صدور أمثال هذه الخرافات من أهل السرف والإفساد ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ المدبر ﴿لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الصفح والإعراض عن أمثال هذه الافتراءات الهاتكة لأستار محارم الله، سيما مع أكرم عترة حبيبه ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائركم وخواطركم ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:18] في إزالة ما يضركم ويغويكم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: 19 – 22].

ثم قال سبحانه تذكيرًا لعموم عباده: ﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ من خبث بواطنهم ﴿أَن تَشِيعَ﴾ تظهر وتنتشر ﴿الْفَاحِشَةُ﴾ الخصلة المذمومة عقلاً وشرعًا ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بين عموم المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ جزاءً لإشاعتهم وإذاعتهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ مفزعٌ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالجلد ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار المحرق الملتهب ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما جرى في الغيب والشهادة ﴿يَعْلَمُ﴾ قبحَ ما في الإشاعة

والإذاعة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:19] قبحها لذلك تحبون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بفتح باب التوبة، والرجوع عن المعصية بالندامة الخالصة لفضحكم، وعذبكم بقبح صنعتكم وشنعة خصلتكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المراقب لجميع ما صدر عنكم ﴿رَءُوفٌ﴾ لكم يحفظكم عما يضركم ﴿رَحِيمٌ﴾ [النور:20] لكم يرحمكم، بعدما وفقتم على التوبة والندامة.

ولما كان أمثال هذه المعاصي والآثام بمتابعة الشيطان المضلِّ المغوي، نادى سبحانه عموم عباده المؤمنين، ونهاهم عن متابعته والاقتداء به والاقتفاء بأثره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الصانع وصفاته، وبالنبوة والرسالة، والتشريع العام المفيد لاعتدال الأخلاق والأطوار بين عموم العباد، مقتضى إيمانكم مخالفة النفس والهوى اللتين هما من جنود الشيطان المضل المغوي عن طريق الحق ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تقتفوا أثره في إشاعة الفاحشة واستحباب المعصية.

﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي فقد ضلَّ وغوى ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ﴾ من يتابعه ويقتدي به ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعًا ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ المردود مروءة ونقلاً ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ المتكفل لإصلاح حالكم عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الواسعة الشاملةُ لعموم عباده ﴿مَا زَكَى﴾ وطهر وخلص ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ متابعة الشيطان ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء؛ إذ متابعته مطبوعةٌ لكم، مستحسنةٌ عندكم، مقبولةٌ لأنفسكم ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المدبرَ لأمور عباده ﴿يُزَكِّي﴾ أي: يخلص ويطهر من غوائل الشيطان ووساوسه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ رعايةً لحكمته، وضبطًا لمصلحته التي جَبل عباده عليها ﴿وَاللهُ﴾ المطّلعُ لما ظهرَ وبطنَ ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:21] بقصدهم ونياتهم.

﴿وَ﴾ بعدما جاء من القاذفين الآفكين ما جاء، انصرف عنهم المؤمنون وأعرضوا عن إنفاقهم ورعايتهم، وحلفوا ألّا ينفقوا عليهم أصلاً، مع أن بعضهم في غاية الفاقة، ردَّ الله على المؤمنين، وحثهم على الإنفاق، وأمرهم بالإحسان بدل الإساءة، وقال: ﴿لَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف ولا يقصر ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَ﴾ أولو ﴿السَّعَةِ﴾ في الرزق ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أي: من ألّا يؤتوا أو على ألّا يؤتوا ﴿أُولِي الْقُرْبَى﴾ أي: الفقراء الذين يتمون إليكم أيها المؤمنون بالقرابة ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الفاقدين لقوت يومهم، ولا سيما الفقراء ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ الباذلين أرواحَهم في ترويج دينه؛ بسبب

أنهم خاضوا في معصية الإفك والافتراء، وجاءوا ببهتانٍ عظيمٍ، وأحبوا أن يشيعوه، ويتقولوا به ظلمًا وزورًا.

﴿وَ﴾ بعد نزول آيات البراءة، والتنزيه في شأن العفيفة ـ رضي الله تعالى عنها ـ ﴿لْيَعْفُوا﴾ أي: جملة المؤمنين عن ذنوب القاذفين بعدما تابوا وندموا، وقَبِل الله سبحانه منه توبتهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ وليعرضوا عن جريمتهم، ويصافحوا معهم، وليعطوا لهم ما أعطوهم قبل ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أيها المقذوفون المطهرون البريئون ﴿أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ زلتكم وذنوبكم بسبب عفوكم عنهم، وصفحكم عما جاءوا به افتراءً ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم المجازي لعباده ﴿غَفُورٌ﴾ لهم يغفر زلتهم وذنوبهم بسبب عفوهم جرائم إخوانهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:22] يرحمهم تفضلاً عليهم وامتنانًا.

رُوي أنه ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: 23 ــ 27].

قرأها على أبي بكر ﷺ، فقال: بلى أحب، وأعاد إلى مسطح ـ هو أحد القاذفين الآفكين ـ وهو ابن خالته فقيرٌ ليس له شيء ينفقه على نفسه؛ لأنه ينفق عليه دائمًا.

ثم قال سبحانه تذكيرًا لعموم عباده، ونهيًا لهم عن الرمي بالزنا مطلقًا: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالزنا ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ المتعففات، والمستحفظات لحدود الله ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ البريئات المنزهات عما رُموا به أولئك الغفلة الجهلة ظلمًا وزورًا ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله، وبما جاء من عنده من الحدود والأحكام الجارية على ألسنة رسله، وبيوم الجزاء المعدّ للكشف والتفضيح ﴿لُعِنُوا﴾ وطُردوا عن روح الله وسعة رحمته؛ لقصدهم عرض العفائف، وهتك أستارهن، وطعنهم فيهن افتراءً ومراءً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإجراء الحد وأنواع الطرد والشتم، ورد شهادتهم مدة حياتهم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بأنواع

العذاب والنكال.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَهُمْ﴾ بسبب قبح صنيعهم وسوء فعالهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:23] لا عذاب أعظم منه؛ لعظم جرمهم وعصيانهم.

اذكر لهم يا أكمل الرسل توبيخًا لهم، وتذكيرًا لمن اعتبر منهم من المؤمنين ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ بإلهام الله وإعلامه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وتقر بما صدر عنها من الكذب والافتراء، ورمي المحصنات، وقذف العفائف عمدًا بلا علم لهم ولا شعور بحالهن ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ لما اقترفوا من الأخذ والإعطاء لا على الوجه المشروع ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ بالسعي والتردد إلى ما لا يرضى منه سبحانه ولا رسوله ولا المؤمنون، وبالجملة: يقر كل من أعضائهم وجوارحهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:24] ويكتسبون من المعاصي والآثام.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ﴾ المجازي لأعمالهم ﴿دِينَهُمُ﴾ وجزائهم ﴿الْحَقَّ﴾ أي: ما يستحقون من الجزاء بلا زيادة ونقصان عدلاً منه سبحانه ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر على الإنعام والانتقام ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المقصور على التحقق والثبوت بالقسط والعدل ﴿الْمُبِينُ﴾ [النور:25] الظاهر ألوهيته وربوبيته على الوجه الأقسط الأعدل الأقوم، بلا ميلٍ منه وانحرافٍ عن جادة الاستقامة والعدل الحقيقي.

ومن جملة عدالته: رعاية المناسبات بين المظاهر والمربوبات، كما بينها سبحانه بقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من النساء المطعونات بأنواع الرذائل، المنحرفات عن جادة السلامة والطهارة ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ كذلك من الرجال؛ يعني: لا يتزوجهن غير الخبيثين بحكم المناسبة ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من النساء، كلُ لنظيرتها بحكم المصلحة الإلهية.

﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ الطاهرات العفائف المحصنات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيِّبُونَ﴾ المستقيمون على جادة التوحيد والعدالة ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أيضًا كذلك؛ إذ كلُ يميل بالطبع إلى شاكلته بالميل المعنوي الموضوع بالوضع الإلهي، ومتى ثبت هذا الحكم، وتبين هذه المناسبات بتبيين الله ﴿أُولَئِكَ﴾ العفائف المطهرون الطيبون ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ منزهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أولئك الرماة المفترون والطغاة الخبيثون المنحرفون عن طريق الحق، الناكبون عن صراطٍ مستقيم، ولبراءتهم ونزاهتهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وعفوٌ من الله المطلع لبراءتهم الشاهدِ عليها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:26] وهو

الرزق الصوري والمعنوي، الذي يتلذذون به الجنة عند كشف الغطاء ورفع الحجب.

اللهم ارزقنا بلطفك مِّن الرزق الكريم، واجعلنا بجودك من ورثة جنة النعيم.

ثم لما كان أمثال هذه الهذيانات الباطلة، والمفتريات العاطلة من نتائج الخلطة والاستئناس مع أصحاب الغفلة، وكشف الحجب، والأستار الواقعة بين ذوي القدور والاعتبار وأولي الخطر الكبار إلى من هو من السفلة الساقطين المنحطين من درجة أرباب الاستبصار.

أشار سبحانه إلى أن الاختلاط والاستئناس بين المؤمنين، لا بدَّ وأن يكون مسبوقًا بالاستئذان والاسترخاص، حتى لا يؤدي إلى أمثال هذه الخرافات، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم محافظة المحبة والإخلاص بينكم، ومن جملتها: إنها ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيتًا من بيوت إخوانكم بغتةً بلا استئذانٍ من أهلها، بل لكم أن تصبروا ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ وتستأذنوا، وتطلبوا رخصة الدخول.

﴿وَ﴾ بعدما أذنتم ورخصتم ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ! أَدْخُلُ أَمْ لَا؟ ثلاث مرات» هكذا رُوي عن النبي ﷺ.

فإن أذنتم بالدخول، فادخلوه وإلا فارجعوا ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان والاستئناس ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من المبادرة إلى الدخول بغتةً، وإنما أُنزل عليكم هذه الكريمة المتعلقة بالأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:27] وتتعظون بها، وتحفظون حدود المصاحبة والمؤاخاة بينكم، ولا تجاوزون عن مقتضى المروءة والعدالة.

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور: 28 – 30].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي: في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ تستأذنون منه ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لئلا تُتهموا بأنواع التهمة بل اصبروا ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: لا تدخلوا حتى تجدوا من يأذن لكم ﴿وَ﴾ بعدما وجدتم ﴿إِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ فالوقت لا يسع بالدخول ﴿فَارْجِعُوا﴾ على الفور بلا تفحص، وتفتيش عن أسبابه على وجه الإلحاح والاقتراح

كما يفعله جهلة الناس.

﴿هُوَ﴾ أي: الرجوع بلا تفتيش ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ وأطهر لنفوسكم من الإلحاح ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتأملون في نفوسكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:28] يجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: ضيق ومنع ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ مع أن ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ تستأجرونها أو تستعيرونها للادخار والاستخزان، ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ وتظهرون ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور:29] وتخفون، يجازيكم على مقتضى علمه.

ثم أمر سبحانه لحبيبه ﷺ بتذكير عباده، وتهذيب أخلاقهم سيما في حفظ المحارم والحدود فقال: ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بحدود الله، الممتثلين بأوامره ﴿يَغُضُّوا﴾ وينقصوا ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ مطلقًا دائمًا حتى لا يقع نظرهم بغتةً إلى المحرمات، بل لهم أن يديموا النظر إلى الطريق الذي مشوا عليها، حتى يَسلَموا من شرور أمارتهم وصَولة جنود الشهوات عليهم.

﴿وَ﴾ قل لهم أيضًا: ﴿يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن أمارات الزنا، وعلامات السفاح ومقدماته، ويتقوا عن مواضع التهم ومظانّ الرمي والقذف مطلقًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضُ والحفظُ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ وأطهرُ لنفوسهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الرقيبَ على جميع حالاتهم ﴿خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:30] من التفكر والترامز، وإجالة النظر، وتحريك سائر الأعضاء نحو ما يشتهون من المحرمات.

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: 31]

﴿وَقُل﴾ أيضًا يا أكمل الرسل ﴿لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ المقيمات لحدود الله، المتحفظات لمحارمه: ﴿يَغْضُضْنَ﴾ وينقصن ﴿مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ ويقصرن نظرهن إلى أزواجهن، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من الميل إلى المحارم، ولهن ألّا يعرضن نفوسهن إلى غير أزواجهن، ﴿وَلاَ يُبْدِينَ﴾ ويظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ لغيرهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1] ما ظهر من الثياب التي يلبستونهن، ﴿وَ﴾ من غاية تسترهم وتحفظهم ﴿لْيَضْرِبْنَ﴾ ويسترن ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ ومقانعهن ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: نحورهن وصدورهن مبالغةً في التستر والتحفظ.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: التي يتزيَّن بها لازدياد الحسن ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهن الزينةُ إنما هي لأجلهم ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ إذ هم الأولياء لهن ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ لحفظهم محارم أبنائهم ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ لأنهم أمناء على أمهاتهم ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ لأنهم حافظون حمية آبائهم ومحارمهم ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾ لأنهم أحفظُ عليهن منهن؛ لخوف لحوق العار حميةً وغيرةً ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ إذ هم كآبائهم في محافظتهن ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ لأن نسبتهم إليهن كنسبتهم إلى أمهاتهم ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: المسلمات مطلقًا؛ إذ لا يتصور منهن الضرر سوى السحاقة، والضرر والإيمان يمنع عنهما ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ إذ الاحتراز عنهم حرجٌ؛ لأنهم من أهل الخدمة ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ﴾ أي: الحاجة والشهوة ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ الهرم الذين لا يبقى منهم الشهوة ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لعدم بلوغهم وقت الحلم وثوران الشهوة.

وَ﴾ أيضًا قل لهن: ﴿لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ على عادة الجهال من التبختر والرقص ﴿لِيُعْلَمَ﴾ ويظهر ﴿مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَ﴾ بالجملة: ﴿تُوبُوا﴾ رجالاً ونساءً ﴿إِلَى اللهِ﴾ المبدئ المبدعِ لكم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيد الله، المصدقون

---

(1) فيه استشهاد على أن لا يجوز للعارفين أن يبدوا زينة حقائق معرفتهم، وما يكشف الله لهم من عالم الملكوت، وأنوار الذات والصفات، ولا المواجيد إلا ما ظهر منهم بالغلبات من الشهقات والزعقات والاصفرار والاحمرار، وما يجري على ألسنتهم بغير اختيارهم من كلمات الشطح والإشارات المشكلة، وهذه الأحوال أشرف زينة للعارفين. قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة، فإذا أظهرها فقد ذهبت زينتها. وقال بعضهم: الحكمة في هذه الآية لأهل المعرفة أنه من أظهر شيئًا من أفعاله إلا ما ظهر عليه من غير قصد له فيه، فقد سقط به عن رؤية الحق؛ لأن ما وقع عليه رؤية الخلق ساقط عن رؤية الحق. [العرائس].

لكتبه ورسله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31] وتفوزون بالفلاح والنجاح عند الملك التواب الفتاح.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾ [النور: 32 – 34].

ثم لما أشار سبحانه إلى محافظة الحدود والآداب والألفة والمصاحبة بين المؤمنين، ونهاهم عن أمارات السفاح ومقدمات الزنا مطلقًا؛ لئلا يجهل النسب وتختلط النُطف، وقدَّمها اهتمامًا بشأنها أراد أن يشير إلى النكاح الصوري المنبئ عن النكاح المعنوي، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا﴾ أيها الأولياء السادات، المولون لأمور من في حفظكم وحضانتكم ﴿الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ وهو جمعُ: أيم، هو العزب سواءً كان ذكرًا أم أنثى، بكرًا أو ثيبًا، ﴿وَ﴾ أنكحوا أيضًا ﴿الصَّالِحِينَ﴾ للنكاح والتزويج ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ فعليكم أيها الولاة تزويج الأيامى، ولا تبالوا بفقرهم وفاقتهم ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ عند النكاح ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده ورحمته لعباده بعد النكاح، ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبرُ لأمور عباده، المتكفلُ لأرزاقهم ﴿وَاسِعٌ﴾ يوسع عليهم من رزقه ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:32] برثاثة حالهم، مغنٍ علمُه بهم عن سؤالهم.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: ليجتهد في العفة، وتسكين الشهوة للفقراء ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسبابه وصداقه، وليصبروا بمشاق العزوبة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ المصلحُ لأحوالهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده، فيجدون ما يتزوجون به.

ثم أشار سبحانه إلى عتق الموالي، وتخليصهم من ربقة الرق وعروة العبودية طلبًا لمرضاة الله وعتقًا من عذابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ أي: العبيد الذي يطلبون ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة المتضمنة لعتقهم، وخلاصهم عن الرق بعدما أدوا المبلغ المعهود الذي يكاتب عليها، وهم ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أيها الموالي سواء كانوا عبيدًا

أو إماءً، قنًا أو مدبرًا أو مستولدة، يطلبون منكم أن تعتقوهم على مالٍ تكتسبون لهم؛ ليؤدوا إليكم منجمًا، وبعدما أدوا ما تكتبون لهم صاروا أحرارًا معتقين ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ واعتقوهم على جُعلٍ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: علمتم وتفرستم فيهم بعدما فككتم رقابهم يكونوا صلحاء أمناء مؤمنين لا يُرجى منهم الشر والفساد ﴿وَ﴾ بعد عقدهم الكتابة ﴿آتُوهُم﴾ أيها المسلمون ﴿مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ من فضله تفكيكًا لرقابهم عن مذلة الرق وهوان العبودية.

ثم أشار سبحانه إلى حسن المعاشرة مع المماليك، ورعاية غبطتهم، ومحافظة الحدود بينهم؛ بحيث لا يُكرهونهم إلى ما لا يصلح لهم شرعًا وعادةً بل عقلاً ومروءةً، سيما إذا استحصنوا وتحفظوا، فقال على سبيل المبالغة في النهي: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا﴾ أيها السادة المسلمون ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي: شوابّ جواريكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾[1] أي: الزنا مطلقًا سيما ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وتحفظًا عن البغي مع قلة عقلهن ورشدهن، فأنتم أحق بحفظهن وحصنهن مما لا يرتضيه العقل والشرع، ولا تنصرفوا أيها الولاة عن مقتضى العقل والشرع ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وتطلبوا متاعها الفاني وحطامها الدني الزائل ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ سيما بعد نزول الزاجر ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المنتقِمَ لعصاة عباده، سيما الظالم الخارج عن حدوده ﴿مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ أي: من بعد إكراههم لهن ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:33] يرحمن عليهن إن كنّ مخلصات في التحصن، ويعاقب على المكرِهِين أشد العقاب ويعذبهم أسوأ العذاب.

﴿وَ﴾ كيف لا يعاقبكم الله أيها المسرفون المصرون على الفسوق والعصيان ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ فيها ما هو

---

(1) قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية. روى الواحدي عن أبي سفيان عن جابر قال: كان عبد الله ابن أبي يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئًا، فأنزل الله عز وجل - ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى قوله - غفور رحيم - رواه مسلم عن أبي كريب، عن أبي معاوية. أخبرنا الحسن بن محمد الفارسي قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال: أخبرنا أحمد بن الحسن الحافظ قال: أخبرنا محمد بن يحيى قال: أخبرنا إسماعيل بن أبي أويس قال: أخبرنا مالك، عن ابن شهاب، عن عمر بن ثابت أن هذه الآية - ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - نزلت في معاذة جارية عبد الله ابن أبي ابن سلول، وعن عمر بن ثابت قال: كانت معاذة جارية لعبد الله بن أبي وكانت مسلمة، وكان يستكرهها على البغاء، فأنزل الله تعالى - ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء - إلى آخر الآية. أسباب النزول - (1/ 219، 221).

صلاحُكم ونجاتكم، ﴿وَ﴾ أوضحناها لكم بأن أوردنا فيها ﴿مَثَلاً مِّنَ﴾ أحوال الظلمة ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ لتعتبروا مما جرى عليهم من سوء صنيعهم ﴿وَ﴾ ليكون قصصُهم ﴿مَوْعِظَةً﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:34] منكم المحترزين من بطشنا وانتقامنا، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تنزجروا، فتستحقوا أشد العذاب وأسوأ العقاب مثلهم.

﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: 35 – 40].

وكيف لا تنزجرون عن قهر الله أيها الغافلون، ولا تخافون عن بطشه أيها الضالون، أما تستحيون منه سبحانه مع حضوره وشهوده في جميع الأماكن، وظهور نوره في عموم الآفاق والأنفس غيبًا وشهادة، ظاهرًا وباطنًا، أزلاً وأبدًا، أولاً وآخرًا، صورةً ومعنىً.

وكيف تتركون حدوده، وتخرجون عن مقتضى أوامره ونواهيه الموردة في كتبه المنزلة على رسله أيها الجاهلون المسرفون؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مظهرهما وموجدهما، وموجدُ ما ظهر

بينهما وفيهما وعليهما من كتم العدم، بلا سبق مادةٍ ومدةٍ بامتداد أظلال أسمائه وآثار صفاته عليهما ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: ظهور أنوار وجوده من هياكل الهويات وشباك العكوس والتعينات ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي كوةٌ تُوضع فيه القناديل المسرجة، وهي مثال الأشكال والمظاهر والتعينات المنعكسة من أشعة الأسماء والصفات الإلهية المتشعشعة المتجلية بالتجليات الحبية على مقتضى الذات ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهي مثال نور الوجود الإلهي، المضيء بنفسه وذاته، ومن كمال شروقه وبروقه ولمعانه تخطف الأبصار وتكمل المدارك والأنظار، لذلك احتجب ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ المذكور أولاً ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ صافيةٍ عن كدر التعينات ورين التعلقات، وهي مثال الأسماء والصفات المنبسطة أظلالها على صفائح الأكوان.

ومن كمال اللطافة والصفاء، هذه ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ في غاية الإضاءة والإنارة، يتلألأ ويتشعشع بصفاته الذاتية ولطافته الجبلية؛ لأنه ﴿يُوقَدُ﴾ ويسرج بدهن إلهي متخذ ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ كثيرة الخير والبركة لمن استظل تحتها، وهي شجرة الوجود الممتدة أظلالها على صفائح عموم ما ظهر وبطن من المظاهر والموجودات الغير المحصورة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ كثيرة النفع والخير؛ إذ الوجود خيرٌ محض ونفعٌ صرفٌ لا شرَّ فيه ولا ضررَ أصلاً ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: معتدلةٌ في نفسها، خارجةٌ عن الجهات كلِّها غيرُ محاطةٍ بها.

ومن كمال صفائها ولطافتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ بإضاءتها الذاتية، وإشراقها العينية ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ هي التجلي الحبي الشوقي، والمحبة الخالصة والعشق الإلهي.

وبالجملة: نور الوجود الإلهي ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لا يدركه، ولا يتميز، ولا يطلع عليه أحدُ من مظاهره ومصنوعاته، بلا توفيقٍ منه سبحانه وجذبٍ من جانبه، بل ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى صفاء توحيده ﴿لِنُورِهِ﴾ أي: ضياءِ وجودِه وسعة رحمته وَجُوده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده من جذبه الحق نحو جنابه، ووفَّقه الوصول إلى فناء بابه.

﴿وَ﴾ للتنبيه إلى هذا المقام والإشارة إلى هذا المرام، و﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿الْأَمْثَالَ﴾ المنبهة والأشباه المثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ المجبولين على فطرة التوحيد لهم؛ لعلهم يتفطنون على ما جبلوا لأجله ويتنبهوا على مبدئهم ومَعادهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بالآفاق والأنفس إحاطة حضورٍ وشهودٍ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما جرى في

مملكة عموم المظاهر والمصنوعات ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:35] لا يغيب عن علمه شيء.

ولهذا التفطن والتذكر يتوجه المخلصون المنجذبون نحو الحق ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ معدةٍ للتوجه مع أنه ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ بناؤها وتُعظَّم غاية التعظيم، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا﴾ أي: في تلك البيوت والمساجد ﴿اسْمُهُ﴾ الذي هو كلمة توحيده وتقدسيه، ولهذا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ أي: لله طلبًا لمرضاته لا لغرضٍ دنيويٍ أو أخرويٍ ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك البيوت المذكورة دائمًا ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور:36] أي: في جميع آناء الأيام والليالي.

﴿رِجَالٌ﴾ كمَّل مخلصون منجذبون نحو الحق، مشمرون ذيل هممهم لسلوك طريق الفناء، منقطعون عن الدنيا وما فيها؛ بحيث ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ وتشغلهم ﴿تِجَارَةٌ﴾ وأرباح متعلقة بالأمور الدنيوية أو الأخروية ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أيضًا كذلك ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والتوجهِ نحو جنابه، والعكوفِ على بابه ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ ودوام الميل والمناجاة معه ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: إنفاقُ ما في أيديهم خالصًا لطلب المرضاة، ومع ذلك ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يوم القيامة، وما لحق فيها من النكال؛ إذ من شدة هولها ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ أي: تتلقلق وتضطرب ﴿فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ تدهش فيه ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:37].

كل ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ المجازي لما صدر عنهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ بأحسن الجزاء ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ امتنانًا عليهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المتفضل لخواص عباده ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم من الرزق المعنوي الحقيقي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:38] أي: بلا مقابلةِ عملٍ منهم، ومعاوضة إحسانٍ من جانبهم، بل من محض الفضل والجود.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأنكروا عليه، وأظهروا الباطل ظلمًا وزورًا، وروجوه عنادًا ومكابرةً لذلك صارت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي خيلوها صالحةً مستجلبةً لأنواع النفع في يوم الجزاء على عكس أعمال المؤمنين ﴿كَسَرَابٍ﴾ أي: كمثلِ سرابٍ يلمع ويبرق ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أي: باديةٍ وصحراءٍ ﴿يَحْسَبُهُ﴾ ويظنه ﴿الظَّمْآنُ﴾ من بعيدٍ ﴿مَاءً﴾ مُسكنًا للعطش، مبرِّدًا للأكباد.

فلما رآه سارع إليه، وسعى نحوه سريعًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ بعد تعبٍ كثيرٍ وعناءٍ مفرطٍ مؤملاً الوصول إلى الماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ ماءً بل لم يجد ﴿شَيْئًا﴾ آخرَ متأصلاً في الوجود سوى العكوس التي تتراءى كالماء في البريق واللمعان من تقلب الحدقة، وتشتت البال، واضطراب الحواس باستيلاء العطش المفرط وحرارة الأكباد، ﴿وَ﴾

بعدما آيس من نفع أعماله ﴿وَجَدَ اللَّهَ﴾ الرقيبَ عليه في جميع أحواله، محاسبًا إياه عما صدر عنه ﴿عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ على الوجه الأقسط الأعدل بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلعُ على جميع ما جرى على عباده في جميع شئونهم وتطوراتهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور:39] يحاسبهم، ويجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، بلا فوت شيءٍ مما صدر عنهم عدلاً منه سبحانه.

﴿أَوْ﴾ مثل أعمال الكفرة في عدم النفع والخير ﴿كَظُلُمَاتٍ﴾ أي: كمثل أصحاب ظلمات الليل الواقعة لهم ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي: عميقٍ غائرٍ منسوبٍ إلى اللجّ، وهو معظم الماء ﴿يَغْشَاهُ﴾ أي: يغطي البحر ويعلو عليه ﴿مَوْجٌ﴾ هائلٌ ﴿مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: فوق الموج الأول ﴿مَوْجٌ﴾ آخرُ أهولُ منه هكذا؛ أي: أمواجٌ متراكمةٌ مترادفةٌ بعضها فوق بعض على التوالي والتتالي مع أنه ﴿مِّن فَوْقِهِ﴾ أي: فوق الموج المظلم ﴿سَحَابٌ﴾ كثيفٌ أظلمُ منه.

وبالجملة: تلك الأمواج والسحب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متراكمة مترادفة ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ بحيث ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ من وقع فيها ﴿يَدَهُ﴾ حذاء بصره اختبارًا لنظره ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يقرب أن يراها بالقوة فكيف بالفعل؟! هكذا أعمال الكفرة المتوغلين في بحر الغفلة والضلال، المغشّاة بالأمواج المتراكمة من الظلم والطغيان والغيّ والعدوان، من فوقه السحب الكثيفة والحجب الغليظة من الجهل بالله، والتعامي عن مطالعة آياته الدالة على توحيده واتصافه بالأوصاف الذاتية، وملاحظة آثاره البديعة وصنائعه العجيبة الغريبة.

وهم من غاية انهماكهم في ظلمات غفلاتهم وجهالاتهم، وكمال غيّهم وضلالهم: إذا أمعنوا نظرهم إلى مشاهدة ما في نفوسهم من غرائب صنع الله لم يقربوا أن يكونوا مترصدين للوقوف عليها، فكيف الشهود والاطلاع بها؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿لَهُ نُورًا﴾ من جذبةٍ وتوفيقٍ يهدي به التائهين إلى مقصد توحيده ﴿فَمَا لَهُ﴾ من نفسه وبمجرد كسبه وسعيه ﴿مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40] يرشده إليه سبحانه، ويوصله إلى فضاء توحيده.

هب لنا منك نورًا نهتدي به إلى ما جُبلنا لأجله بفضلك وجودك يا ذا الطول العظيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ

وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (43) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (44) وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (45)﴾ [النور: 41 – 45].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم أيها المعتبر الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتوحدَ برداء العظمة والكبرياء، المستقل بالوجود الحقيقي بكمال اللطف والجود ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ ويقدسه سبحانه عن جميع ما لا يليق بشأنه عن شوب النقص وسمات الحدوث والإمكان، جميعُ ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من المجبولين على المعرفة المتوجهين نحو المبدع طوعًا ﴿وَ﴾ جميع من في ﴿الأَرْضِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ كذا ﴿الطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتهن في الجو ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحدٍ من المسبحين السماويين والأرضيين والهوائيين ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ وأشعر ﴿صَلاتَهُ﴾ وميله إلى ربه الذي أوجده وأظهره ﴿وَتَسْبِيحَهُ﴾ الذي سبّح ونزه به مبدعًا عما لا يليق بجنابه ﴿وَاللَّهُ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:41] أي: بجميع ما صدر عنهم من التوجه والتسبيح، وإخلاصهم فيه.

وكيف لا يعلم سبحانه أفعال عباده ومملوكه، إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ المظهرِ المبدعِ ابتداءً ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ وجميع من فيها وما فيها ﴿وَالأَرْضِ﴾ ومن عليها وما عليها، فله التصرف فيهما، وفيما بينهما بالاستقلال والاختيار بلا مزاحمة الأضداد والأغيار ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال الهالكة في بيداء الضلال ﴿الْمَصِيرُ﴾ [النور:42] أي: المرجع والمنتهى؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء كائنٌ وسيكون أزلاً وأبدًا عليمٌ خبيرٌ، يظهره ويعدمه حسب علمه وخبرته بإرادته واختياره.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتكفلَ لأرزاق عباده كيف ﴿يُزْجِي﴾ ويسوق أجزاء الأبخرة والأدخنة إلى فوقٍ متفرقةً؛ ليجعله ﴿سَحَابًا﴾ هامرًا ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ ويركب

﴿بَيْنَهُ﴾ أي: بين أجزاء السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكمًا متكاشفًا متصلاً؛ ليكوّن منه مياهً كثيرةً، ثم يُجعل له فتوقًا ومنافذَ ﴿فَتَرَى﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿الْوَدْقَ﴾ أي: المطر المتقاطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفتوقه غايةً منه سبحانه لمن في حوزته فضلُه وجودُه ﴿وَ﴾ كذا ﴿يُنَزِّلُ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ يعني: من قطعِ سحابٍ متراكمٍ في الجو على هيئة الجبال الرواسي ﴿مِن بَرَدٍ﴾ متكونٍ من الأبخرة والأدخنة الواصلة إلى الطبقة الزمهريرية من الهواء وصولاً تامًا، إلى حيث انجمدت انجمادًا صلبًا كالحجر من كمال البرودة، فيُنزل منها إظهارًا لقهره سبحانه، وتنبيهًا على صَولة سطوة صفاته الجلالية ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ممن سبق القهرُ والغضبُ منه سبحانه بمقتضى جلاله سبحانه ﴿وَيَصْرِفُهُ﴾ أي: يصرف شره ﴿عَن مَّن يَشَاءُ﴾ من أهل العناية على مقتضى لطفه وجماله.

ومن أمارات غضب الله وقهره: إنه ﴿يَكَادُ﴾ ويقرب ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ اللامع؛ أي: ضوئِه الحاصلِ منه في كمال الظلمة حالة الاصطكاك ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:43] الناظرة نحوه، ويختطفها بحدوث الضد من الضد فجأة، وذلك من الأسباب التافهة التامة لتفريق البصر.

وكيف لا يخطف الأبصار حين ﴿يُقَلِّبُ اللهُ﴾ المحوّل للأحوال فيه ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بغتةً بلا تراخٍ ومهلةٍ إظهارًا لكمال قدرته، واختياره واستقلاله بالتصرف في مظاهره ومصنوعاته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التبديل والقلب وإحداث الضد من الضد بغتةً ﴿لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:44] المنكشفين بوحدة الواجب وصفاته الذاتية التي هي منشأ جميع ما ظهر وبطن من الكوائن والفواسد بإرادته واختياره، المستدلين من آثار أوصافه وأسمائه بعلو شانه وسمو برهانه، المتيقنين بوحدة ذاته وتنزهه عن وصمة الكثرة والشركة مطلقًا.

﴿وَاللهُ﴾ المتوحد بذاته المتعزز بكمال أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَ﴾ أي: أظهر وقدّر ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾ تتحرك على الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ وهو العنصر الأصلي لوجود الحيوانات؛ إذ هو مبدأ حركاتهم ومنشأ إحساساتهم وإدراكاتهم، لذلك خُصّ بالذكر بين العناصر وإن كانت مركبةً من جميعها ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من الدواب، ذكرَ الضمير وجمعها جمع العقلاء على سبيل التغليب؛ لأن العقلاء منها ﴿مَّن يَمْشِي﴾ ويزحف ﴿عَلَى بَطْنِهِ﴾ بلا آلةِ المشي كالحية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالطير والإنسان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالنعم والوحش.

وبالجملة: ﴿يَخْلُقُ اللهُ﴾ المقتدر على الخلق والإيجاد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الموجودات والمخلوقات إرادةً واختيارًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتصف بصفات الكمال ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ داخلٍ في حيطة علمه ﴿قَدِيرٌ﴾ [النور:45] بإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتور وقصورٍ.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: 46 – 52].

ثم قال سبحانه تحريكًا لحمية عباده، وتشديدًا لبنيان اعتقاداتهم بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا، ولطفنا إليكم أيها المحبوسون في مضيق الإمكان، المقيدون بسلاسل الكفران والعصيان ﴿آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ موضحاتٍ مفصلاتٍ لتوحيدنا وصفاتنا وقدرتنا على الإنعام والانتقام، لعلكم تتفطنون منها إلى علو شأننا وكمال سطوتنا وسلطاننا، مع أن أكثركم لا تتفطنون ولا تتنبهون؛ لانهماككم في بحر الغفلة والضلالة، ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته منهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور:46] موصلٍ إلى كعبة توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَ﴾ من انحراف المنافقين، وانصرافهم عن طريق الحق، وميلهم إلى الباطل ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم خوفًا من حقن دمائهم وأموالهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ المتوحِّد في ذاته ﴿وَبِالرَّسُولِ﴾ المرسَل من عنده لتبليغ دينه وآياته، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ لحكم الله ورسوله سمعًا وطاعة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ أي: يعرض وينصرف ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الإقرار عن حكم الله ورسوله تكذيبًا لنفسه، وإظهارًا لما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:47]

المتصفين بالإيمان والإذعان حقيقةً، وإن أقروا واعترفوا على طرف اللسان؛ لأن الإيمان من صفات القلبِ واللسانُ مترجمٌ له.

﴿وَ﴾ كيف كانوا مؤمنين أولئك المنافقون مع أنهم ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿وَرَسُولِهِ﴾ المستخلِف منه سبحانه النائبِ عنه بإذنه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ويقطع نزاعهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور:48] أي: فأجاءوا إلى الانصراف عن حكم الله وحكم رسوله بعدما دُعوا إلى رسوله إن كان الحكم عليهم.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ والحكم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ [النور:49] منقادين طائعين، وبالجملة: هم تابعون لمطلوبهم، وما هو مقصودهم، طالبون أن يصلوا إلى ما أَمِلوا في نفوسهم، بلا ميلٍ منهم إلى الحق وصراطه المستقيم وميزانه العدل القويم.

وما سبب ميلهم وإعراضهم؟! ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعرضهم عن قبول الإيمان، والميل إلى اليقين والعرفان ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ وترددوا في عدالة الله ورسوله ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾ من سوء ظنونهم ﴿أَن يَحِيفَ﴾ ويميل ﴿اللهُ﴾ المستوي على القسط والعدل ﴿عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ المتخلقُ بأخلاقه ظلمًا، بأن أجازوا الظلم على الله ورسوله ﴿بَلْ﴾ الحق أنه لا شك في عدالة الله ورسوله، ولا يُنسب الحيف والميل إليهما أصلاً، فتعين أنه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة القبول ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور:50] المقصورون على الخروج عن حد الاعتدال، المائلون عن الصراط المستقيم لمرض قلوبهم وخبثِ طينتهم.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين على عكس المنافقين والمترددين ﴿إِذَا دُعُوا﴾ عند النزاع والمخاصمة ﴿إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ويزيل شبههم ﴿أَن يَقُولُوا﴾ طائعين راغبين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بلا مطلٍ وتسويفٍ، رضينا بما حكمنا الله ورسوله ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ورسوله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:51] الفائزون بالفلاح، المقصورون على الصلاح والنجاح، ولا يتحولون عنه بل يزادون عليه تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَ﴾ كيف لا يزادون، إذ ﴿مَن يُطِعِ اللهَ﴾ حق إطاعته وينقاد ﴿وَرَسُولَهُ﴾ حق الانقياد والاتِّباع ﴿وَيَخْشَ اللهَ﴾ المنتقمَ فيما صدر عنه، ومضى عليه من الذنوب بعدما تاب وندم ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ عنه سبحانه فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المطيعون المنقادون بالله

ورسوله، الخاشعون المخبتون المتقون ﴿هُمُ﴾ المتقون ﴿الْفَائِزُونَ﴾ [النور:52] بالمثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10].

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: 53 – 56].

﴿وَ﴾ من خبائة بواطنهم أهل الشرك والشقاق، وشدة شكيمتهم ونفاقهم معك يا أكمل الرسل: ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ ترويجًا لنفاقهم وتغريرًا للمؤمنين ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وغاية حلفهم، مبالغين فيها، مغلظين منكرين للامتناع عن حكم الرسول بقولهم، والله ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: المنافقين بالخروج عن الديار، والجلاء عن الوطن ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ عنها بلا مطلٍ وتسويف، ممتثلين أمرك، فيكف يتأتى منا الامتناع عن حكمك وما هو إلا من غاية تلبيسهم ونفاقهم.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تيقنتَ نفاقَهم بإلهامٍ منا إليك ووحي: ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ بالله أيها المسرفون المفرطون، ولا تبالغوا في الحلف الكاذب، فإن المطلوب منكم ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ مشهورةٌ بين الناس بلا إتيان مخالفةٍ منكم ظاهرًا، وأمّا أمر بواطنكم وقلوبكم فسُّره عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائركم وضمائركم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:53] وتقصدون في نفوسكم، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للناس على سبيل التبليغ العام، والرسالة المطلقة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ المظهرَ لكم من كتم العدم، وانقادوا لجميع أوامره ونواهيه ﴿وَأَطِيعُوا

الرَّسُولَ﴾ المبعوثَ إليكم، وصدِّقوه في جميع ما جاء به من عند ربكم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وانصرفوا بعدما بلغتَ رسالتك حق التبليغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على سيدنا محمد ﷺ جزاء ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ وإظهارِ الدعوة وتبيينِ الرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم﴾ أيها السامعون جزاء ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال والانقياد ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المتوجهون نحو الحق ﴿إِن تُطِيعُوهُ﴾ أي: الرّسولَ، وتصدقوا قوله، وتعملوا على مقتضى ما أُمرتم على لسانه ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى معرفة ربكم وتفوزوا بتوحيده، ﴿وَ﴾ إن لم تطيعوا له، وتهتدوا إلى ما جُبلتم لأجله ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ المأمور بالدعوة والتبليغ ﴿إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النور: 54] الظاهرُ الواضحُ؛ لئلا يشتبه عليكم أمر الدين، فإن امتثلتم بما سمعتم منه فزتم، وإن توليتم فعليكم الوزر والوبال.

واعلموا يقينًا أنه ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المتفضلُ المحسنُ لعباده بأنواع الفضل والعطاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أيها الناس بتوحيد الله وصفاته، وإرسالِ الرسل، وإنزالِهِ الكتبَ، والبعثِ بعدِ الموت، وجميعِ الأمور الأخروية ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1] المقبولةِ عند الله، المرضية له على مقتضى ما أوحاه على رسوله وأنزله في كتابه، وأقسم سبحانه بنفسه تأكيدًا لوعده ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وليجعلنهم خلفاء ﴿فِي

(1) قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) الآية. روى الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحى الله إليه خائفا هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سرا وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين، يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح، فقال رسول الله ﷺ: لن تلبثوا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محبيا ليست فيهم حديدة، وأنزل الله تعالى - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات - إلى آخر الآية، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة، فأدخل الله عليهم الخوف وغيروا، فغير الله بهم.

وعن أبي بن كعب قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الانصار رمتهم العرب عن قوس واحد، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا في لامتهم، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل، فأنزل الله تعالى لنبيه - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات - إلى قوله - ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون - يعني بالنعمة. رواه الحاكم في صحيحه عن محمد بن صالح بن هانئ، عن أبي سعيد ابن ساذان، عن الدارمي. «أسباب النزول» (1/ 222.220).

الأَرضِ﴾ التي استولى عليها الكفرة ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: بني إسرائيل استخلفهم على بلاد العمالقة والفراعنة وأرض الشام والفرس، ﴿وَ﴾ بعد استخلافهم ﴿لَيُمَكِّنَنَّ﴾ ويقررن ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام، المبني على صرافة التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال.

وليشيعن ويذيعن دينهم هذا إلى جميع الأقطار والأنحاء ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ ويحولن حالهم ﴿مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ الناشئ من تمويهات متخيلتهم ووساوس متوهمتهم ﴿أَمْنًا﴾ نشأ من اليقين الحقي المثمرِ لكمال الاطمئنان والوقار، وبعدما حصل لهم مرتبة الفناء في ذاتي، حصل لهم البقاء ببقائي، فحينئذٍ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ مخلصين حيث ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ من مظاهري ومصنوعاتي بتسويلات شياطين الخيالات والأوهام ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ارتد ورجع ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد نفي الخواطر والأوهام المضلةِ عن سواء السبيل ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المردودون المطرودون عن ساحة عز الحضور والقبول ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:55] الخاسرون المقصورون على الخروج والخسران عن مقتضى اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:15].

﴿وَ﴾ بعدما جعلتم التوحيد الذاتي قبلة مقصدكم أيها المحمديون ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المثمرةَ المورثةَ لكم كمالَ الشوق والمحبةَ نحو الحق دائمًا ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المطهرةَ لنفوسكم عن الميل إلى ما سواه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المرشدَ لكم إلى طريق التوحيد ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:56] وتفوزون بما لا عينُ رأت ولا أذنُ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

حققنا بما أنت راضٍ عنا يا خير الناصرين.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن
قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ

ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور: 57 – 60].

ثم قال سبحانه تأييدًا لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تظنن يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن توحيده هم صاروا بكفرهم وعنادهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ الله القادرَ المقتدرَ عن أخذهم وإهلاكهم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي هي مملكة الحق ومحل تصرفاته سبحانه، بل يأخذهم الله الرقيبُ عليهم بظلمهم وبغيهم، ويستأصلهم عن وجه الأرض في النشأة الأولى ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور:57] مصيرهم ومرجعهم.

ثم أشار سبحانه إلى تتميم ما مضى من آداب الخلطة والمؤانسة بين المؤمنين، فقال مناديًا لهم على وجه العموم؛ ليقبلوا إلى امتثال ما نودوا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من آدابِ المصاحبة والإخاء هذا ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ بالدخول على بيوتكم، ويسترخص منكم أيها المؤمنون خدمتكم ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] سواءً كانوا عبيدًا أو إماءً، وأنتم رجالٌ أو نساءٌ، ذكرَ الضمير على سبيل التغليب ﴿وَ﴾ كذا الصبيان ﴿الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي: لم يبلغوا وقت الحلم، خُصَّ بالذكر؛ لكونه أقوى أسباب البلوغ إلى وقت التكليف ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ يعني: ليستأذنكم الخَدَمةُ والصبيانُ في ثلاث أوقات دخولهم:

أحدها: ﴿مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ﴾ إذ هو وقت الانخلاع، والتجرد عن ثياب النوم، والدخول فيه منهي.

﴿وَ﴾ ثانيها: ﴿حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ للاستراحة والقيلولة.

﴿وَ﴾ ثالثها: ﴿مِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ وقت التجرد عن الثياب للنوم، والأوقاتُ المذكورةُ ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ لا بدَّ من تحفظكم فيها عما يشوشكم، ويطلع على

---

(1) قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية. قال ابن عباس: وجه رسول الله ﷺ غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره رؤيته ذلك، فقال يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ. «أسباب النزول» (1/ 222).

سركم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ ضيقٌ ومنعٌ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد الأوقات الثلاث لو دخلوا عليكم بلا إذن منكم؛ إذ هم خَدَمَةٌ ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ ليخدموكم؛ إذ جُبلتم على أن يظاهر ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾ المدبّر لمصالحكم ﴿لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الدالةَ على آداب المصاحبة والمؤانسة، ﴿وَاللهُ﴾ المطلعُ لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:58] في ضبطها وحفظها؛ بحيث لا يختل أمر النظام المتعارف.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ﴾ وظهر منهم أمارات الميل والشهوة سواء كانوا ذكورًا أم إناث ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار البالغين؛ إذ هم حينئذ دخلوا في حكمهم بعد الحلم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالةَ على آداب خلطتكم وحسن معاشرتكم ﴿وَاللهُ﴾ المصلحُ لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من المنكرات ﴿حَكِيمٌ﴾ [النور:59] في دفعها قبل وقوعها.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ﴾ عجائز ﴿النِّسَاءِ اللاَّتِي﴾ قعدن عن الحيض والحبل وشهوة الوقاع مطلقًا إلى حيث ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وزواجًا؛ لكبرهن وكهولتهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: ذنبٌ وكراهةٌ ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرة التي يلبسنها فوق الأستار كالجلباب حال كونهن ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾ أي: مظهراتٍ ﴿بِزِينَةٍ﴾ مشهيةٍ للرجال، مثيرة لشهواتهم؛ أي: الزينة التي مُنعن من إبدائها في كريمة: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..﴾ [النور:31] ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ عن الوضع ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ سواء كن عجائز أم شواب؛ لأن العفة أبعد من التهمة في كل الأحوال ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لسرائرهن ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن مع الرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:60] بنياتهن منها.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: 61 – 62].

ثم لما كانت العرب يتحرّجون عن مصاحبة ذوي العاهات، والمؤاكلة معهم استقذارًا، وكانوا أيضًا يتحرّجون من البيوتات المذكورة تعظمًا واستكبارًا، بل يعدونه عارًا، ويستنكفون منه، ردَّ الله عليهم ونفى الحرج، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾[1] أن يأكل مع البصراء ﴿وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع السويّ السالم، ويجلس معه ﴿وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع الأصحاء ﴿وَلاَ﴾ حرجَ أيضًا ﴿عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ في أكلكم مطلقًا سواءً ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ وعند أهليكم ومحارمكم، سواءً كان من أكسابكم وأكساب أولادكم ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ وأجدادكم؛ لأنهم مستخلِفون لكم ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ لأن بينكم وبينهن مناسبة الكلية والجزئية ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾ لاشتراككم معهم في المنشأ ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ

(1) قوله تعالى: (ليس على الاعمى حرج) الآية. قال ابن عباس: لما أنزل الله تبارك وتعالى - لا تأكلوا أموالكم بينكم - تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الاموال - وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفى الطعام، فأنزل الله هذه الآية. وقال سعيد بن جبير والضحاك: كان العرجان والعميان يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء، لان الناس يتقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذرا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية ترخيصا للمرضى والزمنى في الاكل من بيوت من سمى الله تعالى في هذه الآية، وذلك أن قوما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله تعالى في هذه الآية، وكان أهل الزمانة يتحرجون من أن يطعموا ذلك الطعام لانه أطعمهم غير مالكيه، ويقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعن سعيد ابن المسيب أنه كان يقول في هذه الآية: نزلت في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الاعمى والاعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. «أسباب النزول» (223/1).

أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ لاشتراك آبائكم معهم في المنشأ ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ﴾ لاشتراك أمهاتكم معهم في المنشأ.

﴿أَوْ﴾ بيوت ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ يعني: بيوت عبيدكم التي أنتم أسبابُ لإنشائها سواءُ كانوا معتَقين أم لا، والتعبير عنهم بما: للتمليك والرّقية ﴿أَوْ﴾ بيوت ﴿صَدِيقِكُمْ﴾ بالمناسبة المعنوية التي هي أقوى من القرابة النَّسبية الصورية، كل ذلك المذكور مسبوقٌ بالإذن والرضا والتبسط والنشاط من أصحاب البيوتات.

ثم أشار سبحانه إلى أدب المؤاكلة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين في إناءٍ واحدٍ يأكل بعضكم سؤر بعض؛ إذ هو أدخل في التأليف والتحابب ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين كلٌ في إناءٍ، وهذا أدخل في التزكية والنظافة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أي: كلُ منكم بيتًا من البيوتات التي رُخِّصتم بالأكل منها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فابدؤوا بالسلام على أهلها؛ لأنهم منكم دينًا وقرابةً، حتى صار سلامكم إياهم ﴿تَحِيَّةً﴾ وزيادة حياةٍ لهم ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تفضلاً عليهم وإحسانًا ﴿مُبَارَكَةً﴾ كثيرةَ الخير والبركة النازلة من عنده على أهلها ﴿طَيِّبَةً﴾ خالصةً صافيةً عن كدر النفاق وأثر الخلاف والشقاق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على آداب أثر الخلاف والشقاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:61] رجاء أن تتفطنوا منها إلى أحوالكم في النشأة الأخرى، فتزوَّدوا فيها لأجلها.

ثم أشار سبحانه إلى محافظة الآداب مع رسول الله ﷺ، ورعاية حقوقه، وكمال الإطاعة والانقياد إليه فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الموحدون الكاملون، المنكشفون بسرائر التوحيد الذاتي هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ الجامع لجميع الأسماء والصفات المنسوبة إلى الذات الأحدية ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الجامع لجميع مراتب المظاهر والمصنوعات، لا يخرج عن حيطة مرتبته الجامعة الكاملة مرتبةٌ من المراتب أصلاً ﴿وَ﴾ بعدما عرفتم جمعيته ﴿إِذَا كَانُوا﴾ مجتمعين ﴿مَعَهُ﴾ ﷺ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: أمرٍ مشروطٍ حصولُه بالاجتماع والاقتحام كالزحف والجهاد والجُمَع والأعياد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينصرفوا من عنده ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ بالانفضاض والانصراف، وإن كنتم مضطرين إلى الإياب والذهاب.

ثم كرر سبحانه أمر الاستئذان على وجه أبلغ تأكيدًا ومبالغةً، فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في الذهاب والانصراف محافظة على الأدب ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المستأذنون هم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ حقًا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويراعون الأدب معهما من صفاء بواطنهم وخلوص طوياتهم ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ﴾ يا أكمل الرسل بعد اضطرارهم ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ وأمرهم المتعلق بمعاشهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾

أي: أنت مخير في إذنهم بعد اضطرارهم ﴿وَ﴾ بعدما أذنتَ لهم ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ من ذنبهم الذي اختاروا من أمر الدنيا على أمر العقبى، واستأذنوا له واهتموا لشأنه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهم أمثال هذه الفرطات الاضطرارية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:62] مشفقٌ حينئذٍ عليهم بعدما ندموا في نفوسهم.

ومن جملة الآداب التي وجبت عليكم رعايتها ومحافظتها بالنسبة إلى رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ ونداءه ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بين أظهركم ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ بالاسم واللقب فقط بلا ضميمةٍ تدل على تعظيمه وتوقيره، بل قولوا له وقت ندائه: يا نبي الله، أو: يا خير خلق الله، أو: يا أكرم الخلق على الله، وأمثالها.

أو لا تجعلوا دعاءه ومناجاته مع الله، ورفع حاجاته ﷺ إليه سبحانه في الإجابة والقبول كدعاء بعضكم بعضًا، فإن قبل مرة ردَّ أخرى بل ردَّ مرارًا كثيرة، فإن دعاءه ﷺ لا يرد عند الله أصلاً، أولاً تقيسوا نداءه إليكم في الوقائع والأمور كدعاء بعضكم بعضًا، فإن تجيبوا مرة وتردوا أخرى، بل عليكم أن تبادروا لإجابة ندائه ﷺ سمعًا وطاعةً بلا مطلٍ وتسويفٍ، خافضين أصواتكم حين إجابته مسرعين إليها بالآلات والجوارح، ساعين إلى إنجاح سؤله ومطلوبه ﷺ.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: 63 – 64].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المنافقين وتقريعهم حيث قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ المطلع على سرائر عباده بمقتضى علمه الحضوري كيدَ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ أي: يخرجون قليلاً قليلاً من جمعكم أيها المؤمنون ﴿لِوَاذًا﴾ أي: حال كونهم ملاوذين ملتجئين بغيرهم بأن يستر بعضهم خلف بعض، وحتى يخرج بلا إذنٍ ورخصةٍ منه ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ أولئك الماكرون المخادعون ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ وينصرفون ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ سبحانه وأمر رسوله ﷺ بلا رخصةٍ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: مصيبةٌ ومحنةٌ عظيمةٌ مثل القتل والنهب والأسر وأنواع البليات ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:63] لا عذاب أشدُّ منه.

وكيف تعرضون، وتنصرفون عن أمر الله وأمر رسوله أيها المسرفون المفرطون،

أما تستحيون من الله الرقيب عليكم، ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الجاهلون الغافلون بقدر الله، وحق ألوهيته واستقلاله وبسطته ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ المظهِر الموجِد تصرفًا وملكًا مظاهرَ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما بينهما ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ في نشأتكم هذه.

﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ما ستكونون عليه ﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في النشأة الأخرى المعدّة للعرض والجزاء؛ إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء مما جرى في عالم الغيب والشهادة والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم حينئذ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في النشأة الأولى على التفصيل بلا شذوذِ شيء منها، ثم يجازيهم عليها ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لعموم عباده في يوم الجزاء ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنهم في أولاهم وأخراهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النور:64] محيطٌ بجميع أعمالهم وأفعالهم وشئونهم وحالاتهم، وجميع ما جرى عليهم، يجازيهم على مقتضى علمه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

اصنع بنا يا مولانا ما أنت أهله يا ذا الفضل العظيم والجود العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المستضيءُ، المقتبِس من المشكاة الجامعة المصطفوية والمصباح اللامع النبوي ـ أرشدك الله إلى غاية ما أملك، ووفقك إلى كمال ما جبلك الحق لأجله ـ أن تحسن الأدب مع نبيك الهادي إلى طريق التوحيد الذاتي، وتحافظَ على ملازمة ما أوجبك الحق من حقوقه وآدابه ﷺ.

فلك أن تجعل رتبته ﷺ نصبَ عينيك، ولا تترك شيئًا من سنته المأثورة، وأخلاقه المشهورة، وشيمه المعروفة بين أهل الحق وأرباب المحبة من المنكشفين بعلو مرتبته ﷺ ورفعة قدره ومكانته، ولا تهمل شيئًا من الحدود والأحكام الموضوعة في دينه وشريعته، ولك أن تختار لنفسك من عزائم شرعه ودينه مهما أمكنك، ولا تميلَ إلى رخصتها؛ إذ الرخصة لعوام أهل الإيمان والعزائم لخواصهم، فلك الإخلاص في العمل، وعليك الاجتناب عن الرياء والسمعة وجميع الرعونات الواقعة في صدور الأعمال، سواءً كان عملك قليلاً أو كثيرًا عزائمَ أو رخصًا.

وإياك إياك الحذر عن مداخل الرياء والتلبيس، فإنها من شباك إبليس، يضل بها ضعفاء الأنام عن نهج الرشاد وسبيل الاستقامة والسداد.

عَصمنا الله من تغريرات الشياطين، وتسويلاتهم بفضله وجوده.

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفرقان

لا يخفى على ذوي البصائر والألباب من المنقطعين نحو الحق، السائرين إليه، الفارقين بينه وبين الباطل من أظلاله الهالكة المعدومة في أنفسها، الظاهرة المرتبة في هياكل الموجودات وأشكالها أن إنزال هذا الكتاب الجامع لأحوال النشأتين، الحاوي لأطوار المنزلتين، إنما هو لتفرقة الحق عن الباطل وتمييز المحق من المبطل، لذلك سماه سبحانه فرقانًا فارقًا بين أهل الهداية والضلال، من المجبولين على فطرة التوحيد المخلوقين لمصلحة الإيمان والعرفان.

فمن امتثل بما أُمر فيه أمرًا ونهيًا، عظةً وتذكيرًا، إشارةً ورمزًا، حقيقةً ومعرفةً، خلقًا وأدبًا، مثلاً وعبرةً؛ فقد فاز بمرتبة المعرفة بعدما جذبه الحق لذاته، وكحّل عين بصيرته بكحل التوحيد، ورفع سبل الغيرية عنها، وسدل التعينات برمتها.

والاسترشاد من هذا الكتاب موقوف على الاتصاف بأوصاف من أُنزل إليه، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، وسلوك أثر سنته بلا فوت شيء منها وإهمال دقيقة من دقائقها، حتى تحصل المناسبة المعتبرة بين المرشد والمسترشد، ومادام لم تحصل لك المناسبة بينه وبين هذا الكتاب، لم ينزل على قلبه ما نزل من المعارف والحقائق، كما أخبر سبحانه عن تنزيله إياه ﷺ متيمنًا متبركًا باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل الكتاب على عباده؛ ليبين للناس أحوال مبدئهم ومعادهم، وينبه عليهم طريق التفرقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإرسال الرسول المبين لهم ما هو الأصلح لحالهم من السداد والرشاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى مرتبة التوحيد الذاتي بعد رفع الحجب بلا ميل وإلحاد.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ
تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان:1-3].

﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم وتعالى ذاته سبحانه من أن يحيط بمنافعه وكثرة خيراته وبركاته عقول مظاهره ومصنوعاته، حتى يعدوها بألسنتهم، ويعبروا عنها بأفواههم حالاً ومقالاً ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ بمقتضى جوده الواسع وكرمه الكامل ﴿الْفُرْقَانَ﴾ الجامع لفوائد الكتب السالفة مع زوائد خلت عنها تلك الكتب تفضلاً وامتنانًا، ومزيد اهتمام ﴿عَلَىٰ﴾ شأن ﴿عَبْدِهِ﴾ ﷺ بعدما هيأه لقبوله، وأعدّه لنزوله، ورباه أربعين سنة تتميمًا لأمر المناسبة المعنوية وتحصيلاتها، حتى يستحق ويستعد للإلهام والوحي، وإنما أنزل هذا ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: كافة المخلوقين على فطرة التكليف، وعامة المجبولين على استعداد المعرفة ﴿نَذِيرًا﴾[1] [الفرقان:1] ينذرهم ويحذرهم عما يضرهم، ويغويهم عن صراط

(1) قال الألوسي (14 /29): أي تعالى جل شأنه في ذاته وصفاته وأفعاله على أتم وجه وأبلغه كما يشعر به إسناد صيغة التفاعل إليه تعالى، وهذا الفعل لا يسند في الأغلب إلى غيره تعالى ومثله تعالى ولا يتصرف فلا يجيء منه مضارع ولا أمر ولا ولا في الأغلب أيضًا وإلا فقد قرأ أبي كما سيأتي إن شاء الله تعالى تباركت الأرض ومن حولها، وجاء كما في «الكشف» تباركت النخلة أي تعالت، وحكى الأصمعي أن أعرابيًا صعد رابية فقال لأصحابه: تباركت عليكم، وقال الخليل: معنى تبارك تمجد، وقال الضحاك: تعظم وهو قريب من قريب، وعن الحسن. والنخعي أن المعنى تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر وهي إحدى روايتين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ثانيتهما أن المعنى لم يزل، ولا يزال وتحقيق ذلك أن تبارك من البركة وهي في الأصل مأخوذة من برك البعير وهو صدره ومنه برك البعير إذا ألقى بركه على الأرض واعتبر فيه معنى اللزوم، فقيل: براكاء الحرب وبروكاؤها للمكان الذي يلزمه الإبطال، وسمي محبس الماء بركة كسدرة، ثم أطلقت على ثبوت الخير الإلهي في الشيء ثبوت الماء في البركة، وقيل: لما فيه ذلك الخير مبارك ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة؛ فمن اعتبر معنى اللزوم كابن عباس بناءً على الرواية الثانية عنه قال: المعنى لم يزل ولا يزال أو نحو ذلك، ومن اعتبر معنى التزايد انقسم إلى طائفتين فطائفة جعلوه باعتبار كمال الذات في نفسها ونقصان ما سواها ففسروا ذلك بالتعالي ونحوه، وطائفة جعلوه باعتبار كمال الفعل ففسروه بتزايد الخير وتكاثره ولا اعتبار للتغير المبني على اعتبار معنى اللزوم لقلة فائدة الكلام عليه وعدم مناسبة ذلك المعنى لما بعد، ومن هنا ردد الجمهور المعنى بين ما ذكرناه أولاً وما روي عن الحسن ومن معه؛ وترتيب وصفه تعالى بقوله سبحانه: (تبارك) بالمعنى الأول على إنزاله جل شأنه الفرقان لما أنه ناطق بعلو شأنه سبحانه وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وترتيب ذلك بالمعنى الثاني عليه لما فيه من الخير الكثير؛ لأنه هداية ورحمة

الحق وطريق توحيده عناية منه سبحانه إياهم، ومرشدًا لهم إلى مبدئهم.

وكيف لا يرشدهم سبحانه وهو ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات المعبر عنها بالعلويات ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: الطبائع السفلية القابلة للانعكاس من العلويات، فلا يضر كثرة الأسماء والصفات، وحدوث العكوس والتعينات حسب الشئون والتجليات الإلهية وحدته الذاتية وانفراده الحقيقي ﴿وَ﴾ لهذا ﴿لَمْ يَتَّخِذْ﴾ سبحانه ﴿وَلَدًا﴾ حتى يتكثر ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾ في وجوده وملكه حتى ينازع ويتضرر، بل له التصرف بالاستقلال والاختيار بلا مزاحمة العكوس والأظلال الهالكة في صرافة وحدته الذاتية وشمس ذاته ﴿فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ظهر حسب تجلياته على مقتضى أسمائه وصفاته.

وبعدما أظهر ما أظهر ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:2] بديعًا، ودبر أمره تدبيرًا محكمًا عجيبًا بأن وفق بعضهم لاختراع أنواع الصنائع والحرفة البديعة والإدراكات الكاملة والتدبيرات الغريبة المتعلقة بتمدنهم لمعاشهم، وجعل بعضهم آلة للبعض، وبعضهم مالكًا، وبعضهم مملوكًا، وأزواجًا وأصنافًا مؤتلفة، وفرقًا وأضرابًا مختلفة، وأنواعًا متفاوتة إلى ما شاء الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:31] كل ذلك ليتعانوا ويتظاهروا، واختلطوا وامتزجوا إلى أن اعتدلوا وانتظموا، وصاروا مؤتمنين مؤتلفين مؤانسين، محتاجين كل منهم بمعاونة الآخر.

وإنما فعل سبحانه ما فعل؛ ليظهر كمالاته المندرجة في وحدة ذاته، ويظهر

للعالمين، وفيه ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد وكلا المعنيين مناسب للمقام ورجح الأول بأنه أنسب به لمكان قوله تعالى: (لِيَكُونَ للعالمين نَذِيراً) فقد قال الطيبي في اختصاص النذير دون البشير سلوك طريقة براعة الاستهلال وازيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذين لله تعالى ولدًا وشريكًا، وهذا المعنى يؤيد تأويل تبارك بتزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله جل وعلا لإفادته صفة الجلال والهيبة وإيذانه من أول الأمر بتعاليه سبحانه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا وهو من الحسن بمكان، و(الفرقان) مصدر فرق الشيء من الشيء وعنه إذا فصله، ويقال أيضًا كما ذكره الراغب فرقت بين الشيئين إذا فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصرة، والتفريق بمعناه إلا أنه يدل على التكثير دونه، وقيل: من الفرق في المعاني والتفريق في الأجسام والمراد به القررن وإطلاقه عليه لفصله بين الحق والباطل بما فيه من البيان أو بين المحق والمبطل لما فيه من الإعجاز أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في نفسه أو في الإنزال حيث لم ينزل دفعة كسائر الكتب.

سلطان الوحدة الذاتية بظهور ضده، وبعدما بلغ الكثرة غايتها انتهت إلى الوحدة أيضًا كما بدأت منها وانتشأت عنها، فحينئذٍ اتصل الأولُ بالآخر والظاهرُ بالباطن، واتحد الأزلُ والأبدُ، وارتفع الكثرة والعدد، ولم يبقَ إلا الله الواحد الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4].

﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه أمر عباده بإنزال الكتب، وإرسال الرسل المرشدين لهم إلى توحيده بعدما تاهوا في بيداء الكثرة والضلال، مع أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونها كعبادته، مع أن آلهتهم الباطلة ﴿لاَّ يَخْلُقُونَ﴾ ولا يوجدون ويظهرون ﴿شَيْئًا﴾ من المخلوقات حتى يستحقوا الألوهية والعبادة، مع أن من شأن الإله الخلق والإيجاد حتى يستحق للتوجه والرجوع إليه، بل ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي: مخلوقون مقدورون لا قادرون خالقون، بل ﴿وَ﴾ هم مرادون، والمخلوقات التي هي الجمادات؛ إذ ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ﴾ أيضًا ﴿ضَرًّا﴾ أي: إماتة لأحدٍ ﴿وَلاَ نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع إليها ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ﴾ أيضًا ﴿مَوْتًا﴾ أي: إماتة لأحد ﴿وَلاَ حَيَاةً﴾ أي: إحياءً له ﴿وَلاَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:3] أي: بعثًا وحشرًا بعد الموت للجزاء، ومن كان وصفه هذا كيف تتأتى منه الألوهية والربوبية المقتضية للعبودية؟!.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان:4-8].

﴿وَ﴾ بعدما أنزلنا القرآن الفرقان على عبدنا؛ ليهدي التائهين في بيداء الغفلة والضلال ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عما جاء من عنده، ولتكميل الناقصين: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي جاء به هذا المدعي ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب يصرف عن الحق ويلبس الباطل بصورته؛ لأنه ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي: اختلقه عن عمدٍ، ونسبه إلى الوحي تغريرًا وترويجًا لأمره ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ ولقَّن له فحواه ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وهم أحبار

اليهود، وبعدما سمع فحواه منهم، عبر عنه بلفظ فصيح، وأفرغه في قالب بليغ، فأتى به على الناس، ولقبه الفرقان المعجز، والقرآن البرهان المثبت المنزل عليه من ربه بطريق الوحي والإلهام؛ ترويجًا لمفترياته وتقريرًا للناس على قبولها ﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ أي: أولئك المسرفون المفرطون بجعل القرآن الفرقان المعجز - لفظًا ومعنى - إفكًا صرفًا وافتراءً محضًا ﴿ظُلْمًا﴾ خروجًا فاحشًا عن حد الاعتدال ﴿وَزُورًا﴾ [الفرقان:4] قولاً كذبًا، وبهتانًا ظاهرًا متجاوزًا عن الحد، مسقطًا للمروءة سقوطًا تامًا؛ إذ نسبة هذا الكتاب الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42] إلى أمثال هذه الخرافات التي جاءوا بها أولئك الجهلة بشأنه في غاية الظلم والزور ونهاية المراء والغرور.

﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا في حق هذا الكتاب ما هو أفحش منه، وأبعد من شأنه بمراحل، وهو: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب سطرها المتقدمون فيما مضى، وهو ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ أي: استنسخها من حَبْر، وكتبها له كاتب، وبعدما أخذ سوداها ﴿فَهِيَ﴾ الأساطير المذكورة ﴿تُمْلَى﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:5] أي: غداةً وعشيًا على سبيل التكرار ليحفظها؛ إذ هو أمي لا يقدر على أن يكرر من الكتاب، وبعدما حفظها، قرأها على الناس مدعيًا أنها موحى من عند الله، أنزلها عليه ملك سماوي اسمه جبرائيل، أو تُملى عليه على سبيل التعليم ليكتب لنفسه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمعت مقالهم، وتفرست حالهم في العتو وأنواع الإنكار والفساد: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: الفرقان عليّ مع أني أمي كما اعترفتم، لا قدرة لي على الإملاء فكيف على الإنشاء العليم؟! ﴿الَّذِي يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿السِّرَّ﴾ المكنون والحكمة الكامنة ﴿فِي﴾ أشكال ﴿السَّمَوَاتِ وَ﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ﴾ ولهذا أعجزكم بكلامه هذا عن آخركم مع أنكم من ذوي اللسن والفصاحة، وأعلى طبقات البلاغة والبراعة، فعجزتم عن معارضته؛ بحيث لم يتأتى لكم إتيان مثل آية قصيرة منه مع كمال تحديكم ووفور دواعيكم، ومع ذلك ما تستحيون أيها المسرفون المفرطون نسبتم إليه ما هو بريء عنه، بنسبتكم هذه استوجبتم العذاب والعقاب عاجلاً وآجلاً، إلا أنه سبحانه أمهلكم رجاء أن تتنبهوا بسوء صنيعكم هذا، فترجعوا إليه سبحانه تائبين نادمين، فيغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم، ويرحمكم بقبول توبتكم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ للأوابين التوابين ﴿رَحِيمًا﴾ [الفرقان:6] للمتندمين المخلصين.

وبعدما أفرطوا في طعن الكتاب المنزل والقدح فيه، ولم يقصروا على طعنه وقدحه، بل أخذوا في طعن من أُنزل إليه حسب عداوتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم معه، ﴿وَقَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ﴾ يدعي الرسالة والنبوة مع أنه لا يتميز عن العوام ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لضبط أمور معاشه كما نمشي، فما مزيته علينا وامتيازه عنا حتى يكون رسولاً؟ وإن كان صادقًا في دعوى نزول الملك إليه بالوحي ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ظاهرًا بلا سترة حتى نراه ونعاين به، ونؤمن له بلا ترددٍ ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[1] [الفرقان:7] أي: يكون الملك المنزل ردءًا له

(1) قال الشيخ الألوسي (328/5): وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء. ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد، وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم (مَا لهذا الرسول) الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء . ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد، وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه ﷺ من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله عليه الصلاة والسلام: « لا تفضلوني على ابن متى» في رأي بل هو ليس بشيء كما لا يخفى. وقيل: إن الأفضلية مبنية على زعم المخاطبين وهو من ضيق العطن، وقيل: حيث كان معنى الآية لا أدعي الألوهية ولا الملكية لا يكون فيها ترق من الأدنى إلى الأعلى بل هي حينئذٍ ظاهرة في التدلي، وبذلك تهدم قاعدة استدلال الزمخشري في قوله تعالى: (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) [النساء:172] على تفضيل الملك على البشر إذ لا يتصور الترقي من الألوهية إلى ما هو أعلا منها إذ لا أعلا ليترقى إليه. وتعقب بأنه لا هدم لها مع إعادة (لا أقول) الذي جعله أمراً مستقلاً كالإضراب إذ المعنى لا أدعي الألوهية بل ولا الملكية ، ولذا كرر (لا أقول). وقال بعضهم في التفرقة بين المقامين : إن

في إنذارنا وتبليغ الدعوة إلينا.

﴿أَوْ﴾ هلا ﴿يُلْقَى إِلَيْهِ﴾ من قبل ربه ﴿كَنزٌ﴾ فيستغني به عن الخلق، فنتبعه طمعًا للإحسان ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ موهوبة له من ربه فيها أنواع الثمرات والفواكه ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ رغدًا ويترفه بها أمدًا، وبالجملة: ما له هذا ولا ذاك ولا ذلك، فمن أين نصدق برسالته، وبأي شيء نعتقده نبيًا؟ ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في قدحه وإنكاره وأفرطوا في استهزائه وسوء الأدب معه ﷺ، وبالجملة: ﴿قَالَ الظَّالِمُونَ﴾ المنكرون المستكبرون على سبيل الذب، والإعراض لضعفاء الأنام عن متابعته ﷺ: لو صدقتم أيها الناس

مقام نفي الاستنكاف ينبغي فيه أن يكون المتأخر أعلا لئلا يلغو ذكره ، ومقام نفي الادعاء بالعكس فإن من لا يتجاسر على دعوى الملكية أولى أن لا يتجاسر على دعوى الألوهية الأشد استبعاداً ، نعم في كون المراد من الأول نفي دعوى الألوهية والتبري منها نظر وإلا لقيل لا أقول لكن إني إله كما قيل (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ) وأيضاً في الكناية عن الألوهية بعندي خزائن الله ما لا يخفى من البشاعة، وإضافة الخزائن إليه تعالى منافية لها . ودفع المنافاة بأن دعوى الألوهية ليس دعوى أن يكون هو الله تعالى بل أن يكون شريكاً له عز اسمه في الألوهية فيه نظر لأن إضافة الخزائن إليه تعالى اختصاصية فتنافي الشركة اللهم إلا أن يكون خزائن مثل خزائن أو تنسب إليه وهو كما ترى. من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله ﷺ «لا تفضلوني على ابن متى» في رأي بل هو ليس بشيء كما لا يخفى. وقيل: إن الأفضلية مبنية على زعم المخاطبين وهو من ضيق العطن، وقيل: حيث كان معنى الآية لا أدعي الألوهية ولا الملكية لا يكون فيها ترق من الأدنى إلى الأعلى بل هي حينئذ ظاهرة في التدلي، وبذلك تهدم قاعدة استدلال الزمخشري في قوله تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الملئكة المقربون) [النساء:172] على تفضيل الملك على البشر إذ لا يتصور الترقي من الألوهية إلى ما هو أعلا منها إذ لا أعلا ليترقى إليه . وتعقب بأنه لا هدم لها مع إعادة (لأَقُولَ) لذي جعله أمراً مستقلاً كالإضراب إذ المعنى لا أدعي الألوهية بل ولا الملكية، ولذا كرر (لا أَقُولَ). وقال بعضهم في التفرقة بين المقامين: إن مقام نفي الاستنكاف ينبغي فيه أن يكون المتأخر أعلا لئلا يلغو ذكره، ومقام نفي الادعاء بالعكس فإن من لا يتجاسر على دعوى الملكية أولى أن لا يتجاسر على دعوى الألوهية الأشد استبعاداً ، نعم في كون المراد من الأول نفي دعوى الألوهية والتبري منها نظر وإلا لقيل لا أقول لكن إني إله كما قيل (لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ) وأيضاً في الكناية عن الألوهية بعندي خزائن الله ما لا يخفى من البشاعة، وإضافة الخزائن إليه تعالى منافية لها. ودفع المنافاة بأن دعوى الألوهية ليس دعوى أن يكون هو الله تعالى بل أن يكون شريكاً له عز اسمه في الألوهية فيه نظر لأن إضافة الخزائن إليه تعالى اختصاصية فتنافي الشركة اللهم إلا أن يكون خزائن مثل خزائن أو تنسب إليه وهو كما ترى.

وآمنتم به مع أنكم سمعتم أنه لا مزية له عليكم، ولا امتياز بينه وبينكم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتبعون حينئذ، وتؤمنون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:8] مجنونًا سُحِرَ له، فجُنَّ واختل عقله وكلَّ فهمه، لذلك تكلم بكلام المجانين، فعجز عن معارضته العقلاء؛ إذ العقل قاصر عن مموهات الوهم وتسويلات الخيال.

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان:9-12].

﴿انظُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ هؤلاء الضُّلال بعدما عجزوا عن معارضتك، وتاهوا في كمال رشدك وهدايتك، وكيف توغلوا في الحيرة عن مدركاتك، حتى تشبثوا بأمثال هذه الخرافات والهذيانات البعيدة عن علو شأنك وسمو رتبتك وبرهانك، وبالجملة: ﴿فَضَلُّوا﴾ وتحيروا، وانحسرت عقولهم عن الوصول إلى كمال مدركاتك وأنواع هداياتك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:9] إليها لتعاليها عن مداركهم وعقولهم، فنسبوك إلى ما لا يليق بجنابك عنادًا واستكبارًا.

﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى ربك ﴿الَّذِي﴾ رباك بأنواع الكرامات الخارقة للعادات الشاملة لأصناف السعادات المعدة لأرباب الشهود والمكاشفات، وبالمعجزات الباهرة الدالة على صدقك في جميع ما جئت به من قبل ربك من الآيات البينات، وأنواع الخيرات والبركات ﴿إِن شَاءَ﴾ ربك وتعلقت مشيئته وإرادته ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل في النشأة الأولى أيضًا ﴿خَيْرًا﴾ وأحسن ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: مما قالوه وأملوه تهكمًا واستهزاءً، ولكن أخّره إلى النشأة الأخرى؛ إذ هي خير وأبقى، والتنعم فيها ألذ وأولى؛ إذ هي مؤبدة مخلدة بلا انقطاع ولا انصرام.

ثم بيَّن سبحانه ما هيأ لحبيبه ﷺ فيها وأعد له من ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات الإلهية على مقتضى الكمالات الأسمائية والصفاتية ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ أيضًا فيها ﴿قُصُورًا﴾ [الفرقان:10] عاليات متعاليات عن مدارك ذوي الإدراكات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهم من قصور نظرهم وعمى

بصرهم وقلوبهم في هذه النشأة لا يلتفتون إلى أمثال هذه الكرامات العليّة الأخروية.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ الموعودة المعهودة، وجميع ما يترتب عليها من المثوبات والدرجات العلية والدركات الهوية؛ إذ نظرهم مقصور على هذا الأرذل الأدنى ﴿وَ﴾ لهذا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾ وبالأمور الموعودة فيها ﴿سَعِيرًا﴾ [الفرقان:11] أي: نارًا مستعرة ملتهبة في غاية التلهب والاشتعال؛ بحيث ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: إذا كانوا بمرأى العين منها مع أنهم بعيدون منها بمسافة طويلة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ مع بُعدها ﴿تَغَيُّظًا﴾ أي: صوتًا كصوت المغتاظ من شدة تلهبها وغليانها ﴿وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:12] أيضًا كزفرة المغتاظ، والزفير في الأصل: ترديد النَّفَس حتى تنتفخ الضلوع؛ يعني: من شدة غيظها لهم تغلي وتلتهب تلهبًا شديدًا، وتردد نفسها ترديدًا بليغًا حتى يردوا فيها.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان:13-17].

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿مَكَانًا﴾ أي: في مكان من أمكنتها صار ﴿ضَيِّقًا﴾ لهم تشدد العذاب عليهم؛ بحيث صار كل منهم من ضيق ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل والأغلال ﴿دَعَوْا﴾ وتمنوا من شدة حزنهم وكربهم ﴿هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:13] هلاكًا وويلاً، قائلين صائحين: واثبوراه! واويلاه! تعال تعال! وهذا وقت حلولك ونزولك، ويقال لهم حينئذ: ﴿لاَّ تَدْعُوا الْيَوْمَ﴾ أيها الجاهلون ﴿ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:14] إذ أنواع العذاب تتجدد عليكم دائمًا، فاطلبوا الكل منها ثبورًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل موبخًا عليهم، ومعيرًا بعدما بيَّنت لهم منقلبهم ومثواهم في الآخرة: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ السعير الذي سمعتم وصفه، أو المعنى: أذلك الجنة التي أمِلتم من جنات الدنيا ومنتزهاتها ﴿خَيْرٌ﴾ مرجعًا ومصيرًا ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ المؤبد المخلد

أهلها فيها بلا تبديل وتغيير ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بدخولها حتى ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالهم الصالحة التي أتوا بها في النشأة الأولى، وصارت بدلاً من مستلذاتها الفانية ﴿وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان:15] أي: مرجعًا ومنقلبًا لهم بعدما خرجوا من الدنيا، مع أن ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من النعيم المقيم الدائم؛ لكونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ فيها لا يتحولون عنها أصلاً؟ لذلك ﴿كَانَ﴾ هذا الوعد ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ [الفرقان:16] مطلوبًا للمؤمنين في دعواتهم ومناجاتهم، حيث قالوا في سؤالهم ودعائهم: ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك، إلى غير ذلك من الآيات والمناجاة المأثورة من الأنبياء والأولياء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمتخذين آلهة سوانا، وحذِّرهم ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ونبعثهم للعرض والجزاء ﴿وَ﴾ نحشر أيضًا ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد؛ أي: آلهتهم الذين يعبدونهم كعبادة الله، كالملائكة وعزير وعيسى والجن والكواكب والأصنام، عبَّر سبحانه عن آلهتهم بـ(ما)، مع أن بعضهم عقلاء لعموم (ما)؛ أي: إنها تستعمل في عاقل وغيره، أو للتغليب، أو باعتبار ما يعتقدون ويتخذون آلهة من تلقاء نفوسهم، لا حقيقة لها سوى الاعتبار؛ لأنهم لا يرضون باتخاذهم، وبعدما حشر الآلهة ومتخذوهم مجتمعين ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه مستفهمًا للآلهة على سبيل التوبيخ والتبكيت لمتخذيهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان:17] عن عبادتي، ودعوتموهم إلى عبادة نفوسكم مدعين أنتم الشركة معي؟.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان:18-20].

﴿قَالُوا﴾ أي: الآلهة مبرئين نفوسهم عن هذه الجرأة والجريمة العظيمة، منزهين ذاته سبحانه عن وهم المشاركة والمماثلة والكفاءة مطلقًا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك ونقدس

ذاتك يا ربنا عن توهم الشركة في ألوهيتك وربوبيتك، بل في وجودك وتحققك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ ويصح منّا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فكيف يليق بنا أن ندعي الولاية لأنفسنا دونك والاشتراك معك، مع أنّا لا وجود لنا إلا منك، ولا رجوع لنا إلا إليك، وأنت يا ربنا تعلم منّا ما في ضمائرنا وأسرارنا واستعداداتنا ونياتنا في جميع شئوننا وقابلياتنا، وأنت تعلم أيضًا منا يا مولانا لا علم لنا باتخاذهم أولياء، ولا إضلال وتقرير من قبَلنا إياهم ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾[1] أنت بمقتضى فضلك وجودك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَ﴾ كذا متعت ﴿آبَاءَهُمْ﴾ كذلك، وأمهلتهم زمانًا مترفهين مستكبرين ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي: ذكر المنعِم، وغفلوا عن شكر نعمه، واتخذوا على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة أربابًا من دونك وعبدوها كعبادتك عتوًا واستكبارًا ﴿وَ﴾ بالجملة: هم ﴿كَانُوا﴾ مقدَّرين مثبتين في لوح قضائك ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان:18] هالكين في تيه الغفلة والضلال، من أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية لا يُرجى منهم السعادة أصلاً.

ثم قيل للمشركين من قِبل الحق: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ آلهتكم أيها الضالون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أنهم آلهتنا، أو بما يقولون هؤلاء وأضلونا، أو بقولكم: هؤلاء شفعاؤنا ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: فالآن ظهر ولاح أن آلهتكم وشفعاءكم لا يقدرون ﴿صَرْفًا﴾ من عذابنا شيئًا ﴿وَلاَ﴾ يقدرون أيضًا ﴿نَصْرًا﴾ لكم؛ لتصرفوا عذابنا عن نفوسكم بمعاونتهم، ولا شفاعة عندنا؛ لتخفيف العذاب عنكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المشركون نفسه باتخاذ غيرنا إلهًا عنادًا ومكابرة، ولم يتب عن ذلك حتى خرج من الدنيا عليه ﴿نُذِقْهُ﴾ الأمر؛ أي: يوم الجزاء ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:19] لا عذاب أكبر منه.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ عما عيره الجهلة المستهزئون معه بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ...﴾ [الفرقان:7] فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

---

(1) قال الألوسي (14 /62): لا ينافي نسبة الإضلال إليه سبحانه على الحقيقة وأيضًا ما يؤدي إلى الضلال إذا كان منه تعالى وكان معلومًا له عز وجل أنهم يضلون به كان فيه ما في الإضلال بالحقيقة، فوجب على مذهبه أنه لا يجوز عليه سبحانه مع أنهم نسبوه إليه سبحانه، وعن قوله: ولو كان تعالى هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أنت أضللتهم بأن هذا غير مستقيم؛ لأنه تعالى ما سألهم إلا عن أحد الأمرين وما ذكر لا يصلح جوابًا له بل هو جواب لمن قال: من أضلهم.

قَبلَكَ﴾ رسولاً ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كما تأكل أنت وسائر الناس ﴿وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ لحوائجهم كما تمشي أنت وغيرك.

وامتياز الرسل والأنبياء من العوام إنما يكون بأمورٍ معنوية لا اطلاع لأحد عليها سوى من اختارهم للرسالة والنبوة، وهم في ظواهر أحوالهم مشتركون مع بني نوعهم بل أسوأ حالاً منهم في ظواهرهم؛ لعدم التفاتهم إلى زخرفة الدنيا العائقة عن اللذة الأخروية، ولهذا ما من نبي ولا رسول إلا وقد عيرهم العوام بالفقر والفاقة إلا نادرًا منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: من سنتنا أنَّا ﴿جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: بسبب ابتلائه ومحنة واختبار، من ذلك ابتلاء الفقراء بتشنيع الأغنياء، وتعيير النبيين والمرسلين باستهزاء المنكرين المستكبرين، والمرضى بالأصحاء، وذي العاهة بالسالم إلى غير ذلك، وإنما جعلناكم كذلك؛ لنختبر وتعلموا ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيها المصابون بما أصابكم من البلاء فتفوزون بجزيل العطاء وجميل اللقاء أم لا؟ ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل في سابق قضائه وحضرة علمه ﴿بَصِيرًا﴾ [الفرقان:20] لصبر من صبر، وشكر من شكر من أولي العزائم الصحيحة، ولمن لم يصبر ولم يشكر من ذوي الأحلام السخيفة والاختبار، إنما هو لإظهار الحجة الغالبة البالغة؛ إذ الإنسان مجبول على الجدال والكفران.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان: 21-26].

﴿وَ﴾ من جملة جدالهم وعنادهم: ﴿قَالَ﴾ الكافرون الجاحدون ﴿الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤملون لقيانا، ولا يخافون منَّا لإنكارهم بنا وبوعدنا يوم الجزاء: لو كان محمد ﷺ رسولاً مؤيدًا من عند الله ﴿لَوْلا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ﴾ المصدقون لرسالته؛ ليخبرونا بصدقه في دعواه ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿نَرَى رَبَّنَا﴾ الذي يدعونا

إليه معاينة، فيخبرنا ربنا بصدق رسوله حتى نصدقه بلا تردد، وقال سبحانه في ردهم مقسمًا على سبيل التعجب والاستغراب: والله ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أولئك المسرفون المفرطون بقولهم هذا مكابرة؛ حيث طلبوا من الله ما لا يسع لخُلّص عباده من ذوي النفوس القدسية ﴿وَعَتَوْا﴾ بإخطار هذا المطلب العظيم في خواطرهم، وإن صدر عنهم هذا تهكمًا واستهزاءً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:21] فاستحقوا بذلك أكبر العذاب وأصعب النكال والوبال.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: ملائكة العذاب مع أنه ﴿لَا بُشْرَى﴾ ولا بشارة لهم برؤيتهم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ بل إنما يجيئون إليهم؛ ليجروهم إلى جهنم صاغرين مهانين ﴿وَ﴾ بعدما يرونهم صائلين عليهم صولة الأسود ﴿يَقُولُونَ﴾ متحسرين خاسرين قولاً يقول به العرب عند هجوم البلاء ونزول العناء واليأس التام من الظفر بالمطلوب، وهو قولهم: هذا ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:22] وهو كنى عن قولهم: حُرمنا عن التبشير بالجنة حرمانًا مؤبدًا، أو صرنا مسجونين في النار سجنًا مخلدًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ بعدما حرّمنا الجنة عليهم، وجعلنا مصيرهم النار ﴿قَدِمْنَا﴾ وعمدنا ﴿إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ إلى أصلح أعمالهم وأحسنها التي أتوا في النشأة الأولى؛ كقِرى الضيف وصلة الرحم وإعانة المهلوف وإغاثة المظلوم وغير ذلك من حسنات أعمالهم ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:23] أي: صيرناه كالغبار المنثور بالرياح بلا ترتب القبول والجزاء والثواب عليه؛ لفقدهم شرط القبول والإثابة وقت صدورها عنهم، وهو الإيمان والتوحيد، والتصديق بالرسل والكتب، والعمل بمقتضى الوحي، وهم كفار مكذبون مستكبرون، لذلك لم يقبل منهم أعمالهم.

وأما ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المتصفون بالإيمان والتوحيد، وتصديق الكتب والرسل، الممتثلون بالأوامر والنواهي على مقتضى ما بلّغهم الرسل وبيّن لهم فهم ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: من جهة مكان يستقرون عليه، ويتوطنون فيه ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: 24] يستريحون، ويستروحون فيه مع الحور والغلمان.

يومئذٍ يتلذذون أو هم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الفرقان:24] أي: يوم انقطاع السلوك، وانكشاف السُدل والأغطية المانعة من الشهود ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان:24] من جهة استقرارهم في مقر التوحيد، آمنين عن وساوس الأوهام والخيالات الباطلة ﴿وَأَحْسَنُ

مَقِيلًا﴾[1] [الفرقان:24] يستريحون فيه بلا مقتضيات القوى والآلات البشرية المنخلعين عن لوازم ناسوتهم مطلقًا، مشرفين بخلع من قبل اللاهوت وحضرة الرحموت.

﴿وَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ تتصفى، وتتجلى سماء الأسماء الإلهية المتكدرة المحتجبة ﴿بِالْغَمَامِ﴾ أي: بغيوم التعينات العدمية المنعكسة منها ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ المهيمين عند الذات الأحدية، وهي الأسماء والصفات التي استأثر الله به في غيبه بلا انعكاس وانبساط وامتداد ظل كسائر الأسماء الفعالة ﴿تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان:25] على صرافة تجردهم بلا تدنس وانغماس بغيوم التعينات والتعلقات.

حينئذٍ نودي من وراء سرادقات العز والجلال: ﴿الْمُلْكُ﴾ المطلق والاستيلاء التام والسلطنة الغالبة ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الثابت اللائق، المثبت على ما ينبغي ويليق ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ المستوي على عروش ذرائر الأكوان بعموم الرحمة وشمول الفضل والامتنان، بلا تقدير مكيال وميزان من زمان أو مكان ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم والشأن ﴿يَوْمًا﴾ وشأنًا ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هوية الحق الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿عَسِيرًا﴾ [الفرقان:26] في غاية العسر والشدة، وعلى الموحدين الواصلين إلى مرتبة الفناء، الفانين في الله، الباقين ببقائه يسيرًا في غاية اليسر والسهولة.

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى
لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ

(1) قال الشيخ الألوسي (107/6): إذ الجنة لا نوم فيها. وقال الليث: هي نومة نصف النهار، ودفع الاستدلال بأن ذلك مجاز، وإنما خص إنزال العذاب عليهم في هذين الوقتين لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة، وفي التعبير في الحال الأولى بالمصدر وجعلها عين البيات، وفي الحال الثانية بالجملة الاسمية المفيدة في المشهور للثبوت مع تقديم المسند إليه المفيد للتقوى ما لا يخفى من المبالغة ، وكذا في وصف الكل بوصف البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما إيذان بكمال الأمن والغفلة ، وفي هذا ذم لهم بالغفلة عما هم بصدده، وإنما خولف بين العبارتين على ما قيل وبنيت الحال الثانية على تقوى الحكم والدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لأن القيلولة أظهر في إرادة الدعة وخفض العيش فإنها من دأب المترفين والمتنعمين دون من اعتاد الكدح والتعب . وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر.

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان:27-31].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن ظلمك وأساء الأدب معك، وأراد مقتك وطردك بغيًا عليك واستكبارًا ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ الجاحد الخارج عن مقتضى الأدب مع الله ورسوله ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تحسرًا على تفريطه وإفراطه في العتو والاستكبار، والجحود والإنكار ﴿يَقُولُ﴾حينئذٍ متحسرًا متمنيًا: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ﴾ الهادي إلى سواءِ السبيل ﴿سَبِيلًا﴾ [الفرقان:27] يوصلني إلى منهج الرشاد، وينجّيني عن هذا العذاب.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ تعالي يا هلكتى، أسرعي ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ مضلاً ﴿خَلِيلًا﴾ [الفرقان:28] صديقًا أضلني عن خلة الرسول المرشد المنجي والله.

ذلك المغوي ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي: عن ذكر الله وذكر رسوله ومصاحبة المؤمنين ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ واختلط معي، وصار صديقي وخليلي، بل صار شيطانًا فوسوس عليّ، وأعرضني عن طريق الحق ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ المضلُّ المغوي سواء كان جنًّا أو إنسًا أو نفسًا ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان ﴿خَذُولًا﴾ [الفرقان:29] يخذله ويحرمه عن الجنان، ويسوقه إلى دركات النيران بأنواع الخيبة والحرمان، ونعوذ بك يا ذا الفضل والإحسان من شرِّ الشيطان.

﴿وَ﴾ بعدما طعنوا في القرآن طعنًا كثيرًا، ونبذوه وراء ظهورهم نبذًا يسيرًا بلا التفات لهم إليه وإلى ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿قَالَ الرَّسُولُ﴾ مشتكيًا إلى الله مناجيًا: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي بعثتني إليهم؛ لأهديهم وأرشدهم إلى توحيدك، وأبني لهم حدود ما أنزلت إليَّ من الكتاب المعجز الجامع لجميع ما في الكتب السالفة، المشتمل على جميع المعارف والحقائق والحِكم، والأحكام المتعلقة بالتدين والتخلق في طريق توحيدك وتفريدك وتقديسك، مع أن هؤلاء الجهلة المسرفين ﴿اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ مع سطوع برهانه، وقواطع حججه وتبيانه ﴿مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:30] متروكًا لا يلتفتون إليه ولا يسترشدون منه، ولا يتوجهون نحوه، بل يقدحون فيه ويكذبون، وينسبون إليه ما لا يليق بشأنه.

﴿وَ﴾ بعدما بث ﷺ شكواه إلى ربه، وبسط فيها معه سبحانه ما بسط، قال سبحانه تسليةً له ﷺ، وإزالةً لشكواه: لا تبالِ بهم وبشأنهم، ولا تحزن من سوء فعالهم؛ إذ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما جعلنا لك يا أكمل الرسل أعداءً منكرين مكذبين ﴿جَعَلْنَا﴾ أيضًا

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء الماضين ﴿عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ المنكرين المكذبين لهم، ويسيئون الأدب معهم ويطعنون بكتبهم، ولا ينصرونهم ولا يروجون دينهم ولا يقبلون منهم قولهم، وليس هذا مخصوصًا بك وبدينك وكتابك ﴿وَ﴾ بالجملة: لا تحزن عليهم؛ إذ ﴿كَفَى بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربك لك ﴿هَادِيًا﴾ يرشدك إلى مقصدك، ويغلبك على عدوك ﴿وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:31] حسيبًا يكفيك مؤونة شرورهم وعداوتهم وإنكارهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)﴾ [الفرقان:32-36].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على سبيل الإنكار والتكذيب للقرآن والرسول على وجه الإعراض والاستهزاء: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ من عند ربه كالكتب الثلاثة على الأنبياء الماضين؛ يعني: إنهم استدلوا بنزوله منجمًا على أنه ليس من عند الله؛ إذ من سنته سبحانه إنزال الكتب من عنده سبحانه كالكتب السالفة، قال سبحانه تسليةً لحبيبه، وردًا للمنكرين: إنما أنزلناه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: منجمًا متفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ونشيّد ﴿بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ونمكنك على حفظه نجومًا؛ لأن حالك مخالف لحال موسى وداود وعيسى - صلوات الله عليهم - إذ هم من أهل الإملاء والإنشاء والكتب، وأنت أميّ؛ ولأن إنزاله عليك بحسب الوقائع والأغراض، والإنزال بحسب الوقائع والأغراض أدخل في التأييد ﴿وَ﴾ لهذه الحكمة والمصلحة ﴿رَتَّلْنَاهُ﴾ أي: تلوناه لك وقرأناه عليك ﴿تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:32] شيئًا بعد شيء على التراخي والتدريج في عرض عشرين سنة أو ثلاث وعشرين.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة حِكمة إنزاله منجمًا: إنه ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ عجيب غريب يضربون لك جدلاً ومكابرةً في وقت من الأوقات، وحال من الحالات على تفاوت طبقاتهم ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: جئناك بالمثل الحق على طريق البرهان تأييدًا لك

وترويجًا لأمرك ودينك أوضح بيانًا مما جاءوا به ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:33] وتبيينًا.

وكيف يتأتى منهم المعارضة والمجادلة معك يا أكمل الرسل مع تأييدنا إياك في النشأة الأولى والأخرى، وهم في الدنيا مقهورون مغلوبون، وفي الآخرة ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ ويُسحبون ﴿عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن شرف القبول ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ ومصيرًا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:34] وأخطأ طريقًا، اهدنا بفضلك سواء سبيلك.

ثمَّ أخذ سبحانه في تعداد المنكرين الخارجين على رسل الله، المكذِّبين لهم، المسيئين الأدب معهم، وما جرى عليهم بسوء صنيعهم من أنواع العقوبات والنكبات، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتملة على الأحكام؛ ليبين للأنام ما فيها من الأوامر والنواهي المصفية للنفوس المنغمسة بالمعاصي والآثام؛ ليستعدوا لقبول المعارف والحقائق المنتظرة لهم في استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلِّية ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:35] ظهيرًا له يؤازره، ويعاون له في ترويج دينه وتبيين أحكام كتابه.

وبعدما أيدناهما بإنزال التوراة وإظهار المعجزات ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا بالتصرف في مظاهرنا ومصنوعاتنا إرادةً واختيارًا؛ يعني: فرعون وهامان ومن معهما من العصاة البغاة، الهالكين في تيه العتو والفساد وادعوهم إلى توحيدنا، وأظهروا الدعوة لهم فذهبا على مقتضى الأمر الوجوبي فدعوا فرعون لقومه إلى ما أُمرا، فأبوا عن القبول وكذبوهما، واستهزءوا معهما كبرًا وخيلاءً، فأخذناهم بتكذيبهم واستنكافهم ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان:36] أي: أهلكناهم إهلاكًا كليًا إلى حيث لم يبقَ منهم أحد على وجه الأرض.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا

هُـزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الفرقان:37-42].

﴿وَ﴾ كذا دمرنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ أي: حين كذبوا نوحًا ومن مضى قبلهم من الأنبياء؛ إذ أمرهم نوح بتصديقهم والإيمان بهم فكذبوا بهم تبعًا؛ لذلك ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: جعلنا إغراقنا إياهم بالمرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ المعتبرين من أمثال هذه الوقائع ﴿آيَةً﴾ علامة وعبرة تعتبرون منها وتستوحشون، وتحسنون الأدب مع الله ورسوله خوفًا من بطشه وانتقامه ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون من أخذنا وبطشنا؛ إذ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدودنا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:37] مؤلمًا أشد إيلام، وانتقمنا منهم أصعب انتقام؟!.

﴿وَ﴾ دمرنا أيضًا ﴿عَادًا وَثَمُودَ﴾ يعني: قوم هود وصالح على المكذبين بتكذيبهم إياهما، وإنكارهم على ما ظهرا عليه من الدعوة إلى طريق الحق ﴿وَ﴾ كذا دمرنا ﴿أَصْحَابَ الرَّسِّ﴾[1] أيضًا بتكذيبهم رسولهم.

قيل: كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله سبحانه إليهم شعيبًا ﷺ فكذبوه، وهم يسكنون حينئذٍ حول الرس، وهو البئر الغير المطوية فانهارت، فخسفت بهم وبدارهم.

وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة، كان فيها بقايا ثمود، فبعث الله إليهم نبيًا فقتلوه فهلكوا.

وقيل: أصحاب الرس هي أصحاب الأخدود، وقيل: هو بئر بأنطاكية، قتلوا فيها حبيب النجار.

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي ﷺ، ابتلاهم الله بطيرٍ عظيمٍ كان فيها من كل لونٍ، وسموها عنقاء؛ لطول عنقها، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتخ أو دمخ، وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد؛ فلذلك سميت مغربًا، فدعا

(1) عن ابن عباس هم قوم ثمود. ويبعده العطف لأنه يقتضي التغاير، وقال قتادة: هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج قيل قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود. وقوم صالح، وقال كعب. ومقاتل. والسدي: أهل بئر يقال له الرس بأنطاكية الشام قتلوا فيها صاحب يس وهو حبيب النجار. [تفسير الألوسي (14 /96)].

عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة، ثمَّ إنهم كذبوا حنظلة فقتلوه، فأُهلكوا لذلك.

وقيل: قوم قتلوا نبيهم، فرسُّوه؛ أي: دسوه في بئر.

﴿وَ﴾ بالجملة: دمرنا بواسطة تكذيب رسلنا ﴿قُرُونًا﴾ أُخر؛ أي: أهل قرون وأعصار، قيل: القرن أربعون سنة، وقيل: مائة وعشرون سنة ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمم الهالكة ﴿كَثِيرًا﴾ [الفرقان:38] لا يعلم عددها إلا الله.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُلاً﴾ من الأمم الهالكة المذكورة وغير المذكورة ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أولاً من الذين هلكوا قبلهم بالتكذيب، وبيَّنا لهم الأحكام والشرائع الموضوعة على مقتضى حكمتنا ومصلحتنا، فكذبوهم ظلمًا وعدوانًا فأهلكناهم بتكذيبهم خيبةً وخسرانًا ﴿وَ﴾ بواسطة تلك الخصلة المذمومة المشتركة بينهم ﴿كُلًّا﴾ منهم ﴿تَبَّرْنَا﴾ وفتتنا أجزاءه ﴿تَتْبِيرًا﴾[1] [الفرقان:39] تفتيتًا وتشتيتًا إلى حيث لم يبقَ منهم أحد يخلفهم ويحيي اسمهم.

ثمَّ أخذ سبحانه بتعيير قريش وتوبيخهم وقساوة قلوبهم، وشدة شكيمتهم مع رسول الله ﷺ، وكمال غيهم وغفلتهم عن الله، ونهاية عمههم وسكرتهم، وعتوهم واستكبارهم في أنفسهم إلى حيث لم يتأثروا ولم يتعظوا مما جرى على أمثالهم من العصاة والبغاة، المتمردين على الله ورسله، فقال سبحانه مؤكدًا بالقسم على سبيل التعجب من شدة قساوتهم: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني: قريشًا كانوا يذهبون إلى الشام؛ للتجارة ويمرون في كل مرة ذهابًا وإيابًا ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ﴾ على أهلها ﴿مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: الحجارة؛ قهرًا من الله إياهم، وزجرًا لهم من سوء فعالهم وخروجهم من حدود الله وسوء الأدب مع الله ورسوله؛ يعني: لوطًا، والقرية سدوم معظم بلاد قوم لوط.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في مرات مرورهم؛ حتى يتذكروا ويتعظوا منها ﴿بَلْ كَانُوا﴾ يرونها في كل مرة؛ إذ هي على جنب الطريق، لكن بكفرهم بالله وكمال قدرته وعزته ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يأملون ﴿نُشُورًا﴾ [الفرقان:40] أي: يوم ينشرون فيه

(1) قال ابن أبي زمنين (1/ 480): أي وأهلكنا قرونا يعني أمما قال قتادة القرن سبعون سنة وكلا يعني من ذكر ممن مضى له ضربنا به الأمثال أي خوفناهم العذاب وكلا تبرنا أهلكنا تتبيرا إهلاكا بتكذيبهم رسلهم.

للجزاء، ولا يخافون مما سيجري عليهم فيه؛ لذلك لم يعتبروا ولم يتعظوا منها ومما جرى على أهلها.

﴿وَ﴾ من كمال استكبارهم وشدة غيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿إِذَا رَأَوْكَ﴾ في المرأى ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك، ولا يحدثون عنك وفي شأنك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: كلامًا مُشعرًا بالاستهانة والاستحقار والسخرية؛ حيث يقولون في كل مرة من مرات رؤيتهم بك متهكمين: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ لكم ﴿رَسُولًا﴾ [الفرقان:41] يرشدكم ويهديكم إلى توحيد ربه، ويقيم عليكم الحجج والبراهين؛ ليصرفكم عن آلهتكم وآلهة آبائكم وأسلافكم؟!.

ومن كمال جده وجهده في أمره ونهاية مبالغته في السعي والاجتهاد ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: إنه قرُب؛ ليضلنا ويصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا﴾ أي: ثبتنا ومكّنا ووطنا نفوسنا ﴿عَلَيْهَا﴾ لصرفنا عن آلهتنا؛ أي: على عبادة آلهتنا، وأضلنا عن طريق عبادتهم؛ لسعيه التام وجده البليغ في ترويج دينه وإثبات دعواه، وكثرة إظهار ما يخيل له أنه حجج ومعجزات وكمال فصاحةٍ في تبيينها، وبالجملة: لولا صبرنا وثباتنا على ديننا لضللنا عن آلهتنا بإضلاله، قال سبحانه ردًا عليهم على سبيل التهديد والتوبيخ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أولئك الحمقى الجاهلون ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:42] وأخطأ طريقًا، وأسوأ حالاً ومآلاً، أنتم أيها الجاهلون المصرون على الجهل والعناد، أم المؤمنون؟.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان:43-46].

ثم قال سبحانه على التوبيخ لعامة المشركين المتخذين غير الله إلهًا، سواء كانوا مشركين بالشرك الجلي أو الخفي، المسندين الأفعال والحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الأسباب والوسائل العادية على مقتضى هوية نفوسهم؛ وذلك لجهلهم بالله وغفلتهم عن إحاطة علمه وقدرته، وجميع أوصافه وأسمائه بجميع ما ظهر وبطن، وكان ويكون: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني يا أكمل الرسل إن كنت من أهل الخبرة والذكاء،

أتهدي وترشد إلى التوحيد ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: من اتخذ هواه ومشتهى قلبه إلهًا يعبده كعبادة الله، قدَّم المفعول الثاني؛ للغاية والاهتمام ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:43] حفيظًا تحفظه عن متابعة هواه ومقتضى طبعه، مع أنا جبلناه وأثبتناه في لوح قضائنا وحضرة علمنا أنه من الأشقياء المردودين؟!.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وتظن من كمال حرصك وشفقتك على إيمان هؤلاء الهلكى ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ كلمة التوحيد سمع قبول ورضاء ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ويفهمون معناه فهم عارف متدرب متدبر؟! إلا من سبقت له العناية الأزلية والتوفيق، بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي: ما أكثرهم ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ يأكلون ويمشون، وعن السمع والشعور معزولون ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:44] من الأنعام؛ لأنهم مجبولون على المعرفة والتوحيد، والأنعام ليست كذلك، فهم أسوأ حالاً منها.

فكيف لا يكونون أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأنهم مع استعدادهم وقابلياتهم لقبول فيضان أنوار التوحيد، ومعرفة كيفية سريان الوحدة الذاتية، وامتداد أظلالها على هياكل الموجودات والمظاهر، صاروا محرومين عنها وعن شهودها والاطلاع عليها، غافلين عن لذاتها، مع أنهم إنما جُبلوا؛ لأن يدركوها ويشاهدوا عليها، وينكشفوا بسرائرها، ومع ذلك لا يجتهدون في شأنها، بل لا يلتفتون أيضًا، مع أنه سبحانه أشار إليها وصرَّح بها في كتابه العزيز؛ إرشادًا لنبيه ﷺ وتنبيهًا على من تبعه من المؤمنين؛ ليتفطنوا منها إلى مبدئهم ومعادهم، ويتصفوا بكمال المعرفة والتوحيد.

فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ؛ إذ أمثال هذه الخطابات لا يسع في سمع غيره ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المسترشد البصير، والمستكشف الخبير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: مربيك الذي رباك بأنواع الكمالات وأرفع الدرجات ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[1] أي: كيف بسط أظلال أوصافه

---

(1)قال الشيخ الألوسي (2 /342): على ما يعرفه أهل الذوق من الآية وكان الاستعداد من إبراهيم وكذا من موسى عليهما السلام متوجهًا إلى ابتغاء تلك الطمأنينة كما أبانا عن أنفسهما بـ و(رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) [الأعراف:143] وطمأنينة مقام الصديقية كانت للصديقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما أبدى عن نفسه إمام الصديقين كرم الله تعالى وجهه بقوله: «لو كشف» الخ، وكان الاستعداد في صدِّيقي سائر الأنبياء متوجهًا إلى ابتغاء تلك الطمأنينة فثبتت الفضيلة لمحمد صلى الله عليه وسلم على سائر إخوانه من الأنبياء والصديقية على سائر الصديقين من أممهم، ولم يثبت لصديقيه لوجدانهم طمأنينتهم الفضيلة على الأنبياء عند فقدانهم طمأنينتهم؛

وأسمائه، وعكوس شئونه وتطوراته على مرايا الإعدام القابلة، فيتراءى؛ أي: حسب اقتضاء أسمائه الحسنى وصفاته العليا ما لا يتناهى من الصور العجيبة والهياكل الغريبة حتى يتوهم المحجوبون أنها موجودات حقيقية متأصلة الوجود، مستقلة في الآثار المترتبة عليها.

ثمّ افترقوا، فذهب قوم إلى أنها موجودات متأصلة مستقلة بأنفسها، مستغنية عن فاعل خارجي يؤثر فيها، وهم الدهريون الجاهلون، القائلون بأن الطبيعة تكفي في تكوّن الأشياء، وإذا وجدت الشرائط وارتفعت الموانع تكوّن الشيء ألبتة بلا احتياج إلى فاعل خارجي مؤثر في وجوده، ولم يتفطنوا أولئك الحمقى أن هذه الصور باقية على عدماتها الأصلية، ما شمت رائحة من الوجود سوى أن ظل الوجود انبسط عليها.

لأن ما فقدوه من الطمأنينة غير ما وجده الصديقون منها؛ لأنهم إنما يفقدون الطمأنينة اللائقة بمقام النبوة والصديقون لم يجدوا مثل تلك الطمأنينة وإنما وجدوا طمأنينة لائقة بمقام الصديقين ولو رضي النبيون بمثله لكان حاصلاً لهم، وأجل من ذلك بعدة مراتب، ولقد اعترف الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه بهذا التخلف حين بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إني لأسهو فقال: يا ليتني كنت سهو محمد صلى الله عليه وسلم إذ علم أن ما يعده رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه الكريمة سهوًا فوق أعلى يقظان الصديق إذ حسنات الأبرار سيآت المقربين وحسنات المقربين سيآت النبيين، وهذا أولى مما سبق، وبعض من المتصوفة كجهلة الشيعة التزموا ظاهر كل من الكلامين وزعموا أن أولياء هذه الأمة وصديقهم أعلى كعبًا من الأنبياء ولو نالوا مقام الصديقية محتجين بما روي عن الإمام الرباني سيدي وسندي عبد القادر الكيلاني قدس سره أنه قال: يا معشر الأنبياء الفرق بيننا وبينكم بالألقاب وأوتينا ما لم تؤتوه، وببعض عبارات للشيخ الأكبر قدس سره ينطق بذلك، وأنت تعلم أن التزام ذلك والقول به خرق لإجماع المسلمين ومصادم للأدلة القطعية على أفضلية الأنبياء على سائر الخلق أجمعين، ويوشك أن يكون القول به كفرًا بل قد قيل به، وما روي عن الشيخ عبد القادر قدس سره فمما لم يثبت نقله عنه في كتاب يعول عليه، وما يعزى إلى الشيخ الأكبر قدس سره فتعارضه عبارات له أخر، مثل قوله قدس سره وهو الذي تعلم ترجمته لنفسه وعده إياها من أكبر الصديقين بل خاتم الولاية الخاصة والمقام المحمدي: فتح لي قدر خرم إبرة من مقام النبوة تجلياً لا دخولاً فكدت أحترق، وبتقدير تسليم ما نقل عمن نقل والقول بعدم قوة المعارض لنا أن نقول: إن ذلك القول صدر عن القائل عند فنائه في الحقيقة المحمدية والذات الأحمدية فاللسان حينئذ لسانها والقول قولها ولم يصدر ذلك منه حين رؤية نفسه، والوقوف عند رتبته وهذا غير ما ذهب إليه الشيعة وبعيد عنه بمراحل، ولعل النوبة تفضي إلى تحقيقه بأتم من هذا إن شاء الله تعالى، فخزائن الفكر ولله الحمد مملوءة، ولكل مقام مقال.

وآخر إلى أنها موجودات حقيقية قديمات بأنواع لها صور ومواد قديمة محتاجة إلى فاعل خارجي مؤثر موجب بمقارنة الصور للمادة، وهذا مذهب جمهور الحكماء، وهؤلاء الهلكى القاصرون عن درك الحق أيضًا لم يتنبهوا ألّا قديم في الوجود إلا الله الواحد القهار للسوى والأغيار مطلقًا.

وآخر إلى أنها موجودات حقيقية أبدعها الله تعالى من العدم بمقتضى علمه وقدرته وإرادته واختياره بلا وجوب شيء عليه في إيجادها، وبلا سبق مادة ومدة عليها، وهذا مذهب جمهور المتكلمين، وهؤلاء أيضًا لم يتنبهوا أن العدم لا يقبل الوجود أصلاً، كما أن الوجود لا يقبل العدم أصلاً؛ إذ بينهما تضاد حقيقي لا يتصف أحدهما بالآخر مطلقًا.

ومنشأ توهم هؤلاء الفرق الثلاث اقتصار نظرهم على الصور المرئية ظاهرًا وغفلتهم عن ذي الصورة التي هي عكوس وأظلال وآثار له، ولو علموا ارتباط هذه الصور بذي الصورة، وكوشفوا بوحدة الوجود، وشهدوا ألّا موجود إلا الله الواحد القهار لجميع الأغيار لم يبقَ لهم شائبة شك في عدمية هذه الصور المرئية، كما لاشك لهم في عدمية الصور المرئية في المرايا والأظلال، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له نور.

﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ وأراد سبحانه عدم انبساط عكس وجوده وانبعاث العدم على صرافته، ولم يجعله مرآة لكمالات وجوده ولم يلتفت إليها، ولم ينحل عليها ﴿لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: جعل ظل وجوده مقبوضًا غير مبسوط؛ لفني العالم دفعةً ألبتة ﴿ثُمَّ﴾ أوضحنا هذا المد والبسط بمثال واضح من جملة المحسوسات عنايةً منا لعبادنا بأن ﴿جَعَلْنَا الشَّمْسَ﴾ في إضاءتها وإشراقها، وانبساط نورها وشعاعها على ظلمة الليل المشابهة بالعدم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على بسط الوجود على مرايا الأعدام ﴿دَلِيلًا﴾ [الفرقان: 45] مثالاً موضحًا واضحًا لكيفية امتداد أظلال الوجود وانعكاسها من العدم؛ وذلك أن الشمس إذا أخذت في الإشراق، وبسطت على النور والآفاق، استنار العالم بعدما كان مظلمًا، وإذا قبضت عاد على ظلمته الأصلية.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما بسطنا ظل وجودنا على هياكل المظاهر والموجودات ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ دفعًا لتوهم الشركة المنافية لصرافة التوحيد، وإن كان بحسب الظاهر؛ إذ لا موجود حقيقة إلا الله الواحد القهار ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: 46] سهلاً.

فإن قدرنا له التغير والتجدد على تعاقب الأمثال؛ ليدل على ألّا وجود لها لذاتها؛ إذ لو كان لها وجود من نفسها لم يطرأ عليها التغير والانتقال، فعلم من هذه التغيرات الواقعة في الأكوان ألّا وجود لها في الحقيقة، بل لا وجود حقيقةً إلا للواجب الذي هو نفس الوجود.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:47-52].

ثمّ تنزل سبحانه عن خطاب حبيبه ﷺ في المعارف والحقائق المتعلقة بالوحدة الذاتية السارية في الأكوان، وكيفية ارتباط الأكوان عليها إلى مخاطبة العوام ومقتضى استعداداتهم وقابلياتهم فقال: وكيف تغفلون عن مبدعكم ومظهركم أيها الغافلون؟! ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تسترون بظلمته عن أعين الناس؛ لئلا يطلع بعضكم على مقابح بعض ﴿وَ﴾ جعل ﴿النَّوْمَ﴾ فيه ﴿سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان بعد قطع المشاغل وقضاء الأوطار المتعلقة بالنهار ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:47] تنتشرون في أقطار الأرض؛ لطلب المعاش، كل ذلك بتقدير الله وتدبيره وإصلاحه لأمور عباده.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ مبشرًا ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يبشركم بنزوله ﴿وَ﴾ بعد تبشيرنا إياكم بالرياح المبشرات ﴿أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:48] متناهيًا في الطهارة، مبالغًا أقصى غاياتها.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ قفرًا يابسًا جامدًا بأنواع النباتات والخضروات ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أي: بالماء ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾ في البراري والبوادي ﴿أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[1] [الفرقان:49] وهي جمع: إنسان، حذف نونه عوضًا منها الياء فادغم، أو

(1) قال الشيخ الألوسي (14 /114): تخصيص هذا النوع بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون

جمع: إنسي؛ لبعدهم عن المنابع والأنهار.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أي: المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ إنعامًا لهم وإصلاحًا لحالهم، وكررنا ذكره في هذا الكتاب، وكذا في الكتب السالفة ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ويتفكروا في نعمنا وإنعامنا، ويواظبوا على شكرنا؛ ليزداد لهم، ومع ذلك ﴿فَأَبَى﴾ وامتنع ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ عن قبوله وما يزيدون ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:50] أي: كفرانًا للنعم وإنكارًا لمنعها، حيث يقولون منكرًا على المنعم: مُطرنا بنوء كذا.

﴿وَ﴾ من شدة بغيهم وكفرانهم ﴿لَوْ شِئْنَا﴾ وتعلق مشيئتنا؛ لإنذار كل منهم بمنذر مخصوص ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ من القرى نبيًا ﴿نَذِيرًا﴾ [الفرقان:51] ينذرهم عما هم عليه من الكفران والطغيان، ولكن بعثناك يا أكمل الرسل إلى كافتهم وعامتهم تعظيمًا لشأنك وإجلالاً لك، فلك ألّا تعي من حمل أعباء رسالتنا وتبليغ ما أمرناك به، ولا تلتفت إلى مزخرفاتهم التي أرادوا أن يخدعوك بها.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد مطلقًا ﴿وَ﴾ لا تتبع أهوائهم، بل ﴿جَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بدينك هذا ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:52] حتى تقمع وتقلع دينهم الباطل، وتروج أمر دينك الحق ترويجًا بليغًا إلى حيث يظهر دينك على الأديان كلها ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6].

﴿ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا

بقرب الأنهار والمنابع فيهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقي السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبًا، ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد أنواع النعمة فالأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها أحياء الأرض، فإنه سبب لحياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الأسباب على المسببات، وجوز أن يكون تقديم ما ذكر على سقي الأناسي؛ لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقي أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والأصل في باب الامتنان، وذكر سقي الأناسي على هذا إرداف وتتميم للاستيعاب، ومن تبعيضية أو بيانية و(كَثِيرًا) صفة للمتعاطفين لا على البدل.

أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان:53-57].

﴿وَ﴾ قل لهم تنبيهًا عليهم: كيف تغفلون عن ربكم وعن دينه الموضوع فيكم إصلاحًا لحالكم؟! ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: التوحيد والشرك كلاهما متجاورين متلاصقين، مع أنه ﴿هَذَا﴾ أي: التوحيد ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ سائغ شرابه للمتعطشين بزلاله ﴿وَهَذَا﴾ أي: الشرك والكفر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالح في كمال الملوحة إلى حيث يقطع أمعاء شاربيه ﴿وَ﴾ من كمال لطف الله على عباده ﴿جَعَلَ﴾ سبحانه دين الإسلام والشريعة الموضوعة؛ للضبط ﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين التوحيد والشرك ﴿بَرْزَخًا﴾ مانعًا عن التصاقهما واتصالهما ﴿وَ﴾ جعله ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان:53] أي: حدًا محدودًا، مانعًا عن امتزاجهما واختلاطهما.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون أيها المنكرون سريان وحدته الذاتية على صفائح مظاهره ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وأوجد تنبيهًا لعباده على سر توحيده ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: من نقطة النطفة ﴿بَشَرًا﴾ سويًا ذا أجزاء مختلفة طبعًا وشكلاً، صلابةً ولينًا، قوةً وضعفًا، رقةً وغلظًا، إلى غير ذلك من الصفات المتقابلة والأجزاء المتفاوتة التي عجزت عن تشريح جزءٍ من أجزاء شخص من أشخاص نوع الإنسان فحول الحكماء، مع وفور دواعيهم لكشفها إلى حيث تاهوا وتحيروا عن ضبط ما فيه من الامتزاجات والارتباطات، فكيف عن جميع أجزائه؟! وبعدما قدَّره سبحانه، وسوَّاه بكمال قدرته وقوته، ووفور حكمته قسَّمه قسمين ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا﴾ أي: جعل قسمًا منه ذكرًا ذا نسب ونسل ينسب إليه من يخلفه من أولاده الحاصلة من نطفة.

﴿وَ﴾ جعل قسمًا آخر منه ﴿صِهْرًا﴾ أي: أنثى يصاهر بها؛ أي: يختلط ويمتزج الذكر معها؛ إبقاءً للنوع وتتميمًا لبقائه على سبيل التناسل والتوالد إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك يا أكمل الرسل على كمال الذكاء والفطنة في فهم سرائر توحيده، ورقائق تجلياته الجلالية والجمالية ﴿قَدِيرًا﴾ [الفرقان:54] على ما شاء وأراد بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ مع كمال قدرته سبحانه، وعلو شأنه وسطوع برهانه ﴿يَعْبُدُونَ﴾ من خبث طينتهم وشدة قسوتهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الحقيق بالعبودية ذاتًا ووصفًا واسمًا ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني: أصنامًا وأوثانًا لا يُرجى نفعهم ولا ضرهم لا لأنفسهم ولا

لغيرهم وبالجملة: لا يملكون شيئًا من لوازم الألوهية والربوبية مطلقًا ﴿وَكَانَ الكَافِرُ﴾ الجاحد الجاهل بذات الله وكمال أسمائه وصفاته ﴿عَلَى رَبِّهِ﴾ الذي رباه بمقتضيات أوصافه وأسمائه ﴿ظَهِيرًا﴾ [الفرقان:55] يظهر عليه بالباطل ويظاهره، وينبذ الحق وراء ظهره ويخالفه، ولا يلتفت إليه عتوًا واستكبارًا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1] [الفرقان:56] إلى كافة البرايا وعامة العباد؛ لتبشرهم على ما ينفعهم، وتنذرهم عما يضرهم؛ يعني: تهديهم إلى المعرفة والتوحيد الذي هم جُبلوا لأجله، وتمنعهم عن المفاسد المنافية له ولطريقه.

وإن نسبوك يا أكمل الرسل إلى أخذ الجُعل والرشا؛ لإرشادك وإهدائك إياهم ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتًا وإلزامًا: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم ما أُوحي إلي من ربي، وإرشادي لكم بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعل ومال آخذه منكم، وأجعله سببًا للجاه والثروة وأنواع المفاخرة والمباهاة بها، كما هو عادة الجهلة المتشيخين في هذا الزمان الذين هم من أعوان الشيطان، نسبوا أنفسهم إلى الصوفية المتشرعين تلبيسًا وتغريرًا، وأخذوا من ضعفاء العوام من حطام الدنيا بعدما أفسدوا عقائدهم بأنواع التلبيسات والتدليسات، وتحليل المحرمات وإباحة المحظورات واختزنوها.

ثمّ ادعوا بسببها الرئاسة والسيادة حتى مضوا عليها زمانًا، وكثر الأتباع والأحشام، وهيأوا الأعوان والأنصار بتلبيسهم هذا، ثمّ بعد ذلك بغوا على السلطان وقصدوا الخروج على أولي الأمر والطاعة، واشتغلوا بتخريب البلدان وإضرار أهل الإيمان، وقصدوا أموال الأنام وأعراضهم وسبي ذراريهم، ومع ذلك سموا أنفسهم أهل الحق والعدل، وأرباب المعرفة والإيمان، وأصحاب التحقيق واليقين، ألا ذلك هو الخسران المبين والطغيان العظيم. عصمنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. بل ما أطلب بتبليغي هذا ﴿إِلَّا﴾ هداية ﴿مَن شَاءَ﴾ وأراد بتوفيق الله إياه ممن سبقت لهم العناية الأزلية ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ ويطلب ﴿إِلَى رَبِّهِ﴾ الذي رباه بأنواع الكرامات ﴿سَبِيلًا﴾ [الفرقان:57] يوصله إلى

---

(1) والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لا شيء عليك من كفرهم فإني ما أرسلتك إلا مبشراً للمطيعين ونذيراً للجاحدين فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به وإلا فليس عليك من كفرهم شيء. انظر [تفسير الرازي (10 /147)].

معرفته وتوحيده.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: 58-62].

﴿وَ﴾ إن انصرفوا عنك وأعرضوا عن هدايتك وإرشادك، وقصدوا تعنتك وقتلك عدوانًا وظلمًا، فلا تبالِ يا أكمل الرسل بهم وبشأنهم ولا تحزن عن أمرهم، بل ﴿تَوَكَّلْ﴾ في مقابلتهم ومقاومتهم ﴿عَلَى الْحَيِّ﴾ القيوم ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: لا يعرضه الموت والفناء ﴿وَسَبِّحْ﴾ ربك ونزهه عما لا يليق بشأنه مقارنًا تسبيحك ﴿بِحَمْدِهِ﴾ على آلائه ونعمائه الفائضة عليك على التعاقب والتوالي، سيما على ما اصطفاك من بين البرايا، وأعطاك الرئاسة والسيادة على كافة الأنام، والرسالة على قاطبة الأمم، بلغ ما أنزل إليك ولا تفرح من إيمانهم، ولا تحزن على كفرهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿كَفَى بِهِ﴾ أي: كفى الله سبحانه عالمًا ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منهم وما سيظهر، وما بطن في استعداداتهم، وكن في قابلياتهم ﴿خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 58] مطلعًا بصيرًا على وجه الحضور والشهود لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء منها، مجازيًا قديرًا، ومنتقمًا عزيزًا يجازيهم بقدرته على مقتضى اطلاعه وخبرته.

وكيف لا يعلم ويطلع سبحانه بجميع ما ظهر وبطن، وهو ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أبدعهما وأظهرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من كتم العدم بلا سبق الهيولي والزمان ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: على عدد الجهات والأقطار المحفوفة بجميع الكوائن والفواسد ﴿ثُمَّ﴾ بعدما كمل ترتيبها على أبلغ نظام ﴿اسْتَوَى﴾ وتمكن وانبسط ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على عروش جميع المظاهر بالاستيلاء التام والبسطة العامة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل ما ظهر وبطن، غيبًا وشهادة.

﴿فَاسْئَلْ بِهِ﴾ أي: بما ذكر من خبرة الله وإحاطة علمه وقدرته وإظهاره ما ظهر

وبطن عينًا وشهادةً، وإحاطته واستيلائه على عروش الرحمن بالرحمة العامة ﴿خَبِيرًا﴾ [الفرقان:59] ذا خبرة يخبرك بصدقها من أرباب القلوب الواصلين إلى مرتبة الكشف وعموم الشهود ممن سبقت لهم العناية الأزلية، والجذبة الجالبة الغالبة من قبل الحق، المفنية لهم عن أنانياتهم، المبقية لهم ببقاء الحق.

﴿وَ﴾ مع ظهور استيلاء الحق وانبساطه على عروش ذرائر الأكوان ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ على سبيل الإيقاظ عن نعاس النسيان، والتنبيه عن نومة الحرمان: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ المظهر لكم من كتم العدم بسعة رحمته وجوده ﴿قَالُوا﴾ منكرين له مع كمال ظهوره مستفهمين على سبيل الاستغراب والاستبعاد: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ الذي تدعوننا إلى سجوده؟ أتوا بالسؤال بلفظة (ما) من كمال نكارته عندهم وشدة إنكارهم عليه، قائلين: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لكل شيء تأمرنا بسجوده أنت من تلقاء نفسك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:60] أي: ما زاد دعوتك إياهم وإرشادك لهم إلا نفورًا عن الحق وطريق توحيده؛ لخبث طينتهم وشدة شكيمتهم، وكمال غيهم وقسوتهم.

وكيف تنفرون وتنصرفون هؤلاء الجاهلون الغافلون عن سجوده سبحانه، مع أنه ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى عن شأنه، عن أن ينصرف عنه وينفر منه أحد من عباده، مع كثرة خيراته وبركاته عليهم؛ لأنه ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: العلويات ﴿بُرُوجًا﴾[1]

---

(1) قال الألوسي (130/14): الظاهر أنها البروج الإثنا عشر المعروفة. وأخرج ذلك الخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهي في الأصل القصور العالية وأطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها ، وعن الزجاج أن البرج كل مرتفع فلا حاجة إلى التشبيه أو النقل . واشتقاقه من التبرج بمعنى الظهور ، والذي يقتضيه مشرب أهل الحديث أنها في السماء الدنيا ولا مانع منه عقلاً لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يسع الكواكب وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة وهي عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم إطلاق السماء عليه وإن كان صحيحاً لغة سميت بأسماء صور من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقت اعتبار القسمة وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثواب، وقد قارب في هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولاً وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعي وهي نقطة معينة من معدل النهار لا تتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منقطة البروج تتحرك بحركته وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها، وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية وهي الحمل. والثور. والجوزاء وتسمى التوأمين أيضاً، وثلاثة صيفية وهي السرطان. والأسد والسنبلة وتسمى العذراء أيضاً وهذه الستة شمالية. وثلاثة خريفية وهي الميزان.

لتكون منازل للكواكب المدبرة للأمور الأرضية ﴿وَ﴾ بعدما هيأها سبحانه على أبلغ النظام ﴿جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ أي: شمسًا دائرة من برج إلى برج ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61] منقلبًا من منزل إلى منزل من المنازل المذكورة؛ ليحصل من دورها وانقلابها الفصول الأربعة المصلحة لأحوال ما في السفليات من المواليد الثلاثة.

﴿وَ﴾ كيف تغفلون عن الصانع الحكيم أيها الضالون ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ متعاقبة متجددة، فخلف أحدهما الآخر؛ ليكون مرصدًا وميقاتًا ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ ويتذكر آلاء الله المتوالية المتتالية عليه، الفائضة من عنده على تعاقب الأوقات والساعات ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:62] أي: أراد أن يشكر على نعمائه الواصلة إليه في خلالهما.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

والعقرب. والقوس ويسمى الرامي أيضاً ، وثلاثة شتوية وهي الجدي. والدلو. ويسمى الدالي وساكب الماء أيضاً. والحوت تسمى السمكتين وهذه الستة جنوبية، ولحلو الشمس في كل من الأثني عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة الليل والنهار طولاً وقصراً وبذلك يظهر بحكم جري العادة في عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجه البركة في جعلها. وأما ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شيء منها طالعاً وقت الولادة أو شروع في عمل من الأعمال أو وقت حلول الشمس نقطة الحمل الذي هو مبدأ السنة الشمسية في المشهور فهو محض ظن ورجم بالغيب وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك مفصلاً ، ولهم في تقسيمها إلى مذكر ومؤنث وليلي ونهاري وحار وبارد وسعد ونحس إلى غير ذلك كلام طويل ولعلنا نذكر شيئاً منه بعد أن شاء الله تعالى، ومن أراده مستوفى فليرجع إلى كتبهم ، ثم الظاهر أن البروج المجعولة مما لا دخل للاعتبار فيها، والمذكور في كلام أهل الهيئة أنها حاصلة من اعتبار فرض ست دوائر معلومة قاطعة للعالم فيكون للاعتبار دخل فيها وإن لم تكن في ذلك كأنياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها فإن كان الأمر على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتبر تقسيم ما هي فيه إلى اثنتي عشرة قطعة وتسمى كل قطعة برجًا، فالظاهر أن المراد بجعله تعالى إياها جعل ما يتم به ذلك الاعتبار ويتحقق به أمر التفاوت والاختلاف بين تلك البروج، وفيه من الخير الكثير ما فيه ، وقيل: إن في الآية إيماء إلى أن اعتبار التقسيم كان عن وحي ، والمشهور أن من اعتبر ذلك أولاً هرمس وهو على ما قيل ادريس عليه السلام فتأمل.

اَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا
﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾
[الفرقان:63-67].

﴿وَ﴾ المتذكرون لآلاء الله، المواظبون لأداء حقوقها حسب طاقتهم، هم ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الواصلون إلى مرتبة الرضوان، الفائزون بلقاء الرحمن، وهم ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى﴾ وجه ﴿الأَرْضِ﴾ التي هي محل أنواع الفسادات ﴿هَوْنًا﴾ هينين لينين بلا منازعة وجدال مع أحد من بني نوعهم، وسوء خصال معهم من كبر وخيلاء ﴿وَ﴾ هم من كمال سكينتهم ووقارهم، وتلطفهم مع عباد الله ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ﴾ بعلو شأنهم ورفعة مكانهم بما يكرهون من الشتم والوقاحة والاستهزاء.

﴿قَالُوا﴾ من سلامة نفوسهم وطيب قلوبهم: ﴿سَلامًا﴾ [الفرقان:63] أي: تسليمًا عليهم بلا تغير وتأثر من قولهم، وتركًا لانتقامهم ومخاصمتهم، توطينًا لنفوسهم على التسليم والرضا بجريان القضاء والحلم وكظم الغيظ، هذا حالهم وشغلهم بين الناس في النهار.

﴿وَ﴾ شغلهم في الليل، هم ﴿الَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ ويدخلون في الليل بائتين، صاروا في خلاله ﴿لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ ساجدين، واضعين جباههم على تراب المذلة؛ طلبًا لمرضاة الله بلا شوب السمعة والرياء، والعجب والهوى؛ لكونهم خالين في خلاله مع الله بلا وقوف أحد عليهم ﴿وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:64] قائمين بين يدي الله تواضعًا وخدمةً ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع الله في خلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات ﴿اصْرِفْ عَنَّا﴾ بفضلك وجودك ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ المعد لعصاة عبادك ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:65] حتمًا لازمًا لنا، لولا فضلك بنا وإحسانك علينا، فإنهم مع كمال توجههم وتحننهم نحو الحق على وجه الإخلاص ورسوخهم في الأعمال الصالحة الخالصة بلا فوت شيء من لوازمها خائفون، وجلون عن بطشه سبحانه وانتقامه؛ لأنهم لا يتكئون ولا يتكلون إلى أعمالهم وطاعاتهم، ولا يثقون بها.

بل ما يعتمدون ويتكلمون إلا بفضل الله وسعة رحمته وجوده قائلين، مستعيذين من النار: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: جهنم البعد والحرمان ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ يستقر أحد فيها ساعةً وآنًا ﴿وَ﴾ كيف أن تجعل لنا يا مولانا ﴿مُقَامًا﴾ [الفرقان:66] نقيم فيها زمانًا.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ مما رزقهم الله من الأطايب على الفقراء والمساكين ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ في الإنفاق إلى أن وصل حد التبذير المذموم عقلاً وشرعًا ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ في الإمساك والمنع إلى أن وصل حد التقتير المحرّم، المكروه شرعًا ومروءة، بل ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:67] وسطًا عدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين، الساقطين عن درجة الاعتبار عند الله وعند الناس، المسقطين للنفس عن الاعتدال الحقيقي المقبول عند الله وعند عموم عباده.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)﴾ [الفرقان:68-71].

﴿وَ﴾ بالجملة: هم الموحدون ﴿الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿إِلَهاً آخَرَ﴾ يستحق للعبودية مثله ﴿وَ﴾ من جملة خصائلهم الحميدة: إنهم ﴿لَا يَقْتُلُونَ﴾ بحال من الأحوال ﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه قتلها؛ إذ كل نفس من النفوس البشرية إنما وضعت وبنيت بيتًا لله، مهبطًا معه ولوحيه وإلهامه، محلاً لحلول سلطان وحدته الذاتية ومجلى لظهور أسمائه الحسنى وصفاته العليا العظمى الكاملة، فلا يصح هدم بيته وتخريب بنائه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالرخصة الشرعية الموضوعة بوضع الله سبحانه حدًا وقصاصًا.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم الحميدة: إنهم ﴿لَا يَزْنُونَ﴾ عدوانًا وعدولاً عن مقتضى الحد الشرعي والوضع الإلهي في حفظ النسب عن اختلاط النطف؛ إذ هي من أخس المحرمات وأفحش المحظورات؛ لذلك عقّبه سبحانه بالوعيد الهائل، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: الزنا التي هي الفعلة الشنيعة، والديدنة القبيحة المتناهية في القبح والشناعة المستكرهة عند الطباع السليمة، المسقطة للمروءة والعدالة ﴿يَلْقَ﴾ يوم الجزاء ﴿أَثَامًا﴾ [الفرقان:68] أي: جزاء مسمى بالأثام مبالغةً وتأكيدًا، كأن اسم الإثم موضوع له حقيقةً وهي جامع لجميع ما يطلق عليه اسم الإثم ادعاءً لذلك.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا ضعفًا مرة، بل أضعافًا كثيرةً، ومع ذلك التضعيف والتشديد ﴿وَيَخْلُدْ﴾ ويدوم ﴿فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ [الفرقان:69] صاغرًا ذليلاً بالنسبة إلى جميع أهل النار؛ إذ الزنا من أقبح الجرائم عند الله وأفحشها؛ إذ لا جُرم عنده سبحانه أعظم من هتك محارمه، أعاذنا الله من ذلك.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عما جرى عليه من سوء القضاء، ورجع إلى الله نادمًا عن فعله خائبًا خاسرًا، مستحييًا من الله، خائفًا عن بطشه، مكذبًا لنفسه، معيرًا عليها، متأوهًا متحسرًا عما صدر عنه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آمَنَ﴾ بتوحيد الله، وأكَّد توبته بتجديد الإيمان المقارن بالإخلاص الصائن للمؤمنين عن ارتكاب المحظورات المنافية للإيمان، وبالجملة: جدد إيمانه معتقدًا أنه حين صدر عنه لم يكن مؤمنًا ﴿وَ﴾ مع التوبة وتجديد الإيمان ﴿عَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ منبئًا عن إخلاصه في إيمانه وتوبته، مشعرًا على يقينه ومعرفته.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء التائبون الآيبون المقبولون، هم الذين ﴿يُبَدِّلُ اللهُ﴾ الحكيم المصلح لأحوال عباده بعدما وفقهم على التوبة الخالصة والإنابة الصحيحة الوثيقة ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي أتوا بها قبل التوبة ﴿حَسَنَاتٍ﴾ بعدها، بأن يمحو سبحانه بفضله معاصيهم المثبتة في صحائف أعمالهم قبل إنابتهم، ويثبت بدلها حسنات بعدها ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده وإخلاصهم ﴿غَفُورًا﴾ لهم، متجاوزًا عن ذنوبهم وإن عظمت بعدما جاءوا بالتوبة الخالصة ﴿رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:70] يقبل توبتهم ويعفو زلتهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن تَابَ﴾ ورجع إلى الله نادمًا عما مضى عليه من المعاصي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ تلافيًا لما فات من الطاعات والحسنات، جابرًا لما انكسر من قوائم إيمانه وأعماله بالمفاسد والآثام ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ﴾ ويرجع ﴿إِلَى اللهِ﴾ المتفضل المحسن الكريم الرحيم ﴿مَتَابًا﴾ [الفرقان:71] أي: توبة مقبولة عند الله، مرضية دونه.

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ
الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان:72-77].

﴿وَ﴾ المؤمنون المقبولون المبرورون عند الله، هم ﴿الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: الشهادة الباطلة المسقطة للعدالة والمروءة أصلاً ﴿وَ﴾ أيضا ﴿إِذَا مَرُّوا﴾ فجأة بلا سبق ترقب منهم وتجسس ﴿بِاللَّغْوِ﴾ مطلقًا؛ أي: ما يجب أن يلغو ويطرح من المكروهات والمحظورات والمستقبحات، سواء كان قوليًا أو فعليًا ﴿مَرُّوا﴾ عليها ﴿كِرَامًا﴾ [الفرقان:72] أي: مكرِّمين أنفسهم عن الوقوف عليه، مستغفرين مَن الله لمن ابتلاه الله به غاضين أبصارهم عن تدقيق النظر نحوه وتكرير المشاهدة إليه، والمبالغة في المطارحة والمطالعة فيه، وبالجملة: مروا باللغو على وجه التلطف والرفق والتليين؛ بحيث يستحيي من رفعته ولطفه المبتلون به؛ لعل الله يتوب عليهم بكرامة كرمه، إلى حيث لا يحومون حول ذلك اللغو بعد ذلك أصلاً.

﴿وَ﴾ هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ ولم يسقطوا ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الآيات ﴿صُمًّا﴾ أصمين غافلين عما فيها من الأوامر والنواهي، والعبر والأمثال، والرموز والإشارات ﴿وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:73] أعمياء عن مطالعة آثار أوصاف صفاته الجلالية والجمالية فيها بل يخرون ويتذللون عند سماعها، واعين حافظين بما فيها من المواعظ والتذكيرات المتعلقة لأحوالهم في النشأتين، مطالعين منها آثار الأوصاف والأسماء الإلهية، ناظرين عليها بنظر الاعتبار والاستبصار.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين مناجين متضرعين، قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد والإيقان ﴿هَبْ لَنَا﴾ بفضلك، وسعة لطفك وجودك من في حوزتنا وجوارنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: اجعلهم بحيث تقر وتتنور عيوننا برؤيتهم من كمال صلاحهم وسدادهم، ممتثلين بأوامرك، مجتنبين عن نواهيك ﴿وَ﴾ بعدما وهبتنا يا مولانا ولأهلينا ما تقر به عيوننا من الاتقاء عن محارمك والامتثال بأوامرك، و﴿اجْعَلْنَا﴾ بلطفك ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المحترزين الحذرين عن محارمك ومنهياتك ﴿إِمَامًا﴾ [الفرقان:74] مقتدى بهم، نرشدهم إلى طريق توحيدك.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المذكورة أوصافهم من قوله

سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ...﴾ [الفرقان:63] إلى هنا، هم الذين ﴿يُجْزَوْنَ﴾ من عند ربهم تفضلاً عليهم وامتنانًا ﴿الْغُرْفَةَ﴾[1] وهي أعلى درجات الجنان ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب ما صبروا على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات، والتحمل على قطع التعلقات وترك المألوفات، والذب عن جملة المشتهيات والمستلذات ﴿وَ﴾ بعدما استقروا عليها ﴿يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ وترحيبًا من الملائكة من جميع الجوانب ﴿وَسَلامًا﴾ [الفرقان:75] أي: سلامة عن جميع الآفات.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة لا يتحولون عنها ولا يتبدلون، بل دائمون فيها مقيمون؛ لذلك ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ مستقرون فيها ومتمكنون عليها ﴿وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 76] يقيمون ويتوطنون فيها.

ثمّ لمّا دعا رسول الله ﷺ عموم المشركين إلى الإيمان والتوحيد، وأمرهم بالإطاعة والانقياد على ما أمرهم الله، ونهاهم عما نهاهم سبحانه على مقتضى الوحي الإلهي والكتاب المنزل من عنده كذبوه، وأنكروا له قائلين: نحن لا نؤمن بك ولا بكتابك ولا بربك الذي ادَّعيت الرسالة عنه، ولا نطيع بما أُمرنا ونُهينا عنه، وبالجملة: لا نقبل منك جميع ما جئت به من قِبَل ربك، ونسبته إليه افتراءً ومراءً.

ردَّ الله عليهم قولهم هذا على أبلغ وجه وآكده مخاطبًا لحبيبه ﷺ، آمرًا له بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما انصرفوا عن دعوتك، والإيمان بك وبربك والعمل بكتابك: ﴿مَا يَعْبَأُ﴾ أي: ما يبالي ويعتد بكم وبإيمانكم وكفركم ﴿بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: إطاعتكم وعبادتكم إياه وانقيادكم له ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بي وبربي، وأنكرتم بجميع ما جئتُ

(1) الغرفة ربما كان المقصود بها الجنة، أو المكان الخاص في الجنة، كما أن الغرفة أكرم من البهو فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الأرض، عندما يستقبلون الأضياف، وأولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم، يستقبلون في الغرفة بالتحية والسلام، جزاء ما صبروا على تلك الصفات والسمات، وهو تعبير ذو دلالة، فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس، ومغريات الحياة، ودوافع السقوط، والاستقامة جهد لا يقدر عليه إلا بالصبر، الصبر الذي يستحق أن يذكره الله في هذا الفرقان، وفي مقابل جهنم التي يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقراً ومقاماً، يجزيهم الله الجنة (خالدين فيها . حسنت مستقراً ومقاماً) فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله، وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام، والآن وقد صور عباد الرحمن، تلك الخلاصة الصافية للبشرية، يختم السورة بهوان البشرية على الله لولا هؤلاء الذين يتطلعون إلى السماء، فأما المكذبون فالعذاب حتم عليهم لزام.

به من عنده سبحانه عنادًا ومكابرةً، الزموا مكانكم فتربصوا، وانتظروا لجزاء تكذيبكم وإنكاركم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان:77] أي: سيكون جزاء تكذيبكم حتمًا لازمًا عليكم غير منقطعٍ عنكم أبدًا، بل يكبكم في النار خالدين صاغرين، ويعذبكم فيها مهانين ذليلين، نعوذ بك منك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي اللازم لتهذيب الأخلاق عن الرذائل، وتطهير الصفات عن الذمائم، والأطوار عن القبائح، والأسرار عن الميل إلى السوى والأغيار من الأمور المنافية المكدرة لصفاء مشرب التوحيد، أن تتأمل وتتعمق في مرموزات الآيات العظام المذكورة في هذه السورة، سيما في الآيات التي وصفَ بها سبحانه خلَّص عباده المتحققين لمرتبة العبودية، المنكشفين بسعة اسمه الرحمن، المظهر لمظاهر الأكوان شهادةً وغيبًا، وتتدبر في إشاراتها حق التدبر والتفكر إلى أن يترسخ في قلبك معانيها رسوخًا تامًا، وينتقش في صحيفة سرك وخاطرك فحاويها انتقاشًا كاملاً، إلى أن تصير من جملة وجدانيتك وذوقك.

وبعدما صرت ذا وجدان وحالٍ بها، وذقت حلاوتها فزت بغرفات جنة الرضا والتسليم، فحينئذٍ يترشح في صدرك رشحات بحر الوحدة الذاتية، واستنشقت من نفحات النفسات الرحمانية المهبة من فناء الحضرة الأحدية المصفية من التعينات الهيولانية والتعلقات الطبيعية، فلك ألّا تنظر ولا تلتفت بعد ذلك إلى مقتضيات علائق ناسوتك مطلقًا، وتجمع همك نحو لوازمِ لاهوتك، لعل الله ينقذك بفضله عن أغلال أنانيتك وسلاسل بشريتك بمنّه وجوده.

سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشعراء

لا يخفى على من تحقق بمقام الرضاء والتسليم، وفوض أمره إلى الحكيم العليم، وانكشف له ألّا فاعل للأفعال إلا هو، ولا موجود في الوجود سواه، ولا متصرف بالاستقلال والاختيار غيره، إن ما جرى في فضاء الوجود غيبًا وشهادة، أزلاً وأبدًا إنما هو مستند إليه سبحانه، وأثر من آثار أوصافه وأسمائه بلا شركة ومظاهرة من أحد سواه، ومتى تحقق عنده هذه الأمور، واتضح لديه هذا المذكور فله أن يترك التصرف مطلقًا بحيث لا يحزن عن فقد شيء ولا يفرح عن وجده، وحينئذٍ ارتفع عنه الإرادة والكراهة والوجدان والفقدان، والربح والسرور والخذلان، بل صار راضيًا بجميع ما جرى عليه من القضاء.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ وعاتبه بما لاح عليه من أمارات المحبة والإرادة بإيمان من يدعوهم إلى التوحيد من الكفرة المعاندين، وعلامات الحزن والكراهة من إصرارهم وتعنتهم على ما هم عليه من الكفر والشقاق، فقال متيمنًا باسمه الأعلى تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المصلح المدبر لمفاسد عباده على مقتضى إرادته واختياره ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضته الوجود، وليتنبهوا بربوبيته ويواظبوا على إطاعته وعبوديته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء توحيده بعدما أخلصوا التوجه نحوه، وأتوا بالأعمال الصالحة طلبًا لمرضاته.

﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ
مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا
إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء:1-9].

﴿طسم﴾[1] [الشعراء:1] يا طالب السعادة والسيادة المؤبدة المخلدة، ويا طاهر الطينة والطوية من أدناس الطبيعة البشرية، ويا سالم السر والسريرة من العلائق الناسوتية البشرية، ويا ماحي آثار الرذائل المكدرة لصفاء شراب التوحيد.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات العظام المذكورة في هذه السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: من جملة آيات القرآن ﴿الْمُبِينِ﴾ [الشعراء:2] المبين المظهر لدلائل التوحيد، الموضح للبينات والبراهين القاطعة الدالة على حقية دينك، إنما أنزلناها يا أكمل الرسل تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك، فلك أن تبلغها على قاطبة الأنام وعامة المكلفين على الوجه الذي تُلي وأُوحي إليك بلا التفاتٍ منك إلى إيمانهم وكفرهم، وتصديقهم وتكذيبهم، بل ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

إلَّا أنك من فرط محبتك لإيمانهم بك وبدينك وكتابك ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ هالك قاتل ﴿نَّفْسَكَ﴾ تحسرًا وتحزنًا ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:3] أي: لأجل ألَّا يكونوا مصدقين لك ولدينك وكتابك، مع أنَّا لا نريد إيمانهم وهدايتهم، بل مضى في قضائنا وثبت في حضرة علمنا كفرهم وضلالهم، وما يبدل القول لدينا، ولا يغير حكمنا.

بل ﴿إِن﴾ أي: إن تعلق إرادتنا ومشيئتنا لإيمانهم ﴿نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ملجئة لهم إلى الإيمان والتصديق ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أي: صارت حين نزول الآية الملجئة أعناقهم التي هي أسباب كبرهم وخيلائهم من كمال الإطاعة والانقياد ﴿لَهَا﴾ أي: للآية الملجئة النازلة ﴿خَاضِعِينَ﴾[2] [الشعراء:4] منكوسين منكسرين منخفضين،

(1) قال الجنيد : الطاء طرب التائبين في ميدان الرحمة . والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة . والميم مقام المحبين في ميدان القربة ، وقيل : الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التي تكشف في مرايا البرهان . والميم مجده سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان . وقيل : الطاء طهارة قلب نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلقات الكونين . والسين سيادته صلى الله عليه وسلم على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . والميم مشاهدته عليه الصلاة والسلام جمال رب العالمين ، وقيل : الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد صلى الله عليه وسلم. [تفسير الألوسي (14 /402)].

(2) قال الشيخ الألوسي (161/14): أي منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف إليه فأخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية. واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافي عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك ، وجوزأن يكون ذلك لما

بحيث لا يتأتى لهم الإعراض عنها والتكذيب بها أصلاً.

﴿وَ﴾ متى لم تتعلق مشيئتنا لم يؤمنوا، بل ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ أي: عظةٍ وتذكيرٍ نازلٍ ﴿مِّنَ﴾ قِبَل ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تفضلاً عليهم ﴿مُحْدَثٍ﴾ مستبدع على مقتضى الأعصار والأزمان؛ لإصلاح نفوس أهلها من المفاسد والضلال ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ﴾ أي: عن الذكر المحدث ﴿مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:5] منصرفين؛ لعدم تعلق مشيئتنا بقبولهم، بل إنما أرسلناك يا أكمل الرسل إليهم، وأمرنا بدعوتهم وتبليغهم؛ ليتعظ ويتذكر منهم ممن

أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع كما في قوله تعالى: (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف: 4] وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعي بعد حذفه أي أصحاب أعناقهم ، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الإضافة إلى ضميرهم ، وقال الزمخشري : أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع في العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الأقحام على ما كان عليه قبل . وقال الكسائي: إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للأعناق. وتعقبه أبو البقاء فقال: هو بعيد في التحقيق لأن (خاضعين) يكون جارياً على غير فاعل (ظَلَّتْ) فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم، وقال ابن عباس. ومجاهد. وابن زيد. والأخفش: الأعناق الجماعات يقال : جاءني عنق من الناس أي جماعة ، والمعنى ظلت جماعاتهم أي جملتهم. وقيل : المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازاً كما يقال لهم : رؤس وصدور فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى ، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقاً رؤساء أم لا حقيقة وذكر الطيبي عن الأساس أن من المجاز أتاني عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤا رسلاً رسلاً وعنقاً عنقاً والكلام يأخذ بعضه بأعناق بعض ثم قال : يفهم من تقابل رسلاً رسلاً لقوله : عنقاً عنقاً أن في إطلاق الأعناق على الجماعات اعتبار الهيئة المجتمعة فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه. وقرأ عيسى. وابن أبي عبلة (خاضعة) وهي ظاهرة على جميع الأقوال في الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الإسناد إليها مجازياً و(مَا لَهَا) في القراءتين صلة ظلتم أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر، وظلت عطف على تنزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضي على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فإنه لا يترتب الماضي على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلكَ لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه إليه ليؤذن الماضي بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ما ذكر عليه كأنه كان واقعاً قبله ، وبعضهم تأويل ننزل بأنزلنا ، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الايمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك في ذهن السامع ليتعجب مه فتأمل.

سبقت له العناية الأزلية من خلّص عبادنا، وتعلقت إرادتنا بهدايتهم ورشدهم في أصل فطرتهم واستعدادهم، وبعدما بلغت إليهم الذكر والعظة المهذِّبة لقلوبهم عن رين الكفر والشرك العارض لهم من قبل آبائهم وأسلافهم سمعوا سمع قبولٍ ورضاء؛ إذ كل ميسر، موفق لما خلق له.

وأمّا المجبولون على فطرة الشقاوة، المطبوعون على قلوبهم بغشاوة الغفلة والضلال ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بها حين سمعوها، ولم يقتصروا على تكذيبها فقط، بل استهزؤوا بها وبك يا أكمل الرسل عتوًا واستكبارًا، فلا تلتفت إليهم ولا تبالِ بهم وبإيمانهم ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ عن قريب ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:6] فظهر حينئذٍ أحق حقيق بأن يُنقاد ويتبع، أم هو باطل يجب تكذيبه والانصراف عنه؟!.

وكيف ينكرون بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، أولئك المعرضون عنادًا ومكابرةً؟! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ويتفكروا حتى يعتبروا، مع أنهم من أهل النظر والاعتبار ﴿إِلَى﴾ عجائب ﴿الْأَرْضِ﴾ اليابسة الجامدة ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أجناس كثيرة من النباتات والحيوانات والمعادن وغير ذلك مما لا اطلاع لهم عليه؛ إذ ما يعلم جنود ربك إلا هو، ﴿كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:7] كلها ذوي الكرامات والبركات، والمنافع والخيرات.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إنبات كل من أنواع النبات، وإخراج كل من أصناف الحيوانات، وأجناس المعادن منها ﴿لَآيَةً﴾ بينة واضحة، قاطعة دالة على أن منبتها ومخرجها متصف بجميع أوصاف الكمال، ونعوت الجمال والجلال، فاعل بالاختيار والاستقلال بلا مزاحمة الأشباه والأمثال ﴿وَ﴾ هي وإن كانت في غاية الوضوح والجلاء، لكن ﴿مَا كَانَ﴾ وثبت ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:8] موفقين على الإيمان والتوحيد في علم الله ولوح قضائه؛ لذلك لم يؤمنوا بالآيات العظام، ولم يستدلوا منها إلى وجود الصانع الحكيم العلام القدوس السلام، المنزَّه ذاته عن طريان التقضي والانصرام.

﴿وَ﴾ إن كذبوك يا أكمل الرسل بما جئت من الآيات العظام، وعاندوا معك لا تبالِ لهم ولا تحزن ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على البطش والانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:9] الحليم الذي لا يعجِّل بالعذاب وإن استوجبوا، بل يمهلهم زمانًا؛ لعلهم يتنبهون على ما فرطوا من سوء المعاملة مع الله

ورسوله وآياته فيتوبوا نادمين ضارعين خاشعين.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾
وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء:10-19].

ثمّ أشار سبحانه إلى تعداد المكذبين الضالين عن طريق الحق، التائهين في تيه الغفلة والغرور فقال: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمنصرفين عنك وعن آياتك عنادًا قصة أخيك موسى الكليم ـ صلوات الرحمن عليه ـ مع فرعون وملئه، وقت ﴿إِذْ نَادَى رَبُّكَ﴾ عبده ﴿مُوسَى﴾ وأوحى إليه بعدما ظهر الفساد في الأرض من استيلاء فرعون وملئه على بني إسرائيل واستعبادهم، وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ظلمًا.

حين قال له سبحانه: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:10] أي: لك الإتيان بالدعوة والرسالة يا موسى على القوم الظالمين، الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بين العباد؛ للإنصاف والانتصاف؛ يعني: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي الذي بغى على عباد الله بأنواع الجور والفساد، فقل لهم أولاً بعدما ذهبت إليهم على سبيل التنبيه: ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:11] ويحذرون عن قهر الله، أيها المسرفون المكابرون، والمتجاوزون عن مقتضى العقل والنقل.

وبعدما ناداه سبحانه ما ناداه ﴿قَالَ﴾ موسى ملتجئًا إلى الله، مناجيًا له: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنِّي﴾ من غاية ضعفي وانفرادي ﴿أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء:12] ولا يقبلون دعوتي ولا يلتفتون إلي.

﴿وَ﴾ بذلك ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ ويكلُّ خاطري عن تبليغ ما أمرتني به ﴿وَ﴾ بعد ضيق صدري وكلّ خاطري ﴿لا يَنطَلِقُ﴾ ولا يجري ﴿لِسَانِي﴾ على تبينها وتفهمها، مع أن في لساني لكنة جِبلّية، وبالجملة: أنا وحدي لا أطيق بحمل أعباء الرسالة وتبليغها، واجعل لي يا ربي ظهيرًا يعينني، وأخي أولى بالمظاهرة والمعاونة ﴿فَأَرْسِلْ﴾ بمقتضى

فضلك وجودك حامل وحيك ﴿إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء:13] أخي، وأمره أن يشركه في أمري؛ حتى نذهب إلى فرعون ونبلغ رسالتك إياه.

﴿وَ﴾ لاسيما ﴿لَهُمْ﴾ أي: لقوم فرعون ﴿عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ عظيم، وهو قتلي فيما مضى قبطيًا منهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:14] بقصاصه.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابه على سبيل الردع: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدع يا موسى عن الخوف منهم بعدما أيدناك واصطفيناك للرسالة، ولا تبالِ بهم وبكثرتهم؛ إذ لا يسع لهم أن يقتلوك، وإن أردت أن تشرك أخاك معك في أمركَ هذا فتشركه، فأرسل سبحانه جبرائيل عليه السلام إلى هارون بالوحي وأشركه مع أخيه، وأمرهما بتبليغ الرسالة إلى فرعون بقوله: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال صفاتنا، وبلغا ما أُمرتما بتبليغه بلا خوف منهم ومبالاةٍ لهم ﴿إِنَّا﴾ حاضرون ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:15] ما جرى بينكم حافظون لكما عما قصدوا من المقت والأذاء.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ مجترئين بلا مبالاة له ﴿فَقُولَا﴾ له بلا دهشة وخوف من سطوته واستيلائه: ﴿إِنَّا﴾ أي: كل واحد منا ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:16] إليك أيها الطاغي نبلغك من عنده سبحانه.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ قومنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:17] أي: خلِّ سبيلهم؛ حتى يذهبوا بنا إلى أرض الشام سالمين عن ظلمك وجورك.

﴿قَالَ﴾ في جوابهما مخاطبًا لموسى؛ إذ هو أصل في الرسالة، معاتبًا عليه، متهكمًا موبخًا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ زمانًا يا موسى حين كنت ﴿وَلِيدًا﴾ لا متعهد لك سوانا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ بعدما كبرت إلى حيث مضى ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:18].

قيل: لبث فيهم ثلاثين، ثمّ خرج إلى مدين عشر سنين، ثمّ عاد عليهم إلى التوحيد ثلاثين سنة، ثمّ بقي بعد غرقهم خمسين سنة.

﴿وَ﴾ بعدما ربيناك بأنواع التربية والكرامة ﴿فَعَلْتَ﴾ من سوء صنيعك ﴿فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ بأن قتلت نفسًا بلا جريمة صدرت منها موجبة لقتلها، فقتلها ظلمًا وعدوانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء:19] لنعمنا كفرانًا سقط به لياقتك للرسالة والهداية، فالآن جئت تدعي الرسالة والإرشاد إلى الهداية.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا

وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء:20-28].

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه معترفًا بما صدر عنه في أوان جهله وغفلته: ﴿فَعَلْتُهَا﴾ أي: الفعلة المذكورة المذمومة ﴿إِذًا﴾ أي: حينئذٍ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:20] في تلك الحالة، الجاهلين بعواقب الأمور، الغافلين بما يترتب عليه من الأوزار.

وبعد فراري منكم؛ لأجلها وصلت إلى خدمة مرشد رشيد يرشدني ويربيني بأنواع الكرامات ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ من أثر صحبته وحسن تربيته ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكمة متقنة كاملة ﴿وَجَعَلَنِي﴾ بفضله ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:21] فأرسلني إليكم؛ لأدعوكم إلى توحيده.

ثمّ شرع موسى في جواب ما منَّ عليه فرعون من حقوق النعمة والتربية فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ النعمة التي عددت ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾[1] ليست تبرعًا؛ حتى أكون ممنونًا بها، بل ما هي إلّا ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ زمانًا قومي ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:22] بل لها صاغرين مهانين مظلومين بأنواع الظلم والهوان، فما أنا ممنون منك حقيقة، بل منهم؛ لأنهم

(1) اختلف الناس في معنى هذا الكلام، فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى ﷺ على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه يقول: نعم! وتربيتك نعمة علي من حيث عبدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وقيل: هو من موسى ﷺ على جهة الإنكار، أي أتمن علي بأن ربيتني وليدًا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي ليست بنعمة؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص؟! قال معناه قتادة وغيره، وقيل: فيه تقدير استفهام، أي أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش والفراء أيضًا وأنكره النحاس وغيره، قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام «أم»، ولا أعلم بين النحويين اختلافًا في هذا إلا شيئًا قاله الفراء، قال: يجوز ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكي ترى زيدًا منطلقًا؟ بمعنى أترى، وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة، قال الثعلبي: قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام، كقوله: (هذا ربي) (فهم الخالدون).

متسببون لتربيتك وحضانتك بي.

وبعدما جرى بينهم ما جرى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستكبرًا، مستفهمًا على سبيل الاستبعاد والإنكار: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:23] أي: ما هو؟ وما ماهيته وحقيقته؟ ولأي شيء تدعونا إليه؟ عبّر عنه سبحانه بـ(ما) من غاية إنكاره واستحقاره.

﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه منبهًا له على ظهوره سبحانه في الآفاق: هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿وَمَا﴾ حدث ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من الكوائن والفواسد ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:24] أي: من ذوي الإيقان والعرفان بحقائق المحدثات المبدعة من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، بل بامتداد أظلال الأسماء والصفات الإلهية على مرايا الإعدام بمقتضى التجليات الحبية المنتشئة من الذات الأحدية وإلّا فلا يمكن تعريفه بإيراد الأجناس والفصول؛ إذ هو سبحانه منزه عن الاشتراك والامتياز؛ إذ هو الواحد من كل الوجوه، المستقل بوجوب الوجود والتحقق مع امتناع غيره مطلقًا، لا يمكن أن يقومه جنس، ويميزه فصل حتى يركب له حدٌّ أو رسم.

وبعدما سمع من موسى ما سمع ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من ملئه وأشرافه متهكمًا بجوابه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:25] جوابه أيها العقلاء، سألته عن حقيقته وذاته فأجاب بعد أفعاله وآثاره المترتبة على أوصافه وأسمائه التي هي من عوارض ذاته.

وبعدما سمع موسى تشنيعهم واستبعادهم، أراد أن يزيد أيضًا على تنبيههم فأجاب بظهوره سبحانه في الأنفس رجاء أن يتنبهوا، حيث ﴿قَالَ﴾: هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ مظهركم، ومربيكم بأنواع التربية والكرامة ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿رَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:26] الأقدمين.

وبعدما سمع فرعون كلامه ثانيًا ﴿قَالَ﴾ جازمًا عازمًا: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ سماه رسولاً تهكمًا واستهزاءً ﴿الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم وإصلاحكم ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:27] لا يتكلم بالمقابلة، بل يتفوه كيفما اتفق بلا تأمل وتدرب، سألته عن شيء وأجاب بأشياء لا أسأله.

وبعدما لم يتنبهوا بالتنبيهات المذكورة، بل ازدادوا إنكارًا فوق إنكار إلى حيث نسبوه إلى الخبط والجنون ﴿قَالَ﴾ موسى كلامًا جمليًا كليًا، مشتملاً على جميع الأمور

المنبهة: هو سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مشرق الشمس ومديرها كل يوم بمدار مخصوص، ومغيبها كذلك تتميمًا وتدبيرًا لمصالح عباده وجميع حوائجهم المتعلقة لمعاشهم على الوجه الأحكم الأبلغ، الأعدل بلا فوت شيء منها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:28] وتطرحون عقولكم إلى التأمل والنظر في عجائب مصنوعاته وغرائب مخترعاته، وكيفية تدبيراته في إبدائه وإنشائه، وإبقائه وإفنائه، وفي جميع الأمور المتعلقة بألوهيته وربوبيته.

إن اجتهدتم حق السعي والجهد في شأنه لاهتديتم إلى وحدة ذاته، ووجوب وجوده واستقلاله في التصرف في مظاهره ومصنوعاته، فحينئذٍ لم يبقَ لكم شائبة شكٍ فيه سبحانه حتى تحتاجوا إلى السؤال والكشف عن جنابه.

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشعراء: 29-40].

وبعدما جهلهم موسى وشدد عليهم، وسفههم ﴿قَالَ﴾ فرعون مستكبرًا مستعليًا مهددًا: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ﴾ وعبدت يا موسى ﴿إِلَهًا غَيْرِي﴾ على مقتضى زعمك ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:29] المعهودين عندك أنهم لا مخلص لهم عن سجني حتى يموتوا فيه، فإنه كان يطرح المخالفين في هوة عميقة يموتون فيها.

وبعدما سمع موسى تهديده وعتوه ﴿قَالَ﴾ مستفهمًا على سبيل التعجيز والغلبة: ﴿أَ﴾ تفعل ما هددتني به ﴿وَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أيها الطاغي المتجبر ﴿بِشَيْءٍ﴾ أي: بمعجزةٍ ﴿مُبِينٍ﴾ [الشعراء:30] ظاهر الدلالة على صدقي في دعواي.

﴿قَالَ﴾ فرعون مستحييًا عن الناس، مستبعدًا نفسه عن العجز: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ أي: بالذي ادعيت من المعجزة ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:31] في الدعوى.

﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ على الفور ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:32] ظاهر ثعبانيته، عظيم بحيث لا يُشتبه على أحدٍ أمره.

﴿وَ﴾ بعدما ألقى عصاه ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها من جيبه؛ ليثبت مدعاه بشاهدين ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ محيرة مفرقة للأبصار من غاية شعاعها ولمعانها ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء:33] إليها، مدهشة لقلوبهم إلى حيث تاهوا وتحيروا من تشعشعها.

فلما رآها فرعون ﴿قَالَ﴾ بعدما أوجس في نفسه خيفة ﴿لِلْمَلَإِ﴾ الذين يجلسون ﴿حَوْلَهُ﴾ مستغربًا من أمره، مستعجبًا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المدعي ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:34] ماهر في علم السحر، بالغ نهايته.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ المألوفة ﴿بِسِحْرِهِ﴾ هذا وكمال فيه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:35] في أمره أيها الأشراف.

انظر أيها المتأمل الناظر إلى كمال قدرة الله وسطوع حججه الغالبة البالغة، كيف تأثر منها فرعون المتكبر المتجبر الطاغي، مع كمال عتوه واستعلائه، إلى حيث اضطر إلى المشورة مع الناس في أمر موسى ودفعه، مع أنه ادَّعى الألوهية لنفسه.

وبعدما سمع الأشراف قوله ﴿قَالُوا﴾ له: مقتضى شأنك وجلالك ألَّا تتسارع إلى قتلهما؛ لئلا تُنسب إلى العجز والإلزام منهما ومن حجتهما، بل ﴿أَرْجِهْ﴾ واحبس موسى ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون، وأخِّر قتلهما زمانًا ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ شرطة ﴿حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء:36] جامعين.

حتى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ مبالغ في السحر ﴿عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:37] فائق منه، بالغ نهايته.

فبعث شرطة إلى الأقطار بعدما وكَّل عليهما وكلاء يحبسونهما ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ المهرة في هذا الفن ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] [الشعراء:38] أي: لوقت عُيِّن لجمعهم في يوم الزينة، وهو وقت الضحى.

(1) قال الشيخ الألوسي(14 /200): لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة على أن الميقات من صفات الزمان، وفي الكشاف هو ما وقت به أي حد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: نودي عليهم في الطرق والسلك: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:39] لموعد يوم معلوم؛ حتى تشاهدوا حال موسى وهارون وغلبة السحرة عليهما، وإبطال ما أتيا به من السحر.

﴿لَعَلَّنَا﴾ بأجمعنا ﴿نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:40] إياهما.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء:41-51].

فخرج فرعون إلى الموعد واجتمع الناس فيه، وأحضروا موسى وهارون ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الموعد ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ طالبين الجُعل منه: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:41] المبطلين ما جاء به من السحر.

﴿قَالَ﴾ لهم فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن غلبتم أنتم لكم من الأجر ما أَملتم وطلبتم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:42] إليَّ، المصاحبين معي، فلكم الترقي والزيادة في الإنعام والإحسان في كل حين وأوان.

وبعدما رضوا بما وُعدوا جاءوا بمقابلة موسى، واشتغلوا بمعارضته ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي: للسحرة ﴿مُّوسَى﴾ على سبيل الجراءة وعدم المبالاة بسحرهم: ﴿أَلْقُوا﴾ أيها الطغاة البغاة، المتعارضون بأكاذيب السحرة والشعبذة مع آيات الله ومعجزاته عنادًا ومكابرةً ﴿مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء:43] من الأباطيل.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ التي احتالوا فيها بأنواع الحيل ﴿وَقَالُوا﴾ حين إلقائها مقسمًا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وسطوته وجلاله ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء:44] المقصورون على الغلبة على موسى وأخيه.

ولمّا رأى موسى من أباطيلهم ما رأى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ بإلهام الله إياه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ ثعبان مبين ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع وتلتقم جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:45] أي: يحتالون فيه، ويخيّلونه حيات تسعى بتمويهاتهم وتزويراتهم.

وبعدما شاهد السحرة من عصا موسى ما شاهدوا من الأمر العظيم المعجز الذي لا يتأتى بالسحر مثله تيقنوا أنها ما هي سحر وشعبذة، بل أمر سماوي إلهي، لا يُكتنه لميته وكيفيته.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ على الفور ﴿سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء:46] متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة استحياءً من مقابلة أباطيلهم معه.

﴿قَالُوا﴾ حين سقطوا صائحين: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:47].

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:48] وصدقنا إنهما رسولان من عنده سبحانه على الحق، وأذعنّا ألّا معبود يُعبد بالحق، ويستحق للعبادة سواه، ولا إله غيره.

وبعدما رأى فرعون منهم ما رأى ﴿قَالَ﴾ مهددًا متوعدًا إياهم: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أي: صدقتم موسى بغتةً، وآمنتم لإلهه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بتصديقه، فقد لاح ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ ومعلمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ اتفقتم معه في الخلوة؛ لتفضحونا على رءوس الملأ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيها المفسدون أنّا أقدر على الانتقام والتعذيب أم رب موسى؟! ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ أولاً ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ متبادلتين ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بعد ذلك على رءوس الأشهاد ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:49] بجمعكم هذا؛ ليعتبر من حالكم من في قلبه خلافنا ونفاقنا.

وبعدما سمعوا تهديده ووعيده ﴿قَالُوا﴾ منقطعين نحو الحق، متشوقين بلقياه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر يلحق بنا من قتلك وإهلاكك إيانا أيها الطاغي ﴿إِنَّا﴾ بالموت الصوري والهلاك المجازي ﴿إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:50] صائرون راجعون بعد ارتفاع أنانيتنا الباطلة عن البين، وهويتنا الباطلة عن العين.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ بعدما خرجنا عن أنانيتنا هذا ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ التي صدرت عنا في زمان جهلنا وغفلتنا ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:51] أي: لأن كنا أول المؤمنين الموقنين بتوحيده اليوم.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ

حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ
مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:52-62].

﴿وَ﴾ بعدما أقام موسى فيهم زمانًا، ويدعوهم إلى التوحيد دائمًا وما زادوا إلّا عتوًا وعنادًا، وأدى عتوهم إلى أن قصدوا مقته وهلاكه، وقتل من معه من المؤمنين؛ لذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بعدما هموا العزم لهلاكه، وقلنا له: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سِرْ ليلاً يا موسى مع من تبعك من عبادي ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:52] يتبعكم ويعقبكم فرعون وجنوده.

فأسرى موسى مع المؤمنين، فاطلع فرعون وقومه على إسرائهم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ شرطة ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء:53] لجنودهم؛ ليتبعوهم.

وأمر الشرطة أن قالوا للجيش ترغيبًا لهم وتحريكًا لحميتهم: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ الفارين ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: طائفة وجماعة ﴿قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:54] بالنسبة إلينا، مع أنهم ستمائة وسبعون ألفًا، وقوم فرعون من كثرتهم لا يعد ولا يحصى.

﴿وَ﴾ لنا أن نتبعهم ونستأصلهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ قوم عدو ﴿لَنَا لَغَائِظُونَ﴾[1] [الشعراء: 55] بنا، يفعلون أفعالاً تغيظنا وتحرك غيظنا، فلنا أن نقلع عرقهم عن وجه الأرض.

﴿وَإِنَّا﴾ وإن كنا أقوياء أشداء على الأعداء ﴿لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء:56] دائمًا عن كيدهم ومكرهم، وإفسادهم بأنواع الفسادات من قطع الطريق والالتجاء بالأعداء والمظاهرة معهم، ولا بدَّ لذوي الحزم والعزم من الضبط والاحتياط في عموم الأحوال.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بعدما تعلق إرادتنا بإهلاكهم وإغراقهم بهذه الدواعي والبواعث المهيجة لنفوسهم إلى الخروج والاقتفاء أثر الأعداء ﴿مِّن جَنَّاتٍ﴾ منتزهات بهية فيها

---

(1) قال الألوسي (14 /218): لفاعلون ما يغيظنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذننا مع ما عندهم من أموالنا المستعارة، فقد روى أن الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط فاستعاروه وخرجوا به، وتقديم (لَنَا) للحصر والفاصلة واللام للتقوية أو تنزيل المتعدي منزلة اللازم.

فواكه شهية ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:57] أي: منابع تجري منها في جناتهم الأنهار خلالها؛ ليزيد صفاء ونضارة وبهاء.

﴿وَكُنُوزٍ﴾ من الذهب والفضة مدفونة وغير مدفونة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 58] هو المنازل الحسنة والقصور المرتفعة الموضوعة فيها الأرائك والسرور والبسط المفروشة من الحرير وغيرها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أخرجناهم إخراجًا كذلك بإحداث بواعث الخروج في نفوسهم وإزعاجهم إلى أن يخرجوا مضطرين ﴿وَ﴾ بعدما ما أخرجناهم عمّا أخرجناهم ﴿أَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: ما سمعت من المذكورات جميعها ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:59] إنعامًا لهم وامتنانًا عليهم بما صبروا بظلمهم وأنواع أذياتهم.

وبعدما اجتمع الجيش من أطراف المدائن، وازدحموا على باب فرعون خرجوا خلفهم مسرعين ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء:60] أي: وقت طلوع الشمس من المشرق.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقاربا إلى أن رأى كل من الجمعين صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ مشتكين إليه، ميئوسين من الحياة بعدما رأوا من خلفهم جيشًا لا يُعدّ ولا يُحصى، وعن أمامهم البحر الذي لا يمكن العبور عنه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61] ملحقون، يلحقنا العدو الآن وبعد فناؤنا في البحر.

﴿قَالَ﴾ موسى ؛ردعًا لهم وإزالةً لرعبهم: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدعوا عن هذا القول ولا تخافوا عن إدراكهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:62] ويلهمني إلى طريق النجاة والخلاص؛ إذ وعدني اليوم بالخلاص، فإن وعده حتم لا يخلف.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ
(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)
قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾ [الشعراء:63-74].

فصبر إلى أن قرب العدو، ووصل موسى على شاطئ البحر مضطرًا مضطربًا ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بأن قلنا له: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه على الفور ﴿فَانفَلَقَ﴾ البحر، وافترق فرقًا وقُطع قطعًا كثيرة ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ بعد انفلاقه وانقطاعه ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:63] أي: كالجبل الراسي المرتفع نحو السماء، الثابت في مقره بلا حركة وذهاب، وانفرج بين الفلق فرجًا وسيعة فدخل على الفور موسى وقومه في الشعوب والفرج، كل سبط بشعب.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا في شعاب البحر المنغلق ﴿أَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:64] أي: فرعون وقومه، وهم أيضًا وصلوا على شاطئ البحر فرأوهم في شعابه على العبور، فاقتحموا أثرهم مطمعين النجاة مثلهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:65] بأن حفظنا البحر على انغلاقه إلى أن عبروا سالمين من تلك الفرج.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:66] أي: فرعون وقومه جميعًا بعدما دخلوا في تلك الفرج بإطباق البحر، وإفناء انفلاقه وافتراقه، واتصاله على الوجه الذي كان عليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإغراق ﴿لَآيَةً﴾ دالة على كمال قدرة الله، ومتانة حكمته بالنسبة إلى ذوي البصائر والاعتبار، المشمرين ذيل العناية والاهتمام نحو التفكر والتدبر في آثار أوصاف الفاعل المختار ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس المجبولين على فطرة الاستدلال والاعتبار ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:67] بالله وتوحيده وأسمائه حتى يتأملوا في آثار صفاته؛ ليستدلوا على ذاته.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، القادر المقتدر على إجراء أحكامه وإنفاذ قضائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:68] لخُلّص عباده الموفَّقين من عنده للوصول إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿وَاتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على مكذبي قريش ومعانديهم ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء:69] أي: قصة جدك الخليل ـ صلوات الرحمن عليه ـ مع قومه.

وقت ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ سائلاً لهم عن حقيقة ما يعبدون من الآلهة؛ ليريهم أن الأصنام لا تستحق العبادة والانقياد: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:70] ولأي شيء

تنقادون وتطيعون؟!.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[1] [الشعراء:71] أي: يدوم عكوفنا إياها وإطاعتنا لها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ ويجيبون دعوتكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء:72] إليها في السراء والضراء؟! ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ ويثيبونكم؛ جزاءً لطاعتكم وعبادتكم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:73] لكم إن أعرضتم وانصرفتم عن عبادتهم؟!.

﴿قَالُوا﴾ مستغربين عن مسئولاته؛ يعني: نحن لا نرجو منهم أمثال هذه الصفات؛ إذ هم جمادات لا تتأتى منهم أفعال ذوي الحياة والشعور ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:74] أي: يعبدون لها، ويعكفون عليها خاشعين متذللين ونحن على أثرهم نعبدهم ونتذلل لهم؛ تقليدًا لآبائنا.

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ
إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ
فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ
ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الشعراء:75-91].

(1) قال الألوسي (14 /242): لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصنامًا كما في قوله تعالى: (مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا إلى غير ذلك بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يسأل عنه قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك، وهو على ما في «الكشف» من الأسلوب الأحمق، والمراد بالظلول الدوام كما في قولهم: لو ظل الظلم هلك الناس. وتكون ظل على هذا تامة. وقد قال بمجيئها كذلك ابن مالك وأنكره بعض النحاة، وقيل: فعل الشيء نهارًا فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل فتكون ظل على هذا ناقصة دالة على ثبوت خبرها لاسمها في النهار.

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم على سبيل النصيحة والتذكير: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ وعلمتم أن ﴿مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:75] من دون الله؟!.

﴿أَنتُمْ﴾ في مدة أعماركم ﴿وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء:76] فيما مضى عليهم من الزمان لا يليق بالألوهية، ولا يستحق للإطاعة والانقياد؛ إذ الإله المستحق بالعبودية لا بدَّ وأن يتصف بالصفات الكاملة، وأن يكون له نفع وضر، وثواب وعقاب؛ حتى يُعبد له، وهؤلاء معطلون عن أوصاف الألوهية مطلقًا.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الآلهة الباطلة ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ نسب عداوتهم لنفسه أولاً إمحاضًا للنصح؛ إذ التوجه إليهم والتذلل نحوهم يجلب عذاب الله ونكاله، فهم وعبادتهم من أسباب غضب الله وقهره، فلكم ألَّا تتوجهوا نحوهم، ولا تعبدوا غير الله سبحانه إلهًا، كما أني ما أتوجه وأعبد ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77] إذ هو المستحق للعبودية والألوهية ذاتًا ووصفًا.

وكيف لا وهو ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ أي: أوجدني وأظهرني من كتم العدم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:78] إلى توحيده واستقلاله في الوجود والتصرف؟!.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ إن افتقرت إلى الغذاء ﴿وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء:79] حين احتياجي إلى الماء.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا مَرِضْتُ﴾ من اختلاف الأمزجة وتداخل الأغذية ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:80] باعتدالها واستقامتها.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ حين حلول أجلي، وانقضاء مدة حياتي في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء:81] في النشأة الأخرى؛ للعرض والجزاء.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ وأرجو من سعة رحمته وجوده ﴿أَن يَغْفِرَ لِي﴾ ويمحو عني جميع ﴿خَطِيئَتِي﴾ التي صدرت عني في دار الاختبار، ويعفو زلتي فيها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء:82] والجزاء.

﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بلطفك، وهداني إلى توحيدك ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ يقينًا علميًا وعينيًا؛ حتى أستحق أن تفيض عليَّ اليقين الحقي الذي صرت به مستحقًا لمرتبة الخلة والخلافة ﴿وَأَلْحِقْنِي﴾ بعدما وهبت لي من حِكمك وأحكامك ومعارفك ما قدرت لي ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء:83] المرضيين عندك، المقبولين في حضرتك.

﴿وَاجْعَل لِّي﴾ بفضلك وجودك ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي: لسانًا يتكلم بالصدق في حِكمك وأحكامك، ومعارفك وحقائقك، وجميع أوامرك ونواهيك، بحيث يدوم أثر صدقي في أقوالي وأفعالي وأحوالي، وفي جميع أطواري وأخلاقي ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:84] أي: اللاحقين من عبادك؛ لذلك ما من دين من الأديان إلّا وله - صلوات الرحمن عليه وسلامه - فيه أقوال وأفعال وأخلاق منسوبة إليه، مسلمة منه، معمولة بمتابعته.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اجْعَلْنِي﴾ بسعة رحمتك، ووفور إحسانك وعطيتك ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء:85] أي: من الذين يرثون من فضلك وجودك مرتبة الرضا والتسليم؛ إذ لا نعمة أجلّ منها، وأتم عند المنقطعين نحوك والمتشوقين بلقياك.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ واعفُ عن زلته وذنوبه إن سبقت عنايتك له في سابق قضائك وحضرة علمك ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:86] التائهين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تُخْزِنِي﴾ ولا تُخجلني من فعل نفسي وأبي يا رب ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:87] أي: الأموات، ويحشرون من قبورهم نحو العرصات؛ لعرض الأحوال وجزاء الأعمال، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

وأي يومٍ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ فيه ﴿مَالٌ﴾ حتى يفديه صاحبه ويخلص من العذاب، أو يخفف العذاب لأجله ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء:88] يظاهرون لآبائهم وينقذونهم من عذاب الله؟!.

وذلك يوم لا مخلّص فيه لأحدٍ من عذاب الله من ذوي المعاصي والآثام ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر العباد وضمائرهم ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:89] خالٍ عن الميل إلى الهوى ومزخرفات الدنيا، خالصٍ عن رعونات العُجب والرياء، مخلص في التوجه نحو المولى بلا طلب الثواب منه والجزاء؛ بل لمحض الرضاء والامتثال بما أمره ونهى راضيًا في كل الأحوال بما جرى عليه من نفوذ القضاء.

﴿وَ﴾ في تلك الحالة التي أتوا كذلك ﴿أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قرّبت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:90] الذين يتقون ويحذرون عن محارم الله؛ استحياءً منه وطلبًا لمرضاته، بحيث يرونها ويسرعون إليها تشوقًا وتحننًا، ويتفطنون أنهم يدخلون فيها خالدين مؤبدين.

﴿وَ﴾ كذا ﴿بُرِّزَتِ﴾ وأظهرت ﴿الْجَحِيمُ﴾ المسعر ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:91] الذين يضلون عن طريق الحق في النشأة الأولى بالميل إلى الهوى وإلى مستلذات الدنيا والإعراض عن إرشاد الأنبياء والأولياء، والمصاحبة مع أهل الولاء والآراء والأهواء الباطلة المضلة عن صراط الله الأعدل الأقوم، واتخاذ الآلهة الباطلة على مقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: 92- 104].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ حين ظهرت الجحيم عليهم، ويتفطنون أنهم مسوقون إليها صاغرين مهانين: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:92] أي: أين الآلهة الباطلة التي عبدتم لها.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية، معتقدين أنها شفعاؤكم ينقذونكم من عذاب الله ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم بأن يدفعوا عنكم العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:93] فيدفعون العذاب عن أنفسهم؟!.

وبعدما جرى عليهم ما جرى من التقريع والتوبيخ ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾[1] أي: أُدخلوا

(1) أي: ألقوا في الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا في قعرها فالكبكبة تكرير الكب وهو مما ضوعف فيه الفاء كما قال الزجاج. وجمهور البصريين، وذهب الكوفيون إلى أن الثالث بدل من مثل الثاني فاصل كبكب عندهم كبب فأبدل من الباء الثانية كاف وضمير الجمع لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام وأكد بالضمير المنفصل أعني (هُمْ) وكلا الضميرين للعقلاء واستعملا في الأصنام تهكمًا أو بناء على إعطائها الفهم والنطق أي كبكب فيها الأصنام (والغاوون) الذين عبدوها، والتعبير عنهم بهذا العنوان دون العابدون للتسجيل عليهم بوصف الغواية ، وفي تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون في الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالهم فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم. [تفسير الألوسي (14 /267)].

في النار قسرًا وقهرًا ﴿هُمْ﴾ أي: الآلهة المضلة المغوية ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:94] أي: العبدة الضالون.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ مصاحبون معهم، ملازمون من القوى البهيمية الشهوية والغضبية التي هي من أعونة النفوس الأمّارة ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:95] إذ كل منهم سبب تام لإضلالهم.

وبعدما دخلوا في النار صاغرين مهانين ﴿قَالُوا﴾ أي: الداخلون في النار تابعًا ومتبوعًا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ [الشعراء:96] أي: يتخاصم بعضهم بعضًا.

حيث قال العابدون لمعبوداتهم مقسمين مغلظين تحسرًا وتحزنًا: ﴿تَاللَّهِ إِن﴾ أي: إنه ﴿كُنَّا﴾ باتخاذكم آلهة من دون الله عبدناكم كعبادته ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 97] ظاهر لا يشتبه على ذي مسكة ضلالته.

وكيف لا يكون ضلالاً ظاهرًا ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ مع كونكم من أدنى الأشياء وأرذلها بل نرجحكم ونفضلكم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:98] الذي هو أحد صمد، فرد وتر ليس كمثله شيء، وليس له كفؤ، ولا ضلال أبين من هذا وأعظم.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ وأوقعنا في هذا الضلال المبين ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء:99] الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا، وتقليدات آبائنا الذين مضوا قبلنا على هذا.

﴿فَمَا لَنَا﴾ بعدما وقعنا في النار صاغرين ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ [الشعراء:100] يشفعون لنا؛ لينقذونا منها.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:101] أي: ذي قرابة وصداقة تكفي صداقة وحمايته؛ لإنقاذنا ونجاتنا، إنما قالوا ما قالوا تحسرًا وتحزنًا.

وبعدما قنطوا عن الشفاعة والحماية تمنوا الرجعة والإعادة، وقالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة وعودة إلى الدنيا مرة بعد مرة أخرى ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 102] بالله، الموحدين له لا نشرك به شيئًا من مظاهره ومصنوعاته.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من نبأ إبراهيم ﷺ مع أبيه وقومه ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على توحيد الحق، وعلو شأنه وسمو برهانه عظةً وتذكيرًا للمتذكرين المعتبرين من أخلاقه - صلوات الرحمن عليه - وأطواره، وكمال علمه في دعوته، وإنصافه في

محاورته، وإرخائه العنان إلى من قصد مجادلته ومعارضته، وإظهاره الحق على أبلغ وجه وآكده، عاريًا عن جميع الرعونات والخلافات الواقعة بين أرباب المناظرات وأصحاب المجادلات ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:103] بتوحيد الله وخلة خليله، وصفوة أخلاقه وحسن خصاله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على انتقام من خرج من رق عبوديته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:104] لمن وفق عليها وجبل لأجلها.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الشعراء:105-113].

ثمّ قال سبحانه مخبرًا عن المكذبين: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105] لأن تكذيب نوح والإنكار على إرساله يستلزم تكذيب مطلق الإرسال، فيستلزم تكذيبه جميع الرسل الذين مضوا قبله، بل من سيأتي بعده من الرسل؛ لاتحاد المرسل والمرسل به.

وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ حين ظهرت عليهم أمارات الكفر والفسوق، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على العدالة المعنوية، والقسط الحقيقي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:106] وتحذرون عن محارم الله أيها المكلفون المسرفون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبل الحق ﴿أَمِينٌ﴾ [الشعراء:107] بينكم، أرشدكم إلى ما يعنيكم وينفعكم، وأجنبكم عمّا يضركم ولا يعنيكم، بل يؤذيكم ويغويكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:108] في جميع ما جئت به من قبل ربي.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إرشادي وتكميلي وإصلاحي لكم ما أفسدتم على أنفسكم من الأخلاق والأعمال ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ومال كما يسأل المتشيخة ـ خذلهم الله ـ من مريديهم ومحبيهم، بل ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾

أي: ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:109] فإنه سبحانه أرسلني إليكم، وأمرني بتبليغ ما أوحي إليَّ إليكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ حق تقاته، واحذروا من بطشه وانتقامه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: 110] في جميع ما جئت به من عنده من الأوامر والنواهي المصلحة لمفاسد أحوالكم؛ حتى تستقيموا وتعتدلوا في النشأة الأولى، وتفوزوا بما وعد لكم ربكم في النشأة الأخرى.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه مستكبرين مستهزئين: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ ونتبعك نحن مع شرفنا وثروتنا ﴿وَ﴾ قد ﴿اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[1] [الشعراء:111] منا، الأقلون مالاً، الأنزلون جاهًا ورتبةً.

ومن هذا ظهر أن مناط الأمر عندهم على الحطام الدنيوية والمفاخرة بها، وإظهار الجاه والثروة بسببها، ومتابعتهم إنما هي لحصولها لا لأغراض دينية ومصلحة أخروية مصفية لبواطنهم عن العلائق المادية، والشواغل الهيولانية العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

لذلك ﴿قَالَ﴾ نوح مشتكيًا إلى الله، مفوضًا: ﴿وَمَا عِلْمِي﴾ وإدراكي محيطًا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:112] ويأملون في نفوسهم من أي غرض وسبب يؤمنون بي ويمتثلون بأمري؛ إذ ما لي اطلاع على ضمائرهم وسرائرهم، بل بظواهرهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: ما حسابهم المتعلق ببواطنهم وأسرارهم ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ المطلع لخفايا الأمور ومغيباتها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:113] وتدركون ما أبث لكم من الكلام لفهمتم ما هو الحق منه، ولكنكم أنتم قوم تجهلون؛ لذلك تقولون ما لا تعلمون وتفهمون.

(1) الاستفهام للإنكار أي كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون؟ وهم جمع أرذل، وجمع التكسير أرذال، والأنثى: رذلى، وهم الأقلون جاهًا ومالاً، والرذالة الخسة والذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم، أو لاتضاع أنسابهم، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود، وقرأ ابن مسعود، والضحاك، ويعقوب الحضرمي: «وأتباعك الأرذلون» قال النحاس: وهي قراءة حسنة، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيرًا، وأتباع جمع تابع. [فتح القدير (5 /320)].

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: 114-122].

﴿وَ﴾ إذا سمعتم مقالتي هذه فاعلموا أني ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 114] ونافيهم من عندي؛ بسبب ميلكم إلي واستدعائكم طردهم، وتوفيقكم الإيمان بي على تبعيدهم.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق ﴿مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:115] ظاهر الحجج، واضح البينات والمعجزات بالنسبة إلى عموم المكلفين سواء كانوا فقراء أو أغنياء؛ إذ الإيمان والتوحيد، والتدين والإخلاص إنما هي من أفعال القلوب، لا مدخل للأمور الخارجية فيها التي هي الغناء والثروة، والفقر والرذالة، فمن وفقه الحق على التوحيد، وسبقت له العناية في سابق القضاء، فهو مؤمن سواء كان غنيًا أو فقيرًا، ومن سبق عليه الغضب الإلهي، وكتب في لوح القضاء من الأشقياء، فهو كافر نافٍ للصانع، مشرك سواء كان غنيًا أو فقيرًا.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من عدم مبالاته بهم وثباتهم، وعدم رعاية جانبهم وغبطتهم ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم واستكبارهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عن دعوتك وادعائك هذا، أو لم تترك هذياناتك التي جئت بها من تلقاء نفسك افتراءً ومراءً ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ بإصرارك عليها ﴿مِنَ المَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:116] المقتولين بالحجارة زجرًا وقهرًا، فارجع إلى حالك، وتب من هذياناتك؛ حتى لا نقتلك بأقبح الوجوه.

وبعدما قنط نوح عن إيمانهم، وآيس من توحيدهم وعرفانهم ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا إلى الله، ملتجئًا نحوه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامة، ووفقني على الهداية والتوحيد ﴿إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي بعثتني إليهم؛ لأهديهم إلى دينك وطريق توحيدك ﴿كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء:117] بجميع ما جئت به من عندك تكذيبًا شديدًا، وسفهوني تسفيهًا بليغًا، بل قصدوا مقتي وقتلي بأشد العذاب وأقبح العقاب.

وبالجملة: ما بقي بيني وبينهم ائتلاف وارتباط ﴿فَافْتَحْ﴾ واحكم يا ربي بمقتضى عدلك ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ حكمًا مبرمًا، منجزًا لوعدك الذي وعدتني به بعدما كذبوني وأنزل عليهم العذاب الموعود من عندك ﴿وَ﴾ بعد إنزال العذاب عليهم ﴿نَجِّنِي﴾ منه بلطفك ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:118] المصدقين بدينك ونبيك، الممتثلين بأوامرك، المجتنبين عن نواهيك بفضلك وطولك.

وبعد إفراطهم وإصرارهم المتجاوز عن الحد في الإعراض عن الله، والانصراف عن دينه وتكذيب نبيه، وإيذائه إياه من آمن له من المؤمنين، أنزل الله عليهم الطوفان الموعود ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: نوحًا ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾ من متابعيه ومصدقيه بأن أدخلناهم ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء:119] المملوء منهم، ومن كل شيء زوجين اثنين.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد إنجائنا، وإدخالنا نوحًا ومن معه في الفلك ﴿الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء:120] من قومه إلى حيث لم يبقَ منهم أحد على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإغراق ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة دالة على كمال قدرتنا وسطوتنا وعلو شأننا وبسطتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر الناس ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:121] بوحدة وجودنا، وكمال قدرتنا وعزتنا، ومتانة حكمنا وحكمتنا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي وفقك يا أكمل الرسل على الإيمان والتوحيد، وكشف لك سر سريان وحدته الذاتية على هياكل المظاهر ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر في نفسه، بحيث لم يكن أحد في فضاء الوجود سواه ولا إله معه، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:122] لخلص عباده ممن جذبته العناية الأزلية نحو بابه، ويسر له الوصول إلى جنابه، ربِّ اجعلنا من المنجذبين إليك، المنكشفين بوحدة ذاتك.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء:123-135].

ثمّ قال سبحانه مخبرًا عن أحوال المكذبين أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:123] جمعه على الوجه الذي ذُكر في تكذيب نوح، وإنما أنث باعتبار القبيلة وعاد اسم أبيهم.

وقت ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ حين رأى منهم ما هو من أمارات الكفر والفسوق عن مقتضى الاستقامة الموضوعة بينهم بوضع إلهي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 124] من بأس الله أيها المفرطون المسرفون، ولا تحذرون عن قهره وانتقامه أيها الجاهلون.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:125] مرسل إليكم من عنده؛ لأبلغكم ما أُرسلت به من قبل الحق من الأوامر والنواهي المصلحة لأحوالكم، المبعدة عن غضب الله إياكم وقهره.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الغالب القادر على أنواع الانتقامات ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:126] فيما أمرت لكم بوحي الله وإلهامه من الأمور المهذبة لأخلاقكم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:127].

ومن جملة تربيته: إرسال الرسل على المنحرفين عن سبيل الاستقامة من المنصرفين عن طريق توحيده ﴿أَتَبْنُونَ﴾ وتعمرون أيها المسرفون المستكبرون ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ تلال مرتفعة من الأرض ﴿آيَةً﴾ تستدلون بها في سلوككم نحو مقاصدكم ومناهجكم، مع أن النجوم الزاهرات؛ إنما خُلقت لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وأنتم بوضعكم هذه الآيات والعلامات ﴿تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:128] وترتكبون فعلاً لا فائدة لكم فيها أصلاً.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة كبركم وخيلائكم: إنكم ﴿تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منابع الماء والقوانيت، أو قصورًا عاليات وأبنية شامخات مجصصة مشيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:129] وتؤملون الخلود في دار الابتلاء والغرور؛ لذلك تحكمون بناءكم وتشيدونها.

﴿وَ﴾ من كمال استكباركم وتجبركم ﴿إِذَا بَطَشْتُمْ﴾ وأخذتم أحدًا بجريمة

صدرت عنه ﴿بَطَشْتُم جَبَّارِينَ﴾[1] [الشعراء:130] متجبرين متكبرين، خارجين عن مقتضى الحد الإلهي؛ الموضوع للتأديب والتعزير.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور ألّا يأخذكم على أمثال هذا الاجتراء على عباده والظلم عليها ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:131] في نصحي وتذكيري؛ لتنجوا من سخط الله وغضبه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا﴾ القادر العليم الحكيم ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ ونصركم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:132] من أنواع النعم، وأصناف الكرم الفائضة عليكم.

ثمّ فصّل بعضًا منها تنصيصًا عليهم، فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾ تستمدون بها أكلاً وحملاً وركوبًا ﴿وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:133] تظاهرون بهم وتفاخرون.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات ملتفة بأنواع الأشجار والكروم ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:134] جاريات تجري بين جناتكم منها أنهار المياه.

﴿إِنِّي﴾ من كمال عطفي ومرحمتي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من كمال تعنتكم واستكباركم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:135] أي: نزول عذاب الله وأنواع عقوباته فيه.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء:136-145].

ولمّا سمعوا منه ما سمعوا من التذكير والنصيحة على طريق المبالغة ﴿قَالُوا﴾ من كمال استكبارهم واستنكافهم، وشدة إنكارهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ يا هود ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بما وعظت ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء:136] المذكرين، نحن ما نسمع منك

(1) قال الشيخ ابن عجيبة في البحر المديد (343/4): مسلطين ، قاسية قلوبكم، بلا رأفة ولا رقة ولا قصد تأديب، ولا نظراً للعواقب. والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب.

خرافاتك ولا نمتثل بها، ولا نترك لأجلها وأجلك أخلاق أسلافنا التي كانوا عليها.

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما كنا عليه من الأخلاق ما هي ﴿إِلَّا خُلُقُ﴾ آباتنا ﴿الْأَوَّلِينَ﴾[1] [الشعراء:137] وعادتهم المستمرة، وسنتهم السنية المأثورة لنا منهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ﴾ ولا أسلافنا الذين مضوا عليها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: 138] بعد انقراضنا عن هذه النشأة؛ إذ لا إعادة ولا رجوع لنا، ولا نشور من قبورنا بعدما متنا وكنا ترابًا وعظامًا بالية.

وبالجملة: لم يقبلوا منه دعوته، ولم يصدقوا قوله ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبًا شديدًا، وصاروا بسبب تكذيبهم إياه، وإنكارهم عليه مستحقين لقهرنا وغضبنا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ من كمال غيرتنا، واستأصلناهم بمقتضى قدرتنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والاستئصال ﴿لَآيَةً﴾ دالة على استقلالنا واستيلائنا بالسلطنة القاهرة على مظاهرنا ومربوباتنا ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:139] بنا وبأسمائنا، وأوصافنا الكاملة الشاملة آثارها لعموم المظاهر والمصنوعات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المستقل بالتصرف في آثار أسمائه وأوصافه بلا مشاركة له في الوجود والإيجاد ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:140] بتجلياته اللطيفة الجمالية في إظهار الكائنات المشاهدة في الآفاق والأنفس حسب إمداده وإعانته.

---

(1) أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده فإن قيل لو قال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق؛ لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ، ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم: ﴿إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين﴾ فمن قرأ «خَلْقُ الأولين» بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين، وتخرصهم كما قالوا (أساطير الأولين) أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب، ومن قرأ «خُلُق» بضمتين وبواحدة، فمعناه ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر، أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد، فعند هذا بين الله تعالى أنه أهلكهم، وقد سبق شرح كيفية الهلاك في سائر السور، والله أعلم. [تفسير الرازي (11 /495)].

ثمّ قال سبحانه مخبرًا عن المكذبين المهلكين أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:141].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ المصلح لأحوالهم حين لاح عليهم علامات الإعراض عن الله، والانحراف عن جادة توحيده: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:142] عن قهر الله، فتخرجون عن حدوده.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:143] أنبهكم على ما يصلح حالكم، وأجنّبكم عمّا يفسدكم.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذروا من قهره وصولة غضبه وجلاله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:144] فيما أنصح لكم وأذكركم به.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:145] وهو سبحانه اختارني للبعثة والرسالة، واصطفاني لحمل وحيه، فأرجو من فضله وسعة جوده أن يفيض عليّ من معارفه وحقائقه إلى حيث اضمحل هويتي الباطلة في هوية الحق، وتلاشى تعيناتي بالفناء فيه.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الشعراء:146-159].

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ وتبقون ﴿فِي مَا﴾ أي: في أنواع النعم، وأصناف الإحسان والكرم، وتستمرون ﴿هَاهُنَا﴾ أي: في هذه النشأة كذلك ﴿آمِنِينَ﴾ [الشعراء:146] بلا فترة انتقال وتحويل، مترفهين ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:147] جاريات فيها ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة في أطرافها ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿نَخْلٍ﴾ لطيف ﴿طَلْعُهَا

﴿هَضِيمٌ﴾ [الشعراء:148] إذ هو ينكسر وينهضم بسهولة، ويستحيل دمًا بسرعة.

﴿وَ﴾ من كمال بطركم، ونهاية حرصكم وأملكم ﴿تَنْحِتُونَ﴾ أي: تثقبون وتنقبون ﴿مِنَ الجِبَالِ﴾ المتحجرة ﴿بُيُوتًا﴾ ومخازن تدخرون وتخزنون أمتعتكم فيها؛ صونًا لها عن أنواع الحادثات بطرين ﴿فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:149] متنعمين.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ المحول للأحوال؛ حتى لا يبدل يسركم إلى العسر، وتنعيمكم إلى التنقيم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:150] في نصحي وتذكيري.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء:151] في الإغراء على المعاصي والتغرير فيها؛ إذ هم ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات، ومن جملتها: إفسادكم وإغراؤكم إلى ما يضركم ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:152] مفاسد أحد.

وبعدما سمعوا من صالح ما سمعوا من النصيحة والإرشاد، وأنواع الإصلاح والسداد ﴿قَالُوا﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم، وكمال توغلهم في بحر الغفلة والغرور: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا صالح ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:153] المختلين المخبطين عقولهم بالسحر.

لذلك تتخيل أنك رسول مرسل من قبل الحق هادٍ إلى طريقه، مع أنك ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ بلا رجحان لك علينا، ولم يعهد إرسال البشر إلى البشر، وبعدما عيروه وشنعوا عليه قصدوا تعجيزه، فأمروه بإتيان البرهان على صدقه، فقالوا متهكمين: ﴿فَأْتِ﴾ يا صالح ﴿بِآيَةٍ﴾ معجزة دالة على صدقك في دعواك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:154].

﴿قَالَ﴾ صالح: معجزتي الدالة على حقية دعوتي ورسالتي ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ مخرجة من الصخرة بإخراج الله بعدما اقترحتموني بإخراجها، فدعوت الله القادر المقتدر على اختراع الأمور المستبدعة، وأتضرع نحوه فقبل دعائي، فأخرجها بقدرته على الوجه الذي اقترحتم، فاعلموا أيها المنهمكون في بحر الغفلة والغرور أنه ﴿لَهَا﴾ أي: للناقة ﴿شِرْبٌ﴾ أي: معين لشربها من بئركم بتعيين الله إياها ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:155] معين.

فعليكم ألا تتجاوزوا من شربكم إلى شربها، ولا تضروا بها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا

بِسُوٓءٍ﴾[1] من ضرب وعقر، وظمأ وجوع، فإنكم أن تمسوها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ وينزل عليكم ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:156] وصف به؛ لعظم ما فيه من العذاب.

ثمّ لمّا أوصاهم بحفظها وحضانتها، وبالغ في شأنها لم يقبلوا منه، ولم يبالوا بقوله فاجتمعوا على عقرها متفقين ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ بعدما اتفق الكل ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بعدما عقروها ﴿نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:157] خائفين من نزول العذاب، لا تائبين آيبين عمّا فعلوا من ترك المأمور وارتكاب المنهي.

وبعدما استحقوا العذاب بصنيعهم هذا ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود المعهود من قبل الحق فنزل عليهم، فأهلكهم بالمرة إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء والإنزال والإهلاك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة مثبتة لكمال قدرة الله وقهره على مقتضى صفاته الجلالية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:158] بقهره وجلاله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر على أعدائه بمقتضى غضبه وجلاله ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:159] المشفق على أوليائه حسب اقتضاء لطفه وجماله.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ
﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾

---

(1) قال الألوسي (6 /237): نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيم) والجار والمجرور متعلق بالفعل، والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك. وقيل: الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل الفعل. والمعنى لا تمسوها مع قصد السوء بها فضلاً عن الإصابة فهو كقوله تعالى: (لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُم سكارى). (فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) منصوب في جواب النهي. والمعنى لا تجمعوا بين المس وأخذ العذاب إياكم. والأخير وإن لم يكن من صنيعهم حقيقة لكن لتعاطيهم أسبابه كأنه من صنيعهم.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء:160-175].

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ﴾ أيضًا ﴿قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:160] مثل ما كذب السابقون.

وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ حين شاعت بينهم الفعلة القبيحة الذميمة، والديدنة الشنيعة إلى حيث يبآهون بها ولا يخفونها ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 161] من غضب الله أيها المسرفون المفرطون، اتقوا الله الغالب الغيور، واحذروا من سخطه.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبله ﴿أَمِينٌ﴾ [الشعراء:162] يؤمنكم عن مكر الله، وإلمام غضبه وعذابه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ حق تقاته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:163] في جميع ما جئت لكم من عنده.

﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي ونصحي ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:164] فإنه المتكفل لأجور عباده على مقتضى أعمالهم ونياتهم فيها.

﴿أَتَأْتُونَ﴾ وتجامعون أيها المفسدون المفرطون ﴿الذُّكْرَانَ﴾ أي: الذكور والأمارد وتختصون بهذه القبيحة الشنيعة، مع أنه ما سبق مثلها ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:165] من الذين مضوا من بني نوعكم.

﴿وَ﴾ تبالغون لها، حيث ﴿تَذَرُونَ﴾ وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لإتيانكم وحرثكم ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ أي: نسائكم؛ ليترتب عليها حكمة التناسل وإبقاء النوع ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ بسوء صنيعكم وقبح فعلتكم هذه ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:166] مجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته.

وبعدما سمعوا منه تشنيعه على أبلغ وجه وأشنعه ﴿قَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وضغينتهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ ولم تنزجر عن تشنيعنا وتقبيح فعلنا، ونهينا عنه ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ بجراءتك علينا ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:167] من قريتنا على أشنع وجه وأسوئه.

وبعدما سمع لوط عليه السلام منهم ما سمع من الغلظة والتشدد في التهديد: ﴿قَالَ﴾

مستوحشًا منهم، مستنكرًا عليهم: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ هذا ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء:168] المبغضين غاية البغض إلى حيث أكره مساكنكم مطلقًا، وأريد الخروج من بينكم، ولا أبالي من تهديدكم عليّ بالإخراج.

ثمّ توجه نحو الحق وناجى معه مبغضًا عليهم، مشتكيًا إلى ربه بقوله: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الطهارة والنظافة الصورية والمعنوية ﴿نَجِّنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:169] أي: من العذاب الموعود النازل عليهم بشؤم عملهم هذا.

فأنزلنا العذاب عليهم بعدما استحقوا لإنزاله ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:170] من إصابة العذاب المنزل على قومه.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته بقيت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء:171] الهالكين بميلها إليهم ومحبتها لهم.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ وأهلكنا ﴿الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:172].

﴿وَ﴾ ذلك بأن ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ لم يعهد مثله؛ لأنه حجارة هالكة لكل من أصاب ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء:173] مطرهم هذا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإمطار والإهلاك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة، دالة على علو شأننا وسطوع حجتنا وبرهاننا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:174] بآياتنا العظام؛ لذلك لحقهم ما لحقهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء المتفرد بالوجود والبقاء، لا موجد سواه، ولا إله إلا هو ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:175] المتجلي بالتجليات الحبية؛ لإظهار ما في الوجود من الأعيان والأكوان.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّ

أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ
عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء:176-191].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:176].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ حين رأى منهم أمارات الميل والانحراف عن القسطاس المستقيم، الموضوع من عند العزيز العليم، المنبئ عن الاعتدال المعنوي: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:177] وتحذرون عن بطش الله إياها، المتجاوزون عن حدوده.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عنده ﴿أَمِينٌ﴾ [الشعراء:178] موصل لكم أمانته.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:179] فيما أرسلت به.

﴿وَ﴾ لا تخافوا عن أخذ الجعل والرشا؛ إذ ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:180] يعطيني جزاء إرشادي وإبلاغي، ويوصلني إلى منتهى أملي ومرادي.

وعليكم أيها المكلفون المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية إيفاء الكيل ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ﴾ إيفاءً تامًا كاملاً ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بتنقيصه وتطفيفه ﴿مِنَ المُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: 181] الناقصين حقوق عباد الله؛ حتى لا يخسركم رحمته.

﴿وَزِنُوا﴾ وقت وزنكم لغيركم من عباد الله ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ والميزان ﴿المُسْتَقِيمِ﴾[1] [الشعراء:182] العدل السوي بحيث لا يميل إلى جانب أصلاً.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أن ﴿لَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تكسروا سلعهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ﴾ أي: لا تمشوا عليها بالظلم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء:183] بأنواع الفساد.

(1) قال الشيخ الألوسي (11/ 32): إشارة لهم أن يعرضوا أعمال المريدين القلبية والقالبية على الشريعة فهي القسطاس المستقيم وكفتاها الحظر والإباح.

﴿وَ﴾ كيف تفسدون فيها، وتظلمون من عليها ﴿اتَّقُوا﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ﴿وَ﴾ كذا خلق ﴿الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:184] وذوي الخلقة من المتقدمين من أسلافكم وغيرهم أيضًا.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من الحكم والتذكيرات ﴿قَالُوا﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿إِنَّمَا أَنتَ﴾ يا شعيب ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:185] الذين ضاعت عقولهم بالسحر والافتتان.

﴿وَ﴾ كيف تكون أنت من المرسلين ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ومن أين يتيسر لبشر أن يكون مرسلاً من رب العالمين ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ في دعواك الرسالة ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء:186] المفترين؟!.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ من بعض إقطاعها تهلكنا بها ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:187] في أمرك هذا ورسالتك.

وبعدما آيس شعيب عليه السلام عن أيمانهم ﴿قَالَ﴾ لهم مشتكيًا إلى الله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:188] من أنواع الفسادات، وبمقدار ما تستحقون عليها من الجزاء والعذاب.

وبالجملة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبًا شديدًا، وأنكروا عليه إنكارًا بليغًا، ولم يقبلوا قوله واستحقوا العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ على الوجه الذي اقترحوا منه، شدد الله عليهم بالحرّ؛ حيث اضطروا إلى الاستظلال، وذلك يوم غلت المياه في الأنهار، وظلتهم السحابة بغتةً فازدحموا تحتها مستظلين، فأمطر الله عليهم نارًا فاحترقوا بالمرة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:189] لعظم جرمهم وعذابهم فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأخذ والإنزال والإظلال ﴿لَآيَةً﴾ دالة على كمال قهرنا إياهم وزجرنا وانتقامنا عنهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:190] بقهرنا وغضبنا ومقتضيات أوصافنا الجلالية.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم المرادات والمقدورات من الثواب والعقاب، والإنعام والانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:191] على من وفقهم إلى مقتضى ما رضي عنهم، ويسر لهم الامتثال بما أمرهم ونهاهم.

هذا آخر القصص السبع المذكورة؛ لتسلية رسول الله ﷺ من أن المكذبين للرسل

مأخوذون بأنواع العذاب، مستهلكون بأصناف النكال، إنما ذكر سبحانه؛ ليعتبر منها المعتبرون من المؤمنين، ويتفطن المكذبون ما سيلحقهم من العذاب لو أصروا على ما هم عليه من التكذيب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ
﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ
سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾
[الشعراء:192-204].

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء:192] كالكتب السالفة.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ بالتخفيف ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾[1] [الشعراء:193] كما نزل سائر الكتب، وهو جبرائيل عليه السلام - سُمي به؛ لأمانته على الوحي الإلهي بأن أوصله إلى من أنزل إليه بلا تغيير وتبديل أصلاً - نزل به على قلبك يا أكمل الرسل؛ لتكون أنت أيضًا كسائر الرسل من المنذرين؛ لتنذر أهل الغفلة والغرور من قومك، كما أنذروا.

لذلك أنزله سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:195] ظاهر الدلالة وواضح الفحوى، مناسبًا بلغة من أُرسلت إليهم، ولو أنزله على لغة العجم كالكتب السالفة لقالت العرب: ما نفهم معناه، ولا نعرف مقتضاه.

(1) قال الألوسي (10 /92): هذه الآية دليل على أن النبوة عطائية كما هو المذهب الحق، ويرد بها أيضًا على بعض المتصوفة القائلين بأنه لا حاجة للخلق إلى إرسال الرسل عليهم السلام قالوا: الرسل سوى الله تعالى وكل ما سواه سبحانه حجاب عنه جل شأنه فالرسل حجاب عنه تعالى وكل ما هو حجاب لا حاجة للخلق إليه فالرسل لا حاجة إليهم، وهذا جهل ظاهر، ولعمري أنه زندقة وإلحاد، وفساده مثل كونه زندقة في الظهور، ويكفي في ذلك منع الكبرى القائلة بأن كل ما سواه سبحانه الخ فإن الرسل وسيلة إلى الله تعالى والوصول إليه عز وجل لا حجاب، وهل يقبل ذو عقل أن نائب السلطان في بلاده حجاب عنه؟ وهب هذا القائل أمكنه الوصول إليه سبحانه بلا واسطة بقوة الرياضة والاستعداد والقابلية فالسواد الأعظم الذين لا يمكنهم ما أمكنه كيف يصنعون.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: إنزال القرآن عليك يا أكمل الرسل عربيًا ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:196] أي: مثبتًا مزبورًا في كتبهم مع نعتك أيضًا وحليتك، وجميع أوصافك.

﴿أَ﴾ تنكرون صدق القرآن وصحة نزوله من عند الله على محمد ﷺ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ ولم تثبت عندهم ﴿آيَةً﴾ تدل على صدقه وحقيته، وصحة نزوله من عند الله، وهي ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿يَعْلَمَهُ﴾ ويعرفه ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:197] وأحبارهم، يخبرون به ويقرؤون في كتبهم اسمه، واسم من أُنزل إليه ونعته وحليته.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ [الشعراء:198] ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ بلسانهم وعلى لغتهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:199] حينئذٍ، معللين بأنّا لا نفهم معناه، ولا نعرف فحواه، فكيف عملنا به وامتثلنا بما فيه؟.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما قررنا القرآن وأدخلناه في قلوب المؤمنين ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ وأدخلناه أيضًا ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:200] إلا أن المؤمنين آمنوا به وامتثلوا بما فيه؛ لصفاء طينتهم.

والمجرمون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عنادًا ومكابرةً، لخبث طينتهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء:201] المؤلم الملجيء لهم إلى الإيمان في وقت لا ينفعهم إيمانهم.

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب الموعود لهم حينئذٍ من قبل الحق ﴿بَغْتَةً﴾ بلا تقديم مقدمة، وسبق مادة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء:202] نزوله.

﴿فَيَقُولُوا﴾ بعدما نزل عليهم، ووقعوا فيه متحسرين متمنين: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء:203] ممهلون زمانًا؛ حتى نتدارك ما فوتنا على نفوسنا من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله.

قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿أَ﴾ تستمهلون وتستنظرون أيها المضرون المسرفون ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ هذا ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:204] فيما مضى مستهزئين متهكمين، قائلين لرسلنا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...﴾ [الأحقاف:22]، و﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً...﴾ [الأنفال:32]، و﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا...﴾ [الشعراء:187] وأمثال ذلك، وحين نزل عليكم العذاب الموعود تستنظرون؟!.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا

﴿كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾
وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ
﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾
[الشعراء:205-216].

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ وعلمت أيها الرائي الخبير ﴿إِن﴾ أمهلناهم في الدنيا زمانًا طويلاً بأن ﴿مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [الشعراء:205] فيها تمتيعًا بليغًا، ورفهناهم ترفيهًا بديعًا.

﴿ثُمَّ جَاءَهُم﴾ ونزل عليهم بعد زمان طويل ﴿مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء:206] من العذاب.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي: لم يدفع طول مكثهم فيها شيئًا من العذاب، ولم يخفف عذابهم ﴿مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:207] أي: تمتيعهم زمانًا طويلاً، فإذن لا فرق بين إمهالهم وبين تعجيل العذاب عليهم.

﴿وَ﴾ من سنتنا المستمرة وعادتنا القديمة ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من القرى القديمة الهالكة ﴿إِلَّا﴾ أرسلنا أولاً ﴿لَهَا﴾ أنبياءً ورسلاً، هم ﴿مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: 208] مخوفون عمَّا هم عليه من الأمور المستجلبة للعذاب، المستوجبة له.

وإنما أرسلنا إليهم وأنذرناهم عمَّا أنذرناهم أولاً؛ ليكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرة وعظة منها إياهم؛ حتى لا ينسبوننا إلى الظلم، ولا يجادلوا معنا وقت حلول العذاب ﴿وَ﴾ ظهر عندهم أنَّا ﴿مَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:209] بتعذيبهم بأنواع العذاب.

﴿وَ﴾ بعدما نسب المشركون المكابرون تنزيل القرآن المعجز إلى الشياطين، وطعنوا فيه بأنه من جملة ما تلقي الشياطين إلى الكهنة، رد الله عليهم بقوله: ﴿مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الفرقان، المعجز لفظًا ومعنى، المبني على الهداية المحصنة ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:210] الضالون المضلون؛ إذ لا يتأتى منهم الهداية أصلاً.

﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ الإتيان بالهداية والرشاد ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء:211] ويقدرون عليها؛ إذ الهداية إنما هي من طيب النفس وطهارة الفطرة، وأمَّا استماعهم وسماعهم من الملائكة أيضًا لا يتأتى منهم، ولا يمكنهم.

﴿إِنَّهُمْ﴾ من رداءة فطرتهم وخباثة جبلتهم ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:212] لأن الاستماع منهم مشروط بالمناسب لهم في التجرد عن العلائق، وصفاء الفطرة عن أكدار الطبيعة، وقبول الفيض عند هبوب نسمات النفسات الرحمانية، والتعرض والاشتياق منها على الدوام.

وظاهر أن نفوسهم الخبيثة ليست بهذه المثابة، والقرآن والفرقان محتوٍ على حقائق ومعارف، ومكاشفات ومشاهدات لا يمكن صدورها إلا ممن هو منبع جميع الكمالات ومنشأ عموم الخيرات، والمطلع بجميع السرائر والخفيات، والقادر المقتدر على جميع المرادات والمقدورات، فكيف يليق بكمال القرآن أن ينسب إلى الشيطان؟! تعالى شأن القرآن عمّا ينسب الظالمون علوًا كبيرًا.

ثمّ أشار سبحانه إلى تحريك سلسلة أشواق المحبين، وتهييج إخلاص الموحدين المخلصين، المنقطعين نحو الحق، الساعين بإفناء هويتهم الباطلة في طريق توحيده، الباذلين مهجهم في مسلك الفناء؛ ليفوزوا بشرف اللقاء والبقاء.

فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ، ناهيًا له عن التوجه والالتفات نحو الغير مطلقًا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ﴾ الأحد الفرد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾[1] من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ الكل في حيطة أوصافه وأسمائه لا وجود لها لذاتها، بل إنما هي عكوس وأظلال للأسماء والصفات الإلهية ﴿فَتَكُونَ﴾ أنت بجمعيتك وكمالك لو دعوت، واتخذت إلهًا آخر صرت ﴿مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:213] بأنواع التعذيبات الصورية والمعنوية والعقلية والحسية، الجسمانية والروحانية.

إنما خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بهذا الخطاب الهائل، عاتبه بهذا العتاب الهائب؛ ليتنبه المؤمنون، ويتفطنوا بكمال غيرة الله المتفرد المتوحد، القهار للأغيار مطلقًا.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر عندك يا أكمل الرسل غوائل الشرك، ولاح دونك ما يترتب عليه من القهر الإلهي وغضبه ﴿أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ أي: قرابتك، سيما ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾

---

(1) قال الألوسي (14 /371): خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم مع استحالة صدور المنهي عنه عليه الصلاة والسلام تهييجاً وحثاً لازدياد الإخلاص فهو كناية عن أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه. وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه. وكأن الفاء فصيحة أي إذا علمت ما ذكر فلا تدع مع الله إلهاً آخر.

[الشعراء:214] منهم، واهتم بشأنهم أشد اهتمام؛ حتى تنقذهم من الشرك المستجلب لأنواع العذاب والغضب من قبل الحق.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ وآمن لك منهم؛ أي: لين جانبك نحوهم، وابسط مؤانستك معهم ومصاحبتك معهم إياهم؛ حتى صار كلهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:215] الموحدين، الناجين من عذاب الله وسخطه.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ بعدما قد لنت لهم وأنست معهم، ولم يقبلوا منك دعوتك وإنذارك ﴿فَقُلْ﴾ متبرئًا منهم، مستنزهًا نفسك عن أعمالهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:216] أي: منكم ومن عملكم الذين تعملونه مصرين مستكبرين.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء:217-227].

﴿وَ﴾ إن عادوك وعاندوا معك إلى أن قصدوا مقتك ﴿تَوَكَّلْ﴾ في دفعهم وكفاية مؤنتهم ﴿عَلَى الْعَزِيزِ﴾ الغالب لقهر الأعداء، الغالب على غضبهم وانتقامهم بأنواع البلاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:217] على الأولياء، ينصرهم على أعدائهم، ويدفع عنهم شرورهم.

وكيف لا يرحمك يا أكمل الرسل، ولا يكفيك مؤونة أعدائك ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أي: القيوم القادر الذي يشاهدك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:218] من منامك خلال الليل طلبًا لمرضاته، ورفعًا لحاجاتك نحوه؟!.

﴿وَ﴾ يشاهد أيضًا ﴿تَقَلُّبَكَ﴾ وترددك جوف الليل في تفقد أحوال المؤمنين ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:219] المتذللين نحو الحق، واضعين جباههم على تراب المذلة والانكسار شوقًا إليه وتحننًا نحوه من إفراط المودة، واشتعال نار العشق والمحبة

الإلهية المطفئة لنيران الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة.

وكيف لا يتذللون إليه ولا يتحننون نحوه ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتهم وعرض حاجاتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:220] بمقاصدهم وأغراضهم، وخلوص نياتهم وإخلاصهم في أعمالهم.

وبعدما ردَّ سبحانه قول من قال: إن القرآن منزل من قبل الشياطين لا من الملائكة وأثبت أن إنزاله منه سبحانه، وإيصاله من الروح الأمين على الرسول الأمين؛ إذ المناسبة بينهما مرعية، والمشاكلة مثبتة، أراد أن يشير سبحانه إلى أن تنزيل الشياطين وتسويلاتهم إنما هو لأوليائهم الذين كملت نسبتهم إليهم، وصحت مناسبتهم معهم.

فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم أيها المسرفون المترددون في أمر القرآن وإعجازه وإنزاله من قبل الحق القادحون فيه بنسبته إلى تنزيل الشيطان، أو إلى الشعر الذي هو من جملة وساوسه وتخيلاته، مع أنه مشتمل على معارف وحقائق، ورموزات وشهودات لا يسع الإتيان بها والتعبير عنها إلا لمن هو علام الغيوب، مطلع على سرائر أرباب الكشف والشهود، أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:221] للإضلال والوسوسة، والتحريف عن طريق الحق، والتغرير بالأباطيل؟.

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مبالغ في الإفك والافتراء ﴿أَثِيمٍ﴾[1] [الشعراء:222] مغمور في الإثم والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان.

ليتحقق مناسبته مع الشياطين الذين ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ للملائكة، ويصغون منهم بعض المغيبات لا على وجهها؛ غرضهم من الإصغاء الإفساد والرد لا الإصلاح والقبول ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:223] فيما يسمعون ويلقون؛ إذ هم يحرفونه ويزيفون ترويجًا لما هم عليه من الفساد والإفساد، وتغريرًا لأوليائهم بأنواع التغريرات.

---

(1) قال الألوسي (14 /382): أي كثير الإفك وهو الكذب (أَثِيمٍ) كثير الإثم، و(كُلِّ) للتكثير وجوز أن تكون للإحاطة ولا بعد في تنزلها على كل كامل في الإفك والإثم كالكهنة نحو شق بن رهم بن نذير. وسطيح بن ربيعة بن عدى. والمراد بواسطة التخصيص في مرعاة البيان أو السياق أو مفهوم لمخالفة عند القائل به قصر تنزلهم على كل من اتصف بما ذكر من الصفات وتخصيص له بهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَ﴾ من جملة أولياء الشياطين المنتسبون إليهم بالنسبة الكاملة الكاذبة: ﴿الشُّعَرَاءُ﴾ المذبذبون بين الأنام بأكاذيب الكلام وأباطيله؛ لذلك ﴿يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ [الشعراء:224] الضالون من جنود الشياطين، المستتبعون لهم؛ لترويج أباطيلهم الزائفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ﴾ ومن تابعهم من الغواة ﴿فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الضلال والطغيان ﴿يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء:225] يترددون حيارى تائهين بلا ثبات ولا قرار، مترددين في معاشهم ومعادهم.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ من غاية غفلتهم وسكرتهم في أمور معاشهم ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم، ويخبرون بألسنتهم تلقفًا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:226] من الأخلاق والحكم والمواعظ، والرموز والإشارات التي تصدر عنهم هفوة، وهم لا يمتثلون بها أصلاً.

﴿إِلَّا﴾ الشعراء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] بتوحيد الله، واتصفوا بالحكمة المعتدلة المودعة في قلوبهم، الظاهر أثرها من ألسنتهم، ومضوا على مقتضى الاعتدال المعنوي الذي جبلهم الحق عليه بلا تلعثم منهم، وتزلزل عن مقتضى فطرتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال المصلحة لمفاسدهم، المهذبة لأخلاقهم وأطوارهم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ﴾ المستوي على صراط العدالة والاستقامة في أشعارهم وقصائدهم ﴿كَثِيرًا﴾ في عموم أوقاتهم وحالاتهم؛ بل أكثر أشعارهم إنما هي لإثبات توحيد الحق ومعارفه وحقائقه ورموز أرباب الكشف والعرفان، والتذكيرات المتعلقة بترك

(1) قال الشيخ البقلي: أي: الذين شاهدوا الله بنعت الإيقان والعرفان، وأصلحوا سرائرهم بتقديسها عما دون الله في قربة الله، وذكروا الله كثيرًا أي: سافروا بقلوبهم وأرواحهم وعقولهم في ميادين الآزال والآباد على مراكب الأسرار والأنوار بغير طريان الغفلة وهجوم الفترة، وبفهم الذكر الكثير فناء الذاكر في المذكور بعد أن ينكشف له لوائح أنوار الأزلية والأبدية؛ فهذا غاية المجهود من الذاكرين، وفيه نكتة عجيبة أن الله سبحانه وصفهم بالذكر الكثير، وما أخبر أنهم ذاكرون بالحقيقة؛ لأن حقائق الذكر لا يقع للحدثان في قدم الرحمن؛ لأن الذكر الحقيقي إحاطة ذكر الذاكر بالمذكور، وهو مستحيل في حق الأزل؛ لذلك قال الواسطي: من ذكره افترى، وانتصارهم بعد أن ظلموا انتصارهم من نفوسهم الأمّارة حين جهلوا حقوق الله بالمجاهدات الكثيرة والرياضات. قال الجنيد: الذكر الكثير هو دوام المراقبة في جميع الأحوال، وطرد الغفلة عن القلب. وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد، ولكنه بالحضور دون العاهة والغفلة. قال النصر آبادي: حقيقة الذاكر أن يغيب الذاكر عن ذكره بمشاهدة المذكور ثم تغيب مشاهدته في مشاهدته حتى شاهد حقًا.

المألوفات، وقطع التعلقات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

وبعض أشعارهم متعلق بردع أهل الأهواء والآراء، وهتك محارمهم وأعراضهم وتعداد مقابحهم ورذائلهم ﴿وَ﴾ ذلك بأنهم ﴿انتَصَرُواْ﴾ بأشعارهم هذه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ من أيدي الجهلة، وألسنة الكفرة المتعنتين المستكبرين على أرباب المحبة والولاء من المنقطعين نحو الحق، السالكين في سبيل توحيده.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على أهل الحق، وآذوهم بالسنان واللسان وأنواع القدح والطغيان، ونسبوهم إلى الإلحاد والفساد، ورموهم بأنواع الفسوق والفساد مع أنهم على صرافة التوحيد متمكنون، ومن أمارات الكثرة والتقليد متنزهون، وسيعلم أولئك الرامون المفرطون المسرفون ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ أي: مرجع ومآب ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227] ويرجعون، أيدخلون إلى حضرة النيران والخذلان منكوسين، أم إلى روضة الرضا مسرورين؟.

ألا أن أولياء الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:274].

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لاعتدال الأطوار والأخلاق والأعمال، وجميع الشئون والأحوال المتعلقة بنشأتي الدنيا والعقبى، أن تراجع ذوقك ووجدانك في جميع ما جرى عليك من الأحوال، وتتأمل فيها حق التأمل إلى أن تطلع بمبدئه ومنشئه، ثم تتفكر في صدوره، هل هو على مقتضى الاعتدال والقسط الإلهي، أم على مقتضى الهوى الغالب الذي هو من جنود الأمّارة المستمدة من إغواء الشيطان وإغرائه؟.

فإن وجدته على مقتضى القسط الإلهي والعدل الجبلي، فطوبى لك، وإن وجدته على مقتضى الهوى فعليك أن تعالجها، وتلازم في إصلاحها واستقامتها بالرياضات القالعة لعرق الأماني، والمرادات المتعلقة بمستلذات الدنيا الفانية، وتواظب على أشق الطاعات وأتعب العبادات من صيام الأيام، ومشي الأقدام، وانقطاع صحبة الأنام، والاعتزال بين الجبال والآجام، والعكوف في الخلوات، والاشتغال بالميل والصلوات المقربة نحو الحق؛ حتى تعتدل أوصافك وأخلاقك، وتستقيم أفعالك وأحوالك، فحينئذٍ انكشف لك باب التوحيد، وانغلق عليك مداخل الرياء والسمعة والعُجب، وأنواع الكدورات اللاحقة من الخلطة والمؤانسة مع الناس، والمصاحبة معهم المكدرة لصفاء شرب التوحيد.

واعلم يا أخي أن أرباب المحبة الكاملة والولاء التام، هم الذين يبذلون مهجهم في سلوك سبيل الفناء بلا التفات منهم إلى أحد من الناس، لا خيرًا ولا شرًا، ولا نفعًا ولا ضرًا، بل هم من كمال حيرتهم واستغراقهم في مطالعة جمال الله وجلاله لا يلتفتون إلى نفوسهم، فكيف إلى غيرهم؟!.

ولا يتيسر لك هذا إلا بتوفيق إلهي وجذب من جانبه، وبمتابعة حبيبه ﷺ في أطواره وأخلاقه وجميع سننه وآثاره، وبملازمة خدمة مرشد كامل، منبه نبيه، يوقظك من منام غفلتك، ويرشدك إلى منتهى مقصدك وقبلتك.

ربِّ هب لي من لدنك حكمةً وحكمًا، وألحقني بالصالحين.

تم الجزء الثاني من تفسير القرآن الشريف لحضرة سلطان الأولياء على الإطلاق سيدي وسندي السيد الشيخ أبي محمد عبد القادر الجيلاني الشهير الذي ارتفع قدره وسما ذكره، ﷺ وأرضاه.

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النمل

لا يخفى على أرباب الهداية الكاملة من الراسخين في مقر العز والتمكين، الواصلين إلى سر الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحقي، مندرجين من مرتبتي العلم والعين إلهامًا بعدما سبقت لهم العناية الأزلية والجذبة الإلهية، والبشارة المتضمنة لأنواع الرموز والإشارة من قبل الحق الحقيق بالحقيقة أن من اهتدى إلى التوحيد الذاتي، وتمكن على تلك المرتبة بلا طريان تزلزل وتلوين، لا بدَّ أن يقيم ويديم صلواته وميله نحو الذات الأحدية، مهذبًا ظاهره وباطنه عن الميل والالتفات إلى ما سواه من المزخرفات الفانية الملهية عن الفناء فيه والبقاء ببقائه.

وأيضًا لا بدَّ له أن يميت نفسه بالموت الإرادي عن مقتضيات أوصافه البشرية، وقواه الناسوتية المبعدة عن التقرب لكنف اللاهوت، وجوار حضرة الرحموت الذي لا ينام ولا يموت.

وبالجملة: لا بدَّ له الانخلاع عن خلع التعينات العدمية المقتضية بالتعدد والكثرة مطلقًا؛ حتى يتصف بالطهارة الحقيقية، والطيب المعنوي والسعادة السنية، والسيادة السرمدية، وبذلك خاطب حبيبه ﷺ بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الأشياء ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بالمثوبة العظمى والدرجة العليا، والترقي من أرض الطبيعة إلى سموات الصفات والأسماء، واللحوق بالملأ الأعلى والوصول إلى سدرة المنتهى.

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ

﴿الْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:1-6].

﴿طس﴾ يا طالب السيادة السرمدية، والسعادة السنية الأزلية الأبدية ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المتلوة عليك تعظيمًا لشأنك، وتتميمًا لبرهانك ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ أي: بعض آيات القرآن المبين، المبيّن لدلائل التوحيد وبينات الفرقان، والفارق بين الباطل والحق من الأحكام ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:1] من منتخب لوح القضاء، وحضرة العلم الإلهي المحيط بجميع ما لمع عليه برق تجلياته الحبيبة.

إنما أُنزلت إليك يا أكمل الرسل من عنده سبحانه؛ لتكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا لك إلى مقام تمكنك من التوحيد الذاتي ﴿وَ﴾ لتكون ﴿بُشْرَى﴾ بأنواع السعادات، ونيل أصناف الخيرات والبركات، ورفع الدرجات وأنواع المثوبات ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:2] التابعين لك في شأنك ودينك إن اطمأنت قلوبهم بالإيمان؛ أي: اليقين العلمي المستجلب لليقين العيني والحقي.

والمطمئنون هم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة المفروضة لهم من قِبَل الحق في الأوقات المخصوصة، ويؤدونها على الوجه الذي وصل إليه من صاحب الشرع الشريف بلا تخفيف ولا تسريف؛ ليتقربوا بها نحو الحق، وزاد يقينهم وتصديقهم بسببها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المصفية لقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق من الزخرفة الفانية؛ ليتمرنوا بسببها على إسقاط الإضافات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُم﴾ في جميع شئونهم وحالاتهم ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ المعدَّة لجزاء الأعمال وتنقيد الأفعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:3] علمًا وعينًا؛ لأن أرباب الخبرة والبصائر المنكشفين بتعاقب النشأتين يرون في النشأة الأولى ما سيلحقهم في الأخرى؛ لذلك يترددون في الأولى للأخرى، ويزرعون فيها ما يحصدون فيها.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ عنادًا ومكابرةً ﴿زَيَّنَّا﴾ وحسنًا ﴿لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾(1) القبيحة

(1) قال في التأويلات: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الدنيوية وحركاتهم النفسانية الحيوانية في أعين نفوسهم فعميت عيون قلوبهم عن رؤية الآخرة ونعيمها؛ لأن عمى القلوب مودعة في بصارة النفوس وعمى النفوس مودعة في بصيرة القلوب، فصمت آذان قلوبهم حين عميت عيون قلوبهم فلم يسمعوا دعوة الأنبياء بسمع القبول، فلم يؤمنوا وذلك لأن لصورة الإنسان آلة للبصر دون آلة

الفاسدة الدنيوية، وأمهلنا لهم علينا زمانًا؛ ليستحقوا أشد العذاب وأسوأ العقاب ﴿فَهُمْ﴾ بواسطة إمهالنا إياهم في سكرتهم وغفلتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:4] يترددون ويتحيرون بطرين بما لهم من الترفة والتنعم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن عز الحضور، هم ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ في النشأة الأولى ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ [النمل:5] المقصورون على الخسران والخذلان، لا يُرجى لهم نيل مثوبة ورفع درجة، وتخفيف عذاب وقبول شفاعة، ولا خسران أعظم من ذلك؛ لذلك أصاب يوم بدر ما أصاب، وسيصيب لهم في الآخرة بأضعافه وآلافه.

ثمَّ قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه تفضلاً عليه، وامتنانًا له في إنزال القرآن إليه ووحيه عليه: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ لنجابة طينتك وطهارة فطرتك ﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ ويؤتى بك، وينزل إليك ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ مبالغ في الإحكام والإتقان ﴿عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6] باستعدادات الأنام، وقابلياتهم التي بها تتفاوت طبقاتهم فضلاً وكرامةً.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾
يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ
يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ
أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:7-14].

السمع فيحتمل أن تحتل آلة البصير فلا يرى بها شيئًا، ويكون آلة السمع بحالها فيسمع بها ولكن معنى الإنسان ملكوتي لا يحتاج إلى آلة البصر والسمع؛ لأنه بالصفة التي يبصر أيضًا يسمع وبها يتكلم وبها يعقل وبها يفقه، وإن أثبت الله له آلات السمع والبصر والفقه والعقل كما أثبت للصورة، ولكن أثبت لفهم الكلام.

ثمَّ أخذ سبحانه بتعداد أرباب الطبقات والكرامات حثًا لحبيبه ﷺ بالتوجه نحوه والتحنن إليه، والمواظبة على شكر نعمه، فبدأ بموسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ: اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أخوك ﴿مُوسَى﴾ الكليم - صلوات الرحمن عليه - ﴿لِأَهْلِهِ﴾ وزوجته ابنة شعيب عليه السلام حين سار معها من مدين إلى مصر، وهي حاملة، والليلة شاتية مظلمة، وهم ضالون عن الطريق فجاءها الطلق، واضطر موسى في أمرها، فرأى شعلة نار من بعيد، فقال لأهله: اثبتوا مكانكم.

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم﴾ ذا الساعة ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ من الطريق، يخبر به من عندها؛ إذ النار قلما تخلو عن ناس موقدين لها ﴿أَوْ آتِيكُم﴾ إن لم أجد عندها أحدًا ﴿بِشِهَابٍ﴾ أي: جمر ذي ﴿قَبَسٍ﴾ أي: مقبوسة مشتعلة منها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:7] وتستدفئون من البرد، وتستضيئون منها للطريق.

فاستقروا في مكانهم، فذهب موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: النار، ووصل عندها ﴿نُودِيَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال تكريمًا لموسى، وتعظيمًا له، وتنبيهًا عليه من أن مرجع جميع مقاصدك وحوائجك هو الحق، فاطلبه حتى تجد عنده جميع مقاصدك ﴿أَن بُورِكَ﴾ أي: الشأن، إنه أكثر عليك خيرك وبركاتك يا موسى ﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ﴾ ظهر ﴿حَوْلَهَا﴾ إذ هو محيط بجميع الأماكن، ظاهر منها، غير متمكن فيها؛ أي: من ظهر فيها ولاح عليها.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت بشهود الحق مع جميع الأماكن والأشياء، نزهه عن الحلول فيها والإتحاد بها، فقل: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ المنزه عن الأماكن كلها، المتجلي في جميعها؛ لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:8] يربيها بدوام التجلي، وامتداد الأظلال والعكوس الفائضة منه سبحانه عليها.

ثمَّ لمّا قلق موسى واستوحش عن هذا النداء، وقرب إلى أن صار مغشيًا عليه من شدة هوله ودهشته، وكمال ولهه وحيرته، نودي ثانيًا باسمه استئناسًا له، وإزالةً لاستيحاشه: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ﴾ أي: إن من ناداك في النار، وظهر على صورتها ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ المحيط بجميع المظاهر والأكوان إحاطةَ البحر للأمواج والأزباد، والشمس للأضواء والأظلال ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر، المقتدر لقهر السّوى والأغيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [النمل: 9] المتقن في الأفعال والآثار الصادرة الظاهرة مني على أبدع ارتباط وأبلغ انتظام.

﴿وَ﴾ بعدما أزال وحشته، وأذهب ولهه ودهشته بالمؤانسة والمواساة، قال له

آمرًا: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي أخذتها بيدك على الأرض؛ لترى من عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا ما ترى؛ حتى تتنبه من تبدل صورتها وسيرتها إلى سر سريان وحدتنا الذاتية في المظاهر كلها، فألقاها على الفور فإذا هي حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَآهَا﴾ موسى؛ أي: العصا ﴿تَهْتَزُّ﴾ وتتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: حية صغيرة سريعة السير ﴿وَلَّى﴾ وانصرف منها موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ خائفًا هاتبًا، قلقًا حائرًا من أمرها.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع إليها ليأخذها؛ هيبةً وخوفًا، قلنا منادين؛ ليقبل: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ من عصاك، وستعود إلى سيرتها الأصلية ﴿إِنِّي﴾ من كمال مرحمتي وإشفاقي على خلَّص عبادي ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أحد من أوليائي، سيما ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:10] منهم، المختارون للرسالة والتشريع العام.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ من المرسلين بارتكاب ذنب صدر منه، لا عن عمد ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ وتدارك ذنبه ﴿حُسْنًا﴾ بالتوبة والندامة ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ صدر منه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ لهم أغفر لهم، وأعفو عن زلتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النمل:11] أرحمهم وأقبل توبتهم بعدما صدرت عن خلوص طويتهم.

﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى من عجائب العصا ما رأى قال له سبحانه ثانيًا آمرًا: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يا موسى ﴿تَخْرُجْ﴾ في الفور منه، فأدخلها فيه فأخرجها، ترها ﴿بَيْضَاءَ﴾ محيرة للعقول والأبصار، مع أن بياضها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ مرض عرض لها من برص وغيرها، ثمّ قيل له من قِبَل الحق: هي؛ أي: اليد البيضاء آية ومعجزة جديدة دالة على نبوتك ورسالتك، موهوبة لك من عندنا، معدودة ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ عظام لك، وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب.

ثمّ بعدما شهدت من يدك وعصاك ما شهدت يكفيك شهادتهما على صدقك في دعواك الرسالة، مع أن لك معجزات كثيرة سواهما، اذهب مرسلاً من عندي ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ وبلغهم إنذاري وتخويفي، ونزول عذابي عليهم؛ من سوء صنيعهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل:12] خارجين عن مقتضى الحدود الموضوعة فيهم من عندنا وبوضعنا.

فذهب موسى بإذن الله ووحيه إلى فرعون وأظهر الدعوة عنده، وأقام البينة عليها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ أي: ظهرت على فرعون وقومه ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا

وحكمتنا، وصدق من أرسلنا إليهم؛ لإرشادهم وتكميلهم، مع كونها ﴿مُبْصِرَةً﴾ موضحة، مبيّنة لهم صِدْق موسى في دعوى الرسالة، ظاهرة لائحة في نفسها أنها معجزة، ما هي من جنس السحر والشعبذة ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل:13] ظاهر، إنه مجعول بمكر وحيل.

﴿وَ﴾ من كمال استنكافهم واستكبارهم ﴿جَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا لها، ولم يلتفتوا إليها ظاهرًا ﴿وَ﴾ الحال أنها قد ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ إنها معجزة خارقة للعادة صدرت عن أمر إلهي، لا عن مكر وخديعة فظلموا أنفسهم بتكذيب ما تستقر في أنفسهم صدقًا وكونه معجزة ﴿ظُلْمًا﴾ صريحًا، وعدوانًا عن الحق، وميلاً إلى الباطل حسدًا وعنادًا.

﴿وَ﴾ استكبروا على موسى، وأنكروا جميع ما جاء به من عند ربه ﴿عُلُوًّا﴾ وعتوًا ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:14] المستكبرين الذين يكذبون ما يعلمون يقينًا حقيته في نفوسهم، وينسبونه بأفواههم إلى السحر والشعبذة عنادًا ومكابرةً، انظر عاقبتهم، كيف غرقوا واستؤصلوا إلى حيث لم يبقَ منهم أحد يخلفهم ويحيي اسمهم؟!.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل:15-19].

﴿وَ﴾ من سعة جودنا، وعموم فيضنا وفضلنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿دَاوُدَ وَ﴾ ابنه ﴿سُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[1] متعلقًا بالحكم والأحكام، وعموم تدبيرات الأنام، وضبط أحوالهم -

(1) قال الشيخ روزبهان: افهم أن العلم علمان علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من -

وأوضاعهم المتداولة بينهم من الإنصاف والانتصاف، وإقامة الحدود، وسد الثغور وغيرها من الأمور المتعلقة بضبط المملكة.

﴿وَقَالَا﴾ بعدما أرادا أن يشكرا الله، ويؤديا حقوق نعمه الجليلة، ومنحه الفائضة الجزيلة: ﴿الْحَمْدُ﴾ والمنة، والثناء التام الناشئ من عموم الألسنة، وجميع الجوارح الممنونة من نعمه، المغمورة بموائد لطفه وكرمه ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق لعموم المحامد والأثنية الصادرة من ذرائر الأكوان طوعًا ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:15] له، الموحدين بذاته، المصدقين لأنبيائه ورسله وكتبه، وخصصنا من بينهم بمزيد الكرامة المتعلقة برئاسة الدارين، وسيادة النشأتين، وحكومة الثقلين، والحكمة المتقنة المتعلقة بمرتبتي الناسوت واللاهوت، وحضرة الرحموت والجبروت.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ يعني: بعدما انقرض داوود استخلف عنه سليمان عليه السلام، وورث من نبوته وحكمته وحكومته، وسخر له جميع ما سخر لداوود مع زيادات خلا عنه أبوه عليه السلام، وهو تسخير الجن والريح ومنطق الطير، فإنها ما تيسر لأبيه ﴿وَ﴾ بعدما تمكن سليمان عليه السلام على مقر الحكومة والنبوة ﴿قَالَ﴾ يومًا للملأ الجالسين حوله تنويهًا وتشهيرًا لنعم الله على نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا﴾ بلسان الوحي وترجمانه ﴿مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ من فضل الله علينا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: كثير من الأشياء ما لم يؤت مثله

العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم علم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل صنيع الخضر عند موسى -عليهما السلام- من قتل الغلام وغيره، وهو حلم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف، والحكم المرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار وهذه العلوم يجمعها قسمان قسم مستفاد من الخطاب والإلهام والكلام، وقسم يتعلق بكشف الذات والصفات والأفعال، وما أشرنا إلى هذه، وهو صورتها وحقائقها ذوقي كشفي لا يطلع عليها إلا من شاهد الحق بالحق، ويستغرق في بحارها، وعرف أنها غير محصورة للعقول؛ لأنها صفات قديمة لا نهاية لها؛ فلما عظم شأنها حمدا الله بما نالا منه من الله.

أحدٌ من العالمين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الإعطاء والتخصيص والتفضل ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل:16] الظاهر اللائح فضله على كل أحد، والملك العظيم الذي لم يؤتَ أحدٌ من الأنبياء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل يوم ﴿حُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ وكان معسكره مسيرة مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، تمشي كلُّ طائفة منهم مع بني نوعه صافين مستوين، وإن تسابق بعضهم على بعض ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يُوزَعُونَ﴾ [النمل:17] ويحبسون؛ حتى يتلاحقوا ويتساوى صفوفهم، وكان سليمان عليه السلام يأمر الريح فترفعه فوق رءوسهم مشرفًا عليهم، فتسير معه رخاءً.

ومن كمال فضل الله عليه أنه ما تكلم أحد منهم بكلام إلا حملته الريح وألقته في سمعه، فبينا هو يسير مع عسكره هكذا رآه، وجنده حراث، فقال مستغربًا: والله لقد أوتي آل داوود ملكًا عظيمًا، فمشى سليمان عليه السلام إليه، فقال له: إنما مشيت إليك؛ لأوصيك ألَّا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثمَّ قال: والله لتسبيحة واحدة يتقبلها الله خير مِمَّا أوتي آل داوود.

وكان عليه السلام مع جنوده على الوجه الذي ذكر ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ هو وادٍ بالشام كثير النمل؛ لذلك سميت به ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ بعدما رأت سواد العسكر، وأشعرت بعبورهم على الوادي مناديةً لإخوانها، صائحة عليهم، صارخة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ الضعيف النحيف ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ مسرعين متحرزين، ولا تقفوا في الصحراء حتى ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ولا يطأنكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ بحوافر خيولهم ﴿وَهُمْ﴾ وإن كانوا من أرباب البر والتقوى، محترزين عن أمثال هذا الظلم الصريح إلَّا أنهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:18] بكم؛ لصغركم وحقارتكم فيطئونكم بلا شعور وإدراك.

وبعدما سمع سليمان عليه السلام من النملة ما سمع ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ تبسمًا ظاهرًا إلى أن صار ﴿ضَاحِكًا﴾ متعجبًا ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ المشتمل على أنواع التدابير والخيرات من حسن المعاشرة مع الجيران، وآداب المصاحبة مع الإخوان، والتحذير عن مظان المهالك والمتالف قبل الوقوع فيها وغير ذلك.

﴿وَ﴾ بعدما اطلع سليمان على قولها وغرضها توجه نحو الحق عاذًا على نفسه

جلائل نعم الله وآلائه، حيث ﴿قَالَ﴾ حينئذٍ مناجيًا إليه سبحانه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الخيرات والكرامات التي ما أعطاها أحدًا من خلقه ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ ووفقني على أن أؤدي حقوقها على الوجه الذي ينبغي ويليق بشأنك وشأنها، ولا يتأتى مني هذا إلا بتوفيقك وتيسيرك، ووفقني على إتمامها وتكميلها.

﴿وَ﴾ يسر علي ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ في مدة حياتي عملاً ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: مقبولاً عندك، مرضيًا لك ﴿وَ﴾ بعدما توفيتني ﴿أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ وسعة فضلك وجودك ﴿فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:19] المرضيين عندك، المقبولين دونك، وعدني من عدادهم، واحشرني من زمرتهم، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء المؤملين جدير.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل:20-26].

ثم لمّا سار سليمان ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ في بعض أسفاره، وكان الهدهد دائمًا رائده، وبريد عسكره ودليلهم يدلهم على الماء عند الاحتياج؛ إذ هو عالم به إلى حيث تعرفه تحت الأرض وتعين موضعه، وكان يأمر سليمان عفاريت الجن ليحفروها ويخرجوا منها الماء لدى الحاجة.

فاحتاج سليمان عليه السلام يومًا من الأيام إلى الماء، ولم يكن الهدهد حاضرًا عنده فغضب عليه ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتعرفه مفصلاً؛ حتى يجده بينهم فلم يوجد ﴿فَقَالَ﴾ مغاضبًا عليه: ﴿مَا لِيَ﴾ أي: أي شيء عرض علي حتى صرت ﴿لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ بين الطيور، أهو حاضر عندي، مستور علي فلم أره ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل:20]

المتخلفين عن خدمتي ورفاقتي؟.

فوالله لو وجدته ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[1] إلى حيث آمر بنتف ريشه وحبسه في حر الشمس مع ضده في محبس ضيق ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ حدًا؛ ليعتبر منه سائر الخَدَمَة ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ وليقيمنّ على الإثبات عذره ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:21] حجة واضحة ظاهرة الدلالة، مقبولة من ذوي الأعذار عند أولي الأبصار والاعتبار.

﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقد سليمان وتهديده زمانًا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مديد متطاول، ثمّ حضر عنده بلا تراخٍ طويل ﴿فَقَالَ﴾ معتذرًا لغيبته ومكثه: إنما مكثت وغبت عن خدمتك؛ لأني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أنت يا سيدي؛ يعني: تعلق إدراكي بمعلوم لم يتعلق به قبل لا علمي ولا علمك، ولا علم أحد من جنودك ﴿وَ﴾ بعد وقوفي واطلاعي به ﴿جِئْتُكَ مِن﴾ بلاد قبيلة ﴿سَبَإٍ﴾ من نواحي المغرب، وبمن ملك عليها ﴿بِنَبَإٍ﴾ وخبر ﴿يَقِينٍ﴾ [النمل:22] مطابق للواقع.

قال سليمان مبتهجًا، مزيلاً لغيظه وغضبه، مستكشفًا عنه: وما الخبر؟ قال الهدهد: ﴿إِنِّي﴾ بعدما وصلت إلى ديارهم بأقصر مدة ﴿وَجَدتُّ﴾ وصادفت ﴿ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ اسمها بلقيس بنت شراحيل، من نسل يعرب بن قحطان، وأمها جنية؛ لأنه ما كان يرى التزوج من الإنس، ولم يكن له ولد غيرها؛ لذلك ورثت منه الملك فملكت ﴿وَ﴾ من كمال عظمتها وشوكتها ﴿أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ نفائسه وعجائبه ما لا يُعد ولا

---

(1) لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحته بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان ﷺ؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العشيق. [العرائس].

يُحصى ﴿وَلَهَا﴾ من جملة البدائع ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:23] من جميع عروش أرباب الولاية والملك.

قيل: كان ثمانين ذراعًا في ثمانين، وارتفاعه ثلاثين أو ثمانين أيضًا، وهو متخذ من الذهب والفضة، مكلل بالدر والزمرد، والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر وزمرد، وعليه سبعة بيوتات على كل بيت باب مغلق.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ ويعبدونها ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المستحق للتذلل والعبادة ﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله، وغفلتهم عن كمال أوصافه وأسمائه الحسنى ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ هذه وعبادتهم للشمس ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ وصرفهم بتزيينه وتغريره ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي، الموصل إلى توحيد الحق الحقيقي بالعبودية والتذلل ﴿فَهُمْ﴾ بسبب تضليل الشيطان وتغريره، ورسوخهم على ما زُين لهم ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:24] إلى التوحيد بمقتضى فطرتهم الأصلية وجبلتهم الحقيقية.

فلا بدَّ لهم من مرشد كامل، وهادٍ مشفق يهديهم إلى سواء السبيل، مع أنهم من زمرة العقلاء المميِّزين بين الهداية والضلالة، ولكنهم بانهماكهم في الغفلة والغرور، زيَّن لهم الشيطان عبادة الشمس التي هي من جملة مظاهر الحق، مقتصرين العبادة عليها؛ لقصور نظرهم، ولو نبههم منبه نبيه على توحيد الله واستقلاله سبحانه في جميع مظاهره، لعل الله يوقظهم من منام الغفلة.

بأن قال لهم مناديًا إياهم: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ يعني: تنبهوا أيها الفاقدون قبلة سجودكم وجهة معبودكم، أيها القوم الضالون المنصرفون عن المسجود الحقيقي والمعبود المعنوي، بل اسجدوا وتذللوا ﴿لِلَّهِ﴾ المتجلي في الأكوان، المنزه عن الحلول في الجهات والمكان، المقدس عن تتابع الساعات وتعاقب الأزمان، بل له شأن لا يشغله شأن ولا يجري عليه زمان ومكان ﴿الَّذِي يُخْرِجُ﴾ بمقتضى علمه المحيط، وقدرته الكاملة الشاملة ﴿الْخَبْءَ﴾ أي: الخفي المطوي المكنون ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سموات الأسماء الإلهية، وأوصافه الذاتية الفاعلة، وأرض الطبيعة القابلة لقبول الانعكاس من الأسماء والأوصاف ﴿وَيَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا تُخْفُونَ﴾ في سرائركم وضمائركم، بل بخفياتكم التي لا اطلاع لكم عليها أصلاً بمقتضى قابلياتهم واستعداداتهم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:25] من أفعالهم وأحوالهم.

وكيف لا يظهر المكنون من الأمور، ولا يعلم خفيات الصدور ﴿اللهُ﴾ الواحد

الأحد الصمد، الحي القيوم الذي ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:26] المحيط بجميع ما لمع عليه برق تجلياته المتشعشعة المتجددة المترتبة على أسمائه الذاتية الكاملة، المستدعية للظهور والبروز بإظهار ما كمن من الكمالات، المندمجة في الذات الأحدية إلى فضاء الوجود.

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: 27-35].

وبعدما سمع سليمان عليه السلام منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ ممهلاً عليه: ﴿سَنَنظُرُ﴾ ونصبر إلى أن يظهر ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾(1) [النمل:27] المزورين زورت هذا؛ لتخلص من العذاب؟.

ثمّ أراد سليمان ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ أن يرسل رسولاً إلى بلقيس فكتب كتابًا هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين» ثمّ طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، ثمّ قال للهدهد: ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ بحيث لم يتفطنوا بك وبأمرك ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ وانصرف ﴿عَنْهُمْ﴾ وكن متواريًا في قربهم ﴿فَانظُرْ﴾ وتأمل ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:28] أي: ماذا يرجع ويرد بعضهم بعضًا من الكلام في المشاورة والمكالمة؟ فأخذ الهدهد الكتاب، وأتى

(1) قال نجم الدين كبرى: في هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم، فيجب التوثيق فيه على حد التجويز، وفيه دليل على أنه لا يطرح بل يجب أن يتعرف هل هو صدق أو كذب، ولما عرف سليمان هذا العذر عذر الهدهد فترك عقوبته، فكذلك سبيل الوالي يجب أن يمنعه عدله من الحيف على رعيته، ويقبل عذر من وجده في صورة المجرمين إذا صدق في اعتقاده.

بلقيس وهي نائمة في قصرها، فألقاه على نحرها، فلما استيقظت رأت الخاتم في نحرها، فرعدت وخضعت خوفًا، ثمّ جلست مع أشراف قومها وتشاورت معهم في أمر الكتاب.

حيث ﴿قَالَتْ﴾ منادية مستفتية منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ﴾ اليوم ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:29] وصفته بالكرامة؛ لأنها نائمة في قصرها والأبواب مغلقة عليها، فرأت في صدرها هذا بلا إحضار محضر، كأنهم قالوا: ممن؟ وما مضمونه؟.

قالت: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الكتاب مرسل ﴿مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ أي: مضمونه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:30].

﴿أَلَّا تَعْلُوا﴾ أي: عليكم ألا تترفعوا ولا تتكبروا ﴿عَلَيَّ﴾ ولا تبالوا ببسطكم وشوكتكم ﴿وَ﴾ لا يليق بشأنكم الإتيان على وجه الخضوع بلا كبر وخيلاء، وإذا انحصر أمركم على الإتيان ﴿أْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1] [النمل:31] منقادين لأمر الله، مطيعين لحكمه وحكم رسوله بلا ممانعة وإباء.

ثمّ لمّا قرأت مضمون الكتاب عليهم، وشرحت لهم فحواه ﴿قَالَتْ﴾ خائفة

---

(1) عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن إلهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والأخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

قال الواسطي في قوله: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم مزين بزينته، وقيل: كرامة الكتاب ابتداؤه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقيل: كرامته عنوانه. وقال الحسين في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: قولك منك بمنزلة «كن» منه، وإذا أحسنت أن تقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تحققت الأشياء بقولك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كما تحقق بقوله: «كن»، وقيل في قوله: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: لأن الرسول كان طيرًا، فعلمت أن من يكون الطير مسخرة له [فهو] عظيم الشأن. [العرائس].

مضطربة، منادية لهم ثانيًا تأكيدًا للتأمل والتدبر في هذا الأمر الهائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ أي: أجيبوا عليَّ وأشيروا إليَّ ﴿فِي أَمْرِي﴾ هذا، واختاروا ما هو الأحوط، واستفتوا طريقًا ورأيًا، أختار ذلك قطعًا، وآمر بها حكمًا؛ إذ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أمضي عليه وأجزم به ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:32] له وتستصوبونه، بل الأمر مفوض إليكم، فاستصوبوا ما أقر رأيكم عليه؛ حتى أمضي على مقتضاه.

وبعدما فوضت أمرها إليهم استعطافًا واستظهارًا ﴿قَالُوا﴾ مستعلين مستكبرين على مقتضى أصحاب القدرة والقوة، وأرباب الجاه والثروة: ﴿نَحْنُ﴾ قوم ﴿أُولُو قُوَّةٍ﴾ وقدرةٍ تامةٍ عَددًا وعُددًا ﴿وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قد انتشر صيتنا في الآفاق بالشدة والشجاعة وأنواع الجراءة والاستيلاء، والصولة على الأعداء، فنحن هكذا ولا خوف لنا منهم ﴿وَالْأَمْرُ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْكِ﴾ ونحن عبيدك ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:33] من القتال والصلح، نعمل على وفق ما أمرتنا به.

﴿قَالَتْ﴾ في جوابهم بعدما تأملت، وتعمقت في أمرها ورأيها: نعم، إن لنا كثرة وشجاعة منتشرة في أقطار الأرض بأسها وهيبتها، إلَّا أن الحرب خداع، والقتال سجال لا تدرى عاقبتهما، ولا اعتماد على الكثرة والجراءة بعدما نفذ القضاء على الهزيمة، ومن المقدمات المسلمة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾ وأرباب القدرة والاستيلاء ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوةً وقهرًا ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بأن غيروا لها أوضاعها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ بالغلبة والاستيلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:34] هؤلاء لو دخلوا على بلادنا هذه.

﴿وَ﴾ ما يليق لنا اليوم، ولا يصلح بحالنا مقارعة باب المقاتلة والمصالحة أيضًا، بل ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ﴾ رسلاً ﴿إِلَيْهِم﴾ أولاً مصحوبة ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ كثيرة لائقة بعظم شأنهم لأختبرهم ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ منتظرة بعد ذلك ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:35] أي: بأي شيء يرجعون من عندهم بعد تجسسهم من أحوالهم وأطوارهم ومعاشهم مع رسلنا؛ حتى أعمل على ما يقتضي ما يرجعون، هذا من كمال عقلها ورزانتها في تدبيرات المملكة وصيانتها آداب السلطنة والإمارة وضبط المملكة.

ورُوي أنها أرسلت منذر بن عمرو في وفد، وأرسلت معه غلمان على زي الجواري، وجواري على زي الغلمان، وحقة فيها درة عذراء لا ثقب فيها، وجزعة معوجة الثقب، وقالت: إن كان نبيًا ميَّز الغلمان والجواري، وثقب الدرة ثقبًا مستويًا، وسلك في الجزعة خيطًا، ومعها أموال عظام من لبنات الذهب والفضة، والعود والعنبر

والكافور والمسك، وأجناس الجواهر والنفائس من كل شيء، فلما وصلوا معسكره رأوا عظمة ما شاهدوا مثلها ولا سمعوا من أحد.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾
[النمل: 36-40].

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسل ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وحضروا عنده نظر إليهم بوجه حسن طلق، وتكلم معهم لينًا حزينًا مخبرًا عن أحوال ملكتهم ومملكتهم، ثمّ قال: ما أمركم ومصلحتكم؟ فأعطوا كتاب بلقيس فنظر فيه، فإذا هي فصلت فيه جميع ممتحناتها، قال سليمان ﵇: أين الحقة؟ فجيء بها فقال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة معوجة الثقب، فأمر سليمان الأرضة فأخذت شعرة، فدخلت في الدرة حتى خرجت من الجانب الآخر، وأمر دودة أخرى حتى دخلت في الجزعة المعوجة الثقب بخيط حتى خرجت من الجانب الآخر، وميّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم بغسل وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بإحدى يديها وتصب في الأخرى، ثم تضرب وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه.

ثمّ أتوا ببقايا الهدايا المرسلة فأبى سليمان عنها، وردّ كله إليهم مهددًا عليهم حيث ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ وتريدونني ﴿بِمَالٍ﴾ يميل إليها أبناء الدنيا المحرومين عن اللذات الأخروية ﴿فَمَا آتَانِيَ اللهُ﴾ المنعم المفضل عليّ من الأمور الأخروية من النبوة والرسالة، وتسخير الثقلين والرياح والطيور والوحوش، وجميع من في الجو وعلى وجه الأرض ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ من حطام الدنيا ومن مزخرفاتها الفانية، فما لنا ميل والتفات إليها ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ وأمثالكم من أبناء الدنيا ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ هذه ﴿تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: 36] أي: تميلون وتسرون بها؛ لفخركم بأمثال هذه الزخارف؛ لقصور نظركم عليها

وغفلتكم عن الأمور الأخروية.

﴿ارْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى ملكتك ومن معها من الجنود، وقل لهم: مطلوبي منهم الإيمان بالله المتوحد بالألوهية والربوبية، والانقياد إليه والإطاعة لأحكامه فلهم الإتيان إليَّ مؤمنين مسلمين منقادين وإلا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ من الإنس والجن وأصناف الوحوش والطيور، وأنواع الهوام والحشرات بالغة من الكثرة إلى حد ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا يسع لهم مقابلتها من بعيد، فكيف ممانعتها ومقاتلتها؟! ﴿وَ﴾ بعدما لم يسع لهم المقابلة ﴿لَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أي: من بلادهم ﴿أَذِلَّةً﴾ ضعفاء ذليلين بأيدينا ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿صَاغِرُونَ﴾ [النمل:37] مهانون أُسراء بأيدي هؤلاء العفاريت.

ثمَّ لمَّا رجع رسلها مع ما أهدت من الهدايا على وجهها قالت بلقيس: قد عرفت أنه ليس بملك، بل نبي من الأنبياء مؤيد بأمر سماوي، وما لنا طاقة مقاومة ومقابلة معه سوى المصالحة والإطاعة بأمره والحضور عنده.

ثمَّ أرسلت بلقيس إليه ـ صلوات الرحمن عليه ـ ثانيًا: إني قادمة إليك عن قريب فهيأت أسبابه حتى تخرج، وجعلت سريرها داخل سبعة أبواب في قصرها، وقصرها داخل سبعة قصور، وأغلقت على الأبواب كلها، وجعلت عليها حرسًا متعددة، وارتحلت إلى سليمان، فلما دنت إليه رأى سليمان حين كان على سريره جمًا غفيرًا من السواد مسيرة فرسخ فسأل عنهم، فقالوا: بلقيس أتت بجنودها مطيعين مسلمين.

﴿قَالَ﴾ سليمان لمن حوله منَ الجن والإنس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي﴾ ويحضروا عندي ﴿مُسْلِمِينَ﴾[1] [النمل:38] مؤمنين؛ إذ بعدما أتوا لا يجوز إتيان عرشها إلا بإذنها؛ إذ لا يصح نقل مال المسلم إلا بإذنه.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ أي: خبيث مارد ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ اسمه ذكوان أو صخرًا: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: مجلسك الذي تجلس عليه أنت للحكومة؛ إذ من دأبه

(1) يشير إلى أن سليمان ﷺ كان واقفًا على أن في أمته من هو من أهل الكرامة، فأراد أن يظهر كرامتهم ليعلم أن في أمم الأنبياء عليهم السلام يكون أهل الكرامات فلا تنكروا من كرامات الأولياء كما أنكرت المعتزلة، فإن أدنى مصيدة الإنكار حرمان المنكر عن درجة الكرامات كحرمان أهل البدع والأهواء عنها، ولا يظن جاهل أن سليمان ﷺ لم يكن قادرًا على الإتيان بعرضها ولم يكن له هذه الكرامات، فإنه أمرهم بذلك لإظهار أهل الكرامات من أمته، ولأن كرامات الأولياء من جملة معجزات الأنبياء، فإنها دالة على صدق نبوته وحقيقة دينهم أيضًا. [التأويلات].

الجلوس إلى وقت الزوال؛ يعني: آتيك به قبل إتيانها ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أي: على حمل عرشها ﴿لَقَوِيٌّ﴾ أحمله بلا تزلزل أركانه وقوائمه ﴿أَمِينٌ﴾ [النمل:39] لا أتصرف منه شيئًا من زينته وجواهره، فاستبطأ ﷺ إتيانه، وطلب أسرع من ذلك.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ﴾ فائض له ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: من حضرة العلم الإلهي المعبر بالقضاء واللوح المحفوظ، وعالم الأسماء والأعيان الثابتة، به يقدر على إحضار شيء وإعدامه دفعة، وكان هو وزيره آصف بن برخية، قد انكشف عليه خواص الأسماء الإلهية ففعل بها ما فعل: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: قبل أن تعيد وتطبق أجفانك حين نظرك، وهذا كناية عن كمال السرعة والعجلة، فأتى به طرفة عين ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ أي: سليمان العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ قبل إتيان بلقيس ﴿قَالَ﴾ سليمان ﷺ متوجهًا إلى ربه، مذكرًا نعمه الفائضة على نفسه، مجددًا الشكر إياها: ﴿هَٰذَا﴾ أي: حضور العرش العظيم الثقيل في غاية الثقل والعظمة في آنٍ واحدٍ، مع أنه كان في مسافة بعيدة ﴿مِن﴾ جملة ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾ عليّ، ومن عداد جلائل إنعامه وأفضاله إليّ.

إنما تفضل سبحانه عليّ بهذا ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ويختبرني ﴿أَأَشْكُرُ﴾ بمواظبة شكر نعمه المتواترة عليّ، بحيث أعجز عن أداء حق شكره، وأعترف بالعجز والقصور عن إحاطة نعمه، فكيف عن أداء حقوقها؟! ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ لنعمه، ولا أقيم بمقام الشكر عليها، وإن كانت الإقامة والتوفيق عليها أيضًا من جملة نعمه وفضله وكرمه، ولا عائدة من شكرنا إليه سبحانه؛ إذ هو منزه عنها؟! بل ﴿وَمَن شَكَرَ﴾ على نعم الحق، وصرفها على مقتضى ما جبلها الحق لأجله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ﴾ الشاكر ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لازدياد النعم عليها بمزيد الشكر ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما يكفر لنفسه بانتقاص النعم عليها ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ في ذاته عن جميع العوائد ﴿كَرِيمٌ﴾ [النمل:40] جواد لا يعلل فعله بالأغراض وإنعامه بالأعواض.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:41-44].

ثمّ لمّا دنت بلقيس مع من معها من أشراف قومها بالدخول على سليمان ﷺ والعرش عنده ﴿قَالَ﴾ لمن حوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ حين جلست؛ أي: غيّروا بعض أوضاعه وزينته ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ وتتعقل أنه هو ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:41] لاستحالة أن يكون هذا هو عادةً؟ إنما قصد به ﷺ اختبار عقلها ورشدها واستعدادها للإيمان بالمغيبات والمستبعدات الخارقة للعادات، فغير عرشها على الفور، وقد بنى سليمان صرحًا ممردًا من قوارير ووضع سريره فيها، وهي على الماء، ومن غاية صفائها لا يتميز عن الماء، وفي الماء حيوانات مائية المولد من الحوت والضفدع وغيرها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس، وهو في ذلك الصرح على السرير ﴿قِيلَ﴾ لها أولاً: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ﴾ بعدما أمعنت نظرها نحو العرش: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أتت بكلمة التشبيه، وقد تحقق عندها أنه هو؛ صيانةً لنفسها عن الكذب ﴿وَ﴾ بعدما تفرست منه التصديق لقولها بادرت إلى تصديق نبوته، فقالت: لا حاجة لا إلى اختبارك بأمثال هذه المعجزات حتى نؤمن لك؛ إذ ﴿أُوتِينَا﴾ المتعلق منّا بصدقك وتصديق نبوتك ﴿الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: قبل ظهور هذه المعجزة الخارقة للعادة بأمور اختبرناك بها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:42] منقادين لك، مسلمين نبوتك وتأييدك من قبل الحق.

﴿وَ﴾ من فضل الله إياها أنه ﴿صَدَّهَا﴾ وصرفها بعدما ظهر عندها نبوة سليمان ﷺ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: صرفها الحق عن عبادة الشمس؛ إذ عبدتها تقليدًا لأسلافها ﴿إِنَّهَا كَانَتْ﴾ منتشئة ﴿مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:43] جاحدين لله، عابدين للشمس.

ثمّ ﴿قِيلَ﴾ أي: قال سليمان ﷺ آمرًا ﴿لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ فبادرت إلى الإجابة ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: القصر ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ فيها أنواع الحيوانات المائية ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي: رجليها؛ لتدخل فيها، فلما رأى سليمان ساقيها، وقد أُخبر أن ساقيها لا كساق الإنسان؛ لذلك احتال بناء قصر القوارير؛ حتى يظهر عنده هل هو مطابق للواقع أم لا؟ فلما رآها أحسن ساقًا قدمًا، لكن على ساقيها شعر صرف وجهه عنها مستغفرًا، ثمّ ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: بنيان مملس مصنوع ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: من زجاج فأرخت ذيلها فدخلت، وبعدما رأت اللجة ظنت أنه يستغرقها بها عمدًا، فلما

ظهر عندها خلافه ﴿قَالَتْ﴾ مستغفرة عن سوء ظنها إياه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بهذا الظن الفاسد عن نبي الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية؛ لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:44] لا رب له سواه، ولا إله إلا هو.

وقد اختُلف في تزوجها، والأصح أنه تزوجها، ثمّ انقرض هي وسليمان ومن عليها جميعها؛ إذ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:26-27].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)﴾ [النمل:45-47].

﴿وَ﴾ من وفور جودنا وإحساننا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ﴾ حين لاح عليهم أمارات العدوان، وعلامات الفسوق والعصيان ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوه حق عبادته، وتذللوا نحوه ولا تتكبروا عليه بالخروج عن مقتضى أوامره وحدوده ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:45] أي: بعدما أظهر عليهم الدعوة فاجئوا على الافتراق؛ حيث آمن له البعض، وصدقه وأعرض عنه البعض الآخر فكذبه، فاختصما.

﴿قَالَ﴾ صالح للمعرضين المكذبين: ﴿يَا قَوْمِ﴾ شأنكم الحذر والإعراض من عذاب الله ونكاله، وعن موجبات قهره وأسباب غضبه ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ الموجبة لأنواع العذاب والقهر الإلهي ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ المستجلبة لعموم الخيرات ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ العفو الغفور؛ لكفركم وذنبكم الذي صدر عنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:46] قبل نزول عذابه عليكم؛ إذ حين نزول العذاب لا ينفع توبتكم واستغفاركم.

وبعدما ظهر عليهم أمارات قهر الله وغضبه إياهم، ووقع الجدب بينهم ﴿قَالُوا﴾ مغاضبين على صالح: ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أي: تطيرنا وتشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المصدقين لك، المتدينين بدينك؛ إذ تواترت علينا المصيبات مذ ظهرتم بدينكم هذا، ووقعت الوقائع الهائلة بشؤمكم وحدوث دينكم، وبعدما سمع منهم صالح ما سمع آيس عن

إيمانهم وصلاحهم ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ أي: سببكم الذي جاء منه شركم وخيركم ﴿عِندَ اللهِ﴾ وفي لوح قضائه وحضرة علمه، كتب عليكم الخير والشر حسب ما صدر عنكم من الأعمال الصالحة والطالحة، ولا معنى لتطيركم وتشاؤمكم بنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:47] وتُختبرون بتفاقم المحن، وتلاطم أمواج الفتن؛ كي تستغفروا وتندموا عما أنتم عليه من الكفر، وتستأصلوا من الكفر والعصيان، وتستأصلوا بنزول عذاب الله، وبعدما سمعوا منه كلامه هذا قصدوا مقته وإهلاكه.

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل:48-53].

﴿وَكَانَ فِي المَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجال اتفقوا إلى حيث صاروا رهطًا واحدًا متفقين على قهره وقتله، والرهط جمع لا واحد له، يُطلق على ما دون العشرة، وكان شأنهم مقصورًا على الإفساد والفساد ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[1] [النمل:48] أصلاً في حال من الأحوال.

وبعدما ظهر عليهم أمارات العذاب الإلهي، وتحقق عندهم نزوله قصدوا إهلاك صالح ومن معه قبل إهلاكهم، حيث ﴿قَالُوا﴾ في ما بينهم: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللهِ﴾ بأنْ حلف

(1) قال في التأويلات: أرض القلب بإفساد الاستعداد الفطري الذي فطر الناس عليها لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة وهو مخصوص بالقلب بين سائر المخلوقات، كما قال في حديث رباني: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن» ﴿وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ أي: ليس في النفس ومفاتنها المتولدة من العناصر والماديات بما داخلها من آفات الحواس صلاحية قبول الفيض الإلهي إلا بانعكاس أنواره من مرآة القلب عليها فتطمئن بها فيتلون بلون القلب المنور بنور الفيض، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29-30].

كل منكم عند صاحبه ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ ونهلكنّه قبل إلمام العذاب علينا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ عند طلب ثأره مبالغين في الإنكار: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ في مدة عمرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: المكان الذي أُهلك فيه صالح، فكيف قتلنا إياه؟! ﴿وَ﴾ نؤكد قولنا هذا بالقسم أيضًا عند وليه، ونقسم ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:49] في قولنا هذا، وما لنا علم بإهلاكه.

﴿وَمَكَرُوا﴾ واحتالوا؛ لمقت نبينا ﴿مَكْرًا﴾ بليغًا ﴿وَمَكَرْنَا﴾ أيضًا؛ لهلاكهم واستئصالهم ﴿مَكْرًا﴾ أبلغ من مكرهم، بأن أمرنا للملائكة حين يمم أولئك المفسدون الماكرون؛ لقتل صالح، وأخذوا يطلبونه أن يرجمهم بالحجارة، ويصيح عليهم بالصيحة الهائلة عند الرجم، ففعلوا معهم كذلك ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ من شدة هولهم وفزعهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:50] الصائح والرماة، فهلكوا بالمرة بلا وصول إلى من مكروا لأجله.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ واصلة إليهم لاحقة بهم وبالجملة: ﴿أَنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ وأهلكنا؛ أي: التسعة المتقاسمين ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ أيضًا ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:51] إلى حيث لم يبقَ منهم أحد يخلفهم.

﴿فَتِلْكَ﴾ الأطلال الخربة والرسوم المندرسة ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ ومساكنهم التي شيدوها وحصنوها بأنواع التشييدات والمترصفات والتجصيصات، انظرْ كيف صارت ﴿خَاوِيَةً﴾ ساقطة جدرانها على سقوفها منعكسة، كل ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ وبشؤم ما خرجوا على مقتضى الحدود الإلهية عتوًا واستكبارًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المكر والإهلاك ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:52] دالة على كمال قدرتنا على انتقام من خرج عن ربقة انقيادنا وطاعتنا.

﴿وَ﴾ بعدما أهلكناهم صاغرين ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيدنا، وصدقوا رسلنا سالمين غانمين ﴿وَ﴾ هم من كمال إخلاصهم وخشيتهم ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل:53] ويحذرون من قهرنا وغضبنا، ولا يسيئون الأدب معنا ومع رسلنا.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿54﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿55﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل:54-59].

﴿وَ﴾ من مقتضيات حكمتنا المتقنة أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ إلى قومه خرجوا عن مقتضى حدودنا تاركين حدود حكمة التناسل والتوالد وبقاء النوع، مبتلين بما هو مذموم عقلاً وشرعًا، وعرفًا وعادة ومروءة وطبعًا، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ مستفهمًا منهم على سبيل الإنكار والتوبيخ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ والفعلة القبيحة الشنيعة ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:54] وتشهدون قبحها وشناعتها وقت ما فعلتموها وأتيتم.

﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المسرفون المستعبدون للشهوة ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ الذين هم مثلكم في الرجولية ﴿شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ مع أن الحكمة الإلهية تقتضي إتيانهن للتناسل وبقاء النوع كسائر أنواع الحيوان، وهؤلاء مع جهلهم لا يخرجون عن مقتضى الحكمة. وأنتم أيها الحمقى مع أنكم مجبولون على العقل الفطري المميز بين الحسنات من الأخلاق والأطوار وخسيستها، تخرجون عن مقتضاها ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ بفعلتكم هذه ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:55] منسلخون عن مقتضى العقل والإدراك المميز للإنسان عن سائر الحيوان، بل أسوأ حالاً من الحيوانات العجم؛ إذ لا يتأتى منها أمثال هذا إلا من الحمار الأرذل الأنزل، انظروا ما هو شريككم في فعلتكم هذا أيها الحمقى المسرفون المفرطون.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بعدما سمعوا منه أنواع التشنيعات والتقريعات ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ من فرط انهماكهم في الغي والضلال، ونهاية عمههم وسكرتهم في رق شهواتهم ولذاتهم البهيمية متشاورين بينهم، متقاولين: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:56] عن أفعالنا ويتنزهون، ولا مناسبة بيننا وبينهم، فلهم أن يخرجوا من بيننا؛ حتى لا يتلوثوا بأفعالنا، إنما قالوا هكذا تهكمًا واستهزاءً.

ثم لمّا استحقوا نزول العذاب والإهلاك، وحان حلول البوار عليهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي: أخرجنا لوطًا من بينهم ﴿وَ﴾ أمرناه أن يخرج ﴿أَهْلَهُ﴾ أيضًا عناية منّا إياهم ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ المائلة عليهم الراضية بفعلهم؛ لأنها منهم، لذلك ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ في سابق قضائنا

﴿مِنَ الغَابِرِينَ﴾[1] [النمل:57] الهالكين المصابين.

﴿وَ﴾ بعدما أخرجنا لوطًا وأهله من بينهم ﴿أَمطَرْنَا عَلَيهِم مَّطَرًا﴾ أي: مطر، وهو مطر الحجارة المهلكة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ المُنذَرِينَ﴾ [النمل:58] مطرهم الذي أمطروا به، بحيث لم يبقَ منهم ومن مساكنهم ومواشيهم شيء أصلاً.

وبعدما قصَّ سبحانه لحبيبه ﷺ قصص بعض أرباب الطبقات من الأنبياء والرسل المختصين بأنواع الفضائل والكرامات الموهبة من عنده سبحانه إياهم تفضلاً عليهم وامتنانًا، أمره سبحانه بأن بادِر إلى تجديد الشكر والثناء عليه سبحانه بما أولاهم من النعم العظام، وأعطاهم من الفواضل الجسام إيفاءً لحقوق المؤاخاة، والاتحاد الحقيقي الواقع بين الأنبياء والرسل الكرام بعد رفع الإضافات وخلع التعينات.

وقال سبحانه: ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما تلونا عليك بعض فضائل إخوانك تحميدًا علينا من قبلهم، وتسليمًا منَّا إياهم: ﴿الحَمْدُ﴾ والثناء الكامل اللائق ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، الحقيق بجميع المحامد والأثنية الصادرة عن ألسنة عموم من رش عليهم رشحات بحر وجوده، وامتد عليهم أظلال أسمائه وصفاته بمقتضى وجوده ﴿وَسَلَامٌ﴾ منه سبحانه ورحمة نازلة على التواتر والتوالي ﴿عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ واختارهم من بين البرايا التائهين في بيداء الغفلة والضلال، وتكميل الناقصين المنحطين عن رتبة الخلافة والنيابة بميلهم إلى قاذورات الدنيا العائقة عن الوصول إلى دار الخلافة التي هي التوحيد المسقط لتوهم الإضافات مطلقًا.

قل يا أكمل الرسل بعدما ظهر الحق مستفهمًا، مقرعًا للمشركين المتخذين غير الله إلهًا جهلاً وعنادًا: ﴿آللَّهُ﴾ الواحد الأحد، القادر المقتدر، المدبر لمصالح عباده، الموصل لهم بعد تصفية ظواهرهم وبواطنهم إلى ما جُبلوا لأجله من معرفة مبدئه ومعاده ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:59] له عنادًا ومكابرةً من الأظلال الهالكة في

(1) وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:57]. أي: المرآة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لمَّا كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولمَّا كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

أنفسها، المجبورة تحت قهر الله وقدرته الكاملة.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾ [النمل:60-63].

ثمّ قرع عليه سبحانه من التقريعات والتوبيخات ما قرع تتميمًا لردعهم، وتكميلاً لزجرهم فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب العادية ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة القابلة لقبول فيضان آثار الفواعل العلوية ﴿وَ﴾ من ﴿أَنزَلَ لَكُم مِّنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ محييًا أموات الأراضي اليابسة بالطبع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء بعدما أنزلناه من جانب السماء ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وبهاء ونضارة وصفاء ﴿مَّا كَانَ﴾ أي: ما صح وأمكن ﴿لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ بل ولا شجرة واحدة من جملة أشجارها، لولا إمداد الله وإنباته إياها ﴿أَإِلَهٌ﴾ أي: تدعون وتدّعون إلهًا آخر ﴿مَّعَ اللهِ﴾ المدبر لمصالحكم بالاستقلال والإرادة والاختيار ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: المتخذون غير الله إلهًا ﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:60] عن الحق الصريح الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك في ألوهيته، وإثبات الغير معه في الوجود، وادعاء استحقاق العبادة إياه عنادًا ومكابرةً.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مقرًا تستقرون عليها وتعيشون فيها، مع أن طبع الماء يقتضي الإحاطة بجميع جوانبها؛ بحيث لا يبدو من كرة الأرض شيئًا خارجًا منه ﴿وَ﴾ بعد إيداء بعضها من الماء عنايةً منه سبحانه إياكم ﴿جَعَلَ خِلالَهَا﴾ أي: أوساط الأرض البادية ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية؛ تتميمًا لأمور معاشكم عليها ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: الأرض رواسي؛ أي: جبالاً شامخات، وسير فيها معادن الفلزات، ومنابع المياه ومراتع الحيوانات تتميمًا وتكميلاً لمصالحكم ومعايشكم.

﴿وَجَعَلَ﴾ من كمال لطفه ومرحمته ﴿بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا

﴿أَإِلَٰهٌ﴾ مانعًا؛ لئلا يختلط ويختل نظام معاشكم عليها؛ أي: أتدعون أيها الجاهلون ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، المستقل في تصرفاته الواقعة في مملكته؟! ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلة والجهل عن الله وحق قدره وقدر ألوهيته ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:61] شيئًا من آداب عبوديته؛ لذلك ينسبون إليه سبحانه ما لا يليق بشأنه جهلاً ومكابرةً.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ القلق والحائر في أمره بلا رشد منه إلى مخرجه ومخلصه ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ دعوة مؤمل ضريع سواه سبحانه ﴿وَ﴾ من ﴿يَكْشِفُ السُّوءَ﴾ المتفاقم على ذوي الأحزان والملمات ﴿وَ﴾ من ﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ من الأسلاف الذين مضوا عليها ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد تدعون أيها الجاهلون المسرفون المكابرون، ومن نهاية جهلكم وغفلتكم عن ألوهية الحق، وغاية غيكم وضلالكم عن توحيده ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:62] أي: قليلاً منكم تتذكرون آلاء الله ونعمائه المتواطئة المترادفة عليكم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ ويرشدكم أيها الحمقى ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم الزاهرات ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ المبشرات لتكون ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بشارة بالمطر المحيي لأموات الأراضي بأنواع النباتات، والحيوانات المبقية لأصناف المخلوقات ﴿أَإِلَٰهٌ﴾ قادر على أمثال هذه الأفعال المتقنة والآثار المحكمة ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ المستقل بالقدرة الكاملة والحكمة الباهرة، والرحمة العامة الشاملة تدعون وتعبدون ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾ المنزه في ذاته عن مشابهته للأمثال، ومشاركته مع غيره في الآثار والأفعال، سيما ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:63] له أولئك المشركون المسرفون.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:64-66].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا﴾ ويظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ أي: عموم المخلوقات والمكونات من كتم العدم بعدما لم يكن شيئًا مذكورًا برش نوره عليها، ومدّ ظله إليها بمقتضى لطفه وجماله ﴿ثُمَّ﴾ بعد إظهاره وإيجاده من ﴿يُعِيدُهُ﴾ ويبعثه بعد إعدامه وإماتته بمقتضى قهره

وجلاله ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم﴾ ويقوم مزاجكم بأنواع الأغذية الحاصلة ﴿مِّنَ﴾ أسباب ﴿السَّمَاءِ﴾ قوابل ﴿وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إنشاء البدائع، وإبداء الغرائب والعجائب المكنونة في التراب؛ لتكون غذاء لمن عليها من الحيوانات تثبتون وتشركون أيها الحمقى المسرفون، المشركون المكابرون، فإن أصروا على شركهم وكفرهم بعدما سمعوا قوارع الدلائل القاطعة، والشواهد الساطعة ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا عليهم وتبكيتًا: ﴿هَاتُوا﴾ أيها الحمقى ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على دعواكم ألوهية معبوداتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:64] في هذه الدعوى.

وبعدما تم إلزامك عليهم، وتبكيتك إياهم ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض التوحيد، خاليًا عن وصمة الكثرة مطلقًا: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَ﴾ من ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات من المظاهر المجبولة فيهما على فطرة الشعور والإدراك ﴿الْغَيْبَ﴾ الذي غاب عن مداركهم وعقولهم وحواسهم ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾[1] المنزه عن الأماكن والأزمان، بل الكل في حيطة أسمائه وأوصافه، والمبرأ عن الاشتراك في جنس وعن الامتياز بفصل، فإنه واحد لا يشارك معه شيء عنه بشيء، بل وحدته لا كسائر الوحدات، ولا علمه كسائر العلوم، وكذا جميع صفاته وأسمائه، فإنه سبحانه يعلم بعلمه الحضوري جميع ما ظهر وبطن، وغاب وشهد بلا تفاوتٍ، بل الكل في ساحة عز حضوره على السواء بلا اختلافٍ من الخفاء والجلاء.

﴿وَ﴾ إن اجتهد أولئك الصالحون من أهل السموات والأرضين ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(1) يشير إلى أن للغيب مراتب غيب هو غيب أهل الأرض في الأرض وفي السماء، وللإنسان إمكان تحصيل علمه وهو على نوعين:

أحدهما: ما غاب عنك في أرض الصورة وسمائها ففي الأرض مثل غيبة شخص عنك أو غيبة أمر من الأمور وذلك إمكان إحضار الشخص والاطلاع على الأمر الغائب.

وثانيهما: ما غاب عنك في أرض المعنى وهي أرض النفس، فإن فيها مخبئات من الأوصاف والأخلاق ما هو غائب عنك على الأمر الغائب، وفي السماء مثل علم النجوم والهيئة ومالك إمكان تحصيله بالتعلم، وإن كان غائبًا عنك كيفية وكمية ولك إمكان الوقوف عليها بطريق المجاهدة والرياضة والذكر والفكر وسماء المعنى وهي سماء القلب، فإن فيها مخبئات من العلوم والحكم والمعاني ما هو غائب عنك ولك إمكان الوصول إليه بالسير على مقامات النفس والسلوك في مقامات القلب غيب هو غيب أهل الأرض في الأرض والسماء أيضًا، وليس للإنسان إمكان الوصول إليه إلا بأداة الحق تعالى. [التأويلات].

ويدركون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:65] أي: متى يبعثون، وفي أي آن يحشرون من قبور تعييناتهم، وأجداث هوياتهم؛ للوقوف بين يدي الله؟ وإن وصلوا بعدما اجتهدوا بتوفيق الله وتيسيره، إن وقوفهم بين يديه للعرض والجزاء كائن لا محالة، لكنهم ما وصلوا إلى مرتبة يسع لهم تعيين وقت الحشر والنشر؛ إذ يعتبر وقت البعث من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحدًا من الأنبياء وأوليائه عليها.

﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ أي: بلغ وتدارك، ووصل ﴿عِلْمُهُمْ﴾ أي: علم العلماء وأرباب الشعور والإدراك بعدما كوشفوا بإلهام الله وجذب من جانبه، و﴿فِي﴾ تحقق النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ وما فيها من المعتقدات المحققة من الحشر والنشر، والصراط والسؤال، والجنة والنار، والثواب والعقاب، وجميع الأمور التي نطقت بها ألسنة الكتب والرسل ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: بل أكثر الناس ﴿فِي شَكٍّ﴾ وتردد ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من الآخرة ومن الأمور الكائنة فيها ﴿بَلْ هُم﴾ أي: بل أكثرهم ﴿مِّنْهَا﴾ ومن الأمور الموعودة فيها ﴿عَمُونَ﴾ [النمل:66] غافلون منكرون، لا يعتقدون ولا يقبلون، بل ينكرونها أشد إنكار، ويكذبونها أبلغ تكذيب.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا
نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ
﴿٧٥﴾ ﴾ [النمل:67-75].

﴿وَ﴾ من شدة إنكارهم وتكذيبهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبجميع ما وعد سبحانه في يوم العرض والجزاء، على سبيل الاستبعاد والاستنكار مستفهمين مستهزئين: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ أيضًا كذلك ﴿أَئِنَّا﴾ وهم ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:67] من قبورنا أحياءً على الوجه الذي كنا عليه في مدة حياتنا قبل طريان الموت علينا، كلا وحاشا؛ إذ هو من جملة الأمور المستحيلة التي تأبى العقول عن قبولها.

ولا منشأ له سوى أنَّا ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث والحشر ﴿نَحْنُ﴾ اليوم على هذا المدعي للرسالة والنبوة ﴿وَ﴾ وعد ﴿آبَاؤُنَا﴾ أيضًا ﴿مِن قَبْلُ﴾ على ألسنة المدعين الآخرين الذين مضوا، وكان أسلافهم أيضًا كذلك على ألسنة أسلاف آخرين مدعين وهكذا، وبالجملة: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا الوعد بالبعث والجزاء ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:68] أي: أكاذيبهم الموروثة لأخلافهم اللاحقين المتأخرين عنهم، وبالجملة: هذا ديدنة قديمة، وعادة مستمرة بقيت بين الأنام من قديم الأيام؛ لتخويف العوام بلا وقوع ولا إمكان وقوع أيضًا.

ثمَّ لمَّا بالغ أولئك الهالكون في تيه الضلال في تكذيب يوم الجزاء، وأصروا على ما هم عليه من الكفر والإنكار من متابعة الأهواء والآراء ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والمراء، وما درأ عن محض العبرة والحكمة والاستبصار آمرًا لهم على سبيل الاعتبار: ﴿سِيرُوا﴾ أيها المنكرون المكابرون ليوم العرض والجزاء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل العبرة ونزول الاستبصار ﴿فَانظُرُوا﴾ معتبرين متأملين ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:69] المكذبين كمال قدرة الله القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء بلا فتور ولا قصور.

ولا ينتهي قدرته دون مراد ومقدور، بل له إعادته كما له إبراؤه من جميع أجزائه ولوازمه وعوارضه من الزمان والمكان، والحركات والسكنات، وجميع الأطوار والأحوال الطارئة عليها من مبدأ حدوثها إلى منتهى حياتها؛ إذ جميع ما جرى عليه وصدر عنه حاضر عنده سبحانه، غير مغيب عنه بلا انقضاء في حضرة علمه، وإمضاء من لوح قضائه؛ إذ عنده سبحانه لا زمان ولا مكان؛ حتى يتصور الانقراض والانقضاء، واستبعاد هذه المسألة إنما يجيء من العقول السخيفة، والأحلام الضعيفة المحبوسة؛ لمضيق الزمان والمكان المتحصنة بحصون الجهات والأبعاد المقيدة بسلاسل الأيام وأغلال الليالي.

ومن انكشف له بصر بصيرته، وارتفع عنه سبل السدل وحول التحويل، ومدد التغير والتبديل، واكتحل عين عبرته بكحل الكشف والشهود، اضمحل دونه الزمان والمكان والجهات والأقطار، وجميع ما يوهم الانقضاء والانصرام، والتجدد والاستمرار ولم يبقَ في عين عبرته وشهوده سوى الله الواحد القهار لجميع الأغيار، فسمع عنه وأبصر به وأظهر عليه، وفني فيه وبقي لديه ورجع إليه، وبدأ منه وعاد عليه

قائلاً لسان حاله ومقاله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156]، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:53] برحمتك وجودك يا أرحم الراحمين.

﴿وَ﴾ بعدما هدد سبحانه مكذبي وعده ووعيده بما هدد، وأقرعهم بما قرع أراد سبحانه أن يسلي حبيبه ﷺ بما لحق له من أذى المنكرين المكذبين بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن كذبوك وأعرضوا عنك يا أكمل الرسل ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ وسآمة ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:70] أي: من مكرهم وحيلهم، فإن الله يكفيك مؤنة شرورهم، وكن في نفسك يا أكمل الرسل واسع الصدر، طلق الوجه، مسرور القلب، فإن الله ناصرك ومعينك في كل الأحوال، يحفظك عن شرورهم ومكرهم وسيغلبك عليهم، ويظهر دينك على الأديان كلها في أقطار الأرض وأنحائها، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6].

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم، وكمال إنكارهم وضغينتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ متهكمين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ والعذاب الموعود؟ وفي أي آنٍ يظهر؟ وأي زمان يقوم؟ عينوا لنا وقته أيها المدعون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:71] في دعواكم وقوعه ونزوله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك وألحوا: ﴿عَسَى﴾ أي: دنا وقرب ﴿أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: تبعكم ولحقكم، واللام للتوكيد ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:72] نزوله وحلوله فلحقهم، وهو عذاب يوم بدر.

﴿وَ﴾ سيلحقهم عن قريب كلها أيضًا، لكن من سنته سبحانه إمهال عباده زمانًا؛ رجاء أن ينتبهوا، ويتوبوا عما أصروا عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ورحمة واسعة شاملة ﴿عَلَى﴾ جميع ﴿النَّاسِ﴾ الناسين سوابق عهودهم مع الله المدبر لأحوالهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1] [النمل:73] نعمة الإمهال؛ حتى يتخلصوا من نقمته وعذابه؛ لذلك لحقهم ما لحقهم من العذاب.

---

(1) لأنهم لا يميزون بين محنهم وصحتهم وعزيز من يعرف الفرق بين ما هو نعمة من الله وفضل له أو محنة ونقمة، وإذا تقاصر على العبد عما فيه صلاحه وعسى أن يحب شيئًا ويظنه خيرًا وبلاؤه فيه، وعسى أن يكون شيء آخر بالضد ورب شيء يظنه العبد نعمة يشكره عليها ويستديمه وهي محنة له يجب صبره عنها ويجب شكر الله على صرفها عنه وبعكس هذا كم من شيء يظنه الإنسان بخلاف ما هو فيه. [التأويلات].

ومن جملة كفرانهم بنعم الحق: إنهم أرادوا أن يخدعوا مع الله ورسوله، ولا يشكروا لنعمة الإرسال والإرشاد، بل ينكروا عليها في نفوسهم، ويظهروا على الناس أنهم مؤمنون مع أنهم ليسوا كذلك؛ وقصدوا بذلك التلبيس والخداع، ولا ينفع لهم هذا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تُكِنُّ﴾ وتخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:74] ويظهرونه من إيمان وكفر، وفساد وصلاح، وعهد ونقض؛ إذ لا يخفى عليه سبحانه شيء من أحوال عباده، وما جرى عليهم في ظواهرهم وبواطنهم.

﴿وَ﴾ كيف يخفى عليه شيء من أحوالهم؛ إذ ﴿مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي﴾ طي ﴿السَّمَاءِ﴾ و﴿وَالأَرْضِ﴾ حتى النقير والقطمير، وما يعقل ويحس به، ويعبر عنه ويومئ إليه، ويرمز نحوه إلى ما شاء الله ﴿إِلَّا﴾ مثبت محفوظ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:75] هو لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي الذي فصل فيه جميع ما كان ويكون أزلاً وأبدًا؛ بحيث لا يشذ عن حيطته ما من شأنه أن يعلم ويحس به.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النمل:76-80].

ومما يدل عليه، وعلى حيطة حضرة علمه الكتب الإلهية النازلة من عنده سبحانه المنتخبة من حضرة علمه ولوح قضائه، سيما القرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ من كمال جمعيته وإحاطته ﴿يَقُصُّ﴾ أي: يظهر ويبين ﴿عَلَى﴾ علماء ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ﴾ الأمور والشأن ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] [النمل:76] من الأمور المتعلقة لدينهم وملتهم.

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أنه تعالى أودع في القرآن حقائق ومعاني كثيرة لا توجد في غيره من الكتب المنزلة ما يحتاج إليه السالك في سلوكه للوصول إلى الحضرة، وبيان ما اختلفت فيه الأمم الماضية من كيفية السلوك وشرح المقامات وكشف المعارف، وذلك لأن كل كتاب كان مشتملاً على شرح مقامات ذلك النبي وبيان كمال مرتبته ونهاية قربه، فلما لم يكن لنبي من

﴿وَإِنَّهُ﴾ في نفسه ﴿لَهُدًى﴾ هادٍ موصل إلى طريق التوحيد ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:77] الموحدين المحمديين من قبل الحق؛ ليهديهم إلى وحدة ذاته ويوصلهم إلى غاية ما جبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿بِحُكْمِهِ﴾ المستنبط من حكمته المتقنة ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في أحكامه المبرمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ [النمل:78] في حكمته المتقنة المتفرعة على عدالته الحقيقية.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل وكتابك، وجادلوا معك مراءً ومكابرة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ المتكفل لحفظك وحضانتك ﴿إِنَّكَ﴾ في أمر دينك وكتابك ورسالتك وهدايتك، وفي جميع ما جئت به من قِبَل ربك ﴿عَلَى الْحَقِّ﴾ والصدق الذي لا يأتيه الباطل والكذب من بين يديه ولا من خلفه ﴿الْمُبِينِ﴾ [النمل:79] الظاهر حقيته عند ذوي البصائر وأولي الألباب المستكشفين عن لبِّ الأمور، المعرضين عن قشورها، فإن أعرضوا عنك ولم يقبلوا إرشادك وهدايتك لا تبالِ بهم وبإعراضهم وانصرافهم؛ إذ هم أموات عند التحقيق لا حياة لهم حقيقة.

﴿إِنَّكَ﴾ وإن بالغت واجتهدت في إرشادك وهدايتك ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾[1] ما

الأنبياء عليهم السلام مقام في القرب مثل مقام نبينا ﷺ ما أودع الله تعالى في كتبهم ما أودع في كتابه من الحقائق والمعاني.

(1) قلت: لنا في هذه الآية وقفة لمن اعترض على سماع الأموات وحياتهم في قبورهم.
فمن الأدلة القاطعة في حياة روح الولي بعد الانتقال نذكر: أولًا: من القرآن الكريم:
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران: 169].
معنى حياتهم: أن أرواحهم في حواصل طير تأكل من ثمار الجنة، وتشرب من أنهارها. قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة. انظر: تفسير القشيري (433/4)، وزاد المسير لابن الجوزي (1/452).

وقال الشيخ إسماعيل حقي – رحمه الله-: وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم. تفسير روح البيان (2 /340). وقال الشيخ ابن عجيبة: لأن الله تعالى جعل أرواحهم في حواصل طير خضر، يسرحون في الجنة حيث شاءوا عند ربهم بالكرامة والزلفى، يُرزقون من ثمار الجنة ونعيمها، فحالهم حال الأحياء في التمتع بأرزاق الجنة. وقال أيضًا: شهداء الملكوت – وهم العارفون – أعظم قدرًا من شهداء السيوف. وقال أيضًا: الإشارة: إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح؛ كحبس أو ضرب أو سجن أو خرج أو جلاء، فقد مس العموم مثل ذلك، غير أنكم

تسيرون به إلى الله تعالى لمعرفتكم فيه، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم، أو إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم، ففيهم أسوة لكم، وهذه عادة الله في أوليائه، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم أولًا ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وليعلم الصادق في الطلب من الكاذب، فإنَّ محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبرا حتى ظفروا بالشهود . ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: 168]. قال الشيخ حقي أي: كالاحياء في الحكم لا ينقطع ثواب أعمالهم لأنهم قتلوا لنصرة دين الله فما دام الدين ظاهرًا في الدنيا وأحد يقاتل في سبيل الله فلهم ثواب ذلك لانهم سنوا هذه السنة. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154]. كيف حالهم في حياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هى أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحي.

وفي الآية دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه الجمهور. وقال العز بن عبد السلام- رحمه الله-: هم أحياء في البرزخ، وأما في الجنة فإن حالهم معلومة لجميع المؤمنين. تفسير ابن عبد السلام (330/1). قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64].فثبت بهذا الدليل أن لكل ذرة من ذرات الموجودات لسانًا ملكوتيًا ناطقًا بالتسبيح والحمد تنزيهًا لصانعه وبارئه، وحمدًا له على ما أولاه من نعمه، وبهذا اللسان نطق الحصى في يد النبى ﷺ وبهذا تنطق الأرض يوم القيامة كما قال ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] وبهذا اللسان تشهد أجزاء الإنسان وأبعاضه يوم القيامة فافهم جدًا واغتنم. وقال الشيخ إسماعيل: ملكوت هو عالم الأرواح فلكل شيء روح منه بحسب استعداده لقابلية الروح فخلق الإنسان في أحسن تقويم لقابلية الروح الأعظم، فلهذا صار كاملهم أفضل المخلوقات وأكرمها فهو يعلم خصوصية صلاته وتسبيحه على قدر حظه من عالم الملكوت بل على قدر حظه من عالم الربوبية وهو منفرد به عما دونه والملك يعلم صلاته وتسبيحه على قدر حظه من عالم الملكوت والحيوانات والجمادات تعلم صلاتها وتسبيحها بملكوتها بلا شعور منها بالصورة.

قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني في «الأوسط» وأبو الشيخ في «العظمة» والضياء في «المختارة» عن ابن عباس في قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]. الدر المنثور (455/8). وقال الشيخ حقي: يلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام فيتساءلون بينهم ما شاء الله تعالى، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل

أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لا يغلط بشيء من ذلك، فذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:27]. ففي التفسير أن حبيبًا النجار قال هذا بعد موته.

قال الكواشي: تمنى أن يعلم قومه أنَّ الله قد غفر له، وأكرمه، ليرغب قومه في اتباع الرسل، فيسلموا، فنصح قومه حيًا وميتًا. تفسير «روح البيان» (445/16)، و«البحر المديد» (201/5).

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:2]. قسم بمعنى طريق العطف، والنشط جذب الشئ من مقره برفق ولين ونصب نشطا على المصدرية اقسم الله بطوآئف الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين أي: تخرجها من أبدانهم برفق ولين كما تنشط الدلو من البئر يقال: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وكما تنشط الشعرة من السمن، وكما تنسل القطرة من السقاء وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة ونفس المؤمن وإن كانت تجذب من اطراف البنان ورؤس الأصابع أيضًا لكن لا يحس بالألم كما يحس به الكافر، وأيضًا نفس المؤمن ليس لها شدة تعلق بالبدن كنفس الكافر لكونها منجذبة إلى عالم القدس، وإنما يشتد الأمر على أنه لا لتعلق دون أهل التجرد خصوصًا إذا كان ممن مات بالاختيار قبل الموت، وأيضًا حين يجلبونها يدعونها أحيانًا حتى تستريح؛ وليس كذلك أرواح الكفار في قبضها لكن ربما يتعرض الشيطان للمؤمن الضعيف اليقين والقاصر في العمل إذا بلغ الروح التراقى فيأتيه في صورة أبيه وأمه وأخيه أو صديقه فيأمره باليهودية أو النصرانية ذلك نسأل الله السلامة.

ثانيًا: بعض الأدلة من السنة الشريفة:

فِي التَّشَهُّدِ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ». واضحٌ من أن هذا الخطاب لحي بعد انتقاله.

- وفي التشهد بعد ذلك: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ».

والصالحون منهم الحي ومنهم المنتقل، فيؤخذ منه حياة الصالحين.

- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ. الترمذي (500/8).

- وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ: بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا. صحيح البخاري (362/1).

- وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ وَلَا

جئت به من الأوامر والنواهي المقربة إلى الله، المبينة لطريق توحيده؛ إذ هم عن السمع معزولون ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ أي: ليس في وسعك إسماع الدعاء للأصمين الفاقدين آلة الاستماع، سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنك ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:80] بلا التفات وتوجه منهم إلى الاستماع والإصغاء.

تَلَيْتَ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ. صحيح البخاري (5/ 113).

- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. صحيح البخاري (5 /173).

قال الشيخ عبد الغني النابلسي: فلا معنى لذلك إلا أن روحانيات الموتى إما تنعم في قبورهم، أو تُعذب فيها، وذلك باتصال الروحانيات بالأجساد البالية التي خرجت من الدنيا، وهي طاهرة بالإيمان والطاعات، أو قذرة بالكفر والمخالفات، فحينئذٍ قبور المؤمنين محترمة مبجَّلَة معظمة كما كانوا قبل ذلك، وهم أحياء محترمون مبجَّلون، فإن من احتقر عالمًا أو بغضه خيف عليه الكفر، كما صرَّح بذلك الفقهاء. ولا فرق في ذلك بين الأحياء والأموات، ورأيت أن الأحياء والأموات كلهم مخلوقات الله تعالى لا تأثير لأحدٍ منهم في شيءٍ من الأشياء ألبتَّة، وإنما المؤثر هو الله تعالى وحده على كل حال، والأحياء والأموات سواء في عدم التأثير قطعًا من غير شبهة، ولكنَّ الاحترام واجبٌ في حق الجميع. كشف النور في أحكام القبور (ص43).

وقال الشيخ السبكي: عود الروح إلى الجسد في القبر، ثابت في الصحيح، لجميع الموتى فضلًا عن الشهداء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وهو أن البدن يصير حيًّا بها كحالته في الدنيا أو حيًّا بدونها، وهي حيث شاء الله، فإن ملازمة الحياة للروح أمر عادي لا عقلي، فهذا- أي البدن- يصير بها حيًّا، كحالته في الدنيا، مما يجوزه العقل، فإن صح به سمع اتبع.

وقد ذكره جماعة من العلماء، ويشهد له صلاة موسى في قبره، فلا تستدعي جسدًا حيًّا، وكذلك الصفات المذكورات في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجساد، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها بل يكون لها حكم آخر. وأما الإدراكات كالعلم والسماع- فلا شك أن ذلك ثابت لجميع الموتى، هذا كلام السبكي. وانظر: «شرح الصدور» للسيوطي (ص204).

وبالجملة فقد أخطأ بوهمه من أنكر بهذه الآية سماع الصالحين، فإن الجمهور على حياة الروح، وسماع المسلمين منهم بالأحياء، وجواز التوسل والاستغاثة بهم بعد الممات، وانظر كتابينا: «الدلائل الواضحات في جواز التوسل والاستغاثة بالأولياء بعد الممات»، وكذا جمع المقال في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الانتقال».

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [النمل:81-86].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنتَ﴾ أيها المرسل للهداية، والمبعوث للإرشاد والتكميل ﴿بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ الفاقدين لآلات الهداية وأسبابها ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ المركوزة في جبلتهم الراسخة في طباعهم ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تسمع أنت هدايتك وإرشادك أيها الهادي بوحينا وتوفيقنا ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال وحدة ذاتنا، وقدرتنا وعلمنا وإرادتنا ويصدق بجميع ما جئت به من عندنا ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:81] منقادون لأوامرنا وأحكامنا، مجتنبون عن نواهينا ومحظوراتنا، فهم من شدة شقاوتهم وغلظ غشاوتهم لا يؤمنون بك ولا يسلمون، فكيف يتأتى لك إسماعهم وإرشادهم؟!.

﴿وَ﴾ اصبر يا أكمل الرسل ﴿إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ الموعود ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ولاح أمارات الساعة وظهر علامات القيامة، ودنا وقت قيامها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ قبيل قيام الساعة ﴿دَابَّةً﴾ عظيمة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ لتكون أمارة على قيامها، دالة على كمال قدرتنا على إحياء الأموات من العظام الرفات، طولها سبعون ذراعًا، ولها قوائم وزغب؛ أي: شعرات صفر كريش الفرخ، وريش وجناحان، يقال لها: الجساسة، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب.

سُئل ﷺ عن مخرجها فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى»[1] يعني: المسجد الحرام.

فإذا خرجت عليهم ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وتخاطب معهم بسوء فعالهم وحسن خصالهم فتفرق المؤمن من الكافر، وحينئذٍ ظهر ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ المنهمكين في بحر الغفلة

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (387/19).

والنسيان لأي شيء ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الواصلة إليهم من ألسنة رسلنا ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82] ولا يذعنون، بل ينكرون ويكذبون عنادًا أو مكابرةً.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ ونسوق عند قيام الساعة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ فرقة وجماعة هي صناديدهم ورؤساؤهم ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ التي جاء بها رسلنا؛ لإهدائهم وإرشادهم ﴿فَهُمْ﴾ في حين حشرهم وسوقهم ﴿يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 83] أي: يحبس أولهم لآخرهم؛ حتى يتلاقوا ويزدحموا، ويساقون أولئك المجرمون هكذا.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾ المحشر وحضروا الموعد، وعُرضوا على الله صافين صاغرين ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل سرادقات العظمة والجلال معيدًا عليهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنتم أيها المسرفون ﴿بِآيَاتِي﴾ في بادي الرأي بلا تأمل وتدبر فيها ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم تطرحوا نظركم وعقولكم عن فحص معانيها وفحاويها؛ حتى ظهر عندكم ولاح عليكم هل هي جديرة بالرد والإنكار؟ أم حقيق بالقبول والاعتبار؟ فبادرتم إلى تكذيبها بلا إمعانٍ فيها ﴿أَمَّاذَا﴾ أي: أم أي شيء شنيع ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:84] أيها الجاهلون المسرفون؟!.

وبعدما جرى من أنواع التوبيخ ما جرى سكتوا حائرين، خائبين منكوسين ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ المعهود منا، وتحقق الوعد، وحل العذاب الموعود ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بسبب ظلمهم السابق ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:85] ولا يعتذرون، ولا يتضرعون، يكبهم على النار منكوسين؛ بحيث لا يسع لهم التنطق والتضرع أصلاً.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا أولئك الحمقى بنظر العبرة إلى مصنوعاتنا المتبدلة المتغيرة بقدرتنا واختيارنا؛ ليتحقق عندهم أمر الساعة، ولم يبادروا إلى إنكارها؛ حتى لا يلحقهم ما لحقهم ﴿أَنَّا﴾ من كمال قدرتنا، ووفور حولنا وقوتنا كيف ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ مظلمًا ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بلا دغدغة منهم إلى الحركة والاشتغال ﴿وَ﴾ كيف جعلنا ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا تتحركون وتترددون فيه بشغل معاشكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإظلام والإضاءة على التعاقب والتوالي ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعات، وشواهد ساطعات على قدرة القديم القادر المقتدر على أمثال هذه المقدورات المتقنة، والمصنوعات المحكمة الصادرة عن محض الحكمة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:86] ويذعنون بوحدة ذات الله

وكمال أوصافه وأسمائه.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النمل:87-90].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل تنبيهًا على التائهين في بيداء الغفلة: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو البوق؛ لحشر الأموات من أجداثهم ﴿فَفَزِعَ﴾ وارتعد من هول تلك الصدى ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من سكانها ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ﴾ تمكنه وقرار قلبه مطمئن بلا قلق واضطراب، وهم الأولياء المتمكنون في مقر الفناء في الله، المتحققون بمقام البقاء ببقائه، الواصلون إلى شرف لقائه بلا تلوين، منسلخين عن جلباب ناسوتهم رأسًا، وصاروا إلى حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَ﴾ بعدما أفاقوا من دهشتهم وهيبتهم العارضة إياهم من هول ما سمعوا. ﴿كُلٌّ﴾ ممن يتأتى منهم الإتيان ﴿أَتَوْهُ﴾ على كلتا القراءتين فعلاً أو اسم فاعل؛ أي: حضروا عنده وحاضروه ﴿دَاخِرِينَ﴾ [النمل:87] صاغرين ذليلين، منتظرين إلى ما جرى عليهم من حكم الله، يُساقون إلى النار بمقتضى عدله؟ أم إلى الجنة بمقتضى فضله وإحسانه؟.

﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي يومئذٍ ﴿الجِبَالَ﴾ الراسيات التي ﴿تَحْسَبُهَا﴾ وتظنها ﴿جَامِدَةً﴾ ثابتة مستقرة في مكانها بلا حركة وذهاب ﴿وَهِيَ﴾ في نفسها ﴿تَمُرُّ﴾ أي: تتحرك وتذهب ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: كمروره وسرعة سيره؛ إذ الأشياء العظيمة التي لا يحيط الأبصار بجميع جوانبها قلما يحس بحركتها وإن أسرع فيها، بل يظن أنها ثابتة في مقره، وهكذا حال الجبال وجميع الأظلال والأطلال قبل قيام الساعة لو تفطنت بمرورها أيها الفطن اللبيب، وجدتها في كل آن على التقضي والانصرام؛ إذ الأعراض لا قيام لها ولا قرار، بل كل يوم وآن في شأن، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:26-27].

ومرور الجبال على هذا المنوال ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ أي: من صنع الله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ﴾ وأحكم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ إتقانًا بديعًا، ودبره تدبيرًا أنيقًا عجيبًا، وأودع فيه من الحكم والمصالح ما لم يطلع عليها أحد من عباده؛ إذ لا يسع لهم الإطلاع على أفعاله سبحانه، بل ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ويمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:88] أي: بجميع أفعالهم وأحوالهم، وأقوالهم الظاهرة والباطنة، يجازيهم عليها على مقتضى خبرته، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

لذلك ﴿مَن جَاءَ﴾ من المكلفين في دار الابتلاء ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: الخصلة الواحدة المقبولة عند الله وعند الناس ﴿فَلَهُ﴾ في دار الجزاء ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ إذ يُعطى له بدله سبع مائة من الحسنة، وقد أبدل الخسيس بالشريف، سيما بأضعافه والفاني بالباقي ﴿وَهُم﴾ أيضًا مع وجود هذه المثوبات ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ هائل مهول للناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم ينفخ في الصور ﴿آمِنُونَ﴾ [النمل:89] مطمئنون متمكنون، ولا يضطربون من هولها ولا يفزعون.

﴿وَمَن جَاءَ﴾ في دار الاختبار ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ المردودة عند الله، وعند الناس من الأمور التي حرمها الشرع والعقل والمروءة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: كُبُوا على وجوههم في النار صاغرين، قيل لهم حينئذٍ زجرًا عليهم، وطردًا لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: ما تُجزون بهذا الهوان والصغار ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:90] من السيئات الجالبة له في النشأة الأولى.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل:91-93].

ثمّ لمّا أمر سبحانه الرسول ﷺ بتبليغ ما أوحي إليه من الوعد والوعيد، والأوامر والنواهي المصلحة لأحوال الأنام في النشأتين، وبيان مبدئهم ومعادهم، وما يؤول إليه أمرهم بعدما انقرضوا من هذه النشأة التي هي دار الابتلاء والاختبار، إما إلى دركات النيران وإما إلى درجات الجنان، ثمّ بيّن لهم طريق الوصول إلى مقر التوحيد، والتمكن في مقام التجريد والتفريد آمرًا أيضًا، بأن قال لهم إمحاضًا للنصح كلامًا ناشئًا عن

محض الحكمة، خاليًا عن وصمة الميل إلى الهوى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله الواحد الأحد الصمد عبادة خالصة عن الرياء والرعونات ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ أراد بها مكة - شرفها الله - خصها بالإضافة للتعظيم، وإلا فهو رب جميع البلاد والأماكن ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ هذه البلدة من الأمور التي أباحها في غيرها من البلاد ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقه وملكه، وتصرف فيه كيف يشاء وأراد بلا منازع ومخاصم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:91] المنقادين لأحكامه سبحانه، الممتثلين لأوامره ونواهيه بلا التفات إلى إيمان أحد وكفره وهدايته وضلاله.

﴿وَ﴾ أمرت أيضًا ﴿أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ المنزل عليّ من عند ربي، وأداوم على تلاوته بين أظهر الأنام؛ لأنه إنما أوحي للهدى والإرشاد بالنسبة إلى جميع العباد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ به بعدما سمعه وتأمل معناه، وامتثل بمقتضاه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ونفع هدايته عائد إليها، مفيد لها ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي: أعرض عنه بعدما سمع واستكبر وكذب ﴿فَقُلْ﴾ أي: أمرني ربي أن قُل للمكذبين: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل:92] أي: أمري منحسر بالإنذار والتخويف كسائر الرسل المنذرين، فالهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال.

﴿وَ﴾ بعدما أمرني ربي بهذه المأمورات المذكورة أمرني بتجديد التحميد على تبليغ ما أوحيت به بقوله: ﴿قُلِ﴾ بعدما تلوت عليهم ما تلونا عليك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما علمني ربي من الحقائق والمعارف، وشرفني بأنواع المكاشفات والمشاهدات، ويسر عليّ تبليغ ما أوحي إليّ، وأُمرت بتبليغه إلى قاطبة الأنام، وإن أعرضوا عن قبول ما بلغت لهم من مصالح دينهم في النشأة الأولى والأخرى.

قل لهم على سبيل التهديد: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى وقيام الساعة الموعودة صدق ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته، المتبينة لمواعيده ووعيداته ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ حينئذٍ، وتسمعونها سمع قبول ورضا، ولا يجديكم قبولها حينئذٍ نفعًا وفائدة؛ إذ قد مضى وقت الإرشاد والامتثال بها، والعمل بمقتضاها ﴿وَ﴾ بعدما بلغت لهم ما بلغت يا أكمل الرسل لا تبالِ بإعراضهم وإنكارهم؛ إذ ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المطلع بالسرائر والخفايا ﴿بِغَافِلٍ﴾ ذاهل ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] [النمل:93] من الرد والقبول بعدما

---

(1) قال حقي (10 /109): كلام مسوق من جهته تعالى مقرر لما قبله من الوعد والوعيد كما ينبيء -

سمعوا منك وفهموا معناه، يجازيهم على مقتضى إطلاعه وعلمه.

ربنا اشرح لنا صدورنا بتأمل آياتك المنزلة من عندك، ويسِّر لنا أمورنا بأن نمتثل بمقتضاها بفضلك وجودك.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المواظب على تلاوة كتاب الله اللازم للاسترشاد والاستهداء منه أن تلاحظ أولاً منطوقات ألفاظه المفردة، ثمَّ مفهومات الكلام المركب منها، ثمَّ التأمل والتدبر في رعاية المطابقة لمقتضيات الأحوال الموردة لأجلها، ثمَّ التعمق في الأساليب والأغراض المسوقة لها الكلام، ثمَّ سرائر الأوامر والنواهي الموردة فيها، والعبر والأمثال المشتملة عليها الكلام، ثمَّ الحكم والمصالح الباعثة لإيراد الكلام على وجهها، ثمَّ التفطن والتنبه من النظم المتلو المقروء على المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات التي هي العلل الغائية لإنشائه، والأسرار الباعثة لنظم كلماته وتأليف حروفه.

وعليك أيها الفطن الخبير أن تدرك أن «للقرآن ظهرًا وبطنًا، ولبطنه بطنًا إلى سبعة أبطن»[1] على ما نطق به الحديث الصحيح، صلوات الله على قائله وسلامه.

وإياك إياك أن تقنع منه بألفاظه ومنطوقاته التي تعرفها عوام العرب، أو تقنع منه

عنه إضافة الرب الى ضمير النبي ﷺ وتخصيص الخطاب أولاً به وتعميمه ثانيًا للكفر تغليبًا أي: وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات؛ لأنه الغفلة التى هى سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ لا يجوز عليه تعالى فيجازي كلا منكم بعمله، وكيف يغفل عن أعمالكم وقد خلقكم، وما تعملون كما خلق الشجرة خلق فيها ثمرتها فلا يخفى عليه حال أهل السعادة والشقاوة وإنما يمهل لحكمه لا لغفلة وإنما الغفلة لمن لا يتنبه لهذا؛ فيعصى الله بالشرك وسيئات الأعمال وأعظم الأمراض القلبية نيسان الله، ولا ريب أن علاج أمر إنما هو بضده وهو ذكر الله حكى أن إبراهيم بن أدهم سر يومًا بمملكته ونعمته، ثم نام فرأى رجلاً أعطاه كتابًا فإذا فيه مكتوب لا تؤثر الفاني على الباقي، ولا تغتر بملكك فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم فسارع إلى أمر الله فإنه يقول: (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) فانتبه فزعًا، وقال: هذا تنبيه من الله وموعظة فتاب إلى الله ورسوله بالقبول والعمل والمجانبة عن التأخر فى طريق الحق والأخذ بالبطالة والكسل.

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (6/293).

بالخواص والمزايا التي تعرفها أرباب اللسن منهم، بل لك أن تلاحظ على الوجه المذكور إلى أن صار علمك المتعلق به لدنيًا ذوقيًا خاليًا، بحيث تسمعه من قلبك، وتفهمه بقلبك بلا وسائل الألفاظ والحروف الجارية على لسانك؛ إذ الألفاظ والحروف إنما هي من جملة الحجب الغليظة عند أولي الألباب الناظرين في لب القرآن، فحينئذٍ فزت بحظك منه، ونلت نصيبك من هدايته وإرشاده.

ربِّ هب لي بفضلك من خزائن جودك التي أودعتها في كتابك الكريم، إنك أنت الوهاب الملهم بالخير والصواب.

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة القصص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وانكشف باستقلاله وتوحده في التحقق والوجود، وشهد حضوره في الأكوان كلها بلا مزاحمة ضد وشريك، ومظاهرة مثل وظهير، إن وحدة الحق تستدعي نفي الكثرة والتعدد مطلقًا؛ ولهذا ما ظهر في فضاء الوجود إلا ما لمع عليه بروق تجلياته الحبيبة حسب أوصافه وأسمائه الذاتية، ومن انكشف له هذا وتمكن في هذا المشهد العظيم لم يسمع من أحدٍ أن يدعي الوجود لنفسه.

فكيف يدعي الألوهية والربوبية، والاستقلال بالآثار والتصرفات الواردة في عالم الغيبة والشهادة من ظهر على الله الواحد الأحد الصمد بهذه الدعوى، وترقى فيها جهلاً وعلوًا إلى أن قال: أنا ربكم الأعلى؟! ومن غيرة الله وكمال حميته على نفسه أن يطرد من يدعي هذا عن ساحة عز حضوره، ويهلكه بأشد العذاب وأسوأ النكال في النشأة الأولى والأخرى.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب، وأخبره عن أنباء أخيه موسى عليه السلام مع من تكبر واستعلى في الأرض إلى حيث استعبد من عليها مدعيًا الألوهية والربوبية لنفسه؛ لذلك أخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى من قهر الله وغضبه، فقال سبحانه متيمنًا باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بجمعيته في الأكوان على مقتضى الأوصاف والأسماء ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم المكونات بإفاضة الوجود على سبيل الاستواء بلا تفاوت في خلقه وإظهاره ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده يوصلهم إلى توحيد ذاته بإفاضة أنواع الرشد وأصناف من الهدى.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن

نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص:1-6].

﴿طسم﴾ [القصص:1] يا طالب السعادة المؤبدة المخلدة، ويا طيب الطينة، وسالم السر والسريرة المنيرة، المقدس عن المكدرات الطبيعية المورثة لأنواع الجهالات والضلالات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات المتلوة عليك يا أكمل الرسل في هذه الصورة الحاكية عن قصص إخوانك من الأنبياء والرسل . صلوات الله عليهم أجمعين . ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص:2] أي: نبذ مما ثبت في لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي الظاهر إحاطته وشموله لجميع ما لاح عليه شروق شمس الوجود.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ ونحكي لك يا أكمل الرسل ﴿مِن نَّبَإِ﴾ أخيك ﴿مُوسَى﴾ الكليم ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ المستكبر المستعلي، المفرط في العتو والعناد، إنما أنزلته إليك هذا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع مع كونك خال الذهن عنه وعن أمثاله؛ لكونك أميًا لا تقدر على مطالعة كتب التواريخ؛ وإنما أنزلناه لتكون آية ودليلاً لك على صدقك في دعواك ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:3] ويصدقون رسالتك ونبوتك.

وذلك ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ المفسد المسرف ﴿عَلَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، وترقى أمره إلى حيث تفوه بأنا ربكم الأعلى ﴿وَ﴾ من كمال علوه واستكباره ﴿جَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أي: أهل مصر ومن يسكنون حولها ﴿شِيَعًا﴾ أي: فرقًا وأحزابًا يشايعونه لدى الحاجة ويزدحمون عليه عند الإرادة طوعًا وكرهًا.

وبعدما رأى فرعون في منامه ليلاً أن نارًا تخرج من دور بني إسرائيل، وتقع على داره وتحرقها وما حولها من دور القبط، ولم تضر بدور بني إسرائيل أصلاً فأصبح، وأمر بإحضار الكاهن العليم، فاستعبر منه الرؤيا فقال الكاهن: سيخرج من بني إسرائيل رجل يستولي عليك، ويستأصلك ومن معك، وبعدما سمع من الكاهن ما سمع صار ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ ويضعف ﴿طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هي بنو إسرائيل، ويبالغ في إضعافهم إلى حيث ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: أمر الشرطة أن يقتلوا من ولد منهم ذكرًا؛ لئلا يتقووا على قتاله، ولم يحدث بينهم من أخبر به الكاهن ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ ليتزوجهن القبط ظلمًا

ويزدادوا ويلحق العار والصغار على بني إسرائيل، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ﴾ أعظم ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:4] في الأرض، يريد أن يظهر على الله بقتل ما أوجده سبحانه عتوًا واستكبارًا.

﴿وَ﴾ بعدما بالغ في الإفساد والعناد، وتمادى في الجور والفساد زمانًا ﴿نُرِيدُ﴾ بمقتضى جودنا وسعة رحمتنا ﴿أَن نَّمُنَّ﴾ منة عظيمة ﴿عَلَى﴾ عبادنا ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض العمالقة، وهم بنو إسرائيل الأُسراء المظلومون في أيدي القبط ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوة كرامًا متبوعين بعدما كانوا أتباعًا أذلاء صاغرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:5] من ظالميهم، يرثون منهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي: نقررهم ونوطنهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر والشام بعدما كانوا مضطربين متزلزلين ﴿وَنُرِيَ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿فِرْعَوْنَ﴾ المفرط في العتو والعناد ﴿وَ﴾ ظهيره ﴿هَامَانَ﴾ المفتخر على أهل الزمان بنيابته ووزارته ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:6] منه، وهو ظهور مولود منهم يذهب به دولة القبط، وصار سببًا لهلاكهم بالمرة.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص:7-10].

﴿وَ﴾ بعدما ولد موسى، وظهر من أراد به سبحانه زوال ملك فرعون استوحشت أمه؛ من وقوف الشرطة عليه وقتله ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وألهمنا ﴿إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ مهما أمكنك إرضاعه وإخفاؤه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من وقوفهم إياه ضعيه في التابوت ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ من هلاكه وغرقه ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من فراقه ﴿إِنَّا﴾ من وفور لطفنا وعطفنا ﴿رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ لتحضنه وتحفظه إلى وقت كبره ﴿وَ﴾ بعدما استوى وبلغ أشده ﴿جَاعِلُوهُ مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7] المؤيدين بالوحي والإلهام،

وظهور أنواع المعجزات والخوارق من يده.

وبعدما تفرست أم موسى بوقوف الشرطة وتجسسهم بعدما أرضعته ثلاثة أيام وضعته في التابوت على الوجه المأمور، وألقته في اليم مفوضة أمرها إلى الله المتكفل بحفظه.

فذهب البحر بتابوته إلى حذاء دار فرعون فرآه من فيها ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أخذوه وأخرجوه من اليم وأحضروه، وبعدما كشفوا عنه ستره رأوا وليدًا في غاية الحسن والجمال إلى حيث تبهر به عيون الناظر إليه، يمضغ إبهامه، فلما رآه فرعون وامرأته وجميع من في بيته من الخدمة أحبوه وأعجبوا حسنه، وألقينا محبته في قلوبهم جميعًا إلى أن اتفقوا لحفظه غافلين عن مكرنا معهم ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: موجب حزن طويل وعداوة مستمرة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص:8] مجبولين على الخطأ في جميع أفعالهم، ومن جملتها: محافظة العدو الموجب لأنواع العذاب والنكال في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ آسية ـ رضي الله عنها ـ من كمال محبتها له وتحننها نحوه لفرعون: هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كسائر أبناء بني إسرائيل على ظن أنه منهم، بل نحفظه ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ أي: رجاء أن ينفع بنا نفعًا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ خلفًا لنا إذا ظهر على رشد تام وعقل كامل ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] [القصص:9] إنه عدوهم الذي يذهب به دولتهم وملكهم بيده، وهلاكهم بسببه.

﴿وَ﴾ بعد إلقائه في البحر ﴿أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ صفرًا من العقل ومقتضياته، وصارت قلقة حائرة هائمة؛ بحيث اضمحلت عنها أمارات الحياة تحننًا إلى ولدها وشوقًا إليه، وخوفًا من قتله، سيما سمعت بالتقاط آل فرعون إياه ووقوعه بأيديهم ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: إنه صارت من غاية الحزن والأسف إلى أن قربت ﴿لَتُبْدِي

(1) قال في التأويلات: أنه لو لم يوفق لإهلاكهم لكان هلاكه على أيديهم ولما كان القرآن هاديًا يهدي إلى الرشد والرشد في تصفية القلب وتوجهه إلى الله تعالى وتزكية النفي ونهيها عن هواها وكانت قصة موسى ﷺ تلائم وفرعون أحوال القلب والنفس فإن موسى القلب بعصا الذكر غلب على فرعون النفس وجنوده مع كثرتهم وانفراده قد كرر الحق سبحانه في القرآن ذكر قصتهما تفخيمًا لعظم الشأن ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن ثم إفادة لزوائد من المذكور قبله في موضع يكرره.

بِهِۦ﴾ أي: لتظهر وتبوح بأمره صائحة عليه، فاجعة في شأنه من التقاط عدوه ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا﴾ وألقينا ﴿عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ السكينة والطمأنينة ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:10] المصدقين لما وعدنا إياها برد ولدها لها بلا ضر من العدو.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص:11-13].

﴿وَ﴾ بعدما سكنت من البوح والنوح والإظهار ﴿قَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أي: مريم أخت موسى: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره وتتبعي أمره؛ كي تدرك إلى ما فعلوا معه فذهبت بأمرها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: موسى ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بعد ﴿وَ﴾ أخفت حالها عنهم إلى حيث ﴿هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:11] بقرابتها إياه، وهم بعدما اتفقوا على حفظه، وتركوا قتله أرادوا أن يرضعوه فطلبوا المرضعة؛ لحضانته ورضاعته.

﴿وَ﴾ قد كنا من متانة حكمنا وحكمتنا ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[1] أي: قبل إلقائه أمه في البحر، وحين عهدنا مع أمه برده إياها بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:7]، فأحضروا مراضع كثيرة فأبى موسى عن مصهن، فتحيروا في أمره ﴿فَقَالَتْ﴾ مريم بعدما انتهزت فرصة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ إن ابتغيتم المرضعة ﴿وَهُمْ﴾ أي: أهل ذلك البيت ﴿لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:12] إلى أن كبر، بحيث لا يغفل من تربيته وحفظه.

فلما سمع هامان منها ما سمع قال: إنها قد عرفت أهله ومنشأه، خذوها حتى

---

(1) سقى الله روح موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى؛ لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بإتيان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه. قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع.

تخبر ما حاله؟ قالت مريم: إنما أردت، وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بإتيانها، فأتت بأمها وموسى على يدي فرعون يبكي ويصيح، فلما شم ريح أمه استأنس، والتقم ثديها ومص بلا إباء، فقال لها فرعون: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح واللبن، لا أوتي بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها وعيَّن أجرة حضانتها ورضاعتها، فذهب به إلى بيتها من يومه.

كما قال سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ في يوم إلقائه في البحر ﴿إِلَى أُمِّهِ﴾ إيفاءً لوعدنا إياها ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾ وتنور ﴿عَيْنُهَا﴾ بولدها ﴿وَ﴾ بعدما رددناه إليها ألهمنا لها أن ﴿لَا تَحْزَنَ﴾ بعد اليوم، وتثق بوعدنا إياك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ القادر على إيفاء العهود ﴿حَقٌّ﴾ ثابت مطابق للواقع، فكما أوفى سبحانه وعد رده إليك يوفي وعد رسالته ونبوته أيضًا بلا خلف منه، فعليك أن تثقي بالله وتفوضي أمره إليه، فإنه سبحانه يكفي مؤونة شرور أعدائه ويوصل إلى منتهى ما جبله لأجله؛ إذ هو قادر غالب على كل ما أراد وشاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:13] كمال قدرته وحكمته.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 14-17].

﴿وَلَمَّا﴾ ربته أمه، وأحسنت تربيته بمعاونة عدوه إلى أن ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ كمال قوته في نشوئه ونمائه ﴿وَاسْتَوَى﴾ أي: كمل وتم عقله ورشده إلى أن صلح لحمل أعباء الرسالة ﴿آتَيْنَاهُ﴾ من كمال جودنا إيفاءً لما وعدنا له في سابق علمنا، وكتبنا لأجله في لوح قضائنا ﴿حُكْمًا﴾ نبوة ورسالة؛ ليضبط به ظواهرَ الأحكام بين الأنام ﴿وَعِلْمًا﴾ لدنيًا متعلقًا بمعرفة ذات الحق المتصف بجلائل الأوصاف والأسماء، وبمعرفة توحيده وتنزهه عن سمة الكثرة مطلقًا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا موسى ﴿نَجْزِي﴾ عموم

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:14] من خلَّص عبادنا البالغين رتبة الإحسان؛ لأنهم يعبدون الله كأنهم يرونه؛ وإنما أتى بلفظ الماضي مع أنه إنما أُرسل بعدما هاجر من بينهم إلى مدين تلميذ شعيب ﷺ تنبيهًا على تحقق وقوعه.

﴿وَ﴾ بعدما بلغ أشده ﴿دَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي: مصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لأنهم لا يترقبونه في ذلك الوقت، قيل: هو وقت القيلولة، وقيل: وقت العشاء ﴿فَوَجَدَ﴾ بعدما دخل ﴿فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ قتالاً شديدًا ﴿هَذَا﴾ أي: أحد المقاتلين ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿وَهَذَا﴾ أي: الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وبعدما وصل موسى إليهما ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ أي: طلب منه الغوث والإغاثة، الرجلُ ﴿الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ هو ﴿عَلَى﴾ الرجل ﴿الَّذِي﴾ هو ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأن العدو غالب عليه، وبعدما وجد موسى صديقه مظلومًا مغلوبًا.

﴿فَوَكَزَهُ﴾ أي: العدو ﴿مُوسَى﴾ أي: ضم أصابعه مجتمعة مقبوضة فضرب بها العدو مرة ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: هلك وانفصل روحه بوكزة واحدة فخجل من فعله هذا، واسترجع إلى الله مستحييًا منه سبحانه، حيث ﴿قَالَ هَذَا﴾ أي: ما جئت به من الفعلة الشنيعة ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إذ هو يغريني عليه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان المغري المغوي ﴿عَدُوٌّ﴾ لأهل الحق وأرباب اليقين ﴿مُّضِلٌّ﴾ لهم يضلهم عن الطريق المستبين ﴿مُّبِينٌ﴾ [القصص:15] ظاهر العداوة والضلالة بالنسبة إلى أرباب الرشد والكمال.

﴿قَالَ﴾ موسى متضرعًا نحو الحق، آيبًا إليه، تائبًا عما صدر عنه، مناجيًا له عن محض الندم: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم بين يدي عدوي، وخلصني من البلية العامة بمقتضى جودك ﴿إِنِّي﴾ بالإقدام على هذا الأمر الشنيع ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وعرضتها لعذابك بالخروج عن مقتضى حدودك بقتل هذا الشخص بلا رخصة شرعية ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ يا ربّ زلتي بعدما تبت إليك، ورجعت عن ذنبي نادمًا، والتجأت إلى بابك راجيًا ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ ربه زلته بعدما رجع إليه مخلصًا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما رجعوا نحوه متذللاً خائبًا خاسرًا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [القصص:16] لهم يقبل توبتهم بعدما أخلصوا فيها، وبعدما تاب ورجع عمّا عمل خطأ.

﴿قَالَ﴾ مقسمًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامات أقسمت ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النعم العظام ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد اليوم ﴿ظَهِيرًا﴾ مغيثًا ومعينًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:17] الذين أدت إغاثتهم إلى جرم كبير وذنب عظيم.

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص:18-21].

وبعدما صدر عن موسى ما صدر ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مصر ﴿خَائِفًا﴾ من أولياء المقتول ﴿يَتَرَقَّبُ﴾[1] منهم الاستقادة ﴿فَإِذَا﴾ أي: فوجئ بغتةً بالرجل ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ﴾ واستغاث منه ﴿بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ ويستغيثه لقبطي آخر يخاصم معه ويغلب عليه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ أي: للمستغيث: ﴿إِنَّكَ﴾ مع ضعفك وقلة قوتك ﴿لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:18] ظاهر الغواية والضلال.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى بعدما نسبه الإسرائيلي إلى الغواية ﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي﴾ أي: بالقبطي الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: لموسى والإسرائيلي؛ إذ القبطي عدو للسبطي مطلقًا ﴿قَالَ﴾ القبطي: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ ظلمًا ﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ جبرًا بغير حق ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تقصد بفعلك هذا ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتالاً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ظلمًا وعدوانًا مباهيًا بقدرتك وقوتك ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾ أنت بهذه الجرأة والجريمة ﴿أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:19] بين المتخاصمين، بل من المفسدين أشد إفساد.

﴿وَ﴾ بعدما انتشر الخبر بين القوم، وشاع بين الأنام إلى أن وصل الخبر إلى فرعون وملئه بقتل موسى بعدما شاوروا في شأنه ﴿جَاءَ رَجُلٌ﴾ مؤمن ﴿مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ إلى موسى، وهو ابن عمه حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع ويتبختر ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ

(1) يشير إلى أن موسى القلب في ابتداء أمره إذا لم يكن محلاً لوارد الغيب مستظهرًا بالإلهامات الربانية واثقًا بظهور الآيات عليه مطمئنًا بإمداد شواهد الحق لديه فيتعدى على بعض صفات النفس مكرهًا بقوة مساعد الصدق، فيذكر سطوة سلطنة فرعون النفس واستيلائه عليه يصبح خائفًا يترقب سطوة قهره أو يترقب نصرة الله إياه. [التأويلات].

إِنَّ الْمَلَأَ﴾ أي: فرعون وأشراف قومه ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ وتشاوروا في شأنك واستقر رأيهم ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قصاصًا ﴿فَاخْرُجْ﴾ من المدينة ذا الساعة ﴿إِنِّي﴾ من كمال عطفي ﴿لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:20] أنصحك بالخروج من بينهم؛ لئلا يلحقك شرهم وضرهم.

وبعدما سمع من الناصح ما سمع ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من المدينة على الفور ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إدراكه من الخلف ﴿قَالَ﴾ حين خروجه ملتجأ إلى الله، مناجيًا له: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك، ونجاني من أنواع الفتن والمحن ﴿نَجِّنِي﴾ بلطفك ﴿مِنَ﴾ إدراك ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:21] القاصدين لمقتي وقتلي.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:22-24].

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: جهة قرية شعيب عليه السلام ﴿قَالَ﴾ راجيًا إلى الله، ذاكرًا سوابق نعمه عليه من كمال فضله وكرمه: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي﴾ بمقتضى جوده العميم ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:22] أي: الطريق المستقيم المنجي عن العدو، الموصل إلى الصديق المشفق؛ ليهديني إلى صراط الله الأقوم الأعدل الذي هو التوحيد المخلص عن وساوس التقليد، فعن له ثلاث طرق فاختار أوسطها بإلهام من الله إياه، وجاء الطلاب عقيبه فاختاروا الآخرين، فنجا من شرورهم سالمًا.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ ووصل بعدما سار ثمانية أيام بلا زاد، يأكل الكلأ ﴿مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: بئرًا قرب مدين، كان أهلها يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي: فرقة عظيمة ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ قعد عندهم من شدة الوصب والجوع والعطش، وهم ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم بالدلو منها ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: في مكان أبعد وأشغل من مكانهم ﴿امْرَأَتَيْنِ﴾[1] معهما غنم كثير ﴿تَذُودَانِ﴾ أي: تطردان وتصرفان غنمهما عن اختلاط

(1)-قال في التأويلات: وهما السر والخفي وهما ابنتا شعيب الروح في البداية بالتدريج فتنشأ منه الخفي وهو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوة، فلا يحصل بالفعل إلا بعد غلبات الواردات

غنمهم، وتبعدان عن الماء.

﴿قَالَ﴾ موسى سائلاً عنهما بعدما شاهد حاليهما وذودهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما وأمركما؟ وأي شيء مقصودتما من الذود مع أن أغنامكما في غاية العطش؟! ﴿قَالَتَا﴾ مع كمال الاستحياء والتحفظ من مكالمته: ﴿لَا نَسْقِي﴾ أغنامنا مع هؤلاء الرجال؛ إذ نحن من أهل بيت النبوة لا نجتمع معهم في السقي، بل نصبر ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: يُخلوا الدلو، ويُخرجوا مواشيهم إلى المرعى عن رأس الماء ـ الرعاء: جمع راعٍ كتجار: جمع تاجر، هذا على قراءة: ﴿يُصْدِر﴾ بضم الياء وكسر الدال، وأمَّا على قراءة: ﴿يَصْدُر﴾ بفتح الياء وضم الدال؛ أي: يذهب الرعاء بمواشيهم مرتبة، وينصرفوا من شفير البئر ـ إذ نحن لا نختلط مع أجانب الرجال ﴿وَ﴾ نحن من كمال اضطرارنا جئنا للسقي؛ إذ ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:23] فاقد البصر، وما لنا أخ وعم، وليس لأبينا سوانا.

وبعدما سمع موسى منهما ما سمع، ورأى ما رأى من كمال العطف والعفة والعصمة قام مع أنه في غاية الضعف؛ من شدة الجوع والوصب، وعلى رأس البئر حجر عظيم يقله عند الاستسقاء جمع كثير، فأقله وحده ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ جميع أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ وانصرف ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ وازداد جوعه ووصبه ﴿فَقَالَ﴾ ملتجئًا إلى ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ من شدة جوعي وضعفي ﴿لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ ورزقتني من موائد إفضالك وإنعامك ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وصل إليَّ، حينئذٍ ﴿فَقِيرٌ﴾[1] [القصص:24] محتاج مريد.

الربانية ليكون واسطة بين الحضرة والروح في قبول تجلي صفات الربوبية، وإفاضة الفيض الإلهي على الروح فيكون في هذه المدة بمعزل عن الاستيفاء، وكذلك السر وهو لطيفة روحانية متوسطة بين القلب والروح قابلة لفيض الروح مؤدية إلى القلب، وهو أيضًا بمعزل عن استيقاء ماء فيض الروح عند شغل القلب بمعالجات النفس وصلاح القالب إلى حين توجه موسى القلب إلى مدين عالم الروحانية.

(1) قال روزبهان: استظل ظل العناية وطلب من هناك حقائق الكفاية بنعت الرضا والتسليم وأظهر افتقاره إلى وصول المشاهدة حين عاين كنوز القدم مفتوحة وجلابيب الصفات مكشوفة فانبسط إليه بالسؤال حين انفرد من الخلق والخليقة. قال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من أنوار الربوبية، فافتقاره افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال ولا طلب. قال بعضهم: تولى إلى كهف الرعاية فإن فيه الراحة والاسترواح.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾
[القصص:25-28].

وبعدما تم مناجاته مع ربه، وطلب حاجته منه سبحانه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى المرأتين ﴿تَمْشِي﴾ نحوه ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ تام منه، فلما وصلت حوله سلمت عليه، ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾ له مستحيية: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ويكافئك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ تبرعًا، فأجابها موسى تبركًا برؤية شعيب عليه السلام لا طمعًا لأجرته.

رُوي أنه لمَّا دخل عليه أتى أولاً بالطعام، فامتنع موسى عليه السلام وقال: نحن من أهل بيتٍ لا نبيع بالدنيا، قال شعيب عليه السلام: هذا من عادتنا مع كل من ينزل بنا، وإن من أتى بمعروف، وأهدي له لم يحرم أخذه وأكله في جميع الأديان.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: جاء موسى شعيبًا ـ عليهما السلام ـ وتبرك بشرف صحبته لاح عليه حاله ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ الذي جرى عليه من أوله إلى آخره، وسمع منه الشيخ على التفصيل ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ بعد اليوم ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:25] يعني: فرعون وملأه.

وبعدما جلس موسى عند شعيب ـ عليهما السلام ـ وقصَّ عليه ما جرى من الخوف والحزن وأنواع الكآبة ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى الابنتين، وهي التي استدعته للضيافة: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي الغنم، وأنت تريد الأجير ﴿إِنَّ خَيْرَ﴾ جميع ﴿مَنِ اسْتَأْجَرْتَ﴾ من الرجال هو؛ لأنه ﴿الْقَوِيُّ﴾ أي: شديد القوة ﴿الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26] ذو الأمانة والديانة.

قال لها أبوها حمية وغيرة: من أين عرفت قوته وأمانته؟ فذكرت لأبيها إقلال الحجر العظيم وحده من رأس البئر مع أن الناس يقلونه في جمع كثير، فهذا دليل قوته،

وأمّا أمانته فإني بعدما دعوته قام ومشى قدامي، وأمرني بالمشي خلفه؛ صيانةً عن النظر إلي، فقال لي: دليني عن الطريق إن ضللت، وهذا دليل على كمال أمانته وصيانته حدود الله.

ولمّا سمع شعيب عليه السلام من ابنته ما سمع من أمارات أمانته ومروءته رغب إلى ألفته ومؤانسته؛ حيث ﴿قَالَ﴾ شعيب لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي﴾ بعدما وجدتك شابًا صالحًا، سويًا ذا رشد وأمانة ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ على صداق معين ﴿عَلَى أَن تَأْجُرَنِي﴾ نفسك برعي الغنم ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ كاملاً ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ تبرعًا وإحسانًا ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بأن أحملك أزيد من ذلك ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص:27] للخدمة والمصاحبة، والمؤاخاة والموافاة في أداء الحقوق والعهود.

﴿قَالَ﴾ موسى مجيبًا له، راغبًا لقبول ما ألقاه من الكلام: ﴿ذَلِكَ﴾ الوقت الذي عينته ملزمًا عليّ أولاً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ معهود ثابت، والذي قلته ثانيًا تبرعًا مني، وبالجملة: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ﴾ يعني: أجل الالتزام، وأجل التبرع ﴿قَضَيْتُ﴾ يقع المعهود بلا تردد ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ ولا تعدي ﴿عَلَيَّ﴾ بعد انقضاء كل واحد من الأجلين ﴿وَاللهُ﴾ الشهيد المطلع لعموم أحوال عباده ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة والمعاهدة ﴿وَكِيلٌ﴾ [القصص:28] حفيظ يحفظه على وجهها.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص:29-31].

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ أي: أقصى الأجلين، ومكث عنده عشرًا آخر بعدما تزوج ابنته؛ للاسترشاد والاستكمال، وبعدما كمل بصحبة المرشد الكامل المكمل أراد أن يرجع إلى قومه فخرج من عنده ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ نحو مصر، وهي حاملة فجاءها

الطلق في ليلة شاتية مظلمة، وهم على جناح السفر ضالين عن الطريق ﴿آنَسَ﴾ أي: أبصر موسى ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: من الجهة التي تجاه الطور ﴿نَارًا﴾ ففرح من رؤيتها ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ ساعة ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ وأبصرت ﴿نَارًا﴾ ومن هذا يُعلم أن أهله لم يروها، أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ من الطريق أستخبر من عندها ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عود غليظ معه شيء ﴿مِّنَ النَّارِ﴾[1] إن لم أجد عندها أحدًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:29] تستدفئون من البرد، فمكثوا.

فبادر إليها سريعًا ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ وقرب إليها ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ﴾ أي: شفيره وجانبه ﴿الْأَيْمَنِ﴾ باليمن، والكرامة الواقعة ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ التي كثر الخير والبركة فيها ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي: نُودي من الشجرة التي تعقد النار عليها نداءً عجيبًا معربًا عن اسمه، مصرحًا به: ﴿أَن يَا مُوسَى﴾ المتحير في بيداء الطلب، القلق الحائر في فيافي التعب ﴿إِنِّي﴾ مع كمال إطلاقي وإن ظهرت على صورة نار، وتقيدت بها متنزهًا عن كمال تنزهي عن عموم الصور والتعينات ﴿أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:30] الجامع لجميع الأسماء والصفات، المتجلي لجميع الصور والشئون، وعموم الهياكل والتماثيل، المتعالي عن الحلول في شيء والاتحاد به والمعية معه مطلقًا، فاطلبني تجد جميع حوائجك عندي؛ لأني رب العالمين، أي: مربِ الكل ومدبره بعدما أظهرت الأشياء، وأوجدتها من كتم العدم.

وبعدما سمع موسى ما سمع استوحش من هذا النداء، وارتعد من هيبة هذا الصدى؛ لأنه في ابتداء انكشافه وشهوده أنس معه ربه؛ إزالةً لرعبه ووحشتها، فقال مخاطبًا له، آمرًا: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي في يدك؛ حتى ترى عجائب صنعنا وغرائب حكمتنا وليزول استبعادك من ظهورنا على صورة النار فألقاها، فإذا هي حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ وتتحرك على وجه السرعة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: حية صغيرة سريعة

(1) يُشير به إلى أن التجريد في الظاهر والتفريد في الباطن، فإن السالك لا بدَّ له في السلوك من تجريد الظاهر عن الأهل والمال، وخروجه عن الدنيا بالكلية فقد قيل أن الكاتب عبد ما بقي عليه درهم، ثم من تفريد الباطن عن تعلقات الكونين فبعد وتفرد عن التعلقات يشاهد شواهد التوحيد، فإذا ما تبدو له في صورة شعلة النار كما كان لموسى والكوكب كما كان لإبراهيم عليهما السلام أكوكب ما أرى يا سعد أم نار تشبها سهلة الحدين معطار، ومن جملتها اللوامع والبروق والطوالع والسواطع والشموس والأقمار إلى أن ينجلي نور الربوبية مع مطلع الإلهية نور ببدور إذا بَدا استمكن شمس طلعت ومن رآها آمن. [التأويلات].

السير ﴿وَلَّى﴾ موسى، وانصرف عنها ﴿مُدْبِرًا﴾ بعدما أدبر مرعوبًا مرهوبًا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع ولم يلتفت إلى أخذها خائفًا منها هائبًا، قلنا له مناديًا؛ إزالةً لرعبه: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ إلى عصاك وخذها ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ [القصص:31] عن ضرر ما ظهرت عليك من الصورة الحادثة المهيبة، فإنَّا سنعيدها سيرتها الأولى.

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص:32-37].

ثمَّ أمر سبحانه ثانيًا؛ تأكيدًا لتأنيسه إياه بقوله: ﴿اسْلُكْ﴾ وأدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ على الفور ﴿بَيْضَاءَ﴾ مضيئة منيرة، محيرة للعقول والأبصار؛ من كمال إشراقها وضوئها، مع أنها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: مرض من برص وبهق، فأدخل وأخرج فرأى ما رأى ﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى يده في غاية البياض والصفاء استوحش أيضًا منها واسترهب عن عروض المرض إليها، أمره سبحانه ثالثًا؛ إزالة لحزنه بقوله: ﴿اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: يديك، واطوِ كشحك ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: الخوف والحزن، وهذا كناية عن الطمأنينة والوقار، وعدم إخطار الخوف في البال.

﴿فَذَانِكَ﴾ أي: العصا واليد البيضاء ﴿بُرْهَانَانِ﴾ أي: شاهدان على نبوتك ورسالتك، ومعجزتان باهرتان لك لمن يعارض معك وأنكر عليك رسالتك، متنشئان ﴿مِن﴾ أمر ﴿رَبِّكَ﴾ تأييدًا لك ولأمرك حين أرسلك ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ لتدعوهم إلى توحيد الحق وصراط مستقيم، وتنفرهم عمَّا هم عليه من الإفراط والتفريط ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:32] خارجين عن

مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة في شرائع الأنبياء الماضين، والرسل المنقرضين.

ثمّ لمّا سمع موسى من ربه ما سمع ﴿قَالَ﴾ معتذرًا مستظهرًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بسوابق النعم ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ خطأً، وأنت أعلم به مني ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:33] ويبادرون إلى قتلى قبل دعوتهم إلى دينك وتوحيدك لو ذهبت إليهم وحيدًا فريدًا بلا ظهير ومعين.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وأوضح بيانًا، وأتم تقريرًا وتبيانًا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ وأشركه في أمري؛ ليكون ﴿رِدْءًا﴾ أي: معاونًا في أمري ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ لدى الحاجة ﴿إِنِّي﴾ من كمال عداوتهم معي، وشدة شكيمتهم وغضبهم عليَّ ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:34] دفعة، ولا ينطلق لساني بمجادلتهم؛ بسبب لكنتي فأفوت بلكنتي حكمة رسالتي، وأحكام دعوتي ونبوتي.

﴿قَالَ﴾ له سبحانه على وجه التأييد والتعضيد: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ ونقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ مع ذلك لا تيأس من توفيقنا إياك؛ إذ بعدما أرسلناكما إلى فرعون وملئه ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حجة قاطعة بها تغلبان عليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقهر واستيلاء ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بسبب آياتنا التي معكما، ولا تخافا عن غلبتهم عليكما؛ بسبب شوكتهم وكثرة عَددهم وعُددهم، بل ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا﴾ من المؤمنين هم ﴿الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:35] المقصورون على الغلبة، لا تتعدى الغلبة عنكم، وهم المغلوبون المنحصرون على المغلوبية، لا يتجاوزون عنها أصلاً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى﴾ مؤيدًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقها في دعواه، مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات واضحات أنها من عندنا بلا تردد وريب ﴿قَالُوا﴾ من كمال قسوتهم وانهماكهم في الضلال: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي أتى به على صورة المعجزة والبرهان ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾[1] اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله افتراءً وترويجًا لباطله من صورة الحق ﴿وَ﴾ من شدة حرصه على ترويج ما زخرفه من عند نفسه سمّاه دينًا وهداية

(1) قال في التأويلات: لأن النفس خلقت من أسفل عالم الملكوت متنكسة، والقلب خلق من وسط عالم الملكوت متوجهًا إلى الحضرة فما كذب الفؤاد ما رأى، وما صدقت النفس ما رأت، فيرى القلب إذا كان سليمًا أن من الأمراض والعلل الحق حقًا والباطل باطلاً والنفس يرى الحق باطلاً والباطل حقًا ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه».

ورشدًا، ونسبه إلى الوحي والإنزال من الإله الواحد الموهوم، مع أنَّا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: بوحدة الإله المرسل للرسل، والمنزل للكتب بالوحي والإلهام، الواضع للأديان والشرائع بين الأنام كائنًا ثابتًا ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص:36] إن هو إلا إفك افتراه، ولبَّس على الأنام أمره؛ تغريرًا عليهم، وتضليلاً لهم.

﴿وَ﴾ بعدما أبصروا الآيات القاطعة والبراهين الساطعة، ونسبوها من غاية غيهم وضلالهم إلى السحر والشعوذة، مع أنها بمراحل عنها ﴿قَالَ مُوسَى﴾ بعدما قنط من إيمانهم وصلاحهم: ﴿رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرامات ﴿أَعْلَمُ﴾ منِّي ﴿بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ والرشد المنزل ﴿مِنْ عِندِهِ﴾ بمقتضى وحيه وإلهامه، ومن اهتدى واسترشد به ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يعني: العاقبة الحميدة المترتبة على هذه النشأة التي هي دار الابتلاء والاختبار، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى عدله وحكمته ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص:37] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية، ولا يفوزون بما فاز المتقون من المثوبة العظمى والدرجة العليا.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص:38-42].

﴿وَ﴾ بعدما أتم موسى كلامه الصادر عن محض الحكمة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مستكبرًا مستحييًا عمَّن حوله من الأنام؛ لئلا ينسبوه إلى العجز والإفحام مناديًا لهم على سبيل العظمة والكبرياء: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ﴾ يُعبد بالحق ويستحق لها ﴿غَيْرِي﴾ ومن أين يدَّعي هذا الكذَّاب في السماء إلهًا سواي؟! ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي: من العملة أن يتخذوا من الطين لبنها، وأوقدوه بالنار إلى أن صار آجرًا متحجرًا ﴿فَاجْعَل لِّي﴾ منها ﴿صَرْحًا﴾ رفيعًا، وقصرًا منيعًا سمكها متصلاً إلى السماء، فأستعلي عليه ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ فإن أقبل بالقتال أغلبه، وأحطه

على الأرض صاغرًا مهانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنّي لأَظُنُّهُ﴾ في هذه الدعوة ﴿مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [القصص:38] القائلين بقولٍ لا منشأ لها في الواقع ولا أصل.

قيل: بنى رصدًا؛ ليطلع على نظرات الكواكب، هل يجد فيها نظرًا يدل على زوال ملكه باستيلاء موسى عليه السلام؟.

﴿وَ﴾ من كمال سكرتهم وعمههم، وإمهالنا إياهم متمتعين ﴿اسْتَكْبَرَ هُوَ﴾ أي: فرعون ﴿وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ والاستحقاق، وترقبوا في عتوهم وعنادهم إلى أن ظهروا على الله بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿وَظَنُّوا﴾ بالإقدام والجرأة على مثل هذه الخرافات ﴿أَنَّهُمْ﴾ بعد خلعهم لوازم الناسوت ﴿إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 39] رجوع الأظلال إلى الأضواء المنعكسة من شمس الذات، والأمواج إلى الماء.

وبعدما بالغوا في العتو والعناد، وظهروا على الأرض بأنواع الفساد ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ أي: فرعون بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿وَجُنُودَهُ﴾ أيضًا بأنواع العذاب ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي: طرحناهم ﴿فِي اليَمِّ﴾ وغطيناهم بالماء فأغشيناهم بها، مثل غشي وجوداتهم الباطلة بالوجود الحق الإلهي ﴿فَانظُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 40] ومآل أمرهم، وما يؤول إليه حالهم وشأنهم ﴿وَ﴾ من كمال ابتلائنا إياهم ومكرنا معهم: ﴿جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوة للضلال ﴿يَدْعُونَ﴾ من تبعهم ويقتفي أثرهم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ أي: أسبابها وموجباتها؛ إذ مآل الكل إليها تابعًا ومتبوعًا ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: 41] أي: لا يُدفع عنهم العذاب، ولا يُخفف عليهم بشفاعة أحد.

﴿وَ﴾ كيف ينصرون أولئك الضالون المضلون، مع أنَّا ﴿أَتْبَعْنَاهُمْ﴾ وألزمنا عليهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ مستمرة جارية على ألسنة من على الأرض ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:42] المطرودين المسوقين نحو جهنم صاغرين مهانين؟!.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا

كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:43-46].

﴿وَ﴾ بعدما نبذنا فرعون وجنوده في اليم ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا من كمال جودنا ﴿مُوسَى الكِتَابَ﴾ أي: التوراة الجامعة لظواهر الأحكام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ واستأصلنا آثارهم وأحكامهم، بحيث لم يبقَ من شرائع المتقدمين وآثارهم وأحكامهم شيئًا بين الأنام، كنوح وهود وصالح وإبراهيم؛ وإنما آتيناه ليكون ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ينوروا بأحكامه وأوامره عيون بصائرهم، ويستيقظوا من منام الجهل والغفلة، ويشتغلوا بطلب الحق.

﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى سلوك مسالك التوحيد ﴿وَرَحْمَةً﴾ يبشرهم إلى البقاء الأبدي السرمدي بعد انخلاعهم عن خلع تعيناتهم العدمية، والإفناء عن هوياتهم الباطلة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:43] رجاء أن يتذكروا ويتنبهوا من المواعظ والأحكام التي ذُكرت فيه إلى ما جُبلوا لأجله من المعارف والحقائق والرموز، والإشارات والمكاشفات والمشاهدات.

ثمّ لمّا قصّ سبحانه على حبيبه ﷺ ما قصّ من قصة موسى الكليم، وكيفية انكشافه من النار الموقدة على الشجرة، وكيفية عروجه مترقيًا من العلم إلى العين ثمّ إلى الحق، أراد أن يمن عليه سبحانه بما اصطفاه وفضله من بين البرايا على الرسالة العامة، وأخبره من المغيبات بطريق الوحي والإلهام ما ليس في وسعه، لولا وحيه وإلهامه سبحانه إياه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل حين انكشف موسى بالواد المقدس، وشهد من فضل الله عليه ما شهد ﴿بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ﴾ أي: الوادي الذي على شفيرها الشجرة بالطرف الغربي من مقام موسى؛ أي: ما كنت حاضرًا عنده ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ وأوحينا ﴿إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ الذي هو مطلوبه الحقيقي من مطلوبه الصوري ﴿وَمَا كُنتَ﴾ حينئذٍ ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص:44] الحاضرين المطلعين على شأنه وشهوده.

﴿وَلَكِنَّا﴾ من كمال لطفنا وجودنا أخبرناك بما جرى بينه وبيننا في تلك الليلة، كما أخبرنا لك أحوال أمم ﴿أَنشَأْنَا﴾ من بعد موسى ومن قبلك ﴿قُرُونًا﴾ أي: زمانًا متطاولة ومدة بعيدة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ ومكثوا في الدنيا كثيرًا، ودار بينهم الدول والحول وحدثت الفتن والمحن، ووقعت التغييرات والتحريفات في الشرائع والأديان،

واندرست معالم الهدى، وفشا الجدال والطغيان، واستولت الهوية الفاسدة والآراء الباطلة على أهل الزمان، فأخبرنا لك في كتابك هذا من وقائعهم؛ لتكون تذكرة لك، وعبرة للمؤمنين بك.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيضًا يا أكمل الرسل ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال القسط والعدالة بلسان نبينا شعيب عليه السلام حين انحرفوا عن جادة الاعتدال في المكيلات والموزونات، واشتغلوا بالبخس والتطفيف وأنواع التنقيص والتخسير ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:45] مخبرين لك، موحين إليك ما جرى عليهم من الأحوال.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيضًا حاضرًا ﴿بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ الذي هو موعد موسى وقت ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾[1] موسى لأخذ التوراة ووحينا إليه ﴿وَلَكِن﴾ علمناك به؛ لتكون ﴿رَّحْمَةً﴾ لك نازلة إليك ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ تأييدًا لك، وتقويةً لشأنك، بل إنما أوحيناك ما أوحيناك ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ بقوا على فترة من الرسل؛ إذ ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من لدن عيسى عليه السلام، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو إسماعيل عليه السلام بناءً على أن دعوة أنبياء بني إسرائيل مختصة بهم لا يتعدى إلى غيرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:46] يتعظون بما في كتابك، ويتنبهون بما في حكمه وأحكامه إلى مبدئهم ومعادهم، ويفوزون منها إلى المعارف والحقائق التي جُبلوا لأجلها.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا

(1) قال في التأويلات: يعني حين سأل موسى ربه: إني أرى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا من هم؟ فقال: أمة محمد ﷺ حتى سأل عن أوصاف كثيرة وعن الجميع كان يجيب أنه أمة أحمد فاشتاق موسى إلى لقائهم فقال: إنه ليس اليوم وقت ظهورهم فإن شئت أسمعتك كلامهم كما مر ذكره ثم نادى فقال: يا أمة محمد فيه إشارة لطيفة وهي أن الله ﷻ لكرامة محمد ﷺ وشرفه أخذ الميثاق من موسى للإيمان به في غيبته وفي حضور موسى ما نادى محمدًا لأجله بل نادى أمته له ومن عليه باستماع كلامهم إياه وكما نادى موسى في الوجود حاضرًا نادى أمة محمد ﷺ وهم في العدم غائبين فهو كائن لهم حين لم يكونوا لأنفسهم.

وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: 47-50].

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿وَلَوۡلَآ﴾ كراهة ﴿أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ عظيمة جالبة لنزول أنواع العذاب والنكال ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المعاصي ﴿فَيَقُولُواْ﴾ حينئذٍ مجتمعين علينا، مجادلين بنا بعدما أخذناهم عليها: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ﴾ وهلّا ﴿أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ من عندك، مؤيّدًا من لدنك بالآيات البينات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ البالغة إلينا برسالته ونصدقها، ونعمل بمقتضاها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص:47] الموقنين بوحدانيتك، المخلصين من عذابك.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الرسول المرسل ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ ملتبسًا بالحق المؤيّد بالآيات الساطعة القاطعة ﴿قَالُواْ﴾ من خبث طينتهم، وشدة شكيمتهم وضغينتهم: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾ وهلّا أوتي بهذا الرسول المرسل إلينا من الدلائل والمعجزات ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ حتى نصدقه ونؤمن به؛ وما هذا إلا من غاية غيهم وضلالهم، وغلظ حجبهم وغشاوتهم، وإلّا لو أوتي له مثل ما أوتي موسى لكفروا له البتة ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾.

حيث ﴿قَالُواْ﴾ بعدما شاهدوا دلائله ومعجزاته مبالغين في رده وإنكاره: ﴿سِحۡرَانِ﴾ أو ساحران على القراءتين ﴿تَظَٰهَرَا﴾ يعني: موسى وهارون، مع أن ما أتيا به بعيد بمراحل عن السحر، وأنتم أيضًا من بقية ما كفروا بدلائل موسى، ونسبوها إلى السحر، ولو آتينا محمدًا ﷺ مثل ما آتينا موسى لكفرتم به ألبتة، كما كفر أسلافكم بآيات موسى ومعجزاته، مع أن دلائل محمد أقوى من دلائل موسى، وكتابه أجمع من كتابه وأتم نظمًا، وأكمل معرفة وأعم حكمًا وأشمل فائدة، وبعدما سمعوا ما دل على خباثة فطرتهم ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مظهرين ما في نفوسهم من الشرك والنفاق: ﴿إِنَّا بِكُلّٖ﴾ مما يدعي الرسالة والنبوة، والإرشاد والهداية ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [القصص:48] منكرون له، لا نقبل عن أبناء جنسنا مثل هذه المفتريات التي اختلقوها من تلقاء أنفسهم، ونسبوها ترويجًا لها إلى ما لا وجود له في الواقع، وسموه إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا، فردًا وترًا، لم

يتخذ صاحبةً ولا ولدًا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتوبيخ بعدما عاينت منهم الكفر على أبلغ وجه وآكده: ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المفسدون المسرفون ﴿بِكِتَابٍ﴾ نازلٍ ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ المنزل للكتب؛ لإرشاد عباده ﴿هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ﴾[1] أي: الكتاب وما فيه من الأحكام، وأمتثل لأوامره، وأجتنب عما نهي فيه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص:49] في نسبتنا إلى السحر.

﴿فَإِن﴾ عجزوا عن الإتيان، و﴿لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ ما طلبت منهم ﴿فَاعْلَمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: إنهم إنما يتبعون أهواءهم الفاسدة، وآراءهم الباطلة بلا متابعةٍ منهم إلى ملةٍ من الملل السالفة، وإلى دينٍ من الأديان السابقة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ طريقًا، وأشد غيًا، وأسوأ حالاً ومآلاً ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ حال كونه ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ أي: توفيقٍ وإرشادٍ ﴿مِّنَ اللهِ﴾ الميسر لأمور عباده، وكيف يوفقهم الحق ويهديهم؟ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى الطريق المستبين ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:50] الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه؛ إذ هم منهمكون في بحر الغفلة والضلالة لا يُرجى نجاتهم منها.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:51-56].

(1) قال في التأويلات: إشارة إلى أن لو كان لطالب صادق ومريد حازق شيخ يقتدي به وله شأن مع الله ثم استعد بشيخ كمثله كامل هو أهدى إلى الله منه وجب عليه اتباعه والتمسك بذيل إرادته حتى يتم أمره ولو تجدد له في أثناء السلوك هذا الاستعداد بشيخ آخر كما من الأول والثاني هلم جرا يجب اتباعه إلى أن يظفر بالمقصود الحقيقي وهو الوصول إلى الحضرة بلا اتصال وانفصال.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ وفصّلنا ﴿لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ بأنّا أتبعنا الأحكام بالحكم، والأوامر بالمواعظ، والتذكيرات والنواهي بالعبر والأمثال، وأوضحنا الكل بالقصص والوعيدات الهائلة لأهل الغفلة والنسيان، وتنزيل أنواع العذاب والنكال على أهل الكفر والإنكار ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:51] ويتعظون منها فيؤمنون ويقبلون، ومع ذلك لم يتعظوا ولم يتأثروا، فلم يقبلوا ولم يؤمنوا.

ثمّ قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الفرقة الذين آتيناهم التوراة ووفقناهم على امتثال ما فيها من الأوامر والنواهي، وجميع الأمور المتعلقة بالمعتقدات الدينية ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل نزول القرآن ﴿هُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن وبمحمد ﷺ، وإنزال القرآن إليه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:52] إذ هم مصدقون بجميع ما في كتابهم.

ومن جملة الأمور المثبتة في كتابهم: إرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن إليه، وهم يؤمنون به قبل بعثته ﷺ ونزول القرآن لمدة متطاولة ﴿وَ﴾ بعد نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا﴾ مسلمين مصدقين: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل ﴿مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:53] منقادين لما فيه، مصدقين له، مؤمنين بما أنزل إليه؛ إذ الإيمان به من جملة المعتقدات المثبتة في كتابنا، فالآن لمَ لمْ نؤمن مع أنّا وجدناه مطابقًا لما علمناه في كتابنا، وعلى الوجه الذي تلوناه فيه؟!.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ ويعطون ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي: ضعفين؛ أي: مرة على الإيمان السابق بالقرآن وبمحمد ﷺ بمقتضى ما ثبت في كتابهم، ومرة على الإيمان اللاحق بعدما عاينوا ما وصف لهم في كتابهم، وإنما ضوعفوا ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وثبتوا على ما نزل عليه من قبل الحق، ولم يتركوا امتثاله سابقًا ولاحقًا بواسطة دوامهم وثباتهم على الأمر أو في كتابه ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ أي: يدفعون ويسقطون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: الخصلة الحميدة الموجبة لأنواع الإفضال والإنعام ﴿السَّيِّئَةَ﴾ الجالبة لأنواع العذاب والخذلان ﴿وَ﴾ هم أيضًا من كمال اتصافهم بالكمال والإحسان ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأقدرناهم على كسبه ﴿يُنفِقُونَ﴾ [القصص:54] في سبيلنا؛ طلبًا لمرضاتنا.

﴿وَ﴾ من كمال تحفظهم، وصيانتهم نفوسهم عن نواهينا ﴿إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي: الكلام الخالي عن المصلحة الدينية ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ اتقاءً وتحرزًا عن وصمة المداهنة والمراضاة بما لا يرضى منه سبحانه ﴿وَقَالُوا﴾ من سلامة نفوسهم، وكمال علمهم

للمرتكبين بعدما لم يقدروا على نهيهم: ﴿لَنَا﴾ جزاء ﴿أَعْمَالُنَا﴾ التي اقترفناها بسعينا واجتهادنا ﴿وَلَكُمْ﴾ جزاء ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ التي أنتم عليها مصرين، وقالوا لهم حين توديعهم والذب عنهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلمكم الله العفو الرحيم عن عوائد ما كنتم عليه ووفقكم على التوبة والإنابة، وما لنا معكم مطالبة ومجادلة سوى إنَّا ﴿لَا نَبْتَغِي﴾ ولا نطلب مصاحبة ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:55] بسوء عواقب الخصائل الغير المرضية عند الله وعند خالص عباده.

ثمَّ لمَّا احتضر أبو طالب، ودنا أن يخرج من الدنيا جاءه الرسول ﷺ مهتمًا بإيمانه وتوحيده، فقال له: «قل يا عمِّ مرة: لا إله إلا الله، أحاج بها لك عند ربي، وأخرجك بها عن زمرة المشركين»[1] قال: يا ابن أخي، والله إني علمت إنك لصادق في جميع ما جئت به، لكن أكره أن يقال: جزع أبو طالب عند الموت؛ أي: ضعف وجبن.

أنزل سبحانه هذه الآية؛ تأديبًا لحبيبه ﷺ، وردعًا عن طلب شيء لا يُعرف حصوله، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل من شدة حرصك واهتمامك ﴿لَا تَهْدِي﴾ وترشد إلى طريق الحق، وسبيل التوحيد كل ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وأردت إيمانه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿يَهْدِي﴾ ويوفق على الإيمان والإطاعة بدين الإسلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته، وأثبت سعادته وتوحيده في لوح قضائه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:56] من عباده بعد أن بلغت لهم ما أمرك الحق بتبليغه، وما عليك إلا البلاغ، والهداية والرشاد إنما هو بإرادته سبحانه واختياره.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ
إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ
ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص:57-59].

ومن الأعراب قوم جاءوا إلى رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾: إنَّا قد علمنا يقينًا أنك

---

(1) رواه أحمد في «مسنده» (462/51).

على الحق والهداية والرشاد، لكن ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ ونؤمن بك ونعمل بدينك، واتبعناك بجميع ما جئت به من عند ربك على الوجه الذي اعتقدناك ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ ونُخرج ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ التي كنا مستقرين عليها بمخالفتنا العرب؛ إذ نحن أكلة رأس متفقين، ومتى خالفناهم في أمر لم يرضوا عليه أخرجونا من بينهم صاغرين مهانين، فرد الله عليه سبحانه عذرهم هذا بقوله:

﴿أَ﴾ يخافون أولئك الخائفون ﴿وَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ في ما مضى، ولم نجعل مكانهم الذي يستقرون فيه ﴿حَرَمًا﴾ ذا حرمة عظيمة ﴿آمِنًا﴾[1] ذا أمن من جميع المكروهات، جالبًا لأنواع الخيرات والبركات؛ إذ ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ﴾ ويجمع فيه، ويحمل نحوه ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: نفائسه من كل أمد بعيد، وفج عميق؛ ليكون ﴿رِّزْقًا﴾ لهم سابقًا ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ إياهم؟! ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:57] كمال لطفنا معهم، ووفور نعمتنا ورحمتنا إياهم.

﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنَّا: لا تغرنَّكم الحياة الدنيا، وإمهالنا إياكم فيها مترفهين متنعمين؛ إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثيرًا أهلكنا أهل قرية قد ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: كان أهلها بطرين بسعة عيشها، ووفور معيشتها أمثالكم فدار عليهم الدول، فأخذناهم بأنواع النقم بدل نعمهم، فأهلكناهم واستأصلناهم صاغرين؟! ﴿فَتِلْكَ﴾ الأطلال الخربة، والآثار الكربة التي تجاه وجوهكم ﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾ وأوطانهم التي يتمكنون فيها مترفهين بطرين، انظر كيف اندرست وتفتتت إلى حيث ﴿لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ﴾ في بلادهم وأماكنهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من أهل السفر والعبور ينزلون فيه، ويرحلون بلا إقامة فيها ووراثة لها، وهكذا الدنيا وحياتها، والاستقرار عليها والتمتع بمتاعها عند العارف المتحقق بحقيقتها ﴿وَ﴾ بعدما أهلكناهم، وخربنا بلادهم ﴿كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:58]

---

(1) وقال الشيخ روزبهان: حرمهم بالحقيقة قلب محمد ﷺ، وهو كعبة القدس، وحرم الأنس، وسرادق مجد تجلي جلاله، وجماله يجبى إليه ثمرات جميع أشجار الذات والصفات، من دخل ذلك الحرم بشرط المحبة والموافقة كان آمنًا من آفات الكونين والعالمين، وكان منظور الحق في العالم، وهكذا كل من دخل في قلب وليّ من أوليائه، وقلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات، من دفع عنه خاطر الوسواس والهواجس يجبى إليه من أشجار الأنوار ثمرات الأسرار. [العرائس].

منهم، حيث لا نمكن فيها خلفًا من أبناء نوعهم من شؤم آثارهم ومعاصيهم التي كانوا عليها مصرين غير ممتنعين، وإن أرسلنا عليهم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ وما ينبغي ويليق بشأن العليم الحكيم أخذهم بغتةً بلا منبه منذر، بل ما أخذهم على ظلمهم ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أي: البلدة التي هي أم القرى الهالكة؛ إذ أهلها قبل المرشد والهداية من أصحاب القرى والنواحي، وهم تابعون لهم في معظم أمورهم ﴿رَسُولاً﴾ مؤيَّدًا من عندنا، مرسلاً إليهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظيم ذاتنا، وكمال قدرتنا على الإنعام والانتقام، ويدعوهم إلى توحيدنا والتدين بالدين الموضوع من عندنا، فتلا عليهم آياتنا فدعاهم إلى توحيدنا وديننا، فلم يقبلوا قوله ولم يستجيبوا له، بل كذبوه وجميع ما جاء به من الرشد والهداية مصرين على ما هم عليه من الغواية، فاستحقوا الهلاك والعذاب فأهلكناهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:59] يعني: ما كنا مبادرين على إهلاك القرى الهالكة بلا سبق أسباب صدرت عنهم، واستوجبت هلاكهم، بل إنما أخذناهم بعدما ظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودنا الموضوعة فيها ظلمًا وعدوانًا، وصاروا مصرين مباهين بما آتيناهم من زخرفة الدنيا المستعارة الفانية التي ألهاهم عن اللذائذ الأخروية الباقية فيهم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص:60-63].

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في هذه النشأة ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدنية التي هي على طرف التمام، مشرفة على التقضي والانصرام ﴿وَزِينَتُهَا﴾ الزائلة الذاهبة بلا قرار ولا دوام ﴿وَمَا عِندَ اللهِ﴾ من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات لأرباب المراتب العلية، والمناصب السنية من المنقطعين نحو الحق بعد انخلاعهم عن لوازم هوياتهم البشرية الفائضة عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿خَيْرٌ﴾ لا

يتخلل بينه شيء، ولا يعرضه ضر ﴿وَأَبْقَى﴾ إذ لا يلحقه انصرام ولا انقضاء، ولا زوال ولا فناء ﴿أَ﴾ تستبدلون أيها الحمقى الأدنى الفاني بالأعلى الباقي، وتختارون اللذة الجسمانية على اللذات الروحانية ﴿فَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:60] ولا تستعملون عقولكم الموهوبة بمقتضاها؛ ليتميز عندكم ما هو الأليق بحالكم، والأولى بمآلكم؟!.

﴿أَ﴾ تسوون الأجل الباقي بالعاجل الزائد الفاني، مع أن الكل من عندنا وتحت قدرتنا ﴿فَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾[1] أي: موعدًا ذا حسن وكرامة، وبهجة وبهاء ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي: مدركه وموصله إليه؛ إذ لا خلف لوعدنا، أتظنون وتعتقدون أيها الجاهلون أن منزلة هذا السعيد الموفق على السعادة من عندنا ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مكدرة بأنواع الكدورات، مشوبة بالآلام والحسرات، منغمسة بالخبائث والقاذورات ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد انقراض النشأة الأولى ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص:61] للحساب والجزاء على ما تمتعوا في النشأة الأولى؟!.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وأثبت له شريكًا في الوجود سواه ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء حين ظهر على مظاهره باسم القهار، المفني لأظلال السوى والأغيار مطلقًا ﴿فَيَقُولُ﴾ على مقتضى غيرته وجلاله مخاطبًا لمن أشرك به شيئًا من عكوسه وأظلاله، مع أن الكل حينئذٍ مطموس مقهور تحت حوله وقدرته: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:62] أيها المشركون شركائي، وتعبدونهم كعبادتي عدوانًا وظلمًا؟! ثمّ أظهرهم الحق وأوجدهم؛ أي: التابعين والمتبوعين جميعًا بعدما قهرهم وعذبهم جميعًا؛ إظهارًا للقدرة الكاملة، وإلزامًا للحجة البالغة.

ويعدما أظهرهم وسأل عنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي: ثبت وتوجه ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾

---

(1) قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة، والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية، والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرّبين، فلا يتخطّى أحدهم حدّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

أي: السؤال من الله، وهم الشياطين المعبودون مناجين نحو الحق، متضرعين قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد، كيف صدر منَّا أمثال هذه الجرأة؟! بل ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الغواة الهالكون في تيه الغي والضلال هم ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ عن منهج الاستقامة والسداد بأنواع التذلل والانقياد، والإطاعة والعبادة إيانا على مقتضى أهويتهم الفاسدة، وآرائهم الباطلة، مع أنَّا لا نستحق بها على توهم منهم إنَّا قادرون على إنجاح ما في نفوسهم من الأماني والشهوات.

ونحن أيضًا ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ بأنواع التغرير والتضليل ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ هؤلاء إيانا بعبادتهم وطاعتهم نحونا، فتعارض إغواؤنا بإغوائهم، وحين ظهر الحق تساقطا، فالآن ﴿تَبَرَّأْنَا﴾ عنهم وعن عبادتهم، والتجأنا ﴿إِلَيْكَ﴾ تائبين آيبين، مع أنهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:63] حين ادعوا عبادتنا، بل إنما عبدوا أهوية نفوسهم، وأماني قلوبهم، وتوسلوا بنا فيها، والعابدون أيضًا يتبرؤون عن معبوداتهم بأشد من ذلك.

﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾
وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا
يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾
وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ
﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ
ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص:64-70].

﴿وَقِيلَ﴾ حينئذٍ من قِبَل الحق للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تطمعون وتدعون شفاعتهم لكم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ صائحين متضرعين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ من كمال عجزهم وحيرتهم في أمر أنفسهم ﴿وَ﴾ بعدما ﴿رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ النازل على أربابهم قالوا متمنين على سبيل التلهف والتحسر: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:64] في النشأة الأولى لينقذوا أنفسهم من العذاب اليوم، فكيف إنقاذهم بنا؟!.

﴿وَ﴾ بعدما سأل سبحانه عن شركهم سألهم عن تكذيب رسله، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الحق ﴿فَيَقُولُ﴾ سبحانه معاتبًا إياهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:65] حين دعوتكم إلى الإيمان والتوحيد، والعمل الصالح

والاجتناب عن المحظورات وترك المنكرات ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: ضلوا وتحيروا عن جميع طرق الكلام، وسُدت عليهم سبل الأجوبة والإخبار مطلقًا؛ وذلك من كمال دهشتهم وحيرتهم، وشدة عمههم وسكرتهم ﴿فَهُمْ﴾ يومئذٍ من غاية ولههم وحيرتهم ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص:66] ولا يتقاولون؛ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا حتى يعلمه، بل كلهم حينئذٍ حيارى سكارى، تائهين هائمين، لا يُسمع لهم ولا يتأتى منهم الالتفات والتلقي أصلاً.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ عمَّا جرى عليه من المعاصي ﴿وَآمَنَ﴾ بالله على مقتضى ما أمرهم الحق بلسان رسله وأنبيائه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ امتثالاً لما نطق به الكتب والرسل ﴿فَعَسَى أَن يَكُونَ﴾ هذا السعيد ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:67] الفائزين بالمثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله، ومن المبشرين من عنده بشرف اللقاء، والوصول إلى دار البقاء.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَخْلُقُ﴾ ويُظهر بمقتضى تجلياته الحبية الجمالية جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من المظاهر ﴿وَيَخْتَارُ﴾[1] منها ما يختار، فالكل مجبور تحت قدرته ومشيئته ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وثبت ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: التخير والاختيار؛ حتى يريدوا لأنفسهم ما هو الأصلح لهم، بل جميع شئونهم وأمورهم مفوضة إلى الله أولاً وبالذات، وهم مقهورون مجبورون تحت حكمه وقضائه، وكيف لا يكونوا مجبورين؛ إذ هم من عكوس أسمائه وظلال أوصافه، ما لهم وجود في أنفسهم، وتحقق في ذواتهم؟! ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ المنزه عن المثل والشبيه ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: 68] من الشريك والنظير.

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى مشيئته الأزلية في الخلق والاختيار في خلق، وإنه مختار يخلق ما يشاء كيف يشاء ثم يشاء ولا يشاء متى يشاء وله الاختيار في خلق الأشياء، فيختار وجود بعض الأشياء على عدمه فيوجده، ويختار عدم بعض الأشياء على وجوده فيعدم، ويختار بقاء بعض الأشياء في الوجود فيجعله باقيًا ولا يفنيه، ويختار بعض الأشياء في العدم فينشئه فانيًا في العدم ولا يوجده، وله الخيرة في أن: يخلق بعض الأشياء جمادًا وبعض الأشياء نباتًا وبعض الأشياء حيوانًا وبعض الأشياء إنسانًا. وأن يخلق: بعض الإنسان كافرًا وبعض الإنسان مؤمنًا وبعضهم وليًا وبعضهم نبيًا وبعضهم رسولاً. وأن يخلق: بعض الأشياء شيطانًا وبعضها جنًا وبعضها ملكًا وبعض الملك كروبيًا وبعضهم روحًا، وله أن يختار: بعض الخلق مقبولًا وبعضهم مردودًا وليس لشيء من هذه الأشياء اختيار فيما هو به ولا أن يكون شيئًا آخر بعدما اختار له الله.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تُكِنُّ﴾ وتخفي ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: ضمائرهم وقلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1] [القصص:69] بجوارحهم وآلاتهم.

﴿وَ﴾ كيف يخفى عليه شيء؛ إذ ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ الواجب لذاته، المستقل في وجوده وظهوره على عروش عموم مظاهره ومصنوعاته بالاستقلال التام والاستيلاء الكامل ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ في الوجود سواه، ولا عالم لما ظهر وبطن ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لذلك ثبت ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء من ألسنة ذرائر الأكوان، وجميع من رش عليه من رشحات جوده ولمعات وجوده ﴿فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ من نشأتي الظهور والخفاء، والبروز والكمون، والقبض والبسط ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر في الصعود والهبوط، والنزول والعروج، وجميع الشئون والتطورات ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:70] وتحشرون، كما أن منه تُبدؤون وتُنشؤون؟!.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ

(1) يشير إلى مكنونات الأوصاف النفسانية والأوصاف القلبية والأوصاف السرية والأوصاف العقلية والأوصاف الروحية، فإنه هو الذي أودع في وجود هذه الودائع حين خمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا فهو العالم الخبير به، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14] هو الخبير بما أودع فيه من الأوصاف وهي على ضروب ثلاثة: ضرب منها: ما هو فيه بالقوة ولم يحصل فيه بالفعل فلا يطلع عليه صاحبه إلا بعد حصوله بالفعل فيظهر فيه داعية استعمال فيطبع عليه أن فيه هذه القصة وإن لم يستعملها حتى يصير علنًا فيبقى فيه سرًا مكنونًا فالله يعلم سره وعلانيته، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [القصص:69] أي: ما يخفون ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:69] أي: ما يظهرون. والضرب الثاني: منها ما قد حصل فيه بالفعل ويظهر عليه بما يحضر بباله داعية استعمال في العلن وإن لم يعلنه. والضرب الثالث: منها ما يعلنه بالاستعمال في الظاهر ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ﴾ يصلح للألوهية ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو المتفرد بعز الهيبة والمنفرد بجلال ربوبية لا شبيه يساويه ولا نظير يضاهيه، ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ [القصص:70] استحقاقًا على عظمته والشكر استحبابًا على نعمه ففي الدنيا المحمود الله، وفي العقبى الشكور الله. [التأويلات].

جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: 71-73].

ثمَّ أشار سبحانه إلى معظم ما أنعم على عباده من تجدد الملوين، وتعاقب الجديدين امتنانًا لهم، وحثًا على مواظبة شكره ومداومة ذكره، والتذكر بإحسانه وإنعامه، وتعريضًا للمشركين، فقال آمرًا لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للناس الناسين توالي نعمنا المترادفة مستفهمًا إياهم، مستخبرًا منهم على سبيل التنبيه والتذكير: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني أيها المغمورون بنعمي ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ المحول للأحوال، المدبر لجميع التدابير ﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ المظلم ﴿سَرْمَدًا﴾ ممتدًا مستمرًا بلا تخلل ضوء بينه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ﴾ قادر على إيجاد الضوء في خلال الظلمة ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ على زعمكم الفاسد ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ تفوزون إلى أمور معاشكم بسببها ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:71] أمثال هذه التذكيرات ولا تفهمون معناها، ولا تستكشفون عن الحكم والمصالح المدرجة فيها أيها المجبولون على الفهم والاستكشاف؟!.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ المصلح لجميع حالاتكم ﴿عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء ﴿سَرْمَدًا﴾ مستمرًا دائمًا بلا لحوق ما يضاده ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ وتستريحون من تعبكم اللاحق من أشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:72] آلاء الله الفائضة عليكم على التعاقب والتوالي؛ لإصلاح أحوالكم ليلاً ونهارًا؛ حتى تواظبوا على شكرها، وتداوموا لأداء حقها سرًا وجهارًا؟!.

﴿وَمِن﴾ كمال ﴿رَّحْمَتِهِۦ﴾ ووفور مرحمته ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ متجددين متعاقبين ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل، وتستريحوا عما عرض عليكم في النهار من المتاعب والمشاق ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسعة جوده في النهار ﴿وَ﴾ إنما أفاض عليكم كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:73] نعمه سبحانه؛ كي تفوزوا إلى ما أعد لكم من موائد كرمه، ولا تشركوا معه شيئًا من مظاهره ومصنوعاته، ولا تنظروا إلى الوسائل والأسباب العادية، ولا تنسبوا الأفعال الحادثة في الآفاق على غيره سبحانه، بل نزهوه عن مطلق المشاركة والمماثلة، وقدسوه عن جميع ما لا يليق بشأنه.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن

كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ
(٧٥) ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ
بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا
آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص:74-77].

﴿وَ﴾ اذكر للمشركين أيضًا يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الحق ﴿فَيَقُولُ﴾ مغاضبًا عليهم، مستفهمًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:74] أيها الحمقى شركاء معي، أحضروهم حتى يظهر الحق، ويقمع الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَ﴾ بعدما بهتوا وسكتوا من الجواب ﴿نَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم جميع ما صدر عنهم وجرى عليهم في دار الاختبار، والشهيد هو النبي المبعوث إليهم حين انحرافهم عن سبيل الاستقامة ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم بعد نزع شهدائهم: ﴿هَاتُوا﴾ أيها الضالون ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: مستندكم ودليلكم الذي أنتم تضلون لأجله وتشركون بسببه، وتنحرفون عن جادة العدالة وسبيل السلامة بمتابعته ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ﴾ أي: اللياقة والاستحقاق على العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ الحقيق بالحقية، الجدير بالألوهية اللائق بالربوبية، ليس كمثله شيء يُعبد له ويُرجع إليه ﴿وَ﴾ بعدما جاء الحق وزهق الباطل ﴿ضَلَّ﴾ أي: غاب وخفي حينئذٍ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص:75] المعبودية إليه وينسبون الألوهية والربوبية نحوه جهلاً وعنادًا، ويدعون اشتراكه مع الله في استحقاق العبادة والرجوع إليه لدى الحاجة.

ثمّ قال سبحانه تذكيرًا للمؤمنين وعبرةً لهم عن تفظيع حال من تكبر على الله، وعتا على كليمه، وخرج عن ربقة الإيمان وقلادة الإخلاص معه؛ بسبب ما بسط الله عليه من حطام الدنيا ومن زخرفاتها ابتلاءً وفتنةً: ﴿إِنَّ قَارُونَ﴾ المتجبر المتكبر الذي ظهر على الله وعلى رسوله مفتخرًا بماله وجاهه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من جملة من آمن له وصدّقه، قيل: هو ابن عمته، وقيل: ابن خالته، وكان أميرًا بين بني إسرائيل قد أمّره عليهم فرعون، وبعدما ظهر موسى وهارون فآمن له وحفظ التوراة وأحسن

حفظه إلى حيث يقرؤه عن ظهر القلب، ثمّ لمّا استولى موسى وأخوه على مملكة العمالقة، وانقرض الفراعنة رأسًا حسدهما قارون، وأنكر جاههما إتكاءً بما عنده من الكنوز، فقال يومًا لموسى: لك الرسالة ولأخيك الحبور، وأنا في غير شيءٍ إلى متى أصبر؟! ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ وقصد مغالبتهم.

﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿آتَيْنَاهُ﴾ وأعطينا له مكرًا له، وافتتانًا عليه ﴿مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال التي عهد ادخارها من الذهب والفضة وغيرها، وبلغت من الكثرة إلى ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: إلى حد مفاتح أقفال مخازنه، وأقفال الصناديق الموضوعة فيها المختومة المقفولة ﴿لَتَنُوءُ﴾ وتثقل من كثرتها ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ أي: الجماعة الكثيرة من الحفظة، مع أنهم من ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أقوياء على حمل الثقيل جدًا، وكان مفتخرًا بها بطرًا، فرحانًا يمشي على وجه الأرض خيلاء ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: بعض منهم من أقربائه وقرنائه بعدما أبصروا بطره المفرط نهيًا له، وتشنيعًا عليه، وحثًا له على الإنفاق والصرف في سبيل الخيرات: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بما عندك من الزخرفة الفانية فإنها عن قريب ستفوت، وأخرجها من قلبك ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:76] منهم، سيما بحطام الدنيا ومزخرفاتها الملهية عن اللذات الروحانية.

﴿وَابْتَغِ﴾ واطلب ﴿فِيمَا آتَاكَ اللهُ﴾ المنعم المفضل من الرزق الصوري الزائل الغير القار ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: الرزق المعنوي القار، المسمى في دار القرار، وذلك لا يحصل لك إلا بإنفاق ما في يدك من الرزق الصوري في سبيل الله للفقراء؛ طلبًا لمرضاته بلا شوب المنّ والأذى، وسدِّ الثغور وبناء القناطير والخانات، والمساجد وبقاع الخيرات، وغير ذلك من الأمور المتعلقة لعموم مصالح العباد والتسهيل عليهم ورفع العسرة عنهم ﴿وَ﴾ إن أردت أن تكون من أهل الثروة والجاه المخلد في النشأتين ﴿لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو الاجتهاد في مرتبة الاستخلاف والنيابة على مقتضى كريمة: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ..﴾ [الحديد:7].

إذ العبد وما في يده لمولاه، والتصرفات الحادثة في عالم الكون والفساد إنما هي مستندة إلى الله أولاً بالذات ﴿وَ﴾ بعدما علمت ما هو نصيبك وحظك من دنياك؛ وما معك منه في أخراك إلا الإحسان والإنفاق ﴿أَحْسِن﴾ مما جعلك الحق خليفةً عليه ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ﴾ أي: لا تطلب ﴿الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ اتكالاً على ما في يدك من أسبابه التي هي الأموال المؤدية إلى أصناف الفسادات، وارتكاب أنواع-

المحذورات والمنهيات ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالات عباده ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:77] منهم، سيما بمظاهرة حطام الدنيا الدنيّة.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص:78-80].

وبعدما سمع قارون منهم المواعظ والتذكيرات المتعلقة بإصلاح حاله، النافعة له في الأولى والأخرى أعرض عنهم وعن مقالهم عتوًا واستكبارًا، حيث ﴿قَالَ﴾ مستعظمًا بشأنه، مستبدًا برأيه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي: ما أوتيت بما أوتيت من الرزق الصوري إلا ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حاصلٍ ﴿عِندِي﴾ يعني: منشأ إتيان المال عليَّ وحصولها عندي اتصافي بعلم كامل موجب لحصولها وتحصيلها؛ أي: ما هي وجمعها إلا بحولي وقوتي وعلمي بطرق تحصيلها.

إنما قال هذا بطرًا واستغناءً، وكبرًا وخيلاءً، وقيل: إنه عالم بعلم الكيمياء، قال سبحانه ردًا عليه على سبيل التعيير والتوبيخ: ﴿أَ﴾ يتفوه ويقول هذا الطاغي الباغي الهالك في تيه الغي والضلال أمثال هذه الخرافات ﴿وَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ بالتواتر ومطالعة كتب التواريخ، ومن القصص المثبتة في التوراة ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَدْ أَهْلَكَ﴾ واستأصل كثيرًا ﴿مِن قَبْلِهِ مِنَ﴾ أهل ﴿الْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ بحسب الأولاد والأتباع ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لحطام الدنيا، أما يستحي هذا الطاغي المسرف يظهر على الله، ولم يخف من بطشه وانتقامه بغتةً ﴿وَ﴾ من سرعة نفوذ قضاء الله وقت إرادة إنفاذه عند الغضب على أعدائه ﴿لَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:78] إذ اطلاعه سبحانه بحالهم وضلالهم يكفي في انتقامهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم؟!.

وبعدما ذكروا عنده من الزواجر والعبر فلم ينزجر ولم يعتبر، بل ما زاد إلا بطرًا وخيلاءً ﴿فَخَرَجَ﴾ يومًا من الأيام من بيته مباهيًا ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ مستكبرًا عليهم، مستغرقًا

﴿فِي زِينَتِهِ﴾ الكاملة؛ إذ هو على بغلة شهباء ـ هي الأبلق الذي كثر بياضه على سواده ـ وعليه ثياب فاخرة حمرٌ كلها تسر الناظر إليها؛ من صفاء لونها وبهائها، وعلى البغلة سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيّه، وقيل: تسعون ألفًا على زيِّه، وعلى خيولهم ومراكبهم أيضًا لبسة حمراء، فخرج الناس معه صافين حوله، ناظرين نحوه، متعجبين من حاله، متمنين من الله رتبته، حيث ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وزينتها، وهمهم مقصور إليها، وغاية متمناهم حصول مثلها لهم: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا﴾ من حظوظ الدنيا ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1] [القصص:79] ونصيبٍ كامل من الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني والمعرفة الكاملة وبالنشأة الأخرى؛ ردًا عليهم وإزالةً لحسرتهم، وردعًا لهم عن متمناهم على أبلغ وجه وآكده: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: يلزمكم ويلكم، ويحل عليكم هلاككم أيها القاصرون عن معرفة الحق، وما يترتب عليها من المكاشفات والمشاهدات التي ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بل ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ المحسن المفضل، ورضاه من عبده ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها من أضعافها وآلافها ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ له احتسابًا على نفسه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: قرنَ إيمانه بالعمل الصالح إحسانًا منه بالنسبة إليه سبحانه، وطلبًا لمرضاته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: لا يصل إلى هذه المثوبة العظمى، والدرجة العليا التي أعدها الله لعباده ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:80] على ما جرى عليهم من البليات، وعلى مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، والرضا بما أعطاهم الحق ورزقهم من الحظوظ بلا تمنٍ منهم، ولا تحسرٍ إلى مرتبة أحد من أصحاب الجاه والثروة، بل هم بما عندهم راضون، وبما أعطاهم الحق على مقتضى قسمته الأزلية متمكنون مطمئنون، ألا أنهم هم المؤمنون حقًا وأولئك الفائزون المفلحون؟!.

ربنا اجعلنا من زمرتهم بمنّك العظيم وجودك الكريم.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

(1) قال نجم الدين: من نعيم الدنيا وزينتها وإنما وقع نظرهم على عظمة الدنيا وزينتها مع دناءتها وخستها وهوانها وقلة متاعها؛ لأنه اعتل بعلة سبب حب الدنيا وزينتها المولد من تراكم شهوات ظلمات صفات النفس بعضها فوق بعض فهم ينظرون بنظر ظلمات صفات النفس بعد أن كانوا ينظرون بنظر نور صفات القلب ويبصرون عزة الآخرة وعظمتها وخسة الدنيا وهوانها، فإن الرضاع يغير الطباع.

ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن
جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص:81-84].

وبعدما أمهلناه زمانًا، ورفهناه نشطًا فرحانًا، أخذناه غضبانًا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[1] قلقًا حيرانًا؛ يعني: طبقنا الأرض عليه وعلى أمواله وخزائنه بعدما أخذتها وابتلعتها امتثالاً لأمر موسى الكليم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وذلك أنه كان يؤذي موسى دائمًا حسدًا عليه، وكان موسى يداريه صيانةً لقرابته.

ثمّ لمّا نزلت الزكاة صالح معه من كل ألف بواحدة من أي جنس كان فحاسبه، فبلغ مبلغًا عظيمًا فاستكثره فمنعه، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل بغيًا عليه وعدوانًا فبرطل بغيّة، وأعطى لها رشوة؛ لترمي موسى بنفسها.

فلمّا كان يوم عيدٍ قام موسى خطيبًا، فقال في خطبته: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه، ومن زنى محصنًا رجمناه، فقال قارون: ولو أنت يا موسى، قال: ولو كنت أنا؟! قال: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت مع فلانة، قال موسى: فأحضروها فأُحضرت، فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر، وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت بإلقاء الله في قلبها كرامةً لموسى، وتنزيهًا له عمّا لا يليق بشأنه، وتفضيحًا لقارون: جعل لي قارون جعلاً كذا؛ على أن أرميك بنفسي، فخر موسى ساجدًا، فقال في سجدته: إلهي إن كنت نبيك ورسولك فانصرني واخذل عدوي، فأوحى الله في سجدته: أن مُر الأرض أي شيء شئت، فتجيبك يا موسى.

فرفع رأسه من سجدته مرتعدًا غيورًا غضبانًا، فقال: يا أرض خذيه فابتلعته على

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن حاصل قارون النفس إذا بغى على موسى القلب وصفاته وخرج عن المتابعة وعن زينة الحياة الدنيا واستيفاء لذاتها وشهواتها ومتابعًا لهواه أن يخسف به الأرض أرض دركات السفل وأسفل سافلين النار ثم يخسف بداره وداره قالبه والأرض أرض جهنم فيها خالدين أبدًا.

الفور إلى ركبته، فأخذ يتضرع: يا موسى ارحمني! فأنا قرابتك، ثمَّ قال موسى مغاضبًا على الأرض: خذيه! فأخذته إلى وسطه، فازداد في تضرعه وتفزعه، ثمَّ قال: خذيه! فأخذته إلى عنقه، فتضرع وصرخ نحو موسى من أول أخذه إلى خسفه سبعين مرة لم يرحم عليه، ثمَّ قال: خذيه! فخسفت به وطبقت عليه، فلم يرحمه حتى عاتبه سبحانه: ما أفظّك يا موسى! حتى استرحمك سبعين مرة فلم ترعه، فوعزتي وجلالي: لو دعاني مرة لأجبته.

وبعدما خُسف قارون قال بنو إسرائيل: إنما قتله ليرث أمواله، فأشعر بهم موسى فأمر الأرض بخسف داره وأمواله وخزائنه إلى حيث لم يبق من منسوباته شيء على وجه الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُ﴾ حينئذٍ ﴿مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ وأنصارٍ ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ ويدفعون عذاب الله عنه ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ القادر المقتدر على دفع أمثاله، وهو بريء من الله ﴿وَ﴾ هو غير ملتجئ إليه ومتضرع نحوه؛ ولذلك ﴿مَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:81] الممتنعين من العذاب لا بنفسه ولا بمعاونيه وأنصاره.

وبعدما خُسف قارون بشؤم أمواله التي جعلها وسيلة إلى أنواع الفسادات، من جملتها: رمي كليم الله وخُلّص رسله بالزنا التي هي بمراحل عن طهارة ذيله ونجابة طينته؛ إذ الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقًا.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ الفقراء ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ ومنزلته ﴿بِالأَمْسِ﴾ أي: الزمان الذي هو أقرب زمن بخسفه، متحسرين بما عنده من الثروة والجاه، أخذوا ﴿يَقُولُونَ﴾ متمنين على عكس متمناهم السابق، متعجبين من كمال علم الله ومتانة حكمته، قائلين كل منهم لصاحبه: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ المعنى على الانفصال بين «ويك» و«أن»، والاتصال بينهما إنما هو بمتابعة المصحف؛ يعني: ويل لك، وهلاكك لازم بمتمناك الذي تمنيته بالأمس، اعلم أن ﴿اللهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ بمقتضى حكمته ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مقتضى استعداداتهم ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض عن من يشاء أيضًا على وفق استعداده، وما لنا اطلاع على متانة علمه وحكمته ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ﴾ المصلح لمفاسدنا ﴿عَلَيْنَا﴾ بمنعنا عن متمناها ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أيضًا من شؤم مبتغانا، مثل ما خسف قارون، وإنما منَّ علينا ما منَّ؛ لإيماننا به سبحانه، وإخلاصنا فيه ﴿وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:82] ولا يفوزون بالنجاة عن عذابه سبحانه، بل يوفقهم سبحانه على ما يوقعهم في عذابه افتتانًا منه وانتقامًا.

ثمّ قال سبحانه تبشيرًا للمؤمنين المتواضعين، وتنشيطًا للمتقين الموقنين: ﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي سمعت وصفها، وبلغك خيرها في كتب الله وألسنة رسله وأنبيائه وأوليائه المنكشفين بها، الفائزين بمقاماتها ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: الموصوفة بهذه الصفة؛ إذ لا مقر لأهل الله سواها؛ لذلك سميت بها ﴿نَجْعَلُهَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا مقرًا ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي: للمؤمنين الموحدين الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ من كمال حلمهم وعلمهم ﴿عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تفوقًا وتكبرًا على من عليها، ولا يمشون عليها خيلاء غافلين عن تزود الآخرة ﴿وَلَا﴾ يقصدون فيها ﴿فَسَادًا﴾ مؤديًا إلى هتك محارم الله والخروج عن مقتضى حدوده.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة التي عبر بها عن الجنة ودار الآخرة، ودار السلام والخلد وغير ذلك من العبارات معدة مهيأة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83] الذين يحفظون نفوسهم عن ارتكاب المنهيات والمحظورات مطلقًا، ويجتنبون عن جميع ما يؤدي إلى إسقاط المروءة رأسًا، ويتصفون بجميع ما جاء به الرسل ونطق به الكتب من الأمور المشعرة للهداية والصلاح، والفوز بالنجاح والفلاح، فأولئك السعداء المقبولون هم الواصلون إلى درجة القرب والشهود، الوالهون بشرف مطالعة لقاء الخلاق الودود.

ثمّ أشار سبحانه بشارة جميلة محتوية على أصول جميع المواعظ والتذكيرات المتعلقة لعموم مصالح عباده، فقال: ﴿مَن جَاءَ﴾ في النشأة الأولى ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ والخصلة المقبولة عند الله وعند عموم عباده ابتغاءً لمرضاته سبحانه، وأداءً لحقوق عباده ﴿فَلَهُ﴾ عند الله في النشأة الأخرى جزاءً عليها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وبأضعافها تفضلاً وإحسانًا ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ والخصلة الذميمة أيضًا فيها، المستقبحة عقلاً وشرعًا ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ من قبل الحق في يوم الجزاء المسيئون ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ التي لا يرضى بها الله ولا خُلّص عباده ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:84] عدلاً منه سبحانه.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ
هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ
رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص:85-88].

ثمّ لمّا اغتم رسول الله ﷺ حين هاجر من مكة بسبب مكر المشركين، فلما وصل إلى جحفة اشتد اشتياقه إلى مولده وموطن آبائه، وتحزن حزنًا شديدًا إلى حيث أراد أن يعود منها إليها، فنزلت تسليةً عليه ﷺ، وإزالةً لحزنه: ﴿إِنَّ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ وقدر لك إنزاله، وأقدرك على الامتثال بجميع ما فيه من الأوامر والنواهي وكشف عليك ما فيه من الحقائق والمعارف، والرموز والإشارات المتعلقة بصفاء مشرب التوحيد، وذكر لك فيه القصص والعبر والأمثال إرشادًا لك إلى مقامك الذي وعدك الحق تفضلاً وامتنانًا، وسماه من عنده مقامًا محمودًا ﴿لَرَادُّكَ﴾ ومعاودك ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ معهود، هو مولدك وموطن آبائك وأسلافك على أحسن وجه وأكمله.

وبعدما عدت ورجعت إليه بعد هجرتك من بينهم أن أضلوك ونسبوك إلى ما لا يليق بشأنك ﴿قُل﴾ لهم على سبيل المجاراة: ﴿رَّبِّي﴾ الذي وسع علمه كل شيء ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ منّا أنا أو أنتم ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:85] منّا ومنكم.

﴿وَ﴾ عليك يا أكمل الرسل أن تفوض أمورك إلينا اتكالاً علينا، واعتصامًا لحولنا وقوتنا، ولا تلتفت إلى المشركين وإيمانهم ولا تداريهم، ولا تك في رعبٍ منهم، إنّا كفيناك مؤنة شرورهم عنك.

إذ ﴿مَا كُنتَ تَرْجُو﴾ وتأمل ﴿أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ الجامع لفوائد جميع الكتب المنزلة من عندنا، لكن ما أنزل إليك هذا ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ تفضلاً عليك، وتلطفًا معك بلا تطلب منك وترقب من قبلك، فكذلك يكفيك جميع مهماتك على الوجه الأصلح، فاتكل عليه واتخذه وكيلاً، وفوّض أمورك كلها إليه، ومتى سمعت نبذًا من شأنك الذي أنت عليه في ابتداء حالك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: معاونًا ومعينًا ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص:86] ولا مستظهرًا ومستعينًا بهم، بل فلك أن تمضي وتبلغ على الوجه الذي أُمرت بلا مبالاة لهم ومداراة معهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ ويصرفنك مواساتهم ومداراتهم، والمسامحة معهم ﴿عَنْ﴾ تبليغ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ المشتملة على الإنذارات والوعيدات الشديدة إياهم ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وأُمرت بتبليغها ﴿وَادْعُ إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ بعدما بعثك إلى كافة البرايا، وعامة الأمم كله، مَنْ جبله الحق على صورة الإنسان، وكلفه بالمعرفة والإيمان ﴿وَلَا

﴿تَكُونَنَّ﴾ بالمداهنة والمسامحة معهم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:87] المشتركين في شركهم وكفرهم.

﴿وَ﴾ بعدما ظهرت على التوحيد الذاتي، وأكملت مراسم الدين، وأتممت مكارم الأخلاق واليقين ﴿لَا تَدْعُ﴾ بحالٍ من الأحوال ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الفرد الوترِ الذي لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ﴿إِلَٰهًا آخَرَ﴾ شريكًا له في الوجود والألوهية والربوبية، وجميع التصرفات الواقعة في مظاهره ومماليكه؛ إذ ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ في الوجود، ولا موجود في الشهود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هذا هو نهاية ما نطق العارف عنه سبحانه، وبعد ذلك يقلق ويدهش ويهيم، ويفنى ويتلاشى.

إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يتراءى لك من أظلال أسمائه وعكوس صفاته ﴿هَالِكٌ﴾ في حد ذاته، باقٍ على عدمه، مستمرًا على استحالته وامتناعه ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] الذي اقتبس به النور من تجليات الحق على حسب أسمائه وصفاته، واستمد به العكس من شوارق بوارق شئونه المتشعشعة المتجددة، وعن دقائق رقائق لوائح لوامع تطوراته التي تخطف بها أبصار أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق، المتأملين في شأنهم، الوالهين بمطالعة جماله وجلاله، وبالجملة: بعدما ثبت هلاك الكل في ذاته سبحانه وظهوره وانعكاسه منه ابتداءً ثبت ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر في جميع ما كان ويكون أزلاً وأبدًا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ انتهاء لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود معه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:88] رجوع الأمواج إلى الماء، والأظلال إلى الأضواء.

سبحان من ظهر على الكل فأظهره، وبطن في الكل فأهلكه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

---

(1) في هذا التجلي الذاتي تقديس صور الوجود، فيكون الله فيها هو الموجود والمشهود، كما قال باب مدينة العلم على المصطفى وعليه التحية: إن غبت بدا وان بدا غيبني، فلذلك قال الشيخ ﷺ: إني عجبت لمثلي كيف ما عبدا؛ أي: أنا هالك ووجه الله هو الظاهر لا أنا، فلو عبدت لكان هو المعبود، فما المانع من جواز عبادتي؟ وقد بيّنا لك أن المانع من ذلك هو كمال في العارف لا نقص؛ لأن الحق متنزل فيه لمرتبة العبودية، كما أن باطنه عين مرتبته الربوبية.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتوجه نحو الحق بوجهك الذي يلي الحق المقتبس به منه أشعة أنوار تجلياته الذاتية حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، أن تتأمل في كيفية نشآت الكثرات الغير المحصورة عن الواحد من كل الوجود، وتتعمق بمقتضى العقل المفاض لك من حضرة علمه سبحانه على سبيل التوديع؛ لتتدبر معرفة مبدئك ومعادك حسب استعدادك الفطري، وقابليتك الجبلية التي بها امتيازك عن سائر المظاهر والمصنوعات، وبها تستحق الخلافة والنيابة عن الله، وبواسطة تلك الوديعة البديعة المودعة فيك كلفك الحق إلى ما كلفك، وأعد لك من المراتب العلية والمقامات السنية عنده ما أعد لك حسب صعودك وترقيك في معارفك، وحقائقك على مقتضى التكاليف التي توصلك إليها إن أخلصت فيها.

فلك أن تتحمل على مشاق التكليفات ومتاعب الرياضات مادمت في مجال التكاليف ومنازل العروج إلى أن جذبك الحق منك نحوه، ومكنك بموعدك المعهود ومقامك المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود، وحينئذٍ اتحد قوسا الوجوب والإمكان، وارتفعت الزبد والأمواج عن بحر العيان، وفزت بما فزت من موائد اللطف والإحسان، فظهر لك حينئذٍ معنى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:88].

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة العنكبوت

لا يخفى على من تدرج في درجات الكمال، وترقى من حضيض الجهل ومضيق الغفلة إلى سعة ذروة المعرفة وفضاء الوصال، وتمكن بمقر التوحيد بلا تلوين وتقليد، وانكشف له ما في استعداده من الودائع الإلهية المقتضية لظهوره، الباعثة لبروزه من موطن الكمون والخفاء إلى صحراء الجلاء والانجلاء، إن الاختبارات والابتلاءات الإلهية الواقعة بين مظاهره ومصنوعاته؛ إنما هي لحصول الاعتدال الحقيقي والقسط المعنوي المنبئ عن مرتبة الخلافة والنيابة عن الله المستلزم للتخلق بأخلاقه العظيمة، والتثبت على الصراط المستقيم.

لذلك جرت سنته السنية، وعادته العلية على تنقيد أعمال جميع من كلف على الإيمان والعرفان بالعرض على محك الإخلاص؛ ليتميز المغشوش المكدر بأنواع الكدورات من الرياء والسمعة والعجب، وأنواع الأهوية الفاسدة، والرعونات الكاسدة الناشئة من النفوس الخبيثة عن الصافي الخالص الخالي عن شوب اللوث بالأمور الطبيعية، الطاهر المطهر على الأدناس البشرية الحاصلة من تسويلات النفوس الأمارة وتلبيسات الشياطين المنبعثة على قوى البهيمية لأنواع الجهالات والضلالات.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب، وبيَّن في خطابه على أبلغ وجه وآكده ما عاتب به عباده من ترك الإخلاص والاغترار على مجرد الأقوال بلا مطابقة الاعتقاد، متيمنًا باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي كلف عباده بما كلف؛ ليتأدبوا بآداب العبودية حتى يستعدوا لفيضان آثار الربوبية ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضة ما يصلحهم عمّا هم عليه من المفاسد البشرية ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم بعدما امتثلوا بما أمروا إلى أقصى ما هيأ لهم من الدرجات العلية والمقامات السنية.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت:1-6].

﴿الـم﴾[1] [العنكبوت:1] أيها الإنسان الأكمل الأعلم، اللائق لفيضان لوامع أنوار الوجود ولوائح آثار الفضل والجود، المؤيد الملازم لاستكشاف مكنونات ما في مظاهر المكونات من المعظمات آثار الإلوهية، ومكرمات أنواع الربوبية اللامعة اللائحة على

(1) أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد، وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله، وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

قال ابن عطاء: ظن الحق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة، ولا يطالبون بحقائقها، وحقائق المحبة هي صبُّ البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء، فبلاءٌ يلحق جسده، وبلاءٌ يلحق قلبه، وبلاءٌ يلحق سره، وبلاءٌ يلحق روحه، وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن، وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة، وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه، وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة، وهذا ما لا طاقة لأحدٍ فيه، ثم بيَّن سبحانه أنه لا ينجو أحدٌ من الأولين والآخرين من دركات الامتحان بقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، ميز بالنبوة بين الصادق والكاذب؛ فتبين شكر الشاكرين في النعمة وصبر الصابرين في المحنة ودعوى الكاذبين بفرارهم عن البلاء والطاعة.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، من شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، ثم بيَّن سبحانه أن الذين عاشوا في البطالة لم يبلغوا منازل الصديقين بالتمني والتجلي وأبواب مقادير سعادة الأزال مسدودة عليهم، أيحسبون أن ينقضوا قضيات الحق السالفة فيهم بوصف الشقاوة والطرد والقطيعة، ويبدلوها بقضياته السابقة بنعت الاصطفائية في حق المحبين المطيعين؟! كلا ليس كما يحسبون؛ فإن أحكام الأزلية مقدسةٌ من النقوض والنقائض بهوسات المفلسين البطالين. [العرائس].

نواصي عموم ما ظهر وبطن غيبًا وشهادة على التعاقب والتوالي بلا انقطاع وانصرام، أزلاً وأبدًا، وبلا ذهول وغفلة، وفتور وفترة، بحيث لا يعزب عن حيطة حضرة علمه ذرة من ذرائر ما ظهر ولاح دون إشراق شمس وجهه الكريم.

﴿أَحَسِبَ﴾ وظن ﴿النَّاسُ﴾ المنهمكون في الغفلة والنسيان ﴿أَن يُتْرَكُوا﴾ ويُهملوا على ما هم عليه من عدم مطابقة قلوبهم لأفواههم، وأعمالهم بنياتهم، وأفعالهم بحالاتهم بمجرد ﴿أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ بلا موافقة من قلوبهم، مع أن الإيمان في الأصل هو الإذعان والقبول والإخلاص بالقلب، والانقياد والتسليم بالجوارح والآلات من لوازمه ومتمماته ﴿وَهُمْ﴾ بمجرد ما يلقلق به لسانهم، ويظهره بيانهم ظنوا أنهم ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:2] ولا يمتحنون، بلى والله لنبلونهم ونختبرنهم بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى ظهر إخلاصهم في جميع ما آمنوا، فترتب خلاصهم حينئذٍ على إخلاصهم

﴿وَ﴾ ليس افتتاننا واختبارنا إياهم ببدع منا، بل ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنا ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، مع أنهم يدعون الإيمان، ويتفوهون ويتقوهون به أمثالهم، ومع ذلك لم نتركهم بلا ابتلاء واختبار، وليس اختبارهم وامتحانهم إلا لإظهار حجتنا البالغة عليهم، وإلا ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ المطلع على ضمائر عباده وسرائرهم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ منهم، وأخلصوا في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1] [العنكبوت:3] أيضًا منهم.

وهم الذين لا يخلصون مع الله في حالٍ من الأحوال، وعملٍ من الأعمال، ولا يسمعون أوامر الله ونواهيه من ألسنة رسله سمع قبولٍ ورضا، وإنما أرادوا بإيمانهم الظاهر الذي أتوا به على سبيل الكراهة إسقاط لوازم الكفر من حقن الدماء، وسلب الذراري ونهب الأموال، وإلا فهم ليسوا ممن يذعنون بدلائل التوحيد وبراهين الإيمان

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن صدق الصادقين وكذب الكاذبين الذين عجنوا في تخمير طينتهم لا يظهر إلا إذا طرح في نار البلاء تصاعدت فيها روائح الضر وفوائح الشكر عن عود جوهر الصادقين ويصده بصدتين الضجرة وكفران النعمة عن رشيق جوهر المذنبين، وأنهم في البلاء على ضروب منهم: من يصبر في حال البلاء ويشكر في حال النعماء وهذه صفة الصادقين، ومنهم: من يصبح ولا يصبر في البلاء ولا يشكر في النعماء فهو من الكاذبين، ومنهم: من يؤثر في حال الرخاء لا يشتمع في العطاء ويستريح إلى البلاء فيستعذب مقاساة الضر والعناد وهذا أقل الكبراء.

عن صميم قلوبهم، ظنًا منهم أنَّا غافلون عن بواطنهم ونياتهم.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ أي: بل ظن المسرفون ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ مصرين عليها، مبالغين في إتيانها ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ ويفوتوا عنا جزاء ما عملوا، ويسقطوا عن حسابنا ما أتوا به من المعاصي، بل نحن مطلعون عليها حين كانوا في استعداداتهم قبل ظهورهم في فضاء الوجود، فكيف حين وجودهم وظهورهم، وصدور الآثام عنهم بالفعل؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:4] علينا حكمهم هذا ونسبتهم هذه. أعاذنا الله وعموم عباده عن أمثال هذه الظنون الفاسدة بالنسبة إليه سبحانه. كل ذلك عن جهلهم بالله وبمقتضى عزه وعلوه، وإنكارهم بلقائه والوقوف بين يديه.

إذ ﴿مَن كَانَ يَرْجُو﴾ ويأمل ﴿لِقَاءَ اللهِ﴾ المتجلي على الأكوان حسب أسمائه العلية وصفاته السنية، ويترصد أن ينكشف له ما هو الموعود من لدنه سبحانه من الدرجات العلية والمقامات السنية حال كونه متأدبًا بالآداب المنزلة من عنده بواسطة أنبيائه ورسله، متحملاً على متاعب التكاليف ومشاق الطاعات المفروضة المشروعة له، مترقبًا للانكشاف والشهود، راجيًا لقياه بلا يأس وقنوط، فاز بمبتغاه على الوجه الذي وُعد بعدما وفقه الحق وجذبه إلى نفسه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ﴾ الذي وعده لعباده أن يشرفهم بشرف لقائه ﴿لَآتٍ﴾ بلا شك وارتياب ﴿وَ﴾ كيف لا يشرفهم بعدما وعدهم؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:5] بحاجاتهم التي هي الفوز بشرف اللقاء، والوقوف عند سدرة المنتهى، والتدلي إلى مقام دنا فتدلى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9].

﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ واجتهد في الوصول إلى ما ذكر من المقام المحمود، والموعود الذي هو مرتبة الكشف والشهود ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعه عائد إليه، وهو واصل إلى منتهى مطلوبه بعدما كان طالبًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المنزه عن الطلب والاستكمال، المبرأ عن الترقب والانتظار ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1] [العنكبوت:6] وطاعاتهم

(1) نبّه الخلق أن ربوبيته منزّهةٌ عن عبودية الخلق، وأن صفات الحدث يرجع بنعوتها إلى الحدث؛ لأنه مقدسٌ عن النفع والضر، وهو غنيٌ عن وجود الخلق وعدمه، فبيّن قيمة المجاهدة أنهم إذا جاهدوا ولم يظفروا بمأمولهم يعلمون أنهم يدورون حواليهم، وأن الفضل من الله خاصٌ لأهل الخصوص ممن عرفهم الله نفسه بلا كدٍّ ولا عناءٍ. قال الواسطي: بالنعم ابتدأ الحق الخلق تفضيلاً من غير استحقاقٍ، جلت نعمه وعطاياه أن تستجليها الحوادث بحال الكنه المبتدئ
-

وعباداتهم ورجوعهم إليه، وتوجههم نحوه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت:7-9].

ثمّ قال سبحانه حثًا لعباده على التوجه نحو بابه؛ ليفوزوا بما أعد لهم من الحسنات والدرجات: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا إيمانهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشعرة المؤيدة لإخلاصهم بلا شوب الهوى والرياء والرعونات أصلاً ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ ونمحون عن ديوان أعمالهم ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي جاءوا بها وقت جهلهم وضلالهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ ونعاملن معهم ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:7] يعني: أحسن من الجزاء الذي كانوا يستحقون بأعمالهم بعد إيمانهم وأزيد منه بأضعافه تفضلاً وإحسانًا.

وبعدما حثهم سبحانه على الإيمان والعمل الصالح أوحى لهم وأمرهم ببر الوالدين وحسن المعاشرة معهما والتحنن إليهما؛ لأنهما من أقرب أسباب ظهورهما على مقتضى سنة الله سبحانه فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ بعدما كلفه بالإيمان والعمل الصالح أن يأتي كل منهم ويعمل ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1] أي: معاملة ذات حسنٍ يستحسنه العقل والشرع ويرضيه الحق ويقتضيه المروءة بحيث لا يحوم حولها شائبة منٍّ ولا أذى

بالنعم والمتفضل بها.

(1) يشير إلى تعظيم الحق تعالى، وعظيم شأنه وعزة الأنبياء وإعزازهم، وعرفان قدر المشايخ وإكرامهم؛ لأن الأمر برعاية حق الوالدين المعنيين:

أحدهما: أنهما كانا سبب وجود الولد، والثاني: أن لهما حق التربية، فكلا المعنيين في إنعام الحق تعالى على لعباد حاصل بأعظم وجه، وأجل حق منهما لأن حقهما كان مشوبًا بحظ نفسهما وحق الله تعالى منزه عن الشوب، وأنهما وإن كانا سبب وجود الولد لم يكونا مستقلين بالسببية بغير الحق تعالى وإرادته؛ لأنهما كانا في السببية محتاجين إلى مشيئته وإرادته بأن يجعلهما سببًا لوجود الولد، فإن الولد لا يحصل بمجرد سببهما بالنكاح بل تحصيل بموهبة الله تعالى. [التأويلات].

ولا استخفاف واستحقار، بل يتذللون لهما ويتواضعون معهما على وجه الانكسار التام والتذلل المفرط.

وعليكم أيها المكلفون امتثال جميع أوامرهما ونواهيهما سوى الشرك بالله والطغيان على الله والعدوان معه ومع رسله وخُلّص عباده ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أيها المأمور على بر الوالدين أبواك وبالغا في حقك، مقدمين أشد إقدام وألحا لك أبلغ إلحاح وأتم إبرام ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ شيئًا من مظاهري ومصنوعاتي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[1] أي: ليس علمك ويقينك متعلقًا بإلوهيته وربوبيته واستحقاقه للعبادة والرجوع إليه في المهمات، فلا تطعهما ولا تقبل أمرهما المتعلق بالإضلال والإشراك، ولا تمتثل قولهما هذا، بل أعرض عنهما وعن قولهما هذا، ولا تمض على دينهما وملتهما، إذ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أصلاً وفرعًا، مؤمنًا وكافرًا، موحدًا ومشركًا، وبعد وجوعكم إلي ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:8] في دار الاختبار، أحاسب عليكم أعمالكم، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم في دار الاختبار مخلصين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تكميلاً لإيمانهم وتتميمًا له بما هو من لوازمه ومتفرعاته ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ﴾ حين رجوعهم إلينا ﴿فِي﴾ زمرة السعداء ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:9] المقبولين الآمنين المستبشرين، الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62] والذين كفروا منكم في النشأة

---

(1) قال في التأويلات: وفيه إشارة إلى أن المريد الصادق والطالب العاشق إذا تمسك بذيل إرادة شيخ كامل ودليل واصل بصدق الإرادة وعشق الطلب بعد خروجه عن الدنيا بتركها بالكلي جاهها وما لها، وقد سعى بقدر الوسع في قدر تعلقات تمتعه عن السير إلى الله متوجهًا إلى الحضرة بعزيمة كعزيمة الرجال، فإن كان له والدان وهما بمعزل عما يهيجه من الصدق والمحبة فهما بجهلهما عن حال الولد يمنعان عن صحبة الشيخ وطلب الحق بالإعراض، ويقبلان به إلى الدنيا ويرغبانه في طلب جاههما ومالها ويحثان على الترويج في غير أوانه، فالواجب على المريد أن لا يطيعهما في شيء من ذلك فإن ذلك بالكلي طاغوت وقته وعليه أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وهما يجاهدانه على أن يشرك بالله لجهلهما بحاله وحال نفسهما وأنه يريدان أن يخرج عن عهدة العبودية الخالصة لربه، كما قضى ربه أن لا يعبدا إلا إياه، ولا يعبد ما دونه من الدنيا والآخرة وما فيهما، وما يعلمان مهما يكن أنهن عبدة الهوى وأنهما يدعوانه إلى عبادة غير الله، فالواجب عليه أن لا يطيعهما في ذلك، ولكن عليه أن يردهما باللطف، ولا يزجرهما بالعنف إلى أن يخرج عن عهدة ما قضى به من العبودية بالإخلاص، ثم الواجب عليه أن يحسن إليهما ويسمع كلامهما ويطيعهما فيما لا يقطعه عن الله على وفق أمره.

الأولى وأصروا على الكفر والشرك، ولم يرجعوا عنه بعد بعث الرسل ونزول الكتب وورود الزواجر والروادع الكثيرة فيها، لنعذبنهم عذابًا شديدًا، ولندخلنهم يوم يُعرضون في زمرة الأشقياء المردودين المغضوبين الذين لا نجاة لهم من النار، ولا يرجى خلاصهم منها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾ [العنكبوت:10-13].

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على التزلزل والتذبذب ﴿مَن يَقُولُ﴾ خوفًا من عذاب الله ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ بلا تمكن له واطمئنان في قلبه ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾[1] من أعدائه انقلب على الكفر حيث ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ وإيذاءهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ القادر بالقدرة الكاملة على أنواع المحن والابتلاءات؛ يعني: يسوون بين خوف الله وخوف

---

(1) يشير إلى أن حقيقة الإيمان نور إذا دخل قلب المؤمن ينظر الله تعالى وعنايته لا يخرجه أذية الخلق بل يزيد بالصبر على أذاهم والتوكل على الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173] وكقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:146] وذلك لأن المحن تظهر جواهر الرجال، وهي تدل على قيمتهم وأقدامهم فقدر كل أحد وقيمته تظهر في محنته من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها، أو كانت محنته بموت قريب من الناس أو فقد حبيب من الخلق فحقر قدره وكثير من الناس مثله، ومن كانت محنته في الله ولله تعزيز قدره وقليل من كان مثله بقدر الوقوف في البلاء يظهر جواهر الرجال يصفوا عن الخبث مرآة قلوبهم، ويتزكى عن رذائل أخلاق نفوسهم كما تخلص جوهر نعم العبدية عن معدن الإنسانية بمدة أيام البلاء لأيوب ﷺ مستعين بالصبر على البلاء، فالمؤمن من يكف الأذى، والولي من يجلي عن الخلق الأذى ويشرب ولا يترشح عنه الشكوى عن البلوى ولا إظهار الدعوى كالأرض يلقى عليها كل قبيح فينبت منه كل مليح، ومن كان إيمانه لسانيًا لا جنانيًا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. [التأويلات النجمية].

الناس، فكما يؤمنون بالله من خوف عذابه يكفرون به من خوف عذاب الناس بلا تفاوت بين الخوفين وبين العذابين، بل يرجحون خوفهم على خوف الله، فيختارون الكفر على الإيمان من ضعف يقينهم وعدم رسوخهم وتمكينهم على الإيمان، وذلك من عدم ترقيهم من حضيض الجهل والتقليد إلى ذروة العرفان والتوحيد ﴿وَ﴾ من غاية تزلزلهم وتلونهم ﴿لَئِن جَاءَ نَصْرٌ﴾ وعون للمؤمنين الباذلين مهجهم في سبيل التوحيد ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وصاروا غالبين على أعداء الله بنصر الله إياهم، وفازوا بالفتح والغنائم وأنواع الكرامات ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أولئك المذبذبون المتزلزلون، مبالغين في دعوى الموافقة والمؤاخاة: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ موافقين ظاهرًا وباطنًا، وفي دين الإسلام متمكنين مطمئنين سرًا وجهرًا، فأشركونا في ما نلتم من الغنيمة والخير، وهم يقصدون بقولهم هذا التغرير والتلبيس على المؤمنين، بل على الله أيضًا، لذلك قال سبحانه: ﴿أَ﴾ تعتقدون التلبيس والتشبيه أيها الجاهلون بعلو شأنه ﴿وَ لَيْسَ اللَّهُ﴾ المتجلي على جميع ما ظهر وبطن في الأكوان غيبًا وشهادةً ﴿بِأَعْلَمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:10] بل بما في استعداداتهم وقابلياتهم التي كانوا عليها حيث لم يكونوا؟ وإن كان حالهم أيضًا كذلك الآن عند من له أدنى حظ من المعرفة والإتقان.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ويميزن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبذلوا جهدهم في سبيله، وليظهرن إخلاصهم ورسوخهم على الدين، وتمكنهم واطمئنانهم في مرتبة اليقين بعدما أمرهم بالجهاد والقتال الصوري والمعنوي ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ ويظهرن أيضًا كيد ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:11] ومكرهم وتقاعدهم عن القتال، واحتيالهم في التخلف عن المؤمنين.

﴿وَ﴾ من جملة مكرهم واحتيالهم مع المؤمنين وخداعهم إياهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قاصدين إضلالهم عن طريق الحق وانصرافهم عن الدين المستبين: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أيها الحمقى المتذللون في أيدينا ﴿سَبِيلَنَا﴾ واختاروا طريقنا الذي كنا عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي هي دين آبائنا وأسلافنا ﴿وَ﴾ إن خفتم على مقتضى زعمكم من أثقال ذنوبكم يوم العرض والجزاء ﴿لْنَحْمِلْ﴾ أثقال ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ عنكم حينئذ فتصيروا مخففين بلا وزر وذنب، إنما قالوا هكذا؛ تغريرًا عليهم وتضليلاً لهم واستهزاءً وإلا فهم منكرون بالآخرة وجميع ما فيها من الوعيدات الهائلة والإنذارات ﴿وَ﴾ هم وإن فرض أنهم اعتقدوا النشأة الأخرى وما فيها ﴿مَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ

خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا قليلاً من خطاياهم، فكيف بجميعها؟! وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت:12] في جميع مواعيدهم وعهودهم؛ إذ الكل لا يطابق اعتقادهم ولا الواقع؛ إذ لا تحمل يومئذ وازرة وزر أخرى، عدلاً من الله تعالى.

ولهذا قال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَحْمِلُنَّ﴾ حينئذٍ ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: خطاياهم التي اقترفوها لنفوسهم يزيدون عليها ﴿وَأَثْقَالاً﴾ أخر حاصلة من إضلالهم وتضليلهم عباد الله ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ الأصلية ﴿وَ﴾ الله مع تلك الأثقال على الأثقال ﴿لَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:13] على الله من إثبات الشريك له في الوجود واستحقاق العبادة، وعن نسبتهم إليه ما لا يليق بشأنه افتراءً ومراءً.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت:14-18].

ثم ذكر سبحانه نبذًا من أحوال أهل الضلال والإضلال من المفترين الذين مضوا في سالف الزمان تسليةً لرسول الله ﷺ وإزالة للحزن الذي لحقه ﷺ من تمادي المشركين في الغفلة والفساد وتطاولهم في الغي والعناد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقت إذ ظهر فيهم أنواع الفسوق والجدال وأصناف الغي والضلال ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ وتحمل على مشاق دعوتهم وأنواع أذاهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فهم كانوا يضربونه ويشتمونه وينسبونه إلى الجهل والجنون والخرف وأنواع الاستخفاف والاستحقار، ومع ذلك لم يتقاعد عن دعوتهم، ولم ينزجر عن زواجرهم، بل يبلغهم ما أمره الحق بتبليغه من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة، وهم من شدة شكيمتهم وخبث طينتهم لم يزيدوا من سماعها إلا تعنتًا واستكبارًا، وعتوًا واغترارًا وإصرارًا على ما هم عليه، وبعدما استحقوا كمال العذاب والنكال ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ حين خرج

الماء من التنور المعهود وطاف عليهم فأغرقهم واستؤصلوا ﴿وَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:14] خارجون عن مقتضى الحدود ومنهمكون في بحر الغفلة والغرور، ضالون في تيه الجهل والطغيان؛ لذلك أخذهم الله بالطوفان واستأصلهم بالمرة إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض بعدما أغرقناهم وأهلكناهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: نبينا نوحًا ﷺ ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ وهم المؤمنون الذين ركبوا معه عليها حين نبع الماء من التنور، قيل:كانوا ثمانين، وقيل:كانوا ثمانية وتسعين، وقيل:نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: قصة هلاكهم بالطوفان ﴿آيَةً﴾ عظيمة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:15] تستدلون بها على كمال قدرتنا ووفور حكمتنا في انتقام من خرج على حدودنا وأحكامنا وأوامرنا ونواهينا.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا يا أكمل الرسل جدك ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ إلى قومه الذين تمادوا زمانًا في الغفلة والغرور؛ ليصلح مفاسدهم ويرشدهم توحيدنا، اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بعدما بعثناه إليهم ليهديهم إلى طريق الحق ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق للعبادة والإطاعة استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته، واجتنبوا جميع ما لا يرضى به حتى لا تستجلبوا سخطه وغضبه عليكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أوصيكم به من العبادة والعرفان واجتناب عن المحارم والطغيان والاتصاف بالتوحيد والتقوى وجميع لوازم الإيمان ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأولى بحالكم وأنفع لنفوسكم في أولاكم وأخراكم مما أنتم عليه من عبادة التماثيل التي تنحتونها بأيديكم وتسمونها من تلقاء أنفسكم آلهة دون الله ظلمًا وزورًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:16] أي: إن كنتم من ذوي العقول المستكملين بالقوة النظرية المفاضة لكم من حضرة العلم الإلهي؛ ليميزكم به عن سائر الحيوانات ويعدكم للخلافة والنيابة عن الله.

ثم نبه سبحانه على خطئهم في عبادة غير الله فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المستحق للعبادة والاستقلال بلا شريك ومثل ﴿أَوْثَانًا﴾ تسمونهم آلهة ظلمًا وعدوانًا وتعبدونهم كعبادة الله عنادًا وطغيانًا ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ أي: تفترون وتنسبون إلى الله بإثبات الشريك له، سيما هذه التماثيل الباطلة العاطلة ﴿إِفْكًا﴾ كذبًا وافتراءً، مجادلةً ومراءً، مع أن هؤلاء التماثيل لا تنفعكم ولا تضركم ولا ترزقكم ولا تمنع رزقكم، بل ﴿إِنَّ﴾ الآلهة ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الحقيق بالإطاعة والعبادة مطلقًا سواء كان هؤلاء

الجمادات أو ذوي الحس والحركات ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي: أمر الرزق مقصور على الله المتكفل لأرزاق عباده، ليس في وسع غيره أن يرزق أحدًا من عباده رزقًا صوريًا أو معنويًا وإنما خص سبحانه الرزق بالذكر مع أنهم لا يملكون سواه أيضًا؛ لأنه أظهر لإلزامه وأتم لشدة احتياجهم إليه، وإن أردتم رزقًا جسمانيًا أو روحانيًا ﴿فَابْتَغُوا﴾ واطلبوا ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري المقوي لمزاجكم والمعنوي، الموصل إلى مبدئكم ومعادكم؛ لتتزودوا برزقه في أولاكم وأخراكم ﴿وَ﴾ إذا سمعتم وعلمتمَ ألَّا رازق لكم سوى الله ﴿اعْبُدُوهُ﴾ حق عبادته، واعرفوه حق معرفته ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أداء لحق شيء من حقوق نعمه، ونبذ من موائد فضله وكرمه، واعلموا أنكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:17] رجوع الظل إلى ذي الظل والأمواج إلى الماء.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ أي: إن تكذبوني في قولي ولم تقبلوا مني رسالتي، ولم تتعظوا بنصحي وإرشادي ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ أمثالكم رسلهم مثلي ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ ومن قبلي فصار تكذيبهم وبالاً عليهم وسبب هلاك لهم ونزول عذاب عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ما أبالي بتكذيبكم كما لم يبالوا بتكذيب أممهم؛ إذ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ المرسل إلى قوم من عند الله ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:18] أي: تبليغ ما أرسل به مكشوفًا ظاهرًا بلا سترة وحجاب وزيادة ونقصان، وأمَّا أمر القبول والامتثال بالمأمور فمفوض إلى مشيئة الله وإرادته وقدرته له؛ أي: يتصرف في عباده بأن يجعل الكافر الجاحد مؤمنًا مطيعًا، والمطيع المؤمن كافرًا نافيًا للصانع ـ العياذ بالله من سخطه وغضبه ـ فالكل مقدور له مثبت في لوح قضائه، حاضر في حضرة علمه، لا يُسأل عن فعله وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت:19-23].

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ إلى كمال قدرته ومتانة حكمه وحكمته ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ أي: يظهر ويبدع ﴿اللهُ﴾ القادر المقتدر ﴿الْخَلْقَ﴾ أي: جميع المخلوقات والموجودات من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويعدمه كما برأه وأظهره على مقتضى النشأتين نزولاً وعروجًا، هبوطًا وصعودًا، ظهورًا وبطونًا، مدًا وقبضًا، نشرًا وطيًا، لطفًا وقهرًا، جمالاً وجلالاً ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ التبديل والتحويل ﴿عَلَى اللهِ﴾ المتجلي في الأكوان في كل آن في شأن ﴿يَسِيرٌ﴾[1] [العنكبوت:19] إذ لا يعرضه العسر والفتور، ولا يلحقه العجز والقصور ولا يبرمه مر الدهور وكر الشهور.

وإن أنكروا لك ولم يقبلوا منك تنويرك الذي جئت به ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الحلم والخلة: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سير معتبر خبير ﴿فَانظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار والاستبصار ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ وأظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ في أقطار الآفاق ونشرهم فيها وبسطهم عليها بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿ثُمَّ اللهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء بالاختيار والاستقلال ﴿يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ المقابلة لنشأة الظهور والإبداع، وهي نشأة الكمون والإخفاء والفناء والإفناء، بأن قبض سبحانه بمقتضى قهره وجلاله جميع ما امتد من أظلال، وطوى نحوه ما نشر من آثار الأوصاف والأسماء ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20] لا تنتهي قدرته عند مقدورٍ، بل له أن يتصرف فيه كيف شاء ومتى أراد أزلاً وأبدًا.

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنه تعالى كما بدأ الخلق بإخراجهم عن العدم إلى عالم الأرواح، ثم أهبطهم من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح عابرين على الملكوت والنفوس السماوية والأفلاك والأنجم والفلك الأثير والهواء والبحار وكرة الأرض، ثم على المركبات والمعادن والنبات والحيوان إلى أن يبلغ أسفل سافلين الموجودات وهو القالب الإنساني، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5] أي: بتقدير النفخة الخاصة كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ [الحجر: 29] فكذلك تعيده بجذبات العناية إلى الحضرة راجعًا من حيث هبط عابرًا على المنازل والمقامات التي كانت على ممره بقطع تعلق نظره إلى خواص هذه المنازل، وترك الانتفاع بها فإنها حالة العبودية على هذه المنازل استعداد خواصها وبعض أجزائها منها لاستكمال الوجود الإنساني روحانيًا جسمانيًا، فصار محجوبًا عن الحضرة فعند رجوعه إلى الحضرة بجذبة (ارجعي) يرد من كل منزل ما استعاد منه، فإن العارية مردودة إلى أن يعاد إلى العدم بلا أنانية بتصرف جبة العناية ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي: على العبد العود إلى الله بلا جذبة العناية عسير غير ممكن.

ومن كمال قدرته ومقتضى حكمته ومشيئته: ﴿يُعَذِّبُ﴾ من عباده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ لا ملجأ لهم دونه ولا مرجع لهم سواه؛ إذ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ برحمته الواسعة أيضًا كذلك على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَ﴾ لا ملجأ لهم دونه ولا مرجع لهم؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير في الوجود معه ﴿تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت:21] انقلاب الزبد هواء والأمواج ماء.

﴿وَ﴾ إذا ثبت أن منقلبكم إليه ومرجعكم نحوه، فعليكم الإطاعة والإيمان بالله وبوحدانيته طوعًا بلا تذبذب وتلعثم؛ إذ ﴿مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ على إدراككم وأخذكم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لو تحصنتم فيها ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لو تدليتم إليها؛ إذ الكل في قبضته وقدرته وتحت تصرفه، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ﴾ المعيد المبدئ، المحيي المميت ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم بالاستقلال ويتصرف فيكم بالإرادة والاختيار ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:22] ينصركم على أعدائكم ويدفع ضررهم عنكم.

ثم قال سبحانه؛ حثًا لهم إلى الإيمان وترغيبًا لهم إلى التوحيد والعرفان: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿وَلِقَائِهِ﴾[1] أي: أنكروا بلقائه الموعود لأرباب الكشف والشهود ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة عز القبول هم الذين ﴿يَئِسُوا﴾ وقنطوا ﴿مِن رَّحْمَتِي﴾ مع سعتها ووفورها ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المردودون في تيه الغفلة والضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:23] في النشأة الأولى والأخرى، لا يرجى نجاتهم وخلاصهم أصلاً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا

(1) قال نجم الدين: يشير إلى طائفة من أرباب الطلب وأصحاب السلوك العابرين على بعض المقامات، المشاهدين آثار شواهد الحق الكاشفين ببعض الأسرار، ثم أدركتهم القربة بحجاب العزة فابتلاهم الله للغيرة بالالتفات إلى الغير، فحجبوا بعد أن كوشفوا، واستتروا بعد أن تجردوا، واستدرجوا بعد أن رفعوا، وبعدوا بعد أن قربوا، وحاروا بعد أن كاروا نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت:24-26].

وبعدما بلغ الخليل ـ صلوات الرحمن وسلامه عليه ـ في الدعوة والإرشاد، وأيده بأنواع المواعظ والتذكيرات والرموز والإشارات، ونبذ من الوعيدات والإنذارات رجاء أن يتنبهوا منها ويتفطنوا بها على ما هو الحق ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بعد استماعهم مقالاته تفصيلاً ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متفقين مجتمعين: ﴿اقْتُلُوهُ﴾ حدًا، فإنه قد أعرض عن دينكم وانصرف عن آلهتكم وشفعائكم ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ فإنه جدير بالإحراق؛ لعظم جرمه وكبر ذنبه، وبعدما اتفقوا على حرقه أوقدوا نارًا عظيمة بحيث لا يمكن التقرب إليها إلا بمسافة بعيدة؛ فوضعوه في المنجنيق، فرموه بها إليها ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ الرقيب المطلع على إخلاص عباده وأخلصه ﴿مِنَ﴾ حرق ﴿النَّارِ﴾ وجعلها له بردًا وسلامًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء والإنقاذ مع أن طبع النار على الإحراق والإفناء ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرة الله وحوله وقوته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:24] بوحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته؛ لأنهم هم المنتفعون بأمثال هذه الشواهد والبراهين.

وبعدما أنجاه الله منها ﴿وَ﴾ أيس من إيمان قومه ﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا عليهم وموعدًا لهم بوحي الله وإلهامه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم﴾ وأخذتم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿أَوْثَانًا﴾ آلهة؛ لتكونوا أسبابًا لكم توجب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ وتوقع المحبة والمؤاخاة بين أظهركم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بأن تجتمعوا عندها وتعتكفوا حولها، وتتقربوا إليها بالهدايا والقرابين ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أيها الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال والجهل بالله وبقدره وقدر حوله وقوته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للعرض والجزاء وحساب ما صدر عنكم في دار الابتلاء ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: يقع التناكر والتخاصم بينكم، فيكفر بعضكم ببعض ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: كل منكم ومن معبودكم يتلاعنون ويتخاصمون حال كونكم متبرئين كل منكم عن صاحبه تابعًا ومتبوعًا، عابدًا ومعبودًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ ومرجعكم إليها أنتم وآلهتكم جميعًا، خالدون فيها لا نجاة لكم منها بأعمالكم وأفعالكم ﴿النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:25] ليشفعوا لكم وينقذوكم منها بشفاعتهم.

وبعدما أنجى سبحانه خليله ـ صلوات الرحمن عليه وسلامه ـ من النار، وخرج منها سالمًا سويًا بلا لحوق ضرر ﴿فَآمَنَ لَهُ﴾ ابن أخيه ﴿لُوطٌ﴾ وهو أول من آمن به

وأنكره غيره، ونسبوه إلى السحر والشعبذة وأنواع الخرافات ﴿وَ﴾ لما أيس الخليل عن إيمانهم ﴿قَالَ﴾ للوط وزوجته سارة ابنة عمه: ﴿إِنِّي﴾ بعدما أيست عن إيمان هؤلاء الجهلة الضالين، ونجوت عن مكائدهم ﴿مُهَاجِرٌ﴾ مبعد منهم ﴿إِلَى﴾ أرضٍ أمرني ﴿رَبِّي﴾ للهجرة إليها، وأوحاني أن أذهب نحوها، فعليَّ أن امتثل لأمره وأمضي على موجب حكمه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه في ذاته وأسمائه وأفعاله ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما جرى عليه مشيئته وقضاؤه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:26] المتقن في جميع ما صدر عنه إرادة واختيارًا.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت:27-30].

﴿وَ﴾ بعدما خرج عليه السلام من سواد الكوفة مع لوط وزوجته ووصل إلى حران، ثم منها إلى الشام، فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم، ثم لما استقر وتمكن على فلسطين ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ من كمال لطفنا معه وفضلنا إياه ابنه ﴿إِسْحَاقَ﴾ نافلة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ليزول بهما كربة الغربة ووحشة الجلاء، مع أن هبة ولده إياه من محض الجود الإلهي على سبيل خرق العادة؛ إذ هو كبير السن وامرأته عاقر ﴿وَ﴾ أيضًا من كمال لطفنا معه ﴿جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ مستمرةً إلى يوم الجزاء ﴿وَالْكِتَابَ﴾ أي: آتينا الكتاب لبعضٍ منهم؛ يعني: رسلهم، وإنما فعلنا معه كذلك؛ لئلا تنقطع سلسلة كرامتنا عنه، بل تستمر إلى انقراض العالم ﴿وَ﴾ بالجملة: بعدما هاجر إلينا الخليل بالكلية، وانخلع عن لوازم ناسوته بالمرة ﴿آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ﴾ أي: أجر هجرته ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على وجه لا ينقطع صيته عن الآفاق أبدًا ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:27] لقبولنا، المقبولين في ساحة عز حضورنا.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿لُوطًا﴾ إلى قوم انحرفوا عن جادة الاستقامة، وضلوا عن

سواء السبيل، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ﴾ لوط ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بوحي الله إياه وإلهامه: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المفسدون المسرفون ﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: الفعلة الذميمة التي ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ بغاية قبحها وهجنتها ونهاية شنعتها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحد ﴿مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:28] من بني نوعكم، بل أنتم ابتدعتموها واخترعتموها من خباثة نفوسكم وشؤم شهوتكم.

ثم وبخهم وقرعهم بهجنة أفعالهم وأعمالهم فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المفرطون في متابعة القوة الشهوية ﴿لَتَأْتُونَ﴾ وتطئون ﴿الرِّجَالَ﴾ من أدبارهم وهم أمثالكم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي: سبيل التناسل والتوالد، وتبطلون الحكمة البالغة الإلهية المتعلقة بإبقاء النوع ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: مجالسكم ومحافلكم ﴿الْمُنكَرَ﴾ أي: الفعلة الذميمة، أي: تأتون بها على رءوس الملأ بلا مبالاة واستحياء وإخفاء، بل يتباهون بإظهارها، مع أن إعلان المنكرات من أعظم الجرائم وأقبح الفواحش عند الله وعند المؤمنين، سيما هذا المنكر المستبدع المستقذر ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بعدما سمعوا منه التشنيع والتقبيح على أبلغ وجه وآكده ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ متهكمين له، مصرين على ما هم عليه من الفعلة الذميمة الشنيعة: ﴿ائْتِنَا﴾ يا لوط ﴿بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ الذي أدعيت نزوله علينا بسبب فعلنا هذا ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:29] في دعواك، فنحن لم نمتنع بهذياناتك عن فعلتنا هذا قط، ولم نقبل منك نصيحتك أصلاً.

وبعدما أيس من صلاحهم وإصلاحهم ﴿قَالَ﴾ مشتكيًا، ملتجئًا نحوه، مستنصرًا منه: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على صفة الصلاح والنظافة ﴿انصُرْنِي﴾ بحولك وقوتك بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:30] المسرفين المفرطين في الإفساد، الخارجين على مقتضى حدودك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا

ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٣٥ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٣٧ ﴾ [العنكبوت:31-37].

وبعدما استحقوا الإهلاك والاستئصال بإصرارهم عليها وعدم امتناعهم عنها مع كونهم مجاهرين بها، مفاخرين بإظهارها، أخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة ﴿وَ﴾ ذلك ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي: ليبشروه بهبة الولد والنافلة ﴿قَالُوا﴾ مخبرين له على طريق الوحي من الله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني: سدوم، وجاعلوها منقلبة على أهلها ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت:31] خارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، منقلبين الحكمة البديعة بالبدعة الشنيعة.

ولما سمع إبراهيم ﷺ منهم ما سمع ﴿قَالَ﴾ مضطربًا قلقًا: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ من خُلص عباد الله ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا﴾ بتعليم الله إيانا ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ مما سيصيب قومه بأمر الله علينا بإنجائه، ومن معه من أهل بيته والمؤمنين له ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:32] الهالكين لنفاذ قضاء الله على هلاكها فيهم؛ إذ هي من جملتهم ومن عدادهم وفي زمرتهم.

﴿وَ﴾ بعدما بشروا إبراهيم بما بشروا، وأخبروا له ما أخبروا توجهوا نحو لوط، اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: فجاءته المساءة والسآمة والكرب بقدومهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق ذرع طاقته بنزولهم؛ إذ اشتد عليه حفظهم عن أهل القرية، وضاقت طاقته عن تدبير خلاصهم له منهم؛ لأنهم جاءوا على صورة صبيان صباح ملاح، أمارد في غاية الحسن وكمال الجمال، فهم مشغوفون بطلب أمثالهم ﴿وَ﴾ لما تفرس الرسل منه الخوف والحزن والضجرة وأنواع الغموم والهموم العارضة لهم من إلمامهم إياه ﴿قَالُوا﴾ له تفريجًا لهمه: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ يا لوط إضرارهم بنا ﴿وَلاَ تَحْزَنْ﴾ من لحوق العار عليك بسببنا؛ لأنا رسل ربك، أرسلنا الله لنصرك وتأييدك وإنزال العذاب على قومك، ولا تحزن أيضًا تعذيبنا لك ولمن تبعك

﴿إِنَّا﴾ بأمر ربنا ﴿مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب والهلاك ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:33] الهالكين، هكذا ثبت في حضرة علم الله ولوح قضائه.

ثم فصلوا له العذاب وقالوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذابًا ذا رجز؛ أي: قلقًا واضطرابًا يقلقل المضطرب المعذب، ويضطربه اضطرابًا شديدًا حين نزوله ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:34] أي: بفسقهم الذي باهوا به وتمادوا فيه مجاهرين مصرين.

﴿وَ﴾ بعدما انتقمنا منهم وأخذناهم بفسقهم ﴿لَقَد تَّرَكْنَا﴾ وأبقينا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من حكايتهم وقصتهم ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: عبرة ظاهرة لائحة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:35] حتى يستعملوا عقولهم في مواضع العبر، ويتأملون فيها معتبرين منها مستبصرين بها، فاعتبروا يا أولي الأبصار، واعلموا أن الأبرار إنما يتميزون عن الأشرار بالاعتبار والاستبصار.

بصرنا الله بعيوب نفوسنا، وجعلنا من المعتبرين بعيوب الغير عند وجوده.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضًا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ حين ظهر فيهم الخيانة في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ليصلح ما فيهم من المفاسد ﴿فَقَالَ﴾ بعدما بعثناه إليهم مناديًا لهم ليقبلوه ويطيعوا أمره: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه؛ لكمال العطف والشفقة وإمحاض النصح ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد، الحقيق بالعبادة والإطاعة ﴿وَارْجُوا﴾ من الله ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: ائتوا بالإيمان والإخلاص والعمل الصالح، راجين من الله الثواب في يوم الجزاء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تتحركوا عليها حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:36] لمصالح عباد الله وأمور معاشهم ومعادهم.

وبعدما سمعوا مقالتهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فجاءوا بتكذيبه بلا مبالاة له وبكلامه فاستحقوا المقت العظيم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة مع الصيحة الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ التي بنوها للحياة والمعاش ﴿جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت:37] ماثتين هالكين باركين على ركبهم، ساقطين على وجوههم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ

﴿٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت:38-40].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿عَادًا﴾ المبالغين في الظلم والعدوان ﴿وَثَمُودَ﴾ المتجاوزين عن مقتضى حدود الله بالبغي والطغيان ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ وظهر عندكم ولاح عليكم أيها الناظرون المعتبرون عتوهم واستكبارهم ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ الرفيعة وحصونهم الحصينة المنيعة ﴿وَ﴾ ذلك بأنهم قوم ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وحسنها في نفوسهم فاستبدوا بها ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: أعرضهم الشيطان بتزيين أعمالهم الفاسدة عن الصراط المستقيم والطريق المستبين ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:38] متمكنين، قادرين على الاستبصار والاعتبار، فلم يعتبروا؛ إذ لم يُسلب عنهم لوازم عقولهم، بل لبَّس عليهم الشيطان أفعالهم وحسن عندهم أعمالهم، فظنوا أنهم مهتدون وما كانوا مهتدين.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿قَارُونَ﴾ المباهي بالمال والنسب على أهل عصره وزمانه ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ المستعلي بالسلطنة والملك إلى أن تفوه من غاية عتوه واستكباره بدعوى الألوهية لنفسه ﴿وَهَامَانَ﴾ وزيره، قد تفوق على أقرانه وأهل زمانه بالثروة والجاه والنيابة الكاملة وعلو المكانة والمنزلة بين الأنام ﴿وَ﴾ من كمال تعنت هؤلاء المفسدين المسرفين واستعلائهم ﴿لَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾ بوحينا رسولاً منا؛ ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم، فكذبوه ولم يبالوا به وبكلامه مع كونه مؤيدًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة والمعجزات الساطعة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ على الله وعلى رسله وعموم عباده وانصرفوا عن مطلق أوامره ونواهيه منكرين وجوده وإرساله ووحيه عنادًا ومكابرة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت:39] بنا، حافظين نفوسهم عن إدراك عذابنا إياهم وانتقامنا منهم.

﴿فَكُلًّا﴾ منهم ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ الذي صار علة تامة لبطشه وانتقامه على مقتضى عدلنا، ثم فصل سبحانه أخذه إياهم بعدما أجمل، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا عاصفًا فيها حصباء، رميناهم ورجمناهم بها كقوم لوط وعاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ الهائلة كثمود وأصحاب مدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ

الأَرْضَ﴾ كقارون وما معه من زخارفه التي هي سبب طغيانه وبغيه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وهامان وجميع جنودهما ﴿وَ﴾ ما أخذنا كلاً منهم إلا بذنوب عظيمة صدرت عنهم على سبيل الإصرار والاغترار؛ إذ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ﴾ المستوي على العدل القويم والطريق المستقيم وما صح عليه وحق له سبحانه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويأخذهم بلا ذنب صدر عنهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:40] أي: هم كانوا يظلمون أنفسهم باستجلاب عذاب الله عليها بارتكاب أسبابه وموجباته، وعرضها على غضب الله بالخروج عن مقتضى أوامره ومنهياته، وما ذلك إلا من رسوخ التقليدات والتخمينات في نفوسهم، واستقرار الرسوم والعادات في جبلتهم؛ لذلك أصروا بما هم عليه وانصرفوا عن سواء السبيل وكذبوا الرسل الهادين إليه، وأنكروا عليهم عتوًا واستكبارًا، فهلكوا خسارًا وبوارًا.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ
بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ
ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ
﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:41-45].

ثم أشار سبحانه إلى توهيم جميع التقليدات والتخمينات الحاصلة من هوية النفوس الخبيثة بالماديات، والعقول السخيفة المكدرة بكدورات الأوهام والخيالات، فقال على سبيل التمثيل والتشبيه، على مقتضى إدراك العوام؛ توضيحًا لهم ليتنبهوا على طريق الحق ويتفطنوا بالتوحيد القويم: ﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المنزه عن الأشباه والأنداد مطلقًا ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم كولاية الله ويعبدونهم مثل عبادته، متوهمين أنهم شركاء معه أو شفعاء لهم عنده سبحانه مع أنهم لا يتأتى منهم الشركة والشفاعة أصلاً، إنما مثلهم في هذا الاتخاذ والاعتقاد ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾ التي ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ من لعابها، ثم تركتها واتخذت آخر مثلها، ثم تركتها، وهكذا حالها

دائمًا مع أن هذه الأبنية والبيوتات المتخذة لا تدفع حرًا ولا بردًا، ولا تصير مانعًا له من العدو وحجابًا كهؤلاء المقلدين الضالين الذين اتخذوا تقليد بعض الضلال دينًا، ثم تركوها بتقليدٍ آخر منهم بلا رسوخ ولا تمكن، وهكذا حالهم دائمًا مع أن الأديان المتخذة لا تكشف لهم طريق الحق، ولا توصلهم إلى معرفته وتوحيده، ولا تنقذهم من الأوهام والخيالات الباطلة العائقة عن مشرب التوحيد، ولا تخرجهم من سجن الطبيعة وقيود الإمكان وأغلال الأنانيات وسلاسل العينات.

﴿وَ﴾ قال سبحانه على سبيل التأكيد والمبالغة والتصريح بالتوهين بعدما كنى؛ لينزجروا ويرتدوا على ما هم عليه من الأديان الباطلة: ﴿إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ وأضعف الأبنية ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾[1] إذ لا بيت أضعف منه، وأشرف إلى التخريب والانهدام، وأقل وقاية من الحر والبرد ودفع الضر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41] وهنه وعدم نفعه لما اتخذوها، لكنهم لم يعلموا، فاتخذوا جهلاً وعنادًا، فسيعلمون عاقبة ما اتخذوا ووبال ما عبدوا.

ثم قال سبحانه على وجه الوعيد إياهم، آمرًا لحبيبه ﷺ: قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده وسرائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ من الأصنام والأوثان على التفصيل؛ إذ لا يعزب عن حيطة علمه شيء مما ظهر وبطن وخفي وعلم، ولكن يمهلهم ويؤخر أخذهم بها زمانًا؛

---

(1) قال في التأويلات: يشير على أن مثل النفس وصفاتها في اتخاذها من دون الله أولياء من الهوى والدنيا والشيطان كمثل العنكبوت أتخذت بيتًا لمعانٍ:

إحدها: معنى قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41] إنه سريع الزوال وشيك الانفصال، وإن حاصل ولايتهم اليوم العداوة في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67] يعني إلا الذين اتقوا عن اتخاذ الأولياء دون الله، والثاني: إن العنكبوت كلما زاد على نسجه في بيته ازداد بعد أمن الخروج فهو يعني ولكن سجنًا على نفسه وقيدًا على رجله بحيث يتوقع هلاكه، كذلك من اتخذ الهوى والدنيا والشيطان أولياء سجن فيه بسلاسل الإضلال والإغواء على طريق الشهوات إلى مهلكة النيران، ولا ينفعه استغاثة ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:28- 29]، والآخر: هو أن بيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه بلا أساس ولا جدار ولا سقف، فلا يمسك على أهون دفع، كذلك الكافر لا أصل لشأنه ولا أساس لبنيانه ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور:39].

لحكم ومصالح استأثر الله بها ولم يطلع أحدًا عليها ﴿وَ﴾ كيف لا يأخذهم بما صدر عنهم إنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام بالقوى الكاملة والبطش الشديد ﴿الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:42] المتقن في أفعاله بما لا مزيد عليه.

﴿وَ﴾ إن استهزءوا معك يا أكمل الرسل، متهكمين بما في كتابك من التمثيلات بأحقر الأشياء وأضعفها مثل: الذباب والعنكبوت والنمل وغيرها لا تبال بهم وبتهكمكم واستهزائهم؛ إذ ﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ التي ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان؛ لنوضح لهم طريق التوحيد والعرفان وسبيل السلامة والإيمان، إنما هو للموفقين منهم المجبولين في استعداد القبول وفطرة الإسلام، لا كل أحدٍ من أهل الغفلة والمترددين في أودية الجهل والخيال وهاوية المراء والجدال ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾ ويفهم معناها وما يصل إلى مغزاها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43] الواصلون بما فاض عليهم من رشحات بحر العلم الإلهي ينبوع بحر الوحدة الذاتية التي هي منبع جميع الكمالات اللائحة على صحائف الآفاق وصحفات الأكوان، حيث ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ المتجلي بجميع صور الكمالات وأظهر على مقتضى الأسماء والصفات ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات المتفاوتة، المتخالفة باختلاف الأسماء والصفات، المتنشئة من الذات الأحدية حسب الشئون والتطورات المترتبة على الكمالات المندمجة فيها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي: طبيعة العدم، القابلة لجميع الانعكاسات المنعكسة من أشعة التجليات الذاتية غيبًا وشهادةً، ظهورًا وبطونًا، بروزًا وكمونًا، جمالاً وجلالاً؛ يعني: ما خلق وأظهر ما ظهر وبطن إلا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بلا شائبة شك فيه وارتياب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإيجاد والإظهار على الوجه الأبدع الأبلغ والنظام الأتم الأكمل ﴿لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:44] الموحدين الموقنين بوحدة ذاته وكثرة أسمائه وصفاته حسب شئونه وتطورات على مقتضى التجليات المتجددة الغير المتكررة أزلاً وأبدًا.

﴿اتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الجامع لما في النشأتين، الحاوي لجميع الأمور الجارية في المنزلتين، وتأمل في مرموزاته وإشارته حق التأمل والتدبر واتصف بأوامره واجتنب عن نواهيه، واعتبر عن عبره وأمثاله وذق حلاوة معارفه وحقائقه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: داوم على الميل المقرب إلى الله بجميع جوارحك وأركانك بالانخلاع عن لوازم ناسوتك مطلقًا ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ﴾ على الوجه

المذكور ﴿تَنْهَىٰ﴾ وتكف صاحبه ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ المترتبة عن القوى البهيمية من الشهوية والغضبية ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ المترتب على البشرية المنغمسة بالعلائق المادية والشواغل الجسمانية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَذِكْرُ اللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن جميع الأكوان، المبرئ أوصافه وأسماءه عن وصمة النقصان وسمة الحدوث والإمكان، والاشتغال بذكره حسب إطلاقه ﴿أَكْبَرُ﴾[1] شمولاً وأتم توجهًا وأكمل حصولاً ووضولاً لو جذبتك العناية من لدن جنابه ووفقك التوفيق منه نحو بابه ﴿وَ﴾ كن يا أكمل الرسل في نفسك متوجهًا إلى ربك، متقربًا إليه على الوجه الذي أمرت به، ولا تلتفت إلى هذيانات أهل البدع والأهواء الفاسدة؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بجميع حالاتهم ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:45] من الاستخفاف والاستهزاء وعدم المبالاة بمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين، فيجازيهم على مقتضى علمه بهم.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ
بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ
بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ
وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت:46-49].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم أيها المؤمنون خطاب ربكم مع نبيكم ﴿لاَ تُجَادِلُوا﴾ ولا تخاصموا ﴿أَهْلَ الكِتَابِ﴾ أي: الأحبار الذين واظبوا على محافظة كتاب الله المنزل إليهم واستنبطوا منه الأحكام، وامتثلوا بأوامره واجتنبوا نواهيه ﴿إِلَّا بِالَّتِي﴾ أي: بالطريق

(1) من أن يكون أحدٌ فيه بحق العبودية، فكيف بحقوق الربوبية؟! وقيل: ذكر الله لكم في الأزل أكبرُ وأحكمُ وأقدمُ وأتمُ، وقال ابن عطاء: ذكر الله أكبر من ذكركم؛ لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوبٌ بالعلل والأماني والسؤال، قال القاسم: ذكر الله أكبرُ من أن يحويه أفهامكم وعقولكم، وحقيقة الذكر طرد الغفلة، وإذا لم تكن الغفلة فما وجه الذكر؛ لأنه أكبر من أن يلحقه ذكرٌ أو يدنيه إشارةٌ؛ لأن الإشارة تطلب الأين، والأين يلحقه الحين، وقال الأستاذ: للذكر الله أكبر من أن يعرف قدره أحدٌ وأكبر من أن يعارضه ذكرٌ، ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه وحشةٌ.

التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الطرق، وأبعد عن المكابرة وأقرب إلى الصواب، هينين لينين معهم بلا قلق واضطراب وفضول الكلام ماداموا متصفين معتدلين بلا ميل منهم وانحراف إلى المكابرة والاعتساف ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ جهلاً وعنادًا، وخرجوا عن منهج الصواب بغيًا وعدوانًا ﴿وَقُولُوا﴾ لهم على مقتضى ما أمرتم به في كتابكم: ﴿آمَنَّا﴾ وصدقنا ﴿بِالَّذِي﴾ أي: بالكتاب الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من ربنا على طريق الوحي لنبينا ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا بالكتاب الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ منه سبحانه وحيًا على نبيكم ﴿وَ﴾ كيف لا نؤمن لكتابكم ونبيكم؛ إذ ﴿إِلَٰهُنَا﴾ الذي أنزل علينا كتابًا ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم أيضًا كتابًا ﴿وَاحِدٌ﴾ لا تعدد فيه ولا شريك له، ولا مثل له يماثله ولا كفو له يشابهه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:46] مؤمنون، منقادون، مطيعون وبجميع ما حكم به سبحانه في كتبه وعلى ألسنة رسله مصدقون ممتثلون إلا ما نسخ في كتابنا.

﴿وَ﴾ كيف لا يقول لهم المؤمنون هكذا ولا يؤمنون بالكتب المنزلة من عندنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وعلى ذلك ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة؛ لتكون أنت ومن تبعك مؤمنين مصدقين لجميع الكتب والرسل بلا تفرقة ولا تفاوت ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قبل كتابك ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بكتابك ويصدقون بك أيضًا، كذلك على الوجه الذي وعدناهم في كتبهم من أنَّا سنرسل رسولاً موصوفًا بأوصاف ما بيناه لهم في كتبهم، ومعه كتاب جامع مصدق لجميع الكتب السالفة والرسل السابقة، وإن كان مشتملاً على النسخ والتبديل لبعض أحكام الكتب السالفة على مقتضى سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة من نسخ بعض الأحكام السابقة باللاحقة.

﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: الأعراب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بهذا الكتاب وإن لم يسبق لهم وعد؛ لأنهم ليسوا من أهل الكتاب في وقت من الأوقات، بل إنما آمنوا به؛ لكونهم من أرباب اللسن والفصاحة، تأملوا في نظم ألفاظه العجيبة واتساق معانيه البديعة، انكشف لهم أنه ما هو من جنس كلام البشر، فجزموا بإعجازه وآمنوا به، فصدقوه أنه نازل من عند الله على سبيل الوحي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الظاهرة الإعجاز، العجيبة الشأن، الباهرة البيان ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت:47] الساترون نور الهداية والإيمان بظلمة الكفر والطغيان عنادًا ومكابرة.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون القرآن وحيًا نازلاً من عند الله بمقتضى إرادته؛ إذ ﴿مَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَتْلُو﴾ وتتعلم ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل القرآن ونزوله ﴿مِن كِتَابٍ﴾

من الكتب المنزلة ﴿وَلَا تَخُطُّهُ﴾ وتنسخه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ على سبيل النقل؛ يعني: ما كنت من أهل النسخ والإملاء والكتابة؛ إذ هي مسبوقة بالتعلم وأنت أمِّي، عارٍ عن الدراسة والكتابة والتعلم مطلقًا، ولم يعهد منك أمثال هذه الأمور الدالة على الأخذ والاستنباط، ولو كنت متصفًا بها وأهلاً لها ﴿إِذًا لَّارْتَابَ﴾ شك وتردد ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾[1] [العنكبوت: 48] المجاهرون بالقول الزور الباطل في شأنك وفي شأن كتابك وكونه معجزًا، مع أنه ما هو - أي: القرآن - حينئذ أيضًا محل ارتياب؛ لأنه في نفسه باعتبار نظمه العجيب البديع ومعانيه الغريبة وأسلوبه المحكم معجز خارق للعادة عند من له أدنى دربة في أساليب الكلام، ولا ينبغي لأحد أن يشك في إعجازه إلا من هو متناهٍ في البلادة وسخافة العقل وركاكة الفهم.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن في نفسه ﴿آيَاتٌ﴾ ودلائل دالة على توحيد الحق ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ واضحات الدلالات في أنفسها، ثابتات ﴿فِي صُدُورِ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني المترشح من حضرة العلم الإلهي، المفاض لهم منها حسب استعداداتهم وقابلياتهم تفضلاً عليهم وامتنانًا لهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مع قواطع برهانه وسواطع تبيانه ﴿إِلَّا﴾ القوم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:49] الخارجون عن مقتضى العلم والعين والكشف والشهود.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً

(1) قال الشيخ كبرى: يشير إلى أن القلب إذا تجرد عن المعلومات والسر تقدير عن يومان والروح تنزه عن الموجودات بالكافر أقرب إلى الفطرة، ولم يشتغلوا لقبول النفوس السفلية من الخسيسات والخيالات والوهميات، فكانوا لما صادفهم من المغيبات قابلية من غير ممازجة طبع ومشاركة كسب وتكليف وتكيف بشرية، ولما كان قلب النبي ﷺ في البداية ممزوجًا بعمل جبريل إذا خرج منه ما أخرج، وقال: هذا حظ الشيطان منك. وفي النهاية محفوظًا عن النفوس التعليمية بالقراءة والكتابة قابلًا لإنزال القرآن عليه مختصًا به عن جميع الأنبياء.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت:50-54].

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم مع رسول الله ﷺ، وشدة شكيمتهم وضغينتهم معه ﴿قَالُوا﴾ مقترحين منه على سبيل التعجيز والإنكار: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إن كان صادقًا في دعواه كالآيات التي نزلت على الأنبياء الماضين مثل: ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى وسائر معجزاته، وغير ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة، خاليًا عن وصمة الشبهة: ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ﴾ كلها ﴿عِندَ اللهِ﴾ أنزلها وفي قبضة قدرته، وعلى مقتضى إرادته ومشيئته حتى تعلقت إرادته بإنزال آية منها، أنزلها على من أنزلها إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ ليس في وسعي وطاقتي ولا في وسع كل من مضى قبلي من الأنبياء والرسل إنزال عموم ما طلبتم، وإتيان جميع ما اقترحتم من الآيات، وكذا حال الأنبياء الماضين مع أممهم المقترحين عليهم بالآيات، بل ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق إياكم ﴿مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:50] ظاهر الإنذار والتخويف، وكل من الأنبياء والرسل أيضًا كانوا كذلك بالنسبة إلى أممهم؛ إذ نحن معاشر الأنبياء والرسل ما لنا إلا التبليغ والإنذار على مقتضى الوحي والإلهام الإلهي بلا تحريف منا وتبديل، وأمّا التنزيل والإنزال من قبل الحق، والقبول منكم فمفوض إلى القادر الحكيم.

ثم قال سبحانه على المقترحين وتقريعًا لهم: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ﴾ ولم يغنهم من جميع الآيات التي اقترحوا عنك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ولطفنا معك ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[1] الجامع لما في الكتب السالفة، المحتوي على أحوال النشأتين على الوجه الأبلغ مع أنه لا يغيب عنهم، بل ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ ويُقرأ عندهم دائمًا بخلاف سائر الآيات، فإنها كما ظهرت غابت هي وأثرها وهو وأثرها حاضر عندهم غير مغيب عنهم، وبالجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو في نفسه آيات عظيمة الفوائد، دائمة العوائد، غير منقطعة آثارها عن من تمسك بها واستهديها ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي:

(1) وهو إتيان بدلالة: أحدهما: إن نفس القرآن آية لأنه لا يمكنهم معارضته لا الإتيان شيء من مثله. والثاني: إن تيسير قراءة مثل هذا القرآن لا من غير كاتب وقارئ وإنزاله عليه وحفظ أدبه وإحالة وجزالة بيانه آية واضحة وعليها دلائل لائحة. [التأويلات].

نعمة عامة نازلة من قبل الحق ﴿وَذِكْرَى﴾ أي: عظة وتذكيرًا شاملاً لعموم عباده، ملقاة من عنده سبحانه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:51] بتوحيده وأسمائه وصفاته، ويصدقون المبدأ والمعاد والعرض والجزاء والفوز بشرف اللقاء جميع ما وعد لهم في النشأة الأخرى.

ثم لما أتى قوم من ضعفاء المسلمين إلى رسوله الله ﷺ بكتف رُقم فيها بعض أراجيف اليهود وأقاويلهم الكاذبة، متبركين بها، متيمنين بما فيها، فقال ﷺ مبغضًا عليهم: كفى بضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم من قبل ربهم إلى ما جاء به غير نبيهم، وصدقوا ما جاء به غير نبيهم مع أنه كذب مفترى، وكذبوا ما جاء به النبي مع أنه صدق مطابق للواقع، فنزلت حينئذ تسلية لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمكذبين لك وبما جئت به، مصدقين لأعدائك وبما جاءوا به: ﴿كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أيها المكابرون ﴿شَهِيدًا﴾ حاضرًا معي ومعكم مطلقًا، على حالي وحالكم وما جرى في ضميري وضمائركم؛ إذ هو سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ ما ظهر في ﴿الأَرْضِ﴾ وكذا ما ظهر بينهما وما بطن فيهما، فيجازي كلاً منا ومنكم على مقتضى علمه بنا وبكم.

﴿وَ﴾ كيف لا يجازي القادر المقتدر على انتقام عصاة عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأطاعوا ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو بمراحل عن الحق والصدق ﴿وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ الحق الحقيق بالحقية، المستوي على منهج الصدق والصواب، وأعرضوا عن إطاعته وانقياده عنادًا ومكابرةً، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة عز الحضور، والأشقياء المحرومون عن سعة رحمة الملك الغفور ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت:52] المقصورون على الخسران والخذلان، لا يُرجى ربحهم وتفريجهم أصلاً.

﴿وَ﴾ من غاية غيِّهم وضلالهم، ونهاية انهماكهم في بحر الغفلة والغرور ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ تهكمًا واستهزاءً ﴿بِالْعَذَابِ﴾ واستهزاءً بك الذي أنذرتهم بوحي منا إليك بنزوله إياهم من كمال إنكارهم وتكذيبهم ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ ووقت معين موعود، مثبت في لوح قضائنا ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اليوم فجأةً عاجلاً؛ لاستحقاقهم بنزوله إلا أنه مؤقت موعود على مقتضى سنتنا القديمة المستمرة من ترهين الأمور على الأوقات المعينة المثبتة في لوح القضاء وحضرة العلم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا تغتروا بإمهالنا إياكم زمانًا ﴿وَ﴾ الله

﴿لَيَأْتِيَنَّهُم﴾ ولينزلن عليهم العذاب الموعود ﴿بَغْتَةً﴾ أي: دفعة وفجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:53] ولا يطلعون بنزوله وأمارات إتيانه.

ومن غاية عمههم وسكرتهم وكمال انهماكهم في أسباب العذاب وموجباته ولوازمه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ظنًا منهم أن ما هم عليه إنما هو من موجبات الثواب وأسباب النجاة والجنة، بل هي عينهما؛ إذ لا إيمان لهم بالنشأة الأخرى وما فيها، كيف لا يعذبون في النشأة الأخرى ولا يدخلون النار ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ الموعودة فيها لهم ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:54] محتوية عليهم الآن في النشأة الأولى باعتبار أسبابها وموجباتها؟!.

﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: 55-60].

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة، كغشي أسبابها التي هي عبارة من لوازم الإمكان إياهم اليوم ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: من أعلاهم وأسفلهم، ومحيطًا بجميع جوانبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ قائل من قِبَل الحق زاجرًا لهم وتوبيخًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المستكبرون المصرون على الكفر والعناد جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:55] أيها المعاندون المكابرون.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التعليم والتنبيه مناديًا لخُلّص عباده الذين جلّ همهم الإخلاص في جميع ما جاءوا به من الأعمال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضافهم سبحانه إلى نفسه؛ تفضلاً عليهم، ومزيد إكرام لهم مقتضى إيمانكم: الإخلاص والحضور معي، والتوجه إليّ مع فراغ البال في كل الأحوال، فإن لم تجدوا الفرصة والفراغة المذكورة في أرض لا تستقرون فيها، ولا تتمكنون عليها، بل عليكم أن تنفروا وتخرجوا منها طالبين الجمعية والحضور ﴿إِنَّ أَرْضِي﴾ ومقر عبادي وعبادتي ﴿وَاسِعَةٌ﴾ فإن لم تجدوا

لذة التوجه وحلاوة الرجوع إليّ في أرض، ولم يتيسر لكم الجمعية الحاصلة المنعكسة من صفاء مشرب التوحيد فعليكم الخروج والجلاء منها، وبالجملة: ﴿فَإِيَّايَ﴾ في كل الأماكن والأحوال ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:56] عبادةً مقارنة بالإخلاص والخضوع والخشوع، والتبتل والتوكل والتفويض، والرضا والتسليم، ولا تغتموا وتحزنوا بالخروج عن الأوطان والجلاء منها خوفًا من الموت الطبيعي، إن كنتم مائلين إلينا راغبين نحونا.

إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المستحدثة بحدوث البدن ﴿ذَائِقَةُ﴾ كأس ﴿الْمَوْتِ﴾ في أي موطنٍ ومكانٍ كانت ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ذاق كأس الموت، وخلص عن قيود الهويات العدمية المانعة عن الطبيعي لإطلاق الحقيقي، فحينئذٍ ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ إذ لا موجود في الوجود سوانا ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:57] رجوع الأضواء إلى الشمس، والأمواج إلى الماء.

﴿وَ﴾ بعد رجوع الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ موقنين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مقارنين إيمانهم بها، مخلصين فيها إلينا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ وننزلنَّهم تفضلاً منا إياهم وتكريمًا ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب المعرفة والتوحيد ﴿غُرَفًا﴾ أي: لكل منهم غرفة معينة تصير له مقرًا ومنزلاً ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات على تفاوت طبقاتهم وقدر قابلياتهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين، غير متحولين عنها أصلاً ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت:58] الجنة وما فيها، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم أُولو العزائم الصحيحة.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على جميع مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات وأذيات الأعادي، والجلاء من الأوطان ومفارقة الخلان، وغير ذلك مما جرى عليهم من طوارق الحدثان ﴿وَ﴾ مع ذلك هم في جميع حالاتهم، وفي عموم ما جرى عليهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من الوسائل والوسائط ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:59] وينسبون إليه ما ينسبون لا إلى الوسائل والأسباب العادية؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، بل الوسائل كلها مطوية عندهم، والأسباب منسية لديهم، بل نظرهم مقصور على المسبب الواحد الأحد، الفرد الصمد، القيوم المطلق الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3،4].

وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالجلاء ومفارقة الأوطان؛ لكسب الجمعية وحضور

القلب، قالوا متخوفين عن العيلة والاضطرار في أمر المعاش: كيف نعمل ونعيش في بلاد الغربة، ولا مغيشة لنا فيها، قال سبحانه تسليةً لهم، وإزالةً لخوفهم: ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كثير ﴿مِّن دَابَّةٍ﴾ تتحرك على الأرض محتاجة إلى الغذاء المقوم لمزاجها مع أنها لضعفها وعدم مكنتها ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق لحمل رزقها وادخاره وكسبه ﴿اللَّهُ﴾ المتكفل لأرزاق عموم عباده ﴿يَرْزُقُهَا﴾[1] من حيث لا تحتسب ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا، وأنتم من جملة الحيوانات التي تكفل الله برزقها، بل من أجلتها، فلا تغتموا لأجل الرزق، ولا تقولوا قولاً به زل نعلكم عن خالقكم ورازقكم ﴿وَ﴾ لا تُخطروا أيضًا ببالكم أمثال هذا؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:60] بأحوالكم وبيناتكم، فعليكم أن تتقوا في كل الأحوال بالله المتولي لأمركم، مفوضين كلها إليه، متوكلين عليه، متمكنين في توكلكم وتفويضكم، راسخين فيه بلا تلعثمٍ وتزلزلٍ.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:61-64].

ثم قال سبحانه قولاً على سبيل الإلزام والتبكيت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: أهل مكة مع كفرهم وشركهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

---

(1) قال روزبهان: حثَّ سبحانه العباد بالتوكل عليه والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية، وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وما قدّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدّخر شيئًا إلى الغد «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»؛ لاتكالهما على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدّخر شيئًا لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدّخر شيئًا لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا.

من كتم العدم؟ ﴿وَ﴾ من ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ دائبين؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ المظهر للكائنات، المستقل في إيجادها، والمتصرف فيها حسب إرادته ومشيئته، وبعدما أقروا بتوحيد الحق وانتهاء مراتب الممكنات إليه ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:61] ويُصرفون عن توحيده والإيمان به، والامتثال بأوامره ونواهيه الجارية على ألسنة رسله وكتبه؟!.

وإن صرفهم عن الإيمان فاقة أهل الإيمان وفقر الموحدين، قل لهم نيابة عنا: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مقتضى استعداده ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويقبض عنه حسب تعلق إرادته ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتقن في أفعاله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنه إرادة واختيارًا ﴿عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:62] لا يعزب عن حيطة علمه شيء من لوازمه ومتمماته، وجميع مقتضياته.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل: ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ﴾ أي: بواسطة الماء على مقتضى عادته المستمرة من تعقيب الأسباب بالمسببات ﴿الْأَرْضَ﴾ الجامدة اليابسة ﴿مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جمودها ويبسها؟ طبعًا ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ طوعًا، القادر المقتدر على الإحياء والإماتة، ومع اعترافهم بوحدة الله وانتساب معظم الأشياء إليه يشركون له غيره عنادًا ومكابرةً ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بلسان الجمع، بعدما عصمك الحق عن الشرك وأنواع الجهالات بإفاضة العقل المفاض، وهداك إلى توحيده بالرشد الكامل المكمل المميز لك أكمل التميز، حامدًا لله شاكرًا لنعمه، سيما نعمة العصمة عن الشرك والضلال: ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر من ألسنة ذرائر الكائنات المتذكرة لمبدئها ومنشئها طوعًا وطبعًا، ثابتة حاصلة ﴿لِلَّهِ﴾ راجعة إليه سبحانه أصالةً؛ إذ لا مُظهر لهم سواه، ولا موجد في الوجود إلا هو.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ من نهاية غفلتهم وضلالهم عن الله ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:63] ولا يفهمون وحدة الحق واستقلاله في الآثار والتصرفات الواقعة في الأنفس والآفاق، ولا يستعملون عقولهم المفاضة لهم للتدبر والتأمل في هذا المطلب العزيز حتى يستعدوا لفيضان نزول الوحدة بطريق الكشف والشهود، فخلصوا عن التردد في هاوية الجهالات، وأودية الخيالات والضلالات، وما يعوقهم ويمنعهم عن الوصول إلى هذا المطلب العلي، والمقصد السني إلا المزخرفات الدنيّة الدنيوية، الملهية للنفوس البشرية عن اللذات الروحانية، مع أنها ما هي في أنفسها إلا أوهام وخيالات باطلة،

فكيف ما يترتب عليها من اللذات الوهمية والشهوات البهيمية؟!.

كما قال سبحانه مشيرًا إلى فناء زخرفة الدنيا وعدم قرارها وثباتها، وبقاء النشأة الأخرى وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، والدرجات العليّة النورانية المتفاوتة علمًا وعينًا وحقًا على تفاوت طبقات أرباب الكشف والشهود، ومقتضيات استعداداتهم الثابتة في لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي لا قرار لها ولا مدار حقيقة، بل لا أصل لها أصلاً سوى سراب انعكس من شمس الذات، وأمواج حدثت في بحر الجود ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[1] يعني: كما أن السراب يُلهي ويخدع العطشان بالتردد والتبختر نحوه على اعتقاد أنه ماء، فيتعب نفسه ويزيد عطشه، بل يهلكها، كذلك الحياة الدنيوية ومزخرفاتها الفانية، ولذاتها الزائلة الذاهبة الإمكانية تُتعب صاحبها طول عمره، ولا ترويه، ثم تميته بأنواع الحسرة والضجرة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وما يترتب عليها من المكاشفات والمشاهدات اللدنية، وما يترتب عليها من أنواع الفتوحات والكرامات الفائضة لأرباب التوحيد ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: هي مقصورة على الحياة الأزلية الأبدية التي لا يطرأ عليها زوال، ولا يعقبها فناء، ولا يعرض للذاتها انصرام وانقضاء ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64] يوقنون بها وبما فيها من الكرامات لم يؤثروا الدنيا الدنيّة وحياتها الفانية المستعارة عليها، ولم يختاروا اللذات الوهمية البهيمية على لذاتها الأزلية الأبدية، وبجهلهم وضلالهم اختاروا الفاني على الباقي، والزائل على القار، والسراب المهلك على الفرات المحيي.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ

(1) يُشير إلى هذه الحياة الدنيا يعيش بها المرء في الدنيا بالنسبة إلى الحياة التي يعيش بها أهل الآخرة في الآخرة، وجوار الله تعالى لهو ولعب، وإنما شبهها باللهو واللعب لشيئين: أحدهما: أن اللهو واللعب سريع الانقضاء لا يداوم، فلهذا المعنى أن الدنيا بشهواتها كظل زائل لا يكون لها بقاء، فلا تصلح لاطمئنان القلب بها والركون إليها، والثاني: أن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء دون العقلاء وذوي الأحلام؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «ما أنا من دد ولا دد مني» والدد اللهو واللعب فالعاقل يصون نفسه منه. [التأويلات].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت:65-69].

والعجب منهم ومن حالهم كل العجب أنهم مع شركهم وإصرارهم على الكفر، وعدم تأثرهم بالزواجر والروادع الواردة من قِبَل الحق، وظهور المعجزات المزعجة إلى الإيمان ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ متضرعين نحوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: كائنين كالمؤمنين المطيعين، الخالصين إطاعتهم وانقيادهم لله بلا شوب الشرك وشين الكفر ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ من كمال فضلنا وجودنا إياهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وأخلصناهم من المهلكة آمنين ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:65] يعني: هم ما جاءوا على الفور بُعيْد ما خلصوا من التهلكة إلى الشرك والطغيان، وأنواع العصيان والكفران.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا آمرًا لهم على سبيل التهديد: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أولئك الكافرون ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم العظام، سيما نعمة الإنجاء من مضيق البحر ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ أولئك المتمتعون بما عندهم من الحطام الدنيوية، وما هم عليه من الإصرار على الكفر والضلال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:66] ما يترتب على كفرانهم وتمتعهم وشركهم وضلالهم.

﴿أَ﴾ ينكرون نعمنا وإنعامنا إياهم أولئك الكافرون المبطلون ﴿وَ لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا أهل مكة ﴿أَنَّا﴾ من مقام جودنا وفضلنا إياهم ﴿جَعَلْنَا﴾ بلدهم؛ يعني: مكة ﴿حَرَمًا﴾ يعني: ذا حرمة عظيمة يأوي إليها الناس من جميع أقطار الأرض من كل مرمى سحيق وفج عميق ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن أهله من النهب والسبي وأنواع الأذى ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ أي: يختلس ويؤخذ ﴿النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ نهبًا وسبيًا، وهم آمنون فيها، مصونون عن المؤذيات كلها، وهم مع ذلك يكفرون نعمنا ويشركون بنا غيرنا ﴿أَ﴾ ما تستحيون من الله أيها المبطلون، وما تخافون سن بطشه أيها المفسدون المسرفون؟! ﴿فَبِالْبَاطِلِ﴾ العاطل الزاهق الزائل؛ يعني: الأصنام والأوثان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يطيعون ويعبدون، مع أنهم لا يقدرون على جلب نفع ودفع ضر ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر القوي على البطش والانتقام ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:67] فستعلمون أيها الجاهلون الضالون أيّ منقلب تنقلبون.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد الشديد: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد عدوانًا على الله، وخروجًا عن مقتضى حدوده ، بنى نفسه بالعرض على بطشه وعذابه ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ وانتسب إلى الله مراءً وافتراءً ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ عظيمًا بأن يُشرِكَ معه غيره، مع أنه ليس في الوجود سواه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع، الثابت النازل من عنده سبحانه؛ يعني: الرسول ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ كذبه فجأة بلا تأمل وتدبر عنادًا ومكابرةً ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:68] يعني: أيزعمون أولئك المسرعون في التكذيب، المجترئون على الإنكار أنهم لا يدخلون جهنم الطرد وجحيم الخذلان، خالدين مخلدين بسبب هذا الجرم العظيم والافتراء البالغ نهاية البغي والفساد على الله وعلى كتابه ورسوله؟! بلى هم المستوجبون المقصودون على الخلود فيها أبدًا مهانين صاغرين.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني: المؤمنين الموقنين الذين حازوا كلا مرتبتي العين والحق على مقتضى استعداداتهم الفطرية، ثمّ اجتهدوا ببذل وسعهم بأن يفنوا فينا، ويبقوا ببقائنا، باذلين مهجهم في سبيلنا، تاركين أنانيتهم وأعيانهم الباطلة في هويتنا وعيننا الحق ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ ونوفقنّ عليهم ﴿سُبُلَنَا﴾[1] ولنزيدنّ هديهم ورشدهم إلينا جذبًا منا إياهم، وعنايةً لهم، وإحسانًا معهم ﴿وَ﴾ كيف لا يجذبهم ولا يعتني بشأنهم، ولا يزيد برشدهم وتوفيقهم؟! ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي لخلّص عباده بمقتضى أسمائه وصفاته ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69] منهم، وهم الذين يحسنون الأدب مع الله، ويجتهدون في إفناء ذواتهم في ذاته بعدما تحققوا بمقام الكشف والشهود، وتيقنوا ألّا موجود سواه، ولا إله في الوجود إلا هو، اجتهدوا حينئذٍ أن يحكوا أظلال هوياتهم الباطلة، وعكوس

---

(1) قال البقلي: قال الجنيد: لنهدينهم سبيل الإخلاص. قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه. قال النهرجوري: واللذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا، ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب. قال عبد الله بن منازل: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزّ من الخدمة. قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: وكل محتملٍ لثقل العبودية في اختلاف ما وضع الله من عوضٍ وفضلٍ فهو داخلٌ في أحوال المجاهدين. قال الأستاذ: شغلوا ظواهرهم بالوظائف، فأوصل إلى سرائرهم اللطائف.

تعيناتهم الهالكة العاطلة عن دفتر الوجود مطلقًا؛ لئلا يبقى لهم عين ولا اسم ولا رسم.

وبعدما طرحوا بتوفيق الله وجذب من جانبه ما أطرحوا من أباطيل التعينات ولوازم الهويات والأنانيات، وعموم الاعتباريات عن دفتر الوجود وفضاء الشهود، بحيث لم يبق لهم عين ولا أثر، بل لا معنى للمعية والمصاحبة والمقارنة؛ ولا تشوشك منطوقات الألفاظ والعبارات إن كنت من أهل الرموز والإشارات، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة السورة

عليك أيها المجتهد المتوجه نحو الحق، المتعطش بزلال توحيده، المعرض عن الباطل وما يترتب عليه من غوائل الشيطان ووساوسه أن تجتهد أولاً في استخلاص نفسك البشرية عن أمانيها مطلقًا، سيما أنية أمارتك المائلة بأنواع الفجور، المبغية على الله بأصناف الكفر والفسوق، والغبية التي لا تفهم مقتضيات الوحدة وإشارات أرباب التوحيد أصلاً، العرية عن مبدأ المعارف والحقائق والأسرار والمكاشفات، الواقعة في طريقه رأسًا، فلك أن تروضها بمتاعب الرياضات ومشاق التكليفات إلى أن تجعلها مطمئنة راضية بما جرى عليها من القضاء.

ثمّ بعدما صارت نفسك مطمئنة راضية انبعث شوقك، واقتضى ذوقك مع جذب من جانب الحق إلى أن تجعلها فانية في هوية الله، مضمحلة في ذاته، متلاشية في أوصافه وأسمائه، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، فحينئذٍ صرت في زمرة المحسنين المهديين، المرضيين الذين هم من الله في جميع حالاتهم لا بطريق المصاحبة والمقارنة، ولا بطريق الحلول والاتحاد على ما يخيلك الألفاظ والعبارات، بل بطريق الفناء فيه والرجوع إليه، والبقاء ببقائه.

جعلنا الله ممن اجتهد في طريق التوحيد، وجاهد نفسه في مسلك الفناء حتى بذلها في سبيل الله وأفناها في هويته بمنّه وسعة جوده.

فهرس المحتويات

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الرابع

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة محمد ﷺ



المكتبه المعروفيه

كانسی روڈ شالدرہ کوئٹہ پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ

كلمة الناشر

رَجَـــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُــوْبَ هٰذَا النَّــاشِرِ

وَذُنُــوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوْبَهُ وَسَتَرَ عُيُوْبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِيْنَ

أَجْمَعِيْنَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ



راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي

المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الروم

فاتحة سورة الروم

لا يخفى على من تحقق بتجددات التجليات الإلهية، وتبدلات شئونه وتطوراته لطفًا وقهرًا، قبضًا وبسطًا، جمالاً وجلالاً أن دوام العسر واليسر، والنعمة والنقمة، والجدب والرخاء، والفرح والترح والغالبية والمغلوبية، وكذا جميع الأوصاف المتضادة المتناقضة، والأطوار المتخالفة الحاصلة من الإضافات والانتسابات الواقعة بين الشئون والتطورات الحادثة في الأكوان والأزمان بين أهل الزمان، حسب التجليات الإلهية المقتضية لحدوثها مما لا يتصور امتداده أبدًا مستمرًا بلا تبدل وتحول، بل هي أعراض متبدلة متجددة على تعاقب الأمثال وتوارد الأضداد، لا يبقى زمانًا متطاولاً بالنسبة إلى قوم دون قوم؛ بل يتداول ويدور بينهم على مقتضى سنة الله وجري عادته المستمرة كما هو المشهود المتعارف.

لذلك رد الله سبحانه على مشركي مكة فرحهم وسرورهم حين أُخبروا بغلبة فارس الذين هم ليسوا من أهل الروم الذين هم نصارى من أهل الكتاب، ومن غاية فرحهم وجهلهم قالوا للمؤمنين على سبيل التبجح: نحن نظهر ونغلب، كما ظهر إخواننا على إخوانكم، فاغتم المؤمنون من هذه الوقعة الهائلة، أنزل الله سبحانه هذه السورة؛ تسليةً لهم، وإزالةً لغمهم، مخاطبًا لحبيبه ﷺ مخبرًا إياه، متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على مقتضى جماله وجلاله حسب إرادته واختياره ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بسعة رحمته وسبقها على غضبه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بدوام الرحمة عليهم، والرضا عنهم، والبسط معهم بلا تخلل الغضب والقبض.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ
﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾

بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: 1-7].

﴿الـم﴾ [الروم: 1] أيها الإنسان الأفضل الأكمل اللبيب، اللائق الملازم المداوم لاستكشاف غوامض أسرار الوجود، ورقائق دقائق آثار الكرم والجود، الفائضة من الخلاق الودود على خواص مظاهر الأكوان المحبوسين في مضيق الإمكان؛ ليوصلهم إلى فناء الوجوب وصفاء الكشف والشهود، مخلصين عن جميع الأوهام والخيالات المستتبعة لأنواع الضلالات والجهالات.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: 2] أي: صاروا مغلوبين من عسكر الفرس.

﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ وأقربها من أرض العرب وأرض الروم، وهي أذرعات الشام أو الأردن أو فلسطين - على اختلاف الروايات من أصحاب التواريخ - ﴿وَ﴾ ولا تغتموا أيها المؤمنون من مغلوبية أهل الكتاب وضعفهم؛ إذ ﴿هُم﴾ أي: الروم ﴿مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ ومغلوبيتهم من الفرس ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 3] ويصيرون غالبين عليهم، آخذين انتقامهم عنهم على أبلغ وجه وأشده لأبعد مدة مديدة، وأمد بعيد.

بل ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع عند العرب من الثلاث إلى التسع.

وروي أن فارس غزوا الروم فتلاحقا بأذرعات الشام، وهي أقرب أرض الروم من الفرس والعرب أيضًا، فلما اقتحما غلب الفرس على الروم، فوصل الخبر إلى مكة فأخذ المشركون في فرح عظيم وسرور مفرط، شامتين بالمسلمين، قائلين إياهم: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون لا كتاب لنا، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فنحن لنظهرنَّ أيضًا عليكم مثلهم عن قريب، فنزلت الآية فقرأها ﷺ على أبي بكر ﷺ، فخرج عليهم، فقال لهم: لا يقر الله أعينكم أيها المشركون المسرفون، فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت، اجعل بيننا أجلاً أناحبك وأراهنك فناحبه أبو بكر ﷺ على عشر قلائص من كل واحد منهم، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر ﷺ ما جرى بينهما على رسول الله ﷺ،

فقال ﷺ: «البضع ما بين الثلاث إلى التسع»[1].

فرجع ﷺ إلى أُبي فزايده الجعل والمدة أيضًا، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أُبي من طعن طعنه رسول الله ﷺ يوم أُحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو بدر، فأخذ أبو بكر ﷺ الخطر والرهن من ورثة أُبي، وجاء بها إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «تصدق به»[2] فتصدق، فهذا قبل تحريم القمار، فلا يصح الاستدلال به على جواز العقود الفاسدة.

وهذه الآية من دلائل النبوة والرسالة؛ لكونها إخبارًا عن الغيب بوحي الله وإلهامه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته واختياره ﴿الْأَمْرُ﴾ كله غيبًا وشهادةً، دنيا وعقبى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أزلاً ﴿وَمِنْ بَعْدُ﴾ أبدًا، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، يفعل الله على مقتضى إرادته واختياره ما يشاء، ويحكم حسب حكمته ما يريد ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين غلب الروم على الفرس في رأس السنة التاسعة؛ إنجازًا لما وعد به سبحانه المؤمنين ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 4] مثلما فرح المشركون في الوقعة السابقة.

وفرح المؤمنين إنما هو ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وتأييده أهل الكتاب والملة، وتقوية أهل دينه وكتابه النازل منْ عنده، وتغليبهم على أهل الأهواء والآراء الباطلة، لا بمجرد الغيرة والحمية الجاهلية والعصبية، كما هو ديدنة أهل الزيغ والضلال، وإلا ﴿يَنصُرُ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى مراده، سواء كان من أهل الهداية والضلال، أو السعادة والشقاوة؛ إذ لا يُسأل عما يفعل.﴿وَ﴾ كيف يُسأل عن فعله سبحانه، مع أنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يُسأل عن كيفية أفعاله، الغالب المقتدر بالقدرة الكاملة على جميع مراداته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 5] لعباده، يتفضل عليهم بمقتضى سعة رحمته تفضلاً وإحسانًا؟!.

وما ذلك النصر والتأييد إلا ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ وعهده، وعده مع المؤمنين حين اشتد عليهم الحزن وهجم الهموم وقت مغلوبية الروم غيرةً منهم على دين الله وأهله، ومن سنته سبحانه أنه ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الذي وعده مع خلّص عباده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6] وعده، ولا يؤمنون

(1) رواه الترمذي (492/11).

(2) ذكره الألوسي في «تفسيره» (324/15).

ويصدقون بإنجازه الوعد، وعدم خلفه في الموعود.

بل ما ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلا ﴿ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لا يترقى علمهم عن المحسوسات الظاهرة مثل الحيوانات العجم، بل هم أسوأ حالاً منهم؛ إذ هم مجبولون على التأمل والتدبر، والتفطن بما هو المقصود من ظهورها، والتفكر في حكمة إظهارها على هذا النمط البديع والنظم العجيب، وكيفية ارتباطها بالأسماء الإلهية والأوصاف الذاتية وانعكاسها منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ عَنِ﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةِ﴾ المعدة لكشف السرائر، ورفع الحجب والسدل، وجميع الأغطية والأستار المانعة عن ظهور الحق، وانكشاف لقائه بلا سترة وحجاب ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7] غفلة مؤبدة تامة، بحيث لا يرجى منهم الإطلاع أصلاً؛ لكثافة حجبهم، وغلظ أغطيتهم وأغشيتهم؛ لذلك لم يتدرجوا من عالم الكون والفساد ومضيق الإمكان، وما يترتب عليه من اللذات الوهمية إلى عالم الغيب وفضاء الوجوب، وما يترتب عليها من الكشف والشهود، وأنواع المعارف والحقائق الفائضة على مقتضى الجود الإلهي.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم: 8-10].

﴿أَ﴾ يقنعون بهذه المزخرفات الفانية أولئك الضالون الغافلون، ويرضون أنفسهم بلذاتها الوهمية وشهواتها البهيمية ﴿وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويتدبروا في آلاء الله ونعمائه الفائضة على الترادف والتوالي في الآفاق على الصور العجيبة، والهيئات الغريبة، سيما ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ التي هي أقرب الأشياء إليهم، وأبدعها نظمًا وتركيبًا، وأعجبها ظهورًا، وأشملها تصرفًا، وأكملها علمًا ومعرفة، وأعلاها شأنًا، وأوضحها برهانًا؛ لذلك ما وسع الحق إلا فيها، وما انعكس أوصافه وأسماؤه إلا منها، واستحقت هي بخصوصها من بين مظاهره سبحانه لخلافته ونيابته، أيطمئنون بهذه المزخرفات الزائلة الخسيسة، ولم

يعبروا منها إلى مبادئها التي هي الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية، مع أنهم مجبولون على الجواز والعبرة بحسب أصل الفطرة ولم يعلموا، ولم يفهموا أنه ﴿مَّا خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في جميع أفعاله ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من البرازخ المتكونة من امتزاجاتهما واختلاطاتهما أثرًا وأجزاءً ﴿إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ ومنتهيًا إليه إعادةً وإبداءً، لكنه قدر بقاءه وظهوره بوقت معين.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عنده، وحين انقضائه انتهى إليه ورجع نحوه ما ظهر من الموجود، وانتفى وفني ما لمع عليه نور الوجود، وحينئذٍ لم يبق في فضاء الوجود إلا الواحد القهار للأظلال والأغيار ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: 8] منكرون جاحدون عتوًا واستكبارًا؛ بسبب ما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود، مع أنهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لدلالة أظلالهم وآثارهم على تمكنهم ﴿وَ﴾ من دلائل قوتهم أنهم ﴿أَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وقلبوها للمعادن وإخراج العيون، وإجراء الأنهار، وإحداث الزروع وغير ذلك ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿عَمَرُوهَا﴾ أولئك فيما مضى ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ هؤلاء اليوم، فدل زيادة عمارتهم على ازدياد قوتهم وتمكنهم.

﴿وَ﴾ بعدما أفسدوا على أنفسهم بأنواع الفسادات مباهيًا بمالهم وجاههم، قلبنا عليهم أمرهم بأن أرسلنا إليهم رسلاً مؤيدين بأنواع المعجزات، فلما ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة والبراهين الساطعة، فلجأوا على تكذيبهم وإنكارهم بلا تأمل وتدبر فيما جاءوا به، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، فاستأصلناهم وقلبنا عليهم أماكنهم، وخربنا بلادهم ومزارعهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ العزيز المقتدر الحكيم المتقن ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: يفعل بهم فعل الظلمة بأخذهم وبطشهم بلا جرم صدر عنهم موجب لانتقامهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: 9] أي: يظلمون أنفسهم بعتوهم واستكبارهم على ضعفاء عباد الله، وتكذيب خلص أنبيائه وأوليائه، وخروجهم عن مقتضى حدوده سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تمادوا في الغفلة والعصيان، وتكذيب الرسل، والاستكبار على عباد

الله وأنواع الإساءة مع رسله ﴿كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا﴾[1] مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿السُّوأَى﴾ أي: الخصلة الذميمة والعاقبة الوخيمة المترتبة على إساءتهم في الأخرى جزاء ما كانوا عليها في الأولى، كل ذلك بواسطة ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ وأنكروا عليها، واستخفوا بها ولمن أنزلت عليه ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: 10] ويستسخرون، وينسبون إليها ما لا يليق بشأنها افتراءً ومراءً.

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الروم: 11-16].

وكيف يستهزئ أولئك المسرفون مع الله ورسله وآياته النازلة من عنده؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته ﴿يَبْدَأُ الخَلْقَ﴾ ويبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ويظهر في فضاء الوجود، ثمّ يميته ويعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ حيًا كذلك في النشأة الأخرى بعد انقراض النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد العرض وتنقيد الأعمال ﴿إِلَيْهِ

(1) قال في التأويلات: أي: عاقبة أمر الفلاسفة الذين هم مكذبوا الأنبياء لما أساءوا بتكذيب الأنبياء بأن صاروا أئمة الكفرة وصنعوا الكتب في الكفر وأوردوا فيها الشبهات على بطلان ما جاء به الأنبياء من الشرائع والتوحيد وسمو الحكمة وسمو أنفسهم الحكماء فالآن بعض المتعلمين من الفقهاء إما لوفور حرصهم على العلم والحكمة، وإما لخباثة الجوهر وليتخلصوا من تكاليف الشرع يطالعون تلك الكتب ويتعلمونها وبتلك الشبهات التي درسوا بها كتبهم يهلكون في أودية الشكوك ويقعون في الكفر، وهذه الآفة وقعت في الإسلام من المتقدمين والمتأخرين منهم فكم من مؤمن عالم فسدت عقيدتهم بهذه الآفة وأخرجوا ربقة الإسلام من عنقهم فصاروا من جملتهم، ودخلوا في زمرتهم داخل هذه الآفة يبقى في هذه الأمة إلى قيام الساعة فإن كل يوم يزاد ويقل طلبة علوم الدين من التفسير والأحاديث والمذهب، ويكثر طلبة علوم الفلسفة والزندقة ويسمونها الأصول والكلام، وقد قال الشافعي ﷺ: «من تكلم تزندق» ثم وبال هذه الجملة إلى قيام الساعة يكتب في ديوان من سن هذه السنة السيئة ومن أوزار من عمل من غير أن ينقص من أوزارهم شيء على أن كذبوا بآيات الله بالقرآن واستهزءوا بها وسموا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصحاب النواميس وسموا الشرائع الناموس الأكبر عليهم لعائن الله تترى.

تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: 11] رجوع الأمواج إلى البحر.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: 12] أي: يسكتون حيارى سكارى، تائهين هائمين آيسين عن الخلاص.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ ومعبوداتهم ﴿شُفَعَاءُ﴾ يجتهدون لخلاصهم وإنقاذهم من عذاب الله على مقتضى ما هو زعمهم إياهم، بل ﴿وَ﴾ هم حينئذٍ ﴿كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: 13] ينكرون ويكفرون بهم حيث يئسوا عنهم، وقنطوا عن شفاعتهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ التي يحشر فيها الأموات ويعرضون على الله بما اقترفوا في دار الابتلاء من الحسنات والسيئات ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[1] [الروم: 14] فرقًا فرقًا، وفوجًا فوجًا كل مع شاكلته في الإيمان والكفر، والصلاح والفساد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورسله في دار الاختبار ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم فيها ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ من كمال فرحهم وسرورهم ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ ذات أزهارٍ وأنوارٍ وأنهارٍ ﴿يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: 15] يتنزهون ويسيرون مسرورين متنعمين.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة من عندنا على رسلنا ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: أنكروا بلقائها في النشأة الأخرى، مع أنا وعدناهم على ألسنة رسلنا إياهم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز الحضور ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: 16] لا نجاة لهم منه، أعاذنا الله من ذلك.

---

(1) من كان في الدنيا على حد التفرق فيوم القيامة يرجع إليها، ومن كان في الدنيا على حد الجمع فيكون في الآخرة جمعًا، ومن كان مع الله فهو جمع ومن كان مع غير الله فهم متفرقون إلى أماكنهم من السعادات والشقاوات والبعاد والقربات، فأهل القرب في مشاهدة الأنس والقدس، وأهل البعاد في الوحشة والتفرقة، قال أبو بكر بن طاهر: يتفرق كلٌ إلى ما قُدِّر له من محل السعادة ومنزل الشقاوة، ومن كان تفرقه إلى الجمع كان مجموع السر، ينقلب إلى محلّ السعداء، ومن كان تفرقه إلى فرقة كان متفرق السر، ثم لا يألف الحق أبدًا فيرجع إلى محل أهل الشقاوة، ثم فسر الله سبحانه حال الفريقين بالنعتين المتضادين. [عرائس البيان].

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: 17-21].

ثمّ أشار سبحانه إلى أسباب النجاة والخلاص عن الوعيدات الأخروية، ونيل لذاتها ومتنزهاتها الروحانية، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: سبحوا الله الواحد الأحد الصمد، المنزه عن شوائب النقص وسمات الكثرة مطلقًا أيها الأحرار المتوجهون نحوه في السرائر والإعلان، سيما ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في المساء الذي هو أول وقت الفراغ عن الشواغل الجسمانية، وفتح باب الخلوة مع الله، والعزلة عن أسباب الكثرة مطلقًا ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: 17] وتدخلون في الصباح الذي هو نهاية مرتبة خلوتكم مع ربكم، فاغتنموا الفرصة فيه، وتعرضوا للنسمات المهبة بأنواع النفحات من قِبَل الرحمن.

وبعدما تزودوا بأنواع الفتوحات الروحانية في تلك الساعة الشريفة التي هي البرزخ بين اللذائذ الروحانية والجسمانية فاشتغلوا بالأشغال الجسمانية المتعلقة لتدبير المعاش النفساني.

﴿وَ﴾ لكم أيها المتوجهون نحو الحق أن تحمدوه وتشكروا نعمه، وتداوموا على أداء حقوق كرمه في خلال أيامكم ولياليكم، سيما طرفي النهار؛ إذ ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر عن ألسنة جميع ما ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ ما في ﴿الْأَرْضِ﴾ من المظاهر التي لمع عليها برق الوجود، وانبسطت أظلال شمس الذات وأضواؤها ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿عَشِيًّا﴾ إذ هو وقت مصون عن الكثرة ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: 18] أيضًا؛ إذ فيها يحصل الفراغ عن أمور المعاش غالبًا.

وكيف لا يتوجهون نحو الحق، ولا يديمون الميل إليه في أوقات حياتهم؛ إذ هو سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بكمال قدرته ﴿الْحَيَّ﴾ أي: ذا الحسّ والحركة، والإرادة التي هي أنواع الحيوانات ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الذي هو النطفة الجامدة

﴿وَ﴾ كذا ﴿يُخْرِجُ﴾ ويظهر بمقتضى قهره وجلاله ﴿الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يعني: يعقبه الموت بالحياة، والحياة بالموت ﴿وَ﴾ من كمال قدرته ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بأنواع النضارة والبهاء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يبسها وجمودها ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل إعادة الحياة والنضارة للأرض وقت الربيع ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: 19] من قبوركم أيها المنكرون للبعث والحشر وإعادة المعدوم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته على الإعادة والإبداء على السواء: ﴿أَنْ﴾ أي: إنه ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدر جسمكم وصوركم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾[1] يابس، ثمَّ بدلكم أطوارًا وأدوارًا؛ لتكميلكم وتشويقكم إمدادًا وأدوارًا إلى أن صوركم في أحسن صورة، وعدلكم في أقوم تعديل ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: بعدما كمّل صورتكم، وتمم تمثالكم وشكلكم، واستوى بشريتكم فاجأتم ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20] في الأرض على سبيل التناسل والتوالد، ومن قدر على إبدائكم وإبداعكم على الوجه المذكور قدر على حشركم وإعادتكم، بل هو أسهل من الإبداء.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته: ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ وقدر ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً؛ حتى تؤانسوا بهن وتستأنسوا بهن، بل إنما قدر لكم أزواجًا ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ وتتوطنوا معها توطنًا خاصًا، وتألفًا تامًا إلى حيث يفضي إلى التوالد والتناسل ﴿وَ﴾ بهذه الحكمة البديعة ﴿جَعَلَ بَيْنَكُم﴾ وبينهن ﴿مَّوَدَّةً﴾ خاصة خالصة، منبعثة عن محض الحكمة الإلهية بحيث لا يكتنه لميتها وكيفيتها أصلاً.

﴿وَ﴾ من كمال قدرته ومتانة حكمته: جعل من امتزاج النطفة النازلة منكم ومنهن، الناشئة من المودة المذكورة، والمحبة المقررة بينكم ﴿رَحْمَةً﴾ ولدًا مثلكم، ومحييًا لكم اسمكم ورسمكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الخلق والإيجاد، والتكميل والتمكن،

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن التراب أبعد الموجودات عن الحضرة؛ لأنا إذا نظرنا على الحقيقة وجدنا أقرب الموجودات إلى الحضرة عالم الأرواح؛ لأنه أول ما خلق الله الأرواح ثم العرش؛ لأنه محل صفة رحمانية ثم الكرسي ثم السماء السابعة ثم السموات كلها ثم فلك الأثير، ثم فلك الزمهرير الهواء، ثم الماء ثم التراب وهو جماد لا حس فيه ولا حركة وليس له قدرة على تغيير ذاته وتبديل صفاته، فلما وجدنا ذاته متغيرة عن وصف الترابية صورة ومعنى وصفاته متبدلة كتغير صورته بصورة البشر وتبدل صفته بصفة البشرية؛ علم أنه محتاج إلى مغير ومبدل وهو الله سبحانه وتعالى.

والتقدير والانبعاث، والانزعاج وأنواع التدبيرات الواقعة فيها، والحكم العجيبة المحيرة لأرباب الفطنة والذكاء ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21] في آثار صنائع الحكيم القدير، والعليم الخبير البصير.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الروم: 22-25].

﴿وَ﴾ أيضا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ العجيبة الشأن، والبديعة البرهان: ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ﴾ وإيجاد العلويات متطابقة مترافعة مع ما فيها من الكواكب المتفاوتة في الإضاءة والإشراق على أبدع نظام، وأبلغ التئام وانتظام، بحيث لا يكتنه عند ذوي العقول، وأولي الإفهام المجبولين على الاستعلام والاستفهام، بل لاحظ لهم منها سوى الحيرة والعبرة، وأنواع الوله والهيمان ﴿وَ﴾ خلق ﴿الأَرْضِ﴾ ممهدة منبسطة مشتملة على جبال راسيات، وبحار واسعات، وأنهار جاريات، وأشجار مثمرات، ومعادن وحيوانات، وأصناف من نوع الإنسان المجبول على صورة الرحمن، الجامع لأنواع التبيان والبيان، وأصناف الدلائل والبرهان؛ ليصير مرآة مجلوة يتراءى فيها صور الأسماء والصفات الإلهية، وينعكس منها شئونه وتطوراته ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتكم وتكلمكم أيها المجبولون على فطرة النيابة والخلافة.

﴿وَ﴾ اختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ من السواد والبياض، وأنواع التخطيطات والتشكيلات، والهيئات الصورية والمعنوية التي اشتملت عليها هياكلكم وهوياتكم، إنما هي من آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي امتدت على ماهياتكم وتعيناتكم أظلالها وانبسطت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الانطباق والالتصاق، وأنواع الائتلاف والانتظام الواقعة في الأنفس والآفاق على أغرب الوجوه وأبدع الطرق ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات على كمال قدرة العليم الحكيم ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: 22].

أي: لكل من يتأتى منه التفطن والتدبر للمبدأ والمعاد من أرباب الهداية والرشاد، والتأمل والتفكر على سبيل النظر والاستدلال من الصنائع والآثار إلى الصانع المؤثر المختار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ العظام أيضًا: ﴿مَنَامُكُم﴾ واستراحتكم؛ تقويمًا لأمزجتكم، وتقويةً لقواكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وقت عروض الإعياء والعناء ﴿وَابْتِغَاؤُكُم﴾ طلبكم المعاش فيهما ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ وسعة رحمة جوده، أو على طريق اللف والنشر بأن قدر لمنامكم زمان الليل ولابتغائكم النهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التقدير والتدبير المبني عن كمال العطف واللطف ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: 23] دلائل توحيده سبحانه سمع قبول ورضا، ويتأملون في حكمة الحكيم المدبر لمصالح عباده، وما هو إلا صلح لهم.

﴿وَمِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ أيضًا: إنه سبحانه ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾(1) المنبئ عن هجوم البلاء ونزول المطر أيضًا، إنما أريكم سبحانه؛ ليحصل لكم ﴿خَوْفًا﴾ من خشية الله وحلول غضبه وعذابه ﴿وَطَمَعًا﴾ لنزول فضله ورحمته، وإنما فعل سبحانه معهم كذلك؛ لتكونوا دائمًا خائفين من سخطه وبطشه، راجين من فضله وجوده ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ بعدما أراكم البرق المخيف المطمع ﴿فَيُحْيِي بِهِ﴾ أي: بالماء النازل ﴿الْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد جمودها ويبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإراءة والإخافة والإطماع، والإنزال والإحياء ﴿لَآيَاتٍ﴾ على حكمة القادر المختار، المستقل في التصرف والآثار ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24] ويستعملون عقولهم في التفكر والتدبر في المصنوعات العجيبة والمخترعات البديعة الصادرة من الفاعل المطلق بالإرادة والاختيار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ المحكمة أيضًا: ﴿أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني: من جملة آياته الظاهرة الباهرة: قيام السماء والأرض بلا عمد وأوتاد وأسانيد، وقرارها ومدارها في مكان معين بلا تبدل وتحول، إنما هو بأمره وحكمه، وعلى مقتضى إرادته ومشيئته، بحيث لا يسع لهما الخروج عن أمره وحكمه أصلاً ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تأملتم نفاذ حكمه

(1) أي: برق شواهد الحق عند انخراق سحاب حجب البشرية وظهور تلألؤ أنوار الروحانية أولها برق، ثم اللوامع ثم الطوالع ثم الإشراق ثم التجلي فينور البرق فيرى شهوات الدنيا أنها نيران فيخاف منها ويتركها ويرى مكروهات تكاليف الشرع على النفس أنها جنان فيطمع فيها ويطلبها. [التأويلات].

سبحانه، ومضاء قضائه في معظم مخلوقاته، فلكم أن تتيقنوا ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وقت إرادة إعادتكم وإحيائكم ﴿دَعْوَةً﴾ متضمنة لإخراجكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 25] يعني: بعدما أسمعكم بكمال قدرته مضمون دعوته إليكم فاجأتم إلى الخروج منها أحياءً بلا تراخٍ ومهلةٍ تتميمًا لسرعة نفوذ قضائه.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم: 26-29].

﴿وَ﴾ كيف لا تسمعون وتخرجون منها أحياءً بعدما تعلق قدرته سبحانه بإخراجكم وإعادتكم؛ إذ ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا، إبداعًا وإنشاءً ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة المغمورين في آلاء الله ونعمائه، المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ من أرباب الولاء التائهين في بيداء الألوهية، الفانين في فضاء الربوبية، الهائمين في صحراء الوجود؛ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ ممن أشرق عليه شمس الذات، ولاح عليه نور الوجود، ولمع عليه برق التجليات الحبية اللطيفة ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: 26] منقادون مطيعون طوعًا وطبعًا؟!.

﴿وَ﴾ كيف لا ينقادون ويطيعون لحكمه أولئك المسخرون لصولجان قضائه، وقلم تقديره ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ﴾ ويظهر ﴿الْخَلْقَ﴾ من كتم العدم في فضاء الوجود بمقتضى اللطف والجود، ثمّ يعدمه ويميته بمقتضى قهره وجلاله أيضًا فيها ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أيضًا على ما ينشئه في النشأة الأخرى إظهارًا لكمال قدرته ومقتضى حكمته؛ كي يظهر مصلحة الإبداء والإبراز في النشأة الأولى، وفائدة ما يترتب عليها في النشأة الأخرى يوم العرض والجزاء ﴿وَ﴾ أهل الأهواء والآراء الباطلة ينكرون الإعادة، مع أنه ﴿هُوَ﴾

أي: الإظهار بعد الإعدام ﴿أَهْوَنُ﴾ وأسهل ﴿عَلَيْهِ﴾[1] سبحانه بالنسبة إلى عقولهم السخيفة، وأحلامهم الضعيفة من الإبداء والإبداع لا عن شيء وبلا سبق مادة، وإن كانت نسبة قدرته وإرادته سبحانه إلى كل ما دخل في حيطة حضرة علمه وخبرته على السواء؛ إذ ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ [الملك: 3] وكرر النظر ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] وفتور وقصور في مبدعات الحق ومخترعاته؟!.

﴿وَ﴾ كيف يتفاوت دون قدرته الأشياء؛ إذ ﴿لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ واليد الطولى، والتصرف التام، والاقتدار العام الشامل لكل ما لاح عليه برق الوجود سواء كان ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي عالم الأسماء والصفات باعتبار التنزلات من مرتبته الأحدية، والعماء التي لا يسع فيه إدراك مدرك وخبرة خبير ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: السفليات التي هي عالم الهيولي والطبيعة القابلة لأن تنعكس منها أشعة أنوار العلويات المتفاوتة حسب تفاوت الشئون والتطورات المرتبة على الأسماء والصفات المتخالفة المتكثرة حسب التجليات الحِبِّية الإلهية؟! ﴿وَ﴾ كيف لا يكون له سبحانه المثل الأعلى؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في ذاته، حيث تفردت بوجوب الوجود، ودوام البقاء المنيع فناء على سرادقات سطوته وسلطنته عن شوب النقص والقصور مطلقًا ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27] المتقن في أفعاله وآثاره بالاستقلال على مقتضى حيطة حضرة علمه الكامل بجميع وجوه الكمالات اللائقة لكل ذرة من ذرائر الكائنات؟!.

لذلك ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ سبحانه تبيينًا وتنبيهًا ﴿مَّثَلاً﴾ متخذًا منتزعًا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أيها المشركون المتخذون لله شركاء من مصنوعاته وعبيده؛ إذ هي أقرب الأشياء إليكم، وأوضحها عندكم ﴿هَل لَّكُم﴾ أيها الأحرار المتصرفون بالاستقلال في منسوباتكم متصرف آخر سواكم ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ وحصلت من أكسابكم من العبيد

(1) يعني: البداءة من الإعادة لأن في البداءة كان بنفسه مباشرًا بنفسه للخليقة وفي الإعادة كان المباشر إسرافيل بنفخه، والمباشرة بنفس الغير في العمل أهون من المباشرة بنفسه عند نظر الخلق وعنده سواء؛ لأن أفعال الأغيار أيضًا مخلوقة وفيه إشارة في غاية الدقة واللطافة أن الخلق أهون عند الله عند الإعادة منهم عند البدأة؛ لأنه في البداية لم يكونوا ملوثين بلوث الحدوث ولا متدنسين بدنس الشرك في الوجود بأن يكونوا شركاء في الوجود مع الله فلعزتهم في البداية باشر بنفسه خلقتهم وفي الإعادة لهوانهم باشر بنفس غيره. [التأويلات].

والإماء الذين هم من جملة منسوباتكم، وهل يصح ويجوز لمملوكيكم أن يكونوا، ويعدوا ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ معكم يتصرفون أمثالكم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مثل تصرفكم بلا إذن منكم؟!.

وبالجملة: ﴿فَأَنتُمْ﴾ أيها المالكون وما ملكت أيمانكم ﴿فِيهِ﴾ أي: في التصرف والاحتياج إلى الأموال ﴿سَوَاءٌ﴾ إذ هم أمثالكم، فلأي شيء تحتاجون إليه أنتم، وهم أيضًا محتاجون إليه بلا تفاوت ولكن ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ وتحذرون منهم أن تتصرفوا في أموالكم وأكسابكم بلا إذنٍ منكم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] يعني: تخافون على تضييع أموالكم، مثل خوفكم على أنفسكم، بل أشد من ذلك، وبالجملة: تخافون منهم أن تساووا معكم في التصرف في أموالكم؛ فلذلك منعتموهم، ولم ترضوا بتصرفهم وشركتهم في الحطام الدنيا، فكيف ترضون لنا شركة عبيدنا ومخلوقاتنا في ألوهيتنا وربوبيتنا، والتصرف في ملكنا وملكوتنا أيها الغافلون المفرطون في شأننا، والجاهلون بقدرتنا ومكانتنا؟! ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿الْآيَاتِ﴾ أي: دلائل توحيدنا، وبراهين وحدتنا وتفريدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 28] ويستعملون عقولهم في تأمل الآيات، والتدبر فيها على وجه العبرة والاستبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿بَلِ اتَّبَعَ﴾ الجاهلون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالخروج على مقتضى الآيات الواضحة، والبراهين اللائحة ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة، وآراءهم الزائغة الزائلة، مع أن اتباعهم بها ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فائض عليهم من المبدأ الفياض، بل عن جهل مركوز في

---

(1) قال في التأويلات: يعني: تصفية الروح عن القلب ألا يضيع شيئًا مما أفاض إليه من الفيض الإلهي والمواهب الربانية بأن يصرفها في غير موضعها رياءً وسمعة، وطلب مراد هواه عند إظهار شيء منها وتصفية القلب عن السر والعقل بأن تصرفها فيها بنوع من التصرفات الفاسدة التي تفسد العقائد، وتوقع في الشكوك والظنون الفاسدة والشبهات العقلية وغيرها من الآفات فكما لا يصلح هؤلاء لشركهم؛ لأنكم معهم بمثابة الملوك مع العبد، كذلك هم مع حسن استعدادكم في قبول الفيض الإلهي يا روح وأتباعه لا تصلحون أن تكونوا شركاء في كمالية ذاتي وصفاتي إذا تجليت عليكم، فسطوات أنوار جمالي وجلالي تنمحي آثار ظلمات أوصافكم وبأنوار صفاتي تشاهدون صفاتي فتسبحوني أني صرت حالاً فيكم، أو صرتم بعضًا مني أو تصيرون أنا، أو أصير أنتم، فأنا «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»(1) ومن كبريائي ألا أكون جزءًا لأحد أو مثلاً ومن عظمتي؛ إذ لا يكون أحد جزئي ولا مثلي، وأنا الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

جبلتهم، مركب مع طبيعتهم في أصل فطرتهم؛ لمقتضى الشقاوة الأزلية والغباوة الفطرية الجبلية، وإذا كان الأمر على ذلك ﴿فَمَن يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وأراد ضلاله، وأثبته في لوح قضائه وحضرة علمه من جملة الضالين وزمرة الجاهلين ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعدما نفذ القضاء على شقاوتهم وضلالهم ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: 29] ينصرونهم، ويرشدونهم إلى سبيل الهداية وطريق السعادة والرشاد.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم: 30-34].

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل أن الهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ فاستقم واعتدل بوجه قلبك الذي فاض عليك من ربك تتميمًا لتكميلك، وتخليصًا لك عن قيود بشريتك وأغلال طبيعتك؛ لتصل به إلى مقرك من التوحيد الذي جُبلت لأجله ﴿لِلدِّينِ﴾ النازل لك من عند ربك تأديبًا لك يا أكمل الرسل ولمن تبعك، وإصلاحًا لشأنك وشأن متابعيك ﴿حَنِيفًا﴾ أي: حال كونك مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة مطلقًا، واعلم يا أكمل الرسل أن ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وصبغته التي صبغهم بها أصلية جبلية لا تزول عنهم أصلاً، إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تغيير وتحويل ﴿لِخَلْقِ اللهِ﴾ الحكيم العليم، وتقديره الذي قدره بمقتضى علمه وحكمته كما قال عز شأنه: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29].

﴿ذَلِكَ الدِّينُ﴾ المنزل عليك من ربك يا أكمل الرسل؛ لوقاية الفطرية الأصلية المذكورة هو الدين ﴿الْقَيِّمُ﴾ والطريق الأعدل الأقوم، الموصل إلى توحيده سبحانه على الاستقامة بلا عوج وانحراف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الغفلة والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30] حقيقته، ولا يفهمون استقامته وإيصاله إلى التوحيد، فعليكم أيها المحمديون أن تتدينوا بدين الإسلام، وتطيعوا بجمع ما فيه من

أوامر الله ونواهيه.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجين نحوه بالإخلاص التام ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ واحذروا عن محارمه خوفًا من انتقامه بالخروج عن مقتضى حدوده، ومع ذلك لا تقنطوا من فضله وسعة رحمته وجوده ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأديموا الميل نحوه في جميع أوقاتكم وحالاتكم، سيما في الأوقات المكتوبة والساعات المحفوظة ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المنيبون المتوجهون نحو الحق، المتدينون بدين الإسلام ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 31] المشركين معه سبحانه غيره في حال من الأحوال، ولا تنسبوا الحوادث الكائنة في ملكه وملكوته إلى غيره من الأظلال والأسباب الهالكة، المستهلكة في شمس ذاته مع كمال توحده واستقلاله في الوجود والتصرفات الواقعة في مظاهره مطلقًا.

وبالجملة: لا تكونوا أيها المحمديون المتدينون بالدين النازل من عند الله؛ لحفظ فطرتكم التي هي التوحيد الذاتي ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم﴾ الوحداني الذي هو وقاية توحيدهم فرقًا مختلفة، وابتدعوا فيه مذاهب متفاوتة متخالفة فتشعبوا شعبًا كثيرة ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ وأحزابًا يشايع ويروج ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم من المذهب المبتدع المستحدث من تلقاء نفوسهم ﴿فَرِحُونَ﴾ [الروم: 32] مسروررون، مدعون كل منهم حقية ما هم عليه من الباطل الزائغ.

ثمّ أشار سبحانه إلى ما حداهم وأغراهم على هذا الزيغ والضلال من الخصلة الذميمة المركوزة في جبلتهم فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدة وبلاء، ومصيبة وعناء يزعجهم إلى الدعوة والتوجه نحو الحق؛ لكشفه وتفريجه ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[1] مائلين عن الأسباب العادية مطلقًا، مسترجعين نحوه عن محض الندم والإخلاص ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم﴾ الحق، وأنجاهم ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من الضر ومن آثاره ولوازمه المستتبعة ﴿رَحْمَةً﴾ لهم، وعطفًا إياهم على

(1) يشير إلى طبيعة الإنسان أنها ممزوجة من هداية الروح وطاعته، ومن ضلالة النفس وعصيانها وتمردها، فإن الناس إذا أظلتهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية انكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخلصت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها ورجعت على وفق طبعها المجبولة عليه إلى الحضرة، ورجعت النفوس أيضًا بموافقة الأرواح على خلاف طباعها مفطورة في دفع البلية إلى الله مستغيثين بلطفه مستجيرين عن محنتهم، مستكشفين الضر، فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم. [التأويلات].

مقتضى اللطف والجمال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: فجاء فريق منهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 33] أي: يشركون بربهم، وينسبون الكشف والتفريج إلى الأسباب والوسائل العادية، بل إلى ما اتخذوها من دون الله من الآلهة الباطلة التي اعتقدوها شفعاء ينقذونهم عن أمثاله.

وإنما فعلوا ذلك ونسبوا ما نسبوا إلى الأظلال الباطلة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من النعم العظام والفواضل الجسام؛ وما ذلك إلا من خبث طينتهم، وتركب جهلهم في جبلتهم، قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها الكافرون لنعمنا، ولفواضل لطفنا ولكرمنا، ولتعيشوا بها بطرين مسرورين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 34] عاقبة تمتعكم وكفرانكم، وما يترتب عليها من أنواع العذاب والنكال؛ إذ يأتي عليهم زمان يعترف كلٌّ منهم بما جرى عليه من الكفران والعصيان وقت رؤيتهم أحوال الكافرين وأهوالهم في النار.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: 35-39].

﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ يعني: بل أنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حينئذٍ ﴿سُلْطَانًا﴾ ملكًا ذا سلطنة وسطوة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معهم، ويذكرهم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 35] أي: بجميع ما صدر عنهم من الشرك والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان بلا فوت شيءٍ منها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ وأعطيناهم نعمة وسعة في الرزق، وصحة في الجسم على الترادف والتوالي ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ وأفرطوا في الفرح والسرور إلى أن بطروا، وباهوا مفتخرين بما عندهم من الأسباب ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أحيانًا ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مثل جدب وعناء، ومصيبة وبلاء تسوءهم، مع أنهم إنما أصابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المفاسد والمعاصي الموجبة للبطش والانتقام، فانتقمنا منهم؛

لذلك ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: 36] أي: فجاءوا على اليأس والقنوط منا بحيث لا يتوجهون إلينا؛ لكشفها وتفريجها، بل لا يعتقدون قدرتنا على كشفها ورفعها.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا أولئك المنكرون المفرطون ﴿وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر على أنواع اللطف والكرم كيف ﴿يَبْسُطُ﴾ ويفيض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ بسطه إياه ﴿وَ﴾ كيف ﴿يَقْدِرُ﴾ ويقبض لمن يشاء قبضه عنه على مقتضى حكمته المتقنة؟! ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القبض والبسط ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 37] بتوحيد الله وأوصافه الذاتية الكاملة الجارية آثارها على مقتضى الحكمة والعدالة الإلهية، المعبرة عنها بالصراط القويم والقسطاس المستقيم.

وبعدما أشار سبحانه إلى بسط الرزق على من يشاء، وقبضه عمن يشاء إرادةً واختيارًا، أراد أن يشير إلى مصارفه فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ؛ إذ هو جدير بأمثال هذه الخطابات الإلهية: ﴿فَآتِ﴾ وأعط يا أكمل الرسل من فواضل ما رزق لك من النعم ﴿ذَا الْقُرْبَى﴾[1] المنتمين إليك من قِبَل أبويك ﴿حَقَّهُ﴾ أي: ما يليق به من الصلة وحفظه ورعايته، فهم أولى وأحق بالرعاية من غيرهم ﴿وَ﴾ بعد أولئك الأولى بالرعاية: ﴿الْمِسْكِينَ﴾ وهو الذي أسكنه الفقر في هاوية الهوان، وزاوية الحرمان ﴿وَ﴾ أعط بعده: ﴿ابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهم الذين فارقوا عن الأموال والأوطان بأسباب أباحها الشرع لهم ﴿ذَلِكَ﴾ التصرف المذكور ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بأموالهم وصرفها ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ وابتغاء مرضاته، وخوضًا في طريق شكره، أداء حق شيء من نعمه وفواضل كرمه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الباذلون أموالهم في سبيل الله على الوجه الذي أمرهم الحق به ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38] المقصورون على الفوز والفلاح من عنده سبحانه.

ثم أشار سبحانه إلى أحوال الجهلة الذين بذلوا أموالهم؛ لطلب الجاه والثروة والسمعة ،وازدياد مال صديقه بلا وجه الله وابتغاء رضوانه وطلب الثواب منه، بل

---

(1) يشير إلى أن القرابة على قسمين: قرابة النسب، وقرابة الدِّين. فقرابة الدين: أمس بالمواساة والمراعاة أحق وهم الإخوان في الله والأولاد من طلب الولاية من أهل الإرادة الذين تمسكوا بأذيال الأكابر منقطعين إلى الله مشتغلين بطلب الله متجردين عن الدنيا غير مستفرغين للمعيشة، فالواجب على الأغنياء بالله القيام بأداء حقوقهم فيما يكون لهم عرف على الاشتغال بموجب الطلب بفراغ القلب. [التأويلات].

لمجرد الكبر والخيلاء، فقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾ وأعطيتم مما عندكم ﴿مِّن رِّبًا﴾ زيادة من أموالكم حاصلة من الربا، إنما أعطيتم ﴿لِّيَرْبُوَ﴾ ويزيد ﴿فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ مكافأة لهم، أو نية فاسدة أخرى بلا امتثال أمر الله وطلب مرضاته ﴿فَلَا يَرْبُو﴾ ولا يزيد لكم صرفكم هذا ﴿عِندَ اللهِ﴾ شيئًا من الثواب، بل لا يقبل عنده سبحانه أصلاً؛ لإفسادكم في أغراضكم ونياتكم ﴿وَ﴾ أمّا ﴿مَا آتَيْتُم﴾ وأعطيتم للفقراء ﴿مِّن زَكَاةٍ﴾ قد فرضها سبحانه عليكم امتثالاً لأمره، وإطاعةً لدينه على الوجه الذي أُمرتم به، مع أنكم ﴿تُرِيدُونَ﴾ وتقصدون بإخراجها وصرفها ﴿وَجْهَ اللهِ﴾ ومحض رضاه بلا خلط شيء من أماني أهويتكم، وتسويلات أمارتكم معها ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الفاعلون للزكاة على الوجه المذكور المأمور ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39] عند الله ثوابها إلى سبعين، بل إلى سبعمائة، بل إلى ما شاء الله عنايةً من الله، وإفضالاً لهم.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الروم: 40-43].

وكيف لا تطلبون وتقصدون بخيراتكم وصدقاتكم خالص وجه الله، وتشركون معه غيره من التماثيل والأظلال الهالكة، الباطلة العاطلة؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته، القادر المقتدر، الحكيم العليم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا لا بالقوة ولا بالفعل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أظهركم في بيداء الوجود ﴿رَزَقَكُمْ﴾ وأنعم عليكم من أنواع النعم؛ ليربيكم بها على مقتضى اللطف والكرم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقضى الأجل المسمى عنده لبقائكم في النشأة الأولى ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ على مقتضى قهره وجلاله تتميمًا لقدرته الكاملة الغالبة ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضت النشأة الأولى المعدة لأنواع الابتلاءات والاختبارات الإلهية، المتعلقة لحكمة إظهاركم وإيجادكم في عالم الكون والفساد؛ لتتزودوا فيها من المعارف والحقائق، والاتصاف بالأخلاق الإلهية لنشأتكم الأخرى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ فيها؛ للعرض والجزاء وتنقيد ما اقترفتم من الأعمال والأحوال في النشأة الأولى؛ لتجازوا بها على مقتضاها فيها.

وبعدما سمعتم ما سمعتم تأملوا وتدبروا منصفين أيها المشركون بالله المتوحد المتفرد، المستقل في التصرفات الواقعة في ملكه غيرةً منه سبحانه وحميَّة؛ لحمى قدس ذاته من أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله شائبة فتور وقصور، وبعدما سمعتم هذا من خواص اوصافه سبحانه تأملوا ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الذين ادعيتم شركتهم مع الله القادر المقتدر على أمثاله بالاستقلال والاختيار ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ الذي سمعتم صدوره منه سبحانه ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ حقير قليل، كلا وحاشا صدور شيء من الأشياء من غيره ﴿سُبْحَانَهُۥ﴾ أي: هو في ذاته منزه عن شوب الشركة والمظاهرة مطلقًا ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 40] أولئك المشركون المسرفون علوًا كبيرًا.

ومن كمال جهلهم بالله، وغفلتهم عن علو قدره وسمو مكانته ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ وأنواع البليات والمصيبات الواقعة ﴿فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1] من الجدب والعناء والوباء والزلزلة، وأنواع الحرق والغرق والضلالات الواقعة في السفن الجارية، مع أن أصل الظهور والبروز باعتبار الفطرة الأصلية على العدالة والاستقامة، وإنما ظهر ما ظهر من الانحرافات والانصرافات المنافية لصرافة الاعتدال الحقيقي الإلهي ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من الكفر والكفران، والفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة على الاعتدال والقسط القويم، والحكمة في صدور هذه الانحرافات والفسادات منهم: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ أي: ليذيق لهم العليم الحكيم في الدنيا وبال بعض أعمالهم الفاسدة، ويبقى بعضها إلى الآخرة ليستوفيها، وإنما نذيقهم نبذًا منها عاجلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] إلينا بعدما ذاقوا ما ذاقوا من أنواع المحن والشدائد.

---

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه غلب الإنسانية على الكون طاعةً ومعصيةً، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزقه العصيان فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تأثير لطفه وقهره، ولطفه وقهره هنا بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في بر النفوس وبحار القلوب، ففساد بر النفوس فترتها عن العبودية، وفساد بحر القلب احتجابه عن مشاهدة أنوار الربوبية. قال الواسطي: البر النفس، والبحر القلب، وفساد النفس متعلقٌ بفساد القلب، فمن لم يعمل في إصلاح قلبه بالتفكر والمراقبة وفي إصلاح نفسه بأكل الحلال ولزوم الأدب ظهر الفساد في ظاهره وباطنه. وقيل: في البر والبحر ؞ه السرائر والظواهر. قال جعفر: شاهد البر من عرف نفسه، وشاهد البحر من عرف قلبه، وصلاح هذين بالهيبة والحياء، فهيبة الرب تزيل فساد الظاهر، والحياء منه يميت فساد الباطن.

وإن أنكر هؤلاء المشركون إذاقتنا العذاب لأمثالهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة لأنواع الكون والفساد ﴿فَانظُرُوا﴾ نظر معتبر منصف، ومتأمل مستبصر؛ ليظهر عندكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ مع أنهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42] أمثالكم، مشاركين معكم في الشرك والكفر، وأنواع الفسوق والعصيان.

وبعدما أشار سبحانه إلى وخامة عاقبة أصحاب الآراء الفاسدة، والأهواء الباطلة من المنحرفين عن جادة الاستقامة، المنصرفين عن سبيل السلامة، أمر حبيبه ﷺ بالإقامة والاستقامة في منهج العدالة التي هي دين الإسلام الناسخ لجميع الأديان الباطلة، والآراء الزاهقة الزائلة، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: استقم وتوجه يا أكمل الرسل بوجه قلبك الذي يلي الحق ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المنزل من عنده سبحانه على الاستقامة والعدالة تفضلاً عليك وامتنانًا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ ويجيء ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يرد فيه ما نفذ من القضاء المبرم؛ لأن إتيانه ﴿مِنَ اللهِ﴾ العليم الحكيم على هذا الوجه؛ إذ لا استكمال ولا رجوع حينئذٍ، ولا ينفع الطاعة والعبادة حين حلوله، بل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: 43] أي: يتفرق الناس فرقًا، ويتحزبون أحزابًا على مقتضى ما كانوا عليه في نشأة الابتلاء والاختبار.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: 44-47].

﴿مَن كَفَرَ﴾ فيما مضى ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: وبال كفره وفسقه ملازم معه يدخله في النار، ويخلده فيها مهانًا ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما مضى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: 44] أي: فهم بإيمانهم وعملهم الصالح يمهدون، ويبسطون لأنفسهم منزلاً ومهادًا في الجنة هم فيها خالدون.

والسر في قيام الساعة والنشأة الأخرى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾

وأيقنوا بتوحيده وبجميع ما جاء من عنده على رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده امتثالاً لما أُمروا به على ألسنة رسله ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يجزيهم من محض فضله ولطفه معهم، ومحبته إياهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم وإيمانهم، ويجزي الكافرين أيضًا بمقتضى عدله بمثل ما اقترفوا من الكفر والشرك، وأنواع الظلم والضلال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [الروم: 45] المصرين على الكفر والضلال، سيما بعد إرساله سبحانه إليهم منْ يصلحهم ويهديهم إلى صراط مستقيم، فكذبوه وأنكروا له عنادًا واستكبارًا.

﴿وَمِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ سبحانه الدالة على كمال رأفته ورحمته للمؤمنين المتحققين لمرتبة التوحيد، المتمكنين بمقر الوحدة الذاتية: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ المشتملة لأنواع الروح والراحة، المهبة من نفحات النفسات الرحمانية؛ ليتعرضوا لها ويستنشقوا منها فيضان آثار اللطف والجمال، مع كونها ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ لمزيد فضله وطوله، ونزول أنواع رحمته وجوده ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ ويفيض عليكم ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِهِ﴾ ما ينجيكم ويخلصكم من لوازم بشريتكم وناسوتكم ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ أي: سفن تعيناتكم الجارية في بحر الوجود ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وعلى مقتضى مشيئته وإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا بعدما فوضتم أموركم إليه واتخذتموه وكيلاً ﴿مِن﴾ موائد ﴿فَضْلِهِ﴾ وإحسانه، وعوائد كرمه وجوده ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَ﴾ إنما فعل معكم سبحانه هذه الكرامات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: 46] رجاء أن تشكروا نعمه، وتفوزوا بمزيد كرمه، وتتحققوا بمقام معرفته وتوحيده الذي جبلتم لأجله.

ثمّ قال سبحانه مقسمًا تسليةً لرسول الله ﷺ وإزالةً لهمه وحزنه من تكذيب الجهلة المسرفين، المشركين بالله، المستهزئين مع رسوله: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿رُسُلاً﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ الذين ظهرتْ عليهم أمارات الكفر والطغيان، وعلامات الكفر والعدوان ﴿فَجَاءُوهُم﴾ مؤيدين من عندنا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة، والمعجزات اللائحة، ففاجئوا على تكذيبهم عنادًا واستكبارًا بلا تدبر وتأمل منهم في آياتهم وبيناتهم ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالجرائم العظام، سيما تكذيب الرسل - عليهم السلام - ﴿وَ﴾ كيف لا ننتقم عنهم بتكذيبهم رسلنا، مع أنه ﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ بمقتضى ما ثبت في لوح قضائنا، وحضرة علمنا ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47] أي: نصر الرسل والمؤمنين بهم،

وتغليبهم على الكافرين بعدما امتثلوا لأوامرنا، واجتنبوا عن نواهينا، وبلَّغوا جميع ما أمرناهم وأوحيناهم إلى ما أرسلناهم، فكذبوهم ولم يقبلوا منهم؟!.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم: 48-53].

فكيف لا يقبل منهم أولئك البعداء، المنكرون المسرفون وحي الحق إياهم وإلهامهم عليه، مع أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لجميع مراتب الأسماء والصفات الظاهرة، المتجلي على مقتضاها بالاستقلال إرادةً واختيارًا ﴿ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ﴾ المتنشئة من محض فضله وجوده بلا سبق سبب يوجبها، وعلة تقتضيها على ما جرى عليه عادته سبحانه في سائر الموجودات ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتحرك أجزاء البخار والدخان، ويمتزج بعضها مع بعض فتركمها وتكشفها حتى صارت ﴿سَحَابًا﴾ هامرًا ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ سبحانه ﴿فِي﴾ جو ﴿ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ عرضًا وطولاً، سائرًا وواقفًا، مطبقًا وغير مطبقٍ، إلى غير ذلك من الأوضاع الممكنة الورود عليها.

﴿وَ﴾ بعدما مهده سبحانه وبسطه ﴿يَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾[1] أي: قطعًا مختلفة ﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ ويفيض ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفتوقه بعدما تكوّن فيه

---

(1) قال في التأويلات: قطعًا، قطعة: تمطر غيث القربة على النفوس فتطهرها من الذنوب، وقطعة: تمطر على الأسرار بغيث الأنوار فتطهرها عن النظر إلى الأغيار، وقطعة: تمطر على الأرواح بغيث الكشف على الأسرار فتطوى ببساط الحشمة على ساحات قربه وتضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أنهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قدسه ويسقيهم بكأس التجلي شراب طهور محبته، وبعدما محاهم عن أوصافهم أصحهم لا بهم ولكن بنفسه والعبارات عن ذلك خرس والإشارات دونها طمس.

بقدرة الله من اجتماع أجزاء الأبخرة والأدخنة المتصاعدة الممتزجة، المتراكمة المتكاثفة، المتفاعلة بعضها مع بعض إلى أن صارت ماء فتقطر وتسيل ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِۦ﴾ أراضي ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ عنايةً منه سبحانه إياهم، وتفضلاً عليهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: 48] أي: فوجئوا بنزوله إلى أنواع الاستبشار والابتهاج، والفرح والسرور متفائلين بنزوله إلى الخصب والرخاء، وأنواع البهجة والصفاء.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل ثوران الأبخرة والأدخنة، وانعقاد السحب وتراكمها منها ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: 49] آيسين قانطين؛ لطول عهد عدم نزوله إياهم.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها المؤمن المعتبر، الناظر بنور الله ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وكمال فضله وجوده ﴿كَيْفَ يُحْىِ﴾ ويخضر ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: جمودها ويبسها، وعدم نضارتها ونزاهتها، ويظهر عليها أنواع الأزهار والأثمار عنايةً منه سبحانه لعباده، وفضلاً لهم؛ ليتزودوا بها ويسلكوا سبيل هدايته وتوحيده ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ القادر المقتدر بالإرادة التامة والاختيار الكامل ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ومخرجها ألبتة من قبورها وقت تعلق إرادته بإحيائها ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دخل في حيطة حضرة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50] على الوجه الأتم الأكمل بلا فتور وقصور؟!.

﴿وَ﴾ من عدم رسوخهم في الدين القويم، وقلة تثبتهم على الصراط المستقيم ﴿لَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ عليهم ﴿رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي: ما هبت عليه من الزروع ﴿مُصْفَرًّا﴾ من أثرها بعدما كان مخضرًا؛ يعني: لا يربي زروعهم ولا ينميها، بل يضعفها ويرديها، مع أن إضرارها واصفرارها أيضًا إنما هو بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: صاروا وأخذوا بعد اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: 51] بالله وبنعمه، وينكرون بعموم فضله وكرمه، مع أن أخذهم بالبأساء والضراء؛ إنما هو ليتضرعوا نحوه، ويلتجئوا إليه منيبين خاشعين خاضعين؛ ليكشف عنهم ما يضرهم؛ إذ لا كاشف إلا هو، ولا منجي لهم سواه.

وبالجملة: هم من خبث طينتهم، وجمود قريحتهم أموات حقيقة ومعنى، وإن كانوا من الأحياء صورة، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبشأنهم، ولا تجتهد إلى إهدائهم وتكميلهم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: ليس في وسعك وطاقتك إسماع الموتى، بل

ما عليك إلا التبليغ والدعوة ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الجبلي ﴿الدُّعَآءَ﴾ والدعوة، سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وانصرفوا عنك ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: 52] معرضين منكرين لك، مكذبين رسالتك ودعوتك.

﴿وَ﴾ كيف تجتهد وتسعى يا أكمل الرسل في حصول ما هو خارج عن وسعك وطاقتك، مع أنك لا تُؤمر به؟! إذ ﴿مَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ إذ هم مجبولون على الغواية الجبلية في أصل فطرتهم، فاقدون بصائر قلوبهم المدركة دلائل التوحيد وشواهد الوحدة الذاتية، ولا يتأتى لك أن تهديهم إلى طريق التوحيد وترشدهم إليه ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ بتبليغك وإرشادك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ ونوفقهم على الإيمان بمقتضى ما ثبت وجرى في لوح قضائنا وحضرة علمنا ﴿فَهُم﴾ بعدما سبقت العناية منا إياهم ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: 53] منقادون لك، مسلمون منك جميع ما بلغت لهم من شعائر الدين، ودلائل التوحيد واليقين.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: 54-57].

ثمّ قال سبحانه على سبيل الامتنان إظهارًا لكمال قدرته على إبداء الشئون والتطورات الواردة على عباده حسب تعاقب الأزمنة والأوقات في النشأة الأولى، فكيف ينكرون إعادتها في النشأة الأخرى مع أن الإعادة أهون من الإبداء، وإن كان الكل في جنب قدرته على السواء: ﴿اللهُ﴾ القادر المقتدر، الحكيم المتقن في أفعاله وأحكامه، العليم بمقتضاها هو ﴿الَّذِي خَلَقَكُم﴾ وقدر وجودكم بعدما أبدعكم من كتم العدم في عالم الطبيعة والهيولي ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ هو ماء النطفة الضعيفة المهينة ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ ما صير وخلق ﴿مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ كائن في نشأة النطفة ﴿قُوَّةً﴾ جسمانية متزايدة مستكملة فيها إلى أن بلغت كمال الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كائنة في

عالم الشباب ﴿ضَعْفًا﴾ وانحطاطًا ﴿وَشَيْبَةً﴾[1] مضعفة لجميع القوى والآلات، منتهية إلى الهرم الذي عبر عنه سبحانه بأرذل العمر؛ كي لا يعلم صاحبه من بعد علم شيئًا، وبالجملة: ﴿يَخْلُقُ﴾ ويظهر سبحانه جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ويريد إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع ما أحاط عليه إرادته ومشيئته ﴿الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54] لإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ كيف ينكر من ينكر الحشر والنشر، وإعادة الموتى أحياءً بعدما شهد هذه التطورات المتخالفة المتعاقبة؟! اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة المعدة لحشر الأموات من الأجداث ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقسم ويحلف كلٌ منهم عند صاحبه بمدة لبثهم في الدنيا مترفهين متنعمين، واتفقوا بعدما اختلفوا وترددوا في مكثهم فيها أنهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فيها ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ واحدة بالنسبة إلى طول يوم القيامة، ومن شدة عذابها وأهوالها، وكثرة الهموم والأحزان فيها صار لبثهم في الدنيا مدة أعمارهم فيها ساعة واحدة عندهم، بل بعضهم تخيلوا أقصر منها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل صرفهم عن طول مدة مكثهم في الدنيا يوم القيامة ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: 55] ويصرفون في النشأة الأولى عن طريق التوحيد، وسبيل الهداية والرشاد من كمال غفلتهم وقسوتهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمع منهم المؤمنون الموحدون استقصارهم مدة لبثهم فيها، وانصرافهم عن الحق ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ اللدني من قِبَل الحق ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ بالمغيبات التي أُمروا بتصديقها على ألسنة الرسل والكتب، سيما يوم البعث والنشور ردًا عليهم، وتخطئةً لهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ في الدنيا بمقتضى ما ثبت ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾

---

(1) قال في التأويلات: في الإيمان لمن كان العقل عقيلته فكما تعقل بعلاقة المعقولات، فينظر فيها بداعية الهوى بنظر مشوب بآفة الوهم والخيال، فيقع في ظلمات الشبهات فتزل قدمه عن الصراط المستقيم والدين القويم فيهلك كما هلك فمن شرع في تعلم المعقولات بلا نور المتابعة ونور الشريعة وسعوا في إبطال الشريعة بظلمة الطبيعة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:8] وأيضًا خلقكم من ضعف أي ضعف التردد والتحير في الطلب، ثم جعل من بعد ضعف قوة في صدق الطلب، ثم جعل من بعد قوة في الطلب ضعفًا في حمل القول الثقيل وهو حقيقة قوله: لا إله إلا الله فإنها توجب الفناء الحقيقي في المعنى ويوجب الضعف الحقيقي في الصورة بحمل المعاتبات والمعاشقات التي تجري بين المحبين فإنها تورث الضعف أو الشيب، كما قال النبي ﷺ: «شيبتني سورة هود وأخواتها».

ولوح قضائه، وحضرة علمه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ وحشر الموتى، وقيام الساعة ﴿فَهَٰذَا﴾ اليوم الذي أنتم فيه معذبون الآن ﴿يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الموعود لكم في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ من خبث طينتكم وجهلكم ﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 56] ولا تؤمنون به، ولا تصدقون قيامه، بل تنكرونها وتكذبون من أخبر بها من الرسل العظام، مع أنهم مؤيَّدون مِّن قِبَل الحق بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الباهرة الظاهرة.

وبعدما فوَّتوا الفرص في دار الاختبار، وضيعوا عين العبرة والاعتبار فيها ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين قيام الساعة، وانقضاء أيام التفقد والتدارك ﴿لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالخروج عن حدود الله والعرض على عذابه ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عذر منهم ليعتذروا عن قصورهم، ويتوبوا عن فتورهم متداركين لما فوَّتوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: 57] أي: لا يُطلب منهم العتبى حتى يزول عتابهم بالتوبة والإنابة والندم والرجوع؛ إذ قد انقضت نشأة الابتلاء والاختبار، حينئذٍ لا يُقبل منهم التوبة والعبادة أصلاً.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: 58-60].

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التأكيد والمبالغة مشيرًا إلى كمال قسوة أهل الزيغ والضلال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ وبيَّنا ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين طريق الوصول إلى توحيدنا ووحدة ذاتنا ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المنزل من عندنا؛ لتبيين طريق توحيدنا، وسلوك سبيل الاستقامة والرشاد فيه ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبئ لهم عنه، وينبئهم عليه، ويبين لهم كيفية التنبه والتفطن منه، ومع ذلك لم يتنبهوا ولم يتفطنوا إلا قليلاً منه ﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم، ونهاية غفلتهم وضلالهم ﴿لَئِن جِئْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن ملجئةٍ لهم إلى الإيمان، لو تأملوا معناها وتدبروا فحواها ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن الحق، وانصرفوا عن توحيده والإيمان على سبيل الحصر والمبالغة بلا مبالاة بك وبآياتك: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في دعواكم هذه أيها المدعون الكاذبون - يعنون: الرسول والمؤمنين - ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: 58] مفترون مزورون، تفترون على الله ما

تختلقون من تلقاء نفوسكم تغريرًا وترويجًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل طبعهم وختمهم الذي شهدت يا أكمل الرسل من هؤلاء الجهلة ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله، ويختمه ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ جميع الكفرة والجهلة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 59] الحق، ولا يذعنون به؛ لتركب جهلهم في جبلتهم، والجهل المركب لا يزول بالقواطع والشواهد قطعًا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

وما متى سمعت يا أكمل الرسل من أحوالهم وأوصافهم ما سمعت من عدم قابليتهم واستعدادهم إلى الهداية والرشاد ﴿فَاصْبِرْ﴾[1] على إيذائهم، وثق بالله وبوعده الذي وعدك بأن يُظهر دينك على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ وإنجازه لما وعد به ﴿حَقٌّ﴾ بلا خلف وتردد ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يحملنَّك ويبعثنَّك يا أكمل الرسل على الخفة والاضطراب، وقلة التصبر، وعدم الثقة بالله القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60] ولا يتصفون باليقين في أمر من الأمور أصلاً، فكيف بالمعارف والحقائق الإلهية؛ إذ هم مجبولون على فطرة الضلال، مترددون في بيداء الوهم والخيال، لا نجاة لهم منها في حال من الأحوال؟!.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا عن مضيق الجهل والضلال، ووصلنا إلى سعة العلم وفضاء الوصال، نحمدك على كل حال، ونستعيذ بك منك من جميع الأهوال.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتحقق لمرتبة اليقين العلمي والعيني والحقي - مكنك

---

(1) في العبودية، فإن بعد أداء العبودية كشف الربوبية لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾: بكشف الحجاب لك، ويا عاقل إن أشد الصبر، الصبر في الحجاب، ثم الصبر في العتاب، ثم الصبر في كشف النقاب، ثم الصبر في الخطاب، ثم الصبر في القربات، ثم الصبر في المداناة، ثم الصبر في الوصلات، ثم الصبر في لطف الأنس، ثم الصبر في سطوة القدس، ثم الصبر في الانبساط، ثم الصبر في العربدة، ثم الصبر في الاتصاف، ثم الصبر في الاتحاد، ثم الصبر في السكر، ثم الصبر في الغيبة عن الحق، ثم الصبر في رؤية نفسه بعد غيبة الحق، ثم الصبر في غلبة الأنانية، هذا أشد جميع الصبر والاصطبارات، ولا يعرف هذه المقامات في الصبر إلا ذو الكمال من العارفين. وقال رويم: الصبر ترك الشكوى. وقال المحاسبي: الصبر التهدف بسهام البلاء.

الحق في مقر لاهوتك، وجنبك عن لوازم ناسوتك مطلقًا - أن تتصبر على أذيات أصحاب التقليدات والتخمينات، وتتحمل على تشنيعات أرباب الظنون والجهالات المترددون في تيه الجهل والضلال بمتابعة الوهم والخيال، وتصفي خاطرك وضميرك عن معارضتهم ومقابلتهم، والبغض معهم والالتفات إليهم مطلقًا؛ إذ هم قوم خذلهم الله وأحطهم عن مرتبة الإنسان التي هي التحقق بمقام اليقين والعرفان، والتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة من الرحمن المستعان، والتخلق بأخلاق الحنَّان المنَّان، وأسكنهم في مضيق الإمكان مقيدين بسلاسل التقليد وأغلال الحسبان، لا نجاة لهم منها أبدًا.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك، وتفوض أمورك كلها إليه وتتخذه وكيلاً، وتجعله حسيبًا وكفيلاً، فإنه سبحانه يكفيك مؤنة شرور أعدائك وحاسديك، ولك التبتل والانقطاع إلى الله في كل الحالات، والرجوع نحوه في جميع المهمات والملمات؛ إذ ما من خير يسرك وشر يضرك إلّا منه بدأ وبقدرته ظهر، وعلى مقتضى علمه صدر وبموجب حكمته جرى وقدر.

فلك أن تسترجع إليه، وتتضرع نحوه، وتستعيذ منه به؛ إذ الكل من عنده لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة لقمان

لا يخفى على من تحقق بالمرتبة الحكمية العليَّة من مقامات سالك التوحيد، وتمكن عليها مطمئنًا راضيًا، مداومًا على الميل المعنوي والتوجه التام بجميع الجوارح والأركان نحو الحق، مسقطًا عن نفسه جميع ما يشغله عن التوجه والالتفات إلى المبدأ الحقيقي، والمنشأ الأصلي على الوجه الأتم الأكمل، إن الوصول والتحقق بمرتبة التوحيد والهداية الحقيقية، والتكمن في مقر الاطمئنان واليقين، والنيل إلى شرف الفناء في الله والبقاء ببقائه إنما يحصل برفع الموانع، ورفض الرسوم والعادات العائقة عن إدراك السعادات، وذلك لا يتم إلا بعد خلع خُلع الناسوت مطلقًا، وترك مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الجسمانية رأسًا.

وذلك لا يتيسر إلا بارتكاب متاعب الطاعات، ومشاق التكليفات القاطعة القالعة عرق التعلقات المرتكزة في القوى البشرية، وأصول اللذات الوهمية اللازمة للنفوس البهيمية، والهياكل الهيولانية المستحدثة من خبث الطبيعة المكدرة بأدناس الإمكان المفضي بالطبع إلى الدناءة والنقصان، وأنواع الخساسات والخسران.

والخلاص عن أمثال هذه الموانع والشواغل إنما هو بتوفيق الله وجذبٍ من جانبه، وإرشاد مرشدٍ نبيهٍ مؤيَّدًا من عنده سبحانه بالدلائل والتنبيهات، وأنواع المعجزات والتبيينات الخوارق للعادات.

ولهذه المصلحة العليَّة، والحكمة السنيَّة خاطب سبحانه حبيبه ﷺ بما خاطب بعدما تيمن بذكره الأجلّ الأعلى، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنشأ ينابيع الحكمة من قلوب أنبيائه وأوليائه، وأجرى على ألسنتهم أنهار المعارف والحقائق المنتشئة منها إرشادًا لعموم عباده ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل المؤيَّدين من عنده بنزولِ الكتب والصحف تتميمًا لمكارم أخلاقهم، ومحاسن أطوارهم وشيمهم؛ ليستعدوا بقبول دلائل التوحيد، ونزول سلطان الوحدة على قلوبهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى مبدئهم الأصلي ومنشئهم الحقيقي بعد رفع تعيناتهم، ونفي هوياتهم الباطلة.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: 1-7].

﴿الم﴾[1] [لقمان: 1] أيها الإنسان الكامل اللائق للوامع لطائف أنوار الوجود الإلهي، ولوائح آثار جوده، المكرم المؤيَّد من عنده بمزيد اللطف والكرم، الممتاز المتخصص من بين جميع مظاهره بالمرتبة الجامعة المستجمعة لجميع المراتب العلية.

﴿تِلْكَ﴾ الآيات المتلوة عليك يا أكمل الرسل امتنانًا لك، واختصاصًا بشأنك ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: نبذ من آيات الكتاب ﴿الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: 2] المشتمل على الحكمة المتقنة، المنبعثة عن اجتماع القدرة الكاملة والإرادة الخالصة، المترتبتين على العلم الكامل الإلهي الذي لا يغيب عن حضرة حضوره ذرة من ذرائر ما لاحت عليه شمس الوجود.

ولجمعيته وشموله، وصدق نزوله من عند الله اتصف بوصفه سبحانه تأكيدًا ومبالغةً، ولكونه نازلاً من عنده سبحانه على مقتضى الحكمة البالغة؛ لتأييد رسوله المبعوث إلى كافة الأمم صار ﴿هُدًى﴾ عامًا، ورشدًا تامًا كله للممتثلين بما فيه من الأوامر والنواهي، والأحكام والقصص، والتذكيرات والعبر، والرموز والإشارات ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصة نازلة من عنده سبحانه ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: 3] الذين لا يرون غير الله في الوجود، ولا يعبدون سواه من الوسائل، ولا ينسبون الحوادث الكائنة في الآفاق إلى الأسباب العادية، والمحسنون المرضيون عند الله، الراضون بما جرى عليهم من نفوذ القضاء.

هم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ويواظبون عليها في جميع أوقاتهم وحالاتهم، سيما

(1) قال في التأويلات: يشير بالألف إلى آلائه، وباللام إلى لطفه وعطائه، وبالميم إلى مجده وثنائه، فبآلائه رفع الجحد من قلوب الأولياء، وبلطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وثنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

الأوقات المحفوظة المقبولة ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ وينفقون جميع ما في أيديهم من الرزق الذي يسوق الحق إليهم في سبيله طلبًا لمرضاته، سيما ﴿الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم من عنده سبحانه تزكيةً لظواهرهم عن الالتفات إلى ما يشغلهم ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون أولئك السعداء المقبولون بتهذيب الظاهر والباطن، بل ﴿هُم بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد الأعمال وجزاء الأفعال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: 4] علمًا وعينًا وحقًا.

وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالخصائل السنّية والأخلاق المرضية ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ صريح صحيح، فائض نازل إياهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تفضلاً عليهم، وامتنانًا لهم ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الأمناء المقبولون المرضيون عند الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: 5] المقصورون على الفوز والفلاح ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على كفران نعم الله، ونسيان حقوق كرمه وجوده ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ ويستبدل آيات الكتاب المشتمل على أنواع الفضائل والكمالات، وأصناف الهدى والكرامات ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾[1] أي: يستبدل الآيات الإلهية، ويختار بدلها من الأراجيف الكاذبة ما يلهي النفوس، ويشغلها عما يعنيها ويفيدها، ويقربها إلى ما لا يعنيها ويضرها، وما ارتكب ذلك الضال المضل بما ارتكب من الاشتراء والاستبدال الفاسد إلّا ﴿لِيُضِلَّ﴾ ويصرف ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من يميل إليها ويتوجه نحوها؛ ليتدين بدين الله، وينقاد لنبيه على مقتضى فطرته الأصلية، مع أنه صدر عنه هذا الصرف والمنع ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق به منه نقلاً أو عقلاً، عن جهل مرتكز في جبلته، وحميته مركوزة في خبث طينته وطبيعته.

---

(1) قال في التأويلات: فما يشغل عن الله ذكره ويحجب عن الله سماعه فهو لهو الحديث، وأما الغناء فمنه محرم وهو ما صرح تحريمه الشرع مثل المزامير وطبل المخنثين، ومنه ما لم يتعرض له الشرع أنه حلال أم حرام فهي كسائر المباحات، ومن جملتها مثل الدف والغناء بالكف في ظاهر الشرع كما حكم به الشافعي رحمه الله، وأما على مذهب أهل الحقيقة فالحكم في المباح منها ما أفتى به الجنيد -قدس الله روحه- فقال: السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم، وعلى أهل القلوب مباح لوقوف علومهم وصفاء قلوبهم، واجب على أصحابنا لفناء حظوظهم، وقال أبو بكر الكتاني: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام، فلا ريب في أن السماع مشتمل على كثير من الفوائد.

﴿وَ﴾ بسبب ذلك الجهل الجبلي ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ إلى الآيات الموصلة إلى طريق الحق وتوحيده ﴿هُزُوًا﴾ أي: محل استهزاء وسخرية؛ لجهله وغفلته عن السرائر المودعة فيها، والأسرار المكنونة في فحاويها ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجبولون عن الغواية والضلالة أصلاً وفرعًا، تابعًا ومتبوعًا ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: 6] يهينهم فيها بدل ما استهانوا بكتاب الله، واستهزءوا برسله ظلمًا وزورًا بلا تدرب وتدبر.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمته، وبغضه بالله ورسوله وكتابه، ونهاية عتوه وعناده ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ وقرئ عنده ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿وَلَّى﴾ عنها، وأعرض عن استماعها، وانصرف عن قبولها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عليها، متجافيًا كشحه عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مع أنها تُتلى عليهم قصد الاستماع، ولم يلتفت إليها ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ صممًا يعوقه عن السماع والاستماع ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أعرض عن كتاب الله، واستنكف عن استماعه وإصغائه مستخفًا عليه، مستحقرًا إياه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7] مؤلم في غاية الشدة والألم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: 8-11].

ثمّ عقب سبحانه وعيد الكفرة الهالكين في تيه الغي والضلال بوعد المؤمنين على مقتضى سنته المستمرة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرضية له سبحانه، المقبولة عنده على مقتضى ما نزل عليهم من الآيات الواردة إياهم، المصفية لظواهرهم وبواطنهم ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى جزاء ما أتوا به من الإيمان والعمل الصالح في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: 8] متنزهات مملوءة بألوان النعم، وأصناف الجود والكرم، لا يتحولون منها أصلاً، بل صاروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مترفهين بنعيمها لا يمسهم فيها نصب ولا وصب ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعد لخلّص عباده من عنده على مقتضى علمه وإرادته لا بدّ له أن ينجزه ﴿حَقًّا﴾

صدقًا بلا خلف وتردد ﴿وَ﴾ كيف يخلف في وعده ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 9] المتقن في إيجاده وإظهاره على الوجه الذي أراد.

ومن جملة حكمته المتقنة المتفرعة على حضرة علمه المحيط، وقدرته الشاملة، وإرادته الكاملة أنه ﴿خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسانيد على الوجه الذي ﴿تَرَوْنَهَا﴾ معلقة على الأرض بلا استناد واتكاء ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي عالم المسببات ﴿رَوَاسِيَ﴾ شامخات، وجبالاً راسيات؛ كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتميل عليكم وقت ترددكم وتحرككم عليها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: بسط عليها، ونشر ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ تتحرك عليها متبادلة متقابلة كيف اتفق؛ لتستقر وتتمكن؛ لأن طبيعتها في حد ذاتها كانت على الحركة والاضطراب؛ إذ هي محفوفة بالماء السائل المجبول على الحركة والسيلان، وبالهواء المتموج بالطبع، وبالنار المضطربة، وبالأفلاك المتحركة بطبقاتها ﴿وَ﴾ بعدما شهدناها وألقينا عليها من الرواسي العظام تتميمًا لتقريرها ﴿أَنزَلْنَا مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ مستحدثًا من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة المتراكمة، المستحيلة بالماء بمجاورة الكرة الزمهريرية ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ وأخرجنا بإنزال الماء عليها ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض المنبسطة اليابسة بالطبع ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات مزدوج مع شاكلته ﴿كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10] كثير المنافع والفوائد، مصلح للأمزجة، مقوم لها؛ لتعيشوا عليها مترفهين متنعمين، شاكرين لنعمنا، غير كافرين بمقتضى جودنا وكرمنا.

ثمَّ قال سبحانه من مقام العظمة والكبرياء، وكمال المجد والبهاء على سبيل الإسكات والتبكيت لمن أشرك معه غيره عنادًا ومكابرةً: ﴿هَٰذَا﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على السمع والإصغاء ﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر ذي الحول والقوة الغالبة، والطول العظيم ﴿فَأَرُونِي﴾ أيها المشركون المسرفون، المفرطون في دعوى الشرك معه سبحانه ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ أي: أيّ شيء أظهر وأوجد الشركاء ﴿الَّذِينَ﴾ تعبدونهم وتدعون نحوهم في الخطوب، وتدعون أنهم آلهة ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه مستحقة للعبادة والرجوع، قادرة على لوازم الألوهية والربوبية، فسكتوا بعدما سمعوا ما سمعوا باهتين، وانقلبوا حينئذٍ صاغرين ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ المجبولون على الظلم والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، سيما بدعوى الشركة واتخاذ إلهٍ سواه - العياذ بالله منه - ﴿فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ﴾ [لقمان: 11] وغوايةٍ ظاهرةٍ، وطغيانٍ عظيمٍ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 12-15].

ثمّ قال سبحانه عن سبيل إظهار الفضل والامتنان، والتفرد بمقتضى الألوهية والربوبية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا ﴿لُقْمَانَ﴾ بن باعورا بن ناخور بن آزر، فكان ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، وعاش إلى أن أدرك داوود عليه السلام فأخذ منه العلم و﴿الحِكْمَةَ﴾ وهي عبارة عن اعتدال الأوصاف الجبلية المودعة في النفوس البشرية على مقتضى الفطرة الأصلية، والتخلق بالأخلاق المرضية المنتشئة من الأوصاف الذاتية الإلهية، وقلنا له بعدما أنعمنا عليه نعمة الحكمة، وأعددناه لقبول فيضان أنواع اللطف والكرامات: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلهِ﴾ واصرف بمقتضى الحكمة الموهوبة لك من عندنا جميع ما أعطيناك من النعم العظام على ما جبلناها لأجله؛ لتكون من زمرة الشاكرين المواظبين على أداء حقوق جودنا وكرمنا، ومن جملة المطيعين لمقتضيات حكمتنا وأحكامنا.

﴿وَ﴾ اعلم أيها المجبول على الحكمة الفطرية أنه ﴿مَن يَشْكُرْ﴾ نعمنا عاد على نفسه فوائد كرمنا ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ إذ فائدة شكره عائدة إليه، مزيدة لنعمنا إياه، مستجلبة لأنواع لطفنا وإحساننا معه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ لنعمنا من خبث طينته، وأعرض عن أداء حقوق كرمنا إياه، فوبال كفرانه أيضًا عائد إلى نفسه؛ إذ عندنا الشكر والكفر سيان، ونحن منزهون عن الربح والخسران ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المتجلي على عموم الأنفس والآفاق بالاستحقاق ﴿غَنِيٌّ﴾ بذاته عن جميع صور إحسان عباده معه ﴿حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12] هو في ذاته باعتبار أوصافه الذاتية الظاهرة آثارها على صفائح الأكوان والمكونات،

المتجهة نحو مبدعها، المثنية له حالاً ومقالاً، سرًا وجهارًا.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين معناه تذكيرًا لهم، وعظةً عليهم: ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ﴾ المسمى بأنعم أو أشكم، أو ماثان قولاً ناشئًا عن محض الحكمة المتقنة، الموهوبة له من عنده سبحانه ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ ويقصد تهذيب ظاهره وباطنه عن الأخلاق الرديّة والخصائل الدنيّة، مناديًا إياه، مصغرًا على سبيل التحنن والتعطف، وكمال الترحم والتلطف، مضيفًا إلى نفسه؛ ليقبل منه ما أوصاه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾[1] المنزه عن الشريك والشبيه، والكفء والنظير، واعلم أن أجلّ أخلاقك، وأعز أوصافك: التوحيد وتنزيه الحق عن الشبيه والتعديد، وأخس أوصافك، وأرذل أخلاقك، وأردى ما جرى في خلدك وضميرك: الشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ﴾ واعتقاد التعدد والاثنينية في حق الحق، الحقيقي بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: 13] لا ظلم أعظم وأفحش، أعاذنا الله وعموم عباده منه.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوصية والمبالغة تأكيدًا وتحقيقًا على ما أوصى به لقمان ابنه من النهي عن الشرك، والزجر عنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ وألزمنا عليه أولاً بعدما أظهرناه قابلاً لحمل التكاليف المستكملة ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: بإطاعتهما، وبحفظ آداب المعاشرة والمصاحبة معهما، ورعاية حقوقهما على ما ينبغي ويليق بلا فوت شيء من حقوقهما، سيما الوالدة المتحملة لأجله أنواع المحن والمشاق؛ إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ بواسطة حمله في بدء وجوده ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: ضعفًا على ضعف؛ إذ كلما ازداد نشوءه ازداد ضعفها إلى أن انفصل عنها، وبعد انفصاله تداوم لحفظه وحضانته إلى فطامه ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أي: فطامه إنما هو ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ وبعدما انفطم تلازم أيضًا على

---

(1) رؤية ما دون الله شركٌ في التوحيد من العرش إلى الثرى، والشرك على ثلاثة أقسام: شرك النفس، وهو حظها من الدنيا، وشرك العقل، وهو حظها من الآخرة، وشرك القلب، وهو حظها من صفاء العبودية، وأخفى من الشرك ما تستلذ الروح من تروح أنس الله، وهو أعظم الحجاب؛ لأن من بقي من حظه الأكبر فقد احتجب عن الغوص في بحار الألوهية والسير في ميادين الأزلية، والوصل زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله.

قال بعضهم: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك وهو التفرد للحق بالكل نفسًا وقلبًا وروحًا، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد في التوحيد.

حفظه إلى وقت بلوغه، وبعدما بلغ سن التكليف قلنا له: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ أيها المكلف المتنعم بأنواع النعم مني أصالةً وتسببًا؛ لأني خلقتك وأظهرتك من كتم العدم ولم تك شيئًا.

﴿وَ﴾ اشكر أيضًا ﴿لِوَالِدَيْكَ﴾، ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24] لإقامتهما على حفظك وحضانتك إلى أن كبرت، وبلغت مرتبة أشدك، وكمال عقلك ورشدك، واعلم أن شكرك لهما راجع إليَّ أيضًا؛ إذ أقدرتهما ومكنتهما على حفظك، وألقيت محبتك في قلبيهما، وبالجملة: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14] والمرجع في جميع الأفعال الصادرة من العباد ظاهرًا؛ إذ هم وما صدر عنهم من الأفعال مستندون إلينا أولاً وبالذات، وكيف لا تُستند أفعالهم إلينا؛ إذ جميع ما صدر عنهم تابع لوجوداتهم، مترتب عليها؟! والحال أنه ليس لهم وجود في أنفسهم، بل وجوداتهم إنما هي رشحة من رشحات وجود الحق، وفيء من أظلال أوصافه وأسمائه الذاتية.

﴿وَ﴾ بعدما أكدنا عليكم أيها المكلفون في حفظ حقوق والديكم، وبالغنا فيه ﴿إِن جَاهَدَاكَ﴾ أي: والداك أيها المكلف، واجتهدا في شأنك، وبالغا في الجهد والسعي إلى أن قاتلا معك وأرادا مقتك ﴿عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي﴾ وتعتقد ربًا سواي وتعبده مثل عبادتي، مع أنك خالي الذهن؛ إذ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يتعلق بنفي الشريك وإثباته أيضًا ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في أمرهما هذا وسعيهما فيه؛ إذ أصل فطرتك مجبولة على التوحيد سواء تعلق علمك به أو لم يتعلق، فلك ألّا تطعهما وتنصرف عن أمرهما هذا ﴿وَ﴾ مع انصرافك عن أمرهما هذا ﴿صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا﴾ وإن كانا مشركين ﴿مَعْرُوفًا﴾ مستحسنًا عقلاً وشرعًا ومروءةً حفظًا لحقوقهما.

﴿وَ﴾ لا تتبع بشركهما وكفرهما، بل ﴿اتَّبِعْ﴾ في الدين والملة ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ ورجع ﴿إِلَيَّ﴾ ودين من توجه نحوي موحدًا إياي، بريئًا من الشرك معي، وبالجملة: امض على التوحيد واسلك طريقه مادمت في دار الابتلاء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضت النشأة الأولى ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ تابعًا ومتبوعًا، أصلاً وفروعًا ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15] أي: بتفاصيل أعمالكم التي صدرت عنكم في دار الاختبار، وأجازيكم على مقتضاها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي

ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 16-19].

وبعدما سجَّل لقمان على ابنه التوحيد بنفي ضده على طريق المبالغة والتأكيد، أراد أن ينبه عليه بأنه لا بدَّ له أن يحفظ على نفسه الأدب مع الله في كل الأحوال، بحيث لا يصدر عنه شيء يخالف توحيده، ولا يلائمه ولو كان ذرة حقيرة؛ إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه سبحانه شيء، فقال أيضًا مناديًا: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ أي: الخصلة الذميمة التي أتيت بها المنافية للتوحيد، أو الخصلة الحميدة الملائمة له، لا يعزب كلاهما عن علم الله مطلقًا، وبالجملة: ﴿إِن تَكُ﴾ فرضًا ما جئت به من الخصلة الذميمة والحميدة في صغر الحبة والوزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ واحدة كائنة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: هي مثل في الحقارة والصغر ﴿فَتَكُن﴾ أنت بعدما جئت بها ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في جوفها، وهي أخفى المواضع وأستر الأمكنة ﴿أَوْ فِي﴾ أعلى ﴿السَّمَوَاتِ﴾ وفوقها، وهو ما وراء الفلك الأطلس ﴿أَوْ فِي﴾ أسفل ﴿الأَرْضِ﴾ وقعرها.

وبالجملة: إن كنت في أخفى الأماكن وأحفظها ﴿يَأْتِ بِهَا﴾ أي: بك وبخصلتك التي صدرت عنك ﴿اللهُ﴾[1] الرقيب عليك في جميع حالاتك، ويجازيك بمقتضاها إن تعلق إرادته ومشيئته بإحضارك وإتيانها، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿لَطِيفٌ﴾ لا يحجبه حجب، ولا يمنعه سدل ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16] ذو خبرة، يعلم كنه الأشياء وإن دقت ورقت ولا يكتنه ذاته، مع أنه أظهر وأبين في ذاته من عموم مظاهره ومصنوعاته.

(1) قال الورتجيبي: كيف يخفى على موجد الأشياء شيء وهو منشئه؛ فهذا تنبية منه لإحاطة علمه القديم بكل ذرة من العرش إلى الثرى ظاهرها وباطنها؛ حتى يفرغ المراقب الصادق من اطلاع الحق بوصف العظمة والكبرياء على نوادر الخطرات وبطون الحركات، فإن كان خاطره بادرًا من قهره سبحانه تستتر في جريانه في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح أو في أرض القلوب، يظهره الحق إلى عرصة العقل لعين السر، فيحاسبه بذلك، ويعرفه مكان نفعه وضره؛ ليعرف صاحبه وصف جلال علمه كيف يحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر.

وبعدما سمعت ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وصف ربك وحيطة علمه وقدرته، ولطافة إطلاعه وخبرته ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: داوم ميلك نحوه بجميع أركانك وجوارحك مخلصًا في ميلك ورجوعك إليه سبحانه، محرمًا على نفسك جميع ما يشغلك عن ربك، مجردًا عاريًا قلبك عن جميع منسوباتك ومقتضيات بشريتك ولوازم هويتك ﴿وَأْمُرْ﴾ يا بني على بني نوعك أولاً إن قصدت تكميلهم وإرشادهم إلى مقصد التوحيد ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا، وكلم معهم على قدر عقولهم بلا إغراء ولا إغواء، ولا تفش عليهم سر التوحيد ما لم يستحقوا لحفظه، ولم يستعدوا له قبوله ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستهجن عقلاً وشرعًا، وعادةً ومروءةً، ونبههم على وجه القبح والهجنة، وألطف معهم في تبيينها لعلهم يتفطنون بقبحها بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها في بدء الأمر.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ في تمشية سلوك التوحيد، وتقوية طريقه، وكن متحملاً على مشاق الطاعات ومتاعب العبادات، وارض من ربك بجميع ما جرى عليك، وثبت لك في لوح قضائه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور؛ أي: كل واحد من الأمور المذكورة والخصائل المأمورة ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17] أي: من الأمور التي عزم الحق عليها، وأوجبها على أولي العزائم الصحيحة من خلَّص عباده إرشادًا لهم إلى وحدة ذاته، وزلال هدايته الصافية عن كدر الضلالات والجهالات.

وكن يا بني في تمدنك ومعاشرتك مع بني نوعك لينًا هينًا، بشَّاشًا بسَّامًا ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ أي: لا تمل ولا تعرض ﴿خَدَّكَ﴾ أي: صفحة وجهك التي بها مواجهتك ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولا تلوِ عنقك عنهم كبرًا وخيلاءً، كما يفعله أرباب النخوة من الجهلة المستكبرين المتفوقين، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة، والعلوم الرسمية على الفقراء الضعفاء الفاقدين لها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَمْشِ﴾ يا بني ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي بُسطت للتذلل والانكسار ﴿مَرَحًا﴾ أي: ذا فرح وسرور، مفتخرًا بما عندك من الحطام الفاني ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ يمشي على وجه الأرض خيلاء، بحيث يتبادر منه الكبر والنخوة في بادئ النظر ﴿فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18] بما عنده من الحسب والنسب، والمال والجاه بطر بها، مباه بسببها.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾[1] أي: توسط يا بني في مشيك بين الإسراع المذهب بهاء المؤمن ووقاره، وبين الدبيب الموجب للعجب والخيلاء ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أيضًا، وأنقص منه ولا ترفعه وإن كان حسنًا، فإنك - يقصد رفعة صوتك مبالغًا فيها - تشبه الحمار؛ إذ هو مخصوص من بين سائر الحيوانات بترفيع الصوت والمبالغة فيه، ومن بالغ في رفع صوته، فقد أشبه نفسه به، ولاشك أن صوته منكر عند جمهور العقلاء، وجميع الحيوانات أيضًا حتى إن الكلب يتأذى من صوته، ويفزع منه عند سماعه من غاية تأثيره وتألمه، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ وأوحشها وأقرعها للآذان ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19] وكيف تشبهون أنفسكم أيها المجبولون على الشرف والكمال على أدون الحيوانات، وأذل المخلوقات، وأنزلها رتبةً؟!.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 20-22].

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ولم تعلموا أيها المجبولون على الدربة والدراية ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الحكيم المتقن في عموم أفعاله ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وسهل عليكم تتميمًا لفضلكم وكرامتكم جميع ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات التي هي علل وأسباب، وإن كانت معلولات في أنفسها ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات؛ أي: هي مسببات عن العلويات وقوابل لما يفيض عنها بطريق جري العادة؛ ليحصل من امتزاجها ما تعيشون بها، مترفهين متنعمين من أنواع الفواضل والنعم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَسْبَغَ﴾ أي: اكثر وأوفر سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية، والكمال الجبلي ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ تدركون بها ظواهر الآفاق من

(1) قال في التأويلات: في إظهار الدعاوى وكتمان المعاني كن فانيًا عن شواهدك مصطلمًا عن قولك مأخوذًا عن حولك وقوتك بما استولى عليك من كشوفات سرك وانظر من الذي يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك بل من سكر إعجابك وحسبانك.

المبصرات والمسموعات والملموسات، والمشمومات والمذوقات ﴿وَبَاطِنَةً﴾[1] تدركون بها سرائر المعلومات والمعنويات، وتنكشفون بها إلى المعارف والحقائق الفائضة على قلوبكم التي أودعها الله العليم الحكيم في بواطنكم؛ ليسع فيها وينزل عليها سلطان وحدته الذاتية السارية في ظواهر الأكوان وبواطنها الكائنة أزلاً وأبدًا، مع أنه سبحانه لا يسعه في سعة السموات والأرض وإن فرض لها أضعاف وآلاف، لكنه يسع في قلب عبده العارف المؤمن الموقن، المنكشف بتوحيده وبظهور وحدته الذاتية المتجلية على صفائح ما ظهر وبطن، ومع ظهور وحدته سبحانه في ذاته واستقلاله في إظهار المظاهر الكائنة أزلاً وأبدًا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنسيان، المنهمكين في بحر العناد والطغيان ﴿مَن يُجَادِلُ فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية، المستقل بالتصرف في ملكه وملكوته إرادةً واختيارًا، ويثبت له شريكًا سواه ويعبده كعبادته، مع أن جداله ما يستند إلى سندٍ يصلح للاستناد، بل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دليل عقلي

---

(1) قال في التأويلات: فالنعمة الظاهرة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الظاهرة من الكواكب السيارة والملائكة المقربين فتسخير الكواكب تيسيرها في البروج على الأفلاك التي دبرها لكل واحدة منها فلكًا، وقدر لهن القربات والاتصالات وجعلهن مدبرات العالم السفلي متصرفات بالخواص والطبائع في العناصر الأربعة ولقراباتهن واتصالاتهن مقتضيات فيّ إظهار الأمور المقدرة بتقدير العزيز العليم في عالم السفلي من الزماني مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان فظهور الأحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال حكمته وقدرته جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وأعوانًا لها كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم وأفلاكها والموكلين على السحاب والمطر، وقد جاء في الخبر أن على كل قطرة من المطر موكلاً من الملائكة لينزلها حيث أمر، والموكلين على الرياح والبحور والمخلوقات، والملائكة الكُتَّاب للناس الموكلين عليهم، ومنهم المعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمر الله حتى جعل على الأرحام ملائكة، فإذا وقعت نطفة الرجل في الرحم يأخذ الملك بيده اليمنى وإذا وقعت نطفة المرأة يأخذها الملك بيده اليسرى، فإذا أمر مشجها بمشج النطفتين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:2]، وأما الملائكة الموكلين على الجنة والنار كلهم مسخرون لصالح الإنسان ومنافعهم حتى الجنة والنار مسخرات لهم تطميعًا وتخويفًا لأنهم يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، والنعمة الباطنة هي تسخير ما في السموات وما في الأرض الباطنة وهي القلب والنفس وقد تقدم ذكر ما فيهما.

يمكن التوصل به إلى إثبات ما ادعاه بطريق النظر والاستدلال ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: كشف صريح لدني نبع من قلبه بلا افتقار إلى المقدمات والوسائل العادية التي يستنتج منها المطالب ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: 20] أي: دليل نقلي ينور خلده، ويعده لفيضان المعارف والحقائق من المبدأ الفياض، بل إنما نشأ ما ادعاه من محض التقليد والتخمين الحاصل من متابعة الوهم والخيال.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ على سبيل العظة والتذكير إمحاضًا للنصح: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم من الدين والكتاب المشتمل على أنواع الرشد والهداية، والنبي المؤيِّد من عنده، المبعوث إليكم؛ لهدايتكم وإصلاحكم ﴿قَالُوا﴾ في الجواب: ما نتبع بمفترياتكم المستحدثة التي ابتدعتموها من تلقاء أنفسكم، ونسبتموها إلى الله تغريرًا وترويجًا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ إذ هو مستمر قديم، فنحن بأثرهم متبعون، وبدينهم راضون متخذون.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿أَ﴾ يتبعون آباءهم أولئك الضالين ﴿وَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ المغوي المضل إياهم ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ وآباءهم أيضًا إلى الباطل؛ ليصرفهم عن الحق، ويوصلهم ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: 21] الذي أُعد لمتابعيه، ومن يقتفي أثره ويقبل دعوته.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ الذي يلي الحق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ويخلص في توجهه نحوه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُحْسِنٌ﴾ ناظر إلى الله بنوره سبحانه، مطالع بوجهه الكريم ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ وتمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1] التي لا انفصام لها، وهي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ومن تمسك بها فقد فاز بكنف حفظه وجواره، وأمن من شر الشيطان وغوائله وتضليلاته عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأسماء والصفات المترتبة لما

(1) قال الورتجبي: أي: من بذل وجوده لوجدان وجود الحق سبحانه وهو يعرفه وتكون معرفته مستفادة من مشاهدته لا بتقليد العلم والأدلة العقلية فقد استمسك بعروة المحبة الأزلية لا يتكدر بعلل الحدثان، والإحسان مشاهدة الربوبية في العبودية، والعروة الوثقى المحبة المتصلة بالألوهية.

قال سهل: من يُخلص دينه لله ويحسن آداب الإخلاص، وقال العروة الوثقى هي السنة. وقال أبو عثمان: العروة محمد ﷺ. وقال أيضًا: هي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

في الكائنات لا إلى غيره من الوسائل والأظلال العادية ﴿عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان: 22] ومصيرها؟! ومن تشبث بحبل الله مخلصًا، فقد لحق بخلَّص أوليائه الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان: 23-28].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وأعرض عن التشبث بحبل توفيقه، وانصرف عن الاستمساك بدلائل توحيده وشواهد استقلاله في آثاره ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كُفْرُهُ﴾ وإعراضه عنا، وعن مقتضى ألوهيتنا وربوبيتنا؛ إذ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم، كما أن منا مبدأهم ومنشأهم ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ ونخبرهم، ونفصل عليهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بعدما رجعوا إلينا، ونجازيهم على مقتضاها بلا فوت شيء مما صدر عنهم، وكيف لا يجازون بأعمالهم، ولا يحاسبون عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن من ذرائر الأكوان ﴿عَلِيمٌ﴾ محيط حضرة علمه ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: 23] وخفيات الأمور وإن دق ولطف، لا يعزب عن حيطة علمه شيء؟!.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا يغتروا بإمهالنا وتمتعينا إياهم، وعدم التفاتنا نحوهم، وعدم انتقامنا عنهم؛ إذ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: زمانًا قليلاً تسجيلاً للعذاب عليهم، وتغريرًا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بعد بطشنا إياهم ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24] لا عذاب أغلظ منه وأشد؛ لغلظ غشاوتهم وقساوتهم.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذ أولئك المكابرين المعاندين ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ سؤال اختبار وإلزام: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ وأوجد العلويات، وما فيها من الكواكب والبروج وأنواع الفجاج ﴿وَالأَرْضَ﴾ ومن عليها، وما عليها مما لا يُعد ولا يُحصى؟ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب مضطرين حاصرين: ﴿اللهُ﴾ إذ لا يسع لهم إسناد خلقهما وإيجادهما إلى غيره

سبحانه؛ لظهور الدلائل والشواهد المانعة من الاستناد إلى غيره سبحانه ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما اعترفوا بأن الموجد للعلويات والسفليات هو الله سبحانه بالأصالة والاستقلال: ﴿الحَمْدُ لِلهِ﴾ حيث اعترفتم بتوحيد الله مع أنكم اعتقدتم خلافه، فيلزمهم لقولهم هذا التوحيد الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25] لزومه، ولا يفهمون استلزامه؛ لذلك ينكرون له، ويشركون معه غيره عنادًا واستكبارًا، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وكيف لا يعلمون ويفهمون مع أنه ﴿لِلهِ﴾ الواحد الأحد، المستحق للألوهية والربوبية، وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، والممتزجات سواء علموا وحدته واستقلاله في ملكه أو لم يعلموا، أو اعتقدوا بتوحيده أو لم يعتقدوا؛ إذ لا يرجع له سبحانه نفع من اعتقادهم وضر من عدمه، بل نفع اعتقادهم وإيمانهم إنما يرجع إليهم، وضر كفرهم وشركهم أيضًا كذلك؛ إذ هو سبحانه منزه عنهما جميعًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المستغني عن جميع ما ظهر وبطن ﴿هُوَ الغَنِيُّ﴾ المقصور على الغنى الذاتي ﴿الحَمِيدُ﴾ [لقمان: 26] بمقتضى أوصافه الذاتية، وأسمائه الحسنى التي بها ظهر ما ظهر وما بطن سواء نطقت بحمده ألسنة مظاهره وأظلاله أو لم تنطق؛ إذ هو في ذاته متعالٍ عن النقص والاستكمال، واستجلاب النفع والإجلال مطلقًا.

ثمّ لمّا أمر اليهود وفد قريش بأن يسألوا رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] كيف قال سبحانه هذا مع أنّا قد أُنزل إلينا التوراة، وفيها علم كل شيء ظاهرًا وباطنًا؟! ردّ الله عليهم حصرهم علم الحق بالتوراة، بل بجميع الكتب والصحف المنزلة على عموم الرسل وقاطبة الأنبياء؛ إذ كل ما دخل في حيطة الإنزال والإتيان متناهٍ، وحضرة علمه سبحانه في نفسه غير متناهٍ، ولا نسبة بين المتناه وغير المتناه، بل علمه سبحانه بالنسبة إلى معلوم ومقدور واحد باعتبار شئونه وتطوراته غير متناه، فكيف بعموم المعلومات والمقدورات؟!.

فقال سبحانه على مقتضى استعداد من على الأرض وقابليتهم وقدر عقولهم، مبينًا عن عدم نهاية حضرة علمه منها لها: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ جميع ﴿مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: كل ما لها ساق من هذا الجنس ﴿أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ﴾ أي: المحيط الذي هو كرة الماء الكائن حول الأرض ﴿يَمُدُّهُ﴾ أي: يصير مدادًا لها وحبرًا لثبتها ومدها، بل

يفرض أيضًا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: بعد نفاذ البحر المحيط ﴿سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ مثلاً محيطات كذلك تشيعه وتمد مده، فكتب بهذه الأقلام والمداد على الدوام كلمات الله العلي العلام ﴿مَّا نَفِدَتۡ﴾ وتمت ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[1] وتنفد المدد والأقلام المذكورة، بل إن فرض أمثالها وأضعافها وآلافها؛ إذ الأمور الغير متناهية لا تقدر بمقدار المتناه، ولا يكال بمكيال مقدر، وكيف يكال ويقدر علمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على كل ما جرى في حضرة علمه، مع أنه لا نهاية لمعلوماته ﴿حَكِيمٞ﴾ [لقمان: 27] لا ينتهي حكمته وقدرته بالنسبة إلى مقدور دون مقدور، بل له التصرف في كل واحدة من مقدوراته ومراداته إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبدًا؛ إذ لا يكتنه طور علمه وخبرته، وحكمته وقدرته مطلقًا؟!.

ومن جملة مقدوراته الصادرة منه سبحانه على مقتضى حكمته إرادة واختيارًا: خلقكم وإيجادكم أولاً على سبيل الإبداع بمقتضى اللطف والجمال، وإعدامكم ثانيًا على مقتضى القهر والجلال، وإعادتكم وبعثكم ثالثًا إظهارًا للحكم المودعة فيه هوياتكم وأشباحكم، والمصلحة المندرجة في إيجادكم وإظهاركم.

والمحجوبون المقيدون بسلاسل الأزمان والساعات يتوهمون بين الأطوار الثلاثة والنشأة المتعاقبة أمدًا بعيدًا وأزمنة متطاولة، وهي عند الله بعدما تعلق إرادته ونفذ قضاؤه، وصدر عنه الأمر بقوله: كن، فيكون الكل بلا تراخٍ ومهلةٍ في أقصر مدة وآن؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر أفعاله زمان ومكان؛ لذلك قال سبحانه: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ﴾ وإظهاركم في فضاء الوجود في النشأة الأولى ﴿وَلَا بَعۡثُكُمۡ﴾ وحشركم في

---

(1) أي: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار يصير مدادًا، وبمقدار ما يقبله ينفق القرطاس ويتكلف الكتاب حتى تنكسر الأقلام وتفنى البحار وتستوفى القراطيس ويفنى عمر الكتاب ما نفدت معاني كلام الله؛ لأن هذه الأشياء وإن كثرت فهي متناهية ومعاني كلامه لا تتناهى لأنها قديمة والمحصور لا يفي بما لا حصر له، والإشارة فيه أن الله سبحانه إذا تجلى عبد بصفة المتكلم ينفتح الباب على قلبه فمن عالم غير متناه فيشار إليه ما نفدت معاني ما لنا معك من الكلام، والذي يسمعك مما يخاطبك به بحسب الوقت ومقتضى الحال، وما بيننا من المعاتبات والمعاشقات سرًا بسر وإضمارًا بإضمار لا يطويه الزمان ولا يحويه الزمان ولا يحويه المكان، فإنه منطق المحبة من الحبيب الأزلي إلى الحبيب الأبدي فما لنا معك أزلي أبدي غير متناه وما لك معنا فهو أبدي بغير أزلي ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل:96] إن الله عزيز لعزته لا يتلكم إلا مع الأعزة حكيم لحكمته. [التأويلات].

النشأة الأخرى بعدما انقرضتم عن الأولى ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: إيجادكم جملة أولاً، وبعثكم ثانيًا كذلك في جنب قدرتنا وإرادتنا كإيجاد نفس واحدة بلا تفاوت؛ إذ متى صدر عنا قولنا: كن، إشارةً منّا إلى خلقكم وبعثكم جملة، فيكون الكل في الحال ككون نفس واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر ما ظهر وبطن ﴿سَمِيعٌ﴾ لعموم ما صدر عن ألسنة استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28] بما لاح عليهم من إشراق نور الوجود.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: 29-32].

وكيف لا يطلع سبحانه لجميع الكوائن والفواسد ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المتأمل المتدبر ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: أجزاء منه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ ويطيله بها في الربيع تتميمًا لتربيتكم وأرزاقكم وأقواتكم ﴿وَيُولِجُ﴾ أيضًا في الخريف ﴿النَّهَارَ﴾ أي: أجزاءه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ ويطيله بها تقويةً وتعميرًا للأرض؛ لتربية ما حدث منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصلحة معاشكم وتربية نفوسكم إلى حيث ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ ويدور بأمره، ويتم دورته بحكمه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عيّنه الله سبحانه، وسمّاه من عنده على مقتضى حكمته تربيةً لعباده، وتقويمًا لأمزجتهم؛ ليشتغلوا على ما جُبلوا لأجله ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الرقيب عليكم في جميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع ما صدر عنكم من الأعمال والأفعال ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 29] لا يعزب عن خبرته ذرة من ذرائر ما لمع عليه نور الوجود.

وإنما ظهر منه سبحانه كل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعتم أيها المجبولون على فطرة الدراية والعرفان، والمترصد لانكشاف سرائر التوحيد والإيقان من بدائع القدرة

والألوهية، وعجائب العلم والإرادة، وغرائب الشئون والأطوار اللامعة من لوائح لوامع شروق شمس الذات؛ ليدل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الأنفس والآفاق بالأصالة والاستحقاق الوجود ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المثبت أزلاً وأبدًا، القيوم المطلق، الدائم الباقي وبلا انقضاء ولا انصرام.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ويدعون الوجود له من العكوس والأظلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿الْبَاطِلُ﴾ المقصور، المنحصر على العدم والبطلان، المستهلك في مضيق الإمكان بأنواع الخذلان والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أيها المتأملون في آثار الوجود الإلهي المتحقق بوحدة ذاته، وكثرة شئونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية، المستحق لأنواع التذلل والعبودية ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته لا بالإضافة إلى غيره؛ إذ لا غير معه ﴿الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: 30] في شئونه وتطوراته حسب تجلياته الجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية.

وكيف لا يستقل سبحانه بتصرفات ملكه وملكوته؟! ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبصر ﴿أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ حاملةً ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ المنعم المفضل عليكم بمقتضى لطفه وسعة جوده ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده؛ لتتفطنوا منها إلى وحدة ذاته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإجراء والإمداد بالرياح المعينة لجريها، والحفظ من الغرق والهلاك ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل قاطعة، وشواهد ساطعات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ صبر على متاعب ما جرى عليه من القضاء ﴿شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31] لما وصل إليهم من الآلاء والنعماء.

﴿وَ﴾ من كمال صبرهم وشكرهم ﴿إِذَا غَشِيَهُم﴾ وغطاهم ﴿مَّوْجٌ﴾ عظيم، واستعلى مغلقًا عليهم ﴿كَالظُّلَلِ﴾ المغطية إياهم من الجبال والسحب ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنجي لهم عن أمثاله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ منحصرين التوجه والانقياد إليه بلا ميل منهم إلى الأسباب والوسائل العادية، متضرعين نحوه، داعين إليه بلا رؤية الوسائل في البين على ما هو مقتضى التوحيد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ سبحانه بفضله من أهوال البحر ومضيقه، وأوصلهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وسعة فضائه سالمين غانمين ﴿فَمِنْهُم﴾ حينئذٍ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: معتدل في قصده نحو الحق، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، ومنهم مائل عن الاعتدال، منحرف عنه، ساعٍ إلى تحصيله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَجْحَدُ﴾ منهم، وينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار ناقض للعهد الفطري، والميثاق الجبلي ﴿كَفُورٍ﴾

[لقمان: 32] للآلاء والنعماء المترادفة المتوالية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: 33-34].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان، المشغولون عن البغي والعدوان ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، واحذروا عن بطشه وانتقامه، فإن بطشه شديد، وعذابه لعصاة عباده أليم مزيد ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ وأي يوم يومًا ﴿لَّا يَجْزِي﴾ أي: لا يقضي ولا يسقط ولا يحمل ﴿وَالِدٌ﴾ مع كمال عطفه ورأفته ﴿عَن﴾ وزر ﴿وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ بل كل نفس حينئذٍ رهينة ما كسبت، ضمينة ما اكتسبت بمقتضى ما وعد الله لها وكتب، وبالجملة: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعده لعباده ﴿حَقٌّ﴾ لا ريب في إنجازه، ولا خلف في وقوعه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أيها المجبولون على الغفلة والغرور ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بتغريراتها وتلبيساتها من مالها وجاهها، ولذاتها الفانية الغير القارة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ عفوه وغفرانه، وسعة رحمته وجوده ﴿الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33] أي: الشيطان المبالغ في الغرور والتغرير بأن يجبركم على المعاصي اتكالاً على عفو الله وغفرانه.

ثمّ لمّا أتى الحرث بن عمرو رسول الله ﷺ فقال: متى تقوم الساعة، وأني قد ألقيت بذرًا على الأرض فمتى تمطر السماء، وامرأتي ذات حمل حملها ذكر أم أنثى، وما أعمل غدًا، وأين أموت؟

فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل باطلاع الغيوب ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وقت قيامها، ولم يطلع أحدًا عليها سوى أنه سبحانه أخبر بوقوعها وقيامها في جميع الكتب المنزلة من عنده على رسله ﴿وَ﴾ أيضًا هو ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ولم يُطلع أحدًا بوقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضًا سبحانه ﴿مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ولم يُطلع أحدًا عليه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿غَدًا﴾ وإن تدبرت وتدربت، وبذلت جهدها وسعيها لا تفوز إلى دراية أحوال غدها، بل هو أيضًا من جملة المغيبات

التي أحاط بها علمه سبحانه بلا اطلاع أحد عليها ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ أيضًا، وإن بالغت في السعي وبذل الجهد والطاقة ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] بل هو أيضًا من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية، المستجمع لجميع أوصاف الكمال ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه ذرة ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34] لا يخرج عن حيطة خبرته طرفة، وإن كان لا يكتنه علمه وخبرته، والله أعلم بحقائق أسمائه وصفاته، ودقائق معلوماته، ورقائق آثاره ومصنوعاته المترتبة عليها.

ربنا زدنا بفضلك وجودك علمًا تنجينا عن الجهل بك وبأسمائك وأوصافك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام التوحيد، والمتمكن في مقعد الصدق، خاليًا عن إمارة التخمين والتقليد ألَّا تتأمل ولا تتمنى في نفسك حصول ما لا يسع في وسعك وطاقتك من الأمور التي ليست في استعدادك وقابليتك حصولها وانكشافها دونك؛ إذ الإنسان وإن سعى، وبذل جهده في طريق العرفان بعدما وفقه الحق وجذبه نحوه لا يبلغ إلَّا إلى التخلق بأخلاقه الله والفناء في ذاته، منخلعًا عن لوازم ناسوته بقدر ما يتمكن له، ويسع في قابليته واستعداده.

وأمَّا الاطلاع على جميع معلوماته سبحانه، والانكشاف بالمغيبات التي استأثر

(1) أي أين تموت؟ وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها، روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل: من هذا؟ فقال له: ملك الموت، قال: كأنه يريدني وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجبًا منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك، وجعل العلم لله والدارية للعبيد لما في الدارية من معنى الختل والحيلة، والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ماعداهما أبعد وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً على أنه مجرد الظن والظن غير العلم، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «مفاتح الغيب خمس» وتلا هذه الآية. [تفسير النسفي (3/ 114)].

الله به في غيب ذاته فأمر لا يحوم حوله إدراك أحد من الأنبياء والرسل، والكمّل من أرباب الولاء والمحبة الخالصة، بل لا يتفوه به أحد من خلّص عباده أصلاً؛ إذ هو خارج عن استعداداتهم مطلقًا، وما المعجزات والكرامات الخارقة للعادة الصادرة عن خواص عباد الله من الأنبياء والأولياء، فما صدرت أيضًا منهم هذه الأمور إلا بإطلاع الله إياهم، وتوفيقهم عليها، وهم مجبورون مضطرون في ظهور أمثال تلك الكرامات عنهم، مع أن بعض أرباب المحبة والولاء الوالهين بمطالعة جمال الله وجلاله تحزنوا، وتغمموا عند ظهور أمثال هذه الخوارق منهم؛ لمنافاتها بصرافة استغراقهم، كما تشاهد من بعض بدلاء الزمان، أدام الله بركته على معارف أهل الإيمان والعرفان.

وبالجملة: لا بدَّ أن يكون الموحد متمسكًا بحبل الرضا والتسليم بما جرى عليه من صولجان القضاء بلا تطلب منه وترقب له.

جعلنا الله ممن تمكن بمقام الرضا، ورضي بجميع ما أثبت له الحق في لوح القضاء.

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة السجدة

لا يخفى على أهل العناية الموفقين من عند الله باستكشاف ما في طي كتابه من المعارف والحقائق المتعلقة بسرائر التوحيد، والمسترشدين منه بقدر ما يسَّر الله من الأخلاق الإلهية المودعة فيه أن أمثال هذه الأسرار والرموز والإشارات المندرجة في هذا الكتاب لا يليق إلا بجناب الحكيم الوهاب، المطلع على سرائر ما ظهر وبطن من آثار الوجود غيبًا وشهادة، دنيًا وعقبى؛ إذ لا يسع لبشر أن يتفوه بهذه الحِكم والأحكام على هذا النهج والنظام الأبلغ الأكمل، وليس في طاقتهم واستعدادهم الوقوف على المغيبات التي تخصص بها سبحانه، والإحاطة بالأمور التي تعلقت بالنشأتين، وترتب عن المنزلتين.

ومن له أدنى دربة بأساليب الكلام، ودراية في اتساقه وانتظامه، وترتيب ألفاظه وكمالاته، وتطبيق معانيه، وترصيف فحاويه ومبانيه جزم أنه خارج عن طرق البشر ومعلوماتهم؛ إذ لا مناسبة لعقولهم به.

ثمَّ لمَّا بلغ المرتابون في قدحه وطعنه، ونسبته إلى الاختلاق والافتراء مجادلةً ومراءً، رد الله سبحانه عليهم على أبلغ وجه وآكده مخاطبًا لحبيبه ﷺ متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أنزل على عبده الكتاب؛ ليبين لهم طريق الصدق والصواب في سلوك سبيل التوحيد والعرفان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم بإرسال الرسول الهادي إلى دار السلام وطريق الجنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم فيها إلى لقاء الرحمن.

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ
بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ [السجدة: 1-5].

﴿الم﴾ [السجدة: 1] أيها الإنسان الأكمل الأعلم للوازم لوامع أنوار الوجود اللائح على صنحات وجود الأكوان بمقتضى الجود، الملاحظ المطالع لها بتوفيق الله الملك الودود.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، المبيّن لأحكام دين الإسلام، المنزل عليك يا أكمل الرسل؛ لتأييدك وترويج دينك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنه نازل من الله الجامع لجميع الأسماء والصفات، كما أن مرتبتك جامعة لجميع مراتب أهل العلم، وأنت مبعوث إلى كافة الأمم؛ ولذا صار كتابك نازلاً ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] [السجدة: 2] يشكُّون ويترددون في نزوله من عنده سبحانه أولئك الطاعنون الضالون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الله افتراءً ومراءً، تغريرًا وتلبيسًا، لا تحزن يا أكمل الرسل عليهم، ولا تلتفت إلى قولهم هذا ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت المحقق، المثبت نزوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرم، واصطفاك من بين البرايا لرسالته العامة، أنزله إليك مشتملاً على الإنذارات الشديدة، والتخويفات البليغة ﴿لِتُنذِرَ﴾ بوعيداته ﴿قَوْمًا﴾ انقطع عنهم آثار النبوة والرسالة؛ لبعد العهد أو ﴿مَّا أَتَاهُم﴾ بعد عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أنذرهم عن الباطل وأرشدهم إلى طريق الحق ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ بل هم على فترة من الرسل فأرسلك إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: 3] بهدايتك وإرشادك إلى توحيد الحق، واتصافه بأوصاف الكمال.

وكيف لا يوحدون ولا يؤمنون بتوحيده وأسمائه وصفاته ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد بقدرته الكاملة ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي: السفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الممتزجات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وساعات

(1) قال في التأويلات: إذا تعذر لقاء الأحباب فأعز الأشياء على الأحباب كتاب الأحباب أنزل رب العالمين إلى أهل العالمين كتابًا في الظاهر ليقرأ على أهل الظاهر فينذر به أهل الغفلة. ويبشر أهل الخدمة، وكتابًا في الباطن على أهل الباطن لتتنور بأنواره بواطنهم وتتزين بأسراره سرائرهم فينذر له أهل القربة لئلا يلتفتوا إلى غيره ولا يستأنسوا بغيره، فتسقطهم الغيرة عن القربة ويبشر به أهل المحبة بالوفاء بوعد الرؤية وباللقاء على بساط الوصلة وبالبقاء بعد الفناء في الوحدة فيتكلموا بالحق عن الحق للحق، فإذا سمع أهل الباطل كلامهم في الحقائق من ربهم وأنكر عليهم أهل الغفلة أنه من الله.

منبسطة في الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم التمهيد والبسط ﴿اسْتَوَى﴾ واستولى، وتمكن سبحانه ﴿عَلَى العَرْشِ﴾ أي: انبسط على عروش عموم ما ظهر وبطن من الآفاق والأنفس بالاستقلال التام، والتصرف العام على صرافة وحدته الذاتية بلا شائبة شركة وطرق كثرة؛ لذلك ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الأظلال المنعكسة من شمس ذاته ﴿مِّن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ويتصرف فيكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ ينصركم، ويعاون عليكم سواه سبحانه ﴿أَ﴾ تشكُّون وترددون في توحيده وولايته سبحانه أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿فَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: 4] وتتعظون بمواعظه وتذكيراته مع أنه كررها مرارًا.

وكيف لا هو الذي ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي: عالم الأمر المنبئ عن الإيجاد والإظهار بإنزال الملائكة الذين هم مظاهر أوصافه وأسمائه ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء المتعالية عن الأقطار والجهات مطلقًا ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة لقبول آثارها، وإنما أنزلهم وأهبطهم إليها؛ ليعد حسب حكمته المظاهر والمصنوعات؛ لقبول فيضان سلطان توحيده ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم على الوجه الأبدع، والنظام الأتم الأبلغ ﴿يَعْرُجُ﴾ ويصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ما يترتب على عالم الأمر من المعارف والحقائق، والأسرار الكامنة في سريان الوحدة الذاتية بعد انقراض النشأة الأولى ﴿فِي يَوْمٍ﴾ معد لعروجه وصعوده ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ أي: مقدار ذلك اليوم في الطول والامتداد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5] في هذه النشأة من الأيام والأعوام.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة: 6-11].

وإنما دبَّر سبحانه ما دبَّر من المعارف والحقائق المترتبة على الإيجاد والإظهار، وقدر للعروج والصعود ما قدر لحِكم ومصالح استأثر بها سبحانه في غيبه، ولم يطلع أحدًا عليها؛ إذ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذات البعيد ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله إدراك أحد

من مظاهره ومصنوعاته ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ الذي لم يتعلق به علم أحد سواه ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ المنعكسة منه حسب تجلياته الجمالية والجلالية ﴿العَزِيزُ﴾ الغالب القادر على جميع ما دخل في حيطة حضرة علمه بأن يتصرف فيه كيف يشاء إرادةً واختيارًا ﴿الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: 6].

﴿الَّذِي﴾ وسعت رحمته كلما لاحت عليه بروق تجلياته؛ لذلك ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: قدر وجوده بعدما دخل في حيطة علمه، وقدرته وإرادته ﴿وَبَدَأَ﴾ من بينهم ﴿خَلْقَ الإِنسَانِ﴾ أي: آدم، وقدر وجوده أولاً ﴿مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7] إذ هو أصل في عالم الطبيعة، قابل لفيضان آثار الفاعل المختار، مستعدًا لها استعدادًا أصليًا، وقابليةً ذاتيةً.

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعلق إرادته سبحانه بإبقاء نوعه ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: قدر بصنعه وجود ذرياته المتناسلة المتكثرة، المتخلفة منه على سبيل التعاقب والترادف ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ فضلة منفصلة مني، كائنة ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8] ممتهن مسترذل مستقذر؛ لخروجه عن مجرى الفضلة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما قدر خلقه أولاً من الطين، وثانيًا من الماء المهين ﴿سَوَّاهُ﴾ سبحانه إظهارًا لقدرته؛ أي: قوّم وعدّل أركانه على أحسن التقويم ﴿وَ﴾ بعد تسويته وتعديله ﴿نَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[1] المضافة إلى ذاته المستجمع لجميع أوصافه وأسمائه تتميمًا لرتبة خلافته ونيابته، واستحقاقه لمرآتية الحق، قابليته انعكاس شئونه وتطوراته ولياقته؛ للتخلق بأخلاقه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَعَلَ﴾ وهيأ ﴿لَكُمُ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿السَّمْعَ﴾ لتسمعوا بها آيات التوحيد، ودلائل اليقين والعرفان ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ ليشاهدوا بها آثار القدرة والإرادة الكاملة المحيطة بذرائر الأكوان ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ المودعة فيكم؛ لتتأملوا بها سريان الوحدة الذاتية على هياكل الأشباح الكائنة والفاسدة، وتتفكروا بها في آلاء الله ونعمائه المتوالية المتوافرة، ومع وفور تلك النعم العظام، والفواضل الجسام ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9] وتصرفونها إلى ما مقتضياتها التي جبلها الحق لأجلها.

(1) أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية؛ ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. البحر المديد (51/5).

﴿وَ﴾ من غاية كفرانهم بنعم الله، ونهاية عمههم وسكرتهم فيه: ﴿قَالُوا﴾ أي: أُبي بن خلف ومن معه من المنافقين بعدما سمعوا من البعث والحشر، ويوم العرض والجزاء مستبعدين مستفهمين، مكررين على سبيل المبالغة في الإنكار: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا﴾ واضمحللنا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ وصرنا من جملة الهباء المنبثة، المتلاشية المتناسلة التي لا تمايز فيها أصلاً ﴿أَئِنَّا﴾ بعدما كنا كذلك أيها العقلاء المجبولون على الدراية والشعور ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مثلما كنا عليها قبل موتنا؟! كلا وحاشا، ما لنا عود إلى الحياة الدنيا، سيما بعدما متنا وصرنا ترابًا وعظامًا، وهم أيضًا ما يقتصرون من شيء بمجرد قولهم هذا ﴿بَلْ هُم﴾ من غلظ غشاوتهم وغطائهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم في النشأة الأولى، وأفاض عليهم سجال اللطف والكرم في النشأة الأخرى، وقبض ملك الموت أرواحهم بأمر الله إياه ﴿كَافِرُونَ﴾ [السجدة: 10] منكرون جاحدون.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا بعدما سمعت قولهم: ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ ويستوفي أجلكم أيها المنهمكون في الغفلة والضلال ﴿مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بإذن الله؛ لقبض أرواحكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قبضتم في النشأة الأولى، وبعثتم من قبوركم أحياءً في النشأة الأخرى ﴿إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11] للعرض والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: 12-14].

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي يومئذٍ بعدما بعث الخلائق، وعُرضوا على ربهم حيارى سكارى، تائهين هائمين ﴿إِذِ المُجْرِمُونَ﴾ المنكرون بالبعث والنشور، والعرض والجزاء وشرف اللقاء حينئذٍ ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من غاية الخجالة والحياء، قائلين من نهاية اضطرارهم واضطرابهم، مناجين معه سبحانه: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامة فكفرناك، وأرسلت لنا رسلاً فكذبناهم عنادًا، وأنكرنا عليهم وعلى دعوتهم مكابرةً، فاليوم ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما هو الحق المطابق للواقع ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك حقًا صدق

رسلك، وجميع ما جاءوا به من عندك ﴿فَارْجِعْنَا﴾ بفضلك ولطفك إلى الدنيا مرة بعد أخرى ﴿نَعْمَلْ﴾ فيها ﴿صَالِحًا﴾ مرضيًا عندك، مقبولاً على مقتضى ما أبصرتنا وأسمعتنا الآن ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12] اليوم بجميع ما جاء به رسلك، ونطق به كتابك.

لو رأيت حالهم هذا، وسمعت مناجاتهم هذه حينئذٍ لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا، ثمّ نودوا من وراء سرادقات العز والجلال: الآن قد مضى وقت الاختبار والابتلاء، وانقرض زمان التدارك والتلافي ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ وتعلق إرادتنا بهدايتكم أولاً ﴿لآتَيْنَا﴾ في دار الابتلاء ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ منكم ﴿هُدَاهَا﴾ ووفقكم عليها كما آتينا لخلّص عبادنا، ويسرنا لهم الهداية والرشاد ﴿وَلَكِنْ حَقَّ﴾ أي: صحَّ وثبت ﴿الْقَوْلُ﴾ والحكم ﴿مِنِّي﴾ على مقتضى حكمتي ومصلحتي ﴿لأَمْلأَنَّ﴾ بمقتضى عزتي وجلالي ﴿جَهَنَّمَ﴾ المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ التي هي جنود إبليس ﴿وَالنَّاسِ﴾ الناسين مقتضى العهود الفطرية، والمواثيق الجبلية بتغريرات شياطين نفوسهم الأمّارة بالسوء ﴿أَجْمَعِينَ﴾[1] [السجدة: 13] وما يبدل القول لدي، ولا معقب لحكمي.

﴿فَذُوقُوا﴾ أي: قلنا لهم بعدما لم نستجب دعوتهم: ذوقوا اليوم أيها الضالون المسرفون ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي: بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ مع أن الرسل بالغوا بإخباره إياكم، والكتب نطقت بتبيينه عليكم على أبلغ وجه وآكده، وأنتم أصررتم على الإنكار غافلين ناسين مكابرين ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ اليوم في أنواع العذاب، كما نسيتم أنتم إيانا فيما مضى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: المخلّد المؤبّد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 14] من الكفران الدائم، والنسيان المستمر في النشأة الأولى، أعاذنا الله وعموم عباده من ذلك.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

(1) ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم كما تعلقت بإدناء قوم، وإدناء أن يكون للنار قطان كما أردنا أن يكون للجنة سكان إظهارًا لصفات لطفنا وصفات قهرنا؛ لأن الجنة وأهلها مظهر لصفات لطفي والنار وأهلها مظهر لصفات قهري، وإني لفعال لما أريد. [التأويلات].

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: 15- 18].

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ ويذعن ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا الموحدون المخبتون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي: بالآيات تبشيرًا وإنذارًا ﴿خَرُّوا﴾ وسقطوا ﴿سُجَّدًا﴾[1] مستقبلين مبادرين لقبولها، وامتثال ما فيها من الأوامر والنواهي، والعبر والتذكيرات الواردة في فحاويها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَبَّحُوا﴾ ونزهوا ربهم عمّا لا يليق بجناب قدسه، قائلين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عادين نعمه على أنفسهم، مواظبين على شكرها، خاضعين خاشعين أذلاء، واضعين جباههم على تراب المذلة تواضعًا وإسقاطًا للكبر والخيلاء المذمومين عقلاً وشرعًا ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15] عن عبادة الله، وعن الانقياد بأوامره وأحكامه الواردة في كتابه.

ومن كمال إطاعتهم وانقيادهم: ﴿تَتَجَافَى﴾ أي: تتنحى وترتفع ﴿جُنُوبُهُمْ﴾ وضلوعهم ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: البسط والوسائد التي رقدوا عليها في الليل؛ يعني: بعدوا عن مواضع رقودهم واستراحتهم في خلال الليالي ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من بطشه وخشيته ﴿وَطَمَعًا﴾ لمرضاته وعموم رحمته، وسعة جوده ومغفرته ﴿وَ﴾ هم لا يقتصرون على قيام الليل للتهجد، بل ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسقنا نحوهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 16] في سبيلنا على الطالبين المتوجهين إلينا، منقطعين عن لذائذ الدنيا ومزخرفاتها، سوى سدّ جوعة وستر عورة، وهم بارتكاب هذه المتاعب والمشاق ما يريدون إلا وجه الله، وما يطلبون إلا رضاه سبحانه، مؤثرين رضاء الله على أنفسهم، مخلصين فيه.

بحيث ﴿فَلَا تَعْلَمُ﴾ ولا تغيب ﴿نَفْسٌ﴾ منهم ﴿مَا أُخْفِيَ﴾ وأعد ﴿لَهُم﴾ من قِبَل الحق ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ هي فوزهم بشرف لقائه برؤية وجهه الكريم، وإنما أعدّ لهم

---

(1) قال الورتجبيي: وصف الله سبحانه أهل معرفته الذين إذا سمعوا خطابه سقطوا على وجوههم في جناب كبريائه وعظمته حبًا له وشوقًا إليه، ولا يكون هذا إلا وصف الوالهين من عشقه، الصادقين في توحيده ومعرفته. قال القاسم: إذا وعظوا بها خرّوا سجّدًا عند أوقاته، وذلك صفة المؤمنين، ومن أبى ذلك في أوقاته لا يلحقه اسم الإيمان ولا وسمه.

سبحانه ما أعد لهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17] على وجه الإخلاص من إيثارهم جانب الحق على أنفسهم.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أتظنون أيها الظانون المسرفون، والجاحدون المنكرون أن من كان مؤمنًا موقنًا بوحدانية الله، متصفًا بالأعمال الصالحة المؤيدة لإيمانه، كمن كان فاسقًا خارجًا عن ربقة الإيمان والإخلاص، وحدود الشرائع الواردة لحفظه؟! كلا وحاشا، إنهم ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: 18] في الشرف والكمال، والفوز والنوال.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة: 19-21].

بل ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم على وجهها، مع كونهم مخلصين فيها، خاشعين خاضعين ﴿فَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بعدما انقرضوا عن دار الدنيا ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي: المتنزهات المعدة لأهل الإيمان والقبول تأوي إليها نفوسهم على الرغبة الكاملة والطوع التام؛ ليكون ﴿نُزُلًا﴾ لهم؛ أي: منزلاً يسكنون فيه، ويستريحون فيها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 19] أي: بمقابلة ما يرتكبون من حمل المتاعب والمشاق في طريق الطاعات والعبادات.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: تركوا الإيمان بالله، وخرجوا عن مقتضى الأوامر والنواهي الموردة في كتبه وعلى ألسنة رسله ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي: مرجعهم ومثواهم في النشأة الأخرى ﴿النَّارُ﴾ المعدة لأهل الشقاوة الأزلية، هم فيها خالدون مخلدون، مؤبدون لا نجاة لهم أصلاً، بل ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا﴾ وأملوا ﴿أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أمهلهم الخزنة إلى أن يصلوا إلى شفيرها، ثم بعد ذلك ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾[1] زجرًا وقهرًا تامًا

(1) لأنهم في هذه الصفة عاشوا وفيها ماتوا فعليها حشروا وذلك أن دعاة الحق كانوا في الدنيا ينصحون لهم أن يخرجوا من أسفل الطبيعة بحبل الشريعة ورعاية أدب الطريقة حملهم الشوق الروحاني على التوجه إلى الوطن الأصلي العلوي، فلما عزموا على الخروج من الدركات

مهانين صاغرين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: الزبانية الموكلون عليهم بإلهام الله إياهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنكرون المصرون ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: 20] حين أخبركم الرسل والكتب، وأنذروكم به.

ثمَّ أشار سبحانه إلى رداءة فطنة أصحاب الضلال، وخبث طينتهم فقال على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَنُذِيقَنَّهُم﴾ ونصبّنّ عليهم في دار الابتلاء ﴿مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ الأنزل الأسهل من القحط والطاعون والوباء، والقتل والسبي والزلزلة، وأنواع المحن والبليات التي هي أدنى وأسهل بمراحل ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: عند عذاب الآخرة الذي هو في غاية الشدة، ونهاية الألم والفظاعة، وإنما أخذناهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21] مما هم عليه من الكفر والشقاق، ويتفطنون منها إلى كمال قدرتنا واقتدارنا على أضعافها وآلافها، ومع ذلك لم يتفطنوا ولم يرجعوا عن غيهم وضلالهم، بل أصروا واستكبروا عدوانًا وظلمًا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: 22-25].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله، وأسوأ أدبًا معه سبحانه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ووُعظ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ليهتدي بها إلى الإيمان والتوحيد، ويمتثل بمقتضاها؛ ليتخلص عن الكفر والشرك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعها ﴿أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فجأة بلا تفكر وتأمل في معناها، وأنكر على مقتضاها، واستكبر على ما أنزل الله إليه، فكذبه ونسب إليه ما لا يليق بشأنه، وأصر على ما هو عليه عنادًا ومكابرةً ﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22] أي: قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنّا بعدما بالغوا في الإنكار والإصرار: إنّا منتقمون منهم على أبلغ وجه وأشده من عموم المجرمين الظالمين، فكيف من هو أجرم وأظلم منهم، وأصر على البغي والعناد؟! فننتقم عنهم، ونخلدهم في عذاب النار؛

الشهوية أدركتهم الطبيعة النفسانية الحيوانية السفلية وأمادتهم إلى أسفل الطبيعة. [التأويلات].

إذ لا عذاب أسوأ منه وأشد، أعاذنا الله وجميع عباده منها.

﴿وَ﴾ لا تظنن يا أكمل الرسل أنّا لم ننجز وعدنا الذي وعدنا معك في كتابك من أنّا ننتقم من أهل الشرك والكفر والإصرار على أبلغ وجه وآكده، بل لك أن تتيقن وتذعن إنجاز وعدنا إياك، مثلما أنجزنا مواعيدنا مع أخيك موسى الكليم؛ إذ ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة مثلما آتيناك الفرقان، ووعدنا فيه معه مثلما وعدنا معك في كتابك هذا من انتقام أهل الفساد والعناد، بل وعدنا هذا الوعد مع كل نبي ورسول آتيناه الكتاب والصحف ﴿فَلَا تَكُن﴾ أنت أيضًا يا أكمل الرسل ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: شك وارتياب ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: إنجاز هذا الموعود وإتيانه على الوجه الذي وعدناه في التوراة ﴿وَ﴾ كيف ترتاب في وعدنا هذا مع أنّا قد ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي: التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: 23] يهتدون به إلى المعالم الدينية، والمعارف اليقينية، والحقائق العليّة، والمكتشفات السنيّة؟!.

﴿وَ﴾ كيف لا وهم من خواص عبادنا وخلّصهم؛ إذ قد ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أمناء هادون، مهديون مقتدون ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ووحينا إياهم، وإلهامنا إليهم إلى ديننا وتوحيدنا، وإنما أعطيناهم ما أعطيناهم من الكرامات ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي: حين وطّنوا نفوسهم على تحمل ما لحقهم في إعلاء كلمة الحق، وإفشاء أعلام الدين من المتاعب والمكروهات المؤدية إلى إتلاف النفس، وبذل المهج وأنواع المصيبات ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ النازلة إياهم، الدالة على كمال قدرتنا، الواردة في أي شيء أردناه ﴿يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24] يذعنون، لا يترددون فيها ولا يتذبذبون، وأنت يا أكمل الرسل أولى وأحق منهم بإيقان آياتنا وإذعانها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات، وأيدك بأصناف الخوارق والمعجزات ﴿هُوَ﴾ بذاته ومقتضى حكمته المتقنة، وأحكامه المبرمة ﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾[1]

(1) قال نجم الدين كبرى: يشير إلى أنه تبارك وتعالى يحكم بين عباده لوجوه:
أولها: لعزتهم لأنهم عنده أعز من أن يجعل حكمهم إلى أحد من المخلوقين بل هو بفضله وكرمه يكون حاكما عليهم، وثانيها: غيرة عليهم لئلا يطلع على أحوالهم أحد غيره، وثالثها: رحمةً وكرمًا فإنه ستار لا يفشي عيوبهم ويستر عن الأغيار ذنوبهم، ورابعها: لأنه كريم ومن سنة الكرام أنهم ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان:72]، وخامسها: فضلاً وعدلاً فإنه الخالق الحكيم الذي خلقهم وما يعلمون على مقتضى حكمته ووفق مشيئته، فإن رأى منهم حسنا

أي: بين المحقين والمبطلين، ويميز كلاً منهم عن صاحبه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للقطع والفصل، وتنفيذ الأحكام والحكومات، فيومئذٍ يظهر لهم الحق ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: 25] من الأمور الدينية، والمعارف اليقينية.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [السجدة: 26-30].

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أهل مكة إلى سبيل الرشاد، ولم يوقظهم عن هجعة الغفلة

فلذلك من نتائج إحسانه وفضله، وأن منهم قبيحًا فذلك من موجبات حكمته وعدله وأنه ﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:40]، وسادسها: عناية وشفقة فإنه تعالى خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فلا يجوز عن كرمه أن يخسروا عليه، وسابعها: رحمة ومحبة فإنه تعالى بالمحبة خلقهم لقوله: «فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»(1) وللمحبة خلقهم لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] فينظر في شأنهم بنظر المحبة والرضا وعين الرضا عن كل عيب كليلة، وثامنها: لطفًا وتكريمًا فإنه نادى عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] فلا يهين من كرَّمه، وتاسعها: عفوًا وجودًا فإنه تعالى عفو يحب العفو، فإن رأى جريمة في جريدة العبد يجب عفوها، وأنه جواد يحب أن يجود عليهم بالمغفرة والرضوان، وعاشرها: أنه تعالى جعلهم خزائن أسراره فهو أعلم بحالهم وأعرف بقدرهم، فإنه خمر طينتهم بيده أربعين صباحًا وجعلهم مرآة يظهر لها جميع صفاته عليهم لا على غيرهم، ولو كانت الملائكة المقربون ألا ترى أنه تعالى لما قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] فما عرفوهم حق معرفتهم حتى قال تعالى فيهم عزة وكرامة لهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] أي: من فضائلهم وشمائلهم، فإنهم خزائن أسراري ومرآة جمالي وجلالي، فأنتم تنظرون إليهم بنظر الغيرة وأنا أنظر إليهم الرحمة والمحبة، فلا ترون منهم ألا كل قبيح ولا أرى منهم إلا كل جميل، فلا أرضى أن أجعلكم حاكمًا بينهم بل بفضلي وكرمي أنا أفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فأحسن مع محسنهم وأتجاوز عن سيئهم، فلا يكبر على اختلافهم لعلمي بحالهم أنهم لا يزالون مختلفين ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] ولذلك خلقهم.

ورقاد العناد ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ﴾ أهل ﴿الْقُرُونِ﴾ الماضية الهالكة، المغرورين أمثالهم بالكبر والخيلاء بما عندهم من المال والجاه والثروة، مع أن هؤلاء المعاندين ﴿يَمْشُونَ﴾ ويمرون ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ الخربة، ودورهم المندرسة حين ارتحالهم نحو متاجرهم وما يعتبرون منها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في رؤية تلك المنازل والأطلال المغمورة، والبلاد المقهورة ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات، وشواهد لائحات على كمال قدرتنا واختيارنا، وشدة انتقامنا وقهرنا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26] مقتضيات الآيات، ولا يتدبرون فيها حق التدبر والتفكر؛ حتى يتخلصوا عن أودية الضلالات، وأغوار الجهالات، ويتصفوا بأنواع الهدايات والكرامات؟!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يبصروا أولئك المعاندون المنكرون على كمال قدرتنا، ووفور حكمتنا واختيارنا ﴿أَنَّا﴾ من مقام جودنا ولطفنا كيف ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بالتدابير العجيبة، والحكم البديعة من تصعيد الأبخرة والأدخنة، وتراكم السحب منها، وتقاطر المطر من فتوقها وخلالها ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾[1] التي قطع نباتها من غاية يبسها وجمودها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ أي: بالماء الذي سقنا ﴿زَرْعًا﴾ أي: أنواعًا من الأقوات ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أوراقه وتبنه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ حبوبه وثمرته ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: 27] أولئك المصرون المنكرون هذه القدرة العجيبة، فيستدلون بها على قدرتنا الكاملة، وحكمتنا البليغة البالغة بعدما سمعوا منك يا أكمل الرسل أن ربك يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون؟!.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين معك، متهكمين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ والفصل الذي وعدتم به، أخبرونا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: 28] في دعواكم؛ حتى نتهيأ ونتزود، ونؤمن به كما آمنتم؟.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ هو يوم القيامة المعدة؛ لتنقيد الأعمال والحساب، فيومئذٍ ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في النشأة الأولى مدة أعمارهم ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ فيها ﴿وَلَا هُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: 29] ويمهلون؛ حتى يتداركوا

(1) يعني: اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات، يقال: أرض جرز أي: أرض جدب لا نبات فيها، يقال جرزت الجراد إذا أكلت، وتركت الأرض جرزاً. بحر العلوم للسمرقندي (3 /386).

ما فوّتوا على نفوسهم طول عمرهم من الإيمان بالله، والامتثال بأوامره ونواهيه، وتصديق الرسل والكتب، وجميع معالم الدين وشعائر الإسلام.

وبعدما تمادوا في الغفلة والضلال، وبالغوا في العتو والعناد ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تلتفت إلى هذياناتهم، واصرف عنان عزمك عن هدايتهم وإرشادهم بعدما تاهوا في تيه الغي والضلال، وأصروا عليها ﴿وَانتَظِرْ﴾ النصر والظفر، والغلبة عليهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: 30] أيضًا؛ ليغلبوا عليك ويظفروا.

ربنا أفرغ علينا صبرًا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد سلوك سبيل التوحيد، والناسك المجاهد مع أعدى عدوك الذي بين جنبيك، أعانك الله ونصرك على عدوك أن تتصبر على متاعب العبودية، ومشاق التكاليف الواقعة في إتيان المأمورات الشرعية، وترك المألوفات الطبيعية، سيما فيما أُشكل أمره عليك، ودفعه عندك من انقهار أمّارتك وانزجارها، وانتقامك عنها مفوضًا أمورك كلها إلى ربك، منتظرًا إلى أن يغلبك الحق عليها بعدما وعدك به بأن يجعل سبحانه سلطانة أمّارتك مأمورة لك، مطمئنة بحكمك، راضية بجميع ما جرى عليها من سلطان القضاء بلا امتناع وإباء.

فلك حينئذٍ أن تتمكن في مقام الرضا والتسليم؛ حتى تصير مطمئنتك فانية مضمحلة، متلاشية بحيث لا يبقى فيها من هوية ناسوتها شيء، بل فنيت هويتها في هوية الحق مطلقًا، فحينئذٍ فزت بدوام أبدي، وبقاء سرمدي بلا عروض انقضاء وانصرام، وبلا لحوق انتهاء وانخرام.

هب لنا من فضلك جذبةً تنجينا من هوية ناسوتنا، وتفنينا في هوية لاهوتك يا أرحم الراحمين.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأحزاب

لا يخفى على من تحقق بمقام التقوى، واجتنب عن مهلكات الهوى، ورجع إلى المولى متزهدًا عن الدنيا وغرورها وأمانيها مطلقًا أن الموحد والمتحقق بمقام التمكن والرضا لا بدَّ أن يكون همته منحصرة على التوجه نحو الحق مطمئنًا به، راضيًا بما جرى عليه من سلطان القضاء، متوكلاً على الله في السراء والضراء، والمنح والعطاء، والمحن والبلاء، مترصدًا للوحي الإلهي، مترقبًا لإلهاماته الغيبية؛ لأن من انخلع عن خلع الناسوت مخلصًا تشرف بخلعة اللاهوت؛ إذ وقع أجره على الله ورجع أمره إليه، وعاد حكمه وشأنه على ما كان عليه في بدء الأمر، فصار محفوظًا في كنف حفظه وجواره، فله أن يتخذ سبحانه وكيلاً، ويجعله حسيبًا وكفيلاً يفوض أمره كله إليه منتظرًا وصيته وإلهامه؛ إذ هو سبحانه بذاته عليم بحاله وحاجاته، حكيم في تربيته وإرشاده، وما له إلا الإطاعة والتسليم والمتابعة لما يُوحى إليه من ربه العليم الحكيم، ماحيًا عن لوح قلبه الالتفات إلى غيره.

كما أمر به سبحانه لحبيبه ﷺ تربيةً وتأديبًا؛ وليتأدب به منْ تابعه وتخلق به منْ آمن له مخلصًا، فقال مناديًا إياه، متلطفًا معه، متيمنًا باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي اصطفى حبيبه ﷺ من بين البرايا بالخُلق العظيم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه في النشأة الأولى بإفاضة أنواع الكمالات اللائقة له على سبيل التبجيل والتكريم ﴿الرَّحِيمِ﴾ له في النشأة الأخرى بتمكينه في مقعد الصدق، والمقام المحمود الذي هو مقام الرضا والتسليم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ

﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: 1-4].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيّد من عند العليم الحكيم مقتضى نبوتك التي صرت بها خاتمًا لدائرة النبوة والرسالة، متممًا لمكارم الأخلاق، مكملاً لأمر التشريع والتدوين: التقوى والتحفظ من مقتضيات الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة، والتحصن بالله والثقة إليه، وجعله وقايتك عند نزول البلاء وهجوم الأعداء ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ حق تقاته، واجتنب عما لا يرضى به ربك مطلقًا ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ في حال من الأحوال أمر ﴿الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين خاصموا معك في إسرارهم وإعلانهم، ولا تتبع أهواءهم الفاسدة وآراءهم الباطلة، وابتغ فيما آتاك الله من مقتضيات استعدادك، وما تفضل عليك امتنانًا لك؛ لرضاء الله والفوز بشرف لقاء الله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في حضرة علمه الحضوري بقابليتك وبمقتضياتها ﴿حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1] في إفاضة ما يعينك وينبغي لك، ويليق بشأنك.

﴿وَ﴾ بعدما جعلت ربك وقاية نفسك، واتخذته وكيلاً لشأنك وأمرك ﴿اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تأييدًا لك، وتدبيرًا لأمورك وأحوالك، ولا تلتفت إلى هذيانات من عاداك، ولا تبال بمكرهم وحيلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ الرقيب عليك وعليهم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المخائل الفاسدة، والتلبيسات الباطلة المتعلقة لمقتك وهلاكك ﴿خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 2] يكفيك مؤنة شرورهم ومكرهم، ويغلبك عليهم ويظهر دينك على الأديان كلها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أيها المتحصن بكنف حفظه وجواره، وثق بكرمه ولطفه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ أي: كفى بالله المراقب عليك في جميع أحوالك ﴿وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: 3] لك يراقبك ويحفظك من شرور من قصد مقتك، وهجومهم عليك، ومكرهم معك، وكن في نفسك متوجهًا إلى ربك، مخلصًا فيه، مائلاً بوجه قلبك إلى قبلة وجهه الكريم، ولا تلتفت إلى من سواه ولا تُخطر ببالك غيره؛ إذ لا يسع في القلب الواحد إلا همٌّ واحد.

ولهذه الحكمة العليّة ﴿مَا جَعَلَ﴾ وخلق ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، المتقن في أفعاله ﴿لِرَجُلٍ﴾ واحد ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ مشعرين مدركين ﴿فِي جَوْفِهِ﴾[1] حتى لا يتفتت ميله، ولا

(1) قال البقلي: إن الله سبحانه أخبر أن القلب واحد لا يحتاج إلى قلب سواه، فإن القلب خلق على

يتعدد قبلة مقصده ومرماه، وإن خلق له عينين وأذنين ويدين وغيرهما ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا جَعَلَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ وتقولون لهن: أنت عليّ كظهر أمي ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ حقيقة؛ ليترتب عليها أحكام الأمهات من التحريم، وعدم القربان والفراش معها وغيرها ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ أيضًا ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ أي: الأجانب الذين تدعونهم أبناءً من إفراط المحبة والمودة ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حقيقةً؛ حتى يترتب عليهم أحكام الأبناء من الميراث والمحرمية، وحرمة زوجتهم وابنتهم وغير ذلك من الأحكام.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الأمور الثلاثة المذكورة ﴿قَوْلُكُمْ﴾ أي: مجرد قول صدر عن ألسنتكم وتكلمتكم ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا حقيقة لها سوى الاشتهار ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لأموركم، المصلح لأحوالكم ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: الحكم الثابت المتحقق عنده سبحانه، المترتب عليه أحكامه إرشادًا لكم، وإصلاحًا لحالكم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ﴾ بمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] السوي والصراط المستقيم إلى عباده الذين انحرفوا عن سبل السلامة، وطرق الاستقامة في الوقائع والأحكام.

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي
الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ
تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا

استعداد قبول وقائع أنوار جميع الذات والصفات، وفيه عقل قدسي يعرف الأشياء بحقيقتها، ونفس هي مجرى الأقدار الفعلية القهرية من الله، وفيه روح لطيف قدسي مخاطب من الله بجميع طرق المعارف، وفيه سر هو مرآة كشوفات الغيب، فإذا هُدي القلب ميادين ربوبية الأزل والأبد لا يحتاج إلى شيء سواه؛ فإنه الكون الأصغر بالصورة، وفي المعنى الكون الأكبر ومن عرفه فقد عرف الحق، وعرف ما دونه من العرش إلى الثرى، فالقلب الحقيقي ما لم يكن بينه وبين الحق حجاب ولا يكون شغله بشيء سوى الله. قال الصادق: "قلب يرى به أمور الدنيا وقلب يعلم أمور الآخرة وذو القلب الصحيح السليم من كان قلبه حرًا من الاشتغال بشيء سوى الحق.

غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: 5-8].

وبعدما سمعتم حقيقة القول في أدعياءكم وحقيته ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أي: سموهم أدعياءكم بأسمائهم، وانسبوهم حين دعائكم وندائكم إياه ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ المولدين لهم حقيقة لا إلى الداعي إن علموا آباءهم الأصلية النسلية ﴿هُوَ﴾ أي: انتسابهم إلى آبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ وأقوم بين المؤمنين، وأقرب إلى الصدق، وأبعد عن الكذب والفرية؛ إذ كثيرًا ما اشتهر دعيٌّ باسم من تبناه فأراد أن يأخذ منه الميراث، فعليكم ألَّا تنسبوهم إلَّا لآبائهم الحقيقيين ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ لتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه كسائر المؤمنين، فخاطبوهم مثل خطاب بعضكم بعضًا، فقولوا له: يا أخي، ويا صاحبي، ووليي في الدين وغير ذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ إثم ومؤاخذة ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي: بقولكم هذا ونسبتكم هذه إذا صدرت عنكم هفوةً على سبيل الخطأ والنسيان، سواء كان قبل ورود النهي أو بعده ﴿وَلَٰكِن﴾ تؤاخذون في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وصدرت عنكم هذا قصدًا؛ إذ قصدكم به يؤدي إلى الافتراء، وتضييع حقوق المؤمنين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ في حق من أخطأ ونسي ثمَّ ذكر فتاب ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5] عليه يقبل توبته، ويغفر زلته.

ثمَّ أشار سبحانه إلى تأديب كل من الأمم مع نبيه المؤيَّد من عنده سبحانه بأنواع التأييدات، والمعجزات الخارقة للعادات، المبعوث إليهم؛ لإرشادهم وتكميلهم، وأمرهم بحسن الأدب معهم والمحافظة على خدمتهم وحرمتهم.

وكيف لا يحسنون الأدب مع الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - إذ كل نبي بالنسبة إلى أمته كالأب المشفق العطوف معهم، بل هو خير آبائهم يرشدهم إلى ما هو أصلح لهم في دينهم الذي هو حياتهم الحقيقية، فلهم أن يكونوا معه في مقام التذلل والانكسار التام، والانخفاض المفرط بأضعاف ما وجب عليهم من حقوق الوالد النسبي؛ إذ آثار تربية الأنبياء مؤبدة مخلدة، وآثار تربية هؤلاء الآباء متناهية منقطعة، وإن ترتب على تأديبهم وانخفاضهم معه من المثوبة الأخروية، فإنما هي راجعة إلى تربية نبيهم.

ولاشك أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء، وأكملهم في التربية والإرشاد، فيكون أبوته

أيضًا أكمل، وإشفاقه ومرحمته لأمته التي هي أفضل الأمم أتم وأوفر؛ لذلك قال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ﴾ أي: هذا النبي المؤيَّد المبعوث إلى كافة الأمم، المتمم لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، المكمل لمعالم الدين ومراسم المعرفة واليقين ﴿أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وأحق لهم أن يرجحوا جانبه على نفوسهم، ويختاروا غبطته ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] إذ نسبة تربيته إلى أجسادهم كنسبة تربية الأب المشفق المحافظ ابنه عن جميع ما لا يعنيه، المراقب له في جميع أحواله؛ ليوصله إلى الحياة الأبدية، والبقاء الأزلية السرمدية.

---

(1) قال سيدي محمد البيطار: قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، فالمؤمنون هم لا هم بل هم هو؛ لأن الإيمان نقلهم منهم إليه، فقرارهم لا منهم بل إليه فيهم؛ لأنه عينهم التي يشربون بها منها فهم ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ بهذا الإيمان من أنفسهم ﴿تَفْجِيرًا﴾، فلولا هذا الإيمان بهذا النص القرآني لم تتفجر منهم الحقيقة المحمدية، فقد استحقوا حينئذ أن يصلي عليهم هو وملائكته كما صلى هو وملائكته على نبيهم؛ لأنه عينهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6]، فلهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:24]، فاستجبنا لله إذ دعانا بقوله:﴿ فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات:50]، واستجبنا للرسول إذ قال: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:50] فلما سلّمنا إليه نفوسنا تسليمًا، وأجبنا الداعي الذي من كونه مؤمنًا أحبَ لنا ما يحب لنفسه. أخبرنا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾) [الأحزاب:43]، فعاد الأمر من الله إلى محمد ﷺ ومن محمد ﷺ إلينا، فقلنا أولاً: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله» ثم عدنا إليهﷺ فقلنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فلما تكاثر الأمر وخفنا أن يلهينا التكاثر عن التوحيد قلنا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده» أي: مجلي هوية ذاته ورسول جميع أسمائه وصفاته، فلما استجبنا لله ولرسول الله وعرفنا الأحدية المطلقة قال تعالى: فَسَلِّمُوا﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:61] فعادت التحيات التي هي لله لنا لما أجبنا الداعي.

ومن هذا المقام قال ﷺ: «لو كنت بدل يوسف لأجبت الداعي» لأنه يراه الداعي في كل داعي، وفي الحديث: «من دعي فليجب»، وقد دعانا الرسول إليه، وأخبرنا أننا له لا لنا، فكان اسمه منطبقًا علينا فقلنا: «اللهم صلي على محمد» لما قال لنا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة:128]، فعدنا إليه منّا فقال: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف:65] فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ونسبة تربية نفوسهم المدبرة لأبدانهم، وإن كانت هي أيضًا بتوفيق الله وإقداره إنما هي مقصورة إلى حفظ أجسامهم؛ لئلا تنهدم وتنخرم، ولا تزول عنها الحياة المستعارة، وشتان ما بين النسبتين ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: وبعدما ثبت أن تربيته ﷺ شاملة، وأبوته كاملة صارت أزواجه اللاتي في حجوره ﷺ وحضانته أمهات المؤمنين في الدين، وحرمتهن أعظم وأولى من حرمة أمهاتهم النسبية؛ إذ هن أتباع له ﷺ وأهل بيته فيسري الأدب معه إليهن، وهن أيضًا في أنفسهن من الكاملات اللائقة لأنواع الحرمات والكرامات، ومن جملتها: لياقتهن بشرف صحبة النبي ﷺ.

فعليكم أيها المؤمنون ألَّا تنكحوا أزواجه أبدًا؛ إذ هن أمهاتكم ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم أيها السامعون المؤمنون أن النبي خير آبائكم في الدين، وأزواجه فُضليات أمهاتكم أيضًا فيه، وسائر المؤمنات والمؤمنين إخوانكم وأخواتكم في الدين، لا تظنوا أن حكم أبوته ﷺ وأمومتهن - رضي الله عنهن - وأخوّة المؤمنين تسري في أحكام الميراث والعصوبة أيضًا، بل ﴿أُوْلُوا الأَرْحَامِ﴾ والأقارب المنتمين إليكم بالقرابة النسبية على تفاوت طبقاتهم ذكورًا كانوا أو إناثًا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى﴾ وأحق شرعًا ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي: بأخذ الميراث من بعض؛ يعني: هم أصحاب الفروض والعصبات يأخذون متروكات المتوفى عنهم، ويحرزونها؛ لقرابتهم النسبية على مقتضى سهامهم المقدرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ المنزل عليكم، الموافق لما في حضرة علمه ولوح قضائه من النبي وأزواجه.

وأجانب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ وإن كانوا إخوانًا في الدين لا يأخذون من أموالهم شيئًا بلا قرابة نسبية ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا﴾ أي: المؤمنون منكم، وتخرجون من أموالهم على الوجه المشروع المستحسن ﴿إِلَى أَوْلِيَائِكُم﴾ في الدين مع كونهم أجانب لكم ﴿مَّعْرُوفًا﴾ أي: وصية مشروعة مستحسنة عقلاً وشرعًا، غير مؤدية إلى إحراز التركة وتحريم الورثة، وهي التي لا تكون أزيد من ثلث المال ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي: إخراج الوصية على الوجه المعروف ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي يُتلى عليكم، وفيما قبله من الكتب المتلوة على الأمم الماضين ﴿مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: 6] مثبتًا، فللموصي له أن يأخذها على مقتضى ما ثبت في حكم الله وكتابه.

﴿وَ﴾ كيف لم يحسنوا الأدب أولئك المؤمنون الماضون مع أنبيائهم، وهؤلاء معك، مع أنَّا ما بعثنا الأنبياء والرسل؛ إلا لإرشاد المؤمنين، وهدايتهم إلى توحيدنا، وإيصالهم إلى زلال تفريدنا، وعلى ذلك أخذنا العهود والمواثيق المؤكدة من الأنبياء

تأكيدًا وإلزامًا، اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين؛ ليحافظوا على ما أُمروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ﴾ عموم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضين ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عهودهم الوثيقة المؤكدة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿مِنكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ النجي ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَمُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿وَعِيسَى﴾ الصفي الخالص عن كدر الناسوت من قبل الأب؛ لأنه ﴿ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لم يمسها ذكر من بني نوعها، بل إنما ولدته بلا أب إرهاصًا لها، ومعجزةً لابنها.

خصّ هؤلاء سبحانه بالذكر اهتمامًا بشأنهم - صلوات الله عليهم - ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ كرره تأكيدًا ومبالغةً؛ أي: كل واحد منهم، وممن لم نذكر أساميهم من ذوي العزائم الخالصة ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7] أي: عهدًا وثيقًا مؤكدًا على ألا تتهاونوا، ولا تتكاسلوا في إرشاد العباد وإبعادهم عن الجور والفساد، وإيصالهم إلى ما أعددنا لهم من المراتب العليّة والدرجات السنيّة.

وأنزلنا عليهم الكتب والصحف المشتملة على الأوامر والأحكام المقربة لتوحيدنا، والعبر والنواهي المبعدة عن الكفر والضلال، وأمرناهم أيضًا بتبيين الأوامر والنواهي إلى أممهم وتنبيهها عليهم؛ ليتفطنوا على فطرتهم التي جُبلوا عليها في عالم الغيب؛ وليتميز عندهم الحق الحقيق بالاتباع من الباطل الزاهق الزائل.

كل ذلك ﴿لِّيَسْأَلَ﴾ سبحانه في النشأة الأخرى عن أنبيائه ورسله - صلوات الله عليهم - عن أحوال العباد ﴿الصَّادِقِينَ﴾ الممتثلين بأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ وإخلاصهم في أعمالهم ونيّاتهم فيها، وأحوالهم ومواجيدهم واعتقاداتهم، وتلقيهم لقبول الحق والمحافظة عليه؛ ليشهد الأنبياء لهم فيفوزوا إلى ما أعد لهم من المراتب والمقامات، وأنواع السعادات والكرامات، مع أن علمه سبحانه بحالهم يغني عن شهادتهم؛ ليسأل أيضًا سبحانه عن عناد العباد المصرين على الجور والفساد، المجترئين على الله بالخروج عن حدوده وعن مقتضيات أحكامه؛ ليشهدوا - صلوات الله عليهم - فيساقوا صاغرين مهانين إلى ما أعد الله لهم من الدركات الهوية الجهنمية ﴿وَ﴾ اعلموا أن الله سبحانه ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ الجاحدين لأوامر الله ونواهيه المنزلة في كتبه على رسله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 8] لا عذاب أشد إيلامًا منه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: 9-12].

ثمّ نادى سبحانه المؤمنين الموحدين، المواظبين على الطاعات بارتكاب الأوامر واجتناب المنهيات؛ كي يصلوا إلى ما أعد لهم ربهم من المثوبات والمكرمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: تعداد نعم الله عليكم، وإحصاء فواضله المتوالية المتتالية المتسقة ﴿اذْكُرُوا﴾ في عموم أوقاتكم وأحوالكم ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾[1] على تعاقب الأزمان، وتلاحق الآناء والأحيان، سيما نعمة إنجائكم من أعدائكم ونصركم عليهم، مع كونكم آيسين منه، اذكروا يا أهل يثرب ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ متعددة وأحزاب متعاقبة متلاصقة قاصدين لمقتكم واستئصالكم، وهم قريش

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنواع نعمه الظاهرة والباطنة.

أولها: نعمة الإيجاد من كتم العدم، وثانيها: إذ أخرجكم من العدم جعلكم أرواحًا مطهرة إنسانية ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] لا حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا، وثالثها: يوم الميثاق شرفكم بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ثم وفقكم لاستماع خطابه ثم دلكم إلى إصابة جوابه، ورابعها: أنعم عليكم بالنفخة الخامسة عند بعثك إلى القالب الإنساني؛ لئلا ينزلوا المنزل من المنازل السماوية والكوكبية والجنية والشيطانية والنارية والهوائية والمائية والأرضية والنباتية والحيوانية وغيرها من المنازل إلى أن أنزلكم في المقام الإنسانية،، خامسها: عجن طينة قالبكم بيده أربعين صباحًا ثم صوركم في الأرحام سواكم ثم نفخ فيه من روحه، وسادسها: شرف روحكم بتشريف إضافته إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [ص:72] وما أعطى هذا التشريف لروح من أرواح الملائكة المقربين، وسابعها: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:78] ثم بالإلهامات الربانية علمكم ما يحتاجون إليه من أسباب المعاش، وثامنها: ألهمكم فجوركم وتقواكم؛ لتهتدوا إلى سبيل الرشاد للرجوع إلى المعاد، وتاسعها: أرسل إليكم الأنبياء والرسل ليخرجوكم من الظلمات الخلقية إلى نور الخالقية، وعاشرها: أنعم عليكم بالإيمان ثم بالإيقان ثم بالإحسان ثم بالعرفان ثم بالعيان ثم بالعين ثم أتاكم من كل ما سألتموه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34] وذكر نعمة استعمالها في عبودية إذا شكر نعمة، وشكر النعمة رؤية النعمة أن يرى نعمة توفيقه لأداء شكره إلى أن نعجز عن أداء شكره، فإن نعمه غير متناهية وشكرك متناه، فرؤية العجز عن أداء الشكر حقيقة الشكر، ومن الشكر بذكر ما سلف من الذي دفع عنده وأنت بصدده من أنواع البلاء والمحن والمصائب والمكائد.

وغطفان، ويهود بني قريظة وبني النضير، وكانوا زهاء اثني عشر ألفًا، وأنتم قليلون فحفرتم الخندق على المدينة، ثمّ خرجتم تجاه الأعداء ثلاثة آلاف، والخندق بينكم وبينهم فقعدتم متقابلين، ومضى عليها قريب شهر لا حرب بينكم إلّا بالترامي بالنبل والحجارة فاضطررتم واضطربتم، فأوجستم في نفوسكم خيفة، وصرتم متذبذبين متزلزلين لا إلى القرار ولا إلى الفرار.

وبعدما أبصرناكم كذلك فاجأنا بإرسال الريح والملائكة إمدادًا لكم، وتأييدًا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا، فهبت عليهم إلى حيث تقلع أوتادهم، وتسقط الخيام عليهم، وتطفئ نيرانهم، وتكفي قدورهم، وتجيل خيولهم، وكانت في ليلة شاتية باردة في غاية البرودة ﴿وَ﴾ أرسلنا عليهم أيضًا ﴿جُنُودًا﴾ من الملائكة ظهرت جوانب معسكرهم، بحيث ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ في تلك الليلة المظلمة، بل لم تروها جنودًا مثلها أصلاً، فقال حينئذٍ صناديدهم وكبراؤهم: النجاء النجاء، فإن محمدًا قد بدأ بالسحر فانهزموا من غير قتال، فنجوتم سالمين عناية من الله، وإنجازًا لوعده، ومعجزةً لرسوله ﷺ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، والتزلزل والتذبذب، والرعب الخفي، وبما يعملون من التحزب والتوافق على استئصالكم ﴿بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9] رائيًا عليمًا منكم أمارات التذبذب والتزلزل.

وكيف لا يتزلزلون ﴿إِذْ جَاءُوكُم﴾ وهم غطفان ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق ﴿وَ﴾ جاءوكم قريش ﴿مِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: من أسفل الوادي من قبل المغرب، وأحصرتم حينئذٍ؛ إذ ليس معكم ما يقابل أحد الجانبين، فكيف بكليهما ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ حينئذٍ منكم، ومالت عن مستوى نظرها، وتقلقلت حيرةً وشخوصًا ﴿وَ﴾ اضطربتم في تلك الحالة إلى حيث ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من غاية الرعب؛ لأن رئتكم قد انتفخت من الرعب المفرط فارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحلقوم الذي هو مدخل الطعام والشراب.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿تَظُنُّونَ﴾ أيها الظانون المرعوبون ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي وعدكم الغلبة على الأعداء، وإظهار دينكم وإعلاءه على الأديان كلها ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: 10] أي: أنواعًا من الظنون، بعضها صالح وبعضها فاسد، على تفاوت طبقاتكم في الإخلاص وعدمه، فمنكم من يظن أن الله منجز وعده الذي وعده لرسوله من إعلاء دينه ونصره على الأعداء؛ إذ لا خلف لوعده سبحانه، ومنكم من يتردد ويتحير بين الأمرين إلى

حيث لا يرجح أحدهما؛ لذلك يخاف من ضعف الثقة بالله، وعدم رسوخه في الإيمان.

وبالجملة: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وجرّبوا واختُبروا؛ كي يتميز المخلص منهم من المنافق، والثابت الراسخ من المتردد المتزلزل ﴿وَ﴾ لذلك ﴿زُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 11] من شدة الفزع والهول المفرط إلى حيث كاد أن يخرج أرواحهم من أجسادهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ حينئذٍ ﴿وَ﴾ المؤمنون ﴿الَّذِينَ﴾ بقي ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من أمارات الشقاق، ولم يصفوا بعد؛ لحداثة عهدهم حتى يتمكنوا على الوفاق، ويتمرنوا بالاتفاق ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر على الأعداء، وانتشار هذا الدين في الأقطار والأنحاء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12] قولاً باطلاً، وزورًا زاهقًا زائلاً، وبالغوا في ذلك حيث قال متعب بن قشير: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز للقتال مع هؤلاء الفرق، فظهر أن وعده ما هو إلا غرور باطل.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: 13-17].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من منافقي المدينة، والذين في قلوبهم مرض وضعف اعتقاد ويقين من المؤمنين: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي: أصحاب المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا يحسن إقامتكم الآن ومقاومتكم في مقابلة هذه الأحزاب؛ إذ هم ذوو عَدد وعُدد كثيرة، وأنتم شرذمة قليلون بالنسبة إليهم ﴿فَارْجِعُوا﴾ عن دين محمد، وتشتتوا عن حوله؛ حتى تسلموا من يد الأعادي ﴿وَ﴾ بعدما سمعوا قول أولئك المنافقين آمرين بالرجوع والارتداد صاروا مترددين متزلزلين في دينهم؛ حتى ﴿يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ﴾ معتذرين معللين للرجوع والذب عن حول

النبي: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينة، خالية عن المحافظ، فأذن لنا حتى نرجع إلى بيوتنا ونستحفظها ﴿وَ﴾ الحال أن بيوتهم ﴿مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة محفوظة لا خلل فيها، بل ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي: ما يريدون ويقصدون من هذا القول ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13] عن الزحف، وإعراضًا عن الدين.

﴿وَ﴾ من كمال ضعفهم في الدين، وعدم تثبتهم ورسوخهم في الاعتقاد واليقين: ﴿لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وحصنت جميع جوانبها، بحيث لا يمكن الظفر عليها إلا لهؤلاء الأحزاب ولا لغيرهم من عساكر الأعداء ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تحصنت عليهم بيوتهم كذلك صاروا آمنين من ظفر العدو مطلقًا ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي: الارتداد عن الإيمان والإسلام، والنصر على المؤمنين ﴿لَآتَوْهَا﴾ وأعطوها ألبتة هؤلاء الجهلة الضعفة، المتمائلين إلى الكفر ومؤاخاة الكفرة عن صميم فؤادهم، ولجاءوا بالردة عن الدين والقتال مع المسلمين على الفور ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ وتوقفوا ﴿بِهَا﴾ أي: بإعطاء الفتنة والردة بعدما سئلوا عنها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 14] أي: آنًا واحدًا إلَّا زمانًا مقدار ما يفهمون سؤال السائل واقتراحه.

﴿وَ﴾ كيف لا يعطونها وهم ﴿لَقَدْ كَانُوا﴾ أي: بنو حارثة وبنو سلمة ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ أي: عهدوا العهد الوثيق مع الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل حفر الخندق، وذلك في يوم أحد حين أرادوا أن يُفشلوا عن رسول الله ﷺ أو تخلفوا عنه يوم بدر، فلما رأوا ما أعطى الأحديون والبدريون من الكرامة العظيمة آجلاً وعاجلاً قالوا معاهدين: لئن أشهدنا الله قتالاً فلنقاتلن، وحلفوا ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾[1] أصلاً، فالآن قد تذبذبوا

---

(1) عن المحاربة مع الشيطان وعند الجهاد مع النفس، فلما شرعوا في الحرب والجهاد مع أحزاب النفس والشيطان، وقد حمل كل حزب منهم أسلحتهم وأخذوا خدعات الحرب ومكائده، وهم الشجعان والأقوياء والأبطال المجربون وعساكر طلاب القلوب المرضى، وهم بعد إغمار غير مجربي الحروب والقتال وإن كان لهم الأسلحة ولكنهم بمعزل عن استعمالهم لضعفهم وعدم العلم بكيفية الاستعمال، فإذا قام الحرب ودام الضرب، غلب الأقوياء على الضعفاء وانهزم المرضى عن الأصحاء، فلم يشد أزرهم الصدق ولم يعاونهم العشق ولم يذكروا حقيقة قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب:15]، ولا يتفكروا في قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ [الأحزاب:16] أيها الطالبون: إن فررتم وإن تفروا إلى الله لينفعكم، فإن الفرار من الموت أو القتل أو موت النفس وقتلها بالمجاهدة لا ينفع عند نزول الآجال، وإن لم تأتهم الآجال فهي من غاية الشقاوة، وإذا لا تمتعون كالبهائم والأنعام في رياض الدنيا إلا قليلاً ولا نهاية لتلك

وتضعضعوا، وكادوا أن يولوا ﴿وَ﴾ لم يعلموا أنه ﴿كَانَ عَهْدُ اللهِ﴾ الذي عاهدوا معه سبحانه من قبل ﴿مَسْئُولاً﴾ [الأحزاب: 15] عنه وعن نقضه ووفائه، وهم مجزيون بمقتضى ما ظهر منهم من النقض والوفاء؟!.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تحقق عندك قصد فرارهم وذبهم عنك: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ﴾ أبدًا، بل ﴿إِن فَرَرْتُم﴾ من ضعف يقينكم، ووهن اعتقادكم ﴿مِّنَ المَوْتِ﴾ حتف الأنف، كما يفر الناس من الطاعون والوباء والزلزلة وغير ذلك ﴿أَوِ القَتْلِ﴾ في يوم الوغاء ﴿وَإِذًا﴾ أي: بعدما تفرون حينئذٍ ﴿لَا تُمَتَّعُونَ﴾ تمتيعًا كثيرًا مؤبدًا، بل ما تمتعون ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: 16] في زمان قليل؛ إذ لكل منكم أجل، ولكل أجل قضاء وانقضاء، ولا دوام إلا لمن هو متعال عن الأجل والقضاء والانقضاء، منزه عن الابتداء والانتهاء، وعن الإعادة والإبداء، مقدس عن تعديد الأزمنة وتحديد الأمكنة مطلقًا.

وإن جادلوا معك يا أكمل الرسل، وعاندوا بالفرار والتحصن ننجي من العدو وإهلاكه بحيث لا تبقى لهم يد علينا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ ويحفظكم ويحرزكم ﴿مِّنَ﴾ قهر ﴿اللهِ﴾ وعذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: إصابة بلاء وشدة ومحنة ﴿أَوْ﴾ من ذا الذي يمنع عنكم لطفه سبحانه إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ عطفًا ومحبةً؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ أولئك المتذبذبون المتضعضعون ﴿لَهُم﴾ أي: لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المراقب عليهم في جميع أحوالهم ﴿وَلِيًّا﴾ يولي أمور تحصنهم وتحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 17] ينصرهم على أعدائهم، وبالجملة: جميع أعمال العباد وأفعالهم مفوضة إلى الله أولاً وبالذات، مقهورة تحت قدرته الكاملة، فلهم أن يفوضوها إليه؛ ليسلموا من غوائل العناد والإصرار.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا
(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

الشقاوة. [التأويلات النجمية].

﴿ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠﴾ [الأحزاب: 18-20].

وإن اعتذروا بك، وتبرءوا عما كانوا وصاروا عليه، قل لهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين ﴿مِنكُمْ﴾ عن رسول الله ﷺ، المتخلفين عنه في الحروب والمعارك، وهم المنافقون ﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ﴿الْقَائِلِينَ﴾ منكم أيها المنافقون من أهل المدينة ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ ممن في قلوبهم مرض من المؤمنين: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قربوا أنفسكم نحونا؛ لتنجو عن المخاوف والمهالك ﴿وَ﴾ بعدما سمعوا منكم إخوانكم قولكم هذا ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أي: الحراب والقتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18] أي: إتيانًا قليلاً، بل يثبطون ويسرفون، ويعتذرون بالأعذار الكاذبة.

وبعدما أتوا ما أتوا إلا ﴿أَشِحَّةً﴾ أي: بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون لما معكم من المعاونة والنفقة في سبيل الله، أو خوف الظفر وفوت الغنيمة، أو من خوف العاقبة، وإنما فعلوا ذلك قبل القتال ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ وظهرت أمارات القتال والحراب ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من شدة خوفهم وخشيتهم ﴿تَدُورُ﴾ أي: تتحرك وتضطرب ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ أي: آماقهم في أحداقهم ﴿كَالَّذِي يُغْشَى﴾ أي: يحل ويدور ﴿عَلَيْهِ مِنَ﴾ أمارات ﴿الْمَوْتِ﴾ ولاح عليه علامات السكرات ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وزال الرعب والخشية، وانهزم العدو، واجتمعت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: جاءوكم متسلقين متسلطين عليكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذربة قاطعة، باسطين أيديهم إلى الغنائم وقت قسمتكم، صائحين عليكم: لستم أولى منّا وأحق بهذه الغنائم؛ لأنّا شهدنا القتال معكم، بل نحن لا نقصّر وأنتم قاصرون، فبم ترجحون أنتم علينا، وإنما سلقوكم بها حال كونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ بخلاء ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي وصل إليكم من الغنائم العظام؟!.

وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه النفاق والشقاق ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بتوحيد الله، ولم يخلصوا الإيمان به وبرسوله وكتابه، بل إنما آمنوا واعترفوا باللسان؛ لحقن الدماء والأموال خداعًا ومكرًا؛ ولذلك مكر الله المطلع على نيّاتهم بهم ﴿فَأَحْبَطَ

الله أَعْمَالَهُمْ﴾ الصالحة، وأبطلها عليهم بلا ترتيب الجزاء والمثوبات، كما لأعمال المخلصين من المؤمنين ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط والإبطال ﴿عَلَى اللهِ﴾ القادر لجميع ما ثبت في لوح قضائه ﴿يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 19] سهلاً غير عسير عنده.

وإن استعسرتم أيها المحجوبون بالحجب الظلمانية الكثيفة، ومن كمال غيّهم وضلالهم، ونهاية جبنهم ورعبهم من الأحزاب ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينهزموا، مع أنهم ذهبوا منهزمين إلى حيث لم يبق منهم أحد ﴿وَ﴾ هم من كمال محبتهم ومودتهم مع الأحزاب ﴿إِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ ويكروا بعد الفرار ﴿يَوَدُّوا﴾ هؤلاء المنافقون إتيانهم إلى حيث تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ ظاهرون ﴿فِي﴾ البدو ﴿الأَعْرَابِ﴾ أي: فيما بينهم، خارجون عن أظهر المسلمين، لاحقون بالكفرة، معدودون من عدادهم حتى ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من قبلكم ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ وأخباركم، وما جرى عليكم أيها المؤمنون من الوقائع الهائلة والمصيبات المهولة ﴿وَ﴾ من كمال ودادتهم مع الكفرة: ﴿لَوْ﴾ فُرض أنهم ﴿كَانُوا فِيكُم﴾ وقت كر الكفرة عليكم ﴿مَّا قَاتَلُوا﴾ من المنافقين من قبلكم مع أعدائكم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: 20] منهم، وهو أيضًا على سبيل الرياء والسمعة، ومقتضى ما زعموا من جلب النفع أو دفع الضر، لا لرضاء الله وإعلاء دينه ونصرة نبيه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: 21-24].

ثم قال سبحانه تحريكًا لحمية المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المخلصون، الطالبون التخلق بأخلاق الله، الهاربون عن أخلاق أعدائه ﴿فِي رَسُولِ اللهِ﴾ المبعوث؛ لإرشادكم وإهدائكم ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] أي: خصلة حميدة بديعة يجب

(1) قال الشيخ نجم الدين: أي: فقد أحسنته، وذلك بأن أول شيء تعلقت به القدرة للإيجاد كان روح رسول الله ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روحي» والأسوة الحسنة عبارة عن تعلق القدرة بأرواح

التأسي والاتصاف بها ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ أي: لقاءه ومطالعة وَجهه الكريم ﴿وَ﴾ يرجو أيضًا ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الموعود فيه هذه الكرامة العظيمة، وبواسطة هذا الرجاء وغلبة هذه الأمنية العظيمة في خاطره ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21] في عموم الأعيان والأحياز؛ لتلذذه بذكره سبحانه؛ حتى ينال ما وعد من الفوز بشرف اللقاء، ومَن كان كذلك، وهمه ذلك فهو مؤتسٍ بالرسول ﷺ في تلك الخصلة المحمودة، والديدنة المسعودة المقبولة عند الله التي هي الرضا بجميع ما جرى عليه من القضاء.

ومن علامات الثبات على العزيمة، وتحمل الشدائد، ومقاساة الأحزان، وارتكاب المتاعب والمشاق في إعلاء دين الله وكلمة توحيده، والتوكل نحوه في الضراء والسراء، وكظم الغيظ عند هجوم الغضب، والعفو عند القدرة وغير ذلك من الخصائل الحميدة والأخلاق الجميلة المرضية ﴿وَ﴾ من شدة تأثير هذه الخصائل الجميلة في قلوب المؤمنين ﴿لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون ﴿الْأَحْزَابَ﴾ حواليهم ﴿قَالُوا﴾ متذكرين

هذه الأمة لإخراجهم من العدم إلى الوجود عقيب إخراج روح رسول الله ﷺ من العدم إلى الوجود، فمن أكرم بهذه الكرامة يكون لها أثر في عالم الأرواح قبل تعلقه بعالم الأشباح، فأما أثره في عالم الأرواح فتقدمه على الأرواح بالخروج إلى عالم الأرواح وترجيعه في الصف الأول بقرب روح رسول الله ﷺ أو في الصف الذي يليه، وبتقدمه في قبول الفيض الإلهي وبتقدمه عند استخراج ذرات الذريات من صلب آدم في استخراج ذريته بإحضارها في الحضرة وبتقدمه في استماع خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] وبتقدمه في إجابة الرب تعالى بقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172] وبتقدمه في المعاهدة مع الله وبتأخره في الرجوع إلى صلب آدم وبتأخره في الخروج عن أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وفي الخروج عن الرحم وبتأخر تعلق روحه بجسمه، فإن لله الذي هو المقدم والمؤخر في هذه التقدمات والتأخرات حكم بالغة، ولها تأثيرات عجيبة يطول شرحها، وأما أثره في عالم الأشباح فاعلم أنه بحسب هذه المراتب في ظهور أثر الأسوة يظهر أثرها في عالم الأشباح عند تعلق نظر الروح بالنطفة في الرحم أولاً إلى أن تربي النطفة بنظره في الأطوار المختلفة، وتصير قالبًا مستوي الروح مستعدًا للقبول تعلق الروح به فمثل القالب المستوي مع الروح كمثل الشمعة مع نقش الخاتم إذا وضع عليها تقبل جميع نقوش الخاتم، فالروح المكرم إذا تعلق بالقالب المستوي يودع فيه جميع خواصه التي استفاد من تلك التقدمات والتأخرات الأسوية، فكل ما يجري على الإنسان من بداية ولادته إلى نهاية عمره من الأفعال والأقوال والأحوال كلها من آثار خواص أودعها الله في الروح فبحسب قرب كل روح الرسول ﷺ وبعده عنه له أعمال ونيات تناسب حاله في الأسوة، فأما حال أهل القرب منهم بأن يكون علمهم على وفق السنة خالصًا لوجه الله.

لوعد الله، متثبتين على دينه، متشمرين لإعلاء كلمة توحيده: ﴿هَذَا﴾ الوقت وقت إنجاز ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ من النصر والغلبة على الأعداء، والفوز بأنواع الغنائم والعطاء عاجلاً وآجلاً بقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم...﴾ [البقرة: 214]، وقوله ﷺ: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم»[1]، وقوله ﷺ: «إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر»[2].

﴿وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ في جميع ما جاءنا من قِبَل الله ورسوله من الوعد والوعيد، وأنواع النعم والعطاء، والمحن والبلاء ﴿وَ﴾ من كمال تثبتهم وتفويضهم على الله، وتوكلهم نحوه: ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ إلمام الخطوب وحدوث الوقائع، ونزول المحن والبليات ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله وكمال قدرته وعلمه وإرادته، وسائر صفات الذاتية والفعلية ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22] لعموم ما جرى عليهم من صولجان قضائه بلا تلعثم وتذبذب في إيمانهم واعتقادهم.

ومن غاية خلوصهم في إيمانهم وتسليمهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المشمرين لإعلاء دين الله ونصرة رسوله على العزيمة الكاملة الصادقة ﴿رِجَالٌ﴾ أبطال كاملون في الإخلاص والشجاعة والوفاء ﴿صَدَقُوا﴾ في جميع ﴿مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ أي: نجزوا مواثيقهم، ووفوا عموم عهودهم التي عهدوا مع الله ورسوله من الثبات على العزيمة، والتصبر في المعركة، وعدم التزلزل من المحل الذي عين لهم الرسول ﷺ في صف القتال، ولم يجبنوا ولم يضعفوا أصلاً.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ ووفى نذره بأن قاتل مع أعداء الله على مقتضى ما عاهد ونذر حتى استشهد ووصل إلى مرامه ومبتغاه، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر - رضوان الله عليهم أجمعين - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة، كعثمان وطلحة فقاتلوا مع الأعداء وقتلوهم، ونجوا منهم سالمين منتظرين إلى قتال آخر؛ ليستشهدوا فيه ﴿وَ﴾ من كمال تثبتهم وتمكنهم في تعيينهم، وإخلاصهم في إيمانهم: ﴿مَا بَدَّلُوا﴾ من النذور والعهود التي أتوا بها عازمين عليها جازمين، ولا أضمروا في أنفسهم، كالمنافقين ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23] شيئًا حقيرًا من التبديل والنقص، فكيف

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (24/11).

(2) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (9/5).

بالعظيم الكثير؟! بل زادوها وأكدوها.

كل ذلك ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ المجازي لأعمال عباده ﴿الصَّادِقِينَ﴾ المخلصين منهم ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: جزاءً حسنًا يناسب صدقهم وإخلاصهم، أو بواسطة صدقهم وإخلاصهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ منهم، وليجازيهم بمقتضى كفرهم ونفاقهم تعذيبًا مخلدًا مؤبدًا ﴿إِن شَاءَ﴾ وتعلق إرادته ومشيئته بتخليدهم في العذاب ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على الإيمان والإخلاص، إن تعلق إرادته بإيمانهم وإنقاذهم من العذاب الأبدي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على جميع ما أحاط تحت قدرته ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ ساترًا لذنوب من وفقهم على التوبة من عصاة عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 24] يقبل توبتهم، ويرحم عليهم بعدما أخلصوا فيها.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 25-27].

﴿وَ﴾ من كمال لطف الله على المؤمنين، ووفور رحمته وإحسانه عليهم ﴿رَدَّ اللَّهُ﴾ عنهم كيد أعدائهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الأحزاب المزدحمين حواليهم، المتفقين على مقتهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: مع كمال غيظهم في مقت المؤمنين، ووفور تهورهم وجرأتهم عليك؛ لذلك طردهم سبحانه خائبين خاسرين، بحيث ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ مما أملوا في نفوسهم من الظفر على المؤمنين واستئصالهم ﴿وَ﴾ من كمال رأفته سبحانه على المؤمنين: ﴿كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: مؤنة قتال الأحزاب بريح الصبا وجنود الملائكة، بحيث لم يقدم أحد من المؤمنين لقتالهم فانهزموا إلى حيث لم يلتفت أحد منهم خلفه، ولم يعاون أخاه ﴿وَ﴾ ليس ببدع من الله أمثال هذه الكرامات لأنبيائه وأوليائه؛ إذ ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿قَوِيًّا﴾ قديرًا في نفسه يقوي أوليائه ﴿عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25] غالبًا ينصرهم ويغلبهم على أعدائهم فضلاً لهم وكرامةً عليهم.

﴿وَ﴾ بعدما كفى الله المؤمنين مؤنة الأحزاب أراد أن يكفيهم مؤنة معاونيهم؛ لذلك ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ وعاونوهم؛ أي: الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ

الكِتَابِ﴾[1] يعني: يهود قريظة والنضير ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم وقلاعهم، جمع صيصية، وهي ما يتحصن به من الجبل وغيره، وذلك أنه بعدما انهزم الأحزاب، ورجعوا خائبين خاسرين إلى بلادهم، ورجع ﷺ إلى المدينة مع أصحابه، وشرع يغسل رأسه، والأصحاب قد انتزعوا عن أسلحتهم، فجاءه جبريل معتجرًا بعمامة من إستبرق، والنقع على ثناياه وعلى فرسه الذي اسمه حيزوم، وقال: وضعتم السلاح، إن الملائكة لم تضع أسلحتها منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك بالمسير إلى قريظة، وإني مزلزل حصونها، وكان ﷺ قد غسل نصف رأسه فعصبه وأذن بالرحيل، فقال: «**من كان سامعًا ومطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**»[2].

وأعطى رايته عليًا - كرم الله وجهه - فسار بالناس حتى دنا من الحصن فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين، أو خمسًا وعشرين ليلة، وأجهدهم الحصار وضعفوا ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف مع كونهم متحصنين، فأرسل ﷺ فقال لهم: أتنزلون بحكمي فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ، فرضوا بحكمه فنزلوا، فحكم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبَّر النبي ﷺ فقال: «**لقد حكمت بحكم الله يا سعد من فوق سبعة أرقعة**»[3] فقتل منهم ستمائة وأكثر، وأسر منهم سبعمائة، كما قال سبحانه: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: 26].

﴿وَ﴾ بعدما استأصلوا بالأسر والقتل ﴿أَوْرَثَكُمْ﴾ الله سبحانه إليكم أيها المؤمنون ﴿أَرْضَهُمْ﴾ أي: مزارعهم ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ التي تسكنون فيها مع ما فيها من الأمتعة والرخوة ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: مواشيهم ونقودهم وتجارتهم تفضلاً عليكم، وامتنانًا ﴿وَ﴾ كذا تفضل سبحانه عليكم، وأورثكم ﴿أَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي: لم تتحركوا عليها، بل لم تبصروها ولم تسيروا إليها أصلاً، وهي خيبر أو مكة، أو فارس أو الروم، أو كل أرض

---

(1) وهم العلماء المداهنون بفنون الرخص لا ريب الطلب ويغرونهم عن التجريد والمجاهدة وترك الدنيا والعزلة والانقطاع، ويقولون هذه رهبانية وليست عن ديننا ويتمسكون بآيات وأخبار لها ظاهر وباطن، فيأخذون بظاهرها ويبطلون ويضيعون باطنها، ولا يعلمون أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فيؤمنون ببعض هو على وفق طباعهم ويكفرون ببعض، هو على خلاف طباعهم، أولئك أعوان النفوس والشياطين. [التأويلات].

(2) رواه البخاري (321/1، رقم 904)، ومسلم (1391/3، رقم 1770)، وابن حبان (320/4، رقم 1462).

(3) ذكره حقي في «تفسيره» (32/11).

يفتح الله إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾ لا تتعجبوا من كمال فضل الله وسعة جوده أمثال هذه الكرامات؛ إذ ﴿كَانَ اللهُ﴾ المتفرد بالقدرة الكاملة، والقوة التامة الشاملة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: 27] لا يعسر عنده مقدور دون مقدور، بل الكل في جنب قدرته على السواء، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] في مقدور حكيم قدير ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحزاب: 28-31].

ثم لمّا اشتكت أزواج النبي ﷺ من العسرة في المأكل والمشرب والملبس، وسألن منه ثياب الزينة والزيادة في النفقة، والسعة في المعيشة، وليس معه ﷺ من حطام الدنيا ما يكفي مؤنتهن على هذا الوجه اغتم رسول الله ﷺ، وتحزن حزنًا شديدًا، فقال تعالى مناديًا له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المباهي بالفقر والعسرة ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ حين يسألن عنك أسباب التنعم والترفه، وسعة العيش على سبيل التخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ﴾ أيتها الحرائر العفائف ﴿تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: مطاعمها الشهية، وملابسها البهية ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ وتراضين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطيكن المتعة حسب ما ترضين ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي: أطلقكن بعد إعطائها ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 28] طلاقًا بيّنًا لا بدعيًا بلا ضرر ولا إضرار.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: رضاء الله ورضاء رسوله ﴿وَ﴾ تطلبن ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: المثوبات المعدة فيها، والجنان الموعودة عليها فعليكن أن تصبرن على ملاذ الدنيا ومشتهياتها، وسعة مطعوماتها ولين ملبوساتها؛ حتى تكنَّ من زمرة المحسنات اللاتي تحسنَّ في توجههن نحو الحق واللذة الأخروية، مائلات من أمتعة

الدنيا ولذاتها وشهواتها، منصرفات عنها وعن أمتعتها وألبستها، سوى سدّ جوعة وستر عورة ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ المرجحات جانب الله وجانب رسوله على مقتضى نفوسهن، واللذات الأخروية على الدنيا وما فيها ﴿مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 29] يُستحقر دونها الدنيا وما فيها من اللذات الفانية، والشهوات الغير باقية.

ثمّ لمّا نبه سبحانه عليهن طريق الإحسان، وعلمهن سبيل الفوز إلى درجات الجنان أراد أن يجنبهن ويبعدهن عن دركات النيران، فقال مناديًا عليهن؛ ليقبلن إلى قبول ما يبتلى عليهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ - أضافهن سبحانه إياه ﷺ؛ للتعظيم والتوقير - من شأنكن التحصن والتحفظ عن الفحشاء، والتحرز عن المكروهات مطلقًا ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ وفعلة قبيحة، وخصلة ذميمة عقلاً وشرعًا ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: بينة ظاهرة فحشها بنفسها، أو ظاهرة واضحة قبحها شرعًا وعرفًا - على كلتا القراءتين - ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[1] يعني: عذابكن ضعف عذاب سائر الحرائر لا أزيد منها؛ حتى لا يؤدي إلى الظلم المنافي للعدالة الإلهية، كما يضاعف عذاب سائر الحرائر بالنسبة إلى الإماء ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ التضعيف ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 30] يعذبكن أن تأتي إحداكن بها.

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ ويطع على سبيل الخضوع ﴿مِنكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويداوم على إطاعتهما وانقيادهما بإتيان الواجبات، وترك المحظورات والمكروهات ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من النوافل والمندوبات ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا﴾ أي: جزاء أعمالها وطاعاتها في يوم الجزاء ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على مقابلة الأعمال المأتية ومقتضى الطاعات المرضية، ومرة

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن الثواب والعقاب بقدر نفاسة النفس وخستها تزيد وتنقص، وأن زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة كحد الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص وذلك لأن أهل السعادة صنفين: صنف منهم السعيد والآخر الأسعد، فالسعيد: من أهل الجنة، والأسعد: من أهل الله، فإذا صدر من السعيد طاعة فأعطى أجرًا واحدًا من الجنة، وإن صدر معصية فأعطى بها عذابا واحدًا من الجحيم، وإذا صدر من أهل الأسعد طاعة فأعطى أجره مرتين وذلك بأن له درجة في الجنة ومرتين في القربة، وإن صدر منه معصية يضاعف له العذاب ضعفين نقص في درجته من الجنة ونقص في مرتبته من القربة أو عذاب من ألم مس النار، وعذاب من ألم مس البعد ذلك الحجاب ومن هنا كان دعاء السّري السّقطي- قدس سره-: اللهم إن كنت معذبي بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب.

على ترجيحها رضا الله ورضا رسوله على مشتهيات نفسها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ تفضلاً ﴿لَهَا﴾ وامتنانًا عليها وراء ما استحقت بالأعمال والطاعات ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 31] صوريًا في الجنة مما تشتهي نفسها وتلذ عينها، ومعنويًا من الحالات الطارئة عليها عند استغراقها بمطالعة جمال الله وجلاله.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: 32-34].

ثمّ ناداهن سبحانه تعظيمًا لهن، وتنبيهًا عليهن فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ الأفضل الأكمل من بين الأنبياء والرسل، كما أن ﷺ ليس في الكرامة والنجابة كآحاد الناس، بل ليس كآحاد الأنبياء والرسل، كذلك ﴿لَسْتُنَّ﴾ أيضًا؛ لنسبتكنّ إليه ﷺ ﴿كَأَحَدٍ﴾ أي: كواحدة ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ لأن فضيلته ﷺ تسري إليكن، فعليكن ألّا تغفلن عنها، ولا تذهلن عن مقتضاها ورعاية حقوقها، بل من شأنكن التحصن والتقوي، والتحرز عن ملهيات الهوى مطلقًا، فلكن ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ يعني: إن أردتن أن تتصفن بالتقوى عن محارم الله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي: لا تُلن وتلطفن ﴿بِالْقَوْلِ﴾ وقت احتياجكن إلى التكلم مع آحاد الرجال من الأجانب، ولا تجبن عن سؤالهم هينات لينات مريبات، مثل تكلم النساء المريدات لأنواع الفسادات مع المفسدين من الرجال ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وميل إلى الفجور إليكن بعدما سمع منكن تليينكن في قولكن ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قُلْنَ﴾ بعدما تحتجن إلى التكلم معهم ضرورة ﴿قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 32] مستحسنًا عقلاً وشرعًا، بعيدًا عن الريبة المثيرة للطمع، خاليًا عن وصمة الملاينة المحركة للشهوات.

﴿وَقَرْنَ﴾ أي: امكن ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: يا نساء النبي من شأنكن التقرر والتخلي في البيوت بلا تبرز إلى الملأ بلا ضرورة رعايةً لمرتبتكن التي هي أعلى مرتبة عموم النساء ﴿وَ﴾ إن احتجتن إلى التبرز والخروج أحيانًا ﴿لَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تبخترن في

مشيتكن مظهرات زينتكن، مهيجات لشهوات الناظرين ﴿تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ أي: كتبختر النساء المثيرات لشهوات الرجال في الجاهلية القديمة التي هي جاهلية الكفر، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام.

خصّ سبحانه الأولى بالذكر، وإن كانت كلتاهما مذمومتان محظورتان شرعًا؛ لأنها أفحش وأقبح وأظهر فسادًا؛ لأن النساء فيها يتزينّ بأنواع الزينة، ويظهرن على الرجال بلا تستر واستحياء، بل بملاينة تامة وملاطفة كاملة على سبيل الغنج والدلال، وأنواع الحركات المطمعة للرجال ﴿وَ﴾ من حقكن يا نساء النبي الاجتناب عن مطلق المنكرات، والاشتغال بالطاعات والأعمال الصالحات، سيما المواظبة على الصلوات النوافل والمفروضات ﴿أَقِمْنَ الصَّلاةَ﴾ المقربة لكُنَّ إلى الله على الوجه الذي علمتن من النبي ﷺ ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لنفوسكن عن الشح، وأنواع المرض المتولدة من حب الدنيا وأمانيها إن بلغ أموالكن النصاب المقدر في الشرع.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ إطاعة مقارنة بكمال الخشوع والخضوع، والتذلل التام بالعزيمة الصحيحة الخالصة، الخالية عن شوب الرياء والرعونات مطلقًا في جميع ما أمرتن بها، ونهيتن عنها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده الخلّص بإتيان هذه المواعيظ والتذكيرات البليغة، والتنبيهات العجيبة البديعة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾[1] أي: يزيل القذر المستقبح المستهجن عقلاً وشرعًا بالمرة يا ﴿أَهْلَ البَيْتِ﴾ المجبولين على الكرامة والنجابة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة، وأكدار الهيولي المانعة عن الصفاء الجبلي الذاتي ﴿تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] بليغًا، بحيث لا تبقى فيكم شائبة شين، ووصمة عيب أصلاً، ذكر الضمير؛ لأن النبي وعليًا وابنيه ﷺ فيهم فغلب هؤلاء الذكور له على فاطمة وأزواج النبي، رضوان الله عليهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتن يا نساء النبي ما يليق وينبغي بشأنكن ﴿اذْكُرْنَ مَا يُتْلَى﴾ لإصلاح أحوالكن وتكميلكن في الدين ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ غيز مخرجات لطلبه؛ إذ بيوتكن مهبط الوحي الإلهي، ومحل نزول الآيات المنزلة، فلكُنَّ أن تلازمن خدمة النبي ﷺ، وتشاهدن عليه من برحاء الوحي الموجب لقوة الإيمان وكمال اليقين والعرفان، فليس

(1) الرجس: هاهنا حيث ما دون الله في صحبة رسول ﷺ، فهن مخصوصات بالصديقية من الله سبحانه، وهن مقدسات حيث قدس الله أرواحهن وأشباحهن بنظر الاصطفائية إليهن في إنشائهن. قال أبو بكر الوراق: الرجس الأهواء والبدع والضلالات.

لكُنّ أن تخرجن من بيوتكن، وتتعبن أنفسكن في طلب ما يتلى ﴿مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيد ذاته، وكمال أسمائه وصفاته ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ المتقنة الدالة على متانة فعله ووثاقة تدبيره ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع للسرائر والخفايا ﴿كَانَ لَطِيفًا﴾ يعلم دقائق ما في ضمائر عباده ورقائقه ﴿خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34] ذو خبرة كاملة على سوانح صدورهم، وخواطر قلوبهم، فعليهم أن يخلصوا الله في جميع ما أتوا به، واجتنبوا من الأوامر والنواهي وانقادوا له، ويسلموا إليه مفوضين أمورهم كلها.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 35-36].

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ المسلّمين المخلصين، المفوضين أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ المفوضات المخلصات ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين الموحدين ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الموقنات الموحدات ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الخاضعين، المتذللين مع الله في جميع الطاعات والعبادات، بل في جميع الحالات ﴿وَالْقَانِتَاتِ﴾ الخاضعات الخاشعات ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في جميع الأقوال، المخلصين في جميع الأحوال والأعمال ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ في البأساء والضراء لجميع ما جرى عليهم من القضاء ﴿وَالصَّابِرَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين، المتضرعين نحو الحق بجوانحهم وجوارحهم ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بما عندهم من فواضل الصدقات طلبًا لمرضات الله، وهربًا من سخطه ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أيضًا كذلك.

﴿وَالصَّائِمِينَ﴾ الممسكين نفوسهم مطلقًا عما لا يرضى عنه سبحانه ﴿وَالصَّائِمَاتِ﴾ الممسكات أنفسهن كذلك ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن أمارات الزنا، ومقدمات السفاح مطلقًا ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ أيضًا ﴿وَالذَّاكِرِينَ﴾ المشتغلين بذكر الله

باللسان والجنان والأركان ﴿اللَّهَ﴾ باسمه الجامع الشامل لجميع الأسماء والصفات لا على سبيل التعديد والإحصاء، ولا في حين دون حين، بل ﴿كَثِيرًا﴾ مستوعبًا لجميع الأعيان والأزمان، والأوقات والحالات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾[1] أيضًا كذلك ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ المصلح لأحوالهم، المطلع لما جرى في ظهورهم وبواطنهم من الإخلاص على وجه التذلل والانكسار ﴿لَهُم﴾ أي: لهؤلاء المتصفين بالصفات المرضية، والأخلاق المحمودة المقبولة عند الله ﴿مَّغْفِرَةً﴾ سترًا وعفوًا لما صدر عنهم من الصغائر هفوةً، ومن الكبائر أيضًا بعدما تابوا عنها، وأخلصوا في التوبة والإنابة على وجه الندامة ﴿وَأَجْرًا﴾ جزيلاً جميلاً لصالحات أعمالهم ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35] بأضعاف ما استحقوا بحسناتهم تفضلاً عليهم وامتنانًا.

ثمَّ لمَّا أراد رسول الله ﷺ أن يزوج بنت عمته التي هي أميمة بنت عبد المطلب، المسماة زينب بنت جحش لزيد بن الحارثة الذي هو مولى رسول الله ﷺ وعتيقه، فأبت

---

(1) الذاكرين في البداية بنور الأفعال، ثم الذاكرين بالأسماء، ثم الذاكرين بالنعوت، ثم الذاكرين بالصفات بنعت رؤية أنوارها، وإدراك أسرارها، وفي النهاية الذاكرين الذات في الحالين ذاكرين الذات قبل مشاهدة الذات صرفًا وعيانًا، وذلك ضمن ظهور أنواره في قلوبهم، الذاكرين ذاته في عيانه كفاحًا؛ لأن الذات لا يتناهى، فهم في أول الكشف مرهونون بما بدا لهم من جلال ذاته ويفنون، فإذا فنوا استغاثوا منه إليه أن يعينهم بالقوة الأزلية حتى يدخلوا بهممهم في بحار الأولية التي لا ساحل لها، فيبقون في الذكر أبدًا؛ لأنهم لا يتلقون إلا ما يليق بأحوالهم من الكشوفات والقربات، وهؤلاء المذكورون من أول المقام إلى مقام الذكر عشرة أقوام، بعضهم أهل البداية في الإسلام، وبعضهم أهل الإيقان في الإيمان، وبعضهم أهل العبودية الجامعة لجميع المعاملات، وبعضهم أهل الصدق في المحبة وترك ما دون الله والوفاء في الحقيقة، وبعضهم أهل مقام الرضا والتوكل، وبعضهم أهل التواضع في المشاهدة، وبعضهم أهل السخاء والكرم، وبعضهم المتصفون بالصمدانية، وبعضهم أهل الغيبة في الغيب الذين لا يكشفون أسرارهم عند الخلق والمنتهى منهم المستغرق في ذكر الذات والصفات كما وصفنا، والجميع مأجورون من الحق بقدر منازلهم في مقاماتهم بأن يغفر قصورهم في بذل المهج له، ويكاشفهم أستار الغيرة عن جمال المشاهدة.

و اعلم أن الكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:142] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

هي وأمها أميمة، وأخوها عبد الله بن جحش، فأعرضوا عن تزويجها إليه، ولم يختاروا؛ لئلا يلحق العار عليهم من تزويج الشريفة بالمولى، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يعني: ما صحّ وجاز ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ أي: لواحد من المؤمنين ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ واحدة من المؤمنات بعدما أخلصوا الإيمان بالله ورسوله أن يتخلفوا عن حكمهما أصلاً، سيما ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله.

﴿وَ﴾ نفذ ﴿رَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور المقضية، وحكمًا من الأحكام المبرمة ﴿أَن يَكُونَ﴾ ويبقى ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيار والترجيح بأن يختاروا ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ المحكوم به، والمقضي عليه شيئًا يخالف الحكم الواقع منهما أو يوافقه، بل لهم؛ أي: يطيعوا وينقادوا لحكم رسول الله ﷺ الذي هو حكم الله حقيقة ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بتغيير ما حكم به رسول الله ﷺ، وادعاء الاختيار في المأمور به ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن طريق الهداية ﴿ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36] وانحرف عن منهج الصواب والرشاد انحرافًا عظيمًا، وبعدما نزلت الآية رضيت زينب وأمها وأخوها، فخطبها رسول الله ﷺ وأنكحها على زيد.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب: 37-39].

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل من زيد ما سمعت اذكر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بأن يوفقه للإيمان وقبول الإسلام، وشرفه بشرف خدمتك وصحبتك ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن أعتقه ودعوته ابنًا ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعدما لم يريك منها شيئًا ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذر عن بطشه بطلاق العفيفة، والمفارقة منها بلا وصمة عيب ظهرت عنها، وسمة نقص لاحت منها ﴿وَ﴾ أنت يا أكمل الرسل حينئذٍ ﴿تُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ حين قولك لزيد هذا ﴿مَا اللَّهُ﴾ المظهر لما في الصدور ﴿مُبْدِيهِ﴾

مظهره ومعلنه من ميلك إلى زينب ونكاحها، وإرادتك لطلاق زيد وافتراقه عنها ﴿وَ﴾ سبب إخفائك هذا، وإظهارك ضد مطلوبك أنك ﴿تَخْشَى النَّاسَ﴾ من أن يعيروك بمناكحة زوجة عتيقك ودعيتك، ويرموك بما لا يليق بشأنك، مع أنك بريء عنه ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من ﴿أَن تَخْشَاهُ﴾[1] وتستحي منه؛ إذ هو سبحانه غيور ينتقم عمن يشاء، ويأخذه على من يشاء.

وهذا عتاب شديد وتأديب بليغ، قالت عائشة - رضي الله عنها -: لو كتم النبي شيئًا مما أنزل إليه لكتم هذه الآية، فطلقها زيد ومضى عليها العدة، قال ﷺ: اذهب فاذكرها عليَّ فذهب، فقال: يا زينب إن نبي الله أرسلني إليك بذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤمر من ربي، وقامت إلى الصلاة، فنزلت: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي: من زينب ﴿وَطَرًا﴾ أي: حاجة، وطلقها ومضت عدتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ يعني: زوجناك يا أكمل الرسل زينب بلا نصب ولي من الجانبين على الرسم المعهود في الشرع، بل أبحنا لك الدخول عليها بلا عقد، وجعلناها زوجتك بلا مهر؛ لذلك كانت تباهي على سائر نسائه ﷺ قائلة: إن الله تولى نكاحي، وأنتن زوجكن أولياؤكن.

فدخل ﷺ عليها بلا إذن، ولا عقد نكاح، ولا صداق، ولا شهود، وأطعم الناس خبزًا ولحمًا، ثمّ قال سبحانه: ﴿لِكَيْ لَا﴾ يعني: فعلنا ذلك؛ لكيلا ﴿يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضيق وإثم ﴿فِي﴾ تزوج ﴿أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ يعني: بعدما طلقوهن وسرحوهن سراحًا جميلاً ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ وحكمه المبرم، المثبت في لوح قضائه ﴿مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: 37] مقضيًا نافذًا كائنًا على تعاقب الأحيان والأزمان.

ثمّ قال سبحانه تسليةً لنبيه، وحطًا عنه العار في أمثال هذه الأفعال الكائنة في قضاء الله، المقضية في حضرة علمه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما لحق وعرض ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ المؤيد من عند الله بأنواع التأييدات المنتظرة على الوحي والإلهام في جميع أفعاله وأعماله ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق وإثم سآمة، ووخامة عاقبة ﴿فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ ﷺ؛ أي: في جميع ما قدر الله له، وكتب لأجله في لوح قضائه من الحوادث الكائنة الجارية عليه ﷺ

(1) أي: وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته في أن تؤخر شيئاً أخبرك به لشيء يشق عليك حتى يفرق لك فيه أمر، قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية، نظم الدرر (430/6).

على تعاقب الأزمان والأوقات، ومن جملتها: هذا النكاح، وليس أمثال هذا ببدع منّا مخصوص بهذا النبي ﷺ، بل ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ الحكيم العليم، المتقن في أفعاله المستمرة القديمة التي سنها سبحانه ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء والرسل ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ المثبت في لوح قضائه، وحكمه المبرم في حضرة علمه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38] حتمًا مقضيًا، مبرمًا محكومًا به ألبتة.

وكيف لا يقضي ولا يحكم بالسنن المقدرة للأنبياء والرسل، وهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ﴾ المحمولة عليهم إلى من أُرسلوا إليهم من الأمم بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ ويخافون عنه سبحانه في جميع أحواله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾ يعني: من ديدنة الأنبياء والرسل، وخصلتهم الحميدة: ألّا يخافوا من الناس ولا يستحيوا منهم، لا من لوم لائم، ولا من تعييره وتهديده بالقتل والضرب وغير ذلك، بل ما يخافون إلا الله الغيور المنتقم، المقتدر على أنواع العذاب والعقاب ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39] ظهيرًا ومعينًا يكفي مؤنة أعدائهم، ويدفع عنهم شرورهم، وجميع ما قصدوا عليهم من المقت والمكر، وأنواع الأذى والضرر.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب: 40-44].

ثمّ لمّا عيّر الناس رسول الله ﷺ بأنه تزوج زوجة ابنه ودعيه، وهو زيد ردّ الله عليهم تعييرهم هذا وتشنيعهم فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيها الأجانب من المؤمنين على الحقيقة سواء كان زيدًا أو غيره؛ حتى تسري حكم الحرمة في تزويج زوجته بعدما قضى الوطر عنها ﴿وَلَكِن﴾ كان ﷺ ﴿رَّسُولَ اللهِ﴾ الهادي لعباده أرسله إليكم؛ ليهديكم إلى طريق الرشاد على مقتضى سنته المستمرة في الأمم السابقة ﴿وَ﴾ لكن سن شأنه أنه صار ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وختم المرسلين؛ إذ ببعثته ﷺ كملت دائرة

النبوة وتمت جريدة الرسالة، كما قال: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3] أي: ببعثته ﷺ.

والسر فيه والله أعلم: إنه ﷺ بُعث على التوحيد الذاتي، وسائر الأنبياء إنما بعثوا على التوحيد الوصفي والفعلي، وبعدما بُعث ﷺ على توحيد الذات خُتم به أمر البعثة والرسالة، وكمُل أمر الدين؛ إذ ليس وراء الذات مرمى ومنتهى ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع على جميع ما ظهر وبطن ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جرى أو يجري في ملكه ﴿عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40] يعلم بعلمه الحضوري جميع ما لمع عليه نور وجوده، حكيمًا في بعثة الرسل في تنبيه من وفقه وجبله في سابق قضائه على فطرة التوحيد والإيمان، مختارًا في ختم البعثة وتكميل الدين بعدما وصل غاية كماله وظهوره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وعرفوه حق معرفته وتوحيده، وكمال أسمائه وصفاته مقتضى إيمانكم وعرفانكم: المداومة على ذكره ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتصف بجميع أوصاف الكمال، المستجمع لجميع الأسماء الحسنى التي لا تُعد ولا تُحصى ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41] مستوعبًا لجميع أوقاتكم وحالاتكم، وبالغوا في ذكره؛ كي تصلوا من اليقين العلمي إلى العيني.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي: نزهوه عن جميع ما لا يليق بشأنه من لوازم الحدوث وأوصاف الإمكان ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: 42] أي: في جميع آناء أيامكم ولياليكم، طالبين الترقي من اليقين العيني إلى اليقين الحقي.

وكيف لا تذكرون الله، ولا تسبحون له أيها المؤمنون، مع أن شكر المنعم المفضل واجب عقلاً وشرعًا؟! ﴿هُوَ الَّذِي﴾ سبحانه ﴿يُصَلِّي﴾ ويرحم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون بذاته، وبمقتضيات أسمائه وصفاته ﴿وَمَلائِكَتُهُ﴾ يستغفرون لكم بإذنه، وإنما يفعل بكم سبحانه هذه الكرامة العظيمة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾[2] ظلمة العدم الأصلي، وظلمة الطبيعة والهيولي، وظلمة الحجبة التعينية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور

---

(1) رواه البيهقي في «السنن» (472/2).

(2) قال في التأويلات: وما قال: «لتخرجكم» لمعنيين: أحدهما: لئلا يكون للملائكة منة عليكم بإخراجكم من الظلمات إلى النور، والثاني: لأنهم لا يقدرون على ذلك لأن الله هو الهادي من الضلالة إلى الإيمان؛ بل هو الذي يخرجكم من ظلمات البشرية وصفاتها إلى نور الروحانية وصفاتها ومن ظلمات الخلقية الروحانية إلى نور الربوبية بجذبات تجلي ذاته وصفاته.

الوجود البحت، الخالص عن ظلمات التعينات والكثرات مطلقًا ﴿وَكَانَ﴾ سبحانه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الموفقين على التوحيد الذاتي ﴿رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43] يوفقهم إلى الإيمان بمقتضى رحمته الواسعة، ثمّ يوصلهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان، مترقيًا من مضيق الإمكان إلى سعة فضاء الوجوب عنايةً لهم وتفضلاً عليهم، ثمّ يشرفهم بشرف لقائه بلا كيف، ولا أين بعدما انخلعوا عن جلباب الناسوت، وتشرفوا بخلعة اللاهوت.

لذلك ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ وترحيبهم من قِبَل الحق ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وتطهير عن رذائل التعينات، ونقائص الأنانيات والهويات المستبعة لأنواع الضلالات والجهالات ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ سبحانه نُزلاً عليهم ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 44] وجزاءً عظيمًا مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49) ﴾ [الأحزاب: 45-49].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيّد، المخصوص بأنواع الفضائل والكرامات ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى كافة البرايا وعامة العباد ﴿شَاهِدًا﴾[1] تشهد لهم الحقائق، وتحضرهم المعارف، وتوصلهم بالتنبيهات الواضحة

(1) قال الورتجيبي: إنا شرفناك برسالتنا، وتخبر عنا خبر صدقٍ، فنهدي بك قلوبًا عمياء، أرسلناك شاهدًا لنا لا تشهد معنا سوانا، جعلنا الخلق كلهم يشهدونك، ويشهدوننا فيك، ولا يشهدك إلا من أثر فيه بركة نظرك، فيشهدك ويشهد فيك، ومن لم يجعلك الدليل علينا عمي وضل؛ فإنك البشير تبشر من أقبلنا عليه بالرضوان، وتنذر من أعرضنا عنه بالخذلان، وأنت محل مشاهدة الخلق إيانا بك أخذناك عنهم، فلا تشهد شهودهم، وغيبناك عنهم فلا يشهدون منك إلا ظاهرك، وأنت لا تشهد سوانا بحال. قال الواسطي: شاهدًا بالحق للحق إلى الحق مع الحق ليوم لا يقبل فيه الحق إلا الحق. وقال جعفر: داعيًا إلى الله لا إلى نفسه افتخر بالعبودية، ولم يفتخر بالنبوة ليصح له بذلك الدعاء إلى سيده، فمن أجاب دعوته صارت الدعوة له سراجًا منيرًا يدله على سبيل الرشد، ويبصره عيوب النفس وغيها.

إلى مرتبة الكشف والشهود؛ لكون أصل فطرتهم وجبلتهم مجبولة عليها ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ تبشرهم بالتوحيد المسقط للإضافات المستتبعة لأنواع الكثرات المشوشة لنفوسهم ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45] تنذرهم عن مقتضيات القوى البهيمية من الشهوية والغضبية الجالبة لأنواع الخذلان والحرمان.

﴿وَدَاعِيًا﴾ دعوهم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ المنزه عن التعديد والتجديد دعوة مسبوقة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ سبحانه؛ أي: بوحيه وإلهامه ﴿وَ﴾ بالجملة: أرسلناك إلى عموم العباد ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46] تضيء لهم، ويستضيئون منك في ظلمات الضلالات والجهالات المتراكمة من الحجب الظلمانية والكثافات الهيولانية، المتولدة من الكدورات الطبيعية، الباقية من ظلمة العدم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل سبب بعثتك وسره ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بتوحيد الله، المترقين من اليقين العلمي إلى العيني، الطالبين الوصول إلى اليقين الحقي ﴿بِأَنَّ لَهُم﴾ أي: حق وثبت لهم عنده سبحانه ﴿مِّنَ﴾ عناية ﴿اللَّهِ﴾ معهم ﴿فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47] لا فضل أكبر منه، وهو الرضا والفوز بشرف اللقاء.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت وظيفتك يا أكمل الرسل مع المؤمنين المسترشدين منك الطالبين هدايتك وشرف صحبتك ﴿لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد المجاهرين به ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يخفون كفرهم وضلالهم عنك لمصلحة دنيوية ويظهرون عندك خلاف ما في نفوسهم، ولا تجلس معهم ولا تصاحبهم أصلاً ﴿وَ﴾ إن آذوك في مرورك عنهم وملاقاتك معهم بغتة ﴿دَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: اتركهم وأذاهم ولا تلتفت إلى الانتقام عنهم، واصبر على مضضهم، فإن صبرك يقتلهم عن الغيظ، ويطفئ لهب غضبهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في دفع شرورهم، وثق إليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: 48] حسيبًا كافيًا يكفي عنك مؤنة أعدائك، ويكفي عنك أذاهم عناية لك واهتمامًا بشأنك.

ثم لمَّا أشار سبحانه إلى ما أباح على نبيه ﷺ بلا حرج أراد أن يشير إلى ما أباح أيضًا على عموم المؤمنين بلا حرج لهم فيه وضيق، وقال سبحانه مناديًا لهم على وجه العموم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بجميع أوامره ونواهيه المنزلة من عنده، مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ وعقدتم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ اللاتي هن أحقاء بنكاحكم من المسلمات والكتابيات ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تطئوهن وتجامعوهن

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: ما لزم ووجب لكم فيما يتلى عليكم ﴿عَلَيْهِنَّ مِن عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وتحصونها، كما للمدخولات بهن والمتوفات عنهن من المدة المقدرة في الشرع، وبعدما لم تلزم عليكم العدة أيها المطلقون ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن المتعة المستحسنة عقلاً وشرعًا إن لم يكن صدقاتهن مقدرة؛ وإن كانت مقدرة فأعطونهن نصف ما قدر من المهر بلا تنقيص ومماطلة ﴿وَ﴾ بعد أن أعطيتموهن المتعة أو النصف من المهر المقدر ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ وأخرجوهن من منازلكم ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49] إخراجًا هينًا لينًا، بلا ضرر وإضرار، وتنقيص مما استحققن عليه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠ ﴾ [الأحزاب: 50].

ثم أشار سبحانه إلى تعداد ما أحل لحبيبه ﷺ من الأزواج، فقال مناديًا له تبجيلاً وتعظيمًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المفضل المكرم من لدنا على سائر الأنبياء والرسل بالعنايات العلية والكرامات السنية ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَحْلَلْنَا﴾ وأبحنا ﴿لَكَ﴾ في شرعك ودينك ﴿أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ﴾ وأعطيت ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن معجلاً ﴿وَ﴾ أبحنا لك أيضًا ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء المردودة إليك ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿عَلَيْكَ﴾ ورده سبحانه من خيار المسبيات وصفيات المغنم إليك، وصفية - رضي الله عنها - منهن ﴿وَ﴾ أحللنا لك أيضًا في دينك ﴿بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ من مكة حبًا لك، وطلبًا لمرضاة ربك، وما أبحنا لك ممن لم تهاجر معك.

﴿وَ﴾ أبحنا لك أيضًا خاصة ﴿امْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ قيد بها؛ لأن الكافرة لا تليق بفراشه ﷺ ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ تبرعًا بلا جعلٍ ومهرٍ، فعليه الخيار ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: يطلب أن يدخل عليها ويقبلها للفراش أحللناها ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة ﴿لَّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تكريمًا لك وتعظيمًا لشأنك ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم نبحها لغيرك من أمتك، بل هي من جملة الأمور التي اختصصت بها، كالتزوج فوق

الأربعة وغيرها، وإنما نخص أمثال هذا لك يا أكمل الرسل ولم نعممها من أمتك؛ لأنّا من وفور حكمتنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ بعلمنا الحضوري من ظواهر أحوال المؤمنين وبواطنهم استعدادهم على ﴿مَا فَرَضْنَا﴾ وقدرنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حتمًا ﴿فِي﴾ حقوق ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ من المهر والولي والشهود، وجميع متممات النكاح ومكملاته.

﴿وَ﴾ علمنا أيضًا منهم سبب ما قدرنا عليهم في حق ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من المسببات الزائدة، ألّا يدخلوا عليهن إلا أن يتملكوا بوجه آخر، لكن أنزلنا عندك يا أكمل الرسل بعض ما أوحينا عليهم، وخصصناك بها دونهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق في تحميلها، مع أنا نعلم من ظواهرك وبواطنك أنك لا تهمل شيئًا من حقوق الله ولا حقوق عباده، ولا يقع منك ظلم على أحدٍ من خلق الله؛ لذلك لم نضيق عليك أمر النكاح وضيقنا على المؤمنين ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده، المصلح لمفاسدهم ﴿غَفُورًا﴾ يستر ويعفو عنهم بعض ما يعسر عليهم التحرز في رعاية حقوق المؤمنين والمؤمنات ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 50] يرحمهم ويعين عليهم في حفظها ورعايتها.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: 51-52].

ثمّ لمّا وسّعنا يا أكمل الرسل أمر نكاحك، وأبحنا لك ما لم يبح لغيرك، فلك الخيار في أزواجك ﴿تُرْجِي﴾ أي: تؤخر وتترك مضاجعة ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي﴾ أي: تلصق وتضم ﴿ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ منهن بلا حرج وضيق، بل ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ وطلبت نكاحها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ وطلقت تطليقًا ثلاثًا أو أقل ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ﴿عَلَيْكَ﴾ أن تعيدها إلى نكاحها بلا تحليل وتزويج للغير؛ إذ من جملة خواصك: تحريم مدخولتك على الغير مطلقًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تفويض أمورهن إليك ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ إذ نسبتك إليهن حينئذٍ على السواء، بلا ميل منكر وترجيح.

﴿وَ﴾ المناسب لهن أن ﴿لَا يَحْزَنَّ﴾ بعد التفويض، بل ﴿وَ﴾ لهن أن ﴿يَرْضَيْنَ بِمَا

آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إذ لا تتفاوت نسبتك إليهن أصلاً؛ لأنك مجبول على العدل القويم والصراط المستقيم، سيما بين أزواجك المتنسبين إليك كلهن بنسبة واحدة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ يجري ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وضمائركم أيها المؤمنون من الميل إلى بعض النساء دون بعض، ونبينا ﷺ منزه عن هذا الميل وأمثاله ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوالكم ﴿عَلِيمًا﴾ بما جرى عنه في صدوركم من الميل إلى الهوى ﴿حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 51] ينتقم عليه ولكن لا يعجل.

ثم لمّا خيّر سبحانه حبيبه ﷺ في أمر نسائه، وفوض أمورهن كلها إليه ﷺ، ورضين كلهن بحكمه بلا إباء ومنع، أراد سبحانه أن يمنع وينهي حبيبه ﷺ عن تطليقهن وتبديلهن والزيادة عليهم بعدما بلغن التسعة، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿النِّسَاءُ﴾ أي: تزويجهن ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أي: بعد أن يتفقن أولئك التسعة على حكمك وأمرك، وفوّضن أمورهن إليك ﴿وَلَا﴾ يحل لك أيضًا ﴿أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ أي: تطلق بعضهن وتبدل بدلهن ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أخر من الأجنبيات ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾[1] أي: حسن الأجنبيات، لا يحل لك تزوجهن كما حل لك فيما مضى ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء، فلا حرج عليك بدخولها ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع على مقادير أفعال عباده ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما جرى في ملكه وملكوته ﴿رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52] يراقبه ويحافظه إلى أن يكمل، ثم يمنع عنه على مقتضى حكمته البالغة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا

(1) قال نجم الدين: لأن حلاوته تزيد في الحرارة التي يتولد منها عين القلوب لتسكين الحرارة ورفع الصفراء ولاعتدال المزاج القلبي والنفسي، ومنها: ما يتعلق بتربية نفوس أزواجه، وذلك أن الله تعالى لما ضيق الأمر عليهن في باب الصبر على ما أحله للنبي ﷺ وتوسع أمر النكاح عليه وخيره في الإرجاء والإيواء إليه كان أحمض في مذاقهن وأبرد شيء لمزاج قلوبهن فغذاهن بحلاوة ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ من العدم وسكن بها برودة مزاج قلوبهن حفظًا لسلامة قلوبهن وجبرًا لانكسارها، ومنها: ما يتعلق بمواعظ نفوس رجال الأمة ونسائها ليتعظوا بأحوال النبي ﷺ وأحوال أزواجه أمته ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب:52] يراقب مصالحهم.

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: 53-54].

ثمّ أشار سبحانه إلى آداب المؤمنين مع النبي ﷺ في استئذانهم منه، ودخولهم عليه وتناولهم الطعام عنده وبين يديه، وتكلمهم مع أزواجه ﷺ، إلى غير ذلك من الأدب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، مقتضى إيمانكم رعاية الأدب مع رسولكم ﷺ، سيما من قبل بيوته ومحارمه ومساكنه ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ بغتةً بلا استئذانٍ منكم، بل بيوت سائر المسلمين أيضًا ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دعوةً ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ حاضر عنده حال كونكم ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي: منتظرين لوقته ﴿وَ﴾ عليكم ألَّا تدخلوا بلا دعوةٍ ﴿لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ واطعموا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ واخرجوا على الفور وتفرقوا.

﴿وَلَا﴾ تتمكنوا بعد الطعام عنده ﴿مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يتحدث بعضهم مع بعض، أو تسمعونه منه ﷺ أو من أهل بيته، أو لمهمٍ آخر من مهماتكم ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي: اللبث على أيّ وجه ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي﴾ ﷺ ﴿مِنكُمْ﴾ أن يخرجكم حسب مقتضى حميته البشرية؛ لأنه ﷺ حييّ حليم، يصبر على أذاكم ولا يخرجكم عنوة ﴿وَاللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده، المنبه لهم مصالحهم ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ﴾ إظهار كلمة ﴿الْحَقِّ﴾ التي يجب إيصاله إلى المؤمنين؛ ليترسخ في قلوبهم ويتمرنوا عليه ويتصفوا به ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواجه ﷺ ﴿مَتَاعًا﴾ وحوائج ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ متسترين ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بحيث لا يقع نظركم إليهن ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الستر والتحجب من أزواج النبي ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من أمارات الإثم ومخائل المعصية وسوء الأدب ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أيضًا ترغيمًا للشيطان، وتطهيرًا لنفوسكم من غوائله وتلبيساته.

﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لَكُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ بشيء يكرهه ويستنزه عنه مطلقًا ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ﴾ المدخولة عليها ﴿مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ سواء كنّ حرائر أم إماء ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ أي: إيذاءه ﷺ ونكاح نسائه بعده ﴿كَانَ عِندَ اللهِ﴾ المنتقم الغيور، المقتدر على أنواع الانتقام ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53] مستجلبًا لأليم العذاب وعظيم العقاب.

واعلموا أيها المؤمنون ﴿إِن تُبْدُوا﴾ وتظهروا ﴿شَيْئًا﴾ حقيرًا مما يتعلق بإيذائه ﷺ من قِبَل أزواجه في حياته ﷺ وبعد مماته ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم غير مجاهرين به ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع على مكنونات صدوركم ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر على ألسنتكم أو خطر ببالكم ﴿عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 54] لا يعزب عن علمه شيء من الدقائق والرقائق.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: 55-58].

ثم لمَّا نزلت آية التستر والحجاب قيل: يا رسول الله، الأبناء والآباء والأقارب والعشائر أيضًا يتكلمون معهن من وراء الحجاب؟ نزلت: ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم ولا ضيق ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على أزواجه ﷺ ﴿فِي﴾ اختلاط ﴿آبَائِهِنَّ﴾ والتكلم معهن بلا سترة وحجاب ﴿وَلَا أَبْنَائِهِنَّ﴾ أيضًا ﴿وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ إذ الكل بعيد عن التهمة، مصون عن الريبة ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: النساء المؤمنات لا الكتابيات ﴿وَلَا﴾ جناح أيضًا في ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء، وقيل: من الإماء خاصة دون العبيد، كما مر في سورة «النور».

﴿وَ﴾ بالجملة: يا نساء النبي المحفوظ، المصون عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿اتَّقِينَ اللهَ﴾ الغيور المنتقم، واحذرن عن محارمه ومنهياته مطلقًا، وامتثلن بأوامره حتى تشاركن معه ﷺ في أخص أوصافه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائركن ﴿كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلج في خواطركن من الإثم واللمم ﴿شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: 55] حاضرًا عنده، غير مغيب عنه إلى حيث لا يخفى عليه سبحانه خافية وإن دق ولطف.

ثم أشار سبحانه إلى تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، والاعتناء بشأنه وعلو منزلته ومكانه، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾ المهيمين عنده، الوالهين بمطالعة جماله، المستغرقين بشرف لقائه ﴿يُصَلُّونَ﴾ يعتنون ويهتمون بإظهار

فضله؛ تبجيلاً وتعظيمًا ﴿عَلَى النَّبِيِّ﴾ الحقيق لأنواع التوقير والتمجيد، المستحق لأصناف الكرامة والتحميد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله بوسيلة نبيه ﷺ، وتحققوا بتوحيده سبحانه بإرشاده ﷺ أنتم أولى وأحق بتعظيمه وتصليته وتسليمه ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ مهما سمعتم اسمه وذكرتم بأنفسكم، وقولوا: اللهم صل على محمد ﴿وَسَلِّمُوا﴾ له ﴿تَسْلِيمًا﴾(1) [الأحزاب: 56] قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والآية تدل على وجوب الصلاة عليه ﷺ للمؤمنين كلما جرى ذكره في أي حال من الأحوال والأحيان اللائقة للدعاء.

ثم لما أشار سبحانه إلى علو شأن نبيه ﷺ وسمو برهانه، وأوجب على المؤمنين تعظيمه وتوقيره والانقياد إليه في جميع أوامره ونواهيه، أراد أن يشير إلى أن من قصد إيذاءه وأساء الأدب معه، يستحق اللعن والطرد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ حيث يأتون بالأفعال الذميمة القبيحة، المستكرهة عقلاً وشرعًا عنده ﷺ فيؤذونه بها، ذكر سبحانه نفسه؛ تعظيمًا لشأن حبيبه ﷺ وإلا فهو منزه عن التأذي والتأثر، أو لأن إيذاءه ﷺ مستلزم لإيذائه سبحانه ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ المنتقم عنهم، وطردهم عن سعة رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على ألسنة خلّص عباده، وأبعدهم عن مجالسهم ومحافلهم ﴿وَالآخِرَةِ﴾ عن عز حضوره وسعة رحمته وجنته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في النار ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: 57] مؤلمًا مزعجًا، لا عذاب أسوأ منه وأشد.

ثم أردف سبحانه إيذاءه ﷺ بإيذاء المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بذمائم الأفعال والأقوال، وقبائح الحركات ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جريمة صدرت عنهم واستحقوا الجناية عليها ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ وتحملوا هؤلاء المؤذين المفترين ﴿بُهْتَانًا﴾ جالبًا لأنواع العقوبات ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 58] ظاهرًا عظيمًا

---

(1) صلوات الله على النبي أن بلّغه إلى المقام المحمود، فالمقام المحمود صلواته عليه وهو الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة عليه دعاؤهم له بزيادة مرتبته بحبهم إياه واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة عليه متابعتهم له ومحبتهم إياه والثناء عليه بالذكر الجميل. قال ابن عطاء: الصلاة من الله وصلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمة متابعة ومحبة.

قال الواسطي: صل عليه بالوقار، ولا تجعل له في قلبك مقدار. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سألت عبد الواحد الساري عن هذه اللفظة، وكأني استفتحه. فقال: لا تجعل بصلواتك عليه في قلبك مقدارًا تظن أنك تقضي به من حقه شيئًا بصلواتك عليه، فإنك تقضي به حق نفسك؛ إذ حقه أجل من أن يقضيه أمته أجمع؛ إذ هو في صلاة الله تبارك وتعالى.

مستعقبًا، مستتبعًا لأسوأ الجزاء وأشد العقاب والنكال؛ إذ رمي المحصنات من أفحش الجنايات.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 59-62].

ثم أشار سبحانه إلى آداب النساء، وصيانتهن عن الرجال واستحيائهن منهم؛ ليسلمن عن افتراء المفترين ورمي الرامين، فقال مناديًا لحبيبه ﷺ ليبلّغ إلى أمته وأزواجه وأزواجهم أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيد من عندنا، المبعوث إلى إرشاد البرايا ذكورهم وإناثهم ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ أولاً على سبيل الشفقة والنصيحة ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ أيضًا ﴿وَ﴾ عموم ﴿نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا برزن لحوائجهن أحيانًا ﴿يُدْنِينَ﴾ ويغطين ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على أيديهن وأرجلهن وجميع معاطفهن ﴿مِن﴾ فواضل ﴿جَلَابِيبِهِنَّ﴾ وملاحفهن، بحيث لا يبدو من أعضائهن شيء سوى العينين، بل عين واحدة؛ ليتميزن بها عن الإماء والبغيات المربيات، المطمعات لأهل الفجور والفسوق ﴿ذَٰلِكَ﴾ التستر والتغطي على الوجه الأتم الأبلغ ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ ويُميزن أولئك الحرائر العفائف عن الإماء والمربيات، وبعدما عرفن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ولا يفترين بهتانًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لما اختلج في جوانحهن ﴿غَفُورًا﴾ لهن بعدما تُبن إلى الله وأَنبْنَ ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59] يقبل توبتهن ويرحم عليهن إن أخلصن فيها.

ثم قال سبحانه مقسمًا مبالغًا: والله ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ولم ينزجر ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ المفترون الرامون عن إيذاء المؤمنات الحرائر، المصونات المحفوظات، والسرايا العفائف بعدما تحفظن وتسترن على الوجه المذكور ﴿وَ﴾ لم يكف عنها المتعرضون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وضعف إيمان، واعتقاد وميل إلى الفسق والفجور ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْمُرْجِفُونَ﴾ المجاهرون المترددون ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ بالأراجيف والأخبار الكاذبة والمفتريات الباطلة الغليظة، ويذيعونها فيها عنادًا أو فسادًا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ولنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، ولنسلطنك عليهم بإقامة الحدود الشديدة والتعزيرات

البليغة إلى حيث لا يمكنهم التمكن والإقامة فيها، فيضطروا إلى الجلاء ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعدما وضعنا الحدود وأمرناك بإقامتها ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: لا يستطيعون ولا يقدرون بمجاورتك في المدينة ﴿إِلَّا﴾ زمانًا ﴿قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 60] يستعدون فيه للبعد والجلاء والهرب من بين المسلمين والفرار عنهم.

وإلى أن يفروا ويهربوا أولئك المبعدون المطرودون حتى لا يؤاخذون ولا يؤسرون؛ إذ هم كانوا بين المؤمنين ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين، مبعدين عن روح الله وكنف جوار رسوله وجوار المؤمنين؛ لكونهم مؤذين متعرضين لعورات المسلمين، الباهتين المفترين إياهن ببهتان عظيم، والموصوفين بهذه الصفات المذمومة ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ ووجدوا ﴿أُخِذُوا﴾ وأسروا ﴿وَ﴾ إن لم يمكن أسرهم ﴿قُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: 61] شديدًا إلى حيث استؤصلوا بالمرة.

واستئصال أمثال هذه الغواة المطرودين المردودين ليس ببدع، بل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ القدير الحكيم، القديمة المستمرة، التي سنها سبحانه ﴿فِي﴾ حق المؤذين المفترين ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ المستمرة الجارية على مقتضى حكمته المتقنة ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62] إذ لا يبدل حكمه، ولا يغير حكمته؛ بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: 63-68].

ثم نبه سبحانه على حبيبه ﷺ بما سيسأل عنه الكافرون تهكمًا واستهزاءً، وأشار إلى جواب سؤالهم؛ تعليمًا له ﷺ وإرشادًا، فقال: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿النَّاسُ﴾ الناسون عهودهم التي عهدوا مع الله في مبدأ فطرتهم ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ التي جئت بها من عند ربك، وأخبرت بقيامها بوحي الله وإلهامه، كما أخبر بها سائر الرسل والأنبياء السالفة - صلوات الله عليهم - مستهزئين معك، سائلين عن تعيين وقتها وقيامها،

أقريب هو أم بعيد؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك عنها: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علم قيامها وتعيين وقتها ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم، لا يطلع عليها أحدًا من خلقه، بل هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها في غيبه، بل أخبر سبحانه بوقوعها حتمًا، وأبهم تعيين وقتها، فمجرد تحقق وقوعها يكفي في الخوف من أهوالها ﴿وَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بوقوعها وأبهم في تعيين وقتها ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ ويطلعك أيها المخاطب تعيينها، ومن أنى لك أن تبعدها أو تنكر وقوعها ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة ﴿تَكُونُ﴾ شيئًا ﴿قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63] تقع عن قريب، فأنى لم تتزود لها، ولم تتهيأ أسبابها أيها المغرور في الدنيا الدنية وأمتعتها الفانية ولذاتها المتناهية؟!.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿لَعَنَ﴾ رد وطرد عن ساحة عز قبوله ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على إنكار يوم الجزاء والأمور الواقعة فيه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ قهرًا عليهم وزجرًا ﴿سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: 64] مصعرًا مملوءًا من النار.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً لا بأنفسهم ولا بواسطة غيرهم من شفعائهم ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولي أمرهم وينقذهم منها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 65] ينصرهم ويعين عليهم لإخراجهم عنها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ وتصرف ﴿وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: من جهة إلى جهة؛ تشديدًا للعذاب عليهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذ متمنين متحسرين: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ﴾ كما أخبر علينا الرسل والأنبياء ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: 66] المبعوث إلينا، المنذر عن هذه العقوبات التي تلحق بنا اليوم، فلن نُبتلى ونصيب بهذا العذاب المؤبد المخلد.

﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا، متضرعين إلى الله على سبيل التمني والتناجي: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع الكرامات وأحسن تربيتنا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكذبنا الكتب والرسل وأنكرنا عليهما عنادًا ﴿إِنَّا أَطَعْنَا﴾ يا ربنا في إنكار كتبك وتكذيب رسلك ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ الذين هم أصحاب الثروة والرئاسة بيننا، فحلُّ جميع أمورنا وعقدها بأيدي أولئك الرؤساء البعداء الضالين ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: 67] السوي المستقيم الموصل إلى توحيدك وتصديق رسلك وكتبك، وأنت أعلم منا يا ربنا بأنّا ما ضللنا إلا بإضلال أولئك الطغاة الضالين المضلين.

﴿رَبَّنَا آتِهِمْ﴾ جزاء لإضلالهم وانتقامًا عنهم ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني: آتهم

ضعف عذابنا، ضعفًا لضلالهم وضعفًا لإضلالهم إيَّانا ﴿وَالْعَنْهُمْ﴾ واطردهم ربنا وأبعدهم عن سعة رحمتك الواسعة ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1] [الأحزاب: 68] طردًا عظيمًا وتبعيدًا بعيدًا حيث لا يُرجى نجاتهم، طردًا كثيرًا متواليًا متتاليًا مستمرًا على التعاقب والترادف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 69-71].

ثم وصى سبحانه عموم المؤمنين بألَّا يكونوا مع نبيهم ﷺ مثل بني إسرائيل مع موسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - ولا يقصدوا أذاه ﷺ كما قصدوا، ولا يرموه بشيء لا يليق بشأنه كما رموا به موسى عليه السلام؛ لأن معاشر الأنبياء كلهم معصومون عن الكبائر مطلقًا، بل عن الصغائر أيضًا، فلا بدَّ لمن آمن لهم ألَّا يرموهم بمكروه، ولا يليق بشأنهم مع أنه سبحانه أظهر براءتهم وطهارة ذيلهم، فبقي إثم الافتراء والمراء على المفترين، فينتقم سبحانه عنهم منها ويأخذهم بها.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ مقتضى إيمانكم به أن ﴿لَا تَكُونُوا﴾ قاصدين أذاه ﷺ بنسبة المكروه المنكر إليه، وبتعييره وتشنيعه بأمر صدر عنه ولم تفهموا سره ﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ صلوات الله وسلامه عليه، فاغتم منها وتحزن حزنًا شديدًا ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ﴾ المطلع على نجابة طينته وطهارة ذيله وأظهر طهارته ﴿مِمَّا قَالُوا﴾ أي: من مقولهم؛ يعني: مؤداه ومضمونه.

وذلك أن قارون استأجر بغية بجعل كثير على أن ترمي موسى عليه السلام بنفسها، فرموه بها، ثم أحضروها في المجلس؛ لتفضحه عليه السلام على رءوس الملأ، فأقرت

(1) يشير إلى تهديد المنافقين ومن بصددهم من منافقي أهل الطلب من المتصوفة والمتعرفة الذين يلبسون في الظاهر ثيابهم ويلبسون في الباطن ما يخالف مقرهم وسرائرهم، وأنهم لو لم يمتنعوا عن أفعالهم لم يتغيروا عن أحوالهم لأجرى معهم سنته في التدبير والتغيير على من سلف من نظرائهم ونزل بكبرائهم، ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك واستهزائهم بالمؤمنين بها، ثم استعجالهم إتيانها من غير استعداد لها، ثم أخبر عن صعوبة العقوبة التي علم أنه يعذبهم بها وما يقع عليهم من الندامة على ما فرطوا فلا تنفعهم الندامة، ولا يكون سوى الغرامة والملامة. [التأويلات].

لعصمته ﷺ وأظهرت ما أعطوها من الجعل، فدعا موسى عليه، ففعل بهم وبما معهم سبحانه ما فعل من الخسف على ما مر في سورة «القصص» أو قذفوه بعيب في بدنه من برص أو أدرة، فبرأه الله سبحانه بأن تذهب الحجر بثيابه بين الملأ وهو يمشي على عقب ثيابه عريانًا يظهر، حتى يظهر براءته من العيب لهم ﴿وَ﴾ كيف لا يبرؤه سبحانه، ولا يظهر طهارته؛ إذ ﴿كَانَ﴾ موسى ﷺ ﴿عِندَ اللهِ﴾ الذي اصطفاه للنبوة والرسالة والتكلم معه ﴿وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69] في كمال الوجاهة والقربة؛ لذلك اختاره بسمع كلامه بلا واسطة.

وبعدما سمعتم حكاية ما جرى على أولئك البغاة الغواة المؤذين المفترين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور، ولا تؤذوا رسوله ﷺ ﴿وَقُولُوا﴾ له بعدما تكلمتم معه في شأنه ﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70] صحيحًا سالمًا، بعيدًا عن وصمة الأذى والتهمة والافتراء؛ حتى لا يلحقكم ما لحق على قوم موسى.

ولكم الإخلاص بالله ورسوله، وأخلصوا واستقيموا في الأفعال والأقوال وأطيعوا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾ سبحانه ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ لتثمر لكم الثمرات العجيبة والدرجات الرفيعة عنده سبحانه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي صدرت عنكم ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ﴾ حق إطاعته ويخلص في أعماله ﴿وَ﴾ يطع ﴿رَسُولَهُ﴾ إطاعة خالية عن وصمة الأذى والرعونات المؤدية إلى أنواع المكروهات والمنكرات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ونال ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71] هو الدخول بدار الخلود، والفوز بلقاء الخلاق الودود.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: 72-73].

ثم لما أراد سبحانه بمقتضى تجلياته الحبيبة اللطفية أن يطالع ذاته الكاملة المتصفة بصفات الكمال في مرآة مجلوة تصير نائبة عنها، خليفة لها، يتراءى فيها جميع أوصافه وأسمائه الذاتية على ما أشار إليه الحديث القدسي، عرض سبحانه أمانة الخلافة والنيابة على استعدادات المظاهر وقابليات المصنوعات، فامتنع الكل عن

حملها، وأبى عن قبولها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى تجلياتنا الجمالية المنبعثة عن الشئون الحِبّية والتطورات اللطفية ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ أي: أمانة الخلافة والنيابة، وأردنا أن نحمّل أعباء العبودية المشتملة على التخلق بالأخلاق الإلهية والتكليفات الشاقة، القالعة للأوصاف البهيمية والأدناس الإسكانية الراسخة في القوى الطبيعية؛ لتحصل التصفية والتزكية عن أكدار الهيولي المانعة عن الوصول إلى الملأ الأعلى ﴿عَلَى﴾ استعدادات ﴿السَّمَوَاتِ﴾ العلا ﴿وَ﴾ قابليات ﴿الْأَرْضِ﴾ السفلى ﴿وَالْجِبَالِ﴾ الأسنى، وعلى استعدادات ما بينهما من المركبات العظمى والمؤلفات الكبرى ﴿فَأَبَيْنَ﴾ وامتنعن؛ أي: كل منهن ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾[1] إذ ما أودع سبحانه في استعداداتهم وقابلياتهم ما يسع لحمل هذه الأمانة العظيمة والكرامة الكريمة.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: خفن وخشين من حملها ألّا يفين حقها ﴿وَ﴾ بعدما امتنعن وخفن جميعًا عن حملها ﴿حَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ المجبول على صورة الرحمن، المنتخب من بين الأكوان بالقوة القدسية المودعة فيه، المقتضية لحملها

(1) قال في التأويلات: أي: عليها وعلى أهاليها يشير إلى أن حقيقة الأمانة وهي التي عبر عنها بالفوز العظيم، وقد فسرنا الفوز العظيم بالفناء في الله والبقاء بالله وهو عبارة عن قبول الفيض الإلهي بلا واسطة فالحاصل أن حقيقة الأمانة هي الفيض الإلهي بلا واسطة ولهذا سمى بالأمانة؛ لأنه من صفات الحق تعالى فلا يتملكه أحد وقد اختص الإنسان بقبول هذا الفيض وحمله من سائر المخلوقات لاختصاصه بإصابة رشاش النور الإلهي لقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى» فكل روح أصابه رشاش نور الله صار مستعدًا لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة فكان عرض الفيض الإلهي على المخلوقات وحمل الفيض خاصًا للإنسان؛ لأن نسبة الإنسان مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص، فالعالم شخص وقلبه الإنسان فكما أن عرض فيض الروح عام على الشخص الإنساني وقبوله وحمله مخصوص بالقلب بلا واسطة، ثم من القلب بواسطة العروق والشريانات وعروق ممتدة تصل عكس فيض الروح إلى جميع الأعضاء فيكون متحركًا به كذلك عرض الفيض الإلهي عام لاحتياج الموجودات به وقبوله وحمله خاص للإنسان ومنه يصل عكس الفيض إلى سائر المخلوقات ملكها وملكوتها، فأما في ملكها: وهو ظاهر الكون أعني الدنيا فيصل الفيض إليه بواسطة صورة للإنسان من بصنائعه الشريفة وحرفه اللطيفة التي به العالم معمور ومزين، وأما إلى ملكوتها: وهو باطن الكون أعني الآخرة فيصل الفيض إليها بواسطة روح الإنسان هو أول شيء تعلقت بالقدرة فيعلق الفيض الإلهي من أمر كن أولا بالروح الإنساني، ثم يفيض منه إلى عالم الملكوت فظاهر العالم وباطنه معمور بظاهر الإنسان وباطنه هذا هو سر الخلافة المخصوصة بالإنسان.

﴿إِنَّهُ﴾ حينئذ من كمال شوقه ووفور تحننه وذوقه ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ على نفسه بارتكاب هذه التحميلات البليغة والتكليفات الشديدة الثقيلة من قطع المألوفات الطبيعية، والمشتهيات البهيمية واللذات الحسية ﴿جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72] ذهولاً عن مقتضيات ناسوته وملائماتها بحسب القوى البشرية لغلبة القوى الروحانية الجالبة للسعادة الأزلية الأبدية على القوى الجسمانية المستتبعة للشقاوة السرمدية، فأين هذا من ذلك؟!

رزقنا الله المنعم المفضل ألَّا نظلم على نفوسنا، ونمنعها عن مقتضياتها وأمانيها، بمنِّه وجوده.

ومن جملة الأمانات المحمولة على الإنسان: حفظ السرائر ورعاية الآداب والحقوق الجارية بين ذوي الألباب من الرجال والنساء، وإنما حمّلها سبحانه عليهم ابتلاءً لهم واختبارًا ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ المخفين، الساترين كفرهم وشركهم والخيانات الصادرة عنهم لمصلحة دنيوية ﴿وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ منهم كذلك ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين المجاهرين بكفرهم وشركهم وخياناتهم ﴿وَالْمُشْرِكَاتِ﴾[1] أيضًا كذلك تعذيبًا شديدًا؛ لعدم وفائهن على الأمانات المحمولة

(1) قال في التأويلات: هذه اللام لأمر الصيرورة والعاقبة يشير إلى أن الحكمة في عرض الأمانة أن يكون الخليفة في أمرها على ثلاث طبقات:
طبقة منها: تكون للملائكة وغيرهم ممن لم يحملها فلا يكون في ذلك لهم ثواب ولا عذاب، وطبقة منها: من يحملها ولم يؤد حقها وقد خان فيها، فهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين حملوها بالظلومية على أنفسهم وضيقوها بجهولية قدرها فما رعوها حق رعايتها حاصل فهم أمرهم العذاب المؤبد، وطبقة منها: من يحملها ويؤد حقها ولم يخن فيها ولكن لثقل الحمل وضعف الإنسان يتلعثم في بعض الأوقات فيرجع إلى الحضرة بالتضرع والابتهال مقرًا بالذنوب وهم المؤمنون والمؤمنات ليتوب الله عليهم لقوله: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:73] والحكمة في ذلك فتكون كل طبقة من الطبقات الثلاث مرآة يظهر فيها جمال صفة من صفاتها.
فالطبقة الأولى: إذ لم تحمل الأمانة وتركوا نفعها لضرها فهم مرآة جمال صفة عدله، والطبقة الثانية: إذا حملوها طمعًا في نفعها ولم يؤدوا حقها وقد خانوا فيها بأن باعوها بعرض من الدنيا الفانية، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] فهم مرآة فيها جمال صفة قهره، والطبقة الثالثة: إذ حملوها بالطوع والرغبة والشوق والمحبة وأدوها حقها بقدر وسعهم ولكن كما قيل لكل جواد كبوة ووقع في بعض الأوقات قدم صدقهم عند ربهم في حجر بلاء وابتلاء بغير اختيارهم، ثم اجتباهم ربهم فتاب عليهم، وهداهم بجذبات العناية إلى الحضرة فهم مرآة يظهر فيها جمال فضله ولطفه وذلك قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:73] للمؤمنين

عليهم ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: يوفقهم على التوبة والإنابة بعدما صدر عنهم شيء من الخيانة وعدم الوفاء بالأمانة التي ائتمنوا بها من حقوق الله وحقوق العباد، وبعدما تابوا وأنابوا على وجه الإخلاص والندامة، فقد أدوا حق الأمانة ووفوا بها على وجهها ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لإخلاصهم ﴿غَفُورًا﴾ لما صدر عنهم من الخيانة قبل التوبة ﴿رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 73] يقبل توبتهم ويرحم عليهم بعدما تابوا وأخلصوا.

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لمرتبة الخلافة والنيابة، القاصد لحمل الأمانة الإلهية، المتحمل لأعباء العبودية بالقوة الذاتية القدسية والقابلية الفطرية، يسَّر الله عليك الأداء والوفاء بجميع حقوقه وعهوده وأماناته، وحقوق جميع عباده ورعاية لوازم الإخاء والمصاحبة معهم، وأطاقك سبحانه على حمل التكاليف من المفترضات والنوافل والمسنونات، وأعانك على التخلق بأخلاقه، أن تتوجه بوجه قلبك إلى ربك وتتخذه وكيلاً في أمرك الذي هو التخلق بأخلاقه سبحانه؛ ليتيسر لك مرتبة الخلافة ويتم عليك أمر النيابة.

فلك أن تعرف أولاً شياطينك التي هي أمانيك النفسانية، المتولدة من القوى البهيمية، المانعة عن الوصول إلى الدرجات العلية، وتفصلها على وجه لا يشذ عنك منها شيء، وتلازم على زجرها ومنعها إلى أن تصير الكل منزجرة مقهورة للقوى الروحانية، بحيث لا يبقى لها قوة مقاومة ومقابلة مع الروحانيات أصلاً.

ثم لك أن تنفي وتفني أوصافك وأخلاقك في أوصاف الحق وأخلاقه إلى أن تضمحل وتتلاشى أوصافك وأخلاقك في صفاته وأخلاقه سبحانه، ويرتفع اسمك ورسمك عن البين، ويتصفى العين من الغين، والشأن عن الشين، ولم يبق البون والبين، واتصل العين بالعين، وحينئذ صرت ما صرت، وفزت بما فزت، وتمكنت في مقعد صدق الخلافة والنيابة عند مليك مقتدر.

رزقنا الله التقرر والتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وتبديل.

والمؤمنات بفضله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة سبأ

لا يخفى على من انكشف بسعة حضرة العلم الإلهي إجمالاً، واعتقد إحاطتها وشمولها واستيعابها لجميع ما ظهر وبطن في الأولى والأخرى، وفيما لا سبيل للعباد إليها لا تعقلاً ولا تخيلاً وتوهمًا تفصيلاً، أن معلوماته سبحانه أجلّ من أن يحيط بها عقول مصنوعاته وخيالاتهم وأوهامهم، ومن تحقق من السالكين المجاهدين في سبيل الله المشمرين نحوه بكمال وسعهم وطاقتهم سعة قلب الإنسان وكمال إحاطته ووسعة قضائه، فقد انكشف هو بالجملة بسعة حضرة علمه سبحانه، وكثرة معلوماته فوجب له الإتيان بالحمد والثناء على الوجه الذي انكشف له واستتر عنه أيضًا.

لذلك حمد سبحانه نفسه، وأثنى على ذاته تعليمًا لعباده وإرشادًا لهم على سبيل شكر نعمه وأداء حقوق كرمه، بعدما تيمن باسمه الأعظم الجامع لجميع الأسماء والصفات فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي على جميع ما ظهر وبطن من مظاهره ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم مصنوعاته بإفاضة رشحات وجوده عليهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواص عباده بإفاضة العقل المنشعب من حضرة علمه إليهم؛ ليدركوا به أحوال مبدئهم ومعادهم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [سبأ: 1-4].

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ المحيط، المستوعب لجميع المحامد الناشئة من ألسنة عموم ما لمع عليه برق الوجود، ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء المربية لعموم.

الأشياء الكائنة غيبًا وشهادةً ﴿الَّذِي﴾ ثبت ﴿لَهُ﴾ ملكًا وتصرفًا وإظهارًا وإعدامًا وإعادةً جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: علويات عالم الأسماء والصفات والأعيان الثابتة في الأزل ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] أي: سفليات عالم الطبيعة المنعكسة من العلويات وما بينهما من الكوائن والفواسد التي برزت بنور الوجود على مقتضى الوجود، من مكمن العدم إلى فضاء الظهور ﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن الكل منه بدأ وإليه يعود في الانتهاء، ثبت ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ والثناء الصادر من عموم ألسنة المظاهر، المتوجه نحو المظهر الموجد طوعًا لا غيره من الوسائل والأسباب العادية؛ إذ منتهى الكل إليه ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ كما أن مبدأه منه في الأولى، فله الحمد في الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله بالاستقلال بلا شريك وظهير ﴿الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: 1] عن كيفية اتحاد المظاهر وإعدامها، أولاً وآخرًا، أزلاً وأبدًا.

إذ هو سبحانه بمقتضى علمه الحضوري ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ظلمة الطبيعة القابلة لفيضان الاستعدادات، الفائضة من المبدأ الفياض ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من المعارف والحقائق الكامنة المختفية فيها على مقتضى تربية مربيها ومظهرها ﴿وَ﴾ كذا يعلم بعلمه الحضوري ﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء إلى أرض المظاهر والمسميات من الفيوضات والفتوحات، الشاملة لأنواع الكمالات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ متصاعدة من المكاشفات والمشاهدات الحاصلة من تلك الفتوحات الهابطة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الرَّحِيمُ﴾ لعباده بإفاضة أنواع الكرامات بمقتضى رحمته الواسعة ﴿الْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2] لذنوب أنانياتهم وتعيناتهم الباطلة بعدما رجعوا إليه وتوجهوا نحوه تائبين آيبين مخلصين.

رزقنا الله الوصول إلى محل القبول.

﴿وَ﴾ بعدما أخبر سبحانه بقيام الساعة في كتبه وعلى ألسنة رسله، سيما في كتابك يا أكمل الرسل وعلى لسانك ﴿قَالَ﴾ الجاحدون المنكرون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى الثناء على نفسه والمدح لذاته إخبارًا عن كمال جلاله واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامد لنفسه محمود وأحمد موجود وفي الآزال معبود وبالطلبات مقصود الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكًا وملكًا لا شركة لأحد فيهما فلا ملك ولا مالك إلا هو وإن جرى هذان الاسمان على مخلوقه، فإن ذلك المخلوق داخل في ملكه وملكه وأنه الزنجي لا يتغير عن لونه، وإن سمي كافورًا.

بالحق، وستروه بالباطل وكذبوا الرسل وعاندوا معهم يا أكمل الرسل، مستهزئين: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ الموعودة على لسانك أيها المدعي مع أنك ادعيت الصدق في جميع أخبارك وأقوالك، فكيف لا تأتي الساعة التي ادعيت إتيانها، وأخبرت بها؟! لعلك كذبت وافتريت إلى ربك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما استهزءوا معك، ونسبوك إلى الكذب والافتراء، وأنكروا بإتيان الساعة: ﴿بَلَى﴾ تأتي الساعة الموعودة عليّ وعلى جميع الرسل والأنبياء، لاشك في إتيانها وقيامها ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ القادر المقتدر على إنجاز جميع ما وعد بلا خلف ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة الموعودة من عنده؛ إذ وعده سبحانه مقضي حتمًا جزمًا، بلا شائبة شك وطريان غفلة عليه وسهو عنه، وكيف يطرأ عليه سبحانه سهو وذهول، وهو ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بالعلم الحضوري، فالمغيبات حاضرة عنده غير مغيبة عنه؛ إذ ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ ولا يغيب ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه وعن حيطة حضرة علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ ومقدار خردلة لا من الكوائن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَلَا﴾ من الكوائن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات، ولا من المكونات الحادثة بينهما ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا﴾ وهو مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3] هو حضرة علمه ولوح قضائه.

إنما أثبت وأحضر الكل في لوح قضائه ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده، واعترفوا بتصديق رسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة إليه سبحانه، المقبولة عنده، خير الجزاء ويعطيهم أحسن المواهب والعطاء ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عنده المستحقون لأنواع الكرامات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما تقدم من ذنوبهم تفضلاً عليهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: 4] صوري في الجنة، ومعنوي عند وصولهم إلى شرف لقائه، بلا كيف وأين ووجهة وجهة ومكان وزمان.

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ

﴿بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٩﴾ [سبأ: 5-9].

﴿وَ﴾ ليجزي سبحانه أيضًا أسوأ الجزاء وأشد العذاب والنكال الكافرين ﴿الَّذِينَ سَعَوْا﴾ واجتهدوا ﴿فِي﴾ إبطال ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا حال كونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إتيان الآيات البينات، منكرين لإيجادنا وإنزالنا إياها، مكذبين رسلنا الحاملين لوحينا، صارفين الناس عن تصديقهم وعن الإيمان بنا وبهم، وملتهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون، المبعدون عن روح الله وسعة رحمته، المنهمكون في الغي والضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ عظيم، أشد وأسوأ ﴿مِّن﴾ كل ﴿رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: 5] وعقوبة مؤلمة؛ لعظم جرمهم وسعيهم في إبطال آياتنا الناشئة عن كمال قدرتنا ووفور حكمتنا، وإنما سعوا واجتهدوا في إبطال آياتنا؛ لجهلهم بنا وبها وبما فيها من الهداية العظمى والسعادة الكبرى، وعدم تأملهم وتدبرهم في مرموزاتها ومكنوناتها؛ لذلك أنكروا بها واجتهدوا في إبطالها وتكذيبها جهلاً وعنادًا.

﴿وَيَرَى﴾ يا أكمل الرسل العلماء العرفاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من قبلنا فضلاً منا إياهم المتعلق بأن الكتاب ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تأييدًا لشأنك وترويجًا لأمرك ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ المطابق للواقع، الحقيق بالمتابعة والإطاعة، الثابت المثبت نزوله عندنا بلا ريب وتردد ﴿وَ﴾ كيف لا يكون حقًا ﴿يَهْدِي﴾ بأوامره ونواهيه أو تذكيراته الضالين المنصرفين عن جادة العدالة ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب، القادر المقتدر على انتقام المنحرفين عن منهج الرشاد ﴿الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6] المستحق في ذاته لجميع المحامد والكرامات، لولا تحميد الناس له وتمجيدهم إياه، وصراطه هو التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال، المنبئ عن إسقاط عموم الإضافات.

﴿وَ﴾ بعدما سمع المشركون عن رسول الله ﷺ من أحوال الحشر والنشر والمعاد الجسماني، وأهوال الفزع الأكبر ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بعض لبعض على سبيل الاستهزاء والتهكم مع رسول الله ﷺ مستفهمين مستنكرين، متعجبين من قوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون الرسول ﷺ، وإنما أنكروه لاستبعادهم قوله وإنكارهم على مقوله، وإنما يتحدثون به بينهم؛ لغرابته ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ بالمحال العجيب ويخبركم بالممتنع الغريب معتقدًا إمكانه، بل جازمًا بوقوعه ووجوده، وهو أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ وفرقتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تفريقًا بليغًا وتشتيتًا شديدًا، إلى حيث صرتم هباء تذهب به الرياح

﴿إِنَّكُمْ﴾ بعدما صرتم كذلك ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1] [سبأ: 7] على النحو الذي كنتم عليها في حياتكم قبل موتكم بلا تفاوت، كما يتجدد الأعراض بأمثالها.

بعدما سمعتم قوله هذا، كيف تتفكرون في شأن هذا الرجل الذي يدعي النبوة والوحي والرسالة من عند الحكيم العليم، مع أنه صدر عنه أمثال هذه المستحيلات، أي شيء تظنون في أمره هذا؟!.

﴿أَفْتَرَى﴾ وكذب عن عمد ونسبه ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تغريرًا وتلبيسًا على ضعفاء الأنام؛ ليقبلوا منه أمثال هذه الخرافات، ويعتقدوه رسولاً مخبرًا عن المغيبات وعجائب الأمور وغرائبه ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ خبط واختلال يعرض في دماغه، فيتكلم بأمثال هذه الهذيانات هفوة بلا قصد وشعور بها، كما يتكلم بأمثاله سائر المجانين، وسماه وحيًا وإلهامًا؟!.

ثم لما بالغ المشركون في قدحه ﷺ وتجهيله، رد الله عليهم بأنه لا افتراء في كلامه ﷺ وإخباره، ولا خبط في عقله؛ إذ هو ﷺ من أعقل الناس وأبعدهم عن الافتراء والمراء وأسلمهم عن الكذب وجميع الكدورات الطبيعية مطلقًا ﴿بَلِ﴾ الكافرون الضالون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ والأمور التي أخبر الله بوقوعها فيها، ولا يصدقون أيضًا بما نطق به الكتب والرسل، مخلدون في النشأة الأخرى ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿وَ﴾ متوغلون في ﴿الضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: 8] عن الهداية أبد الآباد، لا نجاة لهم منها، ومن شدة غيهم وضلالهم تكلموا بأمثال هذه الهذيانات الباطلة بالنسبة إلى من هو منزه عن أمثالها مطلقًا.

ثم أشار سبحانه إلى كمال قدرته واقتداره على انتقام المكذبين ليوم الحشر والجزاء والمفترين على رسوله ﷺ على سبيل الجزاء من الخبط والجنون، وغير ذلك من الأمور التي لا يليق بشأنه ﷺ، فقال مستفهمًا على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَ﴾ عموا وفقدوا أبصارهم أولئك المعاندون ﴿فَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ويبصروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن تراكم الغفلة على القلوب وظلمات الشهوات النفسانية وغلبات الصفات الذميمة الحيوانية إذا استولى أرخيت حجبها بين الروح والقلب، فيحرم القلب من الاستفادة بنور الروح ويسود بظلمات صفات النفس ويقسو حتى ينسى الله وينسى عالم الأرواح الذي هو الآخرة كالطفل الصغير يسير إلى بعض البلاد فينسى وطنه الأصلي بحيث لو ذكر به لم يتذكر كذلك نفس الإنسان القاسي قلبه إن ذكر الآخرة وهي وطنه الأصلي لم يتذكر ويكفر به.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المحيط بهم خلفًا ووراء ﴿وَالْأَرْضِ﴾ الممهدة لهم بين أيديهم، يتمكنون عليها ويتنعمون بمستخرجاتها وبما نزل عليها من السماء، ولم تتفكروا وتتأملوا أن إحياء الموتى أهون من خلق السموات العلا على إيجادهما أكمل من القدرة على إعادة المعدوم، فينكروا قدرتنا عليها مع أنهم يرون منا أمثال هذه المقدورات، ولم يخافوا من بطشنا وانتقامنا، ولم يعلموا أنّا من مقام قهرنا وجودنا وجلالنا ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إهلاكهم واستئصالهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون وأمثاله ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ بالتحريك والتسكين على القراءتين؛ أي: قطعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فنهلكهم بها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البيان على وجه التقريع والتعيير ﴿لَآيَةً﴾ دالة على قدرتنا وقهرنا على انتقام من خرج عن ربقة عبوديتنا ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ تحقق بمقام العبودية وفوض أموره كلها إلينا ﴿مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: 9] رجع إلينا وهرب عن مقتضيات قهرنا وجلالنا، بعدما عرف أن الكل منا بدأ، وبحولنا وقوتنا ظهر وعاد أيضًا كما بدأ؛ إذ منا المبدأ وإلينا المنتهى، وليس وراءنا مقصد ومرمى.

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: 10-14].

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ عبدنا ﴿دَاوُودَ﴾ المتحقق بمقام الخلافة والحكومة التامة ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ له، وامتنانًا عليه مما لم نقض بأمثاله إلى سائر الأنبياء وهو أنّا أمرنا الجمادات والحيوانات بإطاعته وانقياده إلى أن قلنا مناديًا لها: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾[1] أي: ارجعي ﴿مَعَهُ﴾ التسبيح، وسيري معه حيث سار، ولا

(1) قوله: «أَوِّبِي» العامة على فتح الهمزة، وتشديد الواو، أمراً من التأويب وهو الترجيع، وقيل:

تخرجي عن حكمه، فانقادت له الجبال إلى حيث متى سبح، سُمع منها التسبيح والتذكير؛ وإلى حيث سار، سارت معه ﴿وَ﴾ كذا سخرنا له ﴿الطَّيْرَ﴾ وصارت تنقاد لحكمه وأمره كسائر العقلاء، فيحكم عليها ويأمرها، فامتثلت بأمره وأطاعت بحكمه بلا منع وإباء ﴿وَ﴾ من جملة فضلنا إياه: إنَّا ﴿أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: 10] بلا نار ومطرقة، حيث جعلناه لينًا في يده كالشمعة، يبدله كيف يشاء بلا تعب ومشقة.

وبعدما ألنا له الحديد أمرناه ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ يا داوود بإرشادنا وتعليمنا ﴿سَابِغَاتٍ﴾ دروعًا واسعات ﴿وَقَدِّرْ﴾ أي ضيق وكثف ﴿فِي السَّرْدِ﴾ والنسج بقدر الحاجة، لا يمكن مرور السهام عنها أصلاً ﴿وَ﴾ بعدما آتيناه وأتباعه الملك والولاية التامة والنبوة العامة فضلاً وامتنانًا له أصالةً ولأصحابه تبعًا، قلنا لهم تعليمًا: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا آل داوود ﴿صَالِحًا﴾ من الأعمال والأخلاق مقبولاً عندي، مرضيًا لدي ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى علمي وإطلاعي ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عموم الأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ [سبأ: 11] أنقد كلاً منها، أقبل صالحها وأرد فاسدها.

﴿وَ﴾ أيضًا من مقام فضلنا وجودنا سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾ بن داوود، عليهما السلام ﴿الرِّيحَ﴾ العاصفة، وجعلناها مسخرة تحت حكمه وتصرفه، بحيث تحمل كرسي سليمان وجنوده عليها وتسير إلى حيث أشار وشاء ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها في الغداة مسيرة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ أيضًا من كمال جودنا إياه ﴿أَسَلْنَا﴾ وأذبنا ﴿لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: النحاس، فذاب في معدنه، ونبع منه نبوع العيون الجارية في كل شهر ثلاثة أيام، قيل: أكثر ما في الناس من النحاس من ذلك.

﴿وَ﴾ سخرنا له أيضًا؛ عناية منا معه ﴿مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مقهورًا تحت حكمه وتصرفه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أمرهم سبحانه بإطاعته وانقياده بحيث لا ينصرفون ولا يستنكفون عن حكمه أصلاً ﴿وَ﴾ شرط معهم سبحانه تأكيدًا لإطاعتهم إياه، أنه

التسبيح بلغة الحَبَشَة، وقال القُتَيْبِي: أصله من التأويل في السير وهو أن يسير النهار كله، وينزل ليلاً كأنه قال: أذأبي النهار كُلَّهُ بالتسبيح معه، وقال وهب: نوحي معه، وقيل: سيري معه، وقيل: سيري معه، والتضعيف يُحتمل أن يكون للتكثير، واختار أبو حيان أن يكون للتعدي قال: لأنهم فسّروه برجع مع التسبيح، ولا دليل فيه لأنه دليل معنى.
وقرأ ابنُ عباس والحَسَنُ وقتادةُ وابنُ أبي إسحاق: أُوبِي بضم الهمزة أمرًا من آبَ يؤُوبُ أي ارجع معه بالتسبيح.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أي: يعدل ويمل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ المبرم المحكم إياهم، وهو إطاعتهم نبينا سليمان عليه السلام ﴿نُذِقْهُ﴾ في هذه النشأة ﴿مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: 12] لأنه قد وكّل سبحان على الجن ملكًا بيده سوط من نار، فمن مال منهم عن حكم سليمان ضربه به، فأحرقه ولا يراه الجني.

لذلك صاروا مقهورين تحت حكمه، أمرهم ما يشاء حيث ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ أي: مساجد لطيفة وحصون حصينة وأماكن منيعة، إنما سمي بها، يحارب عليها ويلتجأ إليها في الشدة ولدى الحاجة، ومن جملة ما عملوا له من المساجد الحصينة العجيبة: بيت المقدس، في غاية الحسن والبهاء وكمال المنعة، ولم يزل على عمارته عليه السلام إلى أن خربه بختنصر ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾[1] هي الصور من الزجاج ورخام ونحاس وصفر وشبهه، فكانوا يعملون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في البقاع الشريفة والمساجد والمعابد؛ ترغيبًا للناس في دخولها والعبادة فيها وتنشيطًا، وقد عملوا له في أسفل كرسيه أسدين، وفي فوقه نسرين، فإذا أراد الصعود عليه بسط له الأسدان ذراعيهما فارتقى، وإذا تمكن عليه أظله النسران بجناحيهما، وحرمة التصاوير شرع مجدد ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي: صحاف عظيمة وقصاع كبيرة وسيعة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالحياض الكبار، ومن غاية كبرها يقعد على كل جفنة عند الأكل ألف رجل ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ ثابتات على أثافيهن بحيث لا تنزل عنها؛ لثقلها وكبرها، وقيل: أثافيها متصلة بها، وكانت يُرتقى إليها بالسلالم.

وبعدما أعطى آل داوود من الجاه والثروة والعظمة ما لم يعط أحدًا من العالمين، قيل لهم من قبل الحق؛ تنبيهًا عليهم وحثًا لهم إلى مواظبة الشرك ومداومة الرجوع نحو المفضل الكريم: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا ﴿آلَ دَاوُودَ﴾ عملاً صالحًا مرضيًا عند الله، ولاسيما اشكروا ﴿شُكْرًا﴾[2] مستوعبًا لجميع جوارحكم وجوانحكم وأوقاتكم وحالاتكم بحيث

---

(1) أي: مما يتوجه به إلى الله فإن الله تعالى اختص للشيطان بهذه الصفة من بين سائر المخلوقات أعني التوجه إلى الله والسجود له والإباء والاستكبار عن سجدة غيره، وهذا أخلص عبودية لله وأخص وصف وأشرفه في الموجودات إذا كان بإذن الله وأردى خصلة وأخس وصف وأخبثه إذا كان بالطبيعة وخلاف أمر الله وموجبًا للطرد واللعن. [التأويلات].

(2) يشير به إلى شكر داود الروح وسليمان القلب، ومن آله السر والخفي والنفس والبدن، فإن هؤلاء كلهم من متولدات الروح، فشكر البدن: استعمال الشريعة لجميع أعضائه وحول رجيه ومحال الحواس الخمس، ولهذا قال: ﴿وَاعْمَلُوا﴾، وشكر النفس: بإقامة شرائط التقوى والورع وشكر

لا يشذ عنكم وقت لم يصدر عنكم فيها شكر ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم وإن بالغتم في أداء شكر نعم الله وبالغتم بمقتضى المرتبة القصوى منه، ما أديتم حق شكره؛ إذ ﴿قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13] لأنه وإن استوفى واستوفر في أدائه إلى حيث يستوعب جميع أركانه وجوارحه وجوانحه وجميع خواطره وهواجس نفوسه وسره ونجواه، ومع ذلك لا يوفي حقه؛ لأن توفيقه وإقداره سبحانه عليه أيضًا نعمة مستحقة للشكر، مستدعية له لا إلى نهاية، ولذا قيل: الشكور من يرى نفسه عاجزًا عن الشكر؛ إذ لا يمكن الإتيان به على وجه لا يترتب عليه نعمة أخرى مستلزمة لشكر آخر.

ثم لما كان داوود عليه السلام أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل تمامه، فوصى بإتمامه إلى سليمان عليه السلام، فاستعمل الجن فيه، فلم يتم أيضًا، إذا أخبر من قِبل الحق بأجله، فتغمم غمًا شديدًا بعدم إتمام البيت، فأراد أن يعمّي ويستر على الجن موته ليتموه، فأمرهم أن يعملوا له صرحًا من قوارير له باب، فعملوا له صرحًا كذلك.

فدخل عليه على مقتضى عادته المستمرة من التحنث والتخلي للعبادة شهرًا وشهرين وسنة وسنتين، فاشتغل بالصلاة متكئًا على عصاه، فقبض وهو متكئ عليها، فبقي كذلك إلى أن أكلت الأرضة عصاه، فخرّ، ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت يومًا وليلةً مقدارًا منها، فقاسوا على ذلك، فعلموا أنه قد مات منذ سنة، وكان عمره حينئذٍ ثلاثًا وخمسين سنة، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ لعمارة البيت لأربع مضين عن ملكه.

أخبر سبحانه في كتابه هذا، وحكاه على الوجه الذي مضى، وأوجزه فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على سليمان ﴿الْمَوْتَ﴾ فأخبرنا له بموته، فدعا نحونا بأن نعمّي على الجن أمر موته؛ حتى يتموا عمارة البيت، فأعميناهم وسترنا عليهم موته إلى أن تم عمارة البيت، وبعدما تم ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ وما هداهم ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ﴾ وما أخبرهم عنه ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي: الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ أي: عصاه، وهو متكئ عليها ﴿فَلَمَّا﴾ أكلتها

القلب لمحبة الله وخلوه عن محبة ما سواه، وشكر السر: مراقبة عن التفاته بغير الله، وشكر يبذل وجوده على نار المحبة كالفراش على شعلة الشمعة، وشكر الخفي قبول الفيض بلا واسطة في مقام الوحدة مختفيًا بنور الوحدة عن نفسه. [التأويلات].

انكسرت عصاه ﴿خَرَّ﴾ وسقط ﷺ على الأرض، فحينئذ ﴿تَبَيَّنَتِ الجِنُّ﴾ أي: ظهر لهم وانكشفت عندهم أمر موته، وعلموا بعدما التبس الأمر عليهم موته بخروره وسقوطه، فظهر حينئذٍ للإنس أن الجن لم يكونوا مطلعين على الغيوب على ما زعموا في حقهم؛ لأنهم لو كانوا من المطلعين لعلموا موته أول مرة، ولم يعلموا مع ﴿أَن﴾ أي: أنهم؛ أي: الحق ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ﴾ مطلقًا، لعلموا أمر موته حين وقع، ولو علموا ﴿مَا لَبِثُوا﴾ واستقروا ﴿فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ [سبأ: 14] الذي هو عذاب العمل المتضمن لأنواع المتاعب والمشاق، مع أنهم لم يرضوا به، لكنهم لبثوا وعملوا سنة بعد موته، فظهر أنهم ما كانوا عالمين بالغيوب.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 15-18].

وبعدما ذكر سبحانه قصة آل داوود وسليمان، ومواظبتهم على شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، أردف سبحانه بكفران أهل سبأ على نعمه سبحانه، وإنكارهم على حقوق كرمه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي: لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي: مواضع سكناهم، وهي باليمن، يقال لها: مأرب، بقرب صنعاء، مسيرة ثلاث مراحل ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة ونعمة جسيمة دالة على كمال معطيها وموجدها، وعلى اتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الحسنى، وهي ﴿جَنَّتَانِ﴾[1] حافتان محيطتان ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: جنة عجيبة عن يمين بلدهم، وأخرى عن يسارها.

---

(1) قال في التأويلات: أي: جنة الروح عن يمين السر وحية القلب عن شمال السر، وذلك لأن السر لطيفة خلقت من بين الروح والقلب فما يرد من فيض الروح وداود الحق تعالى يصل إلى السر، ومنه يرد إلى القلب وما يصدر من القلب من أنوار الذكر والطاعات أو ظلمة أوصاف النفوس في معاملاتها يصعد إلى السر، ومن السر يصعد إلى الروح فالسر بين هاتين جنتين في رغد من العيش وسلامة من الحال، فأمر بالصبر على العاقبة والشكر على النعمة.

وبعدما أعطيناهم هاتين الجنتين المشتملتين على غرائب صنيعنا وبدائع مخترعاتنا، قلنا لهم على طريق الإلهام: ﴿كُلُوا﴾ أيها المتنعمون المتفضلون من عندنا ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع الكرامات ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ نعمه، وواظبوا على أداء حقوق كرمه مع أن بلدتكم التي تسكنون فيها ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ماء وهواء، بريئة عن المؤذيات مطلقًا ﴿وَ﴾ ربكم الذي رباكم فيها بأنواع الكرم ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15] ساتر عليكم فرطاتكم بعدما أخلصتم في شكر نعمه وأداء حقوق كرمه.

وبعدما نبهنا عليهم بشكر النعم والمداومة عليها، لم يتنبهوا ولم يتفطنوا، بل ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر، واشتغلوا بأنواع الكفران والطغيان والإنكار على المفضل المنان، المكرم الديان، وبعدما انصرفوا عنا وعن شكر نعمنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ وهي الحجارة المركومة بالجص والنورة، وأنواع التدبيرات المحكمة للأبنية والأساس.

وذلك أنه كان لهم سد قد بنته بلقيس بين الجبلين، وجعلت لها ثلاث كوات بعضها فوق بعض، وبنت دونها بركة عظيمة، فإذا جاء المطر اجتمع عليها مياه أوديتهم، فاحتبس السيل من وراء السد، فيفتح الكوة العليا عند الاحتياج، ثم الثانية، ثم الثالثة السفلى، فلا ينفد ماؤها إلى السنة القابلة.

فلما طغوا وكفروا لنعم الله بعدما أُمروا بالشكر على ألسنة الرسل، قيل: أرسل الله عليهم ثلاثة عشر نبيًا، فكذبوا الكل وأنكروا لهم، سلط الله على سدهم الجُرذ - قيل: هي نوع من الفأرة - فنقّبت في أسفل السد بإلهام الله إياها، فسال الماء، فغرقت جنتهم ودفنت بيوتهم في الرمل، وكان ذلك من غضب الله عليهم على كفران نعمه.

﴿وَ﴾ بعدما أعرضوا عن شركنا، وأرسلنا عليهم من السيل ما أرسلنا ﴿بَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين، المشابهتين للجنة الأخروية ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ أخريين، سماهما سبحانه على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَمْطٍ﴾ بشع سمج كزقوم أهل النار ﴿وَ﴾ ذواتي ﴿أَثْلٍ﴾ طرفاء لا ثمر لها ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ نبق ﴿قَلِيلٍ﴾ [سبأ: 16] أي: قليل النفع؛ إذ لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ من تبديل النعمة والجنة جحيمًا، واللذة ألمًا ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ لنعمنا، وأنكروا لحقوق كرمنا؛ أي: بشؤم كفرانهم وطغيانهم، وكما غيروا الشكر بالكفران، بدلنا عليهم الجنان بالحرمان والخذلان، وبما كفروا لرسلنا وكذبوهم

بلا مبالاة لهم وبدعوتهم، وبجميع ما جاءوا به من عندنا إياهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بضم النون وكسر الزاي، بأمثال هذا الجزاء ﴿إِلَّا الكَفُورَ﴾ [سبأ: 17] المعرض عن شكر نعمنا، الجاحد على حقوق لطفنا وكرمنا، والمبالغ في ستر الحق، المصر على الباطل الزاهق الزائل.

﴿وَ﴾ من كمال لطفنا وجودنا إياهم ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين بلاد أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ القُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وكثرنا الخير على ساكنيها بتوسعة الأرزاق والفواكه والمتاجر، وهي: أرض الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة متظاهرة، يُرى كل من الأخرى مترادفة على متن الطريق؛ تسهيلاً لهم، ليتجروا بلا كلفة وتعب ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ لهم ﴿فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: في تلك القرى المترادفة على قدر مقيلهم ومبيتهم غاديًا ورائحًا، بحيث لا يحتاجون إلى حمل زاد وماء؛ لقرب المنازل والخصب والسعة، وبعدما أعطيناهم هذه الكرامات، قلنا لهم على ألسنة الرسل المبعوثين إليهم أو إلهامًا لهم بلسان الحال: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ على التعاقب والتوالي حيث شئتم لحوائجكم ومتاجركم ﴿آمِنِينَ﴾ [سبأ: 18] عن جميع المؤذيات، مصونين عن كيد الأعداء، شاكرين لنعمنا، غير كافرين عليها.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: 19-23].

وبعد توجه الفقراء إلى ديارهم، وازدحموا لكمال الخصب والرفاهية والمعيشة الوسيعة وسهولة الطريق ﴿فَقَالُوا﴾ مشتكين إلى الله من مزاحمة الفقراء وإلمامهم عليهم، كافرين لنعمة التوسعة والسهولة: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ﴾ منازل ﴿أَسْفَارِنَا﴾ حتى نحتاج إلى حمل الزاد وشد الرواحل؛ ليشق الأمر على الفقراء، فيتنحوا عنا ولم

يزدحموا علينا ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بطلب هذا التعب، فأجاب الله دعاءهم، وخرب القرى التي بينهم وبين الشام، وانصرف الفقراء عنهم، وانقطع دعاؤهم لهم، فاشتد الأمر عليهم، وتشتتوا في البلاد، ولم يبق عليهم شيء من التوسعة والرفاهية، بل صاروا متفرقين مشتتين ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: قصة أمنهم ورفاهيتهم وجمعيتهم، بعدما عكسنا الأمر عليهم ﴿أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم، يتحدثون بينهم، متعجبين قائلين على سبيل التحسر في أمثالهم: «تفرق أيدي سبأ».

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرقناهم في البلاد تفريقًا كليًا إلى حيث لحق غسان منهم بـ «الشام»، وأنمار بـ «يثرب»، وجذام بـ «تهامة»، والأزد بـ «عمان» ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التبديل والتشتيت، وأنواع المحن والنقم بعد النعم ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات على قدرة القدير الحكيم العليم، المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المتاعب والمشاق الواردة عليه بمقتضى ما ثبت له في لوح القضاء، ومضى على الرضا بمقتضيات الحكيم العليم ﴿شَكُورٍ﴾ [سبأ: 19] لنعم الله الفائضة عليه، مواظب أداء حقوقه.

ثم قال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَدَّقَ﴾ - بالتشديد والتخفيف - ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الهالكين في تيه الخسران والكفران ﴿إِبْلِيسُ﴾ العدو لهم، المصر المستمر على عداوتهم من مبدأ فطرتهم ﴿ظَنَّهُ﴾ الذي ظن بهم حين قال لأبيهم آدم: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62] وقوله: ﴿لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17] وقوله: ﴿لَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119] إلى غير ذلك، وبعدما أضلهم عن طريق الشكر والإيمان ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ كفروا النعم والمنعم جميعًا ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 20] الموقنين بتوحيد الله، المصدقين لرسله، المتذكرين لعداوته المستمرة، فانصرفوا عنه وعن إضلاله، فبقوا سالمين عن غوائله.

﴿وَ﴾ العجب كل العجب أنهم اتبعوا له وقبلوا إغواءه وإغراءه وتغريره، مع أنه ﴿مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة قاهرة غالبة ملجئة لهم إلى متابعته وقبول وسوسته من قبله، بل من قبلنا أيضًا، وما ابتلينا وأغرينا هؤلاء البغاة بمتابعته - لعنه الله - ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ونميز ونظهر التفرقة بين ﴿مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ وبجميع المعتقدات التي أخبرها الله بها ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا﴾ أي: من النشأة الآخرة، والأمور الكائنة فيها ﴿فِي شَكٍّ﴾ تردد وارتياب، ولهذه التفرقة والتمييز، أتبعناهم إليه ﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل

الرسل أمثال هذه الابتلاءات والاختبارات من الله؛ إذ ﴿رَبُّكَ﴾ الذي رباك على الهداية العامة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته الكائنة والتي ستكون، والجارية على سرائر عباده وضمائرهم، والتي ستجري ﴿حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21] شهيد، لا يغيب عنه إيمان مؤمنٍ، وكفر كافر، وشكر شاكر، وشك شاك، وإخلاص مخلص.

وبعدما أثبت المشركون المصرون على كفران نعم الله أمثال هؤلاء الغواة المذكورين آلهة سوى الله سبحانه، وسموهم شفعاء وعبدوا لهم مثل عبادته سبحانه ﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿ادْعُوا﴾ أيها الضالون المشركون الآلهة ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وأثبتم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ليستجيبوا لكم في مهماتكم، ويستجلبوا لكم المنافع، ويدفعوا عنكم المضار، كما هو شأن الألوهية والربوبية، وكيف تدعونهم لأمثال هذه المهام مع أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من الخير والشر والنفع والضر، لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا استقلالاً؛ إذ هم ليسوا قابلين للألوهية ﴿وَ﴾ لا مشاركة؛ إذ ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في خلقهما وإيجادهما ﴿مِن شِرْكٍ﴾ مشاركة مع الله في ألوهيتهم؛ لأنهم من جملة مخلوقاته، بل من أدناها، ولا شركة للمخلوق مع خالقه ﴿وَ﴾ لا مظاهرة؛ إذ ﴿مَا لَهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: 22] ولا من غيرهم أيضًا، معاون له في ألوهيته وربوبيته؛ إذ هو سبحانه منزه عن المعاونة والمظاهرة مطلقًا.

﴿وَ﴾ كذلك ليس لهم عنده سبحانه شفاعة مقبولة حتى يشفعوا لهم ويخلصوهم من عذاب الله بعدما نزل عليهم؛ إذ ﴿لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ سبحانه من أحد من عباده ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ بالشفاعة لغيره؛ لاتصافه بالكمال، أو بشفاعة الغير من الشرفاء له؛ لاستحقاقه بالكرامة وإن كان منغمسًا بالرذالة، وبعدما وقعت الشفاعة وأذن بها من عنده سبحانه، ينتظر الشافعون المشفعون بعد وقوعها وجلين، خائفين مهابة من سطوة سلطنة جلاله سبحانه ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ﴾ وكشف الفزع، وأزيل الخوف والوجل ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب الشافعين والمشفوعين ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض، أو المشفوعون للشافعين: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في جواب شفاعتكم، أيقبلها أم يردها؟ ﴿قَالُوا﴾ أي: الشفعاء: القول ﴿الْحَقَّ﴾ الثابت عنده، المرضي دونه، وهو سبحانه يقبل شفاعتنا في حقكم، وأزال عنكم عذابه ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون من الله ولا يهابون - أي: الشفعاء - عن ساحة عز حضوره؛ إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَلِيُّ﴾ ذاته وشأنه، المقصور المنحصر

على العلو، لا أعلى إلا هو ﴿الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23] بحسب أوصافه وأسمائه؛ إذ الكبرياء رداءه، لا يسع لأحد أن يتردى به سواه.

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سبأ: 24-30].

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل التبكيت والإلزام، مقرعًا إياهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسباب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: عالم المسببات، فيبهتون عن سؤالك ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بهتوا: ﴿اللَّهُ﴾ إذ هو متعين للجواب وإن سكتوا عنه وتلعثموا مخافة الإلزام، أضمروا في قلوبهم هذا؛ إذ لا جواب لهم سواه، ولا رازق إلا هو ولا معطي غيره ﴿وَ﴾ بعدما بهتوا وانحسروا، واستولى الحيرة والقلق عليهم، قل لهم على سبيل المجاراة والمداراة: ﴿إِنَّا﴾ يعني: فرق الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يعني: فرق المشركين؛ أي: كل منا ومنكم ﴿لَعَلَى هُدًى﴾ أي: على الحق المطابق للواقع ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24] ظاهر انحرافه، موصل إلى الباطل الزاهق الزائل، المضاد للحق الحقيق بالمتابعة والانقياد.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل المجاراة والمبالغة في المداراة معهم، بحيث تسند الجرم إلى أنفسكم والعمل إليهم؛ مبالغة في الإسكات والتبكيت: ﴿لَّا تُسْأَلُونَ﴾ انتم ﴿عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ وجئنا به من الآثام ﴿وَلَا نُسْأَلُ﴾ نحن أيضًا ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25] من الأعمال، بل كل منا ومنكم رهين ما اكتسبنا من العمل، فعليكم ما حملتم، وعلينا ما حملنا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا على طريق الملاينة والملاطفة في الإلزام والتبكيت: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم نحشر إليه ونعرض عليه ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم

ويفصل ﴿بَيْنَنَا﴾ ويرفع نزاعنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل السوي بلا حيف وميل، فيساق المحقون نحو الجنة والمبطلون نحو النار ﴿وَ﴾ كيف لا يحكم ويفصل سبحانه ﴿هُوَ الْفَتَّاحُ﴾ لمعضلات الأمور، الحاكم لمعلقات القضايا ﴿الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 26] الذي يكتنه عنده كل معلوم، ولا يشتبه عليه شيء منها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أشبعت الكلام على إسكاتهم وإلزامهم: ﴿أَرُونِيَ﴾ وأخبروني أيها المشركون ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ﴾ أي: بالله سبحانه، وادعيتموه ﴿شُرَكَاءَ﴾ معه، مستحقين للعبادة مثله، وأخبروني عن أخص أوصافهم التي بها يستحقون الألوهية والمعبودية، لا تأمل أيضًا في شأنهم والتدبر في حقهم، ثم رد عليهم سبحانه؛ ردعًا لهم وزجرًا عما هم عليه، وإرشادًا لهم إلى ما هو الحق الحقيق بالاتباع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدعوا أيها المشركون، المسرفون عن دعوى الشركة مع الله الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر، الذي ليس له شريك ولا نظير ولا وزير ولا ظهير ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية، بل هو في الوجود والتحقق ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر الظاهر على من دونه من الأظلال الهالكة المضمحلة، المتلاشية في شمس ذاته، المتشعشعة المتجلية حسب أسمائه وصفاته ﴿الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: 27] المتقن في أفعاله المترتبة على علمه وإرادته وقدرته، يفعل ما يشاء إرادة واختيارًا، ويحكم ما يريد استقلالاً، ليس لأحد أن يتصرف في ملكه وملكوته.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت ألّا معبود في الوجود سوانا، ولا مستحق للعبادة غيرنا، فاعلموا أنّا ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما انتخبناك من بين البرايا واصطفيناك منهم ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: رسالة عامة، شاملة لقاطبة الأنام؛ لتكفهم عن جميع الآثام، وتمنعهم عن مقتضيات نفوسهم ومشتهيات قلوبهم مما يعوقهم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة، وبعدما أرسلناك إليهم، صيرناك عليهم ﴿بَشِيرًا﴾ تبشرهم إلى درجات الجنان، والفوز بلقاء الرحمن ﴿وَنَذِيرًا﴾[1] تنذرهم وتبعدهم عن دركات النيران وأنواع

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن إرسال ماهية وجودك التي عبرت عنها مرة بنورك وتارة بروحي من كتم العدم إلى عالم الوجود لم يكن منا إلا ليكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة من أهل الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين، وإن لم يخلقوا بعد لاحتياجهم بك من بدأ الوجود في هذا الشأن وغيره إلى الأبد، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم» فأما في بدأ وجودهم فالأرواح لما حصلت في عالم الأرواح بإشارة كن، تابعين لروحك احتاجت إلى أن

العذاب والحرمان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28] حكمة الإرسال والإرشاد والهداية إلى سبيل الصواب والسداد، لذلك عاندوا معك وكذبوك وأنكروا بكتابك، وبجميع ما جئت به من عندنا عنادًا ومكابرة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك منكرين متهكمين، بعدما وعدتهم بقيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم، وحشر الأموات من الأجداث: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي وعدتنا به، عيّنوا لنا وقت وقوع الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: 29] في وعدكم ودعواكم، هذا يعنون بالخطاب رسول الله ﷺ والمؤمنين جميعًا.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعدما اقترحوا على سبيل الإنكار: يناجي ﴿لَّكُم﴾ أيها المنكرون للبعث بغتة ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعده أو زمانه بحيث ﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: 30] أي: لا يسع لكم متى فاجأكم أن تطلبوا التأخر عنه آنًا أو التقدم عليه طرفةً.

يكون لها بشيرًا ونذيرًا؛ لتعلقها بالأجسام لأنها علوية بالطبع لطيفة روحانية، والأجسام سفلية بالطبع كثيفة ظلمانية لا يتعلق بها، ولا يميل إليها لفسادة بينهما، فيحتاج إلى بشيرها يبشرها بحصول كمال لها عند الأثقال بها لترغب إليها وتحتاج إلى نذير تنذرها بأنها إن لم تتعلق بالأجسام يحرم عن كمالها، وتبقى ناقصة غير كاملة مثل حبة فيها شجرة مركوزة بالقوة، وإن تزرع وتربي بالماء تخرج الشجرة من القول إلى الفعل إلى أن تبلغ كمالها بشجرة مثمرة، فالروح بمثابة البذر، والقالب بمثابة الأرض، والشخص الإنساني بمثابة الشجرة، والتوحيد والمعرفة ثمرتها الشريفة بمثابة الماء لتربيتها والبشير والنذير بمثابة المربي، فبعد تعلق الروح بالقالب واطمئنانه إليه واتصافه بصفة يحتاج إلى بشير بحسب مقامه يبشره بنعيم الجنة وملك لا يبلى، ثم يبشره بقرب الحق تعالى ويشوقه إلى جماله ويعده بوصاله وبنذير ينذره أولاً بنار جهنم يوعده بالبعد عن الحق، ثم بالقطيعة والهجران، وإذا أمعنت النظر وجدت شجرة الموجودات منبتة من بذر روحه ﷺ وهو ثمرة هذه الشجرة مع جميع الأنبياء والمرسلين، وأنهم وإن كانوا ثمرة هذه الشجرة أيضًا ولكن وجدوا هذه المرتبة بتبعية كماله لا من بذر واحد يظهر على الشجرة ثمار كثيرة بتبعية ذلك البذر الواحد فيجد كل بشير ونذير فرعًا لأصل بشريته ونذيريته، والذي يدل على هذا التحقيق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] دخلت شجرة الموجودات كلها تحت الخطاب ويقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:6] يشير إلى أن أكثر الناس الذين هم أجزاء وجود الشجرة، وما وصلوا إلى رتبة الثمرية لا يعلمون حقيقة ما قدرنا؛ لأن أحوال الثمرة ليست معلومة للشجرة إلا لثمرة مثلها ووصفها ليكون واقفًا بحالها.

وبالجملة: قيام الساعة إذا حل عليكم، لا يمكنكم هذا، ولذا قيل: الموت هو القيامة الصغرى، وقال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: 31-33].

﴿وَ﴾ من كمال غيظ المشركين معك يا أكمل الرسل وشدة إنكارهم على كتابك؛ بسبب اشتماله على الأوامر والنواهي الشاقة والتكاليف الشديدة، وبما أخبر فيه من قيام الساعة وأهوال الفزع الأكبر والطامة الكبرى ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا الحق وأعرضوا عن مقتضاه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ونصدق أبدًا ﴿بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ وبما فيه من الإنذارات والتخويفات، سيما حشر الأجساد وإعادة المعدوم بعينه ﴿وَلَا﴾ نصدق أيضًا ﴿بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة المشتملة على ذكر القيامة.

وذلك أنهم فتشوا عن أخبار اليهود والنصارى، وجميع من أنزل إليهم الكتب، فسمعوا منهم أنه ذكر في كتابهم نعت محمد ﷺ ووصف كتابه، وذكر الحشر والنشر، وجميع المعتقدات الأخروية؛ لذلك بالغوا في تكذيب الكتب رأسًا، وصرفوا الناس أيضًا عن تصديقها والإيمان بها وبمن أنزل إليهم، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرائي لرأيت أمرًا فظيعًا فجيعًا ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن ربقة العبودية بتكذيب الرسل وإنكار الكتب وما فيها من أحوال النشأة الأخرى، سيما بالقرآن وبمحمد ﷺ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ محبوسون يوم العرض للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورون فيما بينهم ويتراجعون في الأقوال، ويتلاومون

---

(1) رواه البخاري (2387/5).

ويتلاعنون فيها، حيث ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ من الأتباع المتسمين بذل التبعية ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ من المتبوعين المتعززين بعز الرئاسة: ﴿لَوْلا أَنتُمْ﴾ موجودون مقتدون بيننا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31] موقنين بتوحيد الله، مصدقين لرسله وكتبه، وبجميع ما جرى على ألسنة الرسل والكتب.

ثم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: المتبوعون المتعظمون بعز الرئاسة والثروة والسيادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أي: الأتباع السفلة: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ أي: لم نكن صادِّين، صارفين لكم عن الإيمان بالرسل والكتب ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ الرسل بالكتب المشتملة على الهدى والبينات، ودعوكم إلى الإيمان، ونحن ما صددنا إلا نفوسنا بلا تغرير وتضعيف منا إياكم ﴿بَلْ كُنتُم﴾ حينئذ ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: 32] تاركين الإيمان والهداية تقليدًا علينا بلا صد منَّا.

﴿وَقَالَ﴾ الضعفاء ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: لم يكن إضلالكم إيَّانا وتغريركم علينا منحصرًا في الصد والذب باللسان والأركان ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: مكركم وحيلتكم في تضليلنا دائمًا مستوعبًا للأيام والليالي، ليس مخصوصًا بوقت دون وقت؛ لأنكم رؤساء بيننا، أصحاب الثروة فينا، فتخدعون بنا قولاً وفعلاً، وتميل قلوبنا إلى ما أنتم عليه ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ وتوحيده وننكر رسله وكتبه ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ﴾ أي: نثبت ونعتقد لله الواحد الأحد، المنزه عن الشريك ﴿أَندَادًا﴾ شركاء معه في استحقاق العبادة والإطاعة والتوجه والرجوع في مطلق المهام.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَسَرُّوا﴾ أي: أظهروا وأخفوا ﴿النَّدَامَةَ﴾ على ما فات عنهم ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم بما صدر عنهم في النشأة الأخرى، أظهروا الندامة؛ تحسرًا وتحزنًا، أو أخفوها؛ مخافة التعيير والتقريع ﴿وَ﴾ بعدما أردنا تعذيبهم ﴿جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ الممثلة لهم من تعديهم وظلمهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وأثبتوا له أندادًا، وأنكروا لكتبه ورسله تابعًا ومتبوعًا، ضالاً ومضلاً، وقلنا لهم توبيخًا وتعييرًا: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ هؤلاء البعداء عن ساحة عز القبول ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 33] أي: ما يجازون إلا بمقتضى أعمالهم وأفعالهم، وعلى طبقها على مقتضى العدل الإلهي.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا
مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 34-39].

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذهم بشؤم أعمالهم وأفعالهم؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ من النذر المبعوثين لإصلاح مفاسدهم ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: متنعموها، للرسل من فرط عتوهم وعنادهم، اتكاءً على ما عندهم من الجاه والثروة على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بجميع ما أرسلتم أيها المدعون للرسالة والهداية والدعوة العامة، وإقامة الحدود بين الأنام ﴿كَافِرُونَ﴾ [سبأ: 34] جاحدون منكرون، لا نقبل منكم أمثال هذه الخرافات.

﴿وَقَالُوا﴾ مفتخرين بما عندهم من الجاه والثروة: نحن أولى بما ادعيتم من النبوة والرسالة؛ إذ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا﴾ إذ بالأموال تنال كل مطلوب، وبالأولاد يظاهر على كل ملمة ومكروه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35] لا في الدنيا لما سمعت من كرامة الأموال والأولاد، ولا في الآخرة أيضًا إن فرض وقوعها؛ لأنّا قوم أكرمنا الله بها في الدنيا، فكذا يكرمنا في الآخرة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الافتخار والمباهاة بما عندهم من حطام الدنيا ومتاعها: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ القادر المقتدر على الإنعام والانتقام ﴿يَبْسُطُ﴾ ويكثر ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري الدنيوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده؛ اختبارًا لهم وابتلاءً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقل ويقبضه على من يشاء؛ تيسيرًا له وتسهيلاً عليه حسابه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على السهو والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 36] حكمة قبضه وبسطه؛ لذلك يفرحون بوجوده ويحزنون بعدمه، ولم يتفطنوا أن وجوده يورث حزنًا طويلاً وعذابًا أليمًا، وعدمه يوجب أنواع الكرامات ونيل المثوبات.

ثم قال سبحانه تقريعًا على المفتخرين بالأموال والأولاد: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا

أَوْلَادُكُم﴾ أيها المغرورون بهما، المحرومون عن اللذات الأخروية بسببهما، إلا وسيلة وواسطة ﴿بِالَّتِي﴾ أي: بالخصلة الحسنة التي ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ أيها المأمورون بالتقرب إلينا بالأعمال المقبولة ﴿عِندَنَا زُلْفَى﴾ أي: تقريبًا مطلوبًا لكم، مصلحًا لأحوالكم وأعمالكم ومواجيدكم ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ منكم أيها المتمولون المتكثرون للأولاد، وأيقن بتوحيده سبحانه وصدق رسله وكتبه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مقبولاً عند الله، متقربًا إليه سبحانه، بأن أنفق ماله في سبيل الله طلبًا لمرضاته، وعلّم أولاده علم التوحيد والأحكام والعقائد المتعلقة بدين الإسلام ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المبسوطون من عنده بالرزق الصوري في هذه النشأة ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاؤهم من الرزق المعنوي أضعاف ما استحقوا بأعمالهم إلى العشرة، بل إلى ما شاء الله من الكثرة، بل ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ المعدة لأهل الجنة في الجنة ﴿آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37] مصونون عن جميع المؤذيات والمكروهات.

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ الكافرون المنكرون المكذبون رسلنا وكتبنا ﴿الَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ ويجتهدون ﴿فِي﴾ قدح ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمال أسمائنا وصفاتنا، وعلى الأحكام الجارية بين عبادنا، المتعلقة لأحوالهم في النشأتين حال كونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قاصدين عجزنا عن إقامة الحدود بين العباد، واتخاذ العهود منهم، ووضع التكاليف والأحكام والآداب بينهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء، الطاعنون لآياتنا الكبرى، الغافلون عن فوائدها العظمى ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: 38] لا يتحولون عنها ولا يغيبون.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمسرفين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، متكئين بما عندهم من الأموال والأولاد الفانية الزائلة، مفتخرين بها تفوقًا وتبجحًا: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ العليم، المطلع على جميع استعدادات العباد، الحكيم في إفاضة ما يليق لهم ﴿يَبْسُطُ﴾ يزيد ويفيض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تارة على مقتضى مشيئته ومراده ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: ينقص ويقبض الرزق عنه مرة أخرى إرادةً واختيارًا على مقتضى حكمته ومصلحته التي استأثر الله بها في غيبه وحضرة علمه ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم هذا اعلموا أيها المبسوطون المنعمون ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ استخلفكم الله سبحانه عليه من الرزق، وأمركم بإنفاقه على فقرائه ﴿فَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يُخْلِفُهُ﴾ ويعوض عنه بأضعافه وآلافه، إن صدر عنكم الإنفاق بالاعتدال بلا تبذير وتقتير ﴿وَ﴾ كيف لا

يخلف سبحانه الرزق الصوري لخلّص عباده مع أنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39] بالرزق الصوري والمعنوي، المخلص لهم عن مقتضيات بشريتهم ومشتهيات أهويتهم البهيمية.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا
يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ
﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ
﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: 40-43].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عبد الملائكة واتخذوهم أربابًا من دون الله مستحقين للعبادة والرجوع في الملمات مثله سبحانه، وسموهم شفعاء ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ في المحشر ﴿جَمِيعًا﴾ العابدون والمعبودون ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على رءوس الأشهاد، وتفضيحًا للعابدين، وتقريعًا لهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[1] [سبأ: 40] يعني: أهؤلاء المسرفون المشركون يعبدون إياكم كعبادتي، بل يخصونكم بالعبادة ويهتمون بشأنكم، هل تستعبدونهم وتسترضون عبادتهم وتوالون معهم، أم يعبدونكم من تلقاء نفوسهم؟!.

﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة خائفين من بطشه سبحانه، مستحيين، متضرعين نحو

---

(1) يبشرون الملائكة منهم وينزهون الله ويقولون سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن كذلك من يعبد الله بقول الوالدين والأستاذين أو أهل بلده أو بالتعصب والهوى كما يعبدون اليهود والنصارى والصابئون والمجوس وأهل البدع والأهواء يتبرأ منه ويقول: أنا منزه من أن أعبد، يقول: من يعبدني بالهوى أو أعبد بالهوى فإن من عبدني بالهوى فقد عبد الهوى ومن عبدني بإعانة أهل الهوى إياه على تعبدي فقد عبد أهل الهوى لأنه ما عبدني مخلصًا كما أمرته ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] ولهذا المعنى أمرنا الله ﷻ أن نقول في عبادته في الصلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:5] أي: لم نعبد غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] على عبادتك لنعبدك بإعانتك لا بإعانة غيرك. [التأويلات].

جنابه: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك يا مولانا عما لا يليق بشأنك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ وأنت المراقب علينا، المطلع على سرائرنا وضمائرنا، المتولي لجميع ما صدر عنا، وأنت تعلم يا مولانا ألَّا موالاة بيننا وبينهم؛ إذ لا يخفى عليك خافية، ومن أين يسع لنا ويتأتى منا الرضا بأمثال هذه الجرأة والجرائم العظيمة، وأنت أعلم يا مولانا بمعبوداتهم التي اتخذوها هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكون في تيه الجهل والغفلة؛ لعلو شأنك وشأن ألوهيتك وربوبيتك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين الداعين لهم إلى عبادتهم، الراضين بها؛ لأنهم يتمثلون بصور الملائكة، ويدعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويأمرونهم بالعبادة لأنفسهم، بل ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أي: كل المشركين، وجملة المتخذين أندادًا لله ﴿بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 41] أي: بالشياطين، عابدون لهم، متوجهون نحوهم في عموم مهامهم.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ تبلى السرائر، وظهر ما في الضمائر، ولاح سلطان الوحدة الذاتية، وانقهر الأظلال الأغيار، وظهر أن الأمور كلها مفوضة إليه سبحانه، وإن كان قبل ذلك أيضًا، كذلك ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ﴾ أيها الأظلال المستهلكة في شمس الذات ﴿لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا جلبًا ولا دفعًا، ولا لطفًا ولا قهرًا ﴿وَ﴾ بعدما انقطع عنهم التصرف مطلقًا، لا معنى ولا صورة، ولا مجازًا ولا حقيقة ﴿نَقُولُ﴾ على مقتضى قهرنا وجلالنا ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وخرجوا عن ربقة عبوديتنا ومقتضيات حدودنا الموضوعة لإصلاح أحوال عبادنا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها الضالون المنهمكون في بحر العدوان والطغيان ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: 42] في نشأتكم الأولى بعدما أُخبرتم على ألسنة الرسل والكتب.

﴿وَ﴾ كيف لا نقول لهم ما نقول؛ إذ هم كانوا من غاية عدوانهم وظلمهم على الله وعلى رسله وكتبه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على إصلاح أحوالهم المتعلقة بالنشأتين مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات في الدلالة على أهم مقاصدهم ومطالبهم ﴿قَالُوا﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم على رسول الله: ﴿مَا هَٰذَا﴾ المدعي للرسالة والنبوة - يعنون الرسول ﷺ - ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ حقير مستبد برأيه، مستبدع أمرًا من تلقاء نفسه ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ ويستتبعكم؛ أي: يجعلكم تابعين له، بل يستعبدكم بأمثال هذا التلبيس والتقرير ﴿وَقَالُوا﴾ أيضًا في حق القرآن: ﴿مَا هَٰذَا﴾ الذي جاء به ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: كذب مختلق غير مطابق للواقع، افتراه

على الله؛ تلبيسًا وتقريرًا على ضعفاء الأنام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح، وستروه بالباطل عدوانًا وعنادًا ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين عاينوا به وعلموا أنه من الخوارق العجيبة، واضطروا خائبين حائرين عن جميع طرق الرد والمنع، غير أنهم نسبوه إلى السحر وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي سماه قرآنًا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: 43] ظاهر سحريته، عظيم إعجازه.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سبأ: 44-48].

ثم أشار سبحانه إلى غاية تجهيل المشركين ونهاية تسفيههم، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنزلنا عليهم ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ وفيها دليل الإشراك وإثبات الآلهة، بل كل الكتب منزلة على التوحيد وبيان طريقه ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: 44] ينذرهم عن التوحيد، ويدعوهم إلى الشرك، بل كل من أرسل من الرسل، فإنما هو على إرشاد التوحيد والإنذار عن الشرك المنافي له.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية رسول الله ﷺ وتهديدهم بالأخذ والبطش، فقال: ﴿وَ﴾ كما كذب هؤلاء المكذبون بك يا أكمل الرسل وبكتابك ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلهم والكتب المنزلة عليهم ﴿وَ﴾ هم؛ أي: هؤلاء الغواة المكذبون لك يا أكمل الرسل ﴿مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: عشر ما أعطينا لأولئك المكذبين الماضين من الجاه والثروة والأمتعة الدنيوية وطول العمر، ومع ذلك ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فأخذناهم مع كمال قوتهم وشوكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: 45] أي: إنكاري وانتقامي إياهم بالتدمير والهلاك، مع إنكارهم على رسلي وكتبي بالتكذيب والاستخفاف.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغ إلزامهم وتهديدهم غايته: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم

بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: ما أذكر لكم وأنبه عليكم إلا بخصلة واحدة كريمة، وهي: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وحده، وتوحدوه عن وصمة الكثرة مطلقًا، وتواظبوا على أداء الأعمال الصالحة المقربة إليه، المقبولة عنده سبحانه، وتخلصوها لوجهه الكريم بلا شوب شركة ولوث كثرة وخباثة. رياء ورعونة، سمعة وعجب، واسترشدوا من رسول الله ﷺ ﴿مَثْنَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفُرَادَىٰ﴾ أي: واحد واحد؛ يعني: متفرقين بلا زحام مشوش للخاطر، مخلط للأقوال، حتى يظهر لكم شأنه ﷺ ويتبين دونكم برهانه ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ترددتم عليه ﷺ على وجه التعاقب والتفريق ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾ فيما لاح عنكم منه ﷺ، وتأملوا فيه حق التأمل والتدبر على وجه الإنصاف، معرضين عن الجدل والاعتساف؛ لينكشف لكم أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني: محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: جنون وخبط يعرضه ويحمله على ادعاء الرسالة بلا برهان واضح يتضح له وينكشف دونه، كما زعم في حقه ﷺ مشركوا مكة - لعنهم الله - كي يفتضح على رءوس الأشهاد، كما نشاهد من متشيخة زماننا - خذلهم الله - أمثال هذه الخرافات بلا سند صحيح.

وبعدما لم يساعدهم البرهان والكرامة افتُضحوا، وهو ﷺ مع كمال عقله ورزانة رأيه ومتانة حكمته، كيف يختار ما هو سبب الشنعة والافتضاح؟! تعالى شأنه ﷺ عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

والمعنى: ثم بعدما جلستم عنده ﷺ على الوجه المذكور، تكلمتم معه على طريق الإنصاف، تتفكرون وتتأملون، هل تجدونه ﷺ معروضًا للخبط والجنون، أم للأمر السماوي الباعث له ﷺ على أمثال هذه الحكم والأحكام والعبر والأمثال التي عجزت دونها فحول العقلاء وجماهير الفصحاء والبلغاء، البالغون أقصى نهاية الإدراك، مع وفور دعاويهم، ويمعارضتها والتحدي معها؟! بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا الرسول المرسل إليكم المؤيد بالبراهين الواضحة والمعجزات اللائحة المثبتة لرسالته ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ من قبل الحق ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46] أي: قبيل الساعة، وقدام يوم القيامة المعدة لأنواع العذاب والنكال على عصاة العباد.

وإن اتهموك يا أكمل الرسل بأخذ الأجر والجعل على أداء الرسالة وتبليغ الأحكام؛ بل حصروا ادعاءك الرسالة ودعوتك على هذا فقط ﴿قُلْ﴾ لهم على طريق الإسكات والإلزام: ما سألت منكم شيئًا من الجعل أصلاً، وإن فرض أني سألت منكم شيئًا، فاعلموا أن ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إرشادكم وتكميلكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: هبة

لكم، مردود عليكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما أجري وجعلي على تحمل هذه المشاق والمتاعب الواردة في تبليغ الرسالة وإظهار الدعوة ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي أرسلني بالحق، وبعثني بالصدق، وهو المراقب المطلع على جميع أحوالي، الحكيم بإفاضة ما ينبغي ويليق بي وبشأني ﴿وَ﴾ كيف لا يطلع سبحانه على أحوال عباده؛ إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من الموجودات ولاح عليه لمعة الوجود ﴿شَهِيدٌ﴾ [سبأ: 47] حاضر دونه، غير بعيد عنه ومغيب عليه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما تمادى مراء أهل الضلال وتطاول جدالهم: لا أبالي باستهدائكم واسترشادكم، ولا أبالغ في تكميلكم، بل ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ العليم باستعدادات عباده، الحكيم بإفاضة الإيمان والعرفان على من أراد هدايته وإرشاده ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقيه وينزله على قلوب عباده الذين جبلهم على فطرة الإسلام واستعدادات التوحيد والعرفان، إذ هو سبحانه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1] [سبأ: 48] يعرف استعدادات عباده وقابلياتهم على قبول الحق، ويميزهم عن أهل الزيغ والضلال، المجبولين على الغواية الفطرية، والجهل الجبلي.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ
اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا
بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: 49-54].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم طريق الحق كلامًا ناشئًا عن محض

---

(1) على أفعال أهل الخلاف فيضمحل اجترائهم ويحيق بهم شؤم معاصيهم ويقذف بالحق إذا حضر أصحاب المعاني على ظلمات أصحاب الدعاوى فيحمل ما أنذرهم ويفتضحون في الحال ويفضح عوارهم، وذلك لأنه تعالى ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وإنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع؛ لأنه عالم بغيب كل واحد، وما في ضمير كل واحد، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة، وإنما قال علام بلفظ المبالغة ليتناول علمه معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي بلا تغير في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال بحيث لا يشغله شأن حال عن حال. [التأويلات].

الحكمة، خاليًا عن وصمة الكذب مطلقًا: ﴿جَاءَ الحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع، وظهر الإسلام الجدير بالإطاعة والاستسلام، فلكم أن تغتنموا الفرصة وتنقادوا له مخلصين ﴿وَ﴾ نبههم يا أكمل الرسل أيضًا أنه بعدما ظهر نور الإسلام، وعلا قدره، وارتفع شأنه ﴿مَا يُبْدِئُ﴾ ويحدث ﴿البَاطِلُ﴾ الذي زهق واضمحل ظلمته بنور الإسلام، وغار مناره في مهاوي الجهل وأغوار الخذلان ﴿وَ﴾ صار إلى حيث ﴿مَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: 49] أصلاً في حين من الأحيان.

سبحان من أظهر أنوار الإسلام ورفع أعلامه، وقمع الكفر وأخفض أصنامه.

ثم لما طعن المشركون على رسول الله ﷺ، وعيَّروه بأنك تركت دين آبائك واخترعت دينًا من تلقاء نفسك، فقد ضللت باختيارك هذا، بتركك ذاك عن منهج الرشاد، رد الله سبحانه عليهم قولهم هذا وتعييرهم، آمرًا لنبيه على وجه الامتنان: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما عيروك وطعنوا في شأنك ودينك: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ وانحرفت عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ وأنحرف ﴿عَلَى نَفْسِي﴾ وبمقتضى أهويتها ومشتهياتها، وشؤم لذاتها وشهواتها ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى التوحيد والعرفان، ونلت إلى أسباب درجات الجنان ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: بسبب وحيه وإلهامه إليّ، وامتنانه عليّ بالهداية إلى أنواع الكرامات وأصناف اللذات الروحانية ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: 50] يسمع مناجاتي، ويقضي جميع حاجاتي على وجهها إن تعلق إرادته ومشيئته بها بعدما جرى وثبت في حضرة علمه، ومضى عليها قضاؤه في لوحه بحيث لا يفوته شيء.

﴿وَ﴾ من كمال قرب الله سبحانه لعباده ﴿لَوْ تَرَى﴾ أيها الرائي وقت ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ أي: الكفرة والمشركون وقت حلول الأجل ونزول العذاب عليهم في يوم الساعة، لرأيت أمرًا فظيعًا ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: حين لا فوت لهم عن الله، لا منهم ولا من أعمالهم وأحوالهم شيء ﴿وَ﴾ إن تحصنوا بالحصون الحصينة والقلاع المنيعة والبروج المشيدة، بل ﴿أُخِذُوا﴾ حيثما كانوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51] من الله، ولو كانوا في قعر الأرض، أو قلل الجبال، أو في قلب الصخرة، أو فوق السماء، أو في أي مكان من الأماكن المخفية، وبالجملة: أُخذوا من مكان قريب بالنسبة إليه سبحانه؛ إذ هو سبحانه منزه عن الأمكنة، شهيد حاضر في جميعها، غير مغيب عنها.

﴿وَ﴾ بعدما اضطروا إلى الهلاك أو العذاب في يوم الجزاء ﴿قَالُوا﴾ بعدما

انقرض وقت الإيمان ومضى أوانه: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾[1] أي: من أين يتأتى ويحصل لهم تناول الإيمان وتلافيه ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 52] بمراحل عن الإيمان؛ إذ قد انقرض مدة التكليف والاختبار.

وحين كانوا قريبين، قادرين على تناوله وتعاطيه، لم يختاروه ولم يتصفوا به، بل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ ﷺ وأنكروا عليه وعلى كتابه ودينه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى، أو في زمان الصحة؛ أي: قبل ما عاينوا بالعذاب والهلاك ﴿وَ﴾ هم قد كانوا في زمان الإيمان به ﷺ وبكتابه ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يرمونه ويرجمونه رجمًا بالغيب، ويقولون في حقه على سبيل التخمين والحسبان عدوانًا وظلمًا: إنه كاهن، شاعر، مجنون، وكتابه أساطير الأولين، بل كلام المجانين، مع أن أمثال هذه الخرافات بالنسبة إليه ﷺ وعلى كتابه ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 53] بمراحل عن شأنه العلي العظيم، وكتابه الجلي الكريم، وإيمانهم في حالة اضطرارهم أبعد عن محل القبول بمراحل أيضًا.

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا عن قبول الإيمان وقت الاضطرار ﴿حِيلَ﴾ وحجب ﴿بَيْنَهُمْ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان والنجاة المترتبة عليه، ففعل بهم حينئذ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ وأشباههم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من الكفرة الماضين الهالكين، الملتجئين إلى الإيمان وقت اضطرارهم وهجوم العذاب عليهم، كفرعون وقارون وغيرهما ﴿إِنَّهُمْ﴾ قد ﴿كَانُوا﴾ أمثال هؤلاء الغواة المنهمكين ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي: غفلة وتردد ﴿مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: 54] موقع أصحابه في ريب عظيم، وكفر شديد، وإنكار غليظ.

أعاذنا الله وجميع عباده عن أمثاله بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك، المتدرج في درجات اليقين من العلم إلى العين إلى الحق - وفقك الله إلى أعلى مطالبك، وأعانك في إنجاحه - أن تتمكن في مقعد الصدق الذي

(1) قال في التأويلات: إذا تابوا وقد أغلقت الأبواب وندموا وقد تقطعت الأسباب فليس إلا الخسران والندم، ولات حين ندامة، كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِه يَتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويَعْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة؛ يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حِجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء.

هو مرتبة الرضا، معرضًا عن الشك والتردد في مقتضيات القضاء، ومبرمات الأحكام المثبتة في حضرة العلم الإلهي، وأن تتوجه نحوه سبحانه في جميع حالاتك بذيل كرم نبيه المؤيد من عنده الذي أرشدك إلى توحيده، مسترشدًا من آيات كتاب الله المنزل على رسوله، المبين لسلوك طريق التوحيد واليقين، وأحاديث النبي الموضح لمغلقات الكتاب، المشير إلى رموزه وإشاراته.

فلك في كل الأحوال التبتل إلى الله، والتوكل نحوه، والتفويض إليه، فاتخذه سبحانه وكيلك في جميع حوائجك، وحسيبك في جميع مهماتك، يكفيك معينًا، ويكف عنك شرور أعدائك مطلقًا.

وإياك إياك أن تختلط مع أصحاب الغفلة وأرباب الثروة، المفتخرين بما عندهم من المال والجاه، والنسب العلي والحسب الذي يباهي صاحبه ويتفوق على أقرانه ويطلب الرئاسة والسيادة بسببه.

وإن أردت أن تجلس مع بني نوعك وتصاحب معهم، فاختر منهم من انقطع عن الدنيا وأمانيها، وتزهد عنها وما فيها، سوى سد جوعة وستر عورة وكنّ يحفظه عن البرد والحر، وصاحب معه مصاحبة الحائر التائه في بيداء، لا يدري أين طرفاها، متفكرين متدبرين للخروج منها، والنجاة عن أهوالها وأغوالها.

فلك أن تتذكر في عموم أوقاتك قوله ﷺ، واجعله نصب عينيك في جميع حالاتك وهو: «كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل، وعد نفسك من أصحاب القبور»[1].

جعلنا الله ممن امتثل به، وتذكر وعمل بمقتضاه، ووجد في نفسه حلاوة معناه بفضله ولطفه.

---

(1) رواه البخاري (21/267).

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة فاطر

لا يخفى على من تحقق بسعة قدرة الله وإحاطة علمه وإرادته، وشمول عموم أوصافه وأسمائه الذاتية والفعلية، أن مظاهر الحق ومجاليه حسب شئونه وتطوراته لا تكاد تنحصر وتحصى؛ إذ لا يكتنه ذاته ووصفه واسمه؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، بل كل آن في شأن.

وبعدما كان شأنه سبحانه كذلك، كيف يعد مظاهره المترتبة على شئونه وتجلياته الغير محصورة، إلّا أنه سبحانه حمل لنفسه باعتبار معظم مظاهره ومصنوعاته بالنسبة إلى هؤلاء الأرضين؛ تعليمًا لهم وإرشادًا؛ ليواظبوا على أداء حقوق كرمه بقدر وسعهم وطاقتهم، فقال سبحانه لنفسه بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى باعتبار أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم مظاهره ومصنوعاته بإفاضة نور الوجود عليهم على مقتضى الفضل والجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده بإطلاعهم على منشأ الوجود ومنبع خزائن الفيض والجود.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: 1-4].

﴿الْحَمْدُ﴾ المحيط المشتمل على جميع ما صدر عن ألسنة عموم المظاهر حالاً ومقالاً ثابت ﴿لِلهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: الذي فطر؛ أي: أظهر وأبدع الأجرام العلوية من كتم العدم بعدما شق وفلق ظلمته بأشعة نور الوجود، المنعكسة من الصفات الأسنى والأسماء الحسنى الإلهية ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: الأجسام السفلية أيضًا كذلك؛ ليتحقق

الفاعل والقابل ويتكون منهما من الكوائن والفواسد ما شاء الله بحوله وقوته ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ﴾ أي: الذي جعل الملائكة الذين هم سدنة سدته العلية وخدمة عتبته السنية ﴿رُسُلاً﴾ أي: وسائل ووسائط بينه سبحانه وبين خواص عباده من الأنبياء والرسل والأولياء المؤيدين من عنده سبحانه بالرتبة العلية والدرجة الرفيعة، يبلغون إليهم من قِبَل الحق ما تفضل بهم سبحانه من الوحي المتعلق بخير الدارين ونفع النشأتين؛ ولذلك صيرهم سبحانه ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ﴾ متعددة متفاوتة يسرعون بها نحو مصلحة بعثهم الله إليها وأمرهم بتبليغها ﴿مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[1] أي: لبعضهم أجنحة اثنين اثنين، ولبعضهم ثلاثة ثلاثة، ولبعضهم أربعة أربعة إلى ما شاء الله، بلا انحصار في عدد دون عدد، بل ﴿يَزِيدُ﴾ سبحانه ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ أي: في جميع مخلوقاته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلا حد وحصر؛ إذ لا ينتهي قدرته دون مقدور، بل له أن يتصرف فيه إلى ما لا يتناهى، كما روي: «أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح»[2].

وهذا دليل على أن ذكر العدد ليس للحصر، فالآية تدل على أن له سبحانه أن يتصرف في ملكه وملكوته كما شاء وكيف شاء ومتى شاء، فيجوز أن يخلق أنواعًا لم يخلقها قبل من أي جنس كان، ويخلق أيضًا في فرد نوع أمورًا عجيبة من الملاحة والصباحة وحسن الصوت والصورة، وكمال العقل ورزانة الرأي، وخواص غريبة لم يخلقها قبل لأفراد أخر من هذا النوع.

ولهذا يتفاوت أشخاص الإنسان في المعارف والحقائق وجميع الأمور المتعلقة بالعقل المتفرعة على الإدراك بحسب الأدوار والأعصار، بل في زمان واحد أيضًا؛ إذ

---

(1) قال البقلي: وللأرواح القدسية أجنحة، منها جناح المعرفة، ومنها جناح التوحيد، ومنها جناح المحبة، ومنها جناح الشوق، فبجناح المعرفة تطير إلى عالم الصفات، وبجناح التوحيد تطير إلى عالم الذات، وبجناح المحبة تطير إلى المشاهدة، وبجناح الشوق تطير إلى الوصال.
قال جعفر: أجنحة المؤمنين أربعة: أجنحة التوحيد، وأجنحة الإيمان، وأجنحة المعرفة، وأجنحة الإسلام، والموحد يطير بأجنحة التوحيد إلى الجبروت، والمؤمن يطير بأجنحة الإيمان إلى المشاهدة، والعارف يطير بأجنحة المعرفة إلى الملكوت، والمسلم يطير بأجنحة الإسلام إلى الجنان. قيل: الأجنحة أربعة: أجنحة التعظيم، وأجنحة التفريد، وأجنحة الحياة، وأجنحة الحياء، فأجنحة التعظيم للمقربين، وأجنحة التفريد للروحانيين، وأجنحة الحياة للوالهين، وأجنحة الحياء للواصلين.

(2) رواه الترمذي (107/12).

بعضهم في نهاية البلادة، وبعضهم في كمال الجلادة، وبعضهم في كمال الحسن واللطافة، وبعضهم في نهاية الكثافة والقباحة.

وبالجملة: له سبحانه التصرف في ملكه وملكوته بالاستقلال والاختيار بلا فترة وفتور في علمه وقدرته وإرادته، إذ هو سبحانه منزه عن السآمة والملال، وأوصافه بريئة عن وسمة الفترة والكلال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعلق به إرادته ومشيئته ﴿قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1] لا بدَّ أن يتكون باختياره بلا تخلف كل ما لمع عليه برق إرادته.

ومن كمال قدرته سبحانه أنه ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾ المدبر لأحوال عباده ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين حقوق تربيته وتدبيره سبحانه ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ فائضة لهم بمقتضى جوده تفضلاً عليهم من النبوة والرسالة والولاية والكرامة والعلم والمعرفة والرشد والهداية، وغير ذلك من الكمالات الفائضة من عنده سبحانه ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا مانع لها يمنعها عنهم ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ ويمنع سبحانه من أمر بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ يرسله إليهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد منعه سبحانه ﴿وَ﴾ كيف يسع لأحد ما يمنعه؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ المقصود، المنحصر ذاته على العزة والغلبة، لا عزيز دونه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2] المستقل في المنع والإرسال إرادةً، لا يُسأل عن فعله، ولا مبدل لقوله، ولا معقب لحكمه.

ثم نادى سبحانه أهل النعمة وخاطبهم؛ ليقبلوا عليه ويواظبوا على شكر نعمه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الفائضة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ واشكروا له؛ أداء لحقوق كرمه، وتفكروا في آلائه ونعمائه ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ المتوحد بوجوب الوجود ودوام البقاء ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من امتزاج العلويات بالسفليات، واختلاط الفواعل والأسباب مع القوابل والمسببات المسخرة تحت قدرة العليم الحكيم؛ لينكشف لكم ويتبين أنه ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد بالحق ويتوجه إليه، ويُسند الحوادث إلى حكمه والنعم الفائضة إلى فضله وجوده ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الله الحق الحقيق بالإطاعة والرجوع، لا مرجع سواه ولا مقصد إلا هو ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: 3] وكيف تُصرفون عن توحيده، وتُردون عن بابه أيها الآفكون المجرمون.

﴿وَ﴾ بعدما بعثت يا أكمل الرسل لإرشاد أهل الضلال وتبليغ الرسالة إليهم، فلك أن تتصبر على المتاعب والمشاق الواردة في حملها ﴿إِن يُكَذِّبُوكَ﴾ هؤلاء

الضالون بعدما دعوتهم إلى الحق، فتأسَّ بإخوانك الرسل واصبر على أذى تكذيبهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ عظام كثير ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ أمثالك، فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴿وَ﴾ هم قد علموا أنه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، القادر المقتدر على الإنعام والانتقام، لا إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: 4] الكائنة من التصديق والتكذيب والصبر والأذى، وغير ذلك من الحوادث؛ إذ كلها مستندة إلى الله أولاً وبالذات، حاضرة في حضرة علمه، ثابتة في لوح قضائه، يجازي كلاً من المحقين والمبطلين، المصدقين والمكذبين على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: 5-8].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المنهمكون في بحر الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الغرور والخسران ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعده في النشأة الأخرى لعموم عباده شقيهم وسعيدهم، مطيعهم وكافرهم ﴿حَقٌّ﴾ ثابت، لازم إنجازه على الله بلا خلف، فلكم أن تتزودوا لأخراكم وتهيئوا أمر عقباكم؛ كي تصلوا إلى ما أعد لكم مولاكم ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ وتعوقنكم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذاتها الفانية وشهواتها الزائلة عن الحياة السرمدية، والبقاء الأبدي واللذات الأزلية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5] يعني: لا يلبِّس عليكم الشيطان المكار الغرار الغدار بأن يوقع في قلوبكم أن رحمة الله واسعة وفضله كثير ولطفه عام، وأن الله سبحانه مستغن عن طاعتكم وعبادتكم، وأن فعل الإيلام لا يتصور من الحكيم العلام، إلى غير ذلك من الحيل العائقة لكم عن التقوى والتزود للنشأة الأخرى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ﴾[1] قديم، مستمر عداوته من زمان أبيكم

(1) أي: إنه عدونا؛ لأنه من عالم القهر خلق، ونحن من عالم اللطف خلقنا، والطبعان مخالفان أبدًا؛ لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل فسبق اللطف القهر؛ فعداوته من جهة الطبع الأول والجهل

﴿فَاتَّخِذُوهُ﴾ أي: الشيطان، أنتم أيضًا ﴿عَدُوًّا﴾ لأنفسكم عداوة مستمرة بحيث لا تصغوا إليه ولا تقبلوا منه قوله، ولا تلتفتوا إلى تغريره وتلبيسه أصلاً، فإنه يواسيكم ويغريكم إلى مشتهيات نفوسكم، ويوقعكم في فتنة عظيمة، كما أوقع أباكم آدم عليه السلام فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله، حتى لا تكونوا من حزبه ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ على الغواية والضلال ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6] المعد لأصحاب الشقاوة الأزلية مثل الشيطان وأحزابه وأتباعه.

نجنا بفضلك من سخطك، وأعذنا بلطفك من تغرير عدونا وعدوك.

ثم قال سبحانه كلامًا جمليًا، شاملاً لعموم العباد؛ تذكيرًا وعظة، مشتملاً على الوعد والوعيد بكلا الفريقين: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا الحق وأعرضوا عنه في النشأة الأولى عنادًا ومكابرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: إحراق بالنار في النشأة الأخرى؛ جزاء لما اقترفوا في النشأة الأولى؛ إذ لا عذاب أشد من الإحراق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، وصدقوا رسله المؤيدين من عنده بالصحف والكتب المنزلة إليهم، المبينة

بالعصمة وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا كيف يتخذه عدوًا وهو لا يعرف مكائده ولا يعرف مكائده إلا ولي أو صديق.

قال الواسطي: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بما نصركم عليه، واحذروا ألا يغلبنكم؛ فإنه إنما يدعو حزبه، وحزبه هم الراكنون إلى الدنيا والمحبون لها والمفتخرون بها.

وقال جعفر الصادق: من سمع هذا النداء من الله تعالى وجب عليه بهذا النداء نصب آلة العداوة بينه وبين عدوه، ولا ينفك من محاربته طرفة عين كلما عارضه بشيء قابله بغيره إن عارضه بزينة الدنيا قابله بسرعة الفناء، وإن عارضه بطول الأمل قابله بقرب الأجل، فهو دائمٌ منتبهٌ مستعدٌ لمحاربته؛ لما يعلم أن الشيطان لا يغفل عنه، وأنه يراهم من حيث لا يرونه.

قال سهل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ﴾: أهل البدع والضلالات والأهواء الفاسدة والسامعين ذلك من قائلها.

قال الواسطي: حذر حزبه ومتابعته، وأمر بطرده بضياء المبادرة في العهود وحفظ الحدود ورعاية الود بطرد الوساوس، كما أن بضياء النهار طرد الكلاب من المحابس .. وما فهمت من هذه الآية أن الله سبحانه أراد أن يعرف عباده من محاربة الشيطان معالم قهرياته وحفظ الأوقات والأنفاس من خطراته؛ لأن الشيطان يغوي المصطفين بالولاية، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ﴾ من أصحاب الضلالات الذين طردهم الله عن بابه وهو يعرفهم، وإنما هو يدعوه لا أن الضلالة بيده كما لا تعلق الهداية بالأنبياء. [عرائس البيان].

لسلوك طريق التوحيد والعرفان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم في تلك الكتب والصحف ﴿لَهُم﴾ في النشأة الأخرى ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر وعفو لما صدر عنهم من الذنوب قبل الإيمان والتصديق ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: 7] وجزاء عظيم على ما عملوا بعده بمقتضى الأمر الإلهي المبين في الكتب المنزلة من عنده.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: أيزعم أن من زين وحسن له الشيطان عمله السوِّء القبيح في الواقع فخيله حسنًا بحسب زعمه الفاسد واعتقاده الباطل، كمن كان عمله حسنًا في الواقع حقًا في نفس الأمر واعتقده أيضًا كذلك، حتى يكونا متساويين في استحقاق الأمر الجزيل والجزاء الجميل؟! كلا وحاشا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المقتدر على جميع ما يشاء ﴿يُضِلُّ﴾ عن صراط توحيده بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عصاة عباده ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ منهم بمقتضى لطفه وجماله إلى مقر توحيده وفضاء بقائه، ومتى سمعت يا أكمل الرسل أن الإضلال والضلال، والإرشاد والهداية إنما هي مستمدة أولاً وبالذات إلى مشيئة الله وإرادته، لا مدخل لأحد من خلقه فيها أصلاً ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ أي: لا تتعب ولا تهلك نفسك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على غواية من أردت أو أحببت هدايته ﴿حَسَرَاتٍ﴾ أي: حال كونك متحسرًا ومتأسفًا تحسرًا فوق تحسر، وتحزنًا فوق تحزن على ضلالهم وعدم قبولهم الهداية، والمعنى: أفمن زين له سوء عمله، فحسنه على نفسه واعتقده حقًا جهلاً مع أنه باطل في نفسه، وبذلك ضل عن طريق الحق وانحرف عن سوء السبيل، وبعُد بمراحل عن الهداية، وأنت يا أكمل الرسل أذهبت وأهلكت نفسك حسرة عليهم وضجرة لما لم يهتدوا ولم يؤمنوا، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب على جميع حالاتهم ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8] يجازيهم على مقتضى علمه بسوء صنيعهم، ولا تتعب نفسك عليهم بما يفوتون على نفوسهم من الرشد والهداية.

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: 9-11].

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه ضمائر عباده واستعداداتهم مع أنه ﴿اللهُ﴾ المدبر لعموم أفعالهم وأحوالهم وحوائجهم، هو ﴿الَّذِي أَرْسَلَ﴾ بلطفه ومقتضى جوده ﴿الرِّيَاحَ﴾ العاصفة ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتهيج ﴿سَحَابًا﴾ هامرة، مركبة من الأبخرة والأدخنة المتصاعدة، القابلة لأن تتكون منها مياهًا بمجاورة الهواء البارد الرطب ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ بعدما تم تركيبه عناية منا ﴿إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يابس في غاية اليبس بحيث لا اخضرار له أصلاً ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالمطر الحاصل من السحاب ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: جفافها ويبسها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إحيائنا الأرض اليابسة بعد يبسها وجمودها ﴿النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9] أي: إحياؤنا الأموات الجامدة ونشرهم من قبورهم؛ بإعادة الروح المنفصل منهم إلى أبدانهم التي تفتت أجزاؤها، بإرسال نفحات نسمات لطفنا ورحمتنا لتثير سحاب العناية الماطرة قطرات ماء الحياة المسوقة إلى أراضي الأبدان اليابسة الجامدة بالموت الطبيعي، إنما أحييناهم وأخرجناهم من الأجداث؛ إظهارًا لقدرتنا، وتتميمًا لحكمتنا واستقلالنا في آثار تصرفنا في ملكنا وملكوتنا، وتعززنا وكبريائنا في ذاتنا.

وبالجملة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الكاملة، التي لا يعقبها ذل أصلاً، فله أن يسترجع إلى الله ويتوجه نحو توحيده ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ والغلبة والسلطنة الكاملة والبسطة الشاملة ﴿جَمِيعًا﴾ ومن أراد أن يتعزز بعزة الله، فله في أوائل سلوكه إلى الله أن يتذكر سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا إلى أن ينتهي تذكره إلى التفكر الذي هو آخر العمل وصار متفكرًا في ذاته، مستكشفًا عن أستار جبروته سبحانه، إلى أن صار مستحضرًا له، مكاشفًا إياه، مشاهدًا آثار أوصافه وأسمائه على صفائح الأكوان بلا مزاحمة الأغيار، وبالجملة: فله أن يشتغل بالتذكر في أوائل الحال؛ إذ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ من الأسماء الحسنى والصفات العظمى الناشئة من ألسنة المخلصين المتفكرين في آلاء الله ونعمائه.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ المقرون بالإخلاص والتبتل ﴿يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفع العمل المنبئ عن الإخلاص، والكلم الطيب إلى درجات القرب من الله، فمن كان إخلاصه في عمله أكمل، كان درجات كلماته المرفوعة نحوه سبحانه أرفع وأعلى عند الله ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ مع الله المنكرات ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ يعني به سبحانه: المكر السيئ الذي

مكر به المشركون - خذلهم الله - مع حبيبه ﷺ ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاءً لما مكروا به ﴿وَ﴾ إن كان ﴿مَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الماكرين ﴿هُوَ﴾ أي: مكرهم في نفسه ﴿يَبُورُ﴾ [فاطر: 10] يفسد ويبطل، ويعود وباله ونكاله عليهم بلا أثر لمكرهم بالممكور به ﷺ.

﴿وَ﴾ كيف لا يعود ضرر مكرهم إليكم أيها المشركون؛ إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي قصدتم المكر معه ومع من اختاره واصطفاه ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدر وجودكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾[1] جامد، لا حس لها ولا شعور ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، مستحدثة من أجزاء النبات المتكون من الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ وصيَّركم حيوانًا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ذكورًا وإناثًا؛ لتتوالدوا وتكثروا ﴿وَ﴾ يربيكم على الوجه الأحسن الأصلح؛ إذ هو عليم بجميع ما يعنيكم وما لا يعنيكم وبكل ما جرى عليكم إلى حيث ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ حمله ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ وإذنه سبحانه، وهو معلوم له لا يغيب عنه ﴿وَ﴾ بعد وضع الحمل ﴿مَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يبلغ عمر نهايته ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بأن لم يصل إليها ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي:

---

(1) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا أحمر وابيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا، ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ هو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ كون تلك الحامل والواضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذُّكورة والأنوثة، وغير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمَّر مَن أطيل عمره، (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب. تسمية الشيء بما يؤل إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم، والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيَّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتَّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

مثبت مسطور في حضرة العلم الإلهي ولوح القضاء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: حفظه وثبته ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11] وإن كان عندكم عسير، بل متعذر ممتنع؛ إذ لا يسع لكم استحضار آنكم ولحظتكم، فكيف أحوال يومكم وشهركم وحولكم؟! فكيف أحوال طفوليتكم وكونكم جنينًا؟!.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: 12-14].

ثم مثّل سبحانه كلا الفريقين المؤمن والكافر بالبحرين العذب والمالح، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ في النفع والفائدة الحاصلة منهما؛ إذ ﴿هَٰذَا﴾ أي: المؤمن المصدق لبحر الإيمان والعرفان، المترشح من بحر الوحدة الذاتية ﴿عَذْبٌ﴾ حلو في كمال الحلاوة ﴿فُرَاتٌ﴾ يكسر غليل أكباد المتعطشين في سراب الدنيا ببرد اليقين ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ أي: سهل انحداره للمجبولين على فطرة التوحيد.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي: الكافر المتوغل في بحر الغفلة ﴿مِلْحٌ﴾ لا مصلح يصلح من يذوق منه، بل ﴿أُجَاجٌ﴾ مر مفسد للمزاج، من ذاق منه هلك هلاكًا أبديًا بحيث لا نجاة له، بل ﴿وَ﴾ البحر الأجاج له نفع، ولا نفع للكفر والضلال أصلاً؛ إذ ﴿مِن كُلٍّ﴾ من البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ مثل السمك وغيرها ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ منهما ﴿حِلْيَةً﴾ أي: أنواعًا من التزيينات اللاتي ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وإنما أباح لكم سبحانه أيها المكلفون منافع بره وبحره ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: 12] أي: رجاء أن تشكروا نعمه، وتزيدوا على أنفسكم مزيد كرمه.

ومن كمال فضل الله عليكم ورحمته أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ أي: يدخل ظلمته ﴿فِي﴾ نور ﴿النَّهَارِ﴾ فيطول أجزاء النهار بإيلاج أجزاء الليل في الصيف؛ تتميمًا لمصالح

معيش عباده ﴿وَ﴾ كذا في الشتاء ﴿يُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي: أجزاء منه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فيطوله بأجزائه؛ تسكينًا للقوى النامية، وتمكينًا لها؛ ليجددها للخدمة المفوضة إليها ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضًا؛ تتميمًا لمصالح عباده إلى حيث ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويدور بإذن الله وإلهامه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هي من مبدأ دوره إلى منتهاه، أو إلى انقراض نشأة الدنيا ﴿ذَلِكُمُ﴾ المتصرف بالاستقلال والاختيار، المدبر بكمال العلم والخبرة ووفور الحكمة والدرية، هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع النعم والكرم، وكيف لا يربيكم سبحانه بعدما أبدعكم؛ إذ لا متصرف في الكائنات إلا هو ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ لا مالك له سواه ولا مدبر غيره.

﴿وَ﴾ المحجوبون ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتدعون ﴿مِن دُونِهِ﴾ من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة تعنتًا وعنادًا، مع أن ما يسمون أولئك الجاهلون آلهة سواه سبحانه، ويسندون الأمور إليهم مكابرة ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13] أي: ليس لهم أن يتصرفوا في قشرة رقيقة ملتفة على ظهر النواة، وهذه مثل في القلة عند العرب فكيف في غيرها؛ إذ الألوهية مسبوقة بوجوب الوجود بالصفات الكاملة الذاتية والأسماء الحسنى التي لا تعد ولا تحصى.

وليس لهؤلاء الأظلال الهالكة وجود في أنفسها، ومن أين يتأتى منهم الألوهية؟! بل هم من أدنى الممكنات وأدون المكونات؛ لكونهم جمادات لا شعور لهم أصلاً إلى حيث ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ وتلتجئوا نحوهم ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إذ ليس لهم قابلية السماع والاستماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ يعني: لو فُرض أنه سمعوا على سبيل الفرض المحال ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس لهم القدرة والإرادة والأوصاف الكاملة اللازمة للألوهية والربوبية ﴿وَ﴾ مع عدم نفعهم إياكم أنتم أيها الجاهلون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ﴾ ويؤاخذون ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ وإشراككم؛ أي: اتخاذكم إياهم شركاء مع الله، وهم يتبرءون عنكم وأنتم عنهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ ويخبرك أيها المخاطب النبيه الفطن أحوال النشأة الأخرى، وما سيجري بينك وبين شركائك من البراءة والملاعنة ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14] وهو الله العليم الحكيم، الذي لا يعزب عن إحاطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، لا في الأولى ولا في الأخرى، وعنده مفاتح الغيب ومقاليد الأمور لا يعلمها إلا هو.

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ

يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: 15-18].

ثم نادى سبحانه عموم عباده على سبيل الاستغناء عنهم وعن أعمالهم وعن محامدهم وأثنيتهم الجارية على ألسنتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون عهود الله ومواثيقه التي واثقكم بها ربكم مع أنكم تنسون نعمه، وتذهلون عن حقوق كرمه ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[1] المحتاجون بالذات المقصورون على الافتقار ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ورباكم بأنواع النعم، سيما العقل المفاض، الذي هو مذكركم عن مبدئكم ومنشئكم، فلم تشكروا نعمة مبدعكم ومربيكم أيها الغافلون الجاهلون مع أنكم محتاجون إليه.

﴿وَاللَّهُ﴾ المنزه بذاته عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المنحصر على الغنى الذاتي، بحيث لا احتياج له ولا استكمال أصلاً؛ إذ كمالاته سبحانه كلها بالفعل بحيث لا ترقب في شئونه مطلقًا ﴿الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] المحمود في نفسه

---

(1) قال في التأويلات: يشير أن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بين سائر المخلوقات وإن كانت المخلوقات محتاجة إلى الله بأجمعها ولكنه تعالى ما شرف شيئًا من المخلوقات بتشريف خطاب ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ والله خلق الملائكة المقربين لأن الفقر على ثلاثة أوجه: فقر خِلقة: وهو للعوام، وفقر صفة: وهو للخواص، وفقر كرم: وهو لأخص الخواص.

ففقر الخلق: عام لكل أحد ولكن حادث فقر من محدثه فالمخلوق مفتقر إلى خالقه في أول حاجة وجوده ليبديه وينشئه في الثاني مِّن حال بقائه ليديمه ويقيمه ويحضر، وأما فقر الصفة: فهو خاص وهو التجرد عن الدنيا وما فيها والتجرد عن الآخرة وما فيها متوجهًا إلى الله بكل وجوده فهو فقير عن صفاته المفتقرة إلى الكونين لفنائه بالله عن الكونين، وافتقار إلى الله بدلاً عن الكونين لافتقاره إلى الكونين ولكن يمكر بهما، وأما فقر الكرم: فهو للأخص وهو التفرد عن الوجود بالجود واجب الوجود والتوحد به فهو الفقر الحقيقي عن عينه والفناء الحقيقي بالله بعينه فكان افتقار المخلوقات إلى أفعال الله وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته كمثل سلطان يكون له رعية وهو صاحب الجمال فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه ويكون افتقار عشاقه إلى ذاته وصفاته فيكون غني كل مفتقر بما يفتقر إليه فقر الرعية يكون بالمال والملك وغِنى العاشق يكون بمعشوقه.

على الوجه الذي يليق بشأنه؛ إذ لا يتأتى عن مصنوعاته الحمد الحقيقي بذاته، وإنما أظهركم أيها الأظلال الهالكة بمقتضى جماله ولطفه؛ لتواظبوا على عبادته وعرفانه، كي تصلوا إلى توحيده صاعدين من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب الذاتي علمًا وعينًا وحقًا، فأنتم تتكاسلون وتتمايلون إلى أهوية نفوسكم البهيمية ومشتهيات قواكم البشرية، أمَا تخافون وتتأملون أيها المغرورون؟!.

﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عن فضاء البروز بالمرة إلى كمون العدم ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: 16] أي: بمخلوق سواكم؛ تتميمًا لحكمة العبادة والمعرفة.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة أنه ﴿مَا ذَٰلِكَ﴾ التبديل والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إظهار جميع ما لاح عليه برق علمه وإرادته ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 17] غير متعذر، بل عنده وبجنب سرعة نفوذ قضائه سهل يسير.

﴿وَ﴾ بعدما عرفتم قدرة الله وسمعتم كمال استغنائه، فلكل منكم الإتيان بمأموراته والاجتناب عن منهياته؛ إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة عاصية ﴿وِزْرَ﴾ نفس عاصية ﴿أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ﴾ وتطلب نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار والمعاصي ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي: حمل بعض من الأوزار المحمول عليها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي: لا يحمل أحد شيئًا من أوزاره، وإن رضي بحملها على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو للحمل ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: من قرابة الداعي، بل كل واحد من النفوس يومئذ رهينة ما اقترفت من المعاصي، ما حملت إلا عليها وما حوسبت بها إلا هي.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ في شأن عباده: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يعني: ما تفيد إنذاراتك التي تلوت يا أكمل الرسل على هؤلاء الغفلة إلا القوم الذين يخافون من الله، ومن عذابه وعقابه حال كونهم غائبين عنه، سامعين له، خاشعين من نزوله، خائفين من حلوله بغتة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المأمورة، المقربة لهم إلى جناب قدسه، المخلصين فيها، المطهرين نفوسهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ وطهر نفسه عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفع تزكيته عائد إليه، مفيد له في أولاه وأخراه ﴿وَ﴾ بعد تزكيته عن لوازم بشريته ومقتضيات بهيميته العائقة عن الوصول إلى مبدأ فطرته ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المنزه عن مطلق النقائص، المبرء عن جملة الرذائل ﴿الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18] أي: المنقلب والمآب؛

يعني: مرجع الكل إليه، ومقصده دونه سبحانه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: 19-26].

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يَسْتَوِي﴾ في القرب والرتبة بالنسبة إليه سبحانه ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ الغافل الجاهل عن كيفية الرجوع والتوجه ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: 19] العارف العالم بأمارات الصعود والعروج.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ المتراكمة المتكاثفة بعضها فوق بعض، وهي: ظلمة الطبيعة وظلمة الهيولي وظلمة التعينات، والهويات الممتزجة المتكاثفة إلى حيث يصير حجابًا غليظًا وغشاء كثيفًا يعمي أبصار المجبولين على الإبصار، والاعتبار على مقتضى الشئون القهرية الجلالية ﴿وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: 20] المتشعشع المتجلي من وحدة الذات حسب شئونه اللطفية الجمالية.

﴿وَلَا الظِّلُّ﴾ الإلهي، المروح لأرواح أرباب المحبة والولاء بنفحات نسائم أنواع الفتوحات والكرامات ﴿وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: 21] أي: السموم المهلكة المنشأة من فوحان الأماني الإمكانية، الممتزجة بيحموم الطبيعة المتصاعدة من أبخرة الأهوية ونيران الشهوات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَسْتَوِي﴾ عند الله العليم الحكيم ﴿الْأَحْيَاءُ﴾ بحياة المعرفة والإيمان واليقين والعرفان، حياة أزلية أبدية سرمدية، لا أمر لها حتى تنقضي ولا حدوث لها حتى تنعدم ﴿وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ بموت الجهل والضلال، وأنواع الغفلة والنسيان، الهالكين في هوية الإمكان، الخالدين في زاوية نيران الخمول والحرمان ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ العليم الحكيم المتقن في أفعاله ﴿يُسْمِعُ﴾ ويهدي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده؛ عناية لهم وامتنانًا عليهم إلى صراط توحيده ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ هاد مرشد ﴿مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22] أي: من كان راسخًا متمكنًا في هاوية الجهل

المركب، وجحيم الإمكان وأحداث الغفلة والنسيان؛ إذ هم مجبولون على الغواية الفطرية والجهالة والجبلية لا يتأتى لك إهداؤهم وإرشادهم أصلاً.

بل ﴿إِنْ أَنتَ﴾ أي: ما أنت أيها المختار لتبليغ الرسالة ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 23] لهم من قبلنا، فلك أن تبلغ الإنذارات والوعيدات الهائلة النازلة منا إياهم، ولا تجتهد في هدايتهم وقبولهم؛ إذ ما عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾من كمال لطفنا معك ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع، داعيًا لعموم عبادنا إلى توحيدنا ﴿بَشِيرًا﴾ بما أعددنا لهم من المراتب العلية والمقامات السنية ﴿وَنَذِيرًا﴾ لهم أيضًا بما أعتدنا من دركات النيران الموجبة لزفرات القلوب وحسرات الجنان ﴿وَ﴾ إرسالنا إياك ليس ببدع منا، بل ﴿إِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي: ما من أمة من الأمم الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24] ينذرهم عما لا يعنيهم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت ﴿إِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أولئك الكفرة المصرون على الشرك والعناد، وأنكروا بك وبكتابك، لا تبال بهم وبإنكارهم ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الكفرة ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين رسلهم مع أنه ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ المبعوثون إليهم حال كونهم مؤيدين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الدلائل الواضحات من المعجزات المثبتة لنبوتهم ورسالاتهم ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ والصحف المنزلة إليهم، المشتملة على أصول أديانهم وبيان طرقهم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: 25] المظهر لسرائر التوحيد بحججه وبراهينه القاطعة وحكمه وأحكامه الساطعة آثارها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما كذبوا رسلهم وأنكروا الكتب التي جاءوا بها من عندنا على مقتضى وحينا، وأصروا على كفرهم وشركهم ﴿أَخَذْتُ﴾ بمقتضى عزتي وقدرتي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعرضوا عن الحق مستكبرين، مصرين على الباطل ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: 26] أي: إنكاري بالنسبة إلى إنكار أولئك الهلكى، العاجزين في تيه الغفلة والضلال، وإهلاكي إياهم بحيث لم يبق منهم أحد يخلفهم، ويحيي اسمهم ورسمهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: 27-30]

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المقتدر بالقدرة الكاملة كيف ﴿أَنزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات الذاتية ﴿مَاءً﴾ محييًا لأموات الأراضي المائتة الجامدة، الباقية على صرافة العدم ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء المفاض، المترشح من بحر الذات على أرض الطبيعة ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ فواكه متنوعة من المعارف والحقائق والخواطف والواردات المختطفة على قلوب أرباب المحبة والولاء حسب حالاتهم ومقاماتهم ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وكيفياتها علمًا وعينًا وحقًا ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ التي هي الأوتاد والأقطاب القابلة لفيضان تلك الكرامات والفتوحات ﴿جُدَدٌ﴾ أي: ذوو طرق وسبل إلى كعبة الذات، وعرفات الأسماء والصفات ﴿بِيضٌ﴾ مصفى في غاية الصفا، بلا خلط ومزج لها بألوان التعينات والهويات أصلاً ﴿وَ﴾ بعضها ﴿حُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ باختلاف مراتب قربهم وبعدهم عن المرتبة الأولى ﴿وَ﴾ بعضها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27] أي: متناه في السواد والظلمة، بحيث لا يبقى فيها شائبة شبه بالمرتبة الأولى، بل هي مباين لها، مناقض إياها بحيث لا يبقى المناسبة بينهما أصلاً.

قيل: يشير سبحانه بالجدد البيض إلى طائفة الصوفية الذين هم صفّوا بواطنهم عما سوى الحق من الأمور المنصبغة بصبغ الأكوان وألوان الإمكان، وبالحمر المختلف الألوان إلى طائفة المتكلمين الذين بحثوا عن ذات الله وصفاته، متشبثين بالدلائل العقلية والنقلية الغير المؤيدة بالكشف والشهود، المفيدة للظن والتخمين إلا نادرًا، وبالغرابيب السود إلى طائفة الفقهاء الذين كثفت حجبهم وغلظت أغشيتهم وأغطيتهم إلى حيث لم يبق فيٌ فضاء قلوبهم موضع يليق لقبول انعكاس أشعة أنوار الحق، بل سوّدوها وصبغوها إلى حيث أخرجوها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.

﴿وَ﴾ أخرجنا به أيضًا؛ أي: من الآثار تربية الماء وإحيائها أموات الأراضي ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿وَالدَّوَابِّ﴾ المنسلخة عن رتبة الإدراك والشعور المتعلق بالمبدأ والمعاد ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ المشغوفة بتوفير اللذات الجسمانية والمشتهيات النفسية ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ أي: أجناسه وأنواعه وأصنافه وأشكاله وهيئاته، وبالجملة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ﴾ ويخاف من بطشه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الذين أبدعهم

وأظهرهم من كتم العدم بإفاضة رشاشات رشحات بحر وجوده بمقتضى جوده ﴿الْعُلَمَاءُ﴾[1] العرفاء بالله وبأوصافه الكامنة الفائضة عليهم، وأسمائه الحسنى الشاملة، المتحققون بمرتبة التوحيد، المنكشفون بسر سريان الوحدة الذاتية على عموم المظاهر؛ إذ أخشى الناس من الله أعرفهم بشأنه؛ لذا قال ﷺ: «إني أخشاكم لله وأتقاكم له»[2]، وكيف لا يخشى العارفون منه سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على انتقام من أراد انتقامه من عباده ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28] ذنوب من تاب إلى الله ورجع نحوه عن ظهر القلب.

ثم أشار سبحانه إلى خواص عباده، ونبههم على ما هو المقبول منهم عنده سبحانه من أعمالهم، وحثهم عليها امتنانًا لهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ المنزل على رسوله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، المكتوبة في الأوقات المحفوظة، المأمورة إياهم في كتاب الله ﴿وَأَنفَقُوا﴾ طلبًا لمرضاتنا ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وسقنا إليهم من الرزق الصوري والمعنوي ﴿سِرًّا﴾ خفية من الناس؛ اتقاءً عن وصمة الرياء والسمعة، ومن الفقراء المستحقين أيضًا؛ صونًا لهم عن أن يتأذوا حين أخذوا ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أيضًا بعدما اقتضى المحل إعلامه، ولم يتأت منه الإخفاء ﴿يَرْجُونَ﴾ من الله بالأفعال المذكورة ﴿تِجَارَةً﴾ من الأحوال والمقامات ﴿لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29] أي: لن تهلك وتفسد وتفنى أصلاً.

وإنما فعلوا ذلك ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ويوفر عليهم سبحانه ﴿أُجُورَهُمْ﴾ التي يستحقون بأعمالهم بها ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ عليها ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لا يعد ولا يحصى من الكرامات؛ امتنانًا لهم، وكيف لا يوفيهم ويزيدهم سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ عز شأنه وجل برهانه ﴿غَفُورٌ﴾ في ذاته لفرطات عباده، يغفر لهم ذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر: 30] يقبل منهم يسير

---

(1) قال في التأويلات: بحسب اختلافهم في العلم فمنهم من هو عالم بأحكام الله من أوامره ونواهيه فيكون خوفه من فوت الجنان وعذاب النيران، ومنهم من هو عالم بصفات الله من صفات اللطف والقهر فيكون خوفه من الحرمان عن مقامات القرب والخذلان إلى دركات البعد، ومنهم من هو عالم بالله بنور الله فخوفه يكون هيبة من ذاته تعالى. كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28] فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف كما قال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه».

(2) رواه أحمد في «مسنده» (253/56).

طاعاتهم التي أتوا بها مخلصين، فكيف بعسيرها؟!.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾ [فاطر: 31-35].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة، الحاوي لمعظمات أصول الدين ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المنزل من عندنا، المثبت في حضرة علمنا ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما يقدم عليه من الكتب والصحف المنزَّلة من عندنا، المبيِّنة لحكمنا وأحكامنا ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع لجميع أحوالهم الظاهرة والباطنة حتى استعداداتهم وقابلياتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31] بما جرى وسيجري عليهم في أولاهم وأخراهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل بالرسالة العامة، وأيدنا أمرك بإنزال القرآن المعجز، الموجز، المشتمل لجميع فوائد الكتب السماوية مع زيادات خلت عنها الكل ﴿أَوْرَثْنَا الكِتَابَ﴾ المنزل إليك، وأبقيناه بعدك بين القوم ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1] واخترناهم بإرسالك إليهم وبعثك بينهم، فجعلناهم في اقتباس نور الهداية

(1) قال في التأويلات: يشير إلى إيراثهم الكتاب حيث علمهم القرآن بلا واسطة كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1- 2] وذلك قبل خلقهم؛ لأنه قال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن:1-3] أي: علمهم القرآن وهم بلا هم وهذا علم القرآن لسان الطيور ثم خلقهم؛ لأنه قال وعلمهم البيان قال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:3- 4] وهذا النوع من الإيراد مخصوص بهذه الأمة لأنه كما جاء في الخبر لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «أمتي ورب الكعبة ثلاث مرات»(1) وإنما ذكر بلفظ الميراث لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب على وجه مخصوص، فمن لا سبب له ولا نسب ولا ميراث له فالسبب هاهنا طاعة العبد

والتوحيد من مشكاة النبوة، والرسالة الختمية المحمدية، الحاوية لمراتب جميع الرسل الذين مضوا قبله ﷺ أصنافًا ثلاثة: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من كمال شوقه إلى مبدئهم الأصلي وغاية تحننهم نحو الفطرية الجبلية التي فطر الناس عليها في بدء الأمر ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ البشرية؛ بحيث يمنع عنها جميع حظوظها النفسانية ومقتضيات قواها الجسمانية إلى حيث اتصل بعضهم من كمال احتماء نفسه عن مقتضياتها البهيمية بالملأ الأعلى قبل انقراض النشأة الأولى، وهم شطار الأولياء الذين صرفوا هممهم بالوصول إلى مبدئهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ معتدل، مائل عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، بحيث لا يمنع نفسه عن ضرورياتها والمقومة لها ولا يكثرها عليها، بل يمنعها عن الزيادة على الضروري في عموم الحوائج، وبالجملة: يقتصد في الأعمال والأفعال والأقوال وجميع الأحوال، وهم الأبرار من الأولياء ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ مواظب على الطاعات، مشمر دائمًا بالأعمال الصالحات وفواضل الصدقات، والإنفاق على طلب المرضاة للفقراء والمهاجرين في سبيل الله، المنصرفين عن الدنيا وما فيها ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وعلى مقتضى ما ثبت في كتابه ونطق به لسان رسوله، وهم الأخيار المحسنون من الأولياء ﴿ذَلِكَ﴾ الإيراث والتوريث والإعطاء والاصطفاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32] من الله إياهم في أولاهم، والفوز العظيم، والنوال الكريم لهم في أخراهم.

والنسب فضل الرب فأهل الطاعة هم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:10- 11] فهم ورثوا الجنة بسبب الطاعة وأصل وارثهم بالسببية المبايعة التي جرت بينهم وبين الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] فهؤلاء أطاعوا الله بأنفسهم وأموالهم فأدخلهم الله الجنة جزاء بما كانوا يعملون وأهل الفضل هم أهل الله وفضله معهم بأن أورثهم المحبة والمعرفة والقربة، كما قال ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:54] فمن لا سبب له ولا نسب فلا ميراث له ولما كانت الوراثة بالنسب والسبب، وكان السبب جنسًا واحدًا كالزوجية وهي صاحب الفرض وكان النسب من جنسين الأصول والفرع الأصول كالآباء والأمهات، والفرع كما يتولد من الأصول كالأولاد والإخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم وهم صاحب فرض وعصبة فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف صنف صاحب الفرض بالسبب وصنف صاحب الفرض بالنسب وصنف صاحب الباقي وهم العصبة كذلك الورثة هاهنا ثلاثة أصناف.

جعلنا الله من خدامهم ومحبيهم، ومقتفي أثرهم.

ومن جملة فضل الله إياهم في أخراهم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ معدة لهم نزلاً ومنزلاً من عند الله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فرحين مسرورين آمنين فائزين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تزيينًا وتفضلاً ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جزاء ما اقترفوا بأيديهم من الحسنات ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ خالص مقابلة إخلاصهم في أعمالهم ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: يحلون أيضًا من أنواع اللآلئ بدل ما يتقون نفوسهم من الميل إليها في نشأتهم الأولى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: 33] بدل ما يلبسون من الخشن في طريق المجاهدة والسلوك نحو الحق في النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ بعدما وصلوا إلى مقام القرب، بل اتصلوا برفع أنانيتهم وهوياتهم الباطلة عن البين إلى ما انقلبوا ﴿قَالُوا﴾ بألسنة استعداداتهم موافقًا لقلوبهم: ﴿الْحَمْدُ﴾ أي: جنس الحمد والثناء الشامل لجميع محامد جميع الحامدين قولاً وفعلاً وحالاً ومقالاً، مختص ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق بالاستحقاق الذاتي والوصفي ﴿الَّذِي أَذْهَبَ﴾ وأزال ﴿عَنَّا الْحَزَنَ﴾[1] المورث لنا من لوازم تعيناتنا وإمكاننا ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع الكرامة، ونجانا عن مضيق الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوب أنانياتنا ﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر: 34] يقبل منا، يقربنا إلى فضاء توحيده بتوفيقه وتأييده.

إذ هو ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ وأقامنا بفضله ولطفه ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: منزل الإقامة والخلود ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ بنا ولطفه معنا؛ إذ لا موجب منا يوجبها لنا، ولا يجب عليه سبحانه إيصالنا إليها آمنين مترفهين بحيث ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب وعناء مثل ما مسنا في الابتلاء ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 35] أي: فترة وكلال تعقب النصب.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ

(1) قال روزبهان: أهل المعرفة إذا دخلوا جنان المشاهدة، وأدركوا أنوار المكاشفة، وجلسوا على بساط القربة، وشربوا شراب الزلفة، وفازوا من آلام الفرقة في حجال الوصلة هيجهم حالهم إلى حمد خالقهم، والثناء عليه بما أولاهم من لطيف كراماته وسنا مشاهداته حين فازوا من هجوم الأحزان في قلوبهم من خوف أليم الفراق وطريان النفاق بعد حقيقة الاشتياق، وأقروا بأن ذلك من لطفه الخاص بلا امتحان.

صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فاطر: 36-38].

نفى سبحانه بعد نفي الملزوم؛ مبالغةً وتأكيدًا، ثم أردف سبحانه وعد المؤمنين بوعيد الكافرين على مقتضى سنته المستمرة في كتابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأعرضوا عن كتبه ورسله، وأنكروا بالبعث والحشر وإعادة المعدوم ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي: معدة مسعرة لهم؛ ليعذبوا بها في النشأة الأخرى تعذيبًا شديدًا إلى حيث ﴿لَا يُقْضَى﴾ ولا يحكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالموت من عنده سبحانه ﴿فَيَمُوتُوا﴾ كي يستريحوا، بل كلما أشرفوا على الهلاك يعادوا ويعذبوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أبدًا، ولا يمهلون ساعة حتى يتنفسوا، بل صاروا معذبين على التعاقب والتوالي أبدًا بلا فرجة أصلاً، كأبناء الدنيا المعذبين في دار الحرمان بنيران الإمكان إلى حيث تستوعب جميع أوقاتهم وأزمانهم، بحيث لا يسع لهم التنفس والتفرج أصلاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما نجازي أولئك المصرين على الكفر والعناد ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: 36] لحقوق نعمنا، منكر لمقتضيات جودنا وكرمنا.

﴿وَهُمْ﴾ من شدة فزعهم وهولهم ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ ويستغيثون من الله، صارخين، متحسرين، قائلين من كمال الضجرة والحسرة: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم، فكفرناك وأعرضنا عنك وعن كتبك ورسلك ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وأعدنا منها إلى الدنيا كرة أخرى ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ مقبولاً عندك، مرضيًا لك ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ عنادًا ومكابرة، فالآن ظهر لنا الحق وبطلان ما كنا نعمل من الأعمال الفاسدة الغير المطابقة لكتبك ودين رسلك، فلو أخرجتنا وأعدتنا لآمنا بك وبكتبك ورسلك، وبجميع ما جاءوا به من عندك.

وبعدما تمادوا وتطالوا في بث الشكوى، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَ﴾ تطلبون المهلة منا وتستمهلون عنا ﴿وَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ونمهلكم أيها المسرفون المفرطون في الدنيا طويلاً إلى حيث يسع فيه جميع ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: وقت وسيع، يتذكر فيه من كان بصدد التذكر والتنبه، وهو من وقت البلوغ إلى ستين سنة غالبًا، ولم تتذكروا في تلك المدة لا من تلقاء أنفسكم مع أنكم مجبولون

على فطرة التذكر ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ المذكر، المنذر لكم عن أمثال ما أنتم عليه الآن، فأنكرتم له ولم تتذكروا أيضًا بقوله، حتى ظهر عليكم أمارات الشيب المذكر المخبر لكم للرحيل إلى السفر الطويل، ومع ذلك لم تتزودوا لها، فالآن قد انقضى وقت التذكر والتدبر، ومضى أوان التدارك والتلاقي، تطلبون العود والخروج؟! هيهات هيهات، إن وقت التفقد قد فات ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب المخلد بدل تلك اللذات، فاعلموا الآن ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 37] ينصرهم في رفع العذاب، أو يشفع لهم عند الله لتخفيفه عنهم، بل هم خالدون في النار أبد الآباد، لا سبيل لنجاتهم أصلاً.

ربنا بعدنا عن سخطك وغضبك، وأحينا وأمتنا على مقتضى إرادتك ورضاك وارزقنا في النشأة الأخرى لقياك، إنك على ما تشاء قدير.

وكيف يسع لأحد من المخلوقات أن يشفع عنده سبحانه لعصاة عباده أو ينصرهم في الإنقاذ عن عذابه بعدما ثبت جرائمهم في حضرة علمه وتعلق إرادته بأخذهم على ظلمهم؟!.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على جميع ما لاح عليه برق الوجود ﴿عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: بواطن ما في العلويات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: بواطن ما في السفليات أيضًا، وكيف يخفى عليه سبحانه ما في سرائر عباده وضمائرهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: 38] أي: جميع مكنونات الصدور ومضمراتها، ومقتضيات استعداداتهم وقابلياتهم مطلقًا؛ لأنه المراقب لهم في جميع حالاتهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: 39-41].

فكيف تغفلون عنه سبحانه وتذهلون عن تذكره أيها الغافلون، مع أنه سبحانه

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾[1] عن ذاته وأظهركم على صورته وأعطاكم التصرف ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وسلطكم على عموم ما عليها، وسخر لكم جميع ما فيها من المواليد؛ تتميمًا لخلافتكم وتكريمًا لكم على سائر مخلوقاته، وبعدما فعل بكم سبحانه من الكرامة والإفضال وحسن الفعال ما فعل ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ وأعرض عن الإيمان به سبحانه وبكتبه ورسله وبما جرى في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: يحمل عليه وبال كفره وإعراضه، وينتقم عنه على مقتضاه بلا لحوق شين وعيب عليه سبحانه؛ إذ هو في ذاته منزه عن إيمان عباده وكفرهم، بل ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ أي: إصرارهم على الشرك واستنكافهم عن الإيمان بالله والكتب والرسل ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: غضبًا وبغضًا شديدًا منه سبحانه إياهم، وطردًا لهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ وشركهم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: 39] نقصانًا وحرمانًا في النشأة الأخرى عما أعد للمؤمنين من أنواع الكرامات والمقامات العلية، لا خسران أعظم منه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين؛ تقريعًا لهم وتبكيتًا بعدما سجلنا عليهم المقت والطرد وأنواع الخسران والخذلان: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأبصرتم أيها المجبولون على الغواية والعناد ﴿شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتدعون آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مشاركين له سبحانه في الألوهية والربوبية ﴿أَرُونِي﴾ وأخبروني أيها المكابرون المعاندون ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ وأوجدوا ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا في الأرض بالاستقلال والاختيار حتى يتصفوا بالألوهية؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: أروني هل لهم مشاركة مع الله ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: خلقها وإبداعها ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي: أروني هل أنزلنا عليهم كتابًا دالاً على مشاركتهم معنا في الألوهية والربوبية؟ ﴿فَهُمْ﴾ أي: أولئك المدعون المكابرون مطلعون، فائزون ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أي: حجج ودلائل واضحة من الكتاب دالة على

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن كل واحد من الأفاضل والأراذل خليفة من خلفائه في أرض الدنيا والأفاضل يظهرون جمال صفاته في مرآة أخلاقهم الربانية وهو سبحانه يتجلى بذاته وجميع صفاته بمرآة قلوب الصادقين منهم؛ لتكون مرآة قلوبهم لجمال صفاته وجلال ذاته مظهره، والأراذل يظهرون جمال صنائعه وكمال بدائعه في مرآة حرفهم وصنعة أيديهم ومن خلافتهم أن الله تعالى استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال، والإنسان بخلافته يطحنها ويخبزها، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان يغزله وينسج منه الثوب بالخلافة.

شركة أولئك التماثيل العاطلة مع العليم القدير الحكيم، فظاهر أنه ما أنزل إليهم كتابًا كذلك ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ليس الباعث لهم على ادعاء الشرك أمثال هذه المذكورات من الدلائل العقلية والنقلية، بل لا باعث لهم سوى الوعد الكاذب الذي يعد بعضهم بعضًا، وبالجملة: ما يعد الظالمون الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: 40] وتغريرًا من الشرفاء بالأراذل منهم، والرؤساء بالضعفاء، وتلبيسًا من أصحاب الثروة على ذوي الأحلام السخيفة منهم؛ حفظًا لجاههم وسيادتهم، والله المطلع بجميع حالات عباده يعلم تغريرهم وتلبيسهم ويمهلهم، ولا يعاجل بالانتقام لكمال حلمه.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿يُمْسِكُ﴾ ويضبط ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ويمنعهما من ﴿أَن تَزُولَا﴾ بشرك المشركين، وافترائهم على الله بإثبات الشركاء له، وبشؤم عصيانهم وفسقهم فيما بينهم ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ ولم يمسكهما سبحانه ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: ما أمسكهما عن الزوال من أحد بعد الله سبحانه، لكنه سبحانه أمسكهما، ولم يعاجل بانتقام عصاة عباده ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ في ذاته ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام عند ظهور الجرائم ﴿غَفُورًا﴾ [فاطر: 41] لمن تاب عنهما، وأناب إلى الله مخلصًا.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: 42-43].

﴿وَ﴾ من كمال حلم الله وإمهاله على المستوجبين لأنواع المقت والانتقام بعدما عهدوا مع الله ونقضوا عهودهم، وإن كفار قريش خذلهم الله ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في تأكيدها، وبالغوا في تغليظها قبل بعثة النبي ﷺ حين سمعوا أن من أهل الكتاب قوم كذبوا رسلهم، فأنكروا عليهم ولم يقبلوا من الرسل قولهم، فأنكروا عليهم مقسمين: والله ﴿لَئِن جَاءَهُمْ﴾ يعني: قريشًا ﴿نَذِيرٌ﴾ مرسل من عند الله، ينذرهم عما لا يعنيهم ويرشدهم إلى ما يعنيهم ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ في الإطاعة والانقياد للنبي النذير البشير ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: كل واحد وأحد منا أهدى من كل واحد

واحد من النصارى واليهود وغيرهم من الأمم، فواثقوا عهودهم مع الله على ذلك ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نذير وبشير هو أكمل من سائر المرسلين المبشرين المنذرين، وأفضل منهم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئته وبعثه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: 42] أي: نفرة عن الحق وإعراضًا عن أهله، وتباعدًا عن قبول قوله ودينه.

وإنما أنكروا له وأعرضوا عنه وعن دينه ﷺ ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ أي: طلبوا كبرًا وخيلاءً ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: طلبوا أيضًا أن مكروا المكر السيئ، وأصل التركيب هذا، فعدل إلى صورة المضاف إلى السيئ اتساعًا؛ تأكيدًا ومبالغة، والمكر السيئ: كل عمل قبيح صدر عنهم أو الشرك أو إرادة قتله ﷺ.

قال ﷺ: «لا تمكروا وتعينوا ماكرًا فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ - أي: يحل ويحيط - ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»[1] وهو الماكر، فلحق وبال الشرك للمشركين وكذا وبال كل قبيح ومكروه عائد إلى فاعله ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما يمهلون وينتظرون أولئك المشركون؛ يعني: أهل مكة ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله فيهم بأن عذب سبحانه مكذبيهم ومصريهم على الإنكار والتكذيب، وبعدما ثبت في علم الله ولوح قضائه تعذيبهم فلا بدَّ أن يقع حتمًا ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ﴾ وهي: نزول العذاب على المكذبين ﴿تَبْدِيلًا﴾ إن تعلق مشيئته به وثبت في لوح قضائه؛ إذ لا يبدل الحكم دونه سبحانه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43] بأن ينتقل عذاب المكذبين العاصين إلى المصدقين المطيعين البريئين من العصيان والطغيان.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: 44-45].

﴿أَ﴾ ينكرون سنة الله في الأمم الماضية الهالكة بتعذيب الله إياهم بسبب تكذيب الرسل والإنكار عليهم ﴿وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ بنظرة العبرة ﴿كَيْفَ كَانَ

(1) ذكره حقي في «تفسيره» (11/303).

عَاقِبَةُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مكذبين لرسله ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿قُوَّةً﴾ وقدرة، وأكثر شوكة وأموالاً وأولادًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المتعزز برداء العز والعلاء على جميع ما جرى في ملكه من الأشياء ﴿لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ﴾ بأن يفوت عنه شيء حقير ويعزب عن حضرة علمه ذرة يسيرة لا ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات، وكيف يفوت عن خبرته سبحانه شيء ﴿إِنَّهُ﴾ في ذاته ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يعزب عن حضرة علمه شيء ﴿قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44] على إظهار ما في خزانة علمه بلا فترة وفتور، وفطور وقصور.

﴿وَ﴾ من كمال حلم الله على عباده، ونهاية رأفته ورحمته منهم أنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ﴾ المطلع لجميع ما جرى في ملكه من الجرائم الموجبة للأخذ والانتقام ﴿النَّاسَ﴾ الذين كلفوا من عنده سبحانه بترك الجرائم والآثام المانعة من الوصول إلى المبدئ الحقيقي ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: شؤم ما اكتسبوا لأنفسهم من المعاصي التي منعوا عنها ﴿مَا تَرَكَ﴾ سبحانه ﴿عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: متحركة من المكلفين غير مأخوذة بجرم، بل بجرائم كثيرة عظيمة؛ إذ قلما يخلو إنسان عن طغيان ونسيان ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: يؤخر أخذهم سبحانه ويمهلهم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معين مقدر للأخذ والانتقام، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ الموعود المعين عند الله، المعلوم له سبحانه فقط، بلا إفشاء وإطلاع منه لأحد من أنبيائه ورسله، أخذوا حينئذ بما اقترفوا من الجرائم والمعاصي بلا فوت شيء منها ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المراقب، المحافظ على جميع ما جرى في ملكه وملكوته ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ في جميع أوقات وجودهم، بل باستعداداتهم وقابلياتهم، وما جرى عليهم فيها ﴿بَصِيرًا﴾ [فاطر: 45] شهيدًا مطلعًا يجازيهم على مقتضى إطلاعه وخبرته بأعمالهم ونياتهم فيها.

ربنا أصلح لنا عواقب أمورنا ويسر علينا كل عسير.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك، المتشمر لإعداد زاد يوم الميعاد، وفقك الله على إتمامه أن تلف شملك وتجمع همك للركون إلى الآخرة التي هي دار الخلود والقرار، وتجتهد في رفع الموانع والشواغل العائقة عن هذا الميل، فلك أن تنقطع عن مألوفاتك ومشتهياتك التي هي أسباب الأخذ والبطش الإلهي، وتنخلع عن لوازم تعيناتك

المشتملة على أنواع الفتن والمحن حسب ما يسّر الله عليك، معرضًا عن الدنيا الدنية ومستلذاتها البهية ومشتهياتها الشهية؛ إذ لا قرار لها ولا مدار لما يترتب عليها، بل كلها زائل فانٍ، مورث لأنواع الحسرات في النشأة الأولى، ولأشد العذاب والزفرات في النشأة الأخرى.

والمؤيد من عند الله بالعقل المفاض المميز بين الصلاح والفساد، وبين الفاني والباقي، والمرشد والهادي إلى فضاء التوحيد، المتذكر له، كيف يختار الفاني على الباقي واللذات الجسمانية الزائلة سريعًا، الجالبة للأحزان الطويلة على اللذات الروحانية القارة المستتبعة للحالات العلية، والمقامات السنية التي لا يعرضها انقراض ولا انقضاء ولا نفوذ ولا انتهاء؟!.

ربِّ اختم بفضلك عواقب أمورنا بالخير والحسنى، إنك على ما تشاء قدير وبرجاء الراجين جدير.

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يس

لا يخفى على من ترقى من حضيض الجهل وأودية الضلال إلى أوج المعرفة وفضاء الوصال، ومن مهاوي الإمكان وأغوار التعينات المقتضية لأنواع الانحرافات والضلالات إلى استقامة الحالات، وارتفاع المقامات وعلو الدرجات في سبيل السعادات ونيل المرادات، ومن دركات التلون وظلمات التقليد إلى درجات اليقين ونور التوحيد ومقر التمكين، والتقرر فيه بلا تذبذب وتزلزل، أن الوصول والنيل إلى مقعد الصدق الذي هو مقصد أرباب المحبة الخالصة والمودة الصادقة، إنما هو بالاستقامة والاعتدال في عموم الأوصاف والأفعال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعًا بحيث لا يبقى له انحراف عن صراط الله الأقوم الأعدل؛ ليتيسر له التحقيق في مرتبة التخلق بأخلاقه، واللياقة برتبة النيابة وأخلافه.

وأكمل المتخلفين وأليقهم للخلافة نبينا ﷺ؛ لذلك ختم بعثته ﷺ أمر الرسالة والنبوة، وتم به ﷺ مكارم الأخلاق، ولم تُبْقِ بعثته ﷺ شائبة شبهة في توحيد الذات وسقوط عموم الإضافات، ولهذا قد اضمحل دون ظهور شرعه ﷺ جميع الرسوم والعادات.

لذلك أشار سبحانه إلى كمال مرتبته الجامعة بجميع المراتب، وخاطبه خطاب تعظيم وتكريم بعدما تيمن باسمه الجامع لجميع الأسماء والصفات، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلي على حبيبه ﷺ باسمه الجامع ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم عباده بإرساله ﷺ إليهم وبعثه عليهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه ﷺ حيث جعله مستويًا على صراط مستقيم هو صراط توحيده الذاتي.

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: 1-9].

﴿يس﴾[1] [يس: 1] يا من تحقق بينبوع بحر اليقين، وسبح فيه سالمًا عن الانحراف والتلوين

﴿وَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: 2] المحكم نظمه وأسلوبه، المتقن معناه وفحواه.

﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل وخاتم الأنبياء، المبعوث إلى كافة البرايا ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 3] المتمكنين

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس: 4] موصل إلى التوحيد الذاتي، بلا عوج وانحراف.

وكيف لا يكون القرآن العظيم حكيمًا مع أنه ﴿تَنزِيلَ﴾ أي: منزل من عند ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب، القادر على جميع المقدورات على الوجه الأحكم الأبلغ ﴿الرَّحِيمِ﴾ [يس: 5] في إنزاله على الأنام؛ ليوقظهم عن نوم الغفلة ونعاس النسيان.

إنما أنزل الحكيم المنان عليك يا أكمل الرسل هذا القرآن ﴿لِتُنذِرَ﴾ أنت ﴿قَوْمًا﴾ لم يبعث فيهم نذير من قبلك ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ الأقربون أيضًا؛ إذ هم ليسوا من أهل الكتاب وتابعي الملة؛ لتمادي مدة فترة الرسل بعد عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - أو المعنى ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس: 6] بالذي أنذر به آباؤهم الأبعدون.

وبعدما قد تطاول أيام الفترة، انقطع عنهم أثر الإنذار، وصار كأن لم يكن شيئًا مذكورًا، وبالجملة ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: 6] أي: القوم الذين قد أرسلت إليهم يا أكمل الرسل، ذاهلون عن الإنذار والمنذر، بل عن مطلق الرشد والهداية؛ إذ هم متولدون في زمان فترة الرسل.

وكيف لا ينذرهم سبحانه ولا سيرسل إليهم من يصلح أحوالهم ﴿لَقَدْ حَقَّ

(1) قال البقلي: افهم أن حروف يس كحروف الطواسين وحروف الحواميم وغيرها من حروف التهجي، الياء إشارة إلى يد القدرة الأزلية، والسين إلى سنا الربوبية، أقسم سبحانه بثلاث صفات: بالقدرة، وسنا الربوبية، والكلام الأزلي، [العرائس].

﴿الْقَوْلُ﴾ وسبق الحكم من الله، ومضى القضاء منه سبحانه ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: أكثر أهل مكة بالكفر والعذاب، وعدم الوصول إلى خير المنقلب والمآب، وبعدما قد ثبت في حضرة علمه سبحانه كفرهم وضلالهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 7] بالله، ولا يصدقون برسوله وكتابه.

وكيف يؤمنون أولئك المصرون على الكفر والعناد، المقضيون من عندنا بالشقاوة الأزلية ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التي هي سبب التفاتهم وتمايلهم نحو الحق وآلة انعطافهم للإطاعة والانقياد بالدين القويم ﴿أَغْلَالًا﴾ وصيرناهم مغلولين من الأيدي إلى الأعناق، بحيث لا يمكنهم الطأطأة والانخفاض أصلاً، ولا بدَّ للتدين والانقياد من التذلل والخضوع، وكيف يمكنهم هذا ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ أي: أغلالهم منتهية إلى لحيتهم ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: 8] رافعون رءوسهم، مضطرون برفعها بسبب تلك الأغلال الضيقة، بحيث لا يسع لهم التفات يمنة ويسرة، وفوقًا وتحتًا.

بل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم من كمال غضبنا إياهم ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قدامهم ﴿سَدًّا﴾ حجابًا كثيفًا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أيضًا ﴿سَدًّا﴾ غطاء غليظًا كذلك، فصاروا محفوفين بين الحجب الكثيفة المانعة عن إبصار نور الهداية والتوحيد، وبالجملة: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعمينا عيون بصائرهم التي هي سبب رؤية الآيات ودرك الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9] الشواهد الظاهرة والآيات الباهرة حتى يرشدهم إلى الهداية والإيمان، فحرموا عن قبول الحق، وانصرفوا عن صراطه، فهلكوا في تيه الغواية والضلال، أعاذنا الله وعموم عباده عن ذلك.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس: 10-12].

﴿وَ﴾ بعدما سجلنا عليهم الكفر وحكمنا شقاوتهم حكمًا مبرمًا، لا يفيدهم إنذارك يا أكمل الرسل وإرشادك إياهم، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 10] إذ ختمنا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة

غليظة مانعة عن قبول الحق والتذكر به وإبصار علاماته، وبالجملة: هم مقضيون في سابق علمنا ولوح قضائنا بالعذاب الأليم والضلال البعيد، فلا تتعب نفسك يا أكمل الرسل في هدايتهم وإرشادهم، إنك لا تهدي من أحببت من قرابتك وأرحامك، ولكن الله يهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون من الكفر والإصرار.

بل ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ويقبل منك الإنذار المصلح والإرشاد المفيد ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: سمع القرآن سمع قبول، وامتثل بأوامره ونواهيه عن تدرب تام وتأمل صادق، واتعظ بتذكيراته، واعتبر عن عبره وأمثاله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خاف عن قهره وانتقامه واجتنب عن سخطه وغضبه ملتبسًا ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: قبل نزول العذاب وحلوله، معتقدًا أنه سبحانه قادر على جميع أنواع الانتقامات ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل بعدما سمع بالآيات سمع قبول ورضًا، وامتثل بما فيها مخلصًا، خائفًا، راجيًا ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ لفرطاته المتقدمة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 11] لأعماله الصالحة الخالصة بلا فوت شيء منها، بل بأضعافها وآلافها عناية منا إياه وتفضلاً عليه.

وكيف يفوت عن إحاطة علمنا شيء من حقوق عبادنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿نَحْنُ نُحْيِي﴾ ونهدي حسب اقتضاء تجلياتنا اللطفية والجمالية ﴿الْمَوْتَى﴾ الهالكين بموت الجهل والضلال، التائهين في بيداء الوهم والخيال حيارى سكارى، مدهوشين، محبوسين، مسجونين في مضيق الإمكان بحياة العلم والإيمان والتوحيد والعرفان ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في لوح قضائنا وحضرة علمنا جميع ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وأسلفوا لأنفسهم من خير وشر، وحسنة وسيئة، بحيث لا يشذ منها شيء لنجازيهم بها على مقتضاها ﴿وَ﴾ نكتب أيضًا ﴿آثَارَهُمْ﴾ من السنن المستحسنة والأخلاق المحمودة والآداب المرضية المقبولة، وكذا أيضًا ما سنوا ووضعوا من أسوأ العادات والأخلاق وأخسها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ صدر ويصدر من عبادنا ﴿أحْصَيْنَاهُ﴾ وفصلناه بحيث لا يشذ عن حيطة إحصائنا وتفصيلنا شيء من نقير وقطمير، بل الكل مكتوب مثبت ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 12] هو لوح قضائنا وحضرة علمنا.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا

أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: 13-19].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: مثل يا أكمل الرسل للمشركين المصرين على الشرك والطغيان مثلاً من الذين خلوا من قبلهم، مصرين على الضلال والعناد أمثالهم، بحيث لا ينفعهم إنذار منذر وإرشاد مرشد؛ يعني: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المنهمكين في بحر الغفلة والغرور، والقرية: هي «أنطاكية» والمبشر المنذر هو عيسى - صلوات الرحمن عليه وسلامه - اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أي: القرية ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 13] تترى من قبل عيسى عليه السلام؛ ليرشدوا أهلها إلى الإيمان والتوحيد.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وأمرنا لنبينا عيسى عليه السلام أولاً بالإرسال ﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ هما يونس ويحيى، وقيل: غيرهما، فلما جاءا إليهم وأظهرا دعوتهم، وكانوا من عبدة الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فاجئوا في تكذيبهما بلا تراخ ومهلة وتأمل وتدبر، وبعدما كذبوهما لم يقبلوا منهما دعواتهما، بل ضربوهما وحبسوهما، واستهزءوا بقولهما ودعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: قويناهما وأيدنا أمرهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي: برسول ثالث، وهو: شمعون ﴿فَقَالُوا﴾ أي: الرسل بعدما صاروا جماعة: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: 14] من قبل عيسى، المرسل من قبل الحق، ينذركم عما أنتم عليه من الباطل الفاسد، وهو عبادة الأوثان، وندعوكم إلى دعوة الحق الحقيق بالألوهية والربوبية، المستحق للعبودية، نرشدكم ونهديكم إلى دينه المنزل من قبل ربه.

وبعدما سمع المشركون منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم مستبعدين منكرين: ﴿مَا أَنتُمْ﴾ أيها المدعون لرسالة الواحد الأحد الصمد، الفرد الوتر، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4،3] ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مناسبة لكم مع مرسلكم الذي ليس هو من جنس البشر، فلا بدَّ من المناسبة بين المرسل والرسل ﴿وَ﴾ دعواكم الإنزال والإرشاد من عند الإله المنزه عن المكان والجهة ما هي إلا غرور وتلبيس ﴿مَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ﴾ المستغني عن الزمان والمكان، المنزه ذاته عن سمات

الحدوث والإمكان ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذ أمثال هذه الأفعال إنما هي من لوازم الأجسام وأوصاف الإمكان، وهو سبحانه على الوجه الذي وصفتم شأنه مقدس عن أمثاله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: 15] يعني: ظهر من دعواكم واستنادكم أمثال هذه الأفعال إلى ربكم أنه ما أنتم في دعواكم هذه إلا كاذبون، مفترون على ربكم ما هو منزه عنه.

وبعدما تفطن الرسل منهم الإنكار والإصرار المؤكد ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم أيضًا على سبيل المبالغة والتأكيد؛ تتميمًا لأمر التبليغ والرسالة: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي أرسلنا إليكم بوحيه وإلهامه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 16] من عنده على مقتضى إرادته واختياره؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ولا يقع إلا ما يريد.

﴿وَ﴾ ما لنا شغل بإيمانكم وقبولكم، ولا بكفركم وشرككم، بل ﴿مَا عَلَيْنَا﴾ على مقتضى وحي الله إلينا ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: 17] أي: التبليغ الصريح الظاهر والبيان الواضح الموضح لرسالته إياكم، بلا فوت شيء منها وتقصير وتهاون بها، وإهداؤكم وإيمانكم مفوض إليه سبحانه في مشيئته، لا علم لنا به.

وبعدما سمعوا منهم المبالغة والتأكيد، انصرفوا عن المقاومة والمكالمة نحو التهديد بالقتل والرجم، حيث ﴿قَالُوا﴾ متطيرين متشائمين من نزولهم ومجيئهم، مستبعدين دعوتهم، منكرين لها: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا منا بقدومكم؛ إذ منذ قدمتم ما نزل القطر علينا، اخرجوا من بيننا وارجعوا إلى أوطانكم سالمين، وانتهوا عن دعوتكم هذه ولا تتفوهوا بها بعد، والله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن هذياناتكم ومفترياتكم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ألبتة ﴿وَ﴾ بالجملة: لو لم تنتهوا ولم تكفوا ﴿لَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] [يس: 18].

وبعدما سمعتم أيها الغرباء كلامنا هذا، فلكم الإصغاء والقبول والعمل بمقتضاه، وإلا فقد لحق بكم ما لحق.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل، بعدما سمعوا منهم ما سمعوا وتفرسوا بغلظتهم وتشددهم في الإنكار والجحود: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم إنما هو من أنفسكم وبسوء صنيعكم وأعمالكم ﴿أَ﴾ لم ينتبهوا ولم يتفطنوا أنكم ﴿إِن ذُكِّرْتُم﴾ وقبلتم قولنا،

(1) وذلك أن الإلهام والجذبة يقويان القلب وصفاته ويذيبان النفس وصفاتها ويمنعان النفس عن استيفاء شهواتها والبلد بلدتنا الدنيا فلهذا أنشأ النفس وصفاتها بهؤلاء المرسلين. [التأويلات].

واتصفتم بما ذكرنا من الإيمان والتوحيد، لم يلحقكم شيء من المكروه، ومتى لم تتعظوا ولم تتصفوا لحقكم ما لحقكم بشؤم أنفسكم، فتتطيرون بنا عدوانًا وظلمًا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: 19] مجاوزون في الإلحاد والعناد عن سبيل الهداية والرشاد، ومن كمال إسرافكم وإفراطكم تطيرتم بدين الله ودعوة رسله إليه.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس: 20-27]

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا، صمموا العزم إلى قتلهم واجتمعوا ليرجموهم، وانتشر الخبر بين أظهر المدينة، وسعى من يسمع نحوهم حتى ﴿جَاءَ﴾ حينئذ ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ من السامعين، وهو حبيب النجار، وكان مؤمنًا موحدًا، يعبد الله، وكان قد لقي الرسولين الأولين حين دخلا المدينة أولاً، فسلم عليهما وتكلم معهما، فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى النبي ﷺ، إنما أرسلنا لندعوكم إلى طريق الحق وننقذكم من عبادة الأوثان، فقال: أمعكما آية؟ قالا: ونبرئ الأكمه والأبرص، فجاء بابنه المريض منذ سنين فمسحاه، فقام الابن سالمًا، نشفي المريض، فآمن لهما وصدقهما وانفصل عنهما مؤمنًا، واشتغل بعبادة الله.

فدخلا البلد، وأظهرا الدعوة لأهلها وأنكروا عليهما، واتفقوا بقتلهما، فأُخبر الحبيب بذلك، فجاء على الفور حال كونه ﴿يَسْعَى﴾ ويذهب سريعًا، فلما وصل المجمع ورآهم مجتمعين عليهما، فسألهما على رءوس الملأ: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى النبي ﷺ ندعوكم إلى توحيد الحق، قال: هل تسألان الأجر والجعل لرسالتكما؟ قالا: لا، ما أجرنا إلا على ربنا، ثم التفت نحو القوم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم على نفسه؛ ليقبلوا منه كلامه، وكان مشهورًا بينهم بالورع واعتدال الأخلاق: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 20] المبعوثين إليكم بالحق؛ ليرشدوكم إلى طريق الحق

وتوحيده، إنما جمع المرسلين مع أنهما اثنان؛ لأن الحبيب منهم حقيقة.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: اتبعوا هاديًا بالحق على الحق إلى الحق، خالصًا لوجه الحق بلا غرض نفساني من جعل وغيره، كالمتشيخة المزورين الذين يجمعون بتلبيساتهم وتغريراتهم أموالاً كثيرة من الحمقى المتمائلين نحو أباطيلهم وتزويراتهم ﴿وَ﴾ كيف لا تتبعون أيها العقلاء الطالبون للهداية والصواب ﴿هُم مُّهْتَدُونَ﴾[يس: 21] مصيبون، متصفون بالرشد والهداية قولاً وفعلاً.

ثم لما سمع القوم من الحبيب ما سمعوا، عيروه وشنعوا عليه، وقالوا له: لست أنت أيضًا على ديننا ودين آبائنا، بل ما أنت إلا على دين هؤلاء المدعين ﴿وَ﴾ بعدما تفرس الحبيب منهم الإنكار عليه أيضًا، قال كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والفطنة على وجه العظة والتذكر لنفسه؛ ليتعظوا به على سبيل الالتزام؛ إذ هو أسلم الطرق في العظة والتذكير، وأدخل في النصيحة والتنبيه: ﴿مَا لِيَ﴾ أي: أيّ شيء عرض عليّ ولحق بي ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ وأتوجه على وجه التذلل والانكسار للمعبود ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على فطرة العبودية؛ أي: أبدعني وأظهرني من كتم العدم ولم أك شيئًا مذكورًا، ورباني بأنواع اللطف والكرم وأفاض عليّ من موائد لطفه وإحسانه، سيما العقل المفاض المرشد إلى المبدأ والمعاد ﴿وَ﴾ كيف لا أعبد وأتوجه نحوه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه الموصوف بالأسماء الحسنى ونعوت الجلال والجمال، لا إلى غيره من الأوثان والأصنام الحادثة، الهالكة في ذواتها، العاطلة عن الأوصاف الكاملة، المنحطة عن رتبة الألوهية والربوبية ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 22] أنتم أيها الأظلال الهالكون، التائهون في بيداء ظهوره، حيارى هائمين رجوع الأضواء إلى شمس الذات، والأمواج إلى بحر الوحدة الذاتية.

﴿أَ﴾ أنكروا المعبود على الحق، المظهر لما في الوجود ﴿أَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ باطلة من الأوثان، عاطلة عن التصرفات مطلقًا، منحطة عن رتبة العبودية، فكيف عن الربوبية والألوهية؟! وسميتهم شفعاء مغيثين لدى الحاجة مع أنه ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ﴾ القادر المقتدر على أصناف الإنعام والانتقام ﴿بِضُرٍّ﴾ أي: مصيبة وسوء يتعلق مشيئته على إنزاله إليّ ﴿لَّا تُغْنِ﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من بأس الله وعذابه، بل لا تنفعني شفاعتهم أصلاً ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: 23] بالمعاونة والمظاهرة عن عذابه سبحانه أيضًا.

وبالجملة: ﴿إِنِّي﴾ بواسطة اتخاذهم شركاء لله، شفعاء عنده ﴿إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 24] وغواية عظيمة ظاهرة؛ إذ اختيار ما لا ينفع ولا يضر على الضار النافع المعطي المانع، أو ادعاء مشاركتهم معه وشفاعتهم عنده سبحانه من أشد الضلالات وأردأ الجهالات.

﴿إِنِّي﴾ بعدما تفطنت بوحدة الحق واستقلاله في الوجود والآثار ﴿آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو ربي ورب جميع ما في حيطة الوجود وتحت ظله من الأكوان غيبًا وشهادة، واعترفت بتوحيده واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته بعدما كوشفت بوحدة ذاته ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: 25] أيها العقلاء السامعون، المدركون مضمون قولي، واتصفوا بما فيه، وتذكروا به إن كنتم تعلمون.

فلما سمعوا منه توصيته وتذكيره، أخذوا في قتله وهلاكه، فوطئوه بأرجلهم إلى حيث يخرج أمعاءه من دبره، وهو في تلك الحالة زاد انكشافه بربه، واستولى عليه سلطان الوحدة وجذبته العناية الإلهية، وأدركته الكرامة القدسية حيث ﴿قِيلَ﴾ له من قبل الحق حينئذ: اخرج من هويتك وانخلع من أنانيتك ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: فضاء الوحدة التي لا فيها وصب ولا نصب، ولا عناء ولا تعب، فخرج وانخلع، فدخل على الفور واتصل، ثم بعدما وصل إلى ما وصل ﴿قَالَ﴾ متمنيًا، متحسرًا لقومه بعدما لحق بفضاء الوصال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 26].

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وانكشف علي وجذبني نحوه بعدما ستر عني أنانيتي ومحا مني هويتي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 27] المكرمين: الآمنين الفائزين المستبشرين الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

﴿۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: 28-35].

﴿وَ﴾ بعدما قتلوه ورفعناه عناية منا إياه، وأدخلناه في جنة وحدتنا مغفورًا مسرورًا، وكشفنا عنه غطاءه، أخذنا في انتقام قومه عنه، فأهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل ﷺ عليهم بأمرنا إياه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي: قوم الحبيب، وهم: أهل أنطاكية ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد قتله؛ لننتقم عنهم لأجله ﴿مِن جُندٍ مِّنَ﴾ جنود ﴿السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس: 28] أي: وما ثبت منا، وما جرى في لوح قضائنا إنزال الملائكة لإهلاكهم كما جرت سنتنا لإهلاك سائر الأمم الهالكة.

بل ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت علة هلاكهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: ما وقعت وصدرت منا لإهلاكهم إلا صيحة واحدة - على القراءتين بالرفع والنصب - وذلك أنا بمقتضى قهرنا وجلالنا أمرنا جبريل ﷺ بأن يأخذ بعضادة باب مدينتهم، فأخذ وصاح عليهم مرة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: 29] أي: فاجئوا جميعًا على الخمود والجمود بعدما سمعوا الصيحة الهائلة؛ يعني: صاروا كالرماد بعدما كانوا أحياء كالنار المشتعلة الساطعة.

ثم قال سبحانه من قبل عصاة عباده، المأخوذين بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ وندامة وكآبة عظيمة وحزنًا شديدًا ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المصرين على العناد بعدما عاينوا العذاب الدنيوي أو الأخروي النازل عليهم حتمًا بسبب إنكارهم على الرسل والمرسل جميعًا، وتكذيبهم بجميع ما جاءوا به من عند ربهم، وليس لهم حينئذ قوة المقاومة والمدافعة؛ لذلك صاروا حيارى، سكارى، هائمين، متحسرين بلا ناصر ومعين وشفيع حميم من نبي ورسول كريم؛ إذ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ في نشأتهم الأولى يصلح أحوالهم وأعمالهم لئلا يترتب عليهم الوبال والنكال الموعود في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ من غاية كبرهم وخيلائهم ﴿بِهِ﴾ أي: بالرسول المصلح المرشد لهم ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1] [يس: 30] ويستحقرونه ويستنكفون عن قبول دينه

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن للعباد موضع التحسر إن لم يتحسروا اليوم وذلك لانخراطهم كلهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل والاستهزاء بهم ومنافاة أولياء الله سبحانه، كما غلبت هذه الخصال الرديئة على أهل زماننا هذا الذين يسمعون القول من المحققين فيتبعون أقبحه ويقعون في أولياء الله ويستهزءون بهم وبكلماتهم المستحسنة إلا من شاء الله به خيرًا من أهل النظر وأدب بأدب الإرادة وقليل ما هم فهددهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ [يس:31] يعني: هؤلاء الغفلة الجهلة.

ودعوته، وينكرون عليه كهؤلاء المسرفين المشركين معك يا أكمل الرسل.

﴿أَ﴾ يستهزئون معك - يعني: أهل مكة - وينكرون بدينك وكتابك ﴿لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يخبروا ولم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثرة إهلاكنا واستئصالنا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الماضية، ولم يعتبروا مما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسلهم مع ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الأمم الهالكة السالفة ﴿إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 31] أي: لا يرجعون إلى هؤلاء المفسدين، المسرفين في تكذيبك وإنكارك يا أكمل الرسل في نشأتهم هذه، بل مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، وهؤلاء أيضًا سينقرضون إثرهم، ولِمَ لم يتنبهوا ولم يعتبروا مما جرى عليهم مع أنهم إن أُخذوا صاروا كأن لم يكونوا شيئًا مذكورًا أمثالهم؟!.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي: ما كل من الفرق والأحزاب المنقرضة عن الدنيا عن التعاقب والترادف مردودون إليها، مجتمعة في وقت من الأوقات، بل ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 32] يعني: لا يجتمعون إلا عندنا ولا يحضرون جميعًا إلا لدنيا في يوم العرض والجزاء، وفي حضرة علمنا ولوح قضائنا.

وبالجملة: لا اجتماع لهم بعد انقراضهم ماداموا مسجونين في سجن الإمكان، مقيدين بسلاسل التعينات وأغلال الهويات والأنانيات، بل متى خلصوا عن مضيق الطبيعة وانخلعوا عن لوازمها، حضروا واجتمعوا، بل وصلوا واتصلوا، وحينئذ لم يبق الفرق، وصاروا ما صاروا.

لا إله إلا هو ولا موجود سواه، هذا على قراءة «لمَّا» بالتشديد، وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف كان «إن» حينئذ مخففة من الثقيلة، و«ما» في «لما» مزيدة للتأكيد، واللام للفرق بين المخففة والنافية، والمعنى: أنه - أي: الشأن - كل من الأمم الهالكة السالفة مجموعون ألبتة لدينا، محضرون عندنا يوم الجزاء، أو في حضرة لاهوتنا بعد انخلاعهم عن لوازم ناسوتهم.

﴿وَآيَةٌ﴾ عظيمة منا، دالة على كمال قدرتنا على جمعهم وإحضارهم يوم الجزاء ﴿لَّهُمُ﴾ أن يستدلوا بها على صدقها ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ اليابسة الجامدة، التي ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ وأحضرناها في وقت الربيع بإنزال قطرات الماء المترشحة من بحر الحياة عليها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي: جنسًا من الحبوبات التي يقتاتون بها ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 33] وبه يعيشون وينعمون، كذلك في النشور أحيينا الأبدان المائتة الجامدة البالية،

المتلاشية في أراضي الأجداث بإنزال الرشحات الفائضة من بحر حياة الوجود بمقتضى الجود، فأعدناهم أحياء كما أبدعناهم أولاً من العدم.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الآيات التي تدل على كمال قدرتنا: إنَّا ﴿جَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ومتنزهات مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ومن سائر ما يتفكهون به؛ تتميمًا لتنعمهم وترفههم ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أي: أخرجنا وأجرينا ﴿فِيهَا﴾ أي: في خلال البساتين ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: 34] والينابيع الجارية التي لا صنع لهم في إجرائها وإخراجها؛ عنايةً منا إياهم، إبقاء لنضارتها ونزاهتها.

كل ذلك ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي: من ثمر ما ذكر وقوته، ويقوّموا أمزجتهم بأنواع ما وهبنا عليهم من النعم حتى يقوموا ويواظبوا على شكرها؛ أداء لحقوقنا إياهم ﴿وَ﴾ كذا علمناهم وأقدرناهم على عموم ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ من العقارات والمزارع والبساتين وإجراء الأنهار والقنوات وحفر الآبار ﴿أَ﴾ ينكرون على كمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا ﴿فَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 35] نعمنا الفائضة إياهم على التعاقب والتوالي ولا ينسبونها إلينا، بل ينسبونها إلى الوسائل والأسباب العادية جهلاً وعنادًا، وطغيانًا وكفرًا.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: 36-40].

﴿سُبْحَانَ﴾ القادر المقتدر القيوم المطلق المنزه عن الشبيه والنظير، المتبرئ عن الشريك والوزير، المستقل في التصرف والتدبير ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ وقدر الأصناف المتوالدة المتزايدة ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكورهم وإناثهم أنواعًا وأصنافًا وأشخاصًا، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأصنافها وأنواعها ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 36] من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعًا؛ لأن الفردية والوترية والصمدية كوجوب الوجود، والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية، لا شركة فيها للمصنوع أصلاً؛ إذ لا يتوهم التعدد والكثرة في الوجود الذي هو الواجب قطعًا.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَّهُمُ﴾ أن يتأملوا فيها ويستدلوا بها على كمال قدرتنا وأحكامنا وعلمنا وإرادتنا ﴿اللَّيْلُ﴾ المظلم؛ أي: العدم الأصلي، حين ﴿نَسْلَخُ﴾ ننزع ونظهر ﴿مِنْهُ﴾ أي: من الليل المظلم ﴿النَّهَارَ﴾ المضيء؛ أي: نور الوجود الفائض منا إياهم حسب امتداد أظلال أسمائنا وصفاتنا عليهم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[1] [يس: 37] مستقرون في ظلمة العدم لولا إفاضة الوجود عليهم.

---

(1) قال العارف بالله البيطار فيما أمده الله من الأنوار: اعلم - رحمك الله - أنك إذا جعلت المعنى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نبرز منه النهار ونوجده ونظهره، لا يناسب حينئذ قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، بل المناسب: فإذا هم منيرون أو مضيئون أو مشرقون، وما شاكل ذلك، مع أن المقصود خلاف ذلك وهو أن الأمر بين الليل والنهار دوري ما بين الحقائق الأربع المنسحب معناها على كل شيء في الوجود، وهي الأمهات التي هي: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3].

فهذه الحقائق هي أم كتاب الوجود الإلهي والكوني وبيان كشف المعنى، حينئذ أن جميع المعاني المختلفة عين الحقيقة المؤتلفة فكل معنى من المعاني إن كان أولاً، فآخره ما يقابل معناه، وهذا الآخر هو عينه؛ لأن آخر الدائرة ليس إلا المبتدأ، فالأول عين الآخر، وهما مظهر وظاهر، فإن ظهر الشيء كان ضده هو باطنه، فهو مظهر له، فإن ظهر ما كان باطنًا بطن فيه ما كان ظاهرًا وهو هو، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:33] فهي تقرأ طردًا وعكسًا.

فعلى حسب ما قررناه أن النهار إذا تجلى، فالليل هو مظهره المتجلي فيه، فإذا انسلخ فيه النهار من جهة الاسم الظاهر بطن فيه، فكان الليل هو الظاهر والنهار هو الباطن، فلذا قال تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:37] أي: نقلب الأمر ونجعل الليل ظاهرًا والنهار باطنًا، ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، وبهذا التمهيد الذي بيناه اتضح المعنى غاية الوضوح كما لم يخف على كل نبيه منصف.

ويتفرع على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:38]، أفاد تعالى أن شمس الحقيقة الوجودية الذاتية العينية جريانها مستمر ظهورًا وباطنها هو المستقر الذي منه بدت نورًا، وهاهنا علم من وراء الأفهام اقتضاه الاسم: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ [يس:38]، الموصوف بأنه: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:38].

فمن حقيقة العزة بدا هذا العلم إذ على ما قررناه أولاً أن الدور ما بين الأسماء المختلفة في الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية يفيدك حينئذ أنه إن ظهر الحق فالخلق باطنه، وإن ظهر الخلق فالحق باطنه، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «مولى القوم من أنفسهم» وبقوله ﷺ: «سلمان

منّا أهل البيت») الإشارة بـ سلمان للوجود الإلهي السالم من العدم فهو منّا أهل البيت الإلهي، إذ ليس أهل الظاهر إلا المظاهر.

ألا ترى أن الظاهر لا يظهر منه إلا الصورة، والصورة هي عين الخلق، فالحق باطننا، إنه ظهرنا ونحن باطنه إن ظهر، وعلى هذا يترتب حكم الأول والآخر، فنحن أهل البيت الإلهي الذي دائمًا يريد الله أن يذهب عنّا الرجس؛ رجس العدم؛ لأنا مظاهر أسمائه التي هي شئون ذاته ويطهرنا من السوي تطهيرًا، فقد عاد توحيدنا علينا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:10]، قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21].

وهذه الطهارة هي غاية الطهارة، إذ لا أطهر من الله جلّ وعلا، فاندفع رجس الشقاء وشره، ولذا نبّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1] أي: يا طاهر من السوى، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [طه:2] أي: قرآن ذاتنا ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:2]، بل لتظهر بحقيقتك النورانية التي هي عين ذاتنا، ثم نبّه بقوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:3] أي: يخشى رجس السوى من مظاهر حقيقتك، فبهذا التذكير نريد أن نذهب عنه الرجس وهو ذاهب في نفس الأمر، ولكن لمّا سافر إلى بلده الخليقة نسي المواطن الحقيّة، فذكرنا الله بهذا التذكير، وهذا التذكير هو عين التطهير.

ومما قررناه يبدو لك علم الانقلاب فكما أن محمد ﷺ يقول: «أنا من الله العالم مني» كذلك الحق يقول: «أنا من محمد والعالم مني»فكل منهما لباس للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:187].

ولما انكشف لي هذا الأمر أجبت الحق بقوله: «الصوم لي» كما ورد في الحديث: «خلقت الفطر لي فأنا باطنك في صيامك، إذ لولا الاسم المفطر لم يكن الاسم الصائم بل أنا الصائم فأنت لي وصومك لي فبطن أنت وظهر أنا كما كنت أنت الظاهر وأنا الباطن». وبذلك يتحقق أني أنا معنى اسم رمضان فقد قال ﷺ: «إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى» والاسم الإلهي (رمضان) يندرج فيه الاسم (المفطر) و(الصائم)، ولذلك ورد: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه» فعادل الإفطار لقاء الرب، وعادل الصيام تنزيه الرب، فمن أفطر فقد شبه من حقيقة: «جعت فلم تطعمني»، ومن صام فقد نزّه، ولذلك ورد في الحديث: «الصوم لا مثل له» فهو من حضرة:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11]. وأما اسم رمضان فهو يجمع التنزيه والتشبيه، ولذلك كان نوم صائمه عبادة، فلمّا صُمت وكنت مظهر هذا الاسم الإلهي، وصدق عليّ اسم الله الصائم فتحت أبواب جنان ذاتي الجمالية، وغلقت أبواب نيران شهواتي الجلالية؛ لأن الصوم من المكاره ومظاهرها الجنان والشهوات الطبيعية من الجماليات الظاهرة، وهي في الحقيقة نيران.

ولمّا صُمت سلسلت وقيدت شياطين جوارحي وظهرت ملائكتها، فقيّد شيطان لساني عن الكذب والغيبة، وظهرت منه ملائكة ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله فمن قرأ القرآن فقد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقبل القراءة لا استعاذة إلا تلفظًا ودعاء، والدعاء إجابته

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة آياتنا العظام: ﴿الشَّمْسُ﴾ المضيئة، المشرقة على صفائح الكائنات كإشراق نور الوجود المطلق، الفائض على هياكل الموجودات حسب التجليات الإلهية ﴿تَجْرِي﴾ وتسري بلا قرار وثبات بمقتضى أمرنا وحكمنا ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قدرناه إياها منتهى ومنزلاً بمقتضى حكمتنا المتقنة المترتبة على تجلياتنا الحبية، المتنشئة من ذاتنا المتصفة بالأوصاف اللطفية الجمالية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري والسراية على هذا النظام الأبلغ الأبدع ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب المقتدر على عموم المقادير ﴿الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] باستعداداتها وقابلياتها.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي: عيّنا حسب قدرتنا الغالبة وحكمتنا البالغة لمرآة القمر الخالية عن النور الذاتي، القابلة لأن يكتسبه من قرص الشمس حسب المقابلة والمحاذاة بينهما، كذلك جعلنا له ﴿مَنَازِلَ﴾[1] متفاوتة في الوضع، فعند تمام المقابلة والمحاذاة يبدو بدرًا كاملاً بلا نقصان في قرصه أصلاً، ثم ينقص شيئًا فشيئًا، يومًا فيومًا ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ القمر في آخر المنازل الثمانية والعشرين التي وضعت له في علم التنجيم

على حسب ما يريد الله بخلاف من قرأ القرآن، أي: تحقق به، فإنه على بصيرة من أمره، ولذلك قال الله تعالى للسيد الأعظم ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:98]، فكذلك من صام فقد قيدت شياطينه بالنسبة لصومه، وإلا فالشياطين في رمضان منتشرون في سائر البلدان، فلا ينجو منهم إلا من قرأ القرآن، أي: إلا من كان مظهرًا له متمثلاً لأوامره مجتنبًا لزواجره، وهذا الوارد من بركات صوم رمضان المبارك، أقرّ الله به دائمًا عيون أمة محمد ﷺ ونفعهم به، آمين.

(1) الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال ضعيف اليقين مختصر الفهم، فيتفكر حتى تزداد بصيرته ويكمل حاله، ثم يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلما ازداد من الشمس دنوًا ازداد في نفسه نقصانًا إلى أن يتلاشى ويخفى ولا يُرى، ثم يبعد عن الشمس، لا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا من الذي يصرفه على ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم، فشبه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته صاحب تمكين غير متلون يشرق بروج من سعادته دائمًا، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحاب، وشبه القمر عبد يكون أحواله في التنقل، صاحب تلوين له من البسط ما يرقيه إلى حد الوصال، ثم يردُّ إلى الفترة، ويقع في النقص بما كان به من صفاء الحال، فيتناقص ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود عليه الحق سبحانه، فيوفقه لرجوعه عن فرقه وإفاقته عن سكرته، فلا تزال تصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله.

والتقويم لاستفادته النور من الشمس ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39] أي: كعذق النخل العتيق الذي عليه الشماريخ المعوجة المصفرة من طول المدى.

وكذا عيّنا بمقتضى قدرتنا وحكمتنا لسير كل واحد منهما حسب الفصول الأربعة مقدارًا من الزمان، بحيث لا يتخلف سيرهم عنه؛ لينتظم أمر المعاش؛ لذلك ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ أي: لا يصح ويتيسر لها ﴿أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: تسرع في سيرها إلى أن تدرك القمر، بل هي بطيئة السير، تقطع البروج الاثني عشر في سنة والقمر سريع السير يقطعها في كل شهر ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: لا يسع ويتيسر له أن يسبق ويدخل في النهار، بل لكل منهما مدة مخصوصة مقدرة من عند الحكيم العليم، لا يسع لهما التجاوز عنها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مخصوص معين من الأفلاك السبعة المتسعة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40] ويسيرون فيه ويدورون فيه على الانبساط والاستقلال، بلا توهم السبق والإدراك.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: 41-46].

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آيَةٌ﴾ عظيمة منا إياهم ﴿لَّهُمْ﴾ أي: يستدلون بها أيضًا على كمال قدرتنا، ويواظبون على شكر نعمتنا، وتلك الآية ﴿أَنَّا﴾ من كمال تربيتنا وتدبيرنا إياهم ﴿حَمَلْنَا﴾ أولاً عند طوفان نوح عليه السلام ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم وأسلافهم، فإن اسم الذرية كما يطلق على الأبناء يطلق على الآباء أيضًا باعتبار أنهم كانوا أبناء لآباء أخر ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1] [يس: 41] المملوء منهم ومن سائر الحيوانات التي لا تعيش في الماء عناية منا إياهم وإبقاء لنسلهم.

---

(1) يشير إلى حمل عباده في سفينة الشريعة خواصهم في بحر الحقيقة، دعواتهم في بحر الدنيا، فإن من نجا من تلاطم أمواج الهوى في بحر الدنيا، إنما نجا بحمله العناية في سفينة الشريعة، وكذلك من تلاطم أمواج الشبهات في بحر الحقيقة بحمله عواطف إحسان ربه في سفينة الشريعة، بملاحية أرباب الطريقة. [التأويلات].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: قدرنا وجعلنا لهم اليوم بتعليم منا إياهم ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: سفنا من جنسه، وهو ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: 42] في متاجرهم وأسفارهم في البحر.

﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إفناءهم واستئصال نوعهم بالمرة ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ بالطوفان ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مغيث لهم حينئذ ينصرهم وينجيهم من الغرق ﴿وَلَا هُمْ﴾ بأنفسهم ﴿يُنقَذُونَ﴾ [يس: 43] وينجون من تلك المهلكة.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أدركتهم وأنجتهم من الغرق ﴿وَ﴾ أمهلناهم أيضًا بعد إنجائنا إياهم ﴿مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: 44] أي: تمتيعًا لهم ولأخلافهم وذرياتهم إلى قيام الساعة كي نختبرهم، هل يصلون إلى ما جبلوا لأجله من المعرفة والتوحيد والهداية والإيمان مع أنا أرسلنا إليهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين؟!.

﴿وَ﴾ هم - أي: أسلافهم - مثل هؤلاء الضالين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إصلاحًا لأحوالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مما جرى على أسلافكم من الوقائع الهائلة والنوائب الشديدة السالفة، الواصلة إليهم بشؤم مفاسدهم وطغيانهم على الله وعلى أنبيائه ورسله بالخروج عن إطاعتهما وانقيادهما ﴿وَ﴾ احذروا عن ﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ من العذاب الموعود لعصاة العباد، المتمردين على ربقة العبودية وصراط التوحيد، الضالين عن جادة السلامة بترك مقتضيات الحدود الإلهية ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: 45] من عند الله بتقواكم عن محارمه ومحظوراته.

﴿وَ﴾ هم أيضًا أمثالكم أيها المفرطون في الإعراض عن الحق في سبيله، بل ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ مشيرة لهم إلى ما يعينهم ويليق بحالهم، رادعة عما لا يعنيهم ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الصادرة عن محض الحكمة والعدالة ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1] [يس: 46] مكذبين لها، مستهزئين بمن جاء بها أمثالكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا

---

(1) قال في التأويلات: هذا حال المسبيين في أودية الخذلان الموسومين بسمة الحرمان، فلا يأتيهم منه آية من آيات الله؛ لينجيهم من بحر الغفلة ويريحهم من تيه الحيرة إلا قابلوه بإعراضهم ونازعوه باعتراضهم.

يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: 47-50].

﴿وَ﴾ هم أيضًا من كمال قسوتهم وبغيهم أمثالكم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح وتنبيهًا لهم على محض الخير: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من فواضل نعمكم إلى الفقراء الفاقدين لها؛ لتتصفوا بالكرم وتفوزوا بمرتبة الإيثار ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا منهم بآيات الله بعدما سمعوا الأمر الإلهي الوارد على الإنفاق من ألسن المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى المصدقين الممتثلين بأوامر الله ونواهيه إيمانًا واحتسابًا على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أي: تأمروننا أيها الجاهلون الضالون أن نعطي ونطعم ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على إطعام عباده جملة ﴿أَطْعَمَهُ﴾ وبعدما لم يشأ مع قدرته لم يطعمهم، فأنتم من تلقاء أنفسكم تأمروننا بالإطعام، وبالجملة: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم بدينكم وأمركم بما لا يشاء ولا يرضى منه سبحانه ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 47] وغواية عظيمة ظاهرة، ادعيتم الإيمان بالله، وأمرتم بخلاف مشيئته وإرادته.

﴿وَ﴾ مهما سمعوا من المؤمنين أمثال هذه الأوامر الجالبة لروح الله ورحمته في اليوم الموعود ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل الاستهزاء والتهكم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي أوعدنا به، عينوا لنا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: 48] في دعواكم، يعنون بها ﷺ وأصحابه.

ثم قال سبحانه في جواب هؤلاء الضالين المبطلين: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون هؤلاء المنكرون المعاندون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هائلة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بغتة ﴿وَهُمْ﴾ حين وقوعها ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: 49] أي: يختصمون ويتخاصمون بعضهم مع بعض في العقود والمعاملات.

ومتى فاجأتهم الصيحة الفظيعة الفجيعة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿تَوْصِيَةً﴾ وإيصاءً كما هو المعروف بين الناس في حال النزع؛ أي: لا يمهلهم الفزع المهلك مقدار أن يأتوا بالوصية ﴿وَلَا﴾ يمهلهم أيضًا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 50] أي: ينقلبون إلى بيوتهم، ويتكلمون مع أهليهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن

بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: 51-54].

وبالجملة: متى سمعوا الصيحة الأولى ماتوا فجأة بلا إمهال لهم ساعة ﴿وَ﴾ بعدما ماتوا بالصيحة الأولى، وصاروا كسائر الأموات ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ مرة أخرى بعد الصيحة الأولى ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: جميع الأموات، صاروا أحياء قائمين هائمين، خارجين ﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الذي يناديهم للعرض والجزاء ﴿يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51] يذهبون ويسرعون طوعًا وكرهًا؛ إذ لا مرجع لهم سواه، ولا ملجأ إلا هو.

ثم لما أفاقوا من ولههم وحيرتهم ورأوا مقدمات العذاب والنكال ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض متحيرين متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلكنا، تعال فهذا أوانك ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: قبرنا الذي كنا فيه مستودعين؛ أي: كل منا مستودع على صاحبه، وإن كان هنالك عذاب أيضًا، لكن لا تفضيح، أو المعنى: من أيقظنا عن نومنا الذي كنا عليه قبل النفخة الثانية المجيئة، وبعد النفخة الأولى المهيئة، إنما قالوا ما قالوا تحسرًا وتحزنًا.

ثم قيل لهم حينئذ من قبل الحق: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: يومكم هذا هو اليوم الموعود الذي وعده الرحمن، وأخبره على ألسنة رسله وكتبه؛ لينقذكم من عذابه بمقتضى سعة رحمته ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52] في جميع ما جاءوا من قِبل ربهم من الأمور المتعلقة بالنشأة الأخرى، وأنتم من كمال بغيكم وبغضكم على الله ورسوله في النشأة الأولى أنكرتم الرحمن وكذبتم الرسل الكرام، فاليوم يلقاكم ما كذبتم به.

ثم قال سبحانه تقريعًا وتوبيخًا على المشركين المنكرين لقدرته وكمال عزته وسطوته واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وإظهارًا لعلو شأنه وسمو برهانه بأن أمثال هذه المقدورات في جنب قدرتنا الكاملة في غاية اليسر والسهولة؛ لذلك ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت الفعلة منا في أمر البعث وقيام الساعة وحشر الأموات ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صادرة بأمرنا فجأة، وهي الصيحة الثانية، أو ما وقعت الفعلة منا وبأمرنا إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: كل الأموات مجموعون ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

[يس: 53] عندنا، مع أنه صدر عنا في إحضارهم وجمعهم إلا صيحة واحدة دفعية.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: بعدما حضر الكل لدينا واجتمع عندنا للعرض والحساب وتنقيد الأعمال، وجزاء الأفعال الصادرة عنهم في دار الاختبار ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ولا تنقص من أجور أعمالها الصالحة ﴿وَ﴾ لا تزاد أيضًا على فاسدها على مقتضى عدلنا، بل ﴿لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: 54] أي: بمقتضى عملهم، إن كان خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: 55-62].

ثم فصل سبحانه أحوال الأنام في النشأة الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهم الواصلون إلى مقر التوحيد والمعرفة علمًا وعينًا وحقًا ﴿الْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة المعد للجزاء ﴿فِي شُغُلٍ﴾ عظيم من أنواع المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات القالعة لعرق التقليدات، والتخمينات التي هي من لوازم الإمكان الذي هو من أسفل دركات النيران ﴿فَاكِهُونَ﴾[1] [يس: 55] فرحون، متلذذون أبدًا بلا انقراض

---

(1) قال في التأويلات: فيها إشارات:

منها: إنه لما كان الغالب عليهم طلب الجنة والأخذ بمجامع قلبهم، أمرُها: أضيفوا إليها، قيل لهم: إن أصحاب الجنة كما أنه من الغالب عليه طلب الدنيا، وهو في أسرها أضيف إليها، وقيل له: صاحب الدنيا.

ومنها: إنه لما كانت هممهم مقصورة على طلب الجنة شغلهم الله بالفاكهة مع أزواجهم عن طلب الله دون المعاشقة عند المشاهدة والمعاينة، وهو قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:56] أي: يكونوا متكئين على هذه الحالة وهذه الأحوال، وإن جلت عنهم بالنسبة إلى أصحاب الجحيم، ولكنها بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر من الملوك والسلاطين، الذين هم أهل الله وخاصته يتقامرون، وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «إن أكثر أهل الجنة البله»، عن بعض أرباب النظر أنه كان واقفًا على باب الجامع يوم الجمعة، والخلق قد فرغوا من

الصلاة وهم يخرجون عن الجامع، قال: «هؤلاء حشر الجنة»، وللمجالسة أقوام آخرون، ومن كان في الدنيا عن الدنيا حُرًا فلا يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حرًا، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:15]، ولعل يكون هذا الخطاب لأقوام فارغين عن الالتفات إلى الكونين مراقبين للمشاهدات، الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ يعني: عن تعلقات الكونين ﴿فَانصَبْ﴾ [الشرح:7]؛ أي: اطلب الحق تعالى، ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:8]، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس:55] ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ [يس:56] أي: أشكالهم، فارغبوا أنتم إليّ واشتغلوا بي، وتنعموا بنعيم وصالي، وتلذذوا لمشاهدة جمالي، وتصدروا بطالعة جلالي، وقيل: قرئ عند الشبلي قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ...﴾ [يس:55] الآية، فشهق شهقة وغاب فلما أفاق قال: فإنهم مساكين لو علموا أنهم عما شغلوا لهلكوا.

ومنها: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، يعني: في الدنيا ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ بأنواع الطاعات والعبادات عن طلب الحق والشوق إلى لقائه كانوا يطلبون منه، وما كانوا يطلبون كما روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رأيتُ ربَّ العزة في منامي، فقال لي: يا معاذ كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد، فإنه يطلبني، وروي عن أبي يزيد أنه قال: رأيت ربي في المنام، فقال لي: يا أبا يزيد أنا بدك اللازم فالزم بدك، فاعلم أن كل مطلوب يوجد في الآخرة أنه ثمرة بذر طلبه في الدنيا، كما قال ﷺ: «يموت الناس على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه».

ومنها: يجود كمال كرمه أنه تعالى يخاطب بهذا الأقوام من عصاة الموحدين، وهم في العرصات بعد لم يدخلوا الجنة، فيقول الحق تعالى لهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:53] إن كان أهل النار لا يتفرغون إليكم لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شغل عنكم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهاليهم وأشكالهم، فليس لكم اليوم إلا أنا من فرط كرمي ورحمتي، فيدعون منه السلامة عن النار برحمته، ودخول الجنة بكرمه، فيعطي سؤلهم ويبذل مأمولهم، وذلك تحقيق قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:57. 58].

ومنها: إن لله عبادًا استخصَّهم للتخلق بأخلاقه في سر قوله: «كنت له سمعًا وبصرًا فبي يسمع وبي يبصر»، فلا يشغلهم شأن اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم عن شأن شهود مولاهم في الجنة، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته بأي حال من حالاتهم، ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم من معارفهم، ويقول: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:58]، يشير إلى أن سلامه تبارك وتعالى كان قولاً منه بلا واسطة وأكّده بقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس سلام على لسان سفيره، وقوله: «من رحيم» فالرحمة في تلك الحالة أنه يرزقهم الرؤية في حال ما تسلم عليهم؛ ليكمل لهم النعمة.

وإشارة أخرى أن السلام من الرب الرحيم لو لم يكن صادرًا عند تجليه ﷻ لأهل الجنة لتلاشت من سطوة جلاله الجنة وما فيها، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج على بساط قرب أو أدنى في

وانقضاء أصلاً.

بل ﴿هُمْ﴾ في شهودهم ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ التي هي نتائج أعمالهم الصالحة ﴿فِي ظِلالٍ﴾ أي: ظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ أي: المعارج العليّة والدرجات السنيّة ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: 56] متمكنون راسخون، لا يتحولون منها ولا ينقلبون.

بل ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ عناية منا إياهم ﴿فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة من تجددات المعارف والحقائق وتلذذات المكشوفات والشهودات على مقتضى التجليات الإلهية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَهُم﴾ فيها ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: 57] ويتمنون من مقتضيات التجليات المتشعشعة حسب الشئون والتطورات الإلهية التي لا نهاية لها، بلا تناه وتكرر.

وقيل لهم من قبل الحق حينئذ: ﴿سَلامٌ﴾ أي: تسليم وترحيب لهم وتكريم ﴿قَوْلاً﴾ ناشئًا ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58] أي: مرب مشفق لهم، يربيهم بمقتضى سعة رحمته على فطرة التوحيد، ويوصلهم إلى مقر الوحدة الذاتية بعدما رفعوا الشواغل المانعة عن التوجه إليها، ورفضوا العلائق العائقة عن التمكن دونها والتحلي بها.

﴿وَ﴾ قيل حينئذ للمشركين المصرين على الشرك والعناد: ﴿امْتَازُوا﴾ وتميزوا ﴿الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59] المفرطون المسرفون في الإعراض عن الله بمتابعة الشيطان المضل المغوي عن طريق توحيدهم.

ثم قرّعهم سبحانه وعاتبهم؛ زجرًا لهم وطردًا على وجه العموم؛ لئلا يأمن المؤمنون مع اطمئنانهم على الإيمان ورسوخهم في العرفان ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي

خلوة «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» بتجلي ذاته وصفاته سبحانه وتعالى على وجه لم يتخصص به أحد من العالمين قبله ولا بعده، ما أثبته إلا قوله تعالى: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، ما سلم من تلك السطوة إلا في حفاوة سلامه كما سلم إبراهيم ﷺ من البرد حين قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]، وبقوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:59] يشير إلى امتياز المؤمن والكافر في المحشر والمنشر بابيضاض وجه المؤمن، واسوداد وجه الكافر، وبإيتاء كتاب المؤمن بيمينه، وبإيتاء كتاب الكافر بشماله، وبثقل الميزان بالنور وبخفّه بالظلمة، وثبات القدم على الصراط وزلة القدم.... وغير ذلك.

﴿آدَمَ﴾ ولم آخذ منكم موثقًا وثيقًا في مبدأ فطرتكم وبألسنة استعداداتكم وقابلياتكم ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا﴾ أي: بألَّا تعبدوا ﴿الشَّيْطَانَ﴾ ولا تطيعوا منه ولا تقبلوا منه قوله ووساوسه المبعدة المحرفة لكم عن طريق توحيدي، إنما أحذركم يا ابن آدم عن إطاعته وانقياده ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60] ظاهر العداوة يريد أن يصدكم عمَّا جبلتم عليه بإغرائه وإغوائه.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ ووحدوني، واعتقدوا كمال أسمائي وأوصافي واستقلالي في عموم تدبيراتي وتصرفاتي في ملكي وملكوتي، وامتثلوا أمري ولا تشركوا معي في الوجود شيئًا من مظاهري ومصنوعاتي ﴿هَٰذَا﴾ المعهود الموثوق ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 61] موصل إلى توحيدي، فاتخذوه سبيلاً، ولا تركنوا إلى الذين ضلوا عن طريقي وظلموا أنفسهم بالخروج عن مقتضى حدودي وأوامري وأحكامي وحكمي وتذكيراتي.

﴿وَ﴾ كيف تعبدون الشيطان وتتبعون أثره وتنقادون أمره أيها العقلاء المجبولون على فطرة الهداية والرشاد؛ إذ ﴿لَقَدْ أَضَلَّ﴾ وأغوى هذا الغاوي المغوي ﴿مِنكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ وجماعة متعددة من بني نوعكم، فانحرفوا بإضلاله عن سواء السبيل ونقضوا بإغوائه وإغرائه المواثيق والعهود، فحرموا بذلك عن الجنة الموعودة لهم، فاستحقوا جهنم البعد ونيران الخذلان ﴿أَ﴾ تعبدون الشيطان وتقتفون أثره ﴿فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 62] أي: لم تستعملوا عقولكم في فظاعة أمره وشدة عداوته ووخامة عاقبة متابعته، وفيما يترتب على إضلاله من العذاب المخلد والنكال المؤبد، فتختارون متابعته وتقبلون منه تغريره، وتتركون طريق التوحيد، أفلا تعقلون أيها المسرفون المفرطون؟!.

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[يس: 63-68].

وقيل لهم حينئذ مشيرًا إلى منقلبهم ومثواهم: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ﴾ أيها الضالون، الغاوون، المغرورون ﴿تُوعَدُونَ﴾ [يس: 63] في النشأة الأولى بألسنة الرسل والكتب.

﴿اصْلَوْهَا﴾ وادخلوها ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: 64] أي: بشؤم ما تنكرون بذات الله وكمال أسمائه وصفاته، وبما تكذبون كتبه ورسله، وتعرضون عنهم وعن دعوتهم ظلمًا وعدوانًا.

وبعدما عاينوا العذاب وأنواع النكال، وعلموا أن أسبابها ما هي إلا أفعالهم الصادرة عنهم في دار الاختبار عزموا على الإنكار، وقصدوا أن يقولوا معتذرين: والله ما كنا يا ربنا مشركين لك، مكذبين كتبك ورسلك، فيقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ونمنعها عن الكلام؛ حتى لا تتفوهوا بالأعذار الكاذبة ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ ليتكلمن بما صدر عنهن ظلمًا وعدوانًا ﴿وَتَشْهَدُ﴾ أيضًا ﴿أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] [يس: 65] بها من المعاصي والسعي في طلب المنهيات والمحرمات.

وبالجملة: أنطق الله القدير العليم الخبير الحكيم جميع جوارحهم وأركانهم، فاعترف كل منها بما اقترف به صاحبه.

وفي الحديث - صلوات الله وسلامه على قائله -: «**يقال للعبد: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، ثم قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق كل بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام، فيقول للجوارح بعدما أقرت واعترفت: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا، فعنكُنَّ كنت أناضل**»[2] انتهى الحديث.

والسر في إنطاق الله سبحانه الأعضاء والجوارح بما صدر عنها هو الإشارة إلى

---

(1) قال في التأويلات: فيشير إلى أن الغالب على الأفواه الكذب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:167]، والغالب على الأعضاء الصدق، ويوم القيامة يسأل الصادقون عن صدقهم، فلا يسأل الأفواه فإنها كثيرة الكذب، ويسأل الأعضاء فإنها كثيرة الصدق، تشهد بالحق، أما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة لهم، وأما العصاة من المؤمنين الموحدين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضًا لهم بالإحسان، فكما قيل: بيني وبينك يا ظلوم الموقف والحاكم العدل الجواد المثقف، وفي بعض الأخبار المروية المسندة: أن عبدًا يشهد عليه أعضاؤه بالزلة فتتطاير شعرة جفن عين عبدي واحتجي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه فيغفر له، وينادي منادٍ هذا عتيق الله بشعرة.

(2) رواه مسلم (15/19).

أن الالتفات إلى السوى والأغيار مطلقًا مضر لذوي الألباب والاعتبار، وسبب تفضيح وتخذيل لدى الملك الجبار الغيور القهار، فلا تذهب إلّا إلى الله، ولا تصحب إلّا مع الله، ولا تعتمد إلّا بالله، ولا تتوكل إلّا على الله، فاتخذه سبحانه وكيلاً، وكفاك سبحانه حسيبًا وكفيلاً.

رزقك الله وإيَّانا حلاوة صحبته، وجنبك وإيَّانا عن الالتفات إلى غيره بمنّه وجوده.

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته واختباره: ﴿وَ﴾ كما ختمنا على أفواههم حينئذ وطبعنا على قلوبهم قبل ذلك حينما قبلوا دعوة الرسل ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ أن نعميهم ونذهب بأبصارهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ وصيرناها مطموسة ممسوحة كسائر أعضائهم، بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ وبادروا ﴿الصِّرَاطَ﴾ والطريق المعهود لهم، وهم قد مروا عليها مرارًا كثيرة ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 66] فكيف يبصرون بعدما صاروا مطموسين.

بل ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ أي: نسقطهم عن ربقة التكليف ودرجة الاعتبار ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ وأخرجناهم عن رتبة الإنسانية إلى الحيوانية، بل عن الحيوانية إلى الجمادية أيضًا، إلى أن صاروا جامدين خامدين ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ كالجمادات الأخر بحيث لا يسع أن يتحولوا عنها أصلاً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: 67] يعني: لو نشاء مسخناهم وأخرجناهم عن رتبة الخلافة والنيابة وفطرة التكليف والتوحيد، لصيرناهم جمادات لا قدرة لهم على الذهاب والإياب أصلاً.

وبالجملة: هم بسبب أعمالهم الفاسدة وأفعالهم القبيحة وأوصافهم الذميمة وأخلاقهم الغير مرضية أحقاء أن يُفعل لهم ما ذكرنا، لكن سبقت رحمتنا واقتضت حكمتنا أن نمهلهم زمانًا إلى أن يتنبهوا أو يتولد منهم من يتنبه ويتفطن.

﴿وَ﴾ كيف لا نقدر على الطمس والمسخ مع أنَّا بمقتضى قدرتنا وقوتنا ﴿مَن نُّعَمِّرْهُ﴾ منهم، ونطيل عمره في الدنيا ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ونضعفه بالآخر إلى أن نرده إلى أرذل العمر؛ لكيلا يعلم بعد علم شيئًا، ثم نميت الكل ونصيرهم ترابًا وعظامًا، ولاشك أن من قدر على الإحياء والإماتة والتطويل والتنكيس، قادر على المسخ والتطميس، فمن أين يتأتى لهم أن ينكروا قدرتنا واختيارنا في أفعالنا، واستقلالنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا؟! ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: 68] ويتأملون آثار قدرتنا الكاملة

الظاهرة على الآفاق والأنفس أولئك العقلاء المتأملون حتى يتفطنوا ويتيقنوا بها.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: 69-76].

ثم لما قال كفار مكة خذلهم الله: إن محمدًا شاعر، وما جاء به مفترى إلى ربه من جملة الأشعار والقياسات المخيلة المشتملة على الترغيبات والتنفيرات والمواعيد والوعيدات، وادِّعاء النبوة والوحي والمعجزة ما هو إلا قول باطل وزور ظاهر.

رد الله عليهم قولهم هذا على وجه المبالغة والتأكيد فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: ما جعلنا فطرته الأصلية واستعداده الجبلي قابلة على القياسات الشعرية المبنية على محض الكذب والخيال المرغب أو المنفر، بل ما جعلناها إلا منزهة عنها، بريئة عن أمثالها، طاهرة عن أدناس الطبيعة مطلقًا، خالصة عن شوائب الإمكان ولوث الجهل والتقليد، متحلية باليقين والبرهان المنتهي إلى الكشف والعيان، ثم إلى الحق الذي هو منتهى الأمر في باب العرفان، بل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ويليق بشأنه وبشأن كتابه أن ينسب هو وهو إلى الشعر والشعراء اللذين هما أبعد بمراحل عن ساحة جلالهما، بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الكلام المنزل على خير الأنام ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ناشئ عن العلم والحكمة المتقنة الإلهية مشير إلى التوحيد الذاتي، منبه عليه ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 69] مشتمل على أحكام ظاهرة وآيات واضحة وبينات لائحة، محتوية على الأوامر والنواهي الإلهية، والحدود والقوانين الموضوعة بالوضع الإلهي بين عباده؛ ليوصلهم إلى طريق توحيده، منزلة على رسوله المستعد لحمله وقبوله.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أنت يا أكمل الرسل بالتبليغ، إن قرئ على صيغة الخطاب، أو القرآن إن قرئ على الغيبة ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ بحياة الإيمان، موفقًا من عندنا باليقين والعرفان، معدودًا عن عداد السعداء في حضرة علمنا ولوح قضائنا ﴿وَ﴾ ألا ﴿يَحِقَّ الْقَوْلُ﴾

ويجب الحكم منا بلحوق العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: 70] المصرين على الكفر والعناد المائتين بموت الجهل والإنكار.

﴿أَ﴾ ينكرون أولئك المنكرون المشركون توحيدنا، ويكفرون نعمنا الفائضة عليهم على التعاقب والتوالي ﴿وَ لَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّا﴾ بمقتضى جودنا ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ بمحض قدرتنا وحكمتنا ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ بلا صنع لهم وتسبب ومظاهرة ﴿أَنْعَامًا﴾ أجناسًا وأنواعًا وأصنافًا ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾[1] [يس: 71] متصرفون فيها، ضابطون لها، قاهرون عليها.

﴿وَ﴾ كيف لا يملكون ولا يتصرفون فيها بأنواع التصرفات مع أنّا قد ﴿ذَلَّلْنَاهَا﴾ وسخرناها؛ أي: أجناس الأنواع مع كمال قوتها وقدرتها ﴿لَهُمْ﴾ ولم نجعلها آبية وحشية عنهم، بل مقهورة لهم مذللة لحكمهم؛ لذلك ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: مراكبهم التي يركبون عليها كالإبل والخيل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 72] من لحومها وشحومها.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونتائجها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 73] نعم الله الفائضة عليهم، المهمة لهم، المقوّية لأمزجتهم.

﴿وَ﴾ من علامة كفرانهم بنعم الله، ونسيانهم حقوق كرمه أنهم ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية أولياء وسموهم ﴿آلِهَةً﴾ مستحقة للعبادة والرجوع في المهمات وكشف الملمات ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: 74] بهم وبشفاعتهم عن بأس الله وبطشه مع أنهم لكونهم جمادات ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون ﴿نَصْرَهُمْ﴾ أي: نصر عابديهم، بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: العابدون ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمعبودين ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: 75] حولهم، حافظون لهم، مزينون إياهم بأنواع التزيينات، وبالجملة: هم منسلخون عن مقتضى العقل بعبادتهم إياهم واتخاذهم أولياء

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما خلق بالوسائط وغير الوسائط، ومما خلق بغير الوسائط خلق لهم أنعامًا، ذكّر عظيم منته عليهم وجميل نعمته لديهم بما خلق لهم المخلوقات، وبما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه من الانتفاع فهم لها مالكون؛ ليتفعوا بركوبها وأكل لحومها وشحومها وبشرب ألبانها، وما يحمل عليها بالتقرب بها في قطع المسافة البعيدة إلى الزيارات والمواضع الشريفة والمزارات المتبركة، ثم بأصوافها وأدبارها وشعورها.

شفعاء، وتسميتهم آلهة دون الله.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل حالهم وحال معبوداتهم ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ بأنك شاعر أو مجنون، وبأن كتابك شعر، ومن أساطير الأولين، وبأنك كاذب في دعوى الرسالة والنبوة، وبأن إخبارك بالبعث زور باطل ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من الكفر والإنكار بتوحيدنا واستقلالنا بالتصرف في ملكنا وملكوتنا ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: 76] من الفسوق والعصيان، والخروج عن مقتضى حدودنا ظلمًا وعدوانًا، فنجازيهم على مقتضى علمنا بهم وبأعمالهم.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ
بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾
أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: 77-83].

ثم لما بالغ الكفرة المنكرون المصرون في إنكار البعث وتكذيبه، وجادلوا مع رسول الله ﷺ على وجه العناد والمكابرة، حتى أتى أبي بن خلف، أتى بعظم بال، وفته عند النبي ﷺ فقال متعجبًا على سبيل الإنكار مستبعدًا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [المؤمنون: 82] كذلك إنا مخرجون مبعوثون ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: 36].

رد الله سبحانه لمن أنكر قدرته على البعث فقال: ﴿أَ﴾ ينكر المنكر قدرتنا على إعادة الروح إلى الجمادات ﴿وَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ﴾ المجبول على الدراية والشعور، ولم يتذكر ولم يعلم ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وقدرنا وجوده أولاً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، وهي أرذل من التراب ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ اليوم بعدما سويناه رجلاً كاملاً في العقل والرشد ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77] ومجادل زعيم، ظاهر المراء والمجادلة معنا، منكرًا لقدرتنا، مع أنه كان جمادًا أرذل في غاية الرذالة والحقارة.

﴿وَ﴾ ما يستحي منا ومن قدرتنا حتى ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ موضحًا لنفي قدرتنا ﴿وَ﴾ قد ﴿نَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي: خلقنا إياه، ومن كمال نسيانه وضلاله ﴿قَالَ﴾ متعجبًا على سبيل الإنكار: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ﴾ البالية ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ رَمِيمٌ﴾[1] [يس: 78] بالية في غاية البلى إلى حيث تفتت أجزاؤها وتطيرت بالرياح.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم بعدما بالغوا في الإنكار والاستبعاد: ﴿يُحْيِيهَا﴾ أي: العظام، ويعيد الروح إليها ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ أي: المحيي، القادر المقتدر على خلقها وإبرائها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من كتم العدم إنشاءً إبداعيًا بلا سبق مادة ومدة ﴿وَ﴾ إن استبعدوا واستحالوا جميع الأجزاء المنبثة المفتتة، الممتزجة بعضها مع بعض إلى حيث يستحيل امتيازها وافتراقها أصلاً، قل: ﴿هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ ومخلوق من نقير وقطمير ﴿عَلِيمٌ﴾ [يس: 79] بعلمه الحضوري، لا يغيب عن حيطة علمه ذرة، ولا يشتبه عليه شيء من معلوماته، فله سبحانه أن يميز أجزاء كل شخص شخص، ويركبها على الوجه الذي كان عليه في النشأة الأولى، ثم يعيد الروح عليه، فصار حيًا كما كان، وما ذلك على الله بعزيز.

وكيف لا يقدر العليم الحكيم على امتياز أجزاء الأنام والتئامها وإعادة الروح إليها هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ بمقتضى علمه وقدرته ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾ الرطب الذي يتقاطر منه الماء ﴿نَارًا﴾ مع أن بين النار والماء من التضاد، وكيف تنكرون إخراج النار من الشجر الرطب ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: 80] حينًا كثيرًا.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: شجرتان معروفتان يقال لأحدهما: المرخ، وللآخر: العفار، فمن أراد منهما النار، قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فيخرج منهما النار بإذن الله تعالى.

---

(1) قال شيخ المصنف روزبهان: إن في خلق الإنسان ووجوه الحسان من علامات قدرته أكثر مما يكون في الكون؛ لأن الكونين والعالمين في الإنسان معجون وفيه عمله معلوم، ولو عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأن الخليقة مرآة الخليقة تجلت في الخليقة لأهل المعرفة، ورُبَّ قلبٍ ميتٍ يحيا بجماله بعد موت جهالته، وإحياؤه بمعرفته. قال الواسطي: ضرب الأمثال في القرآن إعلامًا لصحة الطرق للموحدين على حدة، وللعالمين على حدة؛ ليعلموا أن قليلاً من روائح نفحاته خيرٌ من كثير توحيدهم ومعاملاتهم.

ولهذا قال الحكماء: لكل شجر نار إلّا العناب.

ثم أشار سبحانه أيضًا إلى كمال قدرته واختياره فقال: ﴿أَ﴾ ينكر المنكرون قدرتنا على البعث وحشر الموتى ﴿وَلَيْسَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات وما فيها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي: السفليات وما عليها ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ويعيدهم أحياء كما كانوا ﴿بَلَى﴾ من قدر على خلق السموات العلا والأرضين السفلى، قادر على بعث الموتى وحشرهم في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر ﴿هُوَ الْخَلَاقُ﴾ المبالغ في تكثير الخلق والإيجاد، إبداء وإعادة ﴿الْعَلِيمُ﴾[1] [يس: 81] بجميع المعلومات، أزلاً وأبدًا على التفصيل بحيث لا يخرج عن حيطة حضوره ذرة من ذرائرها ما كان ويكون، بل الكل عنده ممتاز محفوظ.

ولا تستبعدوا أيها الجاهلون بالله وبعلمه، وقدرته وسائر أوصافه الكاملة وأسمائه الشاملة أمثال هذا، بل هي بالنسبة إليه سبحانه سهل ويسير.

وكيف لا يسهل عليه سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ وشأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي: تعلق إرادته بتكوين شيء من معلوماته ومقدوراته ﴿أَن يَقُولَ لَهُ﴾ بعد تعلق إرادته: ﴿كُن﴾ المؤدي لأمره وحكمه ﴿فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] المأمور المحكوم بلا تراخ ومهلة، والتعقيب إنما نشأ من العبارة وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه سبحانه.

إياك ومحتملات الألفاظ، فإنها بمعزل عن أداء كيفية أمر الله وشأن حكمه وقضائه على وجهه، ومتى سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ومتانة حكمته وحيطة علمه وإرادته ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وله التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته؛ يعني: تنزه ذات من بيده مقاليد الملك والملكوت من أن يعجز عن إعادة الأموات أحياء بعدما أبدعهم عن العدم كذلك، ولم يكونوا حينئذ شيئًا مذكورًا، تعالى شأنه عما يقولون في حقه علوًا كبيرًا ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على

---

(1) قال في التأويلات: بهذه الإشارات مهد سبيل الرشاد إلى الاستدلال، وقال: إن الإعادة في الابتداء، فإذا أقررتم بالابتداء فأي إشكال بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ ثم قال: الذي قدر على خلق النار في الأغصان الرطبة من المرخ والعفار قادر على خلق الحياة في الرمة البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مثل الشيء كالقدرة عليه لاستوائها بكل وجه، وأنه يحيي النفوس بعد موتها في العرصة، كما يحيي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلب بالعرفان لأهل الإيمان كما يحيي نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان.

البعث والإحياء؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير معه في الوجود، ولا إله سواه موجود ومشهود ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83] رجوع الأمواج إلى الماء، والأضواء إلى الذكاء؛ سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في كيفية رجوع الكائنات إلى الوحدة الذاتية وإيناط المظاهر والمصنوعات إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي - أزال الله عن بصر بصيرتك سبل الحول، وأعانك على رفع الحجب وكشف العلل - أن تصفِّي باطنك عن الميل إلى الغير مطلقًا، بحيث يصير باطنك مملوءًا بمحبة الله، فتترسخ تلك المحبة فيه وتتمرن إلى أن خفي عليك خواطرك وهواجس نفسك، ثم تسري من باطنك إلى ظاهرك، فيشغلك عن جميع مشتهياتك ومستلذاتك، ومقتضيات قواك وجوارحك، فيمتلئ منها ظاهرك وباطنك، فحينئذ لم يبق لك التفات إلى الغير مطلقًا، فصرت حيرانًا، مدهوشًا، مستغرقًا بمطالعة وجهه الكريم، وبعدما صرت كذلك، جذبك الحق عنك وسترك عليك إلى أن غبت فيه وفنيت، فحينئذ حق لك أن تقول بلسان استعدادك بعدما فنيت آثار رسومك في الله: إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الصافات

لا يُخفى على أرباب الصفوة من المنجذبين نحو الحق المنكشفين بانبساط وحدته الذاتية، حسب شئونه وتطوراته المتنشئة من أسمائه وصفاته الذاتية على صفائح المظاهر، والمجالي الغير المحصورة والعكوس والظلال الغير المتناهية، أن الوحدة الحقيقة الحقية لما أرادت أن تتجلى بالتجلي الحبي لإظهار الكمالات المندمجة في ذاتها، المقتضية للظهور والجلاء، تنزلت مرتبة الأزلية الأحدية والعمى، فظهرت المراتب والكثرات.

فأول كثرة ظهرت منها هي الأسماء الحسنى، والصفات العليا غير المنحصرة، الموسومة عند أرباب الأذواق بالملائكة، المهيمين الوالهين بمطالعة وجهه الكريم، الصافين حول عرشه العظيم، ثم ظهرت من تلك الأسماء والصفات كثرة الآثار والأظلال المنعكسة، ثم تترتب على تلك العكوس والأظلال من اللوازم والعوارض الفانية للحصر.

وبعدما بلغت الكثرة نهايتها تكونت الطبائع والهيولي، والجواهر والأعراض، وحدثت الفتن والأمراض، واختلفت المذاهب والأغراض، وتشبعت الطرق والأحزاب، وتكثرت الملل والنحل، وتزاحمت الأفكار والآراء، وتعارضت الأماني والأهواء.

فحينئذ اقتضت الحكمة الإلهية وضع الحدود والقوانين، وتحميل التكاليف الشاقة على العباد، وتشريع الطاعات عليهم، وإرسال الرسل والأنبياء المؤيدين من عنده سبحانه بالكتب المنزلة الفارقة بين الحق والباطل من السبل، والأحكام المبينة للأمم براهين التوحيد وحجج اليقين؛ ليتميز المحق من المبطل، والموحد من الملحد، والمؤمن العارف من الكافر الجاهل.

ولهذا المطلب العلي والمقصد السني الذي هو التوحيد، أقسم سبحانه بأعظم مخلوقاته وأقربها إلى الذات، وهم الملائكة الصافون حول الذات الأحدية، المهيمون

عند سرادقات العز والجلال، المستغرقون بمطالعة الجمال.

فقال تبارك وتعالى مفتتحاً بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى على ملائكته الحافين بذاته، الصافين حول عرشه العظيم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بعموم فيضه وشمول رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بعكوف في بابه، وبقرهم عند خبابه.

﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ② فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ④ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ⑤ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ⑦ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩﴾ [الصافات: 1-10].

﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ أي: وحق الأسماء والصفات الإلهية الصافين حول الذات الأحدية، المنتظرين لشئونه وتجلياته؛ إذ هو سبحانه في كل آن في شأن، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿صَفًّا﴾ [الصافات: 1] لا يتحولون منه أصلاً، بل هائمون دائمون والهون مستغرقون، منتظرون بماذا يأمرهم ربهم من التدابير المخزونة في حضرة علمه ولوح قضاءه.

ومتى تعلقت إرادته بمقدور من مقدوراته ومراداته المأمورة إياهم وحينئذ زاجرات ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ المدبرات على الفور لما يأمرهم الحق من التدبيرات المتعلقة بنظام الكائنات غيبًا وشهادةً ﴿زَجْرًا﴾ [الصافات: 2] أي: تدبيرًا تامًا كاملاً، حسب المأمور والمقدور بلا فتور وقصور.

ويعدما صدر أمره سبحانه، وجرى قضاءه بقوله: ﴿كُن﴾ [غافر: 68] فهم حينئذ التابعون لامتثال المأمور المقضي، بلا فترة وتسويف ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾ التابعات لإنفاذ قضائه سبحانه القارئات المبلّغات ﴿ذِكْرًا﴾ [الصافات: 3][1] منه، ووحيًا من لدنه سبحانه لمن

(1) أقسم بطوائف الملائكة، الصافّين أقدامهم في مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزاجرات السحاب سوقًا إلى ما أراد الله، أو: عن المعاصي بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرُّض لهم. البحر المديد (224/5).

أمرهم الحق بتبليغه إياهم، وهم الأنبياء والرسل المؤيدون بالوحي والإلهام، المصطفون من بين البرايا بالخلافة والنيابة عن الله، المتحملون لأعباء النبوة والرسالة.

يعني: وبحق هؤلاء الملائكة الذين هم من سدنة حضرة اللاهوت، وخَدَمَة عتبة جناب الرحموت، المنتظرون لما صدر عنه سبحانه من الأمور المتعلقه بالملك والملكوت ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ الذي أظهركم وأبدعكم من كتم العدم، ولم تكونوا أيها العكوس المستهلكة في شمس الذات شيئًا مذكورًا، لا حسًا ولا عقلاً ولا وهمًا ﴿لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: 4] أحد صمد فرد وتر، ليس له شريك في الوجود ولا نظير في الظهور والشهود.

فهو وحده بوحده ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ﴾ العلا ﴿وَالْأَرْضِ﴾ السفلى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكوائن والفواسد الممتزجة منهما إلى ما لا يتناهى، ولا مربي للمذكورات سواه، ولا مظهر للكائنات إلا هو ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: 5] أي: الاستعدادات القابلة لشروق شمس ذاته المتأثرة من أشعة أسمائه وصفاته.

وبعدما ثبت استقلالنا وتوحيدنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا ولاهوتنا وجبروتنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: القربى لكم أيها المكلفون، حيث ترون ما فيها ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6][1] أي: بزينة هي الكواكب، أو البدل على كلا القراءتين بتنوين وبلا تنوين، تزيينًا تبتهجون بها حين تنظرون إليها، وتتأثرون سعدًا ونحسًا إقبالاً وإدبارًا.

﴿وَ﴾ جعلناها ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: بعدما زينا السماء بها صيرناها صائنةً حفظًا لها ﴿مِّن﴾ وصول ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: 7] خارج عن إطاعة الله، مائل عن توحيده إياها.

كي ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي: مردة الشياطين ولا يصغون ﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: إلى الأذكار والاستغفار وسائر الأسرار الجارية على ألسن الملائكة، إذ هم؛ أي:

(1) قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. «تفسير ابن كثير» (177/8).

الشياطين والجن أشبه المخلوقات إلى الملائكة، وإنما منعهم سبحانه عن الإصغاء إليهم؛ لأنهم من كمال عداوتهم مع بني آدم يعكسون عليهم ما يسمعون، فيضلونهم به عن الصراط المستقيم، أو يدَّعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويحتجون بما يسمعون من الملائكة ترويجًا وتغريرًا، ويلبِّسون الأمر على ضعفة الأنام، فيحرِّفونهم عن جادة التوحيد والإسلام ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يُقْذَفُونَ﴾ ويُطردون أولئك الماردون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: 8] من جوانب السماوات وآفاقها.

﴿دُحُورًا﴾ طردًا بليغًا وزجرًا شديدًا ﴿وَ﴾ مع ذلك الطرد والزجر ﴿لَهُمْ﴾ أي: للشياطين ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَاصِبٌ﴾ [الصافات: 9] مؤبَّد دائم، لا ينفك عنهم في حين من الأحيان.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾ أي: يُطرد الماردون، ولا يسمعون إلا من اختطف واختلس من الملائكة الخطفة على سبيل المسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي: تبعه ولحقه على الفور حين اختطافه واختلاسه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10] أي: كوكب مضيء كجذوة النار، يثقب الجني فيقتله، أو يحرقه، أو يخبله.

والقول بأن الشهب من الأمور الكائنة في الجو من الكواكب قول تخميني ابتدعه الفلاسفة من تلقاء نفوسهم، لا يعضده عقل، ولا يوافقه نقل.

وأما قولهم في ضبط الحركات الفلكية والأجرام العلوية، وتقويم الكواكب والبروج، وتقدير الأشكال والصور إلى غيرذلك من الأمور المؤدية إلى الحس ربما يؤدي إلى اليقين، أمَّا في طبائع المكونات وحقائق الموجودات، وكيفية تراكيب الماهيات وغير ذلك من الأمورالحقيقية التي لا مجال للحس فيها ولا لعقل، ما هو إلا تخمين زائل وزور باطل؛ إذ لا يعرف كنه الأشياء إلا خالقها ومظهرها، لا يسع لأحد أن يتفوه عنها، وعن كيفيتها وكميتها وكمية التئامها على ما هي عليها والتركيبات الحقيقية.

وهم؛ أي: مردة الشياطين بمجرد تلك الخطفة المختلسة يضلون كثيرًا من الناس إلى حيث يستعبدونهم، ويأمرونهم بالإطاعة والانقياد إلى أنفسهم، والعبادة إياهم باتخاذهم أولياء آلهة من دوننا جهلاً وعنادًا.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ

عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: 11-21].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: المشركين المتخذين الشياطين أولياء آلهة من دوننا، واستخبرهم يا أكمل الرسل على سبب التبكيت والتعبير تنصيصًا على غيهم، وتصريحًا بكفرهم واستحقاقهم العذاب المؤبد والنكال المخلد ﴿أَهُمْ﴾ أي: آلهتهم وشياطينهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾أي: إيجادًا وتأثيرًا ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا بمقتضى قدرتنا الكاملة من المخلوقات المذكورة التي هي الملائكة الصافات، والسماوات المطبقات، والكواكب المتفاوتة في التأثيرات فيها، والأرض وما عليها من المركبات والمواليد، وبينهما من الممتزجات وغير ذلك من الاستعدادات القابلة لشروق شمس الذات، سيما ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجود هؤلاء المتخذين لغيرنا أربابًا أولاً ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] لاصق منتن مهين لازم النتن والهوان، ثم ربيناهم بأنواع التربية إلى أن سويناهم رجالاً عقلاء؛ ليعترفوا بتوحيدنا وبألوهيتنا وربوبيتنا، ويواظبوا على شكر نعمتنا، فعكسوا الأمر واتخذوا أولياء من دوننا، واعتقدوهم آلهة سوانا، وبالجملة: انقلبوا خاسرين.

أو المعنى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ وسلهم؛ أي: المشركين ﴿أَهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وأعظم مخلوقًا ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ من المخلوقات المذكورة سابقًا مع أنهم لم يتخذوا إلهًا سوانا، ولم يعبدوا غيرنا، هؤلاء الحمقى كيف اتخذوا من دوننا أولياء، ويسمونهم آلهة شفعاء، مع أنهم أضعف بالنسبة إليهم، مخلوقون من أدون الأشياء وأرذلها؟! ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] مسترذل منتن تستكرهه الطبائع.

ومهما سمعت يا أكمل الرسل قولهم وإنكارهم للتوحيد وإشراكهم بالله أدون الأشياء مع ضعف خلقهم، وتأملت حالهم استبعدت منهم هذا ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أنت - أو «عَجِبت» أنا على القراءتين - منهم أمثال هذا، مع أنهم مجبولون على فطرة الدراية والشعور، مرهون لهم العقل المفاض المشير لهم إلى التوحيد وتصديق البعث والحشر

وجميع الأمور الأخروية ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: 12] [1] بك متى سمعوا

---

(1) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ خطاب للرسول ﷺ وجوز أن يكون لكل من يقبله . ﴿وبل﴾ للاضراب إما عن مقدر يشعر به ﴿فاستفتهم﴾ [الصافات: 11] إلخ؛ أي: هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو الحق بل مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل أو عن الأمر بالاستفتاء أي لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل بل مثلك ممن يتعجب منها ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات، وجوز أن يكون المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث مع هذه الآيات وهم يسخرون من أمر البعث، واختير أن يكون المعنى بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، وزعم بعضهم أن المراد بمن خلقنا الأمم الماضية وليس بشيء إذ لم يسبق لهذه الأمم ذكر وإنما سبق الذكر للملائكة عليهم السلام وللسموات والأرض وما سمعت مع أن حرف التعقيب مما يدل على خلافه، ومن قال كصاحب الفرائد عليه جمهور المفسرين سوى الإمام ووجهه بأنه لما احتج عليهم بما هم مقرون به من كونه رب السموات والأرض ورب المشارق وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد قيل لهم: فانتظروا الإهلاك كمن قبلكم لأنهكم لستم أشد خلقًا منهم فوضع موضعه ﴿فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ [الصافات: 11] وقوله تعالى: ﴿إنَّا خلقناهم﴾ [الصافات:11] تعليل لأنهم ليسوا أشد خلقًا أو دليل لاستكبارهم المنتج للعناد . وأيده بدلالة الإضراب واستبعاد البعث بعده لدلالته على أنه غير متعلق بما قبل الاضراب فقد ذهب عليه أن اللفظ خفي الدلالة على ما ذكر من العناد واستحقاق الاهلاك كسالف الأمم؛ وتعليل نفي الأشدية بما علل ليس بشيء لوضوح أن السابقين أشد في ذلك، وكم من ذلك في الكتاب العزيز، وأما الاضراب فعن الاستفتاء إلى أن مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل ولذا عطف عليه ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ وجعل ما أنكروه من البعث من بعض مساخرهم قاله صاحب الكشف فلا تغفل . وقرأ حمزة . والكسائي . وابن سعدان . وابن مقسم ﴿عَجِبْتُ﴾ بتاء المتكلم ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وابن مسعود . والنخعي . وابن وثاب . وطلحة وشقيق . والأعمش، وأنكر شريح القاضي هذه القراءة وقال: إن الله تعالى لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم، وانكار هذا القاضي مما أفتى بعدم قبوله لأنه في مقابل بينة متواترة، وقد جاء أيضًا في الخبر عجب ربكم من الكم وقنوطكم، وأولت القراءة بأن ذلك من باب الفرض أي لو كان العجب مما يجوز عليّ لعجبت من هذه الحال أو التخييل فيجعل تعالى كأنه لانكاره لحالهم يعدها أمرًا غريبًا ثم يثبت له سبحانه العجب منها، فعلى الأول تكون الاستعارة تخييلية تمثيلية كما في قولهم: قال الحائط للوتد لم تشقني فقال سل من يدقني، وعلى الثاني تكون مكنية وتخييلية كما في نحن لسان الحال ناطق بكذا والمشهور في أمثاله الحمل على اللازم فيكون مجازًا مرسلًا فيحمل العجب على الاستعظام وهو رؤية الشيء عظيمًا أي بالغا الغاية في الحسن أو القبح، والمراد هنا رؤية ما هم عليه بالغا الغاية في القبح، وليس استعظام الشيء مسبوقًا بانفعال يحصل في الروع عن مشاهدة أمر غريب كما توهم ليقال: إن التأويل المذكور لا يحسم مادة الاشكال . «تفسير الألوسي» (75/17).

منك الأخبار والآيات الواردة في أمر البعث والحشر.

بل ﴿وَ﴾ هم من شدة قسوتهم وعمههم في سكرتهم ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا بالإنذارات والتخويفات الشديدة المتعلقة للآخرة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: 13] أي: لا يتأثرون ولا يتعظون.

﴿وَ﴾ لا يقتصرون على عدم القبول والتذكر بل ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾ أي: علموا وسمعوا ﴿آيَةً﴾ معجزة نازلة في شأن البعث والنشور ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: 14] بها، ويستهزئون بك يا أكمل الرسل عنادًا واستكبارًا.

﴿وَقَالُوا﴾ من شدة بغضهم وضغينتهم معك يا أكمل الرسل ومع كتابك: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي جاء مفتريًا إلى ربه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 15] أي: سحرية ما جاء به ظاهر، وهو في نفسه ساحر ماهر، لكن مضمون كلامه زور باطل.

﴿أَ﴾ نبعث ونحيى ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ وانفصل عنّا روحنا، سيما ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بالية رميمة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: 16] بعدما صرنا كذلك.

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: 17] الأقدمون يبعثون ويحشرون ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: 36-37].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في إنكار البعث، واستحالة نشأة النشور: ﴿نَعَمْ﴾ تبعوثون أيها الضالون المنكرون، وإلى ربكم تحشرون، وعن أعمالكم تسألون، وعليها تحاسبون، وإلى جهنم تساقون ﴿وَأَنْتُمْ﴾ حينئذ ﴿دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: 18] صاغرون ذليلون مهانون.

وكيف تنكرون قدرتنا على البعث وقيام الساعة ؟! ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: الساعة والبعث بعدما تعلقت مشيتنا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: صيحة واحدة منشرة لهم عن قبورهم، زاجرة لهم نحو المحشر زجر الراعي الصائح للغنم، وبعدما سمع الأموات الصيحة؛ أي: النفخة الثانية في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: 19] حيارى سكارى تائهين والهين.

﴿وَقَالُوا﴾ بعدما قاموا كذلك متحسرين متمنين الهلاك والويل: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلاكنا أدركنا ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: 20] والجزاء الذي وعدنا الله به

على ألسنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فنحن قد كنا ننكره ونكذبه ونستهزئ بمن جاء به وأخبر عنه عنادًا ومكابرة، فالآن نُبتلى به، يا حسرتنا على ما فرطنا في ترك الإيمان به وتصديق مخبره.

وبعدما قالوا ما قالوا، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التقريع والتعبير إظهارًا لكمال القدرة: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ والقضاء بالعدل ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: 21] أيها الضالون المنكرون المصرون على التعنت والعناد.

﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)﴾ [الصافات: 22-33].

ثم أمر سبحانه للملائكة المترصدين لأمره القائمين لحكمه: ﴿احْشُرُوا﴾ وسوقوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، واجمعموهم للحشر ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: أشباههم وأمثالهم وقرناءهم الذين اقتدوا واقتفوا أثرهم معهم ﴿وَ﴾ أحضروا له أيضًا معهم ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 22] ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ظلمًا وعدوانًا؛ أي: معبوداتهم الباطلة تتميمًا لإلزامهم ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي: قدموهم ودلوهم جميعًا ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23].

وبالجملة: سوقوهم بأجمعهم عابدًا ومعبودًا إلى نيران الطرد وجحيم الخذلان ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ واحبسوهم في الموقف ساعة ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24] عن أعمالهم التي جاءوا بها في نشأتهم الأولى محاسبون عليها.

وبعدما سئلوا وحوسبوا جوزوا بمقتضاها ثم سوقوا إلى النار، والسر في السؤال والله أعلم: تسجيل العذاب عليهم؛ لئلا ينسب سبحانه إلى الظلم والعوان ظاهرًا، ولئلا يجادلون معه سبحانه؛ إذ كان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

ثم قيل لهم من قبل الحق توبيخًا وتقريعًا: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما شأنكم، وأي شيء

عرض عليكم أيها الضالون المضلون ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: 25] أي: لا ينصر بعضكم بعضًا؛ أي: معبوداتكم لا تنصر بتخليص عابديهم مع أنكم اتخذتموهم أولياء واعتقدتموهم آلهة شفعاء، فلم لا ينصرونكم ولا ينقذونكم من عذابنا؟ ولم لا تمكرون ولا تحيلون أنواع الحيل والخداع؟ ولم لا تعتذرون بالأعذار الكاذبة؛ لإنقاذكم من عذابنا كما تزعمون في النشأة الأولى؟!.

وهم حينئذ من شدة الهول هائمون حائرون ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: 26] منقادون خاضعون، ومن خوف اشتداد العذاب عليهم خائفون خاشعون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ حين يساقون نحو النار ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 27] أي: يتخاصمون ويتلاومون.

﴿قَالُوا﴾ أي: الضعفاء السفلة منهم لرؤسائهم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المضلون كنتم من شدة شغفكم، وحرصكم على تضليلنا، ومنعنا عن تصديق الرسل وقبول دعوتهم ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: 28] [1] أي: عن أقوى جوانبنا، أو عن أقوى الطرق الموصلة إلى مطلوبكم منا، وهو المال وحطام الدنيا، فتعطوننا منها، وتحرفوننا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء في جواب الضعفاء: ما قولكم هذا إلا افتراء منكم إيانا ومراء، كيف نؤثر نحن في قلوبكم بحيلنا ومكرنا، أو بعطائنا المال إليكم والإحسان عليكم لو كنتم مؤمنين، والإيمان من أفعال القلوب ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا﴾ في أنفسكم

---

(1) ﴿قَالُوا﴾ يعني: السفلة للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين﴾ يعني: من قبل الحق أي: الدين فزينتم لنا ضلالتنا . وروي عن الفراء أنه قال: ﴿اليمين﴾ في اللغة القوة والقدرة . ومعناه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ بأقوى الحيل، وكنتم تزينون علينا أعمالنا . وقال الضحاك: تقول السفلة للقادة:إنكم قادرون وظاهرون علينا . ونحن ضعفاء أذلاء في أيديكم . روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين﴾ عن الحق . يعني: الكفار يقولون: للشيطان . وقال القتبي: إنما يقول هذا: المشركون لقرنائهم من الشياطين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين﴾ يعني: عن أيماننا لأن إبليس قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيمانهم وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين﴾ [الأعراف: 17] وقال المفسرون: من أتاه الشيطان من قبل اليمين، أتاه من قبل الدين، وليس عليه الحق . ومن أتاه من قبل الشمال، أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين يديه، أتاه من قبل التكذيب بالقيامة، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه، وعلى من يخلف بعده، فلم يصل رحمًا، ولم يؤد زكاة . «بحر العلوم» للسمرقندي (487/3).

﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 29] مصدقين، فتميلون على ما كنا عليه طبعًا وهوى، فتفترون اليوم علينا مراء.

﴿وَ﴾ إن ادعيتم إكراهنا إياكم حينئذ فقد كذبتم؛ إذ ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ وغلبة إلى حد تخافون عن قهرنا وإهلاكنا، لو لم تكفروا ﴿بَلْ كُنتُمْ﴾ في أنفسكم كما كنا ﴿قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات: 30] طغيتم وبغيتم على الله كما طغينا وبغينا.

وبالجملة: إنا وإياكم لفي ضلال مبين ﴿فَحَقَّ﴾ أي: لزم وثبت وجرى ﴿عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وحكمه المبرم المثبت في لوح قضائه وحضرة علمه، بأنا وأنتم من الأشقياء المردودين المستحقين لأنواع العذاب والنكال ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات: 31] بأجمعنا اليوم ما كتب لنا ربنا من العذاب.

وبالجملة: سلمنا أنا أضللناكم عن الهدى بمكرنا وخداعنا ﴿أَغْوَيْنَاكُمْ﴾ عن التوحيد والإيمان ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ أيضًا ﴿غَاوِينَ﴾ [الصافات: 32] أمثالكم، فلحق بنا ما لحق بكم، إلى متى تعيروننا وتخاصموننا ؟!.

وبعدما تطاول وتمادى جدالهم وتخاصمهم، قيل لهم من قبل الحق: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ضالاً ومضلاً، تابعًا ومتبوعًا ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ﴾ المؤبد المخلد ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: 33] كما كانوا مشتركين في أسبابه وموجباته في النشأة الأولى.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الصافات: 34-39].

﴿إِنَّا﴾ من كمال قهرنا وجلالنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الهائل الذي هو سوقهم جميعًا إلى النار ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: 34] المتخذين لنا شركاء من دوننا، الخارجين عن ربقة عبوديتنا بالالتفات والتوجه إلى غيرنا.

وكيف لا نفعل به مع المجرمين المشركين كذلك؟! ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية عتوهم وعنادهم ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ تذكيرًا وتنبيهًا: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ في الوجود يعتد به ويرجع إليه

في الخطوب ﴿إِلَّا اللهُ﴾ الواحد الأحد الأحد الصمد الفرد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] هم حينئذ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35] ويعرضون عن كلمة التوحيد ومقتضاها، ويمتنعون عنها وعن معناها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينئذ من غاية تعنتهم، وإصرارهم على الشرك على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَئِنَّا﴾ مع كمال عقلنا ورشدنا ﴿لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ الذين كنا نحن وآباؤنا وأسلافنا لها عابدين عاكفين ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: 36] يتكلم بكلام المجانين، وقد جاء بأباطيل من تلقاء نفسه، مشتملةعلى أساطير الأولين؛ يعنون الرسول ﷺ.

ثم لما تمادوا في طعنه وطغيانه ﷺ، وبالغوا في قدح القرآن وإنكاره، رد الله عليهم على أبلغ وجه وأوضح بيان، فقال سبحانه إضرابًا عن قولهم: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد ﷺ ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ داعيًا على الحق إلى الحق ﴿وَ﴾ علامة حقيته وصدقه أنه ﴿صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 37] المنزلين من عندنا على الحق اليقين.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المكذبون به ﷺ، وبكتابنا المنزل عليه من عندنا ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [الصافات: 38] المعد لكم وأمثالكم في قعر الجحيم.

﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 39] أي: مثلما عملتم وبمقتضاه، بلا زيادة عليه ونقصان، عدلاً منا وقهرًا على من انحرف عن جادة توحيدنا.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: 40-49].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 40] الموفقين على الإيمان والأعمال الصالحة، خالصًا لوجه الله الكريم.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، المرضيون لديه سبحانه ﴿لَهُمْ﴾ من فضل الله إياهم ولطفه معهم ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 41] معد، معين عنده سبحانه صوريًا ومعنويًا، عينيًا وعلميًا، كشفيًا وشهوديًا على ما عملوا من صالحات الأعمال

والأخلاق والحالات.

بل لهم تفضلاً عليهم ومزيدًا لتكريمهم ﴿فَوَاكِهُ﴾ كثيرة يتلذذون بها حسب ما يشتهون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات: 42] عند ربهم، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: 43] المشتملة على الرزق الصوري والمعنوي، متكئين ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ رفيعة حسب رفعة درجاتهم في الإيقان والعرفان والكشف والعيان ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: 44] متواجهين مع قرنائهم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ تشريفًا لهم وتجديدًا لذوقهم وحضورهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ مملوء ﴿مِّن﴾ ماء ﴿مَّعِينٍ﴾ [الصافات: 45] هو خمر الجنة، سمي به؛ لأنه عان ونبع من بحر اللاهوت، وترشح من عين الحياة المنتشئة من حضرة الرحموت.

﴿بَيْضَاءَ﴾ لا لون له يدركها النظر ويخبر عن كيفيتها الخبر ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: 46] أي: لذيذة للعارفين المتعطشين بزلال التوحيد وبرد اليقين، لا يدرك كيفيتها إلا من يذوقها، ومن يذوقها لا يظمأ منها أبدًا، ولا تخرج نشوتها عنه أمدًا، بل يطلب دائمًا مزيدًا.

إذ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلة خمار وصداع يترتب عليها كما يترتب على خمور الدنيا ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: 47] يسكرون إلى حيث يذهب عقولهم ويفسد أمزجتهم ويختل خواطرهم، وينسون مطالبهم ويضلون عن مقاصدهم كما في خمر الدنيا، بل يزيد منها شوقهم وذوقهم ويتكامل طلبهم.

﴿وَعِندَهُمْ﴾ من الأرواح المزدوجة معهم، المقبولة عندهم ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ عليهم، ولا يلتفتن إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ [الصافات: 48] أي: حسان العين والحواجب والأجفان والآماق.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في صفاء البدن وبياضه ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: 49] مصون محفوظ عن الغبار، مخلوط بأدنى صفرة كلون الفضة، وهو أحسن ألوان جسد الإنسان.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ
أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ
﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ

ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: 50-61].

وبعدما يشربون من المعين وشملهم كيفيتها، أخذوا يتحدثون ﴿فَأَقْبَلَ﴾ والتفت ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 50] ويتقاولون مما جرى عليهم في نشأة الدنيا، وما ادخروا فيها للنشأة الأخرى من المعارف والحقائق والأعمال والأحوال والمواجيد، والأخلاق والعبر والأمثال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ على سبيل التذكر والتحاكي عن إنكار المنكرين يوم البعث والنشور ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: 51] [1] في دار الدنيا، منكر لهذه النشأة، وأنا معتقد لها، منتظر لقيامها.

﴿يَقُولُ﴾ يومًا على سبيل النصح والإنكار والاستبعاد: ﴿أَئِنَّكَ﴾ أيها المجبول على الدارية والشعور ﴿لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: 52] والمعتقدين الموقنين .

(1) قال ابن الجوزي في زاد المسير (5 /210): ﴿قال قائل منهم إنّي كان لي قَرِينٌ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه الصّاحب في الدنيا . والثاني: أنه الشريك رويا عن ابن عباس. والثالث: أنه الشيطان، قاله مجاهد. والرابع: أنه الأخ؛ قال مقاتل: وهما الأخوان المذكوران في سورة [الكهف: 32] في قوله: ﴿واضرِب لهم مَثَلا رَجُلَينِ﴾ والمعنى: كان لي صاحب أو أخ يُنكِر البعث ﴿يقول أئنَكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ﴾ قال الزجاج: هي مخففة الصاد، من صدَّق يصدِّق فهو مصدِّق، ولا يجوز هاهنا تشديد الصاد . قال المفسرون: والمعنى: أئنّك لَمِن المُصَدِّقِين بالبعث؟ وقرأ بكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة ﴿المُصَّدِّقِينَ﴾ بتشديد الصاد . قوله تعالى: ﴿أَئنا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجزِيُّون بأعمالنا؛ يقال: دِنْتُهُ بما صنع، أي: جازيته، فأحَبَّ المؤمنُ أن يَرى قرينَه الكافر، فقال لأهل الجنّة، ﴿هل أنتم مُطَّلِعُونَ﴾ أي: هل تحبُّون الاطِّلاع إلى النّار لتَعْلَمُوا أين منزلتُكم من منزلة أهلها؟ وقرأ ابن عباس، والضحاك، وأبو عمران، وابن يعمر: ﴿هل أنتم مُطْلِعُونَ﴾ بإسكان الطاء وتخفيفها ﴿فأُطْلِعَ﴾ بهمزة مرفوعة وسكون الطاء. وقرأ أبو رزين، وابن أبي عبلة: ﴿مُطلِعونِ﴾ بكسر النون. قال ابن مسعود: اطّلع ثم التفت إلى أصحابه فقال: لقد رأيتُ جماجم القوم تغلي؛ قال ابن عباس: وذلك أن في الجنة كُوىً ينظُر منها أهلُها إلى النار، قوله تعالى: ﴿فرآه﴾ يعني قرينة الكافر ﴿في سَواءِ الجحيم﴾ أي: في وسَطها . وقيل: إنما سمي الوسَط سَواءً، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب . قال خُليد العَصَري: واللهِ لولا أنّ الله عرَّفه إيّاه، ما عرفه، لقد تغيَّر حَبْرُه وسِبْرُه . فعند ذلك ﴿قال تالله إنْ كِدتَ لَتُرْدِينِ﴾ قال المفسرون: معناه: واللهِ ما كِدتَ إلاّ تُهلِكني؛ يقال: أرديتُ فلانًا أي: أهلكته ﴿ولولا نِعْمةُ ربِّي﴾ أي: إنعامه عليّ بالإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ﴾ معك في النّار.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ﴾ تعتقد أنت وتصدق ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: 53] أي: مجزيون بأعمالنا التي كنا نعمل، مسئولون عنها، محاسبون عليها ؟!.

كلا وحشا، ما هي إلا حياتنا في الدنيا وما نحن مبعوثين، ثم ﴿قَالَ﴾ لقرنائه في الجنة، مستفهمًا عن حال قرينه المنكر للبعث: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: 54] يعني: هل أنتم تريدون وتطلبون أيها المسرورون في الجنة أن تطلعوا عن ذلك القرين في النار، قالوا له: أنت أحق بإطلاع حاله؛ إذ هو مصاحبك وقرينك.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ بعدما نظر من الكوى المفتوحة في الجنة نحو النار ﴿فَرَآهُ﴾ أي: قرينه المنكر ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 55] أي: وسطه معذبًا بأنواع العذاب.

﴿قَالَ﴾ له بعد ما رآه في النار مقسم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: 56] يعني: والله إنك أيها الجاهل المفرد، قد قاربت من إهلاكي بإغرائك وإغوائك ونصحك إليّ، وتذكيرك على ما يدل على إنكار البعث واستدلالك على استحالته.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وتوفيقه إياي بالعصمة والثبات على عزيمة الإيمان والتوحيد ﴿لَكُنتُ﴾ مثلك ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: 57] معك في وسط الجحيم؛ يعني: أنا أيضًا من جملة أهل النار مثلك.

ثم أخذ يباهي على قرينه بالنعيم المقيم واللذة المستمرة، بلا تريان موت وعذاب، فقال مستفهمًا: ﴿أَ﴾ تعلم أنّا في الجنة مخلدون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ [الصافات: 58] أي: مائتين متحولين عنها، بل لا موت لنا ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي متنا عن الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: 59] [1] أيضًا أمثالكم.

(1) قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه إذا ذُبح الموت، قال أهل الجنة: ﴿أفما نحن بميتين، إلا مَوْتَتَنَا الأُولى﴾ التي كانت في الدنيا ﴿وما نحن بمعذَّبِينَ﴾ ؟ فيقال لهم: لا؛ فعند ذلك قالوا: ﴿إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ﴾، فيقول الله تعالى ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ﴾، قاله ابن السائب. وقيل: يقول ذلك للملائكة. والثاني: أنه قول المؤمن لأصحابه، فقالوا له: إنك لا تموت، فقال: ﴿إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العظيمُ﴾، قاله مقاتل. وقال أبو سفيان الدمشقي: إنما خاطب المؤمنُ أهلَ الجنة بهذا على طريق الفرح بدوام النَّعيم، لا على طريق الاستفهام، لأنه قد عَلِمَ أنّهم ليسوا بميّتين، ولكن أعاد الكلام ليزداد بتكراره على سمعه سرورًا. والثالث: أنه قول المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ بما كان يُنكِره، ذكره الثعلبي. قوله

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الخلود والتنعم والسرور بلا طريان ضد عليه ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: 60] والكرم الجسيم من الله العليم الحكيم إيانا.

ثم قيل من قبل الحق؛ ترغيبًا للمؤمنين على الطاعات وحثًا لهم إلى الإتيان بالأعمال الصالحات، وتطييبًا لقلوبهم بترتب أمثال هذه الحسنات على أعمالهم وأخلاقهم ومواجيدهم وحالاتهم، وبالجملة: ﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ الفوز العظيم والنول الكريم ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: 61] في النشأة الأولى، لا للحظوظ الفانية واللذات الزائلة الدنيوية، المقتضية لأنواع الآلام والحسرات.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الصافات: 62-74].

ثم قال سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرزق المعلوم واللذة المستمرة والنشر الدائم بلا صداع ولا خمار، والحياة الأبدية والمسرة السرمدية ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ لأهل الجنة ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: 62] لأهل النار، وهي ثمرة شجرة مرة كريهة الرائحة والطعم، يستكرهه طباع أهل النار، إلا أنهم يتناولون منها للضرورة.

ثم لما عبر سبحانه عن نزل أهل الجحيم بالزقوم، فسمعها كفار أهل مكة، قالوا: كيف يكون في النار شجرة، ومن شأنها إحراق ما يجاورها؟!.

فاستهزءوا برسول الله ﷺ، وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش: إن محمدًا يخوفنا بالزقوم، والزقوم بلسان بربر: الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل في بيته، فقال يا جارية

تعالى: ﴿لِمِثْل هذا﴾ يعني النعيم الذي ذَكَره في قوله ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ [الصافات: 41] ﴿فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ﴾، وهذا ترغيب في طلب ثواب الله ﷻ بطاعته .

زقمينا، فأتهم بالزبد والتمر، فقال: تزمقوا، فهذا ما يوعدكم به محمد ﷺ.

رد الله سبحانه قولهم واستهزاءهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: الشجرة المذكورة ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاء ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: 63] وسببًا لازدياد العذاب وتشديد النكال عليهم؛ إذ هم يتقاولون فيهم ويحملونها إلى لغة أخرى، ويتخذون لها محملاً جيدًا، ويستهزئون بسببها بالنبي ﷺ، فيستحقون أسوأ العذاب والعقاب، ويطعمون منها حين دخولهم في النار.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ وتنبت ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 64] أي: منبتها في قعرها وأغصانها في دركاتها.

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: ثمرتها التي تطلع منها أو تحصل ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: 65] في القبح والهجنة، هذا من قبيل التشبيه المحسوس بالمتخيل، كتشبيه الطيور الحسنه بالملائكة؛ يعني: يستكره من رؤيتها الطباع استكراهها من رءوس المردة من الجن المصورة على أقبح الصور وأهولها.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المنكرون المستهزئون، وجميع من في النار من الكافرون ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ إذ لا مأكول لهم فيها سواها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: 66] أي: يملئون بطونهم منها؛ لشدة الجوع، أو يجبرون لأكلها؛ زجرًا عليهم وتشديدًا لعذابهم؛ إذ هي أحر من النار وأبرد من الزمهرير.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد ما ملئوا بطونهم منها مع كمال حرارتها واشتداد العطش عليهم ﴿عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: 67] أي: لخلطًا ومزاجًا من ماء حار في غاية الحرارة بعد أن يخرجهم الخزنة من الجحيم، ويوردهم إليها ورود البهائم في الماء، يشربون منها فيقطع أمعاءهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد ما أصدرهم، فأخرجهم الخزنة من الماء ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 68] ألبتة؛ إذ لا مرجع لهم سواها، وإنما ابتلوا من العذاب المؤبد والعقاب المخلد.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي: صادفوا ووجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: 69] منحرفين عن سبيل السلامة وجادة الاستقامة التي هي التوحيد والإسلام.

﴿فَهُمْ﴾ أي: هؤلاء الأخلاف بعدما وجدوا أسلافهم كذلك ﴿عَلَى آثَارِهِمْ

﴿يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: 70] ويسرعون على الفور، ويعملون مثل عملهم؛ تقليدًا لهم بلا تدبر وتأمل.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 71] من الأمم السالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي: في الأولين الماضين ﴿مُنذِرِينَ﴾ [الصافات: 72] مثل ما أرسلناك إليهم بالإنذارات البليغة، فلم يفدهم إنذار أولئك المرسلين كما لم يفد إنذارك إلى هؤلاء المسرفين، فأخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة.

﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الخبير ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: 73] بعدما لم ينذروا بالإنذارات البليغة الواصلة إليهم من قبل الرسل، ولم يتنبهوا منها إلى الطريق المستبين، انقلبوا ضالين خاسرين صاغرين.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 74] الذين تنبهوا منها إلى الصراط المستقيم، بل تفطنوا إلى الحق اليقين، فانصرفوا عن العذاب الأليم إلى النعيم المقيم؛ لذلك انقلبوا بنعمة من الله وفضل عظيم.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: 75-82].

ثم أخذ سبحانه في تعداد أهل الضلال الجاحدين على الرسل المنذرين بعدما أجمل فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ حين أردنا إهلاك قومه بالطوفان نداء مؤمل ضريع لاستخلاصه واستخلاص من آمن معه من قومه، فأجبناه ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: 75] نحن لأوليائنا المخلصين.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: من آمن معه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: 76] أي: من الغم الذي لحقه دائمًا من أذى قومه وضربهم عليه، ومن أنواع زجرهم وشتمهم، أو من كرب الطوفان.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: من تناسل منه ومن أبنائه ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77]

إلى قيام الساعة.

روي أنه مات من بعدما نزل من السفينة من كان معه من المؤمنين، ولم يبق إلا هو وبنوه وأزواجهم، فتناسلوا إلى انقراض الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: أبقينا عليه ذكرًا جميلاً، وثناء جزيلاً ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: 78] أي: في الأمم المتخلفة منهم، يذكرونه بالخير، ويقولون تكريمًا له وترحيبًا: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: تسليم وتكريم من الله ومن خواص عباده ﴿عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 79] [1] أي: في النشأة الأولى والأخرى.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى لطفنا وجودنا لخلص عبادنا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا نوحًا على إحسانه وإخلاصه ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 80] من عبادنا، لو أنابوا إلينا، وتوجهوا نحونا على وجه الإخلاص.

وكيف لا نبقي له ذكرًا جميلاً ولا نجزيه جزاء جزيلاً؟! ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 81] الموقنين بتوحيدنا، المتوكلين علينا، المفوضين أمورهم إلينا، المخلصين فيما جاءوا به من الأعمال والأفعال.

﴿ثُمَّ﴾ إنَّا بمقتضى لطفنا فعلنا معه ما فعلنا من الإنعام والإحسان، ونجيناه من كرب الطوفان ﴿أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: 82] أي: كفار قومه بها، واستأصلناهم

---

(1) لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه] لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح، عليه السلام وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «سام، وحام ويافث». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد وهو ابن أبي عروبة. «تفسير ابن كثير» (22/7).

إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض، سوى أصحاب السفينة وأشياعه المؤمنين معه، ومن تشعب وتناسل منهم.

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات: 83-98].

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من جملة من شايعه في التوحيد والإيمان، بل من أجلة من تابعه على أصول الدين ومعالم اليقين ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: 83] المتصف بكمال العلم والحلم والمعرفة واليقين وإن طال الزمان بينهما.

قيل: كان بين نوح وإبراهيم - عليهما السلام - ألفان وستمائة وأربعون سنة.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 84] سالم عن جميع الميول الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك إبراهيم الخليل، صلوات الرحمن عليه وسلامه ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ حين انكشف بالتوحيد الإلهي، وتمكن في مرتبة الشهود العيني والحقي، مستفهمًا على سبيل الإنكار والتوبيخ؛ غيرة على الله وإظهارًا لمقتضى الخلة: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 85] أي: لأي شيء تعبدون هذه الأصنام الباطلة العاطلة عن لوازم الألوهية والربوبية، أيها الجاهلون بتوحيد الله وبكمال أوصافه وأسمائه.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: 86] أي: أتريدون أيها المعاندون أن تثبتوا آلهة متعددة سوى الله الواحد الأحد، الصمد القيوم المطلق، المستحق للألوهية والربوبية استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا على سبيل الإفك والمراء والكذب والافتراء؟!.

﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أيها الجاهلون المكابرون ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: 87] أتظنون أن له شريكًا في الوجود، أو له نظيرًا في الشهود وسواه موجود؟! والله ما ظنكم هذا إلا خيال باطل وزيغ زائل.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا، انصرفوا عنه وأنكروا عليه وعلى ربه، فأراد ﷺ أن يكايدهم في أصنامهم، ويخادع في كسرها، وقد قرب حينئذ يوم عيدهم.

وكان من عادتهم الإتيان بالقرابين والهدايا عند أصنامهم ومعابدهم، فيتقربون بها، ويتخذون منها أنواعًا من الأطعمة، فيطبخونها عنده في ليلة العيد، ثم يخرجون صبح العيد إلى الصحراء، فيتعيدون فيها بأجمعهم، ثم ينصرفون منها، فينزلون في معابدهم وعند أصنامهم، ويمهدون موائد كثيرة من الأطعمة المهيأة، فيأكلون منها ويتبركون بها، وكان عادتهم كذلك.

ثم لما اجتمعوا على المعبد عند الأصنام، قالوا له: أخرج أنت أيضًا معنا غدًا يا إبراهيم إلى الصحراء، نعيد فيها ونرجع ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم ﷺ حينئذ ﴿نَظْرَةً فِي﴾ دفتر ﴿النُّجُومِ﴾ [الصافات: 88] وهم كانوا يعملون بالأحكام النجومية معتقدون لها، وهو ﷺ مشهور بضبطها.

﴿فَقَالَ إِنِّي﴾ اليوم ﴿سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89] الآن، أو سأسقم عن قريب بالطاعون، وهم قد يفرون من المطعون فرارهم من الأسد.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وانصرفوا من عنده بعدما سمعوا منه القول الموحش ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: 90] رهبًا ورعبًا، فخرجوا من الغداة إلى الصحراء، ولم يخرج ﷺ معهم.

ثم لما بقي الأصنام خاليًا عن الخدام، وقد طبخ عندها أنواع من الطعام ﴿فَرَاغَ﴾ أي: مال وانصرف ﷺ ﴿إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ﴾ أولاً على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: 91] أيها المعبودون من هذه الأطعمة المطبوخة المهيأة.

ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: 92] أي: ما عرض ولحق لكم، لا تتكلمون معي أيتها الآلهة المستحقون للعبادة والرجوع في المهمات ؟!.

وبعدما استهزأ مع هؤلاء الأصنام الصم البكم الجامدين بما استهزأ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ضربهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93] أي: بكمال القوة والغلظة، فكسّرها تكسيرًا، وفتت أجزاءها تفتيتًا.

ثم لما أخبروا بانكسار أصنامهم وانفتاتها حين كانوا في الصحراء في معيدهم، ظنوا بأجمعهم، بل جزموا أنه ما فعل هذا بآلهتهم إلا إبراهيم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ عازمين جازمين على انتقامه ومقته ﴿يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: 94] أي: يسرعون ويعدون

ويتحيرون ويتبخترون.

ثم لما وصلوا إليه حصروا عن التكلم معه من غاية غيظهم ونهاية زفرتهم؛ لسبقهم عليه السلام بالتكلم حيث ﴿قَالَ﴾ مقرعًا عليهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ أيها الجاهلون الضالون ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95] وتصنعون بأيدكم، وتعتقدونه إلهًا خالقًا موجدًا، مظهرًا لكم من كتم العدم، وتعبدونه ظلمًا وزورًا، فمن أين يتأتى لهؤلاء الجمادات العاطلة لوازم الخلق والإيجاد والإظهار، أفلا تعقلون.

بل ﴿وَاللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] أي: جميع أعمالكم وأفعالكم التي صدرت عنكم، ومن جملتها: صنعكم ونحتكم للأصنام والأوثان.

ومن هذا ظهر أن جميع أفعال العباد مثل ذواتهم مستندة إلى الله أولاً وبالذات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

ثم لما سمعوا منه عليه السلام ما سمعوا، انصرفوا عن مقاولته ومكالمته، وهموا العزم إلى قتله.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم حين كانوا متشاورين في كيفية قتله بعدما أقر رأيهم عليه: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 97] أي: في النار المسعرة؛ حتى تنتقموا عن آلهتكم، فبنوا حائطًا من الحجر سمكه ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون، وملؤوه من الحطب، وأوقدوا فيه نارًا، فنفخوا فيها بالمنافخ حتى تسعرت، ثم طرحوه بالمنجنيق فيها.

وبالجملة: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ﴾ وقصدوا له ﴿كَيْدًا﴾ لينتقموا عنه مستعلين عليه ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: 98] المقهورين، الخاسرين، الخائبين عما فعلوا معه عناية منًا إياه وفضلاً وامتنانًا عليه، حيث جعلناها له بردًا وسلامًا وروحًا وريحانًا، فانقلبوا بعدما رأوا حاله في النار على هذا الوجه صاغرين محزونين، فجعلناهم الأسفلين.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ [الصافات: 99-110].

وبعد ما خرج الخليل - صلوات الرحمن عليه وسلامه - منها اختار الجلاء والخروج من بينهم بوحي الله إياه وإلهامه ﴿وَ﴾ لهذا ﴿قَالَ﴾ حين خروجه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ وإلى كنف حفظه وجواره وسعة رحمته ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99] بلطفه إلى منزل يمكنني التوجه فيه إليه ويطمئن فيه قلبي، فذهب إلى الشام بإلهام الله إياه، وتوطن في الأرض المقدسة.

وبعدما توطن فيها ناجى مع الله، فطلب منه سبحانه الولد المحيي لاسمه، فقال: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على أنواع النعم والكرامات ﴿هَبْ لِي﴾ ولدًا صالحًا مرضيًا لك مقبولاً عندك، معدودًا ﴿مِنَ﴾ عبادك ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 100] الموفقين من عندك على الصلاح والفوز بالفلاح.

وبعدما تضرع نحونا راجيًا من رحمتنا ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ﴾هو إسماعيل عليه السلام ﴿حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101] ذو حلم كامل، وتصبر تام على متاعب العبودية وشدائد الاختبارات الإلهية.

ثم لما ولد له إسماعيل عليه السلام، ورباه إلى أن ترقى من الطفولية، وظهر منه الرشد الفطري والفطنة الجبلية، إلى أن بلغ سبع سنين أو ثلاث عشرة، هي أول الحلم وعنفوان الشباب.

وبالجملة: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ للحوائج والمهمات المتعلقة لأمور المعاش، وصار يذهب ويجيء مع أبيه إلى الاحتطاب وسائر الأشغال، وكان أبوه ينتصر به في الأمور ويستظهر، وكان مشفقًا له، رحيمًا عليه بحيث لا يفارقه أصلاً من كمال عطفه وتحننه.

ثم لما بلغ عليه السلام في عطف ولده وارتباط قلبه به مع أنه متمكن في مقام الخلة مع ربه، غار عليه سبحانه فاختبر خلته، حتى رأى في المنام بإلقاء الله في متخيلته أن الله يأمره بذبح ولده إظهارًا لكمال خلته، واصطبار ولده على البلاء، وإظهار حلمه عند المصيبة، فانتبه عن منامه هولاً من الواقعة الهائلة، فخيلها من أضغاث الأحلام،

فاستغفر ربه وتعوذ من الشيطان، ثم نام فرأى أيضًا كذلك، ثم استيقظ كذلك خائفًا مرعوبًا، ثم استغفر ونام، فرأى ثالثًا مثل ما رأى، فتفطن بنور النبوة أنه من الاختبارات الإلهية.

فأخذ بامتثال المأمور خائفًا من غيرة الله وكمال حميته وجلاله، كيف يطيق أحد أن يتخذ سواه محبوبًا، سيما من اختار الله لخلته واصطفاه لمحبته، فأمر ابنه بأن يأخذ الحبل والسكين؛ ليذهب إلى شعب الجبل للاحتطاب كما هو عادتاهما، فذهبا وقد اشتعل في صدره نار المحبة والخلة الإلهية، فشرع يظهر رؤياه لابنه ليختبره كيف هو.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ ناداه وصغّره تحننًا وعطفًا: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ بأمر الله إياي، تقربًا مني إليه سبحانه، وهديًا نحوه ﴿فَانظُرْ﴾ يا بني وتأمل ﴿مَاذَا تَرَى﴾[1]

(1) لما استوى الولد خلة أبيه وكل حقائقه صار أهلًا لقربان الحق، وفداه كشف جماله، وذلك أيضًا محل امتحان الخليل به؛ فإنه لما وجده أهل الحق استأنس به، فغار به الحق، وأراد أن يتجرد سره من الغير حتى لا يبقى بين الخليلين شيء من الحدثان، قال ابن عطاء: لما سعى في الطاعة سعيه وقام بحقوق الله حسب ما رضي به الخليل وقرت عينه بقيامه بحقوق مولاه أنس الخليل به، وفرح بمكانه، فقيل له اذبحه فإنه لا يصلح للخليل أن يفرح إلى شيء دون خليله، ولا يفرح بسواه، فابتلي بذبحه، ثم لما سلّم وقام مقام الاستقامة واتّبع الأمر فداه بذبح عظيم، وقال البغوي: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني المشي معه إلى الجبل. وقال مجاهد عن ابن عباس: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم والمعنى: بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله. قال الكلبي: يعني العمل لله تعالى، وهو قول الحسن ومقاتل بن حيان وابن زيد، قالوا: هو العبادة لله تعالى، واختلفوا في سنه، قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة: عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي، وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وقالوا: كانت هذه القصة بالشام، وروي عن سعيد بن جبير قال: أري إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى، فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش، ذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة وطويت له الأودية والجبال، وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب، والشعبي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهي رواية عطاء بن أبي رباح، ويوسف بن ماهك عن ابن عباس، قال: المفدى إسماعيل، وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، ومن ذهب إلى أن الذبيح إسحاق احتج من القرآن بقوله: ﴿فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه

أي: أي أمر تفكر وتفتي في هذه الواقعة الهائلة أتصبر على بلاء الله أم لا؟.

وبعدما سمع ابنه ما سمع من الرؤيا ﴿قَالَ﴾ معتصمًا بحبل التوفيق، راضيًا بما

السعي﴾ (الصافات-101) أمره بذبح من بشره به، وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ (هود-71) ومن ذهب إلى أنه إسماعيل احتج بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين﴾ (الصافات-112) دل على أن المذبوح غيره، وأيضًا قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (هود-71) فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه، قال القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز رجلا كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله تعالى بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق، ومن الدليل عليه: أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة، وعن ابن عباس قال: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة، قد وحش، يعني يبس، قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا صميع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، وأما قصة الذبح قال السدي: لما دعا إبراهيم فقال: رب هب لي من الصالحين، وبشر به، قال: هو إذًا لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك، هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بذبح ابنه، فقال عند ذلك، لإسحاق: انطلق فقرب قربانًا لله تعالى فأخذ سكينًا وحبلا وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ وقال محمد بن إسحاق: كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أمر في المنام أن يذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روي في نفسه أي: فكر من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانيًا، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله عز وجل، فمن ثم سمي يوم عرفة، قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليال متواليات، فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه، فقال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿ترى﴾ بضم التاء وكسر الراء -ماذا تشير، وإنما أمره ليعلم صبره على أمر الله تعالى، وعزيمته على طاعته، وقرأ العامة بفتح التاء والراء إلا أبا عمرو فإنه يميل الراء. «تفسير البغوي» (7/46. 48).

جرى عليه من قضاء الله مسلمًا نحوه، مستقبلاً مناديًا لأبيه لينبئ عن كمال إطاعته له وانقياده لحكم ربه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ من قبل الحق، فاذبحني في سبيل الله تقربًا منك نحوه، وطلبًا لمرضاته، ولا تلتفت إلى لوازم الأبوة والبنوة، وكن أنت صابرًا لبلاء الله بذبح ولدك بيدك بإذنه وفي سبيله ﴿سَتَجِدُنِي﴾ أيضًا ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بأن اصبر على بلائه الذي هو قتل أبي إياي بيده ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102] (1) المتمكنين على تحمل الشدائد والمصيبات الآتية من قبل الحق.

وبعدما تشاورا وتقاولا، فوّضا الأمر إليه سبحانه، وانقادا لحكمه، ورضيا بقضائه طوعًا ورغبة ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: سلّما واستسلما؛ أي: كل منهما أمره إلى ربه ووصلا الموقف والمنحر، توجه الخليل نحو الحق ناويًا التقرب إليه سبحانه ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103] (2) أي: صرع ابنه على شقه الأيمن امتثالاً لأمر ربه مثل صرع البهائم

---

(1) قال له ابنه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ . «تفسير البغوي» (48/7).

(2) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على الأرض. قال ابن عباس: اضجعه على جبينه على الأرض والجبهة بين الجبينين، قالوا: فقال له ابنه الذي أراد ذبحه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن أيضًا يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك السكين، ويروى أنه كان يجر الشفرة في حلقه فلا تقطع، فشحذها مرتين أو ثلاثة بالحجر، كل ذلك لا تستطيع، قال السدي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه قالوا: فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى، وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكين ونودي: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فتمثل له الشيطان رجلا وأتى أم الغلام، فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به

حال الذبح، بعدما شدَّ بالحبل يده ورجله، فأخذ الشفرة فأمرّها على حلقه، فلم تمضِ ولم تعمل، فأخذ حجرًا المحدّ فأحدها، ثم أمرّها، ولم تمضِ أيضًا، وهكذا فعل مرارًا لم تعمل شيئًا فتحير في أمره، قال له ابنه حينئذ: يا أبت أكبني على وجهي فاذبحني من القفا؛ لئلا يمنعك من ذبحي رؤيتك وجهي ففعل كذلك فلم تمضِ.

﴿وَ﴾ بعدما جربناهما ووجدناهما على كمال التصبر والرضا بما جرى عليهما من القضاء ﴿نَادَيْنَاه﴾ من مقام عظيم جودنا إياه ولطفنا ﴿أَنْ﴾ أي: بأن قلنا له مناديًا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: 104] المختص بخلتنا الراضي بمصيبتنا، قد صدَّقت الرؤيا وامتثلت بالمأمور، ورضيت بذبح ولدك لرضانا، واختبرناك به فوجدناك متمكنًا على مرتبة الخلة والتوحيد، فقد أتيت مخلصًا ما طلبنا منك، كان لك من الفضل والعطاء منّا جزاء لفعلك ما لم يكن لأحد من بني نوعك؛ لإخلاصك في أمرك وصحة عزيمتك وخلوص طويتك في نيتك.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير لعباده بمقتضى عظيم جودنا: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا إبراهيم ونجيناه من الكرب العظيم ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 105] المخلصين في حسناتهم ونياتهم، في

يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إني لا أرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم ﷺ فقال: إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئًا مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى، وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله ﷺ قال الله ﷻ: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾. «تفسير البغوي» (7/48 - 49).

جميع أعمالهم وحالاتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المأمور لإبراهيم الأوّاه الحليم من ذبح ولده في طريق الخلة مع ربه ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: 106] الظاهر صعوبته وشدته على عموم المكلفين.

وبعدما عزم عليه بالعزيمة الخالصة الصحيحة، وأقدم على امتثاله عن محض الاعتقاد وصميم الفؤاد إلى حيث لو لم نمنع مضاء شفرته، مع أنه بالغ في إمرارها بقوة تامة، وأحدَّها مرارًا لذبحه ألبتة، فمنعناها بعدما ظهر إخلاصه لدينا.

﴿وَ﴾ بعدما منعنا مضاء شفرته ﴿فَدَيْنَاهُ﴾ أي: الذبيح الذي هو ابنه ﴿بِذِبْحٍ﴾ أي: بما يذبح فيه فيتم تقربه إلينا، وينال من لدنّا ما نعدّ له من الثواب والجزاء ﴿عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107] [1] أي: عظيم القدر؛ إذ ما يفديه الحق لنبيه أعظم مما يَفديه العباد.

قيل: لما سمع إبراهيم نداء الهاتف، التفت فإذا هو جبريل عليه السلام، ومعه كبش أملح أقرن، فقال له: هذا فداء ابنك بعثه الله إليك، فاذبحه دونه، وهذا قد رعى في الجنة أربعين خريفًا لتلك المصلحة، فأخذ إبراهيم الكبش، فأتى به المنحر من مِنى فذبحه عنده، وفاز بمبتغاه من الله ما فاز عاجلاً وآجلاً، مما لا مجال للعبارة والإشارة إليه

(1) ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ الواو في ﴿وناديناه﴾ مقحمة صلة، مجازه: ناديناه كقوله: ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه﴾ (يوسف-15) أي: أوحينا إليه، فنودي من الجبل: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ تم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: إنا كما عفونا إبراهيم عن ذبح ولده نجزي من أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار الظاهر حيث اختبره بذبح ابنه. وقال مقاتل: البلاء هاهنا: النعمة، وهي أن فدي ابنه بالكبش، فإن قيل: كيف قال: صدقت الرؤيا، وكان قد رأى الذبح ولم يذبح؟ قيل: جعله مصدقًا لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب إسلامهما لأمر الله تعالى وقد فعلا. وقيل: [كان قد] رأى في النوم معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم، فلذلك قال له: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾. ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبر جبريل، وكبر الكبش، وكبر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه، قال أكثر المفسرين: كان ذلك الكبش رعى في الجنة أربعين خريفًا، وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم هابيل، قال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيمًا. قال مجاهد: سماه عظيمًا لأنه متقبل، وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله. وقيل: عظيم في الشخص. وقيل: في الثواب. «تفسير البغوي» (50/7).

سبيلاً.

﴿وَ﴾ من جملة ما جزينا إبراهيم عاجلاً: إن من كمال خلتنا معه ﴿تَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ وأبقينا له في الآخرين؛ أي: في الأمم الذين يلون ويأتون بعده إلى قيام الساعة ثناءً حسنًا وذكرًا جميلاً، حيث يقولون دائمًا ﴿فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ﴾ [الصافات: 108-109] وترحيب منا وبركات من الله، ورحمة نازلة دائمًا مستمرة ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 109].

ثم قال سبحانه حثًا للمؤمنين: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جزينا إبراهيم بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ﴿نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 110] إن أحسنوا وأخلصوا في نياتهم وحسناتهم.

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الصافات: 111-122].

وكيف لا نجزى خليلنا؟! ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 111] الموحدين الموقنين بذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وأسمائنا، واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا.

وبعدما ابتليناه أولاً بذبح الولد، وفديناه عن ولده عناية منا إياه وإلى ولده ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ بولد آخر مسمى ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ وجعلناه ﴿نَبِيًّا﴾ من الأنبياء، معدودًا ﴿مِنَ﴾ زمرة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112] لمرتبة الكشف واليقين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: كثرنا الخير والبركة على إبراهيم ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَى﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ كثرنا نسلهما إلى أن جعلنا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في الأعمال والأخلاق والأحوال، ذو نفع كثير على عباد الله وفقراء سبيله ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: تارك لحظوظ نفسه من الدنيا ﴿مُبِينٌ﴾ [الصافات: 113] ظاهر في الترك، مبالغ فيه

إلى حيث يمنع عنها ضروريتها أيضًا، منجذبًا نحو عالم اللاهوت، منخلعًا عن لوازم الناسوت، مائلاً نحو الحق بجميع قوَاه وجوارحه، طالبًا الفناء فيه والبقاء ببقائه، ومنهم النبي ﷺ والوصيّ - كرم الله وجهه - وابناه وأولادهما بطنًا بعد بطن سلام الله عليهم أجمعين؛ حيث لا يلتفتون إلى حطام الدنيا ومزخرفاتها، إلا مقدار سدّ جوعة ولبس خرقة خشن.

﴿وَ﴾ من ذريتهما المكرمين المؤيدين من عندنا: موسى وهارون ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أيضًا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 114] أخيه منّة عظيمة.

﴿وَ﴾ ذلك أنّا ﴿نَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ أي: مَن آمن لهما من بني إسرائيل ﴿مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ [الصافات: 115] الذي هو غلبة فرعون وغرق اليم.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي: هما وقومهما على فرعون وملئه ﴿فَكَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ﴾ [الصافات: 116] عليهم بعدما صاروا مغلوبين منهم.

﴿وَ﴾ بعدما صيرناهم غالبين ﴿آتَيْنَاهُمَا﴾ أي: موسى وهارون ﴿الكِتَابَ المُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: 117] وهو: التوراة الذي هو أبيَن الكتب وأوضحها في ضبط الأحكام الإلهية المتعلقة بنظام الظاهر، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ أيضًا ﴿الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: 118] الموصل إلى الحق اليقين في مراتب التوحيد.

﴿وَ﴾ من كمال تكريمنا إياهما ﴿تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ أي: أبقينا ذكرهما بالخير ﴿فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات: 119] اللاحقين لهما من الأمم؛ حيث يقولون في حقهما عند ذكرهما: ﴿سَلامٌ﴾ من الله وتحية منّا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 120] وذلك من جملة امتناننا عليهما وتكريمنا إياهما إنّا من كمال جودنا ولطفنا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 121] المحسنين في حسناتهم وجميع حالاتهم.

وكيف لا نجزيهما خير الجزاء وأحسنه؟! ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 122] الموقنين بتوحيدنا، المصدقين لاستقلالنا في ملكنا وملكوتنا.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ

﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: 123-132].

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ ابن ياسين من أولاد هارون أخي موسى ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 123] من عندنا المؤيدين بوحينا وإلهامنا.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة بالظلم على عباد الله والخروج عن حدوده ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: 124] وتحذرون عن بطش الله أيها المفسدون المفرطون في الإشراك بالله والدعوة إلى غير الله.

﴿أَتَدْعُونَ﴾ أيها الجاهلون ﴿بَعْلاً﴾ أي: صنمًا مسمى به في المهمات والملمات ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ﴾ [الصافات: 125] أي: تتركون الدعوة والرجوع إلى الحق الحقيق بالإطاعة والانقياد، المستحق للعبودية والرجوع إليه في الخطوب.

﴿اللهَ﴾ بالرفع على الاستئناف، والنصب على البدل، وكذلك ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 126] برفع البائين ونصبهما على الخبر والبدل على القراءتين؛ أي: مربيكم ومظهركم في كتم العدم وأسلافكم أيضًا، فتعدلون عن عبادته، وتعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم ظلمًا وزورًا.

وبعدما سمعوا منه دعوته إلى التوحيد، ورفض عبادة آلهتهم، وقدحه إياها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبًا، ولم يلتفتوا إلى قوله ودعوته بل طردوه، وعزموا أن يقتلوه ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بشؤم تكذيبهم رسول الله، وإبائهم عن دعوته إلى التوحيد، واتخاذهم الأصنام والأوثان آلهة دون الله، شركاء معه في استحقاق العبادة والرجوع إليه في الوقائع ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: 127] في العذاب الأليم، مؤبدون في نار الجحيم أبد الآباد.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ المُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 128] منهم، المبادرين إلى الإيمان بعدما سمعوا دعوة الرسل بلا ميل منهم إلى الإنكار والتكذيب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إلياس أيضًا ذكرًا جميلاً ﴿فِي الآخِرِينَ﴾ [الصافات: 129] حيث يقولون حين ثنائهم عليه وتكريمهم إياه: ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: 130] وهو لغة في إلياس؛ كجبريل في جبرائيل، وسينين في سيناء.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 131] المستحفظين على أحكامنا

ومقتضيات أوامرنا ونواهينا.

وكيف لا نجزيه أحسن الجزاء؟! ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: 132] المتمكنين في مقر التوحيد واليقين، الفائزين بمقام الكشف والشهود.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: 133-144].

﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ أيضًا ﴿لَمِنَ﴾ جملة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 133] الفائزين بمرتبة الحق اليقين.

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين المؤمنين وقت ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ أي: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي: أولاده وأهل بيته ﴿أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا﴾ [الصافات: 134-135] وهي: امرأته بقيت ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الصافات: 135] الهالكين بالعذاب المنزل عليهم بشؤم فعلتهم الشنيعة، المتناهية في القباحة والشناعة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما نجيناه وأهله ﴿دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: 136] من قومه وأهلكناهم أجمعين.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي: على أطلالهم ومنازلهم المنقلبة بشؤم فعلتهم وقت ترحالكم إلى الشام، وهي على متن الدرب ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: 137] إن كنتم سائرين في أسفاركم في الليالي، ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ إن كنتم سائرين في أيامكم؛ يعني: إن سرتم ليلاً تصبحون عندها، وإن سرتم نهارًا تمسون دونها.

وبالجملة: هي على طريقكم أيها المجبولون على العبرة والعظة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 138] وتتفكرون فيما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسل الله؛ ليعتبروا منهم ومن أطلالهم ورسومهم المندرسة المنكوسة، ولا تفعلوا مثل أفعالهم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾[1] ابن متّى أيضًا ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 139] من عندنا،

---

(1) قوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون﴾ فيه مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يونس، فخرجت في أثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيي لها ولدها، فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس بن متى بدعوة إلياس ﷺ، وأرسل الله يونس إ لى أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدم بيانه في سورة " يونس " ومضى في " الأنبياء " قصة يونس في خروجه مغاضبا، واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده، قال الطبري عن شهر بن حوشب: إن جبريل ﷺ أتي يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: ألتمس حذاء، قال: الأمر أعجل من ذلك، قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدم ولا تتأخر، قال: فتساهموا، قال: فسهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه، فنودي الحوت: أيا حوت ! إنا لم نجعل لك يونس رزقا، إنما جعلناك له حرزا ومسجدا، قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأبلة، ثم انطلق به حتى مر به على دجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نينوى، حدثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوة، وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل إليهم إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم - كما قال الله تعالى في تنزيله - تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعدا فكذب وعدي، فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم، وقد جربوا عليه الكذب، روا سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقد مضى هذا في ﴿الأنبياء﴾ وهو الصحيح على ما يأتي عند قول تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات: 147] ولم ينصف يونس، لأنه اسم أعجمي ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت في أول الياء، لأنه ليس في الأفعال يفعل كما أنك إذا سميت بيعفر صرفته، وإن سميت بيعفر لم تصرفه. الثانية - قوله تعالى: ﴿إذا أبق﴾ قال المبرد: أصل أبق تباعد، ومنه غلام آبق.

وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق، لأنه خرج بغير أمر الله ﷻ مستترا من الناس. ﴿إلى الفلك المشحون﴾ أي المملوء. ﴿ والفلك﴾ يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدم. قال

الترمذي الحكيم: سماه آبقا لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عندما اشتدت عليه العزمة من الملك حسب ما تقدم بيانه في [الأنبياء]، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزمة الملك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظ حق الله لا بحظ نفسه، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذي عند الله فسماه آبقا ومليما. الثالثة: قوله تعالى: ﴿فساهم﴾ قل المبرد: فقارع قال: وأصله من السهام التى تجال. ﴿فكان من المدحضين﴾ قال: من المغلوبين، قال القراء: دحضت حجته وأدحضها الله، وأصله من الزلق، الرابعة: قوله تعالى: ﴿فألتقمه الحوت وهو مليم﴾ أي أتى بما يلام عليه، فأما الملوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أو لم يستحق، وقيل: المليم المعيب، يقال لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ قال الكسائي: لم تكسر ﴿أن﴾ لدخول اللام، لأن اللام ليست لها. النحاس: والأمر كما قال، إنما اللام في جواب لولا. ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي من المصلين للبث ف بطنه إلى يوم يبعثون " أي عقوبة له، أي يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة، واختلف كم أقام في بطن الحوت، فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوما، الضحاك: عشرين يوما، عطاء: سبعة أيام، مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام، وقيل: ساعة واحدة، والله أعلم. الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله تعالى ذكره - حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما أنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر قال: فسبح وهو في بطن الحوت قال: فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وهو سقيم﴾ وكان سقمه الذي وصفه به الله - تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبى المنفوس قد نشر اللحم والعظم، وقد روي: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفار قهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يغير منه شئ فأسلموا، ذكره الزمخشري في تفسيره، وقال ابن العربي: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: أنه سئل عن الباري في جهة ؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك، قيل له: ما الدليل عليه ؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: لا تفضلوني على يونس بن متى فقيل له: ما وجه الدليل في هذا الخبر ؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دينا، فقام رجلان فقالا: هي علينا، فقال لا يتبع بها اثنين، لأنه يشق عليه، فقال واحد: هي علي، فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: 87] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه ضريف الأقلام، ومنا جاه ربه بما ناجاه به، وأوحى

المتحملين لأعباء رسالتنا.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وهرب من نزول العذاب الموعود على قومه حين دعاهم إلى الإيمان والتوبة، فلم يجيبوا له ولم يقبلوا منه دعوته، فدعا عليهم، وبعدما قرب حلول العذاب عليهم، خرج من بينهم هاربًا، حتى لا يلحقه ما

إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في، بطن الحوت في ظلمة البحر. السادسة: ذكر الطبري: أن يونس ﷺ لما ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم، فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثه فكان من المدحضين، فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحد، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت، وروى أنه لما ركب في السفينة بقنع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم ريح كادت السفينة أن تغرق، فاجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا، فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح، ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فارتفعت الريح، قال: فبينماهم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم ! هذا من أجلى فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع، قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر، قال: فتساهموا فوقع على يونس، فقال لهم: يا قون الطرحونى فمن أجلى أوتيتم، فقالوا لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى، ففعلوا فوقع: على يونس، فقال لهم: يا قون الطرحونى فمن أجلى أوتيتم، فذلك قول الله عزوجل: ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ أي وقع السهم عليه، فانطلقوا به الى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه، ثم جاءوا به الى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به الى الجانب الاخر بالحوت فاتح فاه، فلما رأى ذلك ألقى بيفسه فالبقمه الحوت، فأوحى الله تعالى الى الحوت: إنى لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء، فمكث في بطن الحوت أربعيم ليلة ﴿فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين* فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ وقد تقدم ويأتى، ففى هذا من الفقة أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في آل عمران، قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن: الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهم خرج سهمها خرج بها معه، الثاني: أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لا مال له فأقرع بينهم، فاعتق اثنين وأرق أربعة. الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست فقال: «اذهبا وتوخيا الحق واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه». فهذه ثلاثة مواطن، وهى القسم في النكاح والعتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال. تفسير القرطبي - (121/15 - 125).

يلحقهم، فلما وصل البحر ركب ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: 140] المملوء من الناس والأحمال والأثقال، فاحتبست السفينة على أهلها فاضطربوا، فقال البحارون: إن في السفينة عبدًا آبقًا، فبادروا إلى القرعة على ما هو عادتهم في أمثاله، وبعد خروج القرعة باسم واحد من أهلها، طرحوه في الماء فأخذت في الجري والذهاب.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع حينئذ أهلها، فخرجت القرعة باسم يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: 141] المغلوبين المغرقين بمقتضى القرعة.

وبعدما خرجت القرعة باسمه، تفطن أنه من الاختبارات الإلهية، فقال: أنا العبد الآبق، فرمى نفسه في الماء خوفًا من غضب الله وكمال غيرته وحميته، وتوطينًا على مقتضى قضاء الله، مفوضًا أمره إليه سبحانه.

وبعدما وصل إلى جوف الماء ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ بإلهام الله إياه على الفور، وابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142] نفسه، نادم على فعله الذي فعله بلا نزول وحي من ربه؛ لذلك أخذ حينئذ سبح له سبحانه عما لا يليق بشأنه.

وبالجملة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: 143] المنكشفين بوحدة الحق، وتنزهه عن سمات الكثرة مطلقًا.

﴿لَلَبِثَ﴾ واستقر ﴿فِي بَطْنِهِ﴾ أي: بطن الحوت ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: 144] وصار له بطنه كالقبر لسائر الأموات، وبالجملة: لا ينجو منه أبدًا.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الصافات: 145-156].

ولما كان من أهل التسبيح والتقديس، المنكشفين بوحدتنا واستقلالنا في شئوننا وتطوراتنا ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: طرحنا يونس ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: الساحل الخالي عن شيء يغطيه ويظله من شجر وغيرها عناية منَّا إياه ونجاة له.

وذلك بأن ألهمنا الحوت أولاً حين سقوطه في البحر بالتقامه، فالتقمه بلا لحوق ضرر له من الماء، ثم ألهمناه أن يخرج رأسه من الماء حتى يتنفس في بطنه، إلى أن بلغ الساحل.

قيل: كان في بطنه يومًا أو بعض يوم، وقيل: ثلاثة أيام، أو سبعة وعشرين، أو أربعين.

فلما بلغ الساحل أخرجه من بطنه، ولفظه الموج إلى الساحل العاري عن الظل، والشمس في غاية الحرارة ﴿وَهُوَ﴾ حينئذ ﴿سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 145] ضعيف، صار بدنه كبدن الطفل حين ولد.

﴿وَ﴾ بعدما لم يكن له متعهد، وليس هناك مظلة ولا شيء يحفظه من الذباب ﴿أَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ في الحال من كمال رحمتنا وعطفنا معه ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: 146] وهي: شجرة تنبسط على وجه الأرض، ولها أوراق عظام بلا ساق تقوم عليه - قيل: هي الدباء - فغطيناه بأوراقها وربيناه بظلها؛ إذ ظلها من أكرم الأظلال وأحسنها هواء، وألهمنا أيضًا إلى وعلة - وهي المعز الوحشي - حتى جاءت عنده صباحًا ومساءً، وهو يشرب لبنها، إلى أن قوي وقوّم مزاجه على الوجه الذي كان.

﴿وَ﴾ بعدما ربيناه كذلك ﴿أَرۡسَلۡنَٰهُ﴾ مرة أخرى ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: 147] أي: الناظرون في بادئ النظر؛ يعني: حكم الناظر عليهم على التخمين والظن، فيقول: إنهم مائة ألف أو أكثر، وهؤلاء هم الذين قد هرب منهم أولاً، وهم أصحاب «نينوى» هي قرية من قرى الموصل.

﴿فَـَٔامَنُوا له﴾ وقبلوا منه دعوته بعدما أُرسل إليهم ثانيًا ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ مؤمنين مصدقين موحدين ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: 148] أي: إلى انقضاء آجالهم.

ثم لما أثبت مشركو مكة - خذلهم الله - لله المنزه عن الأنداد والأشباه ولدًا، بل أوضع الأولاد وأدناها، وهي الأنثى، ونسبوا الملائكة الذين هم من أشرف المخلوقات المتزهون عن لوازم الأجسام مطلقًا إلى الأنوثة، التي هي بمراحل عنها، حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، ولم يكن له ابن، وتمادوا على هذا إلى حيث اتخذوها مذهبًا، وبالغوا في ترويجه.

ردَّ الله عليهم على أبلغ وجه وآكده، حيث أمر حبيبه ﷺ بالاستفتاء والاستفسار عن قولهم هذا، ونسبتهم هذه فقال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ وسلهم؛ أي: كفار مكة يا أكمل الرسل، واستخبرهم على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ أي: أيثبتون لربك الواحد

الأحد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] ﴿الْبَنَاتُ﴾ أي: أوضع الأولاد وأردأها ﴿وَلَهُمُ﴾ أي: لأنفسهم ﴿الْبَنُونَ﴾ [الصافات: 149] تعالى سبحانه عما يقولون.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: أتظنون وتعتقدون أنّا خلقنا الملائكة الذين هم من سدنة سدتنا السنية، وخدمة عتبتنا العلية ﴿إِنَاثًا وَهُمْ﴾ حين خلقنا إياهم ﴿شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: 150] حاضرون، يشهدون أنوثتهم ويبصرونها، مع أنها لا مجال للعقل إلى الاطلاع بأنوثتهم، ولم ينقل منّا أحد من الرسل والأنبياء، مع أنه لا سبيل للحواس الأخر إلى دركها سوى البصر، ومن أين يتأتى لهم الحضور حينئذ؟!.

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والاستبعاد: ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المؤمنون الموقنون بوحدة الله، ووجوب وجوده، وتقدسه عن لوازم الإمكان مطلقًا ﴿إِنَّهُم﴾ أي: أولئك الضالون المغمورون في الجهل والطغيان ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: 151-152] الواحد الأحد المستغني لذاته عن الأهل والولد، قولاً باطلاً ظلمًا وزورًا ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات: 152] فيما يقولون، مقصورون على الكذب المحض بلا مستند عقلي أو نقلي.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ أي: أتعتقدون أيها الجاهلون بقدر الله ووحدة ذاته المستغنية عنه مطلق المظاهر والمحال، فكيف عن لوازم الحدوث والإمكان الذي هو أمارات الاستكمال والنقصان، إنه سبحانه مع كمال تعاليه وتقدسه، اصطفى واختار لنفسه البنات المسترذلة الدنية ﴿عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: 153] الذين هم أشرف بالنسبة إليهن، وأكمل خَلقًا وخُلقًا، وكمالاً وعلمًا، ورشدًا ويقينًا؟!.

﴿مَا لَكُمْ﴾ وما شأنكم ولحق بكم أيها المفسدون المفرطون ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: 154] على الله ما لا يرتضيه العقل، ولا يقتضيه النقل؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: 155] ولا تتذكرون أن ذاته سبحانه منزه عن أشرف الأولاد فكيف عن أردئها؟!.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ حجة وبرهان نقلي ﴿مُّبِينٌ﴾ [الصافات: 156] واضح في الدلالة على مدّعاكم هذا؟!.

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا

أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: 157-170].

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ النازل عليكم من قبل الحق المثبت لدعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: 157].

﴿وَ﴾ من إفراطهم في حق الله، وجعلهم بكمال ذاته وصفاته وأسمائه ﴿جَعَلُوا﴾ وأثبتوا ﴿بَيْنَهُ﴾ سبحانه ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ الذين هم مخلوقون من النار ﴿نَسَبًا﴾ أي: نسبة بالمصاهرة، ويزعمون - العياذ بالله - أنه سبحانه تزوج منهم امرأة، فحصلت منها الملائكة ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المفترين على الله بأمثال هذه المفتريات البعيدة عن جنابه مراء ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: 158] في العذاب المخلد، والنكال المؤبد بقولهم هذا، ونسبتهم هذه.

﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ وتقدس ذاته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 159] به هؤلاء المعاندون الجاهلون.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 160] منهم، وهم الذين ينكشفون بقدر الله، ووحدة ذاته، واستقلاله في وجوب الوجود ولوازم الألوهية والربوبية، بلا شائبة شركة وتوهم مظاهرة ولوث إمكان وشين نقصان.

وبعدما ثبت تنزهه سبحانه من مضمون ما تنسبون بذاته أيها المفترون المفرطون ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المعزولون عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 161] من دون الله من الأصنام والأوثان.

﴿مَا أَنتُمْ﴾ وآلهتكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات: 162] أي: مفسدين معرضين، صارفين عموم الناس عن عبادته وإطاعته سبحانه بإغوائكم وإغرائكم ضعفة الأنام، وتغريركم إيّاهم بعبادة الأصنام.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 163] أي: الذين حقَّ عليهم القول وجرى عليه حكمه سبحانه، ومضى قضاؤه بأنهم من أصحاب النار وأهل الجحيم، لا بدَّ لهم أن يصلوها ويدخلوها بلا تردد وتخلف؛ يعني: ما يفيد إضلالكم وإغراؤكم إلا لهؤلاء المحكومين بالنار في أزل الآزال دون المجبولين على فطرة الإسلام والتوحيد.

ثم لما اتخذ بعض المشركين الملائكة آلهة، واعتقدوهم بنات الله، وعبدوا لهم

كعبادته سبحانه، ردَّ الله عليهم حاكيًا عن اعتراف الملائكة بالعبودية، فقال سبحانه من قبل الملائكة: ﴿وَ﴾ كيف يليق بنا أن نرضى بما افترى المشركون علينا من استحقاق العبادة والشركة في الألوهية؛ إذ ﴿مَا مِنَّا﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ في العبودية والتوجه نحو الحق ﴿مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164] [1] معين مقدر من عنده سبحانه، لا يسع له أن يتجاوز عنه بلا إذن منه سبحانه، بل يلازم كل منا مقامه لمقدر له من ربه، متوجهًا إليه سبحانه، منتظرًا لأمره وحكمه بلا غفلة وفترة.

﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: 165] على الاستقامة حول عرش الرحمن كصفوف الناس في المساجد، لا يسع لأحد منَّا أن يتعدى من مكانه مستقبلاً أو مستدبرًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: 166] المتزهون المقدسون لله الواحد الأحد الصمد عن توهم الكثرة والشركة مطلقًا، الراسخون المتمكنون في مرتبة التنزيه والتقديس، فكيف يتأتى منَّا أن نرضى بمفتريات أهل الزيغ والضلال بنا؟! عصمنا الله وعموم عباده عن زيغ الزائغين وضلالهم.

﴿وَإِن كَانُوا﴾ أي: قد كان أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال يعني: كفار قريش خذلهم الله ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الصافات: 167] على سبيل التمني والتحسر تشنيعًا وتعييرًا على من مضى من الأمم السالفة: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا﴾ ونزل علينا ﴿ذِكْرًا﴾ كتابًا ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: 168] أي: من جنس كتبهم كتابًا سماويًا منزلاً من الله مثل كتبهم.

﴿لَكُنَّا﴾ حينئذ ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 169] أخلصنا العبادة له، ولا

---

(1) أهل البدايات في مقام الطاعات والأوساط في المقامات، مثل التوكل والرضا والتسليم، والمحبون في مقام الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة في مقام المعارف ينقلون في المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين؛ فإنهم مستغرقون في بحار الذات والصفات، وليس لهم مقامٌ معلومٌ؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف؛ حيث أفناهم قهر الجلال والجمال والعظمة والكبرياء عن كل ما وجدوا من الحق، فبقوا في الفناء إلى الأبد. قال ابن عطاء: لك مقام المشاهدة، ولهم مقام الخدمة. وقال جعفر: الخلق مع الله على مقامات شتى؛ من تجاوز حده هلك، فللأنبياء مقام المشاهدة، وللرسل مقام العيان، وللملائكة مقام الهيبة، وللمؤمنين مقام الدنو والخدمة، وللعصاة مقام التوبة، وللكفار مقام الطرد والغفلة واللعنة. قال الحسين: المريدون في المقامات يجولون من مقام، والمرادون جازوا المقامات إلى رب المقامات. وقال الجنيد: المقامات معلومة كما ذكره الله تعالى، وأرباب الحقائق يأنفون من المعلومات والمرسومات؛ لأنهم في قبضة الحق وأمره.

تتجاوز عن مقتضى ما جاءنا من عنده في كتابه، ولا نتعدى عن حكمه وحدوده وأحكامه، ولا نهمل عن عظته وتذكيراته، ونعتبر من قصصه وأمثاله، وبالجملة: نتعامل معه أحسن المعاملة لا كمعاملة سائر أصحاب الكتب.

ثم لما نزل عليهم ما هو أفضل الكتب تربية، وأكملها رشدًا، وأشملها حكمًا، وأتمها وأبلغها حكمة وبرهانًا، وأوضحها بيانًا وتبيانًا، فكفروا به، وأنكروا نزوله، وأعرضوا عنه وعن أحكامه، واستهزءوا بمن أنزل إليه وكذبوا رسالته ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: 170] آجلاً وعاجلاً جزاء ما يفعلون ويستهزئون، ويذوقون وبال ما ينكرون ويعرضون، ألا أنهم هم المفسدون لأنفسهم ولكن لا يشعرون، فسيعلمون أي منقلب ينقلبون.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: 171-182].

﴿وَ﴾ كيف لا يعلمون ولا يذوقون العذاب أولئك المسرفون ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ﴾ أي: حقت وثبتت منّا ﴿كَلِمَتُنَا﴾ المشتملة على الوعد والنصر ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 171][1] وهي قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].

---

(1) قال البقلي: سبقت لهم كلمة الحسنى باصطفائية الله في الأزل بالولاية والنبوة والرسالة بغير علة الاكتساب ونقائص الحدوثية، أخبر عن محض منته الأزلية عليهم، ونفى عنهم الانقطاع عنه من جهة تغاير الامتحان أنهم مؤيدون بوصف الظفر بالبقية على مرادهم بكل ما أرادوا له، أنزل عليهم جنود أنوار تجلي ظهور جلاله في قلوبهم، تقدست سرائرهم عن كل غالب من الشهوات وعلل النفسيات، قال سهل: جنوده ترد على الأسرار، وترد على الظواهر، وجنده في السرائر صحة عقد الإيمان في القلب وشرحه به، وما يتولد فيه من صحة إيمانه والتوكل وما يريد فيه بتوكله ومحبة الله تعالى، فإذا نزلت المحبة في القلب وسكنت فيه طهّرها من كل ما سواه؛ فإن المحبة لا يسكن معها ما يضادها، وجنوده في الظواهر هو أن يوفقه بالقيام إلى العبادات والأوامر على حدود السنن والتبرؤ من الحول والقوة لما يتقن من حسن قيام الله لعبده بالكفاية في كل أسبابه، ثم أنه سبحانه لما وصف صنائع لطفه بأنبيائه وأوليائه نزّه نفسه أن يلحق به ويتنزيه جلاله علل كل حادث ووصف كل واصف وحمد كل حامد؛ حيث قام حمده وتنزيهه

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الرسل والأنبياء ﴿لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: 172
المقصورون على النصر والغلبة على الأعداء، القاهرون القادرون على من غلب
وظلمهم واستهزأ معهم عنادًا ومكابرة.

وكيف لا يغلبون أولئك الأولياء على الأعداء، إنهم من جندنا وحزبنا ﴿وَإِ
جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 173] القاهرون على جنود الأعداء وأحزابه
المسلطون عليهم.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل مضمون وعدنا على عموم الأولياء من الرس
والأنبياء ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: كفار قريش، واعرض عن محاربتهم ومخاصمتهم ﴿حَتَّ
حِينٍ﴾ [الصافات: 174] أي: إلى حين حلول العذاب الموعود المعهود من لدنا.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ العذاب إذا نزل عليهم عاجلاً، وهو عذاب يوم بدر ﴿فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: 175] أجله في يوم الجزاء بأضعاف ما لحقهم عاجلاً وآلافه.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا على العذاب الآجل مع نزول العذاب العاجل عليهم يوم
بدر ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ الآجل في الجزاء ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: 176] ويقولون: متى هذا؟
بعدما سمعوا فسوف يبصروه آجله زيادة في الجزاء بأضعاف ما لحقهم، أمَا يستحيون
من الله، فيستعجلون عذابه، ولم يتفطنوا مما جرى عليهم عاجلاً، ولا يخافون من نزوله
وحلوله بغتة.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب الموعود لهم آجلاً ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بفناء دارهم، وهذا
كناية عن قربه وإلمامه بغتة ﴿فَسَاءَ﴾ وبئس حينئذ ﴿صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: 177]
إذ أصبحوا مفاجئين على أنواع العذاب والنكال، فلمَ يستعجلون بها أولئك الجاهلون
الهالكون في تيه الضلال والطغيان؟!.

﴿وَ﴾ بعدما تمادوا في الغفلة والطغيان، وبالغوا في العتو والعصيان ﴿تَوَلَّ
عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: 178] أي: حين إلمام العذاب
الموعود.

﴿وَأَبْصِرْ﴾ إياهم بعدما ألمَّ ونزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: 179] أي: أي

مقام أداء حقوق ربوبيته على أهل العبودية.

شيء يترتب على إنكارهم، وتكذيبهم يوم الجزاء أولئك الضالون.

وإنما كرره سبحانه ما كرره تأكيدًا ومبالغة في التهديد والتوعيد، تسلية لحبيبه ﷺ فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وتنزهت ذاته عن معتقدات أهل التشبيه مطلقًا، وما نسبوا إليه سبحانه من أمارات الإمكان وعلامات النقصان، وكيف ينسبون إلى ﴿رَبِّ العِزَّةِ﴾ والقدرة والغلبة والكبرياء والاستقلال التام والاستيلاء العام، المنزهة ذاته عن الإحاطة، وصفته عن العدِّ والإحصاء، تعالى شأنه عن التحديد والتوصيف ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180] به أولئك المسرفون المفرطون من إثبات الولد له والإيلاد والاستيلاد.

﴿وَسَلامٌ﴾ من الله وبركاته ﴿عَلَى﴾ عباده ﴿المُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 181] من عنده؛ لتبيين توحيده وتقديسه وتعاليه عن إحاطة مطلق المدارك والعقول.

﴿وَالْحَمْدُ﴾ من ألسنة جميع من يتأتى منه الحمد والثناء حالاً ومقالاً ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن اتخاذ الأهل والولد ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: 182] الذين ظهروا من شئونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته، ورباهم أيضًا على حسبها إظهارًا لكمال قدرته وعموم إحاطته.

وعن المرتضى الأكبر المتحقق بمقام التسليم والرضا - كرم الله وجهه - أنه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180-182].

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بجلال الحق، وكمال كبريائه، واستغنائه عن عموم مظاهره ومصنوعاته، واستيلائه على جميع ما ظهر وبطن من الأمور الكائنة المنعكسة من بروق تجلياته حسب أسمائه وصفاته المندرجة في شمس ذاته، أن تلاحظ شئون الحق على هياكل الموجودات، وتطالع ظهورها على صحائف الكائنات التي هي بالحقيقة كالمرايا لظهور آثار الأسماء والصفات الإلهية، وتتفكر في خلق السفليات والعلويات، وتتأمل في كيفية ارتباطاتها ورجوعها إلى الوحدة الحقيقية الحقية، وكيفية سريان الوحدة الذاتية عليها بلا حلول واتحاد واتصال وانفصال وحصول وامتثال، وكذا

عن كيفية انبساط أظلال الوجود الإلهي على ذرائر الأكوان، وامتداداتها على مرايا الإعدام على سبيل التجدد والتقضي بلا طريان ضد وحلول فترة وانقطاع أصلاً.

ومن تأمل ظهور الحق على الآفاق والأنفس على الوجه الذي تلا، فقد تحقق بعزة الله، وانكشف له وحدته المحتوية على عموم الكثرات بلا توهم كثرة في ذاته المستغني عن التعدد مطلقًا، فحينئذ ارتفع عن بصر شهوده غير الحق وشئونه، ولا يرى في فضاء وجوده سوى الله موجودًا ومشهودًا، فتمكن حينئذ في مقام التوحيد، وأخذ في التنزيه والتقديس والتسليم والتكبير والتحميد، قائلاً بلسان استعداده: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 180-181] المنبهين على مرتبة التوحيد، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الصافات: 182] آمين.

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة ص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وإحاطته وشموله على عموم ما لاح عليه بروق شئونه ولوامع تجلياته الغير المحصورة، أن الحقيقة الحقية المنزهة عن لوث التعينات وشوب الإضافات مطلقًا، لما أراد أن يتجلى لذته بذاته، ويطالع أسماءه الحسنى وصفاته العليا التي اتصف بها ذاته على التفصيل، حتى ينقلب حضوره شهودًا وعلمه عينًا، تنزل من مرتبة الأحدية المستهلكة دونها الكثرات مطلقًا المتلاشية عنده الإشارات والإضافات رأسًا.

فالتفت نحو العدم بعدما أفاض عليه خلعة الاستعداد والقبول، فانعكس فيه من شئون الحق وأشعة أنوار شمس ذاته، ما لا يتناهى أبد الآباد من الصور والآثار الغير المتكررة، فيتراءى؛ أي: هذا النظام المشاهد المحسوس من تلك الآثار والأظلال المنعكسة من شمس الذات، فانبسط عليها بالاستقلال والاستيلاء التام بلا مشاركة ومظاهرة، فيوجد الكل به وله وفيه، ويرجع الكل إليه رجوع الأضواء إلى الشمس والأمواج إلى الماء.

فمن خرج عن ربقة عبوديته بعدما سمع كيفية ظهوره، فقد لحق بالأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 104-106].

وما ذلك إلا بسبب جهلهم وضلالهم، وخروجهم عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بينهم بالوضع الإلهي، المنبه به على الأنبياء العظام والرسل الكرام إلا من استكبارهم وتغررهم الحاصل لهم بتغرير شيطان أماراتهم عليهم، وتضليله إياهم وتلبيسه.

لذلك أقسم سبحانه بكتابه المجيد المنزل من عنده، المشتمل على فوائد الكتب السالفة المنزلة من لدنه بأن كفرهم وإنكارهم بتوحيد الله وتصديق رسله وكتبه، إنما نشأ

من استكبارهم في أنفسهم، واستعلائهم على عباد الله عدوانًا وظلمًا، ابتلاء من الله إياهم، وافتتانًا لهم على مقتضى أسمائه المقتضية للإذلال والإضلال، إظهارًا للقدرة الكاملة والحكمة الباعثة على وضع التكاليف المستلزمة للثواب والعقاب والإحسان والخذلان والإنعام والانتقام.

فقال مخاطبًا لحبيبه الذي اختاره لرسالته إلى كافة البرايا بالدعوة العامة والتشريع التام الكامل المكمل، المتمم لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم المتعلقة لسلوك طريق التوحيد، بعدما تيمن باسمه العظيم الجامع لجميع الأسماء والصفات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه ﷺ بمقتضى عموم أسمائه وصفاته، فأرسله إلى عموم البرايا وكافة الأمم، وختم ببعثه أمر التشريع والتكميل ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بجعله وإرساله رحمة للعالمين ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه ﷺ بخلقه وإيجاده على الخلق العظيم.

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص: 1-5].

﴿ص﴾[1] أيها الصفي، الصافي مشربه عن الأمور المنافية لتوحيد الحق وإيجاده

(1) هذا الحرف من كنوز إشارات الحق إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ حيث صادف بنعت الوصال الذي يفنى عنه بصولة صدمات الأزلية عند كشوف قهر القدم صفات الحدثية، حتى صار صدق جواهر أسرار الربوبية في بحار الذات والصفات، واصطاده الحق بزمام محبته من صحاري البريات، وصفّاه بصفاء عن كدورات الكون، فكان صفوًا من بحر النبوة، صاحيًا في مشاهدة البقاء بنعت صدق العشق في رؤية أنوار الكبرياء، ما صدق عن مشاهدة جمال الحق إلى الأكوان حين عارضه صواعق الامتحان، فخرج منها بوصف الصدق في المحبة، وصفو الصحو في المعرفة، حين أسكر الحق صفوة أرواح الصادقين بشربات بحر وصله ووصفه، أخبر بحرف صاد من صفاوة قلوب العارفين، وصدق حقائق محبة المحبين، وتلهب نيران صدور العاشقين، وصبابة أسرار الوالهين، وصفوف أهل الاستقامة في مقام مشاهدة القدم، حين وازنوا بنعت الفناء جلال البقاء، وإشارة التوحيد فيه أنه كان بجلاله وعظمته في قدم القدم، وأزل الأزل بحار الصمدية صافية عن غبار الحدثان، فأشار به عنه، وبان كل مصدر كل الكل، صدر منه الوجود؛ إذ كان وجوده منزهًا عن الاجتماع والاقتران والعلل والانقسام أي: أظهرت لك يا صادق ما كان وما سيكون، وجعلتك بصيرًا ببصري؛ حتى تطلع على غيبوبة جلال وصالي، فكنت مصورًا بصورة روح الأول التي صدرت مني بيعتي، ثم قال: شطح من مقام السكر رمز حقيقة الاتحاد

وصرافة وحدته الذاتية، والصدوق الصادق في ادعاء الرسالة والنبوة بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه، والصبور الصابر على متاعب الدعوة والتبليغ وحمل أعباء الرسالة.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1] والبيان وأنواع الدلائل والبرهان، المنزل من عندنا عليك يا أكمل الرسل؛ لتبيين أحكام دين الإسلام، وتحقيق شعائر الإيمان، والتنبيه على مرتبة التوحيد والعرفان المنتهي إلى الكشف والعيان، ما الكفار المنكرون بك وبكتابك ودينك مطلعون بعيب ونقصان في دينك وكتابك يتشبثون به.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عنَّا وعنك وعن كتابك لا سند لهم أصلاً لا عقلاً ولا نقلاً، بل هم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ كبر وخيلاء عند نفوسهم ﴿وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2] خلاف لنا ولك بعيد عن توحيدنا وتصديقك.

وبعدما سمعت حالهم لا تبالِ بهم وبخلافهم ومرائهم وكبرهم وخيلائهم، اذكر ﴿كَمْ﴾ أي: كثير ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أمثالهم ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن﴾ أهل ﴿قَرْنٍ﴾ مغمورين في الكبر والخيلاء، متمكنين في الخلاف والشقاق أمثالهم ﴿فَنَادَوْا﴾ واستغاثوا متضرعين إلينا، راجين منَّا عفونا إياهم حين أخذناهم بظلمهم بغتة ﴿وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: 3] أي: ليس حينئذ وقت تأخير ونجاة لهم وخلاص، فلم نجبهم لذلك؛ لمضي وقت الاختبار والاعتبار، بل أهلكناهم واستأصلناهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: 44].

﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم وخلافهم ﴿عَجِبُوا﴾ وتعجبوا؛ أي: أهل مكة ﴿أَن جَاءَهُم﴾ وأرسل عليهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم وبني نوعهم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ من كمال تعجبهم وشدة إنكارهم واستبعادهم، وضع الظاهر موضع الضمير تنصيصًا بأنه ما حملهم على هذا القول إلا كفرهم وإنكارهم: ﴿هَذَا﴾ أي: محمد ﷺ فيما أظهره في صورة المعجزة الخارقة للعادة ﴿سَاحِرٌ﴾ يسميه معجزة تغريرًا وتلبيسًا، وفيما نسبه إلى الوحي والإنزال ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: 4] مبالغ في الكذب

سيد أهل الصحو ﷺ بقوله: «مَنْ رآني فقد رأى الحقَّ» ثم أراد أن يبين للعالمين بحرف الصاد وصف الربوبية، وحقيقة محبة حبيبه ومنازله الرفيعة في مقام وصاله، فأقسم بصفاته التي هي مفاتيح كنوز ذاته التي أخبر عنها بحرف الصاد.

مستغرق فيه.

ثم لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ، فشق ذلك على قريش، وفرح المؤمنون، فازدحم صناديدهم عند أبي طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وسيدنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء، فأتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ، فأحضره معهم، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السُؤل، فلا تمل كل الميل على قومك.

فقال ﷺ: «وماذا يسألون؟».

قالوا له: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، وعلى هذا نعاهد معك عند عمك.

فقال ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة، وتملكون بها العرب وتدين بها العجم؟».

فقال أبو جهل: لنعطينكها وعشر أمثالها.

فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله»[1].

فنفروا من ذلك، وقاموا قائلين على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فمن أنى يسع الإله الواحد للخلق الكثير؟ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي يطلب هذا المدعي ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5] أي: عجيب بديع ابتدعه من تلقاء نفسه.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: 6-11].

﴿وَ﴾ بعدما تنفروا من قوله، وتعجبوا من طلبه ﴿انطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾ أي: أشرافهم قائلين: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ أي: اثبتوا ﴿عَلَى﴾ عبادة ﴿آلِهَتِكُمْ﴾ ولا تصالحوا معه ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي حدث بيننا وابتدع فينا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: 6] بنا من شؤم الزمان وريبه.

وما لنا إلا الصبر والثبات إلى أن تنجلي الغياهب وترتفع النوائب، مع أنا ﴿مَا

(1) رواه أبو داوود في «السنن» (437/14).

﴿سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بالتوحيد الذي يقوله هذا الداعي ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي النصرانية؛ إذ النصارى يقولون بالأقانيم[1] الثلاثة، ولم ينقل منهم توحيد الإله، ولا من الذين مضوا قبلهم من أرباب الملل السالفة، وبالجملة: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا التوحيد الذي ظهر به ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: 7] أي: كذب اخترعه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي افتراءً ومراءً، قاصدًا به التغرير والتلبيس على ضعفة الأنام.

﴿أَ﴾ تعتقدون أيها العقلاء المتدربون أنه ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على يتيم أبي طالب ﴿الذِّكْرُ﴾ أي: الوحي والقرآن ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ مع أنه مثلنا ومن بني نوعنا، بل أدون منَّا، ونحن أشرف منه، وأكبر سنًا، وأكثر أموالاً وأولادًا، وأكرم جاهًا وثروة، وأعلى سيادة ورئاسة، إنما يقولون هذا على سبيل الإنكار والاستبعاد لا أنهم معتقدون على الوحي والإنزال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب عظيم ﴿مِّن ذِكْرِي﴾ ووحيي إليه، بل إلى جميع المرسلين ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: 8] أي: إنما قالوا هذا، وشكوا في الوحي وارتابوا؛ لأنهم لم يذوقوا عذابي، ولو أنهم ذاقوه لما قالوا، فمن أين يقولون هذا ويحكمون أن الوحي لو نزل لنزل على رؤسائنا وسادتنا.

أهم يعلمون الغيب ﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ أي: عند أولئك البعداء المنهمكين في بحر الغفلة والضلال ﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ومقاليد نعمه ومفاتيح كرمه؛ ليكون لهم الخيرة في أمره سبحانه، فيعطونها على من يشاء، ويمنعونها عمَّن يشاء، فكيف يحكمون على ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره في تصرفات ملكه وملكوته بالاستقلال والاختيار ﴿الْوَهَّابِ﴾ [ص: 9] على من شاء وأراد بلا مشاورة ومظاهرة.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: يدعون أن لهم التصرف في العلويات والسفليات والممتزجات، وإن ادعوا ذلك لأنفسهم ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ وليصعدوا ﴿فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: 10] التي هي معارج الوصول إلى منشأ الوحي والإلهام، ومنبع النزول والإنزال، فليأتوا بالوحي إلى من أرادوا واختاروا.

وبالجملة: من أين يتأتى لأولئك الكفرة العجزة المقهورين الصاغرين الخيرة في أمره سبحانه وحكمه بمقتضى قضائه، حتى يتفوهوا عنه وعن أفعاله وأحكامه؛ إذ لا يسع لأحد من أقوياء عباده أن يسأل عن فعله مع أن أولئك الحمقى ﴿جُندٌ مَّا﴾ أي:

(1) الأقانيم: الأصول، واحدها: أُقْنُومٌ. مختار الصحاح (1/263).

شرذمة قليلة في غاية القلة ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: وضعوا ونصبوا أنفسهم بمعاداتك في أبعد الأمكنة وأعلى المرتبة، مع أنهم ﴿مَهْزُومٌ﴾ مغلوب ﴿مِّنَ﴾ جميع ﴿الْأَحْزَابِ﴾ [ص: 11] الذين تحزبوا على رسل الله وأنبيائه، مع كمال شدتهم وقوتهم ووفور شوكتهم وصولتهم، فانهزموا واستؤصلوا إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 12-20].

إذ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ مع كمال قوتهم وقدرتهم نوحًا، فأغرقناهم أجمعين بالطوفان ﴿وَعَادٌ﴾ مع نهاية عتوهم وعنادهم هودًا، وأهلكناهم بالريح العاصفة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: 12] أي: صاحب الدولة الثابتة التي ادعى بسببها الألوهية لنفسه موسى، فأغرقناه وجنودهم في اليم.

﴿وَثَمُودُ﴾ المتناهي في القوة والشدة صالحًا، فأهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ المتبالغ في الجحود والإنكار على الله وحدوده لوطًا، فقلبنا عليهم ديارهم، وأمطرنا عليهم الحجارة فأهلكناهم بها ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ شعيبًا، فاستأصلناهم كذلك ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المنحرفون عن صوب السداد والصواب هم ﴿الْأَحْزَابُ﴾ [ص: 13] الذين كذبوا الرسل، وتحزبوا عليهم، وقاتلوا معهم مع كونهم أشداء أقوياء، فانهزموا عنهم بنصرنا إياهم، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وبالجملة: ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي: ما كل من الأمم السالفة المذكورة ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ المذكورين ﴿فَحَقَّ﴾ أي: لذلك لزم ولحق عليهم ﴿عِقَابِ﴾ [ص: 14] أي: أنواع عذابي ونكالي عاجلاً وآجلاً.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ وينتظر ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ المعاندون معك، المنكرون لدينك، المكذبون لرسالتك وكتابك ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينفخها إسرافيل في الصور بإذن منّا فيسمع

هؤلاء الضالون، فيموتون على الفور بلا توقف؛ إذ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: 15] قرار ووقوف مقدار خروج النفس ورجوعه.

وهذا كناية عن سرعة نفوذ قضاء الله، حين حلول عذابه عليهم إلى حيث لا يسع فيه تمييز التقدم والتأخر أصلاً، بل ينزل بغتة.

﴿وَ﴾ بعدما سمع كفار مكة أوصاف أهوال يوم الجزاء، وافتراق الناس فيها فرقًا وأحزابًا، بعضهم أصحاب يمين، وبعضهم أصحاب شمال، فيُعطى لكل فرد كتابًا كُتب فيه أعمالهم الصالحة والفاسدة، فيُحاسب كل على أعماله، فيُجازى على وفقها ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين متهكمين؛ يعني: أهل مكة بعدما سمعوا أهوال يوم الجزاء وأفزاعها: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: صحيفة أعمالنا، وقسطنا من العذاب المترتب عليها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 16] ونحن نرضى بها وبالعذاب المترتب عليها بلا حساب.

وبعدما قالوا كذلك، واستهزءوا مع الرسول، وضحكوا من قوله، ونسبوه إلى الخبط والجنون، أمر سبحانه حبيبه بالتصبر على مقاساة ما جاءوا به مما لا يليق بشأنه، فقال: ﴿اصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ لك، وفي شأنك أولئك الجاهلون عنادًا أو مكابرة، ولا تلتفت إلى هذياناتهم، ولا تحزن من أباطيلهم المستهجنة، فعليك يا أكمل الرسل أن توطن نفسك على الصبر المأمور، ولا تتجاوز عن مقتضاه، ولا تتعب نفسك بالقلق والاضطراب والمجادلة معهم والمخاصمة إياهم إلى أن نكف عنك شرورهم، ولا تلتفت إلى هواجس نفسك، حتى لا تقع في محل الخطاب والعتاب ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وما جرى عليه من العتاب الإلهي من عدم حفظه نفسه عن مقتضياتها ومشتهياتها حتى ابتلاه الله سبحانه بما ابتلي مع أنه ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: صاحب القدرة والقوة في الحفظ وحفظ النفس عن محارم الله ومنهياته، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17] [1] رجّاع إلى الله وإلى مرضاته سبحانه في

(1)هذا التسخير وقوع نور الفعل معها، ومباشرة أنوار الصفات فيها بواسطة الفعل، فيظهر روح الفعل فيها، فتقبل فيض الصفة من الصفة، فصارت خاضعة متخشعة في نور عظمته تعالى، فلما وصل إليها ألحان داود من حيث روحه العاشقة ترنمت بألحان العشق من أغصان ورد الجمال والجلال، فتحركت من لذة سماع صوت داود وتسبيحه وتنزيهه، فوافقت داود في الذكر والتسبيح، وكذلك الطيور إذا سمعت أصوات الوصلة منه صفرت بصفير التنزيه وتقديس من وجدان حلاوة وجد داود وإدراك روح الملكوت؛ لأنهن مقدسات خلقن مستعدات لقبول أنوار

جميع حالاته.

ومن كمال رجوعه إلينا وحفظه لمرضتنا ﴿إِنَّا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿سَخَّرْنَا الْجِبَالَ﴾ له، وجعلناها تحت حكمه إلى حيث سارت ﴿مَعَهُ﴾ حيث شاء ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بمشايعته وموافقته حين يسبح ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18] أي: بالليل والنهار، يعني: ما دام يميل ويتوجه إلى ربه، مالت الجبال معه ازديادًا لثوابه وتكثيرًا لفضائله.

﴿وَ﴾ كذا سخرنا له ﴿الطَّيْرَ﴾ أي: جنس الطيور يستمعن قوله ﴿مَحْشُورَةً﴾ على فنائه مسخرة لحكمه - على قراءة النصب - «والطيرُ محشورةٌ» عنده محكومة لأمره يسبحن بمشايعته بالغدو والآصال كتسبيح الجبال على قراءة الرفع، وبالجملة: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل واحد من داوود والجبال والطيور ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 19] أي: رجّاع إلى الله، مسبح له سبحانه، مقدس عما لا يليق بجنابه على الدوام والاستمرار.

﴿وَ﴾ من كمال جودنا ولطفنا معه ﴿شَدَدْنَا﴾ له ﴿مُلْكَهُ﴾ الظاهر، أي: قوينا استيلاءه وتسليطه على الأنام، وألقينا هيبته على قلوبهم إلى حيث لم يخرجوا عن الحدود الموضوعة في شرعه خوفًا من اطلاعه.

وسبب هيبته أن تحاكم عنده رجلان، فادعى أحدهما على الآخر بأنه غصب منه بقرة عدوانًا وظلمًا، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدعي بينة، فأريناه في منامه أن يقتل المدعى عليه، ويحكم بالبقرة للمدعي، فلما استيقظ كذب نفسه واستغفر، فنام فأريناه مثل ذلك، واستيقظ فاستغفر ثانيًا، فنام فرأى ثالثًا مثل ذلك، فتقين أنه من الله، فهمّ أن يقتله تنفيذًا لما أُلهم إليه، فقال المدعى عليه: أتقتلني بلا بينة.

فقال ﷺ: نعم والله لأنفذنَّ حكم الله تعالى فيك، فلما تفطن الرجل منه الجزم في عزمه، اضطر إلى الاعتراف، حيث قال: لا تعجل يا نبي الله حتى أخبرك، والله ما أخذت بهذا الذنب ظلمًا وزورًا، ولكني قتلت والد هذا المدعي اغتيالاً وخداعًا.

فقتله ﷺ، وعظمت هيبته في قلوب الناس، حتى انزجروا عن مطلق المحرمات والمنهيات خوفًا من اطلاعه، وقالوا: لا نعمل شيئًا إلا علمه، فيقضي علينا بمقتضى

فعل الخاص وأشكال الروحانيات، وفيهن خويصات لهن عشق ومعرفة كالهدهد والبلبل والعندليب والقمري والحمامة ومالك الحزين، وكان ﷺ يعرف أصواتهن وتسبيحهن من حيث المحبة والعشق، [العرائس].

علمه، هذا تأييدنا وتقويتنا إياه بحسب الظاهر والسلطنة الصورية.

﴿وَ﴾ أمّا بحسب الباطن والحقيقة ﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ﴾ المتقنة التي يتصرف بها في حقائق الأمور، ويطلع على سرائرها بنور النبوة والولاية الموروثة له من أسلافه الكرام، الموهوبة إياه من الحكيم العلام تأييدًا له وتقوية لشأنه ﴿وَ﴾ آتيناه أيضًا ﴿فَصْلَ الخِطَابِ﴾ [ص: 20] أي: قطع الخصومات على التفصيل الذي وقع بين المتخاصمين بلا حيف وميل إلى جانب على ما هو مقتضى العدل الإلهي بالخطاب المفصول الموضح الواضح المقتصد بلا اقتصار مخل وإطناب ممل، وبالجملة: بلا إغلاق يشتبه مضمونه على المتخاصمين.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: 21-24].

﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ وحصل عندك يا أكمل الرسل ﴿نَبَأُ الخَصْمِ﴾ أي: خبر الملكين المكلفين المصورين بصورة الخصمين اللذين جاءا للحكومة عند أخيك داوود عليه السلام، حين اعتزل في محرابه للعبادة على ما هو عادته في تقسيم أيامه ثلاثة أقسام: يوم لعيش النساء، ويوم لقطع الخصومات بين الأنام، ويوم للتوجه نحو الحق والمناجاة معه سبحانه في محرابه.

وكان في محرابه والباب مغلق عليه، والحراس على الباب فجاءا - أي: الملكان - في صورة رجلين متخاصمين على الباب، فمنعهما البواب، فأخذا يستعليان المحراب.

اذكر نبأهما وقت ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ أي: صعدوا على حائط ﴿المِحْرَابَ﴾ [ص: 21] واستعلوا على سوره بقصد الدخول عليه.

اذكر وقت ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ﴾ من غير الباب بأن شق لهما الجدار، فدخلا

عليه ﴿فَفَزِعَ﴾ داوود ﴿مِنْهُمْ﴾ واستوحش من دخولهم لا من الطريق المعهود، وبعدما تفرسوا منه الرعب والفزع ﴿قَالُوا﴾ له تسلية وتسكينًا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منّا، ولا تحزن من إلمامنا إياك؛ إذ نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ تحاكمنا إليك حتى تقضي بيننا، وقد ﴿بَغَى﴾ أي: ظلم واستولى ﴿بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: أحدنا على الآخر ﴿فَاحْكُم﴾ أيها الحاكم العدل العالم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل السوي ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجر ولا تتجاوز عن مقتضى القسط الإلهي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: 22] أي: أعدل الطرق وأقوم السبل في سلوك طريق الحق.

ثم أخذوا في تقرير المسألة، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ في الدين ورفيقي في سلوك طريق التوحيد واليقين ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وهي الأنثى من الضأن، كنى بها العرب عن المرأة ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فقط، ﴿فَقَالَ﴾ لي عدوانًا وظلمًا: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجعلني كافلاً لها، مالكًا إياها، حتى صارت نعاجي مائة، ولم تبقَ لك نعجة ﴿وَ﴾ لم يقتصر على مجرد القول، بل ﴿عَزَّنِي﴾ وغلب عليّ ﴿فِي﴾ مضمون ﴿الْخِطَابِ﴾ [ص: 23] المذكور بحجج لا أقدر على دفع، ولا أسمع المقاومة معه.

وبعدما سمع كلام المدعي وتأمل في تقريره، قال للمدعى عليه: هل تصدقه فيما ادعاه عليك؟ قال: بلى.

ثم التفت ﷺ نحو المدعي، متعجبًا مستبعدًا عما جرى عليه من الظلم والعدوان حيث ﴿قَالَ﴾: تالله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا الظالم ظلمًا صريحًا ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ليأخذها منك ويضيفها ﴿إِلَى نِعَاجِهِ﴾ ليكثرها بها ويخلطها عليه حرصًا منه إلى تكميل مشتهاة نفسه الأمارة ﴿وَ﴾ لا تستبدع هذا الأمر، ولا تستبعد منه هذا، بل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الذين خلطوا أموالهم وتشاركوا فيها ﴿لَيَبْغِي﴾ أي: يظلم ويتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الخلطاء بالله، واستقاموا على صراطه الموضوع من عنده على العدالة والاستقامة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرضية عنده سبحانه، سيما في الأمور المتعلقة لحقوق عباده، ولكن ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ أي: هم قليل في الدنيا في غاية القلة والندرة، و«ما» مزيدة لكمال القلة والإبهام.

ثم التفت ﷺ إلى المدعى عليه، فقال له بعدما سمع منه اعترافه: إن رمت هذا، ضربنا منك هذا، إشارة إلى طرف أنفه، فقال المدعى عليه: أنت أيها الحاكم أحق بذلك الضرب، فنظر ﷺ ولم يرَ أحدًا ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿ظَنَّ﴾ بل تيقن ﴿دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾

وابتليناه بالذنب ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ عما جرى عليه من افتتان الله إياه ﴿وَخَرَّ﴾ ساجدًا من خشية الله، بعدما كان ﴿رَاكِعًا﴾ مكسور الظهر، منكوس الرأس عن ارتكاب الذنب ﴿وَأَنَابَ﴾ [ص: 24][1] إلينا على وجه الندم والخجل مستحييًا عنًّا، مستوحشًا عن

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي﴾ وهذا مثل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه له، وذلك أن داود كانت له فيما قيل: تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتل امرأة واحدة؛ فلما قتل نكح فيما ذكر داود امرأته، فقال له أحدهما:(إِنَّ هَذَا أَخِي) يقول: أخي على ديني. كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه:(إِنَّ هَذَا أَخِي): أي على ديني(لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ). وذُكر أن ذلك في قراءة عبد الله:«إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى» وذلك على سبيل توكيد العرب الكلمة، كقولهم: هذا رجل ذكر، ولا تفسير يكادون أن يفعلوا ذلك إلا في المؤنث والمذكر الذي تذكيره وتأنيثه في نفسه كالمرأة والرجل والناقة، ولا يكادون أن يقولوا هذه دار أنثى، وملحفة أنثى، لأن تأنيثها في اسمها لا في معناها. وقيل: عنى بقوله: أنثى: أنها حسنة، ذكر من قال ذلك: حُدثت عن المحاربي، عن جُوَيبر، عن الضحاك«إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى» يعني بتأنيثها،حسنها وقوله(فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا) يقول: فقال لي: انزل عنها لي وضمها إليّ كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله(أَكْفِلْنِيهَا) قال: أعطنيها، طلّقها لي، أنكحها، وخلّ سبيلها. حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه، فقال:(أَكْفِلْنِيهَا) أي احملني عليها. وقوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) يقول: وصار أعز مني في مخاطبته إياي، لأنه إن تكلم فهو أبين مني، وإن بطش كان أشدّ مني فقهرني. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله في قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: ما زاد داود على أن قال: انزل لي عنها، حدثنا ابن وكيع، قال: ثني أبي، عن المسعودي، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ما زاد على أن قال: انزل لي عنها، وحدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله: ما زاد داود على أن قال:(أكفلنيها) حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس،(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشدّ مني، فذلك قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) ؛ أي ظلمني وقهرني حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: قهرني، وذلك العزّ؛ قال: والخطاب: الكلام، حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ): أي قهرني في الخطاب، وكان أقوى مني، فحاز نعجتي إلى نعاجه، وتركني لا شيء لي، حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله(وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن

سخطنا وغضبنا إياه.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: 25-29].

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ الذنب بعدما أخلص في الإنابة والرجوع إلينا، بل جميع ذنوبه

تكلم كان أبين مني، وإن بطش كان أشدّ مني، وإن دعا كان أكثر مني، القول في تأويل قوله تعالى:﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال داود للخصم المتظلم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك إلى نعاجه؛ وهذا مما حذفت منه الهاء فأضيف بسقوط الهاء منه إلى المفعول به، ومثله قوله عزّ وجلّ:(لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) والمعنى: من دعائه بالخير، فلما ألقيت الهاء من الدعاء أضيف إلى الخير، وألقي من الخير الباء؛ وإنما كنى بالنعجة ها هنا عن المرأة، والعرب تفعل ذلك؛ ومنه قول الأعشى: قَدْ كُنْتُ رَائِدَهَا وَشَاةِ مُحَاذِرٍ... حَذِرًا يُقِلُّ بِعَيْنِهِ إغْفَالَهَا، يعني بالشاة: امرأة رجل يحذر الناس عليها؛ وإنما يعني: لقد ظلمت بسؤال امرأتك الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائه، وقوله(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يقول: وإن كثيرا من الشركاء ليتعدّى بعضهم على بعض(إِلا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يقول: وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، ولم يتجاوزوه(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) وفي«ما» التي في قوله(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) وجهان: أحدهما أن تكون صلة بمعنى: وقليل هم، فيكون إثباتها وإخراجها من الكلام لا يفسد معنى الكلام: والآخر أن تكون اسما، و«هم» صلة لها، بمعنى: وقليل ما تجدهم، كما يقال: قد كنت أحسبك أعقل مما أنت، فتكون أنت صلة لما، والمعنى: كنت أحسب عقلك أكثر مما هو، فتكون«ما» والاسم مصدرًا، ولو لم ترد المصدر لكان الكلام بمن، لأن من التي تكون للناس وأشباههم، ومحكي عن العرب: قد كنت أراك أعقل منك مثل ذلك، وقد كنت أرى أنه غير ما هو، بمعنى: كنت أراه على غير ما رأيت. «تفسير الطبري» (177/21-180).

التي صدرت عنه ﴿وَ﴾ كيف لا نغفر ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لداوود عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة قربتنا وعزتنا ﴿لَزُلْفَى﴾ لقربة ومنزلة رفيعة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 25] أي: خير مرجع ومنقلب من مقامات القرب ودرجات الوصول.

وأسر في ابتلاء الله إياه أنه لما رأى في كتب التواريخ أوصاف أسلافه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أضمر في نفسه أن يؤتى له مثل ما أتى إياهم من الخير والحسنى، فأوحى إليه أنهم قد ابتلوا فصبروا، فأعطي لهم ما أعطي فقال داود عليه السلام: يا رب لو ابتليت لصبرت أيضًا مثلهم، فأوحى أنك تُبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاستحفظ الأوقات.

فلما جاء الموعد دخل محرابه وأغلق الباب على نفسه، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب في غاية الحسن والبهاء ووقعت بين رجليه، فأراد أخذها؛ ليُري بني إسرائيل عجائب صنع الله وبدائع قدرته، فطارت وجلست في كوة هناك فأراد أخذها فذهبت فنظر من الكوة فإذا هو بامرأة حسناء من أجمل النساء تغتسل فتعجب منها، فالتفت وأبصرت ظله فنفضت شعرها، فغطى جميع بدنها، فازداد داوود عجبًا فوق العجب.

وبالجملة: قد ابتلي عليه السلام بمحبة تلك المرأة، وكان عمره حينئذ سبعين سنة، فسأل عنها، فقيل: هي امرأة أوريا بن حنان، فأوجس في نفسه قتله ليتزوج امرأته، وكان أوريا حينئذ مع ابن أخت داود في جيش، فأرسل إلى ابن أخته أن يقدم أوريا قدام التابوت، وكان من عادته من يقدمه قدام التابوت لا يحل له الرجوع حتى يُفتح أو يُقتل، فقدمه ففتح، فأمره أن يقدمه إلى أخرى، فقدمه ففتح أيضًا، ثم أمر أن يقدمه ثالثًا، فقدمه إلى جيش عظيم فقتل.

وبعدما انقضت عدة امرأته تزوجها داود عليه السلام، وهي أم سليمان عليه السلام، فعاتبه سبحانه بما عاتبه، فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب، والعهدة على الراوي، وأنكر بعضهم هذه القصة؛ لأن الأنبياء معصومون عن أمثاله.

وعن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: من تحدث بحديث داوود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء، والعلم عند الله.

ثم لما عاتب سبحانه داود عليه السلام بما عاتب، وقبل توبته بعدما استغفر وأناب، أراد

سبحانه من كمال خلوصه في توبته رجوعه نحو الحق عن صميم طويته أن يشرفه بخلعة الخلافة، فقال مناديًا له، إظهارًا لكمال اللطف والكرم معه: ﴿يَا دَاوُودُ﴾ المتأثر عن عتبنا، التائب إلينا، المنيب نحونا عن محض الندم والإخلاص ﴿إِنَّا﴾ بعدما طهرناك عن لوث بشريتك، وغفرنا لك ما طرأ عليك من لوازم هويتك ولواحق ناسوتك ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وأنواع الفتن والعناد، فلك أن تستخلف عليها نيابة عنّا.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ المستحكمين لك، المتمردين إليك في الوقائع والخطوب ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ السوي بلا ميل إلى كلا طرفي الإفراط والتفريط على الوجه الذي وصل إليك في كتابنا صريحًا أو استنبط منه ضمنًا ﴿وَ﴾ عليك أن ﴿لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ في حكوماتك وقطعك للخصومات بين الأنام؛ يعني: عليك أن ترجع في جميع الأحكام إلى كتابنا، ولا تميل في حال من الأحوال إلى ما تهواه نفسك ويقتضيه رأيك ويشتهيه قلبك، إن كان مخالفًا لما في الكتاب، وإن اتبعت إليه بعدما نهيناك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ اتباعك إياه ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصل إلى توحيده، المبني على القسط والاعتدال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي استوى على عروش عموم ما لمع عليه بروق تجلياته بالقسط والاستقامة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم يرجعون إلى الله، ويحشرون إلى عرصات العرض ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26] أي: بسبب فطرتهم الأصلية، وعهدهم الذي عهدوا مع الله فيها، وإنكارهم على تنقية الحق أعمالهم في يوم البعث والجزاء، وضلالهم عن الإيمان به وبجميع ما فيه من الأمور الأخروية.

﴿وَ﴾ كيف لا نبعث الأموات، ولا نحاسب أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار؛ إذ ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ وجميع ما فيها ومن فيها ﴿وَالأَرْضَ﴾ وجميع من عليها وما عليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات الكائنة فوق الأرض وتحت السماء ﴿بَاطِلًا﴾ عبثًا بلا طائل ومصلحة تقتضيها الحكمة الباعثة على إظهارها، مع أنّا ما كنّا من العابثين اللاعبين.

وما يليق بشأننا أن ينسب أفعالنا إلى البطلان، والخلو عن الحكمة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القول ببطلان أفعالنا، وخلائها عن الفائدة، وعرائها عن الحكمة والمصلحة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق العليم الحكيم، وأعرضوا عن الإيمان وأنكروا توحيده فاستحقوا بذلك

الظن أسوأ العذاب وأشد النكال ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27] إذ هم في أوحش أمكنة جهنم وأهولها وأعمقها.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بل ظنوا وزعموا من شدة جهلهم وسخافة فطنتهم، أنَّا نسوي في الرتبة بين أرباب الهداية والإيمان وأصحاب الضلال والطغيان ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28] بل زعموا، واعتقدوا مساواة أهل المغفرة والتقوى مع أصحاب الغفلة والهوى، المنهمكين في أودية الضلالات بمتابعة اللذات والشهوات.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ على سبيل العظة والتذكير: هذا ﴿كِتَابٌ﴾ جامع لفوائد الكتب السالفة، مشتمل على زوائد خلت عنها تلك الكتب ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أيها الجامع لجميع مراتب الوجود من مقام عظيم جودنا معك، ومع من تبعك من المؤمنين ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركة على من امتثل بأوامره، واجتنب عن نواهيه، وانكشف بما فيه من الرموز والإشارات المنبهة إلى التوحيد وإسقاط الإضافات، والتخلق بصفات الحق وأخلاقه، والاتصاف بمقتضيات أسمائه الحسنى، وإنما أنزلناه ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ أي: ليتدبر المتدبرون المتفكرون في أساليب ﴿آيَاتِهِ﴾ الكريمة، واتساق تراكيبه البديعة، وإفاضاتها المعاني العجيبة المنتشئة المترشحة من بحر الذات حسب شئون الأسماء والصفات الظاهرة آثارها على وفق التجليات الحبية، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ويتعظ بعدما تأمل وتدبر ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] المستكشفون عن حقائق الموجودات، ولباب الكائنات والفاسدات المعرضين عن قشورها.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص: 30-40].

﴿وَ﴾ بعدما كرمناه بتشريف خلعة الخلافة ﴿وَهَبْنَا لِدَاوُودَ﴾ ولدًا خلفًا عنه، وارثًا لملكه وخلافته، محييًا اسمه ومراسم دينه ومعالم ملته؛ يعني: ﴿سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان؛ لأنه مقبول عندنا، مقرب في حضرتنا، مكرم لدينا، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30] رجّاع إلينا، ملتجئ نحونا في عموم الأوقات وشمول الحالات على وجه الخلوص والتفويض التام.

اذكر يا أكمل الرسل كمال رجوعه وإخلاصه فيه وقت ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ وهو مشمر إلى الغزو ومهيّئ لأسبابه، متمكن على كرسيه لضبط العسكر وآلات القتال بالعشي ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ من الخيل، وهي التي تدور سريعًا كالرحى على طرف حافر من حوافره، إن أراد الركاب تدويره، وهي من أكمل أوصاف الخيل وأحمدها عند أصحاب القتال؛ لأن المبارز كثيرًا ما يحتاج إلى تدوير فرسه يوم الوغى ﴿الْجِيَادُ﴾ [ص: 31] سريعة الجري والعدو.

وذلك أنه جلس على كرسيه يومًا بعدما فرغ من ورده في الظهيرة؛ لإعداد أسباب الغزو والقتال الذي قصد أن يخرج إليه يومئذ، فأمر بعرض الخيول عليه، فأشغله الالتفات والتوجه نحو الخيول عن ورد عصره، فتذكر والشمس قد غربت، فاغتم غمًا شديدًا، وتحزّن تحزنًا بليغًا إلى حيث لم يطرأ عليه مثله.

﴿فَقَالَ﴾ من شدة أسفه وضجرته متأوهًا لائمًا على نفسه: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ الخيل ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: كحب الخير والتوجه المقرب إلى الله، لذلك ألهاني ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32] وفات عني وردي الذي كان قبل الغروب.

وبعدما وقع ما وقع من الغفلة، تسارع إلى التدارك والتلافي، فأخذ يقطع عرق الباعث إلى الإلهاء والإغفال، فقال للشرطة: ﴿رُدُّوهَا﴾ أي: الصافنات ﴿عَلَيَّ﴾ وكرّوها إليّ، فأعادوها معرضين ثانيًا ﴿فَطَفِقَ﴾ سليمان، وأخذ السيف الصارم بيده، يمسح ويمضي ﴿مَسْحًا﴾ وإمضاء ملاصقًا ﴿بِالسُّوقِ﴾ وهي جمع: ساق ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 33] يعني: أخذ بقطع قوائمها ورءوسها، ليزول حبها عن قلبه، ويتصدق بها طلبًا لمرضاة ربه، وجبرًا لما انكسر من ورده.

وعن المرتضى المجتبى - كرم الله وجهه - أن الضمير في ﴿رُدُّوهَا﴾ راجع إلى الشمس؛ يعني: أمر سليمان الموكلين على الشمس بإذن الله ووحيه إياه، أن يردوا

الشمس بعدما غربت؛ ليأتي سليمان بورده، فأتى بما أتى، وذلك من كمال كرم الله معه.

﴿وَ﴾ مع كونه مقبولاً عندنا ممدوحًا لدينا ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿سُلَيْمَانَ﴾ بفتنة عظيمة، وأخذنا منه ملكه بجريمة صدرت من أهل بيته بأدنى ملابسة له ورضا من جانبه.

وذلك أنه ﷺ غزا «صيدون» من الجزائر، فقتل ملكها فأصاب ابنته اسمها جرادة، وهي من أجمل النساء وأحسنها شكلاً، فأعجب سليمان بحسنها وخصها لنفسه، وهي أحب عليه من سائر نسائه، وكانت من شدة حزنها وكآبتها على أبيها لا يرقى دمعها، ولا يزال همها، فأمر ﷺ الشياطين فمثل لها صورة أبيها، فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون لها، على ما هي عادتها في حياته وملكه.

ومضى عليها أربعون يومًا، فاستشعر بها آصف بن برخيا فأخبره، فكسر الصورة وضرب المرأة والولائد، فخرج ﷺ إلى الصحراء باكيًا متألمًا مستحييًا من ربه، وكان من عادته ﷺ إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه الذي فيه ملكه إلى أمة له اسمها أمينة، فأعطاها يومًا فتمثل بصورة سليمان شيطان اسمه صخر، فجاء فطلب الخاتم من أمينة فأخذه فتختم به، وجلس على كرسيه، واجتمع الخلق عليه، وقضى ما قضى ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه، وغيّر سليمان عن هيئته وسلطنته، فأتى أمينة بطلب الخاتم فطردته وأنكرت عليه، فعرف أن الفتنة قد أدركته.

فأخذ يدور حول البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يومًا عدد ما عبد في بيته الصورة، وبعد انقضاء المدة المذكورة، طار الشيطان من كرسيه وقذف الخاتم في البحر، فابتلعته سمكة فوقعت في يد سليمان من قضاء الله ومزيد كرمه وعطائه عليه، فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به، فعاد ملكه عليه، وخرَّ ساجدًا وأناب إلى الله متضرعًا كما أخبر سبحانه.

وبعدما فتناه بفتنة عظيمة وهي عبادة غيرنا في بيته برضاه منه، وأخذناه عليها وأخرجناه من ملكه بفقد الخاتم عنه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ﴾ وأجلسنا بدله عليها ﴿جَسَدًا﴾ تمثالاً وصورة لا حقيقة لها، ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ابتليناه بما ابتليناه قد ﴿أَنَابَ﴾ [ص: 34] إلينا مخلصًا متضرعًا، فقبلنا توبته عناية منّا إياه؛ حيث ﴿قَالَ﴾ في مناجاته معنا، وعرض حاجاته إلينا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بمقتضى لطفك وجودك، وأعطيتني من مواهبك ما لم تعطِ أحدًا من خلقك ﴿اغْفِرْ لِي﴾ ذنبي، واعفُ زلتي بسعة رحمتك

وجودك ﴿وَ﴾ بعدما غفرتني ومحوت عني معصيتي ﴿هَبْ لِي مُلْكًا﴾ كما وهبتني قبل هذا، وخصصتني به بمقتضى جودك وإحسانك علي؛ إذ ﴿لَا يَنْبَغِي﴾ ويليق بشأنك وبمزيد لطفك وإحسانك أن تعطيه ﴿لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ إذ لا راد لفضلك، ولا مانع لعطائك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ المحسن ﴿الْوَهَّابُ﴾ [ص: 35][1] المقصور المنحصر على إعطاء المواهب والكرامات، بلا عوض ولا غرض؛ إذ لا معطي سواك ولا مفضل غيرك.

وبعدما توجه إلينا وتضرع نحونا على وجه الإنابة والخضوع والتذلل والخشوع، آتينا ملكه، وأجرينا حكمه كما كان ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ بعدما انتقمنا عنه، وجعلناها مقهورة له، محكومة بحكمه؛ حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ منقادة بحكمه ﴿رُخَاءً﴾ لينة هينة، بلا تضعضع وتزعزع يتعب منه الراكب ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36] أي: يجري بأمره أي صوب أراد، وجانب قصد.

﴿وَ﴾ أيضًا سخرنا له ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ وجعلناهم منقادين لحكمه ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ منهم مبني له أبنية عجيبة، وقصورًا مشيدة منيعة، وحصونًا محكمة، لا يسع للإنس أن يعمل مثلها ﴿وَ﴾ كل ﴿غَوَّاصٍ﴾ [ص: 37] منهم يغوصون لأجله في لجج البحار، ويستخرجون لخزائنه من اللآلىء النفيسة ما لا يعد ولا يحصى.

﴿وَآخَرِينَ﴾ من الشياطين، وهم المردة الممتنعون عن الإطاعة والانقياد، جعلناهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين محبوسين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: 38] أي: القيود والأغلال المضيقة بمقتضى أمره وحكمه.

ثم قال سبحانه امتنانًا عليه، وتنبيهًا على تعظيمه وتكريمه: ﴿هَذَا﴾ المذكور من الحكومة والخلافة والتسخيرات السالفة ﴿عَطَاؤُنَا﴾ عليك يا من اصطفيناك لوراثة النبوة والخلافة ﴿فَامْنُنْ﴾ منه لمن شئت، واجعل حق المستحقين محفوظًا به ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ لنفسك، ولا تعطِ أحدًا؛ يعني: لك الخيار في المنع والإعطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39]

(1) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مُهِمّ الدين على مُهِمّ الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولًا ثم طلب المملكة بعده، ثم دلت الآية أيضًا على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولًا، ثم توصل به إلى طلب المملكة. اللباب (13/ 369).

عليك، وسؤال عن فعلك، إذ أمره مفوض إليك.

﴿وَ﴾ كيف لا يفوض لأمر ما أعطيناه إياه إلينا ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي: لسليمان عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة عز حضورنا ﴿لَزُلْفَى﴾ درجة قريبة من درجات الوصال ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 40] أي: خير مرجع ومنقلب من مراتب التمكن في التوحيد. والتقرب في مقر القبول.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: 41-48].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن اسحاق، وامرأته ليّا بنت يعقوب، أضافه سبحانه إلى نفسه لكمال رضاه منه ولطفه معه؛ حيث صبر على ما مضى عليه من بلائه وجرى عليه من قضائه، كما شكر على آلائه ونعمائه، ولم ينقص من إخلاصه حالتي السراء والضراء.

ادسر يا أكمل الرسل كمال تصبر أخيك أيوب، وإخلاصه في توجهه إلينا للمتذكرين المعتبرين من أمتك؛ كي يتذكروا من قصته، ويتخلقوا بشيء من تصبره وتمكنه في مقر التفويض والتسليم ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ الذي رباه بين الخوف والرجاء وأنواع العناء والعطاء؛ لكمال اصطباره ووقاره بما جرى عليه من مقتضيات ربه، قائلاً حين اضطراره إلى الالتجاء نحو ربه والتضرع إليه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] أي: نفخ فيَّ، وأحاط نفخه جميع أجزاء بدني؛ بحيث لم يبقَ فيَّ عضو لم يلحقه ضرر من شؤم نفخه، وعذاب شديد مؤلم مزعج، فاضطرني هجوم الأعداء والعناء ونزول أنواع المحن والبلاء إلى بث الشكوى نحوك يا مولاي، فأنا عبدك، وعلى عهدك ما استطعت، وما توفيقي إلا بك وثقتي إلا عليك، فارحمني بسعة رحمتك؛ إذ لا راحم سواك ولا مغيث غيرك.

وبعدما استغاث إلينا مخلصًا مضطرًا راجيًا من الإجابة والقبول، أدركته العناية، وشملته الرحمة والكرامة من لدنًا، حيث قلنا له ملهمين إياه، مستقبلين إجابته: ﴿ارْكُضْ﴾ واضرب ﴿بِرِجْلِكَ﴾ على الأرض، فركض امتثالاً للأمر الوجوبي فنبعت عين جارية، ثم قلنا له تعليمًا وتنبيهًا: ﴿هَذَا﴾ الماء ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ يبرد ويبرأ ظاهر جسدك من الحرارات العارضة لبدنك من شؤم نفس عدوك الذي خلق من عنصر النار ﴿وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42] شافٍ لباطنك من الذي أعرض عليك من انحراف مزاجك بسبب خروج أخلاطك عن الاعتدال الفطري بشؤم نفخه.

وبعدما سمع أيوب ما سمع اغتسل منه، فشرب وبرأ من المرض ظاهرًا وباطنًا ﴿وَ﴾ بعدما حصل له الصحة والنظافة منًا إياه، سقط نحونا ساجدًا حامدًا شاكرًا، مناجيًا معنا، مخلصًا متضرعًا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ تتميمًا لكمال لطفنا وعنايتنا معه ﴿أَهْلَهُ﴾ أي: جميع من مات من أولاده بسقوط السقف عليهم ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: وهبنا له إحسانًا عليه وامتنانًا منًا إياه مثل أهله مع أهله، وإنما فعلنا معه ذلك بعدما ابتليناه واختبرناه؛ ليكون ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إياه ﴿وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص: 43] الذين يتذكرون بقصته، ويتخلقون بأخلاقه؛ ليفوزوا بما فاز.

وبعدما صححناه من الأسقام ووهبنا له أهله وماله، وزدنا عليه مثله تفضلاً منًا إياه، أمرناه ثانيًا تعليمًا له بأن يتدارك قسمه وحلفه الذي حلف في مرضه، حين ذهبت امرأته ليا أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف لحاجة، فأبطأت، فحلف: إن برئت عن مرضي لأضربنك مائة جلدة.

﴿وَ﴾ قلنا له تعليمًا: ﴿خُذْ بِيَدِكَ﴾ لحلفك ﴿ضِغْثًا﴾ حزمة مشتملة على مائة من أغصان صغار، فاضرب به - أي: بالضغث - امرأتك مرة، بحيث وصل أثر جميع ما في الحزمة من الأغصان إليها ﴿فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ حينئذ في حلفك، فحللنا يمينك بها، عناية منًا لك ولامرأتك، فصارت رخصة باقية في حدود الشرائع إلى الآن.

وكيف لا نزيل شكواه، ولا نحسن إليه، ولا نجزيه أحسن الجزاء؟ ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ عبدًا ﴿صَابِرًا﴾ لجميع ما هجم عليه من أنواع البلاء المتعلقة بماله وأولاده وبدنه ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ عبدنا أيوب الصبور المسلِّم المفوض بلا جزع وتزعزع، فكيف يجزع ويتزعزع ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44] رجّاع إلينا، متشمر نحونا في عموم أوقاته وحالاته، طالبًا للفناء فينا والبقاء ببقائنا.

روي أن أيوب عليه السلام كان متمولاً منعمًا عظيمًا، وكان له جميع أنواع متاع الدنيا، ومع ذلك شاكرًا راضيًا منفقًا في سبيل الله لفقراء الله طلبًا لمرضاته، وبعدما بالغ في شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه، حسد عليه إبليس فقال مناجيًا إلى الله: نظرت في عبدك أيوب فوجدته عبدًا أنعمت عليه فشكر لك، ولو ابتليته بالفاقة لم يكن كذلك، فقال سبحانه: «سلطتك يا ملعون على ماله» فقال إبليس لعفاريت: أيكم أشد وأقوى على إتلاف ماله؟ فقام أحدهم وتحول إعصارًا من نار فأحرق إبله، وجميع من كان معها من الراعي، وصاح أحد منهم على أغنامه ورعاتها فهلكوا بالمرة، وآخر جاء بريح عاصفة على حرثه فنسفت ولم يبقَ منهما شيء.

فتمثل إبليس بصورة راعٍ، وآخر من أعوانه بصورة حارث، وأتياه وهو يصلي وقالا: أقبلت نار فغشيت إبلك فأحرقتها ومن معها، وصاح على غنمك شيطان فهلكت بالمرة، وهبت على حرثك ريح فنسفت وصار كأن لم يكن، فقال أيوب: الحمد لله إنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها، وقد كنت قدمًا قد وطنت نفسي ومالي على القضاء.

وبعدما آيس إبليس من هذا الطريق قال: إلهي إنك متعته بأولاد فشكر لك لأجلها، فهل أنت مسلطي على أولاده؛ إذ هي من أعظم المصيبات لا يصبر عليها أحد من الناس؟ قال: «نعم»، فأتاهم اللعين وهم مجتمعون في قصر عند معلم أديب، فلم يزل يزلزلها ويحركها حتى أسقطها عليهم فأهلكهم بالمرة، فتمثل اللعين بصورة معلمهم فأتاه وهو صريخ جزوع، فقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا، ونكسوا إلى حيث سال دمهم ودماغهم وشقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم، فقال أيوب عليه السلام متأوهًا: ليت أمي لم تلدني، ثم أفاق واستغفر عن ضجرته سريعًا.

ورجع خاسئًا وقنط اللعين من هذا أيضًا، وقال: إلهي إنما صبر أيوب عليه السلام على إهلاك أمواله وأولاده، ولازم توجهه نحوك؛ لأنك متعته بصحة البدن وسلامة الجسد، وهل أنت مسلطي على جسده؟ قال سبحانه: «سلطتك على غير لسانه وقلبه»، فأتاه فوجده ساجدًا، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم، فوقعت فيه حكة فلم يزل يحكه حتى قرح جسده وأنتن لحمه، فأخرجه أهل القرية منها، ورفضوه من كان من أرحامه سوى امرأته «رحمة» فتمثل لها إبليس في صورة رجل، فقال لها: أين بعلك؟ هو ذلك يحك قروحه وتردد الديدان في جسده.

فلما سمعتها خيلت أنها كلمة جزع صدرت منه، فذكر لها تغريرًا ما كان فيه من

النعيم ثم أتى بسخلة[1]، فقال لها: ادفعيها إلى أيوب عليه السلام ليذبح لي حتى يبرأ من السقم فجاءت مع السخلة تصرخ يا أيوب إلى متى يعذبك ربك أين الأموال والأولاد والوجه الحسن؟! اذبح هذه واسترح، فقال أيوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك، أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت: الله، قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة، قال: فمنذ كم ابتلينا؟ قالت: سبع سنين وأشهرًا، قال: ويلك ما أنصفت لنصبرن في هذا البلاء ثمانين سنة كما لنا في الرخاء، أمَا تستحين من الله؟! أمرتني أن أذبح لعدو الله، لا أذوق شيئًا مما تأتيني به بعد اليوم، اعزلي عني ودعي معي ربي.

فلما ذهبت امرأته ورأى أيوب ليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق، اضطر إلى بث الشكوى مع المولى فسقط ساجدًا، وقال مناجيًا صارخًا ضارعًا: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] وسمع حينئذ من الهاتف: ارفع رأسك فقد استجبت لك، فرفع رأسه وأوحي إليه من قبل ربه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42].

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عِبَادَنَا﴾ الذين هم أجدادك وأسلافك ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ وَ﴾ سبطه ﴿يَعْقُوبَ﴾ واذكر من شمائلهم الجميلة وخصائلهم الحميدة؛ ليتعظ من سماعها ذوو الاعتبار من المؤمنين، ويقتدون بمآثرهم؛ لأنهم كانوا ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45] أي: ذوي القوة في الطاعة والبصيرة في مراسم الدين ومعالم اليقين، ولهم التمكن في مقر التوحيد، والوصول إلى درجات التجريد والتفريد.

ولا بدَّ للذين يلونهم أن يقتدوا بهم، ويسترشدوا من أخلاقهم وآثارهم، ويتصفوا بأوصافهم؛ كي يفوزوا بمعارفهم، وينكشفوا بمكاشفتهم ومشاهدتهم؛ لأنهم قدوة أصحاب التوحيد، وزبدة أرباب الشهود.

وكيف لا ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا معهم ﴿أَخْلَصْنَاهُم﴾ وجعلناهم مخصوصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أي: بخصلة خالصة صافية عن كدر التعلقات الناسوتية، خالية عن شوب مقتضيات القوى الشهوية البشرية، العائقة عن التحقق بمرتبة اللاهوتية ألا وهي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 46] الدار الآخرة التي هي مقام التمكن في التوحيد

---

(1) يقال لأولاد الغنم ساعة تضعها من الضأن والمعز جميعًا ذكرًا كان أو أنثى: سَخلة، وجمعها: سِخال. لسان العرب (56/12).

والانكشاف بسرائر الوحدة الذاتية، وسريانها في ملابس الأسماء والصفات المقتضية للتعدد والتكثر.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المنتخبين لحمل أعباء الرسالة ﴿الأَخْيَارِ﴾ [ص: 47] المنتخبين الصالحين للاتصاف بسرائر التوحيد واليقين؛ أي: أولئك الأنبياء العظام الساعين لطلب الخير في طريق الدين ومرتبة اليقين.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم الخليل، وتذكر تصبره ورجوعه ورسوخه في مقام التفويض والتسليم، راضيًا بما جرى عليه من مقتضيات ربه، مع أنه لم يبلغ الحلم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب، استخلفه إلياس النبي على بني إسرائيل، ثم استنبئ ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ هو ابن عم اليسع المذكور، أو بشر بن أيوب، قيل: إنما لُقب به؛ لأنه فر إليه مائة من بني إسرائيل، فآواهم وكفلهم ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: 48] أي: كل واحد من الأنبياء المذكورين معدود من الأخيار الأبرار، مثبت في حضرة علمنا ولوح قضائنا من زمرتهم.

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ص: 49-54].

﴿هَٰذَا﴾ الذي يتلى عليكم من الأمر بتذكير أولئك الثقات الكرام ﴿ذِكْرٌ﴾ جميل وإثبات شريف وكمال لهم، إنما ذكرناهم وأمرناك بذكرهم تنبيهًا على جلال قدرهم وعظم شأنهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محظوراتنا، المتصفين بمأموراتنا، الطالبين لمرضاتنا، الهاربين من سخطنا وانتقاماتنا ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 49] عندنا، وخير منقلب ومتاب في كنف جوارنا وساحة عز قبولنا.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان «لحسن مآب»، وهي عبارة عن درجات القرب إلى الوحدة الذاتية، وتجددات التجليات الشهودية على أرباب الكشف والعيان، ولكمال تحفظهم عن مقتضيات القوى ومشتهيات الهوى، وخلوصهم في التوجه نحو المولى، صارت الجنات ودرجات القرب والوصول ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ [ص: 50] أي: مفتوحة الطرق، واضحة السبل بالنسبة إليهم، يدخلون فيها من كل باب بلا منع

وحجاب.

وبعد دخولهم فيها، وتحققهم عندها صاروا ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ متمكنين على أرائك القبول وسرر الإخلاص، ولهم فيها ما تشتهي قلوبهم من المعارف المتجددة بتجدد التجليات الحبية المنبعثة من حضرة الرحموت؛ إذ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ من أنواع ما يتفكهون ويتلذذون علمًا وعينًا وحقًا ﴿وَشَرَابٍ﴾ [ص: 51] يشربون من رحيق الحق ولا يروون.

﴿وَ﴾ يصور ﴿عِندَهُمْ﴾ أعمالهم المقبولة وأحوالهم المرضية ومقاماتهم العلية في سلوك طريق التوحيد أزواج أبكار ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ عليهم، لا ينظرن إلى غيره ﴿أَتْرَابٌ﴾ [ص: 52] أحداث كلهن مستويات في السن، ليس فيهن صغر ولا كبر، بل كلهن على كمال اللطافة والعدالة؛ إذ كل ما فيها على كمال الاعتدال.

وبعدما تمكنوا فيها وترفهوا بنعيمها، قيل لهم من قبل الحق امتنانًا عليهم وتشويقًا: ﴿هَذَا﴾ الذي بين يديكم من النعيم المقيم واللذة الدائمة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بألسنة الكتب والرسل ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: 53] أي: لأجله أو فيه؛ إذ لا وصول إليها إلا بعد الحساب.

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور ﴿لَرِزْقُنَا﴾ المعد لخواص عبادنا، المنجذبين إلينا بانخلاعهم عن لوازم هوياتهم الباطلة، وعن مقتضيات تعيناتهم العاطلة من المأكل والمشرب والمناكح الفانية، فنستبدل لهم بدلها ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: 54] أي: رزقًا معنويًا لا انقطاع له أصلاً.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا
بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ
ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ
﴿٦٤﴾ ﴾ [ص: 55-64].

خذ ﴿هَذَا﴾ أيها المتشمر نحو الحق، والراغب إلى ما عنده من موائد الإنعام

والإفضال، وكما فضلنا على المطيعين بأنواع التعظيم والتنعيم، وكرمناهم بأنواع الكرامة والتكريم، انتقمنا عن العاصين الجاحدين ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ الذين طغوا علينا بخروجهم عن مقتضيات حدودنا الموضوعة فيهم، المنبهة إلى مبدئهم ومعادهم ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: 55] وأسوا منقلب ومثاب على عكس المطيعين المتقين.

يعني: ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان وجحيم الطرد والحرمان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها بأنواع حسراتهم والزفرات بين أصناف العقارب والحيات، وأنواع الحشرات المصورة لهم من سيئات أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار ونشأة الاعتبار، وبالجملة: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [ص: 56] والفراش مهد أصحاب الجحيم وفراشهم.

﴿هَذَا﴾ منقلبهم ومآبهم، ثم بعدما دخلوا في النار، قيل لهم من قبل الحق لخزنة جهنم: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: كل واحد منهم نزلاً لهم شرابًا، هو ﴿حَمِيمٌ﴾ وهو الماء الحار الذي يشوي وجوههم ويخرق أمعاءهم، يسخنه نيران شهواتهم التي أتوا بها على خلاف ما أمر الله وحكم عليه ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: 57] الماء البارد الزمهريري الذي يتجمد في فيهم، وفي أجوافهم، يبرده كمال بلادتهم وجهلهم بالله الحكيم العليم، وبما وضع سبحانه من الحدود والأحكام الصادرة عن محض الحكمة المتقنة المتعلقة لإصلاح أحوالهم، ﴿وَآخَرُ﴾ أيضًا ﴿مِن شَكْلِهِ﴾ أو من جنس الشراب المذوق ومثله، أو «وأخر» من أنواعه على القراءتين ﴿أَزْوَاجٌ﴾ [ص: 58] أصناف وأنواع، بعضها أسوأ من بعض؛ ليكون عذابًا فوق عذاب.

ثم لما اقتحم القادة من أصحاب النار، وأدخلوا أنفسهم عليها خوفًا من الموكلين الذين يسوقوهم نحوها بمقامع من حديد، وازدحم عقيبهم أتباعهم على الفور، فضيقوا على القادة مكانهم، وصرخوا على الخزنة من تضييقهم، قال الخزنة لهم بعدما سمعوا صيحتهم وصراخهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ بعدكم، معقبين عليكم مضيقين عليكم، فالتفتوا أثرهم أهؤلاء أتباعنا ﴿مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ ولا يوسع عليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ [ص: 59] أي: داخلوها أمثالنا.

ثم لما سمع الأتباع قول قادتهم هذا: ﴿قَالُوا﴾ على سبيل المعارضة والمخاصمة: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون حقًا أن يقال لكم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ إذ ﴿أَنتُمْ﴾ بشؤم إضلالكم وإغرائكم ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: الكفر الذي هو سبب دخول النار، وابتدأتموه أولاً، ثم أغريتمونا بتغريركم وتضليلكم، حتى كفرنا بسعيكم، وابتلينا بها

أمثالكم ﴿لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [ص: 60] أي: بئس مقرنا ومقركم جهنم الطرد والحرمان.

وبعدما بالغ الأتباع في تعيير القادة وتشنيعهم، تضرعوا نحونا داعين على رؤسائهم؛ حيث ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد، وأشركناك بشؤم هؤلاء المشركين المضلين، ونرجو من عدلك ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ ودلنا عليه بتغريره ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: ضعف عذابنا ﴿فِي النَّارِ﴾ [ص: 61] إذ نحن ضالون، وهم ضالون مضلون.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: الرؤساء القادة بعدما توغلوا في ألوان العذاب على سبيل التحسر والتقريع على أنفسهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أي شيء عرض لنا، ولحق بأبصارنا ﴿لَا نَرَى رِجَالًا﴾ فقراء أراذل بيننا، أحاطتهم أنواع الفاقة والعناء كذلك ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: 62] الأراذل الساقطين عن درجة الاعتبار، وبالغنا في طردهم.

حيث ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ واستهزأنا معهم تهكمًا وتقريعًا، لا نرى اليوم منهم أصلاً في النار، أهم ما يدخلون النار كما هو دعواهم ﴿أَمْ﴾ هم أيضًا داخلون، لكن ﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: 63] أي: مالت عن رؤيتهم أبصارنا، واحتجبوا منّا؛ يعنون بهؤلاء الرجال: فقراء المسلمين الذين استرذلوهم واستهزءوا معهم.

ثم قال سبحانه على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكينا عن أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾ مطابق للواقع، لا بدّ أن يتكلموا به حين دخولهم فيها، وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: 64] في النار على الوجه الذي ذُكر.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص: 65-74].

ثم لما بالغ سبحانه في حقية ما حكى عن أهل النار، أمر حبيبه ﷺ بأن بلغ للأنام التوحيد المبعد لهم عن النار والعذاب المؤبد فيها، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل

للمشركين المستحقين لعذاب النار إنقاذًا لهم عنها، إن قبلوا منك قولك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لكم بإذن الله ووحيه عن أمثال ما ذكر من العذاب في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب، ويُلتجأ نحوه في النوائب والمصائب ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الأحد الصمد الحي القيوم الذي لا شريك له في الوجود، ولا شيء غيره في الشهود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [ص: 65] للأغيار مطلقًا؛ إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88] رجوع الأظلال إلى الشمس، والأمواج إلى البحر.

وهو بتوحيده واستقلاله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: مظهر كل ما في العلو والسفل وما في حشوهما، والمحاط بهما؛ إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، وكيف لا وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره في خلقه وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ إذ هو ﴿الْغَفَّارُ﴾ [ص: 66] الستّار المحّاء لهويات الأغيار، وهياكل الأظلال الغير القار.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم توحيد الحق، واستقلاله في تصرفاته وتدابيره: ﴿هُوَ﴾ أي: الذي بلغت لكم بوحي الله من إحاطة الحق، وشموله لجميع ما لمع عليه بروق تجلياته ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: 67] وخبر خطير، يخبركم به الحق، وينبهكم عليه من كمال إعطافه وإشفاقه؛ لينقذكم به عن عذابه المترتب على كفركم وشرككم.

﴿أَنتُمْ﴾ من كمال توغلكم في الجهل والظلال ﴿عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 68] مع أنه أنفع لكم وأصلح بحالكم، وهو سبحانه أعلم بشأنكم منكم، وبمقتضى علمه بحالكم، أنزل كتابه عليكم ليرشدكم إلى جهة معرفته ووجهة توحيده، ومالي إلا تبليغ ما أُوحي إلي كسائر الرسل.

إذ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الملائكة السماويين ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: 69] وقت خلافة آدم ونبوته ونيابته، فألهمني الله بوحيه ما جرى عليهم من الحجج والمعارض، وإفحامهم بعد جدالهم واصطفاء الله إياه، وأمرهم بسجوده تكريمًا وتعظيمًا.

وبالجملة: ﴿إِن يُوحَىٰ﴾ أي: ما يوحى ﴿إِلَيَّ﴾ من عند ربي ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: 70] أي: إنما أنا منذر لكم عن أن يفتنكم الشيطان وجنوده المرتكزة في

هياكلكم، فيضلوكم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة الموصلة إلى وحدة ذات الحق وكمال أسمائه وصفاته.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك على مقتضى الجمعية المنتهية إلى الوحدة الذاتية التي جئت لإظهارها وإيضاح منهجها ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ المهيمين بمطالعة وجهه الكريم على سبيل المشورة معه؛ ليظهر كرامة آدم وجلالة قدره: ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى بدائع صنعتي وغرائب قدرتي ﴿خَالِقٌ﴾ أي: مظهر موجد ﴿بَشَرًا﴾ أي: جسدًا متخذًا ﴿مِن طِينٍ﴾ [ص: 71] [1] ليكون مرآة يتراءى فيها عموم أوصافي وأسمائي.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وعدلت قالبه على الوجه الذي جرى في حضرة علمي ولوح قضائي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ بعد تعديله ﴿مِن رُّوحِي﴾ أي: أفيض عليه من حياتي ومن مقتضيات أسمائي وصفاتي؛ ليستحق بخلافتي ونيابتي، ويظهر فيه ومنه آثار أسمائي وصفاتي ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ وخرُّوا عنده؛ لتعظيمه وتكريمه ﴿سَاجِدِينَ﴾ [ص: 72] [2] متذللين له، واضعين جباهكم على تراب المذلة دونه.

ثم لما سمع الملائكة منه سبحانه ما سمعوا ﴿فَسَجَدَ﴾ له ﴿الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ

---

(1) هذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا، فقد وقع في قياس النار والطين، ولم ير أنوار جمال الحق التي ظهرت من وجه آدم، وهكذا حال المدعين والـوسوسين والمرائين المداهنين في حق أوليائه، لا جرم كان مخاطبًا بالطرد والإبعاد إلى يوم الميعاد، حتى لا يذوق حلاوة برد الوصال، ولا يرى أنوار الجمال والجلال، ولا يدرك فضائل الأنبياء والأولياء إلى أبد الآباد، بل إذا يرى أثر سلطنة ولايتهم وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الماء، ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، سبل وسوسته تلحق بأهله لا بأهل الحق.

(2) بيَّن الله سبحانه ههنا تفضيل آدم على الملائكة المقربين؛ فالخطاب لأكابرهم؛ إذ كان روحه خلقت قبل أرواحهم؛ إذ روحه تكونت من ظهور تجلي الحق بجميع الذات والصفات كاملة بخلعة كسوة الربوبية التي ألبسها الحق حتى صارت مرآة يتجلى منها للعالمين، وبقيت في أول الأول في مشاهدة أنوار الأزليات والأبديات، ولو كانت الملائكة بهذه المثابة لكانت معها في الكينونية من سنا برق تجلي الحق، وعرفتها بالأهلية، فإذا كانت الملائكة نازلة من درجاتها وصارت محجوبة عن رؤية ظهورها في العالم احتاجت إلى إعلام الحق بذلك، فلما علم الحق أنهم جهلوا حقائق وجود آدم لم يذكر ههنا ذكر روحه معهم، وقدم ذكر الصورة من قلة عرفانهم شرف روحه، فهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

﴿أَجْمَعُونَ﴾ [ص: 73] امتثالاً للأمر الوجوبي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ المعدود من عدادهم، المنخرط في سلوكهم ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ عن سجوده وتعظيمه ﴿وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [ص: 74] بترك الانقياد للأمر الإلهي.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ ﴾ [ص: 75-81].

ثم لما امتنع إبليس عن إطاعته وتعظيمه مع ورود الأمر الوجوبي من قبل الحق ﴿قَالَ﴾ معاتبًا عليه مناديًا له سائلاً عن سبب امتناعه: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ المستكبر المتخلف عن أمرنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ أي: أي شيء منعك عن سجود التكريم ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وصورته بقدرتي، وبمقتضى صورتي، وبكمال حولي وقوتي؛ ليكون مرآتي ويليق بخلتي وخلافتي ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ عن طاعة حكمنا وامتثال أمرنا ﴿أَمْ كُنتَ﴾ احتسبت نفسك ﴿مِنَ العَالِينَ﴾ [ص: 75] المتفوقين عليه، بحيث لا تجوّز لنفسك أن تتذلل عنده وتنقاد له؟.

وبعدما سمع اللعين منه سبحانه الخطاب المشتمل على أنواع العتاب ﴿قَالَ﴾ اللعين بعدما اختار الشق الثاني من الترديد: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ صورة ومادة؛ إذ ﴿خَلَقْتَنِي﴾ بكمال قدرتك ﴿مِن نَّارٍ﴾ هي أعلى العناصر وأرفعها قدرًا وإمكانًا ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: 76] هي أسفل العناصر وأرذلها قدرًا وأدناها مكانًا، والأمر بسجود الأفضل الأعلى للأرذل الأدنى غير موافق ومطابق لحكمتك المتقنة.

ثم لما خرج إبليس عن ربقة الإطاعة التعبدية، وأتى بالحجة الإقناعية الجدلية ﴿قَالَ﴾ سبحانه مغاضبًا عليه من كمال غيرته وقهره: أنّى يطيق أحد من مظاهره ومصنوعاته أن يخالف أمره ويحتج عليه؟ ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من مرتبة الملكية وأعلى مرتبة العبودية ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: 77] مرجوم مطرود عن سعة رحمتنا، وشرف عز حضرتنا، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي وتبعيدي عن ساحة عز قربتي، مستمرة عليك ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: 78] وبعد ذلك عذابك مؤبد أبدَ الآبدين.

ثم لما قنط إبليس عن روح الله وسعة رحمته ﴿قَالَ﴾ بعدما آيس مناجيًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على فطرة الإطاعة، فعصيت أمرك بشؤم عُجبي ونخوتي ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ وأمهل علي، بعدما بعدتني عن كنف قربك وجوارك، وطردتني عن محل كرامتك وجودك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: 79].

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: 80-81] وهو النفخة الأولى.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص: 82-88].

وبعدما أنظره سبحانه وأنجح مسئوله ﴿قَالَ﴾ إبليس مقسمًا مبالغًا في التهديد لبني آدم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وجلالك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: لأضلنّ بني آدم عن جادة التوحيد ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] إذ لا يسع لهم أن يسدوا مداخلي فيهم، وطرق مخادعتي إياهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 83] وهم الموقنون المخلصون، الذين أخلصوا في عموم أعمالهم وأحوالهم معك، واعتصموا بحبل توفيقك، راجين رحمتك ورضوانك، هاربين من سخطك بلا ميل لهم إلى ما يلهيهم عن ربهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابه إظهارًا لكمال الاستغناء والقدرة: ﴿فَالْحَقُّ﴾ ما قلت لك في هذه النشأة يا ملعون، من الطرد والتبعيد، وإنظارك فيما بينهم للاختبار والاعتبار ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: 84] أي: أقول الحق أيضًا فيما يترتب على إغوائك وإغرائك إياهم، واتباعهم لك، وما يترتب على متابعتهم في النشأة الأخرى.

وهو هذا: والله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ المشتملة على الأودية السبعة، المملوءة من نار الخذلان والحرمان، المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية من المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، الضالين عن صراطه السوي ﴿مِنكَ﴾ أي: من جنسك الذي هم من الجن ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من جنس الإنس ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 85] تابعًا ومتبوعًا، ضالاً ومضلاً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغت ما يوحى إليك من الحق الصريح على وجهه بلا خلط وخبط وزيادة ونقصان كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والعدالة: ﴿مَا

أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أيها المكلفون ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم ما أُمرت بتبليغه ﴿مِنۡ أَجۡرٖ﴾ أي: جعل ومال على عادة أصحاب التلبيس من المتشيخين، اللذين هم من أعونة إبليس وأنصاره ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾-أيضًا ﴿مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86] المتصفين بخصائل ليست فيهم على سبيل التلبيس والتدليس.

بل ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن المنزل علي ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: عظة وتذكير ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: 87] من الثقلين المكلفين بالهداية والإيمان والتوحيد والعرفان.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ أيها المتذكرون بتذكيراته، والمعرضون عنها ﴿نَبَأَهُۥ﴾ أي: صدق إخباره ومواعيده ووعيداته، وما يترتب عليها وعلى قصصه وأحكامه، وما ينكشف من حكمه ورموزه وإشارته ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: 88] أي: بعد انخلاعكم عن لوازم ناسوتكم، واتصافكم بخلع اللاهوت في النشأة الأخرى، حين تُبلى السرائر، وتُكشف الضمائر، وترتفع الحجب والأستار، فاعتبروا الآن يا أولي الأبصار، وذوي الاعتبار ما فيه من السرائر والأسرار.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتأمل في مرموزات القرآن، والمتدبر في درك إشاراته الخفية تحت أستار ألفاظه وأحكامه المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن، وتصفية السر عن التوجه نحو الغير مطلقًا، أن تعرف أولاً ما في نفسك من أعونة الشيطان وجنوده الأمارة بالسوء، المزعجة لك إلى قبول مأموراتها المقتضية للبعد عن جادة العدالة التوحيدية الإلهية، التي هي صراط الله الأقوم، وتجاهد معها مهما أمكنك وأعانك الحق ووفقك لتسخيرها إلى أن صارت مغلوبة لك مقهورة تحت قهرك، حسبما يسر الله ووفقك على غلبته.

ثم بعد ذلك نبع من صدرك ينابيع الحكمة المترشحة من بحر الوحدة الذاتية، وجرى على لسانك ما أراد الله جريه وشاء، بعدما أفناك عنك، وأبقاك ببقائه، وصار سبحانه قلبك وسمعك وبصرك وجميع قواك، وحينئذ اجتمع الفرق، وارتبق الفتق، واتحد الظهور والبطون، وانطوى الأزل والأبد، واتصل الأول والآخر والظاهر والباطن.

وبالجملة: هو بكل شيء عليم ليس كمثله شيء ولا معه حي، وهو الحي القيوم السميع العليم.

سورة الزمر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزمر

لا يخفى على الموحدين المحمديين المندرجين من سفل الإمكان وحضيض التقييد إلى أوج الوجوب وذروة الإطلاق، التي هي الوحدة الذاتية المنطوية دونها الكثرات مطلقًا، أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأسنى إنما هو بتوفيق الحق على متابعة كتبه وإطاعة رسله المرسلين من عنده سبحانه؛ لتبيين ما في كتبه من الحكم والأحكام والمعارف والحقائق المرموزة فيها.

ولا شك أن أفضل الكتب وأكمل الرسل هو القرآن ونبينا محمد ﷺ، فمن تمثل بمقتضيات كتاب الله، وتمسك بسنن صدرت من معدن الرسالة وأحاديث شاعت واستفاضت من مشكاة النبوة والولاية، فقد أفاض عليه الحق من سجال لطفه وفضله، وفاز بما جبل لأجله.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، وأوصاه بامتثال ما في كتابه المنزل عليه، وتبليغه إلى من وفق بمتابعته، وجبل من زمرته، وهُدي بإرشاده وهدايته، فقال بعدما تيمن باسمه الأعظم المشتمل على كل أسمائه الحسنى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل كتابه معربًا عما فصله في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإنزال الكتاب إليهم؛ ليهديهم إلى درجات جنانه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته، بعدما أفناهم عن مقتضيات تعيناتهم المقتضية للكثرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ
ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا
نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا
يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤﴾ [الزمر: 1-4].

﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ المبين لطريق التوحيد، المنبه على وحدة الحق وكمالات أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى ﴿مِنَ اللهِ﴾ المدبر لجميع ما جرى في ملكه وملكوته؛ إذ لا منزل في الوجود سواه سبحانه ﴿العَزِيزِ﴾ الغالب في أمره بالاستقلال والاختيار ﴿الحَكِيمِ﴾ [الزمر: 1] [1] المتقن في فعله حسب علمه المحيط وقدرته الشاملة وإرادته الكاملة.

وبعدما بيَّن سبحانه أمر التنزيل عمومًا أشار إلى التنزيل المخصوص المتمم المكمل لأمر التنزيل والإنزال مطلقًا، فقال مشيرًا إلى عظم قدر المنزل إليه، وجلالة شأنه، ورفع رتبته ومكانه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تعظيمًا لشأنك وتأييدًا لأمرك ﴿الكِتَابَ﴾ الجامع لجميع ما في الكتب السالفة، مع زوائد خلت عنها كلها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع بلا شوب شك وريب في نزوله منَّا ﴿فَاعْبُدِ اللهَ﴾ الذي اصطفاك لرسالته وخصصك بكتابه، هذا حال كونك شاكرًا لنعمه، معترفًا بكرمه ﴿مُخْلِصًا﴾ في عبوديتك وعبادتك إياه، مجتنبًا عن مداخل الشرك ورعونات الرياء مطلقًا؛ إذ ﴿لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2] أي: لا مستحق للإطاعة الخالصة والانقياد الصافي سواه، ولا يعبد بالحق إلا إياه.

وبعدما أمر سبحانه بالعبادة والإخلاص في الإطاعة والانقياد، نبه على عموم عباده بالإخلاص في الطاعات، والخلوص في نيات العبادات، فقال: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [2] أي: تنبهوا أيها المجبولون على فطرة التوحيد أن الدين الذي كلفكم

---

(1) قال الورتجيبي: أي: هذا تنزيل الكتاب، وهو القرآن، وهو وصفه القديم، بدا منه بنعت التجلي، وأنزل من عنده للأمر ولأحكام ظهوره بنعت الصفة للخصوص وبنعت النزول للعموم، هو العزيز من حيث لا تفارق صفته عن ذاته، وهو الحكيم من حيث منع عباده التمتع بكشفه وإنزاله رحمة للعموم والخصوص، قال الأستاذ: كتابٌ عزيزٌ نزل من ربٍّ عزيزٍ على عبدٍ عزيزٍ بلسان ملكٍ عزيز في شأن أمة، عزيز بأمر عزيز ورد الرسول عن الحبيب الأول بعد التلاقي بعد طول يزيل نزهة قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها في كتب الأحباب عند قراءة فصولها والعجب منها، كيف لا ترهق سرورًا بوصلها وارتياحًا بحصولها!

(2) قال الأستاذ: الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صحَّ أنْ يكونَ في العَالَم مُخلِص. «تفسير القشيري» (7 /12).

الحق عليه، وأوجبه عليكم، هو الدين الخالص عن أمارات الشرك ومقتضيات الهوى، الصافي عن شوب العجب والسمعة وشين الرياء، وبعدما وضح أن الدين الخالص لله، ولا مستحق له سواه.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: والمشركون الذين ادعوا الولاية لغير الله، واستحقاق الإطاعة والانقياد لسواه، قالوا في تعليل اتخاذهم حين سئلوا عنه ونجوا عليه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: هؤلاء الغرانيق العلا التي هي الأصنام والأوثان، وجميع ما يعبد من دونه سبحانه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ أي: تقريبًا كاملاً؛ لأنهم كملة مقبولون عنده، مكرمون لديه سبحانه، فنتوسل بهم؛ لنصل إلى قرب الحق وجواره.

لا تبالوا أيها الموحدون المتمسكون بحبل التوفيق الإلهي بقولهم هذا، ولا تلتفتوا إلى أباطيلهم الزائغة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الشرك والعناد على سبيل الرشاد والثبات ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبينكم بمقتضى علمه وخبرته ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الشرك ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ معكم أيها الموحدون بأن يدخلهم في النار بأنواع المذلة والهوان، ويوصلكم إلى الجنة بالمغفرة والرضوان، وكيف لا يدخل سبحانه المشركين النيران بأنواع الخزي والهوان ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يوفق على الهداية والرشاد ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في حق الله ومقتضى ألوهيته وربوبيته، واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3] بنعمه الموهوبة له من فضله وكرمه.

حيث أثبت له سبحانه شريكًا وولدًا مع أنه ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل في الألوهية والوجود، المنزه عن الأهل والولد ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ويختار صاحبةً ﴿لَّاصْطَفَى﴾ واختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: من بين سائر مخلوقاته في جميع شئونه وحالاته ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أولى وأنسب له، وأليق بشأنه من مريم وعيسى، فكيف من الأصنام والأوثان ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تعالى شأنه وتنزه ذاته الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد عن إيجاد الصاحبة والولد، بل ﴿هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ﴾ من جميع الوجوه، المستقل بالألوهية والوجود ﴿الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4] لعرق السوى والأغيار مطلقًا قطعًا لعرق الشركة عن أصله.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ

﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 5-6].

وبمقتضى توحيده سبحانه وقهره، وإظهار كمالاته المندمجة في وحدة ذاته باعتبار شئونه وتطوراته اللازمة للحي الأزلي الأبدي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: قدر وأعد الأسماء الذاتية الفعالة، المنعكسة من شئونه الذاتية والأوصاف القابلة المنفعلة من تلك الأسماء المظهرة لآثارها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع، ولا ينبغي أن يرتاب فيه أحد بعدما انكشف بسرائر الوجود والتوحيد حسب الود الإلهي، وبمقتضى هذا الازدواج المعنوي الجاري بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: يغشي ويغيب سبحانه على وجه التلفيف والتخليط أضواء الأسماء والصفات بظلام الهيولي والتعينات في النشأة الأولى، فكذلك يغطي ويغيب في النشأة الأخرى حجب الطبائع وأظلال الهويات بأشعة أنوار الذات المتشئة منها، بمقتضى الشئون والتطورات المثبتة للأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَ﴾ بعدما كمل أمر الظهور والإظهار، وانبسط على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء والاستقلال ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ أي: جذب وقبض نحوه سبحانه بمقتضى الجاذبة المعنوية الحبية الكاملة الوجود المطلق، الفائض على هياكل الموجودات المنعكسة من الأسماء والصفات الإلهية ﴿وَالْقَمَرَ﴾ أي: الهويات القابلة لانعكاس شمس الذات المستخلفة عنها، إظهارًا لكمال قدرته ومتانة حكمته؛ لذلك ﴿كُلٌّ﴾ من كل أهل العناية ﴿يَجْرِي﴾ يكون ويدوم في مكانه ومكانته من التعينات موقوف ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى حلول أجل معين مقدر من عند ربه بمقتضى جذبه وعنايته، فإذا حل الأجل، انقطع الجري والسير وارتفع السلوك.

﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿هُوَ﴾ أي: الموصوف بهذه الصفات الكاملة ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز ذاته عن أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله بإدراك العقول المتحيرة والأوهام المدهوشة، لكنه ﴿الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5] الستّار لغيوم تعيناتكم بإشراق شمس الذات، وانقهار جميع ما لمع عليه نور الوجود على مقتضى جلاله وتفرده في نعوت كماله.

﴿خَلَقَكُم﴾ أي: أظهركم وأوجدكم بالتجليات الجمالية ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي طبيعة العدم القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ وأظهر ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إبقاءً للتناسل، وتتميمًا للازدواجات الغير المتناهية حسب الأسماء والصفات المتقابلة، الغير المتناهية الإلهية، إظهارًا لكمال القدرة.

﴿وَ﴾ بعدما أتم سبحانه أمر إيجادكم وإثباتكم ﴿أَنزَلَ لَكُم﴾ أي: قسّم وقضى لأجلكم تتميمًا لأمور معاشكم عناية منه وتكريمًا ﴿مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ المناسبة لتغذيتكم وتقوية أمزجتكم ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكرًا وأنثى على مقتضى جبلتكم لتدوم بدوامكم، وهي الأصناف الثمانية المذكورة في سورة الأنعام ، هذا في ظهوركم وبروزكم في عالم الشهادة، وفي عالم الغيب والبطون ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ ويقدر موادكم ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: تقديرًا بعد تقدير أعجب وأغرب من سابقه؛ بأن قدركم أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم سواك إنسانًا، ونفخ فيكم روحًا من روحه، وبالجملة: أظهركم بعدما أخفاكم مدة ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ هي أصلاب آبائكم وحجب تعيناتكم وبطون أمهاتكم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل بكم هذه الأفعال الجميلة المتقنة ﴿اللَّهُ﴾ المستقل بالألوهية والتصرف في ملكه وملكوته ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم وأحسن تربيتكم لا مربي لكم سواه؛ إذ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ والملكوت خاصة لا يشارك في ملكه، ولا ينازع في سلطانه وشأنه، فظهر أنه ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ يعبد له ويرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، المستحق بالألوهية والربوبية ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6] وتعدلون أيها المشركون المنحرفون عن جادة توحيده.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨﴾ [الزمر: 7-8].

مع أنكم أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ بالله، وتنكروا ظهوره واستيلاءه على ما ظهر وبطن بالاستقلال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء

العظمة والكبرياء ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم وإطاعتكم ﴿وَ﴾ غاية ما فيه أنه عزّ شأنه ﴿لَا يَرْضَىٰ﴾ ولا يحب ﴿لِعِبَادِهِ﴾ الذين ظهروا منه سبحانه بمقتضى أوصافه وأسمائه ﴿الْكُفْرَ﴾ والجحود بذاته سبحانه، عطفًا لهم وترحمًا عليهم؛ لأنهم جبلوا على فطرة الإيمان والعرفان، وإلا فهو سبحانه أعز وأعلى من أن يفتقر إلى إيمان أحد وإطاعته، أو يتضرر بكفره وإنكاره ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: وكذا غني عنكم وعن شكركم نعمه الفائضة عليكم؛ إذ لا يعلل فعله سبحانه بالأغراض والأعواض، لكن يرضى عنكم لو شكرتم نعمه، ويزيد عليكم بأضعافها لإتيانكم بالمأمور وامتثالكم أمره، مع أن نفع شكركم عائد إليكم.

﴿وَ﴾ بالجملة: لا بدّ لكل واحد من المكلفين أن يمتثلوا بما أُمروا من عنده سبحانه، حتى يصلوا ما وعدوا من المثوبات والكرامات، واجتنبوا عما نهوا أيضًا عنه؛ ليخلصوا من المهالك والدركات؛ إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ مرتكبة بحمل أثقال الأوزار والآثام ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ كما لا تتصف بحسناتها ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ كافة كما كان منشأكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويخبركم سبحانه بعد رجوعكم إليه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بجميع ما جرى عليكم من سيئاتكم وحسناتكم، بلا فوت شيء منها، ويجازيكم على مقتضاها، وكيف لا يخبركم ويحاسبكم بأعمالكم ﴿إِنَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7] أي: بجميع الأمور الكائنة المكنونة في صدور عباده؛ أي: بما خفي في ضمائرهم ونياتهم، فكيف بما صدر عن جوارحهم وآلاتهم.

وبعدما نبه سبحانه إلى أحوال عباده، شرع يعد مساوئهم وأخلاقهم الذميمة الناشئة من بشريتهم وبهيمتهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ أي: لحقه وأحاط به ﴿ضُرٌّ﴾ مؤلم مزعج ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ متضرعًا نحوه ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إذ لا مرجع له سواه، ملحًا لكشفه وإزالته ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ سبحانه وأزال عنه كربه وضره، وأعطاه وأفاض عليه متعهدًا له، متفقدًا حاله ﴿نِعْمَةً﴾ موهوبة له ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من لدنه سبحانه تفضلاً وتكريمًا إياه ﴿نَسِيَ﴾ ونبذ وراء ظهره ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ عن شدة ضره، وسورة كربه.

﴿وَ﴾ مع ذلك لم يقتصر على النبذ والنسيان، بل ﴿جَعَلَ﴾ وأثبت ﴿لِلَّهِ﴾ الصمد المنزه عن الضد والند ﴿أَندَادًا﴾ وادعاهم شركاء له سبحانه، وإنما جعل وفعل كذلك ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناس الناسين عهود ربهم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ ويحرفهم عن طريق توحيده، ساعيًا

في إغوائهم وإضلالهم، مجتهدًا فيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنّا مهددًا إياه: ﴿تَمَتَّعْ﴾ أيها الضال المضل ﴿بِكُفْرِكَ﴾ هذا في نشأتك هذه ﴿قَلِيلاً﴾ زمانًا قليلاً، ومدة يسيرة ﴿إِنَّكَ﴾ ألبتة في النشأة الأخرى ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8] أي: من ملازميها، ومن جملة ما فيها.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: 9-10].

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ أي: يتعجب المشرك المثبت لنا شركاء وأندادًا من تهديدنا إياه بالنار وعذابها، فيظن أن من هو قائم على أداء العبادات، مواظب عليها ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: في خلاله وأطراف النهار ﴿سَاجِدًا﴾ متذللاً واضعًا جبهته على تراب المذلة من خشيتنا ﴿وَقَائِمًا﴾ على قدميه مدة متطاولة تعظيمًا لأمرنا، مع أنه ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي: العذاب الأحق فيها بمقتضى جلالنا وسخطنا ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ على مقتضى لطفه وجلاله وجماله كهؤلاء الكفرة بالله، الجهلة بشأنه، المتخذين له سبحانه أندادًا ظلمًا وزورًا، مع تعاليه عنه سبحانه.

وبعدما تفرست يا أكمل الرسل منهم هذا الظن والتسوية ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التبكيت والإلزام، مستفهمًا إياهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ المكلفون ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الحق بذاته وأسمائه وأوصافه، ويعبدون له سبحانه بمقتضى علمهم به، وبأوامره ونواهيه ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذاته ولا شيئًا من أوصافه وأسمائه، ولا يعبدون له أيضًا؟ كلا وحاشا، من أين تتأتى المساواة، فشتان ما بين العالم والجاهل، والعابد والعاصي، إلا أنه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9] أي: ما يتذكر ويتعظ بأمثال هذه المواعظ والتذكيرات المنبهة على سرائر التوحيد، إلا أولو الألباب الناظرون إلى لُبِّ الأمور، المعرضون عن قشوره.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنّا مناديًا لخلص عبادنا: ﴿يَا عِبَادِ﴾ أضافهم إلى نفسه اختصاصًا وتكريمًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم بوحدة ذاتي وظهوري حسب شئوني وتطوراتي بمقتضى أسمائي وصفاتي، مقتضى إيمانكم التقوى عن مقتضيات الهوى

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ واجتنبوا عن محارمه ومنهياته، واتصفوا بمأموراته، واعلموا أنه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ الأدب مع الله ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الاعتبار والاختبار ﴿حَسَنَةٌ﴾ وبأضعافها وآلافها أيضًا في الآخرة التي هي دار القرار، فاعتبروا يا أولي البصائر والأبصار.

فعليكم الإتيان بالإحسان في كل حين وأوان وزمان ومكان ﴿وَ﴾ لا تفتروا عنه، وعن المواظبة عليه بتفاقم الأحزان وتلاطم أمواج الفتن في الأوطان؛ إذ ﴿أَرْضُ اللهِ﴾ المعدة لأداء العبادات والاشتغال بالطاعات ﴿وَاسِعَةٌ﴾ فسيحة، فعليكم الجلاء لأجل الفراغ والخلاء، فتهاجروا إليها متحملين ما لحقكم من الشدائد والمتاعب في الانتقال، صابرين على مفارقة الأوطان والخلان، ومصادفة الكروب والأحزان، واعلموا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ المتحملون لأنواع الشدائد والمشاق في طريق الإيمان ﴿أَجْرَهُم﴾ ويوفر عليهم الحسنات وأنواع المثوبات والكرامات ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] إلى توفية وتوفير لا يمكن ضبطه بالعد والإحصاء تفضلاً عليهم وتكريمًا.

وفي الحديث صلوات الله على قائله: «تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج، فيوفون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»[1].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: 11-16].

ثم قال سبحانه آمرًا لحبيبه بالتوصية والتبليغ لعموم عباده كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة، خاليًا عن رعونات الرياء، متمحضًا للنصح والتكميل: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (211/15).

﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من قبل ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ حق عبادته، وأطيعه حق إطاعته ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11] والانقياد الصادر مني، لأتسبب بإطاعتي وانقيادي على وجه الإخلاص كي أعرفه حق معرفته، ويفيض على قلبي زلال توحيده وكرامته.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ أيضًا من عنده ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: 12] أي: أسبق المسلمين المفوضين أمورهم كلها إليه، منخلعين عن لوازم بشريتهم ومقتضيات أهوية هويتهم. ثم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّي﴾ مع كمال وثوقي بكرم الله وسعة رمته ووفور فضله وجوده علي ﴿أَخَافُ﴾ خوفًا شديدًا ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخرجت عن عروة إطاعته وانقياده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: 13] فظيع؛ لعظم ما فيه من الجزاء المترتب على الجرائم العظام.

وبعدما بلغت ما بلغت ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل على وجه الحصر والتخصيص: ﴿اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ لا غير؛ إذ لا غير معه ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14] حسب وسعي وطاقتي.

﴿فَاعْبُدُوا﴾ أيها المنهمكون في بحر الغي والضلال ﴿مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ سبحانه بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الكاسدة، واعلموا أنه ما يترتب على عبادة غير الله إلا الخيبة والخسران ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بعبادة غير الله والانحراف عن جادة توحيده، ﴿وَ﴾ خسروا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ أيضًا بالإغواء والإضلال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لجزاء الأعمال ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15] والحرمان العظيم، نعوذ بك منه يا ذا القوة المتين.

وكيف لا يكون خسران المشركين مبينًا وحرمانهم عظيمًا؛ إذ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وأطباق ﴿مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كذلك بالنسبة إلى من في الطبقة السفلى؛ لأن دركات النيران مثل دركات الإمكان متطابقة بعضها فوق بعض، فيكون سكانها أيضًا كذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي سمعت وصفه ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ في دار الاختبار، ويحذرهم عنه، ثم ناداهم؛ ليقبلوا إليه ويعتبروا من تخويفه، فقال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16] واحذروا من بطشي وتعذيبي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر: 17-20].

﴿وَ﴾ المؤمنون الموحدون ﴿الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المبالغ في الطغيان العدوان، وهي الشيطان المضل المغوي، واستنكفوا ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ ويقبلوا منها سوستها، ويصغوا إلى إغوائها وتغريرها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنَابُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ في النشأة الأولى على وجه الإخلاص والخضوع، نادمين عمّا صدر عنهم من الجراءة الجريمة ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ في النشأة الأخرى بالدرجة العليا والمثوبة العظمى.

﴿فَبَشِّرْ﴾ بها يا أكمل الرسل ﴿عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: 17-18] حق الذي صدر منّا، ولا يمترون فيه، بل ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ويمتثلون بما أمروا به، ويجتنبون عما نهوا عنه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء الموفقون على استماع قول الحق والامتثال به، هم ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى طريق توحيده، ووفقهم إلى الفناء فيه والبقاء ببقائه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18] [1] الواصلون إلى لُبّ اللباب.

---

(1) ورد في التأويلات: عباد الله قد اجتنبوا طاغوت الهوى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر:17]، يشير إلى أن طاغوت كل أحد نفسه، وإنما يجتنب عبادة الطاغوت من خالف هوى نفسه، وعانق رضاء مولاه، ورجع إليه بالخروج عما سواه رجوعًا بالكلية، وبقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 18] يشير إلى معانٍ كثيرة: منها: إن أهل البشارة من يكون مخصوصًا بخاصية العبدية التي هي فصاحة إلى الله؛ أي: يكون جسدًا عما سوى الله. ومنها: إنهم مبشرون بالوصول والوصال، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر: 18] إلى الحضرة. ومنها: إن الألف واللام في القول المعموم، فيقتضي أن لهم حسن الاستماع في كل قول من القرآن وغيره، ولهم أن يتبعوا أحسن من يحتمل كل قول إتباع درايته والعمل به، وأحسن كل قول ما كان من الله أو لله، أو يهدي إلى الله، وعلى هذا يكون استماع أتباع قول القوال من هذا القبيل. ومنها: إن القول يسمع الإنسان والشيطان والنفس والملك والإله ﷻ، فيسمع من الإنسان أن الحق والباطل، ومن الشيطان الباطل، فإنه يشير إلى المعاصي دعوة الشهوات مما لها فية نصيب، ومن الملك دعوة الطاعات، ومن الحق تعالى الخطاب في حقائق التوحيد والدعوة إلى الحضرة، كما قال تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، وقال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، فأحسن الأقوال قول الله، وأحسن الاستماع أن يستمعوا من الله، ومن عرف الله لا يسمع إلا بالله ومن الله، ومن أحسن

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والتأديب: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أتسعى وتجتهد يا أكمل الرسل في تخليص من ثبت منّا في سابق قضائنا وحضرة علمنا الحكم بتعذيبه؛ يعني: أبا لهب وولده وأتباعه ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: 19] أي: أتظن وتعتقد في نفسك أنك تقدر على إنقاذ من هو مخلد في نار جهنم بمقتضى قهرنا وجلالنا، فلا تتعب نفسك فيما ليس في وسعك؛ إذ لا يبدل قولنا، ولا يغير حكمنا.

﴿لَكِنِ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ في جميع شئونهم وحالاتهم، خائفين من قهره وغضبه، راجين رحمته ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿غُرَفٌ﴾ درجات علية ﴿مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ درجات أعلى منها، كأنها منازل ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾ على الأرض، بعضها فوق بعض على تفاوت طبقاتهم في مراتب القرب ﴿تَجْرِي﴾ على التعاقب والتوالي ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات على مقتضى الجود الإلهي، وما كان ذلك إلا ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعدها لخُلَّص عباده الذين سلكوا في سبيله، متعطشين إلى زلال توحيده، فله أن ينجزه حتمًا؛ إذ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على جميع ما شاء وأراد ﴿الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: 20] الذي وعده للعباد سيما لأهل العناية منهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: 21-22].

أتتعجب وتستبعد من الله إنجاز المواعيد الموعودة من عنده؟! ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالإرادة والاختيار ﴿أَنْزَلَ﴾ وأفاض بمقتضى

أن يسمع من الله أحسن أن يسمع عباد الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر:18] بجذبات ألطافه إلى أعطافه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:18] الذين عبروا عن قشرية الأشياء ووصلوا إلى ألباب حقائقها.

جوده المعهود ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿مَاءً﴾ أي: حياة مترشحة من عين الوجود، وبحر الذات ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ أي: أدخله في ينابيع التعينات، والهويات المنعكسة من تلك السماء والصفات، وأجراه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأرض الطبيعية القابلة لقبول الآثار الفائضة ﴿ثُمَّ﴾ بعد إخراجه عليها ﴿يُخْرِجُ بِهِ﴾ بمقتضى حكمته المتقنة ﴿زَرْعًا﴾ أي: هياكل أنواعًا، وأصنافًا مثمرة ثمر العقائد والمعارف والحقائق ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ حسب اختلاف الاستعدادات الفائضة عليها من عنده.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعدما ظهر منها ما ظهر، وترتب عليها ما ترتب، يجف وييبس إلى حيث يذهب نضارتها ورواؤها المترتب على الإمداد الإلهي ﴿فَتَرَاهُ﴾ حينئذ ﴿مُصْفَرًّا﴾ مشرفًا على الانهدام والانعدام ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾ يقبض ما فيه من رشاشات الحياة ﴿حُطَامًا﴾ فتاتًا ورفاتًا، تذروه رياح الآجال، وتعيده إلى ما عليه من العدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21] أي: تذكيرًا بليغًا، وبرهانًا قاطعًا على وجوب وجود من هو منبع الجود، ومبدأ جميع الموجود، لا يطرؤه زوال، ولا يعرضه انتقال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، إلا أنه يتذكر به، ولا يتنبه منه إلا أولو الألباب، الناظرون بنور الله على لُبِّ الأمور، المعرضون عن قشوره.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يعني: أيستوي من وسع الله قلبه بنزول توحيده، ووفقه لقبل شرائع الإسلام ومعالم الدين المبين لدلائل التوحيد واليقين ﴿فَهُوَ﴾ بواسطة تشرح الله وتوفيقه إياه ﴿عَلَى نُورٍ﴾ انكشاف تام يقين كامل ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾(1) بحيث يفنى فيه، ويبقى ببقائه، وينظر بنوره، ومن طبع الله على قلبه، وختم على سمعه وبصره، فأعماه عن إبصار آيات وجوب وجوده، وأصمته عن استماع دلائل توحيده؟! كلا وحاشا.

---

(1) بيَّن الله سبحانه تفضيل شرائف الصديقين من أهل مشاهدته المنورين بأنوار قدسه، أوجد أرواحهم في فضاء ديموميته وميادين أزليته، فأبدى لها نور جماله وجلاله، فهم منورون بنوره؛ حيث ألبسهم قموص سنا عظمته وبهاء كبريائه، فهذا معنى شرح صدورهم، وبعد نشر نور تجليه في أرواحهم وعقولهم حتى وقع فيها نور العبودية وما بدا من نور اليقين والعرفان والإيمان والإسلام، فأول شرح صدورهم بدو أنوار صفاته فيها، وآخر انفساخها ظهور سناء ذاته فيها، فهم على نور منه، وبذلك النور يلبسون؛ فيرون الحق بنور الحق، ويرون ما دون الحق من العرش إلى الثرى بنوره، ثم وبخ أضدادهم بقساوة القلوب وتباعد النيات، واحتجابهم عن نور ذكره، بعد أن قهرهم بخذلانه، وحرمهم من نور إسلامه وإيمانه، وهددهم بعقوبته.

بل ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب شديد معد ﴿لِّلْقَاسِيَةِ﴾ المضيقة المكدرة ﴿قُلُوبُهُم مِّن﴾ سماع ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ واستماع ما نزل من عنده من الآيات العظام الدالة على وحدة ذاته ووجوب وجوده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول والحضور ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22] وجهل عظيم، وغفلة شديدة، وغشاوة غليظة، لا نجاة لهم منها.

وبالجملة: لا يرتفع عن عيون بصائرهم حجبهم الكثيفة أصلاً ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزمر: 23-24].

فكيف يتيسر لأحد أن يعرض عن ذكر الله وعن استماع كلامه؟! مع أنه: ﴿اللَّهُ﴾ الذي دبر أمور عباده، وأرشدهم إلى طريق معاده؛ حيث ﴿نَزَّلَ﴾ تتميمًا لترتيبهم ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وأبلغه في الإفادة والبيان ﴿كِتَابًا﴾ جامعًا لما في الكتب السالفة ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ بعض آياتها ببعض في حسن النظم، واتساق المعنى ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: ثنى سبحانه، وكرر الأحكام فيه تأكيدًا ومبالغة، أمرًا ونهيًا، وعدًا ووعيدًا، وثوابًا وعقابًا، عبرًا وأمثالاً، قصصًا وتذكيرًا.

وجعله في كمال الإيجاز والإعجاز والتأثير؛ بحيث ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ أي: تنقبض وتضطرب على الاستمرار ﴿مِنْهُ﴾ أي: من سماعه ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ مهابة ﴿رَبَّهُمْ﴾ في جميع حالاتهم، خوفًا من سلطة سلطنة جلاله ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ﴾ تطمئن ﴿قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجاء من سعة رحمته، بمقتضى لطفه وجماله.

وبالجملة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتاب الرفيع الشأن، الواضح البرهان ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ ويوفق على الهداية والرشاد بمقتضى ما فيه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، ويضل به وعن الاستفادة بما فيه من يشاء إرادة واختيارًا ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾

بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23] [1] إذ لا يبدل قوله، لا ينازع

(1) أخبر عن خطابه وكتابه بقوله تعالى: ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:23]، يشير إلى معانٍ: منها: إنه نزل على محمد ﷺ القرآن، أحسن حديث مما نزل على جميع الأنبياء والمرسلين. ومنها: إنه أحسن حديث؛ لأنه كلام الله وهو قديم، وكلام غيره مخلوق محدث. ومنها: إنه كتاب متشابه في اللفظ، مثاني في المعنى من وجهين: أحدهما لكل لفظ منه معاني مختلفة، بعضها يتعلق بلغة العرب وبعضها يتعلق بأحكام الشرع، وبعضها يتعلق بإشارات الحق تعالى، كمثل الصلاة فإن معناها في اللغة الدعاء، وفي أحكام الشرع؛ هي عبارة عن هيئات وأركان وشرائط وحركات مخصوصة بها، وفي إشارة الحق تعالى هي الرجوع إلى الله تعالى، كما جاء روحه من الحضرة بالنفخة الخاصة إلى الغالب، فإنه عبر على القيام الذي يتعلق بالسماوات، ثم على الركوع الذي يتعلق بالحيوانات، ثم على السجود الذي يتعلق بالنباتات، ثم على التشهد الذي يتعلق بالمعادن، فبالصلاة يشير الله تعالى إلى رجوع الروح إلى حضرة ربه على طريق جاء منها؛ ولهذا قال النبي ﷺ «الصلاة معراج المؤمنين» وليس هاهنا مقام شرح رجوع الروح إلى حضرة ربه بمعراج الصلاة، وقد شرحنا حقيقة هذا في كتابنا الموسوم بـ «منارات السائرين إلى حضرة الله ﷻ ومقامات والطائرين» ولكن المعاني والإشارات والأسرار والحقائق مثاني فيها إلى لا متناهي، وإلى هذا أشير بقوله: ﴿لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي...﴾ [الكهف:109]. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:23]، إذا قرعت صفة الجلال أبواب قلوبهم من خشية الله وهيبته، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر:23] بتجلي صفات جماله ﴿إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:23] بالشوق والطلب، ﴿ذَلِكَ﴾ [الزمر:23]؛ أي: ذلك التجلي ﴿هُدَى اللهِ﴾ [الزمر:23] ليس للإنسان إليه سبيل إلا بالطلب رد، والسبيل سد، ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ [الزمر:23] بأن يكله إلى نفسه وعقله ويحرمه عن الإيمان بالأنبياء ومتابعتهم، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23] من براهين الفلاسفة والدلائل العقلية. وقال روزبهان: وصف الله سبحانه كلامه القديم حديثه الباقي الذي أحسن من كل حسن، إذ جميع الحسن منه بدا، وحسنه بأن يكون بحسن الأشياء، وأنه صفته الأزلية التي خارجة بنعوتها عن رسوم الأصوات وعلل الحروف ومصنوعات الكون، لا يشابهها كلام الخلق من فعله صدر، وكلامه تعالى من ذاته صدر، فكيف يكون مشابهًا لكلام الحدثان، ومعنى قوله: ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ أنه خبّر عن كلية الذات والصفات التي منبعها أصل القدم، وصفاته كذاته وذاته كصفاته، وكل صفة كصفة أخرى من حيث التنزية والقدس والتقديس، والكلام بنفسه متشابه المعاني، وكل معنى يتكرر في موضع غير موضعه بلغة أخرى، ووضعها مذكورة بحروفها، والمتشابه في القرآن خاصٌ، مذكورٌ مبينٌ لأهل الخصوص من أهل شهود وصفات الخاصة الأزلية الذين يشهدون الأرواح والأشباح في المراقد العبودية، يسمعون من الحق بأسماع القلوب، فإذا سمعوا خطاب الحق من الحق يستولى على أسرارهم أنوار التجلي، ثم تستولي من الأسرار على الأرواح، ثم تستولي من الأرواح على العقول، ثم من العقول على القلوب، ثم من القلوب على الصدور، ثم

حكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي﴾ أي: يصل ويدخل ﴿بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أشده وأسوأه؛ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أيديهم، يسبحون إلى النار بحيث لا يصل منهم إليها أولاً إلا وجوههم، كمن آمن منه وسلم عن مطلق المكاره؟! كلا وحاشا ﴿وَقِيلَ﴾ حينئذ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الخارجين من مقتضى الحدود الإلهية ظلمًا وعدوانًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنهمكون في بحر الغفلة والشهوات جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 24] في دار الاختبار، بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الباطلة.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 25-29].

وليس هذا التكذيب، والجزاء المترتب عليه مخصوصًا بهؤلاء الكفرة المكذبين

من الصدور على الجلود، فتقشعر منها جلودهم من حيث وقوف أسرارهم على مشاهدة العظمة بنعت الخشية والإجلال والعلم به، وإذا وصل نور الأنس بنور العظمة ونور الجمال بنور الجلال سهل على وجودهم سطوات الكبرياء، فتلين جلودهم وقلوبهم بنور البسط والأنس، فزاد شوقهم إلى سماع الكلام من العلام؛ لهيمانهم إلى رؤية جماله؛ ذلك قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وخطابه سبحانه سراج يستضيء بنوره كل راشدٍ في المعرفة، مرشدٍ في التوحيد، راسخٍ في المحبة، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من الأولياء والأصفياء والمقربين والمؤمنين الصادقين. قيل في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و﴿تَلِينُ﴾ أي: تقشعر بالخوف، وتلين بالرجاء. وقيل: بالقبض والبسط. وقيل: بالهيبة والأنس. وقيل: بالتجلي والاستتار. وقال الأستاذ: بالوعد والوعيد. وقال النهرجوري: وصف الله بهذه الآية سماع المريدين وسماع العارفين. وقال: سماع المريدين بإظهار الحال عليهم، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون.

لك يا أكمل الرسل، بل كل من ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المشركين رسلهم المبعوثين إليهم ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ فجأة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 25] مقدماته وأماراته أصلاً.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ﴾ المنتقم منهم ﴿الْخِزْيَ﴾ أي: الذل والهوان، والخيبة والخسران ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لهم فيها ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أشد وأفزع ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 26] شدته وفظاعته لما ارتكبوا ما يؤول إليه ويوقعهم فيه.

﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهودنا ومواثيقنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ المتكفل لإهداء عموم الضالين ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبههم على معالم الدين ومراسم التوحيد واليقين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 27] رجاء أن يتعظوا بما فيه، ويتفطنوا بسرائره ومرموزاته.

مع أنا جعلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أوضح بيانًا، وأعظم شأنًا، وأجل تبيانًا وبرهانًا ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: بلا اختلال واختلاف في معناه، موجب للتردد والالتباس والشك والارتياب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28] عن محارمنا، ويحذرون عما نهيناهم عنه، ومع ذلك لم يتقوا، بل لم يتنبهوا ولم يتفطنوا أصلاً.

ولهذا ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ المطلع على جميع ما في استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿مَثَلاً﴾ موضحًا لحال الموحد منهم والمشرك، وشبه كلتا الطائفتين برجلين مملوكين ﴿رَّجُلاً﴾ مملوكًا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: له أرباب متشاركون فيه، كلهم ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: متشاخصون متخالفون في استخدامه، متنازعون في شأنه، يتجاذبونه على مقتضى أهويتهم وأمانيهم بكمال الاستيلاء والغلبة، هذا مثل المشركين بالنسبة إلى معبوداتهم الباطلة.

﴿وَرَجُلاً﴾ أي: مملوكًا آخر ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: مسلمًا مخصوصًا لمالك فقط بلا شوب شركة فيه، ونزاع في أمره، هذا مثل الموحد بالنسبة إلى ربه الواحد الأحد الصمد، الذي لا تعدد فيه ولا كثرة أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ويتماثلان ﴿مَثَلاً﴾ هذان الرجلان المملوكان ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ الذي لا شركة في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، بل ولا نزاع لأحد في حكمه، يفعل ما يشاء بالإرادة والاختيار، ويحكم ما يريد بالاستقلال

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29][1] وحدته واستقلاله في التصرفات الواردة، باعتبار شئونه وتطوراته، لذلك يشركون به غيره ظلمًا وجهلاً.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزمر: 30-35].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يعني: كيف لا يستقل سبحانه بالوجوه والآثار المترتبة عليه، مع أنك يا أكمل الرسل وأشرف الكائنات وأفضلهم معطل في ذاتك وفي نشأتك هذه عن استناد ما ظهر منك إليك؛ إذ لا وجود لك من ذاتك ﴿وَإِنَّهُم﴾ أي: غيرك من أشخاص بالطريق الأولى ﴿مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30] معطلون عن آثار الوجود مطلقًا في هذه النشأة، بل كلكم أنتم وعموم العباد مسخرون تحت حكمه وأمره، ما عليكم إلا الامتثال والانقياد.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أيها الموحدون والمشركون جميعًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة للحساب والجزاء ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ المطلع على جميع ما جرى عليكم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31][2]

---

(1) قال البقلي: شبّه الله المتشتتين همومهم المائلين إلى غير الله بالرجل الذي يملكه الشركاء المتشاكسون المتخالفون، وشبّه المتفردين بنعت الإخلاص بالله ولله وفي الله بالرجل السالم لرجل الخالص له لا يملكه غيره بل عبدٌ قنٌّ له لا يدخل في صحة عبوديته خلل لأجل مدخل غيره، فالأول المحتجب بنفسه عن الحق، والثاني الشاهد بالحق على الحق، لا يحويه غبار العلل، ولا يدخل في قلبه قتام الخلل؛ إذ هو محفوظٌ برعايته القديمة وحراسته الأبدية، مثل هذا العبد لا يعرفه إلا عبدٌ مثله، ولذلك حمد الله نفسه حيث يجهله أكثر الخلق.

(2) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنك يا محمد ميت عن قليل، وإن هؤلاء المكذّبيك من قومك والمؤمنين منهم ميتون(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) يقول: ثم إن جميعكم المؤمنين والكافرين يوم القيامة عند ربكم تختصمون فيأخذ للمظلوم منكم من الظالم، ويفصل بين جميعكم بالحق، واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عنى به اختصام

بعضكم مع بعض فيما أنتم عليه في نشأتكم الأولى، ثم تحاسبون وتجازون بمقتضاه، فستعلمون حينئذ أي منقلب ينقلبون.

ثم قال سبحانه على سبيل الاستبعاد والتقريع: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضل طريقًا ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ وأنكر وجوده واستقلاله فيه، وفي الآثار المترتبة عليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يعني: بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ مبينًا لتوحيد الحق، واستقلاله في الوجود ﴿أَلَيْسَ﴾ يبقى ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والحرمان ﴿مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 32] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق الظاهرة في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق، مع أنه معد لهؤلاء المردة المطرودين عن ساحة العز القبول.

﴿وَ﴾ الموحد ﴿الَّذِي﴾ من قبل ربه ﴿جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ بلا افتراء ومراء ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ إيمانًا واحتسابًا بلا شوب شك وتردد فيه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء الصادقون المصدقون

المؤمنين والكافرين، واختصام المظلوم والظالم، فعن معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، في قوله: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله:(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قال: أهل الإسلام وأهل الكفر، وعن عبد الرحمن بن حاطب بن الزبير، قال: لما نزلت هذه الآية:(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قال الزبير: يا رسول الله، أينكر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصّ الذنوب ؟ فقال النبي ﷺ:«نَعَمْ حتى يُؤَدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقُّهُ» وقال آخرون: بل عني بذلك اختصام أهل الإسلام، ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، عن ابن عمر، قال: نزلت علينا هذه الآية وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة، فقلنا: هذا الذي وعدنا ربّنا أن نختصم في(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ). وعن إبراهيم، قال: لما نزلت:(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ...) الآية، قالوا: ما خصومتنا بيننا ونحن إخوان، قال: فلما قُتل عثمان بن عفان، قالوا: هذه خصومتنا بيننا، حُدثت عن ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قال: هم أهل القبلة، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: عني بذلك: إنك يا محمد ستموت، وإنكم أيها الناس ستموتون، ثم إن جميعكم أيها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومحقوكم ومبطلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكلّ منكم ممن لصاحبه قبله حق حقّه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب لأن الله عم بقوله:(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) خطاب جميع عباده، فلم يخصص بذلك منهم بعضا دون بعض، فذلك على عمومه على ما عمه الله به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلا في حكمها كلّ ما كان في معنى ما نزلت به. «تفسير الطبري» (287/21).

﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33] الذين يحفظون عن الميل إلى ما لا يرضى منهم سبحانه.

وبسبب اتصافهم بالتقوى عن محارم الله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ من اللذات الروحانية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرامة، ووفقهم للهداية إلى جنابه، والعكوف حول بابه تفضلاً عليهم وتكريمًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعت من الكرامات ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: 34] الذين يحسنون الأدب مع الله بحسب ظواهرهم وبواطنهم، ويأخذون ما نزل من عنده من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة الخالصة عن شوب الرياء والرعونات المنافية لإخلاص العبودية.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إخلاصهم في عزائمهم ﴿أَسْوَأَ﴾ العمل ﴿الَّذِي عَمِلُوا﴾ فكيف أسهله وأصغره ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يعطيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 35] أي: أحسن من حسناتهم، وأوفر منها؛ لخلوصهم فيها.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 36-38].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ القدير العليم ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ المتوكل عليه، المفوض أمره إليه ليكفيه ما ينفعه، ويكف عنه ما يضره ﴿وَ﴾ هم من جهلهم بالله وكمال علمه وقدرته ﴿يُخَوِّفُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ يعني: قريشًا ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بأصنامهم الذين يدعونهم آلهة ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه جهلاً وعنادًا، ويقولون لك على سبيل النصيحة: لا تذكرهم بسوء، فإنا نخاف عليك أن يخبلوك، ويفسدوا عقلك، وما ذلك إلا من نهاية جهلهم بالله، وغوايتهم عن طريق توحيده ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 36]

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ هو فاعل على الإطلاق بالاختيار

والاستحقاق لا يجري في ملكه إلا ما يشاء ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ العليم القدير ﴿بِعَزِيزٍ﴾ منيع غالب على أمره ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: 37] شديد على من أراد انتقامه من أعدائه.

ثم أشار سبحانه إلى توضيح دلائل توحيده تعريضًا على المشركين، وتسجيلاً على غوايتهم وغباوتهم، فقال مخاطبًا لحبيبه ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا أكمل الرسل؛ يعني: كفار قريش ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، ومن أوجدها وأحدثها وأظهر ما فيها من العجائب والغرائب ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ألبتة: ﴿اللَّهُ﴾ المتفرد بالخلق والإيجاد، المتوحد بالألوهية والربوبية؛ إذ لا يسع لهم العدول عنه لظهوره.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم قولهم هذا، إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ عيانًا أو سمعتم بيانًا من ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من هؤلاء المعبودات الباطلة، وتدعونها آلهة شركاء مع الله قوة المقاومة وقدرة المخاصمة معه سبحانه مثلاً ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾ وجرى حكمه على أن يمسني ﴿بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ﴾ أي: آلهتكم ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ سبحانه عني على سبيل المعارضة ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ فائضة من عنده علي ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ يمنعونها عني، ويدفعون وصولها إلي؟!.

وبعدما بهتوا وسكتوا عند سماع هذه المقالة نادمين ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض التوحيد واليقين، خاليًا عن أمارات الريب واليقين والتخمين: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الكافي لمهام عموم عباده، الرقيب عليهم في جميع حالاتهم؛ إذ ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38] المفوضون أمورهم كلها إليه، حيث يتخذونه وكيلاً، ويعتقدونه كافيًا وحسيبًا.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 39-42].

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وحالكم ما شئتم من الأعمال ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضًا على مكانتي وحالي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 39] مآل ما يعملون وغايته.

واعلموا أن ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ منّا ومنكم ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه في الدنيا ﴿وَ﴾ هو دليل على أنه ﴿يَحِلُّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: 40] دائم مؤبد، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ونحن نتربص أيضًا.

ثم قال سبحانه على وجه التأديب لحبيبه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع المشتمل على عموم مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ لتكون هاديًا ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ مبلغًا إياهم جميع ما فيه من الوعد والوعيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ ووفق على قبول ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: نفع هدايته واهتدائه عائد إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ كذلك ﴿وَ﴾ بعدما وضح الأمر لديك، لا تتعب نفسك في إهدائهم؛ إذ ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: 41] ضمين لإهدائهم وتكميلهم، بل ما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

وكيف لا يكون حساب العباد على الله، ولا يكون في قبضة قدرته؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المستوي على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام والقدرة الكاملة الشاملة ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ ويقطع إمداده بالحياة عليها بمقتضى النفس الرحماني ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: حين تعلق إرادته سبحانه بقطع علقة عنها، وإرجاعها إلى ما كانت عليه من العدم ﴿وَ﴾ كذا تتوفى الأنفس ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي: لم تحكم عليها بقطع العلقة والإمداد عنها ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يفصل عنها ما هو مبدأ الآثار والأفعال، وما يترتب عليه التمييز والشعور، ويبقى رمق منه عنها ﴿فَيُمْسِكُ﴾ ويقبض سبحانه بعد الفصل والتوفي الأنفس ﴿الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ أي: يعيدها إلى أبدانها، ويمهلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] معين مقدر عنده؛ لقطع الإمداد

(1) قال البقلي: خلق الله الأرواح قبل الكون بين النور والسرور، وتجلى لها من حسنه وجماله، فارتاحت بروح ملكوته، واستبشرت بجمال جبروته، فلما أدخلها في الأجساد انقبضت من الاحتجاب بها عن تلك النسائم، فتشامت، واستنشقت نفحات معادنها في الأشباح، فيتلطف

والارتباط.

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة.

ولهذا قيل: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله، فإذا أرادت الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وبه ورد الحديث صلوات الله على قائله: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فَلْيَنفُض فِرَاشه بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فإنه لا يَدْرِي ما خَلفَه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وَضَعْتُ جنبي، وبك أرفعُهُ، إنْ أَمسكْتَ نَفْسي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفظُ به عبادَكَ الصالحينَ»[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوفي والفصل، والإمساك والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات على قدرة الصانع الحكيم القدير العليم ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42] في مقدوراته سبحانه، ويشاهدون آثار قدرته عليها.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

عليها الحق سبحانه، فيخرجها كل ليلة من الأشباح، ويطيرها في بساتين ملكوته، ويلبسها سربال نوره، حتى تجلدت عليها لذائذ المحبات وحلاوات المشاهدات، وتزيد رغبتها في قرب مولاها وخدمته، فمن حان أجلها من خروجها من الدنيا إلى الحضرة يمسكها عند توفيها إما بالموت وإما بالنوم، ومن بقي لها بعض سيرها في عالم الامتحان يرسلها إلى محلها إلى وقت خروجها بالكلية إلى عند مولاها، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أرواحَ المؤمنين تصعدُ كُلَّ ليلةٍ إلى تحتَ العرشِ، فمَنْ نامَ على طهارةٍ أُذِنَ لها بالسجود، ومن لم ينم على الطهارة لم يُؤذن» قال سهل: إن الله إذا توفى الأنفس أخرج الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيفي، فالذي يُتوفَّى في النوم من لطيف نفس الطبع، لا لطيف نفس الروح، والنائم يتنفس تنفسًا لطيفًا، وهو نفس الروح الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة وكان ميتا. وقال: حياة نفس الطبيعي بنور لطيف، وحياة لطيف نفس الروح بذكر الله. وقال أيضًا: الروح يقوم بلطيفة في ذاتها بغير نفسي الطبع، ألا ترى أن الله خاطب الكل في الذر بنفس وروح وفهم وعقل وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف؟!

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (21/108).

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: 43-46].

وبعدما سمع قريش كمال قدرة الله، واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته حسب إرادته واختياره، ينبغي لهم أن يوحدوه سبحانه، ويتخذوه وكيلاً، ويجعلوه حسيبًا وكفيلاً، ومع ذلك لم يتخذوه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل اتخذوا من تلقاء أنفسهم ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أولياء من الأصنام والأوثان، وسموهم ﴿شُفَعَاءَ﴾ عنده سبحانه، لذلك يعبدونهم كعبادته ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أَوَ لَوْ كَانُوا﴾ أي: أتتخذون الأصنام والأوثان شفعاء أيها الحمقى، وتستشفعون منهم، ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من جلب النفع ودفع الضر ﴿وَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: 43] ويدركون مقاصدهم أصلاً؟! وما هو إلا وهم باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما لاح عندك غباوتهم وضلالهم على وجه العظة والتذكير؛ لعلهم يتنبهوا: ﴿لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: مطلق الشفاعة، مختصة لله، مستندة إليه أصالة، كائنة من عنده، لا يسع لأحد من أهل العناية أن يشفع لمجرم عنده سبحانه إلا بإذنه، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: ما ظهر من العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، بلا تصرف فيها بالاستقلال والاختيار، بلا مزاحمة أنداد وأغيار ﴿ثُمَّ﴾ لو وقعت شفاعة من أحد ممن أذن له الرحمن، ورضي له قولاً، فإنما هي أيضًا آيل إليه سبحانه؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: 44] رجوع الأضواء إلى الشمس.

﴿وَ﴾ من شدة قساوة المشركين وجهلهم بالله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿وَحْدَهُ﴾ على ما كان بلا مشاركة أحد معه في الثبوت والوجود ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أي: انقبضت وضاقت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ بالانكشاف التام في النشأة الأخرى، المفني لأظلال السوى والعكوس مطلقًا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ﴾ يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45] أي: فاجؤوا عند ذكر آلهتهم إلى البسط والاستبشار.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل عند يأسك عنهم وعن إيمانهم وتنبههم، مسترجعًا إلى

ربك، مفوضًا أمور عباده إليه، سيما هؤلاء المعاندين: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ومظهرهما من كتم العدم بالإرادة والاختيار، يا ﴿عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على التفصيل؛ بحيث لا يعزب عن حيطة علمك مثقال ذرة من ذرائر ما لمع عليه برق وجودك بمقتضى جودك ﴿أَنتَ﴾ بذاتك حسب شئونك وتطوراتك ﴿تَحْكُمُ﴾ وتقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ هؤلاء وبيني ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46] معي في أمور الدين القويم المنزل من عندك، والكتاب المبين طريق توحيدك.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر: 47-49].

ثم قال سبحانه تسجيلاً على عدم قابليتهم واستعدادهم لقبول الحق وفيضان أسرار التوحيد ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: بعدما جبلوا على فطرة الشقاوة من عند الله الحكيم لو حقّ وثبت لهم ملك ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ من الزخارف الإمكانية ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾ في سبيل الله، راجين النجاة ﴿مِن سُوءِ العَذَابِ﴾ المعد لهم ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ جزاءً لأعمالهم لما حصل لهم هذا، ولا نجاة لهم منه أصلاً؛ إذ لا يبدل قولنا ولا يغير حكمنا، بل ﴿وَبَدَا﴾ أي: لاح وظهر ﴿لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47][1] من قبله؛ إذ هم عند الإتيان بفواسد الأعمال

(1) هذه الآية خبرٌ من الله للذين فرحوا بما وجدوا في أوائل البدايات مما يغترّ به المغترون، وقاموا به، وظنوا ألا مقام فوق مقامهم، فلما رأوا ما بخلاف ظنونهم لأهل معارفه وأحبائه وعشاقه من درجات المعرفة وحقائق التوحيد ولطائف المكاشفات وغرائب المشاهدات ماتوا حسرة، وأيضًا سكن قوم إلى الأنوار وظهور بدائع صنيع الحق، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها هو، وهم أهل الغلطات، فلما بدا لهم من الله جلال عزته وعزائم قدرته علموا أنهم ليسوا على شيء من معرفة الله، وظاهر الآية يتعلق بأهل الرياء والسمعة الذي يعجبون قبول الخلق واستحسانهم ظواهرهم من الزيّ والعبادة، واغترّوا بمراعاتهم، وظنوا أنهم على شيء عند الله من ذلك، فإذا بدا لهم من الله بيانًا يوم القيامة أنهم مشركون بالرياء والسمعة افتضحوا هنالك عند العارفين والصديقين،

والعبادات على معبوداتهم، زاعمين جزاء ترتب جزاء الخير عليها، وقد انعكس الأمر عليهم.

﴿وَ﴾ حين ظهر عليهم عكس المطلوب ﴿بَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: تحقق عندهم كون أعمالهم التي أتوا بها سيئات كلها ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ خجالة ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: 48] من الأمور الدينية والمعتقدات الأخروية الجارية على ألسن الرسل والكتب في النشأة الأولى، ولم ينفعهم الندم والخجالة حينئذ؛ لانقضاء التدارك والتلافي.

ثم أشار سبحانه إلى تزلزل الإنسان، وعدم ثباته على العزيمة الخالصة نحو ربه فقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ منّا مؤلم مزعج إلى التوجه والتحنن إلينا ﴿دَعَانَا﴾ واستكشف عنّا الضر على سبيل الإلحاح والاقتراح ﴿ثُمَّ﴾ بعد كشفنا عنه ضره ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أي: أعطيناه ووسعنا عليه ﴿نِعْمَةً﴾ تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ وتكريمًا؛ لنختبر كيف يشكر على دفع الضر وحصول النعمة بعده ﴿قَالَ﴾ حينئذ على سبيل الكفران: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ من النعم ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه وجمعه وأرباحه وأخذه.

أو المعنى: ما أوتيت وأعطيت بما أوتيت إلا بسبب علمي بوجوه جمعه وتحصيله، لا من حيث لا أحتسب، هكذا يقول من الهذيانات الدالة على الكفران والطغيان، مع أن نعمته ما هي نعمة في نفسها ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء منّا إياه، واختبار لننظر أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 49] ولا يفهمون فتنتنا واختبارنا، لذلك ينهمكون في بحر الكفران والطغيان.

﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ

وافهم أيها الناظر في هذا الكتاب أن لنا من العلوم المجهولة ذوقًا، وذلك الذوق لا يليق بفهم أهل الطيلسان والطرق، ومن ذلك أن الكفر والإيمان طريقان من القهر واللطف إلى عرفان وحدانيته، فبلغ المؤمن إليه بطريق الإيمان واللطف، ويبلغ الكافر إلى رؤية قهرياته بالحقيقة عند المعاينات، فإذا عرف أنه هالكٌ فيها واقتحم في ظلماتها يبدو له في أحايين من الله سبحانه كشوف جلاله وجماله وعلومه الأزلية وألطافه الأبدية ما يضمحل فيها نيران جميع جهلهم، وهو لا يحتسب ذلك منه، ومن أنت من العبد، والرب قوله صدقٌ، ووعده حقٌ، وإشارته حقيقةٌ، فأول الآية واضحةٌ، وآخر الآية إشارةٌ. [العرائس].

مَا كَسَبُواْ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١)
أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)
﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ
ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر: 50-53].

وليس هذا مخصوصًا بهؤلاء الكفرة التائهين في تيه الغفلة والكفران، بل ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي: الكلمة المخصوصة التي من جملة: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: 49] الكافرون المسرفون ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قارون وغيره ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ أي: كفى ودفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: 50] من الزخارف شيئًا من عذاب الله حين أحاط بهم ونزل عليهم العذاب، فكذلك ما أغنى عن هؤلاء أمتعتهم شيئًا من العذاب حين حلوله.

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ أي: الكفرة الماضين في النشأة الأولى ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ مثل الخسف والكسف والغرق وغيرها ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة المستخلفين منهم، القائلين بقولهم؛ يعني: قريشًا ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ عن قريب ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أمثال أولئك الهالكين ﴿وَمَا هُم﴾ أي: هؤلاء ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: 51] الله القادر المقتدر على أنواع التعذيب والانتقام، فقُتل صناديدهم يوم بدر، وقُحطوا سبع سنين، ثم وسع عليهم رزقهم؛ ليتنبهوا أن مقاليد الأمور بيده، وخزائن الرزق من عنده، ومع ذلك لم يعلموا.

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ ولم يتنبهوا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتكفل بأرزاق عباده ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض عمن يشاء منهم إرادة واختيارًا على مقتضى علمه بتفاوت استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية الفائضة عليهم من الحكيم الوهاب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القبض والبسط المستلزمين للدقائق والرقائق الغير المحصورة في الأمور الإلهية ﴿لَآيَاتٍ﴾ براهين واضحات على حكمة القدير العليم ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 52] بذات الله، وكمال أوصافه وأسمائه.

وبعدما تنبهوا على حقية الحق وتفطنوا دلائل توحيده ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنَّا، مناديًا لهم على وجه الاختصاص، مضيفًا لهم إلينا عطفًا ولطفًا: ﴿يَا عِبَادِيَ

﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ طول دهرهم قبل انكشاف الأغطية والسدل عن عيون بصائرهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ ولا تيأسوا ﴿مِن﴾ فيضان ﴿رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ عليكم بعد انكشافها ورفعها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ضمائر عباده ونياتهم ﴿يَغْفِرُ﴾ ويستر ﴿الذُّنُوبَ﴾ التي صدرت عنكم حين غفلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ وكيف لا يغفرها سبحانه ﴿إِنَّهُ﴾ بمقتضى ذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ المقصود على العفو والستر لعموم عباده، سيما على أهل التوحيد منهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] لهم يوصلهم بعد رفع الحجب عنهم إلى مقر التجريد والتفريد.

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر: 54-58].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم سعة رحمة الحق وجميل عفوه ومغفرته ﴿أَنِيبُوا﴾ أي: تقربوا وتوجهوا أيها المجبولون على فطرة الإسلام ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وانقادوا لأوامره، واجتنبوا عن نواهيه بالعزيمة الخالصة عن كدر الرعونات وشين الشهوات ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ الموعود في يوم الجزاء ﴿ثُمَّ﴾ بعد نزوله وإتيانه ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: 54] إذ حينئذ لا يسع لكم التدارك والتلافي؛ لانقضاء زمان التوبة والرجوع.

﴿وَ﴾ بالجملة: إن أردتم النجاة من العذاب ﴿اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أيها المكلفون على الدين المستبين، ألا وهو القرآن الكريم المنزل على خير الأنام وأفضل الرسل الكرام، وامتثلوا بجميع ما فيه من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 55] علاماته حتى تتداركوا وتحذروا منها.

وبالجملة: احذروا من يوم هائل مهول مخافة ﴿أَن تَقُولَ﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ وازرة منكم، مقصرة عن الإنابة والرجوع حين حلول العذاب عليها: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾ ويا ندامتنا

﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ وقصرت فِي جَنبِ اللهِ﴾ أي: في جانبه ورعاية حقه في إطاعته وانقياده ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: 56] أي: فرطت في حقه سبحانه، والحال أني حينئذ من الساخرين بالأنبياء الهادين والعلماء الراشدين المنبهين علي، وبالجملة: فندمت حينئذ، وما ينفع الندم.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متحسرًا على كرامة أهل العناية: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي﴾ ووفقني على التوبة والإنابة نحوه كسائر أوليائه ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57] المتحفظين نفوسهم عن الإفراط في حق الله ورعاية جانبه.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متمنيًا مستبعدًا ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يحل عليها، ويحيط بها: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي: رجوعًا إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَأَكُونَ﴾ حينئذ ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: 58] الذين يحسنون الأدب مع الله، ويصدقون رسله وكتبه، وإنما تقول حينئذ ما تقول من كمال تحسرها على ما فات منها، وشدة هولها مما نزل عليها.

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر: 59-63].

ثم قيل لها من قِبل الحق ردًا لقولها: ﴿بَلَى﴾ هداك الله؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ لهدايتك وإرشادك عل ألسنة رسلي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وبهم ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عليها وعليهم ﴿وَكُنتَ﴾ حينئذ بتكذيبك واستكبارك ﴿مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 59] الذين ستروا الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع، وأظهروا الباطل الزائغ الزاهق الزائل، فاتخذوه معبودًا، وعبدوا له ظلمًا وزورًا، عنادًا واستكبارًا.

﴿وَ﴾ لا تبالوا أيها الموحدون بعتوهم واستكبارهم في هذه النشأة؛ إذ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي تُبلى السرائر فيها ﴿تَرَى﴾ فيها أيها الرائي ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ﴾ بإثبات الولد والشريك له، افتراء ومراء ﴿وَجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾ أي: تراهم حال كونهم مسودة الوجوه؛ لأنهم حينئذ ملازموا النار وملاصقوها، تستبعد وتستغرب أيها المعتبر الرائي

حالتهم هذه ﴿أَلَيْسَ﴾ يبقى ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان ﴿مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60] الذين يتكبرون على الله وعلى أوليائه بأنواع الفسق والعصيان والكذب والطغيان، مع أنه ما هي إلا معدة لهؤلاء البغاة الطغاة الهالكين في تيه الكبر والعناد.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ المفضل المحسن بمقتضى لطفه وجماله من أهوال يوم القيامة وأفزاعها ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن محارم الله ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بفوزهم وفلاحهم المورث لهم فتح أبواب السعادات وأنواع الخير والبركات ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: ينجيهم، بحيث لا يعرضهم شيء يسوءهم في النشأة الأخرى ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: 61] [1] فيها أصلاً.

وكيف لا ينجي سبحانه أولياءه؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بجميع ما ظهر وبطن ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته عليه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62] يولي أمره، ويحفظه عما يضره.

إذ ﴿لَهُ﴾ وفي قبضة قدرته ﴿مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح العلويات والسفليات، وما يتولى بينهما، ويتصرف فيهما بالإرادة والاختيار، ما شاء بلا منازع ومخاصم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وأنكروا دلائل توحيده واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه باختياره ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء الضالون عن طريق التوحيد، المنحرفون عن جادة العدالة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: 63] المقصورون على الخسران والحرمان، لا يُرجى نجاتهم منه أصلاً.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

(1) بفوزهم، مصدر ميمي، يقال: فاز بالمطلوب: ظفر به، والباء متعلقة بمحذوف، حال من الموصول، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب، أي: ينجيهم الله من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم أو: بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة في الدنيا، ولذا قرأ ابن عباس: (بمفازتهم بالأعمال الحسنة) «البحر المديد» (337/5).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 64-67].

ثم إن أرادوا - يعني: قريشًا - أن يخدعوك ويلبسوا عليك الأمر، بأن أمروك باستلام بعض آلهتهم ليؤمنوا بإلهك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعيير والتوبيخ: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالإطاعة والعبادة ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ أي: تأمرونني ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: 64] بالله وباستحقاقه للعبادة والانقياد، وبالأصالة والاستقلال.

ثم قال سبحانه مقسمًا على سبيل التأكيد والمبالغة في التأديب، تحريكًا لحمية ﷺ، وتثبيتًا على محبته ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَإِلَى﴾ الرسل ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أنت مع كمال ودادتك وخلتك، وكل واحد منهم أيضًا مع كمال محبتهم وخلوصهم، وأتيت أنت وهم بشيء يلوح منه الإشراك المنافي للتوحيد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وعملهم؛ أي: ليضيعن ألبتة صالح عملك الذي جئت به ليفيدك ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ حينئذ ﴿مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65] خسرانًا مبينًا.

فعليك ألّا تصاحب مع المشركين، ولا تقبل منهم قولهم، ولا تمتثل أمرهم ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ﴾ أي: بل إن أردت العبادة والإطاعة، فاعبد الله خاصة خالصة، ولا تلتفت إلى غيره ﴿وَكُن﴾ في شأنك هذا ﴿مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: 66] الصارفين لنعم الله إلى ما خلق لأجله؛ إذ هم جبلوا على فطرة العبادة والعرفان، بالنسبة إليه سبحانه حتى يتخذوه وكيلاً حسيبًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: المشركون الذين اتخذوا أولياء من دونه سبحانه، وادعوا الوجود له وشركتهم معه سبحانه ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ﴾ أي: ما وسعوا الحق باعتبار ظهوره بهذا الاسم المخصوص المستجمع لجميع الأسماء والصفات، المعبر به عن الذات الأحدية كاسمه العليم، لذلك لم يعرفوا ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] وقدر ظهوره وبطونه، ولو وسعوا له،

(1) القدر بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا بما لا يليق بشأنه العظيم ويقال قدر الشيء قدره من التقدير كما في المختار. فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته، وقال الراغب في المفردات: ما عرفوا كنهه، يقول الفقير: هذا ليس في محله، فإن الله تعالى وإن كان لا يعرف حق المعرفة بحسب كنهه؛ ولكن تتعلق به

وعرفوا حق قدره، لما أثبتوا له شريكًا؛ إذ كل من تحقق بوحدة الحق وكيفية سريانه على هياكل الأظلال والعكوس المنعكسة، لم يبقَ عنده شائبة شك في ألَّا تعدد في ذاته سبحانه، ولا تكثر بل يتجلى ويتجدد في كل آن بشأن، ولا شك أن كل ما ظهر من الشئون فان ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

﴿وَ﴾ من جملة ما انعكس من بعض شئونه سبحانه ﴿الْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ أي: جميع ما يتولد من الطبيعة والهيولي المنعكسة من التجليات الإلهية حسب اقتضاء أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فيها ﴿قَبْضَتُهُ﴾ أي: مقبوضة في كفِّ قدرته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى التي انقهرت دونها أظلال السوى مطلقًا، مندكة في نفسها، معدومة في حد ذاتها، لا وجود لها ﴿وَ﴾ كذا ﴿السَّمَوَاتُ﴾ حينئذ ﴿مَطْوِيَّاتٌ﴾ معطلات عن مقتضياتها التي هي الأفعال والحركات، ساقطات في زاوية العدم على ما كانت عليها أزلاً وأبدًا؛ أي: تنزه ذاته وتقدست أسماؤه ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وقدرته ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67] له غيره ظلمًا وزورًا.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: 68-70].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمشركين يوم ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لرد الأمانات التي هي الوجودات المترشحة من بحر الذات على هياكل الهوايات ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: خرَّ وسقط مغشيًا من فزعه ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: جميع العلويات ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جميع السفليات خوفًا من انقطاع الأمور الإلهية بمقتضى النفس الرحماني ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ من المعتبرين الفانين في الله، الباقين ببقائه، فإنهم قد قامت قيامتهم ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ إيقاظًا لهم عن سنة الغفلة ونعاس النسيان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ أي: فاجؤوا

تلك المعرفة بحسبنا فالمعنى ههنا ما عرفوا الله حق معرفته بحسبهم لا بحسب الله إذ لو عرفوه بحسبهم ما أضافوا إليه الشريك ونحوه فافهم. تفسير حقي (12/ 325).

على القيام، بعدما صاروا مغشيًا عليهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] حينئذ حيارى سكارى مبهوتين هائمين، كأنهم صرعى مخبولين.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: صارت الطبيعة والهيولي منورة بنور الله على ما كانت عليه قبل الفتح، وحينئذ عرضوا على الله ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾ أي: مكتوب أعمال كل من النفوس الزكية والخبيثة بين أيديهم، وحُوسبوا بمقتضى ما فيه ﴿وَ﴾ بعدما تم حسابهم وتنقيد أعمالهم ﴿جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين كل منهم إلى أمة من الأمم؛ ليشهدوا على أممهم بما كانوا عليه في النشأة الأولى ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: وجيء بالشهداء أيضًا؛ يعني: أنطق الله أركانهم وجوارحهم التي أتوا بها ما أتوا من خير وشر فيشهدون.

﴿وَ﴾ بعد انكشاف أحوالهم وضبط أعمالهم ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ على مقتضى العدالة الإلهية بلا حيف وميل ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69] بالزيادة والنقصان ثوابًا وعقابًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَ﴾ كيف لا يوفى؛ إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ وأحفظ منهم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: 70] أي: بجميع أفعالهم وأعمالهم الصادرة منهم، صالحها وفاسدها، نقيرها وقطميرها.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: 71-72].

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿سِيقَ﴾ سوق البهائم إلى المسلخ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالإعراض عن الحق وأهله ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ الطرد والخذلان ﴿زُمَرًا﴾ فوجًا بعد فوج، وطائفة إثر طائفة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ يعني: جهنم ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ أي: أبواب النيران المعدة لأهل الكفر والطغيان على تفاوت طبقاتهم فيه، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ حينئذ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الضالون المستحقون لهذا الوبال والنكال ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من بني نوعكم مبعوثون إليكم من قبل الحق ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

رَبِّكُمْ﴾ أي: دلائل توحيده، وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يخوفونكم عن لقاء هذا اليوم الذي تدخلون فيه النار بأنواع الخيبة والخسران؟.

وبعدما سمعوا منهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متحسرين متأوهين: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءت إلينا رسل ربنا بالحق، وتلوا علينا آياته المشتملة على أنواع الإنذار والنذير ﴿وَلَٰكِنْ﴾ لم يفد بنا إنذارهم وتبشيرهم؛ إذ ﴿حَقَّتْ﴾ أي: صدرت وثبتت منه سبحانه في سابق قضائه وحضرة علمه حتمًا ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119] ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71] المعرضين عن الحق وآياته، وعن من بلغها إليهم بإذنه، لذلك أعرضنا عنها وعنهم، فوجبت لنا النار.

وبالجملة: أتوا بالعذر وما ينفعهم بل ﴿قِيلَ﴾ لهم من قبل الحق: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها الضالون المجرمون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: كل فرقة منهم بباب يخصها في سابق القضاء، وكونوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاة لكم منها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72] أي: الكافرين المستكبرين وأهله جهنم الخذلان وجحيم الحرمان والخسران، أعاذنا الله وعموم المؤمنين منها بفضله العظيم.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر: 73-75].

﴿وَسِيقَ﴾ أيضًا سوق الحمام إلى المسرح ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره ونواهيه الجارية على ألسنة رسله وكتبهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾ المعدة لفيضان أنواع اللذات الروحانية على أهلها ﴿زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ فرحين مسرورين، وتحننوا نحوها ﴿وَ﴾ قد ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ عناية من الله إياهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ حينئذ ﴿خَزَنَتُهَا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المهديون المهتدون الذين ﴿طِبْتُمْ﴾ وطهرتم أنفسكم في دار الاختبار عن دنس الشهوات ورين المزخرفات ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة

المشتملة على أنواع الكرامات وأصناف السعادات الآن، وكونوا ﴿خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73] فيها أبد الآباد بلا نقل وتحويل، إلا إلى ما شاء الله لأهل العناية من الدرجات العلية التي لا تكتنه ولا توصف.

﴿وَ﴾ بعدما تمكنوا في مقر العز والحضور ﴿قَالُوا﴾ مسترجعين إلى الله، عادين موائد إنعامه وإفضاله على أنفسهم، قائمين لأداء حقوقها: ﴿الحَمْدُ لِلهِ﴾ والمنة لله ﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: جميع ما وعدنا الله به في النشأة الأولى بوحيه النازل على ألسنة أنبيائه ورسله من المعتقدات الأخروية.

﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ أي: المقر الموجود الذي بشرنا به الرسل الكرام، وهي الجنة الموروثة لأهل العناية من سوابق الإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة الصادرة منهم في دار الاختبار، ومكننا فيه؛ بحيث ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ﴾ ونتنزل ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ يعني: ينزل ويستريح كل منّا حيث شاء وأراد من المقامات البهية الدرجات العلية، بلا مضايقة وممانعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74] المخلصين المخلِّصين نفوسهم عن أودية الجهالات والضلالات بنور الآيات البينات، الواصلين إلى روضة الرضا وجنة التسليم، اللهم ارزقنا بلطفك العميم، واجعلنا من ورثة جنة النعيم.

﴿وَ﴾ بعدما تقرر أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة ﴿تَرَى﴾ أيها المعتبر المنكشف بكمال عظمة الله وجلاله ﴿المَلائِكَةَ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية، عبر عنها سبحانه بالملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿حَافِّينَ﴾ صافين محدقين محلقين ﴿مِنْ حَوْلِ العَرْشِ﴾ أي: حول عرشه العظيم المستغني عن عروش مطلق المظاهر، والحال الكائنة في عالمي الغيب والشهادة؛ إذ هو سبحانه غني بذاته عن مطلق التعينات الطارئة على شئونه وتطوراته، لذلك ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون أولئك المهيمون ذاته سبحانه عن سمات الحدوث والإمكان مطلقًا دائمًا، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما وهب لهم المعرفة بعلو شأنه وسمو برهانه، وباستغنائه في ذاته عن مظاهر أوصافه وأسمائه جميعًا ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: هم يحمدونه ويثنون عليه سبحانه أيضًا على عموم قضائه وحكمه، وأحكامه الجارية بين عباده بمقتضى العدل القويم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قِيلَ﴾ من قبل كل من يتأتى منه الرجوع إليه سبحانه والتوجه نحوه طوعًا على الوجه الذي أمر به: ﴿الحَمْدُ﴾ المطلق المستوعب لجمع الأثنية

والمحامد الصادرة من عموم المظاهر ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ أي: للذات المستجمع لجميع أوصاف الكمال بالاستحقاق والاستقلال لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75] بمقتضى توحيده وانفراده، فيكون جميع محامدهم مختصة به سبحانه؛ إذ لا مربي لهم سواه.

حققنا بكرمك بحق قدرك وبقدر حقك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للتحقيق والإدراك بكمال عظمة الله وجلاله، أن تتأمل في أواخر هذه السورة، وتتعمق فيها وفي كشف سرائرها ومرموزاتها وإشاراتها الخفية وعباراتها المنبهة على وحدة الحق وحقيته؛ لينكشف لك أنه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يقدر تحققه وقيوميته زمان ومكان، بل هو كائن على ما كان في كل آن وشأن بلا زمان ومكان.

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة غافر «المؤمن»

لا يُخفى على من ترقى من حضيض التقليد إلى ذروة التوحيد، ومن أودية الجهالات اللازمة للتعينات الإمكانية إلى أقصى درجات الإدراك وأعلاها، أن أجل المعلومات وأولاها وأدق المعارف وأخفاها هو الإطلاع على وحدة الحق وتوحيده في الذات الوجود، وبكثرة حسب الأسماء والصفات المقتضية للشئون والتطورات الغير المحصورة.

لذلك أوحى سبحانه حبيبه بما أوحى من دلائل التوحيد، وأوصاه بحفظ ما نزل من الآيات المنزلة المبينة لتلك الآيات الدلائل؛ ليكون على ذكر منها، فقال سبحانه مخاطبًا له بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المفصح المعرب عن الذات الأحدية باعتبار التسمية ونشأة العبارة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ الدال على ثبوت عموم الأسماء والصفات لتلك الذات المؤثرة بها آثارًا لا تُعد ولا تحصى ﴿الرَّحِيمِ﴾ الدال على رجوع الكل إليها رجوع الأظلال إلى الأضواء.

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)﴾ [غافر: 1-5].

﴿حم﴾ [غافر: 1] يا حامل الوحي وحاميه، ويا ماحي الغير والسوى عن لوح الضمير مطلقًا.

﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، إليك يا أكمل الرسل تأييدًا لك في أمرك وشأنك ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: من الذات المعبر بهذا الاسم الجامع

﴿العَزِيزِ﴾ المنيع الغالب ساحة عز حضوره عن أن يحوم حول وحيه شائبة الريب والتخمين ﴿العَلِيمِ﴾ [غافر: 2] الذي لا يعزب عن حيطة علمه شيء مما جرى عليه قضاؤه.

﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ أي: ساتر ذنوب الأنانيات، والهويات الحاصلة من انصباغ التعينات العدمية بصبغ الأسماء والصفات ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: التوبة والرجوع على وجه الإخلاص والندم من إثبات الوجود لغيره سبحانه ﴿شَدِيدِ العِقَابِ﴾ على من خرج عن ربقة عبوديته بإسناد الحوادث إلى نفسه، أو إلى مثله في الحدوث والمخلوقية ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ والغني عن توحيد الموحد وإلحاد المشرك الملحد؛ لأنه في ذاته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا موجود سواه يُعبد له ويُرجع إليه في الخطوب؛ إذ ﴿إِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ [غافر: 3] أي: مرجع الكل إليه سواء وحدّه الموحدون، أو ألحد في شأنه الملحدون المشركون.

ثم قال سبحانه توضيحًا وتصريحًا لما عُلم ضمنًا: ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ ويكابر ﴿فِي﴾ شأن ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ ودلائل توحيده واستقلاله في الآثار المترتبة على شئونه وتجلياته ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وستروا ظهور شمس الذات، وتحققها في صفحات الكائنات بغيوم هوياتهم الباطلة وتعيناتهم العاطلة ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلادِ﴾ [غافر: 4] أي: لا يغررك يا أكمل الرسل إمهالنا إياهم، يتقبلون في بلاد الإمكان وبقاع الهيولي عن إمهالنا وعدم انتقامنا منهم بالطرد إلى هاوية العدم وزاوية الخمول.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل في دعوتك وشأنك وعاندوا معك، فاصبر على أذاهم وتذكر كيف ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا، وكيف صبر هو حتى ظفر عليهم حين ظهر أمرنا، وجرى حكمنا بأخذهم واستئصالهم ﴿وَ﴾ كيف كذبت ﴿الأَحْزَابُ﴾ والأمم الكثيرة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد قوم نوح رسلهم المبعوثين إليهم للهداية والإرشاد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هَمَّتْ﴾ وقصدت ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ المرسل إليهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويأسروه، بل ليقتلوه أو يستحقروه ويهينوه ﴿وَجَادَلُوا﴾ أولئك الهالكون المنهمكون في تيه الكبر والعناد معهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الزاهق الزائل في نفسه ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ ويزيلوا به ﴿الحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ واستأصلتهم بعدما أمهلتهم زمانًا، يعمهون في طغيانهم، ويترددون في بنيانهم ﴿فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: 5] إياهم حين حلَّ عليهم ما حلَّ من العذاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ
ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ
كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ
وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: 6-9].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 6] أي: ملازموها وملاصقوها أبد الآباد، لا نجاة لهم منها، فـ﴿لاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127].

ثم أشار سبحانه إلى حثِّ المؤمنين الموحدين على الإيمان، ومواظبة الشكر على إنعام الله إياهم باليقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وهم الكروبيون الذين سبقوا بحمل العرش الإلهي، وحفظ ما انعكس فيهم من تجلياته الجمالية بدوام المراقبة والمطالعة بوجهه الكريم ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة الذين يطوفون حول العرش، ويقتفون أثر أولئك الحملة السابقين كلهم ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون الحق عن سمات الحدوث والإمكان، ويقدسونه عن عروض السهو والنسيان؛ إذ كمال ما يدرك المدرك منه سبحانه إنما هو التسبيح والتقديس، وإلا فالأمر أعز وأعلى من أن يحيط به الآراء ويحوم حوله الأهواء، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما أولاهم نعمة التوجه إليه والتحنن نحوه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ سبحانه، ويوحدونه، ويعتقدون أوصافه العليا وأسماؤه الحسنى، وإن عجزوا عن كنه ذاته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يطلبون العفو والستر منه سبحانه لذنوب إخوانهم الذين آمنوا بوحدة الحق وكمالات أسمائه وصفاته، مثل إيمانهم سواء كانوا سماويين أو أرضيين، قائلين مناجين مع ربهم حين استغفارهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة تسبيحك وتقديسك، ومداومة حمدك

وثنائك، أنت بذاتك بمقتضى كرمك وجودك ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك، وأحاطت حضرة علمك على كل ما لمع عليه بروق تجلياتك وشروق شمس ذاتك ﴿فَاغْفِرْ﴾ لسعة رحمتك وجودك ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا نحو بابك نادمين، وامحُ عن عيون بصائرهم سبل الغير والسوى في جنب بابك ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿سَبِيلَكَ﴾ الذي أرشدتهم إليه بوحيك على رسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7] [1] أي: احفظهم عن عذاب الطرد والحرمان المعد لأصحاب الخسران في جميع حجتهم الخذلان.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ بفضلك ولطفك ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: متنزهات العلم والعين والحق ﴿الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ في كتابك لعموم أرباب العناية من عبادك ﴿وَ﴾ كذا أدخل ﴿مَن صَلَحَ﴾ عندك لفيضان جودك وإحسانك ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الذين تناسلوا منهم على فطرة التوحيد، وحلية الإيمان والعرفان ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله شائبة وهم أحد من مظاهرك ومصنوعاتك ﴿الْحَكِيمُ﴾ [غافر: 8] في جميع أفعالك الصادرة عنك على كمال الإحكام والإتقان.

﴿وَقِهِمُ﴾ بمقتضى حكمتك المتقنة ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الجرائم والآثام المستتبعة لإدخالهم إلى دركات النيران، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: من تحفظه أنت بمقتضى لطفك وتوفيقك عن المعاصي في النشأة الأولى ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ ألبتة في النشأة الأخرى ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: وقايتك وحفظك إياهم عن أسباب الخذلان والحرمان ﴿هُوَ الْفَوْزُ

(1) قال روزبهان: وصف الله عراف ملائكته الذين ألبسهم الله قوة جبروته، ونور ملكوته، وهم اللاهوتيون يحملون كنز الأعظم بعظمة الله وقوته، والسكر من شراب قربه ومحبته، وفيض مشاهدته، يطيرون في هواء هويته بالأجنحة القدوسية، والرفارف السبوحية، مع مرآة الوجود، وكنوز الجود حيث يشاء الحق سبحانه من الأماكن والمشاهد، يسبحون مما يجلون منه القدس والتنزيه، حمدًا لأفضاله، وبأنه منزه عن النظير والشبيه، يؤمنون به في كل لحظة بما يرون منه من كشوف صفات الأزليات، وأنوار حقائق الذات التي تطمس في كل لمحة مسالك وسوم العقليات، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن معرفة وجوده. ثم بيّن أنهم أهل الرقة والرحمة والشفقة على أوليائه؛ لأنهم إخوانهم في نسب المعرفة والمحبة، يستغفرون لهم حين أقروا كلهم بأنه تعالى لا يدركه غوص الأوهام، ولا يحويه بطون الأفهام، سألوا غفرانهم لما جرى على قلوبهم من أنهم على شيء في معرفته.

﴿العَظِيمُ﴾ [غافر: 9] والكرم العميم واللطف الجسيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: 10-14].

ثم أشار سبحانه إلى تفضيح من كفر بالله، وكذّب بما نزل من عنده من الأوامر والنواهي الجارية بمقتضى وحيه على ألسنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأنكروا بوحدة ذاته وسريان وجوده الوحداني الذاتي على جميع مظاهر الكائنات حسب شئون الأسماء والصفات، بأن أشركوا فيه سبحانه، وأثبتوا وجودًا لغيره، وادعوا ترتب الآثار عليه ﴿يُنَادَوْنَ﴾ في الطامة الكبرى، والنشأة الأخرى حين ظهر الحق، واستقر على مقر العز والتمكين، وانقهر الباطل الزاهق الزائل، واضمحل التلون والتخمين ﴿لَمَقْتُ اللهِ﴾ أي: طرده وتحريمه لكم اليوم ﴿أَكْبَرُ﴾ وأفظع ﴿مِن مَّقْتِكُمْ﴾ وتحريمكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ عن موائد لطفه وإحسانه سبحانه.

وذلك ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: وقت دعوة الأنبياء والرسل إياكم بإذن الله ووحيه ﴿إِلَى الإِيمَانِ﴾ به سبحانه وبتوحيده ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: 10] حينئذ، وتسترون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتكم الباطلة جهلاً وعنادًا، بل تشركون له غيره في الألوهية والوجود، وتعبدون له كعبادته سبحانه.

وبعدما سمعوا ما سمعوا من النداء الهائل المهول ﴿قَالُوا﴾ بلسان استعداداته متحسرين متضرعين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من رباناعلى فطرة معرفتك وتوحيدك، فكفرناك وأشركنا بك غيرك، قد ظهر لنا اليوم حقية ما ورد علينا من قبل بعدما ﴿أَمَتَّنَا﴾ وأفنيتنا في هوتك مرتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ مرة في النشأة الأولى بانقضاء الأجل المقدر من عندك، ومرة في النشأة الأخرى بعد النفخة ﴿وَ﴾ كذا ﴿أَحْيَيْتَنَا﴾ وأبقيتنا ببقائك مرتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ مرة عند حشرنا من أجداث طبائعنا، ومرة بعد النفخة الثانية للعرض والجزاء.

وبعدما لاح علينا من دلائل توحيدك وكمال قدرتك ما لاح ﴿فَاعْتَرَفْنَا﴾ الآن ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ التي صدرت عنّا من غاية غفلتنا وجهلنا بك وبقدرتك، ووحدة ذاتك واستقلالك في آثارك الصادرة عنك ﴿فَهَلْ﴾ لنا اليوم مجال ﴿إِلَى خُرُوجٍ﴾ من عذابك الذي أعددت لنا بمقتضى عدلك حسب جرائمنا وآثامنا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: 11] إلى الخلاص والنجاة منه.

ثم بعدما تضرعوا من شدة هولهم وفظاعة أمرهم ما تضرعوا، نودوا من وراء سرادقات القهر والجلال: ﴿ذَلِكُم﴾ أي: العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِيَ﴾ وذكر ﴿اللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿وَحْدَهُ﴾ أي: على صرافة وحدته، واستغنائه عن العالم وما فيه ﴿كَفَرْتُمْ﴾ وأنكرتم وجوده وكمال أوصافه وأسمائه، وكذبتم رسله المبعوثين إليكم للتبليغ والتبيين ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾ ويثبت له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا﴾ وتقروا بالشركاء، وتعتقدوا وجودها، وتصدقوا من تفوه بها ﴿فَالْحُكْمُ﴾ المحكم والقضاء الحتم المبرم الآن ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه ذاته عن أن يتردد فيه أو يشرك ﴿الْعَلِيِّ﴾ الغني شأنه عن إيمان المؤمن وكفر الكافر ﴿الْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12] المتعال وحدة ذاته عن أن يحوم حوله إقدام الإقرار والإنكار.

وكيف تنكرون له سبحانه، وتشركون فيه مع أنه سبحانه ﴿هُوَ﴾ الله الكامل في الألوهية والربوبية ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء المربية لكم من لدنه ﴿رِزْقًا﴾ صوريًا ومعنويًا تتميمًا لتربيتكم وتكميلكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ منكم بآياته ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: 13] إليه، ويرجع نحوه طالبًا الترقي من حضيض التقليد والتخمين إلى ذروة التحقيق واليقين.

وإذا سمعتم كمال تربيته وتكميله سبحانه ﴿فَادْعُوا اللهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، وتوجهوا نحوه، واعبدوا حق عبادته أيها المكلفون بمعرفته وتوحيده حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الإطاعة والانقياد بلا رؤية الوسائل والأسباب العادية في البين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 14] المكابرون إطاعتكم إياه، ورجوعكم إليه على وجه الإخلاص والاختصاص.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

ﭐلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾
يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: 15-20].

وكيف لا يدعون ويعبدون له سبحانه، مع أنه هو في ذاته ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي: درجات قربه ووصوله رفيعة، وساحة عز حضوره منيعة لا يسع لكل قاصد أن يحوم حولها، إلا بتوفيق منه سبحانه وجذب من جانبه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ العظيم؛ إذ لا ينحصر مقر استيلائه وظهوره بمظهر دون مظهر ومجلى دون مجلى، بل له مجالي إلى ما شاء الله؛ إذ هو بمقتضى تجليه الجمالي ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ على وجه الأمانة ويمد الظل ﴿مِنْ عالم أَمْرِهِ﴾ بمقتضى حبه الذاتي ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: استعدادات مظاهرة المستظلين بظلال أسمائه وصفاته، وبعد إلقائه ومدِّه إياهم، كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للألوهية والربوبية، وإنما كلفهم بما كلفهم ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر: 15] أي: يخوفهم عن زمان الوصول والرجوع في النشأة الأخرى، والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات إلى أهلها على وجهها.

إذ هو ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ خارجون من أجداث أجسادهم، راجعون إلى الله جميعًا بأرواحهم، محشورون عنده معرضون عليه؛ بحيث ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ﴾ المحيط بهم ﴿مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم ونياتهم، وبعدما برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين إليه، فانين فيه، قيل لهم من قِبل الحق بعد فناء الكل إظهارًا لكمال قدرته وجلاله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: ملك الوجود والتحقق والثبوت، فأجيب أيضًا من قِبله؛ إذ لا موجود سواه، ولا شيء غيره: ﴿لِلهِ الْوَاحِدِ﴾ من كل الوجوه ﴿الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16] لنقوش السوى والأغيار، وعكوس الأظلال والأمثال.

وبعدما استقروا استوى سبحانه على الملك المطلق بالإطاعة والاستحقاق على ما كان ويكون في أزال الآزال وأبد الآباد، أشار إلى سرائر ما ظهر منه في النشأة الأولى فقال: ﴿الْيَوْمَ﴾ أي: يوم الجزاء والنشأة الأخرى ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الأولى، التي هي نشأة التكلف والاختبار بلا ازدياد وتنقيص عليه؛ إذ ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: يوم الجزاء؛ لأنه إنما وضع لظهور العدالة

الإلهية والقسط الحقيقي، بل تجزى فيه كل من النفوس بجميع ما صدرت عنها، خيرًا وشرًا نفعًا وضرًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على عموم ما ظهر وبطن من عباده ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 17] عليهم بلا فترة وتلبيس؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يطرأ عليه سهو ونسيان.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: عموم المكلفين ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ والمشارفة على العذاب الأبدي، حين أحضروا على شفير جهنم للطرح فيها ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ أي: قلوب أولئك المحضرين ترتفع حينئذ ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وتلتصق بحلاقيمهم من كمال هولهم واضطرابهم، وكانوا حينئذ ﴿كَاظِمِينَ﴾ ومملوئين من الغم والحزن وأنواع الكآبة والخذلان، وبالجملة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لهؤلاء المسرفين المقصورين على الخيبة والخسران حينئذ ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب يدركهم، ويولي أمرهم، ويسعى في استخلاصهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18] أي: شفيع يشفع ويقبل الشفاعة منه لأجلهم.

مع أنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي: خيانتهم التي يتغامزن بعيونهم نحو محارم الله ﴿وَ﴾ يعلم أيضًا ﴿مَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: 19][1]

(1) قال روزبهان: وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور، وقال: لا يخفى عليّ منها شيء، وذلك أن العين باب من أبواب القلب، فإذا رأت العين شيئًا يكون حظ القلب منه، يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة العين متعلقة بما تخفي الصدور، وإذا كان العارف عارفًا بنفسه ويروضها برياضات طويلة، ويقدمها بمجاهدات كثيرة، ويزمها بزمام الخوف، وآداب الشريعة، صارت صافية من حظوظها، فبقيت في سرها جلتها على الشهوات، ففي كل لحظة يجرى في سرها طلب حظوظها، ولكنها سترتها على العقل وأخفتها، عن الروح من خوفهما، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى روزنة العين، فتنظر إلى مرادها، وتسرق حظها من النظر إلى المحارم، وذلك النظر خفي، وتلك الشهوة خفية، وصفهما الله سبحانه في هذه الآية، واستعاذ منها النبي ﷺ حيث قال: «أعوذ بك من الشهوة الخفية». وقال أبو حفص النيسابوري: زنا العارف نظره بالشهوة، وافهم واسمع حقيقة ذلك أن الروح العاشقة إذا احتجبت عن مشاهدة جمال الأزل تنقبض وتطلب حظها، ولا تقدر أن تنظر إلى الحق فتطلب ذلك من صورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية، فتنظر من منظره إلى منظر العقل، ومن منظر العقل إلى منظر القلب، ومن منظر القلب إلى منظر النفس، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة، وتنظر من العين إلى جمال المستحسنات، لينكشف لها ما يستر عنها من شواهد الحق، فتذهب النفس معه وتسرق تحته حظها من النظر بالشهوة، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع والطريقة. وفي سر الحقيقة نظر الروح إلى الحق بالوسائط أيضًا خيانة، وخيانته في الصبر ألا يصبر في مقام

أي: ما تخفي صدورهم من الميل إلى الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بظواهرهم وضمائرهم ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم بهم، ويجازي عليهم بمقتضى علمه وخبرته منهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا حيف وميل إظهارًا لكمال عدالته ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ سبحانه من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقْضُونَ﴾ ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم ﴿بِشَيْءٍ﴾ من نفع وضر؛ إذ هم جمادات لا شعور لها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع ما صدر من ألسنة استعداداته ﴿الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20] بما ظهر على هياكل هوياتهم.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾ [غافر: 21-22].

ثم أشار سبحانه إلى تقريع أهل الزيغ والضلال، وتفضيح أصحاب العناد والجدال، فقال مستبعدًا مستنكرًا إياهم: ﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا عليهم وانتقامنا عنهم ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الموروثة لهم من أسلافهم الذين أسرفوا على أنفسهم أمثالهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر التأمل والاعتبار؛ ليظهر عندهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ مستقرين عليها، متمكنين فيها، مترفهين أمثالهم، بل ﴿كَانُوا هُمْ﴾ أي: أسلافهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الأخلاف ﴿قُوَّةً﴾ وقدرة وأكثر أموالاً ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حصونًا وقلاعًا وقصورًا وأخاديد، وغير ذلك مما صدر من ذوي الأحلام السخيفة، ومع ذلك ما أغنى عنهم شيئًا من غضب الله وعذابه، بل ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم على سبيل البطر والغفلة، فاستأصلهم بالمرة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ حينئذ ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ وبطشه ﴿مِن

- القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة، ثم ينكشف له عالم البسط، فنبهنا الله بهذه الآية أنه يعلم بعلمه القديم هذه الخفايا ولا يستحسن. قال أبو عثمان: خيانة العين هو ألا يغضها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

وَاقٍ﴾ [غافر: 21] حفيظ لهم، يمنع عذاب الله عنهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذلك البطش والانتقام إلا بسبب أنهم من شدة عتوهم وعنادهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من قبل الحق مؤيدين ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والبراهين القاطعة من أنواع الآيات والمعجزات ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله وبهم أمثال هؤلاء التائهين في بيداء الغفلة والغرور، وأنكروا على بيناتهم، ونسبوها إلى السحر والشعبذة، وظهروا على رسل الله بأنواع الخرافات والهذيانات ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ القدير الحليم بكفرهم وعتوهم؛ بعدما أمهلهم زمانًا، يترددون فيما يرومون ويقصدون فيه، وكيف لا يأخذهم سبحانه ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ مطلق، وقدير كامل على من ظهر عليه وخرج عن ربقة عبوديته ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: 22] صعب الانتقام على من كذب وتولى على الرسل الكرام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 23-26].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: 23] أي: حجة واضحة دالة على صدقه في رسالته ودعوته.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الذي بالغ في العتو والعناد، حيث تفوه بـ«أنا ربكم الأعلى» ﴿وَهَامَانَ﴾ المصدق لطغيانه، المعاون على عتوه وعدوانه ﴿وَقَارُونَ﴾ المباهي بالثروة والغنى، وبعدما بلغ إليهم الدعوة، وأظهر عليهم المعجزة ﴿فَقَالُوا﴾ بلا تردد وتأمل فيما سمعوا وشاهدوا منهم: ما هذا المدعي إلا ﴿سَاحِرٌ﴾ في بيته ﴿كَذَّابٌ﴾ [غافر: 24] في دعوته؛ أي: فاجؤوا على التكذيب والإنكار بلا مبالاة به وبشأنه، بمقتضى ما هم عليه من العتو والاستكبار.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ موسى ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ مؤيدًا ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وآمن له بنو

إسرائيل حين عاينوا منه الآيات الكبرى والمعجزات العظمى ﴿قَالُوا﴾ يعني: فرعون أصالة، وملؤه تبعًا لأعوانهم وأتباعهم: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يعني: أعيدوا على بني إسرائيل الزجر الشنيع الذي أنتم تفعلون معهم من قبل ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ للزواج والوقاع، تعييرًا عليهم وتضعيفًا لهم؛ يعني: هم قصدوا المكر والمقت على أولئك المؤمنين بقولهم هذا ﴿وَ﴾ ما يظن أنهم ممكورون وممقوتون؛ إذ ﴿مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ ومكرهم حيث كادوا ومكروا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 25] أي: هلاك وبوار على أهل الحق، لذلك لم ينالوا على ما قصدوا، بل عاد عليهم، ولحق بهم أضعاف ما قصدوا إياهم، ومكروا لأجلهم.

﴿وَ﴾ بعدما ظهر أمر موسى الكليم وعلا قدره، وانتشر بين الناس حجته وبرهانه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه الذين قالوا له حين غلب موسى على السحرة، وقصد فرعون قتله فمنعه الملأ عن قتله، حتى لا يظهر بين الناس مغلوبيته من موسى، مع أنه ادعى الألوهية لنفسه: ﴿ذَرُونِي﴾ أي: اتركوني على حالي، أنا ﴿أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: يمنعني عن قتله، أو يهلكني لأجله؛ يعني: لا أبالي به وبربه، بل ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ عليكم لو لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ وانقيادكم على سحره ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26] أي: النهب والغارة في أطراف المملكة وأكناف البلاد، وإن لم يقدر على تغيير دينكم وعقائدكم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ
(٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ
وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر: 27-29].

﴿وَ﴾ بعدما وصل إلى موسى ما قصد له العدو ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ متوكلاً على الله مفوضًا أمره إليه: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ الواحد الأحد الصمد المراقب على حفظ عباده الخُلَّص أيها المؤمنون ﴿مِّن﴾ شر ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ متناه في

الكبر والخيلاء بمقتضى أهويته الباطلة وإرادته الفاسدة؛ إذ ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27] حتى يرتدع عن أمثال هذه الجرأة على رسل الله، وخُلّص عباده، فإنه سبحانه يكفي عني مؤنة شره.

﴿وَ﴾ بعدما صمم فرعون عزمه لقتل موسى، وجزم لمقته وهلاكه ﴿قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ موحد ما كان له اعتقاد بألوهية فرعون، وإن كان ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لكن ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ منهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾ أيها المسرفون المتكبرون ﴿رَجُلًا﴾ موحدًا بمجرد ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ حقًا: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والنظير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11][1] ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة والمعجزات اللائحة مِن قِبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ في دعواه ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: وبال كذبه آيل إليه ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ﴾ ألبتة ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ بمقتضى وحي الله وإلهامه، وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿لَا يَهْدِي﴾ ويوفق على الهداية كل ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في فعله ﴿كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28] في قوله، فلا حاجة إلى قتله ودفعه؛ إذ قد يرهق عن قريب إن كان كاذبًا.

ثم ناداهم وخاطبهم مضيفًا لهم إلى نفسه إمحاضًا للنصح، واشتراكًا معهم في الوبال النازل عليهم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي: ملك العمالقة مختص لكم

---

(1) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المِثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: 60] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فقل: وما توفيقُ العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ ، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ ، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت المثل للنور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا المشكاة أمرٌ وهميٌ ليس غيرًا لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: 35]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: 35]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

اليوم بلا منازع ومخاصم، حال كونكم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ عالين غالبين ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الأَرْضِ﴾ كلها، والحمد لله والمنَّة، فلا ترتكبوا فعلاً جالبًا لغضب الله عليكم، بل اتركوا قتله، وإلَّا ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ وينقذنا ﴿مِنْ بَأْسِ اللهِ﴾ المنتقم الغيور وعذابه ﴿إِن جَاءَنَا﴾ ونزل علينا بسبب قتل الصادق الصدوق في الدعوى، المرسل من عند الله تبارك وتعالى، لو نزل بما كيف ندفعه؟.

قيل: هذا القائل المؤمن هو ابن عم فرعون، وهو عنده من المقربين.

ثم لما سمع فرعون من كلامه المشتمل على محض النصح ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معرضًا له مطرحًا إياه: ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ وأشير إليكم في رفع هذا المفسد المدعي ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ واستصوب في رأيي، واستقر عليه فكري، وهو أن يقتله ليدفع شره ﴿وَ﴾ اعملوا أيها الملأ ﴿مَا أَهْدِيكُمْ﴾ بقولي هذا، وأمري بقتله ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29] الموصل إلى نجاتكم وخلاصكم من مفاسد هذا المدعي الساحر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: 30-33].

﴿وَ﴾ بعدما أكد فرعون أمر القتل، وبالغ في تصميم العزم ﴿قَالَ﴾ الرجل ﴿الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه إظهارًا لكمال الاختصاص والشفقة: ﴿إِنِّي﴾ بمقتضى عقلي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ يومًا هائلاً شديدًا ﴿مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر: 30] الهالكين المستأصلين بحلول عذاب الله عليهم فيه؛ لأن دأبكم وديدنتكم في الخروج عن حدود الله ومقتضيات أوامره وأحكامه، والظهور على رسله وتكذيبهم إياهم.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ﴾ مثل المكذبين المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ ظهروا على رسل الله وكفروا به سبحانه ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ فلحقهم من العذاب ما لحقهم، وكذلك يحل عليكم ما حل عليهم، لو تقتفون أثرهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَ﴾ إلا ﴿مَا اللهُ﴾ العليم الحكيم ﴿يُرِيدُ ظلمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31] المتحرزين عن مطلق الجرائم والآثام المنافية للحدود الإلهية، فلا يعاقب من لا ذنب له، ولا يحل عليه عذابه.

ثم ناداهم القائل الموحد أيضًا على سبيل التأكيد والمبالغة تتميمًا لما يخفي في صدره من ترويج الحق وتقوية الرسول المرسل به، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: 32] أي: العذاب الموعود في يوم القيامة، سميت به؛ لتفرق الناس فيه وفرار كل منهم عن أبيه وأخيه وأمه وبنيه.

وأخاف أيضًا ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ وتنصرفون عن موقف العرض والحساب ﴿مُدْبِرِينَ﴾ قهقرى هاربين فارين من كثرة الآثام والجرائم الجالبة لأنواع العذاب، تخيلوا أيها المسرفون وتحروا في نفوسكم ﴿مَا لَكُم﴾ حينئذ ﴿مِّنَ﴾ غضب ﴿اللهِ﴾ ونزول عذابه عليكم ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم ويدفع عنكم عذابه ﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أن ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ﴾ المضل المغوي بمقتضى قهره وجلاله، ويحمله على ما لا ينبغي له ولا يرضى منه سبحانه، بل إنما ابتلاه وحمله عليه فتنة واختبارًا ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: 33] أي: إنه ماله هادٍ يهديه إلى ما يعينه ويليق بحاله ويرضى منه سبحانه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 34-35].

ثم قال القائل المذكور تسجيلاً على غيهم وضلالهم: ﴿وَ﴾ كيف تستبعدون نبوة هذا المدعي ورسالته من عند الله، مع أنه ليس ببدع منه، بل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي: على آبائكم وأسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب رسولاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا المدعي مؤيدًا من عنده سبحانه ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المبينة الموضحة لدعواه ورسالته ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ أي: كنتم دائمًا مستمرًا سلفًا وخلفًا ﴿فِي شَكٍّ﴾ وتردد ﴿مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ في أمر الدين وشأن التوحيد واليقين ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات يوسف عليه السلام وانقرض زمانه ﴿قُلْتُمْ﴾ من كمال تعنتكم وعنادكم على سبيل الجزم، بلا دليل وبرهان نزل عليكم عقلاً ونقلاً: ﴿لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ مع أنكم شاكون في رسالته أيضًا، بل في مطلق الرسالة والإنزال من الله الواحد القهار.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ضلالكم هذا ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾ المضل المغوي بمقتضى قهره

وجلاله جميع ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في الخروج عن مقتضى الحدود الموضوعة لحفظ القسط الإلهي والاعتدال الحقيقي ﴿مُرْتَابٌ﴾ [غافر: 34] شاك فيما يثبته البينات الواضحة والمعجزات اللائحة.

وبالجملة: المسرفون المكابرون ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيده، واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة قاطعة وبرهان واضح ﴿أَتَاهُمْ﴾ على سبيل الإلهام والوحي والبيان ﴿كَبُرَ﴾ وعظم حالهم وشأنهم هذا ﴿مَقْتًا﴾ أي: ليكون سببًا لمقتهم وهلاكهم ﴿عِندَ اللهِ﴾ أصالة ﴿وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام تبعًا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿يَطْبَعُ﴾ ويختم ﴿اللهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبِ﴾ مجبول على الشقاوة والضلال في أزل الآزال ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35] يمشي على الأرض خيلاء ويضر بأهلها، وإنما أمهله سبحانه هكذا؛ ليوفر عليه عذابه المعد لأجله، ويخلده في نار القطيعة والحرمان أبد الآباد.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر: 36-39].

﴿وَ﴾ بعدما ظهر أمر موسى وانتشر دينه بين الناس، ودعوته إلى الله الواحد الأحد الموجِد للسماوات العلا والأرضين السفلى، ومالت النفوس إليه لوضوح براهينه وسطوع معجزاته ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مدبرًا في دفع موسى، متأملاً في شأنه، مشاورًا مع وزيره آمرًا له، مناديًا إياه: ﴿يَا هَامَانُ﴾ قد وقع ما نخاف منه من قبل ﴿ابنِ لِي صَرْحًا﴾ بناء رفيعًا ظاهرًا عاليًا من جميع الأبنية والقصور ﴿لَعَلِّي﴾ بالارتقاء والعروج إليه ﴿أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر: 36] المؤيدة لأمر موسى.

يعني: ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: المؤثرات العلوية ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وأسأل منه أمره: أهو صادق في دعواه أو كاذب؟ ﴿وَإِنِّي﴾ بمقتضى عقلي وفراستي

﴿لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ ساحرًا مفتريًا على الله ترويجًا لسحره، وتقريرًا لضعفاء الأنام.

قيل: أمر ببناء رصد؛ ليطلع على قوة طالع موسى وضعفه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلما سمعت ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي: حسن الله له تدبيره الذي تأمل في دفع موسى بأمثال هذه الأفكار الفاسدة ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الموصل إلى توحيد الحق ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ ومكره الذي دبره لدفع موسى ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: 37] هلاك وخسار.

﴿وَ﴾ بعدما ألزمهم القائل بأنواع الإلزام، وأسكتهم بالدلائل القاطعة، اضطروا وتحيروا في شأن موسى ودفعه ﴿قَالَ﴾ القائل ﴿الَّذِي آمَنَ﴾ له وكتم إيمانه منهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ناداهم ليقبلوا إليه بكمال الرغبة: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ واستصوبوا رأيي واقبلوا قولي ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 38] وطريق الصدق والصواب.

﴿يَا قَوْمِ﴾ ما شأنكم وأمركم في دار الفتنة والغرور ومنزل الغفلة والثبور ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ مستعار بلا مدار واعتبار ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ﴾ المعدة لذوي البصائر وأولي الألباب ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: 39].

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر: 40-42].

واعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف أن ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في النشأة الأولى ﴿سَيِّئَةً﴾ جالبة لغضب الله، مستتبعة لعذابه ﴿فَلَا يُجْزَىٰ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بمقتضى العدل الإلهي ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ مستجلبًا لنعم الله وموائد كرمه، سواء كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بتوحيد الله مصدق برسله وكتبه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ رزقًا صوريًا ومعنويًا رغدًا واسعًا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 40] بلا تقدير وموازنة مثل أرزاق الدنيا.

﴿وَ﴾ قال القائل المذكور أيضًا على سبيل الملاينة والمجاراة في صورة

المناصحة والمقابلة، إيقاظًا لهم عن سنة الغفلة، وتتميمًا للغرض المسوق له الكلام: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِي﴾ أي: أي شيء عرض علي ولحق لي ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ أنا من كمال عطفي ومرحمتي إياكم ﴿إِلَى النَّجَاةِ﴾ من عذاب الله وحلول غضبه، وإلى دخول الجنة المشتملة على أنواع اللذات الجسمانية والروحانية المعدة لأهل التوحيد والإيمان ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 41] المعدة لأصحاب الخيبة والخذلان.

إذ ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتفرد بالألوهية والربوبية، وأنكر وجوده ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: أشرك به شيئًا لم يتعلق علمي بألوهيته وشركته مع الله لا يقينًا ولا ظنًا ووهمًا؛ إذ هو جماد ماله شعور ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزل على رسول الله المؤيد بالعقل الفطري المفاض لخواص عباده من لدنه سبحانه ﴿إِلَى الْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب في أمره بلا فتور وقصور ﴿الْغَفَّارِ﴾ [غافر: 42] الستَّار لنفوس السوى والأغيار مطلقًا.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 43-46].

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حق وثبت ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وتمدونني نحوه ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي: لا يتأتى منه الدعوة والهداية والإرشاد، ولا ﴿فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ﴾ إذ لا يتيسر للجمادات دعوة الإنسان وتكميله مطلقًا، ﴿وَ﴾ بعدما انقضى أمر آلهتكم وعدم لياقتهم بالألوهية والربوبية، ظهر ﴿أَنَّ مَرَدَّنَا﴾ ومرجعنا؛ يعني: أنا وأنتم وسائر العباد والمظاهر عمومًا ﴿إِلَى اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، بلا توهم الشركة والنزاع رجوع الأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء ﴿وَ﴾ ظهر أيضًا ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ الخائضين في توحيده سبحانه بالهذيانات التي تركبها أوهامهم وخيالاتهم، بلا تأييد من وحي إلهي وعقلي فطري ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 43] ملازموها وملاصقوها أبد الآباد.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أيها الممكورون الممقوتون حين تعاينون وتدخلون النار ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ على وجه النصح من شأن العذاب الموعود لكم في النشأة الأخرى، وبعدما سمعوا من الوعيدات الهائلة، أضمروا في نفوسهم عداوته والإنكار عليه، وقصدوا مقته ﴿وَ﴾ لما تفرس منهم السوء، قال مسترجعًا إلى الله متوكلا نحوه: ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِي﴾ أي: حفظي وحصانتي عن شروركم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المراقب على محافظة عباده المتوكلين عليه، المتوجهين نحو جنابه، يكفي بلطفه مؤنة شروركم عني وإساءتكم عليّ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر العليم ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44] الخُلَّص، وما في ضمائرهم من الإخلاص والاختصاص.

قيل: فرّ منهم إلى جبل، فأرسل فرعون جماعته لطلبه، فلحقوه وهو في الصلاة والوحوش حوله صافين حافين، يحرسون عما يضره، فلم يظفروا عليه، فرجعوا خائبين فقتلهم.

وبالجملة: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: حفظه الله الرقيب عليه من شدائد مكرهم وإساءتهم عليه ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45] النازل إليهم من عند الله العزيز الغيور.

وهي: ﴿النَّارُ﴾ لتعذيب أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية، ولهذا ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: فرعون وآله على النار حال كونهم في برزخ القبر ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ دائمًا في جميع الأزمان قبل انقراض النشأة الأولى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يحشرون من قبورهم صرعى مبهوتين، قيل لهم من قِبل الحق بلا كشف وتفتش عن حالهم: ﴿أَدْخِلُوا﴾ يا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46] أي: أفزعه وأخلده، أو قيل للملائكة الموكلين عليهم لتعذيبهم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وأسوأ النكال والوبال، وهو تخليدهم في نار القطيعة على القراءتين.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: 47-52].

ثم قال سبحانه: ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت ﴿إِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ ويتخاصمون؛ أي: أصحاب النار ﴿فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ منهم؛ أي: الأتباع والأرذال ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: لدى رؤسائهم ومتبوعيهم المستكبرين عليهم، المستتبعين لهم في النشأة الأولى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، بل أنتم أضللتمونا عن متابعة الرسل والهادين ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُّغْنُونَ﴾ دافعون مانعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءًا أو شيئًا، قد صار حظنا ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: 47] النازلة علينا بسبب اتباعنا إياكم، واقتفائنا أثركم، وتديننا بدينكم وخصلتكم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: الرؤساء المتبوعين ﴿إِنَّا﴾ نحن وأنتم ﴿كُلٌّ﴾ منَّا معذبون ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار، لا يسع أحد منَّا ومنكم، ليدفع شيئًا منها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ﴾ عموم ﴿الْعِبَادِ﴾ [غافر: 48] بأن أدخل بعضًا منهم في الجنة بفضله، وبعضًا في النار بعدله، ولا معقب لحكمه، وهو شديد المحال.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لأصحاب العبرة ما ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ كفروا حال كونهم ﴿فِي النَّارِ﴾ محزونين متضرعين ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهي أعمق أماكن النار وأغورها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أيها الخزنة حسبة لله، واستشفعوا منها سبحانه لأجلنا، وإن لم يغفر لنا، ولم يعفُ عن جرائمنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم واحد ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 49] الدائم المستمر حتى نتنفس فيه ونستريح.

﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة في جوابهم تهكمًا وتوبيخًا على سبيل التجاهل: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ﴾ أيها الحمقى الهالكون في تيه البعد والضلال ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ المبعوثون إليكم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على قبول الإنذارات الصادرة من الله أصالة ومنهم تبعًا، وبعدما سمعوا من الخزنة ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متأوهين متحسرين: ﴿بَلَى﴾ قد جاءنا نذير فكذبنا، وقلنا: ما نزل الله من شيء ﴿قَالُوا﴾ أي: الخزنة بعدما سمعوا منهم ما سمعوا: إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴿فَادْعُوا﴾ على حالكم بلا استشفاع منَّا؛ إذ نحن لا نجترئ بالشفاعة عنده، والاستغفار منه سبحانه لأمثالكم؛ إذ لا يقبل الدعاء منَّا ومنكم في أمثال

هذه الجرائم الكبيرة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ﴾ المصرين على كفرهم في النشأة الأولى التي هي دار الاختبار؛ لاستخلاصهم في النشأة الأخرى التي هي دار القرار ﴿إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: 50] ضياع وخسار، لا يسمع من أحد أمثال هذا الدعاء، ولا يُجاب له.

ثم قال سبحانه وعدًا للمؤمنين وحثًا لهم على تصديق رسل الله وكتبه: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿لَنَنصُرُ﴾ ونعاون ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين هم حملة وحينا، وحفظة ديننا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لهم، واسترشدوا منهم طريق الهداية، واجتنبوا بسببهم عن الغي والضلال ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الفتن والاختبارات الإلهية، بتوفيقهم على العمل الصالح، وردعهم عن المفاسد والمنكرات، وننصرهم أيضًا نصرة تامة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51] أي: يوم القيامة التي تقوم فيها الشهود والعدول من الملائكة والنبيين والمؤمنين لنصرة المؤمنين ومقت الكافرين.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية في نشأة الدنيا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ التي آتوا بها يومئذ؛ إذ قد انقضى حينئذ وقت التلافي والتدارك، ومضى زمان الاختبار، بل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطرد والتبعيد عن ساحة عز الحضور ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضًا ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 52] المعدة لأصحاب الخسار والبوار، وهي جهنم البعد والخذلان، أعاذنا الله منها.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر: 53-56].

ثم قال سبحانه تسلية لحبيبه، وتوطينًا له على تحمل أعباء الرسالة الجالبة لأنواع المكروهات من النفوس المجبولة على الشقاوة والضلال والتبصر على أذياتهم: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من كمال فضلنا وجودنا أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم ﴿الهُدَى﴾ أي: الشرائع والمعجزات الدالة على كمال الهداية والإرشاد إلى سبيل الرشاد والسداد ﴿وَ﴾ بعد

انقراض موسى ﴿أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: 53] أي: التوراة المنزلة عليه.

وأبقيناها بينهم؛ لتكون ﴿هُدًى﴾ هاديًا إلى ما هداهم موسى من الأمور الدينية ﴿وَذِكْرَى﴾ أي: عظة وتذكيرًا يتذكرون به إلى ما يرومون من المقاصد الدينية والمعالم اليقينية، لا لكل أحدٍ من العوام، بل ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: 54] الألباء المستكشفين عن سائر الأمور الدينية بمقتضى العقول المستقيمة المفاضة لهم من المبدأ الفياض.

ومع ذلك سمعت يا أكمل الرسل قصص أولئك الهالكين في تيه العتو والعناد، وما جرى بينهم وبين الرسل المبعوثين إليهم من التحارب، والتنازع المفضي إلى أذى الأنبياء العظام والرسل الكرام، فصبروا على أذاهم إلى أن ظفروا عليهم بنصر الله إياهم وإعلاء دينه المنزل عليهم من عنده سبحانه.

﴿فَاصْبِرْ﴾ أنت أيضًا يا أكملَ الرسل على ما أصابك من أذيات هؤلاء الجهلة المستكبرين المعاندين معك، وانتظر إلى ما وعدك الحق من النصر والظفر وإعلاء دين الإسلام، وإظهاره على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ العليم القدير الحكيم الخبير ﴿حَقٌّ﴾ ثابت محقق إنجازه ووفاؤه، إلا أنه مرهون بوقته، فسينصرك ويغلبك على أعدائك عن قريب، ويبقي آثار هدايتك وإرشادك بين أوليائك إلى النشأة الأخرى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: اشتغل في عموم أوقاتك بالاستغفار لفرطاتك؛ ليكون استغفارك هذا سنة سنية منك لأمتك ﴿وَسَبِّحْ﴾ أيضًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك؛ إذ كل نفس من أنفاسك يستلزم شكرًا منك، سيما ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55] أي: في أول النهار وأواخره؛ إذ هما وقتان خاليان عن تزاحم الأشغال وتفاقم الآمال، وبالجملة: كن مع ربك في جميع أحوالك وأطوارك، يكفي مؤنة جميع من عاداك وعاندك.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المشركين المعاندين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويخاصمون معك يا أكمل الرسل ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة عليك لتأييد دينك وشأنك على سبيل المكابرة والعناد ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿أَتَاهُمْ﴾ وفاض عليهم من ربهم على طريق الوحي والإلهام ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي: ما في صدورهم وضمائرهم شيء يبعثهم على المجادلة ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ وخيلاء مركوز في جبلتهم، تقية لثروتهم ورئاستهم على زعمهم الفاسد، مع أنه ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ على مقتضى ما جبلوا في نفوسهم؛ إذ هم سيغلبون عن قريب في هذه النشأة الأولى، ويحشرون إلى جهنم البعد والخذلان في

الأخرى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ القوي القادر، والتجئ إليه سبحانه عن غدر كل غادر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56] بنياتهم وأفعالهم، يكفيك مؤنة ما يقصدون عليك بمقتضى آرائهم الباطلة.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: 57-60].

ومن أعظم ما يجادلون فيه أولئك المكابرون أمر الساعة والمعاد الجسماني، وبعث الموتى من قبورهم وحشرهم إلى المحشر، والله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إظهار العلويات والسفليات من كتم العدم على سبيل الإبداع في النشأة الأولى ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وإعادتهم أحياء في النشأة الأخرى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57] قدرة الحق واقتداره على جميع ما دخل في حيطة علمه الشامل، وإرادته الكاملة؛ لقصور نظرهم عن إدراك الحق وصفاته ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت طبقات عباده في العلم بالله والجهل به وبصفاته، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ الغافل عن ظهور ذات الحق ومقتضيات أوصافه العظمى وأسمائه الحسنى ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ العرف الكاشف بوحدة الحق، وظهوره سبحانه على هياكل جميع ما ظهر وبطن سبحانه حسب أسمائه وشئونه الذاتية ﴿وَ﴾ لا المصلحون المحسنون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واعتقدوا بتوحيده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقبولة عنده سبحانه من الأعمال والأفعال المترتبة على الإيمان واليقين ﴿وَلاَ الْمُسِيءُ﴾ أي: المسيئون الأدب مع الله، وهم الكفرة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يتصفون بتوحيده، بل يستروحون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتهم الباطلة، وأظلال أنانياتهم الزائلة المضمونة في شمس الذات؛ لذلك عملوا عملاً سيئًا بمقتضى ما تهويه نفوسهم الخبيثة وأخلاقهم السخيفة، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: 58] أي: ما تتذكرون

وتفطنون على عدم المساواة إلا تذكرًا قليلاً؛ لذلك تنكرون البعث والحشر.

وكيف تنكرونه؟! ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة على ألسنة عموم الأنبياء والرسل ﴿لَآتِيَةٌ﴾ ألبتة؛ بحيث ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها ووقوعها بوضوح الدلائل العقلية الدالة على إمكان إعادة المعدوم، مع أنها مديدة بالوحي والإلهام على عموم الأنبياء والرسل الكرام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: 59] بها، ولا يصدقون وقوعها وقيامها؛ لانحطاطهم عن مرتبة الخلافة المترتبة على فطرة التوحيد واليقين.

﴿وَ﴾ بعدما أشار سبحانه إلى مرتبة كلا الفريقين الموحد والمشرك، أشار إلى أن من توجه نحوه متحننًا، وقصد تجاه توحيده مجتهدًا، ودعا إليه متضرعًا، أجاب له وأنجح مطلوبه؛ حيث ﴿قَالَ رَبُّكُمُ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والعرفان: ﴿ادْعُونِي﴾ أيها المكلفون بمقتضى العقل المفاض حق دعوتي، وتوجهوا إلي مخلصين بلا رؤية الأسباب والوسائل في البين ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعوتكم، وأوصلكم إلى مقصدكم ومقصودكم الذي هو توحيد الذات، فعليكم ألَّا تستكبروا عن عبادتي وإطاعتي، وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويستكنفون ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ بمقتضى آرائهم الباطلة وأهوائهم الفاسدة ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمَ﴾ الحرمان والخذلان ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] صاغرين ذليلين مهانين.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر: 61-65].

وكيف يستنكفون ويستكبرون عن عبادة الفاعل على الإطلاق، والمنعم بالاستقلال والاستحقاق مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتصف بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ مظلمًا باردًا ﴿لِتَسْكُنُوا﴾

وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ بلا ضرر وإضرار ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[1] لتكتسبوا فيه معايشكم، وتجمعوا حوائجكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنعم المكرم على عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم وكرامة كاملة شاملة ﴿عَلَى﴾ عموم ﴿النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على النسيان والكفران ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: 61] نعمه، ولا يواظبون على أداء حقوق كرمه، جهلاً منهم بالله، وعنادًا مع رسله الهادين إليه.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ الذي أفاض عليكم موائد بره وإحسانه، وأظهر عليكم مقتضيات ألوهيته وربوبيته ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم، بعدما أوجدكم من كتم العدم؛ إذ هو ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم إظهارًا إبداعيًا بمقتضى اختياره واستقلاله، فلكم أن تتوجهوا إليه وتتحنثوا نحوه مخلصين؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ يعبد له بالاستحقاق، ويرجع إليه في الخطوب على الإطلاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الذات الواحدة الموصوفة بالصفات الكاملة، المربية لجميع ما في الكون من العكوس والأظلال المنعكسة منها ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: 62] وتنصرفون عن عبادته أيها الأفكون المنصرفون؟!.

فأين تذهبون من بابه أيها الذاهبون الجاهلون، ما لكم كيف تحكمون أيها الضالون المحرومون؟! ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما سمعت من المجادلة والمكابرة بلا برهان واضح وبيان لائح ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف عن طريق الحق عموم المسرفين ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: 63] وينكرون بلا تأمل وتدبر؛ لينكشف لهم ما فيها من المعارف والحقائق المودعة فيها، فكيف تجحدون بآيات الحكيم العليم أيها الجاحدون الجاهلون، مع أنه سبحانه هو المتفرد بالألوهية والربوبية؟!.

إذ ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿قَرَارًا﴾ تستقرون عليها بمقتضى هويتكم ﴿وَ﴾ رفع لكم ﴿السَّمَاءَ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿بِنَاءً﴾ أي: سقفًا محفوظًا رفيعًا، تستفيضون منها الكمالات

---

(1) منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته «تفسير السعدي» (741/1).

اللائقة لاستعداداتكم وقابلياتكم الموهوبة لكم من عنده ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ من آباء العلويات وأمهات السفليات ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأن خلقكم على أعدل الأمزجة وأحسن التقويم؛ لتكونوا قابلين لائقين لخلافة الحق ونيابته.

﴿وَ﴾ بعدما صوركم فأحسن صوركم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الصورية والمعنوية تقوية وتقويمًا لأشباحكم وأرواحكم ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ الذي سمعتم نبذًا من أوصافه الكاملة ونعمه الشاملة ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم بمقتضى لطفه، فأنّى تصرفون عنه وعن توحيده وعبادته أيها المسرفون الضالون، مع ألّا رب لكم سواه؟! ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، العلي بذاته، الجلي بحسب أسمائه وصفاته ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64] على الإطلاق بالاستقلال والاستحقاق لا يعرضه زوال، ولا يطرأ له انقراض وانتقال.

بل ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الأزلي الأبدي الدائم، المستغني عن مقدار الزمان ومكيال المكان مطلقًا ﴿لَا إِلَهَ﴾ في الوجود سواه، ولا موجود يعبد بالحق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وبعدما سمعتم أيها المكلفون خواص أسمائه وصفاته سبحانه ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ واعبدوه مخصصين ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العبادة والانقياد؛ إذ لا مستحق للإطاعة والعبادة سواه، وبعدما رجعتم نحوه مخلصين، وعبدتم له مخصصين، قولوا بلسان الجمع: ﴿الْحَمْدُ﴾ المستوعب لجميع المحامد الناشئة من ألسنة عموم المظاهر ثابت ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 65] لانفراده في الألوهية، واستقلاله في الربوبية بلا توهم الشركة والمظاهرة.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: 66-68].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لعموم المشركين على وجه التنبيه والإرشاد، بعدما وضح أمر التوحيد، واتضح سبيل الهداية والرشاد: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ من قِبل ربي الذي سمعتم استقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ وأنقاد الآلهة الباطلة ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم

﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الفريد في الألوهية، الوحيد بالربوبية ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: حين نزل علي الآيات المبينة الموضحة ﴿مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ﴾ أيضًا من لدنه سبحانه ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ أي: أعبد وأنقاد على وجه الإخلاص والاختصاص، بلا رؤية الوسائل والأسباب ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66] إذ هو سبحانه منزه عن التعدد والتكثر مطلقًا، ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات.

وكيف لا يعبدونه سبحانه، ولا ينقادون إليه بتوحده مع أنه ﴿هُوَ﴾ الخالق المصور ﴿الَّذِي خَلَقَكُم﴾ قدر صوركم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ مسترذل إظهارًا لقدرته الغالبة الكاملة ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة مستحدثة من التراب ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ خبيثة متكونة من النطفة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ كائنًا من أجزاء العلقة، والروح المنفوخ فيها من لدنه سبحانه.

﴿ثُمَّ﴾ يربيكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كمال قوتكم وحولكم نظرًا وعملاً ﴿ثُمَّ﴾ أمهلكم وأعمركم زمانًا ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ منحطين منسلخين عن كلتا القوتين معًا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ ويموت ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل بلوغه إلى أشده أو شيخوخته ﴿وَ﴾ إنما فعل سبحانه كل ما فعل من الأطوار المتعاقبة ﴿لِتَبْلُغُوا أَجَلاً﴾ معينًا مقدرًا ﴿مُّسَمًّى﴾ عنده بلا اطلاع أحد عليه؛ لقبضكم نحوه ورجوعكم إليه ﴿وَ﴾ الحكمة الباعثة على جميع ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: 67] وتفهمون أن مبدأكم ومنشأكم منه، ومعادكم إليه، فتعبدونه حق عبادته كي تعرفوه حق معرفته.

وكيف لا تعبدونه سبحانه، ولا تعرفونه أيها العقلاء المجبولون على فطرة الدراية والشعور مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ بامتداد أظلال أسمائه كل ما لاح عليه شمس وجوده ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقبض تلك الأظلال بالإرادة والاختيار، وبالجملة: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي: تعلقت إرادته ومشيته بإحداث ما ظهر في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ بعد تعلق مشيته: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68] بلا تراخ وتعاقب، مفهوم من منطوق هذا الكلام على ما هو المتبادر من أمثاله، بل كل ما لمع عليه برق إرادته، وصدر منه سبحانه ما يدل على نفوذ قضائه يكون المقضي؛ بحيث لا يسع بين القضاء والمقضي توهم المهلة والتراخي والترتيب أصلاً.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِالْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾
ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ
فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر: 69-77].

ومع سرعة نفوذ قضاء الله، وظهور هذه الآثار العظيمة من قدرته الكاملة على الوجه المذكور ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويكابرون ﴿فِي آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على كمال علمه وقدرته، ومتانة حكمه وحكمته ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: 69] أي: إلى أين ينصرفون عن عبادته، ويعرضون عن ساحة عز الوحدة الذاتية؟.

سيما إلى المكابرين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآن الجامع الكامل المنزل عليك يا أكمل الرسل ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا﴾ أي: بجميع ما أرسلنا ﴿بِهِ رُسُلَنَا﴾ الذين مضوا من قبلك من الكتب والصحف المنزلة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 70] وبال جدالهم وتكذيبهم في النشأة الأخرى.

وقت ﴿إِذِ﴾ تكون ﴿الأَغْلالُ﴾ الثقيلة معقودة ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ بسبب انصرافهم عن آيات الله، وعدم التفاتهم إلى رسله الحاملين ﴿وَالسَّلاسِلُ﴾ في أيديهم وأرجلهم؛ لعظم جرائمهم وآثامهم الباعثة على أخذهم ومقتهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: 71] ويجرون على وجوههم، ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ أي: الجحيم إلى ما شاء الله تفضيحًا لهم ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ﴾ المسعرة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: 72] [1] يوقدون، ويطرحون فيها طرح الحطب

(1) وقوله:(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ) وهذا تهديد من الله المشركين به؛ يقول جلّ ثناؤه: فسوف يعلم هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، المكذبون بالكتاب حقيقة ما تخبرهم به يا محمد، وصحة ما هم به اليوم مكذّبون من هذا الكتاب، حين تجعل الأغلال والسلاسل فيْ أعناقهم في جهنم. وقرأت قراءة الأمصار: والسلاسل، برفعها عطفا بها على الأغلال على المعنى الذي بينت. وذُكر عن ابن عباس أنه كان يقرؤه"والسَّلاسِلَ يُسْحَبونَ" -

الوقود للنار.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من قبل الحق توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر: 73] أي: أين أصنامكم وأوثانكم، وعموم معبوداتكم التي ادعيتم شركتها مع الله في الألوهية، وسميتموهم آلهة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لم لا تنقذكم من عذاب الله، ولم لا يشفعون لكم عنده سبحانه بمقتضى ما زعمتم في شأنكم؟.

وبعدما سمعوا ما سمعوا من التوبيخ والتقريع ﴿قَالُوا﴾ متحسرين متأوهين: ﴿ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنَّا﴾ آلهتنا وشفعاؤنا التي كنا ندعو إليهم ونستشفع منهم ﴿بَل﴾ قد ظهر اليوم أنَّا ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ﴾ في النشأة الأولى شيئًا ينفعنا، ويدفع عنَّا من غضب الله ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ المنتقم المضل ﴿الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: 74] الضالين؛ حيث لا ينكشفون بضلالهم إلا وقت حلول العذاب والوبال عليهم.

ثم قيل لهم مبالغة في توبيخهم وتعييرهم: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: إضلال الله إياكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وتمشون عليها خيلاء بطرين مسرورين، مستكبرين عن قبول آيات الله المنزلة على رسله، مكذبين لهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بلا دليل عقلي قطعي، أو سمعي إقناعي، أو ظني، بل بمجرد الوهم الناشئ من كبركم وخيلائكم

بنصب السلاسل في الحميم. وقد حكي أيضا عنه أنه كان يقول: إنما هو وهم في السلاسل يسحبون، ولا يجيز أهل العلم بالعربية خفض الاسم والخافض مضمر. وكان بعضهم يقول في ذلك: لو أن متوهما قال: إنما المعنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلال يسحون. حاز الخفض في السلاسل على هذا المذهب، وقال: مثله، مما رد إلى المعنى. قول الشاعر: قَدْ سَالَمَ الحَيَّاتُ مِنْهُ القَدَمَا... الأفْعُوَانَ والشُّجاعَ الأرْقَما، فنصب الشُّجاع والحيات قبل ذلك مرفوعة، لأن المعنى: قد سالمت رجله الحيات وسالمتها، فلما احتاج إلى نصب القافية، جعل الفعل من القدم واقعا على الحيات، والصواب من القراءة عندنا في ذلك ما عليه قراء الأمصار، لإجماع الحجة عليه، وهو رفع السلاسل عطفا بها على ما في قوله:(فِي أَعْنَاقِهِمْ) من ذكر الأغلال، وقوله:(يُسْحَبُونَ) يقول: يسحب هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا بالكتاب زبانية العذاب يوم القيامة في الحميم، وهو ما قد انتهى حرّه، وبلغ غايته، وقوله (ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) يقول: ثم في نار جهنم يحرقون، يقول: تسجر بها جهنم: أي توقد بهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، عن مجاهد، في قوله: (يُسْجَرُونَ) قال: يوقد بهم النار، حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي(ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) قال: يحرقون في النار؛ قال ابن زيد: يسجرون في النار: يوقد عليهم فيها. «تفسير الطبري» (21/415 - 416).

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: 75] أي: تتوسعون، وتتوفرون على أنفسكم الفرح والسرور بمخالفتكم حدود الله وسنن أنبيائه ورسله عنادًا ومكابرة.

ثم قيل لهم بعد تفضيحهم على رءوس الأشهاد: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها المسرفون الضالون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ المعدة لكم بدل ما فوّتم على نفوسكم من الدرجات العلية الجنانية، وكونوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبد الآباد ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: 76] ومأواهم جهنم البعد والخذلان، وجحيم الطرد والحرمان، أعاذنا الله وعموم المؤمنين.

وبعدما ظهر واتضح مآل حال الكفرة المستكبرين وعاقبة أمرهم ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذاهم، وانتظر إلى هلاكهم الموعود، وثق بالله في إنجاز وعده ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ القدير الحكيم بإهلاك المشركين المكذبين المسرفين ﴿حَقٌّ﴾ ثابت محقق ثبوته ألبتة، بلا خلف منه سبحانه؛ إذ الله لا يخلف الميعاد مطلقًا، إلا أن وعده سبحانه مرهون بأجل مقدر عنده.

ولا تحزن من تأخير الموعود، ولا تعجل لحلول الأجل المعهود ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: فإن نُرِكَ ونُبصرك، زيدت «ما» في أول الفعل، والنون في آخره للتأكيد والمبالغة ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من القتل والسبي والجلاء، فذاك تحقق وعدنا إياك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ونميتنك قبل حلول أجل إهلاكهم وتعذيبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: 77] أي: لا تحزن من تأخير الموعود، وبعد توفيك أيضًا؛ إذ نحن نعذبهم، وننتقم عنهم بعد رجوعهم إلينا في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى وآلافها.

وبالجملة: بعدما وعدنا لهم العذاب بانحرافهم عن سبيل الرشاد، مصرين على المكابرة والعناد، أنجزنا الموعود ألبتة سواء كان عاجلاً أم آجلاً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: 78-81].

﴿وَ﴾ ليس لك أن تتعب نفسك بتعجيل العذاب عليهم قبل حلول الأجل المقدر من عندنا؛ إذ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿رُسُلاً﴾ كثيرًا ﴿مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ قصتهم ﴿عَلَيْكَ﴾ في كتابك ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ولم نذكر قصتهم في كتابك؛ إذ ما يعلم جنود ربك وما جرى عليهم إلا هو.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل ﴿أَن يَأْتِيَ﴾ ويعجل ﴿بِآيَةٍ﴾ مقترحة أو غير مقترحة من تلقاء نفسه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ وبمقتضى مشيئته وإرادته سبحانه، بل أن ينتظر الوقت الذي عين سبحانه ظهورها فيه؛ إذ جميع الآيات والمعجزات موهوبة لله، مقسومة بين أنبيائه ورسله بمقتضى قسمته سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لا يسع لأحد منهم أن يعجل بها، أو يؤخر عن وقتها، بل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ العليم الحكيم بتعذيب المشركين وإثابة الموحدين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ جميع المقتضيات الإلهية، سواء كانت من العقوبات والمثوبات ﴿وَ﴾ كما ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: عند وقوع المقضي وظهوره ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78] المستوجبون لأنواع العذاب والنكال، وربح حينئذ المستحقون لأصناف المثوبات واللذات الروحانية.

وكيف لا يكون مقاليد الأمور بيد الله وقبضته وقدرته؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المتفرد بالألوهية والربوبية هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ مسخرة مقهورة لكم، محكومة تحت أمركم وحكمكم ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ما يليق بركوبكم تتميمًا لتربيتكم وحضوركم ﴿وَ﴾ جعل لكم أيضًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من النعام ﴿مَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: 79] لتقويم المزاج وتقوية البدن.

﴿وَ﴾ جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أيضًا ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة كالألبان والصواف والأشعار والأوبار، وغير ذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ أي: لتصلوا، وتنالوا بالحمل والركوب ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام ﴿حَاجَةً﴾ مطلوبة لكم مركوزة ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ ونفوسكم، ولولا ركوبكم وحملكم عليها، لم تصلوا إليها إلا بشق النفس ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: 80] يعني: سهل عليكم سبحانه أمور معاشكم في إقامتكم وأسفاركم تتميمًا لتربيتكم وحفظكم؛ لتواظبوا على شكر نعمه، وتلازموا لعبادته وعبوديته بالتبتل والإخلاص التام.

﴿وَ﴾ بهذا ﴿يُرِيكُمْ﴾ أيها المغمورون المستغرقون في بحار أفضاله وجوده ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وجوب وجوده، ووحدة ذاته واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه حسب أسمائه وصفاته ﴿فَأَيَّ﴾ آية من ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على كمال ألوهيته

وربوبيته ﴿تُنكِرُونَ﴾ [غافر: 81] أيها المسرفون المشركون.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: 82-85].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أينكر المشركون المصرون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية كمال قدرته سبحانه على أنواع الانتقام والعذاب، فلم يسيروا في الأرض التي هي محل الكون والفساد ﴿فَيَنظُرُوا﴾ عليها معتبرين من البلاقع والخربة والأطلال المندرسة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم الهالكة المسرفة ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مع أنهم ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عددًا وعددًا ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: بسطة واستيلاء ﴿وَ﴾ أحكم ﴿آثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أبنية وقصورًا وقلاعًا وحصونًا مشيدة مرفوعة، ومع ذلك ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ وأدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: 82] عليها من الأمور المذكورة شيئًا من غضب الله وعذابه، بل لحقهم ما لحقهم من العذاب، بحيث لا شعور لهم بأماراته ومقدماته فاستأصلهم بالمرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فهم في العتو والعناد كانوا كأمثال هؤلاء المسرفين، لما جاءهم رسلهم المبعوثون إليهم بالمعجزات والآيات الواضحات، المبينة لطريق الحق، لم يلتفتوا ولم يلقوا أسماعهم نحوها تعنتًا واستكبارًا، بل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ أي: الجهل المركب المركوز في طباعهم من تقليد آبائهم على أوجه الإصرار، بلا التفات منهم إلى ما ظهر من الوحي الإلهي المنزل على رسلهم، بل كذبوهم واستهزءوا معهم ﴿وَ﴾ لهذا ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ وبال ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: 83] حين دعوة الرسل وإرشادهم إلى طريق الحق بأنواع الوعد والوعيد، وكانوا على ما هم عليه من العناد مصرين مستكبرين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا وبطشنا حلَّ عليهم ﴿قَالُوا﴾ متذكرين دعوة رسلهم

متحسرين على ما فوّتوا على أنفسهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ على الوجه الذي هدانا إليه رسله ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: 84] من الأصنام والأوثان، وسائر ما عبدنا من دونه سبحانه.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ إذ حينئذ قد انقضى زمان التدارك والتلافي، وبالجملة: قد كانت هذه الديدنة المستمرة ﴿سُنَّتَ اللهِ﴾ العليم الحكيم ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ المستكبرين عن إطاعته وانقياده حين دعوة الرسل وإرشادهم ﴿وَ﴾ بعد حلول أوان اليأس ونزول العذاب ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: عنده ﴿الكَافِرُونَ﴾ [غافر: 85] [1] المصرون على الإنكار والاستهزاء خسرانًا عظيمًا في

(1) فلما رأوا بأسنا شدة عذابنا ومنه قوله تعالى: بعذاب بئيس قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين يعنون الأصنام أو سائر آلهتهم الباطلة: فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أي عند رؤية عذابنا لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا يقبل مثل ذلك الإيمان وإيمانهم رفع بيك أسما لها أو فاعل ينفعهم وفي يك ضمير الشأن على الخلاف الذي في كان يقوم زيد ودخل حرف النفي على الكون لا على النفع لإفادة معنى نفي الصحة فكأنه لم يصح ولم يستقم حكمة نفع إيمانهم إياهم عند رؤية العذاب وههنا أربعة فاءات فاء فما أغنى وفاء فلما جاءتهم وفاء فلما رأوا وفاء فلم يك فالفاء الأولى مثلها في نحو قولك: رزق المال فمنع المعروف فما بعدها نتيجة مآلية لما كانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد والتمتع بالحصون ونحوها والثانية تفسيرية مثلها في قولك: فلم يحسن إلى الفقراء بعد فمنع المعروف في المثال فما بعدها إلى قوله تعالى: (وحاق بهم) إيضاح لذلك المجمل وأنه كيف انتهى بهم الأمر إلى عكس ما أملوه وأنهم كيف جمعوا واحتشدوا وأوسعوا في إطفاء نور الله وكيف حاق المكر السيء بأهله إذ كان في قوله سبحانه: فما أغنى عنهم إيماء بأنهم زاولوا أن يجعلوا مغنية والثالثة للتعقيب وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا عقيبه فلما رأوا بأسنا مترتب على قوله تعالى: (فلما جاءتهم) إلخ تابع له لأنه بمنزلة فكفروا إلا أن فلما جاءتهم الآية بيان كفر مفصل مشتمل على سوء معاملتهم وكفرانهم بنعمة الله تعالى العظمى من الكتاب والرسول فكأنه قيل: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ومثلها الفاء الرابعة فما بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل: فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الإختيار سنت الله التي قد خلت في عباده أي سن الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في العباد وهي من المصادر المؤكدة كوعد الله وصبغة الله وجوز انتصابها على التحذير أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل (وخسر هنا لك الكافرون) أي وقت رؤيتهم في البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا وهذا الحكم خاص بإيمان البأس وأما توبة البأس فهي مقبولة نافعة بفضل الله تعالى وكرمه والفرق ظاهر، وعن بعض الأكابر أن إيمان البأس مقبول أيضا ومعنى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أن نفس

الدنيا، وفي الآخرة أعظم منه وأدوم، أعاذنا الله وعموم عباده المؤمنين من بأسه وبطشه بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد نحو الحق المتوجه إلى توحيده - وفقك الله على إنجاح مهامك، وأوصلك إلى منتهى مقصدك ومرامك - أن تكون على خبرة كاملة من آيات الله النازلة من عنده سبحانه؛ لإهداء عباده التائهين في فضاء وجوده، وعبرة تامة سريان وحدته الذاتية على عموم هياكل ما لمع عليه بروق تجلياته الجمالية والجلالية المتنشئة من ذاته حسب شئونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى.

فلك ألَّا تغفل في عموم أحوالك عن مطالعة جمال الله وجلاله في كل ذرة من ذرائر الأكوان على وجه الاستبصار والاعتبار، بلا شائبة شك وإنكار وتردد واستكبار؛ لئلا تلحق بالأخسرين الذين يؤمنون بالله وتوحيده، حين لم يكُ ينفعهم إيمانهم؛ لانقضاء نشأة التلافي والاختبار، وذلك حين يعرضون على الملك الجبار، ويساقون إلى النار بأنواع الخسار والبوار.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وقنًا عذاب النار.

إيمانهم لم ينفعهم وإنما نفعهم الله تعالى حقيقة به ولا يخفى عليك حال هذا التأويل وما كان من ذلك القبيل والله تعالى أعلم. «روح المعاني» (24/92 - 93).

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة فصلت

لا يخفى على المستبصرين المستكشفين عن سرائر الكتب الإلهية، وأسرار الآيات المنزلة من عنده سبحانه على رسله وأنبيائه المؤيدين من لدنه بتكميل مرتبتي الولاية والنبوة المتفرعة على اسم الظاهر والباطن والأول والآخر، أن سر الإنزال والإرسال الذي جرت عليه السنة السنية الإلهية، واقتضت حكمته البالغة العلية وعلمه الشامل ورحمته الواسعة، إنما هو لتنبيه أهل الحيرة والضلال من المترددين في فضاء الوجود، بلا شعور منهم إلى مبدئهم ومعادهم؛ لاحتجابهم بالقرب المفرط المعمي عيون بصائرهم وقلوبهم، ليتفطن منهم ويتذكر بها من كان له قلب يقلبه الرحمن بأصابع أسمائه وصفاته كيف يشاء، أو ألقى السمع، وهو وإن كان محجوبًا لهويته، شهيد حاضر القلب غير مغيّب من الله وآثار ألوهيته وربوبيته؛ ليفنى كل من سمع وتذكر عن هويته الباطلة، ويبقى بهوية الله الغير الزائلة.

ولهذا خاطب سبحانه حبيبه، ورمز في خطابه بعدما تيمن بأمهات أسمائه التي هي مقاليد كنوز الوجود، ومفاتيح خزائن الفيض والجود فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور عموم مظاهره بمقتضى استعداداتها الفائضة عليها حسب جوده ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليها بإخراجها عن مكمن العدم إلى فضاء الوجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده إيصالهم إلى الحوض المورود والمقام المحمود.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ
أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ
۝٥﴾ [فصلت: 1-5].

﴿حم﴾ [فصلت: 1] يا حافظ وحي الله، المؤيَّد من عنده لحفظ حدوده بمقتضى

أوامره ونواهيه، هذا القرآن الجامع لمصالح عموم المظاهر والأكوان[1].

﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من الذات الأحدية بمقتضى اسم الرحمن المستوي به على عروش عموم الأكوان؛ لإصلاح حال كل ما لاح عليه شمس ذاته تتميمًا لتربيته إياه؛ إذ ما من رطب ولا يابس إلا وهو سبحانه مشتمل عليه ومتكفل لتربيته وتدبيره ﴿الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: 2] بإنزاله لخواص عباده؛ ليتنبهوا من رموزه وإشاراته إلى وحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته.

وإنما صار القرآن جامعًا بين مرتبتي الظاهر والباطن والأول والآخر؛ لأنه ﴿كِتَابٌ﴾ شامل كامل ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُينت وأوضحت ﴿آيَاتُهُ﴾ المشتملة على دلائل التوحيد بشواهد القصص والأحكام، ومنبهات العز والحكم، ومحاسن الأخلاق والأعمال، ومقابيح المناهي من الأفعال والأحوال في النشأة الأولى والأخرى، ولهذا صار ﴿قُرْآنًا﴾ فرقانًا واضحًا تبيانًا ﴿عَرَبِيًّا﴾ بيانًا؛ إذ لا لغة أحسن منه وأشمل وأفضل وأكمل، وإنما فصلت وأوضحت ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 3] أي: يوفقون من لدنه سبحانه على العلم اللدني والفطرة الأصلية التي هي المعرفة والتوحيد.

ولهذا صار ﴿بَشِيرًا﴾ يبشر أهل العناية والسعادة والفوز العظيم الذي هو يحققهم بمقام الرضا والتسليم ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر أصحاب الشقاوة والحرمان عن خلود النيران والعذاب الأليم، ومع علو شأنه ووضوح تبيانه وبرهانه.

﴿فَأَعْرَضَ﴾ عنه، وانصرف عن قبوله وسماعه سمع تدبر وتأمل ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المكلفين المأمورين من عنده سبحانه بامتثال ما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، وباتصاف بما ذكر فيه من الأخلاق والأعمال، وما رمز إليه من المعارف والأحوال ﴿فَهُمْ﴾ من شدة قساوتهم وغفلتهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: 4] ولا يلتفتون نحوه عتوًا وعنادًا، فكيف عن فحصه وقبوله، ودراية ما فيه من الرموز والإشارات.

﴿وَ﴾ من غاية عمههم وسكرتهم، ونهاية عتوهم، وإعراضهم عن استماع كلمة الحق والالتفات إليه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والتسخر: ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي في وعاء

---

(1) معنى الحاء والميم أن هذا الخطاب وهذا التنزيل من الحبيب الأعظم إلى المحبوب الأعظم، وأيضًا هو قسمٌ أي: بحياتي ومجدي هذا التنزيل نزل من عين الرحمانية الرحيمية الأزلية الأبدية، نزل برحمتي على عبادي ومحبتي لهم، وأيضًا بحياتك ومشاهدتك يا حبيبي ويا محبوبي هذا تنزيل أنزلت إليك بالرحمة والكرم عليك وعلى أمتك.

الإيمان والاعتقاد ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ وأغطية كثيفة وغشاوة غليظة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من المعرفة والتوحيد، لا نتنبه ولا نتفطن بحقيته ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿فِي آذَانِنَا﴾ التي هي وسائل العظة والتذكير ﴿وَقْرٌ﴾ صمم مانع عن استماع آياتك الدالة على صدقك في دعواك المبينة المثبتة لدعواك.

﴿وَ﴾ بالجملة: حال ﴿مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ أيها المؤيد بالوحي والإلهام ﴿حِجَابٌ﴾ عظيم يمنعنا عما تدعونا إليه؛ بحيث لا يتيسر لنا رفعه، ولا نقدر على انكشافه ﴿فَاعْمَلْ﴾ أيها المدعي بمقتضى ما أوحاك إليك ربك وألهمك عليه ﴿إِنَّنَا﴾ أيضًا ﴿عَامِلُونَ﴾ [فصلت: 5] بما تيسر لنا ووفقنا عليه؛ إذ كل ميسر لما خُلق له.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾ [فصلت: 6-8].

وبعدما استنكفوا عنك، واستكبروا عليك وعلى دينك وكتابك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض اليقين والتوحيد، خاليًا عن وصمة التخمين والتقليد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: ما أنا إلا بشر مثلكم ما أدعي الملكية لنفسي، غاية ما في الباب أنه ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: يوحي ربي إليّ بمقتضى سنته السنية المستمرة في سالف الزمان ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، وأخرجكم من فضاء الوجود ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أحد صمد فرد وتر، لا تعدد فيه بوجه من الوجوه ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ توجهوا نحوه مخلصين موحدين ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لفرطاتكم التي صدرت عنكم بمقتضى بشريتكم؛ ليغفر لكم ما تقدم منكم من طغيان بهيميتكم.

﴿وَ﴾ عليكم ألّا تشاركوا معه سبحانه شيئًا من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم معد عنده ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: 6] المشركين له غيره، الخارجين عن مقتضى توحيده واستقلاله في ألوهيته ظلمًا وزورًا.

والمشركون المستكبرون عن آيات الله هم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لهم من أموالهم تطهيرًا لنفوسهم عن رذالة البخل، ولقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَ﴾ سبب امتناعهم عن التخلية والتطهير، أنهم بمقتضى أهويتهم الفاسدة

وآرائهم الباطلة ﴿هُم بِالآخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد أعمال العباد ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 7] منكرون جاحدون، لذلك يمتنعون عن قبول التكاليف الشرعية، وعن الامتثال للأوامر الدينية المنزلة على مقتضى الحكمة الإلهية.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية: ﴿إِنَّ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق واستقلاله في الألوهية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أكدوا إيمانهم بصالحات الأعمال، مخلصين فيها لمجرد امتثال أمر العبودية، بلا ترقب منهم إلى ما يترتب عليها من المثوبات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم بدل إخلاصهم ﴿أَجْرٌ﴾ وجزاء ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: 8] أي: بلا منّة معقبة للثقل والأذى، بل يحسن ويتفضل عليهم سبحانه من محض الرضا.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: 9-12].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وجحد توحيده على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها الجاهدون المسرفون ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ وتنكرون ﴿بِالَّذِي﴾ أي: بالقادر العليم الحكيم الذي ﴿خَلَقَ الأَرْضَ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يومًا لاستعداداتها القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود، ويومًا لاتصافها بها بمقتضى الجود الإلهي.

﴿وَ﴾ من كمال غفلتكم وضلالكم عن توحيد الحق وتوحده في ذاته ﴿تَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ تثبتون له شركاء في الوجود، مشاركين معه سبحانه في الآثار والتصرفات الواقعة في الكائنات، وتتوجهون نحوهم في الخطوب والملمات، مع أنه لا رب لهم سواه سبحانه، ولا مرجع لهم غيره، بل ﴿ذَلِكَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ذكر نبذًا من أخص أوصافه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: 9] أي: موجد جميع ما لاح عليه برق

الوجود، ومربيها بمقتضى الجود.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون وحدة الحق، واستقلاله في ملكه وملكوته مع أنه ﴿جَعَلَ﴾ بمقتضى حكمته ﴿فِيهَا﴾ أي: في عالم الطبيعة ﴿رَوَاسِيَ﴾(1) أي: أقطابًا وأوتادًا رفيعة الهمم عالية القدر مستمرة ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي: من عالم الأسماء والصفات ﴿وَ﴾ لهذا ﴿بَارَكَ فِيهَا﴾ وكثّر الخير والبركة عليها ﴿وَ﴾ من كمال حكمته سبحانه ﴿قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾(2) أي: قدر وأظهر في عالم الطبيعية جميع ما يحتاج إليه أهلها من الرزق الصوري والمعنوي تتميمًا لتربيتهم، وتكميلاً لهم حسب نشأتهم.

كل ذلك صدر منه سبحانه ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يومين للنشأة الأولى المتعلقة بالظهور والبروز، ويومين للنشأة والأخرى المتعلقة بالكمون والبطون، ولهذا كانت الأيام المذكورة ﴿سَوَاءً﴾ أي: سبيلاً سويًا وطريقًا مستقيمًا ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: 10] المستكشفين عن مدة بروز عالم الطبيعة عن مكمن الغيب.

﴿ثُمَّ﴾ أي: بعدما هبط ونزل من عالم الأسماء إلى مهبط الطبيعة والهيولي، وصعد إليها ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء، وتمكن عليها مستعليًا مستغنيًا فارغًا عن الصعود والهبوط ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات في أنفسها أيضًا ﴿دُخَانٌ﴾ حجاب بالنسبة إلى صرافة الذات؛ إذ لا تخلو عن شوب الكثرة المستلزمة للظلمة، بعدما استقر عليها سبحانه، وتمكن ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ أي: لسماء الأسماء والصفات.

﴿وَلِلأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة والهيولي إظهارًا للقدرة الشاملة والسلطنة الغالبة: ﴿ائْتِيَا﴾ وتوجهًا نحو جنابنا، منسلخين عن هوياتكما الباطلة ووجوداتكما العاطلة الزائلة ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: طائعتين أو كارهتين؛ إذ لا وجود لكما في أنفسكما، وبعدما سمعتا من النداء المهول ما سمعتا ﴿قَالَتَا﴾ على وجه التصريح والتذلل، حسب

---

(1) قال القشيري: أي: جبالًا مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقيًا لكم، يُذكِّرهم عظيم مِنّتِه بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنّته أنه لم يخسف بكم الأرض، وإن عملتم ما عملتم (17/8).

(2) أي: حكم أن يوجد فيها لأهنها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار مُعين، تقتضيه الحكمة والمشيئة، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار، وجعل الأقوات مختلفة في الطعم والصورة والمقدار، وقيل: خصابها التي قسمها في البلاد. البحر المديد (391/5).

استعداداتهما الفطرية وقابلياتهما الجبلية: ﴿أَتَيْنَا﴾ نحو بابك يا ربنا ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11] من أين يتأتي منا الكره لحكمك، يا من لا وجود لنا إلا منك، لا تحقق إلا بك، نعبدك ونستعين منك على العبادة عبادتك؛ إذ لا معبود لنا سواك، ولا مقصود إلا إياك.

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ أي: قضي سبحانه وقدر لإمدادهما ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع التي هي أمهات الأسماء الإلهية ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: يوم الظهور ويوم البطون، يوم لتحصيل المادة، ويوم لتكميل الصورة ﴿وَ﴾ بعدما حكم وقضي سبحانه ﴿أَوْحَى﴾ وألهم ﴿فِي كُلِّ سَمَاءٍ﴾ من الأسماء المدبرة ﴿أَمْرَهَا﴾ أي: أمورها التي طلب منها ووضع لأجلها ﴿وَ﴾ قال سبحانه بعدما رتبها عليها تتميمًا للتربية، وتكميلاً للقدرة الكاملة الشاملة: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: القرب إلى عالم الشهادة المشتملة على الآثار والأعمال، الصادرة من المظاهر والأظلال ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ مقتبسة مسرجة من أشعة أنوار الذات ﴿وَ﴾ جعلناها ﴿حِفْظًا﴾ أي: وقاية ورقيبًا لأرباب العناية من وساوس شيطان الأوهام، والخيالات المترتبة على القوى الطبيعية المائلة بالذات إلى السفل ﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت من الخلق والإيجاد على النظام البديع والترتيب العجيب ﴿تَقْدِيرُ﴾ الحكيم ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على إيجاد جميع ما دخل في حيطة إرادته ﴿الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12] بإظهارها على عموم الصور الممكنة لظهورها.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: 13-16].

وبعدما ظهر من دلائل توحيد الحق ما ظهر، ولاح من آثار قدرته الكاملة ما لاح ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: الكفرة الجهلة المستكبرون عنك يا أكمل الرسل، وعن جميع ما جئت لهم من الآيات البينات لدلائل توحيد الذات، وكمال الأسماء والصفات الإلهية ﴿فَقُلْ﴾ لهم على وجه التحذير والتنبيه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة

والضلال، أتى بالماضي لتحقق وقوعه ﴿صَاعِقَةً﴾ أي: بلية عظيمة نازلة عليكم من شدة قساوتكم، وإعراضكم عن الحق وأهله كأنها صاعقة في الحول والشدة ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13].

وقت ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم؛ لتكميلهم وإرشادهم، والمبلغون لهم الوحي الإلهي ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: في حضورهم وغيبتهم بواسطة وبغير واسطة، المنبهون عليهم، القائلون لهم: عليكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ولا تتوجهوا بالعبودية الخالصة ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحقيق بالإطاعة والانقياد؛ إذ لا معبود لكم سواه، ولا مقصد إلا هو.

وبعدما سمعوا من رسلهم ما سمعوا ﴿قَالُوا﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ الذي ادعيتم ربوبيته وألوهيته بالانفراد والاستقلال ﴿لَأَنزَلَ﴾ بمقتضى قدرته الكاملة التي ادعيتم له ﴿مَلَائِكَةً﴾ يخرجوننا من أودية الجهالات وبادية الضلال والغفلات، وبالجملة: ﴿فَإِنَّا﴾ بأجمعنا ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بجميع ما جئتم به وادعيتم الرسالة فيه ﴿كَافِرُونَ﴾ [فصلت: 14] منكرون جاحدون، إن أنتم إلا بشر مثلنا بلا مزية لكم علينا، ومن أين يتأتى لكم هذا؟!.

ثم فصل سبحانه ما أجمل بقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على عباد الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبار الإلهي ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بلا انقياد وإطاعة إلى دين ونبي يرشدهم إلى طريق الحق ﴿وَ﴾ من كمال تعنتهم وبطرهم ﴿قَالُوا﴾ على وجه الشرف والمباهاة: ﴿مَنْ أَشَدُّ﴾ على وجه الأرض ﴿مِنَّا قُوَّةً﴾ وأكثر عددًا وعُددًا، وأتم بسطة واستيلاء؟!.

وقالوا هذا حين تخويفهم الرسل بإلمام العذاب عليهم، وهم كانوا أعظم الناس جسما وأوفرهم قوة وقدرة، لذلك اغتروا بما عندهم من القوة والثروة، فكذبوا الرسل وقالوا لهم: نحن ندفع العذاب الذي ادعيتم نزوله أيها الكاذبون بوفور حولنا وقوتنا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أيغترون على قوتهم وجسامتهم وينكرون كمال قدرة الله وشدة انتقامه، ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القدير العزيز ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأظهرهم من كتم العدم، ولم يكونوا شيئًا مذكورًا ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكمل حولاً وقدرة، وأحكم بطشًا وانتقامًا ﴿وَ﴾ هم وإن جزموا حقية رسلنا المبعوثين إليهم، وآياتنا المنزلة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم، لكن ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

[فصلت: 15] وينكرون بحسب الظاهر عنادًا ومكابرة، اغترارًا بما معهم من الثروة والجسامة.

وبعدما تمادوا على غيهم، وأصروا على عتوهم وضلالهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة شديدة البرد، عقيمة عن المطر، تعميمهم بنقعها، وتصميمهم بصريرها ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ لا سعود فيها؛ يعني: إنما بدلنا مسعودات أيامهم بالمنحوسات ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي: المذلة والهوان اللازم على العذاب حيث كان ونزل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي هم مغرورون فيها، مسرورون بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدة للانتقام والجزاء ﴿أَخْزَى﴾ أي: أشد خزيًا، وأتم تذليلاً وتصغيرًا بأضعاف عذاب الدنيا وآلافها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: 16] ولا يشفعون فيها بدفع العذاب عنهم لحظة، بل يخلدون في العذاب ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: 17-21].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بإرسال الرسل إياهم؛ ليرشدوهم إلى النجاة، وينقذوهم من الضلال، وبعدما بلغهم الرسل ما بلغهم من آيات الهداية والرشاد، كذبوهم وأنكروا هدايتهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ والضلال بمقتضى عميهم وغفلتهم ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ المنزل عليهم من عندنا على ألسنة رسلنا، وبعدما أصروا على ما هم عليه من الغواية ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ فجأة ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ المخزي المذل النازل من نحو السماء على صورة الصاعقة السريعة الجري والحركة، فاستأصلهم بالمرة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: 17][1] أي: بشؤم ما يقترفون من المعاصي والآثام الجالبة إياهم شدة غضب

(1) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي بينا لهم، وأرادوا بذلك على ما قيل

بيان طريقي الضلالة والرشد كما في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد:10] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿فاستحبوا العمى عَلَى الهدى﴾ أي: فاختاروا الضلالة على الهدى فالظاهر في أنه بين لهم الطريقان فاختاروا أحدهما، وصرح ابن زيد بذلك فقد حكي عنه أنه قال: أي اعلمناهم الهدى من الضلال، وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسلْ فاختاروا الضلال ولم يفسروها بالدلالة الموصلة لإباء ظاهر ﴿فاستحبوا﴾ إلخ عنه، واستدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناءً على أن قوله تعالى: ﴿هديناهم﴾ دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة، وقوله تعالى: ﴿استحبوا العمى﴾ إلخ دل على أنهم بأنفسهم آثروا العمى، والجواب كما في «الكشف» أن في لفظ الاستحباب ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة، وأن لقدرة العبد مدخلًا ما فإن المحبة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حبًا وهو الاستحباب من الاختيارية، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجاب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدس سره، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية أنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه، فهي نفسها غير اختيارية لكنهاباعتبار مقدماتها اختيارية، ولذلك كلفنا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وفي «طوق الحمامة» لابن سعيد أن المحبة ميل روحاني طبيعي، وإليه يشير قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] أي بميل فجعل علة ميلها كونها منها، وهو المراد بقوله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة» وتكون المحبة لأمور أخر كالحسن والإحسان والكمال، ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والتعظيم، وهذه هي التي يكلف بها لأنها اختيارية فاعرفه، وقرأ ابن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع مصروفًا وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ [الإسراء: 59] لأنه في المصحف بغير ألف، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه، والمفضل قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروي عن ابن عباس ﴿ثمودًا﴾ بالنصب والتنوين، وروي المفضل عن عاصم الوجهين والمنع عن الصرف للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة، ومن صرفه جعله اسم رجل، والنصب على جعله من باب الإضمار على شريطة التفسير، ويقدر الفعل الناصب بعده لأن أما لا يليها في الغالب إلا اسم، وقرىء بضم الثاء على أنه جمع ثمد وهو قلة الماء فكأنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء وكانوا قليلي الماء ﴿الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون﴾ أي الذي وهو صفة للعذاب أو بدل منه، ووصفه به مصدرًا للمبالغة وكذا إضافة صاعقة إلى العذاب فيفيد ذلك أن عذابهم عين الهون وأن له صاعقة، والمراد بالصاعقة النار الخارجة من السحاب كما هو المعروف وسبب حدوثها العادي مشهور في كتب الفلسفة القديمة، وقد تكلم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها فقالوا في كيفية انفجار الصاعقة: من المعلوم أن انطلاق الكهربائية التي في السحاب وهي قوة مخصوصة في الأجسام نحو قوة الكهرباء التي بها تجذب التبنة ونحوها إليها إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية

الله وعذابه.

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا على الإنعام والانتقام ﴿نَجَّيْنَا﴾ من تلك الصاعقة المهولة المهلكة القوم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برسلنا واهتدوا هدايتهم، مع أنهم كانوا فيهم مجاورين معهم ﴿وَ﴾ بسبب تخليصنا إياهم أنهم ﴿كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 18] عن محارمنا ومنهياتنا، مع كونهم متصفين بكمال الإيمان والتوحيد.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عاندك من المشركين ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ويُساق ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ بعد العرض والحساب ﴿إِلَى النَّارِ﴾ المعدة لجزائهم ﴿فَهُمْ﴾ حينئذ ﴿يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: 19] أي: يدفعون؛ يعني: حبس أولهم ومقدمهم على آخرهم؛ لئلا ينقطع تلاحقهم واجتماعهم.

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: حضروا النار، وازدحموا حولهم مجتمعين صائحين فزعين مجادلين منكرين بصدور أسباب العذاب عنهم، مع أنهم يحاسبون أولاً ثم يساقون نحو النار، ولإسكاتهم وتبكيتهم عن الجدال والمراء ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ أي: اعترفت جوارحهم وقواهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 20] ويقترفون بها من المحرمات والمنهيات، بأن يلهمهم الله الاعتراف والتنطق بلسان الحال والمقال؛ إذ الكل مما أحاطت به قدرته سبحانه.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من قواهم ما سمعوا من الاعتراف ﴿قَالُوا﴾ موبّخين مقرعين ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ وجوارحهم المعترفة بذنوبهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مع أنّا لا نُعذب إلا بكم ومعكم؟ من أين تجترئون على أنفسكم بالعرض على العذاب المؤبد أيها الحمقى الجهلاء ﴿قَالُوا﴾ ما كنا مختارين في هذه الشهادة والاعتراف، بل ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ القادر المقتدر العليم الحكيم ﴿الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بآيات وجوب وجوده، ودلائل توحيده

فتنبجس بينهما شرارة كهربائية فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوة الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية فليست في جميع البلاد والفصول واحدة، وأوضحوا ذلك بكلام طويل من أراده فليرجع إليه في كتبهم، وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحة كما ورد في آيات أخر، ولا مانع من الجمع بينهما . وقرأ ابن مقسم ﴿الهوان﴾ بفتح الهاء وألف بعد الواو ﴿بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريح بما تشعر به الفاء . «تفسير الألوسي» (179/18).

بمقتضى جوده، وليس تعجبًا من قدرته سبحانه إنطاقنا بما اقترفتم بنا من المعاصي والآثام المخالفة لأمره وحكمه، غيرة منه سبحانه، وقهرًا على من خرج عن ربقة عبوديته بترك أوامره وأحكامه.

﴿وَ﴾ كيف لا يغار ويقهر سبحانه عليكم أيها المفسدون المسرفون مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته وبمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم خلقًا إبداعيًا ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا سبق مادة ومدة، وشركة من أحد ومظاهرة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيضًا آخر مرة كذلك ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: 21] رجوع العكوس والأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء، فمن أين تستنكفون عن عبوديته، وتخرجون عن حكمه وأمره؟!.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾ [فصلت: 22-25].

ثم قال سبحانه تذكيرًا لما هم عليه عند ارتكاب المعاصي توبيخًا لهم وتقريعًا: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: لم تكونوا مسرين مستترين عند ارتكاب الفواحش والمحظورات مخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ عند الله في يوم الجزاء؛ لإنكاركم به، بل إنما تشترون وتكتمون معاصيكم وقبائحكم مخافة فضاحتكم واشتهاركم بين الناس بالمذام ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بالله ظن السوء، وهو ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر الأمور وخفاياتها ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 22] في خلواتكم، لذلك اجترأتم على اقتراف المعاصي والآثام المحرمات.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا الذي نسبتم إلى الله بقولكم هذا ﴿ظَنُّكُمُ﴾ السوء، وزعمكم الفاسد ﴿الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ العليم الخبير بجميع ما صدر عنكم، وهذا ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ وأهلككم في تيه الجهل والضلال، وبعدما فوّتم على أنفسكم أسباب السعادة والهداية، واخترتم بدلها ما يوجب الشقاوة والضلال ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ﴾ زمرة ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 23] وانقلبتم صاغرين مهانين، وصرتم في النار خالدين.

وبعدما دخلوا في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿فَإِن يَصْبِرُوا﴾ على

فوحاتها والتهاباتها الشديدة ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى﴾ منزلاً ﴿لَّهُمْ﴾ أبدًا، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ ويبثوا الشكوى والعتبى، ويظهروا الكآبة وعدم الطاقة ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: 24] المجابين بإزالة العتبى والشكوى، بل كلما أظهروا العتاب ضوعف لهم العذاب.

﴿وَ﴾ كيف يزال عتابهم، ولا يضاعف عليهم عذابهم؛ إذ قد ﴿قَيَّضْنَا﴾ وقدرنا ﴿لَهُمْ﴾ فيما هم عليه من الكفر والشقاق، وأنواع الفسوق والنفاق ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخدانًا وإخوانًا من الشياطين يوحون إليهم ما يبعدهم عن الحق وأهله ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ وحسّنوا لطباعهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من اتباع الشهوات، وارتكاب المناهي والمحظورات ﴿وَ﴾ إنكار ﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الأخروية مواعيدها وموعوداتها.

﴿وَ﴾ سبب ارتكاب المعاصي وإصفاؤهم، قول قرنائهم ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وكلمة العذاب المؤبد منّا، وليس هذا مخصوص بقوم دون قوم بل جرت سنتنا كذلك ﴿فِي﴾ كل ﴿أُمَمٍ﴾ مفسدة مشركة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ أي: قبل هؤلاء المشركين المسرفين سواء أكانوا ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: المكلفين منها، وإنما استحقوا العذاب المؤبد والنكال المخلد بسبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 25] خسرانًا مبينًا؛ لاستبدالهم أسباب السعادة والهداية بالشقاوة والضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: 26-29].

﴿وَ﴾ من شدة غيهم وضلالهم المفضي إلى الخسران العظيم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وبكتابك - يا أكمل الرسل - حين تلاوتك وتبليغك عليهم آيات القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ ولا تلتفتوا إلى محمد حين قرأ، بل ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ بالصياح، وإنشاد الأشعار، وخلط الأصوات والخرافات ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26] محمدًا، وتدفعون قراءتهم، وتخجلونه فيسكت.

وهم من شدة شكيمتهم وغيظهم، وإن بالغوا في تخجيلك وتخذيلك يا أكمل الرسل، لا تبالِ بهم وبفعلهم هذا ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ لهؤلاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وأساءوا

الأدب معك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ منتقمين عنهم في النشأة الأولى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَسْوَأَ﴾ وأشد وأقبح من ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 27] معك بأضعافها وآلافها.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الأسوأ الأشد ﴿جَزَاءُ﴾ أعمال ﴿أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين عاندوا معك يا أكمل الرسل، واستهزءوا بك وبكتابك، بطرين بما معهم من الجاه والثروة، وهي ﴿النَّارُ﴾ المسعرة المعدَّة لدخولهم ونزولهم؛ إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: إقامة على وجه الخلود، وإنما صارت كذلك ليكون ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 28] وينكرون بها، ويكذبون بمن أنزل إليه ويستهزئون.

﴿وَ﴾ بعدما استقر أهل النار في النار بأنواع السلاسل والأغلال ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكتبه في النشأة الأولى، متحسرين متأسفين، متضرعين إلى الله، مناجين له: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة الإسلام والتوحيد، فكفرنا بك وأشركنا معك غيرك في ألوهيتك بإضلال قرنائنا الضالين المضلين ﴿أَرِنَا﴾ الشياطين ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ عن طريق توحيد كتبك ورسلك الكائنين ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: المضلَّين اللذين أضلانا من هذين الجنسين بأنواع الوساوس والزخارف، والتغريرات والتزيينات ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ لننتقم عنهم جزاء ما فوتوا عنَّا سعادة الدارين وصلاح النشأتين، وإنما نرجو منك هذا يا مولانا ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: 29] المستتبعين لنا، كما كنا كذلك بالنسبة إليهم؛ وإنما قالوا ما قالوا تحسرًا وتضجرًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ
غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: 30-33].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته في كتابه: ﴿إِنَّ﴾ الموحدين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ في السراء والضراء والسر والعلن: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3-4] ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وتثبتوا على ما

أقروا، واعترفوا بأعمالهم وأحوالهم وبيناتهم المترتبة عليها عموم أفعالهم ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ على إعانتهم وشرح صدورهم وتهذيب أخلاقهم ﴿عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المترصدون لأمر الله، القائمون لحكمه، قائلين لهم مبشرين إياهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على فرطاتكم التي صدرت عنكم قبل انكشافكم بسرائر التوحيد واليقين ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ بما جرى عليكم من مقتضيات بشرياتكم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30] [1] بألسنة أنبيائكم ورسلكم الهادين المهدين.

وبعدما وفقناكم على انكشاف سرائر توحيدنا، والتخلق بأخلاقنا ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ نولي عموم أموركم؛ بحيث نكون سمعكم وبصركم وجميع قواكم وجوارحكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حسب اسمنا الظاهر ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضًا كذلك حسب اسمنا الباطن ﴿وَلَكُمْ﴾ منّا وراء ذلك تفضلاً وإحسانًا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذات الروحانية حسب استعداداتكم الفطرية وقابلياتكم الجبلية الفائضة عليكم بمقتضى جودنا الواسع ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 31] تطلبون وتتمنون وقت دعائكم في نشأة الدنيا حسب عقولكم وهوياتكم.

كل ذلك صار ﴿نُزُلًا﴾ معدًا لكم قبل نزولكم فيها تفضلاً عليكم وإحسانًا لكم ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ ستّار لأنانياتكم، محّاء لذنوب هوياتكم ﴿رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 32] موصل لكم بمقتضى سعة رحمته وجوده إلى زلال توحيده.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وأصلح عملاً، وأكمل إيمانًا واعتقادًا، وأتم معرفة وتوحيدًا ﴿مِّمَّن دَعَا﴾ أي: أرشد وهدى ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية، المتفرد بالوجود والديمومية ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مطابقًا موافقًا لصفاء مشرب التوحيد، مجتنبًا عن رعونات العجب والرياء، وتخمينات التقليد والهوى ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قَالَ﴾ بعدما نال أولاً ما نال، وفني فيما فني: ﴿إِنَّنِي مِنَ﴾ زمرة ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33] المسلِمين المنقادين، المفوضين إلى الله جميع ما لاح عليهم من بروق تجلياته الجمالية والجلالية، وما لي أيضًا إلا التسليم والرضا بعموم ما جرى عليه القضاء.

---

(1) قال محمد بن علي الترمذي: تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند مفارقة الأرواح الأبدان، ألا تخافوا سلب الإيمان، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان، التي تُوعدون في سالف الأزمان. البحر المديد (402/5).

﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾
وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الَّيْلُ
وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت: 34-38].

ثم قال سبحانه على سبيل التعليم والإرشاد لعموم العباد: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ أي: لا تستوي جنس الحسنات بل هي متفاوتة في الحسن والبهاء ﴿وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾ أي: وكذا لا تستوي جنس السيئات أيضًا بعضها أسوأ من بعض ﴿ادْفَعْ﴾ أيها السالك القاصد سلوك طريق التوحيد من جادة العدالة المنكشفة لأكمل الرسل وأفضل الأنبياء الهادين، المرشدين إلى بحر الوحدة الذاتية من جداول الأسماء والصفات المترشحة منها حسب تموجاتها وتطوراتها المتفرعة على شئونها الذاتية ﴿بِالَّتِي﴾ أي: بالخصلة الحسنة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحسنات أسوأ السيئات، ودوام عليها، وتخلق بها حتى تستوي وتستقيم أنت على جادة العدالة الإلهية.

وبعد استقامتك وتحققك في هذه المرتبة ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ كان ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ مستمرة ناشئة من القوى البهيمية من كلا الطرفين، صار صديقك وخليلك إلى حيث ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ﴾ حفيظ لك، رقيب على حضانتك عن جميع ما يؤذيك ويرديك، فكيف يؤذيك؛ إذ هو ﴿حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34] مشفق كريم رءوف، رحيم لك، لايخاصمك أصلاً.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يُلَقَّاهَا﴾ أي: الخصلة الحميدة الحسنة التي هي دفع الإساءة بالإحسان، والمكروه بالمعروف، والقهر باللطف ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: الأبطال المتحملون الذين صبروا على كظم الغيظ وتحمل المتاعب والمشاق المتعاقبة على نفوسهم؛ لتحققهم بمقام الرضا والتسليم بما جرى عليهم من القضاء، وتمكنهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات، المستلزمة لأنواع الاختلافات والانحرافات ﴿وَ﴾

بالجملة: ﴿مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35] [1] ونصيب كامل من الكشف والشهود بأسرار الوجود بمقتضى الجود الإلهي.

﴿وَ﴾ بعدما أرشد سبحانه عموم عباده إلى طريق النجاة، وعلمهم الخصلة المحمودة المخلِّصة لهم عن أودية الضلالات والجهالات، وأوصاهم بما أوصاهم من الصبر والثبات على تحمل المشاق والمكروهات، خاطب حبيبه ﷺ بما خاطب حثًا له ولمن تبعه واسترشد منه على دفع ما يمنعهم عن الاتصاف بتلك الخصال الحميدة، ويعوقهم منها بالإضلال والإغواء، فقال: ﴿إِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ويعرضن عليك يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي ﴿نَزْغٌ﴾ نخس يحرك غضبك وحمية بشريتك، ويوقعن فيك بوسوسته فتنة تبعثك على الإساءة والانتقام بترك تلك الخصلة المحمودة ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ بالله أي: بادر إلى الإعادة والالتجاء ﴿بِاللَّهِ﴾ المقلب للقلوب، وفوض أمورك كلها إليه سبحانه على وجه التبتل والإخلاص؛ لتأمن من غوائله وتلبيساته ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36] بحاجاتك وخلوص نياتك فيها.

ثم قال سبحانه ردًا على المشركين، المتخذين شركاء الله من مظاهره ومصنوعاته ظلمًا وزورًا، يعبدونهم كعبادته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من جملة الدلائل الدالة على قدرة

---

(1) بيَّن الله سبحانه هاهنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، وأحسن الأخلاق الحلم؛ إذ يكون به العدو صديقًا والبعيد قريبًا، حين دفع غضب بحلمه وظلمه بعفوه وسوء خاتمته بكرمه، وفي مظنة الخطأ أن من كان متخلقًا بخلقه متصفًا بصفاته مستقيمًا في خدمته صادقًا في محبته عارفًا بذاته وصفاته ليس كالمدعي الذي ليس في دعواه معنى. قال ابن عطاء: لا يسوِّي بين من أحسن الدخول في خدمتنا والخروج منها وبين من أساء الأدب في الخدمة؛ فإن سوء الأدب في القرب أصعب من سوء الأدب في البعد فقد يصفح عن الجهّال الكبائر، ويأخذ الصديقين باللحظ والالتفات، وقال الأستاذ: أي: ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافآت بالتجاوز والصفح عن الزلة، وبيَّن الله سبحانه ألا يبلغ أحدٌ إلى درجة الخلق الحسن وحسنات الأعمال وسيئات الأفعال إلا من يصبر في بلاء الله وامتحانه بالوسائط وغير الوسائط، ولا يحتمل هذه البليات إلا ذو حظٍّ من مشاهدته وذو نصيبٍ من قربه ووصاله، صاحب معرفة كاملة ومحبة شاملة، وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر الله، ثم الصبر في مشاهدة الأزل، فبالصبر الاتصافي والمشاهدة الأبدية والحظ الجمالي يوازي طوارق صدمات الألوهية وغلبات القهارية. قال بعضهم: لا يطيق أحدٌ الهجوم على المعارف إلا من يصبر على احتمال النوائب والشدائد فيها، ولا يرى لنفسه قيمةً، ولا لروحه خطرًا؛ إذ ذاك يمكنه مجاورة المعارف والهجوم عليها. وقال ابن عطاء: لا يوفق لجميل الأخلاق إلا الصابرون على خفض الخلاف.

الصانع الحكيم﴿الَّيْلُ﴾ المظلم ﴿وَالنَّهَارُ﴾ المبصر المضيء ﴿وَ﴾ كذا ﴿الشَّمْسُ﴾ المشرق في النهار ﴿وَالْقَمَرُ﴾ المنير في الليل، قل لهم يا أكمل الرسل على وجه التنبيه والتذكير: ﴿لاَ تَسْجُدُوا﴾ أي: لا تعبدوا ولا تتذللوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿لِلشَّمْسِ﴾ المستهلكة أمثالكم في شروق ذاته سبحانه ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ المستنير منها بالطريق الأولى.

بل ﴿وَاسْجُدُوا﴾ وتذللوا بوضع جباهكم وجوار حكم على تراب المذلة ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد القدير العزيز ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: أظهرهن، وأوجدهن من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادة وزمان، بل بمجرد امتداد أظلال أسمائه، وبسط عكوس صفاته على مرآة العدم، فعليكم الإطاعة والإنقياد إليه، والتوجه نحوه على وجه الإخلاص والاختصاص فاعبدوه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ سبحانه ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37] أيها العابدون المخلصون.

وبعدما بلغت إليهم بأكمل الرسل ما بلغت من الحق الحقيق بالقبول والاتباع ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ واستنكفا عن سجود الله، وأصروا على ما هم عليه عن سجود الله، اعرض عنهم وعن نصحهم، ولا تبالِ لهم وبشأنهم ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل من الملائكة المهيمين، المستغرقين بمطالعة جماله وجلاله، والموحدين المفنين هوياتهم في هوية الله ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ ويقدسون ذاته عن شوب الشركة مطلقًا، قولاً وفعلاً، وخاطرًا وناظرًا ﴿بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: في عموم الأوقات والحالات ﴿وَهُمْ﴾ من كمال شوقهم وتحننهم ﴿لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: 38] أي: لا يملون ولا يفترون منها أصلاً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 39-42].

ومع ذلك هو سبحانه غني عن عبادتهم فكيف عن عبادة هؤلاء الحمقى،

المنغمسين في بحر الجهالات التائهين في بادية الضلالات وأودية الشهوات والغفلات ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته: ﴿أَنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وإنما وجه سبحانه أمثال هذه الخطابات إلى النبي ﷺ، مع أنه يصلح عموم الناس؛ لكمال لياقته بمطالعة آيات الله، وخبرته منها ﴿تَرَى الأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة العدمية الجامدة اليابسة ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة ساقطة عن درجات الاعتبار ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ورششنا ﴿عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المحيي المترشح من بحر الوجود، الذي هو الحي الأزلي والقيوم السرمدي ﴿اهْتَزَّتْ﴾[1] أي: تحركت وارتعدت اهتزازًا شوقيًا ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: زادت ونمت، مع أنها لا شعور فيها، بل لا وجود لها أصلاً.

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ القادر المقتدر الحكيم ﴿الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ مع أنها لم تكن في ذاتها شيئًا مذكورًا ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ مرة أخرى بعدما كانت أحياء بالطريق الأولى، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39] بلا فتور وقصور.

ثم قال سبحانه تهديدًا على منكر الآخرة، وقدرة الله على إعادة الموتى وحشر الأموات: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أي: يميلون وينحرفون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال قدرتنا على أنواع الانتقام ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: لا يشتبه حالهم علينا، بل نحن منكشفون بهم وبجميع ما جرى في ضمائرهم، واختلج في خواطرهم من الميل والانحراف، فيجازيهم على مقتضى إلحادهم وانحرافهم بأشد العذاب وأسوأ الجزاء.

﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ أي: قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: إن من يُلقى في النشأة الأخرى في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿خَيْرٌ﴾ عندهم ﴿أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا﴾ من العذاب مسرورًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأنواع الفتوحات والكرامات الموهوبة له من ربه تفضلاً عليه وإحسانًا، وبالجملة: قل يا أكمل الرسل للملحدين المصرين على الميل والإلحاد على سبيل التبكيت والتهديد: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ من الخوض في آيات الله، والميل عن دلائل توحيده ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

---

(1) (اهتزت) أي: تحركت (وربت) انتفخت؛ لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت، ثم تصدّعت عن النبات، وقيل: تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها، البحر المديد (407/5).

[فصلت: 40] يجازيكم عليه بلا فوت شيء منه، ثم عرض عنهم ودعهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

ثم قال سبحانه على وجه التخصيص بعد التعميم: ﴿إِنَّ﴾ المشركين المفرطين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا ﴿بِالذِّكْرِ﴾ أي: القرآن الكامل الشامل لما في الكتب السالفة، المنزل على أكمل الرسل تفضلاً منّا إياه وتكريمًا ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم به الرسول المؤيد من عندنا، المرسل إليهم ليرشدهم به إلى سبيل الهداية والرشاد، وهم يعاندون في تكذيبه، ويكابرون في إنكاره وقدحه عتوًا واستكبارًا، كيف يفرطون في علو شأنه، ويكابرون في سمو برهانه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41] منيع ساحة عزته ورتبته، وعلو قدره ومكانته عن أن يحوم حوله شائبة الجدل والعناد.

إذ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ الزائغ الزائل في خلال أوامره وأحكامه لا ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بأن يتصف حكمه وأحكامه حين نزوله وظهوره بعدم المطابقة لما في الواقع، وما في علم الله ولوح قضائه ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ بأن يلحقه نسخ وتبديل كالكتب السالفة؛ إذ هو ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ كامل في الإتقان والإحكام، عليم بأساليب الحكم والأحكام ﴿حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42] في ذاته، يحمده كل الأنام على ما أفاض عليهم من موائد الإفضال والإنعام.

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت: 43-46].

ثم أخذ سبحانه يسلي حبيبه ﷺ ويزيل عنه أذى الكفرة الجهلة المعاندين معه بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة العاطلة، فقال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك ليس ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ من

قِبل قومهم، فصبروا على أذاهم حتى ظفروا عليهم وانتصروا، فاصبر أنت أيضًا على أذى هؤلاء المعاندين حتى تظفر عليهم، وبعدما ظفرت يؤمنوا بك، ويصروا على عنادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ على المؤمنين بك، يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، إن أخلصوا في إيمانهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43] على من تولى واستكبر، وأصرّ على كفره ولم يؤمن.

وبعدما قدح كفار مكة في شأن القرآن، وقالوا: هلا نزل بلغة العجم كالكتب السالفة، مع أنه لم يعهد منه سبحانه إنزال كتاب بلغة العرب قط، ورد الله عليهم هذا بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الذِكر المنزل عليك يا أكمل الرسل ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا﴾ في شأنه من شدة بغضهم وشكيمتهم معك ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ أي: هلا أُوضحت وبيِّنت ﴿آيَاتُهُ﴾ بلسان نفقهها وندركها، مع أنه إنما أنزل إليك وإلينا ونحن لا نفهم لغة العجم، ثم يأخذون في القدح والاستهزاء بوجه آخر، ويقولون: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ يعني: أينزل كلام أعجمي من قبل الحق على سبيل الوحي على نبي عربي، لا شعور له بكلام العجم أصلاً ليرشد الأعراب به ويبين لهم ما فيه؟! كلا وحاشا، ما هذا إلا كذب مفترى، وبالجملة: لا يسكتون أولئك المعاندون عن القدح والطعن فيه بحال.

وبعدما وضح حالهم في التعنت والعناد ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والعناد: ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ به، وامتثلوا بأوامره ونواهيه، وتنبهوا من رموزه وإشارته، واعتبروا من عبره وأمثاله وقصصه وأخباره ﴿هُدًى﴾ يهديهم إلى الحق الصريح، ويوصلهم إلى محض اليقين والتحقيق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في النفوس من الجهل، والأمراض العضال المورثة لهم من تقليد آبائهم وتخمينات وأوهام صناديدهم ورؤسائهم ﴿وَ﴾ المكابرون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون نزوله، بل يكذبونه ويستهزئون مع من أنزل إليه، هو بالنسبة إليهم ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ مستقر وصمم شديد يصمهم عن استماع آياته الدالة على تهذيب الظاهر والباطن، بل ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ يعمي بصائرهم وأبصارهم عن رؤية الحق الظاهر في الأنفس والآفاق.

وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿يُنَادَوْنَ﴾ إلى مقصد التوحيد ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44] بمراحل عن الوصول إليه؛ يعني: هم وإن جبلوا على نشأة التوحيد صورة، إلا أنهم حطوا عنها ولحقوا بمرتبة البهائم، بل صاروا أبعد منها وأنزل لذلك ينادون من مكان بعيد إن نودوا.

﴿وَ﴾ إن عاندوا معك يا أكمل الرسل، واختلفوا في كتابك بالتصديق والتكذيب لا تبالِ بهم وبردهم وقبولهم، فإنّا ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ من كمال جودنا أخاك ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتمل على ضبط ظواهر الأحكام وبواطنه، حفظًا لهم وضبطًا لأمور معاشهم ومعادهم، ومع ذلك ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في حق التوراة وشأنه، فقبله بعضهم، ورده الآخر مثلما يفعل هؤلاء الغواة بكتابك هذا، وليس هذه الديدنة ببدع من هؤلاء الجهلة، بل هي من عادتهم المستمرة وشيمتهم القديمة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ موعودة معهودة ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ من أخذ الظالم منهم على ظلمه في يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بأخذهم سبحانه بظلمهم، ويستأصلهم اليوم بالكلية بلا إمهال لهم لاستئصالهم بالأخذ والانتقام، لكن ثبت حكمه سبحانه على ما وعد وقضى؛ إذ ما يبدل القول لديه ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ من كمال تماديهم في الغفلة والإعراض عن الحق واقتداره على وجوه الانتقام ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من قضاء الله وحكمه المبرم في يوم الجزاء ﴿مُرِيبٍ﴾ [فصلت: 45] فيه ريبًا منتهيًا إلى الإنكار والتكذيب.

وبالجملة: لا تبالِ يا أكمل الرسل بهم وبريبهم، وإنكارهم وطغيانهم، فاعلم أنه ﴿مَّنْ عَمِلَ﴾ من عموم عبادنا عملاً ﴿صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: صلاحه عائد إلى نفسه، راجع إلى إصلاح حاله في معاده ومعاشه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: رجع وبال إساءتها أيضًا على نفسها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المنزه في ذاته عن طاعة المطيع وعصيان العاصي ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] أي: لا ينقص من أجورهم المطيعين، ولا يزيد عن جزاء العاصين، بل يتفضل على أهل الطاعة فوق ما استحقوا بأعمالهم أضعافًا وآلافًا عناية منه وفضلاً، ويقتصر على أصحاب المعصية والضلال بجزاء ما اقترفوا لأنفسهم عدلاً منه وقهرًا.

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فصلت: 47-50].

وكيف لا يتفضل حين الجزاء على أرباب العناية، ولا يعدل على أصحاب الغّواية حين الجزاء؛ إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من أظلال الوسائل والأسباب ﴿يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: العلم المتعلق بوقت قيامها، وكيفية ما جرى فيها من الأهوال والأفزاع؛ إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها ولم يطلع أحدًا عليها ﴿وَ﴾ أيضًا يرجع إلى علمه سبحانه ﴿مَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ أي: من أجناس الثمار مع اختلاف أنواعها وأصنافها متى تخرج ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: أوعيتها التي فيها أنوارها الحاصلة منها الأثمار؛ إذ هي أيضًا من جملة الأمور الغيبية المستأثرة بها سبحانه ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ وتحبل ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ أي: فوائد الحمل والحبل ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها بمكان من الأمكنة ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ سبحانه؛ إذ هو العالم لا غيره بما في الأرحام ومدة بقائه فيها وخروجه منها، لا اطلاع لأحد عليها.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله، وأثبت الوجود لغيره والشركة في ألهويته وربوبيته عدوانًا وظلمًا ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله لهم حين إرادة الانتقام عنهم، موبّخًا لهم ومقرعًا إياهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين تزعمون شركتهم معي وشفاعتهم عندي، أحضروهم؛ لينجوكم من عذابي ويشفعوا لكم لدي، وبعدما سمعوا النداء الهائل ﴿قَالُوا﴾ متأسفين متحزنين: ﴿آذَنَّاكَ﴾ وأعلمناك يا مولانا اليوم، وإن كنت أعلم منّا بحالنا إنا ﴿مَا مِنَّا﴾ أي: ما أحد منّا اليوم ﴿مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: 47] يشهد على شركة شركائنا الذين ادعينا شركتهم معك ظلمًا وزورًا.

﴿وَ﴾ بعدما تقوّلوا ما تقوّلوا من شدة الأسف ونهاية الحسرة والضجرة ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم﴾ وخف عن أبصارهم وبصائرهم ﴿مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون إليه ﴿مِن قَبْلُ وَظَنُّوا﴾ بل تيقنوا حينئذ ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: 48] مهرب ومخلِّص من عذاب الله، فتندموا وما ينفعهم الندم، ورجعوا إلى الله حينئذ وما يفيدهم الرجوع؛ لانقضاء مدة التدارك والاختبار.

ومن العادة القديمة والديدنة المستمرة أنه ﴿لَّا يَسْأَمُ﴾ أي: لا يمل ولا يفتر ﴿الْإِنسَانُ﴾ المجبول على جلب الإحسان ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لنفسه وجذب المنفعة

إلى ذاته حريصًا عليها، مولعًا لاقتنائها وجمعها ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ وعرض عليه الضر حينًا من الأحيان ﴿فَيَئُوسٌ﴾ من قدرة الله على دفع الضر عنه، وجلب النفع إياه بعدما أزال عنه ابتلاء ﴿قَنُوطٌ﴾ [فصلت: 49] (1) من فضل الله عليه وسعة رحمته وجوده.

﴿وَ﴾ من غاية يأسه وقنوطه عن مقتضى فضلنا وجودنا ﴿لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ ووفرناها عليه؛ بحيث تسري في جميع أجزائه مع كونها تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ بلا اقتراف ﴿مِنْ﴾ جانبه سوى أنه ﴿بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ لحقته أوائلها؛ إذ المساس يحصل بمجرد الملاقاة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ معرضًا عن الله: ﴿هَٰذَا لِي﴾ وأنا أستحق بها لاحتمال الشدائد ولكمال فضلي وعلمي، أو هذا لي بمقتضى ذاتي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ الموهومة الموعودة ﴿قَائِمَةً﴾ آتية ﴿وَلَئِن﴾ فرضت وقوعها وقيامها على الوجه الذي زعم الرسل المدعون، ونطقت الكتب المزورة المفترية ﴿رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ كما زعموا ﴿إِنَّ لِي﴾ أي: ثبت وتحقق لي ﴿عِندَهُ﴾ سبحانه ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة التي هي أحسن الحالات وأكرم الكرامات؛ لاستحقاقي بها واقتضاء ذاتي إياها، وإنما يقول ما يقول استهزاءً وتهكمًا.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ونخبرن حين الجزاء الكافرين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوفور قدرتنا على وجوه الانتقام ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الجرائم العظام وكبائر الآثام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ونحيطن عليهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: 50] مؤلم فظيع فجيع، لا يمكنهم الخلاص عنه.

---

(1) قال الورتجبي: وصف الله من لم يعرفه ولم يعرف لطائف برّه بأوليائه ويكون مقلدًا في الدعاء ومعرضًا بسرّه عنه وبظاهره عن طاعته ليس هو يدعوه بالحقيقة، إنما يدعو مراده، فإذا حصل مراده قام على تكلفه وتقليده، وإن لم يحصل مراده ويمسه بلاؤه يفرّ منه، ولا يدعوه، ولو كان على محل التحقيق في دعائه ومعرفته بربه فإنه لا يفرّ من بلائه، ولا يقنط من رحمته؛ فإن العارف الصادق يستلذ بلاءه، كما يستلذ نعمه في لسان الخلائق لنا فيه إشارة؛ وذلك أن العارف المشتاق الذي من كمال شوقه يريد أن يشرب جميع بحار الأزل والأبد والربوبية والألوهية والذات والصفات المنزهة عن مباشرة الحدثان بشربة واحدة وهو لا يقدر؛ لأنه تعالى منزّه عن أن يحيط به أحدٌ من خلقه وإن كان نبيًا مرسلاً، فإذا وجد نفسه أنه يسهل عليها شربها على قدر مذاقها وزيادة يستقيم في طلبها، وإذا نظر إلى امتناع الألوهية عن إدراكه ييأس ويقنط عن أن يدركه بالحقيقة، وهذا إذا كان هو مطالعًا في بطون الأزل وأكناف القدم وغيوب الأبد، لو رأيته يا عاقل كيف يفرّ من الحق وهو غضبان عليه معربدًا شطاحًا بتكلّمه عن سرّ الانبساط، ويخاصمه، وهذا كله من حيرته في الله واشتياقه إلى درك الحقائق.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ
(٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ
بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤) ﴾ [فصلت: 51-54].

﴿وَ﴾ من شدة طغيان الإنسان ونهاية كفرانه وعدوانه: إنَّا ﴿إِذَا أَنْعَمْنَا﴾ وأكرمنا من مقام جودنا ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ المجبول على النسيان ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: تباعد عنَّا، ولم يشكر على نعمنا، ولم يلتفت إلى موائد كرمنا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ ولحقه الضر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51] كثير ممتد عرضًا وطولاً، وهو كناية عن إلحاحهم ولجاجهم في طلب الكشف والتفريج من الله عند نزول البلاء وإلمام المصيبة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمنكري القرآن والقادحين فيه عدوانًا وظلمًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن منزلاً ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ بحسب الواقع مع أنه لاشك فيه ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ بلا تأمل وتدبر في دلائل صدقه، وبراهين إعجازه لفظًا ومعنى ﴿مَنْ أَضَلّ﴾ سبيلاً وأخطأ رأيًا وطريقًا ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 52] وخلاف شديد عن الحق وقبوله، وبالجملة: من أضل منكم أيها القادحون المنكرون له مع وضوح محجته وسطوع برهانه.

ثم أشار سبحانه إلى وحدة ذاته وظهوره حسب أسمائه وصفاته في عموم مظاهره ومصنوعاته، وحيطته عليها، وشموله إياها؛ ليكون دليلاً على حقية كتابه، وصدوره منها، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أي: المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على نشأة الإيمان والعرفان، الموقنين على كمال الكشف والعيان ﴿آيَاتِنَا﴾ أي: دلائل توحيدنا الدالة على وحدة ذاتنا الظاهرة ﴿فِي الآفَاقِ﴾ أي: ذرائر الأكوان الخارجة عن نفوسهم المدركة بآلاتهم وحواسهم، سميت بها؛ لطلوع شمس الحقيقة الحقية منها، وظهورها عليها ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ذواتهم التي هي أدل دليل على معرفة الحق ووحدة الحق.

لذلك قال أصدق القائلين وأكمل الكاملين: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].

وإنما نريهم ما نريهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ ويظهر دونهم وينكشف عليهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الأمر الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿الْحَقُّ﴾ الحقيق بالتحقق والثبوت لصرافة وحدته الذاتية والقرآن المعجز أيضًا، ومن جملة مظاهره وصفاته.

ثم لما أشار سبحانه إلى وحدة ذاته بالنسبة إلى عموم عباده، أراد أن ينبه على المستكشفين من أرباب المحبة والولاء، الوالهين في مطالعة وجهه الكريم، فخاطب حبيبه ﷺ؛ إذ هو الحري بأمثال هذه الخطابات، فقال مستفهمًا على سبيل التعجب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: أتشكون في وجود مربيك يا أكمل الرسل ومربيهم، وظهوره وتحققه، ولم يكف دليلاً ﴿أَنَّهُ﴾ بذاته وعموم أسمائه وصفاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما لاح عليه برق وجوده ورشاشة نوره ﴿شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] حاضر غير مغيّب عنه.

وبالجملة: أو لم يكف لهم دليلاً على تحقق الحق وحضوره مع كل شيء من مظاهره ومصنوعاته.

ثم نوّر سبحانه ما نبه عليه على سبيل التعجب والتلويح تأكيدًا ومبالغة وزيادة إيضاح وتوضيح، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ بعدما أضاء لهم شمس الذات من مرايا الكائنات ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وارتياب ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ فيها ومطالعة وجهه الكريم عنها ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾ بذاته حسب شئونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: 54][2] بالاستقلال والانفراد، إحاطة ذاتية بلا شوب شركة؛ إذ لا موجود سواه، ولا إله إلا هو.

---

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (208/10).

(2) نريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قال الحسن يعني ما أهلك به الأمم السالفة في البلدان فقد رأوا آثار ذلك وفي أنفسهم أخبر بأنهم تصيبهم البلايا فكان ذلك كما قال فأظهره الله عليهم وابتلاهم بما ابتلاهم به قال يحيى يعني من الجوع بمكة والسيف يوم بدر حتى يتبين لهم أنه الحق يعني القرآن أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد أي شاهد على كفرهم وأعمالهم أي بلى كفى به شهيدا عليهم قال محمد المعنى أو لم يكف بربك ألا إنهم في مرية في شك من لقاء ربهم يقولون لا نبعث ولا نلقى الله ألا إنه بكل شيء محيط أحاط علمه بكل شيء. «تفسير ابن أبي زمنين» (2 /135).

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المترقب لشهود الحق من ذرائر عموم المجال والمظاهر الظاهرة في الآفاق والأنفس أن تصفي ضميرك أولاً من وساوس مطلق الأوهام، والخيالات العائقة عن التوجه إلى صرافة الوحدة، وتجلي خُلدك عن الإضافات الصارفة عنه.

فلك أيضًا أن تكون في نفسك متوجهًا إلى ربك الذي هو حصة لاهوتك، ونشأة جبروتك، خاليًا عنك وعن لوازم ناسوتك وعوارض بشريتك بالمرة، بحيث لا شعور لك عما جرى على هويتك أصلاً.

وبالجملة: كن فانيًا في الله، باقيًا ببقائه، ناظرًا بنوره إلى وجهه الكريم تفز بنعيم الجنات وعظيم اللذات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم بحمد الله تعالى الجزء الثالث من تفسير سلطان العارفين

سيدي عبد القادر الجيلاني

قدس الله سره العزيز

آمين

سورة الشورى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الشورى

لا يخفى على من تحقق بمرتبة التوحيد، وتمكن عليها بلا تردد وتلوين أن عموم مراتب الأنبياء والرسل ومشارب الأولياء المتابعين لهم، المقتفين أثرهم إنما هي على صرافة الوحدة الذاتية المسقطة لجميع الكثرات والإضافات، وأن ما أنزل الله على سبيل الوحي والإلهام من الكتب والصحف إنما هو لبيان الطرق الموصلة إليها، ولهذا نبه سبحانه حبيبه على طريق توحيده، بعدما خاطب بما خاطب متيمنًا باسمه العظيم: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بصرافة وحدته الذاتية المحيطة بالكل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على جميع الكائنات بإفاضة الوجود الذي هو منبع عموم الكمالات ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ على خواصها وخلاصتها بالإيصال إلى منبع ماء الحياة الذي هو وحدة الذات المسقطة لمطلق الإضافات.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن
فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم
بِوَكِيلٖ ۝٦﴾ [الشورى: 1-6].

﴿حم * عسق﴾ [الشورى: 1-2] [1] يا حامل وحي الله، وماحي الوجود عن

---

(1) هذه الأحرف رمز الله مع حبيبه ﷺ؛ يخبره بهنّ ومن كان أهله من سرِّ الذات والصفات والأفعال، الحاء رمز الحياة الأزلية، والميم رمز محبة القديم، والعين رمز عينية ذاته وعلمه القديم وعيانه لأهل العيان، والسين رمز سرّه وسرّ سرّه وغيبه وغيب غيبه وسنا سبحات وجهه وكشفه لأهل

غيره يا عالم سرائر قدرة الله، وعارف سريان سر وحدته الذاتية على قلوب خُلَّص عباده من الأنبياء والأولياء.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر في هذه السورة من سرائر التوحيد والأخلاق المرضية الإلهية ﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابك هذا ﴿وَإِلَى الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل في كتبهم وصحفهم ﴿اللَّهُ﴾ المتوحد بذاته المحيط بعموم مظاهره ومصنوعاته، المستقل بأمر الإرسال والإنزال والوحي والإلهام ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في أمره وشأنه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: 3] المتقن في أفعاله وتدبيراته الجارية في ملكه وملكوته.

إذ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ملكًا وتصرفًا، إيجادًا وإعدامًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ المستقل بالعلو في مطلق ملكه وملكوته ﴿الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: 4] في شأنه وأمره، لا علو ولا عظمة إلا له، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا حكم ولا حكمة إلا منه.

الكشوف، والقاف عن قديمية وجوده، وقوله القديم الذي منه بدأ العالم، وآدم بالحاء الحياتي، أحيا قلوب العارفين حين تجلت منها حياته لها، وبالميم المحيى بملك الأرواح المحبين بحلاوة محبته، التي برقت سناها في عيونها، ثم بسرِّ الحرفين ورمز النعتين حمى أسرار الواصلين عن خطرات الريب، وكاشف لها أسرار الغيب، ومن العين عاين ذاته وصفاته للعالمين به وبأوصافه ونعوته، وبالسين سار سنا برق سبحاته في أسرار السابقين، وبالقاف ظهر قاف كبرياء قدم ذاته وقيوميته صفاته للقائمين به في قربه عند ظهور قيامه عليهم، وافهم أن الحروف على أوائل السور رموز الحق، أخفى أسرارها عن غير أهلها، ثم أخفى من تلك الخفيات هذه الأحرف على أوائل هذه السورة بأن رفع عن السين نقوش الشين، فأراد بالسين الشين وبيان ﴿حمٓ﴾ عشق أي: يحيى الأزلي، وجمال الأبدي عشق العاشقون، وأنا عشيقهم، وبرمز العشق أخاطبهم، حتى لا يطَّلع على أحوالها أهل الرسوم فيهلكوا، لأن من بين العاشق والمعشوق ارتفع حشمة الربوبية وكلفة العبودية في مقام المشاهدة، ثم أقسم الحق بهذه النعوت أي: بحياتي يا حبيبي ومجدي وجمالي وملكي ومحبتي لك والأولياء أمتك يا محب يا محمد، وبعلو شأني وعلمي المحيط وعزي وعياني، وخلقي يا عارف يا عالم يا عالي الهمة يا عزيز، وبسنائي وقدسي وسرمديتي، وسبق وجودي على كل شيء، يا صاحب سري، ويا سبَّاق كل سابق بالشرف والفضل والتقدم، ويا سبَّاح بحر قدسي وأنسي ومقدمي وقيوميتي وقيامي على كل شيء، وبقولي الحق، وبقدرتي القديمة، وبقضائي وقدري، وبعشقي يا عاشقي، وبصدقي يا صادق، إن هذه الإشارة قد أشرتها إليك، كذلك أشرتها إلى أنبيائي قبلك وأوليائي وأهل خالصتي.

ومن كمال عزته وعظمته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ السبع ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ بالياء والتاء، أو بالياء والنون معناه على كلتا القراءتين: يتشققن ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من فوق السماوات أو من فوق الأرضين السبع من كمال خشية الله ورهبته، خوفًا من تجليه عليهن باسمه القهار المفني للأغيار مطلقًا ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا من خشيتهم من كمال غضبه وقهره سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تعديدًا لنعمه إياهم بإفاضة الشعور والإدراك على حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، والتمكن والاقتدار على مواظبة عبوديته ومشاهدة آثار سلطنته وعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أيضًا بإذنه وبمقتضى أمره ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من خُلَّص عباده الموحدين المجبولين على صورته، المجعولين لخلافته ونيابته ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ الستار لذنوب أنانياتكم، المحّاء لآثام هوياتكم إن تبتم وأخلصتم فيها ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5] لكم يقبل توبتكم ويغفر زلتكم، ويوصلكم إلى ما جبلتم لأجله.

ثم قال سبحانه تهديدًا على المشركين المتخذين لله المتوحد في ذاته، المستقل في وجوده أندادًا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم كولايته سبحانه، ويتوجهون نحوهم مثل توجهه، ولا تلتفت يا أكمل الرسل إليهم، ولا تبالِ بشأنهم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأفعالهم وصفاتهم ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ عليم بأعمالهم ونياتهم فيها، ويحاسبهم عليها ويجازيهم بمقتضاها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: 6] كفيل يخلصهم عن مفاسد أعمالهم ومقابح أفعالهم، بل ما أنت إلا مبلغ ونذير.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ ﴾ [الشورى: 7-10].

وبعدما بلغت وأنذرت لم يبقَ من أمرك شيء ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ أي: ومثل ما

أوحينا إلى من قبلك من الأنبياء كتبًا، وأوحينا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل أيضًا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نظمًا وأسلوبًا ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني: أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أقطار الأرض وأنحائها، كما أنذر الأنبياء أقوامهم فيما مضى من مطلق الأمور المنافية لسلوك طريق التوحيد وسبيل الهداية والرشاد ﴿وَتُنذِرَ﴾ خاصة ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: الخذلان والحرمان الحاصل لهم يوم الحشر والاجتماع على المحشر، والوقوف بين يدي الله، الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في إتيانه ووقوعه، وبعدما اجتمعوا فيه حيارى سكارى هائمين، يساقون بعدما يحاسبون منهم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ مسروررون مقبولون ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7] محزونون مطرودون.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده وأراد هدايتهم جميعًا ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مقتصدة معتدلة على مقتضى صرافة الوحدة الذاتية واعتدالها، ﴿وَلَكِن﴾ راعى سبحانه مقتضيات أوصافه وأسمائه المتقابلة، وشئونه المتخالفة لذلك ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ويوصله إلى فضاء وحدته بمقتضى جوده وحكمته عناية منه وفضلاً، وولاية لهم ونصرًا ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى عناية الله، وولايته بمقتضى قهره وانتقامه إياهم إظهارًا لكمال قدرته ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يواليهم، ويشفع لهم عنده سبحانه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 8] ينقذهم من عذابه، فظهر ألا ولاية ولا نصرة إلا لله، ولا غالب إلا هو، وإن زعموا آلهة سواه.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل أثبتوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ واعتقدوهم شركاء له سبحانه أو شفعاء لهم عندهم، لا تنفعهم موالاتهم واتخاذهم بل تضرهم وتغويهم ﴿فَاللَّهُ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ المقصور على الولاية، لا ولي في الوجود سواه ﴿وَهُوَ﴾ بكمال قدرته ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ويميت الأحياء بالإرادة والاختيار، لا فاعل في الوجود إلا هو ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ باستقلاله واختياره ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 9] بلا فتور وقصور.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن الولاية والقدرة منحصرة لله، لا فاعل في الوجود سواه، فاعلموا أيها المكلفون بسلوك طريق الحق وتوحيده أن ﴿مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من شعائر الدين ومعالم التوحيد واليقين واختلافكم فيه؛ إذ هل هو مفيد لكم في سلوككم، أم مفسد له ﴿فَحُكْمُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وأمره موكول إلى كتبه ورسله، فعليكم التعبد والامتثال بما أمرتم به ونهيتم عنه على ألسنة الرسل والكتب؛ إذ لا

مدبر لأموركم سواه، ولا متصرف في الوجود إلا هو.

﴿ذَلِكُمُ﴾ الذي سمعتم وصفه واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿اللهُ رَبِّي﴾ وربكم، فاعبدوه حق عبادته، وفوضوا أموركم كلها إليه، وإن خوفتموني بغيره مع أنه لا غير في الوجود معه، فأنا ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واتخذته وكيلاً، يدفع عني مؤنة جميع من عاداني ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى الوسائط ﴿أُنِيبُ﴾ [الشورى: 10] وأرجع في مطلق الملمات والخطوب.

﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: 11-13].

وكيف لا أتوكل عليه ولا أنيب؛ إذ هو بذاته حسب شئونه وتطوراته ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ومظهرها من كتم العدم، ومدبر ما يتكون بينهما من الطبائع والهيولي وصور المواليد، ومن جملة تدبيراته سبحانه: إنه ﴿جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُم﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد إبقاء لتناسلكم وتوالدكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ومن بني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ أيضًا من جنسكم وصنفكم إبقاء لكم وإدامة لبقائكم ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ﴾ أيضًا ﴿أَزْوَاجًا﴾ تربية لكم وتتميمًا لمعاشكم.

وبالجملة: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يبثكم ويكثركم ﴿فِيهِ﴾ أي: في عالم الظهور ونشأة الشهادة بهذا التدبير البديع، لتعلموا أو تعرفوا أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ أي: ليس مثله سبحانه ﴿شَيْءٌ﴾ يناسبه في الوجود ويماثله في التحقق والثبوت، والمراد يقينًا بالمثل المنفي هو ذاته؛ أي: لا يماثله ذاته، فكيف غيره من قولهم: مثلك لا يبخل؛ بمعنى: أنت لا تبخل، والمراد: نفي التعدد عنه سبحانه مطلقًا على سبيل المبالغة والتأكيد، فثبت حينئذ ألا موجود سواه، ولا تحقق لغيره ﴿وَ﴾ متى ثبت هذا ظهر أنه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: 11] [1] أي: هو بذاته المنحصر على صفة السمع والبصر، وجميع الأوصاف

(1) أفاد الشيخ البيطار في تأويل هذه الآية المباركة من فوائد معارف الحقيقة المحمدية بقوله: اعلم - رحمك الله تعالى وفتح فهمك للمعاني الإلهية - أن الكاف في قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾، أصلية لا زائدة كما يفهمه العموم، فإنا إذا جعلناها زائدة يكون المعنى ليس مثل الله شيء؛ لأن الحوادث لا تشبهه، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، وهذه عقيدة من يعرف الله بفكره لا بإيمانه، ومثل هذا ينزل جميع ما ورد في الكتاب والسنة من العلم بالله على حسب ما يأوله بفكره، وهو الذي في قلبه زيغ عمّا أبانه الله ونطق به رسوله ﷺ، فيصف الله بتنزيه لم يصف به نفسه، ويفصل في حق الله ألفاظه على ألفاظ الله ورسوله؛ فيقول مثلاً: حاشا ربنا من النزول والاستواء والضحك والبدء والقدم وأمثال ذلك، فالذي أثبته الله لنفسه ينفيه عنه، فما أقبح هذه المعرفة! وما أشنع هذا التنزيه! وهذا هو الجهل المركب فهو كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:14] وأما المحققون من أهل الله فلا زائد عندهم في القرآن العظيم، بل كل شيء له معنى ولا عبث في القرآن ألبتة، فالكاف عند المحققين بمعنى المثل، فيكون المعنى: ليس مثل مثله شيء، فالمثل الأول هو آدم ﷺ، ومثل هذا المثل هو محمد ﷺ فكون المثل آدم لقوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» فهو المثل، وليس المراد أنه ثاني؛ لأن واحدية الله لا تقبل الثاني كواحدية العدد، بل واحدية الله وجوده الذي لا يقبل الغير كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]. وقد اجتمعت هذه الأربعة في آدم ﷺ فهو أول من جهة روح الله المنفوخ فيه، وآخر باعتبار أنه غاية تنزلات الحقائق، فهو الإنسان الذي هو أحسن تقويم وأسفل سافلين، فلا أعلا منه ولا أسفل منه، وهو صورة والباطن روحًا؛ فلهذا المعنى هو المراد بأنه مثل الله، أي: صورة الله الكاملة، ومجلى ذاته، ومحل ظهور أسمائه وصفاته، ولهذا على ملائكة الله حتى سجدوا له، فافهم. وأما كون محمد ﷺ مثل هذا المثل؛ لأنه في الصورة إنسان مثل آدم فما هو من حقيقة غير آدم لحقيقة الملائكة مثلًا إلا باعتبار أحدية الوجود المطلق فليس المنفي عنه الشيئية في كلام الله تعالى المثل، بل المنفي عنه الشيئية هو مثل المثل وهو محمد ﷺ كما يفيده قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:40]، أي: منتهى دائرة الكل أجمعين، والمنتهى عين المبدأ؛ فهو مطلق عن الشيئية والوجود المحض الذي هو نور السماوات والأرض، فهو ليس شيئًا من الأشياء المقيدة؛ لأن الشيء المقيّد كالجزء من الأجزاء، فنفى الله عن مثل المثل وهو محمد ﷺ الشيئية التي تطلق على كائن في الوجود من المظاهر المقيّدة، وقد أشار ﷺ إلى شأنه الأحدي بقوله:«كان الله ولم يكن شيء غيره» فلا شيء في حضرة الإطلاق المشار إليها«كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وقد بيّن الله معنى هذه النبوة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11] والجملة المعرفة الطرفين تفيد الحصر، أي: لا سميع إلا هو، ولا بصير إلا هو، فهو السميع لنفسه أزلًا والبصير كذلك، يعني أنه الحقيقة الجامعة لكل شيء سميع ومسموع ولكل بصير ومبصر، وحيث كان كذلك فليس شيئًا كما تعهدون بل كما أخبر الله عنه -

بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]، فهذا بيان الله وأصرح من بيان الله لا يكون ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:87] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:122]. فنبوته وآدم بين الماء والطين كونه روح آدم وحقيقة القائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، فما سجد الملائكة إلا لتلك الروح المنفوخة في صورة آدم، فآدم قبلة وكعبة الملائكة كما أن الكعبة المشرفة قبلتنا، والسجود له هو المعنى الظاهر في صورة آدم، وهذا المعنى عين نبوته الباطنة ﷺ فبين الله ذلك بأن محمدًا ﷺ عين الوجود المطلق الذي يندرج فيه كل ما يسمى شيئا فكيف يكون شيئًا وهو حقيقة كل شيء ؟! فلتفهم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، فالسجود الملكي لمحمد باطنًا وهو في الظاهر لآدم . واعلم - سقاك الله شراب محمد الطهور وألبسك من ملابس ظهوراته نور على نور - أنه فتح عليّ في الكلام على هذا الوارد الجامع للمعرفة الإلهية المحمدية، وأنا أطالع الفص النوحي من كتاب: «فصوص الحكم» لسلطان العارفين وأستاذهم الشيخ الأكبر، وقد تكلم على هذه الآية، ولكن لا بالمعنى الذي تكلمنا به، ولا أشك أنه من باطنه ﷺ ، فإنه مظهر كمالات محمد ﷺ التي انطوى عليه باطنه ﷺ، وذلك لأني طلبت منه في مقامه عند ضريحه الشريف أن يفيض على معاني كتابه «الفصوص» حسب ما يفهمها هو من نفسه، فأخذ الشرح منه ﷺ ولاشك أن أجاب، وكيف لا وجدّه حاتم طي ما بدا منه الجود العظيم إلا من كون هذا المظهر المحمدي الكامل في ظهره، ومن جوده ﷺ أنه أهدى لنا أذواقه وعلومه في كتبه لنحصل على ما حصل عليه؛ إذ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله هو المؤمن في الحقيقة، فافهم ما أشرنا إليه، وعلى الله قصد السبيل، فهو القاصد بنا وهو عين السبيل وعين ما يقصد، فالكل منه وإليه، فهو المؤمن المحب والمؤمن المسمى بالأخ والنفس هي نفسه والحقيقة حقيقته والمظاهر مظاهره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، ؛ فكل وجه في الوجود وجهه، فما طلب طالب إلا منه، ولا أعطى إلا إليه، فمن قال: يا رسول المدد، أو يا محيي الدين، أو يا عبد القادر، أو يا رفاعي لا يجيبه إلا الله؛ لأن الله قال: ﴿ٱلنَّاسُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْفُقَرَآءُ أَنتُمُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15]. فمن زعم أن الذي ينادي الأولياء مشرك فهو المشرك؛ لأننا لا نثبت غير الله، والوهابي يثبت غير الله، فهو المشرك ونحن الموحدون بفضل الله ورحمته؛ لأننا نراه في كل شيء، ونشاهده في كل شيء، فحينئذ لا يغيب عنّا: لأن الأشياء لا تغيب عنّا، وكيف يغيب عنا ونحن المؤمنون بأنه هو الظاهر ؟!. وأما أهل غير الحقيقة لا يصدقونه في أنه هو الظاهر، ولا يسلمون له كلامه فيعبدون ربهم بالتخيل فيطلبونه ولا يجدونه؛ لأنهم على قاعدة: كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فكذبوا الله في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، فمتى يجدونه وقد أعدموه؟! ولهذا أضل الله أعمالهم كما ضلوا فلا يجدون ربهم ولا يجدون أعمالهم إلا في العدم كما قال: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور:39]، وأما نحن فوجدنا عين الشراب لا عند السراب، فما ظمأنا ولكن شربنا

الذاتية الكاملة الشاملة آثارها عالمي الغيب والشهادة.

إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية الظاهرة في أظلال المظاهر والمجالي ﴿مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح خزائن العلويات من الأسماء والصفات، والسفليات من مظاهر الطبائع، والمرايا العدمية القابلة لانعكاس شمس الذات من مشكاة الأسماء والصفات، هو بذاته ﴿يَبْسُطُ﴾ ويقبض ﴿الرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من أظلاله وعكوسه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقبض عمن يشاء منهم، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته حسب أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل تحت ظل وجوده بمقتضى فضله وجوده ﴿عَلِيمٌ﴾ [الشورى: 12] بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حضوره شيء مما ظهر وبطن، وغاب وشهد.

ومن كمال استقلاله في تدابير ملكه وملكوته وحيطة علمه وشمول قدرته: ﴿شَرَعَ﴾ أي: قضى ووضع ﴿لَكُم﴾ أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿مِّنَ الدِّينِ﴾ القويم والطريق المستقيم الموصل إلى توحيده ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ أي: دينًا شرعه سبحانه ووضعه على نوح؛ إذ هو أول من ظهر على نشأة التدين والتشريع في طريق التوحيد، وهو الدين الموصل إلى توحيد الأفعال ﴿وَ﴾ الدين ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال جودنا هو الدين الموصل إلى توحيد الذات، لذلك ختم ببعثتك أمر الرسالة والتشريع، وبعدما عين سبحانه مبدأ التوحيد ومنتهاه، أشار إلى ما بينهما من المراتب، فقال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي: والأديان التي وضعناها على هؤلاء المشاهير، وغيرهم من جماهير الأنبياء والرسل المتشرعة وغير المتشرعة هو الموصل إلى توحيد الصفات.

وبالجملة: وصينا لعموم ذوي الأديان ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ المنزل إليهم،

وطربنا وساقينا، هو ساقي القوم، فهو أولنا شربًا وآخرنا شربًا، فلا يدخل الجنة حتى ندخلها جميعا مع أنه أول من يقرع بابها، ويدخلها بصورته الخاصة، ومن جهه حقيقته هو الآخر، فالأول هو والآخر هو، فلا يصدق من وصفه بدخول الجنة إلا بدخول مظاهر حقيقته، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40] أي: حتى يكشف لهم أن الحقيقة المحمدية عين المظاهر الصورية ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:20]، لأنه القائل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:5]، والمعنى استيلاء الحقيقة واندراج صور الوجود في حقيقة الرحمن فتلك الحقيقة موطن الصور، والله الموفق.

واستقيموا في الإطاعة والامتثال به ﴿وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: لا تختلفوا في أصل الدين الذي هو التوحيد الإلهي، وإن كانت الطرق والأديان والمناهج نحوه مختلفة باختلاف ذوي المراتب المترتبة اختلافاتهم إلى شئون الحق وتجلياته، فلك يا أكمل الرسل أن تدعو الناس إلى توحيد الحق، وإن كان ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: شقَّ وعظم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾ أي: دعوتك إياهم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى التوحيد الذاتي؛ إذ لم يعهد هذا من غيرك من الأنبياء والرسل الماضين، لذلك شق عليهم حسدًا وغيظًا، فكيف يحسدون ويغيظون لك ولشأنك؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم المطلع على استعدادات العباد وقابلياتهم ﴿يَجْتَبِي﴾ أي: يختار ويجذب ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى توحيده الذاتي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من المجبولين على فطرة التوحيد، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ ويوفق عليه ويرشد نحوه ﴿مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13] إليه سبحانه إنابة صادرة عن محض الإخلاص والتبتل والتفويض والتوكل.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى: 14-15].

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أن أصل الأديان كلها هو التوحيد، وأن الأنبياء والرسل إنما جاءوا لإظهاره وتبيينه، ظهر أن الأمم الهالكة ﴿مَا تَفَرَّقُوا﴾ واختلفوا من مذاهبهم ومشاربهم ﴿إِلَّا مِن﴾ بعدما ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الوحي المشتمل على بيان التوحيد من قبل الحق على ألسنة الكتب والرسل، فتركوا مقتضى الوحي، وأنكروا عليه فاختلفوا ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عدوانًا وظلمًا وإعراضًا عن الحق وأهله، وما ظهر بينهم هذا إلا مراء وافتراء.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وهي إمهال انتقامهم وتأخيره ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وحكم عليهم حين اختلافهم وتفرقهم إليه، فاستؤصلوا فيه بالمرة ﴿وَإِنَّ﴾ المختلفين المتفرقين ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ المنزل على أسلافهم ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد انقراض أسلافهم

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من الكتاب أمثال أولئك الأسلاف الضلال ﴿مُرِيبٍ﴾ [الشورى: 14] موقع لهم في الريب والضلال، لذلك اختلفوا معك يا أكمل الرسل وأنكروا على كتابك ودينك.

ولو كان لهم علم بكتابهم ما ظهروا عليك، وما طعنوا في دينك وكتابك؛ إذ الإيمان بكتاب من كتب الله، ودين من أديانه، ورسول من رسله يوجب الإيمان بجميع الكتب والرسل بناء على الأصل الذي سمعت من التوحيد ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الأصل الذي هو التوحيد الذاتي المسقط لعموم الإضافات والاختلافات ﴿فَادْعُ﴾ يا أكمل الرسل كل من تدعوه من المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ أنت في نفسك على جادة التوحيد ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من قِبل ربك، ومكن إقدام عزمك عليها معتدلاً حنيفًا مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهوية أصحاب الخلاف والاختلاف، الضالين المترددين في أودية الجهالات وأغوار الخيلات المنافية لصفاء مشرب التوحيد.

﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد صفاء سرك وخلاء خلدك عن الأكدار الموجبة للاختلاف: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: بجميع ما أنزل الله ﴿مِن كِتَابٍ﴾ مبين موضح لطريق الحق وتوحيده ﴿وَ﴾ قل بعد ذلك أيضًا إظهارًا لدعوتك إياهم: ﴿أُمِرْتُ﴾ من قِبل ربي ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وأبين لكم طريق العدالة الإلهية بمقتضى وحي الله وإلهامه إياي، فأنا مأمور بتبليغه وتبيينه إياكم وتربيتكم وتكميلكم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عموم عباده ﴿رَبُّنَا﴾ الذي ربانا للإرشاد والتكميل ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أراد أن يربيكم بالهداية والرشاد، وإن لم نكن مأمورين من عنده سبحانه لإهدائكم وإرشادكم ما لنا معكم.

إذ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي: جزاء صالحها وفاسدها ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ كذلك؛ إذ كل منَّا ومنكم مجزي بما عمل ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي: نزاع ولا خصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ بعدما بلغناكم ما أمرنا بتبليغه، وأوضحنا لكم طريق الحق، وبالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ أي: الذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم، إن تعلق مشيئته بجمعنا ﴿وَ﴾ كيف لا يجمع بيننا سبحانه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15] أي: رجوع الكل إليه كما هو صدوره منه.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا

يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: 16-19].

﴿وَ﴾ بعد وضوح محجة الحق ومنهج اليقين ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ يجادلون ويخاصمون، متشبثين بأذيال الجدل والمغالطات الواهية الزائفة ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ سيما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: قَبِله العقل والنقل والكشف الصريح والذوق الصحيح ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ التي تمسكوا بها ﴿دَاحِضَةٌ﴾ زائلة باطلة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿وَعَلَيْهِمْ﴾ بسبب عنادهم وجدالهم بالحق الصريح ﴿غَضَبٌ﴾ نازل من الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 16] لا عذاب أشد منه وأفزع.

فكيف يحاجون أولئك المعاندون في توحيده سبحانه مع أنه هو ﴿اللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأمور عباده ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ لإصلاحهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتب النازلة من عنده لتبيين مناهج توحيده ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصريح المعرى عن الباطل الزاهق الزائل مطلقًا ﴿وَ﴾ أنزل على طبق الكتاب ﴿الْمِيزَانَ﴾ أي: جنس الشرائع والأديان التي توزن بها أعمال الأنام وإخلاصهم فيها، وثباتهم على جادة التوحيد والإسلام، فعليك يا أكمل الرسل وعلى من تبعك امتثال عموم ما أمر ونهى من أحكام كتابك، وأن تزن أنت ومن معك أعمالكم وأخلاقكم وأحوالكم بميزان الشرع القديم والدين المستقيم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يُدْرِيكَ﴾ أيها المجبول على الدراية والشعور ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ الموعودة التي تعذرت دونها التدارك والتلافي ﴿قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17][1] إتيانها

---

(1) ﴿أنزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ﴿والميزان﴾ والعدل والتسوية . ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة، وقيل: الذي يوزن به ﴿بالحق﴾: ملتبسا بالحق مقترنا بعيدا من الباطل أو بالغرضالصحيح كما اقتضته الحكمة . أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك ﴿الساعة﴾ في تأويل البعث فلذلك قيل: ﴿قريب﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب، فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف، المماراة: الملاجة؛ لأن كل واحد منهما يمرى عند صاحبه ﴿لفي ضلال بعيد﴾ من الحق: لأن قيام الساعة غير مستبعد من

وقيامها، وعند قيامها تتندمون وما ينفعكم الندم.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ وبقيامها استهزاءً وتهكمًا ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِهَا﴾ عنادًا ومكابرة، ويزعمون ألَّا يلحقهم ما يوعدون فيها من العذاب الروحاني والجسماني ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة، هم ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ ومن إلمامها بغتة قبل تهيئة الإعداد والزاد ﴿وَ﴾ ذلك؛ لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقينًا ﴿أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ المحقق إتيانه وقيامها بلا ريب ومرية ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها المؤمنون بكمال قدرة الله ووفور حكمته ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المكابرين ﴿الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ ويشكون ﴿فِي﴾ قيام ﴿السَّاعَةِ﴾ الموعود قيامها من قبل الحق مراء ومجادلة ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18] بمراحل عن الهداية الموصلة إلى مقر التوحيد.

إذ هم محجوبون بالأغشية الكثيفة الإمكانية، والأغطية الغليظة الهيولانية، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ المنزه ذاته عن سمة الحدوث والإمكان، المقدس أسماؤه وصفاته عن وصمة العيب والنقصان ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ الخُلّص ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم بالرزق المعنوي، الموصل إلى مبدئهم ومعادهم ترحمًا وتلطفًا معهم ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته الصادرة منه بمقتضى حكمته ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19] الغالب على مطلق مراداته الجارية منه حسب اختياره.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى: 20-22].

قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء. «الكشاف» (1155/1).

ثم لما أشار سبحانه إلى كمال تنزعه وتقدس ذاته عن وصمة النقصان مطلقًا، وإلى كمال ترحمه وتلطفه مع خُلّص عباده، قال: ﴿مَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة؛ ليحصد ما يترتب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ ونضاعف ثوابها لأجله، ونعطه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلاً منّا وتكريمًا ﴿وَمَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ ونوى نماء بذوره فيها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ ولذاتها الباقية ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20] لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية؛ لذلك ما له حظ في الآخرة ونصيب من لذاتها.

أهم بأنفسهم يحرمون نفوسهم من اللذات الأخروية والفتوحات الروحانية ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ من شياطين الجن والإنس ظاهروهم عليه؛ حيث ﴿شَرَعُوا﴾ وزينوا ﴿لَهُم مِّنَ الدِّينِ﴾ الباطل والديدنة الزائغة ﴿مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله المدبر لعموم مصالح عباده على مقتضى حكمته، ولم يأمر بوضعه واتخاذه لا بالوحي ولا بطريق الإلهام، بل إنما أخذوا ما أخذوا من تلقاء أنفسهم، وعلى مقتضى أهويتهم الباطلة؛ لذلك لم يتم لهم إلا الخيبة والخذلان والحسرة والحرمان.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ والقضاء صادرة من الله بتأخير أخذهم لظلمهم وإمهال انتقامهم إلى يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ﴾ وحكم اليوم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الهداية والضلال، فيلحق لكل منهم جزاء ما اقترفوا من الحسنات والسيئات ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، ومتابعة آرائهم وإخوانهم من الشياطين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21] في النشأة الأخرى، وهو حرمانهم عما أعد لنوع الإنسان المصور على صورة الرحمن من الكرامات السنية والمقامات العلية، لا عذاب أشد منه وأفزع.

ومن كمال حرمانهم وخسرانهم: إنهم حينئذ ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود عدوانًا وظلمًا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مرعوبين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: من لحوق وبال ما اكتسبوا من الآثام والمعاصي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لاحق لهم، وما ينفعهم الإشفاق وعدمه؛ لانقضاء نشأة التدارك والتلافي.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية المستمرة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وترى

أيضًا أيها الرائي المؤمنين الذين آمنوا بوحدة الحق حين أخبرهم الرسل ودعاهم إليه حسب استعداداتهم الفطرية وقابليتهم الجبلية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وأكدوا إيمانهم وتوحيدهم بصالحات أعمالهم وأخلاقهم؛ ليدل على توحيد الأفعال والصفات أيضًا، هم في النشأة الأخرى لكمال إطاعتهم وانقيادهم متنعمون ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: منتزهات اليقين العلمي والحقي والعيني، ومع ذلك حاصل حاضر ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ من اللذات المتجددة والفيوضات المترادفة من الفتوحات وأنواع الكرامات ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي أوصلهم إلى كنف قربه وجواره ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أعد لأرباب العناية والتوحيد ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22] والفوز العظيم الذي يستحقر دونه عموم اللذات والكرامات.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى: 23-26].

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الفضل والفوز هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل به ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة ذاته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المفضية الموصلة لهم إلى توحيد أفعاله وصفاته ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل بعدما بينت لهم طريقي الهداية والضلال، وبلغت ما يوصل بوحي إليك للإرشاد والتكميل إياهم: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ﴾ أي: على تبليغي وتبشيري إياكم ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جعلاً منكم ونفعًا دنيويًا ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: ما أطلب منكم نفعًا دنيويًا بل أطلب منكم محبة أهل بيتي ومودتهم؛ ليدوم لكم طريق الاستفادة والاسترشاد منهم؛ إذ هم مجبولون على فطرة التوحيد الذاتي مثلي.

روي أنها لما نزلت، قيل: يا رسول الله ﷺ: من قرابتك؟ قال: «علي وفاطمة

وأبنائهما»[1].

وكفاك شاهدًا على ذلك ظهور الأئمة الذين هم أكابر أولي العزائم في طريق الحق وتوحيده، صلوات الله على أسلافهم وسلامه عليهم وعلى أخلافهم، ما تناسلوا بطنًا بعد بطن.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب متابعة الرسول وأهل بيته ﴿حَسَنَةً﴾ دينية حقيقة ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ أي: فيما يترتب عليها من الكرامات الأخروية ﴿حُسْنًا﴾ أي: زيادة حسن تفضلاً منّا وإحسانًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم عباده ونياتهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من أحب أهل بيت حبيبه لرضاه سبحانه ﴿شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23] يوفي عليهم الثواب، ويوفر عليهم أنواع الكرامات.

أينكرون مطلق رتبة النبوة والرسالة؟! أولئك المنكرون المعاندون ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾ محمد ﷺ ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ واختلق آيات مفتريات ترويجًا لمدعاه، وما قولهم هذا وزعمهم بك يا أكمل الرسل بأمثاله إلا قول باطل، وزعم زاهق زائغ ﴿فَإِن يَشَإِ اللهُ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ كما ختم على قلوبهم، ويضلك عن طريق توحيده مثل ما أضلهم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ لو تعلق مشيئته ﴿وَيُحِقُّ﴾ ويثبت ﴿الْحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ التي هي آيات القرآن بلا سفارتك ورسالتك، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلمه بعلمه الحضوري ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24] فيظهر عليهم ما هو مكنون في صدورهم وضمائرهم، ويجازيهم بمقتضاه.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه بمكنونات صدورهم ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ الصادرة عن محض الندم والإخلاص اللذين هما من أفعال القلوب ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ المسترجعين نحوه بكمال الخشية والخضوع ﴿وَ﴾ بعد قبول التوبة عنهم ﴿يَعْفُو﴾ ويتجاوز ﴿عَنِ﴾ مطلق ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الصادرة عنهم على سبيل الغفلة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: 25] بظواهركم وبواطنكم.

﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ أي: بحيث يقبل توبة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ترحمًا لهم وإشفاقًا، بعدما رجعوا نحوه تائبين نادمين عما فعلوا ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بدل

---

(1) ذكره الرازي في تفسيره (432/13).

إخلاصهم واستحيائهم منه سبحانه من الكرامات ما لا يكتنه وصفه ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الساترون بأباطيل هوياتهم، وما صدر منها من الجرائم والآثام شمس الحق الحقيق بالكشف والظهور ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: 26] حين رجعوا إلى الله، وحشروا نحوه مهانين صاغرين.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشورى: 27-31].

وبالجملة: كفر عموم الكفرة واستكبارهم وضلالهم، إنما نشأ من كفرانهم بنعم الله وطغيانهم لأجلها على الله وعلى خُلَّص عباده، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ﴾ الصوري المستجلب المستتبع لأنواع العتو والاستكبار ﴿لِعِبَادِهِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان بمقتضى بشريتهم وبهيميتهم ﴿لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ بغيًا فاحشًا، واستكبروا على عباد الله، وظهروا على أوليائه، ومشوا على وجه الأرض خيلاء مفتخرين بمالهم من الجاه والثروة والرئاسة، فسرى بغيهم واستكبارهم على الله وعلى أنبيائه ورسله، فكفروا لذلك ظلمًا وعدوانًا ﴿وَلَكِن﴾ جرت سنته سبحانه، واقتضت حكمته على أنه ﴿يُنَزِّلُ﴾ ويفيض ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: مقدارًا وتقدير ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ على من يشاء بمقتضى حكمته ومشيئته، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِ﴾ أي: باستعداداتهم وعموم أحوالهم ﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] يعلم منه ما خفي عليهم وما ظهر دونهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه سرائر عباده وضمائرهم ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ بمقتضى علمه وحكمته ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾[1] وآيسوا من نزوله ﴿وَ﴾ بتنزيله وإمطاره

(1) أي: يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة، فإن حصول النعمة

﴿يَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ الواسعة على جميع أقطار الأرض وأرجائها عناية منه سبحانه إلى سكانها من أجناس المواليد وأنواعها وأصنافها ﴿وَ﴾ كيف لا يرحم سبحانه على مظاهره؛ إذ ﴿هُوَ الوَلِيُّ﴾ المولي لعموم أمورهم المنحصرة على ولايتهم؛ إذ لا ولاية إلا له ﴿الحَمِيدُ﴾ [الشورى: 28] المستحق لجميع المحامد بذاته؛ إذ عموم المظاهر وذرائر الأكوان حامدة له سبحانه طوعًا ورغبة حالاً ومقالاً.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال ولايته وتدبيره وتربيته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: إظهار الكائنات العلوية والسفلية بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وبسط ﴿فِيهِمَا﴾ وركب منهما ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ ذي حياة وحركة ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الأظلال والعكوس إلى شمس الذات، وقبضهم عليها بعد بثهم وبسطهم منها ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ ويريد ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 29] بلا فترة وتقصير.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الأظلال الهالكة في أنفسها ﴿مَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ مضرة مؤلمة ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب اقترافكم المعاصي والآثام ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْفُو﴾ سبحانه ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] من المعاصي، لا يعقبها بمصيبة تخفيفًا لكم وتسهيلاً.

﴿وَ﴾ لو أراد سبحانه تعقيب كل معصية بمصيبة ﴿مَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: ليس لكم أن تفوتوا شيئًا مما قضى سبحانه عليكم من المصائب المستتبعة لجرائمكم وآثامكم إن شاء، ﴿وَ﴾ الحال أنكم عاجزون في أنفسكم، مقهورون تحت قبضة قدرته؛ إذ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ويحفظكم منها ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 31] ينصركم ويدفع عنكم ما يؤذيكم ويعينكم على مبتغاكم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ

بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح فيكون أدعى إلى الشكر.

أَللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: 32-36].

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على ولايته الكاملة، وتدبيراته الشاملة ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: السفن الجاريه ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: 32] أي: كالجبال الرواسي في العظمة والثقل.

﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ المجرية لهن ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ ويبقين تلك السفن حيئذ ﴿رَوَاكِدَ﴾ سواكن ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ أي: ظهر البحر ولججه، فضاع جميع من فيها وما فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإجراء والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات على تولية الحق وتدبيره ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ حبس نفسه في مقام الرضا بما قسم له ربه ﴿شَكُورٍ﴾ [الشورى: 33] بما ظهر عليه من آله ونعمائه.

﴿أَوْ﴾ إن يشأ يرسلهن إرسالاً عنيفًا بالرياح العاصفة حتى ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يغرقهن، ويهلك بعض من فيهن ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بشؤم أعمالهم التي اقترفوها من البخل والحسد والحرص المفرط والأمل الطويل، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 34] أي: ومع ذلك يتجاوز سبحانه عن إهلاك أكثرهم، وينجيهم من ورطة الهلاك بحسن أعمالهم وخلوص نياتهم تفضلاً منه سبحانه إياهم وتكريمًا لهم.

كل ذلك ليختبر سبحانه عباده، وينتقم عنهم، ويميز منهم أهل الرضا والتسليم عن غيرهم ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ أي: وليعلم المجادلون المكابرون ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ومقتضياتها عنادًا وعدوانًا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: 35] مهرب ومخلص من عذابنا إن تعلقت إرادتنا بانتقامهم وإهلاكهم.

وإن استظهر أهل الجدال بالأموال والأولاد، واستكبروا بها وافتخروا عليها، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنّا: ﴿فَمَا أُوتِيتُم﴾ وأعطيتم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ حقير قليل، ما هي إلا من حطام الدنيا ومتاعها ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فانية بفنائها، تتمتعون بها فيها مدة يسيرة، ثم تمضون مع حسرة كثيرة وندامة طويلة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من اللذات الروحانية والكرامات المعنوية ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها، بل من آلافها وأضعافها ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أقدم وأدوم ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق وانكشفوا بكمالات أسمائه وأوصافه، وتحققوا بشهود شئونه وتجلياته ﴿وَ﴾ هم بعدما تمكنوا في مقام الرضا والتسليم، وتوطنوا في أعظم سواد الفقر، وأعلى درجات عالم اللاهوت ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من

الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: 36] يفوضون أمورهم ويسلمون، غاضين عيون بصائرهم وأبصارهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق مطلقًا، لذلك ما يرون بنوره من مرايا مظاهره ومجاليه إلا لمعات وجهه الكريم.

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى: 37-42].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ وهي الآثام والجرائم المؤديان إلى الشرك الجلي والخفي ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: الصغائر المنتهية إلى الكبائر بالرسوخ والإصرار ﴿وَ﴾ أيضًا من جملة أخلاق هؤلاء المؤمنين المحسنين ﴿إِذَا مَا غَضِبُوا من مكروه هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37] يبادرون إلى العفو والستر، وكظم الغيظ، وإصلاح البين، وإخراج الغل والحقد عن نفوسهم.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي: أجابوا، وقبلوا دعوة من دعاهم إلى الطاعات والعبادات ومطلق الخيرات والحسنات، لا لغرض دنيوي بل ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ طلبًا لمرضاته وهربًا عن سخطه وانتقاماته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: أداموا الميل والرجوع إلى الله في جميع حالاتهم ﴿أَمْرُهُمْ﴾ أي: عموم أمورهم المتعلقة لمعاشهم ومعادهم ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: هم متشاورون فيها مع إخوانهم، بلا استبدادهم لهم فيها برأيهم ولا انفراد بعقلهم ﴿وَ﴾ من معظم أخلاقهم أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: أبحنا لهم وأضفنا إليهم من الرزق الصوري ﴿يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38] في سبيلنا للفقراء والمساكين، طالبين منّا مرضاتنا ومثوباتنا.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم وأجلها: إنهم هم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ﴾ ولإخوانهم في الدين ﴿الْبَغْيُ﴾ والعدوان من بغي باغٍ ظالم وعدو عادٍ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: 39] يبادرون إلى الغلبة والانتصار غيرة على الله، وحمية لحمى حدوده الموضوعة على

مقتضى العدالة القويمة الإلهية عن الظلم والعدوان، وإظهارًا لما أودع الحق فيهم من فضيلة خصلة الشجاعة المحمودة عند الله، وعند عموم أرباب المروءة من الأنبياء والأولياء؛ إذ كلا طرفيها وهما الجبن والتهور، مذمومان عقلاً وشرعًا، والشجاعة المقتصدة بينهما محمودة جدًا.

ثم قال سبحانه تعليمًا لعباده طريق هدايته ورشاده: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ أصابتك من أحد من بني نوعك ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا أزيد منها؛ أي: إذا أساءك أحد بسيئة، فأنت أيها المكلف تسيئه بمثلها جزاءً وعقوبة، سمى الجزاء سيئة؛ للازدواج والمشاكلة، هذا بحسب الرخصة الشرعية، وأما بحسب العزيمة ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ وتجاوز عن الجاني والمسيء خالصًا لوجه الله وطلبًا لمرضاته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالصلح والإحسان ما أفسده بالجناية والإساءة ﴿فَأَجْرُهُ﴾ قد وقع ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وجزاؤه مفوض إلى كرمه يجازيه بمقتضى فضله وجوده ما شاء الله، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بمقتضى عدالته الذاتية ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40] المجاوزين عن الحدود الإلهية سيما في العقوبات والجنايات.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ﴾ وغلب على الظالم ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: بعدما ظلم منه منتقمًا عليه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المنتصرون المنتقمون ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41] بالمعاتبة والمعاقبة؛ لأنهم منتقمون بالرخصة الشرعية.

بل ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بهما ﴿عَلَى﴾ المسرفين ﴿الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي: يبتدئون بالظلم، ويظهرون بينهم بالعدوان والطغيان ﴿وَيَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون بظلمهم فسادًا ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجاوزون عن الحدود الشرعية ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 42][1] هو إحراقهم بنار

(1) يقول تعالى ذكره: ولمن انتصر ممن ظلمه ممن بعد ظلمه إياه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يقول: فأولئك المنتصرون منهم لا سبيل للمنتصر منهم عليهم بعقوبة لا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحق، ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد، لم يظلم، فيكون عليه سبيل، وقد اختلف أهل التأويل في المعني بذلك، فقال بعضهم: عني به كل منتصر ممن أساء إليه، مسلما كان المسيء أو كافرا، ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع، قال: ثنا معاذ، قال: ثنا ابن عون، قال: كنت أسأل عن الانتصار ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...﴾الآية، فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه، قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين قالت: قالت أم المؤمنين: دخل رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا،

القطيعة، لا عذاب أشد منه وأفزع.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشورى: 43-46].

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ من المظلومين، ولم ينتصر، ولم ينتقم من الظالم كظمًا وهضمًا

ولم يفطن لها، فقلت بيده حتى فطّنته لها، فأمسك، وأقبلت زينب تقحم عائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهي، فقال لعائشة:«سُبيها» فسبتها وغلبتها وانطلقت زينب فأتت عليا، فقالت: إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم، فجاءت فاطمة، فقال لها:«إنها حبة أبيك وربّ الكعبة» فانصرفت وقالتِ لعليّ: إني قلت له كذا وكذا، فقال كذا وكذا!-قال: وجاء عليّ إلى النبيّ ﷺ فكلّمه في ذلك، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:(وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ...) الآية، قال: هذا في الخمش يكون بين الناس، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله:(وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) قال: هذا فيما يكون بين الناس من القصاص، فأما لو ظلمك رجل لم يحلّ لك أن تظلمه، وقال آخرون: بل عُنِيَ به الانتصار من أهل الشرك، وقال: هذا منسوخ، ذكر من قال ذلك: قال ابن زيد، في قوله: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) قال: لمن انتصر بعد ظلمه من المؤمنين انتصر من المشركين وهذا قد نسخ، وليس هذا في أهل الإسلام، ولكن في أهل الإسلام الذي قال الله تبارك وتعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) والصواب من القول أن يقال: إنه معنيّ به كل منتصر من ظالمه، وأن الآية محكمة غير منسوخة للعلة التي بينت في الآية قبلها، وقوله: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) يقول تبارك وتعالى: إنما الطريق لكم أيها الناس على الذين يتعدّون على الناس ظلما وعدوانا، بأن يعاقبوهم بظلمهم لا على من انتصر ممن ظلمه، فأخذ منه حقه، وقوله: (وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) يقول: ويتجاوزون في أرض الله الحدّ الذي أباح لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحق، يقول: فهؤلاء الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب من الله يوم القيامة في جهنم مؤلم موجع- «تفسير الطبري» (549/21).

﴿وَغَفَرَ﴾ أي: عفا وتجاوز مسترجعًا إلى الله، طالبًا الأجر منه سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العفو والصفح عند القدرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43] أي: من الأمور التي آثرها أولو العزائم الصحيحة من أرباب العناية، وهم الذين يرون من الله جميع ما يرون منحة أو محنة، ويوطنون نفوسهم على الرضا بما جرى عليهم من القضاء.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ويغويه عن طريق توحيده ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ سواه ينصره ويدفع عنه ما يخذله ﴿مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد خذلان الله إياه ﴿وَ﴾ بعدما ردهم سبحانه إلى دار الانتقام بأنواع الخيبة والخسران ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ المغرورين بما هم عليهم من الجاه والثروة والمفاخرة بالأموال والأولاد في دار الدنيا ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم المحيط بهم من جميع جوانبهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذ أي: بعضهم لبعض من شدة اضطرابهم واضطراهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ رجعة إلى الدنيا وعود إليها ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 44] حتى نعود ونستعد ليومنا هذا.

﴿وَ﴾ هم في هواجس أنفسهم يتكلمون بهذا الكلام تحسرًا وتضجرًا ﴿تَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَاشِعِينَ﴾ خاضعين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ والصغار المفرط الشامل لهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ نحو النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: بنظرة خفية من تحت الأهداب بلا تحريك الأجفان من كمال رعبهم وخشيتهم منها، كنظر من يؤمر بقتله إلى سيف الجلاد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين رأوا أعداءهم معذبين: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ المسرفين المفسدين ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالظلم والضلال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالضد والإضلال، لذلك استحقوا العذاب المخلد ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والنكال المؤبد فيها ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستظلون تحت لواء العدالة الإلهية ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضاها بإغواء الغوائل الإمكانية والتسويلات الشيطانية ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: 45] وعقاب دائم أليم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وينقذونهم من عذابه، والحال أنه قد أضلهم الله بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ المنتقم الغيور ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 46] إلى الهداية والنجاة من وبال ما يترتب على الغي والضلال.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ

يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: 47-48].

وبالجملة: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أيها المكلفون بالإجابة والقبول ﴿لِرَبِّكُم﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد، وتوجهوا نحوه مخلصين، وأجيبوا داعيه محمدًا ﷺ، مصدقين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يحل فيه العذاب عليكم، مع أنه ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا رفع ولا رد للعذاب النازل فيه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وبعدما قضى سبحانه وحكم حتمًا ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ سواه، وقد جرى حكمه بتعذيبكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: 47] وما يتيسر لكم حينئذ إنكار أسباب العذاب وموجباته؛ إذ تشهد عليكم يومئذ أعضاؤكم وجوارحكم بما اقترفتم بها من الجرائم والآثام.

وبالجملة: قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير أمثال هذه المواعظ والتذكيرات نيابة عنّا، فإن امتثلوا وقبلوا، فقد اهتدوا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عنها، ولم يلتفتوا إليها عنادًا ومكابرة ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: فاعلم أنا ما أرسلناك يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ يحفظهم عن جميع ما يضرهم ويغويهم، بل ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي: ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت، وبعد تبليغك ما بقي عليك من حسابهم من شيء.

ثم أشار سبحانه إلى وهن عزائم الإنسان وضعف عقائده، فقال: ﴿وَإِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ تفضلاً ﴿مِنَّا﴾ بلا سبق استحقاق منه ﴿رَحْمَةً﴾ شاملة محيطة بجميع أعضائه وجوارحه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وانبسط بحلولها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حينًا من الأحيان ﴿سَيِّئَةٌ﴾ من السيئات مؤلمة لهم، مع أنها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام الجالبة لأنواع المضرات ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ حينئذ كَفُورٌ﴾ [الشورى: 48] مسرع إلى الكفران، مبادر إلى النسيان، كأنه لم ير منّا الإحسان والإنعام قط.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: 49-53].

فكيف يكفرون لوفور نعمة الحق وشمول رحمته مع أنه ﴿لِلَّهِ﴾ المحيط بكل المظاهر الموجد المظهر لها ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات وما بينهما من الممتزجات؛ لذلك ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ إرادة واختيارًا حيث ﴿يَهَبُ﴾ بمقتضى جوده وفضله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿إِنَاثًا﴾ محضًا من الأولاد، قدمهن للتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ونكرهم؛ لأن النكارة مطلوبة فيهن ﴿وَيَهَبُ﴾ أيضًا ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿الذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49] الخُلَّص، عرَّفهم؛ لأنهم أولى بالتعريف وأجرى بالمعرفة.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ ويخلط لهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ مجتمعين ممتزجين ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿عَقِيمًا﴾ بلا إيلاد واستيلاد، ذكرًا كان أو أنثى إظهارًا لكمال قدرته، وإشعارًا بأنه لا تأثير للوسائل والأسباب العادية، حتى ينسب تناسلهم وتوالدهم إلى اجتماع الأزواج والزوجات منهم، كما هو المتبادر إلى الأحلام السخيفة، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 50] على إفاضة ما ينبغي لمن ينبغي كما ينبغي، بمقتضى كرمه وجوده إرادة واختيارًا، بلا إيجاب والتزام من جانبه سبحانه.

ثم لما شنَّع اليهود على رسول الله ﷺ وعيروه وطعنوا في نبوته، مستهزئين معه؛ حيث قالوا له تهكمًا: ألَا تكلم الله وتنظر إليه لو كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه.

فقال ﷺ: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»[1] إذ هو سبحانه أجل وأعلى من أن تنظر إليه العيون، وتدركه الأبصار ومحيط به الآراء والأفكار.

أنزل سبحانه هذه الآية تصديقًا لحبيبه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: لجنسه، ليس في وسعه واستعداده ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ مشافهة بلا سترة

(1) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (449/5).

وحجاب؛ إذ لا مناسبة بين المحدود والمحبوس في مضيق الجهات، وبين غير المحدود والمستغني عن الحدود والجهات حتى تقع المكالمة بينهما ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: تكلمًا ناشئًا عن وحي إلهامي أو منامي ﴿أَوْ﴾ تكلمًا مسموعًا ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وراء تعين من التعينات، كما سمع موسى كلامه سبحانه من وراء حجاب الشجرة، فكذلك يسمع العارف المتحقق بمقام الفناء في الله كلامه سبحانه، من وراء تعينات عموم المظاهر الناطقة بتسبيحه سبحانه حالاً ومقالاً ﴿أَوْ﴾ تكلمًا بالسفارة والترجمان بأن ﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ من سدنة ذاته التي هي الملائكة الحاملون لكمالات أسمائه وصفاته ﴿فَيُوحِيَ﴾ الملك ﴿بِإِذْنِهِ﴾ سبحانه ﴿مَا يَشَاءُ﴾[1] ويسمعه من كلامه سبحانه لمن يشاء من عباده.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيٌّ﴾ في شأنه المختص به، وكمالاته اللائقة له، متعالٍ عن أن يحوم حول سرادقات عز سلطانه أحد من خلقه، فكيف أن يتكلموا معه بلا سترة وحجاب ﴿حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51] في كمال تمنعه وكبريائه ونهاية تعززه وترفعه؛ بحيث تكلم تارة بالوحي والإلهام، وتارة من وراء الحجب والأستار، وتارة بطريق السفارة والرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء والرسل، وتكلمنا معهم بإحدى الطرق الثلاث ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أيضًا يا أكمل الرسل لنتكلم معك ﴿رُوحًا﴾ منًا تكريمًا لك وتعظيمًا لشأنك، وتخصيصًا لك من بين سائر الأنبياء لظهوره على نشأة التوحيد الذاتي، ناشئًا ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ المتعلق لتدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا، ألا وهو القرآن المنتخب من حضرة علمنا ولوح قضائنا، سميناه روحًا؛ لأنه يحيي به أموات مطلق التعينات، وخصصناك به مع أنك ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ وتعلم قبل نزوله ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ المبين للأحكام المتعلقة بتهذيب الظواهر والبواطن ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ والإيقان المتعلق لتوحيد الحق وعرفانه، لكونك أميًا عاريًا عن طريق الاستفادة والتعلم مطلقًا ﴿وَلَٰكِن﴾ من محض جودنا وفضلنا اصطفيناك لرسالتنا، واجتبيناك لخلافتنا

(1) إذا دخل القلب في عالم الغيب فما يراه فهو كشف، وما يسمعه فهو كلام وما يتكلم به فهو وحي، فيتولد مما يسمع الفهم، وما يتولد مما يبصر فهو بيان وكشف ونظر، وما يتولد مما يتكلم به فهو حكمة ومعرفة وعلم، وما يقع في موضع العقل من القلب فهو علم لدني، وما يقع في الفؤاد وهو الرؤية والإدراك. تقسيم الخواطر (ص95) بتحقيقنا.

ونيابتنا؛ لذلك أنزلناه إليك.

وبعد نزوله ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ تلألأ وتشعشع بعد ظهور نشأتك ﴿نَهْدِي بِهِ﴾ إلى توحيدنا ﴿مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المجبولين على فطرة الإسلام ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيضًا بمقتضى خلافتك ونيابتك عنَّا ﴿لَتَهْدِي﴾ به عموم عبادنا وتدعوهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] لا عوج فيه ولا انحراف؛ لكونه ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات، وما ظهر منهما وفيهما وعليهما، وبالجملة: عموم ما ظهر وبطن وغاب وشهد؛ إذ هو سبحانه آخذ بيمين القدرة بناصية الكل، ويجذبه نحوه.

﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستمدون من الله في كل الأحوال ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى وجهه الكريم لا إلى غيره من وجوه الأسباب والوسائل العادية ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] أي: إليه ترجع وجوه الصور المرتبة بعد ارتفاع الوجوه الهالكة عن البين واضمحلال الرسوم الباطلة عن العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتحقق في صراط الحق، والراكن نحوه بحزائمك الأقصى وعزائمك الأوفى أن تجعل قبلة مقصدك توحيد ربك، وتستقيم على جادته التي هي الدين القويم المحمدي، والسبيل السوي المصطفوي، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] وتقتفي أثر من سلف من خُلّص أتباعه الذين اهتدوا بمتابعته إلى مقر التوحيد واليقين بك، ووصلوا إلى عالم اللاهوت والتمكين بعدما انخلعوا عن جلبات ناسوتهم بالمرة، بتوفيق من الله وجذب من جانبه، وإرشاد حبيبه ﷺ.

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزخرف[1]

لا يخفى على المحققين المتحققين بحيطة الحق على عموم المظاهر، وشمول أسمائه، وأوصافه الذاتية عليها، أن من جملة أسمائه الحسنى وصفاته الأسنى اسم المتكلم، وصفة الكلام المنزل من عنده على كل أمة من الأمم حسب اللغة الموضوعة فهيم بوضع إلهي؛ إذ واضع الألفاظ واللغات كلها هو الله سبحانه.

ولا شك أن القرآن المنزل على خير الأنام إنما هو من أمهات الكتب الإلهية وأصولها؛ لكونه منتخبًا من الحضرة العلمية الإلهية، منتزعًا من لوح محفوظ القضاء على الوجه الأتم الأبلغ.

ولهذا أقسم سبحانه بكتابه هذا، بعدما خاطب على حبيبه ﷺ بما خاطب، ثم منّ

---

(1) الزُّخْرُفُ بِالضَّمِّ: الذَّهَبُ نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ وهو قَوْلُ الفَرَّاءِ ومنه قَوْلُه تعالَى: (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ) قال ابنُ سِيدَه: هذا هو الأَصْلُ ثم سُمِّيَ كُلُّ زِينَةٍ زُخْرُفًا شُبِّهَ كُلُّ مُمَوَّهٍ مُزَوَّرٍ بِهِ وفي حديثِ يومِ الفَتْحِ: (أَنَّهُ لم يَدْخُلِ الكَعْبَةَ حتى أَمَرَ بالزُّخْرُفِ فنُحِّيَ وأَمَرَ بالأَصْنامِ فكُسِّرَتْ) الزُّخْرُفُ هنا: نُقُوشٌ وتَصاوِيرُ تُزَيَّنُ بها الكَعْبَةُ وكانتْ بالذَّهَبِ، الزُّخْرُفُ: الزِّينَةُ وكَمالُ حُسْنِ الشَّيْءِ . الزُّخْرُفُ مِن القَوْلِ: زِينَتُهُ وحُسْنُهُ بتَرْقِيشِ الكَذِبِ ومنه قَوْلُهُ تَعالَى: (زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا) الزُّخْرُفُ مِن الأَرْضِ: أَلْوانُ نَباتِها مِن بَيْنِ أَحْمَرَ وأَصْفَرَ وأَبْيَضَ ومنه قَوْلُهُ تَعالَى: (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أي: زِينَتَهَا مِنَ الأَنْوارِ والزَّهْرِ وقيل: تَمامَها وكَمالَهَا، والزَّخارِفُ: السُّفُنُ كما في التَّهْذِيبِ وفي المُحْكَمِ: ما زُيِّنَ مِن السُّفُنِ وفي العَيْنِ: ما يُزَخْرَفُ به السُّفُنُ، الزَّخارِفُ مِن الماءِ: طَرائِقُهُ نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ، الزَّخارِفُ: دُوَيْبّات تَطِيرُ على الماءِ كما في التَّهْذِيبِ زَاد في العُبابِ: ذَواتُ أَرْبَعٍ كَالذُّبابِ وفي المُحْكَمِ: ذُبابٌ صِغارٌ ذاتُ قَوائِمَ أَرْبَعٍ تَطِيرُ على الماءِ قال أَوْسُ بنُ حَجَرٍ: تَذَكَّرَ عَيْنًا مِنْ غُمازَةَ ماؤُها ... لَهُ حَدَبٌ تَسْتَنُّ فِيهِ الزَّخارِفُ ومِمّا يُسْتَدْرَكُ عليه: الزُّخْرُفُ: الزِّينَةُ، وبَيْتٌ مُزَخْرَفٌ، وزَخْرَفَ البَيْتَ زَخْرَفَةً: زَيَّنَهُ وأَكْمَلَهُ، وكُلُّ مَا زُوِّقَ وزُيِّنَ فقد زُخْرِفَ، وقال ابنُ أَسْلَمَ: الزُّخْرُفُ: مَتاعُ البَيْتِ، والمُزَخْرَفُ: المُزَيَّنُ قال العَجّاجُ: يا صاحِ مَا هاجَ العُيُونَ الذُّرَّفا... مِنْ طَلَلٍ أَمْسَى تَخالُ المُصْحَفَا ، رُسُومَهُ والمُذْهَبَ المُزَخْرَفَا وزَخْرَفَ الكلامَ: نَظَمَهُ، وتَزَخْرَفَ الرَّجُلُ: إذا تَزَيَّنَ، والزُّخْرُفُ: طائِرٌ وبه فَسَّرَ كُرَاعٌ بَيْتَ أَوْسٍ.

عليه بما منَّ، ورمز بما رمز تأييدًا أو تعضيدًا له على حمل أعباء الرسالة، وتبليغ الوحي المنزل عليه من عنده باللغة الفصيحة العربية، المعجز نظمه ومعناه على كافة البرية وعامة الرعية؛ ليكون رحمة للعالمين وخاتمًا للنبيين.

فقال بعدما تيمن باسمه المبين: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المنزل للرسل والكتب للهداية، والإرشاد تبين طريق الرشاد ومنهج السداد لعموم عباده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال رسول كل قوم من جنسهم، وإنزال الكتاب عليهم على لغتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم بتبليغ الرسل وتبيين الكتب إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الزخرف: 1-8].

﴿حم﴾ [الزخرف: 1] يا حارس دين الله، وملازم طريق توحيده.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: 2] العظيم الذي انتخبناه من حضرة علمنا ولوح قضائنا.

﴿إِنَّا﴾ من كمال فضلنا وجودنا ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ فرقانًا بيانًا، وتبيانًا ﴿عَرَبِيًّا﴾ أسلوبًا ونظمًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3] وتفهمون ما فيه من الأسرار العجيبة والحكم البديعة، والرموز والإشارات التي خلت عنها الكتب السالفة.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الشأن المندرج فيه، والمرموز إليه من جملة ما هو كائن مثبت ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ الذي هو حضرة العلم ولوح القضاء، ولا يمكنكم الإطلاع عليها والاستفادة منها إلا بوسائل الألفاظ لكونه محفوظًا ﴿لَدَيْنَا﴾ محروسًا عندنا، لا يتيسر لكم الوصول إلينا، مادمتم محبوسين في مضيق الإمكان، مقيدين بسلاسل الزمان والمكان؛ إذ ساحة عز حضورنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ منيع متعال عن أن يحوم حول سرادقات عزنا أحد من خلقنا، ونحن ﴿حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4] في تلك المنعة والدفاع، لا نطلعكم على سرائرنا وأسرارنا، إلا من وراء الحجب والأستار.

ثم استفهم سبحانه مهددًا مقرعًا، مشيرًا إلى ما أودع سبحانه في استعدادات عباده من قابلية الهداية والرشاد، بقوله: ﴿أَ﴾ نهملكم أيها المجبولون على فطرة الهداية، ولم نرسل إليكم يرشدكم إلى ما جبلتم لأجله من قابلية الانكشاف لسرائر توحيدنا ﴿فَنَضْرِبُ﴾ أي: فنصرف ﴿عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن المبين لكم ما في نشأتكم وفطرتكم من الاطلاع والشعور على شئوننا وتجلياتنا الذاتية، وبالجملة: نعرض عنكم ﴿صَفْحًا﴾ إعراضًا وانصرافًا كليًا، مع كمال قابليتكم على الصلاح وبالفوز بالفلاح ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي: أنهملكم لئن كنتم ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: 5] منحطين عن الاعتدال الفطري والقسط الجبلي الذي جبلناكم عليه؛ والمعنى: أنهمل مقتضيات حكمتنا المودعة فيكم، إن كنتم في أنفسكم قومًا مسرفين في التمرد والإعراض؟.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: كثير أرسلنا ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ هادٍ مرشد ﴿فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 6] أي: في الأمم الماضين المسرفين في التمرد والإعراض.

﴿وَ﴾ هم من شدة تعنتهم وإصرارهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: 7] أمثال هؤلاء المستهزئين معك يا أكمل الرسل.

وبعدما تمادوا في الغفلة والعناد، وبالغوا فيها مغرورين ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ أي: أخذناهم بذنوبهم، واستأصلناهم مع كونهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء المسرفين المستهزئين معك ﴿بَطْشًا﴾ حولا وقوة، وأكثر أموالاً وأولادًا، وأكبر جاهًا وشدةً ﴿وَ﴾ بعدما ﴿مَضَى﴾ وجرى ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 8] على ما جرى، ومضى مثل الأولين من قصصهم ووقائعهم الهائلة، وسيمضي ويجري عن قريب على هؤلاء أيضًا مثلهم بالطريق الأولى.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي
نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف: 9-14].

﴿وَ﴾ كيف لا يجري عليهم ما جرى على أسلافهم مع أنهم أعظم جرمًا وأكبر إنكارًا منهم، ومن إنكارهم أنهم ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: مشركي مكة يا أكمل الرسل: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وأوجدهما من كتم العدم ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ﴾ الغالب على الخلق والإيجاد ﴿العَلِيمُ﴾ [الزخرف: 9] المطلع على سرائر ما أوجد وأظهر.

ومع اعترافهم بأخص أوصاف الفاعل المختار، وإقرارهم باستناد الأمور المتقنة إلى أوصافه وأسمائه، أنكروا وحدة ذاته، وأشركوا معه غيره عتوًا وعنادًا، قل لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الإنكار والإصرار: كيف تنكرون وحدة الحق أيها الجاحدون المنكرون مع أن الله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرون فيها، وتتوطنون عليها مترفهين متنعمين ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ لمعاشكم، تطلبون منها حوائجكم، وطرقًا تصلون منها إلى معادكم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 10] بها إلى وحدة ربكم.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون وجود موجدكم ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من عالم الأسباب ﴿مَاءً﴾ محييًا لأموات المسببات ﴿بِقَدَرٍ﴾ معتدل معتاد ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ﴾ أي: أحيينا واخضررنا بإجراء الماء المحيي ﴿بَلْدَةً﴾ جافًا يابسًا لا نبات فيها، ولا خضرة لها ﴿مَّيْتًا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إخراجنا النبات من الأرض اليابسة بإنزال الماء ﴿تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: 11] وتنشرون؛ أي: الموتى حال كونكم موتى من قبورهم بنفخ الروح فيكم تارةً أخرى.

﴿وَ﴾ كيف تجحدون وتنكرون وجود الصانع الحكيم ووحدته مع أنه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهر ﴿الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: جميع أصناف المخلوقات من زوجات ممتزجات ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ تتميمًا لأمور معاشكم وتسهيلاً لها ﴿مِّنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: 12] أي: تركبونه.

﴿لِتَسْتَوُوا﴾ وتتمكنوا ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: ظهور ما خلق لكم من المراكب ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ كيف أفاض عليكم من النعم أصولها وفروعها، وتواظبوا على شكرها أداء لحق شيء منها ﴿وَتَقُولُوا﴾ عند استوائكم عليها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ أي: تنزه وتقدس عن شوب النقص والاستكمال ذات القادر العليم الحكيم،

الذي ﴿سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: 13] [1] مطيقين لتسخيره لولا إقرانه وتسخيره سبحانه لنا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا﴾ في عموم أوصافنا وأحوالنا وذواتنا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ الذي أظهرنا بمد أظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا علينا، وربانا بمقتضى لطفه بالنعم الأوفى ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 14] راجعون إليه، صائرون نحوه بعد انخلاعنا عن لوازم ناسوتنا وارتفاع غشاوة تعيناتنا عنّا.

وإنما أوصله به تنبيهًا على أن العبد العارف لا بدّ أن يكون في عموم انقلاباته وحالاته مسترجعًا إلى الله، عازمًا نحو الفناء فيه، متذكرًا لموطنه الأصلي ومقره الحقيقي.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: 15-20].

﴿وَ﴾ من غاية غفلتهم عن الحق وجهلهم بحقوق ألوهيته وربوبيته: ﴿جَعَلُوا لَهُ﴾ سبحانه واتخذوا ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ بعضًا، وادعوه ﴿جُزْءًا﴾ له، وولدًا ناشئًا منه حيث قالوا: الملائكة بنات الله، والعزير ابن الله، والمسيح كذلك، وبالجملة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ المجبول على الجهل والنسيان ﴿لَكَفُورٌ﴾ متناهٍ في الغفلة عن الله، والكفران بنعمه

(1) أي: مطيعين، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عرَصَاتِ الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعقْوةِ العِزّةِ وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزّةِ هِمّةُ مخلوقٍ سواء كان مَلَكًا مُقَرَّبًا أو نبيًا مُرْسَلًا أو وليًا مُكَرَّمًا فعند سطواتِ العِزّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق، تفسير القشيري (7/210).

وحقوق كرمه ﴿مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15] ظاهر البغي والطغيان على الله، والإلحاد عن دينه وطريق توحيده.

ومن شدة ظهور بغيهم وطغيانهم: أثبتوا له أولادًا ﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ أي: بل قالوا: اتخذ وأخذ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ سبحانه؛ أي: من مظاهره ومصنوعاتها أخسها وأدونها؛ أعني: ﴿بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم﴾ أي: أخلص أنفسكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: 16].

﴿وَ﴾ كيف تثبتون لله الواحد الأحد الصمد بنات، وتختارون لأنفسكم بنين مع أنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ من إثبات البنات له ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كمال ضجرته وكآبتها ﴿وَهُوَ﴾ حينئذ ﴿كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: 17] مملوء من الغيظ والكرب.

﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ﴾ أي: أتثبتون للصمد المنزه عن الأهل والولد ولدًا ناقصًا يُربى ويزين ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ والزينة، لعدم كماله الذاتي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ أي: المجادلة والمحاباة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: 18] معرب مظهر؛ لما يدعيه لنقصان عقله وركاكة رأيه وفهمه، وهن البنات الناقصات عقلاً ودينًا وخلقة، وبالجملة: أثبتوا لله ما ينزهون أنفسهم عنه، ويتغممون عند حصوله لهم.

﴿وَ﴾ من نهاية جهلهم وركاكة رأيهم ﴿جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ المستغرقون الوالهون بمطالعة وجهه الكريم، المستغفرون لعموم عباد الله من سعة رحمته وجوده ﴿إِنَاثًا﴾ ناقصات العقل والدين، منحطات عن زمرة الكاملين مع أنهم - أي: الملائكة - من أعزة عباد الله وأجلهم، متمكنون عند كنف قربه وجواده، مسبحون له في عموم الأوقات والحالات ﴿أَشَهِدُوا﴾ وحضروا أولئك الحمقى ﴿خَلْقَهُمْ﴾ أي: خلق الله إياهم في بدء الأمر؛ إذ الأنوثة والذكورة من جملة الأمور التي لا اطلاع لأحد عليها إلا بالمشاهدة، أم شهدوا رجمًا بالغيب، ظلمًا وزورًا ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في النشأة الأولى ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على خُلَّص عباد الله، وافتراؤهم على الله الصمد المنزه من الاستيلاد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19] يوم القيامة عن جميع ما أتوا من المعاصي، سيما عن هذه الشهادة والافتراء، ثم يجازون بمقتضاها.

﴿وَ﴾ بعدما سفَّه المسلمون أهل الشرك وعيروهم باتخاذ الملائكة والأوثان والأصنام، وجميع المعبودات الباطلة آلهة من دون الله، شركاء له في الألوهية، مع كونهم منحطين عن رتبة الألوهية والربوبية مطلقًا ﴿قَالُوا﴾ مستدلين على أخذهم

واتخاذهم: ﴿لَوْ شَاءَ﴾ وأراد ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عدم أخذنا وعبادتنا إياهم ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ألبتة، لكن أراد سبحانه عبادتنا فعبدناهم؛ إذ لا يبدل قوله سبحانه ولا يغير حكمه ومشيئته، إنما قالوا ما قالوا تهكمًا واستهزاءً، وعلى زعم المؤمنين، لا عن اعتقاد ويقين بمشيئة الله وتقديره، وعدم تغيير مراده سبحانه؛ لذلك جعلهم سبحانه بقوله: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما صدر عنهم هذا الاستدلال عن علم بمقدماته واعتقاد بنتيجته، بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي: ما هم في قولهم هذا واستدلالهم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: 20] يتمحلون تمحلاً باطلاً، ويتزورون زورًا ظاهرًا.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف: 21-25].

أهم يدعون دليلاً عقليًا سواه على مدعاهم ﴿أَمْ﴾ يدعون دليلاً نقليًا بأن ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن، مشتملاً على اتخاذهم وادعائهم المذكور؟! ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: 21] متمسكون به في دعواهم هذه.

﴿بَلْ﴾ ليس لهم لا هذا ولا ذاك سوى أنهم ﴿قَالُوا﴾ على وجه التقليد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ طريقة معينة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22] إلى ما اهتدوا تقليدًا لهم واقتفاء بأثرهم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: ومثل ما قال هؤلاء التائهون في تيه التقليد والضلال ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ من النذر الأولى ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ ومتنعموها على سبيل البطر والمفاخرة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي: طريقة معهودة معينة ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23] لا نترك ديدنة آبائنا، بما اخترعتموه من تلقاء أنفسكم أيها المدعون.

﴿قَالَ﴾ - المفسر بقراءة قال على قراءة الجميع غير حفص وابن عامر - يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم ما سمعت كلامًا خاليًا عن وصمة المراء والمجادلة، عاريًا

عن أمارات التقليد والتخمين: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم﴾ يعني: أتقلدن، وتتبعون آباءكم أيها المقلدون المسرفون، ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَى﴾ أي: بدين أهدى، وأنفع لكم في أولاكم وأخراكم ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: من أديان آبائكم وتقليداتهم، فتتركون الهداية وتتبعون الضلال.

وبعدما سمع من هؤلاء المقلدون والمسرفون ما سمع أسلافهم من النذر الأولى من الهداية والرشاد ﴿قَالُوا﴾ مصرين على ما هم عليه: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بجميع ما جئتم به أيها المدعون للرسالة ﴿كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: 24] منكرون جاحدون، لا نقل من أمثال هذا، ولا نترك دين آبائنا ومتابعتهم بمجرد ما ابتدعتموه مراء، ونسبتموه إلى الله افتراء.

وبعدما أصروا على ضلالهم، وتقليداتهم الموروثة له من آبائهم، لم ينفعهم إرشاد الرسل وإهداؤهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذناهم صاغرين ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: 25] المصرين على التكذيب والعناد مع رسل الله، وذوي الخطر من خُلّص عباده.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: 26-32].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الخليل صلوات الله عليه وسلامه ﴿لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ المغمورين في التقليدات الموروثة لهم من أسلافهم، بعدما انكشف بحقية الحق ووحدته، وبطلان الآلهة الباطلة التي أثبتوها شركاء الله ظلمًا وزورًا ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26] أي: أنا بريئ من معبوداتكم التي أنتم تعبدونها من دون الله الواحد الأحد، المستحق للعبادة والإطاعة.

﴿إِلَّا الَّذِي﴾ أي: ما أعبد معبودًا سوى الذي ﴿فَطَرَنِي﴾ أي: أظهرني وأوجدني

بمقتضى حوله وقوته، ووفور علمه وحكمته ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وتوفيقه ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: 27] ويثبتني على جادة الهداية بأزيد مما هداني إليه من إجراء كلمة التوحيد على لساني.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ سبحانه كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ﴾ مستمرة ﴿فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي: أولاد إبراهيم وذرياته إلى يوم القيامة موروثة لهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28] إلى الله بكرامة هذه الكلمة، ويوحدونه حق توحيده؛ لذلك ما خلا زمان من الأزمنة من موحدي هذه الذرية، وممن يدعون منهم إلى الحق وطريق توحيده، وإن كان منهم أيضًا من يشرك بالله كمشركي قريش خذلهم الله.

كما قال سبحانه في شأنهم: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسرفين المعاندين معك يا أكمل الرسل ﴿وَ﴾ كذا متعت ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾ كذلك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الطريق الموصل إلى التوحيد الذاتي ﴿وَرَسُولٞ﴾ مرشد كامل ﴿مُّبِينٞ﴾ [الزخرف: 29] مظهر موضح لهم بطريق الهداية والرشاد.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿قَالُواْ﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم: ﴿هَٰذَا﴾ الذي جاء به هذا المدعي؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿سِحۡرٞ﴾ وشعر اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى ربه افتراء وتغريرًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا بِهِۦ﴾ وبدينه ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: 30] منكرون جاحدون.

﴿وَقَالُواْ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل، ونهاية إنكارهم بكتابك: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ إن كان نزوله من عند الله حقيقة ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ ذي ثروة وجاه لائق بمرتبة النبوة والرسالة ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أي: من إحدى القريتين؛ أي: مكة الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31][1] عند الناس بكثرة الأموال والأولاد والأتباع،

(1) يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله: هذا سحر، فإن كان حقا فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف، واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم، فقالوا: هلا نزل عليه هذا القرآن، فقال بعضهم: هلا نزل على الوليد بن المُغيرة المخزومي من أهل مكة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف؟ ذكر من قال ذلك: عن ابن عباس، قوله: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: يعني بالعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وبالقريتين: مكة والطائف، وقال آخرون: بل عُنِي به عُتْبةُ بن ربيعة من أهل مكة، وابن

ليكون له اليد والإستيلاء على سائر الناس.

إذ منصب النبوة منصب عظيم، يحتاج إلى ثروة ووجاهة ومكنة تامة ورئاسة ظاهرة، ولم يفهموا أن رتبة النبوة والولاية عبارة عن الغنى الذاتي المسقط لعموم الإضافات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وهو لا يكون إلا بالتعري عن ملابس الأكوان ولوازم الإمكان، والتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية.

﴿أَهُمْ﴾ بأخلاقهم السخيفة، وتدبيراتهم الركيكة ﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويضعون رتبة النبوة والرسالة إلى من يقتضيه أوهامهم وخيالاتهم الباطلة ونفوسهم الخبيثة، بل ﴿نَحْنُ﴾ بوفور حكمتنا ﴿قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ التي يحتاجون إليها ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ ومع تدبيرنا إياهم مصالحَ معاشهم، لا يُحسنون تدبيرها فيما بينهم؛ ليصلح أمر ائتلافهم وتمدنهم فيها، فكيف يخوضون في مصالح العباد وتدبيراتها؟! ومن أين يتأتى لهم التفوه في الأوضاع الألوهية والتدابير الربوبية الناشئة

عبد ياليل، من أهل الطائف، ذكر من قال ذلك: عن مجاهد (عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال عتبة بن ربيعة من أهل مكة، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقال آخرون: بل عني به من أهل مكة: الوليد بن المغيرة، ومن أهل الطائف: ابن مسعود ، ذكر من قال ذلك: عن قتادة، في قوله: (رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: الرجل: الوليد بن المغيرة، قال: لو كان ما يقول محمد حقا أنزل عليّ هذا، أو على ابن مسعود الثقفي، والقريتان: الطائف ومكة، وابن مسعود الثقفي من الطائف اسمه عروة بن مسعود، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) والقريتان: مكة والطائف؛ قال: قد قال ذلك مشركو قريش، قال: بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادّعته، وقالوا: هو منا، فكنا نحدّث أن الرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة الثقفي أبو مسعود، يقولون: هلا كان أنزل على أحد هذين الرجلين، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب: قال ابن زيد، في قوله: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: كان أحد العظيمين عروة بن مسعود الثقفي، كان عظيم أهل الطائف، وقال آخرون: بل عني به من أهل مكة: الوليد بن المغيرة، ومن أهل الطائف: كنانة بن عبد بن عمرو، ذكر من قال ذلك: عن السدي (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال: الوليد بن المغيرة القرشي، وكنانة بن عبد بن عمرو بن عمير، عظيم أهل الطائف، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال جلّ ثناؤه، مخبرا عن هؤلاء المشركين(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) إذ كان جائزًا أن يكون بعض هؤلاء، ولم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه، ولا على لسان رسوله ﷺ، والاختلاف فيه موجود على ما بيّنت. «تفسير الطبري» (21/592 - 594).

عن كمال العلم والحكمة والإرادة الكاملة والقدرة الشاملة؟!.

﴿وَ﴾ من غاية قصورهم عن تدبيرات معاشهم ﴿رَفَعْنَا﴾ بمقتضى حكمتنا وتربيتنا إياهم ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ بأن فضّلنا بعضهم على بعضٍ في الرزق الصوري وغيره؛ ليكون لهم الكبرياء والاستيلاء على البعض الآخر ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يستعمل البعض الأغنياء أجراء من البعض الفقراء، فيأمروهم بما قصدوا من الحوائج؛ ليتم أمر النظام والتمدن والتضام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وهي رتبة النبوة والرسالة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32] من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية؛ لاشتمالها على ضبط الظواهر والبواطن المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: 33-36].

ثم أشار سبحانه إلى دناءة زخارف الدنيا وأمتعتها، ورداءة ما فيها من اللذات الوهمية، وما يترتب عنها من الشهوات البهيمية، فقال: ﴿وَلَوْلَآ﴾ مخافة ﴿أَن يَكُونَ النَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مائلة إلى الكفر، منحرفة عن الإيمان ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بسطنا على الكافرين من الزخارف الدنيوية إلى حيث يتخذون ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ مصنوعة متخذة ﴿مِّن فِضَّةٍ وَ﴾ كذا يعملون ﴿مَعَارِجَ﴾ ومراقي منها ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على سطوح بيوتهم ﴿يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: 33] أي: يعلون ويصعدون بتلك المعارج المعمولة بالفضة عليها.

﴿وَ﴾ كذا يعملون ﴿لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ [الزخرف: 34] ترفعًا وتنعمًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: لوسعنا عليهم حطام الدنيا إلى حيث جعلنا لهم ﴿زُخْرُفًا﴾ وزينة من الذهب والفضة يتزينون بها، ويتلذذون بلذاتها الفانية وشهواتها الزائلة الزائفة، المبعدة عن اللذات الباقية الأخروية، لكن لو فعلنا كذلك لمالَ إليها المسلمون، وتحسروا بما نالوا، فضعف رأيهم في اتباع الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما كل ذلك المذكور من المزخرفات الدنيوية إلا متاع الحياة الدنيا الفانية، لا قرار لها، ولا مدار لما فيها، ولما يترتب عليها من اللذات والشهوات ﴿وَ﴾ النشأة ﴿الْآخِرَةُ﴾ الباقية الدائمة لذاتها أزلاً وأبدًا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل حاصلة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 35] الذين يحفظون نفوسهم عن التلطخ بقاذورات الدنيا، والركون إلى مزخرفاتها الفانية، سوى سد جوعة ولبس خرقة وكنٍّ[1] يدفعون بها ضرر الحر والبرد، ولا يميلون إلى ما سواها طلبًا لمرضاة الله وهربًا عن مساخطه.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يعرض وينصرف ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: القرآن المبيّن له طريق الإيمان والعرفان؛ لفرط انهماكه باللذات والشهوات الفانية الدنيوية ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾ ونسلط عليه ﴿شَيْطَانًا﴾ يضله ويغويه ويوسوس عليه، ويرديه، وبالجملة: ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36] دائمًا، يزين عليه المعاصي والقبائح، ويغريه عليها، إلى أن يدخله في نار القطيعة والحرمان.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف: 37-42].

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: جنود الشياطين وأتباعهم ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: يذبُّونهم ويصرفونهم؛ أي: أتباعهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي، الموضوع بالوضع الإلهي، الموصل إلى توحيده ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ من فرط عمههم وسكرتهم ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 37] لهداية قرنائهم من الشياطين، مع أنهم غاوون ضالون بإغوائهم وإضلالهم، ولم يعلموا إضلالهم.

(1) الكِنُّ بالكسر: وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسِتْرُهُ، كالكِنَّةِ والكِنانِ - بكسرِهما - والبَيْتُ، ج: أكْنانٌ وأكِنَّةٌ. القاموس المحيط (361/3).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: الغاشي الأعمى، وعلم ضلاله عنّا، وغوايته عن طريقنا ﴿قَالَ﴾ متحسرًا متأسفًا لقرينه المغوي: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 38] أنت أيها المضل، أضللتني عن الطريق القويم وابتليتني بالعذاب الأليم.

﴿وَ﴾ قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ تمنيكم وأسفكم ﴿إِذ﴾ قد ﴿ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفسكم في نشأة التدارك والتلافي، والآن قد انقرضت، بل ﴿أَنَّكُمْ﴾ وقرناءكم اليوم ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ النازل عليكم ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: 39] كما إنكم كنتم مشتركون في الأسباب الجالبة له في النشأة الأولى.

ثم لما كان ﷺ يبالغ في إرشاد عشيرته ويُتعب نفسه في إهدائهم، رد الله سبحانه على وجه التعجب والتأديب ردعًا له عما كان عليه من المبالغة، فقال مستفهمًا: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: أأنت تتخيل لنفسك أنك تقدر على إسماع من جُبِل على الصمم في أصل فطرته ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ المجبول على العمى في مبدأ خلقته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: 40] وغواية عظيمة جبلية، كيف تسعى لهدايته، وتبالغ في إرشاده وتكميله؛ إذ ليس في وسعك تغيير الخلقة، وإنما عليك الإنذار والتبليغ فقط، وإلى متى تتعب نفسك وتسعى؟!.

ثم سجل سبحانه على أخذ المشركين والانتقام عنهم بقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: أن نتوفينك يا أكمل الرسل، ونخرجنك عن الدنيا قبل انتقامنا منهم، وأخذنا إياهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف: 41][1] البتة بعد مماتك ووفاتك.

---

(1) وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الوعيد، فقال بعضهم: عني به أهل الإسلام من أمة نبينا عليه الصلاة والسلام، ذكر من قال ذلك: حدثنا سوار بن عبد الله العنبري، قال: ثني أبي، عن أبي الأشهب، عن الحسن، في قوله:﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ قال: لقد كانت بعد نبي الله نقمة شديدة، فأكرم الله جلّ ثناؤه نبيه ﷺ أن يريه في أمته ما كان من النقمة بعده، حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فذهب الله بنبيه ﷺ ولم ير في أمته إلا الذي تقرّ به عينه، وأبقى الله النقمة بعده، وليس من نبيّ إلا وقد رأى في أمته العقوبة، أو قال ما لا يشتهي. ذُكر لنا أن النبيّ ﷺ أُري الذي لقيت أمته بعده، فما زال منقبضا ما انبسط ضاحكا حتى لقي الله تبارك وتعالى، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، قال: تلا قتادة ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبيّ ﷺ وبقيت النقمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئا

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ العذاب الموعود ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ للإعراض عنك، وعن دينك وكتابك، وبالجملة: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: 42] قادرون على وجوه الانتقام إياهم حال حياتك أو بعدها.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف: 43-48].

وبعدما أكد سبحانه إنجاز الوعد الموعود عليهم، وبالغ فيه، أمر حبيبه ﷺ بالتمكن والتثبت على مقتضى الوحي المنزَّل من عنده، فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من القواعد الشرعية الموضوعة بالوضع الإلهي، واعتمد عليه، ولا تلتفت إليهم، ولا تبالِ بإعراضهم ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43] موصل إلى توحيد ربك.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ أي: عظة وتذكير ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فعليكم أن تتعظوا به، وبما فيه من الحِكم والأحكام، والعبر والرموز والإشارات ﴿وَسَوْفَ

يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبيّ قطّ إلا رأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ قال: وذُكر لنا أن النبي ﷺ أُري ما يصيب أمته بعده، فما رئي ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله، وقال آخرون: بل عنى به أهل الشرك من قريش، وقالوا: قد أري الله نبيه عليه الصلاة والسلام فيهم، ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ كما انتقمنا من الأمم الماضية ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ فقد أراه الله ذلك وأظهره عليه، وهذا القول الثاني أولى التأويلين في ذلك بالصواب وذلك أن ذلك في سياق خبر الله عن المشركين فلأن يكون ذلك تهديدا لهم أولى من أن يكون وعيدا لمن لم يجر له ذكر. فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك: فإن نذهب بك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين، فنخرجك من بينهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذّبة رسلها ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ يا محمد من الظفر بهم، وإعلائك عليهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أن نظهرك عليهم، ونخزيهم بيدك وأيدي المؤمنين بك. «تفسير الطبري» (21/ 608، 609).

تَسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44] عن قيامكم بها وامتثالكم بما فيها.

وإن عاند المشركين معك، واستهزءوا بك وبكتابك، ونسبوا دينك إلى البدعة والاختلاق، فـ﴿لاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127] وينسبونك إليه، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: أحبار قومهم وعلماء دينهم، رفتش أحوالهم عن آثارهم وأخبارهم وكتبهم الباقية بعدهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ المنزه في ذاته عن الشركة والتعدد مطلقًا ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] أي: هل حكمنا لهم، وأمرناهم باتخاذ آلهة سوى الحق، يُعبد لهم كعبادة الله، بل ما اتخذوا آلهتهم إلا بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة، وما عبدوا لهم إلا ظلمًا وزورًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أخاك ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي المستعلي على من في الأرض ﴿وَمَلَئِهِ﴾ المعاونين له في طغيانه ﴿فَقَالَ﴾ لهم بإذن منّا وبمقتضى وحينا: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: 46] أرسلني إليكم لأرشدكم إلى طريق توحيدي، وأوضح لكم سبيل المعاد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ مؤيدًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالخوارق والمعجزات الدالة على صدقه ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: 47] أي: فاجؤوا على الضحك والاستهزاء أول رؤيتهم بها بلا تأمل وتدبر فيها.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ من الآيات ﴿إِلَّا هِيَ﴾ أي: الآية المرئية في الحال ﴿أَكْبَرُ﴾ وأظهر دلالة على كمال قدرتنا وصدق نبينا ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: من الآية السابقة عليها، ومع ذلك أنكروا عليها واستهزءوا ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ العاجل من القحط والطاعون وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 48] رجاء أن يرجعوا عن إنكارهم وإصرارهم عليه.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾
[الزخرف: 49-56].

﴿وَ﴾ مع ذلك لم يرجعوا بل ﴿قَالُوا﴾ عند نزول البلاء وهجوم العناء مسترجعين نحوه، منهمكين معه: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ الماهر في السحر ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي زعمت ألا منزل للمصيبة سواه، ولا كاشف أيضًا إلا هو ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بمقتضى ما وعد لك وعهد معك ألا يعذب من آمن بك وصدقك، فإن انكشف الضر عنَّا بدعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 49] بهدايتك مؤمنون لك، مصدقون بنبوتك ورسالتك، وبجميع ما دعوتنا إليه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ بعد دعاء الأنبياء والرسل وتضرعهم نحونا، راجين منَّا العفو والتجاوز ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: 50] أي: فاجؤوا على نقض ما عهدوا، مبادرين على الإنكار والعناد بلا تراخ وتأخير.

﴿وَ﴾ من كمال عتو فرعون ونهاية عناده واستكباره ﴿نَادَى فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه يومًا من الأيام حين كان ﴿فِي﴾ مجمع ﴿قَوْمِهِ﴾ مباهيًا بما عنده من الجاه وسعة المملكة؛ حيث ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ناداهم؛ ليسمعوا منه ويصغوا إليه سمع قبول ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ مع كمال وسعته وكثرة مملكته ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ الثلاثة المنشعبة من النيل؛ هي نهر طولون، ونهر دمياط، ونهر نفيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: تحت تصرفي وملكي ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51] أيها المجبولون على البصارة.

﴿أَمْ أَنَا﴾ أي: بل أنا ﴿خَيْرٌ مِّنْ هَذَا﴾ الساحر المدعي ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ رذيل مهان، لا عزة له ولا مقدار ﴿وَ﴾ مع رذالته وسفالته ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52] يظهر ويعرب كلامه للكنة في لسانه.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ أي: فلو كان مؤيدًا من عند الله، ومكرمًا لديه كما زعم، هلا ألقي عليه أسورة ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ تدل على عزته وكرامته عنده وسيادته عند الناس؛ إذ العادة حينئذ أن أهل الرئاسة والسيادة يُسورون ويطوقون بأسورة من ذهب ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من عند ربه ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: 53] معه مجتمعين، يعينونه فيما يعنيه.

وبالجملة: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾ وسفَّههم وضعَّف أحلامهم بامتثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ وقَبِلوا منه جميع ما قال عتوًا وعنادًا ﴿إِنَّهُمۡ﴾ في أنفسهم ﴿كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54] (1) خارجين عن مقتضى العدالة الإلهية، لذلك انحرفوا عن سواء السبيل واتبعوا ذلك الفاسق الطاغي.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ وحملونا على القهر والغضب، وحركوا حمية الغيرة الإلهية بامتثال هذه الجرائم الفاحشة ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55] في اليم، ومحونا رسومهم عن وجه الأرض.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفًا﴾ قدوة وأسلافًا قديمة ﴿وَ﴾ صاروا ﴿مَثَلًا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ [الزخرف: 56] من أخلافهم، يمثلون بهم، وبوقائعهم يتعظون.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوٓاْ
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ (58) إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا
عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (59) وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ
(60) وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ (61) وَلَا
يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (62) ﴾ [الزخرف: 57-62].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ يعني: لما ضرب بن الزبعرى مثلاً بعيسى عليه السلام

(1) فيه إشارتان: الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا، فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيّن له من الشرائع، ويقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى. والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقي ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب. ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والرديء، والطيب والخبيث.

حين نزلت آية كريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] حيث قال مجادلاً مع رسول الله ﷺ: إنك تزعم أن النصارى من أهل الكتاب، وأنهم يعبدون عيسى، ويعتقدونه ابن الله، والملائكة أولى بالمعبودية من عيسى، فسكت رسول الله ﷺ.

والقوم لما سمعوا مجادلته، ورأوا سكوت الرسول ﷺ من كلامه فهموا منه إلزام الرسول وإفحامه، فأوجسوا في نفوسهم إعراضًا، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: من كلام ابن الزبعرى ﴿يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: 57] ويعرضون عنك فرحًا بأنك قد ألزمت من كلامه.

﴿وَ﴾ بعدما أعرضوا واعتقدوا إلزامك من ذلك الطاغي ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿ءَآلِهَتُنَا﴾ التي كنا نعبد نحن وأسلافنا أيضًا إياهم ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون: إن محمدًا الذي ادعى الرسالة من عنده، وإنما قالوا ما قالوا له تهكمًا واستهزاءً، كما قال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ مثلاً ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ مجادلة ومراء ﴿بَلْ هُمْ﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58] مجادلون مكابرون في الخصومة، وإجراء الباطل مجرى الحق وترويجه جدلاً ومغالطة.

بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ من جملة عبادنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا، وأظهرنا على يده من المعجزات الباهرة والخوارق الظاهرة الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ عجيبًا وشأنًا بديعًا ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: 59] يسري بينهم أمر وجوده بلا أب وظهور الخوارق العجيبة عنه، سيما في حال صباه وإرهاصات أمه كالمثل السائر، كل ذلك من كمال قدرتنا وعلمنا، ومتانة حكمتنا.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أيضًا وأنشأنا بدلكم ﴿مَّلَائِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مكلفين بالعبادة والعرفان أمثالكم، وإذا انقرضت طائفة منهم ﴿يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: 60][1] أمثالهم أمثالكم إلى ما شاء الله.

---

(1) قوله:(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) يقول تعالى ذكره: ولو نشاء معشر بني آدم أهلكناكم، فأفنينا جميعكم، وجعلنا بدلا منكم في الأرض ملائكة يخلفونكم فيها يعبدونني وذلك نحو قوله تعالى ذكره: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) وكما قال:(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ) وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، غير أن منهم من قال: معناه: يخلف بعضهم بعضا، ذكر من قال ذلك: عن ابن

يعني: لا تتعجبوا من شأن عيسى وظهوره على الوجه الأبدع الأغرب، بل تأملوا وتدبروا في كمال قدرة المبدع وفور حكمته وجوده؛ إذ هو سبحانه قادر على إظهار أمور عجيبة وشئون بديعة، لا تُعد ولا تُحصى، ومن جملتها: ظهور عيسى وما صدر منه من الخوارق، بل كل من وصل بعالم القلب، وحصل دور الكشف والشهود اليقيني الحقي، مترقبًا من المشاهدات العادية والمحسوسات الألفية ظهر له ولاح عنده أن كل ما لمع عليه برق الوجود وتشعشع منه بمقتضى الجود، إنما هو على وجهٍ غريبٍ وشأنٍ عجيبٍ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: شأن الظهورات المنبهة عليها والتطورات المشارة بها ﴿لَعِلْمٌ﴾ دليل لائح وبرهان واضح ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ الموعودة المعهودة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ وبقيامها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ في جميع ما أنزلت لكم في كتبي وعلى ألسنة رسلي، وأطيعوا أمري وأمرهم ﴿هَٰذَا﴾ الذي أشرناكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 61] فاسلكوا فيه؛ لعلكم تهتدون على توحيدي وتفوزون بالفوز العظيم.

﴿وَ﴾ عليكم محافظة الحدود الشرعية والمعالم الدينية حتى ﴿لَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يعرضنكم عنها، ولا يوقعنكم في فتنةٍ عظيمةٍ وبليةٍ شديدةٍ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 62] ظاهر العداوة شديد الخصومة، يضلكم عن جادة التوحيد، ويوقعكم في العذاب الشديد، أعاذنا الله وعموم عباده من فتنته.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ

عباس، قوله: (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) يقول: يخلف بعضهم بعضًا، وعن مجاهد، قوله: (لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) قال: يعمرون الأرض بدلًا منكم، عن قتادة، في قوله: (مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) قال: يخلف بعضهم بعضًا، مكان بني آدم، عن قتادة (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) لو شاء الله لجعل في الأرض ملائكة يخلف بعضهم بعضًا، عن السدي (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) قال: خلفا منكم. «تفسير الطبري» (630/21).

يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: 63-67].

﴿وَ﴾ كيف لا يكون عيسى عبدًا من عبادنا، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَ عِيسَى﴾ إلى بني إسرائيل من عندنا مؤيدًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الباهرة التي ما ظهر مثلها من نبي من الأنبياء ﴿قَالَ﴾ مظهرًا لهم الدعوة إلى طريق الحق وتوحيده: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ من عند ربي ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ البالغة ﴿وَ﴾ إنما جئتكم ﴿لِأُبَيِّنَ﴾ أوضح وأظهر ﴿لَكُم﴾ طريق العبودية والعرفان سيما ﴿بَعْضَ الَّذِي﴾ أي: بعض المعالم الدينية التي ﴿تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وفي نزوله في كتب الله، وعدم نزوله فيها ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أولاً حق تقاته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: 63] فيما جئت لكم من عنده.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ دبر أمري وأمركم، وبينه في كتابه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ بمقتضى وحيه وإنزاله، واعلموا أن ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 64] موصل إلى توحيده الذي جبلتم لأجله، إن كنتم مؤمنين موقنين.

وبعدما تم أمر الدعوة والتبليغ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ وتفرقوا تفرقًا ناشئًا ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين قومه المبعوث إليهم، بعدما دعاهم إلى طريق الحق وتوحيده، وهداهم إلى صراط مستقيم ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعقاب شديد يتوقع ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن مقتضى العبودية المأمورة لهم بالوحي الإلهي ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: 65] مؤلم في غاية الإيلام.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينظرون وينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الموعودة قيامها ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمارات ﴿وَهُمْ﴾ من غاية اشتغالهم بالملاهي الدنيوية ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: 66] إتيانها إلا وقت وقوعهم في أهوالها.

﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ والأحباء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من شدة الهول والفزع ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ يتذكرون حينئذ ما جرى بينهم من المعاونة والمشاركة في الإعراض عن الله وكتبه ورسله، وعدم الانقياد والإطاعة للدين القويم ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67][1] أي:

(1) القول في تأويل قوله تعالى:﴿الأخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ

الأحباء الذين تحابوا في الله، وتشاركوا في طريق توحيده.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف: 68-73].

ثم التفت يومئذ سبحانه إلى خُلَّص عباده الذين اتقوا عن محارمه، طلبًا لمرضاته، مناديًا لهم على رءوس الأشهاد: ﴿يَا عِبَادِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه اختصاصًا لهم وتكريمًا: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لخوفكم عن مقتضى قهرنا وجلالنا في النشأة الأولى ﴿وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68] اليوم؛ لتصبركم على الشدائد ومقاساة الأحزان في طريق الإيمان في دار الابتلاء.

وهؤلاء البررة المبشرون هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا، وامتثلوا

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: المتخالون يوم القيامة على معاصي الله في الدنيا، بعضهم لبعض عدوّ، يتبرأ بعضهم من بعض، إلا الذين كانوا تخالّوا فيها على تقوى الله، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك: عن مجاهد، في قوله: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ﴾ فكلّ خُلَّةٍ على معصية الله في الدنيا متعادون، عن ابن عباس، قوله: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِينَ﴾ فكلّ خُلَّةٍ هي عداوة إلا خلة المتقين، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، أن عليًا ﷺ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا ربّ إن فلانا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشرّ ويخبرني أني ملاقيك يا ربّ فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول: ليثن أحدكما على صاحبه فيقول: يا ربّ إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير، وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول: نعم الخليل، ونعم الأخ، ونعم الصاحب؛ قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا ربّ إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ، وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فيقول: بئس الأخ، وبئس الخليل، وبئس الصاحب. «تفسير الطبري» (637/21 - 638).

بمقتضاها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: 69] منقادين مطيعين، مفوضين أمورهم كلها إلى الله، راضين بجميع ما قضى عليهم، وكتب لهم من المنح والمحن.

لذلك نودوا حينئذ من قبل الحق على سبيل البشارة والكرامة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ المعدة لخُلّص أوليائنا الذين اتخذونا وكيلاً ﴿أَنتُمْ﴾ أصالة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نساؤكم المؤمنات المتوكلات الراضيات من الله بما قسم لهن المجتنبات عن محارم الله حال كونكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: 70] تبهجون وتسرون فيها على وجه يظهر أثر البهجة والمسرة في وجوهكم، ويلوح من سيماكم.

وبعدما تقرروا في مقام العز والتكريم، وتمكنوا في مكمن التمجيد والتعظيم: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي: يطوف حولهم خدمة الجنة ﴿بِصِحَافٍ﴾ جمع: صحفة، وهي القطعة الكبيرة المتخذة ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع: كوب، وهي الكوز التي لا عرى لها أيضًا متخذة منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾ من اللذات والشهوات المدركة بآلاتها ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أي: من المحسوسات التي استحسنتها العيون واستلذذن بها، ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 71] دائمون لا تتحولون منها أبد الآبدين.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي﴾ تفوزون بها ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72] من الأعمال المصورة بها، المنتجة لها، المأمورة لأجلها.

وبالجملة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من المستلذات الروحانية والجسمانية ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: 73] ومنها تتفكهون جزاءً بما كنتم تعملون.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: 74-80].

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المنهمكين في بحر الجرائم والمعاصي ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 74] على عكس خلود أصحاب الجنة في الجنة.

بحيث ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ ولا يخفف ﴿عَنْهُمْ﴾ من عذابها ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب الدائم ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: 75] آيسون من الخلاص والنجاة.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإنزال العذاب عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: 76] المقصورين على الخروج والعدوان على مقتضى الحدود الموضوعة فيهم؛ لحفظهم عن مثال هذا العذاب والنكال.

﴿وَ﴾ من شدة العذاب عليهم وقلة التصبر وفرط الفزع والجزع ﴿نَادَوْا﴾ صائحين صارخين: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: سل ربك أن يقضي علينا بالمقت والهلاك؛ إذ لا طاقة لنا اليوم بالعذاب وهوله وشدته، ثم لما بثوا شكواهم مرارًا، وصاحوا فجعين فزعين تكرارًا ﴿قَالَ﴾ القائل في جوابهم من قبل الحق على سبيل الاستبعاد والتأبيد: هيهات هيهات ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77] لا نجاة لكم عنها، لا بالموت ولا بالخلاص والتخفيف، بل كلما نضجت جلودكم بدلنا لكم جلودًا غيرها، وعذبناكم أشد العذاب.

وكيف لا نعذبكم أيها الجاهلون المسرفون ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالطريق الحق الثابت الحقيق بالإطاعة والاتباع فانصرفتم عنه، وأنكرتم عليه ولم تلتفتوا إليه، بل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ بعدما تفطنوا ﴿لِلْحَقِّ﴾ وحقيته ﴿كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: 78] لقبوله والامتثال بمقتضاه.

وهم مع كمال كراهتهم للحق وذبهم عنه لا يقتصرون عليها ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أي: بل حكموا وقطعوا ﴿أَمْرًا﴾ حكمًا مبرمًا، مكرًا وخديعة لرد الحق وتكذيب أهله ﴿فَإِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: 79] حاكمون حكمًا قطعيًا بإنزال العذاب المخلد عليهم جزاءً لمكرهم وخداعهم.

أيشكون ويترددون أنَّا لا نقدر على انتقامنا وأخذهم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾ نعلم وندرك ﴿سِرَّهُمْ﴾ الذي يخفونه في ضمائرهم ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ الذي يتناجون به في هواجس نفوسهم ﴿بَلَى﴾ إنَّا عالمون بجميع ما يجري في أسرارهم وضمائرهم، مطلعون بعموم ما صدر من استعداداتهم وقابلياتهم ﴿وَ﴾ مع إحاطة علمنا بهم ولأحوالهم ﴿رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ﴾ حفظتنا عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80][1] جميع ما صدر

(1) وصف الله سبحانه نفسه وإحاطته ببطون المغيبات وحقائق المضمرات بالعلم القديم، وسماعه

عنهم، نقيره وقطميره، حتى نحاسبهم عليه، ونجازيهم بمقتضاه.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)﴾ [الزخرف: 81-84].

ثم لما شاع قول اليهود والنصارى بولدية عزير وعيسى، ومال إليه أولو الأحلام الضعيفة منهم ومن غيرهم، ردَّ الله عليهم على أبلغ وجهٍ وآكده، بأن أمرَّ حبيبه ﷺ بالقول على سبيل الفرض والتقدير: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في هذه الفرية البعيدة عن الحق بمراحل مستحيلة في نفسها: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ أي: إن صح وجاز أن يكون له ولد متصف ببنوته ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: 81][1]

حركات صميم أسرار الخلق بسمعه القديم المنزه عن الإصغاء، وكيف يخفى عليه ما أبدع وأوجد في بطون القلوب والغيوب! بل له كرامٌ كحَّل عيونهم بنور نوره، حتى يروا حقائق الأمور الغيبية كما قال ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمنِ؛ فإنّه ينظرُ بنورِ الله» والملائكة يسمعون من الحق بالإلهام بعد ما وقع الغيب لله الخاص له. والعارف الصادق له درجتان في ذلك: درجة الملائكة التي هي الإلهام، ولهم خاصية الرؤية والفراسة بنور الله، وهو أن يكون متصفًا بعلمه وصفاته، وهذه الآية وعيدٌ وتحذيرٌ لمن كان له قلبٌ يخطر عليه شيءٌ غير ذكر الله، قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيءٌ من السماوات والأرض فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

(1) قال البيطار: أي للرحمن المتجلي في صورة البشر الذي يتولد منه الأنثى والذكر، ويجوز أن يرجع قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، لولد الرحمن؛ لأن الرحمن عين صورة الإنسان كما ورد الحديث: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» ألا ترى قوله تعالى في حق آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29]، وروحه عينه، إذ الولد سر أبيه، فآدم سر الرحمن وسره عينه، ففي هذا الولد سر الواحد الأحد، فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:17]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:30]، مع قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:17]. فأقول: إن القرآن العظيم المنزَّل على محمد ﷺ نزل من حقيقة الأحدية الجامعة لأسماء التنزيه وأسماء التشبيه،

فهو الجامع لكل شرع في الوجود، وسواء كان أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، والمنزّل عليه هذا القرآن هو حقيقة الوجود، فله شرع عام وله شرع خاص، فمن شرعه العام اندرجت كل أمة في شرعه، ومن شرعه الخاص خصّ أمته التي بعد ظهور جسمه الطاهر بخصوصيات، فآية تأتي بشرعه العام وآية تأتي بشرعه الخاص، فكان ما يجوز في حق هذا يحرم في حق هذا. ألا ترى أنه أقرّ أهل الذمة على ما هم عليه وقَبِل منهم الجزية، فالتوراة شرعة في حق اليهود وهي مندرجة في القرآن، والإنجيل شرعة في حق النصارى، وهو مندرج في القرآن، وأما نحن معشر الأمة القرآنيين فأتينا من كتاب الله، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:85]. ألا ترى أنه قبل الرهبانية من أهلها، ولم يقبلها منّا، فقبولها لأهلها في القرآن من قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:27]، فلما أوجبوها على أنفسهم كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فكانت في حقهم قربة إلى الله، لا في حقنا للحديث الشريف: «لا رهبانية في الإسلام». فهذا مما يدلك على أن كل أمة وشرعها اندرجت باطنًا في أمة محمد ﷺ وشرعه، فهو ﷺ كما أنه هيولي العالم، هو الهيولي في باطن الأمر لكل دين إلهي وحكمي من الاستحسانات التي رتبها العقلاء بمقتضى دور الزمان؛ لأنه مظهر اسم الله الديّان على الكمال، فالأديان في حق أربابها من باطن التنزلات المحمدية، ولذا قال: «آدم فمن دونه تحت لوائي، وليس دون آدم إلا جميع من سواه من ذريته، أي: آدم وغيره من ذريته تحت لوائي، فلو لم يكن آدم وذريته متسببين إليه لما كانوا تحت لوائه، فافهم، فاتسعت الدائرة المحمدية لقبول جميع الدوائر، ومن هذا المعنى بدت تسوية الحرية التي ظهرت في زماننا، وهي السنة السادسة والعشرون بعد الألف والثلاثمائة من الهجرة المحمدية من تجلي الاسم الرحمن المذكور في هذا الوارد وإنما قلنا من تجلي الاسم الرحمن ؛ لأن الاسم الرحمن هو الذي كشف هذه التسوية قال الله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:3]. ومن النكت البديعة: أننا جمعنا لفظة «عابدين» بإسقاط (أل) التعريفية من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، ولكن حسبنا النون وحدها بخمسة بطريق الجمل الصغير، وضممنا عددها الموافق في العدد الاسم محمد ﷺ وهو اثنا وتسعون لعدد قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160]، وهو ألف ومائتان وأربع وثلاثون، فبلغ الجميع عدد سنتنا، التي هي سنة ظهور جمعية الاتحاد، وذلك ألف وثلاثمائة وستة وعشرون، فعلمنا أن هذه الجمعية - الذين هم رجال دولة مولانا السلطان عبد الحميد خان نصره الله - مظهر نصر الله والفتح، مؤيدون بالإمداد المحمدي، فلا غالب لهم؛ لأنهم عابدون لله متناصرون على الحق، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:13]. ومما يقوي هذا الاستخراج أننا حسبنا اسم محمد ﷺ بالجمل الصغير، فبلغ عشرين، وحسبنا عدد جمعية بالوقف على الهاء بالجمل الصغير، فبلغ عشرين وحسبنا عدد مناتيك بالجمل الصغير فبلغ عشرين؛ فهذه الموافقة تقوي نسبة هذه الجمعية إلى محمد ﷺ. واعلم - رحمك الله - أنك إذا وقفت على قوله

لابنه؛ إذ أنا أعلم الناس بلوازم الألوهية وأحفظهم بحقوق الربوبية، إن كان له سبحانه ولد أنا أحق بعبوديته وتعظيمه من جميع بريته.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ﴾ أي: تنزه وتعالى شأن من هو مربي العلويات والسفليات، المنبسط بالإحاطة التامة والاستيلاء الكامل الشامل على عموم عروش المظاهر بالاستقلال والانفراد ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: 82] أولئك الواصفون من نسبة الولد والمولود له، تعالى شأنه عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وبعدما انكشفت يا أكمل الرسل بحقية الحق ووحدته وحميديته: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في أباطيلهم ويستغرقوا في ضلالهم وغفلاتهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بمقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿حَتَّى يُلاقُوا﴾ يلحقوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: 83] بملاقات ولحوق ما فيه من أنواع العقوبات والنكبات.

﴿وَ﴾ كيف يتخذون له سبحانه ولدًا وينسبون له شريكًا، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات ﴿إِلَهٌ﴾ يُعبد له ويُرجع إليه مع صرافة وحدته الذاتية ﴿وَفِي الأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة والهيولي ﴿إِلَهٌ﴾ كذلك بلا تعدد وتغير في ذاته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ الحَكِيمُ﴾ المقصور على الحكمة المتقنة البالغة لا حاكم سواه ﴿العَلِيمُ﴾ [الزخرف: 84] المقصور على العلم الكامل الشامل، المحيط بجميع ما لاح عليه بروق تجليات الوجود وشروق شمس الذات.

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تعالى: ﴿فَأَنَا﴾ ، من آية هذا الوارد وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:81]، يكون الوقف هنا في غاية الحسن، ويكون الولد بمعنى النتيجة، لأنه ﷺ نتيجة رحمة الرحمن المتجلية في سائر الأكوان من حضرة أم كتاب السر والإعلان، ومن هنا يعلم قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ [فصلت:1] رمز محمد ﷺ الذي هو بذاته، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:2]، فهو منزّل من إطلاق البطون العمائي الذي هو قبل خلق الخلق إلى شهادة ظهور نور ذات الله القديم، وقد استخرجت اسم محمد ﷺ من قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ من منه علم المعمي بطريق الدور والتدلي، وذلك أن الميم من قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ دورية أولها ميم وآخرها ميم، فحصل ميمان في النطق، ثم تدلّت الميم من عدد الأربعين إلى عدد الأربعة، وهي عدد الدال فحصل من ميم ﴿حمٓ﴾ ميمان ودال، ضممنا ذلك إلى حاء، ﴿حمٓ﴾ فظهر اسم محمد ﷺ.

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: 85-89].

﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم وتعالى الذات القادر العليم الحكيم ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المركبات والممتزجات، تدبيرًا وتصرفًا على وجه الاستقلال بالإرداة والاختيار ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الموعودة قيامها من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: 85] في النشأة الأخرى رجوع الأظلال إلى الأضواء والأمواج إلى الماء.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت وحدة الحق واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ ولا ينفع المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ عنده من آلهتهم الذين زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ أن الشفاعة؛ أي: إلا شفاعة من أقر ﴿بِالْحَقِّ﴾ واعترف بتوحيده ﴿وَهُمْ﴾ مع إقرارهم واعترافهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86] وينكشفون بوحدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين عن ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ وأوجدهم من كتم العدم، وأظهر أشباحهم منه ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الموجد المظهر للكل؛ إذ لا يمكنهم المكابرة والعناد في أمثال هذه الظواهر ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 87] ويصرفون بعدما اعترفوا باستقلاله في الخلق والإيجاد.

وكيف يشركون معه غيره في استحقاق العبادة، والرجوع إليه في الخطوب والمهمات ﴿وَقِيلِهِ﴾ أي: من جملة قوله ومقوله ﷺ في مناجاته مع ربه في شأن قومه حين آيس عن إيمانهم، بعدما بالغ في إرشادهم وتكميلهم مناديًا متضرعًا إلى الله، متعجبًا من كمال قسوتهم وانهماكهم في الغي والضلال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ البعداء عن جادة الهداية والرشاد ﴿قَوْمٌ﴾ متناهٍ في الغفلة والإعراض عنك ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: 88] بتوحيدك ولا يقبلون دعوتي، ولا يسمعون قولي.

وبعدما تضرع وناجى مع ربه، قيل له من قِبل الحق على سبيل الوحي والإلهام ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واعرض عن هدايتهم وإرشادهم، فإنهم مجبولون على الغواية، مطبوعون بالكفر والضلال ﴿وَ﴾ بعدما آيست منهم يأسًا كليًا ﴿قُلْ سَلَامٌ﴾

على سبيل التوديع والمتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89][1] وبال ما تعملون وتدخرون لنفوسكم من الذخائر الجالبة لأنواع العقوبات، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد لتحقيق الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع أن تصفي همَّك في جميع حالاتك عما سوى الحق، وتخلي قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي نحوه، وتستقيم على صراط التوحيد مستويًا، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، مقتصدًا؛ إذ مرجع جميع الطرق والسبل السوية إلى العدالة الإلهية الفائضة منه سبحانه على استعدادات عموم القوابل والمجالي، حسب قابلياتهم الفطرية التابعة للتجليات الإلهية وشئونه المتفرعة على أسمائه وصفاته الذاتية، وتقتفي في تهذيبك وتصفيتك هذا أثر النبي المجبول على العدالة الإلهية وخلافته ونيابته.

وعليك الإعراض عمَّن أعرض عن الحق وأهله، وانحرف عن سواء السبيل.

جعلنا الله وعموم عباده من زمرة أهل الهداية واليقين، وجنبنا من الضلال عن الطريق المستبين.

(1) وشكا محمد ﷺ شكواه إلى ربه. وقرأته عامة قرّاء الكوفة ﴿وقِيلِهِ﴾ بالخفض على معنى: وعنده علم الساعة، وعلم قيله، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، فتأويل الكلام إذن: وقال محمد ﷺ قيله شاكيًا إلى ربه تبارك وتعالى قومه الذين كذّبوه، وما يلقى منهم: يا ربّ إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك، قوم لا يؤمنون، عن مجاهد، في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبرّ الله ﷻ قول محمد ﷺ. عن قتادة، قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: هذا قول نبيكم عليه الصلاة والسلام يشكو قومه إلى ربه، عن قتادة ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ﴾ قال: هو قول النبي ﷺ ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾. تفسير الطبري» (21/656 - 657).

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الدخان

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق في عموم أوقاتهم وحالاتهم سيما في أوائل أيام الطلب والإرادة المنبعثة من المحبة الغالبة الجالبة للميل والركون إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي أن الحالات الطارئة على أرباب الإرادة في تلك الأوقات متفاوتة قبضًا وبسطًا، تلذذًا وتحزنًا، تلونًا وتمكنًا، وبالجملة: لا طمأنينة للسالك في تلك الأوقات إلى أن يصفو له الحال، وينزل على سلطان قلبه التمكن والوقار والتمرن والقرار.

ثم لما وصل ﷺ إلى ذلك المقام واستولى وغلب على قلبه سلطان المحبة والعشق المفرط الإلهي، وكان ورود تلك الحالة إياه في ليلة القدر أو البراءة على اختلاف الرواية، أنزل سبحانه عليه بعض آيات القرآن الفرقان الفارق بين نشأتي التلوين والتمكين، ليتقرر في مقام الكشف والشهود، ويتمكن في مقعد الصدق والمقام المحمود، وقال مناديًا لحبيبه بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم مظاهره بإفاضة الوجود والرزق الأوفى بمقتضى الكرم والجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى سدرة المنتهى والمقام المحمود.

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾
[الدخان: 1-9].

﴿حمٓ﴾ [الدخان: 1] يا حافظ حدود الله ومراقب وحيه في عموم أوقاتك وحالاتك.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: 2] الذي هو القرآن العظيم الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: ابتدأنا إنزاله إليك تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ كثيرة الخير والبركة، هي ليلة القدر أو البراءة، وإنما أنزلناه مشتملاً على الأحكام والمواعظ والعبر والأمثال والقصص والتواريخ والرموز والإشارات المنبهة على المعارف والحقائق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: 3] مخوفين بإنزال ما فيه من الأوامر والنواهي والوعيدات الهائلة على من انصرف عن جادة العدالة الإلهية وانحرف عن الطريق المستبين.

وإنما أنزلناه إليك في ليلتك هذه؛ إذ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ يميز ويفصل عندك يا أكمل الرسل بعدما تمكنت في مقر العز والتمكين ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 4] أي: محكم صادر عن محض الحكمة المتقنة الإلهية، ولهذا صار ما ذكر في كتابك هذا ﴿أَمْرًا﴾ محكمًا مبرمًا نازلاً ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ على مقتضى كمال علمنا وقدرتنا ووفور حكمتنا؛ ليكون هداية لك وإرشادًا لعموم عبادنا، المتابعين لك المهتدين بهدايتك ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في عموم الأوقات ﴿مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: 5] رسلاً مبشرين ومنذرين، منزلين عليهم كتبًا مبينة مصلحة لأحوال عبادنا، بعدما أفسدوا على أنفسهم.

وصار ذلك الإرسال والإنزال ﴿رَحْمَةً﴾ نازلة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل سنة سنية مستمرة بين عموم عباده حين ظهر الفساد فيهم، وبالجملة: أنه سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده نحوه بألسنة استعدادتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 6] لحاجاتهم ونياتهم فيها.

وكيف لا يرحمهم ولا يصلح أحوالهم مع أنه هو بذاته ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ السياق يدل على أن التفسير على قراءة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ على قراءة ابن عامر وغيره من الكوائن المركبة منها، يعني: مربي الكل ومظهره بالاستقلال والانفراد إن ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: 7] أي: من أرباب المعرفة واليقين، فاعرفوه كذلك ووقروه.

إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بصرافة وحدته وتنزهه عن وصمة الشركة مطلقًا هو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يظهر ويوجد ما يظهر، ويعدم ما يعدم، بمد ظله

إليه وقبضه عنه؛ إذ هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: 8] لا مربي لكم ولهم سواه، لو تأمل عموم العباد في دلائل توحيده سبحانه، ونظروا في آيات ألوهيته وربوبيته، لعرفوا يقينا وحدة ذاته ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: أكثرهم ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي: غفلة وتردد ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: 9] ويترددون في أودية الظنون والجهالات حسب آرائهم الفاسدة وأهويتهم الباطلة.

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: 10-16].

﴿فَارْتَقِبْ﴾ يا أكمل الرسل وانتظر لهم مترقبا بإلمام البلاء عليهم، بعدما أصروا على كفرهم وشركهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾[1] مظلم ﴿مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ﴾ [الدخان: 10-11] يحيط بهم وينزل عليهم، فيتيقنوا أن ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: 11] مؤلم ألم بهم.

---

(1) (دخنت) النار دخنا ودخونا ودخانا ظهر دخانها وكثر دخانها والوقود أتى بالدخان والغبار سطع (دخنت) النار دخنا دخنت ويقال دخنت الفتنة ظهرت وثارت والطعام والشراب غلب على طعمه الدخان فأفسده والخلق والعقل والدين فسد فهو دخن والشيء دخنا ودخنة صار لونه كلون الدخان فهو أدخن وهي دخناء (ج) دخن (دخن) الشيء دخنة دخن (أدخنت) النار دخنت (دخنت) النار دخنت والوقود دخن وعلى الشيء جعل الدخان يصل إليه ويقال دخن على الشجر أو على الثوب طهره ببخور خاص ليقتل ما به من الآفات، والثوب بخره بالدخنة أو الدخان والتبغ ونحوه أحرقه متعاطيا إياه (ادخنت) النار دخنت وفلان تبخر بالدخنة أو الدخان والزرع اشتد حبه فصار لونه كلون الدخان (تدخن) مطاوع دخنه والقدر علاها الدخان وفلان ادخن (الداخنة) منفذ يتخذ على المقلى والأتون ونحوهما ليخرج منه الدخان (ج) دواخن (الدخان) ما يتصاعد عن النار من دقائق الوقود غير المحترقة والتبغ، ويقال كان بينهم أمر ارتفع له دخان شر مستطير (ج) أدخنة ودواخن ودواخين (الدخان) الدخان (الدخن) نبات عشبي من النجيليات حبه صغير أملس كحب السمسم ينبت بريا ومزروعا (الدخن) الدخان ويقال بينهما دخن حقد وهدنة على دخن صلح على فساد باطن وفي متن السيف دخن ما يتراءى في متنه من سواد لشدة الصفاء (الدخنان) الذي غشيه الدخان فسخن واغبر ويقال يوم دخنان حار أغبر كأنما غشيه الدخان يقال ليلة دخنانة (الدخنان) ضرب من العصافير. «المعجم الوسيط» (573/1).

فيتضرعون حينئذ نحو الحق صارخين قائلين: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ﴾ بفضلك وجودك ﴿عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا﴾ بعدما كشفت عنا ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12] موقنون بوحدانيتك، مصدقون بكتابك ورسولك، وذلك أن قريشًا لما بالغوا في استهزاء الرسول ﷺ والتهكم معه ومع ضعفاء المؤمنين، دعا عليهم ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بالسبع الشداد كسبع يوسف عليه السلام»[1] فأجاب الله دعاءه، فأخذهم بالقحط، فأكلوا الميتة والجيفة، وهلك كثير منهم، فيغشاهم حينئذ دخان عظيم، يسمع كل منهم كلام صاحبه ولا يراه من ظلمة الدخان، وقالوا صارخين متضرعين: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[2] وكانوا عليه حتى جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: إنك قد جئت بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا من الجهد، فدعا لهم، فكشف الله عنهم جهدهم، ومع ذلك لم يوفوا بعهدهم الذي عهدوا، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ أي: من أين يتأتى منهم التذكر والاتعاظ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ لتكميلهم وإرشادهم ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: 13] ظاهر الفضل والعظمة أكمل من كل الرسل.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ مدبرين وأعرضوا عن دعوته ودينه، مصرين على ما هم عليه ﴿وَ﴾ لم يقتصروا على مجرد التولي والإعراض، بل ﴿قَالُوا﴾ في شأنه كلامًا لا يليق بعلو مكانه، حيث قال بعضهم أنه: ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: 14] يعلمه بعض الأعجمين مع أنه أمي، وقال البعض الآخر: أنه مجنون مخبط مختل العقل يتكلم بكلام المجانين، مع أنه أعقل الناس وأرشدهم.

ثم قال سبحانه على سبيل الإخبار والتنبيه لحبيبه ﷺ بعدما دعا لهم بالكشف: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا معك يا أكمل الرسل ﴿كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ المحيط بهم بدعائك زمانا ﴿قَلِيلًا﴾ في دار الاختبار، إلا أنهم لم يوفوا بعهدهم الذي عهدوا معك لعراقتهم وانهماكهم في الكفر، ثم خاطبهم سبحانه مخبرًا بما سيصدر عنهم فقال:

---

(1) رواه البخاري في «الصحيح» (5/16) بنحوه.

(2) ضعف الإيمان ما يكون عند نزول البليات، بل الإيمان الأصلي ما يكون أعظم في العافية مما يكون في البلاء، ولا ينكشف العذاب والحجاب إلا بصدق الافتقار والحياء من الله في النظر إلى غيره.

وقال بعضهم: لا يستكشف العذاب إلا بتمام الإيمان وصحة الالتجاء والرغبة والدعاء. [العرائس].

﴿إِنَّكُمْ﴾ وإن كشفنا العذاب عنكم أيها الضالون المكذبون ﴿عَائِدُونَ﴾ [الدخان: 15] راجعون إلى كفركم وضلالكم غب الكشف والفرج، مبادرون على ما كنتم عليه.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ أي: يوم نأخذهم وننتقم عن جرائهم وآثامهم في يوم القيامة والطامة الكبرى، كيف ينقذون أنفسهم من عذابنا الذي لا مرد له حينئذ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: 16] منهم ألبتة يومئذ.

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان: 17 -24].

ثم قال سبحانه تسلية لحبيبه ﷺ وتسكينًا لقلبه بما أهمه من استهزاء قومه معه واستخفافهم عليه: ﴿وَ﴾ كما امتحنا قريشًا بإرسالك إليهم مع إنا نعلم منهم أنهم لم يؤمنوا لك ولم يهتدوا بهدايتك، وأوقعناهم في فتنة عظيمة وبلية فظيعة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال أخيك موسى الكليم إياهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ مرسل من لدينا ﴿كَرِيمٌ﴾ [الدخان: 17] مكرم بأنواع الكرامات، مريد بالمعجزات، مبلغ لهم على مقتضى الوحي الإلهي ﴿أَنْ أَدُّوا﴾ أي: بأن أدوا ﴿إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ حق الله، وأرسلوا معي عباده بني إسرائيل ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ من قبل ربي ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: 18] مأمون مصون عن الكذب والافتراء، غير متهم به؛ لدلالة ما عندي من المعجزات على صدق دعوتي ورسالتي.

﴿وَ﴾ عليكم ﴿أَن لَّا تَعْلُوا﴾ ولا تتكبروا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وعلى قبول وحيه وتصديق رسوله ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: 19] حجة واضحة دالة على صدقي في دعواي ﴿وَ﴾ مع وضوح الحجة وسطوع البرهان أن تظهروا علي بالعناد والمكابرة اتكالاً على شوكتكم وكثرتكم، فإنا لا نبالي بكم وبشوكتكم واستيلائكم، بل ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ التجأت ووثقت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: 20] وتقتلون أو تضربوني بالحجارة أو تشتموني باللسان.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ ولم تقبلوا قولي ودعوتي ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: 21] لا علي ولا لي، وبعدما كذبوه وقصدوا قتله ومقته: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ وتضرع نحوه بقوله: ﴿أَنَّ هَؤُلاءِ﴾ المسرفون ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: 22] منهمكون في الغي والضلال، لا ينفعهم نصحي، ولا يؤثر فيهم قولي ودعوتي.

وبعدما أيس عن إيمانهم، بل خاف عن مكرهم وطغيانهم، قلنا له: إن كان الأمر كذلك ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: سر معهم ﴿لَيْلاً﴾ وبعدما علموا خروجك ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: 23] أي: يتبعكم فرعون وجنوده ليلحقوكم ويستأصلوكم.

وبعدما وصلتم غدوة، وهم على أثركم مدركون بكم، فاضرب حينئذ بعصاك البحر، فانفلق وتفرق من كمال قدرتنا، وادخل أنت ومن معك بلا خوف من الغرق، فاعبروا سالمين ﴿وَ﴾ بعد عبوركم ﴿اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ذا فجوة وانفلاق ولا تقصد إلى اجتماعه خوفًا من عبورهم، ولا تضرب بالعصا ليجتمع ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: 24] بعد دخولهم ألبتة، لا تخف منهم ومن إدراكهم، ففعل موسى ﷺ كذلك، فعبروا سالمين، وترك البحر على هيئته، فاقتحمه فرعون وجنوده بأجمعهم اغترارًا بعبورهم بافتراق البحر وانفلاقه، فلما دخلوا اتصل البحر فغرقوا بالكلية.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: 25-33].

وبعدما هلكوا ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي: كثيرًا تركوا ﴿مِن جَنَّاتٍ﴾ متنزهات ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 25] جاريات فيها ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة في حواليها ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: 26] أي: محافل مزينة ومنازل حسنة في خلالها ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: أسباب تنعم وترفه من الأمتعة والنسوان ﴿كَانُوا فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: 27] متنعمين مترفهين، كذلك فعلنا بهم معهم من كمال قدرتنا، بعدما أردنا إهلاكهم وانتقامهم بسبب تكذيبهم واستكبارهم على رسولنا، وهكذا نفعل مع كل مكذب متكبر، لا يؤمن بيوم الحساب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ بعدما تركوا الكل على ما كان وهلكوا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: تلك الجنات وما يتفرع عليها من المستلذات المتروكات ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: 28] لا قرابة بينهم نسبًا ودينًا، وهم بنو إسرائيل، وبعدما هلكوا واستؤصلوا.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾[1] أي: لم تكترثا، ولم تعتدا بهلاكهم واستئصالهم أصلاً، مثل اعتدادهما لهلاك المؤمنين وفقدهم، قال ﷺ: «ما من عبد مؤمن إلا له في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فإذا مات فقداه وبكيا عليه»[2].

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: إذ مات المؤمن بكى عليه مصله من الأرض ومصعد عمله من السماء، قال السدي: لما قتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - بكت عليه السماء، وبكاؤها عبارة عن حمرة أطرافها.

﴿وَ﴾ هم من غاية انهماكهم في الغي والضلال واستهالهم بالمقت والهلاك ﴿مَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: 29] ممهلين مؤخرين إلى وقت آخر، بل أخذتهم العزة بإثمهم حيث لا يمهلهم ولا يسوف عليهم ساعة.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [الدخان: 30] وهو استعبادهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم استذلاً لا لهم واستهانة عليهم، وإنما نجيناهم كرامة منا إياهم وامتنانًا عليهم، وكيف لا يهينهم العذاب النازل عليهم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي المتجبر المتكبر على الأرض ﴿إنه كَانَ عَالِيًا مِّنَ﴾ عموم ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: 31] في عصره، متبالغًا في العتو والعناد، والغلبة على العباد أقصى غايته، وبالجملة: لقد اخترناهم أي: بني إسرائيل واصطفيناهم من بين سائر

(1) قال البقلي: كيف تبكي السماء والأرض على من يدّعي الأنانية في ساحة كبرياء الأزل، والسماوات والأرضون في عظمها تصير هناك أقل من خردلة من هيبة عزة جبروته وملكوته، فغارت عليهم السماوات والأرض؛ إذ ادعوا ما ليس لهم في أمر الربوبية، وهي تبكي على العارفين الذين لا يجترئون أن يصفوا معروفهم بجميع الألسنة حياءً منه، إذا فارقوا من الدنيا تبكي السماوات والأرض بمفارقتهم حين لا تصعد عليهم أنوار أنفاسهم ولا يجري عليها بركات آثارهم كما روي في الحديث أن: «السماءُ والأرضُ تبكي بموت العلماء». قال بعضهم: كيف تبكي السماء على من لم يصعد إليه منه طاعة؟! وكيف تبكي الأرض على من يعصي الله عليها؟! معناه ما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء، ولا مواضع عبادتهم من الأرض.

(2) ذكره ابن كثير في تفسيره (253/7).

الأمم المعاصرين معهم على علم متعلق منا أنهم أحقاء بالرئاسة والسيادة وأنواع الثروة والجاه على العالمين؛ لكثرة ظهور الأنبياء والرسل فيهم ومنهم وبعد ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: 32] بعدما اخترناهم.

﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ العظام الدالة على كمال اختصاصهم بمزيد الشرف والكرامة ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ واختبار مُّبِينٌ﴾ [الدخان: 33] ظاهر، نختبر به إخلاصهم ورسوخهم على الإيمان.

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان: 34-42].

ثم لما أوضح سبحانه تفضيح حال المجرمين المكذبين لرسول الله قال: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل يعني: قريشًا خذلهم الله ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الدخان: 34] من غاية إنكارهم بقدرة الله، وبما أخبر به الرسول، ونطق به الكتاب: ﴿إِن هِيَ﴾ أي: ما الموتة التي تعرض لنا ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الأولى﴾ التي طرأ علينا في دار الدنيا وأزال حياتنا عنا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: 35] مبعوثين من قبورنا أحياء، ثم نحشرهم للحساب والجزاء كما زعمتم أيها المفترون الكاذبون.

وإن أردتم تصديقنا إياكم في هذه الدعوى ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الذين انقرضوا عن الدنيا أحياء ﴿إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [الدخان: 36] في دعواكم، إنما قالوا ما قالوا تهكمًا واستهزاء.

وبعدما أصروا على عنادهم وبالغوا في إنكارهم، رد الله عليهم على أبلغ وجه وآكده بقوله مستفهما على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَهُمْ﴾ يعني: قريشًا ﴿خَيْرٌ﴾ مالاً وجاهًا، وثروة وسيادة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ اسم لمن ملك الحمير، ككسرى لملوك فارس، وقيصر للملوك الروم، والمراد: أبو كريب سعيد بن منبل، آمن بنبينا قبل بعثته، فتنحى

عنه قومه، معللين أنك قد تركت ديننا، فأخذهم الله بجرمهم هذا، وأهلكهم ﴿وَالَّذِينَ مضوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الهالكة كعاد وثمود ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ مع شدة قوتهم وبسطتهم وكثرة شوكتهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: 37] بالجرائم العظيمة الموجبة للمقت والهلاك، أمثال جرائمكم أيها المجرمون المسرفون.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا خَلَقْنَا وأظهرنا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿لاعِبِينَ﴾ [الدخان: 38][1] عابثين بلا طائل ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وأظهرناهما على هذا النمط البديع والنظام العجيب المشتمل على أنواع التغيرات من الكائنات والفاسدات ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ليستدلوا بها على وحدة ذاتنا، وكمال علمنا وقدرتنا، ومتانة حكمتنا وحكمنا واستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور نظرهم عن إدراك الحكم والأسرار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: 39] ولا يشعرون إلا بالمحسوسات العادية، أولئك القاصرون عن النظر والاستدلال، القانعون باللذات الهيمية من هذا العجيب كالأنعام بل هم أضل سبيلاً وأسوأ حالاً منها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ﴾ الذي يمتاز فيه المحق عن المبطل والهادي المهتدى عن الضال المضل ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وموعد جزائهم وقطع خصوماتهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: 40] فيجزى كل منهم حسب ما حوسب، أن خيرًا فخير، وان شرًا فشر.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع ولا يرفع ﴿مَوْلًى عَن مَوْلًى﴾ قرابة عن قرابة ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء والدفع مما كتب له من الجزاء ثوابًا كان أو عقابًا ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: 41] بعضهم ببعض على سبيل المظاهرة والمعاونة ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ بمقتضى فضله وجوده، أو قبل شفاعة أحد في حق أحد عناية منه وعفوًا ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ العَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عموم مرادته ومقدوراته ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 42] المشفق على

---

(1) قال البقلي: كان في علم الله في أزل أزله أنه يوجد الكون من العدم، فأوجده بحق العلم السابق، وذلك الحق حق سوابق إرادته الأزلية على وجود الأكوان والحدثان؛ لتحقق بأنوار حقائق اصطناعه حقائق أنوار قلوب العارفين، وليتطرقوا بوسائط الشواهد إلى مشاهد جلاله وجماله؛ لئلا يحترقوا بالبديهة في بروز سطوات قدسه وكبريائه، قال ابن عطاء: خلق السماوات والأرض، وأظهر فيهما بدائع صنعه وبوادي قدرته، فمن نظر إليهما فرأى فيهما آثار الصنع فهو لتيقظه، ومن نظر وشاهد الصانع فهو لتحققه.

عباده عند إنابتهم ورجوعهم نحوه، يقبل توبتهم ويعفو زلتهم.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: 43-50].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [الدخان: 43] المعدة لذوي الغفلة والضلال ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ [الدخان: 44] المنهمك في الجرائم والآثام، وهو أبو جهل ومن مثله في العتو والعناد، وهي في الخرقة والبشاعة ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: الذهب الذائب، أو دردي الزيت الأسود، وهو من شدة حرقته وحرارته ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كغلي الحميم﴾ [الدخان: 45-46] أي: كالماء الحار إذا اشتد غليانه، كيف هو، هو مثله يغلي في بطون أهل النار، قال ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله حق تقاته، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم أبدا»[1]، فكيف حال من هو طعامه دائمًا ولم يكن له غذاء سواه، وبالجملة: هم مبتلون بهذا العذاب إلى حيث قطع أمعائهم.

ومع ذلك العذاب الهائل يقال من قبل الحق للزبانية الموكلين عليهم على الدوام: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: المسرف الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: ادفعوه وسوقوه بشدة العنف والزجر ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 47] أي: وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ مثل ما في جوفه ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: 48] ليستغرقوا بالعذاب الهائل استغراقًا تامًا، وقولوا له: عند صبكم وتعذيبكم على سبيل التهكم والتوبيخ: ﴿ذُقْ﴾ أيها المتجبر الطاغي طعم العذاب الهائل ﴿إِنَّكَ﴾ في نفسك وعلى مقتضى زعمك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾

(1) أخرجه الطيالسى (ص 344، رقم 2643) وأحمد (338/1، رقم 3136) والترمذى (706/4، رقم 2585) وقال: حسن صحيح، والنسائي (313/6، رقم 11070) وابن ماجه (1446/2، رقم 4325) وابن حبان (511/16، رقم 7470)، والحاكم (322/2، رقم 3158) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

المنيع ﴿الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49] الغالب المقصور على الغلبة والكرم بين أهل الوادي، ثم قولوا لهم بعد تشديد العذاب عليهم تفظيعًا لهم وتفضيحًا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب والنكال الذي أنتم فيه الآن ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: 50] تشكون وتمارون في النشأة الأولى.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الدخان: 51-59].

ثم ذكر سبحانه على مقتضى سنته المستمرة مستقر المؤمنين المتقين ومنزلتهم في النشأة الأخرى، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محارم الله في عموم أوقاتهم وحالاتهم، بعدما انقرضوا عن نشأة الاختبار والابتلاء ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: 51] [1] أي: مقر مأمون مصون عن طريان التغير والانتقال، محروس عن وصمة الغفلة والضلال، وبالجملة: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 52] جاريات من أنواع المعارف والحقائق والكشوفات والشهودات، ومن كمال تلذذهم وترفههم باللذات الروحانية ﴿يَلْبَسُونَ﴾ من ألبسة أرباب الكشف والشهود في مراقي درجات القرب والوصول ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: مما رق وغلظ من عروض المعارف والحقائق إلى أن صاروا ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: 53] في المحبة، متماثلين في الوجد والحضور.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ ينكشف لهم الأمر بعد انقراضهم عن نشأة الدنيا وعالم

(1) لما ذكر وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ» قال أهل السنة: كل من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق، فوجب أن يدخل الفساق هذا الوعد فقال: (فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وقرأ أهل المدينة والشام بضمّ ميم «مُقَام» على المصدر، أي في إقامة وقرأ الباقون فتح الميم أي في مجلس أمنين آمنوا فيه من الغير. «تفسير ابن عادل» (14/176).

﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية: 7-11].

وبعدما وضح محجة الحق واتضح دلائل توحيده: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم وهلاك شديد ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مفتر كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: 7] منغمس في الإثم والعدوان، مغمور في العناد والطغيان، إلى حيث: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته حين ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ مع كمال وضوحها وسطوعها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم ويديم على ما هو عليه من الكفر والضلال ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ بلا علة وسند سوى العناد والاستكبار، ويصير من نهاية عتوه وعناده حين يسمعها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ اغترارًا بما عنده من الجاه والثروة، وبالجملة: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل على إصراره وعناده ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: 8] في غاية الإيلام، وهو انحطاطه عن رتبة الخلافة الإنسانية؛ إذ لا عذاب عند العارف أشد من ذلك.

﴿وَ﴾ من نهاية استكباره واغتراره ﴿إِذَا عَلِمَ بعدما بلغه مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على ضبط الظواهر وتهذيب البواطن ﴿شَيْئًا﴾ أي: آية ﴿اتَّخَذَهَا﴾ وأخذها من غاية تكبره وتجبره ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاء وسخرية يستهزأ بها ويتهكم عليها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء الأفاكون الضالون، المنحرفون عن منهج الحق وصراطه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: 9] في الدنيا بإعلاء كلمة الحق وإظهار دين الإسلام على الأديان كلها.

ومع تلك الإهانه العاجلة ﴿مِّن وَرَائِهِمْ﴾ أي: قدامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُم﴾ يومئذ ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد والثروة والجاه ﴿شَيْئًا﴾ من الدفع والإغناء من غضب الله عليهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا﴾ ينفعهم ﴿مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالإلوهية، المتفرد بالربوبية ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ من الأصنام والأوثان، يدعون ولايتهم كولاية الله، ويعبدونهم كعبادته عدوانًا وظلمًا، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: 10] لا عذاب أعظم منه.

وبالجملة: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر في كتابك يا أكمل الرسل ﴿هُدًى﴾ يبين طريق الهداية والرشاد لأهل العناية والتوفيق ﴿وَ﴾ المسرفون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة في كتابك هذا، والتي نزلت في الكتب السالفة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ نازل ناشئ ﴿مِّن

الحجبات ﴿وَ﴾ مع ذلك القرب والوصول والوجد والحضور ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: 54] مصورة من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية والخصائل السنية التي تأدبوا بها عند ربهم في النشأة الأولى.

﴿يَدْعُونَ﴾ أي: يطالب بعضهم بعضًا حين تمكنهم واستقرارهم ﴿فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ملذة لأزواجهم واستعداداتهم من الفواكه الحاصلة لهم من شجرة اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿آمِنِينَ﴾ [الدخان: 55] من غوائل الشيطان وتسويلاته وتزييناته كما في النشأة الأولى، وبالجملة: هم أحياء عند ربهم بحياته الأزلية الأبدية، باقون دائمون ببقائه السرمدي، بحيث ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أي: طعم مرارة الموت المعطل عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ التي ذاقوها عند افتراقهم عن لوازم نشأة الإمكان وانقطاعهم عن مقتضيات عالم الناسوت ﴿وَ﴾ بالجملة: بعدما وصلوا إلى فضاء الوجود، وحصلوا في عالم اللاهوت ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿ربهم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: 56] [1] أي: عن عذاب بقعة الإمكان ونشأة الناسوت.

وبالجملة: إنما أعطوا ما أعطوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وبمقتضى كرمه وجوده بلا استحقاق منهم واستجلاب بطاعاتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بشر الله به عباده المتقين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: 57] والفضل الجسيم، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ وسهلناه أي: المذكور في القرآن من المعارف والحقائق والرموز

(1) قال الورتجيبي: افهم يا فَهِم لو تدرك حقائق أمور المعارف لا تتهمني بالجهل فيما أقول لك؛ فإن الموت الأصلي هو العدم، وكيف يموت من أوجده الحق بنور القدم، الموتة الأولى هي عدمهم قبل وجودهم، فبعد الوجود لا يكون القدم بالحقيقة، إنما يجري عليهم أطوار فنون امتحانات الحق كالذهب ساعة في طين، وساعة في نار، وساعة في بوتقة، وساعة في سواد، وساعة في بياض حتى يعود إلى ما خرج من المعدن ،فأطوار الخليقة إلى الأبد في تقلبها بقاء في بقاء، وكيف يفنى بالحقيقة من أوجده الحق من مكمن الغيب إلى قضاء ربوبيته، فإذا أحضرهم في ساحة كبريائه ويتجلى لهم بالبداهة من عين الجبارية والقهارية يكونون في محل الفناء وفي فناء الفناء من عليات سطوات ألوهيته، فإذا صاروا فانين ألبسهم الله لباس بقائه؛ فيبقون ببقائه أبد الأبدين، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق لا على التأويل فيأرب موت هناك؛ ويأرب حياة هناك؛ لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم، ألا ترى إلى إشارة النبي ﷺ كيف قال: «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

رِجْزٍ﴾ غضب عظيم من الله المقتدر على أنواع الانتقام ﴿أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: 11] مؤلم أشد الإيلام.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية: 12-15].

وكيف تكفرون أيها الجاحدون المسرفون بآيات المنعم المفضل الكريم مع أنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ وسهل عليكم العبور عنه بأن جعله أملس مستوي السطح، ساكنًا على هيئته ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بمقتضى تسخيره وحكمه ﴿وَ﴾ أنتم تركبون عليها ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والاصطياد والغوص، وغير ذلك من الأغراض﴿وَ﴾ إنما سخر وسهل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: 12] نعمه، وتواظبون على أداء حقوق كرمه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ وهيأ لتربيتكم وتدبير معاشكم مظاهر ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إذ أنتم زبدة الكائنات، وخلاصة الموجودات كل ذلك لكم متنشئة منه سبحانه، مستندة إليه أولاً وبالذات، فعليكم ألا تسندوها إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13] في آلاء الله، وسوابغ نعمائه، وكيفية ظهور العالم منه سبحانه وصدوره عنه، وارتباطه له.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنها: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكرة للمؤمنين وتهذيبًا لأخلاقهم: اغفروا واصفحوا واعفوا سيما المسيئين؛ ليكون العفو والغفران ديدنة راسخة في نفوسكم حتى ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾أي: انعكاس الدول وتقلبها عليهم، اغترارًا بما عندهم من الثروة والجاه، وإنما أمر سبحانه المؤمنين بالصفح والعفو عن المسيء ﴿لِيَجْزِيَ﴾ سبحانه جزاء حسنًا ﴿قَوْمًا﴾ من المتخلقين بالعفو عند المقدرة، وكظم

والإشارات التي خلت عنها سائر الكتب ﴿بِلِسَانِكَ﴾ وبناء على لغتك ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: الأعراب ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: 58] أي: يفهمونه ويتعظون بما فيه، كي يتفطنوا إلى كنوز رموزه وبعدما لم يؤمنوا بك ولم يقصدوا كتابك، فكيف التذكر والاتعاظ بما فيه، وبالجملة: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ وانتظر يا أكمل الرسل ما ينزل عليهم من العذاب ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: 59] منتظرون أيضًا بما ينزل عليك من القهر والغضب على زعمهم الفاسد.

جعلنا الله من المتذكرين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم بمنه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لنفحات الحق ونسمات لطفه الموهبة من عالم قدسه في عموم أحوالك: أن تلازم بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته المنافية لآداب العبودية، وتداوم على التخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، والاشتغال بالطاعات المقربة نحوه، والإعراض عن الملاهي الملهية عن التوجه إليه؛ لتكون من جملة المتقين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم والفضل الكريم.

الغيظ عند الغضب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: 14][1] من الإحسان بدل الإساءة؛ لأن ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: يعود نفعه إليه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ وبال إساءته ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: 15] جميعًا، يحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم بمقتضاها، لكن ما أخذ الله سبحانه عباده إلا بعد أن يرسل عليهم رسلاً مبشرين ومنذرين وينزل عليهم كتبًا مبينةً طريق الهداية والرشاد، فإن اهتدوا فقد فازوا بصلاح الدارين وإن اعتدوا فقد ضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا بالعذاب الأليم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: 16-20].

كما أخبر سبحانه حكاية عن ضلال بني إسرائيل وانحرافهم عن سواء السبيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المبينة لهم طريق الهداية والرشاد ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي: الحكمة المنبئة عن العدالة الإلهية في قطع الخصومات ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إذ أكثر الأنبياء بعث منهم وإليهم ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي:

---

(1) قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال مقاتل والكلبي: وذلك، أن رجلًا من الكفار من قريش، شتم عمر ﷺ بمكة، فهم عمر بأن يبطش به، فأمره الله بأن يتجاوز عنه. فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: عمر ﴿يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ﴾ يعني: يتجاوزوا، ولا يعاقبوا الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ يعني: لا يخافون عقوبته التي أهلك بها عادًا وثمودًا، والقرون التي أهلكت قبلهم، يعني: لا يخشون مثل أيام الأمم الخالية، قال قتادة: ثم نسختها آية القتال ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْرًا في كتاب الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والارض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلاَ تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا۟ المشركين كَآفَّةً كَمَا يقاتلونكم كَآفَّةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين﴾ [التوبة:36] ثم قال:﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يجزيهم بأعمالهم في الآخرة. قال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ يعني: لا ينالون نعم الله، قرأ حمزة والكسائي، وابن عامر لِنَجْزِيَ بالنون على الإضافة إلى نفسه، والباقون لِيَجْزِيَ بالياء؛ أي: ليجزي الله. «بحر العلوم» للسمرقندي (4/130).

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الجاثية[1]

لا يخفى على أرباب العزة المتحققين بمقتضيات الفطرة الأصلية التي فطروا عليها من المعرفة واليقين أن المظاهر العلوية والسفلية من الآفاق والأنفس والغيب والشهادة إنما ظهرت وبرزت من مكمن الغيب وعالم العماء؛ ليستدل الوالهون

---

(1) جثا جثوا وجثيا كجذا جذوا وجذوا إذا قام على أطراف أصابعه ، وعده أبو عبيدة في البدل وأما ابن فقال ليس أحدًا لحرفين بدلًا من الأخر بل هما لغتان، واجثاه غيره وهو جاث (ج) جثى بالضم مثل جلس جلوسًا وقوم جلوس، والكسر لما بعده من الكسر وبهما قرئ قوله تعالى: ﴿ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ وقال الراغب يصح أن يكون جمعًا نحو باك وبكى، وأن يكون مصدرًا موصوفًا به وفى الحديث: فلان من جثى جهنم؛ أي: ممن يجثو على الركب فيها، وجاثيت ركبتي الى ركبته، وفى بعض نسخ الصحاح جائيته، وتجاثوا على الركب في الخصومة مجاثاة وجثاء وهما من المصادر الآتية على غير أفعالها، والجثاء كسحاب الشخص ويضم، نقله الصاغانى وأيضًا الجزاء والقدر والزهاء، يقال جثاه كذا؛ أي زهاؤهم وجثى كسمى جبل بين فدك وخيبر وضبطه نصر كربى، وقال جبل من جبال أجا مشرف على رمل طيء، وجثوت الأبل، والغنم جثوًا، وجثيتها جثيًا جمعتها نقله الصاغاني، ومما يستدرك عليه الجاثية في قوله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ موضوع موضع الجمع كقولك جماعة قائمة وجماعة قاعدة قاله الراغب، وبه سميت سورة الجاثية وهى التى تلى الدخان، وقال ابن شميل يقال للرجل العظيم الجثوة بالضم والجثا الجماعة ومنه الحديث «يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها» والجثوة القبر ومنه قول طرفة: ترى جثوتين من تراب عليهما * صفائح صم من صفيح مصمد، والجمع الجثا ومنه قول عدى يمدح النعمان عالم بالذى يكون نقى السدر عف على جثاه يحور، أراد ينحر النسك على جثا آبائه؛ أي: على قبورهم، وقيل الجثا صنم كان يذبح له، والجثوة الربوة الصغيرة، وقيل هي الكومة من التراب، وفى حديث عامر: رأيت قبور الشهداء جثا؛ يعنى: أتربة مجموعة، والجاثى القاعد، وقيل المستوفز على ركبتيه عن مجاهد، وقال أبو معاذ المستوفز الذى رفع إليتيه ووضع ركبتيه، ويروى فلان من جثا جهنم؛ أي: من جماعات أهل جهنم عن أبى عبيد وفى حديث إتيان المراة مجباة روى مجثاة كأنه أراد جثيت فهى مجثاة؛ أي: حملت على أن تجثو على ركبها، والجث الجاثوم بالليل، والتجاثى في إشالة الحجر مثل التجاذى. «تاج العروس» (1/8322).

الرزق الصوري والمعنوي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿فَضَّلْنَاهُمْ﴾ بإفاضة النعم الجليلة عليهم ﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 16] من أهل عصرهم.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ دلائل مبينات منبهات موضحات ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ أي: التوحيد الذاتي الذي أنت يا أكمل الرسل تبعث عليه وعلى تبيينه، وبالجملة: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في شأنك أي: ﴿إِلَّا مِن بعد ما جَاءَهُمُ العِلْمُ﴾ القطع في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنك وكتابك ودينك يا أكمل الرسل على الحق، وما أنكروا لك إلا ﴿بَغْياً﴾ وطغيانًا ناشئًا بينهم حسدًا وعدوانًا بلا مستند عقلي أو نقلي، فاصبر يا أكمل الرسل على مضضهم، وغيظهم ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي اصطفاك بكرامته، واجتباك لرسالته ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: 17] يعني: في شأنك ودينك وكتابك، بعدما عرفوا صدقك وحقية كتابك بالدلائل العقلية والنقلية بأنواع المؤاخذة والمجازاة.

﴿ثُمَّ﴾ اعلم يا أكمل الرسل إنا من مقام فضلنا وجودنا ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ تابعًا مقتديًا مقتفيًا ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ وطريقة منبئة موضحة ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ الذي أنت تظهر عليه، وأتيت لتنبيهه، ألا وهي الحقيقة التي هي عبارة عن الوحدة الذاتية الإلهية ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: الشريعة الموصلة إلى الحقيقة بالعزيمة الخالصة ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ القوم الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18] فكيف ينكشفون بسرائرها وحكمها، ولا تقبل منهم أباطيلهم الناشئة وآراءهم الفاسدة وأحلامهم السخيفة الكاسدة.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ﴾ غضب ﴿اللهِ شَيْئًا﴾ إن تعلقت مشيئته بطردك ومقتك بسبب موالاتهم ومتابعتهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المنحرفين عن جادة العدالة الفطرية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لكمال منسابتهم وموالاتهم؛ إذ الجنسية علة الانضمام وعلامة الالتئام بينهم، فعليك الإعراض والانصراف عنهم وعن موالاتهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على عموم ما في ضمائر عباده ﴿وَلِيُّ المُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 19] الذين يتقون عن محارم الله، ويوالون أولياء الله لله وفي الله.

﴿هَذَا﴾ الذي ذكر في كتابك من الأخلاق المرضية، المنبهة على القسط الحقيقي والعدل الإلهي ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يبصرهم طريق الهداية، ويوصلهم إلى التوحيد الذاتي، إن استقاموا عليها بالعزيمة الصادقة الصحيحة ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى سواء السبيل

المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله من صحائف الكائنات على شئون الحق وتطوراته؛ لذلك نبه سبحانه حبيبه ﷺ على ذلك بعدما تيمن باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى حكمته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم بريته بسعة رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بمزيد عطيته التي هي وصولهم إلى ينبوع وحدته.

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [الجاثية: 1-6].

﴿حم﴾ [الجاثية: 1] يا حاوي الوحي والإلهام ومزيل الشبه الحادثة من الأوهام وذي الأحلام.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الجامع لجميع مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم على الإطلاق ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ المحيط لعموم الأنفس والأفاق ﴿الْعَزِيزِ﴾ المنيع ساحة عز حضوره عن أن يحيط به الإدراك ﴿الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: 2] المتقن في أفعاله، بحيث لا يكتنه حكمته أصلاً.

اعلموا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿إِنَّ فِي﴾ خلق ﴿السَّمَوَاتِ﴾ ورفعها وتنظيمها مطبقة ﴿وَ﴾ في خفض ﴿الْأَرْضِ﴾ وبسطها ممهدة ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات على كمال قدرة الصانع الحكيم ومتانة حكمته وتدبيراته ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: 3] الموقنين بوحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته، هذا في خلق الآفاق.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: في خلق أنفسكم وإيجادكم من كتم العدم ﴿وَ﴾ كذا في أنفس ﴿مَا يَبُثُّ﴾ ينتشر ويتفرق على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ مركبة من العناصر متحركة على وجه الأرض من أنواع الحيوانات والحشرات وأصنافها ﴿آيَاتٌ﴾ دلائل وشواهد واضحات ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 4] [1] وحدة الحق وينكشفون بشؤونه وتجلياته

(1) قال الورتجبي: أي: ما بان في السماوات والأرض بان في خلق الإنسان والحيوان أيضًا، فما بان في السماوات والأرض للمؤمنين بان في خلق الإنسان والحيوان للموقنين؛ لأن ما بان في خلق

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة من قبل الحق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 20] يوفقون للإيمان والإيقان والكشف والعيان.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: 21-24].

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الغافلون الضالون المسرفون ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ واكتسبوا طول عمرهم ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ المبعدة لهم عن طريق الحق وسبيل الهداية ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ ونصيرهم بعدما رجعوا إلينا ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الحق وتوحيده، أي: مثلهم بلا مزية لهم عليهم، بل ظنوا أنهم وهم ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ السياق يدل على أن التفسير على قراءة بن عامر ونافع وغيرهما: ﴿سَوَاءٌ﴾ يعني: حياة المشركين ومماتهم عندنا كحياة الموحدين المخلصين ومماتهم؟ كلا وحاشا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21] أي: حكمهم هذا، وما حكموا به لأنفسهم أولئك الجاحدون الجاهلون.

﴿وَ﴾ كيف يحكم الحكيم المتقن في عموم أحكامه وأفعاله بمساواة المطيع والعاصي، مع أنه ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ المستوي بالعدل القويم على عروش عموم المظاهر ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ملتبسة بالحق، أي: بالعدالة الصورية المنبئة عن العدالة المعنوية الحقيقية، وإنما خلقها كذلك ﴿بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، بعدما أمر الحق بما أمر، ونهى عن ما نهى ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 22] في أجور أعمالهم وجزائهم زيادة ونقصانًا.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي إلى ﴿مَنِ اتَّخَذَ﴾ أي: إلى الجاحد الجاهل المعاند الذي اتخذ ﴿إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: ما يهواه، وكيف أطاع من يتمناه وعبد إلى ما يحبه ويرضاه، ولم يفوض أمره إلى مولاه ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿أَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم

التي لا تعد ولا تحصى.

﴿وَ﴾ كذا في ﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وإيلاجهما وازديادهما وانتقاصهما في الفصول الأربعة حسب الأوضاع الفلكية وأشكالها، وارتفاع الشمس وانحطاطها ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتراكمها سحبًا وصيرورتها ماء في غاية الصفاء ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بإنزال المطر ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وجفافها ﴿وَ﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ السائقة للسحب إلى الأراضي الميتة اليابسة، بعدما تعلق إرادته سبحانه بإحيائها ﴿آيَاتٌ﴾ أنواع من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة القادر العليم الحكيم ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 5] يستعملون عقولهم في كيفية انبعاث هذه الأوضاع والحركات، وارتباط بعضها مع بعض، وترتب الأمور الغير المحصورة عليها، وانشعاب الحوادث الغير المتناهية منها.

وبالجملة: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المجملة الكلية ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: بعض آياته الدالة على نبذ من كمالاته، وإلا فلا يفي ذرك أحد من عباده لتفصيل كمالاتها كلها ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقصها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييدًا لأمرك وتعظيمًا لشأنك ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ بلا ريب فيه وتردد، وإنما نتلوها عليك لتبين لهم بها طريق توحيدنا، وتنبههم على وحدة وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ أي: فهم بأي كلام وقول ﴿بَعْدَ﴾ نزول كتاب ﴿اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ المنزلة من عنده المبينة لتوحيده ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6] يذعنون ويوقنون.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

الإنسان حقيقة مباشرة الصفة في الفعل، وذلك يوجب حقيقة اليقين، وبين اليقين والإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين؛ حين باشر الأسرار بظهور الأنوار، ألا ترى كيف سأل النبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألك إيمانًا يباشرُ قلبي ويقينًا ليس بعده كفرٌ». قال بعضهم: في شواهد القدرة وآثار الصنع دلالاتٌ وآياتٌ على وحدانيته، فمن استشهد بها على وحدانيته فهو الموحِّد، ومن كان نظره إلى القادر الصانع المبدي لها ثم يرجع إلى الصنع والقدرة فهو العارف.

باسمه المذل المضل مع أنه أظهره سبحانه ﴿عَلَى﴾ صورة ذي ﴿عِلْمٍ﴾ وجبله على فطرة أولى المعرفة والتوحيد ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ لئلا يسمع كلامه الحق من أهله ﴿وَخَتَمَ﴾ أيضًا ﴿على قَلْبِهِ﴾ لئلا يتفكر في آيات الله ودلائل توحيده ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ غليظة وغطاء كثيفًا، لئلا يعتبر من عجائب مصنوعاته سبحانه وغرائب مخترعاته، مع أنه خلقه سبحانه كذلك ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ ويرشده أي: ينقذه من الضلال ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إضلال ﴿اللهِ﴾ إياه وإذلاله ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23] وتتفطنون من تبدل أحواله أيها العقلاء المجبولون على فطرة العبرة والعظة من غاية غوايتهم وضلالهم، عن مقتضى كمال قدرة الله، وعدم تنبههم وتفطنهم بوحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته، واستقلاله في تدبيراته وتصرفاته.

﴿وَقَالُوا﴾ منكرين الحشر والنشر: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحال والحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا التِي نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيها لا منزل لنا سواها، ولا سكن لنا غيرها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يُهْلِكُنَا﴾ ويميتنا فيها ﴿إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: مر الزمان وكر الأعوام، لا فاعل سواه، ولا متصرف إلا هو ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ﴾ الذي صدر عنهم ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ عقلي أو نقلي أو كشفي بل أن ﴿هُمْ﴾ أي: ما هم باعتقادهم هذا ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24] ظنًّا على وجه التقليد والتخمين بلا سند لهم يستندون إليه، سوى الألف بالمحسوسات والتقليد بالرسوم والعادات.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: 25-29].

﴿وَ﴾ من نهاية جهلهم وغفلتهم عن الله وعن مقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال تربيتنا إياهم مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مبينات لهم طريق الهداية والرشاد، منبهات لهم إلى ميعاد المعاد ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ حين سمعوها ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ على سبيل الإنكار والاستبعاد ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ وأسلافنا الذين مضوا وانقرضوا

أحياء كما كانوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: 25][1] في دعوى الحشر والنشر والميعاد الجسماني.

وبعدما أعرضوا عن الحق وانصرفوا عن الآيات البينات، وتشبثوا بأمثال هذه الحجج الواهية: ﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا يحرك سلسلة حميتهم الفطرية، ومحبتهم الجبلية لو ساعدهم التوفيق والعناية من عندنا: ﴿اللَّهُ﴾ المظهر للكل، المحيط به، المتصرف فيه على الإطلاق بالاختيار والاستحقاق ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ويبعثكم في النشأة الأخرى كما أوجدكم وأظهركم من كتم العدم أولاً في النشأة الأولى، يبسط ظله عليكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ويعدمكم بقبضه عنكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي: أنتم ومن انقرض من آبائكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفي وقوع ما فيه من الحساب والجزاء والسؤال والصراط والجنة والنار وسائر المعتقدات الأخروية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 26] وقوعه وقيامه، بل ينكرون عليه لاعتيادهم بالأمور الحسية، وقصورهم عن مدركات الكشف والشهود.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون جمع الله عباده في النشأة الأخرى؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد في الألوهية والربوبية ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وملكوتهما، وله التصرف المطابق في ملكه وملكوته بالاستقلال، إرادة واختيارًا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ المعدة للحشر والجزاء ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: 27] المنكرون حين يشهدون ربح المحقين المؤمنين بقيام الساعة، وبحقية جميع ما فيها من الوعد والوعيد.

﴿وَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي حين تقوم الساعة ويحشر الناس إلى الحشر للحساب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَاثِيَةً﴾ أي: كل فرد من أفراد الأمم ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى

(1) القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا تُتلى على هؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث آياتنا، بأن الله باعث خلقه من بعد مماتهم، فجامعهم يوم القيامة عنده للثواب والعقاب (بَيِّنَاتٍ) يعني: واضحات جليات، تنفي الشكّ عن قلب أهل التصديق بالله في ذلك﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: لم يكن لهم حجة على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم له: ائتنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء، وانشرهم لنا إن كنت صادقا فيما تتلو علينا وتخبرنا، حتى نصَدّق بحقيقة ما تقول بأن الله باعثنا من بعد مماتنا، ومحيينا من بعد فنائنا. «تفسير الطبري» (80/22).

﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ بين يدي الله إلى صحيفة أعمالها التي كتب فيها جميع أحوالها وأفعالها الكائنة الحاصلة منها في النشأة الأولى، فيقال لهم حينئذ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ كل منكم ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 28] [1] في نشأتكم الأولى، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وبالجملة: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ الذي فصلنا فيه أعمال كل منكم ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ ويذكركم ﴿بِالْحَقِّ﴾ على الوجه الذي صدر عنكم بلا زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا﴾ بعدما كلفناكم على امتثال أوامرنا، والاجتناب عما نهيناكم عنه ﴿كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ ونأمر الملائكة الموكلين عليكم، المراقبين لأحوالكم وأعمالكم أن يكتبوا جميع ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29] أي: أعمالكم حسناتها وسيئاتها، صغائرها وكبائرها.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجاثية: 30-32].

وبعدما تحاسبون على مقتضى كتبكم وصحائفكم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2] أذعنوا وأيقنوا بوحدة الحق، وصدقوا رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع كمال إيمانهم ويقينهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأفعال والأخلاق تقربًا إلى الله، وتأدبًا معه سبحانه بما يليق بعبوديته

---

(1) قال الشيخ ابن عجيبة: فهي عامة للناس في حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُّكب، كما هو المعتاد في مقام التفاوّل والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم. البحر المديد (3 /479).

(2) بيّن أحوال المطيعين فقال:﴿فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايرًا للإيمان زائدًا عليه . المسألة الثانية: قالت المعتزلة علق الدخول في رحمة الله على كونه آتيًا بالإيمان والأعمال الصالحة، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدمًا عند عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة. وجوابنا: أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف. المسألة الثالثة: سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم تكن واجبة، فوجب أن لا يكون الثواب واجبًا على الله تعالى. «تفسير الرازي» (14/36 - 37).

وتعظيم شأنه ﴿فَيُدْخِلُهُمْ اليوم رَبُّهُم﴾ الذي يوفقهم على الإيمان والتوحيد ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ وفضل وحدته وفضل لطفه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بشر به عباده المؤمنين المخلصين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: 30] والفضل العظيم، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأنكروا وحدة ذاته، بل أثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا، يقال لهم حينئذ من قبل الحق مستفهمًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم يأتكم رسلي، ولم يتلوا عليكم آياتي الدالة على عظمة ذاتي وكمال قدرتي على أنواع الانتقامات والوعيدات، فكذبتم بها وبهم، بل ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على الرسل ومن قبول الآيات ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: 31][1] مستكبرين، عادتكم الإجرام والعدوان.

﴿وَ﴾ من كمال استكباركم واغتراركم بما عندكم من الجاه والثروة ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم إمحاضًا للنصح: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعدكم على ألسنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ مطلقًا، لا بدَّ وأن يقع الموعود منه سبحانه ألبتة بلا خلف في وعده ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿السَّاعَةُ﴾ الموعودة آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وفي قيامها، وإذا سمعتم كلمة الحق عن أهله ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي﴾ على وجه الاستبعاد والاستغراب ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ الموعودة وما معنى قيامها والإيمان بها ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ أي: ما نظن بها وفي شأنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضعيفًا، بل وهمًا مرجوحًا سخيفًا؛ إذ ما لنا علم بها سوى الاستماع من أفواه الناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32] بها حتى نؤمن لها وبقيامها، ونصدق بما فيها من المواعيد والوعيدات.

---

(1) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الذين كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتى تتلى عَلَيْكُمْ فاستكبرتم وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسمًا ثالثًا وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة إثبات المنزلتين باطل. المسألة الثانية: أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع، خلافًا لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل . المسألة الثالثة: جواب ﴿أَمَّا﴾ محذوف والتقدير: وأما الذين كفروا فيقال لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قومًا مجرمين فإن قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرمًا في معرض الطعن فيه والذم له؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفارًا ما كانوا عدولًا في أديان أنفسهم، بل كانوا فساقًا في ذلك الدين، والله أعلم . «تفسير الرازي» (37/14).

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾
[الجاثية: 33-37].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بعدما تُبلى السرائر، وانكشفت الحجب والأستار ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ مصرين عليه، وعرفوا وخامة عاقبته ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: 33].

﴿وَقِيلَ﴾ لهم حينئذ من قبل الحق ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترككم في النار خالدين ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ ونبذتم وراء ظهوركم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ بل أنكرتم لقياه، وكذبتم الرسل المبلغين لكم أخباره، المنذرين لكم من أهواله ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أبدًا، لا منزل لكم سواه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: 34] منقذين لكم منها بعدما استوجبتم بها بمفاسد أعمالكم ومقابح أفعالكم.

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي وقعتم فيها وابتُليتم بها ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الرشاد والهداية ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاء، واستهزأتم بها بلا مبالاة بشأنها، وأنكرتم عليها بلا تأمل وتفكر في برهانها ﴿وَ﴾ أيضًا بسبب أنكم ﴿غَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ولذاتها وشهواتها، بحيث لا تلتفتون إلى العقبى ولذاتها الأبدية، بل تنكرون عليها عنادًا ومكابرة ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار المترتبة على ذلك الاتخاذ والغرور ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: 35] أي: لا يمكنهم أن يعتذروا عند الله، ويتداركوا ما فوتوا على أنفسهم بالتوبة والإنابة؛ إذ قد انقرض أوانه ومضى زمانه.

وبعدما ثبت أن مرجع الكل إلى الله ومحياه ومماته بيده، وله أن يثيب ويعاقب عباده على مقتضى فضله وعدله ﴿فَلِلَّهِ﴾ على وجه الاختصاص لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿الْحَمْدُ﴾ المستوجب لجمع الأثنية، والمحامد الصادرة من ألسنة ذرائر مظاهره، لكونه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أي: السفليات،

ورب ما يتركب منهما من الممتزجات، وبالجملة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 36] أي: مربي الكل، هو بذاته علوًا وسفلاً، بسيطًا ومركبًا، غيبًا وشهادةً.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ والعظمة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تدبيرًا وتصرفًا، حلاً وعقدًا؛ إذ ظهور الكل من آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم تدابيره وتقاديره، إرادة واختيارًا ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37] المتقن في جميع مقدوراته ومراداته على الوجه الأبلغ الأحكم.

فعليكم أيها المجبولون على فطرة العبودية والعرفان: أن تحمدوه وتكبروا ذاته، وتشكروا نعمه؛ لتؤدوا شيئًا من حقوق كرمه، إن كنتم مخلصين.

جعلنا الله من زمرة الحامدين المخلصين

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام الرضا والتسليم، المنكشف بعظمة الله وكمال كبريائه وعلو شأنه وبهائه: أن تواظب وتلازم على أداء الشكر له، ملاحظًا نعمه الفائضه المترادفة عليك، المتجددة آنًا فآنًا، بحيث تستغرق جميع أوقاتك وحالاتك بشكره سبحانه؛ إذ علامة العارف الواصل ألا يرى في مملكة الوجود سواه سبحانه، ولا يتكلم إلا به ومعه وفيه وله، لا إله إلا هو، ولا نعبد إلا إياه.

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الأحقاف

لا يخفى على من انكشف بسلطنة الحق واستيلائه التام على عروش عموم مظاهرة: أن إثبات الوجود لما سواه وادعاء التحقق والثبوت لغيره من الأظلال الهالكة في شمس ذاته، إنما هو زور ظاهر وقول باطل، بل ما ظهر إلا من انعكاس أشعة أسمائه وآثار أوصافه الذاتية الصادرة منه سبحانه حسب شئونه وتجلياته الحبية؛ ليستدل بها من جبل على فطرة الدراية والشعور على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته؛ لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأوصاه بما أوصى، بعدما تيمن باسمه العلي.

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المنزل للكلم مفصحًا عما عليه قضاؤه وإراداته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ للعموم عباده يصلح أحوالهم على مقتضى حكمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى منبع رحمته وفضاء وحدته.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 1-5].

﴿حم﴾ [الأحقاف: 1] يا من حمل أعباء الرسالة بحولنا وقوتنا، ومال إلى جناب قدسنا بالميل الذاتي الحقيقي بعد مساعدة توفيقنا وجذب من جانبنا ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ الذي أنزل إليك لتأييد أمرك، وضبط شرعك ودينك ﴿مِنَ اللهِ﴾ المطلع لما في استعدادات عباده ﴿العَزِيزِ﴾ الغالب على جميع ما دخل في حيطة قدرته وإرادته ﴿الحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: 2] في مطلق تدابيره الصادرة منه لضبط مصالح عباده.

ثم التفت سبحانه تهويلاً وتفخيمًا لحكمه فقال: ﴿مَا خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا من كتم

العدم ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: آثار الأسماء والصفات الذاتية ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: عالم الاستعدادات القابلة لانعكاس أشعة أنوار الذات الفائضة عليها حسب الشئون والتطورات الجمالية والجلالية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الآثار المتراكمة من امتزاج الفواعل الأسمائية من الآثار الناشئة من قوابل المسميات والهيولي ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقًا ملتبسًا بالصدق المطابق للواقع ﴿وَ﴾ قدرنا بقاء ظهورها إلى ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: وقت مقدر عندنا، محفوظ في خزانة حضرة علمنا ولوح قضاتنا لا نطلع أحدًا عليه، فإذا جاء الأجل المسمى انعدم الكل بلا تقدم وتأخر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا كمال قدرتنا واقتدارنا على إيجاد الأشياء وإعدامها وإبدائها وإعادتها ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من أهوال يوم القيامة المعدة لانعدام الكل وانقهار الأظلال الهالكة في شروق شمس الذات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: 3] لذلك لا يترددون له، ولا يتهيئون أسبابه، ولا يستعدون لحلوله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أفرطوا في الإعراض عن الله وعن توحيده وأثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا، مستفهمًا على سبيل الإلزام والتبكيت: ﴿أَرَأَيْتُم﴾ أي: أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وتتخذون آلهة سواه وتعتقدونهم شركاء معه في الأرض ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾ أي: أي: شيء أوجدوا ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ حتى اتصفوا بالخالقية واستحقوا بالمعبودية والربوبية، وأخبروني هل تنحصر شركتهم مع الله بعالم العناصر والمسببات ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أيضًا ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وعالم الأسباب ﴿اِئْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ نازل من قبل الحق ﴿مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن يؤمر فيه باتخاذ هؤلاء الهلكى آلهة سوى الله، مستحقة بالعبادة ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ ائتوني ببقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ دليل عقلي أو نقلي، قد بقى لكم من أسلافكم، يدل على إيثارهم واختيارهم آلهة شركاء معه سبحانه في ألهويته، وبالجملة: ائتوني بسند صحيح أن ﴿كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4] في دعوى الشركة مع الله المنزه عن التعدد مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ طريقًا وأسوأ سبيلاً وأشد سفها وحماقة ﴿مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ﴾ السميع العليم البصير الحكيم القدير الخبير، المستقل في تصرفاته بالإرادة والاختيار ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أي: أصنامًا لا يسمع دعاءه، ولا يجيب ولا يعلم بحاله، ولا يدبر له أموره، وإن دعاه وتضرع نحوه ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أبدًا ما دامت الدنيا بل ﴿وَهُمْ﴾ أي: معبوداتهم الباطلة ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾ أي: عن دعاء عابديهم

﴿غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5] ذاهلون، لا شعور لهم حتى يفهموا أو يجيبوا.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: 6-9].

﴿وَ﴾ هم قد عبدوهم معتقدين نفعهم، ولم يعلموا أنهم ﴿إِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ وجمعوا في الحشر للحساب والجزاء ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: المعبودين للعابدين، بل ﴿وَكَانُوا﴾ أي: المعبودين ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: العابدين لهم ﴿كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 6] منكرين جاحدين.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة غيهم وضلالهم عنا وعن توحيدنا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مبينات، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ الصريح المبين ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم ليهديهم ويبين لهم طريق الحق وتوحيده ﴿هَذَا﴾ المتلو ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 7] ظاهر كونه سحرًا باطلاً، وهذا التالي ساحر عظيم، إنما قالوا هكذا ونسبوا إلى ما نسبوا؛ لعجزهم عن إتيان مثله، مع إنهم من أرباب اللسن ووفور دواعيهم بالمعارضة معه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل انصرفوا عن سبته إلى السحر إلى أفحش من ذلك، وهو الافتراء فيقولون: اختلفه هذا المدعي من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه تغريرًا وترويجًا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما نسبوا كتابك إلى الفرية كلامًا مفصحًا لهم عن حقيقة الأمر وحقيته لو تأملوا فيه: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ واختلقته من عندي ونسبته إلى الله زورًا وبهتانًا، فيأخذني العزيز بإثم الافتراء ألبتة، وإن أخذني ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ﴾ ولا تدفعون ﴿لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ حين أخذني وانتقم، وبالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ وتخوضون ﴿فِيهِ﴾ أي: في كلامه بما يليق به ويشأنه سبحانه من نسبته إلى السحر والافتراء وتكذيبه بأنواع وجوه المراء ﴿كَفَى بِهِ﴾ أي: كفى

الله ﴿شَهِيدا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: بيننا يجازينا على مقتضى علمه وخبرته بي وبكم ﴿وَهُوَ الغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استغفر له ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: 8] لمن تاب ورجع نحوه نادمًا عن ما صدر عنه، يقبل توبته ويمحو زلته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما اقترحوا عليك من الآيات التي تهواها نفوسهم ليلزموك ويعجزوك: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ رسولاً بديعا ﴿مِّنَ﴾ بين ﴿الرُّسُلِ﴾ مبتدعًا أمرًا غريبًا مدعيًا الإتيان، بل ﴿وَ﴾ الله ﴿مَا أَدْرِي﴾ وأعلم بحال نفسي ﴿مَا يُفْعَلُ بِي﴾ وكيف يصنع معي ﴿وَلاَ بِكُمْ﴾ أي: وكيف بما يصنع بكم، بل أن ﴿أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتبع ﴿إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من قبل ربي ويطلعني عليه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ من قبل الحق ﴿مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9] مبين موضح مظهر لكم بإذنه ما أوحى إلى من وحيه، وما لي إلا التبليغ والإنذار، والتوفيق من الله العليم الحكيم.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ
فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ
خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: 10-12].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أقر رأيهم على أن القرآن مختلق من عندك، افتريته على الله، أو سحر نسبته إلى الله تغريرًا وترويجًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أن ﴿كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ العليم العلام ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ بلا مستند لكم في تكذيبه وإنكاره ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ﴾ حبر ماهر ﴿مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عالم بالتوراة ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: على مثل ما في القرآن، يعني: أقر واعترف عبد الله بن سلام أنه قرأ في التوراة أحكامًا وأوامر مثل في القرآن، ووجد فيها من أوصاف القرآن ما يلجئه إلى الإيمان به ﴿فَآمَنَ﴾ به وصدق من أنزل إليه، وامتثل بما فيه ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾[1] أنتم عن

---

(1) قال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحدٍ يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ الضمير للقرآن أي: على مثله في المعنى وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من

الإيمان والقبول، بل كذبتم به، وأنكرتم عليه ألستم قومًا ضالين ظالمين ؟! ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10] الخارجين عن مقتضى حدوده إلى زلال هدايته وتوحيده.

﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم وفي حقهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان وبما أتى به محمد من الدين ﴿خَيْرًا﴾ مما نحن عليه ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ بأنواع الكرامة والجاه والثروة إذا هو ومن تبعه كلهم أراذل سقاط رعاة فقراء، فاقدين لوجه الكفاف، ونحن أغنياء ذوو الحظ بين الناس، إنما قالته قريش حين افتخروا على المؤمنين وقصدوا إضلالهم وإذلالهم ﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبعنادهم بك وبكتابك ﴿إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ من جهلهم وضلالهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: 11] وأساطير الأولين.

﴿وَ﴾ عليك يا أكمل الرسل أن لا تلتفت إلى هذياناتهم وأباطيلهم؛ إذ جاء ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل كتابك ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ أي: التوراة حال كونه ﴿إِمَامًا﴾ مقتدى لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة فوائدها على كافة الخواص والعوام ﴿وَهَذَا﴾ الكتاب الذي نزل

التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: 196] ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ [الأعلى: 18] ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾ [الشورى: 3] ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله، فإن قلت: أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم. قلت: الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط كما عطفته ثم في قوله تعالى: ﴿قل أريتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به﴾ [فصلت:52] وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد وأما الواو في وشهد شاهد فقد عطفت جملة قوله: ﴿شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم به﴾ ونظيره قولك: إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني لم ننفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما والمعنى: قل أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم. وقد جعل الإيمان في قوله: ﴿فآمن﴾ مسببًا عن الشهادة على مثله؛ لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه وأنه من جنس الوحي وليس من كلام البشر وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك. «الكشاف» (1/ 1193 - 1194).

عليك يا أكمل الرسل ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لجميع ما مضى من الكتب السالفة ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أسلوبًا ونظمًا، إنما جاء كذلك ﴿لِّيُنذِرَ﴾ التفسير هنا على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما بما فيه من الوعيدات الهائلة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة آرائهم الباطلة المنحرفة عن صراط الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿وَ﴾ ليصير ﴿بُشْرَىٰ﴾ بما فيه من أنواع المواعيد الدالة على كرامة الحق وإحسانه ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12] من خلص عباده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 13-15].

إن المحسنين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ بعدما تحققوا بمقام العبودية ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تمكنوا من مقر التوحيد وتمرنوا عليه ﴿اسْتَقَامُوا﴾ فيه ورسخوا بمحافظة الآداب الشرعية والعقائد الدينية الموضوعة لتأييد أرباب المعرفة، وتمكينهم على جادة التوحيد؛ لئلا يطرأ عليهم التزلزل والانحراف عن صراط الحق وسواء سبيله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعدما وصلوا إلى مقر التمكين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13] عن التردد والتلوين، وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب العناية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تبديل ولا تحويل، وإنما جوزوا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 14] من الإحسان مع الله بمراعاة الأدب معه سبحانه بملازمة الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتسليم، ومع عموم عباده بحسن المعاشرة والمصاحبة وأداء حقوق المؤاخاة والموالاة.

ثم أشار سبحانه إلى معظم أخلاق المحسنين المستحقين بخلود الجنة وبالفوز العظيم فيها، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: ومن جملة ما ألزمنا على الإنسان الاتصاف به والمحافظة عليه حتمًا إكرامه ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لهما وحسن الأدب معهما، أداة

لحقوق تربيتهما وحضانتهما له، وكيف لا يحسن إليهما؛ إذ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ لأجله حين حبلت به ﴿كُرْهًا﴾ مشقة عظيمة، وألمًا شديدًا، وحملاً ثقيلاً ﴿وَ﴾ حين ﴿وَضَعَتْهُ﴾ أيضًا ﴿كُرْها﴾ أشد من مشقة الحمل، وأكثر ألمًا منها ﴿وَ﴾ ليست مشقتها ومقاساتها زمانًا قليلاً، بل ﴿حَمْلُهُ﴾ أي: مدة حمل أمة إياه في بطنها ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أي: مدة فطامه عن لبنها كلاهما ﴿ثَلاثُونَ شَهْرا﴾[1] وهي مدة طويلة، ثم بعد فطامه أيضًا تلازم حفظه وحضانته ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمل عقله ورشده ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ إذ القوة العاقلة إنما تكاملت دونها، لهذا قيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين إلا نادرًا.

﴿قَالَ﴾ بعدما تذكر نعم الحق الفائضة عليه من بدء فطرته إلى أوان رشده وكماله مناجيًا مع ربه مستمدًا منه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: أولعني وحرصني بتوفيقك إياي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ طول دهري وأواظب على أداء حقوقها حسب طاقتي وقدر قوتي ﴿وَ﴾ كذا أشكر نعمتك التي أنعمت ﴿عَلَى وَالِدَيَّ﴾ إذ أداء حقوقهما، وما لزم عليهما من حقوق نعمك عليك واجبة عليّ ﴿وَ﴾ كذا حرصني بمقتضى كرمك وجودك ﴿أَنْ أَعْمَلَ صَالِحا﴾ مطلقًا على الوجه الذي ﴿تَرْضَاهُ﴾ عني﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَصْلِحْ لِي﴾ بمقتضى كرامتك عليَّ عملي، واجعل بفضلك صلاحي ساريًا ﴿فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ليكونوا صلحاء مثلي، وارثين مستحقين لكرامتك وعنايتك بهدايتهم

(1) فإن قال لنا قائل: فما معنى قوله -إن كان الأمر على ما وصفت-: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ وقد ذكرت آنفا أنه غير جائز أن يكون ما جاوز حد الله تعالى ذكره، نظير ما دون حده في الحكم؟ وقد قلت: إن الحمل والفصال قد يجاوزان ثلاثين شهرا؟ قيل: إن الله تعالى ذكره لم يجعل قوله:﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ حدا تعبد عباده بأن لا يجاوزه، كما جعل قوله:﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ حدا لرضاع المولود الثابت الرضاع، وتعبد العباد بحمل والديه عند اختلافهما فيه، وإرادة أحدهما الضرار به؛ وذلك أن الأمر من الله تعالى ذكره إنما يكون فيما يكون للعباد السبيل إلى طاعته بفعله والمعصية بتركه، فأما ما لم يكن لهم إلى فعله ولا إلى تركه سبيل، فذلك مما لا يجوز الأمر به ولا النهي عنه ولا التعبد به، فإذ كان ذلك كذلك، وكان الحمل مما لا سبيل للنساء إلى تقصير مدته ولا إلى إطالتها، فيضعنه متى شئن، ويتركن وضعه إذا شئن كان معلوما أن قوله: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ إنما هو خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خلقه من حملته وولدته وفصلته في ثلاثين شهرًا، لا أمر بأن لا يتجاوز في مدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا، لما وصفنا. وكذلك قال ربنا تعالى ذكره في كتابه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:15] «تفسير الطبري» (41/5).

وصلاحهم ﴿إِنِّي تُبْتُ﴾ ورجعت ﴿إِلَيْكَ﴾ عن جميع ما لا يرضيك من عملي؛ إذ أنت أعلم مني بحالي ﴿وَإِنِّي﴾ إليك يا رب ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15] المنقادين لك، المطيعين لحكمك، المفوضين أمورهم كلها إليك؛ إذ لا مقصد لنا غيرك ولا مرجع سواك.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف: 16-19].

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المولعون على شكر نعم الله وأداء حقوق الوالدين، وحسن المعاشرة معهما، والإحسان إليهما، هم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع مغيرهما: «يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن ... الآية»، ولكن سياق «ويتجاوز» سبحانه لا تدل إلا على قراءة المطوعي - بفتح الياء - وهي قراءة شاذة ولكنها تذكر ضمن القراءات الأربع عشرة «يتقبل عنهم» بقبول حسن ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ مخلصين فيه، طالبين رضاه الله، مجتنبين عن سخطه ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ ويتجاوز سبحانه ﴿عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بعدما تابوا، ورجعوا نحوه نادمين، وهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ومعهم، آمنون فائزون لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، إنجازًا لما وعد لهم الحق ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: 16] في النشأة الأولى.

وبعدما وصى سبحانه بما وصى من رعاية حقوق الوالدين، وما يترتب عليها من الفوز العظيم عقبه بضده، وهو عقوق الوالدين، وما يترتب عليها من العذاب الأليم فقال: ﴿وَالَّذِي﴾ أي: والمسرف المتناهي الذي ﴿قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ من فرط سرفه وعصيانه وشدة عقوقه عليهما حين دعواه إلى الإيمان والتوحيد، واجتهدا أن يخلصاه من ظلمة الشرك والتقليد، وعن أهوال يوم القيامة وأفزاعها: ﴿أُفٍّ﴾ أي: أتضجر ﴿لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ وتخوفانني من العذاب والنكال بعد أن ﴿أُخْرَجَ﴾ من قبري حيًا ﴿وَ﴾ الحال

أنه ﴿قَدْ خَلَتِ﴾ ومضت ﴿الْقُرُونُ﴾ الماضية ﴿مِن قَبْلِي﴾ ولم يخرج أحد منهم من قبره حيًّا، فإنَّا أيضًا لا أخرج أمثالهم، والحال أنه هو يصر على هذا ﴿وَهُمَا﴾ من كمال تحننهما وترحمهما ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللهَ﴾ ويطلبان الغوث والتوفيق منه سبحانه لأجل إيمانه قائلين له على وجه المبالغة في التخويف: ﴿وَيْلَكَ﴾ أي: ويل وهلاك ينزل عليك أيها المسرف لو لم تؤمن ﴿آمِنْ﴾ بالله، وبجميع ما جاء من عنده في النشأة الأولى والأخرى أن ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ بعموم المواعيد والوعيدات الصادرة منه سبحانه على ألسنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه، سينجزه الله القادر المقتدر على وجوه الانتقام والإنعام ﴿فَيَقُولُ﴾ بعدما سمع منهما ما سمع من شدة إصراره وإنكاره: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي جئتما به على سبيل العظة والتذكير ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: 17] أي: أباطيلهم الزائغة، لمجرد الترغيب والترهيب.

وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول هم ﴿الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي: ثبت وتحقق ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ والحكم من الله المطلع بما في صدور عباده من الغل والغواية، بأنهم أصحاب النار المعدودون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ هالكة مستحقة لعذاب ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أي: من جنسهما، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: 18] مضيعين على أنفسهم كرامة مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية الموعودة في النشأة الإنسانية.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلٍّ﴾ من المحقين والمبطلين ﴿دَرَجَاتٌ﴾ من الثواب والعقاب متفاوتة شدةً وضعفًا، ورفعةً ودناءةً، منتشئة ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ مترتبة عليه خيرًا كان أو شرًا، حسنات أو سيئات ﴿وَ﴾ كل منهم متعلق بعمله، يشاكل عليه ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ ويوفى عليهم جزاءهم المترتب عليها درجات أو دركات ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: 19] بالزيادة والنقصان على أجور ما كسبوا.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: 20-21].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ﴾ المسرفون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق

وأعرضوا عنه وعن أهله ﴿عَلَى النَّارِ﴾ المسعرة المعدة للكافرين المعرضين لهم حينئذ على التوبيخ والتشنيع أنتم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ من اللذائذ وتلذذتم بها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فيها ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ بدلها ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ المخزي المضل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ على عباد الله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني: بدل تعززكم وتعظمكم بها في دار الدنيا وكبركم وخيلائكم على ضعفاء العباد ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: 20] وتخرجون عن مقتضى الحدود الإلهية ظلمًا وزورًا.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة قصة قوم عادٍ مع أخيهم هود ﷺ إذ ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ إمحاضًا للنصح لهم وهم يسكنون ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ أي: الرمال المعوجة الغير المستوية على شاطئ البحر ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ والرسل المنذرين ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: قبل هود ﷺ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: بعده، كلهم متفقون في المنذر به، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أي: أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحقيق بالإطاعة والعبادة ولا تشركوا معه شيئًا من مصنوعاته؛ ولا تتوجهوا ولا تسترجعوا في الخطوب إلا إليه وانصرفوا عن عبادة غيره ﴿إِنِّي﴾ بسبب عبادتكم غير الله واتخاذكم آلهة سواه ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: 21] [1] هائل شديد.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا

(1) أخو عاد أى هود ﷺ إذ أنذر قومه بدل اشتمال منه أى وقت انذاره إياهم بالأحقاف جمع حقف وهو مل مستطيل مرتفع فيه إنحناء من احقوقف الشئ إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة وقد خلت النذر أى الرسل جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه أى من قبله ومن خلفه أى من بعده والجملة اعتراض مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله أن لا تعبدوا إلا الله مسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد وإيذانا باشتراكهم فى العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكرهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال لهم لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الأعلام لا بد فى نسبة الخلو إلى من بعده من الرسل من تنزيل الآتى منزلة الخالى. «تفسير أبي السعود» (85/8).

﴿ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: 22-25].

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا من التوحيد ﴿قَالُوا﴾ له متهكمين معه مشنعين عليه ﴿أَجِئْتَنَا﴾ مدعيًا ملتزمًا ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادتهم وإطاعتهم، ونؤمن بك وبإلهك، وبالجملة: لا نؤمن بك ولا نصدقك في قولك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتخوفنا من العذاب على الشرك الآن ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 22] [1] في دعواك أنه آت لا محالة.

وبعدما استهزؤوا معه واستعجلوا بالعذاب الموعود ﴿قَالَ﴾ هود: إني أعلم بمقتضى الوحي الإلهي أنه آت، ولا أعلم متى يأتي؛ إذ لم يوح إلي وقت إتيانه بل ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت نزوله ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ المطلع على عموم الغيوب ﴿وَ﴾ إنما ﴿أُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وأمرت بتبليغه من عنده؛ إذ ما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ﴾ بسبب إعراضكم عن الحق وأهله وإصراركم على الشرك الباطل والضلال الزائل ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: 23] عن كمال عظمة الله وعزته، ومن مقتضيات قوته وقدرته.

وبالجملة: قال هود عليه السلام ما قال، وهم كانوا على شركهم وإصرارهم كما كانوا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يومًا من الأيام ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا ذا عرض على الأفق ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: متوجهًا لأمكنتهم التي كانوا متوطنين فيها، وكانوا حينئذ، قد حبس عليهم القطر، فلما رأوها حينئذ ﴿قَالُوا﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ﴾ مبارك توجه نحو بلادنا

---

(1) ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا﴾ أى تصرفنا عن آلهتنا عبادتهم فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت من الصادقين فى وعدك بنزوله بنا قال إنما العلم أى بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك عند الله وحده لا علم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى إتيانه وحلوله وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به فى وقته المقدر له وأبلغكم ما أرسلت به من مواجب الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرئ أبلغكم من الإبلاغ ولكنى أراكم قوما تجهلون حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب. «تفسير أبي السعود» (8/85).

هو ﴿مُمْطِرُنَا﴾ مطرًا عظيمًا، وهم استدلوا بسواده إلى كثرة مائه، وبعدما استبشروا في ما بينهم، قال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ واستبشرتهم باستقباله ﴿رِيحٌ﴾ عاصفة لا راحة فيها بل ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24] لا عذاب أشد منه.

إذ ﴿تُدَمِّرُ﴾ وتهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ذي حياة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وبمقتضى مشيئته، وبعدما وصلت الريح دمرتهم تدميرًا إلى حيث استأصلهم ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى﴾ منهم ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: سوى دورهم الخربة وأطلالهم المندرسة، وليس هذا مخصوصًا بهم بل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: 25] الخارجين عن ربقة عبوديتنا بارتكاب الجرائم والآثام.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقاف: 26-28].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ مشركي مكة ومجرميهم على وجه التأكيد والمبالغة، فقال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله يا أهل مكة ﴿لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أي: عادًا ﴿فِيمَا﴾ أي: في الأمور التي أن ﴿مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: ما مكناكم وأقدرناكم فيه من كثرة الأموال والأولاد والحصون والقلاع والقصور الرفيعة والمنازل الوسيعة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ ليسمعوا به آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَأَبْصَارًا﴾ ليشهدوا بها آثار قدرتنا ومتانة حكمتنا الدالة على كمال علمنا ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ ولينكشفوا بها على وحدة ذاتنا ويتفطنوا بها باستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا، ومع ذلك ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا من الإغناء، أي: ما أفاد لهم هذه الآلات العجيبة الشأن شيئًا من الفائدة التي هي إنقاذهم عن الجهل بالله، وعم الضلال في طريق توحيده؛ إذ ﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ وينكرون بمقتضى جهلهم المركب في جبلتهم أمثالكم أيها الجاحدون بآيَاتِ اللهِ ودلائل توحيده، ويستهزئون بها وبمن أنزلت إليه من الرسل ﴿وَ﴾ لذلك ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ وبال ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: 26] عاجلًا،

وسيلحقهم وينزل عليهم وعليكم أيضًا أيها المسرفون آجلا بأضعافه وآلافه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ وخربنا ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾ الهالكة كعاد وثمود؛ لتعتبروا منها، وتتعظوا بما لحق بأهلها من أنواع البليات ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا وكررناها مرارًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: 27] إلينا منخلعين عن مقتضى وجوداتهم الباطلة وهوياتهم العاطلة، مع ذلك لم يرجعوا، ولم ينخلعوا.

﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ﴾ أي: هلا نصرهم ومنعهم عن الهلاك والإهلاك شفعاؤهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ الفرد الصمد، وقربوا لهم ﴿قُرْبَانًا﴾ لأنهم اتخذوهم ﴿آلِهَةً﴾ شركاء مع الله في الألوهية والربوبية، لذلك تقربوا إليهم، وتوجهوا نحوهم في عموم الملمات، مع أنه ما ينفعهم لدى الحاجة إليهم وإلى تصرفهم ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغلبوا ﴿عَنْهُمْ﴾ فأنى ينصرهم ويدفع عنهم ما يضرهم ﴿وَذَلِكَ﴾ الذي اعتقدوا في شأنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: صرفهم عن الحق وإعراضهم عنه وميلهم إلى الباطل وإصرارهم فيه ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: 28] أي: افتراؤهم على الله بإثبات الشريك له، والمشاركة معهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: 29-32].

﴿وَ﴾ اذكر لمن عاندك وكذلك إلزامًا لهم وتبكيتًا وقت ﴿إِذْ صَرَفْنَا﴾ وأملنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييدًا لك ولشأنك ﴿نَفَرًا﴾ جماعة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ حال كونهم ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ منك ﴿الْقُرْآنَ﴾ حين تلوته في صلاتك وتهجدك ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن وسمعوه، تعجبوا من حسن نظمه واتساقه، وكمال بلاغته وفصاحته ﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا﴾ ولا تخالطوا أصواتكم حتى نسمع على وجهه؛ إذ هو كلام عجيب في أعلى مرتبة البلاغة ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وتم قراءته وفهموا معناه وفحواه ﴿وَلَّوْا﴾

ورجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِم﴾ حال كونهم ﴿مُنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29] [1] بما يفهمون منه من الإنذارات والوعيدات القوم الذين بلغوا حد التكليف من إخوانهم ينذرونهم بها عن الضلال والانحراف عن طريق الحق.

إذ: ﴿قَالُوا﴾ أي: النفر المستمعون مبشرين لقومهم: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ عجيبًا سماويًا، وعربيًا نظمًا وأسلوبًا ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: جميع الكتب السالفة السماوية شأنه أنه ﴿يَهْدِي إِلَى﴾ توحيد ﴿إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30] موصل إليه بلا عوج وانحراف، وهذا الكتاب العجيب الشأن، الجلي البرهان، منزل إلى داع من العرب اسمه محمد ﷺ يدعو قاطبة الأنام إلى دين الإسلام بوحي الله العليم العلام.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ واقبلوا منه دعوته إلى توحيد الحق ودين الإسلام ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ وبكتابه الذي أنزل إليه لتبيين دينه وتأييد أمره ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: من جميعها أن تبتم ورجعتم إليه مخلصين ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31] [2] هو عذاب النار؛ إذ لا عذاب أشد منها وأفزع.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ﴾ ولا يؤمن به سبحانه، وبجميع ما جاء داعيه من عنده، بل كذب الداعي وأنكر دعوته ولم يقبل منه ﴿فَلَيْسَ﴾ هو أي المنكر ﴿بِمُعْجِزٍ اللهِ فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يهرب عن انتقامه سبحانه، ويفر من غضبه من مكان على مكان، أو يستر عنه سبحانه ويخفى نفسه في أقطار الأرض، بل له الإحاطة

---

(1) وصف الله أهل معرفته من الجن كيف حبست ألسنتهم هيبة الخطاب وحشمة المشاهدة، وهكذا من ألبس أنوار الهيبة والعظمة يخرس لسانه عن الانبساط والمخاطبة وإفشاء السر، وهذا بعد شهود القلوب أنوار الغيوب بنعت إصغاء الأسرار إلى وقوع الخطاب وكشف النقاب، قال محمد بن سليمان: ليس في مقام الحضرة إلا الخمول والذبول والسكون تحت موارد الهيبة.

(2) إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارلا ة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:2]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان، ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم» حيث أثبت اللذة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلًا منهم داخلون تحت التكلف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

والاستيلاء بعموم الأمكنة والأنحاء ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ أي: للمنكر المعاند مِن ﴿دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ يوالونه وينقذونه من غضب الله وعذابه بعدما نزل عليه، وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المنكرون المكابرون الذين لا يجيبون داعي الله، ولا يقبلون منه دعوته عنادًا ومكابرة ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: 32] وغواية ظاهرة، يجازيهم سبحانه بمقتضى ما صدر عنهم من الغي والضلال.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: 33-35].

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ منكري الحشر والنشر وإعادة الموتى أحياء وتقريعهم، فقال مستفهمًا على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أيشكون ويترددون أولئك الشاكون المترددون في قدرة الله على إعادة المعدوم ونشر الأموات أحياء من قبورهم وحشرهم إلى المحشر للحساب والجزاء، ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ العليم الحكيم القادر المقتدر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات خلقًا إبداعيًا من كتم العدم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يفتر ولم يضعف بإظهارهن ابتداء مع غاية عظمتهن وسعتهن ﴿بِقَادِرٍ﴾ يعني: أليس القادر المقتدر على الإبداع والإبداء بقادر ﴿عَلَى أن يُحْيِيَ المَوْتَى﴾ ويعيدهم أحياء بعدما أماتهم ﴿بَلَى﴾ أنه سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33] [1] بلا فتور ولا قصور. ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمنكري

(1) اعلم أنه تعالى قرر من أول سورة إلى ههنا أمر التوحيد والنبوة. ثم ذكر ههنا تقرير القادر من تأمل في ذلك علم أن المقصود من القرآن كله تقرير هذه الأصول الثلاثة. واعلم أن المقصود من هذه الآية الدلالة على كونه تعالى قادرًا على البعث، لأنه تعالى أمام الدليل على خلق السموات والأرض وخلقهما أعظم من أعادة هذا الشخص حيًا بعد أن كان ميتًا، والقادر على الأكمل لا بدّ ولن يكون قادرًا على ما دونه، قوله: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ العامة على سكون العين

الحشر ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالبعث والجزاء ﴿عَلَى النَّارِ﴾ المعدة لهم، فيقال لهم حينئذ تفضيحًا وتهويلاً وتوبيخًا وتقريعًا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ العذاب الذي أنتم فيه الآن، وكذبتم به من قبل في نشأة الاختبار ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا﴾ متأسفين متحسرين: ﴿بَلَى﴾ هو الحق ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّنَا﴾ الذي ربانا على فطرة الإسلام، وأنذرنا عن إتيان هذا العذاب في هذه الأيام، فكفرنا به ظلمًا وزورًا، وأنكرنا عليه عنادًا واستكبارًا، وبعدما اعترفوا وندموا في وقت لا ينفعهم الندم والاعتراف ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل الحق: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: 34] إذا لم يفدكم اعترافكم هذا، بعدما انقضى نشأة التدارك والتلافي.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل مآل حال الكفرة المصرين على العتو والعناد ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على تحمل أعباء الرسالة ومتاعب التبليغ وأذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ عليها ﴿أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ العازمين عليها وعلى تبليغها بالعزيمة الخالصة والثبات التام؛ ليبينوا للناس طريق التوحيد ويرشدوهم إلى سبيل الاستقامة والرشاد ﴿وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: للمعاندين من قريش بحلول العذاب الموعود عليهم، فإنه سينزل عليهم حتمًا عند حلول وقته ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب من نهاية شدته وهوله وغاية طوله، تذكروا أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ واحدة ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ يعني: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وقاسوا بالنسبة إلى طول يوم القيامة بساعة بل أقصر منها.

وفتح الياء مضارع «عِيَ» بالكسر يَعْيَا بالفتح فلما دخل الجازم حذف الألف. وقرأ الحسن يَعِي بكسر العين وسكون الياء. قالوا: وأصلها عَيِيَ بالكسر فجعل الكسر فتحة، على لغة طَيِّءٍ فصار «عَيَا»، كما قالوا في بَقِي: بَقَا ولما بنى الماضي على «فَعَلَ» بالفتح جاء مضارعه على يَفْعِلُ بالكسر فصار يَعْيِي مثل يَرْمِي، فلما دخل الجَازم حذف الياء الثانية فصار: لَمْ يَعْيِ بعين ساكنة وياءٍ مكسورة، ثم نقل حركة الياء إلى العين فصار اللفظ كما تَرَى. وقد تقدم أن عَيِيَ وحَيِيَ فيها لغتان، الفَكّ والإدغام. فأما حَيِيَ فتقدَّمَ في الأنفال وأما عَيِيَ فكقوله: عَيُوا بأمْرِهِمْ كمَا عَيَّتْ ... بِبيضَتِهَا الحَمَامَة، والعِي عدم الاهتداء إلى جهةٍ. ومنه العَيُّ في الكلام، وعَيِيَ بالأمر إذا لم يهتد لوجهه، قوله: ﴿بِقَادِرٍ﴾ الباء زائدة وحَسَّنَ زيادتَها كَوْنُ الكلام في قوة ﴿أَلَيْسَ ذلك بِقَادِرٍ﴾ قال أبو عبيدة، والأخفش: الباء زائدة للتوكيد، كقوله: ﴿تَنبُتُ بالدهن﴾ [المؤمنون:20] وقاس الزجاج «مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أحدًا بِقَائِمٍ» عَلَيْهَا، والصحيح التوقف، وقال الكسائي والفراء العرب تدخل الباء في الاستفهام فتقول: ما أظُنُّكَ بقائم. «تفسير اللباب» لابن عادل (231/14).

هذا الذي ذكر من المواعظ والتذكيرات في هذه السورة ﴿بَلاغٌ﴾ كافٍ لأهل الهداية والإرشاد إلى أن اتعظوا بها، ويتذكروا منها، وإن لم يتعظوا بها، هلكوا في تيه الجهل والغواية مثل سائر الهالكين ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ وما يستأصل بالقهر الإلهي ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: 35] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية النازلة من عنده سبحانه على أنبيائه ورسله، المبعوثين إلى الهداية والتكميل.

جعلنا الله ممن تذكر بما في كتابه من المواعظ والتذكير، وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم على سلوك طريق التوحيد: أن تقصد نحوه بالعزيمة الخالصة الصافية عن كدر الرياء ورعونات الهوى، وتتصبر على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية بجملتها ومشتهيات القوى البهيمية برمتها، فلك أن تقتدي في سلوكك هذا أثر أولى العزائم من الرسل الكرام والأنبياء العظام والكمل من الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء؛ لتفوز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا.

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة محمد ﷺ

لا يخفى على الفائزين بالدرجة العليا من التوحيد الذاتي، المتحققين بانكشاف كيفية سريان الهوية الذاتية الإلهية في أعيان المظاهر الكونية والكيانية أن أكمل من تحقق بهذا الشهود، وأتم من اتصف بهذا الانكشاف هو الختمية المحمدية التي لا مرتبة أعلى وأجمع من مرتبته ﷺ ولا درجة أرفع من درجته؛ لذلك ما ظهر نبي على إظهار التوحيد الذاتي وتبيينه، وما بعث إلى كافة الأمم وعامة البرايا أحد سواه، ولهذا ختم ببعثته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل، فمن كفر به ﷺ وأنكر عليه، فقد كفر بعموم مراتب الوجود، وضل عن جميع الطرق الموصلة إلى كعبة الذات وقبلة المقصود، ومن آمن له ﷺ فقد اهتدى بما هو المقصد والمرمى، وليس وراءه مرمى ومنتهى.

لذلك أخبر سبحانه عن ضلال الكافرين به ﷺ والمنكرين عليه وإحباط أعمالهم بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على المرتبة الختمية المحمدية بعموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإظهار مرتبته ﷺ؛ لتكون قبلة جميع مراتبهم ومشاربهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته؛ لهدايته وإرشاده ﷺ.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا
لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن
يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن
تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: 1 – 11].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وتوحيده، وأنكروا على نبوة حبيبه ﷺ ورسالته عنادًا ومكابرة ﴿وَ﴾ مع كفرهم وانصرافهم بأنفسهم عن الهداية ﴿صَدُّوا﴾ وصرفوا سائر الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريق توحيده الذي هدي إليه ﷺ وبعث لتبيينه، وإرشاد عموم عباد الله نحوه منه حسدًا عليه ﷺ وعلى من تبعه ﴿أَضَلَّ﴾ أحبط وأضاع سبحانه ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 1] أي: صوالح أعمالهم التي أتوا بها طمعًا للكرامة والمثوبة من لدنه سبحانه بعدما كفروا به سبحانه وبرسوله ﷺ؛ إذ لا تثمر الأعمال الصالحة إلا بالإيمان والتصديق بالله وبرسوله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبرسوله ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي: بجميع ما نزل عليه ﴿وَ﴾ صدقوا أن جميع ما نزل به ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الصدق المطابق للواقع، النازل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ بلا شك وتردد ﴿ كَفَّرَ﴾ وأزال ﴿عَنْهُمْ﴾ سبحانه ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: وبالها وعذابها ﴿وَأَصْلَحَ﴾ اللاحق المستتبع إياها بها ﴿بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2] أي: أحسن حالهم في الدين والدنيا بحسب النشأة الأولى والأخرى، ويجازيهم أحسن الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إضلال الكفرة وإصلاح المؤمنين ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وتركوا الحق الحقيق بالاتباع ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لإصلاح حالهم في النشأتين ويرشدهم إلى ما هو خير لهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي سمعت من الإضلال والإصلاح بالنسبة إلى كلا الفريقين ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: 3] ويبين لهم أحوالهم المتواردة عليهم في أولاهم وأخراهم.

وبعدما سمعتم أيها المؤمنون وخامة عاقبة الكفرة وضياع أعمالهم وإحباطها ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على أي وجه وأي حال ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: فعليكم أن تضربوا رقابهم مهما أمكن، وأن تقتلوهم بلا مبالاة وبدمائهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أغلظتم وبالغتم في قتلهم، فأسروا بقاياهم ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ والنكال على أسرائهم، واحفظوهم مقيدين موثقين ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي: تمنون عليهم منًّا

فتطلقونهم، أو تفدون منهم فداءً على إطلاقهم وتخلون سبيلهم، وبالجملة: افعلوا أيها المؤمنون مع المشركين كذلك ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1] أي: تضع أهل الحرب من كلا الجانبين آلات الحراب والقتال، وذلك لا يحصل إلا بالمؤاخاة والائتلاف التام، وتدين الجميع بدين الإسلام﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر من الله ذلك، فافعلوا معهم كذلك.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام ﴿لَانتَصَرَ﴾ وانتقم ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من المشركين بلا اقتتالكم وحرابكم ﴿وَلَٰكِن﴾ إنما يأمركم سبحانه بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَ﴾ ويختبر ﴿بَعْضَكُم﴾ أيها الناس المؤمنون ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي: بقتال بعض منكم، وهو الكافرون؛ لينال المؤمنون بقتالهم وجهادهم الثواب الجزيل والأجر الجميل، ويستوجب الكافر بمعاداة المؤمن بالعقاب العظيم والعذاب الأليم، كل بتقدير العليم الحكيم، ثم قال سبحانه تبشيرًا للمؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله: ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ منكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ باذلين مهجهم في ترويج دينه ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ ويضيع ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 4] التي أتوا بها طلبًا لمرضاة الله، وتثبيتًا لقلوبهم على الإيمان بما نزل من عنده.

بل ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ربهم ويرشدهم سبحانه بعدما استشهدوا إلى زلال هدايتهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 5] بإيصالهم إلى غاية ما جبلوا لأجله.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 6] حين أمرهم بالجهاد، ألا وهي الحياة الأزلية الأبدية الإلهية الموعودة للشهداء من عنده سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ يعني: دينه ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾[2] على

---

(1) إلى أن يقصد القاصد المقصود، ويجد الطالب المطلوب، ويصل العاشق المعشوق، فإن جرى على النفس بعد الظفر بها مسامحة في إعفاء ساعة وإفطار يوم؛ ترويحًا للنفس من الكد وإحماءها للحواس، قوةً لها على الجهد فيما يستقبل من الأمر، فذلك على ما يحصل به الاستصواب من شيخ المريد، أو فتوى لسان القوم أو فراسة صاحب الوقت. [التأويلات].

(2) نصرة العبد لله أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه؛ فإنهم أعداء الله؛ فإذا خاصمها يقويه الله وينصره عليهم، بأن يدفع شرهم عنه، ويجعله مستقيمًا في طاعة الله، ويجازيه بكشف جماله حتى يثبت في مقام العبودية وانكشاف أنوار الربوبية، قال ابن عطاء: هو أن يكون عون الله على النفس، فإن الله ينصرك عليها حتى تنقاد لك، ولا يكون عون النفس فتضرع ضرعة لا تقوم بعدها أبدًا. قال الحكيم الترمذي: إن أكرمتم أوليائي أكرمتكم، قال بعضهم: يرزقكم الله الاستقامة في كل

أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7] في جادة توحيده وصراط تحقيقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن نصرة دينه ورسوله ﴿فَتَعْسًا﴾ أي: زلقًا وعثورًا وانحطاطًا ﴿لَّهُمْ﴾ عن رتبة الإنسانية وعن جادة العدالة الإلهية ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 8] وأضاعها بحيث لا تفيدهم شيئًا أصلاً.

﴿ذَلِكَ﴾ العثور والانحطاط لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ أي: أنكروا واستكرهوا ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده في كتابه من الأوامر والنواهي المهذبة لظواهرهم وبواطنهم ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 9] بسبب كفرهم وكراهتهم.

﴿أَفَ﴾ ينكرون قدرة الله على الإحباط والإضلال ﴿لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبارات الإلهية وانتقاماته ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر العبرة والاستبصار؛ ليبصروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المجرمين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مع أنهم ذوو ثروة كبيرة، ورئاسة عظيمة، ووجاهة كاملة، كيف ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ واستأصلهم بحيث لم يبق منهم على وجه الأرض أحد ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: 10] أي: سيؤول ويعود عاقبة هؤلاء الكفرة المعاندين معك يا أكمل الرسل إليها وإلى أمثالها، بل أفظع وأشد منها ألبتة.

كل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ﴾ المطلع على ضمائر عباده ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق وتحققوا في مقر توحيده، لذلك يواليهم وينصرهم على أعاديهم، ويحفظهم عما لا يعنيهم ﴿وَأَنَّ الكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 11] لينصرهم ويدفع عنهم ما يرديهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

أحوالكم. [العرائس].

كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: 12– 19].

وبالجملة: ﴿إِن اللهَ﴾ العليم الحكيم ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من المعارف والحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية من العلوم اللدنية، المتنشئة من منبع الوحدة الذاتية، تتلذذون بها تلذذًا معنويًا حقيقيًا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدة الحق وكمالاته المترتبة على شئونه وتجلياته ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ بالحطام الدنيوية ويتلذذون باللذات البهيمية ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ وتتلذذ بلا شعور لهم باللذة الأخروية ﴿وَ﴾ بالآخرة ﴿النَّارُ﴾ المعدة المسعرة صارت ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12] ومحل قرارهم واستقرارهم.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كثيرًا ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ أي: أهلها، وأكثر أموالاً وأولادًا ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أهلها منها ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ واستأصلناهم بسبب إخراجهم رسل الله من بينهم، وتكذيبهم والاستكبار عليهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: 13] يظاهرهم ويدفع انتقامنا عنهم، فكذا ننتقم عن هؤلاء المشركين المستكبرين عليك يا أكمل الرسل، المخرجين لك وقومك من بينهم ظلمًا وعدوانًا؛ يعني: مشركي مكة - خذلهم الله - ونغلب المؤمنين عليهم، ونظهر دينك على الأديان كلها.

وكيف لا ننصرك ونظهر دينك؟ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة، آتية له ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ مبينة له أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ أي: حبب وحسن ﴿لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾[1] بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [محمد: 14] بمقتضى آرائهم الباطلة وأمانيهم الزائغة الزائلة.

---

(1) أي: من شهد مقام الله عز وجل بالبيان، فقام له بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زُين له سُوء عمله، واتبع هواه، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده. البحر المديد (39/3).

كلا وحاشا، بل ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ﴾ وشأنها العجيبة ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بها، المجتنبون عن محارم الله، المتحرزون عن مساخطه على الوجه الذي بيَّنهم الكتب وبلغهم الرسل، الممتثلون بجميع ما أمروا من عنده سبحانه إيمانًا واحتسابًا عند ربهم، هكذا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ﴾ هي: العلوم اللدنية المجيبة لهم بالحياة الأزلية الأبدية ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: خالص صافٍ عن كدر التقليدات والتخمينات، الحادث عن مقتضيات القوى البشرية المنغمسة بالعلائق الجسمانية ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ من المحبة الذوقية الإلهية، المنتشئة من الفطرية الأصلية التي فطروا عليها في بدء ظهورهم ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ وذوقه بالميل إلى الهوى، ومن مزخرفات الدنيا ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ جذبة إلهية وشوق مفرط مسكر لهم، محير لعقولهم من غاية استغراقهم بمطالعة جمال الله وجلاله، بحيث لا يكتنه لهم وصفه بكونه من الأمور الذوقية ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ حسب تفاوت أذواقهم ومواجيدهم ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ هي: اليقين الحقي الذي لا شيء أحلى منه وألذ عند العرف المتحقق به ﴿مُّصَفًّى﴾ من شوب الإثنينية اللازمة لمرتبتي اليقين العلمي والعيني.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ المستلزمة لأنواع اللذات الروحانية، وأكبر من الكل أن لهم فيها ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر ومحو لأنانياتهم الباطلة ناشئة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾[1] الذي رباهم على الكرامة من عنده بعدما جذبهم تحت قباب عزه، ومكنهم

(1) قال المحقق روزبهان: لأهل الحق في هذا العالم جِنان في قلوبهم وعقولهم، وأرواحهم وأسرارهم، فجنة القلوب روضة الإتقان، وجنة العقول بستان العرفان، وجنة الأرواح حديقة البيان، وجنة الأسرار فردوس العيان، ولكل جنة منها نهرٌ وشجرٌ وثمرٌ وزهرٌ، فنهر جنة القلوب ماء حياة الأزل التي تجري بنعت التجلي فيها من عيون الوحدانية، وهو لا يتغير بكدورات البشرية، يحيى القلوب بنور اليقين حتى لا يجري عليها موت الجهالة، وأشجارها أشجار الإيمان، وثمرها أنوار الإيقان، ونهر جنة العقول من ألبان القدرة يسقيها الحق منه؛ ليربيها لصفاء أنوار قدرته التي يورث معرفتها بعزته وجلال قدرته وأشجارها الحكمة وأزهارها الفطنة، ونهر جنة الأرواح نهر كشف الجمال الذي مورده بحر الجلال، يسقيها الحق منه ليطيبها بلذة الجمال ورؤية الجلال، وأشجارها المحبة، وأزهارها الشوق، وأثمارها العشق، ونهر جنة الأسرار كشوف الذات المقدس عن انقطاع فيضه المسرمد، فيقويها الحق بشربة حتى استقامت في وصله، فهناك أشجارها التوحيد، وأزهارها التفريد، وأثمارها التحقيق، فأصحاب القلوب هم أهل الشهود، وأصحاب العقول هم أهل الكشوف، وأصحاب الأرواح هم أهل السكر والوجود، وأصحاب الأسرار هم أهل المحو والصحو، فأهل الشهود أصحاب المراقبات، وأهل الكشوف أهل المقامات، وأهل الوجود أهل الحالات، وأهل المحو والصحو أهل الاستقامة، فطوبى لمن كان

من كنف جواره، هؤلاء المكرمون بهذه الكرامة العظمى ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: كالكافر الطاغي الباغي، الذي خرج عن ربقة العبودية بمتابعة الأهوية الأمارة وأمانيها، وظهر على الحق وأهله بأنواع الإنكار والاستكبار، وبسبب هذا صار مخلدًا في نار القطيعة، مؤبدًا فيها لا نجاة له عنها ﴿وَ﴾ هم من شدة عطشهم وحرقة أكبادهم إذا استسقوا ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ حارًا في غاية الحرارة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15] بعدما شربوا منه؛ وذلك لعدم الفهم واعتيادهم بالعلم اللدني وبرد اليقين العلمي والعيني والحقي.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المستوجبين بخلود النار أبد الآباد ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل حين دعوتك وتذكرك وجلسوا في مجلسك صامتين محبوسين ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ وانصرفوا عن مجلسك ﴿قَالُوا﴾ من كمال غفلتهم وذهولهم عنك وعن كلامك وكمالاتك وعدم إدراكهم بما فيها وإصغائهم إليها ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: أصحابك المتذكرين عن كلامك، الموفقين على التصديق والإذعان بك وبكتابك: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ أي: أي شيء قال صاحبكم ﴿آنِفًا﴾ في هذا المجلس؟ مع أنهم معهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن ساحة عز القبول هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وختم على سمعهم وأبصارهم ﴿وَ﴾ لهذا ﴿اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16] وتركوا إهداءه ﷺ ولم يقتبسوا النور من مشكاة النبوة، ولم يلتفتوا إلى هداية القرآن، بل استهزءوا معه ومع الرسول ﷺ.

﴿وَ﴾ المؤمنون ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بهدايته ﷺ ﴿زَادَهُمْ﴾ استماع القرآن ﴿هُدًى﴾ على هدى ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17] وبين لهم ما يعينهم على سلوك طريق التوحيد ويجنبهم عما يغويهم عن منهج الحق وصراط التحقيق.

وبالجملة: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ وما ينتظرون في عموم أوقاتهم وحالاتهم ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الموعودة أن ﴿تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة، وكيف لا تأتيهم الساعة ﴿فَقَدْ جَاءَ﴾ وظهر ﴿أَشْرَاطُهَا﴾ أي: بعض علاماتها وأماراتها التي من جملتها: بعثة الرسول الحضرة

له مثل هذه الجنان في دار الامتحان.

قال الأستاذ: اليوم للأولياء لهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفة، ثم شراب الولاء، ثم شراب في حال اللقاء، ولكل من هذه الأشربة عمل. ولصاحبه سكرٌ وصحوٌ، فمن شرب بكأس الوفاء لم ينظر في غيبته إلى غيره.

الختمية المحمدية؛ إذ ظهوره متممًا لمكارم الأخلاق، ومكملاً لأمر التشريع والإرشاد من دلائل انقضاء نشأة الكثرة، وطلوع شمس الوحدة الذاتية من آفاق ذرائر الكائنات، وكيف ينتظرون الساعة ولا يهيئون أسبابها قبل حلولها، وإن تأتهم بغتة ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: 18] أي: كيف يفيدهم التذكر والاتعاظ وقت إذ جاءت الساعة فجأة؟ ومن أين يحصل لهم التدارك والتلافي حينئذ؟.

وبعدما سمعتم حال الساعة وحلول الساعة بغتة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: فاثبت أنت يا أكمل الرسل على جادة التوحيد الذاتي، وتمكن على صراط الحق في عموم أوقاتك وحالاتك، واشهد ظهور شمس الذات على صفائح عموم الذرات، وشاهد انقهار جميع المظاهر والمجالي في وحدة ذاته، واهد جميع من تبعك من المؤمنين إلى هذا المشهد العظيم ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ في عموم أوقاتك ﴿لِذَنْبِكَ﴾[1] الذي صدر عنك من الالتفات إلى ما سوى الحق والعكوس والأظلال ﴿وَ﴾ استغفر أيضًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إذا أنت كفيلهم وهاديهم إلى طريق التوحيد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالكم ونشأتكم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعمله الحضوري ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ أي: موضع تقلبكم وانقلاباتكم في دار الاختبار ونشأة التلون والاعتبار ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: 19] أي: موضع إقامتكم وتمكنكم في دار الإقامة والقرار، فعليكم أن تستعدوا لأخراكم في أولاكم وتهيئوا أسباب عقباكم في دنياكم.

(1) أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: 19]، وهي نسبة الوجود التي بها أضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمّا مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلّق؛ تحتاج إلى ذلك؛ ولذا لمّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (لا إله إلا الله)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح، ولمّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر، ولمّا كانت الألوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي إلوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والألوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الألوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلّي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد: 20 - 29].

﴿وَ﴾ من معظم زاد يوم المعاد: الجهاد مع جنود أعداء الله في الأنفس والآفاق؛ لذلك ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من كمال حرصهم وشغفهم على القتال، وترويج كلمة التوحيد وإعلاء دين الإسلام: ﴿لَوْلا﴾ وهلا ﴿نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ مشتملة على الأمر بالجهاد حتى نجاهد في سبيل الله، ونبذل غاية وسعنا في ترويج دينه ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ على مقتضى ما تمناها المخلصون ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها على البت، واستبشر المؤمنون المخلصون بنزولها، واستعدوا لامتثالها وقبول ما فيها ﴿رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل حينئذ المنافقين ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ راسخ وضعف مستقر مستمر ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ حين تلاوتك وتبليغك إياهم ما يوحى إليك من ربك ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يعني: صاروا حين سمعوا الأمر بالقتال من كمال نفاقهم وشقاقهم كأنهم أشرفوا على الموت وظهرت عليهم أماراته، وشخصت أبصارهم من أهواله جبنًا من القتال وبغضًا عليك ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 20] أي: قرب منهم وحاق بهم ما يكرهون ويخافون منه أولئك الأشقياء المردودون.

والأليق بحالهم في هذه الحالة: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: انقياد وإطاعة ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبول مستحسن عند ذوي المروءات والفتوات لو صدر عنهم لكان خيرًا لهم وأليق بحالهم لو كانوا مؤمنين، وبالجملة: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد ولزم أمر القتال ﴿فَلَوْ

﴿صَدَقُوا اللَّهَ﴾ المطلع بما في ضمائرهم ونياتهم فيما اظهروا من الحرص والجرأة على القتال ﴿لَكَانَ﴾ الصدق والثبات والعزيمة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: 21] في أولاهم وأخراهم.

وإن لم يصدقوا ولم يثبتوا على ما أملوا من طلب القتال ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ويتوقع منكم أيها المسرفون الكاذبون إن ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن امتثال المأمور أن ﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة للإصلاح والسداد ﴿وَتُقَطِّعُوا﴾ [محمد: 22] عن المؤمنين المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام مع أنكم مجبولون أيضًا عليها.

وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المعرضون عن الهداية والرشاد، هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، وطردهم عن ساحة عز حضوره ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ بهذا عن استماع دلائل توحيده ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[1] [محمد: 23] عن مشاهدة آيات ألوهيته وربوبيته الظاهرة على الأنفس والآفاق.

﴿أَ﴾ يصرون أولئك المسرفون على الإعراض والانصراف عن الهدى ﴿فَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتصفحون ﴿الْقُرْآنَ﴾ ولا يتأملون ما فيه من المواعظ والتذكيرات المفيدة لهم، الموصلة إلى الهداية والنجاة عن أهوال يوم القيامة حتى ينزجروا عن ارتكاب المعاصي، وينصرفوا عن الميل إليها ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ أي: بل مختومة على قلوبهم ﴿أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] مطبوعة عليها، لا تأثر لهم من القرآن ومواعيده، مع أنهم آمنوا له قبل نزوله على ما وجدوا في كتبهم نعته وعرفوا أحكامه، ومع ذلك أنكروا عليه وارتدوا عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ سيما ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمُ الْهُدَى﴾ والرشاد وجزموا بحقيته، وحقية ما فيه من الأحكام والعبر والمواعظ، وبالجملة: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ المضل المغوي ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: حسّن وزيّن لهم الارتداد عن الحق تغريرًا وتلبيسًا بعدما وضح لهم حقيته ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 25] بتسويلاته خلاف ما ظهر عليهم من ألسنة كتبهم ورسلهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التسويل والتغرير، وما يترتب عليه من الإعراض والانصراف عن الحق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أن اليهود والنصارى ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾ أي: للمنافقين الذي

(1) قال في التأويلات: أتضل الحق على قلوب أهل الهوى، فلا يدخلها زواجر التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، ولا يحصل لهم فهم الخطاب، وإذا كان الباب مقفلاً فلا الشك والإنكار الذي فيها يخرج، ولا الصدق واليقين الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم.

كرهوا ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ﴾ من السور المشتملة على أمر القتال؛ حثًا لهم على المخالفة والقعود ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ ونعاون عليكم ﴿فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ لو أظهرتم المخالفة؛ يعني: إن أخذوكم وقصدوا الانتقام عنكم نحن نعاونكم، إنما قالوا ما قالوا في خلواتهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لعموم أحوالهم ﴿يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26] كما يعلم إعلانهم، هذا من جملة ما احتالوا ومكروا مع الله ورسوله.

﴿فَكَيْفَ﴾ يحتالون ويمكرون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حينئذٍ ﴿وَجُوهَهُمْ﴾جزاء ما توجهوا بها نحو الباطل ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: 27] جزاء ما انصرفوا بها عن الحق.

﴿ذَلِكَ﴾ التوفي على وجه العبرة ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾ من الإعراض عن طريق الحق ومتابعة أهله ﴿وَكَرِهُوا﴾ بمقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿رِضْوَانَهُ﴾ أي: ما رضي عنه سبحانه من الأوامر والنواهي المنزلة على ألسنة رسله وكتبه بعدما خالفوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَأَحْبَطَ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وجلاله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 28] أي: صوالح أعمالهم، ولم يترتب عليها الجزاء الموعود كما يرتب على صالحات أعمال المطيعين .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مستقر، وحسد مؤبد، وشكيمة شديدة مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ﴾ ولن يبرز أبدًا ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾[1] [محمد: 29] وأحقادهم التي أضمروها في نفوسهم.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا
وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ
﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا
وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن من مرض القلوب الحسبان الفاسد والظنون الكاذبة، فظنوا أن الله لا يطلع على خبث عقائدهم ولا يظهره على رسوله، ليس الأمر كما توهموه؛ بل الله تعالى فضحهم وكشف تلبيسهم، ولقد أخبر رسوله ﷺ وعرفه أعيانهم.

وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: 30–38].

﴿وَ﴾ لم يعلموا أنَّا ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ تفضيحهم ﴿لأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ وأبصرنا عليك يا أكمل الرسل ما أضمروا في نفسهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ حينئذٍ ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بمجرد إبصارك إياهم؛ لظهور ما في صدورهم من الغل على وجوههم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ ألبتة نفقهم ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الباطل الذي صدر عنهم مغشوشًا مزخرفًا، وبعدما نزل هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفهم، ويستدل بكلامه على فساد ضميره ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بعموم أحوال عباده ﴿يَعْلَمُ منكم أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30] ونياتكم فيها ومقاصدكم عنها، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم قال سبحانه مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ونختبرنكم أيها المجبولون على فطرة الإسلام بالتكاليف الشاقة والأوامر الشديدة ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي: نفرق ونميّز ﴿الْمُجَاهِدِينَ﴾ المجتهدين ﴿مِنكُمْ﴾ ببذل الوسع والطاقة على امتثال المأمور، والصابرين المرابطين قلوبهم بحبل الله وتوحيده، الموطنين نفوسهم بالرضا بجميع ما جرى عليهم من القضاء ﴿وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ﴾ أيضًا ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31] التي صدرت عنكم وقت تكليفنا إياكم؛ إذ الأخبار منبئة عن الضمائر والأسرار.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن مقتضيات تكاليفه الصادرة عن الحكمة البالغة ﴿وَ﴾ مع كفرهم وضلالهم في أنفسهم ﴿صَدُّوا﴾ وصرفوا ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ضعفاء عباده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿شَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ المرسل من عنده سبحانه، المبعوث إليهم للإرشاد والتكميل، لا من شبهة صدرت عنه تدل على كذبه وافترائه ﴿مِن﴾ بعدما ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: ثبت عندهم هدايته عقلاً ونقلاً، ومع ظهور صدقه وهدايته كذبوه عدوانًا وظلمًا، وبواسطة هذه الجرأة على الله ورسوله ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ المنزه في ذاته عن أن يكون معروضًا للنفع والضر ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر والإضرار، بل ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ ويضيع سبحانه بأمثال هذه الجرائم والآثام ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 32] الصادرة عنهم لتثمر لهم الثواب، فانقلب الأمر عليهم، فيثمر لهم العذاب .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾

المظهر لكم من كتم العدم، المنعم عليكم بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الهادي، المرشد لكم إلى توحيد الحق وكمالات أسمائه وأوصافه ﴿وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1] [محمد: 33] بالإعراض عن الله، والانصراف عن متابعة رسوله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ كُفَّارٌ﴾ مصرون معاندون على ما هم عليه طول عمرهم ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللهُ﴾ [محمد: 34] أبدًا لإشراكهم بالله وخروجهم عن ربقة عبوديته بمتابعة أهويتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة.

وبعدما أطعتم الله ورسوله أيها المؤمنون، وأخلصتم في إطاعتكم وانقيادكم ثقوا واعتصموا بحبل توفيقه ونصره ﴿فَلاَ تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد والمقاتلة ﴿وَ﴾ لا ﴿تَدْعُوا﴾ وتركنوا ﴿إِلَى السَّلْمِ﴾ والصلح، وبالجملة: لا تجنوا ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون، أيها الموحدون المحمديون؛ إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿وَ﴾ كيف لا تتصفون بصفة العلو والغلبة؛ إذ ﴿اللهُ﴾ المحيط بكم ﴿مَعَكُمْ﴾ لا على وجه المقارنة والاتحاد، ولا على سبيل الحلول والامتزاج، بل على وجه الظهور والبروز وامتداد الأظلال عليكم وانعكاسكم منها ﴿وَ﴾ بعدما صار الحق معكم على الوجه المذكور ﴿لَن يَتِرَكُمْ﴾ ولن يضيع عليكم ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 35] التي جئتم بها مخلصين؛ طلبًا لمرضاة الله وهربًا عن مساخطه؛ إذ الموحد المعتدل دائمًا بين الخوف والرجاء، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ هو مستوٍ على متن الصراط المستقيم الذي هو أدق وأرق من كل دقيق ورقيق.

وبعد ما سمعت صفة صراط ربك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة الدنيا إلا ﴿لَعِبٌ﴾ يلعب بها أبناء بقعة الإمكان وهم غافلون عن حقيقتها ﴿وَلَهْوٌ﴾ يلهى ويحير قلوبهم في تيه الغفلة والضلال، وهم تائهون فيها ساهون عمّن ظهر عليها ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم نبذًا من أوصاف دنياكم ﴿إِن تُؤْمِنُوا﴾ بوحدة الحق وبكمالات أسمائه وصفاته الظاهرة آثارها على هياكل الهويات المستحدثة في الكائنات، وتوكلوا عليه مفوضين أموركم كلها إليه، واتخذوه وكيلاً واتخذوه كفيلاً، واعتصموا بحبل توفيقه ثقة واعتمادًا ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تحفظوا أنفسكم عن الميل إلى ما

---

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله، فهو باطل لم يكن له ثمرة؛ لأنه صدر عن الطبع والطبع ظلماني، وإنما جاء الشرع وهو نوراني؛ ليزيل ظلمة الطبع بنور الشرع، فيكون ثمرًا وثمرته أن يخرجكم من الظلمات إلى النور؛ أي: من ظلمات الطبع إلى نور الحق.

سوى الحق من الأماني العاطلة الإمكانية، العائقة الدنية الدنيوية، المثمرة لغضب الحق بمقتضى قدرته الجليلة ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ بمقتضى إرادته الجليلة الجميلة ﴿أُجُورَكُمْ﴾[1] التي استوجبتم بصوالح أعمالكم، ويزيد عليكم تفضلاً وإحسانًا ما لا مزيد عليكم من اللذات الروحانية ﴿وَلاَ يَسْأَلْكُمْ﴾ ويطلب منكم بمقابلة ما أفاض عليكم من الكرامات ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: 36] أي: جميعها، بل مقدار ما يزكي بها نفوسكم ويطيب لها قلوبكم من الشح المفرط والميل المتبالغ، فكيف أن ﴿يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ ويطلب منكم سبحانه جميعها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ ويبالغ عليكم في طلب ما اقترفتم؟ ﴿تَبْخَلُوا﴾ ألبتة على الله ورسوله، وتظهروا الحقد فلا تعطوا، بل ﴿وَيُخْرِجْ﴾ أي: يبرز ويظهر بخلكم وحقدكم هذا ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: 37] وشكائمكم التي تضمرونها في نفوسكم.

وبالجملة: ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ أيها الحمقى الغافلون عن مقتضى الألوهية والربوبية ﴿هَؤُلاءِ﴾ البخلاء المغرورون بحطام الدنيا الدنية، المغمورون في لذاتها وشهواتها الفانية العائقة عن اللذات الأخروية، إنما ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا﴾ مما أنتم مستخلفون فيه ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فتفوزوا بالمثوبة العظمى والكرامة الكبرى عنده سبحانه، وبعد وصول الدعوة إليكم ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي يمنع ولم يعط بل يظهر ما يضمر في نفسه من الضغن والحقد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَبْخَلْ﴾ من مال بعدما أمر بإنفاقه ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ إذ نفع الإنفاق وضرر البخل كلاهما عائد إليها ﴿واللهُ الغَنِيُّ﴾ المستغنى بذاته عن هموم صدقاتكم ومطلق طاعاتكم وعباداتكم ﴿وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ﴾[2] المقصورون على الفقر والاحتياج الذاتي إلى ما عنده سبحانه من أنواع الإنعام والإحسان ﴿وَ﴾ بعدما بلغت لهم يا أكمل الرسل ما بلغت من مقتضيات الوحي والإلهام الإلهي ﴿إِن تَتَوَلَّوْا﴾ وتنصرفوا عن الإيمان وامتثال عموم المأمورات ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْما غَيْرَكُمْ﴾ أي: يهلككم ويقيم بدلكم قومًا يؤمنون ويقيمون بامتثال الأوامر والنواهي ﴿ثُمَّ﴾ لما علموا واعتبروا

---

(1) قال في التأويلات: بالتقرب إليكم على حسب تقربكم إليه؛ فإن تقربتم إليه شبرًا يتقرب إليكم ذراعًا، وإن جئتم إليه وأنتم تمشون يجئ إليكم وهو يهرول كما يليق بذاته وصفاته، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

(2) قال القشيري: والله الغني للذاته بذاته، ومن غنائه: تمكّنه من تنفيذ مُراده، واستغناؤه عما سواه، وأنتم الفقراء إلى الله، في نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، في الابتداء ليخلقكم، وفي الوسط ليُربيكم، وفي الانتهاء يغنيكم عن أنانيتكم، ويُبقيكم بهويته، فالله غني عنكم من الأزل إلى الأبد، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد.

منكم، وشاهدوا مقتكم وهلاككم ﴿لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38] كافرين بالله كفارًا لنعمه ولحقوق كرمه.

خاتمة السورة

عليك أيها القاصد نحو طريق التوحيد، العازم على سلوك سبيل الفناء المثمر للبقاء الذاتي - أوصلك الله إلى غاية مبتغاك ونهاية متمناك - أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك، سيما في أحوالك التي تتعلق بالإنفاق المأمور عليك بمقتضى الحكمة والعدالة الإلهية، الناشئة من الله عن محض الإرادة والرضا، وإياك إياك البخل والتقتير، فإنه الجالب لحلول غضب الله ونزول أنواع سخطه بمقتضى قهره وجلاله، فعليك الامتثال بالمأمور، والاتكال على الملك الرحيم الغفور.

فهرس المحتويات

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٥٦١هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الخامس

المحتوى:

أول سورة الفتح - آخر سورة الناس



المكتبه المعروفيه

كانسى روڈ شالدره كوئٹه پاكستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ

كلمة الناشر

رَجَـــاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُـوْبَ هٰذَا النَّـاشِرِ
وَذُنُـوْبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِيْنَ
أَجْمَعِيْنَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ



راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي

المكتبة المعروفية – كويتا – باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

فاتحة سورة الفتح

لا يخفى على أرباب السكينة والوقار من الفائزين بسرائر التوحيد، المنكشفين بأسرار الربوبية والألوهية من استقام على طريق الحق متوكلاً عليه، مفوضًا أموره كلها إليه، مخلصًا في جميع أعماله وأحواله، مستويًا على منهج العدالة المأمورة له من قبل ربه، فقد فتح عليه سبحانه أبواب الفتوحات الغيبية، وأفاض عليه أنواع الكرامات السنية القدسية، وأوصله إلى الدرجات العلية اللاهوتية، وأنقذه من الدركات الدنية الناسوتية الإمكانية الجهنمية.

لذلك منَّ سبحانه على حبيبه ﷺ بالفتح والظفر على عموم ما يسر الله له ووفقه عليه من أنواع الخيرات والكرامات المنتظرة له، وأصناف السعادات العاجلة والآجلة، فقال متيمنًا باسمه الأعظم الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي فتح على خلص عباده أبواب المعارف واليقين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإفاضة العقل المتشعب من حضرة علمه؛ ليهديهم إلى صراط مستقيم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى مقر التوحيد؛ ليتمكنوا في جنة الرضا وروضة التسليم.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾
لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: 1-9].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾(1)

---

(1) قال سيدي محمد البيطار في وارده على الآية بالفتح المدرار ما نصه: اعلم - رحمك الله - أن الجوهر الفرد الأصلي للعالم العقل المحمدي، وهو نور ذاتي مفاض إفاضة ذاتية من الحقيقة الكلية الجامعة للحق والخلق، إلا أن الحقيقة الكلية برزخ بين الوجود والعدم، وهي العماء الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق ما فوقه هواء وما تحته هواء، المراد بالهواء الأول: حقيقة الحق. وبالهواء الثاني: الخلق، فالعماء حقيقة برزخية، ولا يخفى أن البرزخ إذا انتهى حكمه آل إلى أحد الطرفين مع عدم المنافاة لمقامه الأول العمائي، فتجلى الحق تعالى من اسمه الباطن تجليًا أحديًا من نفسه لنفسه في نفسه، فانفتح من غيب ذاته النور المحمدي، وهو جوهر العالم وحقيقته، فكان مرآة وجود الحق وهو العقل الأول الوجودي، ولولا هذا العقل لم يتقيّد تعالى باسم الوجود، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح:1] أي: من ذاتنا المطلقة التي لا تختص بالوجود ولا بالعدم، ولا تعلم لا من اسم ولا من صفة، وقد حجر الشرع المطهّر التفكير فيها؛ لأنها لا ترتبط بأمر، وتظهر بنقيض ذلك الأمر، فالعلم بالذات عبارة عن الجهل بها وأنها لا تعلم، ففتح الله من ذاته جوهر الوجود المحمدي لأجل وجود محمد ﷺ؛ لأنه تعالى هو المحب لأن يعرف، ولا يعرف إلا بظهوره بصورة محبوبه؛ لأنه هو الجميل، فأحب نفسه فكانت نفسه عين الحقيقة المحمدية، فكان هذا الفتح لأجل المحبوب الجميل وهو يحب الجمال، فأحب أن يظهر جماله بمحمد وأن يعرف بأن الجوهر المحمدي عينه لا غيره، فلذا قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح:1] أي: لأجلك حتى نريك نفسك عيننا، وأنك المسمى بأسمائنا، فهذا الفتح من حقيقة اسمنا (الفتاح) يبين لك ذاتك، وأنك حقيقة حياتنا الذي منها كل شيء حي.

فالحقيقة المحمدية مستوى الرحمانية وعرشها، وبالرحمة كان الوجود فهو عين الرحمة، ولذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، فكان هذا الفتح مبيِّنًا له حقيقة نفسه بأنه نور الوجود المقدّس الطيب الطاهر، كما قال ﷺ: «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس» فتبين من هذا أنه المسمى بالأسماء الحسنى؛ لأنه باطن الكنز المخفي، فقوله أي لأجل ظهور أحديتنا لك في نفسك، وأحديتنا تغفر ما تقدّم من ذنب الكثرة المتقدمة والمتأخرة الملهية عن تلك الأحدية، ولذا أخبره بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2]، وليس

ذنبه إلا الكون جميعه مع جميع ما يصدر منه، فالمقصود: ستر جميع ذلك بأحدية الذات الوجودية المطلقة؛ ليظهر تقديس تلك الحقيقة المحمدية بمحو كون شرك الأغيار، وتجلي وجود أحدية الغفار، فالذنب لتلك الحقيقة المحمدية حقيقي أصلي لا مجازي، بل نسبته الذنب الكوني لغير الجوهر المحمدي بطريق المجاز عند المحققين، ومع كون الحقيقة المحمدية جوهرًا وجوديًا ذاتيًا عينيًا فلا توجد إلا بالصور الكونية، فالصور الكونية هي ذنبه ﷺ المستور بحقيقة الأحدية، والعجب أن هذا الذنب لا عين له حقيقية، وإنما هو أمر وهمي يظهر أنه عيني من ظلمة الحجاب، ومع ذلك فلولا هذا العدم الوهمي ما ظهر الوجود، فالوجود لا مظهر له إلا العدم وبالعكس. فلذا فتح الله لمحمد ﷺ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:1]، ليغفر له، أي: لأجل أنه يبين هذا الفتح المبين له، مغفرة ما تقدَّم من صور حقيقته، وما تأخر بوجود حقيقته، وسُميت هذه الصورة الكونية ذنبًا باعتبار نسبة الوجود إليها؛ لأن ذلك من أعظم الذنوب .. فلمابدا هذا الفتح المبين لمحمد ﷺ أبان له أن الكون كله مغفور بحقيقته، وحقيقته مغفورة بوجود الله الغافر بوجوده كل أول وآخر وظاهر وباطن، فالكل هو وهذه هي مغفرة الذنب الكوني ما تقدَّم منه وما تأخر، فلذلك قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:2]، فأتمَّ نعمته بتجلي ذاته وأسمائه وصفاته وشئونه ووجوهه واعتباراته، وهذا هو الصراط المستقيم الذي قال في حقه: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2]، ولمَّا اقتضى إتمام النعمة عليه بما ذكرنا أن يكون مظهر الاسم الأعظم الجامع قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:3]، أي: بكونه إياك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:3]، إذ لا أعز من الله تعالى، وقد أحبَّه فكان سمعه وبصره كما في الحديث.

واعلم - رحمك الله - أن من فتح الله له فتحًا مبينًا وكشف له عن حقيقة نفسه لا يرى في الوجود غير نفسه، وأهل الفتح متفاوتون في هذا المشهد، وقد قال فيه ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم» أي: أوتيت الكلم الجوامع، والكلم الجوامع هي أسماء الحق وأوصافه.

ألا ترى أن الاسم الله الأول مثلاً يجمع كل أولية، واسمه الآخر يجمع كل آخرية، واسمه الباطن يجمع كل باطنية، واسمه الظاهر يجمع كل ظاهرية، فهذه هي جوامع الكلم التي أوتيها، ومعنى أوتيها أنه مدلولها ومعناها، فمن تحقق بهذا المعنى فتحًا وكشفًا كان ذنب الوجود كله ذنبه، وأعظم الذنوب دعوى الوجود مع الله تعالى، فمن فتح له وشاهد مقام واحديته فقد غفر له ذنب شهود كونيته وأثنينيته، ولذلك علل سبحانه الفتح المبين بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:2]، فبهذا الغفران انمحى من الوجود سواه وبهذه الحال سماه الله بالفؤاد فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:11]، لأن الفؤاد قلب القلب وسره وباطنه، وأشار لذلك ﷺ بقوله: «قلب القرآن يس» فالقرآن بلسان الإشارة وجود الله الجامع لكل شيء، فهو قلب كل شيء، وقلب هذا القلب هو الفؤاد وهو ياسين ﷺ، ولما اقتضى الفتح المبين أن يغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر بأن

يكون هو عين جميع من تقدم أو تأخر، كما قال: «نحن الآخرون الأولون» بشرّه الله تعالى ببشارة مؤكدة لهذا المعنى بقوله: ﴿طه﴾ [طه:1]، أي طاهر الذات يا مرجع الأسماء والصفات ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [طه:2]، أي: ما تجلينا عليك بمقتضى واحديتنا ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:2]، يعني أن هذه الحقيقة لا يلحقها الشقاء الذاتي، وإنما الشقاء عارض نسبي.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:4]؛ لأنه خلقنا منه كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:13]، أي: من ذاته، ولو كان المراد من فعله لاكتفى بقوله سخّر لكم، فأفاد بقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ إنه عين المسخر، كما أنه عين المسخر، فليس الشقاء إلا الحجاب، والحجاب عارض فداوى جلّ وعلا علة، فمنهم شقي وسعيد بدواء آية طه، فكان الشقاء من هذه العلة هو العاقبة، ولاسيما وقد قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] فمن فهم هذا المعنى فقد فهم الفتح المبين وأدرك حقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:17] فنزلت السكينة في قلبه فسكن إليها؛ لأنه يؤمن بأن محمدًا ﷺ حقيقته وعينه وذاته، وأي شيء نسكن إليه أعظم من ذلك، فمن أدرك هذا السر فقد شرب وسقي وطرب، ألا ترى من دخل هذه الحان وهو أبو تراب ﷺ كيف شرب وطرب وعربد من سماع هاتيك الألحان، فقال: أنا العرش أنا الكرسي أنا القلم أنا اللوح أنا جنب الله الذي فرطتم فيه، فبهذه السكينة التي نزلت في قلبه من إفاضة قلب القلوب وفؤاد كل محب ومحبوب حصل له كما قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح:4]، فمن ازداد إيمانًا مع إيمانه الأول أيقن بأن جنود الأسماء والصفات ومظاهرها في الأرض والسماوات هي لله الذي سكن إليه، فكان هو المسكن وكان الله إلى وجودنا الذي نسكن إليه ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:4] أي: بناء؛ إذ نحن مظاهره، وهو الظاهر بنا فثبتت جنود السماوات والأرض إلينا، ولذا قال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح:5]، وهي اللطائف المحمدية المشتملة على الأسرار الربانية تجري من تحتها الأنهار التي هي العلوم الإلهية، وهي من تحت هذه اللطائف؛ لأن الأسماء في الرتبة هي تحت الذات؛ إذ العلم والسمع والبصر وأمثال ذلك في قبضة حياة الذات، والذات التي هي الجنات، وهي المظاهر الحق من تحتها تجري أنهار الأسماء والصفات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الفتح:5] يعني أن الذات التي يدخلونها بالكشف والتحقق هي خالدة وهم فيها خالدون فلهم بذلك البقاء الدائم ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفتح:5]، فلا يسوءهم شيء بعد ما عرفوا فيهن الخلود بل يفوزون فوز الأبد كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:5] الذين هم عنده بالعندية اللداتية فوزًا

[الفتح: 1] ظاهرًا عظيمًا بأن ألهمنا عليك، وأوضحنا لك طريق الخروج من مضيق الإمكان إلى فضاء الوجوب، ويسرنا لك الترقي والعروج من حضيض الجهل وأودية الضلال على ذروة العلم وأوج الوصال.

وإنما فتحنا لك ما فتحنا ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ ويستر عليك ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالك وشئونك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ﴾[1] الذي عرض عليك بمقتضى بشريتك وإمكانك قبل انكشافك بوحدة الحق ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعده من تلويناتك في بعض الأحوال المسرة والمؤلمة حسب النشأة البشرية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ الموعودة لك حسب استعدادك ﴿عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 2] موصلاً على مقصد التوحيد الذاتي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ الوكيل الكفيل لك في عروجك وترقيك عن بقعة الإمكان ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾[2] [الفتح: 3] منيعًا غالبًا حيث لم يغلب عليك بعد انكشافك

عظيمًا، أي: به هذا الفوز العظيم، فإذا سرت بهذا المعنى في هذه السورة فأنت الطائر في الأفق الأعلى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:1] وهي صورته المحترمة إلى المسجد الأقصى، أي: باطن ذاته الذي هو أقصى عن أن تدركه الأبصار، وفي هذه السورة من البشارات واللطائف ما لا تدركه العقول، وقد مهدنا لك الطريق إلى سلوك تلك المسالك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(1) قال المحقق البقلي: نبّهنا الله في ذلك من سِرّ عجيبٍ، وهو أن أبواب كشف القدم مسدودةٌ على أهل الحدثان، ولم يظهر لأحدٍ عين ذات الأزل، ففتح الله أبوابه لعين محمد ﷺ حتى رآه كفاحًا، فتح سمعه فأسمعه كلامه شفاهًا، وفتح باب قلبه وروحه وسرّه، فعرف نفسه لها، حتى وجدت أبواب خزائن علومه الغيبية مفتوحة، وفتح الله جميع أبواب وجود حبيبه ﷺ حتى الشعرة على بدنه وجعلها عيونًا مفتوحة بمفاتيح توحيده وأنوار حقيقته حتى رآه بجميع عيون وجوده، وذلك الفتح ظاهرٌ من وجوده حتى لا يراه أحدٌ إلا ويرى نور الصمدية ينتشر من بشريته، لكن كان محجوبًا من عيون الأغيار.

(2) قال ابن عطاء: جمع الله للنبي ﷺ في هذه الآية من نعم مختلفة: بين الفتح المبين وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية، والمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة من الحق، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق من غير أن يرجع إلى سواه. وقال الواسطي: فتح عين رسوله ﷺ لمشاهدته في

بسرائر التوحيد جنود أمارتك وشياطين بشريتك مطلقًا.

وكيف لا ينصرك ربك؟ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مقتبسين من مشكاة نبوتك نور الولاية اللامعة المتشعشعة من شمس الذات ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ بهدايتك وإرشادك ﴿مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بأنك على الحق المبين ﴿وَ﴾ كيف لا يزدادون إيمانًا يا أكمل الرسل، مع أنك فزت بالفوز العظيم من الوحدة الذاتية وصرت مصونًا محفوظًا في كنف الحق وجواره، منصورًا على عموم أعدائه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة قدرته الغالبة ﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: مدبرات الأسماء والصفات ﴿وَ﴾ جنود ﴿الأَرْضِ﴾ أي: قوابل الأركان والطبائع التي هي حوامل آثار العلويات والمأثورات منها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لعموم ما في استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿عَلِيمًا﴾ بحوائجهم لدى الحاجة ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4] في تدبيرات أمورهم على وفق الحكمة المتقنة والمصالحة المستحكمة.

كل ذلك ﴿لِيُدْخِلَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من أمة حبيبه وصفيّه المستخلف منه سبحانه في بريته وعموم خليقته ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تلوين وتحويل ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: يمحو عن عيون بصائرهم أشباح أنانياتهم، وأمواج هوياتهم المستحدثة على بحر الوجود، ومن نكبات التعينات وحرص الإضافات ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإدخال والإيصال والتكفير ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 5] وأجرًا جميلاً، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَ﴾ كما يدخل سبحانه المؤمنين والمؤمنات في روضات الجنات تفضلاً وإحسانًا ﴿يُعَذِّبَ﴾ أيضًا ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ وهم الذين أخرجوا أعناقهم عن عروة العبودية بمتابعة الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة، وأظهروا الإيمان على طرف اللسان بلا إخلاص وإذعان ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين جحدوا في الله الواحد الأحد الصمد، المنزّه عن الشرك مطلقًا، وأثبتوا له شركاء ظلمًا وزورًا ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو أنه لا ينصر أولياءه الباذلين

المسرى، وفتح سمعه لفهم كلامه كفاحًا بعد أن قوّاه لذلك وأكرمه به.

مهجهم في طريق توحيدهم، بل تدور ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ويحيط بهم وَبَال ما تظنونه على أولياء الله، كيف ﴿وَغَضِبَ اللهُ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بل ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: طردهم عن ساحة عز قبوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿وَسَاءَتْ﴾ لهم جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ [الفتح: 6] أي: مقرًا ومنقلبًا ومرجعًا ومآبًا.

﴿وَ﴾ كيف لآ يلعنهم سبحانه ولا يغضب عليهم مع أنهم يظنون بالله ظن السوء، ويعتقدونه عاجزًا عن نصر أوليائه، مع أنه ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة قدرته وتحت تصرفه ﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وله أن يأمرهم ما يشاء، ويغلبهم على من يريد إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿كَانَ اللهُ﴾ المتوحد بالعظمة والكبرياء ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على عموم مراداته ومقدوراته بلا معاونة أحدٍ ومظاهرته ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 7] في أفعاله المتقنة، يدبرها بالاستقلال وفق حكمته البالغة.

ثم قال سبحانه في مقام الامتنان لحبيبه ﷺ؛ إظهارًا لكمال قدرته الشاملة وحكمته الكاملة: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَاهِدًا﴾ على عموم عبادنا، يشهد لهم عندنا عموم ما صدر عنهم من الصالحات الجالبة لأنواع المثوبات والكرامات ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بهم، يبشرهم برفع الدرجات والفوز بالسعادات ﴿وَنَذِيرًا﴾[1] [الفتح: 8] ينذرهم عن الدركات العائقة عن الوصول إلى جنة الذات التي دونها تجرى بحر الحياة.

كل ذلك ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ وتذعنوا بتوحيده ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: تصدقوا برسوله الذي أرسل إليهم من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بعد اتصافهم بكمال الإيمان والإذعان ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾ سبحانه؛ أي: تعتقدوا أن الحول والقوة بالله جميعًا، لا حول ولا قوة لسواه مطلقًا ﴿وَ﴾

---

(1) قال البقلي: أي: شاهدًا على توحيدهم ومعرفتهم ومحبتهم وولايتهم، وبنور الله على قلوبهم وأسرارهم، ومبشرًا يبشرهم بالوصال ورؤية الجمال والجلال، ونذيرًا من العتاب والحجاب، وأيضًا شاهدًا للعارفين، بدا من الحق لهم؛ ليروا امن مشاهدته أنوار جمال الحق، ومبشرًا للمحبين، يبشرهم بالوصال إلى قرب حبيبهم بلا علة، ونذيرًا للمقبلين إليه لئلا يميلوا إلى غيره.
قال سهل: شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعرفة والتأييد، ونذيرًا محذرًا إياهم البدع والضلالات.
قال ابن عطاء: شاهدًا علينا، ومبشرًا لنا، نذيرًا عنا، وداعيًا إلينا، وأنت المأذون في الكل؛ لأنك أمينٌ على الكل، ولا يطيق هذه المراتب إلا الأسناء؛ فإنك الأمين حق أمين.

بعدما اعتقدتم كذلك ﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه حق تعظيمه ﴿وَ﴾ بعدما وقرتموه وعظمتموه كما ينبغي ويليق بشأنه ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: 9] أي: في عموم أوقاتهم وحالاتهم؛ إذ لا يتأتى منهم بالنسبة إلى جنابه سبحانه إلا التفويض والتعظيم والتنزيه والتقديس، وإلا فما للعباد وزرب الأرباب أن يتكلموا عن ذاته وصفاته، سوى أن يخوضوا في لجة بحر توحيده، ويتيهوا في بيداء ألوهيته حتى يفنوا في فضاء صمديته؛ إذ لا إله إلا هو ولا شيء سواه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: 10-15].

ثم قال سبحانه بلسان الجمع على سبيل الإرشاد والتكميل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويختارون متابعتك، ويستهدون من هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ الذي استخلفك عليهم وجعلك نائبا عن ذاته فيما بينهم، فعليهم ألا ينقضوا العهد والبيعة التي عهدوا معك؛ بل وكيف يسع لهم النقض مع أن ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ وقبضة قدرته الغالبة ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ﴾ ونقض البيعة والعهد مع رسوله ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: ما يعود وبال نقضه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾ وحفظ ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ وهو معاهدتهم مع الرسول الله ﷺ بخلافته ﷺ عنه سبحانه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ جزاءً﴾

للوفاء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] [الفتح: 10] هو الفوز بشرف اللقاء والتحقيق لدى المولى.

﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل الاعتذار ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المنافقون الناقضون للعهود، المتخلفون عن الجهاد ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المجبولين على الكفر والنفاق: ﴿شَغَلَتْنَا﴾ عن متابعتك ومشايعتك ﴿أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا متعهد سوانا؛ لذلك حرمنا عن صحبتك وعن أجر الجهاد ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يا رسول الله عند الله حتى يغفر ما صدر عنا من التخلف، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وباعتذارهم واستغفارهم هذا، فإنه من شدة شكيمتهم وغيظهم وضعف عقيدتهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تغريرًا وتلبيسًا ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التفضيح والتبكيت: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ أي: يدفع ويمنع ﴿لَكُم مِّنَ اللهِ﴾ القادر المقتدر ﴿شَيْئًا﴾ من غضب الله إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ﴾ شيئًا من لطفه ورحمته إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ وبالجملة: لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه ﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: 11] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ أيها المتخلفون المثقلون ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ ويرجع ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بل يستأصلهم العدو، فلن يرجع منهم أحد من سفرهم هذا، بل ﴿وَزُيِّنَ﴾ أي: حُبب وحُسِّن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الاستئصال وعدم الرجوع، وتمكن ﴿فِي قُلُوبِكُمْ وَ﴾ قد ﴿ظَنَنتُمْ﴾ بزعمكم هذا ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بالله ورسوله والمؤمنين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قد كُنتُمْ﴾ أزلاً ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: 12] هالكين في تيه الجهل والعناد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لم يجمع بين الإيمان بالله وتصديق الرسول المستخلف منه سبحانه ﴿فَإِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والتكذيب ﴿سَعِيرًا﴾ [الفتح: 13] نارًا مسعرة ملتهبة تحيط بهم؛ جزاء ما أوقدوا في نفوسهم نار الفتن والطغيان لأولياء الله.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم عنهم سبحانه مع أنه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله

---

(1) قال الإمام الحسين- عليه السلام-: أسقط الوسائط عند تحقيق الحقائق، فأبقى رسومها، وقطع حقائقها، فمن بايع النبي ﷺ بايع الله على الحقيقة؛ فإن تلك بيعة الله؛ لأن يده في تلك البيعة يد عارية.

- قال القاسم النصر آبادي: في وقت الاستنفار إلى الروم: ها قد ظهرت صفة البيعة فهل من راغب فيها، بيعة بلا واسطة.

التصرف فيهما بالاستقلال والاختيار ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ فضلاً وإنعامًا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ عدلاً وانتقامًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المتصف بكمال اللطف والمرحمة ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ﴿رَّحِيمًا﴾ [الفتح: 14] يقبل توبة التائبين، ويعفو عن زلاتهم.

ثم لما سمع المخلفون من الأعراب يوم الحديبية أن الله قد وعد المؤمنين فتح خيبر، وخص لهم الغنائم، قصدوا الخروج نحوها طامعين الغنائم؛ لذلك أخبر الله سبحانه حبيبه بقصدهم هذا، فقال: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون وقت ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾ الموعودة لكم خاصة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ بفضل الله إياكم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ بغزوتكم هذه وننصركم، مع أنهم لا يقصدون الرفاقة والوفاق في نفوسهم ونياتهم، بل ﴿يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون بقولهم هذا أن ﴿يُبَدِّلُوا﴾ ويغيروا ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ الدال على تخصيص غنائم خيبر لمن حضر الحديبية بدل غنائم مكة.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التأبيد في النفي: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا أَبَدًا كَذَٰلِكُمْ﴾ أي: مثلما سمعتم ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في نفوسهم من النفاق والشقاق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل تهيئاتكم أيها المؤمنون للخروج إلى خيبر ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعدما سمعوا النهي على وجه التأبيد في نفوسهم: ما أمرهم الله هذا ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على أخذ الغنيمة؛ أي: ما حملهم على هذا النهي المؤكد المؤبد إلا الحسد والشح ﴿بَلْ﴾ هم قوم جاهلون ﴿كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون مراد الله العليم الحكيم عن منعهم هذا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: 15] منهم، وهم المصدقون بالله ورسوله في سرائرهم ونجواهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن
تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى
الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ
إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً
تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ

صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 16-23].

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ بعدما أيسوا من الخروج إلى خيبر: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى﴾ غزوة ﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وشوكة عظيمة ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: مآل أمرهم إمَّا القتل وعزته، وإمَّا الإسلام لا غير ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ حينئذٍ، ولم تتخلفوا كما تخلفتم يوم الحديبية ﴿يُؤْتِكُمُ اللهُ﴾ المطلع بنياتكم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ وتنصرفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 16] لتضاعف جرمكم، وشدة شقاقكم ونفاقكم.

ثم أخذ سبحانه في تعداد ما يرخص لهم التخلف والقعود على سبيل الاضطرار فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: ليس لهؤلاء وزر مؤاخذة إن تخلفوا عن القتال بأمثال هذه الأعذار إن كانوا من أهل الطاعة والإيمان ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ على وجه الإخلاص والوفاق بلا بطانة ونفاق ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله وسعة رحمته وجوده ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات الكشوف والشهود ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ من المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات الإلهية، المنتشئة من النفسات الرحمانية ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض وينصرف عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة الآراء الفاسدة والأهوية الباطلة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بمقتضى قهره ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 17] في نيران الإمكان، لا عذاب أشد إيلامًا منه.

ثم قال سبحانه على وجه التحريض والترغيب للمؤمنين: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين في الإطاعة والانقياد ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يوم الحديبية بيعة الرضوان، والشجرة هي: السمرة أو السدرة ﴿فَعَلِمَ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الرغبة والإخلاص ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والوقار ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ﴾ بعدما أيسوا عن فتح مكة، ورجعوا من الحديبية ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] هو فتح خيبر بعد رجوعهم منها.

﴿وَ﴾ رزق لهم خاصة ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من خيبر بعد غنائم مكة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على عموم مقدوراته

﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: 19] مراعيًا مقتضى الحكمة البالغة.

إنه ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ﴾ أيها المؤمنون المخلصون في إطاعة الله ورسوله ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ من أيدي الكفرة إلى قيام الساعة؛ إذ يظهر دينكم على الأديان كلها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أهل خيبر وأوليائهم، وكفى مؤنة عموم من قصد السوء على أموالكم وذراريكم ﴿وَ﴾ إنما فعل بكم سبحانه ذلك ﴿لِتَكُونَ﴾ هذه الكفة والغنيمة ﴿آيَةً﴾ علامة وأمارة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يأتون بعدكم، ويقتفون أثركم بأن المؤمن المخلص في جوار الله وكنف حفظه وحضانته ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 20] هو الثقة بالله وبكرامته ونصره لأوليائه.

﴿وَ﴾ كذا عجل لكم عناية من الله إياكم مغانم ﴿أُخْرَى﴾ مع أنكم ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لشوكة الأعداء وكثرة عددهم وعددهم، بل فررتم أنتم منهم مرارًا ﴿قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا﴾ وأباحها عليكم بالنصر والغلبة عليهم مع أنكم خائفون وجلون منهم، وهي مغانم هوازن وفارس﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرًا﴾ [الفتح: 21] لا يعجز عنه ولا يفتر دونه؛ إذ القدرة من جملة الأوصاف الغالبة الذاتية الإلهية، التي لا تفتر به ولا تضعف بحال.

﴿وَ﴾ من كمال قدرته ونصره لأوليائه: إنه ﴿لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدما فررتم منهم وجبنتم عنهم ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ عنكم بنصر الله إياكم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ولوا ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: 22] ينصرهم وينقذهم من أيديكم.

ولا تستبعد يا أكمل الرسل من قدرة الله أمثال هذا؛ لكونها ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت واستمرت ﴿مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ أَبَدًا لِسُنَّةِ اللهِ﴾ التي جرت منه سبحانه بمقتضى حكمته ﴿تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23] ولا لحكمه الصادر عنه بالإرادة والاختيار تغييرًا وتحويلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم

مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ
ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى
ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ
أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ
فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: 24-29].

﴿وَ﴾ كيف تبدل سنة الله وتغير حكمته مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر المقتدر ﴿الَّذِي كَفَّ﴾ وضع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أيدي كفار مكة ﴿عَنكُمْ﴾ حين استيلاءهم عليكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ حين غلبتم عليهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ وأظهركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج مع خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة، ثم قال: ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿بَصِيرًا﴾ [الفتح: 24] خبيرًا، لا يعزب عنه شيء مما جرى عليكم، يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

وكيف لا يجازي الكفرة سبحانه بأسوء الجزاء؟ إذ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظلمًا وعدوانًا ﴿وَ﴾ لم يقتصروا على الكفر فقط، بل ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي: حصروكم وصرفوكم ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عام الحديبية ﴿وَ﴾ الحال أنه قد صار ﴿الْهَدْيَ﴾ أي: الذبائح

والقرابين التي ساقها رسول الله ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوسًا قريبًا أن ﴿يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾[1] أي: مذبحه الذي عينه الله لذبح الضحايا، وهو المنى.

﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ بينهم وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ في خلالهم، لم يكف سبحانه أيديكم عنهم، بل نصركم عليهم واستأصلتموهم بالمرة، لكن لما كان بينهم من المؤمنين والمؤمنات كف سبحانه أيديكم عنهم مخافة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: المؤمنين المخلوطين بهم، ولم يميزوهم من الكفار ﴿أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ تدوسوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: من أجل المؤمنين المخلوطين بالكافرين وجهلهم ﴿مَّعَرَّةٌ﴾ أي: مضرة وكروه من لزوم دية وكفارة، وإثم عظيم وتعيير شديد، وغير ذلك من المنكرات مع أنه إنما صدر عنكم الوطاءة والدوس لو صدر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وخبرة، وإنما كف أيديكم عنهم حين أظفركم عليهم ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ﴾ المطلع بما في استعدادات عباده من الإيمان والكفر ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي هي التوحيد والإسلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ منهم حتى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ وتفرقوا أي: المؤمنين من الكافرين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25] في غاية الإيلام من السبي والجلاء وأنواع المصيبة والبلاء.

اذكر يا أكمل الرسل إذ ﴿جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغيرة لا على وجه الحق بل ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك أنه ﷺ لما نزل الحديبية، فهمّ بقتال أهل مكة، بعثوا سهيل بن عمر وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص؛ ليرجع من عامه، وتُخلى لهِ مكة من العام القابل ثلاثة أيام.

فقال ﷺ لعلي ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة»، فقالوا: ما نعرف هذا، اكتب: بسمك اللهم، هذا ما صالح محمد بن عبد الله.

فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون»[2] فكتب، فهمّ المؤمنون أن يبطشوا ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ووقاره ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ هم أحقاء بالطمأنينة والوقار وكظم

---

(1) قال في التأويلات: ومحله الصدق والإخلاص يعني: من خاصة النفس أن تصد وجه الطالب عن الله، وبنشوب الخيرات والصدقات التي يتقرب بها إلى الله بالرياء والسمعة والعجب؛ لئلا يبلغ محل الإخلاص والقبول.

(2) ذكره القرطبي في «تفسيره» (318/9).

الغيظ وتوطين النفس بالمكاره ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَلْزَمَهُمْ﴾ سبحانه ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ واختار لهم صون النفس عن التهور والغلظة ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرها ﴿وَأَهْلَهَا﴾[1] أي: كانوا أهلاً لحفظها ورعايتها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لعموم أحوالهم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يليق بهم وينبغي لهم ﴿عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26] يوفقهم عليه ويسهل عليهم الاتصاف به.

ثم لما رأى ﷺ في منامه أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص ﷺ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا وظنوا أن ذلك في عامهم هذا، فلما تأخر بالصلح والمعاهدة، قال بعضهم: والله ما حلقنا وما قصرنا وما رأينا البيت، فنزلت: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي: جعله سبحانه صادقًا في ما رأى ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والله أيها المؤمنون ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ من العدو؛ إذ ما أريناه ما أريناه إلا بالحق ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ على الوجه المتعارف ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ كما هو عادة الحجاج يحلق بعضهم ويقصر بعضهم، وبالجملة: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾[2] بعد ذلك؛ إذ الله معكم ﴿فَعَلِمَ منكم مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من أنفسكم، ولا تستعجلوا إلى الفتح؛ إذ هو

---

(1) قال في التأويلات: مع جميع الأمم؛ لأن النبي ﷺ كان خلاصة الموجودات وأصلها، وهو الحبيب الذي خلقت الموجودات بتبعيته، والكلمة هي صورة الجذبة التي توصل الحبيب بالحبيب والمحب بالمحبوب، فهي بالنبي أحب؛ لأنه هو الحبيب لتوسله إلى حبيبه، وأمته أحق بها من الأمم؛ لأنهم المحبون لتوصل المحب بالمحبوب، وهم أهلها لأن أهل هذه الكلمة من يفدي بذاته وصفاته من حقيقة الكلمة، فينتفي بنفيها عن ذاته وصفاته، ويبقى بإثباتها معها بلا أنانية، وما بلغ هذا المبلغ بالكمال إلا النبي ﷺ، فيقول: «أما أنا فلا أقول أنا وأمتي»؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110].

(2) إشارة الآية مع المشتاقين إلى مشاهدة الحق بأنهم يدخلون حرم الربوبية آمنين عن جريان العبودية عليهم، آمنين من ذل الحجاب بعد كشف النقاب، والاستثناء وقع على المشيئة الأزلية السابقة بحسن العناية لهم، وفي نفس الآية أنه لو يريد أن يلبسهم وصف الصمدية حتى لا يفنوا في الوحدانية لقدر، وهو هكذا يفعل، لكن رمز الاستثناء يورث هيبة الحق؛ إذ صار عروس القدر غير منكشف لأهل الحدث، أدّب الجمهور برؤية الله مع رؤية القدر السابق؛ حتى لا يسقط عنهم شروط الهيبة والمراقبة، سئل بن عبد الله: ما هذا الاستثناء من الله؟ قال: تأكيدًا في الافتقار إليه، وتأديبًا لعباده في كل حال ووقت تنبيهًا أن الحق إذا استثنى مع كمال علمه ألا يجوز له الحكم من غير استثناء مع قصور علمه.

مرهون بوقته ﴿فَجَعَلَ﴾ لكم ﴿مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27] هو فتح خيبر؛ ليطمئن به قلوبكم إلى أن يتيسر لكم الفتح الموعود الذي أخبر به نبيكم الصادق المصدوق.

وكيف لا يصدق سبحانه مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ ملتبسًا ﴿بِالْهُدَى﴾ والإرشاد إلى سبيل توحيده ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الفاروق بين الباطل والضلال، ووعد له ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: دينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: جنس الأديان النازلة من عنده بأن نسخ الجميع به ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: 28] على صدقه في رؤياه وفي دعوته ونبوته، وإظهار أنواع المعجزة بيده.

إنه قال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ حق، مرسل من عنده، مبعوث إلى كافة البرايا؛ ليهديهم إلى توحيده الذاتي ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين له، المصدقين لدعوته، المتعطشين بزلال مشربه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[1] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هوية الحق الظاهر في الآفاق والأنفس، يدفعون مؤنة كثراتهم الوهمية بترويج الحق على الباطل، وإعلاء كلمة التوحيد، وتقويم الدين القويم وإظهاره على سائر الأديان ﴿رُحَمَاءُ فيما بَيْنَهُمْ﴾ متواضعون مع أهل الحق وأرباب التوحيد؛ لذلك ﴿تَرَاهُمْ﴾ في عموم أوقاتهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: راكعين، ساجدين، متذللين، خاضعين، خاشعين، بلا رعونة ولا رياء ولا سمعة ولا هوىً، بل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بتذللهم هذا ﴿فَضْلاً مِّنَ

(1) اعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين، وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم، وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات، وليس في القرآن آية حوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنزلة القرآن كله، وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب، مستجاب عند ختم القرآن، ولمّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم ﷺ، وكان آدم قد تكلّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاً منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منهما لسان أهل الجنة.

اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ منه سبحانه، وبالجملة: ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: سمتهم وعلاماتهم الدالة على نجابة طينتهم وكرامة فطرتهم ظاهرة ﴿فِي وُجُوهِهِم وجباههم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ وكثرة التذلل والخشوع نحو الحق ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أوصافهم ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وصفتهم العجيبة المذكورة ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ﴾ هكذا أيضا ﴿فِي الْإِنجِيلِ﴾.

وبالجملة: مثلهم في بدء ظهورهم وخروجهم أولاً في غاية الضعف والنحافة، واشتدادهم وغلظهم على الأعداء، ووفور رأفتهم ورحمتهم على الأولياء ثانيًا ﴿كَزَرْعٍ﴾ أي: كمثل زرع وقع على الأرض ضعيفًا وبرز منها نحيفًا، ثم ظهر عليها ونبت قويًا يومًا فيومًا إلى حيث ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: أفراخه وأغصانه دقيقًا دقيقًا ﴿فَآزَرَهُ﴾ قومه بالمعاونة ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ وعاد غليظًا بعدما رباه وأحسن تربيته ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ واستقام بعد ذلك ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أي: قصبه وساقه على وجه ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ عند رؤيته بكمال كثافة وغلظته ونضارته ولطافته.

وإنما رباهم سبحانه وقواهم على أبلغ وجه وأحسنه ﴿لِيَغِيظَ﴾ ويتحسر ﴿بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ المخالفون المخاصمون لهم من كمال تشددهم وترقبهم، وبالجملة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من الإخلاص والتفويض ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكمال المحبة والتسليم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿مِنْهُم﴾ أي: من جنسهم ﴿مَّغْفِرَةً﴾ سترًا ومحوًا لأنانياتهم الباطلة ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29] هو الفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدرة المنتهى، وليس وراء الله مرمى.

رزقنا الله الوصول إليه، والوقوف بين يديه.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - مكنك الله في مقعد الصدق، ووطنك في مقر التوحيد - أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك وأعمالك، مجتنبًا عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، معرضًا عن قصور مطلق التخمين والتقليد، مقتصدًا في جميع أطوارك وشئونك، مقتفيًا في جميع أخلاقك وأطوارك أثر نبيك الهادي إلى سواء السبيل حتى ينفتح لك أبواب عموم الكرامات والسعادات، وينغلق دونك مداخل أنواع المكروهات والمنكرات، وإياك إياك أن تختلط مع أهل الغفلة وأصحاب

الجهالات المترددين في أودية الغي والضلالات؛ ليتيسر لك التحقق إلى فضائل الوصال.

جعلنا الله من زمرة أوليائه المقتصدين، الذين ثبتوا على الصراط المستقيم.

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجرات

لا يخفى على أرباب المحبة والولاء، المتحققين بمقام التسليم والتأديب مع الله في عموم أحوالهم وأفعالهم أن كمال العبودية والإخلاص إنما يظهر بحسن الأدب والمحافظة على أداء حقوق الربوبية والوفاء على مقتضيات عهود الألوهية، وذلك إنما يحصل برعاية حقوق من اختاره الله لرسالته واصطفاه لخلته وخلافته؛ إذ هو الوسيلة الموصلة لعباد الله إلى الله والهادي لهم إلى جناب قدسه.

لذلك أوصى سبحانه خلّص عباده بمحافظة الأدب مع الله ورسوله، فقال بعدما تيمن باسمه العظيم: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بتعليم الأدب إياهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بتلقين الرضا والتسليم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ
بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الحجرات: 1-4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: مراعاة الأدب مع الله ورسوله، فعليكم أن ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ ولا تتقدموا في أمر من الأمور وحكم من الأحكام ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تبادروا بإمضاء الأحكام ما لم تشاوروا بكتاب الله وسنة رسوله ولم تعرضوها عليهما ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ الغيور المطلع على ما في ضمائركم ونياتكم، واحذروا عن المسابقة والمبادرة في الأقوال والأحكام بمقتضى آرائكم وأهوائكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المراقب عليكم في عموم أحوالكم ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1] بنياتكم فيها.

السنية، الموروثة له من ربه بعد مماته، فعليكم الإطاعة والمراجعة إليه حين حياته، وإلى سننه وشرعه في مطلق الأمور والعرض عليه وعليهما والمشاورة معه، فعليكم ألا تكلفوه إلى قبول ما حسّنت لكم نفوسكم من الأمور، فإنه ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ويقبل قولكم ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أتممتم وهلكتم في الإثم ألبتة، واستغرقتم فيه؛ إذ من مقتضى إيمانكم وانقيادكم له أن تفوضوا أموركم كلها إليه، وتستصوبوها منه، فإن صوّب بعضها فبها، وإلا فلا تكلفوه؛ إذ منصب النبوة ومقتضى الحكمة يأبى عن ذلك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ يعني: لا تعتذروا في إصابة البريء بمجرد القول الباطل والظن الفاسد بمحبة الإيمان وكراهة الكفر، فإنه سبحانه وإن حبب إليكم الإيمان ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ المؤدي إليه ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ المستلزم له، لكنه إنما حبب الإيمان على مقتضى الصدق والعدالة، وكرّه الكفر الناشئ عن قصدٍ واختيار، لا أن ينسب إلى من ينسب عن بهتان وزور، فإنه سبحانه لا يرضى لعباده أمثاله، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون، المجتنبون عن الزور والتهمة ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7] المقصرون على الرشد والهداية إلى صراط مستقيم، هو صراط التوحيد المشتمل المعتدل بين كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وإنما صار رشادهم هذا ﴿فَضْلًا﴾ ناشئًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المطلع لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿وَنِعْمَةً﴾ موهوبة لهم من عنده ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ لحوائجهم المصلحة ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: 8] في إفاضتها حسب المصلحة.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم أيها المؤمنون المعتدلون في مقتضى الإيمان: ﴿إِن﴾ كان ﴿طَائِفَتَانِ﴾ كلتاهما ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ عند ثوران القوة الغضبية، وهيجان الحمية الجاهلية من كلا الجانبين بسبب الخصومة المستمرة ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[1]

(1) قال الشيرازي: إشارة الحقيقة في الآية أن وقائع الغيب عند كشوفها في صدور الأولياء على خلاف مذاق الروح والقلب والعقل والسر؛ لوجود إتيانها من الغيب بالبديهة، فبعضها للروح، وبعضها للسر، وبعضها للعقل، وبعضها للقلب فما وقع في السر فهو أعظم مما وقع على الروح، وما وقع على الروح أعظم مما وقع على القلب، وما وقع على القلب أعظم مما وقع على العقل؛ لأن واقعة السر كشف الأولية والآخرية من الأزل والأبد، ونوادره الشطح والعلم المجهول، وما وقع على الروح من كشف الجمال والجلال وعجائبه الشوق والمحبة والسكر والانبساط، وما وقع على القلب من كشف العظمة ولطائفه الهيبة والإجلال وعلوم الصفات وحكم الربوبية، وما وقع على العقل من كشف نور الأفعال ونتائجها الأذكار والأفكار والمعاملة

مهما أمكن الصلح على وفق الحكمة والعدالة ﴿فَإِن بَغَتْ﴾ أي: غوت وغلبت ﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ بحيث أدت بغيها إلى الإفراط والظلم الخارج عن مقتضى العدالة الإلهية ﴿فَقَاتِلُوا﴾ بأمر الله، مظاهرين مع الطائفة المغلوبة على الطائفة الغالبة ﴿الَّتِي تَبْغِي﴾ وتغوي ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ وترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه المترتب على القسط والعدالة ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ ورجعت عن بغيها وطغيانها ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بعدما وقع ما وقع ﴿بِالْعَدْلِ﴾ المنبئ عن الحكمة ورعاية الغبطة بين الجانبين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَقْسِطُوا﴾ واعتدلوا أيها المؤمنون في عموم أحوالكم وأحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9] من عباده.

وكيف لا تصلحون بينهما أيها المؤمنون المصلحون؟ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بوحدة الحق، المصدقون لرسوله المبيّن لطريق توحيده ﴿إِخْوَةٌ﴾ في الدين القويم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بالعدل والإنصاف ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في صلاحكم هذا عن الميل والانحراف ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] لأجل عدالتكم وتقواكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ترك المراء والاستهزاء بحيث ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾ منكم أيها الرجال القوامون المقيمون لحدود الله ﴿مِّن قَوْمٍ﴾ أمثالكم في القيام والتقويم؛ أي: أقوياؤكم ورؤساؤكم من أراذلكم وضعفائكم ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا﴾ أي: المسخورون المرذولون ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من الرؤساء الساخرين عند الله، كذا ﴿وَلَا﴾ لا تسخر منكم ﴿نِسَاءٌ﴾ عاليات متعززات ﴿مِّن نِّسَاءٍ﴾ سافلات مستضعفات ﴿عَسَىٰ أَن يَكُنَّ﴾ أي: المستضعفات ﴿خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: من العاليات عند الله، وكن أقرب إلى رحمته سبحانه منهن ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا تَلْمِزُوا﴾ أيها المؤمنين ولا تعيبوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بعضكم بعضًا؛ إذ المؤمنون كنفس واحدة، فما لحق لهم وعليهم إنما لحق بهم وعليهم جميعًا ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يدعوا بعضكم بعضًا باللقب السوء الدال على الذم والقبح، فإن النبذ إنما يستعمل في اللقب السوء، وإنما نهيتم عما نهيتم؛ لأنه من جملة الفسوق والعصيان المستلزم لأنواع الخيبة والحرمان، المسقط

والعبودية، وهذه الأحكام عند أربابها مختلفةٌ باختلاف كواشفها، ولبعضها على بعض معارضة من جهة غرائبها؛ فإصلاح بينهم لا يكون إلا بالكتاب والسنة وموازينهما؛ لا أن يعلمها بفرق بيان موارد الأسرار وعجائب الأنوار.

للمروءة والعدالة المترتبة على الحكمة الإلهية.

وبالجملة: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ﴾ المنبئ عن الخروج والانحراف عن صراط الحق سيما ﴿بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أي: بعد الاتصاف بالإيمان المنبئ عن كمال الاعتدال بالجملة: ﴿وَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ ولم يرجع إلى الله بعدما صدر عنه أمثال هذه الجرائم المذكورة هفوة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء المصرون على الغواية والطغيان ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11] المقصورون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحجرات: 12-18].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: متابعة اليقين في عموم الأحوال والمقامات، وترك الظنون والجهالات في جميع الحالات إلا ظن الخير بالله وبخلص عباده من الأنبياء والأولياء، المستبعدين بمراحل عن التهمة والتغرير ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ المورث لكم المراء والمجادلة مع الله ورسوله وعموم المؤمنين، وبالجملة: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾ هو الملقى إليكم من قبل الشيطان المزور المغوي ﴿إِثْمٌ﴾ خروج وفسوق عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: من جملة أخلاقكم المحمودة ترك التجسس والتفحص عن خلائل بني نوعكم قطعًا عليكم ألا تبحثوا عن عورات المسلمين وغيرهم، سيما بما يوجب هتك حرماتهن من المفتريات الباطلة الشنيعة

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: من جملة أخلاقكم، بل من معظمها أيها المؤمنون القاصدون لسلوك طريق التوحيد: ترك الغيبة، وهي: أن يذكر بعضكم بعضًا منكم في غيبته بشيء لو كان حاضرًا عندكم، ليشق عليه ويكرهه.

وسئل ﷺ عن الغيبة، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه، فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بهته»[1] وكلاهما خارجان عن اعتدال أهل الإيمان.

ثم أكد سبحانه هذا النهي على وجه المبالغة في التوبيخ، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ وترضى نفسه ﴿أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ سيما حال كونه ﴿مَيْتًا﴾ لو فرض عرض هذا عليكم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ألبتة؛ إذ لا يمكنكم إنكار كراهته، وغيبة الأخ المؤمن أكرهه وأقبح من هذا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور عن ارتكاب الغيبة المحرمة، وتوبوا إليه عنها وعن أمثالها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائركم من الندم والإخلاص ﴿تَوَّابٌ﴾ يقبل منكم توبتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12] يمحو عنكم زلتكم بعدما تبتم ورجعتم نادمين عما فعلتم.

ثم أكد سبحانه أيضًا هذا الحكم على وجه التفصيل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسون للمنشأ الأصلي والفطرة الجبلية ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أي: أوجدناكم وأخرجناكم جميعًا ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ هو: آدم المصور بصورتنا اللاهوتية، المجبول على خلافتنا ﴿وَأُنثَى﴾ هي: حواء المتشعبة من آدم باعتبار ناسوته ﴿وَ﴾ بعدما صيرناهما زوجين ممتزجين، مزدوجين من حصة اللاهوت والناسوت ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ متكثرة من أصل واحد هو آدم ﴿وَقَبَائِلَ﴾ مختلفة متجزئة من تلك الشعوب.

الشعب: هي الجمع المتكثر المنشعب عن أصل واحد.

والقبيلة: هي الفرق المختلفة الحاصلة من الشعب.

والعمارة: هي الطائفة المتفرعة على القبيلة.

والبطن: الجمع المتفرع على العمارة.

والفخذ: جمع متفرع على البطن.

والفصيل: على الفخذ.

فخزيمة مثلاً شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ،

---

(1) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (5/215).

وعباس فصيل.

وإنما جعلناكم كذلك ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: يعرف بعضكم بعضًا، وأدى تعارفكم إلى التلاحق في المنشأ لا للتفاخر والتغالب؛ إذ لا تفاخر بينكم إلا بالكرامة والنجابة المترتبة على حقية اللاهوت[1]، وبالجملة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ عن لوازم الناسوت وشواغل الهيولي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] بما في ظواهرهم وبواطنهم، يوفقهم على مقتضى علمه وخبرته.

ومن عدم امتثالهم وانقيادهم بأمر التعارف والتلاحق الموصى إليهم من قِبل الحق ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ التي هي المثل في اللدد والعناد على سبيل التغالب والتفاخر حين قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين لا عن عزيمة خالصةٍ وقصدٍ صادقٍ، بل على سبيل الخداع والنفاق، ولهذا كانوا يقولون لرسول الله ﷺ على سبيل الامتنان: أتيناك بالأحمال والأثقال، ولم نقاتل معك كما قاتل بنو فلان ﴿آمَنَّا﴾ بك بلا سبق خصومةٍ منا معك، وبالجملة: يمنون عليك يا أكمل الرسل بإيمانهم الواهي وصدقاتهم الغير وافية ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أظهروا ما أضمروا في ضمائرهم من المنة والغلول المنافي للإخلاص والإيمان ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ أيها الأعراب بمجرد قولكم آمنا؛ إذ الإيمان إنما هو من أفعال القلوب الصافية عن كدر المن والأذى مطلقًا ﴿وَلَكِن قُولُوا﴾ بدل قولكم «آمنّا»: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي: دخلنا في السلم، وصالحنا على ألا تخاصم بيننا وبينكم ولا نزاع، وكيف تقولون: آمنّا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ والإذعان ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ التي هي وعاؤه وهو من أفعالها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: حق إطاعتهما وانقيادهما مخلصين ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ ولا ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: من أجورها وجزائها إن أخلصتم فيها، وجئتم بها بلا منّ وأذى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بنيات عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب عن فرطاته ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14] يرحم عليه ويقبل توبته.

---

(1) قال في التأويلات: (لتعارفوا) أي: أصحاب القلوب وأرباب النفوس، لا ليتكاثروا ويتنافسوا ويتشابهوا بالعقول والأخلاق الروحانية الطبيعية، فإنها ظلمانية لا يصلح شيء منها للتفاخر به ما لم يقرن به الإيمان والتقوى، فإن تنورت الأفعال والأخلاق والأحوال بنور الإيمان والتقوى، ولم تكن الأفعال منسوبة بالرياء، ولا الأخلاق مصحوبة بالأهواء، ولا الأحوال منسوبة إلى الإعجاب؛ فعند ذلك تصلح للتفاخر والمباهات بها.

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ المخلصون هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأخلصوا في إيمانهم وإذعانهم؛ ليصلوا إلى مرتبة التوحيد المسقط لعوم الإضافات ﴿ثُمَّ﴾ بعدما آمنوا وأيقنوا ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ولم يشكوا قط فيما آمنوا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع أعداء الله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15] المقصورون على الصدق والإخلاص، الفائزون عند ربهم بأنواع الفوز والفلاح، المتمكنون في مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أظهروا الإيمان الجعلي بألسنتهم، ولم تواطئ عليه قلوبهم: ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ وتخبرون أيها الجاهلون ﴿اللهَ﴾ المطلع لعموم السرائر والخفايا ﴿بِدِينِكُمْ﴾ وإيمانكم هذا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿اللهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الغيوب والشهادات﴿وَ﴾ جميع ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ بالجملة: الله المحيط بالكل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: 16] لا يعزب عن علمه شيء مما لمع عليه برق الوجود.

ثم قال سبحانه تعليمًا لحبيبه ﷺ وإرشادًا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ إسلامهم، ودخولهم في السلم مع أنهم ليسوا مؤمنين مذعنين ﴿ قُل﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي: بإسلامكم هذا، ولا تعدوا أنفسكم من جملة الموقنين بمجرد ما تفوهتم بالإيمان ﴿بَلِ اللهُ﴾ العالم لعموم السرائر والخفايا ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ﴾ أي: يهديكم وأرشدكم ﴿لِلإِيمَانِ﴾ المثمر للعرفان، المستلزم للتوحيد وعلى العيان ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: 17] في إيمانكم، موافقين قلوبكم بألسنتكم، مطابقين لجامع أنكم لستم كذلك.

وبالجملة: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع في ضمائر عباده من الثقة والإخلاص ﴿يَعْلَمُ﴾ بحضرة علمه الحضوري ﴿غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المراقب بعموم أحوالكم وأطواركم ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] [الحجرات: 18] من الأعمال خيرًا

(1) قال في التأويلات: في الظاهر أنه من نتائج ما أودعته في باطنهم، فمن لاحظ شيئًا من أعماله وأحواله، فإن رآها من نفسه كان شركًا، وإن رآها لنفسه كان مكرًا، وإن رآها من ربه لربه كان توحيدًا، وفقنا الله لذلك بمنه وكرمه وجوده.

كان أو شرًا، يجازيكم بمقتضى بصارته وعلمه.

جعلنا الله من زمرة المؤمنين الموقنين المخلصين الذين ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المتمكن المتحقق في مقام التوحيد الذاتي - مكنك الله في مقر عزك وتمكينك - أن ترفع بنفسك عن مطلق الرذائل المتعلقة بالأهوية الفاسدة والأماني الكاسدة، سيما عن المنّ والأذى في الإنفاق، ورعونات السمعة والرياء في مطلق الطاعات، وإياك إياك أن تتفوق على أحد من بني نوعك وإخوانك في عموم حالاتك وأزمانك، فإنه من شيم أصحاب النخوة والكفران المورث لهم أنواع الخيبة والخسران وأصناف الخذلان والحرمان، ولك أن تلازم التواضع والانكسار مع عموم المظاهر والمجالي، والاعتزال عن مطلق أصحاب الجاه والاعتبار، والقناعة مع الكفاف والعزلة.

جعلنا الله ممن تنبه على منهج الصدق والصواب، واجتنب عما ينافيه بتوفيق الحق وتيسيره.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة ق

لا يخفى على من تنور قلبه بأنوار الوحدة الذاتية، المتشعشعة عن مشكاتي النبوة والولاية، المترتبتين على صورة الإنسان المصور بصور الرحمن أن أكمل المظاهر وأولاها لقبول التجليات الإلهية، وأليقها لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه، وأحراها للتخلق بأخلاق الحق هو الإنسان الكامل، القابل لانعكاس أشعة شمس الذات الأحدية المستهلكة دونها عموم الكثرات والإضافات.

فظهر ألا مظهر أجمع من الإنسان وأكمل منه، وأشرف هذا النوع وأكمله، وأتمه علمًا وعينًا وكشفًا وشهودًا، هو نبينا - صلوات الله عليه وسلامه - فمن تعجب عن رسالته وخلافته عتوًا، وأنكر إرشاده لبني نوعه عنادًا، وإنزال الوحي استكبارًا، فقد ضل وغوى، ولم يهتدِ إلى ما هو الرشد والهدى، لذلك أنزل سبحانه على حبيبه ما أنزل، وأقسم ما أقسم تأكيدًا ومبالغة؛ لإثبات هدايته وإرشاده ﷺ وكمال لياقته لخلافة الحق ونيابته.

فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المرسل للرسل، المنزل للكتب؛ لتبيين طريق توحيده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بعموم عباده، يدعوهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى أعلى المقام بأنواع الإنعام والإكرام.

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا

لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: 1-15].

﴿ق﴾[1] أيها الإنسان الكامل، القابل لخلعة الخلافة والنيابة الإلهية والقيم، القائم

---

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمك الله - أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفرًا كان عشرة، وإن زدت عليه صفرًا كان ألفًا فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف:46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنانيين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهًا على برزخيته بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الأخرية وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخًا من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأي شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟! ولذلك قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، فلما قرن الله تعالى قوله: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ

فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحيطة بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عندكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشُخص معين يسمى محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالرجع البعيد عندكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخر الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماءه، ولا يحفظها من أن تكون عدمًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي ﷺ: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ أن تجري العادة كما تـ... أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانيًا: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجع بعيد؛ لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سري فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يحْيِي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل ﷺ فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحيهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿قٓ﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على

لتبليغ الوحي والإلهام المنزل عليك من عنده سبحانه على عموم الأنام، القائد لهم إلى

القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿بِأَيَّىٰمِ وَذَكِّرْهُم ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ؛ لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجع البعيد الذي عجبوا منه فإنه في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17،18]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بِوَادِي نُعْمَان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكنز المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن.

توحيد الملك العلّام القدوس السلام، ذي القدرة والقوة الكاملة الشاملة على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَ﴾ حق ﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[1] [ق: 1] العظيم المنزل من المجيد العظيم أنك يا أكمل الرسل لمرسل إلى كافة الخلق من الحق على الحق بالحق؛ لتبيين طريق الحق وتوحيده، وبعدما لم يجد المنكرون فيك يا أكمل الرسل شيئًا شيئًا يدعوهم ويبعثهم إلى إنكارك وتكذيبك صريحًا، اضطروا إلى العناد والمكابرة.

﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ واستبعدوا أولئك الحمقى الجاهلون ﴿أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بعث إليهم رسول من جنسهم وبني نوعهم، ينذرهم عن أهوال يوم القيامة وأفزاعها مع أنهم منكرون للحشر وإرسال البشر جميعًا ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ المستكبرون بعدما سمعوا منك الدعوة والإنذار من شدة إنكارهم واستبعادهم: ﴿هَذَا﴾ أي: إرسال البشر إلى البشر، والإنذار من الحشر المحال كلاهما ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: 2] وأمر بديع، ما

---

(1) الذي هو مخبرٌ عن جميع الذات والصفات، المشتمل على حكميات الأفعال، المقدس عن تغاير الأزمنة والدهور، الذي كشف بيان ما يقع لأرواح العارفين وأسرار الواصلين، وقلوب المحبين، وعقول الصديقين، وصدور المقربين، ظاهره ظاهر البيان من حيث العبودية، وباطنه باطن العيان من حيث الربوبية، وحرف القاف كنايةٌ عن كل اسمٍ فيه القاف، مثل القديم والقادر والباقي والقيوم والقوي والقاهر والمقتدر والقريب أي: بقربي عن قلوب العارفين، وقرب أرواحهم وأسرارهم من مشاهدة بقائي وقدمي، وبقصد كل ذي قصد بنعت الإرادة والشوق إلى مشاهدتي، وأيضًا أي: بقيامي على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وبقيامهم بقيوميتي إلى الأبد، وأيضًا أي: بالقلم القادر الذي رقَّم القرآن على أوراق لوح الملكوت، وأيضًا أي: بحرقة قلوب العاشقين والشائقين والمشتاقين إلى جمالي، والقرآن الذي يشوقهم إلى قربي، وأيضًا أي: بقسمي الاصطفائية لأنبيائي وأوليائي والمقربين في سوابق علوم قِدمي، أنا أقرب إلى قلوب الفرّارين مني من عروق قلوبهم، أكشف بكشف جمالي قساوة قلوبهم، وأقرّبهم مني حتى يشتاقوا إليّ، وأيضًا بقربك مني يا محمد يا قرة عيون الأنبياء والأولياء والمرسلين والعارفين والصديقين وما أنزلت إليك من القرآن المجيد قف عند قوام كبريائي، ولا تغص في قاموس «قلزم» قِدمي؛ حتى لا تستغرق في قعر بحر بقائي، فينقطع منك قوافل الحدثان، ويبقوا عن محل القربان، بل قف في مقابلة قمر جمالي؛ لتشرب قهوات ودادي وعشقي في مشاهدة برقان جلالي، وتبقى ببقائي، وتلقى عجائب قرآني المجيد على قلوب القائمين في مقام الاستقامة، يا فَهِم إنما يتعلق بحرف القاف ما يكون فيه القاف من جميع كلمات الله، وما كان وما يكون في أفعاله، فهذا القاف القاسم عليه رمز جميعًا، فإذا قال سبحانه: ﴿قٓ﴾: أعلم بذلك حبيبه ﷺ جميع معانيها من خبر الذات والصفات والأفعال، وهو عرف بالله ما قال الله فيه بأقل لمحة، فإنها تنبئ عن جميعها، وهذا رمز بين المحب والحبيب. [العرائس].

سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

ثم فصّلوا ما أجملوا على سبيل التعجب والإنكار، فقالوا مستفهمين، مستفيدين فيما بينهم، مستعيذين: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ أي: أنرجع ونعود أحياء كما كنا إذا متنا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وهباء منبثًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ العود والرجوع ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3] عن الوقوع وقبول العقول.

ثم قال سبحانه ردعًا لهم وردًا عليهم: وكيف تستبعدون وتنكرون عنا قدرتنا على بعث الموتى وإعادتهم أحياء كما كانوا ؟! مع أنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ على التفصيل والتحقيق ﴿مَا تَنقُصُ﴾ تأكل وتضمحل ﴿الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: من أجزائهم وأوصالهم، وكيف لا نعلم ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: 4] حاصر لتفاصيل الأشياء، حافظ لها، ألا وهو حضرة علمنا الحضوري ولوح قضائنا.

﴿بَلْ﴾ هو من غاية عمههم وسكرتهم، وكمال غيهم وغفلتهم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع، المؤيد بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وهو نبوة محمد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وحين بعث إليهم على الحق؛ لتبيين الحق وتمييزه عن الباطل؛ لذلك أنكروا البعث الذي جاء ﷺ لتبيينه وللإنذار بما فيه من أنواع العقاب والعقوبات، وبالجملة: ﴿فَهُمْ﴾ بمقتضى أحلامهم السخيفة مغمورون ﴿فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: 5] مضطرب، مخلوط، يلتبس عليهم حقيته ﷺ وحقيّة ما جاء به من عند ربه؛ لذلك يضطربون في شأنه ويقولون تارة: إنه شاعر، وتارة: إنه ساحر وكاهن، وتارة: إنه مجنون مخبط، مختل العقل، يتكلم بكلام المجانين، إلى غير ذلك من المفتريات الباطلة.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾ ولم يتفكروا حين أنكروا الحشر والبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ المطبقة المعلقة ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها بلا أعمدة وأساطين ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب المتفاوتة في الإضاءة والتنوير ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: 6] نتوء وفتوق، بل خلقناها ملساء متوازية السطوح متلاصقة الطباق.

﴿وَ﴾ لم ينظروا أيضًا ﴿الْأَرْضَ﴾ ولم يدبروا فيها كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي: مهدناها وبسطناها بكمال قدرتنا وحكمتنا ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾ وعليها ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت شامخات ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ [ق: 7] حسن كريم، تبهج بها عيون الناظرين وتسر قلوبهم.

وإنما خلقنا ما خلقنا من العجائب والغرائب؛ ليكون ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ أي: عظة

وعبرة دالة على كمال قدرتنا ومتانة حكمتنا وحكمنا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[1] [ق: 8] راجع إلينا، متوجهٍ نحونا بكمال التبتل والتفويض؛ ليتبصروا ويتذكروا بها كمال اقتدارنا واختيارنا في خلق عموم المرادات والمقدورات، ومن جملتها حشر الأموات، وبعثهم من قبورهم أحياء.

﴿وَ﴾ كيف يسع لأولئك الحمقى إنكار قدرتنا على الإعادة مع أنا ﴿نَزَّلْنَا مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والبركة ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ بعد تنزيله على الأرض اليابسة الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق ذات بهجةٍ وبهاءٍ ونزاهةٍ وصفاءٍ ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿حَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: 9] من البر والشعير وسائر الحبوب المحصودة للتقوت والتعيش.

﴿وَ﴾ أنبتنا به خصوصًا ﴿النَّخْلَ﴾ وجعلناها ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالٍ متحملاتٍ ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ ثمر ذو عنقود ﴿نَّضِيدٌ﴾ [ق: 10] منضود منضدٍ بعضه فوق بعض من كمال كثرته.

وإنما أنبتنا ما أنبتنا؛ ليكون ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ يرتزقون بها ويشكرون منعمها ومبدعها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء المنزل من السماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يابسة جدبة، لا كلأ فيها ولا نماء ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: 11] أي: خروجهم من قبورهم أحياء بقدرتنا مثل ذلك، فمن أين ينكرون ويستبعدون أولئك الحمقى الجاهلون بقدرة العليم الحكيم؟!

وليس هذا التكذيب والإنكار ببدع من هؤلاء المكذبين المنكرين يا أكمل الرسل، بل قد ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ مثل تكذيبهم وإنكارهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحًا عليه السلام

---

(1) راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن مَن قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم في الظاهر كل مُمَزقٍ، يُجدد الإيمان والإحسان في بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جِنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالنشأة الآخرة وهي حياة الروح بمعرفة الله في عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ما داموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث، والله تعالى أعلم. البحر المديد (126/5).

حين بعث إليهم وأنذرهم، ونهاهم عما هم عليه من الكفر والجحود والخروج عن مقتضى الحدود ﴿وَ﴾ كذا ﴿كذب أَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ وهو بئر كانوا يسكنون حوله أخاك حنظلة بن صفوان ﴿وَ﴾ كذب ﴿ثَمُودُ﴾ [ق: 12] أخاك صالحًا عليه السلام، فعقروا الناقة المقترحة.

﴿وَعَادٌ ﴾أخاك هودًا ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ وملؤه أخاك موسى الكليم ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق: 13] سماهم إخوانه؛ لأنهم أصهاره، أخاك لوطًا.

﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ أخاك شعيبًا ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميري، واسمه أسعد أبو كريب، كذبوا علماءهم وأئمتهم المصلحين لمفاسدهم، وبالجملة: ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ المبعوثين إليهم لإهدائهم وإرشادهم أمثال هؤلاء المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿فَحَقَّ﴾ أي: حل ولحق عليهم ﴿وَعِيدِ﴾ [ق: 14] الموعود لهم بتكذيبهم وإصرارهم، فهلكوا واستؤصلوا، فكذا هؤلاء المكذبون المسرفون سيهلكون ويستأصلون عن قريب، فاصبر يا أكمل الرسل على أذاهم ولا تستعجل لهم فسيرون ما يوعدون.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنكار والاستبعاد على المنكرين المستبعدين بالحشر والبعث: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي: ينكرون قدرتنا على الإعادة، وتظنون أن صرنا عاجزين ﴿بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أي: الإبداء الإبداعي عن الخلق الثاني الإعادي، ويزعمون أن قدرتنا تفتر وتضعف عند الخلق الأول، بل ينتهي دونه، ولم يعلموا أن قدرتنا لا تتصف بالانتهاء والفتور، ولا بالانقضاء والقصور، ليفهموا أن تعلق قدرتنا لكل مقدور من المقدورات في كل آن من الآناء على شأنٍ من الشئون الكمالية، بحيث لم يمض مثله، ولا يتأتى شبهه ﴿بَلْ﴾ يتفطن بمقتضى الفطرة الأصلية أن ﴿هُمْ﴾ في أنفسهم دائما ﴿فِي لَبْسٍ﴾ وخلع ﴿مِنْ﴾ توارد ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15] منا، وإيجادٍ متجدد من قبلنا في كل آن وزمان حسب قدرتنا واختيارنا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ
﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن
كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ
أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ
غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ
﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق: 16-35].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ وأظهرناه من كتم العدم ﴿وَ﴾ نحن ﴿نَعْلَمُ﴾ منه حينئذ ﴿مَا تُوَسْوِسُ﴾ وتحدث ﴿بِهِ نَفْسُهُ﴾ وتخطر بباله الآن من أمثال هذه الأوهام والخيالات الباطلة، المترتبة على حصة ناسوته، المقيدة بسلاسل الرسوم وأغلال العادات الموروثة له من العقل الفضول، الممتزج بالوهم الجهول ﴿وَ﴾ كيف لا نعلم منه هواجس نفسه؛ إذ ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] أي: وريده، وهو مثل في القرب المفرط، كما قال: الموت أدنى لي من الوريد، وإضافة الحبل إليه للبيان، وبالجملة: نحن أقرب إليه منه.

الوريدان: هما العرقان المنبثان من مقدم الرأس، المتنازلان من طرفي العنق، المتلاصقان عند القفا، المنتهيان إلى آخر البدن، وهما قوام البدن ومداره عليهما؛ إذ هما أقوى عالم هيكل الإنسان.

وبالجملة: نحن حسب روحنا المنفوخ فيه من عالم اللاهوت أقرب إليه من ناسوته، لا على توهم المسافة، ولا على طريق التركب والاتحاد والحلول والامتزاج، بل على وجه الظلية والانعكاس، ومع غاية قرب الحق إليه وكمال إحاطته إياه، وكَّل عليه الحفظة من الملائكة؛ ليراقبوا أحواله إلزامًا للحجة عليه لدى الحاجة يوم القيامة.

اذكر يا أكمل الرمل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ويتحفظ ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الموكلان عليه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: 17] أي: قاعد كل من الموكلين عن يمنه وشماله، مترقبين على أحواله وأعماله وأقواله، بحيث

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ ويتلفظ ﴿مِن قَوْلٍ﴾ يرميه من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حفيظ عليه ﴿عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] مهيأ، معد، حاضر عنده، غير مغيب على وجه لا يفوت عنه شيئًا من

ملتقطاته.

﴿وَ﴾ هما يحفظانه ويرقبان عليه وقت؛ إذ ﴿جَاءَتْ﴾ وحضرت ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ شدته وغمراته ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحقيقة وظهرت علاماته، وانكشفت عليه أهواله وأمارته، قيل له حينئذ من قبل الحق: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الموت الذي ينزل عليك الآن ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19] أي: الموت الذي أنت تميل، وتفر عنه فيما مضى.

﴿وَ﴾ بعدما ذاق مرارة العذاب وقت سكرات الموت ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث والحشر، فإذا هو حينئذٍ قائم، هائم ينظر، قيل له من قبل الحق على سبيل التهويل: ألست تنظر وتتحير يا مسكين؟! ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي أنت فيه الآن ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: 20] الموعود لك في دار الدنيا، وأنت حينئذ لم تؤمن به ولم تخف من أهواله حتى وقعت فيه، وذقت من عذابه.

﴿وَ﴾ بعدما بعث الأموات من أجداثهم للحشر والجزاء ﴿جَاءَتْ﴾ وحضرت ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الطيبة والخبيثة ﴿مَّعَهَا سَائِقٌ﴾ موكل، يسوقها إلى المحشر للعرض والجزاء ﴿وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21] من حفظة أعمالها وأحوالها، يشهد لها وعليها.

وبعدما حضر كل منهم بين يدي الله، قيل لكل منهم من قبل الحق على سبيل الخطاب والعتاب: ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أيها المغرور ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم، وانكسار عظيم من وقوعه؛ لذلك كذبت بالرسل والكتب، واستهزأت بالهداة الثقات، واستكبرت عليهم ﴿فَكَشَفْنَا﴾ اليوم ﴿عَنكَ غِطَاءَكَ﴾[1] الذي هو سبب غفلتك وإنكارك، وتعاميك

---

(1) قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ﴾ أي: عن ذاتك، وهو الصورة، وبكشف هذا الغطاء تدرك حقيقة الغطاء، وإنه عين الذات؛ إذ لا غطاء للذات إلا عين الذات، جلَّت الذات أن يسترها شيء غيرها، فسبحان الذي ما أبطنه إلا ظهوره، وما ظهر إلا الصورة، فالصورة عين الباطن المستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الإسراء:45] أي: الصورة المحمدية التي هي عين غيب الحقيقة ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:45].

فالحجاب المستور عين الصورة المحمدية؛ إذ هي حقيقة الحق ولا يعرفونه، فليس هذا الحجاب ساترًا بل هو مستور عنهم، فالحجاب عين المحجوب، فهو مستور مع أنه مكشوف، فما حجبه إلا كشفه فعلمنا أن الغطاء ليس إلا الجهل، لا أنه من قبيل القشر على اللب أو من قبيل الساتر على المستور، بل أن المستور بنفسه هو الساتر، فهنا الكشف كشف معنوي لا حسي، وإنما هو كشف الجهل بالعلم، والجهل ظلمة معنوية، والعلم نور معنوي أيضًا، فمن

كشف له غطاء ذاته فأبصر ذاته وأدركها أدرك أنها جميع ما يراه في آخرته، فكان بصره حديدًا، أي: قويًا؛ لأن بصره حينئذ هو الله تعالى، فالبصر عين المبصر، كما في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وإذا كان الحق بصره فهو القوي؛ إذ لا أقوى منه جلّ وعلا.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون بأن محمدًا ﷺ هو الاسم الآخر لله من جهة صورته، كما أنه الاسم الأول لله من جهة حقيقته ومعناه، فجعل الله بينه وبينهم حجابًا مستورًا، والحجاب المستور هو الرسول محمد ﷺ بعينه، فهو مكشوف لهم مع أنه مستور عنهم بلا ستر، فهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي صورته الكريمة مع أنها هي الحق الناطق بالقرآن، وأن الكلام الظاهر من تلك الصورة هو كلام الله بعينه، وقد أعلمهم الله بحقيقة الأمر لو علموا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]، وقد أخبرهم الله أن الكلام الظاهر منه هو كلام الله بعينه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ﴾ [التوبة:6] أي: حتى يسمع كلام الله من صورة الله، فيعلمون أن الله هو الظاهر المتكلم بكلام نفسه في صورة تسمى محمدًا ﷺ وهي آخرة الله تعالى؛ لأنها مجلى اسمه (الآخر) المنطوي فيه الأول، فالحجاب المستور الذي جعله الله بينه وبينهم حين يقرأ عليهم القرآن هو محمد ﷺ بعينه، فهو حجاب الله وليس حجاب الله إلا هو؛ لأنه الأول الآخر الظاهر الباطن، فقدّم الظاهر على الباطن ليكون هذا الظاهر هو الموصوف بالبطون، فإذن لا بطون، فالحجاب المستور عين المحجوب وعين الساتر، فلا حجاب ولا محجوب ولا ساتر ولا مستور، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام:25]، الضمير في قوله: ﴿يفقهوه﴾ راجع للحجاب المستور، فلو فقهوه لعلموا أن الداعي – وهو الحق تعالى – ما دعاهم إليه إلا بنفسه بلا واسطة، فإذن لا رسالة بل الأمر أصالة، فما كان رسوله إليهم إلا عينه لا سواه، فمن لم يؤمن بآية المبايعة صراحة على ظاهرها بدون تأويل وحيادة عن اللفظ الظاهر فليس عندنا من الذين لا يؤمنون بالآخرة ولو سميناه مسلمًا؛ إذ ليس كل مسلم بمؤمن حق الإيمان، ولذا قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]. فالإيمان متعلقه القلب، والإسلام متعلقه اللسان، وكذلك نقول: طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها بلا واسطة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾) [النساء:80]، ولا يقال: يلزم من ذلك التشبيه والتجسيم؛ لأننا نقول: ليس عندنا مشبه ومشبه به، ولا حجاب جسمي، فإن الحجاب الجسمي إنما هو من الوهم فقط بسبب تقيد البصر بالأوهام.

ألا ترى أن بصر أهل الله لا تحجبه الجدران، ولا بعد البلدان، بل الكون كله مكشوف لهم كأنه ذرّة في كفهم، حتى قال بعضهم: لو دبّت نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء ولم أعلم بها لقلت إني مخدوع، ومن تحقق بحقيقة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

عن الآيات والنذر، وهو ألفك بالمحسوسات العادية وإنكارك على الأمور الغيبية الخارجة عن حيازة حواسك وقواك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] [ق: 22] أي: صار

[النور:35].

فقد انفك عن قيد الجسمانية، وتحقق بالحقائق الروحانية، ثم يترقى إلى المعاني القدسية بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، فيكون الكثيف عنده عين اللطيف، بل يرى الوجود كله عينًا واحدة، فيتحقق أن الأمر الواحد يظهر بعدة صور، كالقبر مثلاً فإنه عند البعض حفرة تراب، وعند الشقي حفرة نار، وعند السعيد روضة من رياض الجنة، وقد صح في الحديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وفي رواية: «ما بين قبري ومنبري» وقد صح أيضًا: «منبري على حوضي»(1) مع أنه عندنا على الأرض، وبالجملة فمن كُشف غطاؤه خرق له حجاب الزمان، وبعث ودخل الجنان، ومن لم يكشف غطاؤه فهو محبوس في قفص التراب، مشغول بمشاهدة العذاب.

أقول: من كشف عنه الغطاء علم يقينًا أن الذات المحمدية - عليها صلوات الله وسلامه - أحق وأولى باسم الله الجامع من اسم محمد أو أحمد أو محمود؛ لأن التسمية لها بالاسم الله تسمية إلهية قرآنية لم يشبها ولم يخالطها كون من الأكوان، فهي منزلة في القرآن من الكريم المنان، وذلك محقق عند أهل الإيمان.

(1) قال سيدي محمد البيطار: - رحمك الله - أن قاف حرف برزخي؛ لأن عدده مائة، وهي برزخ بين العشرة والألف؛ لأنك إن نقصت من عدد القاف صفرًا كان عشرة، وإن زدت عليه صفرًا كان ألفًا فله منزلة الأعراف، وهي منزلة وسطى ما بين الجمال والجلال، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف:46] أي: يعرفون أهل الجمال الجنانيين بسيماهم، ويعرفون أهل الجلال النيرانيين بسيماهم، ومنزلة الأعراف هي منزلة العماء، الذي كان فيه ربنا قبل أن يخلق الخلق، وهو برزخ؛ لأنه ما فوقه هواء وما تحته هواء، أي: لا ظاهر ولا مظهر، ألا ترى أنه إذا انتفى الخلق انتفى اسم (الرب)، وإذا انتفى اسم (الفوق) انتفى اسم (التحت) وبعكس ذلك، وإذا انتفى الظاهر فلا مظهر، وإذا انتفى المظهر فلا ظاهر، فلا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، إذ لا رب بدون مربوب، ولا مربوب بدون رب، فعلى هذا لا عماء ولا فوق ولا تحت، ولا هواء، فالسؤال أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ أمر حكمي اعتباري، والجواب عنه بالعماء أمر اعتباري حكمي، وكل من السؤال والجواب لا حقيقة له، إلا في الحكم والاعتبار لا في الواقع؛ لأن أمر الحق مربوط بالخلق، وأمر الخلق مربوط بالحق، وكل منهما لا يتصور إلا بالآخر فلا حق إلا بخلق، ولا خلق إلا بحق، كالحقيقة والصورة، فلولا الصورة لم تعلم الحقيقة، ولولا الحقيقة لم تعلم الصورة، ولذلك كان العماء عند الأكابر من أهل الحقائق عبارة عن الأمر الجامع للطرفين وذلك هو البرزخ، ولذلك ظهر برزخ القاف بلفظ القرآن، تنبيهًا على برزخيته

بين الغيب والشهادة، فظهر من حقيقة الأولية، وهي حقيقة محمد ﷺ، ومن حقيقة الآخرية وهي خلقية محمد ﷺ، وكذلك ظهر برزخًا من حقيقة باطنة، ومن صورة ظاهرة، فظهر في قومه ﷺ العجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، فكان محمد ﷺ عين القرآن المجيد؛ لأن أصله مجد الحق، وشرفه المعبر عنه بروح القدس، وهو من جهة صورته بشر مثلهم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق:2]، ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهم المحجوبون عن ظهور الحق فيه، ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: هو صورة بشرية من حقيقة الإنسانية المشتركة بيننا، فأي شيء يوصله إلى مرتبة الغيب حتى يخبر عنها كحال المعاد بعدما آل الجسم البشري إلى التراب؟! ولذلك قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، فلمّا قرن الله تعالى قوله: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:2]، علمنا أن الله تعالى نبّه على ما هو أعجب، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، إشارة للحقيقة المحمدية الجامعة للأسماء الحسنى التسعة والتسعين وللذات المحيطة بكل موجود، وهي مدلول الأسماء التسعة والتسعين إذ عددها مائة، فكما أن قاف جبل محيط بالدنيا، كذلك حقيقة محمد ﷺ مُحيطة بأهل هذا العَجَب، وبكل موجود في الوجود، فكأنه تعالى يقول: عجبتم من كونه صورة بشرية منكم؛ أي: من أفراد الصور البشرية، ويكون منه الإنذار إليكم، حيث يخبر أنكم بعد استحالة أجسامهم إلى التراب، تبعثون وتعادون، وذلك رجع بعيد عندكم فثم ما هو أعجب، وهو أن هذا الذي ترونه بشرًا مثلكم هو حقيقة أحدية الوجود؛ لأنه وإن كان مقيدًا بشخص معين يسمى محمدًا، فهو نور مطلق الحقيقة، جامع لكل شيء في الوجود، لما أنه حقيقته التي هو متحقق بها تجمع الأسماء الإلهية، وذاته المطلقة العظمى هي مدلول تلك الأسماء، فليس العجب من شخص منكم ينذركم بالرجع البعيد عندكم، بل العجب من صورة مقيدة ظاهرًا، مطلقة باطنًا، تجمع الأول والآخر، والظاهر والباطن، ولذلك أخر الله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وإن أبصرتموه صورة، فما أبصرتموه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]؛ لأنه كتاب الله الحفيظ الذي يحفظ كل شيء بذاته، وليس كتاب الله إلا أسماءه، ولا يحفظها من أن تكون عدمًا إلا الحقيقة المحمدية، بظاهرها ومعناها، إذ المعاني لا تتصور أن تقوم بذات تظهر بها فالمعاني في حقيقة الأمر تتولد من الجسوم، فالجسم هو الكتاب الحفيظ للمعاني الإلهية، فلذلك قال علي ﷺ: «أنا كتاب الله الناطق» وإنما استبعدوا رجع التراب إلى الجسوم الإنسانية البشرية؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن تجري العادة كما كانت، أولاً: بأن يخلق الله آدم، ثانيًا: من تراب ويخلق منه زوجة له تسمى (حواء) ويتناكحان، ويتوالدان، ويدور الدور الإنساني إليهم، فإذا دبت الحياة بالتراب وصار إنسانًا، وصل الدور

إليهم بسبب التناكح والتناسل، فهذا الرجع بعيد، لأنه ذو وسائط كثيرة، فوقفوا عند العادة التي تقدمت أولاً، ولم ينظروا لقوله ﷺ: «كل ابن آدم يُبلى إلا عجب الذنب» فقال العلماء في عجب الذنب: هو عظم صغير في العصعص يركب عليه الخلق الإنساني بعد النفخة الثانية، التي هي نفخة البقاء.

ومن العجب الخفي أن الأمر البرزخي سري فيهم، فما أقروا بالرجع ولا أنكروه، بل استبعدوه فهم في استبعادهم في حال برزخي، بين الإقرار والإنكار، وعجب الذنب عند أهل الحقائق: هو النفس الرحماني الذي به يحْيِي الله ويميت، وهو معدن الحياة والموت البرزخي، ومظهر هذه البرزخة إسرافيل عليه السلام: فهو من كونه برزخ الموت والحياة، يميت الخلق بنفخة، ويحيهم بنفخة، فبدأ الخلق كان على الترتيب، وهو ما تقتضيه الحكمة، والإعادة على حسب ما تقتضيه القدرة، ولذلك بدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿قٓ﴾ وهذا الحرف هو تاج الاسم (القدير) الدال على القدرة الإلهية، والإعادة حسبما تقتضيه القدرة، قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:61]، فنبه أنه يعيدنا على غير مثال سبق، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62].

والنشأة التي لا نعلمها نشأة أهل الجنة ونشأة أهل النار، وهذه النشأة ليست هي الدور الترابي الذي يقول فيه الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ لأن الدور الترابي نزول لأسفل سافلين، وأهل الجنة والنار لا في العروج ولا في النزول، فمن العروج إلى العروج دور، ومن النزول إلى النزول دور على حسب أيام الله، التي قال تعالى في حقها: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:5]، فمن الأيام ما هو للاسم الأول فقط، ومنها ما هو للاسم الآخر فقط، ومنها ما هو للاسم الظاهر فقط، ومنها ما هو للاسم الباطن فقط، ومنها يوم الرب وهو ألف سنة، ومنها يوم ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح فيه إلى الله، ومقداره خمسون ألف سنة، وأما يوم الاسم الجامع وهو الله، فهو الكتاب الحفيظ الذي يحفظ مرتبة كل شيء عليه، ويعيده كما بدأ، وإليه ترجع الأدوار كلها، وهو الحقيقة المحمدية، ولهذه النكتة أزال الله العجب الذي زعموا أن حصوله بعيد، فقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق:4] أي: علمنا أن الأرض تفني صورهم الإنسانية بأعضائها الصورية كأيديهم وأرجلهم، وقواها الروحانية كأسمائهم وأبصارهم، وعندنا كتاب الوجود المطلق، وهو الحقيقة المحمدية التي هي عين الحياة ومجمع البحرين، فمن شرب منها أعادت ما تنقص الأرض منه؛ لأنها مدلول الاسم الحفيظ الذي يحفظ المراتب كلها، فلا يزول من كل شيء ما نقص منه بالنسبة للكتاب الحفيظ؛ لأن كل شأن وجسم، وروح، وصورة، ومعنى مندرج في الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، وكل دور من هذه الأربعة محفوظ في الكتاب الحفيظ حتى الرجع البعيد الذي عجبوا منه فإنه

بصرك بعد انكشافك بهذا اليوم حادًا حديدًا نافذًا، إلا أنه لا ينفعك حينئذ حدة بصرك وانكشافك بعد انقراض نشأة الاختبار والاعتبار.

﴿وَقَالَ﴾ له حينئذ ﴿قَرِينُهُ﴾ من الحفظة المراقب عليه في النشأة الأولى: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: 23] أي: هذا الذي سمعت الآن من الخطاب والعتاب، هو الذي حفظته لك عندي، وكتبته في صحيفة عملك قبل وقوعك فيه.

وبعدما جرى بين كل من العصاة وبين قرينهم ما جرى، أمر من قِبل الحق للسائق والشهيد أمرًا وجوبيًا حتمًا: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ واطرحا فيها ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مبالغ في الكفر والإنكار ﴿عَنِيدٍ﴾ [ق: 24] مبالغ متناه في العناد والاستكبار.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ متبالغ في المنع عن الإنفاق المأمور ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحق، مائل نحو الباطل ﴿مُّرِيبٍ ﴾ [ق: 25] موقع لعباد الله في الشك والشبهة في دينه القويم والصراط المستقيم الذي أنزله على رسوله المتصف بالخلق العظيم، وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وأثبت﴿مَعَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشرك مطلقًا ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ واعتقده موجدًا مثله، شريكًا في أفعاله وآثاره، وبالجملة: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: 26] بدل ما تجاوز عن التوحيد الإلهي، وأصر على التشريك والتعديد.

وبعدما أراد الموكلان أن يبطشا به ويجراه نحو النار، أخذ يصرخ وينسب شركه وضلاله إلى الشيطان المضل المغوي، وهو حاضر عنده، وبعدما سمع الشيطان منه ما سمع ﴿قَالَ﴾ له حينئذٍ ﴿قَرِينُهُ﴾ أي: الشيطان، متضرعًا إلى الله، مناجيًا معه: ﴿رَبَّنَا مَا

في خزائن هذا الكتاب الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]، فإذا جاء قدره الدوري نزل، فإن اعتبرت دور الأولية الإنسانية من ماء مهين نزل بقدر معلوم أو من آدم، فكذلك أو من تراب كما اعتبره الذين عجبوا نزل بقدر وإن استبعدوه، وإن اعتبرته بالنبات نزل بقدر قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا • ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:17،18]. فانظر إلى هذا الدور القرآني في إنباتنا من الأرض وإعادتنا فيها، ثم إخراجنا منها، وقد ورد: «إن آدم كان شجرة بَوَادِي نُعْمَان»، وكذا محمد ﷺ كان كوكبًا دريًا يوقد من شجرة مباركة الأدهان، وأول الأدوار الكنز المخفي، وهو ما قبل العرفان، وجميع أدوار الوجود في ضمن القرآن. [كشف الواردات الإلهية].

أَطْغَيْتُهُ﴾ وأضللته ﴿وَلَكِن كَانَ﴾ في نفسه ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: 27] بمراحل عن الهداية بمقتضى أهويته وأمانيه الفاسدة.

وبعدما اختصم الكافر وقرينه عند الله ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ ولا تتنازعوا عندي؛ إذ لا نفع لكم الآن في الخصومة والنزاع ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ في كتبي وعلى ألسنة رسلي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: 28] الهائل، والعذاب الشديد على أهل الشرك والطغيان والكفر والكفران، فالحكم على ما جرى بلا تبديل وتغيير.

إذ ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ﴾ والحكم ﴿لَدَيَّ﴾ بل المقدر في علمي كائن على ما ثبت وكان على مقتضى العدالة والقسط الحقيقي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29] أي: ليس من شأني الظلم والتعدي على عبيدي، بل هم يظلمون أنفسهم، فيستحقون العقوبة على قدر عصيانهم.

اذكر يا أكمل الرسل للعصاة والكفرة المشركين، المصرين على العناد والإنكار ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ المعدة لجزائهم، سؤال تخييل وتصوير حين طرحت عليها أفواج الكفرة والعصاة: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ﴾ جهنم من شدة تلهبها وتسعرها بإنطاق الله إياها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30] من المطروحين حتى يطرح ما بقي من أهلها إلى أن تمتلئ إنجازًا لما وعد لها الحق، نقول لجهنم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119].

﴿وَ﴾ اذكر أيضًا للمؤمنين المطيعين يوم ﴿أُزْلِفَتِ﴾ وقربت ﴿الْجَنَّةُ﴾ الموعودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31] بل بحيث يرون منازلهم فيها قبل دخولهم من غاية قربها، ويتمنون الوصول إليها.

فيقال لهم حينئذ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع، تواب إلى الله عن عموم زلاته ومطلق فرطاته في نشأة الاختبار ﴿حَفِيظٍ﴾ [ق: 32] لتوبته على وجه الندم والإخلاص، بلا توهم عودٍ ورجوع عليها أصلاً.

وبالجملة: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ واجتنب عن محارمه ومنهياته، خائفًا من سخطه، راجيًا من سعة رحمته في نشأة الاعتبار والاختيار قبل انكشاف السرائر والأستار وحلول النشأة الأخرى، ورضي بالتكاليف الإلهية، ووطن نفسه بامتثال عموم الأوامر والنواهي ومطلق الأحكام الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٍ﴾ [ق: 33] إلى الله، مخلصًا في إطاعة الله وإطاعة رسوله.

قيل لهم حينئذ من قبل الحق على وجه التبشير: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة المعدة لأرباب التقوى ﴿بِسَلامٍ﴾ حال كونكم سالمين آمنين من العذاب ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49] ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي أنتم فيه الآن ﴿يَوْمُ الخُلُودِ﴾ [ق: 34] في الجنة الموعودة لأرباب العناية والشهود.

جعلنا الله من زمرتهم بمنّه وجوده.

وبالجملة: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ من اللذات الحسية والعقلية المحاطة بمداركهم وآلاتهم، بل ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 35] على ما يسألون حسب استعداداتهم، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ
(٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ
خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ
الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ
الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ
فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق: 36-45].

ثم قال سبحانه تهديدًا على من أعرض عن دينه ونبيه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أهله، مع أنه ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قوة وقدرة، وأكثر أموالاً وأولادًا، كعاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿فَنَقَّبُوا﴾ أي: انصرفوا وانقلبوا وساروا ﴿فِي البِلادِ﴾ متمنين ﴿هَلْ﴾ يجدون ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: 36] مهرب ومخلص من بطش الله وحلول عذابه عليهم، فلم يجدوا بعدما استحقوا التعذيب والإهلاك، وبالآخرة هلكوا واستؤصلوا حتمًا، فكذا هؤلاء المسرفون المعاندون سيهلكون كما هلكوا، وبالجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القرآن العظيم، الذي نزل عليك يا

أكمل الرسل ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ عظة وتذكيرًا وعبرة وتنبيهًا ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يتفطن من تقلبات الأحوال وتطوراتها إلى شئون الحق وتجلياته الجمالية والجلالية حسب اقتضاء الذات بالإرادة والاختيار، وكمالات الأسماء والصفات ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: يكون من أرباب الإرادة الصادقة الخالصة عن شوب السمعة ورعونات الرياء، ألقى سمعه إلى استماع كلمة الحق من أهله ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿شَهِيدٌ﴾[1] [ق: 37] حاضر القلب، فارغ الهم، حديد الفطنة، صحيح الإرادة، خالص العزيمة.

ثم لما قال اليهود: إن الله خلق العالم في ستة أيام من الأسبوع، وبعدما عيَّ من الخلق والإيجاد استلقى على العرش في يوم السبت للاستراحة، رد الله عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات الممتزجة منهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا مَسَّنَا﴾ ولحقنا ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38] وصب وتعب وإعياء وفتور؛ إذ ذاتنا منزهة عن طريان أمثال هذه النقائص الإمكانية.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وينسبون إلى الله الصمد القدوس من أمثال هذه المفتريات الباطلة، الناشئة من جهلهم المفرط بالله وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بمقتضى توحيدك وتمجيدك إياه، ونزِّه ذاته عما يقول

---

(1) قال الورتجبي: أثبت الله سبحانه رؤية أنوار حكمته الأزلية وسناء الكبرياء والعظمة وظهور قهر الجبارية لمن له قلب، وله إلقاء السمع، وله شهود السرّ، والقلب عبارةٌ عن نقطة دائرة الفطرة القدسية التي خلقها الله من نور فعله الخاص، وهو يتجلى لها من نور صفته ونور ذاته، وهناك لطيفة كبرى، وهي سر النقطة، حولها دائرة العقل، ووراء الدائرة حواشي فعله، ألقي تحتها ستر الصفات، ثم تحت ذلك الستر ظهور الذات لها، فهو بذاته وصفاته حافظ فعله الخاص، أليس ستر الفعل العام على غاشيتها، وحولها عالم الملك والشهادة، وباطنها كشف الصمدية وجلال الأزلية، وبينها وبين الحق لم يبق حجاب امتناع قدمه عن إحاطتها، وذلك الكشف والعيان من بدو وجودها إلى أبد الأبد لا ينقطع؛ لذلك قال الشبلي: وقتي مسرمدٌ، وتجري بلا شاطئ، سقط عنها أضداد التجلي؛ إذ لم يبق بين الحق وبينها جريان الحوادث، ولتلك اللطيفة عيون وأسماع؛ إذ كل وجودها سمع وبصر، فجميع سمعها وبصرها مشغولٌ بخطاب الله ورؤيته، فألقت سمعها لأصوات وصلة الأزلية، شهدت أبصارها بمشاهدة القديم، ثم نورت الهيكل بالحضور والخدمة، وطلب مزيد الصفاء والقرابة، وجعلتها مركب سيرانها وطيرانها إلى عالم الملكوت، ورأت من روزنة البصر ما رأت بلا واسطة، وسمعت بسمع الظاهر ما سمعت بلا وسيلة، فإذا رأى صاحب هذا القلب شيئًا من عجائب صنعه صار خاضعًا لعظمته، خاشعًا لهيبته، مطيعًا لأمره، جعلنا الله وإياكم من أصحاب القلوب، وأقرّ عيوننا بأنوار الغيوب.

الظالمون الجاحدون، الجاهلون بقدره وعلو شأنه، وتوجه نحوه سبحانه في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ [ق: 39] يعني: كلا طرفي النهار؛ إذ هما أوان الفراغ من مطلق الأشغال.

﴿وَمِنَ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ في خلال تهجداتك ﴿وَ﴾ بالجملة: سبّحه ﴿أَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: 40] أي: في عقب كل صلاة ذات ركوع وسجود.

ثم قال سبحانه آمرًا لحبيبه ﷺ: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا أكمل الرسل النداء الهائل ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ من قبل الحق؛ لقيام الساعة والبعث ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: 41] بكل أحد، بحيث يسمعه بلا كلفة وشبهة، فيقول: أيتها العظام البالية والحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن للحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ملبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ تحققوا حينئذٍ أن ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: 42] من القبور والبعث والنشور.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ من كمال قدرتنا وحكمتنا ﴿نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ في النشأة الأولى بالإرادة ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: 43] أي: مصير الكل ومرجعهم إلينا في النشأة الأخرى.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر الحشر والميعاد ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أي: تنشق وتتخرق ﴿الأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ ويخرجون منها ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين﴿ذَلِكَ﴾ أي: إخراجهم وخروجهم كذلك ﴿حَشْرٌ﴾ وبعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44] سهل.

لا تستبعدوا ولا تستعسروا عن قدرتنا الكاملة أمثال هذا؛ إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ وأحفظ ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المنكرون، المشركون في سرائرهم ونجواهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِجَبَّارٍ﴾ تردعهم وتزجرهم عما هم عليه من الإنكار والإصرار، بل ما أنت إلا مذكر.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي: بوعيداته وإنذاراته ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45] إذ لا ينفع تذكيرك إلا للخائف منهم، ومن لم يخف ليس لك عليهم سلطان ليزعجهم إلى الإيمان، ويلجئهم إلى قبول الإسلام؛ إذ ما عليك إلا البلاغ والتذكير، والتوفيق من الله العليم الخبير.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب لتوفيق الحق في عموم أحوالك - وفقك الله على سلوك طريق توحيده - أن تفرغ همك عما سوى الحق، وتصفي سرك عن مطلق الشواغل المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وكن في نفسك خائفًا من غضب ربك، راجيًا من عفوه وغفرانه في عموم أعمالك التي جئت بها تقربًا إليه، مفوضًا أمورك كلها إلى مشيئته، وبالجملة: عليك أن تتذكر بوعيدات القرآن ومواعيده المستلزمة لصلاح الدارين، وفلاح النشأتين.

وإياك الإعراض عن الحق وأهله، والانصراف عن معالم الدين المنزل من عنده سبحانه، لتبيين مسالك توحيده.

جعلنا الله من زمرة الراسخين، المتمكنين في معالم الدين القويم بمنِّه وجوده.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الذاريات

لا يخفى على الموحدين المنكشفين بظهور الحق في مطلق المظاهر بوحدته الذاتية، المتصفة بجميع الأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة، المحيطة كل منها بعموم ما ظهر وبطن، أن كل مظهر من مظاهر الحق باعتبار ظهور الحق فيه بذاته قابل لأن يقسم به ويتيمن منه، كما أقسم سبحانه في هذه السورة بما أقسم تنبيهًا وتعليمًا لعباده بظهوره في عموم مظاهره.

فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي في الرياح المروحة لنفوس أرباب الطلب والإرادة شوقًا إلى لقائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم يوقظهم من سنة الغفلة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ
هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ
(١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ
دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ
إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: 1-30].

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ يعني: وحق النسمات الروحانية من النفسات الرحمانية على وفق العناية الأزلية؛ بحيث تذرو والبعث النفوس الخيرة الموفقة المجبولة على نشأة التوحيد ﴿ذَرْوًا﴾[1] [الذاريات: 1] نوعًا من الذرو والبعث على سبيل الشوق، والتحنن نحو المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي.

﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ من القوى، والآلات الحاملة كل واحد منها ﴿وِقْرًا﴾ [الذاريات: 2] حملاً ثقيلاً خطيرًا من أعباء الوحي، والإلهامات الإلهية من العلوم اللدنية والإدراكات الكشفية، المنشعبة من حضرة العلم ولوح القضاء، المتعلقة بالمعارف والحقائق الإلهية.

﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ أي: سفن النفوس المشتملة على أنواع المدارك، والمشاعر الجارية في بحر الوجود ﴿يُسْرًا﴾ [الذاريات: 3] سهلاً بلا تثاقل وتكاسل.

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ﴾ من الأسماء والصفات الإلهية، الموسومات بالملائكة، المقسمة لقوابل المظاهر ﴿أَمْرًا﴾ [الذاريات: 4] أي: أمور أرزاقهم، ومطلق حظوظهم وأبصارهم من الفيوضات والفتوحات الصورية والمعنوية، الموهوبة لهم من قبل الحق حسب استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أنتم أيها المكلفون، المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان من البعث والحشر والحساب والجزاء، وغير ذلك من المعتقدات الأخروية، المترتبة على العالم المحيط الإلهي، وقدرته الغالبة وإرادته الشاملة ﴿لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: 5] ثابت محقق وقوعه بلا شك وشبهة.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ والجزاء الموعود لكم في النشأة الأخرى، المتفرع على أعمالكم

(1) أقسم الله سبحانه بعواصف تجلي عظمته وكواشف أنوار كبريائه التي تفرق أسرار العارفين في هواء القدم، والبقاء حتى لا يبقى من وجودها من صولة ظهور القيومية في سماء الهوية أثرا؛ لغلبة القدم على الحدث وبشمال جماله الذي يأتي بنسيم الوصلة إلى قلوب المحبين، وينشق طيب نسائم الدنو أرواح الشائقين ومحمل أنين العاشقين إلى بساتين الملكوت، ويطيبها بطيب الجبروت.

وأفعالكم في النشأة الأولى ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: 6] محقق وقوعه، كائن إتيانه ألبتة، بلا تردد وارتياب.

ثم لما أقسم سبحانه بما يتعلق بعالم الأمر، أراد أن يقسم بما يتعلق بعالم الخلق تتميمًا للتأكيد والمبالغة بالقسم باعتبار كلا العالمين، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق السماء الرفيعة، البديعة النظم، العجيبة التركيب ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: 7] أي: الحسن والزينة، وكمال الصفاء، والبهجة والبهاء؛ لاشتمالها على الكواكب المشيرة إلى الطرق الموصلة إلى قدرة الصانع القديم، ومتانة حكمة الحكيم العليم.

إن اليوم الموعود لبعثكم وجزائكم لآت ألبتة ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الشاكون في شأنه، وشأن من أخبر به بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي، وشأن ما أنزل لبيانه من الكتاب المبين لإعداد الزاد له، وطريق النجاة عن أهواله وأفزاعه ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: 8] تنكرون له، وتكذبون المخبر الصادق، وتنسبون له وإلى الكتاب المبين المعجز من المفتريات الباطلة؛ حيث تقولون تارة: إنه سحر، أو من أساطير الأولين أو كهانة اختلقها الشاعر، أو كلام المجانين يتكلم به هذا المجنون.

وبالجملة: ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويصرف ﴿عَنْهُ﴾ وعن دينه وكتابه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾[1] [الذاريات: 9] وصرف عن الحق وقبوله، ومال إلى الباطل، وسعى نحوه.

وبسبب إفكهم، وذبِّهم عن طريق الحق والامتثال به ﴿قُتِلَ﴾ أي: طرد ولعن على ألسنة عموم أهل الحق ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: 10] المنكرون الكاذبون، المكذبون من أصحاب القول المختلق، وهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من شدة انصرافهم عن الحق وأهله ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ وغفلة عظيمة، وجهل متناهٍ ﴿سَاهُونَ﴾ [الذاريات: 11] غافلون عن الله وقدر ألوهيته وحقوق ربوبيته.

ومن كمال غفلتهم، وشدة عمههم في سكرتهم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: 12] أي: يقولون: متى يوم الجزاء والقيامة

(1) قال في التأويلات: يشير إلى أن في قطاع الطريق على أرباب الطلب للكثرة، فمن يصرفه طلبه قاطع من القطاع من النفس والهوى والدنيا وزينتها وشهواتها وجاهها ونعيمها فَصُرِف؛ فقد حرم عن متمناه وأهلكه هواه، كما قيل نعوذ بالله من الحور بعد الكور، وينادي عليه منادي العزة: وكم مثلها فارقتها وهي تصفر..

يا محمد؟! وفي أي آن يأتينا عذاب الساعة وأهوالها؟!

قال تعالى في جوابهم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: 13] أي: يوم يقع عليه الجزاء والعقاب والعذاب، وهم يحرقون فيه في النار، ويطرحون عليها صاغرين مهانين.

ويقول لهم الموكلون حين طرحهم فيها توبيخًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المجرمون المسرفون ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ التي أنتم تستعجلون بها في دار الدنيا على سبيل الاستهزاء والمراء، وبالجملة: ﴿هَذَا الَّذِي﴾ وقعتم فيه، وحبستم عليه الآن من العذاب ﴿كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 14] في سالف الزمان على سبيل الإنكار والاستكبار.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الممتثلين لأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه الموردة في كتبه الجارية على ألسنة رسله، الحافظين لنفوسهم عن الإفراط في الرخص والمباحات، فكيف عن تفريط المحظورات والمحرمات! متلذذون باللذات الروحانية ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: متنزهات العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: 15] جاريات من الحكم، والمعارف اللدنية المستخرجة من ينابيع قلوبهم، المترشحة إليها من بحر الوجود على مقتضى الحفظ الإلهي، حسب استعداداتهم واستفاضتهم بمقتضاها.

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ﴾ وأعطاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ تفضلاً عليهم، وتكريمًا على وجه الرضاء بجميع ما جرى عليهم من مقتضيات قضائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الفضل واللطف في النشأة الأولى ﴿مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: 16] الأدب مع الله ورسله، وخُلَّص عباده العاكفين ببابه.

ومن جملة إحسانهم: إنهم ﴿كَانُوا﴾ في دار الابتلاء ﴿قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17] أي: يرقدون قليلاً من ساعات الليل، وذلك أيضًا بسبب ألا يعرضهم الكلال العائق من المواظبة على الطاعات.

﴿وَ﴾ هم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم وخشوعهم ﴿بِالأَسْحَارِ﴾ المعدة

للتوجه والاستغفار ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1] [الذاريات: 18] دائمًا، كأنهم يرون أنفسهم قاصرة عن رعاية حقوق العبودية على ما ينبغي، لذلك يبالغون في الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ كان ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ وأرزاقهم المسروقة إليهم من قبل الحق ﴿حَقٌّ﴾ حظ ونصيب مفروض مقدر، يستوجبونه على أنفسهم ﴿لِلسَّائِلِ﴾ السائر في سبيل الله، المتعرض للسؤال مقدار ما يحتاج إليه ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: 19] المتعفف عن ذلِ السؤال، المتمكن في زاوية التوكل والتفويض.

ثم أشار سبحانه إلى حيطة وحدته الذاتية، وشمولها على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس بالاستقلال والانفراد، وسر سريان هويته الذاتية على ذرائر الكائنات، تنبيهًا للمريد المستبصر، وإيقاظًا لهم عن سنة الغفلة ونعاس النسيان، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالم المسببات، والاستعدادات المعبرة بالآفاق المعدة لظهور آثار القدرة الكاملة الإلهية من العجائب والغرائب، المتفرعة على كمال العلم، ووفور الحكمة المتقنة آيَاتٌ دلائل واضحات وشواهد لائحات دالة على قدرة الصانع الحكيم، ووحدة ذاته، واختياره في مطلق تصرفاته، واستقلاله في حكمة ومصالحه ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20] المنكشفين باليقين العلمي والعيني والحق.

بل ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ أيضًا أيها المستبصرون، المستكشفون عن سرائر الألوهية وأسرار الربوبية شواهد ظاهرة تشهد على حقية الحق، وتوحّده في ظهوره ووجوده ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21] أيها المجبولون على فطرة الكشف والشهود.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسماء، والأسباب المعبرة عنها بالأعيان الثابتة ﴿رِزْقُكُمْ﴾ أي: أرزاقكم الصورية والمعنوية، المبقية لأشباحكم وأرواحكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2] [الذاريات: 22] من الآجال المقدرة، والجزاء المترتب على الأعمال

(1) قال في التأويلات: أي: يستغفرون عن رؤية عبادات يعلمونها في سهرهم إلى الأسحار بمنزلة العاصين، يستغفرون استصغارًا لقدرهم واستحقارًا لفعلهم، والليل إما للأحباب في أنس المناجاة وإما للعصاة في طلب النجاة، والسهر لهم في لياليهم دائم؛ لفرط أسف أو لشدة لهف، وإما للاشتياق أو للفراق.

(2) أي تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا، فإنا نرزقكم، ثم قال: إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم. قال: وفيها وجه آخر: ﴿وَفِي السماء رِزْقُكُمْ﴾ أي من الذكر وثوابه. تفسير التستري (67/2).

والأفعال الصادرة عن هوياتكم الباطلة في نشأكم الأولى، وحالاتكم الواقعة فيها.

ثم أقسم سبحانه تأكيدًا لما أومأ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: وحق موجدهما، ومربيهما على هذا النمط البديع والنظم الغريب ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما يستدل بإيجادهما، وإظهارهما على وجوده سبحانه وكمال وقدرته، ووفور حكمته، ومتانة حكمه ﴿لَحَقٌّ﴾ ثابت محقق حقيق بالحقية، وحيد بالقيومية، فريد بالديمومية، لا يعرضها زمان، ولا يعتريها كلال.

وهو في حقيته وتحققه ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23] أي: كمال لا شبهة لكم في تنطقكم، وتلفظكم بالكمالات المنطوقة، كذلك لا شبهة في حقية الحق وظهوره، بل هو أظهر من كل شيء ظاهر، وأجلى من كل جلي، بل الكل إنما يظهر به وبظهوره، إلا إنكم بغيوم تعيناتكم الباطلة وظلام هوياتكم العاطلة، تسترون شمس الحق الظاهر في الآفاق بكمال الكرامة والاستحقاق.

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم الخليل، المتحقق بمقام الكشف والشهود، النازلة من عنده سبحانه من كمال المحبة والإخلاص والخلة والاختصاص مع ضيفه من الملائكة المكرمين، فقال مستفهمًا لحبيبه ﷺ على سبيل العبرة والتذكير: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقصة إلمام الملائكة ونزولهم عنده على صورة الأضياف ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] لكرامتهم، وحسن صورتهم وسيرتهم.

ومن كمال كرامتهم ونجابتهم: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وحضروا عنده بلا استئذان ﴿فَقَالُوا﴾ ترحيبًا وتكريمًا: ﴿سَلاَمًا﴾ أي: نسلم سلامًا عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام في جوابهم ظاهرًا، وإن أنكر عليهم خفية بدخولهم بلا استئذان: ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، عدل إلى الرفع لقصد الدوام والثبات؛ ليكون رده أكمل من تسليمهم، وهو عليه السلام، وإن بادر إلى رد تسليمهم، إلا أنه أضمر في نفسه الإنكار عليهم، فقال في سره: هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: 25] لا أعرف نفسهم ولا أمرهم.

﴿فَرَاغَ﴾ أي: عدل، ومال عنهم فجأة خفية منهم ﴿إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: 26] إذ كان أغلب مواشيه البقر، فذبحه وطبخه ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ نزلاً، فأبوا عن أكله، فعرض عليهم، وحثهم على الأكل كما هو عادة أرباب الضيافة؛ حيث ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: 27] منه، فلم يأكلوا بعد العرض والإذن أيضًا.

ثم لما رأى منهم ما رأى من الامتناع عن طعامه ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وأضمر الخليل في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفًا ورعبًا منه، ظنًا منه أنه إنما امتنعوا من طعامه؛ ليقصدوا له سوءًا، ثم لما تحسسوا منه ما تحسسوا من الرعب المفرط ﴿قَالُوا﴾ له إزالةً لرعبه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منَّا، ولا تحزن عن امتناعنا من الأكل، إنا لسنا ببشر، بل نحن ملائكة منزهون عن الأكل، مرسلون من عند ربك لأمرٍ عظيم.

قيل: مسح جبريل العجل المشوي فحيي، فقام يدرج ويدب حتى لحق بأمه، وبعدما رأى منهم إبراهيم ما رأى، وسمع ما سمع، أمن منهم ﴿وَ﴾ بعدما أمنوه وأزالوا رعبه ﴿بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ إذ لم يكن له ابن يخلف عنه، وكانت امرأته عجوز عقيمة ﴿عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 28] في كمال الرشد والفطنة، وهو إسحاق عليه السلام.

وبعدما سمع إبراهيم منهم البشرى أخبر به امرأته، ثم لما سمعت ما سمعت استحالت واستبعدت ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إليهم ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ صرير وضجة ﴿فَصَكَّتْ﴾ ولطمت ﴿وَجْهَهَا﴾ بأطراف أصابعها ﴿وَقَالَتْ﴾ مشتكية: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29] عاقر، كيف ألد ابنًا سيما بعد انقضاء أوانه وانصرام زمانه؟!

ثم لما شاهدوا منها ما شاهدوا ﴿قَالُوا﴾ لها: ﴿كَذَلِكِ﴾ أي: مثل ذلك الذي نخبرك ونبشرك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وما علينا إلا البلاغ، والأمر بيد الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في عموم أفعاله وآثاره ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 30] بمطلق تدابيره وتقاديره.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37) وَفِي
مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ
أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ
مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا

فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: 31-51].

وبعدما جرى منهم ما جرى، أخذ إبراهيم عليه السلام يسأل عن سبب نزولهم وإرسالهم، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وشأنكم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: 31].

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: 32] أقبح الجرائم وأفحش المنكرات؛ يعنون: قوم لوط عليه السلام المبالغين في الفعلة الشنيعة، والديدنة القبيحة المتناهية في القبح والفحش.

وإنما أرسلنا ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ متحجرة ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: 33] يريد منه السجيل المركب من الحجر المسحوق مع الطين، ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة كل منها باسم من رُمي بها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لتكون جزاء ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: 34] الذين أسرفوا في الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، وعن الطريقة المعتادة لحكمة الإيلاد والاستيلاد.

ثم لما أردنا رجمهم وإهلاكهم، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بإذن ربنا ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في تلك القرية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 35] المصدقين بنبوة لوط عليه السلام ودينه، الممتثلين بالأوامر والنواهي الجارية على لسانه.

﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك القرى بعدما فتشناها، وكشفنا عن أهلها ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: سوى أهل بيت فقط ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 36] المتصفين المجتمعين بين الإيمان والتسليم، وهو أهل بيت لوط عليه السلام.

وبالجملة: أهلكنا الكل ﴿وَتَرَكْنَا﴾ آثار هلاكهم واستئصالهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض التي تلك القرى فيها ﴿آيَةً﴾ علامة، وأمارة مستمرة إلى يوم القيامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: 37] النازل على أهل الجرائم والآثام، فيمتنعون عنها ويعتبرون بها.

﴿وَ﴾ تركنا أيضًا ﴿فِي﴾ إهلاك مكذبي ﴿مُوسَى﴾ الكليم آية للمُتذكرين المعتبرين، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ أصالة وأخاه معه تبعًا ﴿إِلَى

﴿فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي، المبالغ في العتو والعناد وأيدناه ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: 38] وحجة واضحة ودليل لائح.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن دعوته إلى الإيمان مستظهرًا ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: ملئه وجنوده الذين يتقوى بهم، ويركن إليهم في الخطوب والملمات ﴿وَقَالَ﴾ في جوابه من كمال بطره وعناده: هو ﴿سَاحِرٌ﴾ فيما أتى من الخوارق ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 39] يعمل له الجن جميع ما يظهر منه الإرهاصات.

وبالجملة: كذبه، وأنكر عليه ونسب معجزاته إلى السحر وأعمال الجن ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ غيرة منًا وتقوية لرسولنا ﴿وَجُنُودَهُ﴾ المظاهرين له ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ وأغرقناهم ﴿فِي الْيَمِّ وَهُوَ﴾ حينئذ ﴿مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: 40] نفسه بما يلام عليه من الكفر والعناد وأنواع العتو والفساد، نادم عن جميع ما صدر عنه وما ينفعه من الندم.

﴿وَ﴾ تركنا أيضًا آية عظيمة للمعتبرين ﴿فِي﴾ إهلاك قوم ﴿عَادٍ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: 41] لا يثمر نفعًا سوى العقم والهلاك على وجه الاستئصال، مع أنهم أملوا نفعًا عظيمًا فيها.

إذ ﴿مَا تَذَرُ﴾ وتترك ﴿مِن شَيْءٍ أَتَتْ﴾ وهبت ﴿عَلَيْهِ﴾ من الأنفس والمواشي ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ﴾ وصيرته ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: 42] أي: اليابس البالي من النبات وأوراق الأشجار، وبالجملة: صيّرتهم هباء منثورًا تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِي ثَمُودَ﴾ وإهلاكهم آية عظيمة لأجل العبرة، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم حين أردنا أخذهم وإهلاكهم: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات: 43] أي: تمتعوا وترفهوا ثلاثة أيام، فكذبوا المخبر، وأنكروا عليه خبره.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وما تندموا وتضرعوا، مع أن المناسب لهم هذا حينئذ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الهائلة المهولة صبيحة اليوم الرابع ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: 44] إتيانها عيانًا، ولا يقدرون على دفعها.

بل ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ وما قدروا ﴿مِن قِيَامٍ﴾ نهوض، وحركة عن أمكنتهم التي كانوا فيها عند ظهورها﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: 45] ممتنعين من عذابنا منتقمين منا.

﴿وَ﴾ مثل ما أهلكنا المذكورين، أهلكنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبل إهلاك هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضًا أمثال هؤلاء الطغاة البغاة الهالكين في تيه العتو والعناد ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: 46] خارجين عن مقتضى الحدود والإلهية بأنواع الكفر والفسوق والعصيان، لذلك أهلكناهم بالطوفان، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: 45].

ثم قال سبحانه إظهارًا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: كيف يسع لهم الإباء والامتناع عن مقتضيات قدرتنا، والخروج عن ربقة إطاعتنا وعبوديتنا، مع أنّا بنينا السماء المرفوعة المحفوظة ﴿بِأَيْدٍ﴾ غالبة وقدرة كاملة ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47] قادرون غالبون بالاستقلال والاختيار، لا يعارض فعلنا، ولا ينازع أمرنا وحكمنا.

﴿وَالأَرْضَ﴾ أيضًا ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ ومهدناها بالاستقلال والاستيلاء التام ﴿فَنِعْمَ المَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: 48] الباسطون نحن بلا مشاركة.

﴿وَ﴾ مثل ما خلقنا العلويات فواعل مؤثرات، والسفليات قوابل متأثرات ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء الكائنة في بقعة الإمكان، وعرصة الزمان والمكان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين مزدوجين ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد، المؤيدون بالعقل المفاض المتشعب من العقل الكل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49] فتعلمون أن الكل منه بدأ وإليه يعود، ولا شيء سواه موجود.

وبعدما ثبت أن ظهور الكل منه ورجوعه إليه سبحانه: ﴿فَفِرُّوا﴾ أيها العارفون الموحدون ﴿إِلَى اللهِ﴾ المسقط لعموم الإضافات من مقتضيات عالم الناسوت، وانخلعوا عن لوازم هوياتكم الباطلة وأنانياتكم العاطلة ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ بمقتضى وحيه وإلهامه ﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يعوقكم من سلوك طريق توحيده ﴿مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: 50] مظهر لكم آداب الطريقة الموصلة إلى مقصد الحقيقة، التي هي الوحدة الذاتية الإلهية.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ ولا تتخذوا، ولا تعتقدوا ﴿مَعَ اللهِ﴾ الواحد الأحد، المنزه عن التعدد مطلقًا ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ مستحقا للإطاعة والرجوع، مستقلاً في الوجود، وما يترتب عليه من الآثار ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: 51] أنذركم عن الوعيدان الهائلة العاجلة والآجلة، اللاحقة عليكم بالشرك والإشراك وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الذاريات: 52-60].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر والحكم مثل ذلك أنذرهم، وبلغهم بلا مبالاة بإعراضهم واستهزائهم؛ إذ ﴿مَا أَتَى﴾ الضالين المسرفين ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ من الرسل الكرام ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ حين دعوتهم إلى الإيمان والتوحيد ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 52] مثل ما يقول هؤلاء الحمقى في شأنك يا أكمل الرسل.

ثم قال على سبيل التعجب والإنكار: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا؛ أي: أسلافهم لأخلافهم بهذا القول والتكذيب، فتواطئوا عليه جميعًا، مع أنه لا يمكنهم هذه التوصية في الأزمنة الطويلة ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي: هؤلاء الأخلاف ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53] مشاركون في الغي والضلال والعدوان مع أسلافهم في أهل فطرتهم وجبلتهم؛ لذلك اتصفوا بما اتصفوا لاشتراك السبب بينهم.

وبعدما أصروا على ما هم عليه من العناد، ولم تنفعهم الآيات والنذر: ﴿فَتَوَلَّ﴾ واعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بذلت وسعك في إرشادهم وإهدائهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: 54] على إعراضك عنهم، وانصرافك عن إرشادهم ودعوتهم بعد المبالغة.

﴿وَذَكِّرْ﴾ للقوابل المستحقين ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾ والعظة ﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] الموفقين من لدنًا على الإيمان، المجبولين على فطرة اليقين والعرفان.

﴿وَ﴾ اعلم أني ﴿مَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ﴾ وما أظهرت أشباحهم وأظلالهم على هذه الهياكل والهويات، وما صوَّرتهم على هذه الصور البديعة، وما أودعت فيهم ما أودعت من جوهر العقل المفاض ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ويعرفوني، ويتحققوا بوحدتي واستقلالي في وجودي، وفي عموم تصرفاتي، وباستحقاقي للإطاعة والعبودية مطلقًا بلا شوب شركة ومظاهرة من أحد.

وإلا ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم﴾ وبخلقهم وإظهارهم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: تحصيل رزق صوري أو معنوي أرزق به عبادي؛ إذ خزائن أرزاقي مملوءة، وذخائر رحمتي متسعة ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا أُرِيدُ منهم أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: 57] أي: على الفقراء الذين هم عيالي طلبًا لمرضاتي.

كما جاء في الحديث صلوات الله على قائله: «**يقول الله ﷻ: استطعمتك فلم تطعمني**»[1] أي: لم تطعم عبدي الجائع.

وكيف أريد منهم أمثال هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ المنحصر المخصوص في ترزيق عموم العباد، لا رازق لهم سواه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2] [الذاريات: 58] والطول العظيم المقتدر الحاكم، الغالب على عموم مراداته ومقدوراته على وجه الإحكام من الإنعام والانتقام.

وبالجملة: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الرسول الله ﷺ بأنواع التكذيب والإنكار والاستهزاء والاستحقار ﴿ذَنُوبًا﴾ حظًا وافرًا ونصيبًا كاملاً من العذاب الآجل والعاجل ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: مثل نصيب أسلافهم من الكفرة المكذبين للرسل الماضين، وسيلحقهم مثل ما لحقهم، بل بأضعافه وآلافه ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: 59] لحوقه وحلوله.

وبالجملة: ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب شديد هائل نازل ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق، وأعرضوا عنه، وأظهروا الباطل، وأصروا عليه ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ الفظيع الفجيع ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 60] في النشأة الأخرى، وهو يوم القيامة المعدة لتعذيب العصاة والغواة وتفضيحهم فيه.

جعلنا الله من الآمنين فيه، الناجين من عذابه بفضله ولطفه.

---

(1) رواه مسلم (1990/4، رقم 2569)، وابن حبان (503/1، رقم 269).

(2) هذه الآية وأمثالها هي التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدِّيقين، حتى حصل لهم اليقين الكبير، فسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فهم في روح وريحان. والأحاديث في ضمان الرزق كثيرة، وأقوال السلف كذلك. البحر المديد (156/6).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المجبول على فطرة المعرفة واليقين، أن تتفكر في حكمة ظهورك ومصلحة بروزك من كتم العدم في معرفة نفسك في عموم أحوالك؛ لينكشف لك من التأمل فيها الإطلاع على موجدها ومظهرها واتصافه بالأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة.

ثم منها إلى توحيده واستقلاله في الوجود، وعموم الآثار المترتبة عليها، حتى تفوز إلى غاية قصواك ومبتغاك من اليقين والإيمان، ونهاية ما يترتب على ظهورك من التوحيد والعرفان، والله المستعان وعليه التكلان.

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الطور

لا يُخفى على من تحقق بمقام القلب، وتمكن في مقعد صدق المعرفة والتوحيد أن ذات الحق، وحيطة حضرة علمه، وسعة لوح قضائه وشمول قلم تقديره وتدبيره مما لا يكتنه ذاته ولا أوصافه، بل لا نهاية لحيطتها ولا غاية لحصرها.

لذلك أقسم بذاته العظيم، وعلمه العميم وأوصافه القديم، تعليمًا لعباده، وتنبيهًا لهم نحو مبدأهم ومعادهم، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى حسب أسمائه الحسنى وأوصافه العليا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى سدرة المنتهى.

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾ [الطور: 1-14].

﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: 1] أي: وحق الذات المقدس عن الظهور والبطون، المنزه عن البروز والكمون.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: 2] هو حضرة العلم الإلهي الذي سطر بالقلم.

﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور: 3] هو لوح القضاء المحفوظ من التناهي والانقضاء، المحروس عن مطلق التغير ومطلق الانمحاء.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: 4] الإلهي الذي هو قلب العارف المحقق، المتحقق بمقام الفناء عن الفناء، وبالبقاء ببقاء العظمة والكبرياء، المعبر بها عن عالم العمى اللاهوتي الذي هو سواد أعظم الفقر، وبيت المعمور الأكبر.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: 5] الذي هو سماء الأسماء والصفات عن مطلق التعدد الأصفياء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[1] [الطور: 6] الذي هو مطلق الوجود المحيط بالكل

(1) قال روزبهان: أقسم الله هاهنا بذاته وصفاته وفعله، الطور ذاته القديم، والكتاب المسطور صفاته القديمة، والرق المنشور أفعاله اللطيفة، وأيضًا الطور قلب محمد ﷺ، والكتاب المسطور رموز ما أوحى، والرق المنشور أسراره المنقوشة بأنوار وحيه وإلهامه وغرائب علومه اللدنية، ظاهر قسمه على الطور الذي تجلى له الحق، فإذا كان ذلك محل قسمه بتجلٍ واحدٍ فما تقول في طور لا تنفكُ أنوار تجليه منه، وهو قلب محمد ﷺ، سماه طور العظمة واستقامته في موازاة سطوات عزته، وسمى قلب غيره من الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور، الذي عمَّره بنور القربة والمشاهدة والعلم والحكمة والمعرفة والوجد والحال، والمكاشفة، ويمكن أنه تعالى أراد به صورة محمد ﷺ وصورة أبيه آدم، الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وجعله مرآة ظهوره، وجعل روحه ورق أسرار علومه التي ذكرها بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ روح محمد ﷺ الذي رفعه الحق إليه، ومقام عنديته أرفع من كل رفيع من العرش إلى الثرى، وأيضًا يمكن أنه أراد به العرش.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: بحر سر محمد ﷺ؛ لأن ذلك البحر ملأته أنهار قاموس علومه القدمية، وأسرار كلماته الباقية، وأيضًا الطور طور سيناء الذي هو موضع التجلي والكلام.

والكتاب المسطور ما كلَّم الله به موسى، فصار منقوشًا في ورق قلبه، أقسم بالطور وبقلبه وبما فيه مما سمع من كلامه. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾: أيضًا ما كتبه بيده على ألواح موسى.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: أيضًا قلبه كان معمورًا بنور مشاهدته؛ ولذلك خاطب الله موسى بقوله: فرغ بيتًا لي أسكن، فلما سكن في بيت قلبه عمَّره بنور قربه. ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾: كنايةٌ عن ذاته القديم الذي امتنع بعزته عن تناول الحدثان، ألا ترى كيفما بلغ أماني موسى، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَرِنِي﴾. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾: صدر موسى الذي هو مملوءٌ من نيران شوقه وحزنه، حين لم يدرك حقائق جلال الألوهية الذي استحال وجود الحدث عن إدراكه بوصف الإحاطة والحقيقة، وأيضًا عم في هذه الأقسام جميع العارفين والصديقين، الطور أرواحهم، والكتاب المسطور إلهامهم، والرق المنشور عقولهم، والبيت المعمور قلوبهم، والسقف المرفوع

بمقتضى الجود.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل لعصاة عباده ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: 7] نازل لهم في يوم الجزاء. ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: 8] لأن من قدر على أمثال هذه المقدورات، واتصف بهذه الأسماء والصفات بالأصالة والاستحقاق، لا يعارض حكمه ولا يدفع قضاؤه.

اذكر يا أكمل الرسل للمكذبين المنكرين للحشر والنشر كيف حالهم ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: 9] اضطرابًا غريبًا وتحركًا لا على وجه المعتاد إلى حيث طويت ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104].

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ الرواسي الرواسخ ﴿سَيْرًا﴾ [الطور: 10] فتصير الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 106-107].

﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ واقع ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: 11] المسرفين المصرين.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ في الأباطيل الزائغة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: 12] بآيات الله الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته، وكذا يلحقهم أيضًا ويل عظيم.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يطرحون ويدفعون ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: 13] طرحًا على وجه العنف، مشدودين بالسلاسل والأغلال.

فيقال لهم حينئذ تفضيحًا وتوبيخًا: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الطور:

أسرارهم، والبحر المسجور صدورهم، أقسم بأرواحهم؛ لأنها مواضع تجليه، وأقسم بما خاطبهم من الوحي والإلهام، وأقسم بعقولهم؛ إذ هي ألواح علومه الغيبية، وأقسم بقلوبهم؛ إذ هي مساكن المعارف ومساقط أنوار الكواشف، وأقسم بأسرارهم؛ إذ هي تصعد إلى مصاعد الملكوت ومعارج الجبروت، وأقسم بصدورهم؛ إذ هي مملوءةٌ من سناء العرفان وضياء الإيمان وأنوار الإسلام.

(1) قال في عين الحياة: أي: تكذبون اللطائف المرسلة إليكم الداعية لكم إلى الحق، فهذه نار التي

14] وتنكرون الآيات والنذر الواردة في شأنها، وتنسبونها إلى السحر والكهانة، وغير ذلك من الخرافات والجزافات.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ
مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ
﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ
﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾
فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: 15-31].

وأنتم أيها المنهمكون في الطغيان وأنواع الكفران في سالف الزمان، كنتم نسبتم الوحي والإلهام إلى السحر والأوهام تأملوا الآن: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الذي أنتم تطرحون فيها، وتعذبون بها كما زعمتم فيما مضى﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: 15] ولا تشعرون بها، كما كنتم لا تشعرون بالآيات الواردة في شأنها حينئذ.

وبالجملة: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ وادخلوا فيها، وبعد دخولكم ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾

كانت فيكم، وأنتم أشعلتموها في وجودكم، وأوقدتموها بنيران الحسد والحقد والكبر والغضب والبغض، وجمعتم لها حطب الحطام الدنيوي من الدراهم والدنانير والأموال والأملاك والمواشي، فصار المجموع حطمتكم مما تكوي بها جباهكم وجنوبكم.

وعلى أي وجه تصيروا وتكونوا، لا مخلص لكم عنها، ولا مخرج لكم منها، بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصبر، وعدمه في عدم النفع والدفع ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 16] أي: ما تجزون إلا بما كسبتم لأنفسكم، وأعددتم لأجلها، فيلحقكم الآن وبال ما اقترفتم فيما مضى حتمًا على مقتضى العدل الإلهي، فلا ينفعكم الصبر والاضطراب.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن محارم الله، المتحرزين عن إنكار آيات الله الواردة في الوعد والوعيد، متلذذون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: 17] أية جنات وأيُ نعيم: رياض الرضا ونعيم التسليم.

﴿فَاكِهِينَ﴾ متنعمين مسرورين فيها، مطمئنين راضين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بمقتضى فضله وسعة جوده ولطفه ﴿وَ﴾ بما ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: 18] أي: أهوالهم وأفزاعها.

فيقال لهم فيها على سبيل التبشير والتفريح: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من الرزق الصوري والمعنوي ﴿هَنِيئًا﴾ بلا تنقيص وتكليف ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 19] أي: بسبب صالحات أعمالكم وحسنات أفعالكم.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ معدة لهم ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ منضودة مرتبة وفق أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم.

﴿وَ﴾ بعدما تمكنوا على السرر مسرورين ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرناهم استئناسًا منا إياهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: 20] مصورة من المعارف والحقائق المنكشفة لهم، المشهودة بعيون بصائرهم.

﴿وَ﴾ قرناهم أيضًا مع إخوانهم ورفقائهم من الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وانكشفوا بتوحيده ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ ولحقتهم معهم ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ أي: جميع ما انشعب، وتفرع منهم من أولادهم وأعمالهم الصادرة عنهم حال كونهم متصفين ﴿بِإِيمَانٍ﴾ يقين علمي وتصديق قلبي قبل وصولهم إلى اليقين العيني والحقي، بل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ أيضًا ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾أي: مشاهداتهم، ومكاشفاتهم الواردة عليهم حسب مقاماتهم وحالاتهم بعد

اتصافهم باليقين العيني والحقي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا أَلَتْنَاهُم﴾ ونقصنا عليهم ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ الناشئ منهم في طريق الهداية والرشاد ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ نزر يسير، بل وفينا ووفرنا عليهم جزاء الكل مع مزيد عليها تفضلاً منًّا وإحسانًا؛ إذ ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ ذي هوية شخصية مجبولة لحكمة المعرفة، ومصلحة التوحيد ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من الأسباب ﴿رَهِينٌ﴾ [الطور: 21] مرهون مقرون لا ينفصل عنها.

بل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ تفضلاً وامتنانًا منا إياهم، وتكريمًا لهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ من المعارف والحقائق الواردة المتجددة آنًا فآنًا، حسب الشئون الإلهية وتجلياته الجمالية والجلالية ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: 22] أي: يتقوت ويقوى به أشباحهم وأرواحهم.

﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ ويتجاذبون ﴿فِيهَا كَأْسًا﴾ من رحيق التحقيق، مع أنه ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ من فضول الكلام ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: 23] من قبح الأفعال المستلزمة للآثام كما هو عادة الشاربين في الدنيا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ بكؤوس التحقيق ورحيق اليقين ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ مصورة من قواهم المدركة المملوكة لهم، المسخرة لنفوسهم المطمئنة، الراضية بمقتضيات القضاء الإلهي ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من غاية الصفاء عن كدر الهواء ورعونات الرياء ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: 24] مصون محفوظ في أصداف أشباحهم عن التلطخ بقاذورات الدنيا الدنية.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بطريق المسرة والانبساط ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: 25] عن أعمالهم وأحوالهم ومواجيدهم ومقاماتهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: بعضهم في جواب بعض على وجه المذاكرة والمواساة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: قبل انكشافنا بسرائر التوحيد ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: 26] خائفين عن بطشه وسخطه وسطوة سلطنة قهره وجلاله، راجين من سعة رحمته وموائد جوده وكرمه.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وهدانا إلى طريق التوحيد، ووفقنا للعروج إلى معارج العناية

والتحقيق ﴿وَوَقَانَا﴾ بلطفه ﴿عَذَابَ السَّمُومِ﴾[1] [الطور: 27] أي: من عذاب النار المحرق النافذ في عموم المساقاة مثل السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا قبل حلول الساعة وقيام القيامة ﴿نَدْعُوهُ﴾ سبحانه، ونسأل منه الحفظ والوقاية من عذابه ونكاله في هذا اليوم الموعود، وكيف لا نسأل منه؟! إنه سبحانه ﴿هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن المخصوص المنحصر على الإحسان والإنعام ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الطور: 28] كثير الرحمة والامتنان على السائلين المؤمنين المستحقين، فاستجاب سبحانه بلطفه سؤالنا، وأنجح آمالنا بمقتضى سعة جوده ورحمته.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت من فضل الله، ولطفه، وسعة رحمته، وجوده مع أوليائه ﴿فَذَكِّرْ﴾ واثبت على العظة والتذكير لعموم عباد الله، ولا تبالِ بقولهم الباطل في حقك﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ التي هي الآيات المنزلة إليك، الملهمة من ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ مبتدع مفتر مجترئ على الإخبار عن المغيبات بلا وحي من قبل الحق وإلهام من جانبه ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 29] مختل العقل، مخبط الرأي كما يزعم في شأنك المسرفون المفترون. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ فصيح بليغ بلغ على حد من البلاغة، عجز عن معارضته أقرانه من البلغاء، فنحن ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: 30] أي: من الأيام وكرّ الأعوام إلى أن يموت، فنخلص من فتنته وشرته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا لمقتي وموتي ﴿فَإِنِّي﴾ أيضًا ﴿مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: 31] المنتظرين لمقتكم وهلاككم، والأمر بيد الله، والحكم مفوض إلى مشيئته، موكول إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

أهم يكابرون في هذه الأحكام المتناقضة مجادلة ومراءً وينسبونك مرة إلى

---

(1) قال في عين الحياة: يعني منّ الله علينا بالتوفيق في دار الكسب للإشفاق على الأهل والتوخي عن متاع الزور وادخار هذه النعمة في دار الجزاء، بأعمالنا الصالحة التي عملناها بتوفيقه، ووقانا أيضًا من عذاب السموم، الذي هو نتيجة ريح الهوى ونار الشهوة بمنّه وتوفيقه، الذي أعطاناه لتسكين ريح الهوى وإخماد نار الشهوة في الدنيا.

الكهانة المتضمنة لكمال الفطانة، ومرة إلى الجنون المنبئ عن نهاية البلادة، وتارة إلى الشعر المستلزم للوزن والقافية، مع أن ما جئت به من الكلام عارٍ عن الوزن، خالٍ عن القافية مطلقًا.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ
خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ
تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى
عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ
ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: 32-49].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم﴾ السخيفة المستمدة من أوهامهم الضعيفة ﴿بِهَذَا﴾ القول الباطل الزاهق الزائل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: 32] باغون متناهون في العتو والعناد، صدر عنهم أمثال هذا، بلا تأمل وتدبر على مقتضى عتوهم وثروتهم وكبرهم وخيلائهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي والإلهام تغيرًا وترويجًا ﴿بَل﴾ معظم أمرهم وقصارى رأيهم أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: 33] به وبك، فيتفوهون بأمثال هذه المطاعن والقوادح من شدة شكيمتهم، وغلظ غيظهم وضغينتهم معك يا أكمل الرسل.

وبعدما بالغوا في القدح والطعن، وبلغوا غاية الإنكار والإصرار، قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتبكيت: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34] في زعمهم ومفترياتهم مع أنهم لم يأتوا بمثله، ولا يتأتى منهم الإتيان أيضًا، وإن يتظاهروا ويتعاونوا بجميع ما في الأرض؛ إذ هو خارج عن طور البشر ومشاعره.

أيصرون على إنكار الخالق مع أنهم مخلوقون ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ وبلا فاعل موجد ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا نفوسهم أنهم ﴿هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35] المستقلون على إيجاد هياكلهم بلا مؤثر خارجي هو الله، أيحصرون حينئذ خالقيتهم لأنفسهم فقط؟!

﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: العلويات والسفليات والممتزجات؟! وبالجملة: لا ينكرون حدوث الأشياء، واستنادها المحدث المؤثر ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 36] ولا يتصفون باليقين في إثبات الموجد القديم وتوحيده.

أهم يثبتون مرتبة النبوة من تلقاء أنفسهم، ويختارون لها من يريدون ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: 37] الغالبون المقتدرون على عموم مقاصدهم ومطالبهم، فيفعلون جميع ما يأملون ويشاءون، بالإرادة والاختيار؟!

﴿أَمْ﴾ ادعوا علم الغيب بالاستماع من الملأ الأعلى؟! إذ ﴿لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرقاة يصعدون بها إلى مكان من السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ من الملائكة ما يظهرون من تكذيب الرسول، وقدح القرآن ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: 38] أي: بحجة واضحة ومعجزة ساطعة، كما أتى بها الرسول ﷺ.

أأنتم العقلاء المتصفون بكمال الرشد والرزانة أيها المسرفون المفرطون ﴿أَمْ﴾ سفهاء منحطون عن زمرة العقلاء مع أن دعواكم بأن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: 39] تدل على سفاهتكم وانحطاطكم عن مقتضى العقل؟! إذ إثبات الولد مطلقًا للواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد بعيد بمراحل عن مقتضى

العقل، فكيف إثبات أخس الأولاد له سبحانه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا[1].

• فثبت أن أولئك الحمقى سفهاء ساقطون عن رتبة العقلاء وأهل العبرة، فلا يسمع منهم مطلق الدعوى، سيما الأمور المتعلقة بالمعارف الإلهية.

فكيف إنكارهم بك يا أكمل الرسل هذا، أينكرون رسالتك يا أكمل الرسل، ويظنون لحوق الضرر إياهم منك ﴿أَمْ﴾ أيظنون إنك بسبب تبليغك إياهم ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ جعلاً عظيمًا ﴿فَهُم﴾ حينئذ ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ والتزام غرامة عظيمة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: 40] متحملون الثقل، لذلك شق عليهم الأمر إلى حيث أنكروا لك، وانصرفوا عن تصديقك.

وبالجملة: أينكرون رسالتك بمقتضى قرائحهم، ومن تلقاء أنفسهم ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لوح القضاء المثبت فيها جميع الأشياء ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: 41] المغيبات منها؟!

﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون ﴿كَيْدًا﴾ لرسول الله ﷺ في دار الندوة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مكروا عليه ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: 42] المقصورون على كيدهم، لا يتعدى عنهم وباله.

أينكرون توحيد الحق مكابرة ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعبدونه كعبادته، ويطيعونه على نحو إطاعته، ويستعينون منه في الخطوب والملمات، وبالجملة: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: 43] لهم من أدون مخلوقاته.

﴿وَ﴾ بعدما ألحقوا، واقترحوا بقولهم: فأسقط علينا كسفًا من السماء ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ عليهم وبمقتضى اقتراحهم ﴿يَقُولُوا﴾ من شدة

---

(1) قال في عين الحياة: يعني: تقول القوى الروحية الأنسية بالهوى المدنية بالنفس أن القوى الفاعلة منهم والقوى القابلة من اللطائف، لا يعرفون أن جميع القوى من اللطيفة الفائضية من الحق صدرت، ووصلت إلى كل ذرة من ذرات الموجودات وقت مد بحرها في عالم المتفرقة، ثم جمعتها عند الحرز في عالم الجمع، فالقوى التي أنتم تجدون في نفوسكم هي القوى المودعة فيكم وقت المد الذي أنتم بها قائمون باقون.

عنادهم، وفرط إنكارهم: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: 44] تراكم بعضه على بعض فيسقط.

وبالجملة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واتركهم على ما هم عليه من العدوان والطغيان ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ ويصلوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: 45] يموتون، ويهلكون بالمرة، وهو عند النفخة الأولى، ثم يحشرون ويعذبون.

﴿يَوْمَ﴾ أي: يومئذ ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ الذي أتوا به في دار الندوة والابتلاء ﴿شَيْئًا﴾ من الدفع والإغناء في رد عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: 46] ويمنعون حينئذ من بطشه وعذابه.

وهم مع ذلك لا يمهلون إلى العذاب الآجل، بل يعذبون في العاجل والبرزخ أيضًا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ العذاب الأخروي الموعود لهم، وهو وقوعهم في نيران الإمكان بأنواع الخيبة والخسران، وتقيدهم بسلاسل الآمال وأغلال الأماني ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 47] ولا يفهمون ألمها، مع أنها من أشد العذاب إيلامًا، وأصعب الوبال والنكال انتقامًا، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى قيام الساعة، وإبقائك فيما بينهم بأنواع التعب والعناء، ولا تستعجل لمقتهم وهلاكهم، ولا تخف من مكرهم معك وغدرهم عليك ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1] وكنف حفظنا وحوزة

---

(1) أي: بأعيننا ترانا. قال سهل: ما نظهره عليك من فعل وقدرة تتولى جملتك بالرعاية والكلاءة بالرضا والمحبة والحراسة من الأعداء. وقال ابن عطاء: فإنك بأعيننا أي: مغمور في حفظنا، وغريق في فضلنا، ومستور بحفظنا، ومن اختصّ بالله كان في حفظه، ومن كان في حفظه كان في مشاهدته، ومن كان في مشاهدته استقام معه ووصل إليه، ومن وصل إليه انقطع عما سواه، ومن انقطع عما سواه عاش معه عيش الربانيين. وقال الحسين: اصبر؛ فإن صبرك بتوفيقنا وبشهود عيوننا؛ فلذلك حصلت العيون منك عيونًا؛ إذ أنت الناظر إلينا بنا، ولم تنظر إلينا بما لنا وعنا، فتكون بذلك محجوبًا عن واجبنا. وقال جعفر: عند هذا الخطاب سهّل عليه معالجة الصبر واحتمال مؤنه، وكذلك كل حال يرد على العبد في حال المشاهدة.

حراستنا وحضانتنا، نكفيك ونكف عنك مؤنة شرورهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تبالِ بمكرهم وكيدهم، ولا تشتغل عنا بهم وبمخاصمتهم ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزه ربك عن أن يعجز عن أخذهم وانتقامهم أو عن إنجاز ما وعد لك من عذابهم ملتبسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك سيما ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: 48] من منامك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ حين تستريح فيه للنوم ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ لتكون على ذكر من ربك حين رقودك، وغفلتك عن حواسك؛ ليكون ذكرك حينئذ توصية منك بمتخيلتك وإرشادًا لها وتعليمًا إياها ﴿وَ﴾ سبحه أيضًا ﴿إِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: 49] وقت دبور النجم، وظهور ضياء الشمس، فإن كلا الوقتين وقت فراغ البال عن مطلق التشتت والأشغال العائقة عن التوجه، جعلنا الله ممن خفف أثقاله وقلل آماله بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو المقام المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود - هداك الله إلى سواء السبيل، ووقاك عن مطلق التغيير والتبديل - أن تخلي خلدك عن الركون إلى ما سوى الحق، والالتفات إلى عموم ما يشغلك عن التوجه إليه، والتحنن نحوه.

ولك الاشتغال بالتسبيح والتقديس في جميع أوقاتك، وحالاتك سيما في أثناء صلواتك في خلال خلواتك، وإياك إياك الميل إلى مزخرفات الدنيا ولذاتها وشهواتها، والاختلاط مع أبنائها المنغمسين بقاذوراتها، فإن التلطخ بمزخرفات الدنيا يكلُّ الأبصار ويعمي القلوب التي في الصدور.

خفف عنَّا بلطفك ثقل الأوزار، وارزقنا بفضلك عيشة الأبرار، واصرف عنا بكرمك شر الأشرار.

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النجم

لا يخفى على المحققين المتحققين بمقام الكشف والشهود، المنجذبين نحو الحق بسرائرهم تلعثم وتلوين، أن من تمكن في مرتبة المعرفة، وتقرر في مقر التوحيد وصفا سره عن مكدرات التخمين والتقليد، صار فانيًا في الله ببقائه، متكلمًا بكلامه، متخلقًا بأخلاقه، متصفًا بأوصافه سبحانه، حسب ما يسر الله له ويفيض عليه ويظهرها منه.

ومن كان شأنه هذا وأمره هكذا، كان صادقًا صدوقًا، هاديًا مهديًا، مترصدًا في طريق الحق، مترقبًا للوحي والإلهام دائمًا، ومستنشقًا من نسمات نفسات الرحمن، متعرضًا لنفحات الروح والريحان من رياض الجنان، متشوقًا إلى لقاء الحنان المنان، منسلخًا عن لوازم الناسوت، منجذبًا نحو فضاء اللاهوت، فجرى عليه عموم ما جرى على وفق التسليم والرضا.

لذلك أخبر سبحانه عن استغراق حبيبه ﷺ، وانجذابه بالمرة إلى مبدئه، واتصاله بعالم اللاهوت بعد كمال انخلاعه عن كسوة الناسوت، وأقسم سبحانه بما أقسم تأييدًا لأمره وتعظيمًا لشأنه، فقال بعدما تيمن باسمه العلي الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على حبيبه ﷺ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإظهار مرتبته ﷺ فيما بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، المهتدين بهدايته وإرشاده، يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ

﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾
أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ
﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن
يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: 1-26].

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[1] [النجم: 1] أي: وحق النجوم الثواقل الهاوية، النازلة بقلوب أرباب الإرادة من عالم اللاهوت؛ ليهتدوا بها في ظلمات التعينات إلى فضاء التوحيد وشمس الوحدة الذاتية الحقيقية.

﴿مَا ضَلَّ﴾ أي: ما انحرف وعدل ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ الرسول المؤيد من عند الله،

(1) أقسم الله بالنجم، وذلك النجم إلهام قلوب الملهمين حين يسقط من صحائف الغيوب إلى معادن القلوب، وأيضًا أي: بأنوار تجلي جماله وجلاله إذا وقع على أرواح العاشقين، وأيضًا بألحان بلابل علومه اللدنية التي تترنم بحقائق ما كنز الحق في كنوز القدم إذا جلست على أغصان ورد بساتين أسرار العارفين، فتكلموا، وأخبروا بها من مكنون غرائب علوم الصفات والذات، وأيضًا أي: بواردات الجذبية التي تبدو بأنوارها من الغيوب لفهوم المحبين، وتسقط على أسرار الواصلين، وتزعجها إلى مشاهدة رب العالمين حقائقها المواجيد والحالات والكشف والمشاهدات وأيضًا أي: بالأرواح العاشقة الشائقة إذا صعدت إلى ملكوت الغيب، وتسقط إلى بحر جبروت الرب، وتحمل مياه حياة القدم من بحر البقاء، وتأتي سكرى إلى معادن الأشباح، وتضوع نفحاتها في بساتين العقول ورياض القلوب، وأيضًا بما نبت في بساتين قلوب الأولياء من عجائب أصناف أزهار الحكم والمعارف والعلوم والفهوم، أي: بهذه المقسمات الشريفة والنيرات الواضحة ما ضلَّ حبيبي عني لمحة وما احتجب بشيء دوني لحظة، وما اعوجَّ عن طريق استقامته قط.

المستوي على صراط العدالة الإلهية عن طريق التوحيد والتحقيق ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: 2] أي: ما ضلَّ وانصرف في سلوك سبيل الحق نحو الباطل الزاهق الزائغ.

﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ ويتكلم بالقرآن المعجز ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: 3] الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن الذي ينزل إليه ﷺ ويتكلم هو به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 4] إليه من عند ربه، بلا تصنع له فيه، وتكلف من جانبه.

بل ﴿عَلَّمَهُ﴾ عناية عليه وتكريمًا، وتأييدًا بشأنه وتعظيمًا ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: 5] الذي لا حول ولا قوة في الوجود إلا منه وبه وله؛ إذ لا موجود سواه.

هو سبحانه ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوة وقدرة ذاتية محيطة لعموم ما ظهر وبطن من المظاهر، وبعد تعليم الحق إياه ﷺ وتقويته وتأييده ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: 6] تمكن واعتدل ﷺ على صراط العدالة، وتمكن على مرتبة الخلافة والنيابة.

﴿وَهُوَ﴾ حينئذ من كمال التربية والتأييد تمكن ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾(1) [النجم: 7] الذي هو أفق عالم اللاهوت، ومطلع شمس الذات من مشرق عالم العمى، الذي هو ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: 35].

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ وتقرب إلى ربه ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: 8] وتعلق به سبحانه نوع تعلق ولحوق إلى حيث ﴿فَكَانَ﴾ قرب ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مقدار قوسي الوجوب

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: محمد كان بالأفق الأعلى حين ذي قوة استواء جبرائيل والأفق الأعلى كان لمحمد ولروحانيته؛ لأن أفقه كان أعلى الأفق، ولكل لطيفة أفق إلى ما فوقه وأفق إلى ما تحته، فلمحمد أفقان:

أفق الفوق إلى الحق: وهو الأفق المبين. وأفق التحت إلى الخلق، والأفق الأعلى؛ أي: أفقه أعلى الأفق ومنتهى وصول اللطائف إليه، فكذلك للطيفتك الخفية أفقان فاطلب أفقها، واجتهد أن تأخذ من الحق في الأفق المبين؛ يعني: بلا واسطة ولا تقنع بالستور؛ لئلا تكون ممن أكل من تحته، وكن عالي الهمة لتأكل من الفوق والتحت ومن جميع الجهات، ثم لا تقنع بهذا حتى تصل إلى مقام تأكل منه، ولا يمكن لأحد أن يأكل من ذاته إلا بعد وصوله إلى الذات الواحدة وهلاكه فيها، وبيان سر الهلاك في الذات يقرع باب الطلع، وأما مأمور شدة فاعبر واعتبر.

والإمكان، الحافظين لمرتبتي الألوهية والعبودية ﴿أَوْ أَدْنَى﴾[1] [النجم: 9] وأقرب منهما لفناء حصة الناسوت مطلقًا في حصة اللاهوت.

وبعدما صار ﷺ ما صار وقرب إلى حيث قرب ﴿فَأَوْحَى﴾ وألهم سبحانه ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ الذي هو سبحانه أقرب إليه من نفسه ﴿مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 10] من المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليه من لدنه سبحانه، الخارجة عن طور ناسوته وبشريته، فرأى ﷺ ما رأى، وانكشف بما انكشف.

وبالجملة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ أي: فؤاده ﷺ الذي هو من منهيات عالم اللاهوت، المتمكن في قلوب ذوي العناية، وأولي الألباب على سبيل الوديعة من قِبل الحق ﴿مَا رَأَى﴾ [النجم: 11] وشهد حين وصوله ولحوقه بالأفق الأعلى.

﴿أَ﴾ تنكرون انكشافه وشهوده ﷺ أيها المحجوبون المحرومون ﴿فَتُمَارُونَهُ﴾ وتجادلون معه على سبيل المراء والمكابرة ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: 12] من الذوقيات

(1) قال البقلي: أي: بيني وبينه قوس الحدوثية وقوس الأفعالية، فبقي بين القوسين عن إدراك العين بالحقيقة بالعين والقلب، وأيضًا ظن أنه وصل؛ إذ لا فصل هناك ولا وصل ولا قرب ولا بعد، فإن ساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن هذه العلل، فبيَّن له الحق أن بينه وبين الحق قوسين: قوس الأزل، وقوس الأبد، ومن يصل إلى من بعد منه من الأزل إلى الأبد أي: الحدث بعيدٌ مني بقدر الأزل والأبد؛ إذ لا قدر في الأزل والأبد، وكيف يصل إلى من تنزيهه أبعده بالأزل والأبد من ذاته وصفاته، فإذا كان كذلك استحال قرب الحدث من ذاته وصفاته من حيث المسافة، وأيضًا رمى الحق سهم الدنو من قوس الأزل، ورمى سهم التدلي من قوس الأبد من كناية الذات والصفات إلى قلب حبيبه ﷺ؛ فجرحه بسهم المحبة وسهم المعرفة، فكان في تلك الليلة مطروحًا في ميدان الأزل، مجروحًا في ميدان الأبد. قال جعفر: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى أن الله حجب جبريل من دنوه ودنو ربه منه. وقال القاسم: وقعت المواصلة فأشرف، والإشراف هو المشاهدة، وقاب قوسين موضع الإشكال، إشكال ليتبين العارف ويهلك الجاحد. وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة، إنما التدلي أنه كلما قربه من نفسه بعده من المعرفة؛ إذ لا دنو للحق ولا بعد، فكلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا، فانقلب في الحقيقة خاسئًا وهو حسير؛ إذ لا سبيل إلى مطالعة الحقيقة.
وأما الإخبار عن الفضل أنه أخذه من إياه وأشهده إياه فكان في الحقيقة ذا نفسه مشاهدًا ذاته، وفي الأخبار أن محمدًا ﷺ شهده. وقال جعفر: أدناه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حدَّ له، والدنو من العبد بالحدود.

والوجدانيات التي تأبى عنها عقولكم، وتعمي أبصاركم، ولا يمكن إلقاؤها وكشفها لكم.

وكيف تستبعدون وتنكرون له ﷺ أمثال هذا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ ما رآه من الشهودات التي تدهش منها عقول العقلاء، وتتحير أوهامهم وخيالاتهم ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[1] [النجم: 13] مرة أخرى قبل عروجه ووصوله إلى الأفق الأعلى، والمقام الأدنى الذي هو اليقين الحقي، وذلك ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 14] التي ينتهي إليها ودونها اليقين العلمي والعيني.

إذ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: 15] التي يأوى إليها أرباب العناية شوقًا إلى لقاء الله، وهو موعد الرؤيا والعيان، ومقام التوحيد والعرفان.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ﴾ المعهودة؛ أي: يغطي الموعد الموعود، ويحيط بها ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: 16] من التجليات الإلهية المتشعشعة حسب الشئون المتجددة، المحيرة لعيون النواظر من أرباب الولاء، الوالهين بمطالعة وجه الله الكريم.

---

(1) قال البقلي: ما الرؤية الثانية أقل كشفًا من الرؤية الأولى، وما الرؤية الأولى بأكشف من الرؤية الثانية أين أنت؟ لو كنت أهلاً لقلت لك أنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه في لحافه بعد أن رجع من الحضرة أيضًا في تلك الساعة، وما غاب قلبه من تلك الرؤية لمحة، وما ذكر سبحانه بيان أن ما رأى في الأول في الإمكان، وما رأى عند سدرة المنتهى كان واحدًا لأن ظهوره هناك ظهور القدم والجلال، وليس ظهوره يتعلق بالمكان ولا بالزمان؛ إذ القدم منزَّهٌ عن المكان والجهات، كان العبد في مكان والرب فيما لا مكان، وهذا غاية كمال تنزيهه وعظيم لطفه؛ إذ يتجلى من نفسه لقلب عبده، وهو في لا مكان والعبد في مكان، والعقل ههنا مضمحلٌ، والعلم متلاشٍ، والأفهام عاجزةٌ، والأوهام متحيرةٌ، والقلوب والهةٌ، والأرواح حائرةٌ، والأسرار فانيةٌ، وفي هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه عليه الصلاة والسلام؛ إذ رآه نزله أخرى عند سدرة المنتهى، ظن علية الصلاة والسلام أن ما رآه في الأول لا يكون في الكون لكمال علمه بتنزيه الحق، فلما رآه ثانيًا علم أنه لا يحجبه شيءٌ من الحدثان، وعادة الكبرياء إذا زارهم أحدٌ يأتون معه إلى باب الدار إذا كان كريمًا، فهذا من الله سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه ﷺ، وحقيقة الإشارة أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس، فلبس الأمر، وظهر المكر، وبان الحق من شجرة سدرة المنتهى كما بان من شجرة العتاب لموسى؛ ليعرفه حبيبه عليه الصلاة والسلام بكمال المعرفة؛ إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه في لباس مختلفة، وبيان ذلك.

وبالجملة: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي: ما مال وانحرف بصر رسول الله ﷺ عند تعاقب التجليات الإلهية، وترادف شئونه الغيبية، وتطوراته الجمالية والجلالية حسب أسمائه وصفاته العلية، عن وحدة ذاته، وما يشغله شيء منه عنه سبحانه ﴿وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17] خرج نفسه ﷺ عِند رؤية ما رأى من العجائب والغرائب عن ربقة الرقية ﷺ، وعروة العبودية، بل التزم حينئذ بقيام ما لزم من آداب العبودية ولوازم الإطاعة والانقياد أكثر مما التزمها قبل انكشافه.

والله ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ ﷺ في ليلة الإسراء ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1] [النجم: 18] أي: الآيات الكبرى التي هي آيات ربه الذي رباه على رؤية آياته الكبرى، ما لا يراه أحد من المكاشفين، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل من بني نوعه.

﴿أَ﴾ تنكرون أيها الجاحدون وحدة الحق عز شأنه وجل برهانه، وانكشاف حبيبه ﷺ بوحدته وبلوازم ألوهيته وربوبيته، ورسالته من عنده سبحانه على عموم بريته وكافة خليقته؛ ليرشدهم إلى الإيمان به، ويهديهم إلى توحيده ﴿فَرَأَيْتُمُ﴾ أثبتم وأخذتم الأصنام شركاء له، مشاركين معه في ألوهيته وربوبيته؛ يعني: الأولى ﴿اللاَّتَ وَ﴾ الثانية ﴿الْعُزَّى﴾ [النجم: 19] ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: 20] مع أنها جمادات لا شعور لها ولا يصدر شيء منها.

وأعظم من ذلك أنكم أثبتهم له سبحانه الأولاد بل أخسها وأدونها، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ﴾ الأشرف الأكرم أيها الحمقى ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه مع كمال تنزهه عن نقيصه، اتخاذ الوالد المترتب على القوة الشهوية ﴿الأُنثَى﴾ [النجم: 21] المرذولة المستهجنة.

والله ﴿تِلْكَ﴾ القسمة التي جئتم بها مع استحالتها في حقه سبحانه ﴿إِذًا قِسْمَةٌ

---

(1) يعني ما يبدي من صفاته من آياته رآها، ولم يذهب بذلك عن مشهوده، ولم يفارق مجاورة معبوده، وما زاده إلا محبة وشوقاً وقوة، أعطاه الله قوة احتمال التجلي والأنوار العظيمة، وكان ذلك تفضيلاً له على غيره من الأنبياء؛ ألا ترى أن موسى صعق عند التجلي، ففي الضعف جابه النبي ﷺ في مشاهدته كفاحاً ببصر قلبه، فثبت لقوة حاله وعلو مقامه ودرجته. تفسير التستري (2/ 86).

﴿ضِيزَى﴾ [النجم: 22] أي: لو فرض في شأنه سبحانه هذه، لكانت قسمتكم قسمة عوجاء جائرة مائلة عن العدالة؛ إذ أنتم أيها الحمقى تستنكفون عن الأنثى، وتثبتونها لله المنزه عن الأهل والولد، المقدس عن مطلق أمارات الحدوث وعلامات النقصان.

وبالجملة: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما آلهتكم التي أنتم أثبتموها، واعتقدتم شركتها مع الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ لا مسميات لها أصلاً بل ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ﴾ تبعًا ﴿وَآبَاؤُكُم﴾ أصالة من تلقاء أنفسكم؛ إذ ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ برهان واضح، وحجة قاطعة بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبع أسلافكم الحمقى ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والخيال الناشئ من أوهامهم وأحلامهم السخيفة أمثالكم أيها الجاهلون ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ أي: ما تهويه وتشتهيه نفوسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ ونزل عليهم حينئذ أيضًا على ألسنة رسلهم ﴿مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: 23] الموصل إلى مرتبة التوحيد، فتركوها ظلمًا وعدوانًا، ولم يتبعوها أمثالكم أيها الحمقى.

أتطمعون الشفاعة من تلك الآلهة الهلكى، وتأملون معاونتهم ومظاهرتهم إياكم أيها الحمقى؟! ﴿أَمْ﴾ تعتقدون أن يحصل ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ جميع ﴿مَا تَمَنَّى﴾ [النجم: 24] وتأمل من اللذات والشهوات.

بل ﴿فَلِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه ﴿الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: 25] أي: ما جرى في النشأة الأولى والأخرى من الكرامات، يمنُّ بها على من يشاء، ويصرفها عمن يشاء إرادة واختيارًا، لا يحكم عليه ولا ينازع في سلطانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ثم قال سبحانه تسجيلاً على غاية غباوتهم، ونهاية بلادتهم وحماقتهم في اتخاذهم الأصنام آلهة، واعتقادهم شفعاء: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: كثير من الملائكة المقبولين عند الله، المهيمين بمطالعة وجهه الكريم، ومع ذلك القرب والشرف ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ﴾ لهم ليشفعوا عنده سبحانه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ سبحانه خلاصهم من عباده ﴿وَيَرْضَى﴾ [النجم: 26] بشفاعة الشفعاء عندهم لاستخلاصهم بإذن منه سبحانه.

وهؤلاء الحمقى يدعون الشفاعة لأولئك الهلكى، ويعتقدونها آلهة متشاركين مع الله في الألوهية والربوبية ظلمًا وعدوانًا، بلا حجة وبرهان، ومن غاية عدوانهم وطغيانهم: يهينون الملائكة المكرمين المقربين، ويستحقرونهم حيث ينسبونهم إلى الأنوثة المستلزمة لغاية النقصان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ
أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ
﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾
وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: 27-44].

وبالجملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلَائِكَةَ﴾ كل واحد منهم ظلمًا وزورًا ﴿تَسْمِيَةَ الأُنثَى﴾ [النجم: 27] أي: يسمونهم بنات الله، ظلمًا على الله، بإثبات الولد له وعليهم نقص الأنوثة إياهم.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ أي: بقولهم هذا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ لا يقين ولا ظن، ولا سند من عقل ونقل، بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون في قولهم هذا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من تقليد آبائهم، المتسبين إلى الجهل والعناد ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ﴾ المستند

إلى الجهل والتقليد ﴿لَا يُغْنِي﴾ ويفيد ﴿مِنَ الحَقِّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿شَيْئًا﴾[1] [النجم: 28] من الإغناء والإفادة.

وبعدما سمعت حالهم وقولهم: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل وانصرف ﴿عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا﴾ الصارف له عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة، ولا تبالِ بشأنه، ولا تبالغ في دعوته من غاية إعراضه وانصرافه ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ من السعادات المنتظرة، والكرامات الموعودة للإنسان ﴿إِلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29] ولذاتها وشهواتها، ولم يهتم إلا بشأنها، واقتصر على مزخرفاتها مع كمال غفلة، وذهول تام عن الكرامات الروحانية، واللذات الأخروية.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي سمعت يا أكمل الرسل من ميلهم إلى الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ اللدني الفائض لهم من حضرة العلم الإلهي، فعليك يا أكمل الرسل أن تعرض عنهم وعن دعوتهم وإرشادهم، بعدما أمرت به حسب العقل الفطري الموهوب لهم من المبدأ الفياض، وبالغت في تبليغ المأمور.

وبالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بكمال كرامته، واصطفاك لرسالته ونيابته ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ من عباده، ومال عن جادة توحيده ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ أيضًا ﴿بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم: 30] منهم بهدايتك وإرشادك.

---

(1) قال في عين الحياة: يعني: لا يصل الظن إلى حد يحكم عليه بخفية الشيء الظنون؛ لأن فوق الظن العلم، وفوق العلم الصحيح السماعي علم اليقين المكاشفي، وفوق علم اليقين المكاشفي عين اليقين وهو العلم المشاهدي، وفوق عين اليقين المشاهدي حق اليقين مما يتعلق بالوصول، وفوقه حقيقة حق اليقين مما يتعلق بالذوق، ومثاله في عالم الشهادة علمك بأن هذه الشجرة تحمل رمانًا فيه حياة مثل العسل، ولكل حبة نبت خاص وطعم حلو كأنه سكر معقود وشراب مروق، والشجرة كانت شجرة رمان، فاعتقادك بما يخرج عن هذه كما سمعت عن الدهقان؛ هو اعتقاد صحيح علمي، فإذا أخضرت الشجرة وأزهرت فشاهدتها زاد علمك السماعي وتبدل بعلم اليقين، وإذا انتشرت الزهرات خرج منها درج الرمان، وشاهدته تبدل علمك علم اليقين الكشفي بعين اليقين، كمال حده واقتطفته وشققته وشاهدت حباته، والبيوت التي وصفها الدهقان لكل حبة صار عين اليقين، فإذا أكلته وذقته ووصل إلى حلقك حلاوته، واختلط بوجودك شرابه، وصار هو أنت ولطيفتك المدركة هو، فصار حق اليقين في هذا المقام حقيقة حق اليقين.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه المضلين والمهتدين من عباده؛ إذ ﴿لِلهِ﴾ ملكًا وتصرفًا، وإحاطة وشمولاً مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وما بينهما من الكوائن والفواسد ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا﴾ بأعمالهم وأقوالهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بمقتضى عملهم على مقتضى عدله سبحانه، بلا زيادة ولا نقصان ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أيضًا كذلك ﴿بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31] أي: أزيد مما استحقوا بصوالح أعمالهم وحسنات أخلاقهم، تفضلاً عليهم وامتنانًا.

والمحسنون هم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ أي: يحترزون عن الآثام الكبيرة، المستجلبة لغضب الله، المستتبعة لعذابه ونكاله في النشأة الأخرى، المستلزمة للحدود والكفارات بحسب الشرع الشريف ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: يحفظون نفوسهم أيضًا عن الفواحش المسقطة للمروءات الجالبة لأنواع النكبات، والوعيدات الهائلة الإلهية المقتضية للخلود في دركات النيران ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ الطارئ عليهم من صغائر الذنوب هفوة، فجبروه بالتوبة دفعة، فإنه معفو عن مجتنبي الكبائر والفواحش، قبل التوبة أيضًا.

وكيف لا يغفر سبحانه لأصحاب اللمم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ سريع العفو، شامل الرحمة ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ منكم، وبعموم أحوالكم وأطواركم أيها المجبولون على فطرة التكليف، وكيف لا يعلم سبحانه أحوالكم! ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾ بمقتضى سعة علمه وجوده ﴿وَإِذْ أَنتُمْ﴾ حينئذ ﴿أَجِنَّةٌ﴾ لا شعور لكم محبوسون ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعلم سبحانه منكم جميع أحوالكم، وأطواركم وعموم حوائجكم الماضية والآتية، وبالجملة: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا﴾ ولا تنزهوا وتطهروا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ إذ لا علم لكم بتفاصيل أحوالكم وأعمالكم مطلقًا، بل ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32] وحفظ نفسه عن مساخطه سبحانه، واحترز عن منهياته.

ثم قال سبحانه عبرة على المستبصرين وتوبيخًا على المستكبرين: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الطاغي ﴿الَّذِي تَوَلَّى﴾ [النجم: 33] وأعرض عن اتباع الحق، وأصر على الباطل عنادًا ومكابرةً، بعدما وعد الحق التصدق من ماله كفارة لذنوبه، ﴿وَأَعْطَى

قَلِيلاً﴾ من سمعة ورياء ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم: 34] وقطع عطاء الباقي بعد ذلك، فما وفَّى ووفر جميع ما وعد، ثم ارتد - العياذ بالله - وندم عما تصدق قبل، فأصر على ما كان من الكفر والجحود، ومع ذلك يزعم أنه قد برئ من الذنوب بتصدقه.

نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله ﷺ فعيَّره بعض المشركين، وقال: تركت دين الأشياخ، وضللتهم، فقال: أخشى عذاب الله، فضمن أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطى بعض ماله من المشروط، ولم يتم ومع ذلك يزعم البراءة عن الذنوب لذلك، ثم بخل بالباقي، وبعدما أعطى بعض المشروط، ارتد - العياذ بالله - عن الدين ومتابعة الرسول الأمين.

عيره سبحانه بقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ [النجم: 35] بأن التصدق وتحمل الغير وتضمنه يدفع عنه العذاب.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ ولم يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: 36] وهي ألواح التوراة المنصوصة فيها بخلاف ذلك.

﴿وَ﴾ لم ينبأ أيضًا بما في صحف ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذي يدعي متابعته والتدين بدينه، مع أن إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾[1] [النجم: 37] ووفر وأتم بجميع ما التزمه وأمر به، وبالغ في وفاء ما عاهد والتزم طلبًا لمرضاة ربه، وهو يدعي متابعته، ولم يوفِ بما التزم من العهود.

وكيف يحمل الغير عنه وزره أو يسقطه الصدقة، مع أن مضمون ما في عموم كلتا الصحفين هو هذا ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي: أنه لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي: نفس آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: 38] أي: ذنبها، ولا يؤخذ هي عليها، بل كل نفس من النفوس الخيرة

(1) إشارة إلى أن في جبلة الإنسان معرفة لله مركوزة وذلك لان الله تعالى ذرأ ذريات بني آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم بخطاب (ألست بربكم) فأسمعهم خطابه وعرفهم ربوبيته وفقههم لإجابته حتى قالوا بلى فصار ذلك الإقرار بذر ثمرة إقرارهم بخالقية الله تعالى في هذا العالم لكن الله تعالى لعزته لا يهتدي إلى سرادقات عزته إلا من أعزه الله تعالى بجذبات عنايته وهو العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. تفسير حقي (13/145).

والشريرة، رهينة بما كسبت، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَ﴾ كذا منصوص في الصحفين أن ﴿لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ﴾ المجبول على فطرة العرفان؛ أي: لكل واحد من أشخاصه ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39] واقترف لنفسه وأعد لمعاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ كذا ثبت فيهما ﴿أَنَّ سَعۡيَهُۥ﴾ أي: سعي كل واحد من أفراد الإنسان خيرًا كان أو شرًا ﴿سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 40] في النشأة الأخرى، مصورة بالصور الحسنة والقبيحة من الدرجات العلية الجنانية، أو الدركات الهوية النيرانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما حوسب عليه عموم مساعيه أعماله ﴿يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: 41] أي: يوفر عليه من الجزاء على مقتضى سعيه في أعمالها، خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَ﴾ أيضًا مثبتًا فيهما ﴿أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42] أي: منتهى الكل إلى الله، كما أن مبدأه منه؛ إذ ليس وراءه مرمى ومنتهى.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾ من أضحك ﴿وَأَبۡكَىٰ﴾[1] [النجم: 43] من أبكى.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: 44] إذ لا قادر على الإماتة والإحياء غيره سبحانه.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ

(1) وصف نفسه تعالى بأنه أضحك وأبكى بطلوع صبح جماله العاشقين، وأبكى بظهور شمس ذاته العارفين، يبكون عليه منه بفقدان الكل؛ لأنهم يعرفونه بامتناعه عن إدراكهم وعن تقصيرهم أيضًا في طلب معرفتهم بربهم وقلة معرفتهم بوجود ربهم، وذلك عند كشف المعاينة، أضحك المستأنسين بنرجس مودته وياسمين قربته وطيب شمال جماله، وأبكى المشتاقين بظهور عظمته وجلاله، وأمات العارفين بنعت الفناء في سطوات ديموميته وظهور صدمات أنوار ذاته، وأحيى العاشقين بكشف صفاته، فالأولون فنوا فيه، والآخرون بقوا به، وأيضًا أمات المريدين بالحجاب، وأحيى المحبين بكشف النقاب.

﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: 45-62].

﴿وَأَنَّهُ﴾ من كمال قدرته ووفور حكمته ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [النجم: 45] من صنف ونوع وجنس، وقدر وجود الزوجين ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة حاصلة منهما ﴿إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: 46] أي: تصب وتراق في الرحم على وجه الدفق، أو تقدر وتخلق منها.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: 47] أي: عليه سبحانه إعادة الأموات أحياء في النشأة الأخرى، كما أن عليه الإبداء في النشأة الأولى.

﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ بذاته لا بالوسائل والوسائط؛ إذ الكل راجع إليه ﴿أَغْنَى﴾ من أغنى بإعطاء الأموال له ﴿وَأَقْنَى﴾ [النجم: 48] من أقنى بإلهام القنية والادخار.

وإنما فعل معهم ما فعل من الإغماء والإقناء ليشكروا له، ولم يعبدوا غيره، ومع ذلك أشركوا له، فعبدوا الشِّعرى، ﴿وَ﴾ لا شك أنه سبحانه ﴿هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ [النجم: 49] وهي كواكب قد عبدها بعض الصابئين، منهم أبو كبشة، أحد أجداد الرسول ﷺ لذلك يكنى بكنيته.

﴿وَأَنَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى﴾ [النجم: 50] لشركهم بالله، وصفهم بالأولى؛ لأنهم أول قوم أهلكهم الله بعد نوح، ﴿وَ﴾ أنه سبحانه أهلك ﴿ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ [النجم: 51] أحدًا من كلا الفريقين.

﴿وَ﴾ أهلك أيضًا بمقتضى قدرته الكاملة ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبل إهلاك عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: قوم نوح ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أي: أظلم الناس على أهل الله، وأطغاهم عن طريق الهداية والرشاد.

﴿وَ﴾ أنه سبحانه أهلك ﴿الْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: أهل القرى المنقلبة، وهي قوم لوط ﷺ إلى حيث ﴿أَهْوَى﴾ [النجم: 53] أي: أسقط عليهم دورهم وأماكنهم، بعدما رفعها نحو السماء، وقلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، ﴿فَغَشَّاهَا﴾ حينئذ ﴿مَا غَشَّى﴾ [النجم: 54] من أمطار الحجارة، وأنواع المصيبات والعاهات، والنكبات.

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ﴾ وأصناف نعمائه المتوالية المترادفة من انتقام الأعداء وإنعام الأولياء ﴿تَتَمَارَى﴾ [النجم: 55] وتتدافع على وجه الجدال والمراء، أيها المحجوب الجاحد لوحدة الحق واستقلاله في عموم تصرفاته الجارية في ملكه وملكوته، بكمال الإرادة والاختيار.

وبالجملة: اعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف المثمر للمعرفة والتوحيد أن ﴿هَذَا﴾ أي: رسولكم الذي أرسل إليكم من لدنا؛ ليرشدكم إلى توحيد الذات، مؤيدًا بالكتاب المبين لمقدمات التوحيد، مشتملاً على الأوامر المؤدية إليه والنواهي العائلة عنه، والعبر والتذكيرات المصفية لنفوسكم عن الركون إلى ما ينافيه من المزخرفات الدنية الجالبة لأنواع اللذات، والشهوات الجسمانية الموروثة لكم من شياطين نفوسكم، وقواكم البهيمية الظلمانية المتفرعة على الطبيعة، والهيولي التي هي من نتائج التعينات العدمية الناسوتية المانعة من الوصول لصفاء عالم اللاهوت ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم أكمل ﴿مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ [النجم: 56] إذ هم منذرون عن الشواغل المنافية؛ لتوحيد الصفات والأفعال، ونذيركم هذا ﷺ ينذركم عن موانع توحيد الذات.

واعلموا أنه بعد بعثته ﷺ: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾[1] [النجم: 57] أي: دنت القيامة واقتربت الساعة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: 58] أي: نفس قادرة على كشفها وتعيينها، ووقت وقوعها وقيامها؛ إذ هي من جملة المغيبات التي استأثر الله بها،

---

(1) أي: قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق، ووجدتَ مَن يُدخلك بحرَ الحقائق، ليس لها من دون الله كاشفة، لا يكشف لك هذه الحقائق إلا الذي منَّ عليك بصحبة مَن يدلك عليه. البحر المديد (186/6).

ولم يطلع أحدًا عليها.

ثم وبخ سبحانه على المنكرين ليوم القيامة المستكبرين عن قبولها فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الصحيح، والحق الصريح الذي هو القرآن المعجز ﴿تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: 59] تعنتًا وإنكارًا. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء ومراء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: 60] بما فيه من الوعيدات الهائلة، تلهفًا وتأسفًا على ما فرطتم لأنفسكم وأفرطتم عليها.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها الحمقى الجاهلون ﴿سَامِدُونَ﴾ [النجم: 61] لاهون ساهون، مستكبرون على ما فيه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، مكابرون عليها عتوًا وعنادًا.

وإن أردتم التلافي والتدارك ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وتذللوا له حق تذلله، وعظموه حق تعظيمه وتكريمه ﴿وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: 62] له حق عبادته كي تصلوا إلى زلال معرفته وتوحيده.

جعلنا الله من زمرة عباده العابدين المتذللين الخاضعين الخاشعين بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد - عصمك الله عن آفات التخمين والتقليد، وأعانك على التوكل والتجريد - أن تلازم على المجاهدة، والانكسار والتذلل، والافتقار بدوام العزلة والفرار عن أصحاب النخوة والاستكبار، صارفًا عنان عزمك لإسقاط عموم الإضافات والاعتبار، طالبًا الانخلاع عن ملابس الحياة المستعار، ملازمًا لسبيل الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة الأزلية السرمدية حتى تتخلص من أودية الضلال، وتصل إلى فضاء الوصال.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة القمر

لا يخفى على من ترقى من حضيض الإمكان، ووصل إلى ذروة وجوب الوجود، وتمكن بمقام الكشف والشهود، مجردًا عن جميع القيود المنافية لصرافة الوحدة الذاتية أن ظهور عموم الخوارق من المعجزات والكرامات، وأنواع الإرهاصات الصادرة من النفوس القدسية الواصلة إلى المبدأ الحقيقي، الفانية فيه، المضمحلة دونه، إنما هو بمقتضى الشئون الإلهية المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية.

ولا شك أن أفضل أرباب الوصول، وأكملهم إنما هو نبينا المتحقق بمرتبة الخلة والخلافة - صلوات الله عليه وسلامه - ولهذا صدر بشارته ﷺ ما صدر من المعجزات، سيما انشقاق القمر ليلة البدر بعد اقتراح المنكرين عليه بالآيات، وصار انشقاقه هذا أمارة من اقتراب الساعة الموعودة، كما أخبر سبحانه عنه بعدما تيمن باسمه العظيم، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بالقدرة الكاملة على عموم مقدوراته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بجميع مخلوقاته في النشأة الأولى بإفاضة الوجود عليهم بمقتضى الجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان، ينقذهم من منام الغفلة، ويوصلهم إلى مقام الوحدة، ويطلعهم على قيام الساعة والطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس الأغيار والسّوي مطلقًا.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ
۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ
ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ
يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ
۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا
وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: 1-10].

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ودنت القيامة الموعودة قيامها، ومن علاماتها: انشقاق القمر﴿وَ﴾ قد ﴿انشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1] بإشارة الحضرة الختمية المحمدية ﷺ، هذا وتواتر وقوعه.

﴿وَ﴾ المنكرون المصرون على الإنكار والتكذيب، المقيدون بعقال العقل الفضولي، المغلولون بأغلال الأحلام المشوبة بالخيالات والأوهام ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ معاينة دالة على كمال قدرة الصانع الحكيم، والقادر العليم، يُعْرِضُوا عنها؛ لعدم مطابقتها بعاداتهم، ومقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿وَيَقُولُوا﴾ من شدة إنكارهم وعنادهم: هذا الذي صدر منه على خلاف العادة ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 2] في الزمان، وقوعه لا مختلق منه فقط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَذَّبُوا﴾ الآية الخارقة للعادة ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ المعتادة الفاسدة، وآراءهم الباطلة الكاسدة ﴿وَ﴾ هكذا ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ رسخ، تمكن في نفوسهم، سواء كان خيرًا أو شرًا، طاعة أو معصية، ولاية أو عداوة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: 3] ثابت في مكانه بعدما تقرر وتمرن، لا يتعداه أصلاً.

﴿وَ﴾ من نهاية تمكنهم ورسوخهم في الكفر والعناد، وتمرنهم على الغيّ والفساد، لَقَدْ جَاءَهُم في القرآن المرشد لهم إلى الهداية والعرفان ﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ والأخبار الجارية على القرون الماضية، المصرة على العتو والعناد أمثالهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: 4] أي: وعيدات هائلة موجبة للانزجار الكامل، والارتداع المبالغ لأصحاب الغيرة والاستبصار.

إذ هي كلها ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ نهايتها في الإحكام والإتقان، ومع ذلك ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: 5] وما تفيدهم إنذاراتهم أصلاً؛ إذ هم مجبولون على الغواية المتناهية، أمثال هؤلاء الغاوين المصرين على العتو والعناد معك، وبالجملة: ﴿فَتَوَلَّ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن دعوتهم وإرشادهم، وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ وينادي ﴿الدَّاعِ﴾ المنادي هو إسرافيل - ودعاؤه كناية عن نفخه في الصور للبعث أو الحشر ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: 6] فظيع فجيع، تنكره النفوس؛ إذ لم يعهد مثله، وهو هول يوم القيامة المعدّة للحساب والجزاء.

وبعدما سمعوا النداء الهائل، والصداء المهول ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: شاخصة ذليلة، كالتائه الهائب الهائل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: قبورهم التي هم مدفونون

فيها في عالم البرزخ، ويتحركون على الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7] في الكثرة والانتشار إلى الأماكن.

فيتوجهون ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ المنادي، مادين أعناقهم نحوه، ومن شدة خوفهم وهولهم، ليعلموا لما يدعوهم، ومن شدة تلك الساعة، ونهاية أهوالها وفظاعتها ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ في نجواهم، وهواجس نفوسهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[1] [القمر: 8] صعب في غاية الصعوبة والفظاعة.

ثمّ قال سبحانه تسليةً لحبيبه ﷺ حين كذبه قومه، حاكيًا إياه ﷺ عن أحوال الماضين تسليةً وإزالةً لحزنه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: لا تحزن يا أكمل الرسل من تكذيب هؤلاء المكذبين بك، ولا تغتم من أذياتهم؛ إذ ما هي ببدع منهم بالنسبة إليك، بل تذكر تكذيب قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: كيف كذبوا أخاك نوحًا ﴿وَقَالُوا﴾ له حين دعوتهم إلى الإيمان: هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ مخبط، مختل العقل والرأي ﴿وَازْدُجِرَ﴾[2] [القمر: 9] وزجر؛ لأجل دعوته وتبليغه إياهم إلى حيث لطمه

---

(1) قال في عين الحياة: صعب شديد، لا قدرة لنا على دفع الداعي المسلطة علينا، ولا يسمع منا عذر ولا تنفعنا شفاعة، والله ما ذلك اليوم إلا يوم عسر عبوس، فالسعيد من أيقظ بهذه المواعظ وأقبل على الحق وأدبر عن الباطل، وترك الهوى واشتغل بعبادة المولى، وعلم أن الخروج من الدنيا والدخول في العقبى حتى كتبه الله على اللطيفة الإنسانية وتنعمها وتأملها أبد الآباد، سبب كسب البدن المكتسب الباقي في هذا البدن المجعول الفاني من جواهر المفردات السفلية، ولطائف المفردات العلوية الحقيقة فيها وقت الإيجاد صدق لا شك فيه، كما أن الفرخ المستكن في البيضة إذا تمت مودته الفرخية كيف يُقَشِّر قشر البيضة، والمجعول بتربية دجاجة الروح الإنسية ويطير في هوى الهوية، ويسرح في رياض الجنة القلبية، ويأكل من ثمار معرفة الربوبية، ويشرب من شراب الألوهية، وكل هذا يحصل للسالك في الدنيا بالموت الاختياري.

(2) قال في عين الحياة: يعني: ازدجر بين عشيرته القريبة؛ وهي القوى النفسية، فصار مجنونًا، وشاهدت هذا الحال في بداية أمري؛ إذ نسبني إلى الجنون والدي وعمي وجميع أقربائي وأحبائي، فلما اشتغلت بالذكر الخفي القوي ظهرت لي في الليلة الأولى شرارات نيران منورة من صدري حتى لحقت بالسماء، فلما فتحت العين وأبصرتهما معاينة قلت في نفسي: إن الذين يقولونه في حقي صدق، ما هذه المعاينة للشرارات في ظلمة الليل في جوف البيت المظلم إلا من فساد جذب في الدماغ؟ والقوى المكذبة النفسية يخوفون ويمنعونني عن الذكر، والقوى الشيطانية يشككونني في مشاهدة الآية البينة وقلبي كان غير ملتفت إلى أقوالهم، مشتغلاً بالذكر حتى طلع الصبح، فلما خرجت من البيت ودخلت المسجد لصلاة الجماعة ظهر فوق سجادتي

وعن يميني، وعن قبلتي كواكب درّية لا تحصى، فخفت عنها في الظاهر وأنست بها في الباطن، والقوى المشكلة الشيطانية والقوى المكذبة النفسية أيضًا يشوشونني ويأمرونني بترك الذكر، وأنا روعان من ألسن الناس أن أقفوه بما أشهده وأعاينه، وهذه المشاهدة حصلت لي أول ليلة اشتغالي بالذكر الخفي القوي، على وفق مذهب مشايخنا - قدس الله أرواحهم - وكنت قبل هذه الليلة مشتغلاً بكثرة الأوراد المأثورة، والأذكار اللسانية من أنواع التسبيحات والتهليلات، والتكبيرات والتحميدات، والصلاة والسلام، وكثرة الركعات والسجدات في الصلاة، وبالمجاهدات والرياضات، على وفق ما يعجبني مما حكي من المشايخ المتقدمة، ففي هذه الآية أخذت هذا الذكر القوي الخفي بشرط النفي والإثبات من أخ لي في الدين - رحمة الله - وكان من مريدي شيخنا - أطال الله بقاءه - فلما اشتغلت بالذكر ظهرت لي هذه الحالات، وما قلت له معه لخوفي عما يقولون، فلما ظننت الإشراق وظهرت لي الكواكب الدرّية، بحيث لا يحصى عددها ولا يوصف ضياؤها، قلت مع أخي شرف الدين هذه الأقوال، فاستبشر وتبسّم وقال: الحمد الله الذي هداك إلى هذه المشاهدة الغيبية والآيات الأنفسية، وإنا قد سلكنا سنة واحدة في حرم بيت الله الحرام، فبعد ذلك حصلت لنا هذه الشرارات على جبل عرفات، فأحسن الله إليك ووفقك لمشاهدة هذه الآيات في مدة قريبة، فالواجب عليك القيام بشكر الحق، والقيام بشكره هو أن تعتزل الناس وتشتغل بهذا الذكر على هذه الشريطة، فيفتح عليك باب القلب إن شاء الله تعالى، فاسترحت من القوى المكذبة والمتفككة، واشتغلت بعد ذلك بالذكر، واخترت العزلة والخلوة سنتين متابعتين حتى جلت بعد هذه المدة في خلق الأربعين الموسوية، وفتح الله بلفظ على قلبي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلكت الطريق على الترتيب من العبور على قوى القالبية على وفق دعوة اللطيفة الآدمية، ثم على القوى النفسية على وقف دعوة اللطيفة النوحية، ثم على القوى القلبية على وفق اللطيفة الإبراهيمية، ثم على القوى السرية على وفق دعوة اللطيفة الموسوية، ثم على القوى الروحية على وفق دعوة اللطيفة الداودية، ثم على القوى الخفية على وفق دعوة اللطيفة العيسوية، ثم على القوة الخفية المودعة في جميع القوى على وفق دعوة اللطيفة الخفية؛ وهي الدعوة المحمدية، دعا الناس بها ﷺ وسمعت من جميع القوى من التكذيب والتشكيك في أمر اللطائف وإنكارهم دعوتهم وكفرهم بربهم ما لا يمكن كتابة عشر عشره في المجلدات، ومقصودي من كتابة هذه الحالة الواحدة التي تظهر في البداية للسالك؛ هو أن يعلم الرجل المطالع هذا الكتاب المسمى بـ«نجم القرآن»؛ وهو المزيل للتفسير النجمي الذي كتبه الموفق نجم الدين داية الأسدي الرازي - شكر الله سعيه - من أول القرآن إلى سورة النجم، فلما وصل إلى سورة النجم قال: يكون عجب أن يأذن الله لي في الشروع في النجم وإتمامه، فإذا وصل إلى النجم وشرع ومرض وعرج بنجمه المنير من أرض البشرية إلى سماء الربوبية وألهمنا الله تعالى إتمام تفسيره، والتفسير المكتب بخطه الشريف تسع مجلدات، وهذا المزيل مجلد واحد؛ ليكون معشرة كاملة خفية، ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «إن للقرآن ظهرًا وبطنًا...»، ويؤمن ببطنه كما أمن بظهره، ولا يشك فيما أشرنا إلى

كلُّ من يصل إليه، ورماه بالحجارة كل من يمر عليه، فصبر على أذاهم، وبالغ في دعوته إياهم.

وبعدما بلغت الأذية غايتها ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ دعاء مؤمل ضريع فجيع: ﴿أَنِّي﴾ أي: بأني - على قراءة الفتح - أو قال: إني بالكسر ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي، ولم يقبلوا مني دعوتي وهدايتي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: 10] عليَّ يا ربي، وانتقم لي منهم، وما دعا عليهم إلّا بعد يأسه عن إيمانهم.

رُوي أنه يدعو كل واحد منهم جمعًا وفرادى، فيضربونه ويخنقونه حتى خر مغشيًا عليه، ثمّ لما أفاق قال: «اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون»[1].

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧) ﴾ [القمر: 11-27].

وبعدما قنط، وبلغ الزجر غايته تضرع نحونا، مشتكيًا من قومه ﴿فَفَتَحْنَا﴾

تكذيب القوى للآيات الأنفسية وإنكارهم اللطائف المرسلة وآياتهم الخفية؛ لئلا يشقي عند مطالعة هذا الكتاب بإنكاره الآيات البينات التي شاهدها كاتبها مرارًا، غير معدودة من بداية اشتغاله بالسلوك إلى هذا الوقت الذي ألهم كتابة هذه الآيات ومقدار زمان اشتغاله بالذكر، هذا الذي وصفته لك، فقس بواقي الآيات عليها؛ لأن الخبير يقنعه القليل من الكثير، ولا يزيد للبليد إظهار الآيات إلا الإنكار بالتقليد.

(1) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (164/2، رقم 1447) وقال: مرسل.

لانتقامهم وهلاكهم ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: 11] منصب، كأنه يجري من جانب السماء.

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: فجرنا عيون الأرض، وصيرناها كأنها عيونًا كلها ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ الحاصل من كلا الجانبين، وبلغا ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ حال واحد ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12] أي: قدره الله في حضرة علمه وقضائه؛ لإهلاك أولئك الطغاة البغاة.

﴿وَ﴾ بعدما طغى الماء، وطاف حول الأرض ﴿حَمَلْنَاهُ﴾ أي: نوحًا ومن تبعه ﴿عَلَى﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أخشاب عراض ﴿وَدُسُرٍ﴾ [القمر: 13] مسامير طوال ﴿تَجْرِي﴾ السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وكنف حفظنا وحضانتنا.

وإنما فعلنا مع نوح وقومه ما فعلنا؛ ليكون ﴿جَزَاءً﴾ حسنًا له ولمن آمن به، وسيئًا ﴿لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: 14] بنعمة هدايته وإرشاده، ولم يؤمن بدينه، ولم يصدقه في تبليغه.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾ أي: السفينة والفعلة التي فعلناها مع المكذبين لرسلنا، المجترئين علينا بالإنكار والكفران ﴿آيَةً﴾ دالة على قدرتنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 15] يتذكر بها، ويعتبر منها.

وبالجملة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ للمنكرين المصرين على الإنكار والتكذيب ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر: 16] أي: إنذاري وتخويفي على من يعتبر منهم، ومما جرى عليهم من العقوبات.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ وسهلناه ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: لأنواع التذكيرات والمواعظ، والعبر والأمثال ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17] يتعظ به، ويتذكر مما فيه ويعتبر.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ كذلك هودًا عليه السلام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر: 18] وإنذاري لمن بعدهم بما جرى عليهم.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى عظيم قهرنا وجلالنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين أردنا انتقامهم وإهلاكهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردًا، شديد الجري والصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾[1] شؤم

(1) قال في عين الحياة: منقطع من مكانه ساقط أرض البشرية لميلانه إلى الهوى، وإشارته إلى النخل في هذا المقام كانت لحكمه؛ وهي أن النخل أفق النباتات القريبة إلى حد الحيوان، واعلم أن الأيام سبعه، فبإزاء كل مفردة سفلية وعلوية، فالسبت يوم التراب، والأحد يوم الماء، والإثنين

منحوس ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: 19] شؤمه ونحوسه عليهم إلى أن يستأصلوا بالمرة.

ومن شدة جريها وحركتها ﴿تَنزِعُ﴾ وتقلع ﴿النَّاسَ﴾ عن أماكنهم، مع أنهم دخلوا في الحفر، وتشبثوا بالأثقال ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصول نخل ﴿مُنقَعِرٍ﴾ [القمر: 20] منقلب عن مغارسه، ساقط على الأرض، موتى بلا روح.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ [القمر: 21] أي: بمن بعدهم.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي: سهلنا وأنزلنا ﴿الْقُرْآنَ﴾ المعجز ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 22] متذكر، يتعظ به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 23] أي: الإنذارات الصادرة من لسان صالح عليه السلام بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَقَالُوا﴾ في تعليل تكذيبهم على الرسول: ﴿أَبَشَرًا﴾ ناشئًا ﴿مِّنَّا﴾ أي: من جنسنا ﴿وَاحِدًا﴾ منفردًا، لا تبع له ولا رهط ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ نؤمن به ونقاد له، مع أنه لا مزية له علينا، لا بالحسب ولا بالنسب، والله ﴿إِنَّا﴾ إن فعلنا هكذا ﴿إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ﴾ عظيم، وغواية بعيدة عن مقتضى العقل والدراية ﴿وَسُعُرٍ﴾ [القمر: 24] أي: كنا في جنون عظيم بمتابعة هذا المرذول المفضول.

ثمّ استفهموا على شدة سبيل الإنكار والاستهزاء، والاستبعاد والمراء: ﴿أَؤُلْقِيَ

يوم الهواء، والثلاثاء يوم النار، والأربعاء يوم النور، والخميس يوم الحياة، والجمعة يوم الوجود، وبياضية جوهرية صور هذه المفردات يومها، وسوادية مادية قابلية هذه المفردات إليها، وكشف سر أيامها ولياليها يتعلق بحد القرآن، واعلم لطيفة أخرى في خصوصية كل يوم من الأيام بلطيفة من اللطائف السبع، فالسبت مختص باللطيفة القالبية الآدمية، والأحد مختص باللطيفة النفسية النوحية، والإثنين مخصوص باللطيفة القلبية الإبراهيمية، والثلاثاء مخصوص باللطيفة السرية الموسوية، والأربعاء مخصوص باللطيفة الروحية الداودية، والخميس مخصوص باللطيفة الخفية العيسوية، والجمعة مخصوص باللطيفة الخفية المحمدية؛ ولأجل هذا استوى الرحمن على عرش الجمعة، واستوت الأيام الستة على عرش الجمعة، كما أشار إلى هذا السر في كلامه المجيد، حيث قال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:54]، واعلم أن عرش حكمته القالب الشهادي، وعرش قدرته اللطيفة القالبية، وعرش إرادته اللطيفة النفسية، وعرش علمه اللطيفة القلبية، وعرش كلامه اللطيفة السرية، وعرش بصره اللطيفة الروحية، وعرش علمه اللطيفة الخفية، وعرش حياته اللطيفة الخفية التي كانت اللطائف بها قائمة.

﴿الذِّكْرُ﴾ الوحي والكتاب من السماء ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ من كمال رذالته ورداءته، والحال أن فينا من هو أحق به، وأولى منه، وبالجملة: ما هو بمقتضى حلمه إلّا مجنون مخبط، مختل العقل والرأي ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ متبالغ في الكذب والافتراء، غايته ﴿أَشِرٌ﴾ [القمر: 25] بطر، متناه في الشرارة، يريد بافترائه واختلافه هذا أن يتكبر علينا، ويتفوق بنا، مع كمال تناهيه في الرثاثة والرذالة، وبالجملة: ما هو إلّا من كمال بطره وشرارته.

وهم يقولون في حقه ما يقولون من أمثال هذه الهذيانات والمفتريات الباطلة، إلّا أنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين نزول العذاب العاجل والآجل ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: 26] البطر المباهي ببطره، حيث أعرض عن الحق، وأصرَّ على الباطل اغترارًا، أصالح هو أم من كذبه، وأنكر عليه قوله؟!

ثمّ قال سبحانه لنبيه صالح عليه السلام بعدما بالغوا في العتو والعناد، واقترحوا منه بإخراج الناقة من الصخرة تهكمًا وتعجيزًا: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال قدرتنا وقوتنا ﴿مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ ومخرجوها من الصخرة، وباعثوها ﴿فِتْنَةً﴾ عظيمة، واختبارًا ﴿لَّهُمْ﴾ وأوصاهم في شأنها ما لأوصاهم ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يا صالح، وانتظر ماذا يفعلون بها ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: 27] على أذياتهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر: 28-44].

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبرهم وأعلمهم بوحي منا ﴿أَنَّ الْمَاءَ﴾ الذي به معاشهم ومعاش مواشيهم ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: مقسومة بين الناقة وبينهم، ومواشيهم لها يوم، ولهم يوم

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: 28] أي: كل صاحب شرب، يحضر الماء في يومه، ولا يحضره غيره فيه.

ثمّ لما صاروا على هذه القسمة زمانًا، اضطروا وتضجروا ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف، فتشاوروا معه في أمر الناقة، واضطرارهم ومواشيهم في هذه القسمة ﴿فَتَعَاطَى﴾ وأخذ سيفه قدار مغاضبًا، وكان من أجرأهم على الخطوب، وأشجعهم على الوقائع ﴿فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29] أي: قدار، الناقة.

ولم يبال بالقسمة الإلهية ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ يعني: انظر كيف وقع ﴿عَذَابِي﴾ عليهم ﴿وَ﴾ لحق ﴿نُذُرِ﴾ [القمر: 30] إياهم، بعدما عقروا الناقة.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وغضبنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هائلة مهولة ﴿فَكَانُوا﴾ إثر سماع تلك الصيحة الهائلة ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: 31] أي: مثل الأشجار اليابسة البالية في حظائر الأموات، تتناثر أجسامهم كالتراب.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ المشتمل على أنواع الرشد والهداية ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والعظة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 32] يتذكر ويهتدي بهدايته وتذكيره.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ أيضًا أمثال أولئك المذكورين ﴿بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 33] أي: الإنذارات الواردة عليهم بلسان نبيهم لوط ﷺ.

وبعد إصرارهم على تكذيبه وإنكاره ﴿إِنَّا﴾ من شدة قهرنا وغضبنا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من جانب السماء ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا شديدًا صرصرًا عظيمة، ترميهم بالحصباء؛ أي: الأحجار الصغار إلى أن هلكوا بالمرة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ هو لوط ﷺ وبنتاه ﴿نَّجَّيْنَاهُم﴾ من هذه الواقعة الهائلة، والكرب العظيم ﴿بِسَحَرٍ﴾ [القمر: 34] وقت الصبح.

وإنما نجيناهم ﴿نِّعْمَةً﴾ واصلة ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ إياهم، ورحمة شاملة من لدنا عليهم؛ بسبب إيمانهم وعرفانهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما فعلنا مع آل لوط ﴿نَجْزِي﴾ بمقتضى جودنا عموم ﴿مَن شَكَرَ﴾ [القمر: 35] لنعمنا، ولم يكفر بموائد كرمنا.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ﷺ بوحي منا إياه ﴿بَطْشَتَنَا﴾[1] وأخذنا إياهم؛

(1) قال علاء الدولة: البطشة ثلاث بطشات، مثل الطامة، والنار كبرى ووسطى وصغرى، فالبطشة

بسبب فعلتهم القبيحة، وديدنتهم الشنيعة ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 36] أي: كذبوه على إنذاراته ووعيداته مراءً ومجادلة، واستهزاءً معه وبعموم ما أوحينا إليه من الوعيدات والإنذارات.

﴿وَ﴾ من شدة مرائهم معه، واجترائهم ﴿لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وترددوا حول بيته، وقصدوا فجور أضيافه، ويمموا على تفضيحهم ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ومسخناها، وصيرناها مستوية مع وجوههم، فصاروا ممسوحي العيون.

رُوي أنهم لما دخلوا عنوة في داره، صفقهم جبريل صفقة، فأعماهم دفعة ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: فقلنا لهم حينئذٍ: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 37] المنذر به على لسان نبينا لوط عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ ولحق بهم ﴿بُكْرَةً﴾ قريبة من الصبح ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: 38] مستمر عليهم إلى أن يستأصلهم ويسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾ أي: قلنا لهم حينئذٍ: ذوقوا عذابي أيها المفسدون المسرفون﴿وَ﴾ ذوقوا ﴿نُذُرِ﴾ [القمر: 39] أي: أيها المنكرون المكذبون.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ المبين أنواع الوعيدان الهائلة، الجارية على أصحاب السرف والعناد ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للعبرة والعظة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 40] معتبر متعظ متيقظ، يعتبر من وعيدات القرآن وإنذاراته، وما ذكر فيه من الحكايات.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: 41] أي: الإنذارات الواردة منا على كليمنا موسى المؤيَّد من لدنا بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

وبالجملة: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة من عندنا كلها بعد اقتراحهم بها، وإلحاحهم عليها، ونسبوها إلى السحر والشعبذة، وأنواع الخرافات الباطلة، البعيدة عن شأنها

الكبرى، والطامة الكبرى، والنار الكبرى، إذا أخذت المرء فلا يمكن الخلاص منها، وأما الوسطى فيمكن بالشفاعة وبعض الأعمال الصالحة وإن كانت مغلوبة، وأما الصغرى فإذا ظهرت للسالك يزيد إيقانه ويظهر له نشاطًا في سلوك الطريقة، وتحرضه على التوجه الكلي إلى الله يشرف بالتجليات بعد هذه الحالات، ولله بطشة خفية في كل لمحة، وطامة جلية في كل بطشة، ونار مضيئة مشرقة في كل طامة، وساعة وقائمة في كل نار، وواقعة خافضة في كل ساعة لا يشاهدها إلا الأقطاب الأربعة؛ وهم: العالم العلوي والسفلي.

﴿كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وانتقمنا عنهم بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب لا يغالب مطلقا ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 42] كامل في القدرة، بحيث لا يعجز عن مقدور قط، واستأصلناهم إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

ثمّ خاطب سبحانه كفار مكة على سبيل التوبيخ والتهديد، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل مطلقًا ﴿مِّنْ أُوْلَائِكُمْ﴾ الكفار المعدودين المذكورين وجاهة وثروة، مالاً ومظاهرة، مكنة ومكانة، ثمّ إنكم لستم أمثالهم، وهم من شدة قوتهم وشوكتهم، ما نجوا من عذاب الله، أتنجون أنتم ﴿أَمْ﴾ نزل ﴿لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 43] السماوية والكتب الإلهية، إن من كفر منكم، وخرج عن مقتضى الحدود الإلهية، فهو ناج من عذاب الله بريء عن انتقامه؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ من كمال حماقتهم، وركاكة رأيهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: 44] أي: نحن جماعة مجتمعون متفقون، أمرنا واحد، رأينا متفق، ننصر وننتصر بعضنا ببعض، بحيث لا نغالب ولا نرام أصلاً.

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: 45-55].

ومن كمال بطرهم وغرورهم يقولون هذا، ولم يعلموا أنه ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي: يفرق جنس الجموع على وجه الهزيمة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45] أي: ينصرف كلٌّ منهم عن عدوه مستدبرًا إياه في الدنيا.

﴿بَلِ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ العظيم؛ لتعذيبهم وتفضيحهم الحقيقي الأصلي، المعنوي والصوري، وما عرض عليهم في الدنيا، فمن مقدمات ما سيلحقهم من العقبى﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿السَّاعَةُ﴾ والعذاب الموعود فيها، والساعة ﴿أَدْهَىٰ﴾ أشد وأفظع، ودواهيها لا دواء لها، ولا نجاة منها ﴿وَأَمَرُّ﴾ [القمر: 46] مذاقًا من عذاب الدنيا، بل بأضعافه وآلافه.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المتصفين بالجرائم المستلزمة للخروج عن الحدود الإلهية، وعن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة من عنده ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق وأهله في العاجل ﴿وَسُعُرٍ﴾ [القمر: 47] نيران مسعرة لهم، معدّة لهم في الآجل.

اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ويجرون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ صاغرين مهانين، فيقال لهم حينئذٍ: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المسرفون المفسدون ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 48] أي: مساس جهنم، وشدة حرها وُحرقها، بدل ما يتنعمون في دار الدنيا بلذاتها الشهية، وشهواتها البهية البهيمية.

وكيف لا نُدخل المجرمين في دار القطيعة، ولا نسحبهم نحوها مهانين، فإنهم قد خرجوا عن مقتضى تدابيرنا وأوضاعنا الناشئة منا على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة المعتدلة؟! ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال علمنا، وشمول قدرتنا وإرادتنا المقتضية للحكم والمصالح، خلقنا وأظهرنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ وأظهرناه من كتم العدو مقرونًا ﴿بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] أي: بمقدار نقدره في حضرة علمنا، ولوح قضائنا، ونرتب على المقدار المقدر وجود المقدور المخلوق، فنظهره على وفقه.

﴿وَ﴾ تستبعدوا من حيطة حضرة علمنا، وقدرتنا الكاملة، تفاصيل عموم المظاهر والمخلوقات، وترتب وجوداتها على مقاديرها المقدرة لها في لوح قضائنا؛ إذ ﴿مَا أَمْرُنَا﴾ وحكمنا الصادر المبرم منا في السرعة والمضاء، بالنسبة إلى عموم الكوائن والفواسد الواقعة في عموم الأزمة والآناء، بل بالنسبة إلى جميع الخواطر والخواطف الواردة على القلوب، وإلى جميع الاختلافات الواقعة في حركات العروق الضوارب في هياكل الهويات، بل بالنسبة إلى ما في الاستعدادات والقابليات ﴿إِلَّا﴾ فعلة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بلا ترتب وتراخ، وتوقف ومهلة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50] أي: كنظرة سريعة بالطرف، هيهات هيهات، والله ما هذا التمثيل لسرعة نفوذ القضاء الإلهي إلّا بحسب أحلام الأنام، وبمقتضى أفهامهم وأوهامهم السخيفة، وإلّا فلا يكتنه سرعة قضائه أصلاً، حتى يمثل ويشبه.

ثمّ قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: وكيف لا تخافون أيها المسرفون المفرطون عن شدة بطشنا وانتقامنا ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ واستأصلنا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم وأمثالكم في الكفر والعناد، وأنواع الفسوق والفساد، بأصناف العقوبات والبليات الهائلة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 51] متذكر، يتعظ بإهلاكهم وهلاكهم، وبما جرى

عليهم من الشدائد؟!

﴿وَ﴾ كما عذبناهم بجرائمهم وآثامهم في النشأة الأولى كذلك، بل بأضعافها وآلافها، نعذبهم في النشأة الأخرى أيضًا بها؛ إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ فيما مضى، وصدر عنهم في النشأة الأولى محفوظ مثبت ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 52] أي: في مكاتب الحفظة المراقبين عليهم في عموم أحوالهم وأطوارهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يحفظ؛ إذ ﴿كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ وقليل وكثير على التفصيل ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: 53] مسطور على التفصيل في اللوح المحفوظ أولاً، وفي صحائف أعمالهم ثانيًا، وبالجملة: لا يعزب عن حيطة علمه شيء من أعمالهم وأقوالهم، وأطوارهم وأحوالهم مطلقًا. ثمّ عقب سبحانه وعيد المجرمين بوعد المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن المحرمات والمنهيات، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿وَنَهَرٍ﴾ [القمر: 54] جداول جاريات، متنشئات من بحر الحياة اللدنية المتجددة حسب تجددات دار التجليات الإلهية، متمكنون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ هو مقام التسليم والرضا بمقتضيات القضاء ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ يملكهم ويتكفل بأمورهم، وجميع حوائجهم ﴿مُقْتَدِرٍ﴾[1] [القمر: 55] على تدابيرها بمقتضى

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: موضع الحكمة عند القدرة وفيه أسرار رحمته، أشرح لك نبذة نستفيد منها ما يهز به عطف إرادتك لطلب، اعلم أن مفاتيح الغيب، ومقعد الصدق، وأم الكتاب عنده في عالم الجبروت، وهي مظاهر جبروتية لصفات لاهوتية؛ وهي: الحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والعلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، وجواهر الملائكة الأربع، والعناصر الأربعة في الملكوت، مظاهر لمظاهر الصفات الجبروتية، وقال الإنسان المنفوخ فيه الروح مظهر لمظاهر الصفات الملكوتية؛ التي هي مظهر لمظاهر الصفات الجبروتية؛ التي مظاهر الصفات اللاهوتية، وقال الإنسان ناسوتي، وبه يتم أمر الحكمة وهو أنت، فانظر إلى نفسك لترى آيات أفعال الحق، وادخل في نفسك تشاهد آيات صفات الحق، وأصقل مرآة نفسك لتشرف بمشاهدة جمال الحق، وارحم لنفسك بنفسك في نفسك ولا تضع قدمك خارجًا من حرم نفسك؛ لأنها بيت الحرام وكعبة الأمان ودار السلام، وفيها الجنة والرضوان والروح والريحان؛ لئلا تضل في بادية الجريان بالخيبة والخسران، فالعالم بأسره ملكه وملكوته، وغيبته وشهادته، وأنفسه وآفاقه إنسان صغير، والإنسان عالم كبير، فالويل لمن ترك الكبير للصغير، وحقير من يقنع بالقليل من الكثير، اللهم ارفع همتنا بطلب الملك القدير، ووفقنا لمتابعة حبيبك المنير، البشير النذير للخير والشر به ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحكمة المتقنة.

جعلنا الله من زمرة المتقين، المتمكنين في مقعد الصدق عند المليك المقتدر، العليم الحكيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد للتمكن في مقعد الصدق، والمتحقق في مرتبة اليقين الحقي - وفقك الله الوصول إلى غاية مقصدك ومرامك - أن تنقي نفسك عن مطلق المحظورات والمنهيات، المنافية لسلوك طريق الحق والتوحيد من الرياء والرعونات، المنتشئة من ظلمات الطبيعة والهيولي المتفرعة على التعينات العدمية، المستلزمة للكثرة الوهمية المنافية لصرافة الوحدة الذاتية الإلهية، وتلازم العزلة والفرار عن الدنيا الدنيّة وأمانيها مطلقًا، وتقنع منها بضرورياتها المقومة لهيكل هويتك الظاهرة لمصلحة المعرفة والتوحيد، حتى يتيسر لك الوقوف بين يدي ملك مقتدر، موحد في الوجود والقيومية.

ثبتنا بلطفك على نهج اليقين والتمكين، وجنبنا بجودك عن أمارات التخمين والتلوين، يا ذا القوة المتين.

سورة الرحمن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الرحمن

لا يخفى على من تحقق بفسحة قلب الإنسان المصور على وسعة عرش الرحمن أن حكمة خلق الإنسان على فطرة المعرفة والإيمان، وتعلم القرآن عليه، إنما هو للتبيان والبرهان على ثبوت خلافته ونيابته للحق، وتنبيهه برفعة درجة علو شأنه ومكانته بين عموم الأكوان الكائنات.

لذلك قال سبحانه في مقام الإنعام والامتنان عليه تنبيهًا له وتعليمًا بعدما تيمن باسمه الأعز الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على قلب الإنسان؛ لينكشف له ذاته سبحانه، وكمال أسمائه وصفاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بترجمان اللسان والبيان المعرب عما في قلبه؛ ليرشد غيره بما هو عنده، ويسترشد منه ﴿الرَّحِيمِ﴾ المنزل عليه القرآن المبين له طريق توحيد الحق وعرفانه.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ ﴾ [الرحمن: 1-16].

﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الرحمن: 1] أي: الذات المحيطة بعموم الأعيان بالرحمة العامة الواسعة، وبمقتضى سعة رحمته، ووفور لطفه ورأفته.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: 2] لنوع الإنسان، ونزّل على خاصة خلقه، ليكون

مبينًا لهم سبيل الكشف والعيان، ونهج التوحيد والعرفان.

مع أنه لما ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن: 3] سبحانه؛ لأجل هذا الشأن البديع البرهان، ولهذه الحكمة والمصلحة أيضًا بعينه.

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 4] أي: التنطق والتكلم بلغات شتّى، وعبارات لا تُحصى؛ ليستفيد من منطوقات الألفاظ ما هو معناها، ويتفطن منها إلى ما هو مغزاها ومرماها، وغاية قصواها، ألا وهي المعارف والحقائق، والحكم والأسرار الإلهية المودعة المكنونة في مطاوي حروف المصاحف، والكلمات الحاصلة من مقاطع الأصوات المتكونة من لوازم الحياة الحقيقية المترتبة على النفسات الرحمانية، والنفثات اللاهوتية الثابتة للوجود المطلق حسب تجليات الذات الإلهية، وعلى مقتضى الأسماء والصفات الذاتية الكامنة فيها، المتجلية عليها بمقتضى الشئون والكمالات الغير المتكررة إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبدًا؛ ليظهر للإنسان سر الظهور والبطون، والغيب والشهادة الواردة على الوحدة الذاتية الإلهية.

ولهذه المصلحة أيضًا ظهر في العلويات ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[1] [الرحمن: 5] أي: يجريان ويدوران بحساب مقدر من عنده سبحانه، معلوم في حضرة علمه؛ ليكونا دليلين شاهدين على ظهور مرتبتي النبوة والولاية المقتبسة من مشكاة النبوة، المتفرعة على العدالة الذاتية الإلهية.

﴿وَ﴾ أيضًا أظهر في السفليات لتلك المصلحة العليّة ﴿النَّجْمُ﴾ أي: النبات الذي لا ساق له ﴿وَالشَّجَرُ﴾ وهو الذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] يخضعان ويتذللان له سبحانه دائمًا من كمال الإطاعة والانقياد.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿السَّمَاءَ﴾ أي: عالم الأسباب والأقدار ﴿رَفَعَهَا﴾ في أعلى

(1) قال علاء الدولة: يعني: شمس النبوة وقمر الولاية على فلك وجود الإنسان، يدور بالحساب في الدائرة الأزلية والأبدية على قطب نقطة نون الرحمن، ولا يكشف هذا السر حتى يفهم قوسيته صورة في البياض والسواد، وإيصال دائرة الأزل إلى الأبد عند نزعة بواسطة وترواء والولاية القائمة بألف الاسم الأعظم، وسر سين السهم الأسمى الذي لأجله ظهر قوس النون، ووتر الواو، وألف الاسم؛ وهو آخر حروف القوس وبه تتصل دائرة الأزل بالأبد، وبه يتم التدبير وحكمه الرجوع وحصول الصيد المقصود من إيجاد وجود كل موجود، والشروع في تحقيقه يلزم الشروع في بيان حد القرآن مما لست مأذونًا في إفشائه.

المكان والمكانة ﴿وَوَضَعَ﴾ فيها ﴿المِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7] المعتدل المنبئ عن القسطاس المستقيم الإلهي الواقع بين الأسماء والصفات الذاتية، وعين المقادير والآجال المقدرة لجريها، ورتبها على دورها وانقلاباتها الواقعة فيها على وفق الحكمة المترتبة على العدالة الإلهية.

وإنما رتبها على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ أي: لئلا تعتدوا وتتجاوزوا أيها المجبولون لمصلحة التكليف والعرفان، على مقتضى الوحي الإلهي المترتب على الحكمة البالغة المتقنة في الأرض ﴿فِي المِيزَانِ﴾ [الرحمن: 8] الموضوع بمقتضاها، ألا وهي الشرع الشريف.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم حال العلويات والسفليات، وما فيهما من الموازين المعتدلة الموضوعة بالوضع الإلهي ﴿أَقِيمُوا﴾ أيها المكلفون فيما بينكم ﴿الوَزْنَ﴾ واعتدلوه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والإنصاف ﴿وَلاَ تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿المِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9] إذ هو موضوع على العدل السوي.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿الأَرْضَ﴾ إنما ﴿وَضَعَهَا﴾ ومهدها سبحانه ﴿لِلأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10] ليعتدلوا عليها، ويستقيموا عموم أخلاقهم وأطوارهم فيها، حتى يستعدوا لأن يفيض عليهم طلائع سلطان الكشف والشهود، فيفوزوا بمقر التوحيد، ويتمكنوا في مقعد الصدق والتفريد.

لذلك أعدّ لهم سبحانه تفضلاً عليهم وتكريمًا: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة يتفكهون بها، من أنواع الفواكه تقويمًا لأمزجتهم، وتقويةً لها ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿النَّخْلُ﴾ التي هي ﴿ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: 11] والأوعية المشتملة على التفكه والتقوت لسائر الأغراض الحاصلة منها.

﴿وَالْحَبُّ ذُو العَصْفِ﴾ «والحبُّ» أي: وكذا أعدّ لهم فيها جنس الحبوب التي يتقوت بها نوع الإنسان منها «ذُو العصف»: ذا العصف؛ أي: التين والقشور؛ إذ هو محفوظ فيها، مربي معها إلى أن يستوي وينضج، فيتقوت بحبّه الإنسانُ، وبعصفه المواشي ﴿وَ﴾ كذا ظهر لهم فيها بمقتضى جوده ﴿الرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: 12] أي: جنس الرياحين المشمومة المقوية لدماغ الإنسان، المصفية له عن الروائح الخبيثة، والنفحات الكريهة.

ثمّ لما عدّ سبحانه نبذًا من نعمه الشاملة على عموم الأنام، خاطب المكلفين

منهم على سبيل الامتنان، وهم الثقلان المجبولان على فطرة التوحيد، واستعداد الإيمان والعرفان، فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا﴾ ونعماء موجدكما ومربيكما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 13] أيها المغموران في نعمه، المستغرقان في بحار جوده وكرمه.

وكيف يسع لكما الكفران لنعم الله، والطغيان عليه سبحانه، مع أنه ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ المصور بصورة الرحمن، وقد خلقه ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابس له صلصلة وصوت ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14] أي: الخزف المتخذ من التراب، الموقد بالنار، ومع دناءة منشئه ومادته، رفعه إلى حيث جعله خليفةً للحق، نائبًا عنه، ومرآة مجلوة قابلة لفيضان كمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَخَلَقَ الجَانَّ﴾ أي: الجن، وقدر وجودهم ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من دخان صاف حاصل ﴿مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: 15] موقدة ملتهبة مشتعلة على وجه الحركة والاضطراب، ومع رداءة مادتها وكثافتها، جعله شبيهًا بالملأ الأعلى، متصفًا بها في كمال اللطافة والصفاء إلى حيث لا يرى أشبحهم كالملائكة.

وإذ كان شأن الحق معكما هكذا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 16] وتنكران أيها الثقلان.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾
بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾
يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ
أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ
أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾
يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا
انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن

﴿ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ [الرحمن: 17-40].

وكيف يليق بشأنه سبحانه الإنكار والتكذيب، مع أنه سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: مشرقي الظهور والبروز من عالم العماء واللاهوت إلى فضاء الأوصاف والأسماء المسمى: بالغيب والأعيان الثابتة، ثمَّ منها إلى عالم الشهادة في السير الهابط ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17] أي: مغربي الخفاء والبطون عن عالم الناسوت إلى برزخ الأعيان الثابتة، ثمَّ عنها إلى عالم اللاهوت في السير الصاعد؛ إذ يتوالد دائمًا على شمس الحقيقية الحقية الذاتية، باعتبار تجلياتها حسب أسمائها وصفاتها، شروق وأفول، وطروق طلوع وغروب؟!

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 18] أيها المظهران الكاملان المجبولان على فطرة الشعور والعرفان.

ومن أنى يتأتى التكذيب في شأنه سبحانه؛ إذ هو بمقتضى قدرته ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسل وأطلق بحر الوجود والعدم إلى حيث ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: 19] أي: يتمازجان ويختلطان، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عن الكشف والشهود؟!

ويبقى ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عنايةً منه سبحانه ﴿بَرْزَخٌ﴾ هو الإنسان الكامل المنكشف بكيفية انبساط بحر الوجود العذب على بحر العدم المالح، وامتداده عليه وانطباق سطوحهما، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عين العبرة، وبصر البصيرة، وجعل سبحانه برزخ الإنسان الكامل على مقتضى الحكمة المعتدلة، بحيث ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 20] أي: لا يبغي ويغلب كلّ من يجري الوجود والعدم على صاحبه في مرتبته ونشأنه، حتى يبطل حكمة الظهور والبطون، والجلاء والخفاء، والإلوهية والعبودية، وسائر المتقابلات المترتبة على الشئون الإلهية المتفرعة على الأسماء الذاتية.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 21] أيها المكلفان المعتبران.

وكيف لا تعتبران، ولا تشكران نعمه، مع أنه ﴿يَخْرُجُ﴾ حسب عنايته الأزلية ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من البحرين المذكورين ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 22] أي: يخرج لكما أيها الثقلان المجبولان على فطرة الإيمان، من امتزاج البحرين المذكورين، لآلئ المعارف والحقائق، ومرجان الشهود والإيقان؟!

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 23] أيها الممنونان المغموران، المستغرقان في موائد كرمه.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه تفضلاً على عباده، وامتنانًا لهم ﴿الْجَوَارِ﴾ أي: سفن الملل والأديان المنزلة من عنده سبحانه على عموم الرسل والأنبياء؛ ليرشدوا بها أممهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿الْمُنشَآتُ﴾ المصنوعات المستحدثات ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ أي: بحر الوجود ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: 24] أي: كالرواسي العظام التي يعلم ويشار بها للتائهين في بيداء الوجود، الضالين في صحراء الجحود، إلى جادة اليقين والعيان.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 25] أيها المكلفان.

وبالجملة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على أرض القوابل والهيولى من التعينات المستتبعة لأنواع الإضافات، الحاصلة من تموجات بحر الوجود وتجلياته بمقتضى الكرم والجود، إنما هو ﴿فَانٍ﴾ [الرحمن: 26] لا وجود، ولا تحقق لها في ذواتها أصلاً، سوى أنها انبسط عليها أظلال الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَ﴾ بعد فناء نقوش الأمواج والأظلال بأسرها ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل بمقتضى صرافة وحدته، مستغنيًا في ذاته عن عموم مظاهره ومخلوقاته؛ إذ هو سبحانه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(1) [الرحمن: 27] لا يشارك في وجوده، ولا ينازع في سلطانه، فمآل الكل إليه، كما أن مبدأه منه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وإذ كان شأنه سبحانه هذا ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 28] أيها الأظلال الهلكى.

وبالجملة: ﴿يَسْأَلُهُ﴾ ويستمد منه في كل زمان وآن، ويستظل تحت ظل جود وجوده كلُّ ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من فواعل المظاهر وقوابلها؛ إذ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: صاحب تجلي الجمال والجلال؛ يعني: بتجلي الجلال الصوب الكثيفة، ويبقى بتجلي الجمال المعاني المكتسبة اللطيفة من الصورة الكثيفة، والفرق بين الهلاك والفناء بين فناء نور القمر عند حجاب الأرض له عن أخذ النور من الشمس وهلاك أنوار الكواكب عند طلوع الشمس، وأبين لك فرق أظهر من هذا في صورة النبات، إذا وضعته في قدح فيه ماء يفني تركيب الصورة النباتية القائمة ثلاثة قوائم، ويهلك معنى حلاوة في الماء؛ لغلبة الماء عليه، وفي الهلاك والفناء أسرار سوى هذا يتعلق بعضها بحد القرآن وبعضها بمطلع القرآن.

وآن ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] لا يسبقه شأن، ولا يلحقه شأن مثله، فكلّ من المظاهر الإلهية في كل آن وطرفة في خلع صورة، ولبس أخرى حسب شئون الحق، وسرعة نفوذ قضائه.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 30] أيها المجبولان على فطرة الدراية والشعور.

ثمّ لما عدّ سبحانه على عموم المكلفين نبذًا من نعمه العظام، على سبيل التنبيه والامتنان، أراد أن يشير إليه، ويبينه عليهم بالقيام على أداء حقوقها، ومواظبة شكرها؛ لئلا يغفلوا من الله، ولا يستحيوا عند الحساب في يوم الحشر والجزاء، فقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ نتجرد ونخلو لحسابكم، وتنقيد أعمالكم وجزائكم على مقتضاها ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ المثقلان بشكر نعمنا، وأداء حقوق كرمنا، ومتى سألناكما عن أعمالكما.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 32] وتنكران، مع أنّا ما خفي علينا شيء من أعمالكم مطلقًا، لا من كفرانكم وعصيانكم، ولا من شكركم وإيمانكم.

ثمّ قال سبحانه مناديًا لهم على وجه التوعيد والتوبيخ والتهديد: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ المجبولين على فطرة التكليف بمقتضى الحكمة البالغة، عليكم أن تنقادوا وتطيعوا بعموم ما كلفتم به، المثمر لحكمة المعرفة واليقين، إلّا ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقدرتهم ﴿أَن تَنفُذُوا﴾ وتخرجوا فارين عن مقتضيات قهرنا وغضبنا ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: من جهة العلويات والسفليات ﴿فَانفُذُوا﴾ واخرجوا، مع أنكم ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ولا تقدرون على الخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: 33] أي: بقدرة واقتدار موهوبة لكم من قِبَل ربكم؛ إذ لا يصدر منكم مطلق الأفعال والحركات إلّا بإقداره وتمكينه سبحانه.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 34].

وكيف تنفذون وتفرون من حيطة قدرته وجلاله؛ إذ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ في النشأة الأخرى جزاءً لأعمالكما ﴿شُوَاظٌ﴾ لهب مشتعل ﴿مِّن نَّارٍ﴾ موقدة مسعرة ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان مظلم حاصل منها، وبالجملة: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: 35] ولا تمتنعان عنهما، ولا تدفعانهما بحولكما إلّا بعناية ناشئة من الله، وفضل يدرككم من لدنه[1].

(1) قال علاء الدولة: يعني: يرسل عليكما أيتها القوتان شواظ من نار علوية، وهو لهب النار الأخضر

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 36] وعليكم أن تشكروا آلاء الله، وتواظبوا على أداء حقوق نعمائه قبل حلول يوم الجزاء وبعده يوم الحشر.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ واندكت الأرض من خشية الله، ورهبته ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء من كمال غضب الله ﴿وَرْدَةً﴾ حمراء مذابة ﴿كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: 37] أي: تذوب كالدهن المذاب من شدة الخشية الإلهية، فلا يمكنكم حينئذ التدارك والتلافي.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 38] حيث يخبركم بالتهيئة والتدارك قبل حلول الساعة.

بل ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين انشقاق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 39] أي: لا يُسأل حينئذ لا عن ذنب الإنس ولا على عن ذنب الجان، ولا يلتفت إلى أعمالهما وأفعالهما، بل يبعثون من قبورهم، ويساقون نحوِ المحشر حيارى تائهين للحساب والجزاء، فاعتنى سبحانه بشأنكم، ونبهكم على إعداد الزاد قبل يوم المعاد.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 40] وكيف لا تعتادون، ولا تتزودون ليومكم هذا؟!

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾

واستعداد النحاسية من العناصر السفلية، فلا يمنعان صاحبهما عن العذاب إن يشأ مذابهما، وفي هذا أسرار رحمة أشير إلى بعضها لك يفطن له الخبير، اعلم أن الله تعالى خلق قالب إنسان مستعدًا مثل النحاس المستعد للتربية والتصعيد إلى حد يطرح عليه الكيمياء ويقلبه عينًا روحانيًا، وخلق فيه من نار القوة الفاعلية قوة إذا زكى النحاس من الظلمة المنطبعة فيه من أركان الأرضيات، وطهر النار من لهب الهوى، وقيل صاحب التزكية والتطهير كثير الإيمان وطرح على نحاس القالب واشتغل فيه النار المطهرة عن لهب الهوى، فجعل قالبية الظلماني نورانيًا، ويصير نحاسية الجسماني عينًا باقيًا روحانيًا، وإن لم تزكَ النحاس من ظلمات الطبيعة ولم تطهر النار نورانيًا من لهب الهوى، تذيب النار التي هي ذات لهب هوائية نحاس استعداد القوة المكدرة الجسمانية في جحيم قالبه التي عمرها في دار الكسب، وتغذيه أبد الآباد تارة بالإذابة والإحراق في جحيم اغتراره بنور النار، وتارة بإدخاله النحاس المذاب في زمهرير إنكاره؛ ليحمد ويصلح للإذابة تارة أخرى في دار القرار؛ لإعراضه عن طاعة الملك الواحد القهّار.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ
﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ
﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ
﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٥﴾﴾ [الرحمن: 41-65].

إذ ﴿يُعْرَفُ﴾ ويعلم يومئذ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المهملون لأمر الزاد، المتصفون بالجرائم المستلزمة للانتقام ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ إذ يظهر حينئذ آثار الكآبة والحزن على وجوههم ﴿فَيُؤْخَذُ﴾ بعد الخطاب والحساب ﴿بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: 41] أي: يشد أعناقهم مع أرجلهم بالسلاسل، ثم يطرحون في النار بأنواع الهوان والصغار، فيخبركم ربكم بالخلاص عنها قبل حلول أوانها، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 42].

فيقال لهم حين إلقاءهم إليها مشدودين مهانين، زجرًا لهم وتوبيخًا: ﴿هَذِهِ﴾ النار التي تصلون فيها ﴿جَهَنَّمُ﴾ الموعودة المعدة ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: 43] وقت إخبار الله إياهم على ألسنة رسله وكتبه.

فالآن ﴿يَطُوفُونَ﴾ ويترددون ﴿بَيْنَهَا﴾ أي: بين النار ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿آنٍ﴾ [الرحمن: 44] متناهٍ في الحرارة إلى حيث يغلب إحراقه وحرارته على النار المسعرة، فأراد سبحانه إنقاذكم منها بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 45] أيها المجبولان على الكفران والنسيان.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ من كلا الفريقين؛ أي: من مكلفي الجن والإنس في النشأة الأولى ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف عن قيامه بين يدي ربه في النشأة الأخرى للعرض والجزاء، واشتغل في هذه النشأة إعداد ذلك اليوم، وتهيئة أسبابه من اكتساب الحسنات وترك السيئات من الأخلاق والاعتقادات، وصوالح العبادات والطاعات المقبولة يومئذ عند الله على مقتضى ما أمرهم الحق، ونهاهم عنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46] معدتان لكل خائف عند ربه جنة جسمانية، يتلذذ فيها بدل ما ترك من اللذات الدنيوية وشهواتها الفانية اتقاء عن الله، وجنة روحانية عناية من الله وفضلاً من «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت...الحديث»[1].

وبالجملة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 47] أيها المكلفان!

والجنتان المذكورتان ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: 48] أنواع وأصناف من الأشجار المثمرة بالأثمار البهية والفواكه الشهية، وأنواع من المعارف والحقائق المثمرة للحالات العلية والمقامات السنية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 49].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ﴾ متنشئتان من بحر الحياة الإلهي، المتفرعتان على أسمائه وأوصافه الجمالية والجلالية ﴿تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: 50] بين يدي الخائف الملتجئ إلى الله على مقتضى التجليات الحبية، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 51].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في تلك الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: 52] صنفان من المعارف والحقائق على مقتضى تربية العينان المذكورتان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 53] أيها المسخران تحت لطفه وقهره وجلاله وجماله.

ثم إنهم يتنعمون بما ذكر من النعم العظام حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ متمكنين راسخين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ من الاعتقادات الراسخة ﴿بَطَائِنُهَا﴾ أي: وجوهها التي تلي قلوبهم وأرواحهم ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الغيظ الصلب من الديباج، بحيث لا تخلل فيه.

(1) رواه الطبراني (122/6، رقم 5706)، وابن أبي شيبة (30/7، رقم 33973)، وأحمد (334/5، رقم 22877)، ومسلم (2175/4، رقم 2825)، والحاكم (448/2، رقم 3549)، وقال: صحيح الإسناد.

ولا فرج، ألا وهو المثال لليقين الحقي الذي لا يطرأ عليه التردد والتذبذب مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿جَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: التلذذ والتنعم بثمارهما ﴿دَانٍ﴾ [الرحمن: 54] قريب؛ إذ لا ترقب ولا انتظار في اليقين الحقي، بل أقرب إلى العارف منه بعدما وصل إليه، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 55].

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجنان المعدة لأرباب العناية والامتنان، مخدرات المعارف والحقائق الواردة على قلوبهم حسب استعداداتهم المتفاوتة ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: كل منهن منحصرة الطرف، مقصورة النظر على كل من هي ترد عليه؛ بحيث لا تتعدى إلى غيره؛ لاختلاف قابلياتهم حسب الفطرة الأصلية بمقتضى اختلاف تجليات الحق وشئونه بحيث ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يتلذذ معهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ ولا بعدهم ﴿وَلاَ جَانٌّ﴾[1] [الرحمن: 56] كذلك؛ إذ مراتب الشهود على مقتضى تجليات الوجود وتطوراته، فكما لا تكرر ولا اتحاد بين اثنين في التجليات الإلهية، كذلك في مراتب أرباب الشهود القابلة لها، المستعدة إياها، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 57].

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ من كمال الصفاء الشفاء والجلاء ﴿الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 58] المسرتان لأرباب النظر والعيان، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 59].

وبالجملة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ﴾ في الأعمال والأخلاق، وعموم الشيم والأحوال ﴿إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] من الله، والرضوان منه سبحانه على سبيل التفضل والامتنان، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 61].

---

(1) قال في التأويلات: يعني: هل جزاء من يقول: لا إله إلا الله من صدق القلب إلى الجنة المضافة إلى الرب، والجنان التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين هي صور الأعمال الحسنة، فاجتهدوا في تطهير مجاري ذكركم الكريم، وفي نفي الخواطر عند اشتغالكم بالذكر لتدخلوا جناتكم، وتجالسوا رضوانكم، وتشاهدوا رحمانكم، وتعرفوا إنسانكم، وتطّلعوا على سر ما قال نبيكم ﷺ: «أن الله تعالى خلق الإنسان على صورة الرحمن»، ومن قرأ سورة الرحمن وعرفها حق المعرفة اطّلع على كمال معرفة ﷺ، وإشاراته اللطيفة المدرجة في كلماته الشريفة، وعلم أنه صدوق فيما قال: «أوتيت بجوامع الكلام» ﷺ اللهم ثبتنا على متابعته، وعرفنا إشاراته، ولا تحرمنا من بركاته، ووفقنا للصلاة عليه، وأشركنا في تحياته وصلاته بحقه ﷺ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم يفرق بين المسيء والمحسن، يسوق المسيء على جهنم بسوط سيئاته، ويسوق المحسن إلى الجنة بسوط حسناته.

وهاتان الجنتان المذكورتان مع ما فيهما من المقامات العلية والدرجات السنية للخائفين من الله، ومن سطوة قهره وجلاله في عموم أحوالهم وأطوارهم، المفوضين المتوكلين عليه سبحانه عموم أمورهم في مطلق شئونهم وتقليداتهم، الراجين منه رضاه عنهم بمقتضى لطفه وجماله ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: من دون الجنتين المذكورتين، وأدون منهما وأنزل رتبة ﴿جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 62] أخريان أيضًا للأبرار المحسنين بالأخلاق والعمال المتشبثين بأذيال الأماني والآمال حيث الحوائج والأغراض، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 63].

فهاتان الجنتان، وإن لم تكونا كتلك الجنتين المذكورتين في الأثمار والأشجار والمعارف والأسرار، إلا أنهما ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: 64] خضراوان نضارتان بمياه الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة الصادرة من الأبرار الأخيار، المتمسكين بشعائر الشرع ومعالم الدين المستبين، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 65].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: 66-78].

﴿فِيهِمَا﴾ أي: في جنتي الأبرار ﴿عَيْنَانِ﴾ منتشئتان من الاعتقاد الصادق، والإيمان الكامل ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: 66] فوارتان، منتهيتان إلى بحر الحكمة المتقنة الإلهية، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 67].

﴿فِيهِمَا﴾ أيضًا ﴿فَاكِهَةٌ﴾ يتفكه بها أهلها ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: 68] عطفهما على الفاكهة عطف الخاص على العام للاعتناء والاهتمام، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 69].

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في جنان هؤلاء الأبرار أيضًا ﴿خَيْرَاتٌ﴾ أزواج مصورة من مثوبات الأعمال والطاعات ﴿حِسَانٌ﴾ [الرحمن: 70] لا قبح معهن بوجه من الوجوه، ﴿فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 71].

ومثوبات أعمال الأبرار وأخلاقهم، وما يترتب عليها، وإن لم تكن في الصفاء واللطافة كمخدرات الخائفين إلا أنهم ﴿حُورٌ﴾ حسنة الوجوه ﴿مَّقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ﴾ [الرحمن: 72] أي: مقصور كل منهن على من أتى بالأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، لا يتعدى إلى الغير؛ إذ كل نفس رهينة ما كسبت خيرًا كان أو شرًا.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 73] أيها المكلفان الممنونان، وهؤلاء أيضًا ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: 74] إذ كل منهن، إنما هي مقصورة على أعمال كل منهم بلا شركة.

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 75] أيها المعتبران المستبصران.

ثم إنهم أيضا يتنعمون بما ذكر لهم من النعم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ متقررين ﴿عَلَى رَفْرَفٍ﴾ وسائد وبسط ﴿خُضْرٍ﴾ مخضرة بماء إيمانهم الخالص، واعتقادهم الحق ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ عجيب معجب، يتعجبون من ترتبها على أعمالهم وحسناتهم ﴿حِسَانٍ﴾ [الرحمن: 76] لا يتبعها قبح وخذلان، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 77].

فعليك يا أكمل الرسل ألّا تستبعد عن الله القادر، المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام أمثال هذه الكرامات العلية على أرباب العناية والغفران، وتلك الدركات الهوية على أصحاب الغفلة والكفران.

إذ ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: جلَّ وتعاظم وتعالى ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: عموم أسماء مربيك الذي رباك يا أكمل الرسل محيطًا لعموم المراتب والمقامات عن أن ينتهي أو يتصف بالانتهاء والانقضاء، أو يفتر ويضعف دون مقدور، بل لا نهاية لأسمائه الفعالة ومقتضياتها ﴿ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78] أي: ذي العظمة والكبرياء، الغالب على عموم الانتقام، وذي الجمال القادر المقتدر على وجوه الإكرام والإنعام.

خاتمة السورة

عليك أيها العارف المتحقق بعظمة الحق وجلاله، المتعطش بزلال وصاله ألّا تعزم في مطلق أحوالك إلى الكذب والإنكار بالنسبة إلى الله، ولا تنسب الحوادث الجارية في عموم الأقطار والأطور إلا إلى الملك الجبار العزيز الغفار، ذي العظمة

وكمال الاقتدار لأصناف الإنعام والإفضال، وأنواع العذاب والنكال.

فلك أن تلازم على شكر نعمه، وأداء حقوق كرمه في عموم الأحوال، وإياك إياك الغفلة عن الله، والاشتغال إلى ما سواه.

وكن في عموم أوقاتك وحالاتك بين يدي الله بين الخوف والرجاء، ولا تيأس من روح الله، أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون.

جعلنا الله من زمرة الخائفين من بطشه، الراجين من عفوه بمنّه وجوده.

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الواقعة

لا يخفى على أرباب التحقيق والوصول إلى المبدأ الحقيقي من المنكشفين بوحدة الحق الحقيق بالحقية والتحقيق أن مراتب عموم العباد في الرجوع نحو المبدأ والمعاد على أنحاء مختلفة وطرق شتى لا تخلو عن ثلاثة:

* بعضهم محجوبون بالحجب الظلمانية الإمكانية المعبرة عنها، وإن كانوا بالدنيا مغمورون مستغرقون بلذاتها وشهواتها، محرومون عن لذة الوصول والحضور مطلقًا، وهم أصحاب الشمال والشآمة الأزلية الأبدية.

* وبعضهم محجوبون بالحجب النورانية المسماة بالآخرة، وما فيها من أنواع النعم وأصناف الكرم من اللذات الروحانية والجسمانية الموعودة لهم فيها تفضلاً وتكريمًا، وهم أصحاب اليمين ذو اليمن والبركة والكرامة السرمدية والسعادة الأزلية الأبدية.

* وبعضهم منجذبون عن الحق بالكلية، منخلعون عن جلباب هوياتهم الناسوتية مطلقًا، فانون في الهوية الحقية اللاهوتية، باقون ببقائه، مستغرقون بمطالعة لقائه، وهم الشطار السابقون إلى الله، السائرون نحوه، المنخلعون عن جلباب ناسوتهم بالمرة بلا التفات منهم أصلاً باللذات الدنيوية ولا بالأخروية .

وإلى هذه الفرق الثلاث أشار سبحانه في هذه السورة، وأخبر بها حبيبه ﷺ؛ ليكون على ذكر منهم، ويبلغها على من تبعه من أهل المعرفة والإيمان إرشادًا لهم وتنبيهًا.

ثم لما كان امتياز هذه الفرق إنما هو في يوم القيامة والطامة الكبرى، أشار سبحانه أولاً إلى تحقق وقوعها بعدما تيمن باسمه الكريم:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إبداء عموم ما بدأ في النشأة الأولى ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بإظهاره من كتم العدم فيها برش أنواره، ومد أظلاله ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإعادته

في النشأة الأخرى بقبض أظلال أسمائه وصفاته نحو ذاته.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ [الواقعة: 1-17].

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: 1] العظمى الموعودة، وحديث الطامة الكبرى المعهودة من لدنه سبحانه، مع أنه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ حين وقوعها نفس ﴿كَاذِبَةٌ﴾[1] [الواقعة: 2] تكذبها، كما تكذب بها الآن.

وليس أيضًا لوقوعها حين وقوعها نفس ﴿خَافِضَةٌ﴾ تخفضها بالتردد فيها ولا نفس ﴿رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: 3] ترفعهم بالجزم بها، بل وقعت حين وقعت حتمًا بلا ريب

(1) قال في التأويلات: بل هي صادقة؛ لأن الشيطان يفر من ظل الواقعة، ولا تقدر النفس أن تشكل صاحب الواقعة أصلاً؛ لأنها أظهر من أن يمكن للنفس والشيطان أن يلبسا حالها على السالك، وعندي أنها حالة حقيقة؛ وهي النقطة الحقيقية، والذي تشاهده في عالم الشهادة بالنسبة إليها حالة النوم، وفي الحقيقة كل ما يشاهده في العالم الخيالي لا حقيقة له؛ ولأجل هذا قال النبي ﷺ: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»، فكن أيها النائم في نومك على حذر من حقائق الحيات والعقارب الملبسة بصور أفلاكك لكن تنتبه فتشكر الله على أنك خلصت من النوم، ولا تتنعم بصورها المزينة المزخرفة الدنيوية، لكن تنتبه بحزنك الانتباه لما رأيت الصور المزينة الملتبسة في النوم، ولا بدَّ من الانتباه من مشاهدة حقائق الصور المكتسبة بالأخلاق والصفات، فاجتهد في أن تجد بصرك وتكشف غطائك في اليوم لتشاهد حقائق الصور؛ لئلا تلتفت إلى الصور المزخرفة، وتشاهد وراء الصور حقائق المعاني العقربية والنارية، والحطمة في صورة مزينة بالشهوات؛ ليتيقن بها أطفال الطبيعة وجهال قوى القالبية والنفسية، ويعاين في الصور الهائلة المزخرفة الدنيوية حقائق الحورية والخلدية والنعيم الباقية، لكن يتنبه بشكر الله على خلاصك من الصور الهائلة، ووصولك إلى حقائقها وتنعمك بها أبد الآباد؛ ولأجل هذا قال النبي ﷺ: «إن الجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات».

وتردد، وبلا خفض أحد ورفع آخر.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر وقوعها، وتردد فيها نبذا من أماراتها وأشراطها وقت: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ وحركت ﴿الأَرْضُ رَجاًّ﴾ [الواقعة: 4] تحريكًا شديدًا عنيفًا بحيث انهدمت ما عليها من الأبنية المحكمة والبقاع المشيدة.

﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ﴾ أي: تشتت وتفتت أجزاؤها ﴿بَساًّ﴾ [الواقعة: 5] تفتتًا تامًا وتشتتًا كاملاً بحيث اضمحلت أجزاؤها، وتلاشت وصارت كالسويق الملتوت.

وبالجملة: ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبال التي عليها ﴿هَبَاءً﴾ هشيمًا غبارًا ﴿مُّنبَثاًّ﴾ [الواقعة: 6] منتشرًا منتشرًا متفرقًا، بحيث تلاشت هويات ما عليها مطلقًا.

﴿وَكُنتُمْ﴾ حينئذ أيها المكلفونَ المعتبرون ﴿أَزْوَاجاً﴾ وأصنافًا ﴿ثَلاثَةً﴾ [الواقعة: 7] حسب معاشكم في النشأة الأولى .

﴿فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾ أي: اليمن والكرامة من الأخيار الأبرار المحسنين بصوالح الأعمال والأحوال ومحامد الأخلاق والأطوار ﴿مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: 8] أي: ما أعظم شأنهم وإكرامهم، وأحسن حالهم بيمنهم وسعادتهم الشاملة لهم حسب اتصافهم بصالحات الأعمال، وبالاعتقادات الصحيحة والأخلاق المرضية.

﴿وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ﴾ والشمال؛ أي: ملازمو الشآمة والملامة، وأنواع الندامة والخذلان، من المفسدين المسرفين، المصرين على أنواع الكفر والفسوق وأصناف العصيان والآثام من مفاسد العقائد، ومقابح الشيم والأخلاق ﴿مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: 9] أي: ما أقبح حالهم وأشد عذابهم، ونكالهم وشآمتهم وشقاوتهم المستمرة عليهم بشؤم مكاسبهم ومفاسدهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ المبادرون نحو الحق من طريق الفناء، الباذلون مهجهم في سبيله إلى الدرجات الإرادية شوقًا إلى لقائه هم ﴿السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: 10] المقصورون على السبق والحضور مع الله بلا توجه منهم إلى لوازم هوياتهم الباطلة وهياكلهم العاطلة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المقبولون هم ﴿المُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 11] عند الله المتنعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 12] أي: منتزهات الوحدة الذاتية التي هي اليقين العلمي والعيني والحقي.

وهؤلاء المقربون الواصلون إلى مقر الوحدة متفاوتون في القلة والكثرة،

والدرجات العلية والمقدمات السنية بالنسبة إلى مسالكهم ومعارجهم لذلك ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة عظيمة ﴿مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 13] أي: من الأمم السالفة، وهم الأبرار الذين تقربوا نحو الحق بتوحيد الصفات والأفعال.

﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 14] أي: جمع قليل بالنسبة إلى الأولين من أمة محمد ﷺ، وهم الذين وصلوا بل اتصلوا إلى الله سبحانه من طريق توحيد الذات، المسقط لعموم الإضافات والكثرات، وهؤلاء أعزك، وأقل وجودًا بالنسبة؛ أي: الأمم السالفة، لذلك وصفوا بالقلة، وبالجملة: كلهم على تفاوت طبقاتهم في منتزهات الوحدة متنعمون متمكنون: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: 15] منسوجة مشبكة حسب درجاتهم العلية ومقاماتهم السنية.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أعلى تلك السرر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: 16] مع عموم كمالاتهم ومقاماتهم وحالاتهم بلا ترقب منهم وانتظار لهم، ومع ذلك ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للمؤانسة ﴿وِلْدَانٌ﴾ صباح ملاح مصورون من حسنات أعمالهم وأخلاقهم ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: 17] دائمون مستمرون على تلك الصور الصبيحة المليحة، لا يتغيرون، ولا يتحولون منها أصلاً كتغير ملاح الدنيا .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا
يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ
أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا
بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ

﴿ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: 18-50].

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ يعني: يطوفون عليهم بكؤوس، وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وهي التي لها عرى مملوء من الماء القراح، المثمر للعلوم اللدنية لشاربيها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: 18] أي: من رحيق التحقيق واليقين الذي ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ ولا يشوشون في تحصليها كالعلوم المكتسبة ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: 19] ولا يسكرون منها، إلى حيث ينقطع تلذذهم بها من غاية سكرهم.

﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ كثيرة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: 20] أي: يختارون وينتخبون لأنفسهم من أنواع المعارف والحقائق والأحوال والمقامات التي تتلذذ بها أرواحهم من آثار الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ يتقوت به أشباحهم ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: 21].

﴿وَ﴾ لهم أيضًا للخدمة والمؤانسة ﴿حُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: 22] مصورة من اعتقاداتهم الصحيحة الراسخة.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: 23] المصون في أصداف أشباحهم.

وإنما يعطون فيها ما يعطون ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: 24] من العمال الصالحة والأخلاق المرضية.

ومن كمال تنعمهم فيها وأمنهم وترفههم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ باطلاً من الكلام بلا طائل ﴿وَلَا تَأْثِيماً﴾ [الواقعة: 25] على سبيل الإلزام والإفحام.

﴿إِلَّا قِيلاً﴾ وقولاً من كل جانب ﴿سَلَاماً سَلَاماً﴾ [الواقعة: 26] على وجه الترحيب والإكرام، هذا للمقربين السابقين.

﴿وَ﴾ أما ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 27] أي أصحاب اليمن والكرامة وأنواع التعظيم والتكريم.

فهم أيضًا متنعمون ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: 28] أي: نبق لا شوك له؛ لخلوص أعمالهم وحسناتهم عن شوك المنّ والأذى، والسمعة والرياء.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: 29] أي: شجر موز منضد موفور الثمر، مرتب من أسفله إلى أعلاه؛ لإيفائهم وتوفيرهم في كسب الحسنات وفعل الخيرات.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: 30] إلهي لا يتقلص ولا يتفاوت؛ لدوامهم على مواظبة الطاعات، وملازمة العبادات.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: 31] مصبوب لهم أين شاءوا، وكيف شاءوا، بلا تعب وترقب؛ لأنهم صاروا في إتيان الأعمال كذلك؛ طلبا لمرضاته.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: 32] مما يتفكه بها أرواحهم وأشباحهم ﴿لاَّ مَقْطُوعَةٍ﴾ منتهية كفواكه الدنيا.

﴿وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 33] لتساوي نسبتها إلى الكل بلا تفاوت وتمانع؛ لإتيانهم بصوالح الأعمال والأخلاق على الدوام، بلا قطع ومنع.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 34] ممهدة منضدة بعضها فوق بعض؛ لرسوخهم وتمكنهم على الأحكام الإلهية المرتفعة بحسب الحكم والأسرار المودعة فيها.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتنان: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظم جودنا إياهم ﴿أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: أنشأنا لهم أزواجهم اللاتي كن في حجورهم في النشأة الأولى من صالحات النسوان والأعمال والأخلاق ﴿إِنشَاءً﴾ [الواقعة: 35] بديعًا عجيبًا.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ﴾ فيها ﴿أَبْكَاراً﴾ [الواقعة: 36] بحيث لم يمسهن بشر، ولم يتصف بهن أحد.

﴿عُرُباً﴾ متحننات لأزواجهن ﴿أَتْرَاباً﴾ [الواقعة: 37] مسويات السن مع أزواجهن في كمال سن الشباب .

كل ذلك ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 38] من الأبرار المحسنين بالأعمال والأخلاق، المخلصين فيها.

ومن هؤلاء في الجنات: ﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة عظيمة ﴿مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 39] أي: الأمم الماضين.

﴿وَثُلَّةٌ﴾ عظيمة أيضًا ﴿مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 40] أي: من أمة سيد المرسلين؛ إذ طرق الأعمال والأخلاق مشتركة بين الأولين والآخرين، بخلاف طرق الأحوال والمواجيد والمشارب والأذواق .

﴿وَ﴾ أمّا ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ والشآمة المتصفون بالشقاوة الأزلية، المنهمكون بالقاذورات الإمكانية ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾[الواقعة: 41] وما حالهم القبيحة الفضيحة

هم مخلدون ﴿فِي سَمُومٍ﴾ نار حارة مسعرة في غاية الحرقة والحرارة، بحيث تنفذ في مسامات أشباحهم كالريح السموم؛ لنفوذ لوازم الإمكان النافذة من مسامات أصحاب الغفلة والضلال، المنهمكين في اللذات والشهوات البهيمية الموهمة الموقعة لأنواع الفتن والطغيان ﴿وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: 42] أي: ماء متناهٍ في الحرارة بحيث يقطع أمعاءهم، لو شربوا منه شربة بدل ما تلذذوا في النشأة الأولى بمقتضيات الأماني النفسانية والآمال الهيولانية الحاصلة من الجهل المفرط بسرائر التوحيد واليقين في النشأة الأولى.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: 43] حاصل من دخان أسود صاعد من نار الجحيم.

﴿لاَّ بَارِدٍ﴾ كسائر الأظلال ﴿وَلاَ كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 44] نافع أمثالها.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ من شدة سكرتهم وغفلتهم ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في النشأة الأولى ﴿مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: 45] منهمكين في الضلال والشهوات.

﴿وَكَانُوا﴾ حينئذ ﴿يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾ [الواقعة: 46] والذنب الكبير الذي هو الشرك بالله والإنكار لتوحيده.

﴿وَ﴾ من شدة إنكارهم بمقتضيات الوحي الإلهي المتعلق بقيام الساعة ووقوع الطامة الكبرى ﴿كَانُوا يَقُولُونَ﴾ فيما بينهم على وجه الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ بالية ﴿أَئِنَّا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: 47] مخرجون من قبورنا أحياء كما كنا.

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: 48] الأقدمون يخرجون من قبورهم، مع أن بعثهم وإخراجهم أشد استحالة وامتناعا من بعثنا!

كلا وحاشا؛ إذ لم يعهد فيما مضى من الأزمنة أمثال هذا، بل ما هي إلا زيغ زائل، وزور باطل.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في الإنكار والعناد: ﴿إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 49] أي: الأسلاف والأخلاف ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ مجتمعون بكمال قدرة الله وحكمته ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 50] أي: إلى وقت معين، ويوم موعود معهود، عينه الله سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لا بدَّ وأن يقع في ذلك الوقت

ألبتة، بلا خلف.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
(٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا
تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ
(٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة: 51– 76].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بعد اجتماعكم وحشركم ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 51] المصرون على التكذيب والإنكار.

﴿لَآكِلُونَ﴾ من شدة جوعكم في جهنم البعد والخذلان بعد خلودكم فيها ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: 52] أي: شجر مسمى بهذا الاسم، فيكون لفظة «من» الثانية للبيان، والأولى للابتداء.

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ أي: من تلك الشجرة ﴿الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: 53] أي: بطونكم، مع أنه لا يدفع الجوع بل يزيده، وبعد أكلكم منها ملء بطونكم.

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزقوم ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: 54] لشدة الحرقة وغلبة العطش، وبالجملة: ﴿فَشَارِبُونَ﴾ من الحميم ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: 55] مثل شرب الإبل، الذي له داء الهيام، وهو مرض في الإبل شبيه باستسقاء الإنسان.

﴿هَٰذَا﴾ الذي سمعت أيها الفطن المعتبر ﴿نُزُلُهُمْ﴾ المعدة لهم حين نزولهم في جهنم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: 56] والجزاء.

وإذا كان نزلهم فيها هذا، فما ظنك بعذابهم فيها، وزجرهم بعد حساب أعمالهم.

ثم خاطبهم سبحانه إظهارًا للاستيلاء التام والبسطة الغالبة الكاملة توبيخًا لهم وتقريعًا فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم بمقتضى حولنا وقوتنا ﴿فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: 57] بقدرتنا على الإعادة والبعث أيها الجاهلون المكابرون.

﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ أخبروني أيها المنكرون للبعث والجزاء أن ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: 58] وتصبون في الأرحام من النطف؟.

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ وتجعلونه بشرًا سويًا صالحًا لأنواع العلوم والإدراكات الكلية والجزئية ﴿أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: 59] المقصورون على الخلق والتسوية ؟!

ومع شهود هذه المقدورات العجيبة البديعة، كيف تنكرون قدرتنا على البعث والحشر .

مع أنا ﴿نَحْنُ﴾ بمقتضى علمنا وقدرتنا ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ والأجل بأن عينًا لموت كل أحد منكم وقتًا معينًا، وأجلاً معهودًا، بحيث لا يسع لكم وقت حلوله لا التقديم منه، ولا التأخير﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[1] [الواقعة: 60] مغلوبين من أحد منكم أصلاً، بأن يغلب علينا أحد بتقديم الأجل المعين المقدر من عندنا، أو تأخيره.

وإذا قدرنا على تقدير الأجل للموت على الوجه المذكور قدرنا أيضًا ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ﴾ ونحيي ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: أسلافكم الذين ماتوا وانقرضوا أحياء أمثالكم من العدم؛ يعني: كما قدرنا على إنشاءكم من العدم إنشاء إبداعيًا قدرنا أيضًا على إحياء أسلافكم من القبور بعدما ماتوا على سبيل إعادة، بل إعادة أهون من الإبداع ﴿وَ﴾ بالجملة: قدرنا على أن ﴿نُنشِئَكُمْ﴾ بعد موتكم في ﴿فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2] [الواقعة:

(1) قال في التأويلات: يعني: موت الجهل في بداية الأمر؛ ليكسب القوة الفاعلة العلوية من القوى القابلة السفلية استعدادًا؛ فإما كاملاً لتستعمله في التزود لدار المعاد، ويجعل له مطية ليركبها يوم الرجوع إلى رب الأرباب، وبعبارة أخرى؛ يعني: نحن قدرنا الموت اللطيفة الحاصلة مَني الإرادة بأنها تبلغ مبلغ الرجال، أو تموت صبية.

(2) قال في التأويلات: من تبديل قواكم، وصفاتكم الحاصلة من تلك القوى، كما يشاهد الرجل أنه يتورط في أمر الدنيا تورطًا عظيمًا، بحيث لا يذكر الله تعالى طرفة عين مشتغلاً بهواه مقبلاً على

61] أي: في نشأة وعالم، لا يحيطون به علمًا، ولا تفهمونه لخروجه عن طور عقولكم ومقتضاه.

﴿وَ﴾ كيف يتأتى لكم إنكار الإعادة مع أنكم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ جزمتم وأيقنتم ﴿النَّشْأَةَ الأُولَى﴾ أي: قدرنا على الخلق والإيجاد فيها ﴿فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: 62] منها قدرتنا على الإعادة في النشأة الأخرى، مع أن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة بالطريق الأولى.

﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ أخبروني أيها المسرفون المفرطون أن ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] أي: تبذرون وتطرحون حبة في التراب.

﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ وتنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: 64] المقصورون على الإنبات بالاستقلال والاختيار بلا مشاركة ومظاهرة.

مع أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ ونختار عدم إنباتها ونمائها ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ أي: الزرع الثابت حطامًا يابسًا، هباء هشيمًا ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾(1) [الواقعة: 65] أي: صرتم حينئذ تتعجبون وتتأسفون من يبسها وضياعها، وليس لكم سوى الحسرة والأسف شيء، بل تقولون حينئذ من شدة التضجر والتحزن.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: 66] ملزمون بتضييع البذور وإهلاك النفقة.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: 67] حرمنا عن بذورنا وأعمالنا وريعنا بالكلية.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ﴾ العذب القراح الفرات السائغ ﴿الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: 68] وتستروحون نفوسكم به، وتبردون أكبادكم منه؟.

شهواته مربيًا قوى سبعية وبهيمية، فيبدل الله قواه وصفاته بحيث لا يفتر عن ذكر الله ساعة، ولا يشتغل بالدنيا ولو يضربونها ضربًا شديدًا، ويترك هواه ويقبل على مولاه ويعرض عن شهواته، ويستمر في مجاهداته ورياضاته، أليس هذه نشأة معينة وتبديلاً مبينًا ظاهرًا؟ فمالكم أيها العمي لا تؤمنون بخالقكم، ومنشأكم وباعثكم من قبول أقوالكم.

(1) قال في التأويلات: أي: تتعجبون مما تنبت من بذوركم لا حب فيه، وهذا يكون من شوم الغفلة عن الإخلاص في النية وقت العمل، فاحذروا أيها السالكون من الأذكار المصحوبة للغفلة والأعمال الغير الخالصة؛ لئلا تكون أعمالكم وأذكاركم حطمتكم في دار الجزاء - نعوذ بالله من تلك الحالة - بل نحن محرومون من كسبنا وزرعنا.

﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي: السحاب الهامر الهاطل ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: 69] بكمال قوتنا وقدرتنا.

مع أنا ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: صيرناه وبدلناه ﴿أُجَاجاً﴾ مرًا مالحًا ﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 70] وهلا تواظبون على أداء حقوق أمثال هذه النعم العظام أيها المجبولون على الكفران والنسيان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: 71] تقدحون ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ أي: الشجرة التي يتخذ منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: 72] المستقلون بإنشائها.

﴿نَحْنُ﴾ اليوم ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ وتبصرة لأمر البعث والنشر وأنموذجًا من نار القطيعة الجهنمية وعظة للمتقين منها؛ ليتزودوا بالتقوى، ويتخلصوا من نيران الهوى ودركات اللظى ﴿وَ﴾ جعلناها أيضًا ﴿مَتَاعاً﴾ منفعة عظيمة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾[1] [الواقعة: 73] المنزلين في القفراء والبيداء جائعين، خالية بطونهم عن الطعام، فيطبخون بها، ويشبعون فيها.

وبالجملة: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74] الذي هو أعز وأجل من أن يطرأ عليه شيء من النقائص، أو يحوم حول حماء قدسه شائبة العجز والقصور، وإذا كان شأن الحق هذا ﴿فَلاَ﴾ حاجة إلى القسم لإثبات عظمته سبحانه وجلالة قدره وقدرته، بل ﴿أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75] أي: بموارد وقوع نجوم القرآن، ونزولها في قلوب الكمل من أرباب العزائم والعرفان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القسم بالقرآن وموارده ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ وتعرفون قدره ﴿عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 76] شأنه عال خطره رفيع قدره.

(1) قال في التأويلات: يعني: استعدادًا للمسافرين الذين دخلوا دار القربة؛ ليتاجروا برأس مالهم ويربحوا أضعاف ما في أيديهم، لكن يأخذ صاحب المال منهم ماله، فيبقى لهم ما اكتسبوا برأس مالهم وتنعموا بمكاسبهم إذا رجعوا إلى مواطنهم الأصلية، فمن خسر برأس ماله فقد أورى من زند ذكره الدنيوي نار الشهوة؛ التي هي تذكرة للنار الكبرى، التي هي الموقدة في صدور أهل الهوى، وإذا رجع إلى وطنه يأخذ صاحب المال رأس ماله ويبقي معه مكتسباته، وتكون مكتسباته حطمه تتصرف فيها النار الموقدة المطّلعة على الأفئدة، ويحرق الحطمة ويشتعل النار الكبرى من إحراق الحطمة، وتعذب صاحبها في دار الجزاء أبد الآباد بالنار الموقدة، وحطمته المجتمعة في دار الكسب نعوذ بالله منه.

وكيف لا يكون القرآن عظيم الشأن رفيع القدر والمكان ؟!

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: 77-96].

﴿وَ﴾ إنه ﴿لَقُرْآنٌ﴾ موضح مبين لطريق الإيمان والعرفان ﴿كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 77] كثير الخير والنفع لحامليه، وممتثلي ما فيه من الأوامر والنواهي، مصون مثبت ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: 78] محفوظ مستور عن نظر المحجوبين، الا وهو حضرة العلم المحيط الإلهي، ولوح قضائه.

لذلك ﴿لاَّ يَمَسُّهُ﴾ ولا يتصف بمقتضاه ﴿إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] عن أوساخ التقليدات والتخمينات، وأكدار الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى صفاء مشرب التوحيد، المسقط لعموم الإضافات .

وكيف يمسه غير أهل الكشف والطهارة الحقيقية؟ مع أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: 80] (1) الذي هو في ذاته مقدس عن شوائب النقص وسماته مطلقًا ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ العظيم الشأن، المنبئ عن محض الحكمة والإيقان ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: 81] متهاونون متساهلون أيها المسرفون المفرطون؟.

(1) قال في التأويلات: يعني: ينزل من عند رب العالمين نزول الفعل الصادر عن الصفة الفاعلية لظهر الأثر لا من قبيل نزول الشيء من الأعلى إلى الأسفل، تعالت حضرة الملك المتعال من أن ينزل منها شيء أو يصعد إليها شيء، كنزول الجسمانيات وصعودها، وكشف هذا السر يتعلق بحد القرآن.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ حظكم ونصيبكم من هدايته وإرشاده ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: 82] جهلاً وعنادًا، أتسرفون وتفرطون في الاجتراء على الله وتكذيب كلامه ورسوله المرسل من عنده أيها المفسدون المفرطون ؟!

﴿فَلَوْلاَ﴾ تتذكرون، وهلا تتعظون به، أما تخافون وقت ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس ﴿الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: 83] أي: لكل منكم بأمر الله.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنتُمْ﴾ أيها الحاضرون حول المحتضر ﴿حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: 84] له، ولا تعلمون لحاله، ولا تفهمون ما جرى عليه من سكرات الموت وأفزاعه وأهواله .

﴿وَنَحْنُ﴾ حينئذ ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المحتضر ﴿مِنكُمْ﴾ وأعلم بحاله وشغله، لا قرب الحلول فيه، ولا الاتحاد معه، بل قرب ذي الظل إلى الظل، وذي الصورة إلى الصورة المنعكس والمرآة ﴿وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 85] وتدركون قربنا لا إليه ولا إليكم، أيها المحجوبون المحرومون، ولا تدركون أيضًا ما يجري عليه من الأهوال.

﴿فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: 86] أي: مضطرين مملوكين مجبورين ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: فهلا ترجعون النفس المخرجة البالغة إلى الحلقوم إلى محلها ولا تمنعونها عن الخروج ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] [الواقعة: 87] في دعوى الاستيلاء

---

(1) قال في التأويلات: بأنكم قادرون غير عاجزين، مالكون غير مملوكين، فإذا أعلمتم عجزكم فاعلموا أن الله الذي خلقكم بقدرته وأحياكم بإرادته وأماتكم بحكمته، قادر على أن يبعثكم من قبر قالبكم بعد موتكم، محط للسالك أن يتعين في حالة القبض، أن الله هو القابض لا يقدر على ترديد حياة البسط إذا نزعها الله عنه وتفوض أمره إلى مالكه الذي في قبضته متردد، كما يقول النبي ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإن شاء أماته بالقبض، وإن شاء أحياه بالبسط، وإن شاء أماته بالنكرة، وإن شاء أحياه بالمعرفة»، بترك اختيار نفسه إلى مسلكه ليوصله إلى مرتبة، بترك اختياره للحق ويكون كالميت بين يدي الغسال في الحضرة يمشون على وجه الأرض مقصورين، كما قال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الآخرة يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى هذا»، وأشار إلى أبي بكر ﷺ؛ لأنه شاهد في هذا اليوم أن الأمر لله، كما يشاهد الآخرون في الآخرة، ويقولون: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 19]، ولو لم يترك السالك اختياره بالتفويض جميع أموره إليه لم يصل إلى مطلوبه البتة.

والاستقلال وعدم المبالاة بالصانع القديم الحكيم العليم، فهلا تدفعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم؟! ﴿فَأَمَّا﴾ بعد خروج الروح من البدن ﴿إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: 88] السابقين من الفرق المشار إليها في أول السورة.

﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: موته له راحة ورحمة، وإيصال له إلى عالم اللاهوت، وإزاحة زحمة عنه، عارضة عليه، متعلقة إياه من كسوة الناسوت ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يشمه من فوائح الرحمن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: 89] دائم التنعم والترفه في المقام المحمود والحوض المورود في جوار الخلّاق الودود.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 90] أي: من الأبرار الموصوفين باليمن والكرامة الموروثة له من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية.

﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ يا ذا اليمن والكرامة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: 91] أمثالك، ترحيبًا لك وتكريمًا.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى من أصحاب الشمال والشآمة الأزلية والشقاق الجبلية ﴿مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم الدين ﴿الضَّالِّينَ﴾ [الواقعة: 92] المنحرفين عن منهج الاستقامة، الموصلة إلى دار المقامة والكرامة.

﴿فَنُزُلٌ﴾ فله نزل ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: 93] بدل ما لا يتعطش في النشأة الأولى إلى زلال برد اليقين، ولا يشرب رشحة وجرعة من رحيق المعرفة والتوحيد.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: 94] أي: إدخال نار عظيمة، بدل ما يتلذذ بالشهوات وبالميل إلى المحرمات والمكروهات، وبالجملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في حق هؤلاء الفرق الثلاث ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[1] [الواقعة: 95] بالنسبة إلى أرباب الكشف والشهود،

---

(1) قال في التأويلات: يعني: إن هذا البيان لهو الحق؛ لأنه كلام الحق وبيانه عن عالم اليقين، وإما تخرب قواك بثلاثة أخراب، وجزاءهم بما كسبوا في دار الكسب من الأعمال الصالحة والفاسدة المدخرة لهم في دار الجزاء، فاعلم أن للطائف المرسلة والحقائق الحقوقية المسكنة في جميع القوى العلوية والسفلية؛ هم المقربون السابقون، والقوى المؤمنة باللطائف المرسلة من القوى القالبية والنفسية، والقلبية والسرية، والروحية والخفية والحقية؛ هي من أصحاب اليمين السالمين من العقاب يوم المآب، المتنعمين بأعمالهم الصالحة الباقية لهم في دار الثواب، والقوى الكافرة القالبية والمشركة النفسية والمنافقة والقلبية والجاحدة السرية والمتكبرة الروحية والضالة الخفية ممن لم يؤمنوا باللطيفة الخفية؛ هي من أصحاب المشأمة المشئومين المكذبون الضالون،
-

المطلعين بمراتب الوجود باليقين العلمي والعيني والحقي.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1] [الواقعة: 96] أي: نزه يا أكمل أرباب الشهود والحضور ذات ربك عن شوب الريب والتخمين، بذكر اسمه العظيم، المستجمع لعموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فإنك على الحق اليقين في مطلق أسمائه وصفاته.

جعلنا الله ممن اتصف بحق اليقين، وخلص! عن أمارات الريب والتخمين، بمنه

فأبشر أيها المحمدي إنك لست من أصحاب المشأمة إن كنت دخلت في دار التصديق وهو شهادتك بأن «لا إله إلا الله وإن محمدًا رسول الله» ومن وفق لهذه الشهادة من إخلاص وتصديق يكون من أصحاب اليمين ويكون رفيقه التوفيق، ولا يمكن للشيطان أن يقطع عليه الطريق، وإلى هذا أشار النبي الصادق الصدوق: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة»» وهذا التشريف يصل إلى أمة الحبيب الشريف صاحب الخلق اللطيف، والخلق الظريف، والقلب النظيف - عليه أفضل التحية والسلام - لشرفه فطوبى لمن تبعه في الشريعة، وطوبى ثم طوبى لمن تبعه في الشريعة والطريقة، وطوبى ثم طوبى لمن تبعه في الشريعة ووصل إلى عالم اليقين بصورة الذكر، ثم تبعه في الطريقة ووصل إلى عين اليقين؛ يعني: الذكر، ثم تبعه في الحقيقة ووصل إلى حق اليقين بحقيقة الذكر، ثم نزه مجاري ذكر الخفي عن صورة الذكر ومعناه وحقيقته؛ ليستحق أن يجري عليه الذكر الخفي ويكون محلاً للقسم.

(1) قال في التأويلات: يعني: نزه باسم ربك العظيم مجاري الذكر الخفي عن صورة الذكر الموصل إلى علم اليقين؛ ومعنى: الذكر الموصل إلى عين اليقين وحقيقة الذكر الموصل إلى الحق اليقين؛ ليستحق أن يجري عليه الذكر الخفي الموصل للذاكر إلى حقيقة حق اليقين؛ ليصير الذاكر مذكورًا ويصل القاصد إلى المقصود، ويكون الشاهد هو المشهود، وسر هذه اللطيفة في حد القرآن فاقتصر على رَمز رُمز به إليه واجتهد في الذكر الصوري برعاية شرائطه، وهو أن يذكر الله بالقوة الخفية بالشرط والإثبات؛ ليصل إلى الذكر المعنوي، ثم اجتهد في الذكر المعنوي برعاية المتحد في الذكر مع الذاكر؛ لتصل إلى الذكر الحقيقي، ثم اجتهد في الذكر الحقيقي بنفي قوة ذاكرتيك وإثبات القوة المذكورية؛ لتصل إلى الذكر الخفي، فإذا وصلت إليه وقت ما في ذاتك بذاتك لذاتك، وصرت ملكًا حيًا باقيًا، ويكون عنوان منشور ملكيتك في دار البقاء من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت، فاجتهد في ألّا تفوت هذه المرتبة في الحال ولا تغرنك الآمال الصادقة لك عن الاجتهاد بالإرجاء بأنك تصل إليها في المال؛ لأن ترك النقد بالوعد للوصل إلى الفقد المتروك لا يكون إلا في قلة العقل وهي من أقبح الخصال.

اللهم ارزقنا الوصال في الحال وأذقنا بكأس مشاهدة الجمال زلال رحيق الجلال بحق صاحب الكمال ﷺ وعلى آله وصحبه خير صحب وآل التابعين لهم بإحسان من أهل اللطف والنوال.

وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لانكشاف مراتب الوجود بطريق الكشف والشهود والاطلاع على ما فيها من الكفر والجحود والانحراف عن الطريق المعهود الذي نزل بتبيينه الكتب والرسل أن تتأمل في عموم أوقاتك وحالاتك في هذه السورة العظيمة الشأن، وتعرض على نفسك دائمًا أحوال الفرق الثلاث المذكورة فيها، وتذكرها عليك، حتى يظهر لك أنك مع من أنت من هؤلاء الفرق ؟.

من السابقين المقربين المقبولين ؟.

أم من أصحاب اليمين الموفقين المحسنين ؟.

أم من المكذبين الضالين المعذبين ؟.

وبالجملة: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

سورة الحديد

فاتحة سورة الحديد

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق، وانكشف بفضاء صمديته وسعة مملكته، واستيلاء سلطنته العالية أن عموم ما ظهر وبطن غيبًا وشهادةً إنما هي من شئونه الذاتية، وتجلياته الجمالية والجلالية المترتبة على أسمائه وصفاته الذاتية والفعلية؛ لذلك نطقت بوحدته ألسنة عموم مظاهره ومصنوعاته، ونزهته عما لا يليق بشأنه، كما أخبر سبحانه عن تسبيحهم تنبيهًا وإرشادًا لعباده، وحثًا لهم إلى التوجه والرجوع نحوه، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بمقتضى التجلي الحبي ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها؛ لسعة رحمته ووفور جوده وإحسانه ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده، يوصلهم إلى فضاء توحيده.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد: 1ـ 4].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالبقاء والقيومية، المتفرد بالتحقق والثبوت على وجه الديمومية، الحي الحقيق بالألوهية والربوبية، مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الكوائن العلوية والسفلية، الغيبية والشهادية، ونزهه عن مطلق النقائص المنافية لصرافة وحدته الذاتية بعدما اعترفت ألسنة استعدادات الكل بربوبيته طوعًا، واشتغلوا بلوازم عبوديته رغبةً ﴿وَ﴾ كيف لا يسبحونه ولا يعظمونه، والحال أنه ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: 1] المتقن في إيجادها وإظهارها على وفق الإرادة والاختيار؟!

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مؤثرات الأسماء والصفات العلوية، المعتبرة

بالأعيان الثابتة ومتأثرات القوابل السفلية، واستعدادات الطبائع والهيولى المنفعلة منها؛ إذ هو سبحانه باستقلاله وتوحده ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يتصرف فيها بالإحياء والإماتة، والخلع واللبس حسب إرادته ومشيئته بالاختيار، وبالجملة: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة حضرة علمه، ولوح قضائه ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحديد: 2] بالقدرة التامة الكاملة، مع أنه لا يعزب عن حيطة علمه الحضوري ذرة مما لمع عليه برق وجوده الوحداني الفرداني.

وكيف لا يقدر سبحانه على التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته؛ إذ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الأزلي السرمدي السابق في الوجود ﴿وَالْآخِرُ﴾ الأبدي الدائم، المستمر فيه بمقتضى الجود حق ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ المتحقق في العيان ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ المكنون في عموم الأكوان، فانظر أيها المعتبر الناظر، هل بقي لغيره وجود ولسواه عين وشهود؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من امتداد أظلاله وانعكاس أشعة نور وجوده ﴿عَلِيمٌ﴾[1] [الحديد: 3] بذاته وحضوره، غير مغيب عنه مطلقًا.

---

(1) قال الشيخ البيطار: قال أبو يزيد البسطامي ﷺ: حظوظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسماء: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] وكل فريق له اسم منها، فمن فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته، وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في الأسرار والسرائر، وأصحاب اسمه الأول يلاحظون بما سبق، وأصحاب اسمه الآخر متربصون بما يستقبلهم، فكل يكاشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره. انتهى كلامه ﷺ، واعلم - رحمك الله - أن هذه الأسماء الأربعة هي الأب العلوي للعالم والأم السفلية، فالاسم الأول كالعقل الأول، والاسم الآخر كالنفس المنفعلة عن العقل انفعال الآخر عن الأول، كما انفعلت حواء عن آدم، ثم توجه الأول إلى الآخر توجهًا باطنًا يسمى بالنكاح المعنوي، ويسمى بالنكاح الإلهي بين الأسماء الإلهية، فكان الاسم الباطن محل الحمل، وهو الكنز المخفي في ظهر الاسم الأول، فاستقر في الاسم الآخر بطونًا كباطن رحم الأنثى، فظهر العالم بحكم الاسم الظاهر، فهو المولود، فلهذا السر ما صدر كل أمر في العالم إلا عن تثليث، ألا ترى أن محبته تعالى أن يعرف اقتضت محبًا ومحبوبًا ومحبة، وهكذا كل أمر في الوجود، ولذا قالوا: إن ظهور العالم عن الاسم الفرد وأول الأفراد الثلاثة فكانت البسملة فاتحة الفاتحة وإنما كان هذا النكاح إلهيًا لسر «فأحببت أن أعرف»، فتوجَّه توجهًا نفسيًا من نفسه لنفسه في نفسه، فظهر العالم على صورته، فكان هو المظهر اسم فاعل، والظاهر والمعروف العارف، وهذا التوجه مقدّس الحضرة عن الزمان «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:6]، فهو عليم بنفسه؛ لأنه العليم

ومن كمال علمه وإرادته، ووفور حكمته وقدرته ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ظهور ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المتطابقة المتعلقة ﴿وَالأَرْضَ﴾ المفترشة الممهدة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حسب الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعدما كمل الكل ﴿اسْتَوَى﴾ وتمكن ﴿عَلَى العَرْشِ﴾ أي: على عروش مطلق المظاهر بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل، بحيث ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِي الأَرْضِ﴾ من الحبات أو في أراضي الاستعدادات من بذور المعارف والحقائق ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات أو المكاشفات والمشاهدات المترتبة على بذور المعارف، والأعمال الصالحات ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عالم الأسباب من الأمطار، أو من سماء الأسماء من مياه العلوم اللدنية والإدراكات المحيية لأراضي الاستعدادات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأبخرة والأدخنة، أو الكلمات الطيبة الصاعدة الجالبة لفيضان اليقين والعرفان من المبدأ الفياض.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿مَعَكُمْ﴾ أيتها المظاهر ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لا معية ذاتية ولا زمانية، ولا بطريق المقارنة والمخالطة، ولا بطريق الحلول والاتحاد، بل بطريق الظهور والظلية، والحضور ورش النور ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المحيط بكم، المظهر لأشباحكم بمد ظله عليكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مطلق الأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4] فيجازيكم عليها على مقتضى بصارته وعلمه في يوم الجزاء.

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ

والعلم والمعلوم ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:63]، ومن سر التثليث صدر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:12]، فالسماء أب كجبريل، والأرض أم كمريم، والإمداد السماوي للأرض بمنزلة النفخ الجبريلي في مريم عليها السلام، والأمر المتنزل بينهما كالمولود وهو عيسى عليه السلام، فلو فسّرها ابن عباس وتكلم على سر التثليث فلربما يُنسب إليه ما نسب لأصحاب الإنجيل، ولولا أن أخي في الله أحمد بن بكري الفواخيري - فتح الله عليه - سألني عن سبب قول ابن عباس رضي الله عنه في حق هذه الآية: لو فسرتها لقلتم: إني كافر أو لرجمتموني، ما كشفت هذا السر، وهذا السر من حكم الأسماء الإلهية، ونكاحها المعنوي المقدّس لا من حكم الذات، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، فالذات لها سورة الإخلاص؛ يعني: إن الأحدية له تعالى خالصة من شرك السوى، فلله الأمر من قبل ومن بعد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ
بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: 5 - 9].

إذ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إيجادًا وخلقًا أولاً، وإعدامًا ثانيًا، وإعادة ثالثًا ﴿وَ﴾ بعد الإعادة ﴿إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[1] [الحديد: 5] أي: رجوع مطلق الأمور إليه سبحانه في المعاد والمآل، كما أن ظهوره منه في المبدأ والمنشأ؛ إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

ومن تصرفاته المتقنة في ملكه على وفق حكمته أنه ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: بعض أجزائه ﴿فِي النَّهَارِ﴾ في فصل الربيع والصيف ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ أي: بعض أجزائه ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ في فصل الخريف والشتاء؛ مصلحةً لمعاش عموم الحيوانات، ومحافظةً لها من كلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: 6] أي: بمكنونات ضمائركم، ومقتضيات استعداداتكم.

وبعدما علم واطلع سبحانه منكم ومن استعداداتكم وقابلياتكم ﴿مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: 15]، ﴿آمِنُوا﴾ أي: انقادوا وأطيعوا ﴿بِاللهِ﴾ المطلع على عموم مصالحكم ﴿وَرَسُولِهِ﴾ النائب عنه، المبعوث من لدنه؛ لإرشادكم وتكميلكم ﴿وَأَنفِقُوا﴾ بمقتضى الأمر الإلهي المنبئ عن محض الحكمة والمصلحة ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: من أموالكم التي استخلفكم الله عليها؛ إذ هي كلها لله حقيقة، لا لكم كما زعمتم.

فعليكم أن تمتثلوا بأوامر الله سبحانه بالإنفاق والإيثار الذي يزكي أنفسكم من الميل إلى مزخرفات الدنيا، العائقة عن الوصول إلى جنة المأوى التي هي مقام التسليم والرضا ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وأكدوا إيمانهم بالإخلاص في عموم الأعمال والأفعال

(1) قال السمناني: الروحانية بعد النزول إلى الأرض وجذب اللطائف الأمرية المستكنة في الأرض، وعروجه سماء الروحانية ليكتسب المعارف العلوية بالاستعداد الحاصل من جذب اللطائف الأرضية، ويرجع إلى حضرة ربه مع حصول المعارف التفصيلية من العلوية والسفلية والصفاتية.

والأخلاق ﴿وَأَنفَقُوا﴾ بلا شوب المنّ والأذى، وشين السمعة والرياء ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وإنفاقهم على وجه الإخلاص ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7] لا أجر أكبر منه وأعلى.

ثمّ قال على طريق الحث والإلزام المشعر بالوعيد: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيّ شيء عرض لكم، وطرأ عليكم ﴿لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستحق للإطاعة والإيمان ﴿وَ﴾ لاسيما ﴿الرَّسُولُ﴾ المبلغ الكامل في الهداية والتكميل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزل من عنده ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ مع تأييده بالمعجزات الساطعة، والحجج القاطعة الدالة على صدقه في دعوته للإيمان، ورسالته إلى كافة الأنام ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ أَخَذَ﴾ الله العليم العلام باستعداداتكم ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ وعهدكم بالإيمان والعرفان في مبدأ فطرتكم، ومنشأ جبلتكم، مع أنه جبلكم حين قدر خلقكم، وأنشأ فطرتكم على جبلة التوحيد والإيمان، فماذا يمنعكم عنه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: 8] بسبب وموجب، فهذا موجب لا مزيد عليه؟!

إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه الحكيم العليم ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ من مقام فضله وجوده ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ مبينات واضحات ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله ورسوله ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتكاثفة من لوازم الطبيعة، ولواحق الحصول ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور الوجود البحت، الخالص عن مطلق القيود ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ﴾ بإرادة إخراجكم من ظلمات الجهل إلى نور اليقين ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مشفق عطوف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: 9] متناهٍ في الرحمة.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الحديد: 10 - 12].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا﴾ أي: أيّ شيء يمنعكم عن الإنفاق ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تقربًا إليه، وطلبًا لمرضاته، وامتثالاً لأوامره ﴿وَلِلَّهِ﴾ الغني بذاته، المستغني عن مطلق مظاهره

ومصنوعاته ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] أي: العلويات والسفليات والممتزجات، وهو في ذاته غني عن إنفاقكم وبذلكم، إلّا أنه ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ﴾ أي: أنفق قبل فتح مكة ممتثلاً لأمر الله، مجهدًا في تقوية دين الإسلام وترويجه وظهوره على الأديان الباطلة، وتكثير أهل الحق وتغليبه ﴿وَ﴾ مع إنفاقه على المقاتلين في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة توحيده ﴿قَاتَلَ﴾ أيضًا بنفسه، وسعى ببذل المال والروح في طريق الحق وترويجه ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المنفقون المقاتلون لهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأكرم مثوبة ومقامًا عند الله ﴿مِّنَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ﴾ أي: بعد فتح مكة وغلبة المسلمين، وظهور دين الإسلام ﴿وَقَاتَلُوا﴾ بعده مع كثرة المقاتلين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾ أي: وعد الله كلًّا من المسلمين المبادرين، أو المبطئين الوعد الحسنى، والدرجة العليا، والمثوبة العظمى حسب سعيهم واجتهادهم في تقوية الشرع، وترويج الدين القويم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع بسرائر عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعموم أعمالكم وأحوالكم خالصها ومشوبها، صالحها وفاسدها ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10] بصير لا يعزب عن حضرته شيء منها، يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثمّ قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ﴾ وينفق في سبيله من أكرم أمواله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المنّ والأذى، وشين السمعة والرياء طلبًا لمرضاته سبحانه ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي: يضاعف له إخلافه وإعواضه في الدنيا كرامةً عليه، وفضلاً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 11] وفوز عظيم لا فوز أعظم منه وأكرم، وهو التحقيق بمقام الرضا والتسليم، والاستغراق بمطالعة وجه الله الكريم.

اذكر يا أكرم الرسل على سبيل التبشير ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي

---

(1) قال علاء الدولة: أي: تعلمون أن لله ميراث السماوات الروحانية والأرض البشرية، يتحلون باستعدادكم الذي هو أعطاكم من القوى العلوية والسفلية، ولا تنفقون في طاعة من يرث الاستعدادات بعد إفنائكم وتفديكم بتركتكم المكدرة، وإن تنفقوا يرث هو أيضًا استعداداتكم العلوية ويدخلكم في جنات تركاتكم المطهرة المزكاة عن الكدورات بالنفقة، فيما يغركم إلى خالق الأرض ووارث التركات والمعذب لتارك التركات المزكاة بنعيم الجنان الموصل له إلى أعلى الدرجات.

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين الموقنين، المخلصين ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿يَسْعَى نُورُهُم﴾ أي: نور يقينهم وعرفانهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم وقدامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾ إذ إتيان الكرامة إنما هو من هاتين الجهتين، فيقول لهم حينئذٍ من يتلقاهم من الملائكة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ دخول ﴿جَنَّاتٌ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق لا بحسب وقت دون وقت، بل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الخلود في الجنة الموعودة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12] لا فوز أعظم منه عند المكاشفين.

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحديد: 13 - 15].

ثم عقب سبحانه وعد المؤمنين بوعيد المنافقين فقال أيضًا على وجه التذكير: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ المبطلون المستمرون على النفاق مع أهل الحق ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ أيضًا كذلك ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين يرونهم ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: 12]: ﴿انظُرُونَا﴾ أيها السعداء المحقون، والتفتوا نحونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إذ نحن في ظلمة شديدة ﴿قِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قِبَل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي: إلى دار الاعتبار والاختبار ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ واقتبسوا من مشكاة النبوة والولاية بامتثال الأوامر والنواهي الموردة من عنده سبحانه على رسله، وبالحكم والأسرار الصادرة من ألسنة أولي العزائم الصحيحة، المنجذبين نحو الحق من طريق الفناء فيه بالموت الإرادي، واعلموا أن اقترافه واقتباسه إنما هو في دار العبرة والغرور، لا في دار الحضور والسرور.

وبعدما جرى ما جرى ﴿فَضُرِبَ﴾ وحيل حينئذٍ ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ حائط حائل ﴿لَّهُ﴾ أي: للسور ﴿بَابٌ﴾ مفتوح يدخل منه المؤمنون ﴿بَاطِنُهُ﴾ أي: باطن الباب ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ النازلة من قِبَل الحق بمقتضى اسم الرحمن

على أهل الإيمان والعرفان ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ أي: ظاهر الباب ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ سبحانه بمقتضى اسمه المنتقم ﴿الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13] النازل على أهل النفاق والطغيان.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: المنافقون المؤمنين حين ستروا عن أعينهم، وبقوا في الظلمة والعذاب محرومين قائلين متضرعين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أيها الرفقاء في دار الدنيا مسلمين منقادين لأحكام الإسلام، ممتثلين لأوامر الكلام ونواهيه أمثالكم ﴿قَالُوا﴾ أي: المؤمنون في جوابهم من وراء الحائل: ﴿بَلَىٰ﴾ أنتم معنا ظاهرًا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق والشقاق حسب باطنكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ وانتظرتم بالمؤمنين المقت والدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ترددتم وشككتم في حقية الدين القويم، وظهوره على الأديان كلها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿غَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ والأهوية الفاسدة، والآراء الباطلة مدى العمر، فانتظرتم بالمؤمنين ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: 30]، وكنتم على أمانيكم هذه وتطيراتكم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الذي هو الموت، فمتم منافقين مخادعين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿غَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: 14] الذي هو شياطين أمّارتكم وأمانيكم، وتسويلات نفوسكم وقواكم.

وبعدما وقع ما وقع ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي تبلى السرائر فيه ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون المخادعون ﴿فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها؛ لتخليصكم من العذاب لا منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ﴾ إخوانكم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] مجاهرين مصرين على ما هم عليه بلا مبالاة إلى الدين والدعوة، وبالجملة: ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ أي: محل رجوعكم وقراركم اليوم جميعًا؛ أي: ﴿النَّارُ﴾ المعدة المسعرة لكم أيها المنافقون بالكفر، والمجاهرون به ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: النار أولى بكم، وأليق بحالكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: 15] والمرجع النار المعدة للكفار الأشرار.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ

---

(1) قال السمناني: لأن الأمر بيد غيركم، والآلات والأدوات بها يمكن الكسب متنزعة عنكم، وهي كانت عادية عنكم والعادية مردودة لا محالة، وما كسبتم بتلك الآلات لأنفسكم قالوا: ما لكم بتضييع الأوقات ونزع الآلات والأدوات، ثم ويل بعد ويل بكسب الشقاوة الأبدية بتلك الاستعدادات.

اللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ
وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: 16 - 19].

ثمّ قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب، والتمنن والتشويق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: لم يقرب الوقت، ولم يحضر الأوان ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق، وبكمالات أسمائه وصفاته ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ وتخضع وتلين وترق ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ التي هي وعاء الإيمان والعرفان ﴿لِذِكْرِ اللهِ﴾ المستجمع لعموم الأسماء والصفات، المسقط لجميع الإضافات ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ سبحانه في كتابه المبين لطريق توحيده ﴿مِنَ الحَقِّ﴾ الحقيق بالامتثال والاتباع من الأوامر والنواهي الموردة فيه، المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن، والرموز والإشارات المصفية للسر عن التفات إلى ما سوى الحق.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا يَكُونُوا﴾ - التفسير جرى على رواية رويس - ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في الإعراض عن كتاب الله، والانصراف عما فيه من الحكم والمصالح ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾ أي: مضى الزمان بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن الإيمان، مع أن الكتب بين أظهرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16] خارجون عن دينهم، تاركون ما في كتابهم من الأحكام من فرط قساوتهم وغفلتهم، فلكم ألّا تكونوا أمثالهم مع نبيكم ودينكم وكتابكم.

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المطلع على قابليات عباده واستعداداتهم الفطرية ﴿يُحْيِي الأَرْضَ﴾ أي: أراضي استعداداتكم بماء المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجهل والغفلة الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولى، وبالجملة: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الدالة على هدايتكم وتكميلكم في القرآن العظيم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17] رجاء أن تتأملوا فيها، وتتعظوا بها، وتفهموا إشاراتها، وتعتبروا منها، وتتفطنوا بما فيها من السرائر المرموزة والحكم المكنونة.

ومن علامات تعقلكم واتعاظكم: الصدق بمزخرفات الدنيا، والتقرب بها نحو

المولى ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ أي: المتصدقين ﴿وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي: المتصدقات ﴿وَ﴾ هم الذين ﴿أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خالصًا عن شوب المن والأذى، طالبًا لمرضاته سبحانه ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ صدقاتهم في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 18] في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وأخلصوا في إيمانهم، وأكدوه بصوالح أعمالهم وإحسانهم ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون ﴿هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ المتبالغون في الصدق، المقصورون على الإخلاص، المتمكنون في منهج حق اليقين ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ الكاشفون المشاهدون، الحاضرون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الموعود لهم من قِبل الحق على وجه لا مزيد عليه ﴿وَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بوحدة ذاتنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في تصرفاتنا عتوًا وعنادًا ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: 19] أي: ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد: 20. 21].

﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المكلفون المعتبرون ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: ما الحياة المستعارة الدنيوية، وما حاصلها وجلّ متاعها إلا ﴿لَعِبٌ﴾ مزخرف باطل في نفسها، يلعب بها أهل الغفلة والحجاب، ويتعبون بها أنفسهم بلا طائل ﴿وَلَهْوٌ﴾ يلهيهم عما يهمهم ويعينهم من الحياة الأزلية الأبدية ولوازمها ﴿وَزِينَةٌ﴾ زيّنها لهم شياطين قواهم وأمانيهم من المطاعم الشهية، والملابس البهية، واللذات الوهمية، والشهوات البهيمية ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالمال والجاه والثروة، والسيادة بالأنساب والأحساب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بالمظاهرة والمعاونة، وتكثير العدد والعَدد العُدد، والعقارات والتجارات، والمواشي والزراعات إلى غير ذلك من المزخرفات الفانية التي لا قرار لها

ولا مدار، بل مَثَلُها ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ نزل وأنبت إنباتًا ﴿أَعْجَبَ الكُفَّارَ﴾ أي: الزرَّاع ﴿نَبَاتُهُ﴾ من كثرته ونضارته وكثافته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجف وييبس بآفة وعاهة ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعدما كان مخضرًا في كمال البهجة والنضارة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ هشيمًا تذروه الرياح حيث شاءت بلا فائدة ولا عائدة.

﴿وَ﴾ مع هذه الخسارة والحرمان في النشأة الأولى لأهل الغفلة والخذلان يكون لهم ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وما فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ سترٌ ومحوٌ لذنوب أصحاب المعاملات، ناشئة ﴿مِّنَ اللهِ﴾ الغفور الرحيم بمقتضى لطفه، وسعة رحمته وجوده ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه سبحانه لأرباب القلوب والمكاشفات خير من الدنيا وما فيها بأضعافها وآلافها عند من تحقق تربية الإنسان، وسعة قلبه المصور على صور عرش الرحمن ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ عند الأحرار البالغين بدرجة الاعتبار والاستبصار ﴿إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾[1] [الحديد: 20] ومخائل الخديعة والزور، ومن اغتر بها ولعب بما فيها فقد استحق الويل والثبور، وحرم عليه الحضور والسرور.

ومتى سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون حال الدنيا ومآلها، وحال العقبى وما يترتب عليها ﴿سَابِقُوا﴾ سارعوا، وبادروا بوفور الرغبة والرضا ﴿إِلَى﴾ تحصيل أسباب ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ مرجوة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم على فطرة الهداية والتوحيد ﴿وَ﴾ وسائل دخول ﴿جَنَّةٍ﴾ وسيعة فسيحة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ بحسب متفاهم العرف، وإلَّا فلا يكاد سعة الجنة وعرش الرحمن قلب الإنسان الكامل، كما يشهد به قلب العارف المحقق، المتحقق بمقام القلب الذي هو وعاء الحق، المنزه عن مطلق المقادير والتقادير ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ على وجه الإخلاص، وأكدوا إيمانهم وإخلاصهم بالرضا والتسليم بعموم ما جرى عليهم من القضاء، وفوضوا أمورهم كلها إلى المولى حتى صار علمهم منتهيًا إلى العين، وعينهم إلى الحق.

﴿ذَلِكَ﴾ التحقق والانتهاء ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ بلا سبق شيء يوجبه ويجلبه، وعبودية

---

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: حياة الدنيا مدرجة في إناء الماضي والمستقبل مثل: متاع الذي يبقى على حواشي الإناء بعد أكل صاحبه وإضافته إلى الغرور، إشارة إلى سرعة نفادها لا يتوقف نفس إلا وقد يخرج، فالنفس الذي يخرج ولا يرجع؛ فهو ميت، والنفس الداخل لو لم يخرج؛ فهو ميت فليس له حظ في الحياة إلا القليل الذي يصحب النفس الداخل والخارج.

يستحقه، بل ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ عنايةً منه سبحانه، وإحسانًا ناشئًا عن محض الإرادة والاختيار، كيف ﴿وَاللَّهُ﴾ الغني في ذاته، المستغني مطلقًا عن عبادة مظاهره وأظلاله ﴿ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: 21] [1] والكرم العميم، يمن على من يشاء من عباده بمقتضى سعة رحمته وجوده حسب علمه المحيط باستعداداتهم وقابلياتهم.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 22ـ 25].

إذ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: ما حدث من حادثة مفرحة أو موحشة، كائنة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: في أقطار الآفاق من الخصب والرخاء، والزلزلة والوباء إلى غير ذلك من المفرحات والموحشات الحادثة في الأنحاء والأرجاء ﴿وَلَا﴾ كائنة ﴿فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من العوارض المسرة، والشهوات الملذة، أو من الأمراض والملمات المؤلمة ﴿إِلَّا﴾ ثبت حدوثها في ساعة كذا، في آن كذا، على وجه كذا ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: في حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه على اختلاف العبارات ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نخلقها ونظهرها؛ أي: ثبت حدوث الحادثة في وقتها في كتابنا قبل أن تخلق الحادثة بزمان لا يعلم أحد مقداره إلّا نحن، ولا تستبعدوا من قدرتنا أمثال هذا ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الثبت والتقدير السابق، وإن كان عندكم عسير ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر المقتدر، الغالب على عموم المقدورات ﴿يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22] سهل في جانب قدرته وإرادته.

---

(1) يقول القشيري في تفسيره: وفي ذلك ردٌّ على من يقول: « إن الجنة مُسْتَحقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها»؛ لأن الفضلَ لا يكون واجباً. ويقال: لمّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبةِ، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاءَ من جانب الحقّ سبحانه. تفسير القشيري (391/7).

والسر في ثبتها قبل خلقها: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ ولا تحزنوا أيها المجبولون على فطرة الكفران ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من اللذات والشهوات المرغوبة ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ منها؛ ليكون فرحكم سببًا لكبركم وخيلائكم على ضعفاء الأنام، وفقراء الإسلام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من النخوة والاستكبار ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ذو كبر وخيلاء منهم ﴿فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23] مفاخر مباهٍ؛ بسبب المال والجاه والثروة، والسيادة على أقرانه وأبناء زمانه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تسندوا الأمور إلى أنفسكم، بل فوضوا أموركم كلها إلى الله، وأسندوها إليه سبحانه بالأصالة، فلا تفرحوا ولا تحزنوا، بل افنوا في الله وابقوا؛ لتتمكنوا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55].

والمختالون المفتخرون هم ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ويمسكون أنفسهم عن التصدق والإنفاق، ويجمعون من حطام الدنيا مقدار ما يفتخرون بها، ويتفوقون على أقرانهم بسببها ﴿وَ﴾ من غاية بخلهم وإمساكهم: ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أيضًا ﴿بِالْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصة؛ وليعرضوا ويصرفوا ضعفاء الأنام عن امتثال أمر الله بالإنفاق؛ حتى لا ينالوا بالمثوبة العظمى، والكرامة الكبرى في النشأة الأخرى من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يشكر لنعمه، ولم يواظب على أداء حقوق كرمه فلا يضره سبحانه، ولا ينقص من علو شأنه وسمو برهانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته عن إطاعة عباده، وإنفاقهم وشكرهم وكفرانهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: 24] حسب أسمائه وصفاته الذاتية بلا افتقار له إلى محامد مظاهره ومصنوعاته.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل الامتنان لعموم عباده، وإرشادًا لهم إلى سبل السلامة والسلام، وحثًا لهم إلى الطاعات والعبادات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿رُسُلَنَا﴾ المبعوثين إلى هداية العباد وإرشادهم إلى سبيل الرشاد، وأيدناهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ المشتمل على الآيات الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿وَ﴾ أنزلنا معهم ﴿الْمِيزَانَ﴾ الموضوع؛ للقسط والعدالة، كل ذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿بِالْقِسْطِ﴾[1] والعدل فيصيرون مستقيمين على صراط الله الأعدل الأقوم الذي هو

(1) يقول حقي في تفسيره (147/15): أي ليتعاملوا بينهم بالعدل إيفاء واستيفاء ولا يظلم أحد أحدا في ذلك، وإنزاله إنزال أسبابه والأمر بإعداده وإلا فالميزان من مصنوعات البشر وليس بمنزل من

الشرع القويم، والدين المستقيم المنزّل على الرسول المبعوث بالخلق العظيم ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ لزجر المنحرف العنيد؛ إذ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ للمائلين عن جادة الشريعة، والمتمردين عن الدين القويم.

﴿وَ﴾ إن كان أيضًا فيه ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ لتوقف عموم الحِرف والصنائع عليه ﴿وَ﴾ إنما أرسل سبحانه من أرسل، وأنزل معه ما أنزل ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ﴾ أي: يظهر ويميز من عباده ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾ سبحانه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُ﴾ المرسلين من لدنه؛ أي: من ينصر دينه المنزل على كل واحد من رسله المبعوثين من عنده؛ لإظهاره وترويجه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: قبل قيام الساعة وانكشاف السرائر؛ وما ذلك الإرسال والإنزال منه سبحانه إلّا لابتلاء العباد واختبارهم، وإلّا فهو منزه في ذاته عن إعانتهم ونصرهم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25] غالب على عموم مقدوراته بلا مظاهرة ومعاونة.

وإنما أمر سبحانه عباده بالجهاد؛ لينالوا بامتثاله أعظم المثوبات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا

السماء روي) أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان نفسه فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: مر قومك يزنوا به، وقال الإمام الغزالي رحمه الله أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير والذهب والفضة أم تتوهم أنه هو الطيار والقبان ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان فاتق الله ولا تتعسف في التأويل واعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته كتبه ورسله وملكه وملكوته ليتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا من ملائكته فالله هو المعلم الأول والثاني جبرائيل والثالث الرسول والخلق كلهم يتعلمون من الرسول ما لهم طريق في المعرفة سواه والكل عبارته بلا تغيير وليت شعري ما دليله على ما ذهب إليه من العدول عن الظاهر كذا في بحر العلوم . يقول الفقير: لعل دليله قوله تعالى: (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) أي حاكما بالعدل أو مقيما للعدل في جميع أموره، فإذا كان الله قائمًا بالعدل في جميع الأمور كان الواجب على العباد أن يقوموا به أيضا ولن يقوموا به حقيقة إلا بعد العلم الشامل والمعرفة الكاملة وهى معرفة الله فهي الميزان الكلى وما عداه من جميع الأمور مبني عليه وموزون به.

كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 26 - 27].

ثمّ قال سبحانه على سبيل التخصيص بعد التعميم؛ للاعتناء والاهتمام بشأن المذكورين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قومه حين فشا الجدال والمراء بينهم، وشاع انحرافهم عن المنهج القويم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ حين ظهر الشرك وعبادة الأوثان والأصنام بين قومه ﴿وَ﴾ من كمال تعظيمنا وتكريمنا إياهما: ﴿جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أبدًا ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: بعض قليل من ذريتهما ﴿مُّهْتَدٍ وَ﴾ بعض ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 26] خارجون عن جادة العدالة والقسط الإلهي.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ وعقبنا ﴿عَلَى آثَارِهِم﴾ أي: بعد انقراضهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ وأيدناهم بالكتب والصحف وأنواع الآيات والمعجزات ﴿وَ﴾ بعدما انقرضوا أيضًا ﴿قَفَّيْنَا﴾ الكل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ وأيدناه بروح القدس ﴿وَ﴾ من كمال صفوته، ونجابة عرقه وطينته: ﴿جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وآمنوا له، وتدينوا بدينه ﴿رَأْفَةً﴾ عطفًا ولينًا إلى حيث يعفون عن القاتل، ولا يضربون الشاتم والضارب ﴿وَرَحْمَةً﴾ يترحمون بها عموم عباد الله.

﴿وَ﴾ من شدة محبتهم ومودتهم بالنسبة إلى الله ابتدعوا ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ يبالغون بها في العبادات إلى حيث لا يطعمون، ولا يشربون أيامًا، ولا ينكحون قط، ولا يختلطون مع الناس، بل يوطنون نفوسهم في شعب الجبال والكهوف، وإنما ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ من تلقاء أنفسهم بلا رخصة منّا إياهم؛ إذ ﴿مَا كَتَبْنَاهَا﴾ أي: الرهبانية، وما فرضناها وقدرناها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في دينهم وكتابهم، بل ما اختاروها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ وطلبًا لمرضاته، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما وافقت رهبانيتهم بدينهم وكتابهم؛ إذ كفروا بمحمد ﷺ، وهو من أعظم معتقدات دينهم وكتابهم فتركوه، وأنكروا عليه جهلاً وعنادًا ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أجر إيمانهم وأعمالهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] [الحديد: 27]

(1) بترك رعايتهم ما ابتدعوها من الرهبانية؛ ابتغاء لوجهه، فحفظ السالك من هذه الآيات واجب على نفسه، ويرعى حق الرعاية كل شيء أوجب على نفسه في البداية من المجاهدات أو العبادات النافلة، ولا يرخص لنفسه أن يترك شيئًا مما باشرته في بداية أمره وعنفوان حاله وشرح إراداته؛

خارجون عن مقتضى دينهم وكتابهم بإنكار محمد ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد: 28. 29].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على مقتضى دين الرسل الماضين - صلوات الرحمن عليهم وسلامه - المبعوثين؛ لتبيين طريق توحيد الصفات والأفعال ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه بمخالفة أمره ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ المرسل من عنده بطريق التوحيد الذاتي ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ سبحانه، نصيبًا عظيمًا لإيمانكم بمحمد ﷺ، ونصيبًا آخر لإيمانكم لمن قبله من الرسل ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ سبحانه ببركة إيمانكم بمحمد ﷺ ﴿نُورًا﴾ مقتبسًا من مشكاة النبوة والرسالة، المخصوص بالحضرة الختمية المحمدية ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ بذلك النور إلى المحشر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ سبحانه ببركته ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [الحديد: 28] لذنوب عباده، يرحمهم ويقبل منهم توبتهم إن

ليكون من المحفوظين. [عين الحياة].

(1) قال النيسابوري في تفسيره (205/1): عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى ثم آمن بمحمد ﷺ فله أجران، ورجل أدّب أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران، ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران» فإن قيل: لو كان الأمر كما قلتم، فكيف يجوز من جماعتهم جحده ﷺ؟ قلنا: إما لأن هذا العلم به ﷺ كان حاصلاً عند العلماء بكتبهم ولم يكن لهم عدد كثير فجاز منهم كتمانه ﷺ، وإما لأن ذلك النص كان نصًا خفيًا لعدم تعيين الزمان والمكان بحيث يعرفه كل أحد، فجاز وقوع الشكوك والشبهات فيه. جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة: أن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك لله تعالى قال لها: يا هاجر أين تريدين؟ قالت: أهرب من سيدتي سارة. فقال: ارجعي إلى سيدتك واخفضي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك، وستحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل، من أجل أن الله سمع خشوعك، وهو يكون عيناً بين الناس وتكون يده فوق الجميع، ويد بجميع مبسوطة إليه بالخضوع. فقيل: هذا الكلام خرج مخرج البشارة لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في

أخلصوا فيها.

وإنما يفعل بهم سبحانه ما يفعل من الكرامات المتضاعفة ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم يقينًا ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ وثوابه، بأن يجلبوه بإيمانهم وأعمالهم لو لم يرد سبحانه إتيانه إياهم تفضلاً وإحسانًا ﴿وَ﴾ يعلمون أيضًا يقينًا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ﴾ المطلق والإنعام والإحسان الكامل ﴿بِيَدِ اللهِ﴾ وفي قبضة قدرته، وتحت حكمه وحكمته ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده إرادةً واختيارًا ﴿وَاللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 29] والطول العميم، والكرم الجسيم على أرباب العناية من عباده.

جعلنا الله ممن تفضل علينا بمقتضى كرمه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب للفضل الإلهي وسعة لطفه وجوده أن تلازم على أداء ما افترض عليك من الطاعات والعبادات، وتداوم على الاتصاف بالآداب السنية والأخلاق المرضية المقتبسة من كتاب الله المنزل من عنده؛ لإرشاد منهج الرشاد وعموم السعادات، ومن سنن سيد السادات، وسند أرباب الولاية والكرامات، وتقتفي بآثار السلف المجتازين في مضمار المعارف والمكاشفات والمشاهدات، وإياك إياك الالتفات إلى مزخرفات الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات العائقة عن التوجه إلى المولى والوصول إلى سدرة المنتهى ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: 29].

أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الخافقين بالإسلام ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة.

سورة المجادلة

فاتحة سورة المجادلة

لا يخفى على الموحدين المتحققين بمقام الرضا والتسليم أن كل من توكل على الله، وفوض الأمور كلها إليه، ورجع في عموم الخطوب والملمات نحوه سبحانه متضرعًا إليه، خاضعًا خاشعًا، متذللاً سائلاً منه سبحانه مطلوبه، داعيًا إليه لأجله أن يجيب له، ويصيبه إلى مطلوبه إن كان سؤاله منبعثًا عن محض العزيمة وخلوص النية؛ إذ السؤال والدعاء على هذا المنوال إنما هو من أمارات الإجابة وإنجاح المأمور؛ إذ جريان الحوادث كلها بتوفيق الله وتيسيره، وصدور السؤال عن كمال الحضور إنما هو من علامات القبول، كما صدر مثل هذا عن المرأة المجادلة مع رسول الله ﷺ حين بسطت شكواها إلى الله متضرعة راجية للإنجاح منه سبحانه، ومن غاية إخلاصها وخضوعها: أجاب الله دعاءها، فأوحى سبحانه إلى حبيبه ﷺ في شأنها ما أوحى بعدما تيمن باسمه الأعلى فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على قلوب المخلصين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، يوفقهم على الإخلاص في مطلق العزائم المهمة لهم، المتعلقة بدينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى ما وفقهم عليه.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٤﴾﴾ [المجادلة: 1 - 4].

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ السميع المجيب لمناجاة خُلّص عباده، العليم بحاجاتهم ﴿قَوْلَ الَّتِي﴾ أي: دعاء المرأة التي ﴿تُجَادِلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي﴾ حق ﴿زَوْجِهَا﴾[1] حين وقع بينهما ظهار.

روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر عنها أوس بن الصامت، وكان الظهار والإيلاء حينئذ من عداد الطلاق، فاستفتت رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»[2] فكررها، فأجاب ﷺ كذلك ﴿وَ﴾ بعدما أيست أخذت ﴿تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ متضرعة خاشعة فجيعة؛ إذ لها أولاد صغار، ولا متعهد لهم سواها، فقالت مناجية إلى الله مشتكية: اللهم إني أشكو إليك، وأتضرع نحوك، فأنزل على نبيك ما يؤلف بيني وبين زوجي، وترحم على أولادي المعصومين، وهي على هذا فأوحى سبحانه إلى رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ على ما جرى بينكما ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ وتراجعكما في الكلام، وكيف لا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ العليم بالسرائر والخفايا ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1] بأحوالهم ونياتهم؟!

ثمّ بيّن سبحانه حكم الظهار فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾ والظهار هو أن يقول الرجل لامرأته عند الخصومة: أنت عليّ كظهر أمي؛ أي: شبهها

(1) يقول ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 261): هي خولة، (في زوجها) أوس، [illegible] الكلام في شأنه، وفيما صدر منه في حقها من الظِّهار، أو تسألك وتستفتيك. وقا[illegible] سمع» أي: عَلِمَ وأجاب قولها، أي: دعاءها . وفي « قد » هنا معنى التوقُّع؛ [illegible] الله عليه وسلم والمرأة كانا يتوقعان أن يُنزل الله في مجادلتهما ما يفرج [illegible] الفخر: هذه الواقعة تدل على أنَّ من انقطع رجاؤه من الخلق، ولـ[illegible] الخالق، كفاه الله ذلك المُهم . وقال القشيري: لمّا صدقت في [illegible] كشف ضرها من غير الله، أنزل الله في شأنها: (قد سمع الله . [illegible] رخصة للمؤمنين إلى يوم القيامة في قضية الظهار، ليعلم ا[illegible] [illegible] نزلت السورة بإثر الشكوى، قالت عائشة رضي الله [illegible]

[illegible] قد سمع الله قول الروح، التي تُجادل ف[illegible] [illegible] حب الدنيا ومتابعة الهوى، [illegible] والله يسمع تحاور [illegible] [illegible] (17/6)

المحرمة عليه، فكانت هي أيضًا محرمة على زوجها في عادة الجاهلية؛ لأن الحرمة سرت إليها بمجرد التشبيه، فصارت بمنزلة الأم، رد الله عليهم أمرهم هذا بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ بمجرد هذا القول الباطل ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا يشبه بهن في الحرمة غيرهن إلا ما ورد الشرع بتحريمهن، مثل أمهات الرضاع، وأزواج النبي ﷺ اللاتي هن أمهات المؤمنين ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ من شدة إفراطهم وطغيانهم ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾ مردودًا في الشرع ﴿وَزُورًا﴾ باطلاً منحرفًا عن الحق في نفسه؛ إذ لا يشبه الزوجة بالأم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ونياتهم ﴿لَعَفُوٌّ﴾ لفرطات القائلين ﴿غَفُورٌ﴾ [المجادلة: 2] لذنوبهم لو تابوا واستغفروا.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتلافي والتدارك مناقضين ﴿لِمَا قَالُوا﴾ نادمين عنه، مسترجعين ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: يلزمهم في الشرع تحرير رقبة في كل مرة؛ ليكون كفارة قولهم المنكر الباطل ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي: يستمتعا ويجتمعا؛ أي: المظاهِر والمظاهَر عنها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: إلزام الكفارة عليكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ وترتدعون عنه خوفًا من الغرامة؛ إذ ليس هو من شيم أهل الإيمان، بل من ديدنة [illegible]اهلية الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب على عموم أحوالكم وأعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجا]دلة: 3] أي: بجميع أعمالكم ونياتكم فيها.

[illegible] لَّمْ يَجِدْ﴾ ولم يقدر على تحرير الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي: كفارة [illegible] شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ متصلين، متوالي الأيام، فإن فصل وأفطر يومًا [illegible] التتابع والتوالي؛ لتنزجر نفسه وترتدع عنه، ولا يفعله قط، ولا يتكلم [illegible]ضًا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ ويتجامعا ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ ولم يقدر [illegible]و شبق مفرط ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يعطى كل مسكين مدًا [illegible]م الصوم والإطعام عند فقدان التجريد المذكور [illegible] [illegible]صول أحكام الشرع والأوامر والنواهي [illegible] [illegible]م والعادات الجاهلية بينكم [illegible] [illegible]كورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ [illegible] على أنفسكم [illegible]

[illegible]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن
نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ
أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ
ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا
لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: 5 - 8].

ثمّ قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفرطين ﴿الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ ويعادون ﴿اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يضعون حدودًا مخالفة لحدود الله ورسوله، ويختارونها مراءً ومجادلةً، ومعاداة مع الله ورسوله ﴿كُبِتُوا﴾ أي: أكب وأحاط عليهم العذاب النازل من الله فهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية ﴿وَ﴾ كيف لا نهلكهم ولا نستأصلهم؛ إذ ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم وأخلاقهم، وعموم أطوارهم ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات مشتملات على حكم ومصالح لا تخفى فأبوا عنها، ولم يقبلوها، بل كذبوها وأنكروا عليها، وعلى من أُنزلت عليه عتوًا وعنادًا؟! ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المستكبرين بما عندهم من الثروة والرئاسة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: 5] [1] بحيث يبدل عزهم ذلاً، ونخوتهم لعنةً وطردًا.

---

(1) قال حقي في تفسيره (15 / 169): أي يعادونهما ويشاقونهما وكذا أولياء الله فان من عادى أولياء الله فقد عادى الله وذلك لان كلا من المتعاديين كما انه يكون في عدوة وشق غيره عدوه الآخر وشقه كذلك يكون في حد غير حد الآخر غير أن لورود المحادة في أثناء ذكر حدود الله دون المعاداة والمشاقة من حسن الموقع ما لا غاية وراءه، وقال بعضهم: المحادة مفاعلة من لفظ الحديد والمراد المقابلة بالحديد سواء كان في ذلك حديد حقيقة أو كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد وقال بعضهم في معنى الآية (يحادُون) أي يضعون أو يختارون حدودًا غير حدودهما ففيه وعيد عظيم للملوك والأمراء السوء الذين وضعوا أمورا خلاف ما حده الشرع وسموها القانون ونحوه.

اذكر لهم يا أكمل الرسل﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ من قبورهم﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يشذ أحد منهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بجميع أعمالهم تفضيحًا وتشهيرًا لهم على رءوس الأشهاد، بحيث﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ وفصله عليهم على وجه لا يغيب عن حيطة علمه وإحصائه سبحانه من عملهم﴿وَ﴾ هم قد﴿نَسُوهُ﴾ لكثرته أو تهاونهم عليه ﴿وَ﴾ كيف لا يحصي سبحانه عليهم أعمالهم؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ بمقتضى ألوهيته، وحيطة ظهوره﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره﴿شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6] حاضر غير مغيب؟!

﴿أَ﴾ تستبعد شهادته سبحانه، وحضوره عند عموم مظاهره ومصنوعاته﴿لَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي، ولم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المحيط بالكل بالألوهية والظهور ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري عموم﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: الكائنات العلوية﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الكائنات السفلية كلياتها وجزئياتها، محسوساتها ومعقولاتها، بحيث﴿مَا يَكُونُ﴾ ويقع ﴿مِن نَّجْوَى﴾ وسر معهود بين﴿ثَلَاثَةٍ﴾ يسرون بها ويضمرونها في نفوسهم﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه﴿رَابِعُهُمْ﴾ بل هو أعلم منهم بنجواهم، وأعرف بما في ضمائرهم منهم، بل هو العالم حقيقة ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي: وكذا لا يقع نجوى بين خمسة مكنونة في ضمائرهم، مصونة عن غيرهم﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه﴿سَادِسُهُمْ﴾ بل علمه بها أتم وأكمل من علمهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا﴾ يقع ﴿أَدْنَى مِن ذَلِكَ﴾ الجمع ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ منه﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾ بل العالم العارف هو سبحانه بذاته ووحدته، إلا أنه ظهر في أشباحهم، وهو يأتيهم لا على سبيل المقارنة الذاتية والزمانية، ولا على سبيل الحلول والإتحاد، بل على طريق معية الظل مع ذي الظل، ومعية الأمواج مع الماء، والصور مع ذي الصورة، ولا يقيد أيضًا معيته بالمكان، بل ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ كان معهم؛ لاستواء عموم الأمكنة دونه سبحانه، وتنزهه عن المكان مطلقًا.

وبالجملة: يعلم سبحانه منهم جميع ما صدر عنهم، لكن لم يطلعهم بعلمه إياهم؛ لئلا يبطل حكمة التكاليف الواقعة منه سبحانه بالنسبة إلى عموم عباده﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء أوان التكليف، وانقراض نشأة الاختبار﴿يُنَبِّئُهُم﴾ سبحانه﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بجميع أعمالهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة؛ لتنقيد الأعمال وترتب الجزاء، الموعودة عليها تفضيحًا لهم، وتقريرًا لما يستحق ويليق بهم من العذاب والنكال؛ لئلا يكون لهم على الله حجة، ولا ينسبوه إلى الظلم؛ إذ الإنسان جبل أكثر شيء جدلاً،

وبالجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على عموم ما كان ويكون، غيبًا وشهادةً، ظاهرًا وباطنًا ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق الوجود ﴿عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7] [1] بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حيطة علمه شيء.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ نُهُوا﴾ ومنعوا ﴿عَنِ النَّجْوَى﴾ والتغامز فيما بينهم بالعيون والحواجب، حين جلسوا في مجلس رسول الله ﷺ مع المؤمنين فمنعهم ﷺ عن ذلك ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إصرارًا ومكابرةً ﴿وَ﴾ هم حينئذٍ ﴿يَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ﴾ الموجب للحد الشرعي، أو ظهروا به وأفشوه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ عن الأوضاع الشرعية ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وتكذيبه، والإعراض عنه وعن دينه مهما أمكن لهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم من جملة شكيمتهم وغيظهم: ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَيَّوْكَ﴾ على وجه النفاق ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون: السام عليك، أو انعم صباحًا، مع أن الله سبحانه يقول: ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: 59]، ﴿وَ﴾ بعدما حيوك على مقتضى أهويتهم، وقصدوا مقتك في تحيتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذٍ ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ونجواهم: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلَّا ﴿يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لو كان محمد نبيًا؟! فظهر من عدم تعذيب الله إيانا أنه ليس بنبي، قيل لهم حينئذٍ من قِبَل الحق: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذابًا ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: 8] [2] مصيرهم جهنم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ

(1) النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً، والقلوبُ حاضرةً، والتوكلُ صحيحاً، والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء، تفسير القشيري (7 /399).

(2) قال ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 268): ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن الوقوع في أهل الخصوصية، والتناجي بما يسوؤهم ثم يعودون لما نُهوا عنه، ويتناجون بالإثم والعدوان، وما فيه فساد البين وتشتيت القلوب، ومعصية الرسول بمخالفة سنته، وإذا جاءوك أيها العارف، الخليفة للرسول، حيّوك بما لم يُحيك به الله، أي: خاطبوك بما لم يأمر الله أن تُخاطَب به من التعظيم، ويقولون في أنفسهم، لولا يُعذبنا الله بن نفعل من تصغيرهم، حسبهم نار القطيعة والبُعد، مُخلَّدون فيها، فبئس المصير .

بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: 9 ـ13].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ مثل مناجاة أولئك الأشقياء المردودين، بل ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ الموجب لأنواع الخيرات، الجالب لأكرم المثوبات ﴿وَالتَّقْوَى﴾ عن محارم الله، ولاسيما عن عصيان الرسول المستلزم لأنواع الحرمان والخسران ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: 9] وترجعون في يوم البعث والجزاء.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ والإسرار بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول إنما نشأ ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ المضل المغوي، إنما يحملهم عليها ﴿لِيَحْزُنَ﴾ نجواهم بهذه الأوزار ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويتغمموا بها ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَيْسَ﴾ الشيطان، وما يلقنهم من التناجي بالسوء ﴿بِضَارِّهِمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومقتضى مشيئته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المراقب لعموم أحوال عباده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: 10] وأنه سبحانه يكفي لهم مؤنة شرور أعدائهم، ونجواهم بالسوء والعدوان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى أخلاقكم الحسنة، الموروثة لكم عن إيمانكم وعرفانكم: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ وقت تضيقكم وتحسبكم: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ وتوسعوا ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ أي: مطلق المجالس والمحافل ﴿فَافْسَحُوا﴾ ووسعوا مبادرين بلا مطل وتحرج وتضجر ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ويوسع عليكم في عموم ما تريدون الوسعة فيه، بل ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم: ﴿انْشُزُوا﴾ وانهضوا، واخرجوا من المضائق والمجالس ﴿فَانْشُزُوا﴾ طائعين راغبين، مريدين الثواب من الله بتوسيعكم على إخوانكم، ولا تتوهموا الإذلال

بالنشوز، بل ﴿يَرْفَعِ اللهُ﴾ القادر المقتدر على وجه الإنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ ونشزوا عن المضائق؛ لمصلحة إخوانه طوعًا درجات من القرب والمكانة؛ إذ المؤمن العارف المتمكن في مرتبة اليقين الحقي لا يتفاوت عنده المدح والذم، والإعزاز والإذلال، والمضرة والمسرة، والمنح والمحن مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من حضرة العلم الإلهي ﴿دَرَجَاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ولا حصرها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع بضمائركم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الاستكبار والاستكراه، وتوهم الإذلال والاستنكاف عن الامتثال ﴿خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11] يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثمَّ أشار سبحانه إلى تعظيم رسوله ﷺ، وتأديب من تبعه من المؤمنين المسترشدين منه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم بالله، وتصديقكم برسوله: إنكم ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ وأردتم المناجاة معه، والاستفادة منه ﷺ ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أي: قدام مناجاتكم، وعرض حاجاتكم إليه ﴿صَدَقَةً﴾ تصدقًا لفقراء الله ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التصدق لمحبة رسول الله ﷺ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لنفوسكم من الميل إلى زخارف الدنيا ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تنفقون ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع على نياتكم ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: 12] على من فقد وجه الصدقة.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل الرخصة: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾ وخفتم الفقر والفاقة من ﴿أَن تُقَدِّمُوا﴾ وتصدقوا ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ أي: قدام مناجاتكم مع رسول الله ﷺ ﴿صَدَقَاتٍ﴾ أي: لكل نجوى صدقات ولو كلمة طيبة منبئة عن كمال المحبة والوداد ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تصدقوا؛ بسبب الإشفاق عن الفقر ﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قبل منكم توبتكم إن صدرت عنكم على وجه الندم والإخلاص عن جريمة الإشفاق والتحسر على ما فوتم، وبالجملة: عفا الله عنكم، وتجاوز عن جريمتكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المؤقتة المكتوبة ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة المقدرة ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في عموم الأوامر والنواهي على وجه الإخلاص ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على ضمائركم ونياتكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: 13] أي: بعموم أعمالكم وإخلاصكم فيها.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً

فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: 14. 17].

ثمَّ أشار سبحانه إلى تفضيح المبالغين، وتوبيخهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ أي: والوا وتحابوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم﴾ يعني: اليهود، واختاروا موالاتهم، وصاحبوا معهم في خلواتهم، واغتابوا المؤمنين عندهم، مع أنهم ﴿مَّا هُم﴾ أي: المنافقون ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون حقيقةً، وإن كانوا منكم ظاهرًا ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ظاهرًا، وإن كانوا منهم حقيقةً ﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بالله ﴿عَلَى الْكَذِبِ﴾ صريحًا، وهو دعوى الإسلام والإخاء مع المؤمنين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: 14] كذب أنفسهم، ويزورون بحلفهم على المؤمنين تغريرًا، مع أنه لا نفع لحلفهم عند الله، ولا يدفع شيئًا من عذابه.

إذ ﴿أَعَدَّ اللهُ﴾ المراقب على عموم أحوالهم ﴿لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين الحالفين على الكذب ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أشد من عذاب اليهود المجاهرين بالكفر بلا زور وتزوير، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أهل النفاق من خبث طينتهم، وشدة شكيمتهم ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: 15] من التمرن على النفاق، والإصرار بموالاة أهل الشرك والشقاق.

قيل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق؛ إذ كان رسول الله ﷺ جالسًا في حجرة من حجراته فقال لجلاسه: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، ينظر بعين شيطان» فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، فقال ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟!»[1]، فحلف بالله ما فعل، ثمَّ جاء أصحابه فحلفوا جميعًا على الكذب، وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾[2] وقاية لدمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا﴾ ومنعوا المؤمنين؛ بسبب حلفهم الكاذب ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي هو غزوهم وقتلهم في

---

(1) رواه البغوي في «تفسيره» (61/1).

(2) يقول القشيري في تفسيره (7 /401): مَنْ استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَم له دنياه فإنَّ سهامَ التقدير من وراءه تكشفه من حيث لا يشعر . . فلا دِينُه يبقى، ولا دنياه تَسْلَم.

النشأة الأولى ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: 16] في النشأة الأخرى؛ لاستهانتهم بالله بالحلف الكاذب، ولا يدفع عنهم الإهانة والعذاب يومئذٍ أصلاً.

إذ ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وتدفع يومئذٍ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ بل ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن منهج الحق ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: ملازموها وملاصقوها؛ إذ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: 17] مخلدون، لا يرجى نجاتهم منها أصلاً.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: 18 - 22].

اذكر لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإحياء والإماتة في الإبداء والإعادة ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين، فيعاتبهم بما صدر عنهم، مثلما عاتبهم رسول الله ﷺ ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي: لله حينئذٍ على أنهم مسلمون مؤمنون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآن أيها المؤمنون ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ حينئذٍ أيضًا ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ نفع ودفع حاصل من حلفهم الكاذب، فيخيلون أنهم يروجون بالحلف الكاذب ما يدعون من الكذب على الله، كما يروجون عليكم اليوم، ولم يعلموا أن الناقد حينئذٍ بصير، والترويج إليه عسير.

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها المؤمنون المخلصون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المنافقين ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: 18] المقصورون على الكذب والزور، والتلبيس والغرور.

إذ ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ أي: غلب واستولى ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾[1] المضل المغوي ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ المنقذ عن الضلال، المرشد إلى الهداية، وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المطرودون ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: جنوده وأتباعه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19] المقصورون على الخسران المؤبد، والحرمان المخلد عن ربح المعرفة واليقين؟!

أعاذنا الله وعموم عباده من متابعة الشيطان المضل المغوي.

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ ويعادون ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويعادون ويتجاوزون عن الحدود الموضوعة في الشرع بالوضع الإلهي المنزل على رسوله بالوحي والإلهام ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المجاوزون المعادون، المعدودون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: 20] أي: من جملة من أذله الله، وختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولهم عذاب أليم.

وكيف لا يعد المتجاوزين من الأذلين؛ إذ ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، وأثبت في لوح قضائه بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ ألبتة ﴿أَنَا وَ﴾ عموم ﴿رُسُلِي﴾ المرسلين من عندي بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة على عموم المظاهر والمخلوقات، وكيف لا يغلب سبحانه على مظاهره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿قَوِيٌّ﴾ في ذاته، لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21] مقتدر غالب، يغلب مطلقًا في عموم مراداته ومقدوراته؟!

ثمّ قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير بعموم المؤمنين: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا

(1) قال البقلي: إذ رأى الشيطان أن ينبت في سبخة أرض النفس الأمّارة حنظل الشهوة يثبت إليها، ويغريها إلى إنقاذ مرادها، فتكون النفس مركبة، فيهجم على بلد القلب ويخربه، بأن يُدخل فيه ظلمات الطبيعة وظلمات الشيطان، ولا يرى عن القلب مسلك الذكر وصفاته، فلمّا احتجب عن الذكر صار وطن إبليس وجنوده، غلب الملعون عليه، وهذا يكون بإرادة الله سبحانه، وسببه اشتراء غرور الملعون وتزيينه، بأنْ يلابس أمر الدين بأمر الدنيا، ويغويه من طريق العلم، فإذا لم يعرف دقائقه صار فريسة الشيطان، قال شاه الكرماني: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المأكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمه عليه، والقيام بشكره، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها، ويمنعه أكل الحلال ويرزقه الحرام.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ للحساب والجزاء ﴿يُوَادُّونَ﴾ أي: لا تجدهم أن يوادوا ويحابيوا ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ وعاداه ﴿وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: الحادون العادون المعاندون ﴿آبَاءَهُمْ﴾ أي: آباء المؤمنين ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وأقرباءهم، وذووا أرحامهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المقبولون الممتنعون عن ودادة أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ طلبًا لمرضات الله ومرضاة رسوله ﷺ ﴿كَتَبَ﴾ أي: أثبت ومكن سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وجعله راسخًا فيها.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَيَّدَهُم بِرُوحٍ﴾ فائض ﴿مِّنْهُ﴾[1] محيي لهم أبد الآباد؛ إذ من يُحيى بالإيمان والعرفان فقد دامت حياته، ولم يمت أبدًا ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة الأزلي الأبدي الذي هو الوجود المطلق الإلهي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً؛ إذ ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾ المتجلي عليهم بالرضا ﴿عَنْهُمْ وَرَضُوا﴾ أيضًا ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بالتفويض والتسليم إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿حِزْبُ اللَّهِ﴾ وحوامل آثار أوصافه وأسمائه الذاتية، وقوابل عموم كلياته وشئونه وتطوراته ﴿أَلَا﴾ أي: تنبهوا أيها الأظلال المستظلون بظلاله الممدودة من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22] [2] الفائزون من لدنه بالفوز

---

(1) هو الصدق في الطلب وحسن الإرادة المنتجة من بذر يحبهم ويحبونه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإلا فمن خصوصية طبيعة الإنسان أن يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية وان كانوا يصلون ويصومون ويزعمون أنهم مسلمون؛ ولكن بالتقليد لا بالتحقيق، اللهم إلا من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه انتهى. تفسير حقي (263/14).

(2) حزب الله أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده الفائزون بنصرة الله من مهالك القربان ومصارع الامتحانات، وجدوا الله بالله، إذا ظهر واحدٌ منهم ينهزم المبطلون وينكسر المغالطون؛ لأن الله ألبس على وجوههم نور هيبته، وأعلى لهم أعلام عظمته، يفر منهم الآساد، وتخضع عندهم الشامخات، كلأهم بحسن رعايتهم، ونوّرهم بسنا قربه، ورفع لهم أذكارهم في العالمين، وعظّم أقدارهم، وكتم أسرارهم، قال الحسين: حزب الله الذين إذا نطقوا بهروا، وإنْ سكنوا ظهروا، وإن غابوا حضروا، وإن ناموا سهروا، وإن كمّلوا فكملوا، وإن نجت عنهم علل التخليط فطهروا، أولئك حزب الله إلى آخره، قال أبو سعيد الخراز: حزب الله قوم علاهم البهاء والبهجة، فنعموا، ولم يحتملوا الأذى، وصاروا في حرزه وحماه، فغلب نورهم الأنوار أجمع، وغلب مقامهم المقامات أجمع وهمومهم الهِمَم أجمع، فكانوا في عين الجمع مع الحق أبدًا، وقال ابن عطاء: إن لله عبادًا اتصالهم به دائم، وأعينهم به قريرةٌ أبدًا لا حياة لهم إلا به؛ لاتصال قلوبهم به والنظر

العظيم، والفضل الجسيم، والكرم العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المترقب للفلاح، والفوز بالنجاح أن تتمكن في مقام التسليم والرضا بعموم ما جرى عليك من القضاء، وتلازم على آداب الخدمة بين يدي الله في عموم أوقاتك وحالاتك، فاغرًا همّك وسرك عن مطلق الوساوس والأشغال العائقة عن التوجه نحو المولى، وتواظب على الطاعات والعبادات في خلال الخلوات؛ لتكون مصونة عن السمعة والرياء، والميل إلى العجب والهوى، وإياك إياك أن تتلطخ بقاذورات الدنيا ومزخرفاتها الملهية عن اللذات الأخروية، المستتبعة للسلاسل والأغلال الإمكانية، المبعدة عن الوصول إلى فضاء الوجوب وصفاء الوحدة الذاتية التي عبر بها عن النعيم الموعود، والحوض المورود، والمقام المحمود.

جعلنا الله ممن وصل إليه، وتمكن دونه بمنّه وجوده.

إليهم بصفاء اليقين، فحياتهم بحياته موصولة لا موت لهم أبدًا، ولا صبر لهم عنه لا تقدس أرواحهم، فعلّقها عنده، فثمّ مأواها قد غشى قلوبهم من النور ما أضاءت به، فأشرقت ونما زيادتها على الجوارح، وصاروا في حرزه وحماه أولئك حزب الله إلخ، قال رويم: صفتهم أنهم اطمأنوا إلى الله، وهم أولياء الله وخاصته، وأمان بلاده فأعين قلوبهم ناظرة إلى ربهم، وآذان قلوبهم سامعة منه، وهم الذين اصطفاهم الله واختارهم وهداهم إلى نفسه، وسترهم عن خلقه أولئك حزب الله إلخ. [عرائس البيان].

سورة الحشر

فاتحة سورة الحشر

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وشموله على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس علمًا وعينًا، غيبًا وشهادةً، دنيا وعقبى أن عموم المظاهر والمجالي متوجهة إلى المبدأ الحقيقي، منجذبة نحوه طوعًا، عابدة له رغبةً، ساجدة إياه على وجه الخضوع والخشوع والانكسار التام، والتذلل المفرط، منزهة مسبحة له عن شوب النقص، وسمت الحدوث والزوال.

كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ تنبيهًا له، وتأييدًا لأمره؛ ليكون هو ومن تبعه من المؤمنين الموحِّدين على ذكر من ربهم الذي ربَّاهم على الدراية والشعور بمطلق المراتب الواقعة في الوجود الإلهي، ومظاهر وحدته الذاتية المتجلية حسب الشئون والتطورات الغير المتناهية، المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الغير المحصورة، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن بالحكمة المتقنة العليّة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بجميع مظاهره بإفاضة الجود المتجلية على الصور البديعة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بالإعادة والإرجاع إلى الفطرة الأصلية والمبدأ الحقيقي.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)﴾ [الحشر: 1 - 4].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونزّهه تنزيهًا لائقًا بجنابه سبحانه مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الأَرْضِ وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ العَزِيزُ﴾ بذاته، المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿الحَكِيمُ﴾[1] [الحشر: 1] المتقن المدبّر لمصالح عباده كيف شاء؟!

وبالجملة: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ﴾ بمقتضى عزته وحكمته المسرفين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبرسوله، وهو إجلاء بني النضير، مع أنهم ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ المألوفة، وأوطانهم المأنوسة زجرًا عليهم، وتذليلاً لهم واقعًا إياهم ﴿لِأَوَّلِ الحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم، وإجلائهم الواقع عليهم بظهور الإسلام؛ إذ أجلى رسول الله ﷺ بني النضير أولاً من المدينة إلى الشام، ثمّ أجلى بقية الكفرة عمرُ ﷺ في خلافته، انظروا كيف أخرجهم سبحانه بكمال قدرته وعزته، مع أنكم ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون من ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدتهم وشوكتهم، واستحكام أماكنهم وقلاعهم ﴿وَ﴾ هم أيضًا ﴿ظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ أي: ظنهم لأنفسهم أن حصونهم تمنعهم ﴿مِّنَ﴾ بأس ﴿اللهِ﴾ المنتقم الغيور وبطشه وإن اشتد، لكن لم ينفعهم الحصون والقلاع حين نزول العذاب، بل ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ﴾ أي: القهر الهائل من لدنه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: من صوب وجهة لم يتوقعوا.

﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿قَذَفَ﴾ وألقى سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الشديد، والخوف العظيم من غير قتال، وبسبب ذلك الرعب الهائل اخذوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضنًا بها على المسلمين، وإخراج ما فيها من الأمتعة ﴿وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ﴾ أيضًا، فإنهم أيضًا كانوا يخربون بيوتهم إذلالاً لهم، وتوسيعًا لمضمار الحرب والقتال، وبالجملة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2] واتعظوا بما جرى على هؤلاء الغواة الطغاة، يثقون بحصونهم ويشيدونها؛ ليتحصنوا بها من بأس الله، ثمّ لما اضطروا أخذوا يخربون بأيديهم ما يعتمدون عليه، ويستحفظون به؛ وذلك من كمال قدرة الله ومتانة حكمته.

(1) قال في عين الحياة: بعزته حذف القوة الحافظة والذاكرة والمتفكرة والمتخيلة وأخواتها في سماوات الدماغ لئلا يصل إليها أبخرة المعدة وقاذوراتها ويحكمه أودع القوى الجارية والعارية والهاضمة والدافعة، وأخواتها من أرض البدن لبريتها ويدفع منها ما يضرها ويجذب إليها ما ينفعها؛ ليصل كل جزء إلى كلها، ويلحق كل فرع بأصلها في السفل والترقي وكشف هذا السر من حد القرآن.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ﴾ المصلح لأمور دنياهم، ولم يفترض ﴿عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ ولم يخرجهم من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر، وأنواع الإذلال والصغار، كما جرى على الكفرة المتمكنين في أماكنهم بعدهم ﴿وَ﴾ مع ذلك الإصلاح والكرامة لهم في الدنيا ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: 3] بواسطة إصرارهم على الكفر، وإنكارهم على الإسلام.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإذلال والصغار لهم في الدنيا والآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمخالفة أمرهما، والخروج عن حكمهما ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ يعاقبه ألبتة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 4] صعب الانتقام، أليم العذاب على عصاة عباده إرادةً واختيارًا.

ثمّ لمّا توجه رسول الله ﷺ إلى بني النضير حين نقضوا العهد الذي عهدوا مع الله ورسوله، تحصنوا بحصونهم وامتنعوا عن الإسلام، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخلهم وحرق بساتينهم، قالوا: يا محمد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وحرقها؟!

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: 5 - 7].

فسمع المؤمنون منهم ذلك، وأوجسوا في نفوسهم الكراهة، وعدم اللياقة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾[1] أي: من بعض نخلة من النخلات

(1) كلُّ نوعٍ من النخيل ما عدا العجوة والبَرْنِيّ.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ بلا قطع شيء منها ﴿قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ على ما كانت ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: القطع والترك كلاهما بأمر الله وحكمه ﴿وَ﴾ إنما أمركم بالقطع والحرق ﴿لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5] [1] أي: يرديهم ويذلهم بما غاظهم، ويضيق صدرهم.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ردّ الله وأعطاه ﴿عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من يهود بني النضير من الأموال والعقار فهو لرسول الله خاصة خالصة، له أن يفعل به حيث شاء بلا حق لكم فيها، ليس مثل سائر الغنائم ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ وأجريتم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على تحصيله ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ نجائب الإبل؛ إذ هم مشوا إلى بني النضير رجالاً لا فرسانًا، وكانت المسافة ميلين من المدينة، ومع ذلك لا يقاتلون معهم مقاتلتكم مع سائر الكفرة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من المستوجبين للطرد والمقت بلا وسائل القتال والحراب، بل يقذف الرعب، وإلقاء الخوف في قلوبهم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، الموجبة للهزيمة، لا عن شيء ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ موجب لقهر أعدائه، ونصر أوليائه ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحشر: 6] سواء وافق العادة أو لا.

وبالجملة: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ﴾ أموال ﴿أَهْلِ الْقُرَى﴾ الهالكة بالغلبة والاستيلاء بلا مقاتلة وحراب ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهم ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ من بني هاشم وبني المطلب سهم ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سهام، وإنما قسم سبحانه مال الفيء بنفسه ﴿كَيْ لَا يَكُونَ﴾ الفيء الذي حقه أن يصل إلى الفقراء ﴿دُولَةً﴾ متداولة

(1) قال القشيري (7 / 405): لمّا أمر رسولُ الله ﷺ بقَطْعِ بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟! فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضّح أن ذلك بإذن الله ... فانقطعَ الكلامُ . وفي هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلّلةٍ، وأنّ الأمرَ الشرعيّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ، وسَكَتَتْ الألسنةُ عن المطالبة ب «لِمَ؟» وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان . والشيوخُ . قالوا: مَنْ قال لأستاذِه وشيخه: « لِمَ؟ » لا يفلح . وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر في قلبِه جَوَلان لا يجيءُ منه شيءٌ . ومَنْ لم يتجرّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجري واستحسانَ ما يبدوا من الغيب لِسِرّه وقلبِه - فليس من الله في شيء.

﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ ورؤسائكم، كما هو عادة الجاهلية الأولى. ﴿وَ﴾ بعدما قسم سبحانه في كتابه ﴿مَا آتَاكُمُ﴾ وأعطاكم ﴿الرَّسُولُ﴾ المستخلف منه سبحانه ﴿فَخُذُوهُ﴾ بلا مراء ومجادلة معه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ بإذن الله ﴿فَانتَهُوا﴾ أيضًا عنه بلا مكابرة وإصرار ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن مخالفة أمره، وأمر رسوله النائب عنه، واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر على وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7] على من خرج من ربقة عبوديته، ومقتضى ألوهيته.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: 8 - 10].

ثمّ بيّن سبحانه مصارف الفيء بعد إخراج سهم الله ورسوله، وقدم منهم فقراء المهاجرين اهتمامًا بشأنهم فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ أي: أخرجهم المشركون، ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم، والحال أنهم في مصائبهم هذه ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿فَضْلًا﴾ تفضلاً وإحسانًا ﴿مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ منه سبحانه؛ لكمال تمكنهم ورسوخهم في مقام الرضا والتسليم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَنصُرُونَ اللهَ﴾ بترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بالمعاونة والمظاهرة، وبذل المال والنفس في تقويته ونصره ﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المقبولون، الباذلون مهجهم في طريق الحق، وتقوية دينه القويم وصراطه المستقيم، ونصرة رسوله الكريم ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] المقصورون على الصدق والإخلاص ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَ﴾ بعد أولئك الفقراء الأنصار، وهم ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ أي:

توطنوا وتمكنوا في المدينة، ورسخوا على الإيمان والإسلام بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: قبل هجرة المهاجرين إليها، ومع رسوخهم وتمكنهم في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ محبة خالصة ﴿مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من المؤمنين ﴿وَ﴾ من كمال محبتهم وإخلاصهم بإخوانهم المهاجرين: ﴿لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ﴾ ووجدانهم ﴿حَاجَةً﴾ باعثة لهم إلى أن يحسدوا ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ وأعطوا؛ أي: المهاجرين من سهام الفيء، وسائر الغنائم والصدقات؛ وذلك من غاية محبتهم ومودتهم بالنسبة إليهم، بل ﴿وَيُؤۡثِرُونَ﴾ أي: يختارون ويقدمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ حتى إن من كان له امرأتان نزل عن واحدة وزوَّجها على أحدهم.

وبالجملة: يؤثرونهم ويختارونهم؛ أي: المهاجرين على أنفسهم في آخر ما آثروا لنفوسهم ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾[1] أي: حاجة شديدة بليغة، ومحبة بالنسبة إلى ذلك الشيء، وما هو إلا من فرط محبتهم وإخلاصهم بالنسبة إلى إخوانهم المهاجرين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ ويخالفها حتى يمنعها عن مقتضاها طلبًا لمرضاة الله، ورعاية لجانب أخيه المسلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المحافظون على آداب الأخوة والمروة ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] المقصورون على الفوز العظيم من عنده سبحانه عاجلاً وآجلاً، في العاجل بالذكر الجميل، وفي الآجل بالجزاء الجزيل.

﴿وَ﴾ بعد فقراء الأنصار للفقراء التابعين، وهم ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ مهاجرين من بقعة الإمكان نحو فضاء الوجوب، مقتفين أثر أولئك الكرام، مريدين لهم بإحسان، مذكرين لهم بغفران، حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع ربهم في خلواتهم، وأعقاب صلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على فطرة الإسلام ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذنوبنا التي

---

(1) تقول العرب: فلان مخصوص إذا كان فقيراً، فيؤثرون رضا الله على هواهم، والإيثار شاهد الحب. وقد حكي عن وهيب بن الورد أنه قال: يقول الله: «وعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد آثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر، وعزتي وجلالي، ما من عبد آثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك». تفسير التستري (136/2).

صدرت عنَّا ﴿وَلِإِخْوَانِنَا﴾ في الدين، وهم ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ وسلوك طريق العرفان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا﴾ يا مولانا ﴿غِلاً﴾ حقدًا وحسدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مطلقًا، لا للسابقين ولا للاحقين. ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على الإخلاص والتوفيق تقبل منَّا مناجاتنا، واقض لنا حاجاتنا ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ﴾ عطوف على عموم عبادك، سيما المخلصين منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10] تقبل توبتهم، وتغفر زلتهم إن استغفروا نحوك نادمين عما صدر عنهم.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر: 11 - 14].

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ مع المؤمنين حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في خلواتهم ﴿لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وكان بينهم صداقة الشرك وأخوة الكفر، وموالاة البغض مع المؤمنين: لا تصالحوا مع هؤلاء المدعين؛ يعنون: المؤمنين، وإنَّا معكم، والله ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم عنوةً ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ألبتة ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾ ونتبع ﴿فِيكُمْ﴾ أي: في قتالكم وحرابكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من هؤلاء الأعادي ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ ونعاونكم ألبتة بلا خلف منَّا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعالهم ونياتهم فيها ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11] في قولهم وعهدهم هذا مع إخوانهم.

حيث قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ ألبتة ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا

﴿يَنصُرُونَهُمْ﴾ جزمًا، وقد وقع ذلك، فإن أُبي وأصحابه عهدوا مع بني النضير على هذا، ثمَّ أخلفوهم، وهم قد خرجوا من ديارهم، وهؤلاء لم يخرجوا ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بالفرض والتقدير، ويقاتلوا معكم أيها المؤمنون من جانب عدوكم، والله ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ وقت كركم عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: 12] بعد ذلك؛ لشدة خوفكم ورعبكم في قلوبهم.

وبالجملة: ﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ مرهوبية ومرعوبية راسخة ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ متمكنة في نفوسهم من قبلكم، والحال أن تلك الرهبة الشديدة الحاصلة منكم إياهم ناشئة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ إذ هو سبحانه قذفها في صدورهم من جانبكم، وأقدركم عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عدم تفطنهم بمنشئها ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 13] ولا يعلمون عظمة الله، وحق قدره حتى يخشوا منه حق خشيته.

وبالجملة: لا تبالوا أيها المؤمنون بودادة المنافقين مع اليهود، واتفاقهم معهم؛ إذ ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ محصورة، مسورة بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يستحصنون بها؛ وذلك من فرط رعبهم، وشدة رهبتهم من المؤمنين، وإلَّا ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: حين حارب بعضهم بعضًا، أو مع غير المؤمنين، قتالهم شديد وحرابهم عظيم، وإذا حاربوا مع المؤمنين ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ظاهرًا في بادئ النظر ﴿وَ﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[1] متفرقة مختلفة حقيقةً؛ لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الافتراق والاختلاف ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14] ولا يفهمون ما هو صلاحهم في الدارين، وفلاحهم في النشأتين.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿15﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ

(1) وصف الله قلوب المخالفين بالتشتت والتفرق في نياتهم وقصودهم وأرائهم، بأنهم لا يرشدون طرق المآب إلى الله، ولا يتوافقون بقلوبهم، وإن توافقوا بأبدانهم، وتلك التفرقة من عينهم عن رؤية محل الصواب. قال سهل: أهل الحق مجتمعين أبدًا موافقين، وإن تفرّقوا بالأبدان، وتباينوا بالظواهر، وأهل الباطل متفرّقين أبدًا، وإن اجتمعوا بالأبدان، ووافقوا في الظواهر. [العرائس].

﴿قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [الحشر: 15 – 20].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ﴾ أي: مثلهم كمثل اليهود الذين مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ بزمانهم ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا من أنواع الهوان والخسار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: 15] في الآخرة التي هي دار البوار.

بل مثلهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: مثل المنافقين في إغراء اليهود على قتال المؤمنين كمثل الشيطان وقت ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ﴾ أي: كل فرد وفرد من أفراد الكفرة: ﴿اكْفُرْ﴾ حتى أعينك على عموم مقاصدك ومرامك ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان - العياذ بالله - بتغريره ﴿قَالَ﴾ له الشيطان بعدما كفر: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ لا أعينك على شيء؛ لأنك كفرت بالله، وصرت عدوًا لله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ القادر القاهر الغيور أن ينتقم عني بسبب معاونتك ومظاهرتك؛ لكونه ﴿رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16] فلا يجري التصرف في ملكه بلا إذن منه سبحانه.

وبعدما كفر الإنسان بتغرير الشيطان وتلبيسه ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ أي: عاقبة الشيطان والإنسان الذي كفر بتغريره ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ تابعًا ومتبوعًا، لا زمانًا دون زمان، بل وقعا ﴿خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ مستمرين أبدًا ﴿وَذَلِكَ﴾ الخلود في النار ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: 17] الخارجين عن ربقة الرقية الإلهية، وعروة عبوديته بتلبيس الشيطان وتغريره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: التقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ أي: كل واحد من

النفوس المجبولة على نظرة الدراية والشعور على وجه العبرة والاستبصار ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وما ادخرت ليوم القيامة، وتزودت للنشأة الأخرى بعدما كلفت بأنواع التكاليف، وأمرت لإعداد زاد المعاد على وجه المبالغة، وكمال الإرشاد ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، واحذروا عن مخالفة أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18] من خير وشر، ونفع وضر، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي: كالغافلين الذين ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: ذكره المستلزم للإيمان، المستلزم للمحبة والعرفان ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: معرفتها المستلزمة لمعرفة الحق، وبالجملة: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 19] المقصورون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ولوازم العبودية، الجاهلون بقدر الألوهية مطلقًا.

واعلموا أيها المكلفون أنه ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ﴾ منكم وملازموها، وهم الذين اقترفوا طول عمرهم من سيئات الأعمال، وذمائم الأخلاق والأوصاف ما يستحقون دخول النار ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين اتصفوا بمحاسن الأعمال والأحوال، ومحامد الأخلاق والأطوار المنتجة لهم أنواع المعارف والحقائق، والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليهم حسب استنشاقهم من نسائم عالم اللاهوت، واسترواحهم من فواتح حضرة الرحموت، وبالجملة: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20] المفلحون المقصورون في الدرجات العلية، والمقامات السنية مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 21 – 24].

ثمّ وبّخ سبحانه نوع الإنسان المجبول على فطرة الإيمان والعرفان، وقرعهم بغفلتهم عن القرآن المرشد لهم إلى طريق التوحيد والإيقان بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ المنزل عليكم أيها التائهون في تيه الغفلة والنسيان ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال العظام، والله ﴿لَّرَأَيْتَهُ﴾ أيها المعتبر الرائي؛ أي: الجبل ﴿خَاشِعًا﴾ خاضعًا ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققًا ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ القادر الغيور؛ يعني: من تأثير الوعيدات الهائلة، والإنذارات الشديدة الواقعة فيه على أهل التكليف، مع عدم قابليته على التأثر، وأنتم أيها الهلكى الحمقى، الهالكون التائهون في تيه الجهل والضلال، مع كمال قابليتكم واستعدادكم لا تتأثرون من وعيداته البليغة، وإنذاراته الشديدة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين مرتبة العبودية؛ من كمال البطر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] ويتفطنون منها إلى فطرتهم الأصلية المجبولة على التذلل والخشوع، والانكسار والخضوع، فيشتغلون بما جُبلوا لأجله من الإتيان بالطاعات، وأنواع العبادات اللائقة لمرتبة الألوهية والربوبية.

وكيف لا تتذللون له سبحانه أيها الحمقى الهالكون، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ أي: الموجود الحق الحقيق ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ ولا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على التفصيل الواقع في الواقع، بحيث لا يعزب عن حيطة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ومع ذلك ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ على عموم الأكوان بإفاضة الوجود عليهم وتربيتهم، وتدبير مصالحهم في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22] لهم، يوصلهم إلى فضاء وحدته، وسعة جنته ورحمته في النشأة الأخرى؟!

وبالجملة: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية، المتوحد بالقيومية، المتفرد بالديمومية ﴿الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ باستقلاله وصمديته في ذاته، وقيوميته في ملكه وملكوته بحسب مقتضيات أسمائه الحسنى،

وصفاته العليا؛ إذ هو ﴿الْمَلِكُ﴾ المتفرد بالحكم والاستيلاء التام، والسلطنة الغالبة ﴿الْقُدُّوسُ﴾ البالغ في النزاهة إلى أقصى الغاية والنهاية ﴿السَّلَامُ﴾ السالم عن مطلق النقائص، ولوازم الاستكمال، ولواحق الإمكان ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ ذو الأمن والأمان على عموم الأعيان والأكوان ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾[1] المراقب المحافظ على مقتضيات استعدادات عموم الأنام بكمال العدل والإحسان ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم مراداته ومقدوراته بالفضل والامتنان ﴿الْجَبَّارُ﴾ على عموم من خرج عن ربقة عبوديته بالإنكار والطغيان ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾[2] المتعالي عن كل أمر يشينه من العجز والنقصان، وبالجملة: ﴿سُبْحَانَ

---

(1) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: فخاصة اسم المهيمن الحق ﷻ - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العليّ عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو العليّ عليه، أي أن له حقيقته، وكل متسم به سواه له منه مجازه، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية، هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عزّ جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الخيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأرهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنيته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقتها على مجاز أسماء عباده، وهامت الألباب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيومًا فهي مهيومة وهيمانة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيومًا وهيامًا، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمانة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

(2) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: وأرى - والله أعلم - أن معنى القدس جامع لمعاني الطهارة والطيب والزكاة والعدل والحمد كله والتنزيه عن الطبع والظلم والمعايب مما لا يليق به سبحانه وتعالى، وإن الفرق بينه وبين اسم السبوح أن معنى السبوح تنزيه لوجوده العليّ عن المثل والنظير والكفء، وبحمده عن حوادث المخلوقين ونقائص المحدثين، فآية التسبيح الأول التوبة المفروضة والطهارة، وآية التسبيح الثاني الحمد كالصلاة ﷺ، ومبالغة في المراد المقصود بالتسبيح، ثم اسم القدوس عبارة عن هذا كله مع اقترانه بالملك وتوابعه، وأنه لا يجوز في تدبيره الظلم ولا في قضائه الحيف، ولذلك - وهو أعلم- أتبع الاسمين قوله: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [الحشر:23]، يقال: سبحت الله وسبحت لله وقدست الله، أي: وصفته بالقدس والطهارة والطيب، وقدست لله بمعنى

﴿اللهِ﴾ أي: تنزه وتعالى ذاته وشأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23] ويثبتون له المشركون المفرطون علوًا كبيرًا.

كيف يشركون معه غيره أولئك المسرفون، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ اللهُ الخَالِقُ﴾ المقصور المنحصر، المستقل على خلق الأشياء وتقديرها، وإيجادها وإظهارها من كتم العدم بمقتضى حكمته بالإرادة والاختيار ﴿البَارِئُ﴾ الموجد لها بمقتضى اسمه الرحمن بلا تفاوت ونقصان ﴿المُصَوِّرُ﴾ لصور الأشياء وهياكلها وأشكالها على أبلغ نظام وأعجب شأن، ولا يشغله شأن عن شأن، وبالجملة: ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾[1] التي لا تُعد ولا تُحصى، يتجلى على مقتضاها في كل آن في شأن؛ لذلك ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وينزهه على الدوام عن كل ما لا يليق بشأنه؟! ﴿وَ﴾

قدست لله عباده، قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:30] أي: عبادك، وقال عزّ من قائل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ﴾ [الجمعة:1]، وقد يعبر بالتقديس عن الصلاة، ثم عن سواها من الأعمال من ذلك قولهم: إن أرضًا لا تقدس صاحبها، إنما يقدس الإنسان عمله، وهذان اسمان جمعا ذكر المحامد كلها، والله أعلم، فقول القائل: سبوح قدوس رب الملائكة والروح شبيهة بقوله ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2].

(1) قال سيدي ابن برجان الإشبيلي في «شرح الأسماء الحسنى»: فخاصة اسم المهيمن الحق ﷻ - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العَلِيّ عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو العَلِيّ عليه، أي أن له حقيقته، وكل متسم به سواه له منه مجازه، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية.

هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عزّ جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الحيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنيته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقتها على مجاز أسماء عباده، وهامت الألباب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيومًا فهي مهيومة وهيمانة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيومًا وهيامًا، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمانة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

بالجملة: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عموم ما أحاط به علمه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24] المدبر المتقن على مقتضى علمه وإرادته بلا مدافعة أحد ومظاهرته.

جعلنا الله ممن تحقق بوحدة ذاته، وانكشف بكمالات أسمائه وصفاته.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقر التوحيد، المنكشف بوحدة الذات وكمالات الأسماء والصفات الذاتية الإلهية - مكنك الله في مقر عزك بلا تذبذب وتلوين - أن تطالع آثار أسمائه الحسنى، وصفاته العليا على صفحات الكائنات الغيبية والشهادية، وتعتبر منها حسب استعدادك، وقدر قابليتك المودعة فيك من قِبَل الحق.

وإياك إياك أن تنحرف عن جادة العدالة الشرعية التي هي منتخبة عن العدالة الإلهية الواقعة بين مقتضيات أسمائه الذاتية، وصفاته العليّة، فلك أن تطابق عموم أعمالك وأخلاقك وأطوارك عليها، بحيث لا تهمل شيئًا من دقائقها؛ إذ بقدر إهمالك من حدودها أحطت عن درجة التوحيد، ومرتبة أهل الوحدة الذاتية؛ إذ الشريعة إنما هي الوقاية الموضوعة بالوضع الإلهي بين الأنام؛ ليوفقهم الحق بها إلى دار السلام التي هي مقعد صدق الرضا والتسليم الذي هو أعلى مقامات العارفين، وأقصى حالات الموحدين المكاشفين.

هدانا الله وعموم عباده إلى سواء السبيل، وأعاذنا الله وإياهم عن الانحراف والتحويل بلطفه الجميل، وكرمه الجزيل.

سورة الممتحنة

فاتحة سورة الممتحنة

لا يخفى على من تمكن بمقام التوحيد، وانكشف بسرائر الوحدة الذاتية مقدار ما يسر الله له ووفقه عليه فضلاً منه سبحانه، وعنايةً أن من تقرر في مقر عز الوحدة لا بدَّ أن يجتنب عن أصحاب الغفلة والكثرات المترددين في أودية الضلالات بأنواع الحيرة والحسرات، ويعيشون في بقعة الإمكان بأنواع الخيبة والخذلان، فلا بدَّ لأرباب الرسوخ والتمكن من الموحدين المخلصين ألَّا يصاحبوا معهم، ولا يوالوهم موالاتهم مع الموحدين، ولا يلتفتوا إليهم، وإلى عموم أطوارهم وأحوالهم.

إن عدو البليد إلى الجليد سريعة، ولوازم الإمكان مشتركة، وغواشي البشرية سارية، وطلسمات الطبيعة البهيمية سارقة؛ لذلك أوصى سبحانه خُلَّص عباده المؤمنين الموحدين بما أوصى، ونهاهم عما نهاهم من محبة الأعداء وموالاتهم في السراء والضراء، فقال مناديًا لهم بعد التيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المصلح لأحوال عباده في كل حال ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم، يحفظهم من سوء الأخلاق والأعمال ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوقظهم عن منام الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوصال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: 1 – 3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى اتصافكم بالإيمان بالله وبوحدة ذاته، وكمالات أسمائه وصفاته: أن ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾ وهم الذين خرجوا من عروة عبوديتي بإثبات الوجود لغيري ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ إذ عداوتهم إياي مستلزمة لعداوتهم إياكم أيضًا؛ إذ صديق

العدو كعدو الصديق ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أحباء، توالون معهم كأرباب المحبة والولاء، وتظهرون محبتهم ومودتهم إلى حيث ﴿تُلْقُونَ﴾ ترسلون ﴿إِلَيْهِم﴾ رسالة مشعرة ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ الخالصة، المنبئة عن إفراط المحبة والإخاء ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا ﴿بِمَا جَاءَكُم﴾ أي: بعموم ما نزل على رسولكم ﴿مِّنَ الْحَقِّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتّباع، وبالغوا في الإعراض والإنكار إلى حيث ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ أصالةً ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ تبعًا بواسطة ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والإيمان، وقبول دين الإسلام من النبي المبعوث إلى كافة الأنام؛ ليرشدهم إلى دار السلام.

وبالجملة: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم، وبقاع إمكانكم ﴿جِهَادًا﴾ أي: لأجل الجهاد والقتال ﴿فِي سَبِيلِي﴾ أي: سبيل توحيدي، وترويج ديني، وإعلاء كلمة توحيدي ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ في امتثال أمري، وإطاعة حكمي فلزمكم ترك موالاة أعدائي والمؤاخاة معهم، مع أنكم أنتم ﴿تُسِرُّونَ﴾ وتخفون ﴿إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[1] ظنًا منكم أني لا أطلع على ما في سرائركم وضمائركم من محبة

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: يا أيتها القوى المؤمنة لا تتخذوا القوة الكافرة القالبية والمشركة المنافقة النفسية، وإن كانت عشائركم أولياء؛ لأنهم يريدون أن تشتغلوا بالشهوات العاجلة ليتمتعوا بحظوظهم من اشتغالكم بالشهوات العاجلة، ويعذبكم ربكم في الآخرة، ولا تلقوا لهم من أسرار الوارد، وأخبار اللطيفة الخفية بمودة أصلية كانت بينكم وبينهم؛ لأن السالك يريد أن يعارضهم ويدخلهم في ميدان الخلوة، ويجاهدهم ولو ألفت القوة المؤمنة إلى القوة الكافرة خير إدخالهم في الخلوة أبوا واعتدوا وجعلوا يمكرون مكرًا ويكيدون كيدًا ليضروا اللطيفة الخفية إلى حد شاهدنا أنها تمرض الوجود وتظهر الآلام الشديدة والأوجاع المؤلمة في وجود السالك، لئلا يدخل في الخلود ولا يشتغل بالعزلة، فإن كان السالك صادقًا لا يضره كيدهم، بل يحرضه ويبالغ في المجاهدة مع وجود الآلام والأوجاع، وهذا الابتلاء يتقن كثيرًا عند غيبة السالك عن حضرة مسلكه إني أردت في بداية أمري أن أدخل الخلوة في أربعين [موسوية] ففطنت القوى القالبية والنفسية الكافرة المشركة لأخيارهم القوى المؤمنة اللائمة فأمرضوني، وكان لي أخ في الدين من سلاك الطريقة رحمه الله قال لي: اترك الخلق في العشر الأول وداو نفسك حتى تصح؛ ثم أدخل في الخلوة على سنة المصطفى ﷺ وتمم ثلاثين يومًا، فأطعت أمره فلما دخل ليلة أول أربعين وهيئوا لي مشروبًا سهلاً لأشرب صبيحة تلك الليلة، فجاء الخادم، وقال: إن أحدًا من المفنين جاء مسافرًا من جانب خراسان، ويستأذن أن يدخل عليك، ويزمزم لكم فقلت: ائذنوا فدخل وقعد وزمزم، وقال في أول اشتغاله بالزمزمة: هذه الفارسية المهيجة، وهي شعر، فقلب علي الوقت لأني سمعت هذا الكلام من الحق زرفت ورقصت، وهيج في باطني أشواقًا

الأعداء ومودتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي: بجميع ما تسرون وما تعلنون ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: الاتخاذ المذكور ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1] أي: انحرف عن جادة العدالة الإلهية، ومال عن الصراط المستقيم الموصل إلى مقصد التوحيد.

واعلموا أيها المؤمنون أنكم، وإن بالغتم في إظهار المحبة والمودة بالنسبة إليهم، وهم بمكان من العداوة وشدة الخصومة إلى حيث ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ ويظفروا منكم بالفرض والتقدير ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ألبتة، بل يظهروا العداوة ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والأسر وقطع العضو، والشتم المفرط، وأنواع الوقاحة، بل ﴿وَوَدُّوا﴾ وتمنوا في أنفسهم دائمًا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: 2] وترتدون عن دينكم، وتلتحقون بكفرهم.

فعليكم ألَّا تبالوا بأقاربكم وأرحامكم من الكفرة، ولا تلتفتوا نحوهم؛ إذ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين أنتم توالون المشركين لأجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة؛ لتنقيد الأعمال الصادرة عن كل نفس؛ إذ الله ﴿يَفْصِلُ﴾ ويفرق ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يومئذٍ، فيجازي كلاً منكم حسب ما كسبوا خيرًا كان أو شرًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعال عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: 3] يجازيكم عليه بمقتضى بصارته وخبرته.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ

عظيمة، فلما فرغت من السماع دخلت الخلوة، وجلست وما ضرني المرض، وفتح الله علي في تلك الخلوة فتوحات عظيمة لا حرمنا الله من أمثالها، فالمقصود من إيراد هذه الحكاية أن يعرف السالك كيد القوى ومكرها، ولا يلتفت إليها، ولو تمرض يقول لها: الدخول في الخلوة وقت المرض، وكثرة الطاعة في هذه الحالة أجود والمرض مبشر رسول الموت، فينبغي أن تدخل الخلوة، وتشتغل بذكر الحق لتموت فيها مستريحًا، فإذا رأت القوة الكافرة وصدق السالك خافت من صدقه وهربت عنه.

ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: 4 – 6].

ولا تستنكفوا عن حكم الله إياكم بقطع أرحامكم الكفرة، وأقاربكم المشركين؛ إذ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ وقدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحة لائقة يُؤتسى ويُقتدى بها، وكانت تلك القدوة نازلة ﴿فِي﴾ شأن ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ المؤمنين له، المسترشدين من المتدينين بدينه، وقد كانوا يقولون بمقتضى تلك الأسوة الحسنة وقت ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ الذين هم أقاربهم وأرحامهم الكفرة وعبدة الأوثان: ﴿إِنَّا﴾ بعدما كوشفنا بوحدة الحق ﴿بُرَآءُ﴾ بريئون ﴿مِنكُمْ﴾ لانهماكهم في الشرك أيضًا ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأوثان الباطلة العاطلة، وبالجملة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبدينكم الباطل، ومعبوداتكم العاطلة الباطلة.

﴿وَ﴾ بعد اليوم ﴿بَدَا﴾ ظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ لا نصالح ولا نواسي معكم أصلاً ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ وتتبرؤوا عن معبوداتكم الباطلة مثلنا، فعليكم أيها المؤمنون اليوم أن تأتسوا وتقتدوا لجميع ما قال إبراهيم عليه السلام ومن تبعه لقومهم فيما مضى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الكافر: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ من الله يا أبي، وبالجملة: اقتدوا أيها المؤمنون بجميع أطوار إبراهيم عليه السلام وأقواله سوى هذا القول لأبيه معتذرًا منه بقوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ﴾ أي: ما أقدر وأدفع منك ﴿مِنَ﴾ غضب ﴿اللهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿مِن شَيْءٍ﴾ نزل عليك بمقتضى قهره وسخطه سبحانه سوى الاستغفار والشفاعة إن قَبِل الملك الغفار مني هذا، وذلك قبل ورود النهي ﷺ عن ودادة أهل الكفر، أو صدر عنه هذا الموعود وعدها إياه.

وبعدما أُمرتم أيها المؤمنون بمحبة الله ومحبة رسوله والذين آمنوا معه، وتدينوا بدينه، ونُهيتم عن مودة الأعداء وموالاتهم، ومواساة أخلاقهم وأطوارهم، قولوا مسترجعين إلى الله، مناجين معه: ﴿رَّبَّنَا﴾ يا من ربَّانا على فطرة التوحيد والإسلام ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ في كل الأمور بلا رؤية الوسائل في البين ثقةً واعتمادًا عليك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ عدنا ورجعنا في الخطوب وعموم الملمات، لا إلى غيرك من الأسباب العادية ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: 4] كما أن مصدره منك؛ إذ لا موجود سواك، ولا مقصد ولا مقصود غيرك.

وبعدما وطنتنا في مقر توحيدك يا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنوا بنا، ويصيبونا بعذاب لا طاقة لنا بحمله ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ ما فرطنا بمقتضى بشريتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: 5] المتقن في تدبير مصالح العباد، وما جرى عليهم في المعاش والمعاد.

ثمّ بالغ سبحانه في التأسي والاقتداء بملة إبراهيم عليه السلام وقدوته فقال مؤكدًا بالقسم: والله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ جرية صالحة يُؤتسى ويُقتدى ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ أي: التحقق برضاه، والتسليم بقضاه ﴿وَ﴾ يرجو ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ليتحقق عند مولاه بما وعد له وهيأه ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يؤمن بالوقوف بين يدي الله فلن يضر الله شيئًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المستغني بذاته، لا احتياج له إلى رجاء الراجين ومناجاتهم معه، ورفع حاجاتهم إياه ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: 6] حسب أسمائه وصفاته بلا افتقار له إلى حمد الحامدين، وشكر الشاكرين.

﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ [الممتحنة: 7 – 9].

ثمّ لمّا ورد النهي الإلهي على وجه المبالغة والتأكيد عن موالاة ذوي الأرحام والأقارب من الكفرة تبرأ المؤمنون من أقاربهم وعشائرهم المشركين، وعادوا معهم، إلّا أنهم أضمروا في نفوسهم حزنًا وغمًا، فوعد الله سبحانه لهم إيمان أقاربهم تسليةً لهم، وإزالةً لحزنهم، فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[1] ومحبة خالصة جامعة بينكم وبينهم، ألا وهي الإسلام المسقِط

(1) هذه إشارةٌ إلى الرفق في مجاهدة النفس، ربما تطمئن وتعين الروح والعقل والقلب في معرفة الله وطاعته، قال ابن عطاء: لا تبغضوا عبادي كل البغض، فإني قادرٌ على أن أنقلكم من البغض إلى المحبة، كنقلي من الحياة إلى الممات، ومن الموت إلى النشور، قال ﷺ: «أحببْ حبيبك هونًا ما

لجميع الآنام ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿قَدِيرٌ﴾ على ذلك الجمع المستلزم للمودة ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على جمعكم ﴿غَفُورٌ﴾ لفرطاتكم التي صدرت منكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7] يرحمكم بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثمَّ لمَّا تحرَّج المؤمنون من عدم موالاتهم مع أقربائهم الكفرة، وذوي أرحامهم المشركين إلى حيث قدمت قتيلة بنت عبد العزى مشركة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا فلم تأذن لها بالدخول، ولم تقبل هديتها، فنزلت: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الحكيم العليم ﴿عَنِ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ولم ينهكم ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ ولا تحسنوا إليهم؛ إذ لا سبب للنهي عن ودادة هؤلاء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿تُقْسِطُوا﴾ وتفيضوا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بالقسط الإلهي على مقتضى الوصلة الموضوعة بينكم بالوضع الإلهي ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8] المعتدلين في عموم الأحوال، سيما على ذوي القربى.

بل ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَنِ﴾ موالاة أقربائكم ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ يعني: مكة - شرفها الله - ﴿وَ﴾ الذين ﴿ظَاهَرُوا﴾ أعانوا ونصروا ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وإن لم يباشروا بجوارحهم، لكن أعانوا على المباشرين المخرجين بالقول والمال، وإيقاع الفتنة؛ لذلك نهاكم سبحانه ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ وتختلطوا معهم، وتوالوهم؛ أي: المجرمين والمعاونين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم بعد ورود النهي ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الموالون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9] الخارجون عن مقتضى النهي الوارد من قِبَل الحق فيستحقون العذاب الأليم؛ بسبب خروجهم عن مقتضى النهي الإلهي.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ

عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما».

﴿فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة: 10 – 11].

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ المذعنات للإيمان حال كونهن ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ من قِبَل الكفار ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ واختبروهن، وانظروا إليهن بنور الله المقتبس من مشكاة الإيمان، متفرسين هل تجدوهن مواطئة قلوبهن بألسنتهن، مع أنه ﴿اللهُ﴾ المطلع على ما في قلوبهن ﴿أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ وبعدما تفرستم في شأنهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ وظننتموهن ﴿مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ ولا تردوهن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ حتى لا يصرن مرتدات، وبالجملة: بعد ظهور الإيمان منهن ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: للأزواج الكفار ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي: الأزواج ﴿يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لاختلافهما في الدين.

﴿وَ﴾ بعدما حفظتموهن وحكمتموهن بالإيمان، إن جاء أزواجهن في طلبهن ﴿آتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ أي: مهورهن ﴿وَ﴾ بعدما آتيتم وأعطيتم مهورهن لأزواجهن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق ولا حرج ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن مرة أخرى مثل مهور سائر المؤمنات، ولا تحسبوا عليهن ما أعطيتم لأزواجهن من المهور.

﴿وَ﴾ بعدما ثبت أنه لا رخصة لكم في دينكم أن تردوا المؤمنات المهاجرات إلى الكفار ﴿لَا تُمْسِكُوا﴾ أي: لا تبقوا أيضًا أزواجكم أيها المؤمنون ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ أي: لا تقيموا بعقود أزواجكم الكافرات الملحقات إلى الكفار، بل خلوا سبيلهن ﴿وَاسْأَلُوا﴾ منهن ﴿مَا أَنفَقْتُمْ﴾ لهن من المهور بعدما لحقن بالكفار ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ أي: الكفار أيضًا منكم ﴿مَا أَنفَقُوا﴾ من المهور لأزواجهم المؤمنات المهاجرات، الملحقات بكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ذكر في الآية ﴿حُكْمُ اللهِ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿يَحْكُمُ﴾ به ﴿بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10] يحكم بما يقتضيه علمه وحكمته.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شَيْءٌ مِّنْ﴾ مهور ﴿أَزْوَاجِكُمْ﴾ بعدما لحقن ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ولم يؤدوا جميع مهورهن إليكم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ بعد ذلك، وغلبتم على الكفار المتمردين على أداء مهوركم، وأخذتم الغنائم منهم ﴿فَآتُوا﴾ وأعطوا أيها المؤمنون قبل القسمة ﴿الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾ إلى الكفار ﴿مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ في مهور أزواجهم

الكافرات الملحقات ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[1] [الممتحنة: 11] ولا تضيعوا حق أخيكم المؤمن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: 12 – 13].

ثمّ قال سبحانه مناديًا لنبيه على سبيل الإرشاد والتعليم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ويقبلن منك مطلق الحقوق والحدود المعتبرة في الشرع، سيما ﴿عَلَى أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والولد ﴿شَيْئًا﴾ من الإشراك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ من حرز إنسان ماله ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ سواء كن محصنات أو غير محصنات ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كإسقاط جنين، ووأد البنات وغيرها ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني: لا تأتي المرأة بشيء فاحش إلى حيث تقذف بولدها بأنه ليس من زوجها؛ بسبب ذلك الشيء الذي صدر عنها، يبهت الناس بسببه، ووقعوا في الافتراء لأجله ﴿وَ﴾ بالجملة: يبايعنك على أن ﴿لَا يَعْصِينَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا تأمرهن بها أصلاً حالهن، وإذا بايعن معك على ترك الخصائل المذمومة ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أيضًا ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ﴾ بما صدر منهن قبل البيعة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على ما في نياتهن من الإخلاص ﴿غَفُورٌ﴾ يغفرهن بعدما أخلصن ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12] يقبل توبتهن.

ثمّ لمّا واصل بعض فقراء المسلمين اليهود؛ ليصيبوا من ثمارهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا

(1) قال السمناني: يعني: اتقوا الله من أن يبقى معكم من الأخلاق الردية التي حصلت للقوة القابلة من القوى الكافرة والمشركة أو تبقى مع القوة القابلة المرتدة من الأخلاق الشريفة التي حصلت لها من القوى الفاعلة المؤمنة لئلا يكون لهم ملك الأخلاق استعدادًا للإغواء ولأجل هذا السر من المشايخ بان لا يؤذن لسالك خرج من حباله شيخه أن يدخل في دائرة الصوفية لأنه سارق يسرق المعارف والوقائع ويدعوا الخلق إلى نفسه بتلك الاستعدادات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ترك مواصلة اليهود ومصاحبتهم ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: عامة المشركين؛ لأنهم ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾ وقنطوا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لذلك لم يؤمنوا بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: 13] يعني: مثل يأسهم من البعث وحشر أصحاب القبور، وإخراجهم منها أحياء، ووقوفهم بين يدي الله، فعليكم ألَّا تصاحبوا معهم إن كنتم مؤمنين مصدقين بها.

جعلنا الله من المصدقين بيوم الدين، وبعموم ما فيه من المؤمنين الموقنين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي - مكنك الله في مقر عز التوحيد واليقين، وجنبك عن طريان التردد والتلوين - ألَّا تصاحب أهل الغفلة وأصحاب الجهالات، المنهمكين في بحار الأوهام والخيالات الموروثة لهم من مقتضيات الإمكان المستلزم لأنواع الخذلان والهوان، فلك أن تلازم زاوية الخمول بالعفاف قانعًا من الدنيا بالكفاف، مجتنبًا عن مخائل أصحاب الجزاف، متوكلاً على الصمد المعين، متوجهًا نحوه في كل تحريك وتسكين، راضيًا بما جرى عليك من القضاء، مطمئنًا بما وصل إليك من العطاء، شاكرًا لنعم الله في السراء والضراء، مقتصدًا بين الخوف والرجاء، مفوضًا عموم أمورك إلى المولى، متعطشًا في جميع أحوالك إلى شرف اللقاء، وما هي إلا جنة المأوى، وسدرة المنتهى.

رزقنا الله وعموم عباده الوصول إليها، والتحقق دونها بمنِّه وجوده.

سورة الصف

فاتحة سورة الصف

لا يخفى على من تحقق بمرتبة اليقين الحقي، وتمكن عليها بعد ترقيه عن اليقين العلمي والعيني وخلص عن مطلق التلوين والتخمين، وغاص في لجة بحر الوجود متصفًا بأنواع الكشف والشهود، واستغرق في الحوض المورود، ووصل إلى المقام المحمود أن ما صدر عن أمثال هؤلاء الواصلين من الأعمال والأقوال، وعموم المقامات والأحوال إنما هو على مقتضى الاعتدال، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط؛ إذ الواصلون إنما هم المتخلقون بأخلاق الله، المتصفون بأوصافه المعتدلة وأسمائه الغير المتبدلة، والمؤمنون المخلصون لا بدَّ وأن يكون عموم مقاصدهم منتهية إلى الوصول بالوحدة، والتحقق بالتخلق بعموم الأوصاف الذاتية الإلهية، بل توجه جميع المظاهر إنما هو على هذا المطلب الأعلى، والمقصد الأقصى؛ لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بتوجه عموم مظاهره نحوه.

ثم نادى المؤمنين بما نادى إرشادًا لهم، وإصلاحًا لحالهم فقال بعد التيمن باسمه العزيز: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى بمقتضى العدالة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بوضع الميزان الموصل لهم إلى طريق الجنان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى فضاء الوجوب بعد انخلاعهم عن لوازم الإمكان.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾ [الصف: 1 – 5].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونزهه بكمال التقديس والتنزيه جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات ﴿وَ﴾ كيف لا يتوجه نحوه عموم الموجودات؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على مطلق المقدورات والمرادات ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الصف: 1] المتقن في جميع التدبيرات والتقديرات؟!

ثمّ لمّا عاهد المسلمون مع الله عند رسول الله ﷺ، وقالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فنزل: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ [الصف: 4]، فولوا يوم أُحد منهزمين، ولم يوفوا بعهدهم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: الوفاء بالعهد ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وقت المعاهدة والميثاق مع الله ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2] ولا توفون وقت الوفاء.

واعلموا أيها المؤمنون أنه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ وعظم جريمة وذنبًا ﴿عِندَ اللهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَن تَقُولُوا﴾ وتعاهدوا معه سبحانه ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3] وقت الوفاء، ولا تنجزوا المعهود الموعود.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ لترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿صَفًّا﴾ مصطفين مظاهرين، متعاونين ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1] [الصف: 4] منضد محكم، مضمم بعضها مع بعض بحيث لا فرج فيها ولا شقوق.

ثمّ اعلموا أن عدم وفائكم بالعهود لا ينقص شيئًا من عظمته، كما أن وفاءكم لا تزيد فيها، لكن نقضكم الميثاق يؤذي النبي، وإيذاء النبي مستلزم لإيذاء الله وبغضه، وإرادته المقت والغضب على المؤذي ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمناقضين قصة تأذي أخيك موسى الكليم - صلوات الله عليه - من قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ حين

(1) قال علاء الدولة: يعني: اتقوا الله من أن يبقى معكم من الأخلاق الردية التي حصلت للقوة القابلة من القوى الكافرة والمشركة أو تبقى مع القوة القابلة المرتدة من الأخلاق الشريفة التي حصلت لها من القوى الفاعلة المؤمنة لئلا يكون لهم ملك الأخلاق استعدادًا للإغواء ولأجل هذا السر من المشايخ بان لا يؤذن لسالك خرج من حباله شيخه أن يدخل في دائرة الصوفية لأنه سارق يسرق المعارف والوقائع ويدعوا الخلق إلى نفسه بتلك الاستعدادات.

رموه بالبغية، وعيروه بالأدرة: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه على مقتضى ملاينة أرباب الرسالة مع أممهم؛ لينزجروا عن سوء الأدب ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة البعيدة بمراحل عن الصدق ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿قَد تَّعْلَمُونَ﴾ يقينًا بما جئت لكم من المعجزات الساطعة، الدالة على صدقي في دعواي ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ المرسل من عنده بمقتضى وحيه ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم إلى سبيل الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده، ومقتضى علمكم: ألّا تؤذوني، فلم تؤذونني؟!

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ ومالوا عن الحق، وانحرفوا عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية ﴿أَزَاغَ اللَّهُ﴾ المقلب للقلوب ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ وصرفها عن قبول الحق والميل إليه فضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا الويل العظيم، والعذاب الأليم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5] [1] الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية التي هي الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: 6 – 9].

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل أيضًا وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أخوك ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

---

(1) قال الورتجبي: وصف قومًا لهم استعداد الطاعة والمعرفة، وأراهم سبيل الرشد، وخلق في نفوسهم حظوظ الهوى، فتركوا الحق، واتبعوا هواهم، فطمس الله أعين قلوبهم عن مشاهدة الغيب، وهذه فتنةٌ أهلكت أكثر القاصدين في أوائل قصدهم، قال جعفر: لما تركوا أوامر الخدمة نزع من قلوبهم نور الإيمان، وجعل الشيطان إليهم طريقًا، فأزاغهم عن طريق الحق، وأدخلهم في مسالك الباطل، وقال الواسطي: لما زاغوا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة، قال الأستاذ: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

مناديًا لقومه ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾ أرسلني؛ لإرشادكم إلى طريق الحق وصراط توحيده؛ لأكون ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ المنزلة من عنده سبحانه؛ لضبط ظواهر الأحكام والأخلاق المستتبعة لتهذيب الباطن عن مطلق الزيغ والضلال، المنافية لصفاء مشرب التوحيد ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أيضًا، أبشركم ﴿بِرَسُولٍ﴾ كامل في الرسالة، متمم لمكارم الأخلاق ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ مظهر لتوحيد الذات، خاتم لأمر الرسالة والتشريع ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سُمِّي به ﷺ؛ لكون حمده أتم وأشمل من حمد سائر الأنبياء والرسل؛ إذ محامدهم لله إنما هو بمقتضى توحيد الصفات والأفعال، وحمده ﷺ بحسب توحيد الذات المستوعب لتوحيد الأفعال والصفات.

وبعدما أظهر عيسى – صلوات الله عليه – دعوته طالبوه بالبينة الدالة على صدقه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] الواضحات، والمعجزات الساطعات التي هي أكثر من معجزات موسى، وبعدما رأوا منه ما رأوا من الخوارق التي ما ظهر مثلها من الأنبياء بادروا إلى تكذيبه مكابرةً وعنادًا، حيث ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أي: عيسى عليه السلام، أو ما جاء به من المعجزات ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6] ظاهر كونه سحرًا، أو كماله في السحر إلى حيث كأنه تجسم منه، وليس تكذيبهم إياه – صلوات الله عليه – بعد وضوح البرهان، ونسبته إلى شيء لا يليق بشأنه إلّا خروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة؛ لأداء حقوق العبودية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد خروجًا عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿الْكَذِبَ﴾ ونسب ما أنزله سبحانه من المعجزات الدالة على صدق رسوله المؤيد من عنده بالنفس القدسية، المبعوث إلى الناس؛ ليرشدهم إلى

(1) لما أراد الله سبحانه أن يظهر لعرائس مملكته، ولخاصة أوليائه من قدسية نور سره الأول، وإنسان عينهم الكامل المكمِّل، وهو النبي المصطفى الطاهر الأمجد، سماه في أهل السماوات باسمه (أحمد)، إظهارًا لمنزلته عند ربه، وعلو رفعته عند خالقه فكأنه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتم بالغُنم في تنزيهي وتقديسي وذكري، فلقد زاد على حمدكم حبيبي أحمد الذي بالغ في حمدي وشكري، وفوض أمره لأمري، فهو أفضل من خلقت ومننت عليه بجميع محامدي، وأعظم من رزقته وصيرته إكسير محامدي.

طريق توحيده ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي: المفتري الظالم ﴿يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾ المتقدس عن جميع الآثام لو قَبِلَه وصدَّقه، وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي، وهو من غاية عتوه وعناده في موضع الإجابة والقبول يرده ويكذبه، وينسب معجزات الداعي إلى السحر والشعبذة مراءً وافتراءً ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: 7] الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية التي فطر الناس عليها، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون؛ لذلك يخرجون.

وليس غرضهم من هذا الافتراء والتكذيب بعد وضوح ظهور الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة إلَّا أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفتنتهم هذه ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتشعشع من مطالع عموم الكائنات، ومشارق جميع الذرات، الا وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام؛ لتبيين توحيد الذات ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بمجرد قولهم الباطل، الزاهق الزائل بلا مستند عقلي أو نقلي، فكيف عن كشفي وشهودي ﴿وَاللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مبالغ في إشاعته وإشراقه غايتها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8] ظهوره وشيوعه إرغامًا لهم وإذلالاً؟!

وكيف لا يتم سبحانه شيوع نور وحدته الذاتية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدًا ﷺ ولمصلحة هذا التتميم والتكميل، وأيده ﴿بِالْهُدَى﴾ والقرآن العظيم ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفية السمحة البيضاء الموروثة له من جده إبراهيم ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ويغلبه؛ أي: الدين القويم، المبين لصراط الحق وطريق توحيده الذاتي ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على عموم الملل والأديان الواردة؛ لبيان توحيد الصفات والأفعال ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]

(1) قال السمناني: يعني: هو الذي خلقكم وهداكم إلى السلوك بأمر اللطائف المرسلة إليكم يرسل رسوله الكريم، وهو اللطيفة الخفية الداعية إلى الحق المعلمة أمر التقويم والتصقيل والتوجيه للمرآة التي هي منظورة الحق على وجه يمكن إكمال المرآة به، ويجعلها مستحقة لأن ينظر إليها الله تعالى بنظر جلاله وجماله ويشاهد فيها ذاته وصفاته وأفعاله وآثاره على وجه التفضيل؛ ولهذا السر أظهر هذا الدين على الأديان كلها، وسنحت الشرائع بشريعتها الزهري، ولو كره المشركون الذين أشركوا بالله بإثباتهم اللطائف بالنبوة والقوى القابلة والفاعلة بالشركاء الله تعالى، عما يقول.

[الصف: 9] ظهور توحيد الحق؛ لمَا فيه من قطع عرق الشرك جليًا كان أو خفيًا؟!

ثمّ قال سبحانه بعدما أشار إلى ظهور دين الإسلام، وإعلاء كلمة التوحيد حثًا على المؤمنين، وترغيبًا لهم إلى ترويج الدين القويم الذي هو الصراط المستقيم، الموصل إلى مرتبة حق اليقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10] كأنه قيل: ما التجارة المنقذة المنجية؟.

قال سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لترويج دينه، وإعلاء كلمة توحيده ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ ببذلها في الخطوب ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالاقتحام على الحروب ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي ذُكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ونفعه عائد إليكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 11] ما هو أصلح لكم، وأنفع في نشأتكم الأولى والأخرى.

وإن تؤمنوا بالله، وتصدقوا رسوله، وتجاهدوا في سبيله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي أتيتم بها قبل ذلك ﴿وَ﴾ بعدما نغفر ذنوبكم ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة التي هي حضرة العلم الإلهي ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ من الحالات والمقامات السنيّة، والدرجات العليّة ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ التي هي المعرفة واليقين مصونة عن شوب الشرك، وريب الحسبان والتخمين ﴿ذَلِكَ﴾ الستر والإدخال هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: 12] والفضل الكريم على أرباب المعرفة واليقين من الله العزيز العليم.

﴿وَ﴾ لكم أيها المعتبرون المجاهدون عنده سبحانه نعمة ﴿أُخْرَى﴾ من النعم التي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وهي ﴿نَصْرٌ﴾ نازل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ العزيز الحكيم عليكم، إلى حيث يغلبكم على عموم أعدائكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ في العاجل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:

المشركون والكافرون علوًا كبيرًا: هو الله الواحد الأحد الصمد لم تتخذ صاحبة ولا ولدًا خلق القوى القابلة بنظر ربوبيته، وخلق القوى الفاعلة بنظر ألوهية وأزوج بينهما بحكمته، وأخرج من بينهما ذريته ليكونوا مظاهر لطفه وقهره، وهو الغالب على أمره يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد في ملكوته.

13] المجاهدين يا أكمل الرسل بأنواع البشارات الدنيوية والأخروية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: نصرة دين الله، وتقوية رسوله ﴿كُونُوا﴾ بأموالكم وأنفسكم ﴿أَنصَارَ اللَّهِ﴾ وأنصار رسوله، وقولوا في مقابلة نبيكم ما قال الحواريون في مقابلة عيسى عليه السلام ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ مختبرًا إخلاصهم ومحبتهم، ونهاية مرتبتهم في اليقين، ودرجتهم في أعلى عليين: ﴿مَنْ أَنصَارِي﴾ وأعواني في توجهي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وانتشار توحيده بين أظلاله المستمدين من أظلال أوصافه وأسمائه؟

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ من كمال انكشافهم بالله وتوحيده، وتحققهم في مقام الشهود، وتمكنهم فيه: ﴿نَحْنُ﴾ الفانون في الله، الباقون ببقائه، المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وأحباؤه؛ إذ لا مرجع لنا سواه، ولا مقصد إلا إياه.

والحواريون هم أول من آمن بعيسى عليه السلام من الحور، وهو البياض، وهم اثنا عشر، سُموا به؛ لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين، وبعدما أظهر عيسى عليه السلام دعوته بين الأنام ﴿فَآمَنَت﴾ به عليه السلام ﴿طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت﴾ به عليه السلام ﴿طَّائِفَةٌ﴾ أخرى منهم، وبعد وقوع الخلاف والاختلاف ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ وغلّبنا الطائفة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ يعني: الطائفة الذين كفروا به عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا؛ أي: المؤمنون ﴿ظَاهِرِينَ﴾[1] [الصف: 14] غالبين على الكفرة بالحراب والحجة، ألا إن

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: إذا شرفوا بالتجلي الجمالي صاروا غالبين على من كفر من أمة مؤمنة باللطيفة السرية كافرة باللطيفة الخفية، فهكذا أيتها القوى المؤمنة باللطيفة الخفية إن كنتم تؤمنون باللطيفة الخفية تردكم بتجليات الجمال، بحيث تصبحون ظاهرون غالبين على عدوكم

﴿حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 56]؟!

جعلنا الله وعموم عباده من محبيهم، ومقتفي أثرهم بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المنجذب نحو الحق، المنخرط في سلوك أرباب التوحيد الملقّبين بأنصار الله، المهاجرين عن كورة بقعة الناسوت نحو مدينة الوحدة اللاهوتية، وسواد أعظم الفقر - أعانك الله إلى أن تصل أقصى مرامك، وأعلى مقامك من المعرفة والتوحيد - أن تجمع همك، وتشمر ذيلك لسلوك سبيل الفناء من طريق الموت الإرادي المثمر للفناء المطلق عن الفناء أيضًا؛ لتفوز بالبقاء الأزلي السرمدي، ألا وهي طريقة الحضرة الختمية المحمدية، المبعوث إلى كافة البرية؛ لبيان طريق التوحيد الذاتي، المسقط لجميع الكثرات؟!

فلك أن تصفي سرك وضميرك عن نقوش مطلق المعتقدات، وصور عموم الرسوم والعادات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وتقتفي أثر نبيك ﷺ أمثال الحواريين أثر نبيهم بلا شوب وريب؛ لينكشف لك طريق المعرفة واليقين بعد توفيق الله، وجذب من جانبه، وطول خدمته الشريفة النبوية، والنواميس المصطفوية، وإياك إياك الالتفات إلى الدنيا وما فيها؛ ليمكن لك التصفية والتخلية التي هي مقدمة الكشف والشهود.

هدانا الله إلى سبيل توحيده بفضله وطوله.

مع القوى الكافرة والمشركة القالبية والنفسية.

سورة الجمعة

فاتحة سورة الجمعة

لا يخفى على من انكشف له سرائر مرتبتي النبوة والولاية، المتشعبتين عن حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه المشتمل على ما كان ويكون وقلم تقديره، المصوِّر لنفوس الأظلال والسوى الظاهرة على مرآة العدم حسب الإرادة الكاملة، والحكمة الباهرة الإلهية المقتضية لها أن ظهور هاتين المرتبتين إنما هو بالوهب الإلهي، بلا جريان الاكتساب بالآلات والأسباب على مقتضى جري العادة في العلوم الرسمية الحاصلة باستعمال القوى المدركة الإنسانية.

لذلك أخبر سبحانه عن كمال قدرته على بعث الرسول الأمي الأكمل من جميع الرسل على الأميين، بلا وسائل الإملاء والإنشاء، وختم ببعثته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل الذي هو المقصود الأصلي من مرتبة الرسالة والنبوة، فقال سبحانه بعدما نبّه على أهل التوحيد برجوع عموم الكائنات نحوه سبحانه بكمال التوحيد والتسبيح، والتقديس عمّا لا يليق بشأنه بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر جميع الأشياء بكمال قدرته من كتم العدم، بلا سبق مادة ومدة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم الأكوان ببعث الرسل من نوع الإنسان المصوَّر بصورة الرحمن ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى روض الجنان، ويشوقهم بلقاء الجنان.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٥﴾﴾ [الجمعة: 1 – 5].

لذلك ﴿يُسَبِّحُ﴾[1] ويقدس ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد، المنزّه عن مطلق التحديد مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تسبيحًا وتقديسًا، مقرونًا بكمال التذلل والخضوع إلى ﴿المَلِكِ﴾ المتسلط بالاستيلاء التام، والسلطنة القاهرة الغالبة على مملكة الوجود ﴿القُدُّوسِ﴾ المنزّه الطاهر ذاته عن سمة الحدوث، ووصمة الإمكان ﴿العَزِيزِ﴾ الغالب على عموم المقدورات بكمال الاستيلاء والاستقلال ﴿الحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1] المتقن في مطلق التدابير الجارية في عالم التصاوير بلا فتور وقصور.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ بمقتضى كمال قدرته وحكمته ﴿فِي الأُمِّيِّينَ﴾ المنسلخين عن مطلق الإملاء والإنشاء المشعر بالتدبر والتفكر بمقتضى العقل الفطري الموهب لهم من حضرة العليم الحكيم ﴿رَسُولاً﴾ أميًا أمثالهم، ناشئًا ﴿مِّنْهُمْ﴾ وأيده بروح القدس بعدما أصفاه من دنس الجهل، واصطفاه من بين الملل، وفضّله على جميع أرباب النحل، وجعله في كمال المعارف والحقائق الإلهية، بحيث ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ عموم ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وعلى كمال أسمائه وصفاته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن مطلق

---

(1) قال في «عين الحياة»: اعلم أنّ التسبيح لا يصدق من أحد من رؤية وجوده، فينبغي المسبح أن يعرف الله بصفة الملكية والقدوسية والعزيزية والحكيمية، ومعرفته صفة ملكه لا يصدق ما دام يلتجئ إلى أحد غيره، ويرى الملك لغيره متصرفًا، ولا يأتمر بأمره، ولا ينتهي من نهيه، ويشتغل بنهر طبعه، ومعرفة صفة قدمه لا يحصل إلا بعدَ علمه بأن كل ما يخطر بباله وحسه وذكره، فالله خالق ذلك الخواطر وكل ما رأى من صور صفاته في الغيب والشهادة يتيقن بالله مصورها، ومعرفته صفة عزيزية منوطة بأنه يعرف أنه غالب على أمره، خلق الشيطان لعزته، وخلق النفس قرينة لغيرته على أن يعرفه غيره، ومعرفته حكيمية متعلقة بمعرفته النقطة المتقنة الواهية صور الأشياء بعد ظهور الصفات الثلاثة: العلمية والإرادية والقدرية؛ ليعلم حقيقة ظهور القالب الإنساني على شكل قامة الألف، ويعلم قواها السوادية، وقواها البيانية، وكيفية تداخل الحروف بعضها في البعض، وأخذ النقطات البيانية حظوظها من النقطات السوادية، وأخذ النقطات السوادية حقوقها من النقطات البياضية؛ ليظهر عليه حكمة صدور هذا الفعل من ذات سبب صفاته الملكية والقدسية والعزيزية والحكيمية، وإن الملك اسم للسر الذي أودعه الله في النقطة العلمية، والقدوس اسم للذي أودعه الله في النقطة الإرادية، والعزيز اسم للسر الذي أودعه الله في النقطة القدرية، ويطلع على ينبوع الحياة في النقطة العلمية، وعلى نهر السمع في النقطة الإرادية، وعلى بحر البصر في النقطة القدرية، وعلى مد الكلام وجوزه في النقطة المتقنة الحكمية ليجتني من شجرة روحانيته المغروسة في أرض بشريته إثمار الكلمات الطيبات في بستان بلدته الطيبة، ويضعها على طبق اللطائف ويتحف بها على يدي اللطيفة الأنانية إلى حضرة ربه الغيور، والمبالغة في هذا التقرير في هذه الآية فرعت باب مطلع القرآن.

النقائص والآثام المنافية لدين الإسلام، المبين للتوحيد الذاتي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والأحكام على أبلغ بيان، وأبدع نظام ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الأحكام الشرعية المنزلة من عند العليم الحكيم العلّام ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثته ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2] وغواية ظاهرة؛ لأنهم كانوا على فترة من الرسل.

﴿وَ﴾ لم يختص بعثته ﷺ بالأميين من الأعراب الموجودين عند بعثته ﷺ بل يعم ﴿آخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: من عموم المكلفين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: حين يتبعوا بالأولين إلى يوم القيامة؛ إذ خُتم ببعثته ﷺ أمر البعثة، وكمل عند ظهوره ﷺ بنيان الدين القويم الذي هو صراط التوحيد الذاتي ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم التقادير ﴿الْحَكِيمُ﴾[1] [الجمعة: 3] المطلق في جميع الأفعال والتدابير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد الذاتي الذي ظهر به ﷺ رحمةً للعالمين ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ العزيز الحكيم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بلا سبق الوسائل والأسباب العادية ﴿وَاللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4] الذي لا يُكتنه وصف فضله وطوله أصلاً.

ثم قال سبحانه تعريضًا على الكفرة المنكرين لنبوة محمد ﷺ، مع أنه قد ورد في كتبهم المنزلة عليهم بعثته وحليته ﷺ، وهم مؤمنون بها، مصدقون بجميع ما فيها سوى بعثته ﷺ، وما جاء فيها من أوصافه ﷺ الدالة على علو شأنه، ورفعة قدره ومكانه، وبالجملة: ﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: علموها وكلِّفوا بما فيها من الأوامر والنواهي، ومطلق الأحكام ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ولم ينتفعوا، ولم يصدقوا بما

(1) قال علاء الدولة: بقدرته أرسل اللطيفة الخفية إلى الأميين من القوى الحقوقية الأمية الأصلية؛ ليعلمهم الكتاب والحكم بعد أن غابوا عن الحضرة من وقت التخمير، وصاروا ضالين في أودية البشرية، ويبدأ الشكوك والظنون مشتغلين بعمارة وكر قالبهم وتربية بيضتهم غافلين عن ذكر الله بالحكمة البالغة؛ ليتم الوكر وينتج البيضة الفرخ، ولولا غفلتهم عن الذكر ما اشتغلوا بعمارة الوكر وتربية البيضة، والمراد من إيجاد الذكر والأنثى والعلو والسفل، وعمارة الوكر وتربية البيضة هو: الفرخ الذي يحصل فيه؛ فيطير في سواء المحبة، ويأخذ طيور المعرفة ليفرح السلطان في طيرانه، وعلمه بكيفية الأخذ ورجوعه إلى يد السلطان.

فيها، سيما نعوت الحضرة الختمية المحمدية ﷺ، مثلهم في حمل التوراة عليهم، وتكليفًا لهم ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتبًا من العلم يحمل عليه، ويتعب بثقلها، ولا ينتفع بها ﴿بِئْسَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته، ومتانة حكمه وحكمته في عموم مأموراته ومنهياته ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ العليم الحكيم، المتقن في أفعاله ﴿لَا يَهْدِي﴾ إلى توحيده ﴿القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5] الخارجين عن مقتضى عبوديته بمتابعة شياطين أماراتهم بسوء.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: 6 – 11].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التبكيت والإلزام نيابةً عنّا لليهود الذين يدّعون محبة الله وولايته بقولهم: نحن أولياء الله وأحباؤه مناديًا لهم، متهكمًا معهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ وتهودوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ﴾ المقرب لكم إلى الله؛ إذ الانتقال من دار الغرور إلى دار السرور تقربكم إلى الرحيم الغفور ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6] في دعوى المحبة والولاء، فتمنوه.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ أي: لا يتمنى أحد منهم الموت أصلاً ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا، واقترفوا بأنفسهم من الكفر والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع بعموم ما في استعدادات عباده ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 7] وبما في ضمائرهم من المحبة والقساوة، يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما أعرضوا عن تمني الموت وابتغائه طلبًا لمرضاة

الله، وشوقًا إليه أيضًا على وجه التبكيت والإلزام: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أن تمنوه بلسانكم مخافة أنه لا يلحقكم، بل تفرون عن مجرد التلفظ به، فكيف عن لحوقه ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ ملاصقكم، ولاحق بكم حتمًا؛ إذ كل نفس ذائقة كأس الموت، وكل حي لا بدّ وأن يموت سوى الحي الذي لا يموت، ولا يفوت ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تموتون ﴿تُرَدُّونَ﴾ وتُحشرون نحو المحشر، وتعرضون ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بعلمه الحضوري ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم حينئذٍ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: 8] من خير وشر، فيجازيكم عليهما.

ثمّ لمّا تهاون المسلمون في أمر الجمعة، وتكاسلوا في الاجتماع قبل الصلاة، بل انفضوا وصرفوا عن الجامع حين خطب رسول الله ﷺ، حين سمعوا صداء الملاهي المعهودة لمجيء العير على ما هو عادتهم دائمًا، عاتبهم الله سبحانه، وأنزل عليهم الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: المبادرة إلى مطلق الطاعات، سيما ﴿إِذَا نُودِيَ﴾ وأذن ﴿لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: في يوم الجمعة، وهو الأذان المعهود قبيل الجمعة ﴿فَاسْعَوْا﴾ مسرعين مجيبين ﴿إِلَى﴾ سماع ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ في الخطبة والتذكيرات الواردة فيها ﴿وَذَرُوا﴾ واتركوا ﴿الْبَيْعَ﴾ بعد سماع الأذان ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ترك البيع والانصراف نحو المسجد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع في عقابكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: 9] (1) صلاحكم وإفسادكم في أولاكم وأخراكم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ وأديت ﴿الصَّلَاةُ﴾ المكتوبة لكم يوم الجمعة مع الإمام ﴿فَانْتَشِرُوا فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ وَابْتَغُوا﴾ واطلبوا حوائجكم ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وإحسانه، وسعة جوده وإنعامه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المنعم المفضل عليكم ﴿كَثِيرًا﴾ في عموم أحوالكم وأعمالكم، ولا تحصروا ولا تقصروا ذكره في الصلوات المفروضة فقط، بل اشتغلوا بذكره في عموم الأوقات والحالات، بالقلب واللسان، وسائر

(1) قال الشيخ روزبهان: لما جرى حديث البيع والتجارة دعاهم إلى ذكره بنعت السرعة والاستباق، وإلا دعا الكل في الأزل إلى نفسه، فإن الذكر عند المذكور حجاب، والسعي إلى الذكر مقام المريدين، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلي نفسه لقلبه، قال النصر آبادي: العوام في قضاء الحوائج في الجمعات، والخواص في السعي إلى ذكره لاستغنائهم بالغنى لم يبق لهم حاجة لعلمهم بالمقادير قد جرت، فلا زيادة فيها ولا نقصان، لكنهم يسعون إلى ذكره سعيَ مشتاق إلى مذكوره، يطلب منه محل قربة إليه والدنو منه.

الجوارح والأركان؛ إذ ما من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا يفقهون تسبيحهم إلّا قليلاً، وواظبوا عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10] وتفوزون بخير الدارين.

﴿وَ﴾ هم من غاية حرصهم على مقتضيات القوى البهيمية بعدما كانوا في الجامع عند سماع الخطبة ﴿إِذَا رَأَوْا﴾ وسمعوا ﴿تِجَارَةً﴾ حاضرة تدير الناس حولها ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ طبلاً مخبرًا لهم على مجيء العير ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: مالوا وتحركوا نحوها مسرعين، فخرجوا من الجامع سوى اثني عشر من الرجال والنساء ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَائِمًا﴾ على المنبر، وما هي إلا ثلمة ظهرت في الدين المستبين، موجبة مقتضية للتهاون بأحكام الشرع المتين، حدثت فيما بينهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إزاحةً لها، وإزالةً لما يتفرع عليها: ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من المثوبات الأخروية الموجبة للدرجات العليّة، والمقامات السنيّة ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأصلح بحالكم، وأعظم نفعًا، وأبقى فائدة ﴿مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ إذ لا نفع لها عند أهل الحق وإن فرض، فهو متناه زائل عن قريب، بخلاف الكرامة الأخروية فإنها تدوم أبدًا ﴿وَ﴾ إن عللوا انفضاضهم بتحصيل الرزق الصوري قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لكم من كتم العدم، المدبر المربي لأشباحكم بما ليس في وسعكم ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1] [الجمعة: 11] يرزقكم من حيث لا تحتسبون إن توكلتم عليه مخلصين، وفوضتم أموركم إليه سبحانه واثقين بكرمه العميم، وجوده العظيم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد الخائض لجج بحر الوجود، المتحقق بمقام الكشف والشهود - مكنك الله في مقر عز الوحدة، وجنبك عن الزيغ والضلال - أن تتوكل على الله، وتتخذه وكيلاً، وتفوض أمورك كلها إليه، وتجعله كفيلاً، فعليك ألّا تشتغل عن الله في

(1) قال السمناني: يرزق القوى القالبية والنفسية والقلبية والسرية والروحية والخفية والحقية بالوسائط والأسباب، ويرزقهم أيضًا غير الوسائط والأسباب من عنده بلطفه وكرمه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالواجب على السالك أن يعتبر بهذه السورة، ولا يلتفت عند ورود الوارد ونزول الواقعة بالأعمال البدنية ولا بالسماع الصورية البتة حتى يسكن سلطان الوارد ويقضي بالواقعة وطرد من السالك، ثم يرجع إلى عالم الكسب وذكر اللسان ولا يترك العقل والذكر بعد انقضاء مدة الوارد والواقعة، ولو يترك لترك وصار متروكًا نعوذ بالله منه.

آن وشأن، ولا تغفل عنه في حين من الأحيان، سيما في أمر الرزق الصوري الضروري، المقدر عند الله المدبر الحكيم لكل من دخل في حيطة الوجود، وظهر على صورة الموجود، فإنه يصل على من يصل حسب إرادة الله ومشيئته.

وإياك إياك أن تطلبه بالتجارة والسؤال، بل لك أن تستعمل آلاتك الموهوبة لك من عند العليم الحكيم إلى ما جُلبت لأجله؛ لتكون من زمرة الشاكرين المتوكلين.

وبالجملة: الرزق على الله، ولا تكن من القانطين، واعبد ربك، واشكر على آلائه ونعمائه ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

ربنا اجعلنا بلطفك من زمرة الشاكرين، آمين.

سورة المنافقون

فاتحة سورة المنافقون

لا يخفى على من وصل إلى مرتبة حق اليقين، وتمكن في مقعد الصدق مع الموقنين أن الكذب والافتراء والمراء، والجدال الواقع بين أصحاب الضلال والآراء في عالم الكون والفساد دائمًا هو من عدم الوصول إلى كعبة الوجود، وقبلة الواجد والموجود، ومن عدم التحقق بمقام الرضاء والتسليم الحاصل من كمال المعرفة واليقين، وإلّا فلا يقع ويصدر من الموقنين الواصلين أمثال هذه الجرائم المنبئة عن النفاق والشقاق المستلزم للجهل والغفلة عن الله الظاهر، المتجلي في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق.

ولهذا أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بما أخبر من إخبار أهل النفاق، ونبّه عليه ما نبّه من ضلالهم، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أحاط علمه بما لا يتناهى من المعلومات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم عباده بأمر المعروف، ونهي المنكرات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى سبيل السلامة، وطريق النجاة.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون: 1 – 4].

﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ على سبيل الملاينة والخداع تغريرًا لك ولمن تبعك من المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ مبالغين في إظهار الإيمان، مؤكدين: ﴿نَشْهَدُ﴾ أي: نقر ونعترف عن صميم الفؤاد ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ أرسلك الحق على الحق بالحق ﴿وَ﴾ بعدما أكدوا شهادتهم تأكيدًا على تأكيد بالغوا أيضًا في التأكيد؛ لتكميل التقرير والتنوير، حيث قالوا: ﴿اللهُ﴾ المطلع على السرائر والخفايا ﴿يَعْلَمُ﴾ ويشهد ﴿إِنَّكَ

﴿لِرَسُولُهُ﴾ هم وإن بالغوا في شهادتهم الكاذبة على سبيل التزوير والتلبيس ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم من النفاق والشقاق ﴿يَشْهَدُ﴾ حتمًا ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرِّين على ما هم عليه من الكفر والإنكار ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1] في شهادتهم المزورة، الصادرة منهم على وجه المبالغة والتأكيد.

وبالجملة: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ المغلظة الحاصلة من شهادتهم المؤكدة بها ﴿جُنَّةً﴾ جعلوها وقاية لأموالهم وأنفسهم ﴿فَصَدُّوا﴾ وصرفوا غزاة المسلمين؛ بسبب ذلك الحلف الكاذب ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي هو قتالهم وأسرهم ونهبهم، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] [المنافقون: 2] من الصد والنفاق، والإصرار

---

(1) قال في «عين الحياة»: شهد الله على رسالة الرسول أولاً ثم يشهد على كذب المنافقين فيما يظهرون؛ لأن الله مطلع على ضمائرهم على أنهم أضمروا خلاف ما أظهروا، فأخبر النبي ﷺ لئلا يغتر بشهاداتهم وإيمانهم، فكذلك أيتها اللطيفة المرسلة ينبغي ألا يغتر بالقوى المنافقة؛ لأنهم إذا علموا منك الصدق في المجاهدة، وثبات القدم في ترك الهوى، وجاءوك ونافقوك وداهنوك والتمسوا منك أن تلقنهم الذكر، ويأخذوا منك تلقين الذكر، وكل ذلك لشعورهم بصدقك في المجاهدة لكي توافقهم وتواسيهم بأن النفس قد صارت مؤمنة، فالواجب عليك إعطاء حقها؛ لأن الله تعالى بين للسالك ثلاث مقامات في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر:32] فالسالك المبتدئ ينبغي أن يكون ظالمًا لنفسه يأخذ منها حقها وحظها إلا مقدار ما يبقى رمقها، ويتقوى به على الطاعة وإلى هذه النفس أشار النبي ﷺ حيث قال: «أعدى أعدائك عدوك نفسك التي بين جنبيك» والمقتصد هو السالك المتوسط ينبغي أن يقصد في المجاهدة ويرفق بالنفس؛ لأنها صارت في هذه المرتبة مركب للسالك وأشار إلى هذه النفس النبي ﷺ حيث قال: «نفسك مطيتك، فأرفق بها»، والسابق هو السالك المنتهي يجب عليه أن يعطي حق النفس؛ لأن النبي ﷺ جعلها صاحبة للحق حيث قال: إن لنفسك عليك حقًا، فيا أيتها اللطيفة تيقنى أن النفس جبلت على النفاق فما دام فيها عرق من القوى السفلية الغير المستخلصة من رذائل الأخلاق باقيًا، فاحذري منها، ولا تغتري بها، وكذلك كلما وصل إليها شرب من عالم الطبيعة جدد نشاطها إلى الرجوع إلى طبيعتها، وهي كمثل القصب المقطوع إذا وجد الماء يخرج أحسن فما كان قبل القطع وقلعه لا يمكن إلا بالموت الكبير إلا خير، ولأجل هذا السر أمر الله نبيه في كلامه بالعبادة حتى الموت بقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر:99] يعني: الموت الأخير الاضطراري لا الموت الاختياري، ولكن يكسر قوتها بالموت الاختياري بحيث يسكن سلطانها، ودخلت تحت أمر اللطيفة المرسلة، فكوني على حذر منها متى دامت متصرفة في أرض البشرية، ولا تغتروا بإيمانهم لأنهم اتخذوا جنة وسترًا وصدوا وأعرضوا عن سبيل الحق بالأعمال السيئة والأخلاق الردية.

على الشقاق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اجتراؤهم على تلك الشهادة على وجه المراء والنفاق، وإصرارهم على الكفر والشقاق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿آمَنُوا﴾ أولاً بالله وبرسوله، وأقروا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم على وجه النفاق صونًا لأموالهم وأنفسهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعدما آمنوا عن مكر المؤمنين ﴿فَطُبِعَ﴾ الكفر حينئذٍ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ورسخ فيها واستحكم، وبعد الطبع والتمرن ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3] ولا يفهمون حقية الإيمان ولذته وصحبته، ولا باطلية الكفر وفساده.

﴿وَ﴾ بالجملة: هم من غاية غفلتهم عن الله، ونهاية عرائهم وخلوهم عن نور الإيمان ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: سمتها وضخامتها ﴿وَإِن يَقُولُوا﴾ أيضًا كلامًا ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وحلاوة نظمهم، إلّا أنهم لخلوهم عن العلم اللدني، والرشد المعنوي، والصفاء الفطري الذاتي الذي هو نفوذ أرباب المحبة والولاء ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ يابسة فانية، فاقدة للقابلية الفطرية ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ على جدار الجهل والبلادة، ومع ذلك ﴿يَحْسَبُونَ﴾ يظنون ويترقبون من شدة شكيمتهم وغيظهم مع المؤمنين ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ واقعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مسموعة لهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ يصيح عليهم؛ ليهلكهم.

وبعدما صار بغضهم مع المؤمنين، ومخافتهم من العدو بهذه الحيثية ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، واترك مصاحبتهم، واحترز من غيلتهم وطغيانهم؛ إذ الخائف ربما يصول بلا سبب وداعٍ عليهم، وقل في شأنهم: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4] وكيف يصرفون وينحرفون عن الحق الصريح إلى الباطل الغير الصحيح، مع أنه لا ضرورة تلجئهم إليه؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: 5 – 7].

﴿وَ﴾ من شدة بغضهم وضغينتهم مع المؤمنين المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾

إمحاضًا للنصح: ﴿تَعَالَوْا﴾ هلمُّوا أيها المسرفون المفرطون مجلس رسول الله ﷺ ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ ﷺ، ويطلب مغفرتكم من العفو الغفور ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ وعطفوا أعناقهم عن القبول معتذرين بأعذار كاذبة مخافةً وصونًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ﴾ حينئذٍ في وجوههم التي هي عنوان بواطنهم آثار الكفر والعناد؛ إذ هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويعرضون معتذرين عن المؤمنين ﴿وَهُم﴾ في أنفسهم ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5] عن القبول والاعتذار.

وبالجملة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ من الله المنتقم الغيور ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ العليم الحكيم، المتقن في عموم الأفعال أبدًا ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِي﴾ ويرشد إلى جادة توحيده ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: 6] منهم، الخارجين عن مقتضى الحدود الإسلامية.

وكيف يهديهم ويغفر لهم سبحانه، مع أنهم ﴿هُمُ﴾ المسرفون المفسدون ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار؛ من نهاية عداوتهم وبغضهم مع الرسول والمؤمنين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾ يعنون: فقراء المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ وينتشروا بعدما اضطروا من حوله ﴿وَ﴾ لم يعلموا هؤلاء الغفلة الضالون، والجهلة الهالكون في تيه الجهل والعناد أن ﴿لِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته، وتحت ضبطه وملكيته ﴿خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الكنوز المكنونة المطلوبة في ضمن العلويات، والمدفونة في السفليات ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والعناد ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7] (1) كمال قدرة الله، وسعة خزائن كرمه وجوده؟!

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ

(1) كل ما عند العبد من مال فهو خزانة الحق عنده والعبد خازنه فمهما تعدى خزانة مولاه بغير إجازة استحق السياسة بقطع آلة التعدي إلى خيانة خزانته وهي اليد المتعدية.

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: 8 – 11].

ومن نهاية غفلتهم عن الله، وعداوتهم مع المؤمنين: ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل التهور والتهديد: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا﴾ عن سفرنا هذا ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ يريدون أنفسهم ﴿مِنْهَا﴾ أي: من المدينة ﴿الْأَذَلَّ﴾ يريدون المؤمنين، وذلك أن أعرابيًا من المهاجرين نازع أنصاريًا في بعض الغزوات على ماء فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكا إلى ابن أبي وملئه، فقالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا ﴿رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8]، ﴿وَ﴾ لم يعلموا أولئك الغواة الضالون في تيه العتو والعناد أنه ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ أي: القوة والغلبة أصالةً ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ تبعًا ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمتابعة الرسول ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8] عزة الله وعزة أهل الله؛ لفرط جهلهم وغرورهم بأموالهم وأولادهم؛ لذلك يحصرون العزة والقوة بأنفسهم.

ثمّ قال سبحانه تسليةً للمؤمنين مشتملة على نوع من التعريض، والحث والترغيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم: ألّا تلتفتوا لعزة الدنيا، ولا تغتروا بكثرة الأموال والأولاد فيها؛ حتى ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ ولا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] وعن التوجه نحوه، والركون إليه في مطلق الأحوال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ والتفت إلى مزخرفات الدنيا، وشغل بها عن الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء المشغولون بالخسيس الأدنى عن الشريف الأعلى ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9] المقصورون على الخسران الكلي؛ لاستبدالهم الباقي بالفاني، والزاهق الزائل بالقهّار القديم.

---

(1) قال البقلي: بيان أن من لم يبلغ درجة التمكين في المعرفة، لا يجوز له الدخول في الدنيا من الأهل والمال، فإنها شواغل قلوب الذاكرين عن ذكر الله، ومَن كان مستقيمًا في المعرفة وقرب المذكور فذكره قائم بذكر الله إياه، وذلك حظّه بأن جعله محفوظًا من الخطرات المذمومة، والشاغلات المحجبة، والضعفاء لا يخرجون من بحر هموم الدنيا، فإذا باشرت قلوبهم الحظوظ والشهوات لا يكون ذكرهم صافيًا عن كدوريات الخطرات.

قال سهل: لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها؛ فإن من شَغَله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم مآل أموالكم إلى ما يتفرع عليها من الحرمان والخسران ﴿أَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ وسقنا نحوكم من أموال الدنيا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني: أنفقوا قبل حلول الأجل، وظهور أمارات الموت، وعلامات الفزع ﴿فَيَقُولَ﴾ المحتضر منكم حينئذٍ متحسرًا: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ أي: هلّا أمهلتني يا رب ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد غير بعيد ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وأتصدق من مالي هذا على الوجه المأمور طلبًا لمرضاتك ﴿وَ﴾ بعد التصدق ﴿أَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10] المنفقين، الممتثلين لأمرك، المقبولين عندك.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون يقينًا أنه ﴿لَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلها أبدًا ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ وحل ما قدر لها؛ لرد الأمانة فيه من الزمان والآن، وكذا لن يقدمها عليه أصلاً، فعليكم التدارك والتلافي قبل حلول الأجل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المراقب عليكم في عموم أحوالكم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 11] في أيام حياتكم من خير وشر، فيجازيكم على مقتضى خبرته بلا فوت شيء من عملكم خيرًا كان أو شرًا.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المنكشف برجوع العكوس والأظلال إلى ما منه بدت وظهرت، ألا وهي شمس الوحدة الذاتية أن تعرف أن إظهار المعارف المظاهر، وبسط الظل عليها، وامتداده إياها إنما هو بغتة بلا سبق مادة ومدة، وآلة ومقدمة، كذلك القبض والإخفاء إنما يكون كذلك، فلك أن تكون في مدة ظهورك على ذكر من ربك، بحيث لا يشغلك عنه شيء ساعة، ولا تغفل عنه وعن التوجه نحوه لحظة وطرفة، فإنك ما تدري متى يحل الأجل؟ فإذا حل لا يمكنك التدارك والتلافي.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين في عموم الأحوال.

سورة التغابن

فاتحة سورة التغابن

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق، وشمول أسمائه وصفاته على عموم المظاهر والمجالي أن رجوع عموم الكوائن والفواسد الغير المحصورة في فضاء الإمكان، وتوجه الكل إليه سبحانه طوعًا ورغبةً؛ إذ ما من موجود إلا وله حب ذاتي، وميل جبلي إلى دوام نشأته التي هو عليها بمقتضى هويته، ولاشك أن له نحوًا من الشعور بحدوثه ومسبوقيته بالعدم، فثبت أن له شعورًا بفاعله المظهر لهويته، فبمقتضى حبه لنشأته يكون له رجوع إلى مبدئه، يستمد منه ويحمد له.

كما أخبر سبحانه لحبيبه ﷺ بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم المظاهر والأكوان بالإمداد عليها في كل آن وشأن ﴿الرَّحِيمِ﴾ على نوع الإنسان، حيث أطلعه على سرائر توحيده، وصوره بصورته.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)﴾ [التغابن: 1 – 5].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ويقدس ذاته عن مطلق النقائص على وجه الإطلاق بعدما لم يبلغ كنه أسمائه وصفاته حتى يعد، ويحصى بتبيان مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من ذرائر عموم الأكوان، وكيف لا يقدِّسه جميع الأعيان؛ إذ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على سبيل التخصيص، لا مالك له سواه، ولا مستولي عليه إلا هو ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَهُ

الحَمْدُ﴾ على سبيل الحصر والاختصاص؛ إذ لا مستحق للحمد بالاستحقاق إلّا هو، ولا مفيض للنعم على الآفاق غيره، ولا مقدر للأرزاق إلّا هو ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة وجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1] لا ينتهي قدرته بمقدور دون مقدور.

وكيف لا يكون سبحانه قديرًا لعموم المقدورات، مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم، وقدر خلقكم من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادة ومدة، وفصّلكم بعدما أظهركم ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ ساتر للحق، موفق عليه، محجوب بغيوم هوياته الباطلة الإمكانية عن شمس الحقيقة الحقية ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ موفّق على الإيمان، مجبول على فطرة التوحيد والعرفان، ميسّر لها؛ لذلك يصير إيمانه عيانًا، وعيانه حقًا وبيانًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على عموم ما في استعدادات عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عموم الأعمال في جميع الشئون والأحوال ﴿بَصِيرٌ﴾ [التغابن: 2] فيعامل معكم بما يناسب أعمالكم.

واعلموا أيها المكلفون ﴿خَلَقَ﴾ سبحانه، وأظهر بكمال قدرته ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[1] أي: مظاهر ما في العلويات والسفليات ملتبسة بالحكمة المتقنة، البالغة في الإحكام والإتقان حدًا لا يبلغ كنهه أحلام الأنام، وبعدما رتبها بحكمته على هذا النظام الأبلغ الأبدع انتخب من مجموع الكائنات ما هو زبدته وخلاصته ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد والتحقيق منها ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إذ خلقكم على صورته قابلاً لخلافته، لائقًا للتخلق بأخلاقه، والاتصاف بصفوة أوصافه، وجعل فطرتكم غاية وعلة غائية مرتبة على عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿وَ﴾ كيف لا

(1) قال السمناني: يعني: خلق سماوات روحانيتك اللطيفة، وأرض بشريتك الكثيفة، من لطفه وقهره بالحق؛ ليظهر منها لطيفة مستحقة لمظهرية ذاته، والمفردات ما كانت مستحقة لمظهرية ذاته؛ لأن المفردات مظاهر لطافات أفعاله، والمركبات السفلية مثل المعادن والنبات والحيوان ما كانت مستحقة لمظهرية ذاته أيضًا؛ لعدم اللطائف العلوية فيها، والمركبات العلوية قوى فاعلات، واللطائف السفلية قوى قابلات؛ فلأجل هذا جمعت في نشأة الإنسان صارت مظاهر لذاته، كما أشار إليه النبي ﷺ حيث قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، ولهذا السر قَبِلَ حمل الأمانة.

يصوركم بصورته، ولا يحسن صوركم؛ إذ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3] أي: مصير الكل نحوه، ومرجعه لديه، ومبدؤه منه، ومعاده إليه؟!

﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأسماء والصفات من الكمالات اللائقة للظهور والبروز ﴿وَ﴾ ما في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عموم ما في استعدادات قوابل الطبائع والأركان من الماديات والمجريات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أيها المكلفون ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المحيط بالكل بمقتضى تجليه وظهوره عليه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: 4] إذ لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن حيطة علمه ذرة.

ثمّ قال سبحانه توبيخًا على من خرج عن ربقة عبوديته: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها المكلفون المنكرون بظهور الحق وثبوته، وتحققه في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: كيف ذاقوا ضرر كفرهم وشركهم من العذاب النازل عليهم في النشأة الأولى بعدما أصرُّوا على ما هم عليه، ولم يهتدوا بإرشاد الأنبياء والرسل ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: 5] لا عذاب أشد من ذلك، وهو حرمانهم عن ساحة عز القبول الإلهي.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن: 6 - 9].

﴿ذَلِكَ﴾ الويل والوبال عليهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أن النشأة الأولى والأمر فيما بينهم هكذا ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من عند الله مؤيِّدين

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات، والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالُوا﴾ بعدما عجزوا عن معارضة معجزاتهم الساطعة، وحججهم القاطعة على سبيل التعجب والإنكار: ﴿أَبَشَرٌ﴾ مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا﴾؟! كلا وحاشا أن يكون البشر هادين للبشر، وبالجملة: ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسل والمرسِل، والمرسَل به جميعًا ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن التدبر والتفكر في الحجج والبينات ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن هدايتهم وطاعتهم ﴿وَاللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿غَنِيٌّ﴾ في ذاته عن مطلق مظاهره ومصنوعاته، فكيف عن إيمانهم وعبادتهم؟! ﴿حَمِيدٌ﴾ [التغابن: 6] حسب أوصافه وأسمائه، مستغن عن حمد الحامدين.

ومن كمال جهلهم بالله، وإصرارهم على إنكار قدرة الله على عموم المقدورات: ﴿زَعَمَ﴾ بل ادّعى العلم المسرفون المعاندون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأنكروا قدرته على البعث والنشور ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ من قبورهم، ولن يُحشروا إلى المحشر؛ للحساب والجزاء، وأصرّوا على هذا الزعم الفاسد، والجهل الظاهر، واعتقدوه حقًا، وخيلوه صدقًا مكابرةً وعنادًا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما بالغوا في إنكار البعث: ﴿بَلَى﴾ تبعثون أيها المنكرون الجاحدون ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني قابلاً لوحيه وإلهامه، ومهبطًا لعموم أحكامه المنزلة من عنده ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ ألبتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد البعث والحشر ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: جميع ما اقترفتم في النشأة الأولى، ولتحاسبن عليها، وتجازُنّ بمقتضاه، بحيث لا يشذ شيء منها ﴿وَذَلِكَ﴾ التفصيل والإحصاء ﴿عَلَى اللهِ﴾ العليم البصير ﴿يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] وإن كان عندكم مشكل عسير.

وبعدما سمعتم من كمال قدرة الله، وإحاطة علمه وخبرته ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ المستخلف منه ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ معه تأييدًا له، وتبيينًا لدينه؛ يعني: القرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَاللهُ﴾ المطلع على ما في استعداداتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بمقتضى القرآن، وتمتثلون بأوامره ونواهيه، وبما تذبون عنه وتعرضون منكرين لما فيه من الأوامر والنواهي، والعبر والأحكام، والمعارف والحقائق، والرموز والإشارات ﴿خَبِيرٌ﴾ [التغابن: 8] يجازيكم على مقتضى خبرته.

اذكروا أيها المكلفون ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الله ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ والحشر؛ لأجل الحساب والجزاء؛ إذ يجتمع فيه الملائكة والثقلان ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يوم ظهور التغابن والغرور الواقع في نشأة الاختبار والابتلاء ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ ويقر بوحدانيته سبحانه ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ليزيد به الإيمان؛ حتى يصير علمه عيانًا، وعيانه حقًا وبيانًا ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ويمحوها عن صحيفة أعماله ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المملوءة بمياه المعارف والحقائق المترشحة عن بحر الحياة الأزلي الأبدي، لا يتحولون من التلذذ بها والتحقق دونها، بل يصيرون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ﴾ التفكير والإدخال لأرباب العناية والإفضال ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: 9] [1] واللطف الجسيم، وبالجملة: لا فوز أعظم منه وأكمل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

(1) الغبن كل الغبن ألا يعرف مكان خطابه والطاقة التي ظهرت له في الدنيا والآخرة بلباس القهريات ومكان الامتحان، وربما زاده الحق في أوحش مقام وهو مشغول الرسم، ولم يعرف شرف حاله، فكان مشغولاً عنه برسم الاعتذار والعبودية، فيا رُبَّ صفاء في الكدورة، ويا رُبَّ مكاشفة في المعصية، اكتم يا أخي غيب الحق بستر غيره حتى لا يكون السر ظاهرًا لأهل الرسوم، فيسقطون من إيمانهم، يقع الغبن يوم التغابن لمن كان مشغولاً بالجزاء والعطاء ورؤية الأعواض ورؤية المعصية والطاعة، ومن كان شاهد الحق خرج من وصف الغبن؛ إذ الغبن من أوصاف من كان غائبًا عن مشاهدته، فإذا استغرق في بحار جماله وجلاله لا يبقى عليه فرح الغبن، ولا حزن الفوت، إذ الكل غابن له، وسقط عند ذكر ما مضى وما يستقبل، ولي لسان آخر في التوحيد أن الكل يقع في الغبن، إذا عاينوا الحق بوصفه وهم وجدوه أعظم وأجل مما وجدوا منه في مكاشفتهم في الدنيا، فيكونون مبهوتين متحيرين مغبونين؛ حيث لم يعرفوه حق معرفته، ولم يعبدوه حق عبادته، ولا يعرفون أبدًا حقيقة المعرفة، وأي غبن أعظم من هذا؛ إذ يرونه ولا يصلون إلى وجوده بالحقيقة، قال ابن عطاء: «تغابن» أهل الحق على مقادير الضياء عند الرؤية والتجلي، و«التغابن» في رؤية القلب الأعظم وأجل من رؤية الغبن؛ لأن رؤية الغبن تذهل عن التأمل وهو مقصرٌ عما أطلق لغيره عندها يظهر لكل أحدٍ، ومَن ظهر له الحق بحقه أخرسه من جميع نطقه من منازلته أو منازعته.

عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التغابن: 10 – 13].

ثمَّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة تعقيب الوعد بالوعيد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿أُولَئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاة لهم منها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 10] مصير أهل النار، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التقرير والتثبيت لأرباب المعرفة والإيقان على جادة التفويض والتكلان: ﴿مَا أَصَابَ﴾ على من أصاب وما أصاب ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي: حادثة مفرحة أو مؤلمة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وبمقتضى إرادته وتقديره ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ ويفوّض أمره إليه، ويأخذه وكيلاً، ويجعله حسيبًا وكفيلاً ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ وينور خلده، ويبصره على أمارات التوحيد وعلامات اليقين ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على عموم ما غاب، وشهد ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة قدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11] بعلمه الحضوري بحيث لا يعزب عنه شيء مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المبلغ لكم طريق الهداية والرشاد، المبين لكم سبيل السلام والسلامة والنجاة في يوم المعاد ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن دعوته بعد تبليغه وإرشاده فلا بأس عليه ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ بمقتضى وحينا وأمرنا ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: 12] الظاهر الواضح.

وبعد تبليغه على وجهه لم يبق عليه شيء، وعلينا حسابكم وعذابكم.

وكيف يتأتى منكم الإعراض أيها المعرضون المبطلون، مع أنه ﴿اللَّهُ﴾ الواحد الأحد، المستقل بالألوهية والربوبية ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ أي: موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بتوحيده واستقلاله ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: 13] في عموم حوائجهم ومهماتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [التغابن: 14 – 18].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأيقنوا وحدة الحق واستقلاله في الوجود ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله، وعن التوجه نحوه، والتوكل عليه بالتقريع والتشنيع، ويردونكم في أمر المعاش وتحصيله إلى المعاطب والمهالك؛ حتى تسألوا من كل غني غبي، وشحيح دني، فتسترزقون منهم، وترزقون لهم، ولا تثقون بالله، ولا تعتمدون عليه في كفالته وترزيقه فتزل ثقتكم عن خالقكم ورازقكم، وتزل قدمكم عن التثبت في صراط التوكل والتفويض.

وبالجملة: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي: عن الأولاد والأزواج، ولا تأمنوا من مكرهم وغوائلهم ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عن جرائمهم وتشنيعاتهم، وتوصلوهم إلى ما أملوا وترقبوا منكم ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ أي: تعرضوا عن إعراضهم، وعدم الالتفات إلى حالهم ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ أي: تمحوا وتستروا ما صدر عنهم من التشنيع والتقريع، فتشتغلوا إلى إنجاح أغراضهم وإيجاد أمانيهم بعدما وفقكم الحق عليها ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم من مراعاة جانب الأولاد والأزواج ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبكم التي صدرت عنكم في أمر المعاش إن كانت برخصة شرعية ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: 14] يرحمكم ويمحو زلتكم إن كان سعيكم؛ لتحصيل مقدار الكفاف والكفاية والقناعة، لا للفضول منها.

وبالجملة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمة، واختبار شديد لكم، فعليكم ألّا تغتروا بهما فإنهما من شباك الشياطين وحبالهم، يريدون أن يصدوكم عن سبيل الله بتزيينهما إليكم، وتحبيبهما في قلوبكم؛ لتشتغلوا بهما عن الله فتحطوا عن زمرة المخلصين ﴿وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15] للمخلصين المجتنبين عن الالتفات

إلى الغير مطلقًا.

وبالجملة: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ واجعلوه وقاية لنفوسكم من تغرير الشيطان وفتنته ﴿وَاسْمَعُوا﴾ قول الله بسمع الرضا والقبول ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أمره ونهيه، ولا تخرجوا عن مقتضى حكمه وأحكامه مطلقًا ﴿وَأَنفِقُوا﴾ مما رزقكم الله، واستخلفكم عليه امتثالاً لأمره، وطلبًا لمرضاته، وافعلوا جميع ما أمركم الحق، سيما الإيثار والإنفاق؛ ليكون امتثالكم وإنفاقكم ﴿خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ﴾ في أولاكم، وذخرًا لكم في أخراكم، ومن معظم فوائد الإنفاق: صون النفس عن الشح المطاع ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ بالبذل والإنفاق ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالكرم والسخاء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16] الفائزون من الله بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا.

وبالجملة: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللهَ﴾ المنعم المتفضل أيها المنفقون المحسنون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقرونًا بالإخلاص والرضا، ومصونًا عن وصمة المن والأذى ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ إحسانكم أضعافًا كثيرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، وإن عظُمت وكثرت ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المطلع على إخلاص عباده في أعمالهم ونياتهم فيها ﴿شَكُورٌ﴾ يحسن المحسن جزاء إحسانه أضعافًا مضاعفة، ويزيد عليها تفضلاً وامتنانًا ﴿حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17] لا يعاجل بعقوبة المسيء رجاء أن يعود ويتوب، ويعتذر لما يصدر عنه من الذنوب.

وكيف لا وهو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعلم بعلمه الحضوري منهم عموم ما في استعداداتهم وقابلياتهم من الإخلاص والإنفاق وغيرهما ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾[1] [التغابن: 18] المتقن في عموم الأفعال

---

(1) قال في عين الحياة: يعني: يعلم ما في القوى الغيبية من الأوصاف الجيدة والردية، وما على الجوارح من الأعمال الفاسدة والصالحة، غالب على أمره أن شاء يعاقب بها وإن شاء يعفو عنها، حكيم بالعفو والعقوبة، إن يعفو فحكمته، وإن يعذب فبحكمته، فحظ السالك من تفسير بطن هذه الآيات أن لا يبخل عن المريد بأموال الظاهر والمعارف الباطنة بقدر استحقاق المريدين واحتياجهم إليها، وحظ السالك أن يعطي لكل ذي حق من قواها حقها على وفق أمر المولى من الحقوق العلوية والحظوظ السفلية. اللهم اجعلنا من أهل السخاوة والجود لوجهك الكريم بحق محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

والجزاء المترتب على الأعمال؟!

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بمقام الفناء في الله، المستخلف منه سبحانه في عموم الأفعال والآثار، الصادر منك صورة أن تمتثل بمطلق الأوامر والنواهي الواردة عليك من عند ربك بمقتضى التكاليف المنبئة عن محض الحكمة المتقنة الإلهية، الجارية على وفق المصلحة المصلحة لأمور العباد في معاشهم ومعادهم، وتواظب على أداء الفرائض والواجبات الموجبة للعبودية بكمال التسليم والرضاء، وتلازم على الإتيان بالنوافل والمندوبات المقربة إلى الله، المستلزمة لمزيد الفضل والعطاء، فلك التبتل والإخلاص المقارن بالخضوع والخشوع، والتذلل التام، والانكسار المفرط في عموم ما جئت به من الطاعات والعبادات.

فاعلم أن الناقد بصير، وحبائل الشيطان في حواليك كثير، فلا تغفل عن غوائله، فإن إضلاله إياك سهل يسير، واتكل على الله في عموم أوقاتك، واستعذ به سبحانه من غوائله، فإنه سميع بصير.

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

سورة الطلاق

فاتحة سورة الطلاق

لا يخفى على من تمكن في مقام العبودية، وتقرر في محل التكاليف الإلهية من المنكشفين بسرائر الأحكام الحقيقية الحقية أن سر الزواج والازدواج الواقع في عالم الكون والفساد، المنبئ عن المناسبات المعنوية، والارتباطات الحبية الغيبية المترتبة على كمال الاعتدال والائتلاف بين الأسماء والأوصاف الذاتية الإلهية، الباعثة على الظهور والبروز في فضاء الكمال، إنما هو بمقتضى التجليات والشئون الإلهية، وتطوراته المتوافقة والمتخالفة حسب القبض والبسط، والجمال والجلال الظاهرة آثارها في الأزمان والأدوار بمقتضى الإرادة والاختيار، الصادر من الملك الجبار.

ومن جملة الآثار الواقعة في الأقطار: أمر النكاح والطلاق، المرتبين على المناسبة والمخالفة المتفرعة على القبض والبسط المتفرع على الجمال والجلال؛ لذلك نبّه سبحانه عباده، وبيّن لهم أحكام النكاح والطلاق، ووضع لهما حدودًا وقواعد مضبوطة؛ حتى لا يتجاوزوا عن الاعتدال والقسط الإلهي المتفرع على الحِكَم البالغة المتقنة.

فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى مناديًا لحبيبه ﷺ؛ إذ هو ﷺ لائق بالخطاب الإلهي في أمثال هذه الأحكام: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أحكم مطلق الأحكام الشرعية على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بوضع الحدود الشرعية بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، ينبههم على سرائر تكاليفه، وحِكَم حدوده المتفرعة على حِكمته البالغة، ومصلحته الكاملة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا

﴿١ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ٣﴾ [الطلاق: 1 – 3].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث إلى كافة البرايا؛ لترشدهم وتصلح أحوالهم، فلزم عليك وعليهم أصلاً وفرعًا ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وقصدتم دفع رابطة العلاقة الشرعية بالفرقة الشرعية أيضًا ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وادفعوا عنهن قيد الألفة المقتضية للزوجية ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] أي: في إتيانها ووقتها الذي هو مدة الطهر قبل وقوع الوقائع فيها ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ الكاملة أي: الأطهار الثلاثة مع المطلقات الثلاثة؛ حتى تقع كل طلقة في طهر ﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ المنتقم الغيور الذي ربَّاكم على مقتضى العدالة، فعليكم ألَّا تتجاوزوا عنها، فلا تزيدوا على عدتهن بالمراجعة عليهن، ثمَّ تطلقوهن.

فعليكم أن ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ بالتعدي بعد وقوع الطلاق ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: مساكنكم التي كن فيها قبل الفرقة؛ حتى تنقضي عدتهن فيها ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أيضًا بأنفسهن بعد الفرقة من مساكنهن بلا رضًا منكم أيها المطلِّقون، بل لا بدَّ لهن أن يعتددن فيها ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي: زنًا يشهد له شهود على الوجه المعتبر في الشرع، فحينئذٍ يخرجن؛ لإجراء الحد عليهن، فيصبح هذا الاستثناء من كلا الحكمين السابقين.

﴿وَتِلْكَ﴾ الحدود المذكورة ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ العليم الحكيم، الصادرة عنه بمقتضى الحكمة البالغة المقتضية للعدالة الكاملة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ ويتجاوز ﴿حُدُودَ اللهِ﴾ المنتقم

(1) قال الشيرازي: خصَّ حبيبه بالخطاب، وجمع الكل في مضمونه؛ لأن السيد إذا خاطب خاطب الكل، فبان شرفه على الجمهور؛ إذ جمَع الجمع في اسمه، وفيه إشارة الاتحاد، ومراد الحق سبحانه في تأديب العباد بتطليق نسائهم في زمان الطهر أداء وفاء الصحبة، ومراعاة ما مضى من زماني الوصلة والاهتمام بالفرقة.

الغيور ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بالعرض على عذاب الله عاجلاً وآجلاً، إنه ﴿لَا تَدْرِي﴾ وتعلم نفس المطلِّق، المجاوز عن الحد الشرعي بالتطويل في العدة، والتهاون على المرأة أو نفس المرأة المطلقة بإتيان الفاحشة في أوان العدة وغيرها ﴿لَعَلَّ اللَّهَ﴾ المقتدر ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التفريق والبينونة ﴿أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1] بأن جعل للمطلق بدل تلك الزوجة المطلقة زوجة سليطة مسلطة عليه، أو جعل للمطلَّقة زوجًا أشد إيلامًا منه.

وبالجملة: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾ أي: المطلقات ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارفن على انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وراجعوا إليهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا ومروءةً، نادمين على ما صدر عنكم من الطلاق، محسنين إليهن، معطين لهن من الأمتعة جبرًا لما كسرتم ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بعدما لم يبق بينكم وبينهن رابطة المحبة، وعلاقة الألفة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن مرضي لدى الشارع، مقبول عند عموم أرباب المروءات، بلا شرر ولا ضرار، وبلا أخذ شيء مما يتعلق بهن من الأمتعة المنسوبة إليهن عرفًا، بل أعطوهن شيئًا آخر معتدًا به؛ ليعترفن بثنائكم وشكركم، ويدعون لكم بدل ما يدعون عليكم.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أيها المؤمنون عند اختيار الرجعة والفرقة ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قطعًا لعرق الخصومة والنزاع، وبعدًا عن التهمة ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ الموكولة لكم ﴿لِلَّهِ﴾ طلبًا لمرضاته سبحانه، وحافظوا عليها؛ كي تؤدوها لدى الحاجة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي سمعتم من محافظة الحدود، وإقامةَ الشهود؛ لحفظ الحقوق والعهود من جملة المواعظ والتذكيرات التي وضعها الحق بمقتضى حكمته بين عباده؛ ليحافظوا بها آداب العبودية.

إنما ﴿يُوعَظُ﴾ ويتذكر ﴿بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويوقن بوحدة ذاته، ويصدق برسله المبعوثين من عنده، المؤيَّدين من لدنه ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ؛ لتنقيد الأعمال، وترتب الجزاء عليها، فإن غير هؤلاء السعداء الأمناء هم التائهون في تيه الضلال بأنواع الوزر والوبال، لا تتعظون بها وبأمثالها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويتحفظ نفسه عن قهره وغضبه، ويحافظ على رعاية حدوده الموضوعة من لدنه؛ لحفظ حقوق عباده، سيما حقوق الزوجية والائتلاف من كلا الطرفين، ويتوكل عليه في عموم أحواله،

ويفوِّض أموره كلها إليه ﴿يَجْعَل لَّهُ﴾ سبحانه ﴿مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2] عن مضيق الإمكان المورث لأنواع الخذلان والخسران.

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ ويسوق إليه جميع حوائجه المحتاجة إليه في معاش عياله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من مكان لا يترقبه، ولا ينتظره ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ مخلصًا له، مفوضًا أمره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] وكافيه، يكفيه جميع المؤنة المحتاجة إليه في النشأة الأولى والأخرى؟! وكيف لا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على عموم المقادير ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ بعدما فوَّض إليه سبحانه بالإخلاص والتسليم إلى حد قدَّر الله له في حضرة علمه، ولوح قضائه؛ إذ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ﴾ القدير الحكيم ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء الظاهرة حسب أظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3] أي: مقدارًا معينًا من الكمال في عموم أفعاله وأحواله على مقتضى الاستعدادات الفطرية، والقابلية الجبلية؟!

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق: 4 – 7].

(1) هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأصناف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

هذه المذكورات من الحدود والآداب في طلاق ذوات الأقراء من المعتدات ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ﴾ وقنطن ﴿مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ لكبرهن ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: جهلتم وشككتم في تعيين عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾ بعدما طلقتموهن ﴿ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: مضيها.

رُوي أنه لمَّا نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] قيل: فما عدة النساء اللاتي يئسن؟ فنزلت: ﴿وَ﴾ كذا أيضًا مضي ثلاثة أشهر عدة النساء ﴿اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ بعد؛ لصغر سنهن أو مرض ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾ من المطلقات ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ ومنتهى عدتهن: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سواء كان الوضع بعد الفرقة بزمان كثير أو قليل.

وهذا الحكم متناول للمطلقة، والمتوفي عنها زوجها، وإنما لم يعيَّن لأولات الأحمال حدّ معين من أقراء وشهود؛ لأن المقصود الأصلي من إلزام العدة: حفظ الماء، واستبراء الرحم؛ لئلا ينجر إلى خلط النسب، وبالوضع يحصل المقصود على الوجه الأتم؛ ولهذا لم يحدّ لهن سوى الوضع ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويحفظ نفسه من سخطه، وطلَّق امرأته على الوجه المسنون، ولم يركن إلى الطلاق البدعي أصلاً ﴿يَجْعَل لَّهُ﴾ سبحانه ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي هو فراق زوجته ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4] يسهل إليه التزويج الآخر، ويحسنها له، ويحبلها له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أيها المكلفون؛ ليصلح مفاسدكم المتعلقة بحكم الطلاق ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور، ولم يتجاوز عن مقتضى أمره المبرم، وحكمه المحكم ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ بتغليب حسناته عليها ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[1] [الطلاق: 5] بتضعيف حسناته أضعافًا كثيرة.

---

(1) قال علاء الدولة: بأن الله يبدل - بلطفه - سيئاتهم حسنات، وهذا مما شاهدنا في أثناء السلوك دائما يذنب السالك ويخاف من ذلك الذنب يسد عليه باب المكاشفات والمشاهدات، فربما يفتح عليه أبواب المكاشفات والمشاهدات أكثر مما كان قبل حدوث ذلك الذنب، ويتفق هذا لصادق إذا اعترى عليه عجب من كثرة مجاهدته وصفاء أعماله؛ فأجرى عليه ذلك الذنب ليذهب بعجبه، ويظهر فيه الإفلاس، والمسكنة، والعجز، والاضطرار، وتعيير نفسه والنظر إليها

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أيها المطلقون ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: من وسعكم، ومقتضى طاقتكم من ملك، وإجارة وإعارة ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ حتى يضطررن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ منكم أيها المطلِّقون ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا الحكم؛ أي: الإنفاق على المعتدة مخصوص بأولات الأحمال من المعتدات؛ إذ الإنفاق حقيقةً إنما هيَ لأولات الأولاد دون غيرهن من المعتدات؛ إذ لا سبب توجبها.

وإذا وضعن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولادكم بعد رفع رابطة النكاح ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، مثل سائر المرضعات الأجنبيات، ولا تعللوا بكونهن أمهات للرضيع ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم﴾ أي: ليأمر بعضكم بعضًا أيها المؤمنون في إرضاع المطلقة ولدها من المطلق ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن، مقبول شرعًا من إعطاء الأجرة الكاملة، والزيادة عليها مراعاةً للمروءة ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ وتضايقتم في الأجرة عليها ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: 6] غيرها، إلّا أن المروءة تأبى عن أن تعرض الأم من إرضاع ولدها؛ إذ هي أولى به من غيرها.

﴿لِيُنفِقْ﴾ على المعتدة الحاملة ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ ويسر ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ ومقدار وسعه وطاقته على مقتضى نفقتها قبل الفرقة ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ وضُيِّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق بلا جبر وتحميل، إنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ المنعم الحكيم ﴿نَفْسًا إِلَّا﴾ مقدار ﴿مَا آتَاهَا﴾ وساق لها من الرزق الصوري؛ إذ ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾ دنيوي ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7] حقيقيًا أخرويًا، فاليسر في الآخرة أولى من الدنيا وما فيها.

بعين الحقارة، وكل هذا بقبول الحضرة الإلهية؛ فإذا خاف على ذنبه وآيس من نفسه وعمله يبدل الله سيئاته حسنات، ويفتح عليه أبواب المكاشفات والمشاهدات والواقعات مما يتعجب السالك من تلك الفتوحات.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: 8 – 12].

ثم قال سبحانه على وجه الوعيد للموسرين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثيرًا من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ أعرضت واستكبرت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ﴾ متابعة ﴿رُسُلِهِ﴾ المرسلين من عنده إياها اتكالاً على ما عندهم من المال والثروة، والتفاخر على الأقران، والتفوق عليهم بأنواع النخوة والعدوان ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: عن القليل والكثير، والنقير والقطمير ﴿وَ﴾ بعدما حاسبناها كذلك ﴿عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: 8] منكرًا فجيعًا فظيعًا؛ والمراد: حساب النشأة الأخرى وعذابها، عبَّر بالماضي؛ لتحقق وقوعها.

﴿فَذَاقَتْ﴾ حينئذٍ ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: إعراضها عن الله وأهله ذوقًا محيطًا بها، بحيث لا يخلو من العذاب شيء من أعضائها وأجزائها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ الذي كان عليه في النشأة الأولى ﴿خُسْرًا﴾ [الطلاق: 9] في النشأة الأخرى، وأيّ خسر لا خسر أشد منه وأكبر، وهو حرمانهم عن عز القبول الإلهي، وانحطاطهم عن رتبة الخلافة والنيابة.

وبالجملة: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في العاجل والآجل ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ واعتبروا مما جرى على أولئك الغواة الطغاة، الهالكين في تيه العتو والعناد من وخامة عاقبتهم، ورداءة خاتمتهم، واعلموا أيها المعتبرون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة

الحق وبتصديق رسله ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: 10] ناشئًا منكم، مذكِّرًا لكم أصل مبدئكم ومنشئكم، وكذا مرجعكم ومعادكم.

ولهذا جعله سبحانه ﴿رَّسُولاً﴾ مرسلاً من عنده إليكم؛ لإرشادكم وتكميلكم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ مشروحات موضحات كل ذلك ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على وجه الإخلاص ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: الظلمات الحاصلة من تراكم الكثرات، وتتابع الإضافات الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة إلى نور الوجود الذي هو الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الإضافات مطلقًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ ويوقن بوحدته ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ طلبًا لمرضاته ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ المترشحة دائمًا من البحر المحيط الذي هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه المشتمل على عموم الكوائن والفواسد الجارية في فضاء الوجود مطلقًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون منها أصلاً، وبالجملة: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: 11] صوريًا ومعنويًا.

وكيف لا يحسن رزقه سبحانه، مع أنه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: أظهر وقدَّر بمقتضى قدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ علويات مطبقات على عدد الأوصاف السبعة الذاتية الإلهية، وجعلها مسكنًا للمجردات من الملائكة والأرواح ﴿وَ﴾ قدَّر ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ السفلى؛ أي: عالم العناصر أيضًا ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ مطبقات بعضها فوق بعض: طبقة الأثير الصرف، وطبقة الأثير الممتزجة، وطبقة الزمهرير من الهواء، وطبقة الهواء الصرف، وطبقة الماء الصرف، وطبقة الطين المركب من الماء والتراب، وطبقة التراب الصرف، على عدد القوى السبع الإنسانية الفائضة على أعضائه السبعة، وهي: الدماغ، والكبد، والعين، والأذن، والأنف، واللسان وجميع البشرة من الصانع الحكيم؟!

وإنما رتبها سبحانه وطبقها عليها؛ حتى ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ﴾ الإلهي ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ يعني: تصير السفليات قوابل الآثار العلويات، يقبلن منها ما يفيض عليهن من الكمالات المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية، كل ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أيها المجبولون

على فطرة العلم والمعرفة ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود، ولمع عليه برق الشهود ﴿قَدِيرٌ﴾ لا ينتهي قدرته عند مقدور ﴿وَ﴾ لتعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتصف بالقدرة الكاملة ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة قدرته ﴿عِلْمًا﴾[1] [الطلاق: 12] إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام القلب وسعته، وقابليته لنزول سلطان الوحدة الذاتية الإلهية مع بُعد غورها، ورفعة طورها عن أحلام الأنام مطلقًا أن الله المتجلي على كل جلي وخفي قدير على مقدورات لا تتناهى، ومرادات لا تُعد ولا تُحصى بمقتضى حيطة علمه بمعلومات لا غاية يحدها، ولا نهاية يحيطها.

فله سبحانه الإعادة والإبداء، والإماتة والإحياء، وله التصرف في ملكه كيف يشاء حسب اقتضاء الأوصاف والأسماء، لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى، وله الحمد في الآخرة والأولى.

(1) قال في «عين الحياة»: يعني: ليعلموا أن علم الله محيط بالأرضيات والسماويات، يعلم استعداد كل لطيفة أرضية خلقية، ولطيفة سماوية أمرية، ويستعملها على قدر استعدادها، وهو غالب على أمره، حاكم في ملكه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا تجعلنا مقيدين بقيد الطبيعة، مغلولين في أسر الهوى، وثبتنا على متابعة المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الجزاء.

سورة التحريم

فاتحة سورة التحريم

لا يخفى على من رسخ على جادة التوحيد، وتمكن في مقعد الصدق بلا تلوين وترديد أن أرباب المحبة والإرادة الكاملة من المنقطعين عن الناسوت رأسًا، المنجذبين نحو فضاء اللاهوت مطلقًا، لم يبق لهم إرادة وكراهة، وصداقة وعداوة بالنسبة إلى كل أحد من بني نوعهم وغيرهم، بل هم مستغرقون بالله، فارغو البال من غيره، لا يشوشهم اللذة والألم، ولا يزعجهم الرضا والغضب.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه العتاب وناداه؛ ليرشده إلى منهج الصواب فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي دبر مصالح عباده على الوجه الأبلغ الأحكم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، حيث لا يكلفهم بما ليس في وسعهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، ينبههم عن زلاتهم بعدما صدرت عنهم، ويعلمهم التدارك والتلافي بالتوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾ [التحريم: 1 – 5].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المؤيَّد بالوحي والإلهام من عند العليم العلام، القدوس السلام مقتضى نبوتك وتأييدك: ألَّا تخالف حكم الله، ولا تبادر إلى الخروج عما قضى الله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ وتمنع عن نفسك من عندك بلا ورود نهي من قِبَل الحق ﴿مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ وأباحه عليك بمقتضى حكمته وعدالته ﴿تَبْتَغِي﴾ بتحريم الحلال على نفسك ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ وتترك رضا الله بمخالفة حكمه؟! فارتدع عن فعلك هذا، واستغفر الله لزلتك

﴿وَاللهُ﴾ المطلع على نيتك وإخلاصك ﴿غَفُورٌ﴾ يعفو عنك ما صدر منك ﴿رَحِيمٌ﴾[1]

(1) قد انعقد إجماع الأمة من متكلمين وفقهاء ومحدثين وغيرهم علمائها وعامتها على عصمته – صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله – من الكبائر واللمم قبل البعثة وبعدها، وكذا سائر حضرات الأنبياء والرسل – عليهم من ربهم الذي اجتباهم وقدمهم علينا الصلاة والسلام – ولكن طالما تجد من لم يوفق من المفسرين يقف ما ليس له به علم من التسلق والتطلع على مقامات الأنبياء والرسل –عليهم ممن اجتباهم الصلاة السلام- ونحن لا ذوق لنا في مقامتهم حتى نعرف استغفارهم مما، وذنبهم ما هو، وبكائهم مم، ولم يكلفنا الحق جل شأنه ذلك حتى لا نسيء الأدب معهم – عليهم من ربهم الصلاة والسلام – فنسقط من عين الله جملة واحدة، وإن كنا على عبادة الثقلين، ويكفي المريب – إذ نحن لم نقدر الله قدره ونعبده حق عبادته ونتقه حق تقاته- وجدان السلامة، فضلاً على أن المنسوب لهم في القرآن مما هو عند القاصرين ظاهره النقصان، له معان كثيرة ذكرها علماء الأمة الفقهاء عن الله في شرعه، وبينوها بما يناسب مقام النبوة وجلالة قدره، وانظر ذلك في كتب الحديث والشمائل وغيرها، وانظر على سبيل المثال كتاب الإمام المجدد الختم الأحمدي سيدي محمد بن جبل السنة الإمام عبد الكبير الكتاني – قدس الله سرهما –: "الكشف والتبيان عما خفي عن الأعيان في سر آية: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾" [ط. دار الكتب العلمية]، وما نقل من كتاب: (تطهير القلب والفؤاد من سوء الظن بالله وبالعباد) - والمؤلَف بقصد الدفاع عن عباد الله المخلصين حضرات الأنبياء والرسل عليهم السلام- لشيخ الإسلام وإمام الفريقين، شارح ومدون الأخلاق المحمدية بما لم يسبق إليه الإمام عبد الوهاب الشعراني ﷺ- تعلم أننا خير أمة أخرجت للناس نأمرهم بالتزام الأدب مع حضرات الأنبياء الرسل – عليهم ممن اصطفاهم الصلاة السلام- وننهاهم عن المنكر من افتياتهم على اختيار وتقديم ربهم من شاء من خلاصة عباده، وأن للفقه عن الله في كتابه والفهم فيه بحورًا لا تدرك، وكذا أن للمفسرين من عورات الجهل ما لا بدَّ أن يفشى ولا يطوى، حتى لا تهلك العامة بتقليدهم في سوء أدبهم. ويا ليت علمي أين الناس اليوم من علوم هؤلاء الأئمة – أمثال الشيخ الكتاني والشعراني قدس سره- واستنباطاتهم من الكتاب والسنة، وهذا ضرب مثل واطلب هذا النوع من العلم تجده الباز الأشهب والطراز المذهب، والتاج المكلل والعقد المجمل للمكتبة الإسلامية المحمدية. وإذا كان أهل البيت – عليهم السلام – يشار إليهم بالعصمة أو الحفظ الإلهي – على الخلاف بيننا أهل السنة والشيعة - من الوقوع في المعصية؛ فإنا معاشر أهل السنة نقول بالحفظ الإلهي، بدليل قوله تعالى:﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وإرادة الله لا تتخلف ولا حاكم عليها حتى يردها، فلا يصل إليهم الذنب الذي هو الرجس في عرف الشرع، فكيف بمن قال الله فيهم لعدوه:﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، واللمة من الشيطان تكون؛ فكيف يجوز أن يوصف مولانا وسيدنا محمد من لم يخلق الله خلقًا أعز عليه منه – كما عند ابن عساكر- بأنه صاحب لمة؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم. ولا يضرنا كون قائل ذلك منسوبًا لأي الفرق الإسلامية؛ فإن الله

[التحريم: 1] يرحمك ويقبل توبتك.

رُوي أن رسول الله ﷺ خلا بأَمَته مارية في يوم حفصة، فاطلعت حفصة على ذلك فعاتبته، فقال ﷺ: حرمت مارية على نفسي لأجلك، لا تقولي لأحد من أزواجي، واستكتمي عنهن هذا التحريم، وأيضًا الخلافة بعدي لأبي بكر وبعده لعمر، ولا تفش لأحد قط، فأخبرت حفصة عائشة بكلا الخبرين؛ لكونهما متصادقتين، فأخبرت عائشة رسول الله ﷺ بها، فغضب ﷺ وطلق حفصة طلاقًا رجعيًا، وعزل نساءه تسعًا وعشرين يومًا؛ لأجل هذه الواقعة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

ثمّ لمّا نهى سبحانه نبيه ﷺ على وجه المبالغة والتأكيد، أراد سبحانه أن يبين كفارة اليمين الواقعة من المؤمنين فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ﴾ وشرع ﴿لَكُمْ﴾ على سبيل الوجوب ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: بتحليل أيمانكم وتكفيركم عنها ﴿وَاللهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿مَوْلاكُمْ﴾ ومُولي أموركم ﴿وَهُوَ العَلِيمُ﴾ لعموم مصالحكم ومفاسدكم ﴿الحَكِيمُ﴾ [التحريم: 2] في ضبطها وإصلاحها.

تعبدنا بإتباع كلامه وكلام المعصوم ﷺ وإجماع الأمة بعلمائها العارفين المؤيدين في كشفهم، فالواجب علينا شرعًا الذب عن حرمة المسلم إذا انتهكت حتى يذب الله عنا – كما في الحديث – والتي هي أعظم من حرمة الكعبة كمل في الحديث أيضًا فكيف بحرمة الصديقين؟ فكيف بحرمة الصحب الكرام والآل رضوان الله عليهم؟! فكيف بحرمة خلاصة النوع الإنساني الأنبياء؟!! فكيف بحرمة الرسل منهم، فكيف بحرمة أول العزم منهم، فكيف بحرمة أكرم الأولين والآخرين على الله نبينا وشفيعنا ﷺ! فأحرى وأحرى، من نرجوا بالتمسك بجنابه - المقبول المأذون عند ربه - أن نكون في مستقر رحمة الله مع المنعم عليهم، وقد ذكر العلامة الألوسي في تفسيره الآية ما نصه: وإنما عاتبه الله تعالى عليه رفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما أَلِف من لطف الله تعالى به.

وقال العلامة المفسر الفخر الرازي في تفسيره الآية: نقول: المراد من هذا التحريم: هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج، لا اعتقاد كونه حراماً بعدما أحل الله تعالى؛ فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده كونه حلالاً، ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر؛ فكيف يضاف إلى الرسول ﷺ مثل هذا ؟! اهـ فانظر إلى هذا الكلام المنور المؤيد وغيره من أجوبة المفسّرين عن الآية وغيرها، وراجع ذلك مبسوطًا في كتب التوحيد عامه وخاصه، وقس على ما ذكرنا – من التعليق في هذا الموضع – بما لم ينبه عليه، والله يتولانا وإياك بما تولى به عباده الصالحين بحق مولانا المعصوم الأمين ﷺ والله أعلى وأعلم.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني: حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ وهو حديث مارية، وحديث خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بعده ﷺ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ وأخبرت حفصة ﴿بِهِ﴾ عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ﴾ وأطلع سبحانه نبيه ﷺ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على إفشاء حفصة الحديث المعهود الذي أوصاها بالإسرار، فغضب ﷺ على حفصة؛ لذلك ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أي: بعض الحديث، وهو حديث تحريم مارية، وطلقها طلاقًا رجعيًا انتقامًا عنها ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وهو قصة الخلافة ولم يعرفها؛ لئلا يقع الفتنة بين المسلمين، ومع ذلك قد وقعت، وبعدما أطلع الله نبيه على إفشاء حفصة الحديث معاتبًا عليها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ﴾ حفصة ظنًا منها أنها صدرت هذا من عائشة: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ﴾ وأعلمك ﴿هَذَا قَالَ﴾ ﷺ في جوابها: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ﴾ بالسرائر والخفايا ﴿الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3] بما يجري في الضمائر والنيات.

ثمَّ قال سبحانه من قِبَل نبيه ﷺ على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ أنت وعائشة عما صدر عنكما توبةً صادرة عن محض الندم والإخلاص، منبئة عن كمال الموافقة والاختصاص مع الرسول ﷺ فقد جبرتما ما كسرتما، وإلَّا ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ زاغت ومالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن موافقة الرسول ومخالصته، فجئتما بما يكرهه ﷺ وبكراهتكما ما يحبه ﷺ ﴿وَإِن تَظَاهَرَا﴾ وتعاونا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أنتما عليه من مخالفة الرسول فلن تضرا له ﷺ شيئًا من الضرر، وكيف يلحقه ﷺ ضرر منكما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب لعموم أحواله ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَوْلَاهُ﴾ ناصره ومعينه، ومولي عموم أموره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رئيس الكروبيين قرينه وملازمه ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أتباعه وأعوانه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: عموم الملائكة ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد نصر أولئك المظاهرين ﴿ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4] له سبحانه على سبيل التعريض لعموم أزواجه ﷺ؟!

﴿عَسَى رَبُّهُ﴾ الذي رباه على الكرامة الأصلية، والنجابة الجبلية ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ جميعًا ﴿أَن يُبْدِلَهُ﴾ بمقتضى قدرته وإرادته ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ صورة وسيرة، أخلاقًا وأعمالاً ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ في الاعتقاد، مسلمات عن العيوب ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ بوحدة الحق، مصدقات لعموم ما نزل من عنده ﴿قَانِتَاتٍ﴾ راسخات على الطاعات، مواظبات على عموم الخيرات، خاضعات خاشعات لله في عموم الأوقات ﴿تَائِبَاتٍ﴾ عن عموم المنكرات والمحظورات ﴿عَابِدَاتٍ﴾ على وجه التذلل والخضوع، وكمال الانكسار والخشوع ﴿سَائِحَاتٍ﴾ صائمات أو مهاجرات ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5] يعني:

سواء كن ثيبات أو أبكارًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم: 6 – 9].

ثمّ أوصى سبحانه لعموم المؤمنين ما يصلح لهم، ويليق بحالهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم حفظ النفس عن مطلق المهالك الدينية ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ عن ارتكاب المعاصي، والالتفات نحو المنكرات، والتوجه نحو المحظورات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي: من في حفظكم وحضانتكم من أزواجكم وأولادكم عن الوقوع في المهالك والفتن، وأنواع الآثام الموجبة للخذلان والحرمان، وبالجملة: اتقوا ﴿نَارًا﴾[1] وأيّ نار، نارًا ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: ما يتقد به النار أجسام الأنام والحجارة؛ وذلك من شدة حرارتها وإحراقها، بخلاف سائر النيران فإن وقودها الحطب.

ومع ذلك يوكل ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ يوقدونها، وهم الزبانية، صفتهم: إنهم ﴿غِلَاظٌ﴾ في أقوالهم وهياكلهم، لا يتأتى منهم الملاينة والملاطفة أصلاً ﴿شِدَادٌ﴾ في البطش وعموم التعذيب ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ ولا يتجاوزون عن أمره سبحانه في عموم أوامره، بل يمضونها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها بعذر وشفاعة، أو شفقة أو

(1) أي: قدّسوا أنفسكم وأهاليكم من محبة الدنيا والاشتغال بها، وأقبلوا على الله ببذل المهج، وانصحوا أهاليكم؛ كي يكونوا صالحين بمتابعتكم، فإذا رغبتم في الدنيا فهم يشتغلون بها، فإن زلة الإمام زلة المأمومين. قال سهل: أي: بطاعة الله، واتّباع السنن. وقال ابن عطاء: بقبول نصح الناصحين، قال الوراق: علّموهم الفرائض والسنن؛ لتنقذوهم بها من النار. وقال أبو عثمان: في طلب الحلال لأنفسكم ولأهاليكم. [العرائس].

مروءة، بل يفعلون ﴿مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] على وجهه خوفًا من غيرته سبحانه وغضبه.

وبعدما نادى سبحانه عموم المؤمنين بما نادى، نادى أيضًا عموم الكافرين على مقتضى المقابلة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وكذّبوا رسله المبعوثين إليكم؛ ليرشدوكم إلى سبيل الهداية والسلامة، فأنكرتم بهم وبجميع ما جاءوا به بلا تأمل وتوقف، عليكم أن ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ بأن أعمالكم دون عذابكم وأنقص منه، بل ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ من العذاب على مقتضى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: 7] من الكفر والإنكار.

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق من شأن إيمانكم تطهير قلوبكم عن مطلق المعاصي والآثام المنافية لصرافة وحدة الذات، ولا يتيسر لكم هذا إلّا بالتوبة والرجوع على وجه الندم والإخلاص ﴿تُوبُوا﴾ أيها المخلصون المبتلون بفتنة الذنوب ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ الملك القدوس، المنزه ساحة عز حضوره عن سمة الحدوث والإمكان مطلقًا ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ خالصة لوجه الله، قالعة لعرق الالتفات إلى غير الله، نادمة على الذنوب الصادرة عنكم فيما مضى، مجتنبة عن التي سيأتي، مصفية للنفس عن مطلق الكدورات المتعلقة بالغير، محلية لها بالتقوى عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الخالص نحو المولى.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ بعدما تبتم ورجعتم نحوه بكمال التبتل والإخلاص ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويعفو عنكم، ولم ينتقم منكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ تفضلاً عليكم، وإحسانًا ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والدين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف والحقائق المتجددة، الجارية من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات.

وكيف لا يكفّر، ولا يدخل سبحانه خلّص عباده في جنة وحدته ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي﴾ ولا يُردي ﴿اللَّهُ﴾ المنعم المفضل على خلّص عباده، سيما ﴿النَّبِيَّ﴾ المؤيّد من عنده بأنواع الكرامة والتعظيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ واهتدوا بهدايته، مع أن شأنهم هكذا ﴿نُورُهُمْ﴾ الذي اقتبسوه من مشكاة النبوة المصطفوية ﴿يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: محيطًا بهم، محفوفًا عليهم وقت عبورهم من الصراط؟!

ثمّ لمّا تفاوتت أنوارهم بحسب الجلاء والخفاء المترتب على أعمالهم واستعداداتهم الفطرية ﴿يَقُولُونَ﴾ مناجين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربّانا على الهداية والرشاد

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ تفضلاً علينا، ومزيد إحسان بنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا؛ أي: استر أنانيتنا عن عيوب بصائرنا ﴿إِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدخل في حيطة علمك وإرادتك ﴿قَدِيرٌ﴾ [التحريم: 8].

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث؛ لإعلاء كلمة التوحيد ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ الذين ستروا بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق، وأنكروا وجودها عنادًا ومكابرةً، وقاتل معهم بلا مبالاة بشوكتهم، وكثرة عَددهم وعُددهم، هم ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أيضًا، مع أنك مؤيَّد من لدنا بالحجج القاطعة، والبينات الساطعة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بالأقوال والأفعال، ولا تكن معهم بعد اليوم، مثل ملاينتك معهم قبله، بل اشدد عليهم، فإن الله معينك وناصرك، وهم سيغلبون عن قريب في الدنيا ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ المعدّ لهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والحرمان، وسعير الطرد والخذلان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9] مصيرهم ومرجعهم جهنم.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: 10 – 12].

وبالجملة: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ وشبَّه حال الكفرة بحالهما في عدم دفع صحبتهم مع المؤمنين، ومحبتهم معهم شيئًا من عذاب الله؛ إذ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم نوح ولوط - عليهما السلام - ﴿صَالِحَيْنِ﴾ لقبولنا، مصلحين لأعمالهما وأخلاقهما، وعموم أطوارها ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: تلكما المرأتان بالنفاق ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ ولم يدفعا؛ أي: العبدان ﴿عَنْهُمَا﴾ أي: عن تلك المرأتين ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، بل ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ﴾ المعدة للكفار والعصاة ﴿مَعَ﴾ سائر ﴿الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: 10] فيها بلا مبالاة إلى زوجيهما.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ﴾ أيضًا ﴿مَثَلًا﴾ آخر ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ شبّه حال المؤمنين في وصلة الكافرين بحال امرأة فرعون مع فرعون، وعدم تضرر إيمانها منه، بل تأكد إيمانها بصحبة زوجها فرعون - لعنه الله - اذكر ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ امرأة فرعون بعدما انكشفت بسرائر التوحيد، مناجية إلى ربها: ﴿رَبِّ﴾ يا من ربّاني بأنواع الكرامة، ووفقني على توحيدك ﴿ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ وذلك لمّا آمنت حين غلب موسى على السحرة فآمنوا له بعدما غلبوا، فقتلهم فرعون، وأمر بزجرها، وأوتدها بالأوتاد الأربعة في حر الشمس؛ حتى ترجع عن الإيمان ولم ترجع، ثمّ أمر اللعين أن يوضع فوقها صخرة عظيمة، فقالت حينئذٍ مناجية مع ربها من كمال تحننها وانكشافها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ الخبيث ﴿وَعَمَلِهِ﴾ السيئ ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11] الخارجين عن ربقة عبوديتك بإيمانهم بهذا اللعين الطاغي، واعتقادهم بألوهيته وربوبيته، فماتت قبل وضع الصخرة.

﴿وَ﴾ ضرب الله مثلاً أيضًا للذين آمنوا: ﴿مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي﴾ من كمال نجابتها وكرامتها، وطهارة ذيلها وعصمتها: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من مخالطة الرجال، وبالغت في التحصن والتحفظ إلى حيث رضي الله عنها وكرّمها، وأعطاها ما أعطى من الإرهاصات والكرامات التي خلت عنها سائر نساء الدنيا، وبعدما كرّمناها كذلك ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي: في جوفها من جيب درعها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾[1] الذي كنّا نفخنا منه في قالب آدم الصفي، ومن تلك النفخة حبلت بعيسى عليه السلام؛ ولهذا صار عيسى في الصفوة كآدم، وظهرت منه معجزات ما ظهرت من نبي قط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿صَدَّقَتْ﴾ مريم ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي: بعموم كلمات مربيها التي من جملتها: خلق عيسى عليه السلام من ذلك النفخ ﴿وَ﴾ بجميع ﴿كُتُبِهِ﴾ المنزلة من عنده على عموم رسله ﴿وَ﴾ من كمال مجاهدتها في طريق الحق، وإخلاصها في الطاعات

---

(1) قال المحقق البقلي: ظهر فيه نور الفعل؛ ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة، وظهر في نور الصفة نور الذات، وكان بنور الذات والصفات حيًا موصوفًا بصفاته، ناظرًا إلى مشاهدة ذاته، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبدًا، وهذه خاصية لمن له أثرٌ من روحه، قال بعضهم: نفخ من نوره في روح عبده؛ ليَحيى بتلك الروح، ويطلب النور، ولا يغفل عن طلب المنور، فيعيش في الدنيا حميدًا، ويُبعث في الآخرة شهيدًا، فلما وجدت روح روح الله صدقت بظهوره في العالم، وشبّه قلوب العالمين بأنها تكون مرآة الحق للخلق.

والعبادات، واتكالها على الله في مطلق الملمات، وكمال تفويضها عليه سبحانه وتسليمًا إليه: ﴿كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[1] [التحريم: 12] أي: من عداد الكمَّل من أرباب القنوت،

(1) قال علاء الدولة: وهذا إشارة شريفة في حق المجذوبين يعني: ذكر بصفة الرجال وأدخلهم في القانتين منهم، يعني: من أحصن فرج قابليته من المريدين وإن لم يصل إلى مرشد ويصدق الوارد وما يجد في صحف القلب والسر والروح، ويتوجه إلى الله توجهًا كل لما يمكن له الوصول إلى مرتبة الولاية؛ ولكن على سبيل الندرة، والنادر لا حكم له، وحظ السالك من هذه السورة وتفسير بطنها: أن يحترز في أن يحرم ما أحل الله على نفسه بجهله عنده مبادئ المكاشفات والمشاهدات، وقلما السالك إذا ابتلاه الله بالغيبة عن خدمة شيخه في بداية أمره كما كان حال هذا المسكين أن يتخلص من هذه الورطة، وسبيله إذا عرف اللطيفة حق المعرفة أو عرّفه شيخه يتوب على الله من ذلك الفعل، ويأكل ما قد حرمه الله في البداية على نفسه قدر ما يرفع عنه اسم التحريم، ويقتصر على ذلك، ويأكل لقمات متتابعة، وكل عمل حلال حرم على نفسه في البداية على نفسه [يعمله] بقدر ما يرفع اسم التحريم؛ فينبغي أن يشتغل به قدر ما خرج عن حد النهي الذي يقول في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:87]، واقتصروا على عمل واحد في كل سَنة، أو لقمة واحدة في كل وقت حضرت لموافقة أخ من الإخوان، إذا علم إن لم يواكله ينكسر قلبه ويحزن عليه صاحبه يوافقه ويواكله، ولا يسرف في أكلها، ولا يأكلها إذا كان خاليًا إلا لقمة واحدة؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران:93]، وهذه الآية تدل على أن السالك إذا حرم شيئًا على نفسه في بداية أمره لله جهلاً بالطريق فلا يجوز الاشتغال به بعد ورود الوارد عليه ومعرفته بالطريق؛ ولكن نسخ حكمه حكم هذه السورة المنزلة على اللطيفة الخفية التي هي خاتم اللطائف، ودنيها ناسخ الأديان، وحظ آخر للسالك من تفسير بطن هذه السورة: أن يتيقن بأن لكل قوة من قواها القابلة والفاعلة عذاب مختص بها لا ينفعها صلاح القوة الفاعلة، ولو فسدت الفاعلة لا ينفعها صلاح القوة القابلة، ولا يضر فساد القوة الفاعلة للقوة الصالحة القابلة وعلى العكس، وفي كشف هذا السر باب مفتوح إلى مطلع القرآن مما يجب إغلاقه فسددته ورجعت إلى ما يليق بأذان المستمعين وحوصلة المسترشدين، فاعلم أيها المسترشد إن السالك ربما يكون في ساعة واحدة في الجنة والجحيم وهذا مما شاهدناه مرارًا في أنفسنا، وأنفس السالكين الذين سلكوا هذا الطريق بحضرتنا، وأمرنا بأن لطيفة منك ولها صورة معينة تعرفها أنها صورتك متنعمة في أعلى عليين، وفي هذه الحالة أيضًا ترى لطيفة منك على صورتك - غير هذه اللطيفة المنعمة وأنت تشاهدها وتعرفها أنها صورتك - معذبة في أسفل سافلين، وأنت الشاهد بصورتي لطيفتك، وتتعجب من هذه الحالة المتضادةا وتتألم بألم الصورة المتألمة، وتتنعم بتنعم الصورة المتنعمة، وربما يكون أربع صور، وربما يكون سبع صور، وربما أن يكون ترى العالم مملوءًا من صورك، كل صورة في عمل خاص، وربما يكون أن تشاهد جميع الصور يتحركون

المنجذبين إلى حضرة الرحموت بكمال الخضوع والخشوع.

وفي هذا التمثيلين تعريض لأزواج النبي ﷺ، وحث لهن إلى حسن المعاشرة ومراعاة الأدب معه ﷺ وكمال المصادقة، وتبعيد لهن عن النفاق والمراء والمجادلة معه في أمر أباحه الله له بمقتضى حكمته، إنما ضربهما سبحانه؛ لينزجرن بهما عمّا جئن به؛ لتكون عظةً وتذكيرًا لسائر المؤمنين المتعظين.

جعلنا الله من زمرتهم وجملتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب لكلمات الحق النازلة من الغيب إلى الشهادة، المتفرعة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية أن تترصد في عموم أوقاتك إلى ما سيتجدد من عالم الخفاء والكمون إلى فضاء البروز والظهور، ثمّ منها إلى البطون بمقتضى النشأة الحِبِّية الإلهية، فلا بدَّ لك أن تخلي همك وبالك عن مطلق الأشغال الشاغلة لك عن الالتفات والتوجه إلى الله، والتفرج بعجائب مصنوعاته، وغرائب مخترعاته، وإياك إياك أن تغفل عنه ساعة، فإنها تورثك حسرة عظيمة طويلة، وخسرانًا عظيمًا إن كنت من جملة المستيقظين.

ربنا لا تزغ قلوبنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهّاب.

بحركتك، وينبسطون ببسطك، وينقبضون بقبضك، ويتكلمون بكلامك، وكل شيء يصدر منك يصدر منهم، مثل الصورة المنطبقة في المرآة من عكس صورتك، وسر هذا الصور المنطبقة في المرآة من عكس صورتك، وسر هذه الصور يتعلق أيضًا بحد القرآن.

سورة الملك

فاتحة سورة الملك

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق، وكثرة شئونه وتجلياته المترتبة على أسمائه وصفاته، الفائتة للحصر والإحصاء أن سعة مملكة الحق، وملكه وملكوته إنما هي بمقتضى رقائق أسمائه وصفاته الغير المتناهية، الظاهرة على مرآة العدم، فيلوح فيها منها هياكل الأشباح التي لا غاية لها ولا نهاية يحيطها، بعضها مترتب على البعض، وبعضها مقابل للبعض، بعضها متصفة بالشهادة والجلاء، وبعضها بالغيب والخفاء.

وبالجملة: جميع ذرائر الأكوان مربوطة بعضها ببعض برقائق المناسبات والارتباطات الواقعة في عالم الأسماء والصفات؛ لذلك أخبر سبحانه في كتابه عن عظمة ملكه، وكثرة خيراته واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في مظاهره ومصنوعاته، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بعموم أسمائه وصفاته التي لا تُعدّ ولا تُحصى ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم مظاهره بالرزق الأوفى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى جنة المأوى وسدرة المنتهى.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ
(٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥)
وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ (٧)﴾
[الملك: 1 – 7].

﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم وتعالى من كثرة الخيرات والبركات المالك الكامل ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وبقبضة قدرته جميع التدابير الجارية فيه على وجوه الصور والتقادير ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من متفرعات جود وجوده ﴿قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1] بالقدرة الشاملة، والإرادة الكاملة؟!

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدر ﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ بمقتضى قهره ولطفه، وأدارهما بينكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأصوبه وأصلحه، وأخلصه ﴿وَ﴾ إن لم تحسنوا العمل، ولم تصلحوه بعدما أمركم سبحانه بالإخلاص والإصلاح فقد ينتقم عنكم سبحانه بمقتضى غيرته؛ إذ ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الانتقام لمن خرج عن ربقة عبوديته ﴿الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2] المقتدر على وجوه الإنعام للمحسنين المخلصين.

وكيف لا، هو ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع الذاتية، وجعلها ﴿طِبَاقًا﴾ متطابقة بعضها فوق بعض، جوف بعض، وجعل تطبيقها ونظمها على وجه أحكم، ونظام أبلغ، حيث ﴿مَّا تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ المستوي على عروش الأكوان ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ ينبئ عن عدم رعاية الحكمة والمصلحة فيه، بل كلها على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة؟! فإن شككت أيها المعتبر الرائي فيها؛ لقصور نظرك عن إحاطة ما فيها من الحكم والمصالح في بادئ الرأي ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ وكرِّر النظر، ثمَّ انظر ﴿هَلْ تَرَى﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3] [1] خلل وشقوق وقعت فيها، لا على مقتضى الحكمة والإحكام؟.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ إن شئت وشككت ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ مرتين أو مرارًا كثيرة إلى حيث ﴿يَنقَلِبْ﴾ ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾ أي: بصرك ﴿خَاسِئًا﴾ خائبًا بعيدًا عن المطلوب الذي هو رؤية الفطور والقصور ﴿وَهُوَ﴾ أي: نظرك حين رجوعه إليك ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4] كليل كئيب من طول المعاودة، وكثرة المراجعة بلا فائدة تترتب عليها، وعائدة تفوز بها من إدراك الفطور والقصور.

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا: ﴿لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي: السماء المرئية من الدنيا ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أي: بكواكب كثيرة مضيئة، منيرة في الليل كالسرج، هي سبب رؤيتها، وإلَّا فلا ترى الأفلاك ﴿وَ﴾ من جملة اختباراتنا الواقعة بين عبادنا: إنَّا ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ أي: تلك المصابيح ﴿رُجُومًا﴾ أي: سبب ظنون وجهالات ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾

(1) يقال: فطره فانفطر أي شقه فانشق والمعنى من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتامها قاله القاشاني، ولو كان لها فروج لفاتت المنافع التى رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها كما في المناسبات فإذا لم ير في السماء فطور وهى مخلوقة فالخالق اشد امتناعا من خواص الجسمانيات.

وهم المنجمون المرجفون الذين يرجمون بالغيب، مستمسكين بها وبحركاتها وأوضاعها ﴿وَ﴾ بعدما أضللناهم بها في الدنيا ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5] أي: النار المسعرة جزاء ما اجترءوا على الله بدعوى الإطلاع على المغيبات، مع أنه من الخصائص الإلهية، وما ذلك إلّا من كفرهم بالله، واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في ملكه وملكوته.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وادّعوا معه الشركة في أخص أوصافه، وهو عالم الغيب ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، والطرد والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الملك: 6] مصير أهل الكفر.

ومأواهم من شدة أهوال جهنم وأفزاعها: إنهم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي: قصدهم الزبانية؛ لإلقائهم بالعنف والزجر المفرط ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي: لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا هائلاً مهولاً، كصوت الحمار ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ﴾ أي: جهنم حينئذٍ ﴿تَفُورُ﴾ [الملك: 7] وتغلي غليان المرحل غيظًا وغضبًا لأعداء الله.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: 8 – 15].

ومن شدة غضبها وسخطها ﴿تَكَادُ﴾ وتقرب ﴿تَمَيَّزُ﴾ وتفترق أجزاؤها ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ المفرط ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: جماعة وفرقة من المتفقين المجتمعين على ديدنة قبيحة، وخصلة خارجة عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سؤال توبيخ وتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8] يخوفكم من هذا العذاب الهائل، مع أن سنة الله جرت على ألّا يدخل عباده فيها إلّا بعد الإنذار والتخويف.

﴿قَالُوا﴾ حينئذٍ متحسرين: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ فأنذرنا عنها على أبلغ الوجوه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذير، وأفرطنا في تكذيبه إلى حيث نفينا الإنزال والإرسال مطلقًا، بل كفرنا

بالحق وبجميع ما جاء به النبي النذير من عنده، ونسبنا دعواه إلى السفه والضلال ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قُلْنَا﴾ له حين دعوته وادعائه نزول الكتاب: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم أيها المدّعون للرسالة ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾[1] [الملك: 9] عظيم لا ضلال أعظم من ضلالكم.

﴿وَ﴾ بعدما حكوا أولئك الضالون ما حكوا ﴿قَالُوا﴾ من غاية أسفهم وحسرتهم على سبيل التمني: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام الرسل المؤيّدين بالمعجزات الظاهرة ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ نتأمل ونتفكر في حججهم الساطعة، ودلائلهم القاطعة ﴿مَا كُنَّا﴾ الآن ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10] أي: في عدادهم ومن جملتهم.

وبالجملة: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ وندموا، وما ينفعهم الاعتراف والندم؛ لمضي وقته، بل ﴿فَسُحْقًا﴾ طردًا وتبعيدًا عن ساحة عز القبول، وعن سعة رحمة الحق، وكنف لطفه ومغفرته ﴿لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 11] أي: لمطلق من دخل بشؤم كفره وإنكاره فيها.

ثمّ أردف سبحانه حال الكفرة بحال المؤمنين تنشيطًا للسامع، وحثًا له على التثبت في الإيمان فقال: ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُم﴾ أي: عذابه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: حال كونهم في النشأة الأولى غائبين عنه، غير معاينين له ﴿لَهُم﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر ومحو لذنوبهم الصادرة عنهم بمقتضى بشريتهم جزاء إيمانهم بالله، وخشيتهم عن عذابه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12] يصغر دونه الدنيا وما فيها تفضلاً عليهم وامتنانًا، ألا وهو رضاه الله منهم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] من الآخرة وما فيها، فكيف عن الدنيا؟!

ثمّ لمّا قال بعض المشركين لبعضهم على سبيل التهكم: أسرّوا قولكم؛ كي لا يسمعه ربّ محمد، نزل: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ وهما سيان بالنسبة إلى علمه المحيط، وكيف لا ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

---

(1) يعني: جاءت اللطيفة المنذرة وبلغت إلينا ولكن كذبنا لاتباع هوانا، وقلنا: لا يمكن أن ينزل علينا مثلنا، لستم إلا في ضلال كبير؛ لرجوعكم عن دين آبائكم ولو كان الله أراد أن ينزل علينا لأنزل علينا ملائكة، أنتم تأكلون وتشربون وتمشون في الأسواق، وتحتاجون إلى البول والغائط وإلى ما يحتاج البشر إليه. [عين الحياة].

[الملك: 13] أي: بما في الضمائر قبل أن يعبّر به أو يقصد بتعبيره، بل هو عليم بما في استعداداتكم وقابلياتكم المكنونة في عالم الأسماء والصفات قبل ظهوركم في عالم الأشباح؟!

﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ وقدّر بمقتضى علمه المحيط، وقدرته الشاملة، وإرادته الكاملة ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ اللَّطِيفُ﴾ الواصل آثار علمه إلى خفيات الأشياء وأسرارها ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] [1] المحيط خبرته لظواهر المظاهر وبواطنها.

وبالجملة: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ أيها المكلفون بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لينة سهلة، قابلة للسلوك عليها ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جبالها أو جوانبها حيث شئتم ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ رغدًا واسعًا متى أردتم، واشكروا المنعم المفضل، ولا تكفروا به وبنعمه ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿النُّشُورُ﴾ [الملك: 15] أي: نشور الكل ورجوعه؛ إذ لا مرجع لكم سواه، ولا معاد إلّا إليه، فيسألكم عمّا أنعم عليكم ويحاسبكم عليه.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: 16 – 20].

وكيف لا تشكرون نعمه، ولا تواظبون على أداء حقوق كرمه؟! ﴿أَأَمِنتُم﴾ عذاب ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أي: من عذابه النازل من جانب السماء على من لم يشكر نعماءه المتوالية، وآلاءه المتتالية من ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ويطويكم بها ويغيبكم فيها،

(1) قال روزبهان: بقي مكنون علمه فيما جرى في الأزل عن الخليقة، وإن كان صدّيقًا، أو نبيًا مرسلاً، أو ملكًا مقربًا، فيكون عنهم مستورًا، كما كان في سر الأزل قبل الخلق، ولو أمعنت النظر يا صاحبي في العلم، فإن حقيقة العلم منفيةٌ عن الخلق؛ إذ الخلق لا يعلم حقيقته، فإن حقيقة علم الأشياء لمنشئها لا غير، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، أثبت العلم بالحقيقة لنفسه.

كما فعل بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: 16].

﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ عذاب ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ﴾ ويمطر ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حصباء من قِبَل السماء فيهلككم بها، كما فعل بقوم لوط عليه السلام ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ أيها المسرفون المفرطون في كفران النعم، ونسيان حقوق الكرم ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 17] وإنذاري عليكم.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل، وبالغوا في تكذيبك وإنكارك لا تبال بهم وبتكذيبهم، وانتظر إلى ما سيؤول أمرهم إليه.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفرة المكذبين لرسلهم أمثالهم، مبالغين في تكذيبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: 18] أي: إنكاري إياهم، وانتقامي منهم، فسيلحق أيضًا لهؤلاء الضالين المكذبين لك بأضعاف ما لحقهم.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا عن انتقامهم وإهلاكهم ﴿وَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران ﴿وَ﴾ بعدما أردن السرعة ﴿يَقْبِضْنَ﴾ ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن؛ استظهارًا بها على سرعة الحركة، مع أن ميلهن بالطبع إلى السفل بثقلهن ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف الطبع ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ المستعان الشامل برحمته العامة على كل شيء دخل في حيطة قدرته، وعلمه وإرادته، وبالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿بَصِيرٌ﴾ [الملك: 19] يدبر أمره على وجه يليق به، وينبغي له بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثم قال سبحانه مستفهمًا إياهم على الإنكار والتقريع: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ الناصر الظهير ﴿الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وعون لكم ﴿يَنصُرُكُم﴾ ويعينكم حين بطش الله إياكم أيها المسرفون ﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ المستوعب بالرحمة العامة على عموم الأكوان، مع أنه لا شيء في الوجود سواه، وبالجملة: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما هم ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: 20] باطل وزور ظاهر بلا وثوق لهم، ولا اعتماد.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك: 21 – 26].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ الرازق المتكفل لأرزاقكم ﴿ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ ويسوق إليكم ما يسد رمقكم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ سبحانه ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر، وسائر الأسباب والآلات التي تتوسلون بها إلى أرزاقكم، هل لكم متمسك تتمسكون به، وتثقون عليه سواه سبحانه أصلاً؟! كلا وحاشا، ليس لكم إلّا هذا ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ تمادوا وأصروا على اللجاج، وصاروا دائمًا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ لدد وعناد ﴿وَنُفُورٍ﴾ [الملك: 21] عن الحق وقبوله تعنتًا واستكبارًا.

ثمّ قال سبحانه مستفهمًا على سبيل التوبيخ: ﴿أَ﴾ يعتقدون الآثار الظاهرة في الأقطار من الوسائل والأسباب، ولم ينسبوها إلى المؤثر المسبب لها المختار، وسلكتم في هذا الطريق بأنواع الإنكار والإصرار ﴿فَمَن﴾ أي: فهل من ﴿يَمْشِي﴾ ويمضي ﴿مُكِبًّا﴾ ساقطًا ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ لوعرة طريقه، وظلمة سبيله ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ إلى مقصده، وأرشد إلى مطلوبه ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مستقيمًا سالمًا عن التزلزل والسقوط، راكبًا ﴿عَلَىٰ﴾ متن ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22] وطريق واضح بلا عثور وقصور؟! مثّل بهما سبحانه للمشرك المتشبث بالعقل، المنعزل عن الرشد والهداية، وللمؤمن المستمسك بالعروة الوثقى التي هي الشرع القويم الموصل إلى توحيد الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر وحدة الحق، واستقلاله في مطلق التصرفات الواقعة في عالم الكون والفساد: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إنشاءً إبداعيًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا به المواعظ، والآثار والأخبار الصادرة عن أولي العزائم الصحيحة، المجتازين نحو فضاء اللاهوت بانخلاعهم عن كسوة الناسوت مطلقًا ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها في ملكوت السماوات والأرض فتعتبروا منها إلى مبدعها العليم الحكيم ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفطنوا بها إلى عجائب حكمته، وبدائع قدرته؛ كي تنكشفوا بوحدته، وتتشرفوا بوصلته، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23] أي: الشاكرون الصارفون لهذه النعم العظام إلى ما خلقت لأجله، قليل في غاية القلة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر قدرتنا على الحشر والنشر، والحساب والجزاء على جميع الأمور الواقعة في النشأة الأخرى ﴿هُوَ﴾ سبحانه العزيز الغالب، ذو القدرة

والاختيار ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: بثكم وبسطكم بمقتضى قدرته ﴿فِي الأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وكلفكم على الإيمان والأعمال، واختبركم بالأوامر والنواهي ﴿وَ﴾ كما أبدعكم أولاً بامتداد أظلاله، ورش نوره على مرآة العدم، أعادكم أيضًا بقبض أظلاله وأنواره إلى ذاته، فثبت أنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: 24] للجزاء، فيجازيكم على مقتضى ما اقترفتم من المأمورات الإلهية.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال استبعادهم وإنكارهم: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ الموعود الذي وعدتم الجزاء والحساب، والثواب والعقاب فيه، أخبرونا عن وقوعه في أيّ زمان، وإن وقع؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: 25] يعنون: النبي والمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما ألحوا عليك، وألجئوك إلى التعيين: ﴿إِنَّمَا العِلْمُ﴾ المتعلق لتعيين وقته ﴿عِندَ اللهِ﴾ لا يطلع عليه أحد من خلقه ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مُّبِينٌ﴾ [الملك: 26] مظهر مبلغ ما يوحى إليّ من عنده على وجهه، لا طريق لي بوقوع المعهود إلا الوحي، ولم يوح إليّ تعيينه، فكيف أتكلم عنه؟! فعليكم ألّا تستعجلوا وقوعه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: 27 – 30].

وبعدما تحقق وقوعه، وحل وقته ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب الموعود في الآخرة ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا منهم ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اسودت وقبحت من شدة الكآبة والحزن المفرط ﴿وَقِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قِبَل الحق: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾[1] [الملك: 27] تطلبون وتستعجلون وقوعه مراءً واستهزاءً على سبيل.

(1) قال السمناني: أي: تتمنون أن يعجل فينبغي للسالك في هذا المقام ألّا يدع النفس أن تشك في بواقي الآيات؛ لأنها ما دامت في قالب الكدورات تصل من عالم السفل إليها دخان يصعد من الهوى على دماغها يحفظ عقله يشك، فإذا أراد السالك آية من آيات النفس مما لم يكن يراها قبل السلوك فيجب الإذعان لمسلكه واشتغاله برفع الحجاب؛ ليرى آيات ربه الكبرى وإن لم

التهكم، فالآن يلحقكم ما تنكرون به فيما مضى.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمشركي مكة بعدما تطيروا بموتك، وموت من معك من المؤمنين؛ ليتخلصوا من شروركم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَ﴾ أهلك أيضًا ﴿مَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بأن أخر آجالنا بمقتضى لطفه وجماله، ونحن مؤمنون مخلصون له، مقرّون بأنه الفاعل على الإطلاق بالإرادة والاختيار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ وينقذ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المنكرين على الله وإرادته، واختياره وألوهيته مطلقًا ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: 28] نازل عليهم من لدنه سبحانه بشؤم ما اقترفوا من الكفر والعصيان، وأنواع الفسوق والطغيان؟!

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تمادى نزاعهم، وتطاول جدالهم، ولم تنفعهم الدعوة والتبليغ كلامًا خاليًا عن وصمة المجادلة والمراء، منبعثًا عن الحكمة والمصلحة: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ المستعان المستوي على عروش الأكوان بكمال الاستيلاء والاستحقاق ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ مخلصين مستوثقين بحبل كرمه ووجوده ﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وفوّضنا أمورنا كلها بالعزيمة الخالصة الصادقة، وأخذناه وكيلاً، واعتقدناه حسيبًا وكفيلاً ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: 29] أنحن أم أنتم؟!

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين بوجود الصانع الحكيم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المسرفون المكابرون ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ أي: ظل وصار ﴿مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا إلى حيث لا يصل إليه السجال والدلاء بحبال وحيل ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: 30] جارٍ هامرٍ، سهل المأخذ سوى الله رب العالمين؟.

فكيف تنكرون وجوده، مع أنكم مغمورون بسوابغ نعمه، معترفون

يقدر على رفع الحجاب فينبغي أن يكون مؤمنًا ببواقي الآيات، مصدقًا بملكه قياسًا فيما يقول ويحكي عن الآيات الأنفسية الغيبية، وألا يشك البتة فيما يشاهد قرنائه وأصحاب مسلكه قياسًا: إنني أيضًا سالك ولم أر ما يحكي نظرًا؛ أي: لأن الاستعدادات متفاوتة في الكثافة واللطافة، والله يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع كيف يشاء، لا راد لقضائه، ولا مانع لعطائه، ولا دافع لبلائه، وعلينا التسليم والتصديق وله الحكم على التحقيق وبيده التوفيق، وهو الرفيق في هذا الطريق.

بسوابق كرمه؟!

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المستمسك بعروة الشريعة المصطفوية التي لا عروة أوثق منها ولا جادة أقوم وأعدل أن تتشبث بها، وتعمل بمقتضاها، متوكلاً على الرحمن المستعان، مفوضًا أمورك كلها إليه على وجه الإيقان، معرضًا عن جنود أمارتك ومقتضياتها، مجاهدًا معها، مخاصمًا إياها حتى تصير مطمئنة راضية بما جرى عليها من القضاء، صابرة على ما أصابها من البلوى إلى أن صارت فانية عن هوياتها الباطلة، باقية بهوية الحق وبقائه.

جعلنا الله ممن فني فيه، وبقي ببقائه بمنّه وجوده.

سورة القلم

فاتحة سورة القلم

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق، وشمول أوصافه الذاتية على عموم مظاهره ومصنوعاته أن قلم تقديره الذي هو أول مصنوع صدر منه سبحانه قادر غالب على تصويرات لا تتناهى، وتشكيلات لا غاية لها، فأثبت به سبحانه في لوح قضائه صدور عموم مظاهره ومصنوعاته ظاهرًا وباطنًا، غيبًا وشهادةً، أزلاً وأبدًا.

ومن كمال عظمته، ورفعة قدره: أقسم به سبحانه؛ لبراءة حبيبه ﷺ عمَّا يتهمه الظالمون، ويقولون في حقه عنادًا ومكابرةً أولئك المسرفون المفرطون، فقال بعد التيمن باسمه، مخاطبًا لحبيبه ﷺ على طريق الرمز والإيحاء: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المطلع على عموم ما في استعدادات عباده من الفضائل والكمالات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لهم، يهديهم إلى سبيل الخيرات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات.

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ
﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ
فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ
﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: 1 – 15]

﴿نٓ﴾ أيها النبي النائب عن الحق، الناظر بنور الله، النقي عن جميع الرذائل والآثام المنافية لمرتبة النبوة والولاية ﴿وَ﴾ حق ﴿الْقَلَمِ﴾ الأعلى ﴿وَ﴾ بحق ﴿مَا

يَسْطُرُونَ﴾[1] [القلم: 1] ويكتبون بها الملأ الأعلى من الأسماء والصفات المأمورة بتصويرات الأشياء الكائنة في النشأة الأولى والأخرى حسب آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

﴿مَا أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي ربّاك على الهداية العامة، والولاية المطلقة، وأعطاك من الفضائل والكمالات المتعلقة لمرتبتي النبوة والولاية ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2] أي: ما أنت غافل عنها، ذاهل عن أداء حقها، جاهل بشكر نعمها ومولاها.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل باحتمالك أعباء الرسالة والتبليغ، وتصبرك على أذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿لَأَجْرًا﴾ عظيمًا من عند الله ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: 3] منقطع أبد الآبدين؛ إذ ما يترتب على مرتبتك الجامعة من الكرامات اللائقة البديعة،

(1) قال روزبهان: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: «بنون» صفتي وقلم فعلي، «وما يسطرون» من أحرف مقاديري على ألواح أمري، وأيضًا «النون»: هو الذات، و«القلم»: الصفات، و«ما يسطرون»: من الأفعال على ألواح التقدير، وهي تسطرها بين الكاف والنون من العدم على ألواح الإرادة، وأيضًا «النون»: نور وجهه الذي يظهر يوم الشهود، وبه يسعى جميع العارفين والعاشقين إلى الأبد، وأيضًا: نور عنايته السابقة في الأزل في اصطفائية الأنبياء والأولياء، وأيضًا أي: بنيران قلوب المحبين، ونور فؤاد المشتاقين ونصرتي للأنبياء والمرسلين والأولياء والصدِّيقين، وأيضًا أي: بنظري على قلوب أحبائي، ونظر أسرارهم إلى لقائي، وأيضًا أي: بنوادر أنوار صفاتي، وبقلم أفعالي الذي يجري على ألواح أسرار العارفين، و«ما يسطرون»: الأرواح القدسية من مخاطباتي في أوراق أسرارها، وأيضًا أي: بالنون الذي جعلت في بطنها حجال معراج يونس، وأيضًا أي: نيرات ملكوتي ونادرات عجائب جبروتي، وأيضًا أي: بنور القرآن والعلم الذي كتبته في اللوح المحفوظ في أول الأول، وما يتنسخون منه سفرتي وكرام بررتي، وأيضًا أي: ابتدائي في أول وليتي من القدم إلى العدم؛ لإسماع أسر الأرواح القدسية الملكوتية التي خرجت من العدم بكشف نور القدم، ونداء الأزل، وندائي للقلم حين قلت بعدما أوجدته اكتب ما هو كائنٌ إلى الأبد، وبهذا القلم النوري، وما يسطرون أهل قربي من خطابي أي: بهذه الأقسام المباركة يا حبيبي يا قرة عيون العارفين، وبنون حاجبيك، وقلم لسانك، ولوح وجهك، ومايسطرون كتبته أنوار تجلاتي من عجائب سنا كشف جمالي في جمالك لنظر هلال جلالك وجمالك.

لا انقطاع لها أصلاً.

﴿وَإِنَّكَ﴾ من كمال تخلقك بالأخلاق الإلهية، وتحققك بمقام الخلة والخلافة ﴿لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] لا خلق أعظم من خلقك؛ لحيازتك وجمعك خُلق الأولين والآخرين حسب جامعية مرتبتك.

وبالجملة: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ [القلم: 5] أولئك المصرفون المفرِّطون بنسبتك إلى الجنون حين تبلى السرائر، وينكشف ما في الضمائر، وينزل العذاب على أهله.

﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: 6] أي: أيكم يفتن بالجنون: المؤمنون المهتدون بهدايتك، أو الكافرون الضالون بغوايتهم؟.

وبالجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربَّاك على الرشد والهداية ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَنْ ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: 7] المتمكنين منهم على جادة التوحيد، والصراط المستقيم الموصل إلى جنة الرضا، وروضة التسليم.

وبعدما سمعت نبذًا من شأنك في شأنك في النشأة الأخرى: ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ أيها النبي المجبول على الهداية والفلاح ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: 8] المجبولين على الغواية والضلال؛ يعني: مشركي مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه سبحانه أن يطيعهم، ويقبل منهم دعوتهم.

فإنهم ﴿وَدُّوا﴾ وأحبُّوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ وتلائم معهم، وتوافقهم في دينهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9] معك، ويلاينونك ويوافقون معك، ولا يطعنون بدينك.

﴿وَ﴾ بعدما صرت متخلقًا بالخلق العظيم، ومتصفًا بالأوصاف الحميدة الإلهية ﴿لَا تُطِعْ﴾ آراء ذوي الأخلاق الذميمة، والأطوار القبيحة مطلقًا، سيما ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ مبالغ بالحلف الكاذب؛ لترويج آراء ذوي الباطل الزاهق الزائل ﴿مَّهِينٍ﴾ [القلم: 10] مهان عند الناس؛ بسبب الكذب والحلف عليه.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيَّاب طعَّان يغتاب ويطعن بعض الناس عند بعضهم ﴿مَّشَّاءٍ﴾ يدور بين

الناس ﴿بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11] أي: ينقل حديث بعض عن بعض؛ حتى يوقع بينهم الفتنة والبغضاء.

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شحيح بخيل لا ينفق من ماله على من يستحقه، ويمنع أيضًا صاحبه وصديقه عن الإنفاق؛ لئلا يلحق العار عليه خاصة ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز الحد في أنواع الظلم، وأصناف الفسوق والعصيان ﴿أَثِيمٍ﴾ [القلم: 12] مبالغ في اقتراف الإثم والعدوان بلا مبالاة.

﴿عُتُلٍّ﴾ غليظ الهيكل، قاس القلب، كريه المنظر، عريض القفا، متناهٍ في البلادة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الاتصاف بالأوصاف المذمومة المذكورة ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13] دعي بين القوم، لا يكون له نسب معروف، ولا حسب مستحسن مقبول.

ومن كمال دناءته وخساسته ﴿أَن كَانَ﴾ أي: أنه كان ﴿ذَا مَالٍ﴾ عظيم ﴿وَبَنِينَ﴾ [القلم: 14] كثيرة مستحقة شكر المنعم المفضل، ولم يشكره.

بل يكفره؛ لأنه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿قَالَ﴾ من كمال كفره وكفرانه، وبغيه وعدوانه: ما هذا إلَّا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15] أي: الأكاذيب القديمة التي سطرها الأولون ودونوها.

قيل: هذا هو الوليد بن المغيرة الذي جمع الله فيه هذه المثالب الذميمة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: 16 – 27].

وبالجملة: لا تطعه يا أكمل الرسل، ولا تلتفت إلى ثروته وسيادته، فإنَّا بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿سَنَسِمُهُ﴾ ونعلِّمه بالكيِّ ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: 16] أي: أنفه، بحيث يعرف به في عرصات المحشر.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وانتقامنا من أهل مكة ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ أصبناهم وابتليناهم بالقحط سبع سنين؛ لكفرانهم بنعمنا التي من معظمها: بعثة الرسول الذي هو أكمل الرسل منهم فكذبوه، وأنكروا دينه وكتابه، واستهزءوا به ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ وأصبنا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ التي اسمها ضروان، كانت دون صنعاء بفرسخين لصالحٍ، كان ينادي الفقراء وقت الصرام، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا لضاق علينا، فإن المال قليل والعيال كثير، وكان مال أبينا كثيرًا وعياله قليلاً، فحلفوا ليصرمنها مصبحين خيفةً من المساكين، كما حكى عنهم سبحانه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني: أولاد الصالح وورثته ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ وليقطعنها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17] داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: 18] أي: لا يتكلمون بكلمة: إن شاء الله حين تقاولوا وتقاسموا.

وبعدما اتفقوا على تحريم الفقراء، ولم يفوضوا أمرهم إلى مشيئة الله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الجنة ﴿طَائِفٌ﴾ بلاء مخصوص بها أحاط جميع جوانبها، لا لما في حواليها من البساتين الأخرى، ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿نَائِمُونَ﴾ [القلم: 19] في بيوتهم.

﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنة، وصارت ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: 20] أي: صارت كالتي صُرِم ثمارها بحيث لم يبق فيها شيء، أو صارت كالليل في اسودادها وإحراقها، أو كالنهار من غاية يبسه وجفافه.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 21] داخلين في الصباح المعهود للصرام.

﴿أَنِ اغْدُوا﴾ واخرجوا غدوة أيها الملاك ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم: 22] قاصدين صرمها وقطعها.

﴿فَانطَلَقُوا﴾ بأجمعهم نحوها ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ [القلم: 23] ويكتمون ذهابهم عن الناس، ويسرون كلامهم فيما بينهم.

مخافة ﴿أَن لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: 24].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿غَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ قصد تام، وسرعة كاملة ﴿قَادِرِينَ﴾ [القلم: 25] على القطع بلا مشارك ومعين.

﴿فَلَمَّا﴾ وصلوا إليها ﴿رَأَوْهَا﴾ كذلك ﴿قَالُوا﴾ في بادئ الرأي: ما هي جنتنا هذه، بل ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: 26] طريقها.

ثمّ لمّا تأملوا في أمارتها قالوا على سبيل الإضراب عن القول الأول من كمال الأسف والحسرة: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: 27] حرمنا عنها وعن خيراتها؛ لخساستنا وخباثة نفوسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم: 28 – 42].

وبعدما حُرموا منها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم رأيًا وعقلاً على سبيل التقريع والتشنيع لإخوانه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ وقت مشورتكم على تحريم الفقراء، واتفاقكم على منعهم: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: 28] أي: هلّا تذكرون الله بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء؛ حتى يزيد عليكم نعمه، وقد قال هكذا حين عزموا أولاً على المنع، وشاوروا فيه.

وبعدما وقعوا في الشدة والبلاء اعترفوا بالظلم، حيث ﴿قَالُوا﴾ عن كمال الندامة

والإنابة: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّنَا﴾ ننزهك من أن ينازعك في ملكك وسلطانك، أو يخالف حكمك أو شأنك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: 29] خارجين عن أمرك بالإنفاق، معرضين أنفسنا على عذابك وانتقامك.

تب علينا بفضلك وكرمك ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

وبعد وقوع الواقعة ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾[1] [القلم: 30] يعني: يلوم بعضهم بعضًا، فإن منهم من أنكر، ومنهم من استصوب، ومنهم من أشار، ومنهم من سكت.

وبالجملة: ﴿قَالُواْ﴾ أي: الكل متحسرين: ﴿يَا وَيۡلَنَا﴾ وهلكتنا أدركينا ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: 31] مجاوزين حدود الله، مستحقين للويل والثبور.

وبعدما أنابوا إلى الله، وتضرعوا نحوه على محض الندم والإخلاص قالوا على سبيل الطمع والرجاء: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ ببركة التوبة والرجوع بالإخلاص والاعتراف بالخطأ، والاستغفار بالندم، والانكسار التام، وقد رُوي أنهم أُبدلوا خيرًا منها ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: 32] راجون منه العفو، طالبون الخير والمغفرة.

﴿كَذَٰلِكَ الۡعَذَابُ﴾ لمن خرج عن مقتضى الحدود الإلهية في الدنيا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ الۡأٓخِرَةِ﴾ المعدة لأصحاب الغفلة عن الله ﴿أَكۡبَرُ﴾ وأعظم بأضعافها وآلافها ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [القلم: 33] ويعتقدون وقوعها لاحترزوا عمَّا يؤولهم إلى عذابها، ويوقعهم في وبالها ونكالها.

---

(1) يعني: القوى اللوامة بعد أن ترى آيات الرب نفسها، وهذا ينفع في أثناء السلوك إذا طلع السالك على ظلمة الغفلة عن ذكر ربه وتركه الاقتداء بمقتداه، فيتوب إلى الله ثم يستأنف العمل على وفق الإقتداء، ويترك الغفلة ويشتغل بالذكر؛ ليزرع بعد ذلك على وفق أمر الدهقان الخبير، ويحصد - إن شاء الله تعالى - على وفق مراده عن قريب ذاته، لا ينفع بأن يفرغ عنه الآيات والأدوات، والبذر والأرض، ولا يزيد له من حسرته إلا العذاب الأليم المقيم، اللهم نبهنا من نومة الغافلين واجعلنا من الذاكرين. [عين الحياة].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن غضب الله، المتحرزين عن الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم إلى صيانة النفس عن المعاصي والمنكرات حين وصولهم إلى كنف حفظه، وجوار قدسه ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: 34] أي: روضة الرضا، وجنة التسليم، لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدًا، والله عنده أجر عظيم لمن وصل إليه وتحقق دونه.

ثم لمّا كان الكفرة يقولون: إن صح أنّا نُبعث كما يزعم محمد وأصحابه لم يفضلونا هناك أيضًا، بل نحن هناك أيضًا أحسن حالاً منهم كما في الدنيا، رد الله عليهم زعمهم هذا بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ يعني: أيزعم الكفرة المفسدون المفرطون أنّا نجعل ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ المتصفين بالإيمان والأعمال الصالحة، المنزهين عن مطلق العصيان ولوازمه ﴿كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35] الموصوفين بأنواع الجرائم والآثام الخارجة عن مقتضى الأحكام الإلهية الجارية على مقتضى الحكمة والعدالة.

﴿مَا لَكُمْ﴾ أي: ما عرض عليكم، ولحق بكم أيها العقلاء حتى أخرجكم عن مقتضى العقل الفطري ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 36] وتدعون مساواة المسيء مع المحسن، فكيف يفضله عند العليم الحكيم، المتقن في عموم الأفعال على مقتضى القسط والعدالة؟!

أتحكمون هذا بمقتضى رأيكم الفاسد أيها الضالون؟! ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نازل عليكم من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿تَدْرُسُونَ﴾ [القلم: 37] وتقرؤون هكذا؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: 38] أي: ما تختارون لأنفسكم وتشتهونه من خير ما تجدون فيه.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود ومواثيق مؤكدة لازمة ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مشتملة متضمنة لهذا ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 39] به علينا من أن الخير والكرامة لكم عند الله أكثر مما لنا؟!

﴿سَلْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، وفتش عنهم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَيُّهُم﴾ ﴿بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ [القلم: 40] قائم يستدل عليه ويصححه، أهو؛ أي: الزعيم

المستدل واحد منهم؟!

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ في هذا الدعوى ﴿شُرَكَاءُ﴾ متشاركون في هذا القول والحكم، وهم يقلدونهم؟! فإن ادَّعوا شركاء قل لهم نيابةً عنَّا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ حتى يثبتوا الدعوة ويصححوها ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: 41] في هذه الدعوة.

وبعدما بهتوا اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ الأمور والخطوب ﴿عَن سَاقٍ﴾ أي: عن أصلها وحقيقتها، وتبلى السرائر برمتها، وارتفعت حجب الأغيار وسدل الاعتبار بأسرها، وبالجملة: لم يبق إلا الله الواحد القهار ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ حينئذٍ هؤلاء الأظلال الهالكون في تيه الحيرة والضلال ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ والتذلل على وجه الانكسار لدى الملك الجبار ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42] حينئذٍ؛ لمضيّ نشأة الاختيار، وأوان الاختبار.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: 43 – 52].

بل صاروا ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة حاسرة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ هائمة عقولهم، وبالجملة: ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتلحقهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ محيطة بجميع جوانبهم ﴿وَ﴾ كيف لا يكونون كذلك يومئذٍ؛ إذ هم ﴿قَدْ كَانُوا﴾ في نشأة الاختبار ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ حينئذٍ ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: 43] متمكنون قادرون عليه، فلم يفعلوا عنادًا ومكابرةً؟! فالآن قد انقضى وقت الاعتبار، فلا ينفعهم التذلل والانكسار سواء قدروا أو لم يقدروا.

وبعدما بالغ المنكرون المكذِّبون في قدح القرآن وطعنه، وأصروا على العناد

والاستكبار.

﴿فَذَرْنِي﴾ أي: خلني يا أكمل الرسل ﴿وَ﴾ وفوض عليّ أمر ﴿مَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، ولا تُتعب نفسك في معارضتهم ومجادلهم، ولا تعجل في أخذهم وانتقامهم، فإني أنتقم منهم، وأكفيك مؤنة شرُورهم، فاعلم أنّا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: ندنيهم درجة درجة إلى سوء العذاب بأن نهملهم في الدنيا، وننعم عليهم، ونديم صحتهم ونوفر عليهم أسباب الشقاوة حتى صاروا مغمورين في الكفر والطغيان، منهمكين في الضلال والعصيان، ثمّ نبطشهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [القلم: 44] أي: من جهة وطريقة لا يفهمون أنه من جهته وطريقه مكرًا عليهم، وزجرًا لهم.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم كيدًا عليهم، وهم لا يشعرون ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: 45] محكم لا يفهمه أحد، ولا يدفعه شيء.

أينكرون إرشادك وتبليغك إياهم عنادًا ومكابرةً؟! ﴿أَمْ﴾ يظنون أنك ﴿تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ جعلاً على إرشادك وتكميلك إياهم؟! ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: من أجل غرامة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ [القلم: 46] بحملها فيعرضون عنك، ويكذبونك بسببها.

﴿أَمْ﴾ يدّعون الاطلاع على المغيبات، ويزعمون أن ﴿عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: لوح القضاء ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: 47] منه جميع ما يحكمون به من الإقرار والإنكار، وبه يستغنون عن تعليمك وإرشادك؛ لذلك يكذبونك وينكرون عليك؟!

وهم وإن بالغوا في العناد والإنكار ﴿فَاصْبِرْ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو تأخير نصرك عليهم، وإمهالهم زمانًا على حالهم، ولا تستعجل في مؤاخذتهم ﴿وَلَا تَكُن﴾ في الاستعجال ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: أخاك يونس بن متى

(1) قال علاء الدولة: أي: يمهلهم قليلاً في رزق مكاشفاتهم النفسية ليزدادوا في إنكار اللطيفة، ويفتروا ببعض الكرامات التي هي عين المكر مما يقدر العدو على إتيان مثلها مثل المرور على الماء، والطيران في الهواء، والإسراف على الخواطر حتى يظن أنه عند الله من المكرمين، وينكر المقتدى فيأخذهم بغتة، وينزع منهم الآيات والأدوات، ويكشف عليهم أحوال زرعهم وحرثهم فصاروا عارفين بالمقتدى متحرين على فوات الوقت وضياع الاستعداد معلبين أبد الآباد.

عليه السلام، فاستعجل العذاب لقومه، ثمَّ لمَّا ظهرت أماراته خرج من بينهم مغاضبًا عليهم حتى اقتحم البحر ﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات: 141] في السفينة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142.141]، اذكر ﴿إِذْ نَادَى﴾ ربه في بطن الحوت ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48] مملوء غضبًا وغيظًا، مبتلى بالبلاء العظيم.

﴿لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ﴾ أدركته ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يعني: لو لم يوفقه سبحانه على نعمة التوبة، والإنابة والرجوع إليه على وجه الإخلاص والندامة ﴿لَنُبِذَ﴾ وطرح ألبتة ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: الأرض الخالية عن الشجر ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿مَذْمُومٌ﴾[1] [القلم: 49] مليم مطرود من الرحمة والكرامة.

لكن أدركته العناية الإلهية، وانفتح له باب التوبة والاستغفار على وجه الندم والانكسار، فاستغفر ربه وتاب عليه، وأجاب له تفضلاً عليه وامتنانًا ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أيضًا لمصلحة النبوة فأرسله إلى قومه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 50] الكاملين في الصلاح، الفائزين بالعصمة والفلاح.

(1) يذم ويلام بنزوله وبانحطاطه من مرتبة النبوية والولاية، وهذا سالك دعا على أممه على سبيل الضجارة بالعجلة وقت عروجه على معارج قلبه، ثم أخذ منه آلات الترقي بدعائه على أممه وطرح في جوف حوت الصدر فبقي فيه بحيث لا تزيد مرتبته ولا يترقى من حاله، وهذه حسرة عظيمة للسالك ولو ألهم في قلب السالك أنك وصلت إلى سدرة المنتهى منتهيك وأعطيت درجات جميع المقربين وليس لك الترقي بعد هذه المرتبة ينبغي أن يعري نفسه بنزع الآلات والأدوات عنها ووقوفها في مرتبتها؛ لأن المراتب الإنسانية والدرجات النفسانية غير منتهية إذا دخل السالك في عالم اللاهوت كل ساعة ونفس ولمحة لا يترقى فيها السالك من مقامه فهو مغبون كما قال ﷺ: «من استوى يومًا فهو مغبون كل الغبن»، من رضي بالدون وكل ما سوى الحق فهو دون، فاحذر عن الهمة الدنية وعليك بالهمة العلية، كما قال سلطان العارفين طيفور البسطامي- قُدِّس سرّه - ليحي بن معاذ الرازي حين سأله عن فضلات وارده الذي ورد عليه ليلة من الليالي وجاءه يحي وأراه في تلك الحالة فقام وراءه من إقباله إلى السحر وهو على تلك الحالة فلما أفاق والتفت سلم يحيي عليه وقال: أفض ما أفاض الله عليك، فقال: لو أعطاك الله درجات جميع الأنبياء والأولياء لا تقنع بها ولا تسكت عن الطلب؛ لأن عنده أكثر منها لا يتناهى أبد الآبدين ودهر الداهرين. [عين الحياة].

﴿وَ﴾ من غلظ غيظهم معك يا أكمل الرسل، وشدة شكيمتهم وضغينتهم بالنسبة إليك ﴿إن يَكَادُ﴾ أي: إنه يقرب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وستروا محامد أخلاقك، ومحاسن شيمك ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: حين سمعوا منك تلاوة القرآن المعجز، وتعجبوا من بدائع نظمه، وغرائب أسلوبه، وكمال فصاحته وبلاغته، ومتانة تركيباته الفائقة على تراكيب عموم أرباب اللسن والفصاحة، وعجائب معانيه التي قرعت أسماعهم؛ لذلك حسدوك خفية، وقصدوا مقتك بإصابة العين ﴿وَ﴾ إن كانوا ﴿يَقُولُونَ﴾ عند الملأ: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51] يتكلم بكلام المجانين، ما هو من جنس كلام الناس تلبيسًا على ضعفاء الأنام، وتغريرًا لهم؛ لئلا يتفطنوا على عظمة شأنك، ورفعة قدرك ومكانك.

وهم في خلواتهم على ظنة تامة، وحسد كامل مما صدر منك وظهر عليك من الخوارق ﴿وَ﴾ كيف يقولون لك: مجنون، وينسبون كلامك إلى الجنون، مع أنه ﴿مَا هُوَ﴾ أي: القرآن المعجز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42]، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ هداية ورشد وتبصرة كاملة، وتذكير شامل ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: 52] أي: لعموم المكلفين ممن يوفقهم الحق إلى صراط مستقيم.

جعلنا الله ممن تذكر به، واتعظ بما فيه بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد - هداك الله إلى سواء السبيل - أن تتصبر على مشاق الطاعات، ومتاعب التكاليف الواقعة في سلوك طريق الفناء، سيما أذيات الزائفين الضالين، المائلين عن سبيل الرشاد، المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، فعليك ألّا تلتفت نحوهم، ولا تبال بشأنهم، ولا تستعجل بانتقامهم، فإن الله يكفي عنك مؤنة شرورهم، فعليك الاصطبار والوقار، والأمر بيد الله الحكيم الجبار، القدير القهار، فسينتقم من أهل البغي والإنكار على أبلغ وجه وآكده.

سورة الحاقة

فاتحة سورة الحاقة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد، وانكشف بوقوع الطامة الكبرى التي اندكت دونها الأرض والسماوات العلى، وفنيت عندها هياكل الأشباح، واضمحلت هويات الأشياء أن ظهور عموم المظاهر إنما هو بحسب الأسماء الإلهية، والصفات الذاتية التي امتد وانبسط على مرآة العدم، وانعكس منها ما انعكس من سراب العالم، فإذا قبض الحق ما أبدى انقهرت ماهيات الأشياء، وتلاشت هوياتها الباطلة، ولم يبق إلا الحق الحقيق بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، بحيث لا يعرضه تغيير وزوال، ولا يعتريه تبدل وانتقال.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن وقوع الحاقة الحقيقية الحقية، وأبهمها عليه ﷺ تهويلاً وتفخيمًا لشأنها، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن إظهارًا للقدرة الغالبة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بامتداد أظلاله للظهور والبروز ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يقبضها إلى ذاته للخفاء والبطون.

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ
تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ
﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: 1 – 15].

﴿الْحَاقَّةُ﴾[1] [الحاقة: 1] أي: النشأة الأخرى التي ظهرت فيها حقية الحق وثبوته، وتحقق دونها من على الحق، وفاز بجزائه، واستقر في دار السرور، ومن على الباطل ولحق العذاب المعد له، واستقر على الويل والثبور، ثمّ استفهم سبحانه عنها تهويلاً وتعظيمًا فقال: ﴿مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 2] التي انقهرت دونها أظلال الأغيار، وأشباح العكوس والسوى مطلقًا، وبروز الله الواحد القهار؟.

ثمّ زاد سبحانه على تهويلها بأن نفاها عن إحاطة علم حبيبه ﷺ الذي جاء من عنده رحمةً للعالمين إياها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي: وأي شيء أعلمك وأفهمك يا أكمل الرسل ﴿مَا الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: 3] التي طويت دونها نفوس الكثرات والإضافات مطلقًا، وفنيت عندها عكوس الأسماء والصفات رأسًا؟ وبالجملة: انقهرت رسوم الناسوت، ولم يبق إلّا الحي القيوم اللاهوت، ولاشك أنه متعال عن مطلق الإدراك والاطلاع المترتب على نشأة الناسوت.

قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمكذبين بها والمنكرين عليها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: 4] أي: بالحاقة التي يقرع الأسماع سماع أهوالها، ويدهش العقول ذكر أفزاعها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: 5] أي: بسبب طغيانهم بالتكذيب المتجاوز عن الحد، أُهلكوا بصيحة هائلة مجاوزة عن حد الصياح.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ باردة في غاية البرودة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6] شديدة العصف، بحيث لا يقدرون على دفعها وردها أصلاً.

حين ﴿سَخَّرَهَا﴾ وسلطها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وانتقامه ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعات مترادفات، قاطعات قالعات ﴿فَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي

(1) قال السمناني: يعني: حقت القيامة الواقعة في السر الذي فيه خوارق الأمور، وحقائقها أن يعتبر بها؛ يعني: مستحاقة الوجود عن الأباطيل، ومحاقة الوجود الحادث بحيث لا يبقى إلا الوجود الحقيقي في الوجود المطلع، وفي أثر هذه القيامة قال أستاذ الطريقة الجنيد البغدادي قُدِّس سرّه: ليس في الوجود إلا الله الحاقة الأولى هي المستحاقة، والثاني نية هي المحاقة، والثالثة هي الحاقة التي تحق حقوقها وتظهر الحقائق المودعة في جميع القوى والمفردات واللطائف، ولم يطلع أحد عليها إلا بعد الوصول إليها، ومطالعتها عيانًا.

﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الأيام والليالي ﴿صَرْعَىٰ﴾ هلكى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7] ساقطة عن أصولها، لا جوف لها.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم﴾ أي: ما ترى لهم بعد تلك الأيام ﴿مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 8] أي: لم يبق منهم نفس لها حياة بعد تلك الواقعة الهائلة.

﴿وَ﴾ بعد انقراض هؤلاء الغواة الطغاة، الهالكين في تيه الجهل والعناد ﴿جَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ الطاغي المجاوز عن الحد والبغي والعدوان ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ ويقدم عليه من الأمم الباغية، أو من معه من ملئه وأشرافه - على القراءتين - ﴿وَ﴾ جاء أيضًا ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ هي قرى قوم لوط ﷺ؛ والمراد: من فيها كلهم جاءوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: 9] المعهودة التي هي إنكارهم بيوم الحاقة الحقة على وجه المبالغة.

وبعدما جاء الرسل إليهم بالوحي ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عصى كل أمة برسولها المبعوث إليهم؛ ليهديهم إلى طريق الرشاد، فكذبوه واستهزءوا معه، وبالغوا في تكذيبه وعصيانه سبحانه ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: 10] زائدة شديدة على مقتضى ما ازدادوا في العصيان والتكذيب.

اذكر يا أكمل الرسل شدة أخذنا إياهم ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ بعدما أمرناه بالطغيان في يوم الطوفان ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي: آباءكم الذين آمنوا بنوح ﷺ، وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11] [1] أي: السفينة التي صنعها نوح بتعليمنا إياه قبل الطوفان

(1) الإشارة فيه أنه لما أوجد الله الأرواح قبل الكون أتى بها شط قاموس كشف ذاته وصفاته، فشربت الأرواح زلال أنهار القربة، وشراب الوصلة، وسمعت خطاب الألوهية، وسكرت من حلاوة الجمال والجلال، وهاجت إلى لحجها، وكادت تستغرق وتفنى فيها حين علا عليها أمواج سطوات العزة، ولطمات العظمة حملها الله هناك بعض العناية لتجري بها من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، فلما دار دور الدهر الدهار وجرى جري الفلك الدوّار وخلق الكون جعل لها سفينة صورة آدم، وحمل بها الأرواح الغيبية الملكوتية، فتجري بها إلى معادنها الأولية، قال القاسم: الأجسام لم تكن، والأرواح لا تحمل الجاري، وإنما هو جريان الحق بشرط الاتسام إذا عاينت الروح هذه المقامات عرفت سره. قال الواسطي: أحد شقي آدم، وأخرج منه الذرية. قال: حملناكم بشواهدنا، وأجرينا لكم الأوقات على مقاديرنا. وقال الأستاذ: ذلك منبهٍ على خواص أوليائه أن يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم أمواج بحار أشغالها على اختلاف أوصافها، وهم بوصف السلامة لا منازعة مع كل واحد، ولا محاسبة مع أحد، ولا توقع من أحد، سالمون من الناس، والناس منهم سالمون. [العرائس].

بمدة، وأغرقنا الكفرة بأجمعهم إلى حيث لم يبق على الأرض سوى أصحاب السفينة أحد من البشر.

وإنما حملناكم عليها وأنجيناكم بها ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: هذه الفعلة الجميلة التي هي نجاة المؤمنين من الطوفان العظيم ﴿لَكُمْ﴾ أيها المستخلفون المكلفون ﴿تَذْكِرَةً﴾ عظة وعبرة، وتبصرة دالة على كمال قدرة الصانع الحكيم، ومتانة حكمته ﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي: تستحضر بها وتحفظها؛ أي: هذه التذكرة والتبصرة الكاملة ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12][1] حافظة للعبر والتذاكير المورثة للقلوب الصافية الخائفة خيرًا كثيرًا، ونفعًا كبيرًا.

وبعدما بالغ سبحانه في وصف القيامة، وشرح أهوالها وأحوالها، وذكر حال من كذب بها، ومآل أمره، أراد أن يشرح ما ظهر فيها من الأمور الهائلة والوقائع العظيمة عند قيامها، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: 13] وهي النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

﴿وَ﴾ بعد ظهور النفخة الأولى ﴿حُمِلَتِ﴾ ورفعت ﴿الأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من أماكنها التي استقرتا عليها بأن أمر عليهما سبحانه بالتسيير والاضطراب بمقتضى القدرة الغالبة ﴿فَدُكَّتَا﴾ انكسرتا وانبسطتا، فصارتا ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: 14] أي: قاعًا صفصفًا، مساواة ملساء لا عوج لها ولا أمتًا.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: حين وقوع هذه الحالة الهائلة ﴿وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: 15] وقامت القيامة الكبرى، والطامة العظمى.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: 16 - 24].

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي: انحلت التئامها وتضامُّها، وتضعضعت بنيانها وأركانها

(1) أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة. تفسير الخازن (6/ ص 153).

﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: 16] ضعيفة منهدمة، منحلة الأجزاء.

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أي: جنس الملك ينزلون ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ أقطارها وأنحائها بعدما كانوا في حافاتها وحوافها ﴿وَ﴾ بعد تخريب السماوات وانهدامها ﴿يَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: فوق الملائكة النازلين على الأرجاء ﴿يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[1] [الحاقة: 17] من الملائكة بعدما كانوا قبل ذلك أربعة؛ إذ حملة العرش في النشأة الأولى أربعة، وفي النشأة الأخرى ثمانية، كما أشار إليه ﷺ في الحديث، كأنه أشار بالأربعة إلى أمهات الصفات الإلهية التي هي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، وبالثمانية إلى مجموع الصفات الذاتية.

وبالجملة: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ أيها الأظلال الهالكة على الله عرض العسكر على السلطان، بحيث ﴿لَا تَخۡفَىٰ﴾ وتستر ﴿مِنكُمۡ﴾ في يوم العرض ﴿خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: 18] سر مستور محجوب على الله؛ حتى يكون العرض للإطلاع، بل الكل في حضرة علمه حاضر غير مغيب ومخفي، وإنما تعرضون؛ ليظهر كمال القسط والعدالة الإلهية بالنسبة إلى عموم العباد حتى ظهر أن الحجة البالغة لله.

ثمّ فصّل سبحانه أحوال العباد في الحساب والجزاء، وإتيان صحف أعمالهم؛ ليطالعوا فيها جميع ما اقترفوا في نشأة الاختبار، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ لمن حوله فرحًا مسرورًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: 19] أي: تعالوا اقرءوا كتابي.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ في النشأة الأولى ظنًا منتهيًا إلى الجزم واليقين ﴿أَنِّي﴾ اليوم

---

(1) يعني: يحمل حقيقة العرش الروحاني حقائق الصفات الثمانية فوق القوى القلبية، والذي جاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخر؛ هي أربعة حروف سوادية التي الآن حافظة صورة عرش كلمة الله، فإذا جاءت القيامة أيدهم الله بأربعة حروف بياضية ليحفظ حقيقة عرش كلمة الله في تلك الساعة؛ ولهذا السر تتقي النفوس المتألمة والمتنعمة في العقبى خالدات، وحقيقتها تتعلق بحد القرآن، فاختصرت على هذا الذي بينت لك مما لم يبينه قبلي أحد قط، واغتنم بهذا البيان، واشتغل بالسلوك في الطريقة المستقيمة المسلوكة بالأقدام الثابتة على الصراط المستقيم، وهو متابعة نبيه الكريم صاحب الخلق العظيم ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الثابتين على الدين القويم، وهم الذين جمعوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وآمنوا بمحكمه ومتشابهه، ومما أوّلوه من عند أنفسهم برأيهم العليل وعلمهم القليل. [عين الحياة].

﴿مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20] على الوجه الأحسن، وبواسطة إيقاني وجزمي، كنت أخاف ألَّا يصدر مني شيء أعاقب بسببه.

﴿فَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21] صاحبها عنها؛ لكونها صافية عن مطلق الكدورات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: 22] رفيعة مكانًا ومكانة.

﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 23] قريبة لمن ناولها، مهما أراد تناولها ناولها بلا مشقة وتعب.

ويقال لهم حينئذٍ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من ثمار الجنة ومائها ﴿هَنِيئًا﴾ سائغًا مريئًا، كل ذلك ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ وقدمتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24] الماضية في نشأة الاختبار، فيصور لكم بهذه الصور البديعة في النشأة الأخرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: 25 - 37].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ بعدما رأى تفصيل المعاصي والمقابح الصادرة منه في نشأة الاعتبار، متمنيًا متحسرًا من كمال الضجرة والأسف المفرط: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 25] هذا.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 26] فيه.

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ﴾ هذه الحالة الآتية عليَّ ﴿الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: 27] الفارقة الفاصلة بيني وبين الحياة، بحيث لم أصر حيًا بعد هذه الحالة؛ حتى لا أُفتضح على رءوس الأشهاد.

ثمَّ قال متأسفًا متحسرًا على ما مضى عليه: ﴿مَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنِّي﴾ العذاب

﴿مَالِيَهْ﴾[1] [الحاقة: 28] أي: ما نُسب إليّ من الأموال والأولاد والأتباع.

بل ﴿هَلَكَ﴾ وضاع ﴿عَنِّي﴾ اليوم ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 29] أي: تسلطني على الناس، وتفوقي على الأقران.

وهو في أمثال هذه الهواجس على سبيل الحسرة والضجرة، قيل للموكَّلين من قِبَل الحق: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: 30] بالأغلال الضيقة الثقيلة.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ﴾ العظيم المعهود الذي يُعدّ لأصحاب الثروة من الكفرة ﴿صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: 31] واطرحوه.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ قدرها طولاً: ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بذراع لا يعرف طولها إلّا الله ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: 32] وأدخلوه وألقوه بها، بحيث يصير محفوفًا بها، لا يقدر على الحركة أصلاً.

وكيف لا يُعذب كذلك ﴿إِنَّهُ﴾ من كمال نخوته وتجبره ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: 33] المستحق للعبودية والإيمان عتوًا وعنادًا؟!

ولاشك أن من تعظَّم على الله العلي العظيم فقد استحق أعظم العذاب، واستوجب أشد النكال.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَحُضُّ﴾ أي: لا يحب ولا يرضى ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: 34] إن أطعمه أحد فضلاً أن يطعمه هو نفسه من ماله.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا﴾ أي: في يوم العرض والجزاء ﴿حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: 35] قريب من أقاربه يحميه ويشفع له، كما في الدنيا.

﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ يأكله ويشبع منه ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: 36] أي: غُسالة أهل النار، وما يسيل منهم من القيح والصديد.

---

(1) قال علاء الدولة: ما ينفعني الاستعداد الذي حصل في مملكة وجودي، وهذا عذاب يختص بالمجاهدين السالكين الذين سلكوا الطريق من غير إرشاد المرشدين المتصل إرشاده بالنبي الهادي عليه السلام؛ يعني: سلك الطريق برأيه وعقله وفكره وحديثه لا من إلهام رباني ووارد رحماني، يتمنى صاحبه أنه كان ميتًا في قالبه قبل اشتغاله بالسلوك ورفعه بعض الحجب بكثرة مجاهدته، كما أن العوام مبعدين عن إدراك هذه الآلام مشتغلين بهوى أنفسهم لكثافة حجبهم الظلمانية القالبية والنفسية.

وبالجملة: ﴿لَا يَأْكُلُهُ﴾ أي: الغسلين ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: 37] أي: أصحاب الخطايا والعصيان العظام، والجرائم الكبيرة والآثام.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: 38 – 52].

وبعدما شرع سبحانه من أحوال يوم القيامة وأهوالها وأفزاعها، وما جرى فيها من الوعيدات الهائلة، والمصيبات الشديدة الشاملة، فرّع عليه قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة في إثبات ما ثبت، وتبيين ما بيّن بالقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38] من المظاهر والمجالي.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 39] منها من المقسمات التي لم نُطلع أحدًا عليها، فعليكم أيها المكلفون أن تتوجهوا إلى القرآن المنزل عليكم على سبيل التبيان والبيان فتعتقدوا جميع ما فيه حقًا صدقًا، وتمتثلوا بأوامره، وتجتنبوا عن نواهيه.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] نفسه، لا يتأتى منه المراء والافتراء على الله؛ إذ هو منزه عن أمثال هذه الرذائل المنافية لمنصب الرسالة التي هي مرتبة الخلافة والنيابة عن المرسِل الكريم.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما يقوله في حقه بعض الكفرة الجاهلين بقدره وشأنه، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: 41] بصدقه وحقيته؛ لفرط عنادكم واستنكاركم.

﴿وَلَا﴾ هو ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما زعم بعضهم أن محمدًا ﷺ كاهن، لكن ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الحاقة: 42] وتتعظون أن ما فيه ليس من جنس كلام الكهنة، لا لفظًا ولا

(1) يعني: القوى النفسية المعاندة لا تذكر أصلاً أن اللطيفة كانت معنا من قبل ورود الوارد، وما قالت معنا شيئًا من هذا وما أمرتنا لاتباع لها وقت الطفولية إلى وقت البلوغ، فالذي تقول في هذا

معنى؛ إذ ما في القرآن من السرائر والأحكام، مشعرة بالحكمة المتقنة الإلهية التي هي بمراحل عن أحلام الكهنة المنحرفين عن جادة التوحيد والإسلام.

بل هو ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ناشئ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: 43] لتربية الكل على مقتضى الحكمة؛ ليستعدوا إلى فيضان التوحيد واليقين.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي: اختلق وافترى ﴿عَلَيْنَا﴾ محمد ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: 44] من تلقاء نفسه بلا وحي منّا.

﴿لَأَخَذْنَا﴾ ألبتة وانتقمنا ﴿مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: 45] أي: بالقدرة الكاملة، كما ننتقم من سائر العصاة والمفترين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ﴾ زجرًا عليه، وتعذيبًا له ﴿الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 46] أي: نياط قلبه الذي منه عموم إدراكاته.

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيها المكلفون ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ حينئذٍ ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن أخذه وعذابه ﴿حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 47] مانعين، يمنعوننا عن بطشه وتعذيبه؛ يعني: إن محمدًا ﷺ لا يفتري علينا شيئًا لأجلكم أيها الكافرون، وهو ﷺ يعلم منّا أنه لو افترى علينا شيئًا من تلقاء نفسه، ونسبه إلينا ظلمًا وزورًا لعذبناه عذابًا شديدًا، بحيث لا يقدر أحد أن يدفع عذابنا عنه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ صادرة منّا، متعلقة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: 48] المتحفظين أنفسهم عن مقتضيات قهرنا وجلالنا.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ بمقتضى علمنا الحضوري ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: 49] أيها الكافرون المفترون، فنجازيكم على مقتضى تكذيبكم.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة: 50] في الدنيا والآخرة، يتحسرون في الدنيا من نزوله على المؤمنين وإن كانوا لا يظهرون، ويتحسرون أيضًا في الآخرة بترتب الثواب على من صدقه وآمن به، وهم حينئذٍ يتحسرون ويتندمون على عدم الإيمان والتصديق به.

الوقت كون من عند غيرها لا من عندها ينبغي أن يقول في أول حال صاحبناها. [عين الحياة].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] بالنسبة إلى من وصل إلى مرتبة اليقين الحقي، مترقيًا من اليقين العلمي والعيني.

﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل الرسل من وصل بمرتبة حق اليقين ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1] [الحاقة: 52] الذي ربّاك على الخلق العظيم، وأوصلك إلى روضة الرضا وجنة التسليم بلطفه العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المتحقق بمرتبة حق اليقين - مكّنك الله عليها بلا تذبذب وتلوين - أن تتأمل في مرموزات القرآن، وتتدبر في كشف السرائر المودعة فيه بقلب خالٍ عن مطلق الوساوس والأوهام، صافٍ عن الكدورات الحاصلة من تقليدات ذوي الأحلام الخائضين فيه بمقتضى الآراء والأفهام الركيكة بلا تأييد من جانب الحكيم العلام، فلك أن تتوجه إليه بقلب حاضر غائب فارغ عن عموم الأشغال، مائل عن مطلق الزيغ والضلال الواقع فيه من أصحاب الظواهر القانعين منه بالقيل والقال بحسب تفاهم عرفهم.

وإياك إياك أن تكتفي بمجرد منطوقات الألفاظ، وتقتصر عليها بلا خوض في تيار بحاره الزخارات التي هي مملوءة بدرر المعارف والحقائق الموصلة إلى مرتبة حق اليقين.

وإذا خضت وغصت فيه على الفرصة المذكورة، واستخرجت من درر فوائده بقدر حوصلتك واستعدادك، حق لك أن تقول حينئذٍ: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51] وأن تكون مرجعًا للخطاب الإلهي بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: 52].

---

(1) يعني: بعد وصولك إلى هذه الحالة فنزه باسم ربك العظيم، وهو الله مجازي ذكره الكريم، واشتغل بالذكر الخفي في هذا المقام بتنزيهك مجازي الذكر، وتنزيهك مجازي الذكر فقدان وجودك بوجدان وجودك الحق؛ لتصل إلى حقيقة حق اليقين إن شاء الله رب العالمين. [عين الحياة].

سورة المعارج

فاتحة سورة المعارج

لا يخفى على من انكشف له الحجب، وارتفع عن بصر بصيرته السدل والأغشية المانعة عن الاطلاع والشهود بوجه الحق الكريم أن المراقي والمعارج من حضيض الإمكان الذي هو عبارة عن مضيق عالم الناسوت نحو ذروة الوجوب التي هو عبارة عن فضاء عالم اللاهوت أكثر من أن تُعدّ وتُحصى.

لكن المنجذبين نحو الحق من أرباب المحبة والولاء، وهم الذين شملت لهم العناية الأزلية، وأدركتهم الكرامة السرمدية، بحيث رفعت عنهم الأغطية والحجب الظلمانية، وطويت دونهم مطلق المسافات إلى أن صار سيرهم من عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت سيرًا كيفيًا، وعروجهم نحوه عروجًا معنويًا، وتحققهم عنده إنما هو بالفناء والموت الإرادي عن لوازم الهوية الصورية، وبالانخلاع عن مقتضيات القوى البشرية.

فمن كان شأنه هكذا لا يكال معارج ترقيه بمكيال الزمان والآن، وما يتركب منهما ويتفرع عليهما من مطلق المقادير التي يقدر بها عموم التقادير.

أما المحجوبون المقيدون بسلاسل الزمان وأغلال المكان، المعذبون بنيران الإمكان ولوازم نشأة الناسوت فلا مخلص لهم عن مقتضيات الطبائع والأركان، ولوازم بقعة الإمكان، كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، حيث قال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي كشف ذاته على أرباب المحبة والولاء بعد رفع الحجب والغطاء ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم، يوفقهم بالصعود إلى عالم الأوصاف والأسماء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى مرتبة البقاء بعد الفناء.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا
﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: 1 – 18].

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي: جرى على سبيل السيل والطغيان وادي الإمكان مملوءًا ﴿بِعَذَابٍ﴾ أي: أنواع من العذاب الهائل ﴿وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1].

﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ الساترين بطبائعهم الكثيفة، وهوياتهم الباطلة السخيفة شمس الحق الظاهرة في الأنفس والآفاق بمقتضى الاستحقاق إلى حيث ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: 2] يرده ويدفعه عنهم.

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من قبله وجهته؛ لتعلق مشيئته ومضاء قضائه المبرم على وقوعه لأعدائه، مع أنه سبحانه ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: 3] والدرجات العليّة، والمقامات السنيّة من القرب والكرامات لأوليائه.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: حوامل آثار الأسماء والصفات الإلهية من مجردات العالم السفلي ﴿وَالرُّوحُ﴾ الفائض من لدنه سبحانه على هياكل الهويات من ماديات عالم الطبيعة، والأركان القابلة لآثار العلويات من الأسماء والصفات المسمّاة بالأعيان الثابتة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الذات البحت الخالص عن مطلق القيود والإضافات بعدما جذبه الحق، وأدركته العناية الإلهية مترقيًا من درجة إلى درجة ﴿فِي يَوْمٍ﴾ وشأن لا كأيام الدنيا وشئونها، وإن قسته إلى أيام الدنيا، وأضفته إلى المسافة الدنيّة الدنيوية ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] [المعارج: 4] من سَني الدنيا، إلّا أنهم يقطعونها بعد ورود الجذبة الإلهية، كالبرق الخاطف في أقصر من لمحة وطرفة.

وبعدما انكشف لك الأمر ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذيات الأعداء واستهزائهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5] لا يشوبه قلق واضطراب، وضجرة وسآمة،

---

(1) قال البقلي: افهم أن للملائكة والروح مقاماتٌ معلومةٌ في عالم الملكوت، فإذا عرجت الملائكة من مسقط الأمر إلى مصعد المعلوم يكون بيوم كان مقداره عندنا خمسين ألف سنة، وهم يعرجون بأقل ساعة، وليس للحق مكان ومنتهى، إن الخلق يعرجون بل إن ظهور عزته وجلاله في كل ذرة عيان، فإذا رفعت القرب والبعد من حيث المسافة وأدرجت الأوهام لم يكن بين الحق وبين الروح وصول الحق بأقل طرفة، فإن الوصول منه وهى قريب غير بعيد. قال سهل: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم إلى الله، والروح إليها ناظر في ذلك المشهد.

واستعجال للانتقام، وترقب بالعذاب على وجه التهتك، فإنه سيصيب لهم العذاب الموعود عن قريب.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بمقتضى إنكارهم وإصرارهم ﴿يَرَوْنَهُ﴾ أي: نزول العذاب ﴿بَعِيدًا﴾ [المعارج: 6] في غاية البعد إلى حيث يعتقدونه محالاً خارجًا عن حد الإمكان.

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 7] من لمح البصر، بل هو أقرب منهم.

اذكر لهم يا أكمل الرسل كيف يعملون ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ من القهر الإلهي ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8] أي: كالفضة المذابة، يسيل من مكانها من غاية الخشية الإلهية.

وتكون الجبال الملونة بالألوان المختلفة بعدما شمله النظر القهري الإلهي ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: 9] أي: كالصوف المصبوغ المندوف تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10] أي: لا يسأل قريب عن قريبه، وصديق عن صديقه، بل يومئذ ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: 35.34].

وبالجملة: لا يلتفت أحد إلى أحد من شدة هوله وشغله بحاله إلى حيث ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ وينبهون عليهم من حال أقاربهم؛ ليرقوا لهم، وهم لا يلتفتون إليهم ولا يرقون لهم، بل ﴿يَوَدُّ﴾ ويحب ﴿الْمُجْرِمُ﴾ حينئذٍ متمنيًا ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: 11] الذين هم أحب وأعز عليه من نفسه في دار الدنيا.

﴿وَ﴾ كيف لا يود أن يفتدي بأحب الناس إليه بعد بنيه ﴿صَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: 12]؟!

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أقاربه وعشائره ﴿الَّتِي﴾ تؤويه؛ أي: تضمه إلى نفسه وقت حلول الشدائد ونزول الملمات، بل ﴿تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: 13].

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: بل يود ويرضى أن يفتدي عن نفسه جميع من في الأرض من الثقلين ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: 14] من عذاب ذلك اليوم الهائل.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن ينقذ وينجي المجرم بأمثال هذه الافتداءات من عذاب الله، بل كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار المسعرة التي اسمها ﴿لَظَى﴾ [المعارج: 15] أي: ذات لهب والتهاب تلتهب دائمًا.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [المعارج: 16] أي: تنزع من شدة التهابها الأطراف عن أماكنها، سيما جلدة الوجه والرأس.

وبالجملة: ﴿تَدْعُو﴾ وتجذب إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان، ولم يقبل عن قبول الدعوى ﴿وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: 17] أي: انصرف عن الطاعة وإطاعة الدّاعي.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَمَعَ﴾ مالاً عظيمًا من حطام الدنيا ﴿فَأَوْعَى﴾ [المعارج: 18] أي: فجعله في وعاء، وكنزه من غاية حرصه وأمله، ولم ينفق في سبيل الله؛ لعدم وثوقه بكرم الله.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المعارج: 19 – 30].

وبالجملة: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: 19] شديد الحرص، قليل الصبر، طويل الأمل.

بحيث ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الضر والسوء صار ﴿جَزُوعًا﴾ [المعارج: 20] يكثر الجزع، ويلح في كشف الأذى.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ﴾ أي: الفرح والسرور، والسعة والحضور صار ﴿مَنُوعًا﴾ [المعارج: 21] يبالغ في البخل والإمساك.

وهؤلاء كلهم هلكى في تيه الحرص والأمل، وقلة التصبر على البلوى، وكمال التكبر عند السراء ﴿إِلَّا المُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 22] المائلين المتوجهين إلى الله في عموم الأحوال بمقتضى الرضا والتسليم، قانعين بما وصل إليهم من الإحسان والتكريم، صابرين على ما أصابهم من العليم، منفقين في سبيل الله مما استخلفهم عليه من الرزق الصوري والمعنوي طلبًا لمرضاة الله، وهربًا عن مساخطه.

﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال تحننهم وشوقهم إلى الله ﴿عَلَى صَلاتِهِمْ﴾ وميلهم نحوه

﴿دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23] [1] ملازمون بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ المنسوبة إليهم، المسوقة لهم ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: 24] كالزكاة والصدقات المؤقتة وغير المؤقتة.

﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ويفشي فقره ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 25] الذي لا يسأل ولا يفشي، بل من كمال صيانته وتحفظه واستغنائه يُحسب من الأغنياء من كمال التعفف لذلك يحرم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ ويعتقدون ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: 26][2] تصديقًا مقارنًا بصوالح الأعمال، ومحاسن الشيم والأخلاق.

﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: 27] خائفون وجلون، وكيف لا يشفقون؟!

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 28] أي: من شأن المؤمن: ألّا يأمن من عذاب الله وإن بالغ في طاعته وعبادته على وجه الإخلاص.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: 29] لا يتجاوزون عن الحدود الإلهية.

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من السراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: 30] عليهن، إلّا أن المؤمن المخلص لو لم يبالغ في اتّباع الشهوات المباحة

---

(1) اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعًا تامًا؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ينام عيناي ولا ينام قلبي»، فإذا كان قلب الرجل يقظانًا، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

(2) قال حقي في تفسيره (120/6) أي: بأعمالهم حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنية والمالية طمعا في المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء فمجرد التصديق بالجنان واللسان وان كان ينجي من الخلود في النار لكن لا يؤدى إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة قال القاشاني والذين يصدقون من أهل اليقين البرهاني أو الاعتقاد الإيماني بأحوال الآخرة والمعاد وهم أرباب القلوب المتوسطون .

أيضًا لكان له خيرًا كثيرًا، وأجرًا عظيمًا.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: 31 – 44].

﴿فَمَنِ ابْتَغَى﴾ وطلب ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الذي ذُكر من السراري والأزواج ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿هُمُ العَادُونَ﴾ [المعارج: 31] المجاوزون عن مقتضى الحدود الموضوعة بحفظ العفة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ﴾ التي ائتمنوا بها ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: 32] لحقوقها وحفظها على الوجه الأصلح الأحوط.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ المودعة عندهم في حقوق المسلمين ﴿قَائِمُونَ﴾ [المعارج: 33] حافظون، مستحضرون إلى وقت الأداء على وجهها.

﴿وَ﴾ بالجملة: المؤمنون المخلصون هم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ﴾ المكتوبة لهم في الأوقات المحفوظة المقدرة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: 34] على وجهها مع كمال الخضوع والخشوع، ورعاية الشرائط والأركان والأبعاض، وسائر الآداب في المندوبات المتعلقة بالصلوات.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المتصفون بهذه الصفات الكاملة مقبولون عند الله، متنعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: 35] فيها بأنواع الكرامات تفضلاً وإحسانًا.

وبعدما ظهر وميز حال المؤمنين وحال الكافرين عند الله في النشأة الأخرى ﴿فَمَالِ﴾ عرض ولحق ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿قِبَلَكَ﴾ حواليك وجوانبك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: 36] مترددين مسرعين.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: 37] متفرقين فرقًا شتى يترددون حولك فرقة بعد فرقة، ويسمعون منك كلامك.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتردد حولك ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: 38] بلا إيمان وتصديق وإطاعة مقارنة بالأعمال الصالحة؟!

﴿كَلَّا﴾ وحاشا؛ أي: يحصل لهم هذا بلا سبق الإيمان، وامتثال الأوامر والأحكام، وكيف يدخلون أولئك الخبيثون في منازل القدس بلا تصفية وتزكية بالإيمان، وتحلية بالأعمال؟! ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] [المعارج: 39] وهو النطفة القذرة الخبيثة التي لا نسبة لها بالمقام المقدس عن الرذائل والكدورات، المطهر من أوساخ الطبيعة وقيل الهيولى الحاصلة من ظلمة عالم الناسوت، فلم لم يطهروا نفوسهم بنور الإيمان اللاهوتي، ولم يتصفوا بالعرفان لم يصلوا إلى روضة الجنان، ولم يثابوا بنعيم الألوان.

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: لا حاجة لنا إلى القسم بإثبات كمال قدرتنا ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: عموم الذرات التي أشرقت عليها شمس الذات باعتبار الظهور ﴿وَ﴾ لا برب ﴿الْمَغَارِبِ﴾ أي: جميع الذرات التي غربت فيها شمس الذات باعتبار الخفاء والبطون ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: 40] بالقدرة الغالبة الكاملة.

﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ بأن نهلكهم ونستأصلهم بالمرة، ونأت بدلهم بخلق أفضل منهم وأصلح لإيمان وقبول دين الإسلام ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: 41] مغلوبين من أحد، إن أردنا هذا التبديل والتغيير، وتعلقت مشيئتنا به.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل كمال قدرتنا على إهلاكهم وتبديلهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ واتركهم وحالهم ﴿يَخُوضُوا﴾ في الأباطيل الزائغة، والأراجيف الزاهقة ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بالآيات الواضحة، والبينات اللائحة ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: 42] للحشر والنشر، وتنقيد الأعمال والحساب عليهم، والجزاء بمقتضاه.

---

(1) يعني: من نطفة ثم نربيها طورًا فطورًا؛ حتى صارت ذاكرة فينبغي ألَّا ينسى أزل حاله، ولا يغش بما فيه من نعيم مشاهدة الآيات الآثارية؛ لئلا يحرم عن مشاهدة الآيات العقلية، ولا يغتر بها أيضًا؛ لئلا يحرم عن مشاهدة الصفات، ولا يقنع بها؛ لئلا يحرم عن المعارف الذاتية. [عين الحياة].

اذكر لهم يا أكمل الرسل على وجه التذكير والتهويل ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور بعد نفخ الصور، ويسرعون نحو الداع ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾ صنم ينصب؛ للزيارة والاستلام ﴿يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] يسرعون؛ يعني: إسراعهم في تلك الحالة نحو الدّاعي يشبه إسراعهم نحو الصنم المنصوب للعبادات، ورفع الحاجات، كما هو عادتهم طول عمرهم في الدنيا.

فيكونون حينئذٍ ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة خاسرة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ بحيث لا يمكنهم أن ينظروا إليه؛ إذ ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ عظيمة بدل ما يذلون داعي الله حين دعوته في الدنيا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ العظيم الهائل هو اليوم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[1] [المعارج: 44] في نشأة الاختبار فلم يصدقوا، ولم يؤمنوا له إلى أن يعاينوه.

جعلنا الله من زمرة المصدِّقين بيوم الدين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تعتقد، بل تعاين وتشاهد إن كنت من أولي الأبصار، وذوي القدر والاعتبار أن النشأة الأخرى هي دار القرار والخلود، بل العالم

---

(1) فيا أيها السالك: اعتبر بهذه السورة، واحذر عن تكذيبك الوارد واليوم الموعود ولا تحسب أن الذي عانيته في نفسك هو اليوم الموعود؛ لئلا يكفر باليوم الموعود العامر، وتيقن أن الذي وجدته في نفسك بالموت الاختياري فكذلك تجده في الموت الاضطراري، ومثل ذلك تجده في اليوم الموعود الكبير العظيم، وإن لم يؤمن بالقيامات الثلاث:
الصغرى: الحاصلة من الموت الاختياري كما قال ﷺ:«قبل أن تموتوا»، والوسطى: بالموت الاضطراري كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»، والقيامة الكبرى: وهي القيامة كما نطق به الكتاب والسنة؛ فأنت كافر لا ينفعك الإيمان بإحدى القيامات الثلاث، كما قال الله تعالى: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:150]، وتيقن أن كل قيامة متأخرة أبين وأكبر من القيامة المقدمة، كما أن الذي يبصره عند طلوع الشمس فيزداد ظهوره إذا طلعت الشمس، والذي يبصره عند طلوع الشمس، فيزداد ظهوره عند استواء الشمس في يوم يصيح، فهكذا ينبغي أن يعلم القيامة الحاصلة بالموت الاختياري، أنها نموذج مما كان مودعًا في القيامة التي قامت بالموت الاضطراري، وما شاهدت في هذه القيامة هو أنموذج مما كانت مدخرة في القيامة الكبرى الأخيرة، وأنا مؤمن بحمد الله وحسن توفيقه بالقيامات الثلاث كما نطق به الكتاب والسنة اللهم ثبتني على الإيمان ووفقني لمتابعة حبيبك نبي آخر الزمان ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان صغيرًا وكبيرًا. [عين الحياة].

الموجود هي.

والنشأة الأولى إنما هي أظلال لا وجود لها، وعكوس لا ثبوت لها، وإضافات لا حقيقة لها، وتعينات لا تحقق لها.

فعليك ألّا تستقر عليها إلّا كالعابر، ولا تعيش فيها إلا كالمسافر، ما تدري يا أخي أن جميع ما عليها ظل زائل، وعموم لذاتها وشهواتها سراب بلا طائل؟!

إلام تتشبث بها وبما فيها، وعلام تستلذ بمزخرفاتها وملاهيها؟! فإنك عن قريب ستموت، وما تدخر فيها سيضيع ويفوت، فلك أن تستعد لأخراك في أولاك، وتتزود لعقباك من دنياك.

وبالجملة: فلك أن تموت بالاختيار قبل هجوم الموت على وجه الاضطرار، فاعلم أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار.

سورة نوح

فاتحة سورة نوح عليه السلام

لا يخفى على من انكشف بسرائر ظهوره مرتبة النبوة والرسالة من أرباب الولاية المقتبسين من مشكاة النبوة أن مقتضى النبوة والرسالة إنما هي الدعوة إلى دين الإسلام الموصل إلى دار السلام؛ للقرب والوصول إلى كنف جوار الله العليم العلام، فلا بدَّ لمن تقلد بها بتكليف الحق إياه واختياره لها أن يبالغ في تبليغها، ويجتهد في إظهارها، سيما بعد تأييد الحق وتقويته بالمعجزات القاطعة، والبراهين الساطعة، متحملاً على المتاعب والمشاق، وأنواع الأذيات الواقعة في إظهارها وترويجها.

كما أخبر سبحانه عن نبيه نوح عليه السلام مع قومه كيف تحمل عنهم وصبر إلى أن ظفر عليهم وانتصر، فقال سبحانه بعدما تيمن باسمه الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله بعموم أسمائه وصفاته؛ ليستخلفهم عن ذاته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم مظاهره بإظهار مرتبة الخلافة والنيابة بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم بإرشاد الأنبياء وإهدائهم إلى زلال توحيده.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: 1 – 10].

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أخاك يا أكمل الرسل ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ حين انحرفوا عن جادة العدالة والقسط الإلهي، ووصينا له ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أي: بأن خوف وحذر

﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: 1] [1] مؤلم في غاية الإيلام، وهو عذاب الطوفان بعد نزول الوحي عليه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه وناداهم؛ ليقبلوا إليه، ويهتدوا بهدايته وإرشاده ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: 2] ظاهر الإنذار والتخويف بإذن العليم الحكيم، أرسلني ربي.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحقيق بالألوهية والربوبية، القادر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: 3] فيما بلغت لكم من أوامر الله ونواهيه، وامتثلوا بمقتضاها.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إن استغفرتم منه سبحانه، وتبتم إليه مخلصين نادمين ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ﴾ أقصى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر عنده سبحانه بشرط أن تتصفوا بالإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ المقدر لآجال عباده على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدر المقرر عنده ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ عن وقته، ولا يقدم عليه ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: 4] وتعتقدون حكمة الحكيم، وكمال قدرته ومشيئته لعلمتم يقينًا أن الأجل المقدر لا يُبدل ولا يُغير.

وبعدما بالغ نوح عليه السلام في دعوتهم وإرشادهم فلم يهتدوا، بل ما زادوا إلَّا إصرارًا وإضرارًا، وعنادًا واستكبارًا ﴿قَالَ﴾ نوح مناجيًا إلى ربه على وجه التضرع بعدما بالغوا في الإنكار والاستكبار: ﴿رَبِّ﴾ يا مَن ربَّاني على الرشد والهداية ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ بمقتضى وحيك وإلهامك عليَّ ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: 5] أي: دائمًا بلا مطل وتسويف.

---

(1) أشار بنوح إلى الروح، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذًا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثِّر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال، وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي﴾ ودعوتي إياهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 6] عن الإيمان والإطاعة، وإصرارًا على الكفر والطغيان.

﴿وَإِنِّي﴾ صرت زمانًا ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ على قصد أن يقبلوا دعوتي ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بمقتضى عفوك ورحمتك ذنوبهم وزلتهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ﴾ وقت دعوتي إياهم ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ أي: سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصر عليه، بل ﴿اسْتَغْشَوْا﴾ أي: غطوا ولفوا على رءوسهم ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يروا صورتي، ولا يسمعوا قولي من شدة كراهتهم عن دعوتي، وشكيمتهم معي ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَصَرُّوا﴾ على ما هم عليه كانوا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عليّ ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7][1] عظيمًا إلى حيث شتموني شتمًا قبيحًا، وضربوني ضربًا مؤلمًا فجيعًا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما جرى منهم ما جرى ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ بمقتضى أمرك وحكمك إياي يا ربّ ﴿جِهَارًا﴾ [نوح: 8] على رءوس الملأ.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ وصرحت بدعوتهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ أيضًا في الخلوات ﴿إِسْرَارًا﴾ [نوح: 9] على سبيل الكناية والإشارة، وبالجملة: دعوتهم مرة بعد مرة، وكرة بعد كرة في المحافل والخلوات، وبالصرائح والكنايات.

﴿فَقُلْتُ﴾ لهم في دعوتي إياهم: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10] يغفر لكم ذنوبكم، ويعفو عنكم زلاتكم.

وبعدما بالغوا في الإنكار والإصرار حبس الله عليهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسائهم، فقال نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10].

---

(1) قال ابن عجيبة في البحر المديد (6 / 419): الإشارة: ينبغي للداعي أن يكون على قدم أولي العزم، لا يمل من التذكير والدعاء إلى الله، ويكرر ذلك ليلاً ونهاراً ولو قُوبل بالرد والإنكار، فلأن يهدي الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس . وقوله تعالى: (وأَصَرُّوا واستكبروا)، قال القشيري: ويقال: لَمّا دام إصرارهم تَولَّد منه استكبارُهم، قال تعالى: (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ). وقال الورتجبي: مَن أصرّ على المعصية أورثه التمادي على الضلالة، حتى يرى قبيح أفعاله مستحسناً، فإذا رآه مستحسنًا يستكبر، ويعلو على أولياء الله، ولا يقبل بعد ذلك نصحتهم . قال سهل: الإصرار على الذنب يورث الاستكبار، والاستكبار يورث الجهل، والجهل يورث التخطي في الباطل، وذلك يورث قساوة القلب، وهي تورث النفاق، والنفاق يورث الكفر.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: 11 – 20].

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: 11] بعدما حبسها زمانًا.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ بعدما منعها عنكم بكفركم وشرككم، وبعد استغفاركم أنزل عليكم مدرارًا ﴿وَ﴾ بعد إنزال المدرار ﴿يَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين منتزهات ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ في خلالها ﴿أَنْهَارًا﴾ [نوح: 12] جاريات.

﴿مَّا لَكُمْ﴾ وأيّ شيء عرض عليكم أغفلكم عن الله حيث ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ ولا تأملون ﴿لِلَّهِ﴾ المستحق لأنواع العبودية والتعظيم ﴿وَقَارًا﴾ [نوح: 13] توقيرًا وتبجيلاً لائقًا لجلاله وجماله، وحسن فعاله معكم؟!

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14] مختلفة ومترقية في الكمال حيث قدر وجودكم من جمادات العناصر، ثمّ ركبكم إلى أن صرتم من أغذية الإنسان، ثمّ صيركم أخلاطًا، ثمّ نطفًا، ثمّ علقًا، ثمّ مضغًا، ثمّ عظامًا ولحومًا، ثمّ أنشأكم خلقًا عجيبًا قابلاً للخلافة والنيابة، ثمّ بعد ذلك يوصلكم في النشأة الأخرى إلى ما يوصلكم.

وبالجملة: فبأي آلاء ربكم تكذبون أيها المكذبون المنكرون، مع أنه وسع عليكم من زوائد النعم، وموائد الكرم والإفضال ما لا مزيد عليه من كمال قدرته، ومتانة حكمته؟!

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الراءون المعتبرون ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ بقدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15] مطبقات بعضها في جوف بعض إلى حيث ينتهي الكل إلى كرة واحدة وقعت مظهرًا للوحدة الذاتية، وإن كان كل ذرة من ذرائر الكائنات المستقلة في مظهرية الوحدة الذاتية؟!

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في السموات ﴿نُورًا﴾ مقتبسًا من شمس الذات ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ﴾ المشرقة المنيرة ﴿سِرَاجًا﴾ [نوح: 16] واضحًا، ودليلاً لائحًا على

شروق شمس الذات على مظاهر عموم الذرات المنعكسة منها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرضِ﴾ اليابسة الميتة ﴿نَبَاتًا﴾ [نوح: 17] إنباتًا إبداعيًا؛ أي: أنواعًا وأصنافًا من النبات، وربّاكم إلى أن صرتم حيوانًا، ثمّ إنسانًا، ثمّ كلفكم ما كلفكم من التكاليف الشاقة؛ لتعززوا بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ثمّ﴾ بعد حلول أجلكم المقدر ﴿يُعِيدُكُم فِيهَا﴾ مقبورين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُخرِجُكُم﴾ منها في المحشر ﴿إِخرَاجًا﴾ [نوح: 18] إعادة في النشأة الأخرى؛ لتنقيد ما كلفكم عليه في النشأة الأولى، وترتب الجزاء عليه تتميمًا للحكمة المتقنة البالغة، وتكميلاً لها.

﴿وَاللهُ﴾ القادر المقتدر ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19] ممهدة، تتقلبون عليها وتترددون.

﴿لِتَسلُكُوا﴾ وتتخذوا ﴿مِنهَا﴾ حيث شئتم ﴿سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح: 20] طرقًا واسعة متسعة، فبأي آلاء ربكم ونعمائه تنكرون أيها الكافرون؟!

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: 21 – 28].

وبالجملة: كلما بالغ نوح عليه السلام في دعوتهم بالغوا في الإصرار والعناد، وبعدما اضطر ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُم عَصَونِي﴾ في جميع ما أمرتهم به، وانصرفوا عني وعن دعوتي، واستهزءوا معي ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّم يَزِدهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21] أي: اتبعوا سادتهم ورؤساءهم المعروفين، المشهورين بكثرة الأموال والأولاد الموجبة

للثروة والجاهة عند الناس، وإن كان أموالهم وأولادهم لم يزدهم إلَّا خسارًا وبوارًا في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَكَرُوا﴾ لهم أولئك الماكرون ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: 22] بلغ غاية كبره، ونهاية شدته في التلبيس والتغرير.

وذلك احتيالهم على الناس إلى حيث لم يقبلوا دعوة نوح ﵇، مع كونه مؤيَّدًا بأنواع المعجزات، بل سفهوه، واستهزءوا متمسخرين مستهزئين ﴿وَقَالُوا﴾ لهم في نصحهم وتذكيرهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: عبادتها، سيما بقول هذا السفيه المختبط، المختل الرأي والعقل ﴿ولَا تَذَرُنَّ﴾ خصوصًا ﴿وَدًّا ولَا سُوَاعًا ولَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23] فإنها غرانيق عظام تُرتجى منها الشفاعة على عصاة العباد، فعليكم ألَّا تتركوا عبادة آلهتكم بقول هذا الطريد السفيه.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بتزويراتهم الباطلة، وتغريراتهم الكاملة الشاملة لأهل الخبرة والضلال ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ يا ربّ ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: 24] فوق ضلال، وإصرارًا غب إصرار.

ثمَّ قال سبحانه بعدما بالغ نوح ﵇ في التضرع والمناجاة: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ أي: من أجل وفور خطيئاتهم وكثرتها ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان أولاً ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ نوعًا من عذاب النار عقيب عذاب الطوفان في البرزخ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم﴾ حين طغيان الماء وطوافه عليهم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على دفع المضار ﴿أَنصَارًا﴾[1] [نوح: 25]

(1) اعلم – رحمك الله – أن الله أدخل قوم نوح ﵇ النار عقب غرقهم في الماء فانتقلوا من الغرق إلى الحرق، فطلبوا النصرة من آلهتهم الذين قالوا في حقهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح:23]، فلم يجدوهم، وأضل الله أعمالهم عنهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:1]، لأن الأعمال تطلب عاملها كما يطلب الابن أباه، وكما ضلت أعمالهم عنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:24]، على أولئك المعبودين من أنهم آلهة ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:25]، أي: لم يجدوا غير الله ناصرًا، فأخبر الله تعالى أن قوم نوح أدخلوا النار، ولا يدخلون النار إلا بعد بعثهم فقدَّم الله بعثهم قبل خراب الدنيا، كما ورد في ذلك في حابسة الهرة فحقَّ فيهم قوله ﷺ: «من مات فقد

شفعاء من الأصنام كما زعموا، فلم ينصرهم الله فهلكوا بالغرق.

﴿وَ﴾ بعدما آيس عن إيمان قومه، وقنط عن فلاحهم وصلاحهم أخذ في الدعاء عليهم، حيث ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ يا من ربّاني على فطرة الهداية والرشاد ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ التي إنما وضعت؛ للعبادة والطاعة ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد والإلحاد عن السداد ﴿دَيَّارًا﴾ [نوح: 26] أحدًا يدور عليها.

﴿إِنَّكَ﴾ يا ذا الحكمة المتقنة البالغة ﴿إِن تَذَرْهُمْ﴾ على الأرض على ما كانوا ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ المؤمنين بك، المصدقين بفردانيتك ووحدانيتك ﴿وَلَا يَلِدُوا﴾ ولا يتناسلوا ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ خارجًا عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة؛ لحفظ العدالة ﴿كَفَّارًا﴾ [نوح: 27] ستارًا للحق بترويج الباطل عليه، إنما دعا عليهم بهذا بعدما جربهم ألف سنة إلّا خمسين سنة، فعرف منهم جميع خصائلهم المذمومة.

ثمّ ناجى ربه لنفسه ولوالديه، ولمن اهتدى بهدايته وإرشاده فقال: ﴿رَّبِّ﴾ يا من ربّاني بمقتضى كرمك وجودك لحكمة معرفتك وتوحيدك ﴿اغْفِرْ لِي﴾ بفضلك وإحسانك ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ - اسم أبيه: لمك بن متوشلخ، واسم أمه: شمخا بنت أنوش - وكانا مؤمنين موحدين ﴿وَ﴾ اغفر أيضًا بفضلك ﴿لِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ سفينتي وحرزي، أو ديني ومذهبي ﴿مُؤْمِنًا﴾ موقنًا بإرشادي وتكميلي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من الأمم السابقة واللاحقة إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن عروة عبوديتك، وربقة رقيتك ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28] إهلاكًا وخسارًا، عذابًا وبوارًا.

ونحن ندعو أيضًا على الكافرين المصرين بكفرهم وشركهم، الظاهرين على أهل التوحيد بأنواع الجدال والمراء بما دعا به نوح ﷺ، ونرجو أيضًا أن نكون من الناجين ببركة دعائه، ودعاء نبينا ﷺ.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، الداخل في سفينة الشريعة المصطفوية المنجية

قامت قيامته» فأتتهم ساعتهم بغتة، فكان البحر مأواهم ظاهرًا والنار مأواهم باطنًا، شاهد ذلك قوله ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

لنفسك عن طوفان القوى البشرية، وطغيان اللذة البهيمية المانعة عن التلذذ باللذات المعنوية الروحانية أن تتشبث بذيل همّة المرشد الكامل، المكمل الذي يرشدك إلى سرائر الشريعة وحِكم الأحكام الموردة فيها، ومصالح الأوامر والنواهي بإرادة صادقة، وعزيمة خالصة عن شوب الرياء والرعونات العائقة عن الميل الفطري، والفطنة الجبلية التي جبل الناس عليها، إذا خلى طبعه بلا تصرف من شياطين الوهم والخيال، وجنود الأمارة على مقتضى القوى.

وفقنا الله لما يحب ويرضى، وجنبنا عن الميل إلى البدع والهوى.

سورة الجن

فاتحة سورة الجن

لا يخفى على من تحقق بمقام القلب وسعته، وكمال فسحته ووسعته أن مظاهر الحق وجنوده أكثر من أن يحيط به الآراء، أو يتفوه عنه ألسنة التعديد والإحصاء، أو يدرك نهايتها عقول العقلاء.

ومن جملتها: جنود الجن يختلط معهم ويصاحبهم من الإنس من كان بينه وبينهم مناسبة معنوية مخصوصة توجب ائتلافهم واختلاطهم، وذلك من جملة المواهب والإعطاءات الإلهية لبعض النفوس القدسية الزكية عن رذائل الطبيعة.

ولاشك أن نبينا ﷺ مبعوث إليهم، مختلط معهم، مرشد لهم، هادٍ إياهم إلى طريق التوحيد، كما أوحى إليه سبحانه في هذه السورة متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى جوده ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بدعوتهم إلى الإيمان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ [الجن: 1 – 7].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر رسالتك على الثقلين: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قِبَل الحق ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ عند قراءتك القرآن ﴿نَفَرٌ﴾ طائفة، وهو يطلق على ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهو جنس من جنود الحق ومظاهره، كجنس الملك، لا مناسبة بيننا وبينهم حتى ندركهم ونعرف حقيقتهم، وما لنا إلّا الإيمان بوجودهم وبأمثالهم؛ إذ ما يعلم جنود الحق إلّا هو، ولا يسع لنا الإنكار، سيما بعد ورود القرآن على وجودهم وتحققهم.

وبعدما سمعوا القرآن، ورجعوا إلى أصحابهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من إنسان ﴿قُرْآنًا﴾ كتابًا ﴿عَجَبًا﴾ [الجن: 1] بديعًا نظمًا وأسلوبًا، غريبًا معنى ودلالة، حاويًا للمعارف والحقائق الإلهية، محتويًا على دقائق طريق التوحيد والعرفان، ما هو من جنس كلام البشر، بل هو خارج عن مداركهم، متعالٍ عن مشاعرهم.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والهداية الموصلة إلى مقصد الوحدة الذاتية ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدايته إلى توحيد الحق ﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾ أبدًا ﴿بِرَبِّنَا﴾ الذي وفقنا على توحيده ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 2] من مظاهره ومصنوعاته؛ إذ المصنوع المربوب لا يصير شريكًا للرب الصانع القديم.

﴿وَ﴾ كيف يكون للرب الواحد الأحد الصمد شريكًا، مع ﴿أَنَّهُ تَعَالَى﴾ تبارك وتقدس ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته وكبرياؤه من أن يكون له شريك في ملكه وملكوته، مع أنه الصمد الذي ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: 3] فكيف يتخذ شريكًا، مع أنه هو الواحد الأحد الصمد على الإطلاق، لم يكن له شريك في الملك ونظير في الوجود؟! فكبره تكبيرًا، ونزه ذاته عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَ﴾ بعدما آمنا بوحدة الحق وعرفناه وحيدًا فريدًا بلا شبيه ولا نظير، ولا وزير ولا مشير، عرفنا ﴿أَنَّهُ﴾ ما ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾[1] إبليس المردود المطرود ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المقدس ذاته عن مطلق المماثلة والمشاكلة في الوجود القيومية، وسائر الصفات الذاتية المصححة للألوهية والربوبية قولاً ﴿شَطَطًا﴾ [الجن: 4] باطلاً بعيدًا عن الحق بمراحل، مجاوزًا عن الحد في الإفراط، تعالى شأنه عما ينسب إليه المبطلون المفرطون.

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق، وتحققنا بمرتبة الشهود ﴿ظَنَنَّا أَن﴾ أي: إنه ﴿لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ أي: جنس الإنس والجن المجبولين على فطرة العبودية والعرفان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المعبود على الإطلاق ﴿كَذِبًا﴾ [الجن: 5] قولاً زورًا باطلاً على سبيل الافتراء والمراء؛ لذلك اتبعناهم فيما قالوا ظلمًا وعدوانًا، وبعدما ظهر الحق،

(1) السفه خفة العقل، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط، وصف بالمصدر للمبالغة. والسفيه إبليس أو غيره من مردة الجن اللذين جاوزا الحد في طرف النفي إلى أن أفضى إلى التعطيل، أو في طرف الإثبات إلى أن أدى إلى التشريك والصاحبة والولد.

وكوشفنا بحقيقة الأمر تبرأنا عنهم وعن أقوالهم، وتبنا إلى الله، والتجأنا بكنف حفظه وجواره.

أعاذنا الله بلطفه من زيغ الزائغين، وإضلال الضالين المضلين.

﴿وَ﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ عند مرورهم بقفر، إذا أمسوا فيها كانوا يقولون: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ومع استعاذتهم واستعانتهم ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: الجن والإنس ﴿رَهَقًا﴾ [الجن: 6] كبرًا وعتوًا، يختطفون عليهم ويخبطونهم.

﴿وَ﴾ ما ذلك الكبر والطغيان منهم بعدما استعاذوا إلا ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الجن ﴿ظَنُّوا﴾ وزعموا ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ وزعمتم أيها الناس الموسومون بالجهل والنسيان، والإنكار والطغيان ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإعادة والإبداء ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 7] من الجن والإنس؛ حتى يستوفي عليه حسابه وجزاءه؛ لذلك يجترئون ويزيدون في الإرهاق والطغيان، سيما الاستعاذة والإلجاء.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: 8 – 13].

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل نزول القرآن ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: طلبنا البلوغ إليها، والصعود نحوها؛ لنسترق من أخبار الملائكة، ونخبر بها الكهنة، ونوقع الفتنة في العالم السفلي ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ أي: السماء اليوم ﴿مُلِئَتْ﴾ وامتلأت ﴿حَرَسًا﴾ أي: حراسًا حافظين ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء على الحفظ والحراسة ﴿وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8] جمع شهاب، وهو المضيء المتراكم من النار، نرجم بها ونطرد من حواليها.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء ﴿مَقَاعِدَ﴾ صالحة ﴿لِلسَّمْعِ﴾ والاستماع ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ﴾ بعد نزول القرآن في تلك المقاعد ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ وعنده ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9] راصدًا قاصدًا له، يرجمه ويمنعه من الاستماع.

﴿وَأَنَّا﴾ اليوم ﴿لَا نَدْرِي﴾ ونعلم ﴿أَشَرٌّ﴾ وفتنة ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالساكنين عليها بحراسة السماء، ومنع أخبارها عنهم ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[1] [الجن: 10] يهديهم إلى التوكل والتسليم، وكمال تفويض أمورهم إلى العليم الحكيم، بحيث لا يحترزون عمّا جرى عليهم من قضائه بأخبار السماويين؟.

﴿وَأَنَّا﴾ أي: نحن المخبورون ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ الأبرار المؤمنون، الآمنون

---

(1) بحراسة السماء فحظك أيها السالك من هذه السورة أن يبقى وقت ورود الوارد؛ لئلا تسرق منه القوى النفسية، وتلبس فيها المعاني الخبيثة، ويلقي بها إليك بعد فتور الوارد ظن أنه الوارد بما فيه من معاني الوارد المسترقة، وتلتفت إليه ويسد عليك باب الوارد الأعلى بالتفاتك إلى معاني القوى النفسية، وأكثر من هلك من أهل السلوك من اليونانية والنصرانية الشكمانية بهذه المعاني الملتبسة بالوارد، لأنهم إذا اشتغلوا بالسلوك، اشتغلوا بربهم غير مشبثين بعروة نبي من الأنبياء ليرشدهم في الغيب، ويطلعهم على الحق والباطل، ويهديهم إلى القوى المستخلصة، ويعرفهم خاصة القوى الملوثة؛ فإذا أصغوا وجودهم بالرياضة قويت القوى النفسية، وصعدت إلى سماء الصدر، واسترقت من المعارف الر[illegible]ية، ونزلت إلى عالمها، وكملت مع صاحبها فظن صاحبها أنها وارد غيبي ترده من عالم الرب على قلبه واطمأن بها، واستدرج منها حتى صار إمامًا في ملة الشيطان راعيًا للأمم إليه، وهو خليفة خاص الشيطان والحكماء القديمة اليونانية والرهابين المرتاضة بالنصرانية وحكماء الهند الذين أنهم ظنوا الوصول إلى المأمون حين قالوا: إنا ناصر برخانًا، والبرخان بلغتهم: الواصل إلى الرحمن، وهم يقولون في أثناء السلوك، وفي الوصول بالاتحاد، وها جئنا معهم وألزمناهم بلطف الله وحسن توفيقه ومعونيته حتى أسلموا وآمنوا، ثم بعضهم ارتدوا وماتوا على الكفر بأنهم أقروا بأن الاتحاد باطل؛ فأما الأئمة المهدية الذين اعتصموا بحبل نبي من الأنبياء واشتغلوا بالسلوك، أمنوا من هذه الورطة الوعيرة بأن استحكمت عقدة إرادتهم، ذلك بولاية ذلك النبي حتى دخلت نوبة النبوة المحمدية الناسخة لجميع الأديان لكمال أدرج الله في نبوته، أغلق المسرفون باب سمعهم بالشهاب الثاقب من أوج ولاية رسالته؛ فمن دخل في زمرة متبعيه، واشتغل بالسلوك على وفق إشارته سلم من القوى الخبيثة النفسية وأمن من إلقائها، وينبغي للسالك ألّا يغتر بأنه يقول على اللسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، بأنه ممن يجوز له السلوك؛ لئلا يغتر بجبة الغرور في شبكة المغرور؛ لأن التشكيك أمر يختص بولاية الرسالة وينبغي أن يكون المسلك حيًا في عالم البشرية؛ ليهديك إلى الصراط المستقيم، ويقرئك الخواطر ومنشأها، والمسلك بعد النبي ﷺ هو إلى الذي كان وصاه بالأسرار، وعلمه كيفية الوصول إلى عالم الأنوار وأصله إلى حضرة الله الواحد القهار، وهو أرشد مريده ووصاه كما وصاه نبيه وعلمه وأوصله إلى الآن معنعنًا متصلًا؛ لتمكن الاستفادة من قلبه وقالبه صورة ومعنى؛ ويدفع عن نفسه كيد قطاع الطريق، ويسهل عليه العبور على مكامنهم بقوته وهمته وذكره. [عين الحياة].

الأمينون لا يختلط بالأخبار المسموعة من الأكاذيب ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ لا أمانة لهم حتى يؤدوا الأخبار على وجهها، بل يوقعون الفتن والمحن بين الناس؛ إذ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ أي: ذوي طرائق ومذاهب ﴿قِدَدًا﴾ [الجن: 11] متفرقة مختلفة؛ لذلك منعنا بأجمعنا عن استراق الأخبار السماوية، وانحصر الأمر بالوحي الإلهي؛ حتى لا يختل أمر النظام الموضوع على القسط والعدالة الإلهية.

﴿وَأَنَّا﴾ بعدما كوشفنا بهداية القرآن، ورسالة محمد ﷺ تركنا ما كنا عليه من الضرر والإضرار لعباد الله؛ إذ ﴿ظَنَنَّا﴾ بل علمنا يقينًا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام كائنين ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ﴾ أيضًا ﴿هَرَبًا﴾ [الجن: 12] منه سبحانه إلى السماء، أو إلى أيّ مكان شئنا.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن الموضح لطريق التوحيد ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدايته ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ﴾ ويوقن بوحدانيته ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ نقصًا في الجزاء والثواب ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: 13] ذلة تذله في الدارين؛ لأن من آمن اعتدل، ولم يبخس حق أحد، ولم يذله بظلم، فكذلك لا يبخس ولا يظلم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا
الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا
﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا
﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: 14 – 22].

﴿وَأَنَّا﴾ بعدما سمعنا الهدى والرشد ما كنا نؤمن ونهتدي جميعًا، بل ﴿مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ المنقادون لحكم الله، وأوامره ونواهيه الواردة في كتابه، المسلمون أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجاهلون المائلون عن الهداية، المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ منّا، واعتدل وسلم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المسلمون المسلّمون ﴿تَحَرَّوْا﴾ واجتهدوا ففازوا ﴿رَشَدًا﴾ [الجن: 14] يوقظهم عن سِنة الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون الحائرون في تيه الطغيان والكفران ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿حَطَبًا﴾ [الجن: 15] توقد بهم النار، كما توقد بعصاة الإنس وطغاتهم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَن﴾ أي: وأن الشأن والأمر أنه؛ أي: الجن والإنس المجبولين على فطرة التكليف ﴿لَوِ اسْتَقَامُوا﴾ واعتدلوا ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: جادة المعرفة والتوحيد ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم﴾[1] تلطفًا لهم، وترحمًا عليهم ﴿مَّاءً﴾ محييًا لأراضي أجسامهم الميتة بسموم الإمكان، ويحموم الأماني الصاعدة من نيران الطبيعة ﴿غَدَقًا﴾ [الجن: 16] كثيرًا إلى حيث يجعل لهم روضة من رياض الجنان.

وإنما فعلنا معهم ذلك ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ ونختبرهم ﴿فِيهِ﴾ أي: في التنعم والترفه، كيف يشكرون للنعم؟ وكيف يواظبون على أداء حقوق الكرم؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ويزيد عليها ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ وينصرف عن طاعته وعبادته، ويكفر بنعمه، ولم يواظب بأداء حقوق كرمه ﴿يَسْلُكْهُ﴾ ويدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: 17] يصعد عليه، ويعلو فوقه، وبالجملة: عذابًا شاقًا شديدًا، قاهرًا عليه عاليًا.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوجيه والتعليم لخُلّص عباده المؤمنين، والتوبيخ والتعريض للمشركين: ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون من الثقلين ﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ المبنية؛ للميل والتقرب نحو الحق مختصة ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة خالصة ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ وتعبدوا فيها ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الشريك والولد ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 18] عن مظاهره ومربوباته.

﴿وَ﴾ بعدما علمتم هذا بتعليم الله إياكم اعلموا ﴿أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي: النبي المؤيد من عنده سبحانه بأنواع العناية والكرامة المستلزمة لأنواع العبادة والإطاعة في

(1) الإسقاء والسقي بمعنى واحد، وقال الراغب: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك له حتى يتناوله كيف شاء كما يقال اسقينه نهرا فالإسقاء أبلغ، وغدق من باب علم إذا غزر وصف الماء به للمبالغة في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنه أصل السعة وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء-لا كثرته ولعزة وجوده بين العرب قال عمر -رضي الله عنهما- أينما كان الماء كان العشب وأينما كان العشب كان الهال وأينما كان المال كانت الفتنة والمعنى لأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ووسعنا على الرزق في الدنيا. تفسير حقي (16 / 183).

المسجد الحرام المعدّ؛ لعبادة العليم العلّام، القدوس السلام ﴿يَدْعُوهُ﴾ ويعبده، ويتذلل نحوه ﴿كَادُوا﴾ وقاربوا مشركي الجن والإنس ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ ويزدحمون حوله متعجبين ﴿لِبَدًا﴾ [الجن: 19] متراكمين، كلبدة الأسد، وهو مستغرق في صلاته بلا التفات منه إليهم إلى أن أوحى إليه بما هم عليه من التعجب والتحير من أمرهم.

فقيل له من قِبَل الحق: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمزدحمين المتعجبين: ﴿إِنَّمَا أَدْعُو﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ الذي ربّاني على كمال المعرفة والإيقان، وأرسلني أن أدعو عموم المكلفين إلى توحيده ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ ومعه ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 20] من مظاهره ومصنوعاته.

فإن قالوا: هل لك أن تشاركنا معك في عبادتك وخضوعك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ من تلقاء نفسي ﴿ضَرًّا﴾ يضركم به ويعذبكم إن أردت إضراركم وتعذيبكم ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: 21] يرشدكم به ويهديكم إن أردت هدايتكم ورشادكم، بل لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا، فكيف لكم؟! بل ما ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 50] والأمر بيد الله العليم الحكيم.

فإن قالوا: ما فائدة عبادتك وتخصيصها إياه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: لمَ لم أعبد ربي، ولم أخصصه بالعبادة، مع ﴿إِنِّي﴾ أعلم منه سبحانه أنه ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ ويحفظني ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَحَدٌ﴾ من مظاهره، لو أراد عذابي ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ أبدًا ﴿مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: 22] ملجأً وملاذًا ينقذني من بطشه وعذابه، لو جرى مشيئته سبحانه على تعذيبي؟!

وبالجملة: لا أملك لكم، ولا لنفسي ضرًا ولا نفعًا.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا (٢٥) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا (٢٨)﴾ [الجن: 23 – 28].

﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ وتبليغًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ ما أوحى إليّ ﴿وَ﴾ سوى أداء ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ التي

أرسلني بها، وما لي سوى الإبلاغ والتبليغ ﴿وَ﴾ من جملة ما أُوحي إليَّ: إنه ﴿مَن يَعْصِ اللَّهَ﴾ ويعرض عنه وعن عبادته من عباده ﴿وَ﴾ لم يصدق ﴿رَسُولَهُ﴾ المستخلف منه، القائم بأمره ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ أي: حق وثبت له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ في النشأة الأخرى، وبالجملة: صار العاصون المعرضون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: 23] لا نجاة لهم منها أصلاً.

وهم لا يزالون على عصيانهم بالله، مستظهرين بما معهم من الجاه والثروة، وكثرة الأموال والأولاد في نشأتهم الأولى ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: 24] النبي وأتباعه، أم المشركون ومن معهم؟.

وبعدما سمع المشركون: ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قالوا على سبيل الإنكار والاستبعاد: متى يكون؟ فقيل من قِبَل الحق: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: إنه كائن لا محالة، لكن وقته مفوض إلى علم الله ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي: ما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: وقوعه وقيامه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ﴾ ولوقوعه ﴿رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن: 25] بعيدًا، وأجلاً طويلاً؛ إذ هو من جملة الغيوب التي استأثر الله بها؟.

إذ هو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ حسب حكمته ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ولا يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ المختص به ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: 26][1] من خلقه.

﴿إِلَّا﴾ أي: يطلع من بعض غيوبه على ﴿مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ مأمون على غيبه، له قابلية الخلافة والنيابة عنه سبحانه ﴿فَإِنَّهُ﴾ يطلعه من غيبه على سبيل الوحي والإلهام حين ﴿يَسْلُكُ﴾ ويوكل سبحانه؛ لحفظه وحراسته ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: بين يدي المرتضى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 27] حراسًا من الملائكة يحرسونه من استراق الشياطين، واختطافهم وتخليطهم.

وإنما فعل كذلك عند إطلاعه ووحيه إلى رسوله ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الرسول الموحى إليه ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي: حاملو الوحي مطلقًا ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ على وجهها

---

(1) قال ابن عجيبة في البحر المديد (2 /180): عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان) ولا يعرف هذا ذوقًا إلا أهل العيان، اللذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه.

مصونة محروسة عن اختطاف الشياطين، وتخليطاتهم المغيرة لها ﴿وَ﴾ الحال أنه سبحانه قد ﴿أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: لدى الرسل والملائكة جميعًا علمًا وحضورًا، بل ﴿وَ﴾ قد ﴿أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿عَدَدًا﴾ [الجن: 28] بحيث لا يعزب عن حيطة علمه وإحصائه شيء مما لمع عليه برق الوجود.

خاتمة السورة

عليك أيها المحقق المنكشف بإحاطة العلم الإلهي ولوح قضائه، وقلم تصويره وتخطيطه أن تعتقد وتذعن أن عموم ما جرى في ملكه وملكوته إنما هو بأمره ووحيه، ونفوذ قضائه ومضاء حكمه على حسب الحضور، بحيث يجتمع عند خضوره الأزل والأبد، والأولى والأخرى، والغيب والشهادة؛ إذ لا انقضاء دونه، ولا انصرام ولا تجدد لديه، ولا انخرام، بل الكل بالنسبة إلى قدرته وإرادته على سواء بلا تفاوت وتخالف.

جعلنا الله من المنكشفين بحضور الحق وشهوده، مع كل شيء ودونه بمنّه وجوده.

سورة المزمل

فاتحة سورة المزمل

لا يخفى على ذوي الألباب والآداب المتحملين لأمانة التوحيد الإلهي أن من تمكن على تلك المرتبة لا بدَّ ألَّا يشغله شيء سواها، ولا يلهيه أمل دونها، سيما المتحملين معه أعباء الرسالة والنبوة المشتملة على دعوة عموم المكلفين إلى سبيل التوحيد، وإرشادهم نحوه بالتصبر على أذياتهم، وتحمل المتاعب والمشاق في تبليغ الدعوة والتكميل.

فلا بدَّ للنبي أن يبذل كمال وسعه وطاقته في إجراء الشرع، وإعلاء كلمة التوحيد وبلا تكاسل وتغافل عنه لمحة وطرفة.

كما نبه سبحانه على حبيبه ﷺ مناديًا إياه على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب بعد التبرك باسمه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بعموم كمالاته على من اختاره لرسالته، واصطفاه لخلافته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإرسال الرسل، ووضع الشرع والدين القويم فيما بينهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى سرائر التكاليف الواقعة في طريق التوحيد واليقين.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ
فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي
النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾
[المزمل: 1 — 13].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1] المتغطي المتلفف بثوبه وقطيفته نائمًا، أو مرتدعًا عمَّا دهشه بدء الوحي.

شأن النبوة والرسالة ما هو هذا ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وداوم على التهجد فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾

[المزمل: 2] منه؛ للاستراحة والنوم تقويةً لمركب بدنك، وتنشيطًا له على العبادة.

يعني: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ أي: نصف الليل ﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ [المزمل: 3] ليقرب الثلث.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف حتى يقرب الثلثين، وإنما خير بين هذه الثلاثة؛ لأنه فرض أولاً قيام الكل، ولمَّا تحرجوا ومرضوا، وشق عليهم الأمر، رحم الله عليهم فخيرهم في هذه الأوقات بناء على تفاوت أمزجة الناس في عروض الكلال بالسهر، وبعد القيام تهجد ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: 79]، ﴿وَرَتِّلِ﴾ في تهجدك ﴿الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4] أي: بين حروفه، وقررها في مخارجها إلى حيث لا يشتبه على السامع العارف بأساليب الكلام ومنطوقات الألفاظ معانيها.

وبالجملة: اقرأها على تؤدة تامة، وطمأنينة كاملة بعزيمة خالصة، وإرادة صادقة إلى حيث تتأثر من ألفاظ القرآن فطرتك وفطنتك التي هي خلاصة وجودك، وزبدة أركانك وطبيعتك؛ إذ بها توسلك ووصولك إلى مقصد التوحيد واليقين.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَوْلًا﴾ جزلاً سهلاً، خفيفًا على اللسان ألفاظه وكلماته ﴿ثَقِيلًا﴾[1] [المزمل: 5] عظيمًا على القلب رموزه وإشاراته، والاتصاف بما فيه، والامتثال بمقتضيات أوامره ونواهيه، والاطلاع على سرائر الأحكام الموردة فيه، والإحاطة بقوادمه وخوافيه، وبالجملة: من تأمل فيه على وجه التدرب والتدبر فقد غرق في تيار بحاره الزخار.

وتخصيص الأمر بالليل وترتيل القرآن فيه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: القراءة التي تنشأ من النفس في جوف الليل حين خلو القلب عن جميع الأشغال والملاهي ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ تأثيرًا ودفعًا في القلب، وتنبيهًا له، وإن كانت أثقل للنفس وأتعب للبدن

(1) يعني: ثقيلاً في العمل والوزن والقدر، أي: عمله ثقيل على الأبدان، وثوابه في الميزان، وقدره عظيم عند الرحمن، والموارد ثقل إذا يرد على السالك في البداية كأن السماء وقعت عليه، ولا يحسب أن ثقل الوارد يوازي ثقل الوحي ولا عشر عشيرة، روت عائشة رضي الله عنها «رأيته ينزل عليه في اليوم الثاني الشديد البرد فينفصم عنه وأن جبينه يتفصد عرقًا» وهو ﷺ في القوة بمرتبة، قيل في حقه أن الله أعطاه أربعين ضعف قوة أعطاها الله لموسى بن عمران وهو أقوى الأنبياء. [عين الحياة].

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: 6] أي: أعدل الأقوال بالنسبة إلى القلب وأرسخها فيه، وأقواها أثرًا وانتباهًا بخلاف النهار.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ﴾ الذي هو وقت الأشغال والالتفات إلى المهمات، ومحل أنواع الملمات والواقعات؛ لذلك عرض لك فيه ﴿سَبْحًا طَوِيلاً﴾ [المزمل: 7] [1] تقلبًا وتصرفًا طويلاً شاغلاً لأوقاتك، مشوشًا لحالاتك.

وبالجملة: الفراغ الذي يحصل بالليل لا يحصل في النهار، فعليك أن تجتهد في التهجد، وتقرأ القرآن فيه، سيما عند الفجر ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على تسبيحه وتقديسه دائمًا في أوقاتك وحالاتك، ولا تشغلنك عن ذكره مهماتك، بل ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي: تجرد وانقطع عن عموم المهام ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: 8] وتجريدًا كاملاً بحيث لا يخطر ببالك الالتفات بحالك، فكيف بحال غيرك؟!

وكيف لا تنقطع إليه ولا تتجرد نحوه، مع أنه سبحانه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: جنس المشارق والمغارب التي هي ذرائر الكائنات باعتبار ظهور شمس الذات منها، وشروقها عليها، وباعتبار بطونها وخفائها فيها؛ إذ ﴿لَا إِلَهَ﴾ أي: لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا شيء سواه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: 9] سيما بعدما لم يوجد في الوجود غيره أصيلاً؟!

﴿وَ﴾ بعدما اتخذته وكيلاً، وجعلته حسيبًا وكفيلاً ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون المسرفون من الخرافات والجزافات التي لا تليق بشأنك، إن شق عليك الصبر والتحمل ﴿وَاهْجُرْهُمْ﴾ اتركهم وانصرف عنهم ﴿هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: 10] بشًاشًا بسّامًا بلا التفات إلى هذياناتهم الباطلة، وبلا مبالاة بهم وبكلامهم، وتوكل على الله، وفوض أمر انتقامهم إليه، فإنه يكفيك مؤنة شرورهم واستهزائهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التسلية لحبيبه ﷺ: ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في قدحك

(1) أي: سبحًا في أعمالك، والسبح: الذهب والسرعة، ومنه السباحة في الماء، فالمعنى: مذاهبُك في النهار فيما يَشْغَلُك كثيرةٌ، والليلُ أَخْلَى لك. تفسير القشيري (7/494).

وطعنك يا أكمل الرسل ﴿ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: دعني معهم، وفوض أمر انتقامهم إليّ، فإني أنتقم عنهم من قبلك، وأدفع أذاهم عنك، وأغلبك عليهم، وإن كانوا ﴿أُوْلِي النَّعْمَةِ﴾ وذوي الثروة والسيادة، وأصحاب التنعم والوجاهة - يريد صناديد قريش - ﴿وَ﴾ لا تستعجل في انتقامهم، بل ﴿مَهِّلْهُمْ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلاً﴾ [المزمل: 11] أو زمانًا قليلاً.

ولا تيأس من مكرنا إياهم ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ معدًا لهم أنواعًا من العذاب ﴿أَنكَالاً﴾ أثقالاً؛ لتثاقلهم وعدم تحملهم وتصبرهم بمتاعب التكاليف الإلهية، ومشاق الطاعات والعبادات المأمورة لهم من قِبَله سبحانه ﴿وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: 12] عظيمًا بدل ما يتلذذون بنيران الشهوات، ويظلمون الناس بأنواع الغضب والطغيان.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلق، و﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7]، بدل ما يأكلون من السحت والربا، وأموال اليتامى ظلمًا ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: 13][1] لا عذاب أشد إيلامًا منه، وهو حرمانهم عن لقاء الله، وخذلانهم على ما فات عنهم من التحقق في كنف حفظه وجواره.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: 14 - 19].

اذكر لهم يا أكمل الرسل، وإن لم يصدقوا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتتزلزل ﴿الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ من شدة الحركة والاضطراب اندكت وتناثرت فصارت ﴿كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعًا ﴿مَّهِيلاً﴾ [المزمل: 14] منثورًا، تذروه الرياح حيث شاء، كسائر الرمال الآن في البراري والبوادي.

وكيف لا نأخذ المجرمين المشركين بظلمهم يومئذٍ، ولا نعذبهم بأنواع العذاب

(1) البحر المديد (6 / 442): وطعامًا ذا غُصة يغص الروح عن شراب الحمرة؛ لضيق مسلكه بوجود العوائق، وعذاباً أليماً: البُعد والطرد عن باب حضرتنا وجناب كبريائنا .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة بعدما انحرفتم عن جادة العدالة على مقتضى سنتنا في الأمم السالفة ﴿رَسُولاً﴾ ناشئًا منكم؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿شَاهِدًا﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بالإجابة والامتناع بعدما أمرنا له، وأوحينا إليه أن يدعوكم إلى الإيمان، ويأمركم بالطاعات والإحسان ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي ﴿رَسُولاً﴾ [المزمل: 15] يعني: موسى الكليم ﷺ؛ ليدعوه إلى الإيمان، ويأمره بلوازمه.

وبعدما دعاه وأمره بما أمر به الحق ﴿فَعَصَى﴾ وتكبر ﴿فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ وعتا عليه، واستكبر عن دعوته ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل: 16] ثقيلاً شديدًا إلى حيث أغرقناه وجنوده في اليم، وأورثنا أرضه ودياره وأمواله لبني إسرائيل.

هذا أخذُنا إياهم في النشأة الأولى، وفي الأخرى بأضعافها وآلافها، فأنتم أيضًا يا أهل مكة مثل فرعون عصيتم رسولكم الذي أُرسل إليكم؛ يعني: محمدًا ﷺ، فنأخذكم مثلما أخذنا فرعون، في الدنيا نجعلكم صاغرين مهانين، وفي الآخرة مسجونين بعذاب أليم، مخلدين في النار أبد الآبدين.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع تهويلاً عليهم، وتعريضًا: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ وتحفظون أنفسكم أيها المنهمكون في أنواع الغفلات والجهالات ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ وبقيتم على الكفر، ومتم عليه، مع أنكم ستستقبلون وتقعون يومًا، وأيّ يوم ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17] من غاية طوله، وشدة أهواله وأحزانه؟!

هذا على وجه التمثيل والتشبيه بحسب متفاهم العرف، وإلَّا فلا يكتنه هول ذلك اليوم وشدته بالوصف والبيان.

ومن جملة ما يدل على شدة هوله: إنه ﴿السَّمَاءُ﴾ المشيدة المحكمة ﴿مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: متشققة متضعضعة، منخرمة في ذلك اليوم بمقتضى قهر الله وجلاله، وكيف لا يكون كذلك بعدما وعد الله القادر المقتدر على عموم ما دخل في حيطة علمه وإرادته بوقوعه، ولاشك أنه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: 18] دائمًا، وأمره مقضيًا أبدًا، وحكمه مبرمًا أزلاً، وقضاؤه نافذًا سرمدًا؟!

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الكلمات الدالة على إنجاز وعد الله ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وعظة للمتعظين المتذكرين من أرباب العناية والتوفيق ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أن يتعظ بها ﴿اتَّخَذَ﴾ وأخذ ﴿إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل: 19] بعدما وفقه الحق، وأعان عليه بالخروج عن لوازم الإمكان، وهداه للعروج إلى معارج الوجود مترقيًا من درجة إلى درجة، ومقام إلى مقام إلى أن

وصل إلى مبدأ طريق الفناء، ثمّ ترقى منه أيضًا من حالة إلى حالة إلى أن فني عن الفناء أيضًا، وبعد ذلك صار ما صار، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل: 20].

وبعدما أمر سبحانه حبيبه ﷺ بقيام الليل على الوجه المذكور، وحثه عليه، ورغبه على وجه المبالغة والتأكيد بأن علله بعلمه سبحانه إياه على أيّ وجه، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد ﴿أَدْنَى﴾ وأقل ﴿مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ وأعلى، وأكثر من نصفه تارة ﴿وَ﴾ تارة أخرى أدنى من ﴿نِصْفَهُ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿نِصْفِهِ وَ﴾ تارة أدنى من ﴿ثُلُثَهُ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿ثُلُثَهُ﴾ وأكثر من ربعه، وهذا أدنى تاراتك، وأعلاها: ما هو أدنى من ثلثي الليل؛ إذ هي أقرب إلى قيام الكل الذي فرض أولاً، ثمّ الثانية، ثمّ الثالثة.

﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أي: ويعلم سبحانه أيضًا قيام طائفة ﴿مِّنَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ يقومون ﴿مَعَكَ﴾ ويوافقون لك في تهجدك وقيامك؛ يعني: علمه سبحانه محيط بهذه الأوقات الثلاثة الواقعة منك ومنهم، بخلاف علمك فإنه؛ أي: علمك لا يقدر بتعيينها على وجهها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ العليم الحكيم الذي ﴿يُقَدِّرُ﴾ بمقتضى علمه وإرادته ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ على سبيل التجدد والتتابع، والاختلاف طولاً وقصرًا، وإيلاج بعض أجزاء كل منهما على الآخر، وإخراجهما منه، وضبط أجزائهما وساعاتهما وآنائهما، إنما هي بعلمه لا بعلم غيره من مظاهره ومصنوعاته، وهو سبحانه ﴿عَلِمَ﴾ منك ﴿أَن﴾ أي: إنه ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾[1] أي: ليس في وسعكم وطاقتكم تقدير الأوقات، وضبط

(1) حتى لن تطيقوه، لأن القوة البشرية لا تتحمل هذه المجاهدات التي كنتم تشتغلون بها في البدايات، لأن المبتدئ الرحيل في الطريق ومباينه يظن أنه بالعجلة وحمل الميثاق بقطعه وذلك

الأحيان والساعات، وإحصاء الآناء الواقعة في الليل والنهار، وقيامكم في كلها أو بعضها على وجه التعيين والتخصيص.

وبعدما ظهر عنده سبحانه عدم طاقتكم ووسعكم ﴿فَتَابَ﴾ أي: عاد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ورجع عمّا ألزمكم، وأزال تعبكم بالرخصة في ترك القيام المقدر المعين على الوجوه المذكورة؛ إذ لا يسع لكم ضبطها، وبعدما رخصكم سبحانه، وخفف عنكم تفضلاً وامتنانًا، قوموا في خلال الليل مقدار ما يسّر الله لكم ووفقكم عليه ﴿فَاقْرَءُوا﴾ أي: صلوا التهجد بقراءة ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ المقرون بصلاتكم.

قيل: كان التهجد واجبًا على التخيير المذكور، ثمّ رخص بترك التقدير والتعيين، ثمّ نسخ هذا أيضًا بالصلوات الخمس المقدرة في الأوقات الخمسة، وإنما نسخه سبحانه؛ إذ ﴿عَلِمَ﴾ بمقتضى حضرة علمه وحكمته ﴿أَنْ﴾ أي: إنه ﴿سَيَكُونُ﴾ بعضًا ﴿مِنكُم مَّرْضَى﴾ من السهر المفرط؛ إذ الأبدان متفاوتة في تحمل المشاق، سيما ترك النوم المعدّ؛ لاستراحة البدن في الليل ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آخَرُونَ﴾ منكم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ويسافرون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ سفرًا مباحًا ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بسفرهم ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ وسعة جوده وكرمه مزيد رزق، أو طلب علم، أو صلة رحم، أو زيارة صديق إلى غير ذلك من الأسفار المشروعة، فيتحرجون بقيام الليل والتهجد فيه ﴿وَآخَرُونَ﴾ أيضًا ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ترويجًا لدينه، وإعلاءً لكلمة توحيده، فإنهم لو تهجدوا لضعفوا ألبتة فشق عليهم أمر القتال.

وبعدما أزال عنكم سبحانه حرجكم وتعبكم بمقتضى حكمته المتقنة البالغة، فعليكم ألّا تتركوا التهجد رأسًا، ولا تنسوه جملةً، بل قوموا في خلال الليل؛ للتهجد إن استطعتم ﴿فَاقْرَءُوا﴾ فيه ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، وواظبوا على أدائها وقيامها حق المواظبة، وراعوا أركانها وأبعاضها وهيئاتها على وجوهها، وبالجملة: أدوها على وجه يرضى عنكم مولاكم، ولا تهاونوا عليها، ولا تقصروا فيها.

واعلموا أيها المؤمنون أن الفارق بين الإيمان والكفر، والهداية والضلال إنما هي

من غاية اشتياقه وقلة معرفته بالحق، فلما سلك ووصل إلى عالم العرفان يطلع على أن كل شيء مرهون بوقت معين لا يمكن الوصول إليه قبل إيقانه. [عين الحياة].

الصلاة التي هي أقوى أعمدة الدين وأقومها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ المأمورة لكم على سبيل الوجوب؛ تزكيةً لأنفسكم عن الشح، وأموالكم عن الفضلات، وتمرينًا لأنفسكم على الإنفاق وفعل الخيرات ﴿وَ﴾ بعد أداء الواجب من الزكاة ﴿أَقْرِضُوا اللهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعامات بإعطاء فواضل الصدقات، وأنواع الخيرات وبناء المساجد والرباطات، وغير ذلك مما يتعلق بمصالح المسلمين من المنافع الحاصلة بالمال ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المنّ والأذى، والسمعة والرياء، والعجب وأنواع الهوى.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا تُقَدِّمُوا﴾ وتؤخروا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ موجب لأجر مستلزم لثواب، سواء كان ماليًا أو بدنيًا، قبل حلول الأجل وهجوم الموت ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾ المفضل المنعم ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأكرم محلاً، وأعز درجةً ومنزلاً من الذي يؤخرونه إلى الوصية حين حلول الأجل ﴿وَ﴾ إن جرى عليكم في سالف زمانكم ما جرى من ترك الاستغفار ﴿اسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ المفضل المكرم لما صدر عنكم، واشتغلوا لامتثال أوامره في بقية أعماركم تلافيًا لما مضى ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع على إنابتكم ونياتكم فيها ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر زلتكم الماضية أيضًا ﴿رَّحِيمٌ﴾[1] [المزمل: 20] يقبل توبتكم اللاحقة لها بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك لسلوك التوحيد، والقاصد نحو مقصد الفناء أن تبذل وسعك في طريق التوحيد ببدنك ومالك، وجميع أحوالك وأطوارك، وتجتهد في تصفية ظاهرك وباطنك، وتخلية قلبكِ عن الشواغل العائقة عن التوجه التام والالتفات الخالص.

فلك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة، وتواظب على الاتصاف بالأطوار والأخلاق الموروثة لك من النبي المختار، والمأثورة منه من الآثار، وامتثال ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه؛ لتصفية الخاطر عن الميل إلى ما

(1) يعني: يغفر لمن يتوب إليه بعد الاكتساب من المعاصي، ويرحم من تغلب عليه شهوته، وهو يريد أن يدفعها ولا يمكن له دفعها لغلبة قواها القالبية والنفسية، وضعف قوى قلبه ينصره بخواطر السكينة وملكية الرحمة ما لنا ذلة على صدره من عالم سره ليخرج من ضيق المجاهدة مع الشهوة إلى متسع عالم الرحمة. [عين الحياة].

سوى الحق من الأغيار الساقطة عن درجة الاعتبار؛ لتكون من الأبرار الأخيار الموسومين بأولي العبرة والأبصار، وتفوزوا بما فاز من الرموز والأسرار.

وإياك إياك ومصاحبة الأشرار المغترين بلذات الدنيا الغدارة، وشهوات الحياة المستعارة المستلزمة لأنواع الخسار والبوار.

جعلنا الله الغفور الغفار من ذوي العبرة والاستبصار بفضله وطوله.

سورة المدثر

فاتحة سورة المدثر

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود، المنخلعين عن جلباب عالم الناسوت، الرافلين بخلع عالم اللاهوت أن من خرج عن بقعة الإمكان مهاجرًا إلى الله بعدما جذبته العناية والتوفيق من جانبه سبحانه، فحين خروجه وتفرقه عن مألوفات عالم الطبيعة، وظهور طلائع سلطان الوحدة الذاتية، واستيلائه بنظر شهوده، طرأ عليه حالات عجيبة وصور بديعة إلى حيث أرعدته وأزعجته إلى الفرار نحو مألوفات الطبيعة، والنظر والتغطي بملابسها، فصار عليها إلى أن تمكن على فطرة الوحدة، وتمرن عليها بلا خوف ورعدة، إن أدركته العناية الإلهية، وشملته الجذبة الأحدية.

هكذا جرى على نبينا ﷺ في أوائل شهوده وانكشافه؛ إذ كان يومًا متوجهًا بحراء الفناء، منخلعًا عن لوازم عالم الناسوت بالمرة حتى ظهرت عليه أمارات عالم اللاهوت، فنودي حينئذٍ من قبل فناء الفناء نداءً عجيبًا، وصداءً غريبًا، بحيث لم يسمع مثله سمع سره ﷺ.

وكان ﷺ حينئذٍ في عالم التلون، فنظر بعين شهوده يمنة ويسرة فلم ير شيئًا، فنظر فوق ذلك العالم فرأى ما رأى، وانكشف بما انكشف، فرعب وارتعد، ورجع هاربًا مرعوبًا مغلوبًا، قلقًا حائرًا حتى وصل إلى خديجة الطبيعة، وتكلم معها بكلمة: دثريني بملابسك وجلبابك، فدثرته الطبيعة مرة أخرى، فأدركه الخطاب الإلهي، فأدبه وأخرجه من سجن الطبيعة، وملابس الهيولى بالكلية، حيث قال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ربّى حبيبه محمدًا ﷺ على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه؛ إذ أخرجه عن مضيق الإمكان المستلزم لأنواع التخمين والتقليد ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يوصله إلى سماء التجريد، ويمكنه في فضاء التفريد.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا
تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى
الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤﴾ [المدثر: 1 — 24].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1] والمتدثر: المتغطي بملابس الطبيعة، وثياب الإمكان الموجبة لأنواع الخسران والحرمان.

﴿قُمْ﴾ من عالم الطبيعة، واخرج عن مضيق بقعة الإمكان بعدما كشفت طلائع فضاء اللاهوت، وبعدما خلصت من سجن عالم الناسوت ﴿فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 2] عموم بني نوعك؛ أي: المحبوسين في سجن الإمكان، المقيدين بسلاسل الزمان، وأغلال المكان عن دركات النيران، وأودية الضلالات والجهالات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة الموجبة لأنواع الحرمان والخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَ﴾ خصص ﴿رَبَّكَ﴾ الذي ربَّاك على فطرة المعرفة والإيقان بأنواع التبجيل والتعظيم ﴿فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: 3] [1] ذاته تكبيرًا كاملاً إلى حيث لا يخطر ببالك معه شيء؛ إذ هو المتعزز برداء العظمة والكبرياء، لا شيء سواه.

وبعدما انكشفت بوحدة ربك، وكبرته تكبيرًا لائقًا بشأنه ﴿وَثِيَابَكَ﴾ التي هي ملابس بشريتك ﴿فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4] عن أوساخ الإمكان، وقذر عالم الطبيعة والهيولي، فإن طهارتك عنها واجبة عليك في ميلك إلى مقصد الوحدة.

﴿وَالرُّجْزَ﴾ أي: الرجز العارض لبشريتك من التقليدات الموروثة، والتخمينات المستحدثة من الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة المكدرة لصفاء مشرب التوحيد واليقين من الأخلاق الرديئة، والملكات الغير مرضية من الشهوية والغضبية المترتبة على القوى

---

(1) قال الورتجبي: يا أيها المدثر، أي: يا أيها الغريق في قُلزوم القِدم، قُم لدعوى محبتي، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري، وأظهر جواهر حقائب بحر غيبي للمقبلين إلينا . ثم قال على قوله: (وربك فكبّر)، عن الحُسين: عَظِّم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه، فإنّ إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية مني. قال القشيري: كبّر ربك عن احتياجه إلى تكبير أحد، فإنّ كبرياءه ذاتيّ له، قائم بنفسه، لا بغيره من المكبّرين. والمتبادر أنه أمَرَ الداعي بتعظيم الله وإجلاله دون غيره من سائر المنذرين، فلا تمنعه جلالة أحد من العظماء والمتكبرين عن التصدّي لإنذاره وتذكيره.

البهيمية إلى غير ذلك من القبائح الصورية والمعنوية.

﴿فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: 5] أي: جانِب وافترق؛ ليمكنك التخلق بأخلاق الله، والاتصاف بأوصافه.

ومن جملة الأخلاق المذمومة، بل من معظمها: المنة على الله بالطاعة وفعل الخيرات، وعلى عباده بالتصدق والإنفاق عليهم.

﴿وَ﴾ إذا سمعت ﴿لَا تَمْنُن﴾ على الله مباهيًا بطاعتك، وعلى عباده تفوقًا عليهم ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6] وتستجلب نعم الله على نفسك وإحسانه عليك، وامتنانه لك بما لا مزيد عليه، أو المعنى: ﴿لَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تعط أحدًا شيئًا على نية أن تستكثر وتتعوض منه بدله أكثر مما أعطيته، على مقتضى القراءتين.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لِرَبِّكَ﴾ الذي ربّاك على الخُلق العظيم ﴿فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 7] على مشاق التكاليف، ومتاعب الطاعات والعبادات، وعلى أذيات المشركين حين تبليغ الدعوة إياهم، وإيصال الوحي إليهم.

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل من الوصايا ما سمعت، امتثل بها واتصف بمقتضاها اتقاءً عن يوم الجزاء.

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونُفخ ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: 8] أي: الصور المصور؛ لتصويت الأموات؛ ليبعثوا من قبورهم أحياءً كما كانوا، ثمّ نُقر ثانيًا؛ ليحشروا إلى المحشر، ويحاسبوا بين يدي الله، ثمّ يجازوا على مقتضى ما يحاسب، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿فَذَلِكَ﴾ أي: وقت النقر الثاني للحشر والوقوف بين يدي الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: 9].

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذ عسر عليهم حينئذٍ الأمر، واشتد الهول، وتشتتت أحوالهم واضطربت قلوبهم، وبالجملة: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 10] عليهم حسابهم؛ لذلك عسر عليهم.

وبعدما سمعت قيام يوم القيامة وتنقيد الأعمال فيها، والجزاء عليها، لا تستعجل يا أكمل الرسل لانتقام المشركين المسرفين، ولا تعجل عليهم، بل ﴿ذَرْنِي﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: مع شخص خلقته ﴿وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11] متفردًا من أهل

عصره، مفروزًا منهم بكثرة الأموال والأولاد، والثروة والجاه، إلى حيث لُقب بين قومه بريحانة قريش؛ يعني: وليد بن المغيرة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ﴾ توسيعًا عليه، وامتنانًا له ﴿مَالاً مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: 12] كثيرًا وافرًا، متزايدًا يومًا فيومًا بالتجارة والنتاج والزراعة وغير ذلك.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: 13] حضورًا معه دائمًا، لا ينفصلون عنه زمانًا؛ لاستغنائهم عن التجارة والحراثة وسائر المصالح؛ لكثرة خدمهم وحشمهم، بحيث لا احتياج لهم من تهيئة أسبابهم إلى ترددهم بأنفسهم؛ لذلك يحضرون معه في جميع المحافل والمجالس، والأندية تكميلاً لثروته ووجاهته.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: 14] أي: بسطت له بسطًا واستيلاءً، يتحسر ويتحسد بحاله جميع بطون العرب وأفخاذه.

ومع تلك الوجاهة العظمى، والكرامة الكبرى الموهوبة له لم يشكر عليَّ، ولم يرجع إليَّ قط ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: 15] على ما آتيته وأعطيته من النعم العظام، مع أنه مصر على الكفر والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف أزيد عليه، مع أن كفرانه وطغيانه يوجب ويقتضي زوال ما أُعطي به، وكيف لا يوجبه ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا﴾ الدالة على كمال عظمتنا، واقتدارنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿عَنِيدًا﴾ [المدثر: 16] معاندًا منكرًا، وعناده أمارة زوال ماله وثروته وجاهه؟!

وبالجملة: ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾ أي: سأغشيه وأكلفه بالعنف في النشأة الأخرى ﴿صَعُودًا﴾ [المدثر: 17] عقبة شاقة المصعد والمهوى، فأكلفه على الصعود والهبوط دائمًا، بحيث لا نجاة له منها، وعنه ﷺ: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفًا، ثم يهوى فيه كذلك أبدًا»[1]، وهو مثل لما يلقى من الشدائد.

وكيف لا أكلفه بصعود الصعود وهبوطه ﴿إِنَّهُ﴾ من شدة شكيمته، وخباثة طينته

---

(1) رواه أحمد (75/3، رقم 11730)، وهناد في «الزهد» (184/1، رقم 281)، وعبد بن حميد (ص 289، رقم 924)، والترمذي (703/4، رقم 2576) وقال: غريب، وأبو يعلى (523/2، رقم 1383)، والحاكم (551/2، رقم 3873)، وقال: صحيح الإسناد.

﴿فَكَّرَ﴾ في آيات القرآن على وجه التدبر فلم يجد فيه طعنًا وقدحًا ﴿وَ﴾ بعدما لم يجد ما يصلح للطعن ﴿قَدَّرَ﴾[1] [المدثر: 18] في نفسه على مقتضى خباثته ما ينفق به، ويقول فيه على سبيل القدح؟!

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التعجب من إفكه وتقديره: ﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعن وطُرد ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 19] له قدحًا، مع أن القرآن منزه عن القدح مطلقًا؟!

﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ ذلك المعاند الطاغي ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: 20] ما هو بعيد عن شأن القرآن بمراحل؟! كرره سبحانه مبالغةً في التعجب والاستبعاد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: 21] كرة بعد أولى، ومرة بعد أخرى في أمر القرآن ﴿ثُمَّ﴾ لمَّا لم يجد فيه طعنًا، مع أنه من أرباب اللسن والفصاحة ﴿عَبَسَ﴾ أي: قطب وجهه وكلح، واستكره كراهة شديدة ﴿وَبَسَرَ﴾ [المدثر: 22] اهتم وبالغ في وجدان القدح اهتمامًا بليغًا فلم يجد، وأيس ملومًا مخذولاً.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما دبر مرارًا فلم يجد ﴿أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان بعدما أشرف على الإقبال بالإيمان والقبول ﴿وَ﴾ ما حمله على الإدبار إلى أنه ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: 23] واستحيى عن اتِّباعه.

وبالجملة: ﴿فَقَالَ﴾ بعد اللتيا والتي: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24] أي: يُروى ويتعلم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: 25 – 31].

(1) قال علاء الدولة: يعني: القوى الكافرة إذا فكرت في حقيقة الوارد ما تنطق به اللطيفة المنذرة، وقدر في نفسه أن يؤمن بما نطقت اللطيفة،هم فكرت في ترك اختيارها وتسليمها اللطيفة، وترك مشتهياتها قدرت تقدير أسو وأنكرت الآية البينة.

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 25] ما هو من الوحي وكلام الله، كما ادَّعاه محمد ﷺ مفتريًا على الله.

رُوي أنه مر الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ، وهو يقرأ: حم السجدة، فسمعه بسمع الرضا متدربًا بأسلوبه، ثمَّ أتى قومه فقال: لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من جنس كلام الإنسَ والجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، ثمَّ خرج.

فقالت قريش: والله، قد صبأ الوليد، ولتصبون قريش كلهم، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فجلس إلى جنبه حزينًا، فقال: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ فقال: هذه قريش يجمعون لك نفقة، يعينونك على كبر سنك، يزعمون أنك زيَّنت كلام محمد؛ لتنال من فضل طعامه.

فغضب الوليد فقال: لم تعلم قريش أني أكثرهم مالاً وولدًا، وهل يشبع محمد وأصحابه أن يكون لهم فضل؟! ثمَّ قام مع أبي جهل حتى أتى قومه، فقال: تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يتجنن قط؟ قالوا: اللهم لا، ثمَّ قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن قط؟ قالوا: لا، ثمَّ قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، ثمَّ قال: تزعمون أنه كذَّاب، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ قالوا: اللهم لا.

ثمَّ سكت، قالت قريش: فما هو؟ فتكفر في نفسه، وقدر في نجواه، ثمَّ قدر، فقال: ما هو إلَّا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله، وولده ومواليه، وما يقوله مفتريًا إلى ربه سحر يؤثر؟.

فقال تعالى زجرًا عليه، وجزاءً له: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ وادخله ﴿سَقَرَ﴾ [المدثر: 26].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا سَقَرُ﴾ [المدثر: 27] وما شأنها؟ أبهمها تفخيمًا وتهويلاً.

وغاية ما يدرك من شأنها: إنها ﴿لَا تُبْقِي﴾ شيئًا يقع فيها، بل تهلكه ﴿وَ﴾ مع إهلاكه وإفنائه ﴿لَا تَذَرُ﴾ [المدثر: 28] ولا تدع على هلاكه وفنائه، بل يوجده الله بكمال قدرته، ثمَّ يهلكه، ثمَّ يوجده فتهلكه أبدًا كذلك.

وأيضًا من شأنها: إنها ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ مسودة؛ من شدة إحراقها ﴿لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 29] أي: البشرة التي هي عبارة عن ظاهر الجلد.

وأيضًا من شأنها: إنها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] [المدثر: 30] أي: تسعة عشر من الزَّبانية الموكلة عليه بإذن الله، وهي من الملائكة أو شبيهة بهم.

إنما اختص هذا العدد؛ لأن الأعمال الفاسدة، والأفعال القبيحة الموجبة للدخول في سقر إنما يكتسب بالقوى البهيمية، والقوى الطبيعية، أمَّا القوى البهيمية فاثني عشر: الشهوية، والغضبية، والحواس الظاهرة والباطنة، وأمَّا القوى الطبيعية فسبع: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمولدة.

وبالجملة: يصور السقر من مقتضيات هذه القوى، ويوكل عليها من زواجر الزَّبانية على عدد مأخذها عدلاً منه سبحانه؛ لينزجر كل من القوى بزاجر يناسبها.

ولمَّا نزلت قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم بخبر ابن أبي كبشة، إن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهم؛ أي: الشجعان، أتعجز كل عشر أن تبطش بواحد منهم؟!

وبعدما قالوا ما قالوا على سبيل التهكم أنزل سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ وخزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أقوياء، قوتهم لا تُقاس بالقوى البشرية، بل لا يقاوم جميع من على الأرض بواحد من الملك في القوة والصولة ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي: عددهم المذكور ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ اختبارًا وابتلاءً؛ أي: سبب اختبار وافتتان لهم، يفتنون بهذا العدد، تارة يستقلون، وتارة يستبعدون ويتعجبون من مقاومة هؤلاء المعدودين بعموم العباد المستحقين لدخول السقر من الثقلين، وبالجملة: يستهزئون بهذا القول، ويضحكون منه، وإنما أنزلنا هذه الآية، وخصصنا هذا العدد وهؤلاء المعدودين ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: ليكتسبوا اليقين، ويجزموا بنبوة محمد ﷺ وبصدق القرآن وحقيته؛ لأن هذا ليس ببدع منَّا في هذا الكتاب، بل أنزلنا كذلك في سائر كتبنا.

ولمَّا وجدوه موافقًا لما في كتبهم تيقنوا بصدق القرآن ونبوة النبي ﷺ ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ على إيمانهم؛ أي: يرسخ إيمانهم، ويتأكد بتصديق أهل الكتاب كتابهم ونبيهم ﴿وَ﴾ بعدما استيقنوا واستقاموا على اليقين، وتمكنوا فيه ﴿لَا يَرْتَابَ﴾

---

(1) قال السمناني: من القوى العنصرية إذا ضربت أربعة في أربعة يحصل ستة عشر، وخاصية المعدنية والنباتية والحيوانية على هذه الستة تسعة عشر من قواها، وخواصها في صورها هائلة موكلة ليشعلوا نيرانها ويعذبوا فيها أبد الآباد.

ويشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [1] في حقية هذا الكتاب وهذا النبي المؤيد به ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وارتياب في حقية هذا الكتاب والنبي من أهل النفاق.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون الجازمون في التكذيب، المجاحدون بالإنكار صريحًا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أي: أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب المستبعد، إلى حيث صار في الاستغراب والاستبعاد ﴿مَثَلاً﴾ سائرًا بين الناس يستعملونه ويتداولونه، مستبعدينه ومستهزئين ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما سمعت يا أكمل الرسل من استيقان البعض، واستنكار البعض الآخر بهذا العدد المذكور ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله من عباده، وأراد مقته وضلاله ﴿وَيَهْدِي﴾ بمقتضى لطفه وجماله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إذ هو فاعل على الإطلاق بالإرادة والاختيار والاستحقاق.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ أي: مظاهر لطفه وقهره، وجماله وجلاله ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو المستقل بالإحاطة والشمول، لا يعزب عنه شيء من الأصول والفروع؛ إذ لا سبيل للعباد إلى إحصاء أوصافه وأسمائه التي تترتب عليها مظاهره ومصنوعاته، ما للعباد ورب الأرباب ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ذكر السقر ووصفها، وعدة الخزنة عليها ﴿إِلَّا ذِكْرَى﴾ أي: عظة وتذكرة نازلة من قِبَل الحق ﴿لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31] المجبولين على العبرة والنظر، المكلفين بجلب النفع ودفع الضر، وبالحذر عن مقتضى القهر والجلال، والركون إلى مقتضى اللطف والجمال.

---

(1) البحر المديد (6 / 452): لأنَّ عدتهم تسعة عشر في الكتابَيْن فإذا سمعوا مثلها في القرآن تيقَّنوا أنه مُنزَّل من عند الله، وهو متعلق بالجعل المذكور، أي: جعلناهم كذلك ليكتسبوا اليقين بنبوته صلى الله عليه وسلم، وصِدْقِ القرآن، لموافقته لِما في كتبهم، (ويزداد الذين آمنوا) بمحمد ﷺ (إيمانًا) لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا بسائر ما أُنزل، فيزيدون إيماناً مع إيمانهم الحاصل، أو: يزداد إيمانهم تيقُّناً؛ لما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم، (ولا يرتابَ الذي أوتوا الكتاب والمؤمنون)، تأكيد لِما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شُبهة ما، وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في الارتياب، حيث لم يقل: ولا يرتابوا؛ للتنبيه على تباين النفيين حالاً، فإنَّ انتفاء الارتياب عن أهل الكتاب مما ينافيه لِما فيه من الجحود، وعن المؤمنين لما يقتضيه من الإيمان، وكم بينهما؟ والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المُنبئة عن الحدث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾
[المدثر: 32 – 47].

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يتذكر بها هؤلاء الحمقى، إلّا من وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه ﴿وَ﴾ حق ﴿الْقَمَرِ﴾ [المدثر: 32] المنير.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ المظلم، وكيفية تصاريف القمر المضيء في ظلمة الليل، وانمحاء نوره ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: 33] أي: ولى وانصرف ذاهبًا؛ يعني بالقمر: نور الإيمان المشرق في الليل الذي هو عبارة عن ظلمة عالم الكون والفساد المترتب على التعينات العدمية الحاصلة من انعكاس شمس الذات.

﴿وَالصُّبْحِ﴾ الذي هو ظهور نور الوجود، وطلوع شمس الذات الأحدية التي انمحت وفنيت ﴿إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: 34] أي: أضاء وأشرق أظلال التعينات بالمرة، وانتثرت كواكب الهويات، وانطفأت شهب العكوس، واضمحلت مطلق الإضافات.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: سقر الطرد والحرمان، وسعير الزجر والخذلان، والخزنة المعدودين الموكلين عليها بقدرة الله ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر: 35] أي: إحدى البلايا والمصيبات الكبار النازلة لأصحاب الضلال بمقتضى القهر الإلهي وجلاله.

وإنما أنزلنا في كتابه، وأخبرنا عنها؛ لتكون ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 36] ينذرهم ويحذرهم عن حر سقر.

﴿لِمَن شَاءَ﴾ وأراد سبحانه ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المكلفون المجبولون على الهداية والضلال ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ بالإيمان والأعمال الصالحة، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، فيهتدي بطريق النجاة منها ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: 37] بالكفر، وارتكاب المناهي والمنكرات، وفعل المحرمات، فوقع فيها وازدجر.

وبالجملة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ واقترفت ﴿رَهِينَةٌ﴾

[المدثر: 38] مرهونة مرتهنة عند الله بكسبها، فكسبها إن كان لأجل الدنيا وما يترتب عليها من اللذات والشهوات البهيمية، والوهمية والخيالية من الجاه والثروة، والاستكبار والاستعظام بالأموال والأولاد، ترتب عليها أنواع العقوبات والمصيبات، وإن كان لأجل الآخرة من الإيمان والإسلام، وصوالح الأعمال، وارتكاب المتاعب والمشاق في طريق الحق وتوحيده، ترتب عليه أصناف المثوبات، وأنواع الكرامات والدرجات العليّة، والمقامات السنيّة من اللذات الروحانية.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: 39] وهم الطائرون إلى الله، السائرون نحوه؛ لإفناء هوياتهم في هوية الحق، المنخلعون عن لوازم عالم الناسوت بالمرة، المتخلعون بخلع عالم اللاهوت.

والمتمكنون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ ومنتزهات موصوفة بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن كمال تمكنهم وتقررهم في مقر الوحدة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المدثر: 40].

ويسألون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: 41].

على سبيل التعجب والاستبعاد: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وأدخلكم ﴿فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: 42] الإمكان، وجحيم الطرد والخذلان؟!

﴿قَالُوا﴾ أي: المجرمون في جوابهم متحسرين متأسفين: ﴿لَمْ نَكُ﴾ في دار الاختبار ونشأة الاعتبار ﴿مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: 43] المتوجهين نحو الحق في الأوقات المكتوبة علينا.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: 44] على مقتضى الأمر الإلهي عطفًا ولطفًا.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كُنَّا نَخُوضُ﴾ ونشرع في الباطل ونروجه، ونترك الحق ونهمله ﴿مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: 45] الشارعين المزوّرين، المروّجين عنادًا ومكابرةً.

﴿وَ﴾ أعظم من الكل: إنا ﴿كُنَّا﴾ من نهاية جهلنا وغفلتنا ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: 46] أي: بوقوع الطامة الكبرى وقيام الساعة، مقتفين أثر الضالين المضلين، مستظهرين بالآلهة الباطلة، مغترين بشفاعتهم العاطلة لدى الحاجة، وبالجملة: كنّا

مصرين على ما كنّا عليه.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: 47] وحلّ علينا الأجل، وظهرت مقدماته، وانقرضت نشأة الاختبار.

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المدثر: 48 – 56].

وبالجملة: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48] حين أُخذوا بظلمهم، لو شفّعوا لهم جميعًا.

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ وأيّ شيء عرض لهم ولحق بهم، مع أنهم مجبولون على فطرة التوحيد واليقين، حتى صاروا ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ التي هي آيات القرآن المبيّنة لسرائر التوحيد والعرفان ﴿مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: 49] منصرفين على سبيل الإنكار والاستكبار.

وبالجملة: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في هذا الإعراض والنفرة المتفرعة لغاية السخافة، ونهاية البلادة ﴿حُمُرٌ﴾ هي مثل في البلادة المتناهية ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: 50] من شدة رعبها وخوفها.

سيما حين ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 51] أشد صائل عليها، شبّه نفرتهم عن التذكر بآيات القرآن حسدًا وحميةً جاهليةً بالحُمُر المستنفرة من الأسد، والجامع بينهما: البلادة المتناهية، بل هم أسوأ حالاً من الحُمُر؛ إذ الحُمُر فرت من العدو؛ خوفًا من ضرره، وهؤلاء فروا من الحق المشفِق، النافع لهم نفعًا صوريًا ومعنويًا، وما حملهم وأوقعهم على فتنة الاستنفار والاستنكاف إلّا حميتهم وغيرتهم الجاهلية، بأن لم يؤمنوا بما نزل على غيرهم.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ﴾ له من قِبَل الحق ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس مدونة

﴿مُنَشَّرَةً﴾[1] [المدثر: 52] تنشر وقت القراءة، ثمّ تُطوى، كالصكوك والسجلات؛ لذلك قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلاً منّا بكتاب من السماء مكتوب فيها: من الله إلى فلان، اتّبع محمدًا، فإنه نبي صادق.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردًا عليهم، وردعًا لهم عن الإعراض عن الإيمان والتذكر، لا عن امتناع المقترح، فإنه لا يستحيل على الله شيء، لو تعلق به مشيئتهم ﴿بَل لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾[2] [المدثر: 53] ولم يؤمنوا لها؛ لذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف يتأتى لهم الإعراض عن التذكرة ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: 54] وأيّ تذكرة وتبصرة؟!

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: 55] أي: أيّ شيء اتعظ وتذكر به فقد هدى واهتدى إلى الله.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب: إنه ﴿مَا يَذْكُرُونَ﴾ ويتذكرون به ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تذكّرهم وهدايتهم؛ إذ أفعال العباد كلها مستندة إليه سبحانه، مخلوقة له، وكيف لا يفوّض إلى مشيئته سبحانه عموم أمور العباد، مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته، ومقتضى أسمائه وصفاته ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾ وأحق من أن يتقى من انتقامه وقهره؛ إذ هو المقتدر على وجوه الانتقام ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] حقيق بأن يُرجى منه العفو والغفران، سيما على المتقين المستغفرين؛ إذ هو المقتدر بالاستقلال على عموم الإنعام والانتقام، والإكرام؟!

جعلنا الله من زمرة أهل التقوى والمغفرة بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد المحقق، المتحقق بسر سريان الوحدة الذاتية في عموم

---

(1) يعني: القوى القالبية والنفسية يريدون أن يرد عليهم الوارد كما يرد على القلب ليؤمنوا، ولا يعلمون أن ليس لهم طاقة سماع ما في الوارد على لسان اللطيفة المنذرة، فكيف يطيقون حمل قوة الوارد؟. [عين الحياة].

(2) هو التمني أيضًا يلقى الشيطان فيهم ليزداد لهم إنكار الآخرة، لا يتمنون الوارد أن يرد عليهم ليؤمنوا، بل يكذبون الوارد ووجود الآخرة ولا يخافون منها [عين الحياة].

المظاهر، وباستقلال الوجود في عموم الآثار الظاهرة في الأنفس والآفاق أن تذعن وتعرف أن جميع الأفعال الجارية في عالم الغيب والشهادة إنما هي مستندة إليه سبحانه، صادرة عنه أصالةً وفق الإرادة والاختيار، وإنما أظهرها سبحانه في مظاهر أسمائه، وملابس صفاته إظهارًا لكمال قدرته، ومتانة حكمته، وإحاطة علمه وإرادته، وعجائب صنعه وصنعته.

فلك أن تعتقدها على الوجه المذكور، وتجزم بها علمًا إلى أن يصير علمك عينًا، وعينك حقًا، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

وفقنا بما أنت تحب منّا وترضى يا مولانا.

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة القيامة

لا يخفى على من تحقق في مقر التوحيد، وتمكن في مقر التجريد والتفريد أن عموم المظاهر والمجالي منقهرة تحت سلطنة الوحدة الذاتية، فانية فيها، مضمحلة دونها، وأن التعينات المحسوسات والهويات المترتبة الغير الموجودة، إنما هي أظلال أسمائه وعكوس أوصافه الذاتية المتفرعة على شئونه وتطوراته القبضية والبسطية المترتبة على التجليات الجمالية والجلالية.

وبعدما انكشف الأمر على هذا المنوال ثبت أن الكل برزوا لله الواحد القهار، الكبير المتعال.

ثمّ لمّا أراد سبحانه أن ينبه عباده على ظهور هذه الحالة، وبروز هذه الواقعة الموعودة في النشأة الأخرى، أشار سبحانه إلى وقوعها وقيامها على وجه المبالغة والتأكيد من طريق مخصوص من طرائق التوكيد، وأردفها بالإشارة إلى النفس اللوامة المعينة على تصديقها، وتهيئة ما يناسبها من الأخلاق والأعمال أيضًا على وجهها من المبالغة والتأكيد، فقال سبحانه بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي استغنى عن عموم مظاهره ومصنوعاته بمقتضى ذاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإظهارها حسب آثار أسمائه وصفاته في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليها حسب انقهار الكل في وحدة ذاته، وإفنائه في هويته الذاتية في النشأة الأخرى.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ
﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا
لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: 1-15].

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 1] أي: بوقوع الطامة الكبرى وثبوتها وقيامها؛ إذ هي من غاية ظهورها وجلائها غنية عن أن يؤكَّد أمر وقوعها وقيامها بالقسم عند العارف المحقق المتحقق بمقام التوحيد واليقين.

﴿وَلَا أُقْسِمُ﴾ أيضًا ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1] [القيامة: 2] أي: وكذا لا حاجة إلى القسم بظهور النفس اللوامة في عالم الكون والفساد؛ إذ كل نفس من النفوس الكائنة تعلم أن العالم ما هو إلَّا سراب باطل وعكس زائل عاطل، لا قرار له، ولا مدار لها فيه، وتلوم دائمًا نفسها عليها، إلَّا أنها لا تتنبه على سلطنة الوحدة، ولا تتفطن بسرايتها واستيلائها على عموم ما ظهر وبطن، وغاب وشهد، حتى تصير لوَّامة، مطمئنة راضية، وراضيته مرضية، ومرضيته فقيرة، وفقيرته فانية، وفانيته باقية، وليس وراء ذلك مرمى ومنتهى.

أدركنا بلطفك الخفي يا خفي الألطاف.

ثمَّ التفت سبحانه نحو حقيقة الإنسان المجبول نحو فطرة العرفان حسب حصة لاهوته، ووبَّخه بما وبَّخه تشنيعًا وتقريعًا، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويظن ﴿الْإِنسَانُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: 3] أي: إنَّا لا نقدر مع كمال قدرتنا على إبدائه وإبداعه على إعادته، وجمع عظامه مرة بعد أخرى في يوم البعث والجزاء؟!

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نحن نقدر على إعادته، وجمع عظامه؛ وتسوية جميع أعضائه على الوجه الذي كان، بل ﴿قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 4] أي: سلاميه على وجهها، خص بالذكر؛ لأن جميع أجزائها أصعب من سائر الجسد؛ لاشتمالها على دقائق العظام ورقائق العروق والأعصاب، والغضاريف والرباطات المعينة على القبض

(1) قال علاء الدولة: أي: أقسم بهما والسر الذي قرنهما أن كل من وصل إلى قيامته اليوم تصير نفسه الأمارة لوامة، بحيث تلوم صاحبها في كل حركة وسكون يصدر منه على خلاف أمر الحق، ولا تحسب أن القيامة بعيده عنك، بل لو كشف الغطاء غطاؤك لشاهدت القيامة أقرب إليك من شراك نعلك، ولوامتها دالة على ظهور نور القيامة في باطنك، وهذه الملامة تنفع لصاحبها ما دامت معها آلات الكسب لتعتذر وتتوب إلى الله، فأما بعد نزع الآلة عنها لا تنفع ملامتها إلا ندامة وحسرة وعذابًا، والنفس المؤمنة اللوامة تلوم صاحبها في الدنيا، والنفس الكافرة اللوامة تلوم صاحبها في العقبى.

والبسط، والأخذ والبطش، ولصعوبة الاطلاع على أجزائها عجز الأطباء عن تشريحها؛ يعني: إنَّا نقدر على جمعها مع صعوبتها، فكيف نجمع غيرها؟!

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ﴾ المركَّب من الجهل والنسيان بظنه وحسبانه ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: 5] أي: يدوم ويمضي دائمًا على الفجور والفسوق، والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية فيما يستقبله من الزمان، كما كان عليها فيما مضى.

لذلك ﴿يَسْأَلُ﴾ سؤال إنكار واستبعاد: ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى يقوم، وأيِّ آن يقع ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 6] التي تبلى السرائر، وتكشف الستائر فيها؟.

بيِّن لي أيها المدعي وقت وقوعه؛ حتى أكف وأمنع نفسي عن الفجور، وأتوب عنها يقينًا وثقةً، إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء والتهكم.

وكيف يستهزئ ويصر على الإنكار ذلك المستهزئ المسرف المصر؟! ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ وتحير ﴿الْبَصَرُ﴾ [القيامة: 7] أي: حاسة عالم الناسوت وجاسوسه حين ظهرت طلائع عالم اللاهوت فزعًا وهولاً، ودهشًا مما يرى من العجائب والغرائب الموعودة التي كان ينكر ويكذِّب بها في دار الدنيا وبقعة الإمكان.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿خَسَفَ الْقَمَرُ﴾ [القيامة: 8] أي: ذهب ضوء الوجود الإضافي المستعار، وانمحى نوره، وأشرف على الأفول في أفق العدم.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿جُمِعَ الشَّمْسُ﴾ أي: ظهر نور الوجود المطلق المستغني عن عموم المظاهر والمجالي ﴿وَالْقَمَرُ﴾[1] [القيامة: 9] أي: اندرج ضوء الوجود الإضافي المنعكس منها، واندمج فيها، ولم يبق له كون ولا لون، ولا بين ولا بون.

وبعد رجوع الكل إليها، وانطمامها فيها، وانقهارها دونها ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ المنعزل عن اليقين والعرفان ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ [القيامة: 10] والملجأ؛ حتى أفر إليه، وألجأ نحوه؟.

---

(1) قال علاء الدولة: أي: جمع شمس روحه وقمر قلبه في عالم نفسه؛ ليرى بضوء شمس روحه أن هؤلاء أعد الله تعالى للقوى العلوية المستكبرة الروحانية التابعة للهوى القوى السفلية على وفق هواها، وهذا الحال مما يشاهد الأغلال والإنكار التي كسبتها القوى السفلية على وفق هواها، وهذا الحال مما يشاهد السالك في أثناء سلوكه، فينبغي أن يتيقن بأنه من علامات القيامة التي قامت بالموت الاختياري.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يكون له حينئذٍ ملجأ ومقر في الوجود حتى يطلبه؛ إذ ﴿لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: 11] أي: لا حصن ولا ملجأ، ولا حرز ولا مخلِّص له يومئذٍ، بل في عموم الأوقات والأزمان عند العارف غير الحق؛ إذ لا شيء في الوجود سواه.

فثبت أنه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وإلى كنف حفظه وجواره ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 12] أي: لا مقر حينئذٍ لعموم العباد إلَّا عنده سبحانه، ولا مرجع لهم سواه.

وبعد رجوع الكل إليه سبحانه، وحضوره دونه ﴿يُنَبَّأُ﴾ ويخبر ﴿الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من الأعمال الصالحة، وأتى بها ﴿وَ﴾ بما ﴿أَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] منها، ولم يأت بها وتركها، بل أتى بأضدادها على التفصيل بلا فوت شيء منها.

﴿بَلِ﴾ لا حاجة حينئذٍ إلى الإنباء والإخبار بما صدر عنه؛ إذ ﴿الْإِنسَانُ﴾ له حينئذٍ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ وبما صدر عنه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14] كاملة وبيِّنة، واضحة موضحة؛ إذ يشهد له وعليه حينئذٍ جوارحه وآلاته التي اقترف بها ما اقترف من الحسنات والسيئات.

بحيث ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: 15] أي: جميع ما يعتذر به من الأعذار الكاذبة، لم يسمع مع حضور الشهود والعدول التي هي أعضاؤه وجوارحه، بل يعامل معه بمقتضى ما يحاسب عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: 16-25].

ثمَّ لمَّا استعجل رسول الله ﷺ، وبادر بالتقاط الوحي من فيّ جبريل عليه السلام، إلى حيث سبق عليه بالتلفظ خوفًا من أن ينفلت منه شيء، نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن ذلك تأديبًا وإرشادًا فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ حين التقاطك من حامل الوحي؛ يعني: جبريل عليه السلام، قبل أن يتم وحيه وإلقاؤه لك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16] أي: لتأخذه على عجلة خوفًا من إفلاته عنك.

لا تخف ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في خاطرك وضميرك ﴿وَ﴾ أيضًا علينا بعد جمعنا ﴿قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17] وقراءته على لسانك على وجهه بلا فوت شيء منه، لا تتعب نفسك بالعجلة، ولا تستعجل بالإلتفاظ قبل الالتمام.

وبعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل فأجر عليه، واذكر ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: القرآن حين الوحي بلسان جبريل عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18] أي: تذكر وتتبع قراءته.

﴿ثُمَّ﴾ تتبع تلاوته وتكرر حتى ينتقش في صحيفة خاطرك، ويترشّخ في ذهنك، ثمّ أجر على لسانك مرارًا كذلك، ثمّ إن بقي لك شك وتردد في معناه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19] أي: تبيينه وتوضيحه لك، وإزالة ترددك إشكالك عنه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لرسوله ﷺ، وكفًا لعموم عباده عن العجلة في جميع الأمور مبالغةً وتأكيدًا؛ لأن الإنسان مجبول على الاستعجال، مطبوع عليه؛ لذلك بالغ سبحانه في النهي عنه، وأردف بهذا النهي حسب العاجل والآجل، فقال على سبيل الإضراب: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 21.20] يعني: إن بني آدم كلهم مجبولون على العجلة؛ لذلك يحبون ويختارون اللذة العاجلة الدنيوية مع سرعة انقضائها وزوالها، على اللذة الآجلة الأخروية مع بقائها ودوامها، وعدم انقضائها أصلاً، ويتركون الأعمال المقتضية لها.

لذلك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم قيام الساعة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] طريّة بهيّة مشرقة، يتلألأ منها أنوار اليقين والعرفان، وآثار الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، وهي وجوه أرباب العناية الموفّقين على صلاح الدارين، وفلاح النشأتين.

لذلك حينئذٍ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] [القيامة: 23] وبمطالعة لقائه مشرفة مسرورة.

---

(1) قال علاء الدولة: بلا حجاب كلما ينظر إلى وجه نضارة وجه الناظر وقرارة عينه وحق لها تنظر وتقر، وكلما تزيد نضاره الوجه وقرارة العين يتنعم بمشاهدة جمال وجه الرب أكثر من الأول؛ لأن حسن جماله بلا نهاية، والناظر بقدر قرارة عينه يقدر أن يشاهد ذلك الجمال، فكلما يزداد قربه يزداد حسن جماله في نظره ولأجل هذا لا يستريح الواصلون من العمل بعد وصولهم إلى الأصل و﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:61]، وعلى هذه المشاهدة ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:26] فعلامة الواصل إلى هذا المقام في الدنيا زيادة عطشه عند شرب

﴿وَوُجُوهٌ﴾ أُخر ﴿يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: 24] عبوسة كلوحة، متغيرة مسودة.

بحيث ﴿تَظُنُّ﴾ بل يجزم كلُّ من نظر إليها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ ويعرض عليها ﴿فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: 25] داهية شديدة، ومصيبة عظيمة تكسر فقار ظهرها من هولها وشدتها.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 26-40].

﴿كَلَّا﴾ أي: كيف تحبون وتختارون اللذة الفانية العاجلة على الباقية الآجلة؟! أمَا تتذكرون ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس، وعزمت على التوديع والخروج ﴿التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: 26] أي: عالم الصدر قريب المخرج؟!

﴿وَقِيلَ﴾ حينئذٍ في حقه؛ أي: الملائكة الموكلون على الموت، مستفهمين فيما بينهم على سبيل المشورة: ﴿مَنْ﴾ هو ﴿رَاقٍ﴾ [القيامة: 27] منّا، قابض روحه، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿ظَنَّ﴾ بل جزم المختصر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: 28] والافتراق عن الدنيا، وما فيها من عموم اللذات والشهوات المحبوبة فيها.

﴿وَ﴾ بعدما جزم بفراق الأحبة ﴿الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: 29] أي: التولت ساقه بساقه من كمال ضجرته وأسفه، فلا يقدر حركتها وتحريكها.

ماء مشاهدته، فكلّما يزداد عطشه إلى الأبد الآباد، وسر هذا الحرف يتعلق بحد القرآن، فاجتهد في أن تصل إلى هذه الكرامة العظيمة في الدنيا؛ لأن استيفاء حظك منها مع الآلات والأدوات يزيد نفعًا فما يرى بعد نزع الآلات والأدوات.

وبالجملة: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 30][1] أي: سوقه إليه، ورجوعه نحوه، وحكمه عنده، وحسابه عليه.

وبالجملة: إذا سُئل الإنسان حينئذٍ عمّا أُمر له ونهي عنه في النشأة الأولى، كيف يجيب، مع أنه ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ على من أُمر بتصديقه، ولا قَبِل منه ما هو صلاحه في دينه ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: 31] ومال إلى الله في الأوقات المكتوبة المقدَّرة للتوجه والرجوع نحوه سبحانه؟!

﴿وَلَٰكِن﴾ عكس الأمر؛ إذ ﴿كَذَّبَ﴾ على من أُمر بتصديقه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: 32] أي: انصرف وأعرض عن الطاعات المأمورة به.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انصرافه وإعراضه عن المرشد الدّاعي ﴿ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ [القيامة: 33] يتبختر فرحانًا مسرورًا، مباهيًا بفعلته، مفتخرًا بشأنه.

قيل له حينئذٍ من قِبَل الحق مخاطبًا إياه بالويل والهلاك؛ بسبب فعله هذا ومباهاته: ﴿أَوْلَىٰ﴾ وأليق ﴿لَكَ﴾ وبحالك في شأنك هذا الويل والهلاك ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: 34] لك وبحالك الويل والهلاك.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾ كذلك ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: 35] لك كذلك تأكيدًا على ذلك، وتشديدًا على عذابك، ووخامة حالك ومآلك، أيها المسرف المفرط، المباهي بالإعراض والانصراف عن الإيمان والطاعات؛ المراد منه: أبو جهل، عليه اللعنة.

ثمّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ المصرّ على الكفران والطغيان ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36] مهملاً لا يكلف، ولا يحاسب بعد التكليف، ولا يجازى ولا يعاقب على أفعاله، مع أنه إنما جُبل على فطرة التكليف والمعرفة، وبمقتضى حسبانه هذا أنكر البعث والجزاء، وخرج عن مقتضى الأوامر والنواهي الواردة عليه في نشأة الاختبار، مصرًا على كفره وكفرانه؟!

ومن أين يتأتى له الخروج عن ربقة العبودية ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ مهينة مرذولة، حاصلة ﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾ مهين مرذول ﴿يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: 37] ويصب في الرحم المرذول؟!

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ قذرة في الرحم، كسائر الأقذار ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: قدّر سبحانه

(1) إلى الله وإلى حكمه يُساق، لا إلى غيره، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار، وهو مصدر: ساقه مساقًا.

أعضاءه وجوارحه منها، وبعدما قدّره وصوّره ﴿فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: 38] أي: عَدَله وقوّمه سبحانه بحوله وقوته، فصار جسدًا ذا حس وحركة، وقوّاه فأقامه.

﴿فَجَعَلَ﴾ وخلق بكمال قدرته، ومتانة حكمته وصنعته لمصلحة التناسل والتكاثر ﴿مِنْهُ﴾ أي: من ماء الإنسان ونطفته ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [القيامة: 39] تتميمًا للحكمة البالغة المتقنة.

ثمَّ قال سبحانه موبخًا مقرعًا على وجه الاستبعاد عن كفران الإنسان، وإصراره على إنكار البعث والحشر، وإعادة الأموات أحياءً كما كان: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ القادر المقتدر الذي قدر على خلق هذه الصور المهينة الخبيثة وتبديلها، صوّرها عجيبة بديعة، قابلة لفيضان أنواع الكمالات، لائقة للخلافة والنيابة الإلهية ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[1] [القيامة: 40] مرة بعد أخرى، مع أن الإعادة أهون من الإبداء؟!

بلى، لك الإعادة والإبداء أيها القادر المقتدر على خلق الأشياء، أنت تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا تُسأل عن فعلك، إنك حميد مجيد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بحيطة الحق وشموله، واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته، وجبروته ولاهوته أن تعتقد أن قدرته الكاملة لا يعتريها كلال، ولا يعرضها فطرة ولا زوال، بل له أن يظهر ويوجد بمقتضى قدرته جميع ما ثبت وتحقق في حضرة علمه، ولوح قضائه من الصور البديعة التي لا يخطر ببالك مطلقًا، فله أن يكون ويوجد من كل ذرة عوالم ما شاء الله، وكذا يدرج العوالم الغير المحصورة في كل ذرة من

(1) قال علاء الدولة: أليس الذي عمل هذه الأعمال في نطفة، وخلق صاحب النطفة بإرادته كما شاء مما يشاء يقدر أن يحي القوى الميتة القالبية والنفسية غير المدركة بنتائجها الباقية وبما كسبت من الآلام الدائمة، بلى قادر على أن يحي الموتى في الدنيا قبل نزع الآلات والأدوات منها لتعذر عن السيئات، وتتوب إلى خالق السماوات والأرض، وتحي بعد نزع الآلات حياة طيبة أبد الآباد، وقادر على أن يحي الموتى العقبى بعد نزع الاستعدادات لتشقى في الآخرة أبد الآباد ونحدد على ذلك؛ لأنا شاهدنا في أنفسنا وفي أنفس غيرنا مما أرسلهم الله إلينا لنداويهم فداويناهم وأحياهم الله تعالى، وشاهدوا كل الذي كتب في هذه السورة مشاهدة إيقان عيان عن غير ظن وحسبان، وصار إيمانهم الغيبي الذي يخبر الله عنهم في كلامه بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:3] إيمانًا شهوديًا وعيانيًا ذوقيًا أظهر من فلق الصبح.

ذرائر الكائنات.

وبالجملة: من وصل إلى سعة قلب الإنسان، وساحة صدره ظهر عنده أنه لا يمتنع، ولا يستحيل في جنب قدرته سبحانه وإرادته شيء من مقدوراته ومراداته مطلقًا.

فهيهات هيهات لو نظرت إلى أجزاء العالم بنظر العبرة والاستبصار، بل إلى نفسك ورقائق أعضائك وجوارحك، ودفعت الألفة والعادة عن البين، لرأيت من كل شيء وفي كل ذرة من ذرائر العالم عجائب وغرائب، لا تُعدّ ولا تُحصى.

غاية ما في الباب: إن ألفك حجبك عن هذا الإدراك، وعادتك عاقتك عن رؤية البدائع الإلهية، ولو تنوّر بصر بصيرتك، ونظر سرك وسريرتك بكحل الاستبصار والاعتبار، لرأيت من عجائب قدرة الله، وبدائع صنعه وحكمته في كل طرفة ولمحة ما بجنبه أمر الحشر والنشر، وإعادة الأموات أحياء سهل يسير.

حققنا بحقيتك وقيوميتك يا ذا القوة المتين.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الإنسان

لا يخفى على من انكشف بحقيقة الإنسان، وكيفية تطوراته المتلونة، وشئونه المترقية من الخباثة والخساسة إلى أنواع النجابة والكرامة حتى وصل إلى رتبة الخلافة والنيابة الإلهية أن مبنى ترقيه وتدليه من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب، إنما هي بالتربية الإلهية، وتكريمه بمقتضى تجليه عليه بعموم أسمائه الكاملة، وأوصافه الشاملة؛ ليرشده إلى وحدة ذاته، ويخلقه بأخلاقه وأوصافه.

ولاشك أن تربية الدنى المرذولة إنما هي بتغيير الخصلة المذمومة، وتبديل الديدنة المستهجنة، وذلك لا يتيسر إلّا بوضع التكاليف، وتحميل المتاعب والمشاق القالعة المصفية لأقذار الطبائع، وأكدار الهيولي اللازمة للقوى البشرية، وأيضًا بتلميظ المعارف والحقائق المشوقة إلى اللذات الروحانية، والمكاشفات اللدنية المخلصة عن الرسوم العادية مطلقًا؛ لذلك أشار سبحانه في هذه السورة العظيمة الشأن إلى أحوال الإنسان، وكيفية ترقيه من شأن إلى شأن إلى أن وصل إلى ما وصل من الهداية والعرفان، فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي بمقتضى عموم أسمائه الحسنى، وصفاته العليا في مظهر الإنسان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع التربية والإحسان حتى أوصله وهداه إلى طريق الإيمان والعرفان ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يوصله إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: 1-6].

﴿هَلْ أَتَى﴾ أي: قد سبق ومضى ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ المصوّر بصورة الرحمن

﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي: شأن محدود من الشئون الغير المحدودة الإلهية، بحيث ﴿لَمْ يَكُن﴾ الإنسان فيه ﴿شَيْئًا﴾ إذ العدم ليس بشيء، فكيف كان ﴿مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1] ؟!(1)

---

(1) قال سيدنا البيطار: اعلم - رحمك الله - أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن:1، 2]، للإنسان قبل خلق الإنسان ثم ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:3، 4]، والقرآن الجامع لكتاب الوجود الإلهي خلق رسول الله ﷺ الموصوف بالعظمة الإلهية، فتعليم القرآن له هو تجلي الأحدية، وفي هذا التجلي لم يكن شيئًا مذكورًا مع الأحدية الغنية بأحدية ذاتها عن العالمين، وإتيان الحين من الدهر عبارة عن انفراد الأحدية بذاتها لذاتها بتجلي أحدي هو عين ذاتها، واندراج كل شيء بتلك الأحدية عبر عنه بتعليم الرحمن القرآن وبأحسن تقويم، وخلق الإنسان هو الرد، أي: التنزل من أسفل سافلين؛ لأن الصورة الإنسانية وفق كمال الوجود مفتاحًا ومغلاقًا، وهذا المعنى هو مراد سيدي عبد السلام بن شيش رضي الله عنه بقوله: اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار.. إلى آخر ما قال. وقال فرد زمانه وغوث أوانه سيدي محمد وفا قدس الله سره: قلب القطب هو اسم الأعظم، ووجه ذاته الأكرم الذي قام به الخلق والأمر وعليه مدار السر والجهر، وكل قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابعه كقلب واحد، فهم ألسنته الناطقة، وكلماته الصادقة وأقلامه الفاتقة والراتقة، ولو برز جامع عالم القدرة يفسد نظام عالم الحكمة، ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27] انتهى كلامه، واعلم - رحمك الله - أن القطب مظهر الأخلاق المحمدية بحسب استعداده واستعداد وقته وزمانه، فهو في كل زمان مظهر محمدي كامل؛ لأن خلق رسول الله ﷺ هو القرآن، والقطب مظهر ذلك الخلق الذي هو القرآن، وأما قلب القطب الذي قال عنه سيدي محمد وفا بأنه اسم الله الأعظم ووجه ذاته الأكرم، فهو السراج المنير الذي هو قلب القرآن يس، وهو النور المحمدي الذي هو الحقيقة الإنسانية المحمدية التي علم الرحمن: أي: تجلي الرحمن على تلك الحقيقة بكنه ذاته التي هي مدلول جميع ما في القرآن قبل خلق صورة الإنسان، فهي غيب القطب، والقطب الذي هو المظهر المحمدي الكامل في وقته هو شهادة ذلك الغيب، وذلك الغيب هو الإنسان الذي ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان الله، ولم يكن شيء، والشيء المذكور هو المظهر، وفي حضرة الأحدية لا يمتاز مظهر عن مظهر، قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه بلسان تلك الحضرة:

وســـوانا مـــا تـــم أيـــن الظهـــور لـــو ظهـــرنا للـــشيء كـــان ســـوانا

واعلم أن القطب هو فجر الشهادة لليالي الغيب العشر الخمسة بشرية والخمسة ملكية وتلك الليالي العشر محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر المذكور في آية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:38] وقد أخبر القطب

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا بمقتضى كمال قدرتنا وإرادتنا، ووفور حكمتنا ﴿خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ وقدّرنا وجوده بعدما أخرجناه من العدم الصرف نحو فضاء البروز، وصوّرناه بصور العناصر ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة مرذولة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ مختلطة مجتمعة من الذكر والأنثى، وبعدما صوّرناه هيكلاً سويًا، وأودعنا فيه ما أودعنا من الروح وسميناه إنسانًا ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره ونجرّبه، هل يتفطن إلى موجده ومظهره، أم لا؟.

وكيف لا نختبره ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ لحكمة الاختبار، ومصلحة الاعتبار ﴿سَمِيعًا﴾ متمكنًا قادرًا على استماع آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2] مقتدرًا على مشاهدة بدائع صنعنا، وغرائب صنعتنا، وعجائب حكمتنا؛ ليكون معتبرًا منها، متوجهًا إلى فاعلها.

ومع إعطاء تلك الكرامات العظيمة إياه ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: أودعنا فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الذي هو حضرة علمنا، وبواسطته هديناه إلينا سبيلاً بأن أرسلنا الرسل المنبِّهين عليه، الموقظين له من نعاس النسيان، المنهين له إلى ما أودعنا فيه من الوديعة البديعة، وأيدناهم بالآيات المبيِّنة المنبِّهة، النازلة من لدنا، والبينات الواضحة الموضحة لطريق توحيدنا، وسبيل شهودنا، وبعدما وضح الحق، واتضح السبيل على الوجه الأبلغ الأكمل.

فعليه الاختيار ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ أي: إمّا أن يكون شاكرًا مشتغلاً بشكر النعم، مواظبًا على أداء حقوق الكرم، صارفًا عنان عزمه واختياره إلى صوب الهداية والرشاد حتى يكون من أرباب العناية والسداد، المتنعمين في جنة الرضا والتسليم ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3] للنعم، كافرًا لمنعمها، مقتفيًا أثر أصحاب الغفلة والعناد، واللدد والفساد

سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ أنه كان يقوم في أبحر عشرة، وهي العشرة التي ذكرناها، وقال أبو الحسن الشاذلي: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاها أو شيئًا منها فليبرز أن يمد بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الموجودين، وانفصال الأول عن الأولى، وما اتصل عنه إلى منتهاه، وما ثبت فيه، وحكم ما قبل وحكم ما بعد وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو: العلم المحيط بكل علم، وبكل معلوم بدءً من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه. انتهى كلامه ﷺ. ولا يخفى أن طلسم هذا الكنز لا يحله إلا من تحقق بما تحقق به أبو الحسن الشاذلي ﷺ.

حتى يكون من أصحاب الجحيم.

وبالجملة: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيَّأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق المشرقة، الظاهرة على صفائح ذرائر الكائنات؛ لذلك خرجوا عن ربقة ربقيته، وعروة عبوديته، وأعرضوا عن مقتضى حدوده الموضوعة بين عباده ﴿سَلَاسِلَ﴾ أي: سلاسل الحرص وطول الأمل، يُقادون ويُسحبون بها نحو نيران الإمكان، وجحيم الطرد والحرمان بأنواع الخيبة والخسران ﴿وَأَغْلَالاً﴾ أي: أغلال الأماني والشهوات، يُقيَّدون بها ﴿وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4] مسعرًا مملوءًا بنيران الافتقار والاحتياج، والأماني والآمال، يُطرحون فيها طول دهرهم بأنواع الخذلان والهوان أبدًا، ويُسجنون خالدين مخلدين.

ثمَّ أردف سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة فقال: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ﴾ الأخيار، البارين المبرورين ذوي الأيدي والأبصار، المستغرقين في بحار المعارف والأسرار ﴿يَشْرَبُونَ﴾ لدى الملك الجبار خمور الشهود والاعتبار ﴿مِن كَأْسٍ﴾ أي: من كؤوس ذرائر العالم المستعار؛ ولذلك ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما يمزج بها ويخلط ﴿كَافُورًا﴾[1] [الإنسان: 5] هو برد اليقين.

يعني: ﴿عَيْنًا﴾ معينًا هي ينبوع بحر الوجود ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ومنها ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ الواصلون إلى عالم اللاهوت، والفانون في فضاء الجبروت، الباقون ببقاء حضرة الرحموت؛ لذلك ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ ويجرونها ﴿تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: 6] وإجراءً حيث شاءوا.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا

(1) قال علاء الدولة: يعني: إن الشاكرين نعمنا يشربون من كأس استعدادهم التي كان مزاجها كافورًا؛ يعني: طينة الكأس ممن وجه بكافور الجمال صورة والجلال معنى، والمسك جلالي في الصورة والكافور جمالي في الصورة، وفي بيان هذه السر لطيفة، لو لجت بها لاستباح العوام سفكَ دم، وإن كان من بطن القرآن فطويت صحيفتها.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: 7-14].

وصاروا من كمال وصولهم واتصالهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ويوفرون على المنذور ﴿وَ﴾ كيف لا يوفون أولئك الموفون، مع أنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وأيّ يوم، يومًا ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده وأهواله ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: 7] طائرًا منتشرًا بين عموم العباد؟!

﴿وَ﴾ من كمال استغراقهم بمطالعة وجهه الكريم ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: الرزق الصوري والمعنوي، المسوق لهم من عنده سبحانه تقويةً وتقويمًا، ترحيبًا وتكريمًا ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ طلبًا لمرضاته ﴿مِسْكِينًا﴾ أسكنه الفقر، وأزعجه إلى المعاونة والسؤال ﴿وَيَتِيمًا﴾ أدركه الذل، وأحوجه إلى الافتقار ﴿وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8] أذلّه الصغار والهوان، وأفقره إلى الرعاية والترحم.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الحسن والحسين - سلام الله وصلواته على جدهما ووالديهما وعليهما - مرضا مرضًا هائلاً فعادهما رسول الله ﷺ في ناس، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة - على النبي وعليهما وابنيهما الصلاة والسلام - وفضة جارية لفاطمة صوم ثلاثة أيام إن برئا، ثمّ لمّا برئا صاموا وما معهم شيء، واستقرض عليّ من شمعون الخيبري ثلاثة آصع من الشعير، فطحنت فاطمة صاعًا، وخبزت خمسة أقراص على عدد رءوسهم، فوضعوا بين أيديهم ليفطروا، فجاء على الباب مسكين، فأعطوا له وآثروه على أنفسهم، وباتوا ولم يذوقوا إلّا الماء، وأصبحوا صيامًا.

فلمّا أمسوا فعلوا كذلك، فألمّ عليهم يتيم فآثروه كذلك، فأصبحوا صيامًا، ففعلوا في اليوم الثالث مثل ذلك، فجاء أسير، فأعطوه فباتوا بلا طعام، فنزل جبريل بهذه الآية فقال: هنأك الله في أهل بيتك يا نبي الله.

ثمّ لمّا أضمروا في نفوسهم ومناجاتهم حين صدور هذا الإحسان عنهم طلب مرضاة الله، وتثبيتًا لهم على دينه وطاعته، وتشويقًا منهم إلى لقائه، نزل في حقهم على وفق ما نووا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ أي: ما نطعمكم أيها المحتاجون إلّا ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ الكريم، وطلبًا لمرضاته؛ إذ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾ ليصير عوضًا؛ لإطعامنا لوجه الله الكريم ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9] ما لنا من الشكر والجزاء أمر.

وكيف يتأتى منّا طلب الشكر والجزاء؛ إذ قدرتنا على إطعامكم إنما هي بإقدار الله إيانا، وإعطاؤنا إنما هي من عطاياه؟! وبالجملة: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ بطلب الأجر والجزاء ﴿مِن﴾ غضب ﴿رَّبِّنَا﴾ بنا ﴿يَوْمًا﴾ وأيّ يوم، يومًا ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه مطلق الوجوه من شدة هوله، بل صارت ﴿قَمْطَرِيرًا﴾[1] [الإنسان: 10] في غاية الشدة والعبوسة، سيما على أهل الرياء والسمعة، الطامعين بصدقاتهم الذكر الجميل، والثناء الجزيل، مع أنهم إنما يعطون من مال الله لعيال الله.

وبعدما أخلصوا لله، وخافوا من عذابه ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ الحكيم الحفيظ ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: فرفع عنهم شره، وأبدله لهم خيرًا ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أي: لقى لهم يومهم ﴿نَضْرَةً﴾ طراوة وصفاء في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11] وبهجة في قلوبهم.

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا ما فعلوا خالصًا لوجه الله ﴿جَزَاهُم﴾ سبحانه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وحبسوا نفوسهم عن مشتهيات المنهيات والمحرمات، وعلى أداء الواجبات، وإيثار الأموال والأرزاق المسوق نحوهم؛ لطلب المرضاة ﴿جَنَّةً﴾ مصورة من صالحات أعمالهم وحالاتهم ومقاماتهم، يتلذذون فيها باللذات الروحانية أبد الآباد ﴿وَ﴾ يلبسون فيها ﴿حَرِيرًا﴾ [الإنسان: 12] متخذًا من حلل الأسماء والصفات التي لا يتصور فيها الحول والخشونة أصلاً.

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني: مستظهرين فيها بالألطاف الإلهية، مستظلين بكنف حفظه وجواره، بحيث ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: حرارتها المؤذية لهم ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: 13] أي: البرودة المضرة، بل تعتدل فيها الهواء والأهواء؛ لتعديلهم الأخلاق والأعمال والأحوال.

﴿وَ﴾ ليس ظلال الجنة بعيدة عنهم، بل كانت ﴿دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ الموعودة لهم من قِبَل الحق ﴿وَ﴾ لهم فيها ثمار متجددة، متلونة من أنواع المعارف والحقائق اللدنية المترتبة على أشجار الأسماء والصفات الإلهية التي اتصفوا بها، وتخلقوا

---

(1) قال السمناني: إنا نخاف من اللطيفة الربوبية السكينة في قالبنا يومًا أظلم فيه شمس الروح، وقمر القلب وكوكب الحواس، ونجوم القوى فصار يومًا عبوسًا على صاحبه، وهذا يشاهد وقت تقرر ذكر الرب عن القلب الغافل عن الرب، وفي ذكر القمطرير شدة الكرب، وهو عند تقرر القلب السليم عن الذكر الذي يجري على لسان ملوث بالغيبة، والكذب والفحش، ومما لا يعنيه.

بمقتضاها، ولا تكون تلك الأشجار وأثمارها، وأغصانها الكثيرة بعيدة آية عنهم بعدما اتصفوا بها، بل ﴿ذُلِّلَتْ﴾ وسخرت ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها لهم ﴿تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: 14] بحيث متى أرادوا تلذذوا بها بلا تردد؛ إذ كمالاتهم كلها حينئذٍ بالفعل بلا انتظار لهم إياها، وترقب لها.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان: 15-23].

﴿وَ﴾ لتكميل ترفههم وتنعمهم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ﴾ متخذة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: من فضة عقائدهم الصافية البيضاء، الشفافة الخالصة عن مطلق الكدورات ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أباريق وكيزان لا عروة من شدة صفائها وجلائها، كأنها ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾ [الإنسان: 15] في الرقة.

وأية قوارير ﴿قَوَارِيرَ﴾ متخذة ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ من غاية صفائها وشفافها لا يُرى لها لون ولا كون، بحيث اشتبه أمرها عند الرائي؛ لذلك ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[1] [الإنسان: 16] بمقتضى ما راعوا في الاعتدال في الأطوار والأخلاق.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ هؤلاء المقربون ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الأواني والأكواب ﴿كَأْسًا﴾ خمرًا من خمور المحبة والمودة ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: 17] أي: كالزنجبيل في المساغ وسرعة الانحدار.

(1) قال السمناني: يعني: يطاف عليهم قواهم المطهر بآنية نياتهم الثابتة، مثل القصعة في الصلابة وأكواب استعدادهم الوسيعة الصافية، مثل الزجاج وشبهه بالزجاج؛ لأن الزجاج يخرج من الحجر، ويشعل النار تحته؛ لتحرق أجزاء الباطلة الكثيفة، كما كان حال القالب فهو مثل الحجر، فينبغي أن يشعل صاحبه نار الذكر؛ ليخرج منه خبائثه وكثائفه حتى يصير آنية صافية لطيفة، وشبهه بالفضة؛ ليكون آمنًا من الكسر صلابة استعدادهم مثل الفضة، وصفاؤهم ورقتهم الزجاجة يصف أمير المؤمنين على ابن أبي طالب ﷺ نفس المؤمن أنها أصلب من الصلد وأذل من العبد.

يعني: ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ جارية بماء الحياة الأزلية الأبدية السرمدية ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ [الإنسان: 18] لهدايتها وإرشادها إلى مشرب التوحيد، وبحر الوحدة الذاتية، كأنها تلقى وتلقن تلك العين المترشحة من بحر الحياة الأزلية الأبدية لأرباب العناية بقولها: سل أيها الطالب الحائر في بيداء الطلب سبيلاً إلى الوحدة الحقيقية الحقيَّة.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ تأنيسًا لهم وتصحيبًا ﴿وِلْدَانٌ﴾ حسان، مصورون من أعمالهم وأحوالهم ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ دائمون على صباحتهم وحسنهم، بحيث ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ [الإنسان: 19] من صفاء ألوانهم، ومقبولية هياكلهم، وصباحة خدهم، ورشاقة قدِّهم، وانعكاس أشعة وجوههم من كمال اللطافة والطراوة والصفاء المفرط.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِذَا رَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ثَمَّ﴾ أي: في الجنة ﴿رَأَيْتَ﴾ ما رأيت، وما أدراك ما رأيت، رأيت ﴿نَعِيمًا﴾ وأيّ نعيم، نعيمًا لا يكتنه غوره وطوره ﴿وَمُلْكًا﴾ وأيّ ملك، ملكًا ﴿كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20] وسيعًا فسيحًا، لا يدرك وسعته وقدره، ولا يكتنه طوره وغوره.

ومع ذلك ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي: يعلو عليهم فيها تعظيمًا لهم وتكريمًا ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ رقيق من الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ على لون الحياة؛ لأن حياتهم فيها سرمدية ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ منه كذلك ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ﴾ متخذة ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ تميمًا لتنعمهم وترفههم فيها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بعدما تمكنوا في مقعد الصدق عند المليك المقتدر ﴿شَرَابًا﴾ من كأس المحبة، ورحيق التوحيد والتحقيق ﴿طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] خاليًا خالصًا عن شوب الثنوية، وشين الكثرة مطلقًا، فسكروا منه، ولم يصحوا أبدًا.

ثمّ قيل لهم من قِبَل الحق: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ التي فزتم عليه الآن ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ موعودًا في مقابلة أعمالكم وأخلاقكم، وأحوالكم ومعارفكم، ومواجدكم التي أنتم عليها في النشأة الأولى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ الذي كنتم عليه في نشأة الاختبار ﴿مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22] مجازًا عليه، غير مضيع مع زيادات منّا عليكم تفضلاً وامتنانًا.

ثمّ لمّا جمع سبحانه جميع الفضائل والكمالات، وعموم المعارف والمشاهدات والمكاشفات اللدنية في المرتبة الجامعة الختمية المحمدية، المحيطة على عموم المراتب والمناصب، خاطبهم سبحانه خطاب امتنان ورحمة على وجه التعطف والتلطف فقال: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل

تأييدًا لك، وتعظيمًا لشأنك ﴿الْقُرْآنَ﴾ الحاوي لما في الكتب السالفة، المحتوي لجميع الكمالات اللائقة لعموم الأنبياء والرسل، المجتازين في سبيل التوحيد ﴿تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: 23] مفرقًا منجمًا على مقتضى الحكمة البالغة الباعثة على إنزالها حسب حاجتك إليها، وانكشافك بما فيها؛ لتتدرج في سلوكك وشهودك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ
وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ
هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: 24-31].

وبعدما سمعت ما سمعت من الكرامة والتعظيم ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ولا تستعجل في نصرتك وظهورك على عموم أعدائك من جنود أهل التقليد والضلال، سيما كفار مكة، خذلهم الله.

﴿وَ﴾ بعدما كوشفت بحقية الحق، ووحدته واستقلاله في الوجود ومطلق الآثار ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل التقليد وأصحاب الضلال أحدًا سواءً كان ﴿آثِمًا﴾ متناهيًا في الفسوق والعصيان، بحيث ينتهي إثمه إلى الكفر ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24] [1] لنعم الله، مبالغًا في كفران نعمه ونسيان كرمه، بحيث ينتهي كفرانه إلى الكفر، أعاذنا الله وعموم عباده منهما.

---

(1) قال الورتجبي: حقيقة إشارته أنه تعالى عرّف لهم الطريق، فمن بقى في الطريق ولم يصل إليه فمنعه لم يبلغ، ومن وصل إليه فيجد به بلغ إليه، فمن بلغ يكون بمعرفته شاكرًا له، ومن لم يبلغ إليه فيجد؛ لأنه يكون كافرًا به، إذ لم يذق طعم الوصال، ولم يرَ نور مشاهدة الجمال، مهّد الطريق، ونصّب الأعلام، وأوضح المنار والأدلة، ودعاهم به إلى نفسه، فمن واصل يسكن بما وجد به وهو شاكر، ومن واصل لم يسكن بما وجد، ويكون معربدًا بطلب مزيد الدنوّ، وقهر كل ما وجد لم يكن راضيًا حتى وصل إلى غيبوبة الغيب، ويشرب من أنهار صرف الصفات والذات، فيخرج متحدًا يدّعي الربوبية، ويكون كافر الحقيقة، قال سهل: بيّنا له طريق الخير من طريق الشر، إما أن يكون شاكرًا طائعًا، فمستقره الجنة، وإما أن يكون كفورًا جاحدًا، فمأواه النار.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: 25] أي: في عموم أوقاتك وحالاتك، وداوم على ذلك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ الموضوع؛ للخلوة مع الله، ودوام المراقبة معه ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وتوجه نحوه توجهًا خالصًا، مقارنًا بكمال الخضوع والخشوع، والتذلل التام ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ أي: نزه ذاته عن جميع ما لا يليق بشأنه ﴿لَيْلاً﴾ أي: في خلاله تسبيحًا ﴿طَوِيلاً﴾ [الإنسان: 26] خاليًا عن مطلق الشواغل، فارغ البال عن تشتت الآمال، هكذا دأب أصحاب الكمال، وديدنة أصحاب الوجد.

والحال ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ أي: أصحاب الضلال المنحرفين عن جادة الاعتدال ﴿يُحِبُّونَ﴾ اللذة ﴿العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي: يتركون أمامهم وخلفهم بلا مبالاة لهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان: 27] شديدًا، يشتد الأمر فيه عليهم ويصعب، ومع ذلك ينكرون له ويكذبونه.

وكيف يذرونه وينكرونه، مع أنّا نخبر به، ونأمر بتصديقه؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمقتضى قدرتنا ﴿خَلَقْنَاهُمْ﴾ وقدرنا وجودهم أولاً من أهون الأشياء، وأخسها وأرذلها ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: عدلنا أركانهم وجوارحهم، وأحكمنا مفاصلهم وأوصالهم، وبالجملة: سويناهم أشخاصًا قوابل للتكليف؛ ليترتب عليهم الإيمان والتصديق بجميع المعتقدات الدينية ﴿وَ﴾ بعدما لم يؤمنوا، ولم يصدقوا عنادًا ومكابرةً ﴿إِذَا شِئْنَا﴾ وتعلق مشيئتنا على إهلاكهم واستئصالهم أهلكناهم واستأصلناهم، و﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾ في الخلقة وجميع لوازمها ﴿تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان: 28] حسنًا، بحيث يكون المبدل خيرًا، وأحسن وأكمل من المبدل منه.

وبالجملة: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات الدالة على تهذيب الأخلاق والأطوار ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ ناشئة من قِبَل الحق ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أن يتعظ به، أو يتذكر بما فيها ﴿اتَّخَذَ﴾ أولاً ﴿إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان: 29] يعني: شرع في مسالك القرب والوصول إلى الله، فتقرب نحوه بالمعاملات، ثمّ بالأحوال والمقامات، ثمّ بالمعارف والحقائق المنتهية إلى المكاشفات والمشاهدات المؤدية إلى الوصول والنهايات، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا تَشَاءُونَ﴾ أيها المتقربون إلى الله، السائرون نحوه حسب التوفيق والتيسير الإلهي ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الموفق لهم، الموجد المقدر لعموم أفعالهم وأعمالهم، المنجي لهم عن غياهب الإمكان، وظلمات الخيالات والأوهام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾

المطلع على استعدادات عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بقابلياتهم اللائقة لفيضان الكشف والشهود ﴿حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 30] في تربيتهم وتكميلهم.

﴿يُدْخِلُ﴾ بمقتضى هدايته ولطفه ﴿مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾[1] التي هي سعة وحدته ﴿وَ﴾ لكن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المحرومين عن نظر العناية والتوفيق مطلقًا ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: 31] لا عذاب أشد منه إيلامًا، وأفزع انتقامًا، وهو حرمانهم عن ساحة عز القبول، نعوذ بك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد المترصد لمشيئة الله وتيسيره - وفقك الله على ما أملك، وأعانك على إنجاحه - أن تفرغ همك، وتخلي قلبك عن الالتفات إلى الدنيا معرضًا عن آمالها وأمانيها، متوجهًا إلى الآخرة وما فيها، متعرضًا لنفحات الحق، مستنشقًا من روائح روحه ورحمته، راجيًا من سعة لطفه وجوده أن ييسر لك، ويوفقك في عموم أوقاتك وحالاتك على ما هو خير لك في أولاك وأخراك، ويدفع عنك شرور بشريتك، ومقتضيات بهيميتك وقواك.

وبالجملة: فاتخذه وكيلاً، وثق إليه، واجعله حسيبًا وكفيلاً؛ إذ هو أعلم بما ينبغي لك منك، ويليق بحالك، فلك التفويض والتكلان، والأمر بيد الله الحكيم المستعان.

---

(1) قال ابن الخطيب: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئته بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجَهْل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة ألبتة. تفسير اللباب لابن عادل (16/156).

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المرسلات

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق، وانجذب إلى مرتبة الكشف والشهود والانجلاء التام المسقط لعموم العبارات والاعتبارات أن الركون إليه سبحانه، والانجذاب نحوه إنما يحصل بجذبات إلهية، ونفحات غيبية مهبة من نفسات الرحمن من قِبَل يمن عالم اللاهوت وحضرة الرحموت.

ولاشك أن الجذبات الإلهية متفاوتة بتفاوت الاستعدادات والقابليات المترتبة على رتبة الأسماء والصفات:

فمنهم: من جذبته العناية، وأدركته النفحات والنسمات اللاهوتية، كالبرق الخاطف فعصفن عليهم، وأزيل عنهم ملابس الإمكان بالكلية، وأخرجنهم عن سجن الطبيعة والهيولي على الفور بلا تراخٍ ومهلة.

ومنهم: من نشرنا عليهم هينات لينات، بحيث يستروحوا من هبوبها، ويستريحوا فيها حتى يترسخ في نفوسهم آثارها فيتدرجون إليها، ويتحنون نحوها متشوقين فيتطرقون أثرها حتى وصلوا إلى ما وصلوا، بل اتصلوا.

ومنهم: من يهبن عليهم، ويفرقن في نفوسهم بين الحق والباطل، والهداية والضلال على سبيل التدريج فيوقعن بينهم الفتن والبليات، وأنواع التجارب والاختبارات حتى يتفطن البعض منهم، ويتنبه فيكون من أصحاب الجنة، والبعض الآخر لم يتفطن، ولم ينبه فيكون من أصحاب النار.

ومنهم: من يلقين لهم بعد هبوبهن عليهم ذكرًا من عالم اللاهوت، مجردًا عن الفكر والفطنة، فكيف عن التحنن والتشوق، فكيف عن السيران والطيران؟!

فالأولى: إشارة إلى طريقة الشطار الطائرين إلى الله، كالبرق الخاطف.

والثانية: إلى طريقة الأبرار أرباب المواجيد والواردات والأذواق.

والثالثة: على طريق الأخيار، وأصحاب المعاملات والاستدلالات.

والرابعة: إلى طريقة العوام القانعين بالذكر والتكرار بلا وجدان وفطنة،

وذوق ومعرفة.

لذلك قال سبحانه في شأن العوام: ﴿أُوْلَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179].

ثم لمّا أراد سبحانه أن يشير إلى هذه الطرق أقسم بحاملي وحيه، ونفسات رحمته الفائضة منه سبحانه على عموم عباده على الدوام؛ ليستمدوا منه، ويتطرقوا نحوه متذكرين لمبدئهم ومعادهم حسب استعداداتهم وقابلياتهم، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المظهر لعموم عباده بامتداد أظلاله المترتبة على أوصافه الذاتية وأسمائه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضة نسمات روحه، ونفسات رحمته ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى فضاء وحدته بإرسال شمائم روحه وراحته.

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المرسلات: 1-19].

﴿وَ﴾ حق ﴿الْمُرْسَلَاتِ﴾ أي: رياح الجذبات المهبة من قِبَل عالم اللاهوت؛ لاسترواح أرواح سكان عالم الناسوت وأشباحهم ﴿عُرْفًا﴾[1] [المرسلات: 1] للتعارف والائتلاف الواقع بينهم بحسب الحقيقة.

(1) أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أو حين ففرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرًا إلى الأنبياء عليهم السلام عذرًا للمحقين أو نذرًا للمبطلين، أو أقسم برياح عذاب أرسلهن فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله: (ويجعله كِسَفًا) فألقين ذكرًا إما عذرًا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، واما نذرًا للذين لا يشكرون وينسبون ذلك إلى الأنواء، وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السببية. تفسير النسفي (3/ 498).

﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ النازعات ملابس عالم الناسوت، وثياب الإمكان عن أرواح المحبين المنجذبين نحو الحق ﴿عَصْفًا﴾ [المرسلات: 2] سريعًا شديدًا تخليصًا لهم عن سجن الطبيعة تفريجًا وترويجًا.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ المنتشرات على أراضي استعدادات أرباب الطلب والإرادات المتوجهين نحو الحق بعزيمة خالصة ﴿نَشْرًا﴾ [المرسلات: 3] لينًا هينًا، بحيث يوقظهم عن نوم الغفلة، ويخلصهم عن مضيق الضلال، ويرشدهم إلى فضاء الوصال.

﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ الواصلات إلى بقعة الإمكان من قِبَل الرحمن؛ ليفصلن ويفرقن لساكنيها بين الحق والباطل، والحرام والحلال، والهداية والضلال الواقعة في سلوك طريق الحق، وسبيل توحيده ﴿فَرْقًا﴾ [المرسلات: 4] بينًا واضحًا؛ ليتنبهوا إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ الملقنات لحوامل أثقال الطبيعة والأركان، المسجونين في سجن الإمكان، المقيدين بسلاسل الزمان، وأغلال المكان ﴿ذِكْرًا﴾ [المرسلات: 5] حسنًا من عالم اللاهوت، يجرونه على ألسنتهم؛ لعلهم يتذكرون بها مبدأهم الأصلي، ومنشأهم الحقيقي.

ليكون لهم ذكرهم هذا ﴿عُذْرًا﴾ يزيل ويمحو سيئات عالم الناسوت، وآثام لوازم بقعة الإمكان بعدما تنبهوا بها إلى عالم اللاهوت، طرقوا نحوه مهاجرين من بقعة الناسوت ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: 6] ينذرهم عن نيران الإمكان، وسعير الطرد والخذلان بعدما تذكروا نعيم عالم اللاهوت، وفضاء الجبروت.

يعني: ويحق هذه المقسمات العظام، المكرمات عند الله ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلفون من قِبَل الحق في يوم العرض والجزاء ﴿لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: 7] محقق وقعه وثبوته بلا ريب وتردد.

وبعدما وقعت الواقعة، وقامت القيامة ﴿فَإِذَا النُّجُومُ﴾ أي: الهويات المترتبة في عالم الكون والفساد ﴿طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: 8] انمحقت وانمحت، وغابت وتلاشت عند ظهور شمس الذات.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: نظام عالم الكون والفساد ﴿فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: 9] وانفصمت وتلاشت.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ﴾ الرواسي التي هي أوتاد الأرض، وهي في الحقيقة عبارة عن الهياكل المحسوسة في عالم الكون والفساد ﴿نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: 10] قلعت عن أماكنها، ثمّ ذريت برياح الفناء.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ﴾ المبعوثون؛ للإرشاد والتكميل، والإشهاد على صلاح العباد وسدادهم ﴿أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: 11] ووُقِّتَت؛ أي: عُيِّن لهم وقت الشهادة على أممهم بعدما أبهم عليهم وقتها في النشأة الأولى.

كأنه قيل لهم من قِبَل الحق: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [المرسلات: 12] وأُخرت شهادتهم؟.

وأجيب أيضًا من جانبه سبحانه: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: 13].

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: 14]؟ أبهمه سبحانه تهويلاً وتفخيمًا.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ وهلاك مؤبد مستمر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في يوم الفصل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 15] به، المنكرين له في النشأة الأولى، سيما بعد إخبار الرسل والكتب، وكيف يكذبونه وينكرون عليه أولئك الضالون المكذبون، مع أنهم قد سمعوا حال المكذبين المنكرين المَاضين؟!

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾ المكذبين ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 16] كقوم نوح وعاد وثمود، ولم نستأصلهم؛ بسبب إنكارهم وتكذيبهم بهذا اليوم؟!

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: 17] أي: نحن نُتبع ونُعقّب إهلاك الأولين بإهلاك الآخرين، كقوم شعيب وموسى وعيسى، وغيرهم أيضًا؛ بسبب تكذيب هذا اليوم، وتكذيب من أخبر به من الكتب والرسل.

وبالجملة: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلما فعلنا بالمكذبين السابقين، والآخرين اللاحقين ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: 18] أي: بعموم هؤلاء المجرمين الحاضرين، المكذبين على رسول الله ﷺ وآياته النازلة عليه.

لذلك ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 19].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ

ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المرسلات: 20-34].

وكيف تكذبون أيها المكذبون بما أُمرتم بتصديقه من لدنًا، مع أنكم قد عرفتم قدرتنا عليه وعلى أمثاله؟! ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أيها المجبولون على النسيان ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ مسترذل مستنزل ﴿مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20] في غاية المهانة والخباثة؟!

وبعد نزوله ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ مستقرًا ﴿فِي قَرَارٍ﴾ يعني: مقر الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: 21] مستقر.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: 22] وأجل معين، قدَّره الله العليم الحكيم للولادة، وتسوية الخلق، والخروج إلى عالم الشهادة.

وبالجملة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على خلقكم من النطفة المهينة، المكينة في ظلمة الرحم، وعلى إخراجكم منها إلى فضاء العالم، وتربيتكم فيها إلى أن صار كل منكم شخصًا ذا رأي ورشد، قابلاً لحمل التكاليف المثمرة للمعرفة والإيمان.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] المقتدرون نحن على إخراجكم من قبوركم أحياءً كما كنتم في يوم البعث والجزاء.

فلمَ تكذبون به أيها المكذبون، مع أنه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 24] بقدرتنا على الإعادة؟!

وكيف تنكرون قدرتنا الكاملة الشاملة على مطلق المقدورات ؟! ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿كِفَاتًا﴾ [المرسلات: 25] جامعة كافية.

ضامة ﴿أَحْيَاءً﴾ مرة ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: 26] أخرى؛ أي: كيف تكف وتجمع الأحياء والأموات من الإنسان على التعاقب والتوالي تارة فيها، وتارة عليها؟!

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ وعليها من نوع الإنسان ﴿رَوَاسِيَ﴾ أوتادًا وأقطابًا

﴿شَامِخَاتٍ﴾[1] عاليات متعاليات عن أن ينال بكنه معارفهم وشهوداتهم إدراك أحد ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم﴾ من لدنيَّات أولئك الأوتاد المتعالية أعذار أطوارهم العالية عن إدراك الأنام وإفهامهم ﴿مَّاءً﴾ حيانًا ﴿فُرَاتًا﴾ [المرسلات: 27] سائغًا شرابه لأولي العزائم الصحيحة، والمشارب الصافية.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 28] لقدرتنا واقتدارنا على إظهار هذه البدائع التي كلَّت دونها وصف الألسن والأحلام، ودرك العقول والأفهام، وكيف يكذبونه إذا عاينوه؟!

ويقال لهم حينئذٍ زجرًا عليهم وتوبيخًا: ﴿انطَلِقُوا﴾ وادخلوا أيها المكذبون ﴿إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: 29] من العذاب والنكال، وأنواع العقوبات والمكروهات.

ثمَّ قيل لهم تأكيدًا وتشديدًا على توبيخهم وتقريعهم: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ﴾ وأيّ ظل، ظل ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: 30] متشعبة من القوى البهيمية الوهمية الشهوية، والغضبية؛ إذ بها تقترف المعاصي، وتكتسب جميع الآثام الموجبة لدخول النار.

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ إذ لا يدفع ضرر الحرارة، كسائر الأظلال ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ويدفع ﴿مِنَ﴾ حر ﴿اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: 31] الجهنمية، وإحراق النيران.

وكيف يمكن أن يدفع حر جهنم ﴿إِنَّهَا﴾ أي: جهنم الطرد والخذلان، وجحيم اللعن والحرمان ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ وهي ما تطايرت من النار حين التهابها وسوادتها، وأيّ شرر، كل شرر ﴿كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: 32] الرفيع في الكبر وعظم المقدار؟!

﴿كَأَنَّهُ﴾ في التتابع والتوالي ﴿جِمَالَةٌ﴾ إبل متسلسلة، مترادفة متتابعة ﴿صُفْرٌ﴾

---

(1) قال حقي (16/ 378): صفة بعد صفة والشامخ العالى المرتفع أي طوالاً شواهق يعنى بلد وسر فرز ومنه شمخ بأنفه عبارة عن الكبر، وفى عين المعانى رواسى أي ثوابت الأصول رواسخ العروق شامخات أي مرتفعات الفروع ووصف جمع المذكر يجمع المؤنث فى غير العقلاء مطرد كأشهر معلومات ونحوه والتنكير للتخفيم أو للإشعار بأن ما يرى ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وأن فى عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير فإن السماء فيها جبال أيضًا بدلالة قوله تعالى من جبال فيها من برد.

[المرسلات: 33] لونها، شبّهها بها في عظم أجرامها وتتابعها، ولونها.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 34] بتكذيبهم بهذا العذاب الهائل بعدما أُمروا بتصديقه على ألسنة الرسل والكتب.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: 35-50].

وبعدما ساقهم الخزنة إليها بالزجر التام، والعنف المفرط، فأخذوا يطرحونهم إليها مهانين صاغرين، وهم يتضرعون صائحين فزعين، قيل لهم حينئذٍ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: 35] إذ نطقهم كاللانطق في عالم الدفع والنفع.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ حينئذٍ ﴿لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36] إذ لا يُسمع منهم العذر؛ لانقضاء نشأة التلافي والتدارك بالأعذار والتوبة.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 37] وأيّ ويل، ويل لا يكتنه غوره وطوره، وشدة هوله.

ثمّ قال لهم سبحانه حينئذٍ توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل، والمسيء والمحسن ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 38] أي: جمعنا الآخرين والأولين، والسابقين واللاحقين فيه.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المكلّفون ﴿كَيْدٌ﴾ ومكر تقاومون به معي، وتدفعون به عنكم عذابي ﴿فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: 39] وامكروني إن استطعتم.

وإلّا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 40] حتمًا؛ لأنه من أين يتأتى بينهم المكر والكيد، والحيلة والخداع مع الله في التخلص من العذاب، سيما في تلك الحالة؟!

وبالجملة: سوقوا نحو النار، وطُرحوا فيها مهانين، وعُذبوا بها صاغرين خالدين.

ثمَّ أردف سبحانه وعيد المكذبين بوعد المصدقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي، المصدقين بيوم الدين مستغرقون يومئذٍ في أنواع التنعم والترفه ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ممدودة في ظلال البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: 41] جارية فيها.

﴿وَفَوَاكِهَ﴾ كثيرة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: 42].

ويقال لهم حينئذٍ تلطفًا وتكريمًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ لكم مريئًا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: 43] من الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية المثمرة لتلك الحالات العليَّة، والمقامات السنيَّة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما أنتم عليه من الترفه والتنعم ﴿نَجْزِي﴾ عموم ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: 44] المخلصين في الأعمال والأخلاق، الراضين بما جرى عليهم من مقتضيات القضاء.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 45] لكم هذا النعيم المقيم، ولهم ذاك العذاب الأليم.

ثمَّ قيل للمكذبين من قِبَل الحق زجرًا عليهم، وتوبيخًا لهم بما اختاروا اللذة الفانية على اللذة الباقية على سبيل الفرض والتقدير، كأنهم أُمروا به في النشأة الأولى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ بالأمتعة الدنيوية زمنًا ﴿قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: 46] بالجرائم العظيمة، مؤاخذون عليها في النشأة الأخرى بشؤم تكذيبكم بما أُمرتم بتصديقه.

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 47] إذ عرضوا أنفسهم على العذاب المؤبَّد المخلَّد.

﴿وَ﴾ كيف لا يؤاخذون أولئك المعاندون المكابرون، كانوا من كمال استكبارهم وعتوهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿ارْكَعُوا﴾ تواضعوا لأمر الله، واخضعوا لحكمه، وانقادوا وصلوا نحوه متذللين ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: 48] من غاية استكبارهم واستعظامهم، ولا يمتثلون لحكم الله وأمر رسوله، ولا يطيعون لهم تعنتًا وعنادًا، بل يكذبونهم ويستهزئون معهم؟!

لذلك يحل عليهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 49] المستهزئين مع

رسل الله، الظاهرين عليهم بالإشارة والاستكبار، المتكبرين بما نزل عليهم من الكتب المبيِّنة لمعالم الدين، ومراسم التوحيد واليقين.

وبعدما لم يؤمنوا بهذا الكتاب المبين المبيِّن لطريق الحق، ومنهج الصدق والصواب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ﴾[1] أي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: 50] أولئك المنكرون المعاندون المسرفون؟!

جعلنا الله ممن آمن به، وامتثل بما فيه، وتفطن برموزه وإشاراته بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، القاصد لسلوك طريق الهداية والتوفيق، العازم على التحقق والتمكن في مقعد صدق التوحيد والتحقيق - يسَّر الله عليك مبتغاك - أن تتمسك بحبل المتين القرآني، وتتشبث بأذيال هدايته وإرشاده، وتمتثل بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه، وتتفطن بما رمز له، وأُشير إليه من المعارف والحقائق المصفِّية لسرك على الالتفات إلى ما سوى الحق، المعدَّة لقلبك لفيضان الكشف والشهود، فلك أن تتبتل على الله حسب استعدادك، وتتخلق بالأخلاق المحمدية التي هي القرآن.

والتوفيق بيد الله، والهداية عنده، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(1) قال الرازي (7 /321): على أن القرآن ليس قديماً قالوا: لأن الحديث ضد القديم، وأيضًا فلفظ الحديث يفيد من جهة العادة حدوثه عن قرب، ولذلك يقال: إن هذا الشيء حديث، وليس بعتيق فيجعلون الحديث ضد العتيق الذي طال زمان وجوده، ويقال: في الكلام إنه حديث؛ لأنه يحدث حالاً بعد حال على الأسماع.

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النبأ

لا يخفى على من انكشف له سرائر التكاليف الإلهية، وحِكم الأحكام الموردة من لدنه، ومصالح الأوامر والنواهي الناشئة من قدس ذاته أن مقتضى الألوهية والربوبية تربية المربوب، وتأديبه بتحميل المتاعب والمشاق المانعة عن مقتضيات الهوى ومتابعة شياطين الأوهام والخيالات الباطلة التي هي من جنود الأمّارة بالسوء، وبعدما لم يمتنع ولم ينزجر عن مقتضيات القوى الطبيعية، ولم يأت بالطاعات والعبادات المكلّفة المأمورة له لم يعتدل على صراط العدالة الإلهية، ولم يستقم على الطريق المستقيم الموصل الى جنة النعيم، فالحكمة الإلهية تقتضي أن يعذبه بالعذاب الأليم، ويدخله في نار الجحيم أبدًا مؤبدًا، خالدًا مخلدًا.

لذلك وضع سبحانه بمقتضى حكمته نشأتين: نشأة الاختبار والابتلاء، ونشأة الانتقال والجزاء، فجعل الأولى منزل العبور والاعتبار، والأخرى دار الثبوت والقرار.

فالعاقل العارف لا بدّ وأن يؤمن ويوقن بكلتيهما، ويستعد في أولاهما لأخراهما، ومن اغتر بالأولى وشغل بها عن الأخرى فقد لحق بالأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104] وبالجملة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105] لكمال ظهور النشأة الأخرى، ووضوح براهين المرتابين وقوعها وقيامها، حيث يتساءلون ويتقاولون فيما بينهم بخبر وقوعها وقيامها، ويتداولونها على سبيل المراء والاستهزاء، فقال سبحانه بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ للكل حسب النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم أيضًا حسب النشأة الأخرى.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ
أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: 1-16].

﴿عَمَّ﴾ يعني: عن ما، وعن أيّ شيء وأمر ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: 1] ويتقاولون فيما بينهم مراءً ومجادلةً؟.

﴿عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: 2 .3] أي: يختلفون في قيام الساعة الموعودة؛ لتنقيد أعمال العباد، والجزاء عليهم على وفقها، مع أن أمره أظهر من أن يشك فيه ويسأل عنه، ويستهزأ به، ويختلف فيه وفي وقوعه.

﴿كَلَّا﴾ أي: من أين يتأتى لهم إنكاره والتساؤل فيه على وجه المراء، مع أنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: 4] عن قريب، بل قربه كلمح البصر، بل هو أقرب؟!

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: 5] حين ألم عليهم بغتة، وهم لا يشعرون.

وبالجملة: من أين يتأتى لهم إنكار يوم البعث والجزاء، هل ينكرون قدرتنا الكاملة على أمثاله؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: 6] لهم، ممهدة مبسوطة، ينتشرون عليه ويستريحون؟!

﴿وَ﴾ لم نجعل ﴿الْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7] [1] عليها تقريرًا لها وتثبيتًا؟!

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: قدَّرنا أشباحكم أيها المكلفون ﴿أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: 8] أصنافًا ذكرًا وأنثى؛ لتتآنسوا وتتناسلوا؟!

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ في الليالي ﴿سُبَاتًا﴾ [النبأ: 9] قطعًا عن الإحساس والحركة؛ ليحصل إرخاء الأعصاب والعضلات؛ لتستريحوا، وزالت كلال القوى وفتورها فتشتد بالاستراحة، وتشتغل بأفعالها في النهار بجرأة تامة، وقوة كاملة.

---

(1) إنّ هذه الآية إنّما ذكرت ليستدلّ على وجود الصّانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمراً مشاهداً معلوماً، حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع لأنّ الشيء إذا رأيت حجمه، ومقداره، صار ذلك الحجم، وذلك المقدار عبرة. تفسير اللباب لابن عادل (380/9).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ لكم ﴿لِبَاسًا﴾ [النبأ: 10] غطاءً وغشاءً تستترون فيه، وتختفون به فيما فيه الإخفاء مطلوبكم.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: 11] وقتًا تطلبون فيه ما تعيشون من حوائجكم ومطعوماتكم وملبوساتكم.

﴿وَبَنَيْنَا﴾ بكمال قدرتنا، ومتانة حكمتنا ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سماوات طباقًا ﴿شِدَادًا﴾ [النبأ: 12] أقوياء محكمات، مستحكمات لا يتأثرن بمر الدهور، وكر الإعصار كسائر الأبنية.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ في خلالها ﴿سِرَاجًا﴾ مضيئًا متلألئ، متشعشعًا ﴿وَهَّاجًا﴾ [النبأ: 13] حارًا سخينًا في غاية السخونة عند الانعكاس؛ لتنضج ما تحتاجون إليه في أمور معاشكم.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ أيضًا تتميمًا لتربيتكم، وترتيب معيشتكم ﴿مِنَ﴾ السحب ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ بالرياح ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: 14] مطرًا كثير الانصباب، متتالي القطر.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿حَبًّا﴾ تقتاتون به ﴿وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: 15] تعلف به مواشيكم.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهات لكم وبساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ [النبأ: 16] ملتفات أشجارها وثمارها من كثرتها وكثافتها.

كل ذلك من المقدورات التي يتفطن منها العاقل المنصف على وقوع الحشر والنشر، وجميع الأمور الغيبية الموعودة في يوم الجزاء، بل جميع المقدورات الداخلة تحت قبضة القدرة الإلهية؛ إذ نسبة القدرة الكاملة الإلهية إلى هذه المقدورات وأمثالها، وإلى الأمور الموعودة فيها على السواء، والإرادة الكاملة الإلهية ترجح كلًّا منها عند حلول ما قدّر الله له من الوقت والأجل.

وبالجملة: من ترقى إدراكه عن مضيق الألف، وخرق حجبَ الرسوم والعادات، وخلص من ظلمات الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات التي هي منبع عموم الخيرات، ومنشأ جميع الكمالات، انكشف له ولاح عنده أن أمر النشأة الأولى والأخرى وأمثالهما، بل أضعافهما وآلافهما في جنب القدرة الغالبة الإلهية سهل يسير، لكن المحجوب المحبوس في عالم المحسوس المقيّد بعقال العقل

المبهوت، المشوب بالوهم المنحوس، والخيال المزور المنكوس، يتخيل حصر المظاهر والمجالي الإلهية بسراب عالم الطبيعة والهيولي؛ لذلك وقع فيما وقع من البلوى، وزلت نعله في سبيل القرب من المولى.

هب لنا من لدنك رحمة تنجينا عن أمثال هذه المهالك، إنك أنت الوهاب.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ
فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا
﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ
كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: 17-30].

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ الفارق بين احتجاب أصحاب الحيرة والضلال، وأرباب العناية والوصال ﴿كَانَ﴾ له ﴿مِيقَاتًا﴾ [النبأ: 17] وقتًا معينًا في حضرة علم الله، مقدرًا في لوح قضائه، لم يطلع أحدًا عليه وعلى تعيينه، بل أخبرهم بأماراته وعلاماته.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم إذ حل وقت يوم الفصل، وقيام الساعة ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الأولى؛ لبعث الموتى، وإذا وصل لهم ذلك الصدى فيخرجون من قبورهم حيارى سكارى مبهوتين، ثمّ ينفخ فيه ثانيًا؛ للحشر ﴿فَتَأْتُونَ﴾ المحشر ﴿أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: 18] زمرًا زمرًا، فرقًا فرقًا.

﴿وَ﴾ يومئذٍ ﴿فُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ أي: خرقت وشقت ﴿فَكَانَتْ﴾ الخرق والشقوق لها ﴿أَبْوَابًا﴾ [النبأ: 19].

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض، وتحركت فطارت أجزاؤها، كالهباء نحو الهواء ﴿فَكَانَتْ﴾ أشكالها وهيئاتها ﴿سَرَابًا﴾ [النبأ: 20] أي: كالسراب يُرى على صورة الجبال، ولا حقيقة لها كما هي الآن عند العارف المكاشف.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يومئذٍ ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: 21] مرصدًا ومصيرًا لعموم العباد، يعبرها أهل الجنة على تفاوت سرعة وبطء، مترتبًا على تفاوت أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم: منهم من لا يلتفت نحوها، ولا يدركها أين هي وإن عبرها.

ومنهم من يعبرها، كالبرق الخاطف، ثمّ الأمثل الأمثل فينجون من غوائلها، ويسقط فيها أهل النار، ويبتلون بأغلالها وسلاسلها فتصير ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ المصرّين على كفرهم وطغيانهم ﴿مَآبًا﴾ [النبأ: 22] مرجعًا ومأوى، لا يخرجون منها

بل يكونون ﴿لابِثِينَ﴾ ماكثين ﴿فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: 23] وأيّ أحقاب، أحقابًا لا كأحقاب الدنيا، بل لا نهاية لها، ولا غاية لحدها فذكرها كنايةً عن عدم نهايتها.

وهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في جهنم البعد والحرمان ﴿بَرْدًا﴾ لحرمانهم عن لذة برد اليقين في النشأة الأولى ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: 24] لأنهم لم يشربوا في النشأة الأولى من زلال الإيمان شربة، ولا من رحيق العرفان جرعة.

لذلك لم يشربوا في النشأة الأخرى ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماءً حارًا، سخن بنيران غضبهم وشهواتهم، بحيث يقطع أمعاءهم من شدة حرارته.

﴿وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: 25] صديدًا يسيل من جراحات أهل النار، بدل ما يأكلون ويشربون من أموال اليتامى والمظلومين ظلمًا.

وبالجملة: جوزوا فيها ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: 26] موافقًا مطابقًا لأعمالهم التي آتوا بها في دار الدنيا.

وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ حين يمموا على المعاصي، وعزموا على الآثام ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يأملون ﴿حِسَابًا﴾ [النبأ: 27] ولا يخافون عذابًا.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿كَذَّبُوا﴾ بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا، واقتدارنا على وجوه الإنعام والانتقام، وعلى رسلنا المنزلة إليهم بتلك الآيات ﴿بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: 28] تكذيبًا بليغًا، وإنكارًا شديدًا إلى حيث يستهزئون بالآيات والرسل.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: 29] يعني: وهم وإن بالغوا في التكذيب والعناد فصلنا عليهم أعمالهم، وأحصينا لهم جميع خصائلهم المذمومة في صحف أعمالهم، سيحاسبون عليها على التفصيل، ويجازون بمقتضاها.

وبعدما يحاسبون ويؤاخذون، يقال لهم زجرًا عليهم وتوبيخًا: ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المسرفون المفرطون ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ بأعمالكم وتكذيبكم ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: 30] فوق العذاب.

في الحديث - صلوات الله على قائله -: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل

النار»[1].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: 31-40].

ثمّ أردف سبحانه بوعيدهم وعد المؤمنين تشديدًا لعذابهم وتأكيدًا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين، المتحفظين نفوسهم عن محارم الله خوفًا من عذاب الله، ورجاءً من فضله ﴿مَفَازًا﴾ [النبأ: 31] مخلصًا ونجاةً من جميع المكاره اللاحقة للكفار والعصاة.

﴿حَدَائِقَ﴾ ذات بهجة ونضارة ونزاهة ﴿وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: 32] معروشات وغير معروشات.

﴿وَ﴾ إن لهم فيها أزواجًا ﴿كَوَاعِبَ﴾ نواهد، استدارة ثديهن مثل الرمان ﴿أَتْرَابًا﴾ [النبأ: 33] أبكارًا، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 56].

﴿وَكَأْسًا﴾ من خمور المحبة الإلهية ﴿دِهَاقًا﴾ [النبأ: 34] ملآنًا.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة عند شرب خمور المحبة ﴿لَغْوًا﴾ فضولاً من الكلام ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: 35] [2] أي: مكاذبة، يكذِّب بعضهم بعضًا، كما يقع بين شاربي شراب الدنيا.

وإنما يجازون بما يجازون ﴿جَزَاءً﴾ ناشئًا ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَطَاءً﴾ منه إياهم تفضلاً عليهم وإحسانًا؛ إذ لا يجب عليه سبحانه شيء ﴿حِسَابًا﴾ [النبأ: 36]

---

(1) ذكره الرازي في «تفسيره» (301/16).

(2) قال بندار بن الحسين: الجزاء إذا كان من الله لا يكون له نهاية؛ لأنه لا يكون على حد الأعواض، بل يكون فوق الحدود؛ لأنه ممن لا حد له ولا نهاية، فعطاؤه لا حد له ولا نهاية، قال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، والجزاء على الأعمال والفضل موهبةٌ من الله، يخصُّ به الخواص من أهل وداده. [العرائس].

كافيًا وافيًا، لا ينقصون ولا ينتظرون.

وكيف لا يتفضل سبحانه على أوليائه، مع كونه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: «رَبُّ» أي: مربّي العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: «الرَّحْمَنُ» المستوي على عروش الكل بالرحمة العامة، والاستيلاء التام، والسلطنة القاهرة، والبسطة الغالبة بالإرادة والاختيار، بحيث ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يقدرون؛ أي: أهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ﴾ سبحانه ﴿خِطَابًا﴾ [النبأ: 37] أي: لا يسع لهم أن يخاطبوه، ويطالبوا منه شيئًا من زيادة ثواب ونقص عقاب، بل هو بذاته فعَّال لكل ما يريد من مقتضيات أسمائه وصفاته بالإرادة والاختيار، لا يُسئل عن فعله، إنه حكيم حميد؟!

وكيف يملك ويقدر خطابه سبحانه هؤلاء الأظلال الهلكى في حدود ذواتهم، مع أنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ أي: الوجودات الإضافية الفائضة على هياكل الهويات من أشعة نور الوجود المطلق ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية المجردات عن التعليقات مطلقًا ﴿صَفًّا﴾ صافين مصطفين، ساكتين صامتين من كمال دهشتهم عن سطوة سلطنة الذات القاهرة الغالبة ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ حينئذٍ، ولا يقدرون على التفوه بالحال أو المقال ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ بالشفاعة والسؤال فتكلم بإذنه ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38] مرضيًا عند الله مستجابًا؟!

وبالجملة: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ أي: يوم الفصل والقيامة هو اليوم ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الكائن وقوعه بلا خلف ولا ريب ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أن يأمن من فتنته، ويخلص من عذابه ﴿اتَّخَذَ﴾ وأخذ في النشأة الأولى ﴿إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: 39] مرجعًا ومنقلبًا يتوجه إليه، ويتحنن نحوه متقربًا بصوالح الأعمال، ومحاسن الأخلاق والأطوار.

وبالجملة: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ﴾ أيها المعرضون عن الله، المنصرفون عن طاعاته وعباداته ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سيلحقكم بغتة، وأنتم لا تشعرون بأماراته ومقدماته ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ﴾ ويرجى جميع ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ خيرًا كان أو شرًا، نفعًا كان أو ضرًا ﴿وَ﴾ بعدما رأى الكل يومئذٍ ما رأى من المصالح والمقابح الصادرة منه، الجارية عليه ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ﴾ الرائي قوابح أفعاله، وفواسد أعماله، متأسفًا متحسرًا متمنيًا هلاكه على سبيل المبالغة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: 40] لم أُخلق ولم أُكلف؛ حتى لا أستحق هذا

الويل والثبور.

هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الرحيم الغفور.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تتزود ليوم الجزاء بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته، والامتثال بأوامره، والتخلق بأخلاقه؛ حتى لا تستحي من الله في يوم الجزاء، ولا تتمنى مقتك وهلاكك مثل من كفر وعصى.

فلك أن تلازم على أداء الواجبات والمستحبات، والمسنونات من الصلوات والزكوات وأنواع الطاعات، والتقرب نحوه بالنوافل من الطاعات والصلوات والصدقات، والخدمة بالجوارح والآلات لعموم عباد الله، والسعي إلى مطلق الخيرات والمبرات، والاجتهاد في طريق الحسنات وترك السيئات ومطلق المنكرات؛ حتى تتخلص من كؤود العقبات، وتصل إلى روضات الجنات، وتفوز بالفوز بالسعادات وأنواع الكرامات.

جعلنا الله من أرباب الهداية والتوفيق، ويسر لنا الوصول إلى مقر التوحيد والتحقيق بمنّه وجوده.

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النازعات

لا يخفى على السالكين المندرجين عن مضيق الطبيعة نحو فضاء الحقيقة، مهاجرًا من بقعة الإمكان ولوازمها نحو الوجوب الذاتي أن التخلص والنجاة من سلاسل الأماني وأغلال الآمال مطلقًا لا يتيسر إلّا بجواذب الحق، ووحيه المفوّض من عنده على أسمائه وصفاته الفعّالة في عالم الكون والفساد، الموسومين المتسمين بالملائكة النازعات المخلصات للأرواح البشرية التي هي من جنود عالم اللاهوت، المسجونة في مضيق الناسوت في حصون الهويات الإمكانية، وقلائع الطبائع والأركان.

فبعضهم بعدما هبطوا إليها، وتوطنوا فيها نسوا موطنهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي، وبعضهم صاروا محبوسين مسجونين، متذكرين الموطن الأصلي، راجين الخلاص عن ورطة الهلاك، وبعضهم مترددون، وبعضهم متحركون مضطربون للخروج، ولا يتأتى لهم.

ولمّا كان حالهم في سجن الطبيعة وعالم الإمكان هكذا، وكّل عليهم سبحانه عنايةً منه وفضلاً نوازع نازلة من عالم الجبروت حسب قيوداتهم التي كانوا عليها؛ حتى يخلصوهم عن مضيق الناسوت، ويوصلوهم إلى فضاء اللاهوت.

وأقسم سبحانه بحق هذه النوازع العظيمة الشئون؛ لثبوت يوم البعث والجزاء الذي انقهرت وانعدمت عند قيامه وظهوره سراب عالم الناسوت مطلقًا؛ ليرتدع المنكرون عن إنكاره، وينزجر الملحدون عن الجحود فيه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المقدّر لأمور عباده حسب ما اقتضته حكمته ومصلحته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم في النشأة الأولى، ينبههم عن سِنة الغفلة ﴿الرَّحِيمِ﴾ في النشأة الأخرى، يخلصهم عن سجن الطبيعة.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا

خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: 1-14].

﴿وَ﴾ حق ﴿ٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ المخلِّصات أرواح عموم العباد عن محابس الطبائع والأركان ﴿غَرْقًا﴾ [النازعات: 1] لاستغراقهم في لوازم الناسوت، ومقتضياتها المغشية صفاء عالم اللاهوت.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ المنزعات المخرجات لنفوس أرباب المحبة والولاء المتشوقين إلى عالم العماء، وفضاء اللاهوت ﴿نَشْطًا﴾ [النازعات: 2] رفقًا ولطفًا؛ لكمال تحننهم وشوقهم إلى الخلاص.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ المخرجات أرواح الأبرار من أشباحهم هينات لينات، يقبضون رفقًا، ثمّ يمهلون حتى يستريح، ثمّ يقبضون، هكذا إلى أن يخلصوهم، كالسابح في المّاء يتحرك، ثمّ يستريح، ثمّ يتحرك ﴿سَبْحًا﴾ [النازعات: 3] لكونهم سابحين في بحر الحيرة حتى وصلوا إلى بحر اليقين.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ أي: النفوس الفانية في الله، الباقية ببقائه، المبادرة إلى الخروج قبل نزول النازعات ﴿سَبْقًا﴾ [النازعات: 4] لكمال شوقهم وانبعاثهم، وتجرُّدهم عن ملابس عالم الناسوت، وانخلاعهم عن مقتضيات الطبيعة والأركان قبل حلول الأجل، وهجوم المخرجات المخلِّصات.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ الموكلات على تدابير عموم المظاهر من الأرزاق والآجال، وجميع الأمور الجارية في عالم الكون والفساد ﴿أَمْرًا﴾ [النازعات: 5] (1) لكونهم مأمورين بها، موكَّلين عليها بمقتضى حكمة القدير العليم؛ يعني: وحق هذه الحوامل العظام، والموكلات الكرام لتبعثن من قبوركم، ولتحاسبن على أعمالكم أيها المكلفون.

---

(1) قال القاشاني: أقسم بالنفوس المشتاقة التى غلب عليها النزع إلى جناب الحق غريقة في بحار الشوق والمحبة والتي تنشط من مقر النفس وأسر الطبيعة أى تخرج من قيود صفاتها وعلائق البدن من قولهم نور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد أو من قولهم نشط من عقاله والتي تسبح في بحار الصفات فتسبق إلى عين الذات ومقام الفناء في الوحدة فتدبر بالرجوع إلى الكثرة أمر الدعوة إلى الحق والهداية وأمر النظام في مقام التفصيل بعد الجمع انتهى ثم إن النفوس الشريفة لا يبعد أن يظهر منها آثار في هذا العالم سواء كانت مفارقة عن الإبدان أولا فتكون مدبرات.

اذكروا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: 6] المتقررة الساكنة التي لا حركة لها أصلاً، كالأرض وسائر الجمادات.

وبعد تحرك هؤلاء الجوامد ﴿تَتْبَعُهَا﴾ في الحركة والاضطراب والاندكاك ﴿الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 7] أي: العلويات السائرة المتحركة، حيث تتشقق السماوات، وتنتثر الكواكب، وبالجملة: تختلط العلويات بالسفليات وتتمازجان، بحيث لا علو ولا سفل.

ومن شدة الهول ونهاية الفزع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: 8] قلقة حائرة، شديدة الاضطراب.

﴿أَبْصَارُهَا﴾ أي: أبصار أصحاب القلوب حينئذٍ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: 9] شاخصة ذليلة من شدة الخوف والهول، مع أن هؤلاء الشاخصين الواجفين كانوا ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا﴾ في النشأة الأولى حين أخبرهم الرسل بالبعث والحشر على سبيل الاستبعاد والإنكار ﴿لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: 10] أي: إلى الحالة التي كنّا عليها؛ يعني: أنبعث أحياءً كما كنا من قبل؟!

ثمّ يزيدون الإنكار على الإنكار بقولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ [النازعات: 11] بالية رميمة، نُبعث ونحيا؟! كلّا وحاشا، من أين يتأتى لنا هذا؟!

وبعدما استبعدوا واستكبروا بما استنكروا ﴿قَالُوا﴾ منهمكين ومستهزئين: ﴿تِلْكَ﴾ الحالة المفروضة لو وقعت، ورددنا إلى الحياة بعد الموت، كما زعم هؤلاء المدّعون؛ يعنون: الرسل، يحصل لنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ﴾ عودة ورجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: 12] ذا خسران وخذلان؛ لأننا كنا نكذّب بها، ولا نصدّق من أخبر بها، وبعدما وقعت كنّا خاسرين خسرانًا عظيمًا.

وبعدما تقاولوا من بطرهم وخيلائهم ما تقاولوا، قيل لهم من قِبَل الحق، مقرّعًا على استماع استعداداتهم: لا تستبعدوا أمر الساعة، ولا تستصعبوها ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: أمر الساعة وقيامها عند كمال قدرتنا الغالبة القاهرة ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: 13] أي: نفخة واحدة، يُنفخ في الصور بأمرنا وحكمنا.

فإذا نفخت النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 14] أي: فوجئ بنو آدم بأجمعهم فصاروا أحياءً على وجه الأرض، كما كانوا عليها في النشأة الأولى من

الهيئات والأشكال، والهياكل والهويات.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: 15-26].

ثمّ أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثه على الاصطبار بأذيات أصحاب التكذيب والاستكبار فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: 15] يعني: بما اضطربت بتكذيب قومك، وإنكارهم عليك، وإعراضهم عن هدايتك وإرشادك يا أكمل الرسل، أليس قد أتيتك حديث أخيك موسى الكليم؛ حتى يسليك ويزيح كربك، ويرشدك إلى الصبر والثبات مثل أخيك؛ حتى تظفر على أعدائك مثله.

وذلك وقت ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ بلا وسيلة الملك، وسفارة السفير؛ إذ هو حينئذٍ من إفراط المحبة ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار، والالتفات إلى ما سوى الملك الجبار ﴿طُوًى﴾ [النازعات: 16] أي: طويت دونه حينئذٍ مطلق التعينات والنقوش الطارئة على بحر الوجود من رياح الإضافات المعوجة الممنوحة.

وبعدما تقرر في مقعد الصدق، وتمكن على مكمن اللاهوت أمره سبحانه بالالتفات إلى عالم الناسوت، والرجعة نحوه؛ للإرشاد والتكميل تتميمًا لقضية الحكمة البالغة، المتقنة الإلهية بقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ العالي العاتي، الباغي الطاغي ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: 17] وتجاوز عن مقتضى العبودية طغيانًا فاحشًا إلى أن ادّعى الألوهية لنفسه.

﴿فَقُلْ﴾ مستفهمًا أولاً على طريق الملاينة اللازمة لمرتبة النبوة والإرشاد: ﴿هَل لَّكَ﴾ بعدما انحرفت عن جادة العبودية بهذه الدعوى الكاذبة الباطلة ميل ﴿إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ [النازعات: 18] وتتطهر عن رذيلة الكفر والطغيان، ونقيصة الظلم والعدوان.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ وأرشدك أنا بإذن الله ووحيه ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وتقديس مربيك الذي أظهرك من كتم العدم، وربّاك بأنواع اللطف والكرم، وبعدما تعرف وحدة ربك، وتؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وتصدق بكمال قدرته واقتداره على

وجوه الانتقامات والإنعامات، وباستقلاله في عموم التدبيرات والتصرفات ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: 19] حينئذٍ عن بطشه وقهره، وتشتغل بأداء المأمورات، وترك المنكرات والمحرمات، والاجتناب عن مطلق المنهيّات، وبالجملة: تكون من زمرة أرباب العناية والكرامات، وتتخلص من نيران الطبيعة ودركاتها؟.

وبعدما ذهب موسى لمقتضى أمر الله ووحيه إلى فرعون الطاغي الباغي، وبالغ في التبليغ وإظهار الدعوة، والملاينة على وجه الرفق والمداراة ﴿فَأَرَاهُ﴾ على سبيل التبيين والتوضيح ﴿الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ [1] [النازعات: 20] يعني: العصا وتقليبها حيّة، أو جنس الآيات النازلة عليه.

وبعدما سمع فرعون من موسى ما سمع، ورأى من الآيات ما رأى استكبر وعتا ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ [النازعات: 21] على المولى، وزاد على البغي والطغيان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقبل عليه موسى بالإرشاد والتكميل بأمر الله ﴿أَدْبَرَ﴾ فرعون عن الإقبال، وأقبل على البغي والضلال؛ لذلك ﴿يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: 22] ويجتهد في المعارضة والإبطال.

﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده وسحرة بلاده ﴿فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: 23] على رءوس الملأ على سبيل الاستعلاء والاستكبار.

﴿فَقَالَ﴾ ذلك المسرف المفرط من كمال البطر والافتخار: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾ ومربيكم

---

(1) «الفاء» في «فأراه»: معطوف على محذوف، يعني فذهب فأراه، كقوله تعالى: (ضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانفجرت) أي: فضرب فانفجرت، واختلفوا في الآية الكبرى، أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة، فقيل: هي العصا، وقيل: اليدُ البيضاءُ تبرقُ كالشَّمس، قاله مقاتل والكلبي، والأول: قول عطاء وابن عباس؛ لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونها، وهذا كان حاصلاً في العصا؛ لأنها لمّا انقلبت حيّة، فلا بد وأن يتغيّر اللون الأول، فإذن كل ما في اليد، فهو حاصل في العصا، وأمور أخر، وهي الحياة في الجرم الجمادي، وتزايد الأجر إليه، وحصول القدرةِ الكبيرة والقُوّة الشديدة، وابتلاعها أشياء كثيرة، وزوال الحياة، والقدرة عليها، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حيّة، وكلُّ واحدٍ من هذه الوجوه كان معجزًا مستقلاً في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا، وقال مجاهد: هي مجموع العصا واليد، وقيل: فلق البحر، وقيل: جميع آياته ومعجزاته. [تفسير اللباب لابن عادل (16 /212)].

الأجلّ ﴿الأَعْلَى﴾ [النازعات: 24] من كل من يلي أمركم أيها البرايا.

وبعدما أفرط في البغي والطغيان، وبالغ في الظلم والعدوان ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ﴾ القدير القهّار بمقتضى اسمه المضل المذل فجعل سبحانه طغيانه وعدوانه ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ [النازعات: 25] أي: سبب الأغلال والسلاسل في النشأة الأخرى، وسببًا للإهلاك والإغراق في النشأة الأولى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الشأن الذي جرى على فرعون من أنواع البلاء في النشأة الأولى والأخرى ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظة عظيمة، وتذكيرًا بليغًا ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: 26] عن غضب الله، ومقتضيات قهره وجلاله.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: 27-36].

ثمّ أشار سبحانه إلى توبيخ المنكرين للنشأة الأخرى، وتقريعهم وتسفيههم بمقتضى عقلهم فقال: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها المنكرون المفرطون المسرفون ﴿أَشَدُّ﴾ وأصعب ﴿خَلْقًا﴾ وإيجادًا على سبيل الإعادة ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ التي هي أرفع الأبنية وأعلاها، وأشدها نظامًا، وأقواها بنيانًا؛ إذ هو سبحانه ﴿بَنَاهَا﴾ [النازعات: 27] بقدرته الكاملة.

وأحسن بناءها، حيث ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ وسقفها بلا أعمدة وأسانيد واسطوانات ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 28] وعدلها بلا قصور وفتور.

وبعدما سوّاها أدارها على الاستدارة، ورتب على حركاتها الجديدين ﴿وَأَغْطَشَ﴾ أي: أظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ الحاصل من حركاتها ﴿وَأَخْرَجَ﴾ أبرز وأظهر ﴿ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 29] ضوء شمسها في النهار الحاصل من تلك الحركات.

﴿وَ﴾ بعدما رتبها كذلك خلق ﴿الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماوات وأعجب في خلقها بأن ﴿دَحَاهَا﴾(1) [النازعات: 30] مهدها وبسطها لمن يسكن عليها

---

(1) قال الألوسي (22 /151): لأنها لا تصلح بيانًا لبناء السماء فلا بد من تقدير معطوف عليه وحينئذ

-

ويستقر فيها.

وبعد بسطها كذلك ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ حيث فجر فيها عيونًا، وأجرى أنهارًا ﴿وَ﴾ إن ظهر عليها أيضًا ﴿مَرْعَاهَا﴾ [النازعات: 31] تقويتًا لمن عليها وما عليها.

﴿وَ﴾ رتب ﴿الْجِبَالَ﴾ الطوال الثقال عليها حتى ﴿أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 32] وأثبتها.

وإنما مهدها وبسطها، وأنبت عليها وفجر منها؛ لتكون ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ أي: تمتيعًا لكم عليها ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: 33] أيضًا، فإنها من لواحق معائشكم ومتمماتها.

وبعدما فضل عليكم سبحانه بأنواع الخيرات والبركات ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: 34] والداهية العظمى التي هي عبارة عن قيام الساعة الموعودة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: 35] حيث يعطى لهم صحائف أعمالهم مفصلة فينظرون فيها، ويتذكرون بها جميع ما صدر عنهم من الأعمال الصالحة والفاسدة فيجازون بمقتضاها.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أي: ظهرت ولاحت ﴿لِمَن يَرَى﴾ [النازعات: 36] أي: لكل من يتأتى منه الرؤية؛ أي: ظهر أمرها، بحيث لا يخفى على أحد.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات: 37-46].

ثم قسم الناس حينئذٍ قسمين: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ [النازعات: 37] في

يقدر جملة فعلية على قراءة الجمهور أي فعل ما فعل في السماء وجملة اسمية على قراءة الآخرين أي السماء وما يتعلق بها مخلوق له تعالى وجوز عطف الأرض بالرفع على (السماء) من حيث المعنى كأنه قيل السماء أشد خلقًا والأرض بعد ذلك أي والأرض بعدما ذكر من السماء أشد خلقاً فيكون وزان قوله تعالى: (دحاها) الخ وزان قوله تعالى: (بناها) الخ وحينئذ فلا يكون بعد ذلك مشعراً بتأخر دحو الأرض عن بناء السماء.

النشأة الأولى.

﴿وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: 38] أي: اختار الحياة المستعارة، الدنيَّة الدنيوية ولوازمها من اللذات والشهوات الفانية على الحياة الأخروية، وما يترتب عليها من اللذات اللدنيَّة الباقية.

﴿فَإِنَّ الجَحِيمَ﴾ المسعرة بنيران غضبهم وشهواتهم ﴿هِيَ المأْوَى﴾ [النازعات: 39] لهم، مقصورة عليهم، لا مأوى لهم سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف عن قيامه بين يدي الله، ووقوعه في المحشر؛ للحساب، وعرض الأعمال عليه سبحانه والجزاء عليها ﴿وَ﴾ مع خوفه وخشيته ﴿نَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى﴾ [النازعات: 40] أي: كف نفسه عن مقتضياتها التي هي تردَيها وتغويها.

﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأْوَى﴾ [النازعات: 41] أي: مأواهم مقصورة على الجنة، وهم فيها أبدًا خالدون لا يتحولون إلَّا إلى ما هو أولى منها، وأعلى درجة ومقامًا.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ وقيامها التي هي من جملة الغيوب التي لا نطلع عن درجاتها ومقاماتها أحدًا عليها: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: 42] أي: متى إرساؤها وإقامتها، وفي أيّ آن إتيانها وقيامها، عيّن لنا وقتها؟.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: 43] أي: أنت في أيّ شيء وشأن منها أن تذكر لهم وقتها، أو تعينها، مع أنَّا لا نطلعك على وقتها، سوى أنَّا أوحينا لك آنيتها وثبوتها، وتحقق قيامها، فما لك إلَّا تبليغ ما يُوحى إليك؟!

بل ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: 44] أي: منتهى علمها، وتعيين وقتها إنما هو مفوّض إلى حضرة علم الله، موكول إلى لوح قضائه.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: 45] أي: أنت ما تُبعث إلَّا؛ لإنذار الخائفين الموفقين على الخوف من أهوالها وأفزاعها، لا من المقدّرين المعيّنين لوقتها.

وكيف يسع لك هذا التعيين والتقدير؛ إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحدًا عليها؟!

ثم قال سبحانه تهويلاً على المنكرين: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ ويعاينون قيامها تيقنوا حينئذٍ على سبيل الجزم أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يمكثوا في دار الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾

أي: عشية يوم ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46] أي: ضحى تلك العشية، يعني: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى هول يوم القيامة وطولها.

نعوذ بك من النار وما قرب إليها يا غفّار.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المحقق، الموقِن بقيام الساعة وما فيها من الثواب والعقاب، والجنة والنار أن تزرع في محرثك هذا ما ستحصده هناك من بذور الأعمال الصالحة، والأخلاق المرضية، والأطوار المحمودة، وسائر السنن والآداب المقبولة المأثورة من النبي المختار، وعترته الأخيار الأطهار، لا بدَّ لك أن تكون على ذِكر من قيامها وأهوالها في عموم أحوالك.

وإياك إياك الاغترار بالحياة المستعارة، والالتفات إلى مزخرفات الدنيا الغدارة المكارة، فإنها تمكر بك وتغويك، وتضلك عن طريق الحق وترديك.

فعليك ألّا تتبع بغوائلها، ولا تنخدع بمخائلها؛ حتى لا تكون من زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15].

جعلنا الله من زمرة الآمنين الفائزين، المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة عبس

لا يخفى على من تمكّن بمقر عز الوحدة، وتوطّن في السواد الأعظم اللاهوتي أن علامة التمكين والتثبيت ألّا يبقى للموحد المحقق شيء من لوازم عالم الناسوت، بحيث لا يتكبر على من دونه، ولا يتحسر على من فوقه، بل لم يبق في عين شهوده سدل الاثنينية، ورمد الفوقية والتحتية مطلقًا، بل صار كل في نظر شهوده على السواء، بحيث ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: 3] سيما ترجيح أصحاب الثروة والغفلة، الفاقدين نظر البصيرة والاستبصار على أرباب الإرادة والاعتبار، وإن فقد منهم حس الظاهر.

ثمّ لمّا كان ﷺ مشغوفًا بإيمان رؤساء مكة وصناديدهم ودعوتهم، جلس يومًا من الأيام معهم على سبيل الملاينة رجاء أن يوفقوا للإيمان، ويرغبوا إلى قبول الدعوة، وكان ﷺ يصاحبهم ويداريهم حتى دخل عليه ﷺ ابن أم مكتوم الأعمى ﷺ، ولم يدر مَن هم عنده فقال: يا رسول الله علّمني مما علمك الله، ولم يلتفت إليه ﷺ، واشتغل مع أهل الثروة، فناداه بما نادى مرة بعد أخرى حتى غضب رسول الله ﷺ، وقطب وجهه، فصار عبوسًا فجرى في نجواه ما جرى من لحوق العار، بأن يعيب هؤلاء الصناديد بأن أتباعه ما هي إلّا العجزة والعميان والمساكين.

فكان عليه ﷺ حتى أوحى إليه سبحانه معاتبًا عليه مؤدبًا، فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على قلوب أوليائه بمقتضى سعة رحمته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بحفظ مرتبتهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوقظهم عن غفلتهم.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ
﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ
﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ

﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: 1-22].

﴿عَبَسَ﴾ وجهه من الكراهة عن المسترشد ﴿وَتَوَلَّى﴾ [عبس: 1] [1]أي: أعرض عنه، وحول صفحة وجهه عنه كارهًا إياه.

وقت ﴿أَن جَاءَهُ﴾ المسترشد ﴿الأَعْمَى﴾ [عبس: 2] أخرج الكلام سبحانه مع حبيبه ﷺ على طريق الغيبة؛ إظهارًا لكمال الغيرة، والحمية الإلهية عن هذه الغفلة الغير مرضية.

ثمّ التفت إلى الخطاب؛ لكمال التأديب والتشنيع فقال على سبيل التهويل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: وأيّ شيء يكشف لك حاله وقلبه ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: 3] ويتطهر عن الآثام، ويهتدي إلى طريق الإسلام بهدايتك وإرشادك، بخلاف أولئك الجهلة الغفلة الذين تحننت نحوهم، وتحببت دعوتهم، فإنهم لا يهتدون ولا يتطهرون.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتعظ ويتذكر هذا المريد الفقير من كلامك ﴿فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: 4] والعظة، وتوجّه هو بسببها إلى المولى.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ [عبس: 5] عن الله، وأعرض عن تذكيرك ودعوتك مستكبرًا بماله وثروته، وسيادته وكمال نخوته.

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس: 6] تميل وتتعرض بالإقبال إليه، وتتحنن بكمال المحبة نحوه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ أي: أيّ شيء عرض عليك، ولحِق بك عن المكاره الإمكانية ﴿أَلَّا يَزَّكَّى﴾ [عبس: 7] ولا يتطهر عن خباثة الآثام، وأدناس العصيان حتى يبعثك عن

(1) قال الورتجبي: بيّن الله سبحانه هاهنا درجة الفقر وتعظيم أهله وخسة الدنيا وتحقير أهلها، وأن الفقر إذا كان نعت الصادق في المعرفة والمحبة كان شرفًا له، وهو من أهل الصحبة، ولا يجوز الاشتغال بصحبة الأغنياء ودعوتهم إلى طريق الفقر إذا كانت سجيّتهم لم تكن سجية أهل المعرفة، فإذا كان حالهم كذلك لا يأتون إلى طريق الحق بنعت التجريد، فالصحبة معهم ضائعة، ألا ترى كيف عاتب الله نبيّه ﷺ بهذه الآية.

الإعراض عن أهل الحق، وعدم الالتفات نحوهم، مع أن ما عليك إلّا البلاغ والتبليغ.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ﴾ من أرباب الطلب والإخلاص ﴿يَسْعَى﴾ [عبس: 8] ويسرع بطلب الخير والهداية.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: 9] عن غضب الله، ويرجو ثوابه.

﴿فَأَنْتَ﴾ مع كونك مبعوثًا عن الهداية والإرشاد إلى أصحاب الإرادة والقبول ﴿عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: 10] تتشاغل وتنصرف، كأنك تحقره ولا تبال بشأنه وإيمانه؛ لرثاثة حاله وفقره.

ثمّ بالغ سبحانه في تأديب حبيبه ﷺ وأكده، حيث قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتدع عن فعلتك هذه، ولا تمل إلى أصحاب الزيغ والضلال معرضًا عن أرباب الهداية والكمال؛ إذ ما عليك التخيير والاختيار، إن عليك إلّا التبليغ والإنذار ﴿إِنَّهَا﴾ أي: دعوتك وتذكيراتك بالآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: 11] نازلة من ربك، مأمورة لك تبليغها إلى الناس.

﴿فَمَن شَاءَ﴾ سبحانه اتعاظه من عباده ﴿ذَكَرَهُ﴾ [عبس: 12] أي: بالقرآن، ووعظه به سواء كان فقيرًا أو غنيًا.

وكيف لا يوعظ به، مع أنه منزّل من عند الله ﴿فِي صُحُفٍ﴾ نازلة على رسل الله ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: 13] عنده سبحانه؟!

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ مقبولة لديه درجةً ومكانًا، ملقاة من عند الله إلى رسول الله ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: 14].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: 15] أي: ملائكة يتوسلون بين الله ورسله.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزة من عند الله، ذو كرامة على أهل الإيمان ﴿بَرَرَةٍ﴾[1] [عبس: 16] أنقياء مبرورين في أنفسهم، بارين على عباد الله مع هذه الكرامة العظيمة الإلهية، والإشفاق البليغ من لدنه سبحانه، والرحمة العامة من عنده.

(1) قال علاء الدولة: بأيدي كتبة على الله بررة على خلقه بكتابتهم كل ينوون قبل الوقوع من الخير، ولا يكتبون ما ينوْن من السر إلا بعد الوقوع، وهم جمع من الملائكة التي خلقهم الله من رشاش النور المطهر من رأس القلم على لوح العقل، وهم الكتبة وفي هذه سر يتعلق بحد القرآن مما يجب أن يطوي سره.

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ﴾ أي: لُعن وطُرد عن ساحة عز القبول ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17] أي: أيّ شيء حداه وبعثه إلى الإعراض عن الله المنعم المفضل، والانصراف عن طاعته وعبادته، مع أنه عالم بكمال كرامته سبحانه عليه، معترف ببدائع صنعه وصنعته معه، متذكر في نفسه، مستحضر بشئونه وتطوراته السالفة؟!

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾ مسترذل مستنزل ﴿خَلَقَهُ﴾ [عبس: 18] وأوجده حسب قدرته.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة خبيثة ﴿خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: 19] أي: هيَّأ آلاته وأعضاءه منها، فعدَّله وسوَّى هيكله، ومن أنَّى تكبر وافتخر وبطر؟!

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ الموحد الموصل إلى ربه وموجده الذي هو مبدؤه ومعاده ﴿يَسَّرَهُ﴾ [عبس: 20] وسهَّل عليه بأن أفاض عليه، وأودع فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الإلهي؛ ليعرف به مبدأه ومعاده.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ عن نشأة الاختبار والابتلاء تخليصًا وتقريبًا له إلى ربه ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: 21] في البرزخ.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ وتعلق مشيئته للإحياء ﴿أَنشَرَهُ﴾ [عبس: 22] من القبر، وحشره إلى المحشر فحاسبه فجازاه على مقتضى حسابه، خيرًا كان أو شرًا فضلاً منه وعدلاً.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: 23-42].

﴿كَلَّا﴾ ردع له وويل عليه، ما هذا النسيان والكفران لهذه النعم العظام والكرامات الجسام ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي: لم يقض ولم يجر من لدن وجوده وظهوره على ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: 23] الحق به؛ إذ لا يخلو أحد من أفراد الإنسان عن الكفر والكفران، والإثم والعدوان، إلَّا أن بعضه متدارك متلاف، قد جبر بالتوبة والإيمان ما

كسر بالكفر، وبعضه مغمور في عصيانه ونسيانه إلى حيث لا يتنبه قط.

وبالجملة: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾[1] [عبس: 24] المسوق له من لدنَّا تفضلاً وتكريمًا؛ لتقويته وتقويم بنيته.

﴿أَنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا كيف ﴿صَبَبْنَا المَاءَ﴾ وأنزلنا من جانب السماء ﴿صَبًّا﴾ [عبس: 25] ترويجًا له، وتهيئةً لأسباب معاشه.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ بعدما صببنا الماء عليه ﴿شَقًّا﴾ [عبس: 26] بديعًا.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: 27] من أنواع الحبوب التي يقتات بها الإنسان ﴿وَعِنَبًا﴾ متضمنًا لأنواع الأدم والمشروبات.

﴿وَقَضْبًا﴾ [عبس: 28] نباتًا يُقطع مرة بعد مرة، يعين للأكل.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾ [عبس: 29].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿حَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: 30] مملوءة بأنواع الأشجار والثمار.

﴿وَفَاكِهَةً﴾ أي: ألوان الفاكهة وأنواعها وأصنافها ﴿وَأَبًّا﴾ [عبس: 31] علفًا لمواشيه ومراكبه التي بها يتم ترفهه وتنعمه.

وبالجملة: أعطاكم وأحسن إليكم سبحانه ما أعطى وأحسن من النعم العظام، والكرم الجسام؛ ليكون ﴿مَتَاعًا﴾ وتمتيعًا ﴿لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 32] التي بها يتم ترفهكم وتنعمكم، وإنما أنعم عليكم سبحانه؛ لتعرفوا المنعم، وتواظبوا على شكر النعم، وأنتم تكفرون للنعم والمنعم جميعًا.

اذكروا ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: 33] الصيحة المقرعة لصماخكم وأسماعكم.

فحينئذٍ شق عليكم الأمر، وصعب الهول، مع أنه لا نصر يومئذٍ ولا مظاهرة، ولا إغاثة من أحد ولا إعانة، بل ﴿يَوْمَ﴾ أي: يومئذٍ ﴿يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: 34]

---

(1) أي: فلينظر اللطيفة الغيبية والشهادية المستجمعة في الإنسان الذي أنس علوي وأنس سفلي إلى طعام المركب من الحظوظ العلوية المغلوبة والحقوق السفلية المستكنة في الحظوظ وكيفية اجتماع الأضرار فيه رحمة منا وحكمة منا ليعبر بالرزق الذل جعلنا بسبب حصولها. [عين الحياة].

شقيقه وشقيقته ﴿وَأُمِّهِ﴾ التي يأوي إليها.

﴿وَأَبِيهِ﴾ [عبس: 35] الذي يظاهر ويفتخر به ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ التي هي أحب إليه من عشائره.

﴿وَبَنِيهِ﴾ [عبس: 36] الذين هم أعز عليه من عموم أقاربه.

وسبب النفرة والفرار: اشتغال كل بحاله بلا التفات منه إلى حال غيره؛ إذ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37] يشغله عن شئون غيره، ويزعجه على الاهتمام به، مع أنه لا يكفه ولا يكفيه.

وكيف لا يكون كذلك؛ إذ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: 38] مضيئة مشرقة، متنورة بنور الإيمان والعرفان.

﴿ضَاحِكَةٌ﴾ فرحًا وسرورًا بلقاء الرحمن ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: 39] بعلو الدرجات والمقامات بأنواع السعادات والكرامات.

﴿وَوُجُوهٌ﴾ أخر ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: 40] غبار وكدورة ناشئة من أكدار الكفر والكفران، وأنواع الآثام والعصيان.

مظلمة إلى حيث ﴿تَرْهَقُهَا﴾ وتغشيها ﴿قَتَرَةٌ﴾ [عبس: 41] مذلة وصغار، وذلة وخسارة.

وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز القبول، المكدرون بكدورات الكفر والشرك، وأنواع الفسوق والفجور ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: 42] الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية، ونور المعرفة والإيمان بمتابعة القوى البهيمية من الشهوية والغضبية؛ إذ كلتاهما مناط عموم الشرور والخسران.

أعاذنا الله وعموم عباده من شرهما.

خاتمة السورة

عليك أيها المستنشط القاصد لتبشير الحق وتيسره أن تسمع نداء البشارة والتوفيق الإلهي من ألسنة عموم رسل الله وكتبه، فلك أن تقتفي أثر هؤلاء الكرام، وتمتثل بما في كتاب الله العليم العلام من الأوامر والنواهي، ومطلق الأحكام والعبر، والتذكيرات الموردة فيه، المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن عن الميل والإلحاد، إلى

الأمور المؤدية إلى إفساد العقائد والعناد.

فلك إلفرار عن أصحاب الزيغ والضلال، والانصراف عن مخالطتهم ومصاحبتهم في كل حال؛ حتى تكون من زمرة أصحاب المتنعمين في جنات النعيم، لا من الضالين المكذبين المخلدين في دركات الجحيم، المعذبين بالعذاب الأليم.

نسأل منك يا ذا القوة المتين الفوز بدرجات النعيم، والعوذ عن دركات الجحيم يا من فضله وكرمه عميم.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة التكوير

لا يخفى على المنكشفين بسطوة سلطنة جلال الله، وقهره الغالب أن قيام الساعة، ووقوع الطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس السوى مطلقًا في جنب القدرة الكاملة الإلهية، إنما هي في غاية اليسر والسهولة، والمنكر المستبعد لها، وللأمور الموعودة فيها مكابرةً عن مقتضى عقله، سيما بعد ورود الوحي الإلهي.

وبالجملة: ليس إنكار المنكر بعد وضوح الآيات، وسطوع البيّنات إلّا من اعتياده بمزخرفات الوهم والخيال اللذين هما من أقوى أسباب الكفر والضلال، ومن خلص عن رقية تلك القوتين، ونجا من غوائلهما وتغريراتهما فقد جزم بوقوع عموم ما أخبر الحق به في هذه السورة بلا تردد وارتياب على الوجه الذي نص عليه سبحانه، وفصّله بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بعموم كمالاته في النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في النشأة الأولى؛ لانبساط وبسط ظلاله على عموم الأشياء ﴿الرَّحِيمِ﴾ في النشأة الأخرى؛ لقبضه الكل إلى ما منه بدأ.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤)﴾ [التكوير: 1-14].

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1] [1] يعني: إذا قامت القيامة، ولاحت شمس

(1) قال البقلي: الإشارة في هذه الآيات إلى ظهور تجلّي الذات والصفات في قلوب العارفين، فهناك تكوّرت شموس أرواحهم من غلبة نور عظمة الذات، وانكدرت نجوم عقولهم من صولة أنوار

الذات الأحدية عن مكمن العماء، وغلبت نشأة اللاهوت على نشأة الناسوت كور الوجود الإضافي المنعكس من الوجود المطلق الإلهي، المنبسط على صفائح مطلق العكوس والأظلال، ولف وطوي، بحيث لم يبق له أثر عند ظهور شمس الحقيقة الحقيّة.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 2] يعني: انقضت واضمحلت حينئذٍ نجوم الهويات، وهياكل المَاهيات الحاصلة من الأوضاع والنسب، والإضافات العدمية الاعتبارية المحضة، بحيث لم يبق لها رسم وأثر عند ظهور الهوية الذاتية الإلهية الحقية.

﴿وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: 3] يعني: سارت وانقلعت، وطارت عن أماكنها جبال الأنواع والأجناس الواقعة في عالم التعينات.

﴿وَإِذَا العِشَارُ﴾ يعني: السحب الماطرة لمياه المعارف، والحقائق الفائضة على أراضي الاستعدادات القابلة لها، اللائقة لفيضانها ﴿عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: 4] وتركت؛ لاضمحلال محالها، وتلاشي قوابلها بانقضاء نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا الوُحُوشُ﴾ أي: النفوس المستوحشة الأبية، الوحشية التائهة في بوادي الطبيعة، وقفر الهيولي ﴿حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5] وجمعت إلى ما منه انتشرت وبدت.

﴿وَإِذَا البِحَارُ﴾ أي: البحار الحاصلة من اعتبارات الوجود وشئونه ظاهرًا وباطنًا، غيبًا وشهادةً، دنيا وعقبى ﴿سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: 6] جمعت وملئت واتحدت، فيصار بحر الوجود بحرًا واحدًا زخارًا، لا ساحل له أصلاً.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ﴾ يعني: الأرواح الفائضة على هياكل الأشباح من عالم الأمر

الصفات، وسُيِّرت جبال قلوبهم من أثقال واردات محبتها، وتعطّلت نفوسهم في سطوات جلالها، فهناك سُجِّرت بحار التوحيد، وحشرت طيور التفريد، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال والإكرام، ولكل عارف في كل حالة من هذه الأحوال له قيامة. قال الحسين: تطمس الشمس بعد تنويرها، وتغور البحار بعد تفجيرها، وتنسف الجبال بتسييرها، وتدرس العشار بعد تعطيلها، وتُخمد الجحيم بعد تسعيرها، وتطوى الصحف بعد النشر، وتحشر الوحوش من القبر، وتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها للعرض على الجبّار، وذلك أصعب مقام المخالفين، وأهون مقام الموافقين، فطوبى لمن أثبت في ذلك المقام.

الإلهي ﴿زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: 7] وقرنت يومئذٍ ببواعثها التي هي الأسماء والصفات الإلهية، والأسباب اللاهوتية.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: 8] أي: أبكار المعاني والمعارف الإلهية، المودعة المدفونة في أراضي الطبائع والأركان، مع اتصافها بالحياة الأزلية الأبدية، سُئلت من سكان تلك البقاع، ومن تلك المخدرات الحسان ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ﴾ وجريمة ﴿قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 9] تركت ودفنت، مع أنها إنما جاءت في أراضي الطبائع والاستعدادات، مع أنها إنما حييت وجبلت؛ لكسب أنواع الخيرات، واقتراف أصناف السعادات والكرامات؟!

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ أي: صحائف تفاصيل الأعمال المشتملة على عموم الأماني والآمال، المطوية فيها جميع الأحوال الصادرة من أصحاب الغفلة والضلال ﴿نُشِرَتْ﴾ [التكوير: 10] فرِّقت وكشفت بين أصحابها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات الإلهية المتجلية على شئون الظهور والنزول ﴿كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11] طويت وأزيلت عن هذه الشئون إلى شئون البطون والخفاء.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ المعدّ لأصحاب الغفلة والضلال، التائهين في بوادي الجهالات بمتابعة أهويتهم الباطلة، وآرائهم الفاسدة العاطلة ﴿سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: 12] أوقدت وأحميت بنيران غضبهم وشهواتهم التي كانوا عليها في نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ﴾ المعدَّة لأرباب العناية والوصال، المتصفين بالتقوى عن مطلق المحارم، والامتثال بمقتضيات الأوامر والنواهي، وعموم الأحكام الموردة في الكتب الإلهية، المتعلقة بإرشادهم وتكميلهم ﴿أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: 13] قربت وقرنت بهم، بحيث فازوا بعموم ما وعدوا من قِبَل الحق.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14] يعني: علمت حينئذٍ كل نفس من النفوس المودعة في هياكل الهويات لحكمة المعرفة والتوحيد أيّ شيء أحضرت عند الحساب عليها من الأمور المأمورة لها؛ حتى تجازى بها وعلى مقتضاها.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: 15-29].

وبعدما عدَّ سبحانه أحوال القيامة وأهوالها أشار إلى ما يدل على التأكيد والمبالغة في وقوعها فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: لا حاجة إلى القسم؛ لإثبات هذه المذكورات؛ إذ هي في غاية السهولة والظهور عند القدرة الغالبة الإلهية، بل أقسم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: 15] أي: بالنفوس الزكية عن لوث الناسوت، الراجعة إلى عالم اللاهوت، وحضرة الرحموت قبل قيام الساعة؛ لصفاء مشربها، ونظافة طينتها.

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: 16] [1] أي: أقسم أيضًا بنفوس الشطار الطائرين إلى الله، المختفين تحت قباب عزه؛ وشمس ذاته، بحيث لا يعرفهم أحد سواه سبحانه.

﴿وَ﴾ حق ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ أي: عالم العمَاء الإلهي ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: 17] أقبل ظلامه واشتد، بحيث اختفى فيه عموم ما ظهر وبطن.

﴿وَ﴾ بحق ﴿ٱلصُّبۡحِ﴾ أي: عالم الجلاء المنعكس من ذلك العماء اللاهوتي ﴿إِذَا

(1) قال البقلي: أقسمَ الله بنيرات عالم الملكوت إذا شاهدت عرائس الصفات في روازنها، ونظرت إلى قلوب المشتاقين، وجذبتها بنورها إلى أعلى عليين، فلما بلغت الأرواح إلى سرادق الدنو تخنس باستتارها بعد تجلّيها، وتكنس باحتجابها بعد انكشافها؛ لذوبان الأرواح في نيران الأشواق، وهيجان الأشباح إلى عالم الأفراح، وأقسمَ بظلمة ليالي الهجران في وقت الاستتار في قلوب العارفين، وبطلوع صبح أنوار مشاهدته بنعت الوصال في فؤاد المحبين، وأيضًا أقسم بطيران الأرواح القدسية بجناح المحبة والمعرفة في هواء الهوية، وهذا كنوسها إذا هامت بوجوهها في غيب الغيب، فإذا وصلت إلى قاف القدم، وتدورت بسطوات الأزلية تخنس، وتفر من صدمات القيُومية إلى عالم الأمر والحكم؛ لأن الحدوثية تزول عن موازاة القدم، وأيضًا أقسم بسير هذه الأرواح العاشقة في طرقات العلوم المجهولة، فتستفيد منها ما يكون بخلاف العلوم الرسومية.

تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18] أي: أضاء وأشرق على أهل الفناء الفانين عن الفناء، المتعطشين بزلال البقاء.

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: أقسم سبحانه بهذه المقسمات العظيمة أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ مرسل من قِبَل الله ﴿كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 19] متصف بالكرامة والأمانة؛ يعني: العقل الكل المسمّى بجبريل.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ غالبة على حمل الوحي الإلهي ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ العظيم المحيط بعروش عموم المظاهر ﴿مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20] ذي مرتبة ومكانة عظيمة.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في عالم الأسماء والصفات؛ إذ عموم المدارك والقوى تابعة مطيعة للعقل الكلي الذي هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: 21] حفيظ على الوحي الإلهي بالتوفيق الإلهي، بحيث لا يشذ عنه شيء من أوامره ونواهيه.

﴿وَ﴾ أيضًا أقسم سبحانه بتلك المقسمات على أنه ﴿مَا صَاحِبُكُم﴾ الذي نزل عليه هذا إلّا أمين بهذا الكتاب المبين؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: 22] ومختل القوى والآلات، كما زعمتم؛ إذ زعمكم هذا بالنسبة إليه ﷺ إنما هو من غاية انحطاطكم عن رتبته، وجهلكم بمكانته، وإلّا فهو ﷺ في أعلى طبقات الإدراك.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون ﷺ في أعلى طبقات الإدراك والمعرفة ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ يعني: علم وعرف ﷺ جبريل الذي هو العقل الكل ﴿بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[1] [التكوير: 23] الذي

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: صاحب الوارد الإلهي وهو إشارة إلى: أفق محمد ﷺ خاصة في هذا المقام؛ لأن أفق آدم ﷺ كان متصلاً بأفق نوح، كان متصلاً بأفق إبراهيم، كان متصلاً بأفق موسى، وأفق موسى كان متصلاً بأفق داود، وأفق داود كان متصلاً بأفق عيسى، وأفق عيسى كان متصلاً بأفق محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وأفق محمد ﷺ كان متصلاً بالحق وهو أفق الأعلى من طرف الخلق؛ يعني: ليس أفق أعلى من أفقه وهو الأفق المبين من طرف الحق، كما أن المعدن أفقًا إلى حد النبات، وللنبات أفقًا إلى حد الحيوان، وللحيوان أفقًا إلى حد الإنسان، والإنسان صاحب الأفقين العلوين والسفلين ولأجل هذا كان وسطًا وخيرًا، فهكذا صارت أمة محمد ﷺ وسطًا كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:143]، وقال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران:110] وفي حقيقة الأفق سر يتعلق بحد القرآن مما لا يجوز إفشاؤه، هذا بساط قد طويناه.

هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه؟!

﴿وَمَا هُوَ﴾ ﷺ ﴿عَلَى الغَيْبِ﴾ الذي أطلعه الحق عليه من المعارف والحقائق، والرموز والإشارات المتعلقة بتصفية الظاهر والباطن، وتخلية السر والضمير عن الالتفات إلى الغير مطلقًا ﴿بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: 24] بخيل شحيح، سيما بعدما أمره سبحانه بنشرها وتبليغها، وما هو على المغيبات التي نطق بها بمقتضى الوحي الإلهي، وإلهامه بظنين متهم، يتهمه أحد، وينسبه إلى الافتراء المستبعد عن علو شأنه، ورفعة قدره ومكانه ﷺ بمراحل.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا هُوَ﴾ يعني: القرآن الذي هو تكلم به، ونزل عليه ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: 25] أي: ما هو شعر وكهانة ناشئة من شياطين الوهم والخيال، كما زعمه أهل الزيغ والضلال المترددين في أودية الجهل والغفلة، وهاوية العناد والجدال.

وبعدما لاح عظم شأن القرآن، ورفعة قدره، وعلو مكانته ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: 26] تعدلون وتنصرفون عن جادة العدالة الإلهية أيها الضالون المضلون؟.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القرآن العظيم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة كبيرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 27] أي: لعموم من جُبل على فطرة التذكر، وقابلية الإرشاد والتكميل.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28] أي: عظة وتذكير لمن قصد الاستقامة على صراط العدالة الإلهية، تذكر به واتعظ؛ لإرشاده وهدايته.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب: إنه ﴿مَا تَشَاءُونَ﴾ وتختارون طريق الهداية والرشاد لأنفسكم ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتكم، ويوفقكم على الاستقامة والرشاد عنايةً منه وفضلاً؛ إذ عموم أفعالكم إنما هي مستندة إلى الله، صادرة منه سبحانه أصالة؛ إذ هو سبحانه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29] لا مربي في الوجود سواه، ولا مدّبر في الشهود إلّا هو، ومقتضى تربيته وتكميله: إرشاد عباده وتوفيقهم إلى ما هو أصلح لهم، وأليق بحالهم.

وفقنا بفضلك وجودك بما تحب وترضى أنت عنّا يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتوفيق الحق، وتربيته على الوجه الأصلح الأليق أن تفوِّض عموم أمورك، وأعمالك وأحوالك كلها إلى مشيئة الله، وتسلمها إليه سبحانه طوعًا ورغبةً بلا توهم تخيير واختيار منك، وإرادة جزئية أو كلية؛ إذ ليس لك من الأمر شيء، بل الأمور الجارية كلها لله، وبمقتضى تقديره وقضائه، وليس لك إلّا التسليم والرضا بجميع ما جرى عليك من القضاء.

وإياك إياك الاغترار بحياة الدنيا، الفرار الفرار، وما فيها من المزخرفات الخداعة المكارة، فإنها دار العتو والاعتبار، لا منزل الإقامة والقرار، واللائق بحال الفطن الذكي ألّا يتمكن فيها إلّا على وجه الضرورة والاضطرار، لا على سبيل الرضا والاختيار.

جعلنا الله ممن تنبّه ببطلان الدنيا الدنيّة وعموم ما فيها، وعدم ثباتها وقرارها.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الانفطار

لا يخفى على من لاح عليه أثر القدرة العالية الإلهية، وانكشفت دونه غناه سبحانه في ذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته أن جميع ما ظهر وبطن غيبًا وشهادةً إنما هو محكوم كلمة المحكم، وقضائه المبرم، له أن يتصرف فيها ويقلبها كيف يشاء إرادةً واختيارًا، لكنها مرهونة بأوقات، ومسبوقة بأمارات مقدرة من عنده سبحانه.

ومن تلك العلامات ما ذكر سبحانه في هذه السورة بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب قدرته الغالبة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم مظاهره بإعطاء الوجودات الإضافية ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليها بخلعها عنها عند ظهور الوحدة الذاتية على صرافتها.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 1-8].

﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ المعبّر بها عن العلويات المتأثرات عن الأسماء والصفات الإلهية ﴿انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1] انشقت وانخرقت، ولم يبق قابليتها للتأثر والاستمداد من الأسماء والصفات.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ﴾ التي تعينت عليها بالهويات، وتكثرت بالهياكل والماهيات ﴿انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 2] وتفرقت أوضاعها، وتلاشت أشكالها وهيئاتها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ المستحدثة من صعود الأمواج المتراكمة، المترادفة على بحر الوجود، واتصف كل واحد منها بالصفات المتنوعة، مثل الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، إلى غير ذلك من العوالم التي لا تُعدّ ولا تُحصى ﴿فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: 3] انفجرت وانفتحت بعضها على بعض، وارتفعت صور الأمواج، واتصل الكل فصار

بحرًا واحدًا وحدانيًا على ما كان أزلاً وأبدًا.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ﴾ المندرسة المتكسة التي لم يبق في أجوافها شيء من أمارات عالم الناسوت ﴿بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: 4] قلبت وبحثرت، وخرج من مطاويها ما فيها من حصة عالم اللاهوت.

﴿عَلِمَتْ﴾ يومئذٍ ﴿نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ في نشأة الاختبار والاعتبار من صوالح الأعمال، ومحاسن الأخلاق والأطوار ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: 5] أهملت وتركت فيها منها.

ثمَّ نادى سبحانه مظهر الإنسان، المصور بصورة الرحمن بداءً معاتبةً وتخجيلاً على ما عرض عليه من الغفلة والنسيان، مع أنه جُبل على فطرة التوحيد والعرفان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ المنعم عليك بأنواع الإنعام والإحسان ﴿مَا غَرَّكَ﴾ أي: أيّ شيء خدعك ومكر بك حتى جبرك على الكفر والعصيان ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]؟!

﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أوجدك وصوّرك في أحسن تقويم ﴿فَسَوَّاكَ﴾ أي: سوّى أعضاءك وجوارحك سليمة عن مطلق العيوب.

﴿فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: 7] أي: جعلك معتدل المزاج، متناسب الأعضاء، مطبوع الهيكل.

وبالجملة: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8] يعني: في أيّ صورة بديعة عجيبة، ممتازة عن صور عموم الحيوانات تعلّق بها مشيته وإرادته ركبك عليها؛ أي: انتخب صورتك من صور جميع المظاهر فركبك عليها.

قيل للفضيل بن عياض - قُدِّس سره -: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة، وقال: يا فضيل ما غرّك بربك الكريم، ماذا كنت تقول؟ فقال: أقول: غرني ستورك المرخاة.

وقال يحيى بن معاذ - قُدِّس سره -: لو أقامني سبحانه بين يديه، فقال: يا يحيى ما غرّك بي؟ قلت: غرّني برك بي سالفًا وآنفًا.

وقال أبو بكر الوراق - قُدِّس سره -: لو قال لي: ما غرّك بربك الكريم؟ لقلت: كرم ربي الكريم.

وأنا الفقير الحقير، خادم الفقراء وتراب أقدامهم، أقول لو قال لي ربي: ما غرّك بربك؟ لقلت: كفالتك بي، وكونك سمعي وبصري، وعموم قواي ومشاعري، يا ربي.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: 9-19].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للإنسان عن الغفلة والاغترار بإيراد الأعذار الكاذبة ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ أيها المفترون المسرفون ﴿بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: 9] وترتب الجزاء على أعمالكم وأخلاقكم حسناتها وسيئاتها؛ لذلك اغتررتم بالحياة المستعارة، وفعلتم ما فعلتم من المفاسد والمقابح بشدة الإنكار والإصرار، بلا مبالاة وخشية من القدير العليم.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من قِبَل الحق ﴿لَحَافِظِينَ﴾[1] [الانفطار: 10] رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم على التفصيل الذي صدر عنكم.

﴿كِرَامًا﴾ في حفظها، أمناء لا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها؛ لكونهم ﴿كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: 11] مثبتين في صحف أعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 12] فيقررون عليكم وقت حسابكم، ثمّ تجازون على مقتضاها.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ البارين المبرورين ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: 13] ومسرة دائمة، وفوز عظيم.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ المسرفين المفترين ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 14] معذّبين بعذاب أليم.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 15] والجزاء

(1) لأن بذور البر إذا زرعت خرجت النعيم، وبذور الفجور إذا زرعت أبرزت الجحيم، وإنكم اليوم في الزراعة لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وغدًا في الحصاد فكل أحد يحصد ما يزرع، فالعجب من العاقل أنه يزرع الشوك ويرجو الرطب فليس هذا الغرور إلا من إلقاء الغرور، فاحذر منه وأزرع من مزرعتك خيرًا تحصد رغبته ولا تزرع شرًا لئلا تحصد ندامته. [عين الحياة].

بعدما حوسبوا.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: 16] متحولين مفارقين أبدًا، صاروا فيها خالدين مخلدين.

ثمّ أبهم ذلك اليوم على السامعين تعظيمًا له، وتفخيمًا على سبيل التهويل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك أيها المغرور ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 17] وما شأنه، وشدة هوله وقوته؟!

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ﴾ يا مغرور ﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: 18] وما يجري عليك فيه من الشدائد والأهوال، وأنواع الهموم والأحزان؟!

وبالجملة: يوم، وأيّ يوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ ترفع وتدفع ﴿نَفْسٌ لِّنَفْسٍ﴾ حميم لحميم، أو صديق لصديق ﴿شَيْئًا﴾ مما حكم عليها واستحق بها من الجزاء، بل كل نفس رهينة ما كسبت، مشغولة بما اقترفت، بلا التفات إلى غيرها من شدة هوله وحزنه ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي: أمور العباد وما جرى عليهم من الثواب والعقاب كلها ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[1] [الانفطار: 19] مختصة به، موكولة لمشيئته، مفوضة إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً، لا يُسئل عن فعله، إنه حكيم حميد.

---

(1) قال السمناني: اليوم أيضاً لله، ولكنهم سبب اختيارهم الذي أعطاهم الله محجوبونَ عن المختار الحقيقي الوهاب لكل أحد اختياره، فإذا نزع عنهم الاستعداد وأخذ الاختيار فعرفوا في ذلك الوقت أن ليس لهم اختيار، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وأقروا أن الأمر بيد الله وهو المريد المختار الفعال لما يريد ولا ينفعهم في ذلك الوقت الإقرار، فالواجب عليك أيها السالك، أن تجتهد في أن تشاهد اليوم مختاريته ومضطريتك وتعلم أن الأمر كله بيد الله يبطش ويأخذ، ويعطي ويمنع، ويحيي ويميت، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويحكم ما يريد، وتلتجئ إلى حضرته بالتمسك والعجز ليرحمك إن شاء الله، ولا يمكن هذا إلا بترك اختيارك وتسليمك إلى شيخك؛ ليوصلك إلى الاختيارية الحقيقية إن شاء الله، ولأجل هذا السر يحتاج إلى بشر مثلك؛ لينذرك ويبشرك ويهديك إلى ربك، ولأجل هذا تُلي على زبدة الكائنات عليه أزكى التحيات وأزكى الصلواتِ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:110] وهذه سنة سنها الله تعالى ولن تجد لسنته تبديلاً، من يرد أن يصل إلى الله؛ فليذ بأذيال متابعة حبيبه، ومن يرد أن يصل إلى حبيبه فليعتصم بحبل ولايته ويشاهد ولايته، فليترك اختياره وإرادته وإلا فلا يلعب بالتوراة إن لم يكن يهوديًا صرفًا، والله إن منادي الحق ينادي دائمًا من الصباح إلى الرواح.

اصنع بنا ما أنت أهل به يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب بفضل الحق ولطفه في يوم الجزاء أن تفوض أمورك كلها إلى الله في نشأتك هذه، وتقوم بين يدي الله في كل الأحوال، وتنخلع عن مقتضيات ناسوتك في عموم الشئون والأطوار الطارئة عليكم على تعاقب الأدوار في مدة حياتك المستعارة.

وإياك إياك الاغترار بخداع هذه الغدارة المكارة، فاعتبر من أهل هذه الدار إن كنت من ذوي العبرة والاستبصار، فاعبر عنها، فإنها ما هي دار القرار، بل منزل الخبرة والاعتبار ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المطففين

لا يخفى على من تمكن في جادة العدالة الإلهية، ورسخ قدم عزمه وهمته على صراط الاستقامة الحقية، الموصلة إلى ينبوع بحر الوحدة الذاتية أن الانحراف والميل عن مقتضى القسط والإنصاف الإلهي إنما هو من طغيان القوى البهيمية، واستيلاء شياطين الأمارة على جنوده المطمئنة، وغلبة مقتضيات لوازم الإمكان، ولواحق الطبيعة المورث لأنواع الخذلان والخسران.

ولاشك أن طريان هذه الخصال المذمومة إنما نشأ من متابعة الهوى، والركون إلى مزخرفات الدنيا، ومن جملتها: البخس والتطفيف في المكايل والموازين الموضوعة؛ لحفظ الاعتدال؛ ولمراعاة الاتصاف والانتصاف بين المسلمين، من عدل عنها مفرطًا أو مفرِطًا فقد استحق الويل الأبدي، والهلاك السرمدي، كما قال سبحانه متيمنًا باسمه: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المستوي على صراط العدالة والتقويم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بوضع القسطاس المستقيم القويم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى صراط مستقيم.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين: 1-9].

﴿وَيْلٌ﴾ عظيم، وعذاب أليم ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1] الذين ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون حقوق الناس، سمّاهم سبحانه مطففين؛ لأنهم يسرقون من الحقوق طفيفًا حقيرًا على وجه الدناءة والخساسة، وهو لمن أخس الأفعال الذميمة، وأدناها وأخبثها.

في الحديث – صلوات الله وسلامه على قائله ـ: «ما نقض العهد قوم إلّا سلّط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حبس عليهم القطر»[1]، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم لأنفسهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: 2] ويزيدون على المكيال قليلاً قليلاً ترجيحًا لأنفسهم عليهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أي: للناس ﴿أَو وَزَنُوهُمْ﴾ لأجلهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾[2] [المطففين: 3] يُنقصون منه قليلاً قليلاً ترجيحًا لغبطتهم عليهم، مع أن الكيل والوزن إنما هو للتسوية والتعديل.

ثمّ قال سبحانه على وجه التعجب والتشنيع: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ بل يستيقن ﴿أُولَئِكَ﴾ المسرفون المفرطون بارتكاب هذه الخصلة الذميمة ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: 4]؟!

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: 5] لعظم ما فيه من الشدائد والأهوال، وأنواع الأفزاع والأحزان، سيما على أهل العصيان؛ إذ يفتضحون على رءوس الأشهاد.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بأجمعهم؛ لأجل العرض ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6] ليحكم عليهم سبحانه على مقتضى السؤال والحساب، إمّا بالجنة وإمّا بالنار.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للمطففين بفجورهم، وخروجهم عن مقتضى العدالة الإلهية الموضوعة فيما بينهم بالقسط؛ يعني: كيف يخرجون عن مقتضاها ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ أي: ثبت فيه تفاصيل أعمالهم وأفعالهم، وأخلاقهم وأطوارهم المذمومة كلها مضبوطة محفوظة فيه، محكوم عليهم من قِبَل الحق بمقتضى ما في كتبهم أنهم

---

(1) ذكره البيضاوي في «تفسيره» (379/5).

(2) قال علاء الدولة: يعني: يكيلون على الحفظة أعمالهم الناقصة، ويزنون حظوظ القوى من القوى السفلية في التفكر في آلاء الله ونعمائه، والاعتبار بما في عالم الآفاق، واستماع المواعظ بوزن خاسر، ويستوفون حظوظها من القوى العلوية من الحياة والعقل وغيرهما مما نكب بها نفسها بالحظوظ العاجلة على وفق سواها، ولولاها لكانت مثل البهائم في جذب النافع ودفع المضار عن نفسه، وخسران وزنهم يرجع إلى أعمالهم الباطنة مثل: الحضور، والإخلاص، والصدق، والنية، والتوجه وأمثالها، وخسران كيلهم يرجع إلى الأعمال التي تتعلق بالحواس الظاهرة مثل: أركان الصلاة، والإمساك والشرب، وإيتاء الزكاة وأشبهها.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: 7] أي: مقرهم في الدرك الأسفل من النار؟!

ثمَّ أبهمه سبحانه تهويلاً وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المسرف المفرط ﴿مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: 8] ما لم تقع فيه، ولم تذق من عذابه ونكاله؟!

وبالجملة: كتاب الفجار ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: 9] مسطور بين الرقوم والرسوم، يعرفه من نظر إليه ألَّا خير فيه، ولا نفع في ضمنه، بل إنما هو مشعر بأنواع العذاب والعقاب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: 10-17].

وبالجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم أُعطي ذلك الكتاب ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: 10] له في النشأة الأولى، وبواسطة تكذيبهم وإنكارهم به يرتكبون من الجرائم والمعاصي ما لا يُعدّ ولا يُحصى.

يعني: وهم ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: 11] والجزاء بجميع الأمور الأخروية من السؤال والحساب، وإعطاء الكتب وسائر المعتقدات.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ سيما بعد نزول الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة من قِبَل الحق بالحق على أهل الحق ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحد في الإفراط والغلو، منكر لكمال قدرة الله وإحاطة علمه، حتى أنكر القدرة على الإعادة، مع أن الإبداء الإبداعي مقدور قدرته الغالبة أيضًا ﴿أَثِيمٍ﴾ [المطففين: 12] مبالغ في الجهل والغفلة بارتكاب الشهوات، المعمية لقلوب بصائره عن إدراك آيات القدرة الغالبة الإلهية، الفانية للحصر والإحصاء.

مع أن كل واحدة من تلك الآثار دليل مستقل على الإعادة عند المتأمل المنصف، إلَّا أن المنكر مكابر عن مقتضى عقله، وما أجراه وأغراه على الإنكار والإصرار إلَّا شياطين الأوهام والخيالات الموروثة له من إلف الطبيعة، ورسوخ العادات المبنية على التقليدات الراسخة، المتقررة في قلوب أصحاب الغفلة والضلال.

لذلك ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا، واستقلالنا في عموم المرادات والتصرفات الواقعة في ملكنا وملكوتنا ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله، ونهاية غفلته وإعراضه عن الحق وأهله: ما هي إلَّا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: 13] أي: أكاذيبهم المسطورة في دواوينهم.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا له عن هذا الافتراء والمراء على سبيل الإنكار والاستهزاء؛ يعني: ما هذه الآيات البيِّنات من المفتريات، كما زعمها أولئك البغاة الطغاة الهالكين في تيه البغي والطغيان، والغي والعدوان ﴿بَلْ رَانَ﴾ يعني: حدث في نفوسهم رين الغفلة، وصدأ الجهل والضلال، وازداد وغلب حتى علا وأحاط ﴿عَلَى قُلُوبِهِم﴾ فكسفها وكدرها إلى حيث أظلمها وأسودها، ولم يبق فيها لمعة من بياض نور الإيمان، وما ذلك إلَّا بسبب ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14] من المعاصي، والشهوات المذهبة لجودة الفطرة الأصلية، والفطنة الجبلية التي فطروا عليها في أصل الخلقة.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم عن اقتراف الرين المصدئ لقلوبهم، كيف يكسبونه، مع أنهم جبلوا على فطرة الإيمان والتوحيد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أولئك المفسدون المسرفون ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ الذي ربّاهم لمصلحة المعرفة والإيمان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم اقتراف المعاصي الرائنة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15] [1] عن الله، وظهور نوره اللامع في صفائح الأنفس والآفاق، مع أنه لا سترة له سبحانه، ولا حجاب في حال من الأحوال، إلَّا أن خفافيش بقعة الإمكان لا يرون شمس ذاته اللامعة بواسطة غيوم هوياتهم الباطلة، وتعيناتهم العاطلة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ بعدما حجبوا عن الله، وحرموا عن مطالعة وجهه الكريم ﴿لَصَالُوا

(1) لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلَّ أهلِ النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي، وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها، وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

الجَحِيمِ﴾ [المطففين: 16] أي: داخلوها وخالدون فيها أبدًا.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تعييرًا وتشديدًا لعذابه من قِبَل الحق حينئذٍ: ﴿هَذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: 17] مصرون على تكذيبه وإنكاره، بل مستهزئون به متهكمون.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ
ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: 18-28].

ثمّ كرر سبحانه لفظة: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم بعد ردع، تأكيدًا وتقريعًا، وليكون توطئة وتمهيدًا لتعقيب وعيدهم بوعد المؤمنين، مع أن في هذا التعقيب زيادة زجر وتقريع عليهم بما اقترفوا من الآثام والعصيان، المؤدية إلى دار الندامة والحرمان ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ﴾ أي: ما كتب فيه عموم آثارهم الصالحة، الصادرة عنهم إيمانًا واحتسابًا، ثقةً بالله، وخوفًا من غضبه، محفوظة فيه جميع ما ذكر، محكوم عليهم بمقتضى ما فيه، إنهم ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: 18] أي: متمكنون في أعلى درجات الجنة، وأرفع مقاماتها.

ثمّ أبهمه سبحانه تعظيمًا وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها البار المبرور ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: 19] وما شأنه الرفيع، ومكانته البديعة، وما فيها من اللذات الروحانية التي من لم يذقها لم يعرفها؟!

رزقنا الله الوصول إليها، والحصول دونها.

وبالجملة: كتاب الأبرار ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: 20] بين الرقم والرسوم.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 21] أي: أرباب العناية والتوفيق، فيعلمون أن ما فيه خير كله بمجرد رؤيتهم وشهودهم في بادئ النظر.

وبالجملة: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ﴾ البارين على الله، المبرورين بين الناس ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: 22] مقيم.

متكئين ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ المصورة من صالحات أعمالهم، وصفاء عقائدهم وأخلاقهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: 23] إلى ما يسرهم ويفرحهم من الصور الحسنة،

والمنتزهات البديعة.

بحيث ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الرائي ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ في بادئ الرأي ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24] بهجة التنعم، وبرق الرضا والتسليم.

ومع ذلك ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ خمر من خمور المحبة والولاء ﴿مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: 25] مطبوع على غيرهم، بحيث لا يشمون روائحها أصلاً.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي: روائحه الواصلة لهم منًا قبل كشفهم عنه ختامه كالمسك، بلا كراهة وبشاعة، كخمور الدنيا ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في رحيق التحقيق، وكأس المحبة والتصديق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26] أي: فليرغب الراغبون؛ لنفاسته وسرعة سوغه وانحداره، وكمال لذته وذوقه.

﴿وَمِزَاجُهُ﴾ أي: ما يخرج به، ويخلط من ماء المعارف والحقائق منتشيًا ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: 27] مقام عال، وهو ينبوع بحر الوجود الذي هو الوحدة الذاتية الإلهية.

فكان ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 28] أي: يشرب من عذبها وفراتها مَنْ تقرب نحو الحق باليقين الحقي، فإنهم يشربون من عين الوحدة بلا مزج وخلط.

ذقنا حلاوة نعيمك، وبرد يقينك، وشربة تسنيمك يا خير الرازقين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: 29-36].

﴿إِنَّ﴾ المشركين المسرفين ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالجرائم العظام الموجبة لأنواع الانتقام، من جملتها: إنهم ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 29] ويستهزئون بفقراء المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ متهكمين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 30] أي: يغمز بعضهم بعضهم، ويشيرون بأعينهم كبرًا عليهم وخيلاءً.

﴿وَإِذَا انقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمُ﴾ وأماكنهم وإخوانهم ﴿انقَلَبُوا﴾ وصاروا ﴿فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 31] متلذذين متهكمين بما رأوا من شيم المؤمنين من صلاتهم وخشوعهم فيها، وتضرعهم واستكانتهم، وتواضعهم مع إخوانهم.

﴿وَ﴾ هم من شدة شكيمتهم وغيظهم ﴿إِذَا﴾ مروا ﴿رَأَوْهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ متهكمين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ السفلة المستحسنين ﴿لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: 32] منحرفون عن مقتضى الرشد والهداية بمتابعة هذا المجنون؛ يعنون: الرسول ﷺ.

﴿وَ﴾ هم يقولون هكذا من كمال ضلالهم في أنفسهم، بل من حسدهم عليهم، مع أنهم ﴿مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ [المطففين: 33] يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون بهدايتهم وضلالهم، بل الأمر بالعكس.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: اليوم الموعود المعهود الذي هو يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وصدقوا بالآخرة، وبجميع الأمور الموعودة فيها ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ المصرين على العناد والإنكار ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 34] أي: يضحك المؤمنون يومئذٍ عكس ما كانوا عليه في النشأة الأولى؛ إذ يرونهم أذلاء صاغرين، مغلولين في نار القطيعة، معذبين بأنواع المحن.

مع أن المؤمنين حينئذٍ متكئين ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ المعدة لهم جزاء ما يتكلون على الله، ويتكئون إلى فضله وإحسانه، مواظبين على أداء المأمورات وترك المنكرات، صابرين على متاعب الطاعات ومشاق التكاليف القالعة لعرق المستلذات الجسمانية، والمشتهيات النفسانية ﴿يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: 35] حينئذٍ بنور الإيمان، وصفاء اليقين والعرفان إلى وخامة ما فيه أصحاب الكفر والكفران، ويشكرون بنعمة الإيمان والإحسان.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ وقد جوزوا يومئذٍ بأسوأ الجزاء؛ بسبب ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] [المطففين: 36] من الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين، وضحكهم بأعمالهم، وتغامزهم فيما بينهم بعيونهم تهكمًا عليهم.

---

(1) قال السمناني: يعني: هل جزاء استهزائهم بالمؤمنين إلا هزاء، فعليك يا سالك الطريقة أن تستهزئ بالقوى المجرمة، وشاهد نعمك لنعمل بالنعيم المقيم عملاً صالحًا؛ ليكون غدًا من المقربين الشاربين رحيق المحبة الممزوجة بنسيم ريق الساقي إن شاء الله تعالى.

جعلنا الله ممن بصَّره بعيوب نفسه، وأعماه عن عيوب غيره بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب على تربية النفس، المداوم على تهذيب الأخلاق أن تصفي نفسك عن مطلق الرذائل المنافية لصفاء مشرب التوحيد، وتخلصها عن عموم القيود الإمكانية المتولدة من طغيان الطبيعة، وتُحليها بمحاسن الأخلاق والأطوار المناسبة للفطرة الأصلية التي جبلت عليها في مبدأ خلقك، فلك الاتكال على الله، والفرار من على أصحاب الغفلة والضلال.

وإياك إياك أن تخالطهم وتجالس معهم؛ لأن صحبة الأشرار تُميت القلوب، وتؤثر في السر، وتُذهب جودة الفطنة، وتكدر صفاء مشرب الوحدة، وتُزيد الوحشة، وتورث النسيان المستلزم لأنواع الخسران والحرمان.

جعلنا الله ممن أذاقه حلاوة خلوته، وأنسه مع وحدته.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الانشقاق

لا يخفى على من سلك عن مضيق الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وتوجه إلى كعبة الوحدة مهاجرًا عن عالم الكثرة أن العود والرجوع إنما هو على مقتضى البدء والظهور، وأن التدلي والارتفاع إنما هو على طبق التدني والانحطاط، فكما نزلت نفس الإنسان، وهبطت روحه في النشأة الأولى من سماء الأسماء المعبر بعالم اللاهوت، المقدس عن شوائب النقص، وسمات الحدوث مطلقًا إلى عالم الطبيعة والهيولي المكدَّرة بأنواع الكدورات، كذلك صعدت نحوها منها بعدما وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه.

وللصعود والعروج علامات وأوقات قدرها الله العليم الحكيم في سابق علمه، ولوح قضائه، ولم يُطلع أحدًا على وقته، بل أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض علاماته وأماراته فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر في بدء الوجود بمقتضى الجود ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليها بإمدادها وإبقائها إلى اليوم الموعود ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواص عباده، يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: 1-12].

﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ أي: سماء عالم الطبيعة والأركان ﴿انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] وانخرقت؛ لتصعد وتعرج الأرواح الفائضة إلى الأشباح نحو سماء الأسماء والصفات بعد خرق التعينات، ورفع الإضافات.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أصغت وانقادت لحكم ربها وأمره الذي مضى على

انشقاقها ﴿وَ﴾ بعدما أمرت ﴿حُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2] لها، ولاقت بحالها أن امتثلت بالمأمور وانقادت.

﴿وَإِذَا الأَرْضُ﴾ أي: أرض الطبيعة والهيولي القابلة المجبولة لانعكاس تأثيرات سماء الأسماء والصفات ﴿مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: 3] امتدت وانبسطت لقبول مطاويها.

﴿وَأَلْقَتْ﴾ أخرجت فظهرت ﴿مَا فِيهَا﴾ من التقوى المودعة القابلة لفيضان أنوار الذات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: 4] عن حفظ الأمانات الإلهية.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 5] لها للاستئذان والإصغاء، ولاقتضاء مرتبة العبودية ذلك، حينئذٍ انكشفت لها جزاء ما كسبت واقترفت في نشأة الاختبار.

ثمّ نادى سبحانه الإنسان نداء تنبيه وتخطية، وتحريك حمية فطرية، وسلسلة جبلية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ المصور على صورة الرحمن، المنتخب من بين سائر المظاهر لحكمة الخلافة والنيابة، ومصلحة المعرفة في التوحيد، فاعرف قدرك، ولا تغفل عن حقيقتك ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ساعٍ للتقرب والتوحيد ﴿إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ وسعيًا منتهيًا إلى إفناء هويتك في هوية الحق، وبالجملة: ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6] يعني: أنت ملاقٍ ربك بمقتضى سعيك واجتهادك، فلك ألّا تفترق ما يوصلك إليه، ويفنيك فيه بعد جذب من جانب الحق، وتوفيق من لدنه؛ لتكون من أرباب اليمن والكرامة، الموسومين بأصحاب اليمين، المؤتين لهم صحف أعمالهم من قِبَل أيمانهم التي هي علامة إيمانهم وعرفانهم.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ المطوي المشتمل على تفاصيل ما صدر عنه ﴿بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: 7] الذي هو عنوان اليُمن والكرامة والرضوان.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 8] سهلاً سريعًا.

﴿وَيَنقَلِبُ﴾ ويرجع بعد الحساب ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ الذي هم رفقاؤه في سبيل السعادة والكرامة ﴿مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 9] مبسوطًا فرحانًا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: 10] الذي هو عنوان الشقاوة، ودليل العتاب والعقاب، وأنواع الملامة والندامة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو﴾ ويتمنى ﴿ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: 11] ويلاً وهلاكًا؛ لصعوبة حسابه،

وغلبة سيئاته على حسناته.

﴿وَ﴾ بالآخرة ﴿يَصْلَى﴾ ويطرح صاغرًا ذليلاً ﴿سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: 12] مسعرًا بنيران الشهوات والغفلات الصادرة منه بمتابعة الأوهام والخيالات، وأنواع الضلال والجهالات الناشئة من القوى البهيمية الحاصلة من طغيان الطبيعة.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق: 13-25].

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ في دار الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 13] بطرًا فرحانًا، فخورًا بالمال والجاه، والثروة والسيادة، متفوقًا على الأقران، يمشي على الأرض خيلاء.

وإنما حمله عليه ﴿إِنَّهُ ظَنَّ﴾ بل تيقن جهلاً وعنادًا ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: 14] أي: لن ينقلب ويرجع إلى الله، ولن يقوم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء؛ لذلك اجترأ من المعاصي.

ثمّ قال سبحانه: ﴿بَلَى﴾ ردعًا عما قبله، وتصديقًا لما بعده على سبيل التعريض ﴿إِنَّ رَبَّهُ﴾ الذي ربّاه على فطرة المعرفة، وجبله على نشأة التوحيد ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: 15] عالمًا بتفاصيل أعماله الصادرة عنه على وجه الخبرة والبصارة، بحيث لا يشذ عن حيطة علمه شيء من أعماله وأحواله، فلا يهمله، بل يعيده ويجازيه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لإتيان يوم القيامة، وإثبات ما فيها من الثواب والعقاب، والجزاء والحساب وغير ذلك؛ إذ هي أمور ظاهرة مكشوفة عند ذوي الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى بحر الوحدة، وينبوع الحقيقة، بل أقسم ﴿بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: 16] المنبئ عن الشفقة والترحم الإلهي، وهو البياض المعترض من أفق عالم اللاهوت عند انقضاء نشأة الناسوت، حين حكم سبحانه بانطواء سجلات عموم التعينات والهويات.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: أُقسم بالليل؛ أي: مرتبة العماء الإلهي ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: 17] أي: ضم وجمع من الأنوار المنعكسة إليها هياكل الأشباح.

﴿وَالْقَمَرِ﴾ أي: أُقسم أيضًا بالقمر؛ أي: الوجود الكلي الإضافي، المنبسط على مرآة العدم المنعكس من شمس الذات الأحدية المتشعشعة، المتجلية عن مطلع الفضاء اللاهوتية ﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 18] تم وعمم، وشمل الكل، وصار بدرًا كاملاً بلا نقصان.

﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها المكلفون، ولتطرحن في نار القطيعة والحرمان ﴿طَبَقًا﴾ مجاوزًا ﴿عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: 19][1] بعيدًا عنه، متجاوزًا في شدة الأهوال والأفراع، وبعد الغور والطور في الحرقة، وأنواع العذاب والنكال.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام لدخلتم في طبقات النيران لو كفرتم بالله وعصيتم أمره، وخرجتم عن مقتضى حدوده وأحكامه.

وبعدما سمعوا ما سمعوا من الصادق الصدوق ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي: أيّ شيء عرض عليهم ولحقهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: 20] ولا يتصفون بالانقياد والتسليم، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من قِبَل الحق على ألسنة الرسل والكتب.

﴿وَ﴾ من كمال غفلتهم عن الله، وضلالهم عن سنن الهداية والرشاد ﴿إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ المبين لطريق الحق، وسبيل الإيمان والعرفان ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: 21] لا يخضعون ولا يتذللون، مع أنه إنما نزل؛ لهدايتهم وإرشادهم عنادًا ومكابرةً، فكيف التذلل والخضوع؟!

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: 22] به وبمنزله، وبمن أُنزل إليه جميعًا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع بما في ضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق: 23] أي: بعموم ما يضمرونه في نفوسهم من الكفر والكفران، وأنواع البغي والعدوان، والغفلة والطغيان، يجازيهم على مقتضى علمه بهم، وخبرته بما في نفوسهم.

(1) قال التستري في تفسيره (254/2): باطنها لترفعن درجة فوق درجة في الجنة، ولتحولن من حال إلى حال أشرف منها وأسر، كما كنتم في الدنيا ترفعون من درجة إلى درجة أعلى منها، من طمع وخوف وشوق ومحبة.

وبالجملة: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا أكمل الرسل بشارة على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: 24] نازل عليهم حين أُخذوا بعصيانهم وآثامهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منهم، وخرجوا عن ورطة الطغيان مستمسكين بعروة الإيمان، متشبثين بحبل القرآن ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1] [الانشقاق: 25] أي: غير مقطوع ومنقوص، إن أخلصوا في إيمانهم وإذعانهم.

اصنع بنا ما أنت به أهل يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المجبول على فطرة الإيمان والعرفان - مكنك الله فيما يسّر لك، وثبتك عليه - أن تتمسك بحبل التوفيق الإلهي، وتتشبث بأذيال همم أرباب التحقيق من الأنبياء والرسل الهادين المهديين، والأولياء الألباء المهتديين لهدايتهم؛ إذ هم خلاصة الوجود، وزبدة أرباب الكشف والشهود.

فلك أن تتخلق بأخلاقهم، وتقتفي بآثارهم المأثورة عنهم، وتسترشد من المرشد الرشيد الذي هو القرآن المجيد الموصل لأرباب التوفيق إلى زلال التوحيد، المسقط لأنواع التقاليد الراسخة في قلوب أصحاب الغفلة والتخمين.

فلك أن تتأمل ظاهره وباطنه، وحده ومطلعه؛ حتى تتوسل بها إلى ما فوقها من الرموز التي وهبها سبحانه، وجاد بها لبعض النفوس القدسية الفانية في قدس الذات الباقية ببقائها.

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

(1) قال علاء الدولة: أي: غير مقطوع ولا منقوص، فعليك أيها السالك أن تخضع لأمر الحق، وتصدق الآيات الأنفسية التي تطرأ عليك والقرآن الذي يقرأ عليك لطيفتك السرية؛ وتؤمن بالحق الذي أنزل عليك، وتعمل بما فيه ليكون لك أجرًا غير منون.

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البروج

لا يخفى على من تحقق بسماء الأسماء اللاهوتية المشتملة على بروج عالم الجبروت، وقصور مملكة الملكوت الموهوبة لسكانها من حضرة الرحموت أن الوصول إليها والحصول دونها إنما يتيسر للمستوحشين عن لوازم الإمكان، ومقتضيات نشأة الناسوت، المستأنسين بسكان عالم اللاهوت، وسواد أعظم الفقر.

ولاشك أن الاستئناس معهم إنما يحصل بجذبة غالبة، وخطفة جالبة إلهية، والجذبة الإلهية مسبوقة بالمحبة المفرطة، والمودة المزعجة إلى الفناء في المحبوب الحقيقي، والمحبة إنما تنشأ من الشوق الغالب الجالب، والشوق إنما ينبعث من الإرادة والطلب الصادر عن العزيمة المذكورة الخالصة، والعزيمة ما خلصت وصفت عن أكدار الطبيعة إلّا بالخلوة والعزلة عن الناس، ودوام العفة والقناعة، ومقارنة الرضا والتسليم، والتفويض والتوكل على وجه التبتل إلى العليم الحكيم.

فالكل مسبوق برفاقة التوفيق، والتصبر على متاعب الطاعات، ومشاق العبادات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية الموروثة من القوى الطبيعية.

والمنهمكون في بحر الغفلة والضلال لا يتيسر لهم الاستئناس بالكبير المتعال؛ لذلك لُعنوا وطُردوا عن ساحة عز القبول والحصول على وجه المبالغة والتأكيد، كما قال سبحانه في شأن طردهم ولعنهم مقسمًا بالأمور العظام، متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي في عموم المجالي بمقتضى أسمائه وصفاته إظهارًا للقدرة الكاملة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ للكل تتميمًا لتربيته ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان تعظيمًا لحكمته ومصلحته المودعة في نشأته.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
(٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ [البروج: 1-9].

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء والصفات المتشعشعة المتجلية في عالم اللاهوت ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] من النفوس القدسية القابلة لانعكاسها وتشعشعها، المستعدة لفيضان أنوارها الذاتية.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: 2] للانجلاء الكامل، والانكشاف التام المنعكس عن عالم العماء عند ارتفاع سدل الأسماء والصفات عن البين.

﴿وَ﴾ اتحاد ﴿شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: 3] [1] في العين، إنكم أيها المحجوبون عن الله، المطرودون عن ساحة عز حضوره، الملعونون مردودون عن كنف قربه وجواره؛ يعني: كفار مكة - لعنهم الله - لأن السورة نازلة في تثبيت المؤمنين على أذاهم.

كما ﴿قُتِلَ﴾ ولُعن ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: 4] الخد: الشق في الأرض وغيرها.

رُوي أنه كان لملك ساحر فكبر، فضم إليه غلامًا؛ ليعلمه، وكان في طريق الغلام

(1) قال الورتجبي: الشاهد هو، والمشهود هو، يرى نفسه؛ إذ لا يراه أحدٌ بالحقيقة، وأيضًا الشاهد هو، إذا تجلى بتجلي الجمال والحسن، والمشهود كله مستحسن جميل بجماله، وأيضًا الشاهد هو، والمشهود قلوب العارفين شاهدها بنعت الكشف، وأيضًا الشاهد قلوب المحبين، ومشهود لقائه هو شاهدهم، وهو مشهودهم هو شاهد العارف والعارف شاهده، قال الواسطي: الشاهد هو، والمشهود الكون لا يقال متى شهدهم، ولا يحدث لله شهادة، فحيث كانت الربوبية كانت العبودية؛ لأنه شهدهم قبل خلقهم علمًا وقدرةً ورؤية، وتصريفًا في الإيجاد والإبقاء والإفناء، لم يحدث له في إحداث الخلق أحداث؛ لأنه لا فصل، ولا وصل، والوجود معدوم، والمعدوم موجود لم يحضر آباد وقته، وأحضرهم أحداث أوقاته، ولما ثبت الشهود بالمشاهدة وجب أنه لم يكن عنده مفقودًا أبدًا، أو يستحيل أن يكون البارئ مفقودًا، قال فارس: كلاهما عائدٌ عليه هو الناظر، والمنظور إليه، وهو الشاهد لخلقه، والمشاهد لهم بوجود الإيمان وحقائقه، قال الحسين: في هذه الآية علامة أنه ما انفصل الكون عن المكوِّن ولا قاربه، قال سهل: الشاهد نفس الروح، والمشهود نفس الطبع، وقد وقعت لي نكتة في التوحيد: أنه تعالى لم يزل شاهدًا، فلو ثبت مشهودًا غير نفسه من الحدثان، فإذًا تقول بقدم الحادث والعلم بوجود المحدثات على الحقيقة كان مشهود الحق إذا كان في علمه علم كينونية المكوّنات، وكيفية وجودها، فإذًا وجودها وعدمها سواءٌ في شهود الحق.

راهب يستمع منه كلامًا، فرأى في طريقه يومًا حية حبست الناس، فأخذ الغلام حجرًا فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، وكان بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي المريض، فعمي جليس للملك، فابرأه، فأسلم، فسأله الملك: من أبرأك؟ فقال: ربي.

فغضب الملك عليه، فعذبه فدل على الغلام، فعذبه فدل على الراهب، فقده بالمنشار، وذهب بالغلام إلى جبل؛ ليُطرح من أعلاه، فرجف بالقوم، فطاحوا ونجا الغلام، فذهب به إلى سفينة؛ ليغرق، فاكفأت السفينة بمن معه ونجا.

وقال الغلام للملك: لست بقاتلي حتى تأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول: بسم الله رب الغلام، ثمّ ترميني به، فرماه فقال: بسم الله رب الغلام، فأصاب صدغه، فوضع عليه يده فمات، فآمن الناس.

وقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بحفر أخاديد، فأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة مع صبي رضيع، فتقاعست فقال الرضيع بإلهام الله إياه، مع أنه في غير أوان تكلمه، مثل عيسى النبي - صلوات الله عليه -: يا أماه اصبري، فإنك على الحق، فاقتُحمت في ﴿النَّارِ﴾ بدل من لفظه: الأخدود، بدل الاشتمال ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج: 5] والحطب الكثير تهويلاً عليهم بشدة التهابها وسورتها؛ لينزجروا عما اختاروا، ويعودوا عن الإسلام والتوحيد.

ثمّ لمّا طُرح المؤمنون فيها التهبت النار التهابًا شديدًا، وخرجت على أطرافها فأحرقت كثيرًا من صناديد أولئك الظلمة ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ وفي أطرافها ﴿قُعُودٌ﴾ [البروج: 6] قاعدون على الكراسي حول النار.

﴿وَهُمْ﴾ أي: رؤساؤهم ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: الموكلون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الأخذ والإفناء ﴿شُهُودٌ﴾ [البروج: 7] عدول مشرفون من قِبَل الملك، أمناء من جانبه، أقعدهم حولها؛ لئلا يتهاون الأعونة في إهلاك المؤمنين، وطرحهم في النار.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا نَقَمُوا﴾ وانتقموا أولئك الظالمون المنهمكون في بحر الغي والعدوان ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من المؤمنين بهذا الانتقام الصعب الهائل ﴿إِلَّا﴾ أنهم كرهوا منهم، واستكرهوا عليهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الحي القيوم، الحقيق بالإيمان والإطاعة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب القاهر على من دونه من السّوى والأغيار مطلقًا ﴿الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8] المستحق لأصناف الأثنية والمحامد استحقاقًا ذاتيًا ووصفيًا.

وكيف لا يكون سبحانه عزيزًا حميدًا، مع أنه القادر ﴿الَّذِي لَهُ﴾ وفي حيطة قدرته وإرادته ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مظاهر العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات؟! ﴿وَ﴾ كيف لا، هو ﴿اللهُ﴾ المستقل بالألوهية والوجود ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق وجوده ﴿شَهِيدٌ﴾ [البروج: 9] حاضر غير مغيب؟!

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ
(١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ
(١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)
فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ
مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾ [البروج: 10-22].

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفسدين ﴿الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ وأحرقوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظلمًا وعدوانًا، كراهة هدايتهم وإيمانهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما فعلوا من الإفراط والإسراف ﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ إلى الله، ولم يرجعوا نحوه سبحانه عن ظلمهم، ولم يستغفروا نادمين ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان عن حضور الحنّان المنّان ﴿وَلَهُمْ﴾ ولحق بهم؛ بسبب كفرهم بالله، وإنكارهم توحيده ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10] بدل ما فعلوا بالمؤمنين من حرقهم في الأخاديد.

ثمّ عقب سبحانه وعيدهم بوعد المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿وَ﴾ أكدوا إيمانهم بأن ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقرونة بالإخلاص في النيات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم جزاء إيمانهم وأعمالهم تفضلاً عليهم ﴿جَنَّاتٌ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ جداول المعارف والحقائق المنتشئة من بحر الحقيقة، وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ القول العظيم الشأن، البعيد رفعةً ومكانةً عن أفهام الأنام هو ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11] والفضل العظيم الذي لا فوز أعظم منه وأرفع.

ثمّ أشار سبحانه إلى تهديد أصحاب الضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال، مخاطبًا لحبيبه ﷺ فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، وأخذه بالعنف لعصاة عباده المائلين عن سبيل سداده، وجادة رشاده ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: 12] بحيث لا يقاس على شدة بطشه، وتضاعف عذابه وانتقامه.

وكيف يقاس على بطشه، ويقاوم مع أخذه ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ القادر الغالب الذي ﴿يُبْدِئُ﴾ ويظهر عموم المظاهر والموجودات من كتم العدم بالقدرة الغالبة الكاملة، ثمّ يخفي ويعدم كلها أيضًا بكمال قدرته ﴿وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13] ويخرج عن فضاء الظهور مرة بعد أخرى بمقتضى قدرته واختياره، فكيف يقاوم ويقاس مع قدرته سبحانه هذه؟!

وكيف يطيق أحد أن يقوم بمعارضته - تعالى شأنه أن يُعارض حكمه، ويُنازع سلطانه - يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عن فعله، إنه حكيم حميد؟!

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة جوده ورحمته ﴿الْغَفُورُ﴾ الستار المحاء لذنوب من تاب ورجع نحوه مخلصًا نادمًا، وإن كبرت وكثرت، فإن رحمته أوسع منه وأشمل ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج: 14] المحب لإخلاص المذنبين، وتوبة المستغفرين، وضراعة الخائفين المخبتين، المستحيين من الله، النادمين على ما صدر عنهم وقت الغفلة والغرور.

وكيف لا يود ولا يغفر سبحانه، مع أنه ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ المستوي على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل ﴿الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15] العظيم في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله؛ إذ لا وجود لسواه، ولا كون لغيره.

فظهر أنه ﴿فَعَّالٌ﴾ بالاستقلال الاختيار ﴿لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16][1] وجميع الأفعال الجارية في ملكه وملكوته صادرة عنه باختياره، وبلا شركة فيها ومظاهرة؛ إذ لا يجري في ملكه إلّا ما يشاء بمقتضى علمه الشامل، وحكمته الكاملة، سواء كان إنعامًا أو انتقامًا.

---

(1) قال القشيري: إنْ أراد أن يجعل أرباب الأرواح من أرباب النفوس فهو قادر على ذلك، وهو عادل في ذلك، وإن أراد عكس ذلك فهو كذلك فلذا كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، هل أتاك حديث الجنود، أي: جنود النفس التي تُحارب به الروح لتهوي بها إلى الحضيض الأسفل، ثم فسّرها بفرعون الهوى، وثمود حب الدنيا، والطبع الدني، بل الذين كفروا بطريق الخصوص في تكذيب، لهذا كله، فلا يُفرقون بين الروح والنفس، ولا بين الفرق والجمع، والله من ورائهم محيط، لا يفوته شيء، لإحاطة المحيط بالأشياء ذاتاً وصفاتاً وفعلاً، بل هو أي: ما يوحي إلى الأسرار الصافية، والأرواح الطاهرة قرآن مجيد في لوح محفوظ عن الخواطر والهواجس الظلمانية، وهو قلب العارف.

ثمّ أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثه على الصبر بأذيات قومه وتكذيبهم إياه مكابرةً فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك ووصل إليك، وثبت ذلك عندك يا أكمل الرسل بالتواتر ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: 17] أي: أخبار الأمم السالفة، وقصة تكذيبهم للرسل والكتب، وانتقامنا عنهم بعدما بلغ أذيات الرسل غايتها.

يعني: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي وملئه، كيف كذبوا أخاك موسى الكليم ﵇، وكيف قصدوا لمقته وهلاكه مرارًا، وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم ﴿وَثَمُودَ﴾ [البروج: 18] المردود، كيف كذبوا أخاك صالحًا ﵇، وكيف انتقمنا عنهم، تذكر يا أكمل الرسل قصصهم مع رسلهم، وما جرى عليهم من لدنّا، فاصبر على ما أصابك من قومك، فإن ذلك من عزم الأمور، فسننتقم عنهم، مثلما انتقمنا من الأمم السالفة الهالكة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: 19] أعظم من تكذيب الماضين، إنهم سمعوا قصصهم، وما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم فلم يعتبروا، ولم ينزجروا، فسيلحقهم أشد مما لحقهم من العذاب عاجلاً وآجلاً.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لعموم ما جرى في ضمائرهم من الكفر والشقاق ﴿مِن وَرَائِهِم﴾ أي: وراء هوياتهم الباطلة، وتعيناتهم العاطلة ﴿مُّحِيطٌ﴾ [البروج: 20] لهم بالإحاطة الذاتية، بحيث لا يفوت منه سبحانه شيء من جرائمهم وآثامهم، سيجازيهم عليها بمقتضى إحاطته، وهم منكرون إحاطته؛ لذلك ينكرون كتابه الجامع لجميع الكمالات الدنيوية والأخروية، الغيبية والشهادية، ينسبونه إلى الشعر والكهانة، وأنواع التزويرات والمفتريات الباطلة عنادًا ومكابرةً، مع أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ﴾ فرقان بين الحق والباطل، والهداية والضلال ﴿مَّجِيدٌ﴾ [البروج: 21] عظيم عند الله مبين، مبيّن لأحكام الدين المستبين.

مثبت ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 22] هو حضرة العلم الإلهي، ولوح قضائه المصون عن مطلق التحريف والتغيير.

جعلنا الله ممن تنور بنور الإيمان، وانكشف بحقية القرآن الفرقان.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي، المنكشف بحقية القرآن - هداك الله إلى حقيقته -

أن تعتقد إلى أن تنكشف أن مطلق الحوادث الجارية في عالم الكون والفساد، إنما هو مثبت في لوح القضاء المصون عن سمت التبديل والتغيير؛ إذ ما يبدل القول والحكم لدى القادر الحكيم العليم.

والتصرفات الواقعة في عالم الملك والملكوت إنما هي مرفوعة مرسومة فيه على وجهها، بحيث لا يشذ شيء منها عنه، والقرآن المجيد منتخب منه، حاوٍ على عموم ما ثبت فيه إجمالاً.

ومن أدركته العناية السرمدية، وجذبته الجذبة الأحدية تفطن من رموز القرآن إلى نور الأسرار والمعارف التي فصلها الحق في لوح قضائه، وحضرة علمه، لكن الواصل إلى هذه المرتبة العليّة أقل من القليل.

وبالجملة: فكن راجيًا من الله الجميل، ولا تيأس من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الخاسرون.

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الطارق

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وحفظه، ورقابته لعموم عباده أن كل ما صدر عمن صدر، وعلى أيّ وجه صدر، فإن الله عليه رقيب عتيد، يحافظه ويراقبه سواء كان خيرًا أو شرًا، نفعًا أو ضرًا، عملاً أو اعتقادًا، حالاً أو مقامًا.

والسر في ذلك: ألَّا يغفل العبد عن الله بحال من الأحوال، وشأن من الشئون، وكيف يغفل عنه سبحانه، فإنه مستمد منه سبحانه دائمًا في عموم حالاته حسب أنفاسه ولحظاته وخطراته؟!

لذلك أقسم سبحانه؛ لإثبات هذا المطلب العزيز بما أقسم؛ ليكون العبد على ذكر من ربه، وحضور عنده، بحيث لا يغيب عنه لمحة وطرفة؛ حتى لا يصدر عنه ما لا يرضى به سبحانه بمتابعة شياطين القوى الأمارة، فقال سبحانه متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المراقب لأحوال عباده؛ كيلا يوسوس في صدورهم الشيطان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم، يحفظهم عن موجبات الندامة والخذلان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى طريق الجنان.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق: 1-10].

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء اللاهوتية، المصونة عن مطلق التغيير والزوال، المتعالية عن مدارك الوهم ومشاعر الخيال ﴿وَ﴾ بحق ﴿الطَّارِقِ﴾ [الطارق: 1] الذي يتخطف منها على آحاد الرجال بعدما هاجروا عن بقعة الناسوت متشمرين بالعزيمة الخالصة نحو فضاء اللاهوت بمقتضى الجذب الجبلي، والميل الفطري المعنوي.

ثمّ أبهمه سبحانه على حبيبه تعظمًا وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المظهر

الكامل اللائق لفيضان الطوارق اللاهوتية ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: 2] حين كنت مقيدًا في عالم الناسوت، وبعدما أطلقك الحق عن قيود عالم الناسوت عرفت أن الطارق الذي يطرقك من عالم اللاهوت والجبروت.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3] أي: الجذبة المضيئة الأحدية، اللامعة المتشعشعة، الناشئة من عالم العماء الذي هو محل كمال الجلاء والانجلاء الذاتي، والجذوة المشتعلة الساقطة من نار العشق والمحبة المفرطة الإلهية إلى شجرة ناسوتك، القائلة لك بعدما أمرك بالانخلاع عن كسوة ناسوتك: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12].

واطرح لوازم نشأتك بعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل، فاسترح في مقعد صدقك عند ربك ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: 13.2] لمظهرية المعارف والحقائق ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13] إليك الآيات البينات لمراسم التوحيد واليقين.

وبالجملة: وحق هذين القسمين العظيمين ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: ما كل نفس من النفوس الزكية والخبيثة ﴿لَّمَّا﴾ أي: إلَّا ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1] [الطارق: 4] من قِبَل الحق، يحفظ لها أقوالها وأفعالها وأحوالها، وحالاتها ومقاماتها؛ حتى لا يدفعها ويسلمها إلى المقادير التي حصل منها، وصدر على طبقها حتى جوزيت على مقتضاها.

وبعدما سمع الإنسان ما سمع من الحكمة العليَّة الإلهية ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ المركب من الجهل والنسيان، وليتأمل في منشئه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: 5] يعني: فليراجع وجدانه، ولينظر مبدأه ومنشأه؛ حتى يظهر له من أيّ شيء قدر وجوده، فعرف قدره، ولم يتعد طوره.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ﴾ مهين مسترذل ﴿دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6] مدفوق مصبوب في الرحم على وجه التلذذ والاضطراب من كلا الجانبين.

---

(1) قال السمناني: جواب القسم؛ يعني: ليس كل نفس لما عليها منا حافظ، وحفظتك من هذا القبيل يحفظونك من العاهات الجسمانية والآفات الروحانية، وأنت غافل عن نفسك وعن حفظك وتحسب أنك خلقت للأكل والشرب، والجماع والبهائم ولا تتفكر في خلقك.

مع أنه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: 7] أي: من ظهر الرجل وصدر المرأة.

وبعدما تأمل الإنسان في مبدئه، وعرف أصل منشئه تفطن منه أن وفقه الحق إلى قدرة الصانع العليم، الحكيم الذي خلقه من هاتين الفضلتين الخبيثتين، وربّاه إلى أن صار بشرًا سويًا، قابلاً لفيضان أنواع المعارف والحقائق، لائقًا للخلافة الإلهية، مهبطًا للوحي والإلهام.

وتفطن أيضًا، بل جزم وتيقن أن من قدر على خلقه وإيجاده ابتداءً ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ وإعادته وبعثه من القبور ﴿لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: 8] ألبتة، فكيف ينكر قدرته سبحانه على البعث والحشر، مع أن الإعادة أهون عنده من الإبداء؟!

تأملوا أيها المجبولون على فطرة العبرة والتكليف ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9] وتكشف الستائر، ويظهر ما خفي في الضمائر من الإنكار والإصرار، وفواسد النيات والأعمال.

﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: للإنسان حينئذٍ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يدفع عن نفسه ما يترتب على أعماله وأحواله من العذاب والعقاب على وجه الجزاء ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 10] يدفعه عنه وينصره؛ إذ كل نفس يومئذٍ رهينة بما كسبت، مشغولة بجزاء ما جرت خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 11-17].

ثمّ أقسم سبحانه بما أقسم؛ لإثبات حقية القرآن وفضله، وكونه بريئًا عن قدح القادحين، وطعن الطاعنين فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: وحق سماء الأسماء اللاهوتية التي هي في أعلى درجات الارتفاع ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: 11] والعود؛ إذ تدور على هياكل عالم الناسوت طرفة، وترجع في الحال، كالبرق الخاطف آثارها إلّا لأرباب العناية من البدلاء الذين بُدّلت لوازم ناسوتهم في المرة بخواص اللاهوت، ولا تدوم وتستقر.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: أرض الطبيعة والهيولى القابلة لانعكاس ما لمع عليها من

سماء الأسماء ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12] أي: التأثر والتشقق بقبول أثر مؤثرات عالم اللاهوت.

يعني: وبحق هذين القسمين العظيمين ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: 13] فاصل بين الحق والباطل، والهداية والضلال.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: 14] كما زعمه المسرفون المفرطون في شأنه، بل هو جدّ كله، صدر عن حكمة بالغة إلهية لمصلحة الهداية والرشاد لعموم العباد، وبالجملة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: طغاة مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15] ويمكرون مكرًا في إبطال القرآن وإطفاء نوره مراءً ومكابرةً، فيرمونه بأنواع القدح والطعن الفائض على عموم الأعيان، وينسبونه إلى ما لا يليق بشأنه.

﴿وَأَكِيدُ﴾ أيضًا في أخذهم وانتقامهم بعدما استحقوا الأخذ والانتقام ﴿كَيْدًا﴾ [الطارق: 16] على سبيل الاستدراج والإمهال، بحيث لا يحتسبون، بل يحملون إمهالنا على الإهمال؛ لذلك يغترون ويجترئون في قدحه وطعنه.

وبعدما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ﴾ أنت أيضًا، ولا تستعجل بانتقامهم، ولا تشتغل بالدعاء عليهم سريعًا؛ إذ إمهالنا إياهم ابتلاء منّا لهم وفتنة جالبة لمصيبة عظيمة، ومتى تحققت يا أكمل الرسل ما قلنا لك ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ وأعرض عن المراء والمجادلة معهم، وانتظر لمقتهم، وترقب لهلاكهم ﴿رُوَيْدًا﴾[1] [الطارق: 17] إمهالاً يسيرًا في زمان قليل، وسيظهر عن قريب دينك على عموم الأديان، وهم يقهرون ويستأصلون.

جعلنا الله ممن صبر وظفر على مبتغاه بمنه ولطفه.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوكل على الحق، المتبتل نحوه بالعزيمة الخالصة أن تفوض عموم

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: أنظر لهم ولا تستعجل؛ لكي يتمتعوا ويلههم الأمل فيأخذهم أخذ بغتة، وتعد لهم بما كادوا باللطيفة الإرادية عذابًا شديدًا؛ وهو عذاب الإطلاع على عرش اللطيفة وما أودع الله لصاحبها من النعيم المقيم والملك العظيم في جنة قلبها، ونحشرهم على فوات الاستعداد الذي يمكن ترتيبها.

أمورك إلى ربك، بحيث لا يخطر ببالك أن تلتفت إلى تحصيلها باستدراك، وتتخذه كفيلاً حسيبًا، كافيًا بجميع حوائجك وأشغالك.

وبالجملة: كن فانيًا في الله يكفيك جميع مؤنك؛ إذ الكل بالله ومن الله وفي الله، بل أنت ما أنت، بل أنت هو، بل هو هو، لا حول ولا قوة إلّا بالله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأعلى

لا يخفى على الموحدين الواصلين إلى مقام التمكين بلا تلعثمٍ وتلوين أن العارف المحقق بعدما وصل إلى مقام الفناء في الله، وحصل دون ذروة التوحيد الذاتي والبقاء السرمدي، لم يبق في عين شهوده سوى الوحدة الذاتية الصرفة، الخالية عن تعدد الأسماء والصفات مطلقًا؛ إذ تلون الأوصاف وتعدد الأسماء من جملة الحجب والغطاء عند أرباب المحبة والولاء، المتحققين بعالم العماء الذي لا يمكن التعبير عنه مطلقًا؛ لاضمحلال الحجب والآلات التي بها يُتوسل إلى التعبير والإشارة والرمز والغمز والإيماء.

وبالجملة: لا يسع حينئذٍ سوى التقديس والتسبيح؛ إذ لا يحتاج المسبح المقدس إلى التوسل مطلقًا؛ لذلك أمر سبحانه حبيبه ﷺ بعدما وصل إلى القرب والشهود بالتسبيح ولقنه بالتقديس المقارن باسمه الأعلى، لا على وجه الاسمية والإضافة، ولا على وجه الوصفية؛ إذ الاسم والوصف وسائر الاعتبارات لا يسع في ذلك المقام؛ ولا على معنى التفضيل، بل على وجه العجز والقصور عن الإدراك والتغيير والإشارة ومطلق الوسائل المؤدية إلى الإخبار عنه سبحانه؛ إذ كلَّت حينئذٍ ألسنة الاستعدادات عن مطلق الإيماء والإشارات، وانحسرت المدارك والعقول، فصار الكل مبهوتًا حائرًا هائلاً، بل فانيًا مضمحلاً، لم يبق له رسم ولا اسم ولا خبر ولا أثر.

وبعدما وقع ما وقع، فقد وقع أجره على الله بأمره بما أمره بمقتضى حكمته وعلمه حسب إرادته ومشيئته، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتعالي ذاته عن أحلام الأنام وأفهام الخواص والعوام ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم مظاهره، يدعوهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى أرفع المكانة وأعلى المقام.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ
(٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى: 1-9].

﴿سَبِّحِ﴾ يا من غرق في تيار بحر زخّار الوجود، وتلاشى في لمعات شمس الشهود ﴿اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[1] [الأعلى: 1] وإن لم يبق لك التوسل بمطلق الأسماء، بعدما فنيت في المسمى.

ثُمّ تذكر بمقتضى حصة عبوديتك نعمه الواصلة إليك بعدما فزت بخلع البقاء، وتذكيرًا استحضارًا لمّا جرى عليك من الشئون والأطوار في نشأة ناسوتك؛ إذ هو سبحانه القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد عموم ما خلق وأظهر ﴿فَسَوَّى﴾ [الأعلى: 2] خلق الكل بحوله وقوته، مع ما يتعلق به، ويترتب عليه في معاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ﴾ المقادير ودبر التدابير وأحسن التصاوير وأودع فيها ما أودع من الاستعدادات والقابليات الجالبة لأنواع الكمالات، وبعدما عدلها وهيأها ﴿فَهَدَى﴾ [الأعلى: 3] أي: هدى الكل إلى ما جبلوا لأجله بوضع التكاليف المشتملة على الأوامر والنواهي، والأحكام الواجبة والمندوبة، والأخلاق المرضية والآداب السنية؛ ليتمرنوا على الأمور المذكورة ويترسخوا فيها بالعزيمة الخالصة حتى يفيض عليهم طلائع سلطان الوحدة الذاتية المنقذة لهم عن ورطة الناسوت، الموصلة إلى فضاء اللاهوت.

﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿الَّذِي أَخْرَجَ﴾ بكمال قدرته ﴿الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: 4] أي: أنبت وأظهر المرعى الحاصل في مرتع الدنيا بأجناسها وأنواعها وأصنافها؛ تتميمًا لتربية دواب الطبائع وحوامل الأركان القابلة لتأثيرات عالم الأسماء والصفات؛ ليتقوموا بها ويستعدوا لفيضان المعارف والحقائق، وأنواع الكمالات اللائقة التي هم جُبلوا لأجلها.

---

(1) قال علاء الدولة: من أن يجري على لسان ملوث، والاسم الأعلى هو الله، والذكر الأفضل لا إله إلا الله ولأجل هذا السر اختار المشايخ الذين عرفوا الطريق على وجه التحقيق وهم طبقة أستاذ الطريقة الجنيد البغدادي -قدس سره- للسالكين الذين دخلوا في الطريقة، وجاهدوا في تطهير القلب؛ لينزل سلطان ذكر الرب فيه لا إله إلا الله، وإذا طهرت صورة الذكر صورة لسانك، وطهرت معاني الذكر حقيقة جنانك عرفت الرب وسبحته حق التسبيح، وعلمت أنه خلقك من العناصر الأربعة فسواك في أعدل الأمزجة ليصلح أن يكون مركبًا للروح الإضافي، وقدر أقوات القوى الروحانية من نفحات ألطاف الرب، وأقوات القوى الجسمانية من تدبيرات السماوية النازلة إلى أرض القالب، وهدى كلي قوة إلى قوتها المقدرة.

وبعدما حصل لهم ما حصل من الكمالات المنتظرة في نشأة الناسوت ﴿فَجَعَلَهُ﴾ سبحانه مرعى العالم مع كمال نضارتها وبهائها في نظر شهود أولي الألباب، الناظرين بنور الله من وراء سدل الأسماء والصفات ﴿غُثَاءً﴾ يابسًا، بل سرابًا باطلاً بعدما تحققوا بمقر التوحيد، ورفعوا وسائل الأوصاف والأسماء عن البين، فصار الكل حينئذٍ هباء ﴿أَحْوَى﴾ [الأعلى: 5] عدمًا لا يبقى، أسود موحشًا مظلمًا، بعدما كان أخضر مفرحًا.

ثمَّ التفت سبحانه نحو حبيبه ﷺ على سبيل التفضل والامتنان فقال على وجه الوصاية والتذكير: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ ونجعلك قارئًا مراقبًا على وجوه الوحي والإلهام النازل من لدنا عليك، مع أنك أمي لم يعهد منك أمثالها ﴿فَلَا تَنسَى﴾ [الأعلى: 6] يعني: عليك أن تضبط هذه النعمة وتحفظها على وجهها، وتواظب على أداء شكرها بلا فوت شيء منها وزيادة عليها وتحريف فيها.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم نسيانه منك بأن نسخ تلاوته أو حكمه أو كلاهما على مقتضى حكمته المتقنة المستحكمة ومصلحته، وبعدما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت فدم عليها، ولا تغفل سرًا وجهرًا، وحالاً ومقالاً عنها ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ منك ﴿الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: 7] أي: ظاهرك وباطنك؛ يعني: ما امتثلت بظاهرك من مقتضيات الوحي والإلهام، وبباطنك من الإخلاص في النيات والحالات والخلوص في العزائم والمقامات.

﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل أنَّا بمقتضى عظيم جودنا معك ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ ونوفقك على التدين والتحفظ بمقتضيات الوحي ﴿لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: 8] أي: للطريقة السهلة السمحة البيضاء.

وبعدما يسرنا لك وسهلنا عليك طريق الهداية والإرشاد ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني: عظ بالقرآن وبين الأحكام الموردة فيه للناس ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9] أي: سواء نفعت عظتك وتذكيرك إياهم أو لم تنفع؛ إذ ما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾
[الأعلى: 10-19].

ولا تيأس يا أكمل الرسل من مبالغتهم في الإعراض والانصراف عنك وعن تذكيرك إنه ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ ويتعظ بتذكيرك ﴿مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى: 10] عن بطش الله، وعن كمال قدرته على وجوه الانتقام.

وبعدما تأملت في القرآن مرارًا، وتدبرت في فحاويه تكرارًا، تنبه على حقيقته، فتذكر به وامتثل بما فيه ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: يعرض عنها وعن سماعها؛ يعني: الذكر والعظة التي هي القرآن ﴿الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: 11] أي: الكافر، الذي جبل على فطرة الشقاوة وجبلة الجهل والغباوة.

﴿الَّذِي يَصْلَى﴾ ويدخل في النشأة الأخرى ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: 12] التي هي بأضعاف نار الدنيا في الحرقة والحرارة، لذلك قال: «كبرى» أو في الدرك الأسفل منها وهو أكبرها.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما دخل في نار القطيعة والحرمان بأنواع الخيبة والخذلان ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ يعني: يستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: 13] حياة نافعة طيبة كسكان بقعة الإمكان، الداخلين في نيران الشهوات ودركات الأماني والآمال، لا يموتون حتى يستريحوا، ولا يحيون بلا منية إلا منية وغل الأمل وسلسلة الحرص.

وبالجملة: هم معذبون في عموم الأوقات والأحوال، لا نجاة لهم عنه ماداموا في قيد الحياة، وبعدما ماتوا بأنواع الحسرات، سيصلون في أسفل الدركات وأصعب العقوبات.

هب لنا جذوة من نار المحبة، تنجينا عن نيران الإمكان في النشأة الأولى والأخرى.

ثم قال سبحانه على سبيل التنبيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا ﴿مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14] وتطهر عن أدناس الطبائع وأكدار الهيولى من الميل إلى الدنيا وما فيها من اللذات الفانية، والشهوات الغير الباقية، وتوجه نحو المولى بالعزيمة الخالصة.

﴿وَذَكَرَ﴾ في أوائل الطلب ومبادئ الإرادة ﴿اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي: جنس الأسماء الإلهية متفطنًا بمعناها، يقظان فرحان متشوقًا ﴿فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 15] ومال نحوه سبحانه في الأوقات المأمورة المحفوظة، محرمًا على نفسه عموم مبتغاه من دنياه.

﴿بَلْ﴾ هؤلاء الحمقى الهلكى التائهون في تيه الضلال، المغلولون بأغلال

الأماني والآمال ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: 16] المستعارة الفانية على الحياة الحقيقية الأخروية الباقية؛ لذلك يجمعون أسباب الفساد والإفساد، ولا يتزودون ليوم الميعاد.

﴿وَ﴾ الحال أنها؛ أي: ﴿الآخِرَةُ﴾ وما وعد فيها من اللذات الروحانية الباقية ﴿خَيْرٌ﴾ مما في الدنيا وأمانيها ﴿وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 17] وأدوم بحيث لا انقطاع لها.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي وعظك الحق به يا أكمل الرسل، ووصاك بالفلاح ﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ [الأعلى: 18][1] أي: مثبت، مسطور على وجهه، وتلك الصحف ﴿صُحُفِ﴾ جدك يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الفائق في الخلة والفلاح على عموم أرباب الصلاح والنجاح ﴿وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 19] الكليم الفائز من عند الله بالفوز العظيم، وهو مرتبة التكليم مع الله العزيز العليم.

جعلنا الله من خدَّامهم وتراب أقدامهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأخروي الحقيقي والنجاح المعنوي أن تزكي أولاً نفسك عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، وتصفي سرك عن الميل إلى مزخرفات الدنيا الدنية وأمانيها الغير الهنية، فلك أن ترغب نفسك عن مقتضيات الإمكان، ولا تغريها إلى لذاتها وشهواتها، فعليك أن تلازم الخلوة والخمول، وتجتنب عن أصحاب الثروة والفضول حتى يعينك الحق إلى التلقي بالقبول بما يوجبك الفلاح والفوز بالنجاح.

افتح لنا أبواب رحمتك إنك أنت الفتاح.

---

(1) إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأنَّ التوحيدَ، والوعدَ والوعيدَ، لا تختلف باختلاف الشرائع. تفسير القشيري (8 / ص 70).

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الغاشية

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخروية، المتحققين بظهور الحق حسب النشأتين أن الوقوف بين يدي الله وعرض الأعمال عليه سبحانه والحساب عليها والجزاء على مقتضاها مشهودة للعارف المحقق، مكشوفة عنده في كل آن وزمان، وبعد الحساب والجزاء فرقةٌ منهم رابحون مقبولون عند الله، وفرقةٌ خاسرون مردودون.

فالمقبولون في كنف جوار الله مسرورون متنعمون والمردودون في نار القطيعة والحرمان محرومون مطرودون؛ لذلك أخبر سبحانه في كتابه بطريق المبالغة والتحقيق مخاطبًا لحبيبه ﷺ، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم عباده، ينبههم نحو المرجع والمعاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى سبيل الرشاد.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾ [الغاشية: 1-7].

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: قد أتاك ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: 1] أي: الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتحيط بهم يوم القيامة بشدائدها حين وقفوا بين يدي الله للعرض والجزاء، وهم حينئذٍ من شدة الهول والفزع حيارى، سكارى تائهون، هائمون، مرعوبون عما يفعل بهم، وكيف يحكم عليهم.

وبعدما أُخذوا للحساب وحوسبوا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: 2] ذليلة شاخصة منكوسة.

﴿عَامِلَةٌ﴾ يومئذ بأعمال لا تنفعها، كالتوبة والتوجه وطلب العفو والمغفرة بعد مضي أوانها ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: 3] مبالغة في التعب والمشقة، رجاء أن يُعفا عنها

ويغفر لها، فلا تنفعها حينئذٍ عملها، وإن أتعبت نفسها لانقضاء نشأة الاختبار المأمورة فيها الأعمال.

﴿تَصْلَى﴾ وتطرح حينئذٍ ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: 4] في نهاية الحر والحرقة؛ تأكيدًا وتشديدًا لعذابها.

﴿تُسْقَى﴾ عند إشرافها على الهلاك من شدة العطش ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: 5] متناهية في الحرارة، وكيف لا، قد أوقدت حولها نار جهنم منذ خلقت، هذا شرابهم.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: 6] شبرق يابس، أمرُّ من الصبر وأبشع من جميع الأشياء البشعة، ومع نهاية بشاعته ومرارته وشدة حرارته ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ حتى يزيد في قوتهم ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7] وبالجملة: لا يفيد البدن أصلاً.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ [الغاشية: 8-16].

﴿وُجُوهٌ﴾ أخر ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: 8] متنعمة مبتهجة مسرورة.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي تحملته من أنواع المتاعب والمشاق في نشأة الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: 9] سيما بعدما رأت ما ترتب على سعيها من الجزاء.

وكيف لا ترضى؛ إذ هي متنعمة بسبب ذلك بالسعي ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: 10] متعالية أوصاف نزاهتها ونضارتها عن مدارك العقول ومشاعر الحواس، مصفاة عن مطلق المكاره بحيث ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ كلمة ﴿لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: 11] لا فائدة لها.

ولتتميم نزاهتها ونضارتها ﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ ماؤها في غاية البياض والصفاء ﴿جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: 12] في خلالها وأنهارها أبدًا.

ولتتميم ترفههم وتنعمهم ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 13] مرتفعة عن الأرض على قوائم طوال.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ أوان لا عروة لها ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 14] بين أيديهم.

﴿ونمارقُ﴾ وسائد في غاية الصفاء، متلونة بالألوان المطبوعة ﴿مصفوفةٌ﴾ [الغاشية: 15] مفروشة بعضها في جنب بعض.

﴿وزرابيُّ﴾ بسط أخر فاخرة متلونة ﴿مبثوثةٌ﴾ [الغاشية: 16] مبسوطة بين أيديهم، فلا تستبعدوا ولا تستغربوا عن قدرة الله أمثال هذا.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: 17-26].

﴿أ﴾ ينكرون ويستبعدون أولئك البعداء، المنكرون، المفرطون قدرة الله القدير الحكيم على أمثال هذه المقدورات ﴿فلا ينظرُون﴾ بنظر التأمل والاعتبار ﴿إلى الإبلِ كيف خُلقتْ﴾ [الغاشية: 17] [1] على الهيكل الغريب والشكل العجيب، تحمل كثيرًا

---

(1) انظر كيف تحقق الشيخ البيطار من هذه الآية المباركة بقوله الرباني حيث قال: اعلم - رحمك الله - أن الإبل عجيبة باسمها ومعناها؛ لأنها من جهة اسمها جمع وفرد؛ لأن الإبل لفظ يدل على الكثرة لاستغراقه لكل فرد منها مع أن هذا الاسم لا واحد له من لفظه مثل: تمرة وتمر، وحبة وحب، فاسم الإبل وإن دلّ على الكثير فهو واحد في عين تلك الكثرة، كذلك صور العالم وإن تكاثرت فهي حقيقة واحدة بين الوجود والعدم؛ لأنها برزخية بين ذات الله ومعاني أسمائه وصفاته، فمن الذات التي هي الوجود المحض، ومن معاني الأسماء - التي هي أحكام لا وجود لها في العين، وإنما تتعقل في الذهن - فهي عدم في الوجود العيني ظهر العالم الذي هو عبارة عن الصور، فالصور برزخية لا وجودية من كل وجه، ولا عدمية من كل وجه فهي من جهة الوجود عين الذات، ومن جهة الحكم العدمي عين الأسماء والصفات، فشابه لفظ الإبل الحق في واحديته، وصور العالم في كثرته، كذلك لفظ الجلالة هو واحد في نفسه، ولكن اندرج فيه كل شيء، وأما العجب في معناها، فإنها مع كبرها وعظمتها تنقاد لكل عظيم وحقير وصغير وكبير، وتحمل النفيس والخسيس، ولا تمنع أحدًا من التمكن منها ولو كان نملة أو بعوضة، كذلك وجود الله تعالى لا يأبى أحدًا، فهو ظاهر في السعيد والشقي والعزيز والذليل، فأشبهت الأرض التي هي تحت العزيز والذليل، مع أن الأرض لما ذُلّت تحت نعال الذليل أعزها الله تعالى بسجود الآدمي، ووضع وجهة الذي هو أشرف ما فيه عليها، وقد قال ﷺ: «لو دليتم بحبل لهبطتم على الله» والهبوط لا يكون إلا على الأرض، فقد سمّاها باسمه مع أنه ليس كمثله شيء»، -

وتأكل قليلاً وتصير منقادة لكل أحد حتى النسوان والصبيان مع عظمة جسمها وكمال قوتها وقدرتها وتتحمل على الجوع والعطش مدة، وتتأثر من المودة والغرام، وتسكر منها إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زمانًا ممتدًا، وتتأثر أيضًا من أحسن الأصوات

كذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70]، وما حملهم في البر مثل الإبل، وإن كانت الوابورات الظاهرة في زماننا هذا تحمل بني آدم برًا، ولكن لا تحملهم إلى ما شاءوا، بل حملاً مقيّدًا، فالحامل هو الله والصورة صورة الإبل، فصورة الإبل وجه من وجوه الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17] أي:كيف تنزّل الحق الذي ليس كمثله شيء إلى هذه الصورة الإبلية حتى حمل بني آدم بنفسه، فقال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70]، فالحامل هو الله في صورة الإبل، فصورة الإبل مخلوقة حادثة والحامل قديم، فظهر من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ في صورة الحادث مع أنه باقي على قدمه، فمن نظر إلى الإبل فقد نظر إلى وجه الاسم الإلهي (الحامل) لا ترى أن رسول الله ﷺ لما طلبوا الصحابة أن يحملهم فقال: «والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه» ثم أرسل لهم وأعطاهم من الإبل ما يحملهم، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنك أقسمت ثم أعطيتهم، فقال: «أنا ما حملتهم ولكن الله حملهم». ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية:18]؛ لأنها بعل الأرض، فالأرض تحتها كما أن المرأة تحت الرجل، فالأرض منكوحة للسماء وزوجة لها، فحركات الأفلاك السماوية بمنزلة الجماع، والأمطار النازلة في الأرض بمنزلة الماء الذي يُلقى في الرحم، ونبات الأرض بمنزلة الولد الذي تخرجه المرأة من بطنها، فأشبهت السماء الذكر في الرفع، والأرض أشبهت الأنثى في السطح، وأما الجبال المنصوبة بين السماء والأرض فهي بمنزلة الخنثى من بني آدم، فهي برزخية المنزلة؛ لأن لها وجه إلى ذكورة السماء، ووجه إلى أنوثة الأرض لاتصالها بالأرض، وهي تحمل بني آدم من جهة السكن.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:82]، فلها مع الاسم (الحامل) الاسم (الواقي)، والاسم (الحفيظ) والاسم (الساتر) والاسم (المؤمن)، وجميع ذلك أسماء الله، والمسمى هو، فما في الوجود إلا هو، فهذه دلالات ظاهرة في هذه الأربع وهي: الإبل والسماء والجبال المنصوبة والأرض المسطحة، فأشبهت تربيع مراتب الوجود في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3]، وهذه المعاني متوجهة على هذه الصور الأربعة، فلكل منها نصيب من الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية، فنَصَّبها الله دلالات على وجود ذاته، إذ نظر الإنسان إليها ليتعدى نظره من صورها الظاهرة إلى الباطن فيها، وهو الحق تعالى.

والحدي، وصارت من كمال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري، وتجري الدمع من عينها، وبالجملة: ظهر منها حين حُدي عليها عجائب كثيرة، يتفطن بها أهل العبر والاستبصار.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: 18] بلا عمد وأسانيد منثورة عليها من الكواكب التي لا ندرك حقائقها وأوصافها وأشكالها وطبائعها وحالاتها، وما لنا منها إلّا الحيرة والنظر على وجه العبر.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ﴾ الرواسي ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: 19] على وجه الأرض مشتملة على معادن ومياه وأجسام.

﴿وَإِلَى الأَرْضِ﴾ التي هي مقر أنواع الحيوانات وأصناف المعادن وأنواع النباتات ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20] مهدت وبسطت.

ومع وضوح هذه المقدورات العظيمة الشأن، الصادرة من الحكيم المنان ذي الطول والإحسان، ينكرون قدرته سبحانه على المقدورات الأخروية، فالعجب كل العجب عمن شهد آثار القدرة الغالبة الإلهية في نفسه وفي الآفاق، فتردد في المقدورات الأخر الأخروية وأنكر عليها.

وما ذلك إلّا من ظلمات الأُلف والعادات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة والطارئة على أهل الغفلة والضلال، المسجونين في سجن الإمكان بأنواع الخيبة والخسران وإلّا فظهور آثار القدرة الغالبة الإلهية أجل وأعلى من أن تتردد فيه الآراء، أو تنكر عليه الأهواء، وبالجملة: ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

وبعدما سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا أكمل الرسل بالقرآن بمقتضى ما أُمرت به وأُلهمت ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21] مبلغ، فلا بأس عليك إن لم ينظروا ولم يعتبروا، ما عليك إلّا البلاغ، فلا تقصر في تبليغك.

إذ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 22] مسلط، ملزم، مكره للقبول ألبتة.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى﴾ يعني: لكن من أعرض وبغى بعد تذكيرك وتبليغك ﴿وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: 23] وطغى بما سمع منك، واستهزأ معك وكذبك.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ﴾ العزيز الحكيم المقتدر على وجوه الانتقام ﴿الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: 24] الذي لا عذاب أعظم منه وأشد، وهو حرمانهم عن رتبة الخلافة

وخلودهم في نار القطيعة بأنواع الخذلان والخسران، وبالجملة: بلغ يا أكمل الرسل جميع ما أنزل إليك على كافة البرية، ولا تبال بإعراضهم وتكذيبهم.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا من الوسائل والأسباب العادية ﴿إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25] ورجوعهم، كما أن منّا مبدأهم وصدورهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعوا إلينا صاغرين ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 26] على أعمالهم التي صدرت عنهم في نشأة الاختبار، وبعدما حاسبناهم، جزيناهم أحسن الجزاء إن كانوا من أصحاب اليمين، وعذبناهم بأنواع العذاب والنكال إن كانوا من أصحاب الشمال.

رب يسر حسابك علينا، وقنا عذابك، إنك أنت الرءوف الرحيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو الحق، الحقيق بالتوجه والرجوع أن ترجع إلى الله قبل حلول الأجل المقدر للقيامة الصغرى والكبرى، وتفوض أمورك كلها إليه سبحانه بالإرادة والرضا، وتنخلع عن لوازم ناسوتك بالمرة.

وبالجملة: عليك أن تتصف بالموت الإرادي قبل حلول الأجل الاضطراري الطبيعي، حتى تكون عند ربك دائمًا وفي كنف حفظه وجواره بلا انتظار منك إلى الطامة الكبرى والحساب والجزاء، ولا يتيسر عليك هذا إلّا بتوفيق الله وجذب من جانبه، فلك السعي والاجتهاد، والله الملهم للرشاد والهادي إلى سبيل السداد.

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفجر

لا يخفى على من ترقى عن حضيض الغفلة وغور الغرور إلى ذروة المعرفة وأوج السرور أن التدني من مضيق الناسوت والترقي نحو فضاء اللاهوت إنما يحصل بالجذبة الغالبة الإلهية المثنية للقوى البهيمية عن مقتضياتها الطبيعية مطلقًا، المعطلة للوهم والخيال عن التصرف في عالم المثال، الرادعة للعقل الفطري المتشعب من العلم الإلهي، المقتبس من مشكاة لوح القضاء عن متابعة القوى الداركة البشرية وآلاتها، وسفارة الحواس الظاهرة والباطنة إياهم، ومعاونة الواهمة المتخيلة اللتين هما من جنود إبليس الأمارة بالسوء.

ولاشك أن هذا الترقي إنما يتيسر بعد الموت الإرادي وبعد التبدل عن مقتضيات الأوصاف البشرية، وحصوله إنما هو بالميل الفطري المترتب على الرابطة المعنوية والعلقة الحقيقية التي هي مناط التكاليف الإلهية المثمرة لأنواع المعارف والحقائق اللدنية، المتنشئة عن صفاء مشرب التوحيد.

لذلك أقسم سبحانه بمسالك أرباب السلوك المهاجرين عن عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وابتدأ بفلق صبح الانجلاء اللاهوتي، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور عباده؛ ليخرجهم من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بوضع التكاليف الشاقة القالعة لعرق الإلف والعادة الموروثة لهم من مقتضيات عالم الناسوت ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يميتهم بالموت الإرادي عن لوازم بشريتهم ولواحق هويتهم الباطلة الإمكانية.

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر: 1-9].

﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: 1] أي: وحق انفلاق صبح السعادة المتنفس بأنفاس الرحمانية المتلألئ من سماء العماء وأفق عالم الأعلى اللاهوتي.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: 2] أي: وبحق ليالي الحواس العشر، المقبلة إلى الإدبار والانمحاء عند انجلاء الفجر اللاهوتي وصبح العماء الذاتي.

﴿وَالشَّفْعِ﴾ أي: شفع الملوين الجديدين، وارتفاعهما عن العين وانمحائهما عن البين ﴿وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: 3] أي: الوجود الوحداني، المطلق، المنزه عن التعدد والتكثر مطلقًا في ذاته.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: ليل العدم المظلم في ذاته ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: 4] وذهبت ظلمته بامتداد أظلال الوجود وشروق شمس الذات عليه.

﴿هَلْ﴾ يحتاج ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: في كل واحد من المقسمات العظيمة الشأن ﴿قَسَمٌ﴾ ويمين يؤكدها ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: 5] عقل فطري خالص عن شوب الوهم والخيال، خالٍ عن مزاحمة مطلق الإلف والعادات الحاصلة من الرسوم والتقليدات، الناشئة من ظلمّات الطبيعة.

وبالجملة: أقسم سبحانه بحق هذه المقسمات الرفيعة القدر والمكان أنه سبحانه يعذب أصحاب الزيغ والضلال، المقيدين بسلاسل الحرص وأغلال الآمال في الدنيا بشهوات الإمكان، وفي الآخرة بدركات النيران؛ يعني: كفار مكة خذلهم الله.

استبعدت يا أكمل الرسل تعذيبنا إياهم وانتقامنا عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ولم تخبر بالتواتر الموجب للجزم واليقين ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: 6] يعني: كيف أهلك عادًا.

﴿إِرَمَ﴾ اسم لبنائهم وبلدهم ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: 7] أي: الأساطين الطوال شديدة الأساس، رفيعة السمك، عريضة الجدار.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ﴾ ولم يوجد ﴿مِثْلُهَا﴾ أي: مثل بنائهم وبلدهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾[1] [الفجر: 8] في الإحكام والرفعة وأنواع النزاهة واللطافة، وهم كانوا أكثر الناس أعمارًا

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: ألم تر القوى النفسية إن الله فعل بالقوى العادية التي نبت لنسفها من التنعم في ذات عماد قالبها إرم جنة من القول النباتية الخبيثة، متى ما شاءت على وفق هواها دخلت وأكلت من ثمارها، لم يخلق مثل ذلك الإرم في قوالب غيرها كيف خربها ربها.

وأولادًا وأموالاً وجاهًا وثروة بأضعاف هؤلاء المسرفين المفسدين، فأهلكهم سبحانه واستأصلهم بعدما أفرطوا في أطوارهم الخارجة عن حد الاعتدال ﴿وَثَمُودَ﴾ يعني: كيف فعل بثمود أيضًا ما فعل من الهلاك، مع أنهم ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ قطعوا ونقبوا ﴿الصَّخْرَ﴾ أي: صخور الجبال ﴿بِالْوَادِ﴾ [الفجر: 9] أي: بواد القرى، واتخذوا فيها بلادًا حصينة منيعة من شدة قدرتهم وقوتهم، مع ذلك أهلكهم سبحانه.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر: 10-16].

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10] أي: ذي العسكر الكثير، المشتمل على المضارب والخيام، المشتملة على الأوتاد والأطناب.

وهؤلاء المذكورين هم: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 11] واستكبروا على ضعفاء العباد اتكالاً بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: 12] أي: أنواع الكفر والظلم والعناد.

وبعدما بالغوا في الفساد والإفساد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: 13] أي: نوعًا من العذاب، كأنه يصب عليهم ويمطر كالماء من السحاب، وهو كناية عن ترادف موجات الهلاك وتتابعها، وبالجملة: أهلكهم بأشد العذاب وأكثره.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لحبيبه ﷺ، منبهًا له على كمال قدرته على انتقام عصاة عباده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي ربَّاك على كمال المعرفة واليقين ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1] [الفجر: 14] أي: مراقب محافظ لطرق عباده، يرقبهم سبحانه كيف يسلكون نحوه: هل في سبيل الضلال والفساد، أم في طريق الهداية والرشاد؟ مع أن الكل مجبول على فطرة التوحيد لكن الحكمة الإلهية تقتضي الابتلاء والاختبار.

(1) قال علاء الدولة: يعني: يرصدك ويريك في تقلبك ويسمع نجواك ولا يخرب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا في الأرض القالب، ولا في الصدور، ولا في نهار الروح، ولا في ظلمة ليل النفس، ولا في أطوار القلب.

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ﴾ المذبذب بين الإحسان والكفران ﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ اختبره وجربه ﴿رَبُّهُ﴾ بالغنى واليسر ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالجاه والثروة ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بالأموال والأولاد ﴿فَيَقُولُ﴾ شكرًا لمَّا وصل إليه من النعم ومقتضيات الكرم: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: 15] وتفضل عليَّ بما أعطاني من الخير والحسنى.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ ربه بالفقر والعسر بعد اليسر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وقصر على قدر كفايته وحاجته وقوت يومه، بحيث لم يزد على مؤنة معاشه ﴿فَيَقُولُ﴾ مشتكيًا إلى الله باثًا للشكوى عنده سبحانه: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: 16] وأذلني، حيث لم يعط لي ما أعطى لفلان وفلان، مع أن الفقر خير من الغنى؛ إذ الفقر لو قرن بالتسليم والرضا لأدى صاحبه إلى جنة المأوى وملك لا يبلى، والغنى لو لم يقرن بالشكر والإنفاق والإحسان لأدى صاحبه إلى دركات الجحيم وأودية النيران.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: 17-23].

ثمَّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا له عن هذا الاعتقاد بأن الكرامة باليسر والتوسعة والإهانة بالفقد والفقر ﴿بَل﴾ الكرامة بالإنفاق والإطعام على فقراء الله؛ طلبًا لمرضاة الله؛ وأنتم أيها الأغنياء ﴿لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: 17] ولا تتفقدونه بالنفقة والكسوة.

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ أي: لا تأمرون غيركم ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: 18] وإطعامه.

﴿وَ﴾ أنتم أيها الأغنياء ﴿تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي: ميراث الأيتام ﴿أَكْلاً لَّمًّا﴾ [الفجر: 19] أي: أكلاً على سبيل الجمع بين سهامكم وسهامهم، بأن تأخذوا وتحرزوا أموالهم؛ لترقبوها لهم وتزيدوها لأجلهم، فتأكلوا منها ومن غالّها دائمًا.

﴿وَ﴾ ما ذلك إلَّا أنكم ﴿تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 20] كثيرًا مع حرص شديد وأمل كامل، ولا تطعمون الفقراء والمساكين؛ خوفًا من نفاذه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا لهم عمّا هم عليه من حب المال والخلط عليهم بين الحرام والحلال؛ يعني: كيف تودون أيها البخلاء الممسكون حسابها وقت ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ﴾ أي: كسرت واستوت، فصارت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: 21] وهباءً منبثًا.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وظهرت طلائع هيبته وآثار قهره وجلاله ﴿وَ﴾ جاء ﴿الْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الموكلون من عنده سبحانه؛ لتنقيد أعمال العباد والحساب والسؤال ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] أي: صفًا بعد صف، حسب ما يؤمرون من قِبل الحق.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: أُحضرت تهويلاً على أصحابها وتفظيعًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة التي ظهرت فيها هذه الآثار ﴿يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ معاصيه وقول من يزجره عنها وينذره، فيندم عليها ويتأسف ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: 23] أي: من أين ينفعه التذكر والذكرى حينئذٍ؛ إذ نشأة الاختبار والتلافي قد انقضت؟!

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ [الفجر: 24-30].

وبعدما جزم أنه لا نفع يومئذ لتذكره ﴿يَقُولُ﴾ متمنيًا على وجه الحسرة والندامة: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ في الابتلاء والاختبار ﴿لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24] ونجاتي في هذا اليوم.

وبالجملة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: 25] أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما عذب هو نفسه بالحسرة والندامة وأنواع الكربة والكآبة والخذلان.

﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ ويحكم ﴿وَثَاقَهُ﴾ ونكاله ﴿أَحَدٌ﴾ [الفجر: 26] مثل ما أوثقه وأحكمه هو على نفسه بأنواع الخيبة والخسران والغصة والحرمان؛ إذ العذاب الروحاني الطارئ من الندامة والخذلان لا يُقاس شدة تأثيره إلى سائر العذاب الجسماني.

ثمّ أشار سبحانه إلى حُسن أحوال أرباب العناية والكرامة يومئذ من المؤمنين الموقنين الذين تزودوا في النشأة الأولى للأخرى، واتصفوا بالتقوى، ولم يعصوا في مدة أعمارهم إلى المولى، ولم يتبعوا الهوى، واطمأنوا ووطّنوا نفوسهم بما جرى

عليهم من مقتضيات الانقضاء، وبالجملة: لم يضطربوا في السراء والضراء، ولم يبالوا في الشدة والرخاء، فيقال لهم يومئذ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: 27] المتقررة المتمكنة بمقام الرضا والتسليم.

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ واصعدي على الطريق الذي هبطت عنه ﴿رَاضِيَةً﴾ متصفة بالرضا كما كنت راضية بالقضاء في النشأة الأولى ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28] مقبولة مكرمة عند المولى.

وبعدما رجعت على الوجه المذكور ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِي﴾ [الفجر: 29] الذين وصلوا إلى كنف جواري، وحصلوا في مقعد الصدق لدي.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿ادْخُلِي جَنَّتِي﴾[1] [الفجر: 30] أي: جنة وحدتي واستريحي في خلوة لاهوتي.

جعلنا الله ممن خوطب بهذا الخطاب المستطاب، إنه هو الملهم للصواب، وعنده حسن المآب.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المترقب بهذا النداء، والمحب المترصد لسماع هذا الصدى أن تكون في عموم أوقاتك على حضور مع ربك، بحيث لا يشغلك عنه سبحانه الالتفات إلى غيره مطلقًا من الميل إلى الدنيا وأمانيها وعموم ما فيها، بل تكون مطمئنًا راضيًا بما جرى عليك من مقتضيات القضاء، مفوضًا أمورك كلها إليه على وجه التسليم والرضا، متوجهًا بالعزيمة الخالصة نحو المولى، حتى تكون مخاطبًا بهذا الخطاب المستطاب في كل نفس من أنفاسك التي جرت عليك في عموم أوقاتك وحالاتك.

وبالجملة: لا تغفل عن الله مطلقًا تقر بتشريف أمثال هذه الخطابات العلية والكرامات السنية.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين المطمئنين.

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: في جنة القلب المضاف إلى الرب لشرفها فيا أيها السالك، أعبر بهذه الحالات واعتبر عن مشتهيات النفس الأمارة؛ لتكون من الداخلين جنة الرب، ولا تفرح بالبسط ولا تحزن بالفيض، وكن في كلتا الحالتين ذاكر للرب لئلا تكون من الذين يعبدون الله على حرف كما ذكرهم الله في كتابه.

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البلد

لا يخفى على من وصل إلى مقام القلب الذي هو عبارة عن البيت الحرام الحقيق والكعبة المعنوية التي دحيت وبسطت من تحتها أراضي الاستعدادات، وتوجهت نحوها زوار القابليات من كل فج عميق ومرمى سحيق من بوادي الإمكان وأودية الطبائع والأركان، إنما وصل إليه وتشرف بطوافه، ووقف بين يدي الله ناويًا الموت الإرادي، محرمًا عن لوازم الطبيعة ومقتضيات الإمكان من ميقات الطلب والإرادة الصادقة، مغتسلاً بزمزم التوبة والإنابة عن الالتفات إلى مطلق السوى والأغيار، متجردًا عن ثياب الغفلة وجلباب الاغترار، ساعيًا بين صفاء المحبة ومروة المودة الإلهية بكمال الشوق والذوق، متوجهًا للوقوف إلى عرفات اللاهوت، متعرضًا عن عوارض عالم الناسوت، ذابحًا كبش نفسه تقربًا إلى الحي الذي لا يموت، منخلعًا عن جلباب البدن ولوازمه في منى الفناء، معاملاً مع الله في سوق البقاء؛ طلبًا لربح اللقاء، حلّ له أن يقاتل عند الحرام الإلهي مع جنود الأمارة وكفار القوى والآلات، إلى أن يغلب عليهم ويهلكهم، ويصفي البيت العتيق الإلهي، الذي هو قلب الإنسان الكامل عن أصنام الأحلام وأوثان الأماني والآمال الحاصلة من الخيالات والأوهام.

لذلك رخص سبحانه لحبيبه ﷺ القتال في حرم مكة، مع أن الحرمة فيها مؤبدة، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي اختار لنفسه بيتًا صوريًا ليكون قبلة لأصحاب الصورة، وبيتًا معنويًا؛ ليكون وجهة لأرباب القلوب ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده، حيث يدعوهم إلى كعبة المقصود ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى عرفات الوحدة وبيت معمور الوجود.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: 1-10].

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 1] الذي هو كعبة آمال أرباب الإرادة والطلب؛ ألا وهو السواد الأعظم اللاهوتي؛ إذ لا حاجة بالقسم لأرباب المعرفة، بل أقسم لأصحاب الغفلة ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مكة - شرّفها الله - التي وضعت بيتًا حرامًا، لا يحل لأحد أن يفعل فيها شيئًا من المحظورات المباح.

﴿وَ﴾ من جملة خواصك التي اصطفيناك وميزناك بها عن سائر الناس يا أكمل الرسل هي أنه: ﴿أَنْتَ حِلٌّ﴾ يعني: أنت لجمعك وجامعيتك وحيازة مرتبتك عموم المراتب، مستحل للتعرض خاصة للقتل والأسر في الحرم من بين عموم الناس؛ لمزيد فضيلتك ومنزلتك عند الله، وزيادة خصوصيتك ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2] الذي حرم على عموم العباد، وإنما أُحل لك أيضًا ساعة من نهار لا أزيد منها، وبعد ذلك يحرم لك أيضًا.

﴿وَوَالِدٍ﴾ أي: أقسم بالوالد الذي هو آدم الصفي عليه السلام في عالم اللاهوت ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: 3] منه في عالم الطبيعة بعد هبوطها إلى مضيق الناسوت.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أي: أظهرنا نشأة ناسوته مغمورًا ﴿فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4] تعب ومشقة كثيرة، شاغلة لعموم حواسه ومداركه بحيث يستوعب ويحيط بجميع القوى والآلات حوائج المعاش وأسبابه، فاشتغل عن الله بسبب ذلك وترك أمر معاده، فأخذه في كسب الأموال وجمع الحطام والآثام المبعدة عن الحكيم العلام، فصار من غاية استغراقه بالدنيا نسي العقبى، وزلت نعله عن طريق المولى.

لذلك كذب وتولى، واستكبر واستولى، واستظهر بأمواله وأولاده، واستعلى وترقى أمره في الغفلة والغرور إلى أن طغى على الله، وبغى على عباده، وخيل أنه لا يغلب ولا يعلى، كما قال سبحانه مقرّعًا عليه مسفهًا له: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ المجبول على الكفر والنسيان ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ﴾ أي: أنه لن يستطيع ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: 5] فينتقم عنه ويأخذه على ما صدر عنه من العتو والعناد.

ومن كمال بطره وغروره ومفاخرته على بني نوعه ﴿يَقُولُ﴾ على سبيل الخيلاء والسمعة والرياء: ﴿أَهْلَكْتُ﴾ وأنفقت في سبيل الله ﴿مَالاً لُّبَدًا﴾ [البلد: 6] مالاً كثيرًا ملبّدًا منضدًا مجتمعًا متراكمًا.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويعتقد ذلك الأحمق ﴿أَن﴾ أي: أنه ﴿لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: 7] أي: لم يعلم الله إنفاقه ونيته فيه، واعتقاده عليه وإبطاله بالمن والأذى.

وكيف يتأتى إنكار إطلاعنا إياه وإلى ما صدر عنه؟! ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ﴾ ولم نظهر في جسده حين صورناه بمقتضى حولنا وقوتنا وكمال قدرتنا ﴿عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: 8] ليبصر بهما عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا.

﴿وَلِسَانًا﴾ ليعرب ويترجم به ما جرى في خلده ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: 9] مبينين على التكلم والتعريب على وجه الإفصاح والتوضيح.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ بإعطاء هذه النعم العظام ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] أي: طريقي الخير والشر، والهداية والضلال، واختبرناه بهما وابتليناه أيّ طريق يختار لنفسه بعدما وفقناه لكليهما ونبهناه عليهما؟!

﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البلد: 11-20].

وبعدما أعطيناه ما أعطيناه وهديناه ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ وما دخل الإنسان ﴿الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: 11] أي: الكؤودة الوعرة على نفسه الشاقة لها، حتى يؤدي شكر ما أعطيناه.

ثمّ أبهمها سبحانه تعظيمًا وتفخيمًا فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها المغرور بالحياة المستعار ولوازمها ﴿مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 12] الكؤودة في طريق أهل الإيمان والعرفان.

ثمّ بيّنها بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: 13] أي: العقبة الكؤودة فك الرقبة عن رقية الأماني والآمال.

﴿أَوْ﴾ العقبة ﴿إِطْعَامٌ﴾ على فقراء الله وعجزة عباده ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: 14] أي: حاجة شديدة وجوع مفرط.

يعني: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: 15] أي: له قرابة إلى المطعم.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: 16] أسكنه الفقر وأغبره في تراب

المذلة والصغار.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقدم على اقتحام العقبة المذكورة ﴿كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وأيقنوا أن ما في يدهم لله، وهم منفقون بإقدار الله في سبيل الله ﴿وَ﴾ مع إيمانهم بالله واتصافهم بالأعمال الصالحة المؤكدة لإيمانهم ﴿تَوَاصَوْا﴾ بينهم؛ أي: أوصى بعضهم بعضًا ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على مشاق التكاليف الإلهية ومتاعب الطاعات المأمورة لهم ﴿وَ﴾ كذلك ﴿تَوَاصَوْا﴾ بينهم ﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: 17] والشفقة على عباد الله وتعظيمهم، والتحنن نحوهم، والإحسان معهم ولو بكلمة طيبة.

﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء، الموصوفون بلذة الكرامة العظمى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: 18] عند الله؛ أي: ذوي اليُمن والكرامة وأنواع اللطف، وأعلى الدرجة والمقامة.

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذّبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: 19] أي: ذوو الملامة والندامة، المأخوذون بشؤم كفرهم ومعاصيهم، المجزيّون بفواسد ما اقترفوا من الجرائم والآثام.

لذلك ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[1] [البلد: 20] مطبقة ،مغلقة، مكتوبة بحيث لا يمكنهم من لوازمها التنفس فيها أصلاً؛ لكونهم منهمكين في النشأة الأولى في لوازم الإمكان بحيث لا يمكنهم في لوازمها ومقتضياتها.

نعوذ بك من النار، وما قرب إليها يا غفّار.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب للكرامة الإلهية والسعادة الأبدية - يسّر الله لك طريق الوصول إليه - أن تشتغل بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواسدها وتكتسب الأخلاق المرضية المقربة إلى الله، المبعدة عن شآمة أصحاب الزيغ والضلال، المنهمكين في بحر الغفلة بأنواع الشهوات واللذات البهيمية والوهمية الفانية، العائقة من الوصول إلى

(1) قال علاء الدولة: يعني: عليهم نار مطبقة عليهم الأبواب لا يدخل عليهم روح من عالم الروح، ولا يخرج من داخلهم كرب وغم بأنهم كسبوا هذه النار المؤصدة بكفرانهم وطغيانهم اللطيفة في عالم الكسب.

اللذات الروحانية الباقية.

وإياك إياك الاختلاط مع أصحاب الثروة المفتخرين بالمال والجاه، المتصفين بالنخوة الحاصلة منها، فإن صحبتك معهم تزل قدمك عن منهج التوكل، وتميل قلبك عن الرضا والتسليم.

ثبت أقدامنا على جادة توحيدك يا ذا القوة المتين.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الشمس

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود، وسريان شمس الذات على صفائح ذرات المظاهر والمجالي الفانية الإلهية والإحصاء أن انبساط الحق وظهور الوجود إنما هو على مقتضى الجود الإلهي، وحسب اقتضاء رقائق الأسماء والصفات الكاملة المندرجة فيه للظهور والجلاء بمقتضى الحب الذاتي، المنبعث عن التجلي الجمالي على شئون متنوعة وأطوار شتى.

لذلك أقسم سبحانه بكليات الأطوار، وابتدأ بظهور شمس الذات، التي هي ينبوع بحر الوجود، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المنزّه عن الظهور والبطون بحسب ذاته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ أي: وحق شمس الذات الأحدية لإظهار كمالات أسمائه وصفاته ﴿الرَّحِيمِ﴾ بإخفائها في وحدة ذاته.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 1 -10].

﴿وَالشَّمْسِ﴾ أي: وحق شمس الذات الأحدية، المتلألئة من سماء عالم الأسماء العماء، وأفق فضاء اللاهوت ﴿وَ﴾ بحق ﴿ضُحَاهَا﴾ [الشمس: 1] [(1)] المنبسط على

(1) قال روزبهان: أقسم الله بشمس جلال قدمه إذا ارتفعت من مشارق قلوب العارفين، فنوّر بسنانها أسرارهم، وأيضًا أي: وشمس عرفانهم حين أشرقت بنور الإيقان، وأورث لهم لطائف العيان والبيان، وقمر صفاته إذا تتابعت أنوارها عقيب كشوف أنوار ذاته في فؤاد المقرّبين، وأيضًا أي: بقمر الإيمان إذا تلا شمس العرفان، ونهار صباح الأزل إذا تجلّى لأرواح الموحدين والصدّيقين، وليلُ تحيّر أهل الفناء في ميادين وحدانيته؛ حيث لا يدركون منافذ درك الحقائق، وأيضًا أي:

مرآة العدم القابلة لانعكاسها.

﴿وَ﴾ حق ﴿الْقَمَرِ﴾ أي: الوجود الإضافي الكلي، المحيط على مطلق العكوس والأظلال المنعكسة من مرآة العدم، التي هي عبارة عن سراب العالم غيبًا وشهادة ﴿إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس: 2] تبعها ولحقها؛ أي: شمس الذات في الإحاطة والشمول.

﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي: نشأة الظهور والبروز المنعكسة من عالم الأسماء والصفات ﴿إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: 3] أي: شمس الذات، وفصلت آثار أسمائها وصفاتها الكامنة فيها على صفحات الكائنات.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي: نشأة البطون والخفاء المنعكسة من عالم العماء، والسواد الأظلم الذي اضمحلت دونه نفوس عموم الكثرات، وتلاشت آثار الأسماء والصفات لكمال تشعشعها وبريقها ﴿إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: 4] حيث خفيت شمس الظهور من إفراط النور وكمال تشعشعها في البريق والظهور.

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي: سماء الأسماء والصفات المزيَّنة بنجوم الآثار والشئون المترفعة عليها ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5] من التجليات الحبية الجمالية والجلالية.

﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: استعدادات القوابل السفلية، القابلة لانعكاس آثار العلويات ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: 6] ونشرها من الآثار المرتبة على الصفات الفعّالة الإلهية.

﴿وَنَفْسٍ﴾ أي: روح فائضة من عالم الأسماء والصفات على هياكل المسميات وقوابل العلويات والسفليات؛ ليستفيد بتذكر الموطن الأصلي والمنشأ الجبلي ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: 7] أي: عدَّلها وركَّبها ممتزجة من الآثار العلوية والسفلية.

وبعدما سواها وعدلها كذلك ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] على مقتضى ما أودع فيها من الآثار العلوية والسفلية، ثمّ كلَّفها بما كلفها؛ ليتميز المحق من

بليل قهريات عظمته إذا تغشى بعين الامتحان أفئدة الطالبين والمطلوبين؛ لأن الكل في ضرب هذا البلاء، حتى قال سيد الورى ﷺ: «إنّه ليغانُ على قلبي»، وسماء قلوب المحبّين فيها أبراج الغيوب تسري فيها نيّرات كشوفات الملكوت والجبروت وما بينهما، أقسم بالفعل، ثم بالصفة، ثم بالذات، وجميعها خبرٌ عن عين الجمع في الحقيقة، وفي عين التفرقة من حيث رسم الحقيقة، وأرض عقول العارفين التي هي مساقط شروق أنوار المشاهدة.

المبطل، والضال من الهادي، والكافر من المؤمن؛ تتميمًا للحكمة المتقنة البالغة الإلهية وإظهارًا للقدرة الغالبة.

ثمّ قال سبحانه جوابًا لهذه المقسمات المذكورة على سبيل الكناية والتنبيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بما أفلح، وفاز عند الله من الدرجات العلية ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9] أي: طهّر نفسه عن الرذائل السفلية، ومقتضيات اللاهوتية الإمكانية وأمانيها.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر وهلك ﴿مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 10] أنقص عن كمالاتها وأضلها؛ حيث حملها على اقتراف المعاصي والآثام المترتبة على سفليات الطبائع والهيولى ورذائل الإمكان المورث لها أنواع الخيبة والخسران، وأصناف الحرمان والخذلان.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: 11-15].

لذلك ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ المبالغ في إهلاك النفس وتضليلها وتقريرها بمن أُرسل إليها وأُمر لإرشادها، حين انحرفت عن جادة العدالة ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: 11] أي: بسبب طغيانها وتقليبها حظوظ السفليات على حظوظ العلويات، وبعدوان القوى الأمارة على جنود المطمئنة، وبانقهار نشآت اللاهوت بغلبة مقتضيات الناسوت.

وذلك أنهم قد بالغوا في العتو والعناد والتكذيب والإفساد، سيما وقت ﴿إِذِ انبَعَثَ﴾ أي: قام وأقدم مسرعًا ﴿أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: 12] أي: أشقى القبيلة وأرداها وأضلّها عن طريق الحق - وهو: قدار بن سالف - إلى عقر الناقة المعهودة المحفوظة المخصوصة بالوصية الإلهية.

وبعدما صمم عزمه إلى العقر ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ وهو صالح عليه السلام على مقتضى شفقة النبوة: ذروا ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ واحذروا عقرها، وبالجملة: لا تمسوها بسوء مطلقًا، فيأخذكم عذاب عظيم ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 13] التي عيَّن الله لها، ولا تذبوها عن الماء.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يقبلوا قول الرسول، واجتمعوا على عقرها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فخرج الرسول من بينهم؛ خوفًا من حلول عذاب الله وسطوة قهره وجلاله، وبعدما ارتكبوا

المحظور المنهي ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: طبّق عليهم الصيحة الهائلة، فأهلكهم بها بالمرة ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ الذي صدر عنهم، وهو تكذيب الرسول المرشد لهم من قِبل الحق ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: 14] أي: سوى الدمدمة عليهم، وأعمت بينهم بحيث لا ينجو منهم أحد، وبالجملة: أقدم العاقر اللعين على عقرها، واتفقوا معه.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ هو وهم ﴿عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: 15] أي: ما يعقب عقرها ويتبعها من أنواع البلاء والمصيبة والعناء، وأخبرهم بها الرسول فكذّبوه واستهزءوا معه؛ لذلك لحقهم من سيئات أعمالهم.

نعوذ بك من سيئات الأعمال، وتشتت الأحوال، وتفاقم الأهوال.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأبدي والصلاح السرمدي المترتب على العناية الإلهية وفضله أن تصفي نفسك عن مقتضيات الإمكان وظلمات الهيولى والأركان، حتى تأمن عن طغيانها وعدوانها، فلك أن تحليها بالمعارف والحقائق ومحاسن الشيم والأعمال والخلاق الموجبة لفيضان لوامع الكشف والشهود، المخلص عن مطلق القيود لقرافة إطلاق الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الكثرات المتفرعة على الإضافات الطارئة على التعينات العدمية.

وفقنا الله لتخلية النفوس عن مطلق الرذائل، وتحليتها لمحاسن الشيم والخصائل.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الليل

لا يخفى على المنكشفين بنشآت الحق وشئونه الغيبية والشهادية أن تنزلات الحق عن مطلق العماء اللاهوتي نحو فضاء الناسوت على أطوار متفاوتة، وشئون شتى حسب اقتضاء رقائق أسمائه الذاتية المقتضية للظهور والجلاء.

لذلك أقسم سبحانه بنشأتي الغيب والشهادة، وما امتزج منهما في البرزخ الجامع الإنساني المحتوي على نشأتي الغيب والشهادة، المتفرعة عليهما التكاليف الإلهية، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي على عموم شئونه المترتبة على أسمائه الغير المحصورة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لجميع مظاهره، حيث يطلعها على ذاته؛ ليتوجه الكل نحوه طوعًا ﴿الرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان؛ حيث نبّه عليه سر سريان وحدته الذاتية على صحائف الكثرات المترتبة.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا
مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾ [الليل: 1-11].

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: 1] أي: وحق الهوية الغيبية الإلهية المتمكنة في مكمن العماء، المغشي لنقوش الكثرات المترتبة على الأسماء والصفات من شدة بريقها ولمعانها.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: 2] أي: وحق الهوية الشهادية الإلهية، الظاهرة في عالم البروز والجلاء، المظهرة لآثار الأسماء والصفات إظهارًا للحكمة البالغة التي هي ترتب الإيمان والعرفان على تلك الآثار.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: 3] أي: وحق القادر الحكيم الذي خلق وقدّر وصوّر برزخ الإنسان المصوّر على صورة الرحمن، الجامع لعموم مراتب الأكوان؛

حيث ركبّه وأودع فيه من الحصص اللاهوتية الغيبية والناسوتية الشهادية، ثمّ كُلِّف بالتكاليف الشاقة؛ ليترقى من حضيض الناسوت إلى ذروة اللاهوت؛ لذلك استخلفه واصطفاه وانتخبه من عموم مظاهره؛ ليترتب على مرتبة هذه المصلحة العليّة والخصلة السنيّة، وإنما خلقه زوجًا؛ ليدوم في نشأة الشهادة وجود مرتبته التي هي الغاية القصوى لنشأة الشهادة.

ثمّ قال سبحانه جوابًا للقسم، مخاطبًا على أفراد الإنسان؛ تربية لهم وتنبيهًا على مفاسدهم ومصالحهم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ الذي سعيتم به أيها المكلفون في نشأة الاختبار ﴿لَشَتَّى﴾ [الليل: 4] مختلفة متفاوتة حسب تفاوت ما أودع الله فيكم من الحصص المذكورة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ مما ساق له الحق من الرزق الصوري والمعنوي، مقارنًا للخشوع والخضوع وخلوص النية والطوية وأنواع الطاعات والعبادات المأمورة له ﴿وَاتَّقَى﴾ [الليل: 5] عن مطلق المحارم والمنهيات التي وردت الزواجر الإلهية فيها.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: 6] أي: صدّق بعموم مقتضيات الأسماء الإلهية وبآثار صفاتها العليا التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي: نُعدُّه ونوفِّقه ﴿لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 7] للطريق السهلة الموصلة إلى مقصد التوحيد، والمعرفة المنجية عن غياهب الشكوك وظلمّات الأوهام.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ولم ينفق على مقتضى ما أمره الحق ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل: 8] عن مقتضيات الأسماء ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: 9].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونستعده ﴿لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 10] أي: للطريق العَسِرة الوعرة، التي هي طريق الكفر والمعصية المؤدية إلى أودية الشهوات الإمكانية، المستلزمة للدركات النيرانية.

﴿وَ﴾ بعدما نأخذه في النشأة الأخرى بسبب بخله وكفره ﴿مَا يُغْنِي﴾ يكف ويدفع ﴿عَنْهُ مَالُهُ﴾ شيئًا من غضب الله ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: 11] أي: هوى وهلك في قعر جهنم الإمكان وسعير النيران.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ

﴿عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ٢١﴾ [الليل: 12-21].

ثمّ قال سبحانه تعريضًا للمسرفين المفرطين: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: 12] يعني: ما علينا من إصلاحكم إلّا الهداية والإرشاد، فهديناكم ولم تهتدوا.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [الليل: 13] يعني: ما لنا إلّا التبيين والتنبيه بأن الآخرة خير من الأولى، فبينًا طريق المعاش في النشأة الأولى، وطريق التزود والتهيئة للآخرة، فلم تقبلوا منّا، ولم تمتثلوا بما بيّنا، ومع ذلك أكدنا هدايتكم وإرشادكم بالإنذار البليغ.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ [الليل: 14] تتوقد وتتلهب من شدة سورتها.

وبيّنا لكم أيضًا أنها ﴿لَا يَصْلاهَا﴾ ولا يدخل فيها ﴿إِلَّا الأَشْقَى﴾ [الليل: 15].

﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالكتب الإلهية وما فيها من الأحكام ﴿وَتَوَلَّى﴾ [الليل: 16] أعرض عن الرسل، وانصرف عن دعوتهم، ومع ذلك لم يقبل منّا.

﴿وَ﴾ كذا بينّا لكم أيها المكلفون أنها ﴿سَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يُبعد عن النار المسعرة في دركات الجحيم ﴿الأَتْقَى﴾ [الليل: 17].

﴿الَّذِي يُؤْتِي﴾ يعطي ويتصدق ﴿مَالَهُ﴾ في سبيل الله؛ طلبًا لمرضاة الله على فقراء الله كيف ﴿يَتَزَكَّى﴾ [الليل: 18] ويتطهر عن قاذورات الدنيا، ولم يبق في قلبه سوى المولى حتى وصل إلى سدرة المنتهى، ومع وجود هذه الآيات لم يتنبهوا ولم يتفطنوا.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى﴾ [الليل: 19] يعني: ما يصح ويليق لأحد أن يتصدق بماله على طمع الجزاء والعوض والمكافأة، بل اللائق بحاله ألّا يعطي ما يعطي على من يعطي.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: 20] يعني: طلبًا للقاء الله في يوم الجزاء لا الثناء الدنيوي ولا للثواب الأخروي، بل رجاء أن يلقى ربه ويطالع وجهه الكريم.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[1] [الليل: 21] عن الله، بالفوز بشرف اللقاء عند

---

(1) قال علاء الدولة: أي: عن قريب يرضى عنه ربه بإعطائه إياه وعده من المقام المحمود أحداه قبول شفاعة في أمته الخاطئة، وهذه أرجى آية في كتاب الله للأمة الخاطئة فاجتهد إن تكون مستقيمًا في اعتقادك باللطيفة الخفية التي هي فيك مودعة، متيقنًا بما أخبرتك اللطيفة الخفية عن الغيوب

كشف الغطاء.

اللهم ارزقنا لقاءك يوم نلقاك.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لرضاء الله، والراجي مطالعة جمال الله وجلاله أن تحسن الأدب مع الله في عموم أحوالك في النشأة الأولى، وتزكّي نفسك عن مطلق الأماني والآمال الشاغلة عن التوجه نحوه، فعليك التبتل والاجتهاد على وجه الإخلاص والتوفيق من الله يهديك إلى سبيل الرشاد.

وإياك إياك أن تلتفت إلى مزخرفات الدنيا الدنيّة، فإنها تلهيك عن الدرجات العليّة الأخروية، وتغويك إلى الدركات الهوية الجهنمية الإمكانية، فلك أن تطرح كلها حتى تخلص عن غوائلها.

جعلنا الله ممن تَنَفّر عن الدنيا وما فيها.

ولا يحل عندك الغرور بالتشكيك والتكذيب في إيمانك الغيبي؛ لتصل إليك فائدة شفاعة لطيفتك الخفية إن شاء الله تعالى.

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الضحى

لا يخفى على من دخل تحت قباب العز الإلهي، وفني في هويته أن عموم أحوال العباد وأخلاقهم أطوارهم بعدما انخلعوا عن لوازم ناسوتهم، واتصفوا بخلع اللاهوت وصارت راجعة إلى الله، مستندة إليه، صادرة منه سبحانه، وهم حينئذٍ في كنف حفظه وحضانته، يرقبهم حيث شاء بمقتضى حكمته البالغة.

ولاشك أن أفضل من تخلق بأخلاق الله، وخير من دخل تحت حيطة حضانته سبحانه، وتمكن في سواد أعظم اللاهوت، هو نبينا صلوات الله عليه وسلامه؛ لذلك خاطب معه سبحانه خطاب ملاطفة وتكريم، وسلّاه عمّا زوّر المشركون في شأنه من أنه قد قلاه ربُّه وودَّعه.

وبالغ سبحانه في تسليته حيث أقسم بما أقسم بعد التيمن ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي ظهر على حبيبه ﷺ حتى أخرجه عن مضيق الناسوت، مهاجرًا إلى فضاء اللاهوت ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده؛ حيث أرسل حبيبه ﷺ إليهم رحمة للعالمين ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يرشدهم بمتابعته إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 1-5].

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: 1] أي: وحق شروق الذات الأحدي الصمدي عند ضحى بعثة الحضرة الأحمدية.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 2] أي: وحق الانجلاء التام المنعكس من عالم العماء اللاهوتي، المغشي لمطلق الأضواء والأنوار المتفاوتة المرئية في نشأتي الغيب والشهادة، المقتبسة من الأسماء والصفات، المستتبعة للإضافات المتكثرة في عالم التفضيل.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ وقطع عنك قطع المودِّع ﴿رَبُّكَ﴾ الذي ربّاك على عينه واصطفاك

لنفسه ﴿وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3] أي: ما أبغضك؛ يعني: لا تحزن من قول المشركين وزعمهم في حقك أنك ودعك ربك وقلاك في نشأتك الأولى، بل رعاك واتصل بك في أخراك.

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ التي هي نشأة لاهوتك ﴿خَيْرٌ لَكَ﴾ وأليق بحالك ﴿مِنَ﴾ نشأتك ﴿الْأُولَى﴾ [الضحى: 4] التي هي نشأة ناسوتك.

وكيف لا تكون الآخرة خيرًا لك من الدنيا؛ إذ هي باقية ببقاء الله، دائمة بدوامه، وهذه محدثة فانية، بل باطلة زاهية، زائلة بزهوق التعينات وبطلان الأوضاع والإضافات التي هي حاصلة منها.

﴿وَ﴾ لا تحزن أيها النبي المستوي على جادة العدالة اللاهوتية من هذيانات أهل الضلال ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بعد انخلاعك من ملابس ناسوتك ومقتضيات بشريتك من اللذات اللاهوتية التي لا يدرك كنهها إلّا من اتصف بها، وذاق منها ﴿فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 5] [1] حينئذٍ من ربك، ورضي بك عنك.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: 6-11].

وبعدما سمعت يا أكمل الرسل من الوعد الإلهي ما سمعت تذكر كرم ربك منك فيما مضى، وترقب من كراماته التي ستأتيك، وبالجملة: لا تيأس من روح الله ورحمته، وكيف تيأس أيها النبي المغمور في بحار لطفه وجوده؟! ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ ويصادفك ربك مع كونك ﴿يَتِيمًا﴾ بلا رشد ومرشد ﴿فَآوَى﴾ [الضحى: 6] أي: ضمّك نحوه سبحانه وجذبك عنك إليه، وقرن اسمك باسمه.

---

(1) قال روزبهان: هذه بشارةٌ لأمته المرحومة، فإنه لا يرضى حتى يدخل الله جميع أمته الجنة بلا حساب ولا عتاب ولا حجاب، وكيف يرضى العاشق من معشوقه حتى يكون هو المعشوق يصير هو هو، ولا يكون ذلك إلا بعد فناء نعوت الحدث في نعوت القدم. قال ابن عطاء: كأنه يقول لنبيه ﷺ: أفترضى بالعطاء عوضًا عن المعطي؟ فيقول: لا فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: على همةٍ جليلة؛ إذ لم يؤثر فيك شيءٌ من الأكوان، ولا يرضيكَ شيءٌ منها.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ خاليًا عن الحِكم والأحكام، منهمكًا في لوازم الإمكان ﴿فَهَدَى﴾ [الضحى: 7] أي: هداك وأرشدك إلى الإسلام، وأوصلك إلى زلال التوحيد والعرفان.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيرًا حسب إمكانك ومقتضيات بشريتك الموروثة لك من نشأة ناسوتك ﴿فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 8] أي: أغناك بغنائه بعدما أفناك فيه، وشرَّفك بخلع اللاهوت بعدما أخرجك عن ملابس الناسوت.

وبعدما كنت يتيمًا فآواك ربك، ووجدك ضالاً فهداك، ووجدك فقيرًا فأغناك، وبالجملة: كرَّمك واصطفاك وعظَّمك واجتباك ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾ الفاقد للرشد والرشيد ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 9] متى يأوي إليك للاسترشاد لا تردعه ولا تزجره، وكلِّم معه حسب استعداده وقابليته إلى حيث توصله وترشده إلى طريق الطلب والإرادة.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ الذي يسأل من مكنونات ضميرك ومن السرائر المودعة فيك من الودائع اللاهوتية ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10] أي: لا تمنعه ولا تخيِّبه، بل أحسن إليه كما أحسن الله إليك حسب استفاضته واستعداده.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهدايته وإرشاده ﴿فَحَدِّثْ﴾[1] [الضحى: 11] يا أكمل الرسل مع المسترشدين المستكملين، فإن حديثك من سرائر الدين وأسرار المعرفة واليقين مع المؤمنين المسترشدين والطالبين، المستوجبين الشكر منك لنعم الله وأداء لحقوق كرمه واستجلاب لمزيد إنعامه وإفضاله.

---

(1) قال السمناني: أي: بنعمة معارف الحقائق اللاهوتية التي ربيناك بصفات الربوبية ثم أنعمنا بها عليك فحدث مع كل أحد من أمم قواك على قدر عقولهم ولأجل هذا قال ﷺ «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وأوتي ﷺ في هذا المقام جوامع الكلام بحيث لو تكلم بكلمة وجيزة أخذ منها الخاص والعام كلهم على قدر استعدادهم، فأيديهم وكانت مندرجة في كلمة الوجيزة معان كثيرة فاجتهد بها السالك أن تكون في هذا المقام مؤدبًا بآداب رسولك مع ربك متخلق بخلق الله مع خلق الله في عالم شهادتك وغيبك ليمكن لك أن تؤدي حق هذا المقام وتتمتع بعده بالمقام المحمود المخصوص بمحمد أحمد للخلائق بأخلاقه الحميدة القاسم بين الخلق رزق خلق الخلائق، وفيه أسرار تتعلق بحد القرآن فادرج أيها الإنسان الغالب عليك النسيان وتوكل على الرحيم الملك المستعان الملك الدنيا في السرور والأحزان لتكون في ملكك وملكوتك مهدي إلى آخر الزمان.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملازم لتعديد نعم الحق على نفسك أن تداوم وتواظب على أداء حقوق ما وصل إليك من النعم العظام والكرم الجسام، فلك أن تحدث في عموم أوقاتك وحالاتك عن كرم مولاك، وتشكره على ما أولاك من الآلاء والنعماء في أولاك ووعد لك في أخراك.

وبالجملة: كن من الشاكرين لنِعَم الله، المحدِّثين بحقوق كرمه، ولا تكن من الغافلين في حال من الأحوال، وسبِّح بحمد ربك بالغدو والآصال.

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة ألم نشرح

لا يخفى على من شرح الله صدره للإسلام، ووسّع قلبه لقبول عموم الأحكام إلى حيث وسّع الحق فيه مع شئونه وتطوراته الغير المتناهية، المترتبة على أسمائه وصفاته أن تفسيح الصدر وتوسيعه إنما هو من علامات العناية الإلهية لخلص عباده؛ إذ مقام الخلة والخلافة إنما يترتب على هذا الشرح والتوسيع، وهو من أعظم الفتوحات الإلهية.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتنان به، وعاتبه عليه؛ تنبيهًا على جلالة شأنه ورفعة مكانه عند الله، فقال متيمنًا باسمه، مستفهمًا على سبيل التأكيد والتقرير: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي شرح صدور عباده لقبول سرائر المعرفة واليقين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بدفع الأوزار والأثقال المانعة عن القبول بعدما هداهم إلى الطريق المستبين ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يُعليهم ويرفع ذكرهم بعدما أخرجهم عن مقتضيات بشريتهم إلى أعلى عليين.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح: 1-8].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1] [1] يا أكمل الرسل من اجتبينا، واصطفينا

---

(1) قال الورتجبي: شرحَ صدره- صلوات الله وسلامه عليه- طلوع شمس جلال الحق فيه، فأضاء منه روحه وقلبه وعقله، وطار روحه في الأزل، وطار عقله في الأبد، وطار قلبه في الجبروت، ونفسه في الملكوت، فتولّى الحق شرح صدره بنفسه لا بغيره، وذلك حين ظهر لسرّه ذاته القديم، وصفاته الأزلية، فصار موسعًا مبسوطًا بوسع الذات والصفات، فشرحُه يزيد إلى الأبد؛ لأن جلال الحق لا نهاية له، وكان صدره محل تجلّي الحق، فبقي مع الحق في ساحة

للنيابة والرسالة، ولم نفسح ونوسعَ خلدك لقول الآيات الواردة عليك منّا، والامتثال بالأحكام الموردة من لدنا، مع كونك أميًا، عاريًا، خاليًا عنها وعمّا يترتب عليها؟.

وبعدما شرحنا لك صدرك لشعائر الإسلام ومعالم الدين ومراسم التوحيد اجتبيناك للرسالة والتبليغ إلى عموم الأنام ﴿وَ﴾ بعدما أمرناك بالرسالة ﴿وَضَعْنَا﴾ أي: أزلنا ﴿عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: 2] أي: ثقلك الطارئ عليك من حِمل أعباء الرسالة وأداء التبليغ.

﴿الَّذِي﴾ من غاية شدته وثقله ﴿أَنقَضَ﴾ أي: قصم وكسر ﴿ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: 3] لأنك أمي، ذاهل عن مطلق الأحكام، مأمور بها؛ لذلك ثقل وضاق عليك الأمر.

﴿وَ﴾ بعدما وفّقناك على تبليغ الرسالة، وأيدناك بالآيات الموردة المنزلة في موارد الأحكام ﴿رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4] حيث قرنّا اسمك باسمنا، وخلّفناك عنّا واخترناك لخلافتنا ونيابتنا؛ لذلك أنزلنا في شأنك: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10] إلى غير ذلك من الآيات، وأيّ رفع وكرامة أعلى وأعظم من ذلك؟!

وبعدما كرمناك بأمثال هذه الكرامات العلية لا تيأس من سعة روحنا ورحمتنا وإعانتنا وإغاثتنا، ولا تحزن على أذى قومك واستهزائهم، وتطاول معاداتهم وعنادهم معك ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الذي قد عرض عليك ولحق بك من قبلهم ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: 5] ناشئًا من قبل الحق، مقابلاً واصلاً إليك من حيث لا تحتسب.

ثمّ كرر سبحانه تأكيدًا ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الذي ألم بك الآن ﴿يُسْرًا﴾ [الشرح: 6] منّا مترقبًا كيفما اتفق.

وفي تعريف العسر وإعادته معرفة وتنكير اليسر وإعادته نكرة أيضًا إشعار بقلة طرق العسر وأسبابه، وكثرة طرق اليسر وموجباته.

يعني: لا تيأس من العسر الطارئ عليك أحيانًا معهودة معدودة عن يسر ملازم لك في أكثر الأوقات والأزمان، مصاحب معك في جميع حالاتك.

الكبرياء حيث لا حيث ولا زمان ولا مكان؛ بل نور الذات في نور الصفات، ونور الصفات في نور الذات، فهو بين النورين محتجبًا بأنوار الحقيقة عن أوهام الخليقة.

وبعدما أمرناك بتبليغ الرسالة وأرسلناك لنشرها، فلك أن تمتثل بالمأمور على مقتضى الوحي والإلهام ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ عن الدعوة والتبليغ على مقتضى منصب النبوة والرسالة ﴿فَانصَبْ﴾ [الشرح: 7] نفسك وأتعبها بالمجاهدات والرياضات القالعة لعرق لوازم الإمكان عن أصله على مقتضى رتبة الولاية.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره من وسائل المظاهر وأسبابها ﴿فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 8] في خلواتك وصلواتك، في عموم حالاتك ومقاماتك، بلا روية الوسائل في البين، والوسائط في العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب الراغب إلى الله، القاصد للعكوف حول بابه أن تفرغ همّك عن مطلق الأماني والآمال وعموم الأشغال المانعة عن الوصول إلى فنائه، وترغب عن الدنيا وما فيها، وتتوجه نحو الحق من طريق الفناء، وتطرح لوازم الحياة المستعارة بالكلية حتى تصل إلى مرتبة الموت الإرادي المستلزم للبقاء الأبدي السرمدي.

جعلنا الله من زمرة أرباب الرغبة إلى المولى وعن الدنيا، بمنّه وجوده.

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التين

لا يخفى على من انكشف له رفعة رتبة الإنسان، ووضح دونه علو شأنه وسمو برهانه أن من انحط عن الرتبة الإنسانية التي هي الخلافة الإلهية وسقط عنها، فقد لحق بأنزل المراتب وأدنى المنازل، كما عبر عنه سبحانه بأسفل السافلين؛ لذلك أقسم سبحانه بمعظمات المظاهر؛ لإثبات لحوق الإنسان بأسفل دركات النيران، بعدما انحط وسقط عن أعلى غرفات الجنان، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بأنواع التعظيم والتكريم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه يوصله إلى روضات النعيم.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: 1-8].

﴿وَ﴾ حق ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: 1] هما جبلان في الأرض المقدسة، يكثر فيها كلتا الفاكهتين.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: 2] أي: الجبل الذي ناجى عليه موسى الكليم مع ربه.

﴿وَ﴾ لاسيما بحق ﴿هَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: 3] يعني: مكة - شرفها الله - سماها أمينًا؛ لأن من دخله إيمانًا واحتسابًا كان آمنًا من العذاب الأليم.

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: جنسه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] وأقوم تعديل؛ إذ لا مظهر أعدل منه وأقوم بحسب الظاهر والباطن؛ لذلك اصطفيناه لخلافتنا من بين خليقتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تعلق إرادتنا لرداءة فعله ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ وأحطناه من تلك المرتبة العلية

والدرجة السنية ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[1] [التين: 5] وهي مقتضيات الإمكان، المستلزم لدركات النيران، وسلاسل أمانيها وأغلال آمالها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المخلصة لهم عن قيود الإمكان، المقربة لهم إلى فضاء الوجوب ﴿فَلَهُمْ﴾ بعدما وصلوا إلى عالم اللاهوت ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 6] أي: نعم لا تنقطع، ولا يمن بها عليهم أصلاً.

وبعدما نبه سبحانه على ما نبه بأبلغ وجه وأوكده، حث عموم الإنسان على الإيمان ورغبهم إلى اليقين والعرفان، فقال على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: أي شيء يحملك على الكفر والطغيان والتكذيب والكفران أيها الإنسان المجبول على فطرة التوحيد والعرفان ﴿بَعْدُ﴾ أي: بعدما ظهر الحق، ولاحت دلائل التصديق وأمارات اليقين ﴿بِالدِّينِ﴾ [التين: 7] القويم، والسبيل المستقيم؟!

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أمثال هذا الرد والخلق بالإرادة والاختيار ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8] على كل ما شاء، وأراد، سواء كان بدءًا أو إعادة، فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالب للتقرر والثبوت على جادة التوحيد التي هي أحسن تقويم الإنسان، وأعدل طريقه أن تتأمل في هذه الصورة حق التأمل، وتدخر لنفسك من فوائدها ما هو أهم، فعليك التوبة إلى الله، والإتيان بصوالح الأعمال، والاجتناب

---

(1) قال السمناني: لم يكن من غير حكمة، ولا يكون بعد هذا الرد رجوعك إليه، ولا ينفي منك لطيفة باقية تتنعم وتتألم بعد خراب البدن، فكل نفس تكون مطمئنة تؤمن وتقول: بلى وأنا من الشاهدين على أنك أحكم الحاكمين، ولا يمكن أن يصدر منك فعل غير حق وعمل غير متقن، خلقتنا لمظهرية صفات لطفك وقهرك، وأودعت فينا لطيفة مستحقة؛ لتكون مرآة لذاتك، فطوبى لمن آمن بحقيتك وعمل عملاً صالحًا على مرآة وجوده بتصقيلها وإقامتها محاذاة الوجه بعد إخراج الحديد من الجبل، وبناء البلد الأمين الذي فيه مسكن المعقلة، وغرس الأشجار المثمرة؛ ليضئ بضياء نور مروج في دهن الزيت ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين:3]، فيطلع في بستانه على ثمرة المعرفة الذاتية ويجتنيها ويأكلها ويصل إلى لطيفة ذوقها، اللهم أذقنا معرفتك الذاتية بمحمد ﷺ.

عن فواسدها.

وإياك إياك أن تتلطخ بقاذورات الدنيا، وتنغمس بأمانيها، فإنها ترديك وتردك إلى أدنى مراتب الإمكان الجالب لأسفل دركات النيران، وتغويك فيها بأنواع الخيبة والخذلان.

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العلق

لا يخفى على من أيقظه الحق عن منام الغفلة، ووفقه للخروج عن أقطار عالم الإمكان نحو فضاء الوجود أن علامة العناية الإلهية وأمارة كرامته على الموفقين من لدنه، المنجذبين نحوه أن يذكرهم ويلقن عليهم أولاً: تعديد أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى ويواظبهم عليها إلى أن نبع ينبوع الحكمة اللدنية المودعة في قلبه، المترشحة من بحر الذات الأحدية، ثمّ يظهر على لسانه، وصار حينئذٍ على ذكر من ربه، متمكنًا في مرتبة اليقين العلمي، ثمّ ترقى منها إلى أن صار علمه عيانًا، ثمّ صار عيانه حقًا وبيانًا.

لذلك أمر سبحانه حبيبه ﷺ أولاً بالقراءة والتذكرة بأسمائه بعدما أراد سبحانه تربيته وتكريمه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي دبر أمر الإنسان بأحسن التدبير ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه حيث سواه أحسن التصوير ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه حيث هداه إلى خير منقلب ومصير.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾ [العلق: 1-8].

﴿اقْرَأْ﴾ يا أكمل الرسل وتذكر بعدما أدركتك العناية، وأحاطت عليك الكرامة الإلهية ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: داوم على تذكر عموم أسماء مربيك ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] كل شيء، وأظهره من كتم العدم حسب أسمائه وصفاته، وربّاه بأنواع اللطف والكرم وأباح عليه من جلائل النعم.

سيما ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ وخصه من عموم الأكوان بمزيد الإنعام والإحسان، مع أنه خلقه وقدر وجوده ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 2] دماء معلوقة مسترذلة، مكونة من مني

مرذول، مكون من الدم المسفوح، المتكون من إجراء الأغذية.

وبعدما أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالقراءة، وتعديد الأسماء وإحصاءها، أمره بالقراءة ثانيًا؛ للتأمل والتدبر في معانيها، والاستكشاف عن فحاويها ومرموزاتها فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ قراءة تدبر وتعمق واستكشاف على ما في مطاويها من البدائع والغرائب المودعة فيها، ولا تنظر إلى كونك أميًا لست من أهل الإملاء ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3] الكامل الكرامة والهداية لأرباب العناية.

﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الخط والرقم ﴿بِالْقَلَمِ﴾[1] [العلق: 4] الذي هو بمراحل عن التعلم والتفهم.

لا تستبعد من كمال كرامته وعنايته، تعلمك يا أكمل الرسل؛ إذ هو سبحانه ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ﴾ المصور على صورة الرحمن ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5] من البيان والتبيان، وأنواع طرق الكشف والعيان، فأنت يا أكمل الرسل من أعز أفراد الإنسان شأنًا، وأعلاه شرفًا وبرهانًا، وأرفعه قدرًا ومكانًا.

وبعدما أشار سبحانه إلى مبدأ الإنسان ومادته، وإلى منتهاه وغايته، تعجب سبحانه من حاله، واستبعد ما صدر عنه من الطغيان والكفران والبغي والعدوان، مع كمال عناية الله معه وكرامته إياه، فقال على سبيل الردع والزجر: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ المستحدث من الأقذار المهانة، المترقي إلى نهاية الكرامة وأعلى المقامة ﴿لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: 6] ويتجاوز عن حده، ويستكبر على ربه، وينسى أصل منشئه؛ لأجل ﴿أَن رَّآهُ﴾ علم نفسه أنه ﴿اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: 7] أي: صار غنيًا عن الله، مستغنيًا عن الافتقار إليه، مستكبرًا على عباده، يمشي على وجه الأرض خيلاء بما عنده من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

وكيف يتأتى لك الطغيان والاستكبار أيها المسترذَل المُهان المستحدث من

(1) وهو أول موجود أوجده الله في مرتبة الفاعلية، وهذه إشارة ترد على اللطيفة المتخلقة من ظلمات القالب، ويظهر على السالك بعد هذا الأمر العلم اللدني، فإذا أدى حق هذه المقام في السجود يعطى له العلم المجهول في مقام الاقتراب، وهو مقام يرفع الحجاب فيه بين الأرباب الباطلة المتفرقة ورب الأرباب، يسجدوا له ويؤمنوا به ويقولوا: نحن التراب وأنت رب الأرباب، وفي هذا البيان سر عزيز يتعلق بحد القرآن الذي لا يمكن لقلم البيان التجاوز عنه؛ لأنه مأمور بأن يمد عينا البيان في ميدانه. [عين الحياة].

المهين ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ﴾ الذي أظهرك من كتم العدم، وأحدثك من الأمشاج المرذولة ﴿الرُّجْعَى﴾ [العلق: 8] أي: الرجوع المعهود في النشأة الأخرى، فسيجزيك بجميع ما صدر عنك بعدما يحاسبك عليه بمقتضى العدالة والإنصاف.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: 9-19].

ثمَّ نص سبحانه على ذكر بعض الطاغين المستغنين، المستكبرين بما عندهم من الجاه والثروة - وهو: أبو جهل اللعين - فقال: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الباغي الطاغي ﴿الَّذِي يَنْهَى﴾ [العلق: 9] أي: يمنع ويكف ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية؛ يعني: محمدًا ﷺ ﴿إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: 10] وتوجه نحو ربه بجميع أجزائه وجوارحه، وأراد أن يصرفه عنه.

وذلك أن أبا جهل قال: لو رأيت محمدًا ساجدًا لأطأن عنقه، فرآه ساجدًا فجاءه ليطأه، ثمَّ نكص واستدبر، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقًا مملوءًا من النار وهولاً، وأجنحة.

ثمَّ خاطب سبحانه هذا الطاغي الناهي خطاب تهديد وتقريع: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني أيها المفسد المتناهي في البغي والعناد ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق: 11] والرشاد. ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: 12] وبالاجتناب عن مقتضيات الهوى، لتنهاه عن فعله هذا، وأمره وإرشاده ألبتة.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أخبرني أيضًا أنك نهيته عن الصلاة ﴿إِن كَذَّبَ﴾ على الله ﴿وَتَوَلَّى﴾ [العلق: 13] أي: أعرض عن مقتضيات أوامره ونواهيه.

وبالجملة: نهيته عن الصلاة مطلقًا سواء ﴿كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: 12] مجتنبًا على الهوى، أو مكذبًا على المولى، معرضًا عمًا جرى عليهم من القضاء؛ يعني: ليس سبب نهيك إلَّا العصبية والعناد، سواء كان محقًا في فعله أو مبطلاً.

ثمَّ قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهذا المكابر الناهي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾

ذلك الناهي المباهي المبالغ في العتوّ والعناد ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿يَرَى﴾ [العلق: 14] يعلم ويبصر جميع ما صدر عنه من المجادلة والمراء، فيجازيه على مقتضى علمه وخبرته.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا للناهي عمّا عليه من المكابرة والعناد ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الناهي، المبالغ، المباهي عمّا هو فيه من المكابرة والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: 15] أي: لنأخذن بناصيته ولنسجننه مكبًا على وجهه نحو النار المعدة لتعذيب الكفرة، المبالغين في العتو والعناد.

وأي ناصية؟! ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: 16] أي: كاذب خاطئ، وصف الناصية بهما؛ للمبالغة والتأكيد.

وبعدما نسحبه كذلك، ونأخذه على ظلمه ﴿فَلْيَدْعُ﴾ وليناد حينئذٍ ﴿نَادِيَهُ﴾ [العلق: 17] أهل مجلسه وأعوانه من قهرنا مع أنّا أيضًا ﴿سَنَدْعُ﴾ ونأمر حتى ينصروا له وينقذه صارخًا عليهم، مستغيثًا منهم يومئذ ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: 18] أي: الشرطة الموكلين على جهنم؛ ليجروه نحو النار على وجه الهوان والصغار.

ثمّ كرر سبحانه ﴿كَلَّا﴾ تأكيدًا لردعه وتشديدًا عليه، ثمّ نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن إطاعة ذلك الباغي والإصغاء إلى قوله، والمؤانسة معه والالتفات إليه بقوله: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: دُمْ يا أكمل الرسل على صلاتك واثبت عليها، ولا تلتفت إلى هذياناته الباطلة ﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك على وجه الخضوع والخشوع ﴿وَاقْتَرِب﴾ [العلق: 19] إليه وتقرّب نحوه بإطراح لوازم ناسوتك، محرمًا على نفسك حظوظك من دنياك، مسقطًا مقتضيات بشريتك ولواحق مادتك مطلقًا.

وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد»[1] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 98-99].

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتقرب نحو الحق والوصول إلى فضاء اللاهوت - أعانك الله

(1) ذكره النسفي في «تفسيره» (43/4).

في مطلبك هذا وطلبك - أن تداوم على الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتذلل التام والانكسار المفرط؛ إذ ما يتقرب العبد إلى ربه إلّا بالاستكانة والضراعة، والإفناء عن لوازم نشأة الناسوت، والاتصاف بالموت الإرادي المورث للحياة الأبدية والبقاء السرمدي.

جعلنا الله من المتصفين به بمنِّه وجوده.

سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة القدر

لا يخفى على من انكشف بسرائر إنزال الكتب وإرسال الرسل من الموفَّقين على الإطلاع والوقوف بسر سريان الوحدة الذاتية الإلهية على صفحات الكثرات الفانية في الحصر والإحصاء أن المقادير المحفوظة في لوح القضاء، والتصاوير المضبوطة في حضرة العلم والقلم الأعلى إنما هي في عالم العماء الغيبي المسمَّى: ليلة القدر، وإنزالها منها نحو فضاء الشهادة والجلاء إنما هو أيضًا فيه، ولاشك أن السر من إنزال الكتب الإلهية إنما هو لضبط تلك المقادير والإخبار عنها على الوجه الذي ثبت في حضرة العلم ولوح القضاء.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتنان بإنزال القرآن في ليلة القدر الغيبي، التي هي خير من ألف شهر من أزمنة نشأة الشهادة، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي قدّر عموم المقادير في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعباده بإنزال القرآن، المنبّه لهم طريق المعرفة والإيمان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم؛ يوقظهم عن نوم الغفلة ورقود النسيان.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾ [القدر: 1-5].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا لعموم عبادنا ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن المبيّن لهم طريق النجاة من نيران الجهالات ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] [القدر: 1] الغيبي التي لا

(1) قال علاء الدولة: أي: نور الذي يحصل به انشراح الصدر؛ وهو الجمال المخصوص بسيد أهل الكمال المودع في ظل قالبه، الذي بذلك النور ما كان لقالبه ظل قابلة قالبه، كان ظل النور لا ظل الظلمة بخلاف القوالب؛ لأنها ظلال ظلمانية، فلما طلعت شمس الروح أظهر ظلال الظلمة

إطلاع لأحد عليها إلّا لعلام الغيوب.

لذلك أبهم سبحانه على حبيبه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي: أيّ شيء أعلمك من مقتضيات بشريتك ولوازم ناسوتك ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 2] إذ هي خارجة عن مدارك عالم الناسوت.

ثمّ بيّنها سبحانه على مقتضى أفهام البشر ومداركهم، فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3] من أيام عالم الشهادة ولياليها؛ إذ ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: سكان سواد الأعظم اللاهوتي ﴿وَالرُّوحُ﴾ الأمين، المدبِّر لأمور أشباح عالم الناسوت ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة، ونزولهم فيها إنما هو ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ يأمرهم بالنزول فيها، ومع كل منهم ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: 4] من الأمور الجارية في عالم الشهادة.

﴿سَلَامٌ﴾ وتسليم من قِبل الحق يسلم لهم سبحانه، ويفوض إليهم أمرهم على مقتضى حكمته المتقنة؛ ليقوم كل منهم به، ويحسن تدبيره على الوجه الذي أمر به، وبالجملة: ﴿هِيَ﴾ أي حالهم وشأنهم هذا وهكذا ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: 5] أي: إلى طلوع شمس الذاتية الإلهية، المفنية بأشعتها الذاتية عموم أضواء الأظلال والعكوس مطلقًا.

كأن ليلة القدر التي سُترت في خلال ليالي السنة، أو في ليالي شهر رمضان، أو في ليالي العشر الأخير منها - على ما قيل - هي منتخبة ممثلة من تلك الليلة القدرية، الغيبية العمائية، اللاهوتية؛ لذلك ما عينها الشارع وما عرفها، بل أبهمها وأخفاها.

قيل: في تلك الليلة يقدّر عمومًا أحوال تلك السنة، وجميع ما يجرى فيها من الحوادث الكائنة، كما أن في أصلها ومنشئها التي هي ليلة القدر الغيبي، متى يقدّر عموم المقادير الكائنة أزلاً وأبدًا؛ لذلك من أحياها، فقد فاز بخيري الدارين.

رزقنا الله وجدها والوصول إليها والتحقق دونها.

وهذا سر عزيز يتعلق بحد القرآن، فأنت أيها السالك الطالب اجتهد في طلب ذلك الظل المودع فيه ذلك النور في اللطيفة القالبية المستخلصة عن الأباطيل، المتسكن فيها نور لطيفتك الخفية ليصل في ظلمة ليل قالبك إلى ظل لطيفة المستودع فيها نور القدر، ونشاهد ذلك النور في لطيفتك المستحقة ليكون قالبًا للطيفتك الخفية، وتصير صاحب القدر منشرح الصدر.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم القاصد لإحياء تلك الليلة وإدراكها أن تشمر ذيلك لإحياء عموم الليالي الآتية عليك في أيام حياتك؛ إذ هي مستترة فيها، وبالجملة: لا تغفل عن الله في جميع حالاتك حتى تكون عموم لياليك قدرًا خيرًا من الدنيا وما فيها.

سورة البيّنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة البينة

لا يخفى على المستكشفين عن سرائر الآيات الواضحة، والبينات اللائحة، الموضحة لمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين أن ظهور طريق الحق، وسلوك سبيل الهداية إنما يحصل ببعثة الرسل وإنزال الكتب؛ لأن تبيين الحق ما هو إلّا من قِبل الحق، بل بالحق كما أخبر سبحانه عن حقيقة حال الكفرة في الإيمان والكفر، بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المظهر لطريق الحق بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده بإيضاح البينات ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: 1-4].

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عبدة الأوثان ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: لم يكونوا زائلين منفصلين في حين من الأحيان عن الإيمان والاعتقاد بنبوة محمد ﷺ؛ إذ أهل الكتاب آمنوا بنبوته بمقتضى ما وجدوا في كتبهم، والمشركون سمعوا من أسلافهم وصفه ونبوته واعتقدوا بعثته، فآمنوا له، ولم يزالوا على هذا الاعتقاد ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ﴾ [البينة: 1] على مقتضى سنة الله، فظهرت الحجة الواضحة والبينة الموضحة.

وتلك البينة والبرهان ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ مؤيد من لدنه بالآيات الواضحة والبينات الإلهية ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ أسفارًا محفوظة، مصورة، معجزة ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: 2] عن مطلق الرذائل، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل منزّل من حكيم عليم.

﴿فِيهَا﴾ أي: خلالها ومطاويها ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: 3] أي: مكتوبات صادقة حقه من الأوامر والنواهي والحكام المتعلقة لدين الإسلام، صادقة مستقيمة، لا عوج لها ولا انحراف، ناطقة بالحق الصريح.

وبالجملة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ واختلف في الإنكار والاعتقاد، والإيمان والكفر ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4] يعني: ما تفرقت تلك الأمم عما هم عليه من تصديق النبي الموعود إلّا من بعد ما ظهر الرسول الموعود، ولاحت البيّنة الواضحة، الدالة على صدقه في نبوته ودعوته، ألَا وهو القرآن المعجز المبيّن لشعائر الإسلام.

وبالجملة: اختلفوا في نشأته ﷺ وبعد بعثته، فمنهم من آمن له على مقتضى ما وجده في كتابه، ومنهم من كفر وأنكر عليه عنادًا ومكابرةً؛ ولهذا حرّف-أوصافه المذكورة في الكتب السالفة مع أنهم لم يجدوا في دينه وكتابه ما يخالف أحكام كتبهم وأديانهم.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: 5-6].

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ في كتبهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقيّة والألوهية ﴿مُخْلِصِينَ﴾ مخصصين ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ والانقياد بلا اشتراك وإلحاد ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن مطلق الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة لهم في أوقاتها الموعودة المحفوظة ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لأموالهم على وجهها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أُمروا به في كتبهم هو ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5] والملة المستقيمة التي ظهر عليه محمد ﷺ، بلا تغيير وانحراف فيه واختلاف. وهم بالجملة: ما كفروا وأنكروا نبوته ورسالته ﷺ إلّا عنادًا ومكابرةً، بلا مستند صحيح لا عقلي ولا نقلي.

وبالجملة: ﴿إِنَّ﴾ الكافرين المعاندين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنبوة محمد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ﴾ من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ داخلون ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً، إلّا إلى عذاب فوق العذاب، وأشد منه، وبالجملة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء، المردودون، المطرودون عن ساحة عز القبول ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

[البينة: 6] الخليقة، وأردؤهم، كأنهم مقصورون على الشرارة والرداءة مجسمون منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: 7-8].

ثمّ قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم بوحدة الحق وصدقوا بنبوة محمد ﷺ، وقبلوا دعوته ودينه حسب ما وجدوا في كتبهم، وسمعوا وصفه من أسلافهم بلا تحريف ولا تغيير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة لهم إلى الله والمرضية عنده سبحانه ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7] وأحسن الخليقة.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ الذي استحقوها بإيمانهم وأعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ منتزهات علم وعين وحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: جداول المعارف والحقائق المتجددة، المرشحة من بحر الحقيقة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دائمين فيها سرمدًا، وبالجملة: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ﴾ المفضل المنعم العليم الحكيم ﴿عَنْهُمْ﴾[1] وعن أعمالهم ونياتهم وأخلاقهم فيها ﴿وَرَضُوا﴾ أيضًا ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بما قسّم الله لهم، وأفاض عليهم بمقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وبالجملة: ﴿ذَلِكَ﴾ الأجر الجزيل والرضا

(1) قال الشيخ البقلي: «رضي الله عنهم»: في الأزل حين اصطفاهم قبل إيجادهم، «ورضوا عنه»: لما عاينوه وآثروه علىَ من دونه عشقًا وشوقًا ومعرفة، وهذه الدرجات لمن عَرف الله، ودأب في إجلاله، ورؤية عظمته، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، وأصل الرضا الاتصاف بصفة الرضا من الحقّ. قال الواسطي: الرضا والسخط نعتان قديمان يجريان على العبد بما جريا في الأزل، يُظهر أن الرَسم على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلمها، فأنّى ينفع مع تلك الألوان المصفرة، والأقدام المنتفخة، والأكمام المقصّرة؟!

وقال: استعمل الرضا جهدك، ولا تَدَع الرضا يستعملك، فتكون محجوبًا بلذّته عن حقيقة ما يطالع بعد درجته. قال سهل: الخشية سرٌّ، والخشوع ظاهرٌ. وقال عمرو المكي: اشترط الراضين بالخشية في رضاهم عنه؛ لذلك أوجب لهم رضاه عنهم بأن يرضوا عنه ويخشوه في رضاه عنهم، ولا يكون ذلك إلا باجتناب المحارم، وعقد موافقتهم لموافقته، أن يكرهوا ما كره، ويرضوا ما رضي.

الجميل ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: 8] وخاف من سخطه وغضبه، فامتثل بأوامره واجتنب عن نواهيه، واتصف بالتقوى عن مطلق محارمه ومحظوراته.

جعلنا الله من زمرتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الراجي لقبول الحق والرضاء أن تصفي سرك عن مطلق الرعونات المنافية للرضا عما جرى عليه القضاء، وتخلي ضميرك عن الميل إلى مطلق البدع والأهواء المبعدة عن التقرب نحو المولى، فلك التسليم والرضا، والتبتل نحو الحق في السراء والضراء، والتوكل عليه في الخصب والرخاء، فإنه لا تحرك في ملكه إلّا ما يشاء.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الزلزلة

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخرى، التي هي نشأة انتقال الأعمال وجزائها أن الحكمة الإلهية، الباعثة على إيجاد الموجودات وإظهار المخلوقات، تقتضي أن يكون نشأة الاختبار والابتلاء سابقة على نشأة الجزاء؛ لتظهر سرائر التكاليف الإلهية وفوائد الأوامر والنواهي والأحكام المنزلة من عنده، ويتميز مرتبة الربوبية عن مرتبة العبودية ومكانة الألوهية عن المألوهية.

وبعدما اقتضت الحكمة المتقنة الإلهية بترتب النشأة الأخرى عن الأولى، أشار سبحانه إلَى أمارات النشأة الأخرى وعلاماتها بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المدبر لأمور عباده حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم في النشأة الأولى، حيث وضع التكاليف المثمرة لهم خير الجزاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم في النشأة الأخرى، يجزيهم الجزاء الأوفى.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: 1-5].

اذكر يا أكمل الرسل لمن كذب بالنشأة الأخرى، وأنكر يوم العرض والجزاء كيف يفعل ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: هاجت واضطربت بعدما وصل إليها الأمر الإلهي المتضمن للتحريك والتهييج ﴿زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1] الذي قدر الله لها عند النفخة الأولى.

﴿وَ﴾ بعدما هاجت وتحركت ﴿أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: 2] أي: دفائنها ومكنوناتها، وما في جوفها من الأموات.

﴿وَ﴾ بعدما رأى الناس زلزالها وإخراجها ﴿قَالَ الْإِنسَانُ﴾ من كمال حيرته وتعجبه: ﴿مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: 3] أي: ما عرض على الأرض ولحق بها حتى اضطرتها

إلى الحركة والاضطراب مع أنها ساكنة في حد ذاتها جامدة.

وبالجملة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض بإلهام الله إياها ﴿أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: 4] أي: الأعمال التي عمل عليها بنو آدم.

عن أبي هريرة ﷺ أنه قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول عمل عليّ كذا وكذا يوم كذا، فهذه أخبارها»[1].

وذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 5] أي: أمرها سبحانه وأذن لها بالكلام وألهمها، فحينئذٍ تكلمت وتحدثت.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 6-8].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ ويرجع ويعود ﴿النَّاسُ﴾ عن موقف العرض والحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾[2] متفرقين، متحزبين حسب مراتبهم في الحساب، كل منهم مع شاكلته ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: 6] أي: أجزئتهم المعدة لهم في الجنة والنار.

وبالجملة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: مقدار نملة صغيرة ووزنها ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾

---

(1) رواه أحمد (374/2، رقم 8854)، والترمذي (619/4، رقم 2429) وقال: حسن غريب. والحاكم (281/2، رقم 3012) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والنسائي في «الكبرى» (6/ 520، رقم 11693).

(2) قال ابن عجيبة: متفرقين، جمع شتّ، نزلت في بني ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكل أكل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا. وقيل: في قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، ودعاه إلى الطعام، فيقول: إني أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير، فأباح لهم ذلك.

[الزلزلة: 7] أي: يرى جزاءها في الجنة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8] أي: جزاءها في النار.

وهذه الآية أحكم آية وأقسطها، من الآيات الدالة على كمال العدل الإلهي وأشملها حكمًا، لذلك قال ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»[1].

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الحق أن تأتي وتتصف بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواسدها؛ لترى أحسن الجزاء، وتزيد عليها على مقتضى إخلاصك فيها وخشوعك في إتيانها، فلك أن تجعل مضمون هذه الآية نصب عينيك في عموم أحوالك وأعمالك؛ لتكون على ذكر تام وفطنة كاملة، مما يترتب على أعمالك من الجزاء.

جعلنا الله من زمرة المتذكرين الممتثلين بمقتضى هذه الآية.

(1) رواه الترمذي (11/75).

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العاديات

لا يخفى على المستكشفين من نفحات الحق، المستروحين نسمات النفسات الرحمانية من قِبل يمن اللاهوت، بإرسال حضرة الرحموت أن النيل والوصول إلى تلك المنازل البهية والمقامات العلية، إنما هو بعد رفض شواغل الناسوت، ورفع موانع بقعة الإمكان، وقطع آماله المتسقة، وأمانيه المتسلسلة، وذلك لا يتيسر إلّا بجذب الحق وتأييده، واجتهاد العبد وبذل جهده ووسعه.

لذلك أقسم سبحانه بما أقسم من النفوس المتشوقة، وقرن مع القسم ما قرن من كفران الإنسان وخسرانه باشتغاله على ما لا يعنيه من لوازم الحجج الناسوتية، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور الإنسان حتى أوصله إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بخلقه على صورته ليليق بخلافته ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يربيه ويهديه إلى حيث يوصله إلى بحر وحدته.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات: 1-5].

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: 1] [1] أقسم سبحانه بالنفوس المقدسة الزكية عن مطلق الرذائل والأنسية، وشبّهها في سرعة العدو والجري بالخيول الجياد العادية، المجاوزة عن مضائق بقعة الإمكان، ومحابس نشأة الناسوت نحو فضاء الوجوب، ومراتب عوالم اللاهوت، شوقًا إليها وتحنّنًا نحوها؛ لذلك كلمّا قطعت عقبة من

---

(1) قال البقلي: أقسمَ الحقُّ سبحانه بأفراس قلوب المحبّين إذا ضَبحت بأصوات الوصلة من تراكم مواجيد المشاهدة في ميادين الوحلة، حين عاينت مشاهدة السرمدية، وهي الموريات أنوار المعارف من قداح الكواشف، ثم أقسم لواردات كُشوف صفاته حين أغارت أرواح العاشقين عند طلوع صباح مشاهدته.

العقبات الناسوتية تضبح ضبحًا.

والضبح: هو صوت أنفاس الفرس عند العدو، وتلك النفوس تضبح تشوقًا إلى مقعد الوجوب، وتنفسًا عن كروب الإمكان وأحزان الهيولى والأركان.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: 2] أي: النفوس المتحننة للسرعة، المستعجلة نحو الموطن الأصلي بالميل الجبلِّي، سيما بعد الجذب الإلهي الموري لحوافر مراكب الشوق عند عدوها على أحجار الطبائع وجنادل الهيولى والأركان، نار المحبة والمودة من شدة تشوقها وتلذذها إلى النيل والوصول، واستنشاقها من نسائم روائح الحضور والقبول.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: 3] أي: النفوس التي تغير في المبادرة والمسابقة نحو عالم اللاهوت، وتجتهد وتسعى أن تصل إليها قبل كل واحدة من النفوس المبادرة إياها والساعية نحوها.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أي: هيجن وحركن في ذلك الوقت الذي وصلن إليه ﴿نَقْعًا﴾ [العاديات: 4] ليكون علامة تدل على وصولهن.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي: دخلن بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ [العاديات: 5] سكان عالم اللاهوت؛ أي: المطلقين عن جميع القيود الناسوتية.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾ [العاديات: 6-11].

وبالجملة: بحق هذه المقسمات العظام ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿لِرَبِّهِ﴾ الذي ربّاه بأنواع الكرم والإحسان ﴿لَكَنُودٌ﴾[1] [العاديات: 6] كفور

---

(1) قال علاء الدولة: يعني: إن للإنسان لا يرضى بهذا الفتح لأنه كنود، ويدخل مني الإذن بدخوله في عالم القلب، فالواجب على صاحب الهمم العليّة أن يشكر الله على نعمة الفتح والنصرة في هذا المقام، ثم يسأل منه التوفيق للدخول في عالم القلم وكنوده من علق همته، وعجلته من غاية إشتياقه، وبهاتين الخصلتين اللتين إن ظهرتا تبدلا بالهمة، والسرعة المحمودة التي أشار إليها الله تعالى حيث قال في كتابه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:133]، صار الإنسان -

مبالغ في الكفران والطغيان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسان نفسه ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ أي: كنوديته وكفوريته ﴿لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: 7] لظهور آثار الكفران والطغيان عليه دائمًا، وبالجملة: هو نفسه شاهد على كفره وكفرانه، وشركه وطغيانه، إلى حيث يلوح أثر عصيانه عليه.

﴿وَإِنَّهُ﴾ من شدة بغيه وعدوانه وغفلته على الله وإحسانه ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال والجاه والثروة، والسيادة المبعدة له عن كنف مولاه ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] قوي، مبالغ فيه، مباهٍ متناهٍ فيه، حريص في طلبه، متعب نفسه في تحصيله، وحبُّه هذا ما هو إلّا من غاية كفرانه بنعم الله وحرمانه عن مقتضى كرمه وضعف يقينه بالله وموائد إنعامه وإحسانه.

وبالجملة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان الكفور، الكنود، المحب للجاه والمال ﴿إِذَا

أشرف الموجودات، وإن لم يكن هاتان الخصلتان موجودتان في ابن آدم، ويمكن له التجاوز عن مقامه، مثل الملائكة الذين يقولون: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:164]، وظلمه وجهله وكفرانه أيضًا من الواجبات العالية الهمة في سلوك الطريقة، كما أن الكنود والعجلة من الموجبات أيضًا إذا ظهر صار صفتين حميدتين معينتين لصاحبهما على قطع الطريق والغلبة على العدو، وبعلو الهمة التي هي نتيجة الكنود المطهر من تلويثات الهوى النفسية، وبسرعة السير لغلبة الاشتياق التي هي من خصائص صفة العجلة المزكاة من كدورات القوى القالبية، بحيث يسير في عمره القصير سيرًا باستعداد العجلة، ويصل إلى مطلوبه في سيره، وينتهي سيره في مدة يسيرة إلى ما لا يمكن الوصول لمنتهاه إلا بخمسين ألف سنة لغيره، فذلك الجهل؛ لأنه من جهله تثقل الأمانة قلبه وحملها حيث أبت الكائنات حملها وقبولها، كما يقول تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً﴾ [الأحزاب:72] على نفسه، ﴿جَهُولاً﴾ [الأحزاب:72] بحقيقة ثقل الأمانة، ولولا صفة ظلوميته لما حارب بنفسه وما قاتلها، ولما اجتهد في قلع أشجار خواطرها، وما شد عليها مشربها من ينبوع الهوى، ولولا صفة كفرانه لما التفت إلى تربيته طبيعتها له ورحم عليها، وما حملها على ترك مألوفاتها، وقطع النظر عن مشتهياتها، وما أمرها بالمجاهدة في خلع عاداتها ورفض محبوبتها طباعها، ونفض الأيدي من الدنيا ومتاعها، فكفرانه بنعمة تربيته اللطيفة، وبالنفس التي رباني في حجرها من زمان تعلق الروح بالعلة إلى أن بلغ مبلغ الرجال، وعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وطفق بنفي الباطل ويثبت الحق، وسلك الطريق وعرف المظلوم من المحمود على سبيل التحقيق، سير له قهر النفس وهواها وأضعف الطبيعة وأقواها؛ لأنها أرضعته من الصغر إلى الكبر.

بُعْثِرَ﴾ أي: بُعث ونُشر وحُشر ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: 9] من الموتى.

﴿وَحُصِّلَ﴾ أي: جُمِع وميِّز ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: 10] من المكنونات، خيرًا كان أو شرًا.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم وربَّاهم بأنواع الكرم ﴿بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يوم القيامة التي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: 11] بصير بعموم ما جرى عليهم في نشأة الاختبار خيرًا كان أو شرًا، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته بلا فوت شيء من ذلك، ومع علمه سبحانه بهم وبما صدر عنهم، يعملون عملاً سيؤاخذون عليه.

نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

خاتمة السورة

عليك أيها الإنسان الكامل المجبول على حكمة المعرفة والإيقان أن تشمِّر ذيلك إلى ما جُبلت لأجله، وتخلِّي خلدك عن مطلق الأشغال العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، فلك أن ترى يوم الجزاء بين يديك ونصب عينيك، وبالجملة: لا تغفل عن الله، فإنه يرقبك في أولاك وأخراك.

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة القارعة

لا يخفى على الموقنين المنكشفين بسرائر النشأتين أن النشأة الأولى لاكتساب المعارف والحقائق الكاملة في مطاوي التكاليف الإلهية وسرائر أوامره وأحكامه، والثانية إنما هي للجزاء المترتب على تلك المعارف والحقائق، ولاشك أن من تهاون وتقاصر عمّا لزمه في الأولى فقد ضل وغوى واستحق الويل واللظى، ولحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يجازون بمقتضاها.

وللتهويل على أصحاب الغفلة وتقريعهم، سمى سبحانه يوم القيامة بالقارعة، وأبهمها؛ تفظيعًا وتهويلاً، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتصف بالقهر واللطف حسب النشأتين ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على عموم المطيعين من عباده في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمِ﴾ على المخلصين منهم في النشأة الأخرى، يوصلهم إلى أقصى درجات النعيم.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ⑤﴾ [القارعة: 1-5].

﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 1] أي: الساعة التي تقرع الأسماع من هولها وهيبتها، وتدهش العقول من شدتها وصولتها.

ثمّ أبهم سبحانه تهويلاً، فقال: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 2] المذكورة، وأية شيء هي؟.

ثمّ أبهمها مرة أخرى على حبيبه ﷺ؛ تأكيدًا على تهويلها وفظاعة شأنها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 3] العجيبة الشأن الفظيعة العظيمة الهائلة المهولة؟.

ثمّ عدّ سبحانه لوازمها وما يترتب عليها؛ ليتنقل منها إليها، وإنما أشار سبحانه

بهذه الطريقة أيضًا إلى شدة هولها وفظاعتها؛ ليكون تهويلاً على تهويل، وتأكيدًا على تأكيد.

اذكر يا أكمَل الرسل لمن تذكّر ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ مَن شدة أهوالهم وأفزاعهم ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: 4] أي: كالطير المتهافت على النار من شدة اضطرابه؛ يعني: يكون الناس يومئذ مثل الفراش المتفرق في الجهات من غاية الاضطراب، بحيث لا يتمالكون على نفوسهم، بل يركب بعضهم فوق بعض، ويطأ بعضهم بعضًا من شدة خشيتهم ورهبتهم وازدحامهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ من كمال قهر الله وغضبه ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5] أي: كالصوف الملون المندوف، تطير في جو الهواء يمنة ويسرة.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: 6-11].

وبالجملة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 6][1] أي: رُجحت

(1) اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات، إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال، وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لمَن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة، وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها، فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

مقادير حسناته على مقادير سيئاته ﴿فَهُوَ﴾ يومئذ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ هنيئة مريئة ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: 7] صاحبها عنها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 8] أي: خفت حسناته وثقلت سيئاته ﴿فَأُمُّهُ﴾ أي: مستقره ومأواه، وما يأوي إليه ﴿هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 9] هي من أسماء جهنم.

ثمّ أبهمها سبحانه؛ تهويلاً وتفظيعًا، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ [القارعة: 10] أي: الهاوية.

ثمّ فسرها؛ ليكون أدخل في التهويل، فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: 11] أي: ماهية الهاوية وحقيقتها: نار ذات حمى وحرارة، بحيث قد انتهت في الحرارة والسخونة غايتها.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لترجيح الحسنات على السيئات أن ترغب في سرك ونجواك عن مستلذات الدنيا ومشتهياتها، وتركن إلى اللذات الروحانية من الأحوال والمواجيد الأخروية المستلزمة للدرجات العلية والمقامات السنية عند الله.

وإياك إياك الأماني وطول الأمل، فإنها توقعك في فتنة عظيمة وبلية شديدة، لا نجاة لك منها.

خلصنا الله وعموم عباده من غوائل الدنيا وما فيها.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التكاثر

لا يخفى على من هداه الله إلى طريق المعرفة والإيمان، وكشف له سبيل الكشف والعيان، وأفاض عليه سبحانه الفضل والإحسان أن الأموال والأولاد ومطلق المزخرفات الدنيوية الفانية، التي هي أسباب التكاثر والتفاخر وعلل الاستكبار والخيلاء في النشأة الأولى من العوائق العائقة عن الوصول إلى روضة الرضا وجنة المأوى.

فلا بدَّ لأرباب الإرادة والولاء أن يتزهدوا عنها ولا يلتفتوا إليها، ويتزودوا بزاد التقوى، فنعم الزاد التقوى والرضا بما جرى عليه القضاء.

لذلك خاطب سبحانه في هذه السورة أهل المفاخرة والمباهاة بتكاثر الأموال والأولاد، وأوعدهم بما أوعدهم؛ تسجيلاً على ضلالهم وانحرافهم عن جادة العدالة الإلهية وصراط التوحيد، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته في الإنسان؛ ليربيه على نشأة الإيمان والعرفان ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان؛ ليتوجه نحوه في عموم الأحيان ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، يهديه إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر: 1-4].

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1] أي: شغلتكم المفاخرة والمباهاة بكثرة الأموال والأولاد أيها المنهمكون في بحر الغفلة والضلال عن توحيد ربكم وطاعته، وكنتم على هذا طول عمركم.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ ولحقتم ﴿الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 2] وصرتم أمواتًا مثلهم، وما صدر عنكم، وما جُبلتم لأجله طول دهركم.

ثمّ قال سبحانه؛ ردعًا لهم وتهديدًا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3] أن أمركم وشأنكم ما هذا التفاخر والتكاثر، وستعلمون ما يترتب عليها.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 4] أن الأمر ليس هذا، كرره؛ تأكيدًا ومبالغة في التهديد والوعيد، وتهويلاً للوعود.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: 5-8].

ثُمَّ سجّل عليهم سبحانه جهلهم وضلالهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾ يعني: ما تتكاثرون وتفتخرون بهذه الزخرفة الفانية أيها الجاهلون المكابرون ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 5] أي: لو علمتم يقينًا علميًا، وصدّقتم تصديقًا قلبيًا أنكم: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: 6] لمَا تكاثرتم وتفاخرتم بما تفاخرتم، وما خطر ببالكم هذه الخواطر الكاذبة، إلَّا أنكم جاهلون غافلون عن رؤيتها، بل منكرون لها؛ لذلك تفتخرون وتتكاثرون بالحطام الدنية الدنيوية، وتستلذون بلذاتها الفانية، وشهواتها الغير الباقية.

ثُمَّ كرر سبحانه أمر الرؤية؛ تهويلاً عليهم وتنصيصًا على وعيدهم، فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ أي: الجحيم المعدة لتعذيبكم ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 7] [1] أي: يقينًا عينيًا حتى تعاينوا بها، وترون منازلكم فيها.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيها الناس الناسون لعهود الحق ومواثيقه ﴿يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8] الفاني الذي يُشغلكم عن الحق ويلهاكم عن طاعته وعبادته، فحينئذٍ ظهر عليكم خطأ آرائكم وفساد أهوائكم التي كنتم عليها في النشأة الأولى.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

(1) قال الورتجبي: و«حقيقة اليقين» و«حق اليقين»: أن يعرف العبد أنه يرى جحيم قهر القدم الذي كان الحق موصوفًا في الأزل، ولم يصل إلى بطنان كنهه؛ لأنه الحدث والحق قديم، وأنَّى يصل الحدث إلى القدم أبدًا؟! قال يحيى: «اليقين»: كشف الغطاء عن القلب، وقال فارس: «علم اليقين»: لا اضطراب فيه، و«عين اليقين»: هو العلم يُودِعَه الله الأسرار، قال الخراز: «عين اليقين»: هو أن يرفع الحجب عن قلوبهم بتجلٍّ لأرواحهم وأسرارهم، ويكشف عن أوهامهم حتى يروه عين اليقين، فيرجعوا عنه سكارى، ويتهوا عنه حيارى. قال بعضهم: «عين اليقين»: عين البقاء.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتصف باليقين العلي بعموم المعتقدات الأخروية أن تكون على ذكر منها، بحيث يكون علمك بها عينًا قبل حلولها ونزولها، فعليك ألّا تركن إلى الدنيا: مزخرفاتها ونعيمها ولذاتها، وتقنع بالكفاف وتتصف بالعفاف، وتلازم العزلة والخمول والفرار عن أصحاب الفضول، فإن صحبة الأشرار يعوقك عن ملاحظة الأسرار ويمنعك عن مشاهدة الأنوار.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا من فضول الكلام وتوصلنا إلى دار السلام.

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العصر

لا يخفى على من انكشف له وحدة الحق واستقلاله في الوجود وسريانه في جميع الموجودات والمشهودات الظاهرة على صفحات الكائنات أن ما سوى هذه الملاحظات والمشاهدات المتعلقة بكيفية شئون الحق وتطوراته، المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا إنما هو خسران مبين ونقصان عظيم؛ إذ الفطرية الإنسانية إنما جُبلت لأجلها، فمن لم يتصف بها ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

لذلك نبّه سبحانه في هذه السورة على خسران الإنسان وحرمانه عن طريق العرفان ما لم يتصف بالإيمان والأعمال الصالحة، فقال سبحانه مقسمًا بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي خلق الإنسان على صورته؛ ليتخلق بأخلاقه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه حيث أظهره من كتم العدم وربّاه بأنواع اللطف والكرم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، يهديه إلى صراط مستقيم موصل إلى توحيده.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3].

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: 1] أقسم سبحانه بالعصر والدهر الذي هو عبارة عن بقاء الوجود الأزلي الأبدي ودوامه السرمدي.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ المجبول على فطرة المعرفة والإيمان حسب حصته اللاهوتية ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾[1] [العصر: 2] عظيم، وخيبة بيّنة؛ بسبب اشتغاله بما لا يعنيه من لوازم

---

(1) قال علاء الدولة: اسمع بسمع حديد وقلبي شهيد أن الله تعالى خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] بإدراجه جميع المفردات العلوية والسفلية فيه، فلذلك جمع الله تعالى لأمة محمد خواص جميع الساعات في الصلاة الوسطى؛ وهي صلاة العصر، إذا أدى الإنسان حق الطاعة في تلك الساعة صيرت الفوائد المدرجة في جميع الساعات لها، وأشار إلى هذا المعنى حبيب

بشريته المتعلقة بحصة الناسوت.

﴿إِلَّا﴾ الموقنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق، وتفطنوا باستقلاله في التصرفات الجارية في ملكه وملكوته ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الدالة على إخلاصهم ويقينهم ونياتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا نسلوك طريق الحق وتوحيده ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أيضًا ﴿بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3] على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات الطارئة عليهم، من قطع المألوفات الإمكانية، وترك اللذات البهيمية اللازمة للقوى البشرية.

وفقنا الله على قلعها وقطعها.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد لقطع العلائق الإمكانية أن تتصبر على عموم البلوى العارضة لك في نشأتك الأولى، وتسترجع إلى الله في جميعها، وتسنده إليه سبحانه أولاً وبالذات بلا رؤية الوسائل في البين، وتوطن قلبك مع ربك في جميع حالاتك، وترضى عن الله في عموم ما جرى عليك في مقتضيات قضائه، وبالجملة: كن فانيًا في الله تفز بخير الدارين وفلاح النشأتين.

الله ﷺ قال: «إن الله فرض على أمة موسى ﷺ أن يعملوا يومًا ليأخذوا أجورهم، فعملوا من الصبح إلى الظهر وملوا وتركوا العمل والأجر، فتعين الله تعالى لأمته عيسى ﷺ من الظهر إلى العصر، وعملوا وتركوا العمل والأجر، ثم فرض الله تعالى على أمتي بقية اليوم أن يعملوا ويأخذوا أجر اليوم كله فقبلوا وعملوا، وأخذوا الأجر الكثير بالعمل القليل».

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الهمزة

لا يخفى على الموحدين المستكشفين عن سرائر التوحيد واليقين أن الكمالات الدينية كلها منوطة بالتخلق بأخلاق الله والتأدب بآدابه، فلا بدّ لأرباب الإرادة والطلب أن يهذِّبوا ظواهرهم أولاً بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المقتبسة من مشكاتي النبوة والولاية، وبواطنهم بالخواطف الغيبية والهواتف اللدنية، الملهمة إليهم حسب القوى القدسية اللاهوتية المتعلقة باسعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية، فمن رغب عنها، ولم يتصف بها، فما له في الآخرة من خلاق.

لذلك حث وحرّض سبحانه في هذه السورة أرباب العناية والتوفيق على كسب الآداب، والتخلق بمحاسن الأخلاق، والاتصاف بأوصاف الكمال بتوبيخ أصحاب الغفلة والضلال المسيئين الأدب مع الله ومع عباده، وبسوء منقلبهم ومآبهم عنده سبحانه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته في نوع الإنسان ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده حيث خلقهم بأخلاقه.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة: 1-3].

﴿وَيْلٌ﴾ عظيم وهلاك هائل شديد لكل فرد من أفراد الأقوام ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ يمشي بين الناس بالهمز وكسر الأعراض، وصارت له هذه الديدنة القبيحة عادة راسخة مستمرة، وأيضًا لكل ﴿لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1] يطعن في أنساب الأنام، وينسبهم إلى أنواع البغي والآثام افتراءً ومراءً.

وما جرّأه وحمله على هذه الخصلة القبيحة والفعلة الوقحة إلّا ثروته وماله وجاهه وسيادته، فإنه ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ وأمتعة من الزخارف الدنية الدنيوية التي مالت قلوب أبنائها وأصحابها إليها ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: 2].

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: 3] أي: أدام وأبقى ماله نفسه وجعله مخلدًا في الدنيا، مستمرًا فيها أبدًا، بحيث لا يطرأ عليه زوال وانتقال.

وبالجملة: اغتر بماله وجاهه إلى حيث خيل له الخلود به فيها والدوام عليها بطرًا وغرورًا.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة: 4-9].

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ردعًا له عن حسبانه واغتراره، وخطأ رأيه وطغيانه؛ يعني: من أين يتأتى ويتيسر له الخلود والدوام فيها؟! والله ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ويطرحن يوم الجزاء ﴿فِي الحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: 4] أي: النار التي من شأنها أنها تحطم وتكسر وتفني من يطرح فيها.

ثمّ أبهمها تهويلاً، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: 5] المعدة لتعذيبه.

ثمّ فسرها؛ لكونه أدخل في التهويل والتفظيع بقوله: ﴿نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ﴾ [الهمزة: 6-7] وتعلو ﴿عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: 7] [1] والأكباد؛ أي: حرقُها وإيلامها غير مختص بظواهر الجلود، بل يسري إلى البواطن أيضًا، كما أن أثر الهمز واللمز اللذين هما سببا التعديل بهذه الحطمة سيشمل ظواهر الناس وبواطنهم.

وبالجملة ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار الموقدة الإلهية ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: 8] أي: مطبقة عليهم، محيطة بهم، محفوفة بحواشيهم وحواليهم، وهم حينئذٍ مشدودون، موثقون بأيديهم وأرجلهم.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: 9] أي: أعمدة وأخشاب طوال مثقوبة، ومن أعناقهم بالسلاسل والأغلال، ألا وهي مصورة من سلاسل الآمال وأغلال الأماني التي هم

---

(1) قال روزبهان: «ناران»: نار القهر، ونور اللطف، «نار قهره»: إبعاده قلوب المنكرين عن ساحة جلاله، و«نار لطفه»: نيران محبته في قلوب أوليائه من المحبّين والعارفين، وقال جعفر: النيران شيءٌ مختلفٌ، فمنها: نار المحبة، ونار المعرفة تتّقد في أفئدة الموحدين، ونيران جهنم تتّقد في أفئدة الكافرين، ونيران المحبة إذا اتّقدت في قلب المؤمن تحرق كل همّةٍ غير الله، وكل ذكر سوى ذكره.

مقيدون بها في بقعة الإمكان.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الوجِل الخائف عن مقتضيات القهر الإلهي وموجبات غضبه أن تعتدل في عموم أخلاقك وأطوارك، وتعيش بين بني نوعك هينًا لينًا، فرحان بلا مماراة ومخاصمة، تصاحبهم وتداريهم على وجه الوفاق والملاطفة، بلا شوب الشقاق والنفاق.

وبالجملة: ترجِّحهم على نفسك في كل الأمور، وتراعيهم حسب المقدور فإن رعايتك إياهم، وترجيح جانبهم يؤدي إلى مراعاة جانب الحق وترجيحه.

وبالجملة: أحسن إليهم كما أحسن الله لك، فكن من المحسنين، واعبد ربك في كل ذرة حتى يأتيك اليقين.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الفيل

لا يخفى على من انكشف بحيطة الأوصاف الإلهية وشمول أسمائه الحسنى على عموم ذرائر الأكوان أن من جملتها القادرة الغالبة المودعة في أجزاء العالم كلها متى تعلق إرادته سبحانه بإظهار القدرة أظهر من كل ذرة ونملة حسب قدرته الغالبة أفعالاً عجيبة وآثارًا بليغة، تدهش العقول وتقرع الأسماع.

كما أخبر سبحانه في هذه السورة لحبيبه ﷺ؛ تثبيتًا له وتوطينًا، تتميمًا لتربيته، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ القادر المقتدر على كل ما دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لعموم عباده؛ حيث دبّر أمورهم على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى الدرجة الرفيعة اللاهوتية.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل: 1-5].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم يقينًا علميًا حاصلاً لك من طريق السمع إلى حيث وصل إلى مرتبة اليقين العيني من كثرة السماع من الثقات، وتكرره ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الذي ربّاك يا أكمل الرسل لرسالته، وأظهر دينك على الأديان كلها، ونصرك على عموم أعدائك بقدرته الغالبة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1] وهو جيش أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قِبل أصحمة النجاشي.

قصد هدم الكعبة عمّرها الله، فخرج مع جيشه، ومعه فيل كثيرة، لكن فيها فيل عظيم جسيم في غاية الجسامة، مسمى بـ «محمود» كانوا يأمرون له بهدم البنيان،

فيهدمها في الحال، ولهذا سمُّوه بهذا الاسم.

وسبب هذا القصد أن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء، فسماها قُليس، فعزم أن يصرف الحاج من مكة إليها، فلمَّا انتشر الخبر، ذهب رجل من كنانة إلى قُليس ذات ليلة، فتغوط فيها ولطخ بها محاربها، فوصل الخبر إلى أبرهة فغار غيرة شديدة، فحلف: والله لأهدمن الكعبة.

فخرج مع جيشه وفيله، حتى وصل إلى حوالي الحرم، وأراد أن يأمر الفيل بهدمها، فبرك ولم يبرح نحوها، فضربوه وشددوا عليه، فلم يفد، فكانوا إذا وجهوه إلى جهة غير جهة البيت هرول وأسرع، وأمَّا نحوها فلم يمش قط، فصاروا متحيرين في شأنه.

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ الذي كادوا به لهدم البيت وانصراف الزوار عنه نحو بيتهم الذي قد بنوا ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: 2] ضياع وهلاك؟!

﴿وَ﴾ كيف لا يكون في الضياع والخسار؛ إذ ﴿أَرْسَلَ﴾ سبحانه بمقتضى قدرته الغالبة ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: 3] [1] أفواجًا كثيرة متفرقة، متفوقة من جنس واحد من الطير، مع كل واحد منها ثلاثة أحجار.

﴿تَرْمِيهِم﴾ يعني: الطير، جيش أبرهة ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ متخذة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: 4] وهو معرب: سنك وكل.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ من كثرة ما ترميهم بها ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: 5] أي: كتبن يأكله الأنعام وتروث به، فتفرقه الرياح؛ أي: صاروا من شدة غضب الله إياهم هباءً منثورًا.

(1) قال عكرمة: قال: طير نشأت من قبل البحر، لها رؤوس كرؤوس الأفاعي، وقيل: كرءوس السباع، لم تر قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة لتجدر جلودهم، وكان أول يوم رئي فيه الجدري. تفسير التستري (356/2).

خاتمة السورة

عليك أيها السالك الخائف من بطش الله، المحترز عن مقتضى قهره وجلاله أن تكون في عِموم أحوالك وأطوارك بين الخوف والرجاء عن جلال الله وجماله، بحيث لا يجري عليك نفَس من أنفاسك، وأنت فيه خالٍ عن كلا النقيضين.

وبالجملة: لا تيأس من روح الله، ولا تتكل على كرمه، فاعلم أنه سبحانه يرقبك في حالاتك، ويعلم منك ما لم تعلم من نفسك، فكن من المخلصين ولا تكن من القانطين، فإن ناقدك خبير بصير.

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة قريش

لا يخفى على من تفطن بسرائر العبودية المستلزمة لأنواع التذلل والخضوع والانكسار التام والخشوع المفرط أن الباعث عليها والدَّاعي إليها إنما هو الإنعام العام والإحسان التام الذي هو القيام على عموم الحوائج اللازمة للهوية الشخصية، المقوِّمة لها، المبقية لماهيتها.

ولاشك أن المتكفل المستقل لحوائج عموم المظاهر والمجالي هو الله الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر على جميع المقدورات بالاستقلال والاختيار، المربي للكل بأنواع اللطف والكرم، وهو المستحق للإطاعة والانقياد استحقاقًا ذاتيًا وصفيًا، وكيف لا؛ إذ لا معبود سواه، ولا إله غيره؟!

لذلك أمر سبحانه حبيبه في هذه السورة بعبوديته وانقياده، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المظهر للكل من كتم العدم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على الكل بأنواع الكرم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، بإلزام العبودية والذمم، تعجبوا أيها المعتبرون!

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: 1-4].

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: 1] [1] أي: ائتلافهم وتآلفهم فيما بينهم، واتفاقهم على أن ينصرفوا من حوالي بيت الله حين ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ واتفاقهم على الظعن والارتحال ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: 2] يعني: يرتحلون في كل سنة مرتين: مرة في الشتاء

---

(1) قال القشيري: مصدر آلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف، وهو أَلِفَ إِلفاً، والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريش، أي لِيَأْلَفوا رحلتهم في الشتاء والصيف، وكانت لهم رحلتان للامتيار: رحلةٌ إلى الشام في القيظ، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ والمعنى: أنعم الله عليهم بإهلاكِ عدوّهم ليؤلّفهم رحلتيهم، تفسير القشيري (8 / 106).

نحو اليمن ومرة في الصيف إلى الشام، والباعث على ترحالهم: فقد الزاد في مكة؛ إذ هي بواد غير ذي زرع، فيشق عليهم الأمر، فيتجروا في كل سنة مرتين.

فكره الله منهم هذا، وأمرهم بالمكوث والإقامة حول بيته، بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: 3] وليعتكفوا في حواليه، وليتوكلوا عليه ولا يتجروا؛ إذ هو القادر المقتدر ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم﴾ وأشبعهم ﴿مِّن جُوعٍ﴾ شملهم وأحاط بهم حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 4] لحقهم من أعدائهم مرارًا ببركة هذا البيت، فلهم أن يسكنوا في حواليه، متوكلين على ربه، يكفي لهم مؤنة أرزاقهم بحوله وقوته، كما كفى لهم فيما مضى.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه إلى الله، المتوكل على كرمه وإحسانه أن تمتثل بجميع ما أمرك الحق عليه، وتفوض أمورك كلها إليه، وترضى على عموم ما جرى عليك من القضاء، وتعتقد أن الأمر كله لله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الماعون

لا يخفى على من انكشف له سرائر الدين القويم، وحِكم الأحكام المورَدة في الشرع المستقيم، ومصالح التكاليف الواردة من العليم الحكيم أن سر العبودية والتدين والانقياد، إنما هو التأدب مع الله، وحسن القيام على أداء حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، ولاشك أن من تقاصر فيها وتهاون عليها، فقد انحرف عن جادة العبودية، واستحق الويل والثبور من الله المنتقم الغيور.

كما أشار إليه سبحانه في هذه السورة مستفهمًا على سبيل التعجب والاستبعاد، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي وضع الدين بين الأنام؛ ليهديهم إلى دار السلام ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإنزال التكاليف والأحكام ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى أعلى المكانة وأرفع المقام.

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: 1-7].

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: هل عرفت وأبصرت المعاند الكاذب ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: 1] أي: بيوم الجزاء والحساب الموعود؛ لتنقيد الأعمال والأفعال الجارية في نشأة الاختبار؟.

﴿فَذَلِكَ﴾ المكذب المنكر هو ﴿الَّذِي يَدُعُّ﴾ ويدفع بالعنف المفرط ﴿الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2] الذي جاءه لينفعه من ماله الذي كان عنده؛ لكونه قيمًا ووصيًا له، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل غيره، وما ذلك إلا من غاية بخله وخساسته.

﴿وَ﴾ من شدة بخله وخساسته وإمساكه المفرط ﴿لَا يَحُضُّ﴾ لا يحث أحدًا ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: 3] يعني: هو لا يطعم ولا يرضى أيضًا بإطعام الغير

من شدة شحه وإمساكه، هذا أمارة تكذيبه بالدين والجزاء بحسب الظاهر.

أمّا بحسب الباطن ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيم وعذاب أليم ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [المَّاعون: 4] المكذبين بيوم الجزاء، المنكرين لمعالم الدين المستبين؛ لأنهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1] [المَّاعون: 5] غافلون، لا يحافظون عليها في أوقاتها المحفوظة لها، ولا يواظبون على إقامتها.

بل هم ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [المَّاعون: 6] بها على رءوس الملأ، ويتركونها في خلواتهم؛ لعدم اعتدادهم واعتقادهم بها، وما يترتب عليها من الجزاء مع تهاونهم وتكاسلهم في الصلاة التي هي عماد الدين وأعلى مراسم التوحيد واليقين.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [المَّاعون: 7] أي: الزكاة المهذبة لنفوسهم عن الشح المستهجن والتقتير المستقبح، والفتوات المؤدية إلى عموم الحسنات والخيرات المسقطة للمروءات.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لطريق الحق، الحقيق بالإطاعة والاتِّباع أن تهذب ظاهرك وباطنك عن مطلق الرذائل المنافية للعدالة الإلهية، وتخلي سرك عن الالتفات إلى ما سوى الحق؛ لتكون صلاتك منك ميلاً حقيقيًا إلى الله، ومعراجًا معنويًا موصلاً إلى توحيده.

وإياك إياك المراء والمجادلة مع بني نوعك، والاستكبار عليهم، وإظهار الثروة والسيادة فيما بينهم بالمال والجاه، فإنه يميت قلبك، ويزيد في هواك، ويبعدك عن مولاك، تضرك في أولاك وأخراك.

(1) يعني: ويل للقوى النفسية المقلدة المؤمنة خوفًا من المجاهدة التي [عليها] صاحبها السالك؛ لئلا يقتلها بالمجاهدة ولئلا يأسرها ويغير عليها مالها وأهلها، واستعدادها وهواها يصلوك بالصورة رعياً عن المجاهدة؛ وهم عن حقيقتها ساهون لا يصلون إلا لدفع الضرر عنهم ويجز النفع عن صاحبهم إليهم. [عين الحياة].

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الكوثر

لا يخفى على من وصل إلى بحر الحقيقة، وورد على الحوض المورود والمقام المحمود الذي هو الوجود الإلهي المنبسط بمقتضى الجود الذاتي إلى عموم الموجودات أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأقصى الذي هو التوحيد الذاتي المعبَّر بالحوض الكوثر، الذي هو عبارة عن كثرة الخير والبركة، ما تيسر والتقى جماهير الأنبياء والرسل للحضرة الختمية الخاتمية المحمدية - صلوات الله عليه وسلامه - لذلك خُتم ببعثته أمر الإرسال والتشريع.

ولهذا نبه سبحانه في هذه السورة على عظم شأنه وجلالة قدره ومكانه، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المتجلي على حبيبه ﷺ بعموم كمالاته؛ ليكون مرآة يتراءى منه ﷺ آثار جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم الأنام ببعثته ﷺ حين يهديهم إلى دار السلام ﴿الرَّحِيمِ﴾ للخواص منهم، يرشدهم إلى التوحيد الذاتي الذي هو المنجي عن ظلمات الأوهام.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[الكوثر: 1-3].

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ومحض كرامتنا ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل إعطاء وكرامة ﴿الْكَوْثَرَ﴾[1] [الكوثر: 1] الذي هو التحقق بوحدة الذات والانكشاف بها

---

(1) «الكوثر»: حقيقة استغراقه في بحر جماله، ودنوّه في منازل قربه، وله كوثر القلب يجري فيه أنهار أنوار مشاهدة الحق من بحار الأزل، والأبد يزيد في كل نفس سواقيها إلى الأبد.

قال جعفر: نورٌ في قلبك دلَّك عليّ، وقطَعَك عما سواي. وقال: الشفاعة لأمتك.

وقال ابن عطاء: الرسالة والنبوة. وقال: معرفةٌ بربوبيتي، وانفرادٌ بوحدانيتي وقدري ومشيئتي.

وقال الجنيد: أعطيناك نور المعرفة، وانفراد الوحدانية.

والوقوف عليها.

وبعدما أعطيناك ما أعطيناك، وخصَّصناك بالكرامة التي لم نعط أحدًا من الأنبياء والرسل الذين مضوا قبلك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ودم على التوجه نحوه وأخلص فيه، واستقم عليه ﴿وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 2] بدنة ناسوتك بعدما وصلت إلى كعب الذات، وفزت بعرفات الأسماء والصفات؛ تقربًا إلى الله، ولا تلتفت إلى من يشينك ويعيبك من الجهلة المكابرين.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ الذي يشينك ويبغضك في شأنك وأمرك هذا ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: 3] المقطوع العقب والأثر من كل خير، وأثرك يبقى إلى قيام الساعة.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للورود إلى الحوض والكوثر والشرب منها أن تتوجه في عموم أوقاتك وحالاتك إلى الله على وجه التبتل والإخلاص، وتميت بهيمة بدنك بالموت الإرادي، وتهديها في طريق الحق؛ تقربًا إليه سبحانه؛ لتنال خير الدارين وفلاح النشأتين.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الكافرون

لا يخفى على أهل الخبرة والوقوف بأمارات مقصد التوحيد، وعلامات مسلك الفناء في الله والبقاء ببقائه أن الطرق إلى الله متفاوتة، والمعارج نحوه متنوعة مختلفة؛ إذ لكل وجهة هو موليها.

وأكمل الطرق وأشملها وأسلمها هو الذي ركب واستقام عليه الحضرة الختمية الخاتمية؛ لأن طريقه ﷺ مستوعب لعموم الطرق والسبل؛ إذ هو مبني على التوحيد الذاتي المشتمل على توحيد الصفات والأفعال مطلقًا، ولا يهتدي إليه أحد من الخلق إلا بجذب من جانب الحق، وتوفيق من لدنه، ومن لم يؤيَّد من قِبل الحق، ولم تدركه العناية من لدنه ما اهتدى إليه سبيلاً.

لذلك أمر سبحانه في هذه السورة حبيبه ﷺ حين دعاه الكفرة ليعبد ﷺ سنة إلى ما عبدوا من آلهتهم الباطلة، حتى يعبدوا الله الواحد الأحد، المستحق للعبودية والتذلل سنة أخرى مجازاة لها، مقابلة إياها بأن لا يلتفت إلى قولهم الباطل ورأيهم الزائغ الزائل، فقال بعدما تيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المطلع لما في ضمائر عموم عباده من الهداية والضلال ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإرسال الرسل يدعوهم إلى سبيل السلامة والرشاد ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يوصلهم إلى خير المنقلب والمآب.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ
۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾
[الكافرون: 1-6].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل مناديًا لمن دعاك إلى عبادة آلهته الباطلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] الساترون شمس الحق الظاهر في الأنفس والآفاق بغيوم هوياتكم الباطلة.

﴿لَا أَعْبُدُ﴾ أي: لا أنقاد وأتوجه، سيما بعدما وفقني الله إلى توحيده، وهداني

نحو شمس ذاته، وشرفني بمطالعة وجهه الكريم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: 2] من الآلهة الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة، التي اتخذتموها آلهة من تلقاء أنفسكم أنتم وآباؤكم مع أنه ﴿مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: 40]، بل ما تتبعون أنتم وهم باتخاذهم إلَّا الظن وما تهوى الأنفس من غير ورود الهداية؛ لأنه من قبل الحق.

﴿وَلَا أَنتُمْ﴾ أيضًا ﴿عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: 3] من الحق الوحيد، الفريد، الحقيق بالعبادة والإطاعة، بالاستقلال والانفراد؛ إذ لا إله معه، ولا شيء يماثله حتى يشاركه في أخص أوصافه التي هي الألوهية؛ إذ ليس في وسعكم واستعدادكم الإيمان به والإيقان بوحدته واستقلاله في ملكه وملكوته، ومع ذلك ما وفقكم الحق عليه وأقدركم به.

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿لَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: 4] إذ لا يليق بالألوهية حتى أعبد له.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[1] [الكافرون: 5] إذ لا يتيسر لكم الإيمان به والاطلاع على وجوده والاتصاف بمعرفته وشهوده، فكيف تعبدون أنتم الله الواحد الأحد، الصمد بلا جذب من جانبه وتوفيق من لدنه؟! وأنا أيضًا لا أعبد لمعبوداتكم الباطلة التي هي بمراحل عن رتبة الألوهية والعبودية.

وبالجملة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه، وطريقكم الذي تتوجهون إليه بعدما لم يوفقكم الحق على الهداية والإيمان ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6] الذي أنا عليه، لا تتركوا دينكم بديني، ولا أنا أيضًا تارك ديني بدينكم، بل لكم دينكم ولي ديني، والتوفيق بيد الله والهداية والضلال.

(1) الإشارة: إذا طلبت العامةُ المريدَ بالرجوع، إلى الدنيا والاشتغال بها، يُقال له: قل يا أيها الكافرون بطريق التجريد، والتي هي سبب حصول التوحيد والتفريد، لا أعبدُ ما تعبدون من الدنيا وحظوظها، أي: لا أرجع إليها فيما يُستقبل من الزمان، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ من إفراد الحق بالمحبة والعبادة، أي: لا تقدرون على ذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم من الدنيا في الحال. انظر: البحر المديد (116/7).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الحنيف، المائل عن كل الأديان والمذاهب المنافية لصرافة شرب التوحيد ألّا تجالس مع أهل الغفلة والضلال، المترددين في أودية الجهلات بأنواع الخيالات الباطلة، والأوهام العاطلة المترتبة على هوياتهم العدمية وتعيناتهم الوهمية، ولا تصاحبهم في حال من الأحوال، فإن صحبتك معهم تبعدك عن الحق وتغريك نحو الباطل، فإن النفوس الإنسانية أسرع عدوًا وأشد ميلاً إلى البدع والأهواء الفاسدة والآراء العاطلة الباطلة.

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النصر

لا يخفى على من فتح عليه الحق باب العناية، وكشف له سبيل الهداية والكرامة أن كل من دخل في كنف حفظ الحق وجواره، وتوكل عليه، وفوَّض الأمور كلها إليه، فقد أعانه الله ونصره على جميع أعاديه، وأنجح عموم مطالبه ومآربه، وجميع ما قدر له من الكمالات التي أودعها الحق في استعداده الفطري وقابليته الجبلِّية.

ولاشك أن أكمل الناس استعدادًا وأكمله قابليةً، وأفضله كمالاً وشرفًا، هو الحضرة الختمية الخاتمية التي طويت المراتب كلها دون مرتبته ﷺ، ولهذا كمل جميع مكارمه وكمالاته المنتظرة في نشأته الأولى؛ ليكون مقدمةً وعنوانًا على تكميل كمالاتها الأخروية، كما نبه عليه سبحانه في هذه السورة بعد التيمن والتبرك: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المدبر لأمور حبيبه ﷺ على الوجه الأكمل الأحكم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليه لنصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿الرَّحِيمِ﴾ له، حيث فتح له أبواب الفتوحات الغيبية والشهادية، والفيوضات اللدنية الفائضة عليه من عالم اللاهوت.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: 1-3].

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ أي: إذا جاءك يا أكمل الرسل وعد الله الذي وعدك أن ينصرك على جميع أعدائك، ويظهر دينك على الأديان كلها ﴿وَالْفَتْحُ﴾[1] [النصر: 1]

---

(1) قال البقلي: نصرُ الله لحبيبه ﷺ وجميع أحبائه إفرادهم بفردانيته عما دونه، وأنجاهم عن جنس النفوس، وإبلاغهم مقام الأنس نظفرهم على كل بغيَة لهم، وأداء ما عليهم من حقوق العبودية، و«الفتح»: انفتاح أبواب الوصال، وانكشاف أنوار الجمال والجلال، وبلوغهم عين الكمال، وأيضًا «نصرُ الله»: كشف غطاء النفس، و«الفتح»: وقوع نور القدس في القلب إذا ذهب قتام

الذي أخبرك الحق بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1].

﴿وَ﴾ بعدما جاءك الفتح والنصر الموعود آن لك وكمل ظهورك واستيلاؤك على عموم الأعادي، وظهر دينك على سائر الأديان ﴿رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: 2] فوجًا فوجًا، فرقةً فرقةً، بعدما كانوا يدخلون فيه فرادى فرادى.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ شكرًا لما أعطاك جميع ما وعدك، وفتح عليك الآفاق، وأتم ببعثتك وظهورك محاسن الشيم ومكارم الأخلاق ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ واطلب منه العفو والغفران من لدنه؛ هضمًا لنفسك وفرطاتك؛ إذ قلمّا يخلو البشر من الخطر.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3] يغفر من استغفر له، ويقبل توبة من أناب إليه أيضًا، سيما إذا كانت مقرونة بالإخلاص.

وبعدما نزلت هذه السورة، وأمر سبحانه ﷺ بالحمد والاستغفار، تغمم الأصحاب وتحزنوا، وفهموا منها أن أجل رسول الله ﷺ قد قرُب، فودَّعه الحق، وأمره بالحمد والاستغفار؛ لذلك سميا هذه السورة سورة التوديع أيضًا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للنجاة الأخروية والراغب إلى اللذات اللدنية الروحانية الموعودة فيها أن تستغفر إلى الله، وتسترجع نحوه في أوقاتك وحالاتك، وتفوض أمورك كلها إليه، وتتخذه وكيلاً، وتجعله حسيبًا وكفيلاً، فلك أن تواظب على الطاعات والعبادات، وتجتنب عن مطلق المحارم والمنكرات، يحفظك الحق عن جميع الملمّات ويوصلك إلى عموم المهمات بفضله ولطفه.

الحدثان، فجاء النصر، وإذا انكشف جمال الرحمن قام الفتح، وذلك بشارة الله لحبيبه ﷺ بوصوله إليه، وتخلُّصه من أعباء النبوّة، ومشقة الرسالة، ورؤية الأغيار، فأمره بتقديسه لنفسه، والاستغفار منه لأمته.

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المسد

لا يخفى على من انكشف له الغناء الذاتي الإلهي، وظهر عنده أن الدنيا وما فيها ما هي إلّا سراب باطل وظل زائل، لا ثبات لنعيمها، ولا قرار لمقيمها أن الاغترار بها وما يترتب على حطامها وأمتعتها الفانية والأباطيل الزائفة، والغفلة عن الله وعن اللذات الأخروية المعدة عنده سبحانه لأرباب العناية، كما أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض المسرفين المتحجبين عن الله، المستسلمين عن مقتضيات ألوهيته وربوبيته من غاية اغتراره بماله وجاهه وثروته وسيادته بين الأنام، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضة الوجود ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود في اليوم الموعود، لو أخلصوا في الطاعة والتوجه نحو الخلاق الودود.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد: 1-5].

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[1] أي: خابت وخسرت، يداه كناية عنه، وما ذلك إلّا أنه من غاية نخوته وغروره، بحيث هلك في نار فظيعة كنفسه الجهنمية التي خيبته خيبة أبدية وخسرانًا سرمديًا حينما ظهر على رسول الله ﷺ بأنواع المكروه، وعارض معه على وجه لا يليق بشأنه ﷺ اتكالاً على ماله وجاهه وثروته وسيادته.

---

(1) قال البقلي: وبَّخ الله من لا تصل يدُ همّته إلى وثقى عروة نبوّته والإيمان برسالته والمعرفة بكمال شرفه خسرت في الأزل يده؛ إذ قطعها الحق عن مصافحة حبيبه صلاة الله وسلامه عليه، والأخذ بعروة متابعته، ذلك الخسران من خذلان الحق إيّاه، فإذا كان محجوبًا عن طريق الرشد لا ينفعه أعماله ولا أمواله.

وذلك لمَّا نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] صعد رسول الله ﷺ ذات يوم إلى الصفا، فنادى: «**يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش**» حتى اجتمعوا، فقال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تقبل عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلَّا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

فقال أبو لهب على سبيل الاستهزاء: تبًا لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»[1] لمجادلته مع رسول الله ﷺ ومرائه معه، وقصد استحقاره واستهانته إياه ﷺ.

﴿وَ﴾ قد ﴿تَبَّ﴾ [المسد: 1] وهلك ذلك اللعين المفرط على الوجه الذي أخبر الله بهلاكه إلى حيث ﴿مَا أَغْنَى﴾ ودفع ﴿عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي يتكل عليه، ويستظهر به شيئًا من غضب الله ﴿وَ﴾ ما نفع له ونصر عليه ﴿مَا كَسَبَ﴾ [المسد: 2] وجمع من الأموال والأولاد والأتباع.

قيل: مات بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وتُرك ثلاثة أيام حتى أُنتن، ثمَّ استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبار عن الغيب، وقد وقع على وجهه، هذا مآل أمره في النشأة الأولى.

وفي النشأة الأخرى ﴿سَيَصْلَى﴾ ويدخل ذلك اللعين ﴿نَارًا﴾ وأي نار، نارًا ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 3] واشتعال عال من شدة سورتها وفظاعتها.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ التي تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقد نار الفتنة والعداوة بينهم تصير هي ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 4] بنار جهنم، تحتطب لها من الضريع والزقوم، أو هي «حمالةُ الحطب» فيها على قراءة الرفع؛ يعني: صورت نميمتها التي قد مشيت بها في الدنيا بإيقاد نار الفتن على هذه الصورة، فتلازم عليها.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ وعنقها ﴿حَبْلٌ﴾ سلسلة متخذة ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: 5] مفتول قد فُتل من الحديد، تحمل بها الحطب مع أنها من أشراف قريش، هي وزوجها أيضًا.

---

(1) ذكره مقاتل في «تفسيره» (4/246).

خاتمة السورة

عليك أيها المعتبر المستبصر - عصمك الله من تباب الدارين وخسارهما وبوارهما - أن تتأمل في مرموزات القرآن من القصص والأحكام والعبر والأمثال، فتأخذ حظك منها مقدار ما يسر الله لك، وأودعه في وسعك وطاقتك.

فاعلم أن كل ما في القرآن إنما نزل للإرشاد والتكميل، فلك أن تأخذ من إشارات هذه السورة حسن المعاشرة وآداب المصاحبة، وحقارة مزخرفات الدنيا وما يترتب عليها من اللذات الوهمية، الساقطة عن درجة الاعتبار، الزائغة الزائلة بلا قرار ومدار.

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإخلاص

لا يخفى على من اتصف بالمعرفة الإلهية وانكشف بوحدته واستقلاله سبحانه في الوجود والوجوب الذاتي، واستغنائه سبحانه في ذاته عن عموم المظاهر والمجالي، وتعاليه عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى وصمة الإمكان وسمة الاستكمال والنقصان أن الذات الأحدية منزهة عن مطلق التحديد والتوصيف الذي يصف به الواصفون ذاته عن عموم المظاهر والمجالي، وعراء عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى بعض الإمكان.

لذلك بيَّن سبحانه ذاته في هذه السورة ووصفه الذاتي بمقتضى علمه الحضوري بذاته؛ تنبيهًا وتعليمًا على عباده وإرشادًا لهم، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي لا يُكتنه ذاته بمدارك مظاهره ومصنوعاته مطلقًا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بتوصيف ذاته إياهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يهديهم إلى سرائر معرفته وتوحيده.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: 1-4].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن سأل عنك بقوله: صف لنا ربك الذي تدعونا إلى الإيمان به وعبادته: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] [الإخلاص: 1] أي: هو الذات المتصف

---

(1) قال البقلي: كان الله جلّ جلاله مستترًا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أُعرف»، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحدٌ بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجابٌ، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختار من خلاصة الوجود خاصًا خالصًا، فألبس لسانه فصاحة الربوبية، ونوّر قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُلْ﴾: ظاهره سرٌّ، وباطنه سرٌّ، حرفٌ تحته بحرٌ من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارةٌ إلى قهر عظمته على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرّةٍ من حقيقة العرفان بألوهية الرحمن؛ =

بالألوهية الغيبية والشهادية، المتعالية عن كليهما بحسب ذاته المتصفة بالألوهية والربوبية، المستجمعة لجميع شرائط الكمال حسب الأسماء والصفات الكاملة، الكامنة في تلك الذات المتصفة بالأحدية المطلقة المنزهة عن التعدد والكثرة مطلقًا، المستقل في الوجود والحياة والقيومية المستلزمة للديمومية والبقاء الأزلي الأبدي السرمدي، الذي كان لا يكال بقاؤه ودوامه بمطلق الموازين والمقادير، ولا يحيط به وبقيوميته مطلق التدابير والتقادير.

فكيف كان سبحانه محلاً للتقدير؛ إذ هو ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2] أي: السيد السند الذي يقصد نحوه ويرجع إليه عموم ما ظهر وبطن من الكوائن والفواسد الكائنة في نشأتي الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، وهو في ذاته مستغن عن جميعها مطلقًا.

وكيف لا يكون مستغنيًا؛ إذ هو الله الذي ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إذ الإيلاد إنما هو للأخلاف

لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارةٌ إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرِّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيهِ غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فعجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبُعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى والهين غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجْزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفًا بهم لكيلا يُحرموا من نصيب عرفانه وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوحدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضًا لما غاصوا في بحار الهوية بانت لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيرة، ونسوا ما بان لهم، وفرُّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلما رأوه عيانًا فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عِظَم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضًا منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارةٌ وغيبٌ، والآخر: إشارةٌ وغيبٌ. قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، واتَّصفوا بجلاله، واتَّحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدَّعوا الوحدانية، فقطعهم الحق عن سرِّ الأحدية.

وخوف الانعدام والانقضاء، وهو سبحانه بمقتضى قيوميته ووجوب وجوده ودوام بقائه لا يطرأ عليه أمثال هذه النقائص المستلزمة لضبط العاقبة والمآل؛ إذ لا يجر عليه انقضاء وانتقال ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3] لذلك؛ إذ كل ما ظهر وبطن، أزلاً وأبدًا إنما هو منه وبه وله وفيه، وكل ما فُرض من الموجود أزلاً وأبدًا ما هو خارج عن حيطة أظلال أسمائه وعكوس صفاته، فكيف يتصور أن يسبقه شيء هو غيره مع أنه لا غير في الوجود مطلقًا حتى يلده.

﴿وَ﴾ بالجملة: هو سبحانه منفرد في توحده، متوحد في انفراده، ومستقل في استقلاله، بحيث ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4] لا قبله ولا بعده، بل لا إله سواه، ولا موجود غيره.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المنكشف بالتوحيد الذاتي - مكنك الله في مقر عزك وتمكينك - أن تصرف عنان عزمك وهمتك بعدما كوشفت بتوحيده الذاتي وكمالات أسمائه وصفاته نحو سوابغ آلائه ونعمائه الفائضة منه سبحانه حسب رقائق أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، وتشاهد آثار قدرته الغالبة التي تتحير منه العقول والآراء.

وإياك إياك أن تغفل عن الله طرفة، فإنها تورثك حسرة طويلة؛ إذ كل نفس من النفسات الإلهية التي جرت عليك في أوقات حياتك مشتملة على عجائب صنع الله وبدائع حكمته المتقنة البالغة، بحيث ما مضى مثلها أزلاً ولا سيأتي شبهها أبدًا، فعليك أن تغتنم الفرصة وتتعرض للنفحات الإلهية، ولا يشغلك شيء منها.

جعلنا الله من المتعرضين بنفحات الحق، المستنشقين من نسمات روحه وراحته بمنّه وجوده.

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الفلق

لا يخفى على من اعتصم بالله ودخل في كنف حفظه وجواره، مفوضًا أموره كلها إليه أنه سبحانه يوقيه من كل ما يضره ويغويه، ويحفظه عن كل ما يرديه ويوديه؛ لذلك أمر حبيبه ﷺ حين قصد إليه أعداؤه بالسوء، وسحروا له حسدًا على ظهوره واستيلائه وانتشار صيته الحسن في الآفاق والأقطار بالاستعاذة والاستلجاء نحوه بكمال الخلوص والوثوق، فقال بعد التيمن: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ المراقب على محافظة خلّص عباده من جميع ما يضرهم ويؤذيهم بعدما رجعوا إليه، وتعوذوا به مخلصين ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإنزال الرقى وتلقين الدعاء ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم، يبرؤهم ويشفيهم بعدما أخلصوا في التعوذ والالتجاء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: 1-5].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أصابتك من أعدائك مصيبة وعرضتك بشؤم أعينهم عارضة؛ إزالة لها ودفعًا لضررها: ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ مخلصًا ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1] أي: بالذي فلق وشق ظلام الليل بنور الصبح المنير، وفلق ظلمة العدم بإشراق نور الوجود.

﴿مِن شَرِّ﴾ جميع ﴿مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2] في عالم الكون والفساد من النفوس الخبيثة.

﴿وَ﴾ كذا ألوذ به سبحانه ﴿مِن شَرِّ﴾ كل ﴿غَاسِقٍ﴾ مظلم محيل ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: 3] دخل وانغمس في ظلامه ليحيل ويمكر.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مِن شَرِّ﴾ النساء السواحر ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النافخات بريق أفواههن ﴿فِي

الْعُقَدِ﴾ [الفلق: 4] التي عقدن على الخيط؛ ليسحرن الناس بها.

﴿وَ﴾ بالجملة: أعوذ برب الفلق ﴿مِن شَرِّ﴾ كل ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1] [الفلق: 5] وقصد أن يحسد، فإنه سبحانه يكفي مؤنة شرورهم عنك بحوله وقوته.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملتجئ إلى الله، المستعد بفضله وحوله وقوته أن تداوم على ذكر الله وقراءة القرآن، وتكرار الأذكار والتسابيح المأثورة من النبي المختار في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما في خلال الليالي والأسحار، وفي آناء الليل وأطراف النهار، لعل الله يرقيك عن فتنة ما ذرأ وبرأ في الليل والنهار، ويكفي عنك مؤنة شرور من عاداك بالسحر وغيره بحوله وقوته.

(1) قال علاء الدولة: أي: من شر قوة حسدية نفسه حسدت على القوة القلبية عند انبعاثها وقت طلوع الفلق، وهذه الاستعاذة واجبة على اللطيفة عند سلوكها ووصولها إلى أفق القلب في عالم النفس، وأيضًا واجبة على اللطيفة القلبية السالكية الواصلة إلى أفق السر في عالم القلب، وأيضًا واجبة على اللطيفة القالبية السائرة الواصلة إلى الروح في عالم السر، وأيضًا واجبة على اللطيفة السرية السائرة الواصلة إلى أفق الخفى في الروح، وأيضًا واجبة على اللطيفة الخفية بتجلي اللطيفة على لطيفة أنانيتها، فأما استعاذة اللطيفة الخفية المنسوبة إلى محمد ﷺ يقول في هذا المقام: «اللهم إني أعوذ بك منك، اللهم أعذني من شري وشر ما يقوم بي، وأخرجني مني، وخلني عني» على متابعة من قال من كمال معرفته، فأما أنا فلا أقول إلا: اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الناس

لا يخفى على من انكشف له سرائر التوحيد واليقين، وانتفح عليه معالم أسرار الدين القويم والصراط المستقيم أن من تمسك بحبل التوفيق الإلهي واستمسك به، لا بدّ وأن يحفظ نفسه دائمًا من فتنة شياطين القوى الأمّارة، التي توسوس دائمًا في صدور الأنام بأنواع الوسوسة، وتوقعهم في أصناف الفتن والمضائق الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة المتعلقة بنشأة الناسوت حتى تزيغ قلوبهم، وتضلهم عن الطريق المستبين.

لذلك لقن سبحانه ﷺ؛ تتميمًا لتربيته وتنبيهًا على من تبعه من المؤمنين، وإرشادًا لهم فقال لهم بعد التيمن باسمه الأعلى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لمصالح عباده بمقتضى جوده ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم لحفظهم عما يتعدى بهم عن كنف حفظه ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم، ينبههم على ما يضرهم ويغويهم؛ ليتمكنوا على الدين القويم، ويترسخوا على الصراط المستقيم.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: 1-6].

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما مكنك الحق في مقعد التوحيد، وهداك الوصول إلى ينبوع بحر الحقيقة التي هي الوحدة الذاتية ملتجئًا إلى الله، مستمسكًا بعروة عصمته: ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1] الذي أظهرهم من كتم العدم ورباهم بأنواع اللطف والكرم، لكونه: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: 2].

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ [الناس: 3] إذ ظهور الكل منه ورجوعه إليه.

﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ﴾[1] الموسوس، المثير للفتن في قلوب الناس ﴿الخَنَّاسِ﴾

---

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي الورتجبي الشيرازي: بيّن أن الوسوسة تأتي من الشيطان تارة بلا واسطة، وتارة بالواسطة؛ إذ لم يقدِر الملعون أن يوسوس في صدره من غلبة نور التوفيق والمشاهدة، وظهارة الكفر وصفاء الذكر، وعار عليه في مقام غراة بعض شياطين الإنس، ويدعوه بلسانه إلى بعض الشهوات أو البدع والأهواء، فيوقعه إلى الحجاب، فأمر الله حبيبه أن يستعيذ به من وسوسة شياطين الإنس والجن الذين وصفهم الله بقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، واحذر يا صاحبي من هذه الوساوس، واعرف شأنها وأصلها وفرعها، فإن الوساوس تأتيك في جميع المقامات، وفي بعض المواجيد والأحوال، فينبغي أن تعرف مكائده وأسلحته ومواقعه ووساوسه، واستعن بالله في جوابه وعلاجه؛ حتى تبلغ إلى مقام مشاهدة الحق بالحق، ويغني عنك بشريتك وأوصافها، ويكون نورًا بنوره، مقدّسًا بقدسه عن كل خاطرٍ وعارضٍ، فإنْ عرفت حقيقة ما ذكرتك فصرت إمامًا للمتّقدين، وسراجًا للمقتبسين.

قال عمرو المكّي: الوسواس من وجهين: من النفس، والعدو، «فوسواس النفس»: بالمعاصي التي يوسوس فيها العدو كلّها غير طبعي، فإنّ النفس لا توسوس بهما، أحدهما: التشكيك، والآخر: القول على الله بغير علمٍ، قال الله في وصف الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقال يحيى بن معاذ: «الوسوسة»: بذر الشيطان، فإنْ لم تعطه أرضًا وماءً ضاع بذره، وإن أعطيته الأرض والماء بذر فيها، فسُئل ما الأرض والماء؟ فقال: الشبع أرضه، والنوم ماؤه. وقال يحيى: إنما هو جسمٌ وروحٌ وقلبٌ وصدرٌ وشغافٌ وفؤادٌ، «فالجسم»: بحر الشهوات، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، و«الروح» بحر المناجاة، و«الصدر»: بحر الوسواس، قال الله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ ٱلَّذِى فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، و«الشغاف»: بحر المحبّة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، و«الفؤاد»: بحر الرؤية، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، و«التقلّب»: بحر العمل. وقال سهل: «الوسوسة»: ذكر الطبع. وقال: إذا كان القلب مشغولاً بالله لم يصل إليه الوسواس بحالٍ. وقال عبد العزيز المكّي: يوسوس في فؤاد العامة، وقلوب الخواص لو دنا منها إبليس لاحترق. صدق الشيخ فيما قال، ولكن في سر السر، وغيب الغيب، ونور النور، وسنا السنا، ولطف اللطف، وشهود الشهود، ودنو الدنو، ووصال الوصال، وبقاء البقاء وعيان العيان تكون قلوب العارفين والموحدين والمحبّين والمريدين والمؤمنين في قبض العزة منقلبة بين أصابع الصفة التي هي أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد، طالبه بوصل الوصل، وعرفان العرفان، وحقيقة الحقيقة، كالفراش حول الشمع كمال شوقها الاحتراق بنيرانه، كذلك قلوبهم محترقة هناك بنيران الكبرياء، فانية في سطوات الجلال، باقية بسبحات الجمال،

[الناس: 4] الدفَّاع، الرجَّاع للناس، فإنه منبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام إذا جاء أحدهما طرد الآخر، مثله كمثل الواهمة تساعد في المقدمات، فإذا آل الأمر إلى النتيجة رجع وارتدع، مثلاً إذا قيل: الميت جماد والجماد لا يخاف منه أقرت، وإذا قيل: فالميت لا يخاف منه فرت ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 50-51].

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: 5] إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وجعلوا إنجاح قضية أهوائهم من همهم.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 6] بيان للوسواس، أو للذي، أو متعلق بيوسوس؛ أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجِنَّة والناس بأن يلقي إليهم أنهما يضران وينفعان بالتأثير والاستقلال، فيرجون منهما المطالب والآمال، فيقعون في تيه الحسرة

مصونة عن ذل الحجاب، محروسة عن طيران العذاب، كيف يخلّلها قتام الوسواس، فهواجس بالنفس، وحديث الناس، سبحان من صفاهم بصفاته عن كل كدور، وبراهم بقدسه عن كل علة، الوسواس في الصدور، والقلوب في الحضور والنور والسرور، كيف يصل حركات الإنسانية إلى من استغرق في بحار الوحدانية، لا بأس بأن طوى على الصدور وسواس وهواجس من محل الامتحان، فإنَّ الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة، ألا ترى كيف شكا عنه خواص الصحابة إلى حبيب الله وصفيّه صلوات الله وسلامه عليه،فقالوا: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلَّم به»، فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريحُ الإيمان». وقال أبو عمرو البخاري: أصل الوسوسة ينتجها من عشرة أشياء:

أولها: «الحرص»: فقاتله بالتوكل والقناعة، والثانية: «الأمل»: فاكسره بمناجاة الأجل، والثالثة: «التمتع بشهوات الدنيا»: فقاتله بزوال النعمة وطول الحساب، والرابعة: «الحسد»: فاكسره برؤية العدل، والخامسة: «البلاء»: فاكسره برؤية المنة والعوافي، والسادسة: «الكبر»: فاكسره بالتواضع، والسابعة: «الاستخفاف بحرمة المؤمنين»: فاكسره بتعظيم حرمتهم، والثامنة: «حب الدنيا والمحمدة من الناس»: فاكسره بالإخلاص، والتاسعة: «طلب العلو والرفعة»: فاكسره بالخشوع، والعاشرة: «المنع والبخل»: فاكسره بالجود والسخاء، والحمد لله حمدًا لا انقطاع له ولا انتهاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه وسائر الأولياء، ما دامت الأرض والسماء.

وهاوية الضلال.

أعاذنا الله وعموم عباده من شر كلا الفريقين بفضله وجوده.

خاتمة السورة

إياك إياك أيها الطالب للخلاص، الراغب في الإخلاص أن تتبع الهوى وتنكب على الشهوات، فإن الإنسان إن اتبع الهوى وطاعة قضية القوى صار القلب عش الشيطان ومعدنه؛ لأن الهوى هو مرماه ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، صار القلب مستقر الملائكة ومهبطه.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا ومقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً واسعًا، فيوسوس بالشر وما يجري إلى سوء المعاقبة، ويطرحه في الهاوية، ومتى أعرض عن الشهوات وجاهدها إلى حيث ينبغي، وأقبل على الطاعات كما ينبغي، يلهمه الملك بالخيرات، ويعينه في أسباب النجاة، ويرشده إلى الفوز بالجنات، فإن الخواطر مبدأ الأفعال؛ إذ الخواطر تحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم والنية، والنية تحرك الأعضاء وترسخ العقائد، فإن كانت من الخواطر المحمودة الإلهامية يفضي إلى الصلاح والنعمة، وإن كانت من الوساوس الشيطانية يسري إلى الفساد والنقمة.

أعاذنا الله تعالى من مهادنة النفس ومساعدة الهوى، وأعاننا على مجاهدة الشهوات ومعاندة فرط القوى بحرمة سيد السادات، وصفوة الكائنات، صلوات الله التامات وتسليماتهم الزاكيات عليه وعلى آله وأزواجه الطاهرات وذرياته السادات، وخلفائه الراشدين، وأصحابه أجمعين.

عجل بالنصر وبالفرج يا رب بهم وبآلهم

والحمد لله أولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا. والحمد لله رب العالمين

تم الجزاء الرابع على يد أفقر الورى إلى ربه، اللطيف الساتر، الرشيدي السيد عبد القادر ابن السيد مصطفى ابن السيد عبد الرحمن الرشيدي، الحنفي مذهبًا، القادري طريقة، غفر الله له ولوالديه، ولمن أحسن إليه، وللمسلمين أجمعين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، أمّا بعد....

فقد بدأت بكتابة هذا التفسير الشريف الميمون الحاوي لجميع المسائل والفنون المضيء

بجواهر أهل المعارف الكاملين المقترف من بحر النور الربّاني، والهيكل الصمداني، إمام
العارفين وفذلكة طروس الدفتر النوراني، تاج الدين القطب، القطب الكامل
سيدنا عبد القادر الكيلاني، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وبركات
معاني سره العرفاني على يد خلاصة العلماء الصوفية وجوهرة الفضلاء الشامية
ذي الوجه الأنور من جامع الورد في الشام نور الشيخ الإمام
والحبر الهمام، كردي الأصل أبو بكر قدس الله، رزحه وزاد في أعلا الجنات فتوحه كان
سببًا في نسخة مولانا، وولي نعمتنا رءوس الأمراء ونخبة الوزراء أفندينا محمود
باشا بلغه الله من الخير والعز ما شاء نجل المرحوم والمغمود برحمة الله تعالى
الحاج نجيب باشا وكان ملتزمًا أمره لتتميمه ومقابلته وتنقيحه من بابه
الكرم الجود مفتوح وميدان منهل عزه للفضل فُتُوح لازال محروسًا
بعناية من نور تجليه الأعظم على الخلق يلوح إمامنا ورئيس الرؤساء
في شامنا السيد صالح...بني زاده أعطاه الله تعالى من... والفضل
ما أراده إنه على ما يشاء قدير ولذنوب المذنبين خبير وأنا أحقر
الورى وأذل الفقرا كاتبه الخليل إبراهيم نجل المرحوم السيد
...غفر الله له ولنا وستر عيوبي وعيوبه ورحم الله
بحرمة المؤلف المسلمين والمسلمات الأحياء
منهم والأموات وقد وافق تمام كتابتي بهذا
التفسير الشريف يوم الثلاثاء الرابع
من شهر شعبان المعظم لسنة خمسة
وسبعون ومائتي وألف من هجرة
... من له العز والشرف
وصلى الله وسلم
على من لا نبي
بعده

فهرس بأهم المصادر والمراجع

1- تبصير الرحمن في تفسير القرآن للشيخ المهايمي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

2- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب.ط. دار الغد العربي بالعباسية – مصر.

3- روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الصوفي محمود الألوسي طبع دار الكتب العلمية.

4- تفسير روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.

5- البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد للإمام ابن عجيبة.ط. مركز الدكتور حسن عباس زكي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.

6- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور. طبع دار الكتب العلمية.

7- تفسير ابن كثير للعلامة الحافظ إسماعيل بن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

8- التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى ويليه عين الحياة للسمناني، ط دار الكتب العلمية.

9- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي الشيرازي، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

10- التأويلات النجمية، لنجم الدين كبرى، ط دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا.

11- تفسير القرطبي، ط دار الكتب المصرية.

12- تفسير القشيري، ط دار الكتب العلمية.

13- حقائق القرآن لأبي عبد الرحمن السلمي، ط طهران.

14- نظم الدرر للبقاعي، ط دار الكتب العلمية.

15- تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي، ط دار الكتب العلمية.

16- روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي، ط دار الكتب العلمية.

17- مرآة الحقائق لإسماعيل حقي، ط دار الآفاق العربية مصر (بتحقيقنا).

18- تفسير التستري، ط دار الكتب العلمية.

19- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر.ط الدار السلفية. الهند.

20- إحياء علوم الدين ومعه المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.

21- لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني.ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.

22- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر.ط. دار صادر في أربعة مجلدات.

23- الكمالات الإلهية فى الصفات المحمدية لإمامنا عبد الكريم الجيلي.ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.

24- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري ط. دار الكتب العلمية بيروت.

فهرس المحتويات